

# نجيب محفوظ

5

## المؤلفات الكاملة

|                                  |                               |
|----------------------------------|-------------------------------|
| الباقى من الزمن ساعة             | الحُبُّ فوق هَضْبَةِ المَرَمِ |
| أمام العرش (مذكرات بينة المكّام) | الشَّيْطَانُ يَعْظُ           |
| رحلة ابن فطومة                   | عَصْرُ الحُبِّ                |
| التنظيم السريّ                   | أفراح القبّة                  |
| العاشق في الحقيقة                | ليالي ألف ليلة                |
| يوم قتل الزعيم                   | رأيت فيما يرى النائم          |
| حديث الصّباح والمساء             |                               |

مكتبة البَنان

## المحتويات

|     |                               |
|-----|-------------------------------|
| ص   |                               |
| ١   | الحبّ فوق هضبة الهرم          |
| ١٠٩ | الشيطان يعظ                   |
| ٢٥٥ | عصر الحبّ                     |
| ٣١١ | أفراح القبّة                  |
| ٣٦٩ | ليالي ألف ليلة                |
| ٤٧٧ | رأيت فيما يرى النائم          |
| ٥٢٧ | الباقي من الزّمن ساعة         |
| ٥٨٩ | أمام العرش (جوار بين الحكّام) |
| ٦٤١ | رحلة ابن فطومة                |
| ٦٩١ | التّنظيم السّرّي              |
| ٧٤٩ | العائش في الحقيقة             |
| ٨٠٩ | يوم قُتِل الزّعيم             |
| ٨٤٣ | حديث الصّباح والمساء          |

الحرفون فضيلة الأهم

# نور القمر

- ٢ -

من هي «نور القمر»؟ ...  
امرأة ناضجة. تتألق بأبهة الأنوثة الكاملة. لعلها في  
الثلاثين. تختلف الآراء في تقدير سنّها بحسب  
الأهواء. لا تجد عند أحد معلومة شافية عنها. قوى  
مجهولة تعزها عن الناس في موسم العمل ثم سرعان ما  
تختفي بقية العام. جميع السكارى يتكاشفون بعذوبة  
جمالها ولكنني - فيما بدا لي - خصّصت بالهيام بها لحدّ  
الجنون. ماذا جرى؟ إنهم منهمكون في الأكل والشرب  
والضحك والطرب، وإعجابهم بها عابر، على حين  
سلبت مني - بشراهة - الروح والجسد. ويقول من  
يدعون الخبرة:

- صوتها رقيق محبوب ...

فأقول:

- ولكنّها لا تغنيّ إلا الأغاني القديمة، وفي اعتقادي  
أنّ أيّ ملحنّ معاصر يسره أن يلحنّ لها ...  
- ولم تدفن نفسها في روض الفرج؟

- من يدري؟

من يدري حقاً؟ إنّها سرّ مغلق. علمي بها -  
كالآخرين - محدود جدّاً أمّا هيامي فلا حدود له، على  
أيّ حال لم أعرف في حياتي الانطواء أو السلبية.

- ٣ -

ولكن من أنا؟

من ذوي المعاشات، في الخمسين من العمر،  
أعزب، ليس بيني وبين المرأة التي تعكس صورتي أيّ

- ١ -

تجربة جنونيّة، انتشر نبضها في زمان الوداع،  
وانغرست جذورها في طمي النيل، تحت ظلال النخيل  
واللبلاب والجازورينا، مهوّمة في الحيّ الرّثان ذي  
الإيحاءات اللانهائيّة، روض الفرج. اهتدائي إليه  
مصير حتميّ، فهو مصيف من يبهظه الرحيل إلى  
الإسكندريّة أو رأس البرّ. وهناك وجدت مقلّداً  
لكشكش بيه، وآخر لبريريّ مصر الوحيد، ثمّ قادني  
قدماي - من باب العلم بالشيء - إلى كازينو «الواق»  
الواق» ففضيت سهرة سماع لصوت «نور القمر».

لعلّه أصغر المسارح، يقع في نهاية الخطّ، مرسوم  
على هيئة سفينة، تطوّق جانبيه أشجار الياسمين  
والحناء واللبلاب، ومقاصير أهل الخلوة، وتشغل  
وسطه صفوف الكراسيّ الخيزران. يقدّم أوّل ما يقدّم  
تواشيح عريقة، فرقصة شرقية، ثمّ يرفع الستار عن  
«نور القمر» وتختها المكوّن من القانون والعود والكمان  
والرقّ وأربعة من السّيدة المعجّات.

رفعت إلى المطربة عينين فاترتين، شيء أروعني  
كجرس تنبيه، انحصر وعيي كلّ في النظر، لم أسمع  
من الغناء إلاّ أصداً متلاشياً، انسحب منّي الماضي  
وذاب، وأنجّمت بدفعة من المجهول نحو قبلة جديدة،  
منذ تلك اللحظة أمسى «الواق الواق» مقصدي كلّ  
ليلة طوال فصل الصيف، لم أهجره ولكنّه هجرني  
بانتهاء الصيف وإغلاق المسارح والكازينوهات،  
وتحوّل روض الفرج إلى مرفأ لسفن الغلال.

## ٤ الحب فوق هضبة الهرم

إبراهيم مثلاً على نحو ما، وشغلت وقت وحدتي بالقراءة في شتى المعارف الدنيوية والدينية، وبت من رواد قهوة المالية - قهوة أصحاب المعاشات - لعب النرد والدومينو وأتكلّم في السياسة، وأعلّق على الأحداث، أفلسها مستعياً بثقافتى المتنامية، ثم أنضمّ لكثيرين لأداء صلاة الجمعة. ورحم كثيرون وحدتي فاقترحوا عليّ أن أتزوّج.

- الخمسون مقبولة، صحّتك جيّدة، لم تشب شعرة واحدة في رأسك بعد، والجنس يعيش في مثل هذه الظروف حتّى آخر العمر...

فكرت في ذلك باهتمام فاق تصوّري، ولكنّ ثبط همّتي أنّ ظروفي لن ترشّحنى إلّا لامرأة يائسة وقد أبيت ذلك. الحقّ أنّي اعتدلت في شهواتي، ربّما كردّ فعل لما سبق، وقنعت أكثر الوقت بمراقبة الهوانم من موقعي في القهوة، ونادراً ما وجدت الدافع القويّ لمطاردة إحداهنّ. أصبح لهنّ في قلبي أكثر من منافس كالكتاب والمسرح والسينما والأصحاب المدينين، حتّى اقتادني مصيري المحتوم إلى «الواق الواق».

### - ٤ -

عرفت الحبّ لأول مرّة في حياتي. إنّه كالموت تسمع عنه كلّ حين خبراً ولكنّك لا تعرفه إلّا إذا حضر. وهو قوّة طاغية، يلتهم فريسته، يسلبه أيّ قوّة دفاع، يطمس عقله وإدراكه، يصبّ الجنون في جوفه حتّى يطفح به. إنّه العذاب والسرور اللانهائيّ. تلاشى شخصي القديم تماماً وحلّ محله آخر بلا تراث ولا مبادئ، ينقضّ على مصيره بعينين معصوبتين.

وجعلت أتساءل: «كيف الوصول إلى نور القمر؟».

إنّها تغنيّ وصلتين ثمّ تخنفي حتّى مساء اليوم التالي. لا تُرى إلّا فوق المسرح. لم تذهب إلى مقصورة قطّ. الراقصة وجوقتها يفعلن ذلك، ويسعين إليه، أمّا هي فما إن تفرغ من الغناء حتّى تتلاشى في الكون. وإنّي رجل في الخمسين، محدود الدخل، لا جاه ولا مركز. لا قدرة لي على حيازتها، ولا أدري إن كانت تقبل علاقة عابرة، أمّا ابتغاء الرضى والحبّ فما أبعد عن

ضيق أو اعتراض. أحبّ الطعام الجيّد، أكل، أحسن طهي ألوان من الطعام كأمهر الطهارة، ضحوك، صافي السريرة، غير أنّ عزوبي ركزت اهتمامي في ذاتي فعلمت بي أنانيّة طفوليّة. كنت ضابطاً بالجيش، أدركني المعاش وأنا صاغ في الخامسة والأربعين من عمري. خدمت في السودان والصعيد والسلم. وكنت طوال عمري جامع الأهواء، مغرماً بالنساء، سنّ السمعة، في صباي وشبابي خيّت أمل والديّ، رغم أنّي كنت وحيدهما، بذلاً جهداً طموحاً ليجعلني طبيباً أو وكيل نيابة ولكنّي لم أظفر بالابتدائية إلّا بطلوع الروح وقد تجاوزت الخامسة عشرة. لذت بالمدرسة الحربية كأخر معقل للأمل كي تجعل منّي شيئاً ما. وكنت بديناً مفرطاً في البدانة. رمقتي ناظر المدرسة الإنجليزيّ بدهشة، كأنه يتساءل عمّا جاء بي، ولكنّي أظهرت من البراعة في السباحة والعدو ما سرّه وفتح قلبه لي فقبّلني أو أصرّ على قبولي وهو الأصحّ. كان الفشل هو ما يدفعنا إلى المدرسة الحربية، لا الوطنية ولا الروح العسكرية. غير أنّ الروح تتولّد بطريقة ما، أمّا الوطنية فقد تكفّلت بها ثورة ١٩١٩. وقد اشتركت في مظاهرة المدرسة الحربية المشهورة وأصابني جنديّ إنجليزيّ بالسونكي في ركي، ولولا العفو العامّ لفصلت من المدرسة وخاب آخر رجاء في وظيفة محترمة نوعاً ما. وتخرّجت ملازماً ثانياً في نهاية أربعة أعوام دراسية، منها عام عقوبة لاشتراكي في المظاهرة. وفي الترام سمعت أحدهم يهمس:

- كلّ هذا البدن وملازم ثان فقط؟! ...

فهمس آخر:

- إنّه في وزن لواء!

وكان اللواءات في تلك الأيام ذوي كروش وبدانة، تحسبهم قصابين لا عسكريين. ومات والداي، وامتدّت خدمتي خمسة وعشرين عاماً، ثمّ أدركني المعاش فوجدت نفسي ضحكاً وحيداً ضائعاً يعيش في زنزانة انفرادية في صورة شقّة. رسمت خطّة لإنقاص وزني فصرت مقبولاً، وفترت بهجة الطعام والنساء، وكان الشّعر يستهويني فقرّرت أن أتخذ من حافظ

## الحب فوق هضبة الهرم •

ثم غادرت مجلسي ماضيًا إلى الباب الخلفي للكازينو. اعترضني البواب فقلت بكبرياء:

- أعرف طريقي!
- سرعان ما جاءني الجرسون حمودة مبتسمًا متسائلًا:
- أيّ خدمة يا بيه؟
- حمودة، أرغب في مقابلة نور القمر لأهدئها إعجابي.

- الجميع يعلنون الإعجاب بالتصفيق.
- ولكنّي أريد أن أقدمه بنفسني.
- ممنوع.
- فتساءلت بحدّة:
- من صاحب هذا الأمر السخيف؟
- أصحاب الشأن في الكازينو، ما أنا إلاّ عبد مأمور...

- ولكن لماذا؟

- لا أدري يا سيدي، جميع الزبائن يعرفون ذلك...

- فقلت بعجرفة:
- ولكنّي سأدخل...
- فقال بتوسّل يليق بزبون دائم مثلي:
- أرجوك يا بيه...
- على مسئوليتي!
- هناك سنجة الترام!

أفقت من غصبي. سنجة الترام هو فتوة المحلّ وحاميهِ. لا قبل لي به فضلًا عن أنني في الخمسين من العمر، تراجعت متسائلًا في استنكار:

- لهذا الحدّ؟
- أنت بيه محترم ولا يليق بك الشغب!
- تنهدت لأرواح عن غيظي، وقلت له:
- إذن فعليك أن تبليغها إعجابي...
- فقال بأسف:
- ولا هذا!

- أمر غريب حقًا!
- ما باليد حيلة...
- لماذا لا تفعل كما تفعل الراقصة وجوقتها؟
- فقال وهو يجني رأسه:

تصوّر من كان في مثل سنيّ وحالي، وأما الزواج فإذا يعني لها إن لم يعن الأبهة والرفاهية؟!!

أشار عليّ العقل بأن أقتلع فكرتها من نفسي المعذّبة، ولكن ليس للعقل صوت يُسمع في ضجّة أهازيج الهوى، وصخب أمواجه العاتية، وأزيز أعاصيره الهوج.

وأعجب من ذلك كلّهُ أن يتحوّل خبير الأطعمة المتقنة، زير النساء، إلى مجنون ملهم، يهيم في دنيا الحبّ المترعة بالأسرار، يخاطب بأنينه المجهول، ويحدّ في البحث عن لا شيء في كلّ شيء، في ضياء الشمس، بهاء القمر، وهج النجوم، ثراء السحب، أريج الأزهار، سلاسة الماء، فقد غطت نور القمر على حياتي وحياة الكون من حولي...

- ٥ -

وفي بوتقة الهجران يبعث القلب ويتطهّر ولو كان في الأصل غليظًا مشبعًا بالإثم. وقد خبرت الضحك والسخرية والشهوات فأن لي أن أعرف الشجى، وأترنّم بالحنّ الأسى.

مضيت أنسحب برفق من جوّ أصحاب المعاش، من الثرثرة والمقامرة والشراب والخوف من الموت. ملأت نور القمر وجداني واستأثرت بوعبي. أبيت الاستسلام للقهر والهزيمة. جعلت أشجع نفسي وأضرب لها الأمثال من ماضيّ. استهتاري الفائق، ومغامراتي الجريئة، واقتحاماتي المذهلة. عبت دائيًا ما أهوى وأريد واستهنت دائيًا بالتقاليد والسمعة والقبيل والقال. وموقفي يوم المظاهرة المشهورة هل يُنسى؟ لقد أضربنا وذهبنا إلى مدرسة الشرطة، هتفنا بالإضراب، وكما وجدنا تردّدًا أطلقت رصاصة في الهواء! وتحذيت بدانتي فكنت أعدو بسرعة الريح كأني برميل بخاريّ. محال أن أتقاعس يا نور القمر...

- ٦ -

وصمّمت ذات ليلة، سمعت الوصلة الأولى وكانت:

كادني الهوى وصبحت عليل

## ٦ الحب فوق هضبة الهرم

- الراقصة وجوتها تحت أمرك!

- بأيّ وسيلة تذهب هي؟

- ربّما تاكسي، حنطور المدير موسى القبلي، فورد

صاحب الكازينو حفني داود، من يدري؟

- ٧ -

إنّ هي إلاّ جولة خاسرة ولكنّها ليست كلّ شيء .  
الطريق طويل والزمن طويل . ها هو صوتك الحنون  
ينسرب إلى أعماقي معطرًا بالفتنة وليس بيني وبينك إلاّ  
خطوات . لو كان لي أنف كلب لشممت أنفاسك . لو  
كان لك قلب لركّزت بصرك على عابذك . ولو أعيّنتني  
السبل المادّية في الوصول إليك فتمّة قوّة الحبّ ستصنع  
معجزة فائقة للعقل في الوصول إليك هازئة بأعين  
الحراس . في تلك الليلة تعمّدت التأخير حتّى استقللت  
الترام الأخير، واخترت مجلسي إلى جانب الجرسون  
حمّودة، دفعت عنه ثمن التذكرة فاستعدّ الرجل  
للحديث المتوقّع . ولما غاص الترام في الظلام شاقًا  
طريقه بين الحقول تساءلت:

- ما معنى هذا يا حمّودة؟

- تسأل عن نور القمر؟ ... هذا هو الواقع ...

- أهي سيّدة مصونة حقًا؟

- هي كذلك فيما نرى ...

- وما السرّ؟

- لا علم لي به .

- يوجد سرّ ولا شكّ .

- علمي علمك .

- إنك تعرف السرّ ولكنك تمكّري .

- صدّقني، ليس عندي أكثر مما قلت .

- هل تؤمن بالخرافات؟

- إنّها حقيقة لا خرافة .

- هل تصدّقها؟

- فلنسلّم بأنّها شاذّة، ما الفائدة؟

- عندك تفسير لها؟

- لا أشغل نفسي بالتفكير في ذلك .

- وراءك أشياء ولا شكّ؟

- أبدًا، صدّقني ...

- هل تذهب نور القمر عقب العمل وحدها؟

- كما ترى فإنّي أذهب قبل ذلك حتّى لا يفوتني

الترام الأخير .

- الآن فهمت ...

- ماذا فهمت يا سيّدي؟

- إنّها عشيقة أحد الرجلين!

- الله وحده يعلم .

- ألا يعرف أحد شيئًا عن سيرتها الخاصّة؟!

- نحن نتجنّب الفضول حفظًا على رزقنا ...

- أين تسكن المرأة؟

- لا أدري ...

فتنهّدت وقلت بنبرة اعتراف:

- حمّودة، أنت تدرك ولا شكّ ما وراء أسئلتي

المللحة؟

- أجل يا بيه .

- والعمل؟

- ما باليد حيلة ... النساء كثيرات ... وكلهنّ في

النهاية طعام واحد ...

أهديت إليه سيجارة، غمزته ببريزة، ولكنّه قال:

- إنّي لا أهدعك، وليس عندي مقابل!

- حمّودة!

- صدّقني، لقد وقع في هواها عمدة صعيديّ

واسع الثراء، ولكن ماذا أفاد؟

فهتفت بغیظ:

- إنّ ملكة مصر أيسر منالاً من ذلك ...

- هذا هو الواقع ...

وتفكّرت مليًا ثمّ سألته:

- سنجة الترام رجل قويّ، هل يمكن الاستعانة

به؟

- لا أدري، جرّب إن شئت ...

حقًا إنّ مجرد الاتصال به مهانة ما بعدها مهانة

ولكن ما الحيلة؟ سألته:

- هل تساعدني في ذلك؟

- إنّ صاحب غرزة تبدأ عقب التشطيب ...

ازددت امتعاضًا وأنا أسأل:

- أين؟

## الحب فوق هضبة الهرم ٧

- ٩ -

وثقت المساهرة بيني وبين سنجة الترام. مساء الخير يا معلّم سنجة، مساء الخير يا أنور بيه. دعوته للغداء عند الدّهان فدعاني للغداء في المذبح. وجددتني أندمج في أوساط البلطجية وتجار المخدرات. أرهقني الخزي والحزن، عجبت لتدهوري، وكيف ساقني إليه أنقى وأصدق عاطفة شدًا بها قلبي. أجل طالما تحديت التقاليد والحرص على السمعة الطيبة، ولكنّ عريضة العشاق شيء ومخالطة الأوباش شيء آخر. ولم أعد أختلف إلى المفهى إلا في النادر. وخمن الصحاب أنّ في الأمر امرأة ولكنهم لم يتصوّروا أيّ امرأة تكون، ولا أيّ تدهور دُفعت إليه بيد حبها الناعمة، وطبعًا كتمت سرّي حتى لا أكون حديث الجاة والساخر. كذلك ندر الوقت الموهوب للقراءة غير أنّ بعض الشعر الذي سبق لي معاشرته امتلأ بحياة جديدة وتبدّى بحسن جديد وتفجّر عن قوى جديدة فأدركت أنّ جمال الشعر لا يكمن في ألفاظه وموسيقاه وصوره ولكنّه يكمن قبل كلّ شيء في القلب البشريّ.

وفي تلك الفترة من حياتي زارتي عمّي نظيمة، أرملة في الستين، بكرتها مهندس مقاول قدّ الدنيا، وشقيقه موظّف دبلوماسي في سفارتنا بالحبشة. قالت: - انقطعت عني منذ مدة ولكنّي لا أنساك...

فلثمت خدّها النحيل ممثّنا، وجعلت تفتحصني باهتمام أثار قلقي، ثمّ تساءلت:

- حتى متى ترضى بهذه الحياة المقفرة؟

أدركت أنّها تعود إلى موضوعها المفضّل وهو «الزواج» فقلت:

- اعتدت يا عمّي العزوبة...

فقالت بحرارة:

- عادة سيئة، ضدّ مشيئة الله.

- كلّ شيء بمشيئة الله يا عمّي...

احتست الشاي وهي تفكّر ثمّ قالت بنبرات جديدة تمامًا:

- أنور... حدّثني حمدي حديثًا لا يصلّق...

حمدي مأمور شرطة وزوج ابنتها الوحيدة، وقد اضطرب قلبي وتساءلت:

- قارب شراعيّ...

- ممكن تمهد لي السبيل باعتباري من أصحاب المزاج؟  
- هذا ممكن...

- ٨ -

لم أكن يومًا من أصحاب المزاج. إني من أصحاب الأمزجة الفوّارة التي لا تتلاءم مع المخدرات. وقد دخنت مرّة البانجو في السودان وسرعان ما غشي النوم فتوتّدت نفوري من المخدرات. وفي مثل الحال التي أنا مقبل عليها بوسعي أن أمثّل وأن أتجنّب التدخين الحقيقيّ. ما العمل وجنوني يستفحل؟ لقد ضاعت منّي نفسي. جعلت أنظر إليها - كغريب - بعين الرثاء والأسى. وهان عليّ أن أسعى لمصادقة سنجة الترام. وهو ربعة متين البنيان ضخم الرأس والوجه، في جبينه ثلاث ندبات وفي أنفه اعوجاج، واسع الأشداق كأنّه من أكلة الأحجار. وسرعان ما حسبت تكاليف السهرة فوجدتها - مع الإكرام - تستهلك خمسين قرشًا، وهو قدر لا يستهان به مع الاستمرار الذي يقتضيه توثيق العلاقة.

تسلّلت إلى القارب فصافحني على ضوء شعلة عربية ترمس وتمتم:

- أهلاً...

فشدت على اليد الغليظة وأنا أقول:

- مساء الخير يا معلّم سنجة...

وانغرست على جانب وسط تكتل من الأوباش. وانساب القارب فوق الماء الرزين واهبًا ذاته المتأرجحة لظلام دامس تشعشه أضواء النجوم كاهمسات. لعلهم من تجار الغلال والبصل، ينگتون ويقهقهون بفظاظة. ودارت علينا الجوزة لدى امتلاء الشراع بالهواء، ولاطفتنا نسائم معطرة برائحة النيل. ورغم حذري ثقل رأسي، وناء قلبي بالحزن. ومن حسن الحظّ أنّ أحدًا لم يهتمّ بأحد فلم أضطرّ إلى الخروج من صمّتي وأفكاري. وعند الوراق غادرنا البعض، وانفضّ السامر عند الفجر.



الكازينو، ماذا بهم؟ من حسن الحظ أنني لا أرغب فيها...

وضحكنا طويلاً، ثم سألته:

- ماذا كنت تفعل؟

- كنت أقترح الحارس والمحروس!

فقلت بدهاء:

- ظننت أن الأسرار لا تنجب عن رجل مثلك؟

- الأسرار التي تهمني فقط.

- ألسنت صديق المدير وصاحب الكازينو؟

- لك أن تعتبرني صديق الجميع، ولك أن تعتبرني

بلا أصدقاء!

وكنت عرفت من طبعه أنه لا يطيق سماع ثناء على

أحد فقلت:

- يبدو أن المدير رجل محترم!

فقال ساخراً:

- ما هو إلا قواد.

- قواد؟!

- صاحب بيت دعارة!

انهر رأسي بضوء فوسفوري مبالغت. هل يستغل نور القمر بطريقة محنكة؟ يا لخيبة الأمل إذا لم تكن المرأة إلا مومساً؟! ولكن حتى هذا الفرض لم يطفئ لمعة الوجد في قلبي، بل لعله أرثها بفتح باب يسير للوصول. وصبرت حتى دار رأس سنجة ورقص الانسجام في مخالبه فسألته:

- ما رأيك في سهرة في بيت موسى القبلي؟

فقال بازدراء:

- أعوذ بالله!

- من باب العلم بالشيء؟

- ولكنك كهل محترم وأب!

فقلت ضاحكاً:

- لست إلا أعزب!

- أعوذ بالله!

ثم مستدركاً:

- وكيف تعيش بنصف دين؟

فقلت لنفسي بأسى «حقاً ينقصني النصف

الأخر»...

- ماذا؟

- قال إنك تصاحب قومًا ليسوا من أصلك ولا

مستواك!

فزعت. هل تنفضي الأسرار بهذه القوة؟ قلت

مدافعاً:

- كلنا أولاد حواء وآدم...

- ولكنهما أنجبا قابيل كما أنجبا هابيل!

وقرأت في وجهي ولا شك تحرجي وضيقني فقالت

برقة:

- أردت أن أحذرك فسأعني...

- ١٠ -

تأملت ولكني لم أبال. عزمت على مزيد من الخطوات المسددة. ها هو سنجة الترام يتردد على شفتي في المنيرة رافعاً الكلفة. يتناول الطعام أحياناً، وأحياناً يضطجع نائماً، ومرات أودع عندي حشيشه بعيداً عن أي مظنة. أصبح البيت بيته ابن القديمة، وحمى حوله متحياً الفرص. أنس إليّ فروى لي قصة حياته منذ نشأته في سوق الزلطة، معاركه، سجنه، بلاءه في ثورة ١٩١٩، حتى اختير فتوة لكازينو «الواق الواق».

- موسى القبلي هو الذي أتفق معي...

- المدير؟

- نعم.

فقلت بمكر:

- يقال إنه قريب لنور القمر.

- كلام فارغ...

- بذلك يفسرون عزلتها الغريبة...

- سكارى وأغبياء...

- أصل عزلتها تثير القيل والقال!

- إنها حرة تفعل ما تشاء...

- تعني أنها هي التي ترفض المؤانسة...؟

- علمي علمك، ما يهمني أنني مكلف بإبعاد من

تحذته نفسه، بالاقتراب منها...

- بلا علم بسبب ذلك؟

- ليكن ما يكون، هبها امرأة مصونة، أو رجلاً

متنكراً في صورة امرأة، أو عشيقاً للمدير أو صاحب

## الحب فوق هضبة الهرم ٩

قال لي:

- علمت أنك من زبائن «الواق الواق»؟
- ألم تقع عينك عليّ؟... طالما رأيتك وأعجبت بإدارتك؟
- الأمر مختلف غير أنّ وجهك بدا لي غير غريب وأنت تطالعني هنا لأول مرة... .
- شجّعته على الشراب، وقلت:
- إني أشرب في اعتدال لأسباب صحيّة!
- لكنّها مفيدة للصحة!
- فقلت ضاحكًا:
- الأمر مختلف!
- موظّف؟
- على المعاش.
- لكنّك ما زلت في طور الرجولة؟
- الضابط مجال على المعاش في أيّ سنّ... .
- كنت ضابط جيش؟
- كنت!
- فضحك عاليًا وقال:
- حلمت في صغري بأن أكون ضابط شرطة... .
- مصيرنا في الحياة لا تتحكّم فيه رغباتنا... .
- وهو يضحك مرّة أخرى:
- على أيّ حال فعملي ذو علاقة وثيقة بالشرطة!
- فال الله ولا فالك.
- متزوج؟
- كلاً.
- يندر أن يجيء أحد في سنّك... .
- فقلت ساخراً:
- الحياة دائمة التقدّم.
- وكيف عرفت بيتي؟
- صاحب الحاجة مستكشف... .
- حمّودة؟
- نعم.
- رجل غاية في الفطنة... .
- فرميت سهمي الأخير قائلاً:
- وقف مصادفة على سرّ شغفي بنور القمر... .
- رفع حاجبيه الخفيفين وقال:

- ١١ -

- قلت للجرسون حمّودة وأنا أغمزه ببريزة:
- دلّني على بيت موسى القبلي... .
- ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، غمز بعينه، قال:
- بريزة أخرى... .
- فأثّبتت في سرّي على صدق فراستي.

- ١٢ -

- البيت في أوّل شارع مهران السندي المتفرّع من شارع دوبريه، شقّة أنيقة، صامتة، الأبواب مغلقة، كأنّها خالية. قدّمني حمّودة إلى موسى القبلي فتلقّاني بوجه ودود غير الوجه الذي يدير به الكازينو. وقلت لنفسني من بلطجي إلى قواد يا قلبي لا تحزن. أمّا هو فقال بلا حياء:
- جنيهان من فضلك... .
- دفعتهما بلا تردّد فقال:
- آخر حجرة في الدهليز، هل تريد شرابًا؟... .
- زجاجة الأوتار بجنيه واحد... .
- اللصّ!... . إنّها في السوق بثلاثين قرشًا. قلت معتمدًا:
- ربّما في المرّة القادمة.
- فقال بشيء من الفتور:
- الهدوء هنا مهمّ جدًّا!

- ١٣ -

- كم لعب الأمل بقلبي أن أجدها عقب فتح الباب ولكنّ المعجزة لا تقع بمثل هذه السهولة. ها هي امرأة أخرى لا رغبة لي فيها. تنضمّ إلى سلسلة المغامرات العقيمة المتلاشية في العدم واللامبالاة. وقرّرت أن أحوز ثقة موسى القبلي ورضاه. كما فعلت مع حمّودة وسنجة الترام. وسطاء سوء ولكن بيد أحدهم مفتاح الكنز. مثل هذا العناء تكابده الشجرة حتّى يتمخّض ليلها الطويل عن زهرة ضاحكة.
- واقترحت عليه - موسى القبلي - في المرّات التالية أن أشاربه في حجّره الخاصّة قبل الذهاب إلى حجرتي المقسومة. انبسط واعتبر ذلك تحيّة فريدة. وذات ليلة

## ١٠ الحب فوق هضبة الهرم

الحبّ المستبدّ الذي لا قاهر له . ذلك الغول الذي  
تغنيه فريسته عن المطاردة . الحلم الذي يزري بكافة  
الأحلام ويحوّلها إلى نفاية . لم أنقطع عن موسى القبلي  
جرياً وراء المزيد من الأمل والعرفان . ولما ثمل وانبعث  
من قلبه الخيال قال :

- بيتي محترم ، ليس بين زبائنه زبون واحد من  
الرعاع .

ابتسمت موافقاً فساءل :

- ما رأيك في فتياتنا؟

فقلت بإصرار :

- اعترفت لك بأنّي مشغوف بالغناء!

- نور القمر؟

- هو الحقّ .

- أنت رجل غريب . . .

- ألم تحبّها أنت؟

- كلّاً . . . والحمد لله . . .

- الحمد لله؟!

- لو بدرت مئّي حركة واحدة تنمّ عن ميل لفقدت

عملي في الحال . . .

- إذن فهو حفني داود صاحب الكازينو!

- ماذا تعني؟

- هو العاشق الغيور . . .

- إنّه عجوز ذو وجه قرد . . .

- ذلك أدعى للغيرة . . .

- صدّقني إنّي أتجاهل الأمر كلّهُ . . .

- ولكنّ عندك أفكار ولا شكّ . . .

- ليكن عاشقها أو أباه . . . من يدري؟!

- هل . . .

- هل؟!

- هل يعجز مثلك عن مساعدتي؟

- ولم أكدر صفوي ومستقبلي بسبيك؟

- كصديق . . .

ولكنّه قاطعني بجفاء :

- ما أنت إلا مغرض!

- لا تسيء بي الظنّ . . .

- لا تحاول إقحامني في هذا الأمر ، لا تكن انانياً ،

- أنت من عشاقها؟

فحنيت رأسي لبلوغي آخر الأبواب وانتظرت الفرج  
غير أنّه قال :

- لولا عزلتها ما أثارت شغف أحد . . .

- ولكنّ الشغف سبق اكتشاف عزلتها . . .

- لا تهتمّ بالممتنع ، عندي من هنّ خير منها!

يا للداهية! . . . هل خاب المسعى أيضاً؟! . . .

وانطفأت الجمرات تحت كثافة الرماد . . .!؟

- ١٤ -

وسألني سنجة الترام :

- كيف تطيق هذه الوحدة؟

كان قد فرغ من قلع الشاي الرابع فاسترخت

جفونه من السطول ، أجبتّه :

- العادة أقوى من الوحدة . . .

- وهل يليق بمثلك التردّد على بيت دعارة؟

فلم أحر جواباً أمّا هو فقال :

- اعترمت على أن أكمل لك نصف دينك . . .

فضحكت وقلت :

- إنّي الأعزب الأبديّ يا معلّم سنجة . . .

فقال بصراحة مخيفة :

- عندي بنت مطلّقة . . .

لطمني قوله ككثير حريق أمّا هو فواصل :

- بنت ممتازة ، هديّة ، أوقعها سوء الحظّ في رجل لا

قيمة له .

ما توقّعت أن أتعرض لغضبه قطّ . لعنت في سرّي

الزمان والمكان . قلت :

- يلزمي تفكير طويل فالتخلّي عن عادة مزمنة

كالعزوبة ليس بالأمر الهين . . .!

- ١٥ -

بات الخطر تحتي تماماً مثل ظلّ منتصف النهار ،

انسجبت من التجربة كلّها قبل أن يدهمك القضاء ،

هكذا حاورني عقلي . ولكنّي كنت أحلم بالنجاة وأنا

أندحرج نحو الهاوية ، لم تعد قوّة بقادرة على صدّي .

## الحب فوق مضبة الهرم ١١

- ليس المزاج على ما يرام!  
فقال بقحة:  
- هذه عاقبة التردد على بيت قواد!  
فقلت باستياء:  
- ليس الأمر كذلك...  
فسأل ببرود:  
- متى تفني بوعدك؟  
- أيّ وعد يا معلّم؟  
- ألم نقرأ الفاتحة؟  
حملت فيه بدهول فقال:  
- قرئت بالقلب، أم وجدتنا دون المقام؟!  
- أستغفر الله، المسألة بالنسبة لي قفزة خطيرة...  
فقال وهو ينهض:  
- أم وجدتنا دون المقام!  
غادري مضطربًا. كلاً. لم أعرف الجبن في حياتي،  
ولا كنت تمنّ تحرقلهم الخشية على حسن السمعة.  
لكنّي شعرت بأنّي مقبل على عاصفة أو أنّ عاصفة  
مقبلة عليّ، وحتىّ هذه اللحظة فالنجاة ممكنة. يمكن أن  
أسدل بيدي ستارًا على روض الفرج وبيت موسى  
القبلي وقارب سنجة، ثمّ أرجع إلى روتين حياتي  
السابق بين معاشرّة الكتب وسمر قهوة المائيّة. هذا  
ممكن نظريًا ولكنّه مستحيل في الواقع. الواقع أنّي  
فريسة جنون طاغٍ يلفظ كافة قيم الحياة، ويتركز في  
هدف واحد. ذاك يدفع بي في شبكة من العلاقات  
المدهلة، والأخطار المحدقة، ويفتح لي طريقًا واحدًا  
إلى مصير محتوم.

- ١٧ -

تبادلنا الأنخاب، أنا وموسى القبلي. قال وهو  
يتفحصني:  
- لعلك شفيت من حبك؟  
فهزرت رأسي نفيًا قال:  
- إنّه أمر مضحك وعجيب...  
- هل عندك نصيحة؟  
- أنت غني؟  
- كلاً...  
-

غامر بنفسك إذا شئت وإلا فاصرف النظر...  
فقلت بحرارة:  
- أقدم لك الأسف والاعتذار!  
مضيت أشاريه دافئًا همّي في الصمت، ومضى  
يذوب في النشوة وينفض عن نفسه الكدر، ثمّ سألي:  
- هل أغضبتك؟  
- الحقّ لا يُغضب، ولكن كيف عرفت حفي  
داود؟  
- كان ناظر مدرسة أهليّة وكنت كاتب حسابات  
عنده، وتحت ضغط مراقبة وزارة المعارف ومحاسبتها  
اضطرّرت إلى تصفية المشروع، وبعد حين قدّم مشروع  
«الواق الواق» وضمّني إليه مديرًا...  
- ومتى عملت نور القمر عنده؟  
- من أوّل ليلة، لعلّه لم يقم بالمشروع إلّا من  
أجلها...  
- وهو الذي فرض عليها العزلة؟  
- على الأقلّ هو الذي أصدر الأوامر إلينا...  
- أتصوّر أنّها تحبّ معي وتذهب معي...؟  
- في الفور...  
- لا شكّ أنّه أصبح ذا مال؟  
- اعتقد ذلك...  
لم أهدر الوقت سدى كما توهمت، لقد أثريت  
بمعلومات مفيدة، وتحدّد سبيلي كما لم يتحدّد من قبل.  
ولن أقطع صلاتي بموسى القبلي مداراة لنواياي  
الحقيقيّة...  
-

- ١٦ -

واقترحني سنجة الترام بزيارة توقّعتها وخشيّتها.  
وكنت قد تجنّبت الانفراد به لعلّه يدرك موقعي من  
اقتراحه ولكنّه كان مدمن بلطجة، معتادًا للأخذ دون  
مقابل ورمم المجاملات ران الفتور على اللقاء،  
وبتخلّي البشاشة عن قسائه أسفرت عن دماستها  
وندرها. تساءل:  
- ماذا جرى؟  
إنّه يتساءل عن سرّ تباعدي رغم وضوحه فيضطرّني  
إلى اختلاق المعاذير. قلت:

حفظ. حاولت أن أهمس بهويتي في أذن الضابط ولكن  
المخبر أرجعني بلكمة في عنقي. انغمست في العار حتى  
القمة. دُفَعنا إلى السيارة كخراف تُشدُّ إلى الذبح.  
وصلنا إلى القسم وقد استلَّ منِّي الإحساس  
والفكر. وكان تحقيق مهين. حُجزت النساء، وموسى  
القبلي، وحُزرت المحاضر للرجال ثم أفرج عنهم.  
غصصت بذروة الألم وأنا أعلن هويتي. غادرت القسم  
شخصًا جديدًا عاريًا تمامًا!

- ١٩ -

ذُكرت الحادثة في صفحة الحوادث الصباحية. لم  
تعلن أسماء - عدا موسى القبلي - وقيل عتي «وضابط  
جيش متقاعد في الخمسين من عمره!». خيَّل إليَّ أنه  
إعلان كافٍ لفضحي في محيط الأسرة وفي قهوة المالبية.  
انزويت في شقتي بالنبيرة غارقًا في القرف. طالت لحييتي  
وأهملت نفسي تمامًا. على تلك الحال زارني عمتي،  
وأكد لي قلبي بأن صهرها أخبرها بكل شيء. أقنعتني -  
ما وسعها ذلك - بأن زيارتها عادية. سأصبح حديث  
الأسرة المحترمة. أبناء عمتي وعمي وخالي أناس  
محترمون حقًا، وطلما تبادلنا الازدراء الصامت. لا  
يحبيني في أسرتي أحد إلا عمتي. ها هي تعود إلى  
حديثها المفضل «الزواج».  
- لا تكن عنيدًا... -

حدجتها بارتياح فقالت:

- أهملت نفسك أكثر مما يتصور العقل... -

فضحكت ضحكة متكلفة وتساءلت:

- ماذا عندك من أخبار؟

فضحكت ضحكة عصبية وتمتمت:

- تصوِّرا

ثم اغرورقت عيناها، وقالت:

- إنك صورة طبق الأصل من أبيك، لك منزلة في

قلبي لا نظير لها، لبتك تعمل بنصيحتي!

- ٢٠ -

لم أفد من الدرس ما يتوقَّعه العقلاء. قلت إنَّ  
الجنون حقًا هو الرجوع بعد ما كان. تحفَّفت من البقية

- هذا يعني ضياع ٩٠٪ من الأمل... -

- لا مؤهلات من مال أو شباب!

فقال بدهاء:

- ثمة وسيلة للشفاء، أن تكثر من زيارتنا!

- يجيِّل إليَّ أنك لم تعرف الحب يا موسى؟

- هذا حق.

ثم مواصلاً بقحة:

- الحق أنني لا أحب النساء، لذلك أتعامل معهنَّ

بمهارة فائقة!

تفكَّرت مليًا في معنى قوله، ثم سألته:

- أترى حالي ميئوسًا منها؟

- حدَّثني أولًا عن حبك؟

- ماذا أقول؟ إنها تفرض ذاتها على وجداني

وخيالي، أقوى وأعزَّ من الحياة نفسها، لا غنى عنها كما

إنه لا غنى للحياة عن أشعة الشمس... -

فضحك على رغبته وقال:

- ما أعجب هذا الكلام يخرج من فم ضابط

متقاعد خبير بالناس والحياة...!

- نحن نعرف معنى الأشر أكثر من غيرنا.

فضحك مرَّة أخرى وقال وقد ثمل:

- منظرك ضخم لا يثير الرثاء أبدًا!

فغضبت وقلت له مويخًا:

- سكرت عليك اللعنة.

وقبل أن يفتح فاه دقَّ جرس الباب الخارجي... -

خفت مسرعًا مغادرًا الحجرة. ترامت إليَّ ضجة

مربية، قمت إلى باب الحجرة وأخرجت رأسي إلى

الدلهيز. رأيت مجموعة تتدفَّق من رجال الشرطة

والمخبرين!

- ١٨ -

لم أشعر - من قبل - بمثل الذعر الذي اجتاحتني،

تجسَّد لي وجه سنجة الترام وراء الكبسة. انقضَّ عليَّ

خبر فقبض على أعلى الجاكتة، صكَّني بكوعه في

صدري، وهو يقذفني بوابل من الشتائم. اجتاحت

الحجرات، سبق الرجال والنساء عرايا أو شبه عرايا.

من حسن الحظ أنني لم أضبط متلبسًا ولكن أيَّ حسن

### الحب فوق هضبة الهرم ١٣

معايد، وراح يتفحص هيكل الضخم بلا انفعال. كان عجوزاً في السبعين أو فوقها، ضئيل الجسم، له سحنة قرد لانحدار جبهته وغور عينيه وبروز ذقنه. شعره الفضي مفروق وممشط بعناية، كذلك شاربه. أشار إليّ فجلست على أحد مقعدين جلديين متقابلين أمام المكتب. تبادلنا النظر في صمت ملياً ثم سألتني:

- اسمك؟
- أنور عزمي .
- أنت ضابط جيش متقاعد حقاً؟
- أجل . . .
- وترغب في العمل مديراً للكازينو؟
- نعم . . .
- ما الذي دفعك إلى ذلك؟
- قلت ضابطاً مشاعري تماماً:
- الفراغ فثاك، ثم إنني محدود المعاش!
- أترأه عملاً مناسباً؟
- لم لا؟ . . . وهناك سبب آخر أن أحفظ به لموسى القبلي حين خروجه من السجن!
- صديقه؟
- نعم . . .
- ولكن العمل يحتاج إلى خبرة خاصة؟
- أكثر مدة خدمتي في الجيش انقضت في الفروع الإدارية فأنا ذو خبرة بالإدارة والحسابات . . .
- العمل عندنا يتناثر مع الروح العسكرية؟
- لا تنقصني اللباقة!
- وساد الصمت مرة أخرى ثم قال:
- لا بأس من تجربتك، ولكن اعلم أن أهم واجباتك أن تمنع المتطفلين عن نور القمر . . .
- عليّ الإقناع وعلى سنجة القوة عند اللزوم!
- عظيم . . .
- ونادى سنجة الترام فجاء وقد دهش لمراي، فقال له حفي داود مشيراً إليّ:
- أنور عزمي المدير الجديد، تعاون معه كما تعاونت مع موسى القبلي .

الباقية من الحياء فمزقت أثوابي. من الآن وإلى الأبد سأنتمي إلى عالم غير عالم الناس. سأفتح ذراعيّ للجنون والسفه وخر النزق المعتقة. الحياة لا تتكرر والحب أغلى جوهرة في تاجها. وفي سبيل الجنون المقدس تستحل كل حماقة. اقتلعت نفسي من مجرى الحياة المألوف المحفوف بالعقل والحكم. خفت وزني تماماً وبتت قادراً على الطيران والشيطنة، وليأخذ بزمامي نبض القلب الثمل بالبهجة والأسى.

وهداني الصوت الحفي إلى خاطرة مبتكرة وجريئة فقلت لحمودة الجرسون:

- سيسجن موسى القبلي فهل يمضي الكازينو بلا مدير؟

فقال وهو يرمقني بانتباه:

- هذا ما يشغل حفي بيه في هذا الوقت . . .

فقلت بهدوء:

- إنني أرحب بهذا العمل!

- أنت؟!

- نعم أنا، أم لا؟

فتردد متفكراً فقلت:

- قدم ما يسعك من معاونة وأنت مطمئن!

فقال حمودة بارتياح:

- إنني أحسن الدافع وراء ذلك . . .

- إنني أعرف الأصول!

- لدى أي خطأ تتورط فيه فسأعتبر بالتبعية متورطاً

فيه ومستولاً عنه وأخسر رزقي!

- لا تخش شيئاً من هذه الناحية.

- ألا تحاول الاستحواذ على المرأة؟

- كلاً . . .

- إذن لماذا ترغب في هذا العمل؟

فقلت بأسماً في ثقة وإخلاص:

- ربّما لأعمل في رحابها . . .

- ٢١ -

دعاني حمودة ذات ليلة لمقابلة حفي داود صاحب كازينو «الواق الواق». وجدته وراء مكتب صغير وأنيق في حجرة تطلّ بنافاذة على النيل، استقبلني بسوجه

- ٢٢ -

طيلة الوصلتين، وأسيح في تيار أنغامها المنسرب، أما الآن فلا أراها إلا من زاوية جانبية، ويشغلني العمل كثيرًا عن التركيز في عذوبة الصوت، وأسير أحيانًا في المشى الفاصل بين جانبي الصالة كأنما لأتفقد النظام، وفي الحقيقة لأملأ عينيّ منها، وبأمل أن ألفت عينيها إلى عابدها المعذب ولكنّها كانت تهيم في النعمة ولا ترى السامعين. وبات عزائي الوحيد أنني أنتمي إلى العالم الغامض المنور بنور القمر. . .

- ٢٣ -

ثمّة علاقة عجيبة بين حفني داود ونور القمر، ما هي؟ هو الذي يسيطر على ظهورها واختفائها، ويرسم الحدود التي لا يجوز تحطّطها، وهي تهيء وتذهب، تغنيّ وتسكت، تنزوي وتصمت، بإملائه وتوجيهه، فأنيّ قوّة خفية يملكها هذا العجوز القرد؟! وإلى هذا كلّه فهي تتبدى هادئة وسعيدة، لم لا؟ ما دام لا تبدر منها بادرة غضب أو تمرّد، وهو ليس أباهما فالقرد لا ينجب ملائكا، وليس زوجها وإلا لعرف ذلك على أوسع نطاق، ولا يتصوّر أن يكون عشيقها بقبحة وعجزه، فما سرّ هذه العلاقة العجيبة؟! وهبه ثريا فما قناعته بهذا المسرح الصيفي، لم لم يجعل منها نجمة من نجوم عماد الدين؟! ومهما يكن من أمر سيطرته عليها ألا يشكّل هذا الوجه الآخر لسيطرتها هي عليه؟! هذا مؤكّد فيها أرى، لا شك أنّها القوّة الحقيقية في هذه العلاقة الغامضة، وما جنيت حتى الآن من مغامرتي إلا زيادة في اضطراب عواطفني وهياج أحلامي وحواسني بجنون حول الخطوة التالية. إني أقبع في مجلسي، رفيقي قدح من البيرة مكّلل بالزبد، أناجي طيلة الوقت أحلامًا طائشة. أتصوّر أنّها علمت بالمدير الجديد، عرفت اسمه وهويته، لمحتة مرّة أو أكثر، راقها منظره، لم لا؟ حدست السرّ وراء سعيه، وحتّى سيصاب حفني داود مرّة بوعكة تمنعه من المجيء، أو سينقضي أجله، أو أجد حيلة للتخلّص منه، عند ذلك تنسرب أضواء الأمل في هذا الليل البهيم، وينفسح المجال أمام الحبّ ليصنع معجزاته، إني أتمرّز البيرة، وأحلم، وأتذوّق النشوة، أعاني العذاب المقدّس، ومن

لي مجلس خاصّ بمحاذاة المسرح. وإلى جانب النسبة المثويّة التي تشكّل مكافأتي عليّ امتياز وهو أن أطلب من المشارب ما أشاء. عملي الأساسيّ المحافظة على النظام، مراجعة دفتر التذاكر، التصدي لأيّ خلاف ينشب بين زبون وزبون، زبون وجرسون، زبون وامرأة من نساء جوقه الراقصة، إلى المهمّة المقدّمة على غيرها وهي صدّ المتطفّلين عن نور القمر. ولكنّ ماذا فعلت بنفسني؟

أظنّ يحسن بي أن أذفن هذا السؤال وأمثاله. عملي أشرف من غشيان غرزة سنجة، أو التردّد على بيت موسى القبلي، أو موقفي في القسم. فلتدر أسئلتي حول الحبّ نفسه فهو السرّ الجدير بالبحث والفهم حقًا. على أيّ حال فأنا لم أقع في هوى امرأة عادية. جمالها الفائق معترف به من الجميع. وهي تتبدى في هالة من الغموض المثير للفضول. تحلق بها العزلة والحراسة المغريتان بالجذب والضلال. ولكن هل اقتريت منها حقًا؟ الجواب بالإيجاب بالحساب المادّي. فها أنا أعمل لحساب حارسها الأخير، أقابله يوميًا، أتلقّى تعليقاته. أقدم له الحساب. إني أتحرك على بعد خطوات من استراحتها الخاصّة. سألتقي بها ذات مرّة، في حجرة حفني داود أو في المشى وراء الكواليس. ولكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث بعد. لم يحدث لقاء ولا تعارف ولا تلامس. كآني بذلت ما بذلت وضحيّت بما ضحيّت لأصبلّ في النهاية إلى القرد العجوز. وإلى هذا كلّه جعلت أرقب سنجة الترام بحذر، وأخاف جانبه. وقد أعطاني حقّي وزيادة. بل سألني مرّة:

- ألم تحنّ من جديد إلى قاربنا الشراعيّ؟

فشكرته بقلب يفيض بمقتته وقلت:

- ستجمعنا الأيام بإذن الله. . .

لا شكّ أنّه كان وراء الكبسة ولكن لم يخطر بباله أن يجديني - نتيجة لها - مديرًا عليه! ولا خطر ببالي أنّ عملي الجديد سيعدني عن نور القمر خطوة بدلاً من أن يقربني منها خطوات. كنت وأنا زبون أراها من مقدّمة الصفوف وفي مواجهتها، أتملّ طلعتها البهية

## الحب فوق هضبة الهرم ١٥

أدخلت إلى حجرة أنيقة مؤنثة على الطراز العربي.  
جلست على ديوان رائياً إلى القنديل بإعجاب، منادياً  
إرادتي لجمع شتات فكري والسيطرة على هوج  
انفعالاتي. لبثت وحدي عشر دقائق، استقرّ بقلبي  
خلالها إحساس مطمئن بالانتهاء.

وجاء حفي داود في روب صيفي مزركش مثل  
جدران الحجره يحمل مدفأة مشتعلة الجمرات وجوزة.  
رمقتها باعتبارها أدوات صداقة وألفة. أتقع المعجزة  
وتهلّ نور القمر بطلعتها السنيّة!؟

ذهب إلى الباب فأغلقه ثمّ اتخذ مجلسه بادئاً النشاط  
المعهد. خاب الأمل. صممت بلابل السرور. ما  
الذي دعاه إلى استصحابي معه؟ رغم طعونه في السنّ  
فهو مدخن شره. جاريته رغم نفوري الطبيعي من  
المخدر. مها يكن من عبثية الرحلة فقد اهتديت إلى  
المقام وأمست جليسا لصاحبه. وإذا به يقول:

- لا شك أنك تتساءل عن سرّ الدعوة ولك حقّ،  
اعلم أنّي رجل صريح وواضح، وأنت بدورك رجل  
عسكري لا يناسبه اللفّ والدوران.  
فرونوت إليه متسائلاً فقال:

- المسألة تتلخّص في الآتي، سفر إلى السويس،  
نزول في فندق الفردوس، يدخل عليك صباحاً خادم  
بالفطور، يترك في الحجره لفة معيّنة، يذهب، تضع  
اللفة في حقيبتك، ترجع بالسلامة، توتة توتة فرغت  
الحدوتة!

إزاء كلّ عبارة تفهقرت ميلاً منغمساً في مستنقع  
الخيبة. تمتمت:

- تهريب!  
- سمّه ما تشاء من الأسماء، أربع مرّات في  
الشهر، مائة جنيه مكافأة عن كلّ مرّة!

- لكنّه تهريب!  
- الشكّ لا يمكن أن يرتقي إلى شخص محترم  
مثلك...

- عندك ولا شكّ من يقوم بذلك خيراً مني...  
- أنت خير من يقوم به حتّى يخرج صديقك من  
السجن.

فقلت باستياء:

ناحية تلاطفتني نسمة مفعمة بأريج الياسمين...

## - ٢٤ -

الظاهر أنّي شغلت بال حفي داود كما شغل بالي،  
فعقب المحاسبة والتشطيب في ذات ليلة قال لي:  
- لا تذهب.

فلبثت في مقعدي الجلديّ لعبة بيد الاحتمالات  
المتناقضة، ونهض قائلاً:  
- تعال.

خرج من الباب الخلفي وأنا ظلّه. رأيت الفوردي  
قابعة في الظلام المنمّنيّ عقب التشطيب وإطفاء  
الأنوار. فتح الباب الخلفي قائلاً:  
- تفضّل...

واتخذ مجلسه في المقعد الأمامي أمام عجلة القيادة.  
سرعان ما تبينّت وجودها إلى جانبه فكاد قلبي يثب من  
صدري. هكذا جاءت الخطوة التالية بلا سعي منّي أو  
تدبّر، جاءت كضحكة الشروق مسرّبة ببهجة  
سهاوية. واندفعت تلقائياً إلى تحيتها فقلت:  
- مساء الخير يا هانم.

فغمغمت برّد غامض، وخفت عواقب خروقي  
للتقاليد، ركزت بصري عليها لاثداً بالظلمة. تمّلت  
رسم خلفيّة رأسها وأعلى منكبيها، ميّزت قبعتها  
العريضة وشملتها المطرزة بالترتر، وثملت بعطرها  
الفوّاح. شبران هما ما يفصلان بيني وبينها. انسابت  
السيارة في الظلام ممزّقة هدوء الحقول بأزيز محرّكها.  
انسبت معها في بحر الهيام بأمواجه المتلاطمة وحواره  
الشجيّ. وددت أن أسمع صوتها وهي تحادثه أو أن  
تمتدّ الرحلة إلى الأبد.

وجدت السيارة تدخل حيّ المنيرة. الحيّ الذي  
ولدت وما زلت أقيم فيه. ودارت إلى شارع أصلان  
فوقفت أمام فيلا صغيرة مكوّنة من حديقة ودور واحد  
تقع خلف العمارة التي أسكن فيها مباشرة، لم أتمالك  
أن قلت بدهشة:

- إني أسكن العمارة خلف الفيلا مباشرة!

فأجاب حفي بصوت محايد أطفأ حماسي:

- عظيم...



## ١٦ الحب فوق هضبة الهرم

وبين القوادة نصف خطوة. فيم التردد؟ لم اللغو بمنطق  
العقلاء وأنت مجنون؟! حقاً إني أتدهور إلى غير ما حدّ  
ولكن ما أحوجني إلى رحمتك يا إله المعذبين؟!  
ومضيت إلى حجرة حفي داود فرمقني ببرود  
وتساءل:

- يبدو أنك اتخذت قراراً؟

فحيت رأسي في تسليم فسألني:

- ترى كيف تغيّر رأيك؟

فقلت غاضباً بصري:

- الثراء، أليس هو بالإغراء الكافي؟!

ورجعت إلى مجلسي بخاطرة جديدة من الشكّ.  
هل فطن الرجل إلى غرامي بنور القمر؟. العاشق  
تفضحه أحواله. وهناك أيضاً حمودة المطلع على سري،  
وكان موسى القبلي كذلك قبله. ولعلّ العجوز لم يقبلني  
مديراً إلا لعلمه بحالي واعتزاه استغلالاً إلى أقصى  
حدّ. لو صحت ظنوني فعليّ أن أتوقّع البطش بي لدى  
أول بادرة تهديد من ناحيتي. ولكن لعلّها مجرد ظنون  
ووساوس لا أساس لها. . .

- ٢٦ -

ذهبت وجئت وقبضت. لأول مرة يمتلئ جيبني  
ويصير لي حساب في البنك، من أعماق الظلمات التي  
أتردى فيها ضعد إليّ شعور مليء بالثقة والنشوة، ينتشر  
مثل الشذا الطيب، أملى عليّ بأنني أسير في الطريق  
الصحيح وأني بالغ شجرة طوبى. شعور داخليّ  
كنشوة الخمر. ذو قوة تفتت حيالها صخور الواقع  
المتحدية. ولم يكن مجرد شعور باطنيّ فحسب فالمنطق  
آزره بطريقته الخاصة معتبراً ما تردّيت فيه من درجات  
السقوط ممّا لا يمكن أن يضيع عبثاً ولكنه الثمن الفادح  
يؤدّي مقدّماً، وإن حسن الختام آتٍ لا ريب فيه.  
هكذا علّلت نفسي بالأمانى لأتزوّد بالصبر والطف من  
نذالة الجوّ. وحسي الآن أنني أمكث في هالتها كلّ  
ليلة في الفورد مقدار نصف ساعة تضاف إلى رصيد  
الوصلتين بالواق الواق. وحسي أيضاً أنني صرت  
عضواً خارجياً في الأسرة وجليساً دائماً في الحجرة  
العربية ومغامراً يحمل إليها كلّ أسبوع كنز نعيمها

- لن أكون مهزّباً  
- ألا يغريك الثراء؟  
- بلى ولكن الوسيلة يجب أن تكون شريفة. . .  
- أنت حرّ طبعاً، ولكن العمل لا ماساس فيه للشرف!  
- هو كذلك في نظري. . .  
- لعله الخوف؟!  
فقلت بحدة:  
- لست جباناً. . .  
- أنت حرّ يا أنور بيه.  
وخطرت لي فكرة مكرة فسألته:  
- أنت رجل محترم فلم لا تقوم بالمهمة بنفسك؟  
- وقتي لا يسمح بذلك!  
فقلت بإصرار:  
- لا أحبّ الأعمال المخالفة للقانون!  
- أنا لا أعترف إلا بالقانون الإلهي. . .  
- آسف جداً يا حفي بيه. . .  
صمت. رجعت إلى التدخين المتواصل. تنهد أخيراً  
وقال:

- على أيّ حال لنفترق أصدقاء. . .

ظننته يطالبني بالانصراف فهمت بالقيام ولكنه قال  
بسرعة:

- لا أعني هذاء أعني أنه عليّ أن أختار مديراً  
جديداً

وقفت ماداً يدي، صافحني وهو يقول:

- فكّر، إني منتظر جوابك النهائي غداً!

- ٢٥ -

نجح في أن يبقيني صاحباً حتى صباح اليوم التالي.  
إني مفقود بحسب التعبير العسكري. وقلت بصوت  
مرتفع في حجرة الجلوس بشقّي:  
- لا. . . لا. . . لا. . .

إن يكن القرب نازاً فالبعد موت. ومهما يكن الثمن  
فلن أرتضي هجر «الواق الواق». فيم التردد وقد انتهى  
أنور عزمي من زمان؟! لقد هجر الأقارب والأصدقاء،  
تخطّى العرف والتقاليد، تمرّغ في السمعة السيئة، حمل  
في سيارة الشرطة بين المومسات، يعمل في وظيفة بينها

## الحب فوق هضبة الهرم ١٧

تشابك بمدارات الأفلاك أو تنعقد في مركز الأرض.  
ويؤكّد جنوني وأسري الخفيف والنسمة والحوار  
والضجّة والتغريد والألوان والضوء وكلّ شيء.  
وتتوقّف الحياة فجأة عندما تدقّ الساعة الثامنة مساءً  
فلا يجيء الفورد كعادته كلّ ليلة... انتظرت متابعاً  
عقارب الساعة. اقترب ميعاد الغناء فأتصلت بالفيلاً  
بالتليفون. ردّ عليّ صوتها:  
- ألو.  
- أنور عزمي... ماذا أخركم؟  
- لن تأتي الليلة...  
- ولكنّ الجمهور منتظر...  
- تصرف... مع السلامة...  
قطعتم الخطّ. وجدنتي في دوامة من الابتهاج  
والانفعال والحيرة. إنّه أول حوار يدور بيني وبينها وإن  
لم تمازجه نبرة طيبة أو كلمة مجاملة. أين حفي داود؟ لم  
لم يبلّغني بالأمر؟ لم لم يردّ بنفسه؟  
وكان عليّ أن أواجه الجمهور معتذراً عن غياب نور  
القمر.

- ٢٨ -

عند منتصف الليل وقفت أمام الفيلاً بشوارع  
أصلان. نائمة مغلّفة بالظلام ولا بصيص نور في  
الداخل. إنّها تطرد الزائر بصرامة موحشة. مضيت إلى  
شقتي فلم يطرق عينيّ نوم حتّى الصباح. ترى هل  
جاءت المعجزة؟ عمّ ينكشف الستار الأسود؟!  
ورجعت إليها حوالى التاسعة صباحاً. سألت  
البواب:

- حفي بيه موجود؟

أجاب الرجل:

- البيه مريض...

تصرّفت كفرد من الأسرة فدخلت بثبات. وجدت  
في المدخل ممرضة فقلت لها:

- إنّي مدير أعمال حفي بيه... كيف حاله؟

- لعلّه أحسن.

- ماذا به؟

- تعب في القلب...

الوفير، ولديّ بعد ذلك عزاء الإنسان - أحلامه  
المتهورّة - التي تحلّق به في الفضاء بلا أجنحة.

وفي إحدى سهرات الليالي الزرقاء بالحجرة  
العربية سألته:

- لم تقنع بفصل نشاط محدود في ملهى ثانويّ  
بروض الفرج؟!  
فأجاب باقتضاب:

- فيه ما يكفي...

- ولكنّ نمة ملحنين معاصرين متفوقين  
والحناناً جديدة جميلة وملاهي عامرة بعماد الدين؟  
فتقبني بنظرة كريمة وسألني:

- ماذا يهّمك من ذلك؟

فرجف قلبي غير أنّي ضحكت قائلاً:

- يبدو أنّي أصبحت من رجال الأعمال!

فقال ببرود:

- كلّاً أنت موظّف يا جنرال!

تضاعف حنفي عليه، تمثّيت تحطيم جمعته،  
تساءلت:

- ألا تحبّ الذبوع والتوسع والشهرة؟

فأجاب بصوت أبرد من الأوّل:

- كلّاً...

المسألة أنّك أنانيّ وجبان، حريص على حبس  
العصفور المغرّد في القفص. تخاف عليها من  
الملحنين ومن الجمهور الحقيقيّ، ولكنّ لماذا لا  
تُحكّم قبضتك المعروفة المدبوغة فتبقيها في الفيلاً  
مثل جوارى الحريم؟!  
- ٢٧ -

الحياة تمضي في طريقها لا أجنّي منها إلاّ أمسّر  
الشمرات. أحترق مثل الشمعة فيترسّب ذوبي في ماء  
أسن. وأسريّ عن نفسي فأقول لها إنّي خليفته، لا  
خليفة له غيري. ولكن هل أفنع بالصبر كالعجائز؟ ألا  
يجدر بي أنا المغامر بالتهريب أن أغامر بالافتحام؟  
ولكن كيف وهو متصدّد لي مثل كلب الحراسة؟! حقاً  
إنّي لمجنون. أسير قوى غامضة تترامى خيوطها حتّى

... به .  
 وعيت كل كلمة ولكن ما الفائدة؟ ... سألته :  
 - أين نظنتها ذهبت؟  
 تجاهل سؤالي وواصل اعترافه :  
 - حصلت على المال بأي ثمن كما تعلم لأوفر لها  
 أسباب السعادة، أنشأت مشروع روض الفرج لأشبع  
 رغبتها في الغناء والفن، تجرعت العذاب ليلة بعد  
 أخرى، فعلت المستحيل...  
 تساءلت بحيرة :  
 - ألم يكن بوسعها أن تتمرد عليك؟  
 - كلاً...  
 - لم؟...  
 وهو يتنهد:  
 - موهبة إذا شئت!  
 - أي موهبة؟  
 - في عيني، لا تفسير لذلك...  
 أيجزف الرجل؟... أيؤمن بالسحر؟... هل  
 يتمتع بقوة تسلطية خاصة؟...  
 - بمجرد أن اقتحمي المرض طارت...  
 - متى؟... لقد ردت على مكالمة تليفونية في  
 منتصف التاسعة من أمس...  
 - لم تنتظر النهار... ربما عند منتصف الليل أو  
 عقب ذلك!  
 كان من الممكن أن أصادفها في موقف أمام  
 الفيلا... يا للحسرة المعبدة... وعدت أتساءل:  
 - أين نظنتها ذهبت؟  
 فتمتم:  
 - يا له من سؤال أحمق!

- ٢٩ -

مات حفي داود في نهاية الأسبوع. أغلق «الواق»  
 «الواق» أبوابه وكما ينته الموسم. توارت عن عيني الحياة  
 الجديدة بأضوائها وأناسها فوجدتني منبوءاً خارج  
 الأسوار. أنا وحيي الشهيد. هل خدعني الشعور  
 الباطني الملمم كما خدعني المنطق؟! هل أرضى من  
 الغنيمة بالإياب سالمًا من قبضة الشرطة؟ الحياة قفراء

- هل أستطيع رؤيته؟  
 غابت دقيقة ثم رجعت وهي تشير إلي بالدخول.  
 رأيته راقدًا لا يبدو من الغطاء إلا وجهه. لمحت مخايل  
 الموت في نظرة عينيه الغائمة الخالية من نبض الحياة  
 وهمومها. الحجرة خالية بخلاف ما توقعت!  
 - لا بأس عليك، شد حيلك...  
 أجاب بصوت خافت:  
 - شكرًا.  
 - لن أرهقك بالحديث...  
 - لا أهمية لذلك... إنها النهاية!  
 أشار إلي بالجلوس على مقعد قريب من الفراش  
 وقال:  
 - لم أتوقع حضورك!  
 فتساءلت في دهشة:  
 - كيف؟... لقد جئتك عند منتصف ليلة أمس  
 ولكنني وجدت البيت نائمًا تمامًا...  
 قال باقتضاب:  
 - ذهبت!  
 جفل قلبي، تساءلت:  
 - من؟  
 - لم تضيح لحظة... هربت!  
 - نور القمر؟  
 - المتوحشة...  
 فترت انفعالاتي كلها كشمعة ضئيلة رُدمت بكوم  
 تراب! فلم أدر ماذا أقول، أما هو فقد تحطمت مغالبتة  
 وتدقق الاعتراف بلا ضابط...  
 - إنها عذراء، إنه الحب، إنه الجنون، أنت تفهم  
 معنى ما أقول!

حدجته بنظرة محرجة وبائسة فقال:

- توهمت وقتًا أنه أنت...  
 - أنا؟!  
 - إنك بريء، وأحمق مثلي، إنها ابنة المرحومة  
 زوجتي، شبت تناديني بالأبوة، ماتت أمها وهي عروس  
 في السادسة عشرة، حاولت محاولة يائسة ثم قررت  
 الاحتفاظ بها مهما كلفني جنوني، بسببها خسرت  
 مشروع مدرسة أهلية كانت تدر علي رزقًا لا بأس

## الحب فوق هضبة الهرم ١٩

- أظنّ أنّ حالي ميثوس منها تمامًا...  
 - ليس الأمر كما تصوّر... إنك سجين ذاتك  
 وعلاجك في أن تخرج منها...  
 ارتبكت أمام أقواله فصمتُ مبتهلاً فقال بوضوح:  
 - أنصحك أولاً بالزواج، أنصحك ثانيًا بالاندماج  
 في نشاط اجتماعي أو سياسي، إذا لم يُجد معك فلدينا  
 آخر وسيلة وهي العقاقير... .

بقدر ما أعاني من ألم بقدر ما أصمّ على المقاومة،  
 أزمتي تكشف لي عن جوانب ظلت خافية في نفسي بلا  
 استغلال. زرت عمّي نظيمة وعاليتها برغبتني في  
 الزواج. صادفتنا عراقيل غير يسيرة. السنّ مثلاً  
 والمعاش المحدود وأجزاء من سيرتي الماضية. ولكنّ ثمة  
 نساء فضليات يعانين ظروفًا سيئة ويرحبن بالزواج  
 بقلب متسامح وعقل متفتح. وجدت بينهنّ أرملة في  
 الحلقة الرابعة، أمًا لفتاة متزوجة، متوسطة الحال  
 والمنتشا والتعليم تدعى فائزة. جدّدت شقّتي بالترميم  
 والتجديد والطلاء ثمّ استقبلت بها عروسي. الأمر  
 بالنسبة لي علاج، في نظر عمّي رغبة في الاستقرار  
 والإنجاب، ليس زواج حبّ ولكنّ زواج للشفاء من  
 الحبّ أو تخفيف حدّة جنونه، عناصره الأساسية الطيبة  
 والمودة والتعاون والحياة النظيفة المطمئنة. سرعان ما  
 لمحت مخايل الأبوة، تلقّيتها بقلق وحبّ استطلاع ونوع  
 من السرور، ولكنّ أسير الحبّ ما زال يزرع تحت  
 أغلاله الصلبة. ثمة شعور بالذنب كدّرني آتي في الحياة  
 الأخرى سأطلق زوجتي المخلصة لأتزوج من الأخرى  
 من يدري فلعلّ زوجتي ترجع وقتذاك إلى زوجها  
 المتوفى أو إلى من يروق لها من الأرواح الخالدة!

ثمّ خضت تجربة الانتهاج السياسي. تجربة مشيرة  
 للعب عندما يشرع فيها إنسان جاوز الخمسين من  
 عمره بلا انتهاج حقيقي. غير أنّي لم أكن بلا انتهاج. ألم  
 يتقرّر لي ميل محدّد مذ اشتركت في المظاهرة وأطلقت  
 الرصاص في فناء مدرسة الشرطة؟ ولكنّ الوطن يموج  
 بتيارات جديدة أيضًا. تيار ديني عنيف، تيار يساري  
 متطرف، تيار فاشستيّ حادّ. تحمّرت طويلاً بين  
 المبادئ. في كلّ واحد على حدة وجدت عنصر جذب  
 وعنصر رفض. ويدافع من ميولي القديمة ألجئت نحو

لدرجة الرعب. لا شيء ولا معنى ولا طعم، وهذا  
 الإحساس المتغلغل في الأعماق بالإحباط والحزن وخيبة  
 الأمل. هل أستطيع أن أوصل الحياة بخواء شامل  
 وقلب معذب؟ وإني لأتحمّر كلّما وجدت إلى التحمّر  
 سبيلاً. أستجوب بواب الفيلا وممودة وسنجة الترام.  
 أغشى الملاهي ملهى بعد ملهى. أمشي في الأسواق  
 والشوارع كالمخبرين. فعلت أكثر من ذلك. قصّدت  
 قسم المنيرة. ادّعت أنّ لي دينًا في عتق الفتاة المخفية.  
 أعطيت أوصافها وما لديّ من معلومات قليلة عنها،  
 طالبت بمعاونتي في العثور عليها. اندفعت في كلّ سبيل  
 بقوة جنوني وألمي.

ولمّا بلغ بي الألم حدّه الأعلى قرّرت أن أقاوم ما  
 دمت أرفض فكرة الانتحار. تجنّبت زناتي ما وسعني  
 ذلك ولكنّ قهوة المالّة لم تشغل إلاّ بعض وقتي ولم تجدّ  
 كثيرًا في تسليتي. خطر لي أن أقامر، فالفهاريّ نسبي  
 الإنسان النوم والطعام فلعلّه يبرئه من الحبّ. وجدت  
 فيه مهربًا محمومًا ولكنّه لم يستطع أن يستغرفني وأساء  
 إلى أعصابي إساءة حملتني على إعادة التفكير. والتسمت  
 الشفاء في الكتب الروحية، ولا أنكر أنّها فتحت لي  
 باب أمل ولكنّه لا يؤتي ثمرته بلقاء المحبوبة إلاّ بعد  
 الموت، ويجعل من الحياة فترة تسهيد وتعذيب وانتظار.  
 وخطوت خطوة جديدة تمامًا فاستشرت طبيبًا نفسيًا.  
 قصصت عليه قصّتي، رأيته يصغي بعناية وحذب.  
 ولمّا وجدته يرمق هيكلي الضخم قلت له مردّدًا قولاً  
 قديمًا:

- منظري لا يثير الرثاء!

فقال بجديّة:

- إنك إنسان معذب... .

ثمّ واصل بعد هنيهة:

- لا أعتقد أنّك مريض إلاّ إذا اعتبرنا الحبّ

مرضًا!

فسألته بتوسّل:

- ألا يوجد علاج لحالي؟... أعني عقاقير مفيدة

مثل... ؟

- العقاقير مفيدة ولكنّي لا أنصح بها إلاّ عند

اليأس... .

## ٢٠ الحب فوق هضبة الهرم

لها، لزيارة القارة الأوروبية كخطوة أولى، فبادرت - في الفندق - إلى تحرير رسالة لها، قلت:  
عزيزتي الفنانة الكبيرة نور القمر:  
هل تذكرين أنور عزمي مدير «الواق الواق»؟ . . .  
لقد جاءتني أنباء نجاحك في مكانٍ لم تخاطر لي من قبل  
زيارته، وعند رجلٍ لم أتصور أن أعرفه يوماً أو أن  
يمدني عنك بخبر، وقد سعدت بنجاحك سعادة يعجز  
القلم عن وصفها، سعادة موصولة بتراث قديم من  
الإعجاب والحب لك في قلبي. أمني أيتها الفنانة  
الكبيرة أن تضعي مصر في أعز مكان من رحلتك الفنية  
المقبلة، فهي الأصل، وفيها أول قلب نبض بحبك.

\* \* \*

وفي مصر تلقيت الرد على عنواني باللجنة. الحق أنه  
لم يكن ردًا بالمعنى المفهوم. كان كارت بوستال تألّق  
فيه صورتها الخالدة، وعلى ظهره دُون بخط اليد:  
تحية شكر وتقدير

## «نور القمر»

جعلت أقرأ المدون بعناية. كلاً لم أسعد به السعادة  
المتوقعة. ليست رسالة شخصية من أي نوع كان. إنه  
أكلشيه للرد على المعجبين. لعلها أمرت بإرساله دون  
الاطلاع عليه ولا حتى إمضائه، إنه يدفعني إلى عالم  
الأرقام والتجريد ويتجاهل عواطفني وآلامي المقدسة.  
ولكن هل هي صورة لنور القمر بين يدي، بكل بهائها  
وعذوبتها، بين يدي رغم انشغالها الواضح بمجدها  
ورغم حيادها القاسي إزاء المعجبين.  
سأحتفظ بالصورة ما حييت. ومن يدري؟ . . .  
فربما رجعت صاحبها ذات يوم إلى مصر للزيارة أو  
الإقامة. ماذا يعني هذا بالنسبة لي؟ لا أدري أيضاً،  
ولا أحب أن أحسم الموضوع بفكرة محدّدة لن أجنبي من  
ورائها إلا العذاب. وإذا داخلي شك ذات يوم في  
حقيقة مغامرتي العجيبة فما علي إلا أن أستخرج  
الصورة من حافظتي، وعند ذلك تنطرح أمامي الحياة  
بكل ألوانها المتضاربة، وما يند عن مفاتها من جنون  
مقدس.

الوفد، وبخاصة نحو جناحه اليساري. فيه يطمئن  
إيماني الراسخ بالله وحاسبي العقلي الجديد للعدالة  
الاجتماعية. وهو محطة تأمل حتى أكتسب مزيداً من  
الخبرة والضوء وأفيد في الوقت نفسه من نفوذ الحزب  
الشعبي. سرعان ما انضمت إلى لجنة الوفد بالمنيرة.  
انغمست في الزوجية والسياسة. رغم ذلك ظلّ الأسير  
الكامن في يناضل سلاسله، طالبت بترشيحي في  
الانتخابات ولكنّ مطالبتي رُفضت لحدائث عهدتي  
الرسمي بالوفدية. رشحت نفسي على مبادئ الوفد.  
وجدتني أنافس مرشح الوفد الرسمي ومرشحاً آخر من  
الإخوان. وعند احتدام المعركة وُزعت منشورات  
غريبة استهدفت نسفي تماماً. فيها كلام عن محضر  
الشرطة إثر القبض عليّ في بيت موسى القبلي، وكلام  
عن وظيفتي كمدير للواق الواق، وتعليقات ساخرة  
وجارحة. وخسرت التأمين، ولكنّي كعادي توثبت بكلّ  
قوتي لمواصلة المعركة السياسية، خطبت، حرّرت في  
الصحف، وثقت علاقاتي بالزعماء، تبرعت من  
مدخرات التهريب للجهاد، مضى الأسير على مضى  
الأعوام يتخفف من آلامه ويتحوّل أله إلى أسي مقدّس  
وهادئ لا يموت ولا يحيا بعنف وعريضة.

\* \* \*

وفي صيف أحد الأعوام سافرت ضمن وفد برلماني  
إلى مؤتمر البرلمانات العربية ببيروت. وفي ذات ليلة، في  
رحاب الجبل الأخضر والينابيع العذبة، وجدتني أمام  
نور القمر! كنت وبعض أعضاء الوفد في جلسة سمر  
تضمّ صحفياً لبنانياً عائداً لتوه من باريس. تحدّث  
بحماس عن مغنّية من أصل مصري، تشدو بأغاني  
«فرانكو أراب» وتحقق نجاحاً متواصلاً تنبأ له بالعالمية،  
تدعى نور القمر!

زلزل قلبي لدى ذكر الاسم بعنف يقظة كاسحة.  
اندفعت في مجال التذكّر والاستجاب متحرّراً من  
الجاذبية. انقلبت طفلاً يلهو باللعب العقيمة والأحلام  
المتهورة ويناجي مرّة أخرى المستحيل. وعلمت من  
الصحفي أيضاً أنّ مدير أعمالها يرسم خطة لرحلة فنية

## أهل القمة

- ١ -

أن تفوز برضى سناء. لسهام كريمة أخته جمال بديع  
«إنه يحب جاهلها». لم تحظ بمثله كريمة من كريماته. رغم  
أن سناء لا بأس بها وهو أيضًا لا بأس به. رغم ندبة  
في صدغه الأيسر من مسّ رصاصة نجا منها في أثناء  
مطاردة عصابة في الدلتجات.

انتظمت السفارة حركة نشيطة في جو يسوده الصمت  
حتى خرقت سناء بصوتها الرفيع:

- عندنا أخبار.

فتساءل في توجّس:

- ماذا عندكم؟

- بعد الانتهاء من الطعام...

حدثت مشاحنة من المشاحنات التي لا تنتهي.  
زهيرة وسهام يكتان هنا بلا ترحيب. لم لا يعترف بأنه  
هو نفسه لا يرحّب بالزحام وأنه يعاني منه من الناحية  
الاقتصادية. ولكنّ الواجب هو الواجب. انقلبت  
الشقة فأصبحت ثلاث حجرات للنوم... ألغى كارها  
حجرة الاستقبال وأحلّ مكانها السفارة... وجعل من  
الصالة الصغيرة حجرة استقبال وجلس. يومها قالت  
سناء:

- بيتي تهدم!

فتساءل بامتعاض:

- هل أرمي بهما في الطريق؟

- لم تمّ تذهب إلى أحد من أخواتك؟

- لا متسع لها، وكيف تذهب إلى بيت رجل

غريب وأنا موجود؟!!

- أنت ضابط... ابحث لها عن شقة... ولها

قبيلة من النساء. خاطرة تراوده كثيرًا وهو ينظر  
نحوهنّ. سفرة الغداء معدّة. مغرية للجائع.  
الصحاف والملاعق والشوك والسكاكين، وعاء  
البلاستيك المملوء بأرباع الأرخفة، الدورق  
والأكواب... هرعت زهيرة إلى المطبخ لتحضّر  
الطعام. من باب الشرفة المفتوح لاح ميدان السكاكيني  
والجانب الأبعد من البستان الذي يتوسّطه تحت سماء  
الخريف المنقوشة بسحاب بيضاء متناثرة... نزع  
قبعته وألبسها فإزة فوق البوفيه وأتخذ مجلسه فعلت  
هامته بصورة ملموسة فوق مستوى المائدة لطوله  
الفارغ. جاءت زهرة بأواني الطعام، بالكوسة والشواء  
والأرز والمخلّل. تحلقت النساء السفارة، سناء زوجته  
(٣٠ سنة)... وكريماته الثلاث، أمل (١٠  
سنوات)... سهير (٨ سنوات)... لمياء (٦  
سنوات)... زهيرة شقيقته (٤٠ سنة وتكبره بخمس  
سنوات)... كريمتها سهام (١٧ سنة)...

تناول خيارة مخلّلة فدمعت عيناه السوداوان  
الصافيتان. ما أمهر شقيقته زهيرة. طاهية ماهرة:  
تضفي على الطعام لذة تعوّض ما ينقصه من ترف.  
يتجنّب الشاء عليها إشفاقًا من إثارة سناء، يتحاشى  
قوتها أو بالأحرى عصبيّتها. إنه قويّ في القسم، أمام  
الخارجين على القانون، ولكنّه يتحلّى بالحكمة في  
شقته. السخط لا يفارق سناء منذ اضطرت زهيرة  
وابنتها للإقامة معه. ورغم أنّها تقوم بأعباء البيت  
كلّها. رغم أنّها تعمل كطاهية وخدمة، فإنّها لم تستطع

## ٢٢ الحب فوق هضبة الهرم

معاش الأرملة! فضحك ساخرًا وقال:

- شقة في هذا الزمان! ... أما المعاش فهو بضعة جنيهات... لقد مات المرحوم بعد خدمة قصيرة!  
- وما ذنبي أنا؟!  
- لا حيلة لي أولئك...

من بادئ الأمر شعرت زهيرة بالحرج أكثر مما شعرت بالترمل، ومما يزيد الأسى أنها كانت في زواجها موفقة... ولكن الموت عاجله. إنه يدرك تمامًا. يعرف أنها على يقين من أنها غير مرغوب فيها... لا هي ولا ابننتها الجميلة. وسناء عصبية. لا تحسن إخفاء مشاعرها أو لا يهتمها ذلك. ولم يخفف من حدتها إقبال زهيرة على العمل اليومي الشاق. وطالبتها بالمعاش ولكن زهيرة قالت بذلك:

- إنه تافه، ولا بد من أن تظهر سهام بمظهر لائق في المدرسة... وأنا أيضًا... وهو لا يكاد يفهم بهذا أو ذلك.

ولاحظ أن شقيقته مستوصية بالصبر والاستسلام... تسمع وتتجاهل... تتلقى الأحجار صامتة واجمة... تحذر كرميتها من الانفعال وأدرك أن سهام متمردة نوعًا ما. وقد نما إلى أذنيه يومًا صوت سهام وهي تقول لأمها:

- متى أنقذك وأنقذ نفسي؟  
فتقول الأم:

- زوجة خالك لها عذرها، ألم تكن لطيفة قبل أن تضطر للإقامة معها؟

- لكن خالي... إنه ممتاز ولكنه ضعيف!

- ليس المفروض أن يكون ضابطًا في بيته أيضًا... الغلاء نار يا سهام كان الله في عونك...  
وأشد ما يزعج سهام هو موقف سناء من مستقبلها.  
قالت يومًا لزهيرة على مسمع منه:

- متى ما حصلت سهام على الثانوية العامة فعليها أن تعمل...

ولم تحر زهيرة جوابًا أما سهام فقالت:

- هذا يعني ضياع مستقبلي...

فقالت سناء بحدة:

- إنك لا تدركين حقيقة الوضع...

فقالت زهيرة:

- لم تتعجل الأمور؟

فقالت سناء بغضب:

- نحن نربي ثلاث بنات، نحن نعاني، عليك أن تفهمي ذلك.

فقالت زهيرة باستسلام:

- لتكن مشيئة الله.

وكان محمد فوزي - الضابط - يقول لنفسه إن القبيلة ممزقة... ما منهن واحدة إلا وهي ظالمة ومظلومة... الحياة تبدو أحيانًا لعنة طويلة. ويتذكر كم أحب إخواته فيما مضى وخاصة هذه الأخت. وهي ليست أسوأ حطًا منهن... كلهن متعبات... ووراء كل سرب من الذكور والإناث.

وتقول له زوجته سناء متحدية:

- عليك منذ الآن أن تستعد لزواج بناتك...

فيتساءل ضاحكًا:

- من الآن يا سناء؟

- عليك أن تشتري شقة لكل منهن.

فيضحك ضحكة عالية ويهتف:

- أتحدى وزير الداخلية أن يفعل ذلك!

- ألا تسمع عن الذين يحتفلون بالزواج في هيلتون وشيراتون؟

- كما سمعت عن أغا خان رحمه الله...

ويداعب أمل كبرى بناته ثم يتساءل:

- ماذا ندري عن الغدا؟

- ٢ -

عقب الغداء جلسوا في الصالة، وسأل محمد زوجته:

- ماذا عندكم من أخبار؟

ساد صمت غامض كأن كل واحدة تدعو الأخرى للكلام. وقالت زهيرة:

- أحدهم يطلب خطبة سهام!

ارتسم الاهتمام في صفحة وجهه الأسمر. لهذا الخبر قد يعني نكتة سخيفة وقد يعد بفرج غير متوقع:

- من هو؟

### الحب فوق هضبة الهرم ٢٣

فقلت سهام بضيق واضح:  
 - لا رأي عندي يا خالي.  
 - العواطف وحدها لا تكفي...  
 - نعم...  
 - إني على استعداد لفعل ما تشيرين به!  
 فقلت سناء:  
 - سهام جميلة وسوف تسنح لها فرصة أطيب!  
 وسألته زهيرة:  
 - ما رأيك أنت يا أخي؟  
 فتفكر قليلاً ثم قال:  
 - رأيي أن تصارحه سهام بما سمعت وتسمع  
 رأيه...  
 فقلت سناء:  
 - معقول هذا الرأي.  
 هنا غادرت سهام الصالة إلى حجرتها أما زهيرة  
 فاغرورقت عيناها على رغمها.  
 سألتها سناء:  
 - هل أخطأنا؟  
 وبادرها محمد:  
 - سأفعل ما تشيرين به.  
 فقلت زهيرة:  
 - لا خطأ هناك البتة، ولكنني حزينة، البنت رغبة  
 في التعليم ولن يتاح لها ذلك، ورغبة في الشباب ولن  
 يكون نصيبها، لا خطأ هناك ولكنني حزينة...  
 - ٣ -  
 قَرَّب مقعده من نافذة تطلّ على ميدان السكاكيني  
 ليستردّ أنفاسه. أيّ حظّ هذا؟. إنه غير راضٍ عن  
 نفسه ولا عن أيّ شيء. وحسن ألا يكون شاباً. إنه  
 زمن المؤدّعين. ولكن... وانقطعت أفكاره فجأة.  
 استقرّت عيناه فوق البستان. هذا الوجه يعرفه تماماً.  
 كان صاحب الوجه يتربّع على الحشائش مسند الظهر  
 إلى جذع نخلة. هو هودون غيره. زعتر النوري. ماذا  
 جاء به إلى هنا؟ هل يتربّص به الأحقّ؟... لا...  
 لا... ثمّة سبب آخر. شعره حليق. ما زال حليقاً.  
 مفهوم. لن أمهله.

- من نفس الحَيّ، طالب بكلّيّة العلوم، يدعى  
 رفعت حمدي...  
 نكتة سخيفة لا فرج قريب كما يوحي به الجوّ.  
 تساءل:  
 - ماذا تعرفون عنه أيضًا؟  
 فقلت زهيرة:  
 - أسرة طيّبة...  
 فقلت سناء:  
 - ولكنها فقيرة.  
 فقلت زهيرة:  
 - سيكون موظّفًا بعد ثلاثة أعوام وتكون سهام قد  
 وجدت عملاً أيضًا.  
 فقلت سناء:  
 - الجملة ثلاثون جنيهاً على أكثر تقدير.  
 فتساءلت زهيرة:  
 - هل نتجاهل سعادتها؟  
 فقال محمد فوزي متهمّاً:  
 - أعطوني فرصة للتحرّي والإحاطة!  
 فقلت سناء:  
 - المسألة واضحة، لن يملك مهراً، لا بدّ من جهاز  
 ولو حجرة واحدة، ثمّ لا بدّ من شقّة، لسنا في زمن  
 العواطف، وهذا ما يجب التفكير فيه من الآن...  
 فقال محمد متحرّجاً:  
 - أعطوني فرصة...  
 وعند ذلك قالت سهام بجفاء:  
 - فلنعتبر الموضوع منتهياً...  
 فرمقتها خالها بحنان وسألها:  
 - لا شكّ أنّك تعرفين أكثر ممّا نعرف؟  
 - أبداً...  
 - أوّد أن أسمع رأيك يا سهام؟  
 - لقد أوضحت أبلّة سناء الحقيقة.  
 فقلت سناء:  
 - ربّنا يرزقك برجل قادر، لا فائدة من الشباب،  
 هذا رأيي...  
 فقال محمد مجاملاً:  
 - المهمّ رأيك أنت يا سهام!



- لا مؤهل لي والحكومة لا تستخدم إلا ذوي

المؤهلات...

فهتف به:

- حذار من المزاح يا زعتر...

فقال زعتر بجديّة:

- يلزمني رأسال يا حضرة الضابط.

- هذا ليس من شأنى، وإذا عثرت عليك مرّة

أخرى بلا عمل فسوف أقبض عليك كمتشرّدا

- الله معنا...

- ادع الشيطان فهو إلهك...

- أستغفر الله ربّ العالمين...

- أجيبني ماذا أنت فاعل؟

فتنهّد قائلاً:

- سأبحث عن عمل.

فقال بهدوء خفيف:

- ابعد عن وجهي قبل أن أقرّر القبض عليك...

رفع زعتر يده تحيةً ومضى في خطوات سريعة كأنه

مشارك في سباق المشي. وقف محمّد فوزي يتبعه بعينيه

حتى وراه شارع ابن خلدون.

- ٤ -

حظه من النجاح في قسم الشرطة أضعاف حظه منه

في بيته، إنه يتتصر عادة على اللصوص والنشالين ولكنّه

ينهزم في غشاء الموم العائليّة. وقد أبلغته زهيرة أنّ

الشابّ رفعت حمدي يرجو لقاءه فرحب بذلك.

واقترحت أن تحضر سهام اللقاء فلم يمانع، ولأنه لا

يوجد في الشقة مكان استقبال مناسب فقد تمّ اللقاء في

حديقة الشاي بحديقة الحيوان. وجدده شاباً معتدل

القامة بشوش الوجه واضح الرجولة. قال لنفسه ومن

واقع خبرته العريقة إنه يوحى بالثقة ويمكن التفاهم

معه، قال الشابّ:

- إني معجب بشخصيّة آنسة سهام، جادة

ومحترمة، وحضرتك رجل ذو سمعة طيبة جداً...

فشكره محمّد فواصل حديثه:

- ما بهمّ العلاقة المقدّسة متوقّرف لدينا...

فابتسم محمّد قائلاً:

تناول قبعته وغادر الشقة.

بعد دقيقة واحدة كان يقف أمام المترّج. وثب

الرجل واقفاً متهلّال الوجه. طويل القامة ولكنّه دون

محمّد بقبضة. وجهه نحيل طويل... حادّ البصر...

نابت شعر اللحية... يرتدي بلوفر بنيّاً قديماً وبنطلوناً

رماديّاً ربّاً وصندلاً. ابتسم عن أنياب قويّة ملوّنة

وهتف:

- أهلاً بحضرة الضابط العظيم...

فسأله محمّد فوزي:

- متى خرجت من السجن؟

- خرجت من السجن الذي دخلته بفضلك منذ

شهر واحد.

- وماذا جاء بك إلى هنا؟

- جئت لأشتم الهواء النقي...

- اسمع يا ابن الثعلب، ماذا جاء بك إلى هنا؟

فقال باسماً:

- لماذا تكرهني يا محمّد بك؟... لولاك ما كان

الجنّ الأحمر نفسه يستطيع ضبطي متلبساً وبدخلني

السجن، إنك ضابط شريف ولكنّ ربّنا أمر بالرحمة،

ولا تنس العلاقة الحميمة التي تجمع بين الضابط

والنشال، نحن معروفون لكم من قديم، نحن نتبادل

التحية، وفي بعض حوادث النشل الحرجة تطالبني برّد

الشيء الثمين فأستردّه من صاحبه خدمة لك، عظيم،

أين الرحمة إذن؟...

فسأله بصرامة متجاهلاً مرافعته:

- لماذا تجلس أمام مسكني؟

- صدّقني فأني أحبّ هذه الحديقة...

- زعتر، حذار من المزاح...

- عظيم يا حضرة الضابط العظيم، فلأبحث عن

حديقة أخرى.

وتفحصه بدقّة مليّاً ثمّ سأله:

- كيف تحصل على رزقك؟

- حتى الساعة لا رزق لي.

- هذا يعني أنك متشرّد؟

- كلاً...

ثمّ وهو يضحك:

## الحب فوق هضبة الهرم ٢٥

- ما هو يا سيدي؟  
- أن يسير كل منكما في سبيله دون التزام بعلاقة  
ما، أنا شخصياً لا أحب الخطبة أن تطول بلا حدود،  
فإذا وجدت ظروف ملائمة في المستقبل فلا بأس من  
الموافقة عند ذلك!

فقال رفعت حمدي بقلق:  
- قد يتقدم لها في أثناء ذلك رجل ما.  
- أصارحك بأني سأعمل ما أراه في صالحها  
... و

وتوقف متمهلاً ثم قال عادلاً عما كان في نيته قوله:  
- ما أراه في صالحها...  
فقال رفعت بهدوء:  
- أظن من الإنصاف احترام رأيها...  
- طبعاً... طبعاً...

وساد صمت مثقل بالخيبة... وكانت سحب  
الخريف منبسطة فلم يهبط من الشمس شعاع واحد  
غير أن البرودة كانت وانية محتملة... وابتسم محمد  
فوزي وقال:

- هناك رجاء لا مفر منه...  
فنظر إليه الشاب مستفهماً فقال بحزم لا يجد مشقة  
في دعوته في أي وقت:  
- ألا يقع بينكما في الهدنة المقترحة لقاء من أي نوع  
كان!

لحظ الرجل سهام في طريق العودة مرّات... قال  
لنفسه إنها ستجهش في البكاء حالما تنفرد بنفسها...  
لعن نفسه... ولعن أشياء كثيرة...

- ٥ -

كان منفرداً بنفسه في مكتبه عندما استأذن زغلول  
رأفت في مقابله... نهض باهتمام فاستقبله عند  
الباب، شدّ على يده باحترام، وأجلسه أمام مكتبه وهو  
يقول:

- شرفت يا أفندم!  
الرجل في الأربعين، ولكنّه يتمتّع بحيوية شاب في  
العشرين... بلدين مع ميل إلى القصر، كبير  
القسيمات، داكن السمرة... معروف أنّه رجل أعمال.

- للأسف الشديد فإنّه تغطّي ظروف جانيّة على  
الشروط الجوهرية...  
فقال الشاب بحماس العاشق:

- علينا أن نتغلب عليها...  
- هات ما عندك...  
- أمامي ثلاثة أعوام، عملي مضمون في التدريس  
أو المعامل.

- لعلّ التدريس أفضل فيما يقال.  
- وأمامي فرصة للعمل في الخارج أيضاً...  
- جميل ذلك ولكن يجب أن تعلم أننا لا نملك  
تكاليف الزواج...  
- أعرف ذلك، المهم أن تكمل سهام تعليمها...  
- زدني إيضاحاً...  
- إنها أيضاً ترغب في دراسة العلوم، وستجد  
فرصة للعمل في الخارج.

دخلت سناء زوجته في إطار الجلسة فقال بحزم:  
- ظروف حتمية توجب علينا توظيفها حال حصولها  
على الثانوية العامة في نهاية العام...  
- ألا يمكن...  
فقاطعه:  
- غير ممكن. إني آسف...  
فتفكر رفعت ملياً مغموماً ثم قال:  
- فلنعلن خطبتنا الآن، ولنؤجل المهموم  
للمستقبل...  
وكان محمد يلحظ سهام من آنٍ لأنٍ ويقراً موافقتها  
الصامتة ولكنّه لم يرَ بداً من أن يقول:

- تصرف غير مقبول.  
- لماذا؟  
- إنه يعني انتظارك طويلاً وغير مضمون  
العواقب...  
- أرى أنّه ما دامت النية الطيبة متوفرة، فالعقبات  
تذوب عادة...  
- لا أشاركك الرأي، سهام كريمة شقيقتي، ولا  
أريد أن أعلّق مستقبلها على المجهول.  
- إنه ليس مجهولاً.  
- ولكن عندي رأي أفضل...

## ٢٦ الحب فوق هضبة الهرم

- وإذا لم تنفع؟
- سنسير في الإجراءات العقيمة.
- لكم ولا شك وسائل سحرية أقرأ عن أخبارها أحياناً في الصحف.

- ٦ -

أمر الضابط باستدعاء زعر النوري... جميع المخبرين يعرفون مقهى النشالين المعروف بمقهى حنش في خلاء الحدائق فيما تتصل بالحقول، وهو الذي أطلق عليه المعلم حنش اسم «مقهى الأمراء» بعد الثورة... ودخل زعر حجرة الضابط تبوح عيناه الحادثان بنظرة قلق متوجسة وهو يقول:

- ستجعلني لعبتك يا حضرة الضابط؟
- لم يرفع رأسه عن أوراق بين يديه. تركه وحده في دوامة التوقعات المزعجة. قال زعر:
- أعطني فرصة...
- نظر إليه ببرود وسأله:
- أعتقد أنك مصمم على تغيير حياتك، قد أصبحت من المصلين!

- نعم؟!
- رآك البعض وأنت تؤذي فريضة الصلاة.
- أنا ما دخلت جاماً قط طيلة حياتي!
- جامع القبة الفداوية.
- سيدي الضابط أنا لا أفهم شيئاً...
- ولا أنا!
- أنا تحت أمرك...
- قال بهدوء:
- أريد علاقة المفاتيح!

تراجع رأسه قليلاً. اختفت نظرة القلق. أدرك أنه مطلوب لمفاوضة. تشجع قائلاً:

- أي علاقة مفاتيح؟
- نحن نفهم بعضنا يا زعر...
- مذ خرجت من السجن وأنا أعيش عالية على المعلم حنش...
- نُشَل حافظة الوجيه زغلول رأفت عمل لا يقدم

وأته ذو صلوات، ويتردد اسمه أحياناً عند التبرع لمشروعات خيرية في الحيّ.

قال الرجل بصوت مبسوح قليلاً:

- كان يجب أن نتعارف من قديم فأنت ضابط ذو سمعة هائلة...

- كانت ستكون فرصة سعيدة لمعرفة وجهه من محبي الخير...

- شكراً، ها هي الفرصة ولكتها ليست سعيدة...

وضحك فابتسم محمد فوزي وقال:

- حادث سخيف...

- ثمنه عشرة آلاف...

وقدم سيجارة فلما اعتذر لعدم التدخين أشعلها وقال:

- نشلت حافظة النقود، بمائة جنيه غير الفكة، ولكن توجد بها علاقة مفاتيح ذهبية وذات فص من الماس...

فتساءل محمد:

- كيف يُنشَل رجل مثلك؟... لا بد أنك كنت في حفل؟

- هو ذلك... في جامع القبة الفداوية...

- آه...

- أعتقد أنه ليس من الميسور بيعه إذا ورعنا نشرة بأوصافه...

- سنفعل ذلك على سبيل الحيلة. ولكن النشال يبيعه بثمان بخس لمن يصادفه...

فقال الرجل مبتسماً:

- إنه عزيز لأسباب شخصية، ما نسبة الأمل في استرداده؟

فقال محمد فوزي باسماً ابتسامة أسيفة:

- لا سبيل إلى نشال إلا إن ضُبط متلبساً، نحن نعرفهم ولكن من أين لنا الدليل، وثمة تنبيهات متلاحقة بوجوب احترام القانون...

- إذن أقول عليه العوض؟

- توجد وسيلة مجربة في الأحوال النادرة. أعطني فرصة أربع وعشرين ساعة...

## الحب فوق هضبة الهرم ٢٧

- قال زعتر بحماس:
- لا يهمني المال، ما يهمني حقاً هو خدمتك!
- تمتم محمد فوزي بأسماً:
- يا ابن الثعلب...
- ٧ -
- المفاجأة أن زعتر طرق باب الضابط عصر اليوم التالي. كانت سهام هي التي فتحت الباب وهي التي أبلغت خالها بقدوم زائر يدعى زعتر. انفعل محمد انفعالاً شديداً ولعنه ألف لعنة، غير أنه اضطرّ لاستقباله ومجالسته في الصالة، بل وقدم له القهوة. بدا زعتر مفعماً بالحياة والسعادة. قال:
- لا تؤاخذني على حضوري إلى بيتك إذ إنني أكره القسم.
- ماذا فعلت...؟
- دسّ يده في جيبه فاستخرج منه العلاقة والمحفظة.
- تمتم محمد:
- والنقود أيضاً؟
- عن آخر مليم، إذا لم تكن في الاتفاق فدعها لي...
- فقال محمد مداعباً لأول مرة:
- الغنى غنى النفس!
- فقال الآخر بتسليم:
- أمرك.
- من الذي نشلها يا زعتر؟
- لماذا تسأل يا حضرة الضابط؟
- العلم بالشيء ولا الجهل به.
- فابتسم الآخر قائلاً:
- لم أحن زميلاً في حياتي...
- حقاً؟!... يا لك من رجل عظيم في الشر.
- فضحك زعتر واشتدّ لمعان عينيه وقال:
- وشرف ربنا لولا الحظ السيئ...
- هه... لكنك من رجال الأمن؟
- كلاً... لا يعجبني عمك...
- حقاً؟... وله؟
- أقول لك، إنك تطارد اللصوص لحساب

- عليه سواك... فابتسم زعتر وقال:
- إنك تطلب مساعدتي... حذار من الغرور.
- لقد قدمت أكثر من خدمة ولكنّ صدري ينقبض في جو القسم...
- لا تخش شيئاً. إنك تعرف ما تعنيه كلمتي!
- كلام رجال.
- نعم يا ابن الثعلب... عظيم... لنبداً من الأول، ماذا تريد؟
- علاقة رأفت زغلول... لم أنشلها.
- لا أصدقك.
- أقسم لك بشرفي.
- فضحك محمد فوزي قائلاً:
- يا ابن الثعلب.
- أقسم لك بشرفك أنت!
- قال الضابط بحدّة:
- عليك اللعنة، أتعرف ما يعنيه هذا القسم؟
- أعرف... فمَن نشلها؟
- فهزّ رأسه قائلاً:
- سؤال غير جدير بكائك... عندك علم بالموضوع؟
- غير جدير بكائك أيضاً؟ فنظر إليه مقطّباً وقد اكفهر وجهه.
- قال زعتر:
- يلزمي وقت للعمل.
- متى تحضرها لي؟
- لا أدري، وربما ضاعت إلى الأبد...
- اسمع يا ابن الثعلب... أعدك بأنّي سأبذل جهدي.
- في ظرف يوم!
- على الله الجبر.
- تمهل الضابط قليلاً ثم قال:
- ربّما نالك خير، الرجل ثريّ لدرجة الخيال...

## ٢٨ الحب فوق هضبة الهرم

- الحكومة بينما الحكومة أكبر لصرّ في الدولة!  
 - يا ابن الثعلب...  
 - إنكم تكرهون قول الحقّ يا محمد بك...  
 - هه... إذن ماذا تفضّل من المهن؟  
 فتفكّر قليلاً وقال:  
 - أقرب عمل لعمل الراهن أن أكون مدير بنك!  
 فلم يتمالك محمد فوزي نفسه من الضحك، فقال  
 زعتر:  
 - أريد رغيفاً محشوّاً باللحم المحمّر...  
 - طلب غير هيّن ولكن سيكون لك ما تريد...  
 فقال زعتر وهو يتنهّد:  
 - ورغم العيش والملح سترجعني إلى السجن غدًا  
 إذا وقعت في قبضتك!  
 - طبعًا... لا مفرّ من ذلك.  
 - الأمر لله... من صاحب العلاقة؟  
 - زغلول رأفت من رجال الأعمال والبرّ...  
 - رجل أعمال؟... طبعًا لصرّ ولكن ما تخصّصه؟  
 - كلّ الناس عندك لصوص!  
 - اسمع يا محمد بك... ستندم ذات يوم على  
 تمسّكك بالشرف.  
 - على فكرة يجب أن أزفّ إليه البشرى...  
 وأدار قرص التليفون...  
 - زغلول بك رأفت؟  
 - .....  
 - مبارك... العلاقة والحفاظة معي...  
 - .....  
 - وهو أيضًا موجود.  
 - .....  
 - ولكن... فكّر قليلاً... إنّه قادر على أن  
 يخطف الكحل من العين...  
 - .....  
 - إلى اللقاء يا إكسلانس...  
 والتفت نحو زعتر قائلاً:  
 - إنّه مصمّم على رؤيتك...  
 فقال زعتر باهتمام:  
 - تحت أمره.

- كن عاقلاً... وكن حكيمًا أيضًا في الإفادة بما  
 يجود به عليك...  
 - طبعًا... ولن أنسى المالك الشرعيّ  
 للمحافظة...  
 - المالك الشرعيّ؟  
 - الذي نشلها يا محمد بك...  
 فابتسم الضابط وقال:  
 - احذر أن تجعني أندم على الموافقة. الحظّ يفتح  
 لك بابًا شريفًا يا زعتر... والآن دعني أعدّ لك  
 الرغبة...  
 ولكنّ زعتر نهض في لهفة وقال:  
 - لا تضبّع الوقت، شكرًا، بنا إلى الرجل، وسوف  
 أشتري اللحم بنقودي الحلال لأول مرّة...  
 - ٨ -

مضت حياة الضابط بهومها الشخصية وتوفيقها العام. البيت يسوده غالبًا التوتر وقد استغرقت سهام في دراستها ولكن في تعاسة ملحوظة. من يدري فقد ينتصر الحبّ في النهاية، سيجد لسهام عملاً في نهاية العام وسينضمّ مرتبها إلى معاش أمها. وربما حقّق رفعت حمدي حلمه، وهاجرت الأسرة الجديدة - سهام، رفعت، زهيرة - إلى الخارج مجبورة الخاطر. عند ذاك يطمئنّ على أخته وتحظى أسرته بالاستقلال وتستكّن أعصاب سناء زوجته. ما أجمل الأحلام المملّقة للآلام!

وحصلت سهام على الثانوية العامة وراح يسعى لإلحاقها بعمل ولكنّ التوفيق في ذلك بدا بعيد المنال. وفي ذلك الوقت جاءه المخبرون بنبيأ مثير وهو أنّ مقهى «الأمراء» أو مقهى النشالين قد خلا منهم. وكان قد لاحظ قلة ملموسة في حوادث النشل، حتّى مضت أشهر لم يتلقّ فيها بلاغًا واحدًا. وأمر بالبحث عن مجمعهم الجديد ولكن لم يعثر لهم على أثر. ولم يجد أحد من المخبرين عند المعلّم حنش صاحب المقهى تفسيرًا، وفسره هو على هواه فقال إنهم ضاقوا بصرامته ويقظة المخبرين فهاجروا من الحيّ. وسرّ المأمور بتلك

## الحب فوق هضبة الهرم ٢٩

- أنت تفهم، ما أعنيه تمامًا يا زعتر. . .  
 وضح له عن قرب أن فخامة الملابس وصقل الوجه  
 والأطراف لم تغط تمامًا عن الابتذال في الحركة والهيئة،  
 وتقدمت بهيئة (جلجلة) خطوة بجهاها الشعبي الصارخ  
 وتساءلت محتجة:  
 - ماذا فعلنا لتحقيق معنا؟  
 وسأله زعتر النوري بشيء من العظمة:  
 - بأي حق تتعرض لنا يا حضرة الضابط؟  
 فقال الضابط:  
 - أريد أن أكتشف الجريمة المستترة وراء هذا  
 التغيير.  
 - إنك تخاطب رجلًا من رجال الأعمال. وهذه  
 امرأة من نساء الأعمال. . .  
 - نحن نعمل في ضوء النهار. . .  
 - لن يخفى سر.  
 فضحك زعتر وقال:  
 - يؤسفني أن يكون أول لقاء لنا على هذا النحو،  
 لنا ماضٍ مشترك، وفضلك عليّ عميم، أنت الذي  
 سلمتني مفتاح السعادة، فماذا يثيرك عليّ الآن؟ دعني  
 أدعوك لفنجان شاي. . . وليطمئن قلبك. . . وهاك  
 بطاقتي الشخصية إذا شئت. . .  
 فقال محمد بذهول:  
 - إنه عام واحد.  
 - ما قيمة الزمن؟. . . صفقة واحدة تحوّلك من  
 دنيا إلى دنيا، الفضل لك ولزغلول رأفت أيضًا، ما  
 زلت أعدّ من رجاله. ولي أيضًا رجالي. . .  
 - تهريب؟!  
 - رجعا نردّد ألفاظًا لا معنى لها، اسمها الوحيد  
 «تجارة» . . . حتى لو أصرت على الألفاظ الميري فربما  
 كانت تهريبًا قبل أشهر لكننا اليوم في عصر الانفتاح،  
 لا تهريب ولا دياولو. . . تفضّل بزيارتنا. . . وانظر إلى  
 تلميذك بنفسك. . .  
 فقال الضابط ببطء:  
 - زعتر. . .  
 فقاطعه بسرعة:  
 - محمد زغلول من فضلك. . .

النتيجة غير المتوقعة وهنّا محمد فوزي عليها.

\*\*\*

وكان يغادر نادي الشرطة ذات يوم عندما رأى شابًا  
 وشابته في غاية الفخامة، يغادران سيارة، ويتجهان نحو  
 برج القاهرة. نال من الشاب نظرة عابرة وهو يمضي في  
 طريقه، ولكنّها لم تلتاش كما توقّع. التفت وراءه فرأى  
 الشخصين يصعدان سلم البرج، جعل يتأملهما حتى  
 غابا في المدخل.  
 ما معنى هذا؟ هل سبق له أن رأى هذا الشاب؟  
 لقد التقت عيناهما لحظة خاطفة؟ لم تكن عينها  
 الآخر محابدين. أم هكذا خيّل إليه؟ لمح فيهما معنى  
 ما، حياة من نوع ما تشي بنوع من المعرفة، وضرب  
 الأرض بقدمه. مستحيل. توقّف عن المشي. استدار  
 متجهًا نحو البرج. تفحص الكافتيريا، ثمّ صعد إلى  
 الشرفة العليا. رأى الشخصين يطلّان على القاهرة  
 ونسمة عليلّة من نسبات الصيف تداعبها. اقترب حتى  
 وقف وراءهما. سمع الشاب يقول للشابته بصوت  
 يسمعه هو كأنما هو المقصود به:  
 - ألم أقل لك إنّ له عينين لا تُخدعان؟  
 فهتف محمد فوزي:  
 - زعتر النوري. . .  
 فاستدار نحوه باسماً عن أسنان بيضاء وهو يقول  
 محتجًا:  
 - محمد زغلول من فضلك؟  
 وأشار إلى الفتاة قائلاً:  
 - صديقتي بهيئة. . .  
 فتمتم الضابط:  
 - جلجلة!  
 - قلت بهيئة من فضلك. . .  
 جعل ينظر إليهما بريبة فضحك زعتر وقال:  
 - بهيئة اسم اختارته بنفسها أمّا أنا فكوتت اسمي  
 الجديد من اسمك «محمد» واسم البك زغلول،  
 بصفتكما صاحبي الفضل الأول. . .  
 فقطب محمد فوزي متسائلًا:  
 - ما معنى هذا؟  
 - عن أيّ شيء تسأل؟

في آن. جلس محمد وهو يشير للكرسي المقابل داعياً العجوز للجلوس وهو يقول:

- لا تقدّم شيئاً، لي معك حديث يا حنش.

جلس الحنش، لم يزايله القلق. قال:

- لم أرك منذ زمن، آخر مرة كنت في عاشوراء.

- أذكر ذلك... ولكن أين أصحابنا؟

أخذ يطمئن نوعاً ما فقال:

- ذهبوا ولم يرجعوا... اختفوا تماماً... .

رماه بنظرة طويلة وقال:

- عرفت ذلك، ولكن أين ذهبوا يا حنش؟

- الله وحده يعلم.

- ولكنك تدري أشياء ولا شك... .

- هل وقعت حوادث نسل؟

- كلاً.

- ماذا يهتك من أمرهم بعد ذلك؟

- هذا شأني يا حنش.

- والله... .

فقاطعته بنبرة أمرة:

- هات ما عندك... .

اطمأن العجوز تماماً وشعر بأهميته، قال:

- لقد أقلعوا عن النسل، غداً سيختفي اللصوص جميعاً... .

- هات ما عندك... .

فضحك العجوز عن فم خالٍ وقال:

- أنت السبب يا حضرة الضابط... .

- ذلك بالنسبة لزعت النوري. إني أسأل عن الآخرين... .

- قيل إن زعت ذهب للقاء الرجل الذي نسله.

- أعرف ذلك طبعاً.

- وإذا بالحال يتغير تماماً، لم يعد عتريس النوري إلينا. انتظروا، انتظروا طويلاً ولكنّه لم يعد وكادت جلجلة تمجن... .

- ثم؟

- ظننا أنّه قبض عليه... أخذوا يتناسونه... .

حتى جلجلة بدأت تستعجب لعشاق آخرين... حتى كان يوم... .

- أنت تعرف من هو محمد فوزي.

- طبعاً... أعرف أنك ستتحرك... أعرف أنك تحلم بإرجاعي إلى السجن... ولكن الحقيقة ستكشف لك... ستعرف أنني رجل شريف... .

أمل أن تكون أصدقاء... لست دون زغلول رأفت استحقاقاً لذلك... .

وقالت بهيئة بدلال:

- وأنا أيضاً أريدك أن تكون صديقاً لي! وتساءل زعت:

- البضائع المهربة كانت تملأ الطرقات فلم لم تصادروها؟... لم لم تقبضوا على مروّجيه؟... كنا نجول في الميدان يجرسنا رجال الأمن... ووراء كل واحد منا شخص ذو مقام... انتهى عصر المغامرة وما نحن اليوم إلا تجار شرفاء... ثم إنك صاحب الفضل.

- أضجرتني بقولك هذا... .

- لم يغضبك قول الحق؟... أنا أيضاً نسلت ذات يوم ولكنني استرددت مالي بقوتي الذاتية، لم ألقأ إليك لتسترد بقوتك مال لص كبير من نسل مسكين.

وهتفت بهيئة:

- صديقك زغلول رأفت لص عظيم... .

فانتهرها زعت قائلاً:

- اقطعني لسانك؟ إنّه بحكم القانون الجديد تاجر عظيم!

فقالته مخاطبة محمد فوزي:

- نحن ندعوك إلى فنجان شاي.

فقطب الضابط متحوّلاً عنها فقال له زعت:

- يؤسفني ألا تلبي دعوتنا، ولكن لا تبدد قوتك في لا شيء... .

اقترب من الخلاء المشارف للحقول فتبدى له مقهى «الأمراء» في عزلة ورثائه. حجرة حجرية يتقدمها فناء ترايب مسور بالصبار. بدا كالخالي بعد أن تخلّى زبائنه الأصليون عنه. وقف في الفناء المهجور فلمحه الحنش العجوز الأحذب - وسرعان ما هرع إليه مرحباً وقلقاً

### الحب فوق هضبة الهرم ٣١

- وسكت الرجل ليشحن الضابط بالشوق. فقال هذا باستياء:
- استمر يا عجوز.
- كانوا في الداخل يقامرون حين دخل فجأة سمسون العفش مضطرباً بفرحة طاغية، لَوْح لهم بحافظة نقود فاخرة وتساءل: «لمن هذه؟». فأجابه أحدهم متفكهاً: للسفير الأمريكي، ولكنّه قال بهدوء: إنه عتريس النوري. ملكهم ذهول شامل. أقبلوا نحوه وفي مقدّمهم جلجلة، أقسم لهم على صدقه. أين هو، لماذا لم يعد، وكيف نشلته، وراح الرجل يقول: «رأيت في ميدان رمسيس. كان يغادر سيارة. ليس عتريس الزمان الأول، شخص آخر تمامًا، أيّ وجهة وأبهة، شككت فيه طويلاً حتى عرفت مشيته وسمعت صوته. إنه عتريس النوري. ماذا حصل له؟ كل شيء تغرّ حتى جلده. تغرّ لونه أيضًا كأنه نُقع في الماء عامًا. هل استولى على ثروة الرجل الذي دعاه ليكافئه؟ هل نشل البنك الأهلي، وهو يقصد دكان غيار، إنه محترم ابن الدائخة. في الحال رسمت خطّة لنشله، نشلته في الدكان. هذه هي الحكاية. وصاحت جلجلة: الخائن ابن الخائنة. أين يقيم؟ ماذا يعمل؟ ولكنّ سمسون العفش لم يكن لديه مزيد. وصاحت جلجلة: لا بدّ من العثور عليه... وأكثر من صوت صاح: لن يفلت ولو اختبأ في جبال الواق الواق. وفيها هم يتبادلون الرأي إذ بدا عتريس النوري في مدخل الحجره وهو يرمقهم بنظرة ثقيلة محتدمة بالسباب والسخرية.
- وسكت العجوز ليستريح ويسعل ما شاء له السعال فصبر محمد فوزي حتى استطرد:
- دخل منفوخًا بالأبهة. تبادلوا النظرات في صمت هادئ. حتى خرقتة جلجلة متسائلة: «من سعادة الباشا القادم؟». فقال بهدوء: الحافظة أولًا ثمّ نتكلم. فسأله سمسون العفش: عن أيّ حافظة تتكلم؟ فنقبه بنظرة من عينيه الحادتين وقال: هو أنت يا ابن الخائنة! قلبي قال لي... فقالت جلجلة: «قلب المؤمن». فقال زعتر لسمسون: «الحافظة واعتذر لعمك».
- أنت خائن!
- زعتر خائن!
- أين كنت؟... تقطعنا للنقود... من أين لك هذا؟
- العمل الشريف!
- هزّت جلجلة وسطها وهتفت:
- ادعوا له... ادعوا له...
- العمل الشريف... عمل الناس الأجلأ... هات الحافظة...
- أقسم لك بشرفي... قاطعه مقهقها:
- احتفظ بشرفك وهات المحفظة.
- فقال سمسون بتسليم:
- لي مكافأة!
- دع ذلك للنساء، هات الحافظة لتتكلم في المفيد!
- فرمى بها إليه سمسون وهو يقول:
- نار في جيّة الخائن...
- الله يساعك... كان في خطّي أن أزورك في الوقت المناسب...
- فتساءلت جلجلة:
- وما الوقت المناسب؟
- هو وقت الخير، لا يتقدّم ولا يتأخر.
- ومتى يجيء؟
- عمّا قريب جدًّا.
- ما هو العمل؟
- تجارة... بضائع نجيء من أوروبا...
- تهريب؟!
- الصبر... موعدنا بعد شهر واحد... وفي الميعاد يا حضرة الضابط ذهبوا جميعًا ولم يرجع منهم أحد.
- ترامقا صامتتين، ثمّ تساءل الضابط:
- أين هم الآن؟
- فقال العجوز بقلق:
- إنهم خارج منطقتك...
- نعم... هل تعلمني واجبي؟ أين هم الآن؟
- إنهم يعملون في ضوء النهار وتحت حماية الشرطة...



## ٣٢ الحب فوق هضبة الهرم

- شكراً، لا أحبها...  
تناولها زعتر وراح يشرب قائلًا:  
- إني أعرف ما يجررك!... لعلك سررت بما  
ترى، تاب الله علينا!  
- حقًا؟... من النشل إلى التهريب؟  
فضحك زعتر قائلًا:  
- عملنا مشروع، انظر إلى الشرطة، نحن تجار،  
أناس يحتاجون إذا الفقراء اغتنوا...  
- الحال معدن...  
- سمسون دفع أمس خلّو رجل لا يستهان به  
وأصبح من سكّان المنيل!  
وقالت جلجلة:  
- عندنا بضائع تجنّب... شاهد بنفسك...  
فقال في هدوء:  
- لست في حاجة إلى شيء...  
فسأله زعتر بقلق:  
- لم شرفتنا؟  
- العلم بالشيء ولا الجهل به...  
- اسمع يا حضرة الضابط، ما كان تهريبًا أصبح  
بفضل الانفتاح تجارة مشروعة...  
فضحك محمّد فوزي ولم ينبس فواصل زعتر:  
- سيكون أبنائنا ضباطًا ووكلاء نيابة...  
- ولم ترجعهم إلى الفقر؟  
فتأدى الآخر في حماسه قائلًا:  
- ماذا كان الأمراء والباشوات قبل أن يصيروا أمراء  
وباشوات؟... كانوا لصوًّا، فنحن أصل الوجود يا  
محمّد بك... ولكنّ أناسًا يكرهون أن يفعل أبناء  
الشعب مثل الأمراء والباشوات...  
- يا لها من آراء!  
- دعنا من هذا كلّ... ألا يلزمك فرجيدير؟...  
معصرة؟... ريكوردر؟... مقويات، كلّ شيء تحت  
أمرك، ومن غير فلوس...  
- إنك لكريم ولكنّي لا أريد شيئًا...  
فمدّت جلجلة عنقها بدلال وإغراء وتساءلت:  
- ألا يعجبك شيء؟  
فتساءل الضابط:

- ألم أقل لك إنك تعرف أشياء كثيرة؟  
فضحك العجوز وتساءل:  
- ألم تسمع عن سوق ليبيا؟  
- كلاً.  
- إنّه في القلعة يا حضرة الضابط.

- ١٠ -

يموج سوق ليبيا بالخلق والحركة والأصوات. يغمره  
ضوء الكلوبات الأحمر المدلاة من رءوس أعمدة  
مغروسة في الأركان. أمواج تتلاطم من النساء والرجال  
مصبوغة الوجوه بالأضواء المركزة. قال الضابط إنهم  
اختاروا مكانًا مناسبًا بين القلعة والمساقى القديمة.  
وتابع بعينه الأكشاك القائمة في محيط السوق مكتظة  
بالصابون والقوارير والعلب والبرطمانات والأدوات  
الكهربائية والإلكترونيات. وراء كلّ كشك صفت  
الفرجيديرات والسخانات ومكيفات الهواء والنجف في  
سرادقات. بهر الضابط بألوان البضائع، بجنون البيع  
والشراء، بالمهد الذي يلد أناسًا جديدًا. ها هي وجوه  
العصابة التي اختصّ دهرًا بمراقبتها. خلقوا من  
جديد. إنهم يرمقونه بدهشة لا تخلو من قلق ثمّ  
ينسونه تمامًا. الشرطة تحفظ الأمن. والنشّالون  
أصواتهم مرتفعة. سيختفي اللصوص ويستغنى بالتالي  
عن رجال الأمن! ما علاقة زغلول رأفت بهذا كلّ؟  
أصبح هؤلاء من الأغنياء أما هو وأضرابه فيغوصون في  
غبار الفقراء. ها هو زعتر، محمّد زغلول أستغفر الله.  
معه جلجلة في كشك واحد. وجم الرجل عندما رآه.  
ها هو يقبل نحوه مرحًا مرحبًا.  
- أهلاً محمّد بك... خطوة عزيزة!  
- أهلاً بك...  
- انتقلت إلى منطقتنا؟  
- كلاً.  
- جئت للشراء؟  
- للفرجة.  
فتحت له جلجلة علبة كوكاكولا مستوردة وقدمتها  
مبتسمة، قال:

### الحب فوق هضبة الهرم ٣٣

- وظفني عنده في أعمال تهريب تحتاج إلى جرأة  
خاصة، تعلمت أشياء وأشياء، استعملت بدوري  
العصابة، اليوم العمل كله مشروع...  
وسألته جلجلة:

- هل لو كنت في منطقتنا أيام التهريب كنت  
قبضت علينا؟

- طبعًا.

- رغم الحماية؟

- بلا تردّد.

فقال زعتر ضاحكًا:

- يعملها ولو تعرّض للنفي، أنا عارقه.

فقال جلجلة:

- يا لك من حبيب قاسٍ، وهل كنت تقبض على  
زغلول رأفت؟

- ربّما قبلكم...

فثنت رقبته في مرح وقالت:

- ستصبح المدينة بلا لصوص، ماذا تريد أكثر من  
ذلك؟

- أو ستصبح كلّها لصوصًا...

- النتيجة واحدة.

وقال زعتر بحرارة:

- بوّدي أن أغرقك في السعادة!

فتمتم في فتور:

- شكرًا...

تصافحا، هتفت جلجلة مخاطبة زعتر:

- قل له إنّي مستعدة أن أوصله بسيّارتي إلى أيّ  
مكان...

لوح لهما مودّعًا ومضى...

- ١١ -

ما معنى ذلك؟ ها هو العبث يتأبط ذراعه متدنّراً  
بالبسّات الحمراء. لاحظ الضابط أنّ صوت مرافقه  
مبحوح مثل صوت حنش. سأله عن السبب فأجاب  
بأنّ صوته يُجّ من كثرة الخطب، ولأنّه يؤدّن كثيرًا داعيًا  
المصلّين إلى سوق ليبيا. وأشار إلى الشجرة الضخمة  
توسّط الميدان الصغير في شارع البرج وقال للضابط:

- هل تزوّجتها؟

فقال زعتر:

- كلًّا... إنّها تهدّني بالقتل...

- لمّ؟

- رأيي أنّه يجب أن أتزوّج من أسرة... وعليها  
هي أن تبحث هي أيضًا عن عريس لقطة...

قال محمّد فوزي لنفسه إنّها جميلة، حتّى ابتذالها  
جذاب، ليس في بيته من يضارعها في جمالها إلاّ سهام.

وقالت بهيّة «جلجلة»:

- إنّهُ وغد يستحقّ الإعدام.

فقال الضابط:

- إنّها لمشكلة...

فقال جلجلة:

- لا أهميّة لذلك، المهمّ أن نقدّم لك هديّة.

- شكرًا، لا عودة إلى هذا الحديث.

فقال زعتر:

- صدّقني لا يقضي بالفقر على الإنسان إلاّ عقله.  
وقالت له جلجلة:

- لو عثرت على رجل قويّ مثلك لزهدت فورًا في  
هذا الوغد...

فتجاهل قولها ضاغظًا تأثره الباطنيّ.

فعدت تقول:

- إذا لم تقبل هديّة مستوردة فخذني أنا هديّة  
محليّة... ما رأيك؟

فقال زعتر:

- وتهديني حلًّا لمشكلتي معها...

فسأله محمّد فوزي:

- هل صادفتك متاعب أيام التهريب؟

- لا تكاد تذكر، كلّ كشك يكمن وراءه رجل هامّ

يحميه من بعيد...

- لا تبالغ.

- هي الحقيقة، أنت نفسك رجّعت إلى زغلول

رأفت ماله الضائع...

- رجل لا غبار عليه!

- صدّقني ليس في ثروته مليّم حلال واحد...

- ماذا فعل معك؟

## ٣٤ الحب فوق هضبة الهرم

- أيّ ضخامة، ما عمرها؟ ستعيش بعدك طويلًا،  
إنها لا تعرف القيود، تحيا حياة مطلقة.  
وأشار أيضًا إلى كليين يتلاعبان وتمتم:  
- يعيشان مثل الشجرة، حياة مطلقة، لا يعرفان  
الضمير ولا يخافان الموت...  
فقال الضابط:  
- ولكنّه الإنسان، وحده.  
- حماقة مقنّعة بالجلال!  
- الجلال!  
- هو السجن.  
- لكنّه الإنسان، لا يعرف ذلك إلا الإنسان. ألا  
يعني ذلك شيئًا؟  
- لا يعني شيئًا.  
- هو وحده.  
- الإنسان الحقيقيّ مثل الشجرة، مثل  
الكليين...  
- إنه وحده، هنا يكمن سرّه.  
- هبك مشرفًا على الغرق ولا نجاة لك إلا  
بالتضحية بآخر، ماذا تفعل؟  
- ساعة الغرق يسيطر الحيوان.  
- هذه هي الحياة...  
- كلاً، إنها جريمة يجب التكفير عنها...  
- هل تعرف الجريمة بالفطرة؟  
- كفى، على أحدنا أن يتلاشى...  
\* \* \*
- تهبط النقود بلا حساب في ميدان ليبيا، السماء تمطر  
هدايا. بالوقاحة تُصان الهيبة. طيّب، ها قد تغيّر كلّ  
شيء. ستسيطر على الحياة بدل أن تسيطر هي عليك.  
تتحسّن علاقات الكائنات. تستقلّ سناء ببيتها ثمّ  
تنتقل إلى بيت أفضل، يتورّد مستقبل أمل وسهير  
ولياء. تغدق البركة على سهام وزهيرة. تنطلق سيّارة  
بالأسرة يوم العطلة. الفضلاء يعملون بالردّيلة،  
الأرذال يحملون بالفضيلة.

\* \* \*

- كان بالنادي عندما رأى زغلول رأفت قادمًا نحوه.  
انتحى به جانبًا فجلسا في جانب من الحديقة.

- ١٢ -

- بدا محمّد فوزي كئيبيًا متجهّمًا. من أوّل نظرة  
لاحظت ذلك سناء وزهيرة وسهام أما الصغريات

### الحب فوق هضبة الهرم ٣٥

- لقد رويت لكنّ حكاية سوق لبيبا، وحكاية زعتر النوري، محمد زغلول هو زعتر النوري!  
قرأ وجوهه بنظرة الثاقب. سهام يغمرها شعور  
بالنجاة. زهيرة مطبوعة بالحبيبة. سناء مغنيطة محنقة  
ولكن قضي عليها بالهزيمة. تمتت زهيرة:  
- ما تصوّرت ذلك قطاً!  
فقال بسخرية:  
- هو هو لم يتغير إلا مظهره، كان لصاً غير قانوني  
فأصبح لصاً قانونياً..

- ١٣ -

التقت عيناه بعينه رغم الضجيج والزحام. رسالة  
خفية سرت منه إلى الآخر. غادر موقفه أمام الكشك  
نحوه. بدا أنه استشعر الجو كله. قال بتسليم:  
- قلب المؤمن دليله.  
سار محمد فوزي خارجاً من نطاق السوق والآخر  
يتبعه حتى وقفا تحت جدار القلعة الشاهق، وعند ذلك  
هتف به الضابط:  
- إنك وغد كالمهد بك...  
فتمتم وهو يواجهه بثبات:  
- الحلم سيّد الأخلاق.  
- كيف تسوّل لك نفسك التعرّض لبنت أختي؟  
- بالشرف تعرّضت لها...  
- لا تنطق بهذه الكلمة يا زعتر...  
- محمد زغلول.  
- كذاب.  
- هذا كلّ شيء.  
- سأعتبر الموضوع منتهياً وحذار...  
- محمد بك... ربنا قبل التوبة.  
- أنت لص لا أكثر ولا أقل.  
- إني رجل شريف وغني ومن حقّي أن أفتح بيتاً  
شريفاً.  
- اللعنة على شرفك المزعوم.  
- لا داعي للغضب.  
- فليتته كلّ شيء، إني أكره الاستمرار في هذا  
الحديث...

فيحسن من ملاحظته. ونطق بنبرة مفعمة بالغضب:  
- سهام.  
نظرت إليه الفتاة بذهول فقال:  
- ما هذا الذي يقال عنك؟  
وسكت من شدة الانفعال ثم قال بازدراء:  
- عن رجل له مظهر الوجهاء يدعي أنّ اسمه محمد  
زغلول...  
فقالت زهيرة:  
- لا شيء يستحقّ الغضب يا أخي.  
وتمتت سناء زوجته:  
- فعلاً.  
فتساءل بحدّة:  
- آخر من يعلم؟  
فقالت سناء:  
- إنه رجل غنيّ. غرضه شريف، لم تخف سهام  
عنا شيئاً.  
قالت زهيرة:  
- لم أرد أن أزعجك قبل أن أتحقّق بنفسي، وافقتني  
سناء على رأيي، قالت لي سهام إنه رجاها أن يحدثها،  
ذهبت إليه بنفسني لأقول له إن الطريق الوحيد أن  
يحدثك أنت.  
- ماذا قال؟  
- قال إنّ ثمة سوء تفاهم بينكما قد يجيب رجاءه.  
- أكان في نيتك أن تزوجيها من وراء ظهري؟  
فقالت سناء:  
- اتفقنا أن أحدثك ولكّتك سبقت!  
فنظر إلى سهام متسائلاً:  
- هل أعجبتك؟...  
فقالت زهيرة:  
- إني أبحث عن حلّ يرضي الجميع.  
أدرك أبعاد الموقف. أدرك أيضاً دور زوجته التي  
تحلم بالتخلّص من زهيرة وسهام. ضحك بمرارة  
وقال:  
- ما هو إلا نشال قضي في السجن عامين!  
فوجّه في ذهول. تذكّر هو يوم رآه رابضاً في  
البستان تحت البيت. قال بأسى:

وتركه دون تحية .

- من واجبك أن تكوني سعيدة!

فقالته سهام بنبرة متوترة:

- صبركم حتى أجد عملاً، عند ذلك سأذهب أنا

وماما!

فقال محمد مقطباً:

- قول غير لائق...

واجتاح الغضب سناء فهتفت:

- جئناك بالسعادة حتى موطن قدميك ولكنك ما

زلت تحملين بالمستحيل، إنها فرصة لا تتكرر، وأنا

بصراحة لم يعد بي صبراً!

وقال لها محمد معاتباً:

- سناء!

فصاحت بصوت يهدر بالغضب:

- دعني أنفس عمًا في صدري .

فقالته زهيرة:

- أعطونا فرصة، سهام ذكية وتفهم كل شيء،

ستسير الأمور كما نود...

- ١٥ -

أبلغ الضابط زغلول رأفت بموافقة الأسرة. كان

التفاهم بين الرجلين كاملاً. لم يترك صغيرة ولا كبيرة.

اطمأنت سناء تمامًا إلى أن زوجها لن يغرم ملياً واحداً

وأن حلمها يتحقق بكل أبعاده. وتصدى محمد فوزي

لموجة امتعاض زاحفة في أعماقه بأن جعل يؤكد لنفسه

شرف العريس، ويقول لضميره القلق إن أحداً لم

يتهمه في شرفه إلا الوغد زعتر. أجل لقد تصرف مع

سهام بطريقة قاسية. فما من شك أن الموافقة انتزعت

منها على رغمها. غير أنها ستحظى بالسعادة والجاه.

إنه قرار حكيم وستثبت الأيام صدقه وإخلاصه.

وسارت الأمور في سبيلها المرسوم حتى خرجت سهام

ذات يوم إلى زيارة قريبة ولكنها لم تعد! طال الوقت

وغرق الانتظار في مستنقع الشك القاتل. تحمى عنها

في جميع مظانها ولكن لم يسمع لها عن خبر. . . تجسد

واقع لم يخطر على بال. تقوؤس البنيان كله وتلاشت

الأمال مخلقة الرعب والأسى. جنت سناء كما جنت

زهيرة أما محمد فقد نار ثورة هائلة. قصد من توّه

- ١٤ -

أول ما صنعه أن كلّف مخبراً بمراقبة زعتر. وانهمك

في العمل أكثر وأكثر لينسى هموم المطاردة. وقال

لنفسه: سأبقى شريفاً ولو لم يبق في الحومة سواي. ولم

يترك طويلاً للنسيان فقد زاره في النادي من جديد

زغلول رأفت. في ذلك المساء رجع إلى بيته بالسكاكيني

متفكراً ولكن يصاحبه أمل جديد. وبدا وسط قبيلة

النساء مرحاً. وقال:

- عريس له وزنه يطلب يد سهام.

فتطلعت إليه الأبصار وقالت سناء بنغمة أمل

واضح:

- ما أكثر العرسان!

فقال بهدوء:

- هذه المرة زغلول رأفت...

فبادرت سهام:

- قلت إنه لص أيضاً يا خالي...

- لا أنكر، رددت ما سمعته من لص محترف،

ولكن لا دليل على ذلك...

- لن يغير ذلك من الواقع.

فقالته سناء:

- فرق بين النهار والليل، إنه رجل شريف برأي

الجميع...

وقال محمد فوزي:

- عرفته ثرياً ومن رجال البر...

فقالته سناء:

- رجل له وزنه حقاً، وهو الحلم المطلوب...

فقال محمد:

- إنه في الأربعين، أرملة، ولا أولاد له.

- عزّ الطلب! لا خير في الشبان.

ونظر محمد فوزي إلى سهام وسألها:

- ما رأيك؟

ونظرت إليها أيضاً زهيرة كأنما تستوهبها الموافقة

ولكنها لاذت بالصمت حتى ضاقت سناء بصمتها

فقالته:

### الحب فوق هضبة الهرم ٣٧

- بلغ مني اليأس مداه، صممت على التحدي والانتقام، قلت إنهم يريدون أن يزوجوني من لص مغطى آخر. سأزوج من اللص المكشوف. وذهبت إلى محمد زغلول أو زعتر النوري.

صاح محمد في جنون:

- كلاً.

- هو ما حصل، كنت يائسة عمياء، رأيت في كشك امرأة جميلة فلوحت له من بعيد فجاءني وهو لا يصدق عيني، فقلت له أريد أن أحدثك حديثاً هاماً. أخذني في سيارته إلى مدينة المقطم. في مكان شبه خال يطل على القاهرة، كان من العسير جداً أن أبدأ ولكن كان لا بد أن أبدأ، سأله ألا زلت تريدني؟ أجاب ذاهلاً بالإيجاب. فقلت له إني موافقة. سألتني هل أفضيت برغبتك إلى محمد بك أو والدتك؟ أجبت بالنفي. سألتني ماذا دفعتك إلى المجيء إلي؟ فقلت له إني لا أريد استجاباً وإني مستعدة وكفى، قال إني رجل لا يهمني شيء، لا يهمني خالك نفسه... أستطيع أن أفعل ما يحلوي... ولكن لا بد أن أعرف ما حلك على المجيء... قلت لا جواب عندي... وارتكيتي إذا شئت. قال إني أعرف أنّ الوغد زغلول خطبك... هذه هي المسألة... ما قولك؟ قلت إني أرفض الاستجاب. قال يبدو أنك لا توافقين عليه... ربما لسته وسوء سمعته... إن ما جاء بك إلي هو الرغبة في الانتقام أو الرغبة في الانتحار، فلم أحر جواباً ولمعت عيناى، قال إنك عنيدة مثل جلجلة... إني أحب هذا... ولكني لا أعرف العبودية في الحب. قلت فلنرجع. قال: أرفض أن أجعل من نفسي أداة انتقام في يدك، قلت إذن فلنرجع، قال هذا يعني أن أسلمك للوغد زغلول رأفت... كلاً... لقد وقعت في شبكة من المنافقين واللصوص ومن الشهامة إبقاؤك. قلت ولكن كيف، قال خالك يحسني شيئاً قذراً... كلاً... أنا لم أحن زميلاً في حياتي... حتى جلجلة فإني مرتبط بها رغم شعبي منها... وقد جعلت عصابة من النشالين عصابة من الأعيان... معجزة تحتاج لثورة كاملة... وإني أرفض أن يستعملني أحد أداة انتقام... ولكنني

رفعت حمدي ولكنّه وجدّه على حال يرثى لها، وصاح به غاضباً:

- إنك مسئول عما حدث، أنت... أنت المسئول الأول!

وفي الحال استغل الضابط خبرته في الخدمة وإمكاناته الغزيرة في البحث عن المخفية ولكن مرّت الأيام تبعاً دون نتيجة.

ورنّ التليفون في بيته ساعة الغداء عند اجتماع الأسرة فتناول محمد السّاعة:

- ألو.

- أنا سهام يا خالي...

- سهام... أين أنت؟

- أكلمك من الإسكندرية.

- ماذا تفعلين هناك؟

- إني أعمل... وبخير... اطمئنوا... أريد ماما أن تلحق بي...

- أعطني عنوانك أريد أن أقابلك...

- ممكن أحضر بنفسي.

- وماذا يؤخرك؟

- عندي أن تلقاني بهدوء واحترام.

- لك هذا يا سهام.

- سأحضر غداً.

- احضري الليلة أرجوك.

- ليكن... إلى اللقاء.

\*\*\*

أقبلت عليهم في ثبات كأنما قد نضجت في أيام غياها أعماراً. تلقّتها أمها باكية. نساءلت سناء:

- ماذا فعلت بنا يا سهام؟

وقال محمد بهدوء:

- آخر ما كان يُتوقع منك...

فقالت باسمه:

- الدفاع عن النفس حق مشروع.

- ليس بهذه الوسيلة.

- الأفضل أن تسمعوا حكايتي...

صممت ملياً لتجمع شتات أفكارها ثم راحت تقول:

## ٣٨ الحب فوق هضبة الهرم

- إنه رجل مذهل .  
استمرّ الحديث بعد ذلك ولكنّه - محمّد - لم يتابعه .  
غرق في أفكاره بعمق وحزن وذهول . أيّ هزيمة مني  
بها؟ إنه يتلاشى من الوجود ويحسن به أن يتوارى عن  
الأعين . وغادر الشقّة صامتًا . وكما اقترب من ضجيج  
السوق أثارت الأصوات في صدره شجنًا ثقیلاً . ولحّه  
زعر فهرع إليه متهللاً . تصافحا . وقفا يترامقان في  
صمت طال حتّى ضاق به محمّد فتمتم :  
- شكرًا لك يا زعر .  
فقال الرجل ضاحكًا :  
- محمّد زغلول من فضلك .  
فقال محمّد فوزي بهدوء ويقين :  
- زعر النوري ، اسم طيّب لرجل طيّب ! ماذا  
يخجلك منه؟!

سأنقذك . . . خالك رجل فقير لأنّه شريف . . . لذلك  
يهّمه أن يتخلّص منك على خير . . . لذلك وافق على  
تسليمك للصّ قانوتي . . . اسمعيني جيّدًا . . . أنت  
متعلّمة . . . سألقك بعمل يحفظك من المنافقين  
واللصوص . . .  
ساد صمت تجلّى فيه صوت الأنفاس المتردّدة . . .  
ثمّ تساءلت أمّها :  
- أيّ عمل؟  
- موظّفة في كشك يملكه في الإسكندريّة بأجر  
بسيط ونسبة في الأرباح . . .  
- أهو يكفيك يا بنتي؟  
- فوق الكفاية يا ماما . . . لا بدّ أن تأتي معي . . .  
ستجدين حياة معقولة جدًّا . . .  
وقالت سناء :

## السَّمَاءُ السَّابِعَةُ

- ١ -

بدلته، ولهذا حذاؤه. عانوس يحثهم على العمل، لا يراه ألبتة فيما يبدو، يظن أن الجسم المطروح يحوي بالكامل صديقه رءوف، لا يفتن إلى الكائن الذي يراقبه بلا انفعال. أدرك أنه غير مرئي مثل جسده المطروح. هل انقسم إلى اثنين؟ هل غادر الحياة؟ هل قُتل وعانى الموت؟ قتلتني يا عانوس؟ ألم نقض معا سهرة ممتعة؟ متى شرعت في قتلي؟ كيف نقذته؟ وأين كان رجال أبيك الذين يحفرون قبوري؟ هانت صداقتي عليك لتستأثر برشيده؟ ألم تقل لي بأنك ستعتبرها شقيقة لك من الآن فصاعداً؟! ها هم الرجال يحملون جثتي ويرمون بها في الحفرة. ها هم يبيلون عليها التراب ويسوون سطح الأرض. عاد وجه الأرض إلى صورته المألوفة وغاب رءوف عبد ربّه كأن لم يكن. ولكنني موجود يا عانوس. أحسنت صنفاً بـدفن أداة الجريمة الصلبة. زال كل أثر. لماذا أنت متجهّم هكذا؟ أين نظرة عينيك الساخرة؟ اعترف لك - ولو أنك لا تسمعني - إنني طالما أحببتها. أتظن أن علاقتنا انقطعت وانتهت؟ الصداقة أقوى ممّا تظن. حتى الموت يعجز عن محققها. كذلك الحب. رشيدة لي أنا وليست لك ولكنك متهور وسئى التربية. نشأت في محيط أبيك المعلم قدرى الجزائر. محتكر اللحوم، ناهب الفقراء والمساكين، راشي الرجال وشاري الدم، فلنك أن تطمع فيما ليس لك وأن تناله بقوة الجريمة. ماذا أنت فاعل الآن؟ لم يكن يطيب لك الجلوس في المقهى بدوني، ولا المذاكرة، ولا الذهاب والإياب من الجامعة، أكبر صديقين في الحارة رغم الفارق اللانهائي

سحابة معتمة تقتحم الوجود وتنغمس في الفضاء. كل شيء يموج بحضور كوني غريب، لا شبيه له من قبل، يحلل الكائنات إلى عناصرها الأولى، ينذر بالعدم أو بخلق جديد. رغم ذلك ما زال يملك وعياً بما يحدث أو أنه يعيش اللحظات الأخيرة من الوعي. سيطر عليه شعور فائق الإلهام أنه يشهد ما لم يشهد من قبل ولكنّه ما زال رءوف عبد ربّه. رءوف عبد ربّه بلا خوف ولا وساوس ولا مبالاة. يقف خارج أسوار البوابة التاريخية، في الخلاء، في الظلام، بلا وزن ألبتة. هو والصديق عانوس قدرى راجعان من سهرة الليل، أين أنت يا عانوس؟ لا يسمع صوتاً، لا يحس بمس الأرض، وثمة شعور عجيب بانعدام الوزن، والغوص في السحابة المعتمة المقتحمة. وعندما ينادي صديقه لا يند عنه صوت، إنه موجود وغير موجود. وهو حائر ولكنّه غير خائف. وقلبه يتوقّع إجابة قريبة وصریحة. وترقّ السحابة وتمضي في التلاشي. ويقف التموّج ويختفي. عند ذاك تتضح ظلمة الليل المشعشة بإشعاعات النجوم. أخيراً تتراءى يا عانوس. ولكن ماذا تفعل؟ ثمة أناس يحفرون في الأرض حفرة بهمة ونشاط. وثمة شاب مطروح على ظهره ينزف الدم من رأسه. إنه يرى ذلك بشيء من الوضوح أكثر بما تسمح أضواء النجوم. يا للعجب! ما الشاب المطروح إلاه، رءوف عبد ربّه نفسه. إنه أنا دون غيري. وهو منفصل عنه تماماً، يراه من بعد قريب. ليس شبيهاً به ولا توأم له، إنه جسمه، وهذه



- تشرّفنا يا سيدي، من حسن الحظّ أنّي مصري  
مثلك...

- لا أهميّة لذلك، لقد فقدت هذه الجنسيّة منذ  
آلاف السنين، وإنّي الآن موفد كمحامٍ للدفاع عن  
القادمين الجدد...

- ليس ورائي تهمة ولكنني شهيد...

- صبراً، دعني أحدثك عن موطنك الجديد، هذه  
السماء تستقبل الوافدين الجدد، فيها يحامون وأتولّى  
أنا الدفاع عنهم، الأحكام تتراوح بين البراءة  
والإعدام، في حال البراءة يقضي البريء عامّاً واحداً  
هنا يتأهل فيه روحياً للعودة إلى السماء الثانية...

فقاطعته رءوف متسائلاً:

- لكن ما معنى الإعدام؟

- معناه أن يُقضى عليه بأن يولد من جديد في  
الأرض ليمارس الحياة مرّة أخرى لعلّه يلقي قدرًا أكثر  
من النجاح، أمّا ما بين البراءة والإعدام فيُقضى على  
المتهم عادة بأن يحمل مرشدًا روحياً لشخص أو أكثر في  
الأرض، ويكون صعوده إلى السماء الثانية رهناً بتوفيقه  
أو تمكّد مدّة تجربته وهكذا...

فقال رءوف باطمئنان:

- على أيّ حال فإنّي واثق من البراءة فقد عشت  
طيباً ومّت شهيداً...

فابتسم أبو وقال:

- لا تتعجّل، ولنبدأ الحديث في قضيتك...

أخبرني بهويتك؟

- رءوف عبد ربّه، السنّ ثمانية عشر عامّاً، طالب  
تاريخ بالجامعة، يتيم الأب، أمي أرملة تعيش على  
منحة خيرية من الأوقاف...

- لماذا أنت راضٍ عن نفسك هكذا يا رءوف؟

- رغم فقري الشديد فإنّي طالب مجتهد يحبّ العلم  
ولا يكفّ عن النهل منه...

- جميل هذا من ناحية المبدأ، ولكنك كنت تتلقّى  
كثيراً وتفكّر قليلاً...

- التفكير يُكتسب بالعمر والمران، وعلى أيّ حال  
لا يُعدّ ذلك تهمة؟

- هنا يُحاسب الإنسان على كلّ شيء، لاحظ مثلاً

في المال والجاه والسطوة. فإن نسييتي أنت فما أنا  
بناسيك. واعلم بأنني لا أحمل نحوك رغبة في الانتقام  
أو حتّى الإيذاء، لقد دفنت جميع هذه العواطف  
والانفعالات في الحفرة مع جثتي، حتّى العذاب الذي  
تعانيه حارتنا من ظلم أبيك وأمثاله لا ينعكس الآن في  
صدري غضباً وحنقاً وحقداً وثورة، ولكنّه صورة  
شائهة مرفوضة بقوة الحبّ، ويشكّل رغبة سامية مبرّاة  
من الأوشاب لتغييرها تغييراً كلياً. إنّي أرثي لك يا  
عانوس. لم أرك في هذه الصورة القبيحة من قبل.  
إنّك هيكل عظميّ تسكنه الحنّافيش. الدم المسفوك  
يلطّخ وجهك وجبينك. عينك تقدحان شرّاً وتندلّي  
من أذنيك حيثان. رجال أبيك يسرون خلفك على  
حوافر حمير وبيروءوس غربان يرسفون في أغلال مغروسة  
بالشوك. إنّه ليحزنني أن أكون السبب المباشر لتسويه  
صفحتكم لذلك يغشاني الأسى وتفترق في أشواق  
البهجة...

- ٢ -

من خلال تنهّدة وجد نفسه في مدينة جديدة. تضيء  
بلا شمس مشرقة. مسقوفة بالسحب البيضاء. أرضها  
تنضح بالخضرة على هيئة أزهار وفواكه، تتخلّلها على  
مدى لانهائيّ أكواخ بيضاء كالورود، وثمة جموع  
تتلاقى وتفترق في خفّة الطير. وجد نفسه في بقعة  
خالية. عانى غربة الوافد الجديد. وعلى حين فجأة  
تجلى أمامه رجل يتدنّر بسحابة بيضاء. ابتسم إليه  
وقال:

- أهلاً بك يا رءوف في السماء الأولى!

فهتف رءوف بفرحة متألّفة:

- هي الفردوس؟

- قلت السماء الأولى لا الفردوس...

- إذن فأين الفردوس؟

- بينك وبينها طريق طويل يقطعه سعيد الحظّ في

مئات الألوف من السنين الضوئية!

فندّ عن رءوف صوت كالأنين فقال الرجل:

- دعني أقدم لك نفسي أولاً، محدّثك أبو الذي

كان يوماً كاهن طيبة ذات المائة باب...



- ترحب ببركته!  
فصمت رعوف مغلوبًا على أمره. غاب قليلاً في  
الخضرة اليانعة المزركشة بأكواخ الورود، استسلم  
للملاحة وعذوبة الجوّ، ثمّ تنهّد قائلاً:  
- ما أتعس أن يُجبر الإنسان على هجر هذه الجنّة!  
فهتف به أبو:  
- حذار من الرغبة الأثمة في الهروب من الواجب. . .  
فتساءل رعوف:  
- متى أمثل في ساحة المحاكمة؟  
فأجاب أبو:  
- لقد تمّت المحاكمة!  
فرنا إليه رعوف بدهشة فقال:  
- تمّ الاستجواب ومرافعة الدفاع فيما جرى بيني  
ووينك، وصدر الحكم وهو يقضي بئدبك مرشدًا  
روحياً، تهانٍ!  
- ٣ -  
تقرّر استيقاء رعوف عبد ربّه في الساء الأولى فترة  
قصيرة ليتطهّر من أيّ شائبة، وليؤهل لمهمّته. وبغية  
تدريبه وتنقيفه أبقاه أبو إلى جانبه في الوقت الذي  
يستقبل فيه المرشدين عادة. وقال له رعوف:  
- أودّ أن أرى أدولف هتلر، هل يجيء الآن؟  
- لقد قضي عليه بالإعدام فولد في حارتكم من  
جديد وظالما رأيته!  
- هتلر؟  
- هو المعلّم قدرى الجزار.  
فصمت رعوف ملياً من الدهشة ثمّ تساءل:  
- إذن فمن يكون شيخ الحارة شاعر الدرزي؟  
- لورد بلقورا!  
- والشيخ عاشور الوليّ الكذاب؟  
- إنّه خنفس خائن الثورة العرابيّة. . .  
- أراهم لا يتغيرون ولم يستفيدوا من إعادة  
التجربة. . .  
- ليس الحال كذلك دائماً، أتدري من تكون  
أمك؟  
- إنّها ملاك يا أبو!
- ما هي إلّا ريتا السفاحة المشهورة فانظر كم  
تقدّمت!  
فذهل رعوف وصمت على حين استقبال أبو أوّل  
الوافدين. قال الوافد:  
- إني أبذل أقصى ما أستطيع.  
فقال أبو:  
- أعلم ذلك ولكن يلزمك مضاعفة الجهد فقد آن  
لك أن تصعد!  
ولما اختفى الوافد قال رعوف:  
- إني أعرفه جيّداً. أليس هو أختاتون؟  
- هو عينه، إنّه سيّء الحظّ فطال مقامه هنا آلاف  
السنين. . .  
- ولكنّه أوّل من بشر بالله الأحدا  
- هذا حقّ ولكنّه فرض إلهه على الناس بالقوّة لا  
بالهداية والإقناع فتيسّر لأعدائه من بعده أن ينتزعه من  
القلوب بالقوّة، ولولا صفاء سريره لقضي عليه  
بالإعدام. . .  
- ولمّ طال به المقام هذا الدهر؟  
- لم يوقّف مع أحد يمتنّ نُدب لإرشادهم مثل فرعون  
موسى والحاكم بأمر الله وعبّاس الأوّل. . .  
- ومن رجّله اليوم؟  
- كميل شمعون!  
وجاء الوافد الثاني، قدّم تقريره، تلقى كلمات  
مشجّعة ثمّ اختفى. عند ذلك قال رعوف:  
- إنّه الرئيس ويلسون!  
- أجل.  
- حسبته من القلّة السعيدة التي صعّدت إلى الساء  
الثانية. . .  
- أنت تشير بلا شكّ إلى مبادئه السامية ولكنك  
نسيت أنّه لم يستغلّ قوّة أميركا في تنفيذها، بل إنّه  
اعترف بالحاجة على مصر.  
- ومن رجّله؟  
- الأستاذ توفيق الحكيم!  
ولما اختفى الوافد الثالث قال رعوف:  
- إنّه لينين بلا شكّ. . .  
- نعم.

## الحب فوق هضبة الهرم ٤٣

- يَخِيلُ إِلَيَّ أَنَّ العناء هنا لا يقلّ عن نظيره فوق الأرض؟

فأجاب أبو بأسًا:

- هما عناء واحد متّصل، غير أنّ الإنسان يمارسه ها هنا بقلب أنقى وعقل أذكى وهدف أوضح . . .

- زدني وضوحًا يا أبو.

- أنتم تحلمون في الأرض باليوم الذي تتحقّق فيه المدينة الفاضلة المؤسّسة على حرّيّة الفرد وعدالة المجتمع والتقدّم العلميّ والسيطرة الظافرة على قوى الطبيعة، وفي سبيل ذلك تحاربون وتسالون وتتحدّون القوى المضادة المسماة في اصطلاحاتكم بالرجعيّة، هذا جميل وطيب ولكنّها ليست الهدف كما تتصوّرون، إنّ هو إلّا الخطوة الأولى السديدة في طريق طويل من الرقيّ الروحيّ يبدو حتّى للذين يقيمون في سمانتنا الأولى بلا نهاية . . .

فاستغرق رءوف في التأمل حتّى سأله أبو:

- فيم تفكّر يا رءوف؟

فقال بأسى:

- أفكّر في مدى بشاعة الجريمة اليوميّة التي تراصل اقترافها القوّة المضادة!

- وهي جريمة يشارك فيها الطيّبون بالسلبية والقعود عن الجهاد خوفًا من الموت وما الموت إلّا ما ترى .

- أيّ حياة؟!

- إنّها معركة بلا زيادة ولا نقصان!

وتفكّر رءوف طويلًا حتّى أزهقه التفكير فعاد إلى تشوّفه السابق لمعرفة مصائر الشخصوس الذين يهتمّ بهم فسأل أبو:

- أودّ أن أعرف مصائر زعماء وطني؟

- انتظر حتّى تراهم أو سلّ ما بدا لك .

- ماذا عن السيّد عمر مكرم؟

- إنّهُ اليوم مرشد أنيس منصور .

- وأحمد عزّابي؟

- إنّهُ مرشد لويس عوض .

- ومصطفى كامل؟

- مرشد فتحي رضوان .

- ومحمّد فريد؟

- حسبت أنّ الإعدام كان نصيبه لإلحاده، ماذا قلت دفاعًا عنه؟

- قلت إنّهُ من خلال ثرثرة فكرية غير الأسماء ولم يغيّر الجوهر، سمى إلهه المادّة الأزليّة وأضفى عليها من صفات الله القَدَم والخلق والسيطرة على مصير الكون، وسمّى الرسل بالعلماء، والملائكة بالعمالّ والشياطين بالبرجوازيين، ووعد أيضًا بالجنّة في تحديد أكثر لزمانها ومكانها، ونوّث بقوة إيمانه وبلائته في خدمة الكادحين وروح تضحيته وتقتشفه، وقلت أيضًا إنّ ما يهّم الله سبحانه هو ما يصيب الناس من خير أو شرّ. أما هو - جلّ جلاله - فمستغني عن البشر، لن يزيده إيمانهم ولن ينقص من شأنه كفرهم به . . . هكذا تحقّف الحكم وعيّن مرشدًا روحيًا!

فتساءل رءوف مبهورًا:

- ومن رَجُلُهُ؟

- الأستاذ مصطفى محمود!

- وهل تُدب ستالين مرشدًا أيضًا؟

- كلاً، ستالين أعدم لقتله الملايين من الكادحين

بدلاً من أن يعلمهم ويدرّهم!

- لعلّه يعيش اليوم في حارتنا؟

- كلاً، إنّهُ يعمل في أحد مناجم الهند . . .

بانتهاه استقبال لينين فرغ أبو من مقابلات

الساعة، استصحب رءوف لنزهة في الساء الأولى .

لدى تفكيرهما في النزهة انطلقا مباشرة، استجابة

للرغبة الداخليّة، بلا حاجة إلى استئصال القدمين،

كطائرّين، ثمّلين بنشوة باطنيّة انعكاسًا لمفاتيح الحركة

المنسابة في يسر وعدوية. غاصا في جوّ فضيّ ذي أرضيّة

خضراء مزركشة وساء مضيئة بألق السحاب

البيضاء. مرّا بوجوه كثيرة تمثّل شتى الأجناس

والألوان، منهمكين في الظهور والاختفاء ما بين الساء

الأولى والأرض. كلُّ مستغرق في مهمّته الرفيعة.

يستهدفون للأرض وأهلها رقيًا ونصرًا، يأملون من

ورائها تكفيرًا وتطهيرًا لأنفسهم ليواصلوا صعودهم في

مراقي الروح والإبداع والقرب من الحقيقة العظمى .

يعملون بإصرار، تدفعهم الأشواق الحارّة اللانهاية إلى

الكمال والحقّ والخلود. قال رءوف:

شبه بينه وبين هتلر في ملامحه، لكنّ جسمه ترهّل من  
مَصّ دماء البشر. ها هو لورد بلفور، أو شاكر  
الدرزي شيخ الحارة، الذي أهدر القانون تحت قدمي  
الجزّار، وها هو الوليّ الماكر عاشور الذي يستلهم  
الغيب لتأييد سيّده ومولاه. لك الله يا حارتنا. كيف  
ومتى تمرقين من هذه الأغلال المحكّمة؟ ويبدو أنّ  
اختفائه - رءوف - قد حرّك ألسنة الحارة وقلوبها.

النسوة يحطن بأّمه الباكية:

- هذا ثالث يوم يمرّ على اختفائه...  
- بلّغي القسم يا أمّ رءوف...  
- بلّغت عمّ شاكر الدرزي شيخ الحارة...  
ويجيء صوت شيخ الحارة منهكًا:  
- الأعيب شباب هذه الأيام!  
فهتفت الأمّ الباكية:

- ابني لم يغب ليلة واحدة بعيدًا عن بيته...  
وها هي رشيدة راجعة من معهدها. جمال وجهها  
الأسمر مكّس بالكآبة. أمّها تقول لها:  
- اعتني بنفسك فالصحة لا تعوّض!  
فتقول وهي تحنّق بالبكاء:  
- إني أعرف، قلبي لا يكذبني...

رنا إليها رءوف بإشفاق. صدقت يا رشيدة. قلب  
المحبّ جهاز استقبال دقيق. ولكننا سنلتقي ذات يوم.  
الحبّ خالد يا رشيدة وليس كما يتوهم البعض. وها  
هو القاتل ينظر راجعًا من الجامعة. تمسك بيد كتابًا  
وتقتل بالأخرى. إني لا أغيب عن ذهنك ولكنك لا  
تدري بأنني انتدبت مرشدًا لك. هل تطيعني اليوم أو  
تمضي في غيبك؟ كلّ شيء يدعو للطمانينة يا عانوس.  
أبوك يلقي ظلّه على الجميع. الحكومة والولاية ملك  
يمينه. تحت أمرك أيّ شهادة زور تحتاج إليها، ولكنّ  
صورتني لا تبرح مخيلتك. لمّ لا، ألسنا صديقين ضرب  
بمودّتها المثل؟ ثمّ إنك ما زلت شاديًا في الإجمام. لم  
تتمرّس به كوالدك، ومن خلال ثقافتك تعلّمت أو على  
الأقلّ سمعت عن أشياء جميلة. أحلم بأنك ستظفر  
بقلب رشيدة نتيجة لتلك الجريمة؟ ما هذا الذي قتله  
ودفته في الخلاء؟ لا يعنيني أمره بأكثر مما يعنيك. إني  
رفيقك الأبديّ كما سترى. اعترف يا عانوس، اعترف

- مرشد عثمان أحمد عثمان.  
- وسعد زغلول؟  
- هو وحده الذي صعد إلى السماء الثانية!  
- بسبب تضحياته؟  
فابتسم أبو قائلاً:  
- بسبب انتصاره على ضعفه البشريّ!  
- زدني إيضاحًا يا أبو.  
- لعلّك تعلم بأنّه عانى هفوات الطموح قبل الثورة  
ثمّ سما عقب الثورة إلى رؤية رفيعة من الشجاعة  
والفداء فاستحقّق البراءة...  
- ومصطفى النحاس؟  
- كان مرشد أنور السادات وعقب ٦ أكتوبر وعودة  
الحرّيّة صعد إلى السماء الثانية...  
- وجمال عبد الناصر؟  
- إنّه اليوم مرشد القذافي...  
\* \* \*

في نهاية التدريب القصيرة قال أبو لرءوف:  
- كُنْ مرشدًا روحياً لقاتلك عانوس قدرني  
الجزّار...

فامتثل رءوف الأمر بحماس وعزيمة فقال أبو:  
- اعتمد في الإيجاء على فكرك وإنّه لقوّة عظيمة إذا  
أحسنست استخدامها، واستعين عند الضرورة  
بالأحلام، والله معك.

- ٤ -

هبط رءوف عبد ربّه إلى الحارة. يرى ويسمع على  
السرائر على حين لا يرى له طيف ولا يُسمع له  
صوت. ينتقل من مكان إلى مكان كالنسمة المنسابة،  
في حارته المحبوبة بصورتها المتكاملة الثابتة، وأناسها  
المنهمكين في شئون الحياة، إنّه يملك كافّة ذكرياته،  
وضمنها آماله وآلامه السابقة، ويتمتّع بصفاء ذهن مثل  
الضيء الساطع. عشرات وعشرات من الكادحين  
والكادحات يعملون بأعين خاوية وسواعد مفتولة.  
الضحكات تطفو فوق الشتائم كالزبد المتألّق الممزوج  
بالحموضة. ها هو المعلّم قدرني الجزّار في وكالته، لا

## الحب فوق هضبة الهرم ٤٥

- إذن لماذا هم مستسلمون؟  
 - يا لك من مخطئ، إنك أحد أبناء عصر الثورات!

في تلك اللحظة هبط عصفور أخضر في حجم تفاحة حتى حط على منكب أبو. قرب منقاره الوردية من أذن أبو فبدا هذا منصتا، ثم طار مدوماً في الفضاء حتى توارى خلف السحاب البيض. ورأى أبو نظرة التشوف في عيني رءوف فقال:

- إنه رسول السماء الثانية جاءني ببراءة الصعود للمدعو شعبان المنوفي.

- ومن شعبان المنوفي؟  
 - جندي مصري استشهد في المورة على عهد عمّد علي، وهو مرشد لمهزّب نقود يدعى مروان الأحدي فنجح أخيراً في حمله على الانتحار...  
 وجاء شعبان المنوفي مشمولاً بثوبه السحابي، فقال له أبو:

- ستصعد مجللاً بالبركات إلى السماء الثانية! وهرع إلينا جميع المرشدين كالحمام الأبيض حتى ازدحم بهم المكان الأخضر، وقف شعبان بينهم متهلل الوجه. وعزفت موسيقى بلحن ساوي، وقال أبو:

- اصعد يا وردة المدينة الخضراء واصل جهادك القدسي...  
 فقال شعبان المنوفي بصوت عذب:  
 - طوبى لمن يقدم خدمة لأرض العناء...  
 ومضى يصعد بخفة الشذا الرشيق والموسيقى تعزف لحن الوداع البهيج.

- ٥ -

ها هو عانوس قدرى الجزار يقف أمام ضابط الباحث. الضابط يسأله:

- متى رأيت رءوف عبد ربّه آخر مرّة؟  
 - عصر اليوم الذي اختفى فيه، زارني في البيت، سرعان ما غادرني لمشوار هامّ واعدًا بمقابلتي مساءً في القهوة...  
 - هل أخبر شيئاً عن مشواره؟  
 - كلاً...

بجريمتك، اعترف والحق بي فسيكون لك دور أفضل. ها هي أمي التعيسة تعترض سبيلك:  
 - يا سي عانوس... أليس عندك خبر عن صديقك؟

- أبداً والله...  
 - قال وهو يودّعي إنه ذاهب إليك...  
 - تقابلنا دقائق ثم أخبرني أنه ذاهب إلى مشوار هامّ وأتانا سنلقتي مساء اليوم في القهوة...  
 - ولكنّه لم يرجع...  
 - ألم أزرّك سائلاً عنه؟  
 - حصل يا ابني ولكنني أكاد أجنّ...  
 - وإني مثلك في القلق...

صدقت يا عانوس. إني أرى القلق في روحك مثل النمش في الوجه. ولكنك قاسٍ وخبيث، إنك من القوى المضادة يا عانوس ألا تدرك خطورة ذلك؟ إننا نشكو طول الطريق الأبيض فما بالك وأنت تنحدر في الطريق الأسود؟ إني ملازمك. إذا لم تتدوّق هذه الدجاجة المحمّرة فالذنب ذنبك، إذا لم تستطع أن تركز ذهنك في كتابك فالذنب أيضاً ذنبك. لن أنحلي عنك فلا تبدّد تعبي هباء، واسهد طويلاً فلن يدرك النوم قبل الفجر.

وكما صعد رءوف إلى السماء الأولى وجد أبو منهمكاً في حديث مع أخناتون، وكان أخناتون يقول:  
 - كلّمنا قلت له يمينك أخذ يساره!  
 فقال له أبو:  
 - استعمل قواك كما يجب.  
 - ينقصنا استغلال القوة المادّية...  
 فهتف أبو:

- ألا ترغب في الصعود؟ المسألة أنك لم تعتد المناقشة والإقناع ولكنك ألفت إصدار الأوامر...  
 والتفت أبو إلى رءوف وتساءل:  
 - كيف الحال عندك؟  
 - بداية حسنة.  
 - عظيم!  
 - ولكنني أتساءل ليس لكل فرد من العامة مرشده؟  
 - طبعاً.

## ٤٦ الحب فوق هضبة الهرم

ألا تزال صورة رشيدة ترتسم في مخيلتك؟ هذا هو  
الجنون عينه. ثم إنك تدرك أنّ التحريبات ستجري  
عنك مثل الطوفان. شيخ الحارة يقرّر ذلك أيضًا.  
الغيب ينذر بمفاجآت مجهولة. إنك تفكر في ذلك كلّ  
وتفكر أيضًا في رشيدة يا أحمق! لذلك قال رءوف  
لأبو:

- الخوف من الموت أكبر لعنة سلّطت على البشر.  
فتساءل أبو بأسًا:

- ألم يكن ذلك خليقًا بأن يمنعه من ارتكاب  
جريمته؟

ولزم رءوف الصمت فقال أبو:

- لقد انتدبت مرشدًا لا فيلسوفًا فتذكر ذلك...

- ٦ -

إنك تتساءل يا عانوس لم يستدعيك الضابط ثانية،  
حسن، الأمور لا تنتهي بالبساطة التي يتصورها أبوك.  
ها هو الضابط يسأل:

- ماذا تعرف عن حياة رءوف الشخصية؟

- لا شيء فيها يستحق الذكر.

- حقًا؟... وماذا عن حبه لرشيدة الطالبة بمعهد

الفنون الطرزية؟

- كلّ شاب لا يخلو من علاقة كهذه!

- ألك أنت مثلًا علاقة مثلها؟

- هذه شئون خاصّة ولا شأن لها بالتحقيق!

- أتظنّ ذلك؟... حتى إذا كنت تحبّ الفنّانة

نفسها؟

- المسألة تحتاج لإيضاح...

- طيب!... ما هو؟

- كاشفته مرّة بأنّي أرغب في خطبة رشيدة

فصارحني بأنّها متحابّان وفي الحال اعتذرت واعتبرت

الأمر منتهيًا!

- ولكنّ الحبّ لا ينتهي بكلمة...

- كانت مجرد عاطفة عابرة... لا أدري ماذا

تقصّد؟

- إني أجمع معلومات، وأتساءل ترى ألم تتغير

عواطفك نحو صديقك ولو قليلًا؟

- ألم تسأله عنه؟

- كلاً... حسبته أمر يتعلّق بالأسرة...

- رآكها البعض وأنتما تسيران معًا في الحارة عقب

الزيارة؟

\*\*\*

لا تضطرب. الأفضل أن تعترف. فرصتك الذهبية

لو تعلم!

\*\*\*

- أوصلته حتى خارج البوّابة...

- إذن ذهب إلى الخلاء؟

\*\*\*

هذه فلتة لسان يا عانوس. ما أكثر الفلتات! لن

ينجيك إلا الصدق.

\*\*\*

- نعم.

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- قصدت القهوة لأنظّره...

- حتى متى بقيت فيها؟

- حتى قبيل منتصف الليل ثم رجعت إلى بيتي.

- تستطيع أن تثبت ذلك؟

- كان يجلس بالقرب مني طوال الوقت عمّ شاكر

الدرزي شيخ الحارة... وفي الصباح الباكر ذهبت إلى

مسكنه وسألت والدته عنه فأخبرتني بأنّه لم يعد!

- ماذا فعلت؟

- سألت عنه جميع الأصدقاء والمعارف في

الحارة...

- ألك تصوّر خاصّ عن اختفائه الطويل؟

- كلاً، إنّه شيء محير حقًا...

\*\*\*

ها أنت تنصرف من القسم يا عانوس. إنك

تستعيد كلّ كلمة قيلت. تندم على ذكر البوّابة.

تتساءل عمّن شهد مسيركما معًا. كأنك تفكر في مزيد

من الشرّ. وتعيد على مسامع أبوك ما جرى من حوار.

إنّه مطمئن جدًا. في جيبه تستقرّ النقود والقانون

والشهود. جرم محترف. أنصحك للمرّة الثانية أن

تواجه جريمتك بشجاعة وتصفّي حسابك. ثم ما هذا؟

## الحب فوق هضبة الهرم ٤٧

- هذا ما قدرته، وقد قرّرت أن أجري مواجهة بينك وبين رجال المقهى!

\*\*\*

انتظر ولا تضطرب. إنك عنيد، هذه هي الحقيقة. لا تريد أن تستجيب لمناجاتي. ثق في أنني أعمل لصالحك يا تيس... .

\*\*\*

وتمت المواجهة فشهد صاحب المقهى وصبيه أنها لم يريا عانوس منذ أكثر من شهر. لم يتجلّ الاقتناع الكامل على وجه الضابط. ورمق عانوس بنظرة صارمة وتمتم:

- تفضّل بالانصراف!

\*\*\*

تغادر القسم وعلى شفتك ابتسامة النصر. لك الحق في ذلك. أبوك أحكم خطوط الدفاع من حولك ولكن هل ينتهي الأمر عند هذا الحد؟ قلبك ينقبض وأنت تمر أمام مسكن ضحيتك. تساورك المواجس مرة أخرى. من المجهول الذي أرسل الخطاب؟ وهل يكون آخر خطاب من نوعه؟ إنك قاتل يا عانوس وضميرك لا يريد أن يستيقظ. لأزورنك الليلة في المنام. ما دمت لا تستجيب إلى ندائي الخفي فستجد جثتي مطروحة إلى جانبك فوق الفراش. ها هو شخيرك يعلو تحت وطأة الكابوس. وتستيقظ فزعاً بقلب ثقيل. وتنزلق من الفراش لتبل ريقك بجرعة ماء. ولكنك ستجد الجثة حال استغراقك في النوم، ويتكرّر الحلم ليلة بعد أخرى. تدعو أمك الشيخ عاشور لفحص حالك فيهبك حجاباً لتضعه فوق قلبك ولكن الجثة لا ترح منامك. وتسوء حالك فتذهب سراً إلى الطبيب النفسي. تتردد عليه أسبوعاً بعد أسبوع. يقول لك قولاً عجيباً. إنك تتصوّر أن صديقك قد قُتل، وإن جثته هي جثتك أنت للارتباط العاطفي بينكما، عاطفة واحدة ربطت بينكما فجثته هي البديل عن جثتك، ولكن لماذا تتصوّر أنك أنت القاتل؟ جثتك بدورها بديل عن جثة أخرى أو بديل عن شخص آخر تود أن تقتله في أعماقك وهو أبوك، وعليه فالهلم كلّه انعكاس لعقدة أوديب! ما معنى

- كلاً... عاطفتي لرشيده كانت عابرة أما صداقتنا فكانت صداقة العمر!

- تقول كانت؟... هل انتهت؟

فقال عانوس بضيق:

- أقصد أنها صداقة العمر.

\*\*\*

تساءل ترى هل جرى تحقيق مع رشيده؟... وبم اعترفت؟ حسن إنّي أقول لك إن التحقيق جرى، وإنها اعترفت بمحاولاتك في انتزاعها من قلب صديقك، كما اعترفت بسطوة أبوك وخوفها على نفسها وعلى أمها. أوكد لك أنّ الأمور تمضي في غير صالحك.

\*\*\*

فضحك الضابط وقال:

- تتكلم كما لو كنت يشت من رجوع صديقك!

- إنّي واثق من رجوعه، بهذا يحدثني قلبي... .

- قلب المؤمن دليله، وإنّي لأرجو ذلك أيضاً!

\*\*\*

تخرج هذه المرة من القسم وأنت أشد اضطراباً من المرة الأولى. أظنك شعرت تماماً بأن الضابط الماكر يشك فيك يا عانوس. لا تتصوّر أنّ أبك قادر على كل شيء. هتار نفسه ألم ينهزم ويتحرق!

- ٧ -

الضابط يستدعيك للمرة الثالثة يا عانوس. أعصابك بدأت تتمزق. أبوك يرمق شاكر الدرزي بغضب ولكن ماذا بوسعه أن يفعل؟! قف أمام معذبك الضابط واسمع:

- يا عانوس، تلقينا رسالة من مجهول يتهمك بقتل صديقك رءوف!

وهتف بغضب مفتعل:

- تهمة حقيرة... ليكشف عن وجهه... .

- صبرك، نحن نقدر الأمور بميزان دقيق، أنت

وصاحبك ألم تكونا تذهبا كثيراً خارج البوابة للسهر؟

- بلى... .

- أين كنتما تقضيان الوقت في ذلك الخلاء؟

- في مقهى الشرفا فوق الهضبة... .



عند ذاك خرجت عن صمتها قائلة :

- لم يُفقد ولكنّه قُتل!

- ماذا؟!

- كثيرون يؤمنون بذلك؟!

- ولكنّه لم يكن له عدوّ واحد؟!

فرمته بنظرة ازدراء ولاذت بالصمت.

\*\*\*

إنّها تتهمك يا عانوس بقتله. أكنت في شكّ من ذلك؟ تستطيع أن تمحو الجريمة من صفحتك بيعت نفسك والوقوف في وجه أبيك. لقد فات أوان الحبّ.

\*\*\*

غادرت الترام قبله فأتبعها نظرة مليئة بالحقد والرغبة. ودهمت مخيلته أحلام طائشة مفعمة بالعنف والشهوة...

- ٩ -

وقالت أمّ رشيدة لأمّ رءوف:

- الجميع يتكلمون عن ذلك الرجل العجيب الذي يحضّر الأرواح فلم لا تجرّبينه علمًا بأنّه لن يكلفك مليًا واحدًا؟!

فرت إليها الثكلى حائرة ثمّ تمتت:

- وتذهبين معي!

- لمّ لا؟... سأتصل بالمرحوم أبي رشيدة!

وقالت رشيدة وهي تتابع الحديث باهتمام:

- أناس محترمون كثيرون يؤمنون بتحضير الأرواح...

وتواعدن على يوم في تكتمّ شديد، وقال رءوف لأبو متهللاً:

- هي فرصتي لكشف الستار عن المجرم...

فقال أبو:

- أنت متدبّ مرشدًا له لا عليه!

- أنترك هذه الفرصة تفلت من أيدينا؟

- لست مرشد شرطة يا رءوف، إنك مرشد روحيّ

وهدفك أن تنقذ عانوس لا أن تسلمه للجلاذ...

- ولكنّه مثل الصخر لا تؤثّر فيه نسائم

الحكمة...

هذا؟ أنا ما زرتك في الحلم إلا تذكرة لجرمك بغية

إيقاظ ضميرك ليكفر عن فعلك فما دخل عقدة

أوديبي؟ إنك لا تعشق أمك ولا تودّ قتل أبيك ولكنك

تعشق رشيدة وقتلتني أنا لتزيجني من طريقك!

وشكا رءوف أمره إلى أبو فقال أبو:

- الشكوى من التشخيص العلميّ الناقص كثيرة،

حساسية من الإحباط تشخص كمرض ناشئ عن تناول

الشيكولاتة، كآبة من فقدان الإيمان يعالج بسببها

العصب السمبثاويّ، إمساك شديد بسبب الوضع

السياسيّ توصف له المليّات وهلمّ جرّاً!

- والعمل يا أبو؟

- هل أدركك اليأس؟

فبادره رءوف:

- كلّاً...

- استثمر ما لديك من قوّة!

- ٨ -

حُفظت قضية رءوف عبد ربّه لعدم الاهتمام إلى

أسباب اختفائه. تلاشى الحادث رويدًا رويدًا من

الأذهان، لم تعد تذكره إلا أمّه ورشيدة. ومضى

عانوس يمارس حياته اليوميّة مستغرقًا بالعمل واللّهو.

كان الماضي يطارده من حين إلى حين سواء في اليقظة

أو في المنام ولكنّه ألف مناوشاته وغالبها بالإرادة

والمخدر والنوم. وأمن جانب القانون تمامًا فراح يفكر

من جديد في رشيدة وإلا فما معنى إقدامه على أفضع

فعل في حياته؟! كان يتعمّد رؤيتها وأن يُريها نفسه كلّ

صباح وهما ذاهبان إلى معهديهما. ما زال وجهها

مكتسبًا بكآبة الذكرى فهل لم تفقد الأمل بعد؟ وألا

تفكر يومًا في مستقبلها كفتاة تنشد الحياة والسعادة

والإنجاب؟! وهل تطمح إلى من هو أصلح لها منه في

الحارة كلّها؟! لقد ضاعفت مغامرته الجنونيّة من تعلّق

بها ورغبته الثابتة في الاستحواذ عليها. ومرة تصادف

مجلسه لصقها في الترام فحيّاها ولكنّها تجاهلته فقال:

- كان يجب أن نتبادل المساعدة...

فقطبت نافرة ولكنّه واصل حديثه:

- فكلانا يعاني فقد عزيز مشترك!

### الحب فوق هضبة الهرم ٤٩

رعوف أن ارجع ولا تتقدم خطوة واحدة، ولكنّه هجم على رشيدة وكنم الصوت في فيها براحتة وهو يقول:

- ستجرين بعد ذلك ورائي يا عنيده...  
وشرع بوحشية في اغتصابها وهي تقاوم بعنف يائس. وصرخ:  
- سأغتصبك حية أو ميتة...

وتسلّلت يدها إلى المقصّ فوق الخوان وبقوة جنونية وهي مهتصرة تحت ثقله رشقته في جانب رقبته. شدّ عليها بقسوة ووحشية ثمّ تراخت قوّته فانطرح فوقها جسده بلا حراك وتدقّق الدم الحارّ على وجهها وصدرها الممزّق...

دفعته عنها فاستلقى فوق الكليم المتهرئ وجرت مترنحة نحو النافذة وهي تصرخ بأعلى صوت...

- ١١ -

هرع الناس إلى الشقّة فوجدوها كالمجنونة مخضبة بالدماء. رأوا جثة عانوس فارتفع الصراخ. صاحت وهي تتكور على نفسها:

- أراد أن يغتصبني...  
ولولا وصول الضابط وشيخ الحارة قبل أن يتناهي الخبر إلى المعلّم قدري الجزار لفتك بها. وكان يزار:  
- ابني... وحيدي... ساحرق الدنيا...  
وأحاطت القوّة برشيدة وصاح الضابط:  
- الجميع يخرجون في الحال...  
وصاح قدري موجّهاً عاصفته إلى رشيدة:  
- سأشرب من دمك...  
وانتشرت نيران الخبر الدامي في الحارة...

- ١٢ -

وقف عانوس يرنو إلى جثته وهو في حيرة غاشية. تقدّم رعوف منه باسماً فنظر إليه الآخر وتمتم:  
- رعوف!... ماذا جاء بك؟  
فأجابه برقة:  
- جاء بي الذي جاء بك، هلمّ معي بعيداً عن هذه الحجرة...  
فأشار إلى جثته وقال:

- إنه اعتراف بالعجز...

فهتف رعوف:

- كلاً... لم أقنط بعد... ولكن ماذا عليّ أن أفعل إذا استدعيت روحي؟  
- أنت حرّ فلا تقيد حرّيتك بالإلحاح في الاسترشاد...

وانعقدت جلسة التحضير وشهدتها أمّ رعوف وأمّ رشيدة ورشيدة. واستدعت روح رعوف فحلّ في ظلمة الحجر وقال لأمه بصوت سمعه جميع الحاضرين:

- رعوف يحنّيك يا أمّي...  
فشهقت المرأة لتوكّدها من موت ابنها وتساءلت:  
- ماذا حدث لك يا رعوف؟...  
فقال رعوف بلا تردّد:  
- لا تحزني، أنا سعيد، لا يزعجني إلاّ حزنك، تحيّيّاتي إلى رشيدة...

وسرعان ما غادر الحجر...

- ١٠ -

ورجعت أمّ رعوف وأمّ رشيدة ورشيدة وهنّ يتسألن:

- لمّ لمّ يبيع بسرّ مقتله؟  
فقال أمّ رعوف وهي تحفّف دمعها:  
- ولكنّه انعدم في عزّ شبابه...  
فقال رشيدة:  
- لا تزعجيه بالحزن...  
وقالت أمّ رشيدة:  
- من يدري لعلّه مات في حادث...  
- ولمّ لمّ يخبرنا بحقيقة موته؟  
- إنه سرّه على أيّ حال!

وأصبح شهود الجلسات هواية أمّ رعوف، وسلواها الوحيدة في الدنيا. وكانت تصحب أمّ رشيدة ورشيدة معها، وعندما جاءت الأيام الأخيرة السابقة لامتحان رشيدة تخلّفت عن الذهاب معها...

وفي ليلة من تلك الليالي وكانت بمفردها بالشقّة وهي تذاكر إذ اقتحم الحجر عليها عانوس قدري الجزار. تسلّل من المنور ثمّ اقتحم الحجر. وهتف به

## ٥٠ الحب فوق هضبة الهرم

- وأترك هذه؟  
- هي ثوبك القديم ولم يعد يصلح للاستعمال!  
- هل... هل... هل...؟  
- أجل... لقد غادرت الدنيا يا عانوس...  
وصمت ملياً ثم قال مشيراً إلى رشيدة:  
- ولكتها بريئة...  
- أعرف ذلك، ولكتك لن تستطيع إسعافها...  
هلمّ معي... فقال عانوس بعد تردّد:  
- آسف على ما اقترفته فيك!  
- لا أهميّة للأسف...  
- إنّي سعيد بلقائك...  
- وإنّي سعيد بلقائك...  
- أجمع...  
- أليست مسئوليّة فوق طاقة البشر؟  
- ولكتك تحمّلتها مقابل ظفرك بالحياة.  
- لقد وُلدت بغير إرادة منّي.  
- بل أخذ عليك العهد وأنت في الرحم...  
- بالصدق والصراحة لا أذكر ذلك...  
- كان عليك أن تتذكّره...  
- إنّها محاكمة لا دفاع...  
- علينا أن نكشف عن الحقيقة!  
- لم أخل من خير فقد طلبت العلم كما أنّي أحببت  
حباً صادقاً.  
- سعيت إلى العلم كوسيلة إلى مركز مرموق، وكان  
حبك مجرد رغبة متعجرفة في امتلاك فتاة صديقك  
الفقير...  
- لم تكن تفارق خيالي لحظة واحدة...  
- لم تكن إلّا كبرياء وشهوة...  
فقال عانوس متعلّقاً بأيّ خيط وهو يشير نحو  
رءوف:  
- مارست الصداقة الصافية...  
- ألم تقتلها بعد ذلك بوحشية؟  
- كان حزني قاسياً...  
- لا غبار على ذلك...  
- وحيّ للقسط وحنويّ عليها؟  
- هذا جميل أيضاً.  
وبعد صمت قليل عاد أبو يتساءل:

## - ١٣ -

- وسرعان ما أعطاه فكرة سريعة عن دنياه الجديدة.  
ولما جاء أبو قال رءوف:  
- أبو، محاميك يا عانوس...  
فقال أبو مخاطباً عانوس:  
- أهلاً بك يا عانوس في الساء الأولى...  
فتساءل عانوس بذهول:  
- كتبت لي الجئة؟  
فابتسم أبو وقال:  
- صبرك، الطريق أطول ممّا تتصوّر...  
ومضى أبو يزوده بالمعلومات الضرورية عن عالمه  
الجديد، والمحاكمة، ونوعية الأحكام المتوقعة. وتمثّلت  
لعانوس أفعاله أشباحاً قبيحة مفزعة فتجهّم وجهه  
وتجرّع القنوط حتّى الثمالة، غير أنّ أبو قال:  
- على أيّ حال فإنّ مهمّتي هي الدفاع عنك...  
- وهل لديك فرصة لذلك؟... هل يخفّف من  
آثامي حرمانى من الحياة وأنا في عزّ الشباب؟  
- لقد خسرتها بيد فتاة وهي تدفع عن شرفها  
اغتيابك، ثم تركتها متّهمة بقتلك...  
- هذا صحيح، كم أتمنّى أن أندب مرشداً روحياً  
لها  
- كانت ناجحة كما كان مرشدها ناجحاً فليست  
هي في حاجة إليك...  
- أجمع...  
- أليست مسئوليّة فوق طاقة البشر؟  
- ولكتك تحمّلتها مقابل ظفرك بالحياة.  
- لقد وُلدت بغير إرادة منّي.  
- بل أخذ عليك العهد وأنت في الرحم...  
- بالصدق والصراحة لا أذكر ذلك...  
- كان عليك أن تتذكّره...  
- إنّها محاكمة لا دفاع...  
- علينا أن نكشف عن الحقيقة!  
- لم أخل من خير فقد طلبت العلم كما أنّي أحببت  
حباً صادقاً.  
- سعيت إلى العلم كوسيلة إلى مركز مرموق، وكان  
حبك مجرد رغبة متعجرفة في امتلاك فتاة صديقك  
الفقير...  
- لم تكن تفارق خيالي لحظة واحدة...  
- لم تكن إلّا كبرياء وشهوة...  
فقال عانوس متعلّقاً بأيّ خيط وهو يشير نحو  
رءوف:  
- مارست الصداقة الصافية...  
- ألم تقتلها بعد ذلك بوحشية؟  
- كان حزني قاسياً...  
- لا غبار على ذلك...  
- وحيّ للقسط وحنويّ عليها؟  
- هذا جميل أيضاً.  
وبعد صمت قليل عاد أبو يتساءل:

## الحب فوق هضبة الهرم ٥١

- أبوه كان المشكلة، لو حرّضته على أبيه لأصبت أكبر الأهداف!  
فلاذ رعوف بالصمت محزوناً فواصل الآخر حديثه:  
- لم تحسن اختيار الهدف، غلبتك الأنانية وأنت لا تدري، ولم يكن يسيراً أن يعترف شابٌ أحق مدلل ليضحّي بحياته، كان الأيسر أن يتمرد على وحشية أبيه، ولو نجح في مهمته لانفضح أمر جرائم أبيه متضمنة جريمة قتلك...  
فقال رعوف مسلماً:  
- أعلني بالحكم...  
فقال أبو:  
- يؤسفني يا رعوف أن أبلغك بأنه قضي عليك بالإعدام...  
وسرعان ما تلاشى رعوف عبد ربه...

- ١٤ -

جری تحقیق طويل مع رشيدة سليمان، قدّمت للمحاكمة، اقتنعت المحكمة بأنها ارتكبت جريمتها دفاعاً عن النفس فأصدرت حكمها بالبراءة. وجدت أنّها أنّ من الخطر غير المأمون العواقب البقاء في الحارة تحت رحمة المعلم قدرى الجزّار فهربت مع ابنتها بليل ولم يستدلّ لها على مكان.  
ولما كان تيار الحياة المتدفق أبداً يجرف زبد الأحزان فقد تزوّجت أم رعوف الوحيدة الفقيرة من شاعر الدرزي شيخ الحارة عقب وفاة زوجته بنصف عام، وأنجبت له طفلاً ذكراً أسمته رعوف تخليداً للذكرى فقيدها. ولم يكن رعوف الجديد إلا روح عانوس بن قدرى الجزّار قد لبست جسماً جديداً. كذلك أنجبت إحدى زوجات قدرى الجزّار طفلاً ذكراً أسماه الرجل عانوس تحيةً للذكرى فقيده ولم يكن سوى روح رعوف تقمّصت جسداً جديداً.

- ١٥ -

نشأ رعوف (عانوس) في بيت شاعر الدرزي الحافل بالإخوة والأخوات، في حياة ميسورة بفضل النقود التي يرشوه بها قدرى الجزّار. ولكنّ شيخ الحارة لم يكن

- وماذا عن موقفك من جبروت أبيك...؟  
- كنت ابناً باراً!  
- البرّ لم يكن مطلوباً في حالك...  
- طالما استفظمت بعض فعالة...  
- وطالما أعجبت بأفعال أخرى لا تقل عن الأولى في بشاعتها...  
- لو مدّ في عمري لتغيّر الأمر...  
- إنك تحاكم على ما كان...  
- أو أن أعطى فرصة أخرى.  
فقال أبو بغموض:  
- ربّما تهيأ لك ذلك...  
- متى أمثل أمام المحكمة؟  
- لقد تمّت المحاكمة يا عانوس ويؤسفني أن أبلغك بأنه قضي عليك بالإعدام...  
في الحال تلاشى عانوس كنفحة الشابورة. تحت ضوء الشمس. ونظر رعوف إلى أبو متسائلاً:

- هل أستمّر مرشداً له؟  
- إنّه لن يولد من جديد فوق الأرض قبل عام على الأقل وقد ينتظر أكثر من ذلك...  
- وما عسى أن يكون عملي الجديد؟  
فقال أبو بأسى:  
- ستتقدّم إلى المحكمة من جديد.  
فهتف رعوف:  
- ألم أبلد أقصى ما لديّ من جهد؟  
- بل ولكنّك فشلت وقد أعدم رجلك كما رأيت...  
- العبرة بالعمل لا بالنتيجة.  
- العبرة بالعمل والنتيجة معاً، ثم إنك أخطأت خطأً فاحشاً...  
- ما هو يا أبو؟  
- لم يكن لك إلا أن تحمله على الاعتراف بجريمة قتلك كأنّها الجريمة الوحيدة في الحارة أو كأنّها أكبر الجرائم!

- ألم تكن مشكلته الأولى؟  
- كلا.  
- فماذا كانت مشكلته؟

## ٥٢ الحب فوق هضبة الهرم

- إنهم أعداؤك...  
فقال باسمًا:  
- إنهم أصدقائي...  
فهتف الأب بغضب:  
- إذا تجاوزت حدك فستجدني شخصًا آخر لا يعرف الرحمة...  
وقال قدرى الجزار لنفسه إن ابنه سيصير عمًا قليل ضابطًا، سيعقل ويعرف موضع قدمه، ثم يتزوج وتنتهي مشكلاته.  
وتخرج عانوس ضابطًا، وعين في قسم الحي بفضل أبيه وسعيه عند الكبراء.

- ١٦ -

إنه الزمن الذي جعل من رءوف وعانوس شخصين غير متوقعين. اكتسح الحارة تيار، بل تيارات جديدة، متمردة وأحيانًا ثائرة. لذلك مرقا من جو البيت الخانق واستعار كل منها لنفسه شخصية جديدة. ولم يشعر أحد بخطورة عانوس قبل أن يصير ضابطًا. أجل وقعت مشاغبات متباعدة بينه وبين أبيه ولكن الأب توقع أن يتغير كل شيء لصالحه حال اندماج ابنه في حياته الرسمية، أما رءوف فسرعان ما غضب عليه معلمه رشاد الدبش، فلطمه على وجهه وصاح به:  
- احرص على رزقك ولا تحرض أقرانك على الفساد...

ولولا منزلة أبيه - شاعر الدرزي - كشيخ حارة لفصله من عمله ولكن شكاه إليه فدهش الرجل لهذا العصيان الجديد في نوعه وأدبه بعلقة ساخنة. ولما أنس منه عنادًا استعان بحضرة الضابط عليه، قال له:  
- يا فندم هدده بالقانون فهذا خير من أن نضطر إلى القبض عليه غدًا...

هكذا مثل رءوف أمام صديقه القديم عانوس. تبادل النظر طويلًا. ثم ذكرىات مشتركة أفعمت «جوهما» بالدفء. ابتسم عانوس وسأله:  
- كيف حالك يا رءوف؟  
فأجاب رءوف:  
- قطران، بعيد عنك...

يعنى بتربية أولاده، زواج البنات، أما الصبيان فلم يجاوز أحدهم مرحلة الكتاب في تعليمه، فعملوا في شتى الحرف سواء في الحارة أو خارجها، ولم يكن حظ رءوف أسعد من إخوته. في البدء أصرت أمه على أن ينجح في التعليم، وأن يعيد سيرة أخيه الفقيد، وبسبب من إصرارها تعرضت لجزر شديد من زوجها. وسرعان ما ألحق ابنه عاملاً صغيراً في الطابونة، وفرح رءوف بذلك إذ لم يجد من نفسه الميل الصادق أو العزيمة المتؤبة لطلب العلم. وبتقدمه في العمر مضى يدرك الوضع في حارته، سطوة المعلم قدرى الجزار، والدور الخسيس الذي يلعبه أبوه، والحياة الفقيرة التي قضي عليه بها في خدمة المعلم رشاد الدبش صاحب الطابونة. وقد زامل عانوس رءوف في الكتاب، ومال كل منها إلى صاحبه، فاشتركا في اللعب دهرًا، وتوطدت بينهما ألفة قوية، غير أن الحياة فرقت بينهما رغم تجاورهما في حارة واحدة. ألحق عانوس بالابتدائية، ثم الثانوية، ثم دخل كلية الشرطة. ربما تلاقيا في الطريق، أو تقابلا في بيت قدرى الجزار ورءوف يتلقى العجيين أو يرجع بالأرغفة، عند ذاك يتبادلان ابتسامة عابرة، أو تحية - من ناحية عانوس - فاترة. أدرك رءوف أن صداقة الطفولة ذابت وتبخرت، وأن علميهما متباعدان. وازداد شعوره حدة بتناقضات الحياة وتعاستها، فحنق على عانوس ولكنّه كره قدرى الجزار ورشاد الدبش، واحتقر أباه. الحق لفحته نار الحياة، ولكن ضررها ما يترامى إلى أذنيه في القهوة من مناقشات الشباب. حتى عانوس يجالس أولئك الشبان ويدلي برأيه في حماس. وعند ذلك يبدو شابًا غريبًا، متنافرًا مع جو البيت الذي يعيش فيه، ومتمردًا على أبيه الجبار. وجعل المعلم قدرى الجزار يراقب نمو ابنه بقلق. إنه نبت جديد شرس، غريب مثير للمخاوف، أو كما قال عنه مرة «ابن حرام».

ومرة سأله:

- ماذا تقول في القهوة للأوباش وماذا يقولون لك؟

فأجاب عانوس بأدب:

- تبادل الموموم يا أبي...

### الحب فوق هضبة الهرم ٥٣

- إنه تاريخ قديم، قد أتعرض بسببه لاعتداء على حياتي...  
- حقاً؟ ما التاريخ؟ ومن المعتدي؟  
فقلت بعد تردد:  
- قضية قديمة برئت منها، كنت في حال دفاع عن النفس، ولكن والد القتل رجل خيف وله أعوان مجرمون...

اقتحمته الذكرى القديمة التي سمعها تتردد في صباه كعاصفة، شدت على أعصابه ليملك نفسه المشتتة. إنه أمام قاتلة أخيه عانوس الأول. ها هي تفتنه كما فتنت أخاه من قبل وواصلت رشيدة حديثها:  
- هربنا إلى أمبابة، عملت مدرسة في الأقاليم، وإذا بي أنقل فجأة إلى الحبي القديم...  
صمت مطحوناً بدوامه انفعالاته، لم يسألها عن اسم الرجل المخيف، ولكن قالت:  
- أما الرجل فمعروف عندكم، إنه المعلم قديري الجزار...

استردت نفسه بجهد شديد متسائلاً:  
- حضرتك متزوجة؟  
- لم أتزوج قط...  
- لم تشرحي ظروفك للمنطقة التعليمية...؟  
- لم يهتم بي أحد...  
- أين تسكنين؟  
- ١٥ شارع الدرّي، أمبابة...  
فقال بهدوء:  
- اطمئني، سأخاطب المنطقة بنفسني، وإذا تباطأت فسأعمل على حمايتك...  
تمت بحرارة:  
- شكراً... لا تنسني من فضلك!  
كلّا. ليس من المستطاع نسيانها!

- ١٨ -

لم يجد عانوس صعوبة في إلغاء النقل. وينفسه ذهب إلى البيت رقم ١٥ بالدرّي بأمبابة. الوقت أصيل، والنيل شبه ساكن، ومن فوق سطحه تنهادى لفحات باردة. استقبلته رشيدة بهشة ممزوجة بسرور

- كان عليك أن تستمرّ في تعليمك...  
- إنه أبي وما مضى قد مضى...!  
فشحن صوته بجديّة وهو يقول:  
- احرص على رزقك فالقانون لا يرحم...  
فقال رءوف بنبرة ذات معنى:  
- معلّمي شره ولا رحمة في قلبه...  
فقال عانوس بصوت منخفض:  
- احرص على رزقك...

وعقب ذلك سعى عانوس لاتخاذ إجراء هزّ وجدان الحارة وزلزل أباه فقد نقل شاكر الدرزي إلى حارة أخرى وأحلّ محلّه شيخ حارة جديداً أهلاً للثقة يدعى بدران خليفة. ثار الأب قديري الجزار ثورة عنيفة فقد خسر اليد التي تحميه من القانون، وسأل ابنه:  
- كيف يحصل هذا وأنت ضابط القسم؟  
فقال له عانوس:

- في ذلك حماية لك وللناس!  
- إنك ابني وعدوي يا عانوس...  
- اعلم يا أبي بأنّي ابنك البار...  
كان لكلّ لغته الخاصّة به، واستحال التفاهم بينهما، واغبر وجه البيت بالتراب الأسود...

- ١٧ -

وجاءت امرأة لمقابلة عانوس في القسم. عندما وقعت عيناه على صورة وجهها جاش صدره بنغمة جديدة وعذبة. بديعة هذه السمرة الرائقة وهاتان العينان اللوزيتان السوداوان. كأنّ الصورة قد رُسمت على هواه من أجل هواه. لعلّها في الخامسة والثلاثين أو تزيد، فهي أكبر منه بحوالي عشرين عاماً. في عينيها رصانة تقارب الكتابة. قالت:

- إنّي أطلب حمايتك!  
سألها عن هويتها فقالت:  
- اسمي رشيدة سليمان، مدرسة، نُقلت حديثاً إلى مدرسة العهد الجديد بالحبي...

هذا الاسم، هل مرّ ذات يوم بشبكة ذاكرته...  
سألها وعيناه تحدّقان في وجهها بشغف:  
- ممّ تحافين؟

## ٥٤ الحب فوق هضبة الهرم

- وأمل ثمّ قادته إلى حجرة استقبال صغيرة وبسيطة ومهتمة. قال:
- معذرة عن الزيارة، ولكنّي أردت أن أسارع بطمانيتك بإلغاء النقل!
- ألف شكر يا فندم... .
- أمرت له بقهوة فتهياً له البقاء فترة كما أمل.
- تعيشين مع والدتك... ؟
- أمي ماتت منذ عشرة أعوام، معي شغالة عجوز وطيبية... .
- يا للخسارة إنّها عانس ولكنها محتفظة بروائها... .
- هل يزعجك أن تعرفي أنّي عانوس قدرتي الجزّار ابن الرجل المخيف؟!

ذهلت. تلوّن وجهها الأسمر فاكتسى بعمق. لم تنبس بكلمة... .

- ١٩ -

- وقف الجفاء سداً منيعاً بينه وبين أبيه. حزنت لذلك أمّه حتّى الموت. أصبح البيت كثيباً مثل جحر فتران. هل سعى إلى النقل إلى إقليم؟ وأمابابة؟! ماذا يحدث لو عرف أبوه العاطفة المتأججة في صدره؟ تراءت له فكرة طارئة وهي أنّه خلّق عقاباً لأبيه. وإلّا فما معنى أن يعلن عليه حرباً سرّية مذ وعى ما حوله؟! يا له من أب خليق بالرفض المطلق. إنّه لموقف مؤسف ومخزن. خاصّة وأنّ الرجل أحبه كلّ الحبّ. بقدر ما هو وحش فظّ في الخارج فهو أليف مستأنس بين جدران بيته. وهو لا يتصوّر شذوذ نفسه. يؤمن بأنّه يمارس حقوقه الطبيعية، حقوق الذكيّ القويّ. نهمه للمال والسطوة غير محدود. اعتاد الإجرام كأنّه تحية الصباح. حدوب على أعوانه وكريم حتّى السفه. أمّا الكادحون يمتنّ ببتّر نفودهم ويحتكر أوقاتهم فيحتقرهم وهو لا يرحم من يحتقر. وسيمقته يوماً فيمحق أبوته. الأدهى من ذلك أنّه دمنع أمّه بطابعه فهي تعبد قوته. وكلّما ارتكب إثماً استغرقتها العبادات ولكنها تعبه. إنّه - عانوس - يقيم في عرين، في معبد للقوة والخطايا. وتعمّدت الأمور، وقذفت من جوفها مواقف متحدية، فقد ضُبط أعوان لأبيه وهم يبتزون نفوداً من عمّال الطابونة. سرعان ما ألقي القبض عليهم لأوّل مرّة في تاريخ الحارة. انفجر ينبوع فرحة ضاحكة في
- إنّي ألس انزعاجك... .
- فقالت بنبرة متهدّجة:
- مجرّد دهشة... .
- أرجو ألاّ تكرهيني... .
- فقالت بحياء:
- إنك إنسان... .
- ومضى يمتسي القهوة وهو يمتلس منها النظرات، ثمّ قال ضاحكاً:
- لست مخيفاً كوالدي!
- إنّي واثقة من ذلك... .
- حقاً؟!
- الأمر واضح جدّاً، والحقّ أنّي بريئة!
- فقال بهدوء:
- إنّي واثق من ذلك... .
- ومواصلًا بعد صمت:
- ولكنّه ثمة شيء يجيرني؟
- فرمقته بنظرة متسائلة فقال:
- لمّ لمّ تتزوّجي؟!
- فنظرت بعيداً ملياً ثمّ قالت:
- رفضته أكثر من مرّة... .
- ولكن لماذا؟
- لا أدري... .

## الحب فوق هضبة الهرم ٥٥

- وقبل ذلك؟  
- بردوني قطع الطرق بأفغانستان!  
- سجلّ أسود طويل، لماذا تستعصي على الترقّي  
وتهدر الفرص المتاحة؟... ابنك أفضل منك، كثيرون  
أفضل منك...  
فقال بانكسار:  
- لن يذهب هذا الدرس سدّي!  
- ولكنك حتى مثولك بين يديّ لم تكن قطعت  
أسبابك بغرائز الأرض...  
- لم أكن قد أفقت بعد.  
- عذر أقبح من الذنب، فيم تأمل؟  
- أمل أن أندب مرشدًا!  
- هل لديك دفاع عن سلوكك في الأرض؟  
- نعم، لقد بدأت تاجرًا صالحًا، وما أطمعني في  
الناس إلا ضعفهم وتمادنهم ونفاقهم، فاستعذبت القوة  
والطغيان ولم أجد رادعًا...  
- إنهم سيعاقبون على ضعفهم وتمادنهم ونفاقهم كما  
ستعاقب على استغلالك لحالمهم...  
- وقتلي بيد ابني الحقيقيّ ألا يكفر عني سيّاتي؟  
- لا قيمة لهذه العلاقات هنا، وكم قتلت من أبناء  
وإخوة وأنت لا تدري!  
- على أيّ حال فأنا لم أخلق طبيعي ولا  
غرائزي...  
- إنك مالكها الحرّ ولم تحدّ حرّيتك فيها حدود...  
فقال بتوسّل:  
- أحسن دفاعك عني ولك ما تشاء!  
فضحك أبو وقال:  
- ما زلت لاصقًا بالأرض، وهو الإثم الذي لا  
يُغتفر!  
- ماذا تقول عن المحاكمة؟  
- لقد انتهت المحاكمة يا قدرتي، وقضي عليك  
بالإعدام...  
وسرعان ما تلاشى قدرتي الجزائر!

- ٢١ -

وتلقّى أبو رءوف وهو متلقّع بسحابته البيضاء،

الحارة وثار بركان في بيت قدرتي الجزائر. لم يعد البقاء -  
لعانوس - محتملاً. قرّر الذهاب. اهتزّ جذع أمّه وهي  
تبكي وتقول:  
- إنه الشيطان...  
فلثم جيبتها وذهب. واستأجر شقّة صغيرة في  
أمبابة! وقال لنفسه إنّ القضاء على أعوان أبيه هو  
قضاء على طاقته الشريرة. سيعجز عن الإيذاء وتفلت  
الحارة من قبضته الجهنميّة. وكان يدعو الله ألا يضبطه  
- أباه - متلبّسًا بجريمة مباشرة. والظاهر أنّ الرجل  
صمّم على مقابلة التحديّ بتحدّ مثله قبل أن ينهار  
جداره. ففي نفس الليلة نشبت معركة بين الأعوان،  
وبين عمّال الطابونة، وأصيب رءوف إصابة بالغة غير  
أنّه اغتال المعلّم قدرتي الجزائر قبل أن يلفظ أنفاسه.  
أحداث متتابعة متفجّرة، زُلزلت بها الحارة زلزالًا،  
فانغمست في الدم، ولكن تبذرت الظلمات...

- ٢٠ -

- وجد قدرتي الجزائر نفسه أمام أبو، وسمعه وهو  
يقول له:  
- أهلاً بك يا قدرتي في الساء الأولى...  
ومضى يعرفه بنفسه وبالمكان. لاحظ أنّ قدرتي  
شارد اللبّ يثقل النظرة فقال له:  
- كأنك لم تقطع أسبابك بالأرض بعد؟  
- شيء يثقل على صدري...  
- انتبه... إنك تعرف الآن مصيرك...  
- أجل، ولكنّي ما تصوّرت أن يقتلني ولد مثل  
رءوف!  
- ذاكرتك الجديدة لم تنبعث فيها اليقظة بعد...  
تبذت الحيرة في أسارير قدرتي الجزائر، ومضى يفيق  
رويدًا رويدًا حتى نذت عنه آهة عميقة وابتسم أبو  
وتساءل:  
- أعرفت من هو الولد رءوف...؟  
فقال قدرتي بأسى:  
- قتلني ابني عانوس!  
- أجل، وماذا كنت قبل ذلك؟  
- أدولف هتلر!



## ٥٦ الحب فوق هضبة الهرم

- وجرى تعارف قصير فتجلى التساؤل في عيني رءوف . وقال له أبو:
- أهلاً بك في الساء الأولى . . .
- ومضى يزوده بالمعلومات الضرورية، ثم سأله:
- كيف جئت إلى هنا؟
- قُتلت في معركة .
- ولكنك قُتلت قاتلك أيضاً . . .
- هاجته وأنا مطعون، لا أدري شيئاً بعد ذلك .
- للمرة الثانية تهيء قاتلاً ومقتولاً . . .
- حقاً؟
- إني أعلم ما أقول .
- ماذا كان جزائي في المرة السابقة؟
- الإعدام . . .
- فتساءل رءوف بقلوب:
- هل يتكرر ذلك؟
- ماذا تريد أنت؟
- كنت أخوض معركة عادلة وقتلت شيطان حارتنا . . .
- هذا حق . . .
- فتهلل وجه رءوف وتساءل:
- هل أمل في البراءة؟
- بما يؤخذ عليك كسلك عن طلب العلم!
- ما أقسى الظروف التي عانيتها . . .
- هذا حق ولكننا نقيم الفرد من خلال صراعه مع ظروفه . . .
- فتجلى الأسى في وجه رءوف فقال أبو:
- إنك ولد طيب ولكن الصعود إلى الساء الثانية مطلب عزيز . . .
- ألا يشفع لي ما فعلت؟
- لقد سمع كل شيء، وصدر الحكم بندبك مرشداً . . .
- فسلم رءوف بالحكم راضياً فقال أبو:
- بشرى أخرى، ستندب لإرشاد عانوس . . .
- ضابط الشرطة؟
- أجل، وسلوكه يبشر بالخير مما يضمن لك عاقبة سعيدة . . .
- هي الساء الثانية فيما اعتقد؟
- أجل . . .
- أهي الجنة الموعودة؟
- فابتسم أبو وقال:
- توجد سبع سماوات منذورة لخدمة أهل الأرض فلم يشن الأوان للتفكير في الجنة!
- وكيف يتم الصعود من ساء إلى ساء؟
- من خلال المحاكمات المتتابعة . . .
- فتساءل رءوف في ذهول:
- وهل نعفى من الكفاح بعد الساء السابعة؟
- فابتسم أبو وقال:
- هذا ما يقال عادة على سبيل التشجيع والعزاء ولكن لا يوجد عليه دليل واحداً
- ومضى به في انسياب عذب غنائي، يغوصان في أمواج مقطرة بيضاء، فوق خضرة متألقة لا حدود لها . . .

## الحب فوق هضبة الهرم

- ١ -

وأحلام جنسية. على ذلك فإنني أبعد ما يكون عن الاستهتار أو المجون، رافض للإباحية وفلسفاتها. أروم الحياة الشرعية المستقرة. أتمس إليها الوسيلة بلا شروط متهورة أو طموح كاذب أو طمع قبيح. أنشد حقاً حيويًا أوليًا لا أدري كيف أهتدي إليه. ولكن من أنا؟

- ٢ -

عليّ عبد الستار، في السادسة والعشرين من عمري، ليسانس حقوق، موظف بالشركة ا. د. س. ولدت مع الثورة، ناهزت الحلم عام ١٩٦٧ المشتم، نلت ليسانس الحقوق عام ١٩٧٤، ألحقت بالشركة عام ١٩٧٥، كنت من حملة الثانوية علمي، وكان أملي أن أتخصص في الصيدلة أو الكيمياء. خانني المجموع، حملني تيار التنسيق إلى كلية الحقوق بشهادتي العلمية. ما خطر لي أبدًا أن أدرس القانون، ولكنني نجحت بقوة الإرادة، إكرامًا لعناء أسرتي المكافحة، خوفًا من التشرّد والجوع. ولما ألحقت بشركة ا. د. س. عُيِّنت بإدارة العلاقات العامة. غيّي عن البيان أنني كنت زائدًا عن الحاجة. خيل لي أنّ الزائدين أكثر من العاملين. وقال لي وكيل الإدارة:

- احجز كرسيًا.

ثمّ قال بنبرة ساخرة:

- قد يتعدّر ذلك غدًا. منظرِك مقبول، تصلح للعلاقات العامة، ولكنك ستبقى بلا عمل حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

أريد امرأة. آية امرأة. انبعثت أول ما انبعثت من جوانحي على هيئة همسات من الدهول. همسات من الأنين. همسات من الغضب. ثم انفجرت صرخة مدوية. ما هي بالأنانية. ما هي بالبهيمية. ما هي باللامبالاة. إني أزعم بأنّي مواطن بدرجة مقبولة، بل إني أيضًا إنسان بدرجة لا بأس بها. رأسي شهد حوارًا طويلًا عن الفقر والتخلف والسلام والديمقراطية والتموين والمواصلات والطرق. به موضع أيضًا لهموم الأسرة الكبيرة كالصراع بين الشرق والغرب، تلوث البيئة، نضوب المواد الأولية، العلاقة بين العالم المتطور والعالم الثالث، احتمالات الحرب النووية، إذن فالوعي آخى بيني وبين المواطن والإنسان. غير أنني لم أعد أفكر بشيء من ذلك. أو إن تفكيري به فاد. وتقهقر وذاب في اللامبالاة. أنجم ذلك عن خود في العاطفة أو الفكر أو التعلق بالحياة؟ كلاً وأقسم على ذلك. المسألة أنني ما إن ختمت حياتي المدرسية حتى التحقت بالوظيفة ومن ثمّ خربت الفراغ والبطالة. عند ذاك تضخمت همومي الشخصية، استأثرت بوعيي كلاً، ركبتني، اجتاحتني، استعبدتني، أصابتني بالهوس. باتت أيّ مشكلة سواها ترفاً، لهواً، سخفاً. الجنس أصبح محور حياتي وهدفها. انقلب وحشًا ذا مخالب وأنياب. قوة مطاردة مهددة. يطالب بالممكن ويطمح إلى المستحيل. خلق منّي كائنًا جنسيًا خالصًا، ذا حواسّ جنسية، وأخيلة جنسية، وآمال جنسية،

## ٥٨ الحب فوق هضبة الهرم

فقلت بهدوء:

- عندي فكرة عن كل شيء.

- عظيم. ستبقى أيضًا بلا مكتب حتى نراجع المخازن، أصبحنا في حاجة إلى حجرة إضافية، لماذا لا يسمحون للموظفين الجدد بالبقاء في بيوتهم مع الاحتفاظ لهم بحقوقهم في العلاوات والترقيات؟

فقلت بغيظ مكثوم:

- اقتراح وجيه جدًا!

- ولكن لا بد من التوقيع في دفتر الحضور

والانصراف.

هكذا التحقت بالخدمة وهكذا استقبلت عهدًا من الفراغ المطلق لا خبرة لي به من قبل، فيما مضى استأثرت الدراسة بحيويتي، ولم تخل العطلات من الاطلاع وأنشطة الشباب. إلى ذلك فقد انتفعت بنشأة أسرية دافئة تعبق بعطر الدين والقيم. وكما انبثق الجنس استطعت أن أروّضه بالخلق والعمل والأمل. أما في عصر الفراغ فقد انفرد بي، كما انفرد بي الزمن في جريانه، وتساءلت متى... وكيف. جلست على الكرسي كمن ينتظر دوره في تحقيق. أراقب أقراني العاطلين، وآخرين يذهبون بالأوراق ويحيثون، وامرأتين كهلتين متزوجتين، بين نوافذ مغلقة لتصدّ تيار الخريف البارد، في جوّ فاسد بأنفاس البشر والسجائر، ومن زجاج النوافذ أتطلع إلى شرفات العمارة المقابلة مترقبًا ظهور أنثى. وطيلة الوقت أنجّل مناظر جنسية ومواقف، وأخوض مغامرات غاية في البراعة والعذاب. وسمعت حوارًا بين الوكيل وزميل له من معارفه:

- كيف وجدت الفراغ؟

- لا يُطاق.

- على أيّامنا كانت الوظيفة حلمًا عزيز المنال فاذكروا نعمة الله عليكم.

- وما قيمة النقود؟

- هي خير من الشارع!

تبادلت مع الزميل، عقب ذهاب الوكيل، نظرة شاحبة مثل جوّ الحجرة وقلت له:

- هنيئًا لنا فنحن محسودون...

وتعلّمت أن أتسلّل إلى شارع قصر النيل مع الضحى. تعلّمت الصعلكة. إنّها مسلية ومفيدة ومنشّطة في الجوّ الأخذ في البرودة. وهي مضحكة أيضًا وهي تخوض في بحر متلاطم الأمواج من البشر والسيارات والأصوات المزعجة. طابعه - الشارع - الضيق والعصبية والكبت. كل شيء يريد أن ينطلق ويعجز عن الانطلاق يستوي في ذلك الإنسان والسيارة. الكبت والقهر والتذمّر. الطريق يعاني من أزمة جنسية مثل أزمي. إنّه يفنّد الشرعية والحرية والإشباع. ومع ذلك فهو مغطى بالتراب كأنّه يتهدى في مدينة خيالية. ولكنّي لم أعنّ إلا برصد النساء. هنّ همّي وشغلي وحياتي ومماتي. وجعلت أبلّ ريق الجفاف بمضغ اللبان. وتنقل نظراتي المحمومة من السيقان إلى الصدر إلى العين. وكدت أفقد حياتي ذات مرّة. كنت أهمّ بعبور الطريق حين اقتحمني صدر ناهد فسحرتني واستولى عليّ. كذف بي في أعماق الهو. اندفعت إلى العبور دون أن ألثفت يمينه كما ينبغي لي. وإذا بسيارة تنقضّ عليّ كالقذيفة. نظرت نحوها فأبقت بالنهاية. لا وقت للرجوع ولا للتقدّم. استسلمت استسلامًا نهائيًا وتقوّس ظهري لتلقي الضربة القاضية. تجلّت لي حقيقة الموت لا كفكرة مجردة مسلّم بها ولكن كشعور يملأ الوجدان بثقله وقوته وإقناعه. صرخ بي أن هكذا أجيء عندما يتقرّر ذلك وهكذا تنتهي الحياة في غمضة عين. خيل إليّ أنّي رأيت وجهه مجسّدًا في اللحظة الخاطفة التي لا يكشف عن وجهه إلا فيها. وحيال نظرته الواثقة مرّ بسرعة البرق شريط حياتي من المهد إلى اللحد. لا وجهه أدري كيف أصفه ولا حياتي أدري كيف رأيتها مجتمعة في أقلّ من ثانية. وبلغ الخوف الدرجة التي يفقد فيها الشعور بذاته. لكنّه اختفى بمعجزة. انحرف السائق بالسيارة بديهية مذهلة فصعد الطوار مهددًا حيوات وأوشك أن يصطدم بالجدران. ماذا حدث لي وماذا حدث للآخرين؟ سبحت في ذهول أعفاني من متاعب جسيمة. مرّت دقيقة على الأقلّ قبل أن أدرك أنّ الطريق كلّه يلهيني بنظرات السخط والغضب. ثمّة صياح وتعليقات شتى... السائق لصق السيارة

## الحب فوق هضبة الهرم ٥٩

أرخص سبيل؟

فسألته عنه بلهفة فقال:

- لعلّه الزواج!

وقلت لنفسي إنه الحزن ولا شيء إلا الجنون...

- ٣ -

أسرتي أيضًا مصدر همّ لي لا ينقضي. في متاعبها الظاهرة ما يكفي فيمنعنا الحياء من نبش متاعبها الخفية. أبي يقترب من سنّ المعاش فنحن في سباق مع الزمن. أمي كيميائية، لا لأنها درست الكيمياء فحفظها من التعليم وقف بها عند الابتدائية، ولكن للأعاجيب التي تصنعها لتوفّر لنا الطعام اليومي. وهي تقلّب الملابس وتصبغها وترفوها وتجدها وتجعل بعضها ملكية مشاعة والبعض الآخر ملكية متوارثة وتصنع من البطاطين القديمة أروابًا للأيام الباردة. والمساعدة التي جاءت نتيجة لالتحاقني بالعمل التهمها الغلاء المتصاعد. وإني أنظر إلى شقيقتي مها (الآداب) ونهى (الثانوية العامة) برثاء، ومجنني منظرهما البسيط المتشّف. إتهما محرومتان من أشياء تعتبر في سنّهما ضرورية لا كمالية، ومنوعتان أيضًا من الشكوى، التي تضيق بها أمي فيرفع صوتها الحاد:

- حالنا أفضل من غيرنا ألف مرّة.

على ذلك فإيجار شقّتنا قديم دون الأربعة جنيهات بقروش، ومهما قيل في شارع شمردل بروض الفرج فهو مسقط رؤوسنا جميعًا. لذلك لا يكاد أبي ينعم بضحكة صافية. ودأب على تذكيرنا بمصيره فيقول:

- لم يبقَ إلا عامان ثمّ المعاش!

وينظر إلى شقيقتي ويقول:

- النجاح... النجاح...

لقد نحل الرجل كأنما يجفّ رويدًا رويدًا، وزاد من ضالته قصر قامته، ولم يكد يبقَى أثر من وسامته الأصلية. الوسامة خاصية لأسرتنا مثل الفقر. وهو لا يدخن، كما انقطع عن المقهى منذ أعوام. وكما يقال، فهو من البيت إلى وزارة المواصلات ومن وزارة المواصلات إلى البيت. وتسليته الوحيدة يجدها في تبادل الزيارة مع جار قديم - مدرّس قديم - مدرّس لغة

ويقذف بالسباب كالطر. مضيت مترنّحًا أفرّ بنفسي فرارًا. كنت أعاني آلام الخروج إلى الحياة من جديد. وأعاني من مروري الخاطف فوق ثلاثة معابر متناقضة هي شهوة الجنس ومقابلة الموت ومفاجأة النجاة. وأحدثت برودة النجاة الملقاة على نيران الفرع أثرًا عنيًا تعانق فيه السرور المتألّق والحزن العميق. مضيت أسير حتّى وقفت لأستردّ أنفاسي بعيدًا عن موقع الحادثة. حتّى في ذلك المكان لم أفلت من عيني عامل من عمال الطرق فقال لي بسخط واضح:

- مسطول!... بسبب أمثالك يتعرّض السواقون المساكين إلى متاعب المحقّقين، لا تنس أنك مدين بحياتك للسائق...

تضاعف ضيقي وقلت كالمعتدّ اتقاء لسخطه:

- إتهما المهموم.

فصاح محتجًا:

- المهموم!... ماذا تعرفون عن المهموم؟!

ذهبت مبتعدًا وقد نسيت أزميتي الجنسية وقتًا غير قصير. ولكنّه غير طويل أيضًا. حدّرت نفسي من سحر المناظر. وقلت لنفسي إتهما التعاسة حقًا أن يفقد الإنسان حياته لسبب كهذا. إتهما محنة. ولكن ما العمل؟ لا يغيب عني ما يقال عن الزواج وتكاليفه. المهر والشقّة وخلوّ الرّجل. يلزمني قرن من الزمان لأقتصد نفقات زيجة عادية. إنه طريق مسدود تمامًا. أجل إنّ الأيام تمضي والصبر يفقد ولذلك هان عليّ - رغم تقاليد تربيّتي الراسخة - أن أفكر في «الحرام» كضرورة لا مفرّ منها دفاعًا عن صحّتي الجسدية والنفسية. شاورت في ذلك صديقًا قديمًا من أهل الخبرة فقال لي:

- الفرص أكثر من أن تحصى.

ولما أنس منّي إقبالًا شديدًا سألتني:

- هل عندك فكرة عن الأسعار؟

ومضى يستعرض الفرص والأماكن والمراتب ويذكر الأسعار حتّى قلت في ذهول:

- غير معقول!

فقال باسئًا:

- العرب والتضحّم والانفتاح!... هل أدلّك على

## ٦٠ الحب فوق مضية الهرم

عربية على المعاش - يسامره ويستفتيه أحياناً في بعض الشئون الدينية. وكان يقول:

- منذ أعوام كان رجل مثلي ذو مرتب يجاوز الستين جنيهاً شهرياً يُعَدُّ من الموظفين المنعمين ولكنّ الدنيا جنت... .

وكان ممّا يحزّ في نفسه أنه ضيّع فرصة زواج لا بأس بها على مها. يومها قال بأسي:

- ما باليد حيلة، لكنّ المهّم هو العلم والعمل، بعد ذلك تتحسن الظروف والأحوال، نحن لا نملك بالكاد إلا قوت يومنا.

فقلت له:

- الأسعار ترتفع ونحن ننخفض.

فقال بأساً ابتساماً لا معنى لها:

- كئنا طبقة وسطى فأصبحنا من الطبقة الدنيا... .

فقلت بحدة:

- نحن الفقراء الجدد في مقابل الأغنياء الجدد.

فحدجني بنظرة تصدني عن الاسترسال وقال:

- لا تستسلم للسخط فهذا ممّا يزيد الحياة تعاسة،

وحذار أن تردّد ذلك أمام مها ونهى!

فقلت مصرّاً:

- الزواج حق مشروع، ترى كيف تفكران يا أبي؟

فتجهّم وجهه وقال:

- لقد أحسنت تربيتهما، أمك صاحبة فضل أيضاً،

نحن أسرة شريفة والحمد لله، وغداً تتوظفان وبيتسم

الحظ!

- لقد شهدت برنامجاً في تلفزيون المهى يقطع بأنّ

المسؤولين خير حالاً ممّا... .

- ولكنهم يتسولون ونحن نخدم الدولة!

لم تستطع الأحوال أن تقتلع بقيّة العزة من نفسه،

كما إنّ أمي تُعبر أحياناً عناد الحاضر متطلّعة إلى آمال

غامضة وراء الأفق. وقلت مواصلاً حديثي:

- إنّ أتابع أبناء الأفراح في الفنادق بذهول.

فتساءل بحدة:

- وأيّ فائدة تجنيها من وراء ذلك؟ يوجد أغنياء

منحرفون كما يوجد شرفاء، ولا شيء يدوم في هذه

الدنيا.

ثمّ بنبرة أرق:

- أتدري ما هو حلمي؟

ثمّ أجاب قبل أن أنبس:

- أن تعملوا ذات يوم في الخارج، إنّه حلم وما هو

بالحلم... .

- ٤ -

الهجرة! إنهم يدعون أهل المهن والحرف وأنا لا من هؤلاء ولا من أولئك. وما فرصة الحقوقي؟ إنّها نادرة جداً. فضلاً عن ذلك فأني أمقت القانون، وها أنا أنساه في بطالتي الرسمية دون أسف. وكنت أتسكّع في وسط البلد لا أدري أين بلغت في تسكّعي عندما لمحت - في مقهى الحرّية - الصحفي القديم عاطف هلال. كان منفرداً بنفسه للراحة أو التفكير فمضيت نحوه بقرار مرتجل وبجرأة لا تعوزني. وقفت أمامه حتّى انتبه إليّ فراح ينظر نحوي بعينين مستطلعيتين وقد تجلّى الكبر في صفحة وجهه أكثر ممّا يبدو في الصور التي تنشرها الصحف له. قلت:

- معذرة عن تطفلي، أنا أحد قرّائك... .

فتمتم بصوت محايد:

- أهلاً.

- تسمح لي بدقيقتين من وقتك الغالي؟

- تفضّل.

جلست ثمّ قلت:

- حرصاً على وقتك سأدخل في الموضوع رأساً،

المسألة أتي واقع في أزمة شديدة... .

غامت نظراته بغشاء خفيف من الفتور فخشيت أنّ

الذي تبادر إلى ذهنه أنّها أزمة ماليّة وأنني سأطالبه

بمعونة فقلت بصراحة:

- إنّها أزمة جنسيّة!

توارت الغشاوة وراء يقظة طارئة وتساءل:

- جنسيّة؟!

- جنسيّة بكلّ معنى الكلمة.

فما تمالك أن ابتسم قائلاً:

- لعلك أخطأت الرجل المناسب!

فقلت جاذاً:

## الحب فوق هضبة الهرم ٦١

- بنفسك . . . .
- فسألته بحنق خفيّ:
- ألا يوجد رأي عند جيل الأساتذة؟
- فابتسم قائلاً:
- دعك من هذا. إنكم لا تؤمنون بأيّ جيل سابق. ألم تجد ولو مثلاً واحداً صالحاً لأن تقتدي به؟
- تعني . . . .
- فقاطعته مواصلاً حديثي:
- أعرف أسرة حلّت مشكلتها بالدعارة!
- ويقتنون الشقق والسيارات ولكنّه حلّ مرفوض كما قلت.
- عرفت زميلاً احترف السطو على الشقق في أثناء الصيف . . . .
- وهو مرفوض أيضاً وعاقبته معروفة.
- سمعت عن آخر اغتصب امرأة ثمّ قتلها إخفاء لجريمته . . . .
- لعلك تقصد الشاب الذي طالب شيخ الأزهر بشنقه علانية؟
- لا أدري، ولكنّ أما كان الأجدد بالشيخ الأكبر أن يقترح حللاً إسلامياً للعاجزين عن الزواج؟!
- التشدّد في العقوبة أسهل من إيجاد الحلول . . . .
- فما الحلّ إذن؟
- ألم تفكّر في الهجرة؟
- لست من أصحاب المهن المطلوبة ولا من أهل الحِرَف.
- صمت الأستاذ قليلاً ثمّ قال:
- ثمّة رأي أفضله إذ إنني ما زلت أحتقر الحلول الفرديّة . . . .
- في فترة قديمة دأب على ترديد هذا الرأي، وكان وقتها يكتب بقلم يساريّ صريح، وها هو يعود إليه فيما يشبه الهمس والاستحياء. وقلت له بهدوء لأخفي انفعالي:
- جئتك عارضاً أزمة ملحة تتطلّب حللاً عاجلاً وها أنت تنصحي بالانخراط في عمل سياسيّ من أجل تغيير المجتمع، وعلى ذلك فعليّ أن أنتظر حللاً لمشكلتي يجيء مع القرن القادم . . . .
- الرجل المناسب لم يعد مناسباً لأمشالي لذلك قصدت الرجل المفكّر!
- فثبّت نظارته ليداري انفعاله وقال:
- يبدو لي أنّك فريسة تجربة عاطفيّة مريرة . . . .
- إنّي أتسوّل تجربة فلا أجدها.
- شيء جديد تماماً.
- المسألة بكلّ بساطة أنّ الزواج مستحيل وسيادتك سيّد العارفين، والانحراف أصبح خياليّ التكاليف بفضل إخواننا العرب.
- فتجلّى الاهتمام في عينيه فتساءلت:
- هل تصدّق أنّي بلغت السادسة والعشرين من عمري ولمّا أمارس الجنس ولو مرّة واحدة؟!
- أصدّقك ولو أنّ شكلك مقبول جداً.
- ولكنّي مرفوض موضوعاً.
- قبض على ذقنه في حيرة وصمت فسألته:
- ما الحلّ يا أستاذ؟
- فتمتم جاداً:
- إنّها مأساة ولست ضحيّتها الوحيد . . . .
- وما العمل؟
- يا له من سؤال! . . . .
- ثمّ مواصلاً حديثه:
- لا يوجد جواب جاهز، يمكن أن تنتقد تقاليد الزواج السخيفة وندعو إلى المهجوم عليها، يمكن أن نتحدّث عن واجب وزارة الإسكان، يمكن أن نتحدّث عن مشكلة الإناث . . . .
- وهل أنتظر أنا حتّى يتمّ هذا الإصلاح؟
- ماذا أقول؟ كم من أجيال أجهضت في تاريخ البشرية! . . . . وكما إنّ ملايين من الشباب سعدوا بمعاصرتهم لاكتشاف العالم الجديد فقد هلكت ملايين آخر في خضمّ الحروب الطاحنة!
- يعني أنّه ليس أمامي إلاّ تجرّع التعاسة في صبر طويل؟
- قد يتغيّر الحظّ بإرادة الإنسان، إنك مطالب بالتفكير والعمل، إنك واقع في شبكة من الظروف المعقّدة، وعليك أن تسأل نفسك «ما أفضل سبيل للتصرّف في مثل هذه الظروف؟» وعليك أن تجيب

فتساءلت نهي بمكر:  
- لم تسأل؟  
فقلت بتحدٍّ ساخر:  
- كيف لا وقد توقّر لديّ المهر وخلوّ الرّجل؟  
فقلت لها:  
- ادع الله أن يكون أبوها من شارع الشواربي فلا يطالبك بمليّم!  
فقلت ضاحكًا:

- الشواربيّات للشواربيّين!  
قرأت في دعابتها أحلامًا خفيّة، ونحن عادة نتحدث بحذر متأثرين بجوّ بيتنا المتشدّد. أبي، وأمي أشدّ منه. وأمي متفائلة جدًّا رغم عنائها الدائم. وهي سعيدة بأنّها حصّنتنا ضدّ استهتار الزمن. وفي تقديري أنّه سيسعى إليها ذات يوم - خاصّة بعد التحاقها بالعمل - زوجان محترمان متقدّمان في السنّ والقدرة الماليّة فيهيّئان لها الحلّ الممكن. إنّهُ زمن الكهول والأوغاد.

- ٦ -

ما هذه البهجة المنعشة؟  
لقد وهبني ابتسامه. مضيئة وبريئة كالوردة اليانعة. تبادلنا الكلمات عند كلّ مناسبة ثمّ جادت بالابتسامه. خلقت الابتسامه حياة جديدة. غلّفت الانفعال البهيميّ بعذوبة صادقة. نمت الشجرة وتفرّعت وتعذّر أن تُنعت بصفة واحدة. وتساءلت أهكذا تتحوّل الغريزة إلى عاطفة؟ وكنت أخلق المجال تلو المجال للحديث. قلت لها:

- حذار من البطالة!  
فقلت بحيرة:  
- إنّهم لا يعهدون إلينا بعمل.  
- سنسبّين ما تعلّمته.  
- العمل نفسه هنا مقطوع الصلة بما تعلّمته.  
- ماذا كان تخصّصك؟  
- التاريخ.  
- لولا ضوضاء المكان لا اقترحت عليك القراءة.  
- لا أحبّ القراءة إلّا نادرًا.

وغادرت مقهى الحرّيّة بلا ذرّة من عزاء. ولكن هل كنت قصدت عاطف هلال بدافع من ثقة؟! لقد انترعت الثقة ثمّ ماتت ثمّ دُفنت. إنّهم كذّابون... كذّابون... كذّابون. ويعلمون أنّهم كذّابون. ويعلمون أنّنا نعلم أنّهم كذّابون... ومع ذلك فهم يكذبون بأعلى صوت، ويتصدّرون القافلة... .

- ٥ -

ما هذه البهجة المنعشة؟  
نظرت وحلمت وثلّمت. اشتعلت النيران وأرهفت الحواسّ، لبثت فوق مقعدي مؤجّلاً الانطلاق إلى رحلة التسكّع اليوميّة.  
- ضيفة؟  
- موظّفة جديدة، ليسانس آداب، اسمها رجاء محمّد.

سمرتها صافية، ما أندر السمرة الصافية، لا بالنعيلة ولا بالسمنية، في العينين العسلّيتين جاذبيّة محسوسة، عند الابتسام ترتسم غمّازتان في وجنتيها، بيني وبين أن أرفعها بين يديّ وأمضي مشكلات تعمي العديد من وزارات الدولة. انفعلت بها كما أنفعل بأيّ أنثى يستوي في ذلك المراهقات والكهلات، البلديّات والمتفرنجات، المحتشّيات والمبتذلات، انغمس خيالي في مصادر الإثارة. حتّى تذكّري شقيقتي لم يهدّب من طغيان الرغبة. غبت عن الإدارة ساعة واحدة فصاحبتي نشوتها الزكيّة في الذهب والإياب. وفي آخر النهار تمّ تعارفنا في رزاة رسميّة. ورجعت إلى مسكني بروض الفرج وأنا أقرب ما يكون إلى التعاسة والألم وهما ما يترسّبان عادة في صدري عقب الرؤية المؤثّرة. في ذلك اليوم اختلست أكثر من نظرة من مها ونهى. جميلتان بلا ريب ولكنّه جمال ملقى في سلّة مهملات. بدتا لي متشّفتين صابرتين. تموت الشكوى وراء شفّتيها المثلّتين. وسألتها:

- هل تعرفين فتاة من كليّتك اسمها رجاء محمّد؟  
فتساءلت ساخرة:  
- كيف أعرف ونحن أكثر من الجيش عدًّا؟!  
- التحقت بإدارتنا اليوم.

## الحب فوق هضبة الهرم ٦٣

المنشود. لذلك لم أدع فرصة تفلت لتوثيق مودتنا حتى نطق لسان حالي بما أحلم به. وتشجعت ذات مرة فدعوتها إلى لقاء ضمن رحلة للتسكع...

- ٧ -

ما هذه البهجة المنعشة؟!

فاضت نفسي بهذا المعنى وأنا أراها مقبلة نحو موقفني أمام الأمريكيين. في تلك اللحظة شعرت بأنني بتت من كبار العاشقين فعاهدت الله ألا أسيء إليها ما حبيت فقط. غصنا فوق أريكتين جلديتين يفصل بيننا خوان معدني. وضعت حقيبتها السوداء على طرف الخوان وراحت تمشط بعض خصلاتها كما رحنا نتبادل النظر في هدوء وحب استطلاع. طلبنا الشاي ليدفئنا في الجو البارد وشمنا من بادئ الأمر تفاهم حميم. لا ظل من الغموض يطرح نفسه على الدعوة من جانبي والتلبية من ناحيتها. كلانا ناضج ويعرف ما يريد. وإن تكن صداقة فهي واضحة الهدف. قد تعني من جانبي ميلاً وربما حباً وبحسبها أن تعني من جانبها أنني موضوع صالح للتجربة. ألا يعني ذلك القبول من ناحية المبدأ؟! سألتني:

- هذا مكان تسكعك؟

فقلت وأنا أقدم لها وعاء السكر:

- التسكع في الشوارع ولكنّه لا يصلح للقاء.

- وكيف تطيق الزحام؟

- إنها القيامة ولكنّها خير من القعود ست ساعات فوق مقعد خشبي...

فابتسمت قائلة:

- إنه نوع من العقاب ولكنّ الزحام لمثلي غير

مأمون!

- ماذا تركيبين في الذهاب والإياب؟

- نحن نقيم في شارع الشهيد عبدالملك فيما وراء

دار القضاء العالي فلا حاجة بي إلى الباص...

ثم مواصلة حديثها بسرعة:

- لولا ذلك ما قبلت الوظيفة!

فقلت بقلتي:

- إذا فأنت غنية!

- جيل التلفزيون؟

فضحكت بصوت غير مسموع وقالت:

- ليس تمامًا.

- وحذار من الملل.

- اليوم طويل حقاً، ماذا تفعل أنت؟

- أتسكع وسط المدينة...

- لا يناسبني ذلك.

- لا مفر من أن تجديه مناسباً ذات يوم.

- المهم ألا نعتاد الكسل!

فقلت بأسف صادق:

- كنت طالباً مجتهداً، حتى العطلة السنوية لم تخل

من نشاط واطلاع أما اليوم فقد أصبح التسكع

مذهبي... كيف تمضين وقتك؟

- لي أخوات وصديقات، هناك التلفزيون دائماً،

وأحياناً السينما أو المسرح.

لم يعد في الدنيا ما يستأثر بعيني أكثر منها. لها

الغريزة والعقل أيضاً. ومن عجب أن مظهرها انتهت

إليه مؤخراً نسبياً. تعاملت مع المضمون قبل الشكل.

وعندما حدثتني عن السينما والمسرح أدركت أنها تطل

عليّ من مستوى أرفع، عند ذاك ركزت على البنطلون

الرمادي والحذاء ذي الرقبة والبلوزة المزركشة والجاكيت

الجلدية. أنيقة وثمينة. ترى ما وراء ذلك؟ الزمن

يطرح احتمالات شتى. وإنّي أحلم بالزواج ولكنّي

أرهب بالفرص. عاطف هلال ذو مال وبنين فهو يجتفر

الحلول الفردية! وهو لم يصل إلى مركزه المرموق إلا

بحلّ فرديّ انتهازيّ. ووجدتني أتذكر عهد الدراسة.

أتذكر التيارات التي انتظمت الطلبة. أبناء الأغنياء

الذين ينعمون بالاستقرار ولا يهتمون كثيراً بالدراسة.

فقراء يملكون بالشهادة من أجل الوظيفة. متمرّدون

يضطربون في عوالم الأحلام ويرفضون كل شيء. كنت

في مكان وسط بين الصنف الثاني والثالث. أحلم

بالوظيفة إكراماً لعناد أسرتي وأكنّ للمتتمرّدين الإعجاب

والتأييد. كثيراً ما يتعرّضون للتحقيق والمطاردة، ومنهم

من انتهى إلى السجن. ترى إلى أيّ فريق تنتمي

رجاء؟ على أنّ الاحتمالات أوسع من ذلك. وإنّي

أريدها من أيّ سبيل ممكن وإن ظلّ الزواج حلمي



## ٦٤ الحب فوق هضبة الهرم

- أبداً، أبي موظف، موظف كبير إذا شئت ولكن ذلك لم يعد يعني شيئاً.  
وجدت في قولها متنقساً للراحة وقلت:  
- الحال من بعضه حتى وإن لم يكن متطابقاً.  
وانتهزت الفرصة فقدمت لها صورة أمينة لأسرى متوخيًا الصدق في الأمور الجوهرية ودون تطرق إلى التفاصيل الحرجة ثم سألتها:  
- لك إخوة؟  
- ثلاث بنات كبراهن بكلية الطب.  
- الحق أن الحياة عبء ثقيل.  
فأحنت رأسها الرشيق مؤمنة على قولي فقلت:  
- خاصة للشرفاء.  
- كان أبي (محمد جاد) محامياً مرموقاً، ثم تغير الحال عقب التأميمات فقبل وظيفة مدير الإدارة القانونية بشركة ا.م.د.  
قلت لنفسي إن مثله جدير بأن يملك مدخرات لا بأس بها فهو خير من الموظف العادي. ليس بالغني ولكنه ليس بالفقر أيضاً. ثمة أمل ولكنه ضعيف.  
وقلت ملقياً مزيداً من الضوء على موقفني:  
- أسرتي لن تعرف الراحة قبل أن تتوظف أختاي، وأمل أبي متعلق بهجرة ثلاثتنا إلى بلاد العرب.  
- على أختيك أن تختار مهنة مطلوبة كالتعليم.  
- أنت لا تفكرين في ذلك؟  
- إني أمقت هذه الفكرة وأرجو ألا أحتاج إليها أبداً...  
انقبض صدري بعض الشيء ولكن ذلك دفعني إلى مزيد من الجراءة فسألتها:  
- كيف تتصورين المستقبل؟  
فتساءلت متغابية:  
- ماذا تقصد؟  
- لا يمكن أن تعيشي بلا حلم ما؟  
فضحكت قائلة:  
- أنا لا أحلم.  
- كل إنسان له حلمه.  
- حقاً؟... فما حلمك أنت؟  
فقلت متبادياً في جرائبي:  
- الحق أني أحلم بشريكة لحياي...  
فرمشت كالمرتبكة ولاذت بالصمت فقلت:  
- هذا هو حلمي.  
فتساءلت شاردة:  
- ماذا يمنعك من تحقيقه؟  
فلم أدر ماذا أقول اعتقاداً مني بأنني قلت كل شيء فسألتنني:  
- لم لا تتكلم؟  
- قلت ما فيه الكفاية، أن لك أن تتكلمي أنت...  
وإذا بها تقول بجذبة تامة:  
- لقد تعرضت لتجربة غير سارة...  
فحدجتها بنظرة مستطلعة فقالت:  
- تقدم لي موظف من مرءوسي والسدي وفشلت التجربة أمام عقبات لا يمكن التغلب عليها...  
فتساءلت بأسى لم أستطع إخفاءه:  
- ما هي؟  
- المهر... والمسكن...  
فقلت متعلقاً بأخر خيط:  
- ليس التغلب عليها بالمستحيل.  
- حقاً؟  
- إن يكن بوسع الأب الاستغناء عن المهر، أو يكون من الممكن إخلاء حجرة في البيت للعروسين! فهزت رأسها بأسف نماً يعني النفي. في الصمت الذي تلا اعترفت بالإخفاق. جاءت مدفوعة بحب الاستطلاع والأمل فتلاشى كل في هيكل الحقيقة العارية. لعلها تتأسف الآن على ضياع الوقت سدى. ولعلها تفكر في انتحال سبب لإنهاء اللقاء. وقلت بلا روح:  
- حسبنا صداقتنا الحميمة.  
غمغمت شاكرة. ولم يبق إلا أن نغادر المكان ليرجع كل منا إلى الشركة من طريق.  
- ٨ -  
قلت لنفسي إنه لا مفر من النسيان. لا مفر من الواد. الأمل والغريزة متعلقان بها، يتسلطان علي بكل

## الحب فوق هضبة الهرم ٦٥

نصر...

شملتنا حيرة. وقالت أُمِّي مقطبة:

- ليس من مقامنا!

فقال أبي بمرارة:

- عمّ تتحدثين؟... انتهى مقامنا من زمان...

فقلت أُمِّي:

- إنَّها لم تتمَّ تعليمها بعد ولا بدَّ أن تتمَّ...

فقال أبي:

- إنَّه يريدنا ستَّ بيت.

فقلت أُمِّي:

- لم نُعدَّها لذلك...

فقال أبي:

- إنَّه أسهل من تعلُّم الطبيعة والكيمياء.

فقلت:

- العمل ضروريٌّ لها حتَّى لا نتركها تحت رحمة

المجهول.

وتحوَّلت نحوها متسائلاً:

- ما رأيك يا مها؟

فقلت بوضوح:

- لم نسمع صوت صاحبة الشأن...

فقال أبي:

- الكلمة الفاصلة لها طبعاً.

وتلاقت النظرات فوق وجهها حتَّى عطفت مها

عليها فقلت:

- أهملوها لتفكَّر...

وقلت أنا:

- ثمَّ إنَّها لم تره.

فتساءل أبي:

- يهمني أن أعرف هل تقبله من حيث المبدأ؟

فقلت بإصرار:

- بل هو مقبول من ناحية المبدأ، إنَّه ينتمي اليوم

إلى طبقة أعلى...

فهتفت أُمِّي:

- إنَّك تخلط الجدَّ بالهزل!

وحدثت الزيارة التقليدية فوجدته مقبول الصورة

ولا عيب في مظهره إلَّا مبالغة في التأنق وحساسية

قوة، يستائران بأحلام اليقظة، يعدَّبانني ليل نهار ولكن لا مفرَّ. ما زلت في أوَّل الطريق. وهي لا تبادلني إحساساً أو عاطفة. ما هي إلَّا فتاة عاقلة تبحث عن زوج مناسب. إنَّه حقٌّ مشروع ورغبة نبيلة. ويبدو أنَّه لا يجرِّبها طمع ولا آمال جامحة، إنَّها عاقلة تماماً. لم تجرِّب الحبَّ أيضاً أو هذا ما أظنَّ. داخلي شعور قويٌّ مؤثر بآتني لن أجد فرصتي في «العقل» أبداً. ما فائدة العقل في عالم لا معقول. لا مفرَّ. وعليه فلا تجنَّب مبادلتها الصداقة ما أمكن ذلك. ولأهجر الإدارة مبكِّراً عن العادة. رجعت إلى الفراغ. الفراغ المحتدم بالعذاب والملل. إنَّه يتجسَّد لعينيِّ كما تجسَّد الموت في مقدِّمة السيَّارة، كائن محسوس، غير محسوس، يقطر كآبة ورفضاً للحياة. قبضته الخانقة تفشي لي سرَّ المدمنين. مدمني الخمر والمخدَّرات والقمار. لكنني محصَّن بمثاليَّة باهتة وبالفقر. لعلَّ الأوفى لي أن أملاً الفراغ بالسياسة. ما زلت على صلة تعارف بالزملاء القدامى. يمكن أن أطوف بهم للمناقشة والاختيار. شعار عاطف هلال صالح للتطبيق. إنَّه يدعو كثيرين من ذوي الإرادة ويصلح أيضاً للبياتسين. إنَّها مجرد خواطر تعبر رأسي سادرة ولكن أخطر القرارات قد تبدأ من خواطر سادرة. يتسلَّل إلى النفس كالمزاح ثمَّ ينقلب جدًّا كلَّ الجدِّ. لكنني أفتنح بمداعبة الأفكار. ومدارة الغريزة الطاغية. سيحدث شيء ما في وقت ما. شيء قريب. أو بعيد. لن تمضي الحياة في فراغ إلى الأبد. الهجرة أو السياسة أو مغامرة لا تخطر بالبال. الأيام تمضي. الحركة بطيئة في الشارع ولكنَّ الأيام تسرع. رجاء تحرك أحلام اليقظة. ملكتها في الخيال بقدر ما فقدتها في الواقع.

- ٩ -

تعرَّض بيتنا بشارع الشمردل لغزوة قويَّة. تقدَّم سبَّك في الثلاثين من عمره يدعى أحمد عبد المقصود لطلب يد نهي. قال أبي ونحن مجتمعون في الصلاة.

- ما على الرسول إلَّا البلاغ، أبوه عامل بالحديد والصلب، يحمل شهادة صناعية متوسطة، عمل في السعودية أعواماً خمسة، يملك شقَّة في المعادي وسيَّارة

## ٦٦ الحب فوق هضبة الهرم

أحمر على هيئة لوزة مصغرة. قلت:  
- توهمت أنّ لقاءنا الأوّل هو الأخير، وعزمت على  
النسيان بأيّ ثمن، ولكنّ الحبّ أقوى من كلّ شيء.

فهمست باسمه:

- ولكنك لا تكاد تعرفني...  
- عرفت ما يكفي لخلق الحبّ في أقوى أحواله...  
- خيل إليّ أنّك نسيتني تمامًا...  
- تمّنت ذلك، وتبدّد هباء ما تمّنت... . . .

فقلت باسمه:

- وها نحن نلتقي لتفاسم العذاب!  
فقلت بحماس خلقتة نشوة الظفر:  
- مع الحبّ الحقيقي لا توجد مشكلات...  
- حماسك جميل ولكنّه عاطفة وليس معجزة.  
- بل هو في الأصل معجزة، علينا أن نعتبره  
كذلك، في أيّ شرع يجوز أن يفرّق بين قلبين أشياء  
مثل شقّة وأثاث ومهر؟!

فابتسمت في أسى وتمتمت:

- إنك تحلم بحياة كالطيور.

فقلت بإصرار:

- لدينا الحبّ والإرادة والحياة التي لا ترحم الأغبياء  
فلنتعاهد على ألاّ يفرّقنا شيء في الوجود... . . .  
فتورّد وجهها حيرة وسعادة فقلت والنشوة ترقى بي  
في مدارج السكر:

- فلنتعاهدا

فهمست:

- كما تشاء... ولكن أما أن لنا أن نفكر؟

فخفت أن أفيق من نشوتي فقلت:

- علينا أن نعلن خطبتنا في الحال!

- ماذا؟

- أن نعلن خطبتنا في الحال... . . .

- لو اقتصر الأمر علينا هان.

- علينا أن نقنع الأهل... . . .

- مهلاً... ماذا نقول لهم؟

- إننا سنعلن خطبتنا ونحلّ مشاكلنا بنفسنا!

- ولكنّ... . . .

فقاطعتها:

بالذات ملفنة للنظر. ووضحت موافقنا بين رفض من  
ناحية أمي وحياء شمل ثلاثتنا أبي ومها وأنا. وما أدري  
إلاّ ومها تقول لي ونحن ننتظر الباص صباحًا:

- نهي موافقة!

- من ناحية شكله لا بأس به.

- ومن ناحية الموضوع أيضًا.

فسألته بقلبي:

- أهو قرار أملاه اليأس؟

فقلت بضيق:

- فسره كما تشاء... . . .

وفرضت الموافقة نفسها علينا جميعًا غير أنّ أمي  
قالت بغضب مخاطبة أبي:

- المسألة أنّك وجدت زوجًا لن يكلفك مليًا  
واحداً.

فسألها بمرارة:

- هل لديك مال تخفينه عنّا؟

ودعوت لها من قلبي بالتوفيق... . . .

- ١٠ -

- ما هذه البهجة المنعشة؟!

وأنا أغادر الشركة مبكرًا للتسكع وجدت رجاء  
كالمنتظرة عند الباب. أقبلت نحوي هامة في عتاب  
حاذ:

- أين أنت؟ كأنك هاجرت من البلدا!

غزيتني فرحة راقصة سمت بي إلى أرفع سماوات  
السعادة. طالما ظننت أنّها نسيتني تمامًا، وأنّ عقلها  
الحكّم قد حذفني من جدول الاحتمالات. عتابها  
اقتحمني كنغمة عذبة مفعمة بالنداء. فيه العتاب  
والشكوى والرغبة والاعتراف. فيه ما يغيّر مذاق الدنيا  
في ثوانٍ مثلما تغيّرها الفصول في أشهر. فهل يفرّق بين  
اليأس والأمل إلاّ خيط الفجر؟

حوالي العاشرة كنّا نجلس بجلسنا في الأمريكين.  
قلت معبرًا عن امتناني:

- جزاك الله كلّ خير فقد أعدت خلقي من  
جديد... . . .

تحففت من ارتباكها ناقرة على سطح الخوان بظفر

## الحب فوق مضية الهرم ٦٧

- ١٢ -

خاض كلانا معركة عائلية على تفاوت في العنف  
والحرج. دهش أبي وتساءل:  
- تخطب؟!!

لكنّ مرارة الحياة روّضته على الاستهانة بما يعدّه من  
الأمر الثانويّة. وتساءل مرّة أخرى:

- أنت على استعداد؟  
فقلت ببساطة:  
- لا استعداد ولا خلافه.  
فقلت أُمّي:  
- أنت تعلم أنّه ليس لدينا...  
فقاطعتها:

- إني أعرف كلّ شيء...  
فتساءلت برجاء:  
- لعلّ أهلها أغنياء؟  
- كلاً...  
فتمتم أبي:

- قرار خاطئ ولا شك.  
فقلت بإصرار:

- لن أعدل عنه.  
فرفع الرجل منكبيه قائلاً:  
- أنت حرّ، وأتمنّى لك التوفيق.

أما رجاء فقد خاضت معركة حقيقة. انهالت عليها  
الأسئلة وجاءت الإجابات كلّها بالنفي. ثار الغضب  
كما ثار الكبرياء. رُميت بالجنون. تدخل أقرباء  
وقريبات. أصرت رجاء على طلبها، بل هدّدت  
بإعلان خطبتها خارج نطاق الأسرة.

\* \* \*

كانت تجربة عسيرة أن أمضي إلى عسارة الشهيد  
عبدالمالك وأنا على علم كامل بمشاعرهم نحوي،  
وبأتمهم يعتبروني وباء أفلت من المراقبة الصحيّة. الحقّ  
أنّ مها صدقت عندما قالت:

- إنّ جرأتك تستحقّ الإعجاب...

وقد أرهقتني ابتياع الدبلتين، أما الشبكة فقد اشترتها  
رجاء ودسّتها إليّ لأهديها إليها في الحفل الكئيب. ولم  
تعلّق خارج المسكن أو داخله علامة من علامات

- لكلّ منا عمله واستقلاله.

- ألا نفكر قبل أن نقدم؟

- بل نقدم أولاً...

- أخاف أن نجعل من أنفسنا...

قاطعتها:

- فلنعلن خطبتنا، يجب أن نحقق نصرًا ما. ولك  
عليّ بعد ذلك أن أسطو على البنك الأهليّ عند  
الضرورة!  
غادرنا المكان وأنا أردّد في باطني «ما هذه البهجة  
المنعشة!».

- ١١ -

يبدو أنّ رجاء اعتبرت ما دار بيننا دردشة غنائية  
فأصرت على لقاء ثالث لنتناقش قرارنا بهدوء. قلت  
لها:

- رجاء، إذا استرشدنا بالعقل فعلينا أن نسلم  
بالفراق الأبديّ.

كانت تقدّم رجلاً وتؤخّر رجلاً. كانت تشاركني  
الرغبة ولكنّها تخاف العواقب. قلت:

- إني مخلص، يلزمي عمر طويل لكي أقتصد  
المهر، وثلاثة أعمار لأجمع خلوة الرّجل، فإذا لم يكن من  
التعقل بدّ فلنفترق...

فقلت بقلق:

- سيرون في سلوكنا ما يقطع بجنوننا!

- يلزمنا قدر من الجنون نلقى به عالمنا المجنون...

- يجزني أنني سأغضب أعزّ الناس عليّ...

- إما أن نغضبهم وإما أن نتنحر...

فتفكرت ملياً ثمّ تساءلت:

- هبنا فرضنا إرادتنا فإذا بعد ذلك؟

- لو أنّ لديّ خطة جاهزة ما كتبتها عنك، ولكنّ  
تحمّلنا للمسؤوليّة سيدفعنا إلى التفكير، إلى قهر  
المستحيل... ولو وجدنا الطريق مسدوداً؟

- الطريق المسدود شعار العاجزين، ثمّ ألا يستحقّ

حبّنا المغامرة والتجربة؟

وكانت في صميمها عازمة على المغامرة...

## ٦٨ الحب فوق هضبة الهرم

الأفراح، ونذت الوجوه عن بصمات متكلفة أخفت منها العيوس.

وقال لي الأستاذ محمّد جاد:

- طبعي أن أتمنى لكما التوفيق، لا تسيء الظنّ بنا، ستكون يوماً ما أباً وتعرف... .

أما حرمة - أم رجاء - فقالت لي:

- نحن دائئاً متهمون، لماذا؟ أ يوجد أثاث بلا مهر؟ هل يعيش ابن آدم بلا مأوى؟ أ يوجد أب أو أم بلا قلب؟

إنه صوت العقل. هو ما يعترضني دائئاً بجدار صخري. لم يبق إلا أن نجرب الجنون. إذا صدك العقل عن السعادة فجرّب الجنون أليس ذلك من العقل أيضاً؟! ما يستحقّ اللعنة حقاً هو الاستسلام. ونحن نلقى الإهمال والضياع على حين تتغنى الحناجر بالوعود المعسولة. وتحديث الظلام.

## - ١٣ -

حقّقنا الرغبة واستقرت الدبلة في البصر. وأثمننا إحساس حميم بأننا بلغنا غاية ما وراءها غاية. وسرعان ما أدركت أنني لم أقطع إلا الخطوة الأولى. أجلنا مناقشة المشكلة استبقاء للصفاء ولكنّها استوت على الأفق مثل نذير النشرة الجويّة. ولم يخرجني أحد من أسرتي فيسألني مثلاً: «وماذا بعد ذلك؟». مها وهي أقرهم إليّ همست لي يوماً:

- لعلّه عليك الآن أن تخصص لي جنيهاً شهرياً من مرتبك شهرياً؟

فضحكت ضحكة عصبية وقلت:

- أتظنين أنّ توفير نقطة ماء يجدي للماء بحيرة؟

فقالت باهتمام:

- أظنّ أنّه في وسع والدها أن يحلّ المشكلة.

فقلت بامتعاض:

- إنه حقاً موظف كبير ولكنهم أصبحوا جميعاً

يتبعون كادر الشحاذين، ومدخراته تفي بالكاد بأعبائه، ولعلّه يستطيع أن يقوم بالواجب إذا قدم الطرف الآخر الشقّة والمهر... .

- إذن فما هي خطتك للمستقبل؟

فقلت ضاحكاً:

- لا أملك إلا إرادتي!

وغامت نظريتها بالتفكير، ربّما في حالها أيضاً، حتّى

سألتها:

- فيم تفكرين؟

فقالت وهي تتهد:

- تمتعوا بشبابهم في أيام يسر ورخاء ولم يخلفوا لنا

إلا الأطلال!

ودأبت على زيارة آل جاد بشارع الشهيد عبدالملك

من حين لآخر. أملت أن أظفر بعلاقة صادقة مع المسؤولين، ولكنّ أم حبيبي تصدّت لي هناك كالصخرة، وضمت عليّ حتّى بالابتسامة العابرة، وما من زيارة إلا وذكرتني بالواجبات المقدّسة، الشقّة والمهر، وفي مجلس الأمريكيين قلت لرجاء:

- الهجرة... الأمل في الهجرة... .

فسألني والحق أنّها لم تطرق الموضوع حتّى فتحته

لها:

- ما هي فرصتك؟

- عمل قانوني في شركة ما، إنّي أتابع الإعلانات في الصحف، إنّها فرصة نادرة... .

- لكنّها محترمة.

- الحقّ أنّي ما أحببت القانون أبداً، لقد اقتحمي

مثل حوادث الطريق... .

\*\*\*

إنّي أنتظر معجزة. أنتظر عوناً من الخارج. خارج

ذواتنا، لم أتعلّم شيئاً ينفعني. أحمد عبد المقصود يعيش

عصره أكثر مني ألف مرّة. إنّي أتحدّى وأحلم ولكنّي لا

أفعل شيئاً. وضاعف من حدّة مسؤوليتي أن عرف

الزملاء في الإدارة بخطبتنا. انهالت علينا التهاني

والأسئلة. هذا السؤال اللعين:

- وجدتم الشقّة؟

- دفعت الخلو؟

ما هو إلا مزيج من الإحراج. تضخّمت المسؤولية

التي أحملها. الأيام تمرّ. الأسابيع والأشهر. ينظرون

إليّ ككفيلٍ يقف عثرة في سبيل شابة ممتازة. ولم تسكت

عني الأسئلة حتّى فقدت أعصابي واختنقت بمشكلتي

## الحب فوق هضبة الهرم ٦٩

المستعصية .  
 - ليبعد الله عنك شرّ هذه النهاية .  
 فتساءلت بقلق :  
 - ماذا حلّ بروحك؟  
 فقلت بوضوح :  
 - ليس الحبّ أن أضحيّ بك على مذبح جنوني .  
 - ما زلنا في أوّل الطريق وسوف نجد حلّاً ما .  
 - أين الحلّ؟ . . . المسألة أفضح ممّا تصوّرنا وأنت  
 الخاسرة!  
 فقالت بعتاب :  
 - أحسبني قاصرة؟ . . . لا تعتبرني ضحيّة من  
 فضلك .  
 - هذا هو سرّ جنوني الباهر ولكنّه هو أيضاً ما يبلي  
 عليّ ما ينبغي عمله . . .  
 - ما ينبغي عمله؟  
 - لا يجوز أن تبقى خطبتنا أكثر من ذلك بلا حلّ  
 واضح . . .  
 فقالت بانفعال :  
 - شخص آخر يتحدّث، أنسيت . . .  
 فقاطعتها :  
 - لم أنس، كنت مجنوناً، لقد أسأت إليك إساءة  
 بالغة، الجميع يدركون ذلك لا والدتك فقط، الجميع  
 حتّى الزملاء، لا شك أنّك تسمعين وتفهمين .  
 - لا أهميّة لذلك . . .  
 - نبيل وشجاعة ولكنك تسيئين إلى نفسك بلا  
 أمل، رجولتي تأبى عليّ ذلك، حيّي يؤثبني ويتهمني،  
 لا . . . لا . . .  
 فقالت بحدّة :  
 - إنّي صاحبة الحقّ في القول الأخير .  
 - لي حقّ أيضاً، بل هو واجب، على المجنون ألاّ  
 يجرّ الآخرين إلى جنونه . . .  
 - كنت في جنونك أفضل منك الآن ألف مرّة . . .  
 فقلت بتصميم :  
 - إنّي آسف، ولست في حاجة إلى أن أوكد لك  
 حيّي . . .  
 فهزّرتي اليأس، وكنت مصراً بقدر ما كنت  
 يائساً . . .

المستعصية .  
 \* \* \*  
 وسألني أمّ رجاء ذات مرّة :  
 - حتّى متى نتنظر؟  
 وأفصحت عن مشروع لأوّل مرّة - بعد موافقة رجاء  
 سراً - فقلت :  
 - هنالك حلّ ممكن، جهّزونا، واعتبروا نصيبي ديناً  
 يردّ عند الميسرة .  
 فهتفت الأمّ محتدّة :  
 - يا له من اقتراح لا أحبّ أن أصفه، حسي أن  
 أخبرك أنّه مستحيل التنفيذ .  
 - لماذا؟  
 فصاحت :  
 - إنّه غير لائق!  
 همست رجاء برجاء :  
 - ماما!  
 وقلت أنا منفعلاً أشدّ الانفعال :  
 - لا حيلة لي ولكن لا داعي للإهانة . . .  
 فقالت الأمّ بحدّة :  
 - افسخ الخطبة . . .  
 فقلت بالحدّة نفسها :  
 - لا أقبل أمراً إلّا من رجاء .  
 فصاحت الأمّ :  
 - إن كنت تحبّها فابعد عن طريقها!  
 ولم تكفّ إلّا حين أفحمت رجاء في البكاء .  
 - ١٤ -  
 رجعت الكتابة بسائها الشاحبة وهوائها اللافح  
 المشبع بالتراب . زادها الصيف احتداماً ففتر نشاطي  
 الروحيّ وغطاه الرماد . رغم جرأتي عانيت حساسية  
 شديدة . تمخّض الموقف الباهر لعينيّ عن أنانيّة تتجسّد  
 كالبلطجة . وقلت لبقايا الحلم الورديّ «لا» . لعلمها  
 لاحظت كاتبتي في اليوم التالي في الأمريكين فقالت لي :  
 - إنّي معك حتّى النهاية .  
 ومع أنّي تلقّيت قولها مثل شربة مثلجة في يوم قاتظ  
 إلّا أنّي قلت :

- لعلك وجدت الحل؟  
 فدفعني العيب لأن أقول:  
 - الحلّ الكامل...  
 ثم مستسلماً أكثر للعبث:  
 - سأنضمّ قريباً إلى أصحاب الملايين!  
 فارتفع حاجباه الأشيبان الهاشنان وتساءل:  
 - حقاً؟  
 فقلت بثقة لا حدّ لها:  
 - بكلّ تأكيد.  
 - كيف؟  
 - الأسرار لا تباح!  
 فهزّ رأسه هزة الخبرة وقال:  
 - إنها مسجلة في جدول محفوظ...  
 فابتسمت فيها يشبه الطمانينة فسألني:  
 - أنت سعيد؟  
 - طبعاً.  
 - لأنك ما زلت في أوّل الطريق.  
 - هذا حقّ.  
 - أما سمعت عن الذين يربحون الدنيا ويخسرون أنفسهم؟  
 فقلت كأنما سخريني:  
 - كيف لا وأنا أحدهم؟!  
 فقال بنبرة مأساوية:  
 - خسارة النفس لا تعوّض.  
 فقلت منفعلًا:  
 - كذب.  
 استاء ولا شكّ من لهجتي فصمت مقطّبًا فقلت بسخرية:  
 - تحرّر من الأكلشيهاات لتعرف الدنيا على حقيقتها.  
 فقال متضايقًا:  
 - إني أعرفها خيرًا منك.  
 فاندفعت أقول محتدًا:  
 - ماذا كنت؟... وماذا أصبحت؟... وثبت في الوقت المناسب من السفينة وهي تغرق...  
 تساءل في انزعاج:

ما فعلته بنفسى لا يصدّق. استيقظت عقب ليلة مسهّدة لأرى حقيقة بشعة ترصدني لتقول لي بصوت فظّ: «اختفت رجاء من حياتك». ترامت إليّ أصوات الطريق كأنما هي نعي للوجود، نعي لأيّ معنى. لم أحياء! كيف أعاشر هزيمتي إلى الأبد؟! بودّي أن أبصق على كلّ فكرة خطرت وكلّ فعل نُفّذ.  
 قال أبي لي بأسى:  
 - إني حزين يا عليّ، وددت لو كان بوسعي مساعدتك...  
 واغتمت أني حتى دمعت عيناها.

الحزن يتغلغل في أعماقي كلّها ولكنّي لم أجد بدءًا من حمل حياتي والمضيّ بها. واستسلمت لردّ فعل غضبي فقابلت وكيل الإدارة وسألته أن أنقل إلى إدارة أخرى مقدّمًا أسباب ذلك. ونقلت إلى إدارة المستخدمين عاطلاً كما كنت. وصارعت أشواقي والأيام تمرّ مثقلة بأنفاس الصيف. رجوت أن يتلاشى الحبّ مع الزمن، رجوت أن تحرّر هي من كآفة القيود لتستردّ رونقها البهيج. في تلك الأيام تابعت بإعجاب مغامرات الإرهابيين في الصحف. إنهم ينفجرون في أركان البلد معلّنين عن نبض جنين ينمو في رحم الغيب. انبعثت من قلبي المحطّم أحيلة مطلقة مرقت في الفضاء وغاصت في أعماق المحيطات. وجعلت أتاّمر مع خلايا الأحياء وذرات الجمادات. ولم يحمد الحبّ ولم يبرد الشوق وتمادت الغريزة اشتعالًا.

\*\*\*

وقادتني قدامي إلى مقهى الحرّية فلمحت الأستاذ عاطف هلال في مجلسه. أقبلت نحوه بتلقائية وتوتّر مشحونًا بالاحتقار. حيّيته قائلاً:  
 - لعلك تذكرني...  
 فرمقني بنظرة طويلة وشت بعجزه عن تذكري فقلت:

- أنا صاحب المشكلة الجنسية...  
 فالتمعت عيناه وقال ضاحكًا:  
 - آه... لا مؤاخذه... السنّ والشواغل...  
 اجلس... جلست فراح يقول متسائلًا:

## الحب فوق هضبة المحرم ٧١

وراءك... .

تذكرت آلامي بندم وأسف فواصلت حديثها:

- كأنك كنت تهرب من هذا المكان أيضًا... .

- هل ترددت عليه قبل هذه المرة؟

فحننت رأسها بالإيجاب فقلت:

- آسف جدًا.

- ما فائدة الأسف؟

- سعادتك هي ما كانت تهمني... .

- وفرت لي من الشقاء ما يشفق منه العدو.

- أما آلامي فلن أحدثك عنها... .

فقلت بحرارة:

- أرجو ألا تتصرف بغباء بعد الآن... .

فقلت بقوة وإيمان:

- لن نفرق أبدًا.

فابتسمت بعدوية فقلت:

- لن نتراجع حيال عقبة.

- لم أكف عن التفكير لحظة واحدة.

فهتفت:

- هذا هو الخطأ!

- ماذا؟

- التفكير في مثل حالنا هو خصمنا... .

فابتسمت قائلة:

- لقد جربنا الارتجال؟!!

- ونجحنا، ولم نفشل إلا بالإذعان للتفكير... .

فقلت بقلق:

- أخشى أن نجعل من أنفسنا أضحوكة للعالم... .

فقلت بتصميم وهدهوء:

- لنتزوج في الحال!

فومقتني بذهول فكررت:

- في الحال.

- أعني ما تقول؟

- بكل جدية، ودون الرجوع إلى أحد.

فتساءلت بحيرة:

- ثم ماذا؟

- أجلي هذا السؤال إلى ما بعد الزواج وسوف

يتبدى لنا في صورة جديدة تمامًا... .

- ما هذا؟

فقلت مستريداً في التهادي:

- أنت أيضًا من الذين ربحوا الدنيا وخسروا

أنفسهم... .

فهتف غاضبًا:

- لقد جئت بقصد إهانتني ولن أسمح لك بالبقاء

بعد ذلك... .

قمت. غادرت دون سلام، وتحت الشمس المحرقة

في الخارج شعرت بانشرح فضحكت. ماذا قلت؟

كيف تأتى لي قوله؟ الحوار من جانبي مرتجل من إلهة

إلى يائه. المقابلة تمت بغير خطة سابقة. انتشيت بمرح

عارض وأنا أمضي فوق قاعدة راسخة من الألم. وفي

صباح اليوم التالي بدأت بعاموده اليومي في الصحيفة

فوجدته يتحدث عن الطوفان الجديد، وأنه لن ينجو

من الغرق إلا من يلوذ بسفينة المبادئ. الحق أنه ليس

أسوأ من غيره، ومقالته تُفهم على وجهها الصحيح إذا

اعتبرت نوعًا من النقد الذاتي الحفي، وإعرايًا عن

الاغتراب الذي تطوعوا لاعتناقه.

وفي مرحلة متأخرة من رحلة الآلام - وأنا أتسكع

على غير هدى - اقتحمي إلهام منعش. مجهول

الأسباب مقطوع الصلة بالواقع، على مقربة من

الأمريكين تألق الإلهام وتوهج، دفعني إلى دخول

المكان بقوة واعدة بالمعجزة... .

- ١٦ -

رأيت رجاء في مجلسنا كأنها تنتظر. تسمرت أمامها.

تلاطمتني أمواج انفعالات متضاربة. مضيت أخرج

من ليلي الحالك إلى نهار مشرق. انهمرت فوقى أعذب

الحان الوجود ونشواته مؤيدة بقوة تستطيع أن تفعل ما

تشاء. ارتميت إلى جانبها صامتًا. تنفست بعمق لأسترده

شيئًا من الهدوء. تساءلت بصوت هامس:

- ماذا جاء بك؟

فسألتها بدوري:

- ماذا جاء بك؟

فقلت بعتاب:

- إنك ماهر في الاختفاء فلم أرَ بدءًا من الجري



## ٧٢ الحب فوق هضبة الهرم

- ربما وجدت في الزواج ما وجدت في الخطبة من قبل؟  
- إني أعرف الآن معنى الفراق كما أعرف قيمة الجنون ...  
فتفكرت في قلق واضح ثم تمت:  
- الناس ... الناس ... التعليقات ... أف ...  
فقلت مترققاً بها:  
- لنبدأ في سرية مؤقتة ... أيرجيك هذا؟  
فتساءلت في حيرة:  
- لم تكره التفكير؟  
فقلت بسخرية:  
- أيّ تفكير؟ ... ما هو إلا ترديد لأصداء ماضٍ علينا أن نحطمه ...

## - ١٧ -

- سرنا معاً متلاصقين بعد أن تقرّر مصيرنا بأجراً خطوة أقدمنا عليها في حياتنا. كنا نشعر بدفء داخلي رغم برودة الخريف المودّع كما شعرنا بطمأنينة ونحن نخوض دنيا لم تعترف بعد بنا. بيد كل منا وثيقة ملكية تشمل الروح والجسد. ويقلي شعلة استأثرت بجوارحي فتناست الأمور المعلقة. سألتني في مرح:  
- كيف تشعر؟  
فقلت دون تردّد:  
- باتني انتزعت المسئولية من أيدي المغتصبين ...  
- أظنّ أنّ التفكير الآن لا يُعتبر جريمة ...  
- يوجد الآن ما هو أهمّ ...  
التفتت نحو متسائلة:  
- ما هو؟  
- أن نجد مكاناً نرتاح فيه ولو ساعة من زمان ...  
فقلت وهي تداري ابتسامة:  
- المسألة أكبر من ذلك.  
- أجل ولكنني أسير هذه اللحظة، الأخيلة المرحّة تطاردني.

## - ١٨ -

- لقاءات نهائية، قصيرة العمر، متباعدة على قدر ما تسمح به الميزانية. لأول مرة أشعر بأنني أنضج كإنسان وكعاشق. لم تشاركني رجاء أفراسي بنفس القوة. حثني ذلك على مواجهة الحقائق. قلت لها:  
- الهجرة هي طريقنا الواضح.  
فقلت بعصبية:  
- لا أدري كيف سأحمّل العمل الجديد.  
فقلت رغم مشاركتي إياها في موقفها:  
- هو خير من البطالة ثم إنّه سيهين لنا عيش الزوجية.  
- العمل بلا حبّ نوع من السخرة.  
فقلت برجاء:  
- ثمّ يجيء الحبّ مع النجاح وهناء القلب ...  
فتساءلت بقلق:  
فقلت بعتاب:  
- إني أسيرة أفكارٍ أيضاً ...  
رَبُّتُ على يدها وقلت بعجلة:

الحب فوق هضبة الهرم ٧٣

- إني معيّن بحكم قانون عامّ فلا فضل لأحد عليّ،  
ثمّ إنني لست مجرمًا فلعلّك أخطأت الشخص  
المطلوب.

فتساءل بهدوء الظافر بفريسته:

- من إذن الذي يصحب الزميلة رجاء محمّد إلى  
فندق «العشّ الجميل»؟

انشقّ قلبي تحت ضربة ذهول داهم فتساءل  
ساخرًا:

- أرايت؟

تمالكت نفسي بسرعة وقلت بتحدّ:

- سيادتك مخطئ، ومُبلِغك مخطئ أيضًا، رجاء  
زوجتي الشرعية!

- ماذا؟

- إليك الدليل...

قرأ الرجل الوثيقة بدهشة ثمّ تفحصني باهتمام وقد  
لانت ملامحه وتمتم:

- مدهش، ألم يعلم زملاؤك بذلك؟

- كلّاً، ثمّة ظروف جعلتنا نفرض سرّيّة مؤقتة على  
علاقتنا!

- ولماذا تتردّدان على الفندق بتلك الحال المريبة؟

- المسألة بكلّ بساطة أننا لا نجد مكانًا!

دارى الرجل ابتسامة خفيفة وقال:

- أنا مضطرّ إلى إعلان زواجكما كتفسير ضروري  
لعدم إحالتكما إلى إدارة التحقيقات!

فسألته بسخرية خفيّة:

- هل يمكن أن تدلّني مشكورًا على شقّة؟

فأجابني ببرود:

- لست سمسارًا يا حضرة!

- ٢٠ -

أعلن الزواج، لا مقرّ. في بيتنا أحدث دهشة ولا  
شيء سواها. هتفت أمي:

- غير معقول أن تفعل ذلك من وراء ظهورنا...

أغرقت مها ونهى في الضحك أمّا أبي فقال:

- أنتم جيل مجنون، قدّم لي سببًا واحدًا يبرّر

تصرفك المضحك...

فقلت معتذرًا:

- ثمّ من أدرانا أنّ ذلك الهدف الثقيل ميسور في  
النهاية؟

فقلت بقوة أعظي بها قلبي:

- أعتقد أنّه غير مستحيل ثمّ إنّه توجد تجارب  
أخرى...

أدركت عند ذلك أنّي أسير بها نحو الفندق فشدّتي  
إلى شارع ماسبيرو وهي تقول:

- كرهت التردّد على الفندق...

فرمقتها بعتاب فقالت كالمعتادة:

- الجميع يدركون لماذا نجيء، ما أرفع نظرات  
الموظفين والخدم!

- ألا تستطيعين أن تقلّديني في عدم المبالاة  
بالآخرين؟

- فعلت الكثير ولكنني أعجز عن مجاراتك!

انزعجت حقًا وقلت وكأنا أحادث نفسي:

- لا أطيق العودة إلى العذاب!

- وحتّام تسدل على شرعيتنا ستار السريّة؟!

- ما اخترتها إلاّ تشجيعًا لك وإنّي مستعدّ لإعلانها  
اليوم قبل الغد، أعلنها وقتنا نشأين ودون الرجوع

إليّ...

وخشيت ألاّ تمضي الأمور بالعدوية التي مضت  
بها...

- ١٩ -

دُعيت إلى مقابلة مدير عامّ العلاقات العامة. أوّل  
دعوة من نوعها منذ التحقت بالخدمة. ولماذا يدعوني  
وأنا رجل عاطل؟ طالعني بوجه متجهّم أثار أعصابي  
وبخاصّة وأنّه من الجيل الذي أناصبه العدا.

- حضرتك عليّ عبد الستار؟

- نعم.

- ما عملك؟

- لا عمل لي...

- ألا يكفي أن تستبقيك الشركة رغم أنّك زائد  
عن الحاجة حتّى تكافئها بارتكاب الجرائم في رابعة  
النهار؟

فقلت بغضب وذهول معًا:

## ٧٤ الحب فوق هضبة الهرم

بخواطري المضطربة ولكنّها لكزني بكوعها قائلة في تحذير:

- انظر.

رأيت شبّحًا قادمًا تبيّنته شرطيًا عندما وقف أمامنا. اضطربت وأتّجه وعيي نحو الوثيقة في جيبي. قال الشرطي:

- سلام عليكم.

فقلت وأنا أجهل ما وراء سلامه:

- وعليكم السلام.

وصمت فانتظرت الخطوة التالية ولكنّه لم ينبس ولم يتحرّك فقلت:

- نحن نشمّ الهواء، أنا وزوجتي...

فقال بنبرة واضحة:

- متزوج أو غير متزوج، لا يهم...

فقلت بتحدّ:

- لسنا وحدنا، الخلاء مليء بأمثالنا.

فقال ضاحكًا:

- افعل مثلهم...

زابلني الارتباك ففطنت إلى مقصده. دسست يدي

في جيبي مستخرّجًا ورقة من ذات الخمسة والعشرين

قرشًا ومددتها إليه. تناولها ثمّ قرأها على ضوء بطارية

ثمّ ردّها قائلاً:

- مقامك جنيه على الأقل!

ولما ذهب قلت ضاحكًا:

- أرخص من الفندق بما لا يقاس...

فهتفت:

- يا للعارا

فضممتها إليّ بحرارة وأنا أقول معتذرًا:

- إنّها ظروف استثنائية لعينة، ولسوف نضحك

عليها في القريب...

وأطلت علينا القرون من فوق الهرم وهي تضرب

كفًا بكفّ...

- كانت السريّة إكرامًا لها!

- أنت أحمق، وهي أيضًا حمقاء، لولا ضيق شقّتنا

لدعوتك للإقامة معنا.

- إني مدرك لذلك كلّه.

فتساءل ساخرًا:

- ماذا يغريكم بالزواج؟ ألا تتعظون بما حصل لنا؟

فقلت عابثًا:

- سعادة بيتنا هي التي أغرتني بما فعلت...

أما بيت زوجتي فقد اجتاحتته حريق. استتجت

ذلك من كلبات رجاء الموجزة ومن امتعاضها الدائم.

تخيّلت الطعنة وأثرها الدامي في قلبي الوالدين. قالت

لي:

- إني أعيش في بيت يرفضني تمامًا.

فدفعني قولها إلى الارتطام بمسؤوليتي فقلت:

- تعالي إلى بيتنا مؤقتًا!

ولكنّها لم تنبس فقلت:

- سأجد الإعلان الذي أبحث عنه في الصحف،

لا بدّ أن أعثر عليه ذات يوم...

فقال بضيق:

- ومن ناحيتي فالتعليم أحبّ إليّ من هذه الدنيا.

فقلت بإصرار:

- لو اقتضى الأمر أن أتعلّم حرفة فسأتعلّم

حرفة...

\*\*\*

وكان رفضها لفكرة الفندق قد أرجعني إلى حيرة

العذاب. ورغم أنّ الأمل في الرسوّ على برّ - بعد تقبلنا

للهجرة - بات ممكنًا إلا أنّ عذابي لم يبرد. ومضيت بها

ذات مساء لا يخلو من دفء إلى هضبة الهرم. لم يبقَ

الهلال الوليد في السماء إلا قليلًا ثمّ انتشر ظلام مريح.

عن يميننا ويسارنا مرقت الأشباح إلى الخلاء وذابت في

الظلمة. طوّقتها بدراعيّ بحنان وشوق ونحن نتعثر

على مهل حتّى توقّفنا تمامًا. ملت نحو أذنها لأمس لها

## سمارة الأمير

- ١ -

دنياها الوحيدة. إنها قلعة شاهقة ذات أبراج الزينة وحديقة مترامية، تتوسط شارع سبينالي بلوران بالإسكندرية، وربّة الدار الهانم تأنس إليها لإشراق وجهها وطيبة قلبها فتخصّصها بالقرب وتختارها دون غيرها لتدليك قدميها وساقيها. تعطف عليها لطيفة قلبها وسذاجتها. ونقائها من المكر. فكانت الوحيدة في السراي التي يهيباً لها فرصة الوجود أحياناً في اجتماع الباشا بحرمه. وتسمع أحياناً ما يدور بينهما من حديث، بل وما يتبادلان أحياناً من نِقار أو شجار. ويسألنها - الخادِمات الثلاث - عمّا تسمع فتشعر بأهميتها وتغضي في حكي الحكايات. وكان الباشا وحرمه عجوزين وحيدين. فكريمتهما متزوّجة من قنصل يعمل في الخارج، وابنهما يعمل كذلك في سفارة، ولكنّ الرجل كان رائعاً وقوراً، يمضي في شيخوخته وأناقته كتمثال أو يجلس في روبة آية في الجاذبية، وكانت حرمه جميلة رغم طعونها في السنّ، وكم أعجبت شلبية بلون بشرتها الأبيض وزرقة عينيها، ويقول الباشا لحرمه في غضبه «أنت ظالمة... أنت عمياء» فتقول له «ما أنت إلا ثور»، «ألا تقرأ ما يُكتب عنك؟». عندما تثور عاصفة تنكمش في ذاتها، تودّ أن تحتفي، تنكس رأسها، وقد تدمع عيناها. ومرة سألت الهانم بحدّة: «لماذا أفلتت منك الوزارة هذه المرّة؟» فيقول لها «حتّى السراي لا تخلو من عدوّ لي» فتقول له «بل أفعالك الشائنة هي عدوّك الأوّل» فيتساءل: «أفعالي الشائنة؟» فتصرخ «نعم... ما زلت تحلم بمبادل الشباب يا عجوز؟». «متى منعت الأفعال الشائنة من

تبدو ضئيلة جدّاً، لا لضالّة في تكوينها، فهي بشهادة الجميع أنضج من سنّها، ولكنّها لا تكاد تُرى في الحجرات الواسعة والأبهاء المترامية، أمّا في الحديقة الفوّاحة الشاخنة فتلوح مثل عصفورة حائرة في وثباتها المتتابعة فوق ممشى الفسيفساء. في أوقات الفراغ، العصارى المزخرقة بالظلال، تقف مستندة إلى ضلقة الباب الكبير ترنو بعين إلى أشجار البلخ المظلمة لشارع سبينالي، وتلاحظ بعين الأريكة يجلس عليها البوّاب وسوّاق السيّارة عليّ جلال. يعجبها منظر عليّ جلال ببدلته الرسميّة، وقامته الطويلة مثل جذع النخلة ولونه الغامق ونظرتة الحادّة. إنّه يلي في التأثير الباشا الذي لا يضارعه شيء، وهي يروعها كلّ شيء في السراي وما حولها، قلبها الغضّ يجود بالإعجاب لكلّ شيء، وهي تحبّ كلّ شيء، ولم تعد تذكر من الكوخ الذي آواها في طفولتها برشيد إلا طيفاً ذائباً في ماضٍ مضى وانقضى. حتّى والداها سرعان ما نسيتهما ولم يبقَ من صورتيهما إلا النمط الشائع. جاء أبوها بها إلى سراي عصمت باشا خورشيد وهي ابنة ثمانية منذ سبعة أعوام، وعقب عامين جاءت أمّها حاملّة نأ وفاته، ثمّ أبلغت بعد عامين آخرين نأ وفاة أمّها، فلم يبقَ من الشجرة إلا أقارب مجهولون لا يحفلون بها ولا تذكرهم. وعند كلّ نأ أسود كانت تجهش في البكاء، ومخاطب بعطف ما، ثمّ يطيب الخادِمات الثلاث اللاتي يشاركنها حجرة البدروم خاطرها، ويحدّرنها من الاسترسال في الحزن. التصقت بالسرايا باعتبارها

الشعور بالاهمية، تداعب السرور الخفي. تغطي القلق بغلالة من إجماء وردية.

وذات أصيل كانت تطارد ضفدعاً في جدول محفوف بالشوك. كان الوقت خريفاً والرذاذ يجيء قليلاً ويغيب قليلاً. شعرت ببدء يدعوها للنظر إلى الوراء. رأت عليّ جلال يقف تحت شجرة ليمون رائياً إليها بنظرة ثملة، بسمت بارتباك ووثبت فوق الجدول. في الجوّ سرّ خفي وكان أوراق الأكاسيا تنهامس به. عكست عينها السوداوان بهجة وحذراً. ترنحت فوق حافة مغامرة مجهولة بلا مقاومة تُذكر. دنا منها صامتاً مربدّ الوجه. تناول يدها ومضى بها إلى الجراج في نهاية ممشي مسفلت. لم تقاوم ولكتها تساءلت:

- ماذا تريد؟

ضمّتها إلى صدره وغمرها بقبلات شرهة. وقفت مستسلمة لا تشارك ولا تقاوم. تمتت ألا يجاوز ذلك الحدّ ولكتته لم يجترح خطوة إلا كتمهيد لأخرى جديدة. وسألته:

- ألا تخاف النار؟

ثمّ تساءلت ووجهها يتقلّص بالأم:

- ما هذا؟

- ٣ -

الواقع دون الحلم ولكتنّ شخصه أهمّ من فعله، باتا شريكين في حدث خطير، وكاتميين لسرّ هامّ. استولى على قلبها وخيالها، أحبته أكثر مما تصوّر، تصوّرت العلاقة أقوى من صلب البوابة وأنقى من ماء المطر. هو فارس قلبها وقلبها مطيته الأمانة. ليست السراي بالمكان المأمون لهذه الأفعال ولكن حتّام يبقى السرّ سرّاً؟ ضايقها أن يتجاهلها بحكم الحذر، طمحت إلى معاملة أرقّ وأطيب صراحة. وقال لها مرّة:

- تجنّبي النظر نحوي، أنت مجنونة؟

فسألته بحنق:

- لماذا تخاف؟

- أنت مجنونة؟

- أنت المجنون، أنسيت فعلك؟

الوزارة، «إني أفكر في الإقامة مع ابني في الخارج». ولا يحول ذلك دون خروجها في المساء نفسه لقضاء سهرة معاً كزوجين سعيدين.

ألفت شليّة هذه الحياة الأنيقة، كادت تُخصّص بخدمة الهانم، ولكتها كانت تخدم عن طيب خاطر النسوة الثلاث اللاتي يشاركنها في البدروم، تنظّف الحجر، تغسل الملابس، تبتاع لهنّ الدخان وأوراق البفرة، وتتطرّج بدافع خاصّ للفتّ السجائر. وعن لسان الهانم أدركت أنّها أنضج من سنّها، وأنّها «شيخة» لطيبتها وسذاجتها، أمّا في الطريق وعند البدال فمضت تدرك أنّها جميلة فتسعد بهذا الامتياز وتتعامل في تحفّظ وبدلال مع المعجبين. وكانت أخلاقها فطرية لا تكاد تتجاوز الحياء. حدّثتها أمّها عن الجنّة والنار، وحدّرتها الخادومات من الهفوات اللاتي تقضي على مستقبل البنت. مستقبل البنت؟ إذن فحياة السراي غير دائمة، ما هي إلا دار انتقال. المستقبل الحقيقيّ يقع في الخارج. ربّما في كوخ كالذي جاءت منه. لكن ما كان يكفي هذا لتوفير تربية أخلاقية حقيقية. كانت طيبة، سمحة القلب والعاطفة، وهابة للإعجاب والحبّ. ذات قشرة رقيقة من الدين والخلق. ألفت الحياة الأنيقة، ومعاشرة علاقة زوجية حافلة بأسباب الهناء والصراع، كما ألفت جوّ الإسكندرية المتقلّب بإشراقه وعذوبته ونواته الضارية. وتجمّعت أنفاس المراهقة في برعم قلبها فامتلاً برحيق الحياة الساخن...

- ٢ -

من عالم الرجال، العذب المخيف الغامض، يطلّ وجه عليّ جلال مثل المنارة. ليست بدلته الكحلّية هي المثيرة وحدها، ولكن قامته أيضاً، وبصفة خاصّة نظرة عينيه الوهاجة، في العواصف التي تسجد لها الأشجار الشاخخة يقف مستهتراً، مقطباً وباسماً في آن، ولا يترجع إلى حجرة البواب حتّى ينهمر المطر ويشرق أديم الأرض السنجابيّ. له نظرة يودعها أحياناً النسمة الباردة المضمّخة بشذا البحر، مثل قرصة ملاطفة لحدّ مورّد، حاذة وناعمة، لغتها غامضة متحرّشة، تهيّج

## الحب فوق مضية الهرم ٧٧

- ولكنني أتألم...  
- الحياة خشنة وتطالبنا بالخشونة...  
- ألا تزال تحبني؟  
- أظنّ هذا واضح...  
فقلت بعدوبة وبراعة:  
- إني لا أشكو إلا معاملتك!  
- هكذا خلقت! ماذا ينقصك؟  
أحقًا لا يدرك كم تتحمّل من شظف العيش حرصًا  
عليه؟ وتهدت قائلة:

- ربنا موجود...  
فسألها بحدّة:  
- ماذا تعرفين عنه؟  
فقلت باستسلام:  
- إنّه موجود، ألا يكفي هذا؟  
ولكنّها كانت تغوص في صميم الحياة، وتزدهر رغم  
حرمانها من طبيّات الحياة التي ألفتها في السراي،  
ويتألّق جمالها وشبابها في الجلباب الشعبي، وتنعّم  
بالحبّ...

- ٥ -

وكان يقول لها أحيانًا وهو يدرّخ ويحلم:  
- لا دوام لحال...  
فترمقه بسؤال حائر في عينها الجميلتين فيقول:  
- ولما كنت في الحضيض فسيصير الحال إلى  
الأحسن!  
- حقًا؟!... ولكنني لا أصلح لشيء...  
ويبتسم، ويرم طرفي شاربه، ويصمت فتقول:  
- بوسعي أن أخدم في أيّ بيت ولكنني سأنقطع عن  
بيتي!

فيضحك ويقول:  
- هروبك أثار في السراي زوبعة...  
فقطّبت ولم تجد ما تقوله... فيواصل:  
- ظلّوا في بادئ الأمر أنك سرقت شيئًا ثمينًا، ولما  
وجدوا كلّ شيء في محله أدركوا الحقيقة!  
- الحقيقة!  
- قالوا إنّها هربت مع رجل غواها، أليست هذه

- من الخير أن تتركي السراي...  
- حقًا؟... إلى أين...؟  
- أنت مستعدّة؟  
- نعم.  
فتفكّر قليلًا ثمّ قال:  
- انتظري مساء عند نافورة الميدان واحذري أن  
ينتبه إليك أحد...

- ٤ -

انتهى عهد السراي كما انتهى عهد الكوخ من  
قبل. في حجرة عليّ جلال الوحيدة بفراشها السفريّ  
وصوانها القديم المقشّر وحصيرتها المتهرّقة شعرت بأنّها  
في بيتها. لأول مرّة تشعر بأنّها تنتمي إلى وطن، وأنّها  
ست بيت مثل حرم عصمت باشا خورشيد، ومضت  
تعرف نفسها وتخبّر الحياة والرجل والحبّ. وكان  
للعلاقة شهر غسل أيضًا ولكنّه في الواقع أقلّ من  
شهر. تجلّى عليّ جلال عاشقًا نحو أسبوع ثمّ خرج من  
جلده رجل جديد. اختفى المجمال الباسم العطوف  
وحلّ محله رجل فظّ ضيق الصدر متوثّب دائميًا للزجر  
والردع، عجبت لتغيّره، فزعت من معاملته، وكانت  
تزداد به تعلقًا وارتباطًا. إنّها لا تطالبه بشيء، تخدمه  
بولاء. تبه ما تملك بلا مقابل. لم تكن تذوق اللحم  
إلا مرّة واحدة في الأسبوع بلا تدمر. آيست من فكرة  
الزواج فتجنّبها وقنعت بحالها. ورغم حزنها شعرت  
بأنّه ملكها وبأنّه لا غنى له عنها. ومرّة سألته:

- لماذا تعاملني بخشونة؟... هل بدر مني ما  
يسينك؟  
فقال:

- إنّك تتوهمين ذلك لأنك دلّوعة!  
فقالت برجاء:  
- أحسن معاملتي، ألا ترى أنّي يتيمة وحيدة  
مقطوعة من شجرة ولا أحد لي في هذه الدنيا سواك؟  
فقال بسخرية:

- إني مثلك تمامًا، وكنت مثلك دائميًا، لم أعرف لي  
شجرة. وعلى حين نشأت أنت في سراي باشا نشأت  
أنا في إصلاحية، ورغم ذلك اعتبرت الشكوى خنوة!

## ٧٨ الحب فوق هضبة الهرم

- هي الحقيقة؟  
- ولكنهم لم يعرفوا الرجل؟  
- طبعًا...  
ثم يقول بثقة:  
- لا دوام لحال.
- إنك موافق ولا داعي للمناورة...  
قام الرجل، حتى رأسه تحيةً لشليية، ذهب وعليّ في أثره يودّعه.

- ٧ -

رجع عليّ بعد دقائق ممتلئًا حيويةً واستبشارًا.  
سأله:

- من الرجل؟  
- مأمون الفرمانى صاحب ملهى الفلير دامور بالشاطبي.

- لماذا جئت به؟... وما معنى حديثكما؟

- الصبر مفتاح الفرج...

وقف ينظر إليها باهتمام ثم قال:

- غني... غني أيّ أغنية...

فذهلت ولاذت بالصمت فعاد يتساءل:

- ألم تغني من قبل؟... في الحقل؟... في

الحمام؟

- أبدًا لم يشجعني صوتي قط...

- يا للأسف... ولكنّ جسمك صالح

للرقص...

فهمت:

- الرقص!

- ليس عندك إلا الشكوى والصراخ، إني أعرض

عليك خاتم سليمان...

- أنا أرقص؟!

- بعد تهذيب وتعليم ثم تفتّح لك أبواب

الرزق...

- أمام الناس؟!

- طبعًا...

- أخص... يا للعب...

فابتسم برقة مصطنعة وقال:

- إنّه مهنة شريفة، شرفك من شرفي، افهميني

جيدًا، لست أنا الذي أَدفع بك إلى السقوط!

- أنا مستعدة أعمل أيّ شيء آخر...

- ألا تريدن غداء أوفر وكساء أجمل وحياة

أفضل؟... سنغيّر حياتنا بالعمل والشرف... جري

- ٦ -

وذات مساء جاء معه برجل قصير بدين قمحيّ اللون صامت الملامح. جلس إلى جانب عليّ على الكنبه على حين وقفت هي مستندة إلى السرير غائصة في ارتباكها. ولما طال الصمت والنظر قالت متهربة:

- أصنع لكما الشاي...

فقال الغريب بصوت غليظ:

- شكرًا... لا أريد شيئًا...

وقال عليّ جلال:

- إنها لائقة وإلا فإنني لا أعرف شيئًا...

فابتسم الرجل ولم يعلّق وواصل النظر فقال عليّ:

- إنها لائقة...

فسأله الرجل ببرود:

- ماذا تعني؟

- من ناحية الشكل...

فتساءلت بحدة:

- عمّا تتكلّمان؟

فأشار لها عليّ إشارة أمرة بالصمت على حين قال الرجل:

- وما أهميّة الشكل؟

- إنّه الأساس...

- أعندك فكرة عمّا تحتاجه من تعليم؟

- إنّه اليسير إذا توفّر الشكل...

- ما اسمها؟

فقال عليّ مستقبلاً وثبة من الأمل:

- شليية الأمير...

فابتسم الرجل متمتًا:

- الأمير دفعة واحدة!... ولكن أعوذ بالله من

شليية!

فهدف عليّ بتحد:

## الحب فوق هضبة الهرم ٧٩

اضطرَّ الرجل مرّة إلى توجيه لطمة إليها. يومها رجعا إلى حجرتها وهي صامتة غارقة في حزن أبدي. وغير هناك من لهجته المألوفة فقال لها بنبرة المعتذر:  
- ما من رجل إلا وضرب محبوبته عند الضرورة.  
أصرت على الصمت والعبوس فداعب بإيهامه خذها وقال:

- العمل عمل، لا مزاح فيه، وهو لمصلحتك...  
فقال بحق:  
- بل لمصلحتك أنت!  
- لمصلحتنا المشتركة إذا شئت، ما نحن إلا شخص واحد...

فصاحت به:  
- لقد سلّمتني إلى رجل غريب!  
- إنّه رجل أعمال، وليس له في النسوان...  
- لو كنت تحبني حقًا ما فعلت ذلك.  
- ما فعلت لك إلا لأني أحبك...  
فقال بتحد:  
- أنت! لم أسمع منك كلمة حبّ واحدة!  
- ولكنّي أفعل ذلك!  
- أريد حياة معقولة، هل في ذلك من بأس؟  
وساد صمت ثقيل حتى قطعه قائلاً:

- كنت ذات يوم تلميذًا، انقطعت عن التعليم بسبب الفقر واليتم، تركت شبه أمّي وانطحنت في الإصلاحية... ها أنا أهينّ لك سبيلًا أجمل. ماذا في ذلك من عيب؟... انظري إلى الراقصات وحظهنّ في الحياة...  
لقد احتملت الحياة حرصًا عليه، ولأنّها شعرت في أعماقها الحيّة الملهمة أنه يجبها.

- ١٠ -

الفليز دامور ملهى صغير وأنيق. لا تفتح نوافذه الأمامية شتاء، تسفحه العواصف وهو صامد بجدرانها الأرجوانية، مربع الشكل، مسرحه صغير يعلو على الأرض بمتر واحد، في جوانبه مقاصير من خشب الزان، وصفوفه موائد، يغالب نعاسه طيلة الشتاء والخريف، قلّة تختلف إليه كحانة نظيفة تمتاز بمزتها

ولا تخافي، سيربط الرقص بيننا برباط متين أمّا الحياة كما هي الآن فلن تحسّن أكثر من ذلك!  
انقبض قلبها، رمقته بتوسّسل، اغرورقت عيناها...  
- ٨ -

كان صباح داكن، تمّيش سناؤه بسحب ملبّدة، والرياح تزار مطلقّة الأمواج المزبّدة إلى أديم الكورنيش. جلست إلى جانبه في شيفروليه عصمت باشا خورشيد واندفع بها نحو الشاطبي وهو يقول:  
- من يدري؟ قد تمتلكين يومًا سيّارة كهذه.  
استقبلها مأمون الفرمان في شقته فوق الملهى مباشرة بعمارة مكوّنة من عشرة أدوار مطّلة على البحر الثائر، تجاهل احمرار عينيها من أثر البكاء وقال:  
- أهلاً بالتلميذة... ستضحكين غدًا...  
وقدم لها الشاي والكعك ومضى يقول:  
- انسي شلبيّة، اخترت لك اسم «سيّارة»، سيّارة الأمير، تركت لك الأمير فهو مناسب جدًّا، هل نتوقّع إزعاجًا من أهلك؟  
فأجاب عليّ عنها قائلاً:  
- كلّ.

- عظيم، نحن في أوائل الشتاء، الشتاء فصل ميّت، ولكن يجب أن تعدي كما يجب قبل الصيف، ممّ تخافين؟  
- إنّها بنت شريفة كما تعلم...  
- ونحن أيضًا شرفاء، لن يضطرّك أحد إلى شيء تأيينه، ولا تصدّقي غير ذلك...  
ثمّ بعد فترة صمت وتأمل:  
- ولكنّ التعليم لا مزاح فيه، ستعهدك امرأة خبيرة، ولكنّ كلّ شيء يتوقّف على إرادتك...  
- ٩ -

وسرعان ما بدأ التدريب، وقرّ لها الرجل أيضًا كساء مناسبًا وغذاء صحيًا. وكان التدريب يشمل آداب المائدة واللبس والزينة. وكلّما وجد مأمون الفرمان إهمالًا أو تكاسلًا استعان بعليّ جلال حتى



## ٨٠ الحب فوق هضبة الهرم

- ماذا يعني بتحيات الزبائن؟  
- سيدعوك بعض الأكابر حتىًا للمجالسة  
والمشاركة، في تلك الحال يُحسب الكأس بضعف ثمنه  
وتأخذين نسبة محترمة...  
فهاها الأمر وقالت بحدة:  
- ليس هذا ما تمّ الاتفاق عليه بيننا...  
- لا خوف من ذلك وهو رزق شريف...  
- لكنني لا أشرب...  
- يملأ كأسك عادة بالشاي، لهذا تقليد معترف  
به...  
فقال بأسئى محدثة نفسها:  
- أجالس رجالاً؟!  
- قد يدعوك بعضهم للذهاب معه ولك أن  
ترفضي...  
- يا له من موقف...!  
- بسيط، لا تعقدي الأمور...  
- ربّما تدخل مأمون الفرمانى؟!  
- إنه يعرف سلفاً أنّ أدقّ عنقه لو فعل...  
شدّت على ذراعه بامتنان وهما يخوضان النسائم  
العذبة تحت بصيص النجوم فقال:  
- لا أريد لك الابتذال الرخيص...  
- ١٢ -

اعتادت الرقص ومضت خطوات في طريق إتقانه،  
اعتادت كذلك المجالسة والمشاركة والاعتذار عند  
اللزوم. اكتسبت مكانة سامية بفضل أنوثتها، وانقضى  
الربيع والصيف وهي تتألق كنجمة في الملهى الصغير.  
لم تانس إلى أحد كما أنست إلى سعداوي بيّاع الفستق،  
فهو فلاح مثلها صبوح الوجه، يرمقها باحترام  
وعطف. يرمقها بأكثر من ذلك حتىّ قالت لنفسها إنّها  
لو كانت حرّة بلا رجل لما تردّد في طلب يدها. وقد  
مالت إليه ميلاً صافياً، لأنّها كانت سليبية القلب،  
مكبّلة بحبّ عليّ جلال.

وذات ليلة، عقب انتهاء الموسم، وحلول الخريف،  
جاءها سعداوي وقال لها:  
- المقصورة رقم واحد...  
وتغذيتك؟

الغنيّة، وفرقة موسيقية تعزف ألحاناً شرقية وغربيّة،  
ومغنيّ درجة ثالثة يترنّم بأغانٍ كلاسيكيّة، به أيضاً  
مهرّج يقدم ثمراً فرديّة هزليّة وساحر، وبطانة المطرب  
مكوّنة من فتيات أربع يُدعون أحياناً لمشاركة الزبائن  
ملتزمات بأدب يناسب رواده الممتازين من المصريين  
والأجانب.

دُفعت سهارة للرقص فوق مسرحه في أوّل الربيع،  
كانت فرصة فريدة للممارسة والتدريب العمليّ أمام رواد  
معدودين غير مبالين. كانت كمن يلقي بنفسه في الماء  
وهو جاهز لفرقّ السباحة، رقصت على أيّ حال ونالت  
تصفيقاً من أيد محدودة، عطفاً من ناحية وانجذاباً إلى  
جمالها من ناحية أخرى. الرقص يقدم لأول مرّة في  
الفيلير دامور، وسهارة وجه ممتاز وجسد ممتاز أيضاً.  
في الحجرة الخلفيّة وجدت مأمون الفرمانى وعليّ  
جلال في انتظارها. قال الفرمانى:

- التصفيق للمرأة لا للراقصة...  
فقال عليّ جلال:  
- في المرّة القادمة سيكون للراقصة والمرأة معاً...  
فقال بحرارة:  
- إذا كنت لا أصلح فلأنصرف بسلام...  
فتساءل الفرمانى ببرود:  
- عندك فكرة عمّا كلّفني تدرييك وكساؤك  
وتغذيتك؟

فعبست وصممت. وكان المتفق عليه أن تعمل حتىّ  
نهاية الصيف بلا مقابل نظير التكاليف، على أن تكافأ  
في الصيف بعد ذلك بجنّيه في الليلة، وثلاثين قرشاً  
بقية العام. وتساءل عليّ جلال بمكر:

- ألا تعطي شيئاً على الحساب؟  
فقال الرجل بحزم:  
- لم اعتد أن أغيرّ حرفاً في اتفاق...  
ثمّ مستدرجاً:  
- لا تنسّ تحيات الزبائن!

- ١١ -

سألت عليّ جلال وهما عائدان مشياً على الأقدام إلى  
الإبراهيميّة:

## الحب فوق هضبة الهرم ٨١

الندى بنسائم الخريف المشعشة بأضواء النجوم وقال:  
 - الحظ يتسم، ما رأيك في مروان أمين؟  
 فقالت بحماس بريء:  
 - مهذب للغاية، فوق ما تتصور...  
 - الفلير دامور مكان محترم!  
 - هل سمعت عنه؟ ... مروان أمين؟  
 - يقول عنه مأمون الفرمانى إنه صاحب جريدة  
 «الصوت»، أذكر أنه جالس مرّة عصمت باشا  
 خورشيد في بدر...  
 ولكنّه ألقها بحماسة الزائد وهو يتساءل:  
 - متى يتاح لنا أن نؤجّر شقّة صغيرة وجميلة؟!

- ١٤ -

واظب مروان أمين على الذهاب إلى الفلير دامور  
 مساء كلّ أحد. وجعل يطلبها إلى مجلسه في كلّ  
 زيارة. نشأت بينهما مودة حميمة وألفته بأريحية وعذوبة.  
 ومرّة قال لها:  
 - جمالك فريد، وهو مصري صميم...  
 فقالت ضاحكة:  
 - ولكنك لست مصرياً صميماً!  
 فرفع حاجبيه الكثيفين وهتف:  
 - كيف؟!  
 - عينك!  
 - هذه الزرقة؟... أوه... كانت جدّي جركسية  
 ولكنني مصريّ مائة في المائة... المصريّ من يحبّ  
 مصر...  
 - ولكنّ مستر فاوولز يؤكّد حبّه لمصر!  
 فضحك ضحكة عالية وقال:  
 - رجل البورصة الإنجليزي؟!... ذاك حبّ  
 مغرض، الحبّ أنواع كما ترين...  
 فتساءلت باهتمام:  
 - حبّ مغرض؟  
 - كما نحبّ البقرة لنستغلّها...  
 فوجمت وكان وجهها مرآة صافية صادقة فسألها:  
 - ما لك؟  
 - لا شيء.

مضت إلى المقصورة فوجدت في استقبالها شاباً أنيقاً  
 وجيهاً ذا جاذبيّة واضحة، صافحته بسمة كالعادة فقال  
 بصوت أضحك كثيراً من عوده النحيل:  
 - أهلاً... مروان أمين المعجب بفنّك  
 وجمالك...  
 فتمتمت وهي تجلس قبالة تحت أغصان الياسمين  
 المعشوق في أعواد الزان:  
 - تشرّفنا.  
 وجاء الجرسون كظّلها فقال مروان أمين بنبرة  
 مترفّة:  
 - اثنين ويسكي...  
 عيناه نجلاوان، وسيم القسيات، مبروم الشارب،  
 عذب الابتسامة. تأملها بإعجاب وقال:  
 - يخيّل إليّ أنّك ولدت لتكوني راقصة، ومجيكك إلى  
 الفلير دامور أضفى عليه حيويّة لم ينعم بها من  
 قبل...  
 - أشكرك جداً...  
 وشرب نخبها ثمّ قال:  
 - اطلبي ما تشائين، لا تتقيدي بي فإنّي لا أشرب  
 عادة أكثر من كأسين...  
 فحنّت رأسها ممتنة وسألته:  
 - حضرتك من الإسكندرية؟  
 - نعم، أنا وأجدادي، إنّها مدينة عالميّة كما  
 ترين...  
 - نصف زبائننا من الخواجات...  
 لزم أدبه طيلة الوقت. لم تدر منه كلمة نايبة، ولا  
 ملاحظة مأكرة، ولا حركة مستهجنة. واتّسم بوقار لا  
 يناسب سنّه حتّى تساءلت في نفسها عمّا جاء به،  
 وجعل يميّتها على الشرب حتّى شربت ستّ كاسات من  
 الشاي المثلّج.  
 وعند منتصف الليل نهض وهو يقول:  
 - ليلة سعيدة أرجو أن تتكرّر كثيراً...

- ١٣ -

رجعت تلك الليلة بصحبة عليّ جلال وفي جيبيها  
 مائة وخمسون قرشاً، ولما دسّتها في يده تهلّل وجهه

## ٨٢ الحب فوق هضبة الهرم

يرون في الحب أنواعًا أما الفقراء فلا وقت لديهم  
لذلك، إنهم يجاربون العناء بكل وسيلة.  
فقالت وعيناها تغرورقان:  
- إنّي أرفض.  
فقال بإصرار:  
- كلاً يا سارة. شلبية ترفض نعم. وتحفظ قلبها  
لي، أما سارة فتخوض إلى جانبي معركة واحدة.

- ١٦ -

انسابت بهما الفورد في الطريق المحضوف بالمزارع،  
في السماء غيم كثير والريح تنقض بعنف ولكن الطقس  
معتدل لطيف. دخلا بيتًا خلويًا صغيرًا في «أبو قير».  
بدا مروان أمين طيلة الوقت نشيطًا سعيدًا. مضى بها  
إلى فراندا وهو يقول:

- لو كانت ليلة مقمرة لسبحنا معًا...  
- الحمد لله على أنها غير مقمرة.  
- تخافين البحر؟... أأست إسكندرية.

- كلاً، من رشيد...  
- بلدة ذات تاريخ مجيد، إنّي سعيد بوجودك.  
- وأنا سعيدة...  
- فرمقها بشيء من الريبة ثم تساءل:

- لكنّ الظاهر أنني لم أحظ بإعجابك؟  
- أبدأ، المسألة أنني أفعل ذلك لأول مرة...  
فقال بصدق:

- إنّي أصدّك، السراة لا تكذب، ولكن هل  
سأك ذلك؟  
فقالت وهي تغضّ بصرها:  
- إنّي سعيدة...  
- ١٧ -

في رحاب مروان أمين ظفرت بحنان واحترام  
ومعاملة رفيعة ونقود وفيرة. إنّه أفضل من عليّ جلال  
بما لا يقاس فلماذا يتعلّق قلبها بعليّ وحده؟ لا سبب  
معقولًا واحدًا يدعوها إلى حبه ولكنها أسيرة هواه، وفي  
سبيله تضخّي بكلّ غالٍ. وهو أيضًا يحبّها ما في ذلك  
من شكّ، على طريقته أي نعم، ويشاركها الوحدة

- لا يجوز أن تتكذّري هذه الليلة بالذات...  
- لماذا هذه الليلة بالذات؟  
- نويت أن أدعوك للعشاء في بيتي!  
وبلا تردّد أعادت الأسطوانة المعتادة أمام هذا النوع  
من الدعوات:

- معذرة... أنا لا أفعل ذلك...  
فدهش، صمت قليلًا، ثم قال مرتبًا لأول مرة:  
- إنّه لأمر مؤسف لي جدًّا، ولكنك رائعة!  
وجاء مأمون الفرمانى عند انتهاء السهرة ليودّعه  
فقال الشاب:

- كلّ شيء طيب ولكن...  
وضحك ضحكة عالية يداري بها ارتباكها ثم  
واصل:  
- ولكن من المؤسف أنّ سارة الحلوة لا تلبّي  
طلبات المنازل!

- ١٥ -

سار عليّ جلال طوال الطريق صامتًا فتوقّعت شرًّا!  
وفي الحجره نفخ وهو يخلع بدلته وقال:  
- غير معقول أن ترفضني النعمة...  
فهتفت بحلّة:  
- نعمة...  
- طبعًا...  
- إنّه الابتذال الرخيص كما سمّيته...  
- بل هو ثمين وغالٍ!  
- أنت تدفّني إلى ذلك يا عليّ؟  
- لصالحك، لصالحنا...  
- أنت تحبّني حقًّا؟  
- طبعًا.

- إنّه حبّ مغرض!  
فدهش عليّ وقال:  
- يا لها من كلمة...!  
- كما نحبّ البقرة لنستغلّها.  
فما تمالك أن ضحك، ثم قال:

- حديث السكارى عليك أن تفهمي الحياة خيرًا  
من ذلك، الحبّ في القلب، لا أهميّة للجسد، الأغنياء

## الحب فوق هضبة الهرم ٨٣

- وتستمر الحياة هكذا؟
- سنبداً يوماً حياة جديدة...
- متى؟
- عندما نطمئن على مستقبلنا...
- وابتسم إليها واستطرد:
- ثم نتزوج!
- وثبت متهللة فتعلقت بعنقه وهتفت:
- آه... متى يحدث ذلك!؟

- ١٩ -

منذ حديثها الأخير مع مروان أمين لم يواصل الشاب ممارسة غرامه معها. قنع بالمجالسة والمؤانسة وتبادل الاحترام والعواطف الرقيقة، ولكنه لم يضمن عليها بجروده وهداياه. ورغم كل شيء لاحظت عليه تغيراً غير يسير وقتوراً حتى قالت له:

- لست كسابق عهدك.
- فقال وهو يتسم:
- إني مريض...
- كفى الله الشر...
- أحتاج إلى جراحة، سأجرها في الخارج...
- يا لسوء الحظ.
- إني لم أعرف الراحة في حياتي...
- ولكنك غني والحمد لله...
- ليست مشكلة المال...
- عملك شاق؟
- جداً...
- سأدعوك دائماً بالسلامة...
- دعاء مبارك من قلب طاهر.
- ثم أخرج من علبة سواراً ذهبياً مطعماً بفصوص ماسية، أهداه إليها قائلاً:
- هدية لك لمناسبة السفر.
- فقال بتأثر شديد:
- أنت شاب نبيل، لو كان الناس مثلك ما عرف أحد الشقاء أبداً!...

- ٢٠ -

وقال لها عليّ جلال وهو يفضّص السوار باهتمام:

والعناء. ولن تنسى قوله ساعة رجوعها من عند مروان أمين أول مرة «أنا لا أستغلك ولكنّ كلينا يسلم للاستغلال». وهو أيضاً الوحيد الذي يناديها باسمها «شليّة» فتشعر بين يديه بأنها هي وليست شخصاً آخر. أما مروان أمين فقد احتلّ من نفسها مكانة سامية واحتراماً ومودة، وهو بلا شكّ يعشق جمالها ويهيم بمفاتها، ويغدق عليها بسخاء، ويحترمها بطريقة جعلتها تشعر بإنسانيتها لأول مرة. وقال لها مرة:

- إنك طيبة أكثر من اللازم يا سارة...

فقال ببساطة:

- الله مع الطيبين...

فجفل قليلاً وتمتم:

- الدنيا متوحشة وقد خلّقنا لنقاتل!

فقالت بدهشة:

- كيف أقاتل وأنا امرأة ولا أهل لي؟

فتجهّم وجهه، وفتّر حماسه، ثمّ سأها:

- ماذا جاء بك إلى الفلير دامور؟

فأعدت أسطوانة حفظتها عن ظهر قلب:

- سرت من يتمّ إلى زواج فاشل إلى طلاق، ثمّ

دعاني الفرمان...

فقال لها وهو يتنهّد:

- ادخري كلّ ملّيم، فلا سبيل إلى النجاة في هذه

الغابة إلا بالنقود! أما الإيمان فلا ينقصك...

- ١٨ -

وتوتّب عليّ جلال للتجديد بلا توانٍ، اكرى شقة صغيرة في كامب شيزار بعمارة جديدة، وتبدّى في مظهر أنيق فلم يبق من ابتذاله القديم إلا نظرة عينيه البرّاقة المتحدّية. وقال لها:

- تركت خدمة الباشا!

فسألته باهتمام:

- ألم تتسرّع؟

- كلا، إني أفكر في مشاركة الفرمان...

- دفعة واحدة؟

- كلّ شيء يتوقّف على اجتهادك!

فسألته بأسى:

والوجه غليظ اليدين متين البنيان. يشرب كثيرًا ونادرًا ما يسكر، يعرف كلمات معدودات من العربية يستعين بها على توضيح إشارات وقت السمر أو يمضي الوقت صامتًا. كانت تؤانسه ليالي كثيرة في الفلير دامور ولكنه لا يدعوها إلى بيته إلا مرة أو مرتين في الشهر. وكان يقيم في الدور الأول من بيت أنيق يقوم على هضبة فيكتوريا. أرمل وحيد، أولاده في أستراليا، يخدمه نوي ومساعدته، وقد ولع بسارة، ولانقطاع التفاهم بينها ظل حياها رمزًا مجهولًا. وجدت معاملة لطيفة وأهداها قرطًا ثمينًا ولكنها شعرت نحوه بشبه نفور وخوف ولم تأنس من وجهه الضخم الحاذق شعاع جاذبية واحدًا. أعجبت فقط بعمق زرقة عينيه، وتذكرت بلونها مروان أمين وأيامه الحلوة. في الصباح ترى البقعة خالية ومترامية، رقعة منها صحراوية، ورقعة يتناثر فيها النخيل وتعطيها الحشائش، ويقوم البيت الأنيق وحيدًا فوق الهضبة يُصعد إليه بدرجات منحوتة في الصخر. وهو مكوّن من دورين، يقيم فالولز في الأرضي المغروس وسط حديقة أما الثاني فلا يبيء منه صوت، ومرة رأت في شرفته عجوزًا مهيبًا فأسرعت في مشيتها كأنما تفرّ. البيت جميل تحت هامات السحب ولكن كأنه ملجأ للعجائز أما النخيل الفارع المثقل بالبلح الأحمر فذكرها برشيد فنسبت على قلبها ذكرى مبهمة مبتلة بالدمع.

- ٢٢ -

وذات ليلة وجدت في مقصورة مستر فالولز آخر مجالسه، قدّمه لها بنبرته الإنجليزية قائلاً:  
- جاري مهدي باشا جلال!  
آه، إنه العجوز الذي لمحت في الشرفة، حياها بابتسامة جذابة. إنه طويل ضخم الهيكل رغم رقة لحمه، فضي الشعر والشارب، مشع العينين ذو أنف غليظ، وله وقار نفاذ. من أول نظرة أنست إليه وشغفت بأبوته الكامنة. يبدو أكبر من فالولز ولكنه ممتلئ حيوية وابتسامًا. شرب بكثرة مثل فالولز وتتابعبت ضحكاته، حادث فالولز بلسانه، وحادثها - طبعًا - بلسانها. صوته عذب أيضًا. قال لها:

- لقد أنهى العلاقة بينكما بلباقة وبلا كسر خاطر!  
فقلت معترضة:  
- لا تسيء به الظن فإنه لا يكذب...  
فقال عليّ بازدرأ:  
- الصديق محرج ومهلك.  
أما سارة فقد حزنت لفراقه، وتمتت لو دام لها ليجنبها على الأقل التورط في علاقة جديدة مجهولة. أدركت أنّ عليّ - وقد جنى من العلاقة القديمة ما جنى - سيلقي بها بلا رحمة بين يدي ذراعين واعدتين. ومضت تكون لها شخصية فتيّة مؤثرة وتتوكد شهرتها وسحرها. وهلّ الصيف برطوبته ورواده وضجيجته. وازدحم الفلير دامور بالزبائن الجدد. وتكررت المجالسات كلّ ليلة. والاعتذارات عمدًا عدا ذلك. وطبعًا كان عليّ يوافق على ذلك مترفعًا عن العساق «المفلسين» عشاق الليلة الواحدة! واقترح عليّ أن يدخل شريكًا في الملهى ولكنّ الفرمانى رفض. وفي الوقت نفسه استرضاه فعينه مديرًا للملهى بجنيه يومية في الصيف، ونصف جنيه في سائر العام. وفي أواخر الصيف الثري جاءت أبناء حزينة من وراء البحار تعى الصحفى الشاب مروان أمين. واهتر قلب سارة، وغشيتها حزن صادق، فتوارت في حجرتها وبكت طويلًا. وفي أوائل الخريف رجع مستر فالولز إلى الفلير دامور، وإذا به يدعو سارة للعشاء في بيته! وكالعادة اعتذرت. وسعد بذلك سعداوي بياع الفستق وممس في أذنها:

- إنهم أنجاس!  
غير أنّ مأمون الفرمانى احتدّ بشدة وقال:  
- كيف ترفضين إنجليزياً؟  
وسأله عليّ:  
- أظنه مقتصدًا كسائر تجار البورصة!  
- إنه يقدم هدايا أئمن من النقود...  
فقال عليّ مخاطبًا سارة:  
- إنه على أيّ حال عجوز ولن يضايقك!

- ٢١ -

مستر فالولز يقترب من الستين، ربعة ضخم الرأس

## الحب فوق مضية الهرم ٨٥

بالجلوس معي؟  
 - لا أدري .  
 - على أيّ حال فأنت حرّة، أليس كذلك؟  
 فقالت ضاحكة:  
 - لم يشترني بعد .  
 - عظيم، ما جوابك لو دعوتك إلى بيتي؟  
 - إنّه نفس البيت...  
 - لم لا؟...  
 وبسرور، وقبل مشاورة عليّ هذه المرّة، قالت بجرأة  
 جديدة:  
 - إنّي أقبل... -

## - ٢٥ -

أحبّت المسكن، وأدهشتها فخامته، فهقه الباشا  
 وهو يقول مشيرًا إلى أسفل:  
 - لا يتصوّر الحيوان أنّك هنا...  
 وشرب كعادته، ونشطت شهيتها فأكلت بلذّة. وكما  
 نمل سألها:  
 - هل تغنين؟  
 - كلّاً للأسف...  
 فوضع في الحاكي أسطوانة وهو يقول:  
 - إذن نسمع «يوم الهنا»...  
 وراح يفرقع بأصابعه مزيجًا وقاره جانبًا ويقول:  
 - كلّ ما يخفق القلب له عبادة!  
 - هل تغني أنت؟  
 - أحيانًا.  
 - إذن فأسمعني صوتك.  
 - كلّاً... أودّ أن أعطيك خير ما عندي...  
 فضحكت وقالت:  
 - أنت رجل ظريف.  
 - أنت ساحرة يا سيارة.  
 فتساءلت وقلها يمتلئ بحبّ بريء صافٍ:  
 - متى ماتت زوجتك؟  
 - إنك تتحرّين عنيّ، حسن، حسن، منذ عشرين  
 عامًا...  
 - ولمّ لم تتزوج؟

- رقصك جميل مثل وجهك...  
 وفي آخر السهرة تقدّمتها بسيّارته حتى البيت  
 جيد، ثمّ مضى إلى شقّته العليا، فتمنّت أن يجيء  
 ليلة.

## - ٢٣ -

قالت لعليّ جلال وهي تحدّثه عن الباشا:  
 - لقبه جلال مثلك!  
 فقال باسمًا:  
 - إنّه أكبر محامٍ في الإسكندريّة، محترم بين أولاد  
 عرب والخواجات، على علاقة وثيقة بعصمت باشا  
 نورشيد، كما كان صديقًا للمرحوم مروان أمين رغم  
 ارق السنّ، غنيّ لدرجة كبيرة، أرمل وبلا ذريّة...  
 - إنّه جار مستر فاولز ويعيش وحيدًا مثله...  
 وصمّت قليلًا ثمّ قالت بدعابة:  
 - لقد وقعت في هواه!  
 فقال لها باهتمام:  
 - المهمّ أن يقع هو في هواك!

## - ٢٤ -

في الليلة التالية مباشرة شرّف مهدي باشا جلال ولم  
 تكن من الليالي التي يسهر فيها فاولز. ودعا سيارة إلى  
 مقصورته فجاءت ممتنة وسعيدة. رشف من كأسه وكما  
 رفعت كأسها أوقف يدها برقة وهو يقول مازحًا:  
 - الشاي منك للأعصاب!  
 فضحكت، وأدركت من توّها أنّه دائر وابن سوق،  
 فقال:  
 - اطلبي ما تشائين ولكن لا تشربي إلّا القدر  
 المناسب...  
 فقالت بصراحة وبراعة:  
 - إنّي سعيدة بالجلوس معك...  
 - مثلك وأكثر، ولكن ما رأيك في فاولز؟  
 - شخص غريب...  
 - شيطان...  
 - حسبته صديقك؟  
 - صديق عمل ليس إلّا... ماذا لو علم بأنك سعيدة

فقصت عليه القصة المحفوظة فقال بحنان:  
 - لا داعي للخيال!  
 - ألا تصدقني؟  
 - لعن الله من لقنك الكذب.  
 فغلبها الحياء وسكتت فقال:  
 - عرفت حكاية سراي عصمت خورشيد، وعليّ  
 جلال!

ازدادت صمتاً وحياء فاستطرد:  
 - إنه يستغلك بدناءة!  
 - كلاً... إنه يحبني...  
 - وأنت، أتحبينه؟  
 فلاذت بالصمت فقال:  
 - إنه لا يستحق حبك.  
 - الحب وحده لا يكفي.  
 - أنت مشكلة يا شلبية.  
 - إنك تعرف كل شيء...  
 - إنني محام عجز...  
 - إنني أحبك أيضاً!  
 - وكانت أمي اسمها شلبية!  
 - أنت فلأح؟  
 - طبعاً، ليس كلّ باشا بعصمت خورشيد...  
 - إنني وحيدة.  
 - أنت؟! كلاً، إنك أقوى مني، وأقوى من فاووز،  
 أقوى من أيّ عاشق، العاشق ضعيف أما المعشوق  
 فقوي، ولكن ما جدوى الحب إذا لم أرد إليك كرامتك  
 يا زينة النساء؟!

- ٢٨ -

وذات ليلة وهو ثمل لثم عنقها وتساءل:  
 - هل توافقين على الزواج مني؟  
 ذهلت. سحرتها الكلمة المقدسة. طرب قلبها حتى  
 السحر. ثم سرعان ما ورث الأسى كافة مشاعرها.  
 راقبها صامتاً، ثم تساءل:  
 - عليّ جلال؟!  
 فلم تنبس، فرنا إليها واجماً، حتى تمتمت:  
 - إنك أجمل ما في حياتي...

- حزنًا عليها، وعلى نفسي لأنّ الله لم يكتب لي  
 الإنجاب!  
 - كنت تودّ أن يكون لك ولد؟  
 - إني أسلم بمشيئة الله...  
 فبعد تردد قالت:  
 - تتحدث عن الله وأنت...  
 فضحك عاليًا، وسلط عليها شعاع عينيه مليًا، ثم

قال:  
 - أرجو أن تحيي هدايتي على يدك...  
 فوضعت راحتها على يده وقالت:  
 - أنا أغضبتك!  
 - محال يا ساهرة، ألا ترين أنّي أحبك؟!

- ٢٦ -

كان سخيًا فوق الوصف. وأعلن حبّه بطريقة  
 صارخة ودون مبالاة فكان يأخذها في سيارته إلى بدرو  
 وأثنيوس وحديقة أنطونيادس. وإذا بمستر فاووز يقتحم  
 عليها الشقة ذات ليلة. أما هي فركبها الخوف، وأما  
 مهدي باشا فقد ضحك وهتف به:  
 - هاللو فاووز!

ولكنّ الآخر وقف متجهّم الوجه غيورًا حانقًا. رطنا  
 بما لا تفهمه ولكنّها توقعت شرًا. بدأ الحوار بدرجة  
 منخفضة ومضى يعلو ويشتدّ. تصلب متواجهين في  
 تحدّ. عجوزان يتطاحنان على امرأة. وإذا بفاووز يوجه  
 لطمة إلى صدغ الباشا، وإذا بالباشا ينهال عليه  
 باللطمات. وصرخت ساهرة. وتراجع فاووز فثبت الباشا  
 في موضعه. ذهب الرجل وجعل مهدي جلال يلهث  
 فأخذته ساهرة من ذراعه إلى ديوان وأجهشت في  
 البكاء...

- ٢٧ -

صارت له وحده في حياتها الأخرى. تمتت أن يبقى  
 إلى جانبها حتى آخر العمر. ذلك الأب الذي جادت  
 به عليها السماء. وسألها مرّة - كما فعل مروان أمين من  
 قبل:  
 - ماذا جاء بك إلى الفلير دامور؟

الحب فوق هضبة الهرم ٨٧

- ٣٠ -

وأصرّ عليّ جلال على مشاركة مأمون الفرمانى،  
وخشي الرجل أن ينفذ عليّ تهديده بفسخ عقد سارة  
فقبله شريكًا بثمان العقد، وفي الحال تجدد الملهي،  
فدعم بمطبخ شرقيّ وغربيّ وكافيتريا، وطلي من  
جديد، كما تجدد أثاثه. سُجّل عقد المشاركة باسم عليّ  
جلال، وظلّت هي لا تملك شيئًا إلاّ الحب، أو لا  
تملك إلاّ ما أتقنته من هزّ البطن والصدر والرقبة.

وسألت عليّ جلال:

- أما أن لنا أن نتزوج؟

فداعب خدّها برشاقة وقال:

- ما زلنا في أوّل الطريق، الملهي لا يعمل بكامل  
قوّته إلاّ ثلاثة أشهر، أما بقية العام فهو مثل سفينة في  
مهبّ العواصف والأمطار لا يأوي إليها إلاّ طلاب  
الدفء والستر...

- وما ضرر الزواج؟

- إنك ساذجة، لو حازك ووجه وأنت على ذمتي  
لأمكن أن أتعرّض لنهضة خطيرة تنزج بي إلى  
السجن...

- لم نعد في حاجة إلى هذه العلاقة...

- ما زلنا في أوّل الطريق، هل شيدت عمارة مثل  
أمانة الفنجرى؟!

- يا خيرا... إنه طريق بلا نهاية...

- بل له نهاية، وهي قريبة، ولكنها تطالبنا بالصبر  
والعمل...

- ٣١ -

وتجلّت في سماء الفلير دامور سحابة سوداء. فذات  
يوم غزا الملهي عمرو عبد القويّ مفتش الضرائب.  
شابّ في الثلاثين جادًا المظهر قويّ الجسم، يهزّ منظره  
المتهرّبين من أعماقهم. راح يفحص المستندات ويقيد  
ملاحظاته ثمّ ذهب. غاص قلب عليّ جلال في صدره  
ولكنّ مأمون الفرمانى قال له:

- لا تخف، كلّ إنسان وله ثمن!

وتحرّى عن المفتش الجديد عند بعض رجال الأعمال  
في الحيّ، رجع عصرًا وهو يقول:

- إنّي شيخ فإنّ وهو رجل شابّ، ولكن لا تسلّمي  
ستغلاله لك كأنه قضاء وقدر...

- إنّي أتمنّى السعادة ولا يهمني المال!

- لا أدري كيف أكافئك على ما وهبتي من  
عادة، والحقّ أنّي ما أردت الزواج منك إلاّ لترثي  
كتي التي لا وريث لها...

فقلت بإخلاص:

- حياتك عندي أغلى من التركة...

فقال بأسى:

- إنّي أحترم الحبّ وأقدّس الإخلاص فلا بأس

ليك ولعليّ أجد طريقة أخرى لكافأتك يا شليبة...

- ٢٩ -

أسعد أيام حياتها. تمتعت بالاحترام والحبّ ما شاء  
لها التمتع، وضاعفت العلاقة - مقرونة بما نشب حولها  
من عراق بين الباشا وفاولز - من شهرتها الفتية  
وأضفت عليها احترامًا لم تعرفه من قبل. وكان عليّ  
جلال يستحقّها دومًا على انتهاز الفرصة والإفادة من  
العلاقة ما وسعتها الحيلة ولكنها كانت تأبى ذلك، وفي  
الوقت نفسه لم يقصّر الرجل في إغداقه. وكثيرًا ما قال  
لها عليّ:

- ألاّ تدرين أنّه يترنح على حافة القبر؟

فكانت تغضب وتحتدّ وتدعو له بطول العمر،  
وتقول:

- ما عرفت أبًا قبله!

ولكنّ الحبّ مها بلغ من قوّته وصفائه لا يستطيع  
أن يدفع الحتم. فقد مضت صحّة الباشا في التدهور  
حتّى اضطرّ إلى اتخاذ قرار نهائيّ بتصفية عمله والإقامة  
في الريف. وكان وداع مؤثّر، أهداها هدية ثمينة عقدًا  
من الذهب ذا فصوص ماسية، وقال بتسليم:

- اليوم أو غدًا، لا مفرّ من النهاية، وسيكون لك  
في وصيتي ما أستطيع أن أوصي به، وعليك أن تحتفظي  
بها لنفسك حتّى تملكي استقلالك، وتضميني حياة حرّة  
كريمة...

ودّعته وهي لا تراه من فيض الدمع الصادق...



## ٨٨ الحب فوق هضبة الهرم

فقال مقهقهاً:  
 - أنا من نفس الأسرة...  
 ثم انهمك في عمله، واستدعى مأمون الفرمانى  
 وقال:  
 - المغالطات كثيرة ولكن لا مفر...  
 عند ذاك قالت سارة:  
 - أيّ معاملة بين أفراد الأسرة الواحدة؟  
 فحدجها بنظرة قوية وقال:  
 - العمل مقدّس مثل الصلاة!

- ٣٣ -

تمت المحاسبة في جوّ شديد التوتر، عمل الفرمانى  
 المستحيل ليتملص من قبضته ولكنّه لم يفلح. قال له  
 عمرو بحزم:  
 - عندك محكمة الضرائب إذا شئت...  
 ومني الملهى بخسارة فادحة على حدّ قول عليّ  
 جلال. وبكلّ جرأة جاء عمرو ليسهر سهرة شتوية  
 هادئة. كانت ليلة معتدلة صافية جاءت في أعقاب نوة  
 عاصفة أغرقت المدينة وأغلقت البوغاز. وكلّما آنس  
 من الوجوه تجهّماً مرح وددن واندمج في المشاهدة. ثمّ  
 بلغ القمة عندما طلب سارة للمجالسة. وقال لها  
 سعداوي المحبّ الأبدى:  
 - اذهبي، إنّه واجبك...  
 وذهبت متحدية، جلست وهي تقول:  
 - تقتل القتل وتمشي في جنازته...  
 فقال بسرور:  
 - إنّي معجب بك يا رشيدية!  
 - إنك مرعب...  
 - على المتهرّبين...  
 - تأخذون أموال الناس!... بأيّ حقّ؟  
 فتجاهل نقاشها وقال بحرارة:  
 - لا أحبّ الطرق الملتوية، فلنقصد الهدف رأساً،  
 إنّي أدهوك للعشاء في شقّي المتواضعة بكامب  
 شيزار...  
 - أنت في كامب شيزار أيضاً؟  
 - مسكنك هناك؟ عظيم، من رشيد إلى كامب

- الولد نزيه، سنلقى متاعب لا شكّ فيها...  
 فقال عليّ جلال:  
 - لاحظت أنّه نظر إلى سارة بإعجاب!  
 فقال الفرمانى:  
 - هذا هو الأمل الأخير!

- ٣٢ -

وجاء عمرو عبد القويّ ليتلقّى الإقرار. جلس في  
 مقصورة ليطلعه، وبإشارة من عليّ جلال جلست  
 سارة على مقربة من المسرح بحيث يراها المفتش. وكما  
 كرّر النظر نحوها ابتسمت في حياء، ثمّ مضت إليه  
 وهي تقول:  
 - أتريد شيئاً في أثناء عملك؟  
 فابتسم عن فم عريض متمتاً:  
 - خطوة عزيزة...  
 فجلست قائلة:  
 - نحن أصحاب المكان وعلينا إكرام الضيوف...  
 - مفتش الضرائب ليس بضيف!  
 - نحن نحبّ الناس كما ترى...  
 - ولو كانوا من رجال الضرائب؟  
 - ولو كانوا...  
 فواصل مطالعته وهو يتمتم:  
 - عذرت الآن فقط مهدي باشا جلال!  
 فقالت محتجة ولكنّ بعدوية:  
 - عفا الله عن الناس، كان لي أباً ولكنّ الناس لا  
 يرحمون...  
 فارتسمت في عينيه اللوزيتين ابتسامة ماکرة  
 وتساءل:  
 - أب؟  
 - صدّقني!  
 - لقد عرف كيف يختار ابنة فريدة!  
 فقالت بتواضع:  
 - لست إلاّ فلاحاً من رشيد!  
 فتجلّى الاهتمام في عينيه، وهتف:  
 - رشيد؟ أنا أيضاً من رشيد! أسرة من؟  
 - لا... لا... على باب الله...

الحب فوق هضبة الهرم ٨٩

فتساءلت:

- لماذا؟... ألم تقل إنه واجبي؟

- ولكن سيقع شرًا لا مفرّ منه...

وذهبت بلا تردّد. وجلست وهي تشعر بأنّها تستقبل حياة جديدة. وإذا بعليّ جلال يقتحم المقصورة ويأمرها قائلاً بفظاظة:

- اذهبي!

حدجه عمرو بنظرة قاسية وقال:

- عليك أنت أن تذهب...

فلم يباليه وكّرر أمره لسيارة:

- اذهبي.

ولما لم تتحرّك هوى بكفّه على وجهها.

وثب عمرو فوجّه إليه لكمة صادقة، سرعان ما اشتبكا في صراع مخيف كنمرين. وجاء مأمون الفرمانى وسعداوي والجرسونات. لم يفلح أحد في الفصل بين المتعاركين. حتّى تهاوى عليّ جلال على الأرض فعند ذلك رفع سعداوي كرسيّاً ليضرب به الشابّ غير أنّ سارة صاحت به:

- ارمِ الكرسيّ من يدك يا سعداوي...

وقف سعداوي ينظر إلى عمرو ولا يقول شيئاً وقد اصفرّ وجهه من شدّة الغضب.

وقبض عمرو على يدها وهو يلهث ثمّ قال:

- لا يجوز أن تبقي هنا بعد الآن...

- ٣٥ -

كانت غاضبة وحزينة فمضت معه. كأنّها في حلم... تترك الفلير دامور وتهجر الرقص؟! هل يمكن أن تتغيّر الحياة في غمضة عين؟ لم تحبّ حياتها الماضية ولكنّها لم تبغضها أيضاً لما أمّلتها في تحقيق الحياة المستقرّة التي تهيم بها. خرجت منها كما دخلتها فقيرة لا تملك مليّاً. استقرّت في شقة صغيرة متواضعة على مبعدة دقائق من شقتها الأولى. ولأوّل مرّة تحكي قصّتها بلا أكاذيب. وقال عمرو أوّل ما قال:

- لم تخسري بمجيئك شيئاً فقد كنت طيلة الوقت منهوبة...

فقال بصدق:

يزار. أصبحت الموافقة حتميّة!

- ولكنّي لا أقبل الدعوات الخاصّة، ألم تسمع نيّ؟

- سمعت عن مروان أمين وفاولز ومهدي جلال..!

- أنت مخبر؟!!

- إنك ترفضين الموظّفين الصغار وبخاصّة إن كانوا زيهين...

فقال ببراءة:

- لك جانب دمّ وآخسر خشن، وقد جئت لمجالسة الدمّ!

- ٣٤ -

وتفكّر عليّ جلال وقال:

- إنه لا يساوي شيئاً، إنّي أعرف مدّعي الشرف أكثر ممّا يعرفون أنفسهم!

وجاء عمرو في نهاية الأسبوع. كانت الليلة صامتة ولكنّها شديدة البرودة. ارتاحت لمجيئه ارتياحاً أدفاً أعماقها. أدركت أنّها تهيه شعوراً جديداً. لم تشعر به نحو مروان أمين النبيل المتباعد المترفع، ولا نحو مهدي جلال لطعونه في السنّ، إنه شعور جديد، وهو أوّل منافس حقيقيّ لعليّ جلال. عجبت لذلك فاج قلبها خوفاً مبطناً بسرور خفيّ. عمرو قريب جداً وأليف جداً، ينبض في جذورها الرشيديّة. وهو يصرّ على المجيء، متحدّياً الجفاء المحيط، من أجلها هي، وهو مثير للإعجاب بقوّته وتحديّه. وهمس عليّ جلال في أذنها:

- لا تلّبي إذا طلب.

هل استشعر باطنه خوفاً؟! ماذا عليها أن تفعل هي التي لم تخالف له أمراً؟ إنّها تضمّر العصيان لأوّل مرّة في حياتها. وتذكّرت كلمات مهدي باشا عن الاستقلال والكرامة. ماذا يريد عليّ منها أكثر ممّا أخذ؟ ها هي لأوّل مرّة أيضاً تحاسبه. وحلّت اللحظة الحرجة فجاء الجرسون يبلغها الدعوة، لاحظت أنّ سعداوي يراقبها بقلق، ذلك المحبّ القديم الصامت. دنا منها وهمس:

- لا تذهبي!

## ٩٠ الحب فوق هضبة الهرم

آلاف من الجنيهات. هبطت الثروة من السماء وقد  
بكت الراحل طويلاً ولكتها تماكنت نفسها لدى عودة  
عمرو، وقالت له:

- صرنا أغنياء يا عمرو!

ولكنه عبس وقال:

- كيف فعل ذلك لامرأة متزوجة!؟

- من أين له أن يعلم بزواجي؟

فقال بازدراء:

- ولوا

قالت بصدق وحرارة:

- كان أبي يا عمرو، صدقني...

- كانت سمعته الخاصة سيئة!

- رعاني وهو في السبعين...

- ولو... كان رجلاً سيئ السمعة!

فاغرورقت عينها وقالت:

- لو عرفته بنفسك لكان لك فيه رأي آخر...

فقال بحدّة:

- لئني أكره هذه الدموع...

- أتريد أن أرفض النعمة!؟... إنك فقير، وفي

بطني جنين!

فغادر الحجرة وهو يدمدم. لكنه لم يدلّ برأي

حاسم. لو أراد الرفض لجهر بذلك وهو لا ينقصه

الصراحة. هكذا احتفظت بالمال الموهوب...

## - ٣٨ -

سعدت سارة بزواج يجيها حقاً. زوج مفعم

بالرجولة والفحولة والشهامة والعطف. ولم يكدر

صفوها شيء من العادات البالية إذ كان بلا أهل

مثلها. ولا شك أنه كان نشيطاً في عمله، فما لبث أن

فاق دخله مرتبه السابق. غير أن الأيام كشفت لها عن

عيب أو عيبين جوهرين فيه. إنه شديد الغضب،

وغير متسامح، وإذا غضب أفصح عن غضبته بالكلمة

والفعل. في مرة، عند خروجها من سينما رويال لمح

شاباً يغازل فتاة بقحة، فما كان منه إلا أن لطمه، ثم

فعل به ما سبق أن فعل بعليّ جلال. ارتعبت وقتها

وقالت له:

- ما اهتممت أبداً بالنقود، وما تطلعت إلا للحب  
والاحترام...

فقال ضاحكاً:

- عندي منها الكثير ولكن لا مال لي إلا مرتبي

المحدود...

- لا أهمية لذلك عندي...

فقال بحرارة:

- وبالصدق والأمانة أصارحك بأنّي أحبّك...

ومضت الحياة عذبة غير أنّ عليّ جلال قابل رئيس

المصلحة وادّعى أنّ عمرو طالب برشوة، وكما رفض

سعيه افتعل مشاجرة ثمّ خطف راقصة الملهى...

## - ٣٦ -

لم يسفر التحقيق عن شيء ولكنه أساء إلى سمعة

عمرو عبد القويّ حتّى اضطرّ إلى أن يعلن رئيسه بأنه

أخذ الراقصة حقاً ولكن ليتزوج منها. وبالفعل عرض

الاقتراح على سارة وتمّ عقد القران. ورغم ذلك صدر

قرار بنقله إلى الصعيد فثار عناده وقدم استقالته. إنها

لخطوة جنونية ولكنه وجد عملاً في مكتب محاسبة حتّى

يمكنه الاستقلال بالعمل. سارة كانت السعيدة

الفائزة. لقد تحقّق حلمها الأبديّ في الزواج. وسعدت

سعادة لا مثيل لها، غير أنّها سألته:

- هل تورّطت يا عمرو في الزواج منّي؟

فقال بقوة:

- أبداً... الظروف سبقت، هذا كلّ ما هنالك،

ولكنّ نيّتي كانت صادقة...

وازدهرت سارة كالوردة المتفتحة...

## - ٣٧ -

وتتابعت الأيام متألمة بالبهجة، ومع أنّه كان شتاءً

قاسياً كثير العواصف والمطر إلا أنّها سعدت به وهي

تشاهده لأول مرة من وراء الزجاج دون اضطرار إلى

الخروج اليوميّ والسهر. أصبحت بمأمن من عواصف

الحياة وأمطارها. واستوت العاصفة والأمطار في وعيها

رمزاً للوجود والبهاء. وفي ذلك الشتاء انتقل مهدي

باشا جلال إلى جوار ربه، وقد أوصى لها بمبلغ عشرة

### الحب فوق هضبة الهرم ٩١

- المائدة تجمع بين خير الناس وأسافلهم . . .  
 - إنَّه سبب كافٍ لكي تُقلع عن هذا الداء  
 الوييل . . .  
 فلاذت بالصمت. وتوَكَّد لديها أنَّ ما تتمناه حلم  
 بعيد المنال، فتتهَدَّت قائلة:  
 - طالما حسبت نفسي أسعد امرأة في الوجود.  
 فقهقه قائلاً:  
 - وإنك لكذلك يا جاحدة!  
 فقالت بنبرة باكية:  
 - إني تعيسة يا عمرو!

- ٤٠ -

ومضت الأيام في قلق وتوتر حتى صدقت مخاوف  
 قلبها. بل جاءت الأحداث أسرع مما قدَّرت. ففي  
 ليلة احتدم التناحر ما بين عمرو وعليّ فانتهى إلى غايته  
 المحتومة وهي الشجار. وتراجع عليّ جلال أمام  
 ضربات لا قبل له بها فاستلَّ مطوأة طعن بها قلب  
 خصمه فتهوى فاقد الحياة!  
 هكذا اختفى الرجلان اللذان أحبَّتهما في ليلة  
 واحدة، ذهب أحدهما إلى القبر والآخر إلى الليمان.  
 وجئت المرأة من الحزن. وجدت نفسها وابنتها في  
 دنيا خالية. فقدت الحبَّ والأمان. ناعت تحت عبء  
 مسؤوليتها الكاملة عن وليدها ونفسها. وخاصَّة  
 وليدها، ابن الرجل الذي أحبَّته، الذي قرصته حشرة  
 فقوّضت بنيانه.

- ٤١ -

وانشقت الظلمات - ذات يوم - عن وجه سعداوي  
 يبياع الفستق. أثار في قلبها مكامن ذكريات جميلة  
 وأخرى محزنة، ولكتَّها وجدت نحوه امتناناً لا شكَّ  
 فيه. وتلقَّت مواساته الصادقة بمودةٍ وأسى. ثمَّ وضع  
 أنه جاء من أجل هدف أدلَّ على صدق عواطفه من  
 المواساة وحدها. قال:  
 - مأمون الفرمانى على أتمَّ استعداد لاستقبالك . . .  
 ولكتَّها قالت بوضوح:  
 - لن أرجع إلى تلك الحياة يا سعداوي.

- بالغت في العنف وكان القليل يكفي . . .  
 فقال لها بانفعال:  
 - إنها اللغة الوحيدة المجدية!  
 - لقد كنت على حقٍّ ورغم ذلك فقدت عطف  
 الناس.  
 - لا يهمني الناس!  
 ولكن ثمة عيب آخر بدا خطيراً فتأكَّ، ذلك ولعه  
 بالقمار. ما إن انقضى شهر العسل حتى كشف سرّه.  
 كان يقامر في شقَّة بالإبراهيمية، يسهر حتى منتصف  
 الليل، ويمتدَّ السهر أحياناً للفجر. قالت له برجاء:  
 - صححتك ومالك!

فقال بأسى:

- لكلِّ إنسان عيبه . . .  
 - ولكنَّ هذا العيب قد يجرب بيتنا . . .  
 فقبَّلها وهو يقول:  
 - لا تبالغي، ثمَّ إني محظوظ . . .  
 ولكنه كان يخسر أيضاً، ومرة رجع مديناً بمبلغ  
 جسيم أخلَّ بميزانه، فقالت له:  
 - عليك أن تسدّد الدين مهما كلّفنا ذلك . . .  
 وأعطته من هبة مهدي باشا جلال فتقبَّلها بوجه  
 واجم ونفس منكسرة حتى أثار عطفها.  
 وواصل اللعب، وانقلب عليه الحظُّ حتى أتى على  
 التركة كلّها، واسودَّ وجه الحياة.  
 وولد أحمد في ذلك الجوّ المتجهّم . . .

- ٣٩ -

وقال لها ليلة عقب عودته من الإبراهيمية:  
 - مصادفة سيئة جداً . . .  
 - ليحفظنا الله . . .  
 - انضمَّ إلى مائدتنا عليّ جلال!  
 فانقبض قلبها وتساءلت بقلق:  
 - مصادفة؟!  
 - طبعاً . . .  
 - وهل ذهب إلى هناك كلَّ ليلة؟  
 - يبدو ذلك .  
 - قلبي غير مطمئن . . .

## ٩٢ الحب فوق هضبة الهرم

فقال الرجل بحماس :

- وَغَدُّ عَلَيْهِ حَقٌّ، أَلَا يَطَالِبُكَ بِمَا لَا تَرْضِيهِ!

فقلت بإصرار:

- أصبحت اليوم أمًّا، وَعَلَيَّ أَنْ أَصُونَ سَمْعَةَ ابْنِي

من الآن فصاعدًا، ومن حسن الحظِّ أَنِّي أَخْفَيْتُ هَدِيَّةَ

ثَمِينَةَ أَهْدَانِيهَا الْمَرْحُومِ مَهْدِي بَاشَا جَلَالٍ، وَبِهَا يُمْكِنُ

أَنْ أَبْدَأَ بِدَايَةِ جَدِيدَةٍ تُمْكِّنُنِي مِنْ تَرْبِيَةِ ابْنِي كَمَا

أريد...

ارتسم الترحيب في وجه سعداوي وتمتم:

- ليكن. إنه أفضل على أيِّ حال، وستجديني في

خدمتك على الدوام.

جلس الرجل يرنو إليها ولا يزيد، ولكنَّ نظرة عينيه

باحت بأكثر مما قال. كأنَّما تبتهل إليها أن تؤمن بأنَّها

ستجد دائمًا من يتذكَّرها عند الشدَّة، ومَنْ يَجِبُهَا حُبًّا

صَادِقًا...

## صاحب الصورة

واستقرّ الرأي على إبلاغ الجهات الرسمية. عند ذلك اتخذ البحث مجرىً جديدًا فشمّل الأقسام والمستشفيات، وازداد اللغز انبهاشًا، والتشاؤم استفحالاً، وكان الرجل رائحة وتلاشت في الكون...

وتلاحقت الأيام... فتجسّد الاختفاء صخرة سوداء لا تترجح، يتحطّم عليها الأمل. لقد اختفى شيخون محرّم كأنه لم يكن.

وجاء دور التحقيق والتحريات، ولكنّه لم يسفر عن جديد أيضًا، فلا عداوة ولا سرقة ولا شبهة سبب مما قد يفضي إلى جريمة.

وخلت سريرة هانم إلى ابنتها عيسى وهي في غاية من اليأس، وقالت له:

- لم أذلّ بكلّ ما عندي في التحقيق!

فرنا إليها الشابّ ذاهلاً وتساءل:

- أعندك مزيد؟

- قلت إنّني لا أعرف لأبيك عدوًا...

- هذا حقيقيّ...

- كلاً...

ثمّ مواصلة حديثها بعناد:

- عمك...

- لا... لا... المسألة أنّك دائماً تسيئين به

الظنّ... ليس لديك دليل واحد.

- لديّ قلبي!

- لا يكفي. إنّك تكريهته...

- لا لشيء إلاّ لأنّه كره أباك.

اختفى شيخون محرّم.

كان اختفاؤه حدثاً هزّ المجتمع هزةً عنيفة. كان رجلاً مرموقاً، ذا نشاط ماليّ عريض، وله في السياسة وجود راسخ وأثر، وفي دنيا الإحسان والخير أيادٍ بيضاء، إلى سمعة طيبة ذات رائحة زكية.

غادر سراياه في أصيل يوم قاصداً النادي، ثمّ اكتشفت أسرته - المكوّنة من حرمه سريرة هانم ووحيد عيسى - أنّه لم يعد. انزعجت الأسرة أيّما انزعاج، إذ لم يسبق أن شدّ الرجل عن جدول مواعيده بلا إخطار. أتصلت الهانم برفقائه في النادي فأجمعوا على أنّه لبث بينهم ساعة واحدة، ثمّ انصرف ليزور -

على حدّ قوله - شقيقه محمود محرّم في سراياه بالزمالك، وفي الحال أتصلت الهانم بمحمود محرّم، ولكنّ زوجته

أجابتها بأنّ زوجها في رحلة في البحر الأحمر يرجع منها مساء اليوم وأنّ شيخون لم يزرهم منذ أكثر من أسبوع.

وشهد سائق السيّارة بأنّ الرجل غادر النادي، أمره بالانتظار في موقفه، ثمّ مضى مشياً على الأقدام، وأنّه

لزم موقفه حتّى شقشق الصباح...

وبدأ بحث شاقّ ملهوف على شيخون في جميع مظانه. عند جميع الأصدقاء والزملاء، في الإسكندرية

وفي العزبة، فارتطم دائماً بخيبة مرّة، فاشتعلت الأفتدة بالقلق والوجل، وتجمّعت سحب الظنون.

ووفد على سراياه الأهل وفي مقدّمهم شقيقه محمود محرّم، والأصدقاء والمعارف، وتداولوا الأفكار

والحلول، وقالت سريرة هانم:

- لو كان بخير لا أتصل بنا!

## ٩٤ الحب فوق هضبة الهرم

فكان جواب العمّ أنّه سدّده، وأنّه لم يكن بينه وبين شقيقه تعامل رسمي! وزاد ذلك من سوء ظنّ المرأة. ولكنّ العجيب أنّ محمود محرّم بقي على ولائه لذكرى شقيقه، بل إنّه استدعى عيسى إلى مقابلة خاصّة في النادي وقال له:

- أسباب الغضب متوافرة لديّ، ولكنّي مصرّ على الإبقاء على أواصر القرين، فتذكّر دائماً أنّي عمّك، كما أتذكّر دائماً أنّك ابن أخي...

وتواصلت الأيام، ولحقت بها الأشهر، ثمّ الأعوام، انتهى شيخون محرّم غير أنّه عاش ذكرى حيّة في ضمير سريرة هانم، ذكرى حيّة لا تموت. لم تتعزّز أبداً، لم يفتر حبّها له. لم تياس من أن يستقيم عود العدالة المعوجّ ذات يوم. وكثيراً ما كانت تقول لابنها:

- أبوك يطالبنا بالعدل ونحن عنه لاهون...  
وكان عيسى قد حلّ محلّ أبيه في الإدارة، فشغله العمل عن كلّ شيء، وشغلته الحياة أيضاً بمسرّاتها اليومية، فكان يتجنّب مناقشاتها ما وسعه ذلك. ويثيرها بروده فتتهف:

- ألا ترى أنّي لم أذرف حتى الآن دمعة واحدة؟! فيقول برقة ما أمكنه ذلك:  
- ما هكذا يلقي العقلاء النواب...  
- أتراني مجنونة؟

- أمي!  
فتقول بأسى:  
- لم ترث إلا أملاكه!  
وحلّت الكارثة الكبرى عندما قال لها يوماً:  
- أمي افتحي لي صدرك...  
فرمقته متوجّسة، فقال:

- قرّرت أن أتزوّج من سميحة!  
بهتت المرأة. اصفرّ وجهها. ارتعشت أطرافها. قال بضيق شديد:

- الأمر بسيط جدّاً لولا ظنون لا أساس لها...  
فقالت بفرع:  
- طالما توقّعت ذلك، طالما توقّعت أنّه الموت المحتوم...  
فابتسم في امتعاض شديد دون أن ينبس، فتمتمت

- لا أوافقك على ذلك، كانت العلاقة بينهما دائماً مثاليّة.

- في الظاهر فقط، وعمّك مجرم، ألم تسمع بما يقال عن ضحاياه في الريف؟  
- ذاك أمر آخر...

- إنّه مطبوع على الإجرام...  
- كان يحبّ أبي وأبي يحبّه...  
- قلبي لا يكذبني. كنت أقرأ في عينيه أحياناً ما يخيفني، إنّه ينفس على أبيك نجاحه وثراءه...  
- عمّي ليس بالفقير...

- هنالك سرّ لا تعرفه، لقد واجهت عمّك خسارة أوشك أن يبيع بسببها أرضه لولا أن أسعفه أبوك. أسعفه بلا عقد، أنت تعرف شهامة أبيك، ولكنّ الدين ثقيل ولا حجّة عليه...  
فتأقّف الشاب وقال:

- المسألة أنّك سيّئة الظنّ بعمّي...  
- المسألة أنّك مصرّ على حسن الظنّ به...  
- هذا هو الأصل...

- آخر ما سمعنا عن أبيك أنّه ذهب للقاء عمّك!  
- ثمّ ثبت أنّ عمّي كان في رحلة مع صحبه...  
- طالما قتل عمّك الأبرياء وهو بعيد عن موقع الجريمة...  
- أساطير لا دليل عليها... لماذا تكرهينه؟

- قلبي، ألا تؤمن بحديث القلب؟  
- كلّاً، لا أؤمن إلاّ بالمحسوس...  
- هذا يعني أنّك لا تؤمن بشيء!  
- هل فاتحت أبي بظنونك؟  
- لم يصدّق لصفاء سريرته.

- أرايت؟  
- ولكنّه اعترف لي بخلاف نشب بينهما قديماً...  
- هذا حال الناس جميعاً.

وكانت الأمّ أصلب ممّا تصوّر ابنها، فأفضت بظنونها إلى المحقّق. وكان خطب وفضيحة. وجرى تحقيق دقيق مع محمود محرّم، ولكنّه لم يسفر عن شيء. تزعزع الأساس الذي يستند إليه فرعا الأسرة الواحدة. وطالبت سريرة بالقرض الذي اقترضه من زوجها،

## الحب فوق هضبة الهرم ٩٥

رأى عجزاً يتسلل إلى السراي متوكِّناً على عصاه، رنا إليه مقطّباً بادئ الأمر، ثم اجتاحه الارتياح والذهول فوثب نحوه وهو يهتف:

- أبي!

حمل ما بقي منه بين يديه ومضى به إلى فراش، وسرعان ما استدعى الطبيب. لم يكن به مرض ولكن نهكته الشيخوخة والضعف. وما إن استلقى فوق الفراش حتى تحلّت عنه قوى المقاومة فتبدّل شخصاً آخر، ولما استيقظ من نوم عميق ظنّ عيسى أنه استردّ عافيته فسأله بشغف:

- أين كنت يا أبي؟... ماذا غيّك ذلك الدهر الطويل؟

ولكنه لم يجب. بل كأنه لم يسمع، وهومّ في آفاق بعيدة، ورجع عيسى يسأل من جديد، ولكنّ الأب لم يباله، وتمتم كأنما يخاطب نفسه:

- الجبال الخضراء...

فسأله باهتمام:

- أكنت في الخارج؟

فمضى العجز في حديثه الباطني:

- والبحيرات الزرقاء...

- أين يا أبي؟

فهمس متنهّداً:

- وعشّ الحبّ والعناء؟

فهتف عيسى في أسى:

- لقد فقدت أمي عقلها.

فعاود الهمس متمتاً:

- عشّ الحبّ والعناء!

\*\*\*

ويش عيسى من الاتّصال به، ولكنّه قرّر أن يجمع بين أبيه وأمه، وأمل من وراء ذلك في الشفاء.

وجيء بالأمّ رغم إرادتها حتى بكّت، ولما اجلسوها أمام الراقد فوق الفراش كفّت عن البكاء. خفق قلب عيسى بالترقب... ولكن لم يحدث شيء ذو بال. لم يتبادل الزوجان نظرة عتاب أو فرح أو حزن. ترامقا كأنهما ينظران في فراغ. غاص كلّ منهما في دنيا لا علاقة لها بدنيا الآخر. كأنه لم يعرفها وكأنها لم تعرفه.

بمرارة:

- ابنة قاتل أبيك؟!

فقال برقة:

- ابنة عمي...

تقوّست المرأة في جلستها من شدّة الألم، ثمّ قالت بحدّة صارمة:

- إنه الفراق الأبديّ بيني وبينك!

وهاجرت من المدينة إلى القرية، عاشت في السراي الصغيرة في وحدة عميقة. وتركزت طيلة الوقت في هواجسها. وكان صوتها يسمع وهي تحاور نفسها بلا انقطاع. غرقت في الضياع الذي ذاب فيه زوجها المحبوب.

وتزوّج عيسى من سميحة. أصرّ عمه على أن يذهبوا جميعاً إلى القرية ليقدموا فروض الرودّ، ويستوهبوا الرضا، ولكنّها أبت أن تلتقى أحداً منهم، ومضت تردّد:

- ها هو ذا القاتل يحقّق هدفه ويصبّ ثروة ضحيّته في ذرّيته!

واستفحل العذاب بالأمّ حتى مزّق وحدتها. وفي عنتها الطاغية أخذت ترى المأساة خلال أبعاد جديدة وافدة من المجهول. تألّق في باطنها إلهام متوتّب بأنّ الأشياء تخلق من جديد. وطرق أذنيها همس مضيء دعاها إلى تلبية نداء خفيّ. تلاشى إيمانها بالجرّيمة فتبخّر اليأس وزال. وإذا بها تخرج من عذابها إلى الناس. تمضي في وقار ظاهريّ ويدها صورة شيخون. وكلّما صادفها شخص عرضتها عليه متسائلة وهي تنتظر أن يجيئها الجواب الشافي في يوم من الأيام. لم تسأم من تكرار السؤال، ولم يثبط همّتها النفي، وترامت أخبارها إلى عيسى ففكّر في اتّخاذ إجراء حاسم، ولكنّه اكتفى بعد تدبّر ومراجعة بتكليف أحد أتباعه في القرية بحراستها من بعيد. وتتابعت خطوات الزمان وهي مصرّة على بحثها العقيم، وتقدّم بها العمر فلم تهمل ولم تتخمد.

\*\*\*

وبعد دهر فريد.

كان عيسى يجلس في السلامك ذات أصيل عندما



## ٩٦ الحب فوق هضبة الهرم

تفتى في الجوّ توجس وأسى عميق. شعر عيسى بأنه  
 مجهول الأبرين.  
 وقامت الأمّ كأنما ضاقت بالجلوس. اقتربت من  
 الفراش حتّى لامسته، ثمّ بسطت الصورة أمام عيني  
 العجوز، وطرحت سؤالها الخالد:  
 - هل تستطيع أن تدلّني على صاحب هذه  
 الصورة؟!

## الرَّجُلُ وَالْآخِر

والآخر يأمل ألا يؤجل ذلك تنفيذ خطته. يرجو ألا يهدر تعب الطويل وتدبيره الحاذق. قد يكون اللقاء قريباً فتتعدّد الأمور وقد يكون لخد لن يجيء أبداً. الرجل يسير. لا يرهقه المشي. ولا يدري أحد متى يفتر نهمه وأشواقه. تجذبه معارض المحالّ التجاريّة كأنه ربّة بيت. الساعات والنظارات والأدوات المنزليّة والملابس وآلات الغيار والأجهزة الإلكترونيّة، حتّى اللوازم الطيّيّة وواجهات الصيدليّات تجذبه. يتشمّم رائحة الكباب والطعميّة، يقرأ عناوين الكتب والمكتبات. وكلّما جمعه موقف مع امرأة أو فتاة دخل مجالها الحيويّ، ولكن لم يحصل تلاحم جديد. ولون المغيب يتشرب بالسمرّة وتنفض النسائم برودة منعشة. دخل محلّ أقمشة، وخرج بكيس نايلون مشحون ودسّ لفّة الحلوى في الكيس مع القماش المشتري، ابتاع أيضاً كتاباً... ترى أيّ كتاب؟ متى يعتقد أنه سيرؤوه؟ ودّ لو يعرف اهتماماته الدفينة. إنّه لا يكاد يعرف عنه شيئاً ذا بال سوى الاسم والهويّة والتاريخ البغيض الغامض. وعطف الرجل إلى دكان مسح أحذية. اتخذ مجلسه فوق الكرسيّ الدوّار واضعاً حمله فوق كرسيّ خيزران قديم. ينظر إلى المرأة أمامه مغازلاً وجهه بإعجاب وارتياح. يواجه الصورة تارة ويشي رقبته يخي ويسرى تارة أخرى. والآخر يراقبه من زاوية فوق الطوار. التقت عيناهما لحظة فوق سطح المرأة. تضايق وتحركّ خطوة نحو الأمام. غاب الرجل عن منظوره. لا يرى الآن إلا الإسكافيّ العجوز وصاحبة المحلّ البدينة، خشي الآخر أن تلتصق صورته بعين الرجل

من دكان الفاكهة خرج الرجل حاملاً قرطاساً مثل قمع السكر. ابتلعه تيار بطيء متلاطم في سوق الخضار. ولقامته الطويلة برز وجهه الباسم المتورّد فلمحه الآخر من موقفه عند كشك السجائر وقال لنفسه «أخيراً... لن يفلت مني». وجعل يتابعه بانتباه حتّى تملّص من الزحام فمرق إلى الميدان. من المهمّ جداً ألا يثير رييته حتّى تحين الفرصة المواتية. الرجل يجيل بصره في الميدان حتّى يستقرّ على محلّ الحلوى في الجهة المقابلة ويمضي إليه فوق نصف دائرة الميدان الأيمن فيمضي الآخر نحو الهدف فوق نصف دائرة الميدان الأيسر. دخل الرجل المحلّ فوق الآخر تحت عمود النور العالي. جوّ الخريف عذب. ضوء الأصيل هادئ يهبط من السماء بعد أن توارى قرص الشمس وراء العمارة العالية. الرجل ينتظر أن يفرغ البائع له. عيناه تثبان بنهم بين صفوف الحلوى الشرقيّة والغربيّة. والآخر يراقبه بصبر. ثمة امرأة تنتظر أيضاً. مليحة ومتبرّجة ومرحّبة بالمجهول. الرجل يرمقها بنظرة مستطلعة. تعرض عنه ولكن شبه باسمه. يتزحزح خطوة فيقتحم مجالها الحيويّ. ها هو يمس بجراة. ها هما يتهاوسان، قال الآخر إنّ ذلك ينذر بتعقيد الأمور. إضافة جديدة لمتاعبه وتحذّر غير متوقّع لخطته. ويجيء دورها لابتناع ما تريد ثمّ يجيء دوره. يخرجان ووجهه يتهلّل ويطنح بالرغبة والظفر، يتبادلان كلمات ضاحكة مثل فقاعات الشهد. ثمّ تمضي هي إلى شارع الملاهي، يتابعها بعينه لحظة ثمّ يسير على مهل حاملاً القرطاس واللفّة. لا شك أنّها تواعدا على لقاء،

## ٩٨ الحب فوق هضبة الهرم

كلًا... إنه مأخوذ بمذاق الشراب وعيناه تدمعان.  
ينظر ولا يرى ويتملى صورته بإعجاب وبراءة.  
ها هو يغادر الدكان، يعبر الطريق، يغيب في محلّ  
ترزي يعدّ كسوة الشتاء، غاب ربع ساعة ثم عاد إلى  
الظهور، عرّج إلى مقهى الحرّية ثم دخل. المقهى على  
ناصية، وله أكثر من مدخل فلم يزر الآخر بدءًا من  
الدخول. جعل يراقبه من مجلس غير بعيد والرجل  
يحتسي فنجانًا من القهوة ويكتب خطابًا. أعطى  
الخطاب الجرسون وقام إلى التليفون. ها هو يقف قريبًا  
جدًا منه:

- آلو... حسن؟... الدكتور موجود؟

- .....

- احجز لي في أقرب موعد.

- .....

- عظيم... الساعة السادسة مساء... ..

شكرًا... ..

وما كاد يرجع إلى مجلسه حتى لحق به صديق،  
جالسه وهو يتساءل:

- حضرت الماتم؟

- نعم... علمت مصادفة... ..

- كلنا لها. هل أطلب الرد؟

- لا وقت!

- عشرة واحدة بجنيه، لي أولك... ..

نظر في الساعة، قبل التحلّي، لعبا من فورهما.  
يعلق بسخرية على كلّ رمية زهر، ماهر في الحرب  
النفسيّة، واثق من انتصاره، في أقلّ من عشر دقائق  
قام وهو يدسّ الجنيه في جيبه، فمضى ضاحكًا والآخر  
يقول له:

- يا لصّ، ربّنا يرزقك بنشال!

قال الآخر لنفسه إنها دعوة مستجابة غالبًا، يمضي  
الآن نحو عمارته وسط المدينة. هذه هذه الفرصة.  
ليست مضمونة تمامًا، إذا فشلت فعليه أن يرسم خطة  
أخرى. كلّمها فشلت خطة تعرّضت التالية لمصاعب  
جديدة. ها هو يغيب في مدخل العمارة. لحق به ثمّ  
دخل المصعد وراه. إنهما منفردان. الرجل يسأل بكرم  
دون أن يلتفت إليه:

خاصّة أنّ وجهه سهل الانطباع. وجهه غامق وعيناه  
حادتان وشعره أسود كثيف. ولكنّ الرجل مستغرق في  
ذاته ولم يره من قبل. أضواء مصابيح الشارع وتخيّل  
ظلّ المساء. ها هو يغادر الدكان وقد ازداد - بتلميح  
الحذاء - رضاه عن نفسه، وارتطم به مأز مسرع فارتدّ  
بخطوة ملهوجة وهو يشدّد قبضته على حمله ويصيح  
غاضبًا:

- هوه!

توقّف المسرع مبهوثًا وصمت فصاح به مرّة أخرى:

- على الأقلّ اعتذرا!

فسأله بضيق:

- أليست لديك لهجة أفضل؟

- كلّا!

- إذن فليس لديّ اعتذارا!

- حيوان!... ..

فبصق المسرع على الأرض محتجًا. عند ذلك وضع  
الرجل حمولته فوق الرصيف ثمّ انقضّ عليه فتبادلا  
ضربات شديدة. أدرك المسرع أنّه ليس نداءً لخصمه  
فترجع قائلاً:

- غاوي خناق... اشهدوا على المعتدي... ..

وتجمّع خلق، وجاء الشرطيّ. والآخر يراقب  
بانفعال وضيق، وعندما قال الشرطيّ القسم موجود  
والصلح خير... بدا أنّ المتخاصمين تجنّبًا الذهب  
إلى القسم، فتناول الرجل حمولته وذهب. تنفّس الآخر  
بارتياح وتبعه. نسي الرجل انفعالاته تمامًا أمام محلّ  
للعب الأطفال. له أبناء في سنّ الطفولة؟! ودخل. ما  
أعظم إلحاحه وصبره. وخرج بلا إضافة. لعلّه لم يشتر  
شيئًا، أو لعلّه اشترى لعبة كبيرة سيرسلها المحلّ إلى  
مسكنه، في تلك اللحظة قابله كهل يتأبط حقيبة  
تصافحًا بحرارة. تبادل كلمات سريعة، ثمّ مضى  
الكهل وهو يقول:

- لا تنس المحكمة يوم عشرة القادم.

أأنت أيضًا من أرباب المحاكم؟! متى تسمع  
الحكم؟ ترى أين تذهب بعد ذلك؟ عصير فواكه... ..  
ليكن، أتعبني الله يتعبك. للمرّة الثانية تتلاقى عيناها  
فوق سطح المرآة. انقبض صدره. هل يتذكّره؟

## الحب فوق هضبة الهرم ٩٩

لبث بالحانة؟ وكلما مرّ وقت تأكد له وجود الرجل بثقله وسطوته غير المحدودة. وشيء حثّه على أن يدسّ يده في جيبيه، فعثر على المطواة التي تركها منغرزة في قلب الرجل فأدرك أنّ هذا العالم يخضع لقوانين كثيرة لا لقانون واحد.

دقّت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. تلقى أوامر سرّية فتهيأ في خنوع لتنفيذها بدقّة واطاعة عمياء. قام الرجل ببطء. سار بجلال نحو الباب. فتح هو الباب ومشى بين يديه صامتاً مدعناً. أراد أن يصرخ، ولكنّ الصوت تلاشى في حنجرتيه. هبط السلم والرجل يتبعه التقى في طريقه بفراش، بمدير الفندق، بموظف الاستقبال، ولكنّ أحداً لم يعره التفاتاً، لم تسترِع المعجزة انتباه أحد، لم تثر دهشة ولا اهتماماً!

أمام الفندق وقف حنطور بلا حصان. انّجح الرجل نحو المقعد وجلس عليه بهدوء. أما هو فاحتلّ مكان الحصان وتأبط العريشين، لم ينظر أحد من المارة لما يحدث، لم يتجمهر أحد. كلّ فرد منشغل بشيء محسوس أو بشيء لا يُرى. أكثر من ذلك ترنّم أحد السابلة شادياً: أهل الهوى يا ليل.

وفرق السوط فراح يجرّ الحنطور. مضى في رشاقة وهدوء واستسلام. رأى جانبي الطريق، ولكنّه لم يرَ ما يمتدّ أمامه، فغاص في مجهول. في خطّ مستقيم يتقدّم أو ينعطف متلقياً توجيهاته من جذبات اللجام. إلى أين يسوقه؟ ماذا يضمّره له؟ لا يدري. ولا يبالي. يمضي بلا توقّف. يبول ويتغوّط بلا توقّف. يصهل أحياناً ويرفع رأسه، يلمس لجامه بلسانه الجافّ، تتابع إيقاعات حافره فوق الأسفلت. إيقاع رتيب ينذر بمسيرة لا نهاية لها.

- الدور؟

- الأخير.

- وأنا كذلك.

ولكنّ امرأة أدركت المصعد قبل أن يتحرّك. جنّ جنون الآخر. غير أنّ المرأة غادرت المصعد في الدور الثاني فاستعاد الآخر حيويته ونشاطه. هذه هي الفرصة. الاحتمالات كثيرة، ولكنّ العواقب لا تهّمه ألبيّة. ليس في خطّته للسلامة إلّا واحد في المائة. ويحذر شديد قبض على المطواة المستكنة في جيبيه. . . غادر المصعد. لم يصادف أحداً. الظروف تخدّمه فوق ما قدّر. ترك باب المصعد مفتوحاً عن زيق. ثمّ هبط مسرعاً. مضى إلى حانة إيديال. شرب كثيراً ولم يتناول من الطعام إلّا الخسّ. ونعس وحلم حلماً طويلاً في وقت قصير جداً. وغادر الحانة فعبّر أمام العمارة فوق الطوار الآخر، فرأى الشرطة وجمعاً لا حصر له. واصل سيره إلى فندقه بالعتبة دخل حجرتيه وهو يتنهد وقد نسي الحلم تماماً. . . أغلق الباب، أضواء الصباح. التفت إلى الوراء، رأى الرجل جالساً فوق الفوتيل يرمقه بهدوء ثقيل كالموت. . . نذت عنه آهة دامية، تراجع حتّى التصق ظهره بالحائط، تعلق بالفرار ولكنّه لم يتحرّك، وتسمّر في مكانه وبال على نفسه، إنّه حقيقة ما يرى، هو هو الرجل. القرطاس بيد والكيس بالأخرى. . . الموت يطلّ من صورة حية. . . يحدّق فيه بعينين جامدتين عاليتين بكلّ شيء. شعر بغثيان ونأس وقال إنّه الشّعر أو الجنون. وأمره بالاستسلام دون أن يتفوّه بكلمة، يخاطبه بلغة جديدة وواضحة ونافذة وغير مسموعة. كيف ومتى جاء بهذه السرعة. وما معنى تجمهر الشرطة والناس أمام مدخل العمارة؟ كم عامّاً مضت منذ ارتكاب جريمته؟ كم عامّاً

## الحوادث المشيرة

- ١ -

- لا علم لي بذلك .
- لعلك تعرف محلّ نقل الأثاث الذي حمل أثاثه؟
- إنها شقة مفروشة وقد حمل حقائبه في تاكسي ومضى . . .
- أتعرف التاكسي أو سائقه؟
- كلا .
- ما عمره؟
- يصعب تحديده لقوّته وصحّته، محتمل أن يكون في الثلاثين أو في الأربعين . . .
- وما عمله؟
- من الأعيان، ولكنّه كان موفور النشاط. يغادر العمارة في الصباح الباكر، ويرجع في أوّل الليل، ولكنّي لم أتابع خط سيره إلاّ كلّما اتّفق لي ذلك . . .
- وأسرته؟
- إنه وحيد، لم يزره أحد فيما أعلم . . .
- معاملته؟
- من وجهة نظري في غاية الكمال، يؤدّي الأجرة - مائتي جنيه - في أوّل يوم للشهر، ولم أجد منه متاعب على الإطلاق .
- وسلوكه الشخصي؟
- لا غبار عليه فيما أعلم، إنه يحترم نفسه بكلّ معاني الكلمة . . .
- ألم تعرفه عن قرب؟
- كلا، مرّة عند تحرير العقد، ومرّة عند فسخه .
- عندك فكرة عن حالته الماليّة؟
- كلا، ولكنّه وجيه المنظر، ثمّ إنّه يدفع إيجارًا

سأذكر ما حييت حوادث حيّ الخليفة المشيرة المفزعة، الحقّ أنّها لم تكن كلّها مفزعة، فمنها حكايات تناقلها الناس عن هبات مجهولة من النقود تتسلّل بليل إلى بيوت الفقراء، ولكنّ منها أيضًا حالات التسمّم بالجلمة، والحرائق، وأكثر من ذلك تكرارها على وتيرة واحدة ممّا أشار إلى فاعل واحد. وبنثنا العميون والحراس، وقمنا بدوريات ليلية منتظمة. وقلت لرئيسي:

- المجرم مجنون ولا شكّ.

فقال لي بحدّة:

- المهمّ أن نقبض عليه.

وتقضّت أيام البحث وأنا في غاية من التعاسة، فلا نتيجة ولا أثر ولا توقّف للحوادث، حتّى جاءنا خطاب غفل من الإمضاء، به سطر واحد:

«مجرم حوادث الخليفة هو مكرم عبد القيوم المقيم بالشقة ٣ بعمارة الفردوس».

فقرّرنا بلا تردّد مراقبته، ولكن سرعان ما انكشف لنا أنّه أدخل شقته منذ يومين، وبادرت إلى التحري عنه في العمارة، فقابلت مالكتها وهو ساكن بها أيضًا، وقلت له:

- أريد ما عندك من معلومات عن مكرم عبد القيوم الذي كان يسكن الشقة رقم ٣.

فأجاب الرجل:

- لقد أخلاها منذ يومين.

- أعرف ذلك ولكن إلى أين انتقل؟

## الحب فوق هضبة الهرم ١٠١

- عندما سألته عن ذلك أجاب بأنه يحب  
التنقل...  
- ماذا تعرف عن صفاته؟  
- إنه قويّ ومهيب وجميل، وهو أيضًا رقيق  
العواطف لدرجة لا تتناسب مع قوّة مظهره، سمع مرّة  
صراخًا على ميت في عمارتنا فاغرورقت عيناه بالدموع،  
وكان يبني نقودًا لأبتاع خبزًا للقطط الضالّة التي تحوم  
حول العمارة، وبلغت به الرقة أنّه كان يرمي بحبات  
من الفول السودانيّ عند بئر السلم غداءً لفأر كان  
يلمحه كثيرًا... .

- جميل هذا كلّه، ولكنك لا شكّ تعرف أشياء لا  
يعرفها أحد عن سلوكه الشخصيّ، فرجل وحيد لا  
يستأجر شقّة مفروشة لوجه الله...  
- لم يدخل شقّته أحد قطّ، هذا الجانب لا يمكن  
أن يفوتني... .

- ولا أصحاب ولا أقارب؟  
- ولا أصحاب ولا أقارب...  
- وكان يغيب طيلة النهار في الخارج؟  
- في بعض الأحيان كان يتغلّى في شقّته، فيطلب  
غداءه من أحد المطاعم...  
- ألم يلفت نظرك شيء داخل شقّته؟  
- لم أدخلها قطّ.

- ماذا تعرف عن مواعيد رجوعه ليلاً؟  
- كان يرجع عادة حوالي العاشرة، وقد يتأخّر به  
السهر إلى منتصف الليل أو حتّى إلى مطلع الفجر...  
- كيف ترى لو ثبت لك يومًا أنّ ذلك الرجل سمّم  
أبرياء وأشعل حرائق؟  
- فأخذ الرجل وقال:  
- يكون نذيرًا بقيام القيامة!

## - ٣ -

جمعنا سائقي التاكسي العاملين في الحيّ، عرضناهم  
على البوّاب، فتعرّف على أحدهم ويدعى يونس  
باعتباره صاحب التاكسي الذي حمل حقائب مكرم عبد  
القيوم، ولم يجد السائق صعوبة في تذكّر الرجل، وقال  
إنّه أوصله إلى سميراميس. وانطلقت إلى الفندق

لسكنه فقط مائتي جنيه... .

- ألم يترك في نفسك انطباعًا بالشذوذ أو الإجمام؟  
- إنّه أبعد ما يكون عن ذلك...  
- أعطني فكرة عن منظره؟  
- طوله فارغ، ضخّم، قويّ، قمحيّ اللون، ذو  
قسامات واضحة وقويّة وبارزة، أنيق جدًّا...  
- له علامة مميّزة؟  
- رغم سمرة فهو ذهبيّ الشعر والشارب.  
- كيف أجز الشقّة؟  
- بواسطة السمسار عزّوز بأول شارعنا.

## - ٢ -

لم أجد في أقوال صاحب العمارة آية إشارة ضوئية،  
فقرّرت أن أثنى بالبوّاب. وكان كالمألوف نويًا ولكنّه  
كان طاعنًا في السنّ. قلت:  
- أوّد أن أتحدّث عن مكرم عبد القيوم...  
فقال بحرارة:  
- ربّنا يحفظه!  
- إنك تحبّه فيما يبدو؟  
- كيف لا، إنّه أطيب خلق الله.  
وسألته أوّل ما سألته عن التاكسي الذي حمل حقائبه  
فأجاب:

- وجه السائق غير غريب عني.  
فدوّنت ذلك في مذكرة خاصّة، ثمّ تساءلت:  
- قلت إنّه أطيب خلق الله؟  
- أجل ما كلّفني مرّة بعمل إلاّ نفحني مكافأة، غير  
المواسم والأعياد، دائميًا بسّم، يميّني في الذهاب وفي  
الإياب، يسأل عن حالي، لا أنسى مساعدته لي عندما  
كنت أقوم بتجهيز ابنتي، إنّه حلم المحروم، ودواء  
الجريح... .

- أعتقد أنّه أخبرك عن المكان الذي انتقل إليه؟  
- كلاً... ولكنّه وكّد لي أنّه سيمرّ بي كثيرًا...  
- يعني زيارة خاصّة لك؟  
- ربّما عند زيارته للحيّ لدى سبب من  
الأسباب...  
- ترى لماذا غير مسكنه؟

## ١٠٢ الحب فوق هضبة الهرم

- وسلوكه الشخصي؟ ... أعني الشقة المفروشة؟  
- لا... لا... لم يزره أحد فيما نعلم، أمثاله  
يعانون نقصاً خفياً يدارونه بالعجرفة وأبهة المظهر...  
- ولكنّه ثريّ فيما يبدو؟  
- لم لا؟... ما أكثر الأثرياء الأوغادا

- ٥ -

ليست شبهة ولكنّها تهمة حقيقية. والبواب صادق  
كما إنّ المهندس رءوف صادق. وتوكّد ظنوني معرفتي  
الوثيقة لتاريخ الجريمة. من غير مكرم عبد القيوم يرمي  
بالنقود إلى شرفات الفقراء ويدسّ السمّ في  
الشيكلولة للأثرياء؟... أليس هو الذي يهب النقود  
لتغذية القطط الضالّة ثمّ يركل واحدة منها حتّى الموت  
وذهب إلى الجار الثاني، مدرّس لغة عربيّة، يدعى  
عبد الرحمن. قال:

- الرجل وحيد حقّاً ولكنّه ليس متعجرفاً، والمسألة  
أنّ المهندس رءوف كرهه من ردّ تحيّته بجفاء، ولعلّه  
كان وقتها مكذّر البال... .

- فماذا تراه أنت؟

- أشهد له بالتقوى، طالما تقابلنا في الجامع عند  
صلاة الجمعة... .

- حقّاً؟

- وماشيته مرّة عقب الصلاة فوجدته لطيفاً، دعاني  
إلى الغداء في مطعم الكورسال، وألحّ عليّ فلم أجد  
بداً من الاستجابة، وأعلن لي عن حبّه التراث،  
ورغب في الاستعانة بي للاستزادة منه... .

- لعلّه لم يتعلّم؟

- كلاً... لم يكن متبحّراً في التراث... ولكنّه تخرّج  
في الجامعة بكلّيّة الحقوق، ودرس في السربون القانون  
والتاريخ... .

- لعلّك الوحيد الذي خالطه؟

- لعلّي، كنّا نتقابل في مشرب مينا هاوس، وهناك  
وضح لي أنّه كثير الأصحاب، مصريين وأجانب، وكان  
يدعى إلى التليفون مرّات عديدة حتّى خيّل إليّ أنّه من  
رجال الأعمال... .

- ألم يخاطر لك أن تسأله عن عمله؟

مصحوباً ببعض المعاونين. وهناك توكّد لي أنّ الرجل  
بات في الفندق ليلة واحدة ثمّ غادره في الصباح  
الباكر، رجعت أسأل عن هويّة التاكسي الذي حمّله،  
لكنّ الشّيال وكّد لي أنّه نقل الحفائب إلى سيّارة ملاكي  
مرسيدس بيضاء، وأنّ البك الضخم الأسمر ذا الشعر  
الذهبيّ ساقها بنفسه، أمّا رقم السيّارة فلم يلحظه  
أحد.

أهو صاحب السيّارة؟ لمّ لم يستعملها طوال إقامته في  
العمارة؟... هل امتلكها أمس فقط؟ كلّها أحقد  
الغموض بتصرّفاته رسخت تهمة الاتّهام في نفسي... .  
فتوثبت غرائز البحث والتحديّ في أعماقي.

- ٤ -

قصدت بعد ذلك جيرانه المقيمين معه في نفس  
الطابق. أولهم مهندس معماريّ يدعى رءوف، وما  
سمعتني أردد اسمه «مكرم عبد القيوم» حتّى تقبّض  
وجهه تقزّزاً، فقلت:

- يبدو أنّك لا تستلطفه؟

- عليه اللعنة! رجل غريب، منطويّ على نفسه لحدّ  
الشدوذ، ولا أشكّ في أنّه يمقت البشر... .

- للبواب رأي آخر فيه؟

- لا تأخذ بأقوال البواب فإنّ شلّنا يدير رأسه، لا  
أنسى مرّة تلاقينا فيها في مدخل العمارة، بدأت بتحيّة  
فردّ عليّ بإيماءة متكبّرة هبط لها قلبي وغلى دمي، إنّ  
وقح وقليل الأدب.

- جديد عليّ ما تقول... .

- اتحدّي أن تعثر على ساكن واحد من سكّان  
العمارة قد تبادل معه تحيّة، إنّ متعجرف بغيض، أمّا  
قسوته... .

- تقول قسوته؟

- حكّت لي زوجتي أنّها رآته يركل قطة بحذائه،  
صادفته أمام باب شقّته، فارتطمت بعنف في الجدار ثمّ  
سقطت بين الحياة والموت!

- عجيب هذا... .

- في مآثم العمارة يتجاهل الواجب الإنسانيّ بلا  
مبالاة، يمرّ أمام السراق بلا اكتراث ولا حياء.

### الحب فوق هضبة الهرم ١٠٣

الملاصق بابه لباب مكرم عبد القيوم - وهو مفتش  
الضرائب بكر الهمداني. ما إن سمع اسمه حتى  
هتف:

- المجنون!

- مجنون؟!

- طبعًا، طالما بلغني صوته وهو يدوي كالطبل في  
صمت الليل، ترى أيتحدث في التلفون؟... يحدث  
نفسه؟... يتعارك مع خيال؟ ولا عزيف الريح  
وجعجة الرعد، وكان هنالك ما هو أدهى إلى  
الدهشة...

- حقًا؟

- كان يغني ويلعب بأوتار العود!

- شيء جديد تمامًا؟...

- الحق أن صوته قوي وجميل، ولكنّه يغني أحيانًا  
أغنيات في غاية الوقار مثل «يا ما إنت واحشني» أو  
يغني أغنيات في غاية الابتذال مثل: «أنا أبه كنت  
هبله» أو تصوّر ذلك الرجل الضخم الوقور وهو يغني:  
«يوم ما عَضْتِي العَضَّة»... ولكنّه رجل عرييد.

- عرييد؟

- كنت مرّة راجعًا من سهرة مسرحية، فرأيت  
خارجًا من حانة فلاديمير وهو يترنّح من شدّة  
السكر... ويقول بلسان ملعشم: «أنا جدع»...

- ما أعجب هذا!...

- بل يوجد ما هو أعجب، رجعت مرّة من سهرة  
فرأيت يسبقي بخطوات، دخل شقته وملت نحو  
شقّي، ولسبب ما وجدنا شرّاعة بابه مفتوحة، لاحت  
متي نظرة فرأيت في نهاية الدهليز حجرة مضيئة،  
ولعلها حجرة جلوس، فتستمرت في مكاني لغرابة ما  
رأيت... رأيت خليطًا من عجائب متنافرة، على  
الجدار المواجه لي تُبِت أقعنة غريبة، جميلة وبشعة  
ورعوس حيوانات مخنّطة، وأسلحة من مختلف  
العصور، وأدوات موسيقية، وفي وسط الحجرة ما يشبه  
المعمل الكيماوي... بل معمل كيماوي بالفعل...

- معمل كيماوي؟!

- أجل... مائدة طويلة صفت فوقها أوعية  
زجاجية مليئة بسوائل مختلفة الألوان، وأنايب طويلة

- مرّة سألته بلباقة عمّا يفعل بوقته، فأجاب بأنّه  
يجب أشياء لا حصر لها ولكنّه غير ملتزم بعمل محدّد،  
بمعنى آخر هو من الأعيان...

- ما مصدر ثروته؟

- أرض، أسهم وسندات وهلمّ جرًا... ولكنّ  
ميزته الأولى في نظري أنّه واسع الاطلاع... وقد  
طالبته مرّة بأن يؤلّف في التاريخ، فابتسم وسألني:  
«أتصدّق حقًا أنّه يوجد شيء اسمه تاريخ؟» فاعتبرت  
تساؤله دعابة، ولكنّه استدرك قائلاً: «يمكن الاستغناء  
عن التاريخ بيّبي المديح والهجاء في الشعر»...

- طبعًا لم تعرف لماذا تجنّب الزواج؟

- مرّة شكوت إليه تمرد أحد أبنائي، فقال لي بأنّي  
لم ألسه فيه من قبل: «إنّ تمرد ابن خليك بأن يشكّل  
مأساة بلا نهاية»... ولرنين الأسي في نبرته شيء قال  
لي إنّ ذلك الابن أو إنّ الأب المبتي، وبشيء من  
الدهاء قلت له: «لقد أرحت نفسك من ذلك كلّه»  
فنظر إليّ وابتسم... ولكنّه لم يشف غليلي...

- لمّ لم تستوضح تلك النقطة؟

- كنت أعاشره وأهابه، وأخشى أن أثقل عليه  
فأخسره...

- طبعًا أخبرك بنية ذهابه؟

- أبدًا... فوجئت برحيله... ولكنني حينًا سألقاه  
يوم الخميس في مينا هاوس...

- لا أظنّ، ومع ذلك سنرى...

- لماذا قلت لا أظنّ؟

- ألا تدري أنّ ثمة شبهة في أنّه مرتكب حوادث  
حينًا المثيرة؟!

فأتسعت عينا الرجل في ذهول وقال غير مصدّق بل  
محتجًا:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

- ٦ -

تجهّم الغموض فانقلب ظلامًا، ولكنّ شعوري -  
شعور الخبرة والسنين - صار يقينًا أو كاد. وأوشكت  
على الاكتفاء بما استخلصت من معلومات لأسرع في  
المطاردة، ولكنّي لم أجد بأسًا من لقاء الجار الثالث -



مرتبجة على قوائم معدنية، وبوتقات، ومولّدات الطاقة . . .

- مدهش . . . مدهش . . .

- ذهبت إلى شقتي ذاهلاً . . . أيقظت زوجتي . . .  
أخبرتها بما رأيت . . . اتهمتني بالسكر . . . تحدّيتها أن  
تخرج معي لترى بنفسها . . . كان منظرًا مدهلاً . . .

- ألم تتبادل معه تحية أو كلامًا؟

- أبدًا . . . أصارحك بأنني كنت أخافه، وقد  
تشهدت حين سمعت برحيله . . .

- ٧ -

في نفس اليوم ذهبت إلى السمسار، لم أكن في  
حاجة إلى مزيد من المعلومات عن شخصية «التهم»  
ولكنني أملت أن أجد عنده خيطًا يوصلني إليه.  
ووجدته متذكّرًا تمامًا للمعاملة التي جرت بينهما رغم  
انقضاء ما يقارب العام عليها. بل إنّه قال:

- ذلك يوم لا يمكن أن يُنسى!

- لماذا؟

- تمت المساومة في دقيقة، بل لم تكن ثمّة مساومة  
على الإطلاق، وكان أكرم مما يتصور العقل، ولكنني  
اكتشفت فقد حافظه نقودي في ذلك اليوم أيضًا،  
ولذلك فهو لا يمكن أن يُنسى . . .

- كيف حدث ذلك؟

- سلّمني النقود فوضعتها على المكتب ثمّ انصرف،  
شغلت دقائق بكالمّة تليفونية، ثمّ تناولت النقود  
لأودعها الحافظة فلم أجد للحافظة أثرًا . . .

- ماذا دار بخلدك؟

- كانت الحافظة معي، لم يدخل دكاني إلاّ مكرم  
عبد القيوم ومسّاح الأحذية، وفي الحال شككت في  
مسّاح الأحذية، استدعيته، استجوبته، عنفت به حتّى  
صرخ، ولكنّه أقسم بأغلظ الأيمان وبكى . . .

- طبعًا لم تشكّ في الآخر؟

- كلاً، الحقّ كانت تساورني شكوك أحيانًا ولكنّها  
كانت تعرّض على التصديق، وقد حرقني فقد أكثر من  
مائتي جنيه، ولكن كيف أوجّه تهمة إلى رجل مثله بدا  
لي أنّه من أصحاب النفوذ بلا أدنى شكّ؟ . . . وما

جدوى الاتهام إلاّ أن يعرّضني لبطشه؟!  
- وسلّمت أمرك لله؟

- كما يحصل في أغلب حوادث النشل، وكنت أراه  
أحيانًا وهو ماضٍ في الصباح فأتبعه عيني بحيرة وأتمتم  
«ربّنا عزيز ذو انتقام».

- ٨ -

واجتمعت برئيسي في مساء اليوم نفسه، وعرضت  
عليه التقارير التي سجّلتها بعناية تامّة. راح يقرأ وهو  
يسند رأسه إلى راحته حتّى فرغ منها، ثمّ طالعني بوجه  
متجهّم وقال:

- علينا أن نستعيد الصورة، توجد حوادث مثيرة،  
بعض الفقراء يجدون في شرفات منازلهم صريرًا مليئة  
بالنقود هبطت من مصدر مجهول، آخرون يجدون علب  
حلوى سليمة، أناس يجدون علب حلوى مسمومة  
مات بسببها أبرياء، اختفاء أطفال، حرائق تشبّ في  
الحوانيت. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجيء  
جواب من مجهول يوجّه الاتهام إلى المدعوّ مكرم عبد  
القيوم، وتتحرّى أنت عن الرجل فتجيبني بمجموعة من  
التناقضات تماثل في غرابتها تناقضات الحوادث، ما  
رأيك؟

قلت:

- أصبحت على يقين من أنّه المجرم . . .

- يقين؟

- إنّه شعور داخليّ . . .

- ما يهمني هو الدليل القاطع أو الاعتراف . . .

- لا تنسَ يا صاحب السعادة أنّ الحوادث توقفت

منذ رحيله.

- الفترة قصيرة جدًّا ولا تعني شيئًا . . .

- لا تنسَ أنّنا أصبحنا مضغّة للأفواه . . .

- سيخونه حرصه عاجلاً أو آجلاً . . . فهو بلا

شكّ مجنون!

- مجنون؟ احتمل. ومحتمل أيضًا أن يكون عاقلاً

وداهية وذا أغراض خفية . . .

## الحب فوق مضية الهرم ١٠٥

- لقد أشعلت النار في الإدارة!

فقلت بإصرار:

- لا غبار على الخطّة .

- ها قد جاءنا من لا نبحت عنه، وغاب عتّا من  
نبحت عنه!

- لعلّه تعمّد الاختفاء أو التتكرّر .

- واضح أنّ الحوادث المتفشية في جميع الأنحاء  
ليست من صنع رجل واحد . . .

- لعلّه رئيس عصابة!

فهتف بيأس:

- لقد أشعلت النار في الإدارة!

رجعت إلى حجرتي أعمى تمامًا من الغضب. عند  
الباب سمعت حوارًا حادًا بين الحاجب وآخر يريد  
الدخول لمقابلتي. قلت بحزم:

- لا وقت عندي الآن لأحد .

فقال الآخر بصوت جهوريّ مَترن:

- أنا مكرم عبد القيوم!

- ١٢ -

تأبّطت ذراعاه، دخلنا الحجره، وقفنا متواجهين وأنا  
ألهث، تساءل بهدوء غاضب:

- ما معنى المنشور في الجرائد؟

فسألته وأنا أمتحنه بعيني:

- لمّ لمّ تحضر مباشرة عقب النشر؟

- كنت في البحر الأحمر بعيدًا عن الجرائد وغيرها .

وفصل بيننا صمت متّقد حتّى عاد يتساءل:

- ما معنى هذه التهمة السخيفة؟

فقلت بحقن:

- سنرى . . .

وقرّرت إجراء التحقيق في حجرة رئيسي وتحت  
إشرافه .

- ١٣ -

- ماذا أقول؟ . . .

أجاب الرجل عن كلّ سؤال فورًا وفي بساطة وثقة،  
لم نجد دليلًا واحدًا يدينه، عرضناه على أهل الضحايا

- ٩ -

اندفعت في المطاردة بقوة متحدية، ضاعفت  
الدوريات والعيون، أبلغت الأوصاف إلى جميع  
الأقسام، ورسمت خطة شاملة للمرشدين ولأهل  
الخبرة بأوساط المجرمين. لم يخف عني أنّه تحدّ لشخصي  
ومستقبلي وواجبي، وسيطر الموضوع على يقظتي  
ومنامي، وفكرت وفكرت ثمّ قرّرت تأجيل الاستعانة  
بالصحف والإذاعة .

- ١٠ -

وفيما نحن منهمكون في المطاردة انقضت علينا  
صاعقة، طلعت علينا الصحف بأنباء حوادث مماثلة لما  
وقع في حيننا ولكن في طنطا هذه المرّة، انطلقت إلى  
طنطا بلا استئذان، وضعت معلوماتي تحت تصرف  
المسؤولين هناك .

وفيما نحن نرسم خطة جديدة معتمدين أولاً على  
الاستفادة من التجربة السابقة، طلعت الصحف بأنباء  
حوادث تقع في أسبوط، وفي الحال سافرت إلى أسبوط  
وأنا أشعر بأنّ الجريمة استحالت فضيحة قومية. وهناك  
تلفنت إلى رئيسي أخبره بمقرّي فإذا به يصيح:

- أين أنت؟! . . . ما هذا التصرف المشين؟!!

هممت بشرح الأمر ولكنّه صلاح بي:

- احضر حالاً . . . لقد عادت الحوادث إلى حيننا!

- ١١ -

وخطر لي أن أستدعي رسامًا مشهورًا، جمعت بينه  
وبين الشهود. وطالبته برسم صورة دقيقة للرجل  
المجهول من واقع شهادتهم. وقلت له:

- لا تتركها حتّى يقرّوا بأنّها طبق الأصل .

ونشرت الصورة في الصحف مطالبًا من يعرف  
صاحبها بأن يدلّنا عليه، ودلّنا مواطنون على أكثر من  
شخص، عمدة، تاجر أسماك، تاجر شنطة، بل  
انطبقت الصورة على مسئول في الدولة له شأن،  
فاستفحلت الفضيحة حتّى انقلبنا سخرية الساخرين  
ونادرة الملقين .

وصاح بي رئيسي:

مرة بتناقض من تناقضاته؟... ألا يحسن بي أن ألزم  
جانب الحذر؟. ولكنّه خيب وساوسي. وقرص  
ضميري بإصراره على كل ما هو طيب.  
وذات صباح - وعقب مراجعته لما عرضته عليه -  
رجع بمقعده الهزاز إلى الورا وقال:  
- أخيراً قَبِدُوا القضيّة ضدّ مجهول!  
فقلت بشيئة:

- لتكن هذه اللطمة رداً على اللطمة التي تلقيتها.

فقال بهدوء عذب:

- كلاً... لقد أخطأت...

- ولكن...

وسرعان ما قاطعني قائلاً:

- كان من الخطأ أن تركز الاتهام في بسبب رسالة  
سخيفة غفل من الإمضاء.

فقلت مدافعاً:

- ليس بسبب الرسالة ولكن بإغراء التحريات غير  
العادية!

- وبتركزك الاتهام في تركت المجرم الحقيقي يفلت  
من يديك!

- لم يكن معقولاً أن أربط بين أقوال الشهود وغرابة  
الحوادث!

- يا أستاذ! هل يخلو مخلوق من تناقضات؟... ثم  
ما الغرابة في أن أطعم القطط وأن أركل قطة مريضة  
هاجمتي؟... ما العجب في أن أتوّد مع رجل...  
وأجاني آخر لسوء خلقه؟... وما الجديد في أن أمضي  
وقوراً حيناً وأترنح من السكر حيناً آخر؟ أيعني هذا أن  
أسمم الأطفال وأشعل الحرائق!

لذت بالصمت متفكراً وحذراً في نفس الوقت، أما  
هو فواصل:

- بنفس المنطق يا عزيزي يمكن أن توجه التهمة  
إليك أنت!

فندت مني ضحكة وتمت:

- أنا؟

- لم لا... لقد استمرت الجرائم رغم تشديد  
الحراسة وبت المخبرين، كيف اخترق المجرم سبيله في  
حيّ ملقّم؟... لا شك أنه كان مطمئناً إلى أن أحداً

والمخبرين المبتوثين في أنحاء الحيّ فلم يشهد أحد بأنه  
راه في ليل أو نهار. أذعنا رسالة موجهة للمجهول  
صاحب الرسالة أن نؤرنا بمعلومات إن كانت لديه فلم  
يردّ علينا أحد. وهكذا غادرنا مكرم عبد القيوم مرفوع  
الرأس وقد أصابني بضربة قاضية. والعجيب بعد ذلك  
أن شعوري الباطني باتهامه لم يتزعزع.

- ١٤ -

كان لا بدّ من كبش فداء فقررت الداخلة نقلي إلى  
الديوان. وأحلت عليّ من رأته أعظم أهلية للعمل.  
وتلقيت الأمر بغضب وتحذّر، فقدّمت استقالتي معتزماً  
الاشتغال بالمحاماة، وظللت أتابع أنباء الحوادث  
والتحقيق وأنا مشفق من أن ينجح من حلّ عليّ في  
القبض على المجرم، إنه شعور مخجل ولكنّه متوافق مع  
الطبيعة البشرية، وما أدري ذات يوم إلا ومكرم عبد  
القيوم يقتحم عليّ مكنتي، رمقته بدهشة، فجلس أمام  
مكنتي وهو يقول:

- جئتك لأعرض عليك أن تتولّى إدارة أعمال  
وقضايي!

وكان العرض مغرياً لدرجة يتعدّر معها رفضه،  
ولكنني سألته:

- لم أنا بالذات ولم أعمل في المحاماة إلا عامين؟  
- ولكنك ذو خبرة كبيرة، ثمّ إنني أعدّ نفسي  
مسئولاً بعض الشيء عن استقالتك...

فسألته بحذر:

- نوع من الشائنة؟

فهتف بصدق:

- معاذ الله، ما ورائي إلا شعور طيب...  
لم لا؟

هكذا أصبحت مستخدماً في دائرة السجوة مكرم  
عبد القيوم!

- ١٥ -

وأشهد لقد وجدته وجيهاً بكلّ معنى الكلمة،  
وقوراً، عالماً، عذب الحديث، طيب المعاشرة، كريماً  
ودوداً. وربما فتر حماسي أحياناً فأتساءل «ألا يفاجئني

## الحب فوق هضبة الهرم ١٠٧

- وغير مستحيل أن تكون مجنوناً!!  
 - هل تجد في عملي معك شبهة جنون؟  
 - الجنون أنواع، والمجنون آخر من يعلم...  
 وضحكت متظاهراً بالاستهانة ولكنَّ حديثه ساعني،  
 وساعني أكثر الجذ الذي تناول به حديثه حتى خيل إليّ  
 لحظة أنه يوجّه إليّ اتهاماً حقيقياً، بل إنّه يصبّ اتهامه  
 على الناس جميعاً. ثمّ تبسّم فعاد الإشراف إلى وجهه  
 الكبير، وقال بنبرة جديدة:  
 - حسناً، ولتواصل العمل.  
 وقلت لنفسي يا له من رجل محيراً... لا شك أنّ  
 العمل في دائرته فوز مرموق، وأنّ شخصيته تتعالى عن  
 الاتّهام، ولكن ما بال شعوري الباطنيّ باتّهامه لا  
 يفارقني؟!

من رجال الأمن لن يشكّ فيه، عظيم... فمن يكون  
 هذا إن لم يكن الرئيس المكلف بالمراقبة?... أو بمعنى  
 آخر إن لم يكن أنت؟!  
 فضحكت عالياً وقلت:  
 - وجرائم طنطا؟  
 - لقد وقعت حوادث طنطا. وثبت أنّك سافرت  
 إلى طنطا، أما أنّ سفرك لحق بالحوادث أو سبقها فلا  
 نعرف عنه شيئاً!  
 فقلت وما زلت أضحك:  
 - عظيم، ولكن ما الدافع وراء الجرائم؟  
 - هو الدافع الكامن في أعماق المجرم الذي أعياك  
 البحث عنه!  
 - في اعتقادي أنّه مجنون...

الشَّيْطَانُ يَعْزُ

## الرَّجُلُ الثَّانِي

مثيرة:

- إنكم تتساءلون . . .
- اشتعلت اللهفة ونقد الصبر فواصل الرجل:
- ما من جماعة مثلنا إلا وفيها رجل ثانٍ، على ذلك جرى عُرف من عُبر. . .
- نذت عن «طباع الديك» حركة عفوية داراها بسعلة مصطنعة. لم تغب عن عين الرجال ولا عين الرجل.
- كان أقوى الأتباع وأشجعهم وإن لم يجهر بذلك أحد.
- وطالما اعتقد أن المنزلة الثانية بمثابة حقه المعترف. تساءل المعلم:
- ما رأيكم؟
- أكثر من صوت أجاب:
- الرأي ما ترى يا معلم.
- كلكم أقوياء، كلكم شجعان، ولكن الفتونة الحقة لا تستند إلى القوة والشجاعة وحدهما!
- عند ذاك قال طباع الديك:
- منك تعلمنا أيضًا مكارم الأخلاق . . .
- فابتسم المعلم ابتسامة غامضة وقال:
- دعونا من الكلام، عندي مهمة، فمن منكم يقبل القيام بها؟
- فبادروا قائلين:
- نحن رهن الإشارة!
- وتساءل طباع الديك:
- ما هي المهمة يا معلم؟
- فقال الديناري بأسياً:
- إنها سر من الأسرار.

١

جذبني مقهى النجف في سنّ المراهقة. كانت سنًا يُستهجن فيها غشيان المقاهي. الحق لم يجذبني المقهى نفسه ولكن شدني بقوة سحرية صاحبه موجود الديناري الأسطورة الباقية. إنه آخر الفتوات غير أنه بالقياس إليّ أول الفتوات وآخرهم. ذهبت لأحظى بمشاهدته فوق أريكة الإدارة في شيخوخته المجللة بالمهابة والقوة والجمال. اخترت مجلسًا بعيدًا عن مجلسه، منعي الإكبار، وجاء بي دومًا ما استقر في قلبي من حكايات فتوته، سحرتني أكثر نوادره الغامضة التي تضاربت حولها التفاسير. طالما شعرت وأنا أحسني قرفته المخلوطة بالمكسرات بأثني أعيش أهبج ما في الماضي والحاضر والمستقبل.

\*\*\*

يحكى أن . . .

يحكى أنه ألقى على أتباعه ذات يوم تحدّيًا. عند الفجر من سهرة في غرزة المنارة المسقوفة بالسياء. قلب عينيه في وجوه الرجال فلم يبرح أحد مكانه. تبدت وجوههم غامضة على ضوء النجوم. تبدت وجوههم ذابلة من شدة السطول. تبدت وجوههم مخضلة بالندى. في فصل صيف شهد له الآباء بالغلظ قال لهم:

- لن ترجعوا إلى بيوتكم قبل أن تسمعوا.  
تطلّعوا إليه باهتمام. جاهدوا نعاس الخدر. توقّعوا نبأ عن معركة. موجود الديناري قهقه حتى سعل. قال بتؤدة أضفت على بنيانه القوي وملاحمه الواضحة جدبة

معلّم . همدت ألسنتهم . تذاكروا ما عُرف عنه من غرابة الأطوار . تذكروا الغموض الذي يخالط وضوحه . حذروا بغريزتهم أن يقعوا في شرك لا قبيل لأحدهم به . وسرّ الديناري بصمتهم فقال :  
- إنها تتطلّب أول ما تتطلّب الطاعة العمياء !  
وضح القلق في حركات طباع الديك المتوتّرة ولكنّه تجاهله قائلاً :  
- قد يجيئ الهلاك بمن يتصدّى لها ، لا يجوز إخفاء ذلك عنكم ، فإذا وُقِّق فاز بالمكانة اللائقة ، وإن هلك تعهدتُ أهله بالعناية .  
وخرج طباع الديك من صمته فقال :  
- يا معلّم ، لقد خدمتك منذ . . .  
ولكنّ المعلّم قاطعه متسائلاً :  
- من منكم يقبل المهمة ؟  
من غشاء الصمت الثقيل انطلق صوت يقول :  
- خذأمك يا معلّم !  
تحوّلت الأبصار بذهول نحو شطا الحجري . فتى جاوز العشرين بعام أو عامين . أحدث من انضمّ إلى العصا . لم يشترك بعد في معركة . قبل بناء على تزكية من طباع الديك نفسه . وجزع طباع الديك . إنّه في الحلقة الرابعة من عمره ويصغر معلّمه بعام واحد . ورغم سوء ظنّه بالمهمة وحذره من مقابل معلّمه فقد خاف أن تفلت منه فرصة العمر . لذلك هتف :  
- لا أحد لها سواي .  
فقال المعلّم بهدوء :  
- إنّه شطا الحجري .  
- ولكنّه . . .  
فقاطعه المعلّم :  
- لقد سبق ولا حيلة لك .  
غشيت الصمت كآبة . أصبح شطا الحجري الرجل الثاني إذا لم يهلك ؟ ترى ما هي المهمة ؟ هل أنقذهم الخوف أو ضيّعهم ؟ أيهلك شطا أم يفوز ؟ وماذا لو تكشفت المهمة عن تكليف يسير لا يشقّ على أحد ؟ لقد تمّنوا في أعماقهم أن يتقرّر الهلاك مصيراً لشطا . وتلهّفوا على معرفة المهمة فتساءلوا :  
- لم يعد محظوراً أن تكشف لنا عن سرّ المهمة يا

## ٢

تواري المعلّم عن الأعين . لزم الرجال أماكنهم من شدّة الدهول . وجد شطا الحجري نفسه في بؤرة منصهرة بحرارة الأبصار والصيف . أراد أن يخرج من الحرج بكلمة اعتذار فقال :  
- أعترف بأنّي ما زلت أحمو في الذيل ولكنّها إرادة الله .  
فقال رجل مغلقاً قوله بنبرة نذير :  
- بل اخترت بإرادتك يا شطا !  
فقال في استسلام :  
- إنّما يجري كلّ شيء بمشيئة الله .  
فقال آخر بخشونة :  
- للشيطان أيضاً دور في رحاب الفتونة .  
فتغيّر مزاج شطا وقال بعناد :  
- لقد أعددت كفني يوم انضمت إليكم .  
فتلاطمت أصوات في سخرية :  
- عفارم . . . عفارم ! الطموح مهلكة ولكنّه حلم

## الفتوات

ضاق شطا بصمت طباع الديك أكثر ممّا ضاق بسخريات الرجال . استأذن ناهضاً ثم غاص في الظلمة .

استقبلته أمّه في بدروم عمارة الجبلي . ستهم الشهيرة بالفجريّة تستيقظ عادة مع الفجر لتتهيأ ليوم عمل كادح ، قال :

- حدث الليلة أمر عجيب . . .

وقصّ عليها ما جرى . عكس وجهها المتجدّد الكالغ انفعالات متضاربة ، تفكّرت حتّى وجعت ثمّ قالت :

فقال المعلّم بمرح :  
- كلّ شيء مرهون بوقته .  
وقام الرجل نافضاً عن عباة ذّات الرماد ومضى نحو الحارة وهو يقول :  
- تناسوا ما دار بيننا في هذه الليلة الحارّة فلا شأن لكم به !

قد يجيئ الهلاك بمن يتصدّى لها ، لا يجوز إخفاء ذلك عنكم ، فإذا وُقِّق فاز بالمكانة اللائقة ، وإن هلك تعهدتُ أهله بالعناية .

وخرج طباع الديك من صمته فقال :

- يا معلّم ، لقد خدمتك منذ . . .

ولكنّ المعلّم قاطعه متسائلاً :

- من منكم يقبل المهمة ؟

من غشاء الصمت الثقيل انطلق صوت يقول :

- خذأمك يا معلّم !

تحوّلت الأبصار بذهول نحو شطا الحجري . فتى جاوز العشرين بعام أو عامين . أحدث من انضمّ إلى العصا . لم يشترك بعد في معركة . قبل بناء على تزكية من طباع الديك نفسه . وجزع طباع الديك . إنّه في الحلقة الرابعة من عمره ويصغر معلّمه بعام واحد . ورغم سوء ظنّه بالمهمة وحذره من مقابل معلّمه فقد خاف أن تفلت منه فرصة العمر . لذلك هتف :

- لا أحد لها سواي .

فقال المعلّم بهدوء :

- إنّه شطا الحجري .

- ولكنّه . . .

فقاطعه المعلّم :

- لقد سبق ولا حيلة لك .

غشيت الصمت كآبة . أصبح شطا الحجري الرجل الثاني إذا لم يهلك ؟ ترى ما هي المهمة ؟ هل أنقذهم الخوف أو ضيّعهم ؟ أيهلك شطا أم يفوز ؟ وماذا لو تكشفت المهمة عن تكليف يسير لا يشقّ على أحد ؟ لقد تمّنوا في أعماقهم أن يتقرّر الهلاك مصيراً لشطا . وتلهّفوا على معرفة المهمة فتساءلوا :

- لم يعد محظوراً أن تكشف لنا عن سرّ المهمة يا

### الشیطان يعظ ١١٣

- ماذا قال الرجال أمس عقب ذهابي؟
- اتهموني بتجاوز الحد.
- هي الحقيقة بالقياس إليهم هم.
- فحمد الله في سره مرة أخرى على حين رجوع المعلم
- يسأل:
- ماذا عن أمك العجريّة؟
- قلقة وخائفة.
- لو لم تقدم لاتهمتك بالجين!
- انقطع الكلام قليلاً حتى قال شطا:
- إني رهن إشارتك.
- فمدّ ساقه قائلاً:
- ذلك ساقتي.

فشمّر شطا عن ساعدتيه وراح يدلك الساقين  
المدجنتين بارتياح وفخار. تواصل الصمت حتى تساءل  
المعلم:

- ما الذي دفعك إلى القبول؟
- فبادره شطا بحماس:
- أن أحظى برضاك.
- كاذب، أو نصف كاذب، إنه الطموح، ولكن لا  
فتونة بلا جنون.
- لم يدرِ ماذا يقول. ترامت من بعد صيحات الغلمان  
ونداءات الباعة وحوار النساء. ثم تساءل المعلم:

- مستعدّ؟
- رهن الإشارة.
- فقال الرجل بوضوح:
- اغتسل، ارتدّ ملابس جميلة، اعثر على أجهل بنت  
في الحارة، ثم اذكرها لي!
- ثقلت يداه وأوشكت أن تتوقفا عن التدليك. ما  
سمعه لم يتوقّعه قط. ظنّ المهمة مغامرة لا يطيقها إلا  
الأفذاذ. ما تصوّر أن تكون مهمّة خاطبة. بل الخاطبة  
أشرف. لا يمكن أن تقتصر المهمّة على ذلك. ما هي  
إلا مقدّمة لاختبار الطاعة. الحذر. الحذر من  
التردد. الطاعة أو الضياع. ما يعرف من قسوته مثلما  
يعرف من مكارمه. إنه ولا شك لم يقل كل شيء  
فليتظر. لكن وجهه لا يعدّ بمزيداً أخيراً تساءل:
- أهذه هي المهمّة بلا زيادة؟

- يا لك من متعجل!
- فتحامى الجدل فقالت:
- إنك لمجنون يتحدّى الجميع بلا تدبّر.
- فأنجّه نحو منامة فوق الكنبه صامتاً فقالت:
- لم يبق لي من ذكر سواك، أخواتك في بيوت  
أزواجهنّ، لعنة الله على شيطانك.
- فتمتم بامتعاض:
- لا تتوقّعين إلا الشر!
- أتحسب أنّ الفتونة هوى؟
- رغم قلقه واضطراب أفكاره فقد أسلمه الإرهاق إلى  
نوم عميق . . .

### ٣

استيقظ شطا الحجري عند الضحى. اجتاحته  
ضوضاء الحياة. ما زال الصيف يزفر ناراً. استيقظت  
معه ذكريات الليل. لم يلتقِ إليه المعلم بأية إرشادات.  
هل ينتظر حتى تهيئه إشارة؟ كلاً، عليه أن يتحرّك.  
ليتحرك حتى لا تنفرد به الأفكار. قرّر أن يذهب إلى  
دار الديناري. أول مرّة يعبر البوّابة العملاقة. اخترق  
فناء واسعاً. إلى اليمين مجّمع نخلات مثقلة بالبلح  
الأحمر وإلى اليسار إصطبل. سمح له بالانتظار في  
منظرة. طالعه في الجدار الأوسط بسملة مذهبة تشرف  
على الأرائك والبساط السنجاوي. حتى أذان الظهر  
انتظر ثم جاء الرجل. خيّل إليه أنه يرى رجلاً آخر.  
لأول مرّة يرى شعر رأسه الأسود، ولأول مرّة يخطر  
أمامه في جلباب فضفاض أبيض، أمّا رائحة المسك  
فهي دائماً تنتشر منه. ترّبع فوق الكنبه الوسطى ثم  
أشار إلى الأرض قائلاً:

- اجلس.
- فترّبع على مبعده قصيرة من موطن قدميه، ثم قال  
كالمعتدّر:
- جئت بلا دعوة.
- قال ووجهه لا ينم عن شيء:
- لو لم تفعل لاعتبرت الأمر كأن لم يكن.
- فحمد الله في سره على أول توفيق يصيبه. وسأله  
الرجل:



وكان يستريح في مقهى النجف عندما جلس إلى جانبه طباع الديك. انقبض صدره ولكنّه ابتسم. هو الذي زكاه عند المعلم يوم قبّل. صديق أسرته الذي يعتبر ستهم العجريّة أمّا له. قدّم له الشاي حبًّا وكرامة. ابتسم الرجل وقال:

- أصبح لك مظهر الوجيه لا الفتوة!

إنّه يستدرجه ولكن هيات. وتمتم الرجل:

- لا تستقرّ في مكان!

بادله الابتسام دون أن ينبس فقال طباع الديك:

- لا أريد إحراجك، هذا أول ما تطالبني به

علاقتنا الطيبة...

فتمتم شطا بأسف:

- معذرة يا صاحب الفضل.

- إني عاذرك، ومقدر لحالك، ولكنّ واجبي

كصديق للأسرة يطالبني بأن أحدرك...

- تحذرنّي؟

- معاذ الله أن أحرّضك على إفشاء سرّ ولكنتك

حديث عهد بنا فلا تعرف فتوتنا كما أعرفه..

فقال شطا بصدق:

- الحارة كلّها تعرفه...

- لعلّها لا تعرف مثلي حبّ الدعابة والعبث...

ارتعد قلبه ولكنّه قال بقوة يغطّي بها على ارتعاده:

- الدعابة لا العبث، إنّه جاذ كلّ الجدّ...

- لمّ صفح عن زميلنا الأعرج ولمّ أصرّ على عقاب

شعراوي القفا؟

ارتعد قلبه مرّة أخرى ولكنّه قال:

- ثمة سبب يعلمه ونجهله، إنّه أبعد ما يكون عن

العبث...

- إذا أردت الاستشهاد بالأدلة ستجد ما يؤيد

جدّيته وستجد ما يؤيد عبثه.

- لا، لا تقسّ ما يقع في حارتنا بما يحدث أحيانًا في

الغزرة...

- ولكنّ المغامرة التي تقدّمت لها حدثت في الغزرة!

فقال مجاهدًا غيوم القلق:

- لكنّ نتيجتها ستطّبق على الحارة!

- صدّقني يا شطا، لمّ لمّ أقدم على المهمة رغم أنّي

قال المعلم ببرود:

- لا أسمح بأيّ سؤال.

تركه يدلك ساقيه في صمت، ثمّ سحبها قائلًا:

- مع السلامة.

#### ٤

وهو يغادر الدار شعر بالندم. بل بالغضب. ربّما

ضرب يومًا مثلًا للحماقة والسخرية. الفتى الذي طمع

إلى السيادة فعمل خاطبة. أو قوادًا ذا قرنين. وسيكون

نادرة أخرى إذا هرب. ولكنّه وعده بالمكائنة الثانية إذا

نجح. وهو الوفاء إذا وعد. فكيف يشكّ في جدارة

العمل؟ إنّه لأحمق إذا تهاون مع سوء الظنّ. إنّه عنة

حقًا ولكن وراءها ما وراءها. فليصمد وليصمد

وليمحق الريب.

وسألته أمّه ستهم العجريّة بلهفة:

- خبّرني ما هي المهمة؟

أجل إنّ المعلم لم يكلفه بالكتيان ولكنّه شعر بأنّ

الامان في الكتيان. والكرامة أيضًا تلزمه به. فليُدعّه

المعلم إن شاء أن يبلوه. لذلك قال:

- الأسف والمعذرة.

فصرخت المرأة:

- من يُخفّ عن أمّه سرًّا فهو ابن حرام.

وهتفت أيضًا:

- أنت وشأنك ولتجرعنّ الندم.

وقال لنفسه «تقدّم بلا تردّد». ذهب إلى حمّام الأمير

وأسلم جسده إلى المغطس. ارتدى جلبابًا جديدًا ولاتة

منمنمة ومركوبًا أخضر ومضى منور الشباب كالبدر.

استحال عينين حذرتين، تسعيان وراء الجمال حيث

يكون. في النوافذ، عند صنبور المياه، في سوق

الخردوات والحليّ. كلّها لمح حسنًا سجّله في ذاكرته

وواصل السعي. وصادف في سعيه رجالًا من العصابة

يراقبون ويتساءلون. ضاعف من حذره مطمئنًا إلى

أنهم لم يقفوا على سرّه بعد. تمخّى أن يحافظ المعلم على

السرّ كما يحافظ عليه هو. تمخّى أن يعثر على ضالّته حتّى

تنجلي الحقيقة عارية. أجل ستتكشف مهمة الخاطبة

عن المجد لا الندم.

## الشیطان يعظ ١١٥

- يا شاطر من يسكن في الدور الثاني؟  
فأجاب الولد:
- عمّ طنّاحي بيّاع الطعميّة . . .  
آه . . . ثمة شبه بين الكهل والبنت الفاتنة . رجّع إلى بيته مستوصياً بالخذر . ورغم ما بينه وبين أمّه من جفاء سألها:
- هل تعرفين أسرة عمّ طنّاحي بيّاع الطعميّة؟  
فتجاهلته حتّى كرّر السؤال فسألته بدورها:
- لماذا تسأل؟
- حديث دار في المقهى حول بنت جميلة له .  
- زوّجت له بنتين وبقيت الصغرى وداد، صغيرة ولكتّها أجمل البنات . . .  
فقال مخفياً انفعاله:
- ذاك ما قيل عنها .
- قل لمن يتحدّث إنّ الطائر قد حلّق في السماء .  
- السماء؟!!
- ما زال الأمر سرّاً ولكتّي الوحيدة من غير الأسرة التي تعرف أنّ معلّمك الديناري خطبها منذ أسبوع! - حقّاً؟!
- حظّها السعيد، لا أهميّة للسّن ولا لكثرة الزوجات! ابعّد إن كنت فكّرت في القرب . . .  
إذن قد خطبها الرجل قبل أن يكلفه بالبحث عنها .  
ولكن هل يغيّر ذلك من موقعه من المهمّة؟ عليه ألاّ يضيّع وقته وأن ينسى ما سمع . .

٦

- قبع في مجلسه عند قدمي المعلّم وراح يدلك ساقيه .  
الرجل يرتاح لذلك وهو يجيده . مهما يكن من أمر العاقبة فهو اليوم الصقّ الجميع به . غير أنّه لا يستطيع أن يقرأ وجهه . ألا ما أكبر الفارق بينه وبين البنت، في العمر والحجم وكلّ شيء . والرجل صامت يضنّ بالسؤال فعليه هو أن يتكلّم . قال:
- عثرت على البنت المنشودة يا معلّم .  
بعد هنيهة صمت قال الرجل:
- انطق .
- الاسم وداد، كريمة عمّ طنّاحي، بالدور الثاني

اجدر الرجال بها؟! حدّثني قلبي بأنّه يهين للعبث مقلّباً!

هزّ شطا رأسه نفياً واحتجاجاً فقال طباع الديك:  
- ثمّ إنّ لا يتأثر بالعواطف، وهو قويّ كما نعلم جميعاً فمَنذا يضمن وفاءه؟ بل هَبْكَ هلكت لا سمح الله فلم يُعِنْ أملك فمَنذا يحاسبه؟!!

لزم شطا الصمت بنظرة رافضة فنهض طباع الديك قائلاً:

- الله معك!

فقال شطا:

- هيهات أن تترزعزع ثقفي به .

وأتبعه ناظريه وهو يلعنه . . .

٥

الوساوس والهواجس تخامره . طباع الديك لا يذكر العبث بلا دليل . أجل إنّه مغرض وحاقد وخائف ولكتّه لا يهذي . على ذلك فهو يصرّ على جدّيّة معلّمه . رغم غرابية ما كلّف به . رغم الغموض المتعمّد من الآخر . ربّاه . . ما العمل لو كان يعبث به حقّاً؟! ما العمل لو تبدّد الجهد نظير لا شيء؟ ما العمل لو تناثرت قوائمه حياته فيما يشبه المزاح؟!!

وهو يجاور نفسه طالعه فجأة وجه يبرق من الملاءة السوداء كالضوء . وجه نفاذ الحلاوة بهيج الأثر . ما تمالك أن قال لنفسه وهو يتنفض بانتعاش غامر «لعلّها هي» . في الحال تناسى وساوسه وهواجسه وحلّ بقلبه الظفر . لعلّه رآها قبل ذلك ولكتّها عبرت في غفلته بلا أثر . سرعان ما تبعها عن بعد على إيقاع تموجاتها الراقصة . حتّى عطفة البرادة وحتّى غيابها في عمارة ربحان المتهالكة . هي هي ضالّته المنشودة فمن تكون؟ عليه أن يجمع المعلومات الكافية . الناجح من يحافظ على السرّ ويجمع المعلومات الوافية . أفعم قلبه بالإلهام والثقة . وحلم بالمكانة الرفيعة الثانية . ودعا الله أن يُتمّ المهمّة دون مساس بكرامته . ومن حظّه السعيد لاحت في النافذة، لمحها ولمحتة أيضاً بنظرة خاطفة . في العطفة كوّاء بلديّ وبيّاع طعميّة ولكتّه تجنّب سؤال الأنفس المتقلّبة . استدرج غلاماً يلعب فسأله:

تعرض لها في نافذتها، تبعها إلى دكان الخردوات وهي بصحبة أمها، وهبها عينين حادتين وهي تمر أمام مقهى النجف. تطايرت نظراته الموشاة بالبسات الخفية معلنة عن عاطفة لا وجود لها. وفي فرح شهده وكانت وداد بين المدعوات قاربت بينها نظرة طويلة فغمز لها بعينه ملقياً بنفسه في فم القدر. إنها الآن تعرفه تمامًا وتحمن مقصده فليتها تغضب، ليتها تشي به عند والديها فتتقذه من المجهول، وتتقذ نفسها. لكنّها لم تغضب. بل مرحت في دلال معلنة محاسنها كاشفة عن استجابة واضحة. قال لنفسه بحزن إنها لا تهمها الفتونة، إنها تؤثر الحب على الجاه، إنها حلم الشباب المثالي وأسفاه. ومضى في الطريق مستسلمًا لاغيًا عقله. حتى ضمّهما يومًا زحام يمدق بالحاوي. تزحزح خفية حتى استقرّ جنبها. ولما التفتت نحوه همس:

- يا جميلة.

فالتفتت عنه في دلال مشجعة على المزيد فهمس:

- أقول إنّ جالك . . .

ولكنّها قاطعته هامسة ومعلنة استجابتها في الوقت نفسه:

- الناس . . . الناس.

- صدق من قال إنّ العاشق مجنون.

- أنت لا تعرف كلّ شيء.

فهمس متخطيًا أشباحه:

- أعرف أنّك مخطوبة للديناري.

فرمقته بدهشة وإكبار وهمست:

- إنّه سرّ.

- لكّي أعرفه . . .

- لن تحظى بأحد يقبلك.

- المهمّ رضاك أنت.

فتساءلت متظاهرة بالتركيز على يد الحاوي وهو يلاعب الحيّة:

- أيّ فائدة ترجي؟

- لتقابل على انفراد.

- أمر عسير.

- الشمس تقترب من الغيب، زاوية الدرمللي

مكان آمن . . .

من عمارة ربحان القديمة . . .

- ألم تفتك فرصة؟

- كلاً.

- هل فطن أحد إلى مسعاك؟

- كلاً.

- الكتمان في صالحك أنت.

- حرصت عليه بحسن تقديري.

- إنك معجب بنفسك . . .

فتورّد وجهه الأسمر حياء، تفاعل بالصمت، ثمّ تساءل:

- انتهت المهمة يا معلّمي؟

فقال الرجل بلا مبالاة:

- الآن عليك بمغازلتها!

كأنما تلقى ضربة على يافوخه. هتف:

- مغازلتها؟!

قال الرجل ببرود:

- مع السلامة.

في الخارج لم يسمع صوتًا رغم الضوضاء، لم ير أحدًا رغم الزحام، لم يلق بالآ إلى متربص. المهمة تتعقد والمخاوف تتجسد والأشباح تتخايل. ها هو يحمل أمرًا من معلّمه بمغازلة خطيبة معلّمه. وهو مطالب بإبلاغه بالنتيجة. هيهات أن تواتيه الشجاعة على الكذب. أمي طريقة لاختيار الرجل الثاني حقًا أم الأمر عبث في عبث؟ الليل تتكاثف ظلمته وتتوارى نجومه وراء السحب . . .

## ٧

وجد نفسه بعد ذلك بين اثنتين، الحرب أو الصمود. قرّر أن يصمد. ليس وراء الحرب إلّا السخرية والضياع، أمّا الصمود فإنّه يمارس فيه رجولته وليكن بعد ذلك ما يكون. ربّما انتهى به الصمود إلى شائنة الحاسدين ولكنّ الحرب ينذر بما هو أفظع. وكلّما تعقدت الأمور وانهم المغزى على إدراكه قال لنفسه مستهينًا:

- ليست السلامة بالغاية المفضّلة في هذه الدنيا.

وانطلق في أثرها يخطّ بالقدم مصيره ومصيرها.

قال واعياً بإقدامه على ما هو أخطر من قبول المهمة نفسها:

- البنت عاقلة لا سبيل إليها!  
فقال موجود الديناري بهدوء:  
- أنت كذاب.

تطلّع إليه بذهول مؤمناً بأنه قد انتهى. السرّ افترض وفاته أن يفترض ذلك. إنه لم يخنه فقط ولكنّه أساء الظنّ أيضاً بقدرته. وانقلب أنفه من لا شيء. وراحت يدها تدلّكان ساقّي الرجل باليّة في صمت ثقيل. حتّى قال الرجل بجفاء:  
- انطق.

فقال باستسلام:  
- الصدق ما قلت يا معلّمى . . .  
- كيف غفلت عن أنّي امتحنك أنت لا هي!  
فقال بأسى:

- إني غيبي ولكنني لم أستطع أن أكون وغداً.  
- فلتنهأ بالشهامة والعصيان!  
فقال بيأس:

- اعترف بأنني أخفقت في القيام بالمهمّة . . .  
فتساءل المعلّم بسخرية:  
- ما هي المهمّة؟  
- ما كلّفني به يا معلّمى . . .  
فصمت الرجل قليلاً ثمّ قال:  
- أقول لك يا أعمى استمر!

فتمتم شطاً بذهول:  
- استمرّ؟!  
- وأبلغني عن كلّ خطوة في حينها.  
فاشتدّ الدهول بشطاً وتساءل:

- أيعني ذلك أنّي ما زلت مكلفاً بالمهمّة؟  
فندّت عن يد المعلّم حركة تدلّ على ضيقه وقال  
بحزم:  
- اذهب . . .

إنّه يغوص في الظلمات بلا مرشد. خلا إلى نفسه في

- ولكن . . .

- سأسبقك . . . لا تضيّعي فرصتنا الوحيدة.  
ومضى نحو الميدان ثمّ انعطف إلى الزاوية.  
اضطرب خفاق القلب. ثمّة أمل ضعيف في أن يستردّها العقل في آخر لحظة. أن تثوب إلى رشدها وتندم.  
لكنّه رآها مقبلة في شجاعة تثير الدهشة . . .

استغرق اللقاء الخفيّ دقائق معدودة في الركن المتوارى المعتبر مأوى للمجازيب. سألها:  
- لديك فكرة عن الخطر الذي يتهدّدنا؟  
فأجابت بثبات أكبر من سنّها بكثير:  
- نعم.  
- لا سبيل أمامنا إلّا الحرب إلى الأبد.  
فتمتمت:  
- ليكن.

وبانتهاء اللقاء الأوّل انعقدت سحب التعاسة فوق رأسه. وقع في حفرة لم يقدر مدى عمقها من قبل. غزاه صدقها وشجاعته وبراءتها. صدقته تماماً، وهبته قلبها النابض، وضعت مصيرها بين يديه. دهمته أيضاً استجابته غير المتوقّعة. هاله الدور القدر الذي يمثله بمهارة فائقة. ألم يخشّ لحظات من جانب معلّمه العيب؟ ها هو يعيب بالطهارة والبراءة! لماذا؟ من أجل أن يعتلي الموقع الرفيع الثاني في جماعته. أيهون عليه حقاً أن يتمّ مهمّته فيدفع بالبنت إلى الهاوية؟ كلاً. لن يكون يوماً من أهل ذلك المنحدر. وما أغراه بالانضمام إلى جماعة المعلّم إلّا استزادة من الشرف. وهيهات أن ينسى نظراتها المحبّة الواثقة. ولا صوتها العذب وهي تتمتم:  
- ليكن.

هل يبيع ذلك كلّه من أجل مهمّة غامضة كلّفه بها رجل عظيم حقاً ولكنّه معروف بأطواره المحيرة؟!  
كلّاً فليقدم على ذلك وغد من الأوغاد لا رجل يهيم بالحياة السامية.

هكذا جلس عند قدمي معلّمه وقد قرّر أنّ شرفه أعلى من المهمّة الغامضة . . .

- الآن؟
- قبل أن تفلت الفرصة إلى الأبد.
- فتفكرت وهي تعبت بأناملها بقلق ثم تساءلت:
- أنت مستعد؟
- معي من النقود ما يكفي في البداية.
- إلى أين؟
- أقرب وآمن مكان، الدرب الأحمر...
- لا صديق لنا فيه.
- جميع الدروب معادية ولكن فتوته الشبلي خير من غيره.
- وإذا أبي حمايتنا؟
- لا أظن، سأجعل نفسي في خدمته، وإلا ولينا وجهة أخرى.
- فوجت كالمترددة فقال:
- لا اختيار منا وثمة أعين ترقبنا!
- فقلقت عينها من الخوف فقال:
- ستمضي من توتنا وسوف تكون مفاجأة لم يتوقعها أحد، هذه هي فرصتنا.
- إني معك ولكن فلنؤجل التنفيذ حتى أستعد.
- إنها فرصتنا الوحيدة.
- هكذا مضيا في الطريق الجديد مضطربين مصممين سعيدين، يموتان ويولدان من جديد...

### ١١

مضى شطا الحجري من فوره إلى مقابلة المعلم الشبلي في داره القديمة. صدمه الفارق الشاسع بين دار الديناري الباهرة وهذه الدار الهرمة، بين هيكل معلمه المترامي رجس هذا الرجل النحيل الذي تأهل للفتونة بخفة النمر ودهاء الثعلب. قال شطا:

- جئتكم مقدما الولاء وطالبا الحماية...
- سر الفتوة للجوء أحد أتباع الديناري إليه ولكنه قال:
- حدثني عما ألك إلي...
- ولم يجد شطا بدا من الاعتراف الكامل بحكاياته ليسوغ ما أقدم عليه من سلوك غريب... وضحك الشبلي طويلا وقال:

البدروم الذي تهجره أمه طيلة النهار سعيا وراء الرزق. تجرد من ثيابه دفعا لحر ذلك الصيف. فليفكر وليفهم. لقد أخفق في المهمة واستحق غضب الرجل. كان عليه أن يدرك أن للمعلم عينه أيضا. لماذا إذن يأمره بالاستمرار عوضا عن أن يعلن فشله أو ينزل به عقابه؟ أينحة فرصة جديدة؟ كلا... لا تمن نفسك بالأوهام. هل المهمة شيء آخر غير ما وضع له؟ أريد أن يخفف من عقوبته بعد أن خسر الثمرة؟ هل يسوقه إلى العقوبة من حيث لا يدري؟ ثم أمر يقيني وهو أنه يتعمد إلقاءه في الحيرة. ما أعجزه عن الإدراك المطمئن ولكن لا مفر من الاستمرار. إنه يفهم الآن مغزى تردد طباع الديك رغم قوته وشجاعته. أما هو فما أشبهه بلاعب السيرك الذي يترصد الهلاك عند الخطأ، فليذهب إلى الموعد المرتقب. لن يخفي شيء عن الرجل. عليه أن يهتدي إلى ما ينبغي له فعله قبل أن تتبدد حياته هباء.

\*\*\*

وعندما أقبلت نحوه قبيل المغيب، عندما منحته ابتسامة اللقاء، نسي مخاوفه، استهان بالعواقب، محق شكوكه، غمره رضا وسلام، خفق قلبه بعمق، اكتشف أنه يحبها. أجل إنه يحبها كما تحبه وأكثر. لعلها أحبها من بادئ اللعبة وهو لا يدري. وفي ظل الحب حظي باليقين. ومهما يكن من غموض معلمه أو عبثه فقد هداه إلى الحب. عليه أن يدبج في مصيره ويحملها معًا. لقد نماها مرضاة لضميره وها هو الحب يلحق بالضمير ويجاوزها. لا أهمية الآن للمهمة ولا للدفاع عن النفس ولا للبقاء في الحارة. الهرب... الهرب... إنه الحقيقة الباقية. تلقاها بحرارة وسط ضوضاء المجاذيب. يوجد حتما من يراقبها ولكنه سيلوذ بالمفاجأة.

- أهلا بك يا وداد.
- ثم بجديته بالغة:
- ليس لدينا وقت نضيبه.
- تساءلت بنظرة من عينها السوداء فقال:
- الآن وجب الهرب.
- فاضطربت متممة:

## الشیطان يعظ ١١٩

اعترف لك . . .  
 وقصّ عليها قصّة علائته بها منذ خرج للبحث عنها  
 حتّى وقع في حبّها. وصغت وداد واجمة، وصممت  
 ملياً، ثمّ قالت:  
 - قصّة جميلة ولكنّها لا تخلو من رعب.  
 فقال بحرارة:  
 - لم يبقَ لنا إلا أن نسعد . . .  
 ولكن حتّى الليلة الأولى لم تخلُ من تنغيص ومن  
 حزن. لقد حظي بالحماية ولكنّه باء بسوء الظنّ  
 والالتزام كما ثبت أنّه غير أهل للثقة. وتساءل أناس هل  
 يرجع الديناري إلى الممارك غضباً لكرامته خارقاً ما  
 التزم به من تعهّدات سلميّة - هو والشبلي - أمام  
 الشرطة؟! هل يثبت شطا الحجري أنّه شوّم على  
 المكان الذي وقر له الحماية كما كان عازراً على المهّد  
 الذي ولد ونشأ فيه؟!  
 وانعكس ذلك كلّ على شطا وتسرب إلى حنايا وداد  
 فلم تخلُ الليلة الأولى من شهر العسل من تنغيص ومن  
 حزن.

## ١٢

في صباح اليوم التالي ترامت إليهما أنباء عمّا لحق  
 بأهلها من تحرّش وتضييق في الرزق وتعرّض لشقّي  
 ألوان الإهانات والقهر. في السوق أيضاً سمعت وداد  
 اللعنات تصبّ على جالها الذي يهدّد الحارة والدرّب.  
 رجعت إلى مسكنها شاحبة الوجه منهزمة وهتفت بعين  
 دامعة:

- أبي وأمّي وأخواتي!

فتمتم شطا بنبرة حزينة:

- أمّي وأخواتي أيضاً!

تبادلا نظرة طويلة حائرة. أفصحت النظرة عن  
 أشياء انجبت وراء معانيهما. قالت النظرة إنّها اندفعا  
 مع عاطفة طاغية دون تفكير في العواقب. الحقّ أنّها لم  
 يشعرا بصفاء السعادة إلا في رحاب الاندفاع المذهلة.  
 الآن يعترضها جدار سميك من الحقائق المرّة بأنبيائها  
 الحادّة. وكالغريق الذي يتعلّق بقشّة قال شطا:  
 - وراعنا طريق مسدود، وعليّنا أن نستخلص من

- معلّمك يحيط نفسه بالغموض، في الظاهر  
 استجلاً للاهتمام وفي الحقيقة ليداري جنونه المؤكّد . . .  
 فأخنى شطا رأسه ليخفي ضيقه ولاذ بالصمت،  
 فقال الشبلي:

- لك الحماية والإقامة، ماذا تريد أيضاً؟

- أن تقبلني في جماعتك . . .

فقال الفتوة بصراحة جارحة:

- أمّا هذا فلا، لا أمان لرجل خان معلّمه!

أصابته الطعنة مقتلاً فقال بحرارة:

- أردت ألا أكون وغداً . . .

- نحن نفضّل الوغد المطيع على الشهم المتمرد.

- لك ما تشاء وعليّ الرضا بالمقدور.

- ألك حرفة؟

- كنت نجاراً قبل أن ألتحق بالجماعة.

- مارس حرفتك واحذر أن تلعب بذيالك . . .

فقال بانكسار:

- إني أنشد السلامة يا معلّم . . .

رجع شطا إلى وداد وقد خسر أشياء لا تعوّض.

ومن نقود الديناري المدّخرة لديه تزوّج واكثرى حجرة

وأثاثاً بسيطاً. استقرّ في مسكن وعمل كما استقرّ الحزن

في أعماق نفسه. لقد اعتبر في الدرب آية على تفوّق

فتوة الدرب ولكنّه عومل كغريب. وأراد أن يبتك ستار

الغربة فقال في المقهى:

- كان أحد أجدادي من الدرب الأحمر . . .

فسأله شيخ الحارة متحدّياً:

- أجئت من أجل ذلك؟

فبادره وقد فطن إلى ما وراء السؤال:

- بل جئت طلباً للحماية فتوة معروف بشهامته!

وتساءل في نفسه ترى كم من زمن سيجري قبل أن

ينهمض مقامه ويألف ويؤلف ثمّ يتناسى أحزان الماضي

كلّه.

وقال لوداد:

- دَفَعنا إلى المرّ ما هو أمرّ منه . . .

فقبلته قائلة:

- إني غير نادمة . . .

- لقد اعترفت للشبلي بحكايتي والآن آن لي أن

## ١٢٠ الشيطان يعظ

- القيامة جوهرة السعادة المفقودة . . .  
فتأوهت قائلة:  
- اللعنات تطاردني في الطريق . . .  
- علينا أن نجعل من الحاضر ماضيًا . . .  
- فنكست وجهها صامتة فرجع يقول:  
- فعلنا ما هو صواب ومشرف . . .  
- ولكننا نسينا العواقب . . . دعنا نبحث عن رزقنا في مكان آخر . . .  
- لن يخفف ذلك البلاء عن أهلنا.  
- والعمل؟  
- لا مفر من مواصلة الحياة.  
- لكننا مليئة بالمرارة . . .  
فقال بضيق:  
- لا مفر ولا حيلة . . .
- إني أخطب ضميرك .  
- ضميري هو ما ساقنا إلى هنا والمسألة أننا ضحية عبث . . .  
- عبث؟  
- أجل . . . عبث لا معنى له . . .  
- ولكن . . . انظر . . . ما بين فعله وإلا وله سببه وله هدفه أيضًا.  
- لقد خدعت فكُلفت بمهمة عابثة . . .  
- ألم تكن تطمح إلى أن تكون فتوة حارثكم ذات يوم؟  
- أيعني ذلك أن أكون العوبة في يد الغير؟  
- من أجبرك؟  
- عظيم، لقد اخترت بعد ذلك أن أفعل ما رأيته صوابًا . . .  
- وما هو يتكشف عن أخطاء فمنذا يُصلحها؟  
- وإذا سررتُ إلى الهلاك بقدمي فهل تدافع عني أنت؟

## ١٣

- في مساء اليوم الثالث استبقاه الشيخ ضرغام أمام الزاوية عقب صلاة العشاء وقال له:  
- عندي رسالة إليك من الشيخ عقلة إمام حارثكم . . .  
أصغى شطا بفتور وتشاؤم فقال الشيخ:  
- إنه يخبرك بأن ما يعانیه أهلك وأهل زوجك فوق ما يحتمل البشر . . .  
فتقبض وجه شطا وهو يقول:  
- الحزن يمزق قلبي . . .  
- أيكفي ذلك؟ الناس هنا يتساءلون كيف تنعمان بالحب على حين يؤدي أهلكنا عنكم ضريبة العذاب؟  
- أهل الدرب هنا يكرهوننا يا مولاي . . .  
- إنهم معذرون . . .  
فقال شطا متنهّدًا:  
- من الأوفى أن نذهب . . .  
- إلى أين؟  
- إلى أيّ مكان.  
- والمعدّبون وراءكم؟  
فقال شطا باستياء:  
- كأنما تدعوننا إلى الموت!

## ١٤

- وجد في الحجرة غشاوة صفراء - مشبعة بحرارة الصيف - لا تستطاب فيها لقمة ولا يخفق قلب بالحب.  
تبادلا النظرات في صمت مشحون بالكآبة. أعاد على مسمعا حديث الشيخ. وتبادلا النظر أيضًا. كأنما تقول له «أنت السبب». إنها تعيسان وما بينهما يتدهور كلينات البنيان الأيل للسقوط. تنهد قائلاً:  
- الحياة لا تطاق.  
- فأمنت قائلة:  
- هي كذلك.  
اعتراف ينذر بالمأساة. تساهل كمن يتحسّس ضررًا مريضًا:

## الشیطان يعظ ١٢١

- هل نهجر الدرب ونعيش بلا مبالاة؟  
- تقول ذلك بلسانك لا بقلبك.  
فتساءل متحدثياً:  
- ما عسى أن نفعل؟  
- أرشدني فإنك أنت الرجل.  
استشف في قولها سخريّة أثارت غضبه فقال  
غاضباً:  
- ما من شقاء إلا وراءه امرأة.  
- فليسامحك الله، ولا تنس أنك بدأت بخداعي.  
- ستصيبن الأخطاء فوق رأسي...  
- كنت القائد وكنت التابعة.  
- هذا هو الظاهر... اللعنة!  
فهتفت محتجة:  
- ما دمت قد أحببت فإني أستحق أكثر من ذلك.  
- ما أعجب أن نذكر الحب في مثل حالنا.  
- لك عليّ ألا أذكره.  
وندم على ما فرط منه. ما جدوى الغضب؟ وكبح  
نفسه قائلاً وهو يجفّف عرقه:  
- نحن نهرب في الغضب من مواجهة أنفسنا.  
- طيب أن تذكر نفسك بذلك.  
فقال كالمعتاد:  
- وداد، إنك امرأة ناضجة رغم صغر سنك، لك  
مزايا عظيمة، الفتونة لم تخلب لك فأخلصت لنداء  
قلبك، تحديت الحارة وهربت معي، ناضجة ومحترمة،  
عظيم، اقترحي عليّ...  
فقال متأثرة بندمه:  
- اقترح أنت.  
فتفكر قليلاً ثم قال:  
- الشك يمزق قلبي، أنا ضحية عبث؟ أم العبث  
من خلق تعاسي؟ في مثل حالي هذه لا يحسن بي أن  
أأخذ قراراً!  
- تستطيع أن تتخذ قراراً في جميع الأحوال.  
فتنهّد قائلاً:  
- سأحلّ الشیخ ضرغام رسالة إلى معلّمی القديم  
موجود الدیناری أسأله عن شروطه لكي يعفو عنّا...  
فصمتت غير قليل ثم تمتمت:
- افعل، لا حيلة لنا، لا أتوقّع خيراً...  
١٥  
جاءها بالردّ في مساء اليوم التالي أو اليوم الرابع في  
مقامها الجديد. قال لها بوجه ناطق بحيرته:  
- كما توقّعت...  
فقالت بأسى:  
- لم أتوقّع خيراً.  
- إنّه أظن من ذلك، لقد قال للرسول «قل  
للأعمى أن يستمر»...  
فانتقلت الحيرة إلى وجه وداد وغمغمت:  
- أن تستمر؟!  
- هذا ما ردّده في آخر لقاء لي معه...  
- تستمر في ماذا؟  
- لم يزد عنّا قلت ولم ينقص...  
- أهذا هو شرطه ليعفو عنّا؟  
- لم يجز للعفو ذكر في جوابه.  
- لا شك أنك تفهمه خيراً مني...  
- إنّه يتعمّد إبقائي في الحيرة حتّى أجزأ!  
- ليته يقنع بذلك ويعفو عن أهلنا...  
فضحك ضحكة جنونيّة وقال:  
- لن يكفّ يده عنهم قبل أن أصدع بأمره  
وأستمر.  
- إذن فعليك أن تستمر.  
- في ماذا؟  
- لم لا تستوضحه؟  
- فعل الرسول ولكنّه لم يردّ، الشیخ ضرغام نفسه  
قال عنه إنّه يتعدّر التفاهم معه بيد أنّه نصحني بأن  
أفعل ما يملية عليّ ضميري...  
- رجعنا إلى ما قبل السؤال.  
- توهمت مرّة أنّه يعني أن أستمر في المهمّة!  
- ولكنك أخفقت من أوّل خطوة.  
- لا أستطيع أن أحكم لأنني لم أطلع على كل ما  
يدور في رأسه.  
فتساءلت نافذة الصبر:  
- أهلنا هل ينتظرون حتّى نحلّ هذه الألغاز؟



ولكنه وضوح الابتذال والتفاهة. والحق أنه رغم كل ما كان لم يحب الشبلي ولم يبغض الديناري. وقد مهد لطلبه قائلاً:

- لن أنسى فضلك ولا ما وجدته في دربك من أمن.

فقال المعلم ببرود:

- لعله يثمر معك.

فقال متصبراً على اللطمة:

- لن أنسى فضلك أبداً.

- ماذا تريد؟... أراهن على أنك لم تحضر للسؤال عن صحتي!

- صحتك دائماً عين المراد، المسألة أننا لم نعد نطبق البقاء مع ما بلغنا عن انتقام الديناري من أهلنا... .

فتساءل الرجل في سخرية:

- أجنث تطلبني بحماية أهلكم؟!

- ما إلى هذا قصدت ولكننا قررنا الرجوع إلى حارتنا ليفعل الله ما يشاء.

- هل ترجع بخطية معلّمك وهي على ذمتك؟

- سيكون الطلاق ضمن ما نقدم من تضحية... .  
فتهلّل وجه الرجل وقال:

- هو الصواب ولا لوم عليك.

- لذلك جئت مستأذناً في العودة.

- لك ما تشاء، ولكن يجب أن يتم الطلاق هنا!

- لكنّ حدوته في الحارة خير لنا.

فقال بإصرار:

- أرى أن يتم هنا.

فتساءل شطاً في ارتباك:

- وما وجه الحكمة في ذلك؟

- لترجع زوجتك إذا رجعت بمشيتها لا بحكم كونها زوجتك.

- ولكنّها صاحبة الاقتراح.

- ولو، قد تغيّر رأيها وتؤثر البقاء وحدها!

قالها بوضوح غليظ فأدرك شطاً من فوره أنّ الرجل يريد لها لنفسه، فقال بقلق:

- هيهات أن أنال العفو عن الأهل إذا رجعت وحدي.

فقال متجاهلاً مقاطعتها العصبية:

- توهمت مرة أخرى أنه يدعوني إلى إصلاح

الخطأ... .

- هل يقبل الحلّ الذي ترتئيه؟

- لا أدري البتّة!

فهتفت:

- ثمة مهمة عاجلة وهي أن نرفع العذاب عن

أهلنا وأن نبعد عن هذا الجوّ المعادي لنا.

- هذا يعني أن نذهب.

- بل يعني أن نرجع إلى الحارة.

- لا يمكن أن نرجع ونحن زوجان وآلا عُدّ ذلك تحدّياً له.

- يجب أن نرجع.

قال بأسى:

- وداد، إنك تفكرين في التخلّي عني.

فشهقت بالبكاء ولم تدر ما تقول فقال:

- هبنا انفصلنا فهل يعفو عنا؟

- ثمة أمر مؤكد وهو أنه سيكفّ عن أهلنا وسننجو من هذا الدرب البغيض.

فتمتم كالمتردّد:

- من يدري؟

فقال بوضوح:

- إنّي راجعة... .

- يلزمنا مزيد من التفكير.

- نحن نزيدهم عذاباً، وتتعذب أيضاً، فلنقدّم

ولتكبّل أمرنا إلى الله... .

عليه أن يستأذن المعلّم الشبلي صاحب الفضل والحماية. إنّه حريص على النزاهة بقدر ما هو متهم بالخيانة. شعر مرة أخرى بالفارق الكبير بين الدارين، دار الشبلي ودار الديناري. هنا فناء واسع ولكنه موحش ولا زرع فيه والإصطبل تفوح منه روائح الية. وتجري الأبراص بين عمد الأسقف البارزة. الشبلي نفسه لا ينعم جسده بالنظافة إلا حين انطلاقه إلى المقهى. أجل إنّه - بخلاف الديناري - واضح،

## الشیطان يعظ ١٢٣

- فقال بقحة ونبرة منذرة:  
 - لا يهمني ذلك!  
 فقال متوسلاً:  
 - معلّمي . . .  
 ولكنّه قاطعه قائلاً بخشونة:  
 - لقد قدّمت لك خدمة لا توزن بثمان وجاءت نوبتك لتردّ إليّ بعض الجميل . . .  
 تردّد شطا فواصل الرجل غاضباً:  
 - اذهب وطلّق!  
 - كلاً!  
 - ماذا تنوي أن تفعل؟  
 - لا أدري.  
 - أكاد أن أجنّ.  
 - ما أنا إلا رجل مفرد أمام عصابة في درب لا صديق لنا فيه.  
 - إنك تفكّر في التسليم.  
 - إنك لا تفكّر إن إلا في ذاتك.  
 فقالت محدّرة:

- شرّ ما فعله في موقفنا الحرج أن نتشاجر معاً.  
 - من الخير أن نذكر أنفسنا بذلك . . .  
 عند ذاك دقّ الباب فنهض شطا إليه يفتحه فدخل الشبلي يتبعه مأذون الحيّ ونفر من رجال العصابة . . .

## ١٧

- اهتزّ عودها الرشيق من الغضب وهتفت:  
 - لن يكون هذا أبداً.  
 فرمقها شطا بحزن ويأس مدرّكاً عمق المأزق الذي وقع فيه فهتفت:

- ١٨  
 ابتسم الشبلي عن ثنيتين ذهبيتين وقال:  
 - جيئنا لتنفيذ ما تمّ الاتّفاق عليه!  
 تراجعت وداد إلى ركن الحجرة وهي تحبك جلبابها حول جسدها متسائلة:  
 - أيّ اتّفاق؟

- ردّد الشبلي عينيه بينها ثمّ قال بهدوء منذر:  
 - ها هو المأذون، واختر من الرجال شاهدين.  
 فغلى دم شطا في عروقه وملكته نشوة كالتّي دفعته إلى قبول المهمّة في غرزة المنارة فقال:

- لا اتّفاق بيننا يا معلّم.  
 فاربّد وجه الشبلي وتساءل:  
 - ألا تريد أن تطلّق؟  
 فقال شطا وهو يفتح صدره على مصراعيه للمجهول:  
 - كلاً.

- فرنا إليه مليّاً بين رجال متوثّين في صمت يشلّ الخواطر، ثمّ التفت نحو المأذون قائلاً:  
 - اذهب فلا حاجة بنا إليك . . .  
 ولما أغلق الباب وراءه قال:  
 - لي طريقي ولكلّ شيخ طريقة، ولديّ دائماً ما هو أفتك من القتل!

- فلنهرب!  
 فقال بذهول:  
 - هيهات أن يتيسّر لنا ذلك.  
 فحدجته بنظرة غاضبة وقالت:  
 - لقد أخطأت بذهابك إليه.  
 - فعلت ما يقتضيه الواجب.  
 - دائماً يقودك تصرفك إلى مشكلات لا حلّ لها . . .

- إنّي أفعل ما يمليه عليّ ضميري!  
 فقالت بحق:  
 - لا شكّ أنّه يطالبك بأن تحمي أيضاً زوجتك.  
 فهتف بغضب:  
 - أجل، ولكن ما حيلتي؟  
 - هل يمكن أن تتركني له ثمّ تذهب؟  
 فتمتم شارداً:  
 - غير ممكن.  
 - ماذا تنوي أن تفعل؟  
 - لا أدري.  
 - إنّه يتوقّع أن تصدع بأمره.  
 - أجل.  
 - هل تصدع بأمره؟

## ١٢٤ الشيطان يعظ

- وتنحى جانباً وشطا يتابعه بعينه أما الرجال فأتجهوا نحوه متحفزين فصرخ به شطا:  
- تقدّم أنت يا جبان .  
انقضّوا عليه فدارت معركة حامية . كال لهم ضربات صادقة وتلقّى ضربات مجنونة . صارع بقوة وشجاعة ولكن اختلّ توازنه فهوى . ارتقى عليه الرجال فأشبعوه حتى نزع الدم من بين أسنانه وأنفه . وأوثقوا يديه وقدميه وجلس أثقلهم فوقه . مضى الشبلي نحو وداد وهو يقول مخاطباً شطا:  
- فلتر بعينيك عاقبة عنادك!
- ستسبقنا إلى الحارة أيضاً .  
ثم رفعت منكبيها استهانة وتساءلت:  
- أين يتمّ الطلاق؟  
فصرخ:  
- لن أطلق أبداً . . .  
فأتسعت عيناها في ذهول فقال بإصرار:  
- أبداً . . . أبداً . . .  
- وعذاب الآخرين؟!  
- إني ماضٍ إلى مقابلة الديناري ومواجهة المستحيل .

## ٢٠

- غادر شطا الحجري ووداد مسكنها فيما يشبه الزقّة . أحلق بها الرجال فتبعوهما حتى عبرا بوابة المتويّ تخلفين وراءهما الدرب الأحمر وذكرياته الدامية . قال شطا:  
- لم يبق لنا إلا أن نواجه مصيرنا بشجاعة .  
فتمتتم وداد:  
- من يصدّق أننا لم نلبث في الجحيم إلا خمسة أيام!  
- ساعة واحدة كافية إذا حمّ القدر .  
ونفخ غاضباً ثمّ استدرك:  
- ليت في الوقت متسعاً للصبر حتى يزول الورم عن أنفي وشفتي لأرجع إلى الحارة على الحال التي تركتها عليها .  
- هيهات أن ترجع تلك الحال!  
فقال متوعداً:  
- لي رجعة إلى الدرب الأحمر!  
- فلننكر فيما نحن مقبلون عليه . . .  
- لن أعرف الجبن والتردد بعد اليوم . . .  
وقبيل مدخل الحارة بخطوات وشمس الظهيرة تصبّ على الميدان ناراً، رأى طباع الديك يدخن نارجيله أمام دكان النجار . انقبض صدره، وانقبض أكثر عندما نهض الرجل طارحاً خرطوم النارجيلة على المقعد مقبلاً نحوه في ترحاب ظاهر:  
- أهلاً، لم تخلق الغربة لنا .

## ١٩

- أخيراً خلت الحجرة لها . تحطمت قوائم الكنبه الوحيدة وتفزّر حشوها وتغطّت الحصيرة بالطين والتراب، وفاحت رائحة العرق . ذهب الرجال مخلفين روائحهم والجريمة . تكوّمت وداد ممزّقة الملابس وطرح شطا على الأرض ملوثاً بالدم معذباً بالسوعي . حجز بينهما صمت وشعور عميق بالحرج . أما الحزن والغضب فقد استقرّ في أعماق الروح . وتملّص من الصمت فقال:  
- لا تحزني، أنت بريئة وطاهرة .  
تحدّرت نظرتها أكثر فقال متأسفاً:  
- بذلت المستحيل!  
تحدّرت من مرقدها . سوّت ثوبها، مضت مترنحة إلى الدهليز، عادت قابضة على سكين . تمثّى لو تغمدها في قلبه . راحت تقطع وثاقه . تحدّرت متأوها وراح يجفّف دمه بطرف جلبابه . أخذ راحتها بين يديه مغمغماً:  
- يا للتعاسة!  
فقال بصوت غريب:  
- لنذهب .  
فقال متوعداً:  
- لأقتلته ذات يوم!  
- قد تقتل قبل ذلك، فلنذهب . . .  
- لا شك أنّ الحكاية تتردد الآن في سوق الدرب .  
فقال بكآبة:

## الشیطان يعظ ١٢٥

- ما أفضح لقاء الناس .
- فقال شطا بتحدُّ:
- ليكن ما يكون .
- انتبه لها قليلون راوحت نظراتهم بين الشهامة والازدراء . همس شطا:
- فلنسرع نحو دار المعلم .
- ترامت إلى أذنيها تعليقات:
- الهاربان .
- الخائنات .
- المهتوكان .
- أخيراً طالعتها البوابة العملاقة .

## ٢٢

- ها هو موجود الديناري . ها هو وجهه الذي لا يفصح عن شيء . مثلاً أمامه في ذلِّ واستسلام . وكما لم يتكلم أو يوح برغبة في الكلام قال شطا:
- ليس في نيتي الاعتذار، ذنبي أكبر من ذلك، ولكنني جئت مسلماً نفسي لتقضي بما تشاء . . .
- لزم المعلم الصمت . ترى أنجفي وراء الصمت غضباً؟ أم سخرية أم عبثاً؟ ونفذ صبر وداد فقالت:
- لن نسألك شيئاً لأنفسنا ولكننا نطلب الرحمة لأهلنا الأبرياء .
- لم يتغير مظهره ولكنّه تساءل بهدوء:
- ماذا يشكو أهلكما؟
- إنهم يعانون العقاب الذي استحققناه نحن . . .
- هل تحرّيتم ذلك عند أهلكما؟
- كانت دارك مقصدنا الأول ولكن ذلك ما بلغنا في مهجرنا .
- كذب ما بلغكما!

- فذهل شطا كما ذهلت وداد أما المعلم فقال:
- إنني فتوة الحارة وحاميها وليس من مذهبي أن أخذ البريء بالذنب . . .
- فقال شطا بحماس:
- هذا هو المأثور عن شهامتك .
- ولكنكما صدقتما ما بلغكما مما يقطع بسوء ظنكما بي . . .

صافحها ثم وقف يردّد عينيه بينها ثم قال:

- قلبي معكما، إنّها لمأساة حقاً!
- فتساءل شطا نافذ الصبر:
- أنتوي الشهامة بنا؟
- فقال مستفظعاً:
- الشهامة! أنسيت أنّي اعتبر أمك أمّا لي؟ أنسيت تزكيتي لك عند المعلم؟ أنسيت تحذيري لك في الوقت المناسب؟ أنسيت أيضاً أنّي اعتبر الاعتداء على عرضك اعتداء على عرضي أنا؟!
- آه . . . إذن وصلت الحكاية مع أشعة الشمس!
- وهتفت وداد محتمة:

- إنني شريفة رغم أنف الجاحدين . . .

فقال طباغ الديك:

- وجه زوجك يشهد بشجاعته في الدفاع عنك .
- فهمتف شطا:
- لن ينجو المجرم من العقاب .
- شهم ابن شهم، ما عليك الآن إلا أن تنال عفو المعلم .
- هذا ما جئت من أجله .
- الأمور معقدة ولكن متى كانت الدنيا يسيرة؟ وكلما ازداد الرجل همّة ازدادت الدنيا له تعقيداً، ولكن لن ينسى أبداً أنّك كنت السابق إلى قبول المهمة!
- فقال شطا بعصبيّة:
- لن يخدعني كلامك المعسول، لقد علمتني المصائب في أيام ما لم أتعلّمه في عشرين عاماً، وهيأتي لمواجهة المصير أيّاً يكون . . .
- عفارم، لا يعيبك إلا سوء ظنك بالناس، وشرّ سوء الظنّ ما حاق بالأصدقاء، وكان يجب أن تعلم أنّ الشهامة ليست من شيم الفتوات!

## ٢١

قال شطا لوداد وهما يمضيان نحو الحارة:

- إنني لا أصدقك ولا أثق به .
- فقالت وداد بعدم اكتراث:
- ولا أنا .
- وهما يدخلان الحارة همست وداد بخوف لأول مرة:

- فتمتم شطا استحياء:  
- الغربية أفسدت عقلنا.  
- ما دام هذا التصور الخاطئ هو ما دفعكما إلى  
المجيء فلكما أن ترجعا ولن يتعرض لكما أحد . . .  
فهتف شطا الحجري:  
- لا حياة لنا إلا أن تقضي في أمرنا بما أنت قاضٍ .  
- لا أصدّقك فقد عهدتك تقول قولاً وتفعل  
نقيضه .  
- كان الحرص على الشرف وراء كل فعل فعلته .  
- إذن أنت تتهمني بأنني أكلّمك بما يناقض  
الشرف!  
فقال شطا بحماس:  
- معاذ الله يا معلّمي ولكنك تضنّ عليّ بإدراك  
مطالبك .  
- إمّا أنّي عاجز عن التعبير وإمّا أنك عاجز عن  
الإدراك .  
فقال شطا وهو يعاني مرارة القهر:  
- أعترف بعملي ولكن ما حيلتي؟ . . . لقد أرسلت  
إليك من يسألك عن شروطك للعفو عني فكان  
الجواب «قل للأعمى أن يستمر»، استمرّ في ماذا،  
فكرت في إصلاح الخطأ فإذا كانت النتيجة؟ . . .  
عند ذلك قالت وداد وكأنّها تجميه عمّا يسأل:  
- كانت المأساة الدامية والفضيحة التي سبقتنا إلى  
الحارة .  
- لعلكما تتصوران أنّي المتهم!  
فهتف شطا:  
- معاذ الله، حسبنا الآن أن نلقى حكمك .  
فأشار المعلّم إلى وداد وهو يسأل شطا:  
- ما زالت على ذمتك؟  
- اتّخذنا قراراً بالطلاق والرجوع، ثمّ كان اعتداء  
الأيّام فأقلعت عن فكرة الطلاق إلى الأبد . . .  
- وإذا أمرت بتطليقها؟  
فأحنى شطا رأسه صامتاً وياثساً فقال المعلّم:  
- في الصمت جواب .  
فقال شطا:  
- إني أنحدر من خطي إلى خطي، ولن يتشلني من
- العذاب إلا أن تقضي فيّ بما ترى . . .  
فقال المعلّم مخاطباً وداد:  
- إني أقرأ في عينيك فكرة أخرى، ما هي؟  
فقالت وداد بجرأة غير متوقّعة:  
- أن تعفو عنه وأن تعيده إلى جماعتك!  
- حقاً إنك أنسب شريكة لمن كان مثله .  
فقالت ثملة بجرأتها:  
- حسبنا ما ذقنا من عذاب وحسبه ما أبدى من  
شجاعة .  
فالتفت المعلّم نحو شطا متسائلاً:  
- أهذا رأيك أيضاً؟  
فقال شطا بانكسار:  
- إني منتظر قضاءك!  
- يا لك من ماكر .  
- مثولي بين يديك يقطع بصدقي .  
- بل أنت تريد أن تتوسّل بالحكم إلى إدراك ما  
غمض عليك .  
فقال مغلوباً على أمره:  
- أروم حياة مطمئنة . . .  
أمسك الرجل عن الكلام حتّى تشبّع الصمت  
باللهفة والأشواق ثمّ قال:  
- استمرّ!  
فتطلّع إليه شطا في حيرة بل في فزع فقال الرجل:  
- هذا هو الحكم، استمرّ . . .  
فقال شطا بحرارة:  
- أريد كلمة واضحة محدّدة .  
فقال المعلّم:  
- لقد أضجرتني فاذهب .
- ٢٣
- مضى بزوجه إلى بدروم عمارة الجبلي . كانت أمّه -  
ستهم العجزيّة - في الخارج فجلسا وحيدين . اجتاحتها  
الحيرة والتشاؤم بخلاف وداد التي راحت تقول:  
- كان بوسعه أن يضربك أو يطردك من الحارة أو  
يصرّ على طلاقنا، الحقّ أنّه عفا عنّا . . . فتساءل:  
- ماذا منعه من النطق بالعفو؟

## الشیطان يعظ ١٢٧

- بل إنهم أوغاد ولا رحمة في قلوبهم .
- فغمغم شطا وكأنه يهامس نفسه:
- استمرّ . . . استمرّ . . . ما معنى هذا؟!!

### ٢٤

مضت الحياة بمرّها الكثير وحلّوها القليل . ظلّ شطا يسعى خارج الحارة ويعيش فيها بلا صاحب . وقبل أن يتقضي الصيف الثقيل وقع الشبلي فتوة الدرب الأحمر في خطأ لا يغتفر . راح يتباهى بأنّه اغتصب وداد خطيبة الديناري على مرأى من شطا الحجري «رجله الثاني» . ترامت الأنباء إلى الحارة مصحوبة بأغانٍ داعرة صاغت الحادثة في قالب مزاح ساخر . وإذا بالحارة تشهد تعبئة لم تشهدها من قبل . تسلّح الرجال بالنباييت والخناجر، وشحنت عربات بالزلط والقوارير وخردة الحديد . وانضمّ شطا الحجري إلى الرجال دون أن يُدعى إلى ذلك وهو يقول لنفسه «جاء اليوم الذي أحلم به» . وكانت غزوة مفاجئة وفي رابعة النهار . نشبت معركة حامية ما زالت ذكرياتها حيّة في رءوس الكهول ودوائر الأمن . وحقق شطا حلمه فطعن الشبلي طعنة قاتلة متلقياً في الوقت ذاته عشرات الضربات القاتلة . وكان من جرّاء ذلك أن ثار غضب المحافظة فأخذت قرارها الحاسم . . .

### ٢٥

عندما درجت في مدارج الوعي كانت حكاية الديناري قد انطوت في أعطاف التاريخ ولكنّها كانت ما تزال حيّة في القلوب . لقد قضى على المعلم بالسجن عشرة أعوام ، ولما أفرج عنه فرضت عليه رقابة دائمة فابتاع مقهى النجف ومارس حياة مواطن كسائر المواطنين . جلس على كرسي الإدارة مجللاً بالشيخوخة والمهابة والذكريات الباقية . وقد قُتل شطا الحجري في مواجهة بطوليّة محت العار عن سمعته وكفّرت عن زلته فنشأ ابنه الوحيد رضوان محوطاً بالاحترام . وقيل إنّ الديناري تكفّل بدفنه فأول ذلك بأنّه تقدير أخير له ويبلغ في التأويل حتى قيل إنّ اعتبر رجله الثاني . وقد رأيت بعينيّ وداد وهي امرأة تجاوز الأربعين وكانت

- لعلّه عزّ عليه أن ينطق به بعد ما كان منك ، ولكن ألا ترى أنّك حرّ ، لم ينلك أذى ، وأنك ستواصل الحياة مثل بقية الناس؟

- لم يتركني حرّاً ، أمرني أن أستمرّ ، ثبتني في أعماق الحيرة ، لم يطردني من العصابة ولم يُرجعني إليها ، لم يعاقبني ولم يعف عنيّ ، لم تندّ عنه كلمة واحدة تدلّ على الرضا ولا على الرفض . . .

فقال بحرارة:

- عش حياتك ولا تشغل بالك بالغاز لا حلّ لها . . .

- ولكن كيف؟ ألا يجوز أن أحاسب فجأة على أنّي «لم أستمرّ» ، ما زلت أشعر بأنني مكلف بأمر ما ، غير أنّي أجهله هذه المرّة جهلاً تاماً . . .

- يتخيّل إليّ أنّ محور همك يدور حول إيمانك بجديّته المطلقة ، أليس هو في النهاية رجلاً يجذّ حيناً ويلهو حيناً آخر؟ أليس من المحتمل أنّه يميل إلى العبث وأنّه وجد فيك مادةً صالحة لعبثه؟ أبعده عن ذهنك وعش حياتك ولن تلقى مكروهاً أبداً .

- لو افترضت به العبث لانقضت الحيرة من أساسها ولكنّه رجل أقوى من الطاحونة وأدقّ من الساعة .

ثمّ رماها بنظرة مقطّبة وتساءل:

- أيرضيك أن ترجعي ما حلّ بنا من شقاء

وتضحية إلى اللهو والعبث؟!!

\*\*\*

ولما رجعت ستهم فرحت بعودته ولكنّها رحبت بفتور بوداد . وقبل مضيّ يوم راحت تعاتبه على ما جرّ على نفسه من سوء السمعة . والحقّ أنّ أقرانه لم يداروا عنه احتقارهم ، وكاد أهل الحارة يقاطعونه مقاطعة كاملة . اضطرّ إلى أن يبحث عن رزقه بعيداً عن الحارة وتجرّع الغربة وهو بين الأهل والجيران . وتساءلت وداد بمرارة:

- متى تُنسى حكايتنا؟

فقال لها:

- إنّه عقابه الذي لم يعلنه .

فصرخت:

النظر بشغف المعجيين وخيال العاشقين.  
 وكان يتجلى بهاؤه في الأعياد فكأنها لم تخلق إلا له.  
 كان يجلس على الأريكة متلقًا بعباءة جديدة، ممسّطًا  
 اللحية والشارب، وتمرّ أمامه عربات الكارو محملة  
 بالنساء والرجال والأطفال في أنوابهم الجديدة الملونة في  
 هالة رائعة من الطبل والزمر والرقص:

|    |        |           |
|----|--------|-----------|
| يا | فتوتنا | يا ديناري |
| يا | حبيبنا | يا ديناري |
| يا | حامينا | يا ديناري |

ثم تدوي الهتافات والزغاريد، ويشمل العاشقون  
 بكئوس المجد والعشق والحنين العارم إلى النصر.

تبيع الخوص والريحان في مواسم زيارة المقابر. وأدركت  
 موجود الديناري وهو يدبر النجف وقد مضى عهد  
 الفتوات والفتونة. اختفى الرجال وبطلت الشعائر  
 فأصبح الرجل في نظر القانون صاحب مقهى وتحت  
 المراقبة الدائمة، ولكنه ظلّ في نظر العباد فتوة الحارة  
 وحاميهما، حتى الشرطي وشيخ الحارة لم ينجوا من دفقة  
 الشعور العام فكانا يختصانه بالاحترام وحسن المعاملة.  
 أجل زالت عنه تقاليد الفتونة ولكن بقي له السحر  
 الخفي الذي لا يبالي بالقوانين والأوامر الإدارية، بقي  
 له التاريخ والمهابة والأثر الحي.

هكذا جذبني مقهى النجف قبل أن أبلغ سنّ  
 الشباب. وكنت أجلس في ركني المنعزل أسترق إليه

## مشیر

الأزهار وحمّام السباحة. وكانت الشمس تفتش الأرض الخضراء المترامية بين الأسوار العالية، ولا نامة نحيء من شارع رأس الحكمة المزین علی ضفتیه بالنخلات العشرین. وكان یحییٰ یستجیم قلیلاً من المذاكرة، مستسلماً لدفقات من نسیم الریبع تتلاقی فی وجدانه بأنغام موسیقی خفیفة تنبعث من ترانزستری. فأسكت الجهاز مرحباً بمقدم أمه. بدا فی البیجاما رشیقاً طویلاً، جامعاً فی صفحة وجهه بین عینی أمه الجمیلین وبناء شعبی لأطراف وجهه الغلیظ. ورغم رونق الأمّ الذی یعدّ فوق ما تتمی امرأة فی الخمسین فقد تجلّت بها سمات شعبیة فی دسامه یدّتها وخشونة نبرتها. وإعراباً عن حبّه تناول یدها ولثمها وهو یلحظها باهتمام. قالت جمیلة هانم:

- لم یعد بینك و بین الامتحان النهائی إلا ثلاثة أشهر كان یجب أن تمرّ فی هدوء شامل لتتفرّغ لعملك ولکن الظروف تحتم علیّ أن أحیطك بما یقع حولنا. . . فرنا إليها بعینی العسلیّین باهتمام متزاید وهو یتمتم:

- لیکن خیراً إن شاء الله.

فقالت بأسف واضح:

- إنه أبعد ما یكون عن ذلك. . .

طالما شعر بأنّ القصر یمضي بلا تاریخ فهاذا حدث؟ أما الأمّ فقالت:

- لا أرید أن تباغتك الحوادث، تقرّر أن یغادر محروس ابن البك القصر هو وأسرته!  
تردد الكلام فی مسمعیه أول الأمر بلا معنی.

١

المازون بشارع رأس الحكمة بزیزینیا یجذب أنظارهم القصر الأبیض. عمّ عمارة الجعفري البواب یجلس عادة علی أریكته أمام الباب الكبیر، هادی النظرة تتحرك شفاته الغلیظتان بتلاوة غیر مسموعة، لا یكاد یری ما یجری أمامه، ولا یبالی بما یقوم خلفه. والقصر الأبیض قابع بطابقیه بین أشجار دائمة الخضرة تتخلّلها نخلات طویلة رشیقة مغطاة الجذع بأردیة بیضاء. وعندما یدور السمر بین البواب والسواق والطاهي حول القصر الجمیل یثني عمّ عمارة علی صاحبه جندي بك الأعور قائلاً إنّ الله یزیده ثراء جزاء ما طبع علیه من إحسان وخلق کریم، إنه یردّ تحیات الفقراء بأحسن منها ویوزع الزکاة فی الأعیاد والمواسم. ولكن أیّ غمامة تلك التي تنداح فی الأفق؟ ماذا یحدث بین الناس الطیبین؟ أم یخیل إلیه أن وراء الستائر المسدلة قلوباً تردّد أصداء الأمواج الهادرة؟ ویدعو الله مخلصاً «اللهم احفظ القصر وأهله، اللهم احفظنا».

٢

فی ذلك الوقت انتقلت جمیلة هانم من حجرتها إلی الفراندا الخلفیة لمقابلة یحیی. جاءت جادة، حتّى الابتسامة المعتصبة لم تحاول أن ترسمها فوق شفתיها الممتلئین. واعتبرها یحیی زيارة غیر عادیة إذ إنّ أمه تجدد ما یشغلها من شئون القصر طیلة النهار. جلست علی كرسيّ إلی جانبه فی الفراندا المشرقة علی حدیقة



إنسان أمين فجاءني وأفضى إليّ بسرّه ا  
 - أنتِ؟ ا  
 - نعم، إنّه يتعامل معي يوميًا . . .  
 - وأنتِ التي أبلغت عمّي؟  
 - ذهبت به إلى البك . . .  
 - الأمر يتطلّب تحقيقًا عادلاً!  
 - عمّك ثار وأوشك أن يبلغ الأمر للنيابة لولا  
 توسّلاتي إليه أن يفكّر في هدوء وأن يتجنّب  
 الفضيحة . . .  
 - ربّما أسفر التحقيق عن لا شيء؟  
 فقالت بأسّي:  
 - عندما ووجه محروس بالتهمة لم يدر كيف يدافع  
 عن نفسه . . . كأنما كان يعترف . . .  
 تنهّد يحيى وتمتم:  
 - محروس في الأربعين، زوج وأب، لا ينقصه  
 شيء، كيف اشترى جريمة بالنعيم والأمل؟  
 - إنّه الشيطان، ومن يدرى؟ العمل يبدو جنونًا لا  
 معنى له، والحمد لله أنّ عمّك اكتفى بطرده  
 وحرمانه . . .  
 بعيدًا أن يكون الرجل بريئًا. لقد خسر بجنونه كلّ  
 شيء. ضاع تمامًا. وتذكّر مرّة أخرى وداد كريمة  
 المتهم. لقد طرد معهم بمعنى من المعاني. أمّه ولا شكّ  
 تدرك ذلك تمامًا. أيضًا زوج أمّه جندي بك الأعور.  
 كم من متاعب ترصده في هذه الأيام الصفراء! ها هي  
 أمّه تقول:  
 - إنّي أسفة جدًا يا يحيى.  
 - لكن كيف تواجه الأسرة المطرودة الحياة؟  
 فقالت بعتاب:  
 - يجب أن ترثي أولاً لعمّك ا  
 - بلا شكّ، ولكنّ سؤالي له وجاهته أيضًا ا  
 فقالت وهي لا تخفي امتعاضها:  
 - لا بدّ من فترة انتظار حتّى تنحسر عواصف  
 الانفعال، في نيتي بعد ذلك أن أرجو عمّك أن يهب  
 الرجل وأسرته عمارة من عماراته حتّى لا يدفعه اليأس  
 إلى الجنون ا  
 فقال يحيى مسترّدًا بعض أنفاسه:

وسرعان ما لاح الانزعاج في عينيه. وتبيّن له أنّ منظر  
 أمّه ينذر بشرّ غير محدود. تتمم واجبًا:  
 - إنّه لغز ولكن له تفسير ولا شكّ.  
 - كأنه نوة من نوات البحر، إنّي أسفة . . .  
 - ما معنى تقرّر؟ . . . من صاحب القرار؟  
 - صاحبه واحد، من غيره؟ تقرّر طرد محروس  
 وأسرته . . .  
 تجهّم وجه يحيى. تذكّر النفور الدائم بين أمّه وحرم  
 محروس، هل لعب النفور دورًا في تخطيط هذه النهاية  
 الأليمة غير المتوقّعة؟ وقال بحذر:  
 - محروس بك هو الابن الوحيد لجندي بك فكيف  
 هان عليه أن يطرده هو وأسرته من قصره؟  
 أجابت جميلة هانم بحزن شديد:  
 - ثمّة جريمة شنعاء!  
 - جريمة؟ ا  
 قالت وصوتها يتهلّج:  
 - تصوّر يا يحيى، لقد دبّر الابن جريمة خفيّة لقتل  
 أبيه ا  
 تصلّب عود يحيى من الانزعاج والذهول، تفكّر في  
 معنى ما يلقي إلى سمعه، تأمله مليًا برعب، ثمّ تجلّت  
 لمخيلته صورة وداد الجميلة المستقرّة في أعماق قلبه. ما  
 أكذب الربيع الساطع! إنّه يسخر من أحلامه العذبة  
 ويعصف بطمأنينته الراسخة. وتمتمت المرأة وكأنما تقرأ  
 أفكاره الدفينة:  
 - الأمر محزن جدًّا، وهناك حزن آخر من أجلك  
 أنت.  
 وراح يقول وكأنما يحدث نفسه:  
 - جريمة خفيّة، من يصدّق هذا؟ ولكن كيف؟  
 - إنّه الشيطان، أجل لم ينعم الجوّ بالصفاء بين  
 الأب وابنه، ولكنّ الأب رجل عاقل وكريم، لم يضرّ  
 أبدًا على ابنه بخير، وكان محروس يعيش في القصر  
 وكأنه صاحبه، هو وزوجته وابنته، ثمّ يحاول شراء  
 الطاهي ليدسّ السمّ لأبيه؟ ا  
 - أيّ غباء وأيّ جنون!  
 - طوى الطاهي السرّ في صدره، أجل إنّه صنيعة  
 محروس. ومحروس الذي جاء به منذ سنوات ولكنّه

### الشیطان يعظ ١٣١

لم يرتح لقرولها. ورغم ثقته فيها تساءل عن الدور الذي لعبته في هذه القضية. شد ما تفرعه الوسواس. وقد كان دائئًا يؤاخذ هذا القصر على تقديسه للمال. إنّه لا ينكر أهميّة المال ولكنّه يكره أن يُنصّب هدفًا أعلى للإنسان. لا حديث لأهل القصر سوى النقود والسلع. وقد دفعته تلك التقاليد إلى الالتحاق بكليّة التجارة، كما دفعت وداد بعده. ومن أجل ذلك المعبود حرص الابن على قتل أبيه، وما هي أمّه تتوتّب لاستغلال الموقف الجديد لصالحه. قال برجاء:

- لا تحدّثيني بما يثير اشمئزازي . . .

فقالت باسمّة:

- لا أحد يحبّ الفقر.

هزّ منكبيه صامتًا. أدرك بوضوح أنّ المتاعب الجديدة لن تعفي أحدًا من آثارها. . .

### ٣

الشاطئ ما زال خاليًا. الرياح معتدلة مشبعة ببرودة ودودة آمنة. وفي أحضان العذوبة المنتشرة تراقصت الأمواج في رشاقة. لم يكن في كازينو جليم سوى العشاق. جلس يحيى ووداد في طرف الكازينو المطلّ على الخليج قبل الغروب بساعة. أوّل مرّة ذلك العام غيّرت وداد ملابس الشتاء فتجلّى عودها الرشيق تحت البلوزة البيضاء الثريّة والبنطلون الرمادي. جميلة يبشرتها القمحيّة وعينيها السوداءين وشفتيها المضمومتين، ولكنّها جادّة واجمة. لم تجتمع بينها جلسة كثيفة كهذه الجلسة من قبل. اختفى من عينيها المرح والدلال كما اختفت من عينيها الأشواق. جلسا جنبًا لجنب وراء الترابيزة ينظران إلى البحر المنفسح بعينين لا تريان شيئًا. وكانت تقول:

- أقمنا في شقّة مفروشة، حياة لا يمكن أن تستمرّ

طويلاً، لا ندرى شيئًا عمّا يجتبه لنا الغد. . .

فانغمس في الشجن وهو يقول:

- لكنّ والدك اكتسب خبرة في الأعمال عندما كان

يعمل في مكتب والده.

- لا أعتقد أنّه يتوفّر له اليوم رأس مال كافٍ، ثمّ

إنّ التهمة الظالمة ستطارده طويلاً. . .

- فكرة طيّبة . . .

وطوال الوقت فكّر في وداد، وبدا أنّ أمّه تشاركه خواطره، وقد قالت بصراحة:

- إني حزينة من أجلك يا يحيى.

فقال بوضوح:

- إني أحبّ وداد، وهي تحبّي، لن يفرّق بيننا شيء!

فقالت بإشفاق:

- عليك أن تتذكّر عمّك، إنّه في الواقع أبوك. . .

فقال بمرارة:

- أعلم أنّي بفضلها أنعم بالحياة في هذا القصر على حين أنّ أبي الحقيقي لا يدري عنيّ شيئًا كما أنّي لا أدري عنه شيئًا، وأعلم أيضًا أنّه كان من الممكن أن يعاملني كغريب، كابن زوجته من رجل آخر، ولكنّه عاملني كابنه. . .

فقاطعته بحماس:

- بل عاملك خيرًا من ابنه، وأحبّك أكثر منه، حتّى قبل الجريمة. . .

- أسلمّ بهذا، ولكنني أحبّ وداد أيضًا، وهي بريئة من ناحية وحفيدته من ناحية أخرى. . .

وسدّت راحتها منكبه وقالت:

- إني أطلبك بالحكمة، وأتمنى لك السعادة. . .

- أنت لم تحبّي محروس ولا زوجته ولكنّ وداد فتاة ممتازة. . .

- رأيك هو المهمّ، ولكن عليك أن تنتظر فترة ثمّ لك بعد ذلك أن تفضي بنواياك إلى عمّك. . .

يبدو أنّ المهمة لن تكون سهلة، وأنّه ربّما اضطرّ إلى المقامرة بمنزلته عند الرجل. وهو لا يتعدّر عليه النفاذ إلى أفكار أمّه الخلفيّة، ولكنّه قال متظاهرًا بالبراءة:

- سوف أتحمّن فرصة مناسبة. . .

- ورجائي ألا تثير غضبه. . .

فقال بضيق:

- إني حريص على رضاه ولكنّي لن أفرط في

وداد. . .

فقال بصوت منخفض:

- تحيّل ما يعدك به المستقبل!

- تنهّد قائلاً:  
- حتى الآن لا أصدق ما وقع...  
فقلت بإصرار:  
- أبي ينكره وأنا أصدقه...  
- فما الحقيقة إذن؟  
- لعلّه سوء تفاهم استغلّ أسوأ استغلال...  
شعر بأنّ ثمة اتهاماً يحوم حول أمّه مثل ذبابة فضاق صدره ولكنّه قال:  
- أيكفي ذلك لاختلاق جريمة تفرّق بين الأب وابنه الوحيد!  
فقلت بامتعاض:  
- المصائب تفوق الخيال...  
وصمتنا قليلاً في حزن بالغ حتى قال بجي:  
- إذا كان للموضوع حقيقة خفية فلن تغيب طويلاً، وسوف يوجد للموقف العسير حلّ، أما نحن فعلينا أن نركّز في الواقع الذي يتحدّانا...  
فلم تدرّ ما تقول فواصل حديثه:  
- ما بين يوم وليلة أصبح تلاقينا لا يتمّ إلاّ سرّاً، كأننا غريبان، هذا هو الواقع الذي علينا أن نتعاون على تحطيمه...  
- ولكنني لا أستطيع أن أنزع نفسي من مشكلتنا القائمة...  
- المأساة مأساتنا معاً، سنفكر طويلاً، لن نتركها ولن نتركنا، ولكن علينا قبل ذلك أن نتفق على الدفاع عن حبنا حتى الموت!  
فقلت بصدق:  
- حبنا في حرز حصين، لسنا أطفالاً، ثمّ إنك ستختم دراستك بعد ثلاثة أشهر وسوف ألحق بك بعد عامين، ولكن كيف نعيش في هذا الجوّ الخانق؟!  
- إنه يُظَلُّ القصرَ أيضاً، لا أحد يتسم، وهو يهدّد حبنا...  
- لسنا أطفالاً... ولنندع للزمن فرصته...  
- أودّ أن نسبق الزمن، أجل يجب أن أنتظر مهلة ولكن لا مفرّ من مواجهة جدك، وعليك أنت أن تتصدّي بشجاعة لأيّ عدوان يجيء من ناحية محروس بك أو شريفة هانم، ثمّ إنني في النهاية شخص غريب
- ليس إلاّ ابن زوجة جدك...  
فقلت بإشفاق:  
- إنك معدود ابننا له!  
- لا أنكر ذلك ولكنني لن أتخلّى عنك أبداً.  
قرّر أن يخفّف عن أعصابها بشرب الكوكاكولا.  
مضى يراجع ما انتهى إليه فوجده طيباً لا بأس به، ثمّ قال متبادياً في نشدان الأمان:  
- وداد، اعتدنا المصارحة دائماً، هل ساءك ضياع الثروة المتوقّع؟  
فتفكّرت قليلاً ثمّ قالت:  
- يشغلني الآن همّ أسري...  
- لم تجيبي على سؤالِي.  
- الثروة نعمة، وحياتها عادة، لا أدري كيف أتخلّص منها... ماذا عندك أنت؟!  
- أنا أيضاً اعتدت مستوى لا تؤهلني له حقيقة أصلي، ومد أدركت أنّي شخص فقير هيأت نفسي للحياة البسيطة...  
- زدني إيضاحاً.  
- وداد، لم أرتج أبداً لولع أمي وعمي بالمال.  
- ممكن أن نحبه دون أن نعبده...  
فهزّ رأسه في حزن ولاذ بالصمت فقالت بنبرة دعابة لم تخلُ من فتور:  
- أعلم أنّك تحبّ سماع الموسيقى أكثر من اقتناء ثروة.  
- أتسخرين مني؟  
- كلاً، ولكن تردّد في بيتنا الحزين أنّ الخطوة التالية المتوقّعة من جدّي هي أن يملكك ثروته بطريقة قانونية!  
شعر للمرّة الثانية بالاثام الحائم حول أمّه فقال بشيء من الحلّة:  
- لو خُيِّرت بين ثروته وبينك فلن أتردّد في الاختيار...  
فقلت بأسف:  
- ستكون حياتنا متواضعة جدّاً...  
فقال بعتاب:  
- سيعوّضنا الحبّ عن كلّ شيء!

## الشیطان يعظ ١٣٣

وكان لا يعرف اللفّ والدوران:

- ثمّة حديث ما عاد يجوز تأجيله يا يحيى...  
فاعتدل يحيى في جلسته استعدادًا فقال جندي  
الأعور:

- ما حصل قد حصل لا حيلة لنا فيه.

فتمتم يحيى:

- ربنا معك...

- ما زلت آسفًا على أنني لم أسلمه ليد العدالة.

- تصرّفت معه بما يتوافق مع خلقك الكريم.

فصبّ في الكأس جديدًا من الويسكي وقال:

- لم تكن الجريمة مضاجأة بالمعنى الحقيقي لهذه  
الكلمة، فهو لم يضر لي حبًا ولا خيرًا، وعلى العكس  
كنت دائمًا حذرًا من ناحيته، دائمًا أتوقّع ما لا يُبِيرُ،  
ولا جدوى من حسن المعاملة مع أمثاله بل لعلها زادته  
شرًا، إنه الشرير الحقود، وكم من مرّة أضبطه متلبسًا  
بسرقه المكتب وأعفو، ماذا ينقصه؟ إنّه عاش في بيتي  
عيشة الملوك، ولعب بالقرش لعبًا، لكنّه فاسق قذر  
ومقامر مجنون...

غشيتة كآبة من مدخل الحديث فتنبّأ له بنهاية غاية  
في السوء أما الرجل فقال بقوة ووضوح:

- وشدّ ما حقد عليك كأنما تقاسمه لقمته، وشدّ ما  
طالب بطردك من القصر!

كان يشعر دائمًا بفتور عواطف الرجل نحوه،  
وزوجته أيضًا كرهاً في أمه، ولكنّ حبّه لسوداد جرف  
النفايات من مجرى حياته، أيضًا لم يتصوّر أنّ النفور  
يتهادى لحدّ المطالبة بطرده. غير أنّ ما كان يهّمه حقًا  
فهو الحبّ وحمايته من إعصار الموقف الهائج. وصمّت  
جندي الأعور حتّى تستقرّ كلماته في أعمقّه ثمّ واصل  
حديثه:

- له بطانة من السّفلة والعاشرات، وقد بلغ  
الخامسة والأربعين دون أن ينال ذرّة من الرشد.

لاحت الدهشة في وجهه يحيى... تكشّفت له أسرار  
بشعة لم تجر له في خاطر. واستحضر صورة زوجته  
الجميلة فازداد دهشة. ما وداد إلا صورة جديدة من  
أمّها فكيف هان على محروس بك أن يخونها؟! وقال  
جندي الأعور بتقرّز:

فابتسمت ابتسامة خفيفة، وكان قرص الشمس  
يهبط وديعًا أليفاً في الشفق وقد استلّت منه روح  
الشباب الفائر...

## ٤

تلقى من أمّه خبرًا بأنّ عمّه يدعوّه إلى مقابلته في  
الحديقة. قالت له بحرارة:

- تذكر أنّه أبوك، وتذكر أنّه لم يبقَ على امتحانك  
النهائيّ إلا ثلاثة أشهر، وأنك يجب أن تحافظ على  
صفاء ذهنك...

مضى إلى الرجل الذي عاش طفولته وصباه وهو  
يؤمن بأنّه أبوه، ويحبّه - وما زال - مثل أمّه. لم يعرف  
الحقيقة إلا عندما أطلع على شهادة ميلاده لأوّل مرّة،  
عندما نوديّ في المدرسة باسم يحيى عويس الدغل لا  
يحيى جندي الأعور. عند ذلك عرف أنّه ابن رجل آخر  
لم يره، يدعى عويس الدغل، طلق أمّه وهو طفل ثمّ  
هجرهما إلى حيث لا يدري. ولولا يحيى جندي  
الأعور وزواجه من أمّه واحتضانه له لتعرّض لمصير  
مجهول لا خير فيه. كانت لطمة أليمة ولا شكّ ولكنّ  
رعاية الرجل له أنسته ألمه وانكساره. وقد شبّ وعاش  
في النعيم كأنّه ابن الرجل الطيّب. فعليه أن يتذكّر  
ذلك التاريخ الذي لا يُنسى، كما يتذكّر حبّه.

وجد البك جالسًا في الدائرة الخضراء كما يحلو له أن  
يدعوها. هي ربوة مستديرة خضراء السفح، مسقوفة  
بمظلّة من الخشب الأبيض على هيئة قبة تتدلّى منها  
المصابيح وضافات اللبلاب. جلس على أريكة وثيرة في  
جلباب أبيض، وضيء الصلعة، بين يديه فوق الخوان  
قارورة ويسكي وجردل أحمر مليء بمربعات الثلج،  
وطبق فستق مقشّر. ربعة بدين ذو كرش جسيمة،  
بيضاويّ الوجه لحيمه، قويّ الفكّ غائر العينين، في  
أنفه فطس، ذو شارب غليظ لم تشب فيه شعرة واحدة  
رغم بلوغه السّتين. حيّاه الفتى وجلس - كما أشار  
إليه - في قبائه. النسمة رائقة، وحفيف الغصون يبعث  
هسيسًا هامسًا، والأرض تضحك بألوان الأزهار،  
وشذا الربيع يفوح مسكرًا. قال يحيى لنفسه إنّ الجوّ  
يسخر منهم ويعلن لامبالاته بأحزانهم. قال الرجل

- قذراً... .
- فقال يحيى مستميتاً في الدفاع:
- لكنني أعرفها حق المعرفة... .
- فقال ساخرًا:
- أنت لا تعرف شيئاً، لذلك رأيت أنّ الواجب يطالبني بإزاحة الستار عما لم تعلم خاصة وأنه لم يبق لي سواك!
- فتمتم وهو غائب تمامًا:
- شكراً لك يا أبي... .
- أدرك أنه مقبل على أيام محنة وبلاء. أدرك أيضًا أنّ الوقت غير مناسب للمواجهة. لا بأس من الانتظار ولو أنه لا توجد بارقة أمل في السماء المكفهرة.
- ٥
- بقي على الامتحان شهران ونصف. من أين له العقل الذي يستوعب به دروسه؟ حتى الموسيقى لم يعد يتلوقها، وهو كمنحّب ثابت ولكن موقفه حرج. وعندما سأله أمه عما دار بينه وبين عمه أجاب إجابة عامة موجزة دون إشارة إلى ما قيل عن وداد وأمه. فعل ذلك وهو لا يشك في إحاطتها بما قيل كلمة كلمة. وإيمانه بنقاء وداد لا يمكن أن يتزعزع، والأهم من ذلك فهو يحبّها حباً لا تنال منه الاتهامات فضلاً عن الشكوك. في عالم النساء الساحر لا يخفق قلبه بحبّ سوى حبّها، فهي مصدر الإشعاع والعدوية في دنياه. ومن أجلها سيواجه الضربة الأخيرة لذلك القصر المزهو برشاقتة.
- وذات يوم قالت له وداد:
- لديّ رسالة إليك، أبي يرغب في مقابلتك... .
- وسمّت له اليوم والساعة في المسكن الجديد بشارع أبي قير. وافق بلا تردد. لو تردّد دقيقة لحسر وداد إلى الأبد. إذا علم عمه بالزيارة فستحدث أمور ولا شك. إنّ القدر يقتلع جذوره المغروسة في جنة رأس الحكمة جذراً بعد جذر، وهو يمضي نحو المأساة بكامل إرادته ووعيه. من هو حتى يحاكم جندي بك الأعرور أو زوجته شريفة هانم الدهل؟ إنه رغم البراءة لا يخلو من أخطاء وعبث. ولا ينسى آراء أقرانه فيه، فهم
- زوجته لا تجهل مغامراته.
- فتمتم الشاب في انزعاج:
- هكذا؟
- ولم تسكت المرأة الجريئة فردّت الصفعة بأقذر منها!
- لاح التساؤل في عيني يحيى فقال جندي الأعرور:
- انحرفت دون مبالاة متشجعة على ذلك بأصل قذراً!
- لكن... لكن... .
- فقاطعته:
- لا تكن ساذجاً يا يحيى، لقد انحرفت، وقد كانت في الأصل عاهرة محترفة!
- اصفرّ وجهه وهتف بصوت متهدج:
- لا... .
- فضحك جندي الأعرور وقال:
- براءتك مذهلة، مثل أزهار هذه الحديقة، ولكن أن لك أن تفيق، المرأة كانت محترفة، وقد تزوج منها على رغمي مدعيًا أنه يفعل خيراً يستحقّ عليه الثواب، لم تكن إلا شهوة عمياء ينزّ بها ثور، وقد رجعت إلى فسقه وأرجعها إليه... .
- أحنى يحيى رأسه في غاية من الغمّ فقال الرجل:
- حاولت الإصلاح فلم أوفق، هدّدته وهدّدتها، انتهى الحال بإنذاره بالطرد والحرمان فكان ردّه السعي لاغتيالي... .
- تنهّد يحيى أو تنفّس بصعوبة فمضى الرجل قائلاً:
- لا شكّ عندي في أنّها شريكته، إنّها داهية بقدر ما هو غبيّ.
- امتلاً الجوّ بالغبار فلم تبق ثغرة لكلمة طيبة غير أنّ جندي الأعرور قال:
- أمك تلخ عليّ في أن أهبه عمارة دفناً للمزيد من شرّه ولكنني ما زلت متردّداً... .
- عند ذاك قال يحيى بشجاعة:
- أعتقد أنه اقتراح حكيم، فهناك أيضاً خفيدتك وهي بريئة.
- فقال بازدراء:
- لا أصلق أن تخرج نبتة طاهرة من مستنقع

## الشیطان يعظ ١٣٥

- من هو جندي الأعرور؟  
وبرقت عيناه بوحشية ثم تطوع بالإجابة:
- ستقول إنه صاحب المكتب التجاري المعروف،  
ورجل الخير والإحسان، أما المدمن الشاذ المجنون فلا  
يعرفه إلا خاصته المنافقون، ولا أهمية لذلك بالقياس  
إلى الحقيقة وهي أنه لص رسمي من أرباب السوابق  
والسجون.
- وتضحك هازئاً ثم سأله:
- ماذا قال لك عتاً؟  
أجاب يحيى بلا تردد:
- لا شيء...  
- هل تُصدّقني القول؟  
- أجل.
- سيفتري الأكاذيب عاجلاً أو آجلاً ولُكّني سأروي  
لك قصته...
- تساءل يحيى متضامناً:
- ما جدوى ذلك؟  
فابتسم إليه ابتسامة صفراء وقال:
- إنها قصّتك أيضاً وقصّة والدتك!  
خفق قلبه ناشراً توقّعات مبهمّة ومقلقة فواصل  
الأخر حديثه:
- إنه تاريخ لا بدّ أن يعرف، لوجه الحقيقة  
والاعتبار، ولكي يتعرّى جندي الأعرور كما ينبغي له،  
وعند ذاك تعرف من أنت، الحقيقة أنّ جندي الأعرور  
سرق أباك الحقيقي، لم يسرق ماله فقط ولكنّه سرق  
أيضاً زوجته...
- هتف مستنكراً:
- أمي...  
- نعم، صبرك، بدأت الحكاية بتزامن أبي وأبيك  
في السجن!
- لا!
- بدرت منه في حدة فقال بهدوء:
- صدّقني، ما أقول إلا الحقيقة، إن يكن ثمة عار  
فهو لاحق كلينا، لقد تزامن أبي جندي الأعرور وأبوك  
عويس الدغل في السجن، تزاملا عامين فقد دخل  
أبوك السجن حينما لم يبق من مدّة أبي فيه إلا عامان،

- يرونه من أولاد الذوات المدلّين، لا همّ له إلا أناقته  
وسماع الموسيقى. منظّر أناقي لا لون له، غير مبالٍ  
بالتيارات التي يسبحون فيها ويعانون من أجلها ما  
يعانون. فمن هو حتّى يحاكم جندي بك أو شريفة  
هانم؟! ووجد الرجل في انتظاره. رجل قصير قويّ  
صغير الرأس غزير الشعر والشارب كبير الأنف جاحظ  
العينين. رَحّب به، ابتسم له كما لم يفعل من قبل،  
ولكنّه لم يشكّ في أنّ مقته قد تضاعف. ترى ماذا يريد  
منه؟ أيّ شرك يحفره تحت قدميه؟ ليكن ما يكون ما  
دامت وداد له. كان الوقت صباح الجمعة. مضى أوّله  
في احتساء القهوة وتلقّى نظرات محروس المتفرّسة.  
أخيراً قال الرجل:
- ستسمع في القصر حكايات مثل حكايات ألف  
ليلة فلا تصدّق ما يقال، الرجل مجنون.
- فقال يحيى بنبرة متوتّرة:
- لقد اختلط ما يصدّق بما لا يصدّق ودار  
رأسى...
- إنه الحقد والجنون...  
- لكنّه أبوك...  
- ما خفي عنك أنّه مجنون!  
- سيّدي، إنه رجل استشار وربّ أسرة ومحسن  
كبير...
- لا تغرّك المظاهر، إنه الإدمان والشذوذ والجنون،  
يوجد آخرون يعلمون بالحقائق ولكنهم يتجاهلون  
لاستغلاله أسوأ استغلال...  
لعلّه يشير إلى أمّه. حقّاً قد طفحت القلوب  
بالحقد. وقال رغم امتعاضه:
- ليس مستحيلاً أن تنتهي الأمور إلى خير.  
- هيهات، لقد حيكت مؤامرة بمهارة خبيثة فتحوّلت  
في خيال رجل مجنون ملئت أذناه بالأكاذيب المتواصلة  
مثل دقّات الساعة!
- إشارة أخرى إلى أمّه. حتّى متى يتحمّل ويتصبر؟!  
وتساءل:
- ألا تستطيع أن تُظهر الحقّ؟  
- فات الوقت، كيف تظالّيني بالتفاهم مع مجنون؟!  
وفرّغ بأصابعه ثمّ تساءل:

المسروق بإرشاد زوجته، ومضى يعمل ويثري، وشيّد القصر وابتنى العمارات، وتنگر في صورة جديدة تناسب حياته الجديدة، بل عرف بالخير والإحسان، بفضل السرقة والغدر والخيانة، بفضل ثروة أبيك، وهي ثروتك إذا شئت، التي أدّى أبوك ثمنها أعوامًا طويلة في السجن من عمره...

نفخ بجي غيظًا وقهراً. آمن بأن حياته كانت سرايبًا وأنه لم يبق منها ولا قبضة من تراب.

وضرب محروس الخوان براحته وقال:

- الحكاية قديمة أفلتت من قبضة القانون، ولكنها الحقيقة. إنه لا يحبك كما تتوهم، إنه لا يحب أحدًا، لقد كره ابنه الحقيقي فماذا تنتظر؟ وأنت صاحب الثروة والمذكر الدائم له بماضيه...

وسكت دقيقة طويلة ثقيلة ثم تساءل:

- ما رأيك في الحكاية؟

فقال بجي بجفاء:

- فظيعة لا تصدق...

- ألم تصدقني؟

- لا أدري ماذا أقول.

- لكنّ اليقين عند والدتك.

صمت قهراً وبأساً. أدرك مرماه الجهنمي. إنه ما استدعاه إلا ليعطيه الفتيل الذي يفجر به حياته وأهله. ولكن هل ثمة مهرب؟

## ٦

خلا إلى نفسه في حجرة مكتبه بحجّة الاستعداد للامتحان ولكنّه غرق في همومه حتى قَمّة رأسه. إنه يتساءل دائماً ماذا عليه أن يفعل. ويرى أنه يجب أن يبدأ من الصفر ولو تمهاوى الحلم القديم فوق رأسه. كلّ شيء يدعو إلى التفرّز وقد تحوّل إلى دودة ترتع في الزبالة. ويبدأ أنه لم يحسن إخفاء ما يعتلج في نفسه كما وضح له ذلك من نظرات عمّه وأمه عندما تجمعهم المائدة. وإذا بأمّه تسعى إليه في خلوته. إنه يراها بعين جديدة. يرمق جمالها بأسى، يستشّف وراء ربّة القصر المرأة الكادحة المدعّوة جميلة الأسطى. المرأة الخائنة. أجل إنها تزهو بالطول والعرض ولكنها محشوة بالقش.

وقد دخلاه بتهمة واحدة على وجه التقريب. كانت تهمة سرقة بالإكراه وتهمة أبيك السرقة للمرّة الثالثة...

ارتعشت يدا يحيى من شدّة الانفعال فصمت الآخر قليلاً ثم قال:

- إنّي آسف، أرجو أن تتمالك نفسك، لا مفرّ من الكشف عن الحقيقة مهما تكن بشعة مرّة، أقول لقد تزاملا في العامين وأطلع كلّ منهما على كثير من أسرار الآخر، وصارا بذلك صديقين، عرف أبوك أبي أرمّل وأنه ترك وراءه في الحارة شابًا ضائعًا هو أنا، وعرف أبي أنّ أباك ترك زوجة ورضيعًا هو أنت...

رغم غضبه واحتجاجه شعر بأنّ الحكاية لا يمكن أن تكون محض خيال، فما من واقعة ذكرت إلا ويمكن التثبت من صدقها، ترى ماذا هناك أيضًا؟

- عرف أبي أنّ أباك سرق امرأة تدعى دليلة الفقي جعلت من مسكنها بنك رهونات، سرق الذهب كلّهُ، وادّعى في التحقيق أنه فقده، ولم توفّق الشرطة في العثور عليه، ولما غادر جندي الأعمور السجن رجع إلى حارة التكيّة وهي أصلنا جميعًا، رجع في رأسه خطّة...

بلغ يحيى نهاية في اليأس والقهر ولكنّه أصغى إلى محدّته ومعذّبه بكلّ جوارحه فاستمرّ الرجل وهو يبتسم ابتسامة ظفر:

- أمك جميلة وكانت وقتذاك أجمل بالشباب، وكانت تكدح لتطعمك في ظروف سيّئة، فزارها أبي باعتباره صديقًا لزوجها، ورهن نفسه لخدمتها، وكنت أراقبه على كره منه إذ كنّا دائماً نتبادل سوء الظنّ والنفور وكان أيضًا يخشى جانبي، وما تدري الحارة إلاّ وأمك تطالب في حقّها من الطلاق من أبيك، ثمّ تتزوّج من أبي، ويقرّران هجر الحارة غير أنّه اضطرّ إلى اصطحابي معه خوفًا منّي!

سكت ليشرب قليلاً من الماء على حين انتظر الآخر في كآبة وحزن، وقد شعر نحوه بمقت لم يشعر بمثله لإنسان من قبل. واستطرد محروس:

- سافرنا إلى الإسكندريّة، ومضى أبي يبيع الذهب ويستثمر المال، وفي الحال أدركت أنه استولى على الكنز

## الشیطان يعظ ١٣٧

ويغدرون...  
 فوجت قليلاً ثم تمتمت:  
 - العاقل لا يحرص عليه إلا إذا آمن بأنه طريقه إلى  
 السعادة...  
 إنه يحوم حولها ولكنه يشفق من الانقراض عليها.  
 أجل إنها تستوي أمام ناظره امرأة ولكن وجدانه ما  
 زال عمتلًا بها كأم. يهتّم بتوجيه ضربة ولكنه يتوقع أن  
 ترتدّ إلى صميم قلبه. ما كان يتصور أن يصدق كلمة  
 مما قال محروس ولكنه تلقى كلامه في وقت تزعزع فيه  
 كلّ قائم. تلقاه بعد أن شهد الابن ساعياً لقتل أبيه،  
 والأب طارداً ابنه وملوثاً حرمانه، فأبي شيء لا  
 يصدق؟ وإذا بها تقول وهي تنفّس في وجهه:  
 - إنك لا تفتح قلبك لي...  
 فلم يجر جواباً فقالت:  
 - لقد حدثك عن محروس؟  
 - أنت تعرفين ذلك...  
 - وحدثك عن شريفة أيضاً؟  
 - هل افترى عليها كذباً؟  
 فقالت بصوت متهدّج:  
 - ما أبشع الصدق أحياناً!  
 فقال بتحدّ:  
 - كثيراً ما يكون كذلك.  
 - ولكننا يجب أن نقدر الحياة الموهوبة لنا!  
 - ولكنّها تتمخض كثيراً عن أوام وأشباح!  
 - ما أتعسني بسماع ذلك!  
 فقال بتسليم:  
 - إني تعيس حقاً...  
 فقالت برجاء حارّ:  
 - ولكنني مصمّمة على بعث الابتسامه فوق  
 شفتيك!

### ٧

عندما ترامقا غاصا في خيبة جديدة. كازينو جليم  
 شبه خال، الكوكاكولا والمغيب المقرب. قال لنفسه لو  
 وجدتها مرحة سعيدة كالأيام الخالية لحاب أمني أكثر.  
 قال لها بحنان:

قالت بحنان:  
 - لا شك أنك حزين، ولذلك فأني يائسة...  
 ولم ينبس. سحفاً لكافة أكاذيب الحياة. قالت  
 بإشفاق:  
 - لا شك على أن عمك أطلعك على حقائق  
 مرّة...  
 هانت بالقياس إلى حقائق أخرى. قطب مصرًا على  
 الصمت فقالت:  
 - كلما أدركت مدى ألمك حز في نفسي الألم، ولا  
 شك أن احتمال فقد ودا احتفال أليم ولكنه لا يقاس  
 بالكارثة التي عصفت بعمك...  
 فقال بجفاء:  
 - لا أوافقك على ذلك...  
 - يجي... تصور الأمر بعين عادلة...  
 فقال متخطبًا حاجز التحفظ:  
 - ليس هذا بكلّ شيء...  
 فلاحت في عينيها نظرة تساؤل فقال مترجعًا:  
 - سوف يضيع العام الدراسي هدرًا!  
 فهتفت في جزع:  
 - كان يجب أن تظّل بنأى عن همومنا...  
 - ما كان كان.  
 فتهتدت وقالت:  
 - لقد سمعت كلامًا، وربما سمعت أكثر، تعلم  
 كيف لا تكترث...  
 - كيف؟  
 - يجي، تذكر ما تحوزه من فرص، إنك نجم هذا  
 القصر، سيؤول إليك كلّ شيء فيه، أمامك حياة  
 طويلة عريضة ثرية، كلّ أولئك أشياء حقيقية، أما ما  
 يقال فما هو إلا كلام لا يجوز أن يؤثر في الأشياء  
 الحقيقية، ودا نفسها بنت جميلة ولكن كم من جميلة  
 تفوقها في الإسكندرية...  
 فتساءل في سخرية:  
 - والحبّ أليس له اعتبار عندك؟  
 - ما قيمته إذا ضيّع فرص الحياة السعيدة؟  
 فرغمًا عنه قال:  
 - لكنه قوة، بسببها ينتحر أناس ويقتل آخرون



- ما هو؟  
- ماذا تتوقعين من رجل إذا أراد أن يعيب امرأة؟  
- اصفرّ وجهها، ازدردت ريقها، ثمّ قالت بحدّة:  
- أريد كلامًا واضحًا!  
فقال ضارحًا:  
- لا تعدّيني فلأني كما ترين على أسوأ حال.  
لاذت بصمت ثقيل أليم ثمّ تساءلت:  
- ماذا بقي لنا؟  
فقال بقوة لأوّل مرّة:  
- كلّ شيء، الحبّ...  
- ما معنى الحبّ في مثل حالنا؟  
فردّد معنيّ ردّدته أمّه من قبل، ربّما دون إيمان حقيقيّ:  
- ما بهمّ هو الحياة الموهوبة لنا...  
فقالت ساخرة:  
- إذا فما علينا إلّا أن نذاكر، ثمّ نمضي معًا أرادوا ذلك أم لم يريدوه...  
- هو ذلك!  
فقالت بيأس:  
- نحن نهذي يا يحيى.  
- ولكن...  
غير أنّها قاطعته متسائلة:  
- صارحني بما تنوي عمله!  
فقال مستسلمًا:  
- جئت راجيًا من تلاقينا أن يبعث فينا روحًا جديدة.  
فقالت بحدّة:  
- لكننا تبادلنا أبناء الفضائح والتعاسة.  
- كان لا بدّ من التعرّض لذلك...  
فتساءلت بأسى:  
- أين المحبّان القديمان؟  
- ها هما، أنا وأنت!  
- يحيى، إنك عاجز عن تجاهل ما سمعت!  
- وأنت كذلك. ولكننا سنقهر ما يعترضنا.  
وساد الصمت والحزن. وعند ذلك استدعى شجاعته وقال بنبرة اعتراف:
- وداد... لست على ما يرام.  
- أنت أسوأ حالًا مني...  
- لقد توقّفت تمامًا عن المذاكرة.  
- سنة ضائعة لكلينا...  
جعل ينظر إليها وهي تهرب إلى الأفق الغارق في البحر، حتّى سألته بنبرة محقّق:  
- ماذا قال لك أبي؟  
لم يدر ماذا يقول. العار مطوّق لكليهما ولكن ما عسى أن يقول؟ أخيرًا تمتم:  
- يجيّل إليّ أنّك تعرفين كلّ شيء!  
فلاذت بالصمت، فإذا به يندفع قائلًا وهو ما لم يغفره لنفسه:  
- قُضي عليّ بأن أسمع ما أكره، تارة من أيبك وتارة من جدك!  
أمالت وجهها نحوه في ارتياب فغضّ بصره أسفًا، وعند ذلك سألته:  
- ماذا قال جدّي؟  
قال وكأنه يدافع عن زلّته:  
- علينا أن نعرف الحقيقة لنقرّر مصيرنا ونحن على هدًى، ماذا سمعت؟  
فقالت بحزن:  
- عيّن ما قيل لك، ولا داعي لإعادته.  
- القصّة القديمة عن السجن والغدر؟  
- القصّة القديمة عن السجن والغدر فهاذا قال جدّي؟  
عاوده الاندفاع ليؤكّد لها أنّها ينهلان من مستنقع واحد، قال:  
- تكلم بدوره عن والدك.  
فعاودها القلق والتوتّر وقالت:  
- أبي متهمّ، طيّب، ماذا عن أمي؟  
- لعله الغضب يا وداد.  
- أريد أن أعرف ما عرفته.  
- إنّه سخف لا أكثر ولا أقلّ.  
- كلاً، إنك تصلّق ما قيل فما هو؟  
- إنني في حيرة.  
فتساءلت بإصرار:

## ٨

نَمّة جوّ جديد في قصر رأس الحكمة ينفث رائحته الكئيبة. جندي بك لم يعد نفس الرجل، ولا جميلة هانم... إتهما يبذلان جهداً لا يستهان به ليبارسا حياتها اليومية في هدوء وطمأنينة، كما كان الحال قبل الجريمة. الأسى يتجلى وراء الأفتنة كما يتجلى العمر وراء التصاير. أما هو فلم يلبس فناغاً، ولم يبالي بمشاعر الآخرين. وكانوا يحتسون القهوة بعد الغداء في حجرة الجلوس الزرقاء عندما فاجأهما بقوله:

- إني أستاذن في السفر.

وقالت أمّه بقلق:

- لم أتوقّع ذلك، ولم يبق على الامتحان إلا أقلّ من شهرين.

- إني لا أكاد أعمل، وبى اضطراب لا يمكن تجاهله، فلا بدّ من رحلة قصيرة للنقاها...  
- كان يجب أن تكون قد تغلّبت على الكدر.

- لم أوفّق إلى ذلك.

- ولكن أين تسافر؟

فأجاب بثبات:

- إلى مرسي مطروح.

فسأله جندي بك:

- أهذا قرار ضروري؟

- أعتقد ذلك، بضعة أيام أسترّد بها صفائي...

وهمت أمّه بالاعتراض ولكنّ جندي بك قال:

- فليذهب، وسوف يرجع على أحسن حال.

## ٩

إنه يقوم بأخطر رحلة في حياته. رحلة المغامرة والتضحية والحقيقة. هي أيضاً رحلة الهروب من العذاب. ربّما إلى عذاب أعمق وأكثر. كأنه لم ير القاهرة قطّ، كأنه من مواليد الإسكندرية. هجرها وهو ابن ثلاث ورجع إليها وهو ابن عشرين. دهمته القاهرة كأخطبوط خرافي. لم يجد شوقاً للتقلّب في جنباتها فاخترق قطاعها الأوسط إلى الحميّ العتيق. أودع حقييته في حجرة بالكلوب المصريّ وراح يدور من شارع إلى حارة. إلا حارة التكيّة أجل اقتحامها لها حتى

- وداد، قرّرت أن أسافر... هذه هي الحقيقة!

فحدجته بنظرة متسائلة منزعجة فقال بالنبرة نفسها:

- قرّرت أن أسافر إلى القاهرة، إلى الحارة...

- أتعني حقاً ما تقول؟

- بيقين...

- خطوة غريبة تقطع بأنك أعجز ما تكون عن

تجاهل ما سمعت؟!

- إنها لا تقاوم...

- هل تطمع من ورائها إلى خير؟

- يجب أن أقطع الشكّ باليقين.

فتساءلت بعد تردّد:

- هبها أكّدت ما سمعت؟

فتفكّر قليلاً ثمّ قال:

- ليكن، بوسعي بعد ذلك أن أقرّر تجاهلها، بل

لا معنى لتجاهلها إن لم أعرفها معرفة يقينية في منبعها،

ولا بديل عن ذلك سوى العذاب.

فرفعت منكبها في استسلام وهي تغيب في مهوى

الشمس المخضب بالأحمر، وقالت:

- نصحتني أمي بقطع علاقتي بك زاعمة أنّها لن

تجرّ وراءها إلا العذاب...

فقطّب قلباً وهو يرمقها بعنف فقالت بهدوء:

- ولكنني رفضت النصيحة هازئة بما سمعت فانظر

إلى موقفك أنت!

- أشكرك يا وداد، لا أتوقّع منك قراراً آخر،

ولكن لا تدعي الاستهانة، وإلاّ فيما تفسر لهذا الحزن

القائم الثقيل؟!

- إنها الصدمة المباغتة، والانهيار المنقضّ، وانتشار

الأسرة الواحدة...

فقال متتهّداً:

- لذلك قرّرت السفر!

- سافر إذا شئت أما قلبي فإنّه يتوجّس أوخم

العواقب...

فتوسّد راحتها براحتته وقال:

- حبّنا ثابت راسخ، إنّه مثل الضوء لا يعني

اختفاؤه حيناً إلاّ أنّه يدور دورته ليريق ضحكته الإلهية

في الصباح التالي...

يشاءون... .

فقال يحيى بدهاء:

- إني أبحث عن حكايات، ولكلّ حكاية ثمنها!  
فاختلج جفنا العجوز فوق عينيه الكليلتين وقال  
بإغراء:

- حارتنا حارة الحكايات... ولكن لا بدّ من  
جلسة كيف!

فوافق على شروطه ولكنّه قال:

- تحت شرط أن نكون منفردين... .

\*\*\*

هكذا جمعها سطح مسكن العجوز. جلسا على  
وسادتين فوق كليم تحت ضوء النجوم تسعى حولها  
دجاجات ناقة مقوثة. تظاهر يحيى بأنّه يدخن فجعل  
يملاً شدقيه بدخان الجوزة وينفثه في قرف لم تتح للرجل  
رؤيته. ولم يضرّ عليه بما طلب من نقود. وصبر على  
ثرثرته عن أسعار البنّ والسكر والشاي وحكيه لبعض  
النوادر الدارجة ثمّ عجز عن كبت لهفته فقال:

- اسمع يا معلّم سليمان، لقد سمعت من آخرين  
نتقاً عن حكايات فلم يحظّ بانتباهي إلاّ حكاية رجل  
يدعى عويس الدغل ولكنّها جاءت ناقصة لا تشبع  
فهل تعرف أصل هذه الحكاية؟

فسعل العجوز سعلة محترف وقال:

- عويس الدغل عليه اللعنة، إنّها عظة كلّ مغفل  
في حارتنا، ماذا سمعت؟

- لا أهميّة لذلك، أريد أن أسمعها من راوية محنّك  
مثلك، إنّها حكاية مدهشة... .

- لا تدهش، عندما تبلغ من العمر ما بلغته فلن  
تدهش لشيء أبداً... .

- حقاً؟ ولكن هل ما زال الرجل حيّاً؟

- وهل يبقى على ظهرها إلاّ الأشقياء؟

وضحك فجاراه في ضحكته وهو يجد غمراً أليماً في  
قلبه، ثمّ سأله:

- ماذا يعمل؟

- إنّه في السبعين، تربية شوارع وسجون، وهو  
اليوم أحد ثلاثة في حارتنا يرتزقون من توزيع  
الكيف... .

يتشبع بالاستعداد. وقال له صوت من الداخل «ماذا  
تفعل؟ لا تكن سخيّاً، ارجع من حيث أتيت، انجح  
في الامتحان، انتظر وداد عامين، تزوّج منها ملقياً  
بالهموم جانباً، مستهيناً بجندي وعويس، بجميلة  
وشريفة، ليس في الأمر مشكلة حقيقية». ولكن  
انتصب أمامه إغراء الحقيقة القاسي. رغم شعوره  
بالعبث. وهل كانت إلاّ معركة بين لصين؟ ونادى  
عزيمته واقتحم الحارة. اقتحم الألوان الفاقعة  
والأصوات المتفجّرة، الحاضر الصاحب والماضي  
المتحفّز، النظرات المحملقة والقهقهات المتحشّرة،  
نداءات الحِرَف المختلفة بالأصوات والدقات والروائح  
النافذة، ومهرجان الأزياء من البديل والقفاطين  
والجلابيب فضلاً عن الأجساد شبه العارية، والعطفات  
والأزقة، والبيوت المتداعية والعمارات الجديدة  
الشاهقة. ها هي امرأة تنادي مثلها كانت تفعل أمه،  
وها هو رجل يتصعلك كما فعل أبوه وعمه، وها هو  
طفل يلعب بفأر ميت ربّما كما فعل هو. هنا تقرّرت  
مصائر عويس الدغل وجندي الأعور وجميلة الأسطى  
وشريفة الدهل. ذهب وجاء وهو يتساءل عن الراوي  
الذي سيهتك له حجب الظلام، من يكون، وأين  
يجده؟ ووقعت عيناه على عجوز قابع وراء صندوق  
الماركات في المقهى الوحيد فحدس أن يجد فيه بغيته.  
وقد صدق الحدس... .

١٠

صدق حدسه فالرجل عجوز مقيم ومقهاه من معالم  
الحارة الأثرية. اختار أقرب مجلس إليه وراح يفكر في  
وسيلة للنفاذ إليه واستدرجه للحديث. لفت نظر  
الرجل ببقائه المتواصل وكرمه مع صبيّ القهوة. ونفد  
صبر صاحب المقهى العجوز فسأله باسمًا:

- أنت منهم؟

فتساءل - مرتجّباً بالحديث - عمّن يقصدهم فقال  
العجوز:

- رجال الجرائد؟

فانتهاز الفرصة وزعم أنّه منهم فقال العجوز:

- كثيراً ما يجيشون ويصوّرون ويأخذون ما

## الشیطان يعظ ١٤١

في معزل عن الدنيا جميعاً، إنه سقيم في كون موبوء لم يبقَ له من الغذاء إلا السخرية. وقال المعجوز:

- عندما قبض على عويس هرعت دليلة الفقي صاحبة الرهونات إلى المرأة، توسلت إليها أن تردّ الذهب اتقاءً لغضب الراهنات والراهنين فأقسمت بأغلظ الأيمان أنها لا تدري عنه شيئاً، وقصدها الفقراء أصحاب الذهب المهون يتوسلون ويبيكون، أكثرهنّ نسوة كادحات يشترين الذهب لوقت الحاجة ويرهنه عند الضرورة... .

فتمتم يحيى بذهول:

- أولئك هنّ صاحبات الثروة المسروقة!  
- دون غيرهنّ، وهنّ اليوم في هذا الغلاء لا يجدن اللقمة إلا بالعذاب، ولعلهنّ صدقنها في وقتها حتى ظهر جندي الأعور وهرب بها فتأكدن بأنه ما لعب لعبته إلا من أجل الذهب المسروق... .

فقال يحيى بأسى:

- هنّ وحدهنّ صاحبات المال الحلال... .  
- أما عويس وجندي فلم يكونا إلا لصين وبرجيين، وقد نال عويس جزاءه في السجن وخارجه، ولا يدري أحد إلا الظنّ بما حلّ بجندي... .  
وضحك المعجوز ضحكة ساخرة واستطرد:

- وقد كان لجندي ابنُ قواد!

- ابن جندي الأعور؟!

- نعم، وقيل إنه ابن حرام، وإنّ جندي كان يؤمن بذلك ولكنه كان يخشاه، ولذلك أخذه معه اتقاء لشربه، ولعلّ الولد كان يراقب أباه وزوجة عويس حتى لا يفلتا من قبضته بالغنيمة، وقد تزوّج الابن من امرأة محترفة جميلة وكان يقدمها للأعيان!

فتساءل يحيى:

- ترى ماذا يفعل عويس لو عثر على جندي الأعور فوجده خلافاً لظنك ينعم بالجاه والثروة؟!  
فقهقه المعجوز وقال:

- ماذا بقي من عويس القديم؟ هل يقتل؟ هل يسط يديه في ذلّ سائلاً ما يوجد به الآخر؟ كلهم لصوص برجية أوغاد، وليرحم الله ضحاياهم المساكين!

- إذن فهو في عيشة راضية؟

- لا، موزّع القطاعيّ محدود الرزق، تكون حاله أحسن إذا قام به، بالإضافة إلى عمل آخر، ولكنّ عويس لم يحترف عملاً شريفاً في حياته، وعجز أخيراً عن السرقة!

اجتاحته رغبة في البكاء فقاومها بعنف ساءت به حاله. وقال المعجوز:

- إنه يعيش في بدروم في آخر ريع قبل البهو وإن شئت أن تراه أرسلت في طلبه؟

فقال بسرعة:

- فلنؤجل ذلك... .

- لعله نسي.

- نسي؟

- غدر جندي الأعور وخيانة زوجته، ألم يحكوا لك ذلك؟

- بلى، زمالة السجن، الطلاق، والمهرب بالذهب والزوجة والابن... .

- عندما خرج من السجن أقسم ليقتلنّها، وجدّ في البحث عنهما ما وسعه ذلك، وعاش دهرًا كالمجنون... .

فقال يحيى بصوت منخفض كيلا يفضح تأثره:

- حكاية غريبة.

فقال المعجوز بلهجة منتقدة:

- الحقّ عليه، لقد كانت المرأة عاهرة محترفة فتزوّج منها، ماذا يتوقّع من مثيلاتها؟

آه... . حمداً للظلام، إنه يتحلّل مثل جثة الميت. لم يذكر محروس شيئاً عن ذلك اتقاء لغضبه غالباً. وها هو يتلقّى الحقيقة كلسان من لب. ها هو... آه ما أفضح الألم!

وواصل الرجل المعجوز حديثه منتشياً بأهميته:

- أين ذهب جندي الأعور والمرأة والطفل؟ لم يعلم أحد، وحتىّ اليوم لا يدري عنهم شيئاً، ونسي عويس الدغل الحكاية كما نسيتهما الحارة، ولا شكّ عندي أنه اليوم في السجن وربما الطفل أيضاً أما المرأة فلا محيد لها من الرجوع إلى مهنتها الأصلية... .

إنه يهبط درجات من الألم أردته إلى أعماق الجحيم

- ولم تخفيه؟  
 - ربّما رجعت إلى القاهرة مرّة أخرى...  
 فقالت متوجّسة:  
 - هل دعوتني لتحملني مزيدًا من الهمّ؟ إني أعيش  
 أتعس أيام حياتي...  
 فقال بهدوء مخيف:  
 - يسعدني أن أسمع ذلك، شعور التعاسة في مثل  
 حالنا هو ما يهينا الجدارة بالحياة الكريمة، فلنترك  
 السّفلة ينعمون بالحياة في غمرة سفالتهم...  
 ازدادت قلقًا، أما هو فإنّ وحشيّة التجربة دفعته  
 بقوة مستهترّة إلى المكاشفة. قال:  
 - قطعت رحلتي ولكتني سأرجع، شعرت بالحاجة  
 الماسّة إلى مشاورتك، علينا أن ننتهي إلى موقف  
 موّحد.  
 - إنك منفعل إلى درجة تخيفني...  
 - لا أنكر ذلك، تلزمتنا إرادة حديدية لنستحقّ حياة  
 نظيفة، ليس الأمر هزلًا، ولن أباهي بظاهر براق إذا  
 كان الباطن عفّنًا، أريد أن أرفض الحياة القادرة...  
 قَطَبْتُ متفكّرة فقال:  
 - سأصارك بالكثير، المصارحة بكلّ شيء فوق  
 طاقتي ولكتك ذكيّة وتكفيك الإشارة، الحياة التي نعمنا  
 بها طويلاً حياة زائفة قدرة مهينة، هناك في الحارة  
 عرفت أصول الأشياء، من أبي ومن أمي، من جدك  
 ومن أبوك ومن أمك، إنّه العار والقدارة، المرارة  
 تنسني اللياقة، تنسني الترفّق بك ولكتني لا أترفق  
 بنفسي أيضًا، الماضي كلّ قدر، لا يجوز أن يمتدّ في  
 الحاضر، علينا أن نقرّر...  
 ازداد وجهها الجميل شحوبًا وتجلّت في عينيها نظرة  
 كثيية. قرأها بعمق فخطر له احتمال مخيف وهو أنّه قد  
 يفقدها إلى الأبد، وأن يتوه بلا قطرة عزاء في جحيم  
 المحنة. لكنّه كان مشحونًا أيضًا بشورة طاغية. كان  
 يعاني مقتًا لمقدّساته القديمة. تساءلت:  
 - هل لديك أدلة قاطعة؟  
 فتفكّر قليلاً وقال:  
 - التاريخ نفسه لا يملك أدلة أقوى!  
 فلاذت بالصمت. ولاحظ هو أنّها تتجنّب المزيد من

راه واقفًا كالنائم مركونًا إلى جدار الربع. هيكل  
 خلا من مقومات القوّة، كليل البصر لا يرى أبعد من  
 متر، غائر العينين بارز الجبهة أصلع نابت شعر الذقن  
 يمرق عنقه من جلباب لا لون له من تلبد الغبار  
 والأوساخ عليه حافي القدمين. مرّ أمامه ذهابًا وإيابًا  
 فلم يتبّه الرجل إليه ولم يشعر هو نحوه بأيّ عاطفة  
 ولكن اجتاحه إحساس شامل بالترزّز والاحتجاج  
 والتمرد. لا يستطيع أن يقدم له شيئًا ولا أن يأخذ منه  
 شيئًا، إنّه غريب تمامًا ولكنّه رغم غربته قلب حياته  
 رأسًا على عقب. مضى ورأسه يشتعل بالأفكار  
 المحمومة. هذا هو أبوه عويس الدغل وهذه هي أمّه  
 جميلة الأسطى. وهناك أيضًا والدا وداد محروس جندي  
 وشريفة الدهل. إنّه ليس الفقير ما ينجل ولكنّه  
 الانحطاط. في هذه القضية يستحقّ السارق والمسروق  
 لعنة واحدة. وقد أراد أن يتثبت فجاءه اليقين نافثًا  
 راثحته التتنة. ما عسى أن يفعل؟ ماذا يقبل وماذا  
 يرفض؟ الحيرة تمزّقه وعليه أن يتخذ موقفًا قبل أن  
 يتبعثر بددًا. إنّه يحترق، لا يمكن أن يحتمل النار إلى ما  
 شاء الله، ولا يمكن أن تمضي الحياة كما مضت على عهد  
 الغيبوبة السعيدة. وله أن يفكر ولكن فليحذر الدوران  
 مع الدوامة بلا عمل حاسم. إنّه بحاجة ماسّة إلى  
 وداد، ليتبدل الرأي، وليتفقا على خطة موّحدة. هل  
 يطلق الكلاب المسعورة بعضها على بعض لتقول  
 العدالة كلمتها القاسية في عويس وجندي ومحروس  
 والجميع!؟ قواه الغاضبة تودّ أن تفعل ذلك وإلا فلا  
 معنى لأيّ شيء. وإلا فكيف يخرج من الجحيم؟  
 ولكن لا بدّ من مشاورة وداد. يجب أن تتكلم جميع  
 جوانب نفسه. إنّه يرفض أباه وأمّه وعمّه، ويودّ أن  
 يوجّه ضربات مذهلة.

واقفه وداد إلى كازينو جليم. من أول نظرة من  
 وجهه ارتسم القلق في وجهها. قال لها محدّرًا:  
 - لا أحد يعلم بوجودي في الإسكندرية...  
 فسألته بدهشة:

## الشیطان يعظ ١٤٣

جوعًا أو ننحرف مثلهم؟ إنّه حلّ جميل تهفو النفس إليه ولكنّه ليس عمليًا يا يحيى . . .

أيّ خيبة تحييء في أثر خيبة! إنّه في وادٍ وهي في وادٍ. هل تكشف له الأحداث عن شخصيّة أخرى تحت الشخصيّة المحبوبة؟! أمّا هي فواصلت وقلقتها يزداد لشعورها بالفارق الكبير بين فتورها وحماسه:

- إنني متألّمة مثلك، متقرّزة مثلك، غير أنني أرى أننا - أنا وأنت - لا نستحقّ أن نتحمّل وزر ما ارتكبه الآخرون، فلنتجاهل الماضي الأليم، لنمضِ في حياتنا لا يفرّق بيننا شيء، ذلك إذا آلت الثروة يومًا إليك أن تفعل بها ما يرضي ضميرك ويكفّر عن أخطاءه وجرائم الآخرين . . .

فقال بازدرأ:

- معنى ذلك أن نرضى بنعيم اللصوصيّة والعهر . . . نحن نرضى بواقع علاقتنا بآبائنا . . . فتساءل بغضب:

- وبعد أن رأيت بعينيّ البؤساء الذين هم أصحاب الثروة المسروقة؟! فقالت بإصرار:

- نحن أبرياء، لم نرتكب إثماً، بل نحن ضحايا لما نعاني من عذاب، ومن الحماقة أن نرمي بأنفسنا للضياع ونحن نمدّ يدينا لقطف ثمرة كدّ السنين، فلنصبر ولو على الأقلّ حتّى نقف على قدمينا! فتساءل بحزن:

- أهذا رأيك؟

- يحيى، كن حريصًا على حبّنا حرصي عليه، لسنا قضاة ولا شرطة، وإذا أردت هجرهم لفورنا ففكر قليلاً في العواقب، هبني قلت لك إنّي معك فما هي الخطوة التالية؟ ماذا نعمل؟ أين نعيش؟ أعطني إجابات محدّدة وأنا معك، لا أريد أن أقوم بمغامرة ثمّ أسقط في الضياع . . .

فقال بصوت خامل محشرج بالحياة:

- ليس عندي جواب محدّد، لسانك يجري بمنطق العقل، والعقل أسمح محدّث في موقفنا هذا، الجنون ما نشد، أعني الجنون المقدّس . . . - أرجو أن أكون واضحة تمامًا، أنا لا أتعامل مع

الإيضاحات. لم تسأله مثلًا عمّا عرف عن والديها. ربّما بدافع من الإشفاق وربّما لأنّها في غير حاجة إلى سؤال. قال:

- فلنطرح الحلول الممكنة أولًا، فثمّة حلّ هو أن نتجاهل الماضي بشرّه ونواصل حياة تحسدنا عليها الملايين!

فبرقت عينها وقالت وكأنتها تستغيث:

- في بيتنا يتوقّعون أن ينزل جدّي لنا عن عمارة ولو دفعًا للشرّ، يتوقّعون أيضًا أنه سيملّكك ثروته بعد وفاته . . .

فسأه أنّها تعلّقت باقتراح لم يطرحه إلا بدافع الإحصاء وقال:

- الحلّ الثاني أن نرفض القوم وثروتهم وننجو بأنفسنا مهما تكن العواقب لنحيا حياة نقيّة جديدة بالكرامة . . .

فلاحت متفكّرة بعمق وصامته فقال:

- لا أخفي عنك أنّ بي ثورة لا تقنع بذلك، لذلك أفكر في حلّ ثالث وهو أن أحرّش الشياطين على بعضها البعض حتّى لا يفلتوا من العقوبة الرادعة، ولكي تعود إلى الأشياء معانيها . . .

فرمته بارتياح وتمتمت:

- إنك تتحدّث بجديّة تندر بأونخم العواقب . . . فتساءل متجاهلاً قولها:

- أيّ حلّ نختار يا ودا؟

فقال بانفعال:

- مهما تكن الأخطاء فإنني أرفض أن أقيم من نفسي قاضيًا للحكم على والديّ، ولا أسمح بأن يصيبها مكروه على يديّ، بل لا أسمح أن يصيبها مكروه إن استطعت دفعه، ذنبها على جنبها كما يقال . . .

إنّها واضحة وضوحًا حفر هوةً بينها. تساءل في وجوم:

- حقًا ترفضين؟

- وأيضًا الحلّ الثاني أراه خياليًا، هبنا تبرأنا منهم فكيف نلقى الحياة بعد ذلك؟ سنضطرّ عند ذلك إلى الانقطاع عن التعليم، ولن نجد عملاً، فهل نموت

- قلتُ إنَّك ستضيق بالوحدة فترجع سريعاً.  
أما أمه فهرعت إلى حجرته متألمة بالسرور وقالت:  
- خير ما فعلت، لا وقت لديك تضييعه وقد  
استجاب الله لدعائي . . .

جلست قبالته وهو يجذب نفسه من بحر الانفعالات  
الذي يشده إلى أعماقه. بين أمواج متلاطمة من النفور  
والازدراء والولاء. ها هي تقول إنها تعرف الله وتدعوه  
وإنه يستجيب لها. وهي تجلس مطمئنة ملقبة القديمين  
على وسادة مزركشة، جميلة وفخيمة وربّة قصر وأي  
قصر. رياح الثورة ما زالت تعصف بأركانها ولكن  
يقاومها إشفاق لا يخلو من قداسة. ما زال يذكر بشدة  
منظر أبيه ومناظر الضحايا فيخصّ بالمرارة. غير أنّ  
الرحلة اقتلعت من صميمه التردّد والحياء فلذلك  
اندفع يقول بلا روية:

- الحقّ أنني لم أسافر إلى مرسى مطروح!

- حقاً؟ إذن أين كنت يا حبيبي؟

فأجاب برود منذر بالولايات:

- كنت في حارة التكية بالقاهرة!

تلاشت البهجة فجأة من صفحة وجهها كأنها  
مصباح كهربائي انقطع عنه التيار. شحب لونها وهي  
ترنو إليه بوجوم واستسلام. لأول مرّة يراها وهي  
مسحوقة بلا حيوية ولا كبرياء. وجاءه صوتها وانيباً  
متسائلاً:

- ماذا أذهبك إلى هناك؟ بل من ذلك عليها؟

فلوح بيده ولم ينبس فقالت:

- محروس؟!

- ما أهمية ذلك؟

وساد الصمت حتى أوشك أن يرثي لها، أوشك أن  
يندم على ما بدر منه. طال الصمت، وفيه قيل كل  
شيء بلا كلام. لم يتكلم ولم تسأل. كفى اسم الحارة  
لبعث تاريخ طويل بكل تفاصيله. ثم نكست رأسها  
ففقد القدرة على النطق. وقال لنفسه إنه لن يتيسر له  
البقاء بعد ذلك. لا قتال ولا سلام. ها هي تقوم  
متناقلة وكأنها طعنت في الشيخوخة. مضت نحو الباب  
فتابعها بعين مودعة. غير أنها وقفت فجأة فوق العتبة.  
لبت واقفة دقيقة كاملة. واستدارت بحركة لا تخلو من

الجنون المقدس، ولعلّي لا أعرف جنوباً مقدساً، وأنت  
فريسة للغضب. فعليك أن تعيد التفكير وأنت هادئ  
متمالك لانفعالاتك. . .  
فقال بعد تردّد:

- أرى أننا مختلفان!

- كلاً، من ناحية الشعور فنحن شخص واحد، لا  
أفرط فيك رغم الحملات المتتابعة، وفي الوقت  
المناسب سأقرّر مصيري بنفسي، ولكنّي أرفض  
المغامرات الجنونية!

بقدر ما حاصره منطقتها ثار عليه، وكلما اشتدّ  
الحصار اشتدّت به الثورة. ولكنّه انهم. على الأقل لم  
يضمض في اندفاعه إلى نهايته. أجل اتّخاذ القرار. أجله  
وهو من القلق والحيرة في نهاية. وهما يغادران الكازينو  
ضغطت على ذراعه التي تتأبطها إعراباً عن تمسكها  
به. . .

### ١٣

عندما ودّعه قال في نفسه إنها تطالبي بالصبر ولو  
حتى الامتحان ولكن ألا يستوي أن أصبر شهراً أو  
عمرًا؟! إنها مسألة مبدأ لا وقت. وقد انكشف عالمه  
عن حقيقته البشعة القدرة فكيف يقبله دقيقة واحدة؟  
ما زالت نفود عمه في جيبه، يذهب ويحيى بها، وينعم  
بقوتها الفريدة. رغم ذلك كله ما زال متردداً ولما يتخذ  
قراره. ترى لو رفع صوت العقل في كل حين أكان  
يستشهد شهيداً؟! العقل يحكم في الفلك لا في  
السلوك. إما براءة وإما قذارة. هل يظنّ ابن لص  
وعاهرة؟ ولو كانت المعركة صراعاً بين لصوص لهان  
الأمر بعض الشيء ولكنها جناية وحشية ضحاياها  
أتعس تعساء البشرية!

وتفكر أيضاً وهو ماضٍ على الكورنيش أنه لم يبلغ  
ما بلغ من التربية والتهذيب والمستوى إلا بفضل النهب  
والدعارة فتضاعف امتعاضه وأساءة. وهو على تلك  
الحال وجد نفسه يتجه نحو قصر الحكمة. ليس لديه  
قرار نهائي ولكنّه سيلقى الموقف بتلقائية ولنظر كيف  
تتطور الأحداث. مرّ بعمه وهو يشارب رجلاً غريباً في  
الدائرة الخضراء، رحّب به الرجل وقال بنبرة المنتصر:

## الشيطان يعظ ١٤٥

على تمثيل دور جديد، دور رجل الأعمال المحسن الكريم، ما مدى إخلاصه؟ لا أدري عن ذلك شيئاً ولكن حسبنا أنه صار رجلاً آخر وأنه أنشأك نشأة نبيلة، وبوسعي أن أوكد لك أنه يحبك، أنه ما أحب محروس قط، كان دائماً يخافه ويتوهم أنه ابن رجل آخر، ويش تماماً من تغيير سلوكه، فلم يبق له من عزاء سواك، ولا أستطيع أن أحكم على ماضيه بغير العين التي أحكم بها على نفسي، كان ضائعاً مثلي ومثل أبيك، نحن لا يديننا إلا من لم يذق مرارة العيش مثلنا، حتى شريفة الدهل كانت مثلنا، أقول ذلك رغم الكره المتبادل بيننا . . .

لم يرفع عينيه من الأرض ولم ينبس فواصلت بحرارة جديدة:

- إني أتصور الضربة التي زلزلتك، ألمها في وجهك، في رحلتك المخيفة، ولكن لا أحد يستحق أن يكون هدفاً لمقتك وغضبك، إذا علمتكم المساة أن تحزن وتثور فتعلم منها أيضاً أن تفهم . . .

فتمتم بعد صمت طويل:

- ما لا عزاء فيه هو أنكم سرقتم أتعس التعساء . . .

- ما الحيلة؟ ولكن لا تنس أننا كنا أتعس منهم . . .

فتفكر ملياً ثم قال:

- قد لا يكون لي حق المحاكمة ولكن واجبي أن أرفض .

- ترفض ماذا؟

- هذه الحياة التي لا يمكن الدفاع عن قدراتها!

فقالت بجزع:

- يا له من قرار خاطئ، لماذا؟ ما مضى مضى وانقضى، عمك اليوم يرغب في أن يورثك ثروته، وقد شاور محاميه في الأمر، ثم إنك بريء ولا شأن لك بأخطاء الآخرين!

فأشار إلى صدره وقال:

- الرفض من هنا ولا حيلة لي.

فتوسلت إليه قائلة:

- هلأ أجلت التفكير في ذلك حتى تنتهي من

شدة. تجل له وجهها جامداً ومتحدياً ثم أقبلت نحو مجلسها بتصميم جديد. نظرت إليه مضيقاً عينيه وقالت برزانة أضفت عليها ثقة:

- بحبي، ماذا أقول؟ ولكن عليك أن تسمعي، وقبل ذلك أسألك ماذا عرفت؟

فأجاب وهو ينفخ:

- كل شيء . . .

- الأمر لله، عليك أن تسمعي، لقد وجدت نفسي ذات يوم وحيدة منبوذة مكروهة مع وليد رضيع . . .

ثم وهي تزدد ريقها:

- كان الطفل أمومي الأولى والأخيرة فغير نظرتي

للأشياء . . .

وتريت حتى تعالج أنفاسها وواصلت:

- ثم ظهر في حياتي رجل يدعى جندي

الأعور . . .

تفرست في وجهه الواجم ثم قالت:

- لم يكن جندي الأعور خيراً من عويس الدغل

ولا عويس الدغل خيراً من جندي الأعور، ولكن كان

قدري أن أجد نفسي دائماً بين يدي أحد من أمثالها،

ولم يكن يشغلني وقتذاك إلا أن أجد مأوى لي ولأبني

ف فعلت ما فعلت، أي ذنابة في هجر لص من أجل

لص آخر، وأي حظ كنت تتوقعه لو انتظرت أباك حتى

يفرج عنه؟ وهل تدري أي وحش كان؟!

تهتدت بصوت مسموع، وبدت كمن نجا من

الغرق بمعجزة ولكنّه لم يبلغ الشاطئ بعد، وقالت

بصوت استمد من الشجاعة بعض القوة:

- وما كنته قبل أبيك كان محنة لا خطيئة، لقد

وجدت نفسي وحيدة ضائعة منذ صباي، وما احترفت

شيئاً به إغراء لأي آدمي. ولكن أين لمثلك ممن تربوا

في أحضان النعيم أن يدركوا ذلك؟!

ها هي تسخر منه أيضاً، وها هو يخس أكثر وأكثر

وقد تداعت أركان مملكته. وقد زادت الأمور تعقيداً

واكتنف اتخذ القرار صعوبات جديدة. أما الأم

فمضت تقول:

- ولأول مرة يغير جندي الأعور مسلكه في الحياة

فيقرر استثمار ماله عادلاً عن الصعلكة والبرجة، مصمماً



- عليك اللعنة، لقد اعتدت أن أوجه عشر ضربات قبل أن أتلقى الضربة الغادرة، إني لا أخشاك، لا أخشى أباك، ولا أخشى أمك، لقد أرادت هي أيضًا أن تدافع عنك، وتمادت في الغباء فهتدنتي، اسمع، إني أطردك، إني أطردها أيضًا، فلا تُرني وجهك بعد اليوم. . .  
وغادر الحجرة وهو يرتعش من شدة الغضب.

١٥

هكذا وجد يحيى نفسه وأمه وحيدين في حجرة بينسيون الدلتا هو لا يملك مليمًا وهي لا تملك إلا مؤخر صداتها. ورغم الانفعالات التي تعصف بهما قالت له:

- أيّ نهاية! أنا صاحبة كل شيء، ولكن لنس هومنا، عليك أن تنجح، هي فرصتك الأخيرة، بل هي فرصتنا الأخيرة!

هو أيضًا مقتنع بذلك ومصمم عليه وليس دونها إحساسًا بالخطر، غير أنه قال بحق:

- لن يفلت المجرمون بلا عقاب.  
فقالت بحرارة:

- لا تفكر إلا في الامتحان. . .  
- ولكن. . . كيف عرف الرجل؟

- إني أتصور ما حدث كما لو كنت شاهدة له، لقد أفضيت أنت بسرّ الرحلة إلى وداد، ما تعرفه وداد تعرفه أمها، أمها وجدت فيما سمعت ما يستحق أن تبلغه محروس، محروس وجد فيه ما يجب أن يوصله - بطريقة ما - إلى جندي الأعور ليقضي عليك أو علينا معًا وبذلك يمنع من التصرف في الثروة، جندي الغني اعتقد أنك تبييت له أمرًا فساء ظنّه بك وببي وربما بأبيك أيضًا، قرر أن يتخلص منّا قبل أن نتخلص منه، لا أحد يدري ماذا ستكون الخطوة التالية، ولكن كل ذلك لا يهم، ما يهمنا شيء واحد هو نجاحك.

إنه مقتنع بذلك ومصمم عليه وليس دونها إحساسًا بالخطر، حتى الحق عليه أن يجسه إلى حين.  
وعندما التقى بوداد في ركنها بجليم دمعت عيناها وقالت بتأثر شديد:

١٤

قرر يحيى أن يتأهب للامتحان فخاض معركة ليجمع فكره المشتت المبعثر. أراح قراره أمه ووداد وبعث في نفسها آمالًا جديدة. لم يكن راضيًا عن نفسه، كان أبعد ما يكون عن ذلك، عدّ نفسه متردّيًا في السقوط مثل آلة ودون أن يملك من الأعذار ما يملكون. وواساه في عذابه أنه مصمم على الرفض عقب انتهاء المرحلة التعليمية، وأن هذا الرفض لا يعني نبذ الحياة في القصر فحسب ولكنه يعني أيضًا رفض ثروة جندي بك المهائلة. غير أن أحداثًا غير متوقعة انفجرت تحت قدميه، فما يدري ذات يوم إلا وجندي بك الأعور يقتحم عليه غرفة مكتبه. جاء مكفهر الوجه عدوانيّ النظرات ثم وقف في وسط الغرفة وخاطبه بلهجة لم يعدها من قبل قائلاً:

- لديّ سؤال عليك أن تجيبني عنه.  
واشتدت نظرتة صلابة وهو يسأل:

- هل زرت حقا حارة التكية بالقاهرة؟  
ذهل يحيى. تساءل في نفسه عمّن أبلغه. ليست أمه على وجه اليقين. غير أنه لم يفكر لحظة في الإنكار فقال بتحدّ:

- نعم. . .

فصرخ الرجل:

- إذن فكّل ما بلغني صحيح، والآن دعني أسالك عمّا يُيقبك في بيتي؟

اصفرّ وجهه. هل أجل الرفض ليُطرد؟ غلى دمه.  
قال متحدّيًا:

- إنه بيتي قبل أن يكون بيتك!  
فهقه جندي بوحشية وصاح:

## الشيطان يعظ ١٤٧

ولو كلفه ذلك حياته.

## ١٧

في الإسكندرية وجد أن الحوادث سبقته مرة أخرى. في اليوم نفسه حدث ما حدث، وكانت أمه هي الراوية. فقد عرف أن جندي الأعور شارح في الزواج من فتاة دون العشرين وأنه يماطل في النزول عن إحدى عماراته لابنه محروس. ترئص له محروس عند مغادرته مكتبه التجاري وقتله. هكذا ضاع الرجلان. استمع يحيى إلى الحكاية بذهول ولكنه لم يشعر بأسف. على العكس فقد زال توتر أعصابه لأول مرة منذ زمن طويل. ولكن سرعان ما ألجأه تفكيره نحو وداد فتساءل:

- ما مصير الأسرة التي خلفها محروس؟

فأجابت أمه:

- لا يختلف عن مصيرنا.

فقال بقلق:

- ولكن وداد لن تنتهي من دراستها قبل عامين.

فقالت الأم:

- لدى أمها من الحلي ما يسترهما هذه المدّة.

## ١٨

وقف عمّ عمارة الجعفري البوّاب يلقي نظرة الوداع على القصر الأبيض. فاقت الأحداث تصوّره وخياله ولكنّ طول العمر يهدد الأحزان. وراح الرجل يقول:

- لم يعد له صاحب هذا القصر الهائل، ستجفّ الأشجار وتذوي الأزهار، وسيجيء الربيع القادم فيجد الأبواب والنوافذ مغلقة والحديقة خرابة، وصاحب القصر ووريثه بين يديّ علام الغيوب، من نحن حتّى نفهم ما يدور حولنا؟ ولكننا نقول مع القائلين «ولا يبقى إلا وجه ربك ذي الجلال».

- إنّي آسفة يا يحيى، إنّ الحوادث جعلت من أبي رجلاً شريراً!

فرفع منكبيه استهانة ولم يجذّ ما يقوله فقالت:

- أيّ ظلم وقع على والدتك!

أراد أن يقول إنّه جزاء عادل وإنّه يجب أن يشمل الجميع. وتجنّب هذه المرّة أن يبوح لها بأسرار غضبه ولكنه شعر بأنّ علاقتها صامدة أمام العواصف.

## ١٦

وجد أنّه لن يستطيع التفرّغ لدراسته إن لم ينقّس عن غضبه بضربة عاجلة. فكّر ملياً ثمّ قرّر السفر إلى أبيه ليدلّه على مكان جندي الأعور وحقيقته. إنّها مغامرة قد يستطيع أن يتكهن بعواقبها ولكنّ يجتمل أن يأكل الشرّ بعضه البعض. واعترف فيما بينه وبين نفسه بأنّه قرار خفيف لا يبرّره إلاّ الغضب والرغبة الجنونيّة في ردّ الضربة بمثها. وسافر دون أن يُخطر أمه بنواياه. واقتحم الحارة منقّباً عن عويس الدغل. ولما أعياه التنقيب قصد إلى صديقه العجوز عمّ سليمان صاحب المقهى. وقال له العجوز:

- جئت متأخراً، قبض على عويس الدغل أوّل

أمس!

فذهل يحيى وتساءل:

- هل رجع إلى السرقة؟

- بتهمة توزيع المخدرات، ولكنّ الحارة تردّد حكاية غريبة!

وأعاد الرجل على مسمعه الحكاية وهي أنّ جندي الأعور علم أنّ سرّه بلغ عويس وإنّه يدبّر له أمراً فاستأجر شخصاً للإيقاع به وتمّ له ما أراد! وختم العجوز حكايته قائلاً:

- من السجن إلى القبر هذه المرّة!

هكذا رجع خائب الرجاء ولكنّ غضبه جاوز النهاية. لم يعد يفكر إلاّ في الانتقام من جندي الأعور

## الرَّبِيعُ الْقَادِمُ

١

ولم تجد ما تستعين به في ذلك سوى قفاز من البلاستيك. ولم يبق من اليوم ما تهبه للقراءة إلا وقت قصير تتصفّح فيه الجريدة أو كتاباً من المكتبة التي كوّنتها - هي وزوجها - منذ أيام اليسر. أجل كانت الحياة يسيرة واعدة، وكان ثمة مرتبان ينفقان عليها، ثم أخذ الغلاء يدبّ ويزحف ويتمطى وينجلي عن وحش لا يرحم، وسرعان ما عجز مرتب الزوج ومعايشها عن ترويضه، فاضطرّ محمّد فتحي إلى إعطاء دروس خصوصية رغم مخالفة ذلك للتقاليد، وودت هي أن تفعل مثله لولا ضيق وقتها بعد ذهاب عنايات. وتوجّست خيفة من المستقبل وتساءلت متى يكبح الغلاء وهل يفلت من يدها الزمام؟ وهل يمكن أن تطالب زغلول ورمضان ومحمود بمزيد من التقشّف؟ وليس من النادر أن يعرب محمّد فتحي عن عذره فيقول:

- إني رجل بيت مثاليّ، من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت، كلّ ما يجيئني من نقود اسلمه لك عدا ثمن السجائر والمواصلات...

ويردف ذلك عادة بتحيّة يزجها إليها فيقول:

- والحمد لله أنك يا جمالات امرأة حكيمة مدبّرة، البلد في حاجة إلى وزير ماليّة في مثل حزمك ودقّتك، لا مليم يتبدّد هباء في بيتنا.

وإنّها لكذلك حقّاً. وكثيراً ما تُرمى بالبخل ولكنّها ترفض الصفة قائلة إنّه الحرص والحكمة في مواجهة زمان عبوس. ألا يكفي أنّها تبدو أكبر من سنّها (خمسين عامّاً)، بل أكبر من زوجها الذي يكبرها في

إنّه يوم عاديّ ولكنّه سرعان ما انقلب فاجتاحته عاصفة هوجاء. وتذكر ربّة البيت أنّ تاريخه يخلو من المهرّات العنيفة. مسرّاته عادية ومتاعبه عادية، وغوصه في عسر المعيشة مضى وثيلاً، خطوة بعد خطوة، بلا طفرات، وهون منه بعض الشيء أنّ الجميع يشاركونه في العناء ويتبادلون الشكوى. إلى ذلك فهي ربّة أسرة تحظى بمزايا لا يستهان بها، فالأب ناظر مدرسة ثانوية، وهي كانت مدرسة أولى بالثانوية حتّى وقت قريب. واستمرارها في العمل كان مسلماً به لولا إصابتها بارتفاع في ضغط الدم، واقتران بخروج خادمتها عنايات فضل الله من خدمتها منذ أشهر للزواج من ابن عمّها. وعنايات لبثت في بيتها عشرة أعوام مذ بلغت السابعة عقب وفاة والدها وحتّى استردّها أمّها، وهكذا حملت جمالات - ربّة البيت - الأعباء وحدها وقد تعدّرت الحصول على خادم إمّا لندرته أو لارتفاع أجره ارتفاعاً غير محتمل. لم يخلُ بيتها فيما مضى من خادم، أمّا اليوم فعليها أن تنهض وحدها وأن تلاطف أيضاً ما استطاعت ضغط الدم. تستيقظ مبكّرة على رنين المنبّه لتعدّ الإفطار لزوجها محمّد فتحي ولأبنائها الثلاثة، زغلول (طالب طبّ) ورمضان (ثانوية عامّة) ومحمود (الثانية الثانوية). وعندما يغادرون البيت تعكف على تنظيفه وترتيبه ثمّ تذهب للتسويق من سوق النيل غير بعيد من شارع العاصبي حيث تقوم عمارتهم، ثمّ ترجع لتعدّ الغداء. ويضايقها بصفة خاصّة تنظيف الأواني والأوعية وغسل الحثام والمطبخ،

## الشیطان يعظ ١٤٩

لا يبدو من السواد الذي يكتنفها إلا وجه مذبوغ وعينان ذابلتان. أدخلتها مرحبة، متسائلة في سرها ترى هل فشل مشروع الزواج، وهل جاءت تسعى لإرجاع البنت إلى خدمتها؟

- أهلاً يا أمّ عنايات، ما أخبار العروس؟  
تربعت المرأة فوق الكليم القديم في المدخل -  
الأثاث كلّه قديم - وتمتت:

- أخبار لا تسرّ يا هانم.  
- لم كفى الله الشر؟  
تجهّم وجه المرأة وأغمضت جفنيها منذرة بالبكاء  
فسألتهام جملات:

- ماذا دهاك؟  
- قام ابن عمّها بالواجب، أصبح الفرح قريباً،  
لكن حسدونا يا هانم.  
تساءلت بقلق:

- ماذا حصل للبنت؟  
- اختفت، هربت، دفنت رأسي في الطين، هذه  
هي الحكاية...

- هربت؟  
- نعم، لا تفسير لذلك في قريننا، إلا أنّها هربت  
بعارها...

فقال جملات بقلق:  
- عنايات!  
- ابن عمّها زين الرجال، لا تفسير آخر، وأكثر  
من شخص يطالب بغسل العارا!

اضطرب رأس جملات بالخواطر المتلاطمة السريعة  
وتمتت:  
- يا له من خيرا!

والمرأة دافنة عينها طيلة الوقت في الكليم. تمطى  
قلق جملات. ماذا جاء بالمرأة؟ قالت:

- لعلك توهمت أنك ستجدني هنا؟  
- إنّها لم تعرف مكاناً آخر.  
- ولكن بيتنا معروف لديك ولا يصلح للهرب.  
- رأسي حائر، لا أدري كيف أتصرف...

- إنّني مقدّرة لذلك، ومندهشة، فعنايات مستقيمة  
لا شك في ذلك...

الواقع بخمسة أعوام. لقد ازداد وزنها، فقدت رشاقة  
عُرفت بها أيام الشباب، وخدّدت التجاعيد جانبي  
فيها، وحالت نضرة بشرتها، وإنّما لتغبط الرجل على  
صحتّه وتتهمه - في نفسها - بمداهنة الهموم ومدافعتها  
ما استطاع عن بباله. من ذلك أنّها تتابع أبناءها  
بالملاحظات والنقد أمّا هو فيقول:

- أبناؤنا يسرون الخاطر يا جمالات، لنحمد الله  
العليّ القدير، حياتهم مستقيمة، تفوّقهم في الدراسة  
ملحوظ، متجنّبون للانحرافات التي نسمع عنها هذه  
الأيام...

ثلاثتهم من أبناء الثورة، ولكّتهم ثمرة تربيتها قبل  
ذلك، ثمرة تربية أخلاقية حازمة، ودور الأب في ذلك  
لا يقلّ عن دورها. لم تستحوذ عليهم عاطفة سياسية  
بمثل ما استحوذت عليهم رغبتهم الصادقة في التفوق.

وهم يعتبرون أنفسهم متمين إلى الثورة على مدى  
أطوارها، ولكّتهم لو سئلوا عمّا يعنيه ذلك فلعلهم لا  
يجدون جواباً خيراً من أن يقولوا إنّهم ليسوا من اليسار  
أو التيار الديني المتطرّف. ولم يفّت جمالات أن تقيّم  
هذا الموقف. إنّها - كمرتبّة أصيلة - تهتمّ بتقييم المبادئ  
كما تهتمّ بميزانية البيت. وهي تناقش زوجها في كلّ  
شيء. والرجل يقول:

- موقفهم باهت، لعلنا لا نختلف عنهم كثيراً يا  
جمالات، ولكن تذكري المحاكمات كي تحمدي الله على  
ذلك...

ويقول أيضاً:  
- المهتمّون بالسياسة اليوم قلّة، أمّا الأكثرية  
فمنهمكة في طلب اللقمة... سوف يكونون أطباء  
ممتازين ومواطنين صالحين، وهذا خير من أيّ  
سياسة...

وتغري جملات نفسها فتقول إنّ السفينة يجب أن  
تبلغ مرافق السلام قبل أن تعصف بها الرياح.

وكان يوم من أيام فبراير ضاعفت قوّة الريح فيه من  
البرد، وغشيت العمارات المتلاصقة في الخارج غلالة  
هابطة من الغيم.

طنت الجملة في باطنها مثل شعار بال. عناية  
جميلة. نضجت في بيتها قبل الأوان. فطنت في وقتها  
إلى تحذيرات جلالها الناضج. آمنت أنه من الأفضل  
إرجاعها إلى أمها. لم تنفذ فكرتها لشدة حاجتها إليها.  
وصادف ذلك ورود طلائع المرض. وأيدت سلبيتها  
بأن أم البنت أرملة وحيدة وفي حاجة إلى التقود. وأنها  
لن تستطيع على أي حال الاحتفاظ بها في بيتها. بنت  
رائعة فحتى الطهي أحسنه. في القرية يركزون  
المسئولة في الضحية. إنها هي أيضًا ضحية.

\*\*\*

اجتمعت الأسرة حول السفرة في منتصف الثالثة.  
لا يشغل بالهم إلا القضاء على الجوع عقب نهار برد  
وعمل مرهق. وجوههم مستبشرة. يبدو أن وجهها  
يقول شيئاً ما فيها هو محمد فتحي زوجها يتساءل:

- مالك؟
- قالت وهي تبسم:
- يوم بارد كثيب.
- فقال محمود ضاحكاً:
- ولكن طعامك لذيذ.

ها هم حولها. زغلول رصين، لدرجة البرودة حتى  
ليوصف بأنه إنجليزي. ذقته مدبب وعيناه جاحظتان  
قليلاً ورأسه كبير بشكل ملحوظ. عاقل جداً، شغال  
جداً، محترم جداً، مترفع عن المهاترات، ربما أخطأ  
أحد أخويه في حقه ولكنه لا يخطئ، حتى المزاح  
البريء لا يميل إليه. رمضان كبير القسامت واضحها،  
عملاق في حجمه، مارس الملاكمة والمصارعة ولكنه  
والحق يقال مهذب، غاوي مناقشة ولكن المناقشة تهمة  
أكثر من الرأي نفسه، مغرم بالقراءة، يود أن يتفوق  
على زغلول نفسه. محمود أجمل الثلاثة وجهها، عمشوق  
القوام، محب للأناقة والغناء، طيب القلب وحيي  
وذكوي وصديق لزغلول. الأول طالب طب والأخران  
يحملان باللحاق به وتبعه قدرتها بذلك. من منهم؟  
سلوكهم آية في الاستقامة، لا تتخيلهم في صورة  
أخرى حتى لو كانت ظروفهم المادية أحسن. ثلاثتهم  
يصلون ويصومون بلا إثارة من تعصب أو هوس.  
متوجون بالتهذيب والاعتدال والنشاط. لا تتصور

- تربت عندك، عند أحسن الناس.  
أثار القول أعصابها ولكنها قالت بهدوء:  
- كانت دائماً موضع رعابتي، وعرفت في الخارج  
بالاستقامة...  
فترددت الأم ثم قالت:  
- ربما كان أحد في الخارج...  
ولكنها قاطعتها:  
- لا أظن ولا أتصور.  
- أمري لله.

- هل نُجري تحقيقاً في السوق؟ الحق أنها لم تتأخر  
مرة دقيقة أكثر من المتوقع.

- الأمر لله وهو المطلع...  
بلغ الضيق بجماليات حد الغضب. ترامي إلى  
مشمها رائحة طعام يحترق. هبت مسرعة إلى المطبخ  
فوجدت البامية قد جفت ماؤها وشاطت. نسيت همومها  
وراحت تعالج الموقف بسخط إضافي. وكما رجعت إلى  
المدخل - وإلى الهموم - وجدت المرأة واقفة مرتبكة،  
فقال لها:  
- ابقني للغداء.

وقررت أيضاً - بلا أدنى ارتياح - أن تهبها أجرة  
الرجوع إلى بيتها. وطيلة الوقت لم يخل رأسها من  
الفكر.

## ٣

ما هذا الذي حدث؟ متى وكيف ومن؟ أم  
عنايات امرأة حائرة معذبة مكسورة الجناح ولكنها تشير  
بأصبع الاتهام. ما حدث قد حدث وعنايات أمانة في  
عنقها. جاءت وهي بنت سبع. ثمة مسئولية ولا  
شك. لا توجد قضية ولا توجد محكمة ولكن يوجد  
ضمير. وهي تستطيع أن تعصف بأي اتهام يوجه إليها  
ولكن كيف السبيل إلى إسكات بلابل العذاب الخفي؟  
لا تفسير للهروب إلا شيء واحد. القرية صادقة في  
ظنونها. الجريمة وقعت والبنت في خدمتها. تابعت في  
مخيلتها صور زغلول ورمضان ومحمود. تنهدت  
مغمغمة:

- لكنهم أبنائي!

## الشیطان یعظ ١٥١

- وحدها، قالت:
- هذه المآسي محتملة الحدوث كما تعلم.
  - فقال بصوت ضعيف:
  - الأولاد عقلاء.
  - وهم أيضاً مراقبون.
  - إتهم نماذج طيبة جداً بليلهم.
  - ولو.
  - فتساءل بقلق:
  - ماذا عندك؟
  - لا شيء على وجه اليقين.
  - أحياناً الملح وقوفهم في النوافذ ولكن ماذا نتوقع؟
  - طبعاً توجد بنات الجيران، إني أقنع عادة بإرشادات عامة أضمنتها حديثي وكأنتها غير مقصودة لذاتها.
  - عين الصواب، هل علموا بالمأساة؟
  - كلاً بعد.
  - هل يجدي النبس والتحقيق؟
  - لا أدري.
  - أطفأ الرجل سيجارته وتساءل بضيق:
  - ألا يمكن أن ننسى الموضوع؟
  - رغم أنها تمتت ذلك إلا أنها قالت:
  - المسكينة أهدرت حياتها.
  - ليس في وسعنا أن نفعل شيئاً، هل في وسعك ذلك؟
  - ليته كان ممكناً، المساعدة غير ممكنة ولكن الراحة أيضاً مستحيلة...
  - افترضني أنك عرفت الجاني فهل يهيننا ذلك أملاً جديداً؟
  - من العدل أن يعرف ما جتته يده... .
  - صمت متفكراً ثم قال:
  - يا له من كابوس!
  - هو ذلك تماماً.
  - فنفخ قائلًا:
  - لا داعي لأن نسبق الحوادث...
  - فقال بإصرار:
  - بل يجب أن يعرف الأمر، أن يعرف الخبر على

بحال أن الجاني أحدهم ولكن وساوسها لا تنام. الأب لا يدري بما يمزقها. إنه يتناول طعامه في صمت وتركيز، عملاق أيضاً، شاربه الغليظ يتحرك فوق شفته تحية لأجيال خلت. عمًا قليل يشاركها همومها. إنه مثلها ذو ضمير، ومثلها أسهم في تربية الثلاثة. ما جدوى ذلك كله؟ متى يجود القدر بالبراءة والراحة!؟

\*\*\*

لم تسنح الفرصة لإثارة الموضوع إلا عندما جمعتهما حجرة النوم للقبولة. تبين لها أنه كان يراقبها أكثر مما قدّرت فسرعان ما قال بجديّة:

- جمالات، لست كعادتك.
- فقالت بنبرة اعتراف:
- ملاحظتك في محلّها تمامًا.
- رنا إليها متسائلًا في اهتمام وهو يشعل كليوباترة
- فقال:

- زارتي اليوم أمّ عنايات وأخبرتني أنّ عنايات هربت قبل الزفاف!

ردّد قولها ببطء وهو يغوص فيه بحذر وإشفاق.

تبادلًا نظرة طويلة مثقلة بالشكّ ولكنّه لم ينبس فقامت جمالات:

- أنت تدري كيف يفسّرون ذلك في القرية، ولعلّه التفسير الوحيد المقبول، وهو يعني أنّها ستظلّ عرضة للقتل في أيّ وقت. وأنّها في جميع الأحوال قد ضاعت...

فتساءل كالمتهرب:

- لعلّها أملت أن تجدها عندنا؟
- قالت ذلك...
- تفكير غير سليم.
- إنّها تتصرّف بوحى من اليأس ولكن يوجد اعتبار

آخر!

- اعتبار آخر؟
- محمّد، يضايقني تغايبك في المآزق، نمة اتهام موجّه لبيتنا...
- فتمتم بقلق:
- ساء ظنّها.
- واضح من نبرته أنّ الهّم قد ركبه، أنّها لم تعد

الأقل...  
 - إنك تنبشون عن المتاعب.  
 - لقد وجدتُ رغماً عن إرادتي...  
 فقال مقظباً:  
 - اعتمدي في ذلك على نفسك!  
 - أنت تحاول الهرب.  
 - هربت أم لم أهرب ستدركني الحوادث حيث أكون.  
 فقال بوضوح:  
 - فلنؤجل الحديث إلى عطلة الجمعة.

٤

وجاء يوم الجمعة. تبدى محمد قلقاً كبيراً أما جمالات فكانت أقدر على حبس انفعالاتها. وعقب الإفطار تهباً الإخوة إلى حفلة الساعة العاشرة بالسينما. وبصوت مرتفع قالت جمالات مخاطبة زوجها:  
 - زارتني أم عنايات التي تركتنا لتزوّج من ابن عمها، وأخبرتني أنّ البنت هربت قبل الزفاف.  
 انتبه زغلول ورمضان ومحمود باهتمام، اتجهت أبصارهم نحو أبيهم وهو يتساءل متجنباً نظراتهم:  
 - هربت؟... ما معنى ذلك؟  
 فقالت جمالات:  
 - لا معنى لذلك في القرية إلا أنّها هربت لتخفي عارها!  
 وحلّ صمت ثقيل حتى قال زغلول:  
 - ربّما وجد وراء ذلك سبب آخر.  
 فسألته أمه:  
 - أيّ سبب؟  
 - لعلّ العريس لم يعجبها.  
 - هذا يحدث في السينما.  
 فقال رمضان:  
 - أو هربت مع آخر.  
 - لو صحّ ذلك لعرف في الحال، وعلى أيّ حال فستظلّ مهددة بالقتل.  
 فتساءل محمود:  
 - ما زالت تلك التقاليد مرعية؟

وستظلّ مرعية طويلاً.  
 فقال زغلول:  
 - يا له من سوء حظّ، كانت بنتاً طيبة...  
 فقالت جمالات:  
 - الطيب عرضة للخداع.  
 أدركت جمالات أنّهم يشعرون تماماً بالتهمة المعلقة فوق رؤوسهم. قال رمضان:  
 - نحن لا ندرى شيئاً عمّا يحدث في الخارج.  
 فقالت جمالات بقوة:  
 - ما يحدث في الخارج يتردّد صدهاء في الداخل! فتساءل محمود:  
 - ماذا تعنين؟  
 فهدأت نوعاً وهي تقول:  
 - أعني أنّ... أعتقد أنّ البنت بريئة...  
 - إذن فلماذا هربت؟  
 إنه هو الذي يحقّق! على ذلك تمنت من الأعماق براءتهم. وتمتت:  
 - الله أعلم!  
 وضاق صدر زغلول بالمناقشة فنهض وهو يقول:  
 - صدقت، إنّه أمر مؤسف ولكن ما الحيلة؟ وقد أن لنا أن نذهب...  
 وكما خلا لها المكان نظرت إلى زوجها قائلة في عتاب:  
 - لم تتفوّه بكلمة.  
 - إني حزين، هل أفادك ما فعلت؟  
 - هو الواجب.  
 - هل خرجت بانطباع ما؟  
 - يلوح لي أنّهم أبرياء.  
 - أرجو ذلك.  
 مضت ترفع أواني الطعام وهي تقول:  
 - عيينا أنّ لنا ضيائراً.  
 فقال بسخرية:  
 - أفنينا العمر في تربية الضيائراً.  
 فرجعت من المطبخ وهي تقول:  
 - يقال إنّ زماننا بلا ضمير.  
 - في كلّ عصر مضى قال عنه أهله ذلك.

الأقل...  
 - إنك تنبشون عن المتاعب.  
 - لقد وجدتُ رغماً عن إرادتي...  
 فقال مقظباً:  
 - اعتمدي في ذلك على نفسك!  
 - أنت تحاول الهرب.  
 - هربت أم لم أهرب ستدركني الحوادث حيث أكون.  
 فقال بوضوح:  
 - فلنؤجل الحديث إلى عطلة الجمعة.

٤

وجاء يوم الجمعة. تبدى محمد قلقاً كبيراً أما جمالات فكانت أقدر على حبس انفعالاتها. وعقب الإفطار تهباً الإخوة إلى حفلة الساعة العاشرة بالسينما. وبصوت مرتفع قالت جمالات مخاطبة زوجها:  
 - زارتني أم عنايات التي تركتنا لتزوّج من ابن عمها، وأخبرتني أنّ البنت هربت قبل الزفاف.  
 انتبه زغلول ورمضان ومحمود باهتمام، اتجهت أبصارهم نحو أبيهم وهو يتساءل متجنباً نظراتهم:  
 - هربت؟... ما معنى ذلك؟  
 فقالت جمالات:  
 - لا معنى لذلك في القرية إلا أنّها هربت لتخفي عارها!  
 وحلّ صمت ثقيل حتى قال زغلول:  
 - ربّما وجد وراء ذلك سبب آخر.  
 فسألته أمه:  
 - أيّ سبب؟  
 - لعلّ العريس لم يعجبها.  
 - هذا يحدث في السينما.  
 فقال رمضان:  
 - أو هربت مع آخر.  
 - لو صحّ ذلك لعرف في الحال، وعلى أيّ حال فستظلّ مهددة بالقتل.  
 فتساءل محمود:  
 - ما زالت تلك التقاليد مرعية؟

## الشیطان یعظ ١٥٣

سلسلة المتاعب القائمة. إنها تصارع كل يوم متاعب اللحوم والمواصلات والتليفون والمجاري فأوشكت أن تألف مأساة عنایات. غير أن أمّ عنایات رجعت ذات ضحا. ولم تكن وحدها فيها هي تسرق أمامها عنایات نفسها! يا لها من مفاجأة فجّرت الأزمة كأعنف ما يكون الانفجار. اجتاحتها انفعالات متضاربة. تجهم المستقبل - مثل الساء - بالسحب. ها هي عنایات أمامها كما تمنت ولكن أيّ إزعاج أثارته! رغم كل شيء رحت بها قائلة:

- الحمد لله!

قالت الأمّ:

- أولاد الحلال دلوني عليها، فررت بها لأنقذها من الموت، ولم أجد لها مأوى آمن من بيتك!  
حاولت أن تقرأ شيئاً وراء الوجه المدبوغ ولكنّه بدا جامداً لا يبين. إنها محاصرة. لا تستطيع أن ترفضها ولا تودّ أن تقبلها. قالت:

- سيهدون إليها هنا...

- آخر مكان يتصوّرون وجودها به، فضلاً عن ذلك فهم مجهلون، لا ترسلها إلى الخارج، قلبك كله رحمة يا ست...

نظرت إلى عنایات فأجهشت في البكاء. ذبل جمالها وأتسخ. وهي خجل تعيسة لا تستطيع أن ترفع عينيه. وسحبت جمالات الأمّ من يدها إلى المطبخ ثمّ قالت لها بحزم:

- أريد أن أعرف ما تعرفين.

فقالت الأمّ بحرارة:

- لا أعرف شيئاً.

- تمكرين بي؟

- لم يكن لديّ وقت، تسلّمتها وطرت بها قبل أن يتبّه إلينا أحد.

- ولكنك قررتها؟

- أبداً وحياتك.

فقالت بإصرار:

- لا أقبلها حتى أعرف.

فتساءلت الأمّ بانكسار:

- هل ترسلينها للموت؟

- أتعني أن الضمير خرافة؟

- كلاً، ولكنّه درجات، وأرفعه شأنًا الضمير الذي يردف القول بالعمل فهو نادر جدًّا في كل عصر، هي أنك عرفت أن ابناً من أبنائك هو الجاني فإذا كنت تفعلين؟

فتساءلت متحدّية:

- هل تتوّع أن أبلغ الأمر للشرطة؟

- دعينا من الأساطير.

- توجد سبل كثيرة للتكفير عن الأخطاء أو إصلاحها.

- إنها تتطلّب قدرًا كبيرًا من الشجاعة.

- أعلم ذلك...

- عظيم.

- لكنّ شعوري يحدّثني بأنهم أبرياء.

فتمتم بسخرية:

- إنك تنشدين الراحة...

فقالت بحدّة:

- كلاً...

فقال متنهّدًا:

- ثمّة أناس يولدون للضياح.

- لعلك تشير إلى دور المجتمع؟

فهزّ رأسه بالإيجاب فقالت:

- نحن نشد الراحة بأيّ سبيل.

فقال في ضجر:

- إنّي مغتمّ من أجلهم قبل كل شيء.

- وأنا مثلك ولكنني مغتمّة من أجل البنت

أيضًا...

- لست وحشًا كما تعلمين، أنت واثقة من

براءتهم؟

- أين متي ليت!

- هل مضي إلى الأبد على هذه الحال الجنونيّة؟!

فصمتت جمالات في غاية من التعاسة ثمّ تمتت:

- ليتنا نعر عليها لنفعل ما نستطيع من خير.



- فلعننها في سرّها وقالت :  
 - ستحملني من الهّم ما لا يطلق .  
 - ربّنا ستار وقلبك كلّه رحمة .  
 فقالت بوضوح :  
 - إذا أزعجنا أحد من القرية فلن أسمح بأن أجعل  
 من بيتي مسرحًا لمعارك .  
 فقالت الأمّ بيقين :  
 - لن يكون ذلك .  
 وسرعان ما غادرت الأمّ البيت وكأَنَّها تفرّ .

## ٦

- جلست جمالات في المدخل وعنايات قاعدة على  
 الأرض بين يديها . قالت لها :  
 - لا شكّ تذكرين رعائتي لك لذلك لم أصدّق .  
 فأحنت رأسها ولم تنبس فقالت :  
 - طبعا هربت لسبب، ما هو؟  
 ثابتت على صمتها فقالت جمالات :  
 - ليكن الأمر كما ظنّوا، صارحيني من هو؟  
 غاصت في الصمت أكثر .  
 - يجب أن أعرف، هذا ضروريّ جدًّا لإنقاذك .  
 راحت تنسج فقالت جمالات :  
 - لا... تكلمي... لا بدّ أن أعرف .  
 بإزاء إصرارها همست عنايات :  
 - لا أحد .  
 - إذن لماذا هربت؟  
 - لا أريد أن أتزوَّج .  
 فقالت بريية :  
 - لكنّه زوج مناسب .  
 - لا أريده .  
 - تخلفين على ذلك؟  
 هزّت رأسها بالإيجاب :  
 - توجد أكثر من وسيلة لمعرفة الحقيقة .  
 فلم تنبس فقالت بحدّة :  
 - كذبك واضح، أريد الحقيقة يا عنايات...  
 فرجعت تهمس :

## ٧

- رجع الرجال إلى البيت فتناولوا غداءهم . الشقّة  
 باردة مثل الخارج أو أكثر ولكنّ إحكام إغلاق نوافذها  
 حماها من عواصف أمشير فلم يقتحم الداخل إلا  
 زفيف رياحه . هذا البيت لا يجب الشتاء وخاصّة  
 أمشير . توارت في أثناء ذلك عنايات في المطبخ فلم  
 ينتبه لوجودها أحد . وطيلة الوقت جعلت جمالات

فرجعت تهمس :

## الشیطان يعظ ١٥٥

- كان من الخير ألا نقبلها.
- لم يكن بوسعي أن أطردها إلى الموت.
- قد يسعى إليها الموت هنا. . .
- إذا تزوجت انتهى كل شيء بسلام.
- وقلّبت عينيها في الوجوه ثم قالت:
- لقد تصرّفت في نطاق ما تؤمن به من مبادئ فلا تلمني.

## ٨

عاشت جمالات في قوقعة الطمانينة قانعة بمصارعة المعيشة. رغم كل شيء تابعت عنايات بعين يقظة. لبث بي أعماق قلبها شك مثل دودة خفية. كلّمها حاولت استدراجها سمعت عبارة عنيدة «لا أحد». اضطرت مرّة إلى أن تسألها:

- لعلّه صبيّ الكوّاء؟
- فهزّت البنت رأسها نفيًا.
- هل ترفضين الزواج إلى الأبد؟
- فلم تخر جوابًا ومضت في عملها. وكانت عنايات تنام في الطريقة المؤذية إلى المطبخ فوق شلّتين متلاصقتين تحت بطانية خشنة. ومرّة في جوف الليل وجمالات راجعة من الحّمّام تلقت من إحساسها رسالة خفية بأنّ الطريقة تموج بحياة حذرة مكتومة. توقفت وأطفأت النور وذابت في الظلام بقلب خافت. أشفقت من الإقدام وعجزت عن الذهاب. امتلأ رأسها بأفكار مثل الظلام. هل يمكن أن يتسلّل أحد من الخارج وهم نيام؟ أيّ شيطانة! وأيّ تعاسة تقتمحها من جديد! وقبل أن تتخذ قرارًا رأت في الظلمة التي ألفتها عيناها شبحًا يتسلّل من مدخل الطريقة ماضيًا نحو حجرة الأولاد. تلاشت أحلامها تحت صاعقة الحقيقة. صاعقة عمقت أيّ أمل. جسّدت الاتهام وقذفت به في وجهها. تركته يذهب وهي مشلولة تمامًا. لم يهن عليها تفجير الفضيحة ولا إرعابه ولا حتى مواجهته. ثمّة طرق أخرى توصل للحقيقة. وسوف توصل الحقيقة إلى الجنون. وبلا تردّد أنّجّمت نحو الطريقة. أسدلت ستارة مدخلها وأضاءت المصباح. فتحت عنايات عينيها فزعة ولم تكن نامت بعد.

تتأهب لإلقاء الخبر. ردّدت في أعماقها بإصرار «لا أحد». حلّ سعيد لم يجر لها في بال. لمّ لا؟ البنت بريئة ولأمر ما كرهت الزواج فهربت. إنّه لا يصدّق ولكنّه غير مستحيل. لعلّها تحبّ شخصًا آخر. إن صحّ تخمينها فهي تحبّ صبيّ الكوّاء فهو شابّ وسيم ويحظر عادة في البلوفر والبنطلون. وبعد الفراغ من الطعام مضت إلى حجرة الجلوس وهي تشير إليهم أن يتبعوها. جلسوا على الكنب العتيق. توقّعوا أمرًا وقال محمّد فتحي الأب:

- لو تمطر السماء يصفو الجوّ وتهدأ العاصفة. . .
- نظرت صوب التلفزيون والراديو الصامتين فوق حاملها الخشبيّ وقالت ببساطة:
- عنايات هنا. . .

شخصت الأبصار. شخصت إليها باهتمام واضح. باتت عنايات بؤرة الإثارة وهدفها. ولم ينبس أحدهم بكلمة. انتظروا المزيد بوجوه مفصحة عن الاهتمام وحده. قصّت عليهم قصّة رجوعها وخطة أمّها ثمّ قالت بارتياح:

- حققت معها فأسفر التحقيق عن لا شيء، زوبعة في فنجان كما يقولون. . .
- تساءل محمّد فتحي:
- ماذا تعنين؟
- لا جناية ولا جان. . .
- تمطّى الصمت حتّى شمل الكون حتّى تساءل الأب:

- لمّ كان المهرب إذن؟
- فأجابت بسخرية:
- العريس لا يعجبها!
- هل يصدّقونها هناك؟
- ما زالت حياتها معرّضة للخطر، ولعلّها معلقة بشخص ما، لعلّه صبيّ الكوّاء، سأعرف كلّ شيء في حينه. . .

- تمتم الأب:
- عادت المشاكل إلى بيتنا!
- قد تتزوّجه وينتهي الأمر.
- فقال الأب بامتعاض:

## ١٥٦ الشيطان يعظ

نهضت مرتعدة ووقفت مستسلمة للأقدار. حدجتها  
جماليات بنظرة صارمة وسألتها:

- مَنْ؟  
ولما ترددت لطمتها على وجهها قائلة بانفعال شديد:  
- انطقي...  
فاندفعت تهمس في فزع:  
- زغلول!  
يا للدهاية!... يأبى الداء إلا أن يصيب مقتلاً.  
اضطربت أنفاسها.  
- زغلول!...  
لاذت بالصمت منهاراً تماماً:  
- هو الجاني؟  
هزّت رأسها نفياً. ما معنى هذا؟  
- ليس هو؟  
أحنت رأسها بالإيجاب.  
- مَنْ الآخر؟... انطقي...  
وهزتها بعنف مكررة:  
- انطقي...  
فهمست:  
- سيدي محمود...  
- عرفت الاثنين في وقت واحد؟  
فصمتت ولكنّه الصمت المغني عن الجواب...  
فتساءلت الأم:  
- وهل يعلم أحدهما بما يفعل الآخر؟  
هزّت رأسها نفياً، ثم قالت بنبرة باكية:  
- على رغمي... لم أستطع صدّهم... جاءوا  
كلهم...  
- رمضان أيضاً؟  
- نعم... على رغمي...  
- أنت فاجرة!  
بسّطت راحتها في يأس وأجهشت في البكاء.
- معذرة، عليك أن تشاركني سهادي...  
فتح عينيه ثم تساءل:  
- ماذا أيقظك؟  
- إني في حاجة إليك...  
طار النوم وحلّ محلّه قلق ثم تساءل:  
- الموضوع نفسه أم شيء جديد؟  
- نفسه!  
تزحزح جالساً وهو يتمتم:  
- لم يطمئن قلبي أبداً.  
وصبّت عليه الحقيقة صبّاً لتتخلّص من قبضتها  
الخائفة حتى أسند رأسه إلى راحتيه وهو يقول:  
- كارثة!  
وتبادلا النظر في حيرة فتركها حتى تساءلت:  
- كيف نتصرّف؟  
- ليتك ما سمحت لها بالبقاء.  
- ما كان ذلك ليخفّف من الجريمة.  
وإذا به يقول في خشونة:  
- جمالات، الكلام عن الأخلاق شيء والسلوك  
الأخلاقي شيء آخر تماماً، وقد حرصنا طيلة عمرنا على  
الاستقامة فلم يرسب في تاريخنا ما نخجل منه، وأنشأنا  
أبناءنا على مثالنا.  
فتساءلت في أسى:  
- وما النتيجة؟  
- لم تصادفنا تجربة بهذه القسوة، كيف نتصرّف؟  
لنكن واقعيين، لقد وقعت جريمة ولكن لن نعدم لها  
الأعداء الطبيعية المناسبة.  
- ليكن، ولكنّ المهّم في تصرّفنا بعد ذلك.  
فقال بنبرة لم تخلُ من غيظ:  
- هذا صحيح، فما التصرّف الصحيح؟ إنّه واضح  
وهو أن يتزوّج محمود من البنت التي شاركه فيها أخواه  
وهم لا يعلمون، بذلك نسترها ونكفّر عن خطيئتنا  
وننقذها من الموت، فهل أنت قادرة على الحلّ  
الصحيح؟  
أرخت جفنيها في ذلّ وانكسار فقال:

لما رجعت إلى الحجرة وجدت محمّد فتحي يغطّ في  
نومه. على ضوء المصباح السهاري رأت الساعة تدور  
في الواحدة صباحاً. لن يغمض لها جفن ولكنّها

## الشیطان يعظ ١٥٧

- مصلحتهم.
- وسيدركون أيضًا أننا كاذبون، صناعتنا الكلام لا أكثر ولا أقل...
- فتساءل في عصبية:
- أليسوا المسئولين عن الجريمة؟
- ونحن المسئولون عن الحكم.
- فقال بضيق:
- تصرّفي إن استطعت على مستوى مبادئك.
- فهتفت:
- كأنما تسمى لإذلالني...
- فخفّف من نبرته قائلاً:
- معاذ الله، كلانا غارق في مصرف واحد!
- وتبادلا نظرة خلت من الروح والثقة وأترعت بالأسى.

## ١٠

الصباح يفتح يوماً مفعماً بالمعاناة. ما زال البرد قارصاً والرياح عاصفة. وتتنظر من وراء زجاج النافذة المغلقة فترى الطريق ممتداً حتى المنعطف، لا شجرة به، الريح تنشر الزبالة فوق أديمه، وجه الطوار متشقّق متعذّر الفجوات، والناس يترنّحون هنا وهناك. لقد انصرفوا جميعاً، وعنايات تعمل في المطبخ، وهي تفكّر في المواجهة التي ستتمّ بينها وبين أبنائها متفردين. إنها الكتابة والخرج. وكانت بدأت بالنبت فقالت لها بحزم حاد:

- حذارٍ أن تدعني لأحدهم، كفى ما كان، وسنجد لمشكلتك الحلّ المناسب...
- من آنٍ لأخر جعلت تراقبها وهي منهمكة في عملها. ترى ماذا يدور في رأسها؟ تبدو خالية البال كأنّ الموت لا يتهددها. بل أخذت النضارة تلوح في وجهها الأسمر ووجنتيها البضّتين. كما رثت لها حققت عليها. مأساتها مأساة من يواجهنّ الحياة بلا مال ولا علم. وتذكّرت ضيقها إزاء الغلاء المتصاعد وكيف تهبط أسرتها درجة بعد درجة. إنها تلبّي طلبات الأبناء بنسبة لا تزيد عن خمسين في المائة، ولولا جدّيتهم وتسلّط روح العمل عليهم لانفجرت أزمات وأزمات.

- هذا هو الواجب، الكلام سهل أمّا الواجب فهذا هو، وهو كفيل بهزّ مستقبله ويجعلنا مضغّة أفواه المحبّين قبل الكارهين، إنّي أعرف تشدّدك وتقواك، عظيم، افعلي ما تريته صواباً...

ها هو يلقي عليها الحمل. كأنما يتحدّأها. يجتريها بين الذلّ والجريمة. وهي تمقت الجريمة ولكنّها تجزع أمام الحلّ الصحيح. هذه هي الحقيقة التي تصنعها. وعرضاً عن الإجابة دمعت عينها. ولم يتراجع عن خطّه فقال:

- ما جدوى الدموع؟ القرار عسير، خذني مهلة كافية للتفكّر...
- فقال بصوت ضعيف:
- الأمر لا يخصني وحدي.
- فقال بلا تردّد:
- إن أردت رأيي فاعلمي أنّي رجل واقعي كما أنّي أخلاقي.

فانتظرت في امتثال فقال:

- ممكن أن نزوّجها من ابن الحلال بعد اتّخاذ الاحتياطات الطبيّة الواجبة.
- صممت مغلوبه على أمرها ولم تخلّ من سخط عليه وعلى نفسها ممّا. وشعرت بخجل كأنسان جردّ من ملبسه فجأة. أمّا عمّد فواصل قائلاً:
- لا مفرّ في هذه الحال من إبقائها حتى نبلغ بها برّ السلامة، ولكن عليك أن تحتقري الحاجز بينك وبين الأئمين.

- ألا تقوم أنت بهذه المهمّة؟

فقال بحسم:

- بل أنت، والأفضل أن تزعمي لهم أنّي لم أعرف شيئاً.

- لماذا؟

- هو الأفضل...

فتفكّرت وقتاً ثمّ قالت:

- إنّه الحلّ الممكن ولكنّه ليس الأمثل، أمرنا الله، وهو سيبرئنا جميعاً نحن وأبناءنا ويفضح ضعفنا الحقيقي...
- سيدركون أننا نضحّي بالسلوك النقيّ من أجل

- وهي تمرّ بالبنت قالت هذه :  
- ستي .  
فتوقفت متسائلة فتساءلت البنت :  
- هل تريدان أن أذهب؟  
فقال بصبيّة :  
- لم أقل ذلك قط .  
فتمتت :  
- أشعر بأنّي غير مرغوب في . . .  
- انتبهي لعملك ونفدي ما أوصيتك به .  
انجذبت إليها بكلّ جسمها وقالت بصوت منخفض :  
- عرضوا على أمي أن أعمل في شقّة مفروشة!  
يا لها من مفاجأة . تساءلت في استنكار :  
- ألا تفهمين ما يعنيه ذلك؟  
فقال بصراحة لم توقّعيها :  
- لن يكون أسوأ مما أنا فيه، ويمكنني أن أقتصر على  
السهر في الشقّة!  
وقالت جمالات بامتعاض شديد :  
- سنجد لك مصيرًا أحسن!  
فقال بصوت حزين دلّ على أنّها ليست خالية  
البال كما بدت لعينيها :  
- لا يوجد لي مصير حسن .  
عند ذلك دقّ جرس الباب فذهبت جمالات لترى  
من القادم .  
وكان القادم هو محمود .

- ماذا أرجعك؟  
مضى بها إلى حجرة الجلوس وهو يشير :  
- تخلفت عن المدرسة لأحدّك على انفراد .  
أجلسها إلى جانبه فجلست متوقّعة أن تسمع اعترافًا  
و- ربّما - حلًا من نوع ما . قال :  
- لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما احتملت .  
ف نظرت إلى الأرض بوجوم رافضة أن تتظاهر بما  
ليس فيها، فقال :  
- الموضوع يتعلّق بعنايات!  
فلم يتغيّر من حالها شيء فاعترف قائلاً :
- لقد كذبت عليك، هناك اعتداء وأنا المعتدي . . .  
وتفرّس في وجهها ليرى أثر كلامه ثمّ قال :  
- أدرك الآن أنك عرفت الحقيقة .  
- أجل .  
- شدّ ما تعذّبت عند سفرها مع أمّها، لن أغفر  
لنفسي تقاعدي عن مساعدتها، كان الموقف أكبر من  
شجاعتي، وتضاعف العذاب عندما علمت بهربها . . .  
فقال بهدوء :  
- لا يداخلي شكّ في ذلك .  
- أعتقد أنّ والدي يعرف أيضًا .  
- نعم .  
- إنّها تنتظر أحد مصيرين، الموت أو السقوط .  
- ربّما يوجد طريق ثالث .  
فتساءل بلهفة :  
- ما هو؟  
- أريد أن أستمع إليك أوّلاً .  
فتردّد قليلاً ثمّ قال :  
- نحن قوم ذوو ضمائر حيّة .  
- هذه هي المشكلة .  
فتشجّع قائلاً :  
- الواجب يقضي عليّ بأن أحميها حتّى أتزوّج  
منها . . .  
خفق قلبها منذرة وسألته :  
- هل تدري ما يعنيه ذلك؟  
- طبعًا بكلّ أبعاده، وأدري أيضًا ما يعنيه الغدر،  
وقد لقيت على يديك - ويدي أبي أيضًا - مبادئ لا  
يجوز أن تنسى .  
انحسبت الاعتراضات في حلقتها وتورّد وجهها حياء  
أما هو فتساءل :  
- أليس كذلك؟  
فلم تجد بدًّا من أن تقول :  
- بلى .  
وجفّلت من أن تشير له إلى ما تمّ الاتفاق عليه بينها  
وبين محمّد فتحي فرردت في نفسها «إذا بليتيم  
فاستتروا» . سيقع ما كانت تحذره إلا إذا انبرى أبوه  
لإنقاذ الموقف . تخيلت عنيات زوجة لمحمود وأمّها حماة

## الشیطان يعظ ١٥٩

- الحقّ أنّها مستمرة! -  
 - مستمرة!؟ . . . أنت في حاجة إلى ذلك؟  
 - ماما، كيف غاب عنك ذلك؟  
 - نحن نشقى لنوفر لكم حياة كريمة .  
 - أعرف ذلك، ولكن لولا نقود فردوس لأرهقتنا  
 المعيشة إلى درجة عدم الاحتمال أنا وزغلول ورمضان .  
 - يا للمصيبة، أهما شريكاك في ذلك؟  
 - نعم . . .  
 - ألم يعترض أحدهما؟  
 - لقد شجّعاني على ذلك .  
 - شجّعاك على خداع بنت سيّمة الحظّ لسلب  
 نقودها؟  
 فبادرها بحرارة:  
 - ليس في الأمر خداع، صدقت نيتي على الزواج  
 منها في الوقت المناسب، وقال لي أخوأي إنّ المال ميزة  
 مثل الجمال، وإنّ فردوس على خلق ومن أسرة طيبة!  
 - يا للعار يا محمود، تحطّب فتاة سرّاً لتنفق عليك!  
 - إنّها قروض ساردها في المستقبل، ولولاها لحدثت  
 لك أنت وأبي متاعب كثيرة . . .  
 ألصقت راحتها بجبينها وهتفت:  
 - إني في حاجة إلى طيب . . .  
 فصمت مستسلماً لوجوم كتيب حتى سأله:  
 - وكيف أخطأت مع الأخرى؟  
 - بلا إرادة . . . ولكنني اعترف لك بأنني أحبّ  
 عنايات!  
 - ما شاء الله، وهل علم أخواك بجنايتك؟  
 - كلاً .  
 - لعلّ لديهما حلّاً فريداً!  
 - ماما، إني معذب، لا أستطيع أن أتخلّى عن  
 عنايات كما أنّه يعزّ عليّ جدّاً أن أهجر فردوس . . .  
 ونظر إليها في تعاسة مستوهباً النصيحة، حتى نذت  
 عنها ضحكة عصبيّة وقالت ساخرة:  
 - ما عليك إلا أن تتزوّج من الاثنتين . . .  
 فقال بلهفة:  
 - يهمني جدّاً رأيك .  
 فقالت بحيرة:

له فغاص قلبها في صدرها . غاص قلبها رغم أنّها  
 تتذكّر تماماً أنّ جدّتها لأمّها لم تكن ترتفع درجة واحدة  
 عن أمّ عنايات وأنّ جدّ زوجها كان فرأشاً في  
 مدرسة! وإذا بمحمود يقول:  
 - ولكن توجد مشكلة أخرى .  
 حدجته بنظرة مستطلعة فقال بحياء وتلعثم:  
 - إني في حُكم الخاطب .  
 - خاطب!؟  
 - يوجد اتفاق لم يعلن بعد بيني وبين فردوس سمير  
 جارتنا . . .  
 ذهلت جمالات حقّاً . إنّها تعرف فردوس، كريمة  
 المرحوم سمير المعلم، وهي صديقة حميمة لأمّها جارتها  
 منذ ربع قرن . أسرة طيبة ومحترمة، بكرتها طيب في  
 الأرياف، وفردوس فتاة تكبر محمود بخمسة أعوام، لم  
 تتمّ تعليمها، ذات ثروة محترمة، ولكنّها سيّمة الحظّ  
 لأنّها عاطلة من الجمال، لا حظّ لها منه رغم أنساقها  
 المبالغ فيها، كما أنّها تترك في نفس محدّثها ما يثير  
 السخرية لتصورها أنّها محدّثة لبقّة واسعة الاطلاع .  
 سأله بدهشة:  
 - هل تحبّ فردوس؟  
 فقال بمزيد من الحياء:  
 - المسألة أنني استجيت لتودّدها، لم أدر كيف  
 أرفضها . . .  
 - يا لها من خطوة غريبة .  
 - والأدهى من ذلك . . .  
 وتوقّف مرتبكاً فتساءلت:  
 - هل يوجد ما هو أدهى من ذلك؟  
 - تورّطت معها . . .  
 فقاطعته:  
 - يا خبر أسود . . .  
 - لا أعني ذلك، أعني أنني اقترضت منها بعض  
 النقود .  
 فكزّرت في عصبيّة:  
 - لا أصلق أذني . . .  
 - قروض اضطررت إليها . . .  
 - ما مقدارها؟

- أمك احتارت واحتار دليلها! ماذا يقول لك ضميرك؟  
 - يلي عليّ أن أكون إلى جانب أشدّ الاثنتين حاجة إليّ...  
 - ومن عسى أن تكون؟  
 - عنايات فيما أعتقد.  
 - ثمّ يقال إنك سرقت فتاة طيّبة وخذعتها!  
 - أهون من أن أترك أخرى للموت أو السقوط...  
 - ستوجد على أيّ حال توضيحاً بفتاة بريئة...  
 وساد صمت ثقيل مرهق للروح حتّى تساءل محمود:  
 - أليس هو الصواب يا ماما؟  
 فقالت بتفاد صبر:  
 - حسي أنّي ربّيت ضميرك وعليك أن ترجع إليه وحده!

## ١٢

هكذا انضاف إليها واجب ثقيل آخر هو مواجهة زوجها قبل مواجهة زغلول ورمضان. تذكّرت أيّاماً خالية حرصت فيها على الاستئثار بحلّ المشكلات. كانت مشكلات هينة حقاً، أمّا اليوم فكم تمنّى لو أنّ زوجها كان أكثر إيجابيّة! وقد عاد زغلول ورمضان متعيّن ولكن مرحباً أيضاً لا يدران شيئاً عمّا يتجمّع وراءهما من سحب، أمّا محمّد فتحي فبدا وكأنّه يتقدّم في العمر. وتساءل رمضان عن تحلّف محمود عن الذهاب إلى المدرسة فأجابت أمّه بأنّه متوعك. وتناولوا الغداء في جوّ لم يفلح جهد في تبديد كآبته. وفي حجرة النوم قالت جمالات لزوجها:

- لديّ مزيد من الأخبار المزعجة...  
 ورمته بالجديد منها بغير مبالاة. وراح الرجل يفكر ويضرب على كفّ بكفّ، ويقول:

- لن أدهش لو تكشّف بيّتي عن عصابة إرهابيّة للاغتيالات الدوليّة...  
 فسألته بوضوح:

- أتستطيع أن تقنعه باقتراحك الأوّل؟

فهزّ رأسه قائلاً باقتضاب:

- كلاً.

إنّه لا يريد أن يتلقّى درساً في الأخلاق على ابنه وتلميذه.

قالت:

- الحقّ أنّنا أصغر من الأخلاق التي نعلّمها.

- أيّ حلّ الآن لن يعفينا من سوء السمعة...  
 - ما أكثر الخاطئين ولكن ذوي المبادئ وخدمهم هم الذين يدفعون الثمن...  
 فابتسم ابتسامة ساخرة ولم ينبس فثارت ثائرتها وقالت:

- إنك تحجل من مواجهة ابنك باقتراحك...  
 - بل اقتراحنا فقد وافقت عليه أنت أيضاً...  
 وكالعادة سارع إلى ملاطفتها فقال بهدوء:

- لا ترهقي ذاتك بالندم، فلنطارده التعاسة معاً،  
 المسألة أنّه كان لنا حلم وتبدّد...  
 لكنّ سخطها تمطّى حتّى شمل كلّ شيء. نالت عنايات أرقى نصيب منه فهي التي - بضعفها لا قوتها -

زلزلت الأسرة وعزّتها. ونال زوجها نصيباً لا يستهان به لضعفه وسليّته. ولكنّها لم تتجاهل أنّها المسئولة عن ذلك. بقوة شخصيّتها وذكائها حولته من شريك إلى أسير. وطالما سعدت بذلك واستمتعت بقوتها بلا حدود. اليوم تشعر بوحدتها فتتحمي عليه باللائمة وتكيل له التهم.

## ١٣

رغم أنّ الغداء لم يهضم، والجوّ لم يهدأ ولم يلطّف، فإنّها لم تشعر بالبرد، بل شعرت بأنّ رأسها يشتعل. تمّت أن يهطل المطر. شارع العاصي يتحوّل في أعقاب الأمطار إلى برك ومستنقعات ومع ذلك تمّت أن يهطل المطر، وتلبية لإشارتها لحق بها زغلول ورمضان بحجرة الجلوس. ربّبت في ذهنها ما يقال وما لا يقال وسرعان ما لاحظت أنّها لا يخلوان من قلق. لا مفرّ من أن يعلموا بقرار محمود وبدواعيه. فيما يتعلّق بعنايات وفيما يتعلّق بفرردوس. لن تشير من قريب أو بعيد إلى خطئها أو خطيئتها ولكنّها لن يتورّط فيها مرّة أخرى

## الشیطان يعظ ١٦١

فتساءلت بانزعاج:  
 - ما معنى ذلك؟  
 - أصارحك يا ماما أنه بإزاء ما صادفنا من مشكلات تناقشنا - أنا وزغلول - في ماهية الأخلاق التي نشأنا عليها . . .  
 فسألته وهي تتفرّس في وجهه:  
 - هل رابك منها شيء؟  
 - تساءلنا إلى أيّ درجة تصلح لهذا العصر! فقالت بحدّة:  
 - مدى علمي أنّها تصلح لكلّ زمان ومكان . . . فقال رمضان بأبى:  
 - ما أكثر الذين يستهينون بها وينجحون . . . فتساءلت بذعر:  
 - هل أفتنعم أنفسكم بأنّ النجاح هو كلّ شيء؟ فقال زغلول بسرعة:  
 - كانت مجرد مناقشة استطلاعية . . . فواصلت بحدّة:  
 - تصوّرا أن نقنع بطرد عنايات، والاستمرار في ابتزاز أموال فردوس حتّى يتخرّج ثمّ يفسخ الخطوبة، تصوّرا ذلك!  
 - كانت مجرد مناقشات مثل لعب الشطرنج . . .  
 - لا أريد أن أختم حياتي باليأس.  
 - هذا مسلّم به.  
 وقال رمضان في حيرة:  
 - لنا زملاء يخطّون بفكر متكامل، وهم يُرمّون كثيراً بالانحراف، وطالما عُيِّبنا لأننا لم ننحرف، ولكن من نحن؟  
 فقالت بإصرار:  
 - مبادئنا فوق الجميع.  
 - معذرة، أريد أن أقول إنّ طمأنينتنا لا تقوم على أساس، يوجد خطأ ما، لم تلوح الحياة بهذه القسوة؟  
 - لذلك أسبابه، أحد هذه الأسباب الانحلال الأخلاقي . . .  
 فتهادى رمضان تأنّلاً:  
 - قد يقتل الإنسان دفاعاً عن نفسه!  
 فارتفع صوتها وهي تقول:

دون حاجة إلى تنبيه. وفي تقديرها أنّ عنايات تحبّ محمود، وأنّ ضعفها وحده هو المسئول عن استسلامها لزغلول ورمضان. هكذا قصّت عليها قصة محمود وقراره. لمست اضطرابها وضيقتها. تطائرا في الهواء رغم المحاولة المستميتة للتظاهر بالحياد والثبات والبراءة. وهي محيطة بأزمتهما بكافة أبعادها، بمشاعرهما نحو أحييهما الذي اعتديا على من ستصير زوجة له، ونحو النقود التي سيفقدونها لقطع العلاقات مع فردوس. لم تشعر نحوهما بعطف إذ رأتهما مستحقّين للعقاب. ختمت قصّتها بقولها:

- اعتدنا أن نناقش مشكلاتنا معاً . . .

وسأل زغلول:

- هل علم أبي بالقصة؟

- كان لا بدّ أن يعلم.

تبادلوا نظرات حائرة. قال زغلول:

- إنّه قرار خطير جدّاً.

- أجل، ولكن هل عندك حلّ أفضل؟

لم يجيرا جواباً، فقالت:

- علاقتي بفردوس خطأ لا مبرّر له وإنكنا تتحمّلان

تبعه ذلك مثله أو أكثر.

فقال زغلول مدافعاً عن نفسه:

- كان صادق العهد في الزواج منها.

- ومسألة النقود؟

فقال رمضان بجرأة:

- لم نجد من الإنصاف أن نطالبكما بما تعجزان

عنه.

فقالت بحدّة:

- لم نقصّر أبداً.

- أجل، ولكنّ الممكن كان دون المطلوب.

- اعتقدت أنّكما قادران على مواجهة الموقف بما

يتطلّبه من توضحية.

فقال زغلول:

- بذلنا ما نستطيع، أكرّر أنّ القرار خطير جدّاً.

وإذا برمضان يقول:

- ماما، نحن لم نعدّ ندرى بيقين ما الصواب وما

الخطأ . . .



في المعمرات. وليت تعاني يقظة حادة، وترفض في الوقت ذاته أن تمدّ يدها إلى قارورة البريكتين، فلم تدر أنّها غفت قليلاً إلا بفضل حلم رآته عن أمها. ولدى استيقاظها شدّ انتباهها شيء في الخارج. خارج الحجرة حركة وأصوات. ماذا يجري؟ زوجها ما زال يغطّ في نوم عميق. انسحبت من تحت الغطاء فارتدت الروب وغادرت الحجرة بسرعة. وجدت محمود في الصالة واقفاً شاحب اللون مرتجف الأطراف. حدثت في الحال أنّ وجه الحقيقة الآخر كشف له عن بشاعته كلّها أو بعضها.

- ماذا جرى؟

ضرب جبهته برأسته حتى خيّل إليها أنّه سيحطّمها. مضت به إلى حجرة الجلوس. أضاءت المصباح وحبكت الروب وقاية من برودة شديدة. جلست ولكنّه لم يجلس. كرّرت السؤال فجعل يذهب ويحيي، ثمّ قال:

- عرفت أشياء غاية في القبح...

- ما هي؟

- عنايات لم تكن ضحيّة كما توهمت ولكنها كانت داعرة!

- ماذا تعني؟

- كانت تعبت بثلاثتنا، أنا وزغلول ورمضان...

- اعترفت لك بذلك؟

- اعترف لي زغلول ورمضان ليحدّراني...

آه... إنّها يقصدان إجهاض القرار. وهي تعرف بواعثها. بعضها أناي وبعضها لا غبار عليه. ورغم إيمانها بأنّ عنايات مظلومة فإنّ باطنها لم يخلّ من ديب راحة. وسألته:

- ماذا فعلت؟

- قرّرت الداعرة حتى أقرت...

- خفّض من صوتك أو يصل إلى الشارع، هل دافعت عن نفسها؟

- تدّعي أنّها استسلمت على رغمها الفاجرة!

- اهدأ.

- فوق طاقتي!

- أرجو أن تنتظري حيث أنت...

- المهمّ أن يكون على صواب، إنكم لا تقدرون تعبنا حتى قدره، لقد عملت حتى اضطررتي المرض إلى طلب المعاش، أبوكم يعمل عملاً مضاعفاً رغم انحداره إلى الشيخوخة، وتفوقكم ميزة لا يستهان بها فلم الشكّ والانتهازية؟

فضحك زغلول تليقاً للجوّ وقال:

- ما زلنا عند حسن ظنّك.

سخرت من قوله في نفسها ولكنها قالت:

- أشكرك، سيكون لنا عودة إلى الحديث، أما الآن فإنّي أفضيت إليكما بأخطر قرار ألتخذ في أسرتنا حتى لا تفجان به غداً، فما رأيكما؟

وساد الصمت، وتبدلت النظرات، فقالت:

- حسبت الأمر لا يحتاج لتردد طويل؟

فقال زغلول:

- ليس التردد نتيجة للشكّ في صوابه ولكن إشفاقاً من عواقبه!

فقالت ببرود:

- قدرنا ذلك قبل اتّخاذ القرار...

- عظيم!

- ماذا تعني؟

- إنّ قرار صائب تماماً...

لقد غادرتها وهي مليئة بالشكّ والغمّ.

## ١٤

وجدت ربّ البيت نائماً. لمحت فوق الكومودينو قارورة البريكتين فأدركت أنّه استعان بالمهدئ ليهرب. ما أحوجها هي إلى حبة بريكتين! لا شكّ أنّ الضغط الآن يتصاعد مثل الجوّ العاصف حولها. استلقت على ظهرها تحت الغطاء. تحت سطح الماء الساكن تيارات تتلاطم في الأعماق. أسرته أسرة مثاليّة ولكن على الورق فقط، وها هي تتمخّض عن مفاجآت غريبة وقبيحة. زغلول ورمضان يتملّصان من قبضتها. الجوّ الفاسد يتسلّل إلى الداخل رغم النوافذ المغلقة. لا جديد في أن يختلف الناس في الصواب، المهمّ أن ينشدوه لا أن يطرحوه أرضاً. وأمنت بأنّها لو خرجت من هذه الأزمة دون مضاعفات صحيّة فسوف تكتب

## الشیطان يعظ ١٦٣

متراجعًا:

- جمالات، إنِّي أوصل العمل بطريقة تهدد  
صحتي، اعذريني وكوني لطيفة معي ما أمكن...  
وتساءلت في نفسها كيف تمضي الحياة إذا أصرت  
طوال الوقت على احتقار أسرتها ونفسها؟!!

١٦

ولاحقت محمود في انزاله لشعورها بأنه أحوج  
الجميع إلى الدواء. حدّته قائلة:  
- مستقبلك، لم يبق لك إلا مستقبلك وهو في  
خطر.  
بدا وكأنه لا يشعر بالخطر. أين حساسيته الشديدة  
وأين مرجه؟ قالت:  
- يوم أمثالنا لا يقدر بئس.  
فقال لها بحزن:  
- رضيت بالتضحية ولكني حُرمت منها.  
- أثبتت حسن نيتك بلا أدنى شك.  
- ما الفائدة؟... سأظلّ المجرم الأول في  
حياتها...

- لتركها لرحمة الله.  
- الموت أو السقوط، هذا ما تبقى لها.  
- لا شائبة تشوب ضميرك.  
وتفكرت قليلاً ثمّ واصلت:  
- ولا تنس أنك ملتزم بفردوس!  
فتنهّد قائلاً:  
- كلاً...  
- كلاً؟!  
- لقد بادرت إلى إرسال خطاب لها قبل أن  
يكاشفني زغلول ورمضان بما خفي عليّ...  
- فسخت الخطوبة غير المعلنة؟  
- اعتذرت بظروف قاسية، وسجّلت المبالغ التي  
اقترضتها، واعدًا بتسديدها عند الميسرة.  
- وصل الخطاب إليها؟  
- يصل اليوم أو غدًا.  
- يا له من تصرف مرعب.  
- ولكنّه كان خيرًا من الاستمرار فيه.

مضت إلى المطبخ.

لكنّها لم تجد لعنايات من أثر.  
ورجعت إلى محمود متسائلة:  
- هل طردتها؟  
فهزّ رأسه نفيًا، فقالت:  
- لقد ذهبت.

١٥

انسرب الجوّ العاصف إلى القلوب. الإخوة - رغم  
الاعتراف المريح للضائير - فقدوا شعورهم الطبيعي  
بالبراءة وعزّة النفس. جمالات تدرك ذلك وتلاحظه  
بنفس مكلومة. الأمور الآن تناقش جهراً، وها هو  
الأب وزغلول ورمضان يلحّون على اعتبار الموضوع  
منتهياً، أما محمود فقد تبعثرت ذاته. وضاعف من  
عذابها أنّها في صميمها قد ارتاحت إلى اختفاء البنت  
وهي بريئة من دمها. ولاحظت أنّ زوجها لا يابه  
لأحزان محمود ولكنّه يتابعها هي بقلق. وقال لها وهو  
منفرد بها:

- لقد رضينا بالحلّ الصحيح الذي دلّ على شرف  
الولد ثمّ حصل ما حصل بلا تدخل منا مسوّغ للحزن  
يا جمالات.

فقالت بوجوم:

- محمود ضائع تمامًا وسيخسر عامه الدراسي!  
- خرج الأمر من يدنا ولم يعد في وسعنا شيء.  
- لن يغسل ذلك ملابسنا القدرة...  
فقال بضجر:

- فلنتركها للشمس والهواء.

وحدجته بعصبيّة قائلة:

- إنّي أحسبك...  
فتغيّظ وقال:

- إنّي أصرّح بما في ذاتك أكثر منك.

فاصفرّ وجهها من شدّة الغضب وهتفت بكبرياء:

- إنّي ضمير حيّ لا يموت.

فهزّ منكبيه ولم ينبس. إنّها واثقة من أنّه يتجنّب  
دائمًا مواجهتها في معركة حقيقيّة. في الوقت ذاته قد  
تعرّت أمامه، بل تعرّت أمام نفسها. وقال هو

- أعدك بأنني سأبذل أقصى ما أستطيع .  
 فقربت منها رأسها وقالت بصوت خافت :  
 - اعتبرتها مهمة بالغة الأهمية، البنت حالها في غاية  
 من السوء . . .  
 - أسفي فوق ما تتصوّرين .  
 - إني واثقة من محبتك، وإليك اقتراحًا مستعدة أنا  
 لتنفيذه حال موافقتك، وهو أن نزوجها الآن، فردوس  
 غنية، وسيجد محمود في بيتنا مكانًا هادئًا ليم  
 تعليمه . . .

فوضحت الدهشة في وجه جمالات فقالت الأخرى:

- فكرة وجيهاً وحكيمة . . .  
 فقالت جمالات بعد تردد:  
 - محمود حساس جدًا!  
 - لكنّه اقتراح لا غبار عليه . . .  
 فقالت جمالات بصدق:  
 - أعدك بأنني سأبذل أقصى ما في وسعي .  
 وهما يفترقان همست أم فردوس في أذنها:  
 - البنت حالها سيئة جدًا . . .

## ١٨

داخلتها رقة في غمار القلق والأحزان. اعتادت أن  
 تحب فردوس منذ طفولتها. وهي تعطف عليها دائمًا  
 لخلوها من الجبال ولعودها في البيت دون أن تتم  
 تعليمها. وهذا الزواج المقترح إذا تم فسيفسر أسوأ  
 تفسير، سيقال إنه زواج اليأس من ناحية العروس  
 والطمع من ناحية العريس. ثم إن خطيئة محمود مع  
 عنايات يمكن الدفاع عنها أما ما ارتكبه مع فردوس فلا  
 يمكن الدفاع عنه. وقد نبذ محمود عنايات باعتبارها  
 منحلة فلن تقف عنايات عثرة في سبيل الزواج. محمد  
 فتحي قال أول الأمر:

- إنه قراره هو . . .  
 - وكما لحت عليه جمالات قال:  
 - فليتزوّج منها، سيضمن مستقبله ويصلح  
 خطاه . . .  
 فقالت جمالات متهمّة:  
 - ويخفف عنك بعض الأعباء .

- لم يعد كذلك الآن .

- لقد فات الأوان .

ترى هل تمضي الأمور نحو الأحسن أو الأسوأ؟  
 قالت:

- على أيّ حال عليك أن تستردّ صفاء ذهنك وقوة  
 إرادتك لتواصل تقدّمك الدراسي . . .  
 وتساءلت مرّة أخرى ترى هل تمضي الأمور نحو  
 الأحسن أو الأسوأ؟!

## ١٧

وجاءت أم فردوس لزيارتها. ما أكثر الزيارات بينهما  
 ولكنّها شعرت بأنّ هذه الزيارة غير عادية. وجاءت  
 كالعادة أيضًا عصرًا وقد سفعت الرياح الباردة وجهها  
 فاحمرت أرنبه أنفها. وهي تماثلها في السن، لا تخلو  
 من وسامة، إذ كان من سوء حظّ فردوس أن ورثت  
 خلقة أبيها لا أمها. وعشيّ جوّ الزيارة ارتباك خفيّ  
 وشي بأسرارها وما لبثت أم فردوس أن قالت:  
 - أريد أن أحدثك كأخت.

فقررت أن تواجهها بالصرحة اللاتقة فقالت:

- ما علمت بالأمر إلا منذ أيام قلائل!  
 - وأنا كذلك وإلا ما أخفيت عنك شيئًا.  
 - كنت سأسرّ، فردوس ابنتي كما أنّها ابنتك، وهي  
 شابة ممتازة، ولعلها أخفيا الموضوع لشعورها بأنّه  
 سابق لأوانه بعض الشيء.

فقالت أم فردوس بصوت شاك:

- ولكنّه انتهى نهاية غاية في السوء.

تنهدت قائلة:

- أعلم ذلك.

وبعد فترة صمت مشحونة بالانفعالات تساءلت أم  
 فردوس:

- ما هي الظروف الخطيرة التي أوجبت القطيعة؟

- لقد صدق فيما قال.

- ألا ترين أنّه من الضروريّ أن أعرفها؟

- بلى، ولكن فيما بعد.

- أهو قرار نهائيّ؟

فتفكرت جمالات مليًا ثمّ قالت:

## الشیطان يعظ ١٦٥

الفساد.

- أشفقت من التهادي في مناقشته غير أنها عتمت:
- سيعلم محمود بذلك عاجلاً أو آجلاً . . .
- فلوح بيده قائلاً:
- فليعلم، لن يغير ذلك من الأمر شيئاً . . .

\*\*\*

وذات يوم رجع الرجل من عمله في ميعاده ولكنّه كان شاحب الوجه زائغ البصر. خفق قلب جمالات فشكلت إليه بصرها دون أن تنبس. عند ذلك قال دون أن يشرع في خلع ملابسه:

- خبر سيئ جداً يا جمالات . . .
- فغمغمت فزعة:
- اللهم احفظنا!

- محمود تزوج من عنايات وذهباً معاً!  
فهتفت بصوت مبحوح:

- غير معقول.
- لكنّه حصل . . .
- لقد انصرفت نفسه عنها بعد ما توكد له أنها . . .
- قاطعها بنفاد صبر:
- لكنّه حصل . . .
- فتساءلت بذهول:
- وفردوس؟ . . . ومؤخر الصداق؟
- واضح أنه لم يصدر في عمله عن عقل أو منطق . . .

- ومستقبله ودراسته؟  
فقال بأسى:

- لم تتح لي مناقشته!
- وكيف يعيش؟ . . . كيف يواجه الحياة؟ . . . هل وجد عملاً؟!

رفع الرجل منكبيه في يأس وقال:

- لا معنى لهذه الأسئلة، التصرف جنوناً لا سبيل إلى فهمه في نطاق العقل والمألوف . . .

وفرق بينها صمت ثقيل فراح ينظر إلى صورة زفافها المعلقة بالجدار نظرة خالية من الرؤية، على حين امتد بصرها من الزجاج المغلق إلى السحب الراكضة . . .

فقال بتحد:

- عني وعنك.
- زغلول قال:

- إنه موقف مناهض للرومانسية ولكنّه ليس مناقضاً للأخلاق . . .  
وقال رمضان ساخراً:

- مع السلامة، حلّ غاية في التوفيق.

إنّ ثقته بزغلول ورمضان لم تتدهور ولكنّها لم تعد تفهمها تمام الفهم، وعمّاً قليل ربّما تلاشى التفاهم بين الجميع. ومن حسن الحظّ أنّ محمود لم يعارض فكرة الزواج. لعلّه يرى فيه إصلاحاً لحظته أو تكفيراً عنه. إنّ مثله لا تطيب له الحياة بلا تكفير. على ذلك قال لها:

- سيبقى في النفس جرح لا يلتئم بسبب عنايات . . .

سببى في نفسها أيضاً. لعلّ سرّ عطفها عليه أنّه يشاركها العذاب، وأنّه جادّ في تحويل القول إلى عمل، ولكنّه كان أيضاً الجاني الأوّل! فلتنته هذه المحنة التي عزّتهم جميعاً بلا رحمة. فلتنته ليرجع إلى وسادتها النوم الهادئ وليخفّ عنها الضغط. وإذا كانت لم تحظّ براحة ضمير كاملة فقد لُقت درساً في التواضع والأسى. وسرعان ما زقت البشرى إلى صديققتها الحميمة أمّ فردوس، وسرعان ما تمّ الزواج بلا تكاليف من ناحيتهم غير مؤخر صداق مقداره خمسمائة جنيه.

## ١٩

واشتدتّ الزوايح في أواخر الشهر غير أنّ جمالات قالت لنفسها إنّ أمشير يلقي تحيات الوداع وعمّاً قليل يهّل الربيع بالنضارة والبهجة. وإذا بالبواب يقول لها وهي راجعة من السوق:

- عنايات تعمل في شقّة مفروشة بالعمارة الجديدة عند الناصية . . .

ارتعد قلبها وغشيتها سحب الأكدار. إنّها إحدى النهايتين، وهي تؤجّل النهاية الأخرى - الموت - ولكنّها تؤكدها. وقد ضاق محمّد بالخبر ضيقاً شديداً وقال:

- بوسعها أن تصون نفسها، فلن يرغمها أحد على

# الحُبُّ وَالْقِنَاع

١

- مستحيل .

فقال معتذراً:

- إنه شهر العسل .

- ولو .

ثمّ مستدركة برجاء وحزم معاً:

- ولا أنت!

لم تتثنِ أمام الحرج أو المجاملة . حتى في أيام التلاقي الأولى وفي غمرة طوفان العواطف رفضت ما تأباه بقوة وشجاعة . وقد تراجع متلقياً نذيراً من المتاعب . أجل لم يكن الأمر مفاجأة له فهو يعرفها من قديم . خَيْرَ صلابتها التي أرهقت قلبه ، وطالما رآها وهي طالبة بكلّية العلوم ترفل في زيّ المسلمات المحتشبات مطوّقة الرأس والوجه بالبخار الأبيض . ولم يقل له صديقه عبد الباري خليل المحامي «إنك مُقَدِّم على الزواج من كائن له مظهر أنثى ونحبر إمام مسجد» . لكنّه الحُبُّ أو لعله الحُبُّ والعناد .

وسألها:

- أعجبتك الفيلاً يا فتحة؟

- إنها تفوق الخيال ولكنّي لم أقدم لها إلاّ

القليل . . .

- قلامة ظفرك أئمن منها ومما فيها .

فقال ضاحكة:

- أنت رجل غنيّ تجود بالكلام كما تجود بالأشياء

الشمينة . . .

- أنا رجل عاشق بلا زيادة . . .

- وأنا سعيدة .

- لكن لم يجز الحُبُّ على لسانك بعد . . .

أول ليلة في الفيلاً الجديدة عقب العودة من شهر العسل . شهر العسل - أغسطس - مضى في رأس البرّ ثريّ البهجة والرياضة والحساسية . بدأ حباً من جانب واحد - جانبه - ثمّ تسلّل إليها الرضى والإقبال مقتلماً ذكريات بالية . استقبلا المساء بالجلوس في الشرفة على كرسيّين هزازين متجاورين في ضوء خافت مطلّين على الحديقة الصغيرة المفعمة بأنفاس الليل الناعمة . كم يطيب له أن يلاحظ عارضها الجميل ورأسها النبيل بشغف ورغبة في الاستطلاع . وكانت ترسل الطرف إلى شارع الهمداني الغائص في قلب المعادي بأشجار الكافور المغروسة على جانبيه . استرخت في قميص أبيض طويل طارحة شالها على ذراع الكرسيّ على حين تمّدّد في بيجامته الزرقاء الراسمة لطوله الرشيق . في شهر العسل تمّ تعارف حميم ، تولّدت ألفة حارة فاطمناً إلى نجاح مغامرته . قال:

- ضعي الشال على كتفك .

فقال بصوت رخيم:

- الجوّ دافئ .

- سبتمبر لا أمان له .

فقال بعدوية:

- أشعر بالأمان الكامل .

وجد في قلب الجملة معنيّ خاصاً فامتلاً صدره بالامتنان . مالت بالكرسيّ إلى الأمام فملاً قدخين بعصير الموز له ولها . وردته ذكرى من ذكريات رأس البرّ حين قدّم كاسين من الويسكي قالت وقتذاك بجديّة لم يتوقّعها:

## الشیطان يعظ ١٦٧

وهو رياضي قويّ نسخة طبق الأصل من أبيه داود الناطورجي . وتساءل بحقد هل أصابها العمى؟ . وتساءل أيضًا هل يسلم بالهزيمة أو ينتظر نجدة من المجهول، من الموت نفسه؟. ها هي تقول له «أنت تعرف تمامًا ما تسأل عنه». وقال لنفسه «إنّ خير ما اهتمت إليه هو أنّه لا معنى لشيء».

- أعددت في الفيلا حجرة خاصّة لوالدتك ولكنّها عنيدة.

- وأنا أيضًا ألححت عليها ولكنّها كما قلت لك لا نفرط في بيتنا القديم.

هز رأسه متظاهرًا بالأسف. عاذا يتبادلان شعورًا خفيًا بوجودهما معًا ويلوذان بصمت هنيء حتى خطرت له خاطرة فضحك فسأله:

- ماذا يضحكك؟

- عرفتك دائمًا جادة فلم أكن أتصوّر أنّك أنتى كاملة...

فضحكت بسرور وقالت:

- ولكنك أقدمت رغم ذلك على طلب يدي!

- إنّه الحب...

- أنت أيضًا لا تخلو من تناقض فمظهرك القويّ غير متناسب مع رقتك الحقيقية...

فتملّى قولها قليلاً ثمّ تساءل:

- لعلك لا تتصوّرين أنّي قاتل مثلاً؟

فقالت ضاحكة:

- إنّي كيميائية لا سيكولوجية وهذا من حسن حظك.

- بهذه المناسبة أقول لك إنني شرعت أغازل كتبك العلمية فعليك أن تغازلي كتبي الثقافية، كلانا يكمل صاحبه...

فقالت باهتمام:

- ولكنّي أسوء الظنّ بكتبك، ولن تجد يقينًا حقيقيًا إلا في الدين والعلم...

إنها تحدّثت عن اليقين. لعلها نظرت أنّها تعرفه كما يعرفها. وهي صارحته بكلّ شيء، صادقة صريحة ومنذرة بالمخاوف، أمّا هو فلا يُعرف عنه إلا السطح فهل تزوّجت من رجل آخر؟ إنّه الحبّ ولكنّه الخوف

فضحكت قائلة:

- أنت تعرف تمامًا ما تسأل عنه...

تجلّى لعينيه يسري أحمد. لا يمكن أن يجيء وحده ولكن في إطار جامع لعبد الباري خليل ووهدان المتجلبّي وعدلي جواد وفتحية سليمان وشارع ابن خلدون بالسكاكيني. جيران وأصدقاء من الطفولة. أعمار متقاربة حتىّ فتحية لا تصغرهم إلا بعام واحد فهي في التاسعة والعشرين بينما هو في الثلاثين. لكنّ يسري أحمد تجلّى لعينيه وحده في تلك اللحظة. تجلّى له في موقف لا يُنسى حين خلا إليه في حديقة الظاهر ببيرس. كان أحبّ الجميع إلى قلبه وكان يسعفه في العلوم والرياضة المستعصية عليه. تطلّع إليه بوجهه الشاحب الجذّاب وارتبك فسأله:

- مالك يا يسري؟

- لا أدري كيف أبدأ.

- أمر هامّ ولا شك؟

- فعلاً، لبيب، نحن إخوان.

- طبعًا.

- وأنا باسم الأخوة أحدثك، المسألة تتعلّق بفتحية بنت الشيخ سليمان.

خفق قلبه خفقة رسبت في حفريات صدره إلى الأبد.

- مالها؟

- إنك يا عزيزي تطاردها في الشوارع.

تساءل بوجوم:

- شكتني إليك؟

- معذرة، إننا متفقان على الزواج...

تمتم وهو يتجرّع المرارة:

- لم أكن أدري...

- طبعًا فأنت أخ كريم.

ها هي تقول له «أنت تعرف تمامًا ما تسأل عنه» بعد أن تلاشى الماضي تمامًا. ولكنّه تلقى الخبر وقتها بحزن مجنون بها. ودفعته انفعالاته إلى جحيم الكراهية. انقسمت عاطفته نحو يسري أحمد فجرى الحبّ في نصفها والمقت في النصف الآخر. يسري قصير رقيق وهو طويل رشيق، صاحبه رقيق ضعيف

- ولماذا بقيت بلا عمل؟
- لست في حاجة إلى العمل كما تعلمين.
- لكنَّه العمل الذي يخلق الإنسان لا دخل خمسة جنية.

- لا ينقصني شيء، وإني لخبير في التعامل مع الوقت، لي مكتبة ضخمة، لي أصدقاء، ثم إنني لم أقتنع بعمل أبداً . . .

- إن كنت تضيق بالوظيفة فافتح مكتباً للمحاماة، صديقك عبد الباري خليل وعدلي جواد محاميان، صديقك وهذان المتجلبق قاض . . .

- إنهم في حاجة إلى العمل . . .

- الإنسان بلا عمل عرضة للرعب.

- الرعب؟!!

- الضجر، العادات السيئة، العزلة . . .

- قد توجد جميعاً مع العمل . . .

- الاستثناء يؤيد القاعدة ولا يهدمها.

- هناك الزواج والأبناء.

- العمل أيضاً مهم، إنه لأمر مهين أن يخطر

الإنسان في الحياة بلا عمل . . .

وكما كان متلهِّفاً على الظفر بها فقد قال:

- سأجرَّب ذلك . . .

- في أقرب فرصة.

فحنى رأسه بالإيجاب. تجاوز عن مزاجه الراسخ

من أجل الحب. وتأثر بنظرة عينيها وثبات نبرتها تأثراً

أشاع في نفسه الحذر والتوجس. وتذكر موقفها الراض

للزواج حتى شارفت الثلاثين فازداد حذراً وتوجساً.

وتساءل هل يعثر تحت ذلك السطح الصخري على

ينبوع من ماء الأنوثة العذب، تساءل مرتين ولكنَّه كان

يجب حباً عنيداً أيضاً. وآله شعوره القديم بضعف

شخصيته. كان زال ناقداً قاسياً للذات فلم تخف

عليه علله. إنه الآن يضع أمله في حياة زوجية متوازنة

في الحب، حبها المتصاعد له. ستحبها كما أحبها وأكثر

بل لعلها أحبته بالفعل فهمسات الفؤاد الخفية لا تغيب

عن الوجدان اليقظ.

قالت بفخار:

- ملفّ خدمتي يحوي أجمل الشهادات بكفائي في العمل.

أيضاً فهل تتسع هذه الفيلاً لثلاثة؟ وثمة الشعور الحقير بالذنب يطارد العذابات الخفية. هيهات أن ينسى منظر يسري أحمد قبيل وفاته، والانقضاضة الوحشية الدنسة في ظلام الليل.

## ٢

وقفت في الشرفة عند الضحا في مهبط الشعاع الذهبي. عقب جولة من المشي السعيد في شوارع المعادي. يا لها من قامة رشيقة ووجه جذاب. إنه يملك ذلك كله بعد حسرة التهمت الصبا والشباب الأول. تمت:

- غداً أرجع إلى العمل، لكل شيء نهاية.

كما انتهى شهر العسل. وكما يدبّ الفناء في الوليد منذ اللحظة الأولى. قال بأسف:

- غاب ذلك عن بالي تماماً.

فقالت متهكّمة:

- هكذا ذاكرة الأعيان.

- ترجعين راضية إلى معامل وزارة الصحة؟!!

- كلّ الرضا.

- ذكرياتي عن الكيمياء تتلخّص في أنابيب يتصاعد منها دخان كريمة الرائحة . . .

- ولكتّي أراها بعين أخرى.

- وكيف يستقبلونك بعد شهر العسل؟

- طبعاً لن يخلو الاستقبال من غمز.

فتنهّد قائلاً:

- كم أحلم باستقرارك في بيتك.

أقبلت نحوه حتى وقفت أمامه في رداثها المكوّن من قميص أزرق وينطلون رماديّ وسألته:

- خبرني متى تشرع أنت في العمل؟

الصوت الذي يجشاه يتكلم. الوعد لديها ميثاق دولي. تذكر لقاء الخطوبة الثالث عندما بدا أنها تميل للموافقة عقب إصرار طويل على الرفض. وقتها سألته:

- متى تخرّجت؟

- فأجاب ببساطة:

- منذ ستة أعوام.

## الشیطان يعظ ١٦٩

- طبعًا .  
 - طبعًا؟ . . . لماذا؟  
 - إنك تتحرّين الكمال في كلّ شيء .  
 - أيرضيك ذلك؟  
 - بلا أدنى ريب ولكنّي أحبّ أيضًا الاعتدال !  
 - يا لك من رجل طيّب .  
 ماذا تعني يا ترى؟ أمّا هي فتساءلت :  
 - كيف كنت تمضي يومك؟  
 فقال مستبشرًا :  
 - كنت أبدأ يومي بالسباحة طيلة أيّام السنة عدا الشتاء فألعب التنس، فأوي إلى مكتبي حتّى الغداء، أذهب إلى لقاء عبد الباري ووهدان وعدلي بركننا المختار في الفردوس، وقد أذهب إلى سينما أو أمضي السهرة أمام التلفزيون .  
 - إنهم يستريحون من العمل أمّا أنت فتواصل حياة الفراغ . . .

### ٣

- فابتسم بلا تعليق فقالت :  
 - قراءتك متنوّعة، يسرّني أنّك تضمّ إليها العلم أخيرًا، لكن لأيّ هدف تقرأ؟ . . . هل حلمت يومًا بالتأليف؟  
 - أبدًا .  
 - وفي المقهى كنت تشرب الويسكي؟  
 - بضع كئوس .  
 هزّت رأسها بأسف فقال :  
 - علينا أن نأخذ الأمور بهوادة ورفق . . .  
 - أعتقد أنّ الإيمان يتطلّب جدّيّة أكثر .  
 تذكّر قول عبد الباري عن إمام المسجد . إنّه طراز نسائيّ غريب حقًا . قالت :  
 - إنّك بذرة طيّبة تُعدّ بشجرة طيّبة وسوف تشكرني ذات يوم من صميم قلبك .  
 يا للدهاية! ها هو صوت داود الناطورجي - أبيه - يتردّد من جديد . ماذا تظنّ وماذا تدبّر؟ . تذكّر اجتماعًا ذا مغزى بركن الفردوس في الشهر السابق لزوجاه . قال ووهدان المتجلّي القاضي المعروف بميوله الدينيّة :  
 - فتحيّة ممتازة ولكن عليك أن تتغيّر .
- هذا أوّل صباح ينفرد فيه بنفسه منذ زواجه . بعد أن أوصلها بالمارسيديس السوداء إلى وزارة الصحّة واعدًا إليها بانتظارها الساعة الثانية بعد الظهر في نفس المكان . إنّه يشعر بوحشة لغيابها ولكنّه يجد أيضًا نوعًا من الراحة . كما ألف منذ قديم معاشة المتناقضات جنبًا إلى جنب . كثيرًا ما يبدو نصفين يناقض أحدهما الآخر في العواطف والآراء جميعًا . ما يكرهه حقًا فهو الوجه الآخر من حياته الذي أخفاه عن فتحيّة . منه جانب تافه مثل عشّ الهرم الذي كان يمارس فيه نزواته . لن نحاسبه على الماضي، ولن ننسى موقفه من ماضيها أيضًا الذي أهدت عليه بسببه صفة النبيل والشهامة . من السخرية بعد ذلك أنّه قد ارتكب ما ارتكب من آثام من أجلها هي . ها هو يخلو إلى نفسه في مكتبته كالأيام الخالية، وها هي كتب الفلك والطبيعة والأحياء الجديدة، ولكنّ نفسه مشتتة . حتّى في شهر العسل كشفت عن جوانب نفسها دون مجاملة . إنّه تذكّره بأبيها الشيخ سليمان مدرّس اللغة العربيّة بخلاف شقيقها المتشدّد مهندسًا بالكويت الذي شابة في الدمامة أمّه فلمّ لم يحدث العكس؟! .



الفريدة فقال إنه لها أيضًا إفرازاتها الكريمة. وبكى في جنازة يسري طويلًا حتى اقتنع بأنه لا خلاص إلا بتحطيم الكون.

ها هو يصمّم على القراءة فيقلب صفحات «الكون... ذلك المجهول». ويتساءل هل في وسع الحب والزواج أن يتشلاه من الجفاف؟. ربّما. ولكنّ فتحيّة تنبّدى كثيرًا كأنها نذير جديد بالمتاعب. وواضح - وهو الأدهى - أنها تروم خلقه من جديد.

برجعها إلى الفيلا حوالى الثالثة مساء دبّت في الفيلا حياة جديدة. ولما دخلت الحتمام عاودته خواطره الساخرة، ثمّ جلسا يتناولان الغداء. له طابو خبير بصنع الطعام الجيّد. وهما - فتحيّة ولييب - يتصفان بشهيّة جيّدة، ولكنّ تناول الطعام كان من الخواصّ التي يتقرّز منها ويطلب بسببها بتحطيم الكون. جعل يختلس إليها النظر وهو يرفع الشوكة إلى فيه ويقارن بينها وبين القطط والكلاب. حقًا إنّ الطعام أسّّ التنعّاس البشرية. قالت:

- يوم مرهق بالقياس إلى العطلة.

فابتسم وقال بدوره:

- بدأ البحث عن شقّة للمكتب.

فهتفت بسرور:

- جميل أن أسمع ذلك.

فحنق عليها في باطنه ولكنّه أفرخ حنقه في صدر الدجاجة الرقيق. قال:

- قراءة العلم متعة فريدة حقًا... .

فقالت بثقة:

- بالدين والعلم تكمل صورة الوجود ويطمئن القلب.

ولما همّ بتقشير تفّاحة سألته:

- أليست مغسولة جيّدًا؟

- بالصابون أيضًا.

فقالت بلهجة امرأة:

- كلّها بقشرتها... .

الظاهر أنّ الوصايا ستمتدّ إلى التفّاح أيضًا. صدع بالأمر صامتًا فسألته:

- ما رأيك في زيارة ماما بعد العصر؟

إنّها لا تدري شيئًا عن مقتله ليسري أحمد عندما علم أنّه حبيبها. في تلك الأيام المتوحّشة تمثّى لصديقه الموت. أطلق على صورته خيالاته المدمّرة المشحونة بالفناء. وشدّ ما سرّ عندما ألقى القبض على الشابّ في جنازة مصطفى النحاس. لم يعرف يسري أحمد مصطفى النحاس ولكنه اشترك في جنازته إكرامًا لذكرى أبيه الشيخ سليمان. وكان - لييب - يسمع عمّا يجري في المعتقلات فناط أمله بأيدي الطغاة تقتلع يسري من سبيله. ورغم أنّ حبه له لم يتبخّر تمامًا، ورغم أنّه لم ينسَ أنّه كان أستاذه في العلوم والرياضة ومرشده في أخطر مرحلة من مراحل حياته، مرحلة الإلحاد والثورة على أبيه داود الناطورجي. صرخت الرغبة السوداء في قلبه «القتل في المعتقل أو السرطان».

في غضون أسابيع أطلق سراح يسري أحمد لمرضه. وإذا بالأشمة تكشف فيه عن سرطان في المائة. تلقى الخبر بفزع واضطراب وحزن. شعر أيضًا براحة عميقة. وكان في إلحاده يتقرّز من الإنسان باعتباره كائنًا قدرًا ذا إفرازات كريمة لا حصر لها فاقتنع بأنّ في الإنسان من النوايا والسلوك ما يفوق الإفرازات الكريمة في قذارته. وقد زاره في رقاده الأخير. رأى الغطاء يشي بانتفاخ غريب في منطقة البطن، على حين لم يبق في الوجه الجميل سوى الجلد والعظم. ولما رآه يسري ابتسم ابتسامة خفيفة كأنما يلقي عناء حتى من التبسّم وقال بصوت ضعيف:

- لييب، اقترب، إنّي في حاجة إلى قلب محبّ... .

تفجّرت دموعه بإخلاص في تلك اللحظة. تذكّر الماضي الحيّ والعواطف الجياشة والذكريات المشتركة فأمن بأنّ يسري كان أصدق الأصدقاء جميعًا. كيف هان عليه أن يقتله؟ لقد انطلق الغدر من صميم القلب الأسود إلى المائة. كم ازدرى نفسه، كم ازدرى البشرية جميعًا! وساعده ذلك الاحتقار، بالإضافة إلى الخيبة في الحبّ، إلى التهادي في الاستسلام للوحش. وتبدّت فتحيّة في تلك الأيام مثالًا للجمال والحزن. رثى لها وشمّت بها. ألم تكن شريكته في جريمة القتل؟ وتأمّل بقسوة وحنق استقامتها

## الشیطان يعظ ١٧١

إلى التفاق فيفقدون الأمل في البطولة والنبل فما بالك  
بالضائعين...؟

وتساءل وهدان:

- لماذا لا تشترك في الحديث يا لبيب؟

فبادره على الفور:

- زوجتي تتكلم بلسان الأسرة... .

ثمة غيوم كثيرة لم تظهر بعد في الأفق. لقد بُعث  
أبوه من قبره على غرة منه. ليتها كانت امرأة مستغرقة  
بالأنوثة والبيت. إنها رجل أيضاً، تعاليم لا هودة  
فيها، ولا بدليل عن الكذب إلا بخوض معركة. وألح  
عليه شعوره بضعف الشخصية. ذلك الشعور القديم  
الذي فطن إليه بفضل نقده القاسي للذات وتضعف  
ثقلته بنفسه تحت ضغط إرادة أبيه الصارمة. ها هو لا  
يطبق الحياة بلا فتحة واستقرار الأسرة الزوجية. ولا  
شك أنها تحبه وستحبه أكثر ولكن يبدو أنها لا تفرط فيما  
تؤمن به. ولقد وجد في معاشرتها معنى على حين أنه لا  
يجد معنى وراء ذلك. وراء ذلك خواء وعدم ورعب.  
فبين يديه صخرة نجاة تتشل من الغرق وإن لم يُلح  
شاطئ آمن للنجاة قريباً كان أو بعيداً.

عندما ذهب الأصدقاء الثلاثة قالت له:

- عبد الباري شيطان فكيف تتعامل معه؟

فقال بحذر:

- الصداقة فوق تناقضات الآراء.

- الصداقة يجب أن تقوم على أساس أقوى من  
ذلك.

- بغير تسامح تصبح الحياة غير محتملة.

فقالت بامتعاض:

- إنه التهاون لا التسامح.

- إذا بالغنا في التدقيق فقدنا الناس أجمعين!

فتمتمت بأسف:

- يا له من مجتمع يكتظ بالقدارة!

أخيراً سمع رأياً يتفق معها فيه بلا حدود فرحب به  
قائلاً:

- إنّي أتفق معك تمامًا، فما الإنسان إلا كائن ذو

إفرازات كريمة ودوافع فظيعة مرعبة!

فرنت إليه بعينين دهشتين وقالت:

فقال بسرور خفي:

- ليكن ذلك غداً إذ إنّي دعوت عبد الباري  
وهدان وعدلي إلى فنجان شاي مساء اليوم.

## ٤

سُرّ بوجودهم حوله في الشرفة سروراً لا مزيد  
عليه. جالستهم فتحيّة وحثّهم على تناول الشاي  
والحلوى. إنهم أبناء شارع واحد وذكريات كثيرة  
مشتركة، ومطلعون أيضاً على دخائل أسرهم لدرجة لا  
يستهان بها. حتّى المرحوم يسري أحد فرضت ذكراه  
نفسها في سهو الحديث فمرّ على لسان فتحيّة مروراً  
عادياً فارتاح لبيب وأيقن أنّ الماضي قد مات تماماً. في  
أثناء الحديث قام وهدان التجلي ليصلي العشاء في  
ميعادها كمعادته فتوجّس لبيب خيفة مجهولة. لقد امتنع  
عن التردد اليوميّ على الفردوس كيلا يهجرها وحدها  
عقب نهار مرهق ولكنّه بيّن أن يسألها السماح بسهرة  
أسبوعية. وكالعادة شاع في المجلس الشكوى من الحياة  
اليومية، غلّو الأسعار، المواصلات، التليفونات،  
المجاري، حتّى تساءلت فتحيّة:

- ماذا تتوقّعون من دولة كافرة؟

فتساءل عبد الباري خليل:

- هل الإيمان يجمّف المياه الطافحة؟

فقالت بإبسامة متحدية:

- اسخر كما ينبغي لماركسيّ أن يسخر.

كره لبيب انعطاف الحديث إلى منعطف متفجّر  
ولكنّه لم يدر كيف يُسكت عبد الباري الذي قال:

- أسعد شعوب الأرض تعيش في كنف دول  
ملحدة... .

فقالت فتحيّة بقوة لم تبلغ الحدة إكراماً لأداب  
الضيافة:

- الإنسان بغير الله أتفه من ذرة غبار، ماذا نعرف  
عن هذه الشعوب؟ لا شيء في الواقع ما دامت محرومة

من التعبير الصادق عن قلوبها الخاوية... .

فقال عبد الباري:

- للبطولة والنبل ثمن.

- أيّ بطولة وأيّ نبل؟ حتّى المؤمنون يهبطون أحياناً

الشيخ اليانس والصرخة المكتومة فارتعد للذكرى.  
وسألته وهي تلقي نظرة على الصور العائليّة  
المعلّقة:

- على فكرة أين صورة والدك؟  
توجد صورة أمّه الشابة، صورة نظيرة هانم، صورة  
الشيخ سليمان، ولكن أين صورة داود الناطورجي؟  
عادت تسأل:

- سهو أم أنّه لا توجد صور له؟  
رحّب بحديث لن يضطرّ فيه إلى الكذب فضلًا عن  
فوائده الأخرى التي فطن إليها من اللحظة الأولى،  
لذلك أجاب:

- الحقّ أنّي لا أحبّ ذكراه!  
فحدجته باهتمام ودهشة قاتلة:

- إنه أبوك...

- ولو.

- يا للغرابة.

- لا غرابة في الدنيا.

- إنّي أتذكّره جيّدًا، كان أشهر شخصيّة في حيّ  
السكاكيني، ظلّ محترمًا حتّى بعد إحالته إلى المعاش  
بعد الثورة، اللواء داود الناطورجي، بيت اللواء،  
سيارة اللواء، أنت ورثت عنه طوله وروعته، وكنت  
وحيده، ما زلت أتذكّر منظرك وراء نعشه وأنت تجهش  
في البكاء...

فقال ببرود:

- كنت أحبّه، حتّى موته لم أجد نحوه إلاّ حبًّا  
خالصًا.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لقد ماتت أمّي وأنا دون العاشرة فلم أعرف بعد  
ذلك أمّا أو أبًا سواه، وانقضّ عليّ موته كالصاعقة،  
وكما انقضّ الماتم وآويت إلى الدار الخالية وجدتي لأول  
مرّة وحيّدًا، لا أمّ ولا أب، فلم أصدّق أنّه ذهب حقًّا  
إلاّ في تلك اللحظة، وعند ذلك اجتاحني شعور غريب  
بالراحة والأمان والحرّيّة، شعور يتناقض تمامًا مع  
حزني، ذهلت لذلك ولكنّي استشعرت بتمهّل السرور  
الخفيّ المثلج للمصدر.

فقال بوجوم:

- ماذا قلت؟ عنيت بالقذارة تخلخل الإيمان،  
ولكنك تتحدّث عن إفرازات ودوافع كأنك عدوّ البشر  
أنفسهم!؟

- أعتقد أنّي لم أتجاوز الحقّ.

- لا... لا... معذرة إن قلت إنّها نظرة غير  
عميقة. فما تشير إليه يمنع الإنسان من عبادة الله وغزو  
الفضاء.

تساءل في نفسه ألم يكن من الممكن أن يحدث ذلك  
بلا إفرازات كريمة ودوافع وحشيّة وسلوك دنيء؟!  
لكنّه جفل من التفوّه بكلمة زائدة بل هزّ رأسه كالمتنقح  
طاوياً صدره على أسراره...

٥

يميل الجوّ إلى شيء من البرودة ليلاً فيطيب الجلوس  
في حجرة المعيشة الموصولة بالشرفة. وهي مأهولة  
بطاقم من الإسفنج المدّثر بالقטיפيّة الزرقاء، يتوسّط  
جوارها الأيسر دولاّب من خشب الأرو يقتعد  
التلفزيون الملّون أعلاه ويستقرّ الراديو أسفله. رجعا  
منذ قليل من زيارة الأمّ نظيرة هانم مغممين بذكريات  
ابن خلدون فتبدّت فتحيّة منتشية على حين كتم هو  
انفعالاته المتناقضة المراوحة بين الجميل والمرعب. وفي  
أثناء تناولها العشاء مع نظيرة هانم أبدت المرأة جزعها  
من تأخّر حمل كريمةها. تذاكرا ذلك باسمين وقالت  
فتحيّة:

- ماما دقّة قديمة.

لكنّه في الحقيقة متلهّف على الإنجاب تلهّف من  
يروم تحصين ذاته المزعزعة ضدّ المجهول والخواء فقال:

- لها حقّ أيضًا يا عزيزتي...

فحدجته بنظرة متفحّصة فقال:

- يوجد الأطباء، لمّ لا؟

لم تعترض مما قطع بتلهّفها أيضًا. آنس من ذلك آية  
على حبّها له وزوال الماضي تمامًا. كما وجد فيها آية على  
أنوثتها التي يتمنى أن تغمر «الإمام المتصلّب» الكامن  
في أعماقها. لعلّها كانت قلقة طوال الوقت ولكنّها  
أحسنّت إخفاء قلقها. هي أيضًا لها أسرارها الباطنة  
كما إنّ له أسراره المرعبة. تمثّلت له الظلماء وحركات

## الشیطان یعظ ١٧٣

رقابته الصارمة. . .

وضحك ضحكة جافة ثم واصل:

- لم يكن يفوق عنفه إلا تعصبه الأعمى لأفكاره، من هذه الأفكار إيمانه بالمقاومة الطبيعية واحتقاره للدواء، ولما أصابني نزلة معوية قرّر أن يتركني لمقاومتي الذاتية، طالبته المريّة بإحضار طبيب فرفض، ومضيت أهزل من الإسهال يوماً بعد يوم حتى صرت كالخيال وهو لا يبالي، كان يمكن أن أفقد حياتي وأشفيت على ذلك ولكنّه لم يكتف، ولما نجوت بأعجوبة قال لي بفخار «إنك ابني حقاً ولن يهزمك المرض بعد اليوم، لماذا رحلت المرحومة أمك في عزّ شبابها؟. . . لأنّها كانت ضعيفة فلم ينفعها طب ولا دواء».

انسأقت فتحيّة إلى ضحك بلا صوت فابتسم هو أيضاً ثم قال:

- رغم أنني أجبرني على الالتحاق بالكلية الحربية، لم تجد توسلاتي ولا دموعي، محتجاً بأنّها كلية الرجال والحكام أيضاً، وأنها ستقذني من داء القراءة الويل، ولولا وفاته الفجائية. . .

قاطعته قائلة:

- لقد تساءلنا وقتها عمّا جعلك تترك الكلية، ولكنك لم تفد شيئاً من التحافك بكلية الحقوق!  
- كانت أفكارني مختلفة في ذلك الوقت، المهم أنك أنت نفسك تحدّيت أوامره وأنت لا تدرين!  
فتساءلت بدهشة:

- كيف؟

- رشّح لي ذات يوم عروسين هما كريمتا لواء على المعاش من أقرانه تاركاً لي حرية اختيار إحداهما ومعتبراً ذلك من ناحيته تنازلاً ديموقراطياً شاذاً، وكنت أحبك كما تعلمين فصارحته بذلك معتمداً على صداقته القديمة بالمرحوم والدك ولكنّه انفجر غاضباً.

فقطبت لأول مرّة متسائلة:

- لماذا؟

- بحجة أنّه لا ثقة له في بنات الأرامل.

فقلت باستياء:

- كان سيئ الظنّ بالنساء!

- وبالرجال والحيوان والنبات والجماد، شدّ ما انتقد

- إنّه ردّ فعل لشدة الحزن؟

- إنّه أفضح من ذلك، شعرت لأول مرّة بتحرّري من قبضة غليظة قاسية، تخيلت هول الكارثة لو أنني استيقظت في اليوم التالي فرأيتته واقفاً في الصالة يمارس رياضته الصباحية ويحاسبني على تأخيري في الاستيقاظ! جعلت تتابعه باهتمام وقلق فقال وكأنما يعينها هي بمغزى حديثه:

- مع الأيام جعلت أحاسبه على معاملته الصارمة لي فيحتدم الغيظ في قلبي ويشتمل الحنق، ويتوّد النفور وينتشر حتى انقلب كراهية سافرة. . .  
- لا أصدّق.

- فتحيّة، لقد بلغ بي النفور درجة حملتني على أن أبني لنفسي مدفنًا خاصاً حتى لا أرقد ذات يوم إلى جانبه!

هتفت:

- إنّه ما لا يتصوّره العقل. . .

- وفاة والدتي في عزّ شبابها كانت مصيبة لم أعرف أبعادها إلا فيما بعد.

- قيل إنّه لم يتزوج بعدها إكراماً لك. . .

- وهذه كارثة أخرى، فقد كرس حياته لينشئي على مثال مرسوم بدقة وصرامة، وراح يصبني في قلبه كأنني طينة لا هوية لها مستعينا بعنف لا مثيل له، هكذا تلقّيت الدين وشعائره كما تلقّيت كلّ شيء، العجيب أنّه لم يقرأ كتاباً في حياته، حتى دينة أخذه عن إمام جاهل اكتراه ليعلمه الإسلام ثم نقله إليّ نقلأ ميكانيكياً فحفظته ومارسته في جوّ من الفزع. . .

تمت بحيرة:

- أبي هو أيضاً من علمني ديني. . .

- كان أبوك من علماء الدين أمّا أبي فكان جاهلاً وإرهابياً!

- كنت أراك وأنت تتبعه إلى صلاة الجمعة. . .

- وحلني أيضاً على صلاة الفجر فكان يغليني النعاس في الفصل، وحلني على ممارسة الرياضة البدنية كالسباحة والعدو وحمل الأثقال بالعنف نفسه، أمّا ولعي بالقراءة فلم ينجف احتقاره له ولكن جهله بالكتب منحني فرصة فريدة للسياحة الثقافية بعيداً عن

- على أيّ حال كان أبي رجلاً من صنف آخر، كان جاهلاً ومتعجباً وقد وجد في الشكل مبتغاه، وكان يمقت المناقشة ويقاقل التساؤل البريء، كان يلاحقني من الصباح الباكر حتى النوم بالأوامر والتعليقات والمراقبة...

- ألا يشفع له عندك حسن نيّته؟  
فقال بامتعاض:

- كلاً.

- أكان كذلك في حياة المرحومة والدتك؟

- ذكرياتي عن أمي قليلة، أجل كانا مختلفان كثيراً، وكانت هي عصبية مستعدة دائماً للتمرد والتهديد بهجر البيت، وكان ينبغي أن أتعلّم منها ولكنّه نجح في استعبادي، تارة بالعنف، وتارة بإقناعي بأنّ أيّ استهانة بأوامره هي خروج عن إرادة الله المتعالى، ولو أنّي تمردت عليه حقاً لضمنت لنفسي حياة أفضل...

- حياتك مقبولة جداً...

فقال مضمّناً كلامه تنبيهاً لها:

- كانت حياتي لعنة ولكنّها لم تخلُ من عبرة، فقد علّمتني أن أتجنّب الاستبداد بالغير، واحترام الآخرين فكراً وعقيدة، علّمتني ألاّ أعتبر نفسي مقياس الخير والشرّ في الوجود!

وتساءل في باطنه ترى هل أحسن الدفاع عن نفسه؟!

٦

مضى من الخريف ثلثاه وتشبّع هواء الليل ببرودة مستقرّة. من مجلسها وراء الزجاج المغلق يرى البستانيّ نهاراً وهو يكتس الأوراق المتساقطة، وتلوح في السماء سحائب بيضاء وهي تهدد الشعاع الذهبيّ. فتحيّة تملأ الفيلاً بحركاتها الرشيقّة. ما أشدّ الفارق بين الكيمياء المتديّنة من الأنثى الدافئة! إنّه لتناقض يذكره بالتناقضات التي تمرّقه. بوسعه دائماً أن يهاجم أو أن يدافع عن أيّ رأي أو مذهب أو عقيدة، الحجج السالبة تعادل عنده الحجج الموجبة، ولكن لا أحد من أصدقائه يأخذ حديثه مأخذ الجدّ فهم يعرفون تماماً أنّ قلبه ينبض في خواء. وهو يرى في زوجته نساء

أصدقائي بلا سبب وكأنّما كان يرغب في أن ينشئي بلا صديق سواه، وفضلاً عن ذلك كلّه كان شديد الحرص فعاش في حدود معاشه ولم يمسّ ملئياً من دخله الوفير من عماراته، ولعلّ ذلك ما جعله يتمسك بالبقاء في البيت القديم بابتعاد خلدون متعللاً بأنّه راسم أن يعودني على الحياة البسيطة، وأعترف بأنّ ذلك لم يضايقني إذ إنّني لم أكن أطيق الحياة بعيداً عنك...

ساد صمت كئيب تبادل في نظرات باسمة وحزينة حتى قطعت الصمت قائلة:

- كان شخصاً غريباً ولكنّه عُرف في الحيّ بالقوّة والبهاء والتدين وحُبّ العزلة وبالتضحية بمسراته في سبيل وحيد، الله يرحمه على أيّ حال، أليس عجيباً أن ينحدر من صلبه رجل مثلك آية في الكرم والاتزان وحسن الخلق؟!

ارتجف باطنه برعدة قاسية. غشي خياله الظلام الذي أخفى الوحش والفريسة، وتجمّدت لعينيه نواياه القديمة بأنبيائها ومخالبها. وتساءل بفتور:

- ألا يحقّ لي بعد ذلك أن أكره ذكراه؟

فقال ضاحكة:

- كلاً، لا تنس أنّه وهبك الحياة والمال، ولكن ألم يخاط قلبك في حياته إثارة من عاطفتك الراضية؟  
- كان يرمي به شديداً متواصلًا ولكنّي أحببته دائماً، ولم يكن من الممكن أن تتسلّل إلى باطني عاطفة أخرى لأنّه كان يعيش في باطني أيضاً، في تلافيف غيّ ونبضات قلبي وأحلامي، كان الخوف يكمن هناك كالديدبان...

قالت متنهّدة:

- كان أبي شيخاً ولكنّه كان ذا عقلية متفتحة، ربّما كان يفضّل أن يعدني للبيت ولكنّه حين آنس منّي تعلّقاً بالتعلّم سمح لي بالاستمرار فيه، دخلت الجامعة أيضاً دون معارضة تذكر، وعلمني ديني أحسن تعليم فكرت حياتي للعلم باعتباره قراءة جديدة لدنيا الله...

فقال بحذر:

- كثيرون الحدوا بسبب العلم...  
- لا دخل للعلم في ذلك، الإلحاد عجز في النظر.

## الشیطان يعظ ١٧٥

- تمامًا ما دار من حديث في أول لقاء:
- أتوسل إليك أن تصغي إليّ.
  - إني مصغية.
  - موقفك طال وهو غير معقول.
  - لا أراه كذلك.
  - يُتَظَر من أساتذة الكيمياء حكمة تماثلها.
  - لا علاقة لذلك بالكيمياء.
  - كلنا سنموت.
  - إني متيقنة من ذلك.
  - لست الأولى.
  - ولا الأخيرة.
  - إني أحبك من قديم.
  - أشكرك.
  - إني أحب فتاة لا ذكرى.
  - هل يوجد فرق كبير؟
  - أظن ذلك.
  - لا أظن.
  - لا يمكن أن تضيع حياتك في رهبة.
  - لا ينقصني شيء.
  - لن أطلبك بالحب فلنكبل أمرنا للمعاشرة.
  - إنك كريم ولكنني آسفة.
  - لا تسدي الطريق في وجهي، دعيني أحاول وأحاول...
- في تلك الأيام لم يتحر بفضل مكر الحياة. لم تكن الخيبة خيبة الحب وحده ولكنها خيبة الحياة نفسها. هام بالحب كصخرة للنجاة في خواء فقد أي معنى. تعلق بأي شيء من صداقة أو دعارة أو شراب، شبع كثيرًا وغاص في الكتابة أكثر. بالإصرار نال أخيرًا مبتغاه. وكان فاتحة التحول عندها أن راحت تحاسبه على بقائه الطويل بلا عمل. تزوج فطار بها من ابن خلدون إلى المعادي. رضي بها بلا قلب. سرعان ما تفتح القلب وتغيرت الحياة. لكن مجلسه السعيد معها لا يخلو من توجس. إنه يخشى الإمام وصوت المؤسسة...

كثيرات، ثم فتحة ذات الرداء الأبيض العاملة في المعمل، وفتحة المؤمنة المتطرفة، وفتحة الفرائش الباهرة. أيهن أصدق؟ فتحة الغريزة أم فتحة المؤسسات؟!

قالت له ذات مساء وكانت متجهمة:

- اختاروا زميلًا دوني كفاءة لبعثة صيفية!

تساءل وهو يلحظ حنقها بسرور خفي:

- لماذا؟

- أسباب سخيفة طبعًا أهمها قرابته لأحد أعضاء مجلس الشعب.

- صحتك النفسية أهم عندي من البعثة.

- السكوت عن الخطأ أفحش من الخطأ، أثرت الموضوع عند المدير، وطلبت تحديد ميعاد لمقابلة وكيل الوزارة.

وعقب صمت قصير قالت مستعملة لغة الشعارات التي ينفر منها:

- على الحياة أن تكون جهادًا متصلًا.

ها هو صوت مؤسسة يعلو. الغضب الذي احتقن به وجهها هو صوت الغريزة. لعلها تمتلئ الآن بالرغبات المدمرة. باسم الدين أو العلم يمكن أن ترتكب فظائع. أسعده أن تشاركه ولو بصفة عابرة صدق الغريزة الوحشي. شرها يقربها إليه بقدر ما يبعدها تطهرها. اقتحمته ذكرى وفاة يسري أحمد.

عرف وقتها أنها عاهدت نفسها على البقاء عذراء احترامًا لذكراه. رفضت أيدي كثيرين. عنيدة وقادرة على الرهبة. تربص منتظرًا من بعيد. تابعت الأعوام حتى قاربت الثلاثين من عمرها. وهي مصممة وهو صابر متصبر. إنها اليوم قلقة لتأخر الحمل كلما جاءها الطمث تجهمت. لعل حبها ليسري لا يمكن أن يتكرر ولكنه قتل غريمه وفاز أخيرًا بامرأته. فعل الإنسان الأول. لدى ظهور الإنسان انعقدت عليه آمال كبار.

لم يئن الأوان لإعادة النظر؟ راثحته تفسد جو الأرض وفعاله يندى لها جبين الحيوان. ثم قرر أن يجرب حظه فمضى إلى مقابلة نظيرة هانم أمها. لم يتراجع أمام الرفض ولكنه طالب بالانفراد بها في حجرة الاستقبال التقليدية المذمومة الطاقم. إنه ليذكر

- إني مؤمن، حسبي ذلك.  
 حتى متى يكذب؟. أما هي فشرعت تقول:  
 - ليتني...  
 ولكنّه قاطعها قائلاً:  
 - كلاً، أرجوك، الزمن كفيّل بكلّ شيء.  
 فقالت بحرارة:  
 - ليت العمر يمتدّ بي حتى أشهد الله يحكم الدنيا  
 مرّة أخرى!  
 - آمين.  
 هيهات أن يخطر لها أنّ يسري أحمد هو من قادة  
 الإلحاد. لم يجد صعوبة في زعزعة إيمانه فقد صادف فيه  
 متوتّباً للتمرد على أبيه، كما وجده سريع الانقياد كما  
 طبعه أبوه. أجل خاض تجربة مرعبة معذبة ثمّ سرعان  
 ما وجد نفسه في كون بلا إله ولا حدود. وكان يسري  
 رغم إلحاده ذا خلق متين، وطالما قال له «النبيل أن  
 نعيش كما ينبغي لنا دون أمل». وقد حفظ ذلك القول  
 وردّده كثيراً. حتى حيال أقرب الناس إليه - عبد  
 الباري، وهدان، عدلي - أسدل على وجهه القناع. أما  
 الحقيقة فهي أنّه لم يستطع أن يلتزم بالنبيل فقتل ثمّ  
 ارتكب ما هو أفظع من القتل. ولم يتركه ضميره بلا  
 عقاب. وعجب لتطفّل ضميره الذي رسب في باطنه  
 منذ العهد القديم. آية على ضعفه وجبنه. عندما  
 يتحرّر منه تماماً يبلغ الصدق المنشود. سأله عبد الباري  
 «لماذا تركّز على السليّات؟... هذا ما يقتل أيّ معنى  
 للوجود». الحقّ أنّ إفراوات الإنسان وغرائزه هي  
 عقده لذلك هان عليه أن يكفر بمؤسّساته فيراها  
 هياكل خاوية وهميّة. إنّه يطوي أسراره في صدره أما  
 فتحيّة فتحدّث عن الصحابة قائلة:  
 - كانت أغلبيّتهم من الشباب، ما أكثر من  
 استشهاد متهم، كانوا يعشقون الموت!  
 ويقول لها بعقل شاردي:  
 - هكذا المؤمنون...  
 الإنسان يفوق الحيوان في شهوة القتل فيقتل نفسه  
 أيضاً. وهذه الزوجة المحبوبة لا تخلو من شعرة جنون.  
 كم تبدو مطمئنّة متألّقة كما يجدر بخليفة الله في أرضه!  
 بقدر ما يسخر منها فإنّه يوشك أن يحسدها. التناقض

بالروب، كذلك هو، فالجمال عند اقتراب الشتاء  
 يتوارى كالأزهار. كلاً إنّها مثل الأشجار دائمة الخضرة  
 ما زالت تعبق بأنوثة ريانة. وجاء وعد الطبيب أخيراً  
 منعشاً للآمال. ولكن في غمرة النعومة ينبثق سؤال  
 مثل:

- ما أخبار الشقّة؟  
 ينقبض صدره ويحيب:  
 - إني أتصل بالسّمسار كلّ يوم.  
 - هل تنظر في مراجعك القانونيّة؟  
 - طبعاً.  
 الكذب عادة يوميّة أيضاً. كما تطبّع به في عهد  
 أبيه. يقول وهدان المتجليّ «العمل قيمة عظيمة لمن  
 كان مثلك وزوجتك على حقّ». لمن كان مثلك يعني  
 لمن لا يربطه معنى بالحياة. لعلّه صدق. ولكن أيّ  
 جدوى في الاشتغال بقضايا المتطاحنين؟. وهي لا  
 تصدّقه تماماً فرجعت تقول:  
 - أحياناً يخيّل إليّ أنّك غير مهتمّ...  
 فيؤكد اتّصاله بالسّمسار. صوت أبيه يتردّد من وراء  
 القبر. إنّها متوتّبة دائماً لصبّه في القالب المنشود كأنّها لم  
 تسمع بمأساته مع أبيه. سيظلّ دائماً وأبداً فريسة  
 للمؤسّسات. كم سعى إلى الانخراط في مؤسّسة وكم  
 فشل. طبعه أبوه بطابع الانقياد فقتل قواه الخالقة.  
 - على فكرة لمّ لا تصلّي؟  
 آه. ابتنم ولم يجب.  
 - كنت قديماً تصلّي الجمعة والفجر.  
 هزّ رأسه صامتاً.  
 قالت برقة تخفي انفعالها:  
 - ما أكثر المسلمين وما أقلّهم!  
 أشار إلى قلبه وقال:  
 - هنا كلّ شيء.  
 - كلاً، كيف أقلعت عن الصلاة؟  
 قال ضاحكاً:  
 - تمرّدت على أبي عقب وفاته.  
 فتساءلت بجزع:  
 - إلى أيّ مدى؟  
 فقال بوضوح:

## الشیطان يعظ ١٧٧

زال يغتصبها ساعة بعد أخرى ويخدها يوماً بعد يوم .  
لقد فقد معاني الأشياء ولكنّه طمح إلى الحبّ باعتباره  
معنى مستغن بذاته وهو حريص على ألا يلحق  
بالأوهام . ممكّن أن نجد في الحبّ والزواج والذريّة  
معنى محلياً يستغاث به . غاب عن التلفزيون فتذكّر  
الموقف المثير . حين دعته إلى لقاء مفاجئٍ بحديقة  
الأمازون . عقب عدولها عن الرهينة وقبل إعلان  
الخطوبة . كان سعيداً باللقاء فوق البساط الأخضر .  
راح يعلن خططه عن الخطوبة والزواج حتى لاحظ أنّها  
ليست موجودة معه . فسألها :

- مالك يا فتحيّة؟

فقالت بوجوم :

- كان يمكن أن تمضي الأمور في طريقها المرسوم بلا  
كدر .

- وهي ماضية كذلك فأيّ كدر تقصدين؟

- إني أرفض الخداع وأمقت الكذب ولست نهّاة  
للفرص بأيّ ثمن .

فقال بضراعة :

- لا تركبني للحيرة .

فترثت قليلاً مكفّهرة الوجه ثمّ قالت :

- يوجد في حياتي سرّ لا يجوز أن تجهله .

خفق قلبه وتخيّل لعينه شيخ واحد . تساءل :

- أيّ سرّ؟

فقالت بحرارة متصاعدة :

- إنّه مأساة . . .

ثمّ في شيء من الاندفاع :

- وقعت المأساة وأنا طالبة ، كنت راجعة ليلاً من

بيت زميلة عقب ساعات من المذاكرة ، رحّت أقطع

حارة حمزة في طريقي إلى ابن خلدون ، وإذا بأنوار

الحيّ تنقطع فجأة فيغرق كلّ شيء في ظلام مخيف . . .

رجع الظلام بوحشيته فتجنّب ملاقة عينها بحذر

ولم ينبس فقالت :

- لن أطيل فالذكرى معذّبة ، هاجني شخص في

الظلام ، كتم فمي ، تصارعنا حتى فقدت الوعي . . .

تهدّج صوتها حتى سكنت ولكتّها تغلّبت على ضعفها

قائلة :

دائمًا وأبداً . كما مرّقه أمام كلّ شيء . حتى الانعدام  
الكليّ للمعنى لم يحقّ متناقضاته . أمّا فتحيّة فإنّها لا  
تردّد الشعارات فحسب ولكتّها تصدّقها وتؤمن بها .  
كيف يستمرّ التعامل معها؟ . إنّه حريص جدّاً على ألا  
تبتدّد سعادته وهماً من الأوهام .

## ٨

هلّت بشائر الأمومة . والأبوّة أيضاً . صادف ذلك  
أوائل الشتاء وأياماً ممطرة . راحت فتحيّة تحسب الزمن  
وقالت :

- سألد في سبتمبر ، شهر مناسب للولادة .

فقال بحبور :

- بالسلامة .

لاح في وجهها ذبول طارئٍ . أعقب ذلك فتور في  
العواطف . وهذان المتجلبّي أخبره أنّ ذلك يحدث كثيراً  
ولا يخلو من فائدة . قال له ساخراً «إنّه تغبّر له معنى  
ككلّ شيء» . اقتنع هو بأنّ متاعب الذريّة تقع حال  
تخلّقها في الأرحام . رمق الأمومة بأمل أن تشغل بها  
عن تربيته هو وتربية المجتمع الحديث . إنّها جديرة  
بهذا الختام السعيد . هنيئاً له انتزاعها من الرهينة  
والجفاف . لقد فسّر رهبتها القديمة على أساس  
خاطئ . تذكّر موقفاً لا يمكن أن ينسى . ثمة تصرّفات  
تهزّ النفس بنبلها حتى النفس الخاوية . احتسبا القرقة  
في حجرة المعيشة وهما يشاهدان سلسلة تلفزيونيّة .

بات البار خاوياً من قوارير الويسكي . عيناها  
السوداوان هادئتان متعبتان . إنّها سعيدة ولا شكّ  
وتؤمن بأنّه نبيل أمين . ما يزعجه حقاً هو أنّها تحبّ  
«الممثل» لا الشخص الحقيقيّ . الممثل رجل نبيل أمين  
مثقف لا عيب فيه إلا أنّه مؤمن سلميّ كغالبية المؤمنين  
في هذه الأيام . لكنّه ممثل ، شخص آخر ، ولو عرفت  
الشخص الحقيقيّ لوكتّ تقرّراً . هي ليست من النوع  
الذي يجبّ الجسد وحده . ليست من النساء اللاتي  
يجبّن اللصوص والبرمجية والقتلة . إنّها تحبّ بروحها  
وجسدها معاً . سلّت حبّ يسري أحمد لتقع في حبّ  
رجل وهميّ . أمّا هو فلم يبرح موقعه القديم . موقع  
العاشق الخائب . موقع المحبّ من جانب واحد . ما



المسرح وحده. لولا الحب والعناد ما أقدم على طلب يدها. كان حانقًا عليها بقدر حبه لها. وكان يعتبرها الحقيقة الوحيدة المتاحة له. ها هو الممثل يعن في التمثيل ويتهادى. على حين يخنفي الشخص الحقيقي ويدوب في الظلام. هو الظلام القديم الذي مكن له من الحب والانتقام. كان مرفوضًا معذبًا، رفضته فتحيّة كما رفضته الحقائق. كان لقيطًا ملقى في الوجود بلا أمل. وكان ينتظر خروجه من بيت صديقتها ليتبعها عن بعد. وانطفأت الأنوار فجأة وتمطى الظلام العميق. اعتقد أنّ الظلمة معجزة يجود بها الدهر. استيقظت شياطينه التي لم يعد يزرعها شيء. انقضّ على اللحم الجميل مدفوعًا بالهوس والرغبة والتحرّق على الانتقام. كاد يهلكها لولا أن أنقذها الإغواء. حملها إلى دهليز بيت قديم. انحصر في ذاته الهائجة ففقد الوعي بالوجود. نسي أنّه مهّدّد بقادم من فوق أو من الخارج أو بعودة النور. ثمّ مضى لاهنًا ذاهلًا لا يصدّق بالنجاة. مضى متشقيًا من ذاته، من أبيه، من فريسته، من الوجود نفسه.

كانت تتابع المسلسلة مسترخية باسمه...

## ٩

جلسا في مجال المدفأة الكهربائية. الجو في الخارج يصرخ ويزجر وإيقاع المطر يتسابع فوق الأشجار والنوافذ المغلقة. منظرها يستحقّ الرثاء. شحب لونها وغارت عيناها وانطفأ سحرها. وكان رمضان يطرق الأبواب فقال مداعبًا:

- سأصوم وحدي يا عزيزي.

قرّر إعلان الصيام على أن ينتهكه سرًا كلّمًا الخ عليه الجوع إيثارًا للسلامة. تمت:

- الله رحمن رحيم.

اعتقد أنّه نال حظوة جديرة بالتقدير ولكنّها سرعان ما سألته:

- ما أخبار الشقّة؟

اشتعل غضبه ولكنّه انكمث في أعماقه فقال:

- لم أوقّق إلى شيء مناسب بعد.

ابتسمت ابتسامة أحققتة فقال:

- لعلك أدركت بقية ما حدث!

- يا للفضاعة!

فاه بها وهو يرتعد فهتفت غاضبة:

- وحش... حيوان... قدر... جبان...

فردّ غائضًا في ظلمة باردة:

- وحش... حيوان... قدر... جبان!

صمتا ليستردا أنفاسهما... ترامقا في تعاسة،

كلاهما أتعس من صاحبه. تتم:

- أنت؟! يا للفضاعة!

ثمّ هزّ رأسه متسائلًا:

- أكان لذلك علاقة برفضك الزواج؟

فقلت على الفور:

- أبدًا، لقد اعترفت لأمي فلم يهدأ بالها حتى أصلحت كلّ شيء، فلم يكن ثمة ما يخيفني من الزواج.

حتى رأسه مصدقًا ولكنّها تجلّت أمامه في هالة وضيفة. قالت مؤكدة:

- كان يمكن أن يمضي كلّ شيء بلا إثارة من شك!

- أدرك ذلك.

فقلت بصوت واضح:

- ولكنّي أرفض الكذب والخداع فضلًا عن أنك

شخص جدير بالصدق!

فقال وبنائه ينهار:

- فعلت ما هو جدير بك.

- شكرًا.

فقال مزدردًا ريقه:

- لا يمكن الشك أن يرتقي إليك وقد ازداد

احترامي لك.

فتساءلت:

- ألا تخلو إلى نفسك بعض الوقت؟

- لا داعي من ناحيتي لتبديد الوقت.

فهمست باسمه لأول مرة:

- لبيب. إنك نبيل كما اعتقدت دائمًا.

هكذا وهب وسام النبيل والأمانة. أما كان يجدر به أن يعترف لها بدوره؟. بدا ذلك مستحيلًا، كان على القاتل المغتصب أن يتوارى. الممثل يتهادى اليوم على

## الشيطان يعظ ١٧٩

رأى شبح تحقيقي يقترب فقال:  
 - إني شخص في غاية البساطة.  
 - أقول أحياناً لنفسي إنه يكره العمل، إنه ينهك  
 في القراءة، إنه لا يهتم بشيء مما يهتم به الآخرون!  
 فرمقها بحيرة فقالت:  
 - من أنت؟ ما أنت؟... في البلد هموم وتيارات  
 ما موقفك منها؟  
 فتساءل وهو يفكر بسرعة وحذر:  
 - ألا يعيش الإنسان حياة كاملة بغير ما تسألين  
 عنه؟  
 - إنسان مثلك لا بد أن يكون صاحب رأي ولو  
 كان مفاده الكفر بجميع الآراء!  
 - لا حديث لنا مع الأصدقاء إلا ذلك...  
 - ألا تعدني صديقة أيضاً؟  
 - بل ولكنني أصون حياتنا مما يزعجها...  
 - أكنت دائماً تعيش في نطاق ذاتك؟  
 فضحك عاليًا. بوسعه أن ييوح بأسرار صادقة كثيرة  
 دون خطر. قال:  
 - لي تجارب حافلة.  
 فقالت بلهفة:  
 - هات ما عندك، حدّثني مرّة عن ردّ فعل عنيف  
 عقب وفاة أبيك!  
 - أجل، ردّ فعل اجتاح أبي وتراثه، ولعلك  
 تدهشين إذا عرفت أنّ المرحوم يسري أحمد هو أول من  
 ساعدني على التمرد، كان وقتها يتمرد على الإيمان فنفخ  
 في من روحه المتمردة وأشركني في قراءة كتبه فتعرّضت  
 لأزمة غير يسيرة وتبنيت الحادًا شاملًا...  
 تمتعت بامتعاض:  
 - فقدت إيمانك كلّه؟  
 - كلّه... وخيّل إليّ أنّي أكتشف العالم من  
 جديد...  
 - أدام ذلك طويلًا؟  
 - على فكرة، لا شيء يدوم معي طويلًا في عالم  
 الفكر، ما هو إلا طور يعقبه طور جديد، وفي أقصر  
 وقت يتصوّره العقل...  
 فقالت بقلق:

- سيجيء كل شيء في وقته...  
 لازمت الصمت ولكن وشي منظرها بقلّة الثقة  
 فواصل:  
 - وعدت وسوف آفي...  
 - يبدو أنك تفعل ذلك من أجلي.  
 فنفس عن صدره بالصدق ولو مرّة فقال:  
 - هي الحقيقة...  
 - ما زلت ترفض العمل؟  
 فقال ضاحكًا:  
 - الفراغ هو أمل الأحياء المنشود...  
 - إنك تعيش في الواقع لا في الحلم.  
 - دخلي يمكّني من أن أعيش الحلم...  
 فتساءلت بعتاب:  
 - تأخذ دون أن تعطي؟  
 فهتف محتجًا:  
 - إني أملك عشر عمارات تخدم المئات من الأسر،  
 وجريرة العمل أنه يشغل الإنسان عن التأمل...  
 - اليوم طويل وفيه متنوع لأشياء كثيرة.  
 - على أيّ حال لقد وعدت وأنا ملتزم بوعدي.  
 سكتت عنه. لا مفرّ من فتح المكتب. سيظاھر  
 بالعمل كما يتظاھر بالصوم. ربّما تورّط في العمل  
 أيضًا. إنّها أقوى منه وهذا يثيره. غيرت ظاهره ولا  
 يبعد أن تغير باطنه ذات يوم. ربّما أدّى الصلوات في  
 أوقاتها أيضًا. ربّما ساقته يومًا إلى الحجّ. الممثل  
 يتضحّم وتترامى أبعاده والشخص الحقيقي يموت.  
 متاعب متلاحقة يعانيتها من أجل الحبّ والحياة  
 الزوجية. إنه أدرى الناس بضعفه وانقياده. إنه أدرى  
 الناس بما تطّبع به على عهد داود الناطورجي. هل  
 يتاح له يومًا أن يقتل الممثل؟!.

\*\*\*

وسألته ذات ليلة:  
 - هل يوجد شيء لا تعرفه عني.  
 فأجاب متوجّسًا:  
 - إني أعرفك تمامًا.  
 - وأعتقد عادة أنّي أعرفك كذلك ولكنك تبدو لي  
 أحيانًا كاللغز...

للأب... .  
 فتساءلت بقلق:  
 - ماذا حدث بعد ذلك؟  
 - لقد اعتقلت، وتلقيت إهانات لا تُحصى ولكن ثبت عدم تورّطي في أيّ عمل غير مشروع فأفرج عني بخلاف عبد الباري الذي اعتقل طويلاً كما تذكرين حتى اشتهر أمره في الحي... .  
 - ثمّ؟  
 - زلزلني الاعتقال والإهانة، أكان ذلك ما كُفّرني بالماركسيّة؟ الذكرى غائمة، أمّا ما أذكره بوضوح فهو أنني عثرت على كتب الوجوديّة بلا مرشد، ولكنّ الكتاب كان وحده كافياً للإلقاء بي في عبث الوجود واللامعنى!  
 فقالت بحزن:  
 - ما أجدر رحلة تبدأ بالإلحاد أن تنتهي بالعبث... .  
 - صدقت!  
 - إنك قطعت في أعوام ما قطعتة البشريّة الضالّة في عمرها كلّها!  
 - صدقت أيضاً... .  
 - ثمّ؟  
 - حسّبه ما نفث به عن صدره وعليه الآن أن يرجع إلى التمثيل، قال:  
 - رجعت إلى الإيمان والحمد لله... .  
 - أكان وهدان المتجليّ وراء ذلك؟  
 - القراءة أكثر، والعناية الإلهيّة قبل كلّ شيء... .  
 فقالت بجديّة ملفتة للنظر:  
 - من حسن الحظّ أنّك تزوّجتني وأنت مؤمن وإلّا لوزّطتني في علاقة غير شرعيّة!  
 يا للدهاية! إنّها تعني ما تقول، وتتصوّر العلاقات على ضوء واضح صارم حدّ النصل. وأزعجه جدّاً أن تكون علاقته بها في الحقيقة - من وجهة نظرها على الأقلّ - غير شرعيّة. وما تمالك أن قال:  
 - يوجد ملحدون معروفون وهم في الوقت نفسه أرباب أسرا  
 فقالت بقوة:

- وهناك العواقب العمليّة لذلك!  
 - هو ذلك، إني لا أحبّ الكذب!  
 - وانتهيت إلى إهمال الدنيا!  
 فتفكر قليلاً ثمّ قال:  
 - لا أظنّ، العكس تمامًا ما حصل، اندفعت لاكتشاف الدنيا، وملء الفراغ، عند ذاك تسلّمني عدلي جواد ففتح لي باب الديمقراطية في وقت كانت تُذكر عادة مصحوبة باللعنات، فعرفت تاريخ مصر المجهول قبل الثورة، واستفزّني الحساس فطال لساني حتى استدعاني رجل الأمن بالكلّيّة وأندرن... .  
 - لذلك الحدّ؟  
 - أجل لم أكن سلبياً كما تتصوّرين، غير أنّ المرحلة الديمقراطية لم تطل ولم ترسخ فسرعان ما تقدّم الصفوف عبد الباري خليل!  
 - أعوذ بالله!  
 - تبوّأ مركز الأستاذ منّي وراح يعيرني كتباً عن المادّيّة الجدليّة والتفسير المادّي للتاريخ وصراع الطبقات والجنّة الموعودة.  
 فتمتعت ساخرة:  
 - رغم أنّك وريث دخل يربو على الخمسمائة الجنيه شهريّاً؟!  
 - اقتنعت تمامًا، ووجدت في تجاوزه طبقتي ما يشرفني أكثر... .  
 تزايد الاهتمام في نظرة عينها الذابلتين فواصل:  
 - اجتاحني الحساس للماركسيّة كما اجتاحني من قبل للإلحاد والديموقراطيّة، وإذن فأنا مريض بالاهتمام لا بعدم الاهتمام... .  
 فقالت بمرارة:  
 - ولكنك تتغيّر بسرعة مذهلة!  
 يا له من حكم صادق! فطن إليه بنقده المرهف للذات. سرعان ما يقع تحت سيطرة الصديق أو الكتاب. إنّه ضعف ملموس محسوس طالما حمل أباه تبعته. هو الذي طبعه بسرعة الانقياد. هو الذي جعل من ذكائه أداة سلبية في خدمة التلقّي وبلا طاقة على التمحيص والنقد. وقال بامتعاض:  
 - إنّه الشباب والحساس وردّ الفعل لخضوع طويل

## الشیطان يعظ ١٨١

ضرورة صحیة لها، وهي ترتدي اليوم فساتين مرسلّة، وتُعدّ عدتها لاستقبال الوليد. وشوقه إليها يزداد ومخاوفه تزداد أيضًا. شخصه الحقيقي لا يكفّ عن تعذيبه. إنّه يعيش وحده في عزلة تامّة، لا يمارس الحبّ ولا الزواج ولا حقّ له في التعبير عن ذاته. إنّه كامن في أعماقه في ذلّ، يغلي بالحنق، ويحلم بالثورة. غارق في العبث الذي وجد فيه الحلّ لمتناقضاته الماضية. هو الذي أخرجته من تردده المعبّ بين الإيمان والإلحاد، بين الديمقراطية والحكم المطلق، بين الماركسيّة والرأسماليّة. هو الذي أنقذه من الهياكل الخاوية ولكنّه أصابه بمرض جديد، مرض الفراغ والرعب. وفتحيّة لم تفصل بين الممثل والأصل فحسب ولكنّها تهدّد الاثنين أيضًا. ألا ينقاد لها ذات يوم كما انقاد من قبل ليسري أحمد وعدلي جواد وعبد الباري خليل؟ وأيّ عواقب تتربّص به إذا تحقّق ذلك الانقياد المتوقّع؟!

\*\*\*

سألته باهتمام:  
- أيّ مراحل حياتك تراها الأفظع؟  
بعد تأمل أجاب:  
- لعنّه العبث.  
- لماذا؟  
- لأنّه فراغ، والفراغ مرعب.  
- أوافقك تمامًا، أيّ مذهب وضعيّ فهو انحراف  
أما العبث فنشغل للعقل، وإذا سُلب العقل فماذا يبقى  
من الإنسان العاقل؟!  
أجاب بلا وعي:  
- لا شيء...  
- أيّ سخريّة أن تصوّر الإنسان لقيطًا في الكون،  
تجيء به المصادفة العمياء ثمّ يندثر بالمصادفة أو العجز!  
إنّها تذكره بياسه وهي لا تدري ولكنّه يوافقها  
بحماس قائلًا:  
- أحسنت التصوير.  
- يسرني أنّك تطالع كتب العلم بشغف، إنّه تؤكد  
المعنى في كلّ شيء!  
- تمامًا!

- ما هي إلا زيجات باطلة لا يبقي عليها إلا داء  
التهاون المنتشر... .

فحنى رأسه موافقًا أو متظاهرًا بالموافقة وهو يلحق  
هذا السرّ بأثامه الخفيّة. حقًا إنّ زواجه تجرّبة مثيرة  
اعترضت حياته لتهزّها من الأعماق. واستطاع أن يقول  
بنبرة المنتصر:

- ها أنت ترين أنّي لست عديم الاهتمام كما  
تصوّرت... .

- ولكنّ رحلتك تركت فيك آثارًا باقية... .

فتساءل بقلق:

- حقًا؟

- مثل تهاونك في شئون دينك وكراهيتك للعمل!  
فضحك ليخفّف من توتر أعصابه وقال:

- أخطاء محتملة ويمكن علاجها، ولعلّك أنت في  
حاجة إلى قدر من التسامح... .

فقال بحرارة:

- المسألة إيمان أولًا... .

- التسامح جميل أيضًا.

- أجل منه أن تطابق بين إيمانك وسلوكك... .

فتهادى في كذبه وخوفه قائلًا:

- إنّي ماضٍ بعزم في هذا السبيل... .

وتساءل في باطنه هل تتمخّض سعادته عن وهم  
زائل؟!

١٠

القلق يلازمه. رغم استهتاره بكافة القيم فالقلق لا  
يبرحه. مجلسها الليليّ يهبه شعورين متناقضين،  
السعادة والقلق. الشتاء يسحب أذياله وعمًا قليل تفتح  
النوافذ وتشيع البساتين في الحديقة. صحتها تبدو الآن  
أفضل ممّا كانت أول عهدا بالحب. وهي تفضّل  
الراديو على التلفزيون فيجاريها مرحبًا بأنّه لا يفصل  
بينها فصلًا كليًا. إنّه صادق في حبّها ولكن لا يجمعها  
إلا الكذب. من حسن الحظّ أنّها تصدّق «الممثل» ولا  
تدري شيئًا عن الأصل. وسوف تجيء النهاية عندما  
تطلّع على الشخص الرابض وراء الممثل. ما زالا  
يتمشيان عند الأصيل خاصّة بعد أن أصبح المشي

والمرارة والغضب. على سبيل المزاح قال له عبد الباري خليل:

- وراء كل عظيم امرأة!  
فأحنته ذلك جدًّا. إنَّه يشير إلى تغيّر أسلوب حياته  
ولكنّه يعلم في الوقت نفسه أنّه تغيّر ألقي عليه من  
الخارج قهراً بلا اقتناع ولا إرادة ولكن تحامياً  
للعواصف وإشاراً للسلامة وإبقاءً على راحته  
الشخصيّة. ولم يخفِ عواطفه فقال لأصحابه:

- إنّي غاضب.  
فقال له عبد الباري خليل:  
- إن تكن صادقاً في عبثك فلتعتبر الأمر كلّه فكاهة  
لا بأس بها.  
فقال بإصرار:

- ولكنني صادق بلا ريب.  
- ماذا يغضبك إذن؟ الضمير لا يوجد إلا في  
رحاب إيمان ما...  
فقال بحدّة:

- رواسب اللاوعي لم تُمتدّد بعد.  
- الرواسب هي مشكلتك.  
فقال وهدان المتجلبّي:  
- إنّي أضع الأمل في الممثل لا في الشخص، فلعلّه  
يندمج في دوره فينقلب تمثيله صدقاً مع الزمن!  
عند ذاك قال عدلي جواد:  
- لا بأس مطلقاً من أن تعيش الشخصين حفاظاً  
على أسرتك وحبّك!

كرّر جملته مرّتين ثمّ واصل حديثه:

- من من الناس حولنا يحظى بشخصيّة واحدة؟  
نحن في مسرح كبير، الجميع ممثلون، يقولون كلاماً  
جدّاً فوق الخشبة، ويتهامسون بكلام آخر وراء  
الكواليس، هكذا الجميع من القاعدة حتّى العلامي،  
فليس في حياتك شذوذ، احذر أيّ تصرّف جنونيّ، دع  
ذلك للمجانين من زبائن النيابة والسجون، عليك  
بالسلوك الجدير بعبيّ، ملاين يمثلون بلا فلسفة ولكن  
بوحى من غريزة البقاء، ويواصلون الحياة في ارتياح  
واستبشار وسرورا

ها هو ينفرد بنفسه ويزن تلك الأقوال بدقّة. إنّه

- حتّى المشكّك يسلم بوجود معنى وإن عزّ عليّ إدراكه.

- أجل، يسلم على الأقلّ باحتماله...  
وتأمل قوله بقلق. وازدادت مخاوفه. وغاب عنها  
وقتاً فلم يدر كيف تطرقت إلى موضوع الصلاة، كانت  
تقول:

- يستحسن أن تصلّي وأنت صائم، ولو شهر  
رمضان فقط!

ليس لديها اتهامات أخرى؟. ألا تحبّ أحاديث  
النساء؟. لم لا يقاوم؟. هل زاده شعوره بالإثم ضعفاً  
على ضعف؟. تتمم:  
- فكرة مقبولة...

إنّها تُحكّم الحصار حوله. إذا ولّى رمضان ستطالبه  
بالاستمرار في الصلاة. وستذكره حتّى بأنّ الصلاة لا  
تتفق وشرب الويسكي في ركن الفردوس. وسيجيء  
الحجّ في يوم من الأيام. سوف يتضخّم الممثل ضاغظاً  
بثقله المتصاعد فوق الشخص الحقيقيّ السجين. جعل  
يلحظها في فترات الصمت فيراها وهي تغمض عينيها  
إعياءً أو تنظر من خلال الزجاج إلى رءوس الأشجار  
المتوهّجة بأنوار المصابيح. حنق عليها. وحنق على داود  
الناطوريّ أيضاً. حنق على ضعفه وجبنه. عزّ عليه  
أن يتوارى في بيته تاركاً الممثل الغريب يعاشر زوجته  
أمام عينيه ويتلقّى حبّها ويهبها بكلّ وقاحة بذرة حياة  
جديدة. كلّ ذلك يحدث أمام عينيه وهو متوارٍ صامت  
مستسلم.

لاوّل مرّة من أكثر من عام تخلو الفيلاً من فتحيّة.  
انتقلت إلى مستشفى الولادة قبل ميعاد الوضع  
بأسبوع - لتوعكها المفاجئ - لتكون تحت الملاحظة  
الدقيقة والرعاية المتاحة. وجد نفسه وحيداً. لم يعد كما  
كان، ففي الربيع والصيف تكاملت شخصيّة الممثل  
وترامت أبعادها. إنّه يجيد الآن تمثيل دور المؤمن  
والمحامي، بل إنّه يسعى إلى تويّ القضايا حتّى لا  
يرمى بالحية. وشغل التمثيل جلّ حياته فلم يترك  
للرجل الحقيقيّ إلا وقتاً قصيراً يمضي عادة في السخرية

### الشیطان يعظ ١٨٣

ولكن بوحى الحب أيضًا. الحب ذو التزام ويحفل من الخداع. هل يدمر الحب باسم الحب؟. وكأنه أزعج الدفاع عن نفسه فقال لها:

- من يقرأ الصحف يقتنع تمامًا بأن الصفوة نفسها تعيش وجهين، وأنها لا تصدق مع ذاتها إلا وهي تمارس الشر في الخفاء!  
فقلت على الفور:

- المؤمن وحده من يعيش بوجه واحد.  
سرعان ما صمّم على ألا يقدم مختارًا على طعن سعادته طعنة الموت. سوف يألف هذه الحياة رغم قربها، وسوف يتحرّر مع الزمن من آلامها. ونسعت من الباب المفتوح نفحة خريف عذبة مختلطة بالأصوات الغامضة الصادرة عن سليمان.

ولكن حدث شيء.  
انطلق فجأة وبلا مقدمات من أعماقه المترعة بالقهر والقلق.

انطلق عملاقًا ثملاً حراً مزهواً بحقيقته الراسخة وتأثيره المطلق. كأن صدره انشق عن ثغرة متفجرة بانفجالات طاغية غامضة لتغزو الفضاء كله. استطاع خياله في تشوة من السكر الأصيل مستمدًا من المجهول قدرة شاملة. رأى بنظرة خاطفة الكون ماثلاً في صورة واحدة ملتحمة الأجزاء متعانقة الأبعاد تنبعث من بهائها نغمة ساحرة. في غمرة السكر الصافية مرق بكلّ قواه من قفص الزمن وعلا فوق المخاوف والحدرد. انغمس حتى قمة رأسه في انتصارات اللحظة الراهنة.

وبصوت غريب متهدج قال لها:  
- فتحيّة، أصغني إليّ، سأفضي إليك بأسرار مذهلة...

### ١٣

الخريف مستمرّ في نفث أنفاسه ولكنّ العذاب انتهى. الحزن يغشى الوجود ولكنّ العذاب انتهى. إنه غارق في هدوء عميق سبق بإعصار مدمر. تقوُّص المسرح وتلاشي التمثيل، استردّ ذاته، لا حبّ ثمة ولا زواج ولا سليمان ولا شعائر ولا قضايا. الجلدب

الآن متحرّر من ظلّها. وهي طريحة الفراش بين أيدي المرصّبات مشغولة بوعكثها عن المبادئ، تتأقّب لاستقبال الوليد الذي ستنشئه على مثالها. أجل لقد تلقى النصيحة العمليّة السديدة التي تصون له حياته وسعادته. سيعيش فوق المسرح زوجًا وأبًا ومؤمنًا ومحاميًا، ويبقى وراء الكواليس ضائعًا بلا معنى، قاتلاً، مغتصبًا، عزبًا، وحيدًا، ينتظر مؤنًا سخيفًا في أعقاب حياة سمجة. وكلّما ترامق الشخصان - الممثل والأصل - فعليه أن يتنسم، وإن شاء فليضحك، بلا همّ ولا غمّ، وليتذكّر أنّه لا يمارس شذوذًا ما، وأنّه يقدّم الملايين في حياتهم اليوميّة.

### ١٢

بدا في وقتٍ ما أنّ الصراع يمضي نحو مستقرّ. لاح الأمان أيضًا في الأفق مع سحاب الخريف. وقال لنفسه إنّ آثامه ليست شيئًا إذا قيست إلى آثام الآخرين من السادة القتلة وقطاع الطريق المتهادين فوق المسرح بين التهليل والتصفيق.

ولكن عادت فتحيّة فأشرقت الفيلاً بنورها. عادت إلى مقعدها وانتفض الوليد بحياته الجديدة فوق حجرها. لقد سمّته سليمان باسم أبيها وسوف ينشأ نشأة جديدة تقيه من وباء الانقسام وتحقق له وحدته. وتبدّت سعيدة بوليدها، سعيدة أيضًا بالرجل الذي أعادت خلقه من جديد. الحقّ أنّ استقراره تزعزع بحضورها. إنّها نقيّة صادقة. رغم تزوّمتها، بل رغم صرامتها وعنفها، فهي نقيّة صادقة. إلى جانب نصاعة بياضها لاح لونه أغبر قائمًا. حقًا إنّها ينبوع الحبّ والعذاب. من القلّة النادرة التي لم تحترف التمثيل فرجع مضطّرًا إلى المقارنة بين ذاتيها. في غيبتها ساد العقل والمنطق وسيطرت ذكرى الحبّ ولكن في حضورها انكشف الحبّ عن خدعة وفريّة. هذه السيّدة الجميلة الصادقة لا يمكن أن تبقى على حبّ قاتل مغتصب ضائع. ستقضي على العلاقة بعدم الشرعيّة. لا حبّ ثمة ولا زواج ولا أبوة في محضرها. المطاردة تعنف، واليأس يستفحل. وعجب لشأنه ولحدّة انقلابه. التزعزع لا يغزوه نتيجة لضعفه وحده

## ١٨٤ الشيطان يعظ

- والوحدة ولكنّ العذاب انتهى . من خلال جَوْ جنائزيّ  
 قاتم أطلت عليه وجوه الأصدقاء . لتوهم رجعوا من  
 زيارة واجبة للحَيِّ القديم . مسعى تقليديّ ولكن بلا  
 ثمرة .
- قال عدلي جواد:  
 - لا يمكن فهم تصرّفك .  
 - ما أهميّة ذلك؟ لكنّه كان حتماً من الحتم  
 وعاصفة لا سبيل لمقاومتها .  
 وقال وهدان:  
 - حزينها لا يوصف .  
 فقال عبد الباري:  
 - وغضبها كذلك .  
 وقال وهدان:  
 - لم تغفر لي سكوتي من أوّل يوم . . .
- رجع عدلي جواد يردّد:  
 - لا يمكن فهم تصرّفك؟  
 فقال:  
 - صعقتني بلا مقدّمات . لعلّه نوع من الجنون . . .  
 ثمّ تمتم بعد قليل:  
 - ولكن لا ندم ولا أسف . . .  
 فقال وهدان:  
 - قياساً على ما حدث يمكن أن يجذّ جديد لا يخطر  
 الآن ببال أحد . . .  
 فقال عبد الباري:  
 - قول حسن .  
 من ناحيته فلا ندم ولا أسف، ولا عذاب أيضاً .  
 ثمّة حزن عميق ولكنّه يتنفّس في الزمن .

# السُّلْطَان

فقال منصور بانكسار:

- لن تستطيع الرجوع يا مولاي...
- ماذا قلت؟
- عيونهم منتشرة، وخناجرهم مشهورة.
- ما أحبّ العباد سلطاناً كما يحبونني...
- لذلك دبّروا مؤامرتهم ليزعموا بعد ذلك أنك
- اختفيت، فإذا رجعنا اكتشفوا خيانتني لهم فانقضوا
- علينا كالشياطين...
- أنهزم تاركاً رعيتي تحت رحمتهم؟
- اهرب... اختفِ تماماً عن الأعين، لقد
- تظاهرت بخيانتك لأنقذك، دعني أرجع لأبشرهم
- بقتلك ودفنك!
- فاشتدّ امتقاع وجه السلطان وراح يقول:
- الملكة، الأفعى، الجباه التي تنحني وهي مثقلة
- بالنفاق والغدر، الألسنة التي تلهج بالثناء وهي تنقع
- بالسمّ، الجسد الذي يدعن للحبّ وهو يتراقص فوق
- موجة من الفسق المضمّر، كيف جرى ذلك كلّ من
- وراء ظهري؟!
- فقال منصور بأسى:
- ما أشدّ حزني يا مولاي!
- دع الحزن فما أملك الآن سواه، وسوف تفجّر
- الطبيعة في غشاوته شواظاً من نار الغضب والانتقام.
- اختفِ يا مولاي، اذهب إلى أقاصي الصعيد أو
- إلى برّ الشام، إليك هذه الصرة من الذهب...
- لبث السلطان جامداً وهو يتحوّل إلى شبح تحت
- أهداب الليل فقال منصور جزعاً:
- لا وقت لديك، اهرب قبل أن يسعى إليك القدر.

١

من فوق قمة المقطم لاحت قمة القاهرة مثل خلايا  
النحل، بيوتاً وعمائر متلاصقة متلاحمة، تمرق من بينها  
المآذن والقباب، يغطّيها الأصيل بستار رماديّ نعان.  
توقّف السلطان نوح عن متابعة السير، التفت نحو  
تابعه منصور وقال:

- اذهب، ثمّ عد قبيل الفجر.  
ولكنّ منصور لم يبرح. وقف واجماً حائرًا، فقال  
السلطان:

- اذهب فقد أرف ميعاد العبادة.  
وأخرج منصور من عباءته بلطة يلمع الموت في  
نصلها. رمى بها تحت قدمي السلطان، وقال بحزن:

- كُلفت بقتلك يا مولاي!  
فرمقه السلطان بذهول فواصل الرجل:  
- كان المتفق عليه أن أتوارى حتّى يجثم الليل ثمّ  
أزحف نحوك لأطبخ برأسك!  
فاصفرّ وجه السلطان غضباً مثل الشعاع الغارب،  
وتساءل:

- من؟  
- الملكة!  
- يا للشيطان! لها شركاء يا منصور؟  
- القائد كرداش... والوزير عقبة...  
- يا للفضاعة، قُصر من الرمال، عاصفة من الظلم  
تبغي اجتياح رجل كرس حياته للعدل!  
- إنّه الطمع في أرزاق العباد يا مولاي!  
استدار السلطان وهو يتمتم:  
- لأنكّلن بالمجرمين!



فتاؤه قائلاً:

- أودع الحياة بلا دفاع، أتطوع للموت، أهيمن  
مطارداً بلا رعيّة، تاركاً وراثي رعيّة بلا سلطان،  
مفسحاً المكان للمجاعة والأويثة. . .  
أكتب منصور على يد مولاه فبللها بدمعه، ثم غاص  
في الظلام.

٢

أقام السلطان نوح في أطراف المدينة فيما يلي المقابر.  
لم يكن يعرف وجهه إلا المقربون وقلّة من الرعيّة الذين  
شاهدوه في مواكب المواسم، فتنكّر ما وسعه التنكّر  
واستثمر الذهب في تجارة الغلال، فكان يتاجر نهائراً،  
ويعتكف ليلاً ليتفكر في الانتقام من أعدائه أو ليوصل  
عبادته التي شغف بها أيام ملكه.

وتسرّبت أنباء اختفائه مثل رائحة يتعذّر كتبها.  
عمل المتأمرون على نشرها فمضت من لسان إلى لسان  
ومن حيّ إلى حيّ. وأنهاها إليه بعض عمالته من  
التجار. أما سمعت عتياً يقال من اختفاء السلطان  
نوح؟ الناس حيارى محزونون يتساءلون، يقال إنّه كان  
يمضي الليل متعبداً فوق جبل المقطم، هل باغته  
وحش؟ هل اغتاله قاطع طريق؟ هل اعتزل في كهف  
مثل الرهبان؟ أما عن أحزان الملكة وحيرة الوزير  
والقائد فحدّث ولا حرج، ليتك ترى الناس وهم  
يتجمعون في الطرقات؟ ما أشدّ الأسى على المحبوب  
الغائب!

ثم أعلن النبا بصفة رسميّة فنادى به المنادون.  
وثُصّب وليّ العهد - ابن السادسة - سلطاناً، وعيّن  
الوزير عتبه وصياً، كما عيّن القائد كرداش وزيراً  
وقائداً.

تلقى نوح الأنبا كالمطارق فوق رأسه. سمع نعيّه  
على كلّ لسان. تبخّرت شخصيّته في الهواء. عاشر  
الموت وهو حيّ. عجز عن دفع زحفه تماماً. من مات  
في وعي الخلق فقد مات. هذا هو الموت الذي بدا له  
غامضاً فيما مضى. ليست الحياة قلباً يخفق أو دمًا يجري  
ولكنّها معنى يتردد في وعي الناس. وقد مات نوح. ولم

يعد التفكير في الانتقام مجدباً. لقد حلّ آخر محله فوق  
العرش، واغتصب غريب فراشه، وأدّت رعيّته ضريبة  
الحزن والدموع عليه. لم يعد لرجوعه معنى. سيهدم  
عالمًا أعيد بناؤه وتكوينه. وها هي الأعوام تمضي مؤكّدة  
موته، مقوّضة لدنياه، ومن الخير له أن يبذل ليله كلّ  
للعبادة، وأن يسلم للمقادير، وأن يمهد طريقه إلى  
اعتاب الله ورحابه.

وجاءته أنباء جديدة ذات لون داكن ضارب  
للمصفرة. لم يكن السلطان وحده الذي اختفى ولكن  
ها هو طعم الحياة يتغيّر، ووجهها يتجهّم، يعسر ما  
كان سيرا، ويمرّ ما كان حلواً، ويضنّ ما كان مبدولاً،  
ويغلو ما كان رخيصاً، والمعاملة تسوء، والشدة  
تضرب، والجبروت يستفحل، والظلم يغشى. ورجع  
الناس يتذكرون سلطانهم الفقيده، ويترحّمون على  
عهده، ورجع نوح يشعر بالحياة تدبّ في أوصاله ولو  
في صورة ذكرى، ولكنّ فيضاً من شائعات مدبّرة  
اجتاح العباد بغية تشويه سمعته. قيل إنّه كان مهملاً،  
وإنّه كان يتعبّد على طريقة الرهبان، وإنّه كان شادداً  
مدنساً، وإنّه جنّ جنوناً كاملاً حتّى دعا أهل بيته إلى  
عبادته. وارتاب أناس في حقيقة ما يذاع، وصدّقه  
آخرون، وحدثت بليلة ضاعفت من محنة الشدة  
والبلاء. وجزع نوح واكتأب، لقد رضي بالموت،  
ولكنّه عانى ما هو أفنك من الموت.

٣

وفي السنة الخامسة عشرة من اختفائه زاره صديق  
يدعى طالب. كان يلهث من الانفعال والبهجة،  
وسرعان ما ارتجى على أريكة وهو يقول:  
- قلب المدينة ينبض ببعث جديد.  
فسأله نوح بهدوء صار طبعه من طول التعبد:  
- ماذا حصل لقلب المدينة؟  
- ألم تعلم؟... السلطان نوح لم يمّت...  
فاقتلع هدوءه اضطراب طارئ وتمتم:  
- نوح لم يمّت؟  
- إنّه حيّ ويسعى بين الناس...  
- مستحيل يا طالب.

## الشیطان يعظ ١٨٧

- قسامته بالنبل. تطامن لتقبيل يده ثم قال:
- نبايعك من جديد كما بايعناك أول مرة.
- فقال السلطان المبعوث:
- فليؤيد الله المؤمنين.
- ليكن النصر على يديك.
- أسبق لك أن مارست القتال؟
- كنت جندياً قبل أن أصير تاجراً...
- إذن تنضمّ إلى قوّاتنا...

## ٥

قال نوح لنفسه إنّ الرجل سلطان حقيقي لا شك في ذلك. وبقدر ما هو سلطان بقدر ما أنا ميت. أعدمت نفسي اتقاء الموت، واتخذ هو هويّة غير هويّته متحدّياً الموت. ولم يعد لي من أمل في الوجود إلا تحت جناحه. هذه هي لعبة الحياة والموت التي خسرت فيها حياتي. وإنه لرجل مخلص ينطلق بكلّ قواه وراء العدل المفقود. ينطق وجهه بالنبل والصراحة والعزم. وإن تصدق فراستي فيه فما أهميّة أن يكون السلطان الحقيقي أو لا يكون؟

وانزعته نفسه إلى الرجوع إلى عزلته ولكنّه سرعان ما خجل من ضعفه فقرّر أن يصير جندياً في جيش السلطان وأن يجعل من الجهاد عبادته.

## ٦

وتوّب الجيشان للقتال. وكالعادة المتبعة في تلك الأزمان تقدّم القائد كرداش متحدّياً السلطان لنزاله. وكلّما تطوّع لمقاتلته فارس صرعه. وكان السلطان الجديد زعيماً أكثر منه مقاتلاً، فخرج للقتال السلطان الحقيقي. ولم يعرفه كرداش. تبادل ضربات عنيفة، وتمكّن نوح من خصمه فجنّده. ووقف فوق رأسه وهو ينزف، وقال:

- متّ أيها الخائن، ألم تعرفني بعد؟
- ورنا إليه كرداش ببصر معتم فعجز وجهه عن التعبير عن ارتياحه فغمغم:
- أنت! ... لا ... لا ... لا ...

- هي الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان!
- رأيتك بنفسك؟
- أجل.
- أكنت تعرف صورته من قبل؟
- طالما رأيت في الأعياد...
- ووجدته أنّه هو هو؟
- بنصّه وفصله!، وقد تعرّف عليه كثيرون...
- يا للعجب!
- وسرعان ما التفتّ حوله المظلومون...
- وماذا فعل السلطان الشابّ «المتوكّل»؟
- القتال محتدم بين الفريقين، بين المتوكّل ونوح، وما زال رجال نوح يقاتلون في جماعات متفرّقة ولكنهم ينهكون جيش السلطان...
- فتمتم نوح في حيرة:
- قتال بين الأب وابنه!
- الابن يزعم أنّ الآخر دجال دعوي!
- ولكنّ نوح يعرف أنّ غريمه هو ابنه...
- فقال طالب بحماس:
- في سبيل العدل يهون كلّ شيء!

## ٤

زلزلت نفس نوح فسألته من عزلة العبادة إلى خضمّ الدنيا. سمع اسمه يتردّد على السنة العباد، سمع الحناجر وهي تهتف به، وتستنجد به على ما تعاني من جور وظلم. خيّل إليه برهة أنّه بُعث، أنّه حيّ، أن قد مات الموت، ولكنّه سرعان ما باخ وانهمز، فأدرك أنّ الحيّ رجل آخر، لعلّه دجال أو مجنون أو داهية، وأنّه جاء ليؤكد موته هو إلى أبد الأبدين.

وقال له طالب:

- قم بنا إلى معسكره خارج باب الفتوح لمبايعته...

ناقت نفسه إلى رؤيته فمضيا معاً في غلس الظلام حتّى انضبا إلى جموع لا حصر لها، ووقفا في طابور طويل، مقدّمة أمام خيمة السلطان وذيله عند مشارف الصحراء. ومثل بين يديه فوجده يمثله في الطول ولكنّه أدقّ في البناء، تضيء عيناه بنور قويّ، وتسم

سلطانهم والتحم الجيشان في قتال مرير حتى غروب الشمس.

٨

واستدعي نوح إلى لقاء السلطان فسأله بجفاء:

- لم تقض على عدونا وعدوك؟

فقال نوح معتذراً:

- لا أقتل الأعزل يا مولاي!

فقال بغضب:

- بل أهدرت حقك، وأبحت دماء المئات من

رجالنا!

لم يشك نوح في صدق قوله، وغاص في الحزن

والكآبة...

٩

وعاد الجيشان إلى الاشتباك في اليوم الثالث. وعند الظهر رجحت كفة السلطان الجديد، ووقع السلطان الشاب ورجاله في الأسر. ودخل الجيش المنتصر المدينة دخول الظافرين فاستقبله الخلق بحماس وسعادة.

وأمر السلطان فرج في السجن بالسلطان الشاب والملكة وكبار رجال الدولة.

واستدعى السلطان الجديد نوح وقال له:

- أنت أيضاً ستوضع في السجن حتى يبت القاضي في أمرك...

فتساءل نوح ذاهلاً:

- ألا يشفع لي ما أبليت في القتال؟

- لا تشفع لك إلا براءتك!

١٠

هكذا جمع السجن بين الجميع وهم مكبلون بالسلاسل. وكان أول من عرف نوح تابعه القديم منصور، الذي انقذه من الغدر، والذي صار بعد ذلك حاجباً مكافأه له على جرمته الوهيمة. نظر نحو

سيده بذهول ثم هتف بفرح:

- مولاي...

وفاضت روحه.

والتحم الجيشان، وكان السلطان الشاب يقود جيشه بمهارة أثارت إعجاب نوح. وتواصل القتال حتى غابت الشمس وراء الأسوار فتراجع كل فريق إلى معسكره.

٧

في اليوم التالي برز السلطان الصغير من بين الصفوف مطالباً بالنزال. وخرج لنزاله فارس فدارت معركة شديدة تابعها نوح بقلب خافق. وجد نفسه يتمنى السلامة لابنه. وشعر بالإنتم لتمنياته... غشيته كآبة ثقيلة. ولما انتصر الصغير أغمض نوح عينيه كأنما يفر من عذابات هذا العالم.

واستمر السلطان الشاب في تحديه للأبطال. وتكرر انتصاره حتى قال السلطان الجديد لنوح:

- اخرج له فإنك فارس مدرب!

فتردد نوح غارقاً في جيشانه فقال له السلطان بنبرة آمرة:

- اخرج والله ناصرك.

فلم يجد نوح مفرأ من الخروج.

ولم يعرف السلطان الشاب أباه، ولم يفتن إلى ما يتصارع في صدره من الانفعالات المتضاربة، وقال له بحقد:

- أنت قاتل كرداش، وسوف تدفع ثمن جنايتك...

والتحم الأب وابنه، الابن يندفع لقتل أبيه، والأب يتلقى ضرباته بمهارة ويفسدها بحلق متجئباً في الوقت نفسه إصابته. ولكن مهارة الابن أوقعت في مركز حرج فقد صمم ضربة قاتلة عرفت طريقها إلى مقتل أكيد فلم يجد الأب بدءاً من مبادرته بضربة اطارت سيفه وتركته أعزل.

توقف السلطان الشاب متوقفاً بالضربة القاضية، وتردد نوح، على حين هدرت الأصوات من جيش السلطان الجديد:

- طير رقبتة...

ولكن نوح شل تماماً فهجم جنود ابنه ليحموا

## الشيطان يعظ ١٨٩

- فحدّق الجميع به حتّى عرفوه وسرعان ما ارتعدت  
فرائصهم. وصاح منصور بسلطانه الشابّ:  
- هَذَا أبوك يا مولاي، هَذَا سلطان مصر  
الحقيقيّ...  
وراح نوح يقَلّب عينيه ما بين الملكة والوصيّ القديم  
وابنه، ثمّ قال:  
- أجل إنّني أبوك، غدر بي رجالي وأمك وأنت لا  
تدري...  
فتمتم السلطان الشابّ:  
- أبي!  
- أجل، إنّني أبوك نوح، ضحيّة الخيانة والغدر...  
- ولمّ كبلوك بالسلاسل مثلنا؟  
- جزاء امتناعي عن قتلك...!  
فقال الابن بتأثّر:  
- طالما حيّرتني ذلك...  
- ولكن لا مفرّ من الجزاء.  
وراح نوح يردّد عينيه بين الملكة وسائر الرجال  
الذين خانوه ثمّ قال متهكّماً:  
- انعموا بعاقبة الخيانة...  
وأوماً بلحيته إلى شخصه وقال:  
- ولأنعم بعاقبة الغفلة!

# أيوب

١

حول الفراش الوثير ذي المرآتين المتقابلتين تجلس أفكار ونبيلة ووفيق. في الأعين نظرة حزينة مواسية. بؤرة تستورد العطف بعد أن كانت تصدّره. لا يفارق أحد منهم الحجرة ولكن حتى متى؟. إنّه رقاد يبدو الّا نهاية له. والحياة هي الحياة لا أكثر ولا أقلّ. قلت متجاهلاً انفعالاتي الجياشة:

- أمر ربّنا، فلنواجه الأمر بشجاعة وبساطة.

فقلت أفكار:

- رأيي أن نساfer إلى الخارج.

فقلت بشجاعة لا أشعر بها:

- لم ينصح أحد بذلك، جئنا بأكبر أخصائيّ عالميّ

وأخذ الشيء الفلانيّ...

- لا شكّ توجد في الخارج استعدادات لا تتوفّر هنا.

فقلت باسمًا:

- المسألة أنك تؤمنين بالخارج.

وقالت نبيلة بصوت متهدج:

- قلبي معك يا بابا.

الكلمة اللطيفة تمّن نحبّ مثل الكورتيرون وأنجع.

قلت:

- أسأل الله أن يكفيكم شرّ المرض.

وفيق متجهّم الوجه ولكنّه متمالك لأعصابه. كما ينبغي لرجال الأعمال. والولد سرّ أبيه. قال:

- ستهض معاقّي، إنّها محنة صبر وتصبر.

فابتسمت له فقال مستطرّدًا:

- لك أن تطمئنّ تمامًا إلى سير العمل في المكتب.

- طمأنيتي من هذه الناحية كاملة.

إنّه سجن بلا قضبان. وبلا ذنب أيضًا. عليّ من الآن فصاعدًا أن أحمل جسمي بعد أن حملني خمسين عامًا. حيثيات الحكم تبلورت في مرثية طبيب الأسرة صبري حسونة إذ يقول:

- لا مجال للخداع، سيطول بك الرقاد، الكورتيرون فعال ولكنّه لا يخلق المعجزات، المسكنات والمهدئات فعالة أيضًا في مقاومة النوبات، ولكن عليك أن تتزوّج من الصبر، لا تتصوّر أنّ حجرة نومك زنزانة، كلاً، لديك الراديو والتلفزيون والجرائد والمجلات، معك الهانم وأنسة نبيلة، ووفيق مشهود له بالكفاءة، أصدقاؤك كثيرون ولن يتخلّوا عنك، المهمّ أن تسلّم بالقضاء وأن تنجّي عنك العناد والحسرة، والله معك...

لست أسير حجرة فحسب. الحقيقة أنني أسير الفراش. حتى الحمام أحمل إليه كطفل. أعاني الألم على فترات ولكنّي أتمجّع العبوديّة طيلة الوقت. إنّي محتجّ لحدّ التمرد. أضرب كفًا بكفّ. لا أدري متى أذعن للقضاء. الصدمة شديدة تدهم النفس بعنفها وقسوتها ولا مبالاة. لماذا؟... لماذا؟. أين الحياة الشريّة الحافلة؟! أين تلال الأموال الطائلة؟! أين المكانة المرموقة؟! في الخزائن والذكريات ولا شيء معي. ويجيء الأطباء من الداخل والخارج. يُجمعون على حكم لا استئناف له. يناقشون الأسباب وما تراعت لي إلّا ضربة عابثة. ويبقى اليأس والمفاصل المتورّمة. ويتفشّى اليأس والأسى. ويل لعابر العواصم الكبرى من أغلال مستحكمة.

## الشیطان يعظ ١٩١

- لا تعترض على قضاء الله . . .
- فقلت مستدرکًا:
- أحده على أي حال .
- لیکن ذلك من قلبك .
- كيف لنا بإدراك حکمته!
- عسى أن تکرهوا شيئًا وهو خير لكم .

تتابع الشعارات الدينيّة من قوم لا يحفلون من الدين إلا بقشوره. أنا مثلهم أيضًا. طالما نذرت بإلحاد أعدائنا وأنا سكران. ما أعجب أن يتبادل أناس الأكاذيب وهم يعلمون أنهم يكذبون! الأدهى من ذلك أنّ بعضهم لا يفتن إلى كذبه. ولم تخدعني حرارة مؤدّتهم. زميلنا إبراهيم جندیة المشلول منذ عام منذًا يذكره اليوم؟. وقتنا - نحن رجال الأعمال - لا يتسع للوفاء. ولن أطلب الدنيا بما ليس في دستورها. إنّنا نقُدّس الوقت والنظام. ونذكر تمامًا أبعاد حياة العمل ومقتضيات العصر. سوف يطول الرقاد. غالبًا حتّى النهاية. إنّها الوحدة بلا صديق . . .

## ٣

من جنون الحركة إلى جنون السكون، هذه هي الرحلة. اليوم بسنة كما تقول الأغنية. الآن أسمع الأغاني لأول مرة. لا استيعاب لها بعد فما زال الشعور مكتنّظًا بالاحتجاج والضجر. لكنّه سماع لا يخلو من اكتشاف على أيّ حال. في الماضي كنت أعطي الأغنية من انتباهي ما أعطيه الشحاذ وهو يرّد شعاراته. رغم اهتمامي بالغناء في صدر الشباب. ثمّة عادات جديدة مقبلة. وتدخل زكيّة بجسمها القصير البدين المتحدّي لتنظيف الحجرة. أقول لها:

- افتحي النوافذ ليدخل الهواء والشمس .

نحن في أواخر الربيع، سيقبل الصيف ولكن لا مصيف ولا انتفاع بجهاز التبريد. تقول زكيّة:

- ليتني بذلك يا سيدي .

كذبة حلوة وما أكثر الأكاذيب. أشرئب بعنقي ناظرًا من النافذة فأرى النيل وشاطئه الآخر. النيل يجري بسمرة الشاحبة والشمس تغطّي مساحة منه ببراءتها الفضيّة. أراه أيضًا لأول مرة. الباص النهري

- وسوف أرجع إليك عند كلّ خطوة .
- لا يهمني من ذلك إلا أن أراك كثيرًا .
- فقلت أفكار:
- أقترح أن نتناول طعامنا هنا معًا . . .
- فقلت:

- الإفطار فحسب أما الطبخ فله رائحة يعافها الإنسان إذا شبع! وضحكت بلا سبب لأقنعهم باستعلائي على المفاصل ثمّ قلت:

- لا يمكن أن تنقوا حولي إلى الأبد، إنّني أكره أن أكون عبئًا عليكم، فلتسير الحياة سيرتها المألوفة .

إنّي أستبق المتوقّع والمألوف والطبيعي كما يجدر برجل مجرّب في الخمسين من عمره. لن أطلب الدنيا بما ليس في دستورها. ثمّ إنّني أحبهم .

## ٢

هرع الزوّار إلى قصري من كلّ ناحية. اكتظت مواقف السيّارات بشوارع المعتمصم بجاردن سيتي. المقاولون وتجّار الجملة والموزّعون وأصحاب مكاتب الاستيراد والتصدير وبعض المسئولين. كنت محورًا دائرًا لكون هائل فأمسيت مركزه الجامد ولو إلى حين. يقبلون الجبين ويجودون بنظرات المودة والثناء. ثمّ تتضارب الأقوال:

- لم يعد شيء على الطّبّ بمستعصم . . .

- أقرب مثل ابن أختي، اعتقدنا أنّ حال مفاصله مزمنة، وهو يمشي اليوم مثل جواد السباق!

- كيف تكون لنا ليالٍ قمرية والقمر غائب!

- اعتبرها هدنة سترجع بعدها فارس النضال المرموق .

- ولكن لا تنس أنك أهملت نصيح طبيبك باستهتار غير محمود.

تمتت:

- العمل والحياة . . .

- والصحة؟ . . . أليس لها حتّى أيضًا؟

فقلت متأفّفًا:

- الحقّ أنّه عقاب لا أستحقّه . . .

مضت الحياة الجديدة تفرض عليّ ذاتها كواقع يجب التسليم به. لم يفارقني الشعور بالعبودية ولكن استجابتي نفسي للرؤية والسعاس والقراءة، بل اكتسبت عادات التفكير والتأمل والحلم وإن ناوشتها كثيراً أحلام اليقظة. ألفتُ الرجيم والدواء وداويت نوبات الألم بالمسكنات والمهدئات. بات وفيق همزة الوصل بيني وبين العمل. فما زال يصدر عني الاعتقاد والتوجيه. واشتدّ حرصي على متابعة العمل باعتباره باب الأمل الأخير.

وجاءني مرّة بحساب البنك عن أموال السائلة البالغة خمسة ملايين من الجنيهات فخطر لي أن أسأله:

- متى يشبع الناس من اكتناز المال؟

فأجاب وهو يرفع حاجبيه الكثيفين:

- لا حدّ للنجاح، وما قيمة الحياة بلا عمل؟

هكذا رأيته منذ الصغر. تخرّج في التجارة مثلي.

نجحت في تنشئة كابن رجل يعبد العمل لا كابن مليونير. وهو يسهر في كلّ ليلة في الهرم ولكنّه لا ينفق كالمجانين. يملك سيارة مرسيدس طراز ٧٨، ويتكفّل في الليلة عشرين جنيهاً ولكنّه يغضب لإنفاق مليم في غير موضعه الضروري. إنّه صديق ولا يخفي عني شيئاً، وطالما سهرنا وشربنا معاً. وقد داخلي قلق لدى أوّل عهده بالسهر فإني أكره التبذير وحسبنا ما تبدّده أفكار ونبيلة ذات اليمين وذات اليسار. يومها قلت له:

- تمتع بحياتك ولكنّي أكره أن يبذد السفه ما يجمعه العرق والمغامرة.

فقال لي بوضوح مريح:

- أوافق على رأيك تماماً.

وسرعان ما تبين لي «عقله». ترامى إليّ أنّ أصدقاءه يطلقون عليه على سبيل الدعابة «التن». لم يسرني ذلك بطبيعة الحال ولكن كان أحبّ إليّ من أن يُعرف بالمسرف أو المجنون. وحذّرت مرّة قائلاً:

- النساء... النساء...

فقال لي مطمئناً:

- إنّي أجنّب العلاقات الدائمة أما العابرة فلا ترهق عادةً.

يتحرّك حاملاً القادرين على الحركة. أناس يسرون على الشاطئ والحمام يطير أسراباً. السيارات تتتابع في حركة متصلة. كلّ شيء يسير إلا الشجر. طابور الجازورينا ثابت رغم شموخه ولكن دون مبالاة ولا ملل. كما أقبلت أفكار في رويها الفضيّ قلت لها:

- انقلي الساعة إلى خارج الحجر...

رفعت من فوق حاملها الرخامي بصندوقها المذهب ويندولها المتحرّك. وُضع تلفزيون ناشيونال مكانها، كما جيء براديو فوق التابل دي نوي. حملت إليّ الجرائد والمجلات، عربيّة وإنجليزيّة وفرنسيّة. إنّي أقرأ أيضاً لأول مرّة. كنت قبل ذلك متصفّحاً للعناوين لا تجذبي إلا أنباء السوق والأسعار والأوراق الماليّة. بالمقارنة النسبيّة فإني أسمع وأرى وأقرأ والبقية تأتي. وأحاول أن أتذكّر أحياناً. رؤى قديمة لم يبق منها إلا ذكريات شاحبة. لعلّ أفكار نسيتهها تماماً. متى أقترن حقاً بالحياة الجديدة؟!

العادة تحتوي «المصيبة» فتمتصّ حرارتها. أجل أبت الأسرة أن تصطاف هذا العام وأصمّت أذانها عن سماع إلحاحي. عدا ذلك قد شغل وفيق بالكتب ولكنّه يلقاني يومياً أكثر من مرّة. أفكار ونبيلة تتردّدان على النادي من آن لآن وتستقبلان الصديقات ولكنها تُمضيان جانبي وقتاً لا يستهان به. زيارات الأصدقاء تقلّ يوماً عن يوم. التليفون يحلّ محلّ الزيارة كثيراً. اختفى أناس تماماً كأنما لم ألهمهم إلا في إحدى محطات السفر. وحدي أكثر ساعات النهار والليل. أسمع، أشاهد، أقرأ، أتصبر. متى تشملني العادة بسحرها العطوف؟! متى يخلّصني أنس التلفزيون والراديو والفكر من الوحشة؟ متى تعوّضني عن السوق والرحلات والسهرات؟ متى أنسى عالم السحرة الحائزين لخاتم سليمان؟ متى أنسى إلهام المال المفعم بالسيادة؟ ألا يكفي أن يحظى وفيق بالحيويّة والانتشار؟ ألا يكفي أن تضفي أفكار ونبيلة غشاء المجتمع الحريريّ وتقتين كلّ ثمين وجميل؟

عجيب الحياة، غيفة الحياة، محرّة الحياة...

## الشیطان يعظ ١٩٣

العريض الذي استعارته مني. قالت أفكار:  
 - إني أعتبرها جريمة.  
 - ما هي؟  
 - للمرة الثالثة ترفض عريسًا دون حجّة مقنعة.  
 فقالت نبيلة:  
 - هذا شأني وحدي.  
 فقلت بركة:  
 - أوافقك تمامًا، ولكن من العريس؟  
 فأجابت أفكار:  
 - شاب، مهندس، أبوه مستشار.  
 - من النادي؟  
 - نعم.  
 - مواصفات مقبولة ولكننا لم نسمع رأي المتّهمة؟  
 فقالت نبيلة:  
 - لا يعجبني وكفى.  
 فتساءلت أفكار:  
 - ترى من يجوز إعجابك؟  
 فقلت بهدوء:  
 - سنعرفه في حينه.  
 - إنّها لم تعد صغيرة.  
 فقلت:  
 - بنت عشرين صغيرة في هذا الزمن، وهل يُحشى  
 على ابنة مليونير من البوار؟!  
 أفكار رغم تطبّعها بالحياة العصرية ما زالت أسيرة  
 الرواسب الماضية. تزوّجتها وهي في المرحلة الثانوية  
 فعشنا ما لا يقلّ عن عشرة أعوام حياة كاتب حسابات  
 بالأشغال بين الثامنة والسابعة. ستّ بيت ممتازة  
 كانت. مخلصّة مدبرة ممّن تُخلقن ليسندن الرجال. المرأة  
 الجديدة من صنع يديّ. العصرية المولعة بالأضواء  
 والاقتناء والقمار. أردت أن أجعل منها امرأة ثانية  
 فأفلتت من يديّ وخلقت من نفسها امرأة ثالثة. ثمّ  
 تولّت بنفسها صنع نبيلة. القصر يضيق بمشترياتها على  
 سعته. يعيشان في النادي وقد ترجع نبيلة بسيارتها بعد  
 منتصف الليل. إني واثق فيها ثمّ إن يد الزمان تغمض  
 عينيّ. تبدّى جنون نبيلة في مساعدتها لصديقاتها  
 الفقيرات على عهد دراستها الجامعيّة التي لم تتمّها. لم

- وإذا دهمك الحبّ؟  
 فقال بسخرية:  
 - إني لا أعترف بالحبّ.  
 لم آخذ قوله مأخذ الجدّ رغم أنّي لم أعرف له حبًا  
 واحدًا. تزوّجت أنا عن حبّ. أجل لم تلعب المرأة  
 دورًا في حياتي ولكنّي عرفت الحبّ. هذا الفتى جررته  
 معي إلى ساحة العمل منذ سنّ المراهقة. نشأ عاشقًا  
 للعمل والمال. وأغراني قوله بأن سألته:  
 - متى تفكّر في الزواج؟  
 فأجاب ببساطة وحسم:  
 - لن أتزوّج.  
 فسألته مستنكرًا:  
 - ألا ترغب في الذريّة؟  
 فأجاب ببساطة:  
 - كلاً.  
 - إنّه لأمر غريب يا وفيق.  
 - لمّ؟ ماذا ينقصني؟ اللذة في العمل، وأختم  
 يومي بشيء من الشراب والرقص واللهو. . .  
 لا اهتمام له بشيء بعد ذلك. لا السياسة ولا الدين  
 ولا. . . ولا. إني على الأقلّ ذو إلمام بشكليّات الدين  
 أما هو فقد نسي كلّ شيء. لعلّ أفكار هي الوحيدة  
 بيننا التي ما زالت تملك نظامًا من العقائد الموشاة  
 بالخرافات. أخيرًا سألته:  
 - أنت راضٍ عن نفسك؟  
 فأجاب بارتياح:  
 - نعم، العمل تاج الحياة.

## ٥

جاءتني أفكار ساحبة نبيلة من يدها، جلسنا وهي  
 تقول:  
 - أشكو إليك ابنتك!  
 تساءلت باسماً:  
 - جنحة أم جريمة؟  
 ردّدت عينيّ بينهما. صورتان متماثلتان لكنّ الأم  
 أجهل. جمالها متوسط فهي سمراء صغيرة القسيمات  
 معتدلة القامة ملفوفة الجسم. نبيلة تماثلها لولا الذفن



اسمه. كهل يماثلني في العمر، خفت وزنه ولكتته بادي الصحة، وجدّ عليه الصلح والنظارة الطبيّة. هتفت:

- غير معقول!... دكتور جلال أبو السعود!  
فتحت ذراعِي وأنا أقول:

- كيف ظهرت من جديد على سطح الأرض؟...  
بالحُضن والقبيل...

تعانقنا وتبادلنا القبيل. كان اليوم جمعة والوقت أصيلاً والزمن أواخر الصيف. قدّمت إليه زوجتي وابنتي وابني ثمّ قلت لهم:

- دكتور جلال أبو السعود، رفيق المولد والدراسة، كنّا زميلين في الأوّلية والإعدادية والثانوية، دخل الطبّ ودخلت التجارة، كنّا نذاكر معاً رغم اختلاف دراستنا، جمعتنا صداقة وأفكار...

أخذت شهيقتاً لأهدئ انفعالي وهم يتصافحون ثمّ يجلسون. وواصلت حديثي:

- عقب تخرّجه انتقل إلى الأقاليم، تراسلنا عامًا أو عامين...

فقاطعتني:

- خمسة أعوام...

فتمتتمت في حياء:

- ثمّ شغل كلانا بحياته...

فقال باسماً:

- من حسن الحظّ أنّ الإنسان يحظى بقلب وذاكرة...

- صدقت، ولكن كيف أسعدتني بهذه الزيارة؟

- نقلت منذ قليل مسديراً لمستشفى الحميات بالعباسية، ثمّ علمت بمرضك أوّل أمس من الدكتور صبري حسّونة، فجئت أزورك وأصلّ ما انقطع...

- أهلاً... أهلاً... لا تتصوّر كم أتى سعيد...

- وددت أن ألقاك في صحّة جيّدة مثلي...

فقلت ضاحكاً:

- أدامها الله عليك، أمّا عني فإني في سجن كما ترى وكأنّما رُددت إلى الحال النباتيّة.

فقال جاداً:

- قد يطول ولكنّه لم يعد مؤبّداً، الطبّ يصارعه ويصرعه...

أرفض الفكرة ولكنّ حرصي الطبيعيّ راقبها بقلق. يوماً قالت لي:

- بابا، صديقة في حاجة ماسّة إلى خمسمائة جنيه. فزعت وقلت:

- الناس محتاج إلى جنيه أو اثنين لا إلى خمسمائة، إنك بسذاجتك تجعلين من نفسك هدفاً للجشع، يوجد فارق بين الشعور الإنسانيّ وبين الكفر بقيمة المال.

فقلت بإصرار:

- أسرتها في حاجة ملحة إذ إنّها مضطّرة إلى إخلاء شقّة في عمارة قديمة آيلة للسقوط، وقد وعدتها بالمساعدة...

هكذا دفعت بالمشكلة في منطقة الكرامة فغلى دمي وقلت:

- لا تعدي بشيء ليس في يدك الوفاء به، أو ارجعي إليّ أوّلاً، وتذكّري أنّ أباك رجل لا دولة...

أفكار أيضاً ضعيفة من هذه الناحية غير أنّ مساعداتها تختصّ غالباً بأهلها الفقراء. ولم يسوّني ذلك لما فيه من حفظ كرامتنا في النهاية، ولم تخلّ حياتي أنا من مساعدات من هذا النوع أيضاً. ولكنّ لزوجتي نزوات مظهرية سخيفة كما إنّها تؤمن بالندر وتتبرّع لهندوق السيّد البدوي أحياناً بحفاقة...

\*\*\*

في حياتي الجديدة أتيت لي - رغم همّي الثقيل الرابض - أن أسمع وأن أرى وأن أقرأ وأن أكتشف مسرّات جديدة. أتيت لي أيضاً أن أفكر وأن أتذكّر. لكن وجدّتي أبعد ما يكون عن الرؤية الواضحة. بل وقعت في حيرة معتمّة كثيفة ممّا جعلني أتلهّف أكثر على الشفاء البعيد، أو المستحيل. وقلت لنفسي:

- ليس أظنّ من أن يُخلّى بين الإنسان ونفسه...

٦

ربّاه... من هذا الزائر الجديد؟

نظرت نحوه بذهول وهو يقترب في خطاه الوثيدة، تسبقه نظرة مفعمة بالموّدة والأسى. تغير كثيراً ولكنّي عرفته من أوّل نظرة رغم أنّه تعمّد أن يحجب عني

## الشیطان يعظ ١٩٥

فقلت ضاحكًا:  
 - رجعت قهراً إلى عصر الثقافة...  
 - ربّ ضارّة نافعة.  
 وقالت أفكار:  
 - لتكن هدنة من إرهاق مستمرّ.  
 فقال جلال:  
 - أحياناً يمرّ الإنسان بتجربة مرّة ولكنّه يذكرها فيما بعد بالخير...  
 فقلت بأسفاً:  
 - كلام جميل، ما علينا، كم أنجبت من الأبناء؟  
 - ثلاث بنات، كبراهنّ متزوّجة ولم تتمّ تعليمها، والأخريان بكلّيّة الطبّ...  
 وأعلنت زوجتي عن رغبتها في التعرف على أسرته فالتحما في حديث جانبيّ سرعان ما غاب عنيّ في انفعال طارئ. فجاءة توقّف كلّ شيء عن الحركة فيخيل إليّ أنّي أسمع ديبب الزمن وهو يجذّ في سيره. أجل الزمن يسير وهذا صوته. بل المؤكّد أنّه لم يتوقّف لحظة عن السير فأين كان يخبئ؟ متى وكيف بلغت الخمسين، ومتى وكيف أقتلّع شعر رأس جلال؟. كنّا أطفالاً وغلماًنا وشباناً بلا شكّ وهذا جلال شاهد على ذلك. يا لها من انتباهة مرهقة حقاً. وإذا به يسألني وقد لاحظني فيما بدا:  
 - أين أنت؟  
 فقلت ضاحكًا:  
 - معك...  
 - حذار من الأفكار المشبّعة...  
 - ثق من أنّني في دور النقاهاة منها.  
 - يسعدني أن أسمع ذلك...  
 وتبادلنا نظرة طويلة، ثمّ خطر لي خاطر وجدت فيه مهرباً من انتباهتي المزعجة فقلت:  
 - أطباء كثيرون يرفضون الترقية من أجل العيادة...  
 فقال بهدوء:  
 - كنت دائماً طبيباً طول الوقت.  
 فسألته بدهشة:  
 - تعني أنّك لم تفتح عيادة؟  
 فحني رأسه بالإيجاب فقلت:  
 - أعجب ما سمعت...  
 - كيف تعجب وأنت تعرفني حقّ المعرفة؟  
 - كنت مثلك أيضاً ولكنّها الحياة...  
 فابتسم صامتاً فقلت مخاطباً أسرتي المستمعة:  
 - دكتور جلال من عشاق الثقافة منذ نشأته، أمناّ معاً في ماضيها بأنّه أياً كان عمل الإنسان فالثقافة يجب أن تستمرّ كمعين دائم لإنسانيته الحقّة... وقد طبّق ذلك عملياً...  
 عند ذاك سأله وفيق:  
 - هل العيادة تتعارض مع الثقافة؟  
 - أعرف أطباء لا يجردون وقتاً لتصفّح الصحف...  
 - ولكنهم يؤدّون خدمة إنسانيّة لا تقدّر بثمن.  
 - إني أؤدّيها في المستشفيات على خير وجه.  
 - ولكنك لن تكوّن ثروة مثل زملائك؟  
 - المعيشة معتدلة ولكن لا ينقصها شيء هام...  
 ثمّ إنّ لي ثروة من نوع آخر.  
 فقلت له:  
 - إني أفهمك ولكنّ توضيحتك جسيمة.  
 فقال بهدوء:  
 - كانت لحظة الحسم عسيرة، ولكنّي اخترت ولم أندم...  
 فسأله وفيق بارتياح:  
 - ألم تندم حقاً؟  
 - لماذا أندم؟ إني أقوم بواجبي الإنسانيّ، لا ينقصني شيء، حياتي ثريّة جدّاً، إن يكن ثمة من يرثون لي فإنّي أرثي لهم أكثر، ولكنّ معذرة أنا لم أجيء لأتحدّث عن نفسي...  
 - ولكنّ وفيق قال بإصرار أدركت بواعثه:  
 - ألا توافقني على أنّ العمل هو هدف الإنسان الأعلى؟  
 فابتسم. صمت ملياً. ثمّ قال مخاطباً ابني:  
 - إنّك تستدرجني إلى حديث طويل لا يتفق مع أغراض الزيارة فدعني إلى مناجاة والدك بعد غياب ربع قرن.

فقلت ضاحكًا:  
 - رجعت قهراً إلى عصر الثقافة...  
 - ربّ ضارّة نافعة.  
 وقالت أفكار:  
 - لتكن هدنة من إرهاق مستمرّ.  
 فقال جلال:  
 - أحياناً يمرّ الإنسان بتجربة مرّة ولكنّه يذكرها فيما بعد بالخير...  
 فقلت بأسفاً:  
 - كلام جميل، ما علينا، كم أنجبت من الأبناء؟  
 - ثلاث بنات، كبراهنّ متزوّجة ولم تتمّ تعليمها، والأخريان بكلّيّة الطبّ...  
 وأعلنت زوجتي عن رغبتها في التعرف على أسرته فالتحما في حديث جانبيّ سرعان ما غاب عنيّ في انفعال طارئ. فجاءة توقّف كلّ شيء عن الحركة فيخيل إليّ أنّي أسمع ديبب الزمن وهو يجذّ في سيره. أجل الزمن يسير وهذا صوته. بل المؤكّد أنّه لم يتوقّف لحظة عن السير فأين كان يخبئ؟ متى وكيف بلغت الخمسين، ومتى وكيف أقتلّع شعر رأس جلال؟. كنّا أطفالاً وغلماًنا وشباناً بلا شكّ وهذا جلال شاهد على ذلك. يا لها من انتباهة مرهقة حقاً. وإذا به يسألني وقد لاحظني فيما بدا:  
 - أين أنت؟  
 فقلت ضاحكًا:  
 - معك...  
 - حذار من الأفكار المشبّعة...  
 - ثق من أنّني في دور النقاهاة منها.  
 - يسعدني أن أسمع ذلك...  
 وتبادلنا نظرة طويلة، ثمّ خطر لي خاطر وجدت فيه مهرباً من انتباهتي المزعجة فقلت:  
 - أطباء كثيرون يرفضون الترقية من أجل العيادة...  
 فقال بهدوء:  
 - كنت دائماً طبيباً طول الوقت.  
 فسألته بدهشة:  
 - تعني أنّك لم تفتح عيادة؟

فقال وفتيق:

- أبي يهّمه ولا شك أن يعرف رأيك .

فحرّكت رأسي موافقاً وأنا الأطم أمواج الانتباهة المزعجة . عند ذلك قال الدكتور جلال:

- العمل ضرورة ولكنّه ليس الهدف . . .

- إذن فما الهدف؟

- لعلّه التحرّر من ضرورة العمل .

وحلّ صمت ولكن بدا من تألّق عينيه أنّه يمنحنا

فرصة لاستيعاب قوله قبل أن يستمرّ فيه، وقال:

- مثلاً، مهنة الطبّ ضرورة ما بقي المرض، فإذا

قهرنا الأمراض تحت ضرورة الطبّ . . . هدف

الإنسان الفراغ الثري!

فقلت ضاحكاً:

- إذن فقد حقّق لي المرض الهدف المنشود!

فقال جاداً:

- لقد أوصلك إلى الطريق الذي يجب أن تلتزمه في

حالتي المرض والشفاء . . .

ثمّ التفت إلى وفتيق قائلاً:

- دعني أشرح لك رأيي، بماذا يتميّز الإنسان عن

الحيوان؟ بالعقل والروح، فعمله الإنسانيّ الجدير به

حقاً يجب أن يكون عقلياً أو روحياً، ولكنّ حضارته

بدأت بالسعي نحو الطعام، بدأت بالصيد مثل

الحيوان، تاريخ الحضارة هو تاريخ العمل، ولكنّه

أيضاً تاريخ التحرّر من العمل درجة بعد درجة، حرّر

يديه باختراع الآلة ومضى في ذلك السبيل الطويل حتّى

بلغ مرحلة المصنّع الأوتوماتيكيّ الذي يعده بأقلّ عمل

وأكبر فراغ، فلا تصوّر أبداً أنّ الزراعة أو الصناعة أو

تكديس المال يمكن أن تكون أهدافاً في ذاتها، إنّها

مراحل من الضرورة يمارسها الإنسان ليبلغ حرّيته

ويعارس إنسانيته . . .

إنّي على أيّ حال أكثر استعداداً لتلقّي هذه الأفكار

من أسرتي التي تجلّ الدهول في أعينها. وتجسّد

الانفعال في وجه وفتيق فقال:

- يا له من خيال! أحدثك يا دكتور عن حياتنا

الواقعة فتحدّثني عن حياة لن تتحقّق أبداً، إنّي أتحدّث

باسم أربعة آلاف ملايين من البشر ربعمهم مهتد

بالمجاعة!

فقال جلال بهدوء:

- لا يغيب عنيّ ذلك، إنّي أعرف أنّ العمل

ضرورة حيويّة، ولكنّي أريد أن أنبّهك إلى أنّه ليس

الهدف، هذه الحقيقة تغيب عن كثيرين، بل تغيب عن

الرسالات التي خلّقت من أجل تحقيقها كالليبرالية

والاشتراكية، ولكنّ هدف آلاف الملايين يجب أن

يكون واحداً . . .

أردت أن أخفّف من توتر الجوّ، وألطف من انفعال

وفتيق قبل أن ينسى نفسه، فضحكت عاليًا وقلت:

- توهمت أنّي مريض وإذا بي سوبرمان العصر . . .

فقال جلال:

- أرجو ذلك . . .

فسألته:

- ألمت بنشاطي رغم البُعد؟

- بفضل الصحف، شذرات من الأنباء عن

رحلات ومعارك مع اليساريين، وتخيّلت الباقي .

- دعني أقرأ لك أفكارك، قلت لقد غرق في جمع

المال وعبادته، نسي ولا شكّ آيامنا الماضية، وانحدر

إلى الأميّة وهو لا يدري!

فضحك وقد تورّد وجهه حياة ثمّ قال مجاملاً في

الغالب:

- أثرت إعجابي ولكنّه إعجاب لم يخلّ من

أسف . . .

فتساءل وفتيق:

- ألا يستحقّ الإعجاب الخالص من يصبح

مليونيراً في أقلّ من خمس سنوات؟

هزّ رأسه هزة غامضة فقلت من فوري:

- لست غيباً كما تعلم، دعني أقرأ أفكارك مرّة

أخرى على ضوء فلسفتك، قلت عنيّ لذاتك إنّي

ضيّعت حياتي في سبيل استيراد سلح كمالية عاقبتها

الحتميّة تخريب الاقتصاد الوطنيّ وخدمة الطبقة الجديدة

وتعذيب عامّة الشعب، ولا يمثّل هذا الاستيراد إلّا

مزيداً من الاستعباد بخلاف العمل الإنتاجيّ الذي

يمثّل الضرورة والتحرير معاً، أليس كذلك يا جلال؟

فضحك وجهه بلا صوت وركبه حرج الموافقة

## الشیطان يعظ ١٩٧

- إني معجبة به!  
وتدخّلت في الحديث قائلاً:  
- دعها وشأنها، ساءتني حدّتك يا وفيق...  
فقطّب قائلاً:  
- إنّه شيعويّ حاقّد.  
- إني أعرف صديقي خيراً منك.  
- من أين لك أن تعرفه بعد انقطاع ربع قرن؟  
- لقد أراد أن يعزّيني عن السجن...  
- لم تكن في حاجة إلى تعزيته.  
- شعر ولا شكّ بضيقني وكرهتي...  
- إني أفهمه تماماً يا بابا ولا تخدعني فلسفته، لقد جرّب أن يثرى من المهنة ففشل، وما أكثر العقّة المتولّدة عن العجز!  
فهتفت أفكار:  
- صدقت، سأبخر القصر غرفة غرفة، لا يحتمل أحد أن يصبر قرينه في الفقر مليونيراً من غير أن يجرّقه الحسد...  
فضحكت قائلاً:  
- الأفضل أن تعقلي فلسفته وتقلعي عن التبذير...  
فقلت لي:  
- أتريد أن تدعم حرصك بفلسفته؟... هيهات أن يجوز ذلك علينا...  
ولما خلعت الحجرة استبدّ بي الانفعال دون شريك. استعدت أقواله وأدمت التفكير فيها حتّى قلت:  
- لن أذوق النوم حتّى أتناول ألمهْدِيّ.  
عاودتني الانتباهة فرجعت أنصت إلى صوت الزمن الجاري. رجعت أتساءل أين كان يخبّئ. متى أنسى الكدر لاكتشف المتعة المتاحة؟... متى أسمع الأعتية فلا أسهو عن شيء من إيقاعاتها؟

## ٨

خفت ألا يبجيء جلال أبو السعود مساء الجمعة التالية فنلقت إليه. وقلت لأمرتي منبّهة:  
- سأستدرجه إلى الحديث إيّاه فمن كره منكم ذلك فلا يحضر.

الصامت. عند ذاك هتف وفيق متناسياً أصول المجاملة:

- هذا ما يردّده المخزّبون!  
فقلت ملطّفاً من وقع كلامه:  
- ليسوا وحدهم، صبراً، لكنّ اللوم لا يقع علينا بقدر ما يقع على من أذّنوا بذلك...  
فقال جلال وكأتمّاً يستقل نفسه:  
- دعنا من التفصيلات، اعتبر - إذا شئت - رأبي حلماً خيالياً، من الناس من يأنس إلى الأحلام ليتزوّد بقوة يواجه بها قسوة الواقع، إنّما أردت أن أهوّن لك من شأن الحياة التي انقطعت عنها وأزّين لك الحياة التي حبست فيها، فهي ليست شرّاً خالصاً كما قد تتوهم، ما هي إلّا مرحلة عابرة إن شاء الله، ويمكن أن تجد فيها من المسرّات الشيء الكثير...  
فشكرت له مودّته، ثمّ خضنا معاً - باتفاق شعوريّ خفيّ لتتفادى من حدّة وفيق - ذكريات مشتركة قديمة، فشرّقنا وغربنا في متعة صافية ساعة نادرة من الزمان.

## ٧

خلّقت الزيارة وراءها رجّة. قالت أفكار:  
- لم أفهم كلمة واحدة ممّا قال هذا الرجل. على هذا بدت منفعة كالأخرين. وتظاهرت بالمرح وهي تتساءل:  
- أهذا شأن أصدقائك القدامى جميعاً؟  
فقلت نبيّلة:  
- إنّه شخص جديد ومثير.  
فسألها وفيق بحدّة:  
- ماذا تعنين؟  
فقلت ساخرة:  
- ليس جريمة أن يقول إنّ الحياة ليست المال

فحسب!

فقال لها وفيق:

- دأبني على فُعل واحد في حياتك لا تعتمدين فيه على المال، كلامك يدلّ على أنّك تعبدين المال ولكنك تتنكرين لقيّمته...  
فقلت بعناد:

- ١٩٨ - وجاء في الميعاد فاستقبل بحرارة صادقة وكاذبة. ورحنا نتناول الشاي والحلوى. وفي أثناء ذلك نقل عينية بين أفراد أسرتي وتساءل:
- ماذا قلتم عني بعد ذهابي في الجمعة الماضية؟  
فقلت أفكار:
- كل خير يا دكتور.  
فشكرها مبتسماً. إنه ذكي وحساس ولذلك قلت له:
- إنني أسعد بحديثك وهو يهمني جداً، وهم متفقون معي!  
فقال ببساطة صادقة:
- المهم أن تنعم بمزايا حياتك المتاحة.  
- لدي الكثير كما تعلم ولكن يحز في نفسي الشعور بالسجن وانصراف الزملاء عن زيارتي...  
فقال وفيق بحدة:
- إنهم أوغاد.  
فقلت بعجلة:
- كلاً يا بني، إنهم رجال أعمال.  
ثم مخاطباً جلال:
- أنت نفسك لو كنت صاحب عيادة لما وسعتك أن تزورني مرتين متتاليتين...  
فقال جلال:
- يسرتني أن تعالج أمورك بروح واقعية!  
- كل شيء طيب لولا إحساسي الأليم بفقد الحرية.
- خيل لي أنه هم بالكلام ثم عدل عنه فقلت له:  
- لا تكبت الكلام فقد دعوتك لتحدث ولأسمع...  
فتساءل وهو ينظر نحو أسرتي:
- ونكدت صفوا أعزة؟!  
فقلت أفكار:
- تكلم يا دكتور، نريد أن نسمع مثله وأكثر...  
فابتسم وقال:
- الأمر لله يا عبد الحميد، ماذا قلت عن الحرية؟  
- تكلمت عن إحساسي الأليم بفقدتها.  
- لكنك لم تفقد حرّيتك بسبب المرض!
- ١٩٩ - فقال بهدوء:  
- لكي تفقد شيئاً يجب أن تملكه أولاً وأنت لم تملك حرّيتك قطاً!  
فضحكت قائلاً:
- حذارٍ من المبالغة فإنك لا تعرف ما يعنيه أن يكون الإنسان مليونيراً.  
- حقاً؟!  
- كان بوسعي أن أفعل ما أشاء، أن أتغذى في روما وأنعمتني في باريس إذا أردت...  
- أين الإرادة الحرة في ذلك؟... وراء كل فعل منها نزوة متحكّمة!  
تخيّلت فتور أفكار وحماس نبيلة السطحي واستفزاز وفيق فلم أنظر ناحيتهم. قلت أستدرجه:
- بهذا المنطق نهدم فكرة الحرية من جذورها...  
فقال بثقة:
- الحرية وهم يتراءى لخيال الإنسان العادي، وهو إنسان ميكانيكي في أغلب الأحوال...  
- قد يصدق كلامك على غبار الناس ولكن يوجد أناس يمثلون القوة الفعالة المؤثرة في المجتمع...  
فابتسم قائلاً:
- اسمح لي أن أذكرك بالأشياء التي تقيّد حرية الإنسان، لا لأنها مجهولة لملك ولكن لأننا نناساها عادة في زحمة الحياة والغرور...  
تنحنح ثم واصل:
- إنها تبدأ عملها في بطن الأم، بلا استئذان أو مشاورة لنا فتقرّر طولاً ولوناً وملامح، وأجهزة تنفس وهضم وأعصاب ذوات خواصّ محدّدة، وغرائز، وبعض الأمراض أحياناً، يتم ذلك كله قبل أن نرى نور الدنيا...  
تذكرت تلك الحقائق وكأتمها اكتشاف جديد أمّا وفيق فقال باستهانة:
- نحن نسلم بذلك ولكن لا أهميّة له!  
فقال جلال:
- عندما يخرج الوليد إلى الدنيا تتسلّمه أسرته، ثم تتكاتف على صبه في قالب جاهز من القيم والأذواق

## الشیطان يعظ ١٩٩

معقولة، نسميها مصادفات أو ما شئت من أسماء، ولكنّها مع ذلك قد تقلب الحساب رأساً على عقب في لحظة خاطفة، وهي لا حصر لها، مقابلة غير متوقّعة، ضياع رسالة في البريد، حادث قطار أو سيارة، وسقوط جسم فجأة الخ الخ، فهل تستطيع أن تتجاهل القوى المؤثرة في حرّية الإنسان وبالتالي في مصيره؟!

صمتنا صمتاً ثقيلاً. ثمّ نذت عن نبيلة ضحكة رقيقة. ضحك وفيق أيضاً ضحكة باردة. تجلّ حياء ناعس في وجه أفكار. قلت باهتمام حقيقي:

- إذن فأنت ترى يا دكتور أنّ الإنسان حجر أو

حيوان على أحسن الفروض؟

فبادرني جاداً:

- أبداً، إنّي أبعد ما يكون عن ذلك.

- ولكنّ منطقتك يسوقنا إلى ذلك؟

- إنّي أحصي القوى المؤثرة لكنّ نعدّها لها ما يتطلبه

الدفاع من صبر ومثابرة وعلم...

- كأنّ الحضارة أنشأها الكون لا الإنسان...

- بل أنشأها الإنسان بفضل ظمئه الخالد للحرّية،

كما قلت، إنّه لم يتحرّك بإغراء اللقمة ولكنّ ليتحرّر

من الجوع، الحضارة معركة مستمرة بين الحرّية والقوى

المؤثرة، الآلة تحرير من عبودية السخرة، الدواء تحرير

من المرض، العلم تحرير من الجهل، الطيارة تحرير من

الجابيّة، السرعة تحرير من الزمن، كذلك المذاهب،

فالدين تحرير للروح، الإقطاع كان تحريراً من

الفوضى، الليبرالية كانت تحريراً من الإقطاع،

الاشتراكية تحرير من الليبرالية، معركة مستمرة بلا

نهاية...

وتفكّر قليلاً ونحن نتابعه بعواطفنا المتناقضة ثمّ

قال:

- المأساة، ولعلّها ليست بمأساة، أنّه ما من جديد

يحدّ إلاّ ويحيء معه بقدر من الحرّية وقدر من الاستعداد

الجديد، فالآلة تحرّر اليد وقد تأسر الروح، السلع

الجديدة تُشبع وتمتّع وقد تحجب عن الإنسان مصيره،

الإقطاع حرّر من قطاع الطرق وفرض الرق، الليبرالية

حرّرت المواطن من الحكم المطلق وجاءت بالاستغلال

والتقاليد والعقائد وهو يتشكّل بلا قدرة على الإدراك أو النقد أو الاختيار، أنت نفسك يا وفيق بك هل كان لك رأي في الصورة التي صوّرت بها؟

فتساءل بعناد:

- أيّ خطأ في ذلك؟

وقلت أنا:

- الوليد يتحوّل بذلك من حيوان إلى كائن

حضاري!

- نحن ناقش فكرة الحرّية، تذكروا ذلك من

فضلكم...

- تفضّل...

- ثمّ تلقّاه المدرسة لتُحكّم حوله قالباً جديداً يهبه

في النهاية عملاً ورؤية للعالم والأشياء، وينضمّ إلى

المدرسة في عملها المجتمع كلّ ممثلاً في أحزابه وجمعيّاته

ومناججه البارزة، الجميع طامعون في حرّيته ولو فعلوا

ذلك باسم الحرّية نفسها...

فقال وفيق بإصرار:

- ولكن سرعان ما يحيء حين فيعرف الشاب

الاختيار والرفض بل والتمرد والثورة...

- لست أنكر ذلك، ولكنّي أقصر حديثي الآن على

القوى المتربّصة بحرّيتنا... ثمّ يحيء دور قوى جديدة

خارج المجتمع، منها البيئة، وأثرها معروف في النشاط

والكسل، في القوّة والضعف، في الإيجابية

والسلبية...

وترتّب لحظات وهو يتسم ثمّ استطرّد:

- هناك الأرض نفسها، الكرة الأرضية، فهي

بجاذبيّتها وحركتها تحدّد له وزناً وأسلوباً في الحركة

وحدوداً لا يمكن تجاوزها، هناك أيضاً الشمس

وأشعتها وانفجاراتها الموسميّة، بل هناك النظام

الشمسيّ كلّ فيما نعرف من آثاره وما نجهد، ولك أن

توسع تصوّرك حتّى يشمل الكون كلّ ما ظهر منه وما

غاب، الكون كلّ يؤثّر في حرّيتنا ويكون لذلك نتائجه

في سلوكنا وتصوّراتنا، أمّا الإنسان الغافل فقد يعتقد

أنّه حرّ حرّية مطلقة، أو أنّه لا يؤثّر فيه إلاّ عقدة

أوديب، أو عوامل اقتصاديّة، ثمّ يحيء بعد ذلك قوى

غريبة خارجة عن التصنيف المنطقيّ، تبدو عارضة لا

- أكون مجنونة لو حضرت مجلسه بعد الليلة... .  
وقالت نبيلة:  
- إنه مثير ولكنّه سينقلب مضجراً.  
وقال لي وفيق:  
- إنه مجنون فيما أرى، ما رأيك بصراحة؟  
فقلت متظاهراً بالمرح:  
- لم يُعد لي من تسليّة سواه.  
فقال بحقنق:  
- لقد أجنّه الفشل، كان الله في عونك... .  
أثارتني حديثه لدرجة لم أقدرها. لم تكن لتحدث في ظروف أخرى. عدت أسمع صوت الزمن. فيما مضى كنت شريكه في الاطلاع والفكر. اليوم أصبحت مجرد مستمع ذاهل. ماذا أكون وماذا تكون أسرتي؟. أحرار أم عبيد؟. بدا السؤال مضحكاً. السوق، المكتب، النقود، الثروة، التحف، القمار. هل أمضي من المرض إلى احتقار الذات والأهل؟. ترى هل يمكن تربية الإرادة؟. هل يمكن تربية الإرادة بالإرادة؟. التغيير أهم من القراءة والرؤية والسماع. إنني أسمع وأرى وأقرأ ولكن ما جدوى ذلك؟. هل يجاوز التسليّة العابرة وقتل الوقت؟.  
وامتعضت امتعاضاً شديداً. عزّ عليّ قلقي واضطرابي. بوسعي أن أنسى ما سمعت، أن أقطع الصلة الجديدة، أن أهزأ منه. ولكن وراء السطح المحتدم قبعّت لطفة تشوّق إلى عودته. لقد جلا الصدا عن نفسي وبُعث الشخص القديم.  
- ألا يُعدّ صوته إغاثة للمريض من وحدته؟

١٠

انفعلت انفعالاً سعيداً متجدداً بزيارات جلال أبو السعود الدورية. وسعدت بصفة خاصة لانفرادي به بعد أن أضربت الأسرة عن شهود مجالسنا. وعاصرنا الحريف بجوّه المنعش، وشبائله العذبة، وألوانه البيضاء، ونفثاته الموحية، فهو ربيع وطننا بلا شريك. ولدى أول زيارة انفرادية قلت له دون حذر من رقباء:  
- والله زمان!

فألقى نظرة على الحجرة الخالية وتمتم ضاحكاً:

الاقتصاديّ، الاشتراكيّة حرّرت الإنسان من الاستغلال وسيطرت عليه بالبيروقراطية أو الدكتاتورية، ولذلك فلا نهاية للمعركة ولا للابتكارات ولا للمذاهب حتّى يظفر الإنسان بحريّته الكاملة ويصبح قولاً وفعلاً سيّد مصيره، لذلك علينا دائماً وأبداً أن نكون مع كل جديد بقدر ما يُعدّ من حرّيّة وأن نكون على استعداد للتخلّي عنه كلّما جدّ جديد أفضل أو رجحت كفته السالبة... .  
ونقل ضوء عينيه بين وجوهنا ثم ابتسم بارتياح ومضى يتساءل:

- ولكن ما دور الفرد - كفرد - في هذه المعركة لكي يحرّر إرادته ويحسن الاختيار؟  
وبعد لحظات من الصمت أجاب:  
- عليه أن يقتنع بأن «الذاتية» هي سبيل العبوديّة، وأن الموضوعيّة هي سبيل الحرّيّة، الاختيار الحرّ يقوم على الموضوعيّة، وإلا أدفنا إلى غريزة ونحن نتوهم أننا نمارس عاطفة، أو سايرنا عاطفة ونحن نعتقد أننا نلبي العقل، ولكي يحدث الانسجام والتوازن بين الغرائز والعواطف والعقل فلا بدّ من تربية الإرادة تربية تبلغ بها ذروة القوّة، وبكلّ إنسان سليم من الصبر ما يستطيع به أن يربّي إرادته ويتغلّب على ضعفها وتراخيها، في الإنسان قوّة كامنة تضارع قوّة الذرّة... .  
وأغمض عينيه قليلاً ثم فتحهما قائلاً:

- أتذكر النظرة الذاتية للكون التي جعلتنا نتصوّر أننا مركزه؟ أتذكر النظرة الذاتية للمجتمع التي تغريك بالدفاع عن طبقتك وأنت تتخيّل أنّك تدافع عن الإنسانية؟ أتذكر النظرة الذاتية إلى المرأة التي تدفعك إلى الإيمان بسيادة الرجل وأنت تعتقد أنّك تبشّر بطبيعة الأشياء؟... . أتجه نحو الموضوعيّة متحرّراً من أيّ عبوديّة، عند ذاك تمارس الاختيار الحرّ، وتمضي في سبيل السيادة الحقيقة، وتقرب خطوة خطوة من طريق الأشواق الأبدية المضمون به على غير الأحرار... .

٩

قالت أفكار وهي تتشاب:

## الشیطان يعظ ٢٠١

- طبعا .  
 - أشك في ذلك، كان شخصاً آخر تماماً، في  
 خلایاه وشكله ووزنه وفكره ورؤيته...  
 - إنني أتذكره على أي حال كلياً أردت ذلك...  
 - أشك في أنك تتذكره تماماً، ولقد تتابع عليك  
 مئات الأشخاص المختلفين لا يكاد يجمعهم إلا اسم  
 «عبد الحميد حسني»...  
 فقلت وأنا لا أدري مقصده:  
 - هذا طبيعي جداً...  
 - الطبيعي أن يكون الإنسان «أنا» واحداً...  
 - وهو كذلك بمعنى من المعاني.  
 فابتسم لحريري ثم قال:  
 - انتبهت ذات يوم - وكنت في أول الطريق - إلى  
 تعدد شخصياتي، فسجلت بعضها في مذكرة  
 اليوميات...  
 قاطعته متسائلاً:  
 - لك يوميات؟  
 - نعم هذا ضروري جداً لمن يروم النجاح،  
 المهم، إليك ما سجلته على قدر ما أذكره، وهو يوم  
 واحد:  
 (١) في الصباح الباكر، نزاع حاد مع زوجتي بسبب  
 المصروف، اتهام متي لها بالإسراف واتهام منها لي  
 بالجهل. رميتها بالتمرد فرمتني بالرجعية، الحالة  
 النفسية انفعال غضب... ذاتية... كذب... مثل  
 إلى الاستبداد... خوف من المستقبل بلا أساس...  
 إرادة مشلولة... عقل أسير... عاطفة عمياء...  
 عاطفة في قبضة غريزة...  
 (٢) قبيل الغداء بمستشفى ميت غمر، حديث مع  
 زميلة طيبة مولدة شكت إلي زوجها وعقده، ظهر في  
 «أنا» جديد، حديث متي عن الرجل والمرأة في ضوء  
 حقوق الإنسان، شعارات عصريّة مبهرة، الحال  
 النفسية هادئ مرتب الأفكار... كذاب لإرضاء  
 الزميلة... خائف من تهمة التخلف... خيالات  
 جنسية عارية...  
 (٣) العصر، في حجرة الأطباء، بروز «أنا وطني»  
 مائة في المائة، حملة على الاعتداء الثلاثي، تأييد للثورة

- هرب المستمعون!  
 - هذا أفضل.  
 فقال بأسى:  
 - يندر أن يطيب حديثي لأحد ولكني لا أكف عن  
 الكلام.  
 ذلك ما أعده من حسن حظي. إنه يتحدث عن  
 تجربة شخصية حميمة، عن معركة يخوضها بكل قوته،  
 ويتصميم رافع على تحدّي اليأس.  
 وذات مرة قلت له:  
 - أتذكر الحكمة التي قرأناها معاً في ماضيها «الناس  
 نيام فإذا ماتوا انتبهوا»؟  
 فحنى رأسه الأصلع بالإيجاب فقلت:  
 - أحاديثك المثيرة أعادتها إلى وعيي...  
 فقال باهتمام:  
 - أعتقد أننا فهمناها على غير حقيقتها...  
 - لكنّها واضحة تماماً...  
 - لا أوافقك، يجب أن تكون دعوة للموت في هذه  
 الحياة التي نحياها...!  
 فقلت ضاحكاً:  
 - فال الله ولا فالك.  
 فقال جاداً:  
 - لن يعزينا انتباه ما بعد الموت عن الغفلة الطويلة  
 في حياتنا...  
 ففكرت في قوله تمثيلاً مع رغبتني في المشاركة ونبذ  
 دور المستمع السلبي، أما هو فمضى يقول:  
 - علينا أن نموت في هذه الحياة.  
 - لا أتصورك قاتلاً أبداً...  
 - في عنق كل منّا جريمة قتل عليه أن يرتكبها.  
 فقلت لأقنعه بأنني بت أفهمه:  
 - تعني أن يقتل نفسه!  
 - إذا وفق إلى قتل نفسه المستعبدة تحرر ووهب  
 الانتباه!

\*\*\*

وفي زيارة أخرى بادرني بسؤال عجيب:  
 - أتذكر نفسك التي آخنتني في عهدنا القديم؟  
 فقلت من فوري:



عليها غاية عليا، ولا وحدة للإنسان إلا بهذه الغاية  
المنشودة!

فسألته بشغف:

- وما هذه الغاية يا ترى؟  
- عليك أن تجيب على السؤال بنفسك، لقد  
اجتهدت من جانبي واخترت الحرّية كما قلت لك...

فكرت فلم أقتنع وقلت:

- الإنسان يتميّز بالعقل فيجب أن تكون الحقيقة  
هي غايته العليا...

فقال باسماً:

- لا اختلاف بيننا في الواقع، ألم أقل إنّ الحرّية  
والحقيقة الموضوعية شيء واحد؟ ألم أقل إنّ الذاتية هي  
العقبة الكئود في سبيل الحرّية؟ فالعقل الحرّ وحده هو  
القادر على معرفة الحقائق...

فقلت وكأنما أخطب نفسي هذه المرّة:

- يلزمي اطلاع كثير وتفكير أكثر...

- الأهمّ أن تبدأ فوراً بتربية الإرادة، فلا اطلاع  
ولا تفكير بلا إرادة، إنّ ضعيف الإرادة يطلع ويفكر  
أيضاً ولكنه يتشتت في أحلام اليقظة، انتهرز فرصة  
السجن فهي نادرة خاصّة لرجل مثلك، والطريق ليس  
باليسير، هو قضاء كامل على حياة زائفة ممتدة طويلاً  
وعرضاً وعمقاً، هو اختيار كلمة أو سلوك أو اختيار  
على ضوء غاية عليا محدّدة، وستواجه به أهوالاً لا تحظر  
بالبال، وتطالب بتضحيات لا حصر لها ولا حدّ، بدءاً  
من تعاملك مع أسرته وزملائك وانتهاء إلى مواقفك  
من النظم والدولة والطبيعة وما وراء الطبيعة...

وشملنا صمت غير قصير، ثمّ ابتسمت في حيرتي  
وسألته:

- وهل وصلت؟

فأجاب بنبرة محايدة:

- كلاً، ولكنّي أحرز نجاحاً يوماً بعد يوم.

ثمّ متسائلاً في أسى:

- وما قيمة وصول فرد واحد أو عدّة أفراد بين  
آلاف الملايين من البشر؟

- دعنا من الخيال.

- ولكن لا قيمة لخلاص تحظى به قلّة.

في محنتها، دفاع عن حكمها الدكتاتوريّ، تبريد  
الدفاع بأنّ لقمة العيش أهمّ من الحرّية لدى تسعين في  
المائة من الشعب، الحال النفسية خوف من الغارات  
الجويّة، كذب فيما يتعلّق بالحرّية، العقل مكبوت،  
الإرادة مفقودة، تمزّق بين حبّ الوطن ورفض أسلوب  
الحكم.

(٤) المساء في النادي مع زميل منحدر من أسرة  
إقطاعيّة، تبلور «أنا» رابع، تصريح منّي بأنّ الغزو وإن  
يكن شراً في ذاته فلن يخلو من خير إذا حرّرنا من  
عصاة الضباط، موافقة على رأي الزميل بأنّ الحكم  
البريطانيّ كان أفضل من حكم الثورة، الحال النفسية  
كذب ونفاق وخوف وتمزّق وحزن عميق...

وهكذا يا عزيزي، كلّ أنا شخص جديد في  
عواطفه وأقواله وأفكاره ورؤيته للحقيقة، فالإنسان  
مفقود الوحدة، فريسة للكذب والخوف، لذلك يعيش  
إنساناً بلا إنسانيّة...

فقلت منفعلاً غاية الإنفعال:

- على هذا الأساس فإنّ الفرد في الواقع شعب  
كامل!

- نطق بالصواب... ولكن لا بدّ من التسجيل  
لتجسّد الحقائق، لا تعتمد على التذكّر فهو وهم  
كالحرّية المزعومة وكالصدق المزعوم، وعندما تتجسّد  
الحقائق يعيّن الإنسان إرادته لتغيير ذاته، ولخلق  
الانسجام والتوافق بين الغريزة والعاطفة والعقل،  
ليؤدّي كلّ وظيفته الطبيعيّة بلا كبت ولا طغيان على  
الآخرين...

فسألته باهتمام شديد:

- هل تكفي الإرادة لإحداث هذه المعجزة؟

فقال بهدوء:

- ثمّة شرط أساسي، أن يحدّد الإنسان لنفسه غاية  
علياً!

- لا يخلو إنسان من غاية.

- وهم جديد يا عزيزي عبد الحميد، الغالبية  
العظمى من البشر لا تعرف لها غاية عليا، أجل لكلّ  
أنا غاية قريبة، وهي غايات متضاربة تخضع لميكانيكيّة  
الحياة اليومية، ولا بأس بها ولا ضرر منها إذا هيمنت

## الشیطان يعظ ٢٠٣

والمتعة والفكر. أجل فكّرت كثيرًا ولكنّه كان تفكيرًا يستهدف جلاء الحقائق وتذكّر الوقائع ولا غاية وراء ذلك. وياقتحام جلال أبو السعود لحياي انبثق منها تفاعل كيميائيّ ولع بالتغيير وحلم به قبل كلّ شيء. لم آخذه مأخذ الجدّ من بادئ الأمر فلم أخش عواقبه، وتصوّرت أنني سأحتلّ عنه عند لوح الخطر. ولكنّ فكرة التغيير مضت تلاعبني لعب القطّ بالفأر بهرتني مثل نجمة الصباح. وعقدت مقارنات خياليّة بين أسرتي وبين حلم جلال فشعرت بما يشبه الغثيان. إنهم ثمرة حياي وتربيّتي لعنت الشجرة والثمرة. وساءلت نفسي في قلق محموم:

- أنا جادّ حقًا؟!

أولئك المولعون بالتحف والثروة والمال ولع الأطفال بالحلوى كيف أحادثهم عن غاية عليا؟! .  
وهتفت بضيق شديد:

- أيتها الحياة المحيرة، لا أدري أيننا ضحيّة لصاحبه . . .

وكلمًا ألخ عليّ الأرق تساءلت:

- أنا جادّ حقًا؟!

\*\*\*

وفي زيارة لجلال أقدمت على خطوة جديدة وهامة، بعد ترّد معذب طويل. كنّا نطرق باب الشتاء، وقد أمطرت السماء مطرة خفيفة واحدة قلت لجلال:

- فليسمعك الله على ما فعلت بي . . .

فضحك قائلاً:

- لا تُحجل تواضعي . . .

فرمقته بتحدّ وقلت:

- أريد أن أطلع على يومياتك.

فرفع منكبيه استهانة وقال:

- أكثرها لا يختلف عن يومياتك التي لم تدوّن،

الأفضل أن تسجّل ذكرياتك!

- ألم تقل أنّ التذكّر وهم؟

- ولكنّ الوهم ينقش بترية الإرادة.

- ولم تضنّ بها؟

- لئديّ أسباب، وقد أطلعك عليها في ظروف

أخرى . . .

فقلت له على سبيل التعزية:

- قد يحدث التطور المعجزة.

فقال بازدياء:

- التطور الحقيقي لا يجيء إلا من الداخل.

فقلت ضاحكًا:

- ستُحمي المجموعة الشمسيّة قبل أن يحقّق آلاف

الملايين التطور الذي تحلم به.

فقال محتجًا:

- لم يوجد شيء عبثًا.

فسألته استجابة لخاطرة طارئة:

- هل تفكّر في نشر يومياتك؟

فحنى رأسه موافقًا فسألته:

- متى؟

- لم أحدّد الوقت بعد، سأنشرها عندما يسعني أن

أحدّد الوقت بحريّة . . .

- ماذا تعني؟

فقال باسماً:

- عليك أن تفهم ما أعني بنفسك، ولا أهميّة

لذلك . . .

فلم أشأ مضايقته. وخطر لي خاطر فقلت:

- يذكرني طريقك بالتصوّف؟

فقال بسرعة:

- كلاً، التصوّف أرسقراطيّ وطريقيّ شعبيّ،

التصوّف مقاماته التوبة والفقر والتقوى والتواكل ألخ،

أما طريقيّ فمقاماته في الحريّة والثقافة والعلم

والصناعة والزراعة والتكنولوجيا والحزبيّة والعقيدة،

التصوّف يجعل من الشيطان العدو الحقيقيّ للإنسان أمّا

الطريق فعده يشمل الفقر والجهل والمرض

والاستغلال والطغيان والكذب والخوف . . .

فضحكت وقلت:

- لعلّك تعدّني ضمن الأعداء؟

فضحك مثلي ولاذ بالصمت.

- لم ألح عليه أكثر. وركزت على النية التي أنتويها.  
قلت:
- يجيل إلي أنني راغب في دخول تجربتك!  
فثقبي بنظرة جامعة بين الحذر واللهفة ثم نتم:  
- حقًا؟  
فقلت مبادرًا:  
- أنا لا أكذب أبدًا. . .  
وسرعان ما تذكرت حديثه عن الكذب والخوف  
فقهقهت على رغمي وقلت كالمعتد:  
- في الأقل فيما يتعلق بهذه الرغبة!  
لم تغض نظرة الحذر من عينيه فتساءلت:  
- لم تشك في؟  
فقال بهدوء:  
- هذه الرغبة تسبق عادة برغبة أخرى.  
- ما هي؟  
- أن تعترف بخبايا حياتك التي تؤزقك.  
فهتفت من فوري:  
- هذا ما يلح عليّ، هذا ما صارعته حتى صرعتي.  
فقال بارتياح:  
- انتظرت طويلًا أن أسمع منك ذلك حتى كدت  
أياس منك، أشهر مرّ وأنا أنتظري!  
- لم أتصور أن يكون للاعتراف كل هذه الأهمية.  
- بل إنه يقطع بأنك دخلت التجربة وأنت لا  
تدري وأن إرادتك بدأت تعمل. . .  
فشملي سرور صبيانيّ أما هو فواصل:  
- كنا شابين مجتهدين فقيرين، هدفها عمل يوفر  
الرزق، وثقافة تثري الحياة، ماذا حدث بعد ذلك؟  
قلت بلا تردد:  
- توظفت، تزوجت، أنجبت، واصلت حياتي  
الثقافية، حققت الحلم كما ترى. . .  
لم يعلق بكلمة فقلت:  
- ثم قدّمت استقالتي من الوظيفة.  
لزم صمته دون دهشة أو تساؤل فأدركت أنه يابى  
مساعدي ليتوكّد من صدق رغبي. قلت:  
- الحقيقة أنني اضطررت إلى الاستقالة.  
لم يتأثر حياد وجهه فقلت:
- كنت مراجعًا بحسابات الأشغال، وكان مقالًا  
تمن يتعاملون مع الوزارة، نذت عنه كلمة فوجدتني  
أمام إغراء لم يُعرض لي من قبل، اقتلعتني من مستقرّ  
حياتي، اكتشفت أنني أنطوي على رغبات أخرى غير  
الثقافة والسعادة البريئة، ثمّة حياة أفضل، تردّدت  
طويلاً ثمّ مددت يدي، وكان لي منطقي أيضًا المستمدّ  
من مناخ فاسد، وتوهّمت أنني أطبّقه بحريّة كاملة.  
حوّلت عينيّ إلى الأمام وقلت:  
- الانحدار لا يعرف التوقف، فاحت الرائحة، لا  
أطيل عليك، اضطرّوني إلى تقديم استقالتي على سبيل  
العطف. . .  
عظفت إليه عينيّ فكأنما لا يسمع ما يقال. قلت:  
- وجدتي مهذّبًا بالجوع فكادت أجنّ لولا أن  
الحقني المكاول بمكتبه. . .  
هل أكتفي بهذا القدر؟. ماذا يعني عن التراجع؟.  
وساد الصمت حتى قال بلا اكتراث:  
- عرفت قبلك مشقّة الصدق. . .  
كأنما يقرأ أفكارني. وقلت مستهترًا:  
- اعترضتني أزمة لعينة. . . (ثمّ بعد صمت). . .  
عشق المكاول راقصة أجنبيّة، لم يكن من الميسور في  
ذلك الوقت أن تمدّ إقامتها في مصر ما لم تتزوج من  
مصري. . . (ثمّ بعد صمت). . . قبلت أن أتزوج  
منها سرًا نظير هبة ماليّة محترمة. . .  
شعرت بإعياء فطال صمتي حتى تساءل:  
- بتلك الهبة فتحت مكتب الاستيراد؟  
فقلت بنبرة مرهقة:  
- بدأت بالتهريب نظرًا لتشدد القوانين في تلك  
الأيام، ثمّ فتحت المكتب بعد ذلك، ثمّ انفجر النجاح  
بعد الانفتاح حتى بلغت ثروتي السائلة خمسة ملايين  
من الجنيهات. . .  
شمّلنا صمتم ثقيل فوجدت تعزية في صفحة وجهه  
الذي لم يخرج عن حياده التام. وقال بهدوء:  
- أشياء تحدث كثيرًا ما تحدث، أما الاعتراف بها  
فلا يحدث أبدًا.  
فتمتمت:  
- إنها نسافة مثل الديناميت. . .

## الشیطان يعظ ٢٠٥

- إنهم في وادٍ بعيد... بعيد...  
 - انتشلهم من الفراغ وادفعهم إلى العمل، هذه هي الخطوة الأولى...  
 فتساءلت في دهشة:  
 - أنسيت ما قلت مرارًا عن التحرر من العمل؟  
 فقال بوضوح:  
 - نحن في مرحلة العمل، ولن نتحرر من العمل إلا بالعمل، والفراغ المنشود هو الفراغ المثمر الحافل بالعمل الإنساني، وقد أقنعت زوجتي - وهي تماثل زوجتك في تعليمها - بالعمل عضوًا في جمعية رعاية الأيتام، ابنتي الكبرى ست ومرتبطة وهو عمل، أما الآخران فستكونان طبيبتين...  
 - المشكلة العسيرة هي وفتيق فهو يعتقد أن عمله غاية الغايات...  
 فقال بأسي:  
 - إذا اعتبرنا العمل نشاطًا منتجًا لخدمة الفرد والجماعة فوفيق عاطل بلا عمل، الأدهى من ذلك أنه يقوم بنشاط مخرب، وهو أشبه بتجار الحبوب المخدرة القاتلة!  
 بذلك كشف عن رأيه في عملي أنا أيضًا فليس وفتيق إلا امتدادًا لي. أخذت لحدّ الفزع ولُكّيتي قلت:  
 - أمره هيّن رغم ذلك...  
 - كيف؟  
 - إنّي صاحب المال، وأستطيع إرغامه على التحول إلى النشاط الإنتاجي!  
 فهتفت:  
 - احذف «الإرغام» من قاموسك، لا تتبع طريق الحكام الذين يهدون للديموقراطية بمنهج دكتاتورية، أو يحققون العدل بالظلم، إنّه طريق سهل لأنه يقوم على القوّة لا التربية...  
 وصمتنا ولُكّتنا واصلنا تبادل الأفكار بالنظرات حتى اقتحمني خاطر كما يقتحم القذى فقلت:  
 - سوف ألقى من المجتمع حرجًا أشدًا!  
 فوافقني بهزة خفيفة من رأسه فقلت:  
 - طالما عددت من العمد المرضي عنها...  
 فقال بوضوح:

- الديناميت لا يهّم من يرغب في دخول التجربة، وسوف تجد في يوميّاتي خطايا كثيرة.  
 - هل تأذن الآن في اطلاعي عليها؟  
 - لا علاقة بين هذا وذاك. ستجدها بين يديك في الوقت المناسب لا قبل ذلك...  
 فشبكت يديّ في بعضهما وقلت:  
 - أخاف على أسرتي من قرارات قد أتخذها يومًا فيرونها جنونية...  
 فقال بأسًا:  
 - عندما تصبح قادرًا على اتّخاذها فلن تزعجك المخاوف.  
 - يجب أن أصمد حتى النهاية.  
 - في الإنسان قوى لا حدود لها، ثق من ذلك.  
 فقلت متأسفًا:  
 - مرضي يشكّني أحيانًا في قيمة رغبتني، أريد أن أختبر نفسي وأنا صحيح معافى...  
 - تفكير تستحقّ من أجله الثقة ولكنّ المرض وحده لم يكن ليغيّر...  
 فداخلي ارتياح وسألته:  
 - أمّن الصواب أن أسألك الإرشاد عند الضرورة؟  
 - كان لي مرشد أيضًا، المعاونة هامة وضرورية...  
 فازددت ارتياحًا ثمّ خطر لي خاطر فسألته:  
 - هل نجحت مع أسرتك؟  
 - لدرجة كبيرة، لا تنس أنّ النساء تستغرقهنّ الغايات اليومية ولكنهنّ في النهاية يشاركن الرجال في أعماقهنّ الإنسانية.  
 - أظنّ أنّه يجب أن أربي نفسي أولًا قبل أن أكرّ عليهم؟  
 فهزّ رأسه نفيًا وقال:  
 - من الضروريّ أن تسبقهم بالرغبة والخطوات الأولى، ثمّ عليك أن تشركهم في التجربة، فالقاومة الأولى مهمة جدًا باعتبارها مقويًا لا غنى لك عنه، ثمّ يجيء التعاون المثمر، تذكر دائمًا أنّ عملنا تعاوني وليس فرديًا...  
 فتمتمت في حيرة:

- لن يتيسر لك السير إلا بقهر الكذب والخوف .

١٢

مضى الشتاء وأنا أحاول لأول مرة الكتابة، كتابة المذكرات . لم أكن أتذكر إلا المعالم التي لا تُنسى وهي قليلة، ولكنّ التداعي استنقذ من العدم كهوفاً مطمورة . وعن سياسي مع أسرتي فقد دأبت على عرض آراء صديقي وكأنما أقصد تسليتهم ليس إلا . وأجارهم في اتهامه بالخيل ولكنّي أقول أحياناً:

- حقاً إنّه مخبول ولكنّ خيله لا خطر منه، ثمّ إنّه لا يخلو من حكمة، أليس من المهمّ أن يقوّي الإنسان إرادته ليحظى بحريته الحقيقية؟ وأليس العمل المنتج خيراً من النشاط الانتهازي؟!

وأنتى جلال على منهجي، ووصفه بأنه منهج «تسللي» ذو أثر فعال مع التكرار والصبر، والإصرار حيال ضجر الآخرين . . .

وقلت له يوماً بشأن مذكراتي:

- لم أستطع حتى الآن تسجيل واقعة زواجي من الراقصة الأجنبية!

فقال بامتعاض:

- يسوءني أن أسمع ذلك، إنّ كذبة واحدة تقوّض

البيان من أساسه . . .

- لا يعلم به إلا ثلاثة، المرأة وقد طُلقت من زمن وغادرت البلاد، أمّا أنا والمقاول فلنا مصلحة واحدة في إخفائها، وهي كفيلة إذا عُرفت بالقضاء عليّ في الأسرة والمجتمع . . .

- التسجيل مهمّ لتربيتك أنت أمّا النشر فلا أهميّة عاجلة له . . .

- قد تطلع عليه الأسرة بعد وفاتي؟

- إذا نجحت في تغيير الأسرة قرأتها بعين جديدة لا خوف عليك منها . . .

بدأت - رغم اهتمامي الظاهر - كمن يمارس تسلية ممتازة في سجنه ولكنّها مضت تنشب في أناملها الناعمة بلا توقّف .

١٣

في ليلة من ليالي الشتاء الملتحمة بالريبع استمعت

إلى ألحان شرقية قديمة بعمق وتركيز اكتسبتها أخيراً ثمّ أطفأت النور مستقبلاً نوماً مريحاً . كانت أفكار ونبيلة ووفيق في الخارج كالعادة وسرعان ما استغرقت في النوم . ولكنّي انتبهت من نومي مكلّلاً بشعور بأنّي لم أنم إلا قليلاً وأنّ الصباح ما زال بعيداً . طالعتني ظلمة مكثفة بالسناثر المسدلة فأغمضت عينيّ غير أنّي سرعان ما فتحتها استجابة لصوت غريب يشبه الحفيف .

تحايل لعينيّ شبح إلى يمين الباب فتساءلت:

- أفكار؟

لكنّه لم يردّ ولم يتحرّك . عجبت لرؤيته رغم الظلمة الكثيفة، حملت فيه متلقياً دفقة من القلق والخوف . مددت يدي نحو ظهر الفراش حتى عثرت على زرّ الجرس ثمّ ضغطت عليه طويلاً وقد ضاعف عجزتي من خوفي . سيسمع الخدم، وعسى أن يكون وفيق قد رجع . وكما طال الانتظار تسلّلت يدي الأخرى نحو زرّ الأباجرة وضغطت مجازفاً بالمواجهة ولكنّ الصباح لم يضيئ . هل احتاط الشبح وقطع التيار الكهربائي؟

أخرجني الخوف من صمتي فتساءلت:

- من أنت؟

ثمّ مستمراً بصمته .

- ماذا تريد؟ . . . ليس في الحجرة نقوداً

وإذا بشبح ثانٍ يترامى لي إلى يمينه أطول منه بقبضة يد . اندفعت صارتحاً منادياً وفيق ولكنّ صوتي لم يخرج . لعلّه الخوف أو الشلل . وسيطر اليأس . وإذا بثالث يقف إلى يمين الثاني على مبعده مترين من مقدّم السرير، وإذا برابع يتجلّى رغم الظلمة وهو أضخم الأربعة وأطولهم . امتلأت بوحدي وعجزتي وبأسي المطلق . تساءلت باستسلام:

- ماذا تريدون؟

فجاءني صوت خيّل إليّ أنّي لا أسمعه لأول مرة يقول:

- من حفر حفرة لأخيه . . .

فقلت بحرارة:

- أيّ حفرة؟ . . . إنّي طريح الفراش منذ حوالي

العام . . .

فقال الصوت بغضب:

## الشیطان يعظ ٢٠٧

- لا أصدّق ولا أتصوّر. . .
- وقهقت أفكار متسائلة:
- ماذا رأيت في نومك؟!

١٥

- جمعنا لأوّل مرّة هو الاستقبال. قلت:
- أكّد لي الدكتور صبري حسّونة أنّه كان يتوقّع لي الشفاء.
- فقال جلال أبو السعود:
- أنا لا أصدّقه تمامًا.
- ثمّ حدّثته بالتفصيل عن الحلم فأوّله بأنّه ترجمة حرقية لآلام الشفاء.
- تاويل معقول فيما أرى. . .
- فقلت بإصرار:
- أعتقد أنّ الحلم هو كلّ شيء.
- فتفكّر قليلاً ثمّ قال:
- بين الحقيقة والخرافة خيط رفيع فاحذر أن تقصفه. . .
- فتساءلت:
- ألا تؤمن؟
- فقاطعتني:
- أوّد أن تركز على إرادتك الحرّة.
- فقلت له بإصرار:
- الأمر يتعلّق بآمال الإنسان في الحياة وما وراء الحياة.

فقال بهدوء:

- طريقنا منهج ينتفع به المتمي واللامتمي على السواء.
- طالما قنع إيماني بالقشور وأريد أن أعيد النظر في موقفي.
- فقال بأسياً:
- وهي وحدة حتمية إلى إعادة النظر بعد تنقيته من العبودية والذاتية. . .
- فقلت برجاء:
- أرجو ألا تضجر مني.
- سأنتفع بك بقدر ما تنتفع بي.

- كففت عن الحركة لا التأمراً!

- والله لا أدري لقولك معنى. . .

فقال بحدّة:

- لا تدع البراءة وأنت عريق في الإجرام.

ووثبوا وثبة واحدة. اثنان إلى يميني ويساري، والأخران فوق الفراش. أيقنت بالهلاك فتوتّرت أعصابي لأقصى حدّ. قبض الأوّلان على ذراعيّ فاندفعت أقامهما بعنف لأخلّص ذراعيّ، متوقّفاً في الوقت نفسه هجمة من الأمام. ووقع الهجوم فاستمددت من اليأس قوّة. خلّصت ذراعيّ ورحت أضرب كيفما اتّفقت في جميع الجهات وأتلّقى من اللكمات ما لا يُعدّ. ازدددت عنفاً، ثمّ بلغت الرغبة في الحياة ذروتها فطرحت عن صدري الرجلين وتبادلت مع الآخرين ضرباً لا يعرف الهوادة. وسقط رجلاً الفراش على الأرض ولكن كيف سقطاً؟

تبيّن لي أنّي دفعتهما بقدمي!

ذهلت من الفرح رغم كربتي واجتاحني الشعور بالشفاء من العجز.

ازدددت قوّة وثقة حتّى استطعت الوثوب إلى الأرض. وقفت أقاتل بقدره كالإلهام بعد حدوث المعجزة، ووضح أنّهم أضعف ممّا تصوّرت وأنهم عزل من السلاح. تقهقروا نحو الباب وأنا أتعبهم باللكمات الصادقات حتّى بلغنا الصالة الخارجيّة. ودوّت صرخاتي الغاضبة وهم يولّون الفرار. . .

١٤

شعّ الضوء فبهر عينيّ.

وقفت مذهولاً بين أفراد الأسرة والخدم. هتفت نبيّلة:

- شفيت يا بابا. . .

وتتمم وبيق:

- كابوس! . . . ولكن شكراً له!

وقالت أفكار:

- علينا باستدعاء الطبيب في الحال. . .

رجعت إلى الفراش ماشياً في حذر، وشملتني مع

الدهول فرحة طاغية، وجعلت أقول:

## ٢٠٨ الشيطان يعظ

وكنت فريسة للقلق ثمّ بدأ أثره في حركات يدي  
ونبرات صوتي . ولحظت أنّه يرنو إلى يدي بعمق فقلت  
كالمعتذر:  
- إنّ ما يسبق الميلاد . . .

وخطر لي خاطر ففقهته قائلاً:  
- أسرتي سعيدة بشفائي ولكنّها لا تدري شيئاً عمّا  
ينتظرها من متاعب . . .  
فضحك قائلاً:  
- العبرة بالخواتيم!

## قرار في ضوء البرق

١

لها: «يبدو أنّ أمين ذهب إلى النادي؟»

فأجابت بالإيجاب فأمرها بإعداد فنجانين من القهوة وذهب. استنتجت المدبّرة أنّه رجع بصحبة ضيف، ودهشت لذلك إذ إنّهُ لم يحدث من قبل، وهو يمضي أمسياته في النادي مع القلّة الباقية من أصدقائه القدامى المعروفين. وجميعهم قد جاوزوا السبعين أو شارفوا الثمانين. وكما ذهب السرفجي بالقهوة إلى حجرة الاستقبال رأى سيّده قتيلاً فصرخ معلناً الجريمة لأوّل مرّة.

إذن قد ارتكبت الجريمة بسرعة نادرة وجراحة متهورّة ثمّ تسلّل القاتل خارجاً. وبالبحث أيضاً تبين أنّه لم يسرق شيئاً، لا من الرجل ولا من المسكن. وقال لي رئيسي همساً:

- القاتل من معارف الفقيد.

فوافقت من فوري فقال:

- طريقة القتل تقتضي قوّة فلنستبعد الأصدقاء القدامى فضلاً عن سخف التصوّر لأكثر من سبب.

فوافقت من فوري أيضاً...

فأتّجه نحو أمين البطراوي وسألته:

- من في تصوّرِكَ يمكن أن يصطحب المرحوم إلى هنا؟

- لا أحد فيما أعتقد.

- ألا يزور البيت أحد من خارجه؟

- أصدقاؤه القدامى في ظروف نادرة مثل المرض أو الولايم. عدا ذلك فهم يتلاقون في النادي مساء كلّ يوم تقريباً...

- وغير أولئك، أليس لك أنت أصدقاء أيضاً؟

مصراع عصمت البطراوي أشدّ الجرائم إثارة في زمن مضى. بادرتُ إلى فيلته بعجارة النيل في صحبة كبار رجال الأمن، استجابة لبلاغ ورد لنا من ابنه الشابّ الجامعيّ أمين البطراوي. وجدنا السياسيّ العجوز منطرحاً فوق مقعد كبير بحجرة الاستقبال والدم ما زال ينزف من رأسه وقد تحوّل إلى جثة هامدة.

هكذا انتهى الجبّار الذي أدمن الكاريكاتور المصريّ تقديم شخصه - إبان عهده - في صورة سفّاح ذي صلعة على هيئة بحيرة من الدم. لم يكن ثمة أثر لمقاومة، ولم يسمع الخدم حركة ولا صوتاً، فقد قُتل غدراً وهو سابح في هدوء الشيخوخة، وهذه أداة القتل ملقاة على حجره ملوّثة بدمه، تمثال برنزيّ لرياضيّ إغريقيّ، وبالتدقيق في التقيب عثرت على زرار فوق السجّادة وراء المقعد مباشرة. زرار لبنيّ ذي مركز ضارب للسواد. وكما كانت زراير بدلة الفقيد كاملة العدد فقد احتفظت بالزرار بعناية.

يبدو أنّ الجريمة ارتكبت في الساعة الحادية عشرة أو بعدها بقليل، وبالفيلاً وقتذاك الطاهي والسرفجي ومدبّرة البيت إذا إنّ الرجل أرمل منذ سنوات. وقد تلفنوا بالخبر إلى أمين في النادي الذي أبلغنا من فوره. وكان من عادة الرجل أن يخادر مسكنه في التاسعة صباحاً فيمضي ماشياً إلى كازينو الشاطيء حيث يلبث ساعة ثمّ يرجع ماشياً أيضاً. وهو يدخل المسكن بمفتاح خاصّ فلا يشعر به أحد غالباً، وهو ما حدث صباح اليوم. غير أنّه قابل المدبّرة في حجرة الجلوس وقال



البطراوي مع عنوان سكنهما. في الكازينو ساءلت المدير والجرسون بشير وماسح الأحذية حسونة. كان الخبر قد طار إلى الكازينو، ولاحظت أنّ بشيرًا كان أشدّ الجميع تأثرًا به، ثم علمت منه أنّ الفقيده هو الذي ألحقه بالعمل. ووافتنى معلومات لا بأس بها. فعلي فؤاد وجلال حمزة معروفان لدى بشير وحسونة.

- علي فؤاد من زبائن الكازينو، يمرّ بنا كلّ صباح تقريبًا في هذا الوقت من العطلة...

وقال بشير:

- وأحيانًا كان يتبادل التحيّة مع عصمت البطراوي، وفي هذا الصباح بالذات تصادف قيامهما في وقت واحد فغادرا الكازينو متصاحبين...

تحركت غريزة المطاردة وطالبته بإعادة الشهادة غير أنّ حسونة قال:

- كنت في ذلك الوقت راجعًا من مشوار فرأيت الأستاذ علي فؤاد وهو يودّع المرحوم ويمضي إلى كشك السجائر.

- لعله لحق به بعد ذلك؟

- لم أر شيئًا فقد دخلت من فوري الكازينو... ولكنّ شهادة بيّاع السجائر كانت قاطعة فقد شهد بأنّ علي فؤاد سار في اتجاه مضادّ لطريق البطراوي المتّجه نحو الجسر، وفضلاً عن ذلك فقد قال عن عصمت البطراوي:

- وقد لمحتّه من موقفي وهو يلتقي عن بعد بشخص ما سار بصحبته...

وعرضت عليه صورة جلال حمزة ولكنّه قال:

- لم أتبيّه ولم أعنّ بالنظر إليه...

أما عن جلال حمزة فهو لا يغشى الكازينو إلّا في النادر، ولكنّه جاء الكازينو منذ قليل...

كان مضطربًا، وهو الذي أبلغنا بخبر الجريمة، وسألنا إن كان الفقيده قد صحب أحدًا معه، فأفضينا إليه بما قلناه الآن...

وساءلت نفسي أكان جلال يحقّق إسهامًا منه في الكشف عن قاتل والد صديقه؟ أم كان وراء ذلك باعث آخر؟

وانتقلت إلى الناصي، وبسؤال أصدقاء أمين

- بلي، لي صديقان حميان وزميلان في كلبّة الحقوق لكتّهما لا يدخلان البيت إلّا بصحبي وفضلاً عن ذلك فنحن نتلاقى عادة في النادي...

تكلم بلهجة رافضة كلّ الرفض للشكّ فيهما، فسألته:

- هل يعرفها المرحوم؟

- قدّمتهما له بطبيعة الحال ورأهما أكثر من مرّة معي هنا.

- هلّا حدّثني عن ميولها السياسيّة؟

- جلال حمزة وطنّي لا لون حزبيّ له ولكنّه رافض...

- رافض؟

- أعني ينتقد كلّ شيء!

- الآخر؟

- علي فؤاد...

وتردّد قليلاً ثمّ قال:

- ديموقراطيّ...

- البلد كلّه ديموقراطيّ...

لكنّه لم يزد على ذلك شيئًا فحدجني الرئيس بنظرة خاصّة فحوّاه الاهتمام بهذا الجانب. وعندما خلوت إليه، عقب التحقيق مع الخدم الذي لم يسفر عن شيء، قلت:

- السياسيّ المعتزل لا يُقتل بسبب السياسة...

فقال بغموض:

- احذر القواعد، والآن حدّثني عن برنامج تحرّياتك.

فأجبت من فوري:

- ثمة أماكن هامّة مثل كازينو الشاطئ، النادي، بواب العمارة، حتّى الأصدقاء القدامى لا أحذفهم من برنامجي...

أما البواب فلم يشهد عودة عصمت البطراوي وبالتالي فإنّه لم ير من كان بصحبته. وذهبت إلى كازينو الشاطئ حوالي الثانية بعد الظهر ومعى صورتان لجلال حمزة وعلي فؤاد حصلت عليهما من أمين

## الشیطان يعظ ٢١١

- لم أكرهه على أيّ حال .
- أليس المتوقّع أن تكرهه بسبب ميولك السياسيّة؟!
- لم يعد الرجل إلّا ذكرى فضلًا عن أنّي كنت أنظر إليه بعين مودّة لعلاقتي الوثيقة بأمين . . .
- متى قابلت صديقك جلال حمزة هذا الصباح؟
- لحق بي في النادي في الواحدة أو قبل ذلك . . .
- كان واضحًا هادئًا ولم أجد ما يحملني على الشكّ فيه .

### ٤

- وكان جلال حمزة يقيم في شقّة صغيرة بعابدين، وحده إذ إنّ أهله مقيمون في بني سويف. وعندما علم بأمر التفتيش استاء وتساءل محتجًا:
- لماذا؟
- من أول نظرة أدركت أنّه مهزوز الشخصية ولكّني توقّرت بكلّ همّة للتفتيش. وبوجه خاصّ الملابس. وفي الحّم رأيت بدلة بيضاء متقوغة في طشت غسل. وبفحص الزراير وجدت زرارًا ناقصًا. وبمضاهاته بالزرار الذي عثرت عليه في حجرة استقبال البطراوي وجدته مطابقًا. اقتحميني شعور بالفوز.
- متى نقعت هذه البدلة؟
- أمس . . .
- ترى هل خامره شكّ؟!
- تنقص زرارًا.
- ربّما.
- مثل هذا الزرار.
- وأريته الزرار. فطّب في عصيّة وقال:
- توجد آلاف منها في السوق، وهي نفس زراير بدلتني الأخرى . . .
- هذا حقّ، وقد وجدت هذا الزرار وراء مقعد عصمت البطراوي . . .
- فتساءل بحدّة:
- هل تتهمني؟
- معاذ الله، متى بدأت صداقتك مع ابن القتيل؟
- منذ عشرة أعوام .

- البطراوي من الأعضاء عرفت كيف تلقى الشابّ الخبر. ومتى جاء علي فؤاد للقاء أمين في الساعة الثانية عشرة فعرف بالخبر، وكيف جاء جلال حمزة في منتصف الواحدة تقريبًا فدهمه الخبر. وسألت:
- هل من عادتهما المجيء إلى النادي في موعدهم حدّد؟
- فكان الجواب ألا ميعاد حدّدًا لهما في ذلك وأتّهما قد يتخلفان بعض الأيام. ويرجعوني إلى مكّتي تلقّيت من مساعدي تحرّياته عن الميول السياسيّة للشاين ولكّني لم أقتنع بالباعث السياسيّ أصلًا كما قلت لرئيسي.

### ٣

- كان علي فؤاد يقيم في شقّة متوسطة بالجيزة مع أسرته. وقد فتشنا الشقّة ولم نعثر على شيء ذي بال. حتّى الكتب لا مغزى لها فقد كان طالبًا بكلّيّة الحقوق وكان طبيعيًا أن تحوي مكّنته كتب الاقتصاد على اختلاف مذاهبها. عن علاقته بأمين سألته، وعن معرفته بأبيه. عن عقيدته السياسيّة فلم ينكرها وقال باسّمًا:
- إنّها معروفة كالاسم والسنّ!
- شوهدت وأنت تغادر الكازينو بصحبة الفقيد هذا الصباح؟
- هذا حقّ . . . ولكّني ودّعته على بُعد خطوات من الباب . . .
- أين ذهبت بعد ذلك؟
- إلى كشك السجائر. ثمّ قابلت صديقًا ثمّ ذهبت إلى النادي . . .
- قيل إنّ البطراوي قابل شخصًا آخر في طريقه هل اتّفقت لك أن رأيتّه؟
- كلاً. سرت في الطريق المضادّ . . .
- قيل إنّك أحد اثنين يزوران مسكن الفقيد في أيّ وقت؟
- غير صحيح. ولكّني أزور المسكن بصحبة صديقي أمين.
- أكنت تحبّ عصمت البطراوي؟

## ٢١٢ الشيطان يعظ

- عرفت القتييل؟  
- قَدَمِي إليه .  
- ولَكِنَّكَ كنت تعرفه من قبل؟  
- ماذا تعني؟  
- كلّ الناس كانت تعرفه .  
- طبعًا .  
- لعلّكَ كنت من المعجيين به؟  
- كَلَّا .  
- صديقك يعرف ذلك؟  
- نعم .  
- إذن كنت من أعدائه؟  
- أجل!  
- قلت عنه مرّة إنّه المدرسة التي تخرّج فيها كلّ من استبَدَّ بهذا الشعب أو نكّل به . . .  
- من قال ذلك؟  
- لنا تخرّجاتنا .  
- على أيّ حال فهذا رأيي حقًا .  
وتساءلت مصطنعًا الثقة في نبرتي:  
- هل رأيت الرجل صباح اليوم؟  
تردّد لحظات ثمّ قال:  
- نعم، على مبعدة غير قصيرة من كازينو الشاطئ . . . صافحته، سايرته أمتارًا ثمّ استأذنت منصرفًا إلى طريقي . . .  
- رآك أناس من رجال الكازينو .  
- ربّما . . .  
وقلت مغامرًا:  
- ورآك بواب العمارة . . .  
فقال بحدّة:  
- غير ممكن، لقد تركته قبل ذلك بمسافة طويلة . . .  
تمنّيت أن يسهو فيقع فيقول مثلًا إنّ البواب لم يكن موجودًا ولكنّه، فيما بدا لي، حاذق أو صادق . والحقّ - ورغم كلّ شيء - قوي الشكّ فيه عندي . سألته:  
- مضت ساعتان أو أكثر بين مقابلتك للرجل وذهابك إلى النادي، كيف مضّيتهما؟  
- عادة أتسكّع، وأحبّ مشاهدة صيد السمك . . .
- في ذلك الوقت قتل البطراوي . . .  
فقال بحقّ:  
- ليرحمه الله .  
- كيف فسّرت الجريمة لدى علمك بها؟  
- لم أجد سببًا واحدًا يبرّرها . . .  
- ألم يخطر ببالك أن يكون وراءها سرقة؟  
قَطَبَ قليلًا ثمّ قال:  
- السرقة لا تحدث عادة في النهار . . .  
- القتل نفسه حدث . . .  
فلم يجر جوابًا، فقلت:  
- إذن أنّجّه تفكيرك نحو السياسة!  
- لم أقل ذلك، ولا هو بمعقول . . .  
- لماذا؟  
- لا يفكر أحد في اغتيال سياسيّ معتزل . . .  
- حقّ لدى من عاش دهرًا وهو يحلم بقتله؟  
- من هذا؟  
- كثيرون جدًّا تمّتوا ذلك .  
فصمت وقد بدا عليه انهك فقلت:  
- استأذنيك الآن في استعارة البدلة المنقوعة بعض الوقت . . .  
فحدجني بذهول ثمّ عمالك نفسه فقال منفعلاً:  
- خذني إذا شئت داخلها!
- 
- وبينا كنت أحاور شكوكي في جلال حمزة ذهني خبر من شأنه أنّه يقلب الموقف رأسًا على عقب . عرفنا أنّه اكتشفت وصيّة للمرحوم، يوصي فيها بثلث ثروته للجرسون بشير . ومن فوري أبلغت رئيسي . ومن عجب أنّه لم يسرّ . قال بفتور:  
- جرسون! . . . أله نشاط سياسيّ؟!  
من تعيّر نبرات الصوت أدركت أنّ «شيئًا ما» يدبّر وراء الكواليس، ولكنّي قلت:  
- إني ماضٍ للتحقيق .  
فقال بامتعاض:  
- أخشى أن نخوض علاقات شخصيّة وأخلاقيّة . . .

## الشیطان يعظ ٢١٣

حدث ما يُعدّ كارثة. كارثة بكلّ معنى الكلمة. طويت نفسي على آلامها وذهبت إلى مسكن جلال حمزة . . . استقبلني بوجه أنهكه الإرهاق فبدا مثل شبح. تظاهرت أمامه بالمرح وقلت:

- دعني أردّ إليك بدلتك مصحوبة بالاعتذار!

وترامقنا في جَوّ مشحون بالتوتر. ثمّ تساءلت:

- ألا تدري أنّي شككت فيك من أوّل نظرة؟

فتساءل ببلاهة:

- أوّل نظرة؟

- كما يوجد حبّ من أوّل نظرة يوجد شكّ من أوّل نظرة.

فقال بسخرية:

- إنك رجل ملهم!

- وها هي الحوادث تؤكد خطأ ظني . . .

فصمت، فقلت:

- حسبنا أن المجرم الحقيقي قد اعترف، طبعاً علمت بذلك؟

- مثل جميع قراء الصحف.

- إنه صديقك.

- شخص لا يمكن أن يقتل.

- القتل أبسط ممّا تتصوّر.

فتردّد قليلاً ثمّ تساءل:

- ثمّة إشاعة متطايّرة تقول إنّه وبعض زملائه قد قُتلوا وهم يحاولون الهرب . . .

كنت قد عرفت ذلك ولكنّي قلت:

- لا أستبعد أن تقع حوادث من هذا النوع.

وساد الصمت وعدنا للترامق في توتّر حتى قلت بهدوء وبدافع من مجازفة لا تقاوم:

- أصارحك بأنّي ما زلت أومن بأنك القاتل . . .

تضاعف توتّره وثار غضبه، فقلت متهاذياً في الانتقام منه ومن نفسي ومن الدولة:

أنخيل ما حصل على الوجه الآتي: قابلت عصمت البطراوي بعد أن تركه الشهيد علي فؤاد، تصافحتا، سائرته منجذباً إلى قطعة من التاريخ المثير، لعلك صحبتته إلى البيت بزعم إدراك أمين قبل ذهابه إلى النادي. دخلتما الشقّة دون أن ينتبه لكما أحد، مضى

إنّي لم أفهم لغة رئيسي. لقد أدركت أنّ ثمّة رغبة لاستغلال الجريمة استغلالاً سياسياً، لأسباب سياسيّة لا تخفى. تجاهلت ذلك. وسرعان ما استدعيت بشيراً واستجوبته بكلّ دقّة. علماً بأنّ تواجده في الكازينو ساعة ارتكاب الجريمة أمر مؤكّد. ومنه علمت أنّ أمّه هي التي استشفعت بعصمت البطراوي ليُلحقه بعمله في الكازينو، عمل ممتاز ووفير الربح. وزرت الأمّ في حجرتها الوحيدة بعزبة العجوزة. عجوز جاوزت الستين ولكنّ وجهها يشي بأصل جميل. ونجحت في استدراجها للاعتراف بحقيقة مذهلة، وهي أنّ بشيراً ابن غير شرعيّ للبطراوي، وأنّ الفقيه علم بالحقيقة في حينها. ولم نعثر على شبهة أو قرينة تدّين الأمّ أو ابنها. ولما عرضت نتيجة التحقيق على رئيسي تهلّل وجهه، وسرعان ما أمرني بالانصراف. تخيلت ما يدور في الحجرة المغلقة من اتّصالات تليفونيّة وتدبيرات جهنميّة. وتسلمت الموضوع إدارة أخرى. وإذا ببيان يعلن في الصحف مصوّراً مقتل البطراوي كجريمة سياسيّة متهمّاً جماعة متطرّفة، وذلك من خلال حملة إعلاميّة موجّهة بضراوة نحو تلك الجماعة، وسبق ذلك حادث غريب وهو القبض على علي فؤاد ضمن عشرات من الأفراد الأبرياء. تابعت ذلك كلّه بكآبة شديدة وفي تأزم عنيف رغم بعدي عنه كليّة، وقلت لرئيسي:

- ما زال اتّهام جلال حمزة هو الراجح عندي . . .

فصاح بي وبغضب متسائلاً:

- أبينك وبينه ثأر قديم؟

فقلت بوضوح:

- إنّه مجنون أو نصف مجنون، إنّي أعرف هذا النوع جيّداً.

فصاح بي:

- لم يعد الموضوع من اختصاصك.

قرّرت أن أرجع البدلة إلى جلال حمزة بنفسي. الأمور تسير من سبئي إلى أسوأ. ثمّ إلى علمي ما يلقاه المقبوض عليهم من ألوان التنكيل والتعذيب حتى

برقت عيناه بجنون، صاح:  
 - أتحدّك أن تعلن اعترافي!... ما أتت إلا وغد  
 مثلهم!  
 غضبت بدوري. كوّرت قبضتي في وجهه مقاوماً  
 رغبة مرعبة في تحطيمه، صمّت.  
 - جبان كذاب... تعال إلى مكثبي واعترف  
 رسمياً ولترين ما أفعل...  
 اندفع يضحك بجنون حتى تصوّرت أنه فقد ذاته  
 فغادرت مسكنه مشّت الخاطر ممزّق القلب.

## ٧

بلغ بي النهور في التفكير حدّ مناقشة فكرة قتل  
 جلال حمزة متحدّياً كافة العواقب. ولكّني سرعان ما  
 اقتنعت بسخف الفكرة فالمهمّ حقاً هو كشف النقاب  
 عن جريمة الحكومة. ولم يطل بي التفكير إذ اقتحم  
 جلال حمزة حجرتي ذات صباح مجللاً بالانهيار  
 الكامل. أدركت في الحال أنه - حتى رغم جنونه إن  
 صحّ أنه مجنون - يشاركني في امتلاك ضمير متعذب.  
 وسرعان ما أملى عليّ اعترافه ثمّ وقّع عليه بإمضائه.  
 ألقى القبض عليه ورحلت أفكر في الأمر. إنّي أعرف  
 تماماً خطورة ما أنا مقدم عليه. إنّه لا يهدّد مستقبل  
 فقط ولكّنه يهدّد حياتي أيضاً. وإذا بقوة عنيفة تنفّسي  
 في وعيي خليقة بأن أتحدّى بها الجبال. من خلال لحظة  
 مقدّسة رحّبت بالاستشهاد وغرست بذرتي في نفسي  
 لينمو شجرة خضراء وهلاكاً أصفر. إنّها لحظة لا تُنسى  
 تحتوي الإرادة مثل إلهام خالد. وفي الحال قصدت  
 رئيسي وقدمت له الاعتراف. مضى يقرأ يهدوء أول  
 الأمر. ثمّ أخذ وجهه يصفّر وشفته تشنّجان. ثقبني  
 بنظرة مقت ثمّ هتف:

- إنّه مجنون بلا أدنى شك!

فقلت يهدوء:

- فلترّ النياية فيه رأيها!

فصرخ:

- إنك مجنون مثله!

ثمّ بنبرة وعيد:

- إذا تسرّب النبا فستكون أنت المسئول عن ذلك!

الرجل ليسأل عن ابنه ثمّ رجع، قتله ثمّ تسلّت  
 خارجاً، رجعت إلى مسكنك، خلعت ملابسك،  
 نعتت البدلة من الفطنة، ثمّ ذهبت إلى النادي لتشمّم  
 الأخبار، ثمّ إلى الكازينو لترى إن كان أحد رآك في  
 صحبة الرجل، ما رأيك؟

صاح جلال بسخرية وهو يتنفّض رغم ذلك:

- برافوا!

- تتظاهر بغير ما في باطنك، إنك ضعيف هزيل،  
 وما أنت تشهد مصرع عشرات الأبرياء بسببك، إلى  
 متى تحتمل ذلك؟

فصاح بسخرية:

- افترضني بلا ضمير مثل حكومتك العريقة...  
 فرمته بازدراء وقلت:

- إنك مطمئنّ الآن في حماية الحكومة، تعلم أنّها لا  
 تستطيع أن تتهمك وإلا اعترفت بقتل العشرات بلا  
 جريمة.

- فكرة جميلة، مجرم يجد حمايته في ظلّ حكومة  
 أوغل منه في الإجرام...  
 وبغته تلاشت سخريته وكأنما جفّت حيويته وخمد.  
 انتقلنا إلى جوّ مشحون بياس الاعتراف.

سألته يهدوء:

- أليس تصوّري صحيحاً؟

فصمت صمت الموافقة والتسليم، إنّه يلتمس قطرة  
 من العزاء. سألته:

- أكنت تضمّر الرغبة في قتله؟

هزّ رأسه نقياً فسألته:

- متى انبثقت في وعيك فكرة القتل؟

لم يتكلّم ولكّنه ضرب يده بالأخرى ضربة سريعة  
 واحدة فترجتها متسائلاً:

- فجأة!

تكلم بصوت ضعيف:

- وأنا أنصرف من الحجرة... قمت وليس في  
 ذهني إلا الذهب، مضيت من وراء مقعده، تركّز  
 بصري في صلعته، انتفض جسمي بغتة، اجتاحتني  
 فكرة القتل...  
 عدنا للترامق. مرق فجأة من حال الاستسلام.

## الشیطان یعظ ۲۱۵

الشرعی الذي قرّر جنونه فأودع في مصحة الأمراض العقلية. وشككت صحف المعارضة في القرار الطبي، وحملت على الحكومة حملة صادقة. ونمى إلي أن أمراً يدبر لي في الخفاء فلم أجد بدأ من الأخذ بنصيحة الأصدقاء، فقدمت استقالتي، وسافرت للعمل في خارج القطر...

وأمرني بالانصراف بعد أن أعطاني مفتاحاً للخروج من الأزمة. وفي الحال اتصلت بصحفي أعرفه من صحفي المعارضة، وذهبت إلى بيتي مرتاح البال لأول مرة منذ مصرع عصمت البطراوي.

\* \* \*

لم يكن مفراً، عقب انفجار الخبر في الرأي العام، من التحقيق مع جلال حمزة، وقد حوّل إلى الطبيب

## أسرة أناخ عليها الدهر

فوق كنية قديمة لا أثار في الحجرة سواها باستثناء  
سحارة سوداء وحصيرة متهرئة. قالت:

- لا مؤاخذة، لا يوجد كرسي، تفضّل بالجلوس  
على الكنية...

قال الشاب بعجلة:

- لا... ارجع إلى أمك خديجة العرة!

نهرته الست وقالت لي أسفة:

- أنت سيد من يفهم ويعذر.

فقلت بهدوء:

- لقد تلقت الوزارة طلبك فأرسلتني للتحري

كالمُتبع.

فتساءلت بلهفة:

- متى تقررون لي إعانة؟

- كل شيء بمشيئة الله، أتعيشان وحدكما؟

- معنا الله، وهذا الابن الذي بقي لي كما

ترى...

- أله عمل؟

قال الشاب:

- يا مغفل، ألم تعرف أنّ أولاد الملوك لا يعملون!

فصاحت به المرأة:

- لا تفضحنا (ثمّ ملتفتة إليّ)... أكرّر العذر

وربنا يكرمك، لا عمل له، يمضي على باب الله

فيطعمه المحسنون، وأنا لا مورد لي إلاّ الملايم التي

تجيئي من بيع النابت...

- في الطلب أنكم أسرة كريمة أناخ عليها الدهر؟

- كنتا كذلك، وضاع كل شيء...

ونشجت باكياً فقال الشاب الأبله:

وجدتني في فناء ترب مكتظ بالأدميين والضوضاء.

مرّبع الأضلاع مسقوف بسهاء متلبدة بالسحب

الداكنة. تتلاصق على أضلاعه الحجرات وتفوح في

جوّه البارد روائح البصل والثوم والفضول النابت

والطعمية. أمام كلّ حجرة تقرفصت امرأة أمام كانون

أو وابور غاز وانتشر فوق أديمه المليء بالحفر والنفايات

أطفال يلعبون. اتجهت الأعين نحوي وكأنما تتساءل

عما جاء بهذا الأفندي إلى ربعم العتيق. ملت نحو

أقرب امرأة وقلت:

- صباح الخير أين أجد ستّ وجديّة جلال؟

فأشارت بيدها المغطاة بقمّاز من الخضرة نحو امرأة

في الركن الأيسر من الضلع المتوسّط وهي تسأل

بتفؤل:

- من حضرتك؟... وماذا تريد منها؟

فشكرتها متجاهلاً تطلّها وشققت طريقي متجنّباً

الحفر حتّى وقفت أمام المرأة متسائلاً:

- ستّ وجديّة جلال؟

فرفعت إليّ وجهها بارز العظام مدبوغاً بالتعاسة

والكبر محدّقة فيّ بعينين كليتين وهي تهمس:

- أنا وجديّة.

فقلت برقة:

- مندوب وزارة الأوقاف.

نهضت بنشاط طارئ لا يناسب هزالتها، ثمّ دخلت

الحجرة وهي تقول بصوت بالغ المودّة:

- تفضّل.

أزل ما طالعني وجه شابّ مفرط البدانة، واضح

العتة، يرسل نظرات بلهاء ويتسم للاشيء. ترّبع

## الشیطان يعظ ٢١٧

المعتوه...  
 فقاطعته بأسماً:  
 - عرفتته، من أين له هذا القدر المخيف من الدهن؟  
 - يأكل في كل مكان، ولكن فيه شيء لله!  
 - تؤمن بذلك؟  
 - واسمع، منذ شهر رأيتته يبُول في وسط الطريق فزجرته فدعا عليّ، أتعرف ماذا أصابني؟  
 - خير إن شاء الله؟  
 - أبداً، أصبت في نفس الأسبوع بفتق... ولكن هل تنوي الوزارة مدها بإعانة؟  
 - ربّما.  
 - جميع جاراتها على مثل حالها من الفقر.  
 - للأسف الوزارة تقصر المعونة على الأُسَر التي أناخ عليها الدهر أمّا الفقراء فهيهات أن يشبعهم إلا وزارة أوقاف أمريكا...  
 \* \* \*

قصدت دار الكتب لأسأل عن غريب عدنان في إدارة المستخدمين فأحالي المدير على أقدم موظف في الدار بأرشيف الكتب يدعى الشيخ فرغل بهنس. قدّمت نفسي وشرحت له مهمّتي ثم قلت:  
 - قيل لي إنك خير من يحدّثني عن المرحوم غريب عدنان.

رفع الرجل حاجبيه وقال:  
 - يا لله... سبحان من يبعث الماضي بعد موت... كان - غفر الله له - مأساة وعبرة...  
 وطلب القهوة لي ثم واصل حديثه:  
 - كان مترجماً بالدار، شهادته الأصلية البكالوريا ولكنّه سافر إلى فرنسا على حساب أبيه فرجع بشهادة ما أو بلا شهادة ولكن شهد له بإتقان العربية والفرنسية...  
 وصمت لحظات ليجمع أشتات ذكريات ثم قال:

- كان أيضاً ميسور الحال، ذا مرتب حسن وبيت مكوّن من عدّة أدوار، وغرف بسعة اطلاعه، وكان بوسعه أن يفيد من علمه ترجمة أو تعريفاً ولكنّ الشيطان دفع به إلى أحضان موضّة انتشرت في تلك

- تريد أن تعتدي على أمي يا حمار!  
 لم ألتفت إليه، ولم أتأثر بالدموع من طول ما خالطت الأُسَر التي أناخ عليها الدهر، قلت:  
 - أعطني فكرة عن حياتك السابقة.  
 قالت وهي تجفّف دموعها بطرف شالها الرثّ:  
 - كان أبي يباع حلاوة طحينيّة وكان زوجي موظّفاً.  
 - اسمه ووظيفته؟  
 تردّدت تردّداً لم يرغب عنيّ بحكم خبرتيّ ثم قلت:  
 - مضى زمن طويل.  
 - لا بأس، أخبريني...  
 - كان موظّفاً بدار الكتب...  
 - اسمه من فضلك؟  
 تردّدت مرّة أخرى ثم قلت:  
 - غريب عدنان.  
 - أين كان مسكنك؟  
 - في باب الخلق، لا أذكر رقمه، ولكن كانت بأسفله صيدليّة.

ثم بصوت مليء بالأسى:  
 - صحّتي تسوء يوماً بعد يوم، ارحموني يرحمكم الله...  
 فصاح ابنها وهو يشير نحوي:  
 - هذا الرجل لصّ، رأيت بدلتته على رجل ديوث. غادرت المكان مسرعاً فبلغت شارع السدّ بباب الشعرية ونظرات النساء ما زالت راسبة في أعماقي. دلّنتي الزيارة على مراجعي. هناك شيخ حارة السدّ، دار الكتب، وبيت باب الخلق. وملت إلى دكان شيخ الحارة فوجدته لحسن الحظّ جالساً إلى مكتبه القديم تحت صورة الملك. سلّمت عليه ثم قدّمت إليه بطاقة العمل فرحّب بي فقلت:  
 - تفضّل عليّ بما تعلم عن ستّ وجدية جلال المقيمة بالربع ٢١ بحارة السدّ.  
 فقال بعدم اكتراث:

- علمي عنها قليل، لكنّها على حياء بخلاف بقية السكّان...

- أهي أصلاً من سكّان الربع؟  
 - لا... أقامت فيه منذ سنوات، وهي لولا ابنها



- غفر الله لغريب عدنان ولكن ما ذنب زوجته وأولاده؟

ثم أجاب على تساؤله:

- هي حكمة ربنا على أي حال. سألته باهتمام:

- ماذا حصل للأسرة بعد وفاته؟

- الأم كانت ست عاقلة ومدبرة، وجدت نفسها مسئولة عن تربية أربعة ذكور وأنثى فقررت أن تبع بيتاً ورثوه لتنفقه على تعليمهم، وهو صفقة رابحة على أي حال، وحال يقف أحدهم على قدميه تزول المتاعب...

- تفكير سليم ولكن أين ذهب الأولاد؟

- صبرك، الابن الأكبر وهو في نهاية مرحلته العليا قُتل في مظاهرة على عهد إسماعيل صدقي.

انتظرت وأنا أفكر في صحيفة التحريات التي ستعرض على لجنة الخيرات المتتمة في النهاية إلى حكم راهن يستند إلى انقلاب ملكي!. قال الرجل:

- الابن الثاني قامر بمصروفات المدرسة فخرها ثم انتحرا!

هزرت رأسي في أسى:

- ثم وجدت البنت عريساً لقطعة، غاية في نضج العمر والمال فلم يكلف الأم شيئاً يذكر ولكنها بعد أعوام من الزواج هربت مع خمار يوناني ويقال إنه هربها معه إلى بلاد اليونان، رأيته؟

وبعد صمت قال:

- لم يحتمل الابن الثالث الصدمة فاختمى ولم يُعثر له على أثر.

- هكذا لم يبق لها إلا المعتوه.

- ثم تدهور الحال إلى الحضيض!

\*\*\*

اجتمعت لجنة الخيرات برئاسة مديرها وعضوية نخبة من كبار الموظفين على حين توليت أنا سكرتيريتها. عرضت ما لدي من تحريات وتقررت - كالعادة - إعانات ما بين الجنيه والثلاثة جنيهات. وكما جاء دور طلب ست وجدية رحمت أقرأ التحريات في صمت ثقيل حتى فرغت. وضح لي الأثر العميق الذي

الأيام، أتعرف ماذا كانت تلك الموضة؟

فهزرت رأسي نفيًا فقال:

- موضة الإلحاد والعياذ بالله، قرر أن يكون حر التفكير مثل فلان وعلان تمن أحدثوا بإلحادهم ضجة ونالوا عنها شهرة فكانت الكارثة...

- كيف؟

- نشر كتابًا عن الدين المقارن ردّد فيه عن الإسلام ما يتقولّه المستشرقون المتعصبون!

- أعطني مثالاً.

- لم أقرأه، ولا أتذكره، ولكنّي أعرف تمامًا أن كتابه لم يُحدث ضجة ولا أنشأ شهرة، ولكن أدخله السجن وأفقدته الوظيفة...

- لم لم يتنج كما نجا آخرون؟

- كان وراء الآخرين أحزابهم ولم يكن وراءه إلا

الشيطان.

- ومات في السجن؟

- أبدًا خرج بعد انقضاء المدّة، عاش على ريع بيته عيشة ليست يسيرة، ثم مات بالكبد، وقيل إن الخمر كانت وراء وفاته...

- وماذا تعرف عن أسرته.

- لا شيء يذكر سوى أنّه كان صاحب زوجة وأولاد، لم تتجدّد علاقتي به بعد الإفراج عنه لقد قطعته بلا أسف منذ لحقت به لعنة الكفر...

- أدركت لم ترددت ست وجدية قبل اضطرارها إلى ذكر اسمه. على أي حال لقد ورثت أسرته البيت فكيف تدهور بها الحال إلى الربع ٢١، وأين بقية الأولاد؟

\*\*\*

ها هو البيت وها هي الصيدلية. بيت مكون من أربعة أدوار كلّ دور شقة واحدة. بيت متوسط الدرجة ولكنّه محترم فضلاً عن أنّه يُعدّ قصرًا بالقياس إلى ربع السد. جلّت جولة استكشافية بالكواء والبدا والفران والصيدلي فاهتديت إلى بغيتي في ساكن الدور الثاني أما الباقون فسكان جدد. كان موظفًا على المعاش يدعى عمّد الصيداد. استضافني بحذر، وكما علم بمهمتي أدلى إليّ بما عنده من ذكريات. قال:

## الشیطان يعظ ٢١٩

- شكراً يا فندم .  
 قام الرئيس وهو يقول لنا:  
 - الجلسة لم تفض، عن إذلكم . . .  
 \* \* \*  
 غاب دقائق معدودة ثم رجع إلى مكانه وهو يقول:  
 - علينا أن نعيد النظر في طلب ستّ وجدیة  
 جلال .  
 فقال المفتي بحدة:  
 - لقد انتهينا منه يا سعادة الرئيس .  
 وتساءل مدير الإدارة القانونيّة:  
 - أهي رغبة سعادة الباشا الوكيل؟  
 فأجاب الرئيس بوضوح:  
 - أجل .  
 وكان للمفتي مكانة في الحزب الحاكم لا تقلّ عن  
 مكانة الوكيل إن لم تزد فقال بصوت جهير:  
 - لن أراجع عن الرفض!  
 - فقال رئيس اللجنة:  
 - نمة توصية من شيخ مشايخ الطرق الصوفيّة!  
 فصاح المفتي:  
 - ولوا  
 فقال الرئيس متسائلاً:  
 - أترى من تكون وجدیة جلال يا فضيلة المفتي؟  
 فتساءل المفتي ساخراً:  
 - شجرة الدرّ؟ أم كليوباترة؟  
 فقال الرئيس:  
 - إنها حفيدة إسماعيل الماوردي، العارف بالله،  
 شملنا الله ببركاته!  
 وهتف مدير الإدارة القانونيّة:  
 - سبحانك ربّي، لك في كلّ شيء حكمة وعبرة!  
 لم ينبس المفتي بكلمة وساد صمت الاستسلام  
 والرضا. أجل والرضا. . .

تركه التقرير. كان مفتي الوزارة أول المتكلمين، تتم:  
 - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .  
 وقال مدير الإدارة العامّة:  
 - أيّ أسرة هذه الأسرة!  
 فقال مدير الإدارة القانونيّة:  
 - أسرة جمعت ما بين الإلحاد والانحراف والتمرد  
 والفسق والانحلال .  
 فقال المفتي:  
 - أسرة لم يبرأ من العيب فيها إلا معتوه .  
 فقال مدير الإدارة القانونيّة:  
 - والعته عيب أيضاً غير أنه لا مسئولية عليه .  
 ونظرت إلى رئيس اللجنة متسائلاً:  
 - هل أوقع بالرفض؟  
 فقال الرئيس مخاطب الأعضاء:  
 - دعونا من الأسرة وانظروا في مقدّمة الطلب فهي  
 سيّدة تعيسة الحظّ قد أناخ عليها الدهر .  
 فتساءل المفتي بغضب:  
 - كيف نبرتها وهي البؤرة التي ترعرت فيها كافّة  
 الموبقات؟  
 فقال الرئيس برقة:  
 - ألا تُعتبر أيضاً ضحيّة؟  
 فهتف المفتي:  
 - لا . . . لا . . . لا . . . أبعدها عنّا هذا الطلب،  
 عشرات الأسر أحقّ منها بالإعانة . . .  
 وساد صمت اعتبر موافقة فمضيت أوقع بالرفض .  
 عند ذلك دقّ جرس التليفون فتناول الرئيس السّاعة:  
 - أهلاً سعادة الوكيل .  
 . . .  
 - حقاً؟ . . . الطلب خالٍ من أيّ توصية .  
 . . .  
 - تسمح لي سعادتك بمقابلة دقيقة واحدة؟ . . .

# الظلام القديم

رغم جريان الهواء ورطوبته شعروا باختناق، وشعور

آخر طوقهم هو أنهم مكبلون في زنزانة .

- أين طريق المدينة؟

- لقد فقدنا الإحساس بالأتجاه .

- اختفى المكان .

قال ممتاز ساخراً :

- نسينا أن نحضر معنا بوصلة . . .

- ومعها عود ثقاب .

- ولا صوت لإنسان!

صمتوا في حيرة ولكنّ الصوت كان أنسهم الوحيد

وآخر ما بقي لديهم من علاقات الحياة فعاد إسماعيل

يقول :

- المدينة على مسيرة نصف ساعة . . .

- أجل ولكن أين اتّجاه المدينة؟

- قد نوجل صوب الجبل الأحمر فتقطع منّا الأنفاس

بلا جدوى . . .

- نسير مقدار نصف ساعة بلا زيادة .

- لكننا فقدنا الزمان كما فقدنا المكان!

- والسير نحو هضبة وابور المياه شديد الخطورة

لوعورة الأرض وانتشار مساقط القيامة .

ونفخ إسماعيل . وضيّعهم الصمت مرّة أخرى .

وسرعان ما قال ممتاز :

- رغم القلق والقرف فأني أشعر بالجوع .

فقال إسماعيل :

- وأنا عطشان، لم تبق معنا برتقالة واحدة . . .

- ما زلنا نرتدي ملابس اللعب والجوّ رطيب، هل

ليلة لا تنسى .

تأخّر بهم الوقت في صحراء العباسية في ليلة من

ليالي الخريف . لعبوا الكرة، ربحوا جولة وخسروا

الأخرى . تشاجروا، انصرف الفريقان إلا ثلاثة، عليّ

وممتاز وإسماعيل . لبثوا حتّى يصفّى الحساب ويتمّ

الصلح وتصفو النفوس، من شدّة التأثر أغمي على

إسماعيل، ارتبكا لذلك غاية الارتباك، قاما له بتنفس

صناعي، وعندما عاد إلى وعيه كان الليل قد هبط

بجلاله ولا مبالاته فأحرق بهم الظلام .

كانت ليلة من ليالي الخريف، استقرّت في سقفها

السحب، فلا نجم واحد في السماء، ولا شعاع

يتسرّب إلى المكان . ساحة مترامية ولكنّها محاطة

بمرتفعات شتّى على رأسها المقطّم بشموخه، تتعاون

جميعاً على حجب أضواء المدينة . غرقوا في ظلمة عميقة

وشاملة لم يجربوها من قبل، ظلمة أصيلة نقيّة مسيطرة

طمست على الحواسّ ونفذت إلى أعماق الوعي .

اختفى الوجود . تلاشت أشباحهم، استوى أن تحملق

الأعين أو تغمض، استولى العدم على الكون .

قال ممتاز :

- سرقنا الوقت .

فقال إسماعيل :

- أنا المستول .

فقال عليّ :

- إني أرى الظلام لأول مرّة .

- فلنمض نحو المدينة قبل أن يدرکنا الهوس . . .

ولكن أين طريق المدينة؟ . شعروا باختناق . . .

## الشیطان يعظ ٢٢١

- نرسل صيحة ثم نرصد الصوت فنحدّد موقع الجبل، بذلك تتضح الجهات الأربع!  
- فكرة غير مجدية، فليس الجبل وحده هو ما يُرجع الصدى، هناك الهضبة، وسور الغابة، وجدار مقابر الشهداء.  
- اللعنة...

ورجع ممتاز يقول بإصرار:  
- ليذهب كلّ منّا في ناحية ومن يظفر بالمدينة فعليه أن يرسل بعثة للإنقاذ...  
- ثمة احتمال أن نسير جميعًا في السواحي الخاطئة...  
- وهب أحدنا وصل ألا يلزمه بعد ذلك تجميع نفر من الأصدقاء والحصول على بطاريات؟...  
- أنتظر حتّى مطلع الفجر؟  
- أو أن ننحسر السحب عن بزوغ النجوم أو القمر!

- أيّ يوم هذا من أيام الشهر العربي؟  
- أعتقد أننا في الربيع الأول منه...  
- أضغاث أحلام، علينا أن نفعل شيئًا.  
ومضى الضيق يضيّق أكثر وأكثر، والاختناق يطبق عليهم بقبضة حديدية حتّى هتف ممتاز:

- ما ألعن الصمت!  
- نحن نفكر.  
- لم لا نعتبرها تجربة مسلية؟  
- والإرهاق والجوع والعطش؟!  
- انتظروا الفرج. إنّه يجيء بغتة...  
- بل ليس لنا إلّا الاعتماد على أنفسنا...

ونفخ ممتاز بغضب وقال:  
- فليسير كلّ منّا في اتجاهه وليكن ما يكون...  
- أليس الأفضل أن نبقي معًا؟  
وقال إسماعيل:  
- أنا لا أطيق الظلام وحدي.

فقال ممتاز بإصرار:  
- ابقيا إذا شئتما أما أنا فإني ماضٍ...  
- آية ناحية؟  
فضحك على رغبته وقال:

نتجمّد هكذا إلى الأبد؟!

- عسى أن تنجلي السماء عن فرجة يطلّ منها نجم...  
- أو يمرّ إنسان معه بطارية.  
- فلنتهاك بالأيدي خشية أن يضلّ أحدنا...  
وتماسكوا بالأيدي وهم يضحكون بفتور، وهتف إسماعيل:

- هذه هي نتيجة الشجار!  
- الشجار كان نتيجة اللعب الرديء...  
- أنت مغرور!  
- يا للحقاقة، هل نرجع مرّة أخرى؟!  
وضحكوا. عاد الصمت المخيف. قال عليّ:  
- فلنفكر. لم يبق معنا إلّا التفكير...  
- عظيم فلنفكر...  
- السؤال الأساسي هو كيف نهتدي إلى طريقنا في مثل هذا الظلام؟

ولما لم يجدوا جوابًا جاهزًا هربوا من التفكير فقال إسماعيل:  
- ما تصوّرت أبدًا أنّ الظلام له هذه القوّة...  
- كيف عاش أجدادنا الأولون قبل اكتشاف النار؟!

- كانت لهم غرائز خاصّة بهم...  
- نحن عميان بلا عصا ولا مرشد!  
- ألم نتفق على أن نفكر خيرًا من هذا الهديان؟  
رجعوا مكروهين إلى الصمت حتّى هتف إسماعيل:  
- نصرخ بأعلى أصواتنا لعلّ أحدًا من أهل النجدة يسمعنا...

- وإذا سمعنا أحد من قطّاع الطرق؟!  
- أو ذئب...؟  
- أو أيقظ صراخنا حيّة رقطاء؟  
فقال إسماعيل بنقاد صبر:  
- سحبت الاقتراح...

وعادوا إلى الصمت والتفكير ففرقوا في العدم مليًا حتّى قال ممتاز:  
- أرى أنّ الصراخ ضرورة لتحقيق هدف آخر...  
- ما الهدف الآخر؟

## ٢٢٢ الشيطان يعظ

- إنه السير أما الناحية فقد ابتلعها الظلام.  
- جهد ضائع...  
- هو خير من الانتظار.  
وسحب يديه من أيديهما وهو يقول:  
- أستودعكما الله...  
مضى بلا صوت، لم يدريا في أية ناحية ذهب،  
شدت يد إساعيل على يد صاحبه، وتمتم:  
- إنه عنيد...  
- ولكن الانتظار غير محتمل...  
- عليه اللعنة، هو المسئول الأول، وها هو يتركنا  
مثل شيطان...  
- لنسأل الله أن يستد خطاه إلى الطريق  
الصحيح...  
- وما أهمية ذلك؟... سنبقى هنا حتى مطلع  
الصبح...  
- أليس من الأوفق أن نفعل مثله؟  
فصاح بعصية:  
- كلا...  
- تمالك أعصابك...  
- فلتذهب أعصابي إلى الجحيم...  
واسترسل في هياجه فصاح:
- ما أنتم إلا لعنة من اللعنات، هذه هي  
الحقيقة...  
- لا تُثِرني أكثر من ذلك...  
- ألا تريد أن تعترف؟... من المسئول عن  
المهزبة؟  
- أُنرجع إلى ذلك... أليس حسبنا ما نحن فيه؟  
- ذلك ما أدى بنا إلى هذا الموقف...  
- اسمع، فلتُسير أو فلنصمت...  
- لا هذا ولا ذاك...  
- بل هذا أو ذاك!  
- تريد أن تستغل ضعفي فتفرض عليّ إرادتك؟  
- بتّ أحسد الذي ذهب...  
- ماذا تعني؟  
- لن نجني من الانتظار إلا الشجار.  
فشدّ على يده كالمستغيث فقال عليّ:  
- تعال-معي، فرصة النجاة ستهبط درجة ولكنها  
لن تنعدم...  
وتأبط ذراعه، وحمله على المشي معه وهو يقول:  
- أيّ شيء خير من الانتظار...  
وتحدّيا الظلام القديم الذي فقد سلطانه منذ  
اكتشاف النار.

## الرسالة

يوهم بأن الأمور ستمضي غداً كما مضت أمس. ثم ليس لكلّ أجل كتاب؟ وأن تستسلم للمقادير أخفّ من أن تشقى دوماً بعذاب الخوف، وأن تعيش يوماً خيراً من أن تعاني هولاً لم يحمي بعد؟. لذلك مضى يختلف إلى المقهى ويجالس الجيران ويلطف السكّان. من يحظر له أن ينعطف إلى هذه الحارة المنزوية؟ من ينقب في صحراء عن حبة رمل مضرّجة بالدماء؟ ويفكر جداً في المشاركة في المقهى، أن يحظى بنعمة الحبّ والزواج والإنجاب. أن يمارس الحياة بما يليق بالحياة، وأن يطالبها بما هو حقّ للإنسان.

وتتمّ المشاركة. وتقوى أسس المعيشة، ثمّ يتقدّم إلى الشيخ الحلبي طالباً يد كرمته.

- من هو سالم عبد التّوّاب؟... من هو عبد التّوّاب؟!

- لا غبار عليه كرجل عرفناه أعواماً.

- إنّه مقطوع من شجرة!

- أيّ مخلوق يتسلسل في النهاية إلى آدم وحواء.

- ألا تخشى أن يظهر لأحفادك ذات يوم أعمام من

الليمان؟

- في كلّ سلالة مجرمون وما يهمني إلا الرجل

نفسه!

\*\*\*

اقرن سالم عبد التّوّاب من عزيمة كريمة الشيخ الحلبي، وراح ينجب البنين والبنات. استقرّ قلبه في أمان شامل أو شبه أمان، فهو يمارس الحياة، والأعمار بيد الله وحده.

أجل تناوشه أحياناً أفكار معتمة، يخاف ما تفرضه

في البدء كان الخوف.

حلقّ الشارب واللحية. استبدل بالجلباب والجبّة بدلة. سمى شخصه الجديد «سالم عبد التّوّاب» بدلاً من عليش الباجوري الذي عُرف به دهرًا. ابتاع أرضاً وبنى بيتاً فأقام في شقة وأجر تسعاً. تجنّب الاختلاط بالناس ما وسعه التجنّب. عاوده الخوف من الزوايا والأركان، من الظلمة والضوء، من الهواء المشحون بأنفاس الخلق. يجذّر نفسه من القضاء والمصادفة وسوء الحظّ، فعند ذلك يستقرّ سهم الموت في قلبه... وتتلاشى الحياة في غيبوبة المجهول. قوّة القانون الصلدة قضت عليه بالإعدام، وكلفت الجلّادين بالتنفيذ، فلم تبق إلاّ الضربة القاضية. في سبيل النجاة اقتلع شخصه من جذوره، من الماء والحيوان والشجر. وتمزّ عليه الطمانينة إلاّ في غيبة الأحلام والكوابيس. هكذا تتواصل المطاردة جيلاً بعد جيل، تدفعها قوّة عمياء مقدّسة.

\*\*\*

- اذهب والله معك.

- والغربة في بلاد الغربة؟!

- في كلّ مكان ثمة حياة تندفق وهي مقدّسة مثل

الموت!

\*\*\*

في البدء كان الخوف.

ولكن لا دوام لحال. الشروق والغروب، تلاحم المعاملات وتبادل التحيّات، والتنفس والخفقان، أحلام اليقظة وأحلام المنام، كلّ أولئك من شأنه أن يلطف التوتّر، ويستأنس الشوارد، ويحلّ عادة في محلّ عادة،

- كيف عرف ذلك؟  
 - من أدراني أنا؟!  
 - لقد أتفقت مع ساكن جديد، أتعرف الرجل؟  
 - عرفته في سهرة عند السمراي ثم جرّ الكلام  
 بعضه بعضًا. . .

وذهب الشريك يخبر الرجل بنتيجة مسعاه، ومضى  
 هو يقيسه طولًا وعرضًا. توقع أن يصرف النظر عن  
 موضوعه ولكنّه قام بخفّة لا تناسب بدانته وقَدِمَ نحوه  
 فجلس وهو يقول:

- الطيّبون للطيّبات. . .  
 فجعل ينظر إليه ببلاهة فقال الرجل:  
 - محسوبك كريم البرجواني، تحت الأمر فاطلب ما  
 تشاء. . .

فقال بحسم:  
 - العفو، سبق منّي وعد شرف.  
 - جميل أن يحافظ الإنسان على عهده.  
 تجنّب سالم تشجيعه ولو بابتسامة ولكنّ الرجل قال:  
 - ما قيمة النقود؟. . . ما هي إلا عصافير!  
 ونهض الرجل وهو يقول:  
 - لكننا على أيّ حال أصبحنا صديقين. . .

وأتبعه عينيه وهو يمضي عن الحارة، وراح يتساءل  
 ترى هل يعرف الكتابة؟  
 أهو كاتب الجملة أم إنّه وحش مجهول رابض  
 وراءه؟!

وُدعي يومًا إلى شهود ذكر بيت جار. فراعته أن  
 يرى كريم البرجواني جالسًا بين المدعوّين. ماذا أقحمه  
 على الحارة بهذه القوّة. وراه وهو ينضمّ إلى حلقة  
 الذكر فيغوص في موجاتها المتلاطمة الراقصة ويسبح  
 حتّى يُبحّ صوته، ثمّ تهاوى في الختام فوق الحصرية فاقد  
 الوعي مثل ثور ذبيح. قال لنفسه إنّ خوفه من هذا  
 الرجل غباء مطلق، فما هو من قرينته، ولا هو من  
 الصعاليك الذين يؤجّرون للقتل. ولكنّ الرسالة نذير  
 جادّ وخطير، ليست دعاية مازح!

\*\*\*

وعندما كان مدعوًّا للعشاء على مائدة حميه قال له  
 الشيخ:

حياته الزوجيّة من اتّساع، سيلزم مرّات بمغادرة  
 الحارة، سيمضي إلى السوق أو المدرسة، ولكن ألا  
 يجيء الموت مع السلامة كما يجيء معي الخطر؟!

\*\*\*

وتلقّى ذات يوم رسالة.

«جاء الأجل!»

غفل من الإمضاء وليس بها إلا هذه الجملة. واردة  
 من حيّ السيّدة كما يقرّ بذلك خاتم البريد. اقشعرّ  
 بدنه برعدة خوف شاملة. وتفجّر الرعب من مكانه.  
 جاء الأجل، هل عُرف في النهاية غيباه بين البيت  
 والمقهى والأولاد؟ ولكن مهلّا، لمّ أراد المجهول أن  
 ينذرّه؟. لمّ لمّ ينقضّ عليه وهو غافل في نعمة العسل؟.  
 لماذا يعرّض انتقامه للفشل؟. لماذا يعرّض نفسه وهدفه  
 إلى يقظة قاتلة؟. لماذا يهبه فرصة للنجاة؟. أم يريد وقد  
 تمكّن منه أن يعدّبه؟.

جاء الأجل.

ما العمل؟ ما الطريق؟. هل يفشي السرّ القديم  
 إلى أهله فينسخ فيهم حياة جديدة مليئة بالفوضى  
 والشغب؟ هل يلجأ إلى الشرطة وإن جرّه ذلك إلى  
 الاعتراف بجريمة أكبر؟. أم يكتفي بالحذر وبالمسدّس  
 الذي لا يفارقه؟ وأيًا ما كان الأمر فقد تعكّر صفو  
 الحياة، وارتدّ ماء البحيرة الرائق بقنبلة أعماق متفجّرة.  
 رجع الخوف كما كان في البدء. إنّه لا يغادر البيت  
 إلا لضرورة ملحة. يتفحص الوجوه بريبة دائميًا،  
 يراقب الرائح والغادي، يتحسّس بكوعه مسدّسه،  
 يختلس نظرات الحنان والأسى من زوجته وأبنائه.

\*\*\*

مرّة قال له شريكه في المقهى وهو يشير بذقنه إلى  
 رجل جالس غير بعيد:

- كلّفني أن أسألك إن كان عندك شقّة خالية. . .  
 رأى رجلًا بدينًا غليظ الأشداق ذا جبهة متحدّية  
 يستقرّ في عباءة فضفاضة، فقال بقلق:

- ليس من حارتنا!

- بيّاع فراريح ومستعدّ لدفع الخلوّ.

- واضح أنّ البيت مسكون.

- ترامى إليه أنّ شقّة ستخلو قريبًا. . .

## الشیطان يعظ ٢٢٥

أن يتوَكَّد منه بنفسه. ولكنَّ الرجل لا يتذكَّر شيئاً على الإطلاق. إنَّه يقرأ ويوزَّع ولا يتذكَّر. هل كان حلماً بما يرى النائِم؟ أم هل جاء دور عقله ليشكَّ فيه!! مرَّة وحيدة توهم أنَّه ابتاع صفيحة سمن، ثمَّ سرعان ما كشف توهمه! وأرجعه إلى حلمه رآه ونسيه في جملة مشاغله. ذاك وهم سرعان ما كشفه أمَّا الرسالة فكأنَّما يشعر بمسهاً ويقرأ حروفها، كانت حقيقة لا شكَّ فيها. وما اختفاؤها الغريب إلَّا تذيير جديد.

\* \* \*

وكان يغادر بيته ليؤدِّي صلاة العيد، فتح الباب فرأى شبَّحاً. عرف وجه كريم البرجواني على الضوء الخافت المتسرَّب من ألق النجوم في ظلمة الفجر. تراجع خطوة... أخرج مسدَّسه. شعر بألم حادّ. أطلق الرصاص وهو يغوص في الغيبوبة. ما عرف -بالإضافة إلى ما سبق- إنَّما جاء على لسان كريم البرجواني في التحقيق، قال ذهبت لأداء صلاة العيد في الزاوية، وكأ مررت ببيت المرحوم سالم عبد التَّوَاب فتح الباب وظهر الرجل، أردت أن أحييه فإذا به يصوَّب نحوِّي مسدَّسه. خفت على حياتي، وبدفعة غير إرادية ركلته بسرعة فأصبت منه مقتلاً على حين انطلقت رصاصة قتلت صبيَّ الفران...

- رجل يريد الشقَّة التي ستخلو أوَّل الشهر...  
- مَنْ يا مولاي؟  
- يدعى كريم البرجواني...  
فارتعد سالم وسأل حماء:  
- تعرفه؟  
- كلاً... استشفع بي دون معرفة سابقة.  
- سبق أن رفضت طلبه.  
- لم؟  
- منظره لا يوحي بالثقة!  
- أنت وشأنك ولكيَّ وجدته شهماً وطيباً!  
الرجل يتعقِّبه. إنَّه يريدُه هو لا الشقَّة. ولكنَّ لم حدِّره بالرسالة؟ أيوجد وراءه مطارده القديم؟ كلاً.  
ما الأمر إلَّا دعابة. له منافسون وكارهون فالحياء لا تخلو من ذلك أبداً. أحدهم يبغِي إزعاجه أو السخرية من أحمق. أراد أن يلقي نظرة جديدة على الرسالة ولكنَّه لم يجدها في جيبه الداخلي. فتشَّ عنها في مظانها جميعاً ولكنَّه لم يعثر لها على أثر. ذهب إلى الكواء وفتش جيوب البدلة بظنِّ أنه نسيها فيها ولكنَّه لم يعثر لها على أثر. أين اختفت؟ هل امتدَّت لها يد خفيَّة؟ وتحجَّى الأمر مع عظمة زوجته ولكنَّها قالت:  
- لم يطرق ساعي البريد بابنا قط.  
ولكنَّه تسلَّم الرسالة منه في الخارج. ولا بأس من



## الشَّفَق

الطبيب، وأحضر جلساته العجيبة. بدا لي العلاج في أول الأمر فضولاً لا جدية فيه، ثم أخذت أضيّق به وأتدمر في مرارة متواصلة، حتى قلت يوماً لعمّي:

- لا أريد أن أذهب...

فقلت عمّي بقلق:

- والدك؟!

فقال زوج عمّي وكان موظفًا بشركة الكهرباء:

- لا ذنب للعلاج ولكنّ حياتك مملّة، لماذا لا

تشارك في «الشعلة» نادي حينًا الرياضي؟

واشتركت في النادي، ورحت أتدرّب على الكرة

والسباحة، ولم أنقطع عن العلاج.

وبرعت في الكرة كما برعت في السباحة. تحسّنت

صحتي البدنية، واشتدّت عضلاتي، وارتفعت روحي

المعنوية في المباريات المحليّة، وتعلّ رأسي بالهتاف

والإعجاب. وانقطعت عن زيارة خالد جلال،

وزايلتي نوبات الكآبة، وصرت ولدًا سعيدًا بكلّ معنى

الكلمة. واستقبلت المرحلة الجديدة من التعليم بفؤاد

جديد. ولما كنت قد أدمنت الثناء من خلال تفوّقي

الرياضي فقد أصررت على التفوّق في الدراسة لأنعم

بالإعجاب على المدى. وانتقلت من نصر إلى نصر،

ومن بهجة إلى بهجة، وتناسيت مرضي، فلم يخطر لي

ببال إلّا في لحظات نادرة من لحظات الوحدة والفراغ،

عند ذاك كان يخيّل إليّ أنّه رابض في مكان ما، وأنّه

يتحينّ فرصة للانقضاض، ولكنّها كانت لحظات نادرة

جدًّا ومتباعدة جدًّا، وسحابة أو سحابتان لا يمكن أن

تعكّر صفو سماء صافية.

كانت تعتريني في صباي فترات كآبة ثقيلة. أعزف عن الأهل، أعتزل في حجرة، أكره الطعام، وأحيانًا أبكي، بلا سبب واضح على الإطلاق. عرضت على أكثر من طبيب، جرّيت عقاقير كثيرة، بلا نتيجة. وقال أحد الأصدقاء لوالدي:

- اعرضه على خالد جلال الطبيب النفسي.

وكتنا نسمع عن الطبّ النفسي لأول مرّة، فأعلن أبي

عن ريبته فقال الصديق:

- إنّه طبّ معترف به في جميع أنحاء العالم، ولكنّ

مدّة العلاج طويلة، ربّما امتدّت إلى عام أو أكثر، كما

إنّ تكاليفه بالتالي باهظة!

وتفكّر أبي طويلًا ولكنّه بإزاء مرض غامض عنيد

قرّر استشارة خالد جلال. ولما كان عمله كتاجر

أصواف في أسبوط يمنعه من إقامة طويلة بالقاهرة...

فقد قال لي:

- ستقيم عند عمّتك ليسهل عليك التردّد على

الطبيب، وعلى أيّ حال كان في نيتي أن أرسلك إليها

لتواصل تعليمك...

وزرنا الطبيب. كان في ذلك الوقت شابًا بهي

الطلعة، دمث الأخلاق، جليّ الاعتداد بنفسه وعلمه.

وقد أصغى باهتمام بحضور أبي، ثمّ حدّد لي يومين في

الأسبوع لزيارته، وقال:

- المهمّ المشاورة والصبر، لست طفلًا، والسعادة

قيمة لا يجوز الاستهانة بها...

انضممت إلى أسرة عمّي عضوًا جديدًا بها. عضو

لاقي ترحيبًا حارًّا لثراء أبي وكرمه. ومضيت أتردّد على

## الشیطان يعظ ٢٢٧

شاكراً. ورغماً عني تسَلَّلت إليّ ذكريات قديمة استقبلتها بنفور، حتّى خيّل إليّ لحظة عابرة أنّ عدوي القديم رابض غير بعيد. لم تكن إلاّ لحظة عابرة بالغلة السخف، أما ما كان يضايقي كثيراً فحملة كاريكاتور الصحافة على أغنياء الحرب وتصويرهم لهم في صورة قَطّاع الطرق، يا لهم من أوغاد حسودين، وهل ينجح الإنسان إلاّ بالجهد والعرق؟!.

وكان كلّما أتّم ابن من أبنائي تعليمه أشركته في العمل، ولكنّي استأثرت بعقد الصفقات الكبيرة، والقيام بالرحلات التجارية الهامة، وكان أبنائي مُثلاً طيبة للبرّ والحذق، وقدوة تجارية في المثابرة وتقديس العمل والمال.

وبتقدّم الأيام والعمر أرخيت قبضتي رويداً عن بعض التبعات، وتحلّتها الأبناء المجدين. لماذا فعلت ذلك رغم هيامي بالعمل والنشاط؟. ربّما لأنّي أردت ألاّ يفاجأ الأبناء يوماً بمسؤوليات لم يتدرّبوا على ممارستها، وربّما لأنّي طرقت أبواب الشيخوخة ولم تعد الطاقة تسعف كما أسعفت في الماضي، وربّما لتسرّب قطرات من الضجر إلى زوايا نفسي. وظفرت بشيء من الفراغ سمح لي بالانطلاق بالسيارة ساعتين كلّ يوم في الخلوات أو الطريق الصحراويّ منفرداً بنفسي أو بصحبة زوجتي. وفي تلك الأوقات المريحة عاودني شعوري القديم بالعدو الرابض فطاردني التوجّس من جديد.

وذهبت إلى خالد جلال. بات شيئاً مجلّل الشعر بالشيب يوارى عينيه وراء نظارة طبّية كحليّة اللون. وذكرته بنفسه للمرّة الثانية في حياتي فرفع حاجبيه وهو يبتسم، فبادرته دفعاً لأيّ شئانة:

- المسألة من قبيل الاحتياط... .

فقال بهدوء:

- الوقاية خير من العلاج... .

- لعلّه توجد الآن عقاقير للوقاية بدلاً من الجلسات

الطويلة... .

- لا بدّ من الجلسات، لا بدّ من الصبر... .

فقلت ضاحكاً:

- لم يعد في العمر بقية كافية!

وفي أثناء دراستي بمدرسة التجارة اكتشفت زهيدة ابنة عمّتي. أجل كنّا نعيش في مسكن واحد ولكنّي نظرت إليها ذات يوم ونحن منفردان فخيّل إليّ أنّي أكتشفها من جديد. لم أر من قبل ذلك تلك النظرة الساجية العذبة، ولا ذلك الجسد الناضج المتناسق. وتبادلنا نظرات جديدة تماماً فتورّد وجهها وارتبكت، وانبعث من أعماقي شعور متوثّب حارّ وبهيج وطموح إلى غير حدّ. ولد الحبّ في تلك اللحظة في مهده الذهبيّ فباركه الحياء والمكر الحسن والحلم المبدع، وسرعان ما أعلنت خطبتنا.

تخرّجت في مدرسة التجارة، اشتغلت مساعداً لأبي في أسبوط، ثمّ حللت محلّه عقب وفاته في نهاية العام، ثمّ خضت تجرّبي مع السوق والزواج في عام واحد، والحقّ لقد أحببت العمل كما أحببت الزواج، وأصررت كعادتي على النجاح، وحذّرت نفسي دائماً من الفراغ ومن تذكّر الماضي، وأنجبت ذريّة كثيرة فكنت كلّ عام أستقبل وليداً جديداً، وزخرت حياتي بالتجارة والحبّ والأبوة.

واندلعت نيران الحرب العظمى فانفتحت أمامي أبواب جديدة للأرباح الأسطورية. انهمكت في عملي لدرجة فاقت كلّ تقدير. وما لبثت أن أنشأت متجرّاً ضخمًا للصوف في القاهرة، وانتقلت أنا وأسرتي إلى العاصمة، ثمّ شيّدت قصرًا، ورسّخت قدمي في دنيا الثراء والجاه، حتّى انتخبت رئيسًا للغرفة التجارية.

وجاءني ذات يوم خالد جلال للشراء. صار كهلاً وقورًا وما زال محافظًا على بهاء طلّعه. عرفته ولكنّه لم يعرفني. صافحته وأنا أقول:

- سعادتك لا تذكرني!

وحكيّت له تجرّبي معه وهو يتابعني مبتسمًا، ثمّ

سألني:

- وكيف حال الصحّة؟

فقلت له بثقة:

- عال والحمد لله... .

فقال لي بهدوء:

- الشفاء بيد المريض في أغلب الأحوال... .

وجعلت نفسي في خدمته حتّى غادر المحلّ راضيًا

أغدقت على أسرتها، سبقتني أبناء مغامرتي إلى مصر، وانقلبت بين يوم وليلة حديث الناس والصحافة عريس في الخامسة والستين وعروس في السادسة عشرة. ملكة جمال... مصاصة دماء... ثروة مهددة بالفناء. انكسر قلب زوجتي، وتجمّع أبنائي في اتحاد مضاد، للدفاع عني في الظاهر، ودفاعاً عن الثروة المهتدة في الواقع. وجرّ جنوني فقّرت أن أعصف بهم. وإذا بهم يقيمون دعوى بطلب الحجر عليّ! وفي المحكمة شرّحت تشريحاً بلا رحمة، فارق السنّ، الأموال التي نثرتها يميناً وشمالاً، ثمّ فضحوا مرضي القديم باعتباره نوعاً من المرض النفسيّ والجنون أهمل حتى استفحل. بتّ ويا للأسف مسألة عامّة تناقش، المجالس والمقاهي والغرز والصحافة، تجلّي الحقد المكبوت من قديم على نجاحي. أتهمت بالسفه. تدهور الشيخوخة، الجنون، اتهمني المتدبّنون بأنّي ألقى جزاء استغلالي للعباد في أيام الحرب، وقال الشيوعيون إنّني رجل طبيعيّ جداً ولكنني رأسيّ بلا زيادة ولا نقصان. ودّعي خالد للإدلاء بشهادته فكانت شهادته حاسمة في إدانتي. اعترف بأنني مصاب بمرض نفسيّ منذ صباي، وأنّ حياتي لم تكن إلّا سلسلة من المحاولات اليائسة للهروب من المرض ومن العلاج. وقد سألته المحكمة:

- هل يتيسّر نجاحه التجاريّ لمريض نفسيّ؟

فأجاب خالد جلال:

- يتيسّر له النجاح في التجارة، بل في العلم، بل في الحكم، إنّما العبرة بالنتائج!

وبلغت المأساة ذروتها فصدر حكم بالحجر عليّ. هكذا انتهت حياة النضال والكفاح والمجد. وسرعان ما ساءت العلاقات بيني وبين زوجتي الصغيرة حتى اضطرت إلى تطليقها، واعتزلت في حجرتي، مقطّعة الأواصر بأسرتي، أمضغ الكآبة وأبكي كالأطفال. ورغم موجدي على خالد جلال لم أجد بدءاً من اللجوء إليه. وقد بادرنى:

- معذرة، ما كان يمكن أن أشهد بغير ما شهدت به.

فتجاهلت ملاحظته وقلت:

- اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً... .

- ولكنّ عملي لا يسمح لي بأن أهرش ظهري!

- آسف، إنّني على استعداد لأعطيك ما عندي... .

فشكرته وقلت وأنا أقوم للانصراف:

- سأفكر في الأمر... .

رجعت وأنا أفكر، لا صبر لي على الجلسات ولا وقت. وقد يسيء ترددي على عيادته إلى سمعتي وأنا رجل سمعته في السوق تساوي مليوناً من الجنيهات. وسرعان ما قرّرت حذف الموضوع من رأسي. وكما اشتدّ بي الضجر خطرت لي فكرة غاية في الإبداع. قلت لزوجتي:

- لقد انقضى العمر بين ثلاثة أماكن محدّدة تفوح منها رائحة الصوف، وقد أتممت رسالتي، وأكرمني الله بأبناء هم زينة السوق، فما رأيك في أن تتأبّطي ذراعي ومغضي لرحلة طويلة حول العالم؟

أخذت زوجتي التي أمضت عمرها بين السراي وبيوت الجيران، القانعة السعيدة بكلّ ما حولها، وقالت بخوف:

- حول العالم؟

فقلت بحماس:

- أجل، أوروبا... أمريكا... الجبال... .

البحيرات... الناس... .

فقلت بفتور:

- أريد أن أحقق حلمي الصيف القادم بالحجّ إلى

بيت الله... .

- ليكن ذلك في العام المقبل!

كلّاً. إنّها لا تريد ولا تحبّ. ولا داعي لإزعاجها. ولأقم بالرحلة منفرداً. وقمت بالرحلة في أهبة لا تتاح إلّا لأصحاب الملايين. وفي مدينة نابلي شعرت بعدويّ القديم يتحرّك. تمطّى حتى صار شبّحاً ثمّ تجسّد وحشاً. ترى هل اعتزلت في حجرة وأتشنج في البكاء؟! وفي شدّة اليأس تعلّقت بفتاة صغيرة في السابعة عشرة، وكانت شهرتي كميونير تنتشر من حولي. فتصيّدني أبوها البستانيّ وأسرته فوقعت كذباة في خيط العنكبوت. وتزوّجت منها، وواصلت الرحلة، ونجوت من المخاوف. غمرتها بالهدايا،

### الشيطان يعظ ٢٢٩

ولعلك لا تتصوّر أنّي كنت سأضحك بفعل ما  
 فعلت، أنصحك بالرياضة والعمل والزواج . . .  
 فقلت بفتور:  
 - ولكنّي فعلت ذلك كلّ . . .  
 - هذا حقّ، ولكنك تفعله بروح أخرى. هذا هو  
 كلّ شيء . . .

- الحال سيّئة جدًّا . . .  
 - أعلم ذلك ولكنّ الشفاء مأمول . . .  
 فغمغمت:  
 - الأمر لله . . .  
 فابتسم مشجّعًا وقال:  
 - لو أذعنت من الأوّل ما صادفك شيء سيّء ،

## اللقاء

- تشرّفنا، فؤاد صاوي مزارع...  
 لعبا بمهارة وساحة. في أثناء ذلك عرف الرجل على  
 وجه التقريب أسباب وفود الفتى إلى القاهرة. ولما أزم  
 موعد الغداء دعاه الفتى مجاملة ولكن الرجل قبل  
 الدعوة، ثم دعا الفتى إلى العشاء فلم يجد بداً من  
 القبول. ذهب به الرجل إلى تافرنّا. هكذا انزلق إلى  
 صداقة جديدة بلا أسف. اعترف بأنّ ثمة تجاذباً قوياً  
 ينديه من الرجل ويدني الرجل منه، هذه الأمور  
 تحدث، لم لا؟ تناولوا شاورمة وسلطة خضراء ونيبداً  
 أحمر. بعث النبيذ الدفء والإلهام، في جو بارد ورذاذ  
 متقطع تعلن عنه حباته اللؤلؤيّة المناسبة فوق زجاج  
 النافذة... وثرثرا طويلاً فيما يشبه الطرب. ثمّ زقرقت  
 عصفائر النشوة في القلب فانسابت الأهواء من طرف  
 اللسان كسلسيل السماء. قال جبريل:  
 - إني رجل غنيّ والحمد لله وكثير الذرّيّة...  
 - حالي رضا، أسوأ ما فيها آني أعشق العجل وأنا  
 أربيّه فيبقى منه في القلب أسى بعد بيعة.  
 فقال جبريل ضاحكاً:  
 - إنك من أهل الخطوة خطوة، أما البهجة الحقيقيّة  
 ففي المغامرة والطفرة!  
 - ما عمّلك على وجه التحديد؟  
 - المغامرة.  
 - زدني إيضاحاً.  
 - صبراً، حتّى متى تبقى في القاهرة؟  
 - لمّدة ثلاثة أيام آخر.  
 - ألم تسمع عن يوم بألف سنة؟

تجلّت القاهرة لعينيه آية في الأضواء والبهجة  
 والصخب. إنّه يفد إليها لأوّل مرّة وعمّا قليل - بعد  
 أربعة أيام على وجه التحديد - يلحق به أبوه، ليقوما  
 بأهمّ زيارة في حياته، زيارة السيّد عبد الرحمن فاضل  
 لطلب يد كريمة. أبوه يراه كفتاً للبت الجميلة، فهو  
 زراعيّ ومرّبٌ للعجول، وذو مال، وفضلاً عن ذلك  
 فأبوه مزارع أصيل، وصديق للسيّد عبد الرحمن فاضل  
 وجار قديم له في القرية قبل أن يهجرها الرجل إلى  
 المدينة، وقد أعجبه البنت ليلة لمحها في الاحتفال  
 بالمولد النبويّ بالقرية، وبارك أبوه إعجابه وتمنّى له  
 الخير في رحاب آل فاضل، بادر بالانتقال إلى الهرم،  
 دار حول فيلاً آل فاضل، تملى طرازها العربيّ العريق،  
 تملأها بإعجاب ووجد، وتلقّى دفقة من أحلام  
 الورد... سار في المدينة ساعات مستكشفاً ثمّ أوى  
 إلى مقهى الأمراء أسفل الفندق، إنّه فتى يحسن تربية  
 العجول، ويحبّ الغناء، ويستحقّ أحياناً الملامة.  
 جلس في المقهى تائهاً في أحلام متشابكة حتّى انتبه إلى  
 جذبة نظرة مجهولة تناجيه بلطفها الخفيّ.  
 التفت فرأى رجلاً يتطلّع نحوه باهتمام، في الأربعين  
 لعلّه، ربعة واضح القسّات، يتيمّن بسيا السجود في  
 جيّته وشامة في ثغرة ذقنه. ولما تلاقت عيناهما دنا  
 بكرسيّه من مجلسه وقال:  
 - لا مؤاخذه، كلانا وحيد، تلعب عشرة؟  
 كان ضاق بوحده فابتسم مرحباً، صفّق الرجل  
 طالباً النرد وهو يقول:  
 - محسوبك جبريل الصغير من رجال الأعمال.

## الشیطان يعظ ٢٣١

في السمير. وهياً له السكر أن أفرح بحيرة زمردية في مركزها نافورة تنفث السعادة. ولكن اقتحم المجلس ظلّ ثقيل. رجل منهوّر سكران يزعم أنه صاحب حقّ أقدم. سرعان ما تطايرت الكئوس فوق المنضدة محطمة... وتأرجحت الشموع المتلألئة في الأركان بفعل اللكبات المتبادلة. انسحبت أفرح وجلة مثل حية عقب معركة خاسرة، وجاء جبريل مهولاً وهو يصيح:

- ولا حركة ولا كلمة!

ثبت أنه مسموع الكلمة. تأبط ذراعه ومضى به وهو يحقّف له دماً يسيل من ثنيتيه... أسعفه في صيدلية.

اقترح عليه أن يوصله إلى الفندق ولكنّ فؤاد قال:

- ما زلت مصمّماً.

- هه؟

- أفرح.

- ليكن ذلك في ليلة أخرى...

- ليلتي هذه فرصتي الأخيرة.

مضى جبريل الصغير نحو تليفون الصيدلية وهو يتمتم:

- لك ما تشاء!

استقبل والده في محطة مصر. استقلّا تاكسي مضى بهما إلى الفندق. لحظ الرجل ابنه ثمّ تساءل:

- شفتك متورّمة؟

فأجاب وهو مستعدّ لذلك:

- وقف التاكسي فجأة أول يوم لي هنا فارتطمت بحافة المقعد الأمامي!

- أظنها بسيطة؟

- ويمكن نؤجل اللقاء.

- كلاً، وقت عبد الرحمن فاضل مشغول دائماً...

زرت مصلحة المساحة كما كلّفتك؟

أجاب بحرج:

- شغلني الحادث، كان وجهي كلّهُ متورّماً.

فصمت الرجل في ضيق.

جلس بجانب أبيه في حجرة الاستقبال بفيلا الهرم.

بدا متوتّر الأعصاب فهمس له أبوه:

وتكلّم عن رحلة تستغرق يومين يجني من ورائها ثروة صغيرة، فسأله فؤاد:

- ألا يعرضني ذلك لقبضة القانون؟

- لا خوف على صاحب السمعة الطيبة والصحيفة البيضاء من السوابق!

وحدّثه عن سيّدنا موسى وهجرته الأولى من مصر ثمّ قال:

- لولا ذلك ما صار نبياً!

فضحك فؤاد وقال بتوتّر وشي باهتامه وقال:

- ولكنّي سأصير مهرباً!

- لا تنخدع بالأساء.

شجّعهُ بمثال سيّدنا يونس وجوف الحوت فقال فؤاد بلسان متعثر من الشراب:

- إنّه السجن وليس الحوت!

فعاد يذكره سيّدنا يوسف وكيف أفضى به السجن إلى الوزارة، ثمّ قال مداعباً:

- الدولة تستورد فتسمي ذلك تجارة خارجية فإذا حاكها فرد سمّت ذلك تهريباً...

ومضى به إلى ملهى لوك الليلي... شرباً مزيداً من الخمر. شاهد رقصة شرقية من أفرح.

أعجب الفتى بالراقصة، طالبه جبريل بتأجيل ذلك إلى ما بعد الرحلة.

قام فؤاد بالرحلة. رجع عند ظهر اليوم التالي. ربح من ورائها ما يربحه عادة في عام من بيع العجول.

احتفلاً بالنجاح في لوك. قال فؤاد:

- بوسعي الآن أن أبتاع شبكة فاخرة ونادرة.

فقال جبريل ملاطفاً:

- والبقية تأتي...

فتمتم فؤاد بحرارة:

- أفرح...

- عظيم، أهي من طراز عروسك؟

- كلاً.

- هذا أفضل فعليك أن تشيع من أشياء كثيرة قبل

أن تهب حياتك للعروس...

وينفوذه جاءه جبريل بالراقصة ثمّ غادرهما إلى

مكتب مدير الملهى. استحضر فؤاد لها الشراب وهام

فقال متأسفًا:  
 - الأولاد متعلقون بالمدينة...  
 وفجأة التفت نحو فؤاد متسائلًا:  
 - ما لك يا بني؟  
 فتراجع فؤاد إلى أعماقه وقال:  
 - لا شيء يا سيدي.  
 - ولكنك تنظر إليّ نظرات غريبة!  
 فتشجع فؤاد لعله ينجو من عذاب حيرته.  
 - الحق... الحق... ألك توأم يا سعادة البيه؟  
 ضحك الرجل وهتف الشيخ صاوي:  
 - يا لجهلك يا فؤاد... الدنيا كلها تعلم أنّ البيه  
 وحيد أبويه...  
 وسأله عبد الرحمن فاضل:  
 - أعرفت شخصًا يماثلني لهذه الدرجة؟  
 - أجل... ولكن لعلّي واهم...  
 وقال الأب مجاملًا:  
 - عبد الرحمن بك لا مثيل له!  
 ولكنّ السيّد سأل فؤاد:  
 - من هو ذلك الشخص؟  
 - يدعى جبريل الصغير وهو من رجال الأعمال...  
 فهتف عبد الرحمن فاضل:  
 - عليه اللعنة!... لم يقل أحد قبلك إنّ بيننا أيّ  
 شبه...  
 فتساءل الأب بقلق:  
 - ما لعينيك يا فؤاد!  
 وتمتم فؤاد حائرًا:  
 - أعترف بأنّي مخطيء!  
 فالتفت عبد الرحمن فاضل نحو الشيخ صاوي  
 وقال:  
 - كيف نسيتَه تمامًا يا شيخ صاوي؟... (ثمّ  
 ضاحكًا) كانت لك به علاقة لا تُذكر بخير أنسيت؟  
 الرجل الذي كان يعمل عندي ثمّ طردته بعد ضبطه  
 متلبسًا باختلاس؟  
 تورد وجه الشيخ صاوي وقال:  
 - اللعنة... الآن أتذكره...  
 فرجع عبد الرحمن فاضل إلى فؤاد متسائلًا:

- تكلم بطلاقة لتحوز الثقة.  
 وأزيجت الستار. برز من ورائها الرجل في عباءة  
 بيّنة. برأس كبير مغطى بطاقيّة من الصوف الأبيض.  
 نهضا لاستقباله وسرعان ما أصيب فؤاد بدهشة غير  
 متوقّعة. دهشة بلغت حدّ الذهول وجاوزته. خيل إليه  
 أنّه يرى جبريل الصغير نفسه... حتّى صوته تردّد وحو  
 يقول:  
 - أهلاً... أهلاً، كيف حالك يا شيخ صاوي!  
 - بخير ما دمت بخير يا بيه، هذا ابني فؤاد...  
 وتمت المصافحة دون أن تدر من عبد الرحمن فاضل  
 بادرة واحدة تنمّ عن رؤيته للشابّ قبل ذلك. حدّق  
 فيه بذهول. ساوره الشكّ. لعلّها صورة أخرى...  
 لعله مجرد شبه وليس تماثلاً. ولكنّه هو هو. كلاً طبعًا.  
 إنّهُ توهُم وأثر من الليلة الماضية. من يقطع في ذلك  
 برأي قاطع؟  
 ونظر السيّد إلى فؤاد وقال ببساطة:  
 - أذكر طفولته.  
 فقال الشابّ بحنان:  
 - تلك الأيام الطيبة لا تُنسى!  
 هو جبريل الصغير، كلاً، هذا رجل آخر جادّ  
 ووقور ولا أثر للافتعال في حركاته. ما أحوجه إلى  
 صفاء الذهن! ما زالت بقية من الخمر في معدته لم  
 تُهضم بعد. وقال الأب مخاطبًا السيّد:  
 - لعلّك بخير وعافية...  
 - الأمور تسير بعون الله، ولكن يندر أن نعثر على  
 مخلوق جدير بالثقة.  
 - هذه هي المشكلة!  
 - وكما عرفنتي فأنا لا أقرّر البطش إلّا عند الضرورة  
 القصوى!  
 - نبل عُرف عنك منذ القدم!  
 - والوسطاء العن، ولكن هل يسعني أن أقوم بكلّ  
 شيءٍ بنفسني؟  
 - غير معقول ولو كان ممكناً!  
 - حتّى خطر لي مرّة أن أصفّي عملي وأرجع إلى  
 القرية...  
 - يسعدنا رجوعك ولكن بلا قهر!

## الشیطان يعظ ٢٣٣

تلاقت عينا فؤاد بعيني السيد فومضت الحقيقة حتى  
أعمته. وقال السيد ببرود:  
- ليس بالولد الطيب ولكنّه مهزّب، فاسق،  
معرّب. . .

هتف الشيخ صاوي:

- يا أطف الله!  
خيّم صمت معذب. تجسّدت الإهانة كما تجسّد  
اليأس من الخطوبة. . . كيف يتكلّم الرجل بهذه  
الثقة؟!

من وحي استنتاج أم من وحي الوقائع؟. أله عين  
دائمة ترصد حركات جبريل فرصدته هو ضمناً؟!  
وهل هو تماثل أم تشابه أم لا هذا ولا ذاك؟!  
وتساءل الأب في أسى:

- ليس لديك ما تُدافع به عن نفسك؟

فتمرّد فؤاد على وضعه وقال لأبيه:

- أهنت يا أبي بما فيه الكفاية ويستحسن الآن أن

نذهب. . .

فقال عبد الرحمن فاضل بصلاية:

- أنت المهان وأنت المهين!

ثم التفت إلى الأب قائلاً بنبرة ليّنة:

- آسف يا شيخ صاوي.

غادرا الفيلاً صامتين يتجنّبان الكلام، يتجنّب  
أحدهما الآخر، يغوصان في حيرة بلا قرار ويشعر  
كلاهما بالذنب.

- أيدعي أنّه صاحب أعمال؟. . . فإذا أكون أنا؟  
ما هو إلّا نصاب. مهزّب. قواد، كيف عرفته يا بني؟!  
تلاشى فؤاد في حمأة الهجوم، اضطرب لدرجة أن  
اختفى التماثل بين الرجلين. وبادر الشيخ صاوي يقول  
مدافعاً عن ابنه:

- لم يعيش في القاهرة أكثر من أربعة أيام. . .

لبث عبد الرحمن ينظر إلى فؤاد منتظراً الجواب على  
سؤاله فقال فؤاد:

- عرفته معرفة سطحيّة في مقهى الأمراء. تبادلنا  
حديثاً عابراً ثمّ افترقنا. . .

تنهّد الشيخ صاوي في ارتياح. فكّر فؤاد بأنّ أباه  
مدنّب مثله وإلّا فما معنى علاقته القديمة بجبريل  
الصغير؟. أمّا السيد عبد الرحمن فاضل فقال للشابّ  
بهدوء مريب:

- الصدق أولى بالشرفاء!

- أقسم. . .

ولكنّه قاطعه:

- ولا تقسم بالله باطلاً!

اصفرّ وجه فؤاد: لاح شيخ الفشل لعيني الشيخ  
صاوي. استمسك الشيخ بآجر خيط للأمل وقال:

- اللعنة على جبريل وسيرته. ما من أجل ذلك

جئنا، ألم يحدثك الشيخ مندور عن دوافع زيارتنا يا  
عبد الرحمن بيه؟. . . فؤاد ولد طيب!

فقال عبد الرحمن فاضل بالهدوء نفسه:

- كلّ. . .



# الجبل

- الرجل: إن كنتم تريدون نقودًا...  
 عساف: (مقاطعًا) لسنا لصوصًا...  
 الرجل: ولست مجرمًا.  
 عساف: إنك مجرم وتعلم أنك مجرم.  
 الرجل: حذار يا أبنائي من الخطأ، القانون لا يغفل، ولا يفلت أحد من العقاب...  
 عساف: نشكر لك نصيحتك التي لا حاجة بنا لها...  
 الرجل: إنكم شبان، الحياة أمامكم طويلة وعريضة، ولستم قضاة.  
 عساف: نحن قضاة ما دام العدل لا يجد من يقيمه.  
 الرجل: إن كنتم قضاة فأين الدفاع؟  
 عساف: ما جدوى الدفاع وجريمتك جارية على كل لسان.  
 الرجل: إنني أقرأ الحكم في أعينكم متجسدًا.  
 عساف: وسبق أن حكم عليك كل متعامل معك.  
 الرجل: أمثالي يملئون الأسواق.  
 عساف: سيجيئون تباغًا...  
 الرجل: ليس ذنبي ولكنك الزمن.  
 عساف: بل هو الجشع...  
 الرجل: وما عقوبتي في تقديركم؟  
 عساف: القتل!  
 الرجل: (صارخًا) القتل!  
 عساف: رجوعك يعني هلاكنا.  
 الرجل: (متوسلًا) أقسم لكم...  
 عساف: (مقاطعًا) طالما حلفت كذبًا بالطلاق!  
 الرجل: الرحمة!
- كهف فوق سطح المقطم. إلى اليسار ممر يبدأ من نقطة عند حافة الكهف اليسرى ويمتد فوق السطح إلى الخارج. إلى اليمين ممر يبدأ من نقطة عند حافة الكهف اليمنى وينحدر نحو الخارج موحياً بالامتداد حتى سفح الجبل.  
 الكهف مظلم. ثمة أشباح. يد شبح تشعل المصباح المدلّى من سقف الكهف. يتضح المنظر. يوجد رجل بالملايس البلدية مقيّد اليدين والقدمين جالسًا على الجهة اليسرى من الأرض وأمامه من الناحية المواجهة خمسة من الشبان جالسين على الأرض أيضًا يرتدون القمصان والبنطلونات.  
 يتوسطهم عساف بمرکز الرياسة. إلى يمينه إسماعيل وحلمي. إلى يساره رمزي وحسني.  
 الرجل المقيّد: (في حال فزع) انقضضتم عليّ في الظلام وأنا راجع فتوهمتكم لصوصًا، وها أنا أرى أنكم أبناء من حارتي، أنت عساف، أنت إسماعيل، أنت حلمي، أنت رمزي، وأنت حسني، جيران وأبناء جيران، ما معنى ذلك؟ لماذا فعلتم بي ما فعلتم؟!  
 عساف: جئنا بك لنحاكمك.  
 الرجل: (وقد امتزج الفزع بالدهشة) قلت تحاكموني؟  
 عساف: نعم.  
 الرجل: ما أنا بالمجرم.  
 عساف: إنك مجرم.  
 الرجل: وما أنتم بالقضاة.  
 عساف: نحن قضاة كما ترى.

## الشيطان يعظ ٢٣٥

عساف: قتلك رحمة بالعباد.  
يقفون وهو يرتعد. يحمله أربعة. الخامس يحمل  
خمس عصي غليظة ويتبعهم نحو اليسار. الرجل طيلة  
الوقت يستغيث.  
عساف: ونلعن اللصوص ونعطف على أولاده.  
حسني: أولاده! إنهم مظلومون مثلنا...  
عساف: (بخشونة) نحن قضاة لا محامون، والتاريخ  
نهر طويل يتدفق بالدم المسفوك تسعة أعشاره من دماء  
الأبرياء.  
عساف: (يتحرك نحو اليمين وهو يقول) لا تنسوا أن  
دماءنا ستلتحم بدمائه البريئة ذات يوم.  
(يذهبون واحدًا في إثر واحد).

## إظلام

٣

الكهف. عساف، إسماعيل، رمزي، حسني.  
عساف: لندعُ لحلمي أن يوفق في مهمته.  
إسماعيل: فكرة طيبة، المجرم زير نساء، سرعان ما  
يقتنع بأنه قادم على سهرة طيبة...  
رمزي: ستهتز الحارة هذه المرة حتى الأعياق.  
عساف: سيؤمنون بأنه سقاح خطير.  
رمزي: لن يعطفوا على جلاذيتهم.  
إسماعيل: من أسف أن الخوف سيحتاج الجميع.  
حسني: وربما فطنوا عاجلاً إلى نوعية المحتفين...  
عساف: لعله أنفع لرسالتنا.  
حسني: في تلك الحال يخشى على الأبرياء من سوء  
الظن.  
عساف: الأبرياء لا خوف عليهم.  
حسني: قد يتعرضون للأذى.  
عساف: أشعر أنك لم تبرأ بعد من ضعفك.  
حسني: ألا ترى أنني أعمل مثلكم؟  
عساف: أعني القلب، فقد يستقل عن اليد واللسان!  
رمزي: اطمنن إليه كما تطمنن إلى نفسك.  
ترامى نحنحة آتية من الخارج. يدخل حلمي يتبعه  
رجل في ملابس بلدية فاخرة. الرجل يدهش لرؤيته  
الأخريين ويتوقف عن التقدم.  
الرجل: (مخاطباً حلمي) ما معنى هذا؟

## إظلام

٢

## إضاءة

يرجعون متجهي الوجوه. تمر فترة صمت في  
وجوم ثم يبدأ حسني الكلام وهو أسوأهم حالاً:  
حسني: أن تقتل إنساناً عمل فظيع حقاً، لن أنسى  
نظرة عينيه ولا جمود الموت الناطق بالفناء، لا تُعرف  
الحياة على حقيقتها إلا لحظة الموت، الحق لقد مت  
معه...  
(صمت. حسني يجف عرقه)

(صمت. حسني يجف عرقه)

حسني: معذرة فإنها المرة الأولى...  
رمزي: نحن مثلك...  
عساف: (متغلباً على وجومه) هل انهرتم وانتهيتم؟  
رمزي وإسماعيل وحلمي: كلاً... كلاً... كلاً...  
عساف: (مخاطباً حسني) إنني مثلك تماماً يا حسني  
ولكن علينا أن نحترف ضبط النفس...  
حسني: تلزمتنا أعصاب من فولاذ وقلوب لا تخفق!  
عساف: علينا أن نتذكر دائماً الظلم وأن نشق تماماً بقوة  
العادة، وقد ناقشنا طويلاً، واقتنعنا بكل قلوبنا،  
وتعاهدنا على عمل لا رجوع فيه، إنها رسالة،  
والرسالة وقودها العذاب...  
حلمي: هذا ما ارتضيناه بوعي كامل...  
عساف: واعتياد الظلم أفضح من اعتياد القتل...  
حسني: الظلم والقتل، كلاهما فظيع...  
إسماعيل: لتغفر لنا نوايانا الطيبة...  
عساف: تذكروا أننا شرفاء ورحماء...  
حسني: ولكننا لن نعرف الابتسام.  
عساف: ولكن شهداء...  
رمزي: ولكن شهداء...  
عساف: (بنبرة جديدة) علينا أن ننسى الجبل إذا رجعنا  
إلى الحارة.

على حال واضحة من السوء. أربعتهم يلاحظونه بقلق، خاصة عساف.

صمت

عساف: لا يمكن أن تمضي الأمور على هذا النحو...

صمت

عساف: إني أتساءل متى تبرا من ضعفك! حسني: يستحوذ علي إحساس غريب، لعلّه المرض...

عساف: كلاً، إنه أدهى وأمر. حسني: (بنبرة اعترافية) أخي عساف، ينبغي أن أصارحك بأنّ دفاع الرجل أقنعني!

فترة صمت

عساف: ما شاء الله، وإذن فالرجل هو المظلوم لا أهل حارتنا! حسني: لا أعني ذلك، إنما أعني أنّ قتله لن يحلّ المشكلة...

عساف: أتفق رأينا فيما سبق على نقيض ذلك! حسني: (منفعلاً) سنمضي من جريمة إلى جريمة، سنحترف الإجرام ونحن لا ندري، بتّ أشعر بالمرض...

عساف: إنك مريض حقاً، مريض الإرادة والروح...

حسني: (بعصبية) العكس هو الصحيح! عساف: حقاً؟ كلامك يعني أنك سليم وأنا المرضى؟

صمت

حلمي: (لحسني) أهذا ما تعنيه؟ رمزي: (لحسني) ماذا تقترح؟ عساف: بكلّ بساطة إنه يمهد للانسحاب... حسني: كلاً... أقترح أن نعدل جميعاً عن خطّتنا...

عساف: عن احترام الإجرام؟

صمت

عساف: لا فائدة ترجى من مواصلة المناقشة، امكث

ينقضون عليه بسرعة وإحكام. يطرحونه أرضاً. يقيدون قدميه وذراعيه وهو يقاوم عبثاً. يُجلسونه مكان الضحية السابقة وهو ينظر إليهم في فزع. الرجل: ما معنى هذا يا أبنائي؟... محال أن تكونوا لصوباً...

حلمي: صدقت، ستعرف كلّ شيء... عساف: لسنا لصوباً كما قلت، نحن قضاة نحاكم مجرمي حارتنا.

الرجل: (برعب) قضاة... محاكمة... مجرمون...!

عساف: كما ترى... وقد سبقك إلى هنا عمّ فرجل. الرجل: ماذا فعلتم به؟ عساف: (مشيراً إلى اليسار) إنه مدفون في الجبل... الرجل: ألا تخافون القانون؟

عساف: نحن رجال القانون الأسمى، دافع عن نفسك.

الرجل: (بفزع) أنا في عرضكم... خذوا ما تشاءون.

عساف: دافع عن نفسك. الرجل: (بضراعة) صبركم. فكروا قليلاً، فيمّ اختلف عن أيّ مالك في مصر؟ ماذا يجديكم قتلي؟

عساف: ينقص الظالمين واحداً... الرجل: الأمر أكبر من ذلك، فكروا قليلاً، لتفاهم، تجعلون من أنفسكم قتلة بلا ثمرة حقيقية...

عساف: لديك أقوال أخرى؟ الرجل: ماذا أقول؟ ماذا يمكن أن يقال، ستبقى المشكلة، إنها أكبر منّي ومنكم، قد يوجد حلّ ولكنّه ليس في القتل...

يقفون. أربعة يحملونه إلى سطح الجبل، يتبعهم الخامس بالعصي.

إظلام

٤

إضاءة

يرجعون بوجوه متجهمة. نلاحظ أيضاً أنهم أمكث لأنفسهم من المرّة الأولى. أما حسني فقد انتحى جانباً

## الشیطان یعظ ۲۳۷

صمت

رمزي: يبدو أنك لم تقنعه؟

صمت

حلمي: تكلم يا عساف، لا تُسلط علينا الهواجس.  
يذهب إسماعيل إلى الخارج. تترامى منه آهة فزع.  
يرجع منفعلًا نحو عساف.

إسماعيل: لقد خنقته!

يضطرب رمزي وحلمي. يهرعان إلى الخارج.  
يرجعان أشد اضطرابًا.

إسماعيل: من يصدق؟

رمزي: إنه قرار انفرادي ما كان ينبغي أن يتخذ دون  
الرجوع إلينا.

حلمي: نحن نندهور وننتحر.

عساف: (رافعًا وجهًا متقلصًا من الحزن) الألم  
يمزقني...

إسماعيل: (بحدة) هيهات أن يرده ذلك إلى الحياة.

عساف: لم يدع لي فرصة الاختيار.

إسماعيل: نحن نعمل كوحدة لا تتجزأ فلم انفردت  
بالقرار؟

عساف: لقد تحملت عنكم الألم وحدي...

إسماعيل: لقد قضيت علينا بألم لا يُحصى...

عساف: أقدمت على الجريمة دفاعًا عنكم وعني وعن  
الرسالة، إني صريع الحزن والألم...

إسماعيل: إنك قاسٍ فوق ما تصوّرت.

عساف: الرحمة وحدها هي التي تحركنا.

إسماعيل: يا للعجب... كيف طاوعتك يدك؟!؟

عساف يدفن وجهه بين يديه. صمت.

إظلام

هـ

إضاءة

عساف، إسماعيل، حلمي. وجوههم جادة ولكن  
يبدو أن ذكرى حسني قد جرفتها الأحداث.

حلمي: لم يعد للحارة من حديث إلا حديث السفاح  
الخفي...

عساف: عظيم.

قليلاً في هواء الليل النقي، استرخ في هدوء، ثم  
نستأنف الحوار.

حسني: (يتردد قليلاً ثم يذهب ناحية اليمين ويخرج.  
يتبادلون النظرات)

عساف: ما رأيكم؟

حلمي: سوف يثوب إلى رشده.

إسماعيل: إني لا أشك في إخلاصه.

عساف: وإني لا أشك في إخلاصه، ولكن الضعف  
غزاه، ويجب أن نخشى عواقب ضعفه...

رمزي: لعلّه من الخير له ولنا أن ينسحب.

عساف: إنّه حلّ قد يسفر عن عواقب وخيمة...

إسماعيل: لن يصلح رفيقًا لنا.

عساف: أوافقك تمامًا، ولكن ما الخطوة التالية؟

رمزي: نغفيه من العمل.

عساف: من يضمن لنا سكوته؟

إسماعيل: لا شك في إخلاصه.

حلمي: وكشف الأمر يودي به كما يودي بنا.

عساف: الضعف قد يؤدي إلى التهور أكثر مما يؤدي  
إليه القوة!

صمت

إسماعيل: احتمال بعيد جدًا.

عساف: وهل نضع أرواحنا ورسالتنا تحت رحمة  
الظروف؟

رمزي: لدي اقتراح آخر، أن يقتصر عمله على  
استدراج المجرمين.

عساف: لن يغيّر ذلك من واقع الأمر شيئًا...

إسماعيل: فلنجرب، لست متشائمًا...

عساف: دعوني أختبره...

عساف يخرج ناحية حسني. إسماعيل وحلمي ورمزي  
يتبادلون النظرات في حيرة واضحة.

إسماعيل: الصبر، سينتهي الصراع إلى خير.

رمزي: لعلّه.

حلمي: صدري متقبض.

يرجع عساف متناقل الخطوات. يجلس القرفصاء دافئًا  
وجهه بين ركبتيه. ينظرون نحوه بقلق واستطلاع.

إسماعيل: ماذا وراءك؟

إسماعيل: أهلي يتساءلون أين أمضي بعض الليالي حتى الفجرا  
عساف: إنه سؤال يتردد في بيتي أيضًا وبشير متاعب...  
إسماعيل: لذلك يتولاني شعور أحيانًا بأنني مطارد...  
حلمي: وقد يربط قوم بين غيابنا واختفاء الضحايا!  
عساف: لقد اخترنا وسلمنا بالمصير المحتمل...  
\*\*\*  
يدخل رمزي متأبطًا ذراع كهل. يدهش الرجل ويدهش كذلك عساف وإسماعيل وحلمي.  
الكهل: أين نحن؟  
رمزي يدفعه فيوقعه. يتعاونون على تكييله رغم مقاومة وصراخه. يتبادلون النظرات في صمت.  
الكهل: خدعتني يا رمزي، ماذا أرى، أتم لصوص؟  
عساف: لنحمله إلى الخارج حتى نتشاور. يمشون به إلى اليسار ثم يرجعون.  
عساف: (لرمزي) إنه ليس من كنا نتظر ولا هو من المدانين.  
رمزي: لكنّه لا يختلف عنهم في شيء.  
عساف: ما جريته؟  
صمت  
حلمي: المسألة بصراحة أنه نجح في أن يكون خطيب البنت التي يحبها رمزي.  
عساف: كيف تقمنا في شئونك الخاصة؟  
رمزي: إنه كهل وهي فتاة في السادسة عشرة، استغل فقرها، وفضلًا عن ذلك فهو فاسق بدليل مجيئه معي جريًا وراء سهرة محرمة...  
عساف: مسألة شخصية.  
رمزي: بل إنه استغلال دنيء للضعفاء.  
عساف: قد تكون البنت آثرته باختيارها.  
حلمي: لا تملك دليلًا ضده، ثم إنها مسألة خاصة...  
رمزي: لها صفة عامة في رأيي.  
عساف: لا يمكن أن نقتل لمثل هذه الأسباب.  
حلمي: أتفق معك.

إسماعيل: وأنا كذلك...  
رمزي: هل نطلق سراحه ليفشي سرنا؟  
عساف: للأسف لا مفر من قتله ولكننا لن نقتله فلسنا مجرمين...  
رمزي: إنك تلقي ألغازًا؟  
عساف: إنني واضح تمامًا، عليك وحدك أن تقتله، وعليك وحدك أن تدفنه...  
رمزي ينظر نحو إسماعيل وحلمي ولكنها يوافقان صامتين. أخيرًا يتناول عصاه ويندفع نحو اليسار.  
عساف: سيصبح منذ الآن مجرمًا.  
حلمي: أجل.  
إسماعيل: الحق أننا شركاء له في جريمته...  
عساف: ماذا؟  
إسماعيل: ها هو بريء يُقتل بموافقتنا واقتراحنا، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟  
عساف: هل عندك حل أوفق؟  
إسماعيل يصمت.  
عساف: (لحلمي) هل عندك أنت؟  
حلمي: كلاً.  
عساف: هل من سبيل لإنقاذ شرفنا؟  
إسماعيل: لن تنقذه قوة في الأرض.  
عساف: بل توجد وسيلة لإنقاذه!  
إسماعيل: حقًا؟  
عساف: أن نعاقب المجرم بما يستحق.  
إسماعيل: (فزغًا) تقتله كما قتلت حسني؟  
عساف: (ساخرًا) إنما أشير إلى الطريق الصواب ولكننا الاختيار.  
إسماعيل: إنه فوق ما نستطيع.  
عساف: كونا مجرمين إذن.  
حلمي: لننسى الأمر كله.  
عساف: هيهات.  
حلمي: لا مفر من ذلك.  
عساف: إنه الضعف يفزونا مرّة أخرى.  
إسماعيل: أصبحت الحياة كريهة.  
حلمي: لننسى الأمر ولنواصل السير، أصبحت الحياة كريهة حقًا.

إسماعيل: أهلي يتساءلون أين أمضي بعض الليالي حتى الفجرا  
عساف: إنه سؤال يتردد في بيتي أيضًا وبشير متاعب...  
إسماعيل: لذلك يتولاني شعور أحيانًا بأنني مطارد...  
حلمي: وقد يربط قوم بين غيابنا واختفاء الضحايا!  
عساف: لقد اخترنا وسلمنا بالمصير المحتمل...  
\*\*\*  
يدخل رمزي متأبطًا ذراع كهل. يدهش الرجل ويدهش كذلك عساف وإسماعيل وحلمي.  
الكهل: أين نحن؟  
رمزي يدفعه فيوقعه. يتعاونون على تكييله رغم مقاومة وصراخه. يتبادلون النظرات في صمت.  
الكهل: خدعتني يا رمزي، ماذا أرى، أتم لصوص؟  
عساف: لنحمله إلى الخارج حتى نتشاور. يمشون به إلى اليسار ثم يرجعون.  
عساف: (لرمزي) إنه ليس من كنا نتظر ولا هو من المدانين.  
رمزي: لكنّه لا يختلف عنهم في شيء.  
عساف: ما جريته؟  
صمت  
حلمي: المسألة بصراحة أنه نجح في أن يكون خطيب البنت التي يحبها رمزي.  
عساف: كيف تقمنا في شئونك الخاصة؟  
رمزي: إنه كهل وهي فتاة في السادسة عشرة، استغل فقرها، وفضلًا عن ذلك فهو فاسق بدليل مجيئه معي جريًا وراء سهرة محرمة...  
عساف: مسألة شخصية.  
رمزي: بل إنه استغلال دنيء للضعفاء.  
عساف: قد تكون البنت آثرته باختيارها.  
حلمي: لا تملك دليلًا ضده، ثم إنها مسألة خاصة...  
رمزي: لها صفة عامة في رأيي.  
عساف: لا يمكن أن نقتل لمثل هذه الأسباب.  
حلمي: أتفق معك.

## الشیطان یعظ ۲۳۹

عساف: لقد جرّدتنا هذه الجريمة من شرفنا...  
يرجع رمزي غاضب البصر. يقف مستنداً إلى الجدار.  
يسود صمت.

إظلام  
٦  
إضاءة

عساف، إسماعيل، حلمي، رمزي أمام ضحية جديدة  
مكبلة بالحبال. عند رأس الممر الأيمن خارج الكهف  
تقف فتاة متنصّطة.

عساف: انتهى التحقيق فلنحمله.  
يحملونه ناحية اليمين مثل كلّ مرّة سابقة.  
الفتاة تدخل الكهف بحذر، متوارية وراء الجدار  
تصرخ فزعة وتقع مَخمياً عليها.  
يرجع الشبان الأربعة فزعين وبأيديهم العصي. عساف  
يركع إلى جانب الفتاة على حين يجري الآخرون نحو  
المخرج الأيمن.

عساف: (بحنان) هبة... حبيبتي... ماذا جاء  
بك...؟!  
يربّت على خدّها. يرجع الشبان.  
إسماعيل: لا يوجد أحد، كيف جاءت؟!  
عساف: (للفتاة) هبة... هبة... أفيقي...  
رمزي: ماذا جاء بها؟  
تأخذ الفتاة في الإفاقة. تنقل عينها بين الوجوه.  
تتذكر. تقف فزعة.  
هبة: (لعساف) ابعدي عني، إنك قاتل، كلّمك  
قتلة...  
عساف: مهلاً، لسنا قتلة، اهدئي حتى أطمئن  
عليك...  
هبة: لا تمسني... ابعدي...  
عساف: مهلاً... كيف جئت إلى هنا؟  
هبة: إنّه حظّي، لأعرفك على حقيقتك، أنت قاتل؟!  
عساف: سأشرح لك كلّ شيء.  
هبة: لقد رأيت بعيني... رأيت القتل والدم.  
عساف: ماذا جاء بك يا هبة؟  
هبة: كنت عمياء، لاحظت تغييرك ليلة بعد أخرى،  
ظننت... المهم أنّي تبعتك.

عساف: يا لسوء الحظ!  
هبة: يا للقتل والدم والوحشية...  
تحوّل لتذهب. يقف رمزي في طريقها.  
هبة: دعني أذهب...  
يتبادلون النظرات.  
حلمي: غير ممكن.  
إسماعيل: هذا مفهوم تمامًا.  
هبة: فيم تفكّرون؟  
رمزي: لا يمكن أن تذهبي، هذه هي الحقيقة  
الأيمة...  
هبة: ماذا تعني؟  
إسماعيل: حقيقة أليمة حقًا.  
حلمي: أيّ لعبة قذرة دامية!  
رمزي: (لعساف) تكلم يا عساف.  
عساف يثنّ صامتًا.  
رمزي: لا حيلة لنا.  
هبة: ماذا تريد؟  
رمزي: لن ترجعي أبدًا.  
هبة: (وهي في رعب متزايد) ماذا تقصد؟  
تنظر نحو عساف فيزداد منها قربًا.  
عساف: دعوا المسألة لي.  
رمزي: أوضح!  
عساف: يلزمي وقت للتفكير.  
رمزي: الأمر واضح جدًا ولعلك لم تنس مصرع  
حسني!  
عساف ينظر إلى رمزي بقهر.  
رمزي: تكلم يا عساف.  
عساف: (بانفعال) لا.  
رمزي: لا؟! ماذا تعني؟!  
عساف: قلت لا...  
رمزي: أتريد أن تضحي بنا من أجل حبيبتك؟  
هبة تقرب أيضًا من عساف.  
رمزي: إنها بريئة، سيئة الحظ، ولكن لا مفر من  
قتلها...  
هبة تصرخ فزعة.  
رمزي: عليك أن تقتلها وعليك أن تدفنها.

عساف: لقد جرّدتنا هذه الجريمة من شرفنا...  
يرجع رمزي غاضب البصر. يقف مستنداً إلى الجدار.  
يسود صمت.

إظلام  
٦  
إضاءة

عساف، إسماعيل، حلمي، رمزي أمام ضحية جديدة  
مكبلة بالحبال. عند رأس الممر الأيمن خارج الكهف  
تقف فتاة متنصّطة.

عساف: انتهى التحقيق فلنحمله.  
يحملونه ناحية اليمين مثل كلّ مرّة سابقة.  
الفتاة تدخل الكهف بحذر، متوارية وراء الجدار  
تصرخ فزعة وتقع مَخمياً عليها.  
يرجع الشبان الأربعة فزعين وبأيديهم العصي. عساف  
يركع إلى جانب الفتاة على حين يجري الآخرون نحو  
المخرج الأيمن.

عساف: (بحنان) هبة... حبيبتي... ماذا جاء  
بك...؟!  
يربّت على خدّها. يرجع الشبان.  
إسماعيل: لا يوجد أحد، كيف جاءت؟!  
عساف: (للفتاة) هبة... هبة... أفيقي...  
رمزي: ماذا جاء بها؟  
تأخذ الفتاة في الإفاقة. تنقل عينها بين الوجوه.  
تتذكر. تقف فزعة.  
هبة: (لعساف) ابعدي عني، إنك قاتل، كلّمك  
قتلة...  
عساف: مهلاً، لسنا قتلة، اهدئي حتى أطمئن  
عليك...  
هبة: لا تمسني... ابعدي...  
عساف: مهلاً... كيف جئت إلى هنا؟  
هبة: إنّه حظّي، لأعرفك على حقيقتك، أنت قاتل؟!  
عساف: سأشرح لك كلّ شيء.  
هبة: لقد رأيت بعيني... رأيت القتل والدم.  
عساف: ماذا جاء بك يا هبة؟  
هبة: كنت عمياء، لاحظت تغييرك ليلة بعد أخرى،  
ظننت... المهم أنّي تبعتك.

إسماعيل: يجب أن ينتهي هذا العذاب.

حلمي: لقد حلّت بنا اللعنة . . .

رمزي: إتّها مهمّتك يا عسّاف.

هبة: (لعسّاف) أنت تقتلني؟

عسّاف: كلاً . . . لن يمّسك سوء.

رمزي: هل تعني ما تقول؟

عسّاف: (بتحدّ) كما تسمع وترى.

رمزي: ها أنت تنكشف على حقيقتك.

عسّاف: لن يمّسها سوء وأنا حيّ.

رمزي: (للاخرين) لتتخذ قرارًا.

إسماعيل: صبرك.

رمزي: حتّى متى؟

عسّاف: اعتمدوا عليّ، إتّها مشكلتي وسأجد لها الحلّ

المناسب . . .

رمزي: إتّه قرار غير قابل للتأجيل.

عسّاف: نهرب معاً، أنا وهي . . .

رمزي: وتتخلّى عن الرسالة وعتاً؟

عسّاف: إتّه الحلّ الوحيد.

رمزي: بل يوجد حلّ آخر، أن تقتلها وتدفعها

بنفسك.

ثمّ ينظر رمزي إلى إسماعيل وحلمي محتدًا ويقول:

رمزي: تكلمنا . . . ما معنى الخرس في موقف البيان؟

حلمي: الحقيقة واضحة.

إسماعيل: هذا حقّ.

رمزي: إتّه قرار إجماعيّ . . .

عسّاف: إتّه المستحيل . . .

رمزي: نغضيك من التنفيذ ونقوم به نحن.

هبة تصرخ متعلّقة بعسّاف.

عسّاف: لن يتمّ هذا وأنا حيّ . . .

رمزي: (منقضًا عليه بعصاه) إذن يتمّ وأنت ميت.

يتبادلان الضرب. يسقط رمزي. هبة تندفع نحو

اليمين هاربة. حلمي يتبعها بعصاه. يندفع عسّاف في

أثر حلمي فيعرضه إسماعيل ولكنّه يقتله وينطلق

خارجًا.

## إظلام

### ٧

## إضاءة

يرجع عسّاف حاملاً هبة بين يديه. يضعها على

الأرض. ينظر إليها حزينًا.

عسّاف: عندما يتجاوز الشعور بالألم حدّه يفقد

الإحساس بذاته. لذلك فإنّي هادئ وسعيد. لولا أنّ

الوقت غير مناسب لغنّيت ورقصت. الوداع لكلّ شيء

طيب أو قبيح. ولتسعفني سعادتي على دفن الحبيبة

والزملاء والأمل. وأقول لأيّ هاتف بأنني لن أعترف

ولن أنتحر. في سطح الجبل الغائص في الظلام متّسع

للتخيّط الجنوبيّ الثمل. امضِ أيّها الشبح متلقّيّ الخلاء

بخلاء أشدّ، مستعدّبا التحلّي بلا عون ولا هدف،

مستشرقاً ضربات المجهول ومفاجآت الغيب، مستعدّبا

الألم والسخرية وذكريات الأحلام الجميلة . . .

الشیطان یعظ  
مسرحة فی فصل واحد  
مستوحاة  
من  
(مدينة النحاس)  
ألف لیلة وليلة

موسی بن نصیر یؤخذ بما سمع فیتطع إلى محدثه صامتاً.  
طالب بن سهل: فی مجلس سمر جری الحدیث إلى ذکر العفاریت العصاة حبیبی القیام فتاقت نفس مولانا إلى امتلاك أحدها لیری بعینه ویسمع بأذنه ویقتنع بعقله.  
موسی بن نصیر: رغبة مولانا واجبة علی ولكن ماذا أملك لتحقیقها؟  
طالب بن سهل: قیل من ضمن ما قیل إنه توجد قیام من قديم الزمان فی صحرائكم.  
موسی بن نصیر: أشهد الله علی أنني لا أعلم عنها إلا السماع والظن. ولكن نمة رجلاً طاعناً فی السن یعد أخبر الناس بصحرائنا، حاضرها وماضیها، فضلاً عما حباه الله به من حكمة، فلنرسل فی طلبه.  
موسی بن نصیر یصفق یداً علی ید، یدخل الحاجب. علی حین یهبط الظلام.

٢

## إضاءة

موسی بن نصیر وطالب بن سهل. یدخل الحاجب.  
الحاجب: الشیخ عبد الصمد بن عبد القدوس الصمودی.  
ینسحب الحاجب. یدخل الشیخ. عجوز وقور.  
یرفع یدیه تحية. یشیر له ابن نصیر بالجلوس فیجلس علی وسادة بین أیدیها.

١

حجرة ذات أسلوب مغربی یتصدرها دیوان یجلس علیه موسی بن نصیر.  
یدخل حاجب، ینحني تحية.  
الحاجب: مولاي الأمير، قد وصل الأمير طالب بن سهل مندوب أمير المؤمنین عبد الملك بن مروان. . . .  
موسی یقف ثم یتجه نحو الباب. یدخل الأمير طالب بن سهل علی حین ینسحب الحاجب. يلتقیان بالأحضان وسط الحجرة.  
موسی بن نصیر: أهلاً وسهلاً ومرحباً برسول أمير المؤمنین.  
طالب بن سهل: أهلاً بكم أيها الأمير موسی بن نصیر، وإلیك أحمل سلام مولانا الخليفة.  
یجلسان علی الدیوان جنباً لجنب.  
موسی بن نصیر: أطال الله بقاء مولانا للإسلام والمسلمین.  
طالب بن سهل: تبألغنا أبناء طيبة عن المغرب.  
موسی بن نصیر: إنه یقیس أنواره من المشرق بفضل الله العظیم وحكمة خلیفتنا.  
طالب بن سهل: إنك أمير حائر الرضا فلیتم الله نعمته علیك.  
طالب بن سهل یصمت قليلاً ثم یواصل.  
طالب بن سهل: معي إلیك رغبة لأمر المؤمنین.  
موسی بن نصیر: إني رهن إشارة مولانا الخليفة.  
طالب بن سهل: إنه یرید قمقماً من قیام العفاریت!



موسى بن نصير وطالب بن سهل يتبادلان النظر برهة .  
طالب بن سهل: لو كان لديهم عفريت مسخر  
لتسلطوا به على العالم .

موسى بن نصير: سأشرع من فوري لإعداد الحملة  
وسأكون على رأسها .

طالب بن سهل: ولن أتخلف عنها .

عبد الصمد: فليسدّد الله خطانا وليجنّبنا الضلال . . .

### يهبط الظلام

٣

#### إضاءة

مدخل مدينة النحاس . موسى بن نصير، طالب بن  
سهل، عبد الصمد بن عبد القدوس الصمودي .

ينظرون إلى الداخل وقد لفته ظلام الفجر .

موسى بن نصير: يا لها من رحلة خيالية في مشقتها،  
لقد أرهقت الجند والجمال .

طالب بن سهل: لم يصادفنا حولها حي .

موسى بن نصير: اصبر، سوف ينقشع الظلام وتشرق  
الشمس .

طالب بن سهل: أليس غريباً أنه لا يوجد حارس  
واحد في مدخل المدينة؟

عبد الصمد: لعلّ عزلتها الكاملة أغتتها عن  
الحراس .

طالب بن سهل: لم أعرف صمتاً كهذا الصمت . . .

عبد الصمد: أهو صمت النوم؟

طالب بن سهل: ألا ينبج فيها كلب أو يصيح ديك؟

موسى بن نصير: ترى أين موقع البحيرة؟

عبد الصمد: ناحية المشرق غير بعيد من المدخل .

يأخذ الظلام في الانقشاع ويتجلّى رويداً داخل المدينة .

ميدان مكتظّ بالناس، في عمقه قصر، تقوم على دائرة

محيطة الحوانيت وتفرّج عنه الطرقات . الرجال الثلاثة

يتراجعون في حذر .

موسى بن نصير: متى جاءوا؟ . . . هل نستدعي

الجنود؟

طالب بن سهل: انظر جيّداً، إنهم لا يتحرّكون .

عبد الصمد: أجل .

طالب بن سهل: لا حركة، لا صوت، إنهم أصنام . . .

موسى بن نصير: مرحباً بالشيخ المبارك .

عبد الصمد: (حائثاً رأسه) عظم الله المرسل  
ورسوله .

موسى بن نصير: إنك يا شيخ عبد الصمد رجل  
الصحراء دون منازع .

عبد الصمد: هي حياتي وماتي أيها الأمير .

موسى بن نصير: لك علم ولا شك بما يقال عن ققام  
العفاريت بها!

عبد الصمد: (باهتمام) هذا ما توكّده لنا الكتب  
القديمة .

طالب بن سهل: في أيّ موقع من مواقعها؟

عبد الصمد: يقال إننا مستقرّة في قعر بحيرة بمدينة  
النحاس .

طالب بن سهل: وما مدينة النحاس؟

عبد الصمد: مدينة قديمة، يقال إننا ازدهرت قبل  
التاريخ المعروف بعشرين ألف سنة، لا يُعلم عنها أكثر

من ذلك، لم يذهب إليها أحد ولم يجيئ منها أحد، قد  
تكون حقيقة وقد تكون خرافة . . .

طالب بن سهل: ألم يسعّ ساعٍ إلى اكتشافها؟

عبد الصمد: ذاك ما يفوق طاقات الفرد والجماعة .

موسى بن نصير: مولانا الخليفة يرغب في الحصول  
على قمقم من ققامها!

عبد الصمد: (يصمت متفكراً ثم يقول) رغبة مولانا  
على الرأس والعين، ولكنّ الله أمرنا بالشورى، ومَنْ

يمدّ سلطانه بقوة القرآن فليس به حاجة إلى قوّة  
العفاريت!

طالب بن سهل: اقتضت حكمته أن يسخرها في  
خدمة الإسلام والمسلمين .

عبد الصمد: إننا مهمّة شاقّة حقاً أيها الأمير، فعلينا  
أولاً أن نكتشف موقع فارس من نحاس إذا فركت يده

أشارت إلى مكان المدينة .

موسى بن نصير: ستجد مَنّي كلّ عون .

عبد الصمد: نحتاج إلى قافلة كاملة وموّن، وقوّة  
وسلاح، وحذر ودهاء، فلعلّ المدينة ما زالت على قيد

الحياة، ولعلّها تستطيع التصدّي للغرباء، بل لعلّ  
حاكمها قد سخر عفريتاً لخدمته . . .

## الشیطان يعظ ٢٤٣

موسى بن نصير: (متحرّكًا وراء عبد الصمد) صدقت.

ثمّ ينظر خلفه إلى طالب بن سهل.

موسى بن نصير: هلّمّ أيها الأمير، هلّمّ إلى البحيرة، احذر أن تقع في شرك وهم...

يهبط الظلام

٤

## إضاءة

موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد، يرمون بالشباك في بحيرة ويسحبونها في دأب وصبر.

تخرج شبكة عبد الصمد وفيها قمقم.

موسى: الله أكبر.

طالب بن سهل: قادر على كلّ شيء.

عبد الصمد: يسبح له الأنس والجنّ وكلّ حيّ وجماد.

موسى: قمقم صغير لا يتصوّر الإنسان أنّه يجبس في بطنه هذه القوّة اللانهاية.

عبد الصمد: انظر إلى هذا المفتاح الصغير الملتصق بعنقه، إذا دُعِكَ خرج العفريت وأصبح طوع أمرنا.

موسى بن نصير: هل تُقدّم على التجربة؟

عبد الصمد: لا أنصح بذلك ولكنّا نحاول الاتّصال به.

موسى بن نصير: على الأقلّ ليتوكّد لنا وجوده.

عبد الصمد: (يقرب إلى فمه عنق القمقم) أيها السجين، تكلم بحقّ الله المتعال.

صوت الجنّ: أخيرًا وبعد عشرين ألف سنة من عذاب السجين.

عبد الصمد: من قضى عليك به؟

## صمت

صوت الجنّ: ارتكبت معصية وآها مائة بشرقه.

طالب بن سهل: ستُحمل إلى أحكم الناس طرًا مولانا الخليفة.

صوت الجنّ: كفاني عذابًا، أخرجني من القمقم أحقّق لك ما تشاء نظير وعد بإطلاق سراحي...

طالب بن سهل: سيّضي الخليفة في أمرك بما هو قاصر.

صوت الجنّ: أصغروا إليّ، إذا أخرجتموني وجدتم في

موسى بن نصير: هذه وجوه آدمية لا تماثيل...

طالب بن سهل: صدقت، هل يتحرّكون فجأة؟

موسى بن نصير: انظر إلى هيأتهم، كأنهم تجمّدوا بغتة، توجد امرأة على عرش، حولها حراس وحجاب، الجمهور منه من تجمّد وهو يرقص أو وهو يهتف، هذه المرأة تجمّدت وهي تزغرد، هذا الرجل تجمّد وهو يصنّف.

عبد الصمد: ليس في وسع حيّ أن يتجمّد بهذا الكمال، ألا تطرف له عين؟

موسى بن نصير: أترى أنّه الموت؟

عبد الصمد: إنّي أشمّ رائحته.

موسى بن نصير: وكيف لمت ألا يتهاوى ويتغيّر؟

طالب بن سهل: وأين بقية السكّان؟ ألا يجيء شرطيّ أو عابر سبيل؟

عبد الصمد: سأقدم على مغامرة، بسم الله الرحمن الرحيم (ثمّ رافعًا صوته) ... يا هوه... يا عباد الله...

## صمت

موسى بن نصير: لا استجابة على الإطلاق.

طالب بن سهل: نحن حيال لغز...

عبد الصمد: لله ملك السموات والأرض.

طالب بن سهل: لا بدّ من اكتشاف الحقيقة... اتبعاني...

يتقدّم، يتقدّمون في حذر، يلمسون المتجمّدين، يشقّون طريقهم بينهم حتى عرش المرأة.

موسى بن نصير: هؤلاء بشر وليسوا بتماثيل.

عبد الصمد: أموات، ولكن أيّ موت؟

طالب بن سهل: (مركّزًا بصره على المرأة) يا لها من امرأة جميلة.

موسى بن نصير: قصر جميل وحوانيت ثرية، متى وكيف تخلّت عنها الحياة؟

طالب بن سهل: كيف حافظت على أشكالها وتوازنها، ما أجل هذه المرأة!

عبد الصمد: قد يطول بنا الموقف، وهيهات أن نجد لهذا اللغز حلًا، وقد نعود فيها بعد إلى هنا، أمّا الآن فلا يجوز أن ننسى مهمّتنا.

صوت الجنّ: كانت مدينة عظيمة تموج بالوان البشر من الوافدين.

موسى بن نصير: وكيف نفهم لغتها أو تفهم لغتنا؟ صوت الجنّ: هذا عليّ هين.

طالب بن سهل: (بحماس) لا بدّ من خوض هذه التجربة المثيرة، افعل أيها العفريت.

صوت الجنّ: إليكم آخر نهار من حياة المدينة، من طلوع الشمس حتّى مغيبها.

### يهبط الظلام

٥

### إضاءة

موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد، يقفون ناحية من الميدان غير بعيد من مدخل المدينة.

يتابعون ما يحدث هنا وهناك وقد يعلّقون عليه. ومنظر النهار يبدأ والميدان خالٍ إلا من شرطي يتقلّد

سيفه ويتفقد الحوانيت. يمرّ عابر ثمّ آخر. يقبل التجار فيفتحون حوانيتهم ثمّ يقبل الزبائن نساء

ورجالاً وشباباً وتدب الحياة وتتصاعد. موسى بن نصير: (ذاهلاً) أيها الأموات.

طالب بن سهل: (متأملاً) كما كنتم وكما نحن تكونون.

عبد الصمد: أموات لا يخطر لهم الموت ببال. من حانوت قريب تترامى أصوات. فتاة تقلّب بين

يديها أقمشة، وشابّ أيضاً يفعل مثلها. التاجر: (للفتاة) إنّه فاخر ومناسب وسيكون عليك

فتنة للناظرين. الفتاة: سأشهد به حفل زفاف في الشهر القادم، أرني

أجل ما عندك. التاجر: إليك هذا الثوب وهو بخمسائة.

الفتاة: الأسعار ترتفع بجنون. الشابّ: لكي تغطّي أرباح الجشعين من التجار

والحاشية! التاجر: (للشابّ) من أجل طول ألسنتكم ضاقت

عنكم السجون! الشابّ: لن يبقى خارج الأسوار إلا العبيد.

خدمتكم قوّة لا يقف أمامها بشر، بوسعي أن أجعل الخليفة نفسه عبداً لكم، لا تضيّعوا فرصة لا تعوّض لإنسان مرتين.

موسى بن نصير: عليك اللعنة، ما زلت عاكفاً على الشرّ.

صوت الجنّ: ألا تحبّون أن تسودوا الدنيا ومنّ فيها؟ موسى بن نصير: ملكك اللعين أخرج أبانا من الجنة

فهيئات أن نُخرجنا من الدين. عبد الصمد: ألك علم سابق بمدينة النحاس؟

صوت الجنّ: كيف لا وأنا الذي قضيت عليها بالموت المسحور.

موسى بن نصير: إذن هي مدينة ميتة؟ صوت الجنّ: تلقت ميتتها المسحورة منذ حوالي

عشرين ألف سنة... طالب بن سهل: عشرون ألف سنة؟!... كأنما

ماتت لساعتها، ولكن لم قضيت عليها بما قضيت؟ صوت الجنّ: وقع قمقي بين يدي الملكة ضمن

صيّد لها أصابه صياد القصر، ولمست يدها مفتاح القمقم وهي تقلّبه فخرجت لها، وسرعان ما أدركت

مدى القوّة التي أذعنت لها، ثمّ وعدتني بإطلاق سراحي إذا حققت لها ما تشاء، وإذا بها تتبادى في

غيها حتّى الكفر، ولما كنت عفريّتا مؤمناً بالله رغم معصيتي فقد غضبت وأنزلت بها الميتة المسحورة التي

تبقّيتها على حالها لا تتغيّر عبرة للمعتبرين، نابذاً وعدّها لي بالتحرّر، هكذا ماتت المدينة ورجعت رغم إرادتي

إلى البحيرة... عبد الصمد: سوف نخبر مولانا الخليفة بتضحيتك في

سبيل الله وستكون خير تمهيد للإفراج عنك... صوت الجنّ: طال انتظاري للعفو والرحمة...

طالب بن سهل: لكن من يثبت لنا صدقك؟ صوت الجنّ: بوسعي أن أجعل المدينة شاهداً على

صدقي. طالب بن سهل: كيف؟ صوت الجنّ: بوسعي أن ألغي سحر الموت عنها نهائياً

فتشهد بعينيك ساعاتها الأخيرة. موسى بن نصير: ألا يصيبنا سوء إذا عثروا علينا؟

## الشیطان یعظ ٢٤٥

المريض: غرباء! إنكم أصل المصائب، تجيئون إلينا من أطراف الأرض حاملين أمراضكم معكم، فسرقون نقودنا وتعطوننا أمراضكم...  
ييصق ثم يذهب...

\*\*\*

يقدم موكب رجل غني. عبيد يحملون هودجه، وعبيد يتقدمون موكبه وهم يوسعون له طريقًا بين الناس بالعنف.

شابة: (لزميل يتأبط ذراعها) هذا سلوكهم، ماذا يفعلون غدًا وقد سخرُوا العفريت لخدمتهم؟  
صوت الجن: (للرجال الثلاثة) اعترف لكم بأن هذا القول وأشباهه أثرت في إذ أنني كنت أنتمي إلى شعب العفاريت المضطهدين...

\*\*\*

رجل عجوز يقف ناحية من الميدان.  
العجوز الضرير: من يسمع كلمة تنفعه؟... من يسمع كلمة تنفعه؟  
يقبل عليه نساء ورجال ذوو مظهر حسن وهم يتغامزون.

امرأة: (للعجوز) ماذا عندك مما ينفع الناس؟  
العجوز الضرير: إني أعمى...  
امرأة: (مقاطعة) هذا واضح.  
العجوز الضرير: ولكني أرى خيرًا منكم.  
ضحك.

العجوز الضرير: أرى أشياء جميلة غير الشراء والريح والفسق والسكر وامتلاك العبيد.  
كهل وجيه: يا لك من أعمى.  
العجوز الضرير: وأرى الموت أقرب إليكم من أجسادكم.

أصوات: عليك اللعنة.  
يقرب الشرطي فيضع يده على منكب الضرير.

العجوز الضرير: من أنت؟  
الشرطي: شرطي، ماذا تقول؟  
العجوز الضرير: (في خوف) أقول لهم إن خدمة الملكة ترمزين أهم من الريح وامتلاك العبيد.  
الشرطي: (بخشونة) اذهب لحال سييلك، مولاتنا

صوت الجن: (للرجال الثلاثة) لم يحظ بالسيادة في المدينة سوى الملكة والحاشية ورجال الأمن والتجار، وقد استعبدوا الشعب واستغلّوه، ولما سقط القمقم بين يدي الملكة قرّرت أن تستعبد جميع قبائل الأرض.  
موسى بن نصير: الحمد لله الذي هدانا إلى الإسلام فأنقذ كرامة البشر.

\*\*\*

يقبل شاب فتعرض سبيله فتاة جميلة ثم تتبعه مغاظة إيّاه وهو يمتنع ويتدلّل.

الفتاة: كيف تسير وحدك يا جميل؟  
الشاب: هذا وقت عمل أليس لديك ما يشغلك؟  
الفتاة: ما يشغلني شيء عنك، تعال إلى نزهة وكأس عند البحيرة.

الشاب: (مسرّعًا) إن لم تنصري ناديت الشرطة!  
عبد الصمد: (للقمقم الذي أخفاه في عباءته) ما معنى هذا؟

صوت الجن: كان للنساء المقام الأول في المدينة وبخاصة في عهد الملكة ترمزين وكانت الفتاة هي التي تختب عريسها وهي التي تغازل الفتى وهي التي تتمتع بحرّيتها الجنسية بخلاف الشاب.

طالب بن سهل: (ضاحكًا) إذن لم تخل المدينة من طرائف مفيدة!  
موسى بن نصير: (باسمًا) انتظر خيرًا أيها الأمير فأنت الذي تمثّل الشباب بيننا!

\*\*\*

تقترب متسولة من الرجال الثلاثة في جلبابها الرث.  
المتسولة: (للرجال الثلاثة) أعطوني مما أعطاكم الإله، أريد ماؤى ورجلاً وعبداً ومورد رزق ثابت...  
طالب بن سهل: فليرزقك الذي خلقك.  
المتسولة: (غاضبة) عليكم اللعنة.

\*\*\*

يقبل رجل مريض يتوكأ على ذراع زوجته.  
المريض: (للرجال الثلاثة) أين الطريق إلى المستشفى؟  
موسى بن نصير: نحن غرباء لم نعرف مدينتكم بعد، شفاك الإله.

الملكة ليست في حاجة إلى أحد... .

\*\*\*

يخرج حاجب من باب مكتوب أعلاه «العدل أساس الملك».

الحاجب: محكمة!

يتوجه كثيرون نحو المحكمة ويقفون على مبعدة.

يخرج شرطي سائقًا أمامه رجلًا معصوب العينين يثن بصوت مسموع فيدفعه بعيدًا عنه ثم يخاطب الجمهور.

الشرطي: ادعى هذا الرجل أنه توجد نجوم لا تُرى بالعين فحكم عليه بفقأ عينيه.

يدخل الشرطي ثم يجيء بشاب يسير مفرجًا الجمهور.

الشرطي: هذا الشاب طالب بمساواة الرجال بالنساء ففضي عليه بالإخلاء...

ضحك.

يدخل الشرطي ثم يرجع بنعش محمول. ثم يخاطب الجمهور.

الشرطي: هذه جثة مجرم، احتج جهراً على تسخير جلاله الملكة للعفريت...

ثم يرجع وهو يقول:

الشرطي: وفي الغد البقية فألى الغد...

عبد الصمد: (للمقمم) أهلكت المدينة كلها؟

صوت الجن: نعم.

عبد الصمد: وما ذنب هذا الشعب التعيس؟

صوت الجن: قررت إهلاك الظالمين بظلمهم والآخرين بنفاقهم وجبنهم.

عبد الصمد: ألم توجد بينهم مقاومة؟

صوت الجن: بل، منهم من قُتل، ومنهم من هاجر فنجا...

\*\*\*

صوت طبل يجيء من ناحية القصر الملكي. الأنظار تتجه نحو القصر. يخرج الحاجب الأكبر محوطًا بحرس ثم يمضي حتى يقف في وسط الميدان. يلتفت الجمهور حوله. حتى التجار يغادرون حوانيتهم. يقترب من الجمع موسى بن نصير وطالب بن سهل وعبد الصمد.

صمت

الحاجب الأكبر: إعلان هام من حضرة صاحبة الجلالة الملكة ترمزين إلى شعبها الوفي الأمين.

صمت

بناء على ما تيسر لنا من قوة لانهائية بفضل تسخيرنا لقوة الجن في خدمة شعبنا وتحقيق السيادة له على الأرض.

وبناء على نيتنا الصادقة في ممارسة هذه القوة بالحكمة والعدل ومراعاة سعادة شعبنا بصفة خاصة وشعوب الأرض بصفة عامة، فقد تفضل الإله المعبود فأضفى رضاه عنا، وأصدر قراره بالنزول لنا عن عرشه فوق الأرض.

وإطاعة لقراره المقدس يتعين علينا أن نصبح المعبود الأوحد في الأرض، وحق على شعبنا أن يعبدنا وأن يقدم لنا القرابين في الأعياد الدينية.

وبهذه المناسبة المقدسة فإنني أدعو شعبي لشهود حفل التتويج الإلهي في هذا الميدان عند غروب الشمس.

صمت

الحاجب الأكبر: (يهتف) لتحية الإلهة ترمزين.

أصوات الحراس وبعض المتجمهرين: لتحية الإلهة ترمزين.

الحاجب الأكبر والحراس يرجعون إلى القصر.

موسى بن نصير: أعوذ بالله الواحد الأحد.

عبد الصمد: قتل الإنسان ما أكفره!

طالب بن سهل: كيف اختبأ الفجر البشع وراء ذلك الوجه الجميل!

\*\*\*

وجيه: (لزميل له) كان الإله يتخذ من الأصنام رموزًا له وما هو أخيرًا يتخذ رمزًا حيًا جميلًا...

الزميل: فلتحل بنا البركات...

\*\*\*

تاجر: (لزميل له) من يصدق أنني حلمت بهذه المعجزة ليلة أمس؟

الزميل: إنك رجل ذو قلب نقي...

\*\*\*

يتجمع نفر من الشباب نساء ورجالاً على مبعدة يسيرة

## الشیطان يعظ ٢٤٧

يذهب السقاة وهم يوزعون الخمر. تترامى أصوات موسيقى شعبية، يظهر فريق جديد من طريق جانبي يدل مظهره على أنه يمثل «سيرك» ويعلن عنه. يتقدمه مناد يتبعه بلياتشو ورجال أقوياء مصارعون وحاملو أثقال.

المنادي: بشرى... بشرى...

الناس يلتفتون نحو المنادي.

المنادي: السيرك الكبير يشارك في أفراح الشعب لمناسبة تسويج معبوده الجديد بعرض خاص هذه الليلة، برنامج حافل لم يسبق له مثيل، إليكم بعض الثمر المختارة.

مصارعة حرة بين أسد جائع وبين رجل من أهل مدينتنا ثبتت خيانتته في مطالبته بتحرير العبيد. عرض نماذج من مجانين ممتازين نساء ورجالاً سبق أن تولوا مناصب هامة في الدولة.

حرق رجل وهو حي لاعتراضه على عبادة الملكة ترمزين.

رجل وامرأة يعرضان قواهما الجنسية العجيبة.

ساحر السيرك يتنبأ لأي زبون عن مستقبله.

نشيد جديد عن الأبطال الذين بنوا مدينتنا سيده الدنيا.

الناس تتابع الإعلان، وعند نهاية كل مقطع يتصاعد الهتاف.

طالب بن سهل: (ساخرًا) وأسفاه... لن يسعدنا الحظ بمشاهدة هذا العرض الحافل.

عبد الصمد: (باسمًا) من يدري؟ قد ينجح الأمير موسى في تغيير الماضي!

\*\*\*

ضجة نجيء من طريق جانبي. تتقدم الجماعة المتمردة على رأسها موسى بن نصير وقد أحاط بهم جنود شاكو السلاح يسوقونهم نحو القصر.

طالب بن سهل: (بجزع) اكتشفت السلطة أمرهم، ما العمل؟ أخاف أن يصيب أمرنا سوء؟

عبد الصمد: (محاوياً تهدئته) هل تستطيع يد هالكة منذ عشرين ألف سنة أن تؤذي إنساناً من زماننا؟

طالب بن سهل: محتمل أن يؤثر سحر قديم في

من الرجال الثلاثة.

شاب: متى وكيف قرّر الإله ألا يُعبد في الأرض؟  
شاب ثان: ماذا يحدث لنا بعد موت المعبودة الجديدة؟  
شابة: في الحق نحن مدعوون لعبادة العفريت المسخر.

موسى بن نصير: (غير متمالك نفسه من الدخول في حوارهم) أيها الناس إنّه كفر وإنه لا إله إلا الله...

الشاب الأول: (لموسى) ماذا قلت أيها الغريب؟

موسى بن نصير: (محتدًا) قلت إنّه كفر ولا يجوز أن يضلّكم عن إيمانكم...

الشاب الثاني: (لموسى) صه... لا يخلو المكان من آذان وعيون... هلّم إلى الحقول لنستمع إليك في أمان...

طالب بن سهل: (يمسك بذراع موسى بن نصير ويقول) إيّاك أن تذهب معهم أيها الأمير.

موسى بن نصير: السكوت على الكفر كفر.

طالب بن سهل: لقد مضى على الحوار عشرون ألف سنة.

موسى بن نصير: (يذهب قائلًا) سأغيّر الماضي كما أغيّر المستقبل. يذهبون.

طالب بن سهل: لقد زجّ بنفسه في متاعب ماضٍ انقضى منذ عشرين ألف سنة.

عبد الصمد: نحن ملتحمون به الآن ولا ندري كيف يتعامل معنا.

طالب بن سهل: كأنّي في حلم...

عبد الصمد: إنّه حلم في باطن حلم!

\*\*\*

صوت موسيقى من ناحية القصر.

يخرج موسيقيّ ومُنشد يتبعهما عبيد يحملون دنان الخمر.

يلثون الكئوس... يقدّمونها للناس.

خادم: نخب المعبودة.

خادم ثان: اشرب واطرب وتمتّع بحياتك.

خادم ثالث: الدنيا قبلة وكأس.

أناس يقبلون على الشراب ويشيع الطرب.

- أحدنا، أليس كذلك؟  
عبد الصمد: (للقمقم) أئمة خوف حقًا على صاحبنا؟  
صوت الجن: إني لا أعلم الغيب...  
عبد الصمد: لكنهم أموات يعيدون تمثيل أحداث وقعت ويلا زيادة.  
صوت الجن: أضاف صاحبكم بتدخله حدثًا جديدًا.  
طالب بن سهل: أرجعهم إلى ما كانوا عليه قبل أن تمتد يد بسوء إلى الأمير.  
صوت الجن: هذا ما أعجز عنه وهيهات أن يتكرّر قراري قبل اللحظة التي وقع فيها.  
طالب بن سهل: يا للفظاعة، لن أتردد عن التدخل لدى أول فرصة...  
صوت الجن: إنَّها حياتك فافعل ما تشاء.  
طالب بن سهل: (لعبد الصمد) لعنك تعرف قراءة الطالع؟  
تسمع السؤال امرأة مارة فتقف ثم تقترب من عبد الصمد.  
المرأة: أودّ أن تقرأ لي طالعي...  
سرعان ما يتجمهر أناس حوله مستطلعين.  
عبد الصمد: لست عرافًا...  
المرأة: سمعتك تقرأ لصاحبك طالعه.  
عبد الصمد: ما سمعت من ذلك شيئًا.  
رجل: بل سمعتك... لماذا تضنّ علينا بقدرتك؟  
المتجمعون يلحون في غضب.  
طالب بن سهل: اقبل، قل ما يجلو لك، وأنقذنا من غضبهم.  
عبد الصمد: عظيم... عمّ تسألون؟  
المرأة: الذي في بطني أنثى أم ذكر؟  
عبد الصمد: ذكر... أبشري...  
المرأة: (بفرح) أتسخر مني أيها الدجال!  
عبد الصمد: (هامسًا لطالب بن سهل) نسيت وربّ الكعبة.  
شاب: (لعبد الصمد) ألا سبيل إلى مقاومة العفريت؟  
عبد الصمد: لا تنس أنه يعمل في خدمة إنسان!  
الشاب: (بحماس) بلى، سيظلّ الإنسان هو الأقوى.  
كهل: ما علاج الخوف من الموت؟
- عبد الصمد: الموت نفسه.  
عُضِب من الكهل وضحك من الجمهور.  
فتاة: متى يزول الظلم؟  
عبد الصمد: بعد ساعات.  
الفتاة: ماذا تعني؟  
عبد الصمد: ليس عندي زيادة.  
رجل: قضيتي هل أكسبها؟  
عبد الصمد: لن يكسبها خصمك!  
الرجل: إني أسأل عمّا يخصني.  
عبد الصمد: ليس عندي زيادة.  
امرأة هزيلة: متى أشفي من مرضي؟  
عبد الصمد: قبل حلول المساء.  
المرأة: ما أحلى كلامك لو يتحقّق.  
يمرّ الشرطيّ فيفترق الناس.  
طالب بن سهل: كاد يغلبني الضحك.  
عبد الصمد: ما أعجب أن تحاور أمواتًا!  
طالب بن سهل: من موقعنا هذا ينكشف لنا الغيب طيلة هذه التجربة الفريدة.  
عبد الصمد: حتّى ذلك لا نستطيع أن نجزم به.  
طالب بن سهل: نحن أحياء وهم أموات.  
عبد الصمد: حسن أن تقول ذلك لنطمئن على أميرنا لكن لا تنس أنهم الآن أحياء وأننا لم نولد بعد.  
طالب بن سهل: أودّ أن أفعل شيئًا لإنقاذ موسى...  
\*\*\*  
من القصر يخرج رئيس الشرطة يتبعه حراس. تُنصب منصّة في الميدان.  
حاجب: الشرطة تحاكم المتمرّدين تمهيدًا لإحالتهم على المحكمة.  
الجمهور يهرع للمشاهدة.  
رئيس الشرطة يجلس على المنصّة. يقدم أمامه مجموعة المتمرّدين وعلى رأسهم موسى بن نصير.  
طالب بن سهل: ها هو الأمير، لن يمسه أحد بسوء وأنا حي...  
عبد الصمد: تمهّل... ولتتابع الماضي وهو يحاكم المستقبل.  
رئيس الشرطة: (للمتمرّدين) إنكم شباب أرعن، لا

## الشیطان يعظ ٢٤٩

الأول: سيدي الأستاذ نحن في ورطة.  
 الثاني: لكل مشكلة مفتاح.  
 الأول: قضينا العمر ونحن ندرّس لأجيال من طلاب العلم فلسفة تبجل الإله وقدرته، وتحلل الإنسان وفناءه، فكيف يكون موقفنا اليوم أيها الزميل؟  
 الثاني: نقول في ترمزين ما قلناه في الإله.  
 الأول: وكيف تفسر تناقضنا بين اليوم والأمس؟  
 الثاني: رأى الإله بقدرته اللانهائية أن يرفع الملكة إلى مرتبة الألوهية...  
 الأول: ولماذا ينزل الإله عن سلطانه لبشر فان؟  
 الثاني: لم تعد فانية.  
 الأول: وإن أدركها الموت؟  
 الثاني: أعتقد أننا سنسبقها إليه.  
 الأول: ومحتمل أن تسبقنا هي.  
 الثاني: نقول إن حكمة الإله لا تناقش.  
 الأول: وإذا تمادوا في المناقشة؟  
 الثاني: نستعين بالشرطة فهي البرهان الأخير لمن لا يقتنع.  
 الأول: (ضاحكاً) الآن شرح صدرتي، والآن نستطيع أن نعدّ الخطبة التي سنلقها عند الغروب...  
 يذهبان...  
 طالب بن سهل: (متعجباً) حتى أهل العلم!  
 عبد الصمد: يؤسفني أيها الأمير أن أذكرك بأن دار الإسلام لا تخلو من أمثالهم...  
 طالب بن سهل: (دهشاً) أنت من شيعة علي بن أبي طالب؟  
 عبد الصمد: إني من شيعة الحق ورزقي على الواحد الأحد.

\*\*\*

يقرب نفر من الشرطة من موقف طالب بن سهل وعبد الصمد.  
 الشرطي: (لعبد الصمد) أنت العراف؟  
 عبد الصمد: ما أنا بعراف.  
 الشرطي: ترامي خيرك إلى جلالة الملكة فقررت أن تسمعك. أبشر بحظك السعيد واتبعني.  
 يتردد عبد الصمد ولكن الجنود تدفعه صوب القصر.

إله لكم، وجهركم بالشر يغني عن مساءلتكم، ستمثلون غداً صباحاً أمام القاضي في المحكمة.  
 رئيس الشرطة يلتفت نحو موسى بن نصير ويقول:  
 رئيس الشرطة: ماذا أوجدك بين هؤلاء الشبان وأنت كهل، ما كنت أتصور أنّ الكهول قابلون للعدوى بأمراض الشباب، ما اسمك؟  
 موسى بن نصير: موسى بن نصير.  
 رئيس الشرطة: أي اسم هذا؟  
 موسى بن نصير: هذا اسمي وأدعى به في الشرق والغرب.  
 رئيس الشرطة: إنك تستحق بسببه السجن، أنت غريب؟  
 موسى بن نصير: نعم.  
 رئيس الشرطة: من أي البلاد؟  
 موسى بن نصير: من بلاد المغرب.  
 رئيس الشرطة: لا علم لي بها، أنت كاذب، جاسوس وكاذب، ما عملك؟  
 موسى بن نصير: أمير المغرب.  
 رئيس الشرطة: لن ينفعك ادعاء الجنون.  
 موسى بن نصير: إني أعرف أكثر منك بعشرين ألف سنة.  
 رئيس الشرطة: لن ينفعك ادعاء الجنون، إنك متهم بترويج أفكار مستوردة لإفساد شبابنا.  
 موسى بن نصير: ما قلت لهم إلا الحق وهو أنه لا إله إلا الله.  
 رئيس الشرطة: ها أنت تعترف بكفرك على الملأ فما أنت إلا جاسوس يروج للكفر.  
 موسى بن نصير: سوف يحلّ بكم العقاب بعد ساعات ولا خلاص لكم إلا باتّباع قولي.  
 رئيس الشرطة: سنرى من الذي سيحلّ به العقاب، سأفصل رأسك عن جسدك بيدي هذه صباح الغد.  
 رئيس الشرطة: (للجنود) أعيدوهم إلى السجن.  
 الجنود يسوقون المتهمين إلى القصر.  
 \*\*\*  
 يجيء رجلان وقوران، يقفان على مقربة من طالب بن سهل وعبد الصمد دون أن يفطنا إلى وجودهما.



طالب بن سهل: لم يبقَ سواي، أصبحت وحيداً في هذه المدينة الميتة، ترى بأيّ حال تنتهي هذه المغامرة؟

\*\*\*

ما يكاد يتمّ قوله حتى تقترب منه امرأة كهلة حسنة المنظر.

المرأة: أبشر أيها الشاب السعيد.

طالب بن سهل: ماذا وراءك يا سيّدة؟

المرأة: اتبعني إلى حظك السعيد.

طالب بن سهل: أيّ حظّ سعيد؟

المرأة: لقد رأيتك الملكة ترمزين من نافذة قصرها!

طالب بن سهل: (بذهول) الملكة ترمزين.

المرأة: وهي تدعوك إلى حظك السعيد، اتبعني.

تسير المرأة فيتبعها طالب بن سهل منفعلًا بصورة واضحة.

### يهبط الظلام

٦

### إضاءة

بهو العرش. الملكة ترمزين جالسة فوق العرش.

حجاب. حرّاس.

تدخل المرأة.

المرأة: (تتحنى) مولاتي، إنّه ينتظر.

الملكة: أذنت له.

الملكة تشير إلى الحجاب والحرّاس فينسحبون. يدخل

طالب بن سهل. ينحني تحية.

الملكة تبسّم. تشير إلى مقعد قريب فيجلس عليه.

تمعن فيه النظر بإعجاب لا تحاول إخفاءه. طالب

يبادها النظر بتأثر.

ترمزين: العين أصدق رسول وأخلص دليل.

طالب بن سهل: هي كذلك يا مولاتي.

ترمزين: حدّثني عن نفسك.

طالب بن سهل: اسمي طالب بن سهل.

ترمزين: غريب مثل صاحبك؟

طالب بن سهل: ومن بلاد بعيدة.

ترمزين: ما كنت أتصوّر أنّه يوجد غريب بصورتك وقوامك.

طالب بن سهل: الغرباء مثل رعاياك يسعون ويحبّون

ويموتون.

ترمزين: لا تجدّف إنك استثناء، ما عملك؟

طالب بن سهل: تاجر.

ترمزين: تاجر وعزّاف وجاسوس... ماذا جمعكم؟

طالب بن سهل: لقد تورّط صاحبنا دون قصد سيّئ.

ترمزين: لا تدافع عن مجرم، ولكن لندع هذا

الحديث جانباً، قلت إنك تاجر، التاجر شخص ممتاز

ومفيد، ولكنّ موضعك الحقيقيّ بين الحجاب أو

الحرّاس...

طالب بن سهل: ما أنبل نوابك يا مولاتي!

ترمزين: نحن النساء ننتظر قدرنا منذ البلوغ،

وصدّقني فإنك أوّل رجل في حياتي...

طالب بن سهل: من السعادة يا مولاتي ما يعزّ على

الأحلام.

ترمزين: (باسمة) فيك جرأة محبّبة، ما من شابّ في

موقفك إلّا ويؤيدي الخجل والتمنّع، أمّا أنت فتجاهر

بسعادتك بلا تردّد، أصارحك بأنّه يعجبني الشابّ

المتحلّي بأحوال النساء!

طالب بن سهل: (مدارياً ابتسامة) أخرجني الانبهار

من الحياء.

ترمزين: بالصدق والصراحة هل تبادلني عواطفني؟

طالب بن سهل: أجل... أجل يا مولاتي، ومنذ

قديم.

ترمزين: حقّاً؟... لعلك رأيتني في احتفال البحيرة؟

طالب بن سهل: رأيت جمالك في خلوده.

ترمزين: رأيتك من نافذتي، من نظرة عابرة، دلّنتني

على أغنيتي المفضّلة...

طالب بن سهل: ليهنا كلّ محبّ بحبه إكراماً لحبّنا.

ترمزين: ولكنّ تحيّي المتاعب في أعقاب الحبّ!

طالب بن سهل: المتاعب؟

ترمزين: اختيار غريب لرئاسة الحرس قرار مثير

للاستياء.

### صمت

ترمزين: وزواجي من بشر عقب جلوسني على عرش

الآلهة مستحيل، ولكنك ستكون أقرب إليّ من أنفاسي

المرتدّة.

## الشیطان يعظ ٢٥١

- طالب بن سهل: (ينبره غلبها الحزن) ستصفوننا الأيام.
- ترميزين: وجهك ينطق بالأسى على حين يلهج لسانك بالسعادة.
- طالب بن سهل: إني أتساءل هل يسعد إنسان حقاً بحبّ إلهة؟
- ترميزين: بين يديك سأظلّ امرأة!
- طالب بن سهل: قلبي يتوجّس خيفة.
- ترميزين: يا له من قلب ساذج.
- طالب بن سهل: لم يحدث ذلك لبشر من قبل.
- ترميزين: كأنما يداخلك شكّ في قدرتي؟
- طالب بن سهل: إني بشر وأتمنى ألا تتخلّى حبيبي عن بشريتها. . .
- ترميزين: لديّ من القوّة ما أستطيع أن أطير به مدينة في الفضاء.
- طالب بن سهل: قوّة عفريت مذنب.
- ترميزين: القوّة هي القوّة بصرف النظر عن مصدرها، ماذا يملك الإله أكثر من ذلك؟
- طالب بن سهل: يملك القوّة ومصدرها والمسيطر عليها.
- ترميزين: إنك تذكّرني بأقوال الخونة!
- طالب بن سهل: ما أنا إلاّ محبّ يحبّ حبه ويحرص عليه.
- ترميزين: ستجد ألا أصل لمخاوفك وأوهامك.
- طالب بن سهل: أتوسّل إليك أن ترجعي عن قرارك قبل فوات الفرصة.
- ترميزين: أرجع؟
- طالب بن سهل: أتوسّل إليك، من أجل حبّنا، من أجل سعادتنا.
- ترميزين: سنكون أقدر على الاستمتاع بها من جميع البشر.
- طالب بن سهل: إنّها تجربة تنذر بالهلاك. . .
- ترميزين: الهلاك؟! . . . ماذا قلت؟
- طالب بن سهل: ارحمني قلبي وحيي.
- ترميزين: ما أعجب الحبّ، لو نطق غيرك بما نطقت به لفصلت رأسه عن جسده. . .
- طالب بن سهل: ابقي امرأة لا إلهة.
- ترميزين: ستجدني المرأة وقتها تشاء.
- طالب بن سهل: (بحرارة) أصغي إليّ باسم الحبّ، صدّقي قلباً يهيم بحبكّ فالحبّ يلهمه الصواب، أقول إنّ الهلاك معلق فوق رأسك فتجنّبيه، خذي الحبّ ودعي الموت، استجيب لي لعلّ معجزة تقع. . .
- ترميزين: (ضاحكة) أيّها الرعديد المحبوب، ستشهد التويج بنفسك، ثمّ نرجع لنصنع من حبّنا الأعاجيب.
- طالب بن سهل: (بأسى) لن نذوق من الحبّ قطرة واحدة.
- ترميزين: (بحدّة) إنك تحدّث عن الموت كأنه حقيقة واقعة.
- طالب بن سهل: لقد رأيته بعيني!
- ترميزين: (ساخرة) أأنت عرّاف أم تاجر؟
- طالب بن سهل: أنا محبّ والمحبّ يرى ما لا يراه الآخرون.
- ترميزين: كفى، لن ننتهي إلى اتفاق، تعلّق بمخاوفك حتّى تنفث في ليلتنا السعيدة، حسبنا ما ضاع في نقاش عقيم، إني أنتظر صاحبك العرّاف الذي أجلّت لقاءه لهفتي عليك، لنسمع صوت الغيب الصادق.
- ترميزين: تصفّق. يدخل حاجب.
- ترميزين: إليّ بالعرّاف.
- الحاجب يذهب. عبد الصمد يدخل. يرفع يديه تحية. يلمح طالب بن سهل ولكّته يتجاهله. يجلس عندما تشير إليه الملكة بالجلوس.
- ترميزين: (لعبد الصمد) أبلغتني عيوني المنتشرة في كلّ مكان عن قدرتك.
- عبد الصمد: ما أنا إلاّ عبد.
- ترميزين: لديّ أسئلة عن الغيب قبل أن يسفر لي عن وجهه عند المغيب.
- عبد الصمد: ما أنا إلاّ عبد.
- ترميزين: تواضع محمود، أجنبي يا رجل هل يوجد متمردون آخرون غير الذين قبض عليهم اليوم؟
- عبد الصمد: التمرد كامن في القلوب، جهر به البعض فقبض عليهم، وأخفاه الآخرون وراء أقنعتهم الكاذبة. . .

يحضر موسى بن نصير ويسمع آخره خطابها ثم يقف .  
 ترمزين : (تلفت إلى موسى بن نصير غاضبة) ها هو  
 الجاسوس الذي سيفصل رأسه عن جسده غدًا (ثم  
 ملتفتة إلى طالب بن سهل) أما أنت فإنك شرّ الثلاثة  
 لقد اتخذ أحدهما من الجاسوسية وسيلة إلى هدفه،  
 ومارس الثاني الدجل، أما أنت فأهنت الحب المقدس،  
 أنزلته من علياء سمائه وجعلته خدعة دنيئة . . .

طالب بن سهل : (بحرارة وأسى) أقسم بربي أنني  
 أحبك من كل قلبي، وأنتي أنتي الماضي والواقع  
 لأنقذك من العدم . . .

ترمزين : هيهات أن أصدّقك .

موسى بن نصير : (منفعلًا) الوقت يقترب بسرعة  
 خيفة، وإذا أردنا أن نخوض التجربة المتاحة النادرة  
 وهي تغيير الماضي فما علينا إلا أن نكاشفها بالحقيقة .

#### صمت

موسى بن نصير : (للملكة) أيها الملكة . . . إنك في  
 الحقيقة ميتة قد شبع منك العدم .

ترمزين : (تضحك ساخرة) أيها الضالّ المضلّ،  
 بلخي أنك تدعي الجنون، ولكنك ستنال جزاءك غدا  
 الغد، أنت أنت الميت لا ترمزين .

موسى بن نصير : إنك ميتة منذ عشرين ألف سنة!  
 ترمزين : (مغرقة في الضحك) خوفكم من قوتي  
 أذهب عقولكم، فلتذهب إلى الجحيم ولتبق ترمزين  
 ومدينتها إلى الأبد . . .

عبد الصمد : ما أشق أن تُقنع حيًا بأنه ميت .

طالب بن سهل : مولاتي، أعيرنا أذنك لتسمعي قصة  
 مدينتك .

ترمزين : أيها المخادع الكذاب هل تشاركها جنونها؟  
 هل تراني ميتة أيضًا؟

طالب بن سهل : لقد اكتشفنا المدينة وما بها إلا جثث  
 أهلها . ولما استخرجنا العفريت من البحيرة اعترف لنا  
 بأنه هو الذي أنزل بها الموت المسحور جزاء كفرها،  
 ولكي يثبت لنا صدقه أوقف سحره نهائيًا واحدًا هو  
 هذا النهار الذي يقترب من نهايته، هكذا دبت فيكم  
 حياة كالحلم لا تلبث أن تنقشع، وسوف يدرككم  
 الفناء كما أدرككم أول مرة . . .

ترمزين : (بحدّة) ماذا قلت؟

عبد الصمد : أقول ما يخطر لي وإن شئت سكت .

ترمزين : ألا يؤمن بي أحد؟

عبد الصمد : حتى الشيطان في قمقمه يعبد الإله .

ترمزين : خيّت ظني بك .

عبد الصمد : حذارٍ من قرارك، سينفجر لعنة مدبرة  
 على الأرض .

ترمزين : وما مصير ترمزين؟

عبد الصمد : مصيرك بيدك .

ترمزين : إني أحب الحياة .

عبد الصمد : ما عليك إلا أن تحيها بصدق .

ترمزين : أحبها وأحبّ الحبّ .

عبد الصمد : إذن تراجعني عن الموت .

ترمزين : إني أدرك ما ترمي إليه .

عبد الصمد : ستهلكين عند مغيب الشمس .

ترمزين : أعلم يقينًا أنك كاذب، أتدري ماذا يصيبك  
 إذا نجوت؟

عبد الصمد : إذا نجوت من الموت فأرسليني إليه .

طالب بن سهل يرفع يده مستأذناً في الكلام .

ترمزين : تكلم يا طالب .

طالب بن سهل : مولاتي، هذا الرجل يتكلم بثقة،

وقد راهن على صدقه بحياته .

ترمزين : إني أملك قوة لا تقاوم .

عبد الصمد : عفريتك عبد للإله، سيغضب للإله

فيتخلّى عنك ولو فقد آخر أمل في تحرره .

طالب بن سهل : سوف يدمرّك فوق عرش الألوهية .

ترمزين : (غاضبة) الآن وضح الحقّ، ما أنت يا

طالب إلا نسيج في مؤامرة، مثل هذا العراف

الكاذب، ومثل صاحبكم الذي قبض عليه وهو يؤلّب

شعبي عليّ .

ترمزين تصفّق . يدخل حاجب .

ترمزين : أحضروا الجاسوس .

ترمزين : (للرجلين) إنكم تخافون القوة المسخرة أن

تُذلّ شعوبكم، ولكنّي سأعتلي بها عرش الألوهية

وأسود الأرض، الحبّ نفسه يا طالب لن يغربني

بخيانة مدينتي المقدسة . . .

## الشیطان يعظ ٢٥٣

طالب بن سهل: نحن راضون بحكمه ولكن عليك أن تفهني قوله.

ترميزين: (للقمقم) ما رأيك فيما قال هؤلاء؟

صمت

صوت العفريت: إنك حية بل سيّدة الأحياء.

ترميزين تضحك في سرور وشماتة.

عبد الصمد: أيها العفريت، ألم تُهلك المدينة

وصاحبها منذ عشرين ألف سنة؟

صوت العفريت: كذبت أيها الجاسوس!

ترميزين: يا للنصر!

تصقّق. يدخل حاجب. تأمره بإحضار الجنود.

صوت العفريت: لا يجوز أن تعدي أحداً منهم قبل

التتويج.

يدخل الجنود.

ترميزين: خذوا الجواسيس إلى السجن وآتوني

برء وسهم لدى عودتي من التتويج.

تقف. تقترب من طالب وهو ضمن المقبوض عليهم.

ترميزين: (لطالب بن سهل) سوء الحظّ لم يدركك

وحدك يا طالب...

طالب بن سهل: إني سنّى الحظّ ما في ذلك من

شكّ.

ترميزين: لا مجد بلا ثمن.

تشير إلى الجنود فيمضون بهم.

ترميزين: (محدّثة نفسها في أسى) ولكن ما أفدح

الثمن!

يهبط الظلام

٧

إضاءة

الميدان

حرّاس... الجمهور يتطلّع نحو العرش. موسيقى

يتخلّلها هتاف كالهدير.

طبول يعقبها صمت شامل.

يظهر موكب الملكة ترميزين خارجاً من القصر في

هالة بالغة من الكمال والجمال.

هتاف يستمرّ حتّى تجلس على العرش.

تشير الملكة إلى كبير الحجاب.

ترميزين: يا للدجل والكذب والخداع!

عبد الصمد: اعدلي عن فرارك توهب لك الحياة من جديد.

طالب بن سهل: هي الحقيقة يا مولائي، صدّقينا قبل فوات الفرصة النادرة.

ترميزين: أيها الجواسيس الحقراء الحاقدون على عظمة مدينتي الموعودة!

موسى بن نصير: عن أيّ عظمة تتحدّثين؟ ما هي إلا

عظمة ذاتك ورجالك، إنك تذلّين شعبك كما تذلّين

الغرباء، حتّى أصحاب العقول والإلهام جعلت منهم

عيبداً ودُمى، انظري، ها هو المستقبل يتجسّد أمام

عينيك ويعدك بمعجزة فاستجيبى له، فمن لم يفقه لغة

المستقبل دَمَره الحاضر.

ترميزين: (تخرج القمقم من تحت وسادة) أيها

العفريت. اقدف بالحقيقة في وجوه هؤلاء الجواسيس.

صمت

ترميزين: (مقطّبة) أيها العفريت!

صمت

ترميزين: (ثائرة) فهمت... ما أنتمم إلا سحرة،

تسلّطتم على لسان العفريت، ولُكّفتي ما زلت مالكته،

وسوف يتحرّر من سحركم حال قتلكم...

طالب بن سهل: حبيبتي لا تهدري فرصة لا يوجد بها

الزمان أبداً، أمامنا فرصة للحبّ ولخلق معجزة يفيد

منها عالمنا الحيّ، اقنعي بإنسانيتك وفيها الكفاية من

المجد، أطلقني سراح العفريت فما يجوز أن يملكه فرد

به ضعف، حرّري شعبك، احترمي عقل الإنسان

وقلبه، المجد لمن يخدم لا لمن يستخدم، ولنحظ بعد

بأغنية الحبّ الخالدة فلا خالد في الدنيا إلا أنغامها...

ترميزين: لا يوجد في الأحياء من يستطيع خداعي.

عبد الصمد: (للقمقم) كاشفها أنت بالحقيقة، دعنا

نشهد المعجزة!

صمت

صوت العفريت: مولائي ترميزين.

ترميزين: (بدهشة وسرور) أخيراً تكلمت.

صوت العفريت: إني رهن إشارة منك.

ترميزين: أيها العفريت ما رأيك فيما قال هؤلاء؟

فنجوا ثم جاء عالمكم من ذراريهم . . .  
 عبد الصمد: (باسمًا) يبدو أنه قد اندسّ بينهم نفر من  
 المنافقين والجبّاء . . . فما أبعد دنيانا عن الكمال . . .  
 موسى بن نصير: (ملتفتًا نحو طالب بن سهل) أفق  
 أيها الأمير فلا جدوى من التعلّق بحبّ زمان مضى . . .  
 صوت العفريت: لقد كَفَرْتُ عن ذنبي، أطلقوا  
 سراحي أيها الرجال الصالحون . . .  
 موسى بن نصير: عليك أن تقنع بذلك مولانا عبد  
 الملك بن مروان.  
 صوت العفريت: صدّقوني لا يجوز أن يملك قوتي إلا  
 حكيم.

موسى بن نصير: خليفتنا أحكم الحكماء.  
 صوت العفريت: لا يخلو من أهواء البشر وضعفهم،  
 ألا ترون كيف يرّد على حجج معارضيه بالسيف  
 المسلول؟  
 يتبادلون النظر في صمت.  
 موسى بن نصير: (للقمقم) إنك قوّة لو استغلّت  
 للخير لجعلت من دنيانا جنة.  
 صوت العفريت: ما تسلّط عليّ فرد إلا جعل منّي  
 نعمة له ولن يحبّ ونقمة على الملايين، صدّقوني ما  
 أخذت عفريت متًا شرًا إلا تنفيذًا لمشيئة إنسان . . .  
 يتبادلون النظر مرّة أخرى.  
 عبد الصمد: لنطلق سراحه.  
 طالب بن سهل: هل أخيب في مهمّتي كما خبت في  
 حبي؟  
 عبد الصمد: لا تتحمّل مسئولية ستسأل عنها أمام  
 ربّ العالمين.  
 صوت العفريت: قل لمولاك من يحكم بالإيمان فلا  
 حاجة به إلى الشيطان.  
 عبد الصمد: انطلق أيها العفريت فلقد نطقت  
 بالحقّ.

يتقدّم كبير الحجاب ويلقي خطبته:  
 «أيّها الملكة المجيدة ترمزين، سيّدة عالمي  
 الأحياء والأموات.  
 ودّعي آخر لحظة من حياة البشر الفانية، وتبوّئي  
 عرش الألوهيّة الخالد، دمت لنا وللأرض إلهة  
 خالدة».  
 فجأة يردد انفجار مروع يعقبه ظلام.

## ٨

## إضاءة

المنظر الأوّل. منظر الميدان والجثث المتجمّدة. موسى  
 بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد.  
 موسى وعبد الصمد ينظران فيما حولهما. طالب  
 مستغرق في النظر إلى ترمزين.  
 عبد الصمد: مدينة الموت.  
 موسى بن نصير: مدينة الحلم.  
 طالب بن سهل: مدينة الحبّ المستحيل.  
 عبد الصمد: (متفعلًا للقمقم) خدعتنا أيها العفريت،  
 ما زال قلبك ينبض بالشرّ!  
 صوت العفريت: أبيتُ أن أضيف إلى ذنوبي ذنبًا  
 جديدًا.  
 عبد الصمد: أيّ ذنب في هداية امرأة ضالّة إلى  
 الصواب.  
 صوت العفريت: لو فعلت لتعدّر عليّ إهلاكها،  
 ولبعثت إلى الوجود مدينة ملعونة هلكت بظلمها  
 لتواصل حياة غريبة متأخرة عن دنيائها عشرين ألف  
 سنة، ولعمري إنّ ذلك شرّ من الموت نفسه.  
 موسى بن نصير: حجة مقبولة فيما أرى، فما يهلك  
 لظلم لا يحقّ بعثه.  
 صوت العفريت: حسبنا أنّ الثائرين قد هاجروا

عَصْرُ الْحُبِّ

أنجبتة على كبر؟ أجزء النقص منها أم من الزوج؟ ولكن ماذا يهّم ذلك كلّهُ؟ الراوي ملتزم برويته ولو تحرّر منها لوجب أن يسترسل في التقصي حتى يبلغ رحاب آيينا آدم وأمتنا حواء. وإذن فلتكن البداية وست عين في الخمسين ووحيدها عزّت في السادسة وهي امرأة مرموقة، ذات شأن ينمو ويتضخّم مع الزمن كمدينة صاعدة، تملك جميع العمارات الكبيرة في الحارة فهي ثريّة، واسعة الثراء، بل لا مثيل لثرائها، ولا أدري إن كانت هي موجدة الثروة أم زوجها ولكنّ نما يُذكر أنّ شقيقتها أمانة لا تملك شيئاً. أجل لا يقطع ذلك بأنّ ثروتها موروثه عن زوجها، فقد تصوّر أنّ الشقيقتين تساوتا ذات يوم في إرث محدود، بدّدته أمانة على حين استثماره عين، على أيّ حال كانت أغنى شخص في الحارة بلا استثناء للمعلّمين والتجار.

وإلى الثراء الواسع خصّصت بصحة رائعة. يقولون إنّها حافظت على رونق الشباب وهي في الخمسين من عمرها، لم يبهت سواد شعرة من شعرها، ولا اشتكى لها عضو، متينة البناء متوسطة القامة، لا بدانة تثقلها ولا نحافة تعيبها، يتكوّر نهداها شاخين وسالمين من أثر الرضاعة ويكوّنان في مقدّمة الجسد مركز ملاحظة مستتراً كأنه - بلغة اليوم - محطة إرسال ولكنه مغلف بالجلال الزاجر، وأجل قسماتها العينان السوداوان يشعّ منهما نور هادئ ذائب في الحنان، أما الأنف فدقيق ولكنّه طويل يرشحه طول لوجه رجل، كذلك فوها الواسع الممتلئ ويحدّثونك كثيراً عن لون بشرتها القمحيّ النقيّ الذي لم تمسه الأصباغ، وخمارها الأبيض وجلبائها السابغ وتلفيعتها السمراء فلم تُر في الطريق مندسة في ملاءة لفّ أو تزييرة أو متحجّبة برقع أسود أو أبيض

١

يقول الراوي:

ولكن من الراوي؟ ألا يحسن أن نقدّمه بكلمة؟ إنّه ليس شخصاً معيّنًا يمكن أن يشار إليه إشارة تاريخيّة، فلا هو رجل ولا امرأة، ولا هويّة ولا اسم له، لعلّه خلاصة أصوات مهموسة أو مرتفعة، تحركها رغبة جامحة في تخليد بعض الذكريات، يحدها ولع بالحكمة والموعظة وتستأسرها عواطف الأفرح والأحزان، ووجدان مأساويّ دفين، وعذوبة أحلام يُعتقد أنّها تحققت ذات يوم. إنّه في الواقع تراث منسوج من تاريخ ملائكيّ ينبع صدقه من درجة حرارته وعمق أشواقه، ويتجسّد بفضل خيال أمين يهفو إلى غزو الفضاء رغم تعثر قدميه فوق الأرض الأليفة المتشققة التربة وثغراتها المفعمة بالماء الأسن. وإني إذ أسجّله كما تناهى إليّ، إذ أسجّله باسم الراوي وينصّ كلماته فإنما أصدع بما يأمر به الولاء، وأنفذ ما يقضي به الحبّ، مدعناً في الوقت نفسه لقوة لا يجوز المجازفة بتجاهلها.

\* \* \*

يقول الراوي:

إنّه كانت تعيش في حارتنا أرملة تدعى ستّ عين: امرأة قويّة عجيبة الأطوار مثيرة الأوصاف، كائن فريد لا يتكرّر، يدعو إلى الحذر بين يدي الحياة الغامضة التي لا حدود لإمكاناتها. وتبدأ حكايتها عادة وهي أرملة في الخمسين ذات ابن وحيد يدعى عزّت في السادسة من عمره. لمّ تبدأ الحكاية قبل ذلك؟ لمّ تبدأ؟ وهي صبيّة أو وهي عروس؟ لماذا لا يحدّثونا عن عمّ عبد الباقي زوجها؟ لمّ تنجب إلّا عزّت؟ ولمّ

ترملت لم تعد تنتظر المحتاجين في دارها. انطلقت في الحارة بمظلتها، تهبط على المحتاج في داره، ألفت التجوال الرحيم، أصبحت الزائرة المترددة أبداً على ربوع الفقراء، تنغمس في أسر الكادحات والأرامل والعجزة. يقول الراوي: إن الحارة نسيت في أيامها البؤس والجوع والعري، وهانت عليها واجبات الزفاف والمرض والدفن. تلاشت الهموم جميعاً تحت مظلة عين، عين الخنون، القلب الخفاق بالحب، الجود الوهاب بلا حساب، التي تدير العمارات لحساب الفقراء والمساكين. إننا الطلل يهطل على القفر فيتركه أخضر يانعاً يرقص بماء الحياة. أم الحارة... المودعة بالدعوات الصالحات، والبسات المشرقات والامتنان الوفير، باسمها يخلفون، بنوادرها في الإحسان يتذكرون الحقيقة والمعجزة والأسطورة. وكانت تصادق وتناجي وتألف وتؤلف قبل أن تقدم الدواء، كانت تتسلل إلى أعماق القلوب الجريحة فتعايش الآلام وتخالط الأحزان وتوادد التعساء كأنما تتعامل مع أبناء أو تؤدي رسالة طرحتها عليها قوى الغيب، ويقال إننا مارست الإحسان في حياة زوجها عم عبد الباقي في نطاق الدار وبقدر محدود ثم انطلقت انطلاقها الوردية عقب ترملها. كان المظنون أن تقتصد عقب الترمل، وأن تقتصد أكثر حُباً في عزت الصغير، ولكنها تجاوزت منطق الأشياء بجناحين مستعارين من الفردوس، رغم أمومة قوية وعميقة، فلم تسعد امرأة كما سعدت بالأمومة التي وهبتها في فترة حرجة غير متوقعة، اعتبرت عزت هبة السماء لقلبها الوحيد. أسرها الامتنان للرحمن وأحيت ليالي البرّ للحسين والسيدة وأبو السعود طبيب الجراح. وكم أمضت من دهور وهي ترنو بمقلة مسحورة إلى الوجه الصغير ثم تمضي في طريق الخير ناشرة شراع الرحمة. في وجهه يترأى أنفها الطويل وبشرتها النقية وعينا الأب الجاحظتان. وقالت إنه ولد لا بنت. والعبرة بالقلب، فليكن قلبه عذباً حنوناً. وهو نشيط وأناني ولا يتخلى عنها إلا بالهزيمة، وهو أيضاً مدمر يبعثر الأزهار ويطارد النمل ويقتل الضفادع، ولا ينام إلا وهي تقص فوق رأسه القصص. أيطن نفسه سلطاناً؟ هكذا تتساءل

متحدية الألسن بوقار العمر وهيبة الخلق وسحر السلوك وحصانة المنزلة، معتزة بسمعة مثل شذا الورد، وفي حارتنا لا يغض البصر عن نقيصة، ولا تعفى نقيصة من القيل والقال، والحفظ والتسجيل، لذلك فليس أبقى في الذاكرة من سير الفترات والقوادين والعاشرات، ونغالي فنؤرخ بهم الأحداث فتقرن الذكرى بحياة الضبشش أو الدنف أو عليّة كفتة. فأن يمضي تاريخ ست عين بلا كلمة واحدة تسيء إليها دليل قاطع على نقائها وطهارتها وفضائلها الجمّة. وهي تمشي إذا خرجت في الطريق في صحبة مظلة لا تتخلى عنها صيفاً أو شتاءً، تتقي بها الشمس أو المطر أو تنذر بها. في الأحوال النادرة - من يتعرض لها من السكاري أو المسطولين ويا ويل من يتعرض لها في ذهوله من أهل الطريق. الحق أنها لم تكن مصونة بسبب عقبتها فحسب ولكن لقوة شخصيتها أولاً وأخيراً. كانت بحكم وظيفتها المالية تستقبل الكثيرين من السكان والمتعاملين، وكانوا سرعان ما يفيقون من سحر جمالها تحت تأثير صوتها القوي ومنطقها الجدي ونظراتها النافذة. حتى الفترات لم تسؤل لهم أنفسهم الاستهتار في محضرها، وربما رجعوا من لقائها وهم يتمتمون: «يا لها من رجل!». غير أن ذلك لم يعن أكثر من خيبة ثعلب مكار أو هزيمة محتال. لم تكن رجولتها إلا أسلوباً وجدته مناسباً للتعامل في حارة هي أعلم الناس بأحوالها. لم تكن نقصاً في أنوثة أو خشونة في طبع أو قناعاً لستر عورة. كلاً... بل كانت الرحمة عينها. لم تصر أسطورة إلا بفضل رحمتها. لو أنها التزمت المكث في دارها لسعى إليها المحتاجون. وما دارها إلا أجل دار في الحارة. من الخارج لا يتجلى منها إلا جدار حجري معتم لا يعد بخير، تنوسطه بوابة غليظة متجهمة تحمل فوق هامتها تمساحاً محنطاً وفي نقطة الوسط منها مطرقة نحاسية غبراء على هيئة قبضة بشرية. إذا فتحت البوابة تبدت الدار جليلة وافية التقطيع تشي بالعز والنميمة، وترامت وراءها حذيقة تنفث أخلاطاً من روائح الياسمين والحناء والفواكه، تدور حول فسقية ارتفع فوق سورها الرخامي سور من الخشب منذ تعلم عزت المشي والجري والمغامرة. ومذ



## عصر الحب ٢٥٩

- الإحسان ظاهرة حقيقية ولكن ليس على تلك الصورة.

- ولا تنسوا أن الإحسان نفسه لعبة من الاعيب الأنانية.

- إليكم حقيقة ستّ عين التي طمس الحبّ عليها، كانت مجنونة بالرحمة والإحسان... ولكنّها لم تجد العين التي تنفذ في أعماق الظواهر، ولو وجدت لتكشفت عن امرأة أخرى لها سيرة بشرية حقيقية، وربما حافلة بالفضائح.

\*\*\*

- ما عسى أن أقول ردًا على ذلك؟ أقول ما سبق أن قلت من أن حارتنا تتطوّر دائمًا بتكبير العيب ونشره ولكنّها لا تعترف بالخير إلا عندما لا تجد مفرًا من ذلك. فضلًا عن ذلك فإنّ حكاية عين لا تخلو من ضعف بشريّ ممّا يؤكّد صدقها وواقعيتها، ولكننا نأبى التسليم بالمثل العليا من طول انغماسنا في الماء الأسن.

المحاكم مكتظة بالأخوة، ومن يسقط في الطريق يموت وحيدًا. وما زلت متشبّثًا بتصديق حكاية عين فما من حكاية إلا وتعبر عن حقيقة ما كما أنه ما من ألم إلا ويشير إلى جرح ما. فحقّ لا شكّ فيه أنّ ستّ عين تمثي متلقّعة بشملتها السمراء ومظلتها العتيقة وجلبائها السايغ. الابتسامه تشرق في صفحة وجهها الوقور، تسعد بالدعاء والتحيات والنظرات المعجبة. تمضي نحو الربوع البالية، تجلس بين التعساء، وتهتف:

- كيف حالكم يا أحبّاء؟

تسأل عن زينب، وعمّ حسين، وأمّ بخاطرها، ثمّ تغادر المكان بعد أن فرشته بورود الرحمة، وما أكثر الذين يطالبون بدراستها على ضوء الغريزة والأنا والأنا الأعلى، ما أكثر الذين يحومون حول حياتك الجنسية يا عين! ما أكثر الذين ينقّبون لك عن فضيحة في حفائر الذكريات!

\*\*\*

ويقول الراوي: إنّ عين كانت تعشق الفصول الأربعة. ألفنا أغلبية الناس تؤثر بالحبّ فصلًا بعينه أو فصلين أمّا هي فكانت تعشق الفصول الأربعة. تحبّ الشتاء والسحب والمطر، لا تحول رياحه بينها وبين

ضاحكة، تتساءل بقلب شكور ونفس زاخرة بالرضي وبهجة الزهور المفتحة، ويخطر لها على سبيل الدعابة أن تفضّل له جبة وقفظانًا وعمامة، وترامقه وهو يتزّوى بها طروبًا، ثمّ تقول: «ما أجل أن نهديا بعد زهدك فيها إلى الشيخ العزيزي» ثمّ تعرضه على صديقاتها من طلاب الرحمة متسائلة: «ما رأيكُن في هذا الشيخ؟» فيجبها «قمر وربّ الحسين فليمدّ الله في عمره إلى الأبد» وتتفكّر قليلًا في «إلى الأبد» وهي ذكية بقدر ما هي مؤمنة. وتغشى سحابة ربيع صفاءها فتغمغم: «فليكن يومي يا ربّ قبل يومه ولتدفني عند القضاء يدها» وسرعان ما تتذكّر جيلًا راحلًا من أحبّائها فتفتح مخيلتها القبور والشواهد، والصبار والرياحين، وصور مسرلة بالحياة من البشر فتغمغم مرّة أخرى: «إنّهم أحياء معنا ولكن لا يعلم الغيب إلا الله».

وتسألها أم سيّدة ذات يوم:

- كيف صرت أشرف خلق الله؟

فتستغفر الله تواضعًا وتتمتم وهي تداري سرورها الذي تجلّي في ابتسامه خفيفة كلمعة ضياء في سحابة يمرّ وراءها القمر:

- ما هي إلا رحمة الله بعبادة مخلصه.

ثمّ تسائل نفسها:

- كيف لي أن أدري بما يجعل سعادتني في الحبّ العطاء؟

وعُرف وذاع أنه عندما مرض عزّت بالحصبة قد مكثت مسهّدة لا تذوق النوم ثلاثة أيام.

\*\*\*

وقد مضى زمن وجاء زمن. تغيّرت حارتنا بدرجة ملموسة وتمخّضت عن أجيال جديدة ذات مزايا باهرة ولا تخلو أيضًا من غرابة، وكانوا يتخذون موقفًا خاصًا ممّا يروى عن ستّ عين، موقفًا يتسم باللامبالاة ولا يخلو أحيانًا من قسوة:

- لمّ نطالّب بتصديق ما يروى دون مناقشة؟

- إنّها حكاية جميلة ولكن هل تصمد أمام التمهيص؟

- ألا ترون أنّ التاريخ العلميّ نفسه تحوم حوله الشكوك؟

الليمون، الصيف يودع الأيام الأخيرة من رحلته ولم يبق على مدفع الإفطار إلا قليل. وعين تطعم القطط بيدها، وتؤلف بينها وبينها ساعات الطعام وساعات المؤانسة: الأم بركة طحينية اللون ذات نجمة بيضاء في وسط الرأس، والأب أبو الليل أسود فاحم، إنعام وصباح من سلاتهما، ورجس مهداة من أسرة غريبة وكأهن روميّات منفوشات الشعر، عن العلاقة الحميمة بينها وبين القطط، عن التفاهم والتخاطر، عن المودة والتناغم، عن الطاعة والدلال، عن الولاية والأسرار، عن كلّ أولئك تحكي القصص وال نوادر.

وفي الهدوء يعلو صوت مستأذناً:

- يا أهل الله!

ترامى من ناحية الممرّ المفضي إلى مدخل الدار، تبسم عين مستأنسة وتهتف:

- تعالي يا أمّ سيّدة.

تقبل المرأة في ملاءتها اللفّ سافرة الوجه شأن الكادحات من نساء الحارة، تتبعها صغيرتها سيّدة بشعرها المشط وقبقابها الأخضر، تتصافح المرأتان على حين تمضي سيّدة بتلقائية نحو عزّت لتشهد صراعه مع شعاع الشمس الغاربة. ورغم أنّها تماثله في السنّ - السادسة - إلا أنّها تكبره تجربة ووعياً بأربعة أعوام. التفت نحوها الفتاة مقتضبة ثمّ رجع إلى الشعاع، ووقفت هي تراقبه باسمه وصامتة. وقالت عين لأم سيّدة:

- لم أرك منذ ثلاثة أيام يا وليّة يا خاتنة.

تضحك أمّ سيّدة من حنجرة غليظة وتقول:

- للرزق أحكام يا ستّ الكلّ.

ثمّ وهي تجلس فوق الأعشاب عند قدمي عين:

- ربّنا يعلم أنّ يوماً يمرّ من غير أن أراك لا يُحسب

من العمر.

القطط في حركة متوتّرة بين انكباب على اللباب والتحديث في عين بأعين شقّافة مذعورة، وقالت عين:

- دائماً تعثرين على الكلمة المناسبة، مشغولة

بعروس جديدة؟

- الخاطبة تشوف العجب. من يصدّق أنّ عريساً

يُرفض من أجل حلّة نحاس؟

الجولات الثمّلة بالعطف، ولا يفزعها مطره إذا انهلّ فوق مظلتها المنشورة وجرى تحت قدميها ماء عكراً. وتحبّ الصيف وتتوافق سريعاً مع حرارته وتنوّه بلياليه العذبة، وتعشق الخريف وتقول عنه إنّهُ فصل الجمال المنسول، والليالي المفتونة بالنجوى وتحيات الوداع المتبادلة. أما الربيع فهو فصل الحديقة والأصوات، ونجوى الخماسين حَمَلَة بالرسائل من أراض بعيدة مجهولة تشتعل أفئدتها بنار مقدّسة، وهي تستجيب ولا شكّ للفصول المتغيّرة بطبيعتها السمحة وإيمانها الراسخ.

وتحج حارتنا بالعواطف والانفعالات والأصوات المتلاطمة، وتجتاحها العواصف والخصومات ووجوه النظر المتضاربة فتتابع ذلك بهدوء وإشفاق، وتدعو للخير أن يتصر، ولا يرّد على قلبها خاطر سوء أبداً. ولم يكن عن لامبالاة صفاؤها، فهي تدري غالباً - هي التي لا تقطع عن الناس - أين يتأرجح الخير وأين يكمن الشرّ، وهي كما قلنا تدعو للخير أن يتصر، ولكنّها لا تنسى أنّ جميع المتنازعين أو كثرة منهم في حاجة إلى عونها!

\*\*\*

ومما يذكر أنّ عامّة المستهينين بها لم يعاصروا نشاطها، ولم يدركوا الفترة الأخيرة من حياتها، ولا شهدوا ختامها. ومما يذكر أيضاً أنّ أكثرهم نشأ وتربّى وشقّ طريقه بفضل إحسانها ورحمتها، ولكنهم يجهلون ذلك، أو يتناسونه أو يسيئون تأويله كما رأينا، وتلاحق الأعوام فتتضحّم السيرة في ضمير الراوي حتى تصير جبلاً شاهقاً، ولكنّه مثل سائر الجبال يتعرّض لعوامل التعرية.

٢

وذات يوم - كما يقول الراوي - تجلس ستّ عين تحت خميلة الياسمين في الحديقة ترمي بلباب الخبز المغموس في المرق إلى مجموعة من القطط لا تقلّ عن الخمس عدداً، وعزّت واقف بجلبابه المقلم وصنّده فيما بين الخميّة والفسقيّة، يقبض بيده الصغيرة على شعاع الشمس الغاربة الذي يتقلّص على جذع شجرة

## عصر الحب ٢٦١

- ماذا تقصدين؟  
أدركت أم سيّدة أنّها فهمت قصدها فقالت باسمه:  
- إنّه شابٌ يستحقّ الإحسان!  
تقوّست بركة فارتفع ذيلها مثل نافورة، شبتت فيما يبدو، وثبتت فاستقرّت فوق الأريكة جنب عين فهددهتها براحتها وبركة تستجيب مثل موجة راقصة.  
تساءلت أم سيّدة متردّدة وموجّهة خطاها إلى القطّة:  
- كيف أنت يا نرجس؟  
فهتفت عين:  
- إنّها بركة، رأيت كيف نسيت أهل الدار؟!  
فضحكت أم سيّدة، ولمحت عزّت فهتفت:  
- كيف حالك يا سيّ عَزّت؟  
فلم يهتمّ بها وقالت عين معتذرة عنه:  
- إنّه مشغول بشعاع الشمس!  
فضحكت أم سيّدة كرهة أخرى وقالت بحماس:  
- رائحة الملوخيّة تملأ الحارة!  
- أهذا ما جاء بك يا نهمّة!  
فراحت المرأة تناجي شذا الياسمين والحناء في نبرة غزل ممطوطة منعمّة.  
\* \* \*  
عقب الأذان غيّرت عين ريقها على عصير خشاف فاتر ثمّ نهضت لتصلّي المغرب على حين جلست أم سيّدة إلى المائدة بعد أن نزعت عنها الملاءة وهي تتمتم «لا حياء في الجوع» وراحت خادمة تشعل المصباح الغازي الكبير المدلّى من السقف فوق السفرة، ثمّ أشعلت قنديل الفراندة المطلّة على الحديقة، ومضى الإفطار في المضح تتخلّله كلمات عابرة. وانتقلنا بعد ذلك إلى الشرفة فجلست عين على الكنية وآثرت أم سيّدة أن تقعد شلثة لتمدّ ساقها ترويحاً لمعدتها المتخمة. ولفّت سيجارة، تخدّرت من أوّل نفس، نعست عيناها العسلّيتان وانتفخ أنفها الغليظ المسوح الأرنبة كراس قطة. وسيطر الصمت قليلاً تحت تأثير رغبة ملحة في الراحة، وجاءت خادمة بفانوس عزّت الملون فهتفت نفس عين إلى الانطلاق وقالت:  
- ما أحلى المشي عند الحسين!  
فتمتمت أم سيّدة ضاحكة:  
- عندما ترجع إليّ القدرة على المشي.  
ولفت سيجارة ثانية فتمتمت عين:  
- الشكر لله فالليل جميل.  
فرمقتها أم سيّدة بنظرة طويلة ثمّ قالت:  
- عندي ما هو أجل.  
- ما عندك إلاّ حديث الزواج أو اغتياب عبد من عباد الله.  
- إنّه حديث زواج!  
- حقاً؟ ... عندك عروس لعزّت؟  
فقالَت المرأة بابتهاج:  
- بل عندي عريس أو أكثر إن شئت.  
فنظرت إليها بارتياح على ضوء القنديل الأزرق فقالت أم سيّدة:  
- وأنّ العروس المنشودة!  
لوّحت عين بيديها محتجة وهتفت:  
- عليك اللعنة.  
فقالَت بحماس متصاعد:  
- ما من رجل أصيل في حارتنا ...  
ولكنّ عين قاطعتها:  
- احتشمي يا وليّة!  
- يا ستّ السّات ما زلت شابّة جميلة ...  
فقالَت بحدّة:  
- لو أردت الزواج ما لبثت حتى اليوم أرملة.  
- ولمّ تبقيين أرملة؟  
- هس.  
زجرتها وهي تتطلّع نحو السور القديم وقد علاه البدر عظيم الثراء عميق الحمرة وأنى الضياء يبدأ رحلته. تركتها تنعم بالنظر ولكنّها أصرت على الرجوع إلى الموضوع فقالت:  
- ورَبّ القمر ...  
غير أنّها قاطعتها بلهجة حاسمة:  
- كفى يا أم سيّدة، إنّه عزّت، إنّه عزّت وكفى ...  
ثمّ تنبّهت من غفلة فتساءلت:  
- أين الولد؟  
فاستاءت أم سيّدة من قطع الحديث وقالت:  
- في الداخل طبّعا.

عقب الأذان غيّرت عين ريقها على عصير خشاف فاتر ثمّ نهضت لتصلّي المغرب على حين جلست أم سيّدة إلى المائدة بعد أن نزعت عنها الملاءة وهي تتمتم «لا حياء في الجوع» وراحت خادمة تشعل المصباح الغازي الكبير المدلّى من السقف فوق السفرة، ثمّ أشعلت قنديل الفراندة المطلّة على الحديقة، ومضى الإفطار في المضح تتخلّله كلمات عابرة. وانتقلنا بعد ذلك إلى الشرفة فجلست عين على الكنية وآثرت أم سيّدة أن تقعد شلثة لتمدّ ساقها ترويحاً لمعدتها المتخمة. ولفّت سيجارة، تخدّرت من أوّل نفس، نعست عيناها العسلّيتان وانتفخ أنفها الغليظ المسوح الأرنبة كراس قطة. وسيطر الصمت قليلاً تحت تأثير رغبة ملحة في الراحة، وجاءت خادمة بفانوس عزّت الملون فهتفت نفس عين إلى الانطلاق وقالت:  
- ما أحلى المشي عند الحسين!  
فتمتمت أم سيّدة ضاحكة:

تتذكر بالأخص وفاتها. حزنها عند الفراق رائع، كذلك حزنها على أبيها. كما أشعل فراق الزوج قلبها. حزنها عميق كأفراحها ولكن الحزن يعمر أكثر، ما إن تزور القبر حتى تخشع وتسترسل في المناجاة. إنهم مثلنا أحياء ولكن لا يعلم الغيب إلا الله. ما يؤلمها حقاً هو حدسها أن أمونة تضم لها الحسد. وهي من ناحيتها لا تضمن عليها بخير ولكن ذلك لا يستأصل الحسد. ما زالت أمونة تقول لها:

- إنك تبعثرين مالك بغير حساب.

فتقول عين متضايقه:

- إنه مال الله.

فتقول أمونة بامتعاض يشوه حسن وجهها:

- مدى علمي أنه مالك أنت يا أختي!

فتقول ساخرة:

- لا نملك في الواقع إلا قبضتين من تراب.

- لم تحيين سيرة الموت؟

- ربما لأنه يرافقنا في كل خطوة، هل ينقصك شيء؟

- أنت الخير والبركة ولكنني أتحسر على المال الضائع...

فتنظر إلى سجادة صغيرة معلقة بالجدار تعكس

نقوشها قبة المسجد الأقصى وتهتف:

- اللهم فاشهد...

ثم ترنو إلى أمونة قائلة:

- أهو ضائع المال الذي يجبر الخاطر ويطعم الجائع

ويسند العاجز ويهيج الطفل؟!

- دأبني على ثري أو ثرية...

فتقاطعها:

- حسبك، حديثك ينغص عليّ الصفاء..

لكنها دائماً ترجع إلى ذلك الحديث كما يرجع الحمار

إلى حظيرته بلا مرشد. لذلك فهي لا تشك في أن

مولد عزت كان صخرة تحطمت عليها أمواج الجشع،

غير مولده الموازين والحسابات. وجاءته أم سيده

بالبخور السوداني الموصوف لتلك الأحوال وهي تقول:

- الأقارب عقارب!

وترضى عين عما تفعل صديقة العمر وتسألها:

- وأين سيده بتك؟

- لا شك تلعب معه، لم يخرج، ها هو فانوسه ينتظر.

قامت عين. هبطت درجتي الفراندة، غاصت في ظلمة الحديدية حتى اختفت تماماً، ظهرت بعد قليل وهي تجر وراءها عزت بيد وسيده بيد، وصوتها يتساءل في غضب:

- ألا تخافان النار؟

جرت سيده نحو أمها، وقف عزت منكس الرأس.

قالت عين مخاطبة أم سيده:

- هي اللعنة، أرايت؟

دارت أم سيده ابتسامة ولكنها هتفت وهي تزعد ابتها:

- أعوذ بالله.

- الولد بريء ولكن بتك...

فتتمت أم سيده:

- الله أعلم...

- فتحني عينك يا أم سيده...

- عيني مفتوحة دائماً...

\*\*\*

ولم تنس عند الوداع أن تقول لعين:

- لنا عودة إلى موضوعنا.

ولكن عين قالت بحزم:

- سدي هذا الباب بالضبة والمفتاح!

٣

هامت في الصفاء المعهود خواطر قلقة. ليست

بالخطيرة ولكنها تكدر بعض الشيء من ألق الصفاء،

ما وجه الانزعاج الحقيقي وراء عبث طفل؟ قد أن له

أن يذهب إلى الكتاب. ورجال ثمة يطمحون إلى

مالها. وتنتظر إلى المرأة المثبتة في الإطار العاجي الموشى

بالآيات وتمز رأسها، وتتذكر وعدها لعزت يوم وفاة

أبيه بالأ تتيح مكان الأب لغريب. مضت خمسة أعوام

فلم يهن العزم. الفصول وحدها تتغير وتمر الأعوام.

وما يشغل بالها حقاً فهي شقيقتها أمونة. إنها تكبرها

بعشرة أعوام فهي شقيقة أمونة وأمها، وتتذكر أمها،

## عصر الحب ٢٦٣

- يا للعجب!  
 - نحن أحرار فيما نعمل!  
 كرهت عين الفكرة واستبشعتها. رأيت فيها شراهة  
 يجب أن تُنبذ. اعتقدت أن أختها في حاجة ملحة إلى  
 حمام بمظهر مركّز، هتفت:  
 - لا يدكرني ذلك بخير أبدًا.  
 - إحسان بنت أختك.  
 - أمّونة... يسعدني أن يختارها بنفسه ذات  
 يوم...  
 - إنها جميلة كما ترين...  
 - لا أزوّج طفلًا لم يدخل الكتاب بعد.  
 - يفعلون ذلك في الريف وهو مهد الحكماء.  
 - لا يفعل ذلك إلا المجانين!  
 اندفعت بركة بغتة نحو الحديقة كأنما شمّت صيدًا،  
 وساد الصمت منذرًا بالشجن، وانبعث صوت أمّونة  
 متغيّرًا:  
 - أهي كلمتك الأخيرة لي؟  
 فقالت عين بجفاء:  
 - بكل تأكيد.  
 - أنت... أنت قاسية!  
 - أسأل الله لك الشفاء.  
 فقالت بحدة:  
 - لست مريضة يا عين!  
 - الله وحده يعلم.  
 فتساءلت أمّونة بمرارة:  
 - ترى أينما المريض؟  
 - لسانك حصانك يا أمّونة.  
 قامت بشدة وهي تقول:  
 - طول عمرك تكريهيني...  
 - حقًا؟  
 - وتحسديني!  
 - أحسدك؟!  
 - رغم مالك الوفير تحسديني!  
 فقالت وهي تنحّي وجهها عنها:  
 - لا تستدعي الشيطان إلى قلبي...  
 فصاحت أمّونة:

- أتدرين ما هو سرّ السعادة في هذه الدنيا؟  
 - ربّنا يسعدك دائمًا وأبدًا...  
 - عندما لا تأخذ من المال إلا ما يحفظ الحياة!  
 \* \* \*  
 ويقول الراوي: إنّه في ليلة القدر من رمضان زارتها  
 أمّونة ساحبة بيدها صغيرتها إحسان ذات الأربعة  
 الأعوام، وعندما جلستا في الفراندة عقب الإفطار  
 قالت لها عين برجاء:  
 - تجتبي ما يسبّب لي الكدر.  
 واحتستا القهوة في سلام ثمّ قالت أمّونة بعدوية:  
 - أريد أن أجرب حظّي في ليلة القدر!  
 فدعت لها قائلة:  
 - فليهبك الله حظًا سعيدًا...  
 وراحت أمّونة تنظر إلى القسط وهي تستكّن في  
 أركان الفراندة وتمتمت ضاحكة:  
 - إنّه بيت القسط...  
 - إذا شبت استرسلت في التسييح...  
 - أنت أدري بلغتها...  
 ثمّ متسائلة في شيء من الارتباك:  
 - هل أجرب حظّي؟  
 قالت عين ببراءة:  
 - عليك أن تنظري إلى السماء طيلة الوقت.  
 - لكنّ حظّي بين يديك أنت يا أختي...  
 - حقًا!!  
 من خلال ما يشبه المجازفة:  
 - أختي... ما رأيك في عزّت وإحسان؟  
 تشاءمت عين لسبب خفيّ ولكتّها قالت:  
 - عزّت ابني الصغير وإحسان بتك الصغيرة.  
 - ألا تفهمين قصدي؟  
 - من الأفضل أن تُفصحي عنه.  
 - إنّه واضح كليلة القدر.  
 فقالت عين بجديّة منذرة:  
 - هل عندك علم بما يحدث غدًا؟  
 - لذلك يهمني جدًّا ما نستطيعه اليوم.  
 - اليوم حقًا؟  
 - نعم... نكتب كتابها!

وبالتوجس من تجربة مجهولة. واستطردت وهي تحدّ من  
نظرة عينيها الجميلتين:

- واسلك مع البنات السلوك الذي يرضي الله!  
فتخايلت لعينيها الخميطة تحت ستار الليل فتورّد  
وجبهه وتحرك رأسه ارتباكاً فتمتمت بلطف:  
- عن الماضي قد قبل الله توبتك. . .

\* \* \*

وحينما تلقى الشيخ العزيزي الخبر في حجرة  
الاستقبال - وهو يجلس على حافة مقعد مدلى الساقين  
فوق سطح الأرض بشبرين - تهلّل وجهه وقال:  
- طالما انتظرت هذا اليوم لعليّ أردّ جزءاً من ألف  
جزء من جهيلك. . .

لكنّ عزّت حين ترّبّع في الصّف الأوّل - فوق  
الحصيرة - أمام سدّة الشيخ بدا هذا شخصاً آخر، لا  
رحب به ولا شجّعهُ بابتسامه وكأنّه لم يره ولم يسمع  
به. عجب أيضاً للنظرة الثلجيّة التي تستقرّ في  
محجريه، والصرامة التي تكسو وجهه الصغير، على  
حين جلس الصغار والصغيرات في صمت تلفّهم رهبة  
وتحكّم فيهم قوّة مجهولة. أين اللعبة التي تتابعها  
الأعين في الطريق بعطف وسخريّة؟ إنّه الآن يتسلطن  
في مملكته، يمارس قوّة غير محدودة، الجريدة منطرحة  
جنبه تهّد أيادي وأقدام المتمرّدين. أيقن عزّت أنّه  
أسير، بلا دفاع ولا امتياز، يسري عليه ما يسري على  
الآخرين، وأضمر ألاّ يتكرّر حضوره مرّة أخرى. ولح  
سيّدة في نهاية الصّف، تلاقت عيناها لحظة فيما يشبه  
ابتسامه ثمّ سرعان ما تجاهلته. ضايقه جرّ المساواة  
المخيّم على المجلس، الجميع سواسية فوق حصيرة  
واحدة، تخلّت عنه الامتيازات التي ينعم بها في أيّ  
مكان باعتباره ابن السّت عين وربيب الدار الفاخرة.  
إنّه وضع جديد لا يُحتمل ولعلّ أمه لا تدري عنه  
شيئاً. ولح لصق سيّدة بنتاً تماثلها في العمر لم يرها من  
قبل. شدّت عينيها بقوّة. لها وجه ثريّ مستدير وعينان  
سوداوان منعشتان. تركت في نفسه أثراً قويّاً وبهيجاً  
لطف ألمه وأنساه حزنه. ترى في أيّ موقع من الحارة  
تعيش؟ هذه العصفورة التي أقصيت قسراً عن  
غصنها. إنّا البنت التي خطفتها الغولة فغامر ابن

- إنّه مقيم فيه!

حملت إحسان على كتفها وهي تجهش في البكاء،  
مضت تغادر المكان بلا سلام، تحوّل غضب عين إلى  
حزن، قالت بجزع:

- سأجذك في المرّة القادمة في حال أفضل. . .

فجاءها صوتها قائلاً:

- لن تريني ما حييت. . .

٤

فتح كتاب الشيخ العزيزي بابه ورياح الخريف تجبو  
من مهدها الرطيب. عزمت عين على إرسال وحيدها  
إلى الشيخ.

- ستجد في الكتاب التكريم ونور الله.

التكريم لأنّ الشيخ من رواد إحسانها الدائمين،  
ونور الله لأنّه ينيق أوّل ما ينيق من الكتاب.

غير أنّ عزّت تساءل في توجس:

- أليست الحديقة أفضل؟

فمسحت على رأسه براحتها وقالت:

- للرجولة أحكام.

وتذكّر عزّت جماعات الصبيان والبنات وهم  
يغادرون الكتاب في العصارى. لا تفصح وجوههم  
عن سعادة بما جاءوا منه، ولا رضى عن شيخه القزم  
المشوّه. ورمقها بنظرة حائرة فقالت:

- يجب الكتاب الأولاد الصالحون، في الكتاب  
نتعلّم، ولا احترام لإنسان بغير العِلْم، واحترام الشيخ  
واجب كاحترام الأمّ. إيّاك وأن تسوّل لك نفسك  
الضحك منه فذلك حرام والله لا يغفره لعبدا!

إنّه يتذكّر الشيخ العزيزي فصورته الغريبة ماثلة في  
كلّ ذاكرة، قزم مقوّس الساقين أفعس الصدر، صغير  
القسبات كطفل، يتمايل في مشيته من جنب إلى جنب  
متوكّناً على عصا قصيرة طولها ذراع أو دون ذلك، كأنّه  
لعبة تمّا تعرض في الموالد، وهيهات أن ينسى أنّه رآه في  
يوم ممطر وقد حمّله فاعل خير على كتفه ليعبر به  
الطريق.

- أوصيك بصفة خاصّة باحترام الشيخ. . .

وكرّرت ذلك بصوت واضح فشعر بنذير الفراق،

## عصر الحب ٢٦٥

- لا أقرب من القبو ليلاً وأمي تحفظ القرآن .  
وإذا به يهتف فجأة «بدرية» فتابع عينيه حتى وقعتا  
على «العصفورة». نظرت البنت نحوها باسمه ثم  
اندفعت تجري فسأله :

- تعرفها؟

- جارتنا... بدرية المناويشي...  
فأحب صداقته أكثر.

\*\*\*

وتلقته عين بنظرة متفحصة ومشفقة تمتت :  
- مباركة عليك رحلة الرجولة .  
فقال بفتور:  
- يا له من مكان ثقيل...  
- عليك أن تحبه، هو الذي يجعل منك رجلاً  
محترماً...  
فقال بتأفف:

- جلست على الحصيرة كالأخرين...  
- كلنا أبناء آدم وحواء، والمجتهد هو الأفضل،  
لذلك وضعت في مندليك طعاماً كأطعمة الآخرين،  
وطعامك الآن ينتظرك، لا تنفر من أحد...  
فقال مجازةً لها:

- عرفت كثيرين...  
- حقاً... اذكر لي بعضهم.  
- حمدون عجرة...  
- آه... ولد يتيم يعيش مع خالته، وهي ست  
مستورة وطيبة، من أيضاً؟  
فصمت في حيرة، ثم قال:

- هو فقط!  
- كثيرون ولكنهم تمخضوا عن واحد فقط!  
وكم عدد البنات؟  
- أربع.  
- جديداً عليك؟  
- إلا واحدة...  
- سيّدة؟  
- نعم... وعرفت اسم أخرى عند مناداتها،  
بدرية المناويشي...  
- آه... بنت أم رمضان، لعلها آخر العنقود من

السلطان بإنقاذها. ما أعذب صوتها وهي تردّد وراء  
صوت الشيخ الرفيع «الحمد لله رب العالمين»! على أيّ  
حال فالكتاب ليس شراً كلّه. ولن يمسه الشيخ  
العزيزي بسوء.

\*\*\*

وعندما جاء وقت الغداء جلس كالأخرين موجهًا  
وجهه للجدار. حلّ عقدة المندبل وبسطه وراح يقطع  
الرغيف، عند ذلك جاءه صوت عن يمينه مباشرة:  
- ماذا عندك؟

رأى صبيًا في مثل سنّه، في عينيه ضيق ولكنهما  
مقبولتان، في فكيه قوة، وفي أنفه فطس، بدا بسيطًا  
ومرحًا. ساءه تطفله ولكنّه لم يجيد بدءًا من إجابته:  
- جين أبيض وحلاوة طحينية...  
- عال، معي طعمية وسلطة طحينية. فلناكل  
معًا...

ولم ينتظر موافقته فبسط مندبله حتى عمّست  
الحافتان، أشار إلى الطعمية بإغراء ويده تمتدّ إلى  
الجبين، ثمّ قدّم نفسه قائلاً:  
- حمدون عجرة...  
فاضطرّ الآخر أن يقول:  
- عزّت عبد الباقي.

- أنا عارف... ابن الستّ عين!  
استاء من أن يتردّد اسم أمّه مختلطًا بالجبين والطعمية  
وسلطة الطحينية، لكنّه لم يستثقل حمدون وأعجبه  
نظافة جلبابه وطاقيته، وقال له حمدون:  
- أنت غير جائع...  
- أشبع بسرعة.

فلم يرتح حمدون للإجابة ولكنّه التهم الطعام  
بصراحة.

\*\*\*

وغادرا الكتاب معًا. لم يفارقه حمدون وسرعان ما  
أنس إليه. وقال له حمدون:  
- نلعب معًا ونحفظ معًا ونأكل معًا... هه؟  
فحنى رأسه بالإيجاب فقال الآخر:  
- وقد يطلع لنا عفرت من القبو فمن الأفضل أن  
نكون معًا...  
- نعم... وعرفت اسم أخرى عند مناداتها،  
بدرية المناويشي...  
- آه... بنت أم رمضان، لعلها آخر العنقود من

والانتفاع بشمنها. واعترفت ستّ رمانة أكثر من مرّة  
قائلة:

- إني أحبه لاجتهاده... يندر أن تجدي مجتهدًا في  
سنّه.

هكذا بشرت الصداقة بخير للطرفين ووهبتها  
سعادة بريئة سابغة، وكصداقة الصبية لم تحلّ من  
نزاعات فارغة مثل هزيمة تلحق بأحدهما في الحجلة أو  
السيجة، ولم يكن ابن الستّ عين تمنّ يقبلون الهزيمة  
بروح طيبة، ولكن لم تتعدّ الخلافات قطعة ساعة،  
وسرعان ما يجيء التنازل من ناحية حمدون!

واللعب في الحارة كان تسلية لا مفرّ منها، ثمّ بات  
هدفًا سعيدًا عندما انضمت إليها سيّدة بدرية، ولم  
يستهن أحد ذلك طالما دار اللعب تحت الأعين وفي  
ضوء النهار، واستأثرت بدرية بإقبال الصبيّين حتّى  
شعرت سيّدة بأنها تكملة عدد ليس إلّا، لم ينفعها  
مرحها، وتوارى حظّها مع دكنة بشرتها وأنفها المتكور  
الذي يعيد سيرة أنف الأمّ. انبهر عزّت بوجه بدرية  
رغم حداثة سنّه، وسبق قلبه سنّه في الانفعال بعاطفة  
مبهمة تستقطر الأشواق من أرض خرافية لا وجود لها  
إلّا في الخيال. ولكي يستأثر باهتمامها حكى لها عن  
داره، أثاثها ورياشها، عن الحديقة والفواكه والأزهار،  
وقالت سيّدة:

- أنا أعرف ذلك كلّ.

فقال عزّت:

- ولكتّها لا تعرف.

وقالت بدرية:

- نحن نلعب في الحارة فقط.

وقال حمدون:

- وسيّدة تدخل الدار مع أمّها.

فقال عزّت لبدرية:

- فلترنا أمك وأنت معها.

فقالت بدرية:

- أبي لا يسمح لأمّي بالخروج.

وكانت سيّدة تتودّد إليه، ما وسعها ذلك ولكتّه لم  
يكثر لها، وربّما وردت على ذهنه ذكرى الخميّة  
ولكتّها ترد مقرونة بالألم والخوف والحجل، أمّا بدرية

آخر زوج، لقد تزوّجت أمّها خمس مرّات أو أكثر.

فتساءل باهتمام:

- لها خمسة أزواج في وقت واحد؟

فضحكت عين وقالت:

- سوف تتعلّم أنّ المرأة لا يكون لها إلّا زوج

واحد، ولكتّها قد تزوّج من آخر إذا طلّقت.

فسألها باهتمام متزايد:

- هل تزوّجين أنت أيضًا من آخر؟

- كلّ.

- لماذا؟

- لأنّي لا أريد... والآن هلّم كلّ لقمة تسند

قلبك.

وقبيل المساء جاءت خادمة تعلن قدوم صبيّ يدعى

حمدون عمجرة.

## ٥

لم تكن حياته في الكتاب يسيرة فتلقّى كثيرًا من  
الزجر ولكتّه لم يُجلد قطّ. عرف الشيخ العزيزي أنّه لا  
يستطيع أن يتجاوز معه حدودًا معيّنة. وتقدّم عزّت  
فوق جسر من العثرات، وربّما أعانه وحسه أحيانًا  
نشاط حمدون الموفور، أصبحت صداقتها حقيقة وقد  
عرف مع الأيام جميع الصبيان ولكن بقي حمدون  
الصديق الأوحد. ورحت عين بحمدون، أعجبها  
منظره النظيف ورغبته المبكرة في الحفظ ورجت أن يجد  
فيه عزّت مشجّعًا على العمل. قالت: إنّ الولد ذكيّ  
ومحبّ للمذاكرة دون أن يدفعه أحد إلى ذلك. وتمتّت  
له مستقبلًا حسنًا يعوّضه عن يتمه، وأكثر من مرّة  
قالت له: ربّنا يفتح عليك، إذا واطبت على اجتهادك  
فلن تترك التعليم لتتعلّم حرفة يدوية.

وجعلت تدعوه للغداء يوم الجمعة. وبسبب ذلك  
دعت خالته ستّ رمانة لزيارتها فتوطّدت بينها علاقة  
طيبة. وكان زوجها تاجر أجهزة سرادقات يؤجّرها في  
الأفراح والمآتم، ربّحه لا بأس به ولكن كان له من  
الأبناء عشرة، رغم ذلك عطفت ستّ رمانة على  
حمدون وعاملته كأبي ابن من أبنائها، وكان قد ورث  
عن أبيه قطعة أرض صغيرة تنفع عند الضرورة للبيع



## عصر الحب ٢٦٧

- عقلك ممتاز ولكنك كسول.  
فتساءل عزت باستهانة:  
- امين المهم ان اكون مجتهدا...!  
فقال عين وهي تتابع الحديث باهتمام:  
- طبعا، ما أجمل الناجحين، العلم من الإيمان  
وأنت من المؤمنين الصادقين...  
أجل كان محبا للعبادات ومغرما بالحكايات ولكنّه  
حزن قبل الأوان.  
واستطردت أمه باسمه:  
- عليك أن تزيد من المذاكرة وأن تزيد من  
الطعام...  
فقال حمدون مؤكداً:  
- إنه نحيف جداً، في المدرسة يقولون إن والدته  
تفق ماها على الفقراء وإن الابن لا يجد ما يأكله!  
فضحكت عين وقالت بلهجة متوعدة:  
- العليم والطعام...  
فقال حمدون:  
- يشغل نفسه بالجنة والنار!  
فقال عزت لنفسه: بالجنة والنار وبدريّة. وهناك  
أمه التي تُكُون نسيج حياته وأحلامه وأفراحه ومخاوفه!  
إنها الصلة بينه وبين الله، والصلة بينه وبين الحياة،  
هي كل شيء، وهكذا ينظرون إليها في الحارة. وقد  
ألف منذ يقظته الأولى ذهابها وإيابها، مسيرتها المكثلة  
بالجلال والحبّ تحت مظلتها، اجتماعها بالفقيريات في  
الحديقة، وتعلّم أن يعتدّ ذلك عبادة من العبادات  
الرائعة، وعلى ضوء ما ترامى لأذنيه من تعليقات على  
نشاطها الكريم الموفور سواء في المدرسة أم في غيرها  
مضى ينظر إليها بعين جديدة، ويقارن وهو لا يدري  
بينها وبين الأخريات. لم تكن الثرية الوحيدة التي تفعل  
ذلك، حتى صدق حمدون وهو يقول له مرّة:  
- إنها أم الحارة وليست أمك وحدك...  
ولكن من العجيب أن هذه القوّة النادرة لا تنفعه في  
أشياءه الحميمة، فلا عون يُتَظَر منها على دروسه  
المعقدة، ولا فرج يأتي على يديها ليعيده إلى جنة بدرية  
المفقودة، إنها تداوي القلوب الجريحة وتركه يعاني  
وحده، تتركه والأعوام تمرّ والكآبة لا تنقشع.

فإنه يتطلّع إليها بخيال عجيب سعيد مرح يعبّد بأفراح  
الدنيا والآخرة.

وقضى عامين في الكتاب حظي فيها بسعادة لا  
تتحقق إلا في دنيا من نسج الخيال والبراءة.

\*\*\*

وعندما هبت رياح الخريف من مهدها الرطيب  
كعادتها في الأعوام السابقة أذنت هذه المرّة بفراق  
جديد، حادّ وأليم، أنذر بإخراج الولد الثمل من  
جنته. اعترضه قرار جديد بالتوجّه إلى المدرسة  
الابتدائية لأداء امتحان القبول، ولم يغرّه هذه المرّة أن  
يجد حمدون في رفقته. أمّا بدرية وسيدة فقد غادرتا  
الكتاب، ومُنعتا من اللعب في الحارة. فترحماس عزت  
وخذت روحه، نجح حمدون في امتحان القبول وسقط  
هو في الحساب غير أن زيارة مباركة من أمه للمدرسة  
غيّرت النتيجة وألحقته بالمدرسة بلا ترحاب من ناحيته  
ولا سرور. ولم تنقطع سيدة عن مجاله فهي تزور الدار  
عادة بصحبة أمها، واعتاد منظرها أكثر وأكثر، فباتت  
دكتنتها مألوفة وتكسيرة أنفها عادية ومرحها محبوباً  
وحديثها لا يخلو من تسلية، أمّا بدرية فلم يكن يراها  
إلا في النادر جداً من الأوقات، غالباً بصحبة أبيها،  
يسرق منها نظرة خاطفة، وتمضي هي جادة أكثر ممّا  
يحتمل عمرها وكأنها لم تقاسمه عامين أفراح الحياة.  
وكان لديه من فرص العمل واللعب ما يشغله عنها،  
ولكنّه لم يستطع أن يتحرّر من ذكراها، ولا أن يحور  
من ذاكرته تعلقه الفريد بوجهها الثريّ.

\*\*\*

وبدا متعتراً في دراسته، تمضي الأيام ولا يحظى  
باستحسان واحد، لا يأنس إلى المدرسة، ويحنّ دائماً  
إلى الحرّية والحديقة. وذات يوم سمع تلميذاً يقول  
وهو يوميّ إليه:

- ما حاجته إلى التعليم وهو أغنى شخص في

الحارة!!

فمجب من إصرار أمه على تعذيبه، ولم يؤثّر فيه  
تفوق حمدون إلا قليلاً، وكان حمدون يشجعه على  
العمل، ولولا مواظبته على المذاكرة معه ما أصاب أيّ  
قدر من التقدّم. وكان يقول له:

بالأعاجيب، وتلت آية الكرسيّ وقلها ينضح بالعطف  
على اليتيم.

\*\*\*

وتغيّر حمدون تغيّراً ملموساً... فثنته بالمرح لم تحمد  
أبداً... ملأ بعض وقت فراغه بهواية جديدة هي  
القراءة... بشيء من الصعوبة كان يقرأ ما تصل إليه  
يده من إعلانات، مجلات، قصص بوليسية، واهتدى  
أخيراً إلى ألف ليلة وليلة. ومنه تعلق عزّت بالقصص  
البوليسية، فلم يقرأ بدافع الحبّ وحده إلا القرآن  
والقصص البوليسية، وقال حمدون:

- ستكون العطلة الصيفيّة رائعة، سنمثل كلّ  
حكاية نقرأها...

فقال عزّت:

- لننقل المسرح إلى الحارة...

- فكرة... هل تضايقت أمك من اللعبة؟

- أبداً... ولكن لعلنا نضمّ إلينا ممثلات!

فضحك حمدون وراح يمسح على حاجبيه البارزين  
ويقول:

- فكرة مستحيلة...

- أليست بدرية جارتك!

- ولكنّ بيني وبينها جداراً أقوى من جدار القبو

العتيق...

ولكنّه يراها، ربّما كلّ يوم، ويستحقّ لذلك  
الحسد.

\*\*\*

في ختام العام الرابع نجح كلاهما في الابتدائية.  
كان النجاح بالقياس إلى عزّت معجزة. قدّمت لها  
الخلوى في الحديقة. في الثانية عشرة من العمر أعلن  
حمدون عن رغبته في أن يصير ممثلاً ومؤلفاً. ابتسم  
عزّت ولم يصدّق. وقالت عين:

- اختر عملاً لا لعبة...

كان حماسه أقوى ممّا يتصوّران. وسالت عين  
وحيدها:

- وأنت؟

مطّ بوزه في غير مبالاة. إنّه يحبّ شيئين متنافرين،  
العبادة والسيادة. يعتزّ بأمه وبيداره، وهوى فؤاده

وذات يوم جاءه حمدون متألقّ البصر خفيف  
الحركة، ولسبب مجهول انقبض قلبه وتذكّر بقوة وحزن  
بدرية المناويشي. جلسا في الفراندة والسماء تمجّ رذاذاً  
يغسل الأوراق ويطارد العصافير، وراح حمدون يقول  
بحماس عجيب:

- دنيا... دنيا لا مثل لها...

فحدّق إليه متسائلاً فقال الآخر:

- أمس اصطحبتني زوج خالتي مع بعض أبنائه إلى  
الكلوب المصريّ.

- المقهى!

- بل المسرح، شاهدت مسرحيّة من البداية إلى  
النهاية.

ووصف له تفاصيل الرحلة بكلّ دقّة، الدخول،  
الجلوس، الصالة، الستار، المسرح، الممثلين  
والممثلات، الحكاية، الغناء، كلّ شيء.

- هناك تضحك وتطرب وتبكي أحياناً...

لم يستطع عزّت أن يتخيّل شيئاً ذا بال، صورة الجنّة  
أوضح في مخيلته وكذلك صورة النار وقال حمدون:

- سوف تراها يوماً ما... لكننا نستطيع أن  
نحاكيها هنا، في هذه الفراندة!

- كيف!

- سأحفظك ما يقال...

ودون تردّد راح يقتبس المسرحيّة، ويخلق الديكور  
بالوهم، ثمّ قال:

- أنت الآن فتاة تدعى جوليت وأنا فتى اسمه  
روميوا!

فقطّب عزّت متسائلاً:

- ولم لا يكون العكس؟

فقال مطارحاً ومتجنّباً إثارة غضبه أو عناده:

- ليكن...

ودار الحوار القصير كما تخيّل حمدون، وكان يمثّل ما  
وسعه ذلك ولكنّه لم يفلح في حمل عزّت على التمثيل،  
تخيّل عزّت بدرية في دور جوليت. هذه هي الحكاية.

ولكن أين صاحبة الدور الحقيقيّ؟!

وتابعت عين المنظر من شبّك حجرتها فلم تفهم  
شيئاً وقالت لنفسها إنّ الأطفال يجيشون إلى الدنيا

## عصر الحب ٢٦٩

يحبّ بدريةً إلى الأبد. وتبدى له الحبّ كالحياء نفسها  
في جاذبيته واستبداده. وتخلّى عنه إحساسه العميق  
بالسيادة فشعر بأنه وحيد. ولم يكن يحبّ المكث طويلاً  
في بيت حمدون لاكتناظه بأهله فسرعان ما غادراه  
معاً. مضياً نحو الكلوب المصريّ، وفي الطريق قال  
عزّت ليروح عن نفسه:

- رأيت بدرية وأنا ذاهب إليك.

فتمتم حمدون:

- كثيراً ما أراها...

فاستسلم لدفعة داخلية قائلاً:

- إنّي أحبّها...

فقال حمدون ضاحكاً:

- مثلك تماماً!

فتساءل عزّت بانزعاج:

- تحبّها أيضاً؟

- أكنت تتوقّع أن أكرهها؟

- كلاً طبعاً... ولكنّي أعني بالحبّ شيئاً آخر.

فقال الآخر بهدوء:

- ليس بهذا المعنى.

- أصدقني القول!

- متى عرفتي كاذباً؟

ارتاح نوعاً ما ولكنّ قلبه لم يعرف اليقين، وهو لم  
يرغب في شيء ويمتنع عليه باستثناء عالم البنات. لكنّ  
اليوم غير الأمل. إنّه يخلق ذقنه صباحاً بعد صباح.  
ربّما ليعجّل طلوع شعره. بيدّ أنّه لا يدري كيف يبلغ  
رسالة حبه في حارته ذات القضبان العتيقة. إذا رفع  
رأسه ارتفعت معه مائة رأس متسائلة مستريية، وما  
زال يرقل في غشاء الحياء والتقوى الذي نسجته يد أمّه  
بأصابعها الطويلة الناصعة. والسهو عذر ولكنّه لا يخلو  
من الحساب العسير وأين المفرّ من عين الله الساهرة؟!  
وقد صار من المترددين على المسرح بإغراء حمدون  
التواصل. ويات حمدون يحلم بالتأليف ويحاوله سرّاً فلا  
يُطلع عليه أحداً إلا عزّت. وكم ودّ لو يغيّر مجرى  
حياته ولكنّه استمرّ في التعليم بهدف الاستقرار في  
وظيفة. عزّت يواصل التعليم بدافع الكبرياء وإرضاء  
لأمّه.

الوجهة. لم يكن متكبراً ولكنّه يضمن أن يكون خليفة  
أمّه. ربّما في الدار والحارة، أو في الدار وحدها!  
وتمت عين:

- أوّد أن أراك عظيماً...

ولم يدِر ما العظمة على وجه الدقّة ولكنّ فؤاده هفا  
إليها...

## ٦

عهد المدرسة الثانوية كان عهداً جديداً. فُتحت  
نوافذ لتيّار من المعلومات الجديدة، ثمّ تدفّق منها هواء  
داقٍ يفتح الأكمام وينضح الحنايا، ونبت شخص جديد  
في حنايا عزّت... وحمدون أيضاً... فانقسمت أرنية  
أنفه، وغلظ صوته، وتقلقل بالأشواق المبهمة.  
وترحمت عين على عمّ عبد الباقي وقالت إنّه يحاكيه  
رغم أنّه لم يعرفه. وقالت إنّه من الآن فصاعداً ستهبّ  
النسائم محمّلة بالعبير والمخاوف. في ذلك العهد صار  
حمدون قارئاً لا ريب فيه، متنوّع القراءات منقّباً عن  
أبّي كلمة ذات علاقة بالمسرح، وانغمس عزّت - في  
أوقات فراغه - في قراءة القرآن والقصص البوليسية.

وكاد يعتاد السلوان عن بدرية لولا لقاء عابر غزاه  
بقوة من جديد. كان يمضي لدى الغروب في العطفة  
نحو بيت حمدون وكانت بدرية تعبر العطفة نحو بيت  
مقابل. تشجعت بقرب المسافة وغياب الأب فخرجت  
في الفستان سافرة، شبه أنثى ناضجة بوجه أكثر نراء  
ونقاء، وقامة ممشوقة، وضميرتين مرسلتين حتّى نهاية  
الظهر. كادا يتلاقيان في نقطة واحدة تحت مظلة  
الغروب، تبادلنا نظرة باسمه بالذكريات المشتركة عامرة  
بالمودة وسرعان ما همس:

- أهلاً...

فهمست في حياء:

- أهلاً...

وأسرعت في مشيتها متعترّة بالخطأ، فوّاحة بالشباب  
المبكر. وتوقّف تحت بيت ستّ رمانة والمغيب يقتحمه  
بعمق فيتحوّل رويداً إلى شيخ... أراد الوقوف ليثوب  
إلى رشده ويستردّ توازنه وتنعقد أواصره بما حوله من  
جديد... أدرك بوجودان جديد أنّه قضي عليه بأن

## ٢٧٠ عصر الحب

- ولم تغفل الأمّ عمّا يغلي في داخله . . . أشفقت من أن يزلّ، من أن يعصي الله جلّ جلاله، ورفضت أن تهرب من تحمّل مسؤوليتها، أو أن تتركه وحده في مواجهة الشيطان، وتشجّع بالظلمة في الحديقة وهي تجالسه في أمسية من أماسيّ الربيع فتقول له:
- أن لي أن أعاملك كرجل . . .
- فضحك ضحكة مقتضية. أمّا هي ففكّرت بشقيقتها أمونة . . . أرادت أن تصالحها كثيرًا . . . أرسلت إليها أمّ سيّدة . . . زارتها بنفسها. أرجعتها إلى زيارتها السابقة ولكنّ أمونة ظلّت متحفظة . . . عزمّت عين على أن تصالحها بطريقة عمليّة . . . قالت:
- عزّت . . . من أصول التقوى أن نصون أنفسنا بالزواج . . .
- أضاعت لفظه الزواج الخميّلة فتبدّت بدرية منورة، وتتم عزّت بدهشة:
- الزواج!
- نعم . . . إنك رجل!
- لم أحصل بعد على البكالوريا . . .
- إنهم يتزوجون بلا شهادة.
- فتساءل عزّت ضاحكًا:
- هل تستعينين بأمّ سيّدة؟
- بل عندنا العروس، إحسان بنت خالتك . . .
- إحسان جميلة، تميل إلى الامتلاء أكثر ممّا ينبغي ممّا ينذر بأنّها ستكون في حكم خالته أمونة، وهو لم يشعر نحوها بأيّ ميل حقيقيّ. قال بوضوح:
- لا . . .
- فتساءلت باستياء:
- لماذا يا حضرة؟ . . . البنت كاملة . . .
- ربّما، ولكن لا حيلة لنا في ذلك.
- فسألته بأسف:
- ألا تعينني على استرضاء أختي؟
- ليس عن هذا السبيل.
- هل تكره فكرة الزواج الآن؟
- فقال بصراحة:
- الحقّ أنّي لا أكرهها . . .
- فتساءلت باهتمام:
- هل عينك على عروس أخرى؟
- نعم.
- فقال بقلق:
- تحدث أمور من وراء ظهري، لمّ لمّ تصارحني من أوّل يوم؟ من؟
- بدرية المناويشي . . .
- أخذت لحظات فانداح الصمت ثمّ قالت بنبرة آسفة . . .
- لا . . .
- لا! . . . ألا تعجبك؟
- أمّها مزوجة . . .
- إنّي أتحدّث عن البنت لا عن أمّها.
- البنت لأمّها!
- حُكّم غير معقول . . .
- لا خلاف عليه.
- لا أصدّق ذلك!
- أمك لا تخطئ أبدًا . . .
- فقال بشيء من الحذّة:
- دعيني أجزّب حظّي . . .
- فقال بتوسّل:
- لا تستهن برأي أمك.
- فقال بضيق:
- لا أستطيع أن أستعين كذلك برغبتى . . .
- إنّي شديدة الرغبة في تزويجك ولكنّي حريصة على سعادتك.
- فقال بقوة:
- لن أتزوج إلاّ بمحض رغبتى الخاصّة . . .
- فتأوّهت قائلة:
- هذا صوت جديد يا عزّت، أنت طبعًا حرّ، ولكنّي غير راضية . . .
- انقبض قلبه، لم يهن عليه إغضابها، وهل يستطيع أن يخطو خطوة بغير رضاها؟ قال:
- لولاك ما فكّرت في الزواج الآن قطّ . . .
- لم تنبس. ثقل عليه صمتها. أخذ يتعدّب من الداخل. قال بحسم:
- لننّس ما دار بيننا من حديث . . .

## عصر الحب ٢٧١

- من الحبة قبة . . .  
 - يتحدثون عن حبه لها؟  
 - أجل . . .  
 - وماذا يقولون عنها؟  
 - لا شيء، أنت تعرفين أباهما . . .  
 - وكيف يثبتون صدق رأيهم؟  
 - كلام فارغ، لا يقوم على أساس، نظرة عابرة  
 مثلاً . . .  
 فقالت بأسى:  
 - قد يقود ذلك إلى فضائح، أصدقيني يا أم سيّدة،  
 هل تقابلا ولو مرة واحدة؟  
 - أستغفر الله . . . البنت تعيش في ظلّ أب صارم .  
 - هل عرفت أمها؟  
 - طبعاً .  
 - ما رأيك فيها؟  
 - ليس بالرأي الحسن . . .  
 - هل علمت بما يشاع عن ابني؟  
 - لا أستبعد ذلك . . .  
 - والأب؟  
 - مستحيل .  
 - هل حدثتكم أم بدرية بهذا الشأن؟  
 - كلاً، ولكنّها طلبت منّي البحث عن عريس  
 مناسب، وألححت إلى سي عزّت وعلاقتي الوثيقة  
 بوالدته، وكما كنت على علم برأيك فيها فقد اعتذرت  
 بحجّة أنّ سي عزّت ما زال دون سنّ الزواج .  
 واقترحت حمادة الأفندي . . .  
 - وماذا كان رأيها؟  
 - لم يملأ عينيها . . .  
 فقالت عين ساخرة:  
 - طبعاً، ما دامت تحلم بالعلالي . . .  
 ورمتها بنظرة قاسية أخجلت عينيها وقالت:  
 - وأخفيت عني ذلك كله . . .  
 فقالت بحرارة:  
 - لم أشأ أن أغضبك بكلام يجيء من ناحية أم  
 بدرية . . .  
 فقالت نحوها متجهمة وقالت:

لبث وحده في الحديقة بعد ذهابها، شعر بأنّها ما  
 زالت قائمة في مكانها. أحسّ غضباً قاسياً يجتاحه  
 نحوها. كان أشبه بالكراهية. غير أنّها كراهية عابرة.  
 سرعان ما أخلت موقعها لأسر الحبّ وذلك. لكنّه  
 استطاع أن يراها بعين ناقدة كأنّما استعارها من زفرات  
 الصراصير. إنّها تتحوّل إذا شاءت إلى صخرة صلدة.  
 وينضب معين الرحمة من قلبها. هذه المرأة العجيبة  
 التي تؤاخي الفقراء وتصادق القسط وتناصب ابنها  
 العداء. وكم خوفته من الشياطين وها هو أسمح  
 شيطان يتجسّد في عنادها!

\* \* \*

وقالت عين وهي تتنهد في حزن بالغ إنّ الولد  
 عنيد. عنيد مثل أبيه ومثل أمه أيضاً. وصممت ألاّ  
 تبعه وهو جوهرة حياتها. هو أيضاً أحقّ مثل أبيه.  
 ولولا أنّ عمّ عبد الباقي أذعن في النهاية إلى مشيئتها  
 لضاع مثل ذرّة غبار، أجل إنّهُ يحبّ البنت، والبنت  
 جميلة حقاً، ولكن ما قيمة الحبّ المترع بالضلال؟  
 والحبّ يجرّره الزواج وعند ذلك لا يجد بين يديه إلاّ  
 امرأة تحلم برجل آخر. هكذا عاشت أمها متنقلة من  
 رجل إلى آخر. إنّها مسئولة عنه اليوم، غداً يستقلّ عني  
 ويرتكب حماقاته.

واستدعت أم سيّدة وسألته بجفاء:

- ماذا تعرفين عن عزّت وبدرية؟

فذهلت المرأة وتساءلت بدورها:

- ماذا عن عزّت وبدرية؟

فهتفت بتحذير:

- إيّاك والمكر.

- معاذ الله .

- ماذا تعرفين إذن؟ . . .

- أستغفر الله العظيم .

- لا يتحرّك قلب في حارتنا إلاّ وأنت معه في نبضه!

فقالت بحرارة:

- لا تهمني الإشاعات . . .

- تهمني أنا . . .

فنفضت أم سيّدة وقالت بصوت منخفض:

- يتحدثون عن حبّ، إنّهم كما تعلمين يصنعون

- أتدري ما عدد البنات السلاطي يحملن بالزواج منك؟

- ولكتي أريد واحدة فقط.

- ما تريدها إلا لأني لا أريدها.

- بل كأنك ما ترفضينها إلا لأني أريدها. . .

- أتحب أن أروي لك نوادر أمها؟

- أمها لا تهمني البتة. . .

- إنها كامنة في أعماقها. . .

- هيا أنه زواج خائب فهل أعجز عن الطلاق؟

- والحياة؟ . . . أتظنها تمرّ بلا عواقب؟

\*\*\*

في أثناء الصيف اختار عزّت أن يلتحق بمدرسة الحقوق. أما حمدون فعزم على أن يتوظّف ليخفّف عن خالته من ناحية ويهب بقيّة يومه للمسرح. وفي ذلك الوقت عرف أن عبد الحميد الكومي خطب بدرية وأن الفاتحة قد قرئت. اقتلع الخبر قلبًا. وربما أكثر. من جذوره، وتبدّت الحديقة لعيني عزّت صفراء تنفت ربحًا سامّة. أكان يعتمد على سحر الحبّ الكامن وحده؟ هل تصوّر أنّه - سحر الحبّ - قادر على حفظ حبيبته لحين قدرته على الخروج من سلبيته؟ وهتف بأمه ثقةً منه في قوتها غير المحدودة:

- اصنعي شيئًا. . .

فتساءلت بجزع:

- أتريد أن تخطف بنتًا من رجلها؟

- أنت الذي مكّنته من خطفها!

فتمتمت بحنان:

- الخيرة فيها اختار الله.

ورماها بنظرة حزنت لها ومضى. ووجد حمدون جيّاشًا بالانفعال. وقال عزّت:

- إني أحترق وكان ينبغي أن أحرق. . .

فتساءل حمدون:

- هل انتهى الأمر؟

واصطحبه إلى والد بدرية، ورجاه أن يبقيها على ذمته حتّى يستقلّ بنفسه، فقال الأب:

- لقد قرأنا الفاتحة، وكان بوسع والدتك أن تتكلم

لو توقّرت لها الرغبة. . .

- ولكتك لن تخفي عني كبيرة أو صغيرة تخصّ هذا الموضوع؟

فقالت وهي تتنفس بارتياح لأول مرّة:

- أعاهدك مع ذلك والله شهيد. . .

وكما غادرتها أم سيّدة أفرغت قلقها في بركة فراحت تهدهدها وتهمس لها:

- إني أتعذّب يا بركة فادعي لي بالسلام. . .

٧

مضى الحبّ ينمو ويتضخّم مثل شجرة بلح. وكان يسلي همّه بالمسرح ولكتّه يغرق وقت فراغه في القصص البوليسية، وكلّمًا طالعه حمدون بوجهه القويّ المشرق توجّس خيفة غامضة، وغبطه على تقدّمه وعبادته لهدفه. وردّد عزّت حكاية حبّه كثيرًا فكان حمدون يشاركه همّه بحرارة الصديق المحبّ، قال له مرّة:

- يخيّل إليّ أنّ والدتك تسيء الظنّ بالحبّ.

فقال عزّت:

- إنها تسيء الظنّ بأّم البنت وهذا ظلم. . .

- الحبّ أيضًا متهم في حارتنا. . .

- قصص الجريمة أجمل من الواقع!

- أجل أجمل من واقع بلادنا.

وراح يتحدّث عن الاستعباد. وكان يهتمّ بذلك، ويتزايد اهتمامه بتقدّمه في العمر. ولم يخلُ حديثه من عبارات دموية. ولم تحرك هذه الشئون قلب عزّت بجديّة مثل صاحبه ولكتّه قال:

- بوسعنا أن نقاوم الاستعباد ولكن كيف نتصرّف

مع أمّ مثل أمي؟

فقال حمدون:

- ومع ذلك فلا ينكر أحد جمال ابنة خالتك!

فحلق عليه وثارت مخاوفه الغامضة من جديد.

\*\*\*

وحصلا على البكالوريا في عام واحد. وهنّأته عين ووجهها يطفح بالبشر ولكتّه قال لها:

- لا. . . انتهى الحبّ بيننا!

فلم تأخذ قوله مأخذ الجدّ وقالت مازحة:

## عصر الحب ٢٧٣

قراها مرّات قبل أن يسيطر على معانيها. وقتل  
حمدون مرّات - أكثر من أمّه - قبل أن يفهم موقفه. شدّ  
ما أخفى عنه حبّه. حقاً إنّه لمثل ماكر. لم يغفر له  
رغم أنّه لم يتهمه. ربّما كان يسخر منه. ربّما كان من  
الأفضل أن يأخذها الكومي. اعتاد أن تنفّذ رغباته قبل  
أن يجهر بها فإذا جرى من وراء ظهره. غصّت الدنيا  
بالمجرمين أمثال عين وحمدون وبدرية. أصبح القتل لا  
يجدي. أفضح من ذلك أن تغرورق العينان بالدموع.  
أن تعمق صفرة الحديقة وتموت العصافير. أن يسي بلا  
حبيبة وبلا صديق وبلا أمّ.

وانتشرت حكاية الحرب في الحارة كالغبار في يوم  
عاصف. لفحته العاصفة باعتباره بطلها المهزوم.  
احترق والد بدرية وأمّها وستّ رمّانة خالة حمدون.  
اشتعلت خصومات. سجّلت الشائعات للحادث  
حكاية فاضحة متكاملة. طُلقت أمّ بدرية في أثر شجار  
عنيف.

\* \* \*

وكان يجلس في الخميّة في أصيل قانظ عندما رأى  
ظالّ أمّه يفرش الأرض أمامه بين الشوح والجدول.  
اقتربت وهي تقول:

- لم تتبادل كلمة منذ أيام، إنّه الجحيم...

رأى وجهها متهدّلاً وخامداً، وقد حلّت نظرة خافية  
في مكان الألق البهيج. لم يعطف عليها وحول عينيه  
عنها. همست وهي تجلس:

- يجب أن تعرفني أكثر..

فانتقم منها بالتهادي في الصمت فقالت:

- أن لي أن اعترف لك بأشياء..

في الصمت ارتفع نقيق الضفادع وزقزقة العصافير.  
واصلت الحديث:

- اهتممت بمعرفة كلّ شيء، فكّرت في الإذعان  
لمشيئتك، فجاءتني معلومات غير متوقّعة..

أنصت باهتمام ولكنّه لم ينبس.

- كان نمة حبّ متبادل بينها وبين حمدون، ذلك أمر

الله ولا لوم على أحد..

فهتف وهو لا يدري:

- كان يخدعني!

فقال حمدون:

- هو الذي يرغب...

فقال الرجل:

- إنّي رجل مستقيم لا أتعامل بالحيل!

\* \* \*

عرف عزّت الوحدة وهو منغمس في خضمّ الناس.  
حزن حزن القويّ عندما يُغلب على أمره... أدرك أنّ  
جاهه زائف وأنّه يستمدّ نوره من أمّه. إنّه في الواقع  
حقير فقير عاجز. أعماه الغضب حتّى فقد الرشيد.  
تفجّرت منه قوّة حطّمت رأس أمّه، إنّه قوّة شرّيرة  
تتهادى في رداء ملاك، قتلها سبع مرّات كلّ مرّة بأداة  
خاصّة. وماتت حتف أنفها مرّات آخر، لو كان في قوّة  
حمدون لغامر مغامرة فريدة مرّحّباً بالصلعكة. لكنّه  
أسير الحديقة والوسائد الناعمة وتلك القوّة الغامضة  
المجهولة. ولشدة ارتباطه بالحياة فقد الحياة الباهرة. إنّه  
وفي للأسر ليشدو أغاني العذاب، وستجلو بدرية عن  
مجال أمله بعد أن أرسّت فيه طابعا لا يبديد. وكُتب  
عليه أن ينتظر أملاً لا يعود وأن يبحث عن كائن ليس  
له وجود. واللعنة على الكبرياء التي يلقنها غرّ في مهد  
عبودية.

\* \* \*

وفي حومة النضال العقيم تلقى من حمدون رسالة.  
لم يجتمع به أمس وكلّ يوم!!  
عزيزي عزّت...

عليك أن تفهمني باسم صداقة العمر. إنّه صداقة  
حقيقيّة متينة ونقيّة. إيّاك أن تسيء بي الظنّ. لقد  
وطّنت النفس على التضحية تحت شرط أن تفعل أنت  
شيئاً. لكنك أعلنت عجزك وسلّمت بالواقع. عند  
ذاك قرّرت أنّه من حقّي أن أعمل. إنّي مثلك في  
الحبّ ولكنّي لا أتركها تذهب مع الكومي. سنهرب  
معاً لتتزوج بعيداً عن الأهل والحارة. معي مال قليل  
من ثمن الأرض سأعتمد عليه حتّى ألحق بالوظيفة.  
لن أتخلّى عنها كما لن أتخلّى عن المسرح. وستبقى  
صداقتك معي وذكرياتها الجميلة. لا تسيء بي الظنّ  
وتقبّل تحياتي.

حمدون عجربة

بها عند اللقاء العابر راسخة في خياله . مفعمة بالدلالات المشتركة، ذليلة وجلة يائسة تؤكد له أن ما كان لا يمكن أن يمضي كأن لم يكن . إنها حزنه الخفي حين يتجسّد . وأحياناً تنذّر عنها إشارة خفية تحكي مأساة متكاملة، استغاثة حارة صامتة، تستوهب إحساناً أو رحمة كأخر انتفاضة للضفدع قبل أن تسلم الروح . ما العمل؟ وتذكّر وهو كاره حمدون . لماذا؟ ربّما لثرته الملحة عن الأقوياء والضعفاء، لأرائه التي يريد أن يصلح بها الكون .

وكان يقرأ فصلاً في رواية بوليسية عندما خيل إليه أنّ صوت أمّه يحدث في الحديقة . نظر من نافذته فرأى المرأتين - أمّه وأمّ سيّدة - تسترسلان في حديث ما . داخلته كآبة مثل جوّ المغيب المخيم . سيحدث ذات يوم أمر ما . إنه يتوقّعه كما يتوقّع مريض القم ضربان ضرسه .

\* \* \*

وسمع خطوات أمّه قادمة فلحن مخاوفه ومرق من الخوف إلى التحدّي . جلست على ديوان يتوسّط الحجره بوجه شاحب . أرعشت بيدها مروحة عاجية بحركة عصبية فوردت ذهنه فكرة غريبة بأنّ معجزة أمّه ستحطّم على يديه . وقالت عين بصوت متهلّج :

- ماذا ينقص هذا البيت؟

وتريّت قليلاً ثمّ أجابت نفسها:

- يُتلى فيه القرآن، يعبقه البخور، ترعاه الحسنات والنوايا الطيبة، فكيف يندسّ الشيطان في أركانه؟! آه... لقد وقعت الواقعة... وعليه أن يتظاهر بمواصله القراءة.

وتساءلت عين بأسى:

- ألم تشعر بوجودي بعد؟

فتساءل ببلاهة:

- ماذا؟

- ألا تحمّن ما ورائي من حزن؟

أغلق الكتاب ونظر إلى تهاويل السجادة الفارسية في استسلام.

- ما هذا الذي كاشفتني به أمّ سيّدة؟

فشحب وجهه ولم ينبس . تأوّهت قائلة:

- أبداً، إنه فتى أمين، لم يكن في موقف سعيد، لا أدري ماذا كان يدور في ذهنه، ولكنّه على أيّ حال لم يخطئ في حقك... .

وتنهّدت بعمق واستطردت:

- اضطررت إلى الإصرار على الرفض ولم أرّ خيراً في كشف الحقيقة... .

قرّبت وجهها المحزون منه حتّى لثمت جيئته، وقالت:

- لا تستسلم للحزن، الحياة أقوى من كلّ شيء، سيحييك السلوان بأسرع ممّا تقدّر، وستجد من هي خير منها... .

عند ذاك جاءت أمّ سيّدة تتقدّمها نحنحة فظّة . غادر المكان والمغيب يستفحل . وفي الممرّ التقى بسيّدة قادمة لتلحق بأمّها . تصافحا . وفجأة اشتعل بلا تمهيد ولا مقدّمات، وبلا سبب في الظاهر . أخذ بما اجتاحه . لم يترك يدها . مضى إلى الداخل جاذباً يدها معه . أذعنت بلا مقاومة تذكر مشجّعة بالظلمة . لم ينبس بكلمة، ضمّها إليه، شملها ذهول أخرس . أطاع قدراً جامعاً وغامضاً وبلا أدنى تفكير في العواقب وكأنّه يعث في الظلام وحده بلا شريك . وتفشّى في الوحدة المطلقة إذعان ذليل ورغبة دفينه وذكري أسرة . وحفرت في لوحة الليل السوداء نقوش لا تمحى... .

٨

لم يعد الحبّ هو المحتلّ الوحيد للمكان . زاحمه قدر جديد هو الخوف . وتناسى الحبّ أحياناً ليرامق الشيخ الجديد . وهو شيخ ثابت لا يتزحزح ولا يهين بمرور الزمن . ومن الأخطاء خطأ لا يبني يطارد وبطالب يحلّ . وسيّدة في ذاتها لا شيء ولكتّها بسبب الخطأ صارت كلّ شيء . إنّها الآن تستكنّ في ركن من الوجود، ضئيلة لا ترى غائصة في ضعفها ولكنّ صوتها يدوي مثل صرّار الليل . لقد مات أبوها من دهر، أخوها الأكبر في السجن والأصغر مهاجر . أمّها ربيبة نعمة أمّه ولكنّ الخطأ قوّض بناءً وأقام محلّه بناءً جديدًا . ما العمل؟ ما اعتادت أعماقه أن تقترح حلولاً ولكتّها دأبت على القتل . ونظرة سيّدة التي ترمقه



## عصر الحب ٢٧٥

لم يعتده قضاءً نهائياً، ولكن حلاً ضرورياً مؤقتاً حتى يتخلص منه في الوقت المناسب. وتضاعفت أشجانه على حبه الضائع فاعتبر المحنة كلها جزاءً عادلاً يستحقه لضعفه وتردده. ومن أول لحظة أدركت سيده أنها لا تحظى بحب زوجها ولا حتى برضاه. وأنها تتجرع حياة باردة، حيوانية مجرّدة، لا عطف فيها ولا احترام. وبدافع من غريزة الدفاع عن النفس انطوت تحت جناح عين، فوهبتها من قلب محروم جريح كامل الولاء والوفاء. وأوصتها أمها بالصبر والتزام الأدب. قالت لها:

- لك ربّ فليكن اعتمادك عليه وحده ...

فقالت لها الفتاة:

- أفضل أن أرجع إلى بيتي ...

فقالت المرأة بإصرار:

- لا تفرطي في النعمة، واعلمي أنّ الرجال لا يثبتون على حال، وما الحياة الزوجية إلا معركة ...  
وفي ذلك الجوّ الشحيح بأيّ عذوبة حملت سيده، ثمّ أنجبت «سمير». أصبحت أمّاً، أصبح عزّت أباً، أصبحت عين جدّة، فحسّ في أسوأ الظروف استطاعت أن تغيّر أبعاد كونها الصغير، وأن تفجّر فيه من ينابيع العواطف الجديدة ما لا عهد له به. تحوّل قلب عزّت. جاءه حبّ جديد ليزاحم حبه القديم الذي اعتاد ألمه حتى ألفه. أمّا عين فنجنت بالوليد وعشقتة، وطمح قلب سيده الكسير إلى حياة أفضل.

وخاب عزّت في دراسته القانونية، لا الهمة وجد ولا الحساس، فانقطع عن المدرسة بعد عامين من التحاقه بها. وضاق بحياة بلا حبّ ولا صداقة فعزم على التوقّف. أراد أن يظفر بقدر من الاستقلال، وأن يملا فراغه، وأن يجرب الحياة الرسمية التي تفتن الكثيرين.

والتحق بوظيفة بوزارة المعارف. وسرعان ما نشب التنافر بينه وبين الوظيفة ومناخها العدواني. ونصحته أمه بأن يدعو موظفي إدارته إلى وليمة في الدار تعزيراً لمركزه ودفناً لمكر الماكزين. ومضى عليه شهر في العمل. ولدى عودته سألت أمه:

- ألم تحدّد يوماً للوليمة؟

- لم أعدّك؟ ... لا معنى للتأنيب بعد فوات الوقت ...

رأى بوضوح - ربّما لأول مرّة - مبخرة فضية محمولة يساقين من النحاس تستقرّ أسفل ستارة أرجوانية.  
- اسمع يا بيتي، لست أول شخص يعبت به الشيطان، وما يهّم حقاً هو تصرفنا بإزاء ما نرتكب من أخطاء ...

وتنهّدت بصوت مسموع وقالت:

- نحن أغنياء ولكن لا قيمة لذلك، وإنّما قيمة الإنسان تتحدّد في علاقته برّبه، غير أنّنا نحاسب على قدر قوتنا ...

وجد نفسه ينزلق في طريق وحيد مسدود.

واستطردت عين:

- قد نخطفى ولكن لا يجوز أن نظلم، علينا أن نصلح خطانا، وكلّما جاء الإصلاح على غير هوانا اقتربنا أكثر من عفو ربّنا ...

ورفعت رأسها كأنما ترنو إلى القنديل وقالت بحزم:  
- ستتزوج من سيده في أقرب فرصة ...

ثمّ نهضت وهي تقول:

- إنّه قرار لا يقبل المناقشة، وما يشهد لك بالطيبة أن ترحب به ...

\*\*\*

وتلاحقت الأحداث كأنما تقع لشخص آخر ...  
وذاع الخبر في الحارة فأحدث دهشة عامّة، كما صعق بيوت العرائس المرشحات لجاهن وأصلهنّ لمثل هذا العريس الفريد. وكيف ترفض الستّ عين بدوية المناويشي لتقبل سيده بنت أم سيده الحاطبة؟ أيرجع السرّ إلى مهارة أم سيده؟ أيجد تفسيره في شذوذ طراً على ذوق عزّت؟ وكالعادة تمطى التأويل السيئ لينثظونه فأصاب الحقيقة هذه المرّة بمحض الصدفة.  
هكذا تزوج عزّت وهو في الثامنة عشرة من عمره زواجاً مناقصاً لذوقه وميوله. وهكذا انتقلت سيده إلى أجمل دار في الحارة لتحتلّ أرفع مكان فيها. هكذا صارت أم سيده حماة الوجيه الأول. وثارّت أمونة ثورة حاكمة فقطعت علاقتها بشقيقتها إلى الأبد. واستسلم عزّت في الواقع كما يستسلم إلى قدر لا مفرّ منه. أجل

وتكرّر حثّه على معاملة سيّدة بالحسنى فيتساءل ما الذي جعله يبقي عليها طيلة الأعوام الماضية؟  
الحقّ أنّه لا يحبّها ولا يريدّها. من أجل سمير؟ أم أنّه الضعف الأبديّ الذي يمنعه من العمل؟ وقال لعين ردّاً على توّسّلاتها:

- آن لي أن أطلقها. . .

فبسطت يديها نحو السماء متمتمة:

- اللهمّ جنبه قسوة الحيوان. . .

- إنّي لا أحبّها. . .

- الرحمة أولى بمن لا تحبّ.

- المسألة أنّك سعيدة أمّا أنا فرجل تعيس. . .

فقبضت على يده بشدّة وتوسّلت قائلة:

- لا تفكّر في الطلاق، حتّى لو رأيت أن تتزوّج من

أخرى. . .

ما معنى أن يجيء بامرأة أخرى بلا حبّ؟

عين امرأة سعيدة، والسعداء لا يرون الحقيقة.

إنّها تبعث الثروة والعمر يمضي. . . قال لها:

- إنك تنفقين بلا حساب.

- الحمد لله.

- ولكنّه مالي أيضاً!

- حدّ علمي أنّه مال الله سبحانه وتعالى.

فتساءل ضاحكاً:

- ألم تسمعي عن أبناء يقتلون أمهاتهم؟

فأجابته ضاحكة أيضاً:

- ولكنّي أعلم أنّك تحبّني، وأنك ستملأ قبري

بدموعك فيسبح فوقها جثاتي. . .

\*\*\*

وانتهزت سيّدة فرصة هدوء يمرّ بلا نقار فقالت له:

- إنّ ما ينقصك حقّاً هو العمل. . .

فتساءل بسخرية:

- أعمل خاطبة؟

فتجاهلت غمزته وقالت:

- أنشئ عملاً مناسباً، لن تضنّ عليك والدتك

برأس المال.

غزته الفكرة، كره أن تهيئه من سيّدة ولكتّها غزته.

تمتم بسخرية:

فأجابها بهدوء:

- قامت معركة بيني وبين رئيسي. . .

فحدجته باهتمام فقال:

- قدّمت استقالتي. . .

وأغرق في الضحك.

يقول الراوي:

ويمرّ عام في أعقاب عام. يغوص حبّه القديم في غلاف من السكينة والفتور. وتظلّ علاقته بسيّدة باردة في مشاعرها، خشنة في معاملاتها، لا تندّ عنه كلمة طيبة، ولا يتردّد عن الإساءة إليها لأقلّ هفوة، وأحياناً بلا سبب، وكان يمضي بسمير بعيداً عنها ليبارس حرّيته في ملاعبته وتقبيله. وضاق بحياته بعد غياب بدرية وحمدون، ولم تكفّ القصص البوليسية لملء الفراغ، فانزلت إلى غرزة يسلي بها همّه. ومن ثمّ عرف أين يقضي ليلته حتّى مطلع الفجر، وأن يهرب بالنوم حتّى الظهيرة. وتابعت عين نظام حياته الجديد بقلق، وكانت تقول له:

- نحن الذين نصنع سعادتنا بأيدينا.

وحنق عليها لسعادتها الدائمة. إنّها تمضي كالنحلة تمجّ رحيق الإحسان والحبّ. تتوغّل في الحلقة السابعة بحصانة تامّة ضدّ أعراض الشيخوخة، تتجوّل بلا انقطاع، تمحظى بالنشاط والرشاقة والفرحة المتألّفة. وكأنّها تقصد تعذيبه وهي تقول:

- يا بنيّ تعامل مع زوجك بالرحمة، إنّها امرأة نادرة

المثال في صبرها وأدبها. . .

لقد ساءه أن تثبت له براءتها في موقفها من بدرية، إنّه نهم إلى إدانتها. ويذكر لها موقفها المتعنّت من حبّه قبل أن تعرف ما بين بدرية وحمدون من حبّ. إنّها مدانة على أيّ حال. وهو ممزّق بين حبّها وكرهيتها، يحلم أحياناً بموتها. ولكن كيف يمكن أن تموت هذه المرأة البارعة؟ سوف يسبقها إلى القبر. سيعيش في أسرها عمره كلّهُ. إنّها تستمدّ من المجهول قوّة خارقة. ولكن هل يتحمّل الحياة بغير شعوره الباطنيّ بوجودها في مكان ما في الدار أو الحارة؟!

عصر الحب ٢٧٧

- حتى متى أتحمل الإهانة؟!  
- إنه يهينني بأفعاله أكثر مما يهينك بأقواله فهل  
أهجره بدوري؟  
- ولكن...  
فقاطعتها:  
- حذارٍ أن تعرّضني الأمير الصغير للمتاعب.

\*\*\*

وكان يسترق النظر إلى الفتيات اللاتي حلمن ذات  
يوم بالزواج منه. إنهن يرحن ويغدين في الحارة  
محضنات بالزواج والاستقامة. أيّ واحدة منهن تفضل  
سيدة جمالاً. وأيّ واحدة كانت خليقة بأن تخلق الحب  
خلقاً إذا لم يتوفّر في البداية. وكان يعاشرهن في الخيال  
وقد وهنت روادعه بوهن عبادته. ومن بينهن «اعتدال»  
عُرفت بشيء من المرح فتشجع ذات مرة إلى توجيه تحية  
هامسة إليها، لكنّه قوبل بتجهّم خشن. وكان للخطأ  
عواقبه ففاجأه الشيخ سلام الدروري ناظر المدرسة  
الأوليّة بالانقضاض عليه في الغرزة، وعلى مرأى من  
الجالسين بصق على وجهه وهو يصيح به:  
- يا نذل... يا جبان...

وتفشّت الفضيحة وعُرفت تفاصيلها. اعتذر قوم  
بأنها لم تكن إلا تحية بريئة نذت عنه ببراءة وفي حال  
من السهوء، واستنكرتها الأغلبية ولكنّها لم تنف عن  
حسن النيّة. وتشابك الشيخ والفتى حتى خلّص  
الأخرون بينهما. ورجع عزّت إلى داره بشفة متورّمة.

\*\*\*

لأول مرة ينصبّ لوم على شيء ينتمي إلى السّت  
عين. وتوارت سيّدة عن الأعين لتبكي وحدها. أمّا  
عين فوقفت أمام عزّت وقفة عسكريّة وقالت:  
- أصدقني هل عبث بك الشيطان؟  
فقال بحرارة كاذبة:  
- كلاً... وأقسم لك على ذلك...  
فقال وهي تتهدّ بارتياح:  
- إني أصدقك... ولكنك أخطأت...

واستدعت الشيخ الدروري فأكرمه غاية الإكرام  
وأكدت له براءة ابنها. واستبقتته للغداء فصالحته بينه  
وبين عزّت، ولم يسكن خاطرهما حتى اطمأنت إلى أنّ

- عجيب أن تخرج منك فكرة طيبة... .

قالت وهي تتهدّ:

- جرّب وربّنا معك.

إنّه في حاجة إلى العمل والاستقلال، ولكن من أين  
يجيء بالخبرة؟ أين اللعين حمدون؟ لم يحسن في  
حياته سوى قراءة قصص الجريمة وتدخين الكيف في  
لغرزة. ها هو حلم جديد يبرز في حياته القاحلة..

١٠

لم يعقب اقتراح سيّدة فعل. حلم بالمشروع وبرم  
أكثر بالحياة. لم يجد في الحياة جديداً سوى أنّه اعتاد  
عادة جديدة هي الإكثار من الطعام بتأثير من الكيف  
ومعالجة للضجر. ولأول مرة يفقد رشاقته ويميل قليلاً  
إلى البدانة. في ذلك الوقت نسي حبّه القديم أو كاد،  
وانطبع بطابع بلادة غاشية، حتى العبادات مارسها بلا  
شعور وبلا حماس. ولم يجد أمامه إلا سيّدة فحملها  
مستوليّة تدهوره. وتمردت الفتاة فجأة على وضعها  
فهرعت إلى عين وهي متدثرة بعباءة وراء النافذة  
تشاهد من وراء الزجاج مطراً ينهل فوق الحديقة  
فيغسل الأوراق ويملأ القنوات، بثّها شكاتها وقالت  
وهي تجهش في البكاء:

- يجب أن أرجع إلى أمي... .

فلم تستردّ عينها من الماء والشجر ممتصّة ثورتها  
بهدهوء شامل، ثمّ تساءلت:

- ألك أمّ غيري؟

فهمست بأسى:

- أنت أمّ الجميع ولكنني معدّبة... .

وتساءلت عين وهي تلتفت نحوها بحنان:

- أما زلت على جهلك بالرجال؟

ثمّ وهي تقرصها بعطف في خدّها:

- إنهم يحتاجون إلى تربية متواصلة تمتدّ من المهد إلى

اللحد، وهذه هي مهمّتنا... .

وهمت الأخرى بالكلام فأسكتتها بإشارة وواصلت:

- المرأة التي تهجر بيتها جاهلة لا تستحقّ نعمة

الأمومة، ماذا غيرك بعد أن آمنتُ بأنك أعقل السّتات

طراً؟

سحابة الكدر قد تلاشت تمامًا .

\*\*\*

لكنها لم تتلاشى من سماء عزت، هو وحده يعلم  
بكذبه ونفاقه وجبنه . ويشعر بأن عباداته خسرت  
روحها الصافية فلم يبق منها إلا وخز خفي ينفث  
الأسى، وأذعن أكثر لمغريات الطعام اللدسم وراح يحلم  
بالمشروع المقترح، ويحلم أيضًا بالهجرة من الحارة التي  
لم تُعد تُعد بخير.

ومنه علمت عين برغبته في إنشاء مشروع تجاري  
فرحبت بالفكرة وقالت:

- طالما فكرت في ذلك ولكنني انتظرت حتى يجيء  
التفكير من ناحيتك!

فلم يُسرّ بترحيبها وتوجس خيفة غامضة أما عين  
فواصلت تقول:

- لا خبرة لك ولكن لا شيء يدعو لليأس، الناس  
حولنا يعملون في الخشب والدقيق والبن والخيش،  
دعني ادخلك شريكًا لأحدهم حتى تعرف سر المهنة،  
ولك بعد ذلك أن تستمر معه أو أن تستقل بعمل مماثل  
في مكان آخر...

وجد نفسه على باب تغيير حاسم سيقب نظام  
حياته رأسًا على عقب فأجفل، هل يتحرر من النظام  
الراهن بسهولة؟ إنه يسهر الليل في الغرزة، وبنام  
حتى الظهيرة، ويتسلل بقصص الجريمة، فهل يتخلى  
عن ذلك كله دفعة واحدة؟! قال:

- عظيم... سيحدث ذلك دون ريب... ولكن  
فلنؤجل تنفيذه إلى حين...

وألحت عليه الرغبة في هجر الحارة، وجعل يردد  
رغبته على مسمع من سيّدة. وانقبض قلب الفتاة، إنها  
تعلم يقينًا أن حياتها الزوجية تدين ببقائها حتى الآن  
لعين، وأنه لا يتجاوز الحد في الإساءة إليها حذرًا من  
إغضاب أمه، ولكن أيّ مصير تلقى إذا انفرد بها في  
مكان بعيد؟! قال:

لذلك وشت بأفكاره إلى عين ورجتها أن تخفي  
وشايتها. وتساءلت عين آسفة:

- أين يجد مثل دارنا؟ ولكنه كره الحارة!

وفكرت لأول مرة في إدخال تجديدات حديثة على  
هندسة دارها العريقة، وأنفقت بسخاء لتوصل إليها  
الماء والمجاري والكهرباء حتى عجب عزت من قرارها  
المفاجئ... وتساءلت ضاحكة:

- لم لا؟... الدنيا تتغير، وثمة تجديدات تنفع ولا  
تضر...

ثم سأله بعد حين قليل:

- هل يروقك الأثاث الحديث؟

فتساءل بفتور:

- ما أهمية ذلك؟

- أنت شاب، وللشباب ميوله، يمكن أن تجيء  
بقطع حديثة لتحتل مكانها بين الأثاث القديم، ويمكن  
أن نجعل التجديد في حجرتك شاملاً، لم لا؟ ماذا  
يعجبك؟! قال:

فرجع منكبيه ولم ينبس، وداخله شك في أن سيّدة  
وشت به، وسألها حال انفرادها بها:

- هل أطلعتها على رغبتني في الذهاب؟

فأنكرت بشدة ولكنه قال بازدراء:

- تمامة واشية مثل أمك...

وعلمت عين بالشجار فواجهته بالصراحة التي  
تحبها. قالت له:

- لا تعذب أم سمي أكثر من ذلك، هذه دارك وقد  
جددتها إكرامًا لك، إذا كانت لك رغبة في حياة  
مستقلة بعيدًا عن حارتك فلن أعترض رغبتك، لك  
الحرية الكاملة فافعل ما تشاء...

هكذا وجد نفسه مع حرّيته - مرة أخرى - بلا  
عائق. وسرعان ما فترت همته وتحرك تردده.

كالعادة توقّف فوق العتبة. ترى من أين يزحف  
عليه هذا الشلل؟! أي حياة الخاصة التي تحولت  
إلى بلاء ناعسة؟ هل يوجد في عين سرّ خفي ما زال  
يجهله؟

وطالعت عين ذات صباح بعينين محمّرتين من أثر  
البكاء فانزعج جدًا. لا يذكر أنه رآها تبكي من قبل.  
سألها عما بها بقلب منقبض يتوقع شرًا فهمست بصوت

## عصر الحب ٢٧٩

القائم فوق القبور. في زمن مضى كان القبو هو الباب الشبلي للقاهرة وكان الحصن فوقه هو مركز الأمن والدفاع. اليوم الحصن أثر من الآثار، والقبو ممر عبور ومنامة للمتسولين، ورمضان الزيني هو الذي اختار حجرة المراقبة مكاناً لغرضه. ليست هي بالواسعة ولا بالضيقة، وتتوفر لها التهوية من نافذة كان يطلق منها الرماة نبالهم. وجعل من خفير الآثار خادماً للجلسة، يهيم الجوزة ويدور بها، ويشارك في التدخين والعشاء. واحتفل عزت بدخول سمير الكتاب فأهدى الجلسة خروفاً مشويًا وصينية بسبوسة. وكانت ليلة لا تُنسى، لا للمناسبة السعيدة وحدها، ولكن لخبر جديد جاء به رمضان الزيني. قال:

- رأيت أمس ما لا عين رأت...

فتطلعت إليه العين الناعسة فقال:

- مرّ بالدرب الأحمر سيرك اللاوندي فذهبت إليه، بدأ العرض بالتمثيل، رأيت الممثلة والممثل. من هما فيما تظنون؟

قال له صوت مازحًا:

- أمك وأبوك...

ولكنه استمرّ دون مبالاة:

- بدرية المناويشي وحمدون عجرمة!

وتصايح القوم:

- غير معقول...

أما عزت فقد اندلق فوق رأسه جردل ماء مثلج. فتح عينيه نصف المغمضتين فرأى الماضي متجسّدًا متسرّبًا بالانفعالات العنيفة.

وقال رمضان مسرورًا بما أثار من اهتمام:

- بلحمها ودمها.

- يا للفضيحة!...

وقال رمضان:

- ما يبدأ بالهرب ينتهي في السيرك...

وتعاقبت التعليقات كالسموم، ورجع الماضي إلى عزت كأنما لم يغادره دقيقة واحدة لا سبع سنوات كاملة

أو تزيد، ورغبتًا عنه تتمم:

- يا لها من نهاية!

قال رمضان:

حزين:

- بركة... تعيش أنت!

فما تمالك أن ابتسم وهو يشعر بالنجاة وتمتم:

- القلط تملأ الدار، البقية في حياتك...

- لكنّ بركة هي الأصل، كان قلبها عامرًا بالحبّ وحسن الإدراك، ولم يكن ثمة مفرّ فقد انتهى الأجل...

كان قد ألف هذه الدروشة، وسلّم بحقيقة المناجاة المتبادلة بين أمه والقطط، وربط بين ذلك وبين حيوتها التي لم تنقص منها سبعون عامًا شيئًا. كذلك ألف معاشرته سيّدة الراكدة، بل لقد تألم لإجهاضها مرّتين بلا سبب ظاهر، وقد خفق قلبه عندما قالت له أمه ذات يوم:

- أن لنا أن نرسل سمير إلى الشيخ العززي!

حقًا بلغ سمير السادسة، وضحت الآن ملامح عين في وجهه. الزمن يتقدّم وقد بلغ هو الخامسة والعشرين من عمره، لم يحدث شيء هامّ في أثناء ذلك... بل حدث تغيير خفي لم يمس به لأحد.

تغيّر عجب له وانزعج. إنّه الفتور الذي يسري في شعوره الديني. لا علاقة بذلك بأحد من جلساء الغرزة فهم مؤمنون. ولا شأن لقصص الجريمة في ذلك. ولا دخل للتفكير في الموضوع كلّه فهو لا يفكر، ما هو إلّا فتور في الشعور أخذ الحراس واليقين فتهاوت أركان المعبد. كفت عن الصلاة والصيام ولكنّه احتفظ بسرّ ذلك لنفسه فلم يفتن إليه أحد. وخوت الدنيا ولم يكن في وسعه أن ينعشها، دنيا الفراغ والأكاذيب.

ولاحظ رمضان الزيني - عميد الغرزة - كاتبته ذات ليلة فقال له:

- وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها...

فابتسم متسائلًا فقال الرجل:

- جاه ومال وشباب، ماذا تريد أكثر من ذلك؟!

صدق الرجل، حتّى لو تهادى إليه ميراثه فأبى شيء يفعل أكثر ممّا يفعل الآن؟

\*\*\*

والغرزة تقع في مكان فريد على الحدّ الفاصل بين التاريخ والعصر. في حجرة مراقبة بالحصن العتيق

الكتاب .  
- وأنت كم ولدًا لك؟  
- أنجبت واحدًا لم يعمر أكثر من عام ولا شيء بعد ذلك والحمد لله ...  
فسأله رمضان:  
- ألا تودّ أن تعقب ذريّة؟  
- إنَّها معطّلة لنشاطنا الفغّي!  
وقرقرت الجوزة وحدها مرّة أخرى.

\* \* \*

غادرا الغرزة معًا. دعاه إلى داره وهي تغطّ في النوم. جلسا في الحديقة رغم ميل الخريف إلى البرودة في وقت الفجر. تبادلوا عواطف صادقة دون أن يشير أحدهما إلى الماضي بكلمة. شعر عزّت بانتعاش روحيّ جديد. قبض على الصداقة صافية بعد أن تلاشت الذكريات الأليمة، عادا كما كانا بلا حبّ خائب يفرّق بينهما. إنَّها لمعجزة تروى. وراح حمدون يحذّنه عن تجربته:

- ما زلت موظّفًا ولكنّ كفاحي في سبيل الفنّ لم يضعف لحظة، واكتشفت أيضًا موهبة بدرية، ولكن كيف نشقّ طريقنا في الصخر؟ لقد رفضتني المسارح كمؤلّف كما رفضت زوجتي كممثلة، لم أياس، عرفت صاحب سيرك اللاوندي، اقترحت عليه أن نعروض مسرحية من فصل واحد بدلًا من التهرج الممجوج، لم نطالب بأجر فقبل التجربة، وقد نجحنا وانبسط الجمهور أضعافًا مضاعفة.

فقال عزّت:

- ولكنّه سيرك!

- أجل، خير من لا شيء حتى تسلين إرادة المستقبل ...

ويدافع من الكبرياء أخبره عن مشروعه التجاريّ الذي يفكر فيه فقال حمدون:

- لا مفرّ من ذلك ولأفها معنى الحياة؟!

- إذن فحياتك الآن لها معنى؟

- إنَّها مفعمة بالنشاط ... ومن يدري فقد أكون فرقة ذات يوم ...

- وهل تستطيع أن تصمد أمام المسارح الكبيرة؟

- صمّمت على إخراجها فقابلته ...  
- لا شكّ أنّه انزوى؟  
- أبدًا ... ضحك ... رحب بي. إنَّه الاستهتار نفسه ...  
وسأله عزّت:  
- ألا زال السيرك يعمل بالدرب الأحمر؟  
- كلاً ... ولكنّ حمدون وعد بزيارتنا هنا ...  
- مستحيل ...  
- سترون بأنفسكم بعد قليل ...  
- حقيقة إنَّه لقارح ...

واضطرب عزّت، أبرى حقًا حمدون بعد قليل؟ ماذا يهيم؟ لقد اندثر الماضي ومات الحبّ كما ماتت الصداقة، ولكنّ وثوب الماضي على الحاضر فجأة لا يمرّ دون قلقلته. وتخيل للقاء صورًا عديدة ولكن ما حدث فعلاً كان مختلفًا عمّا تخيل، فما إن رآه ينظر إليه من تحت حاجبيه البارزين بابتسامة مشرقة فاتحًا ذراعيه حتى لبي دعوته فتعانقا بحرارة، وهمس حمدون في أذنه:

- ما جئت إلّا من أجلك عندما عرفت أنّك من أركان الجلسة ...

وسرعان ما شارك في التدخين بتلقائيّة وبلا حرج. لم يجد أحد الشجاعة للحملة عليه غير أنّ رمضان قال:

- ما تصوّرت أن أجدك في سيرك ...

فقال ضاحكًا:

- عملنا مقصور على المسرحية وهي من تألّيفي ...

- ولكنك كنت موظّفًا ...

- وما زلت، المسرح هواية ليس إلّا ...

- ولكن ...

ولم يكمل رمضان فضحك حمدون وقال:

- ولكنّ زوجتي، أليس كذلك؟ ... إنَّها فنّانة مثلي، لا جدوى من محاولة إقناع حارتنا بذلك. ولكننا

أسرة شريفة كسائر الأسر الشريفة!

لم تتكلّم إلّا قرقره الجوزة ... ثمّ التفت نحو عزّت وقال:

- يسعدني أن أشارك في الاحتفال بدخول ابنك

## عصر الحب ٢٨١

النقيض إلى النقيض يسحره، وحسن أن يخوض التجربة متحرراً من ضعف الحب وآلام الوهم ويقلب متوقفاً جسور.

ولكن هل تصادفه عقبة غير متوقعة عند أمه؟ لقد قالت له:

- إنه مبلغ لا يستهان به ولكنه لك حباً وكرامة.

أريد فقط أن أعرف مشروعك.

- شركة مقاولات.

- دعني أجلس ساعة مع شركائك.

فانتفض غاضباً وهتف:

- لست قاصراً، وهذه أعمال رجال!

فضحكت قائلة:

- ليكن التوفيق حليفك.

\*\*\*

اصطحبه حمدون إلى شقته القديمة بشارع محمد علي لتناول الغداء. عندما لاح له المسكن شعر برغبة جازمة في الهرب، غير أن الرغبة اندفعت في اتجاه ومضى هو يتأبط ذراع حمدون في الاتجاه المضاد، بعد دقيقة أو نحوها سيرى بدرية المناويشي، ممثلة سيرك اللانندي، ويلمس راحة يدها لأول مرة في حياته، لو حدث ذلك قبل سبعة أعوام لتكهرب أو اشتعل ولكنه يمضي اليوم متحرراً وقد ذاب العاشق القديم في تيار الزمن وحل محله آخر يحمل بالإدارة والسيادة واللهو البريء.

فتح الباب عن محيّاها الثري وابتسامتها العذبة وهي مرتدية فستاناً منقّطاً بالبياض، ورجع الصوت القديم وهو يقول بمرح وترحيب:

- أهلاً... أهلاً...

دخل عالماً جديداً لا رجعة منه، كان عليه أن ينقّب عنه بين الأطلال، وها هو يغزوه متمتاً بالصحة والصدقة. وتذكر آلام الحب فتعجب. وجلس في حجرة استقبال متواضعة وغرقوا في المجاملات والذكريات المحايدة ثم دُعي إلى المائدة، أثاث البيت ينطق بالتقشّف. صديقه يعاني وها هو يجيئه في الوقت المناسب، وراح يتناول طعامه بحماس قائلاً:

- تعلمت أن أكل كما ينبغي.

- أعني فرقة صغيرة تعمل في روض الفرج صيفاً، وإن وجدنا تشجيعاً عملنا في الكلوب المصري شتاءً، هذا ما أطمح إليه...

دار رأس عزّت، دهمته خواطر غريبة مباغته. غزاه إلهام بعث النشاط في قلبه وإرادته. لم يشعر من قبل بمثل ما شعر به وقتذاك من قدرة على الخلق والعمل والاقترحام. ولكي يثبت لنفسه أنه موجود لا حالم قال:

- حدّثني يا حمدون عن التكاليف المطلوبة.

فقال الشاب باهتمام:

- أجرة المسرح والممثلين والملابس والديكورات. ليس بالمبلغ الخيالي ولكن يحسن ألا يقلّ عن خمسمائة جنيه؟

فتفكّر عزّت قليلاً ثم تساءل:

- هل يضمن النجاح؟

- أعتقد ذلك خاصة إذا أدركنا البوفيه لحسابنا.

وساد صمت مليء بالانفعالات والأمل والدوافع العميقة. أخيراً تتم عزّت:

- دعني أفكر يا حمدون قليلاً...

## ١٢

لم يكن في حاجة حقاً للتفكير (كما يقول الراوي) إذ اجتاحتها دفعة حيوية شديدة الانطلاق والقوة خلقت منه إنساناً جديداً مجنوناً بالحركة، دعاه داع عميق للنشاط والثورة على البلادة حتى أنكر نفسه، واعتبر الأمر لهواً مقدساً ولعباً ساراً تتحقّق به الذات على نحو بهيج. ولم يغيب عن تقديره أن المشروع الجديد يجب ان يطوى في طي الكتمان. فلا هو ممّا يمكن التفاهم عليه صراحة مع عين، ولا هو من الأعمال التي تعترف بها حارته أو تحترمها، وسوف تلوكه الألسنة إذا انكشف السرّ وتجوّد عليه بأشنع الصفات. ولم يثبط ذلك من همته، بل لعلّه ضاعف من حماسه وتمرّده. صاحب مسرح ومديره ترى ما معنى ذلك؟ أعجب من ذلك أنه لم يكتشف في نفسه اهتماماً حقيقياً بالمسرح ولكنه يجري وراء المجهول وتحدياته الغامضة، وينجذب إلى فترة ماضية عامرة بالثراء. ولا مرأى في أن الإدارة تناسبه، وصحبة حمدون تعابته، وتغيير الجو من

## ٢٨٢ عصر الحب

فقلت بدرية:

- ازداد وزنك، ربّما أكثر مما يلزم.

فقال حمدون معترضًا:

- إنّه مناسب جدًا لصاحب مسرح ومديره.

فقلت بدرية:

- إليك المسقعة وورق العنب اللذين تحبهما كما

أخبرني حمدون . . .

\* \* \*

وفي حجرة الاستقبال مرة أخرى قال عزّت

لحمدون:

- أرجو أن تكون أحسنت التصرف مع الوقت.

فقال حمدون بثقة:

- سنبدأ مع أول يوم من الموسم الصيفي، اخترت

الممثلين والممثلات وسائر العاملين، وعند العصر

سيحضر الأستاذ يوسف راضي المحامي. كل شيء

جاهز. . .

وتذكروا أيتها منذ سنوات فقدّم لها العزاء وسألها:

- هل ترين والدتك؟

فقلت باقتضاب:

- تزوّجت من زمان وانتقلت بصفة نهائية إلى

البلينا. . .

فقال حمدون ضاحكًا:

- حسن أن يعيش الرجل بلا حمة . . .

فقلت له بدرية:

- أنت مؤلف ووغد. . .

- المهم أن أنجح كمؤلف. . . أتودّ أن تسرى

مكتبتني؟

فأجاب عزّت بفتور:

- طبعًا ولكن فيما بعد!

وسألته بدرية:

- كيف حال الستّ عين؟ أما زالت تغدق الرحمة

على أهل حارتنا؟

فقال ببرود:

- في غاية من النشاط والحركة.

- أظنّ أنّه آن لها أن تستريح.

- ما زالت شابة!

فقال حمدون بإخلاص:

- إنّها تستحقّ الإجلال على مدى الدهر.

فقال عزّت ضاحكًا:

- يتّيل إليّ أحيانًا أننا أسرة من المجانين!

- إذن فالجنون خير ما يوصف للعالم لإنقاذه.

- أما زلت تعتقد أنّ العالم في حاجة إلى إنقاذ؟

فرفع حمدون يديه إلى السماء وهتف:

- اللّهمّ فاشهد!

لاحظ عزّت أنّ بشاشة بدرية تلاشت فجأة وأتّما

غيّرت مجرى الحديث قائلة:

- لولا ثقتي في أنّ مالك لن يتبدّد ما رضيت أن

نجرّك إلى مشروعا.

- شيء مدهش حقًا أن تنجحي كممثلة.

فأشارت نحو حمدون وقالت:

- إنّه صاحب الفضل، هو المكتشف وهو المعلم،

يحفظني دوري، وأصرّ على تقويتي في القراءة لأحفظ

بنفسي.

فقال حمدون:

- لا أهمية لذلك طالما نقدّم فصولًا فكاهية، ولكتبي

أحلم بتقديم مسرحيات شكسبير المترجمة فعليك أن

تحسني النطق بالفصحى. . .

- الضحك مضمون النجاح، وسوف يؤيّد المدير

رأيي. . .

فابتسم عزّت وامتنع عن الاشتراك في الحديث،

فقال حمدون:

- الدموع تنجح كالضحك، وقد قرأت حضرتها

مناظر من يوليوس قيصر فأبدعت.

نسي الحارة تمامًا بادئ الأمر، كأنّها ذكرى

أسطورية، ثمّ جاءت سيّدة لتجلس لصق بدرية

ولتدعو إلى مقارنة قاسية. نشأة واحدة في الحارة

والكتاب. هذه تتألّق بالذكاء والجمال والاقتحام

والأخرى تتوارى وراء مسكنة ماكرة بيشرتها الداكنة

وأنفها المتكوّرة واستسلامها المنيع، لكنّ ماذا صنع

حمدون من بدرية وماذا صنع هو من سيّدة؟ وقال أيضًا

إنّ سيّدة أنجبت سمير أمّا هذه الحسناء فلم تنجب

شيئًا، ولو قدّر لها أن تتزوّج منه لتغيّرت المصائر إلى



## عصر الحب ٢٨٣

السيادة بالحال الغريبة عنه ولكتّها لم تمتدّ من قبل إلى آخرين بهذه النوعية، وتبدّت الممثلات لعينيه في صورة مبتدلة جدًا أقرب إلى دنيا الدعارة منها إلى دنيا الفنّ، وخیل إليه أنّهنّ يتسابقن في عرض أنفسهنّ عليه فمضى في إعداد شقّة خاصّة في بيت متوسّط الحجم بحدائق شبرا، نوى أن يدعو إليه أسرته الخاصّة بعد أن يستغله لنفسه قبل ذلك. ولاحظ حمدون تطلّعاته الجنسيّة فقال له:

- استمع إلى الصديق، جميعهنّ رخيصات كما ترى، الممثلات الحقيقيّات لا يفترطن في مسارجهنّ من أجل مسرح كمسرحنا، وأيّ علاقة مع امرأة من هؤلاء ستضع من مكانتك كمدير، افعل ما تشاء بعيدًا عن هنا...

فامتثل للنصيحة، لم يلق صعوبة تذكر ولم تكن به رغبة حقيقية. توفّر لعمله بحماس وأشواق، أو توفّر له الرجل الجديد الذي خلّق ليلة الاحتفال بدخول سمير الكتاب. وكان يلحق عند منتصف الليل بغرزة رمضان الزيني في حجرة المراقبة بالحصن الأثريّ العتيق ثمّ يمضي إلى دار عين عند مطلع الفجر.

وكمدير قرأ النصّ، مسرحيّة نديم السلطان المقتبسة من ألف ليلة وليلة، وهي التي قدّمها حمدون من خزانة مؤلفاته المتراكمة. شهد أيضًا البروفات، وراقب حمدون وهو يقوم بواجباته المتعدّدة من الإخراج والتمثيل، ورنا بدهشة إلى بدريّة وهي ترفل في طيلسان الجارية الروميّة. من المؤسف أنّه لا دور له في هذا العمل المعقدّ السحريّ الفاتن، وقال له حمدون:

- ستكون المنافسة شديدة، توجد ثلاثة مسارح غير مسرحنا.

فقال بدريّة:

- ميزتنا أنّ روايتنا جديدة، جميع رواياتهم معادة من التراث الهزليّ...

فقال الأستاذ يوسف راضي:

- لا تنسي أنّهم يغيّرون العرض كلّ أسبوع، والمكان لا يحتتمل عرض رواية واحدة أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ولو كانت جديدة!

فقال حمدون:

افضل أو أسوأ.

خير ما يفعله ألا يفكر إلا في مركزه الجديد كمدير على هذين النجمين، وهو به سعيد جدًا، وفي غمرة حماس تزايد قال:

- لعلنا نستطيع أن نستأجر مسرحًا كبيرًا في المستقبل...

ففرّج حمدون بين ساقيه واضطجع إلى مسند الكنية ليطلق لأحلامه العنان، أمّا بدريّة فقلت:

- المهمّ أن ننجح أولًا...

فتمتم عزّت:

- لو أنّها تبني ما تبعثره على الناس، لو أنّني أبيع عمارة واحدة!

فاستوى حمدون في جلسته وقال محتجًا:

- إنّني أعترض على الأحلام غير البريئة!

فقال عزّت دون مناسبة ظاهرة:

- أوّد أن يكون لي مسكن خاصّ بعيدًا عن الحارة...

\*\*\*

قبيل العصر بقليل دقّ جرس الشقّة فقام حمدون وهو يقول:

- جاء الأستاذ يوسف راضي وبدأ العمل.

## ١٣

تمخّض الشتاء وأوائل الربيع عن إعداد واستعداد وإنفاق مال، كما تمخّض عن صداقة حميمة بين عزّت وحمدون وبدريّة... ويعدّ الراوي تلك الفترة من أسعد الفترات في حياة عزّت عبد الباقي، وكان يمضي شطرًا كبيرًا منها في شقّة حمدون وهناك تحرّرت العقود مع مالك المسرح والممثلين والممثلات والفنّين والعامل، وقد جدّد أجزاء من مبنى المسرح وزوّده بكراسيّ جديدة، وركّب له مدخلًا جديدًا، فصار تحفة روض الفرج كما قال عمّ فرج يا مسهل عامل النظافة والنادي الذي يرجع أصله إلى الحارة. وفي أبريل نقلوا مكان العمل إلى المسرح نفسه، وقد أعجبه حجرة المدير بمكتبها الكبير والخزانة والمقاعد الجلديّة الوثيرة، ومارس عزّت عمله كمدير وصاحب للمسرح، لم تكن

فاق طاقته فاستهلكت بالعشرات قوارير الغازوزة والجنجرايل وسندويشات الفول والطعمية والبسطمة. أكثر من هذا ضجَّ الجمهور بالضحك، واستبق إلى إبداء الإعجاب ببدرية بألفاظ خرقت الاحتشام في كثير من الأحيان. وضح له نجاح العرض فاستردَّ الثقة والكبرياء وتضاعف تقديره لحمدون، وشارك الجمهور في سروره بالرغم من أنه كان يرى المسرحية للمرأة العاشرة.

١٤

عقب الانتهاء عند منتصف الليل جاءت بدرية وحمدون إلى حجرته بوجهين سعيدين فهتَّأها بالنجاح فقال حمدون بحماس:

- نجاح فاق كلَّ تصوُّر.

وتمتت بدرية:

- وبعد أن تاب الله علينا من السيرك...

وقام عزت وهو يقول:

- سنحتفل بالنجاح في حدائق شبرا!

اجتمع في الشقة الجديدة بدرية وحمدون ويوسف راضي، كذلك فرج يا مسهل للخدمة. وجيء بالكباب والفتق والويسكي على حين عكف فرج يا مسهل على تجهيز الجوزة. وذاق عزت الويسكي لأول مرة في حياته فغزاه انفعال جديد بالطرب فلم يعد يبالي بوضعه الغريب ولا بتدهور قيمه. ورأى الكأس بيد بدرية فملكه شعور بأنهم - جميعاً - أجانب، وأن الحرارة القديمة كانت حلماً ليس إلا. ولما أخذت النشوة بحمدون قال بنبرة خطابية:

- عرفت عزت في كتاب الشيخ العزيري فخلقت فوق الحصيرة صداقة أبدية ولكتي لم أعرف إلا الساعة أنه قدر علينا مصير واحد...

فقال عزت:

- لكل إنسان أسرة حقيقية خلق لها، وباهتدائه

إليها يبدأ حياته الأصيلة...

فهتفت بدرية:

- كان علينا أن نضلَّ طويلاً قبل أن نهتدي إلى

أنفسنا!

- عندي مخزون غزير، وعندنا التراث أيضاً.

فقال المحامي:

- أنا عندي أيضاً رواية جديدة!

فسأته بدرية:

- فكاهية؟

- دراما جاذة تعالج مشكلة تعدد الزوجات.

فقال حمدون:

- موضوع صالح أيضاً للمعالجة الفكاهية.

- لكتي تناولته من نواحيه المساوية...

فقال بدرية:

- لا يصلح لروض الفرج على أي حال...

فرمى يوسف راضي عزت برجاء فقال هذا بثقة جديدة:

- دعني أقرأها أولاً...

وارتاح للقرار واعتبره من صميم عمله.

\*\*\*

وكانت ليلة الافتتاح في أول مايو، وقف عم فرج يا مسهل أمام المدخل يصيح بصوت مجلجل:

- هنا... ست بدرية الفنانة... مسرحية جديدة لم تمثل من قبل... نديم السلطان... ضحك حتى منتصف الليل... أغاني ورقص... مشروبات من جميع الأنواع...

كان عزت متوتر الأعصاب، لم يعرف هذه الحال من قبل إلا في محنة الحب، وعند استهتاره بالعبادات لأول مرة. وقد شهد في فترة الاستعداد نجوم الفرق المنافسة فاطمأن إلى تفوق بدرية ولكنه لم يضحك - كما توقع - وهو يتابع بروقات نديم السلطان. ومال نحو الأستاذ يوسف راضي... كانا الوحيدين فوق مقاعد المشاهدين وتساءل هامساً:

- لا شيء يدعو للضحك!

فقال المحامي متتهزاً الفرصة:

- نحن في زمن الدراما والدموع!

انقبض عند ذلك صدره وتساءل هل يرجع إلى أمه مفلساً؟! لذلك توترت أعصابه مع مشرق يوم الافتتاح... غير أن الجمهور كان أكبر من المسارح جميعاً، غصت المسارح بالرواد، وعمل البوفيه بنشاط

## عصر الحب ٢٨٥

طريق متربص. أن يرجع إلى الأبد. أن يقفز من شرفة الحصن العتيق ليقتنص حظًا جديدًا.  
دار على عقيبه ومضى مترنحًا ثملًا بفرحة طاغية.

\* \* \*

يقول الراوي:

إنه عند عصر اليوم التالي جاء رسول إلى دار عين حاملاً وثيقة طلاق عزت من سيّدة. أجهشت سيّدة بالبكاء وراحت تجمع ثيابها في غمرة انفعالها. أسندت عين رأسها إلى ظهر الديوان المحلّى بالحكم والأمثال وأغمضت عينيها. وجعلت تمس:

- ما أصدقك يا قلبي ...

ولما فتحت عينيها رأت سيّدة تنتهي من جمع ملابسها، وسمير يتابعها بوجوم.

صاحت عين:

- ما هذا؟!!

واعتدلت في جلستها وقالت بلهجة آمرة:

- أرجعي ملابسك إلى مكانها ...

فقال سيّدة بصوت ممزق:

- كيف أبقى معه تحت سقف واحد؟

فقال عين بأسى:

- لن يرجع إلينا مرة أخرى ...

وقامت تتمشّي في الحجرة ثمّ تمتمت:

- لن أدهش إذا تحوّل السقف إلى سحاب وانهلّ

منه المطر ...

تمتمت سيّدة:

- أذهب إلى أمي ...

فقال بضيق:

- قلت لك إن أمك هي أنا، هذا بيتك، هذا ابنك

سمير، امكثي بسلام حتى يرزقك الله بخير منه ...

وأرجعت الملابس بيديها وهي تواصل:

- حدّثني قلبي بأنّ أحداثنا ستقع، السحب لا

تتجمّع لغير ما هدف ...

وأخذت سمير من يده إلى الديوان وقالت مغيرة

لهجتها:

- الشيخ العزيزي يثني عليك طيب الثناء. اجتهد

وعزّ قلبونا الجريحة ...

وانغمس عزت في إلهام عجيب فتح قلبه لإشراق باهر. وأحبّ بقوة خياليّة كلّ شيء. غير أنّه كان أيسر عليه أن يفصل عن قلبه أو كبده من أن يفصل عن حمدون وبدرية أو المسرح الذي هيأ لهم الالتحام الأبدية. وقال إنّ بالدنيا كنوزًا من الأفراح لا تخطر على بال. ولكن على من يروم السعادة أن يكون حاسمًا مع المعوقات المتلفعة بظلمة الأركان العتيقة. وقال:

- أرغب في الغناء لولا قبح صوتي!

فقال حمدون ضاحكًا:

- لترك هذه المسألة لضميرك.

وقالت بدرية مشيرة إلى حمدون:

- كثيرًا ما كان يصحو من نومه فيقول: «حلمت

بعزت!».

فسأله عزت:

- يَمْ كنت تحلم؟

- آه ... ما أسرع أن تُنسى الأحلام!

فقال بدرية:

- لكّفي ما زلت أذكر حلماً رواه لي، رأى أنّكما

ترقصان معًا في قارب ...

- ترى ما تفسيره؟

- إنّه لا يهتمّ بذلك ...

فقال فرج يا مسهل:

- لقد تحقّق في مسرحنا «الفردوس» فهو قارب على

شاطئ النيل ...

وسرعان ما رحبوا بالتفسير غير أنّ عزت تساءل في

نفسه ترى ماذا كنت أحلم في ذلك الزمن؟!!

\* \* \*

في طريقه إلى الحارة امتعض كثيرًا فلعن الحركة القسريّة التي تختنم بها الدائرة. حتى الغرزة أوى أصحابها إلى مضاجعهم. وهو يخوض الظلمة ارتطم به معتوه معروف يطيب له الهيمان في الظلمة، وقع رأسه عليه وهو يتمتم بكلمات ممطوطة لا معنى لها فسأل لعابه على خدّ عزت وعنقه. تقزّز الفتى ودفعه بقوة فارمى على ظهره عاويًا. وجاءت نحنحة الخفير من بعيد محدّرة متسائلة فبلغ به القهر متناه. وانطلق منه قرار متكامل الأبعاد غير مسبوق بتدبير. كما ينقضّ قاطع

- عظيم، ولكنك حدثني مرارًا عن خطّة  
أخرى...  
- إذا كان لا بدّ من الجدّ فعندنا مسرحيات  
شيكسبير المترجمة...  
تحرك رأس بدرية في رشاقة وقالت بعدوبة:  
- إني أحبّ يوليوس قيصر!  
رأى عزّت حركة الرأس وسمع الصوت فحدث  
شيء. ذهل عن بقية الحديث. ودعاها وذهب وهو لا  
يدري. تتم وحده:  
- ربّاه... إني أحبّها!

إنّها ملء القلب والنفس والحياة. هل بُعث الحبّ  
القديم في هذه اللحظة؟ أو أنه لم يذهب قطّ؟ أكان  
يلعبه طيلة الوقت؟ إنّه لشيء رائع خيف. يقتحم  
الحياة ليشحن المستقبل بشقّى الاحتمالات. وعلى أيّ  
حال يعصف بالسلام إلى الأبد. تراجعت مشكلة  
يوسف راضي إلى الوراء. أجل لقد توثقت علاقته به،  
هو صاحب الفضل في تعريفه بأكثر من امرأة من  
صديقاته. أشعل في شقته ليالي حراء، لكنّه لم يهنأ بها  
كما تحيّل. بدا له الحبّ التجاريّ مقرّزًا للغاية. وشيء  
خفيّ في طبيعته ينغص عليه صفوه ويملؤه بالقلق  
والنفور. شيء خفيّ مغرم بالنكد، حتّى قبل أن  
يكشف حبّه. أو قبل أن يعترف به، نفسه تتضح له  
بقوّة كما تتضح الأسماك تحت سطح الماء الشفاف. من  
يدري، لعلّه لم يغامر باقتحام الحياة الجديدة، ولم يهجر  
عين وسمير وسيدة والحارة، إلّا من أجلها، من أجل  
بدرية وسعيًا وراء ندائها المجهول. إنّه الآن أسير  
تمامًا، حياته محاصرة بأعداء مجهولين. متى يحدث  
الانفجار؟ ولكن مهلاً. يجب أن تعالج الأمور  
بأسلوب آخر. ليقبّ الحبّ سرًا دفينًا تحت الصداقة  
والعمل. فلتستمرّ الحياة في عدوبة ولتستكنّ عذاباتها  
الخفية. وعاوده التناقض القديم الذي عاناه في رحاب  
أمّه. يجب بدرية ويحتم عليها. يجب حمدون وعقته.  
يحظى بالنجاح ويقع في قبضة القلق الحديدية. وعليه  
إلى ذلك كلّه أن يتعامل معها - بدرية - ببراءة وتلقائية.  
لكنّه لا يطمئنّ إلى ثقته بنفسه، ويتعرّض لهبوب رياح  
المخاوف. وهي - وهذا يقين - تحبّ زوجها الحدّ

همس الولد بقلق:  
- بابا...  
- لقد باعنا بالتراب، هذا هو أبوك!  
وتساءلت في تأثر:  
- لم لا يكون الجزء من جنس العمل؟  
وتنهّدت ثمّ قالت مخاطبة المجهول:  
- لقد ربّيته على خير ما أستطيع، وباركته بالهدى  
والحبّ، ماذا به؟ كان دائئًا وكأنّه يتوتّب للسفر، إلى  
أين؟ لماذا تخاصم الهواء؟ لماذا تتحدّى راحة  
البال؟ لماذا تبحث عن المتاعب؟

\* \* \*

واصلت الحياة سيرها الوئيد في الدار والحارة.  
مكثت سيّدة بالدار في حياة جديدة خالية من  
الصراعات. استأنفت عين جولتها المجلّلة بالحبّ  
والرحمة مبدية تماسكًا وصبرًا جليلاً حيال المكدرات.  
وسعدت باجتهاد سмир وتقدّمه. وانتشرت أنباء عزّت  
في الحارة - الطلاق والهجر - فلعن الرجال والنساء  
الولد المارق.

١٥

الموسم يمضي في نجاح. عرضت فرقة «الفردوس»  
أربع مسرحيات من تأليف حمدون. ومنذ أواخر  
أغسطس بدأ نشاط جديد لإعداد مسرح الكلوب  
المصريّ للموسم الشتويّ. عزّت يتمرّس بعمل  
المدير، يحنّ لرؤية سмир، ولكنّه لا يفكر قطّ في زيارة  
الحارة. ودارت مناقشة حول الموسم الجديد في مكتب  
عزّت فقال حمدون عجرفة:

- إني أحذرك من مسرحية يوسف راضي...

فقال عزّت:

- سأجد وسيلة لإقناعه...

عند ذلك تساءلت بدرية:

- هل نعرض رواياتنا الهزليّة في الكلوب المصريّ؟

فقال حمدون:

- إنّه ليست هزليّة بالمعنى المتعارف عليه، فمن

خلال الهزل أقول أشياء لها قيمتها...

فقال عزّت:

## عصر الحب ٢٨٧

العبادة. وهي فيها بدا مطبوعة على الوفاء والاستقامة. ومواقفها من جمهور المعجبين مضرب المثل. ما أغيب حارته في انتقامها لها ولزوجها. الأغبياء يتهمونه بالأنجاس في عرض زوجته. ليته كان من هؤلاء الصنف من الناس. إذن لا تأخذت الحياة مجرى فريداً في انسجامها وسعادتها. وأشد ما يثيره ساعة الأرق أحياناً في أواخر الليل. يستيقظ فيسبح في عالم أثري ويحيش صدره بأعمق عواطف الشجن والأسى. ما أقطع ساعات الأرق. وسحب الذكريات تهطل صوراً براقاً تنداح في دموع ودماء وظلام وأنين. عند ذلك يرجع إلى البدائية الأولى المجتلة بالبراءة والوحشية والألغاز. وجعل يخلتس من الرقباء ساعة تحت ستار الظلام فيقف في ركن ليشارك دورها فوق المسرح في مناجاة وإبهال، ويتساءل في دعر ترى عن أي مصير سيسفر هذا الجنون؟

\*\*\*

يقول الراوي:

إنه قبيل انتهاء الموسم بأيام قلائل اندفعت الأحداث في مجرى جديد غير متوقع، أخلت بتوازنها وأسرع بإيقاعها، فانطلقت مثل قذيفة.

كان عزت في حجرة الإدارة عندما جاءت بدرية وحدها قبل رفع الستارة بساعة أو نحوها. ورغم أنها تبدت قلقاً مشتتة البال إلا أن قلبه خفق بابتهاج عميق إذ كانت أول مرة يخلو إليها مذ عمل في رحابها. جلست وهي تقول بنبرة المعتذرة:

- إنني مضطرة إلى إشراكك في همومي الشخصية...

تضاعف ابتهاجه للثقة الموهوبة من أحب الناس وقال:

- همومك هي همومي أيضاً...

قربت رأسها من المكتب حتى مسّت خصلات شعرها الأسود حافة الغطاء البلوري وهمست:

- هناك شيء واحد يجمع بيننا في هذه الموموم. تتم وهو يبذل طاقة كبيرة للسيطرة على انفعالاته:

- إنني مصغرة إليك بكل جوارحي...

- هذا الشيء هو حبنا لحمدون!

تراجع حتى ارتطم مؤخر رأسه بجدار الحقيقة الباردة وقال:

- طبعاً...

- تحدث أشياء غريبة في بيتنا من شأنها أن تهدد حياتنا وعملنا ومستقبلنا...

- ترى ما هي هذه الأشياء الغريبة؟!

- هل سمعت عن «أبناء الغده»؟

- أجل.

- بعضهم يتسللون إلى شقتي من تحت البواقي كل ليلة.

- كيف؟

- عقب عودتنا من المسرح والشرطة نائمة أو هكذا يتوهمون!

- لا أكاد أفهم شيئاً.

- إنهم متمردون على كل شيء، ومطاردون.

- ومتهمون باغتيالات معروفة!

- هذه هي المسألة.

- أتعنين أن أحمدون...؟

ولاذ بالصمت فقالت وهي تتهدد:

- نعم، حسب الأمر مجرد تعاطف قلبي، حتى اختاروا شقتنا مكاناً لاجتماعهم، وعبثاً حاولت منع ذلك فضلاً عن إقناعه بالتخلي عنهم.

فتمتم عزت متفكراً:

- إنه شيء خطير حقاً...

- لذلك ألتجأ إليك...

فتساءل في حيرة:

- تعنين أن أفتحه في الموضوع؟

- عندك رأي آخر؟

- ألا يغضب لإفشائك سره؟

فقالت بسرعة:

- لا يجوز أن يعرف ذلك!

- فكيف أفسر له معرفتي بالأمر؟

- لا أدري... ولكن أبعد ظنه عني!

نظرت في ساعة يدها. نهضت وهي تقول:

- اعتيادي بعد الله عليك...

وسرعان ما غادرت الحجرة.

فقال عزّت بهدوء مخيف:  
 - إنكما متّهان!  
 هتف حمدون شاحب الوجه:  
 - صارحنا بما في نفسك.  
 فقال باقتضاب وثقة:  
 - أبناء الغدا!  
 اشتدّ اصفرار وجه حمدون، غصّت بدرية عينها،  
 قال حمدون:  
 - لا أفهم.  
 - بل تفهم كلّ شيء.  
 هبط صمت كاللوت ولكنّه لم يستقرّ طويلاً، فتساءل  
 عزّت:  
 - أيّ خطر تعرّضان نفسكما له؟  
 سأله حمدون باهتمام:  
 - من أخبرك؟  
 - شخص أثق به.  
 - الوغدا!  
 - من تقصد؟... إنك لا تعرفه!... لولا ثقتي في  
 أمانته لحثثتك على الحرب...  
 - يوسف راضي!  
 - كلاً.  
 - هو دون غيره.  
 - قلت كلاً وأقسم على ذلك! ومن أين له أن  
 يعلم؟  
 - إنه معنا ضمن مجموعة أخرى ولكنّه يعتقد أنّي  
 أصادر عبقريته!  
 - أقسم لك أنّه شخص آخر.  
 - من هو؟  
 - لست في حلّ من ذكر اسمه، سأخبرك به ذات  
 يوم عندما يجلّني من قسمي، لا أهميّة لذلك، كيف  
 توّرطننا في ذلك؟  
 فقال حمدون بضيق:  
 - لا علاقة لها بالأمر.  
 وقالت بدرية:  
 - لا أهتمّ إلّا بالمرح...  
 فقال عزّت مخاطباً حمدون:

تركته في دوامة، دوامة لا تبقي عضواً واحداً في  
 موضعه الطبيعي. الدنيا ألوان وأصوات وأفكار  
 وملائكة وشياطين متلاطمة. ثمل بالثقة، تحفّز  
 للمساعدة. تحيّر طويلاً. عبره طرب مجهول. وكان  
 عليه أن يبتدي إلى فكرة. وتعرض أفكاره صورة  
 حمدون في لباس السجن، أو فوق المشنقة. يقول  
 لنفسه بصوت مسموع لا بدّ من خطوة لإنقاذ الموقف.  
 لا يجوز أن تهجر بدرية أو تترمل، لا يجوز؟  
 عليه أن يكون عند حسن الظنّ به. عليه ألاّ يهمل  
 واجبه. القدر أيضاً لا يهمل واجبه.

عند انتهاء الليلة قبل الختامية قال عزّت لحمدون:  
 - أودّ أن أحتفل بالنجاح في شقتك ولا أريد رابعاً  
 معنا!

بهت حمدون عجربة وقال:

- لست الليلة على ما يرام!

- سوف ينحكك الويسكي... .

فتساءل متردداً:

- أليست شقتك أوفى بالغرض؟

- ولكنّها غير خالية!

- دعنا نرى عشيقتك الجميلة!

فتساءل عزّت باستياء:

- كأنك لا ترحب بي؟!

\* \* \*

ما كاد يستقرّ بهم المقام في الشقة حتّى دقّ الجرس.  
 هرع حمدون إلى الباب. عاد بعد دقائق وقد زايله  
 التوتّر. رفع عزّت كأسه قائلاً:

- صحّحكما... أذاثر في هذه الساعة من الليل؟

فأجاب حمدون ضاحكاً:

- طارق أضله الظلام!

شرب جرعة وهو يردّد بصره بينها ثمّ تتمم:

- لا تحاولا خداعي.

- خداعك؟!

- لا تحاولا خداعي.

تساءلت بدرية:

- ماذا؟

عصر الحب ٢٨٩

بالريبة والقلق، ولم يخجل بيدريّة في تلك الفترة إلا دقيقة فسألها:

- كيف الحال؟

- انتهت الاجتماعات ولكن... .

- ولكن؟

- ولكنّ حمدون يمرّ بحال سيّئة... .

وقال لنفسه حسن أن تنتهي الاجتماعات غير أنه ابتسم ساخراً. وثمة صورة كانت تلخ على خياله، صورة حمدون في لباس السجن يصاحبها إحساس بالألم يمتد الصوت الخفي الذي ينغص عليه صفوه.

وقال له يوسف راضي:

- من المناسب أن تفتح الموسم بروايتي.

فقال عزّت مجاملاً:

- سنفعل ذلك ذات يوم.

فقال الشاب:

- إنّي أفكر في دعوة حمدون ذات يوم لأسمع رأيه وأدخل ما يراه ضرورياً من التعديلات.

- خير ما تفعل.

وجرت مفاضلة في شقّة حمدون بين يوليوس قيصر ونديم السلطان. بأيّها يُستحسن أن يكون الافتتاح. قالت بدرية:

- يوليوس قيصر هائلة ولكنّ دوري نافه.

فقال حمدون:

- لقد حفظت أقوال أنطونيرو حياً واستحساناً ولعلّه من الطريف أن تمثلي دوره.

فهتف عزّت:

- دور رجل؟!!

- لم لا؟... ستكون مفاجأة مثيرة... .

\*\*\*

ولم يتقرّر شيء في الاجتماع إذ جرت الأحداث بسرعة مذهلة. في اليوم التالي عُثر على يوسف راضي جثة هامدة في شقّة صغيرة بالقبيسي يقيم فيها بمفرده. نشرت الصحف الصورة والخبر ووصفت الجريمة بأنها وحشية وغامضة.

ارتعد عزّت وانقلبت ساحة نفسه إلى مسرح للأشباح المفزعة. إنّه والشيطان الوحيدان اللذان

- لبتك كنت كذلك... .

- لا حيلة لي في ذلك... .

- طول عمرك تشغل نفسك بأمور لا تمهم أحداً.

- لا تمهم أحداً؟!!

- لن أجادل في ذلك، أريد فقط أن أعلم هل

تستمرّ هذه الاجتماعات المريبة؟

فلاذ حمدون بالصمت فقال عزّت:

- نحن صديقان وأكثر من شقيقتين، لنا حياة مشتركة، لم نكد نبداً بعد، أمامك مستقبل باهر، لا زواج بين الفنّ والجريمة، عليك أن تنقذ نفسك قبل ألا ينفخ الندم... .

\*\*\*

ورجع إلى حدائق شبرا وهو يقول لنفسه ما كنت أتصوّر أنّ الملائكة والشياطين يتجاورون في وطن واحد!

١٧

في غمار الدوامة، في الليلة التالية - وهي الليلة الختامية - رأى خالته آمنونة وكريميتها إحسان وشأباً مجهولاً يدخلون مسرحه. تلاقى الأعين فتقدّم للمصافحة، مقابلة فاترة، ولكنّه تعرّف بعريس بنت خالته الذي دعا حماته للمشاركة في نزهة احتفاء بشهر العسل. لم يغيب عنه أنّ مهنته الجديدة ستعرف على حقيقتها في الدار والحارة وستلوكها الألسن كنادرة من النوادر. وكانت فكرة زيارة الأسرة تعابته من آن لأن فعّدل عنها بقرار نهائيّ رغم حنينه المنقطع لرؤية سمير. انتهت عزّت عبد الباقي القديم وحلّ محلّه رجل يميل إلى البدانة، ويمارس عمله في بيثة تكتنفها الشبهات، وقنع بأن يكلف عمّ فرج يا مسهل - وهو أصلاً من أبناء الحارة - باستطلاع الأخبار وموافاته بالأحوال.

\*\*\*

وتحدّد يوم ١٥ أكتوبر موعداً لافتتاح الموسم الشتويّ بالكلوب المصريّ. نفحه نجاح الموسم الصيفيّ بالثقة، ولكنّ المستقبل تبدّى له رغم ذلك غامضاً وأمدته أعماقه المنصهرة بالحبّ والأخيلة المفزعة

فَعَقَبَ حمدون:  
- أجل، كان شابًا...  
وكعادة النساء نشجت بدرية بالبكاء. وبدت الدنيا غريبة كأنما تخلق من جديد ولكن في لون منقر. مرّوا في طريقهم بصندوق البريد الذي تعامل معه أمس لأول مرة. ترى أغادره الخطاب أم لا زال ينتظر. عزّت... حمدون... بدرية. صندوق البريد... يا للوحشية يا بدرية. عندما لا نجد إلا الشيطان كرسول للضمير الحي! أرى عين ناشرة المظلة لتتقي أشعة الشمس. أتشرّف بإبلاغ سعادتكم.

\*\*\*

في عصر اليوم نفسه، اقتحمت بدرية شقته بحدائق شبرا، زيارة غير متوقعة، متجلية التعاسة والاضطراب، تنذر بالمخاوف، الخطاب لم يصل بعد فإذا دهاها؟ ارتمت على مقعد بحجرة الاستقبال وأغمضت عينها من الإعياء. وقف قبالتها مذهولاً، يمس:

- خيراً؟!... ماذا حلّ بك؟

تمتت بيأس واضح:

- إنه الخراب...

- بدرية... ارميني بما عندك مرة واحدة.

فقال وهي تتهدّ كمن يزفر آخر نفس:

- جنّ حمدون، طلقني، ضربي، ذهب ليعترف

بجريمة قتل يوسف راضي...

هتف متظاهراً بالانزعاج والعالم من حوله يتناثر

ويتطأ:

- أيّ جنون...!

- هي الحقيقة!

رأى في وجهها دمامة لم يدر من أين أتت، رأى

امرأة أخرى. قال:

- أريد أن أفهم قبل أن أجنّ بدوري!

نحت عينها عنه وقالت كأنما تعترف للمجهول:

- انقلب حالي مذ علمت بمصرع يوسف، أنجّه ظني

نحو حمدون، أدركت أنّ الرجل راح ضحية جريمة لم

يرتكبها، اجتاحني رعب وشعور مفرع بأنني القاتلة

الحقيقية.

يعرفان السرّ. وجد الشيطان يقبع في أعماقه ويشير ضاحكاً إلى حمدون. حمدون الذي قتل رجلاً بريئاً جزاء جريمة وهمية لم يرتكبها. من الذي قتل يوسف راضي؟ ليس حمدون وحده، لكنّه - عزّت - وراء ذلك وبدرية أيضاً. يا لك من رجل خطير حقاً يا حمدون ولكتك انتهيته... انتهيته... انتهيته... انتهيته. اليوم أو غداً أو بعد غد. حضرة. أنت الذي بادأني بالصدقة في الكتاب. أنت القضاء والقدر. أنت الرجل المعجزة. حضرة صاحب. أين المفرّ من ذلك الصوت الذي يطاردني ويكذّر صفوي؟ ما ذنب البريء الذي قُتل غدرًا وجهلاً؟ وحتى متى يلازمي الشيطان وهو يضحك؟ حضرة صاحب. فرصة. فرصة. للتكفير فرصة. للجنون فرصة. للعذاب فرصة. للحبّ فرصة. لتقف أمام الميزان. حضرة صاحب السعادة. من أنت حتى تخاصم وتحكم. من أنت حتى تنفّذ أيضاً. دائماً يُصدر الإعدام على الآخرين. فعلت ذلك مرّتين. في كلّ مرة هتف هاتف الغيب العين بالعين. أن أتحمل وقر إثمى فهو العدل. أن أتحمل إثم الآخر هو الجنون. حتى لو لم يخرج من العدم وجود فهي التجربة اليائسة. لا بدّ لضحكة الشيطان أن تسكت. أو فليقهقه حتى يرجّ الجدران. ترى فيم تفكّر عين في هذه اللحظة من الزمان. حذار أن يسبقك الزمن. حضرة صاحب السعادة النائب العام.

في الظاهر تستمرّ الاستعدادات للموسم الجديد لكنّ مصرع يوسف راضي هزّ الأفتدة هزة عنيفة. جميع أفراد الفرقة يعرفونه معرفة شخصية. كاتب العقود والمؤلف المنتظر. قُتل أمس والتحقيق يتقبّ في كلّ زاوية. سُئلوا جميعاً ولم يُعثر لديهم على شيء. ذهب حمدون معهم. لم يبيح عزّت بهاجس واحد من هواجسه. رجع بصحبة حمدون وبدرية. لاذ حمدون بالصمت طيلة الوقت.

قال عزّت برثاء:

- يا للخسارة!



## عصر الحب ٢٩١

الخطاب الغفل من الإمضاء؟ كأنما لم يكن له من هدف سوى تسجيل الحسة على نفسه، سيعترف حمدون قبل وصول خطابه بيوم أو يومين. من العبث أن يمضي في إقناع ذاته بأنه فعل ما يمليه عليه الواجب الإنساني. وما هي بدرية حرة وحمدون يرسف في الأغلال، ألم يكن ذلك حلمه الملح؟! لكنّه مريض وبدرية دميمة. والدنيا تعاني أنيميا حادة لا تصلح معها للحب، قال بأسى:

- اغسلي وجهك، اشربي قدحاً من الشاي، علينا أن نفكر بهدوء في الكارثة...  
فنهضت وهي تقول متأوهة:  
- إنه لا يدري كم أحبه!

## ١٩

عُرف الآن أنّ حمدون عجزة المؤلف والممثل هو قاتل يوسف راضي المحامي، وأنّ الباعث على الجريمة هو ما لاحظته القاتل من غرام القتل بزوجته. ذاع أيضاً خبر الخطاب الغفل من الإمضاء الذي اتهم حمدون بقتل يوسف. أعيد التحقيق مع بدرية فأكدت أقوال حمدون ولم تُثير من قريب أو بعيد إلى جماعة أبناء الغد. ولم تجد بدرية في وحدتها المرعبة من أنيس أو معين إلا عزّت. زالت دمامتها الطارئة ولكن ثقلت ملاحظتها بأسى ثابت وعميق، ورغم مرارة نفسه لم يفقد الأمل في مستقبل قريب أو بعيد. واستمرت الفرقة في أداء البروفات دون اشتراك بدرية، معيدة المسرحيات التي مثلتها في روض الفرج. وتعتمد عزّت أن يشعر بدرية من أن لأن بأنه ما زال يمارس عمله كمدير. وكانت تعلم من ناحية أخرى بأنه لا مورد له إلا العمل. لذلك تشجّع ذات يوم وقال لها:  
- علينا أن نبدأ العمل في ميعاده وإلا عرضنا أنفسنا للإفلاس...

فتمتتم بضيق شديد:

- ما أبغض ذلك!

- أشاركك الإحساس ولكن لا بدّ مما ليس منه

بدّ...

فقالت بحزن:

- ذلك يعني أنني شريك ولكنّها محض أوهام.  
- ليست أوهاماً على الإطلاق، يجئيل إلى أنك شاركتني العذاب أيضاً، وعقب عودتنا إلى البيت لاحظ حمدون تغيّري المطلق، انهارت قوة احتمالي فصارحته بخوفي من أن يكون يوسف راضي قد راح ضحية جريمة لم يرتكبها...  
قال عزّت بأسف:

- اندفعت دون ترو.

- انفلت منّي الاعتراف وأنا في حال بائسة من الانهيار.

- كيف كان وقع ذلك في نفسه؟

- اكفهر وجهه، استوضحني ما أعنيه، اعترفت له بأن يوسف راضي لم يفش سرّ الاجتماعات إليك وأنا التي فعلت!

فقطب عزّت واختفى وجهه تحت قناع غليظ من الكآبة. وتبدّت هي مشدودة إلى ذكرى مفزعة وطاغية ثم قالت:

- لا يمكن أن تتصوّر ما حدث، لقد وثب من مجلسه كالمدوغ، صرخ، تجلّى الافتراس في ملامحه، لطمني لطمه كادت تفقدني الوعي، اتهمني بالجريمة، ومن شدة ألمي رددت إليه التهمة، صحت به: بل أنت القاتل!

تأوه عزّت متسائلاً:

- أهذا جزاء من يدفعه حسن النية إلى إنقاذ من يحب؟!

- وراح يضرب الجدار بقبضته، ويصدّ بالويل، رماني بالطلاق، استمرّ يعوي مثل وحش جريح... ثم ركّز عينيه عليّ ملياً وقال بمقت شديد «أنت الجحيم أمّا أنا فقد انتهيت». وارتدى ملابسه في عجلة وهوجة وغادر الشقة وهو يقول: سأطلقك أولاً، ثم أسلم نفسي...

هتف عزّت:

- يا للتعاسة!

فانخرطت بدرية في البكاء وقالت:

- تركني في وحدة مرعبة!

إنه يتردى في نفس الوحدة المرعبة. لم تسرع بتحريه

- وما أخبار الدار؟  
- الست الكبيرة كعهدها، هي هي لم تتغير، أم  
سمير رفضت أن تتزوج من عليش النجار مفضلة  
البقاء مع ابنها، سمير يتقدم في الدرس بنجاح وذكاء.  
وتذكر الحديقة وغرزة الحصن العتيق وسمير الذي  
سيشرب جاهلاً أباه، ولكن فيم يفكر في ماضٍ  
انقطعت عنه أسبابه إلى الأبد؟

\* \* \*

وقال لبدريّة:  
- ما رأيك في أن أجرب حظي مع مسرحية المرحوم  
يوسف راضي؟

فقالت بلا حماس:

- جرب، الموسم حتى الآن غير ناجح تمامًا.  
- وربما وفر لها اسم مؤلفها - الذي لم ينس الناس  
مأساته بعد - نجاحًا إضافيًا.

فقالت بدهشة وهي تبتسم:

- صرت حقًا صاحب مسرح يا عزت!  
فضايقتة ملحوظتها وقال بشيء من الحدة:  
- لقد صرت صاحب مسرح من أجلك.

- أجلي أنا؟!!

- أعني من أجلك وأجله!

فحدجته بنظرة معتدرة ولم تنبس.

وقد حققت المسرحية نجاحًا ملحوظًا أقال الموسم  
من تعثره. ومضى موسم الشتاء بلا سرور، ولكنه  
نجح نجاحًا فذاً في موسم روض الفرج الجديد. وكان  
يسرف في العمل كما يسرف في كل شيء ولكن بلا  
سعادة حقيقية. وظلّ الحب يطارده بلا أدنى أمل.  
وسنحت فرصة - والفضل فيها لفرج يا مسهل - لتأجير  
مسرح الإليزيه بشارع دوبريه فاستأجره مدفوعًا بروح  
المغامرة والآمال الغامضة، وقال لبدريّة:

- ها هي فرصة للعمل في قلب المدينة، أن لك أن  
تلمعي كنجمة حقيقية.

٢٠

أنفق في الاستعداد للموسم الجديد مالا كثيرًا،  
والإليزيه مسرح حسن بناءً وموقعًا وقد كان مغلقًا من

- نحن الآن بلا مؤلف...  
- ولكننا نملك رصيّدًا لا بأس به من المسرحيات  
فضلاً عن التراث والروايات المترجمة...  
- إنه خسارة لا تعوض!  
- ذلك حق ولكن علينا أن نفكر في كل شيء وفي  
المستقبل...

وهنا قالت برجاء:

- أود أن أنجز عملاً هامًا قبل بدء الموسم.  
- ستجدين مني ما تتوقعين وفوق ما تتوقعين.  
- لقد قابلت محامي حمدون فأملني كثيرًا في إنقاذه  
من حبل المشنقة.

- أرجو هذا فقد سلم نفسه وانتحل للجريمة عذراً  
مخفياً.

- طلبت منه أن يبلغه رجائي في أن يتزوج مني مرة  
أخرى!

فلم يدر ماذا يقول وهو يتلقى لطمة جديدة بلا  
رحمة، أما بدريّة فاستطردت:

- سيعينني ذلك على مواصلة الحياة...  
فقال بفتور:

- شيء عظيم حقًا.

\* \* \*

استعدت عزت لافتتاح الموسم وهو يشعر بأنه أحقر  
شيء في الوجود. لم يخفف من شعوره ما علمه بعد  
ذلك من أن حمدون رفض طلب بدريّة، بل ورفض  
حتى مقابلتها. وبدأ الموسم بنجاح متوسط، ولم يخف  
عنه أن بدريّة فقدت الكثير من سحرها المسرحي،  
وتعاقبت الأيام لا تبشر بخير جديد، وفي أثناء ذلك  
تمت محاكمة حمدون وقضي عليه بالأشغال الشاقة  
المؤبدة.

وجاءه فرج يا مسهل - كالعادة - بأخبار الحارة فقال  
له لمناسبة الحكم على حمدون:

- لم يعطف عليه أحد في الحارة!

فقال عزت بأسى:

- لعلمهم يتمنون لي مصيرًا مشابها!

- ست عين تدفع عنك بخيرها العميم نيات  
السوء...

## عصر الحب ٢٩٣

- قال:
- وهو خبر غير معقول.
- لماذا؟
- ألم تبدي استعدادًا لانتظار الآخر ربع قرن من الزمان؟
- لم يدر بخلدي الفشل...
- وهل حقًا ما يقال من أن الرجل يكبرك بثلاثين عامًا؟
- يحدث ذلك...
- لعلك خفت عواقب الكساد، ولكن ما تزال أمامنا فرص.
- فحدجته بنظرة واضحة وقالت:
- المستقبل غامض، أريد أن أحافظ دائمًا على كرامتي، ثم إنني وحيدة...
- فقال محتجًا:
- لا... لا... لست وحيدة...
- وتبدلا نظرة طويلة ثم مضى يقول:
- لست وحيدة، ذلك قول أعتبره جارحًا لي.
- أشكرك ولكنني أبحث عن حل دائم ومعقول.
- هنالك حل أجمل...
- حقًا؟
- أن نتزوج!
- فتفكرت قليلاً ثم تساءلت بنبرة لم تحل من سخرية:
- بدافع العطف؟
- فقال بحدة وإصرار:
- بدافع الحب.
- الحب؟!!
- الحب القديم والجديد.
- فقالت وهي ترمقه بنظرة ممتعضة:
- إنه لخبر جديد!
- لولا غبار الأحداث لرأيت من زمن.
- أكان موجودًا وحمدون معنا!
- فاتكمش انفعاله وسقط في الرماد ولم يدر ماذا يقول. وبعد فترة من الصمت الخائق وجد منفذًا للخلاص فقال:
- عاد الحب في أثناء وحدتك!
- أعوام بسبب اختلافات بين الورثة حتى استحقه بحكم قضائي الخواجا بنيامين فكان عزت أول مستأجر له في حياته الجديدة. شعر بأنه أصبح صاحب مسرح بالمعنى الدقيق للكلمة وأنه سيعمل بكل فخار في مجال رمسيس والأزيكيتة وبرنتانيا. أجل لم يوفق إلى ضم ممثل أو ممثلة ذات شأن إلى فرقته ولكنّه كان شديد الثقة ببدرية، ومضى يحلم بنجاح مرموق حتى ليلة الافتتاح. وإذا به يتلقى صدمة باردة فيرفع الستار عن صالة ثلاثة أرباعها خالية. اعتقد بادئ الأمر أن فرقته غير مؤهلة للنجاح في وسط المدينة ولكنّ أبناء ترامت إليه عمًا تعانیه المسارح جملة من فتور وانكماش. وما كان بوسعه إلا أن يستمر ولعلّ النجاح الوحيد الذي قسم للفرقة كان من نصيب بدرية إذ تقدّم لخطبتها تاجر تربي! عرف ذلك عن طريق فرج يا مسهل وليس عن طريق بدرية فضاغف ذلك من آلامه المزمنة.
- وانفرد بها في حجرة الإدارة في جو ثقيل من الخيبة وفي نيته عزم على التحدّي. قال:
- الحال كما ترين. ترى ماذا يحسن بنا أن نفعل؟
- فقالت بحزن:
- يحسن بك ألا تستمر.
- الجميع يحسرون.
- هذا أدعى للأخذ برأيي...
- هل نرجع إلى الكلوب المصري وروض الفرج؟
- إذا شئت...
- فقال بارتياح:
- لست متحمسة...
- لا شيء يدعو إلى الحماس.
- فتساءل بارتياح أشد:
- وماذا عن مستقبلك؟
- ففضت بصرها ولم تنبس فسالها بصراحة:
- أحقيتي ما سمعت عن رجل يطلب يدك؟
- فأجابت بهدوء دون أن ترفع عينها:
- نعم.
- عجيب أن يجيئي الخبر من آخرين!
- فندت عنها حركة تنم عن ضيق ولكنها لم تتكلم.

تبخر سحره. ران الأسى على كل قلب. لن يراها وهي تمرح في طيلسان الجارية. لن يسعد بابتسامة الثغر. ولا بعذوبة الصوت. نظرة متحجرة رافضة آخر ما أهدته. وداع الأثم الضنين بالدموع. إذا هلت طلعتها فهي خيال المحروم. كُتب على جوانحه أن تتعذب بالحنين العقيم. أن يتذوق الألم كتمرز المخمور. أن ينادي الغيب ليصد عنه سخريات الغيب. ملعون يوم رأيتك، ملعون يوم رجعت إليك. ويوم ماكر شرير يوم لمحتك في الكتاب. حين قدر البؤس على الوجيه المدلل. حين توائمت العصافير فوق الغصون محذرة. ومضت عين بحاقتها تكفر عن حماقات البشر. وتلقى من الحصن العتيق ثورة ولكن بقلب طفل غرير. وشهد المجاذيب والمساطيل بجمالك يا بدرية. وها هو ضغط الحياة لا يسمح للمحزون بأن ينعم بالحزن. مضى يصفى عمله ويتخلى عن رجاله بألم بالغ. لم يبق معه من ماضيه القريب إلا فرج يا مسهل. وحتى هذا قال له:

- أن لك أن ترجع إلى دارك العامرة.

كيف يرجع بالحنية والجريمة والحب الضائع!! قال:  
- فات الأوان . . .

- مكانك هناك، ستجديني في خدمتك، لقد خلقت للوجاهة والعز.

- تريد أن تُرجعني إلى البطالة والغم . . .

- بل إلى الوجاهة والزواج ثم الحج إلى بيت الله!  
فقال بأسًا:

- إني الآن في زمن العذاب، في عمر قادم سأعمل بما يناسبه، أليس عندك رأي آخر؟  
سرعان ما تحول الرجل من أقصى طرف إلى أقصى طرف، سأل:

- هل عندك مال موفور؟

- نعم.

- عظيم، حول المسرح إلى ملهى ليلى، فهذا زمن الملاهي!

- ألك خبرة بذلك يا مسهل؟

- الحمد لله، سيبقى المسرح كما هو، تتغير الصالة،

البوفيه يكبر، أما البنات وخلافه فدع أمرها لي . . .

ورجع الصمت كزة أخرى مشحونًا بالريبة وعدم التصديق، نفع متحدثًا وقال:

- من الغباء أن نعتذر عن الحب!

فسألته بمرارة:

- من الذي أرسل الخطاب إلى النيابة؟

انخلع قلبه فزعًا. لم يتوقع أن يجرد من ثيابه بجذبة واحدة. أدرك ما تعنيه ولم يكن نسي شيئًا. ولكنّه تساءل متجاهلاً:

- أي خطاب؟

- أنت تعرف قصدي، وجهك يشهد بذلك . . .

- ماذا تقصدين؟

- أنت الذي أرسل الخطاب . . .

- إنك لمجنونة . . .

- ولكنك الحق.

- إنه الوهم، ثم أنسيت أنه اعترف قبل وصول الخطاب؟

فقال ببرود:

- ولكن الخطاب كُتب وأرسل . . .

- تحقيق سخيف لا يقوم على أساس.

فقال يهدوء:

- الزواج الذي تقترحه يعني التهادي في الإجمام، منك ومني أيضًا . . .

فقال بعنف:

- المسألة أنك لا تحبيني!

- هذا صدق أيضًا، أنا لم أحب في حياتي سوى

حمدون . . .

- ولكنك لن تتزوجي من ذلك الرجل.

- هذا شأني، ولا خيار لي.

فقال بغضب:

- سأمنعك . . .

فقامت وهي ترفع منكيها، ثم مضت وهي تقول:

- أستودعك الله.

ذهبت بدرية. توقفت العمل. أطفئت الأنوار. لم يعد صوت يجلجل بخير أو بشر. تقوض عالم الخيال.

## عصر الحب ٢٩٥

وشريفة. ماذا بهم؟ ما هي إلا مجرمة. هي قاتلة يوسف راضي. هي دافعته إلى الخيانة، هي مرسله حدون إلى التأبيدة. ماذا بقي من جمالها؟ أي شيء هذا الجمال الذي يعيش بضع سنين؟ ولكن كُتب على الإنسان أن يتعذب بلا سبب، ولولا الطعام والشراب والمخدر لفسدت الأرض.

\* \* \*

وتمر أعوام أيضًا. تراكم أرباحه، تزداد بداتته، ترمقه الأعين بالحسد، يجذ في الهروب من الألم والكآبة. آمن بأن السعادة هي التخفيف من الألم المحتوم، وأن الإنسان يتألم لسبب فإذا لم يجد السبب تألم أوتوماتيكياً. وذلك الملل الخفي الذي يتبعه كما يتبع الصوت عجلة العربة بلا تحديد لمصدره. أما أسعد الأوقات حقاً فهي وقت النوم العميق. وإنه ليرنو إلى الضاحكين بارتياح حتى خيل إليه أن ملهه الليالي ما هو إلا بؤرة للمجانين والتعساء. ترى هل تنتهي هذه الحياة بخراب فناء شامل؟! وعجب كيف أنه لا يعرف في دنياه من يأنس إليه إلا فرج يا مسهل.

وأيقظه أرق في الهزيع الأخير من الليل. جاش صدره بالعواطف الحزينة الغامضة. قرر فجأة أن يستدعي ابنه ليراه.

٢٢

انتظر في شقته الأنيقة ضحى يوم الجمعة. لم يتصور أن يتخلف عن الحضور. وحتى لو وقع المحذور فليتحمل ما جنت يده. «عزيزي سمير...

لا تدهش. كاتب الخطاب هو أبوك. سوف تساءل أتعد ذلك العمر؟ لكنك لم تعرف أعماق حياتي حتى يحق لك الحكم علي. أبوك يدعوك إلى مسكنه (عمارة ٣، شارع دوربريه، شقة ١٤) صباح الجمعة القادم (١٤ مارس). ما كان يجوز أن نفرق ذلك الزمن الطويل ونحن في مدينة واحدة. الأسباب كثيرة ولعلك سمعت الكثير ولكنك لا تعرف كل شيء. إني والدك على أي حال. من الواجب أن نتعارف. سيسعدني جداً أن أقابلك.

«عزت عبد الباقي»

أدرك أنه يغوص في أعماق مظلمة. لم يفزع ولم يتردد. ألقى بنفسه في تيار الاستهتار وكأنما ينتقم من عدو مجهول. وراح يا مسهل في تفكير عميق وهو يقول:  
- ربحه مضمون.

\* \* \*

انهمك في تحويل المسرح إلى ملهى ليلي. جاء البناءون والنجارون. جرى الاتفاق مع الفتيات والجرسونات والعازفين. مثل الإدارة خير تمثيل ببدانته المتزايدة وحزمه المكتسب. وانتقل من شقة حدائق شبرا إلى شقة بشارع دوربريه نفسه. وزود نفسه بما تشتهييه من طعام وشراب ومخدر ونساء. صمم على نسيان بديرة كما نسي عين من قبل، وأن ينسى كذلك جريمته. وجعل يقول لنفسه إنه ما فعل إلا أن أرشد العدالة إلى قاتل. ورغم ذلك لم يستطع أن يبند سحب الكآبة ولا أن يسكت صوت النكد الخفي.

\* \* \*

وعلى فترات متباعدة من الزمن تجمعه أخبار الحارة فتثيره وتنعشه. يجد فيها جديداً وسط لياليه المفعمة باللهو والطرب والرقص والعجائب. أنه تطعن في السن ولكنها لا تفقد حيويتها ونشاطها الدءوب على الخير. تمضي متوتكة على المظلة أو ناشرة إياها من درب إلى درب، ومن بيت إلى بيت، وقد أضفى الخيال عليها بركة وقداسة، وسلم أخيراً بالإعجاب بها بلا حدود، فالعمر الطويل الذي يتحدى الزمن بنشاطه وقدراته مما يستحق الإعجاب والتقدير. إنها مصممة على الخلود والشباب. وسيدة أصبحت وكأنتها صاحبة الدار وبخاصة بعد وفاة أمها. أما سمير فإنه يشق طريقه بنجاح خليق بأن يكفر عن سقوط أبيه، وها هو يتأهب لدخول مدرسة الهندسة، وكما يخلق من ظهر العالم فاسد يخلق من ظهر الفاسد عالم.

وربما تساءل أحياناً عما جرى لبديرة. وقد تكفل الزمن بإعدام حبه هذه المرة حتى الموت وليس كالمرة الأولى. إنه يدرك الآن أن كل شيء يموت وأن ما يلزمنا حقاً هو شيء من الصبر عند الملمات. لعلها اليوم أم محجوبة وراء الأستار أو لعلها أرملة، أو لعلها مطلقة

- دراستي هي شغلي الشاغل، في العطلة أمارس الرياضة والمطالعة...  
 - لا تلمني إذا لم أسألك عن أمي أو أمك فإني أعرف عنهما كل شيء، ماذا تظالع؟  
 - موضوعات شتى... سياسة... أدب... دين... وأحب السينما كذلك...  
 وهو يضحك مرة أخرى:  
 - والمسرح؟  
 فعصر عينيه من الدموع التي بعثها الغازوة متجاهلاً السؤال فقال عزت:  
 - لذلك أفلست المسارح، وهل تهتم بالسياسة؟  
 - الجيل كله يهتم بها.  
 فغشيت عينيه نظرة جادة وتمتم:  
 - للسياسة مآسيها!  
 - أحياناً.  
 فقال عزت معاوذاً المرح:  
 - لن أنصحك بشيء، أتدري لماذا؟، لأنني ما عملت بنصيحة أحدا  
 فقال سمير بحبور غمره من خلال ألفة متزايدة:  
 - طالما تشوقت لرؤياك...  
 - ولم لم تُشيع أشواقك؟  
 - خيل لي أنك لا تهتم برويتي!  
 - نُحِيل خاطئ مائة في المائة ولكنك لا تعرف كل شيء...  
 وقدم له برتقالة ثم سأله:  
 - لم يكن لي أصدقاء كثيرون. وأنت؟  
 - لي كثيرون منهم، في الحارة والمدرسة...  
 - ولا شك أن علاقتك بأمك وجدتك جميلة؟  
 - على خير ما يرام.  
 - أيهما أحب إليك؟  
 فابتسم وقال:  
 - الأم هي الأم ولكن سحر جدتي لا يقاوم!  
 - إنها العجيبة الثامنة في الدنيا...  
 - كيف هان عليك أن تهجرها ذاك العمر كله؟  
 وقال لنفسه إن ابنه لم يعرف الضحجر ولا الألم بعد،  
 وإذا به يفتحهم متسائلاً:

لن تمنعه من الزيارة أمه ولا جدته. ارتدى البيجاما والروب، حلق ذقنه بعناية، سوى شاربه، مشط شعره، تطيب، انتظر. وفي الساعة العاشرة دق جرس الباب. انتقل الرنين إلى قلبه، هرع بجسمه البدين إلى الباب، فتح، رأى شاباً لم يشك لحظة في هويته. خفق قلبه كما لم يخفق من قبل. فتح ذراعيه. أخيراً تلاقى الأب والابن وتعانقا... مضى به إلى حجرة الجلوس. جلسا على فوتيلين متقابلين وراء باب الشرفة المغلق. بينها خوان عليه طبق سمح متعدد الثغرات مليء بالفواكه والنقل والشيكولاتة ودورق ماء، وقارورة اسباتس وقدح ذو حامل فضي. راحا يتبادلان النظر في اهتمام وانفعال وعلى شفطي كل منهما ابتسامة متألفة ترتعش في شيء من الارتباك. سره أن يراه رشيق القائمة مع ميل إلى الطول، وأن يرث عيني «عين» الجميلتين وأنفها الطويل السامق وجبينها المرتفع. يا له من شاب مليح عامر بالحياة والذكاء.  
 وقرّر إنهاء الصمت فقال:  
 - إني سعيد جداً برؤياك.  
 فأجاب بصوت ذكره بصوت سيّدة:  
 - وإني لأسعد يا أبي...  
 وهو يضحك:  
 - لا شك أنك تعرف عتي أشياء، لعلها غير سارة، أنا أيضاً أعرف عنك الكثير، عندي من يوافيني بالأخبار، ومن ذلك تدرك أنني لم أتناس الأهل والمكان. ولكن لندع جانباً ما يعكر الصفو، ولندافع عن سعادتنا المشتركة ما أمكن.  
 - خير ما نفعل.  
 - أنت طالب في الهندسة؟  
 - أجل.  
 - وناجح في دراستك فيما بلغني؟  
 - أملي كبير في بعثة إلى الخارج.  
 فأشار إلى الخزان يدعو إلى تناول شيء وقال:  
 - هائل! أبوك لم يحب الدراسة ولم يوفق فيها، ونسليتي في قراءة قصص الجريمة، لكن الزمن يجيء دائماً بالأحسن، كُل واشرب، ثم حدثني عن حياتك.  
 فقال وهو يصب الاسباتس في القدح:

## عصر الحب ٢٩٧

كانت فرحتها بخطابك!  
 - وانت يا سمير صارحني برأيك في عملي...  
 - إنه عمل شريف يا أبي.  
 - لعلها إجابة مدرسية!  
 - ولكنّها صادقة...  
 - ألا يسيتك أن يعلم بها زملاؤك؟  
 - إنهم يعرفون!  
 - أنت ولد شجاع.  
 - بل أنت الشجاع يا أبي...  
 - حقاً؟!  
 - تفعل ما تشاء دون اكتراث لأراء الناس!  
 وتبدلا نظرة باسمه وغامضة، وتساءل عزّت ترى  
 ألم يكن يفضّل أن يجد أباه أقلّ بدانة وأنظف  
 عملاً! وشعر بأنّه ما زال عند أول درجة من  
 درجات التعارف. وأنّ الكلفة لم تُرفع بعد بينهما،  
 قال:  
 - لا يجوز بعد اليوم أن تغيب عني طويلاً،  
 سأنتظرك كلّ جمعة...  
 فقال سمير معتدراً:  
 - أعدك بذلك ولكن بدءاً من العطلة الصيفية.  
 تلقى أول خيبة ولكنّه قال:  
 - أجل، الامتحان يقترب، فليكن، وعلى فكرة لقد  
 أعددت لك غداءً طيباً!

## ٢٣

بدخول سمير في حياته تغبّر تركيبها بعض الشيء.  
 على أيّ حال لم تعد كما كانت. وتوثقت العلاقة بينها  
 في الصيف فتحوّلت إلى معاشرة على مستوى رفيع. فاز  
 بسعادة صافية يوم الجمعة، وأغدقت عليه ذكريات  
 عذبة بقيّة الأسبوع. ومنه عرف أنه يحبّ طالبة بكلّيّة  
 العلوم تدعى رجاء وأنه سيعلم خطبته فور انتهائه من  
 الدراسة فسعد عزّت بالخبر. رحّب بالحبّ الموقّ  
 واعتبر نفسه مشاركاً فيه على نحو ما. هنأ ابنه على  
 التفوق الذي حُرّم منه طيلة عمره. ترى كيف كانت  
 تكون حياته لو تزوّج من بدرية يوم رغب في ذلك؟  
 أيّ حياة نظيفة ومستقرّة أفلتت من كليهما! ترى ألا

- هلاً حدّثني عن حياتك العاطفية؟  
 فارتبك سمير وبدا عليه أنه لم يفهم فرحه أبوه  
 وسأله:  
 - يهمني أن أعرف أنت سعيد؟  
 - أعتقد ذلك.  
 - في ذلك الكفاية، أرجو أن تكون سعيداً حقاً.  
 - أعتقد ذلك.  
 - عظيم، استمتع بوقتك فالحياة لا تبقى على حال.  
 فتفكر الشاب ملياً ثمّ سأله:  
 - وكيف حالك أنت يا أبي؟  
 - ناجح والحمد لله.  
 - أعني أنت سعيد؟  
 فضحك عزّت عالياً وقال:  
 - أعتقد ذلك!  
 - لديّ سؤال ولكنّي أهاب طرحه...  
 - صارحني بما تشاء...  
 - أنت متزوّج؟  
 - ماذا يقولون هناك؟  
 - يقولون إنك متزوّج...  
 - ومن الزوجة التي زعموا؟  
 - بدرية المناويشي!  
 فضحك عزّت مداراةً لانفعاله وقال:  
 - أتزوّج من امرأة الصديق السجين؟!... هل  
 تصوّرت أنّ أباك يرتكب فعلاً خسيساً كهذا؟  
 فقال سمير مرتبكاً:

- ربّما كانت الشهامة لا الحسنة هي...  
 فقاطعه قائلاً:

- أبوك لم يتزوّج ولم يفكر في الزواج.  
 ثمّ وهو يعاود الابتسام:

- وماذا تعرف عن عمل أبيك؟  
 - صاحب ملهى ليليّ.

- ترى ما رأيهم في ذلك؟  
 فقال سمير ضاحكاً:

- إنك أدرى بأهل حارتنا!  
 - وأدرى بجذبتك أيضاً.

- ولكنّها تحبّك دائماً، لا يمكن أن تتصوّر كيف

٢٩٨ عصر الحب

- وما الهدف من السياسة؟  
فأجاب بعد تفكّر:  
- هو هدف كلّ إنسان، السعادة!  
- ولكنّ للسعادة سبلاً أسهل وأقلّ خطورة.  
- لا أظنّ، نادراً ما يحقق إنسان ذاته وسعادته  
مثلك!  
فقال بحدّة غير متوقّعة:  
- لا تضرب بي المثل من فضلك!  
وتذكّر أمّه في إصرارها الأبديّ وجولاتها الخالدة  
فقال إنّ الولد سرّ جدّته، كلاهما مصاب بجنون واحد  
ولكنّه فريد في نوعه. أمّا حياته هو فهي السعي  
الدائب نحو سعادة لا تريد أن تتحقّق. وقد وهب  
الصحة والمال والنجاح والمرأة ويعيش مطازداً بقوة  
ماكرة خفيّة. وقال بنبرة جديدة مستسلماً:  
- أتدري يا بنيّ، يبدو أنّ أكبر خطأ نرتكبه في حياتنا  
هو الاعتقاد بأنّ الهدف هو السعادة.  
فسأله سمير ببراءة:  
- فما البديل؟  
فقال في حيرة وهو يضحك:  
- لا أدري.  
- ولكنك خبرت الناس والحياة...  
- لا أرى في الملهى إلاّ السفهاء والمجانين.  
فضحك سمير في حبور فاستطرد عزّت:  
- لعلّ النقص يكمن في أنّنا نمرّ بفترة انتقال.  
- أجل إنّ وطننا...  
ولكنّه قاطعه قائلاً:  
- أعني الإنسان، إنّه قادر على إدراك تعاسته...  
- الأمر سهل، ما علينا إلاّ أن نزيل أسباب الشقاء!  
فارتفع صوته وهو يقول:  
- صديقي حمدون فقدّ حياته وهو يفعل ذلك.  
- إنّ التضحية... حسن، لا بدّ أنّك تسلّم بقيمة  
التضحية؟  
فأجاب ضاحكاً:  
- كلّاً، إنّها حاقّة لا يبرّرها إلاّ الجنون.  
ولما انفرد بنفسه عقب ذهاب سمير قال: «آه لو  
أجد الشجاعة للاعتراف بخطيئتي!».

تخطر لها مثل هذه الخواطر أحياناً؟ أمّا الذي أزعجه  
حقاً فهو اهتمام ابنه الواضح بالسياسة. أصبحت  
السياسة مقرونة في ذهنه بالخيانة والجريمة والضياع.  
قال له مرّة:  
- السياسة شديدة الخطورة يا سمير.  
- ألم تشغل بالك أبداً؟  
- كلّاً.  
- وتظنّ أنّه لذلك توقّرت لك السعادة؟  
خطف منه نظرة فقد حسبه يسخر منه ولكنّه وجده  
جاذباً بريئاً. قال متهمّاً:  
- لقد قضت السياسة على صديقي الوحيد في هذه  
الدنيا.  
- حمدون عجرفة؟  
- أجل، أسمعت عن جماعة أبناء الغد؟  
- طبعاً.  
- إنّها للمأساة حقّاً.  
فقال سمير باسماً:  
- ومأساة أيضاً ألاّ نهتمّ بالسياسة.  
- كان يرّد ذلك، ألاّ يكفيك أن تكون مهندساً  
وربّ أسرة؟  
- لا هندسة ولا أسرة بلا سياسة!  
- مرحى... مرحى... يوجد ما هو أهمّ.  
- حقّاً؟  
- يطيب لي في أوقات فراغي النادرة أن أتساءل عن  
معنى حياتنا!  
- ولكنّ السياسة تعطيك الجواب!  
فضحك عزّت عالياً وقال:  
- لا فائدة، ولكنّ معذرة فقد أصبحت من رجال  
الماضي؟  
- ما زلت شاباً!  
ابتسم عزّت بمرارة. ابنه لا يدري ماذا يقول. لا  
يرى هذا الكرش. ولا هذه التجاعيد المبكرة تحت  
عينين أضناها السهر والشراب والمخدّر. ولم يعرف  
شيئاً عن الخطاب الغفل من الإمضاء، ولا عن احتقار  
المطلّقة المهجورة له وإيثارها لحيوان طاعن في السنّ.  
وعاد يسأله:



على الكثيرين، والمطاردة جاذبة في إدراك الهاريين. وإذا بالبيان يشير إلى حقيقة جديدة ما إن أطلع عليها حتى تردى قلبه في هاوية... بل نذت عنه صرخة مدوية في شقته الخالية. ثمّة كلام عن سمير عزت عبد الباقي. عضو البعثة الهندسية بإنجلترا. الذي هرب من إنجلترا في اللحظة المناسبة إلى مكان مجهول. راح يتمشى مهرولاً بجسمه البدين ويتساءل في ذهول «سمير عضو في جمعية أبناء الغدا! سمير هرب إلى مكان مجهول! هل يختفي سمير إلى الأبد! هل يلتهم الضياع والتشرّد في الغربة؟! ها أنت تتنعم منّي يا حمدون عجزة. إني خير بهذه الألاعيب القاتلة التي تصادفنا ونحن نجد في سبيل السعادة! عزت وسيدة وعين ينصهرون في بوتقة تعاسة واحدة. يا لها من الألعيب قاسية مجنونة يجرّكها شيطان ساخر... وشرق بالدمع فجقّف عينيه بالمندبل الحريري المطرز ركنه بالحرفين الأولين من اسمه. وقال له فرج يا مسهل معزياً:

- حظّه على أيّ حال أسعد من الذين قبض

عليهم...

- لا أدري... إني واثق من شيء واحد فقط وهو أنني لن أراه مرّة أخرى في هذه الحياة...

فقال الرجل بتسليم:

- لا يعلم الغيب إلا الله... هلاً زرت الست الكبيرة؟

خطر له هذا وهو غارق في حزنه... أن يزور عين وسيدة... ولكنّه سرعان ما نبذ الفكرة في غضب ونفور. ليس الوقت بالمناسب للتمثيل والحركات الهلوانية. إنه يعلم الآن بما قُدّر عليه. أن يقلع عن أحلام السعادة السخيفة، أن يتسوّل رؤية لن تتحقّق، أن ينفذ حكماً بالأشغال الشاقة المؤبّدة وهو قائم بين السكاري وطلّاب اللذة.

\*\*\*

وزحف عليه تعب من نوع جديد شمل الرأس والأعضاء. وعان من صداع لم يعرفه من قبل ربّما كانت الفائدة الوحيدة لذلك الألم الوحشيّ أنّه أجبره - ولو إلى حين - على تناسي أزمته الأبوية، وآلا يفكر في

تخرّج سمير مهندساً. أعلنت خطبته على رجاء. اختيار لبعثة مدتها عامان في إنجلترا. دعا عزت ابنه وخطيبته للاحتفال بهما في شقته. أعجبت الفتاة. غراه جو الخطبة حتى الأعماق. حنّ فجأة إلى حياة زوجية مستقرّة. وجد في حنينه المباحة فكرة جديدة، مأكرة، ولكنها قوية أسرة. لكن أيّ عروس تناسب رجلاً في سنّه؟ إن نفسه تعاف النساء اللاتي يزرن شقته من آن لأن. يريد أن يرفع النقاب الأبيض عن وجه بريء في ميعة الشباب. لعلّ ذلك آخر ما ينتظره من سلسلة المغامرات الجنونية. وهبط عليه الإلهام الذي يسبق الإقدام. إنّه يتذكّره وهو به خبير. غير أنّ ينايحه جفّت وهو يودّع سمير. قبله وهو يقول:

- ليس من اليسير أن أصبر عامين.

وخلت دنياه من الكائنات والحياة. كما خلّت يوم اختفاء بدرية، ومن عجب أنّه توتّب رغم ذلك لتحقيق حلم الزواج الطارئ.

\*\*\*

يقول الراوي:

إنّ الحوادث لم تمهله، كعادتها معه دائماً. تجميء إذا جاءت منقضة كأنما لتفرغ من مهمتها في أقصر وقت. فذات صباح جذب بصره هذا العنوان في الجريدة «القبض على فرع لجماعة أبناء الغدا». ولأسباب تاريخية ليس إلا... سرت في بدنه رعدة شديدة واجتاحه شعور بالتشاؤم عميق. وقرأ التفصيلات باهتمام مركّز لا يتفق وما عرف عنه من لامبالاة إزاء ذلك النوع من الأخبار. إنّه يتابع الأخبار هذه المرّة وكأنما هو عضو في هذه الجماعة المخيفة، وكأنّ من قبض عليهم من الشبان أقرانه، وما ضُبط من منشورات هو شريك في تحريرها وطبعها وتوزيعها. ونشر خبر القبض على الفرع باعتباره أوّل نصر يحقّقه جهاز الأمن في ذلك المجال، وإنه الخيط الذي سيؤدّي حتماً إلى أوكار الجماعة حيثما وجدت. ومضى يهش الذكريات المعتمة عن خياله المريض، ويلعن الضعف الذي اعتور أعصابه. ولكنّه تابع الأخبار يوماً بعد يوم حتى صدر البيان الرسمي عن الموضوع. لقد قبض

ملا بسه الداخلة والخارجية، وتبدى العالم متغير اللون، باردًا، لا يجي ولا يرد تحية. ورجع للتفكير في سميرو ولكن من خلال استسلام شامل. وحرص على الحياة رغم كل شيء فاحترم الرجيم والدواء ومواعيد التردد على العيادة. وهجر الكأس ولكنه لم يهجر الجوزة.

وأعاد تفصيل ملا بسه. رجع رشيقيًا كما بدأ. انتشر المشيب في رأسه وحاجبيه وشاربه. بدا كهلاً وقورًا يتنافر وقاره مع بيته وعمله. وكلما تذكر أنه جاوز الخمسين يدهش، لا يصدق، يستحضر مناظر خالدة في خيلة الياسمين أو كتاب الشيخ العزيزي أو تمثيل مسرحية روميو وجوليت في الحارة. كان يظن أن ذلك يحدث للغير فقط. فالظاهر أن التاريخ صادق فيما يؤكد من مرور أقوام في القديم وذهابهم. وحتى متى نسلم بذلك ونذعن له؟ ولكن شكرًا للعادة فقد قتلت كل حزن وكل فرح. ولعله من الخير أن نترك الدنيا بعد أن نضيق بها مللاً.

\*\*\*

وماذا عن الحارة؟

إن المخبر مستمر في رواية الحكايات. ما زالت سيده منطوية في الدار، منطوية على أحزانها. ما زالت عين مصرة على نشاطها. لكن هيهات. لم تعد تخرج إلا مرة واحدة في الأسبوع. كتمثال للشيخوخة الخالدة. وتسير إذا سارت بصحبة خادمة. ترى ماذا بقي من الذاكرة والإرادة والذكاء؟ وأي الحزين أشد عليها حزنها على عزت أم حزنها على سميرو؟ وما رأي إيمانها الراسخ في هذه الأحوال الغريبة؟! هل لقي الموت مقاومة أشد مما لقي على يدي عين؟!!

٢٥

يقول الراوي:

إن عزت عبد الباقي لم يتوقع جديدًا إلا أن يكون إنزال الستار وإطفاء الأنوار. ولكن فرج يا مسهل زاره في شقته ذات صباح من أيام الخريف وقال له:

- عرفت خبرًا غريبًا لعله يهكم أنت أكثر من جميع الناس.

شيء سواه. ولأول مرة يقصد عيادة طبيب. واكتشف أنه يعاني من ارتفاع كبير جدًا في ضغط الدم. وعملاً بمشورة الطبيب وافق على دخول مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية ليظفر برعاية متصلة حتى يزول الخطر. وهدف العلاج إلى تخفيض الضغط وإنقاص وزنه عشرين كيلو عن الأقل. وأشرف فرج يا مسهل على الملهى، وكان يزوره باستمرار، وكان يقول له:

- دعني أخبر الست عين.

جعله هذا الاقتراح يستشعر الخطورة ويفكر في الموت. تخيل عين جالسة مكان فرج يا مسهل. كلاً إتها لن تفارق الفراش. سينال عليه سيل فياض بالدعوات المباركات والآيات الشريفة. ستقول له أن لك أن تغير حياتك، ستقول له أيضًا إنني أعرف سر هذا الشقاء كله. ورغم حنينه الطارئ المستفحل بالرقاد والتفكير في الموت فإنه لم يستسلم.

قال:

- لا تخبر أحدًا، لا عين ولا أحدًا في الملهى...

- ترى ذلك؟

- نعم... نفذ بكل دقة... لا عين ولا أي

راقصة ولا أي قواد!

وأخذ يتلقى التحذيرات عن البدانة والطعام والشراب، نهاوت الحصون التي يجتمعي بها من الحياة وأطوارها الغريبة. يجردونه من أسلحته، ويتحالف المرض مع العقوبات المفروضة، ومن عجب أن رأى في نومه قسط الست عين في الحديقة، ورأى بينها بركة ههونها السامخ، وتمهل لذلك سرورًا وظن أنه سيفاجئ عين بالخبر السعيد وهو أن بركة حية لم تمت كما توهمت وأنه ما كان يجدر بها أن تبكي. واستيقظ ليلتها عند الفجر بقلب ثقيل بخلاف المتوقع، كمن يرجع من رحلة طويلة عقيمة، فخطر له أن الدنيا قطة وأنها تاكل صغارها وقال بصوت مسموع في سكون الليل:

- إذا كان شارع دوبريه والإنليزيه سجنًا فالحارة

ليست إلا زنزانة!

\*\*\*

وغادر المستشفى نحيلًا هزيلًا ولكن سليًا. تهذلت

## عصر الحب ٣٠١

والعوامة معدة على هيئة صالة، باللغة الأناقة مرتفعة الأسعار. تشهد لمن أسسها بالذوق الجميل والبراعة في الخيال. اتخذ مجلسه وراحت عيناه تجوسان في الأركان والصفوف والمسرح، إن صحَّ ظنُّه فحجرة الإدارة تقع فوق السطح ويوصل إليها بهذا السلم الخلزوني المفروش بالبساط الأحمر. طلب زجاجة شمبانيا. كان الوحيد المنفرد بنفسه. لماذا جاء؟ ولماذا لا يجيء؟ وغنى شابَّ بطريقة الإفرننجواراب. تلاه مونولوجست، ثم راقصة. هل تمضي الليلة دون ظهور بدرية؟! كان ينظر من آن لأن إلى السلم الخلزوني. انتبه على طقة حذاء. أخذ الجسم يظهر رويدًا فوق السلم الخلزوني من أسفل إلى أعلى حتى استوى عند رأس الصالة، بدرية المناوشي، وقفت تراقب وتلاحظ. مديرة بكل معنى الكلمة، فراح يتفحصها. كان يتوقَّع تغيرًا ولكن غير هذا التغير المائل. بدينة مثل امرأة عمدة. ريانة الوجه بدرجة تدعو للنفور. جفَّ الماء العذب وانطفأ التألق. في مثل عمرها يحتفظ نساء بآثار جمال ولكنَّها لم تحتفظ بشيء. ثم ما معنى هذه النظرة في العينين المكحولتين؟ ليست طبيعية، مريضة؟ مهزوزة الأعصاب؟ فاقدة الذاكرة؟! حكاية تاريخ طويل تعيس! مرَّت به عيناها فلم تقف عنده. من الأفضل أن يتجاهلها وأن يتحاشاها. ولكن ها هي تتهادى في المشي الجانبي. ورغماً عنه لم يهرب منها بعينه. لقد جاء وعليه أن يتحمَّل المسئولية. لم يعد يفصلها عنه إلا متر. تلاتت العينان. ابتسم اضطرارًا. وقفت مبهوتة لا تصدق عينها. وقع المقدور. زحزح كرسيه ووقف. همست:

- يا ألطاف الله ...

مدَّ يده فتصافحا. أشار إلى الكرسي الخالي هامسًا بدوره:

- تفضلي ...

فجلست وهي تتمتم:

- يا حسين مدد!

فضحك عزت متسائلًا:

- أطلب لك كأسًا؟

- كلاً... نسيتُ عاداتها... وأنت لم تشرب بعد؟

فقال عزت ساخرًا:

- لك الملهى وما فيه إن استطعت أن تشعل اهتمامي!

- لكنَّه خبر يُحكى على أي حال.

- ما هو؟

- بدرية المناوشي نجمة مسرح القديم...

من أي صمت يخرج هذا الاسم! نجمة مسرح القديم. لم يحدث أي رد فعل. نجمة يتهادى ضوؤها إليه من خلال أعوام طويلة طويلة، وكالنجوم تشكّل ذكرى متألفة وحاضرًا مجهولًا. أي معنى للخبر؟ لا معنى على الإطلاق ولا أهمية. تساءل بفتور:

- ماتت؟

فضحك يا مسهل وقال:

- كلاً، يقال إنَّها ترملت منذ عامين أو نحو ذلك، وإنَّها ورثت مالاً سائلاً لا بأس به، ولكن أتدري كيف استثمارته؟

- كيف؟

- أسمعت عن ملهى زهرة النيل الليلي؟!!

- هو ملهى في عوامة فيما أعلم.

- بدرية صاحبتة ومديرته!

ابتسم ابتسامه بلهاء، تتمم:

- مدهش!

- ربّما تكون قد حتت إلى أصلها أو قريب منه.

- أو أنّها خافت الوحدة والكهولة ...

- الأرجح أنّها اختارته لضمان الريح ...

وضحك عزت. عزت صاحب ملهى الإليزيه

وبدرية صاحبة ملهى زهرة النيل!

\*\*\*

بدافع الفضول، بدافع الضجر. قرّر أن يسهر ليلة في زهرة النيل. قال لنفسه عرفت الآن لم يرغب الناس في زيارة الأثار. استعدَّ بحمام فاتر، بدلة أنيقة، حلق ذقنه وسوى شاربه وشعره، مضى إلى زهرة النيل. أعمارنا متائلة... حمدون وأنا وبدرية وسيده وكل أخذ نصيبه بالعدل. من المسئول عن تعاسة الجميع؟ أنا؟... حمدون؟... بدرية؟... سيده؟... أما كان يجب أن نحاكم؟!

## ٣٠٢ عصر الحب

- ولن أشرب، ولكن بسبب المرض...  
- سلامتك... ليست صحي على ما يرام أيضًا...  
ولكني لم أتوقع أن أراك أبدًا. الظاهر أنه مكتوب على الأحياء أن يتلاقوا.  
انقبض قلبه، تذكر المطارد الغائب، تتمم:  
- ليس دائمًا...  
- ماذا جاء بك إلى ملاهي الشباب؟  
فقال دون مبالاة:  
- جئت لأراك!  
- كيف عرفت؟  
- أهل الخير كثيرون.  
- دهشت طبعًا، ولكن يوجد أكثر من سبب، وأنت ماذا تعمل؟  
فقال وهو يضحك:  
- صاحب ملهى الإليزيه...  
فضحكت ضحكة عالية غير مبالية بالرواد!  
فقال:  
- تحويل مسرح إلى ملهى ليس بالمسافة الطويلة، ولكن أنت؟!  
- أسباب كثيرة منها حلم سخيّف بأن أقدم مسرحيات قصيرة وأمثلها.  
- جميل أن يعاودك الحنين إلى التمثيل بعد ذلك العمر الطويل!  
- مجرد حلم سخيّف.  
- وكيف كانت حياتك الماضية، أعني منذ فارقتنا؟  
فقالت مقطّبة:  
- غاية في التعاسة، بين زوج لا رجاء فيه وكراهية أبنائه وأهله لي! وأنت متزوج طبعًا؟!  
- كلاً، كما تركتني...  
- أخطأت يا عجوز.  
- حياتنا مليئة بالأخطاء!  
- صدقت، تسليتي أن أراقب المجانين من عشاق الملهى.  
- إنهم مضجرون في النهاية...  
- ولكن لا حياة لنا بدونهم، كيف حال ابنك؟  
أجاب وهو يخفي انفعاله:  
- عال... مهندس قدّ الدنيا...  
- برافو... هذا أهم شيء في الدنيا...  
- ليس في الدنيا شيء مهم!  
وهي تتهدّد:  
- أتتذكر أيام الحارة؟  
- تجدينها الآن سعيدة؟  
- أجل... وأيام المسرح الناجحة... وحياتي القديم... وأمي وهي تخلّل الليمون، ترى أما زالت المرأة على قيد الحياة؟!... على فكرة ما أخبار ستّ عين؟  
- بخير.  
- برافو!... ليتني أزورها ذات يوم... وأنت مقيم في دارها؟  
- لم أرها منذ فارقت الحارة...  
- يا خبر! يا ويلنا من أمنا في يوم القيامة!  
فقال ببرود:  
- اختلفت الطرق.  
- طبعًا، من الفنّ الخائب إلى الملاهي الليلية، نحن نمتّ إلى طبيعة واحدة، وقد تخلّصنا في الوقت المناسب من العضو الصالح!  
فقال بامتعاض:  
- هو الذي تخلّص منّا.  
- سيخرج قريبًا إذا لم يكن قد خرج، ترى متى يخرج؟  
- لم أعد أذكر شيئًا.  
- ألا تتوقع أن تراه؟  
- لا أظنّ، وأنت؟  
- لا أهمية لذلك، ولكن ما الذي جاء بك إلى هنا؟  
- قلت كي أراك.  
- أجل، أما زلت تذكر حبّك القديم؟  
فابتسم ولم يجب. فقالت بحدّة:  
- الحبّ كذبة وضيعة، لثيم مخادع، يجتيل إليّ أنني لم أحبّ إلا المسرح.  
- حقًا؟!... رغم أنه جاءك عرضًا؟  
- لكنني أحببته، لم أخلّ عن حبّه، في أيامي الزوجية التعيسة كنت أتعرّى بالانفراد بنفسني وترديد

## عصر الحب ٣٠٣

- بعض الأدوار .  
 - تعزية مبتكرة .  
 وهي تضحك بقحة :  
 - لقد كنت وغدًا، وكان حمدون بطلاً، ثم ماذا كانت النتيجة؟!  
 فقال بحدّة لم يستطع تهذيبيها :  
 - وكنت الشيطان وراءنا!  
 - لو تزوّجني الشيطان لكان التوفيق نصيبنا فهو خير من أمثالكم من الرجال . . .  
 فما تمالك أن ضحك وزايه التوتّر. تساءلت :  
 - لمّ لمّ تنشأ على مثال أمك الكريمة؟  
 - أمي مثال لا يتكرّر .  
 فضحكت ضحكة عجزية دون مناسبة وقالت :  
 - ليست أمك وحدها بالمثال النادر، اسمعني جيّدًا واحكم بنفسك .  
 هزّت رأسها المصبوغ برشاقة ثم راحت تقول في أناة وتجويد وبصوت منخفض :  
 - أيها الأصدقاء، أيها الرومانيون، أيها المواطنون، أعيروني أسماعكم : «إني جئت لكي أدفن قيصر لا لكي أشيد بذكره» .  
 فابتسم كالحالم وتمتم :  
 - جميل!  
 فانتفضت بتشجيعه وواصلت بصوت ارتفع درجة عن سابقه :  
 - «إنّ ما يفعل الناس من شرّ يعيش بعدهم . أمّا الخير فغالبًا ما يُطمر مع عظامهم» .  
 التفت الجالسون حول المائدة القريبة نحو الصوت وعلت الابتسامة وجوههم، شعر عزّت بشيء من الحرج، غير أنه همس وكأتمًا ليغريها بالرجوع إلى الهمس :  
 - كلّ شيء سيطمر مع العظام .  
 لم تنتبه لقوله، سكرت بنشوة الفنّ والذكرى .  
 اجتاحتها موجة تمرد واستهتار، جلجل صوتها في جناح الملهى وهي تنشد :  
 - «جئت أتكلّم في ماتم قيصر، كان صديقي، وكان وفيًا لي، منصفًا معي؛ لكنّ بروتس يقول إنّه كان طمّاعًا وبروتس رجل شريف» .  
 أحدقت بمائدته الأعين، واشربّت الأعناق من الجناح الآخر، انتقل المسرح الحقيقي إلى ركنه، التهب جبينه ارتبأتمًا وحياءً، قال برجاء :  
 - فلنذهب إلى حجرة الإدارة!  
 لكنّها كانت قد تجاوزت الزمان والمكان، وقفت بهيئتها الداعية للثناء وقفة شموخ وتحذّر، وهتفت بصوت هزّ القلوب والأركان :  
 - «حتّى الأمس كانت كلمة قيصر قادرة على أن تصدّ العالم . والآن ينطرح هناك لا تبلغ المسكنة بأحد أن يخضّه بتكرمة» .  
 دوى المكان بالتصفيق، تصفيق الإعجاب والمجاملة والثناء والسكر . وقال لها عزّت بتوسّل :  
 - حسيك . .  
 فقالت بظفر أبله :  
 - ما علينا إلّا أن نعود للمسرح .  
 فقال اتّقاء لغضبها :  
 - سافكر في ذلك .  
 - معنا المال، سيرجع حمدون، ماذا ينقصنا؟!  
 - عظيم . . . عظيم . . . عظيم . . .  
 - تعاملني كطفلة؟!  
 - أبدًا .  
 بحدّة وحقق :  
 - لماذا جئت؟  
 - يجب أن نكون أصدقاء .  
 - إنك أسوأ ذكرى في حياتي .  
 - الله يساعك . . .  
 - وغد جبان .  
 - الله يساعك يا بدرية .  
 - اذهب ولا تعد!  
 وصدع بالأمر فقام ومضى يتسلّل بوجودان يشتعل . أمّا هي فعادت تخطب بقوة :  
 - «أيها الأصدقاء، أيها الرومانيون، أيها المواطنون، أعيروني أسماعكم، إني جئت لكي أدفن قيصر لا لكي أشيد بذكره» .

- عزت عبد الباقي؟

- أنا هو... من حضرتك؟

- أما زلت تذكر حمدون عجرفة؟

خفق قلبه مستدعيًا خليطًا من الانفعالات  
المضطربة، لكنّه هتف:

- حمدون!

- نعم... .

- لا أصدق... أيّ فرحة... مبارك... .

مبارك... مبارك... أين أنت الآن؟... تعال بلا

تردد... إني في انتظارك... .

\*\*\*

كان قد مضى على تجربة زهرة النيل شهر أو شهرين  
وأيام. وجلس ينتظر بقلب كئيب ونفس رافضة حانقًا  
على الماضي الذي لا يريد أن يموت. وخیل إليه أنه  
يستمدّ من عذابه قوة ستغيّر كلّ شيء وأنه سيرفض ذلك  
الأسر المقيم.

وأقبل حمدون عجرفة:

أقبل رجلًا آخر كما توقع ولكنّه فاق توقّعه، لم يكذب  
يعرفه. رآه لأول مرّة أصلح، وعينه اليسرى أضيق من  
اليمنى. على حين وشت مشيته الواهنة ورجله اليمنى  
المتصلبة بشلل أصابه ذات يوم... تجسّد له إثمه  
القديم مكشّرًا بغضبًا فاستلّ من نفسه أيّ حنان كان  
جديرًا أن يمسّ أوتار وجدانه. اجتاحت عاصفة في  
الخفاء وهما يتعانقان. استفزّه ذلك إلى مزيد من  
التفكير في البحث عن حياة جديدة. يريد أن يذهب  
كما يتعطش إلى رؤية سمير، وجلس في فوتيل مقابل،  
في موضع ابنه المختار، وتبادلا النظر هو مبتسمًا،  
والآخر جامدًا أو عاجزًا بفيه المعوج قليلاً من  
الابتسام. قال عزت بابتهاج:

- الله وحده يعلم بمدى فرحتي بلقائك.

فقال حمدون بصوت منخفض:

- توقّعت ذلك، لست على ما يرام، ولكن يسعدني

أن أراك في صحّة جيّدة... .

فقال عزت كالمحتج:

- بل أصبحت بدوري أنا مريض، ليس هذا هو

المهمّ، كلانا وراءه حكاية وسيتيح لنا الوقت تبادل

فرّ وهو يجفّف عرق وجهه بمنديله. أيّ حماقة ساقته  
إلى زهرة النيل؟ لمّ لمّ يعمل بالحكمة التي تجعلنا  
نواري الجثث في المقابر؟ ما كان أغناه عن تلك  
التجربة الأليمة التي انغرزت في عظامه، ألم تكفه تجربة  
سمير الضائع المشرّد؟ وانفرد بنفسه في حجرة الإدارة  
وراح يفكّر في حياته.

لم تكن أوّل مرّة ولكنّه كان مثارًا لحدّ الإلهام. ضاق  
أوّل أمره بالفراغ ولكنّه استبدل به عملاً لا يؤمن به.  
أليس كذلك؟ لم يكن من رجال المسرح، ولا هو من  
رجال الملاهي الليلية. العمل يمثّل في حياتي مهربيًا من  
شيء أو طمعًا في شيء أو انتقامًا من شيء. أمي أوّل  
من دفعني إلى الانحراف وهي الخير الصافي. لست  
قادرًا على فهم هذه الأمور أو هضمها. وما ينقصني  
حقًا فهو راحة البال. ما ينقصني حقًا هو الرضا عن  
النفس. هل يوجد حقًا ما يسمونه بالرضا عن  
النفس؟! كيف يبلغه الإنسان؟ وأين أجد الجواب  
على هذا السؤال؟! وما جدوى الأسئلة وأنا مستسلم  
لتيار الحياة اليومية؟! وخطر له أن يسأل فرج يا مسهل  
وهما يدخنان معًا في شقته عقب التشطيب، سأله:

- أنت سعيد يا عمّ فرج؟

فأجاب الرجل صادقًا:

- بفضل الله وفضلك.

أدرك أنّه لم يفهم قصده فعاد يسأله:

- ما أهمّ شيء لتوفير السعادة؟

- الصحّة!

- ولكنّها وحدها لا تكفي.

- والرزق!

- ولا شيء آخر؟

- الزوجة والأولاد.

لقد ضاق بها جميعًا وفرّ منها إلى المجهول. ولو شاء  
أن يبقى ويتزوج من أخرى لفعل. كلًّا، الأمر أشدّ  
تعقيدًا مما يتصوّر فرج يا مسهل.

\*\*\*

ودقّ جرس التليفون ضحى يوم في شقته:

- ألو؟

## عصر الحب ٢٠٥

- إني صاحب الرسالة...  
ارتسمت الدهشة على وجه حمدون وتساءل:  
- أي رسالة؟  
- رسالة الاتهام التي أرسلت إلى المحقق عقب القبض عليك!  
ساد صمت كثيب ثقيل. رماه بنظرة بليدة،  
تساءل:  
- أنت؟!  
- نعم... وأعرف أنك اعترفت قبل وصولها  
ولكنني أنا الذي أرسلتها...  
ازدرد ريقه وسأله:  
- لم؟  
- خدمة للعدالة في الظاهر ولكن لاستولي على زوجتك في الحقيقة!  
فتساءل حمدون بغموض:  
- وتزوجت بدرجة؟  
- كلاً. ليس بوسعنا أن نسيطر على خطة كاملة، إذ إن غيرنا يشاركنا ونحن لا ندري في تأليفها.  
وساد الصمت كغلاف لانفعالات شتى ولكن عزت رجوع من مغامرته الجنونية بشيء من الهدوء... وكثير من الاستسلام، حتى إنه سأله في النهاية:  
- ما رأيك فيما سمعت؟  
فأجاب بازدياء:  
- إنك قذر ولكنك لست أقذر من كثيرين...  
ولم يغضب، تلقى الدم ضمن سيال مرتعش من نشوة مبهمة. ووقف على حافة التحدي بقلب لا يخلو من جذل وإلهام... وإعراباً عن حاله الجديدة قال بصوت لا أثر للاستياء فيه:  
- أمامنا فرصة لنسيان الماضي.  
فتساءل حمدون بوجوم:  
- ألم يكف ربيع قرن للنسيان؟  
- كلاً.  
- ماذا تقصد؟  
- أن نعالج أمورنا بروح جديدة.  
- أتريد أن توحد مصائرنا مرة أخرى؟  
- بعزيمة صادقة.

الحكايات...  
فقال حمدون بهدوء وثبات:  
- ولكنك أنجبت ابناً رائعاً!  
فتأثر عزت متأثراً عميقاً غطى على دهشته وتساءل:  
- من أدراك به؟  
- لا شيء يمتنع عمن وراء الأسوار.  
- ماذا تعلم عنه؟  
- فلم يزد عن قوله:  
- إنه فتى رائع...  
- سرعان ما فقدته.  
هز رأسه نفياً ولم يعقب... ترى هل يعرف عن سمير أكثر منه؟ واندفع ربما دون تدبر ليخرجه من تزمته فقال:  
- آخر أخبار بدرية أتمها تعمل مديرة للمهوى ليلى...  
«زهرة النيل»...!  
ولكنه لم يتأثر. تساءل بلا مبالاة:  
- كيف حالها؟  
- شاخت وخرفت!  
- نهاية طبيعية وإن جاءت قبل الأوان بقليل...  
- لترجع إليك... ما مشروعاتك عن المستقبل!  
- لا شيء!  
رغم توقعه لذلك فقد حنق غير أنه قال بنبرة ودية:  
- لا تحمل همًا... ولكنك لست على ما يرام.  
- أصبت من أعوام بشلل نصفي، ولست أمل في تحسن أكثر مما بلغت.  
- يا للأسف... ولكن الأمل موجود... لا شك أنك متشوق للتأليف؟  
- لا قدرة لي على تأليف جملة واحدة.  
- على أي حال لا تحمل للرزق همًا...  
فقال ممتناً:  
- نعم الصديق أنت!  
سرعان ما حدث تغير في صورة انفجار، بلا تمهيد ولا مناسبة ظاهرة. خرج به عن الزمان والمكان. ألقى به في جحيم فتوَّب بإرادة من حديد وحطم حاجز الكذب. وقف كصاروخ، وقال بصلاية ورفض كالمجنون:  
- بعزيمة صادقة.

فقال بازدرء:

- إنك تبحث عن كفارة وإني أحتقر ذلك.

- لم جتني؟

- لم يساورني فيك شك.

- لقد حططنا أنفسنا فيما مضى وعلينا أن نحاول

البناء.

٢٧

يقول الراوي:

إن عزت صار شخصاً آخر. منذ ذهاب حمدون  
تواجد عزت الأول وعزت الآخر متجاورين في مكان  
واحد. صورتان متطابقتان تماماً غير أن الأول رمق  
الآخر بدهشة وحيرة، توجس منه خيفة واعتقد أن  
الآخر يتوجس منه خيفة أيضاً. وتساءل كيف يمضي  
التيار بهما وهما في قارب واحد؟ لقد اعتاد أن يفرد  
برأيه ربع قرن من الزمان وذاك الآخر يتصرف تصرف  
الشركاء ويعتد بنفسه لحدّ التحدي. وسمعه يقول:

- لن أستمّر. . .

فسأله بحذر:

- ماذا تعني؟

لكنه لم يجبه. لم يبذ عليه أنه يهتم بوجوده أو يشعر  
به. فقال وكأنه يخاطب نفسه:

- لن أستمّر، أصبح ذلك مستحيلاً . . .

وإذا به يندفع في إجراءات لم تجر على بال الأول،

قال لفرج يا مسهل:

- إني ذاهب، لك أن تدير الملهى إذا شئت.

وحدجه فرج يا مسهل ببصر ذاهل فقال الآخر:

- سأبيع أثاث شقتي والتحف وخلافه.

فقال له عزت الأول:

- لا حق لك في شيء من ذلك.

ولكن الآخر تصرف تصرف المالك الأوحده. وأدرك

الأول أنه لا يقبل له بمعارضته فأوعز إلى فرج يا مسهل

بإطاعته وأن يوهمه بأنه يصدع بامرته وأن يبقى كل شيء

على حاله. وأخيراً عانق الآخر فرج يا مسهل وهو

يودعه فقال عم فرج:

- رجوعك إلى الحارة هو ما اقترحتة عليك من بادئ

الأمر.

فدهش الأول وسأله:

فقال بازدرء أشد:

- علي أن أبصق على وجهك. . .

فابتسم عزت وهو نشوان بقدرته على الاحتمال:

- إني مسئول عنك.

- إنك لا تستطيع أن تحمل مسئولية حشرة.

- بل يجب أن تعيد التفكير.

- لن أراك بعد اليوم.

- كيف تواجه الحياة؟

- هل طرحت هذا السؤال على ابنك؟

تغلغل الألم حتى جذور قلبه فأمسك عن الكلام

على حين واصل حمدون قائلاً:

- أيّ تسامح من ناحيتي يعني أن عمري ضاع

هباء.

فقال عزت بأسى:

- إني أفكر في بناء جديد يتسع لحياة صحية تضم

حمدون وعزت وبدرية وسيدة.

- نحاول أن نجعل منا أدوات لخلق السلام لنفسك

كما سبق أن جعلت منا أدوات تخريب لتشيد فوق

اطلاقنا السعادة التي رفضتلك.

فقال عزت بحرارة:

- لقد نلت الجزاء وأكثر. . .

- لو صح ذلك ما فكرت فينا قط.

وأخذ حمدون يقوم معتمداً على عصاه الغليظة ذات

الكعب المطاط فقال عزت برجاء:

- نخل عن عنادك.

استقام ظهره على مهل. . . تحرك للذهاب. . .

تساءل عزت:

- كيف تواجه الحياة؟

فقال وهو لا يتوقف:

- كما يواجهها ابنك.



## عصر الحب ٢٠٧

الذابلتان. لعل التاريخ اقتحمها في دقيقة واحدة،  
ولكنها غمغمت أخيراً:

- تفضّل في الشرفة فالجوّ هناك ألطف.

إنّه الأصيل وآخر الخريف ولكنّ اليوم دافئ وجلس  
على الأريكة القديمة، كل شيء تغيّر إلا الدار. وهناك  
الخميلة التي شهدت عبث الطفولة. وتساءل الآخر:

- أين أمي؟

- في حجرتها.

- ألم تدرِ برجوعي؟

سمع أنفاسها بدلاً من الجواب فكّرر السؤال.  
قالت:

- إنّها لا تغادر الفراش.

- مريضة؟!

- كلاً... إنّه العمر...

- كان يجب أن تقوديني إليها.

- يجب أن تعرف أشياء قبل ذلك.

فرمقها متسائلاً فقالت:

- لقد فقدت البصر.

قلّب الآخر منزعجاً، وأدرك الأزل ما غاب عن  
فرج يا مسهل. واستطردت سيّدة:

- وفقدت أيضاً السمع!

وقف الآخر مضطرباً متسائلاً:

- ألم يعالجها طبيب في الوقت المناسب؟

- بلى، أقلّ ما يجب، ولكنّها إرادة الله.

وقال الأزل بحزن:

- لا عودة بلا ثمن.

\*\*\*

اندفع الآخر إلى حجرة عين. رأى وجهها فوق

الغطاء الأخضر على الفراش العتيق ذي الأعمدة

الأربعة. انحسر المنديل الأبيض عن خصلات فضيّة.

انطرح الوجه نحيلاً طويلاً محتّطاً بالشيخوخة. هتف:

- أمي!

وانكبّ على جبينها فلماها في وقت واحد. نلّت عنها

حركة رقيقة وهمست:

- سيّدة؟!

فقال الأزل مخاطباً الآخر:

- أنرجع حقاً إلى الحارة؟

وتجاهله الآخر كعادته ومضى إلى التاكسي، وقبل أن

يتحرّك التاكسي قال الآخر لفرج:

- قلبي يحدّثني بأنني سأحظى ذات يوم برؤية ابني

سمير.

فقال العجوز:

- وستجده على خير ما تتمنى له.

\*\*\*

مضى التاكسي في طريقه إلى الحارة. الآخر متخذاً

مجلسه داخله والأول يتبعه عن كثب. وقف التاكسي

عند المدخل فدخل الاثنان الحارة مشياً على الأقدام.

دهش الأزل وقال لنفسه ليس من سمع كمن رأى.

شدّ ما تغيّرت الحارة. جدّدت أرضها فحلّ الأسفلت

محلّ الحجارة. رشقت المصابيح بالجدران. اختفت

الخرائب وشيّدت مكانها مساكن ومدرسة. حقاً إنّه

تبدو جديدة. فتياتها يخطرون في القساتين سافرات. لم

يبق على حاله إلا القبو والحصن القديم فوقه. عمارات

ستّ عين طليت من جديد. أمّا باب دارها فلاذ بمكره

تحت التمساح المحتط لا ينمّ أديمه الخشن عن الفردوس

المترامي وراءه. لم يتبته لها أحد. لم يعرفها أحد.

غريبان في حارة غريبة، سأله:

- ألم يكن الأوفق أن نساغر إلى الخارج؟

لكنّ الآخر طرق الباب. دخل بثقة كمن يدخل

بيته. عرفته خادمة عجوز فهلّلت فقال الأول:

- عمّا قريب ستري عين. ماذا عندك من قول لها؟

وانجذب - متناسياً الآخر - لروائح الياسمين

والحناء. ورأى قطّة من جيل جديد لا بركة ولا نرجس

ولا إنعام ولا أمّ الليل ولا صباح.

- ها هي سيّدة!

ظهرت في الممشى الذي شدّت منه قديمًا إلى

المدبح. ما أشبهها اليوم بأمّها في كهولتها ولكنّها نحيلة

شاحبة. حزينّة إلى الأبد. أنا المعتدي لا أنت. ولكنّها

ترنو إليك أنت وكأنتها لا تراني. ولكنكما تترامقان

صامتين تحت ضغط الذكريات. ثمّ يقول الآخر:

- كيف حالك يا سيّدة؟

لم تردّ من شدّة الانفعال. اغرورقت عيناها

## ٣٠٨ عصر الحب

- وتساءلت سيّدة:  
- أما من جديد عن سمير؟  
فقال الآخر:  
- لا جديد، إنّه بعيد، أمّي بعيدة أيضًا.  
- لو أعرف فقط أنّه حيّ يرزق!  
فقال الآخر متأثرًا بإلهام منبعث من الأعماق:  
- هو كذلك وسوف نتلاقى ذات يوم.  
فقال الأوّل:  
- لا بدّ من السفر إلى الخارج.  
وجلست سيّدة لأوّل مرّة غير بعيد من الآخر.  
وراحا ينظران إلى الحديقة معًا.  
وشعر الأوّل بأنّه آن له أن يذهب. غير أنّه سمع  
سيّدة وهي تقول:  
- أوقفت ستّ عين أملاكها للخير على أن ينفذ ذلك  
بعد انقضاء الأجل.  
فتفكّر الآخر قليلاً ثمّ قال في غير مبالاة:  
- خير ما فعلت!  
- وعيّنك ناظرًا للوقف ومن بعدك سمير.  
فتمتم:  
- عظيم.  
- قالت وهي تفعل ذلك عنك «سيّاس الخير رضي  
بذلك أو أبي!».  
فابتسم الآخر وقال:  
- سأفعله راضيًا.  
وقال له الأوّل:  
- أستودعك الله.  
غادر الدار. غادر الحارة. مضى إلى شارع دوبريه.  
استراح قليلاً في شقّته. ذهب إلى الملهى والمطربة تفتتح  
السهرة منشدة:  
يا ورد على فلّ وباسمين الله عليك يا تمر حنّة.  
ألقي نظرة على الصالة المكتظة ثمّ أتجه إلى حجرة  
الإدارة. وما إن انفرد بنفسه حتّى قال:  
- عندما يرجع سمير سيوجد ثلاثة آباء في انتظاره،  
أنا والآخر وحمدون، سيختار أباه بنفسه كما اختار  
حياته.  
وتفكّر مليًا ثمّ قال:  
- رحلة خاسرة.  
قال الآخر بحزن:  
- أنا عزّت يا أمّي.  
فقال الأوّل:  
- لن تخاطب إلّا نفسك.  
وقالت سيّدة:  
- لا تكفّ عن الدعاء لك ولسمير.  
فقال الأوّل:  
- فلنسافر إلى الخارج.  
\* \* \*  
رجع الآخر بصحبة سيّدة إلى الشرفة والمغيب يهبط  
متمهلاً. قال:  
- ستعرفني بطريقة أو بأخرى.  
فقالت سيّدة:  
- بالتأني واللفظ حتّى لا تفعل.  
وابتعدت قليلاً حتّى كانت تلتصق بالأوّل وهي لا  
تدري وقالت:  
- يجب أن أذهب.  
فسألها الآخر:  
- إلى أين؟  
- أيّ مكان.  
فقال بحزم:  
- هنا بيتك.  
- ولكن...  
فقاطعها:  
- إنّه بيتك وسيكون بيتك أكثر.  
فسأله الأوّل:  
- ماذا تعني بالضبط؟!  
أما سيّدة فقد رمت الآخر بنظرة متسائلة، فسألها  
مبتسماً:  
- أيداخلك شكّ في أنّي تغيّرت؟  
فهمست:  
- كلّ شيء تغيّرا!  
فقال له الأوّل:  
- من الآن فصاعداً عليك أن تنظم قسيّدة طويلة  
في الرثاء.

## عصر الحب ٣٠٩

ثم هتفت:

- إني أرى... أرى بكل وضوح...

اقترب منها الآخر وسألها بلهفة:

- هل ترينني يا أمي...؟

ولكنها استطردت دون أن تشعر به:

- إني أرى السطين الذين ذهبوا... إنهم

ينادونني... سمعًا وطاعة... عين قادمة...

\*\*\*

يقول الراوي:

إنَّ السَّ عين لم تمت... رغم أنَّ الذين عاصروا

وفاتها لم يعرفوها أو كذلك كانت أغليبتهم. ما عرفوا

إلا ما يتناقله الرواة ولكنَّ سَّ عين لم تمت... وحتى

اليوم يطلق الناس على المستشفى الذي قام مكان

دارها... «مستشفى السَّ عين».

- سأسافر إلى الخارج حال انتهاء الشتاء.

٢٨

يقول الراوي:

إنَّه في ليلة القدر انبعث في السَّ عين نشاط غير

متوقَّع. رفضت أن تمسَّ عشاءها من الزبادي وسألت

سيِّدة أن تُجلسها. كسرت سيِّدة وراء ظهرها وسادة

طرية وأجلستها نصف جلسة.

وقالت عين وهي تبتسم:

- سيطيب الجو وتشرق الأرض بنور ربِّها فارعوا

العصافير بالرحمة...

وتنادت في الابتسام وهي تقول:

- سأغني أغنية عشقتها في صغري.

وراحت تغني بصوت ضعيف مثير:

يمامة حلوة ومين أجيبها

(تمت)



أفردم القبة



## طارق رمضان

- سبتمبر، مطلع الخريف، شهر التأهب والتدريب. صوت سالم العجرودي المخرج يتدفق. يتدفق في حجرة المدير المغلقة النوافذ المسدلة الستائر. لا صوت يتطفل عليه إلا أزيز خفيف يندد عن جهاز التكييف. صوته يمرق في إطار صمتنا اليقظ قاذفاً بالصور والكلمات. نبراته تشرق وتخشوشن، تتلون بشتى الأصباغ، محاكية أصوات الرجال والنساء. قبل ترديد أي حوار يرمق صاحب الدور أو صاحبه بنظرة تنبيه ثم يسترسل. وتنبثق الصور من واقع ثقيل صلب يجتاحنا بصراحة مرعبة. يجتاحنا بتحدٍ مخيف. سرحان الهلالي المدير يجلس على رأس المائدة المستطيلة المكلفة بالقטיפات الخضراء. يجلس كحارس صارم. يتابع التلاوة بوجه جامد هادئ قابضاً على سيجار الدينو بشفتين ممتلئتين. يحدق بوجهه الصقري في وجوهنا المشرّبة نحو المخرج. يصادر بجذّيته البالغة أي مقاطعة أو تعليق. يتجاهل انفعالاتنا المتوقعة ويدعونا بصمته البارد إلى تجاهلها أيضاً. ألم يدرك الرجل معنى ما يلقي علينا؟ الصور تتأرجح أمام مخيلتي مخضبة بالدماء والوحشية. أريد أن أتنفّس بكلمة أتبادلها مع أحد. سحابة الدخان المنعقدة في الحجرة تزيد من غربتي. أغوص في الرعب. وأحياناً ألتصق بنظرة بلهاء بالمكتب الفخيم وراءنا أو بصورة من الصور المعلقة. صورة درّية وهي تنتحر بالأفعى. صورة إسماعيل وهو يخطب فوق جثة قيصر. ها هي المشنقة تتخايل لعيني. ها هي الشياطين يتبادل الأناخاب.
- وعندما نطق سالم العجرودي بجملته ويسدل الستار، أتجهت الرؤوس نحو سرحان الهلالي مترعة بالذهول.
- يقول المدير:  
- يسرّي أن أستمع إلى الآراء.  
وتقول درّية نجمة المسرح باسمه:  
- فهمت الآن لم لم يحضر المؤلف جلسة القراءة...  
وأقول أنا، وأنا أحلم بتدمير العالم:  
- المؤلف؟!... ما هو إلا مجرم علينا تسليمه إلى النيابة...  
يردّ عليّ الهلالي بنبرة أمرة:  
- الزم حدك يا طارق، انس كل شيء إلا أنك ممثّل...  
- ولكن...  
يقاطعني بغضبه الجاهز دائماً:  
- ولا كلمة!  
ووجه عينيه نحو المخرج فقال المخرج:  
- المسرحية مرعبة...  
- ماذا تعني؟  
- ترى كيف يكون وقعها في الجمهور؟  
- لقد وافقت عليها وأنا مطمئن.  
- لكنّ جرعة الرعب جاوزت الحد.  
وقال إسماعيل نجم الفرقة:  
- دوري بشع!  
فقال الهلالي:  
- لا يوجد من هو أقسى من المشائين، هم المسئولون عن المذابح العالمية، دورك تراجيدي من الطبقة الأولى...  
فقال سالم العجرودي:  
- قتل الطفل سيُفقد أي عطف...  
- دعنا الآن من التفاصيل، يمكن حذف دور

## ٣١٤ أفرح القبة

- إنه مجرم لا مؤلف .  
- وهي فرصة ستخلق منك ممثلاً مهياً بعد عمر طويل مضى وأنت ممثّل ثانويّ .  
- إنها اعترافات، كيف نترك المجرم يفلت من يد العدالة؟

- إنها مسرحيّة مثيرة واعدة بالنجاح وذاك أقصى ما يهمني يا طارق .

فاض قلبي بالغضب والمرارة. انتشرت أحزان الماضي كالمدخان بكافّة هزائمه وآلامه...  
إنها فرصتي للتنكيل بعدوى القديم .

\*\*\*

- من أدراك بهذه الأسرار  
- عفواً... ستتزوج!

\*\*\*

ويتساءل سرحان الهلالي:  
- ماذا أنت فاعل؟

- يهمني في الاعتبار الأول أن ينال المجرم جزاءه .  
فقال بضيق:

- اجعل الاعتبار الأول لإتقان الدور .  
فقلت بتسليم:

- لن يفوتني ذلك .

\*\*\*

يقترحمني انفعال قهّار عند رؤية النعش فأجهش في البكاء مغلوباً على أمرى . كأنه أول نعش أراه .  
الدموع في عينيّ مثلي مثيرة للدهشة . الملح السخريات من خلال الدمع مثل ثعابين الماء . ليس هو الحزن أو العظة ولكنّه جنون عابر . ألمجئّب النظر إلى المشيعين خشية أن ينقلب البكاء إلى هستيريا من الضحك .

\*\*\*

أيّ كآبة تغشاني وأنا أحترق باب الشعرية . منذ سنوات لم تقرب منه قدمي . حيّ التقوى والخلاعة .  
أخصوص في زحام وضوضاء وغبار النساء والرجال والصبيّة . تحت سقف الحريف الأبيض . كلّ شيء يلوح لعينيّ في ثوب الازدراء والكآبة . حتّى الذكريات منقّرة جارحة بما فيها مجيئي بتحية لأول مرّة وهي تتأبط ذراعي في مسرح . مثل الهوان في الظلّ ومعاشرة

الطفل، لقد نجح عباس يونس في إقناعي أخيراً بقبول مسرحيّة له، وشعوري يلهمني بأنّها ستكون من أقوى المسرحيات التي قدّمتها في عمر مسرحنا الطويل...  
فقال فؤاد شلبي الناقد:

- إنّي أشاركك شعورك ولكن يجب حذف دور الطفل .

فقال الهلالي:

- يسرني أن أسمع منك ذلك يا فؤاد، إنّها مسرحيّة متقنة وصادقة ومثيرة...  
فقلت بحدّة:

- ما هي بمسرحيّة . إنّها اعتراف، هي الحقيقة، نحن أشخاصها الحقيقيّون...  
فقال الهلالي بازدراء:

- ليكن، أتحسب أنّ ذلك فاتي؟... لقد رأيتك كما رأيت نفسي، ولكن من أين للجمهور أن يعرف ذلك؟

- ستسرب الأخبار بطريقة أو بأخرى...  
- ليكن، الضرر الأكبر سيحيق بالمؤلف نفسه، بالنسبة لنا سنضمن مزيداً من النجاح، أليس كذلك يا فؤاد؟

- اعتقد ذلك!

فابتسم الهلالي لأول مرّة وقال له:

- يجب أن يتمّ كلّ شيء في لباقة وكياسة .  
- طبعاً... طبعاً...

فرجع سالم العجرودي يتمتم:

- الجمهورا... ترى كيف يستقبلها؟  
فقال الهلالي:

- هذه مسئوليتي أنا .

- عظيم... سنبدأ العمل فوراً... .

الجلسة تنفض . ألبث أنا وحدي مع المدير . لي دالة عليه بحكم الزمالة والصدافة والجيرة القديمة . قلت له وأنا في غاية الانفعال:

- علينا أن نعرض الموضوع على النيابة .

فقال متجاهلاً انفعالي:

- ها هي فرصة لتمثّل في المسرحيّة ما سبق أن عشته في الحياة .



## أفراح القبة ٣١٥

- لم نعد نحزن للأخبار السيئة . . .  
 - حتى لو تكون عن الأستاذ عباس يونس؟  
 فقلقت نظرتها في حدة وهفت:  
 - لن تزال عدوة حتى الموت!  
 وقال كرم:  
 - إنه ابن بَار، هو الذي أنشأ لنا هذه المقل بعد أن  
 رفضت العودة إلى عملي القديم بالمرح . . .  
 وقالت حليلة بفخار:  
 - وقد قُبلت مسرحيته!  
 - قرئت علينا أمس . . .  
 - رائعة ولا شك!  
 - مرعبة . . . ماذا تعرفان عنها؟  
 - لا شيء.  
 - ما كان بوسعك أن يخبركيا . . .  
 - لماذا؟  
 - إنها باختصار تدور في بينكم هذا، مكررة ما وقع  
 فيه بالحرف الواحد، كاشفة في الوقت نفسه عن جرائم  
 خفية تفسر الوقائع تفسيرًا جديدًا . . .  
 تساءل كرم بجديّة لأوّل مرّة:  
 - ماذا تعني؟  
 - سترى نفسك كما سترى أنفسنا، كلّ شيء . . .  
 كلّ شيء، ألا تريد أن تفهم؟  
 - حتى السجن؟  
 - حتى السجن، وموت تحية، ولكنّها تدلّنا على من  
 وشى بنا إلى الشرطة، كما تثبت لنا أنّ تحية قُتلت ولم  
 تمت!  
 - ما هذا السخف؟!  
 - إنه عباس أو من حلّ محلّه في المسرحيّة من يفعل  
 ذلك . . .  
 تساءلت حليلة بحدّة:  
 - ماذا تعني يا عدوّ عباس؟  
 - إنّي أحد ضحاياه، أنتما ضحيتان أيضًا . . .  
 فتساءل كرم:  
 - أليست مسرحيّة؟  
 - إنّها لا تدع مجالًا للشكّ فيمن وشى بكما ولا  
 فيمن قُتل . . .

- الصعاليك والقبوع الحقير تحت جناح أمّ هاني. اللعنة  
 على الماضي والحاضر. اللعنة على المسرح والأدوار  
 الثانويّة. اللعنة على أوّل نجاح تأمله من لعب في  
 مسرحيّة عدوّ مجرم وأنت تعلو الخمسين من العمر. ها  
 هو سوق الزلط التحيل الطويل مثل ثعبان. ها هي  
 بواباته المتجهمة العتيقة وها هما عمارتاه الجديدتان  
 الوحيدتان. والبيت القديم رابض مكانه بما يطويه في  
 صدره من تاريخ أسود وأحمر. لقد استجدّ جديد لم  
 يكن فتحولت النظرة الخارجيّة إلى مقلّي يجلس فيها  
 للبيع كرم يونس وإلى جانبه حليلة زوجته. شدّ ما  
 غيرهما السجن. وجهان هما صورتان مجسّدتان  
 للامتعاض. ينغمسان في الكدر على حين يأخذ نجم  
 ابنيها في اللمعان. لمحي الرجل. نظرت المرأة نحوي  
 أيضًا. لا حبّ ولا ترحيب هذا ما أسلم به. رفعت  
 يدي بالتحية فتجاهلها الرجل وقال بجفاء:  
 - طارق رمضان! . . . ماذا جاء بك؟  
 لم أتوقّع استقبالاً أفضل. اعتدت ألا أبالي. وقفت  
 المرأة منفعلة ثمّ سرعان ما جلست على كرسيها  
 المجدول من القشّ وهي تقول بمرارة ساخرة:  
 - أوّل زيارة مذ رجعنا إلى سطح الأرض.  
 ما زالت قسيات وجهها تشبّث بذكريات جمالها.  
 الرجل يقظ مفيق رغم أنفه. من هذين وُلد المؤلف  
 المجرم.  
 قلت كالمعتد:  
 - الدنيا شبكة من الهموم وما أنا إلا غريق من  
 الغرقى . . .  
 فقال كرم يونس:  
 - جئت من الماضي كذكرى من أسوأ ذكرياته . . .  
 - لست أسوأ من غيري . . .  
 لم يدعني أحد للجلوس في المقلّي فلبثت واقفاً في  
 موقف الزبائن. وشجّعني ذلك على التهادي فيما جئت  
 من أجله. وتساءل كرم في جفاء:  
 - هه؟  
 فقلت بتحدّ:  
 - معي أخبار سيئة . . .  
 فقالت حليلة:

## ٣١٦ أفراس القبة

- كلام فارغ...  
وقالت حليلة:  
- عنده تفسير ولا شك...  
- اسألاه... شاهدا المسرحية عند عرضها...  
- مجنون... لقد أعماك الحقد...  
- بل الجريمة...  
- ما أنت إلا مجرم، وما هي إلا مسرحية...  
- إنها الحقيقة...  
- حاقد مجنون... ابني عبيط ولكنك ليس خائناً ولا

قاتلاً...  
- هو خائن وقاتل وليس عبيطاً...  
- هذا ما تتمناه.  
- يجب تسليم قاتل تحية إلى العدالة...  
- إنه الحقد القديم... هل أكرمت تحية حينما كانت بيدك؟  
- كنت أحبها وكفى.  
- حبّ البرمجية...  
صحت بغضب:  
- إني خير من زوجك وخير من ابنك...  
فسألني كرم بجفاء ومقت:  
- ماذا تريد؟  
فقلت ساخراً:  
- أريد لباً بقرش.  
فهتف بي:  
- رُح في داهية...  
\* \* \*

تحيّة... إنك تستحقّين أن تكوني نجمة لا ممثلة

ثانوية كحالي...  
- حقاً؟!... إنك تبالغ يا أستاذ طارق...  
- بل شهادة خبير...  
- أم عين الرضا؟  
- حتى الحب لا يؤثّر في حكمي!  
- الحب؟!  
كنا نسير في شارع جلال في النصف الثاني من الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:  
- طبعاً... أتريدين هذا التاكسي؟  
- أن لي أن أرجع إلى بيتي...  
- وحدك؟  
- لا أحد معي في شقتي الصغيرة.  
- أين تقيمين؟  
- شارع الجيش.  
- نحن جيران تقريباً، إني أقيم في حجرة بيت كرم

يونس في باب الشعرية...  
- ملقن الفرقة؟  
- نعم... هل تدعينني إلى شقتك أو ادعوك إلى حجرتي؟  
- وكرم وحليمة؟  
ضحكت فابتسمت. تساءلت:  
- لا أحد في البيت سواكم؟  
- ابنتها الوحيد، تلميذ.  
جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبي.

الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:  
- طبعاً... أتريدين هذا التاكسي؟  
- أن لي أن أرجع إلى بيتي...  
- وحدك؟  
- لا أحد معي في شقتي الصغيرة.  
- أين تقيمين؟  
- شارع الجيش.  
- نحن جيران تقريباً، إني أقيم في حجرة بيت كرم

يونس في باب الشعرية...  
- ملقن الفرقة؟  
- نعم... هل تدعينني إلى شقتك أو ادعوك إلى حجرتي؟  
- وكرم وحليمة؟  
ضحكت فابتسمت. تساءلت:  
- لا أحد في البيت سواكم؟  
- ابنتها الوحيد، تلميذ.  
جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبي.

الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:  
- طبعاً... أتريدين هذا التاكسي؟  
- أن لي أن أرجع إلى بيتي...  
- وحدك؟  
- لا أحد معي في شقتي الصغيرة.  
- أين تقيمين؟  
- شارع الجيش.  
- نحن جيران تقريباً، إني أقيم في حجرة بيت كرم

يونس في باب الشعرية...  
- ملقن الفرقة؟  
- نعم... هل تدعينني إلى شقتك أو ادعوك إلى حجرتي؟  
- وكرم وحليمة؟  
ضحكت فابتسمت. تساءلت:  
- لا أحد في البيت سواكم؟  
- ابنتها الوحيد، تلميذ.  
جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبي.

الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:  
- طبعاً... أتريدين هذا التاكسي؟  
- أن لي أن أرجع إلى بيتي...  
- وحدك؟  
- لا أحد معي في شقتي الصغيرة.  
- أين تقيمين؟  
- شارع الجيش.  
- نحن جيران تقريباً، إني أقيم في حجرة بيت كرم

يونس في باب الشعرية...  
- ملقن الفرقة؟  
- نعم... هل تدعينني إلى شقتك أو ادعوك إلى حجرتي؟  
- وكرم وحليمة؟  
ضحكت فابتسمت. تساءلت:  
- لا أحد في البيت سواكم؟  
- ابنتها الوحيد، تلميذ.  
جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبي.

الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:  
- طبعاً... أتريدين هذا التاكسي؟  
- أن لي أن أرجع إلى بيتي...  
- وحدك؟  
- لا أحد معي في شقتي الصغيرة.  
- أين تقيمين؟  
- شارع الجيش.  
- نحن جيران تقريباً، إني أقيم في حجرة بيت كرم

يونس في باب الشعرية...  
- ملقن الفرقة؟  
- نعم... هل تدعينني إلى شقتك أو ادعوك إلى حجرتي؟  
- وكرم وحليمة؟  
ضحكت فابتسمت. تساءلت:  
- لا أحد في البيت سواكم؟  
- ابنتها الوحيد، تلميذ.  
جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبي.

الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:  
- طبعاً... أتريدين هذا التاكسي؟  
- أن لي أن أرجع إلى بيتي...  
- وحدك؟  
- لا أحد معي في شقتي الصغيرة.  
- أين تقيمين؟  
- شارع الجيش.  
- نحن جيران تقريباً، إني أقيم في حجرة بيت كرم

يونس في باب الشعرية...  
- ملقن الفرقة؟  
- نعم... هل تدعينني إلى شقتك أو ادعوك إلى حجرتي؟  
- وكرم وحليمة؟  
ضحكت فابتسمت. تساءلت:  
- لا أحد في البيت سواكم؟  
- ابنتها الوحيد، تلميذ.  
جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبي.

الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:  
- طبعاً... أتريدين هذا التاكسي؟  
- أن لي أن أرجع إلى بيتي...  
- وحدك؟  
- لا أحد معي في شقتي الصغيرة.  
- أين تقيمين؟  
- شارع الجيش.  
- نحن جيران تقريباً، إني أقيم في حجرة بيت كرم

يونس في باب الشعرية...  
- ملقن الفرقة؟  
- نعم... هل تدعينني إلى شقتك أو ادعوك إلى حجرتي؟  
- وكرم وحليمة؟  
ضحكت فابتسمت. تساءلت:  
- لا أحد في البيت سواكم؟  
- ابنتها الوحيد، تلميذ.  
جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبي.

الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:  
- طبعاً... أتريدين هذا التاكسي؟  
- أن لي أن أرجع إلى بيتي...  
- وحدك؟  
- لا أحد معي في شقتي الصغيرة.  
- أين تقيمين؟  
- شارع الجيش.  
- نحن جيران تقريباً، إني أقيم في حجرة بيت كرم

يونس في باب الشعرية...  
- ملقن الفرقة؟  
- نعم... هل تدعينني إلى شقتك أو ادعوك إلى حجرتي؟  
- وكرم وحليمة؟  
ضحكت فابتسمت. تساءلت:  
- لا أحد في البيت سواكم؟  
- ابنتها الوحيد، تلميذ.  
جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبي.

الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:  
- طبعاً... أتريدين هذا التاكسي؟  
- أن لي أن أرجع إلى بيتي...  
- وحدك؟  
- لا أحد معي في شقتي الصغيرة.  
- أين تقيمين؟  
- شارع الجيش.  
- نحن جيران تقريباً، إني أقيم في حجرة بيت كرم

يونس في باب الشعرية...  
- ملقن الفرقة؟  
- نعم... هل تدعينني إلى شقتك أو ادعوك إلى حجرتي؟  
- وكرم وحليمة؟  
ضحكت فابتسمت. تساءلت:  
- لا أحد في البيت سواكم؟  
- ابنتها الوحيد، تلميذ.  
جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبي.

الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:  
- طبعاً... أتريدين هذا التاكسي؟  
- أن لي أن أرجع إلى بيتي...  
- وحدك؟  
- لا أحد معي في شقتي الصغيرة.  
- أين تقيمين؟  
- شارع الجيش.  
- نحن جيران تقريباً، إني أقيم في حجرة بيت كرم

يونس في باب الشعرية...  
- ملقن الفرقة؟  
- نعم... هل تدعينني إلى شقتك أو ادعوك إلى حجرتي؟  
- وكرم وحليمة؟  
ضحكت فابتسمت. تساءلت:  
- لا أحد في البيت سواكم؟  
- ابنتها الوحيد، تلميذ.  
جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبي.

رجعت أحوض في أمواج الأطفال والنساء. توكد

لدي أنّ عباس لم يشر إلى موضوع مسرحيته لوالديه ممّا

يشهد على تجرّبه. لكن لم يفشي سرّاً خطيراً لم يشكّ

فيه أحد؟ أهي اللفظة على النجاح بأيّ ثمن؟ أيلقى

جزاء شهرة بدلاً من المشنقة؟  
\* \* \*

- طارق... ماذا أقول؟... القسمة والنصيب!

\* \* \*

عند ناصية شارع الجيش التفت صوب العمارة ثمّ

ملتّ نحو العتبة. بمرور الأعوام الشارع يضيق ويحجّر

ملتّ نحو العتبة. بمرور الأعوام الشارع يضيق ويحجّر

ملتّ نحو العتبة. بمرور الأعوام الشارع يضيق ويحجّر

ملتّ نحو العتبة. بمرور الأعوام الشارع يضيق ويحجّر

ملتّ نحو العتبة. بمرور الأعوام الشارع يضيق ويحجّر

ملتّ نحو العتبة. بمرور الأعوام الشارع يضيق ويحجّر

ملتّ نحو العتبة. بمرور الأعوام الشارع يضيق ويحجّر

## أفراح القبة ٣١٧

- لم يستدعيني سرحان الهلالي ونحن منهمكون في التدريب؟
- يقف مستندًا إلى مائدة الاجتماعات في تيار الشمس الدافئ. يتدربي:
- اعتذرت مرتين عن التدريب يا طارق...؟  
لم أجد ما أقوله فواصل بضيق:
- لا تخلط بين الصداقة والعمل... ألم يكفك أنك حملت عباس على الاختفاء؟
- لعلّه هرب بعد افتتاح أمره.  
- ما زلت مصرًا على أفكارك الغريبة؟  
- إنه مجرم ما من شك في ذلك...  
- إنها مسرحية، وإنك ممثل لا وكيل نيابة...  
- ولكنّه مجرم وأنت تؤمن بذلك...  
- الحققد يعمي بصيرتك.  
- لست حقودًا.  
- لم تشف من خيبة الحب بعد...  
- إننا نتدرب لنهتئ النجاح للمجرم.  
- إنه نجاحنا نحن، وهي فرصتك للضوء بعد عمر طويل في الظل...  
- أستاذ سرحان... الحياة...  
- لا تحدّثني عن الحياة... لا تفلسف... إني أسمع ذلك كلّ ليلة في المسرح حتّى ملته... إنك تهمل صحتك... الجنس والمخدّرات وسوء التغذية... ولا تتورّع عن تمثيل دور الإمام في مسرحية الشهيدة وأنت سكران!  
- أنت الوحيد الذي عرف ذلك...  
- أكثر من ممثّل شَم رائحة فمك... هل تضطرّني إلى...  
قاطعته بجزع:
- لا تعرّض صداقة العمر للهوان...  
- ولحنت في آية وهو شيء لا يُغتفر.  
- مرّ كلّ شيء بسلام.  
- أرجوك... أرجوك... انس هوس التحقيق الخرفاني واحفظ دورك جيّدًا... إنه فرصة العمر... وأنا أغادر الحجرة قال لي:  
- عامِل أمّ هاني معاملة أفضل... ستعاني كثيرًا
- إذا هجرتك...  
اللعنة... تماثلني في السنّ ولا تعرف الشكر.  
شهدت موت تحية دون أن تدري أنّها قتلت. سامثل كلّ ليلة دور العاشق المهجور... سابكي مرارًا وتكرارًا أمام النعش... ماتت دون أن تندم... لم تتذكّرني... لم تعرف أنّها قتلت... قتلها المثالي... إنّه يتحرر في المسرحية ولكن يجب أن يُشقى في الحياة... ها هي جريمة تخلق مؤلّفًا وممثلاً في آن...  
\* \* \*
- ألم تحضر تحية؟  
- كلّاً.  
- لم أقابلها في المسرح.  
- لن تذهب إلى المسرح.  
- ماذا تعني يا عباس؟  
- أستاذ طارق... أرجوك... لن تحضر تحية إلى هنا ولن تذهب إلى المسرح...  
- من أدراك بهذه الأسرار كلّها؟  
- عفوًا... ستتزوج...  
- هه؟!  
- اتّفقنا على الزواج.  
- يا بن... أنت مجنون؟... ماذا تقول؟  
- حلمك... نريد أن نكون شرفاء معك... دعني...  
لطمته. تنمّر بغتة بوجهه بموج بالعدوان ولكمني. شاب قويّ رغم السحابة على عينه اليسرى. دار رأسي. جاء كرم يونس وجاءت حلّيمة. تساءلا:  
- ماذا حدث؟  
صرخت:  
- شيء مضحك... رواية هزليّة... المحروس سيتزوج من تحية...  
تساءل كرم ببرود مدمن ذاهل دائماً:  
- حقًا؟!  
وهتفت حلّيمة مخاطبة ابنها:  
- تحية؟!... أيّ جنون... إنها أكبر منك بعشرة أعوام...  
لم ينبس، صحت أنا:

## ٣١٨ أفرح القبة

- لعب أطفال... سامنع هذا بالقوة...  
فصاحت حليلة:  
- لا تزد الأمور سوءاً...  
فصرخت بجنون:  
- سأهدم البيت على من فيه...  
فقالت لي ببرود:  
- خذ ملايسك ومع السلامة...  
فغادرت المكان وأنا أقول بتحدُّ:  
- باقي على أنفاسكم حتى النهاية...  
\* \* \*
- ذبيح الكرامة، مهين الفحولة، مضغوط القلب،  
مهجور الأمل، يشتعل قلبه من جديد بعد أن ظنَّ أنَّ  
الروتين قد أخذه. كنت أتوهم أنَّ تحية ملكي مثل  
الحذاء المطيع، كنت أنهرها وأهينها وأضربها، كنت  
أتصوّر ألاً حياة لها بدوني وأنها تفرط في حياتها قبل أن  
تفرط في، فلما تلاشت بحركة مباغثة مأكرة قاسية  
تلاشى معها الأمن والثقة والسيادة وحلّ الجنون. ويزغ  
الحب من ركن مظلم غائض في الأعماق ينفذ عن  
ذاته سبات البيات الشتوي ليبعث عن غذائه المفتقد.  
لاحت خلف شراعة الباب تلبية لنداء الجرس.  
عكست عيناها نظرة ارتباك مثل نطق ملثم ولكتها لم  
تراجع متحدية أزمة مصيرها. تفرست في الصورة  
الجديدة المتحررة من الإذعان الأبدي، المتطلعة إلى  
الجديد وهي تنزل فوق الحدّ الفاصل الذي يستشير  
كوامن الجريمة.
- افتحي الباب يا تحية.  
- أنت تعرف الآن كل شيء.  
- هل تركيني في الخارج كالغريب؟  
- طارق، ماذا أقول؟ لعلّه لكلينا، وهو النصيب  
والقسمة...  
- إنه عبث وجنون.  
- كان عليّ أن أخبرك بنفسي...  
- ولكنتي لا أصدق... افتحي...  
- كلاً... إني أعاملك بشرف...  
- ما أنت إلا عاهرة!  
- حسن... دعني في سلام...
- لن يحدث ذلك أبداً...  
- سوف نتزوج في الحال...  
- تلميذ... مجنون... نصف أعمى...  
- سأجرب حظي...  
- افتحي الباب يا مجنونة.  
- كلاً... لقد انتهى كل شيء...  
- مستحيل...  
- ذاك ما حدث.  
- لن تعرفي الحب إلا بين يدي...  
- لا يمكن أن تمضي الحياة على ذلك النحو.  
- لم تبلغني بعد سنّ اليأس فلم ترتكبين الحماقات؟  
- لنفترق بسلام... أرجوك...  
- إنها نوبة يأس خادعة...  
- كلاً...  
- إني خبير بالأطوار الشاذة التي يتعرّض لها  
أمثالك.  
- ساعك الله...  
- يا مجنونة... متى تغيرت؟  
- لم ارتكب في حنك أيّ خطأ...  
- عشت الكذب فترة ما...  
- لا تتماذ فيما لا فائدة منه.  
- إنك أول عاهرة...  
- ولكتها أغلقت الشراعة.  
\* \* \*
- بقيت في بيت كرم يونس. عباس يونس ذهب.  
حلّ محلّ أبيه في وظيفة الملقن بعد أن استغنى الأب  
عنها اكتفاء بما يدره عليه بيته من أرباح وفيرة. توتّر  
الجوّ في بادئ الأمر فتدخل سرحان الهلاي وهمس في  
أذني:  
- لا تفسد علينا سهرتنا... اعقل... بإشارة  
تستردّ أمّ هاني... دخلها ضعف دخل تحية...  
الهلاي مجنون نساء ولكنّه لا يعرف الحب. عاشر  
تحية مرّة أو مرتين. لا يعترف بما يسمع عن الحب  
وآلامه. وهو يأمر وينهى في الحب كأنه أحد الشئون  
الإدارية ويطالب بالتنفيذ في الحال. لا أشك في نواياه  
الطيبة نحوي، وكم هيّا لي من فرص فوق خشبة

## أفراح القبة ٣١٩

- إنَّ البطل قدر جدًّا وبغيض جدًّا ولن يتعاطف الجمهور معه.
- فهزَّ منكبيه استهانة وإنَّ تمجُّم وجهه. سألته:
- تشهد جلسة القراءة؟
- فقال ببرود:
- هذا شأني...
- ألم تقدر أنَّ حوادث المسرحية ستصبُّ عليك مطرًا من الظنون؟
- لا يهمني ذلك.
- سيتصوِّرون، ولهم الحقُّ، أنك قاتل وخائن لوالديك...
- سخف لا يهمني...
- فانفرط زمامي وقلت بانفعال:
- يا لك من قاتل محترف!
- فرمقني بازدياء وتمتم:
- ستظلُّ حقيرًا دائمًا وأبدًا.
- أتستطيع أن تدافع عن نفسك؟
- لست متهمًا كي أطلب بذلك...
- سيوجه لك الاتهام أقرب مما تظنُّ.
- إنك أحمق...
- قمت وأنا أقول:
- إنها على أيِّ حال تستحقُّ القتل...
- وذهبت متمتمًا:
- ولكنك تستحقُّ الشقَّ أيضًا!
- \* \* \*
- وجدتني في رحاب غضبة هلالية. عندما يغضب سرحان الهلالي ينقلب زوبعة. لمعت أنيابه. لمحت الوهج في عينيه اللوزيتين الجاحظتين. صاح:
- أنت أنت، كما كنت وأنت ابن عشرة، أحمق، لولا حماقتك لاستويت ممثلاً مرموقًا، تأسى إلا أن تتقمص وكيل نيابة، لم زرت عباس يونس أمس؟ هل شكاني إليه الوغد؟ أثرت الصمت حتى تخف العاصفة. صاح:
- لن تتقن دورك حتى تفرغ له...
- تمتمت بهدوء:
- بدأنا اليوم...

المسرح ضاعت كلُّها بسبب قصور موهبتي، ولكنَّه يؤمن بنجاحي في مسرحية عباس. وقد بشر أم هاني - خيَّاطة الفرقة - برجوعي إليها فرجعت إليها فرازا من الوحدة وتدعيًا لحالي المالية المتوعكة، وقبل أن أبرأ من التجربة المريرة. لم أتوقَّع لزواج تحية أيَّ استمرار أو نجاح. كانت دائمًا كثيرة العلاقات تستكمل أجراها الصغير. لم تحبُّ أحدًا سواي رغم فقري. وقد كذبت توقُّعاتي فحافظت على الزوجية حتى وفاتها. غير أنَّ المسرحية تعترف - وهي على فراش المرض - بأنَّها باعت نفسها لضيف أجنبي، وعند ذلك يقرَّر زوجها - في المسرحية - قتلها وذلك بأن استبدل بالدواء حبوب أسيرين لا جدوى منها. إذن قد صدقت توقُّعاتي وأنا لا أدري، وقتلها الذي أزعجنا بمثاليته، الذي أرجو ألا يفلت من العقاب.

\* \* \*

## أيِّ مغامرة!

أجد نفسي وجهًا لوجه مع عباس في شقته التي كانت ذات يوم شقة لتحية. أندفع إليها في ذات اليوم الذي قابلت فيه والديه بالقليل. إنه الآن مؤلَّف، ووحيد في الشقة. أخيرًا أصبح مؤلَّفًا بعد رفض العشرات من المسرحيات. مؤلَّف زائف يسرق الحقيقة بلا حياء. دهش لحضوري. لا تدهش. ما مضى قد انقضى ولكنَّ آثاره تطرح نفسها من جديد. وقد صالح بيننا الهلالي ذات يوم فتصافحنا وما في القلب في القلب. جلسنا في مكتبه - الشقة مكوَّنة من حجرتين ومدخل - نتبادل النظر في وجوم حتى قلت:

- أنت ولا شك تتساءل عما جاء بي...

- لعله خير.

- جئت لأهنتك على المسرحية.

فقال بفنور:

- شكرًا.

- سيبدأ التدريب غدًا...

- المدير متحمس لها...

- بخلاف المخرج.

- ماذا قال؟

## ٣٢٠ أفرح القبة

- ثمَّ بهدوءٍ أعمقُ :  
 - مهمٌّ أيضًا أن ينال المذنب جزاءه .  
 فصاح متهكِّئًا :  
 - ما من أحدٍ منا إلَّا وفي عنقه دينٌ من الذنوب  
 يستحقُّ عليها السجن . . .  
 - لَكُنَّا لم نقتل بعد .  
 - من يدري؟ . . . تحيةٌ - إن صحَّ أنَّها قُتلت - فقد  
 اشترك في قتلها أكثر من رجلٍ على رأسهم أنت . . .  
 - إنَّه لا يستحقُّ دفاعك عنه .  
 - إني لا أعتبره متَهَمًا، هل لديك دليل واحد  
 ضده؟  
 - المسرحية .  
 فضحك ساخرًا وقال :  
 - ما من مسرحيةٍ تخلو من اتهامٍ ولكنَّ النيابة  
 تطالبُ بأدلةٍ من نوعٍ آخر . . .  
 - لقد انتحر في المسرحية . . .  
 - هذا يعني أنَّه لن ينتحر في الحياة، وأنَّه لمن حسن  
 الحظُّ لنا أن يبقى ويكتب . . .  
 - إنَّه لم يؤلَّف سطرًا ولن يؤلَّف سطرًا وأنت أدري  
 بما قدَّم لك من مسرحياتٍ سابقة . . .  
 - يا طارق رمضان، لا تكن مملأً، انتبه لعملك،  
 وانتهر فرصتك فإنَّها لن تتكرَّر . . .  
 \* \* \*
- أندرب على دوري في مسرحية القاتل . أستعيد  
 حياتي مع تحيةٍ بدءًا من وراء الكواليس .  
 أنضمَّ إلى البيت القديم بسوق الزلطف . الحبُّ في  
 الحجرة . اكتشاف الخيانة . البكاء في الجنائز .  
 ويقول لي سالم العجرودي :  
 - إنَّك تمثِّل كما لم تمثِّل من قبل ولكن احفظ النصَّ  
 جيّدًا . . .  
 - إني أكرِّر ما قيل بالفعل .  
 فضحك قائلاً :  
 - انس الحياة وعش في المسرحية . . .  
 عند ذلك قلت له :  
 - من حسن الحظُّ أنَّ من حقِّك التغيير . . .  
 - لقد غيرت ما اقتضت الضرورة تغييره فحذفت
- مشهد الطفل .  
 - عندي فكرة .  
 فرمقني بضجرٍ ولكَّني قلت :  
 - البطلة وهي تحتضر تطلب رؤية عشيقها  
 القديم . . .  
 - أيَّ عشيق؟ . . . ما من ممثِّل في المسرح إلَّا  
 عشقها حينًا . . .  
 - أعني العشيق الذي أمثَّل دوره . . . ويذهب إليها  
 فتعزُّد إليه عن خيانتها وتموت بين يديه . . .  
 - إنَّه يقتضي إدخال تعبيراتٍ جوهريَّة على  
 الشخصية وعلى العلاقة بين الزوجين .  
 - ليكن .  
 - إنَّك تقترح مسرحيةً جديدة . . . البطلة نسيت  
 تمامًا عشيقها القديم . . .  
 - غير ممكن وغير طبيعي . . .  
 - قلت لك عش في المسرحية وانس الحياة، أو  
 تفضِّل بتأليف مسرحيةٍ جديدة فنحن في زمنٍ مؤلَّفي  
 النزوة والصدفة . . .  
 - ولَكُنَّك حذفت الطفل ودوره؟  
 - ذاك شيء آخر، إنَّه غير ملتحم بالأحداث، وقُتل  
 وليد بريء خليق بأن يُفقد البطل أيَّ عطف .  
 - وقُتل زوجة تعيسة؟  
 - اسمع، مئات من المتفرجين يودُّون في أعماقهم  
 قتل زوجاتهم . . .  
 \* \* \*
- أليس هذا هو كرم يونس؟ بلى . إنَّه يغادر حجرة  
 المدير . لم يكن بقي على عرض المسرحية إلَّا أسبوعان .  
 وكنت واقفًا أمام مدخل البوفيه أحاور دريَّة نجمة  
 الفرقة ويبيد كلَّ منَّا فنجان قهوة . قلت له وهو يقترب  
 منَّا في بدلة قديمة ورقبة البلوفر الأسود تطوَّق عنقه حتَّى  
 أسفل الصدغين :  
 - شرَّفت المسرح . . .  
 فرمقني شرًّا وقال بجفاء :  
 - ابعد عن وجهي . . .  
 وحيا دريَّة تحيةً عابرة ومضى . قطعت دريَّة حديتها  
 عن الغلاء وقالت :

## أفراح القبة ٣٢١

على فم أم هاني ابتسامة واسعة تتسع لتسأل بولدج.  
وراء كل عظيم امرأة. قال لي سرحان الهلالي:

- ألم أقل لك؟

وقال فؤاد شلبي:

- مولد ممثّل كبير. . .

إسماعيل نفسه تجلّت في ابتسامته المتكلفة الغيرة.  
مثلت العشق والبرجعة والجنون. . . ملأت بسطني  
بالشويرمة والكونياك. تحالف الكونياك مع خمر  
النجاح. حتى نخب المؤلف شربته. رأيت حليلة في  
التأبير الذي استأجرته من أم هاني.

غادرت المسرح حوالى الثالثة صباحًا. أم هاني تتأبط  
ذراعي وأنا أتأبط ذراع فؤاد شلبي. قال:

- هلمّ تمشّ في القاهرة في الوقت الوحيد الذي  
يتاح لها فيه الوقار.

قالت أم هاني:

- بيتنا بعيد.

- معي سيّارتي. . . تلزمني بعض المعلومات. . .  
سألته:

- ستكتب عني؟

- طبعًا. . .

ضحكتُ عاليًا. رحت استجابة له أحدثت عن  
الماضي.

- ولدت بمنشيّة البكري. . . فُلّتان متجاورتان. . .  
آل رمضان وآل الهلالي. . . رمضان أبي كان لواء  
بالسوارى من باشوات الجيش القديم. . . الهلالي من  
ملاك الأرض. . . أنا البكري وسرحان الوحيد. . . لي  
أخ قنصل وأخ مستشار وأخ مهندس. . . باختصار  
طُردنا - أنا وسرحان - من المدرسة الثانويّة بلا ثمرة  
ولكن بخبرة واسعة ببيوت الدعارة والحانات  
والمخدرات. . . لم يترك أبي شيئًا. . . ورث سرحان  
سبعين فدّانًا. . . أنشأ فرقة حبّ في الإدارة  
والنساء. . . عملت معه ممثلاً. . . انقطع ما بيني وبين  
إخوتي. . . أجر بسيط. . . ديون نثرية كثيرة. . . لولا  
النسوان. . .

نذت عن أم هاني آهة. تساءل فؤاد:

- طبعًا كان لك نشاط سياسي. . .؟

- جاء ولا شك يسأل عن سرّ اختفاء عباس. . .  
فقلت بحنق:

- ما هو إلا اختفاء مجرم. . .

فقالت دريّة باسمه:

- لم يقتل ولم يتنحّر.

- لن يتنحّر ولكنه سيُشنتق. . .

رجعت تقول:

- كان يجب أن يقودنا النصر إلى حياة أيسر.

فقلت بسخرية:

- لا يمينا حياة يسيرة إلا المنحرفون، لقد بات البلد  
ماخورًا كبيرًا، لم كبست الشرطة بيت كرم يونس وهو  
يمارس الحياة كما تمارسها الدولة!؟

فقالت دريّة ضاحكة:

- نحن في زمن القومية الجنسية!

- إني رجل منبوذ من أسرتي العريقة لانحرافي فلم  
تحدق بي الحبيبة؟

- أيها الخائب الأبدي الذي لم يجد إلا أم هاني  
حقلاً لاستغلاله!

\*\*\*

ليلة الافتتاح ١٠ أكتوبر. الليل في الخارج يزفر  
نسمة لطيفة أما في الداخل فثمة نذير بجو حارّ. بين  
المشاهدين كرم وحليمة، الهلالي، فؤاد شلبي، أنا  
الوحيد الذي يكرّر دوره الذي لعبه في الحياة فوق  
الخشبة. إسماعيل يلعب دور عباس. حياة البيت  
القديم تُعرض من جديد بكلّ قحتها وتلدق بها جرائم  
جديدة أكثر وحشيّة. المدير يقامر ويتسلّل إلى حجرة  
نوم حليلة. الفضائح تتعاقب وتُتّوج بالخيانة والقتل.  
لأوّل مرّة في حياتي تُحتم مواقي بالتصفيق. النجاح  
خر. هل تشاهدنا تحيّة من وراء القبر؟ النجاح خمر.  
الجمهور غارق في الصمت أو منفجر في التصفيق.  
المؤلف المجرم الجبان غائب. أيّ ردّ فعل انداح في  
جوارح كرم وحليمة؟ ستغظيها النجاحيد قبل الهبوط  
الأخير للستار.

يجمعنا البوفيه للاحتفال التقليدي. لأوّل مرّة في  
حياتي تحسّ الأبصار بوجودي. إني شخص جديد  
تمامًا. تحيّة تخلق من العدم أكثر من رجل. ارتسمت

## ٣٢٢ أفراح القبة

- إنه مؤدّب، متبرّئ من بيته!  
- ابن كرم وحليمة، وفي هذا العصر العجيب،  
ماذا تنتظرين؟  
الآن أدرك أنني لم أفطن إلى ما كان يدور في  
نفسها...

\* \* \*

يقول لي سرحان الهلالي ضاحكًا:  
- ما تصوّرتك قطّ في صورة عاشق حزين...  
- وهل تصوّرت ذات يوم أننا نعبّر القنال ونتنصر؟  
- إنها مثلك في الفقر...  
- حدّثها... أرجوك...  
- يا مجنون... لقد قرّرت هجر المسرح... إنه  
سحر الزواج...

- يا للشيطان... إني أكاد أجنّ...  
- إنه الغضب ليس إلّا.

- صدّقني.  
- البرمجي لا يحتمل الهزيمة!  
- ليس الأمر كذلك.  
- بل هذا هو كلّ شيء... ارجع من فورك إلى أمّ  
هاني لأنك لن تجد من يقرضك...  
بعد تردّد قلت:  
- أحيانًا يخيّل إليّ أنّ الله موجود!  
فقهقه قائلاً:

- طارق يا بن رمضان... حتّى للجنّون حدود!

\* \* \*

نجاح «أفراح القبة» مستمرّ. نجاحي يتوكّد ليلة  
بعد أخرى. أخيراً صادف الهلالي المسرحيّة التي تثري  
مسرحه. قرّر لي مكافأة يومية أنعشت روحي  
وجسدي. وسألني فؤاد شلبي:  
- أعجبتك ما كتبت عنك؟  
فشدت على يده بامتنان وقلت:  
- بعد أكثر من ربع قرن تظهر لي صورة في  
المجلّة...

- لن تراجع بعد اليوم... أما علمت لقد ظهر  
المؤلف المخفي...

- حقًا؟!!

ضحكت مرّة أخرى.  
- لا أنتمي إلّا للحياة... أنا وكرم يونس توأمان  
روحيان... يقال إنّه مدين في نشأته إلى أمّ  
عاهرة... حسن، لقد نشأت أنا في أسرة فكيف تفسّر  
تماثلنا؟... هذا يعني أنّ الموهبة لا تتأثر بالبيئة! كلانا  
يحتقر الحياة المحترمة... الحقّ أنّ ما يفرّق بيننا وبين  
الآخرين هو أننا صادقون أمّا الآخرون  
فمنافقون...

تساءلت أمّ هاني:

- هل ستكتب هذا الهديان؟

فقلت متحدّياً:

- فؤاد نفسه من حزينا!

فتمتم في مرح:

- يا لك من وغد... ولكن ألا تؤمن بوجود أخيار  
بكلّ معنى الكلمة؟

- طبعًا، مثل الأستاذ عبّاس مؤلّف «أفراح  
القبة»... إنه مثاليّ كما تعلم، لذلك زجّ بالديه في  
السجن وقتل زوجه وابنه!

سألته أمّ هاني:

- ماذا ستكتب؟

فقال وهو يتّجه بنا نحو سيّارته الفيات:

- لست مجنونًا مثله...

غادرنا السيّارة أمام الحارة بالقلعة. منعه من  
الدخول طفح المجاري. سرنا على طوار متآكل ونشوتنا  
تحمّد تحت وطأة الرائحة الكريهة. هل يتواصل النجاح  
ويتغيّر الحال؟ هل أتحرّر من هذه الحارة الكثيية وهذه  
المرأة الخمسينيّة التي تزن مائة كيلو؟!

أنا ونحّي غادر البيت القديم بسوق الزلط في طريقنا  
إلى المسرح. حبكت معطفها الأسود حول جسمها  
الناضج واخترقنا موجة من البرد في عتمة المساء. يختر  
لي أنّ جسمها مُعدّ للفراش لا للمسرح، وأنا في خيبة  
الموهبة سواء. قلت لها:

- ونحن نحسي الشاي ضبّطت الولد يخنس إليك

نظرة جائحة.

- عبّاس؟... إنه مراهق...

- سيعمل ذات يوم قواديًا ماهرًا...



## أفراح القبة ٢٢٣

- فقلت بأسماً:  
 - لكلّ جواد كبوة.  
 أرجع الموت ذكريات الحبّ والمزيمه...  
 \* \* \*
- سمعت بالخبر في مقهى الفنّ قبل الذهاب إلى المسرح. هرعت إلى حجرة سرحان الهلالي، سألته:  
 - الخبر صحيح؟  
 فأجابني بوجوم:  
 - نعم، كان عباس يقيم في بنسيون في حلوان...  
 غاب طويلاً... عُثِرَ على خطابه في حجرته يعترف فيه بعزمه على الانتحار.  
 - هل عثر على جثته؟  
 - كلاً... لم يُعثر له على أثر...  
 - هل ذكر أسباباً لانتحاره؟  
 - لا...  
 - هل اقتنعت بانتحاره؟  
 - لم يُحتفي والنجاح يدعو للظهور والعمل؟  
 وفصل بيننا صمت كئيب حتى سمعته يتساءل:  
 - لم ينتحر؟  
 فقلت:  
 - لنفس الأسباب التي انتحر من أجلها بطل مسرحيته.  
 - إنك مصرّ على اتّهامه.  
 - أتحدّى أن تجد سبباً آخر...  
 انفجر الخبر في الوسط الفتيّ وبين جمهور المسرح. لم يسفر البحث عنه عن شيء. اتُّخذت الإجراءات المألوفة في هذه الأحوال. داخلي شعور عميق بالارتياح. قلت لنفسي:  
 - لن يعرف نجاح المسرحية حدوداً يقف عندها...  
 ...

- زار أمس الهلالي في مسكنه، أتعرف لماذا؟  
 - هه؟  
 - طالب بحصة من الأرباح...  
 قهقهت عالياً حتى أزعجت عمّ أحمد برجل وراء البوفيه وقلت:  
 - ابن حليلة!... وماذا كان ردّ الهلالي؟  
 - أعطاه مائة جنيه...  
 - خسارة في عينه...  
 - لقد أصبح بلا عمل وهو منكبّ على كتابة مسرحية جديدة.  
 - ابتزاز... وهيهات أن يكتب جديداً ذا قيمة...  
 - فال الله ولا فالك!  
 - وأين كان محتفياً؟  
 - لم يبع بسرّه لأحد...  
 - أستاذ فؤاد ألم تقتنع بتجريمه؟  
 - لم يقتل تحية؟  
 - لاعترافها بخيانته...  
 فهزّ منكبّيه ولم ينبس.

\* \* \*

- عندما رأيت النعش يتهادى من مدخل العمارة اجتاح جوفي فراغ مخيف تهادى حتى لفظني في العدم. هجم عليّ البكاء هجمة غادرة فأجهشت. الصوت الوحيد الذي أثار المشيعين. حتى عباس كان جاف العينين. رجعت في سياره سرحان الهلالي. قال لي:  
 - عندما سمعت بكاءك... عندما رأيت منظره... كدت أنفجر ضاحكاً لولا ستر الله...  
 قلت باقتضاب:  
 - كان مفاجأة لي أيضاً.  
 - لا أذكر أنّ رأيك باكباً من قبل.

# كَرَمِ يُونُسَ

- حَتَّى لَوْ تَكُونُ عَنِ الْأَسْتَاذِ عَبَّاسِ يُونُسَ؟  
فَقُلْتُ:
- إِنَّهُ ابْنُ بَارٍ... عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ أَعُودَ إِلَى الْمَسْرَحِ فَلَمَّا رَفَضْتُ أَنْشَأَ لَنَا هَذِهِ الْمَقَلَّ...  
وَقَالَتِ الْمَرْأَةُ:
- وَقَدْ قُبِلَتْ مَسْرُوحِيَّتُهُ...  
لَكِنَّهُ مَا جَاءَ إِلَّا مِنْ أَجْلِ الْمَسْرُوحِيَّةِ. هَلْ أَعْمَتَهُ الْغَيْرَةُ؟ يَطْبِقُ الْمَوْتَ وَلَا يَطْبِقُ أَنْ يَنْجِحَ عَبَّاسًا. فَلِمَ تَبْغِضُهُ. إِنَّكَ أَصْلُ الْبَلَاءِ. لَا يَفْهَمُكَ مِثْلِي فَنَحْنُ مِنْ خِرَابَةِ وَاحِدَةٍ. قَالَ:
- الْمَسْرُوحِيَّةُ تَدُورُ فِي هَذَا الْبَيْتِ، عَنْكُمْ، وَتَهْدِي إِلَيْنَا جَرَائِمَ جَدِيدَةً لَمْ تَخْطُرْ بِبَالٍ أَحَدًا. أَيْمَكُنْ ذَلِكَ؟ عَبَّاسٌ لَمْ يَقُلْ لَنَا كَلِمَةً عَنِ الْمَوْضُوعِ. لَكِنَّهُ شَابٌ مِثَالِي. تَسَاءَلْتُ:
- مَاذَا تَعْنِي؟
- كَلَّ شَيْءٌ... كَلَّ شَيْءٌ... أَلَا تَرِيدُ أَنْ تَفْهَمَ؟ مَاذَا يَعْْنِي؟ لِمَاذَا يَفْضَحُ عَبَّاسٌ نَفْسَهُ؟ سَأَلْتُهُ:
- حَتَّى السَّجْنِ؟
- وَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي وَشَى بِكُمَا إِلَى الشَّرْطَةِ وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ تَحِيَّةً...  
- إِنَّهُ لَسَخَفٌ...  
وَتَسَاءَلْتُ الْمَرْأَةَ:
- مَاذَا تَعْنِي يَا عَدُوَّ عَبَّاسٍ؟
- وَتَسَاءَلْتُ رَغْمَ انْقِبَاضِ قَلْبِي:
- أَلَيْسَتْ مَسْرُوحِيَّةً؟  
وَقَالَتِ حَلِيمَةُ:
- لَدَيْهِ التَّفْسِيرُ الصَّحِيحُ...  
- شَاهِدَا الْمَسْرُوحِيَّةَ بِنَفْسِكُمَا.
- الْمُخْرِيفُ نَذِيرٌ فَهَلْ تَتَحَمَّلُ بَرُودَ الشِّتَاءِ؟ عَمْرٌ يَبْقِضِي فِي بَيْعِ الْفُولِ السُّودَانِيَّ وَاللَّبَّ وَالْفِشَارَ. وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا مِثْلُ السَّجْنِ. لِمَ نَسْجُنُ فِي بَلَدٍ تَسْتَحِقُّ غَالِيَتَهُ السَّجْنَ؟ قَانُونٌ مَجْنُونٌ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَحْتَرَمُ نَفْسَهُ. مَاذَا سَيَفْعَلُ كُلُّ هَؤُلَاءِ الصَّبِيَّةِ؟ انْتَظِرِي حَتَّى تَشْهَدَ هَذِهِ الْبُيُوتَ الْقَدِيمَةَ وَهِيَ تَنْفَجِرُ. التَّارِيخُ يَحْزَنُ لِتَحْوُلِهِ إِلَى قِيَامَةِ الْمَرْأَةِ لَا تَكْفَى عَنِ الْأَحْلَامِ. وَلَكِنْ مَا هَذَا؟ مِنْ هَذَا؟ شَيْخٌ مِنَ الْمَاضِي. إِلَيَّ بِخَنْجَرٍ مَسْمُومٍ. مَاذَا تَرِيدُ يَا مَسْتَفْعِ الْحَشْرَاتِ؟ قُلْتُ لِحَلِيمَةَ بِامْتِعَاضٍ:
- انظري...  
دُهْشْتُ. تَسَاءَلْنَا:
- أَيْمِي لِّلْمَهْتِنَةِ أَمْ لِّلشَّيْطَانَةِ؟
- هَا هُوَ يَقِفُ مَلْقِيًا بِابْتِسَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ. بَعِينِيهِ الضَّيْقَتَيْنِ وَأَنْفَهُ الْغَلِيظِ وَفَكَّهُ الْقَوِيَّ الْعَرِيضِ. كُنْ جَافًا مَعَهُ مِثْلَ الزَّمَنِ.
- طَارِقُ رَمْضَانَ!... مَاذَا جَاءَ بِكَ؟  
وَقَالَتِ حَلِيمَةُ مَنْفَعَلَةً:
- أَوَّلُ زِيَارَةٍ مِنْ أَهْلِ الْوَفَاءِ مَدَّ رِجْعَنَا إِلَى سَطْحِ الْأَرْضِ...  
فَقَالَ طَارِقُ:
- مَا أَنَا إِلَّا غَرِيقٌ مِنَ الْغَرَقِيِّ...  
فَقُلْتُ بِحَتَقٍ:
- جِئْتُ مِنَ الْمَاضِي كَذَكَرَى مِنْ أَسْوَأِ ذِكْرِيَّاتِهِ...  
وَشَخَّلْتُ عَنْهُ بِزُبُونِ ثَمِّ رَمَقْتِهِ بِازْدِرَاءٍ فَقَالَ:
- مَعِيَ أَخْبَارُ سَيِّئَةٍ!  
فَقَالَتِ حَلِيمَةُ:
- لَا تَهْمُنَا الْأَخْبَارُ السَّيِّئَةُ...  
فَقَالَ طَارِقُ:

## أفراح القبة ٣٢٥

- أعماك الحقد .  
- بل الجريمة...  
- ما مجرم إلا أنت!  
- ولقت له وانقباض لا يزايل قلبي :  
- حاقد مجنون... ابني عبيط ولكنه ليس خائناً ولا قاتلاً...  
فصاح:  
- يجب القبض على قاتل نحيّة...  
- اشتبك مع المرأة في خصام جارح وأنا شارد في أفكاري حتى سألته بخشونة:  
- ماذا تريد؟  
- وطرده شرّ طردة!
- \* \* \*
- لم يفصح نفسه إذا كان قاتلاً حقاً؟  
- لا أدري...  
- تحرك... هذا هو المهم.  
- سأذهب طبعاً.  
- أو أذهب أنا.  
- ليس عندك ملابس صالحة... صادروا نقودنا... ضربيني المخبر الكلب.  
- ذاك تاريخ مضي... ففكر الآن فيما نحن فيه.  
- الوجد كاذب.  
- يجب أن تسمع بأذنك.  
- لم يكن يوافق على حياتنا... كان مثاليًا كأنه ابن حرام... ولكنه لا يغدر بنا، ثم لماذا يقتل نحيّة؟  
- إنك تستجوبني أنا...  
- إنّي أفكر.  
- لقد صدقت ما قال الوجد.  
- وأنت أيضًا تصدّيقينه.  
- يجب أن نسمعه.  
- الحقّ أنني لا أصدق...  
- إنك تهذي...  
- اللعنة...  
- اللعنة حلّت يوم ارتبطت بك...  
- ويوم ارتبطت بك...  
- كنت جميلة...  
- هل رغب فيك أحد غيري؟  
- كنت دائمًا مرغوبة... إنّه سوء الحظ.  
- كان أبوك ساعي بريد أما أبي فكان موظفًا في دائرة الشمرجي...  
- ذلك يعني أنّه كان خادمًا.  
- أنا من أسرة...  
- وأمك؟  
- مثلك تمامًا...  
- مخزّف... ولكنك لا تريد أن تذهب...  
- سأذهب عندما يروق لي...  
- نشئت فكري. ليكن ما يكون. لن يصيبنا أسوأ مما أصابنا. ألم نبدأ - أنا وهذه المرأة - من ملتقى مفعم بالحرارة والرغبة والأحلام الجميلة؟... أين نحن من
- غصت في بئر. لا يمكن أن يجي من آخر الدنيا ليلقي بأكاذيب يسير كُشفها. إنّه وجد ولكنه ليس أحق. لا قدرة لي على الانفراد بوساوسي. نظرت نحو المرأة فالتقيت بعينيها تنظران نحوي. إننا غريبان يجمعهما بيت قديم. لولا إشفائي من إغصاب عباس لطلّقتها. عباس وحده الذي يجعل للحياة المرّة طعمًا مقبولًا. إنّه الأمل الوحيد الباقي. تمتت المرأة:  
- إنّه يكذب.  
فسألته وأنا أشدّ منها التماسًا لنقطة رحمة:  
- ولم يكذب؟  
- ما زال يحقد على عباس.  
- ولكن هناك مسرحيّة أيضًا.  
- لا نعرف عنها شيئًا، اذهب إلى عباس...  
- سأقابله حقًا...  
- ولكنك لا تتحرك.  
- إنّي خائف. إنهما غيبّة وعنيدة. قلت:  
- لا داعي للعجلة.  
- يجب أن يعرف ما يدبّر من وراء ظهره.  
- وإذا اعترف؟  
- ماذا تعني؟  
- إذا اعترف بأنّ مسرحيته تحوي ما قال الوجد؟  
- ستجد التفسير المريح.  
- لا أدري.

## ٣٢٦ أفراس القبة

- ذلك الآن؟ ولكن يجب أن أذهب على أي حال. لعلّ العصر هو أنسب الأوقات.
- يكون لذلك علاقة بذهابه...  
- تفكير خاطئ يا كرم.  
- طارق حاقد وهو...  
فقاطعني:  
- لا تحدّثني عنه فلنّني أعلم به، ولكن لا داعي للقلق على ابنك على الإطلاق...  
- أخشى أن يكون قد...  
وسكت فقال ضاحكًا:  
- المسرحية خيال ولو كانت...  
- خبرني عن رأيك بصراحة...  
- لم أشغل عقلي دقيقة إلا بالمسرحية نفسها... ما ارتكبه البطل في المسرحية في صالح المسرحية، هذا ما يهمني...  
- ولكنّه وشي بوالديه وقتل زوجته؟  
- خير ما فعل؟  
- ماذا تعني؟  
- ذلك ما خلقه المأساة...  
- ألم تشعر بأنّ ذلك قد حدث فعلًا في الحياة؟  
- لا يهمني ذلك البتّة.  
- أريد أن أعرف الحقيقة...  
- الحقيقة المسرحية عظيمة، وأنا كما تعلم مدير مسرح لا وكيل نيابة...  
- وأنا معذّب!  
فضحك الملالي وقال:  
- لا أدري شيئًا عمّا تحدّث عنه، ثمّ إنك لم تكن تجبه قطّ؟  
- الحاضر غير الماضي وأنت سيّد من يفهم...  
- المسرحية مسرحية لا أكثر من ذلك، وألا جاز للقانون أن يدخل ٩٠٪ من المؤلفين قفص الاتهام...  
- إنك لا تريد أن تريحني...  
- ليتني أملك ذلك يا كرم، لا تشغل نفسك بأوهام سخيّة، ولن يشاركك فيها إلا قلّة من الأصدقاء المعروفين أمّا الجمهور فلن يخرج عن حدود المسرحية، لماذا رفضت أن ترجع إلى وظيفتك القديمة كملقّن للفرقة؟  
- شكرًا، اقترح عباس ذلك مؤيّدًا اقتراحه
- لم أعرف مسكن ابني من قبل. منذ زواجه انفصلنا. لم يكن بيننا خير. كان يرفض حياتنا ويحتقرها فبذته واحتقرته. وبانتقاله إلى بيت تحية تحرّرت من نظراته المتعصبة. أسعى إليه الآن بعد أن لم يبق أمل غيره. تلقّانا بعد السجن ببرّ ورحمة فكيف يكون هو الذي زجّ بنا فيه؟ سألت البوّاب عنه فقال:  
- ذهب منذ ساعتين حاملًا حقيبة...  
- سافر؟  
- قال إنّه سيغيب بعض الوقت...  
- ألم يترك عنوانه الجديد؟  
- كلاً.
- ذهلت. حدث ما لم أتوقّعه. لم لم يجبرنا؟ هل بلغت اتهامات طارق له؟ وبازدياد قلقي قرّرت أن أقابل سرحان الملالي. ذهبت إلى مسرح الغد بعماد الدين وطلبت المقابلة. فسرعان ما أذن لي. وقف مرحبًا بي وهو يقول:  
- أهلاً، حمدًا لله على السلامة... لولا ظروفي لزرتك مهتًا.  
- سرحان بك، عذر غير مقبول...  
فضحك ولم يكن شيء يخرج به أو يربكه وقال:  
- لك حقّ.  
- إنها عشرة طويلة، لقد قضيت عمرًا ملقنًا لفرقتك، وفتحت لك بيتي حتى قبض عليّ...  
- إنني مخطئ في حقك... تشرب قهوة؟  
- لا قهوة ولا شاي، إنّي قادم بخصوص عباس ابني...  
- تقصد المؤلف المثير... ستنتج مسرحيته يا كرم نجاحًا غير عاديّ وأنت أدري الناس بإحساسي...  
- عظيم... ولكنّي لم أجده في مسكنه، وقال البوّاب إنّه حمل حقيبه وذهب...  
- وماذا يقلقك من ذلك؟... إنّه شارع في تأليف مسرحية جديدة... ولعلّه وجد مكانًا هادئًا...  
- بلغتني أشياء عن موضوع المسرحية فخفت أن

## أفراح القبة ٣٢٧

لاستقبال القادمين من الجحيم. أحترم هؤلاء العظام الذين يمارسون الحرّية بلا نفاق. الهلالي والعجرودي وشلي وإسماعيل وطارق وتحية. أعدّ أيضًا مخزن من الأطعمة الجافّة والشراب والمخدرات. حليلة تتوتّب للنفاق. إني لا أرحم المنافقين. تثوب إلى حقيقتها الكامنة. عسي ربة البيت الجديد بكلّ كفاءة. جميلة وذكيّة وحرّة مثلي وأكثر. جديدة بقيادة ماخور. أمطرت السماء ذهبًا. ولكن لم ينظر الولد إلينا بامتعاض؟ ابن من أنت؟ من أبوك؟ من أمك؟ من جدتك؟ ابن حرام أنت، ابن الكتاب والمسرح، وتصدّق النفاق يا غبيّ.

وتقول حليلة:

- الولد يقتله الحزن...
- ليقته الحزن كما يجدر بأيّ غبيّ.
- إنه يرفض.
- لا أحبّ هذه الكلمة...
- إنه يستحقّ الرحمة.
- إنه يستحقّ القتل.
- أصبح يمقتني ويقتلع الحبّ القديم من قلبي.
- انتبه لحياتك... عش الواقع... قلة نادرة
- تظفر بمثل طعامك... انظر إلى الجيران... ألا
- تسمع عمّا يجري في البلد؟ ألا تفهم؟ من أنت؟...
- عيناه تعكسان نظرة غريبة. إنه يعيش خارج أسوار
- الزمن. ماذا يريد؟ اسمع موعظة. هذا البيت بناه
- جدك. لا أدري عنه شيئًا. جدتك جعلت منه مهّدًا
- لغرامها. أرملة وشابة ولا تختلف عن أمك. أبوك نشأ
- في أحضان الحقيقة. أوّد أن أحكي لك كلّ شيء. هل
- أخشاك؟! لولا أن عاجلت الوفاة جدتك لتزوّج منها
- الباشجاويش ولضاع البيت. أراد أن يستولي عليّ بعد
- وفاتها ولكنيّ ضربته. لذلك سعى حتّى جُنّدت في
- الجيش القديم ولكنّ البيت بقي. أم هاني قريبة أمي
- وقوادة الهلالي كانت الوساطة لأتعيّن ملقّنًا بالفرقة. أوّد
- أن ألقني عليك هذه السيرة ذات يوم لتعرف أصلك
- وتنتمي بلا مقاومة كاذبة إلى مبادئ الحقيقة. كن مثل
- أيك ليجمعنا الحبّ كما كان وأنت صغير. ولا تتخدع
- بنفاق أمك. ستعرف كلّ شيء ذات يوم. هل أخشاك
- يا ولد؟!

بموافقتك ولكنيّ لا أحبّ الرجوع إلى الماضي...

فضحك الهلالي وقال:

- إني أفهم ذلك، أنت الآن سيّد نفسك، ولعلّ المقلّ أربح، ليكن يا عزيزي، ولكن لا تقلق على عباس، إنه يبني نفسه وسيظهر في الوقت المناسب... انتهت المقابلة. غادرته وأنا أنوء باحتقاري للجنس البشريّ. لا أحد يحبّني ولا أحبّ أحدًا. حتّى عباس لا أحبّه وإن تعلّق به أملي. الغادر القاتل. ولكن فيم ألومه وأنا مثله؟ لقد تقشّر الطلاء عنه فتجلّى على حقيقته الموروثة عن أبيه. الحقيقة المعبودة في هذا الزمان التي توشك أن تعلن ذاتها بلا نفاق. ما الفضيلة إلّا شعار كاذب يتردّد في المسرح والجامع. كيف زجّ بي في السجن في زمن الشقق المفروشة وملاهي الهرم؟ من هذا؟ صادفت طارق رمضان أمام باب البوفيه. مدّ إليّ يد ثعبان فرفضته. قلت له أن ابعد عن وجهي.

\* \* \*

لم أخطئ. أليس هو زمن المخدرات؟ وأنا رجل بلا قيود. لا أخلص إلّا للغريزة. مثلي تمامًا أولئك الرجال ولكنّه الحظّ وحده. تقول حليلة:

- أنظرن أنّ أجري وحده يكفي للإنفاق على بيتك وابنتك؟

- إني على أتمّ استعداد للشجار!

- الأفيون يهدم كلّ شيء...

- فليهدم كيف شاء...

- وابنتك؟... إنه ولد رائع جدير بالرعاية...

لم أخطئ. لقتني أمي مبادئ الصواب الأبديّ.

حليلة ترغب في تمثيل دور السيّد المحترمة وتناسي ماضيها الداعر. لن أسمح للنفاق بالمعيشة في بيتي.

وقلت للهلالي:

- إنكم تتعبون أحيانًا للعثور على بيت مناسب،

إليكم بيتي.

حدجني باهتمام فقلت:

- في أعماق باب الشعريّة، الجنّ نفسه لن يرتاب

فيه.

لم أخطئ. البيت القديم يتجدّد على مبادئ

جديدة. ينفذ عنه الغبار. تتأهّب أوسع حجرة فيه

## ٣٢٨ أفراح القبة

البوفيه الأحمر. جدرانه وسقفه مطلية بحمرة قائمة،  
كذلك أغطية مناضده وبساطه السميك. اتخذت  
مجلسي أمام طاولة الساقى عمّ أحمد برجل على كرسيّ  
جلديّ طويل إلى جانب أثنى لم أتّينها. قدّم لي كالعادة  
سندوتش فول وفنجان شاي. وبالفتاة لا بدّ منها بهري  
شباب ذو جمال رائع. أدركت أنّها - مثلي - موظّفة في  
المسرح. ففي الساعة الثامنة لا يتواجد أحد من  
الخارج، سمعت عمّ أحمد يسألها:

- هل من جديد عن الشقّة يا آنسة حليلة؟  
فأجابت بصوت دسم:

- البحث عن الذهب أسهل.

واندفعت متأثراً بانبهاره:

- هل تبحثين عن شقّة؟

فأحنت رأسها بالإيجاب وهي تزدد رشفة شاي  
فقال عمّ أحمد يعارف بيننا:

- السيّد كرم يونس ملقّن الفرقة... آنسة حليلة  
الكبش قاطعة التذاكر الجديدة.

فسألت بجرأة لا تنقصني:

- من أجل زواج؟

فأجاب عمّ أحمد عنها:

- إنّها تقيم مع خالتها في شقّة صغيرة مكتنّظة وتحلم  
بشقّة صغيرة خاصّة ولكن هناك عقبة الإيجار وعقبة  
خلوّ الرّجل.

وقلت بلا تريث:

- عندي بيت...

فالتفتت نحوي باهتمام لأوّل مرّة متسائلة:

- حقّاً؟

- بيت كبير، إنّه قديم ولكنّه مكوّن من  
طابقين...

- الطابق شقّة؟

- كلاً... إنّه ليس مقسّماً إلى شقق...

فسألني عمّ أحمد:

- ممكن تستقلّ بطابق؟

- ممكن جداً...

فسألت هي:

- ألا يضايق ذلك الأسرة؟

رجعت إلى المقلّ فسألتي حليلة بلهفة:

- ماذا قال لك؟

- لم أقبله، غادر الشقّة إلى مكان مجهول حاملاً  
حقيته...

ضربت فخذيها بقيضتيها وقالت:

- مكان مجهول!... لمّ لمّ يجربنا؟

- من أدراك أنّه يفكر فينا؟

- إنّه هو الذي فتح لنا هذه المقلّ.

- وانتهى متاء، إنّنا بالنسبة له اليوم ماضٍ يحسن  
نسيانه...

- إنك لا تفهم ابني، ليتك ذهبت إلى الهلالي...

صمتُ متأثراً بدفقة غيظ مجهولة البواعث فراحت  
تقول:

- إنك لا تحسن التصرف!

فقلت بازدياء:

- أوّد أن أفلت رأسك...

- هل رجعت إلى الأفيون؟

فقلت ساخراً:

- لا يطمع إليه اليوم إلّا الوزراء!

ثمّ استطرقت:

- الهلالي لا يدري شيئاً عن مكانه...

فتساءلت بقلق:

- زرتة؟

- لا يدري شيئاً عن مكانه...

- أين ذهب ابني؟ هل أخلى شقّته؟

- لا.

- سيرجع... لعلّ في الأمر امرأة...

- تفكير ينسجم مع امرأة مثلك!

فهتفت:

- لا يهّمك أمره، لا يهّمك إلّا نفسك...

- قُضي عليّ بأن أخرج من سجن إلى سجن...

فقلت بحق:

- أنا أنا فأني أعيش في زناينة!

ومن شدّة القهر نشجت باكية فتضاعف حنقي

عليها. وتساءلت في غرابة كيف أحببتها ذات يوم؟

\*\*\*

## أفراح القبة ٣٢٩

- خالته طيبة، والبنات ذات خلق...  
 - لا شك في ذلك.  
 ورمقتي بابتسامة سكرت بها رغبت المتحفزة.  
 استسلمت لأنامل ناعمة، لنعاس مهدد بأحلام  
 اليقظة. وانفسحت أمامي عذوبة الحواس الطاغية.  
 قلت له ذات يوم:  
 - يا عم أحمد، إنّي أرغب بصدق...  
 أدرك البقية المضمرة من كلامي وتمتم بانسراح:  
 - جميل وحكيم...  
 - لا دخل لي سوى أجري ولكنّي أملك المسكن  
 وهو امتياز لا يستهان به في هذه الأيام.  
 - الرغبة في السر أهم من الظواهر.  
 وفي نفس الأسبوع استقبلني قائلاً:  
 - مبارك يا كرم.

دخلت منطقة الظلّ الخنون، منطقة الخطوبة  
 الصافية. منطقة شفاقة يمتزج في نسيجها الحريري وشي  
 الحلم وعذوبة الواقع. أهدتني كيساً جلدنياً تصطف في  
 ثغراته وعلاقاته أدوات حلقة الذقن فسعدت به في  
 طفولة. وإذا بسرّحان الهلالي يرفع أجري جنينين مهتأ  
 إني بحياتي الجديدة. واحتفل بنا رجال المسرح في  
 البوفيه وشيعونا بالأزهار والخلوى.

\*\*\*

فيم تفكر المرأة؟... يدها المعروقة تعبت بالفشار  
 ولا ينطوي رأسها على فكرة مريحة واحدة. قضي علينا  
 أن نتبادل الضجر في هذه الزنزانة. القاذورات منتثرة  
 فوق أديم الشارع العتيق محدّدة له معالم جديدة تحت  
 دفقات الضوء. هبات الهواء تطير ما خفت منها فيزحم  
 أقدام صبية لا حصر لهم. فيم تفكر المرأة؟...

\*\*\*

ليلة الدخلة؟ أجل عند صباح الديكة. وقد جذبتنا  
 الحقيقة نحو بؤرة خانقة. وغابت الأعين فلم يبق إلا  
 التاريخ. انقبض قلبي حبال الحيرة المقتحمة. كدت  
 أتصوّر أنّ الوجود قد مات لولا تصاعد النحيب  
 المكتوم. وقال النحيب كل شيء. وتمتمت:

- لن أسامح نفسي...

حقاً؟... وتمتمت أيضاً:

- إنّي أقيم فيه وحدي...  
 فرفعت حاجبها معرضة عني فقلت مدافعاً عن  
 حسن نيتي:  
 - ستجدين الطابق آمناً أنت وأسرتك...  
 فلم تنبس معتبرة الموضوع منتهياً أما عم أحمد  
 فسألني:

- وكم الإيجار؟

- لم يستأجره أحد من قبل ولست طمأنناً بحال!

فسألني جاداً:

- هل أتيك بساكن؟

فقلت بنبرة إعلامية:

- لا أود ذلك، إنه بيت الأسرة وله ذكرياته، وإنما  
 أردت أن أقدم خدمة للأنسة بصفتها زميلة لي في  
 المسرح...

فضحك عم أحمد برجل وقال:

- أعطنا فرصة للتفكير وربنا يسهّل...  
 وذهبت الأنسة مخلّقة في نفسي انتعاشاً وحيوية  
 ورغبة حريفة.

\*\*\*

ها هي مقوّمسة فوق كرسيها متشابكة الذراعين،  
 تعكس عيناها نظرة قرف ممتعضة وتنعقد فوق جبينها  
 تكشيرة كاللعنة. أليست الوحدة خيراً من عشير  
 النكد؟ أين الانبهار القديم؟ أين سكرته المشعشة؟ في  
 أيّ مستقرّ من الكون تحنّطت؟

\*\*\*

كلّما رأيتها في البوفيه الأحمر قلت لنفسي «هذه الفتاة  
 تستحوذ عليّ كالجوع». إنّي أتخيّلها تمرح في البيت  
 القديم، تجدد شبابه، تلعق دماءه. أتخيّلها وهي  
 تشفيني من عللي الزمنة.

ودأب عم أحمد برجل على تشجيعي كلّما انفرد بي.

قال لي مرّة:

- حليلة قريبة لي من ناحية أُمّي... متعلّمة  
 وذكية... أنا من سعيت عند الهلالي بك لإلحاقها  
 بعملها...

فشجّعته بدوري قائلاً:

- بنت ممتازة حقاً!

## ٣٣٠ أفراح القبة

أي صوت قبيح كأنما يصدر عن المجاري الطافحة.  
صرنا مثل شجرتين متعريتين. الجوع يطرق باب البيت  
القديم.

وذات يوم قلت لها بارتياح:

- نهاية حميدة.

- عمّ تتحدّث؟

- فلنعدّ الحجرة الشرقية للعب...

- هه...!؟

- سيجيئون كلّ ليلة ولن نشكو الفقر...

رمقتني بنظرة غير متوقّعة لخير فقلت:

- الهلالي، العجرودي، شليي، إسماعيل، أنت

فاهمة، ولكن علينا أن نعدّ لهم ما يلزمهم...

- إنّه قرار خطير...

- لكنّه حكيم... أرياحه خياليّة...

- لم يكفنا أن يقيم عندنا طارق وتحية... نحن

نتدهور...

- نحن نرتفع... ليسكت صراخك وصراخ

ابنك...

- ابني ملاك... إنّه الرعب له...

- عليه اللعنة إن تحدّى أباه... إنك تفسدينه

بأفكارك السخيفة...

إنّها تستسلم بامتعاض. أنسيت ليلة الدخلة؟

عجيب أن يطمح أناس للتحرّر من الحكومة على حين

يرسفون بكلّ ارتياح في القيود الكامنة في أنفسهم...

\*\*\*

ها هي راجعة من مشوارها. لولا خدمتها في البيت

لتمنيت ألا ترجع. ينمّ وجهها عن الحية. لم أسألها

عن شيء. أهملتها حتّى قالت متنبّهة:

- ما زالت شقّته مغلقة...

رحبت بزبون لأحجّبتها فلمّا ذهب قالت بحدّة كريمة:

- افعل شيئاً...

غبت عنها راجعاً إلى فكرة طلالا أنارتني وهي كيف

ترجّ الحكومة بنا في السجن من أجل أفعال ترتكبها

هي جهازاً؟ ألا تدير هي بيوتنا للقمار؟ ألا تشجّع

المواخير المُعدّة للضيوف؟ إنّي معجب بسلوكها ولكنّي

ناثر على نفاقها الظالم. وارتفع صوت المرأة وهي تقول:

- كان يجب أن...

ماذا؟... لا داعي لمزيد. وأيضاً تمتت:

- لكفّي أحبتك...

عرفت سرّها ولكنّها لم تعرف سرّي بعد. من أين

لها أن تعلم أنّ رَجُلها ينحدر إليها من عهد سابق على

التاريخ؟ من أين لها أن تتصوّر مدى حرّيته؟ لم أكثرث

للعبة. كانت مجرد دهشة فقط. وحتّى الدهشة

استسختها. وقلت بسخرية عميقة:

- لا يهني الماضي.

فأحنت رأسها، ربّما لتخفي ارتياحها، وقالت:

- إنّي أحترق الماضي وأولد من جديد...

فقلت بنبرة عاديّة:

- هذا حسن.

نبذت أيّ رغبة في مزيد من المعرفة. لست غاضباً

ولا متبهجاً ولكنّي أحبّها. وانغمست في حياتي الجديدة

بحرارة صادقة.

\*\*\*

تمرّ الساعات فلا تتبادل كلمة واحدة. مثل حيّات

الفول السوداني. ما من زيون يجيء إلّا ويشكو الغلاء

والمجاري الطافحة والطابور المهلك أمام الجمعية

الاستهلاكية. أبادله العزاء. ربّما نظر إلى المرأة

متسائلاً:

- مالك ساكنة يا أمّ عبّاس؟!

أيّ أمل أرتقبه أنا؟ هي على الأقلّ تنتظر عودة عبّاس.

\*\*\*

انغمست في الزوجيّة بحرارة صادقة. انزعجت

عندما وافتي ببشائر الأمومة ولكنّه كان انزعاجاً عابراً.

وقد عشقت عبّاس في طفولته. وبدأ كلّ شيء يتغيّر

منذ قال لي طارق رمضان:

- جوار قمت صعب... دؤب هذه في فنجان

شاي...

بدأت رحلة جديدة جنونيّة. صادف الإغراء رجلاً

لا يهيمه شيء. وكانت ينابيع الحياة تجفّ، ومسرّاتها

تحتقن في قبضة أزمة قاسية. وتقول حلّيمة:

- أتريد أن تنفق أجرك على السمّ وتركني أواجه

الحياة وحدي؟



## أفراح القبة ٣٣١

- اذهب مرة أخرى إلى المدير.  
فقلت ساخراً:  
- اذهبي إليه بنفسك فهو أقرب إليك مني!  
فهتفت بحنق:  
- الله يرحم أمك!  
- على أي حال لم تكن منافقة مثلك...  
فتأوهت قائلة:  
- إنك لا تحب ابنك، ولم تحبه قط...  
- لا أحب المناقين ولكني لا أنكر مساعدته لنا.  
فولتني ظهرها متممة:  
- ترى أين أنت يا عباس؟!
- \* \* \*
- أين سرحان الهلالي؟ غادر مجلسه ولكنه لم يرجع.  
لا يمكن أن ينام في دورة المياه. اللعب مستمر وأنا أجمع  
نصيبي عقب كل دورة. أين حليلة؟ أما أن لها أن  
تقدم شيئاً من الشراب؟ أتساءل:  
- أين المدير؟  
لم يجب أحد. كل مشغول بورقاته. ترى هل  
حدجني طارق بنظرة ساخرة؟! يجب أن تقدم حليلة  
شيئاً من الشراب.  
- يا حليلة!  
لا جواب. لن أتخلّى عن موقعي وإلا سُرقت.  
- يا حليلة...  
دوى صوتي عنيماً. جاءت بعد قليل.  
- أين كنت؟  
- غلبني النوم...  
- أعددي شراباً... وحلي محلي حتى أرجع...  
غادرت حجرة اللعب. صادفت عباس في صالة  
الدور الأول. سألته:  
- ماذا أيقظك في هذه الساعة؟  
- أرق طارئ...  
- رأيت سرحان الهلالي؟  
- غادر البيت.  
- متى؟  
- منذ قليل... لا أدري بالضبط...  
- هل رأته أمك؟
- لا أدري!  
لم ذهب؟... لماذا ينظر إلى الولد واجماً؟... إنني  
أشتم رائحة غريبة. إنني أي شيء ولكني لست مغفلاً.  
وعندما لم يبق في البيت إلا أعقاب السجائر والكؤوس  
الفارغة رمقت المرأة بنظرة طويلة ثم سألتها:  
- ماذا حدث من وراء ظهورنا؟  
فومقتني بازدراء وتجاهلتي تماماً فعدت أسأل:  
- عباس راى؟  
فلم تجب وازددت غضباً... فقلت:  
- إنه هو الذي الحقك بالعمل...  
فضربت الأرض بقدمها فقلت بسخرية:  
- لا شيء بلا ثمن، هذا ما يهمني، أما أنت فلا  
تستحقين الغيرة!  
اندفعت نحو حجرتها وهي تقول:  
- إنك أحقر من حشرة!  
فقلت مفهقها:  
- إلا حشرة واحدة...  
\* \* \*
- ها هي راجعة من مشوار جديد. فلتزدادي عذاباً  
وجنوناً. لبت واقفة في المقل وراحت تقول:  
- فؤاد شلبي مطمش تماماً...  
- قابلته؟  
- في مقهى الفن...  
- من أين له أن يعلم؟  
- قال إنها نزوة مؤلف وأنه سيظهر في الوقت  
المناسب ويبدع مسرحية جديدة...  
- لا بد من كلمة لتهدئة امرأة مجنونة غرقة...  
جرت كرسيتها إلى أقصى المقل وجلست ومضت  
تحدّث نفسها:  
- لو أراد الله لوهيني حظاً أسعد، ولكنته رمى بي  
إلى رجل سافل مدمن...  
فقلت بسخرية:  
- هذا جزاء من يتزوج من عامرة.  
- الله يرحم أمك. عندما يرجع عباس سأذهب  
معه...  
- إذن فليرجع عباس رحمة بي...  
- إذن فليرجع عباس رحمة بي...  
- إذن فليرجع عباس رحمة بي...

## ٣٣٧ أفرح القبة

- مَنْ يتصوّر أنّك أبوه؟  
- ما دام قد قتل زوجته وزجّ بوالديه في السجن فهو ابني وإني لفخور به!  
- إته ملاك، وهو من صنع يديّ أنا...  
تمنيت أن تكلم نفسك حتى تجنّ. وتذكّرت صفة المخبر على قفائي واللكمة التي أسالت الدم من أنفي. الكيسة مثل زلزال مدمر. حتى سرحان الهلالي شدّ جفناه من الذعر. ومصادرة المال المخزون الذي بعنا أنفسنا حباً فيه. يا لها من قشعريرة.
- \* \* \*
- أيّ شيطان يرقص في الصالة؟!  
غادرت الحجره فرأيت طارق وعباس وهما يتضاربان. حليلة تصرخ. اجتاحني الغيظ. صرخت:  
- ما هذا العبث؟  
صاح طارق:  
- مسرحية هزليّة... المحروس سيتزوج من نجيّة...  
بدا لي الأمر سخيفاً، ومهدّداً بإطفاء نشوة المخدّر المتصاعدة. صاحت حليلة:  
- أيّ جنون!... إنّها أكبر منك بعشرة أعوام... وتدفقت الإنذارات من فم طارق مع نثار لعبه فقالت له حليلة بشدّة:  
- لا تزد الأمور سوءاً...  
فصرخ طارق:  
- سأهدم البيت على من فيه.  
سكت غيظي وتسلّلت إليّ السخرية واللامبالاه. وقبل أن أنفّسه بكلمة قالت حليلة لطارق:  
- خذ ملابسك ومع السلامة.  
فنهتف:  
- من وراء ظهري في هذا البيت القدر.  
فقلت له بهدوء تبدّي غريباً في ذلك الجو العاصف:  
- إنّهُ قدر بسبب وجودكم فيه...  
فلم يعنّ بالالتفات إليّ أما حليلة فسالت عباس:  
- أحقيتي ما يقول؟  
فأجاب المحروس:  
- اتّفقنا على ذلك.  
فسألته دون مبالاه:  
- لمّ تفضّل باستشارتنا؟  
فلم يردّ فرجعت أسأله:  
- هل يكفي أجرها للإفناق على بيت زوجيّة؟  
فقال عباس:  
- سأحلّ علك ملقناً للفرقة...  
- من مؤلّف إلى ملقن؟  
- لا تناقض بين الاثنين.  
فصاحت حليلة بصوت متشنج:  
- ابني مجنون.  
وقالت لطارق:  
- لا تكن أنت أيضاً مجنوناً.  
فعاد يهدّد فصاحت به:  
- غادر بيتنا.  
فمضى وهو يقول:  
- باقٍ على أنفاسكم ليوم القيامة...  
خلا المكان للأسرة الكريمة. جعلت أردّد عينيّ بينها في شأته وسخرية. قالت له بضراعة:  
- ما عرفتها إلاّ خليلة لهذا أو ذاك...  
فقلت مقهقهاً:  
- أمك خبيرة... اسمع وافهم...  
واصلت ضراعتها:  
- أبوك كما ترى وتعلم أصبح لا شيء، أنت أملنا...  
فقال عباس:  
- سنبدأ حياة جديدة.  
فسألته ضاحكاً:  
- لماذا خدعتنا طويلاً بمنايكتك؟  
غادر عباس البيت فأجهشت هي في البكاء. رحبت في أعماقي بذهابه النهائي الوشيك. هلّلت لتحطّم التحالف الكريه القائم بينه وبين أمه ضدّي. إنّهُ صوت معارضة دائم. ضقت به وكرهته وهما هو يختفي فيكتسب البيت هدوءاً وانسجاماً. كنت أخافه أحياناً. تتجسّد فيه أقوال أزدريها وأفعال أحتقرها. وجعلت حليلة تندب حظّها مولولة:

## أفراح القبة ٣٣٣

ندري أين تقيم . . .

فقال سالم العجرودي:

- تحية امرأة طيبة رغم كل شيء . . .

فقلت وأنا أضحك عاليًا:

- رغم كل شيء!

فقلت حليلة بحق:

- السعادة في هذه الأيام من نصيب البغال.

وتساءل سرحان:

- وهل يواصل محاولاته في تأليف المسرحيات؟

فقلت حليلة:

- طبعًا . . .

فقال بأسًا:

- عظيم . . . ستهبه تحية تجارب مفيدة!

ثم انهمكت في جمع النقود وأنا أتذوق أول ليلة تمر

بلا رقيب.

\*\*\*

المرأة تبحث عن ابنها وأنا في المقل وحدي. ترى

أي نهاية رسمها لها في المسرحية؟ فاتني أن أسأل عن

ذلك! هل يسدل الستار ونحن في السجن؟ . . . في

المقل؟ ويحيى زبون في أعقاب زبون. هؤلاء الناس لا

يدرون كم أحقرهم وأمقتهم. منافقون. يفعلون مثلنا

ويؤدون الصلاة في أوقاتها. أنا خير منهم. أنا حرّ

أنتمي إلى عصر سابق للدين وقواعد السلوك. لكنّي

عاصر في هذه المقل بجيوش المنافقين. كل رجل وكل

امرأة. مثل الدولة. لذلك تترككم للمجاري والطواير

وتجود عليكم بالخطب الرئانة. ويحطم ابني رأسي

بمواظبه الصامتة ثم يرتكب الخيانة والقتل. ولو تيسر

الأيون وحده لكان كل شيء. لماذا تغرّر بنا أيام

الخطوية؟ لماذا تهمس لنا بعدوية غير موجودة؟

- إني مدين لعمّ أحمد برجل بسعادة فوق احتمال

البشر.

- لا تبأخ.

- حليلة . . . ما أسعد من لا يضيع خفقان قلبه في

العدم!

وتألقت ابتسامة مثل فلة يانعة. أين تختفي هذه

العدوية؟ آه لو أنّ الرجوع في الزمان ممكن مثل

- وحدي . . . وحدي . . .

فقلت لها بهدوء:

- وحدك؟ . . . لا تدعي ما ليس فيك، فيم

نختلف؟ . . . نبع واحد وحياة واحدة وهدف

واحد . . . !

فحدجتي بنظرة تنزّ مقتًا واحتقارًا ومضت إلى

حجرتها مشبعة بقهقهتي العالية.

\*\*\*

نظرت إلى ظهرها عابرًا تلال الغول السوداني واللّب

والفشار والحمص المعبأة في جيوب الطاولة الممتدة. أيّ

حياة تمضي بلا سرور وفي جوّ مشحون بالكراهية

والدخان! عودة الولد ونجاحه خليقان بأن يضيفا إليها

جدة وإثارة!

\*\*\*

أنا مرح، حليلة تداري وجومها. سرحان الهلالي

يتساءل:

- أين طارق وتحية؟

ويقول سالم العجرودي:

- انكماش خطير في اللعب . . .

وقلت ضاحكًا:

- أخبار مثيرة يا سرحان بك، ابني المجنون تزوّج

من تحية!

ضجّت المائدة بالضحك وقال إسماعيل:

- الظاهر أنّ ابنك فتان حقيقي . . .

وقال الهلالي:

- الولد الصغير!

فقال شلي:

- زواج الموسم!

وقال إسماعيل:

- تجدون طارق الآن في الصحراء مثل مجنون ليلى!

وضجّت المائدة بالضحك مرّة أخرى ولكنّ سرحان

قال بنبرة ذات معنى:

- ولكنّ حليلة لا تشارك في الأفراح . . .

فقلت حليلة وهي تواصل إعداد الشراب:

- حليلة في ماتم!

- من يدري؟ . . . ربّما تصادفه السعادة التي لا

## ٣٣٤ أفرح القبة

الرجوع في المكان. في كائني البدائي ركن ساذج يطيب له أحياناً أن يبكي الأطلال. كرم الذي لم يعد موجوداً يبكي حليلة التي لم تعد موجودة.

ها هي المرأة راجعة. دخلت وجلست دون تحية. تجاهلتها تماماً ولم تنبس. في عينيها طمأنينة فإذا عرفت؟! لا شك أنّ ثمة خيراً طيباً ترضى به علي. الخنزيرة. لو كان شراً لصبته على رأسي قبل أن تدخل. هل رجع عباس؟ أبيت أن أسأل. ومضى وقت حتى قالت:

- نحن مدعوّان لمشاهدة المسرحية...

وقدمت إليّ إعلاناً مطبوعاً. استقرّ بصري على اسم المؤلف «عبّاس يونس». جرفني زهو. نساءلت:

- هل نذهب؟

- أيّ سؤال!

- قد لا يسرنا أن نرى أنفسنا...

- المهم أن نرى مسرحية عباس...

صمتت فقالت:

- قلبي يحدّثني بأنّ المؤلف سيظهر حتّى...

- من يدري؟

- قلبي يدري.

\*\*\*

ذهبت في أحسن صورة ممكنة. ارتديت بدلة لا بأس بها واستأجرت حليلة ثوباً ومعطفاً من أمّ هاني. استقبلونا استقبالاً حسناً. وقالت حليلة:

- ولكيّ لا أرى المؤلف.

فقال سرحان الهلالي:

- لم يحضر ولكيّ أخبرتك بما فيه الكفاية...

إذن قد قابلته وتلقّت أخباراً لا بأس بها. ولما كان الوقت مبكراً فقد ذهبنا لزيارة عمّ أحمد برجل. قدم لنا - هدية منه - سندوتشين وقدحين من الشاي وهو يقول ضاحكاً:

- مثل الأيام الماضية!

لم نعلق لا بكلمة ولا بابتسامة. وفي الوقت المناسب انتقلنا إلى مقاعدنا في الصفّ الأوّل. كان المسرح كامل العدد فقالت حليلة:

- هو النجاح.

فتمتت:

- لا حكم إلّا بعد مرور أسبوع...

رغم استهتاري توتّرت أعصابي. فيم تهمني مسرحية وأنا لا تهمني الحياة! آه ها هو الستار يرفع عن بيتنا. بيتنا دون غيره. هل أراد العجرودي كذلك أو أنّه عبّاس؟ الأب والأمّ والابن. إنّه ببساطة ماخور ونادي قمار. يوجد أكثر من الجريمة والخيانة. الأمّ تبدو عاهرة بلا ضابط. علاقاتها تتابع مع المدير والمخرج والناقد وطارق رمضان! ذهلت. لحظتها. أنفاسها تردّد في ثقل وخشونة. إنّه الجحيم. استمعتي برأي ابنك فيك. رؤيته تنجلي بوحشية عن أبيه وأمه. من يتصوّر أنّ رأسه المتزمت يجوي هذه الخرائب كلّها؟ إنّي سعيد برأيه في أمّه. سعيد باطلاعها على رأيه فيها. المسرحية تنكّل بي وتنقم لي. في لحظة الفضيحة هذه أنّعمّ بالانتصار على الأمّ والابن معاً. على عدويّ اللدودين. ثمّ إنّه لم يفهمني. إنّه يقدمني كرجل منحلّ. كرجل واجبة تحدّيات الواقع بالانحراف. لست كذلك يا غيبي. لم أستوِ مرگباً لكي أنحلّ. نشأت بسيطاً بدائياً حرّاً. نشأت شاهداً ومديناً للنفاق. ذاك ما لا يمكن أن تفهمه. وسرّ نجاحك أنّك تملقّ النفاق والاستعلاء الكاذب. تلقّ منّي بصقة في مهجرك الأبديّ.

بعد تلاشي عاصفة التصفيق الهستيريّ دُعينا - أتباعاً لتقليد قديم - للاحتفال بالنجاح في البوفيه.

سألته همساً:

- تشترك أم نذهب؟

فقالت بتحدّ:

- كيف لا نشترك؟!!

تظاهرين عبثاً بالاستهانة. ليس لك جناحان مثلي. تمتت:

- ما كان ينبغي أن يتتحرر...

فقلت أغظها:

- أيّ نهاية تتوقّعين لقاتل؟

- لقد فاز بالعطف...

دارت الأنخاب. قال سرحان الهلالي:

- لي فراسة لا تخيب...

## أفراح القبة ٣٣٥

- فقال سالم العجرودي:  
- وحشية بلا شك ولكنها مؤثرة...  
فقال فؤاد شلبي:  
- إنها تذكر الجمهور بمعاناته اليومية... ولكنها  
متشائمة...  
فتساءل الهلالي ساخراً:  
- متشائمة؟!  
- ما كان ينبغي أن ينتحر بعد ما تعلق به أمل  
الجمهور.  
فقال الهلالي:  
- ليس انتحاراً ولكنه مصير الجيل الجديد في نضال  
الإنقاذ!  
- سلم الأوغاد.  
فقهقه الهلالي قائلاً:  
- ليحفظ الله الأوغاد.  
والتفت المدير نحو طارق رمضان ورفع كأسه  
قائلاً:  
- نخب اكتشاف ممثل عظيم في الخمسين من  
عمره!  
فقال فؤاد شلبي بحماس:  
- أهم من اكتشاف بئر بتروك.  
ونظر الهلالي نحونا ولكنني سبقته رافعاً كأسه:  
- نخب المؤلف الغائب!  
سرعان ما ارتفعت موجة استحسان. فاضت  
النشوات على حساب المسرح. اختلط الجذد بالهزل.  
تلذذت بتذكر فضائح كل رجل وكل امرأة. لماذا كان  
السجن من نصيبنا وحدنا?... أيها الزملاء الأحرار  
اشربوا نخبي أنا. فإني رمزكم الصادق.  
وصلنا إلى بيتنا القديم عند الفجر. لم نجد أي  
رغبة في النوم. أشعلت فحم المدفأة وجلسنا في  
الصالة. البلاط المعصراتي مغطى بكلمة أسيوطي  
قديم. رغم النفور المتبادل شعرنا بالرغبة في التواجد  
معاً ولو لحين قصير. منذاً يبدأ بفتح الحديث?... ما  
أشد ما يتبادل من مشاعر الحذر والتوجس.  
سألته:  
- أعجبتك المسرحية؟
- جداً... جداً...  
- والموضوع?  
- يا له من سؤال سخيف لمن قضى عمراً في  
المسرح...  
- لم تتظاهر بغير ما في نفوسنا?... لا مجال  
للشك...  
- أرفض هذا التفكير السخيف...  
- كل شيء حقيقي أكثر من الحقيقة...  
- كلام فارغ، لقد رأيت نفسي في صورة لا علاقة  
لها بالواقع.  
فضحكت تاركاً للضحكة وحدها الإفصاح عن  
رأبي فقالت باستياء:  
- إنه الوهم...  
- ألم تر الجميع على المسرح كما عرفناهم في  
الحياة?  
- المؤلف حر، يحافظ على من يشاء ويغير من  
يشاء، وهناك أشياء جديدة تماماً...  
- لم صورك في تلك الصورة?  
- ذاك شأنه.  
- اعتقدت طويلاً أنه يجبك ويحترمك...  
فقالت بحدّة:  
- ذاك ما لا شك فيه.  
- الحقيقة تتجلى في نظرتك الكلبية!  
- إني واثقة من نفسي...  
قلت باستهانة:  
- حتى طارق!... ما تصورت أنك حرّة لذلك  
الجدد...  
- أرحني من أفكارك القذرة.  
- لولا الكذب لربحنا أضعاف ما ربحتنا!  
- الحقّ أنه صورك في صورة أجمل من حقيقتك  
وهذا يقطع بأنه استلهم الخيال قبل كل شيء...  
ضحكت عالياً فهتفت:  
- سيسمك العائدون من صلاة الفجر.  
- لم لا?... ذلك الولد الغريب الذي زج بنا في  
السجن...  
- كيف تطالب أحداً بالتزام فضيلة أنت الذي لا

## ٣٣٦ أفرح القبة

تؤمن إلا بنزواتك؟  
- ولكنّه ادعى المثاليّة حتّى أوجع رأسي...  
فقلت بحماس ظاهر على الأقلّ:  
- إنّه ولد رائع... مؤلّف مرموق... ابني...  
فقلت ساخراً:  
- إني معجب بوحشيتّه!  
- عندما يعود سأذهب معه هاجرة هذا البيت  
اللمين!  
فقلت ساخراً:  
- كلّ حجرة فيه تشهد لنا بالمجد...

غادرتني عند ذاك فلبثت وحدي باسط الذراعين  
فوق المدفأة. كان يسعدني بلا شكّ أن أعرف المزيد  
عن أبي. أكان من هؤلاء المنافقين؟ لقد عاجله الموت  
فسقطت أمني. ونشأت أنا تلك النشأة المتوجّهة بقرون  
الشیطان. أنا أنت يا عباس فلغز غامض! ما أشدّ  
الملل! إني مثل شیطان حبيس قمقم لا يجيد مجالاً  
للعبث...  
\* \* \*

تابعت نجاح المسرحيّة باهتمام وشغف. توقّعت أن  
يعود المؤلّف ولو مع المسرحيّة الجديدة. توقّعت أيضاً  
أن يغيّر نجاحه مجرى حياتي المملّة. وكنت أتردّد على  
المسرح بين الحين والحين لأننسى الأخبار عنه. وفيها أنا  
أقطع المدخل ذات ضحى إذ هرع نحوي عمّ أحمد  
برجل، فمضى بي إلى داخل البوفيه الخالي. ألقني  
وجّه المكفهر المتقبّض فاستشفقت وراءه خبراً كثيراً.  
قال:  
- كرم... كنت على وشك الذهاب إليك...  
فسألته:  
- ماذا؟... ماذا عندك؟  
- عباس...  
- ماذا عنه؟... هات ما عندك يا عمّ أحمد...  
- اختفى من بنسيون كان يقيم فيه في حلوان تاركاً  
رسالة غريبة...  
- أيّ رسالة... الا تريد أن تتكلّم؟

- كتب يقول إنّه سيتحرر!  
غاص قلبي. وخفق مثل بقية قلوب البشر. تبادلنا  
النظر صامتين. سألته:  
- هل عُثر على...؟  
فأجاب بحزن:  
- كلاً... البحث جارٍ...  
تمت وأنا شارد الوعي:  
- آه... ربّما... من يدري... ولكنّه ما كان  
يكتب الرسالة لولا...  
فقال عمّ أحمد بنبرة من يعتبر المسألة منتهية:  
- ربّنا يلفظ بكم...  
- يجب أن أذهب إلى حلوان...  
- لقد سبقك سرحان بك الهلالي...  
رحلة عقيمة وأليمة. لا توجد إلا الرسالة أما عباس  
فقد اختفى. مضى من الاختفاء الأوّل إلى الاختفاء  
الجديد. لن يُعترف بانتحاره إلا إذا عُثر على الجثة،  
ولكن لم يكتب ما كتب إن لم يكن قد عقد العزم حقاً  
على الانتحار؟

وتساءل الهلالي:  
- إذا كان يريد الانتحار حقاً فلم لم يتحرر في  
حجرته؟  
- أيداخلك شكّ في صدقه؟  
فأجاب ببساطة:  
- أجل...  
رجعت إلى البيت القديم مساء فلم أجد حليلة.  
أدركت أنّها ذهبت إلى المسرح مستطلعة أسباب  
تأخري. أغلقت المقل الخالية وجلست في الصالة  
أنتظر. وبعد مضي ساعة ثقيلة رجعت بعينين مترعيتين  
بالجنون. تبادلنا النظر ثواني ثم هتفت:  
- كلاً... لو أراد أن يتحرر لانتحر بالفعل... لا  
يمكن أن يتحرر...  
وانحطت على الكنبه وأجهشت في البكاء وهي  
تلطم خديها...

## حكمة الكباش

فدعوت الله له كثيرًا حتى قال وهو يتقل عينيه بينما:  
- المهم أن يحل بينكما التعاون وألا أسمع ما  
يسئني...  
فقلت بلهفة:

- طالما حلمت بأن أعيش معك...  
- إذا أراد الله لي النجاح فسوف يتغير كل  
شيء...  
وتساءل كرم بجفاء:

- ألا تفضل بأخذها معك؟  
فقال عباس بحرارة:

- أطلبكما بالتعاون... سابدل ما أستطيع لأوفر  
لكما حياة كريمة ولكني أطلبكما بالتعاون...  
أي تعاون؟! إنه لا يدري شيئًا. إنه أبرأ من أن  
يحيط بأسرار القلوب إذا نفثت دخانها. من أين له أن  
يعلم بما فعل أبوه وهو لم يشهد إلا سطحه الكئيب؟  
إنه يبذل ما يجود به قلبه البار ولكن هل غاب عنه أنه  
يجمع بين خصمين في زنازة واحدة؟ من السجن إلى  
سجن، ومن المقت إلى ما هو أشد مقتًا. لا أمل لي يا  
بني إلا أن تنجح وأن تنتشلي من زنزاتي البغيضة.

\*\*\*

أسترق إليه النظر وهو يعمل. يبيع الفول السوداني  
واللبّ والفشار والحمص ويرمي بالقروش في درج  
نصف مفتوح. بعد إدمان طويل للرزق الحرام الغزير.  
لا شك أنه يحلم بالمخدر القاتل الذي شفاه السجن  
منه على رغمه. لولا أن عباس اشترط عليه أن تقاسم  
الريح لبادرنا الخراب من جديد. دائمًا مكفهر الوجه لا  
يزيح قناع الأسى عن وجهه إلا في حضرة الزبائن.  
تتأدى في العمر أكثر من الواقع بعشر سنوات وهذا

أولد من جديد. من جوف السجن إلى سطح  
الأرض. ويهل علي وجه عباس فأحتويه بين ذراعي،  
أدفن وجهي في صدره مثقلة بالعار والحجل. همست:  
- شدّ ما أسأنا إليك، ليت الموت أراحك منّا...  
قال برقة:

- ما يسئني إلا كلامك...  
ونشجت باكياً فقال:

- الآن يطيب لنا الشكر... دعينا نفكر في  
المستقبل...  
فقلت بصوت مخنق:

- وحيد يا بني... ابتلاك الله باسترداد زوجتك  
وابتك... ونحن لم نرحمك...  
- ما مضى قد مضى...  
لم يكذب تبادل مع أبيه كلمة. جمعنا صالة البيت  
القديم كبعض الأوقات الماضية. وراح يقول:

- أرجو ألا نعود إلى ذكر الماضي...  
وصمت قليلاً ثم قال:

- فحرت في أشياء... ولكن هل يودّ أبي أن يرجع  
إلى عمله القديم في المسرح؟  
فقال كرم:

- كلاً... عليهم اللعنة...  
- ساحول المنظرة إلى دكان، ممكن أن نبيع بعض  
الأثاث، ونجعل من المنظرة مقل، تجارة يسيرة  
ومريحة... ما رأيكما؟  
فقلت بامتنان:

- الرأي ما ترى يا بني... أسأل الله أن أسمع  
عنك خيراً قريباً...  
- بإذن الله... أشعر بأنني قريب من النجاح...

## ٣٣٨ أفراح القبة

فقلت بتحدّ:  
 - لا تهمّنا الأخبار السيئة...  
 - حتى لو تكون عن الأستاذ عباس يونس؟!  
 هرب دمي. تماسكت ما وسعني التماسك. قلت  
 بزهو:  
 - قد قبلت مسرحيته...  
 - ماهي إلا نكتة مبكية، ماذا تدرين عن المسرحية؟  
 وراح يسوق العجائب من خلال تلخيصه ويختم  
 قائلاً:  
 - كلّ شيء... كلّ شيء...  
 دار رأسي. تساءلت وأنا أداري رعيي:  
 - ماذا تعني يا عدوّ عباس؟  
 - شاهدنا المسرحية بنفسكما.  
 - أعماك الحقدة.  
 - بل الجريمة.  
 - ما مجرم إلا أنت...  
 - يجب القبض على قاتل نحية...  
 - إنك مجرم خسيس وعليك أن تذهب...  
 فضحك ساخراً وتساءل:  
 - كيف يقولون إن السجن تأديب وإصلاح؟  
 كبشت كبشة حمص ورميته بها فتراجع هازئاً، ثمّ  
 ذهب.  
 ماذا كتب عباس؟ ماذا فعل؟ ابني لا يقتل ولا  
 يجون. لا يجون أمه على الأقل. إنّه ملاك.  
 تبادلت مع الرجل نظرة. يجب أن أخرج من  
 وحدتي الأبدية. قلت:  
 - إنّه يكذب.  
 - ولم يكذب؟  
 - ما زال يحقد على ابني.  
 - ولكن توجد مسرحية.  
 - اذهب إلى عباس...  
 - سأقابلة حتّى.  
 - ولكنك لا تحرك.  
 - لا داعي للعجلة.  
 فحنقت عليه... إنّه مثل طارق لا يحبّ عباس.  
 هتفت:

يعني آتني تماديت أيضاً. أيام السجن الحزينة. وليلة  
 الكبسة التي استيقنت فيها أيدي المخبرين بلطم  
 وجهي... أه... الأوغاد... لم يزرنا منهم أحد.  
 الهلالي وغد مثل طارق رمضان. حُجزوا في القسم ليلة  
 ثمّ أطلق سراحهم وحلنا الوزر وحدنا. حتى جيراننا  
 يقولون إن القانون لا يصول ويجول إلا مع المساكين.  
 يعزّوننا ويشمتون بنا ولكنهم يتعاملون معنا. لا أمل لي  
 يا بني إلا أن تنجح. يمرّ الوقت دون أن نتبادل كلمة.  
 حرارة المقت أقوى من موقد الفرن. وكم أشعر  
 بالنعاسة وأنا أنظف البيت القديم الكرهه أو وأنا أعدّ  
 الطعام. كيف قضيت عليّ هذه الحياة؟ كنت جميلة ومثلاً  
 في التقوى والأدب. الحظ... الحظ... منذا يدلّني  
 على معنى الحظ؟ ولكنّ الله مع الصابرين. وسوف  
 يقول الحظ كلمته الأخيرة على يدك يا عباس. ولن  
 أنسى زيارتك لنا ليلة مولد سيدي الشعراوي وقولك  
 المفرح للكرب المفتوح لأبواب السماء:  
 - أخيراً قبلت مسرحيتي...

لقد انطلقت من صدري ضحكة كاللؤلؤة، لم تترنّم  
 فيه منذ الشباب الأول. حتى أبوه تهلّل وجهه. ما  
 دخله في الأمر... لا أدري. لقد كرهته كما كرهني.  
 حسن... ها هو يستوي مؤلفاً لا خرافة كما توهمت.  
 طالما عددت مثاليته سفاهة ولكنّ الخير ينتصر، ويجرف  
 تياره المتدفق زبد السّفلة من أمثالك.

\*\*\*

لا أحبّ الخريف لولا أنّه يقربنا من ليلة الافتتاح.  
 من أين تحيي هذه السحب التي تحجب النور؟ ألا  
 تكفي السحب التي سبج فيها قلبي؟ وجاءني صوت  
 الرجل قائلاً:  
 - انظري...

رأيت طارق رمضان مقبلاً كحادثة سيئة من  
 حوادث الطريق. تساءلت:  
 - للتهنئة أم للشهاتة؟  
 وقف قبالتنا يلقي بسلامه في فراغ. قلت:  
 - أوّل زيارة من أهل الوفاء.  
 ولم ألتي بالأل إلى اعتذاراته حتى سمعته يقول:  
 - معي أخبار سيئة!



## أفراح القبة ٣٣٩

- يجب أن يعرف ما يدبّر من وراء ظهره .  
- وإذا اعترف؟  
- ستجد التفسير لكل شيء .  
- لا أدري .  
- القاتل الحقيقي لا يفضح نفسه . . .  
- لا أدري .  
- تحرك .  
- سأذهب طبعاً .  
- أو أذهب أنا .  
- ليس عندك ملابس لائقة .  
- إذن فعليك أن تذهب أنت .  
- الوغد يكذب .  
- يجب أن تسمع بأذنك .  
- ولكنّه تراجع قائلاً:  
- كره حياتنا . . . كان مثاليًا كأنه ابن حرام . . .  
- ولكنّه لا يغير بنا . . . ثمّ لماذا يقتل نحيّة؟  
- إنك تستجوبني أنا .  
- إنّي أفكر .  
- لقد صدقت ما قال الوغد .  
- وأنت أيضًا تصدّقيه .  
- كدت أبكي ولكنّي أطبقت على شفّتي وقلت:  
- يجب أن نسمعه .  
- الحقّ أنّي لا أصدّق .  
- إنك تهذي . . .  
- اللعنة . . .  
- اللعنة حلّت يوم ارتبطت بك .  
- ويوم ارتبطت بك .  
- فقلت بتحدّ:  
- كنت جميلة . . . إنّه سوء الحظّ . . .  
- كان أبوك ساعي بريد أما أبي فكان موظّفًا في دائرة الشمشرجي .  
- ذلك يعني أنّه كان خادمًا .  
- أنا من أسرة . . .  
- وأمك؟  
- مثلك تمامًا .  
- مخزّف . . . ولكنك لا تريد أن تذهب . . .
- سأذهب عندما يروق لي . . .  
ثم غيّر نبرته قائلاً:  
- العصر أنسب وقت لوجوده في بيته . . .  
سكّث منادية الصبر المرّ. الشكّ يقتلني من جذوري . ماذا يقال عن أشرف الناس؟ الوردة النابتة في خرابة . في بلد اللصوص والضحايا . ابتاع لي قماشًا لشوب يصلح للخروج ولكنّي تقاعدت عن تفصيله . سأشرع من فوري في تفصيله وحيآكته . يعيّرني بأصلي ابن العاهرة . أما عباس فلا يمكن أن يكون أمه . احتقر كلّ شيء إلاّ حبي . الحبّ أقوى من الشرّ نفسه . . .
- \* \* \*
- بيت الهنا بالطمبكشيّة . الشمس لا تغيب حتّى في الشتاء والليل . حليلة الجميلة بنت الجميلة . أبي يرجع حاملًا شيئًا طيبًا تحبّه الأنفس . وتقول أمي لأبي:  
- دعها تستمرّ . . . التعليم فرصة العمر . . . ليتني وجدت فرصتي . . .  
ويقول قريينا الطيب عمّ أحمد برجل:  
- أصبحت البنت يتيمة . . . الاستمرار في التعليم مشقّة . . .  
فتسأله أمي:  
- وما العمل يا عمّ أحمد؟  
- معها شهادة . . . وهي ذكيّة . . . يلزمها عمل . . . ستخلو عندنا وظيفة فاطمة التذاكر .  
وتسألني أمي:  
- هل تحسّنين عملاً كهذا؟  
فأقول بلهفة:  
- التمرين يكمل ما ينقصني .  
ويقول عمّ أحمد:  
- الشمشرجي صديق الهلال بك . . . تشفّعي به عنده وسأكلّمه من ناحيتي .  
ها هي الدنيا تتفتّح عن تجربة جديدة . هكذا أدخل المسرح لأول مرّة . مكان فخم ذو رائحة خاصّة مؤثّرة . عمّ أحمد يتضاءل ويلعب فيه دورًا صغيرًا . أدعى إلى مقابلة المدير . أدلف إليه في معبده الضخم بثوبي الأبيض البسيط وحذاءي القديم . بهيكله العالي

## ٣٤٠ أفرح القبة

- وعينيه الحادتين ونظرته المجتاحة يبدو كائنًا رائعًا شديد التأثير. تفتحني حتى ذبتُ. يقدم لي فرخ ورق ليمتحن سرعة كتابتي للأرقام.
- يقول بصوته الجهير:
- يلزمك تدريب قبل تسلّم العمل يا...  
أقول بحياء:
- حليلة الكيش...  
بيتسم معلقًا:
- الكيش؟!... ما علينا... وجهك مقبول أكثر من وجوه ممثلات فرقتنا... أريد أن أمتحنك عند انتهاء التدريب...
- أجتهد بحماس وافق. لا غيرة على مستقبلي. ولكن إرضاء لذلك الساحر الرائع. وأقول لأمي فتقول هكذا يكونون أولاد الأصول. أتخيل رضاه مثل نعمة مباركة. وأمثل بين يديه مضطربة الأنفاس. أنت تعويذة الفرقة يا حليلة. الله جميل يحبّ الجمال. متى بدأ مداعباته اللمسية؟ كان شعاع الشمس النافذ من الزجاج يغمر وجهي وثمة مزمار بلدي في الطريق يعزف راقصًا. وأدفع يده المترامية لاهته. لا يا سعادة البيك أنا بنت شريفة. تجلجل ضحكته في أذني.
- يتلاشى احتجاجي في صمت الحجرة المغلقة الواسعة. عاصفة من الأنفاس الحارة والتسلل الماكر تشوش إرادتي الصادقة. إنه الكابوس الذي يتقشع عن دموع لا تستدرّ عطفًا. خارج الحجرة أحياء يذهبون ويحيئون. وعموت أُمّي قبل أن تعلم...  
\* \* \*
- تحرّك أخيرًا عند العصر. خفّ توتر أعصابي. إني أتملّق بقشّة ولكن ماذا أنتظر؟ عليّ أن أعدّ الثوب لاستطيع الحركة. إنه ييوح بسرّه لي لا للرجل الكريه. ماذا يبقى لي الآن سوى عباس؟!  
\* \* \*
- الخيبة نجيء مع الأفيون. لا... إنها أقدم من الأفيون. ما أعذب ما دننت من آمال! يرشف آخر رشفة في الكأس، بيتسم ابتسامة مخمورة، يشير إلى الحجرة الملاصقة للمنظرة ويقول:
- في هذه الحجرة كانت أُمّي تخلو إلى
- الباشجاويش!
- أذهل من هول المكاشفة. عباس نائم في لفاة المهدي. أقول غير مصدّقة أذني:
- سكرت يا كرم...  
يهزّ رأسه قائلًا:
- كانت تحذّرنني من مغادرة حجرتي...  
- ما كان يجوز...  
ويقاطعني:
- لا أحبّ النفاق... أنت منافقة يا حليلة...  
- الله يغفر لها... ألا زلت تحقد عليها؟  
- ولم أحقد عليها؟  
- إني لا أفهمك.
- زوجك رجل لا مثيل له بين الرجال... لا يؤمن بأيّ أكذوبة بشرية...  
ماذا يعني؟ إنه زوج لا بأس به لكنّه يسخر من كلّ شيء. من إيماني يسخر... من مقدّساتي وتقاليدي... ماذا يحترم ذلك الرجل؟ ها هو يبتك أمّه دون مبالاة. أقول له:
- أنت مرعب يا كرم...  
فيقول باستهانة:
- ذلك من حسن حظنا وإلا لطلّقتك ليلة الدخلة...  
انغرز دبّوس عمميّ في قلبي. دمعت عيناوي. تلقّيت ثاني ضربة قاسية في حياتي. يقول:
- معذرة يا حليلة، متى تصيرين حرّة؟  
- أنت قاسٍ وشريّر...  
- لا تهتمّي بهذه الكلمات التي لا معنى لها. ومحدّثني عن عشق أمّه الجنونيّ للشرطيّ، عن إهمالها له، كيف نشأ حرًا بفضل ذلك الإهمال الداعر. ويقول بنبرة مخمورة:
- إني مدين لها بكلّ شيء...  
إنه يطوّقني كشيء مرعب. إني أعاشر قوّة غير متممية لأيّ قاعدة. على أيّ أساس أتعامل معه؟ الخيبة أقدم من الأفيون. الأفيون لم يجد روحًا ليقتضي عليها...  
\* \* \*
- لمحته راجعًا فوثب قلبي رغم النفور. بدا في

## أفراح القبة ٣٤١

كارهة. زرت سيدي الشعراي واستغثت بكراماته.  
مضيت إلى الزنزانة لأجد الرجل يضاحك زبوناً وهو  
ناعم البال. جلست منهزمة حانقة. ونفد صبري  
فقلت:

- افعلى شيئاً، أليس عندك حيلة؟
- أودّ أن أقتلك، سأقتلك ذات يوم...
- زيارة جديدة للمدير...

فقاطعتني:

- اذهبي إليه أنت فهو يخصّ جواريه بعنايته...
- الحقّ أنّي ضحيّة أمك، مارست تعذيبى من  
وراء قبرها، هي التي خلقت منك هذا الوحش!
- إنّها تُعتبر بالقياس إليك سيّدة عفيفة!

\*\*\*

هذا المسرح يشهد عذابى وحيّى. شهد أيضاً  
اغتصابى ولم يمدّ لي يدًا. تحت قبّته العالية تدوي  
شعارات الخير في أعذب بيان وتُسْفح على مقعده  
الوثير الدماء. وأنا ضائعة... ضائعة... محتقنة  
بسرّي. وهو لا يدري بحيّى ولا يهّمه شيء. لعلّه  
نسي اسمي أيضاً:

- إنّك تتجنّبي... شقيت حتى قابلتك...
- هل يتفصّل شيء؟
- ماذا؟... أنسيت؟... لقد فقدت كلّ  
شيء...

- لا أحبّ المغالاة... لم يحدث شيء ذو بال...  
طفرت الدموع من عينيّ.  
- لا... لا... لا يجوز أن يلاحظ شيء في  
المسرح...

- ولكتني... ألا تدرك حالي؟... لا تركني...  
- الأمر أبسط ممّا تتخيّلين... لم يحدث شيء ضارّ  
البتّة... احتفظي بصفاء ذهنك من أجل عمّلك  
ومستقبلك، وانسي ما كان فلا فائدة ترجى من  
تذكّره...

إنّه الصوان. أمّته بقدر ما أحبّه. مهجورة وحيدة  
معدّبة. ستخمن خالتي سرّ عذابى ذات يوم. ماذا  
أرجو من دنيا لا يُعبد فيها الله؟!

\*\*\*

الطريق أطمن في السنّ ممّا يكون في المقل. اتخذ مجلسه  
دون أن ينظر نحوي. سألته:

- ماذا قال لك؟

فقال ببرود:

- غادر شقّته حاملاً حقييته إلى مكان مجهول...  
يا للعذاب والرعب! متى يكفّ الحظّ عن التنكيل  
بي؟

- لمّ لمّ بخيرنا؟

- إنّه لا يفكر فينا...

أشرت إلى أنحاء المقل قائلة:

- أحسنّ إلينا بوفاء لا نستحقّه.

- يريد بعد ذلك أن ينسانا.

- كان عليك أن تذهب إلى الهلالي...

رمقني بازدراء وكراهية فقلت بتحدّ:

- إنّك لم تحسن التصرف.

- أودّ أن أكسر رأسك.

- كأنك رجعت إلى الأفيون.

- لا يقدر عليه اليوم إلّا الوزراء.

وإذا به يقول مخفضاً درجة صوته:

- الهلالي لا يدري شيئاً عن مكانه.

فسألته بلهفة:

- زرتّه؟

- لا يدري شيئاً عن مكانه.

- ربّاه... هل أحلّ شقّته؟

- لا.

- لعلّ في الأمر امرأة.

- تفكير سليم من وجهة نظر امرأة مثلك...

- ماذا يمكن أن أقول لمثلك؟... ثمّ إنّ أمره لا

يهمّك البتّة.

وغلبني البؤس فبكيت من أعماقي...

\*\*\*

ذهبت مرتدية ثوبي الجديد متلقّعة بشال قديم. لم  
أحمل معي أملاً وتوكّد هناك ياسي. قلت للبوّاب:

- عندك معلومات ولا شكّ؟

- أبداً.

لم أجد شجاعة للذهاب إلى المسرح. رجعت

## ٣٤٢ أفرح القبة

- عند الأصيل ذهبت إلى مقهى الفن، رأيت فؤاد شلبي يدخن الشيعة فقصدته. لم يتوقع حضوري بحال فقال مرحبًا وأجلسني وهو يقول:
- كان يجب أن أزورك، اللعنة على الشواغل! فقلت دون مبالاة:
- لم يزرنا أحد، لا أهمية لذلك، إنما جيتك مدفوعة بالقلق لاختفاء عباس... فابتسم وقال:
- لا داعي للقلق، الأمر واضح، لقد هرب من المتطقلين وخيرًا فعل، ولا شك أنه يعد مسرحيته التالية...
- أما كان يجب أن يخبرني؟
- اغفري له خطأه، لا تقلقي، ما زلت جميلة كما كنت يا حليلة، كيف حال كرم؟
- حي يمارس هوايته في إتعاس البشر... فضحك، وظلت ضحكته تثير أعصابي حتى غادرت المقهى. وجدت الشجاعة والتصميم هذه المرة للذهاب إلى المسرح. طلبت مقابلة المدير. دخلت الحجره الحجره نفسها. الكنية الجلدية نفسها. الرجل نفسه. لا... إنه رجل آخر. لم يبق من الآخر إلا نذالته. إدمان الشهوات كثيره أكثر مما كثرنا السجن. أيها المستول أكثر عن نعاستي؟ وقف مرحبًا... هتف:
- أهلاً... أهلاً... يسعدني أن أراك بخير... فتساءلت بسخرية وأنا أجلس:
- بخير؟! كما يجدر بأى مؤلف ناجح!
- إنه سرّ عذابي الراهن!
- يا له من عذاب لا أساس له، عندي خبر سار، لقد اتصل بي تليفونيًا... قاطعته بفرحة مشتعلة:
- أين هو؟
- لا أدري... إنه سرّه فليحتفظ به كيف شاء، المهم أنه مكبّ على تأليف مسرحية جديدة... هل ترك عمله؟
- نعم... إنها مجازفة. ولكنّه واثق من نفسه وأنا واثق؟...
- لم يكلف خاطره بالاتصال بي؟
- يتجنّب أن يستجوبه أحد عن مسرحيته... هذا ما أتصوّره...
- لقد قالوا وعادوا... ما رأيك أنت؟
- المسرحية فنّ، والفنّ خيال مهما استمدّ من الحقائق!
- ولكنّ ظنون الناس...؟
- الجمهور لن يرى شيئًا من ذلك كلّه... إنه سخف، ولولا حماقة طارق... فقاطعته:
- إنه عدوّه عليه اللعنة...
- أطالبك الآن بأن تقرّي عيّنًا... \* \* \*
- بلغني أنّ كرم يونس يطلب يدك؟
- أجل.
- يمكن إصلاح الأمر...
- لا... أرفض هذا النوع من الكذب.
- ستصارعينه؟
- أعتقد ذلك...
- يا لك من فتاة استثنائية في هذا الزمن المغمور بالسفلة، هل تكاشفينه بالفاعل؟
- لا أهمية لذلك...
- الأفضل ألا تفعل... \* \* \*
- مضيت إلى البوفيه. صاح أحمد برجل عند رؤيتي:
- خطوة عزيزة...
- جلست أمامه صامتة. راح يعدّ لي السندوتش والشاي. هتأنا من أهل الأرض شخصان، أحمد برجل وأمّ هاني. غمرتني ذكريات المكان. الشاي والسندوتش والغزل. والمزمار الراقص في الجحيم. مثل قطرات مطر صافية أصابت مزبلة. وقال عمّ أحمد:
- نجاح عباس حظّ طيب وبشير بالعزاء عمّا سلف.
- فقلت بأسى:
- لكنّه هجرنا بلا كلمة طيبة...

## أفراح القبة ٣٤٣

- أكرّر له الشكر!  
- إنّي أبذل أقصى ما في جهدي، وهناك عباس وهو  
حبيبك.

مضى يرشف من قلدح الشاي الأسود غائبًا عني .  
- مرتّبي لا يكفي وحده للإنفاق على البيت . . .  
- عندك إيجار حجرة رمضان . . .  
- ولا هذا يكفي، الدنيا تار . . .  
إنّي الآن أعرفك ولذلك أخشاك . لست كما  
تصوّرتك في أيامنا الأولى . ها أنت تفقد كل شيء حتى  
قدرتك التي تباهيت بها . استقلّ كل منّا بحجرة  
خاصّة . لا حبّ وأيضًا لا طعام؟! أنت أنت الباقي يا  
عبّاس . لا تحفظ كلام بابا . . . لا تصدّقه فإنّه  
مريض . من حسن الحظّ أنك غالبًا وحدك . الله  
معك . فيه الكفاية . كن ملائكًا . ليكن صديقك  
المدرّس والكتاب والمسرح . كن ابني وابن الآخرين  
الطيبين . إنك النور الوحيد في هذا البيت القديم  
الغارق في الظلام . كن وحيدًا في كل شيء . . .

\*\*\*

يسترق إلى النظر أحيانًا لعليّ أبوح له بما لديّ .  
هيهات . أمحدّك أن تكرهني أكثر . تساءل:  
- عندما يجيء الشتاء فكيف نحتمل البقاء في هذه  
المقلى المفتوحة؟  
فقلت بثقة:  
- عندما ينجح عبّاس يتغيّر المصير كلّ . . .  
فردّ بمرارة:  
- عندما ينجح عبّاس!

فقلت بتحدّ:  
- سأذهب معه ولن يضرّ عليك بمعطف أو  
عباءة . . .

\*\*\*

البوفيه الأحمر باقي كما كان، يضحك من تغيّر  
رؤاده . سمع الكثير ممّا يقال ولا يصدّق أحدًا . يقول  
لي عمّ أحمد برجل:

- هالك السنودتش وساعدك لك الشاي . . .  
ويجيء فيجلس على المقعد إلى جانبي شابّ فيطلب  
أيضًا الفول والسنودتش . إنّه من أهل المسرح فيما يبدو

- لا تقلقي، لا يقلق أحد من حولنا لذلك . . .  
- وطارق رمضان؟!  
- إنّه نصف مجنون!

\*\*\*

التجربة عنيفة وجديدة . ثمّة تصميم على الاعتراف  
وخوف مجرّسني في آخر لحظة . إنّي شريفة وطاهرة  
وأكره الخداع ولكنّ الخوف مجرّسني . يبدو لي كرم مثاليًا  
للجدّيّة والحبّ فهل أفقده؟ وخرست حتى أغلق علينا  
بابنا . هالتي ضعفي فبكيت . انتصبت الحقيقة عارية  
متوتّرة مستخذية بيني وبينه . همست:  
- إنّي مجرّمة . . . عجزت عن أن أخبرك من  
قبل . . .  
تخيّرت في مقلتيه نظرة ساهمة . ما أخشاه يقع .  
قلت:

- خفت أن أفقدك، وصدّقني لقد اغتصبت  
اغتصابًا . . .  
وأخفيت عينيّ في الأرض وانفعالاته تلفحني . وقلت  
كلامًا وقال كلامًا وضاع الكلام في وقدة الألم . لكنّ  
صوته حُفر في وعيي وهو يقول:  
- لا يهمني الماضي . . .

ازدادت بكاء ولكن بهرني شروق غير متوقّع . قلت  
إنّه شهيم وإنّي سأكرّس نفسي لإسعاده . وهمست وأنا  
أجفّف عينيّ:  
- ما أسهل أن يضح الأبرياء . . .

\*\*\*

ما أضيق صدري وأنا راجعة إليك . دخلت الزنزانة  
وجلست . سأقول كلمة عن لقاء فؤاد شلبي ولن  
أزيد . لن أريجه . إنّه لا يحبّ عبّاس . يتظاهر بعدم  
الاهتمام . ليته يتعدّب كما أتعدّب . نحن نبيع التسلية  
أما تسليتنا الوحيدة فهي تبادل السباب .

\*\*\*

في الحلية أمضي درجة بعد درجة . لكنّ الشرّ الجديد  
يهدّد أساس البيت .

- الأفيون مخيف جدًّا، إنّه يلتهمك!

- شكّرًا له على أيّ حال .

- إنك تنسحب من دنيانا بسرعة مزعجة .

## ٣٤٤ أفرح القبة

فقال بقحة:  
 - لقد شعر بالحصار فهرب.  
 فغضبت حتى طفرت الدموع من عيني فصاحت أم هاني:  
 - ألا يعرف قلبك الرحمة؟! ما هذا الذي يقال؟  
 لقد شهدت وفاة تحية، وشهدت حزن عباس الجنوني!  
 دهشت وأنا أتلقى هذه الحقيقة وسألتها:  
 - هل يتفق ما شاهدته مع ما يقال؟  
 - كلام فارغ...  
 فقال طارق:  
 - ما كان له أن يقتلها أمامك يا حمقاء.  
 - الحياقة أن تتصور عباس قاتلاً...  
 - اعترافه يتجسد على المسرح ليلة بعد أخرى...  
 فقالت أم هاني:  
 - بفضل صرت ممثلاً يصفق له الجمهور أكثر من إسماعيل نفسه.  
 - بفضل جريمته... جريمته التي حملته على الحرب...  
 فقلت بإصرار:  
 - إنه يقيم في مكان هادئ ليتم مسرحيته الجديدة.  
 فقهقه ساخراً وهو يقول:  
 - مسرحيته الجديدة!... لا تحلمي يا أم عباس!  
 \* \* \*  
 آه... في تلك الأيام كان معقولاً ومقبولاً رغم كل شيء.  
 - ما رأيك يا حليلة... طارق رمضان يرغب في استئجار حجرة عندنا...?  
 فقلت محتجة:  
 - لا... لا... فليبق في مسكنه...  
 - تشاجر مع أم هاني فاضطر إلى مغادرة البيت...  
 إنه يقيم بلا مأوى والغلاء يرتفع يوماً بعد يوم...  
 - إنه لأمر كرهه أن يقيم غريب بيننا...  
 - إنه في حاجة إلينا ونحن أيضاً في حاجة إلى نقود.  
 - إنه أشبه بالمتشردين...  
 - إنه طامع في كرمنا، في كرمك أنت خاصة...

ولكنه ليس من المثلين. شاب مقبول المنظر كبير الرأس والأنف. ويسألني عم أحمد:  
 - هل من جديد عن الشقة يا آنسة حليلة؟  
 فأجيبه بشيء من التكلف أمام الغريب:  
 - البحث عن الذهب أسهل...  
 وإذا بالشاب يسألني:  
 - هل تبحين عن شقة؟  
 فأجبت بالإيجاب وعارف عم أحمد بيننا فراح يسأل بجرأة:  
 - من أجل زواج؟  
 آه... بدأ الغزل. إنه يبدأ بسرعة في هذا المسرح. ولا يتردد عن استعمال العنف. وتقتل الفريسة على أنغام المزمار البلدي.  
 - عندي بيت قديم مكون من طابقين.  
 - الطابق شقة؟  
 - كلا... إنه ليس مقسماً إلى شقق.  
 عم أحمد يسأله إن كان ممكناً أن استقل بطابق فيجيب بالإيجاب. سألته:  
 - ألا يضايق ذلك الأسرة؟  
 فأجاب بجرأته المعهودة:  
 - إني أقيم فيه وحدي...  
 أعرضت عنه في استياء فقال بلباقة:  
 - ستجدين الطابق أمناً أنت وأسرتك...  
 شكرته وسمت. لم يترك أثرًا سيئًا في نفسي. ماذا يريد؟ لا علم له بمأساتي. ولا بحيي. ولا بسوء ظني.  
 \* \* \*  
 قلت أذهب إلى أم هاني بشقتها الصغيرة بالإمام حيث يقيم معها طارق رمضان. استقبلتني بحرارة. وكان عليّ أن أنتظر حتى يستيقظ طارق من نومه. خرج من حجرته منفوش الشعر مثل شيطان وهو يقول بسخرية لا تناسب المقام:  
 - خطوة عزيزة.  
 فقلت له دون لفّ أو دوران:  
 - اعتقد أنك زرت عباس قبل رحيله؟  
 - حصل...  
 - لا أستبعد أنك أسمعت ما حمله على الرحيل...

## أفراح القبة ٣٤٥

فتساءلت خالتي :  
 - ومن كرم يونس؟  
 - ملقن الفرقة .  
 - ما معنى هذا؟  
 - موظف محترم بالمرح .  
 - تراه لائقاً يا عمّ أحمد؟  
 - أعتقد ذلك، ولكنّ المهمّ هو رأي العروس...  
 - العروس قمر كما ترى، ولكننا فقراء يا عمّ أحمد.

وجاء دوري للكلام. كنت كسيرة الفؤاد، أنطوي على سرّ دام. لا أحبّ العريس ولكنني لا أنفر منه. شابّ مقبول ولعلّه يبني راحة البال وربما السعادة. قلت محاصرة بنظرات خالتي: لا أعرف عنه شيئاً ذا بال...  
 - موظف، يملك مسكناً، ويشهدون له بالطيبة.  
 قالت خالتي:

- على خيرة الله...  
 إنها تحبني ولكنها ترهب بالتخلص مني. أنا كذلك أودّ النجاة من البيت المكتظّ. وسرحان الهلالي وغدا لا أمل فيه...

\*\*\*

- الحياة لا تطاق والجوع يتهدّدنا...  
 رمقني بسخرية وقال:  
 - وجدت الحلّ الذي يجرسك...  
 - هل تحرّرت أخيراً من المخدّر الجهنمي؟  
 - وافق الهلالي على أن يسهر هو وشلّته في بيتنا القديم!  
 لم أدرك مراده فقال:  
 - سنعدّ لهم حجرة للعب الورق وسوف يدرك ذلك علينا رزقاً سخياً...  
 فتساءلت في ذهول:  
 - نادي قمار؟  
 - عندك دائماً أشبع الأوصاف... ما هو إلا ملتقى للأصدقاء.  
 - ولكن...  
 فقاطعتني:

عندنا من الحجرات الخالية ما يكفي جيّشاً!  
 وأذعنت كارهة. لم أحترمه قطّ. ممثّل فاشل ويعيش بعرق النساء. ولكنّي لم أتصوّر أن يفعل بنا ما فعل.

\*\*\*

ما ندري إلا وأمّ هاني تزورنا في المقل. زارتنا في اليوم التالي لزيارتي لها. واضح أنّها تريد أن تعتذر بالزيارة عن سوء معاملة رَجُلها لي. إنّها في الخمسين مثل طارق ولكتّها بدينة ولا تخلو من حسن وحالتها الماليّة طيّبة. قالت:

- إنهم يتحدثون عن نجاح المسرحيّة... لم تنجح بهذا القدر مسرحيّة من قبل...  
 فقلت بأسى:  
 - ولكنّ المؤلّف لا يريد أن يظهر...  
 - سيجيء عندما يفرغ من مسرحيته الجديدة...  
 وصمتت المرأة قليلاً ثمّ استطردت:  
 - ما أسخف ما يقال... ولكنّ طارق مجنون...!

فتساءل كرم ساخراً:  
 - ألم يكن من الأفضل أن يقتل أمّه؟!  
 كنت أميل إلى أمّ هاني، ولم ينتقص من ميلي لها أنّها قريبة زوجي...

\*\*\*

بيت الطمبكشيّة المكتظّ بسكّانه. مثل الباص تفوح منه رائحة المطاط. خالتي تحلي ركناً لتستقبل فيه عمّ أحمد برجل. تقول له:

- لا تنس التموين فاعتادنا بعد الله عليك.  
 فيقول الرجل باهتمام غير عادي:  
 - جئت لما هو أهمّ!  
 - افتح الجراب يا حاوي.  
 - الأمر يتعلّق بحليمة...  
 ردّدت خالتي عينها بينه وبين فتصاعد الدم إلى خدّي. تساءلت:  
 - هه... عريس؟!  
 - صدق التخمين!  
 تطلّعت إليه متسائلة فقال:  
 - كرم يونس.

## ٣٤٦ أفرّاح القبة

صمّمت على ألا أكدر صفو الليلة بأيّ ثمن. ذهبنا  
إلى المسرح استقبلنا كما ينبغي لنا. رمقني سرحان  
الهلالي بإعجاب. قلت:  
- ولكّني لا أرى المؤلف.

فقال بأساً:

- لم يحضر ولكّني أخبرتك بما فيه الكفاية.  
تبدّد الأمل الأوّل. انطفأ الشعاع الباطنيّ المجدّد  
لشبابي. ذهبنا لزيارة عمّ أحمد. كالعادة القديمة قدّم لنا  
الشاي والسندوتش. تتمّ ضاحكاً:  
- مثل الأيام الماضية...

عمّ تتحدّث يا عمّ أحمد؟ ليت ما كان لم يكن.  
حتّى الثمرة الوحيدة المعزّية غائبة. بوجودي في المكان  
توتّرت أعصابي وازدادت حزناً. وفي الوقت المناسب  
دخلنا المسرح. انشرح صدري فجأة بامتلاء المسرح  
وقلت:

- هو النجاح...

لم أسمع تعليقه. سرعان ما رأيت البيت القديم  
تُرفع عنه الستارة. تتابعت الأحداث. تجسّدت أمام  
عينيّ عذابات حياتي. تجسّدت بعد أن لم يبق منها إلا  
رواسب الأنين. وجدنتي مرّة أخرى في الجحيم.  
وأدنت نفسي كما لم أدنها من قبل. قلت هنا كان عليّ  
أن أهجره. هنا كان يجب أن أرفض. لم أعد كما كنت  
في ظنيّ الضحية. ولكن ما هذا الطوفان من الجرائم  
التي لم يدبر بها أحد؟ وما هذه الصورة الغريبة التي  
يصوّريّ فيها؟ أهذا حقاً هو رأيي في؟ ما هذا يا بنيّ؟  
إنك تجهل أمك أكثر ممّا يجهلها أبوك وتظلمها أكثر منه.  
وهل اعترضت على زواجك من تحية بدافع الأنانية  
والغيرة؟ أيّ غيرة وأيّ أنانية؟ لا... لا... إنه  
الجحيم نفسه. إنك تكاد تجعل من أبيك ضحية لي.  
أبوك لم يكن ضحية لشيء سوى أمه. هذه صورة  
جدّتك لا أمك. تراني عاهرة محترفة وقوادة؟ تراني  
القوادة التي ساقّت زوجتك إلى السائح طمعاً في  
نقوده؟ أهو خيال أم هو الجحيم؟ إنك تقتلني يا  
عبّاس. لقد جعلت منّي شيطان مسرحيتك. والناس  
يصفّقون... الناس يصفّقون!

كنت مية تماماً وأنا أَدعى لحفل البوفيه. سألني الرجل:

- ألا تريدان حياة طيبة؟...

- ونظيفة أيضاً!

- ما دامت طيبة فهي نظيفة... لا قدر إلا  
التناق...

فتمتعت بقلق:

- وهنالك عبّاس أيضاً؟

فصاح بغضب:

- أنا صاحب البيت لا عبّاس... ابنك  
مجنون... ولكن يهّمك ولا شك أن يجد الغذاء  
والكساء...

\*\*\*

كثيراً ما تخنفي الشمس في هذا الخريف وتغشى  
قلبي كآبة ثقيلة. ويستقبل الطريق الضيق كلّ يوم  
جنازة أو أكثر فيمضي بها إلى سيدي الشعراي. والرجل  
كلّمها خلا من الزبائن راح يحدّث نفسه. إنّي أحلم بأمل  
يعدني به عبّاس ولكنّه لا يجد ما يحلم به.

\*\*\*

لم لا نسجّل اللحظات السعيدة لنصدّقها فيما بعد؟  
أكان هو الرجل نفسه؟ أكان صادقاً حقاً؟ أهو الذي  
قال:

- إنّي مدين لعمّ أحمد برجل بسعادة فوق احتمال  
البشر.

حرّكت رأسي بدلال وقلت:

- لا تبالغ!

فقال بصوت اضمحلّت صفاته إلى الأبد:

- حلّمة... ما أسعد من لا يضيع خفقان قلبه في  
العدم!

ورغم أنّي لا أحبّه فقد أحببت كلماته ودفنت  
بحرارة...

\*\*\*

جاء اليوم الموعود. قلبي يموج بالفرح والخوف.  
ذهبت إلى الحفّام الهنديّ. أمدتني أمّ هاني بستان  
ومعطف وحذاء. رجعت من الكوافير بهالة جديدة من  
شعر طال إهماله. رمقني الرجل بسخوية وقال:

- ما زال لديك بقية من استعداد للدعارة فلمّ لا

تستثمرينها في هذه الأيام الداعرة المجيدة؟



## أفراح القبة ٣٤٧

- ذلك الولد الذي زجّ بنا في السجن!  
- لم يكن يصوّر نفسه، كان يصوّرك أنت.  
- كم ادعى المثالية! ...  
فقلت مغالية اليأس في قلبي:  
- عندما يعود سأذهب معه ...  
وغادرته إلى حجرتي. أغلقت الباب وأفحمت في  
البكاء. كيف لا تعرف أمك يا عباس؟!  
\*\*\*

يهبط السلم مترنّحًا يكاد يقع من الإعياء. يراني  
فيقول:

- كولونيا... أنا في غاية الإرهاق...  
أدخل حجرتي لأجيبه بالكولونيا فيتبعني. أقول:  
- إليك الكولونيا...  
- شكرًا... شربت أكثر مما يجوز.  
- وكان حظك سيئًا من أول السهرة...  
يتعش قليلاً. ينظر إليّ. يقوم إلى الباب فيغلقه.  
أتحفّز للردّ. يقول:

- حليلة... إنك رائعة! ...  
- هلمّ إلى فوق...  
اقترب منّي فتراجعت مقبّبة.  
- أتلخّصين لهذا الحيوان؟  
أقول بجدّية:  
- إنّي امرأة شريفة وأمّ...  
وثبت إلى الباب ففتحته. تردّد ثانية واحدة ثمّ غادر  
الحجرة إلى خارج البيت.

\*\*\*

ما من أحد منهم إلّا راودني عن نفسي فرفضته.  
عاهرة؟! لقد اغتصبت مرّة، عاشرت أباك زمناً قصيراً  
ثمّ ترهبت، إنّي راهبة لا عاهرة يا بنيّ. هل زوّر أبوك  
لك تلك الصورة الكاذبة؟ إنّي امرأة محرومة تعيسة  
الحظّ. ليس لي أمل سواك فكيف تتصوّري في تلك  
الصورة؟! سأحدّثك عن كلّ شيء، ولكن متى  
ترجع؟!  
\*\*\*

المربدة يتسلّلون إلى بيتنا العتيق ليليل. بقلوبهم  
الآثمة المستهترّة يدنّسون الطريق المفضي إلى سيدي

- نشترك أم نذهب؟  
يتحدّان ويسخر منّي، ولكنّي قلت له بتحدّ:  
- كيف لا نشترك؟!  
لكنّي في الواقع لم أشارك. انغمست في غيبوبة  
محرّقة. دوى رأسي بأصوات متلاطمة. تماوجت أمام  
عينيّ وجوه غريبة تصرخ وتضحك بلا سبب. سينفجر  
رأسي وتقوم القيامة. لتقم القيامة. لتقم القيامة. لن  
يدركني حكم عادل إلّا بين يدي الله. قتلت وخنت  
وانتحرت فمتى أراك؟... هل يتأتّى لي أن أراك؟  
وصلنا البيت القديم عند الفجر. تهالكت فوق  
الكنبة في الصالة على حين راح يشعل المدفأة. جاءني  
صوته متسائلاً:

- أعجبتك المسرحيّة؟  
فقلت بقتور:  
- أعجبت الجميع!  
- والموضوع؟  
- موضوع قويّ!  
- لم تتظاهر بغير ما في نفوسنا؟  
- لا تفكّر قطارق رمضان الحاقد.  
- كلّ شيء حقيقيّ أكثر من الحقيقة...  
فقلت بغضب:  
- لا علاقة بين دوري في المسرحيّة وبين  
الحقيقة...  
فضحك ضحكة كريهة، فقلت متخطّية عذابي:

- إنّه الوهم!  
- الجميع كما عرفناهم في الحياة...  
- الجديد المتخيّل أكثر من الواقع بكثير.  
- لم صوّرك في تلك الصورة؟  
- المؤلّف شخص آخر غير ابني.  
- توهمت كثيراً أنّه يحبّك ويحترمك!  
- لا شكّ في ذلك.  
- وجهك يشهد بنقيض لسانك.  
- إنّي واثقة من نفسي...  
- حتّى طارق!... يا لك من امرأة فدّة!...  
صرخت:  
- أرحمني من أفكارك القدرّة.

## ٣٤٨ أفراس القبة

في الحجرة المترامية يرمقنا إليه الشرّ باسماً ويتمتم:  
- أهلاً حليلة... أحنّ أن ابنك يقدم مسرحية  
جديدة؟  
- هو ذلك.  
يقول مخاطباً عباس:  
- المسرحيات السابقة لا قيمة لها.  
فيقول عباس:  
- إنّي أتضع دائماً بإرشاداتك.  
- بودّي أن أشجعك إكراماً لوالدتك على الأقلّ.

\* \* \*

الأسابيع تتلاحق والنجاح يستفحل. لم يعرف  
المسرح نجاحاً كهذا من قبل. الأسابيع تتلاحق  
والأشهر. متى يظهر المؤلف؟ ليكن رأيك ما يكون،  
فلاتألم ما شاء لي الألم ولكن أين أنت؟ وقلت لأسمع  
الرجل:  
- لا شكّ أنهم في المسرح يعرفون جديداً عن  
الغائب...

- ذهبت إلى هناك آخر مرة منذ عشرة أيام...  
لم أطالبه بشيء تحامياً للسانه. كان يتردد على  
المسرح من آن لأنّ أنا فلم أجرؤ على الذهاب منذ  
ليلة الافتتاح. لكنّه ذهب في ضحى اليوم التالي. إنّه  
يوم دافئ، مشرق الشمس، وقد خفق قلبي بأمل  
ملهم.

\* \* \*

أنتصّر عجائب وغرائب ولكنني لا أنتصّر أن  
يتزوج عباس من تحية. سيذهب عباس ويبقى وطارق  
رمضان فأين عدالة النساء؟  
- عباس، إنّها تكبرك بعشرة أعوام على الأقلّ...  
إنّه يبتسم في استهانة فأقول:  
- لها سيرة وتاريخ ألا تفهم ما يعنيه ذلك؟  
- المسألة أنّك لم تعرفي الحبّ...  
تقلّص باطني بمرارة وتذكّرت أحزاني الدفينة فعاد  
يقول:

- سنبدأ حياة جديدة...  
- لا يمكن أن يتحرّر إنسان من تاريخه...  
- تحية رغم كلّ شيء طاهرة...

الشعراني. قلبي يهبط وأنا أطالع نظراتهم الفاجرة  
ويطوف في إشفاق حول حجرة عباس. لكنكك جوهرة  
يا بتيّ ولا يجوز أن تحتق في وحل الفقر. ها أنا أرهب  
بهم في مرح مصطنع وأتقدمهم إلى الحجرة في الدور  
الأعلى التي أعدت بقرض لاستقبالهم. وسأعمل لهم  
ساقية تقدّم الطعام والشراب ولا أدري أين أقف في  
المنحدر الوعر.  
- يا حبيبي لا تتزعج، إنهم أصدقاء أبيك، كلّ  
الرجال يفعلون ذلك... .

- وأنت يا أمي ما شأنك وذلك؟

- إنهم زملائي في المسرح ولا يليق بي إهمالهم...  
ويقول سرحان الهلالي وهو يتخذ مجلسه إلى المائدة:  
- مكان طيب وآمن...  
إسماعيل يفتظ الورق. فؤاد شلبي يقول ضاحكاً:  
- ممنوع جلوس تحية جنب طارق...  
كرم يقف وراء الصندوق في طرف المائدة. طارق  
يعلّق ضاحكاً:

- صندوق نذور سيدي كرم يونس!

سرحان يقول محذراً:

- لا صوت يعلو على صوت المعركة!

كرم يذيب الأفيون بالشاي الأسود، يا لها من بداية  
لا تعرف لها نهاية...!

\* \* \*

رجعت إلى الزنزانة كما رجعت الملابس إلى  
صاحبها. ها هو يجلس بوجهه الكئيب الشارد. يبيع  
القول واللبّ ويشارك مع الزبائن في التشكي من  
الزمان. قلت وكأنما أحداث نفسي:  
- نجحت المسرحية وحسبنا ذلك عزاء.  
فقال:

- لا يمكن الحكم قبل مرور أسبوع.

- انفعال الجمهور، الانفعال هو كلّ شيء... .

- ترى كم أعطاه الهلالي ثمنًا لها؟

- أول عمل يباع بأبخس الأثمان، وعباس لا يهتم

بالمادة... .

قهقهه ساخراً، فلمنته في سرّي.

\* \* \*

## أفراح القبة ٣٤٩

- أنت يا أم عباس في دنيا أخرى...  
ترامى إليّ أذان العصر والعتمة تزحف فوق نهار  
الشتاء القصير. ليس تأخره بلا سبب. إنه لا يقيم  
وزناً لانتظاري الملهوف ولكن ماذا أخره؟ الشمعة  
تحترق وريح الشتاء تعصف بذبالتها. وقفت وليس في  
نيتي أن أجلس ثانية. لقد تغير قلبي. خائني بلا  
ترقق. ونفد صبري لا بد أن أذهب. أول من صادفتني  
عند باب المسرح كان فؤاد شلبي. أقبل بحنان غير  
معهود وبسط لي يديه وهو يقول:

- أرجو أن يكون خبراً كاذباً...

فتساءلت وأنا أفقد البقية الباقية من الأمل:

- أيّ خبر؟

فارتبك الرجل ولم ينس فتساءلت:

- عن عباس؟

فأحنى رأسه بالإيجاب ولم يزد. وغبت عن الوجود.  
أفقت فوجدتني مستلقية على كتبة في البوقيه وعمّ  
أحمد يعني بي، وفي المكان فؤاد شلبي وطارق رمضان.  
حكى لي عمّ أحمد الخبر بصوت جنائزي ثم ختم  
بقوله:

- لا أحد يصدق...

أوصلني فؤاد شلبي بسيارته. تساءل في الطريق:

- إذا كان انتحر فأين جثته؟

فسألته:

- ولم كتب الرسالة؟

فأجاب:

- ذلك سرّه... وسنعرّفه في حينه...

ولكنني أعرف سرّه. أعرف قلبي. أعرف حظّي.

عبّاس انتحر. الشرّ يعرفه الزمار.

لم أكن منصفة ونسيت نفسي. كنت أتمنى له مصيراً  
أفضل هذا كلّ ما هنالك. وقد زارتني تحية. بدت  
حزينة ومصممة. قالت لي بتوسّل:

- لا تقفي في سبيل سعادتني.

فقلت لها بحدة:

- إنك تسرقين البراءة.

- سأكون خير زوجة له...

- أنت!

تضايقت من لهجتي فامتقع لونها وقالت:

- كلّ امرأة في المسرح بدأت من سرحان الهلالي!

تقبّض قلبي. أجل كلّ واحد هناك يعرف ما

يعرفه. ويستنتج ما لا يعرف. كأنها تهّدني. إنني

أمقتها، ولكنّه سيقى ابني رغم كلّ شيء.

\*\*\*

ألم يتأخّر الرجل عن ميعاد عودته؟

بلى. ها هي الشمس تسحب أطراف ذيلها من

جدران الشارع الضيق فإذا أخره؟ هل عرف أخيراً

مكانه فقصده؟ هل يجيشان معاً؟ إنني أتخيل وجهه

المهذّب الباسم وهو يعتذر. وأومن بأنّ هذا العذاب لا

يمكن أن يستمرّ إلى الأبد. أجل أطلعتني المسرحية على

كوا من ضعفي ولكنني حافظت دائماً على نقاء قلبي.

ثمّ ألم أكفر عن ضعفي بما فيه الكفاية؟ من كان يتخيل

تلك الحياة مصيراً حليلة الجميلة الطاهرة؟ لا يخفق

قلبي الآن إلاّ بالساحة والحبّ فاقض يا ربّ بما أنت

قاسٍ. حتىّ كرم سأغفر له وحشيتته تقديراً لتعاسته.

سأغفر له كلّ شيء عندما يعود متأبطاً ذراع حبيبي

الغائب. قلبي يخفق بلهام عجيب ولكنّ مرور الوقت

يكذّره. وقال لي زيون وهو يمضي بلفافته:

## عبّاس كرم يونس

البيت القديم والوحدة هما رفيقا عمري الأول. أحفظه عن ظهر قلب. بوابته مقوَّسة الهامة. شبّاك المنظرة ذو القضبان الحديدية، حجراته في الطابقين ذوات الأسقف العالية والعروق الخشبية الملوّنة وبلاط أرضياتها المعصرانيّ. أثاثه القديم الشاحب من الكنبه والشلّت والحصر والأكلمة، وزجاج شراعات أبوابه بقطعه الملوّنة بالأحمر والأخضر والبيّ. وأحياؤه من الفئران والصراصير والأبراص. وسطحه المغطى بحبال الغسيل مثل أسلاك الترام والتروولي باصر، المطلّ على أسطح تكتظّ بالنساء والأطفال في عصارى الصيف. أجول فيه وحدي، وصوتي يتردّد بين أركانه مستذكرا درسًا أو مسمّمًا شعرًا أو مقلّدًا مقطوعة مسرحية أو منشداً أغنية. أطلّ على الطريق الضيق متابعًا تيار الخلق، تواقًا إلى رفيق الأعبه. يناديني غلام قائلًا:

- انزل.

فاجيبه:

- الباب مغلق والمفتاح مع أبي...

اعتدت الوحدة بالنهار والليل فلا أخافها، ولا أخاف الشياطين.

يقول أبي ضاحكًا:

- لا شيطان إلّا ابن آدم...

فتبادرني أمي:

- كُنْ ملاكًا.

وأتسلّى عند الفراغ بمطاردة الفئران والأبراص والصراصير. قالت لي أمي ذات يوم:

- كنت أحملك معي وأنت وليد في مهد من الجلد وأضعك على أريكة إلى جانبي في حجرة قطع التذاكر وطلما أرضعتك في المسرح.

ذلك عهد لا أتذكره ولكنّي أتذكّر عهدًا أحدث نسبيًا وأنا في الرابعة أو حوالى ذلك فكنت أتجول في صالة المسرح أو وراء الكواليس وأستمع فيما بين هذا وذاك إلى ممثلين وهم يحفظون أدوارهم فتمتلئ أذناي بأناشيد الخير والمواعظ ونذر الشرّ والجحيم فأتلقّى تربية لم تتح لي على يدي والديّ الغائبين عني دوائًا بالنوم والعمل. وعند العرض الأول لكلّ مسرحية جديدة كنت أشهدهما مع والديّ وأمضي الوقت بين الانبهار والنعاس. وأيضًا تلقّيت أول كتاب مصوّر عن ابن السلطان والساحرة أهدانيه فؤاد شلبي. هكذا عرفت بطل الخير وشيطان الشرّ في المسرح، ولم يكن لدى أحد من والديّ وقت لتوجيهي، فضلًا عن أنّ والدي لا يكثرث بالتربية بتأنا على حين فنعت أمي بوصية فريدة ترددها لي:

- كن ملاكًا.

وتشرح لي معنى الملاك بأنّه المحبّ للخير المانع للأذى التنظيف الجسد والملبس. فوليّ أمري الحقيقيّ هو المسرح ثمّ الكتاب عندما يجيء وقته وآخرون لا يمتّون بصلة إلى أبويّ.

لذلك سرعان ما أحببت المدرسة لدى إلحاقني بها. انتشلتني من الوحدة وجادت عليّ بالرفاق. وكان عليّ أن أعتد على نفسي في كلّ خطوة. أستيقظ مبكرًا، أتناول إفطاري البارد من الجبن والبيض المسلوق في الطبق المغطى بالفوطة. أرتدي ملابسني وأغادر البيت في هدوء حتى لا أوقظ أبويّ النائمين. أرجع عصرًا فأجدهما يستعدّان لمغادرة البيت إلى المسرح. أبقى وحدي، أوّدي واجباتي المدرسية، ثمّ أتسلّى باللعب المنفرد والقراءة - المصوّرة ثمّ المكتوبة - ولا أنسى هنا

## أفراح القبة ٣٥١

لحظة أليمة، لذلك كنت أنتظر يوم الخميس بنفاد صبر لأذهب معها وأشاهد المسرحية. وكلّما تقدّمت في التعليم والقراءة طالبت بمزيد من القروش لشراء الكتب حتّى كوّنت مكتبة من قصص الأطفال المستعملة... وقال لي أبي:

- ألا يشبعك أنّك تشاهد المسرح كلّ أسبوع؟

ولكنّي لم أكن أشبع. ووثبت بي الأحلام إلى آفاق جديدة حتّى قلت له ذات يوم:

- أريد أن أكتب مسرحية!

فقهقه عاليًا وقال:

- احلم بأن تكون ممثلاً فهو أفضل وأريح...

- وعندي فكرة أيضًا...

- حقًا؟

ورحت أحكي له فكرة فاوست وكانت آخر ما شاهدت بلا جديد أضيفه إلّا أنّي جعلت بطلها غلامًا في مثل سنّي، فتساءلت أمّي:

- وكيف ينتصر الغلام على الشيطان؟

فأجاب أبي:

- ينتصر الإنسان على الشيطان بوسائل الشيطان نفسه.

فهتفت أمّي:

- احتفظ بأفكارك لنفسك، ألا ترى أنّك تحدّث

ملاكًا؟

منذ سنّ مبكرة تشبعت بحبّ الفنّ والخير. ناجيتها طويلاً في وحدتي. وعُرفت بها بين أقراني في المدرسة.

تميّزت بينهم لما غلب على أكثرهم من العفرتة. وكلّما

ضاق المدرّس بهم صاح:

- يا أبناء حيّ الغواني!

وملت إلى نخبة قليلة عُرفت بالمثاليّة البريئة حتّى كوّننا من أنفسنا جمعيّة أخلاقية لمقاومة الألفاظ البذيئة.

وكنا نردّد الأناشيد ونصدّقها ونؤمن بمصر الثورة الجديدة. وعلى حين نذر البعض أنفسهم لبطولات

خارقة، عسكرية أو سياسيّة، فقد نذرت نفسي

للمسرح وتصوّته منبراً للبطولة أيضًا، ويناسب من

ناحية أخرى ضعف بضري الذي جعلني أستعمل

النظارة الطبيّة قبل إنهاء دراستي الابتدائيّة. ومهما يكن

فضل عمّ عبده بيّاع الكتب المستعملة الرابض بمجلسه عند مسجد سيدي الشعراي. وأتناول عشائي المكوّن من الجبن والحلاوة الطحينيّة ثمّ أنام. لا أحظى برؤية والديّ إلّا فيما بين العصر والأصيل، وحتّى تلك الفترة القصيرة يضع جانب منها في الاستعداد للخروج، ولا يبقى للمؤانسة والرعاية إلّا القليل. وتعلّق بهما قلبي وأشواقِي، سحرني جمال أمّي وعذوبتها وحنانها، والملائكيّة التي تدعوني إليها. وبدا لي أبي كائنًا رائعًا بمداعباته الرقيقة، وضحكاته السخية، ولم يفسد جوّ اللقاء المحدود بتحذير أو إرشاد أو تهديد، وأثر دائميّ أن ينفقه في دعابة ومرح. ولم يزد عن أن يقول لي أحيانًا:

- تمتّع بوحديتك، أنت ملك البيت، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ الولد الوحيد الذي لا يعتمد على أحد، كذلك كان أبوك، وستكون أروع منه...

فتسارع أمّي قائلة:

- إنّه ملاك، كن ملاكًا يا حبيبي...

وأسأل أبي:

- هل كان جدّي وجدّتي يتركانك وحدك أيضًا؟

فيجيب ضاحكًا:

- أمّا جدّك فقد تركني إلى الآخرة قبل أن أعرفه وأمّا جدّتك فكانت موظّفة بالداخلية...

وتقطّب أمّي فأشعر أنّ وراء الكلام سرًّا ما وتقول:

- مات جدّك مبكرًا ولحقت به جدّتك فوجد أبوك

نفسه وحيدًا...

- في هذا البيت نفسه؟

- أجل...

ويقول أبي:

- لو نطقت الجدران لحَدّثتك بأعجب

الحكايات...

كان بيت الوحدة ولكنّه كان بيت الوثام أيضًا. وقتذاك كان أبي وأمّي زوجين متوافقين، أو هكذا بدوا لعينيّ فيما بين الأصيل والعمّة. يتبادلان الحديث والدعابة، ويشاركان في عاطفة صادقة نحوي. وكان أبي يميل إلى الانطلاق في التعبير فتوقفه أمّي بنظرة تحذير لحظها أحيانًا فأتساءل. ولحظة ذهابها كانت

## ٣٥٢ أفراح القبة

- اللعنة على المسرح، ليتني كنت بيّاع خردة أو لحمه راس.  
عند ذلك سألته:  
- لم لا تمثل إلا أدوارًا صغيرة؟  
فسعل سعلة غليظة وقال:  
- قسمي!... حظّ أعرج يطاردني، ولولا شهامة أبيك لاضطرت للبيات في المراحيض العموميّة...  
فقال له أمي:  
- لا ترعب الأستاذ بكلامك يا طارق...  
فقال ضاحكًا:  
- على المؤلف أن يعرف كلّ شيء، والشرّ خاصّة، فمن الشرّ ينبع المسرح...  
فقلت بحماس بريء:  
- ولكنّ الخير ينتصر دائمًا...  
فقال ساخرًا:  
- هو كذلك في المسرح...  
\* \* \*

ثمّة تغير مبهم يزحف بهدوء وحذر كالليل. ليس الصمت هو الصمت، ولا الكلام هو الكلام، ولا أبي هو أبي، ولا أمي هي أمي. أجل لم تكن الحياة تخلو من اختلاف أو نقار ولكتّها كانت تمضي في إطار معاشرّة طيبة. ما هذا الغامض الحفيّ الذي تسأل بينهما؟ كانت لها إشراقة دائمة فتلاشت. وكان يعيش خارج ذاته في قهقهات وسخريات وملاطفات فانطوى على ذاته. علاقة أمي بي - إلى الحنان القديم - اتّسمت بأسى لم تفلح في مداراته أما أبي فأهملني تمامًا. تسرب إلى جنبات نفسي قلق وتوقّعات مجهولة غير سارة. وفي مجلس الشاي قبيل الذهاب سمعت طارق يقول لها مرّة:

- لا تستسلي للشيطان...  
فقال له أمي بمرارة:  
- ما الشيطان إلا أنت.  
فقال أبي محتجًا:  
- لست قاصرًا...

ولم تسترسل أمي إكرامًا لحضوري فيها توهّمت. وكما غادروا البيت انتابني شعور بالحزن والضياع. لقد

من اختلافنا فقد حلمنا بعالم مثاليّ جعلنا أنفسنا على رأس مواطنيه المثاليين. وحتىّ المزميمة لم توزع أركاننا، وما دامت الأناشيد لم تتغيّر، ولا تغير الزعيم، فماذا تعني المزميمة؟ لقد شحب وجه أمي وغمغمت بكلمات غير مفهومة، أما أبي فهزّ منكبيه كأنّ الأمر لا يعنيه وراح يردّد بصوت أجشّ ساخر:

بلادي بلادي فذاك دمي

وقد توقّف المسرح عن العمل أيامًا فنعمت ببقاء والديّ في البيت طيلة الوقت مرّة. واصطحبني أبي معه إلى مقهى بشارع الجيش فتذوّقت تجربة جديدة. وإذن فإنّ المزميمة لم تخل من نتائج طيبة غير متوقّعة وإن تكن قصيرة الأجل.

\* \* \*

نقول أمي وهي تملأ أقداحنا بالشاي:

- عباس... سيسكن عندنا غريب!

رنوت إليها غير مصدّق فقالت:

- إنه صديق أبيك، وأنت أيضًا تعرفه، فهو طارق رمضان.

- الممثل؟

- نعم، اضطرّ إلى ترك مسكنه ولم يجد في أزمة المساكن حلًا آخر.

تمتمت في غير ارتياح:

- إنه ممثل تافه... ومنظره لا يسر...

- الناس للناس وأنت ملاك يا حبيبي...

وقال أبي:

- سيجيء مع الفجر وينام حتىّ العصر ويظلّ البيت مملكتك الخاصّة عدا حجرة واحدة!

لم أشعر بمجيئه قطّ ولكتّه كان يذهب عادة مع والديّ أو في أعقابها. كان وقح النظرة فظّ التعبير.

وجعل يهتمّ بي اهتمامًا متكلفًا مجاملة لأبويّ ولكتني لم أحترمه. وشاهد مكتبيّ يوميًا من مجلسه في الصالة

فألني:

- كتب المدرسة؟

فقال أمي بزهو:

- كتب أدب ومسرحيات، إنك تحدّث مؤلّفًا

مسرّحًا!

## أفراح القبة ٣٥٣

والإهانات. بتّ أخافه وأمناشاه. أمي شقيّة ولا تدري  
ماذا تفعل. وتساله مرّة:

- أجري وحده لا يكفي بيتك...

فيقول لها:

- انطحي الجدار.

أجل لم تعد المعيشة كما كانت. تتشّف في الطعام  
وتراجع في المصروف. أنا لا يميّني الطعام ولا النقود  
كيف أقتني الكتب؟ حياة الروح لا تستغني عن النقود  
للأسف الشديد. وأتعمس ما زُميت به أنني فقدت أبي.  
أين ذلك الرجل القديم؟ ينور على نظرة عينيّ ويقول  
لي:

- إنك أنموذج سنّ لا يصلح للحياة...

وتدهور الحال حتّى انفصلا تمامًا فاستقلّ كلّ منهما  
بحجرة. تفتّت البيت. بتنا سگانًا غرباء في طابق  
واحد. عزّ عليّ مصير أمي. ومن ذلك المنطلق تحيّلت  
موقفًا مسرحيًا يدور حول معركة بين أبي وطارق، يُقتل  
أبي طارق رمضان ثمّ يُقبض عليه ويمضي وهو يقول لي  
«ليتني سمعت كلامك». يعود الظهر إلى البيت القديم  
ولكنّي أشعر بالندم. الندم على قسوة خيالي. وأسأل  
أمي:

- كيف تواجهين تكاليف الحياة وحدك؟

- إني أبيع أشياء صغيرة، انتبه لعملك فأنت الأمل  
الوحيد الباقي...

- قلبي معك.

- أعرف ذلك ولكن لم يمن الوقت بعد لنحمل  
همونا، يجب أن تعمل من أجل مهنة مفيدة...

- حلمي أن أكون مؤلّفًا للمسرح...

- مهنة لا تضمن لك ثروة.

- إني أحتقر المادّة، أنت تعرفين كلّ شيء عني...

- أحتقر المادّة ولكن لا تتجاهلها...

فقلت لها بحماس:

- سينصر الخير يا أمي...

إني أدمن الحلم كما يدمن أبي الأفيون. بالحلم أغتير  
كلّ شيء وأخلقه. أكنس سوق الزلط وأرثه، أجفّف  
طفع المجاري، أهدم البيوت القديمة وأقيم مكانها  
عبارات شاهقة، أهدّب الشرطيّ، أسمو بسلوك

حدث شيء ما في ذلك من شكّ. إني أسأل أمي  
فتتهرب منّي متظاهرة بالاستهانة. وأسمع حوارًا محتدمًا  
بينها وبين أبي وهما منفردان في الصالة فأنكمش وراء  
الباب الموارب متصنّيًا. تقول له بتوسّل:

- ما تزال توجد فرصة للنجاة.

فيقول لها بغلظة:

- لا تتدخّل في شئوني الخاصّة.

- لكنّ فعلك ينعكس علينا، ألا تدرك ذلك؟

- إني أكره المواعظ.

- الأفيون قتل زوج خالتي!

- هذا يثبت أنه لا يخلو من فائدة.

- لقد تغيّرت أخلاقك ولم تعد تُحتمل...

اقتحميني الخوف. إني أعرف الأفيون. عرفته في  
مسرحيّة «الضحايا». مناظر المالكين لم تبرح ذاكرتي.  
هل يصير أبي واحدًا منهم؟ هل يُترك أبي المحبوب  
للفناء؟! وانفردت بأميّ في الصالة قبل مجيء أبي  
وطارق رمضان. رمقتها بحزن فسألتي:

- مالك يا عباس؟

فقلت بصوت متهذّب:

- إني أعرف، إنه شيء خطير، لم أنس مسرحيّة

الضحايا...

- كيف عرفت؟... لا، ليس الأمر كما

تصوّر...

وجاء أبي منفعلًا ممّا قطع بأنّه سمعني وصاح بي:

- يا ولد الزم حدودك...

فقلت له:

- إني أخاف عليك...

فصاح بصوت أفضع من الأوّل:

- اخرس وإلا كسرت رأسك...

وأخذت وأنا أراه في صورة جديدة متوحّشة. تبدّد

حلم سعيد طويل. انسحبت إلى حجرتي. تحيّلت

منظرًا مسرحيًا متكاملًا يبدأ بطرد طارق وينتهي بتوبة

أبي على يديّ. وقلت إنّ الخير يتصر إذا وجد من

ينصره. ولكنّ الحال مضى من سنّ إلى أسوأ. أبي

يزداد انطواء. تلاشى الأب القديم. يغيب عنّا وإذا

دعاه داعٍ إلى اليقظة فلكي يصبّ اللعنات

## ٣٥٤ أفرح القبة

رأسي بالفكر. هاجني الشرّ وأنا أعاني المراهقة  
والرغبات الجامحة وأكافحها بالإرادة والطموح إلى  
النقاء. واشتعلت بالغضب حتى صرعتي النوم.  
وأقبلت على والديّ وهما يجلسان في الصلاة عصرًا. ما  
إن رأيت أبي حتى تساءل في توجّس:

- ماذا وراءك؟

فقلت بتدفّق حارّ:

- حدث غريب لا يتصوّره عقل، جاء طارق بتحيّة  
إلى حجرته أمس!

فمدّ إليّ بصره الثقيل وثبته عليّ دون أن ينبس  
نوتهمّ أنّه لا يصدّقني فقلت:

- لقد رأيت بعينيّ...

فسألني ببرود مثير:

- ماذا تريد؟

- أردت أن أخبرك لتؤدّبه وتفهمه أنّ بيتنا بيت  
محترم، يجب أن تطرده...

فقال بحدّة:

- انتبه لعملك ودع شئون البيت لصاحبه...

وقالت أمّي بصوت منخفض ذليل:

- إنّها خطيئته...

- ولكنّه لم يتزوّجها بعد!

فخاطب أبي أمّي قائلاً بسخرية وهو يوميّ  
ناحيّتي:

- يريد أن يموت جوعًا...

فقلت مجتأحًا بدفقة غضب:

- نحن الذين أفقرنا أنفسنا...

فرفع قدح الشاي ليرميني به ولكنّ أمّي وثبت بيننا،  
ومضت بي إلى حجرتي. رأيت عينيها مندرتين بالدمع  
وقالت لي:

- لا فائدة ترجى منه فلا تحتكّ به، بوّدي لو نهجر  
البيت معًا، ولكن أين نذهب؟ أين نجد مسكنًا؟ ومن  
أين لنا بالنقود؟!

لم أجد جوابًا. تبدّت لي الحقيقة بيشاعتها وبلا  
رتوش. لقد أذعنت أمّي مغلوبة على أمرها. وعُلب  
أبي على أمره مهزومًا بإدمانه. إنّهُ مشول ما في ذلك  
شكّ ولكنّه مغلوب على أمره. إنّهُ أكثر من ذلك فإنّه

الطلّاب والمدرّسين، أوّقر الطعام من الهواء، أحق  
المخدّرات والخمر.

ويجلس أبي في الصلاة ذات عصر وهو يشدّب شاربه  
بملقاط وقبائه طارق يرفأ جوربه. ويقول طارق:

- لا يخذعك فقر الفقراء فالبلد ملأى بأغنياء لا  
يدري بهم أحد.

فقال أبي:

- الهلاكي يريح ذهبًا...

فيضحك طارق قائلاً:

- طظ في الهلاكي وذهبه، حدّثني عن النساء وفائض  
البرول!

- يعجبني الجنون ولكنّنا عاجزون...

وتدخّلت قائلاً:

- كان أبو العلاء يعيش على العدس وحده...

فصاح بي أبي:

- انقل هذه الحكمة لأمّك!

والوّد بالصمت وأنا أقول لنفسي «يا لها من  
حيوانين».

\*\*\*

تحيّة أمامي وجهًا لوجه. ناضجة الأثوثة جذّابة  
العينين. نظرت إليها في ذهول وأنا لا أصدّق عينيّ.  
في الأيام السابقة للامتحان كنت أسهر الليل وأنام في  
النهار. فتح الباب وأنا أتمتّى في الصلاة ودخلت تحيّة  
أمّا أبي وأمّي فقد سبقا للنوم. دخلت تحيّة وفي أثرها  
طارق رمضان. إنّّي أعرفها وطالما رأيتها فوق خشبة  
المرح تقوم بأدوارها الثانويّة مثل طارق. نظرت إليها  
بذهول فقلت باسمّة:

- ماذا يوقظك في هذه الساعة المتأخّرة؟

فقال طارق:

- إنّهُ مجاهد يسهر الليل في طلب العلم وبعد  
أسبوع سيدخل امتحان الإعداديّة...

- برفؤو...

ومضيا يصعدان السّلم إلى حجرة طارق. دار  
رأسي. فار دمي. أيجيء بها إلى حجرته من وراء أبي  
وأُمّي؟! أليس لها بيت يذهبان إليه؟ أيّ تدهور يهبط  
بيتنا إلى الحضيض؟ عجزت عن تركيز ذهني واحترق



## أفراح القبة ٣٥٥

فرت على منكبي وقال:

- ليت الأمور بهذه البساطة، تلزمك تجارب كثيرة،  
ابحث أيضًا عمّا بهمّ الناس ويشيرهم، إنّي أطالبك  
بخوض خضمّ الحياة والانتظار عشرة أعوام على  
الأقلّ...

دفعني حديثه في جوف الوحدة أكثر مما كنت. إنّه  
يتصوّر أنّي بمنجاة من التجارب. لعلّه غاب عنه ما  
يحدث في بيتنا. وغاب عنه أيضًا جهاد النفس في  
معركة المراهقة. النزاع الذي لا يهدأ بين السموّ  
والشهوات. بين أشعار المجانين والخيام. بين تحيّة  
العابثة في الحجرة العليا وطيّفا الزائر للخيال. بين  
الطين وقطرات السحب البيضاء.

\*\*\*

إنّ ما يفعل بالحجرة المجاورة لحجرة طارق  
عجيب. بيّع أثاثها القديم، اشترى لها أثاث جميل من  
مزداد علنيّ. توسّطها مائدة خضراء، غطّى بلاطها  
المصريّ بساط كبير، قام في جدارها الأوسط بوقيه،  
إنّه استعداد غامض. وأسأل أمي فتقول:

- أبوك يعدّها للسمر مع أصدقائه كما يفعل  
الرجال...

رمقتها بارتياب فما عاد اسم أبي يوحى إلّا بالارتياب  
فقلت:

- سيسهرون سهرتهم عقب إغلاق المسرح...  
تعودت أن أقبع في الظلام في حجرتي لأرى  
الأشياء. لا تُرى الحوادث على حقيقتها في بيتنا إلّا من  
الظلام. وقد جاء الصحاب في مزيج موغل من  
الليل. رأيتهم يتقاطرون، في المقدّمة والدي، الهلالي،  
إسمايل، سالم العجرودي، فؤاد شلبي، طارق،  
ثمّية. تسلّلت إلى الدور الأعلى في الظلام. قد تحلّقوا  
المائدة ودار الورق. إنّه القهار كما رأيت في المسرح.  
مآسي المسرح تنتقل إلى بيتنا بأبطالها أو ضحاياها.  
هؤلاء الناس يتصارعون فوق الخشبة أمّا هنا فيفقون  
صفاً واحداً في جانب الشرّ. إنهم ممثّلون. حتّى الناقد  
ممثّل أيضًا. لا شيء حقيقيّ إلّا الكذب. إذا جاء  
الطوفان فلن يستحقّ السفينة إلّا أمي وأنا. إن يكن  
للنيّة قيمة إذ لا عمل لنا. حتّى أمي تمدّد الطعام

يبدا أحيانًا بلا مبادئ على الإطلاق. إنّي أحترقه بقدر  
ما أرفضه. لقد جعل من مأوانا العتيق بيت دعارة. أنا  
أيضًا ضعيف ما دمت لا أجدر ما أفعله إلّا أن أذرف  
الدمع الغزير...

\*\*\*

نجحت غير أنّي لم أسعد بالنجاح كما ينبغي.  
لازمني الشعور بالعار. استقرّ بأعماقي حزن مقيم.  
هاجرت في العطلة الطويلة إلى دار الكتب. كتبت  
مسرحة. رجوت أبي أن يعرضها على سرحان الهلالي  
ولكنّه قال لي:

- إنّه ليس مسرح أطفال...

تطوّعت أمي بتقدّمها إليه. رجعت بها بعد  
أسبوعين وقالت لي:

- لا تتوّقع أن تُقبل أولى مسرحياتك وما عليك إلّا  
أن تعيد التجربة...

حزنت ولكنّي لم أياس. وكيف أياس بعد أن لم يعد  
لي من أمل إلّا المسرح؟ وصادفت ذات يوم الأستاذ  
فؤاد شلبي في قاعة المطالعة فصافحني وذكرته بنفسني  
فرحّب بي. وتشجّعت بلطفه وسألته:

- كيف أكتب مسرحيّة مقبولة؟

فسألني بدهشة:

- ما عمرك؟

- ماشي في السادسة عشرة.

- في أيّ مرحلة تعليميّة؟

- الثانوية بدءًا من العام القادم.

- ألا تنتظر حتّى تكمل تعليمك؟

- أشعر بقدرة على الكتابة.

- لكنّك لم تفهم الحياة بعد.

- عندي فكرة عنها لا بأس بها.

فسألني بأسًا:

- ما هي الحياة في نظرك؟

- هي معركة الروح ضدّ المادّة.

فازدادت ابتسامته أتساعًا وهو يتساءل:

- والموت ما موقعه من هذه المعركة؟

فقلت بشفقة:

- هو الانتصار النهائي للروح!

## ٣٥٦ أفراح القبة

ليلة النار التي أهلكت آخر نبتة خضراء. من  
الظلام رأيت سرحان الهلالي يهبط السلم مترنحًا.  
شعره منقوش، عيناه مظلمتان يسوقه جنون أعمى.  
لماذا هجر الحجرة والمعركة محتدمة؟ خرجت أمي من  
حجرتها مستطلعة وكنت أظنّها فوق. لاقته أسفل  
السلم، تهامسا بما لم تبلغه أذناي. دخلت حجرتها  
فاندفع وراءها. توثبت للاندفاع ولكنني لم أتحرك.  
أهمني أن أعرف الحقيقة أكثر من أن أمنعها. أمي  
أيضًا؟! لعلّه أغمي عليّ دقائق. هي النهاية التي ليس  
وراءها نهاية. تفتت الكون وضجّ بسخرية الشياطين.  
اندفعت إلى الصالة ومنها إلى الحجرة وقد غرقت في  
الظلام. أضأت النور فوجدتها خالية. أطفأت النور  
وخرجت إلى الصالة وأضأتها. لبثت واقفًا بوعي  
مشئت. وإذا بوالدي يهبط السلم حتى يقف أمامي  
ويسألني بخشونة:

- ماذا أيقظك؟
- فقلت وأنا لا أدري ماذا أقول:
- أرق طارئ.
- هل رأيت سرحان الهلالي؟
- إذا لم يكن فوق فقد غادر البيت.
- متى؟
- لا أدري.
- هل رآه أمك؟
- لا أدري.
- رجعت إلى حجرتي. لبثت واقفًا في الظلام يشتعل  
راسي بأفكار جنونية. لم أشعر بمرور الوقت حتى  
انتبهت إلى وقع أقدام الراحلين. لم يبق في الصالة إلا  
أبي وأمّي. ألصقت أذني بثقب الباب لأسمع ما يدور.  
سمعتة يسألها:
- ماذا حدث من وراء ظهورنا؟
- لم تجب فعاد يسأل:
- عبّاس رأى؟
- لم تجب أيضًا فقال:
- هو الذي ألحقك بالعمل... معروف أنه لم  
يعتق امرأة واحدة حتى أم هاني...  
لم أسمع لها صوتًا فعاد يقول:

- والشراب. وأقول لها:
- ما كان ينبغي أن تقومي بخدمة السفلة...  
فتقول كالمعتدة:
- إنهم زملاء وأنا ربة البيت...  
- أيّ بيت؟ ما هو إلا ماخور وناذ للقهار...  
فتقول بأسي:
- أتمنى لو أهرب، لو نهرب معًا، ولكن ما الحيلة؟  
فأقول بحنق:
- لذلك أكره النقود!
- لكنّها ضرورية، هذه هي المأسة، على أيّ حال  
فلا أمل لي سواك...  
\* \* \*

- ما الخير؟ ما الخير بلا عمل؟ لا ينشط إلا الخيال.  
الخيال ميدانه المسرح. البيت غنيمة في يد السفلة.  
حدائث سني ليست بالعذر المقبول. إنّه العجز. لذلك  
مرّ النصر كخبر. في الأقران من الطلبة حياة لا أشارك  
فيها إلا بالحماس والخيال. تتحوّل الكلمات الجميلة إلى  
صور لا أفعال. إنهم يرقصون رقصة الموت على حين  
أصقّق أنا خارج الحلية. ويجيء فؤاد شلبي بدرية  
ليتاجيا في الحجرة الثالثة تحت إطار البسمة المهداة من  
جدّي. وقلت لأمي:
- شلبي ودرية أيضًا، علينا أن نذهب.  
فقلت محمّرة العينين:
- ليس قبل أن تستطيع ذلك أنت.  
- إنّي أختنق.
- وأنا مثلك وأكثر.
- هل الأفيون هو المسئول عن ذلك كلّهُ؟  
فلم تبس فقلت:
- ربّما كان نتيجة وليس السبب.
- أبوك مجنون.
- ثمّ بصوت منخفض:
- ولكنّي مسئولة عن انخداعي به...  
- أودّ أن أقتله...  
فمست ذراعي بحتان وهمست:
- انغمس في العمل فأنت الأمل الباقي...  
\* \* \*

## أفراح القبة ٣٥٧

- متذكرك بمسرحية «المرأة السكير» .  
إنها مسرحية تقدم عالمًا أسود من النساء الساقطات  
فقالت:

- لا... فلتشرق مسرحياتك بنور قلبك...  
عند ذاك خرج أبي من حجرته ونزل طارق ونحية .  
وقفت لأرجع إلى حجرتي ولكن نحية اعترضت سبيلي  
قائلة بمرح:

- اجلس معنا أيها المؤلف...  
لعلها أول مرة تعبرني اهتمامًا فجلست على حين  
قال طارق ضاحكًا:

- سيكون هذا المؤلف تراجيديًا...  
فتمتم أبي ساخراً:

- إنه مريض بداء الفضيلة!  
فقالت نحية وهي ترشف من قدحها رشفة:  
- جميل أن يوجد في زماننا هذا فاضل...  
فقال أبي:

- بصره ضعيف كما ترين فهو لا يرى ما حوله.  
فقالت نحية:

- دعوه في جنته، إنني أحب الفضيلة أيضًا!  
فقال طارق ضاحكًا:

- فضيلتك من النوع الضاحك المقبول.  
فقالت نحية:

- إنه وسيم مثل أمه... قوي كأيه... يجب أن  
يكون دون جوان.

فقال أبي ساخراً:

- انظري إلى نظارته، عيبه أنه لا يرى...  
ولما ذهبوا فاض قلبني بالغضب والافتتان. نشط  
خيالي ليهدم ويعيد البناء. ما نحية إلا صورة من أمي  
بل هي أفضل. عندما اعترضت سبيلي مستني فحركت  
حلمًا جديدًا. عندما تذكرت مسها لي وأنا وحيد انبثقت  
من سفير نفسي فكرة. هذه الدار العتيقة التي بناها  
جدتي بعرق جبينه وكيف تحولت إلى ماخورا! هذه هي  
الفكرة. لا دليل لدي على نجاحها إلا ارتعاشة الفرح  
التي خامرتني. هل تصلح أساسًا لمسرحية؟ وهل تقوم  
مسرحية بلا حب؟

\*\*\*

- لا شيء بلا ثمن، هذا ما يهمني، أما أنت فلا  
تستحقين الغيرة... .

أخيرًا جاء صوتها قائلًا:

- إنك أحقر من حشرة!

فقال مقهقها:

- إلا حشرة واحدة.

هذه هي الحقيقة. هذا أبي وهذه أمي. النار تنبأني  
في الاشتعال. أغمد خنجرك فحتى قبصر قد قتل.  
سيرانو دي برجرارك صاول الأشباح. إنني أرفض  
أبوي. القواد والداعرة. لا أنسى أنني رأيتها وفؤاد  
شلمي يتها مسان مرة فلم يداخلي سوء ظن. ومرة  
أخرى مع طارق رمضان نفسه فلم يداخلي شك.  
الجميع... الجميع... بلا استثناء... لم لا؟ هي  
عدوي الأول. أبي مجنون مدمن أما أمي فهي المدبرة لما  
يجري في الكون من الشر.

\*\*\*

جاءني في حجرتي صوت أمي مناديًا فلم أستجب.  
من عجب أن مقتي لأبي متجسد واضح أما شعوري  
نحوها فيتجسد في سخط عارم لا كراهية واضحة.  
سرعان ما جاءت فأخذتني من يدي وهي تقول:  
- أجل القراءة وكرس لنا هذا الوقت القصير  
النادر... .

أجلستني إلى جانبها في الصالة، قدمت لي الشاي،  
قالت:

- أنت لا تعجبني هذه الأيام... .

تحيبت النظر إلى وجهها فقالت:

- إنني أعلم بما يحزنك ولكن لا تضاعف آلامي،  
ساعة الخلاص تقرب وسنذهب معًا... .

يا لها من مخادعة. تمتمت:

- لا يظهر هذا البيت إلا حرقه!

- حسبك قلبي الذي يعبدك!

هل أصب عليها الحمم الذي يمور به قلبي؟ لكن  
خيالي كان يدمر كل شيء ثم يقف حائرًا أمام عينيها.

وسألتنني:

- هل تكتب مسرحية جديدة؟

فقلت:

وديمونة. وفيما تلا ذلك من أيام أصبح لكل نظرة  
تبادلها خلصة معنى جديد يوكد سحر الحياة. في غفلة  
من الحضور تبادل حوارًا ساخنًا. وتساءلت وأنا من  
الحيرة في عناء ترى أرتفع أنا أم أهوي إلى  
الحضيض؟! \*

\*\*\*

ورغم رياح أمشير المزججة في الخارج تراسى إلى أذني  
من الطابق الأعلى صخب وعنف. رقيت في السلم  
مستكشفاً فرأيت - في الصالة - طارق وهو ينهال لطمًا  
على وجه تحية. تسمرت ذاهلاً. توارت هي في الحجرة  
على حين قال لي هو في برود:

- أزعجناك!

فتمتعت وأنا أكنم انفعالاتي:

- معذرة.

- لا تنزعج واستمتع بمشاهدة بعض عاداتنا  
اليومية...

وجاء صوتها المتهذج من الداخل صائحًا:

- لن أرجع هذه المرة...

وسرعان ما تبعها طارق وأغلق الباب.

ورجعت بحزن جديد غاص بي أكثر في قلب  
الظلام. لم ترضى امرأة جميلة مثل تحية بحياة مهينة مع  
رجل كطارق؟ هل يتكشّف الحب أيضًا عن مأساة؟  
وقد غابت بالفعل يومين ولكنها رجعت في الثالث  
مشرقة الوجه! تقلص قلبي وتضاعف حزني. احتقرت  
سلوكها ولكنّي حبي لها تجسد لي حقيقة لا مفرّ منها.  
ولعلّه ولد ونشأ وغما من قبل أن أعيه بزمن غير قصير.  
وفي ذلك اليوم عندما مضوا يغادرون المكان تأخرت  
لإصلاح جوربها ثم أسقطت من يدها لفافة ورق  
صغيرة قبل اللحاق بهم. بسطت الورقة بقلب مرتعش  
بالبهجة فقرأت العنوان والساعة.

\*\*\*

الشقة صغيرة مكوّنة من حجرتين ومدخل ولكنها  
جميلة ونظيفة وتعبق بشذا بخور عذب. على منضدة في  
المدخل استقرّ أصبصر برتقالي كروي تنطلق منه باقة  
ورد وزهور كناقورة. استقبلتني باسمه في روب كحلي  
وهي تقول مشيرة إلى الورد:

سمعت على الباب نقرًا خفيًا. فتحتته فرأيت تحية.  
ماذا جاء بها قبل ميعاد مجلس الشاي؟ دخلت وهي  
تقول:

- الجميع نيام إلا أنت...

وقفت في وسط الحجرة بملابس الخروج تجيل النظر  
في أنحائها وتقول:

- إننا بيت لا حجرة، مكوّن من غرفة نوم  
ومكتبة، هل أجد عندك حلوى؟...

فقلت معتذرًا:

- آسف...

استوى جسمها الناصح في وسط الحجرة في هالة  
من الإثارة والجادبية. ورأيت لون عينيها لأول مرة  
كالشهد الرائق. قالت:

- يجب أن أذهب ما دام لا يوجد عندك إلا  
الكتب...

ولكنّها لم تحرك بل راحت تقول:

- لعلك تتساءل عنيّ لدفعني للخروج مبكرة، إنّي  
ذاهبة إلى شقّي في شارع الجيش، ألا تعرفها؟ إننا  
تبعد عن باب الشمرية بمحطة ترام... العمارة ١١٧.

سألتها وقد ثملت تمامًا بحضور الأنونة الفواح:

- انتظري حتى أجيئك بحلوى من الخارج...

- سأجد في الطريق ما يلزمني، إنك لطيف  
جدًا...

فقلت متناسيًا في تلك اللحظة ما يرمز إليه وجودها  
من معاناة لضميري.

- أنت اللطيفة حقًا...

فرت إليّ بنظرة موحية بالأحلام وتحركت ببطء  
ورشاقة نحو الباب فهمست على رغمي:

- لا تذهبي... أعني... خذي راحتك...

لكنّها ابتسمت في ارتياح ظافر ومضت وهي تقول:  
- إلى اللقاء...

تركت وراءها في الحجرة المادئة عاصفة من  
الانفعالات البهيجة. لم تجيئ لغير ما سبب ولم تذكر  
رقم العمارة اعتبارًا. خفق قلبي المحروم المشبّث  
بالبراءة. لأول مرة يجد قلبي امرأة حقيقية ليهيم بها.  
إنه لم يهيم قبل ذلك إلا بليل ولبنى وميّة وأوفيليا

## أفراح القبة ٣٥٩

- احتفالاً بيوم اللقاء .  
دفعتي أشواق متراكمة إليها فتعانقنا طويلاً وتذوقت  
فرحة القبة الأولى. ولو تُرك الخيار لي لانتهى اللقاء  
قبل أن نتفصل ولكنّها تخلّصت بلطف وقادتي إلى  
حجرة جلوس زرقاء بسيطة وأنيقة فجلسنا جنباً إلى  
جنب على الكنبّة الرئيسيّة. قالت بصوت منخفض:  
- تصرّفنا جريء ولكنّه عين الصواب.  
فردّدت بتوكيد:  
- عين الصواب.  
- ليس ممكناً أن نخفي ما بنا أكثر...  
فقلت مصمّماً على إزاحة الطقولة:  
- عين الصواب، أنا أحبّك من زمن طويل.  
- حقّاً؟... أنا أيضاً... هل تصدّق أنّي أحبّ  
لأوّل مرّة!
- لم أنبس ولم أصدّق فقالت بحرارة:  
- لقد رأيت بنفسك وسمعت ربّما ما هو أكثر،  
ولكنّه التخبّط لا الحبّ...  
فقلت بأسف:  
- حياة لا تليق بواحدة مثلك...  
فاستأنست بكلامي وقالت:  
- لا يسأل متسوّلاً عمّا يليق وعمّا لا يليق...  
- يجب أن يتغيّر كلّ شيء...  
- ماذا تعني؟  
- يجب أن نبدأ حياة لائقة.  
فتمتت بتأثر:  
- لم أصادف أحداً مثلك؛ كانوا كلّهم  
حيوانات...  
فتساءلت بامتعاض:  
- كلّهم؟  
- لا أريد أن أخفي عنك شيئاً، سرحان الهلالي،  
سالم العجرودي، وأخيراً طارق...  
صمتُ... تذكّرت أُمّي. أمّا هي فقالت:  
- إن كنت تَمَنّ لا ينسون الماضي فالفرصة ما زالت  
متاحة للتراجع.  
أخذت راحتها بين راحتيّ، شعرت بقوة ذاتيّة  
تدفعني للقوة والتحدّي، فقلت:
- لا أبالي إلاّ بالقيمة الحقيقيّة...  
- حدّثني قلبي دائماً بأنك أكبر من مخاوفي الصغيرة.  
- لست طفلاً...  
فقالت باسمّة:  
- لكنّك ما زلت تلميذاً.  
- ذلك حقّ، ما زالت أمامي مرحلة طويلة...  
فقالت ببساطة مخلصّة:  
- أصبح لديّ مدّخر قليل وبوسعي أن أنتظر...  
لكنّني وقعت في أسر الحبّ، وفاضت بي رغبة كامنة  
في هجر البيت الملوّث الكئيب، فعقدت العزم على  
اتخاذ قرار بحول بيبي وبين التراجع ويفتح لي في الوقت  
ذاته طريقاً جديداً. قلت:  
- بل يجب أن نعقد زواجنا في الحال...  
فتورّد وجهها وازداد حسناً وأرتج عليها القول.  
فقلت:  
- هذا ما يجب علينا.  
قالت بانفعال:  
- الحقّ أنّي أريد أن أغتير هذه الحياة، أريد أن  
أهجر المسرح أيضاً، لكن هل تضمن أن يمّدك أبوك  
ببعض المال؟  
فقلت بأسفاً في أسي:  
- هيهات أن يفعل، وهيهات أن أقبل مالاً  
ملوّثاً...  
- وكيف إذن تتزوّج؟  
- بعد قليل سأفرغ من دراستي الثانويّة، لن أجد  
لضعف بصري، فمن الأفضل أن أعمل، خاصّة وأنّ  
موهبتني تعتمد على الدراسة الخاصّة أكثر من الدراسة  
النظاميّة...  
- هل يكفي في هذه الحال مرتّبك؟  
- لقد طلب أبي إعفاه من عمله في المسرح اكتفاء  
بما يربحه من القمار وغيره، وهم الآن بصدد البحث  
عن ملقّن، سأقدّم لأحلّ محلّ أبي فأجد عملاً في جرّ  
المسرح الذي أعقد به أمني في الحياة... يضاف إلى  
ذلك أنّك تستأجرين شقّة فلن تصادفنا عقبة  
السكن...  
- هل استمرّ في عملي بالمسرح حتّى تتحسن الأحوال؟

## ٣٦٠ أفراح القبة

- فقلت بحدّة:  
 - كلاً... يجب الابتعاد عن أولئك الرجال...  
 - قلت إنّه لديّ مدّخر قليل ولكنّه لن يبقى حتّى  
 تقف على قدميك...  
 فقلت بحماس:  
 - علينا أن نتحمّل حتّى نبلغ النجاح المنشود...  
 عند بلوغ ذلك المرفأ استسلمنا لعواطفنا ونسينا إلى  
 حين كلّ شيء. وربّما لولاها ما واصلنا الحديث،  
 ولكنّها تخلّصت من ذراعِي بحنان وهي تهمس:  
 - يجب أن اتخلّص من طارق... لن أراه مرّة  
 أخرى.
- فألقتها بضيق:  
 - سيجيء إلى هنا.  
 - لن أفتح له الباب.  
 فقلت بتحدّ:  
 - سأخبره بكلّ شيء...  
 فقالت بقلق:  
 - أرجو ألا تتطوّر الأمور إلى ما يسوء...  
 فقلت بكبرياء:  
 - إنّي على استعداد لمواجهة...  
 \* \* \*
- رجعت إلى باب الشعريّة مخلوقاً جديداً. لأوّل مرّة  
 أراها من خلال نظرة المودّع فتلوح في غلالة أجمل  
 وأجذب للحنان. عمّا قليل سأنقل من مقاعد  
 المتفرّجين لألعب دوراً في مسرح الحياة. سأستنشق  
 هواء نقياً غير هواء هذا البيت القديم العطن. جلست  
 في الصالة الخالية في الدور الأرضي حتّى رأيت طارق  
 هابطاً. حيّاني ثمّ سألني:  
 - ألم تحضر تحيّة؟  
 فقلت وأنا أتوتّب للنزول:  
 - كلاً.  
 - لم أقابلها في المسرح.  
 - لن تذهب إلى المسرح.  
 - ماذا تعني؟  
 - لن تحضر إلى هنا ولن تذهب إلى المسرح.  
 - من أدراك بهذه الأسرار كلّها؟
- ستزوّج.  
 - هه؟!  
 - اتّفقتنا على الزواج...  
 - يا بن... أنت مجنون؟! ماذا تقول؟  
 - قرّنا أن نكون شرفاء معك.  
 ما أدري إلّا ويده تلمطني. نار غضبي فوجّهت إليه  
 لكمة كادت تلقيه على الأرض. وإذا بوالديّ يندفعان  
 نحونا. صاح طارق:  
 - شيء مضحك... المحروس سيتزوّج من  
 تحيّة...  
 هتفت أمي:  
 - تحيّة!... إنّها أكبر منك بعشرة أعوام...  
 راح طارق يهدّد حتّى قالت له أمي:  
 - خذ ملاسك ومع السلامة...  
 صاح وهو يمشي إلى الخارج:  
 - باقى على أنفاسكم حتّى النهاية...  
 وسادنا الصمت قليلاً. تتمم أبي ساخراً:  
 - في العشق يا ما كنت أنوح...  
 وقالت لي أمي:  
 - عبّاس... ما هي إلّا نزوة إغراء.  
 - لا... إنّها حياة جديدة...  
 - وأحلامك ومستقبلك؟  
 - ستتحقّق على خير مثال.  
 - ماذا تعرف عنها؟  
 - لقد صارحتني بكلّ شيء...  
 فقهقه أبي قائلاً:  
 - بنت مسارح وتعرف الأصول... وأنت شابّ  
 غريب... كان يجب أن تزهدك معرفتك لأمك في  
 جنس النساء...  
 عند ذلك مضت بي أمي إلى حجرتي، وقالت لي:  
 - لها سيرة وتاريخ ألا تفهم ما يعنيه ذلك؟  
 تجمّبت النظر إليها. طحتني من جديد الآلام  
 الماضية. قلت:  
 - من سوء الحظّ أنك لم تعرفي الحبّ... سنبدأ  
 حياة جديدة.  
 - لا يمكن أن يتحرّر إنسان من تاريخه...

## أفراح القبة ٣٦١

- بيتك نظيف دائماً ومنظّم، طعامك ممتاز،  
معاملتك مهذّبة، ما كان يجوز...

وانقطعت عن تكملة الجملة فقالت:

- مات أبي فتزوجت أمي من محضّر، لقيت منها  
الإهمال ومنه سوء المعاملة حتى اضطرت إلى  
الهرب...!

لم تزد ولم أسأل عن مزيد. تخيلت على رغمي ما  
حدث حتى عملت ممثلة ثانوية عند سرحان الهلالي.  
على رغمي أيضاً تذكّرت أمي وعملها في المسرح  
نفسه وتحت رحمة سرحان الهلالي. أضمرت حرباً لا  
هواة فيها على كآفة ألوان العبودية التي يتعرّض لها  
الناس. لكن هل يكفي المسرح ميداناً لهذه  
الحرب؟... وهل تُغني فكرة البيت القديم الذي  
تدهور فصار ماخوراً؟! \*

\*\*\*

حافظت تحية على رقتها وعذوبتها بصورة مباركة. لم  
تعرف علاقة أمي وأبي ذلك حتى في أيام طفولتي  
السعيدة. إنها - تحية - ملاك حقاً. وأي ذلك تصميمها  
النجاح على محق عاداتها السيئة التي شابتها في عهد  
الأحزان. وهي تحبني بصدق، وقد تجلّت ذلك في  
حرصها على الإنجاب. ولم أكن أرحب به، وكنت  
أخافه على مواردنا المحدودة، وعلى حياتي الفتيّة  
المفضّلة عندي على كلّ شيء في الحياة، حتى الحبّ  
نفسه. غير أنني كرهت أن أحول بينها وبين أمنيّتها  
الأثيرة، وأبت أخلاقتيّ الإذعان للأثارة. وكان الغلاء  
يتصاعد غير مكترث بتقشّفنا وآمالنا فحملنا على التفكير  
في وسيلة جيّدة لمجاہته. وفي تلك الأثناء تحقّقت  
أمنيّتها في الحمل فركبني همّ جديد. وكان عليّ أن  
أستعدّ للمستقبل القريب والبعيد معاً، ثمّ أقنعني الحال  
بأنه لا مفرّ من الاستعانة بعمل إضافي إن أمكن.

وكنت قد تعلّمت الكتابة على الآلة الكاتبة محاكاة لما  
سمعت عن استعمال الكتاب الأمريكيين والأوروبيين لها  
بدلاً من القلم. وكنت أمرّ أمام مكتب «فيصل» للآلة  
الكاتبة في طريقي إلى المسرح فعرضت نفسي على  
صاحبه، وسرعان ما قبلني بعد اختبار أجراه بنفسه.  
قبلت العمل من الثامنة صباحاً حتى الثانية بعد

أواه... إنها لا تدري أنني أدري... وقلت:

- تحية رغم كل شيء طاهرة...

ليتي أستطيع أن أقول عنك ذلك أيضاً يا أمي...

\*\*\*

ما إن أتممت المرحلة الثانوية حتى قابلت سرحان  
الهلالي راجياً أن أحلّ مكان أبي. وفي الحال عقدت  
زواجي بتحيتها. ودعت البيت القديم وأهله بلا احتفال  
وكأنما أمضي إلى المدرسة أو دار الكتب. لم يتفوّه أبي  
بتهنئة أو دعاء ولكنّه قال:

- لماذا كان اجتهادك في المدرسة ما دام المصير هو  
عمل ملقّن في الفرقة؟

أما أمي فقد عانقتني وهي تنسج بالبكاء وقالت لي:  
- ربّنا يسعدك ويكفيك شرّ الناس، اذهب  
مصحوباً بالسلامة ولا تنس زيارتنا...!

ولكنّ العودة إلى الجحيم لم تخطر لي ببال. تطلّعت  
إلى حياة جديدة وإلى هواء نقيّ. وتمنيت أن أنسى  
البؤرة التي انصهرت فيها معانياً آلام العذاب والغمّ.  
ووجدت تحية في انتظاري، كما وجدت الحبّ ينتظر  
أيضاً. وعرفت السعادة عندما تترجم إلى امتزاج بين  
اثنين متوافقين، فتضفي سحرها على الحديث  
والصمت، الجذّ واللهو، الطعام والعمل. وكانت  
تكمل بمذخرها ما يقصر عنه مرتبي. وحظيت باستقرار  
نفسيّ عوّضني عمّا بدّده القلق والتشتت والحزن  
والغضب الكظيم. وكنت أرجع إلى البيت حوالى  
الثانية صباحاً، أستيقظ حوالى العاشرة، ويتسع الوقت  
بعد ذلك للحبّ والقراءة والكتابة أيضاً. وكان كلانا  
يعقد أمله بالنجاح المأمول في تأليفي المسرحي. وفي  
سبيل ذلك رضينا بالبساطة في العيش، بل بالتقشّف  
أيضاً، وضاعف الاجتهاد والصبر والأمل من سعادتنا  
المشتركة. وأثبتت تحية بجدارة قوّة إرادتها فلم تذق  
قطرة من خمر على تعلّقها القديم بها، بل امتنعت أيضاً  
عن عادة التدخين توفيراً لثمنه. واعترفت لي بأنّ قدمها  
كادت تنزلق إلى إدمان الأفيون لولا أنّ تعاطيها له  
صُحِبَ بأعراض صحّيّة سيّئة كالقيء الشديد فكرهته  
من أوّل الأمر. ولاحظتُ مهارتها كست بيت حتى  
قلت لها مرّة:

## ٣٦٢ أفرح القبة

العمل إذا عجزت أيضًا عن الجهاد في الميدان الوحيد المتاح وهو المسرح؟! وتمرّ الأيام وأنا غارق في العمل كالألة، أتعامل مع الحبّ خطفًا، وقد انقطع ما بيني وبين حياتي الروحية جميعًا فلا قراءة ولا كتابة، وغاضت من الحياة بهجتها فلم يبق منها إلاّ البثور في أديم الأرض، ومياه المجاري الراكدة، والمواصلات البهيمة.

في أوقات الراحة على كذب من تحية تتمثل لي الحياة جدولاً غائضًا من السخرة والجفاف. تبادل كلمات رقيقة في مناخ كثيب تلطفه أحلام اليقظة. السديب النابض في بطنها يعزف على أوتار النجاح المرتقب. أحلم أيضًا بالنجاح ولكن تشتعل أحلامي أحيانًا بغضب متوحش. أحلم بنار تلتهم البيت القديم ومن يفسقون فيه. هكذا يتجسّد غضبي على العار والشر. لكنّه لا يمرّ دون خجل ومحاسبة للنفس. حقًا لا توجد في قلبي ذرة حبّ لأبي ولكنّي أقف مع أمي موقف المشفق المتردد. وأعرب عن آلامي من تلك الناحية فتقول لي تحية:

- نادي قهار سرّي جريمة في نظر القانون ولكنّ الغلاء جريمة أيضًا...

فأسألهما:

- هل تقبلين أن يقع ذلك في بيتك؟  
- لا سمح الله، ولكنّي أودّ أن أقول إنّ من الناس من يجدون أنفسهم في محنة فيتصرفون كالغريق الذي لا يتورّع عن فعل في سبيل النجاة...

وقلت لنفسي إنّي أتصرف كذلك الغريق وإن لم ارتكب جريمة في حقّ القانون، لقد ملأت وقتي بالعمل التافه في سبيل اللقمة حتّى جفّ عود الحياة الأخضر، أليس ذلك جريمة أيضًا؟

وتمرّ الأيام ويشتدّ العذاب فتحزّ الأحلام السريّة بقوة شيطانية. وأنا جالس إلى الآلة الكاتبة أشعر بحنين جارف إلى الحرّية... إلى الإنسانية المفقودة... إلى الفنّ الضائع. كيف يحطّم الأسير أغلاله؟ أتخيّل دنيا مباركة، بلا إثم، بلا أسر، بلا التزامات اجتماعية، دنيا تنبض بالخلق والإبداع والفكر وحدها. دنيا تحظى بالوحدة المقدّسة فلا أب ولا أم

الظهر، وقدّر أجري بالقطعة. وقد استقبلت تحية الخبر بمواطف متضاربة. قالت:

- تنام في الثانية صباحًا لتستيقظ في السابعة على الأكثر بدلًا من العاشرة، تعمل من الثامنة إلى الثانية، ترجع في الثالثة، ستنام ساعتين على الأكثر ما بين الرابعة والسادسة، لا راحة، ولا وقت للقراءة أو الكتابة...

فقلت:

- ما الحيلة؟

- أبوك غني...

فقلت باستياء:

- لا أقبل مليًا ملوثًا...

ورفضت الاستمرار في المناقشة. حقًا إنّها امرأة ممتازة ولكنّها عملية فيما يتعلّق بالحياة. وكانت في قرارة نفسها تفضّل الاستعانة بأبي على الانغماس الكليّ في العمل الذي سلبني الوقت والفنّ والراحة. وقد اعتذرت من عدم الذهاب إلى مكتب فيصل يومين لأنّهم مسرحية. قدّمها لسرحان الهلالي. نظر إليّ بأسيا وتساءل:

- ما زلت مصرًا؟

وفي فترة الانتظار نعمت بأحلام جميلة. أجل أصبح الفنّ هو الأمل الباقي للرغبة الملتهية وللحياة الواقعية معًا. وكنت شرعت في كتابة المسرحية قبل أن تنبثق في نفسي فكرة البيت والمخور التي لم تتبلور بعد فأتممتها وأنا فرح بأخلاقيتها المثالية غير أنّ سرحان الهلالي ردّها إليّ وهو يقول:

- أمامك مشوار طويل...

فسألته بلهفة:

- ماذا ينقصها؟

فقال بعجلة لا تشجّع على الاسترسال:

- إنّها حكاية ولكن لا يوجد مسرح!

يا له من عذاب صيون إلى جانبه أيّ عذاب! حتّى عذاب البيت القديم. الفشل في الفنّ موت للحياة نفسها. هكذا خلقنا. والفنّ بالنسبة لي ليس فنًا فحسب ولكنّه البديل عن العمل الذي يطمح إليه المثاليّ العاجز. ماذا فعلت لمقاومة الشرّ من حولي؟ وما



## أفراح القبة ٣٦٣

أحلامي المرعبة فتضاعف ألمي . . .

\*\*\*

قيل المحاكمة وُلد طاهر. وُلد في جوّ كئيب مكثّل بالحزن والعار. حتّى تحية كانت تداري فرحتها أمامي. ودخل جدّاه السجن وهو في شهره الأول. وكان عليلاً يثير القلق ولكنّي هربت إلى العمل المتواصل أغرق فيه همّي وشعوري بالذنب. وقُدّر لي أن يعترض سبيلي ما ينسني أحزاني الراهنة دفعة واحدة إذ توَعّكت صحّة تحية. وشخصنا المرض باجتهادنا الشخصي باعتباره أنفلونزا وكان طاهر في شهره السادس. ولما مرّ أسبوع دون تحسّن أحضرت طبيب الحّي. وقد قال لي ونحن على انفراد:

- يلزمنا تحليل فإني أشكّ في تيفود. . .

وعلى سبيل الاحتياط وصف لنا الدواء، وسألني:

- أليس الأفضل أن نُنقل إلى مستشفى الحمّيات؟

فرفضت الفكرة عاقداً العزم على السهر عليها بنفسي. اضطررت لذلك الانقطاع عن مكتب فيصل. وتعويضاً عمّا فقدت ولواجهة المصروفات الجديدة بعثت الفريجدير. جعلت من نفسي ممرّضاً لتحية ومرضعاً لطاهر باللبن المحفوظ. تفرّغت للخدمة بكلّ إخلاص. عزلت طاهر في الحجرة الأخرى. مضت صحّتها تتحسن بخلاف الطفل. بذلت جهدي مدفوعاً بالحبّ والامتنان نحو المرأة التي لم ألق منها إلّا ما هو عذب وخير. وفي نهاية ثلاثة أسابيع وجدت تحية القوة فغادرت الفراش لتجلس على مقعد مريح في مجرى الشمس. وكانت قد فقدت رواءها وحيويتها ولكنّها دأبت على السؤال عن الطفل. وجدت نسمة من راحة، رغم تعاسة طاهر. لا يلقي أيّ عناية طيلة مدّة عملي في المسرح ما بين الثامنة مساء حتّى الثانية صباحاً. أملت أن تنهض تحية لحمل العبء عني ولكنّ حالتها ساءت فجأة حتّى استدعيت الطبيب. وقال الرجل:

- ما كان يجب أن تنادر الفراش. . . إنهما

نكسة. . . تحدث كثيراً بلا عواقب سيّئة. . .

رجعت إلى التمريض بحزن مضاعف وتصميم

مضاعف. وعلمت أمّ هاني بحالي فتطلّعت للبقاء مع

ولا زوجة ولا ذرّيّة. دنيا يمضي فيها الإنسان خفيّاً، غائباً في الفنّ وحده. آه. . . أيّ أحلام؟ أيّ شيطان يكمن في القلب الذي نذر نفسه للخير؟ فليتلجّل الندم في صورة ملاك باكٍ. ولأنزرو خجلاً أمام المرأة النفاثة للحبّ والصبر. ليحفظ الله زوجتي وليتب على والديّ. وتسالني:

- فيم تفكّر؟ . . . إنك لا تكاد تسمعي. . .

فألمس راحتها بلطف وأجيب:

- أفكّر في القادم الجديد وما نعدّه له.

\*\*\*

وأنا همّ بالجلوس أمام طاولة عمّ أحمد برجل ذات يوم قرأت في وجهه عبوساً ينذر بالسوء:

- خير يا عمّ أحمد؟

- يبدو أنّك لم تعلم بعد؟

- إني قادم لتويّ، ماذا هناك؟

فقال بحزن بالغ:

- أمس، عند الفجر، كبست الشرطة البيت. . .

- أبي؟

أخني رأسه.

- وماذا حدث؟

- ما يحدث في هذه الأحوال، أفرج عن اللاعنين

وألقي القبض على والديك. . .

انهرت تماماً وغصت في همّ خائق. نسيت عواطفني القديمة، نسيت غضبي الثابت، وعزّ عليّ جدّاً ذلك المصير المؤسف لأمي وأبي. عزّ عليّ لدرجة البكاء. وسرعان ما استدعاني سرحان الهلاللي وقال لي:

- سأؤكل عنهما محامياً ممتازاً. . . لقد صودرت

النقود. . . عُثر على كمّيّة غير صغيرة من

المخدّرات. . . يوجد أمل. . .

قلت بصوت ذليل:

- أريد أن أقابلها فوراً. . .

- سيحصل دون شكّ ولكن لا مفرّ من أداء

واجبك الليلية. . . هذه هي طبيعة المسرح. . . الموت

نفسه. . . أعني موت أيّ شخص عزيز لا يمنع المثلّ

من أداء دوره ولو كان هزليّاً. . .

غادرت حجرتي مغلوباً على أمرتي. وتذكّرت

## ٣٦٤ أفرح القبة

والكبرياء. والانغاس في الفن حتى الموت. شرعت في التخطيط لمسرحية «البيت القديم - الماخور» حضرتني فجأة ذكرى نحية قوية يانعة بثقل الكائنات الحية. عند ذلك انبثقت فكرة جديدة. ليكن البيت القديم هو المكان، ليكن الماخور هو المصير، ليكن الناس هم الناس، ولكن الجوهر سيكون الحلم لا الواقع. أيها الأقوي؟ هو الحلم بلا شك. الواقع أن الشرطة كبست البيت، والمرض قتل نحية وابنها، ولكن ثمة قاتلاً آخر هو الحلم. الحلم الذي أبلغ الشرطة، هو الذي قتل نحية، هو الذي قتل الطفل. البطل الحقيقي للمسرحية هو الحلم. هو الذي توفرت له الشروط الدرامية. بذلك أعترف وبذلك أكفر. بذلك أكتب مسرحية حقيقة لأول مرة، أتحدى سرحان الهلالي أن يرفضها. سيعتقد هو وغيره أنني أعترف بالواقع السطحي لا الحلم الجوهري ولكن كل شيء يهون في سبيل الفن، في سبيل التطهير، في سبيل الصراع الواجب على شخص ولد ونشأ في الإثم وصمم بقوة على الثورة.

وانفعلت بحمي الخلق.

\*\*\*

ها أنا أذهب إلى سرحان الهلالي في الميعاد المضروب. مضى الشهر الذي حدده لقراءة المسرحية. قلبي يخفق بشدة. الرفض هذه المرة خطير وقد يجرف الصبر. لكنني تلقيت من عينيه بسمة غامضة هزت فؤادي المثقل بالحزن. جلست تلبية لإشارته مستريداً من التفاوض. جاءني صوته الجمهوري قائلاً:

- أخيراً خلقت مسرحية حقيقية...

وحدجني بنظرة متسائلة كأنما يقول «من أين لك هذا؟» فتبخرت في تلك اللحظة - ولو إلى حين - همومي جيماً وشعرت بحرارة التورّد في وجهي. قال:

- رائعة، مرعبة، ناجحة، لماذا سميتها «أفرح القبة»؟

فأجبت بحيرة:

- لا أدري!

فقال ضاحكاً في تعال:

- مكر المؤلفين لا يجوز عليّ، لعلك تشير إلى

نحية مدّة غيابي. وتردّد الطبيب علينا أكثر من مرة غير أن قلبي انقبض واستشعر همًا قادمًا.

تساءلت هل تخلو دنياي من نحية؟... هل تُحتمل دنياي بلا نحية؟ تمزقتُ بينها وبين الطفل المتدهور. قلقت جدًّا من تسرّب النفود من يدي فهاذا هناك لايبعه أيضًا؟ وجعلت أطيل النظر إلى وجهها الشاحب الذابل وكأنما أودعه. وأتذكر عشرتها الجميلة فتظلم الدنيا في عيني.

وتلقيت التذير الأخير وأنا واقف خارج المسكن. كنت عائداً من المسرح. ضغطت على الجرس. سبق إليّ صوت أم هاني وهي تجهش في البكاء. لقد أغمضت عيني متلقياً القضاء، فأنحأ صدري بأريجية الكرماء للحزن البهيم.

\*\*\*

عقب أسبوع من وفاة نحية لحق بها طاهر. كان ذلك متوقّماً والطبيب تنبأ به ولم يُخفّ عليّ. لم تجد الأبوّة فرصة طيبة لترسخ في قلبي. وكان بقاؤه المعذب مصدر ألم دائم لي. لم أذكر من تلك الأيام إلا بكاء طارق رمضان. لقد تماسكت أمام الناس بعد أن تغدت دموعي في وحدتي وإذا بصوت طارق ينفجر في ضجة لفتت إليه أنظار زملائنا في المسرح. تساءلت عن معنى ذلك؟ أكان يجيها ذلك الحيوان الذي نقل تقاليد عشقه المحفوظة إلى بيت أم هاني؟... تساءلت عن معنى بكائه لا كأرملة فحسب ولكن كمؤلف دراميّ أيضاً، إذ إن غيبوبة الحزن لم تنسني تطلعاتي الكامنة...!

\*\*\*

ها هي الوحدة. بيت خالٍ ولكنه مكتظ بالذكريات والأشباح. قلب مترع بالحزن والإثم. طالعتني الواقع بوجه صخريّ يناجيني بصوت خفيّ أن قد تحقّق كلّ ما حلمت به. أريد أن أنسى الحلم ولو بمضاعفة الحزن. غير أن الحزن عندما يغوص حتى يرتطم بالقاع ترتدّ منه إشعاعات غريبة ثملة براحة خفيفة. أه... لعلّ طارق ضحك ضحكة عميقة خفية واجهت المعزّين بإجهاشة الدمع. ها هي الوحدة. ومعها الحزن والصبر والتحدّي. أمامي تجربة للتشفّ

## أفراح القبة ٣٦٥

بزيارتها. ارتحت أنا لذلك لأنه جاء مطابقاً لما سجّلته في المسرحية. ظلّ أبي غريباً رغم توبته الإيجابية عن الأفيون، لا رابطة في الواقع بيننا، والحقّ أنّي لم أفهمه، ولا أدعي فهمًا له أطمئنّ إليه، وقد شاءت المسرحية أن أصوره كضحية للفقر والمخدر، ترى ماذا يقول عن دوره؟ هل أستطيع أن أواجهه بعد العرض؟! أما أمي فما زالت متعلّقة بي، وتودّ أن تشاركني حياتي ولكنني أودّ أن أظلّ خفيًا وأحلم بأن أعثر على مسكن جديد ولو حجرة واحدة. إن لم أشعر نحوها بحبّ لأنني لا أضمر لها كرهًا. وسوف تذهل حين ترى دورها على المسرح فتعرف أنّي عرفت جميع ما حاولت إخفاه عني، هل أستطيع بعد ذلك أن الاقياها في نظرة؟ كلاً. سأتركها ولكن في أمان. فكرة المقل فكرة طيبة وصاحب الفضل فيها هو أحمد برجل. أملي أن يجدوا حياتها وأن تدركها توبة صادقة.

\*\*\*

وجدتني وجهاً لوجه مع طارق رمضان. في المسرح كنا نتبادل التحيات الضرورية العابرة ولكنّه هذه المرّة يقتحم عليّ خلوتي بوقاحته المعهودة. إنّه من القلّة التي لا تعرف الارتباك ولا الحرج. طالما عاتبت أمّ هاني على معاشرتها له. قال كاذبًا بغير ما شكّ:

- جئت لأهنتك على المسرحية...

بل جئت للاستجواب الحقيق ولكنني جسايرته فشكرته. ويمكر أطلعني على رأي المخرج قائلاً:

- إنّ البطل قذر جدًّا وبغيض جدًّا ولن يتعاطف الجمهور معه...

تجاهلت الحكم تمامًا. ليس البطل كذلك لا في الواقع ولا في المسرحية ولكنّه يهاجمي بلا زيادة ولا نقصان. جعلت أنظر إليه باستهانة حتى تساءل:

- ألم تقدّر أنّ حوادث المسرحية ستلاحقك بأسوأ الظنون؟

فأجبت به برود:

- لا يهمني ذلك.

فإذا به يقول بانفعال واضح:

- يا لك من قائل محترف!

فقلت باستهانة:

الأفراح التي تبارك الصراع الأخلاقي رغم انتشار الحشرات، أو لعلّه من أسماء الأضواء كما نسّمى الجارية السوداء صباح أو نور!

ابتسمت قائمًا بسكرة الرضى، فقال:

- سأعطيك ثلاثمائة جنيه، ربّما كان الكرم فضيلتي الوحيدة، وهو أكبر مكافأة لأوّل مسرحية...

ليت العمر امتدّ بك حتى تشاركيني فرحتي. وتفكّر قليلاً ثمّ تساءل:

- لعلّك تتوقّع أسئلة محرّجة؟

- إنّها مسرحية ولا يجوز إلقاء نظرة خارج نطاقها...

- جواب حسن، أنا لا يهمني إلّا المسرحية... ولكنّها ستثير عاصفة من سوء الظنّ بين معارفنا...

فقلت بهدوء:

- لا يهمني ذلك.

- برافو... ماذا عندك أيضًا؟

- أرجو أن أشرع في كتابة مسرحية جديدة.

- برافو... حلّ موسم الأمطار... وإني في انتظارك... سأفاجئ بها الفسقة في الخريف القادم...

\*\*\*

في سبكي الصغير تغشاني الكآبة كثيرًا. تمّنت أن أجد سكنًا آخر ولكن أين؟ بذلت الحجرتين كلًّا مكان الأخرى، بعث الفراش واشترت آخر جديدًا. تغلغت نحيّة في حياتي أكثر مما تصوّرت. لم يبدأ حزني شديدًا ثمّ يخبّف ولكنّه بدأ خفيًا نسبيًا - ربّما بسبب الدهول - ومضى يشتدّ حتى وضعت أملي في النسيان بيد الزمن. سيصوّر كثيرون أنّي قتلتها ولكنّها تعرف الآن الحقيقة كلّها. وقبيل الخريف غادر والديّ السجن. واحترامًا للواجب الذي أرفعه فوق العواطف استقبلتها بالبرّ والرحمة. رأيتها شبه عظمين فازدت حزناً. اقترحت على سرحان الهلالي قبول عودتهما إلى عملهما السابق في المسرح فأوْفَر لها العمل وأعفي نفسي منه لأنفَرخ للفنّ فوافق الرجل ولكنّها رفضا ذلك بشدّة دلّت على نفورهما من المسرح وأهله. باستثناء عمّ أحمد برجل وأمّ هاني لم يكلف أحد نفسه

في جحيم القحط والأحزان ونقودي تناقص يوماً بعد يوم. قلت أخاطب الكتابة المحدقة بي:

- ما توقعت ذلك قط.

أين موسم المطر الذي تغنى به سرحان الهلالي؟ لا توجد أفكار، إذا وجدت فكرة تمخضت عن لا شيء، إذا تطلبت فكرة تأملًا كنم أنفاسها الجفاف والخمود. إنّه الموت. الموت كما يتبدى لحى. إنّي أرى الموت وألمسه وأشتمه وأعاشره.

وعندما نفذت النقود ذهبت للقاء سرحان الهلالي في بيته. لم يضمن عليّ بمائة جنيه خارج العقد. انخرطت في سباق ميمت ولكنّ الجفاف استفحل حتى صرت جسداً بلا روح. وتسَلَل إليّ صوت الفناء الساخر ينذرنى بأنّي قد انتهيت. لقد عبث بي ما شاء له العبث ثمّ غادرني مكثراً عن أنياب القسوة والإعدام. ونفذت النقود مرّة أخرى فهرعت إلى سرحان الهلالي ولكنّه لا قاني بحزم مؤذّب معرباً عن استعداده لمنحي هبة جديدة تحت شرط أن أطلعه على أيّ جزء من المسرحيّة الجديدة. عدت هذه المرّة إلى الوحدة والحزن والجفاف بالإضافة إلى الإفلاس أيضاً. خطر لي أن ألبأ إلى باب الشعرية ولكنّ سداً اعترض الخاطر مؤكداً لي أنّي يتيم وبلا بيت أو حيّ. عند ذاك قلت لنفسي:

- لم تبق إلا النهاية التي رسمتها للبطل!

اهتديت أخيراً إلى مخرج. رمقت الأعباء والمهموم بشماتة وازدراء. حرّرت رسالة المتحرر محتفظاً بالسرّ لنفسي. مضيت إلى الحديقة اليابانية قبيل العصر. لم أنتبه إلى ما حو لي، لم أر إلا خواطري المتلاطمة في حرمتها القانية. جلست على أريكة. بأيّ وسيلة وفي أيّ وقت؟ ثقل رأسي في مهبّ الهواء الجاف ولم أكن نمت الليلة الماضية إلا ساعة واحدة. ثقل رأسي وغلبي الإرهاق وخفت النور بسرعة مذهلة. كما فتحت عينيّ تبذت العتمة في هبوطها الوئيد. لعلّي نمت ساعة أو أكثر. قمت في خفة غير متوقّعة. وجددتني في حال جديدة من النشاط. تخلّص رأسي من الحرارة وقلبي من الثقل. ما أعجب ذلك! انقضت الكتابة وتلاشي التشاؤم. إنّي الآن إنسان آخر. متى وُلِد؟ كيف وُلِد؟ لماذا وُلِد؟ تساءلت أيضاً عمّا حدث في إغفاءة ساعة. لم

- ها أنت تعود إلى الماضي، وهو بالنسبة إليّ تجربة حبّ أما بالنسبة لك فما هو إلا محنة حقد.

- أنتستطيع أن تدافع عن نفسك؟

- لست متهمًا...

- ستجد نفسك في النياحة قريبًا.

- إنك أحمق وحقير...

فقام وهو يقول ساخرًا:

- إنّها على أيّ حال تستحقّ القتل.

ثمّ مضى قائلاً:

- ولكنك تستحقّ الشنق أيضًا...

رمتي الزيارة البغيضة في دوامة. أقنعتني بوجود الاختفاء عن أعين الأغيياء. ولكن هل أستحقّ الشنق حقًا؟ كلاً... حتى لو حوسبت على النوايا الخفية. ما كانت أحلامي إلا رمزاً للتخلّص من متاعب راهنة لا من الحبّ أو المحبوب. وهي تثار بانفعال اللحظة العابرة لا بالعاطفة المستقرّة. وعلى أيّ حال لم يعد لي بقاء في مجال الشياطين.

\*\*\*

دلّني سمسار على حجرة في بنسيون الكوت دازور بحلوان. وجددتني في وحدة جديدة أنا والكتب والخيال. لزمت الحجرة أكثر الوقت وخصّصت الليل وقتاً لرياضة المشي. استقلت من عملي ولم يبق لي إلا الفنّ وحده. قلت لنفسي إنّ عليّ أن أركّز على فكرة من بين عشرات الفكر السابحة في خيالي. عند الاختيار تبيّن لي أنّي لا أملك فكرة واحدة. ما هذا؟ إنّي لا أعيش في وحدة ولكنّ في فراغ. وعاددتني أحزاني على تحيّة بصورة قاهرة ونافذة وعميقة، حتى صورة طاهر تجسّدت لي في هزالها وبرائها وهي تصارع المجهول. وكنت أهرب من كآبتي إلى الفنّ فلا ألقى إلا الفراغ، والخمود أيضاً. أجل لقد انطفأت الشعلة تمامًا وانسحقت الرغبة في الخلق، وحلّ محلّها فتور أبدنيّ وتقزّز من الوجود.

في تلك الأثناء قرأت الكثير عن نجاح المسرحيّة المذهل، وأطلعت على عشرات التحيات الموجّهة لموهبة المؤلف، وتنبؤات عمّا سيجود به للمسرح. سخرت تتابع معذّبة لي وأنا أتقلّب في جحيم القحط. أتقلّب

## أفراح القبة ٣٦٧

ناشرة شذاها الظافر. وفي الحال مضيت نحو المحطة وهي هدف غير قريب. ومع تتابع الخطوات تدفقت الحيوية خلابة واعدة. كما تبشّر السحابة الثرية بالمطر. ما هو إلا وعد وشعور وطرب. عدا ذلك فأنتي مفلس ومطارذ وذو حزن. وعندما تراميت بعيدًا تذكّرت الرسالة ولكن أدركت أيضًا أن قد فات أوان استردادها. قلت لنفسي لا يهم، وما يهم في هذه اللحظة إلا الإيمان في السير. ليكن من شأنها ما يكون. ولتكن العاقبة ما تكون. ذروة النشوة تتألق على جسد عراه الإفلاس والجفاف ولكن تنطلق إرادته بالبهجة المتحدية. . .

تكن ساعة فقط على وجه اليقين. لقد نمت عصرًا كاملاً واستيقظت في عصر جديد. لا شكّ قد حدثت في أثناء النوم أمور ذات شأن. ولولا فرحة الشفاء المباغت لاحتفظ الرعي منها بقبس. ألهتني الفرحة عن التثبّث بالذكريات فتلاشت أشياء لا تقدر بثمن. لكنتي قمت برحلة طويلة وناجحة، وإلا فمن أين وكيف جاء البعث؟ وهو بعث غير معقول ولا مبرر ولكنّه حقيقة محسوسة ماثلة يمكن أن تُرى ويمكن أن تُلمس. بالرغم من الفراغ والإفلاس. بالرغم من عناد الأشياء وتحدياتها. بالرغم من الخسران والأحزان. وإذن فلأستمسك بالنشوة كتمويذة سحر. ولتكن قوتها في سرّها الغامض. ها هي الحيوية تدبّ

ليالي الف ليلة

## شَهْرِيَار

- ليكن الظلام كي أرصد انبثاق الضياء...  
تفاهل دندان شيئاً ما وقال:  
- متعك الله يا مولاي بأطيب ما في الليل والنهار...  
صمت... لم يستطع دندان أن يششف ما وراء  
وجهه من رضى أو سخط حتى قال بهدوء:  
- اقتضت مشيئتنا أن تبقى شهرزاد زوجة لنا...  
وثب دندان واقفاً ثم انحى على يد السلطان فلتمها  
بامتنان ودمع الشكر يتحرك في أعماقه...  
- فليؤيد الله سلطانك إلى أبد الأبد...  
قال السلطان وكأنما تذكر ضحاياه:  
- العدل له وسائل متباينة، منها السيف ومنها  
العفو، والله حكمته...  
- سدّد الله خطاك إلى حكمته يا مولاي...  
فقال بارتياح:  
- حكاياتها السحر الخلال، تفتحت عن عوالم تدعو  
للتأمل...  
ثمّل الوزير بفرحته صامتاً فقال السلطان:  
- وأنجبت لي وليداً فسكنت عواصف النفس  
المهائجة...  
- لتهنأ يا مولاي بالسعادة في الدارين...  
تمت السلطان باقتضاب:  
- السعادة!...  
قلن دندان لسبب غامض... ارتفع صياح  
الديكة... قال السلطان وكأنما يخاطب نفسه:  
- الوجود أغمض ما في الوجود!

عقب صلاة الفجر، وسحب الظلام صامدة أمام  
دفقة الضياء المتوتبة، دُعي الوزير دندان إلى مقابلة  
السلطان شهريار... تلاشت رزاة دندان، خفق  
قلب الأبوة بين جوانحه، غمغم وهو يرتدي ملابسه:  
«الآن تقرر المصير... مصيرك يا شهرزاد!...»  
مضى في الطريق الصاعد إلى الجبل على برذون  
يتبعه نفر من الخراس ويتقدمه حامل مشعل في جو  
مشعشع بالندى وبرودة مستأنسة... ثلاثة أعوام  
مضت بين الخوف والرجاء، بين الموت والأمل...  
مضت في رواية الحكايات، وبفضل الحكايات امتدّ  
الأجل بشهرزاد ثلاثة أعوام... غير أنّ للحكايات  
نهاية ككلّ شيء، وقد انتهت أمس فأني قدر يرصدك يا  
ابنتي الحبيبة!...  
دخل القصر الرابض فوق الجبل... اقتاده  
الحاجب إلى شرفة خلقيّة تطلّ على الحديقة  
الترامية... بدا شهريار في مجلسه على ضوء قنديل  
واحد، سايف الرأس، غزير الشعر أسوده، تلمع عيناه  
في وجهه الطويل، وتفتش أعلى صدره لحية  
عريضة... قبل دندان الأرض بين يديه... داخلته  
رهبة - رغم طول المعاشرة - لرجل حقل تاريخه  
بالصرامة والقسوة ودماء الأبرياء... وأشار السلطان  
إليه بالجلوس فجلس مسلماً أمره للمقادير... أمر  
السلطان بإطفاء القنديل الوحيد فساد الظلام، ولاحت  
بوضوح نسبيّ أشباح الأشجار الفواحة... تتم  
شهريار:

- لَكَنَّ الجريمة هي الجريمة... كم من عذراء  
قتل، كم من تقِي ورع أهلك، لم يبق في المملكة إلا  
المنافقون...

فقال بحزن:

- ثقني بالله لم تنزعز قط...  
- أمّا أنا فأعرف أنّ مقامي في الصبر كما علمني  
الشيخ الأكبر.

فقال ذندان بأسًا:

- نَعَمْ الأستاذ ونَعَمْ التلميذة...

## الشيخ

يُقيم الشيخ عبد الله البلخي في دار بسيطة بالحيّ  
القديم... تنطبع نظرتة الحاملة في قلوب الكثيرين من  
تلاميذه القدامى والمُحدثين وتنطبع بعمق أبدِيّ في  
قلوب المريدين... العبادة الكاملة عنده مقدّمة ليس  
إلا، فهو شيخ الطريق، وقد بلغ منه مقام الحبّ  
والرضى... عندما غادر خلوته إلى حجرة الاستقبال  
أقبلت عليه زبيدة ابنته المراهقة والوحيدة وقالت  
بسرور:

- المدينة فرحانة يا أبي...

فتساءل دون مبالاة:

- ألم يصل بعد الطبيب عبد القادر المهيني؟

- لعلّه في الطريق يا أبي، لكنّ المدينة فرحانة لأنّ  
السلطان رضي بشهرزاد زوجة له وعدل عن سفك  
الدماء...

لا شيء يخرج من هدوته... الرضى في قلبه لا  
ينقص ولا يزيد... وزبيدة ابنة وتلميذة ولكتّها ما  
زالت في أوّل الطريق... وسمعت على الباب طرْقًا  
فمضت قائلة:

- جاء صديقك لزيارته المعتادة...

دخل الطبيب عبد القادر المهيني فتعانقا ثمّ اقتعد  
شلتة إلى جانب صديقه... ودارت المناجاة كالعادة  
على ضوء مصباح في كوة... قال عبد القادر:

- عرفت لا شكّ الخبر السعيد...

فقال بأسًا:

غير أنّ نبرته تخففت من الحيرة وهو يقول:

- انظرا!...

نظر ذندان نحو الأفق فرآه يتورّد بالسرور  
المقدّس...

## شهرزاد

استأذن ذندان في مقابلة ابنته شهرزاد... قادتة  
قهروانة إلى حجرة الورد ذات السجّادة والستائر  
المورّدة... ذات الدواوين والوسائد المشربة  
بالحمرة... هناك استقبلته شهرزاد وأختها  
دنيا زاد... قال الرجل:

- ينوء ظهري بالسعادة فالحمد لله ربّ العالمين...  
أجلسته شهرزاد إلى جانبها على حين انسحبت  
دنيا زاد إلى مقصورتها... قالت شهرزاد:

- نجوت من المصير الدامي برحمة من ربّنا...

فغمغم الرجل شاكراً فقالت بمرارة:

- ليرحم الله العذارى البريئات...

- ما أحكمك وما أشجعك!...

فقالت هامسة:

- ولكنك تعلم يا أبي أنّي تعيسة!

- حذار يا ابنتي فإنّ الخواطر تتجسّد في القصور

وتنطق!...

فقالت بأسى:

- ضحيت بنفسي لأوقف شلال الدم...

فتمتم:

- لله حكمته...

فقالت بحتق:

- وللشيطان أولياؤه...

قال بتوسّل:

- إنّه يحبك يا شهرزاد...

- الكبر والحبّ لا يجتمعان في قلب، إنّه يحبّ ذاته

أزلاً وأخيراً...

- للحبّ معجزاته أيضاً...

- كلّما اقترب منّي تنشقت رائحة الدم...

- السلطان ليس كبقية البشر...



## ليالي الف ليلة ٣٧٣

تذكرت الأتقياء الذين استشهدوا لقول الحق،  
واحتجاجاً على سفك الدماء ونهب الأموال ازدادت  
حزناً!

قال الشيخ:

- شد ما تأسرنا الأشياء...

فقال عبد القادر في رثاء:

- استشهد الشرفاء الأتقياء، أسفي عليك يا مديني  
التي لا يتسلط عليك اليوم إلا المنافقون، لم يا مولاي  
لا يبقى في المزاود إلا شرّ البقر؟! .

- ما أكثر عشاق الأشياء الخسيسة!...

وترامت إليهما من أطراف الحي أصوات زمر وطبل  
فأدركا أنّ الأهالي يحتفلون بالخير السعيد... عند ذلك  
قرّر الطبيب أن يذهب إلى مقهى الأمراء...

## مقهى الأمراء

يتوسط المقهى الجانب الأيمن من الشارع التجاري  
الكبير... وهو مربع الأركان واسع الساحة، يفتح  
مدخله على الطريق العام وتطلّ نوافذه على حواري  
جانبيّة... تقوم في جوانبه الأرائك للسادة وتستقرّ في  
دائرة من وسطه الشلت للعامة... يقدم مشروبات  
شقيّ ساخنة وباردة تبعاً للفصول، وبه أيضاً أجود  
صنوف المنزول والحشيش... تشهد لياليه كثيرين من  
السادة أمثال صنعان الجمالي وابنه فاضل، وحمدان  
طنيشة وكرم الأصيل وسحلول وإبراهيم العطار وابنه  
حسن، وجليل البزّاز ونور السدين وشملول  
الأحذب... كما تشهد كثيرين من العامة أمثال رجب  
الحمال وزميله السندباد وعجر الحلاق وابنه علاء الدين  
وإبراهيم السقاء ومعروف الإسكافي... غلب المرح  
على الجميع في تلك الليلة السعيدة، وسرعان ما انضمّ  
الطبيب عبد القادر المهيني إلى مجلس يضمّ إبراهيم  
العطار وكرم الأصيل صاحب الملايين وسحلول تاجر  
المزادات والتحف... أفاقوا ليلتهم من خوف متسلط  
واطماناً كلّ أب لعذراء جميلة فوعده النوم بأحلام تخلو  
من الأشباح المخيفة... وتردّدت أصوات:

- الفاتحة على أرواح الضحايا...

- عرفت ما يهمني معرفته...

فقال الطبيب:

- الحناجر تدعو لشهرزاد بينا أنك أنت صاحب

الفضل الأول...

فقال بعتاب:

- الفضل للمحبوب وحده...

- إني مؤمن أيضاً ولكنني أتابع المقدمات والنتائج،  
لولا أنّها تلمذت على يديك صبيّة ما كانت  
شهرزاد... لولا كلماتك ما وجدت من الحكايات ما  
تصرف به السلطان عن سفك الدماء...

قال الشيخ:

- يا صديقي لا عيب فيك إلا أنك تغالي في

تسليمك للعقل...

- إنه زيتة الإنسان...

- من العقل أن نعرف حدود العقل...

فقال عبد القادر:

- من المؤمنين من يرون أنه بلا حدود...

- لقد فشلت في جذب كثيرين إلى الطريق، أنت

على رأسهم...

- الناس مساكين يا مولاي، في حاجة إلى من

يتعامل معهم ويصرهم بحياتهم...

فقال الشيخ بثقة:

- ربّ روح طاهرة تنقذ أمة كاملة...

فتساءل الطبيب بامتناع:

- عليّ السلولي حاكم حيناً، كيف تنقذ الحيّ من

فساده؟! .

فقال بأسى:

- لكنّ المجتهدين مراتب...

فقال بإصرار:

- إني طبيب، وما يصلح الدنيا هو ما يهمني...

فربت على يده برقة صامتة فابتسم الطبيب وقال:

- ولكنك الخير والبركة...

فقال الشيخ:

- أحمد الله فلا السرور يستحقني، ولا الحزن

يلمسيني...

- أما أنا فحزين يا صديقي العزيز... كلّما

## ٣٧٤ ليالي الف ليلة

- هل تتمسح في السادة يا حمّال؟  
فقال نور الدين:  
- جلسنا جنبًا لجنب في الزاوية نتلقّى الدرس على يد مولانا عبد الله البلخي...  
فقال السندباد:  
- وقتعت بمبادئ القراءة والدين شأن الكثيرين...  
فقال عجر مواصلاً سخريته:  
- لن ينقص بذهابك البر ولن يزيد البحر...  
عند ذلك قال له الطيب عبد القادر المهيني:  
- اذهب مصحوبًا برعاية الله ولكن اشحن حواسك، ليتك تسجل ما يصادفك من بديع المشاهدات فقد أمرنا الله بذلك. متى تسافر؟  
فقال عمتًا:  
- صباح الغد، أستودعكم الله الحي الباقي...  
فقال رجب الحمال زميله:  
- ما أحزني لفراقك يا سندباد!...

## صِنَعَاءُ الْجَمَالِي

- ١ -

الزمن يدقّ دقّة خاصّة في باطنه فيوقظه... مدّ بصره نحو نافذة قريبة من القراش فرأى من خلال خصاصها المدينة مسربلة في الظلام... النوم سلبها الحركة والصوت فاستكنت في صمت مفعم بهدوء كوني... انفصل من جسد أم السعد الدافئ هابطًا إلى الأرض... انغرزت قدماءه في زغب سجادة فارسية... مدّ ذراعه ملتصقًا موقع الشمعدان فارتطمت بكثافة صلبة فجفل متسائلًا:  
- ما هذا؟  
جاء صوت غريب، لم يطرق أذنيه مثله من قبل... لا صوت إنسان هو ولا صوت حيوان...  
اجتاح حواسه وكأنما انتشر في المدينة كلها... ونطق الصوت في غضب:  
- دسّت رأسي يا أعمى!  
صرعه الخوف... ما به من الفروسية ذرّة... ما يجيد إلا البيع والشراء والمساومة... أكد الصوت

- من العذارى والرجال الأتقياء...  
- وداعًا للدموع...  
- الحمد والشكر لله ربّ العالمين...  
- وطول العمر لدرّة النساء شهرزاد...  
- شكراً للحكايات الجميلة...  
- ما هي إلا رحمة الله حلّت...  
تواصل المرح والحديث حتى علا صوت رجب الحمال متسائلًا:  
- أجنون أنت يا سندباد؟  
فسأل عجر الحلاق الشغوف بدسّ أنفه في كلّ شيء:  
- ماذا جئت في هذه الليلة السعيدة؟  
- يبدو أنّه كره عمله وضاق بالمدينة، لا يريد أن يكون حمّالًا بعد اليوم...  
- أيطمع في أن يتولّى إمارة الحي؟  
- ذهب إلى ربّان سفينة وما زال به حتى قبّله خادمًا بها!...

فقال إبراهيم السقاء:

- مجنون حقًا من يعرض عن رزق مضمون على البرّ ليجري وراء رزق مجهول فوق الماء...  
فقال معروف الإسكافي:  
- الماء الذي يستمدّ غذاءه من الجثث منذ قديم الزمان...  
فقال السندباد بتحدّ:  
- ضجرت من الأذقة والحواري، ضجرت من حمل الأثاث والتقل، لا أمل في مشهد جديد، هناك حياة أخرى، يتصل النهر بالبحر، يتوغّل البحر في المجهول، يتمخض المجهول عن جزر وجبال وأحياء وملائكة وشياطين، ثمّة نداء عجيب لا يقاوم، قلت لنفسني جرّب حظك يا سندباد والتّ بذكائك في أحضان الغيب...  
فقال نور الدين بيّاع العطور:  
- الحركة بركة...  
فقال السندباد:  
- نحيّة جميلة من زميل الصبا...  
فسأل عجر الحلاق ساخرًا:

## ليالي ألف ليلة ٣٧٥

... اقتل عليّ السلولي ...  
 غرقت الفرحة في خيبة غير متوقّعة كسلعة وردت  
 بعد أهوال من وراء البحار ثمّ تبيّن عند الفحص  
 فسادها... تساءل بذهول:  
 - عليّ السلولي حاكم حينًا؟  
 - دون غيره...  
 - لكنّه حاكم ويُقيم في دار السعادة المحروسة وما  
 أنا إلا تاجر.  
 فهتف:  
 - إذن فلا رحمة ولا عفو...  
 - سيدي... لمّ لا تقتله بنفسك؟  
 قال بحقن:  
 - استأنسني بسحر أسود، وهو يستعين بي في قضاء  
 مآرب لا يرضى عنها ضميري...  
 - لكنك قوّة تفوق السحر الأسود!  
 - نحن بعد نخضع لقوانين معيّنة، دع المناقشة،  
 لك أن تقبل أو أن ترفض...  
 قال صنعان بحرارة:  
 - أليس لك رغبات أخرى؟ لديّ مال موفور واصلع  
 من الهند والصين...  
 - لا تبدّد الوقت سدى أيّما الأحمق...  
 اشتدّ به الإغراء من جديد فنطق به اليأس قائلاً:  
 - إني طوع أمرك...  
 - حذارٍ أن تحاول خداعي...  
 - سلّمت الأمر لقدري...  
 - ستكون في قبضي ولو آويت إلى جبال قاف...  
 عند ذلك شعر صنعان بألم حادّ في ساعده فصرخ  
 صرخة جرفت أعماقه...

- ٢ -

فتح صنعان عينيه على صوت أمّ السعد وهي تقول  
 «ماذا أتحرك في النوم»... أشعلت الشمعدان فجعل  
 ينظر فيها حوله بذهول... إن يكن حلماً فما له يمتلئ به  
 أكثر من اليقظة نفسها!... إنه حيّ لدرجة تجلب  
 الذعر... رغم ذلك ابتلّ ريقه برحيق النجاة فهيمن

قائلاً:

- دشت رأسي يا جاهل...  
 قال بنبرات مرتجفة:  
 - من أنت؟  
 - أنا قمقام...  
 - قمقام؟!  
 - عفريت من أهل المدينة...  
 أوشك أن يتلاشى من الرعب فانهقد لسانه...  
 - ألتني فحقّ عليك العقاب...  
 عجز لسانه عن أيّ دفاع فواصل قمقام حديثه:  
 - سمعتك أمس يا منافق وأنت تقول إنّ الموت  
 علينا حقّ فما بالك تبول من الخوف؟!  
 نطق أخيراً بضراعة:  
 - ارحمني أنا ربّ عائلة...  
 - لن يحيق عقابي إلا بك أنت...  
 - ما فكّرت لحظة واحدة في التعرّض لك...  
 - يا لكم من مخلوقات مزعجة، لا تكفّون عن  
 الطمع في استعبادنا لتحقيق أغراضكم الدنيئة... ألم  
 يشيع نهمكم باستعباد الضعفاء منكم؟  
 - أقسم لك...  
 فقاطعه:  
 - لا ثقة لي في قسّم تاجر...  
 فقال:  
 - أسألك الرحمة والعفو...  
 - أيّ سبب يدعوني لذلك؟  
 فقال بلهفة:  
 - قلبك الكبير...  
 - لا تحاول خداعي كما تخدع زبائنك...  
 - افعلها لوجه الله...  
 - لا رحمة بلا ثمن، ولا عفو بلا ثمن...  
 فشرق بالأمل المباغت فقال بحرارة:  
 - إني أفعل ما تشاء...  
 - حقاً؟  
 فقال بلهفة:  
 - بكلّ ما أملك من قوّة...  
 فقال يهدوء مخيف:

## ٣٧٦ ليالي الف ليلة

قاطعها:  
 - لم تحدث في النهار...  
 تبادلنا نظرة قلقة مضطربة بالخواطر المكتومة...  
 قالت بفزع:  
 - حدثني عن الحلم...  
 فقال بضيق:  
 - قلت إنه عفريت... ولكنك حلم...  
 تبادلنا النظرة مرة أخرى... وتبادلنا معاناة  
 القلق... قالت أم السعد بحذر:  
 - ليكون الأمر سرًا...  
 أدرك سرّ مخاوفها المتجاوبة مع مخاوفه... إذا جرى  
 ذكر العفريت فلا يدري ماذا يحقّ بسمعه كساجر  
 غداً، ولا ماذا تتعرض له سمعة كريمته حسنة وابنه  
 فاضل قد يلد الحلم خراباً شاملاً... ثم إنه ليس على  
 يقين من شيء... قالت أم السعد:  
 - الحلم حلم... وسرّ الجرح يعلمه الله  
 وحده...  
 فقال بيأس:  
 - هذا ما يجب التسليم به...  
 - المهم الآن أن تبادل إلى العلاج فاذهب إلى  
 صديقك إبراهيم العطار...  
 كيف يبتدي إلى الحقيقة... أرهقه القلق حتى  
 أحرقه فجاش بالغضب... شعر بأنه يمضي من سبب  
 إلى أسوأ... وجدانه جميعه يشحن بالغضب والحنق  
 وطبعه يسوء فكأنه يُخلق من جديد على حالٍ تُناقض  
 دمايته القديمة الراسخة، ولم يعد يطبق نظرات المرأة،  
 فكرة نظراتها ومقت خواطرها ووجد رغبة في تحطيم  
 كلّ قائم... وفي غفلة من ذاته الضائعة طعنها بنظرة  
 غاضبة حانقة مستفزة كأنما هي المسئولة عن محنته ثم  
 تحوّل عنها ذاهباً وهي تغمغم:  
 - ليس هذا بصنعان الذي كان!...  
 وجد في الصلاة فاضل وحسنة على ضوء كتاب  
 نضحت به ثقوب المشريّة... ارتسم في وجهيهما  
 انزعاج دلّ على ارتفاع صوته الهائج فازداد غضباً  
 وصاح بهما بلا سبب وعلى غير عادة:  
 - اغربا عن وجهي...  
 -

عليه هدوء وامتنان... ردّ العالم إلى نظامه بعد خراب  
 شامل وتبعم بعدوبة الحياة بعد عذاب الجحيم...  
 تنهّد قائلاً:  
 - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...  
 نظرت أم السعد نحوه وهي تدسّ خصلات مبعثرة  
 من شعرها داخل مندبل رأسها وقد طمس النوم على  
 رونق وجهها بطبقة زيتية فقال ثملاً بالنجاة:  
 - الحمد لله الذي أنقذني من كرب عظيم...  
 - الله يحفظنا يا أبا فاضل...  
 - حلم فظيح يا أم السعد...  
 - خيراً إن شاء الله...  
 وقادته إلى الحمام فأشعلت مصباحاً في كوة وتبعها  
 وهو يقول:  
 - قضيت شطراً من الليل مع عفريت.  
 - كيف وأنت الرجل التقى؟  
 - سأقصّه على الشيخ عبد الله البلخي، اذهبي  
 الآن بسلام لأتوضأ...  
 راح يتوضأ... عندما همّ بغسل ساعده اليسرى  
 توقّف مرتعداً.  
 - ربّاه!...  
 جعل ينظر بذهول إلى جرح كالعضّة... ليس  
 وهماً ما يرى فمن مغارز الأنياب بيضّ الدم...  
 دار رأسه وغمغم:  
 - هذا هو المستحيل...  
 فزع قائماً وهول نحو المطبخ، تساءلت أم السعد  
 وهي توقد الكانون:  
 - توضّأت؟  
 مدّ إليها ساعده قائلاً:  
 - انظري!  
 شهقت المرأة متسائلة:  
 - ماذا عضك؟  
 - لا أدري...  
 فاستحوذ عليها القلق وقالت:  
 - غمت على خير حال...  
 - لا أدري ماذا حصل...  
 - لو حدثت في النهار...  
 -

## ليالي الف ليلة ٣٧٧

- لا تأمن لهذه الدنيا يا إبراهيم...  
 ما أشدَّ جزعه! كأنما اغتسل بماء شطّة حامية...  
 الشمس حارّة غليظة... وجوه العباد كثية... وكان  
 فاضل قد سبقه إلى الدكان فاستقبله بابتسامة مشرقة  
 ضاعفت من غيظه... لعن الجورغم ارتياحه  
 المعروف لجميع الأجواء... لا يكاد يرّد تحية... ولا  
 يرحّب بأحد... لا يستبشر بكلمة أو وجه... لا  
 يضحك لدعابة... لا يتعظّ بعبور جنازة... لا يسره  
 وجه مليح... ماذا جرى؟ ضاعف فاضل من  
 نشاطه ليحول ما أمكن بين أبيه والزبائن... وأكثر  
 من زبون سأل فاضل همساً:  
 - ما بال أهلك اليوم؟  
 فيقول الفتى بامتعاض:  
 - به وعكة، لا أراك الله من سوء...

- ٤ -

وسرعان ما تكشف حاله لرواد مقهى الأمراء...  
 يقصدهم متجهّماً، يجلس صامتاً، أو يحاور عاورة  
 الشارد... تكفّ عن تعليقاته الضاحكة... يضجر  
 سريعاً فيغادر المقهى... يقول إبراهيم العطار:  
 - عضه كلب متوحش...  
 فيقول جليل البراز:  
 - لقد فقدناه تمامًا...  
 ويقول كرم الأصيل صاحب الملايين وذو وجه  
 القرد:  
 - حاله التجارية مزدهرة جداً...  
 فيقول الطبيب عبد القادر المهيني:  
 - قيمة المال تتبخّر عند المرض...  
 فيقول عجر الحلاق، الوحيد بين الجالسين على  
 الأرض الذي يدسّ نفسه أحياناً في أحاديث السادة،  
 يقول متفلسفاً:  
 - ما الإنسان؟... عضه كلب أو قرصة ذبابة...  
 ولكنّ فاضل صنعان صاح به:  
 - أبي بخير، ما هي إلا وعكة تزول قبل شروق  
 الصبح!

\*\*\*

ردّ باب حجرتة وراه وراح يتفحص ساعده...  
 لحق به فاضل بشجاعة... قال بقلق:  
 - لعلك بخير يا أبي...  
 فقال له بفضافة:  
 - دعني وحدي...  
 - كلب عضك؟  
 - من قال لك ذلك؟  
 - أمي...  
 أدرك حكمتها في إعلان ذلك فرضي ولكنّ حاله لم  
 تتحسن... قال:  
 - أمر تافه، إني بخير، ولكن دعني وحدي...  
 - لا بدّ من الذهاب إلى العطار...  
 فقال بضيق:  
 - لا حاجة بي إلى من يذكّرني بذلك...  
 في الخارج قال فاضل لحسنية:  
 - شدّ ما تغتبر أبي!

- ٣ -

غادر صنعان الجمالي داره دون صلاة لأوّل مرّة في  
 حياته مذ صار صبيّاً... ذهب من توه إلى دكان  
 إبراهيم العطار... صديق قديم وجارّ في الشارع  
 التجاري... ولما رأى العطار ساعده قال متعجباً:  
 - أيّ كلب هذا! ولكن ما أكثر الكلاب الضالّة!  
 وعكف على انتخاب جملة من الأعشاب وهو يقول:  
 - عندي وصفة لا تخيب...  
 غلى الأعشاب حتى ترسبت مادة لزجة... غسل  
 الجرح بماء الورد... غطاه بالمادّة وبسطها عليه بملعقة  
 خشبيّة ثمّ عصب الساعد بشاش دمشقيّ وهو يتمتم:  
 - بالشفاء إن شاء الله...  
 وإذا بصنعان يقول رغماً عنه:  
 - أو فليفلع الشيطان ما يريد...  
 تفرّس إبراهيم العطار في وجه صاحبه المحتقن  
 فعجب من تغيره وقال:  
 - لا تدعّ جرحاً تافهاً ينال من طبعك الحلو...  
 فمضى مكفهرّ الوجه وهو يقول:

- بسيمة... بنت يا بسيمة...  
قال لنفسه في يأس كامل:  
- لا مفراً...  
وضح الآن أنّ الأقدام تقترب من مكمنه...  
وضوء فانوس يتخايل... دفعته رغبة للخروج حاملاً  
الجثة... وإذا بوجود ثقل يقتحم وجوده المتهافت  
فاقتحمته ذكرى الحلم... وسمع الصوت الذي  
سمعه منذ يومين يتساءل:  
- أهذا ما تعاهدنا عليه؟  
قال مستسلماً:  
- أنت حقيقة إذن ولست حلماً!  
- أنت مجنون ولا ريب...  
- أوافق على ذلك ولكنك أنت السبب!  
فقال الصوت بغیظ:  
- ما طلبتك بشرّ قط...  
فقال بحرارة:  
- لا وقت للمناقشة، أنقذني لأفي لك بما تعاهدنا  
عليه...  
- هذا ما جئت من أجله ولكنك لا تفهم...  
شعر بأنه يتحرك في فراغ في عالم شديد الصمت  
حتى سمع الصوت مرة أخرى:  
- لن يعثر لك أحد على أثر، فتح عينيك تر أنك  
واقف أمام باب دارك... ادخل آمنًا، إنّي منتظر...  
- ٥ -

سيطر صنعان على ذاته بقوة خارقة، لم تشعر أم  
السعد بأنّ حاله قد ساءت أكثر... اختفى وراء  
جفنيه في الظلام وراح يتذكر ما فعل... إنّه شخص  
آخر... القاتل المغتصب شخص آخر... نفسه  
تتمخض عن كائنات وحشية لا عهد له بها... الآن  
يتجرّد من ماضيه ويطوي آماله ويقدم نفسه  
للمجهول... لم ينم ولم تند عنه حركة تنم عن  
أرقه... في الصباح الباكر ترامي إليه صوت نعي...  
غابت أم السعد ساعة ثم رجعت وهي تقول:  
- لك الله يا أم بسيمة...

لكنّه توغل في حال يتعدّر الهيمنة عليها... وفي  
ليلة ألتهّم من المنزول قدرًا مجنونًا وغادر المقهى متوثبًا  
لاقتحام المجهول... كره الذهاب إلى داره فراح يحبط  
في الظلام مشعث العقل والإرادة تسوقه أخيلة  
معيدة... تمثى فعلاً أن يمتصّ نوتره الثائر ويربجه من  
العذاب... وتذكر نساء من أهله شعبن موتًا فتمثلن  
له عاربات في أوضاع جنسية تطفح بالإغراء فأسف  
على أنّه لم ينل من إحداهنّ وطراً... ومرّ بعطفة  
الشيخ عبد الله البلخي ففكر لحظة في زيارته  
والاعتراف بين يديه بما وقع له ولكنّه أسرع مبتعداً...  
وعلى ضوء مصباح مدلى من هامة أحد أبواب الدور  
رأى بنتًا في العاشرة ماضية في طريقها تحمل بين يديها  
سلطانية... اندفع نحوها معترضًا سبيلها متسائلًا:  
- أين تذهين يا عروس؟  
فالت براءة:  
- راجعة لأمي...  
فغاص في الظلام حتى فقد البصر وقال:  
- تعالي أريك شيئًا طريفًا...  
حملها بين ذراعيه حتى اندلق ماء المخلل على جيّته  
الحريريّة ومضى بها إلى ما تحت سلم الكتاب...  
حارت البنت في أمر حنانه الغامض، لم ترتح إليه،  
وقالت متشكّية:  
- أمي تنتظر...  
لكنّه أثار حبّ استطلاعها بقدر ما أثار مخاوفها...  
أغراها عمره - الذي ذكرها بأبيها - بنوع من  
الاطمئنان... خالط ذلك قلق مجهول وتوقع لحلم  
عجيب... ونذت عنها صرخة باكية تمزق لها وجدانه  
ويعث في مخيلته المظلمة أطباقاً مرعبة فسرعان ما كتم  
فاها براحة المرتعشة... لطمته إفاقة مباغتة فعاد إلى  
سطح الأرض وهمس متوسلاً:  
- لا تبكي... لا تخافي...  
وزحف اليأس حتى قوض أركان العالم... ومن  
الخراب الشامل تنهى إليه وقع أقدام تقترب...  
ويسرعة قبض على عنقها الرقيق بيدين غريبتين عنه  
وتردى في الهاوية كوحش كاسر زلت قدمه... أدرك  
أنّه انتهى... انتبه إلى صوت ينادي:

## ليالي الف ليلة ٢٧٩

أن يتذكر واجبه الأصلي ليعبى لنا... .

فذهب وهو يقول:

- لا تأمن لهذه الدنيا يا إبراهيم... .

- ٧ -

علم حاكم الحبيّ عليّ السلوي بما يقال عن الأمن  
من كاتم سرّه بطيشة مرجان... . خشي أن تترامى

الأقوال إلى الوزير دندان فيرفعها إلى السلطان

فاستدعى كبير الشرطة جمصة البلطي وقال له:

- هل أتاك ما يقال على الأمن في عهدي؟

لم يتغير هدوء كبير الشرطة الباطنيّ لأطلاعه على

أسرار رئيسه وانحرافاتة وقال:

- عفواً يا سيدي الحاكم، ما أهملت ولا قصّرت في

بثّ العيون ولكنّ الجاني لم يترك أثراً، لم نعثر على

شاهد واحد، وقد حققت بنفسي مع عشرات وعشرات

من الصعاليك والمتسولين، ولكنّها جريمة غامضة لم

أعرف لها مثيلاً من قبل... .

فصاح به:

- يا لك من جاهل، اقبض على جميع الصعاليك

والتسولين، وإنك خبير بوسائل التحقيق الفعّالة... .

فقال جمصة بحذر:

- ليس لدينا من السجون ما يتسع لهم... .

فقال الحاكم محنقاً:

- أيّ سجون يا هذا؟! أتريد أن تلزم بيت المال

بإطعامهم؟ سقهم إلى الخلاء، استمن بالجنّد، واتنتني

بالمجرم قبل جثوم الليل... .

- ٨ -

انفضّ رجال الشرطة على الخرابيات يقبضون على

التسولين والصعاليك ثم يسوقونهم جماعات إلى

الخلاء... . لم تجد شكوى ولا قسّم ولم يُستثنَ

الشيوخ... . واستعمل معهم العنف حتّى جأروا

بالاستغاثة بالله ورسوله وآل البيت... . وراح صنعان

الجمالي يتابع الأنباء بذهول وقلق... . إنّه الجاني ما في

غضّ بصره متسائلاً:

- ماذا جرى؟

- ماذا حدث للناس يا أبا فاضل؟ البنت اغتصبت

وقُتلت تحت سلّم الكتاب، طفلة يا ربّي ولكنّ تحت

جلد بعض الأدميين وحوشاً مفترسة... .

حتى رأسه حتّى تشعثت لحيته فوق صدره وتمتم:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... .

- هؤلاء الوحوش لا يعرفون ربّاً ولا رسولاً... .

وأجهشت المرأة باليكاء... .

جعل يسائل نفسه أهو العفريت؟... أهو

المتزول؟... أهو صنعان الجمالي؟!!

- ٦ -

خواطر الحبيّ كلّ هائجة... الجريمة حديث الحبيّ

التجاريّ كلّ... قال له إبراهيم العطار وهو يجنّد له

الدواء:

- الجرح لم يندمل ولكن زال خطره... .

ثم وهو يلفّ ساعده بالشاش:

- سمعت بالجريمة؟

فقال بامتناع:

- أعوذ بالله... .

- المجرم ليس آدمياً، أبناؤنا يتزوجون في حال

بلوغهم!

- إنّه مجنون ولا شك... .

- أو إنّه أحد الصعاليك العاجزين عن الزواج،

إنهم يزحجون الطرقات كالكلاب الضالّة... .

- كثيرون يردّدون ذلك... .

فتساءل العطار متهكّماً:

- ماذا يفعل عليّ السلوي في دار الإمارة؟

ارتجف لدى ذكر الاسم وتذكّر العهد المعلنّ

كالسيف فوق رأسه ولكنّه جاره قائلاً:

- مشغول بمصالحه الخاصّة وإحصاء الهدايا

والرشاوى... .

فقال العطار:

- فضله علينا نحن التجار غير منكور ولكن عليه

- ولكنّها أسهل من قتل البنت الصغيرة!  
فتأوه قائلاً:  
- يا للخسارة!... طالما عُدِدْتُ من الصفوة  
الطيّبة...  
- لا تخدعني المظاهر...  
- لم تكن مجرد مظاهر...  
- نسيت أشياء كثيرة يندى لها الجبين...  
فقال بارتباك:  
- الكمال لله وحده!  
- لا أنكر أيضاً مزايك ولذلك رشحتك للخلاص!  
فقال بجزع:  
- لولا اقتحامك حياتي ما تووّظت في الجريمة...  
فقال بوضوح:  
- لا تكذب، أنت وحدك مسئول عن جريمتك!  
- الحقّ أنّي لا أفهمك...  
- الحقّ أنّي أحسنت بك الظنّ أكثر مما ينبغي...  
- ليتك تركتني وشأني!  
- إني عفريت مؤمن، قلت: هذا رجل خيره أكثر  
من شرّه، أجل له علاقات مريبة مع كبير الشرطة ولم  
يتورّع عن الاستغلال أيام الغلاء، ولكنّه أشرف  
التجار، وذو صدقات وعبادة وذو رحمة بالفقراء، لذلك  
أثرتك بالخلاص، خلاص الحيّ من رأس الفساد  
وخلاص نفسك الأثمة، وبدلاً من أن تدرك الهدف  
الواضح انهار بنيانك وارتكبت جريمتك البشعة...  
تأوه صنعان واقفاً في الصمت فواصل الصوت:  
- الفرصة متاحة ما زالت...  
فتساءل في حيرة:  
- والجريمة؟  
- الحياة تتسع للتكفير والتوبة...  
فتساءل بنبرة دبّ فيها ماء الأمل:  
- ولكنّ الرجل في حصن منيع؟  
- سوف يستدعيك إلى مقابلته...  
- إني أعجب لذلك!  
- سوف يستدعيك، اطمئنّ واستعدّ...  
فتفكر صنعان ملياً ثمّ تساءل:  
- هل تعدني بالنجاة؟

ذلك من شكّ ولكنّه يمضي مطلق السراح مجلّلاً  
بالوقار... مئات من الأبرياء يتعدّبون بفعلته النكراء  
فكيف صار محور هذا الشقاء كلّهُ؟!... وثمة مجهول  
يتربّص به يهون بالقياس إليه جميع ما سلف... وهو  
ضائع تماماً ومستسلم بلا شروط... أما صنعان  
القديم فقد مات واندثر... لم يبقَ منه إلا ذاكرة  
حائرة تجرّ ذكريات كالأوهام... وانتبه على ضجّة  
تجتاح الشارع التجاري... ها هو عليّ السلولي حاكم  
الحيّ يخترق الطريق على رأس كوكبة من الفرسان...  
إنّه يدكّر الناس بقوّة الحاكم ويقظته ويتحدّى  
البلبلّة... مضى يردّ تحيّات التجار عن يمين  
وشمال... هذا هو الرجل الذي تعهد بقتله...  
فاصر قلبه بالخوف والمقت... إنّه سرّ عذابه...  
ووقع الاختيار عليه هو ليحرّر العفريت من سحره  
الأسود!... هو العفريت دون سواه... نجاته رهن  
بالقضاء عليه... تسمرت عيناه في وجهه الغامق  
الريّان وحيثه المدبّية وجسمه المائل إلى القصر...  
وعندما مرّ أمام دكان إبراهيم العطار هرع إليه المعلم  
إبراهيم فتصافحا بحرارة... وعندما مرّ أمام دكانه  
حانت منه التفاتة نحوه فابتسم فلم يجد صنعان بدأ من  
العبور إليه والمصافحة! وإذا بالسلولي يقول له:

- سنراك قريباً بمشيئة الله!

رجع صنعان الجبالي إلى دكانه وهو يتساءل عمّا  
يعنيه... هل يدعوّه إلى مقابلة؟... لماذا؟... هل  
يجد السبيل ميسراً من حيث لم يتتظر؟... ربطت  
قشعريرة بين أعلاه وأسفله... ردّد قوله بذهول:

- سنراك قريباً بمشيئة الله!...

ولمّا أخذ إلى النوم ليلاً هيمن عليه الوجود الآخر  
وسمع الصوت يقول متهمكياً:  
- تأكل وتشرب وتنام وعليّ أنا الصبر!  
فقال بتعاسة:  
- إنّه مهمّة شاقّة لا يدرك مشقّتها من له مثل  
قوتك...  
فقال بتعاسة:  
- إنّه مهمّة شاقّة لا يدرك مشقّتها من له مثل  
قوتك...  
فقال بتعاسة:  
- إنّه مهمّة شاقّة لا يدرك مشقّتها من له مثل  
قوتك...



## ليالي الف ليلة ٣٨١

كريم...  
 فتمتم صنعان مداريًا ارتبأكه بابتسامة:  
 - الشكر لك يا نائب السلطان...  
 ملأ مرجان ثلاث كتوس، ساءل صنعان نفسه هل  
 يبقى مرجان إلى آخر الجلسة؟... لعلها فرصة لا  
 تتكرّر فما العمل؟ وقال السلوي:  
 - ليلة صيف لطيفة، أتحبّ الصيف؟  
 - أحبّ الفصول جميعًا...  
 - إنك تمنّ رضي الله عنهم، ومن تمام رضاه أن  
 تبدأ حياة جديدة مشرّة...  
 فقال صنعان مدفوعًا بحبّ الاستطلاع:  
 - أسأل الله أن يتمّ نعمته علينا...  
 شربوا فتلقوا من الراح نشوة واتعاشًا... وجعل  
 السلوي يقول:  
 - طهرنا لكم الحيّ من الأوباش...  
 فقال بحزن دفين:  
 - نعم الحزم والعزم...  
 فقال بطيشة مرجان:  
 - لا نكاد نسمع الآن عن سرقة أو جريمة...  
 فسأل صنعان بحذر:  
 - هل اهتديتم إلى الجاني؟  
 فضحك السلوي قائلًا:  
 - المعترفون بالجريمة فاقوا الخمسين عدًا!  
 ضحك مرجان أيضًا ولكنّه قال:  
 - الجاني الحقيقيّ ضمنهم ولا شك...  
 فقال السلوي:  
 - إنّها مشكلة جمصة البلطي!  
 فقال بطيشة:  
 - علينا أيضًا أن نضاعف المواعظ في المساجد  
 والموالد...  
 أو شك صنعان أن ييأس ولكنّ السلوي أشار إلى  
 مرجان إشارة خاصّة فغادر المكان... ومع ذلك كان  
 الحرس منتشرًا في الحديقة، ولا يوجد مهرب، ولكنّه لم  
 يغفل لحظة عن وعد قمعام...  
 قال السلوي مغنّيًا لهجته:  
 - فلنطو حديث الجريمة والمجرمين...

- ما اخترتكم إلا من أجل النجاة...  
 ومن شدّة الإرهاق استغرق صنعان في نوم  
 عميق...  
 - ١٠ -

كان يتأهبّ للذهاب إلى المقهى عندما قالت له أمّ  
 السعد:  
 - رسول من قبل الحاكم ينتظر في المنظرة...  
 وجد كاتم السرّ بطيشة مرجان في الانتظار بعينه  
 البرّاقين ولحيته القصيرة... قال له:  
 - الحاكم يرغب في لقاءك...  
 خفق قلبه... أدرك أنّه ذاهب لارتكاب أخطر  
 جريمة في تاريخ الحيّ... لعلّه ضايقه أن يكون بطيشة  
 مرجان مطلقًا على ملابسات الزيارة ولكنّه اطمأنّ إلى  
 وعد قمعام... قال للرجل:  
 - انتظرنّي حتّى أردني ملابسني...  
 فقام الرجل قائلًا:  
 - بل أسبقك تلافياً من لفت الأنظار...  
 إذن فالرجل يحرص على سرّيّة المقابلة ميسرًا بذلك  
 مهمّته... وراح يتدهنّ بالمسك وأمّ السعد تراقبه،  
 منظورية على قلق لم يفارقها منذ ليلة الحلم... هيمن  
 عليها شعور بأنّها تعاشر رجلاً آخر وأنّ صنعان القديم  
 تلاشى في الظلام... وفي غفلة منها دسّ في جيبه  
 خنجراً ذا مقبض من الفضة الخالصة تلقاه هديّة من  
 الهند...  
 - ١١ -

استقبله عليّ السلوي في جوسقه الصيفيّ بحديقة  
 الإمارة... طالعه في جلابب فضفاض أبيض ورأس  
 عارٍ فخفف عنه رهبة السلطة... وقامت بين يديه  
 مائدة حفقت بالقوارير والكتوس والنقل فبسط له  
 المؤانسة والقرب... أجلسه على وسادة إلى جانبه  
 مستبقياً مرجان بطيشة، وقال:  
 - أهلاً بك يا معلّم صنعان، تاجر أصيل وإنسان

## ٣٨٢ ليالي الف ليلة

عينيه... كان صنعان يغوص في خيال الجريمة ويقذف  
بنفسه فيها تبقي له من مصير... استلّ خنجره...  
سدده نحو القلب... طعن بقوة مستمدة من  
التصميم واليأس والرغبة الأخيرة في النجاة...  
انتفض الحاكم انتفاضة عنيفة كأنما يصارع قوة  
مجهولة... تقلص وجهه وحلق بجنون... همّ بضمّ  
ساعديه كأنما ليقبض على الخنجر ولكنّه لم يستطع...  
نظقت عيناه المدعورتان بكلام لم يُسمع، ثمّ همد إلى  
الأبد...

- ١٢ -

حلق في الخنجر غائب النصل والدم المتدفق وهو  
يرتجف... انتزع عينيه بمشقة ونظر نحو الباب المغلق  
بخوف شديد... تمزق الصمت بنبض صدغيه...  
ولأول مرة يلمح القناديل المعلقة في الأركان... ولمح  
أيضاً قائماً خشبياً مزخرفاً بالأصداف عليه مصحف  
كبير... توسّل بكلّ عذباته إلى قمقام عفريته  
وقدره... وغشيه الوجود الخفيّ وسمع الصوت يقول  
بارتياح:

- أحسنت... -

ثمّ بمرح:

- الآن تحرّر قمقام من السحر الأسود... -

قال صنعان:

- أنقلني فقد كرهت المكان والمنظر... -

فقال يهدوء وعطف:

- إيماني يمنعني من التدخّل بعد أن ملكت حرّية

إرادتي... -

فقال بجزع:

- لا أفقه معنيّ لما تقول!

- عيبك يا صنعان أنك لا تفكّر كإنسان... -

- ربّاه، لا وقت للجدل، أترزع تركي لشأني؟

- هذا تمامًا ما يقتضيه واجبي... -

فصاح:

- يا للفظاعة، لقد خدعتني... -

- بل منحك فرصة للخلاص قلّمًا تُتاح لحيّ... -

فقال صنعان بأسًا:  
- طابت لياليك يا مولاي...  
- الحقّ أنّ دعوتك لأكثر من داعٍ...  
- إنّ رهن الإشارة...  
فقال بثقة:  
- إنّّي أرغب في الزواج من كريمتك...  
دهش صنعان... أسف لفرصة قدّر لها الإحباط  
قبل أن تولد، ولكنّه قال:

- هذا شرف كبير وسعادة عظيمة... -

فقال الرجل ورأسه يتمايل من النشوة:

- وعندني أيضًا بنت هدية لابنك فاضل!

فقال صنعان طارداً ذهوله:

- إنّّه شابّ سعيد الحظّ... -

وصمت قليلاً ثمّ واصل:

- أمّا المطلب الأخير فهو يتعلّق بالمصلحة العامة!

فتجلّت في عيني صنعان نظرة مستطلعة فقال  
الحاكم:

- المقاول حمدان طنيشة قريبك... ليس كذلك؟

- أجل يا مولاي... -

- المسألة أنّي اعترّمت شقّ طريق بحذاء الصحراء

بطول الحّيّ كلّ... -

- مشروع رائع حقاً... -

فسأله بنبرة ذات مغزى:

- متى تميّثني به إلى هذا المكان؟

اجتاحته موجة من السخرية وهو يقول:

- موعدنا مساء الغد يا مولاي!

فحدقه بنظرة ثاقبة وتساءل بأسًا:

- ترى على أيّ حال سيجيّثني؟

فقال صنعان بلباقة ودهاء:

- على الحال التي تتوقّعها تمامًا... -

فضحك السلوي وقال بمرح:

- أنت لبيب يا صنعان، ولا تنس أنّنا أهل!

خاف صنعان أن يباغته باستدعاء بطيشة

مرجان... قال لنفسه «الآن... أو تلاشت الفرصة

إلى الأبد... ويسرّ الرجل له الأمر وهو لا يدري

فمدّ ساقيه وانطوى على ظهره طلباً للراحة ثمّ أغمض

## جمعة الباطني

- ١ -

سبحت روح صنعان الجمالي في سماء مقهى الأمراء  
فغشي رؤاها الكدر، شهدوا محاكمته، سمعوا اعترافه  
الكامل، رأوا سيف شبيب رامة السياف وهو يطيح  
برأسه... كانت له منزلة طيبة بين التجار والأعيان،  
وكان من القلة النادرة التي يجبها الفقراء، وأمام أولئك  
وهؤلاء ضربت عنقه وشردت أسرته... ذاعت قصته  
على كل لسان، هزت أفئدة الحي والمدينة، استعادها  
السلطان شهريار مرّات ومرّات... وفي جوّ المقهى  
الملطف بطلائع الخريف قال حمدان طنيشة الماويل:  
- الله خالق الملك وصاحبه، المتصرّف في شئونه بما  
يشاء، يقول للشيء كن فيكون، من منكم كان يتصوّر  
هذا المصير لصنعان الجمالي؟ صنعان يفتصب بنتاً في  
العاشرة ويختمها؟ صنعان يقتل حاكم الحيّ في أول لقاء  
معه؟!

فقال إبراهيم العطار:

- باستبعاد العفريت تصبح الحكاية لغزاً من  
الألغاز!  
فقال الطيب عبد القادر المهيني:  
- لعلها عضة الكلب، هي الأصل ثم تفرّع عنها  
خيالات مرض خبيث لم يعالج كما يجب!...  
فقال إبراهيم العطار محتدماً:  
- لا يوجد من هو أخير مني بمداواة عضة الكلب،  
آخرهم كان معروف الإسكافي... أليس كذلك يا  
معروف؟

فأجاب معروف من مجلسه في الوسط بين العامة:  
- الحمد لله الذي أنمّ عليّ نعمة الشفاء...  
فساءل عجر الحلاق:  
- ولم لا نصدّق حكاية العفريت؟  
فقال إبراهيم السقاء:  
- إنهم يفوقون الأدميين عدداً...  
فقال سحلول تاجر المزايدات والتحف:  
- الموت في غنى عن الأسباب...  
فقال الطيب عبد القادر المهيني:  
- لعلها عضة الكلب، هي الأصل ثم تفرّع عنها  
خيالات مرض خبيث لم يعالج كما يجب!...  
فقال إبراهيم العطار محتدماً:  
- لا يوجد من هو أخير مني بمداواة عضة الكلب،  
آخرهم كان معروف الإسكافي... أليس كذلك يا  
معروف؟

- ألم تتدخّل في حياتي وتحملني على قتل هذا  
الرجل؟

- كنت راغباً بحرارة في التحرّر من شرّ السحر  
الأسود فاخترتك لإيمانك رغم تأرجحك بين الخير  
والشرّ، قدّرت أنّك أولى من غيرك بإنقاذ حيّك  
ونفسك...  
فقال بيأس:

- لكنّك لم توضح لي أفكارك...  
- وضّحتها بالقدر الكافي لمن يفكر...  
- مكر غير محمود... من قال إنّي مسئول عن  
الحيّ؟!  
- إنّها أمانة عامّة لا يجوز أن يتبرأ منها إنسان أمين  
ولكنّها منوطة أولاً بأمالكك تمنّ لا يخلون من نوايا  
طيبة!

- ألم تنقذني من ورطتي تحت سلّم الكتاب؟  
- بلى، عزّ عليّ أن تنتهي بسبب من تدخّل أسوأ  
نهاية لا أمل فيها لتكفير أو توبة فارتأيت أن أمنحك  
فرصة جديدة...  
- وما قد قمّت بما عاهدتك عليه فوجب عليك  
إنقاذي...  
- إذن تكون مؤامرة، دورك فيها دور الآلة، وتقف

الجدارة والتكفير والتوبة والخلص...  
فركع على ركبتيه قائلاً بتوسّل:  
- ارحمني، وأنقذني...  
- لا تبدّد تضحيّتك في الهواء...  
- إنّه مصير أسود!  
- فاعل الخير لا تكرهه العواقب...  
هتف بذعر:  
- لا أريد أن أكون بطلاً!

فقال قمقام بأسى:  
- كن بطلاً يا صنعان، هذا قدرك!  
ومضى الصوت يتلاشى وهو يقول:  
- أستودعك الله وأستغفره لي ولك...  
نذت عن صنعان صرخة ترامت إلى بطيشة مرجان  
ورجال الحرس في الخارج...

فقال معروف الإسكافي:

- لي مع العفاريت حكايات وحكايات...

عند ذلك قال له شملول الأحمدب، مهترج السلطان:

- علمنا أنّ العفاريت تتجنّب دارك خوفاً من زوجتك...

فابتسم معروف مسلماً بقضائه... ولم تلتق الدعابة نجاحاً في الجوّ الكئيب... وقال جليل البزاز:

- ضاع صنعان وضاعت أسرته...

فقال كرم الأصيل صاحب الملايين والوجه الشبيه بالقرود:

- ومدّ يد المعونة لأسرته يُعتبر تحدياً للإمارة، فلا حول ولا قوة إلا بالله...

فقال إبراهيم العطار:

- أخوف ما أخاف أن ينفر الناس من أسرته اتقاء لشرّ العفاريت...

فقال حسن العطار الابن:

- هيهات أن يغيّر شيء ما بيني وبين فاضل صنعان...

وعاد حمدان طنبشة المقاتل يقول:

- يقول للشيء كن فيكون...

- ٢ -

انطلق جمصة البلطي كبير الشرطة نحو النهر ليهارس هوايته المفضّلة في الصيد - كفت نفسه أربعين يوماً عن هوايته حداذاً على رئيسه علي السلولي... وقد حزن على القاتل أيضاً في باطنه بحكم الجيرة والصدّاقة القديمة التي جعلت من الأسرتين أسرة واحدة... ربّاه، هو الذي قبض عليه، هو الذي رماه في السجن، هو الذي قدّمه للمحاكمة، ثمّ ساقه أخيراً للسيف شبيب رامة... هو أيضاً من علّق رأسه بأعلى داره وصادر أمواله وطرده أسرته من الدار إلى النار... وعلى ما عُرف به من شدّة وصلابة فقد تكذّر صفوه وحزن قلبه - له قلب رغم أنّ كثيرين لا يتصوّرون ذلك... بل أحبّ هذا القلب حسنيّة كريمة صنعان

وأوشك أن يطلب يدها لولا أن دهمته الحوادث... اليوم طاب الجوّ وهامت في السماء سحائب خريف صافية ولكنّ حبّه دُهِس تحت عجلة الأحداث... ترك بغلته مع عبد ثمّ دفع القارب إلى وسط النهر ورمى بالشبكة... قطرات من الراحة في خضمّ العمل الشاقّ الوحشي... ابتسم... سرعان ما تمّ التفاهم بينه وبين الحاكم الجديد خليل الهمذاني... من أين يجيء شهر يار بهؤلاء الحكّام؟! أسفر الرجل عن وجهه عند أول تجربة... التجربة كانت أموال صنعان المصادرة... استولى على نصيب منها لا يُستهان به، وألقم بطيشة مرجان كما ألقمه نصيبه... وأضاف المتبقّي إلى بيت المال... استولى على نصيبه بالرغم من حزنه لمصير صديقه معترداً أمام نفسه بأنّ الرفض يعني تحدياً للحاكم الجديد... في قلبه موضع للعواطف وموضع للقسوة والجشع... قال لنفسه «من تعفّف جاع في هذه المدينة... وتساءل ساخراً «ماذا يجري علينا لو تولّى أمورنا حاكم عادل؟!»... أليس السلطان نفسه هو من قتل المئات من العذارى والعشرات من أهل الورع والتقى؟! ما أخفت موازينه إذا قيس بغيره من أكابر السلطنة... تنفّس بعمق... حقاً إنّه يوم جميل... السماء منقوشة بالسحب... الهواء معتدل مضمخّ برائحة العشب والماء، الشبكة تمتلئ بالسمك، ولكن أين حسنيّة؟ أسرة صنعان تقيم اليوم بحجرة برقع... بعد الجاه والجواهر والإصطبل... أمّ السعد تصنع الحلوى، التي كانت تسحر بها ألباب الضيوف وفاضل يسرح بها كبائع جوال، أما حسنيّة فتنتظر عريساً لن يأتي... هل حقاً سخرّك عفريت يا صنعان أو أتلفتك عضّة كلب؟! لن أنسى نظرتك الزائغة واستغاثتك بي «أسرتي يا جمصة»... هيهات أن يجرؤ إنسان على مدّ يده إلى أسرتك... ابنك فاضل أيضاً ولد ذو كبرياء... ضعت يا صنعان وما كان كان... إن يكن عفريتك مؤمناً حقاً فليفعل شيئاً... عجيبه هذه السلطنة بناسها وعفاريتها... ترفع شعار الله وتغوص في الدنس... وبغته تحوّل وعيه إلى يده... ثقلت الشبكة مبشرة بالخير... جذبها بسرور حتى استوت

## ليالي الف ليلة ٣٨٥

- العفو عند المقدرة من شيم الكرام...  
- بارعون أنتم في الحفظ والاستشهاد والنفاس،  
وعلى قدر علمكم يجب أن يكون حسابكم، فالويل  
لكم...

فقال جصّة البلطي باستعطاف:

- نحن نخوض صراعًا متواصلًا مع أنفسنا والناس  
والحياة، وللصراع ضحايا لا يحيط بهم حصر، والأمل  
لا ينعدم أبدًا في رحمة الرحمن...  
فقال العفريت في صرامة:

- الرحمة لمن يستحقّ الرحمة، ورحاب الله مفروشة  
بأزاهير الفرص المتاحة لمن استمسك بالحكمة، لذلك  
لا تحقّ الرحمة إلا للمجتهدين وإلا أفسدت الروائح  
الكريهة نقاء الجوّ المضيء بالنور الإلهي، فلا تعتذر عن  
الفساد بالفساد...

- نحن نؤمن بالرحمة حتّى ونحن نضرب الأعناق  
ونجتزّ الرءوس...

- يا لك من منافق... ما عملك؟

- كبير الشرطة...

- يا لها من ألقاب، هل تؤدّي واجبك بما يُرضي  
الله؟

فقال جصّة بقلق:

- واجبي أن أنقذ الأوامر...

- شعار يصلح لتغطية الخبائث...

- لا حيلة لي في ذلك...

- إذا دُعيتم لخير ادّعيتم العجز، وإذا دُعيتم لشرّ  
بادرتم إليه باسم الواجب!

وقع جصّة في حصار محكم وهفّت عليه نذر الوعيد  
فتراجع إلى حافة القارب وهو يرتعد... في ذات  
الوقت شعر بنفاذ وجود جديد هيمن على المكان فأمن  
بمقدم عفريت آخر وأيقن بالضياح... قال القادم  
الجديد مخاطبًا الأوّل:

- هنيئًا لك الحرّية يا سنجام...

- الشكر لله يا قمقام...

- لم أرك منذ أكثر من ألف عام...

- ما أقصرها بالقياس إلى العمر وما أطولها إذا  
انقضت في قمقم!

فوق سطح القارب... لم ير بها سمكة واحدة!...

- ٣ -

ذهل جصّة البلطي... نمة كرة معدنيّة ولا شيء  
سواها... تناولها حانقًا، قلبها بين يديه، ثم رمى بها  
في باطن القارب... أحدثت صوتًا عميقًا مؤثّرًا...  
حدث بها شيء غير ملحوظ فتمخّض عن انفجار...  
انطلق منها ما يشبه الغبار مدومًا في الجوّ حتّى عانت  
سحب الخريف... وتلاشى الغبار تاركًا وجودًا خفيًا  
جثم عليه فملأ شعوره بحضوره الطاغوي... ارتعب  
جصّة على إيلافه مواقف الخطر... أدرك بسابق علمه  
أنه حيال عفريت منطلق من قمقم... ما ملك أن  
هتف:

- الأمان بحقّ مولانا سليمان!

فقال صوت لم يسمع له مثيلًا من قبّل:

- ما أعذب الحرّية بعد جحيم السجن!

فقال البلطي متودّدًا بحلق جافّ:

- خلاصك تمّ على يدي...

- أخبرني أولًا عمّا فعل الله بسليمان؟

- مات سيّدنا سليمان منذ أكثر من ألف عام...

- مباركة مشيئة الله، هي التي سلّطت علينا إرادة  
أدمي لا يرقى ترابه إلى نارنا، وذلك الأدمي هو الذي  
عاقبني على هفوة من هفوات القلب يغفر الله أكبر منها  
برحمته...

فقال جصّة بأمل متصاعد:

- هنيئًا لك الحرّية فانطلق واستمتع بها...

قال بسخرية:

- أراك تطمع في النجاة!

- بما كنت الوسيلة إلى خلاصك!

- ما حرّرتني إلا القدر...

فقال جصّة بلهفة:

- وكنت أداة القدر...

فقال بحقّ:

- في سجن الطويل امتلأت بالحنق والرغبة في  
الانتقام...

فقال بضراعة:

قمقام يمثل القوّة التي حُفِر بها اسم سنجم... فذكر اعترافات صنعان في صورة جديدة فخيّل إليه أنّ صديقه القديم راح ضحيّة تعيسة... وتساءل بقلق عمّا يجتبه له الغيب!

- ٥ -

طوى سرّه في صدره... حتّى رسميّة زوجته لم تعلم به... وهو سرّ يثقل على الصدر والقلب ولكن ما الحيلة؟... إذا فشا به يوماً أضمرّ بمركزه وأفقده وظيفته... وأرق الليل متفكراً في العواقب مصمّماً على الخذر. سنجم مؤمن فيما بدا وسيحفظ له جميل تحريره ولو صدفة... نام عقب صلاة الفجر ساعة ثمّ استيقظ على حال أفضل... كان بطبيعته قوياً يتحدّى الصعاب والوساوس... لقد استأنس السلولي والهمذاني وليس سنجم بأشدّ مراسماً منها... وقالت له رسميّة وهما يشريان لبن الصباح:

- أمس زارتي جارتنا القديمة أمّ السعد...  
توتّرت أعصابه فجأة... قدّر خطورة الزيارة تقدير شرطيّ عالم ببواطن الأمور وقال بجفاء:  
- أرملة مسكينة ولكن...  
وتردّد لحظة ثمّ واصل حديثه:  
- ولكنّ زيارتها لنا تضرّ بمركزي...  
- حالها تقطّع القلب...  
- هكذا حال الدنيا يا رسميّة ولكنّ لندع ما لله الله!

- جاءت بأمل أن تعينها على تقديم التماس للحاكم بردّ أملاك الأسرة...  
فهتف:

- يا لها من جاهلة!...  
- قالت إنّ الله لا يأخذ الأبناء بذنوب الآباء...  
- شهريار نفسه هو الذي أصدر الحكم!  
ثمّ قال بوضوح:

- صنعان كان صديقي ولكن ما قدّر كان، ولعلّ قتل البنّت بعد اغتصابها لا يعدّ شيئاً بالقياس إلى قتل حاكم الحيّ، فالسلطان يعتبر الضربة الموجهة إلى نائبه

- وقعت أنا أيضاً في شبك السحر وهو يضاهي السجن في عذابه...  
- ما تصيبنا آفة إلا من بني آدم...  
- في فترة غيابك وقعت أحداث وأحداث فلعلّك يهّمك أن تلمّ بما فاتك...  
- بل، ولكنيّ أريد أن أتخذ قراراً نحو هذا الأدميّ...  
- دعنا منه الآن، هيهات أن يفلت من يديك إذا أردته، ولكن لا تتخذ قراراً وأنت حاتق، فما هلك منّا عفريت إلا فريسة لغضبه، هلمّ بنا إلى جبل قاف نحتفل بتحرّرك...  
قال سنجم مخاطباً البلطي:

- إلى اللقاء يا كبير الشرطة...  
مضى الوجود المهيمن يخفّ حتّى تلاشى تماماً...  
استردّ جمصة حرّيّة أعضائه ولكنّه تهاوى فوق سطح القارب خائر القوى وشملاً بالأمان في آن...  
- ٤ -

وثب جمصة البلطي إلى الشاطئ فاستقبله العبد منحنياً ثمّ مضى يطوي الشبكة وهو يقول:  
- ما في الشبكة سمكة واحدة...  
فقال جمصة بريق جاف:  
- أكنت تنظر نحوي وأنا في القارب؟  
- طيلة الوقت يا مولاي...  
- ماذا رأيت؟

- رأيتك وأنت ترمي الشبكة، وأنت تنتظر، ثمّ وأنت تجذبها، لذلك أدهشني أن أجدها فارغة...  
- ألم ترّ دخاناً ينتشر؟

- كلاً يا مولاي...  
- ألم تسمع صوتاً غريباً؟

- كلاً...  
- لعلّك غفوت!

- أبداً يا مولاي...  
- ما كان بوسعك أن يشكّ فيما وقع له... إنه حقيقيّ أكثر من الحقيقة نفسها... وقد حُفِر في ذاكرته اسم

## ليالي الف ليلة ٣٨٧

البلطي، ومهتني الأولى كما تعلم هي مطاردة الشيعة والخوارج...

فقال فاضل بصوت منخفض:

- لست منهم، وقد كنت تلميذاً في مطلع حياتي للشيخ عبد الله البلخي...

- وكنت أنا أيضاً تلميذه، من مدرسة البلخي يخرج كثيرون، أهل الطريق، أهل السنة، كما يخرج شياطين منحرفون عن الخط الأول...

- يُقَى يا سيدي من أنني أبعد ما يكون عن الشياطين...

- لك رقاء ورفقاء منهم!

- لا شأن لي بعقائدهم!...

فقال محذراً:

- في البداية رفقة بريشة ثم تحيء النكسة، وهم مجانين، يكفرون الحكام، ويفررون بالفقراء والعييد، لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، كأن الله اصطفاهم دون عباده، احذر مصير أبيك فللسلطان طرق شتى، أما أنا فلا أعرف إلا واجبي، وقد بايعت السلطان كما بايعت حاكم الحبي، على إسيادة المارقين...

فقال فاضل بنيرة فاترة:

- تؤكد يا سيدي من أنني أبعد ما يكون عن المارقين...

فقال جصة:

- منحتك نصيحة أبوية فقدرها...

- شكراً لمروءتك يا سيدي...

وجعل يتفرس في وجهه بحثاً عن مواقع الشبه بينه وبين حسنية أخته، وانتشى لحظات بالوجد، ثم قال:

- وثمة مسألة أخرى، أرجو أن تبلغ والدتك أن

تقديم الناس برداً أملك الأسرة يُعتبر تحدياً للسلطان،

فلا حول ولا قوة إلا بالله!

فقال فاضل بتسليم:

- هذا هو رأيي أيضاً يا سيدي...

وانتهت المقابلة في سرية كما بدأت، وتساءل جصة

ترى هل يتاح له يوماً أن يستدعيه ليطلب منه يد

حسنية؟!

موجهة إلى شخصه، وما زال السلطان سفاكاً رغم تغيره الطارئ، فلا تشجيعها على التردد عليك وإلا حلت بنا لعنة لا قبيل لنا بها...

فوجت المرأة منكسرة الفؤاد فقال:

- إني في الحزن مثلك ولكن لا حيلة لنا...

- ٦ -

إنه صادق في ما قال... حزنه على آل صنعان لم

ينقشع، ومرجع ذلك ليس إلى العشق وحده...

أحب الرجل من قبل أن يحب كريمته... وهو لا يخلو

دائماً من عواطف طيبة، ومن ذكريات دينية، ولكنه لا

يجد بأساً من ممارسة الانحراف في عالم منحرف...

الحق أنه لا يوجد قلب في الحبي كقلبه في جمعه بين

الأسود والأبيض... لذلك دعا فاضل صنعان إلى

داره في زيارة أحاطها بالكتان... جاء الفتى في زيّه

الجديد المكون من الجلباب والصندل، زيّ السباع

الجوال... أجلسه إلى جانبه في المنطرة وقال:

- يسرتي يا فاضل أنك تواجه مصيرك بشجاعة

فائقة...

فقال فاضل:

- أحمد الله الذي أبقى على ديني بعد ضياع الجاه

والمال...

أعجب به حقاً وقال:

- استدعيتك احتراماً لعهدنا القديم...

- بارك الله فيك يا سيدي...

فنظر إليه ملياً ثم قال:

- لولا ذلك لأبحت لنفسي القبض عليك...

فدهش فاضل متسائلاً:

- تقبض علي؟... لماذا يا سيدي؟

- لا تتظاهر بالجهل... ألم يكفكم ما حاق بكم

من شر؟!، اشع لرزقك بعيداً عن مصاحبة المخربين

من أعداء السلطان!

فقال فاضل بوجه شاحب:

- ما أنا إلا بائع جوال...

- دع المناورة يا فاضل، لا شيء يغيب عن جصة

- ٧ -

- الصعاليك الذين سبق القبض عليهم ينطلقون الآن للانتقام...  
 - ثبت من اعتراف صنعان الجمالي أنهم كانوا أبرياء...  
 - لذلك فهم ينتقمون ولا مفر من اعتقالهم مرة أخرى...  
 فقال الحاكم بحدة:  
 - لقد سخط الوزير دندان على اعتقالهم في المرة الأولى فلن أسمح به مرة أخرى...  
 فقال جمصة البلطي بأسى:  
 - على أي حال إنني أخوض معركة بقوة لا تعرف الهوادة...  
 فقال الحاكم:  
 - لا بد من ضبط الأمن ولأ عزلتك!...  
 هكذا غادر جمصة البلطي دار الإمارة بجزر أذبال الإهانة لأول مرة في حياته...

- ٩ -

غضب حيال الإهانة فهيمنت عليه طبيعته القويّة المتحدية... غاضت نوازع الخير فتوارت في أعماق بعيدة... تصدّى للهزيمة بوحشية رجل يستبيح أي شيء في سبيل الدفاع عن سلطته... لقد استوعبته السلطة وخلقته خلقاً جديداً فتناسى الكلمات الطيبة التي تلقاها على يد الشيخ في الزاوية على عهد البراءة... سرعان ما جمع أعوانه فصب عليهم السيل الذي انصب عليه في بهو الإمارة وفتح نوافذ الجحيم على مصراعها... وكلما وقع حادث جديد قبض على عشرات بلا دليل أو قرينة وعذبهم بلا رحمة... وخفت تبعاً لذلك متابعتها للشيعية والخوارج فضاعفوا من نشاطهم، وحرروا الصحائف السرية التي تطفح بتجريم السلطان والولاية وتطالب بالاحتكام إلى القرآن والسنة... وجن جنونه فاعتقل الكثيرين حتى خيم الخوف على الحيّ جميعاً ومادت به الأرض... واستنطق الممداني عنف الإجراءات ولكنّه أغمض

لعمل جريمة صنعان الجمالي هي الحدث الخطير الوحيد الذي وقع في خدمة جمصة البلطي... ولم يحمله أحد مسئوليته خاصة بعد ما عرف من تدخل العفريت فيه... وليس كذلك ما يقع اليوم في الحيّ... فقد تتابعت حوادث قطع طريق داخل سور الحيّ وخارجه بكثرة مزعجة، فهبت أموال وسلع واعتدي على رجال... وغضب جمصة البلطي غضب شرطي قدير حائز للثقة... بث المخبرين في الأماكن النائية، ونشر الدوريات نهاراً وليلاً، وتفقد الأماكن المشبوهة بنفسه ولكنّ الحوادث مضت في جريانها هازئة بنشاطه ولم يقبض على مجرم واحد...  
 وقال كرم الأصيل صاحب الملايين في مقهى الأمراء:  
 - كان حال الأمن أفضل على عهد المرحوم السلولي...  
 فقال الطبيب عبد القادر المهيني ضاحكاً:  
 - لم يوجد قاطع طريق في عهده سواء!  
 فقال عجر الخلاق:  
 - جمصة البلطي في أسوأ أحواله...  
 وهو يطلع على أحوال السادة وهو يقدم لهم خدماته كحلاق- في دورهم، فقال إبراهيم العطار:  
 - الأمن حياة التجارة، والتجارة حياة الأمة، أقترح أن يذهب متاً وفد إلى حاكم حينا الممداني...

- ٨ -

ودعا خليل الممداني جمصة البلطي إلى دار الإمارة وقال له بعنف:  
 - المدينة تخرب وأنت تغط في النوم...  
 فقال كبير الشرطة بصوت منهمز:  
 - ما نمت وما قصرت...  
 - العبرة بالخواتيم...  
 - إن يديّ مغلولتان...  
 - ماذا تريد؟



## ليالي الف ليلة ٣٨٩

- ماذا تعرف عن الكبراء؟
- كل كبيرة وصغيرة، ما هم إلا لصوص أوغاد!
- فقال الصوت متهكياً:
- لكتك تحميمهم بسيفك البتار وتطارد أعداءهم الشرفاء من أهل الرأي والاجتهاد...
- إني منقذ الأوامر وطريقي واضحة...
- بل تطاردك لعنة حماية المجرمين واضطهاد الشرفاء...
- ما فكر رجل وهو يؤدي واجبي هذا إلا هلك...
- إذن أنت أداة بلا عقل...
- عقلي في خدمة واجبي فحسب...
- عذر من شأنه أن يهدر إنسانية الإنسان...
- ولم في وجدانه خاطر فتفتحت له أبواب ونوافذ، فقال بدهاء:
- الحق آتي لست راضياً عن نفسي...
- محض كذب...
- فقال بحرارة:
- لم أفلح أبداً في اقتلاع المواتف الشريفة، إنها دائماً تحاورني في سكون الليل...
- لا أجد لها أثراً في حياتك...
- فقال بلباقة:
- تعوزني قوة تسندني عند الحاجة!
- بل إنك تطارد المواتف الشريفة كما تطارد الشرفاء...
- فقال بتحد:
- إني أضع نفسي تحت الاختبار...
- أفصح عما تريد...
- اجعل قوتك في مساندي لا في معاندي...
- ماذا تريد؟
- أهلك المجرمين واحكم الأمة حكماً عادلاً نقيماً!
- جلجلت ضحكة ملأت الكون وقال:
- توذ أن تمكرب لي لتحق أحلامك الدفينة في القوة والسلطان!
- كوسيلة لا كغاية!
- ما زال قلبك غارقاً في العبودية!

عينه طمعاً في الفرج... على ذلك كله ازدادت الحوادث عدداً وغنفاً...

- ١٠ -

- انهزم جمصة البلطي ولكتنه أبي الاعتراف بالهزيمة... وجعل بيت ليالي عديدة في دار الشرطة حتى تسلط الإرهاق على قوته الحارقة... وغلبه النوم مرة في حجرة عمله فاستسلم له كأسد جريح... لم يفز بالراحة المنشودة ولكتنه طرح تحت ثقل وجود غليظ احتل جوارحه... همس في حيرة:
- سنجم!
- فجاء الصوت مقتحماً وجدانه:
- أجل يا كبير الشرطة!
- فسأله مستكراً:
- ماذا دعاك إلى الحضور؟
- غباء من يدعون الذكاء!
- تنور عقله فجأة بحقيقة لم تجر له في خاطر فقال:
- الآن عرفنا سر قطاع الطريق الذين لا يعثرون لهم على أثر!
- الآن فقط؟
- من أين لي أن أحن أنك صاحبهم!
- اعترف رغم غرورك بأنك غبي...
- فسأله بتحد:
- كيف هان عليك نهب الأموال وذكر الله يتردد على لسانك؟!
- لم يصب غضبي إلا الطغمة المستغلة للعباد... فتأوه قائلاً وكأنما يجاد نفسه:
- سأفقد عملي من أجل ذلك...
- إنك أيضاً من الطغمة الفاسدة...
- فقال بفخار:
- إني مثل أعلى في أداء الواجب...
- وللمال الحرام؟
- ما هو إلا فتات تتساقط من موائد الكبراء...
- عذر قبيح...
- إني أعيش في دنيا البشر...

الشرفاء... نسي الله حتى ذكره به عفریت من الجن...

- ١٢ -

وجد خليل الهمذاني واقفاً وسط البهو كرمح مستعد للقتال... قال جمصة بهدوء:  
- سلام الله عليك أيها الأمير...  
فصاح الحاكم بصوت متهدج من شدة الغضب:  
- انعدم السلام بوجودك...  
فقال بحزن:  
- إنني أعمل حتى الموت...  
- لذلك سُرقت جواهر حريمي من أعماق داري!  
فاق ذلك توقعه... تساءل عما يريد سنجام...  
وجم صامتاً... صاح خليل الهمذاني:  
- ما أنت إلا حشاش أو شريك اللصوص...  
قال بصوت غليظ:  
- إنني كبير الشرطة...  
فصرخ:  
- موعدنا المساء وألا عزلتك وضربت عنقك...

- ١٣ -

أي جدوى تُرجى من البحث؟ ماذا يفعل رجاله حيال قوة سنجام؟. سوف يُعزل ويفقد شرفه وتُضرب عنقه... إنه مصير طالما ساق الناس إليه فكيف يتهمه!... لكن جمصة لن يقبل مصيره دون دفاع، ودون دفاع شرس... أمامه نهار واحد ولا وقت للتردد... ها هي حياته صفحة مبسوطة أمام عينيه... شهادة مجسدة ومرعبة... بدأت بعهد الله وانتهت بعهد الشيطان... عليه أن يزلزها قبل الموت... وخطر الشيخ على قلبه كما تحظر نسمة شاردة في جحيم القيظ... هفت محمولة بين طيات مقطرة من حنين... قال لنفسه «هذا وقته»... جذبته على أي حال من أعماق أعماقه، عندما هتكت الأحزان القشرة الصلبة الملطخة بالدماء...

- جربني إذا شئت...  
- إنني عفریت مؤمن ولا أتجاوز حدودي أبداً...  
فقال جمصة يائساً:  
- إذن فابعد عن طريقي بسلام...  
- الحق أتى ففكرت بهدوء فوق جبل قاف فاقنعت بأنك أدت لي خدمة غير منكورة وإن تكن غير مقصودة ففكرت أن أرد الصنيع بمثله ودون تجاوز للحدود...  
فقال بحيرة:  
- ولكنك تفعل نقيض ما تقصد؟  
- يا لك من غبي!  
فقال بتوسل:  
- أوضح لي هدفك...  
- لك عقل وإرادة وروح!  
- ألي علي بصيصاً من نور...  
- لك عقل وإرادة وروح...  
هم بالتوسل إليه ولكن الآخر أطلق ضحكة ساخرة، ثم سحب وجوده بسرعة وتلاشى...  
استيقظ جمصة البلطي على نقر على الباب...  
دخل وكيله ليخبره بأنه مدعو إلى لقاء الحاكم الهمذاني...

- ١١ -

تمنى لو ترك لنفسه ليتأمل ولكنه لم يجد من الذهاب بدأ... ما توقع خيراً من المقابلة... لم يعد ينتظر خيراً على الإطلاق... اختفت بروق الآمال في سماء الخريف وصمت طبول النصر... سيتأرجح طويلاً بين وعيد الحاكم وعبث سنجام... غاص في دوامة لا قرار لها فوق متن بقلته في الطريق إلى دار الإمارة... الطريق مغمم بالحركة والصوت، تحاصره مطالب الحياة، الأعين تتابعه بازدياد... لا سرور ولا غرور... انقضت أيام الاختيال... حقير يقتات على الحفارة، هذا ما أقنعه به سنجام... عزاؤه الوحيد كان أنه سيف الدولة... فل سيف وتقوض الأمن فأي وزن له؟!... لص قاتل حامى المجرمين ومعذب

غادر دار الشيخ موزعاً بين الشك واليقين... كأن  
 الشيخ يعرف حكايته وقراره، وكأنه يبارك قراره تحت  
 شرط أن يكون من أجل الله وحده؟!... ألم يلعب  
 اليأس دوراً؟ ألم يلعب الدفاع عن النفس دوراً آخر؟  
 ألم تلعب الرغبة في الانتقام دوراً ثالثاً؟ ترى هل يهون  
 من شأن التوبة أن تسبق بمعصية؟!... العبرة بالنية  
 الأخيرة وبالإصرار عليها حتى النهاية... إنه على أي  
 حال يدفن جمصة القديم ويبعث آخر جديدًا... ولما  
 قرَّ قراره تهتد بارتياح عميق... وتضاعف نشاطه طيلة  
 الوقت فزار داره وجالس رسمياً زوجته وأكرمان ابنته،  
 فجاش صدره بعواطف حارة خفية أشعرته بوحدته  
 أكثر وأكثر... حتى سنجام تركه لوحده... غير أن  
 تصميمه كان نهائياً ولم يعرف التردد... وواجه أخطر  
 موقف في حياته بشجاعة نادرة وإقدام لا يلوي على  
 شيء... ورجع إلى مركز عمله فأفرج بقوته الذاتية  
 عن الشيعة والخوارج في ذهول كامل شمل الجنود  
 والضحايا... وعند مطلع المساء مضى من توه إلى دار  
 الإمارة... أعرض عن النظر إلى الوجوه والأماكن في  
 طريقه كأنها لم تعد تعنيه... ورأى أخيراً خليل  
 الهمذاني ينتظر في هدوء وتصميم فلم يشك في أنه اتخذ  
 قراره أيضاً... ضمهما البهو في وحدة إلا من عذابات  
 البشر المتجمعة وراء الوسائد والطنافس... وشهود  
 من جميع الأجيال الغابرة... لم يتبادلا تحية وسأله  
 الحاكم ببرود:

- ماذا وراءك؟
- فأجاب جمصة البلطي بثقة:
- كل خير!
- فتساءل الرجل بتفاؤل طارئ:
- قبضت على اللص؟
- من أجل ذلك جئت... فقطب الحاكم متسائلاً:
- أتظنته في داري؟
- فأشار جمصة إليه قائلاً:
- ها هو يتكلم بلا حياء... ذهل خليل الهمذاني وهتف:

وجده في حجرة الاستقبال البسيطة كأنه ينتظر...  
 انحنى فوق يده صامتاً وترجع على شلته بين يديه...  
 تنتنق الذكريات كعطر ورده محتطة، وتجسدت له في  
 الفراغ آيات وأحاديث، ومخلفات من النوايا الطيبة  
 كالدماء... ارتوى من السكينة حتى غلبه الحياء فقال  
 بحزن:

- إني أقرأ شعورك نحوي يا مولاي...  
 فقال عبد الله البلخي بهدوئه الخالد:
- علم ذلك عند الله وحده فلا تدع ما ليس لك به  
 علم...  
 فقال بحزن:
- أنا في رأي الناس شرطي سفاوح...  
 - ترى لم يزورني السفاوحون؟  
 فقال متشجعاً:
- ما أعذبك يا مولاي! الحقيقة أن لدي حكاية أود  
 أن تسمعها...  
 فقال بزهد:
- لا رغبة لي في ذلك...  
 - يجب أن اتخذ قراراً وهيئات أن يدرك مغزاه دون  
 سرد الحكاية...  
 - القرار كافٍ لإدراك مغزى الحكاية...  
 فقال بقلق:
- الأمر يحتاج إلى مشاورة...  
 - كلاً إنه قرارك وحدك...  
 فقال بتوسل:
- اسمع حكايتي العجيبة...  
 فقال بهدوئه:
- كلاً، يهمني أمر واحد...  
 فسأله بلهفة:
- ما هو يا مولاي؟  
 - أن تتخذ قرارك من أجل الله وحده...  
 فقال بحيرة:
- لذلك أحتاج إلى الرأي...  
 فقال الشيخ بهدوء حازم:
- الحكاية حكايتك وحدك والقرار قرارك  
 وحدك...

- ١٦ -

استدعي جمصة البلطي مكبلاً بالحديد للمثول أمام العرش في بهو الأحكام... وتبدى شهريار في عباءته الحمراء التي يرتديها إذا جلس للقضاء، على رأسه عمامة عالية تتراسل في جنباتها فصوص الجواهر النادرة... إلى يمينه وقف دندان، وإلى يساره رجال السلطنة، على حين اصطفت الحرس على الجانبين أما وراء العرش فقد مثل شبيب رامة السياف... تجلّت في عيني السلطان نظرة ثقيلة محمّلة بالفكر، ومضى يتفرّس في وجه كبير الشرطة ملياً، ثمّ سأله:

- ألا تقرّ بفضلتي عليك يا جمصة؟  
فأجاب الرجل بصوت قويّ مثير للأعصاب:  
- بلى، أيها السلطان...  
فأنس السلطان منه تحدّياً لموقفه المكبّل بالحديد فقطّب وسأل:

- أتعترف بأنك قتلت خليل الهمذاني نائبي في حيكيم؟  
- أجل أيها السلطان...  
- ماذا دفعتك إلى ارتكاب جريمتك الشنعاء؟  
فقال بوضوح ودون مبالاة بالعواقب:  
- أن أحقّق إرادة الله العادلة!  
- ومَن أدراك بما يريد الله سبحانه؟  
- هذا ما ألهمته خلال حكاية عجيبة غيرت مجرى حياتي!  
انجذب وجدان السلطان نحو لفظة «حكاية» فتساءل:  
- وما الحكاية؟

روى جمصة البلطي حكايته... مولده من أبوين من عامّة الشعب، تلمذته في الزاوية على الشيخ عبد الله البلخي، انفصّاله عن الشيخ بعد تعلّم مبادئ الدين والقراءة والكتابة، قوّة بدنه التي أهلته للخدمة في الشرطة، اختياره كبيراً للشرطة لكفاءته النادرة، انحرافه خطوة فخطوة حتّى انقلب مع الزمن حامياً للمنحرفين وجلاًداً لأصحاب الرأي والاجتهاد، ظهور سنجام في حياته، أزمامته المتتابعة، وأخيراً تويته الدامية...

- جنت وربّ الكعبة!

- إنه الصدق يقال لأول مرّة...  
تحفّز الحاكم للعمل فامتشق جمصة سيفه وهو يقول:  
- ستنال جزاءك الحقّ...  
- جنتت، إنك لا تدري ما تفعل...  
فقال يهدوء:  
- إنّي أقوم بواجبي!  
فقال باضطراب وذعر شامل:  
- عُدّ إلى رشدك، إنك تلقي بنفسك إلى النطح...  
فوجّه إلى عنقه ضربة قاضية فاختلطت صرخته المذعورة بخواره واندفع الدم مثل نافورة...

- ١٥ -

ألقي القبض على جمصة البلطي وانترج السيف من يده... لم يحاول الهرب... ولم يقاوم، آمن بأن مهمته قد انتهت... لذلك حلّ به هدوء وصفاء ذهن وعلت في وجدانه موجة الشجاعة الخارقة، فشمع بأنّه يحظر فوق جلاديه، وبأنّه لا يبالي الموت بأيّ قدر جاء... وقال لنفسه إنّ الإنسان أعظم ممّا تصوّر، وإنّ الدنيا التي اقترفها لم تكن جديرة به على الإطلاق، وإنّ الإذعان لسطوتها كان هوأنا دفعه إليه السقوط والتتكرّر لطبيعته الإنسانية... وقال أيضاً إنّه يمارس الآن عبادة صافية يغسل بطهرها قدر أعوام النفاق الطويلة...

وانتشر الخبر مع هواء الخريف فصار حديث العامّة والخاصّة، وفجر الذهول وتساؤلات لا حصر لها ولا عدّ... وتضاربت النبوءات واحتدم هذيان المجاذيب فانطلق الاضطراب يجتاح الحيّ والمدينة ويصعد بهرجه إلى القصر السلطاني... وما لبث أن انتقل الوزير دندان إلى دار الإمارة بالحيّ على رأس كوكبة من الفرسان...

## ليالي الف ليلة ٣٩٣

الأخريين لا يلتفت إليه أحد... ربه... المدينة منحشرة في ميدان العقاب... نساء ورجال وأطفال... في الصدر السلطان ورجال الدولة... النطع في الوسط وشييب رامة ونفر من المساعدين... لم تحضر رسميّة ولا أكرمان فهذا حسن... ما أكثر الوجوه التي عرفها وتعامل مع أصحابها... إنّه ينتقل من مكان إلى مكان فلا يتبته إليه أحد... أما جمصة البلطي فيقترب من النطع بين حراسه... وجه واحد تراهى له كثيرًا حتى عمج لشأنه هو وجه سحلول تاجر المزايدات والجواهر... وعندما هيمنت لحظة الصمت المؤثر، وخطف النطع الأبصار من جميع الجهات، خفق قلبه، وخيل إليه أنّه سيلفظ روحه عقب سقوط رأس الآخر. وفي اللحظة المفعمة بالصمت ارتفع سيف شييب رامة، ثم هوى كصاعقة، فسقط الرأس، وختمت حكاية جمصة البلطي.

توقّع جمصة البلطي الموت ولكنّه مرّ به وذهب... وتضاعف ذهوله وسط تيار المنصرفين حتى خلا الميدان تمامًا... تساءل «أنا جمصة البلطي؟» وإذا بصوت سنجام يقول:

- كيف تشكّ في ذلك؟

فهتف الرجل في غاية من التأثر:

- سنجام!... أنت صاحب المعجزة!

- إنك حيّ، وما قتلوا إلا صورة من صنع يدي!

- إني مدين لك بحياتي فلا تتخلّ عني...

فقال بوضوح:

- لا، الآن لا عليّ ولا لي، أستودعك الله...

فهتف مدعورًا:

- كيف لي بالظهور أمام الناس؟!

فقال الصوت:

- هيهات أن يعرفك أحد، انظر في أوّل مرآة

تصادفك...

تابعه شهريار باهتمام... وضح أنّه انفعّل بأقواله انفعالات متضاربة... قال ببرود:

- سنجام جمصة، عقب قمقام صنعان الجمالي، أصبحنا في زمن العفاريت الذين لا همّ لهم إلاّ قتل الحكّام!

فقال جمصة:

- ما زدت على الحقيقة حرفًا والله شهيد...

- لعلك تحلم بأن يتذكك ذلك من العقاب؟

فقال باستهانة:

- إقداامي يقطع بأنني لا أبالي...

فقال شهريار بحدّة:

- سنجعل منك مثلاً للمتمرّدين، فليضربنّ عنقك، وليعلّقنّ رأسك فوق باب دارك، ولتصادر أموالك...

## - ١٧ -

في سجن تحت الأرض، وفي ظلام... كافح آلامه واستمسك بشجاعته... أثار حتى السلطان فانتصر عليه... تركه فوق عرشه يتعثر في هزيمته... وتذكّر بأسى رسميّة وأكرمان... وطافت بخياله حسنيّة... ستلقى أسرته من الهوان ما لقيته أسرة صنعان ولكنّ رحمة الله أقوى من الكون... وظنّ أنّ السهاد لن يفارقه ولكنّه نام نومًا عميقًا لم يستيقظ منه إلاّ على جلبة وضوء مشاعل... لعلّه الصباح، وما هم الجنود قد حضروا ليسوقوه إلى النطع... سيكتظّ الميدان بأهل الفضول وسيموج بالعواطف المتضاربة... ليكن... ولكن ماذا يرى؟... يرى الجنود تنهال بالركلات على جمصة البلطي، وهذا يستيقظ فزغًا متأوّمًا... ما معنى هذا؟... أمجلم؟... إذا كان هذا هو جمصة البلطي فمن يكون هو؟! كيف لا يتبته إليه أحد وكأنّما هو غير موجود؟! ذهل وخاف أن يفقد عقله... بل لعلّه فقد عقله... إنّه يرى جمصة البلطي أمامه... الجنود تسوقه إلى الخارج... وإنه - بخلافه - شديد الفزع والانهيار... وجد نفسه أيضًا محرّرًا من القيد، فعزم على مغادرة السجن، وتبع

## الحَمَام

- ١ -

من أعلى باب الدار تدلَّى رأس جمصة البلطي...  
الرائحون والغادون ينظرون إليه، يتوقفون قليلاً ثم يذهبون، وجمصة البلطي ينظر مع الناظرين...  
ينظرون بفضول أو رثاء أو شهامة... أما هو فينظر بذهول... ولم يكن أفاق من كربيه حينما شهد طرْد زوجته وابنته من الدار... وقد مرَّ به دون اكتراث وهو متصوّر في صورة حبشيّ مفلغل الشعر خفيف اللحية ممشوق القامة... عَجِبُهُ من منظر رأسه لا ينقضي، أما حزنه على أسرته فلا نهاية له... ويموم حول الدار فتترامى إلى أذنيه التعليقات المتضاربة تحت الرأس المعلق... السادة - مثل كرم الأصيل والعطّار والبرّاز - يلعنونه بلا رحمة، والعائمة يوثون له... وقد أشرف على مصادرة داره الحاكم الجديد يوسف الطاهر وكاتم سرّ بطيشة مرجان وكبير الشرطة الجديد عدنان شومة... فتساءل عمّا ذهب إلى بيت المال وعمّا دُسّ في الجيوب... وظلّ قريباً من الرأس المعلق ينظر ويتأمل ويسمع... ورأى عجر الحلاق وهو يقول لإبراهيم السقاء مشيراً إلى الرأس:

- قتلوه جزاء الفعل الخير الوحيد في حياته... -

فتساءل السقاء:

- لمّ لمّ ينقذه عفريته المؤمن؟

فقال الحلاق محدّراً:

- لا تخض في ما لا تعلم... -

فصدّق معروف الإسكافيّ على قوله... ورأى سحلول تاجر المزايدات والتحف وهو ينظر نحو الرأس بلا مبالاة فتذكّر نشاطه العجيب يوم الإعدام... وكما كان التاجر وحده فقد اقترب منه وسأله:

- هلاً تورت غريباً يحكاية صاحب هذا الرأس؟

فحدّجه سحلول بنظرة ارتجف لوقعها جسمه... خيّل إليه أنّها نقلت إلى أعماقه فازداد الرجل في نظره غموضاً على غموض... وقال له سحلول وهو يمضي عنه:

- لا أعرف عنه أكثر من الآخرين... -

أتبعه ناظره حتى اختفى ثم قال لنفسه ولعلّه ترقّع عن محادثة حبشيّ غريب!... وتذكّر تاريخه - كشرطيّ سابق عالم بأحوال الناس - فشهد له بأنّه التاجر الكبير الوحيد الذي لم ينشئ علاقة مريبة معه أو مع الحاكم!... ثمّ سرعان ما نسيه في زحمة التأمّلات... ورأى رجب الحمال ينضمّ إلى موقف عجر وإبراهيم ومعروف فقصده مدفوعاً بخطّة رسمها من قبل... حيّاه وقال:

- إني حبشيّ مهاجر وأريد أن أعمل حمالاً!

فتذكّر رجب صديقه الأوّل السنديباد ولكنه قال:

- هلمّ معي والله رزاق كريم... -

- ٢ -

حام بروحه وجسده حول أسرته... ما قيمة الحياة إذا ما انفصل عن أسرته ورأسه؟! وظلّ يتبع رسميّة وأكرمان حتى استقرّتا في حجرة بالربيع الذي يقيم فيه آل صنعان... ولم يتردّد فاكترى لنفسه حجرة في نفس الربيع وعُرف بعبد الله الحمال... وسرّه في غيوم القلق أنّ أمّ السعد هي التي قادت أسرته إلى ماواها الجديد... سرّه أنّ أمّ السعد لم تنسّ الجيرة القديمة... ولم تنسّ سعي رسميّة إلى مساعدتها في محتتها... وسوف تشارك رسميّة زوجته في صنع الحلوى فيسرح بها فاضل صنعان لحساب الأسرتين... سرّ بذلك أيّما سرور وسرّ أيضاً بجيرته لهم فيهنّا برؤيتهم ويطمئنّ على أحوالهم ويمارس ما يتاح له من زوجيّة وأبوة وعشق من بعيد، من موقع معزول لا يدري به أحد... وتوقّع أن يتزوّد فاضل من ابنته أكرمان كما اتّفق قديماً مع صنعان، وكما حلم هو يوماً من الزواج من حسنيّة أخت فاضل... واصل تلك الحياة الغريبة... يشعر أحياناً أنّه حيّ، وأحياناً أنّه ميت... -

- ٣ -

أجل إنّه عبد الله الحميّ وجمصة الميت معاً... تجربة

## ليالي القليلة ٣٩٥

أن تجري أحوال العباد... وتساءل في قلتي:  
- هل بقيت في الحياة بمعجزة لأعمل حملاً؟!

- ٤ -

جعل شهر يار ينظر إلى أشباح الأشجار المتهمسة في الليل... ربض السلطان في مجلسه بالشرقة الخلفية رغم أن الخريف كان ينسحب أمام طلوع الشتاء... إنه أقدر على تحمل البرد منه على معارضة طوفان أفكاره... والتفت نحو وزيره دندان متسائلاً:

- أتكره الظلام؟

فقال الوزير بولاء:

- إني أحب ما يحب مولاي...

إنه يتساءل دائماً: ترى هل تغير السلطان حقاً أو إنها وقفة عابرة؟! ولكن مهلاً... كان في ماضيه حاسماً واضحاً قاسياً بليد الإحساس، الآن سرعان ما تومض في عينيه نظرة حائرة... قال دندان:

- الأمة سعيدة وتلهج بالشكر...

فتتم السلطان بخشونة:

- قُتل علي السلوي وسرعان ما لحق به خليل

الهمذاني!

فقال دندان بإشفاق:

- الشر والخير كالليل والنهار...

- والعفاريت؟!

- أمام النطع يختلق المجرم ما يستطيع...

فقال بهدوء:

- ولكنني أتذكر حكايات شهرزاد!

فخفق قلب دندان وقال:

- لا بد أن يلقي القاتل جزاءه...

- الحق أنني أوشكت أن أكتفي بسجن جمصة

البلطي!

ثم بحنق:

- ولكنني أعدمته جزاء وقاحته في غاطبي...

قال دندان لنفسه إن مولاه لم يتغير منه إلا سطحه

ولكنه قال:

- على أي حال نال الشقي جزاءه...

غريبة لم يمارسها إنسان من قبل... يسعى إلى رزقه في رحاب زمالة رجب فيتذكر أنه حي... يعبر الطريق تحت رأسه المعلق أو يرى رسمية وأكرمان فيتذكر أنه ميت... ولم يغفل أبداً عن معجزة إنقاذه من الموت فعزم على السير حتى النهاية في طريق التقوى... يجد سروره في العبادة وينعم في وحدته بذكر الله... ويناجي رأسه المعلق فيقول «لتبقي رمزاً على موت الشرير الذي عبث بروحي طويلاً... على أن صدره فاض بحنين دائم نحو شخصيته الزائلة... تلك الشخصية التي توجت حياتها بتوبة صادقة... مثير جداً أن يموت الإنسان وهو حي أو يحيا وهو ميت... فمنذا يمكن أن يصدق أنه جمصة البلطي بجوهره الدفين؟ وهل يحتمل أن ينفرد بهذا السر وحده إلى الأبد؟! حتى رسمية وأكرمان تنظران إليه كغريب وافد من بلاد غريبة... لذلك يشعر حيال نظرتيها غير المبالية بغربة قاسية وظلم معذب... لم تفتننا ولو مرة واحدة إلى الحب الراسخ وراء نظرتي المسترقة... لم تعكسا لأشواقه صدى... تطل من عينيها نظرة تمجد تنفيذ الإعدام فيه كل صباح وكل مساء... حتى حزنها لذكراه لم يكن يمسه بأنامل العزاء... ويحز في نفسه ابتعادها الوثيد عن ذكراه في ما تفوصان فيه من هموم الحياة اليومية... لن تصدقا الحياة الموهوبة له بمعجزة ولن تتقبلاها... لقد تجرعتا غصص موته، وعانتا كرباتها، وعرفتنا الحياة بدونها، والخروج من الوضع الجديد مزعج مثل الدخول فيه... وهو لن يقدم على تقويض البناء الجديد ولا يستطيعه... من مات يجب أن يستمر في الموت رحمة بمن يحب... وعليه أن يآلف موته في حياته الجديدة... ليكون عبد الله الحسب لا جمصة البلطي... ولتكن مسرته في العمل والعبادة... غير أن عمله يسوقه كثيراً إلى بيوت معارفه السابقين، وإلى دور السادة والحكام... عالم التقوى الظاهرة والفساد الكامن... وأرجعه ذلك إلى التفكير في ذاته وفي أحوال الناس... كثر صفو سلامه الروحي. طارده الاعوجاج كأنما اقتحم أعضائه وأخل بوظائفها... وقال إنه كما تنطلق الكواكب في نظام بديع فهكذا يجب

فقال بحدّة:

- ونلت نصيبي من الكآبة...

- مولاي، لعلها وعكة طارئة...

- بل حال من الأحوال، وهل حدّثني حكايات

شهرزاد إلا حديث الموت؟!

فقال الوزير بجزع:

- الموت!

- أمم تلتها أمم، يطرق بابها في النهاية طارق

مصمّم واحد هو هازم اللذات!

- إنّها مشيئة الله أظال بقاءك...

فقال بصوت محايد:

- القلوب أسرار، والكآبة ماكرة، وقد تداوى

الملوك السابقون في الليل بالتجوال وتفقد الأحوال...

فقال دندان مستمسكًا بطوق النجاة:

- التجوال وتفقد الأحوال، يا له من إلهام!...

وقال لنفسه: «كائن لا حدود لقوته، قد يتكشّف

عن زهرة أو يتمخض عن زلزال...»

- ٥ -

عبد الله الحمال ماضٍ في دورانه بلا توقّف... في

الأزقة المسدودة والحواري الخلزونية وأحياء التجارة

والحيزف وطرق المراكب وميادين الرماية والصيد

والإعدام والبوابات الضخمة تقوم مقام الحدود

والروائح تنتشر كالعناوين، رائحة العظارة النافذة

والعطور المخدرة والأقمشة المدغدغة والأطعمة الفوّاحة

والجلود العطنة... يمزّ برسمة وأكرمان، وأمّ السعد

وحسنية، يلقي التحية بلسان يتردّد في هذا العالم

ويقلب سكن في العالم الآخر... وفي تجواله عرف

فاضل صنعان ووثق علاقته به... من الناس من

حفظ عهده مثل حسن العطار ونور الدين ومنهم من

تجّبه تجنّبًا للشيطان... وأشفق عبد الله من أن تنفّس

حكاية العفريت فتفضي على مستقبل أكرمان وحسنية

اللتين يؤهلها إعدادهما لخيرة الزيجات... وأحبّ

فاضل صنعان لجذّه وتقواه وشجاعته فجعل من سلّم

السيبل محطّ راحته في نهار العمل يلتقيان فيه ويتبادلان

الحديث... وذات مرّة قال له:

- إنك شابّ تقوي لا تفوتك فريضة فلم لا تصون

عقّتك بالزواج؟

فقال فاضل بأسى:

- لا يقبل لي بنفقات الزواج...

- القليل يكفي!

- لي حياء وكرامة...

فقال عبد الله بإغراء:

- بين يديك أكرمان...

التقت عينهما في ابتسامة كاشفة عن أسرار كثيرة

وقال فاضل:

- وأنت يا عمّ عبد الله، ناهزت الأربعين أو فوّتها

دون زواج...؟

فقال الحمال بوضوح:

- إنّي أرمّل، وأودّ أيضًا أن أصون عقّي!

- يجيّل إليّ أنك في غير حاجة إلى مخاطبة!

فقال بهدوء:

- ستّ رسميّة أمّ أكرمان!

فضحك فاضل وقال:

- فلننتظر قليلًا ثمّ نتقدّم معًا...

- ولمّ الانتظار؟

- حتّى تمحى ذكرى جمصة البلطي!

فانقبض صدره... إنّه أراد رسميّة بدافع من وفائه

وتقواه... لو أطاع هواه ما اختار إلاّ حسنيّة...

ويوم تقبله رسميّة سيسعد من قلبه نصف ويبكيه نصفه

الأخر...

- ٦ -

كلّما خلا إلى نفسه تساءل: «هل بقيت في الحياة

بمعجزة لأعمل حملاً؟!...» وتساءل أيضًا: «لمّ لمّ

يهجري سنجام في اللحظة الحرجة كما هجر قمقام

صنعان الجمالي؟...» وامتلاً بالحيرة كوعاء مكشوف

تحت المطر فقادته قدماه إلى دار الشيخ عبد الله

البلخي. قبل يده وترنّب أمامه وهو يقول:

- إنّي غريب...



## ليالي الف ليلة ٣٩٧

الأمانة... سيلقى الأشرار غداً الويل بفضل عزيمته  
 نائب ومكر شرطي خبير... ومضى يمارس عمله وهو  
 يتلقى صفاء وتركيزاً... ومن رحمة تنداح في قلبه  
 استمد عقله أفكاراً لا تعرف الرحمة... حادة كنصل  
 السيف... سرعان ما دهمته الحياة بتناقضاتها الساحرة  
 ومصائرهما الدامية وهنائها الموعود... وأبى التراجع  
 لأنه أبى أن يستأثر بهديّة الحياة دون ثمن... عند ذلك  
 تراءت له حسنيّة كامل يبرق في سماء عالم آخر...  
 وعند الأصيل آوى إلى سلّم المسيل فوافاه فاضل  
 صنعان إليه... تبيّن له أنّ الشاب وثب فوق الزمن  
 بأسرع ممّا قدر... قال فاضل:

- سأطلب يد أكرمان!

فقال بدهشة:

- كنت تفضّل الانتظار وقتاً؟

- كلاً، عدلت عن ذلك، وسأطلب يد ست

رسميّة نيابة عنك!

صمت عبد الله متفكراً... لا شك أنّها بحاجة إلى  
 رجل في محتتها، وهيئات أن تطمع فيمن هو أفضل  
 منه!...

وقال فاضل بمرح:

- ما أجل أن تتزوج الأم وابنتها في ليلة واحدة!

ولما كان قد آنس إليه فقد أنشأ يقصّ عليه حكايتي

صنعان الجمالي وجمصة البلطي...  
 - ٨ -

ولما انتهى من حديثه المثير قال عبد الله معلّقاً:

- يُعزّز من يشاء ويذلّ من يشاء...  
 فتمتم فاضل صنعان:

- كلُّ على قدر همته!

فاقتحمته الجملة مثل رائحة الفلفل وتساءل ترى  
 هل تلقّاها من المصدر نفسه؟! وقال له ممهداً لمجرى  
 جديد من الحديث:

- وبين كمال الهمة الحذر...  
 ناجي كلّ منها أفكاره الخاصّة ملياً ثمّ قال عبد

الله:

فقاطعته الشيخ:

- كلنا غرباء...  
 - اسمك كالزهرة يجذب إليه شوارد النحللات...  
 فقال الشيخ:

- الفعل الجميل خير من القول الجميل...  
 - ولكن ما الفعل الجميل؟... هذه هي مشكلتي!

- ألم يصادفك عند مجيئك رجل حائر؟...  
 - أين يا مولاي؟  
 فأجاب بهدوء:

- بين مقامَي العبادة والدم؟  
 فارتعد خوفاً وقال لنفسه إنّه يرى ما وراء

الحجاب... وقال متبهّداً:

- في الليلة الظلماء يُفتقد البدر...  
 فقال الشيخ:

- عرفت من التلاميذ ثلاثة أنواع...  
 - هم السعداء في جميع الأحوال...  
 - قوم يتلقون المبادئ ويسعون في الأرض، وقوم

يتوعّلون في العلم ويتولّون الشئون، وقوم يواصلون  
 السير حتّى مقام الحبّ ولكن ما أقلّهم!

فتفكّر عبد الله ملياً ثمّ قال:

- ولكنّ العباد في حاجة إلى الرعاية...  
 فقال دون أن يتخلّى عنه هدوءه:

- كلُّ على قدر همته...  
 فتحدّى تردّده قائلاً:

- إنّما قصدتك يا مولاي...  
 وعثر في الصمت كأنّما ليجمع أفكاره فقال الشيخ:

- لا تحدّثني عن مقصدك...  
 - لماذا؟  
 - كلُّ على قدر همته!

أسبل جفنيه غائباً عن اللقاء...  
 انتظر عبد الله أن يرفعها مرّة أخرى ولكنّه لم يفعل  
 فانحنى لاثماً يده وانصرف...  
 - ٧ -

قال لنفسه إنّ الشيخ اطّلع على هواجسه فأحاله إلى  
 ذاته... عليه أن يسلم بذلك ما دام الإنسان قد قبل

- ٩ -

انطلق عبد الله الحَمَال كالسهم في سماء الجهاد كما  
تصوّره، نادى قوّته القديمة وأخضعها هذه المرّة لإرادته  
الصلبة النقيّة... وفي الحال سقط بطيشة مرجان كاتم  
السّرّ قتيلاً... وهو يمضي من دار الإمارة إلى داره  
عقب منتصف الليل، وبين حرسه، انقضّ من الظلام  
سهم فاستقرّ في قلبه، فهوى فوق بغلته بين الرماح  
والمشاعل... اجتاح الحرس المكان وما يتشعّب منه  
وألقوا القبض على من صادفهم من المارّة والمتسكّعين  
والمكّومين في الأركان... احترقت داره حزناً، وزلزلت  
دار الإمارة فغادرها يوسف الطاهر كالمجنون على رأس  
قوّاته، وصعد الخبر إلى الوزير دندان فأزقه الفرع حتّى  
الصباح... ومنذ الصباح انتشر النّبأ في الحيّ ثمّ في  
المدينة فهاجت الأنفوس وفاضت بالظنون... حلقة  
جديدة في سلسلة مصرغي السلولي والهمذاني...  
التحام جديد بدنيا العفاريت الغامضة... بل إنهم  
الخوارج أو الشيعة... أو لعلّها حادثة فردية تكمن  
وراءها غيرة امرأة أو حسد رجل... وأمطرت السماء  
مطرًا غزيرًا لم ينقطع طيلة النهار فتراكم الوحل وجرى  
الماء مغطّى بالزبد في الحواري والأزقة فأفسد نظام  
الجنّازة والدفن منذرًا بشتاء قاسٍ... واندسّ عبد الله  
الحَمَال بين العامة في مقهى الأمراء مرهف الحواسّ  
باهتمام خفيّ... استقطب الحادث الحديث كلّ،  
وتناقضت الآراء بين إنكار السادة المعلّنة وهمسات  
العامة المتبادلة في الأذان... ولح عبد الله المعلّم  
سحلول تاجر المزدادات والتحف وهو ينهمك في حديث  
طويل مع كرم الأصيل صاحب الملايين فانقبض  
صدره... إنّه لم ينسّ نظراته النافذة تحت رأسه  
المعلّق... وتذكّر أنّه رآه يحوم حول موكب كاتم السّرّ  
وهو - عبد الله - يتأهب لإطلاق السهم، فكيف لم  
يُقبض عليه فيمن قبض عليهم؟... كيف غاب عن  
أعين الحرس؟... انقبض صدره وتوجّس خيفة...  
وعجب كيف أنّه الرجل الوحيد في الحيّ الذي لم يطلع  
له على سرّ طيلة عهده برئاسة الشرطة... إنّه مطلع  
على أحوال جميع السادة ما ظهر منها وما بطن إلا هذا  
الرجل، فهو لغز مغلق!

- نحن نوشك أن نصير أسرة واحدة، لذلك أقول  
لك إنّ الحَمَال يدخل الدور التي لا يتاح دخولها إلا  
للفصوة... .

حدس فاضل أنّ صاحبه مقبل على الإدلاء باعتراف  
ما فحده بنظرة متسائلة فقال عبد الله:

- في دازي يوسف الطاهر الحاكم وعدنان شومة  
كبير الشرطة يدور الهمس أحيانًا عن أعداء الدولة... .

فقال فاضل متظاهرًا باللامبالاة:

- إنّه أقلّ ما يُتظر... .

- لا يتصوّر أحد أنّ أفقه معنيّ لما يدور أو أنّي أمدّ  
إليه أدنًا... .

- ولكنّك رجل غير عاديّ يا عمّ عبد الله وهذا ما  
أعجب له!

- لا تعجب لفطنة رجل طالما تقلّب بين البلدان  
والأحوال!

فقال فاضل باريحيّة:

- الحقّ أنّي سعيد بك... .

فمضى عبد الله في اعترافه قائلاً:

- وهم قوم موسوسون، كلّما تهادوا في الإجماع  
تخيلت لأعينهم أشباح الشيعة والخوارج... .

- أعرف ذلك تمامًا... .

- لذلك قلت إنّ من كمال الهمة الحذر... .

فرمقه فاضل بارتياب وسأله:

- ماذا تعنيّ؟

- إنك لييب!

- كأنك تحذّرني!

- لا بأس من ذلك... .

- ما أنا إلاّ بائع حلوى، هل رابك منّي شيء؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

- إنّي أحبّ الحذر كما أحبّ الشيعة والخوارج!

فسأله فاضل بلهفة:

- من أيّهما أنت؟

- لا يمن هؤلاء ولا يمن أولئك ولكنّي عدوّ

الأشرار.

وجد عبد الله بين يديه دعوة مفتوحة ولكنّه كشرطيّ

سابق آثر العمل بطريقته الخاصّة!

## ليالي الف ليلة ٣٩٩

وتطوّعت حسنيّة لإحياء زفاف شقيقها معتمدة على  
إجادتها في الشعر والغناء والصوت الحسن، وعمل إيقاع  
الأكفّ أنشدت بصوت عذب:  
يترجم طرفي عن لساني لتعلموا  
ويدي لكم ما كان صدري يكتب  
وكا التقينا والدموع سواجم  
خرست وطرفي بالمهموم يتكلم  
فطربوا جميعًا، وطرب عبد الله حتّى فاض قلبه  
بالدمع... وقام ليلقي في المدفأة حطبًا فسمع على  
باب الحجره طرفًا... مضى ليفتح فطالعه في الظلام  
البارد ثلاثة أشباح... قال أحدهم:  
- نحن تجار أغراب، سمعنا غناء جميلًا فقلنا إنّ  
الكرام لا يصدّون الغريب...  
أشار فاضل إلى النساء فتوازيّن وراء ستارة تشطر  
الحجره ومضى نحو الأغراب قائلًا:  
- ادخلوا بسلام... ما هو إلّا زفاف قاصر على  
أهله البسطاء.  
فقال الرجل الغريب:  
- ما نريد إلّا الأناج بالناج الطيبين...  
وقال أحد الآخرين:  
- عندكم دفء جميل...  
وجاءهم فاضل بطبق من البسيسة والمشبك وهو  
يقول:

- ما لدينا سوى هذا وهو ما نتعيش منه...  
- نحمد الله الذي حلّ ريقنا وأحلّ ليلتنا...  
ومال كبيرهم على أذن أحد الآخرين فغادر المكان  
مسرّعًا... وخطف عبد الله من الكبير نظرات فخيّل  
إليه أنّه لا يراه لأول مرّة، وحاول أن يتذكّر أين ومتى  
ولكن خائته الذاكرة... ثمّ رجع الرجل محمّلًا  
بالسمك المقلّي والمشويّ فندب في الأنفاس نشاط،  
وسعدت بلذيق المأكّل، وقال فاضل ممتنًا:  
- ما يليق مسكننا بمقامكم...  
فقال الرجل مجاملًا:  
- العبرة بأهل المسكن...  
ثمّ برجاه:  
- أسمعونا طربًا فالطرب ما أسعدنا بمعرفتكم...

- ١٠ -

لم تخفّ حتّى المسئولين ولا إجراءاتهم القاسية أما  
بقية الناس فمضوا بالفون الحادث ويملّون الخوض فيه  
ثمّ يتناسونه... وسرعان ما غلبت مطالب الحياة على  
أحداث التاريخ، فقالت أمّ السعد أرملة صنعان ليست  
رسميّة أرملة جمصة البلطي:  
- ببركة الله وحكمته يرغب فاضل ابني في الزواج  
من أكرمان.  
ومتّ الموافقة في فرحة شاملة... إتهنّ جميعًا يعشن  
في واقع ولا يسمحن لحلم غابر بأن يفسده... وقالت  
أيضًا أمّ السعد:

- أنت أيضًا يا ستّ رسميّة!

وأعلنت لها عن رغبة عبد الله الحلال في الزواج  
منها... ضحكّت رسميّة ضحكة فاترة لوقع  
المفاجأة... ولم تسرّ بها ولم ترخّب... وقالت بحياء:  
- الزواج لأكرمان وحسنيّة لا لنا!  
ثمّ عقب الصمت واصلت:  
- جمصة لم يمّ، ما زالت ذكراه حيّة في نفسي!  
وسرّ فاضل وعبد الله، كلُّ بما تلقّاه... أجل استاء  
عبد الله لوأد عواطفه ولكنّ جمصة الكامن فيه سرّ  
سرورا لا مزيد عليه...

- ١١ -

احتفل بالزفاف في حجره أمّ السعد... شهدته  
الأسرتان، ودّعي إليه عبد الله الحلال فسوّغ حضوره  
بهديّة من العنبر والبخور قدّمها للعروسين، وبما بذله  
في النهار من كنس الفناء... جاد بالهمة التي جاد بها  
ساعة تصدّى لقتل بطيشة مرجان... ثمّل بعين  
الأسرة الحارّ الذي نقت في جوارحه سكرة باقية...  
جاش صدره بالأبوة والزوجيّة والحبّ خاشعًا في الوقت  
نفسه تحت هيمنة التقوى وحبّ الله الرحيم... استردّ  
ثراء وجدان قديم وتوهم بالقرب، دافئًا سرّه في بشر  
مترع بالأسى...

## ٤٠٠ ليالي الف ليلة

فسأله كبير الغريباء:  
- ترى هل تكابدون في حياتكم ظلماً؟!  
فأسعفه الحذر المكتسب من خبرته القديمة في  
الشرطة وقال:  
- لنا سلطان عادل والحمد لله ولكن الحياة لا تخلو  
من غصص...  
وتواصل الحديث ساعة حتى نهض الغريباء  
للانصراف...

## - ١٢ -

خاض ثلاثتهم الظلام صامتين... التفت التاجر  
الثاني نحو الأول وقال:  
- لعل مولاي قد وجد التسلية المنشودة؟  
فتمتم الآخر:  
- فرجة في غموم القلب...  
ثم بعد قليل:  
- لم تعد جلسة الشعراء تطربني ولا تهريج شمولو  
الأحذب يضحكني...  
- تولاك الله بالرعاية يا مولاي...  
فقال مخاطباً نفسه:  
- حلم قصير مذهل، لا تتخيل فيه حقيقة حتى  
تتلاشى...  
انتظر الآخر أن يلقي السلطان ضوءاً على قوله  
ولكنه لزم الصمت حتى النهاية...

## - ١٣ -

استقل فاضل وأكرمان بحجرة فجمعت الحجرة  
الأخرى رسمية وأمّ السعد وحسنة... على بساطة  
الحياة نعيم الزوجان بسعادة صافية، وتمنى فاضل  
لحسنة خاتمة سعيدة كخاتمته... وكان أحسن توفيقاً  
في تناسي الماضي من النساء فهو يجد ما يشغله وهم لا  
تمحى من ذاكرتهن الأيام الخوالي بعزها وأضوائها...  
وتوحد مع عبد الله الخيال حتى تبادلوا قراءة الأفكار  
وخواطر القلوب... الرجل من معدنه، وروحه أكبر  
منه، واهتمامه منجذب إلى هموم البشر كأنه فقيه لا

فذهب فاضل إلى ما وراء الستار... وقبل أن  
يستقر في مجلسه مرة أخرى تهادى صوت حسنة  
منشدًا:

لو علمنا مجيئكم لفرشنا  
مهجة القلب أو سواد العيون  
وفرشنا خدودنا والتقيننا  
ليكون المسير فوق الجفون  
فطرب الجميع وهتف أحد الغريباء:  
- تبارك الخلاق العظيم...  
وسأل الكبير فاضل:

- كيف ملكت هذه الجارية وأنت على ما تزعم من  
فقر؟

فقال فاضل:

- ما هي إلا شقيقتي...  
- لها صوت مهذب ينم عن أصل كريم...  
فوجم فاضل فما كان من عبد الله الخيال إلا أن  
قال:  
- وإته لمن أصل كريم اعترضته غدرة من غدرات  
الزمان...  
فتساءل التاجر:  
- ما حكاية تلك الغدرة؟  
فأجاب عبد الله الخيال:  
- ما من أحد في مدينتنا إلا ويعرف حكاية التاجر  
صنعان الجهالي...!  
فصمت التاجر لحظة ثم قال:  
- سمعنا بها في ما سمعنا من أنباء مدينتكم  
العجيبة...

وتساءل زميله:

- ولكن هل تصدقون ما روي عن العفريت؟  
فتساءل فاضل بدوره:  
- كيف لا وقد جرّ علينا من كوارث!  
- ولكن الروالي لا يستطيع أن يستدعي العفريت  
للشهادة أو التحقيق فكيف يقيم العدل؟  
فقال عبد الله الخيال:  
- على الروالي أن يقيم العدل من البداية فلا تقتحم  
العفريت علينا حياتنا!

## ليالي الف ليلة ٤٠١

فلعنه التاجر الكبير وأمانه... واستقرّ السهم القاتل في قلب إبراهيم العطار وهو راجع إلى داره عقب سهرة المقهى... وانفجر الفزع في المدينة وانهمرت ذكريات مصارع السلولي وبطيشة مرجان والهمذاني...

وبجّح سلّم السبيل بين عبد الله وفاضل في عنفوان الاضطراب المتفجر... تبادلنا نظرات قلقة، وعبثًا حاولا كتمان ارتياحها... تتم عبد الله:

- يا لها من أحداث مرعبة...!

فحدس الآخر ظنونه فقال ببراءة:

- ليس الاغتيال ضمن خطتنا!

فقال عبد الله متظاهرًا بالحيرة:

- لعلها حادثة انتقام شخصي...

- لا أظنّ...

- لكنّه لم يكن أفسد من غيره...

- يعرف الخاصّة أنّه كان يدسّ السمّ في أدوية أعداء الحاكم!

قال عبد الله لنفسه إنّ صاحبه يعرف من أسرار الناس ما يعرفه وربما أكثر... تساءل:

- إذا لم يكن الاغتيال ضمن خطّتك فمن فاعله؟

فقال فاضل بضيق:

- الله يعلم، إنّه يقتل ونحن ندفع الثمن...

- ١٥ -

عندما أطفأ الشمعة وأوى إلى فراشه شعر بالوجود الغريب يدهمه فارتجف قلبه وتمتم:

- سنجام!

فسأله الصوت بيروود:

- ماذا فعلت؟

- أفعّل بطريقي ما اعتقد أنّه الخير...

- بل كان ردّ فعل لما ألحقه بك من إهانة...

فقال بحرارة:

- ما فعلت إلا أن قدّمته وكان دوره سيأتي عاجلاً

أو آجلاً...

فقال سنجام:

- حسابك عند المُلّطع على ما في الصدور، فحذار

حتمال... لو استمع أحد المارّة إلى ما يدور بينهما من حديث فوق سلّم السبيل لذهل ولظنّتهما رجلين خطيرين يتنكران في ثوبيّ بيّاع وحمال... وقال له يوماً:

- فتحت لك قلبي ولكنك توصلت قلبك حيالي...

فنفى ذلك بهرّة من رأسه فقال:

- في حياتك سرّ ولسنّ حمالاً بسيطاً...

فقال يطمئنه:

- كان لي مرشد في وطني، لا سرّ وراء ذلك...

- في ذلك ما يكفي...

- على أيّ حال نحن نرتوي من منبع واحد...

فقال فاضل بجرأة:

- لذلك سأسألك خدمة...

فحدسه بنظرة متسائلة فقال بنبرة ذات مغزى:

- إنك بحكم عملك تتردّد على الدور جميعاً!

فابتسم عبد الله بذكاء وصمت منتظرًا فقال:

- أتقبل أن تحمل الرسائل أحياناً؟

فقال باسماً وهو يتذكّر أكرمان بحنان:

- ثمة أقوام يجدون معنى حياتهم في السعي إلى

المتاعب...

فتجاهل قوله متسائلاً:

- هل تقبل؟

فقال بهدوء:

- ما تشاء وأكثر...

- ١٤ -

أدى هذه المهمة الجانيّة في سرّ وأمان تامين فلم يعتدّها إضافة ذات شأن إلى مهمته الأصليّة، وهوومه الشخصية - رسميّة، حسنيّة، تردّده بين الحياة والموت - لم تخمّج من صفحته، ولكنّها لم تعد تزعجه، وتلاشت في هوموم العائمة كما تتلاشى أمواج النهر في المحيط... وكان الرجل الثاني في برنامج يوسف الطاهر أو عدنان شومة أيها أيسر ولكنّه قدّم عليها إبراهيم العطار لسبب عارض لم يخطر في باله من قبل... ذلك أنّه حمل إليه لوازم فاختلفا على الأجر

يا رجل... .

وتلاشى سنجام فلم يغمض له جفن... .

- ١٦ -

فوق قبة جامع الإمام العاشر، في جلسة مفعمة بالهدوء، مترعة ببرد الشتاء، متلّفة برداء الليل، جلس قمقام وسنجام... . تحتها تدفقت قوات الشرطة مكشّرة عن أنيابها، يتطاير الشرر من أعينها الثملة بالحمرة القانية... . همس قمقام في أسى:

- يا لعذاب البشر!

فقال سنجام كالمعتد:

- ما فعلت إلا أن أنقذت روح جصة البلطي من

الجحيم... .

- ما تدخلنا مرة في حياتهم وانتهى الأمر بما

نود... .

- والإغضاء عنهم فوق ما نحتمل... .

ومرّ تحتهم في تلك اللحظة المعلم سحلول تاجر

المزادات والتحف فأشار إليه قمقام قائلاً:

- إني أغبطه على معاشرته لهم كأنه آدمي مثلهم!

فقال سنجام مشاركاً:

- ولكنّه ملاك، نائب عزرائيل في الحيّ، واجبه

يقضي الاختلاط بهم ليل نهار، ويحلّ له ما لا يحلّ

لنا... .

فقال قمقام:

- لنندع الله أن يلهمنا الصواب... .

فردد سنجام:

- آمين... .

- ١٧ -

اعترضت مسيرة عبد الله الحمال عثرة ضاق بها صدره... . كان يمضي بحمل كبير من النقل والفاكهة المجفّفة إلى دار عدنان شومة كبير الشرطة... . ولم يكن كفّ عن تقييم مصرع إبراهيم العطار، ما وراءه من جهاد صادق، وما تسلّل إليه من غضب ورغبة في الانتقام... . سبيل الله واضح ولا يجوز أن يخالطه غضب أو كبرياء، وإلا انهار البناء من أساسه... .

وكانت دار عدنان شومة تقوم في شارع المواكب والأعياد على مبعدة يسيرة من دار الإمارة... . شارع وقور تقوم على جانبيه دور السادة والفنادق الكبرى، وبه بستان وساحة بيع الجوارى... . قال لنفسه وهو يدخل الدار «سيجيء دورك يا عدنان قريباً... . وعندما همّ بالذهاب أوقفه عبد، ودعاه إلى مقابلة صاحب الدار... . ذهب إلى بهو الاستقبال بقلب يخفق بالقلق... . نظر إليه الرجل بوجهه المستدير الصغير وعينيه الضيّقتين القاسيتين وهو يداعب لحيته، ثمّ سأله:

- من أيّ البلاد؟

فأجاب عبد الله بخشوع:

- الحبشة... .

- قيل لي إنّ سمعتك طيبة وإنّه لا تفوتك فريضة!

فتلقّى أوّل نسمة راحة وقال:

- بفضل الله ورحمته... .

فقال بهدوء:

- لذلك وقع اختياري عليك... .

تفتّى المعنى المقصود في رأسه كما تنفتّى رائحة قويّة

في مكان مغلق... . فكم من مرة - وهو كبير الشرطة -

وجّه مثل هذا القول إلى رجل إبداناً بنظمه في سلك

عيونه السريّة... . وهو يعلم أنّ التملّص من التكليف

خليق بالقضاء عليه وأنّه لا مفرّ من الطاعة... . وقال

الرجل:

- بسؤالك تحوز الشرف في خدمة السلطان

والدين... .

تظاهر بالارتياح والسعادة والزهو... . أعطاه

الامارات التي يطمئنّ بها... . على ذلك قال له محدّراً:

- احذر ما يُردي الخائن في الهلاك... .

فتمتم بغموض:

- تسرّني الخدمة في رحاب الله... .

فقال عدنان شومة:

- الدور مفتوحة لك بحكم عملك ولا ينقصك إلا

بعض الإرشادات... .

هي الإرشادات المدوّنة في دفاتر سريّة منذ عهد

جصة البلطي... .

## ليالي الف ليلة ٤٠٣

- ١٨ -

- لا شيء... .
- ألا يثير فضولك غموضه؟
- غموضه؟!، ما هي إلا البساطة الصريحة، رجل نشيط خبير، ولا شأن له بالآخرين، ما الذي يدعوك للتساؤل؟
- فتردد قليلاً ثم قال:
- له نظرة نافذة لم أرتجح إليها... .
- لا أساس لظنونك تقوم عليه، إنه استثناء طاهر لقاعدة فاسدة... .
- تمنى أن يصدق رأيه وأن تكذب ظنونه... .

- ١٩ -

- أيقن من خبرته السابقة بأنه سيوضع تحت المراقبة أسوة بالمخبرين الجدد... هيهات أن يجد فرصة ليقوم بمغامرة جديدة إلا إذا أزاح عدنان شومة نفسه من طريقه بضربة موفقة... وتسلسل إلى داره في لقاء سرّي وقال له:
- عمّا قليل ستسقط ثمار كثيرة، الحي مليء بالكفرة ولكنّي أرى أن أتجنب التردد عليكم... .
- فقال عدنان شومة بسرور:
- سأعيّن لك وسيطاً... .
- هذا يكفي في الشئون العادية أما الشئون الخطيرة فأفضل أن يقتصر الاتصال عليك... .
- تتفق على ذلك فيما بعد... .
- فقال عبد الله بحماس:
- خير البرّ عاجله... .
- فقال عدنان شومة بعد تفكير:
- إني أتواجد أحياناً ليلاً خارج سور الحيّ، أظنّه مكاناً مناسباً... .
- وفاق تدبيره ما كان يأمل... .

- ٢٠ -

- وبمعاونة فاضل صنعان قدّم تقريراً عن شاب أعزب يقيم منفرداً بحجرة في ربيع بعطفة الدباغين... وكما

غادر دار عدنان شومة بحمل جديد أنقل من الحمل الذي جاء به... ولدى اجتماعه بفاضل صنعان أفضى إليه بسرّه الجديد... فكّر فاضل في الأمر طويلاً ثم قال:

- أصبحت ذا عينين، عين لنا وعين علينا... .
- لكنّ عبد الله غرق في همّه فسأله:
- ألا تعتبر ذلك كسباً لنا؟
- فقال عبد الله بوجوم:
- إني مطالب بما يدلّ على إخلاصي في العمل!
- فلاذ فاضل بالصمت متفكراً فمضى عبد الله:
- أتساءل أحياناً هل دعائي الرجل لشكّه في أمري؟
- فبادره فاضل:

- إنهم أصحاب عنف فلا حاجة بهم إلى الحيلة... .

- أوافقك، ولكن كيف أثبت إخلاصي؟
- فرجع فاضل للتفكير في الأمر ثم قال:
- تقتضي المصلحة أحياناً إرسال أناس منا إلى بلاد بعيدة، سأدلك على أحدهم لتبلغ عنه بحيث يقلت في الوقت المناسب «مصادقة»!
- فقال عبد الله وعيناه ترقان بالفكر:
- حلّ موقّق ولكن لا يجوز تكراره!
- فقال فاضل مخاطباً نفسه:
- حقّاً إنها ورطة!
- ها أنت تشاركني الرأي أخيراً... .
- وساءل نفسه هل يستطيع الاستمرار في تنفيذ مشروعه السريّ؟! وتشعث تفكيره فجأة عندما رأى المعلم سحلول يعبر الطريق أمامهم مسرعاً لا يلوي على شيء... انقبض صدره كالعادة ولكن فاضل بكوعه متسائلاً:

- ماذا تعرف عن هذا الرجل؟

- فقال فاضل بنبرة طبيعية:

- سحلول تاجر المزدادات والتحف، كان من أصدقاء أبي، ولعلّه التاجر الوحيد الذي يملك صحيفة بيضاء... .

- ماذا تعرف عنه أيضاً؟

انقضت القوة على مسكنه تبين لها أنه غادره لسفر منذ دقائق! . . . وغضب عدنان شومة وقال لعبد الله:  
- أثرت ريبته دون أن تدري!  
فوكّد له أنه أدهى مما يتصوّر ولكنّ الآخر صرفه غير راضٍ عنه . . .

## - ٢١ -

وزلزلت دار الإمارة، والحَيّ والمدينة، للعثور على جثة عدنان شومة خارج سور الحَيّ . . . ماج شهريار نفسه بالفضب، وتحايّلت لأعين الكبراء مخاوف مجهولة تزحف من مكائنها في الظلام . . . ونما إلى عبد الله من وسطه السرّيّ الرسميّ أنّ البحث يتركز في كشف الأسباب التي دعت كبير الشرطة للخروج سرّاً من سور الحَيّ . . . وكان هو أوّل من أتيح له الاطلاع على سرّ ضحيّته الذي كان يقصد داراً خاصّة يلتقي فيها بجلّثار وزهريار شقيقتي يوسف الطاهر حاكم الحَيّ . . . الحقّ أنّه عرف سيرة المرأتين منذ عهد خدمته، ومن قبل أن يتولّى يوسف الطاهر الإمارة . . . لذلك دعاه كبير الشرطة إلى مقابلته في جوسق بحديقة الدار ثمّ صرفه ولكنّه لم يرجع إلى الحَيّ بل ليد له في الظلام حتّى غادر الدار قبيل الفجر فتلقاه بالسهم القاتل . . . الآن يتلاشى شعوره بالأمان ولا يستبعد أن يكون بعض خاصّة عدنان شومة من النساء أو الرجال قد عرف سرّ المقابلة بينه وبين الرجل . . . قرّر الهرب ولو إلى حين . . . غادر الحَيّ كلّهُ إلى ما وراء الخلاء عند النهر على كثر من اللسان الأخضر حيث اعتاد ممارسة هواية الصيد، نفس البقعة التي التحم فيها بسنجم . . . وجد نخلة فارعة فارتمى تحتها وأغرق في التفكير . . . وأقبل الليل وتجلّت النجوم متواضعة واشتدّ البرد . . . ترى هل أحسن التدبير والتفكير أو إنّ لهفته على تنفيذ مشروعه قد أفسدت عليه هدفه؟! . . . ومتى وكيف يتاح له العمل مرّة أخرى؟ . . . كيف يتجنّب أعداءه وكيف يتصل بصاحبه فاضل صنعان؟ . . . وفي سكون الليل ترامي إليه صوت يقول:

- يا عبد الله!

نظر صوب مصدر الصوت، صوب النهر،

وتساءل:

- من ينادي؟

فقال الصوت بنبرة تبتّ الأمان والطمأنينة والسلام:

- اقترب . . .

دنا من النهر يسير في حذر حتّى رأى صفحته معتمة تحت ضوء النجوم، ورأى شبحاً نصفه في الماء ونصفه مستند بساعديه فوق الشاطئ . . . سأله:

- أنت في حاجة إلى مساعدة؟

- أنت المحتاج إلى المساعدة يا عبد الله . . .

فسأله بقلق:

- من أنت وماذا تعرف عني؟

- أنا عبد الله البحرّيّ كما أنّك عبد الله البرّيّ،

وقبضة الشرّ تتوتّر للقبض على عنقك . . .

- سيّدي ماذا يبقيك في الماء؟ . . . من أيّ الأحياء أنت؟

- ما أنا إلاّ عابد في مملكة الماء اللانهائيّة . . .

- تعني أنّها مملكة تحيا تحت الماء؟

- نعم، تحقّق بها الكمال وتلاشت المتناقضات، ولا يتغيّر صفوها إلاّ تعاسة أهل البرّ . . .

فقال عبد الله متنبهراً:

- عجيب ما أسمع ولكنّ قدرة الله لا حدّ لها . . .

- كذلك رحمته فاخلع ثيابك واغطس في الماء . . .

- لماذا يا سيّدي؟ . . . لماذا تطالبني بذلك في الليل

البارد؟

- افعل كما أقول قبل أن تطوّق عنقك القبضة

القاتلة . . .

وسرعان ما غاص عبد الله البحرّيّ في الماء تاركه

لاختياره . . . ويدافع من إلهام ثمل خلع ملابسه

وغاص في ماء النهر حتّى اختفى تماماً . . . وإذا

بالصوت يقول له:

- عد إلى البرّ أمناً . . .

وما كاد يشعر بالأرض تحت قدميه حتّى استقرّ قلبه

بين ضلوعه وشعر بأنّه جارحة من جوارح السماء

والأرض والليل، وشعر أيضاً بالدفء . . . عند ذاك

غلبه النوم فنام نومًا عميقًا هادئًا وكأأنما النجوم لا

تومض إلاّ لترعاه . . . وصحا قبل انبلاج الصبح . . .



## ليالي ألف ليلة ٤٠٥

- عبد الله البري صياد سمك...  
من منظره شك كبير الشرطة في جنونه فأمر بتكيله  
بالحديد اتقاء لخطره ثم سأله:  
- ولم قتلت عدنان شومة؟  
فأجاب ببساطة:  
- إنني مكلف بقتل الأشرار...  
- من الذي كلفك بذلك؟  
- سنجام، ذلك العفريت المؤمن، وبوحيه قتلت  
خليل الهمذاني وبطيشة مرجان وإبراهيم العطار...  
فجاراه الرجل قاتلاً:  
- سبق أن اعترف بقتل الهمذاني كبير الشرطة  
الأسبق جمصة البلطي...  
فهتف الرجل:

- في الأصل كنت جمصة البلطي!  
- رأسه معلق بباب داره!  
- وقد رأيت بعيني رأسي!  
- وتصرت على أنك صاحب الرأس...؟  
- لا ريب في ذلك وسوف تصدقني عندما تسمع  
حكايتي...  
- لكن كيف ومتى ركبت هذا الرأس الجديد؟  
- دعني أطلب سنجام شاهداً...  
فصاح الرجل:  
- إنك معجزة جديدة بالإقامة الدائمة في دار  
المجانين...  
وأمر بإرساله من توه إلى دار المجانين فمضوا به وهو  
يصرخ:

- إلى يا سنجام... إلى يا عبد الله البحرى...  
\*\*\*

وقد عذب فاضل في السجن طويلاً، ثم لم يجد  
الحاكم بداً من الإفراج عنه ومن معه، أمراً في الوقت  
نفسه بمضاعفة الجهد للعثور على عبد الله الخيال...

## نور الدين ودنيا زاد

- ١ -

غمر نور الدين أشجار البلخ بميدان الرماية

ونظر في مرآته على ضوء أول شعاع يهبط فرأى وجهاً  
جديداً لم يعرفه من قبل فهتف:

- مباركة العجائب إن تكن من صنع الله...  
لا هو وجه البلطي ولا وجه عبد الله... وجه  
قمحي صافي البشرة... ولحية مسترسلة سوداء،  
وشعر غزير مفروق يسدل حتى المنكبين، ونظرة عينين  
تومض بلغة النجوم... أدرك الموت عبد الله كما أدرك  
جمصة البلطي من قبل... وغاب فاضل وأكرمان،  
ورسمية وحسنية، وأم السعد... ولكن نمة أصواتاً  
جديدة تتجسد، ومغامرات جديدة تقبل مع الشروق،  
ودنيا جديدة تنكشف عن عجائب مباركة...  
- ٢٢ -

طابت له الحياة في الخلاء على مقربة من اللسان  
الأخضر المتمد في النهر... النخلة جليسه، وصيد  
النهر غذاؤه، والهواء النقي أليفه، ورواد اللسان  
الأخضر من أهل الصبوات والطرب مثار نغمته ومرتاد  
عفوه، أما راحة قلبه ففي مناجاة عبد الله البحرى...  
ويجيء عابرو النهر بأنباء المدينة... علم في ما علم أن  
الحاكم يوسف الطاهر اختار حسام الفقي كاتماً لسره  
ويومي الأرملة كبيراً لشرطته... علم أيضاً أن قوات  
الامن تحتاج الحي كإعصار وأتهم يبحثون عن عبد الله  
الخيال وأتهم ألقوا القبض على معارفه فسيق إلى  
السجن رجب الخيال وفاضل صنعان وزوجته  
أكرمان... هكذا سرعان ما فني آمنه وجزع قلبه  
فتوَّب من جديد للتضال...

- ٢٣ -

لم يذهب ليقتل ولكن ليقدم نفسه فدية عمن  
يحب... لم يستشعر رهبة ولا خوفاً، وسأ به الإلهام  
فوق الوسوس... قصد من توه بيومي الأرملة في دار  
الشرطة، وقال له يهدوء ورزانة:

- جئت لأعترف بين يديك بأثني قاتل عدنان  
شومة!

فانتبه إليه كبير الشرطة متفحصاً وسأله:

- من أنت؟

لجاله بين البشر...  
 - إنَّ نظرة على فتاتي ستمحو من ذاكرتك صورة فتاك...  
 - هذه مغالاة لا مسوِّغ لها...  
 - تعال وانظر بعينيك...  
 - أين توجد فتاتك؟  
 - في قصر السلطان نفسه...  
 وفي غمضة عين كانا في جناح البهاء بقصر السلطان... تراءت فتاة آية في الجمال وكانت تنزع عباها المطرزة بأسلاك من ذهب لترتدي حلّة نومها المصنوعة من الحرير الدمشقي... قالت زرمباحة:  
 - دنيا زاد أخت شهرزاد زوجة السلطان...  
 - جمالها يفوق الحياة حقًا، لم يحظى بهذا الجمال كائن سريع العطب؟  
 - صدقت فهو ما يتألّق إلا آيًّا معدودات ثم يعبث به الزمن...  
 - لذلك تلذّ الشهادة بهم...  
 - لهم عقل ولكنهم يحيون حياة الأغبياء...  
 - لشدّ ما تبدو خالدة!  
 - لعلك الآن تسلّم أنّها أجل من فتاك؟  
 فقال سخربوط بعد تردّد:  
 - لا أدري... تعالي لتتظري بنفسك...  
 في أقلّ من لحظة كانا في دكان شابّ آية في الحسن... كان يغلّق الدكان ويطلق السراج وهمّ بالذهاب... قال سخربوط:  
 - هذا نور الدين بيّاع العطور...  
 - جماله فاتق أيضًا، من هو صاحبك؟  
 - بيّاع كما ترين، وما يهّمنا أصله...  
 - هو أليقّ الذكور بفتاتي وهي أليقّ الإناث به...  
 - يعيشان في مدينة واحدة ويفصل بينهما ما يفصل بين السماء والأرض...  
 - هذا هو العبث فكيف تُتهم نحن بأننا العابثون!  
 - كيف لا يتناس الخطاب في فتاتك؟  
 .. مهلاً، يتمّتاها الكثيرون، منهم يوسف الطاهر حاكم الحيّ، ومنهم كرم الأصيل صاحب الملايين، ولكن من الكفء لأخت السلطانة؟!

فالتمعت أزهارها البتّهيريّة الناعمة... وغمر نور القمر أيضًا مقام وسنجم المستلقين فوق غصن من أغصان الشجرة الكبرى في ليلة مازجت فيها أنفاس الشتاء المودّع أنفاس الربيع المتحفّزة... قال قمام:  
 - ما أطيب الزمن إذا جرى تحت رضا العناية!...  
 فقال سنجم:  
 - إذا استقرّت السكينة سمعت همسات الأزهار وهي تسبّح بحمد الله...  
 - ماذا يتقصّ الإنسان ليحظى بنعمة الزمان والمكان؟  
 - هذا ما يحيرني يا أخي، ألم يوهب العقل والروح؟  
 وأرهف قمام أذنيه في حذر ثمّ تساءل:  
 - ثمّة نذير في الجوّ؟  
 عند ذلك حطّ فوق غصن قريب عفريت وعفريته ثملين بالمجون فهمس سنجم:  
 - سخربوط وزرمباحة!  
 فهمس قمام:  
 - الكفر والشرّ...  
 وضحك سخربوط ساخرًا وقال معلّقًا:  
 - نحن نستمتع بالكون بلا خوف...  
 فصاح به قمام:  
 - لا سرور لمن خلا من الله قلبه...  
 فساءلت زرمباحة ساخرة:  
 - حقًا؟  
 وتبادلت مع رفيقها الغرام فتطاير من عناقهما الشرر... اختفى قمام وسنجم فنذّ عن حنجرتي سخربوط وزرمباحة هتاف انتصار وقال لها:  
 - غبت عني دهرًا...  
 فقالت ضاحكة:  
 - لعبت لعبة في معبد بالهند، وأين كنت أنت؟  
 - قمت برحلة فوق الجبال...  
 فقالت زرمباحة بإغراء:  
 - رأيت لدى عودتي فتاة جميلة بهرني جمالها والحنق يقال...  
 - أنا أيضًا رأيت شابًّا جميلًا في حيّ العطور لا نظير

## ليالي الف ليلة ٤٠٧

اسمه؟... متى نمت مقدمات الزفاف؟... رباه...  
لم تُخطب ولم تُزف ولم يجر في القصر حفل... إتها  
تُنزع من الحلم كمن يُساق إلى النطم... أكان حلماً  
حقاً؟... ولكنَّ العهد بالأحلام أن تتلاشى لا أن  
ترسخ وتتجسد حتى لتلمس وتشم... ما زالت ترى  
العريس رؤية العين وتستشعر مسه وحنانه... ما  
زالت الحجرة معبقة بأنفاسه... وثبت إلى الأرض  
فأكتشفت عريها، اكتشفت حبيها المسفوح... انقضت  
عليها رعدة نافذة مرعبة... هتفت في بأس:

- إنه الجنون...

ونظرت في ما حولها بذهول وهتفت مرة أخرى:

- إنه الهلاك...

ولاح لها الجنون كوحش يطاردها...

- ٤ -

أما صحوة نور الدين فكانت غاضبة ثائرة عندما  
رأى حجرة نومه البسيطة بمسكنه القائم فوق دكانه  
بحيِّ العطور... أكان حلماً؟... لكَنه حلم عجيب  
له قوَّة الحقيقة وثقلها... ها هي العروس بجيئها  
حقيقة لا يمكن أن تُنسى أو تمحى من القلب... ومتى  
وكيف تجرد من ملابسه؟... ما زال يشم الشذا  
الطيب الذي لا نظير له بين عطوره... ما زال يرى  
المخدع الفاخر بستائه ودواينه وسريه العجيب...

- ما معنى العيث مع مؤمن صادق مثلي؟

ولم تعذبه الحقيقة وحدها ولكن أيضاً عذبه الحب...

- ٥ -

فهتفت زرمباحة وسألت سخربوط:

- ما رأيك في هذا العشق المستحيل؟

- مداعبة فريدة حقاً...

- لا عهد للبشر بمثلها...

فقال سخربوط متردداً:

- ليس دائماً، إنهم مولعون بخلق الأوهام...

- ولكن كيف؟

- ما أكثر الذين يتوهمون في أنفسهم الذكاء، أو

الشعر، أو الشجاعة...

فقال مسترسلة في الضحك:

- زرمباحة، هذا الكون مثقل بالحماقة...

وهتفت زرمباحة بسرور:

- جاءتني فكرة...

- ما هي؟

- فكرة جديدة إبليس نفسه...

- أشعلت أشواقى!

- نجتمع بينها في دعابة مأكرة...

- ٢ -

انبهرت عينا دنيا زاد السوداوان... إنه حفل زفاف  
سلطاني سيكون أحد أعاجيب الترف والأبهة...  
القصر يوج بأصواء الشموع والقناديل، يتلأل بجواهر  
المدعوين والمدعوآت، يهزج بأغاني المطربين  
والمطربات... حتى السلطان شهريار باركها، أهدها  
جوهرة الدخلة، قال لها:

- مباركة ليلتك يا دنيا زاد...

وانتظرت في المخدع آخر الليل في ثوب محلى  
بالذهب والمرجان والزمرد... ودعتها أنها وأختها  
شهرزاد، فانتظرت وحيدة في المخدع، وشرذ ذهنها لا  
يشغلها إلا ترقيتها القلق وقلبها الخفاق... انفتح  
الباب... دخل نور الدين في أبهى حلّة دمشقية  
وعمامة عراقية ومركوب مغربي... تقدّم منها كالبدن في  
تمامه وجلا القناع عن وجهها... ركع على  
ركبتيه... ضمّ ساقها إلى صدره... تنهد قائلاً:

- ليلة العمر يا حبيبتى...

ومضى ينزع ملابسها قطعة قطعة في صمت المخدع  
المليء بالألحان الباطنية...

- ٣ -

فتحت دنيا زاد عينيها وقد نضحت السّارة  
بالضياء... وجدت نفسها مغموسة في ذكريات النبع  
المبارك... شفتاها نديتان بالقُبل، أذناها ثملتان  
بأعذب الكلمات، خيالها مغمم بحرارة التّهذات...  
العناق لم يبرح جسدها ولا الحنان... هذه هي  
الصباحية... ولكن...؟ سرعان ما هبت عليها  
رياح الوعي الصارمة... أين العريس؟... ما

- هو ما يقتلني خوفاً وغماً...  
- إن عرف السلطان حكايتك استيقظت من جديد  
شكوكه وارتد إلى سوء ظنه بجنسنا، وربما أرسل بي إلى  
الجلاد ورجع إلى سيرته الأولى...  
فهتفت دنيا زاد:

- معاذ الله أن يصيبك سوء من ورائي...  
وتفكرت شهرزاد ملياً ثم قالت:  
- فلنحفظ قصتك سراً، ولن يدري به السلطان  
ولا أبي، سأدبر ما ينبغي فعله مع أمي، ولكن يجب أن  
تعودي إلى دارنا بحجة الحنين إلى أهلك...  
فتمتت دنيا زاد:  
- ما أتعس حظي...  
- ٦ -

- يا لهم من حمقى!  
فقال بحقد:  
- إنني أعجب لماذا فضلوا علينا؟  
- ٦ -  
سلمت دنيا زاد بأن سرها أثقل من أن تحمله  
وحدها... هرعت إلى جناح شهرزاد عقب ذهاب  
شهريار إلى مجلس الحكم... وما إن رأتها شهرزاد  
حتى قالت بقلق:  
- ماذا بك يا أختي؟  
فجلست على وسادة عند قدمي السلطانة ورفعت  
إليها عينين مستغيثتين وقالت وهي تنسج في البكاء:  
- ليته كان مرضاً أو موتاً...  
- أعوذ بالله، افترقنا أمس وأنت على خير حال...  
- ثم وقع ما لا يقع في دنيا العقلاء...  
- حدثيني فقد بددت طمأنينة نفسي...  
فأسدلت عينيها ثم قصت عليها قصتها التي بدأت  
بزفاف وهمي وانتهت بدم حقيقي... تابعها شهرزاد  
بقلق وريبة ثم قالت برجاء:  
- لا تخفي شيئاً عن أختك...  
- أحلف لك برَبِّ الكون آتي ما أضفت إلى قصتي  
حرفاً ولا نقصت منها...  
فساءلت شهرزاد:  
- أياكون وغداً من رجال القصر؟  
- كلاً... كلاً... ما وقعت عليه عيناى من  
قبل...  
- أي عقل يقبل قصتك؟  
- هذا ما أحدثت به نفسي، إنها قصة شبيهة  
بقصصك العجيبة...  
- قصصي مستوحاة من عالم آخر يا دنيا زاد...  
فقالته منتبهة:  
- لقد وقعت أسيرة صدق عالمك الخفي ولكني لا  
أريد أن أكون ضحيته...  
فقالته شهرزاد بأسى:  
- سأعرف الحقيقة عاجلاً أو آجلاً ولكني أخشى أن  
تدمنا الفضيحة قبل ذلك!

- ٧ -  
دعا نور الدين أمه كليلة الدمع فجاءت عجوز  
متحركة الشفتين بتلاوة غير مسموعة، يحمل وجهها  
النحل آثار جمال قديم... أجلسها إلى جانبه على  
كبة خراسانية وسألها:  
- هل زارنا غريب وأنا نائم؟  
فقالته بدهشة:  
- ما طرقتنا طارق...  
- ألم يصدر عن حجرتي صوت؟  
- أبداً، إني أنام ولا تنام حواتي، وأخفت  
الأصوات يوقظني، لماذا تطرح أسئلة غريبة؟  
فقال بعد تردد وحياء:  
- لعله حلم، ولكنه ليس كالأحلام...  
- ماذا رأيت يا بني؟  
- رأيتني في حضرة فتاة جميلة!  
فابتسمت كليلة وقالت:  
- إنها دعوة من الغيب للزواج!  
فقال بحدة:  
- كانت حقيقة ملموسة ومشمومة لا أدري كيف  
أشك فيها ولكني لا أستطيع تصديقها أيضاً...  
فقالته المعجوز ببساطة:  
- لا تشغل بالك وتزوج...  
- هل سمعت من قبل عن حقيقة تتلاشى في

## ليالي الف ليلة ٤٠٩

- ما أجدرك بالعشق!  
فهم أنه يدعو إلى الاستمرار معه فقال له:  
والذي مريض وعليّ أن أحلّ محلّه في الدكان...  
فقال الشيخ:  
- ما أقبل في صحيبي عاطلاً...  
فقال كالمعتد:  
- حسيبي العبادة والتقوى...  
وما أخلف الظنّ في ذلك وما حاد عن الصراط،  
وها هو يتذكّر بتلقائية قول الشيخ «ما أجدرك بالعشق،  
تري هل يجدر به أن يزور الشيخ مستنصحاً؟...  
ولكنّه خاف، وسلم بأنّ سرّه جدير بأن يطوى في  
الصدر... راح يتابع تيار النساء المحجّبات... هل  
يمكن أن تكون حبيته إحداهن؟... إنّها موجودة على  
أبيّ حال ما يداخله شكّ في ذلك... موجودة في  
مكان ما وفي هذا الزمان دون غيره... لعلّ أشواقنا  
تهيم في جنون مجنّدة وراء التلافي... لعلّ الذي صنع  
معجزة الحلم يُعَدّ بمعجزة أخرى تأويله وتحقيقه... لا  
يمكن أن يتلاشى حلم كهذا كان لم يكن... لا يمكن  
أن تشتعل أشواق بهذه القوّة دون ما سبب أو غاية...  
لا بدّ أن يصل العاشق... بالعقل أو الجنون لا بدّ أن  
يصل... ولكن ما أضيع الباحث بلا دليل...

- ٩ -

سعد الوزير دندان برجوع دنيا زاد إلى داره  
الرحبية، أمّا الأمّ فعانت وحدها - بعد دنيا زاد -  
معاشرة السرّ الأليم... قالت لابنتها بحزن وغضب:  
- زلّت قدمك يا دنيا زاد...  
فقالت دنيا زاد باكية:  
- إني مسلّمة أمري لربّ العالمين...  
- لن تكون العاقبة خيراً...  
فكرّرت باستسلام:  
- إني مسلّمة أمري لربّ العالمين...  
وعندما لاحت الأمارات كالنذير أقدمت المرأة على  
إجهاض بنتها مستغفرة ربّها... وقالت بأسى:  
- نحن نؤجّل البلاء ولكن ما العمل إذا جاء  
عريس؟

حلم؟  
- ربّنا قادر على كلّ شيء، ستنسى كلّ شيء قبل  
مرور ساعة...  
فتنهّد قائلاً:  
- نعم...  
وكان يعلم أنّه يكذب، وأنّه لن ينسى، وأنّ قلبه  
يخفق بحبّ حقيقيّ، وأنّ محبوبه كائن متجسّد لا يُنسى  
ولا يُحى أثره من الوجدان...

- ٨ -

فتح نور الدين دكانه وطلّح الناس بوجه جديد...  
عُرف طيلة عمره اليافع بجياله الصافي وبحضور  
البديّة في المعاملة ولكنّه بدا ذلك الصباح الربيعي  
شارد اللبّ حائر الطّرف... يتساءل الذين يستبشرون  
بطلعته عمّا غيّره واستأثر بخياله... ويتساءل هو طيلة  
الوقت عن حلمه العجيب الذي فاق الحقيقة في  
الوجود والدسامة والأثر... وقد بلغ العشرين دون أن  
يتزوّج لرغبة قديمة في الزواج من حسنيّة أخت صديقه  
فاضل صنعان... تردّد قديماً بين رزقه المحدود وثرثاء  
أبيها الواسع، وتردّد بعد ذلك لمعارضة أمّه في الزواج  
من ابنة رجل خالط العفريت حياتهم... قالت  
العجوز:

- ابعدي عن الشرّ فلا ندرني عن هذه الأسرار  
شيئاً...

وأبقى على مودته لفاضل، تاركاً حسنيّة للزمن،  
ولكن أين حسنيّة الآن؟ بل أين الدنيا وما فيها؟ لا  
وجود إلّا لتلك الصورة الباهرة والمخدع الوثير والسرير  
الذي يفوق في حجمه غرفة نومه كلّها... لقد رأى  
رؤيا حقيقيّة، ومارس حبّاً حقيقيّاً، وها هو يحبّ حبّاً  
يتضاءل بالقياس إليه أيّ حبّ حقيقيّ... ها هو  
يعاني فتور الحياة ووحشتها وكآبتها وحزنها الأبديّ في  
البعد عنها... أمّا شذاها فيعقب به أنفه وأمّا مناجاتها  
فتردّد مع أنفاسه... وتذكّر صباه الذي أنفقه في كتف  
الشيخ البلخي يتعلّم القراءة والكتابة ومبادئ  
الدين... عندما أخذ من ذلك كفايته وهمّ بتوديع  
الشيخ قال له الرجل:

## ٤١٠ ليالي الف ليلة

- رأيت حلماً عجيباً!  
ولكنّ أحدًا لم يسأله عن حلمه لسوء ظنهم بصدقه  
ولعلمهم بلهفته على إقحام نفسه في شئون  
الآخرين...

وارتعد نور الدين لذكر الحلم وقال لصاحبه حسن  
وافضل:

- ليس أعجب من الحلم في حياة البشر...  
فسمع صوتاً يقول معلقاً على قوله:  
- صدق ما قلت يا بني...  
فالتفت إلى الأريكة المجاورة فرأى سحلول تاجر  
المزادات والتحف يرمقه باسماً فقال له:  
- إنك حكيم ومجرب يا سيدي...  
فقال سحلول:

- من ملك الحلم ملك الغدا!  
مال إلى مناقشته بكل قلبه ولكنّ فاضل - مستذكراً  
ما سبق أن رده صديقه الغائب عبد الله الحمال - لكزه  
بكوعه خفية وهمس في أذنه:  
- دعك منه...  
فتساءل نور الدين:  
- ولكنّه ذو تجربة؟  
فهمس فاضل صنعان:  
- إنّه غامض أيضاً كالحلم...  
وسمع الطيب عبد القادر المهيني وهو يقول:  
- في تقديري أنّ جيش السلطان سيتنصر ولكنّ  
البومة ستعق في بيت المال...

- ١١ -

وجعل نور الدين يتنهد في أمّ متسائلاً أما لهذا  
الشوق من نهاية؟... كلت عيناه من النظر وأرهق  
القلب... وراح يتجوّل في الطرقات، حيناً في النهار،  
وحياناً في الليل، منجذباً بصفة خاصّة إلى مواقع النساء  
في أسواقهنّ الأثيرة... وأكثر من مرّة يمرّ أمام دار  
الوزير دندان في الوقت الذي تقف فيه دنيا زاد وراء  
المشربية مستطلعة ولكنّه لا يراها ولا تراه... وتتجلّى  
له التجربة الفريدة خارقة من الخوارق مستقرّة في عزلة  
بعيداً عن مجال الأمل أو تهاسه مرّات كحقيقة مذهلة

فهتفت دنيا زاد:  
- لا رغبة لي في الزواج...  
- وماذا نقول لأبيك إذا وجده كفتاً؟  
فردت دنيا زاد:  
- إني مسلّمة أمرى لربّ العالمين...

وإذا خلّت إلى نفسها تناسّت الأخطار المحدقة بها  
فلم تذكر إلّا حبيبها الغائب... عند ذلك تستهين  
بالموت، ولا تأبه للعار، وتتساءل بوجود وعذاب: أين  
أنت يا حبيبي؟، كيف وصلت إليّ؟، ما سيرك؟، ماذا  
يبعدك عني؟، ألم يأسرك جمالي كما أسرتي جمالك؟، ألم  
تلفحك النار المشتعلة في روعي؟، ألا ترقّ لعذابي؟  
ألا تفتقد حبي وأشواقني؟

- ١٠ -

وعرض من الأحداث عارض، اهتزت له  
القلوب... فقد مضى المنادي على بقلة ينادي رعيّة  
السلطان، مذبذباً نبأ هجوم ملك الروم على أحد  
الثغور، ونهوض الجيش للجهاد ودفع الغزاة...  
جاشت الصدور بالقلق، واكتظت المساجد بالمصلين،  
وارتفع الدعاء للسلطان شهريار بالنصر... وفي المساء  
هرع الناس إلى مقهى الأمراء فامتلاً بروّاده من السادة  
والعامة... وجمعت أريكة واحدة بين حسن العطار  
بن إبراهيم العطار وفاضل صنعان ونور الدين... لم  
يكن للقوم من حديث إلّا الحرب... وسمع الطيب  
عبد القادر المهيني وهو يقول:

- إنكم لم تشهدوا غزواً للعدوّ، ما هو إلّا عاصفة  
من الملاك تجتاح المدن وأهلها...

فقال جليل البزّاز:

- جيش الله لا يُغلب...

فقال معروف الإسكافي:

- لله حكمته أيضاً...

فقال رجب الحمال:

- قد تقع سفينة السندباد في الأسرا

فقال له علاء الدين بن عجر الحلاق:

- لا تفكر إلّا في ذاتك وصاحبك!

عند ذلك قال عجر الحلاق:

## ليالي ألف ليلة ٤١١

- دنيا زاد أخت السلطانة!  
انقبض صدره وأيقن أنها لا تُشتري بالمال...  
هكذا يمضي في الليل في رفقة من ذكريات غير  
سازة... ولما لمح نور الدين تجاهله... إنّه يحسده  
لجماله ويحتجّ غاضباً على حسده لشخص من البشر...  
ومرّ بدار سحلول تاجر المزدادات والتحف... قال  
لنفسه «سيمسي ذلك الرجل منافساً لي في الثراء» وكان  
يعتبره من القلّة النادرة التي تُلزم الآخرين باحترامها  
فكره أكثر ممّا يكره الآخرين... وأنجبه نحو داره وهو  
يقول:

- كرم الاصيل، عبد الله البلخي، منذاً يقرأ لنا  
الغيب؟، كسان يجب أن تكون ثروتي من السرور  
أضعاف أضعاف ما أحرزه!.

- ١٤ -

قال له البوّاب:  
- مولاي، حسام الفقي كاتم السرّ ينتظر عودتكم  
في البهو...  
ماذا جاء به في هذه الساعة المتأخرة؟... مضى إليه  
من فوره... تعانقا... قال كاتم السرّ:  
- سيدي يوسف الطاهر حاكم الحيّ ينتظرك الآن  
في داره...  
- أيّ أمر عاجل وراءك؟  
- لا أدري إلاّ أنّه أمر هام...  
ذهبا مسرعين... وانفرد به يوسف الطاهر وهو  
يقول مداعباً:

- على قدر أهل العزم...  
فتفتحصه كرم الاصيل باهتمام فواصل الرجل:  
- انتصر جيشنا، أنت أوّل رجل تُسزّق إليه  
البشري...  
فتتمّم في حيرة:  
- مئة من ربّ العالمين...  
فحدجه الحاكم بنظرة طويلة ثمّ قال:  
- بيت المال تكلف فوق طاقته...  
انقبض صدره وأدرك كلّ شيء، فقال يوسف  
الطاهر:

ستكشف له النقاب عن وجهها، وقتها تشاء رحمة الله...  
ومرّة أخرى رأى في آخر الليل شبحاً مقبلاً...  
تكشّف له عندما ألقى عليه ضوء فانوس معلق بأعلى  
باب دار عن وجه قزم... إنّه كرم الاصيل صاحب  
الملايين فماذا أخرجه من داره الرائعة في مثل هذه  
الساعة من الليل؟، ماذا يؤرّقه وعمّ يبحث؟... ترى  
لو وقع أسير حلم مثله فهل كان يغني عنه ماله في  
العثور على أسرته؟! وانقبض قلبه لمرآه لغير سبب  
واضح...

- ١٢ -

كرم الاصيل يحبّ المشي في الليل في الطرقات  
الخالية... إنّه صديق الأماكن فما يخلو مكان منها من  
عمارة أو بيت أو وكالة يملكها... وله في داره الرحبية  
زوجة وعشرات من الجوارى ولكنّه لا يملك القلوب  
كما يملك البشر والأشياء... بقدرته أن يغيّر المصائر  
ولكنّه عاجز عن تغيير صورته أو حجمه... لذلك  
كثيراً ما تبدو له الدنيا كثيفة مثل وجهه... تدفعه  
المعاملة لغشيان الناس ولكنّه يحبّ الوحدة والليل...  
لا يحبّ الغناء ويضيق بالسمر ويعشق المال ويعبد  
القوّة... لم يهنأ بقبوله نديماً للسلطان، يؤدّي الزكاة  
ولا يمارس الصدقة، يُعنى بلحيته ويُعجب بها، فهي  
أجل ما فيه بثرائها وتماديها، أنجب من البنات عشرين  
ولم يُنعم عليه بذكر واحد، هو صاحب الملايين، وأغنى  
رجال الحيّ بل أغنى رجال المدينة...  
وهو أيضاً عاشق... ولعلّ ذلك ما جعل نور  
الدين يتابع شبحه بقلب مبهم وتأثر عميق...

- ١٣ -

ألقي عليه العشق عندما سقط النقاب عن وجه  
دنيا زاد فوق الهودج في حفل عاشوراء... خفق قلبه  
الغارق في هموم الأعمال كما يبرق برق في سحاب  
مكفهر... ومال نحو بيومي الأرملة كبير الشرطة،  
وهو من عبيد جوده:

- من الجارية؟

فأجابه بأسماً:

## ٤١٢ ليالي الف ليلة

- الفضيحة تدقّ الباب كالرعد...  
فبكت دنيا زاد قائلة:  
- إني بريئة والله شهيد...  
- هيهات أن تجدي مصدقًا لحكايتك!  
- الله حسبي...  
- عنده العفو والمغفرة...  
- ليس لي حقّ القبول أو الرفض؟  
فقالَت الأمّ مستنكرة:  
- إنَّها رغبة السلطان...  
فناوَهت قائلة:  
- ليتني أهرب من هذه الدنيا...  
- تكون فضيحة أكبر وقد لا تسلم أختك من  
العواقب...  
فأنحمت في البكاء حتَّى قالت أمها:  
- ليت المشكلات تُحلّ بالدموع...  
فهتفت دنيا زاد:  
- لكنتي لا أملك إلا دموعي!

- ١٦ -

قال سخربوط لزرباحة وهو يضحك بسرور:  
- اللعبة تتأدى في التعقيد وسوف تتمخض عن  
عواقب مثيرة...  
فقالَت زرباحة مشاركة في سروره:  
- تسلية نادرة...  
- ترى هل تنتحر الجميلة أم تُقتل؟  
- الأجل أن تُقتل وينتحر أبوها...  
- هل ثمة مجال للمزيد من العيب؟  
- بل ندع الأمور تجري في مجراها ما دامت في غير  
حاجة لتدخلنا...  
- الحقّ أتي أخاف...  
فقاطعته متسائلة:  
- ممّ تخاف يا حبيبي؟  
- أن يتسلّل الخير من حيث لا ندري...  
فقالَت بازدرء:  
- لا تكن منشأئًا...  
فضحك سخربوط ولم ينبس...

- السلطان في حاجة إلى قرض يسدّد عقب جمع  
الخراج...  
فتساءل في ما يشبه الدعابة:  
- وما شأنِي أنا وذاك؟  
فضحك يوسف الطاهر وقال:  
- اختصّك السلطان بذلك الشرف...  
فتساءل دون ابتهاج:  
- كم؟  
- خمسة ملايين من الدنانير!  
لا مفرّ ولا اختيار، ولكن التمتع فكرة في رأسه  
الخير في المساومة... قال:  
- فرصة للقرب من السلطان والطموح إلى ثواب  
الرحمن...  
- أحسنت...  
فقال يهدوء:  
- ولكنّ ثمة رجاء لم أكن أدري كيف أفصح  
عنه...  
فصمت يوسف الطاهر باسماً فقال كرم الأصيل:  
- يد دنيا زاد، أمني الأخير في شرف القرب...  
دهش يوسف الطاهر ولكنّه لم يبيد دهشة... تذكّر  
كم تمخّى دنيا زاد لنفسه... حتى على محدّثه فوق ما  
تصوّر... لكنّه قال يهدوء:  
- سيُرفع الرجاء كما تشاء!

- ١٥ -

- وقع المحذور!  
هكذا ردّدت الأمّ وهي في غاية الاضطراب،  
ودنيا زاد كانت تتوقّعه على أيّ حال... قالت الأمّ:  
- جاء العريس، حظي برضى السلطان ومرافقة  
أبيك!  
ترى من يكون؟! هل أدخر القدر معجزة جديدة  
فيها الشفاء؟ تساءلت عيناها دون أن تنفّوه بكلمة  
فقالَت الأمّ:  
- إنّه كرم الأصيل صاحب الملايين!  
قطّبت دنيا زاد وخطف اليأس دم وجنتيها فقامت  
الأمّ:



## لبالي الف ليلة ٤١٣

- لا أهمية لذلك، جاءك الفرج، هاتِ يدك  
لأنطلق بك إلى الحرية...  
استسلم جمصة له غير مصدق حتى غمره هواء  
الربيع الرطيب... تمتم جمصة:  
- يا رحمة الله! من أنت أيها الغريب؟ من  
أرسلك؟  
دفعه سحلول وهو يقول:  
- إلى مقامك المنعزل القديم على شاطئ النهر!

## - ١٩ -

عندما ذهب الغريب قال جمصة البلطي لنفسه:  
- ليس هذا من عمل الإنس، تذكر ذلك يا  
جمصة، تذكر وتفكر...  
عاش بين المجانين حتى ألف الجنون... أدرك أنه  
سرّ مغلق وكشّف مثير... ثمّنى أن يغوص في أعماقه  
ويجابه تحدياته... ولما أنعشه الهواء جرى قلبه إلى  
أكرمان ورسمية وحسنية، ثمّنى لو يزور الربع ويخالط  
أنفاس الأحيّة... لكن من يكون؟... لقد حلّقوا  
شعر رأسه ولحيته وجلدوه مرّتين... لا وجود اليوم  
لجمصة ولا لعبد الله... إنه اليوم بلا هوية ولا اسم،  
مليء بالأشجان والنزوع إلى التقوى... أوى إلى  
النخلة عند اللسان من النهر... تذكر صديق الأحلام  
عبد الله البحري... رجع يقول:  
- كائن بلا هوية، غابته فوق الأكوان، ولكن تذكر  
وتفكر، فلم يبتك الفرج بغير ما سبب...!

## - ٢٠ -

مُحلت دنيا زاد إلى السراي ليحتفل بزفافها في  
رحاب السلطان تفتيحاً لرغبته السامية... اجتاحت  
رياح الرعب المثقلة بالغبار قلب العروس وشقيقتها  
صاحبة الحكايات... نصحت شهرزاد أختها بأداء  
المرض ورجت السلطان تأجيل الزفاف حتى تبرا من  
مرضها... واستدعي الطبيب عبد القادر المهني فتولّى  
العلاج، وسرعان ما ساورته شكوك... كان فطناً  
أريباً ذا خبرة بالنفوس لا تقل عن خبرته بالأجساد

## - ١٧ -

انتشر نبا خطبة كرم الأصيل لدنيا زاد في الحي  
ساحباً وراءه ذيلًا عريضاً من البهجة والتطلّعات  
والسخریات... حلم الفقراء بمطرة منهمرة من  
الصدقات من رجل لم يعرف حتى حبّ الصدقة...  
وفرّح الأعيان بهذه المصاهرة بين السلطان وحيهم...  
وجرت الهمسات منذرة باقتران القرد بالملك...  
وناحت دنيا زاد في وحدتها مناجية المجهول «أين أنت  
يا حبيبي؟»، «متى تجيء لإنقاذي من الدمار؟» وراح  
نور الدين يتخبّط بين الطرقات وقد أثار نبا القران  
أحزانه مناجياً المجهول أيضاً «أين أنت يا  
حبيبي؟»... وتابع قمعام وسنجم المناجاة المتبادلة في  
أسى عميق حتى قال سنجم لزميله:  
- انظر ماذا يفعل الزمان والمكان!  
فقال له قمعام:  
- إنّ أنات البشر من قديم تدفق في نهر الحسرات  
بين الكواكب...  
ومرّ تحت الشجرة المعلم سحلول مهرولاً فقال  
قمعام بصوت مسموع:  
- إنه ماضٍ إلى مهمة...  
فقال سحلول بحيرة:  
- أحياناً أتلقى أوامر غير مفهومة!  
ومضى في سبيله...

## - ١٨ -

انتهى سحلول إلى سور دار المجانين ووقف في  
الظلماء... همس لنفسه:  
- لولا الإيمان لتساءلت عن معنى ذلك...  
وسلّط إرادته على الأرض فيما بينه وبين زنزانة  
جمصة البلطي فانشقّ نفق لا يستطيع البشر شقه في  
أقلّ من عام... وفي ثوان كان واقفاً في الظلام فوق  
رأس جمصة البلطي يسمع شخيره المنتظم... هزّه  
برفق فاستيقظ متسائلاً:  
- من؟  
فقال له:

كَلَّ شيء...  
فقال نور الدين بعد صمت:  
- إني مؤمن صادق العبادة ولُكِّنْتِي ما زلت عاشقًا  
لمخلوقات الله...  
- إذن فلا تكفَّ عن البحث...  
- نال منِّي التعب والأرق...  
- العاشق لا يتعب...  
فقال باهتمام:  
- يَجِئِلْ إليَّ أَنتِك ذو خبرة...  
- عرفت رجلاً لم يُحرم مَن يجب فحسب ولُكِّنْتِه  
حُرْم من الوجود ذاته!

- بالموت؟

- بل في الحياة!  
- إته الجنون نفسه...  
- والعقل أيضًا...  
فقال بعد تردّد:  
- إنتِك تغمض وتزداد غموضًا...  
فتساءل بنبرة باسمه:  
- إذن ماذا تقول عن حلمك؟!

- ٢٢ -

ورجع نور الدين إلى المدينة يخوض بحار  
الظلمات... لم يبلّ العابد غلته أو بالكاد فعل...  
حسّه على البحث ولم يعبده بالظفر ولا أنذرته باليأس ثمّ  
وضح أنّه من المتبلّين... لم يخلق نور الدين للزهد في  
الدنيا ولُكِّنْتِه خلق لعشق الله في الدنيا... على ذلك  
فارق الشيخ عبد الله البلخي يوم فارقه... لم يملك في  
تلك اللحظة إلاّ اليقين بأنّ محبته كائنة في مكان ما،  
وأتمها منطبعة بأثر حبّه... بذلك حدّثته نسائم الربيع  
الهائمة في الليل كما حدّثته ومضات النجوم الهابطة بين  
القباب والمآذن... وهتف بصوت مرتفع في وحدته:  
- خفّف عذابِي يا لطيفًا بالعباد...  
وإذا بصوت عميق يسأل:  
- مَن الشاكي في هذه الساعة من الليل؟  
انتبه إلى شبح رجلين يعترضان سبيله فتساءل:  
- أمين رجال الشرطة أنتما؟

فرجح لديه أنّ العروس راغبة عن القرد، ولُكِّنْتِه تغاي  
بلباقة، متعاطفًا مع رغبتها، دافئًا سرّها في بئر مهنته  
المصون، فقرّر أنّ العلاج سيطول... غير أنّ كرم  
الأصيل ضاق بالقرار، وساوته شكوك أيضًا فتضرع  
إلى مولاه أن يأذن له في عقد الزواج على أنّ يؤجّل  
الزفاف لحين الشفاء... وافق السلطان وحيء بكبير  
القضاة فعقد الزواج، وبذلك باتت دنيا زاد زوجة  
شرعيّة لكرم الأصيل صاحب الملايين... وانتظر قوم  
بهجة الأفراح على لهفة وتوقّع آخرون سقوط  
الكارثة...  
- ٢١ -

وقادت أقدام نور الدين الحائرة صاحبها ذات مساء  
إلى النهر فخلا إلى نفسه عند اللسان... في خلوة  
ناعمة بأنفاس الربيع، مشتعلة بالسنة الأشواق...  
ترامى إليه صوت مناجاة فأيقن أنّه صوت عابد،  
فانجذب نحوه ناشدًا راحة وسلوى... عثر على  
الشيخ تحت النخلة فأشفق من مقاطعته وجلس  
يستمع... ولما انتهى الرجل سأله:  
- مَن أنت؟ وماذا جاء بك؟

فأجاب نور الدين:

- إني معذب، وأنت؟ من هذه الناحية يا عمّ؟  
- لا تهمّ التواحي مَن جعل قرّة عينه في العبادة،  
ولكن ما سرّ عذابك؟  
- لي حكاية غريبة!  
دفعته رغبة قويّة للاعتراف فحكى له حلمه  
بتفاصيله وما أعقبه من جنون، ثمّ سأله:  
- هل تصدّقني؟  
فأجاب الرجل:  
- المجانين لا يكذبون...  
- هل عندك تفسير للسرّ؟  
- وراءك ملاك أو شيطان ولُكِّنْتِه حقيقة!  
- وكيف أبرأ من أشواقِي؟  
فقال بهدوء:

- نحن نكابد أشواقًا لا حصر لها لتقودنا في النهاية  
إلى الشوق الذي لا شوق بعده، فاعشق الله يُعْنِكَ عن

## ليالي الف ليلة ٤١٥

فانتعش قلب نور الدين بالأمال وتساءل:  
 - هل يمكن أن أبلغ المراد بالوصول إلى محبوبتي؟  
 - ما أشك في ذلك...  
 فتأوه متسائلاً:  
 - ولكن كيف ومتى؟  
 فقال الرجل:  
 - بالصبر والإصرار يتحقق الوصول...  
 وسأله خير الدين الأنسي:  
 - أنت في حاجة إلى مال؟  
 فقال متنهّداً:  
 - لا أسأل الله إلا الوصول...  
 فقال عزّ الدين:  
 - أبشّر بفرج الله القريب...  
 -

- ٢٣ -

رأت شهرزاد السلطان منفعلاً كما لم تسره من  
 قبل... كانا في الشرفة المطلّة على الحديقة وقد فرغ  
 من صلاة الصبح وراح يتناول إفطاراً من الحليب  
 والتفّاح... عمّا قليل سيرتدي زيّه الرسميّ ويذهب  
 إلى مجلس الحكم ولكنّه يبدو في ساعته كطفل سعد  
 باكتشاف جديد... قال:  
 - ليلة أمس صادفت في تجوالي حكاية كأنها إحدى  
 حكاياتك يا شهرزاد...  
 فقالت باسمه رغم كرهها الدفين:  
 - تكرر الحكايات آية صدقها يا مولاي...  
 - أجل، أجل... أسرار الوجود شائقة وألذّ من  
 الخمر...  
 - متعك الله بالوجود وأسراره يا مولاي...  
 فقال بعد تمهّل:  
 - الحقّ أنّي في حركة دائبة لا تتوقّف ولا يهدأ  
 القلب، يتنازعي بياض النهار وظلام الليل...  
 فقالت بمرح تغطّي به على فتور روحها:  
 - هكذا الرجل الحيّ...  
 - مهلاً، جاء دوري لأحكّي لك حكاية غريبة...  
 وقدم لها حلم نور الدين بيّاع الروائح العطريّة...  
 وانتبه إلى وجهها قائلاً بدهشة:

فأجاب صاحب الصوت:  
 - نحن تاجران غريان نتمسّل عن طول ليلنا بالمشي  
 في حيّكم العريق...  
 - أهلاً بكما ومرحباً...  
 - ماذا تشكو أيها الشاب؟  
 وقال زميله:  
 - الناس للناس، ولا تُضيع الشكوى بين أهل  
 المروءة...  
 فقال نور الدين مدفوعاً بكرمه:  
 - أدعوكما إلى داري المتواضعة وهي قريبة...  
 وضمتهم حجرة أنيقة، وقدم لها زلابية وقدهين  
 من الكركديه... حاماً حول شكواه، سألهما عن  
 موطنهما، قالا إنّهما من سمرقند... حاماً حول شكواه  
 مرّة أخرى... قال:  
 - يبوح الحائر بسرّه للغريب...  
 فقال ذو الصوت العميق:  
 - وقد يجد عنده ما لا يحظر على بال...  
 فقال نور الدين متنهّداً:  
 - فلتمطرنا السماء مطرة غير متوقّعة...  
 واندفع يحكي لهما حكاية حلمه العجيب حتّى  
 تلاشى صوته في صمت شامل وهو يرنو إليهما في  
 حياء... ثمّ قال ذو الصوت العميق:  
 - تعارفنا بالقلوب كما يجدر بأهل الكرم ولكن أن  
 لنا أن نتعارف بالأسماء، أمّا أنا فعزّ الدين  
 السمرقندي، وهذا شريكّي خير الدين الأنسي...  
 فقال نور الدين:  
 - نور الدين بيّاع الروائح العطريّة...  
 - تجارة جميلة مثل وجهك...  
 - هل داخلكما شكّ في عقلي؟  
 - معاذ الله، الله لا يضع جماله إلا حيث يريد أن  
 يضع رضاه...  
 - هل صدّقنا؟  
 فقال عزّ الدين:  
 - أجل أيها الشاب، إنّ جوّاب بلدان، وقد  
 سمعت من حكايات الأزلين ما لا يحظر على قلب  
 بشر، لذلك لا أشكّ في حقيقة حلمك...  
 -

فزفرت الأمّ قائلة:  
 - الخطر يدهمنا...  
 - هي الحقيقة المرعبة...  
 - هل نتنظر كالمطروح فوق النطع؟  
 فقالت شهرزاد باضطراب:  
 - إني خائفة، على دنيا زاد وعلى نفسي أيضًا، لا  
 أمان للسفك، إنَّ شرَّ ما يبتي به الإنسان أن يتوهم أنه  
 إله...  
 - إنه كالموت، لا مفرّ منه...  
 - يترامى لي أحيانًا أنه يتغير...  
 - أبوك يقول ذلك أيضًا...  
 - لكن ماذا يدور بداخله؟... ما زال في نظري  
 لغرًا غامضًا لا أمان له...  
 فقالت الأمّ بقلق:  
 - قد تعجبه الحكاية وهي بعيدة، أما أن تقتحم  
 داره وتعامل معه فشيء آخر، قد تعاوده وساوسه...  
 - وينقلب شيطانًا كما كان أو أفضح...  
 - وما ذنبك أنت؟  
 - أرى أن نشارك دنيا زاد في همومنا...  
 - إني أشفق من ذلك كلّ الإشفاق...  
 - إلامّ نهرب من الحقيقة وهي تطوّقنا؟  
 واستأذنت القهرمانة مرجان في الدخول... قدّمت  
 لشهرزاد رسالة وهي تقول بخوف:  
 - اختفت سيّدتي دنيا زاد تاركة هذه الرسالة...  
 وقرأت شهرزاد الكلمات الآتية:  
 - عفواً يا مولاي السلطان...  
 لا قبل لي بعصيان أمرك بالزواج من كرم الأصيل،  
 ولا طاقة بي للزواج منه، فاخترت أن أقضي على نفسي  
 والله غفور رحيم...  
 شهقت الأمّ وأغمي عليها...

- ٢٥ -

راح المنادون يذيعون الحلم العجيب ويدعون  
 العاشقين للتلاقي في رحاب السلطان... في ذات  
 الوقت تلقى السلطان نبأ انتحار دنيا زاد بالحزن  
 والسخط وأصدر أمره بالعثور على جثتها في أيّ موضع

- ما أشدّ تأثرك يا شهرزاد!...  
 فقالت كالمعتدة:  
 - استيقظت اليوم متوعكة...  
 - لسعة رطوبة لا تلبث أن تزول وسوف يراك  
 الطبيب، أما أنا فأريد أن أكلف المنادين بالسير  
 بالحكاية لأجمع بين العاشقين...  
 فقالت بحرارة:  
 - بل التمهّل أولى بنا أن تعرّض بريثان لالسنة  
 السوء!  
 ففكر ملياً ثمّ تساءل:  
 - ألسنت قادرًا على حمايتهما؟!  
 وقالت شهرزاد لنفسها إنّ هذا الرجل لم يكن  
 يشغله إلاّ ضرب الاعتناق، وما زال شيطانه ذا سطوة  
 لا يستهان بها، ولكنّه لم يعد يستأثر به...

- ٢٤ -

وقالت شهرزاد لأُمها المقيمة في السراي بعلة رعاية  
 دنيا زاد في مرضها:  
 - ثمة خارقة من الخوارق تطالبنا بمزيد من  
 الحكمة...  
 فتتهتت الأمّ قائلة:  
 - لا يصلح قلبي لتلقّي الحوادث الجديدة...  
 - أمي، لقد تجلّت حقيقة صاحب الحلم!  
 ففغرت المرأة فاها ثمّ تتممت:  
 - لا تحدّثيني عن الأحلام...  
 - ما هو إلاّ نور الدين يتّاع الروائح العطرية...  
 وقصّت عليها مغامرة السلطان بحروفها... عند  
 ذاك قالت الأمّ بذهول:  
 - ما في وسع مثله أن يتسلّل بلسل إلى سراي  
 السلطان...  
 - لو صحّ ارتياك يا أمي لمان عليها أن تهرب  
 معه...  
 - ولكن ما الفائدة؟ أختك زوجة شرعية لكرم  
 الأصيل والكارثة تقترب ساعة بعد أخرى...  
 - وسوف ينادي المنادون بالحكاية ولا يبعد أن  
 تنكشف حقيقتها...

## ليالي الف ليلة ٤١٧

- إني مظلومة، غادرت داري لأقتل نفسي ثم خفت أن يلقاني الله غاضباً...  
 - لماذا يا ابنتي؟  
 فنشجت باكياً فهتف مخاطباً السماء:  
 - إنك أعلم أين تضع رحمتك...  
 - بريئة ومظلومة...  
 - ما أحب أن أتطفل على سرّ قلبك...  
 فاستسلمت قائلة:  
 - إنك من العباد الطيبين وإليك أبوح بسرّي...  
 وراحت تحكي حكايتها فقاطعها متسائلاً:  
 - أنت صاحبة الحلم؟  
 فهتفت متسائلة:  
 - كيف عرفت ذلك؟  
 - عرفته من شريكك في نفس المكان، وسمعت بعد ذلك من المنادين...  
 - عقلي عاجز عن متابعتك، هل تعرف شريكى في الحلم؟  
 - المنادون يردّدون اسمه في كلّ مكان، إنه نور الدين بيّاع الروائح العطرية...  
 فقالت وكأنها تخاطب نفسها:  
 - المنادون؟! وراءهم السلطان! يا للعجب، نور الدين... نور الدين... لكنتى متزوجة، بل إنى مية...  
 وأكملت قصّتها فقال الرجل:  
 - اذهبي إلى زوجك!  
 فهتفت بإصرار:  
 - الموت أهون...  
 - اذهبي إلى زوجك نور الدين!  
 فتساءلت بذهول:  
 - ولكنتى زوجة شرعية لكرم الأصيل!  
 فقال بحزم:  
 - اذهبي إلى نور الدين ودعي الفجر يطلع!

- ٢٧ -

قال سخر بوط محتدأ:

- ماذا أرى؟!... الأمور تسير نحو حلّ سعيد!

من الأرض... وغضب كرم الأصيل غضباً شديداً دعاه إلى الاعتكاف بعيداً عن شهادة الشامتين وسخرية الساخرين فلم يكن يغادر داره إلا عند انتصاف الليل... أما يوسف الطاهر - حاكم الحيّ - فقد تلقى الخبر في دفقة امتزج فيها السرور بالحزن العميق... سرّ بتحرّر دنيا زاد من قبضة الرجل القرد ولكنّه حزن بعمق على موت الفتاة التي تمنّاها لنفسه والتي من أجلها فكّر جاداً في تدبير مؤامرة لاغتيال كرم الأصيل...

- ٢٦ -

- كان المجنون يتأمل في ظلمة الليل تحت النخلة عندما انتبه إلى شبح يقترّب على ضوء النجوم...  
 سمع صوت أنثى يجيئه وتقول:  
 - باسم الله أسألك أن ترشدني إلى سفينة تبعدي عن المدينة...  
 فسألها برقة:  
 - أتهربين من فعلٍ يُغضب الله؟  
 فقالت بحرارة:  
 - ما أغضبت الله في حياتي قط...  
 صوتها ذكّره بأكرمان وحسنيّة فهزج حنان الأرض أشواق السماء في قلبه فقال برقة مشعشة بالندى:  
 - عليك بالانتظار حتّى مطلع الفجر والله يتولّك برحمته...  
 - هل أستطيع الانتظار هنا؟  
 فابتسم ابتسامة لم ترها وقال:  
 - خلق العراء للهاريين! أين تذهبين؟  
 - أريد أن أبعث عن المدينة...  
 - ولكنتك وحيدة ولعلك جميلة!  
 فلاذت بالصمت فقال:  
 - لعلّ الله يعينك بيدي إن شئت؟  
 فقالت بامتنان:  
 - ما أريد إلا أن تيسّر لي السفر...  
 فتساءل بقلق:  
 - عهد الله أنك لم تخلفي وراءك أذى لإنسان؟  
 فقالت بصوت متهدج وقد اطمأنت إليه:

- فقال زرمباحة مدارية مرارة:  
 - انتظر، ما زال الطريق مليئًا بالأشواك...  
 ولمحا تحت الشجرة سحلول يمضي مهرولاً في  
 الظلام فتساءل سخربوط:  
 - مهمّة طارئة أيها الملاك؟  
 وقالت زرمباحة:  
 - لعلها لنا لا علينا...  
 مضى سحلول دون أن يعيرهما التفاتة...  
 - لنذهب إلى السلطان...  
 فانطفأت شعلة وهي تقول:  
 - ولكنني متزوجة من كرم الأصيل...  
 فقال بحدّة:  
 - وعد السلطان أقوى...  
 فقالت بأسى:  
 - والعثرات لها قوتها أيضاً...  
 ولكنّه كان من السكر في غاية...  
 - ٢٨ -

- في الصباح الباكر غادر نور الدين داره ليفتح  
 دكانه... وجد عند الدكان فتاة محجّبة كأنما  
 تنتظر... عليها رداء من القزّ الدمشقيّ يفصح عن  
 هويّة سامية... تطلّعت إليه باهتمام ثمّ نذت عنها آهة  
 عميقة... عجب لشأنها وتلقّى من قلبه نبضات  
 موحية بإلهامات غامضة... ما لبثت أن أسفرت عن  
 وجه مضىء ورنّت إليه بشتات واستسلام وشغف...  
 مرّ دهر وهما غائبان عن الوجود وغائصان في حلم  
 ينفث السحر والوجد... رقت نسائم الربيع، خفت  
 وزنها، أفعما بشذا الزرقة السايّة... أنستها السعادة  
 الهابطة ذكريات العذاب والحيرة فحلّ السلام بالأرض  
 وتلاحت الأيدي بحركة عفوية مثل غناء الطير...  
 هتف:  
 - كائن وحيّ، حقيقة لا حلم، هنا في هذه الساعة  
 من الزمان...  
 فهمست بصوت مهتدج:  
 - نعم... أنت نور الدين وأنا دنيا زاد!  
 - أيّ رحمة هدتك إلى مقامي؟  
 فتداقت الكلمات من ثغرها تروي المأساة والفرج  
 فقال بنشوة:  
 - كان علينا أن نطمئنّ إلى أنّ المعجزة لا تقع  
 عبثاً...  
 - ولكنّ الرعد أقوى من هديل الحمام...  
 فقال بإصرار:  
 - معاً وإلى الأبد...  
 - كان ذلك قدراً مقدوراً...  
 - ٢٩ -  
 انعقد المجلس السلطانيّ في الضحى وشهده كبار  
 رجال الدولة... مثل أمام العرش نور الدين يبيح  
 الروائح العطريّة ودنيا زاد أخت السلطنة... قال  
 السلطان متجهّماً:  
 - دهمتنا العجائب الغامضة وقد علّمتنا الأيام  
 والليالي بأن نخصّ العجائب باهتمامنا وأن ندقّ باب  
 الغموض حتّى تفتح مصاريعه عن الضياء، غير أنّ  
 هذه العجيبة المتنكّرة في حلم اقتحمت عليّ داري...  
 صمت السلطان فخلق قلب الوزير دندان،  
 وشحب وجهها دنيا زاد ونور الدين... قوى متضاربة  
 تتنازع قلب السلطان ولا شك... ما زال المارد  
 القاسي، سحرته الحكايات ولكنّها لم تغير من جوهره،  
 وإذا به يقول ووجهه يزداد تمجّهاً:  
 - ولكنّ وعد السلطان حقاً  
 فزال الكرب عن قلوب كثيرة وأشرقت وجوه بنور  
 الأمل... وعند ذاك قال المفتي:  
 - ولكنّ السيّد دنيا زاد متزوجة بحكم الشرع...  
 فأصدر السلطان أمره إلى دندان قائلاً:  
 - أحضر كرم الأصيل...  
 فقام يوسف الطاهر حاكم الحيّ العتيق وقال:  
 - مولاي، وُجد كرم الأصيل ميّناً ليلة أمس غير  
 بعيد من داره!  
 اجتاح الخبر القلوب فزلزلها وسرعان ما تذكّرت  
 مصارع الحكام والأعيان... وقام بيومي الأرملة كبير  
 شرطة الحيّ فقال:  
 - عثر رجالنا على المجنون الهارب بييم على وجهه

## مُغامرات عَجْر الحَلَّاق

- ١ -

تبلبلت الخواطر لموت كرم الأصيل ولكن عَجْر الحَلَّاق شُغل بنفسه عن الدنيا وما فيها، في الظروف العادية لا يشغله شيء عن الأحداث، فهو طفولي عريق، ينسج من الحبة قبة، ويُعتبر في دكانه راوية قبل أن يكون حلاًفاً، ويستجلب بالأخبار والمبالغات الاهتمام والرضى... غير أن ابتسامه أعادت خلقه من جديد، وفجرت الأمانى المكتومة من قديم... وهو قصير نحيل براق العينين غامق السمرة لا يخلو في الأصل من وسامة ينطوي على نهم لا يدري به سواه... صاحبة الابتسامه متوسطة العمر... تكبره بعام أو عامين... لم تبسم إلى حَلَّاق مثله؟. لعلها تحب الرجال، لعلها تغري بالانوثه وبالجلود، فما يشك أحد في فقر عَجْر الحَلَّاق... يا إلهي، إنه يحب النساء، ولولا الفقر ما بقيت فتوحه زوجته الوحيدة طيلة ذاك العمر... لعله يحلم بالنساء كابنه اليافع علاء الدين ويحلم أيضاً بالجاه والطعام والشراب... وقد واطبت على المرور أمام دكانه أياماً متتابعات حتى تصدى لها فضربت له موعداً عند مدرسة السلطان عقب مغيب الشمس... انتظر وهو يقول لنفسه وجاء دورك في الحظ يا عَجْر... لأول مرة يثني على الحظ ويسجد، لأول مرة يرحب بهبوط المغيب، لأول مرة يأنس إلى الطريق وهو يقفز... الدكاكين تغلق أبوابها، وهو يمتلئ بالانفعال والانتظار... ولما خلا الطريق أو كاد ظهر «المجنون» بجلبابه الفضفاض ولحيته المرسله... على غير انتظار ظهر ليخترق الليل بأسراره... هو المتطوع دائماً بأنه مرتكب الجرائم الكبرى، والزاعم بأنه جصة البلطي قاهر الموت، الذي غزا قلب السلطان الحجري فأطلق سراحه... وعَجْر يجبه كدعابة غامضة ولكنه لم يرحب بظهوره في تلك الساعة الفاصلة... وحدث ما أشفق منه فاقترب منه المجنون حتى وقف بإزائه وقال له بصوته الملىء:

ليلاً في الحَيِّ بعد بحث طويل خائب عنه فآلقوا القبض عليه... .

فساله السلطان:

- هل تتهمونه بقتل الأصيل؟

- إنه ينسب إلى نفسه كافة الجرائم في مباحة وعزة... .

- أليس هو الرجل المصر على الزعم بأنه جصة البلطي؟

- هو نفسه وما زال مصرّاً على ذلك... .

وهنا قال يوسف الطاهر:

- نستأذن مولانا في ضرب عنقه فهو آمن من

إرجاعه إلى دار المجانين... .

فقال السلطان:

- حدثني وزيرى دندان بأن التفق الذي هرب منه لا يمكن أن يصنعه بشراً!

فقال بيومي الأرملة بتسليم:

- هو كذلك يا مولاي... .

تردد السلطان طويلاً حتى شعر المقرّبون بأن الخوف يساوره لأول مرة في حياته، ولما أدرك دندان ذلك قال بلباقة:

- ما هو إلا مجنون يا مولاي، ولكن به سر لا

يستهان به فليترك وشأنه، وما من مملكة إلا وبها نفر من أمثاله لهم دورهم في العناية الإلهية، أرى يا مولاي أن يُترك وشأنه وأن يُبحث عن القاتل بين الشيعة والخوارج... .

فقال السلطان شاكراً في باطنه لوزيره لبقته:

- أحسنت النصيحة يا دندان... .

ثم نظر إلى دنيا زاد ونور الدين وقال:

- لكما الوعد فتزوجا، وسيكون لدنيا زاد جميع

مخصّصاتهما من بيت المال... .

وتجمل المجلس بالسلامة والسعادة... .

والمرأة... وتساءل مرّات متى يتمّ التعارف؟ ولكن ما أهميّة ذلك؟ ليحذر التسرع وليلعب دوره كما يجدر به... إنه لا يشكّ في أنّه بحضرة فاجرة... لكنتها فاجرة تجود وتهب ولا تستغلّ... إنه حلم لا يضيره إلا أنّه لا يصدّق...

- ٣ -

وخصّته بيوم الاثنين من كلّ أسبوع... طمع في المزيد ولكنتها تجاهلته... نصح نفسه بالقناعة... تحامت أن تشير إلى هويّتها فأيقن أنّها من عليه القوم... لماذا لم تستقرّ في سراي مع كبير من الأكابر؟ لعلّه الفجور أو البطر فأنعمم بآتيها... والجارية الشابة شقيقتها بلا جدال... غائصة ولا شكّ في الفساد... وهي مذعنة ومطبعة للمرأة كأنها تابعة... وهي فتنة، وهما يتبادلان استراق النظر... سيقع حتّى في شباك الصغرى كما وقع في الكبرى وكلّ آت قريب... إنه مجلس معبى بالشهوة والحيانة ولكنته يعمل للمرأة ألف حساب... وأحبّ الطعام والشراب مثلما أحبّ المرأة... ويمرور الأيام أحبّ الطعام والشراب أكثر... يهجم على المائدة بوحشية ويلا حياء حتّى بات فرجة مسلّية للمرأتين... حرص على ألا يفضح هواه بالجارية الشابة، وشجّته هي مستخفية وراء المزيد من الحذر... شعر في مقهى الأمراء بأنّه أعلى مرتبة من الوجهاء وأنّه أسعد من يوسف الطاهر وأنّه شهريار آخر...

- ٤ -

وذهب ليلة فلم يجد إلاّ الجارية الشابة... البهو هو البهو ولكنّ المائدة خالية... وتساءلت عيناه في حيرة دون أن ينبس فقالت الجارية:  
- إنّها مريضة وقد كلّفتني بالاعتذار...  
خفق قلبه وبرقت عيناه وابتسم فقالت:  
- ينبغي أن أرجع مسرعة...  
فقال بلهفة:  
- إنّها شديدة الثقة!

- اذهب إلى بيتك فلا يخرج في الليل إلاّ ذو هدف...

فضحك عجر مغالبًا توتّره وقال له:

- شعر رأسك ينمو مثل شجرة بلح ولحيتك تمتدّ طولًا وعرضًا كالستارة، هلّا زرتني في دكاني لأهدّبك؟  
فنهز قائلاً:

- عقلك فاسد فلا تطاوعه...

- يا لك من مجنون ظريف...

فضمى عنه وهو يقول:

- جاهل من ذريّة جهلاء!

لم يبقّ وحده أكثر من دقيقة ثمّ أقبلت المرأة...

- ٢ -

تجربة مشتعلة، يُستهان فيها بالجهول، بعد عشرين عامًا من حياة زوجيّة يومية... قادته في الظلام المخفّف بفوانيس الأبواب إلى دار شبه معزولة ببستان خارج السور... آمن بأنّ التي تقوده من أهل الجاه والثرء والفجور فسعد بذلك درجة بعد درجة... غاصا في مكان مظلم وشئت به روائحه الزكيّة فأدرك أنّه حديقة، ثمّ وجد نفسه في بهو مُضاء بتناديل في الأركان، يتصدّره سرير وثير يتوسّطه مجلس من الوسائد حوله مائدة حفلت بالطعام والشراب... غابت المرأة ثمّ رجعت سافرة في جلاب حريير... مكنتزة، حسنة القسيات، أكبر ممّا حسب، ولكنتها تسيل دلالًا وخلاعة... جرى بصره على المرأة والطعام والشراب وقال لنفسه «انظر كيف تتحقّق الأحلام»... قال وهو يتحفّز:

- ليلتنا ليس في الليالي مثلها...

ملأت كأسين وهي تقول ضاحكة:

- لا ينكر النعمة إلاّ جاحد...

وصفقت فجاءت جارية في العشرين، حاملّة عودًا، تشبه المرأة فكأنّها أختها وتتفوّق بالشباب، وقالت المرأة:

- أسمعنا، لا يتمّ السرور إلاّ بالكمال...

لعب الشراب بالعقول كما لعب الوتر بالقلوب...

ويقحة عجر المهودة أقبل على الشراب والطعام



## ليالي ألف ليلة ٤٢١

والمودة... فتح دكانه متأخراً عن ميعاده... استقبل  
السروس واللحى بمقل شاردي هيسم في وديسان  
الرب... كان ثمة شخص ثالث هو القاتل بلا  
ريب... لكن لماذا قتل الشابة الجميلة؟ الغيرة؟  
غيرة رجل مجهول أم غيرة امرأة؟ دائماً تطارده صورة  
الأخت الكبرى... قوينة وفاجرة وقادرة على  
الكبائر... هل تُكتشف الجثة؟ هل علم أحد  
بتسلله الليلي؟ هل يُساق ذات يوم إلى السيف  
ليضرب عنقه؟ أعاهدك يا ربّي على التوبة إذا  
أنقذتني... وفكر لحظات في الهرب... العقد المستقر  
فوق بطنه يعدّ ثروة ولكنّ غرضه للبيع قد يوقعه في شرّ  
أعماله... كلاً... إنه لم يقتل ولن يهرب والعناية  
الإلهية لا تنام... أجل إنّ العناية الإلهية لا تنام ولكن  
من هذا؟ نظر بصدر منقبض إلى «المجنون» وهو  
يدخل الدكان فيقتعد الأرض في بساطة وهو يأكل  
مشمشة... وكان يشدّب لحية الطبيب عبد القادر  
المهيني فقال للمجنون:

- ماذا جاء بك في النهار على غير عادة؟
- فقال المجنون ببساطة:
- نهارك ليل يا عجر...
- أعوذ بالله من شرّ الكلام...
- وضحك الطبيب قائلاً:
- لا تخدعني يا رجل فالجنون متهم العقل...
- فقال المجنون:
- إني شرطي قديم...
- ما زلت مصرّاً على أنك جحمة البلطي؟
- والشرطي إذا تسوّجّه الله لم يتخلّ عن مهنته  
القديمة!

فقال عجر بضيق:

- ارحمني من جنونك فلست رائق البال...
- فقال المجنون بهدوء:
- لا يدعوني إلّا أمثالك يا جاهل...
- فضحك الطبيب عالياً وقال:
- إنه يُدعى عادة إذا عجز علمنا عن الخدمة...
- ونفض المجنون فمضى وهو يقول:
- الله ملجأ الحيّ والميت، والميت الحيّ...

وتقدّم خطوتين فاحتواها بين ذراعيه فقالت دون أن  
تبدي مقاومة تُذكر:

- من يدري؟
- ولكنّ الفرصة لن تفلت من يدنا...
- يا لها من مغامرة...
- إنك حرة مثلها... لا شك أنك شقيقتها...
- تخلّصت منه بعدوية وجاءت بالطعام والشراب...
- أقبلا على الشراب بإفراط ليبدأ مناخ التوتّر  
والفكر... وتداوبا في رغبة متأججة... واعتليا قمة  
التحدّي فغابا عن الوجود... واستيقظ مبكراً...
- قام يترنّح برأس ثقيل... أزاح الستار فتدقّق ضوء  
المصباح... حانت منه التفاتة إلى ذكريات الليلة  
الماضية ففرت من فيه آهة وجحظت عيناه... رأى  
الجارية الجميلة مذبوحة!... صفى دمها تماماً،  
واستقرّ بها الموت... متى... من... كيف...
- هل يهرب؟ ما أثقل رأسه! كأنما شرب في الخمر  
بنجساً... التهمة معلقة فوق رأسه... فكسر  
سريعاً... وبلا منطق... الحديقة... ذفن  
الجثة... إزالة آثار الدماء... هل في الدار من  
يراقبه؟ عليه أن يعمل وأن يسلم نفسه للمقادير...
- لا وقت للتفكير... تقوُّض البناء كلّ... ما كان  
كان... لازمه شبح المرأة الأخرى طيلة الوقت...
- وعندما ألقى على المكان نظرة أخيرة رأى عقداً ذا  
فصّ من الماس ملقى أسفل السرير فتناوله وهو لا  
يدري ماذا يفعل، ودسّه في جيبيه... تسلّل إلى  
الخارج وهو يقول:
- ستكون معجزة إذا نجوت...

- ٥ -

مضى عجر يتخبّط في زنانه كربه المقيم... الجريمة  
تحصّره وتبسط قبضتها المثشّجة لتخنق عنقه...  
أعاهدك يا ربّي على التوبة إذا أنقذتني... رآه ابنه  
علاء الدين فسّر بعودته على حين كثرت فتوحة زوجته  
عن أنيابها، قال دون مبالاة:

- غلبي النعاس في غرزة...

لعمته... الحياة بينها تجري مكتنّظة بالنعاس

- لا أدري عن ذلك شيئاً ولا أتصوّره! ... البيت  
مشتعل ناراً...  
- أيّ بيت يا جلتنار؟  
- بيتنا يا عجر، أحسبتنا بلا أهل؟  
- وهذه الدار ما شأنها؟  
- ما هي إلا استراحة لنا أوقفناها على الطرب!  
فتردد قليلاً ثمّ تساءل ورأسه مثقل بلا نشوة:  
- من أهلك يا جلتنار؟  
فقالت باسمه:

- ناس من الخلق، ماذا يهّمك منهم؟  
فغاص في الهمّ أكثر وتساءل بحزن:  
- ترى أين أنت يا زهريار؟!  
- أحزنك الخبر ولا شك؟  
فانقبض صدره وقال بحذر:  
- ما أنا إلا إنسان يا جلتنار...  
فداعبت لحيته قائلة:  
- وإنسان طيّب يا عجر...

وانتشبت بالخمر فاقتربت منه... أطبقت الكآبة  
متجسدة... ران الإحباط على الطعام والشراب  
وجفّت ينابيع الرغبة... جفل من المرأة بقدر ما  
توجّس منها خيفة... إنّه كابوس ثقيل طويل ويجب  
أن يتلاشى...

- ٧ -

في الموعد التالي ذهب وكأنّما يذهب إلى النطع ولكن  
لم يستجب لطرقاته على الباب أحد، ولم يُفتح له بعد  
ذلك فتلقّى أوّل شعور بالراحة منذ اكتشاف  
الجريمة... لعلّ أهلها فطنوا أخيراً إلى سلوكها  
السريّ، لعلّها نفرت منه، لعلّها لحقت بأختها، ليكون  
من أمرها ما يكون فقد انتهى قدر لا يستهان به من  
عذابه... لن يقترب مرّة أخرى من مقام الجريمة،  
وسوف يقاوم لون الدم الذي يطارده، ولن يألوا أن  
يذكر نفسه بأنّه لم يرتكب طيلة حياته جريمة قتل...  
هيهات... ولا قتل دجاجة ممّا يستطيعه... وابتعدت  
ذكريات الطعام والشراب والغرام فقال لنفسه المنهزمة  
لعلّها لم تكن حقيقة قطّ... وكلّ يوم يمرّ بوجود هبة من

ولما غيّه الباب قال عجر للطبيب:  
- قلبي يحدّثني الآن بأنّ هذا المجنون قاتل  
خطير...  
فتمتم عبد القادر المهني:  
- ما أكثر القنلة يا عجر...  
شعر عجر بأنّ المجنون مطلع على سرّه... ترى  
أهو الذي ذبح الجميلة؟! متى تتكشف الغمّة يا ربّ  
السموات والأرض؟!  
- ٦ -

وليلة الإثنين جاءت... موعد جلتنار المنذر  
بالاحتمالات البهيمّة... إذا ذهب فيألى الجحيم  
يذهب... وإذا لم يذهب قدّم الدليل على جريمة لم  
يرتكبها... مضى إلى دار الجريمة والفرع... سلّم  
نفسه إلى المقادر مقشعر البدن... أخفى الحديقة من  
الوجود بغضّ البصر... أمّا العنق المتزوع من الجسد  
الجميل فقد لازمه خطوة خطوة... رأى جلتنار والمائدة  
فتلقّى أوّل نسمة في جوّ الصيف المشيع بالرطوبة...  
عليه أن يكبح اضطرابه أن يفضحه... عليه أن  
يمارس الحبّ فوق فراش الدم... الجثّة تملأ المكان  
وتغطّي على المرأة النهمة... ما أعذب المهرب! أقبل  
على الشراب بيأس... المرأة هادئة باسمه... أيسأل  
عن زهريار أم يتظر؟ أيّما يشي بالريبة أكثر؟ لكنّ  
جلتنار بادرته متسائلة:

- أين زهريار؟

فتساءل بدوره:

- ألم تحضر معك؟

فحدجته بحيرة وهي تشاربه ثمّ قالت:

- أرسلتها إليك حاملّة اعتذاري...

فقال بقلق خافق جافّ:

- تبادلنا كلمتين ثمّ افترقنا...

- اختضت كأنّما تبخّرت، يشس المجذون في البحث

عنها، البيت مشتعل ناراً.

فضرب كفّاً بكفّ وتمتم:

- حدث عجيب حقاً، هل ثمة ما يدعوها إلى

الاختفاء؟

## ليالي ألف ليلة ٤٢٣

- ٨ -

ازداد رغبة في الحب، ولم يكف عن التلهف على الجاه... خاض في أجساد العذارى كالمراهقين رغم أن ابنه علاء الدين لم يتزوج بعد... وتقلب بين الوسائد في دور سحرية على مثال الدور التي يدخلها أحياناً لخدمة أصحابها... وكما وقع في حب حسنة تعلق قلبه بقمر أخت حسن العطار... حب أقوى من الأول... وزاده قوة أنه حب ميثوس منه... حب مقضي عليه بالكتمان والأسى والعذاب... ذهب يوماً إلى دار العطار ليشذب لحية المعلم حسن فلمح البنت الجميلة ففقد راحة البال إلى الأبد... لكنه لم يفقد الحلم... إنه يحب بالدور العظيمة كدور العطار وجيليل البراز ونور الدين... ونور الدين ما أسعده من شاة!... من يباع عطور بسيط لا يرتفع درجة عن عجر، ولعله دون ابنه علاء الدين في الجمال والكمال، إلى عين من الأعيان، قريب وعديل للسلطان، وزوج لنديا زاد أخت شهرزاد أليس الله بقادر على كل شيء؟...

- ٩ -

في قهوة الأمراء جلس كعادته كل ليلة... عقب نهار صيف حار جاد الليل بنسمة طيبة... وجد نفسه أقرب ما يكون من أريكة المعلم سحلول تاجر المراتد، وأنى الراوي فضلاً من سيرة عنتره فسكت الريباب ونطق السمر... قال عجر للمعلم سحلول وهو من زبائنه:  
- لم تشرّفنا من زمن!  
فقال الرجل بأسياً:  
- سأزورك على غير انتظار ذات يوم!

وجاء حسن العطار وجيليل البراز وبصحبتها فاضل صنعان فاطمأنوا إلى مجلسهم... حيّاهم عجر مغالياً في التردد والتقرب فردّوا تحييتهم بتحفظ... إنه يلقي نفسه إلقاء على السادة ولكنه يردّ دون تشجيع حذرًا من تطفله... إنه اليوم أعلى من فاضل ولكنهم يحفظون العهد القديم... حلمه الدائم أن يقبل

الطمأنينة... الخوف حق على المجرمين لا الأبرياء... وهو بريء ما في ذلك شك... وكلما رسخت الطمأنينة دبّت الحياة في الرغبة المكتوبة... رجع يتذكر ليالي الغرام والطعام ويتهدّد... ويتذكر العقد الثمين فوق بطنه المحروم من عرضه للبيع ويتأسّف... إنه يحمل ثروة معطلة، وله تجربة مع السعادة لا تُنسى، ويتفجّر في أعماقه النهم وأشواق اللذة... وتساءل في حيرة:

- أليست التوبة أجدر بي؟

ولكن ليالي جلتار أشعلت في وجدانه جنون النساء... جالت عيناه متلصّصة بين الحسان، تنطلق من نار وترتدّ بنار أشدّ... في إحدى جولاتها وقعت على حسنة بنت صنعان شقيقة فاضل فشجعه فقرها وسمعة أبيها المتوفى على الطمع فيها... وانهز فرصة مجيء فاضل إلى دكانه ليشذب لحيته وشاربه فغالى في الترحيب به وسأله ببساطة عجيبة:

- يا سيد فاضل صنعان، هناك من يطلب شرف القرب منك...

فتساءل فاضل بعقل خال:

- من يا عجر؟

فقال بالبساطة نفسها:

- العبد لله!

صدم فاضل وكتم انفعاله... قال لنفسه لعلّ عجر أيسر في الرزق مني، ولكنه عجر وأنا فاضل، وحسنة لا تقبل في التهذيب عن شهرزاد نفسها... تساءل ليكسب مهلة للتفكير:

- أختي؟

- نعم...

فقال كالمعتد:

- يبدو أن أحدهم سبقك يا عجر!

لاذ عجر بالصمت دون أن يصدّقه... لو سبقه سابق لعلم به وهل يخفى عليه شيء مما يجري في الحيّ كله؟ وغضب عجر... كيف لا يعتبر فاضل طلبه منة وهو يطلب القرب من بيت حلّت به لعنة الشيطان؟!

نحيلة ولا ضوء إلا ضوء النجوم الخافت... وغير بعيد ينطلق شبح النخلة يقوم أسفلها مشوى المجنون... كان عليهم أن يمدّوا بساطًا، ويبيئوا سماطًا، ويُشعلوا نارًا للشواء... غير أن شبحًا أقحم نفسه بينهم متطوعًا للخدمة وهو يقول:

- خذام السيادة!

لم يحظ الصوت بارتياح أو تشجيع وصاح جليل البرّاز:

- عجزا!... يا لك من طفيليّ ثقيل!

فقال بثبات ويداه لا تكفّان عن العمل:

- طفيليّ أي نعم ولكن لست ثقيلاً، وكيف يطيب مجلس كهذا بلا خادم...

فقال حسن محدّراً:

- على شرط أن تلتزق فاك بالغراء!

- لن أفتحه إلا بعد إلحاح...

وارتفع صوت شملول الأحذب رفيماً كصوت طفل وهو يقول له:

- كيف تدسّ نفسك يا صعلوك بين الأكابر؟

فحنق عليه ولكّنه انهمك في عمله مجهّزاً القوارير والكسوس وراح يشعل النار... اندفعوا في الشراب... تناول شملول عوداً يمثاله في الحجم ومضى يدندن بصوته المثير للضحك، وكان رغم ضآلته يبيش صدره بعظمة كويّية... وعقب أوّل كأس تستقرّ في جوف عجز نسي عهده فتساءل:

- هل سمعتم بأخر نادرة من نوادر حسام الفقي كاتم سرّ الحاكم يوسف الطاهر؟

فصاح به حسن العطار:

- لا نحبّ أن نسمع فأغلق فاك!...

وتنادوا في الشراب على حين ترامى صوت غير مرثيّ المصدر يناجي «الواحد» فأجهت الرعوس نحو شبح النخلة... وقال فاضل:

- إنّه المجنون...

فتساءل جليل:

- ألم يجد مثوى غير ذلك ليفسد على اللسان الأخضر رواده؟

فقال حسن العطار مخاطباً فاضل:

ليقدّم خدماته نظير الاستمتاع بموائدهم... يفلح مرّة ويخفق عشرات المرّات فيتأجج نهمه... اليوم فاضل غريمه بعد أن رفض يده أما حسن فيحوز النعمة التي لا أمل فيها... سدّد نحو مجلسهم أذنه على حين تظاهر بالاسترخاء والنعاس... إنهم يتحدّثون عن سهرة جميلة احتفالاً بقدم سفينة البرّاز عمّلة من الهند... سيكون طعام ولا طعام جلتار وسيجري الشراب... سيملاً بيّاع الحلوى بطنه كالأيام الخالية...

- الجوّ حارّ، نريد مكاناً خارج الدور!

الصعلوك يعلن رغباته كأنه من السادة... ويبيبه جليل:

- اللسان الأخضر، إنّه جزيرة خضراء!

فقال حسن العطار:

- ودعوت شملول الأحذب!

فقال جليل:

- ما أجل أن يهرّج لنا مهرّج السلطان!...

حنّ المهرّج!... أما أنت يا عجز فما إن يتبسّم الحظّ لك حتّى يجتاحه الدم البشريّ... ونظر نحو المعلّم سحلول وقال بأسف:

- إنك طراز وحدك في زهدك في اللهو يا معلّم سحلول...

فقال المعلّم بهدوء:

- هذا حقّ...

- إنك رجل كريم متواضع وما كنت تأبى أن أكون نديمك...

فابتسم ولم يجب... وتفكّر قليلاً كيف يحرّضه على اللهو... ونظر نحوه مرّة أخرى فوجد مكانه خالياً... أجال بصره في المقهى فلم يعثر له على أثر... هكذا يختفي فجأة في غمضة عين فما أغربه!... ولكنّ عجز صمّم على أن يشترك في سهرة اللسان الأخضر مهما كلفه الأمر... ولو توجّبت المغامرة بطرده!

## ليالي ألف ليلة ٤٢٥

- واثنو تما تقول؟  
 - انظر بنفسك يا معلم...  
 سُحن الصمت بالرعب... شمت بهم عجز...  
 قال متبادياً:  
 - جريمة من لا شيء تطرق باب السلطان!  
 صاح حسن العطار:  
 - إنه الجنون...  
 - أيّ حظّ أسود...  
 - أنضيع بلا سب ولا ثمن!  
 وكان رأس عجز يطلّق خبالات خارقة في جميع  
 الجهات ويشب من حلم إلى حلم... أحياناً قال بهدوء  
 وهو يشعر بالسيادة لأول مرة:  
 - خذوا حوائجكم واذهبوا...  
 فقال جليل:  
 - كيف نذهب تاركين وراءنا هذه الجريمة؟!  
 فقال عجز بنبرة امرأة:  
 - اذهبوا... سوف تخفي الجثة ولن يعثر عليها  
 الجنّ نفسه.  
 - أوائق أنت من نفسك؟  
 - كلّ الثقة وما توفيني إلا بالله!  
 قال جليل بصوت متهلّج:  
 - انتظر مكافأة لم يسمع بمثلها أحد...  
 فقال ببرود:  
 - إنه أقلّ ما أنتظر!  
 - ولكن لعلّ كثيرين في المقهى قد سمعوا بدعوتنا  
 له إلى سهرتنا؟  
 - أجل حصل، ولكنني لحقت بكم بلا دعوة،  
 وأستطيع أن أشهد بأنّه لم يلبث معنا إلا ساعة ثمّ مضى  
 وحده معتذراً بتوقعك، افهموا وتذكروا...  
 - ١١ -  
 مع جيّة الأحذب وحده... تذكّر زهريار والدم  
 فارتعدت مفاصله... لكن لا وقت للانكار  
 المشبّطة... ليبعد عن الأرض المزروعة... ليبحت  
 عن حفرة في الصحراء... عن مكان أمين لحفظ الجثة  
 حتى يحقّق رغائبه... لقد أهدرت جيّة حظّه السعيد

- إنه يزعم أنّه حموك جصّة البلطي...  
 - هكذا زعم ولكنّ رأس جصّة المعلق يقول غير  
 ذلك...  
 فقال شملول الأحذب:  
 - كلّ شيء جائز في هذه المدينة المجنونة!  
 عند ذلك قال عجز الخلاق:  
 - إن أردتم الحقّ...  
 ولكنّ جليل قاطعه:  
 - لا نريد الحقّ ولا نحبّه...  
 فصاح شملول:  
 - لا تذكرونا بالموت، بذلك أمر السلطان...  
 فسأل جليل:  
 - كيف تسامر السلطان يا شملول؟  
 فقال شملول بعجرفة:  
 - لست بمنّ يفشون الأسرار يا أحقر الخلق!  
 ضحك الجميع إلا حسن العطار فقد انفجرت  
 نشوته غضباً فصاح به:  
 - آيتها الحشرة...  
 وغضب الأحذب فرمى بالعود ووثب قائلاً... وما  
 يدرون إلا وهو يبول على السباط بطعامه وشرابه!  
 وجحوا موقنين بأنّ سهرتهم هدمت وتقوّضت...  
 اشتعل السكر بالغضب ورموا الأحذب بجمرات  
 الحقد... انقضّ عليه فاضل دافعاً إياه على ظهره ثمّ  
 رفعه من قدميه الصغيرتين ومشى به إلى حافة اللسان  
 الأخضر ثمّ غطسه في مياه النهر ثواني طويلة... رفعه  
 مرّة أخرى من الماء تاركاً إياه يسقط على الأرض  
 المشوشة وهو يرقد من الرعب... وقام مترنحاً  
 فتناول المجرمة ورامهم بها فتطايرت الجمرات المتقدة  
 تلسع هذا وذاك... بلغ منهم الخنق مداه فاجتاحوه  
 سكارى غاضبين وانهاكوا عليه لكياً وركلاً حتى تهاوى  
 فاقد الوعي... تابعهم عجز جامداً ذاهلاً... تتمم:  
 - كفاكم يا سادة، إنه مهرج السلطان...  
 وانحنى فوقه في الظلام في صمت... رفع رأسه  
 وهمس:  
 - يا سادة، لقد قتلتم الأحذب!  
 تساءل جليل:

- ١٣ -

لم يكذب ينم من ليلته ساعة... وتوَّب للعمل منذ الصباح الباكر... إنه يوم فاصل في الحياة كلّها ويجب أن تحدث فيه جميع المعجزات بلا تأجيل... ليكن جريئاً مقتحماً وبلا حياء وهو لم يكن ذا حياء قط... ما هي إلا فرصة واحدة وهيئات أن تتكرّر وكلّ شيء بمشيئة الله... وقرّر أن يبدأ بأغلى صيد فقصد دار حسن العطار قبل موعد ذهابه إلى دكانه... جاءه الشاب في المنظرة الوثيرة وهو يتساءل بلهفة:

- ماذا وراءك يا عجز؟

فأجاب بنبرة مليئة بالثقة:

- كلّ خير يا معلّم، لك الأمان حتّى آخر العمر...

فشدّ على ذراعه وقال:

- موقّق ياذن الله، هل قابلت المعلّم جليل؟

- كلّاً بعد... أردت أن أبدأ بالرأس...

- إليك ألف دينار حلالاً لك...

فقال بهدوء:

- بل عشرة آلاف يا معلّم...

قطّب حسن مذهولاً وتساءل:

- ماذا قلت؟

- عشرة آلاف دينار!

- لكنّها ثروة ينوء بها أكرم الأغنياء...

فقال بالهدوء نفسه:

- هي قطرة من بحرك، وحياتك لا تقدّر بمال

قارون نفسه...

- اقتنع بخمسة آلاف وسوف يُتمّها جليل البرّاز

عشرًا!

- لن أفرط في درهم منها...

لاذ حسن بالصمت ملياً ثمّ قام متثاقلاً فغاب قليلاً

ثمّ رجع بالآلاف المطلوبة وهو يتمتم:

- لا رحمة لك...

فأقبل يدسّها في جيبه وهو يقول محتجاً:

- ساحك الله، ألم أنقذ أعناقكم من سيف شبيب

رامة؟!

- لكنّ طمعك أفتك من سيفه...

وهاك جيئة تَعُدّه باسترداد ما فقد... السرعة والستر

مطلبه... وترامى إليه صوت هتك الصمت:

- أيّها السائر في الظلام تخفّف...

ارتعد كما لم يرتعد من قبل... المجنون... دائئاً

يخترق وحدته... ما عليه إلا أن يلفّ الجئة الصغيرة

بطرف عباءته... مدّ يده ثمّ سحبها بعنف

كالملدوغ... ثمّة حركة أم لعلّها نبضة... ثمّة نفس

كالأنين... رباب الأحذب لم يمّ... وترامى الصوت

كرة أخرى:

- ... تخفّف...!

اللجنة... ما زال يطارده... قاتل زهريرار

الجميلة... لمّ قتلها؟... لمّ يقتل جئنار؟ حمل شملول

على كتفه اليسرى وغطّاه بجناح عباءته الأيمن...

همس له:

- اطمئنّ يا شملول... صديقك عجز...

سامضي بك إلى الأمان...

هل تضيع المكافأة؟... هل تتلاشى الرغائب؟... آه لو

به قدرة على القتل!... ولكن...! أجل خطرت له

فكرة... أن يخفيه في داره حتّى ينال ما يشتهي...

استولت عليه الفكرة ولم يكن يمتنّ يقلبون الأفكار على

شئى وجوهها...

- ١٢ -

نظرت فتوحة إلى الأحذب الضئيل بلا حراك

بدهول فقال لها عجز:

- اسمعي وأطيعي...

فقالت ساخرة:

- إنه لا يصلح للطعام...

فقال بحرارة:

- سنعدّ له مكاناً مريحاً في العليّة، ليبقى أياماً

معدودة حتّى يستردّ صحته...

- ولماذا لا تذهب به إلى أهله؟

- إنه نجمة الحظّ التي ستجلب لنا السعادة وننقلنا

من حال إلى حال، قدّمي له ما يحتاجه وأحكمي

إغلاق باب العليّة، لن يطول ذلك، وسأخبرك بجميع

ما يتبغى لك معرفته...

## ليالي الف ليلة ٤٢٧

- ١٤ -

قبل أن يستدير الصباح كان قد حصل من جليل  
البرّاز على عشرة آلاف دينار، ومضى عنه مشيماً بحقده  
المكتوم... قال إنّ عليه أن يوثق علاقته بكبير الشرطة  
بيومي الأرملة أثناء لأيّ غدر في المستقبل... عليه  
أيضاً أن يلتحم بحاكم الحيّ وكاتم سرّه كما يفعل  
الأثرياء وفي ذلك ما فيه من العزّة والأمان... أما  
فاضل صنعان فقد خلا به في دكانه وهو يميّر أمامه...  
تفحصه بزراية وسأله:

- ماذا عندك في جزاء إنقاذ رأسك يا فاضل؟

فضحك فاضل مرتبكاً وقال:

- عندي رأسي فهي أئمن ما أملك... .

فقال عجر بمرارة:

- سبق أن رفضت يدي بإباء... .

فقال فاضل معتذراً:

- لك عليّ أن أكفر عن خطي... .

فصمت لحظات وقال:

- وهبني الله من هي خير منها، ولكن تذكر أنّي

أنقذت رأسك بلا مقابل مراعاة لفقرك!

- ١٥ -

وفي عصر اليوم تمّت المراسيم الشرعيّة لزواج عجر  
من قمر العطار في جوّ أشبه ما يكون بجوّ المآتم... .  
تركز همّ عجر في الاحتفاظ بشمول الأحدث في داره  
حقّ تزفّ إليه العروس... من ناحية أخرى اكرى  
داراً جميلة وشرع يعلّمها لاستقبال العروس... ولم  
يكن مطمئناً للمستقبل كلّ الاطمئنان، فخذعته  
ستكشف عاجلاً أو آجلاً، أكثر من ذلك ستعلم  
فتوحة بزواجه من قمر وتتجمّع شحوب المتاعب  
والأكدار... غير أنّه قد ينجو من السقوط إذا ضمّ  
إليه عروسه فانضمّ بطريقة ما إلى آل العطار، وإذا  
استثمر ماله فواتاه الريح الوفير والثراء المقيم... .  
وذهب إلى السوق فقابل المعلّم سحلول وقال له:

- لديّ مال أريد أن أستثمره عندك فأنت خير

المستثمرين... .

فتجاهل تعليقه قائلاً:

- بفضل الله سيصير عجر من الأعيان ويستثمر  
أمواله مع الأفاذ من أمثال المعلّم سحلول... . بذلك  
يصير أهلاً لتحقيق أحلامه الحقيقيّة... .

فتساءل بسخرية خفيّة ينفس بها عن حقه:

- وما أحلامك الحقيقيّة؟

فقال بهدوء وجرأة مذهلة:

- أن أطلب شرف القرب منكم في يد أختكم

المصونة... .

انتثر قائماً وهو يهتف:

- ماذا؟! .

فقال برود:

- لا تُشعري باحتقارك، لا حقّ لك في ذلك، كلنا

من صلب آدم، ولم يفرّق بيننا فيما مضى إلاّ المال، ولا

فرق اليوم بيننا... .

فكظم حسن غيظه دفعاً لسوء العاقبة، وقال

متملّصاً من حرجه:

- ولكن لا بدّ من موافقتها كما تعلم... .

فقال وهو يرمقه بنظرة ذات معنى:

- ستوافق من أجل إنقاذ رأس أخيها المحبوب... .

فقال وهو يتنهد بعمق:

- طلبك يخلو من الشهامة... .

فقال بيقين:

- الحبّ لا يؤمن إلاّ بالحبّ... .

ساد صمت ففاصا معاً في حرّ اليوم المتصاعد حتّى

قال حسن:

- فلنؤجّل ذلك إلى حين... .

فقال بقوة:

- موعدنا العصر... .

- العصر!

- عصر اليوم للعقد ولنؤجّل الزفاف... .

قام منحنيّاً له تحيّة وذهب وهو يشعر بجمرات الحقد

المتطايرة من نظراته تحرق ظهره... .

في مدخل المقهى بذهول داعياً صاحبيه للنظر... أتجه  
نظره نحو المدخل فرأى شملول الأحذب يرميهم بنظرة  
حراء ملتبهة وهو ينتفض من شدة الانفعال...

- ١٧ -

تخطف اليأس والرعب روحه... اقترب منهم  
بخطى سريعة متقاربة حتى وقف أمامهم متحدّياً...  
صرخ بصوته الرفيع كالصفير:

- الويل لكم يا غجرا!

ركّز أولاً على عجر وقال:

- تحبسي في دارك مدّعياً ضيافة لم أطلبها؟!!

لم ينس عجر فواصل الأحذب:

- أطلقني امرأتك عقب ما نما إليها من نيا زواجك  
فانتظر الرعد في بيتك...

ثم راجعاً إلى الثلاثة:

- تضربون رجل السلطان يا أوغادا! لكل قويّ من  
هو أقوى منه وأفتك، وسوف تتالون الجزاء الحق...  
وغادر المقهى مصفراً الوجه من الغضب، في خطى  
متقاربة سريعة، مخلّفاً وراءه عاصفة من الضحك...  
ولكن تجمّدت أوجه الرجال الثلاثة ثم اجتاحتهم  
الخوف والغضب... ألهبوا عجر بنظرات حاقدة  
وهمس حسن العطار:

- وغد محتال، أرجع النقود وافسخ العقد...

وقال جليل البرّاز:

- أرجع النقود وإلا هسّمنا عظامك...

قال عجر:

- حسبت أول الأمر ميتاً والله شهيد...

قال حسن:

- ثم انقلبت مجرماً محتالاً، النقود والفسخ...

قال باستقتال:

- احذروا الفضيحة، سيداع سرّ السكر والعريضة  
والعدوان، خير من ذلك أن تسترضوا الأحذب قبل أن  
يرفع شكواه إلى مولاه، أمّا ما أعطيتهم من مال فاعتبروه  
تكفيراً عن آثام حياتكم...

- الويل لك، لن نفلت بدرهم يا محتال.

نهض الرجل بغتة وغادر المكان وكأنّما يفرّ فراراً...

فسأله سحلول ولم يكن يعلن عن دهشته أبداً:

- من أين لك المال يا عجر؟

- الله يرزق من يشاء...

فقال باقتضاب:

- لا أشرك أحداً في مالي...

فقال برجاء:

- علّمني فالتعليم ثواب...

فابتسم سحلول قائلاً:

- مهنتي لا تُعلّم يا عجر، انتظر حتى يرجع

السندباد...

وتوجّه من فوره إلى نور الدين عديل السلطان

فسأله الشاب في شيء من الارتياب:

- أنتقسم لي عل أنّ المال جاءك من الحلال؟

فاضطرب قلبه ولكنّه أقسم فقال له نور الدين:

- ستبحر سفينة في هذا الشهر، ارجع إليّ في نهاية

الأسبوع.

مضى خائفاً من مغبة القسم الكاذب ولكنّه تعهد  
أمام ضميره بأن يكفر عن ذنوبه بالحجّ والصدقة  
والتوبة...

- ١٦ -

أدرك عجر أنّ أقدام الزمن تندر بتحطيم آماله،  
وأته لا يستطيع أن يوقفها... ليس في وسعه أن  
يحتفظ بالأحذب في سجنه إلى الأبد، ولن يوجد في  
المدينة مستقرّ أمين له... لم يبق له إلا أن يستولي على  
عروسه ثم يهرب بها في أول سفينة... في بلاد بعيدة  
يبدأ حياة جديدة، حياة الثراء والحبّ والتوبة...  
ودافع عن نفسه أمام نفسه فقال إنّه لم يكن شريراً  
ولكنّه فعل ما فعل بدافع الحرمان والعجز... أعطاه  
الله حظّ الفقراء وشهوات الأغنياء فما ذنبه؟ وذهب عند  
المساء إلى مقهى الأمراء فمضى من توه - بأقدام ثابتة -  
إلى مجلس حسن العطار وجليل البرّاز وفاصل  
صنعان... أوسعوا له مرغمين... قال لنفسه كنت  
أمس محتقراً وأنا اليوم بغيبض حتى الموت... لكنّه  
سيحسم أمره مع العطار في نهاية السهرة وينطلق من  
الغد إلى دنيا الأحلام الجميلة... ورأى فاضل يعملق



## ليالي الف ليلة ٤٢٩

العذاب واليأس، والميثر بالنجاة والسيادة... ماذا في  
وسع أعدائه أن يفعلوا إذا أطلّ عليهم غداً من شرفة  
الحكّام؟ ولم يتردّد دقيقة واحدة فاندسّ في زمرة  
المقبوض عليهم مستسلماً لتيآرهم.

- ٢٠ -

مضى التيّار نحو دار الحاكم يوسف الطاهر...  
حُشد المقبوض عليهم في القناء تحت حراسة قويّة وعل  
ضوء المشاعل... جاء يوسف الطاهر يتبعه حسام  
الفتي فحيّاهما كبير الشرطة بيومي الأرملة ثمّ قال:  
- هؤلاء من أمكن القبض عليهم لهذا المساء  
وسيجيء الآخرون تباغاً...  
فتساءل يوسف الطاهر:

- أتضمن بذلك حقاً أن تمنحي الجرائم والسرقات  
وقطع الطرق؟

فقال بيومي الأرملة:

- هو المأمول يا مولاي...

وبإشارة من الحاكم راح الجنود يجردون المقبوض  
عليهم من ملابسهم الرثة... وذهل عجز طيلة  
الوقت وأيقن من أنه ساق نفسه إلى مصيبة تحفّ  
بالقياس إليها مصائبه... وانهالت السياط عليهم  
فمزّق صراخه الجوّ من قبل أن يأتي دوره... ولكنّه  
نال نصيبه... ولما أخذوا يمشون بهم إلى السجن  
صاح عجز مخاطباً الحاكم:

- يا نائب السلطان، انظر بحقّ الله المتعالي فإنّي  
لست منهم، أنا عجز الخلاق، كبير الشرطة يعرفني،  
ويعرفني كاتم السرّ، إنّي صديق نور الدين عديل  
السلطان!

انتبه إليه بيومي الأرملة فدهش وسأله:

- لكنّي لم أنبض عليك يا عجز...

فصاح عجز:

- اختلاط الأمر وفعل الشيطان...

وأمر يوسف الطاهر بإطلاق سراحه ورّدّ ملابسه إليه  
غير أنه انتبه إليه باهتمام فجاءه، نحو اللقّة حول وسطه  
فارتعد عجز وأخفاها بذراعيه... وداخل الحاكم شيء

- ١٨ -

تلاشى الأمان من دنياه، وانطفأ سراج الأمل...  
إنّه زوج قمر ولكنّها أبعد عنه من النجوم، وهو غنيّ  
ولكنّ الموت يتهدّده وهو أدرى الناس بالتعاون الخفيّ  
بين العطار والبرّاز من ناحية ويوسف الطاهر الحاكم  
وحسام الفتى كاتم السرّ من ناحية أخرى... وفتوحة  
رابضة في الدار متلهّفة على عودته لتغرز أنيابها في  
عنقه... ما أضيق الدنيا! وهامّ على وجهه... غفا  
ساعات فوق سلّم السبيل... انزوى في أقصى الحيّ  
النهار كلّ... لا شكّ أنّ أعدائه استرضوا الأحدث  
وهم عاكفون الآن على تدبير الانتقام منه... وفي  
المساء وجد نفسه الهائمة في ميدان الرماية، وفجأة  
جذب بصره ضوء مشاعل وضوضاء غير مألوفة...

- ١٩ -

ماذا يجري في الميدان؟ قوّة من رجال الشرطة تحيط  
بعدد عديد من الصعاليك وتسوقهم بعنف نحو مكان  
مجهول... وصادف رجلاً قريباً يقول بصوت  
مسموع:

- يا له من قرار عجيب!

لم يكن الرجل في حقيقته إلاّ العفريت سخربوط  
متنكراً في صورة إنسانيّة، رافلاً في جلباب ينطق  
بحسن المكانة... سأله عجز:

- أيّ قرار يا سيّدي؟

ففرح سخربوط لاستدراج عجز وقال:

- فليكرم الله مولانا السلطان، فقد تنبأ له فلكتي  
القصر بأنّ حال الملكة لن يصلح إلاّ إذا تولّى شئوننا  
الصعاليك فأمر مولانا بالقبض على الصعاليك ليختار  
منهم شقّي القيادات...

فذهل عجز وتساءل:

- أموقن أنت ممّا تقول؟

فقال سخربوط بدهشة:

- ألم تسمع المتادين؟

وثب قلبه من الجذل... أيّ موجة من البشر  
تكتسح الأحزان كلّها بانطلاقة واحدة؟ إنّها المنفذ من

## ٤٣٠ ليالي الف ليلة

من الريبة فأمر بنزعها وفحص ما بذراعيه... ولما رأى  
العقد ذا الجواهر صاح:  
- عقد زهريار!... ما أنت إلا لصّ قاتل،  
اقبضوا عليه...

## - ٢١ -

بدأ اليوم التالي بالتحقيق مع عجر... حكى  
الرجل حكاية وأقسم بأغلظ الأيمان على صدقها...  
تطوّع حسن العطار وجيليل البيّاز فشهدا عليه بالكذب  
والاحتيال... قضى يوسف الطاهر بضرب عنقه...  
واحتشد الحيّ ليشهد ضرب عنقه في الميدان، وقبيل  
الشروع في التنفيذ جاء الوزير دندان في موكب  
مهيّب...

## - ٢٢ -

سرعان ما جمعت حجرة القضاء بدار الحاكم بين  
دندان ويوسف الطاهر وحسام الفقي ويومي الأرملة  
وعجر الخلاق... قال دندان:  
- أمرني مولاي بإعادة المحاكمة...  
فقال يوسف الطاهر:  
- سمعًا وطاعة أيها الوزير...  
فقال دندان:

- وافاه «المجنون» بأخبار أراد أن يتحقّق منها...  
فدهش يوسف الطاهر وقال:  
- ذلك المجنون المصّر على أنه جمصة البلطي؟  
- هو بعينه...  
- وهل صدّقه مولانا السلطان؟  
فقال دندان بخشونة:  
- إنّي هنا لأحقّق معكم لا لتحقّقوا معي...  
وساد صمت مجلّل بالرهبة فسأل دندان يوسف  
الطاهر:

- ألك شقيقتان، إحداهما حيّة والأخرى محتفية؟  
فقال يوسف الطاهر:  
- أجل يا سيّدي الوزير...  
- وهل مارستا حياة داعرة فاجرة؟  
قال يوسف الطاهر بصوت متهدّج:

- لو عرفت ذلك ما سكّث عنه...  
فقال دندان:

- بل إنّيها أسكتتاك من قبل أن تتولّى الإمارة  
بالإغداق عليك من المال الحرام!  
فقال الحاكم:

- ما هي إلا خيالات رجل مجنون... .

فالتفت دندان نحو حسام الفقي كاتم السرّ وقال:  
- يقال إنك تعرف كلّ شيء عن هذه القضية فأمر  
السلطان أدلّ بما عندك واحذر الكذب فقد يتسبّب في  
ضرب عنقك...  
انهار حسام الفقي تمامًا فقال لا تذا بالنجاة ما وسعه  
ذلك؟

- جميع ما قيل حقّ لا ريب فيه...  
فسأله دندان متجهّمًا:

- ماذا تعرف عن اختفاء زهريار؟

- حقّقت في ذلك بنفسي فتبيّن لي أنّ أختها جلنّار  
هي التي قتلتها بدافع الغيرة...  
ودّعي عجر للكلام فحكى حكايته من ساعة عشقه  
لجلنّار حتّى دسّ نفسه بين الصعاليك المقبوض  
عليهم...

## - ٢٣ -

رُفعت القضية بحذافيرها إلى السلطان شهريار فأمر  
بعزل يوسف الطاهر لفقدان الأهلية وعزل حسام  
الفقي لتسوّره على رئيسه... وجلّد حسن العطار  
وجليل البيّاز وفاضل صنعان للسكر والعريضة،  
ومصادرة أموال عجر الخلاق وإطلاق سراحه...

وخلا دندان إلى ابنته شهرزاد فقال لها:

- لقد تغيّر السلطان وتخلّى منه شخص جديد مليء  
بالتقوى والعدل...

ولكنّ شهرزاد قالت:

- ما زال جانب منه غير مأمون، وما زالت يداها  
ملوّثتين بدماء الأبرياء...

\*\*\*

أما عجر فقد تناسى خسارته في فرحة النجاة...  
وسرعان ما فسخ العقد بينه وبين قمر ومضى إلى

## ليالي الف ليلة ٤٣١

- زعم أنه أحاط بأسرار مذ كان كبيراً  
للشرطة...

- ما زال يصرّ على أنه جمصة البلطي، وهو ادّعاء  
يكذّبه رأس جمصة البلطي المعلق على باب داره...  
لعله حقاً من رجال الغيب...  
فقال شهريار وكأنما يناجي نفسه:

- علمتني شهرزاد أن أصدق ما يكذّبه منطلق  
الإنسان، وأن أخوض بحرًا من المتناقضات، وكلّما  
جاء الليل تبيّن لي أنّي رجل فقير!

- ٢ -

قالت زرمباحة لسخربوط:

- أخشى أن يركبنا الضجر...

فقال سخربوط مشجعاً:

- بل ستتاح فرص وتخلق فرص يا تاج الذكاء...  
وترامي صوت قمقام من أعلى الشجرة وهو يقول:  
- إذا تردّد التذمر بينكما فهو البشرى بالرضى...  
فقالت له زرمباحة ساخرة:

- ما أنت إلا عجوز عاجز...

فقال سنجام من مجلسه لصق قمقام:

- الأرض تشرق بنور ربّها، ونحو النور يتطلّع ليل  
نهار جمصة البلطي ونور الدين العاشق، حتى عجز  
استقرّ في دكّانه وتاب عن تطلّعاته... أنا شهريار  
السقّاح فثمة نبضة هدى تقتحم عليه هيكله المليء  
بالدم المسفوك...

فقال سخربوط هازئاً:

- ما ترى من الأشياء إلا ظلّها الأخرس، وما تحت  
الرماد إلا جمرات نار وسيوقظك الغد من غفوة  
العمى...

- ٣ -

بدأت الحركة بصوت ناعم كالحرير ثم انفجرت  
بهزيم الرعد... في ذات ليلة بمقهى الأمراء خرج عمّ  
إبراهيم السقاء عن أدبه المعهود وقال بصوت مرتفع دلّ  
على شدّة تأثره وانفعاله:

- حملت في صدر النهار الماء إلى الدار الحمراء...

النخلة غير بعيد من اللسان الأخضر فانحنى أمام  
المجنون المترّبع تحتها وقال بامتنان:

- إنّي مدين لك بحياتي أيها الوليّ الطيّب...

## أنيس الجليس

- ١ -

شهريار ودندان يغوصان في الليل، يتبعهما شيب  
رامة، وقد تلاشت حركة الإنسان... على ضوء  
المصابيح المتباعدة لاحت الدور والحوانيت والجوامع  
نائمة، وخفّت حرارة الصيف، ومضت النجوم في  
الأعالي... تساءل شهريار:

- ما رأيك في ما كان؟

فقال دندان:

- سليمان الزيني رجل مأمول كحاكم... كذلك

كاتم سرّه الفضل بن خاقان...

- إذا نامت الرعيّة نام الخير والشرّ، الجميع  
شغوفون بالسعادة ولكنّها كالقمر المحجوب وراء سحب  
الشتاء، فإذا وُفق حاكم الحيّ الجديد سليمان الزيني  
تساقطت قطرات من السماء مطهرة الجوّ من بعض ما  
ينتشر فيه من الغبار...

- سيكون ذلك بفضل الله المتعالي ويهد مولانا

السلطان وحكمته...

فقال شهريار بعد تفكّر:

- ولكنّ القسوة يجب أن تبقى ضمن وسائل

السلطان!

فتفكّر دندان بدوره ثمّ قال بحذر:

- الحكمة - لا القسوة - هي ما يقصد مولاي...

فضحك السلطان ضحكة مزّقت صمت الليل

وقال:

- ما أنت إلا مناق يا دندان، ماذا قال المجنون؟

قال إنّ الرأس إذا صلح صلح الجسم كلّهُ...

فالصلاح والفساد يهبطان من أعلى، غمزني بجراءة لا

تكون إلا للمجانين، ولكنّه عرف سرّ القضية...

كيف تهبّأ له ذلك؟

- من أدراي يا مولاي بما يدور في رؤوس المجانين؟

فسأله شملول الأحذب بصوته الرفيع:

- وأي جديد في هذا يا أحمق؟

فقال السقاء وهو سكران بالانفعال:

- لمحت صاحبة الدار، تبارك الخلاق العظيم...

ضحك الجالسون على الأرض والمتربعون على

الأرائك وقال معروف الإسكافي:

- انظروا إلى جنون الشيخوخة...

فقال عم إبراهيم بأسى:

- نظرة منها تملأ الجوف بعشرة دنان من خمر

الجنون...

فقال له الطيب عبد القادر المهيني:

- صفها لنا يا عم إبراهيم...

فهتف الرجل:

- إنها لا توصف يا سيدي ولكني أسأل الله الرحمة

والغفران...

ويعد ليلتين قال عم رجب الحمال:

- دُعيت اليوم لحمل نقل إلى الدار الحمراء...

شد الانتباه من فوره وبدا فريسة لعاطفة قهارة

فقال:

- لمحت ست الدار، أعوذ بالله من عنف الجمال إذا

طغى...

لنا الله... ليس الأمر بالمزول... انطلق أصحاب

الأشواق يستطلعون... انطلقوا إلى سوق السلاح

حيث تقوم الدار الحمراء... دار كبيرة هُجرت زمناً

لهلاك أصحابها في وباء... تركت عارية وماتت

حديقته... حتى اكرمتها امرأة غريبة من بلد مجهول

مصحوبة بعبد واحد... وفي الليل العميق يترامى من

وراء أسوارها غناء عذب ونغم ساحر... قالوا لعلها

غانية!...

وإذا بعجر الخلاق يتحدث عنها بجنون لكل زبون

يقصده... يقول:

- عصفت بتوبيتي وأصابتي بسهم العذاب

الأبدى...

ويقول:

- دعني لتهديب خصلات شعرها وتقليم أظفارها،

لو كانت سيّدة محتشمة لدعت بلّانة، ولكنّها نار الله

الموقدة!

وعرف أنّ اسمها «أنيس الجليس»، وتضاربت

الأقوال في وصفها حتى أثارت الشكّ في عقول

الواصفين، فبين قائل إنها بيضاء شقراء، ومن قائل

إنّها سمراء خمرية صافية، ومن مُتوّه ببدانتها إلى متغزل

في رشاقتها... هيّج ذلك مكامن الأشواق فتوتّب

الأعيان والموسرون لاقتحام المجهول...

- ٤ -

يوسف الطاهر أوّل من قام بالمبادرة... منذ عزله

وهو ثريّ يعاني البطالة والضجر فجاءه الفرج... مع

الليل ذهب إلى الدار الحمراء وطرق الباب... فتح

له العبد وسأله:

- ماذا تريد؟

فأجابه بجرأة رجل حَكَمَ الحيّ زمناً:

- غريب يشد مأوى عند أهل الكرم...

غاب العبد وقتاً ثمّ رجع موسماً للقدام وهو يقول:

- أهلاً بالغريب في دار الغرباء...

أدخل إلى بهو مزين الجدران بالأرابيسك، مفروش

بالبسطة الفارسيّة، والدواوين الأنطاكيّة، محلّى بتحف

الهند والصين والأندلس، أبهة لا تُرى إلاّ في دور

الأمراء...

وهلّت امرأة محجّبة، تشي قامتها المتوارية في

طيلسانها الدمشقيّ بالجلال، فجلست متسائلة:

- من أيّ البلاد يا غريب؟

فقال وهو يتلقّى من الحيويّة زادًا كالخمر:

- الحقّ أنّي من عُشاق الحياة...

- خدعتنا وحقّ السلطان...

فقال بحماس:

- عذري أنّ قارئ الكفّ تنبأ لي بأنّي أعيش للجمال

وأموت في سبيله...

فقالت بنبرة جادة:

- إنّي امرأة متزوجة...

فتساءل بقلق:

- حقاً؟

فاستدركت:

## ليالي ألف ليلة ٤٣٣

الفقي... لم يهّمه ضياع المال بقدر ما أهّمه ضياع  
أنيس الجليس... لم يكرهه مصير النساء والأولاد كما  
أكرهه الحرمان... قال للمعلم سحلول:  
- لا يستطيع أن يدمّر الإنسان مثل نفسه...  
فقال له الرجل بغموض:  
- ولا يستطيع أن ينجّيه مثل نفسه...  
فقال الفقي ساخراً:  
- أفلست المواعظ من قديم.  
ولحق به في السقوط جليل البزّاز، ثمّ حسن العطار  
أما يوسف الطاهر فترنّح على حافة الهاوية... وقال  
عجر الحلاق لسحلول معلّقاً على نشاطه المتصاعد:  
- مصائب قوم!  
فقال سحلول دون مبالاة:  
- هم الجنّة وهم الضحايا...  
فتنهّد عجر قائلاً بأسى:  
- لو رأيته يا معلّم لهفت نفسك إلى الجنون...  
- ما هي إلاّ بسمّة شيطان...  
- إنّي أعجب كيف لم تقع في هواها!  
فقال سحلول بأسماً:  
- جرت المقادير بأن يوجد عاقل واحد في كلّ مدينة  
مجنونة...  
وذات ليلة وسحلول يخرّض الظلام متمهلاً اعتراضه  
تمقام وسنجم فتبادلوا تحية مقدّسة، وقال تمقام:  
- انظر إلى العبث يعصف بالمدينة...  
فقال سحلول:  
- لقد عشت ملايين من السنين فما يدهشني  
شيء...  
فقال سنجم:  
- ستقبض أرواحهم ذات يوم وهي تنزّ إثمًا...  
- وقد تسبق التوبة حلول الأجل...  
- لماذا لا يُسمح لنا بمساندة الضعفاء؟  
فقال سحلول بوضوح:  
- وهبهم الله ما هو خير منكم، العقل، والروح!

- ٧ -

مضى حسام الفقي ثملاً مترنّحاً إلى الدار الحمراء

- ولكتّني لا أدري متى يلحق بي زوجي؟  
- يا له من قول غريب!...  
فتمتت متهكّمة:  
- ليس دون قولك غرابية.  
وبدلال أزاحت النقاب عن وجهها فسطع جمال قد  
خلق على هواه وحقّق شوارد أحلامه... تلاشى العقل  
فركع على ركبتيه... أخرج من جيبه حُقّاً عاجياً  
ففتحه ووضعه بين قدميه كاشفاً عن جوهرة ناطقة  
بمثل ضوء الشمس... همس بصوت متهدّج:  
- حتّى جوهرة التاج لا تليق بقدميك...  
انتظر الحُكْم المقرّر للمصير فقالت بنعومة:  
- مقبولة تحيتك!...  
فانتفض بفرحة الأمل، أحاط ساقها بذراعيه،  
وهوى رأسه فلتّم قدميها...  
- ٥ -

كانت مبادرة يوسف الطاهر بمثابة فتح الباب لأمواج  
الجنون الهادرة الصاخبة التي تدفقت لتغمر الحيّ  
كالطوفان وتصيبه في أغنى أبنائه، أما الفقراء فكانت  
لهم الحسرة... باتت الدار الحمراء بسوق السلاح  
قبلة لحسام الفقي وحسن العطار وجيليل البزّاز  
وغيرهم... حملت الهدايا في إثر الهدايا، وسلبت  
القلوب والجوانح، وتاهت العقول وشردت، وسيطر  
الإسراف والسفّه، ونحيت العواقب، وتلاشى الزمن  
فلم تبق إلاّ الساعة الراهنة، ومضت الدنيا تضيع في  
إثر الدين... وأنيس الجليس ساحرة فاتنة، تحبّ  
الحبّ، تحبّ المال، تحبّ الرجال... لا يرتوي لها  
طمع ولا تكفّ عن طلب... الرجال يستبقون  
بجنون بحكم الحبّ والغيرة، لا يستأثر بها أحد، ولا  
يزهد فيها أحد، منحدرين بقوة واحدة نحو  
الضياع...  
- ٦ -

لم يعرف المعلم سحلول النشاط كما عرفه في تلك  
الأيام... إنه رجل المزايدات وأول من يحضر عند  
حلول الإفلاس... سقط أول من سقط حسام

- ١٠ -

لم تستغرق محاكمة حسام الفقي إلا ساعات ثم  
صُربت عنقه... واجتمع الحاكم سليمان الزيني بكبير  
الشرطة وحضور كاتب السرّ الفضل بن خاقان  
والحاجب المعين بن ساوي... قال الزيني مخاطبًا  
بيومي الأرملة:

- ما هذا الذي قال الشهود؟ عشرات الرجال  
يفلسون... رجلان يفقدان حياتهما بسبب امرأة غريبة  
داعرة... أين كنت يا كبير الشرطة؟  
فقال بيومي الأرملة:

- الدعارة إثم سرّي ونحن منهمكون في مطاردة  
الشيعة والخوارج!  
- لا... لا... إنك عين الشريعة... حَقَّق مع  
المرأة... صايرٌ مالها الحرام، استدرك ما فاتك قبل أن  
تُسال أمام السلطان...

- ١١ -

وقف بيومي الأرملة بين نخبة من رجاله في بهو  
الاستقبال بالسدار الحمراء ينظر في ما حوله  
ويتعجب... ترى هل تفوق سراي السلطان هذه  
الدار في شيء؟ وجاءت المرأة مقنّعة الوجه محتشمة  
الجسد... دعتهم إلى الجلوس فلما أبوا ظلّت واقفة  
وهي تقول:

- أهلاً بكبير الشرطة في دارنا المتواضعة...  
فقال بخشونة:  
- لا شكّ علمت بالجريمة التي ارتكبت عند مدخل  
دارك؟

فقال بتأثر:

- لا تذكّرني بها فلم يغمض لي جفن منذ  
ارتكابها...

فقال بحدّة:

- لا أصدّق كلمة مما تزوّرين، أجيبي على أسئلتي  
بالصدق، ما اسمك؟  
- أنيس الجليس...

- اسم مريب، من أيّ البلاد جئت؟

- أمي من الهند وأبي من فارس وزوجي من

وطرق الباب الكبير... فاضت كأس جنونه فساقته  
إلى باب النجاة ولكن لم يفتح له أحد فصاح في الليل  
غاضبًا:

- افتح يا مفتّح الأبواب...

ولكن لم يكثر بتدائه أحد فانزوى تحت السور في  
قهرو وعناد... وما لبث أن رأى شبّخًا قادمًا حتّى رأى  
وجهه تحت ضوء المصباح الملقى فعرف فيه رئيسه  
القديم يوسف الطاهر فاشتعل بيقظة غاضبة... طرق  
الرجل الباب فرعان ما فتح له... اندفع حسام  
الفقي في أثره ولكنّ العبد اعترض سبيله قائلاً:

- معذرة يا معلّم حسام...

فلطمه على وجهه بحنق فقال له يوسف الطاهر  
برقة:

- أفتّى واسلك كما يليق بك...

فتساءل بغلظة:

- ضاع المال والدين فماذا يبقى لي؟...

تحول عنه ليمضي في سبيله ولكنّ الآخر وثب عليه  
كتمر وطعنه في قلبه بخنجر مسموم... عند ذلك  
صرخ العبد صرخة أفزعت النيام...

- ٨ -

قُبض على حسام الفقي الذي لم يحاول الهرب...  
نظر إليه بيومي الأرملة برثاء وقال:

- أسفي عليك أيها الصديق القديم...

فقال حسام بهدوء:

- لا تأسف يا بيومي، ما هي إلا قصّة قديمة  
يستدفئ بها العجائز، قصّة الحبّ والجنون والدم...

- ٩ -

وقال العبد لأنيس الجليس:

- حبيبتى زرمباحة عمّا قليل سيشرّف دارنا بيومي  
الأرملة كبير الشرطة...

فقال المرأة:

- كما رسمنا يا سخربوط... ونحن في  
الانتظار...

- دعيني أقبل الرأس الحاوي للعبقريّة...

## ليالي ألف ليلة ٤٣٥

الصمت . . .

- ١٢ -

عند منتصف الليل فقد صبره فطار مستخفياً إلى  
الدار الحمراء . . . مثل بين يديها مستسلماً وهو يقول  
لنفسه إنَّها القدر الذي لا ينفع معه حذر ولا يتفجع لديه  
بمثال . . . تجاهلت حاله وقالت بأسى:

- لم يبق لديّ ما تصادره يا كبير الشرطة . . .  
فقال بذل:

- لقد قمت بواجبي ولكنّ ثمة جانب للرحمة . . .  
ورمى عند قدميها بدرّة مكتنزة . . . ابتسمت  
بعذوبة، وتمتت:

- يا لك من رجل شهيم . . .  
ركع على ركبتيه في خشوع، أحاط ساقها بذراعيه،  
ثمّ سجد لاثنا قدميها . . .

- ١٣ -

تصاعدت أنات شكوى من مستحقّي بيت المال،  
وتهاشم كُتاب البيت بأنّ المال لا يُصرف في وجوهه  
الشرعيّة كما أمر الزيني . . . وبلغت الأنباء الحاكم فبثّ  
العيون وشدّد المراقبة . . . وكلف كاتب سرّه الفضل بن  
خاقان وحاجبه المعين بن ساوي بالتحقيق السريّ . . .  
وقرّر أخيراً استدعاء كبير الشرطة بيومي الأرملة وقذف  
في وجهه بالبيّنات الصادقة . . . بدا الرجل مستسلماً  
وغير مباليّ فعجب لشأنه وسأله:

- أرى فيك شخصاً آخر لم أعهده من قبل؟  
فقال الرجل بأسى:

- تقوِّض البنيان القديم يا مولاي . . .

- ما تصوّرت أن تغتال أموال المسلمين . . .  
فقال بالثيرة نفسها:

- اغتاله المجنون الذي حلّ في . . .

وحوكم بيومي الأرملة ففُضرت عنقه . . . حلّ محلّه  
المعين بن ساوي . . . صودرت أموال أنيس الجليس  
مرّة أخرى . . . ولزم حارسُ بابها ليمنع أيّ رجل من  
الدخول . . .

الأندلس!

- متزوجة؟

- نعم، وقد تلقّيت من زوجي رسالة ينبئني فيها  
بقرب قدمه . . .

- أتمارسين الدعارة بعلمه؟

- أعوذ بالله، إنّي امرأة شريفة . . .

فهزّ رأسه ساخراً:

- وما شأن الرجال الذين يتردّدون عليك؟

- أصدقاء من سادة البلد ممن يطيب لهم الحديث  
في الشريعة والأدب . . .

- عليك اللعنة، ألكم أفلسوا وتقاتلوا؟

- إنهم كرماء ولا ذنب لي وما كان يصحّ في آدابنا  
أن أرفض هداياهم، ولا أدري كيف اندسّ الشيطان  
بيتهم . . .

فقال بنفاد صبر:

- لديّ أمر بمصادرة مالك الحرام . . .

أشار إلى رجاله فانتشروا في الدار ينقبون عن الخبيّ  
والجواهر والنقود . . . في أثناء ذلك لبثا وحيدين  
صامتين . . . خطف من نقابها نظرات مستطلعة بلا  
ثمرة أمّا هي فلم تجزع . . . استسلمت للقدر أو هكذا  
بدت، ثمّ تساءلت في عتاب:

- هل أعيش بعد اليوم من يتبع أنات داري؟

رفع منكبيه استهانة فأزاحت النقاب عن وجهها  
قائلة:

- معذرة، حرّ الصيف لا يُطاق . . .

نظر بيومي فصعق . . . لم يصدّق عينيه ولكنّه  
صعق . . . التصق بصره بوجهها فلم يستطع أن

يستردّه . . . سبح في بحر الجنون المتلاطم . . . فقدّ  
القوّة والوظيفة والأمل . . . دفن كبير الشرطة بيديه

فانبعث من قبره مائة عفرية وعفرية . . . دفعته  
آلاف الأيدي فكاد يتهاوى لولا سماعه عريضة أعوانه في

الحجرات . . . الرقباء والعيون قادمون، أمّا بيومي  
الأرملة فقد ضاع إلى الأبد . . . وعادت تقول متوسّلة:

- أسألك المروءة يا كبير الشرطة . . .

أراد أن يجيب إجابة خشنة تناسب المقام . . . أراد  
أن يجيب إجابة ناعمة تناسب المقام . . . لكنّه غرق في

- ١٤ -

لللقاء السلطان شهريار بحجة أن تظفر بالعدل  
والإنصاف عند أيّ منهم... هوى الرجال جميعاً  
وتطلع كلّ إلى مواعده وقد فقد رشده... حتى دندان  
وشهريارا!

- ١٦ -

في مواعده جاء المعين بن ساوي بدقة فلكية تعكس  
عيناه معاناة عاشق قديم... رمى بالبدر في خفة  
طفل سعيد، لم ير من الوجود الفخم إلا كوكبه  
الساطع، وشمّل بالنشوة حتى استقرّ عند قدميها...  
ليس في الجلسة إلا بروق الوعود السعيدة المحذمة ولا  
مكان بها للعواقب... شرب من يد العبد تارة ومن  
يدها أخرى وتغادى في أفانين الهوى حتى تجرد من ثيابه  
فارتدّ للعصر البدائي... وهو يندفع بها نحو الفراش  
اندفع العبد داخلاً مهرولاً وانكبّ على أذنها فأسرّ إليها  
بسرّ خطير كما بدا... وثبت واقفة، أسدلت على  
جسدها البضّ طيلسانها وهمست محمومة:  
- زوجي وصل...

أفاق الرجل من سكرته بضربة قاضية فشده من  
يده إلى حجرة جانبية، ثم أدخلته في صوان، أغلقته  
بإحكام، وهي تقول من خلال رجفة الاضطراب  
والذعر:

- ستذهب بأمان في الوقت المناسب...

فهتف الرجل:

- إليّ بشيبي...

فقالت وهي تبتعد:

- إنّها في الحفظ والصون، اصمت، لا صوت ولا

حركة وألا هلكنا!...

- ١٧ -

تتابعت الرجال... الفضل بن خاقان... سليمان  
الزيني... نور الدين... دندان، شهريار...  
استسلموا للنداء الأسر، ثملوا بالنشوات المعريدة، ثم  
سيقوا عرايا إلى الأصونة، وترامى إليهم صوت أنيس  
الجلسيس وهي تضحك ساخرة فأدركوا أنّهم وقعوا في  
شرك محكم... قالت:

ورفع أمرها إلى المفتي ولكنّه أفتى بأنّه لم تقم بيّنة  
شرعية على فسقها، وكان المعين بن ساوي يمارس  
عمله في مقرّ الشرطة عندما استأذنت امرأة في  
مقابلته... نظر إلى نقابها الكثيف بلا مبالاة وسألها:

- من أنت وماذا تريدين؟

فأجابت بعصية:

- أنا أنيس الجليس المظلومة...

فانتبه الرجل إليها باهتمام وسألها بخشونة:

- ماذا تريدين؟

فأزاحت النقاب عن وجهها وقالت:

- صادرتم مالي، أصبحت مستحقة للصدقة

والزكاة فاكثبي عندك ضمن المستحقات...

لم يفقه معنى كلمة ممّا قالت... نسي أشياء لا

تُحصى كما نسي نفسه... عبثاً حاول أن يستمدّ من

ضميره قوة... زلّت قدمه فتردى في الهاوية... سمع

صوتها يتردد مرّة أخرى دون أن يفقه له معنى...

أخيراً سألها وهو يلهث:

- ماذا قلت؟

فقالت متجاهلة حاله:

- اكثبي عندك في المستحقات للزكاة والصدقة...

تساءل وهو يلقي بتاريخه من النافذة:

- متى أبعث لك بحاجتك؟

فقالت بدلال:

- سأنتظرك عقب صلاة العصر...

- ١٥ -

اشتعلت نشاطاً ومقدرة... قالت إنّه يوم الفصل

والنصر... ضحكت طويلاً كما ضحك

سخربوط... وفي الحال قصدت كاتم السرّ الفضل

بن خاقان... تكوّرت اللعبة والمأساة... ضربت له

موعداً عقب صلاة المغرب... أما سليمان الزيني فكان

مواعده عقب صلاة العشاء... نور الدين عاشق

الروح وعديل السلطان وافق على الذهاب بعد العشاء

بساعتين وقد حرّر لها رقعة لمقابلة الوزير دندان وأخرى



## ليالي الف ليلة ٤٣٧

وسائل الحياة؟

فنظرت فيها حولها بقلب منقبض وتساءلت:

- ألا يعجبك هذا الجمال كلّه؟

- لا أرى إلّا جدراناً تتردّد بينها أنفاس الوباء

القديم...

جاء دورها لتتمرّى كالأخرين... استسلمت

ضعيفة أمام جنونه المقتحم... انهمز الإغراء كما انهمز

التمويه... ولتته ظهرها لتفكر... تحمّكت شفاته

بشلاوة خفيّة... لم تسعفها المقاومة اليائسة...

وزحف عليها ما يشبه النوم الثقيل... تراخت

أعصابها... تركت تيار التفجير يتدفق... مضت

قسّمت وجهها تذوب وتنداح فصارت عجينة

متورّمة... تقوّضت القامة الفارحة وطارت منها

الملاحة والرشاقة... بسرعة عجيبة لم يبق منها إلّا

نقاط منفصلة... استحالت دخاناً ثمّ تلاشت غير

تاركة أيّ أثر... في أعقابها اندثرت الأرائك والوسائد

والأبسطة والتحف... انطقت القناديل... فنيّت

فساد الظلام... حمل ركاب ثياب الرجال فغذف بها

من نافذة ومضى نحو حجرة الأصونة...

- ١٩ -

قال المجنون يخاطب من في الأصونة:

- لن أعفيكم من العقاب، ولكنّي اخترت لكم

عقاباً ينفعكم ولا يضرّ العباد...

فتح الأقفال بسرعة ثمّ غادر المكان...

- ٢٠ -

تسلّل الرجال من الأصونة في حذر وإعياء يترنّحون

من الإرهاق... لم يفتح أحد منهم فاه من القهر

والخجل... عراة الأجساد عراة الكرامة يتخبّطون في

الظلام... يفتشون عن ملابسهم، عن أيّ ملابس،

عن أيّ شيء يستر العورة... الوقت يمضي لا يرحم

والنور يقترب والفضيحة تومض في الظلام... جالوا

في الظلام يستكشفون المكان بأذرعهم الممدودة... لا

أثر لشيء... لا أثر لحياة... وهم أو كابوس أما

الفضيحة فحقيقة... إنّه الذلّ واليأس...

- غداً في السوق سأعرض الأصونة للمزاد بما

فيها...

وضحكت مرّة أخرى وواصلت:

- سوف يشاهد شعب السوق سلطانه ورجال دولته

وهم يباعون عرايا...!

- ١٨ -

وكما رجعت إلى البهو رأت أمامها «المجنون» واقفاً في

هدوء... انزعجت مرتجفة... ماذا جاء به؟ كيف

اقتحم دارها؟ هل سمع حديثها للرجال؟ سألته:

- كيف دخلت داري بلا دعوة ولا استئذان؟

فقال بهدوء:

- رأيت الرجال يتابعون فئار شوقي للمعرفة...

صققت يديها منادية العبد فأدرك ما تريد فقال:

- لقد ذهب!

فسألته غاضبة:

- إلى أين؟

- دعينا منه وأكرمي ضيفك...

بدا مفروق الشعر مسترسله... غزير اللحية،

حافي القدمين، في جلاب أبيض فضفاض ينبعث من

طوقه شعر صدره... أتوقعه في شراكها؟ أقبلت

ولكن في فتور... لأول مرّة لا يُحدث وجهها أثره...

إنّه فتنة ولكن للعقلاء لا المجانين... اقتربت من

المائدة مثنيّة وقالت:

- إن كنت تريد طعاماً فكلّ...

فقال بازدراء:

- لست متسوّلاً!

فتساءلت مدافعة اليأس:

- إليك الشراب...

- رأسي مليء بالدنان!

- لا يبدو عليك سكر...

- ما أنتِ إلّا عمياء

فقطّبت مستوحشة، وسألته:

- ماذا تريد؟

فسألها بدوره:

- كيف تعيشين في قصر مهجور خالٍ من كافّة

باقتحام لغز غير يسير... وما لبث أن تسلق السور فانبطح على بطنه وراح ينظر نحو الفناء على ضوء شمعة خافت أمسك بها شبح... رأى نفرًا من العبيد تفتح قبرًا منعزلاً كأنما أعد للخدم، ثم رآهم يحملون صندوقاً فيودعونه القبر ويهيلون عليه التراب... انتظر حتى فارقوا المكان... فكّر أيضًا في الذهاب ولكن الصندوق ألح عليه... ماذا يحوي؟ ولماذا دفنوه في هذه الساعة المتأخرة... ولم تُعفه نفسه من المتاعب فوثب إلى الفناء... وبهمة وإصرار فتح القبر واستخرج الصندوق... ولولا قوته وتمرسه بحمل الاحمال ما استطاع أن يفعل... وعالج الصندوق حتى فتحه وأشعل شمعة يحتفظ بها في رحلته، وألقى نظرة فارتعد إشفاقًا ورعبًا... ثمّة جارية كالبدر في تمامه مكشوفة الوجه، في ثوب لا كفن، ميتة ولا شك ولكنها تبدو كسائمة... أدرك أنّ ملابسات الدفن تومئ إلى جريمة ما... كما أدرك أنه ورط نفسه في مازق ما كان أغناه عنه... وفي الحال توثب للفرار دون أن يفكر في إعادة الصندوق إلى قبره أو إغلاقه...

- ٣ -

وعندما وثب إلى الخلاء وجد أمامه شبحًا فتقلص قلبه، ولكنّه سمع صوت المعلم سحلول تاجر المزايدات يتساءل:

- من هنا؟

فأجاب خفيًا ارتباكًا ما استطاع:

- رجب الحمال يا معلم سحلول...

فسأله ضاحكًا:

- ماذا كنت تفعل في الداخل؟

فأجابه على البداهة:

- ربنا أمر بالستريا معلم...

أراد أن يوحى إليه بأن وراء السور امرأة فضحك

سحلول وتساءل متهكمًا:

- ألا يوجد في هذه المدينة رجل فاضل؟

واسترشدوا بالجدران نحو الباب الخارجي وديبب الزمن يتلاحق خلفهم... وما إن تنفسوا هواء الطريق حتى تشهدوا وبعضهم بكى... المدينة خالية... فرصة وأي فرصة... انطلقوا حفاة عرايا في ظلمة الليل... بصقهم المجد، وعلاهم الخزي، وكسا الإثم وجوههم بطبقة من القصدير المذاب...

## قوت القلوب

- ١ -

كان المجنون يترنم بأوراد الفجر في مطلع الخريف عندما تناهى إليه تحت النخلة صوت ساكن الماء مناديًا... هرع إلى حافة النهر وهو يقول:

- أهلاً بأخي عبد الله البحري...

فقال الصوت:

- إني أعجب لشانك...

- لماذا؟

- طالما قتلت المنحرف لانحرافه فما بالك تجيب

الأميين الفضيحة؟

فقال المجنون بأسى:

- أشفقت أن يصبح الصباح فلا تجد الرعية سلطانا

ولا وزيرًا ولا حاكمًا ولا كاتم سرّ ولا رجل الأمن

فياخذها أقوى الأشرار...

- وهل أجدت حكمتك؟

- أراهم يعملون وقد ملأ الحياء قلوبهم وقد خبروا

ضعف الإنسان...

فهمس عبد الله البحري:

- في مملكتنا المائتة نجعل الحياء شرطًا ضمن شروط

عشرة يجب أن تتوفر في حكامنا...

فقال المجنون متنهّدًا:

- ويل للناس من حاكم لا حياء له...

- ٢ -

تأخر الوقت برجب الحمال خارج البوابة... ولدى

عودته في الظلام رأى أشباحًا تفتح مدفنًا وتدخله...

وعجب لما يدعوهم لذلك قبيل الفجر فأغراه قلبه

## ليالي الف ليلة ٤٣٩

- ٦ -

أمام باب الدار وجد رجب الحَمَّال في انتظاره...  
تقدّم منه حاني الرأس وقال:  
- مولاي... لديّ ما أقوله...  
فقاطعه بحدّة:  
- اغرب عن وجهي... هذا وقت كلام يا غبي؟  
فقال الحَمَّال يلحاح:  
- حلمك يا سيدي... إنها جريمة قتل... الجثة  
خارج البوّابة، والتأجيل حرام.  
انتبه الرجل إلى قوله متسائلاً:  
- أيّ جريمة... وما دخلك فيها؟  
فقصّ عليه القصة بسرعة ولهجة والآخر يتابعه  
باهتمام متزايد...

- ٧ -

مع أوّل شعاع للنور حمل الصندوق إلى بهو دار  
الإمارة... أحدق به سليمان الزيني والمعين بن ساوي  
ورجب الحَمَّال... قال كبير الشرطة بحزن:  
- اهتديت إلى مكان قوت القلوب وجئت بها  
ولكنّها للأسف جثة هامدة!  
ارتجف سليمان الزيني رغم رزائته تحت ضغط  
عواطفه... فتح المعين بن ساوي الصندوق...  
انحنى فوقه الزيني بوجه يطفح بالحزن مغمغماً «إنّا لله  
وإنّا إليه راجعون»... أغلق المعين الصندوق وهو  
يتمتم:  
- أطال الله بقاءك وهونّ من أحزانك...  
صاح سليمان:  
- الويل للمجرم... اكثيف لي الأسرار التي  
أطاحت بسعادتي...  
- مولاي... ما زال اللغز لغزاً... كيف غادرت  
الدار؟ أين قُتلت؟ من قتلها؟ إليك يا مولاي شهادة  
تطوّع بها هذا الحَمَّال...  
وروى له الشهادة، فرمى الزيني رجب بنظرات من  
نار وقال له:  
- أيها القدر، أنت القاتل أو عندك خبره...

- ٤ -

استعبده الخوف... لم يعرف من قبل المآزق  
الخطرة... لاح له النطع كمصير مظلم... صلّى  
الفجر بجسده أمّا عقله فاستأثرت به الوسوس...  
سوف تُكتشف الجثة... يشهد سحلول برؤيته وهو  
يثب من فوق سور المدفن... وهو الحَمَّال المرشّح  
لحمل الصندوق... فلما المرروب وإمّا الاعتراف  
بالحقيقة قبل أن تُكتشف... وهو مرتبط بالأهل  
والأرض... ليس كقرينه السنديباد الغائب في  
البحر... وهو أيضاً ممن يعطف عليهم المعين بن  
ساوي كبير الشرطة... فليقصده وليعترف بين يديه  
بكلّ شيء...

- ٥ -

عقب الصلاة عزم على لقاء المعين بن ساوي ولكنّه  
رآه مسرعاً فوق بغلته وبين حرسه... تبعه على الأثر  
فوجده ماضياً نحو دار الزيني ينتظر مُنصرّفه. وكان  
سليمان كبير الشرطة نائراً، وكانت داره تعاني اضطراباً  
شاملاً... لقي الحاكم كبير الشرطة ساخطاً وقال له  
بغضب:  
- ما هذا الذي جرى في دار الإمارة؟... هل  
رجعنا إلى أيام الفوضى؟  
فوجم المعين وسأل عمّا جرى فقال الحاكم:  
- جاريتي قوت القلوب لا أئر لها كأنّ الأرض  
ابتلعتها...  
فذهل المعين وتساءل:  
- متى حدث ذلك؟  
- رأيتها أمس والآن لا وجود لها...  
- ماذا قال أهل الدار؟  
- يتساءلون مثلي وقد ركبهم الخوف...  
تفكّر المعين قليلاً ثمّ قال:  
- لعلّها هربت!  
فاحتقن وجه سليمان الزيني بدم أسود وصاح:  
- كانت أسعد الجوارى، عليك بالعثور عليها...  
نطق بها بثورة وعيد واضحة...

## ٤٤٠ ليالي الف ليلة

- أتمتقد أنه القاتل؟  
فقال بهدوء:  
- لا بيّنة لديّ، ثمّ إنّه لا يوجد قاتل بلا قتيل فأين  
القتيل؟  
- في هذا الصندوق...  
فابتسم ابتسامة غامضة وقال:  
- دعوني أراه...  
ففتح المعين الصندوق ونظر سحلول إلى الجثة ملياً  
ثمّ قال:  
- الجارية ما زالت تنبض بالحياة...  
ترقق الأمل في عينيّ الزيني ورجب على حين صالح  
به المعين:  
- أتسخر منّا يا مجرم!...  
فقال غاطباً الزيني:  
- أسرع بإحضار طبيب وإلا ضاعت الفرصة...  
- ٩ -

جاء الطبيب عبيد القادر المهيني وفي الحال عكف  
على فحص «الجثة»... رفع رأسه وقال:  
- ما زالت حيّة!  
نذت عن الزيني آهة سرور على حين اصفرّ وجه  
المعين بن ساوي حتّى حاكى وجوه الموتى... وواصل  
عبد القادر:  
- دُسّ لها قدر من البنج يكفي لقتل فيل!  
وراح يعالجها حتّى لفظت ما في بطنها وحرّكت  
رأسها... صالح الخيال:  
- الحمد لله ربّ المظلومين...  
وقال سحلول وهو يختلس من كبير الشرطة نظرة  
خفيّة:

- سوف تكشف لنا عن سرّ الحكاية...  
- ١٠ -

مضت مدّة مشحونة بالصمت والانفعالات حتّى  
عادت قوت القلوب إلى وعيها... رأت وجه الزيني  
أول ما رأت فمدّت له يدها مستغيثة فقال برقة:  
- لا تخشني شيئاً يا قوت...  
- ٨ -

فهتف الخيال مرتعداً:  
- وربّ السماوات والأرض ما أخفيت عنكم كلمة  
واحدة...  
- اخترعت أسطورة تسترّ بها على فعلتك...  
- لولا صدقي ما ذهبت بنفسي إلى كبير الشرطة  
معتزّقاً بما شاهدت...  
غير أنّ المعين بن ساوي فاجأه بما لا يتوقّع قائلاً:  
- في هذا كذبت يا رجل... (ثمّ متلفّناً إلى  
الحاكم)... لقد قبض عليه في مكان الجريمة...  
فذهل رجب... لم يصدّق أذنيه... سأله:  
- ماذا قلت؟  
فكرّر الرجل:  
- لقد قبض عليك ولم تخج بنفسك...  
- أنت تقول ذلك؟  
فقال بازدياء مصطنع:  
- الواجب فوق الرحمة...  
فصرخ في وجهه:  
- لن تغفلت من الله يا مفترّي...  
فقال له الزيني:  
- اعترف وجنّب نفسك أهوال التعذيب...  
فقال رجب بيأس:  
- كبير الشرطة كذاب... لا علم لي بشيء سوى  
ما قلت...  
وتذكّر الواقعة الوحيدة التي أخفاها فواصل:  
- أحضروا المعلّم سحلول تاجر المزايدات فقد رأيته  
قريباً من المدفن...  
- ٨ -

جاء بالمعلّم سحلول... لم يغيّر شيء من هدوئه  
المألوف... سئل عمّا دعاه للتواجد قرب المدفن في  
تلك الساعة من الليل فقال:  
- تستوي جميع الأمكنة والأزمنة عندي بحكم  
عملي...  
وقصّ عليهم حكاية ضبطه مصادفة لرجب وهو  
يشب من فوق السور... فسأله المعين:

## ليالي الف ليلة ٤١

زوجتك...  
ارتجف الرجل غاضباً وصاح:  
- ماذا قلت؟  
- دعني بدافع الغيرة وأغررتني بسائتخلص من  
جارتك المفضلة قوت القلوب...  
- خائن ومفتري...  
- يجدر بك أن تحقّق مع زوجك أولاً...  
- زعم باطل لن ينجيك من النطع...  
فقال الرجل بتحد:  
- سأطالب بتحقيق عادل، وسيجري عليّ ما يجري  
عليها... فالشريعة فوق الجميع...

- ١٢ -

ما بين يوم وليلة شاخ سليمان الزيني وتمهّم... ولم  
يتوان فقرر ستّ جميلة حتى أقرت بتدبيرها... تصدّى  
للحقيقة بحيرة بالغة... إعلان الحقيقة يعني القضاء  
على أمّ أولاده كما يعني القضاء على مركزه... والحقّ  
واضح ولكن تبيّن له أنّه أضعف من أن يتخذ القرار  
الحقّ... وجد نفسه منحدرًا إلى العفو على الاثنين،  
كي تبقى جميلة في داره كما يبقى المعين في وظيفته...  
واتخذ القرار المتهالك وفقد شرفه...  
غير أنّ قوت القلوب صارحته بأنّه لا بقاء لها في  
داره بعد اليوم، ولا أمان لها فيها... فاضطرّ إلى  
عتقها وتزويدها بالمال، وتركها تذهب أخذه معها  
قلبه...

- ١٣ -

خفقت قلوب بالأسى... تناجى قمعام وسنجام،  
المجنون وعبد الله البحرى... حزنوا لسقوط  
التائبين... أمّا قوت القلوب فعاشت وحيدة في دار  
جميلة... عاشت في أمان من الحاجة ولكن في غشاء  
من السوحشة... ومع أنّ سيدها استجاب لطلبها  
وأكرمها ولكنّها لم تنفقه من الملامة لتفريطه فيها، ومرارة  
الوحدة تشتعل جحيماً بالحبّ الخائب... وسعى إليها  
طلّاب الزواج حباً وطمعاً فرفضتهم جميعاً... رفضت  
حسن العطار كما رفضت جليل البراز... ورغب فيها

فهمست:  
- إني خائفة...  
- إنك بين أحضان الأمان فابتسمي...  
لمحت المعين بن ساوي فاضطربت هاتفة:  
- هذا الوحش...  
ساد صمت ثقيل مذهل... قالت:  
- لا أدري كيف أخذني إلى دار خالية، هدّدي  
بالقتل إذا لم أذعن لرغباته الدنيئة، ثمّ لم أعد أدري  
شيئاً حتى الساعة...  
تركزت العين فوق كبير الشرطة... صاح الزيني:  
- أيها الكلب الخائن...  
جرّده من سيفه وخنجره وهو يقول:

- ما أسرع أن يدبّ الفساد من جديد...  
وأمر بسجنه حتى يحقّق معه بنفسه، على حين أعلن  
براءة الحمال وتاجر المزادات، واستبقى المعلمّ سحلول  
قليلاً فقال له:  
- إني مدين لك بالكثير يا معلمّ سحلول، ولكن  
خبرني ألك خبرة بالطبّ؟  
فأجاب بأسياً:  
- كلاً يا مولاي، ولكن لي خبرة بالموت!

- ١١ -

قال سليمان الزيني للمعين بن ساوي:  
- ما تصوّرتك خائناً أبداً، وظننت أنّ المحنة التي  
وقعنا فيها جميعاً قد طهرتنا وأنّ حياتنا ستقوم على  
العدل والنقاء، وإذا بك تحنون الأمانة وتستهيّن  
بالكرامة وتتأدّى في الفسق والجريمة...  
فقال المعين:

- لا أنكر شيئاً ممّا تقول، لقد أعلنّا توبة ولكنّ  
الشیطان لم يتب بعد...  
- لا عذر لك ولأجعلنّ منك عبرة لكلّ معتبر...  
- مهلاً... لست صيداً سهلاً، والشرّ اثبتق من  
دارك...  
- عليك اللعنة...  
فقال بهدوء:  
- لي شريك في الجريمة هي الستّ جميلة

## ٤٤٢ ليالي الف ليلة

- بل نريد مزيدًا من غناء...  
فكرت الصوت على مقام جديد حتى سبغ الرجال  
في طرب رائق... وقال شهریار:  
- أنت مغنية يا هذه؟

فهمست:

- كلاً يا رجال الله...  
فقال السلطان:  
- صوتك ينطق بحزن دفين...  
- وأي حَيٍّ يخلو من حزن؟  
فتساءل برقة:  
- ماذا يحزنك ودارك ناطقة بالنعيم؟  
فلاذت بالصمت فعاد شهریار يقول:  
- احكي لنا حكايتك فصناعتنا في الحياة مداواة  
القلوب الكليمة...  
فشكرته ثم قالت:

- سرّي لا يُباح يا رجال الله...  
وأصرت على الصمت فاستأذنوا في الانصراف  
والسلطان صيّق الصدر بصمتها... ومال على أذن  
دندان قائلاً:  
- أتني بسرّ هذه المرأة الصامتة...  
- ١٤ -

آخرون عن بُعد كالمعين بن ساوي، وتساءل رجب  
الحمّال: أليس من حقّ من أحيا ميتاً أن يملكه؟

- ١٤ -

ووقعت أحداث بسيطة لم ترمش لها عين المدينة  
ولكنّها هزت أفئدة أصحابها... تزوّج إبراهيم السقاء  
من ستّ رسميّة أرملة جمصة البلطي... وعرض بيت  
المال دار جمصة البلطي للبيع فأمر سليمان الزيني بدفن  
رأس جمصة في مقابر الصدقة... ولم يفك المجنون أن  
يشهد دفن رأسه، وقال لنفسه إنّه أول إنسان يشيخ  
نفسه إلى دار البقاء، وسعد بزواج أرملة من إبراهيم  
السقاء لأنّ وحدتها أمست تنغص عليه صفوه...  
وثقل على المعين بن ساوي الشعور بالثبذ فبدأ صفحة  
جديدة في التعاون المريب مع التجار والأغنياء...  
وأمرت السماء في ذلك الحريف على غير عادة...

- ١٥ -

وكان ثلاثة أشباح يخترقون الظلمة صامتين...  
وتحت دار قوت القلوب نادتهم أوتار عود وصوت  
شجيّ تهادى إليهم يناجي رطوبة الحريف:  
من عادة الدهر إديبار وإقبال

فما يدوم له بين السورى حال  
كم أحمل الضيم والأهوال يا أسفي  
من عيشة كلّها ضيم وأهوال  
ثقلت خطاهم حتى توقفت، وهمس أحدهم:  
- هذا مطلبنا يا دندان!

طرق شبيب رامة السيّاف الباب ففتحت جارية  
تسأل عن الطارق فقال شهریار:  
- دراويش من رجال الله ينشدون مؤانسة  
شريفة...  
غابت الجارية قليلاً ثم رجعت فقادتهم إلى حجرة  
استقبال ناعمة الوسائد والمفارش قد أسدل على ديوانها  
الرئيسي ستار يحجب صاحبة الدار... تساءلت قوت  
القلوب:  
- تريدون طعاماً؟  
فقال شهریار:

- ١٦ -

مطالب السلطان جبال ثقال لا تتزاح عن كاهله  
حتى يحقّقها، وهو أعلم بغضبه إذا خاب له مطلب،  
وما زال السلطان متأرجحاً بين الهدى والضلال فلا  
تؤمن غضبته... لذلك استدعى حاكم الحَيّ سليمان  
الزيني... وصف له موقع دار قوت القلوب وقال:  
- في الدار امرأة غامضة ذات صوت عذب وهمّ  
خفيّ، يريد مولانا السلطان فؤادها صفحة مبسوطة لا  
خفاء فيها...  
زلزلت نفس الزيني وأدرك أنّه مسوق إلى  
الاعتراف... سيتحرّى دندان عن الحقيقة لدى كلّ  
من يأنس عنده قدرة على كشف الأسرار من الرجال  
وعلى رأسهم الفضل بن خاقان... ستهدى إليه  
الحقيقة عاجلاً أو آجلاً فليكن على الأقلّ صاحب  
الفضل في الاعتراف تقرّباً من السلطان... وهو ذو

- تريدون طعاماً؟

فقال شهریار:

ليالي الف ليلة ٤٤٣

## علاء الدين أبو الشامات

- ١ -

هتف جمصة البلطي في هدأة الليل تحت النخلة  
واللهم حرّري من أمس... اللهم حرّري من  
غده...

وإذا بصوت سنجام يقول له:

- نحن نحبّ ما تحبّ ولكنّ بيننا وبين الناس  
حاجز من المقادير.

ولعلّمت ضحكة زرمباحة ثمّ قالت:

- لماذا خلق الشهد والخمر؟

وكان شهريار ماضيًا في جولاته الليلية مع زجليه  
فقال لدندان:

- تمرّ بي هواتف متلاحقة ولكنّي دائر الرأس في  
مقام الحيرة.

- ٢ -

نحيل القوام، مشرق الوجه، ناعس الطرف، فوق  
كلّ خدّ شامة، يهّم بولوج المراهقة في حياء... رمقه  
عجر الحلاق وقال:

- تعلّمت ما أنت في حاجة إليه فخذ العدة واسرح  
والله يرزقك...

وتمتمت فتوحة:

- ربّنا يكفيك شرّ أولاد الحرام...

وذهب الفتى نشيطًا مستبشرًا فقال عجر وكأنّما  
يخاطب نفسه:

- له جمال نور الدين فاللهم أسبغ عليه حظّه...

فقال فتوحة:

- حجّابي فوق صدره يصدّه عن طريق أبيه...

فرماه عجر بنظرة سامة ولكنّه لم ينبس...

- ٣ -

مضى يعمل في الطريق والدكاكين وكلّ من تقع  
عليه عيناه يقول:

- تبارك الحلاق العظيم...

خلق فلم يطمئن قلبه لحظة بتصرّفه ويفضّل التكفير  
عنه بأيّ سبيل...  
وأفضى إلى الوزير دندان بمكنون سرّه...

- ١٧ -

ولما تلقّى شهريار الحقيقة من وزيره غضب وهتف:  
- لا بدّ من ضرب عنقي المعين وجيلة زوجة  
الزيني...

غير أنّ غضبه فتر فجأة... لعلّه تذكّر هروبه ليلاً  
عاريًا والإثم يطارده، وعلّه تذكّر أنّ الزيني والمعين  
كانا من خيرة الرجال، على أنّه فصل الرجلين من  
عملهما، وصادر أموالهما، كما أمر بجلد جيلة  
والمعين... ووهب قوت القلوب عشرة آلاف دينار،  
وسألها يعطف:

- ماذا تطلين أيضًا يا جارية؟

فقال قوت القلوب:

- أسالك يا مولاي العفو عن سليمان الزيني...

فتبسّم السلطان وسألها:

- يبدو أنّك ما زلت تحبّينه...

ففضّت بصرها حياءً ولكنّه قال بحزم:

- لقد صدر أمرنا بتولية الرجال الجدد ولا رجوع  
فيه، بذلك يصبح الفضل بن خاقان حاكمًا، وهيكل  
الزعفراني كاتم سرّ، ودرويش عمران كبيرًا  
للشرطة...

فشقّت عينها عن دمع يودّ أن ينطلق فقال  
شهريار:

- بيدك أنت أن تعفي عنه ولعلّك خير له من

الإمارة!

فلثمت موطن قدميه وهمت بالانصراف فسألها:

- ماذا نويت يا جارية؟

فأجابت ببساطة وبعينين مغرورقتين:

- العفو يا مولاي...

- ما دام الطيبون لا يمتشقون السيوف!  
قال علاء الدين ببراءة:  
- يتحدثون كثيرًا عن توبة مولانا السلطان...  
فقال فاضل بسخرية:  
- أحيانًا يتوب عن توبته، ويقينًا أنه ليس أحقّ  
المسلمين بالولاية!  
انجذبت عينا علاء الدين نحو الركن الأيمن فهجر  
حديث صاحبه ولو إلى حين... ثمّة شيخ نحيل بهيج  
الوجه ذو نظرة آسرة... خيل إليه أنه لم ينظر نحوه  
مصادفة... وجد عمي الشيخ في انتظاره... ثمّة  
دعوة خفية من هناك واستجابة من هنا... ارتاح إليه  
كما يرتاح السليم إلى بهجة الورد المفتحة... ولاحظ  
فاضل انصرافه عن حديثه إلى الشيخ فقال له:  
- الشيخ عبد الله البلخي رأس الولاية...  
فساءل علاء الدين بأريحية:  
- لماذا ينظر إليّ؟  
فقال فاضل بغموض:  
- ولماذا تنظر إليه؟  
فهمس:  
- الحقّ أنّي أحببته...  
فقطب فاضل ولم يجد ما يقوله.

- ٥ -

غادر علاء الدين المولد وحده مترع الصدر بأصداء  
الأناشيد... سبح في الظلام تحت ضوء النجوم  
الخافت ونسمة الخريف تلاطفه... إذا بصوت عميق  
مؤثر يدركه منادياً:  
- يا علاء الدين...  
فتوقّف قلبه يناجيه أنّ هذا الصوت من ذاك الشيخ  
يصدر، لحق به الشيخ وقال له:  
- أنت مدعوٌ لصدّاقتي...  
فقال بحياء:  
- نعم الدعوة يا مولاي، ولكن كيف عرفت  
اسمي؟  
فلم يجبه وواصل:  
- داري معروفة لمن يريد...  
- ٤ -

واختار سلّم السبيل ساعة الراحة فنشأت مودّة  
سريعة بينه وبين فاضل صنعان بيّاع الحلاوة... ومرة  
دعاه إلى مسكنه بالربيع فرأى زوجته أكرمان وأمّه أمّ  
السعد وأخته حسنيّة... تحرّكت مراهقته خفيةً  
فارتطمت بورعه وتريبته الدينيّة التي تلقّاها في الكتاب  
فجعل يعتلّ بالعلل كلّها دعاه فاضل إلى مسكنه...  
ولمس فاضل ورعه فقال له:  
- إنك فتى طيب جدير بكلمات الله المستكنّة في  
قلبك...  
فتمتم علاء الدين:  
- إنه من فضل ربّي...  
فسأله بحذر:  
- ما شعورك عندما ترى المعاصي تحتاج الناس؟  
فتمتم:  
- الحزن والأسف...  
- وما جدوى ذلك؟  
فتبدّت الحيرة في عينيه وتساءل:  
- ماذا تريد أيضًا؟  
- الغضب!  
وكرّرها ثم قال:  
- المرعى الطيب جدير بالأسد...  
- ٤ -

أشرق الحّي بمولد سيدي الورّاق... زحفت  
المواكب وتلاطمت الأعلام وتجاوبت السدوف  
والمزامير... اجتمع أهل الخير وأهل النفاق حول  
جفان الثريد... ولاح في مجالس الخاصّة سحلول  
وحسن العطار وجليل البرّاز وسليمان الزيني والمعين بن  
ساوي وشملول الأحذب، وتواجد أيضًا فاضل  
صنعان وعجر الحلاق ومعروف الإسكافي وإبراهيم  
السقاء ورجب الحمال... جاء أيضًا - بمفرده لأول  
مرة - علاء الدين أبو الشامات... أجلسه فاضل إلى  
جانبه وهو يقول:  
- لو يُعث الورّاق لامتشق السيّف!  
ابتسم علاء الدين ابتسامة من يزداد خبرة بمعرفة  
صاحبه... فقال فاضل بتبرة ذات مغزى:



## لبالي الف ليلة ٤٤٥

- أريد أن أفهم . . .
- الصبر يا علاء الدين، ما هي إلا بداية تعارف
- على مشهد من النجوم، وداري معروفة لمن يريد . . .

- ٦ -

- حلم علاء الدين تلك الليلة بأنّ «المجنون» جاءه
- بجلبابه المسدول على اللحم وقال له:
- أرسل لحيتك . . .
- فمجب لطلبه فقال المجنون:
- ما هي إلا شبكة للصيد . . .
- فقال علاء الدين:
- ولكنّي حلاق لا صياد . . .
- فصاح المجنون:
- خلق الإنسان ليكون صيادًا . . .

- ٧ -

- على طلبية الفطور حكى لوالديه حكاية الشيخ عبد
- الله البلخي ففرحت فتوحة وقالت:
- بركة من ربنا . . .
- أما عجر فاستمع إليه بفتور وقال:
- ما أنت إلا حلاق، وإنك لمتدين بما فيه الكفاية
- فاحذر المغالاة.
- وبسبب هذا الاختلاف تشاجر الزوجان وتقاذفا
- بكلمات قارصة . . .

- ٨ -

- وفوق سلم السبيل راح يصغي لحديث فاضل
- بدهشة، ثمّ سأله:
- إنك حائق على رجالنا الأجلاء . . .
- فسأله فاضل:
- هل عرفتهم عن قرب؟
- أحيانًا يصحني أبي معه إلى دورهم كمساعد له،
- فرايت عن قرب الفضل بن خاقان حاكم حينا وهيكل
- الزعفراني كاتم السرّ ودرويش عمران كبير
- الشرطة . . .
- لا يعني هذا أنك عرفتهم . . .

فقال كالمعتد:

- عملي يستغرق نهاري كلّ . . .
- إنك لا تدري ما عملي . . .
- نكّيتي حلاق يا سيدي . . .
- فلم يحفل بإجابته وسأله:
- لماذا حضرت مولد الوراق؟
- أحبّ الموالد من صغري . . .
- ماذا تعرف عن الوراق؟
- إنّه وليّ من الصالحين . . .
- إليك قصّة رويت عن لسانه، قال: «أعطاني
- شيخني بعض وُريقات بقصد أن أرميها في النهر فلم
- يطاوعني قلبي على هذا العمل ووضعتها في بيتي
- وذهبت إليه وقلت له قد أدّيت أمرك فسألني وماذا
- رأيت فقلت لم أر شيئًا فقال لم تعمل بأمر . . . ارجع
- فارمها في النهر فرجعت متشككًا في العلامة التي وعدني
- بها، ورميتها في النهر فانشقّ الماء وظهر صندوق وفتح
- غطاؤه حتّى سقطت الوريقات فيه ففعل الصندوق
- والتقت المياه فرجعت إليه وأخبرته بما حصل فقال لي
- الآن رميتها فسألته أن يبيّن لي سرّ ذلك فقال قد كتبت
- كتابًا في التصوّف لا يمكن أن يناله إلاّ الكمّل فطلبه
- منّي أخي الخضّر وقد أمر الله المياه أن تأتيه به . . .
- فذهل علاء الدين ولاذ بالصمت، فمضيا معًا على
- مهل والشيخ يقول:
- ومن أقواله المأثورة «فساد العلماء من الغفلة،
- وفساد الأمراء من الظلم، وفساد الفقراء من
- النفاق» . . .

فتمتم علاء الدين منتشيًا:

- ما أعذب حديثه! . . .
- فقال بصوت ارتفع درجة في هدأة الليل:
- فلا تكن من قرناء الشياطين . . .
- فتساءل مدفوعًا بشوق ساخن:
- من هم قرناء الشياطين؟
- فأجابته الشيخ:
- أمير بلا علم، وعالم بلا عفة، وفقير بلا توكل،
- وفساد العالم في فسادهم . . .
- فقال علاء الدين بحماس:

وجاء لزيارته بقلب ثقيل بالحزن له... ولكنّه ما  
كاد يراه مقبلاً مشرقاً حتّى نسي حزنه وأدرك أنّه حقّاً لا  
يخشى إلاّ الله... تربّع الرجل على شلته في الصدر  
وسأله:

- ما شعورك وأنت تزورني لأوّل مرّة؟  
فقال علاء الدين صادقاً:  
- أشعر كما لو كنت أعرفك منذ ولدت...  
فقال باسماً:  
- لكلّ منّا أب آخر والسعيد منّا من يكتشفه...  
- وحديثك في ليلة المولد أسرّ قلبي...  
- نحن نشدّ إلى الطريق الأكفأ الضالّين، ماذا قال  
أبوك؟

اضطرب علاء الدين وقال:  
- إنّه يريدني على أن أكّرس قلبي لعملي...  
فقال جاداً:  
- إنّه نائم ويأبى أن يصحو، ولكن كيف تقيّم  
نفسك يا علاء الدين؟  
لم يدر بماذا يجيب فسأله متبسّطاً:  
- أيّ مُسلم أنت؟  
- إني مسلم صادق...  
فتساءل:

- هل تصلي؟  
- الحمد لله...  
- أرى أنّك لم تُصل قط...  
فنظر إليه بدهشة فقال الشيخ:  
- الصلاة عندنا تؤدّى بعمق فلا يشعر صاحبها  
بمسّ النار إذا أحرقتة!

فصمت علاء الدين مغلوباً على أمره فقال الشيخ:  
- فعليك أن تقبل الإسلام من جديد لتصير مؤمناً  
حقّاً، وعندما يتمّ لك الإيمان تبدأ الطريق من أوّله إذا  
شئت...

ظلّ علاء الدين صامتاً فقال الشيخ:  
- لا أهون من مشقّة الطريق بمسول الكلام فنور  
الخلاص ثمرة مضمون بها على غير أهلها، والله يتقبّل  
منك ما دون ذلك، ولكلّ على قدر همته...  
وخيم الصمت حتّى شقّه علاء الدين متسائلاً:

- رجال عظام، واحد فقط انقبض قلبي لمراه هو  
حبّظلم بظاظة ابن درويش عمران، خيّل إليّ أنّ به  
شبهاً بالشیطان!

- هل رأيت الشيطان؟  
- لا تسخر منّي، ما هو إلاّ شعور...  
تتهدّ فاضل صنعان قائلاً عادئاً نفسه:  
- الأوغادا!  
- كيف أسأت الظنّ بهم؟  
- لا دخان بلا نار!  
فتفكّر قليلاً ثمّ قال:  
- الله موجود...  
فهتف فاضل:  
- لكننا ضمن أدواته التي يصنع بها الخير أو يحقّ  
الشر!

فنظر إليه في عينيه متسائلاً:  
- ماذا تريد يا فاضل؟  
فقال بغموض:  
- أطمع أن أجعلك صديقاً وزميلًا!

- ٩ -

جلس في حجرة الاستقبال البسيطة بدار البلخي  
ينتظر دخوله... إنّها أوّل زيارة يقوم بها في أوّل  
الليل... وكان سمع أباه عجر يروي حكاية عن  
الشيخ أكرته وأحزته... قال إنّ درويش عمران كبير  
الشرطة خطب الابنة الوحيدة للشيخ لابنه حبّظلم  
بظاظة... إنّها ابنة تقيّة نقيّة أخذت العهد عن أبيها،  
وفاتمة الجمال... وتذكّر صورة حبّظلم بظاظة  
الشيطنية وما يقال عن سيرته فاستاء وتضاعف  
حزنه... ومضى أبوه في روايته فقال إنّ الشيخ شكر  
واعتر، ولكن لا شك أنّ كبير الشرطة قد غضب،  
وإذا غضب كبير الشرطة فلا أمان للمغضوب  
عليه... وقد سأل أباه:

- ألا يدرك الشيخ البلخي هذه الحقيقة؟  
فاجاب عجر:  
- معروف عن الشيخ أنّه لا يخشى إلاّ الله، ولكن  
هل يخشى كبير الشرطة الله؟!

## ليالي الف ليلة ٤٤٧

فيخَلِّصون أنفسهم وأما أهل الجهاد فيخَلِّصون  
العباد...  
وغرق علاء الدين في تفكير عميق نسي به  
الوقت...

- ١١ -

كان درويش عمران كبير الشرطة وابنه حيزلم  
بظاظا يمضيان على بغلتين من مقر الشرطة إلى دارهما  
والشمس تؤذن بالمغيب... وعند منعطف ميدان  
الرمية طالعها فجأة المجنون فاعترض سبيلها صائحًا  
في وجه درويش عمران:

- زُر صاحبك المعين بن ساوي وبلغه السلام!  
وذهب الرجل إلى حال سبيله فتساءل حيزلم:  
- ماذا يريد المجنون؟  
فقال كبير الشرطة:

- لا يحاسب مجنون على قول أو فعل...  
لكنه أدرك أنه يذكره بمصير كبير الشرطة وأنه يشير  
إلى انحرافاته... ابنه أيضًا أدرك ذلك رغم تساؤله  
خاصة وأنه يقوم بالوساطة عادة بين التجار وأبيه...  
وقال حائقًا:

- للمجانين مكان لا يرحونه...

فقال درويش عمران:

- إنه يحظى بعطف مولانا السلطان...

فقال حيزلم بازدراء:

- إنه يخافه في ما أرى...

- احذر لسانك يا حيزلم!

فهتف الشاب:

- أي هوانٍ يا أبي، ألم يكفينا أن الشيخ المنحرف  
رفض يدي!

فقطب درويش عمران دون أن ينبس...

- ١٢ -

ومن كان سروره بغير الحق فسورره يورث الموم،  
ومن لم يكن أنسه في خدمة ربه فأنسه يورث  
الوحشة...  
بين دروس الدين يلقيها الشيخ على علاء الدين

- أيقضي ذلك أن اتحل عن عملي؟  
فأجاب بقوة:  
- لكل شيخ طريقة، أما أنا فلا أقبل إلا  
العاملين...  
فقال علاء الدين:

- سوف أجيء بقلبي وقدمي...

فقال:

- لا تحي إلا إذا دفعتك رغبة لا تقاوم!

- ١٠ -

أقبل على فاضل صنعان في ملتقى السبيل شخصًا  
جديدًا... توجس فاضل ريبة فهمس بنقاد صير:

- حتى متى تتركني في مقام الأمل؟

فقال علاء الدين:

- إنني في مقام الحيرة...

- اهتديت إلى دار الشيخ؟

- أجل، كيف عرفت ذلك؟

- أعرف أثره...

ثم مستدركًا:

- وقد طفت به طويلاً!

- أنت!

- نعم...

- إنه شيخ طاهر...

فحنى رأسه مسلمًا وهو يقول:

- هو ذلك وأكثر...

- لعل الصبر خانك فانقطعت؟

- تلقيت على يديه تربية لا تزول آثارها ولكني

أثرت البقاء على الفناء...

- لا أفهم يا صديقي...

- اصبر، الفهم لا يتيسر إلا مع الزمن، أود أن

أراك من جنود الله لا من دراويشه!

- حقًا إنني لفي حيرة...

فقال فاضل:

- المنطلق من الإيمان دائمًا وأبدًا، الطريق واحد في

الأول ثم ينقسم بلا مفر إلى اتجاهاين... أحدهما يؤدي

إلى الحب والفناء، والآخر إلى الجهاد، أما أهل الفناء

واصل الشيخ بعد ذلك درسه . . .

- ١٣ -

وذات ليلة استقبله الشيخ في الحجرة نفسها ولكنه رأى ستارة مسدولة في ركنها الأيمن فغزته خواطر الشباب . . . وقال الشيخ:

- اسمع يا علاء الدين . . .

تحركت أوتار عود من وراء الستار وأنشد صوت عذب:

ليلي بوجهك مشرق

وظلامه في الناس ساري

والناس في سدف الظلا

م ونحن في ضوء النهار

سكن الصوت ولكن صداه واصل نفاذه إلى

الأعماق . . . قال الشيخ:

- هذه زبيدة ابنتي وإنما لمريدة صادقة . . .

غمغم علاء الدين متشياً:

- أنعم وأكرم . . .

- لقد رفضت أن أعطيها لابن كبير الشرطة . . .

ثم مواصلاً بعد صمت:

- ولكني وهبتها لك يا علاء الدين . . .

فقال بنبرة مرتعشة من التأثر:

- ما أنا إلا حلاق متجول . . .

فأنشد الشيخ:

زائر نم عليه حسنه

كيف يخفي الليل بدرًا طلعا

ثم قال:

- من ذل في نفسه رفع الله قدره، ومن عز في نفسه

أذله الله في عين عباده . . .

- ١٤ -

عقد لعلاء الدين على زبيدة . . . انتقل الفتي إلى

دار الشيخ الكبير . . . شهد الوليمة البسيطة عجر

وقتوحة وفاضل صنعان والمعلم سحلول وعبد القادر

المهيني . . . ووفد المجنون بلا دعوة فجلس إلى يمين

العريس . . . وعقب الوليمة مضى عجر إلى داره

تفيض كأسه بنثار الكلم المضيئة كأنما يناجي بها ذاته  
ولكن الفتي يتلقاها مبهوراً . . .

- كل من عليها فإن إلا وجهه، ومن يفرح بالفاني

فسوف يتتابه الحزن عندما يزول عنه ما يفرحه، كل

شيء عبث سوى عبادته، الحزن والوحشة في العالم كله

ناجم عن النظر إلى كل ما سوى الله . . .

وتذكر علاء الدين أحلامه وأحاديثه وأفعاله فتبدت

له الدنيا غشاء من الألغاز، وتذكر أباه وأمه فهيمن

عليه الأسى . . .

- من رُزق ثلاثة أشياء مع ثلاثة أشياء فقد نجا من

الآفات، يظن خال على قلب قانع، وفقر دائم مع

زهد حاضر، وصبر كامل مع ذكر دائم . . .

وقال علاء الدين لنفسه إننا نصلي للرحمن الرحيم

باسم الرحمن الرحيم . . . وإذا بالشيخ يسأله:

- فيم تفكر يا بني؟

فخرج من غفوته مورّد الخدين وقال:

- لن يخرجني من حيرتي إلا لطف الرحمن . . .

- عليك قبل أن تتلقى الخمر أن تطهر الوعاء

وتنقيه من الشوائب . . .

فقال برجاء:

- نعم المرشد أنت . . .

- ولكن «الآخر» يقحم نفسه علينا وهو غائب!

فأدرك أنه يشير إلى فاضل صنعان فتساءل:

- كيف تراه يا مولاي؟

- شاب نبيل عرف ما يناسبه وقنع به . . .

- أهو على ضلال؟

- إنه يجاهد الضلال على قدر همته!

فقال علاء الدين بسرور:

- الآن اطمأن قلبي . . .

- ولكن عليك أن تعرف نفسك . . .

- إنه فقير ولكنه غني بحمل هموم البشر . . .

- مذهب للسيف ومذهب للحب . . .

فصمت علاء الدين فقال الشيخ:

- طوبى لمن تم له تحويل القلب من الأشياء إلى رب

الأشياء، ليس يخاطر الكون ببالي، وكيف يخاطر الكون

ببالي من عرف الكون؟

## ليالي الف ليلة ٤٤٩

بسرعة مذهلة فحوكم علاء الدين وقُضي عليه  
بالنطع ...

- ١٧ -

وفي صباح يوم بارد من أيام الحريف سبق علاء  
الدين إلى النطع في حراسة مشددة، وسط جمهور غفير  
من أهل الحَيِّ جمع بين الرسميين والكادحين... لم  
يصدق علاء الدين ما يحدث... وكان يصيح:

- إني بريء والله شهيد...

زاغ بصره بين الوجوه المحملقة، المشفقة والشامته،  
ورفع وجهه إلى السماء المتوارية وراء السحب مسلماً  
أمره إلى خالقه... تناهى إليه صراخ أمه وزوجته  
فارتجف قلبه... تذكّر رغم ذوله أنه كان يأمل أن  
يخرج من حيرته إلى سيف الجهاد أو الحب الإلهي، ولم  
يخطر بباله أبداً سيف الجلاد... وتطلع كثيرون إلى  
معجزة تقع في اللحظة الأخيرة كما حدث لعمر وغيره  
ولكنّ السيف ارتفع أمام أعينهم في جوقاتهم ثم هوى  
مبدداً الآمال فانفصل الرأس النحيل الجميل عن  
الجسد...

- ١٨ -

في دار الشيخ تأوه عجز هاتفاً:

- ابني بريء...

- ولولت زبيدة:

- بريء طاهر وحسي الله...

وتربّع الشيخ صامتاً وهادئاً... لم يفعل شيئاً وحتى  
الجزن لم يعلنه... وقالت له ابنته:

- إني معدّبة يا أبي...

- وقال له عجز بعنف:

- لم تحرك ساكناً كأن الأمر لا يعينك...

- نظر إلى ابنته دون مبالاة بعجز وقال:

- الصبر يا زبيدة...

- ثم استطرد بعد صمت:

- إليك حكاية شيخ جليل قال: «سقطت في حفرة  
وبعد مضيّ ثلاثة أيام مرّت عليّ قافلة من المسافرين  
فقلت أناديهم، ثم انثيت عن عزمي قائلاً لا، إنه

بصحبة نفر من خاصته فدارت أرتال النيد، وراح  
يرقص ويغني حتى مطلع الفجر...

- ١٥ -

ولم تمض على ليلة الزفاف أيام حتى تكدر صفو  
الحَيِّ بأحداث أليمة، فزحف عليه وباء الشرّ بوجهه  
الكالح... فقدت جوهره نادرة من دار الإمارة،  
جزعت لفقدتها حرم الحاكم الفضل بن خاقان، وتذكّر  
بها الحاكم أحداث الفوضى التي تتاب الحَيِّ بين الحين  
والحين من اغتبيالات وسرقات تنكشف عن أبشع  
المؤامرات وتنتهي بقتل الحاكم أو عزله... وصبّ  
الرجل غضبه على درويش عمران كبير الشرطة ولكنّ  
الرجل نفى عن جهازه الغفلة ووعد بالقبض على  
الفاعل والثور على الجوهرة...

وأطلق كبير الشرطة مخبريه في كلّ مكان من  
الحَيِّ... وبناء على ما تلقى من معلومات اقتحم دار  
الشيخ عبد الله البلخي غير مبالٍ بتذمر الأهالي،  
وفتّشها فتتيسراً دقيقاً، وإذا به يعثر على الجوهرة في  
صوان علاء الدين، كما عثر به على رسائل تقطع  
بتعاونه مع الخوارج، هكذا قبض على علاء الدين  
وألقي به في السجن فتقرّرت محاكمته بصفة  
عاجلة...

- ١٦ -

في تلك الأثناء شاع الحزن في قلوب الناس... لم  
يجرق الحزن زبيدة وحدها، ولا فتوحة وعجر وحدهما،  
ولكنّ القلوب تألّت لمصير الفتى الجميل، وأصرّت على  
تربيته ممّا رُمي به، وأشارت إلى كبير الشرطة وابنه  
حبظلم بظاظة باعتبارهما المدبّرين للجريمة... وزاد  
من شكّ الناس ظهور نعمة مفاجئة على المعين بن  
ساوي فأمنوا بأنّ المدبّرين استعانوا بخبرته السابقة  
كرئيس للشرطة في تنفيذ ما بيّنا... والتمس عجز  
الرافة عند الفضل بن خاقان وهيكل الزعفراني ولكنّه  
وجد منها الزجر والرفض... وحثّ الشيخ عبد الله  
البلخي على السعي مستعيناً بمهافته ولكن لم تند عن  
الشيخ كلمة أو حركة... وتلاحقت الإجراءات

- أيها الغريباء إنكم بحضرة مولانا السلطان شهريار فأدوا له تحية الملك واحمدوا الله على حظكم السعيد...

عقدت الدهشة السنة الرجال الثلاثة... أي سلطان؟، وأي شهريار؟، وتجمدوا في ذهولهم فلم تند عنهم حركة... عند ذلك صاح صاحب الصوت الثاني:

- التحية يا غريباء...

أفاق شهريار من ذهوله... صم على خوض التجربة حتى نهايتها... سرعان ما انحى أمام السلطان المزعوم فتبعه في الحال دندنان وشيب رامة... قال:

- نضر الله وجه أمير المؤمنين وأطال عمره وأدام عهده...

تبعوه ضمن الحاشية حتى جلس على عرش تحت مظلة في أعلى السفينة فأخذوا مجالسهم فوق وسائل مطروحة على فسحة منبسطة فيما أمام العرش... وأقلعت السفينة في جواربي تحت بساط النجوم الساهرة...

- ٣ -

رست السفينة إلى شاطئ جزيرة... استقبلها الحرس بالمشاعل... همس شهريار الحقيقي في أذن دندنان:

- إننا لمملكة جديدة ونحن نيام!

- لعلّ الحشيش يا مولاي؟

- ولكن ممّ ينفقون على هذه المظاهر الباذخة؟

فقال الوزير بقلق:

- عمّا قليل تنطق الحقيقة بلسانها الخفي...

دخلوا سرادقًا مثيرًا فوجدوا سماطًا حافلًا بالأطعمة والأشربة في انتظارهم... تحلّقه جمع غفير من رجال المملكة فأصابوا من الطعام حتى شبعوا، ومن الشراب حتى توهجت أرواحهم بالنشوة والبهجة... وأنشدت جارية من وراء ستار:

لسان الهوى في مهجتي لك ناطق

بجسر عني أنني لك عاشق

ليس من الصالح أن أطلب المساعدة إلا من الله تعالى، ولما اقتربوا من الحفرة وجدوها في وسط الطريق فقالوا لنسّد هذه الحفرة حتى لا يقع فيها أحد، فقلقت قلبي شديدًا حتى فقدت كلّ رجاء، فبعد أن سدّوها وسافروا دعوت الله تعالى وسلّمت نفسي للموت وتركت كلّ رجاء في بني الإنسان فلما جنّ الليل سمعت حركة على ظاهر الحفرة فأنصت لها فانفتح فم الحفرة ورأيت حيوانًا كبيرًا كالتنين أرسل إليّ بذيله فعلمت أنّ الله قد أرسله لتجاتي فأمسكت بذيله وسحبني فناداني صوت من السماء: إنا قد نجيناك من الموت بالموت...

## السُّلْطَانُ

- ١ -

مضى الرجال الثلاثة يخوضون الظلماء في ثياب تجار غرباء، شهريار ودندنان وشيب رامة... اقتربت منهم أشباح ثلاثة ولما حاذتهم سالمهم أحدهم:

- ماذا تفعلون في هذه الساعة من الليل؟

فأجاب شهريار:

- تجار غرباء يتداونون من الضجر بأنسام

الربيع...

فقال صاحب الصوت:

- أنتم ضيوفي يا غرباء...

فدعوا له بالبركات ومضوا جماعة واحدة وشهريار

يتساءل:

- ترى من يكون مضيفنا الكريم؟

فقال صاحب الصوت:

- صبرًا يا سادة يا كرام!

- ٢ -

ساروا حتى شاطئ النهر... اتجهوا نحو سفينة تنتظر تشعّ منها أضواء المصابيح كالكواكب... تساءل شهريار:

- نحن مرتبطون بالسوق فهل ترومون سفرًا؟

فأجاب صوت آخر:

## ليالي الف ليلة ٥١

وحشية غادرة...  
 - ما التهمة التي ضربت عنقه من أجلها؟  
 - التآمر ضدَّ السلطان وسرقة جوهرة الست قمر الزمان زوجة الحاكم الفضل بن خاقان...  
 - من المدير للمؤامرة في رأيك؟  
 - حيزلم بظاظة وأبوه كبير الشرطة درويش عمران وقد استعانا بالعين بن ساوي المنبوذ لانحرافاته فتجع في سرقة الجوهرة كما نجح في دسها في صوان علاء الدين مع رسائل مزورة تنطق بخيانتة لمولانا السلطان...  
 - وما الدافع وراء المؤامرة؟  
 - الانتقام من علاء الدين لأنه تزوج زبيدة كريمة ولي الله البلخي الذي رفض أن يزوجه من حيزلم بظاظة لسوء خلقه وخلقه...  
 - هل لديك دليل على ما تقول؟  
 - براءة علاء الدين فوق أي دليل، سل عنك أهل الحي جميعًا، والمؤامرة حقيقية يؤمن بها الجميع، ولو كان عندي دليل واضح لأنقذت عنك البريء الطاهر، ولكنني أضع أمني في عدل السلطان وتأثيره الذي لا يقاوم...  
 وفي الحال نحى السلطان عجر الحلاق واستدعى حاكم الحي الفضل بن خاقان فمثل الرجل بين يديه تنطق قسماً وجهه بالرهبة والانكسار... قال له السلطان:  
 - أيها الحاكم، لا شك عندي أنك من الصالحين، لقد اخترتك بعد تربية وتجربة، استحلفك بالله العظيم أن تفضي إلي بسر هذه القضية فلا شك عندي أنك عليها مطلع...  
 بسط الحاكم راحته مغممًا:  
 - اللهم فاشهد...  
 ثم قال مخاطبًا مولاه:  
 - عقب مصرع علاء الدين ثما إلي ما يتهامس به الناس من براءته وإجرام الآخرين فانزعجت انزعاج رجل نشأ متشبعًا بمبادئ الدين الخفيف، وبثت عيوني بين الرجال والأحياء فظفروا بالحقيقة من قم المعين بن ساوي وهو سكران، فما كان مني إلا أن هممت

فهمس شهريار في أذن دندان:  
 - يا لها من مادية ملكية وما نحن إلا رعية...  
 وعند لحظة معينة صاح السلطان الآخر:  
 - أن لنا أن نعقد المحكمة الإلهية...  
 فسأل دندان مولاه:  
 - ألا نستأذن في الانصراف حتى نرسل الجند لمحاصرتهم قبل أن يتفرقوا؟  
 فقال شهريار:  
 - بل نبقى لأشهد بعيني ما يجري مما لم يجري لي في خاطر...  
 وسرعان ما رفع قوم السباط... وجيء بمنصة محكمة فثُصبت في صدر السراق... جلس عليها السلطان الآخر، وقف إلى يمينه وزيره، وإلى يساره السياف... وانبعث في الأركان الحراس شاهري السيوف... وجلس شهريار الحقيقي وتابعه ضمن قلة من الصفوة أذن لها بمتابعة محكمة العدل الإلهية...  
 - ٤ -

قال السلطان الآخر من فوق المنصة مخاطبًا الصفوة الحاضرة:  
 - أحمد الله الذي يسر لي التوبة بعد انغماسي في سفك الدماء البريئة ونهب أموال المسلمين، إنه سبحانه واسع الرحمة والغفرة.  
 فامتقع وجه شهريار الحقيقي ولكن لم تند عنه حركة واحدة... وواصل السلطان الآخر حديثه قائلاً:  
 - هذه المحكمة تنعقد للتحقيق في شكوى مرفوعة من رجل بسيط، لو صح ما جاء بها لكشف عن جريمة بشعة، اغتيلت فيها البراءة لحساب الخسة والدناءة والظلم، والله المستعان أولاً وأخيراً، فليدخل صاحب الشكوى عجر الحلاق.  
 ودخل الرجل فوقف أمام المنصة في حذر وخشوع فقال له السلطان:  
 - ما شكواك يا عجر؟  
 فقال الرجل بصوت متهلج:  
 - ابني الوحيد علاء الدين راح ضحية مؤامرة

- عبدك إبراهيم السقاء...  
- ما معنى هذه المهزلة؟  
فقال الرجل وهو ينتفض من الرعب:  
- عفواً يا مولاي... ائذن لي برواية حكايتي  
واغفر لي حماقتي...

- ٦ -

قصّ إبراهيم السقاء قصّته على السلطان بمجلسه  
الصفيفي بالفصر... قال:  
- منذ صباي يا مولاي وأنا من المتوكّلين على الله،  
أكدح من الفجر حتّى المغيب، رزقي محدود وقلبي  
قنوع وسلوتي في الجوزة... ويسّر الله لي نعمة كبيرة  
فتزوّجت من أرملة جمصة البلطي ولم أكن أحلم بأكل  
اللحمة إلّا في عيد الأضحى... ولما قُتل ابن صديقي  
عجر الحلاق انقلبت موازيني، وسمعت ما يتهمس به  
الناس فهيمن عليّ حزن لم أعرفه من قبل وقلت إنّنا  
نحن الفقراء ليس لنا إلّا الله... وكان القدر يجتبي لي  
مفاجأة لا تحظر بالبال فعثرت على كتز خارج البوّابة  
وصرت من أغني الأغنياء... فكُرت - وهو المألوف -  
أن أستأثر بالمال وحدي، ولكنّ حبي للفقراء دفعني إلى  
سبيل آخر فصمّمت على إنشاء مملكة وهمية نعيم فيها  
جميعاً يداً واحدة...

تبسّم شهريار وقال مقاطعاً:  
- الحشيش استهلك عقلك...

- لا أنكر ذلك، فالفكرة لا تحظر إلّا ببال  
حشاش، وتحمّس الصعاليك لها أيّما تحمّس... وقع  
اختيارنا على تلك الجزيرة المهجورة، توجّجت نفسي  
سلطاناً واخترت من الحفاة الجياح الوزراء والقادة  
ورجال المملكة، ولم نكن نتلاقى لتمثيل لعبتنا إلّا في  
الليل فنقلب من صعاليك متشرّدين إلى رجال مملكة  
عظام، نأكل ما نشتهي ونشرب ما نحبّ، وتبادل  
الأحاديث في شؤون المملكة كلّ بحسب موقعه  
ودرجته... ولما كانت المؤامرة التي أهلكت علاء  
الدين تلحّ علينا فنعقد كلّ ليلة محكمة يأخذ فيها  
العدل مجراه بعد أن عزّ عليه ذلك في الدنيا...  
فتساءل السلطان ساخراً:

بالإيقاع بالمجرمين، غير أنّي...  
صمت الحاكم ملياً ثمّ قال بذلّ:  
- غير أنّي ضعفت يا مولاي، فأنا الذي حاكم  
علاء الدين وقضى بضرب عنقه، خفت عواقب  
الكشف عن الحقيقة وإعلانها فمَن قُتل نفساً فقد قُتل  
الناس جميعاً...

فقال السلطان:

- وخفت العواقب على سمعتك ومركزك  
كحاكم...!  
فنگس الرجل رأسه ولاذ بالصمت... فسأله  
السلطان:

- هل علم كاتم بركّ بالحقيقة؟  
فقال الرجل بأسي:  
- نعم يا مولاي...  
قال السلطان مخاطباً الجميع:

- لله حكمته في خلقه أمّا نحن فلنا الشريعة...  
لذلك قضينا بضرب أعناق المعين بن ساوي ودرويش  
عمران وحظلم بظاظة، كما قضينا بعزل الفضل بن  
خاقان وهيكّل الزعفراني مع مصادرة أملاكها...!

- ٥ -

وجيء بالنطع والمجرمين فتحركّ السيّاف... عند  
ذلك لم يتمالك شهريار الحقيقي من أن يقف قائلاً  
بصوت جهوري:

- كمّوا عن هذه المهزلة!

توتّب الحراس، وهتف السلطان من فوق المنصة:  
- من أذن لك بالكلام أيّها الغريب المجنون؟  
فنهز السلطان قائلاً بحزم:

- أفتق من جنونك أنت، إنك تخاطب السلطان  
شهريار...

ألجمت المفاجأة الأليسة، وقف إلى جانبي السلطان  
دندان وشيبب رامة شاهري سيفيها... أمّا السلطان  
فأخرج من جيبه خاتم الملك ولوّح به في وجه  
الأخر... أفاق السلطان الزائف من ذهوله فوثب من  
فوق المنصة، ثمّ سجد بين يدي السلطان، وقال بنبرة  
مرتعشة:



ليالي الف ليلة ٤٥٣

- دعنا من الحكام حتى يفسدهم الحكم، وانظر إلى ذلك الفتى الهام فاضل صنعان!  
فقال سخربوط ساخطًا:

- إنه مثال حيّ للعمل المفسد لنوايانا وخططنا...  
- يا له من هدف جدير حقًا بمهارتنا وجيئتنا...  
فتسرّب المرح إلى صوته وهو يقول:  
- إنك كنز لا يفنى يا زرمباحة...  
- فلنشكر معًا في لعبة طريقة جديرة بنا... -

- ٢ -

وكان فاضل صنعان يخلد إلى الراحة فوق سلم السيل في أعقاب نهار حارّ من فصل الصيف... إنه يفتقد دائمًا علاء الدين ويتسرّح عليه من قلب مكلوم... ويتساءل في غضب متى يجيء الفرج؟... وانتبه إلى رجل مشرق الصورة بسام الثغر يقبل نحوه فيجلس إلى جانبه... تبادلًا تحيةً ولكن الرجل أولاه اهتمامًا كأنما جاء من أجله... انتظر فاضل أن يفصح الرجل المشرق عن خواتمه ولمّا لم يفعل قال:  
- لست من حينًا فيها أعتقد؟

فقال الرجل بمودة:

- صدقت فراستك ولكنني اخترتك... -

فحدجه بحذر تلقته من مطاردة المخبرين وسأله:  
- من أنت؟

- لا أهميّة لذلك، المهمّ حقًا أنني من رجال الأقدار، ومعك لك هديّة... -

فقطّب فاضل في حذر أشدّ وهو يتساءل:

- من مرسلك؟... أفصح فأنتي لا أحبّ الألغاز!  
فقال بأسًا:

- وإني مثلك تمامًا، إليك الهدية فقيها الغناء عمّا عداها... -

أخرج من جيب جليابه طاقية مزخرفة بتهاويل ملوّنة لم ير مثلها من قبل، وأحكم لبسها على رأسه فسرعان ما اختفى عن الأنظار في غمضة عين... ذهل فاضل وقلقت عيناه فيما حوله بخوف... وتساءل:

- أحلّمًا أرى؟

- وأصعبت الكنز يا حشاش؟

- لم يبق منه إلا القليل ولكننا اشترينا به سعادة لا تقدّر بمال!

- ٧ -

سرّ شهریار بحكاية إبراهيم السقاء سرورًا لا مزيد عليه ولكنّه قال لندنان:  
- وافني بما يُشاع عن مصرع علاء الدين بن عجر الحلاق... -

فقال الوزير:

- ستجد المفتاح يا مولاي عند الفضل بن خاقان فاستدعه ولك عليه التأثير الأكبر... -

فتساءل السلطان:

- أترى أن نسترشد بما فعل السلطان إبراهيم السقاء؟

فقال دندنان:

- الحقّ يا مولاي أنّها كانت محاكمة عجيبة تقطع بأنّ الحشيش لم يستهلك كلّ عقله... -

فقال شهریار:

- لا أخفي عنك أنّي أعجبت بالحكم أيضًا!

هكذا جرت الأمور فوق الظالمون فضربت أعناق المعين بن ساوي ودرويش عمران وحبظلم بظاظة وعزل الفضل بن خاقان وهيكّل الزعفراني وصدورت أملاكها... -

## طاقية الإخفاء

- ١ -

قال سخربوط بفتور:

- عباس الخليجي حاكم الحيّ، سامي شكري كاتم السرّ، خليل فارس كبير الشرطة، لا يتوقّع منهم انحراف قريب... -

فتساءلت زرمباحة بسخرية:

- لماذا؟... -

- جاءوا في إثر نجربة مريّة أطاحت بالمنحرفين... -

- بين هذا وذاك أشياء كثيرة لا تنفع ولا تضرّ وأنت حرّ...  
- لقد عشت حياة كريمة...  
- واصبأها كما تشاء ولكن بعامتك لا بالطاقيّة، ثمّ ماذا جنيت منها؟... الفقر والسجن بين الحين والحين...  
- هذا شأني...  
قام الرجل قائلاً:  
- أن لي أن أذهب فيأذا تقول؟...  
وجب قلبه بلهفة... إنها فرصة لا تلوح مرّتين... لم يستطع رفضها... قال بثقة:  
- هديّة مقبولة ولا خوف عليّ منها...  
- ٣ -

بدءاً من صباح اليوم التالي انطلق فاضل صنعان مثل الهواء يحلّ في أيّ مكان ولا يُرى... هيمنت عليه التجربة السحرية الجديدة... جرّب أن يكون روحاً خفيفة متنقلة فأنساه السرور كلّ شيء حتّى سعيه اليوميّ في سبيل رزقه... شعر بالاختفاء أنّه يعلو ويسود، ويتساوى مع القوى الخفية، وأنه يملك زمام الأمور، وأنّ مجال الفعل يتراعى أمامه بلا حدود... إنها عظمة فريدة يستريح بها من جسمه وأعين الناس وقوانين البشر... وتصور ما كان يمكن أن تيسره لوغد من الأوغاد فشكر الحظّ الذي خصّه بالرعاية... ومن فرط سروره لم يتبه لنفسه إلّا حين حلول المساء... هناك تذكر أنّ أكرمان وأمّ السعد يتظران دراهمه المعدودة لإعداد العشاء وشراء الموادّ اللازمة لصنع الحلوى... جزع وأدرك أنّه لا يستطيع أن يرجع إلى مسكنه بالربع فارغ اليدين... ومرّ بدكان قصاب وكان يحصي ربح يومه على حين تنحّى صبيّه جانباً... قرّر أن يستولي على ثلاثة دراهم هي مقدار ربحه اليوميّ متعهّداً بردها عند المسرة... ولم يجد بدأ من دخول الدكان وأخذ الدراهم... وخرج إلى الطريق متقبض الصدر لتورّطه لأول مرّة في حياته في السرقة... ونظر نحو الدكان فرأى القصاب ينهال بالضرب على الصبيّ ثمّ يطرده متهمّاً إياه بالسرقة!

فسمع صوت الرجل يتساءل ضاحكاً:  
- ألم تسمع عن طاقيّة الإخفاء؟... هذه هي بين يديك...  
ونزع الرجل الطاقيّة فعاد متجسّداً كما كان في مجلسه... تتابعت ضربات قلب فاضل في عنف وانفعال، وسأله بلهفة:  
- من أنت؟  
- الهدية حقيقة ملموسة ولا أهميّة لسؤال بعد ذلك...

- هل تنوي إهداءها لي حقاً؟  
- من أجل هذا قصدتك دون العالمين...  
- ولماذا أنا بالذات؟  
- ولماذا يعثر إبراهيم السقاء على الكنز؟... ولكن لا تبدّد كنزك كما بدّد كنزه!  
قال لنفسه أنّ الدنيا تخلق من جديد، وإنّ العناية تخصّه بهذه الهدية لإنقاذ البشر... وسرعان ما أفعم قلبه بإلهام نبيل... وإذا بالرجل يسأله:  
- فيم تفكّر؟...  
- في أشياء جميلة تسرك...  
فتساءل بحذر:  
- خبّرني عمّا ستفعل بها؟  
فقال بتألّق:  
- سأفعل ما يمليه عليّ ضميري...  
فقال الرجل:  
- افعل أيّ شيء إلّا ما يمليه عليك ضميرك!  
فبردت نظرة عينيه وغشيتها الخيبة والانزعاج وسأله:

- ماذا قلت؟  
- افعل أيّ شيء إلّا ما يمليه عليك ضميرك، هذا هو الشرط، وأنت حرّ فيما تقبل أو ترفض، ولكن احذر الخداع فعنده تفقد الطاقيّة وقد تفقد حياتك أيضاً...

- إذن فأنت تدفعني للشرّ يا هذا!  
- شرطي واضح، لا تفعل ما يمليه عليك ضميرك، ولك ألّا ترتكب شرّاً أيضاً...  
- فيأذا أصنع بها؟

## ليالي الف ليلة ٤٥٥

سرق، وارتكب سخافات لا معنى لها... ساوره قلق وضيق... قال إنه ما كان بوسعه أن يتجاهل فرصة نادرة مثلها... ولم يكن لديه مجال للتأمل ولكن ما جدوى ذلك كله؟... وإذا تعذّر عليه صنع خبير بالطاقة فما عسى أن يفعل بها؟... وكان يستريح على سلّم السبيل بعد الغروب على مبعده يسيرة من بيّاع بطيخ متجوّل فرأى شاوور مقبلاً نحو الرجل لابتياح بطيخة... ارتعدت مفاصله لرؤيته فهو سجان اشتهر بتعذيب إخوانه... رآه يمضي بالبطيخة نحو زقاق قريب حيث يقيم فيها بدا له فتبعه... وكما أمن المارة ليس الطاقة فتلاشى... وكأثما نسي تعهده فاستلّ السكين التي يقطع بها الحلوى... فليجرب على الأقل كيف يحول «الأخر» بينه وبين ما يودّ أن يفعل... لحق بالسجان وهو عنه لا... وجّه إلى عنقه طعنة قاتلة فسقط غارقاً في دمه...

أثمله شعور بالنصر... يستطيع أن يفعل ما يشاء... ولم يبرح المكان ليتابع الحدث... شاهد التجمهر على ضوء المشاعل... جاءت الشرطة... سمع أنّ السجان لفظ اسم بيّاع البطيخ قبل أن يلفظ أنفاسه... رأى الشرطة وهي تقبض على البيّاع البريء... تعجّب فاضل من ذلك وانزعج له... ماذا كان بين السجان والبيّاع مما جعله يوقع به؟... استفحل انزعاجه وقال لنفسه:

- لا مفرّ من إنقاذ الرجل البريء...

عند ذلك رأى صاحب الطاقة أمامه وهو يقول له:

- حذار أن تحون العهد...

فدعر فاضل متسائلاً:

- ألم تركني أقتل المجرم؟

فقال الآخر:

- كلاً... لم تقتل المجرم ولكنك قتلت توأمه وهو

رجل طيب لا غبار عليه!

- ٤ -

بعد العشاء فكّر في التخفيف عن نفسه بزيارة مقهى الأمراء تحت الطاقة... نمة فرص للمداعبات البريئة مع أخذ الحيلة في ألا يتورّط في فعل شائن كما تورّط في دكان القصاب... رأى الوجوه المألوفة لأول مرة دون أن تستطيع رؤيته... جرى بصره بسخرية على حسن العطار وجليل البزاز وعمر الحلاق وشملول الأحذب والمعلم سحلول وإبراهيم السقاء وسليمان الزيني وعبد القادر المهيني ورجب الحمال ومعروف الإسكافي... سمع عجر الحلاق يتساءل:

- ماذا أحرّ فاضل صنعان؟

فأجاب شملول الأحذب بصوته الرفيع ضاحكاً:

- لعلّ مصيبة دهمته!

قرّر أن يعاقب المهزّج... جاء النادل يحمل أقذاح الكركديه، وإذا بالصينية تندلق فوق رأس الأحذب وتغمره بسوائلها... وثب الأحذب صارخاً على حين وقف النادل مبهوثاً... أخفى الرجال ضحكات ساخرة... لطم المعلم صيّه وراح يعتذر للمهزّج السلطان... ومبالغة في الاسترضاء جاء المعلم بنفسه بالكركديه وإذا به ينصبّ فوق رأس سليمان الزيني!... انتشر الدهول والسرور الخفي، وأكثر من صوت صاح:

- إنه الحشيش والمنزول...

وأقلت الزمام من عجر فتناسى أحزانه وضحك ولكنّه لم يهنا بضحكه فتلقّى على قفاه صفة مدوية... التفت مغضباً فرأى وراءه معروف الإسكافي فضربه بقبضته في وجهه وسرعان ما اشتبكا في معركة... وساد الظلام إثر حجب أصاب الفانوس... وفي الظلام انهالت الصفعات، فثار الغضب والتحموا في صراع في الظلام، وعلا الصراخ حتى تثاروا في الطريق على حال قبيحة من الجنون والخوف...

- ٦ -

من السرقة للسخف ثمّ الجريمة... سقط في الهاوية... وكما ضربت عنق بيّاع البطيخ في اليوم التالي هيمن عليه ياس مطلق... هام في الطرقات

- ٥ -

مارس حياته المألوفة مخفياً الطاقة في جيبه لحين الحاجة إليها... قال إنه لم يجن منها حتى الآن إلا أن

- ٨ -

حافظ على حياته اليومية نهارًا ولم يتخلف عن مقهى  
الأمراء... وردد كثيرًا في نفسه:  
- رجلك الله يا فاضل صنعان... كنت فتى طيبًا  
مثل علاء الدين وأفضل...  
وصادفه المجنون في تجواله فقدّم له بعض الحلوى  
كعادته معه ولكنّ المجنون لم يمدّ يده هذه المرّة ومضى  
لسيله وكأنّه لم يره... ارتعب وحامت حوله المخاوف  
كالذباب... المجنون لم يتغيّر لغير ما سبب... لعلّه  
شعر بالشیطان وراء جلده... غمغم:  
- عليّ أن أخشى المجنون...  
فرأى الآخر صاحب الطاقية يتسم إليه مشجعًا  
ويقول:

- صدقت، وليس هو الوحيد الجدير بالخشية...  
فقطب صنعان وشعر بذلك ثمّ قال بحدة:  
- دعني وشأني...  
فقال بهدوء:  
- اقتل المجنون، لن يشقّ عليك ذلك...  
- لا تقترح عليّ فلا يدخل ذلك في الاتفاق...  
- يجب أن نصير أصدقاء، لذلك أنصحك أيضًا  
بأن تقتل البلخي ذلك الشيخ المخرف...  
- لسنا أصدقاء ولن أفعل شيئًا إلاّ بمحض  
حرّيتي...

- أسلّم بهذا تمامًا، ولن تندم، إنك تتعذب بحكم  
تغيير العادة ولكنك ستبلغ الحكمة الباهرة وتفهم الحياة  
كما ينبغي لك...  
فصاح فاضل:  
- إنك تسخر مني...  
- أبدًا... إني أحرضك على قتل أعدائك قبل أن  
يقتلوك...  
فقال بقرف:  
- دعني وشأني...

- ٩ -

وقعت أحداث مشيرة للشجن... فقد افترس

على وجهه كالمجنون... كرة نفسه لدرجة كرة معا  
الدنيا وأحلامه الخالدة... همس لنفسه:  
- الاعتراف والجزاء الحق، هذا ما بقي لي...  
فرأى أمامه الآخر وهو يقول:  
- حذار!  
فصاح به غاضبًا:  
- عليك اللعنة...  
فتلاشى وهو يقول:  
- أهذا جزاء من سلّمك مفتاح القوة واللذة!  
وتمطى السخط في ذاته مشعشعًا بالمجنون الأحمر  
فراح يسكر مناديا الشياطين من مكانتها... وتذكّر  
خواطر مثقلة بالشهوة كانت تداعبه فيطردها بالإعراض  
والتقوى... تجسّدت في إشعاعات جنونه الأحمر في  
صورتين، قمر أخت حسن العطار، وقوت القلوب  
زوجة سليمان الزيني... قال لنفسه ما دامت الخمر قد  
ألقيت في جوفي فما خوفي من السكر؟... لم يبق لي  
إلا حسن الامثال للعبة... فلأرفع نفسي إلى السماء  
ولتنطلق الشياطين من قيامها... وليقدم العذاب  
مكثلاً بالضحايا...

- ٧ -

وتساءلت قمر العطار:  
- لماذا فاضل صنعان؟... يا له من حلم!...  
ولكنّها لمست للحلم آثارًا لا تنكر فذهلت وقالت  
كأنه الشيطان. استحوذ عليها الرعب وتخايل لعينيها  
الموت...  
وقالت قوت القلوب:  
- إنه كابوس... ولكن لماذا فاضل صنعان وما  
خطر لي في وجدان قطّ؟...  
ولكن عن الكابوس تولدت آثار حقيقية فانفجر  
فيها الفزع... واكتشف سليمان الزيني سرقة  
نقره... وجاء خليل فارس كبير الشرطة...  
وكتمت قوت القلوب خبر الكابوس... وأطبقت  
عليها فكرة الموت...

## ليالي الف ليلة ٤٥٧

- لا علم لي بذلك!
- فقال كبير الشرطة بحزم:
- سألقي القبض عليه في الحال وأجري معه تحقيقًا دقيقًا...
- فقام عبد القادر قائلًا:
- لعلك تجري تحقيقك في كتمان رحمة بسمعة المرأتين...
- فقال خليل فارس دون مبالاة:
- كشف الحقيقة هو ما يهمني في المقام الأول!

- ١٠ -

- ألقي القبض على فاضل صنعان وسيق من فوره إلى السجن. اهتم حاكم الحّي عباس الخليجي بالقضية واستدعى للقائه حسن العطار وسليمان الزيني وباغتهما بالسّر الذي أشفق الطبيب من قذفها به... كأنّ ضربة عنيفة أطاحت برأسيهما وهانّ بالقياس إليهما الموت نفسه... أمر الرجل باستدعاء فاضل صنعان من السجن ليحقق معه بنفسه فجاءه خليل فارس وحده وهو يقول بخزي عظيم:
- هرب المجرم ولا أثر له في السجن!!
- فثار الحاكم ثورة جاثحة وانهال على كبير الشرطة بالتقريع والاتهام فقال الرجل بحيرة بمزّة:
- هروبه لغز لا حلّ له كأنه عمل من أعمال السحر الأسود...
- فصرخ الحاكم:
- بل إنّه فضيحة ستزعزع أركان الثقة...
- وانطلق المخبرون في كلّ مكان كالجراد... وحيء بأكرمان زوجة فاضل وحسنيّة أخته وأمّ السعد والدته ولكنّ التحقيق معهنّ لم يسفر عن شيء وقالت أكرمان وهي تبكي:
- زوجي أشرف الرجال ولا أصدّق عنه كلمة سوء واحدة!

- ١١ -

- أدرك فاضل صنعان أنّه أصبح في عداد الأموات... لا حياة له بعد اليوم إلّا تحت الطاقيّة

- مرض غامض في وقت واحد تقريبًا امرأتين جميلتين فاضلتين، قمر العطار، وقوت القلوب امرأة سليمان الزيني... ولم ينفع في إنقاذهما إخلاص عبد القادر المهيني وخبرته... وبموتهما حمل الطبيب هماً خفيًا اختار كيف يتعامى معه... هل يصمت صوتنا لسمعة أصدقائه?... هل يخشى أن يغطي صمته على مجرم وجريمة?... تفكّر الرجل طويلًا ثمّ مضى إلى مقابلة خليل فارس كبير الشرطة... قال له:
- سأطرح عليك همّي لعلّ الله يهدينا إلى سواء السبيل...

- وتنفس الرجل بعمق ثمّ استطرد:
- ليس مرضًا ما أصاب قمر شقيقة حسن العطار وقوت القلوب امرأة سليمان الزيني، فقد تبين لي أنّها تناولتا سمًا قتلها ببطء...
- تمتم كبير الشرطة باهتمام:
- انتحارا!... لماذا?... جريمة قتل كيف?...
- قبيل احتضار كلّ منهما لفظت باسم فاضل صنعان بتقرّز ورعب...
- فهزّ الرجل رأسه باهتمام متصاعد فقال الطبيب:
- خلاصة ما فهمته أنّها حلمتا ذات ليلة بأنّه اعتدى عليهما، ثمّ وضح لهما أنّ ثمة آثارًا تقطع بأنّ الحلم كان حقيقة واقعة...
- هذا مذهل... هل خدّهما؟
- لا أدري...
- أين وقع الحلم؟
- في فراشيهما بدارثيهما...
- هذا مذهل حقًا... وكيف تسلّل إلى الدار?... وكيف خدّهما حتى يقضي وطره?... أله شركاء في الدارين؟
- لا أدري...
- هل فاتحت حسن والزيني في الموضوع؟
- لم أجد الشجاعة الكافية...
- ماذا تعرف عن فاضل صنعان؟
- شابّ لا غبار عليه وهو من خيرة الشبان...
- ثمة شبهة لم يقم دليل عليها بعد أنّه من الخوارج...

- ونحن في حاجة أيضًا إلى إعادة النظر في توزيع الزكاة والصدقات...  
فقال الحاكم:  
- أعتقد أنّ المسألة أخطر مما تفترض، وما رأيك يا شيخ عبد الله؟  
فأجاب الرجل باقتضاب:  
- ينقصنا الإيمان الصادق!  
- ولكنّ الناس مؤمنون...  
فقال بأسى:  
- كلاً... الإيمان الصادق أندر من العنقاء...  
عند ذاك قال المفتي بصوت خشن:  
- ثمة من يمارس علينا السحر الأسود، ولا أتهم إلا الشيعة والخوارج!

- ١٣ -

وسيق إلى السجون جميع من حامت حولهم الشبهات... ضجّت دور كثيرة بالشكوى... ولأول مرة يفیق فاضل صنعان من يأسه... عَجِبَ لنفسه وتساءل أما زال في قلبه متسع للتأمل والندم؟! عاودته ذكريات قديمة كما تهمو نسائم على نار متأججة... ومضى يفكر في توجيه عبثه إلى متجه جديد... غير أنّ صاحب الطاقة تمثّل له بنظرته المحذرة وهو يتساءل:  
- ألم تشف بعد من دائك القديم؟  
فاجتاحه الغيظ ولكنّه كظم نفسه بذلّ وقال:  
- إنّ تهريب هؤلاء سيكون قمة العبث!  
- تذكر اتفاقنا...  
فتساءل بحدة:  
- أيّ خير ثمة وراء تهريب أعداء الدين؟  
- إتهم في رأيك الهداة، وما أنت إلا أحدهم، فلا تحاول العبث بي...  
فقال بتصميم ورجاء:  
- دعني أعمل ما أشاء ثمّ افعل بعد ذلك ما بدا لك!  
وإذا بالطاقة تُنزع من فوق رأسه فيتجسّد في زحمة السابلة بميدان الرماية... فزع من وقع المفاجأة...

كروح ملعونة هائمة في الظلام... روح ملعونة، لا حركة لها إلا في مجال العبث أو الشرّ، محرومة من التوبة أو فعل الخير، صار شيطاناً رجيماً، تأوّه من الحزن فتجسّد أمامه صاحب الطاقة متسائلاً:  
- لعلّك في حاجة إليّ؟  
فحدجه بنظرة مغيظة محنفة فقال له ملاطفاً:  
- لا حدّ لسلطانك ولن يعوزك شيء...  
فهتف:  
- إنّه العدم...  
فقال ساخراً:  
- اشحّني الأفكار القديمة وانتهب إلى حظّك الكبير!  
- الوحدة... الوحدة... والظلام... ضاعت الزوجة والأخت والأّم وضاع الأصحاب...  
فقال يهدوء:  
- أصغِ إلى نصيحة مجرب، بوسعك أن تتسلّى كلّ يوم بحدث يزلزل البشر...

- ١٢ -

واجتاحت الحيّ حوادث غامضة فأنستهم القضية والمجرم الهارب... يُدفع وجيه من فوق بغلته فيقع على الأرض... يصيب حجر رأس سامي شكري كاتم السرّ فيشجّه وهو بين حرّاسه... تختفي جواهر ثمينة من دار الحاكم... تشتعل النار في وكالة الأخشاب... يتشر العبث بالنساء في الأسواق... يركب الرعب الخاصّة والعامة... يندفع فاضل صنعان في طريقه الوعر مخموراً باليأس والجنون... واجتمع الحاكم عبّاس الخليجي بالشيخ عبد الله البلخي والطبيب عبد القادر المهيني والمفتي وقال لهم:  
- إنكم صفوة حيّنا، وأريد أن أسترشد بأرائكم في ما يقع لنا، فما تشخيصكم له وما العلاج الذي تقترحونه؟  
وقال الطبيب:  
- ما هي إلا عصابة من الأشرار تعمل بجصرص ودهاء فنحن في حاجة إلى مزيد من السهر على الأمن...  
وتفكّر قليلاً ثمّ واصل:

ليالي الف ليلة ٤٥٩

توقع مشفقاً أن يبطش به ولكنه تلاشى وكأنا غلب  
على أمره...

- ١٥ -

أثارت محاكمة فاضل صنعان الخواطر كما لم تثرها  
محاكمة من قبل... وانفجرت اعترافاته في المدينة مثل  
إعصار... ولأن الصفوة ما زالت تعتبره أحد أبنائها،  
ولأن العامة اعتبروه أحدهم، فقد تلبلت الأفكار أيما  
تلبيل، وتضاربت العواطف كالدرامات الصاخبة...  
واستقبل ميدان «العقاب» سيلاً لا ينقطع من النساء  
والرجال من كافة الطبقات... واختلطت همسات  
الإشفاق بصرخات الشهامة كما يختلط أنين الرباب  
بعريدة السكرى... وكما تراءى الشاب من بعيد  
استبقت إليه الأبصار... تقدم بين حراسه بخطوات  
ثابتة ووجه هادئ وامثال خاشع. أمام النطح انهمرت  
عليه الذكريات في موجة واحدة متفجرة بالشهب...  
تماوجت وجوه أكرمان والبلخي وجمعة البلطي وعبد  
الله الحمال والمجنون... التحم الحب والمغامرة ودفاتر  
الدعوة وآلاف اللقاءات المذثرة بالظلام في الأقبية  
والخلوات... وتبدت الطاقية وصاحبها كعثة بلا قرار  
يفوح من أعماقها الإغراء محطماً قمقمه عن شهواته  
المكبوتة... ونجلى أخيراً نصره المأساوي جاذباً معه  
شبيب رامة السياف... تلقى ذلك في ثوانٍ بقوة  
خارقة وسرعة مذهلة فرفض الأسى بإباء وواجة مصيره  
ببرود واستعلاء فرأى فيها وراء الموت إشراقه تبهر  
الأعين... ولكنه رأى أيضاً معلماً من معالم الآخرة  
متمثلاً في صورة المعلم سحلول تساجر المزدادات  
والتحف... دهش لمرآه فأفاق من رؤيته وسأله:

- ماذا جاء بك يا معلم؟

فأجاب وهو يتغير من التقيض إلى التقيض:

- جاء بي ما جاء بك...

فهتف بدهشة أكبر:

- أنت ملاك الموت!

ولكنه لم يردّ فقال بشجاعة:

- أريد العدل!

فقال الآخر بهدوء:

وقبل أن يفيق من فزعه أعاد الآخر الطاقية إلى رأسه  
وهو يقول:

- التزم بما تعاهدنا عليه لأعمالك بالمثل...

- ١٤ -

لكنه لم يسعد بالنجاة... شاعت في مذاقه مرارة  
راسخة... تساءل كيف يمكنه أن ينقذ أقرانه  
وأخوانه... اختنق بالقبضة الحديدية التي تطوّفه...  
إنه عبد الطاقية وصاحبها كما إنه أسير الظلام  
والعدم... كلاً إنه لا يسعد بالنجاة ويحجل منها...  
وحقّ اليأس مهما ارتكب من حماقات لم تستطع أن  
تقتلع من قلبه أنغامه القديمة... وحنّ إلى بعث  
فاضل القديم بأيّ ثمن... أجل إن فاضل القديم  
مضى وانقضى ولكن ما زال في الطريق متسع  
لعمل... ومن أعماق الظلمات ومض شعاع...  
انتعشت روحه لأول مرة منذ دهر... وبث حياة في  
إرادته... تفجرت شجاعته في صورة إلهام  
صاعد... ورفعت موجة استهانة وتمهد فوق الحياة  
والموت فتطلع من فوق ذروتها إلى أفق واعد... واعد  
بالموت النبيل... بذلك يستردّ فاضل صنعان ولو جثّة  
هامدة... ولم يتردد فمضى بعزم جديد نحو دار  
الحاكم... ومرّ به المجنون وهو يردد «لا إله إلا الله،  
يُحيي ويميت، وهو حي لا يموت، وهو على كلّ شيء  
قدير»... فتهاوى في النشوة والافتحام... وما ارتعب  
عندما تراءى له «الآخر» فقال له:

- إليك عني...

ونزع الطاقية من فوق رأسه ورمى بها في وجهه

قائلًا:

- افعل ما بدا لك...

قال له:

- سوف يمزقونك ويمتلون بك...

فهتف:

- إني أعرف مصيري خيراً منك...

- سوف تندم حيث لا ينفع ندم...

فصاح:

- إني أقوى منك...

- الله يفعل ما يشاء ...

- كُفْتُ عن هذرك، عليك ...

ولكنه انقطع فجأة عن الكلام... معروف نفسه اجتاحه رعب غريب... شعر بقوة تقتلعه من مجلسه، ومضى يعلو ببطء وثبات حتى وقف جميع الرواد فزعين ذاهلين... وأتمه نحو باب المقهى وخرج منه وهو يصرخ «أغيثوني» ثم ارتفع حتى اختفى في ظلمة ليل الشتاء... تجمهر الرواد في الطريق أمام المقهى، تصايح الناس بالواقعة، انتشر الخبر كأنه أشعة الشمس في نهار الصيف... وإذا به يهبط رويدا حتى يتجلى شبحة في الظلمة ويرجع إلى مجلسه الأول ولكن على حال لا توصف من الإعياء والفرع... وأحلق به الجميع من الخاصة والعامة وانهالت عليه الأسئلة:

- أين وجدت الخاتم؟

- متى وجدته؟

- ماذا أنت فاعل به؟

- صف لنا العفريت.

- متى تحقّق أمانيك؟

وقال له عجز:

- لا تنس أصدقائك...

وصاح به إبراهيم السقاء:

- إخوانك الفقراء...

وقال له رجب الحمال:

- اجعلها كما ينبغي لها أن تكون...

وقال سليمان الزيني:

- لا تنس الله فهو صاحب الملك...

لم يفقه مما قيل شيئا... ولم يدرك كيف وقع ما وقع... أي سرّ امتلكه؟ أي معجزة تحققت على يديه؟ هل يعترف لهم بالحقيقة؟ حذر فطريّ أسكته... إنه يريد أن يخلو إلى نفسه... أن يسترّد أنفاسه، أن يتأمل ويتأمل... ونض من مجلسه دون أن ينس فأكثر من صوت هتف به:

- لا تتركنا حيارى، بل ريقنا بكلمة طيبة...

ولكنه غادر المقهى دون أن يلقي نظرة على أحد...

- ٢ -

مضى نحو داره في مظاهرة من الرجال والنساء اكتظ

## مَعْرُوفُ الْإِسْكَافِيّ

- ١ -

لا يفوق مرحة الظاهر إلا أشجانه الباطنة... رزقه محدود وامراته فردوس العرة نعمة شرسة مليئة بالسقوة والعنف... حياته جحيم بين الكدح والزوجية... لا يمر يوم دون أن تنهال عليه ضربا وسببا وهو يرتعد بين يديها خوفاً ودألاً... يتعمق شجاعة يطلقها بها، يحلم بموتها، يودّ الهرب ولكن كيف وإلى أين... قال إنه أسير كما كان فاضل صنعان أسيرا لشیطان... ولعله لا خلاص له - مثله - إلا بالموت...

وذات ليلة التهم من المنزول فوق طاقته ومضى إلى قهوة الأمراء والدنيا لا تسعه من السلطنة... ونظر في وجوه أصحابه وقال بصوت سمعه جميع الرواد:

- أقول لكم سرا لا يصح أن يخفى عنكم...

همّ عجز الحلاق أن يهزأ به ولكنّه تذكّر حزنه فعدل عنه أما معروف فقال:

- أقول لكم الحقّ أيّ عثرت على خاتم سليمان!

فهتف به شملول الأحذب:

- تأدّب أمام أسياذك يا تيس...

وسأله إبراهيم السقاء:

- ويبدو أنّك انتفعت به، أين القصور، أين الخدم، أين الجاه والسيادة؟!

فقال:

- لولا تقوى الله لفعلت ما لا يخطر ببال بشر...

فقال له رجب الحمال:

- أعطنا آية واحدة لنصدّقك...

- ما أيسر ذلك عليّ!

- عظيم... ارتفع نحو السماء ثم اهبط سالما...

فقال معروف في مناجاة:

- يا خاتم سليمان ارفعني إلى السماء...

عند ذاك صاح به سليمان الزيني:



## ليالي الق ليلة ٤٦١

- ٤ -

طمر خبيته المرة في أعماقه... جعلها سره الدين  
وأقام سداً بينه وبين لسانه... قال ليكن من الأمر ما  
تجزي به مشيئة الله... ولكن أليس عليه أن يذهب  
إلى دكانه ليصلح الأحذية والمراكيب والصنادل؟. وهل  
يهضم الناس سلوكه هو المالك لخاتم سليمان؟. وإن لم  
يفعل فهل يهب ذاته التعمية للموت جوعاً؟. غير أنه  
صادف خليل فارس كبير الشرطة عند باب عطفته  
وكأنما كان في انتظاره... تلقاه بابتسامة متوقّدة غير  
معهودة فأدرك بذكائه أنّ القوم ينظرون إليه باعتباره  
مالك خاتم سليمان... خفق قلبه بأمل جديد وصمّم  
على تمثيل دوره بمهارة تناسبه حتى يقضي الله أمره...  
قال له الرجل برقة:

- صبحك الله بالسعادة يا معروف... -

فقال بتحفظ دهش له هو نفسه:

- وصبحك بمثلها يا كبير الشرطة... -

تكلّم بثقة من يملك القوّة التي لا يطمح إليها  
بشر...

قال الرجل:

- حاكم الحيّ يودّ مقابلتك... -

فقال دون مبالاة:

- على الرحب والسعة، أين؟

- في المكان الذي يروقك!

يا أولاد الخنفساء يا جبناء... قال:

- في داره كما يقضي بذلك الأدب... -

فقال بيقين:

- ستلقى العناية والأمان... -

فقال ضاحكاً في استهانة:

- لا خوف عليّ من أيّ قوّة في الأرض!

فقال خليل فارس وهو يداري امتعاضاً، وربما

خوفه:

- سنكون في انتظارك في الضحى... -

- ٥ -

رأى من اهتمام الناس ما ينذر بتجمهر جديد فرجع

بهم الطريق... تنافسوا في الاقتراب منه فسقط منهم  
قوم وداس بعضهم البعض... وصاح بهم:

- اذهبوا وإلا أرسلتكم إلى الآخرة... -

وفي أقلّ من دقيقة تفرّقوا في فزع واضطراب حتى  
تلاشت أصواتهم فلم يجد أمامه إلا فردوس العرة  
زوجته تنتظره أمام الدار ويدها مصباح وهي تقول:

- يعطي الملك لمن يشاء... -

لأول مرّة منذ دهر تبسم في وجهه فحدجها بنظرة  
غليظة ولطمها لطمه فرقت في سكون الليل وصاح  
بها:

- أنت طالق فاذهبي إلى الجحيم... -

صرخت فردوس:

- تستعبدني بفقرك وتطردي حال إقبال الحظ!

- إن لم تذهبي في الحال حملك العفريت إلى وادي

الجن...

فصرخت المرأة من الفزع وهرولت لا تلوي على  
شيء... ابتسم أيضاً أول ابتسامة صافية منذ دهر  
طويل ودخل مأواه المكوّن من حجرة ودھليز...

- ٣ -

ما معنى ذلك يا معروف؟. أهو حلم أم حقيقة؟.  
هل حلّ بك سرّ حقاً؟. ونظر فيها حوله، في الحجرة  
شبه العارية وتمتم بحذر:

- يا خاتم سليمان ارفعي ذراعاً واحدة فوق

الأرض!!

انتظر في لهفة وإشفاق، ولكن لم يحدث شيء...  
انقبض قلبه وغاص في صدره غريقاً في خيبة مرّة...  
لم أحلّق في الجوّ؟... ألا يشهد على ذلك أهل  
الحيّ؟... ألم تنهزم العرة لأول مرّة؟... وقال من  
قلب جريح:

- يا خاتم سليمان ليتني بصينيّة فريك بالحمام!

لم ير إلا خنفساء تزحف فوق طرف الحصيرة  
المتهرّثة... نظر إلى الخنفساء طويلاً ثمّ أجهد في  
البكاء...

فقال بجرأة:  
 - ما أجدر أن توجّه خطابك لنفسك  
 ولإخوانك...  
 فامتقع وجه الحاكم وهو يقول:  
 - حقًا لقد تولّينا السلطة في أعقاب تجارب مرّة  
 ولكننا ملتزمون بالشرعية منذ وُلينا...  
 فقال بنفس الجرأة:  
 - العبرة بالخواتيم...  
 - لن يُرى منا أحد إلا ما يُبصر ولتكن لنا قدوة في  
 مولانا السلطان شهريار...  
 - غير منكور أنّه فتح صفحة جديدة وإن لم يبلغ  
 الكمال المنشود بعد...  
 - الكمال لله وحده...  
 ونظر الحاكم نحو المفتي فقال المفتي:

- لي كلمة يا معروف، تقبلها من رجل لا يخشى  
 إلا الله وحده، الله يمتحن عباده في السراء والضراء  
 وهو الأقوى دائئًا وأبدًا، وهو سبحانه يحاكم القويّ من  
 خلال قوّته كما يحاكم الضعيف من خلال ضعفه، وقد  
 ملك قبلك آحاد خاتم سليمان فكان ويالاً عليهم  
 فلتكن في امتلاكك له آية للمؤمنين وموعظة  
 للمشركين...  
 ابتسم معروف متفخّحًا بقوّة من ساد الموقف وقال:

- اسمعوا أيّها الرجال الكبار، إنّه لمن يُمنّ الطالع  
 أنّ خاتم سليمان قُدّر أن يكون من نصيب رجل مؤمن  
 يذكر الله بكرة وعشيًا، إنّه قوّة لا قبيل لقوتكم بها  
 ولكني أدخرها للضرورة، كان بوسعي أن أمر الخاتم  
 بتشبيد القصور وتجييش الجيوش والاستيلاء على  
 السلطة ولكنني قرّرت أن أتبع طريقًا آخر...  
 تنفّس الحاضرون بارتياح لأول مرّة فانهاك عليه  
 الثناء من كلّ جانب... عند ذلك قال وقلبه يخفق:

- ولكن لا يجوز أن أهمل نعمة أتاحها الله لي...  
 فتطلّعوا إليه باهتمام فقال:  
 - يلزمني في الحال ألف ألف دينار لأصلح به  
 شأني...  
 فقال الحاكم بارتياح:

- سأراجع حساب ما تحت يديّ من مال، فإن لم

إلى مسكنه الحقير... ورأى عجر الحلاق فأخبره بأنّه  
 أصبح أحدوثة المدينة لا الحيّ وحده... وأنّ معجزته  
 هزّت أركان القصر السلطانيّ... ولما علم بالمقابلة  
 الوشيكة بينه وبين الحاكم قال عجر:  
 - لا تبال بأحد فإنك أقوى رجل في الدنيا،  
 والناس الآن بين اثنين، من يخشى قوتك حرصًا على  
 جبروته ومن يرجوها رحمة بضعفه...  
 فقال مداريًا حزنه الخفيّ بابتسامة:  
 - تذكر يا عجر أنّي من عباد الله المطيعين...  
 فدعا له بالفوز والنجاح...  
 - ٦ -

وجد في انتظاره في بهو الاستقبال عبّاس الخليجي  
 الحاكم وسامي شكري كاتم السرّ وخلييل فارس كبير  
 الشرطة والمفتي ونفرًا من الأعيان... تأملوا رثانة  
 ملابسه بدهشة ولكنّ الحاكم دعاه إلى الجلوس إلى  
 جانبه على سريره مرحّبًا به غاية الترحيب فجلس بثقة،  
 هدفًا للنظرات المستطلعة المحترقة المذعورة... قال  
 الحاكم:

- علمت أنّك ملكت خاتم سليمان؟

فقال بثقة ونبرة لم تخلُ من نذير:

- إنّي على استعداد لإقناع من في قلبه شك...  
 فقال الحاكم:

- بل أردت أن أعرف - في نطاق مسئوليتي - كيف  
 ملكته؟

- لم يُسمح لي بعد بإنشاء السرّ...  
 - كما ترى، إنّ تشريفك داري يقطع بثقتك فيّ  
 وهو ما أحمّد الله عليه...  
 فقال بدهاء:

- الحقّ أنّه لا شأن لذلك بثقتي فيك فلا أنت ولا  
 غيرك بمستطيع أن يمسي بسوء...  
 فأحسّى الحاكم رأسه موافقًا ومداريًا تأثره في آن  
 وقال:

- رأيت وإخواني أنّ من واجبنا أن نتبادل الرأي  
 معك، الله يرفع من يشاء ويخفض من يشاء ولكننا  
 مطالبون بعبادته في جميع الأحوال...  
 - ٦ -

## ليالي الف ليلة ٤٦٣

- شكرًا لرحمتك يا مولاي...  
فقال بعد تفكير:  
- إنّي أعجب لشأنك، فلو شئت الجلوس على  
عرشي ما منعتك قوّة في الأرض!  
فهتف معروف مستنكرًا:  
- معاذ الله يا مولاي، ما أنا إلا عبد مؤمن، لا  
تغريه قوّة بالتعرّض لمشية الله...  
- إنك مؤمن حقًا، والخاتم في يد المؤمن عبادة!  
- الحمد لله ربّ العالمين...  
فسأل السلطان باهتمام:  
- هل حظيت بالسعادة يا معروف؟  
- سعادة بلا حدود يا مولاي...  
- ألا يفسد الماضي عليك سعادتك أحيانًا؟  
- ما مضى سلسلة من تعاسات تلقّيتها من الآخرين  
ولكّتي لم ارتكب ما أندم عليه!  
- هل تنعم بالحبّ يا معروف؟  
- الحمد لله، لي زوجة تهب السعادة مع  
أنفاسها...  
- جميع ذلك بفضل الخاتم؟  
- بفضل الله يا مولاي!  
فصمت السلطان مليًا ثمّ سأله:  
- أتستطيع أن تهب السعادة للآخرين؟  
- لا حدود لقوّة الخاتم ولكنّه لا يستطيع اقتحام  
القلوب...  
تجلى في أعماق عيني شهر يار فنور يوحى بخيبة  
الرجاء، ولكنّه ابتسم قائلاً:  
- دعني أراك وأنت ترتفع في الفراغ حتّى تمسّ  
عمامتك نقوش قبة البهوا!  
انقضّ الطلب عليه كقمة جبل قذف بها زلزال،  
تطايرت آماله هباء وأيقن بالهلاك... قال بحرارة:  
- لا يليق في حضرة السلطان إلا الأدب...  
- إنّما تطير بناءً على طلبني...  
- مولاي، إنّي عبدك معروف الإسكافي...  
- أتدين لي بالطاعة يا معروف؟  
أجاب من حلّق جافّ:  
- الله شهيد على ذلك...

يكفّ طلبت معونة من مولاي السلطان...

- ٧ -

ونال معروف ما تمثّى من مال وأغلق عليه الأعيان  
المهدايا بغير حساب... ابتاع قصرًا وكلف المعلم  
سحلول بتأنيته فخلق له منه متحفًا... وتزوّج من  
حسنيّة صنعان أخت فاضل... وقرب إليه صحبه،  
عجر الخلاق وإبراهيم السقاء ورجب الحمال، وأمطر  
الفقراء بجوده، وحمل الحاكم على توفير أرزاقهم  
ورعايتهم واحترامهم فحلّت بشاشة الأنس في وجوههم  
محلّ تجاعيد الشقاء، وأحبّوا الحياة كما يحبّون الجنة...

- ٨ -

وذات يوم دُعي إلى مقابلة السلطان شهر يار فمضى  
إليه وهو يبسمل ويحوقل ويتمنّى السلامة... استقبله  
السلطان في مشواه الشتويّ المعروف بيهو المرجان،  
تفرّس فيه بهدوء وقال:  
- أهلاً بك يا معروف، لقد سمعت بأذنيّ في  
جولاتي الليلية نساء العباد عليك فشاقني ذلك إلى  
رؤيتك...  
فقال معروف وهو يغالب خفقان قلبه:  
- نعمة هذا اللقاء عندي أغلى من خاتم سليمان  
نفسه يا مولاي...  
- شعور كريم لرجل كريم...  
فحنى معروف رأسه وهو طيلة الوقت يتساءل عمّا  
يفعل لو طالبه السلطان بمعجزة... أتصرف يا  
معروف من القصر إلى النطع؟... قال السلطان  
متسائلاً:  
- كيف عثرت على الخاتم يا معروف؟  
فأجاب وقلبه يتقبض:  
- تعهدت بحفظ السرّ يا مولاي...  
- لك العذر يا معروف ولكنّ ألا أستطيع أن أراه  
من بعيد دون أن أمسه؟  
- ولا هذا أيضًا يا مولاي، ما أتعسني لعجزني عن  
تحقيق رغبتك!  
- لا عليك من ذلك...

- إني هذيانا!  
 فأعاد الرجل قوله بقوة أشد:  
 - إني صاحب هذا القصر...  
 فصاح به:  
 - إني صاحبه دون شريك...  
 تحذاه بنظرة وقحة وقال:  
 - ما أنت إلا دجال محتال!  
 فصاح معروف غاضباً:  
 - مجنون وقح!  
 - لقد خدعت الجميع، حتى السلطان الأحق،  
 ولكنني أعرفك أكثر مما تعرف نفسك...  
 فقال منذراً:  
 - في وسعي أن أحولك إلى هشيم تذروه الرياح!  
 فقال ساخراً:  
 - إنك لا تحسن إلا رتق النعال أو إصلاحها،  
 أمحداك أن تصنع بي ما يضر!  
 غاص قلبه متراجعاً ساحباً معه ثقته بنفسه ولكنه  
 تساءل بصوت خائنه نبرته رغم تماسكه:  
 - لعلك لم تسمع عن المعجزة في مقهى الأمراء؟  
 - لم أسمع عنها لأنني أنا الذي صنعتها فلا تحاول  
 خداعي، وأنا الذي أنقذتك من العجز في حضرة  
 السلطان!  
 توصل في سره إلى خاتم سليمان أن يحق الرجل  
 محققاً... وكما لم يحدث شيء انثنى جذعه تحت ثقل  
 اليأس فتساءل في خوف:  
 - من أنت؟  
 - إني سيدك وولي نعمتك...  
 تأوه ولاذ بالصمت فقال الآخر:  
 - بيدك أن تحفظ النعمة إذا شئت!  
 فسأله بصوت لا يكاد يسمع:  
 - ماذا تريد؟  
 فقال بهدوء:  
 - اقتل عبد الله البلخي والمجنون!  
 فاجتاحه الرعب وقال بانكسار:  
 - إني أعجز من أن أقتل ثملة!  
 - أدبر لك الوسيلة!

- إني أمرك يا معروف!  
 نهض من مجلسه فترجع في وسط البهو... ناجي  
 ربه في سره: «ربي لتكن مشيتك... لا تدع كل  
 شيء يتلاشى كحلم»... ومن قلب مكلوم يائس  
 همس:  
 - ارتفع يا جسدي حتى تمس عمامتي السقف...  
 وأغمض عينيه مستسلماً لمصيره الأسود، وكما لم  
 يحدث شيء هتف من قلب معدب: «الرحمة يا  
 مولاي!»... وقبل أن ينبس بكلمة أخرى دبّت في  
 قلبه حيوية ملهمة فخف وزنه وتلاشى خوفه... وإذا  
 بالقوة المجهولة ترتفع به في هدوء ووقار وهو مترجع على  
 لا شيء، والسلطان يتابعه مذهولاً متخلياً عن  
 رصانته، مغلوباً على أمره... حتى مسّت عمامته القبة  
 المرجانية، ثم مضى يهبط رويداً حتى استقر في  
 مجلسه... هتف السلطان:  
 - ما أتفه السلطنة!... ما أتفه الغرور!  
 ولم يستطع أن يعقب بكلمة فقد فاق ذهوله ذهول  
 السلطان نفسه!

- ٩ -

عجز عجزاً تاماً عن إدراك ما يقع له... وقد  
 حاول أن يستغل قوته الخفية في داره فلم تستجب له  
 ولكنه حمد الله على النجاة... ليكن من أمر قوته ما  
 يكون... ولتختف ما شاءت ما دامت تبادره بالنجاة  
 في المواقف الحاسمة... وطرد وساوسه وتوكل على  
 الله... وكان جالساً في حديقة داره يتشمس عندما  
 طلب مقابلته رجل غريب... حسبه ذا حاجة فأمر  
 بإحضاره... قدم عليه يرفل في عباءة فارسية  
 فاخرة... طويل العمامة مهذب اللحية مترفع النظر  
 فلم يداخله شك في علو منزلته... أجلسه بترحاب  
 متسائلاً:  
 - من الضيف الكريم؟  
 فأجاب باقتضاب وبنبرة مثل طرقة المطرقة فوق  
 معدن صلب:  
 - أنا صاحب هذا القصر!  
 فأخذ معروف وقال بحدة:

## ليالي الف ليلة ٤٦٥

- ١١ -

انفجرت الفضيحة فدوت طبولها في أركان  
المدينة... ومشى الرواة باعترافات معروف الإسكافي  
في كل مكان... اطمأنت قلوب وتدرجت قلوب إلى  
الهاوية... عرف أن النطع سيستقبل معروف عما قليل  
وأته سيلحق بفاضل صنعان وعلاء الدين... خرج  
الفقراء والمساكين من أكواخهم إلى المسادين بلا  
تدبير... اندفعوا وراء مشاعرهم القلقة الدفينة...  
وفي تجمع لا مثل له وجدوا أنفسهم جسماً عملاقاً لا  
حدود له يجار بالاحتجاج والخوف من المستقبل...  
سيتلاشى معروف فيتلاشى معه الرزق وتكفهر لهم  
الوجوه من جديد، تبودلت أنات الشكوى في هيئة  
همسات مبحوحة، ثم غلظت واحتدمت بالمرارة، ثم  
تلاطمت كالصخور، وبسبب من القوة المتجسدة  
المخلوقة من عدم تأجيج الغضب... شعروا بأنهم سد  
منيع بتكتلهم، وأنهم طوفان إذا اندفع:

- معروف بريء...

- معروف رحيم...

- معروف لن يموت...

- الويل لمن يمسه بسوء...

وما إن نادى صوت بالذهاب إلى دار الحاكم حتى  
اندفعت الجموع كأنها سيل ينصب من فوق قمة جبل  
تبعث في الجو هديرًا... وعند أول شارع دار الإمارة  
اعترض الجنود المدججون بالسلاح... سرعان ما  
نشبت معركة بين السهام والزلط، تواصلت في عنف  
تحت غيم ينذر بالمطر... وقبيل الغروب دوت طبول  
وصاح مناد:

- كَفَّوْا عَنِ الشَّعْبِ... مولانا السلطان قادم  
بنفسه...

تجاجز الفريقان وساد الصمت... جاء المركب  
السلطاني في قوة كبيرة من الفرسان، ودخل شهياريار دار  
الإمارة محوطاً برجال دولته... استغرق التحقيق طيلة  
الليل... وخرج المنادي قبيل الفجر وراذ تساقط  
في نعومة يغسل الوجوه المشتعلة بالقلق... توقع  
العباد توقعات كثيرة ولكن لم يبلغ بهم الخيال ما  
حصل... صاح المنادي:

- لم تستعين بي وأنت القوي؟

- لا شأن لك بذلك...

تذكر الشرك الذي سقط فيه فاضل صنعان...  
تذكر مآسي صنعان الجمالي وجمصة البلطي... قال  
بضراعة:

- استحلفك بالله أن تعفيني من مطالبك...

فقال الآخر ساخراً:

- ليس أسهل عليّ من أن أقتع الحاكم باحتيالك،  
إنهم لا يأمنون جانبك، ويتمنون هلاكك ليتحرروا من  
استعبادك المهذب لهم، ستدعى سريعاً لصنع معجزة  
أمامهم، وإذا أخفقت ولا بد أن تخفق انقضوا عليك  
كالنمور...

تجلت في عينيه نظرة يائسة حزينة عمياء ولكن  
الآخر لم يرحمه فقال:

- إني منتظر رأيك...

فهتف بحدّة:

- اغرب عن وجهي، لا أستطيع تركيز فكري في  
حضورك...  
فقام قائلاً:

- سأغيب عنك ساعة، وإذا لم تدعني جاءك كبير  
الشرطة بدلاً عني!  
قال ذلك وذهب...

- ١٠ -

تركه في جحيم مستعبر... هو يقتل عبد الله  
البلخي والمجنون!؟ أجل إنه حريص على النعمة  
ولكنه طيب وضعيف ومؤمن... ونجاذبته التخيلات  
ولكنه كان يتشبث دائماً بالأرض عند حافة الهاوية...  
وفي ظلمات العذاب أشرق عليه خاطر سعيد... لم لا  
يهرب بحسنة والمال؟ واندفع نحو الدار فأمر زوجته  
بارتداء عباها، وعباً نقوده في بقجة... سألت زوجته  
عماً يعنيه ذلك فأخبرها بأنها ستعرف السرّ عندما  
يصلان إلى برّ الأمان... وامتطيا بغلتين وانطلقا وفي  
نيتة أن يذهب إلى مرفأ النهر... لكنّه رأى وهو يقترب  
من نهاية الشارع خليل فارس كبير الشرطة قادماً على  
رأس قوة من الجنود...

ومركوب مغربي، ويده مسبحة فارسية حباتها من اللؤلؤ النفيس... انعقدت الألسنة وانجذبت نحوه الأبصار... وبالرغم من أنه غريب إلا أنه أجال بينهم عينين باسمتين مشبعتين بالفة أهل الدار... وعلى حين فجأة وثب رجب الحمال قائماً وهو يصيح:

- سبحانك ربّي، ما أنت إلا السندباد!

قهقهه القادم بحبور، تلقى بين ذراعيه رفيقه القديم فتعانقا بحرارة... وسرعان ما تلاقت الأيدي في مصافحة صادقة، ثم مضى إلى موضع خال جنب المعلم سحلول ساحباً معه صديقه وهذا يقاوم في حياء هامساً:

- هذا مكان السادة  
فقال السندباد:  
- أنت وكيل أعماله منذ الساعة!  
وسأله شملول الأحدثب:  
- كم عامًا مضت في غيابك يا سندباد؟  
فقال بحيرة:  
- الحق أنني نسيت الزمن!  
فقال عجر الحلاق:  
- لا أقل من عشر سنوات...  
- كأنها عشرة قرون!  
فقال الطبيب عبد القادر المهيني:  
- رأيت عوالم وعوالم، ماذا رأيت يا سندباد؟  
فنعم الرجل بالاهتمام كثيرًا، ثم قال:  
- لدي ما يبسر ويفيد وكل شيء بأوانه... صبركم حتى استقر...  
فقال عجر:  
- نحدّثك نحن عمّا وقع لنا!  
- ماذا فعل الله بكم؟  
فأجابته حسن العطار:

- مات كثيرون فشبّعوا موتًا، وولد كثيرون لا يشبعون من الحياة، هبط من الأعالي قوم وارتفع من القعر قوم، أثرى أناس بعد جوع وتسوّل آخرون بعد عزّ، وفد على مدينتنا عدد من أخيار الجنّ وأشرارهم، وآخر أخبارنا أن وليّ حكم حيننا معروف الإسكافي...  
- مات كثيرون فشبّعوا موتًا، وولد كثيرون لا يشبعون من الحياة، هبط من الأعالي قوم وارتفع من القعر قوم، أثرى أناس بعد جوع وتسوّل آخرون بعد عزّ، وفد على مدينتنا عدد من أخيار الجنّ وأشرارهم، وآخر أخبارنا أن وليّ حكم حيننا معروف الإسكافي...  
- مات كثيرون فشبّعوا موتًا، وولد كثيرون لا يشبعون من الحياة، هبط من الأعالي قوم وارتفع من القعر قوم، أثرى أناس بعد جوع وتسوّل آخرون بعد عزّ، وفد على مدينتنا عدد من أخيار الجنّ وأشرارهم، وآخر أخبارنا أن وليّ حكم حيننا معروف الإسكافي...

- جرت مشيئة السلطان بنقل الحاكم إلى رياسة حيّ آخر على أن يقبل ولاية الحيّ معروف الإسكافي...!  
تعالت المتأففات مدوية، وثل العباد بالفوز المين...  
- جرت مشيئة السلطان بنقل الحاكم إلى رياسة حيّ آخر على أن يقبل ولاية الحيّ معروف الإسكافي...!  
تعالت المتأففات مدوية، وثل العباد بالفوز المين...

## السندباد

- ١ -

رفع معروف حاكم الحيّ - بكلّ خشوع - اقتراحًا للسلطان بنقل سامي شكري كاتم السرّ وخليط فارس كبير الشرطة إلى حيّ آخر على أن يتفضّل السلطان بتعيين نور الدين كاتمًا للسرّ والمجنون كبيرًا للشرطة باسم جديد هو «عبد الله العاقل»... ومن عجب أن السلطان استجاب له، ولو أنه سأله:  
- أنتلمش حقًا إلى المجنون كبيرًا لشرطتك؟  
فقال معروف بثقة:  
- كلّ الاطمئنان يا مولاي...  
فدعا له بالتوفيق، ثم سأله:  
- ماذا عن سياستك يا معروف؟  
فقال الرجل بتواضع:  
- عشت عمري يا مولاي أصلح النعال حتى استقرّ الإصلاح في دمي...  
وقد قلن الوزير دندان فقال للسلطان عقب انصراف معروف:  
- ألا ترى يا مولاي أنّ حكم الحيّ أصبح بيد نفر لا خبرة لهم؟  
فقال السلطان بهدوء:  
- دعنا نُقدم على تجربة جديدة...  
- عشت عمري يا مولاي أصلح النعال حتى استقرّ الإصلاح في دمي...  
وقد قلن الوزير دندان فقال للسلطان عقب انصراف معروف:  
- ألا ترى يا مولاي أنّ حكم الحيّ أصبح بيد نفر لا خبرة لهم؟  
فقال السلطان بهدوء:  
- دعنا نُقدم على تجربة جديدة...

- ٢ -

وكان رواد مقهى الأمراء يتسامرون في مرح يوافق ما طرأ على حياهم عندما ظهر في مدخل المقهى رجل غريب - نحيل القامة مع ميل للطول أسود اللحية رشيقها، يستقرّ في عباة بغدادية وعمامة دمشقية

## ليالي الف ليلة ٤٦٧

- لعنك واغيب في سماع مغامراتي يا مولاي؟  
فقال الشيخ باسمًا:  
- ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم من أتبع  
العلم واستعمله...  
- ستجد فيها يا مولاي ما يسرك...  
فقال بفتور:  
- طوى لمن كان همه همًا واحدًا، ولم يشغل قلبه بما  
رأيت عيناه وسمعت أذناه، ومن عرف الله فإنه يزهد  
في كل شيء يشغله عنه...  
وتم له الاستقرار، ودعا أصحابه إلى الوليمة،  
وهناك روى لهم ما حدث له في رحلاته السبع، ومنهم  
انتشرت في الحي ثم في المدينة فهزت الأفتدة وأشعلت  
الأخيلة...

- ٤ -

وذاذ يوم استدعاه حاكم الحي معروف وقال له:  
- أبشر يا سندباد مولانا السلطان شهریار يرغب في  
رؤيتك...

فسر بذلك أيما سرور ومضى من فوره إلى القصر  
بصحبة كبير الشرطة عبد الله العاقل... غير أنه لم  
يتشرف بالثول بين يدي السلطان إلا أول الليل فذهبوا  
به إلى الحديقة... جلس حيث أجلس في ظلمة  
شاملة، وأنفاس الربيع تنفذ في أعماقه أخلاطًا من  
روائح الزهور تحت سقف يومض بالنجوم... كان  
السلطان يتحدث بهدوء ولطف فاطمأن قلبه وزايلته  
الرهبة وحل الأناج والحب... سأل عن عمله الأول  
وعن حفظه من العلوم وعمًا جعله يعزم على الرحلة...  
فأجاب بإيجاز يناسب المقام، وبصراحة وصدق...  
قال شهریار:

- حدثني قوم عن رحلاتك فرغبت أن أسمع منك  
ما تعلمته منها إن كنت حظيت منها بعلم نافع فلا  
تكرّر إلا ما تقتضيه الضرورة...

فتفكر سندباد مليًا ثم قال:

- الله المستعان يا مولاي...

- إني مصغر إليك يا سندباد...

ملأ الرجل صدره بالأريج الطيب ثم قال:

فهتف السندباد:

- حسبت الأعاجيب قاصرة على رحلاتي، الآن  
يحق لي العجب...

وقال إبراهيم السقاء:

- لا شك أنك أصبحت من الأغنياء يا سندباد!

فقال بامتنان:

- الله يبب الرزق لمن يشاء بغير حساب...

فسأله جليل البراز:

- هلا حدثتنا عن أعجب ما صادفك؟

فلوح بالمسبحة الفارسية قائلاً:

- كل شيء مرهون بوقته، علي أن أبتاع قصرًا،  
وأفتح وكالة لعرض النوادر من نفائس الجبال وأعماق  
البحار ومجهول الجزر، وسادعوكم قريبًا لعشاء أقدم  
فيه غرائب الأطعمة والأشربة ثم أروي لكم رحلاتي  
العجيبة...

- ٣ -

في الحال وقع اختياره على قصر بميدان الفرسان  
فعهد إلى سحلول مهمة تائيته وتزيينه، وفتح وكالة  
جديدة في السوق أشرف عليها من اليوم الأول رجب  
الحتال، وفي أثناء ذلك زار الحاكم وما إن خلا إليه  
حتى تعانقا عناق الرفاق القدامى... وحكى له  
معروف حكايته بنفسه فحكى له ما شاهد وما وقع له  
في رحلاته السبع، وقال له السندباد بعدوية:

- إنك أهل لمنصبك...

فقال بإيمان:

- إني خادم الفقراء برعاية الله...

وزار معلّم صباه الشيخ عبد الله البلخي فقبل يديه  
وقال له:

- لم أمكث في رحابك إلا ما اقتضته التربية الأولى  
ولكني ربحت منه كلمات أضاعت لي الظلام في  
اللمات...

فقال الشيخ ملاطفًا:

- لا جدوى من بذرة صالحة إلا في أرض

طيبة...

فقال بحماس:

والموت، أدركت أنها انتشلت أصحابي وأنهم في نشوة النجاة نسوا صاحبهم النائم وراء الصخرة، لا نائمة تصدر عن حي، ولا شيء يعلو عن سطح الأرض الجرداء إلا الصخرة، ولكن أي صخرة؟! نظرت بعيني اللتين أحدهما الفزع فتبين لي أنها بيضة لا صخرة كما بدت في حينها لعيني المرهقتين، بيضة في حجم بيت كبير، بيضة أي طائر؟! ودهمني الفزع من ذاك العدو المجهول وأنا أغوص في خلاء الموت البطيء... وإذا بنور الشمس ينطفئ وينتشر جوٌ أسمر كالمغيب فرفعت بصري فرأيت كائنًا كالنسر ولكنّه يفوقه في الحجم مئات المرات، رأيت يهبط ويثدأ حتى يرقد فوقها، أدركت أنه يحتويها ليظهر بها فخطرت لي فكرة جنونية فربطت نفسي في طرف ساقه الشبيهة بالصاري، وحتق بي طائرًا فوق الأرض فبدأ لعيني كل شيء صغيرًا نافعًا كأنما لا يبيض به أمل أو ألم، حتى حط فوق قمة جبل، ففككت رباطي وزحفت إلى ما وراء شجرة فارعة لم أزمثلها من قبل، واستراح الطائر ساعة ثم واصل رحلته نحو المجهول فقهرني النوم، وكما استيقظت كانت الشمس تشتعل في الضحى، التهمت من حشائش الأرض ما أسكت جوعي ورويت عطشي من نقرة مترعة بماء صافٍ، عند ذلك انتبهت إلى أن الأرض تعكس إشعاعًا يبهز البصر فتفحصته فتكشفت لي سطح الأرض عن ماسٍ حرٍّ، وتحرك طموحي رغم تعاسي فقلعت منه ما استطعت وصررت في سروالي، وانحدرت فوق السطح حتى انتهيت إلى شاطئ حيث أنقذتني سفينة عابرة...

قال شهريار بهدوء:

- إنه الرخ الذي نسمع عنه ولا نراه، إنك أول إنسان يسخره لأغراضه يا سندباد فاعلم ذلك أيضًا...

فقال سندباد بحياء:

- إنها مشيئة الله المتعالي...

ثم واصل حديثه قائلاً:

- تعلمت أيضًا يا مولاي أن الطعام غذاء عند الاعتدال ومهلكة عند النوم، ويصدق على الشهوات ما يصدق عليه، فقد تحطمت السفينة كسابقتها فوجدنا

- تعلمت يا مولاي أول ما تعلمت أن الإنسان قد ينخدع بالوهم فيظنه حقيقة وأنه لا نجاة لنا إلا إذا أقمنا فوق أرض صلبة، فإنه لما غرقت سفينتنا في رحلتنا الأولى سبحت متعلقًا بلوح من الواحها حتى اهتديت إلى جزيرة سوداء، شكرنا الله أنا ومن معي وجئنا في أنحائها نفتش عن ثمرة ولما لم نجد تجمنا على الشاطئ متعلقةً آمالنا بأي سفينة تعبر... وما ندري إلا وأحدنا يصبح:

- الأرض تتحرك!

نظرنا فوجدناها تميد بنا فركبنا الفزع، وإذا بأخر يصبح:

- الأرض تفرق...

أجل كانت نفوس في الماء! ورميت بنفسي في الماء... وضح لنا أن ما ظنناه أرضًا لم يكن إلا ظهر حوت كبير أزعجته حركاته فوجه فمضى إلى عالمه يحف به الجلال... وسبحت مسلماً أمري للمقادير حتى ارتطمت يداي بصخور، ومنها زحفت إلى جزيرة حقيقية يجري فيها الماء وتكثر الفاكهة، عشت بها زمناً حتى مرت بي سفينة فنجوت بها...

فتساءل السلطان:

- وكيف تفرق بين الوهم والحقيقة؟

فقال بعد تردد:

- علينا أن نستعمل ما وهبنا الله من حواس

وعقل...

فهز السلطان رأسه وقال:

- استمر يا سندباد...

فقال السندباد:

- تعلمت أيضًا يا مولاي أن النوم لا يجوز إذا وجبت اليقظة وأنه لا بأس مع الحياة، فقد ارتطمت السفينة بصخور نائمة فتحطمت وانتقل من عليها إلى جزيرة، جزيرة جرداء لا ماء فيها ولا شجر ولكننا حملنا معنا أغذية وقرب مياه، ورأيت صخرة كبيرة على مبعده يسيرة فقلت أنام في ظلها ساعة... ومنت، وصحوت فلم أجد لإخواني أثرًا، ناديت فلم أسمع بجيبًا، عدوت نحو الشاطئ فرأيت سفينة تنحدر وراء الأفق، ورأيت الأمواج تهدر منشدة نشيد اليأس



## ليالي الف ليلة ٤٦٩

حيًا مع زوجته الميتة، وهو ما يجري على الزوجة إذا سبقها الزوج إلى النهاية...

فارتعب صاحبنا وقال للملك:

- ولكنّ ديننا لا يكلفنا بذلك...

ولكنّ الملك قال له:

- لا شأن لنا بدينكم، وتقاليدنا مقدّسة...

ودُفن الرجل حيًا مع جثمان زوجته فتكدر صفونا وتجهّم لنا المستقبل... وجعلت أراقب زوجتي مشفقًا، وكلّما اشتكت توعّكًا خفيًا زلزل كياني كله... وعندما جاءها المخاض ساءت حالتها فما كان منّي إلا أن هربت إلى الغابة حتّى عبرت سفينة ذات يوم قريبًا من الشاطئ فألقيت بنفسي في الماء وسبحت نحوها وأنا أستغيث حتّى انتشلني وأنا على وشك الغرق...

فغمغم السلطان وكأنّما يخاطب نفسه:

- التقاليد هي الماضي ومن الماضي ما يجب أن

يصيح في خبر كان!

خيّل إليه أنّ لحديث السلطان بقية فأوى إلى

الصمت غير أنّ شهریار قال:

- استمرّ يا سندباد...

قال السندباد:

- تعلّمت أيضًا يا مولاي أنّ الحرّية حياة الروح وأنّ الجنة نفسها لا تغني عن الإنسان شيئًا إذا خسر حرّيته، فقد لقيت سفينتنا عاصفة أودت بها فلم ينبج من رجالها أحد سواي... قذف بي الموج إلى جزيرة فيحاء، معتدلة الجوّ، غنيّة بالثمار والجداول، فشبعت وارتويت واغتسلت ومضيت في جنباتها مستطلّعا فصادفني عجوز ملقى تحت شجرة لا حول له ولا قوّة فتوسّل إليّ قائلاً:

- إنّي عاجز كما ترى فهلاً حملتني إلى كوخني؟

وأشار بذقنه ناحية فما تردّدت عن حمله... ورفعته

فوق منكبّي وسرت به إلى حيث أشار... لم أعر

لكوخه على أثر فسألته:

- أين ماواك يا عمّ؟

فقال بصوت قويّ غير الذي خاطبني به أوّل مرّة:

- الجزيرة ماواي، وهي جزيرتي، ولكنّي في حاجة

أنفسنا في جزيرة يحكمها ملك عملاق لكته كريم مضياف، رخب بنا ترحيبًا فأق جميع آمالنا، ولم يكن لنا في كنفه إلا الاسترخاء والسمر، وقدم لنا من صنوف الطعام وألوانه ما لا يحظر بيال فأقبلنا على الطعام كالمجانين، غير أنّ كلمات قديمة تلقّيتها في صباي عن مولانا الشيخ عبد الله البلخي صدّنتني عن الإفراط ويسرت لي وقتًا طويلًا للعبادة على حين أنفق أصحابي وقتهم في التهام الطعام والنوم الثقيل في أعقاب الامتلاء، فازداد وزنهم زيادة فظيمة واكتظوا باللحم والدهن فانقلبوا كالبراميل... وجاء الملك ذات يوم فتأمّلنا رجلًا رجلاً ثم دعا أصحابي إلى قصره والتفت إليّ قائلاً في ازدراء:

- إنك كالأرض الصخرية لا تثمر...

فحزنت لذلك... وخطر لي أن أتسلّل بليل لأرى

ما يفعل أصحابي فرأيت رجال الملك وهم يذبحون

الربّان ويقدمونه للملك فالتهمه بوحشية وتلذذ، فظنت

في الحال إلى سرّ كرمه، وهربت إلى الشاطئ حتّى

أنقذتني سفينة...

تمتم السلطان:

- أبقاك تورّعك يا سندباد...

ثمّ قال وكأنّما يحدث نفسه:

- ولكنّ الملك أيضًا في حاجة إلى الورع!

استبقى السندباد صدى تعليق السلطان دقيقة ثمّ

واصل حديثه قائلاً:

- تعلّمت أيضًا يا مولاي أنّ الإبقاء على التقاليد

البالية سخف ومهلكة، فقد غرقت السفينة وهي في

طريقها إلى الصين فلذتّ ومعني نفر من المسافرين إلى

جزيرة غنيّة معتدلة الجوّ يسودها السلام ويحكمها ملك

طيب، وقال لنا:

- سأعتبركم ضمن رعاياي، لكم ما لهم وعليكم

ما عليهم...

فسررنا بذلك ودعوننا له... ومبالغة في إكرامنا

وهبنا من جواربه زوجات جميلات... فطابت لنا

الحياة وتيسرت المعيشة... وحدث أن توقّيت إحدى

الزوجات فجهّزها الملك للدفن وقال لصاحبنا الأرملة:

- يؤسفني فراقك فإنّ تقاليدنا تقضي بدفن الزوج

٤٧٠ ليالي الف ليلة

- لقد رأيت من عجائب الدنيا ما لم تره عين بشر،  
وتعلّمت دروسًا عن معاناة وخبرة فاهنا بما رزقك الله  
من مال وحكمة...

- ٥ -

قام شهريار وصدرة يجيش بانفعالات طاغية...  
غاص في الحديقة فوق المشي الملكي شبحًا ضئيلاً  
وسط أشباح عمالقة تحت نجوم لا حصر لها ولا  
حد... أطبقت على أذنيه أصوات الماضي فمَحَتْ  
الحان الحديقة، هتاف النصر، زجاجة الغضب، أنات  
العذارى، هدير المؤمنين، غناء المنافقين... نداءات  
اسمه من فوق المنابر... تجلّى له زيف المجد الكاذب  
كقناع من ورق متهرئ لا يخفي ما وراءه من ثعابين  
القسوة والظلم والنهب والدماء... لعن أباه وأمه  
وأصحاب الفتاوى المهلكة والشعر والشعراء وفرسان  
الباطل ولصوص بيت المال وعاهرات الأسر الكريمة  
والذهب المنهوب المهدر في الأقداح والعمائم والجدران  
والمقاعد والقلوب الخاوية والنفس المتحررة وضحكات  
الكون الساخرة...

ورجع من رحلته عند منتصف الليل فاستدعى  
شهرزاد فأجلسها إلى جانبه وهو يقول:

- ما أشبه حكايات سندباد بحكاياتك يا شهرزاد!  
فقال شهرزاد:

- جميعها تصدر عن منبع واحد يا مولاي...  
صمت كأنما لينصت إلى همس الغصون وزقزقة  
العصافير فتساءلت شهرزاد:

- هل ينوي مولاي الخروج إلى إحدى جولاته  
الليلية؟

فقال بفتور:

- كلاً...

ثم بصوت منخفض:

- أوشكت أن أضجر من كل شيء...

فقال بإشفاق:

- الحكيم لا يضجر يا مولاي...

فتساءل بامتعاض:

- أنا؟!... الحكمة مطلب عسير، إنَّها لا تورث

إلى من يحملني!

فأردت إنزاله عن كاهلي ولُكِنِّي عجزت عن زحزحة  
رجليه عن عنقي وضلوعي كأنما هو بناء مثبت بالحديد  
فتوسّلت إليه بدوري:

- اتركني وستجدني عند الحاجة في خدمتك...

ولُكِنِّه ضحك ساخرًا مني متجاهلاً لتوسّلاتي...  
هكذا قضى عليّ أن أعيش عبدًا له فلم يطب لي صحو  
ولا نوم، ولم أهنأ بلذيذ المأكّل والمشرب، حتّى خطرت  
لي فكرة فجعلت أعصر عبناً في نقره، وتركته حتّى  
تخمّر، ثم أسقيته منه حتّى سكر وتراخت عضلاته  
الفولاذية فرميته عن كاهلي، وتناولت حجراً فحطّمت  
به رأسه وأنقذت العالم من شرّه... وسكنت في  
الجزيرة زمناً سعيداً لم أدره حتّى أنقذتني سفينة...

فتنهّد شهريار قائلاً:

- ما أكثر ما يستعبدنا في هذه الدنيا! ماذا تعلّمت  
أيضاً يا سندباد؟

فقال سندباد:

- أيضاً تعلّمت يا مولاي أنّ الإنسان قد تتاح له  
معجزة من المعجزات ولكن لا يكفي أن يمارسها  
ويستعلي بها، وإنّما عليه أن يُقبل عليها مستهدياً بنور  
من الله يضيء قلبه، فقد غرقت السفينة كسابقاتها  
ولذتُ أنا بجزيرة تستحقّ أن أَدعوها بجزيرة  
الأحلام... جزيرة غنيّة بالحِسان من كلّ لون  
وشكل... مال قلبي إلى إحداهنّ فتزوّجت منها  
وسعدت بها... ولما اطمانّ القوم إلى ركبوا تحت  
إبطي ريشاً وأخبروني بأنني أستطيع أن أطير وقتما  
أشاء... سررت بذلك جدّاً وتوتّبت لاقتحام التجربة  
التي لم يجربها إنسان قبلي... غير أنّ زوجتي قالت لي  
سراً:

- احذر أن تذكر اسم الله وأنت في الجوّ وإلا  
احترقت!

وفي الحال أدركت أنّ دم الشيطان يجري في دمانهم  
فنفرت منهم وطرت مصمّماً على الحرب، وسبحت في  
الجوّ طويلاً ولا هدف لي إلاّ مدينتي حتّى بلغت بعد أن  
أيست من ذلك، فالحمد لله ربّ العالمين...

صمت الملك ملياً ثم قال:

## ليالي الف ليلة ٤٧١

- على مدى عشر سنوات عشت ممرًا بين الإغراء  
والواجب، أتذكر وأتناسى، أتأذب وأفجر، أمضي  
واندم، أتقدم وأتأخر، أتعدّب في جميع الأحوال، أنّ  
لي أن أصغي إلى نداء الخلاص، نداء الحكمة...

قالت بنبوة اعترافية:

- إنك تنبذني وقلبي يفتّح لك...

فقال بصرامة:

- لم أعد أبحث عن قلوب البشر...

- إنّه قضاء معاكس يعبث بنا...

- علينا أن نرضى بما قدّر لنا...

فقالت بمرارة:

- مكاني الطبيعي هو ظلك...

فقال بهدوء لا يتأثر بالانفعالات:

- السلطان يجب أن يذهب بما فقد من أهليّة، أما

الإنسان فعليه أن يجد خلاصه...

- إنك تعرّض المدينة لأهوال...

- بل إنّي أفتح لها باب النقاء وأهيم على وجهي

باحثًا عن خلاصي...

مدّت راحتها إلى راحته في الظلام لكنّه سحب يده

فأثلاً:

- انفضي لمهمنك، لقد أذيت الأب، وعليك أن

تعدّي الابن لمصير أفضل...

- ٦ -

ظنّ السندباد أنّه سينعم بمسرات العمل والسمر

حقّ نهاية العمر ولكنّه رأى حليًا... وكما استيقظ لم

ينس الحلم ولم يتلاش أثره... ما هذا الحنين؟ هل

قدّر له أن يمضي العمر تنقادفه أمواج البحار؟ منذ

الذي يناديه من وراء الأفق؟ أيريد من الدنيا أكثر ممّا

أعطته؟ أغلق وكالته مساءً ومضى إلى دار عبد الله

البلخي وهو يقول عنده الرأي... ولبح في طريقه إلى

حجرة الشيخ زبيدة ابنته فمادت به الأرض واجتاحه

هدف جديد للزيارة لم يخطر بباله من قبل... وجد

الشيخ ووجد معه الطبيب عبد القادر المهيني...

جلس حائرًا مترددًا، ثمّ قال:

- جئت يا مولاي طالبًا يد كرميتكم...

كما يورث العرش...

- المدينة اليوم تنعم بحكمك الصالح...

- والماضي يا شهرزاد؟

- التوبة الصادقة تمحق الماضي...

- وإن حفل بقتل الفتيات البريشات والأفذاذ من

أهل الرأي؟

فقالت بصوت متهدج:

- التوبة الصادقة...

ولكنّه قاطعها:

- لا تحاولي خداعي يا شهرزاد...

- ولكنّي يا مولاي أقول الحقّ...

فقال بخشونة وحزم:

- الحقّ أنّ جسمك مُقبل وقلبك نايف...

فزعت... كأنما تعرّت في الظلام، هتفت محتجة:

- مولاي...

- لست حكيماً ولكنّي لست أحمق أيضاً، طالما

لمست احتقارك ونفورك...

تمزقت نبراتها وهي تقول:

- علم الله...

لكنّه قاطعها:

- لا تكذبي، ولا تخافي، لقد عاشرت رجلاً غارقاً

في دماء الشهداء...

- كلنا نلهج بحسناتك...

فقال دون مبالاة بقولها:

- أتدرين لم أبقيت عليك قريباً متي؟ لأنّي وجدت

في نفورك عذاباً متواصلًا استحقّه، أما ما يمزني فهو

أنّي أومن بأنّي استحقّ جزاء أشدّ...

فلم تتالك أن بكيت فقال برقة:

- ابكي يا شهرزاد فالبكاء أفضل من الكذب...

هتفت:

- لا أستطيع أن أتقلب في نعمتك بعد الليلة...

فقال محتجاً:

- القصر قصرك، وقصر ابنك الذي سيحكم

المدينة غدًا، أنا الذي يجب أن أذهب حاملاً ماضي

الدامي...

- مولاي!

للموت...  
 فقال بأدب:  
 - لست من هؤلاء الصفوة ولكنَّ باب الصلاح  
 يتسع لآخرين...  
 فقال الطيب عبد القادر المهيني:  
 - نطقت بالصدق...  
 فقال الشيخ للسندباد:  
 - إذا أردت أن تكون في راحة فكلَّ ما أصبَتْ  
 والبس ما وجدت وارضَ بما قضى الله عليك...  
 فقال السندباد:  
 - حسي أيَّ أعبد الله يا مولاي...  
 فقال الشيخ:  
 - اطلع الله على قلوب أوليائه فمنهم من لم يكن  
 يصلح لحمل المعرفة حرقاً فشغلهم بالعبادة...  
 فقال الطيب مخاطباً الشيخ:  
 - لقد رأى وسمع، إني أعبطه...  
 فقال الشيخ:  
 - طوبى لمن كان همه هماً واحداً ولم يشغل قلبه بما  
 رأت عيناه وسمعت أذناه...  
 فقال السندباد:  
 - انهمرت النداءات من ألف عجيبة وعجيبة...  
 فردَّد الشيخ:  
 أنا في الغربية أبكي  
 ما بكت عين غريب  
 لم أكن يوم خروجي  
 من بلادي بمصيب  
 عجباً لي ولتركي  
 وطننا فيه حبيبي  
 فنظر المهيني إلى الشيخ ملياً ثم قال:  
 - إنه راحل يا مولاي فودَّعه بكلمة طيبة!  
 فابتسم الشيخ برقة وقال للسندباد:  
 - إذا سلمت منك نفسك فقد أدت حقها، وإذا  
 سلم منك الخلق فقد أدت حقوقهم...  
 فهوى السندباد على يده فقَبَّلها ثم نظر إلى الطيب  
 ممتناً وهمَّ بالقيام غير أن الطيب وضع يده على منكبه  
 وقال:

فثقبه الشيخ بنظرة باسمه وقال:  
 - كلاً، دفعك للمجيء دافع آخر!  
 فبُهِت السندباد ولم ينبس... فقال الشيخ:  
 - ابنتي مذ قُتل زوجها علاء الدين قد كرسَتْ  
 نفسها للطريق...  
 فتمتم السندباد:  
 - الزواج لا يصدِّ عن الطريق...  
 - قالت كلمتها النهائية في ذلك!  
 تتهد السندباد أسفاً فسأله الشيخ:  
 - ماذا دفعك إليَّ يا سندباد؟  
 فأطال الصمت كفاصل بين الادعاء والحقيقة ثم  
 همس:  
 - القلق يا مولاي...  
 فتساءل عبد القادر المهيني:  
 - هل أصاب تجارتك الكساد؟  
 فقال السندباد:  
 - إنَّه قلق من لا يجد سبباً ملموساً للقلق...  
 فقال الشيخ:  
 - أفصح يا سندباد...  
 - كأنما تلقيت دعوة من وراء البحار!  
 فقال عبد القادر المهيني ببساطة:  
 - سافر ففي الأسفار سبع فوائد...  
 فقال السندباد:  
 - رأيت في الحلم الرخ يرقرف بجناحيه...  
 فقال الشيخ:  
 - لعلها دعوة إلى السماء...  
 فقال في تسليم:  
 - إني من رجال البحر والجزر...  
 فقال الشيخ:  
 - اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز  
 ستَّ عقبات، أولاها أن تغلق باب النعمة وتفتح باب  
 الشدة، والثانية أن تغلق باب العزِّ وتفتح باب الذلِّ،  
 والثالثة أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد،  
 والرابعة أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر،  
 والخامسة أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر،  
 والسادسة أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد

ليالي الف ليلة ٤٧٣

البرازز... فكّر أن يقتحم مجلسهم ليكشف سرهم  
ولكنّ الحذر شدّه إلى موقفه... وقبيل الفجر قام  
أحدهم وقال:

- أن لنا أن نرجع إلى دار العذاب!  
فكفّوا عن البكاء وقاموا وهم يتواعدون على اللقاء  
غداً ثمّ مضوا نحو المدينة كالأشباح...

- ٢ -

ما معنى هذا؟...

اقترب من الصخرة... دار حولها دورة كاملة...  
ما هي إلا صخرة في صورة قبة غير مستوية يوربها  
العابر فلا تثير اهتمامه... دنا منها فتحسّس سطحها  
فوجده خشناً... هوى عليه بقبضته مرّات ثمّ همّ  
بالتحوّل عنها عندما صدر منها إليه صوت قويّ  
متحرّك... تكشّف أسفلها عن مدخل مقوسّ الهامة  
فتراجع مرتعداً من الخوف، لكنّه رأى نوراً هادئاً عذباً  
ونسمت رائحة زكيةً مخدّرة... زابله الخوف بتلقائية  
وقال له صوت خفيّ إنّ هذا الباب هو ما تاق الرجال  
إلى فتحه وما أحرقوا السدموع من أجله... اقترب  
منه... أدخل رأسه متطلّماً فجذبته فتنة طاغية...  
ما كاد يدخل حتّى أغلق الباب وراه، ولكنّ فتنة المكان  
استحوذت عليه كلّ... منير بلا ضوء... عذب  
المناخ بلا نافذة، متضوّع بشذاً طيب بلا حديقة...  
أرضه بيضاء ناصعة قدّت من معدن مجهول، جدرانه  
زمرديّة، سقفه مزركش بمهرجان من الألوان المتناغمة،  
في نهايته بوابة متلألئة كأنّها طُعمت بالماس، مضى بلا  
تردد متناسياً ما وراه، ظنّ أنّه سيلبغ البوابة في دقيقة  
أو دقيقتين، ولكنّه مشى طويلاً والممرّ باقي على حاله لا  
يقصر والفتنة من الجوانب تسدّق... أشفق من أن  
يكون طريقاً بلا نهاية، لكنّه لم يفكر في الرجوع ولا في  
التوقّف وطاب له المشي العميق إلى الأبد... وكما  
أوشك أن ينسى أنّ لشيء غاية وجد نفسه يقترب من  
بركة صافية تقوم فيها وراها امرأة مصقولة، وسمع  
صوتاً يقول:

- افعل ما بدا لك...

سرعان ما لى رغائبه الطارئة فخلع ملابسه وغاص

- اذهب مصحوباً بالسلامة ثمّ عد محملاً بالماس  
والحكيم ولكن لا تكرر الخطأ...

فتجلّت في عيني السندباد نظرة حيرى فقال المهيني:  
- لم يطر الرّخ بإنسان قبلك فماذا فعلت؟ تركته  
عند أوّل فرصة منجذباً بريق الماس...

- بل لم أكد أصدّق بالنجاة...  
فقال المهيني بحماس:

- الرّخ يطير من عالم مجهول إلى عالم مجهول، ويشب  
من قمة الواق إلى قمة قاف فلا تقع بشيء فهي مشيئة  
ذو الجلال!  
وكأنّ السندباد قد شرب عشرة أوطال من  
الخمير...

## البكاءون

- ١ -

هجر العرش والجاه والمرأة والولد... عزل نفسه  
مقهوراً أمام ثورة قلبه في وقت تناسى فيه شعبه أئامه  
القديمة الماضية... اقتضت تربيته زمناً غير قصير...  
لم يقدم على الخطوة الحاسمة حتّى استفحل في باطنه  
الخوف وهيمت رغبته في الخلاص... غادر قصره  
بليّل، عليه عباءة خفيفة وبيده عصاً مستسلماً  
للمقادير... أمامه سبيل للسياحة كما فعل السندباد،  
وسبيل إلى دار البلخي، وثمة مهلة للتدبّر... قاده  
قدماه إلى الخلاء قريباً من اللسان الأخضر فتأمى إلى  
أذنيه صوت غريب... انصت تحت هلال في السماء  
الصافية فأيقن من أنّه يسمع نحيباً جماعياً!... قوم  
يكون في هذا الخلاء؟ مضى نحو مصدر الصوت في  
حذر حتّى استقرّ وراء نخلة... رأى صخرة كالقبة  
ورجالاً يتربّعون حياها في خطّ مستقيم... لا يكفون  
عن البكاء... ثار فضوله وتناوبته الأفكار... وإذا  
برجل منهم ينهض فيمضي إلى الصخرة وينهال عليها  
ضرباً بقبضته، ثمّ يرجع إلى مجلسه ويواصل البكاء مع  
الباكين... أخذ شهر يار بصره فعرّف في الرجال جملة  
من رعاياه السابقين، سليمان الزيني والفضل بن خاقان  
وسامي شكري وخليل فارس وحسن العطار وجليل

الملكي المؤذي إلى القصر، وسجدن بين يديه وهنّ  
ينشدن نشيد الشكر... ومضى هو مع الصبية إلى  
القصر...

- ٤ -

انبهر للقصر كأنه أحد صعاليك شعبه... آمن بأن  
قصره القديم لم يكن سوى كوخ قذر... قادته الصبية  
إلى قاعة العرش... الملكة تضيء على عرشها بين  
جناحين من صبايا كاللآلئ...

سجدت الصبية بين يدي الملكة الآية وقالت:

- عريسك الموعود يا صاحبة الجلالة...

ابتسمت الملكة ابتسامة أفقدته لبه... سجد بدوره

وهو يقول:

- ما أنا إلا عبد مولاتي...

فقال الملكة بصوت عذب كأجل الأحن:

- بل أنت شريك في الحب والعرش...

فقال بصدق وأمانة:

- يقتضي الواجب أن أصارحك بأنني عشت في

الماضي حياة طويلة حتى شارفت الشيخوخة...

فقال الملكة بعذوبة:

- لا أدري عما تحدثت...

- إني أتحدث عن قبضة الزمن يا مولاتي...

فقال بسرور:

- ما عهدنا الزمن إلا صديقًا وقيًا لا يطغى ولا

يغدر...

فغمغم شهریار:

- سبحان الله القادر على كل شيء...

واحتفلت المدينة بالزواج أربعين يومًا...

- ٥ -

ومضى الوقت في حبّ وتأمل، وللعبادة أيضًا وقتها

وهي تمارس في الشراب والغناء والرقص...

وتبين لشهریار أنه بحاجة إلى ألف عام لاكتشاف

خبيا الحديقة، وإلى ألف عام أو أكثر لمعرفة أهباء

القصر وأجنحته... ويومًا - وكان يصحبه الملكة - مرّ

بباب صغير من الذهب الخالص في قفلة مفتاح من

في الماء... دلته نبضات الماء بأنامل ملائكية  
وتسلّلت إلى باطنه أيضًا... خرج من الماء فوقف أمام  
المرأة فرأى نفسه جديدًا في إهاب فتى أمرد، قويّ  
الجسم متناسقه، بوجه مليح ينضح فتوة وشبابًا، وشعر  
أسود مفروق، وقد طرّ بالكاد شاربه... همس:

- سبحان القادر على كل شيء...

والتفت إلى ملابسه فوجد بديلها سروالاً من الحرير  
الدمشقيّ وعباءة بغدادية وعمامة خراسانية ونعلًا  
مصريًا، فارتداها فصار آية تسر الناظرين...

وواصل السير فوجد نفسه أمام البوابة، ووجد  
أمامها صبية ملائكية لم يرها من قبل، سأله باسمه:

- من أنت؟

فأجاب بحيرة:

- شهریار...

- ما صناعتك؟

- هارب من ماضيه...

- متى تركت بلدتك؟

- منذ ساعة على الأكثر...

فما تمالكت أن ضحكت قائلة:

- ما أضعفك في الحساب!

وتبادلا نظرة طويلة ثمّ قالت الصبية:

- انتظرناك طويلًا، المدينة كلها تنتظرك...

فتساءل في دهشة:

- أنا؟

- تنتظر العريس الموعود للملكة المعظمة...

وأشارت بيدها ففتحت البوابة مرسلّة صوتًا كأنين

الرياب...

- ٣ -

وجد شهریار نفسه في مدينة ليست من صنع بشر،  
كأنها الفردوس جمالاً وبهاء وأناقة ونظافة ورائحة  
ومناخًا، تترامى بها في جميع الجهات العماير والحدايق،  
والشوارع والميادين المكّلة بشقّي الأزهار، وتنتشر فوق  
أديمها الزعفرانيّ البرك والجداول، سكّانها نساء، لا  
رجل بينهنّ، ونساؤها شباب، وشبابها جمال  
ملائكيّ... وانتبهن إلى القادم فهرعن إلى الطريق

## ليالي الف ليلة ٧٥

- ٨ -

وضعت مقاومته ذات يوم فاستسلم لنداء  
خفي... انتهاز غفلة من الخادمان فأدار المفتاح...  
انفتح الباب يسر عن نغم ساحر وشذاً طيب ودخل  
مضطرب القلب كبير الأمل. انغلق الباب فتجلى له  
مارد لم ير أقب من... انقضَّ عليه فرفعه بين يديه  
كمصفور... هتف شهريار نادماً:  
- دعني برئك!  
وكأنما قد استجاب له فأرجعه إلى الأرض...

- ٩ -

نظر فيما حوله بجنون وتساءل:  
- أين أنا؟  
الصحراء والليل واللال والصخرة والرجال  
والنحيب المتواصل شهريار وعصاه وهواء المدينة  
الفاسد... صرخ من قلب مكلموم:  
- كلاً... كلاً...  
هوى بقبضته على الصخرة مرّات حتى يفضّ الدم  
منها ثم هتف:  
- الرحمة... الرحمة...  
ولكن دمه الحقيقة واجتاحه اليأس... تقوس  
ظهره وطعن في السن... ودون اختيار مضى نحو  
الرجال بخطى متعثرة وارتمى في آخر الصف...  
وسرعان ما انخرط في البكاء مثلهم تحت الهلال...

- ١٠ -

قبيل الفجر ذهب الرجال كالعادة ولكنّه لم يذهب  
ولم يكفّ أيضاً عن البكاء... وإذا برجل يمضي في  
الليل وحيداً فاقرب منه وسأله:  
- ماذا يبكيك يا رجل؟  
فقال شهريار بضيق:  
- لا شأن لك بذلك...  
فقال الآخر وهو يتفرس في وجهه بإمعان:  
- إنّي كبير الشرطة وما جاوزت حدودي...  
فقال شهريار:

الذهب المحلّ بالماس، التصقت به بطاقة كُتب عليها  
بخط أسود ولا تقرب هذا الباب، فسأل الملكة:  
- لم هذا التحذير يا حبيبي؟  
قالت بمذوبتها المألوفة:  
- نحن نعيش هنا في حرّية مطلقة فمجرد  
النصيحة يعتبر في عرفنا إهانة لا تغتفر...  
- ألم يصدر منك كأم ملكي؟  
فقالته بهدوء:  
- صيغة الأمر غير مستعملة عندنا إلا في الحب وقد  
وجد كما تراه منذ ملايين السنين!

- ٦ -

وسأل زوجته مرّة وهو يداعبها:  
- متى يكون لنا وليد؟  
فتساءلت في ذهول:  
- أتفكر في ذلك ولما يمض على زواجنا إلا مائة  
عام؟  
- مائة عام فقط؟  
- بلا زيادة يا حبيبي...  
فتمتم:  
- حسبها أيّاماً معدودة...  
قالت بأسف:  
- لم يمحّ الماضي من رأسك بعد...  
قال كالمعتد:  
- إنّي سعيد على أيّ حال سعادة لم يعرفها آدمي  
من قبل...  
فقبلته قائلة:  
- ستعرف السعادة الحقيقيّة عندما تنسى الماضي  
تماماً...

- ٧ -

وكلّما مرّ بالباب المحرّم نظر نحوه باهتمام وكلّما غاب  
عن الجناح القائم به رجع إليه... ألح على فكره  
ووجدانه وجعل يقول لنفسه:  
- كلّ شيء واضح إلا هذا الباب!

## ٤٧٦ ليالي الف ليلة

- لن تعكّر دموعي صفو الأمن!  
فقال عبد الله العاقل وهو يتأدى في نفرّس وجهه:  
- دَعْ هذا لتقديرِي وأجبي...  
صمت شهریار ملياً ثمّ قال وكأنا غفل عن الموقف  
كلّه:  
- جميع الكائنات تبكي من ألم الفراق!  
فسأله وهو يبتسم ابتسامة غامضة:  
- أليس لك ماوى؟  
- كلاً...  
- هل يطيب لك أن تقيم تحت النخلة قريباً من  
اللسان الأخضر؟
- فقال دون مبالاة:  
- ربّما...  
قال الرجل برقة:  
- إليك قول رجل مجرّب قال: «من غيرة الحقّ أن  
لم يجعل لأحد إليه طريقاً، ولم يؤسّ أحدًا من الوصول  
إليه، وترك الخلق في مفاوز التحير يركضون، وفي بحار  
الظنّ يغرقون، فمن ظنّ أنّه واصل فاصله، ومن ظنّ  
أنّه فاصل مناه، فلا وصول إليه ولا مهرب عنه، ولا  
بدّ منه...»  
قال عبد الله العاقل ذلك ثمّ ذهب صوب  
المدينة...



رَأَيْتُمْ فِيمَا يُرَى النَّاسُ

## أهل الهوى

ربطت ما بين الدكانين الواقعين في مواجهة الوكالة في الجانب المقابل ثم حدجا القادم من المجهول بنظرة جديدة. إنه شاب في الحلقة الثالثة، ناعم البشرة، مهذب الملامح، أبعد ما يكون عن الوجوه الكالحة المعهودة، ثم قال رياض الدبش مُداريًا انفعاله:  
- اعتداء وسرقة!

ومضى يتجمع حوله جمهرة من المشاهدين ولكنّ نعمة الله نهرتهم فتفرّقوا سراعًا. وجاء مخلوف زينهم من أمام العيادة في الوسط فتلقّى الشاب بين يديه قبل أن يسقط فوق أديم الأرض عاجزًا عن التماسك. ونادى عبدون فرجلة الشاب العامل في الوكالة فأذنت له المرأة بتلبية النداء فتعاوننا - مخلوف المرصّ وعبدون - على حمله إلى العيادة.

هناك أنامه مخلوف فوق كنية وغطاه بملاءة منتظرًا قدوم الطبيب محسن زيان في ميعاده من الضحى. إنه رجل كهل فقد في الحرب ابناً في مثل سنّه ولا ينقصه العطف على أيّ شابٍ رغم إيلافه مناظر العناء والمرص. وكما فحصه محسن زيان الطبيب البدين ذو النظرة الخاملة الطيبة تتم:

- كدمات في الرأس والجبين نتيجة ضربات شبه قاتلة، علينا أن نبلغ الشرطة...

فقال مخلوف زينهم بامتعاض:

- إنهم ذئاب القيو، وستغضب نعمة الله!

تبادلا نظرة تسليم واحتجاج، ثم تتم المرص:

- إنهم تحت حماية المرأة، وهم جنودها السرّيون

عند الحاجة، ولا قبل لأحد بتحديثها...

من فوهة القبو دائمة الظلمة زحف على أربع. زحف في بطء وتحاذل المريض المهالك. مدّ ذراعه إلى جدار بيت، يتكئ عليه، ليقف في عناء مترنّحًا، تاركًا تأوهات المتقطعة تتلاحق في وهن. وفي صباح باكر مشرق بنور الربيع الصافي والحياة تدبّ متدفقة في الحوانيت على الجانبيين وفوق عربات اليد ونوافذ البيوت المتلاصقة العتيقة والسماء تعلو فوق كلّ شيء سققًا من الزرقة الرائقة، بدا عاريًا تمامًا. فلفت الأنظار، خاصّة أنظار الأقربين، نعمة الله الفنجري تاجرة الخردة، رياض الدبش الكوّاء البلدي، وحلومة الجحش بيّاع الفول. تفرّست نعمة الله في منظره من مجلسها فوق الكرسيّ الخشبيّ أمام وكالة الخردة وجسمها العملاق ساكن في جلبابها الرجاليّ الأزرق وتمتمت:

- يا فتاح يا عليم!

فقال رياض الدبش الكوّاء وهو يتابعه بوجهه المغوليّ:

- وراه حادثة من حوادث القبو...

فقال حلومة الجحش بجسمه القصير البدين ووجهه الريّان:

- يفعلها الذئاب وتتعب نحن بين س وج...

واصلت نعمة الله تفرّسها حتى وضح في وجهها ذلك المزيج الغريب المكوّن من قوّة مخيفة وأنوثة ناضجة مكشوفة ثم قالت بنبرة خبير:

- ابن ناس!

تجلى الاهتمام في عيني الرجلين فتبادلا نظرة معبرة

## ٤٨٠ رأيت فيما يرى النائم

فشرع الطبيب في العلاج وهو يقول:

- ما قيمة حياة تجري تحت رحمة امرأة كهذه!

ولم ينقطع ذكر الشاب الضحية في موقع وكالة  
الخرقة. سُغل حلّومة الجحش بزبائن الفول وراح غلام  
في دكان رياض الدبش يسخّن المكواة فوق الجمر المتقد  
على حين انهمك عبدون فرجلة في ترتيب ما تبعثر من  
إطارات السيّارات القديمة وقطع الغيار المستهلكة  
والمحرّكات والمراوح البائدة. وسألت نعمة الله عبدون  
عن حال الشاب الذي شارك في حمله الى العيادة فلاح  
في وجهه الطويل الشاحب الضيق لاهتمامها به وقال:

- سنسمع قريباً عن موته!

فحوّلت رأسها المكّمل بشعر أسود مفروق مسترسل  
في ضفيرة غليظة ملتفة حول صفحة العنق وناظرة في  
طوق الجلباب إلى رياض الدبش قائلة:

- سمعت ما يقول ابن التري عن الأفندي؟!

فتساءل رياض الدبش مستكراً:

- الأفندي؟!

- أفندي وحياتك، أفندي وابن ناس!

فدارى رياض غيظه بابتسامة مينة وإن جرى  
عبدون فرجلة في حنقه أمّا نعمة الله فتساءلت:

- ولكن ماذا جاء به إلى القبو؟

فقال رياض متفصلاً عن صدره:

- وراء بنت من حريم الذئاب!

فقالت بحدّة بصوتها الجامع بين الأنوثة والذكورة:

- مثله لا يجري وراء خنفساء!

- المؤكّد أنّ الذئاب هجموا عليه فضربوه ثمّ

جرّوه من كلّ شيء...

ولما رجع إلى الظهور في الحارة تبدّى في صورة  
أخرى. رفل حافياً في جلباب قديم أهدها إليه مخلوف  
زينهم. لم يتبقّ من آثار الحادث إلا ضيافة التفت حول  
رأسه كالعمامة. وبدلاً من أن يذهب إلى حال سيّله  
هام على وجهه في الحارة مثل كلب ضالّ بنظرة خائفة  
مستطلعة تعكس من الداخل خواء وحيرة ولا تُعرف  
لنفسها هدفاً. ووقف أخيراً في مجال الرائحة الحزينة  
الدسمة البدائية المنتشرة من الطعمية في ابتهاج ذليل.  
حامت حوله أعين كثيرة لرجال ونساء سرعان ما

هجرته في لا مبالاة إلا عينين سوداوين ثبتتا عليه في  
إصرار وتنادٍ. ولمست عذابه فأمرت حلّومة الجحش بأن  
يهدى إليه رغيفاً وطعمية على حسابها. ورغم إشرافها  
على شحن ثلاث عربات بالخرقة ومراقبة عبدون فرجلة  
والمشترين فقد تابعت التهامه للطعام بسرور وحشي.  
يكاد الشعر النابت في عارضيه ولغده أن يلتهم وسامة  
وجبه كما يلتهم هو الطعام. تُرى لم يذهب إلى حال  
سيّله؟ وماذا يبقى في هذه الحال الزرية البائسة؟  
وبدافع من شعور فطريّ بالامتنان تربّع على الأرض  
غير بعيد من موقفها مستنداً ظهره إلى جدار الوكالة  
الذي لاح لأوفها كمخزن لنفايات الحديد. وسألته  
باهتمام:

- اسمك يا جدّ؟

فرفع إليها عينيه العسليتين في حيرة واضحة ولم  
ينبس فتساءلت كالمحتجّة:

- أهو سرّ لا يُداع؟!

فتحوّلت الحيرة إلى صورة ناطقة للعجز فقال لها  
رياض الدبش الكوّاء:

- الصبر، ألا ترين أنّه لم يُشَفِّ بعد ممّا به؟

- لحدّ نسيان اسمه؟

- ما زال غير موجود!

فرجعت إلى الشاب قائلة:

- اسمك؟... تذكر وأجب، من أنت، من أين  
جئت؟

فانقلب العجز عذاباً وتوجّس خيفة فقالت بحدّة:

- قل أيّ شيء...

فغمغم مقهوراً:

- لا أدري...

فردّدت عينيها بين رياض وحلّومة قائلة:

- إنّه يهزأ بنا...

فقال عبدون فرجلة وهو لا يكفّ عن العمل:

- دعيني أطرده بعيداً...

فصاحت به:

- طردت العافية من بدنك!

ونادت مخلوف زينهم فلما حضر الكهل سأله عن

الشاب فقال:

## رأيت فيما يرى النائم ٤٨١

لا أدري كيف أتعامل مع الزواج. بدا غريزة مجسدة  
تيمم في غابة من نقايات الحديد. وسمعت عبدون  
فرجلة يدعوهم بالمجنون فتهرته قائلة بنبوة أمرة:  
- إنه يدعى عبدالله!

فتساءل عبدون:

- ألا ترين أنه لا يعرف دينًا ولا ربيًا؟!

فشكمته بضربة في صدره أوشكت أن تطرحه  
أرضًا، وسرعان ما عُرف بعبد الله، ولكتها قلقت من  
حرّيته المطلقة المنذرة دائيًا بعواقب مجهولة. إنه لا  
يتورّع عن مدّ يده إلى أيّ موضع خصب من جسمها  
فترجمه جاذة حذرة، رغم ظهورها بمظهر الرجال في  
الوكالة طيلة النهار، فكيف لولمحاها في منظرها الأنثويّ  
الطاغي في مسكنها الناعم الخياليّ فوق الوكالة؟! .  
وخطر لها خاطر حكيم أذخرته لزيارة الشيخ جابر عبد  
المعين إمام الزاوية الذي يتلقّى منها المعونة له وللزاوية  
في أيام محدّدة. إنَّها تغطّي طفانيها المخيف بنفحات  
كرم تُسكت بها ذوي الألسنة القادرة، وتمارس في  
الدين طقوسًا وثنيّة فلا تأبى - رغم جبروتها - أن تؤنس  
وحدتها الداخليّة بالأحجية والتعاويد. جالست الشيخ  
على أريكة قائمة في الجانب الأيمن من الوكالة بين تليّن  
من قطع الحديد. وتراءى عبدالله وهو يعاون عبدون  
فرجلة في شحن عربة بالإطارات المساء، ولمحت المرأة  
الشيخ وهو ينظر نحوه فقالت:

- أعطيته عملاً ورزقًا...

فقال الشيخ وهو في أعماقه يخافها ولا يحبها:

- الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً...

- ولكنّه نسي الدين فيما نسي...

- أعوذ بالله...

فقالت بإغراء:

- هذه هي مهمّتك يا شيخ جابر...

- يا لها من مهمّة شاقّة!...

- لا تكن طمّاعًا، وحطّك محفوظ، المهمّ أن تعلمه

كيف يخاف، يكفي هذا...

أدرك لتوّه أنّها تريد على أن (بعده) لها. لعنبا في  
سرّه واستغفر ربّه، وقال لنفسه إنه ليس من حقّه أن  
يسيء بها الظنّ استنباطًا من نية لا يعلمها إلا الله،

- إنه بلا ذاكرة!

فقالت بضيق:

- لم أسمع عن هذا المرض من قبل، هل يطول  
غيابه؟

فقال الكهل بعطف:

- لا أحد يدري، من ناحيتي فأني أسمع لدى  
الطيبين للتبرّع بما يكفي لنشر صورة له في الجرائد كي  
يهتدي أهله إليه...

فقالت المرأة بغلظة:

- كفت عن ذلك ودع الأمر لي!

فرمقها الكهل بيأس ثم قال:

- لك الجزء الحسن عند الله...

ومضى نحو العيادة.

وأفسحت المرأة للشابّ مجالاً للعمل في الوكالة  
معلنة بذلك اهتمامها به فأقلع الجميع عن التفكير فيه  
إيثارًا للسلامة. وراح يؤدّي ما يطلب منه نظير طعامه  
وكسائه، وتجاهله عبدون فرجلة طاويًا حقه في قلبه  
خوفًا من المعلّمة، ولكنّ الحقد عليه تفتّى في قلوب  
كثيرة، في مقدّماتها قلبا رياض الدبش وحلّومة  
الجحش. توقّع كلاهما دهرًا أنّ عبدون فرجلة هو  
المرشّح للتنعيم حتّى زحف الغنى المجهول من القبر  
كالقدر. وتجلّى رونق وجهه بعد الحلاقة، وشعر رأسه  
الممشط بعد إزالة الضمادة كما ارتسمت رشاقة قامته في  
البنتلون القصير الكاكيّ والقميص الرماديّ نصف  
الكَمّ والحذاء الأسود الموكاسان. أمّا هويته المفقودة فلم  
تستردّ، ومضت هوية جديدة بدائيّة تستكشف الوجود  
من حوله بدهشة ثابتة، مستهترّة بالتقاليد والحياة  
والنفاق، لائذة بغرائزها المتحفّزة. وتمنّى له الحاقدون  
الشفاء لعلّه يختفي فجأة كما ظهر فجأة. أمّا نعمة الله  
الفتجري، المرأة الرائعة المخيفة فكانت تحلم بمسيرة  
أخرى. سرّتها نظراته النهمة البيهيميّة، ولغته الصامتة  
المكشوفة ممّا، وحزّمانه الحارّ الجنونيّ حولها بلا حياة،  
حتّى قالت لنفسها «لا بدّ من تهذيبه». قوتها الراسخة  
نفسها اهتزّت حيال هوج انفعالاته الجاحمة، فخافت أن  
يصيبها سوء مجهول بين يديه المندفعتين بعنف البراءة  
العمياء. وقالت لنفسها أيضًا «إني أخيف الرجال ولكن

## ٤٨٢ رأيت فيما يرى النائم

وإن مهمته في ذاتها خير يستحق عليه المثوبة. ودُهِش كثيرون عندما رأوا الفتى يُساق كلَّ عصر إلى الزاوية لتلقي دروس في الدين. وقال السَّدج إنها امرأة شريرة طاغية ما في ذلك شكَّ ولكتها لا تخلو من جانب خير. أما أمثال رياض الدبش وحلومة الجحش فقد فطنوا إلى اللعبة. وتساءل حلومة بحرقة:

- متى أراها فريسة للزمن؟!

كثيرون يعيشون بجراح دفينه حفرتها في قلوبهم أظافر المرأة. حظي من حظي منهم بالعشق حين جادت به وتجرَّعوا الحجر حين هجرت. وعند ظهور فتى جديد يختم في أبهة النصر يتعزَّون عن الأسى يفترض النهاية المحتومة. إنها دائماً تتربص هناك لا دافع لها ولا مهرب منها. ولكن متى تحمد نيران تلك الشهوة المتأججة؟! وراحت تكافئ الشيخ جابر على دروسه بكرم ثم تراقب الفتى وتتظر. ودخل في مقام من مقامات الحيرة، وتجلَّ التساؤل في عينيه. ولم تشأ أن تسأله حتى يبادرها بالسؤال، وقد سألها:

- أهو صادق فيما يقول؟... أعني الشيخ جابر عبد المعين؟

فقالت بحرارة:

- الصديق أعز ما يملك في هذه الحياة...

فاشتدَّت حيرته ومضى يعرف الحياء، ويداري انفعالاته، ويأسف بعد ارتكاب الخطأ. وحثَّت هي الشيخ على أن يعفي الفتى من التعمق أو يكلفه بما لا يطيق. إنها تكره العارفين الذين يستشهدون عند كلِّ موقف بما يناسبه من الآيات. إنها ترغب في امتلاك الشاب وتخاف تمزده، وعلمتها حياتها أن القليل من الدين مفيد أما الكثير منه فيُنذر بالخطورة والغم. وهي مرتاحة إلى غمَّو رغبتة فيها وعذابه الدفين بالتردد والحياء والخوف بعد أن وسع قلبه الرغبة والعبادة في آن. وتمتم أمام شيخه:

- الله والجنة والنار.

فقال له الشيخ جابر:

- تدبّر ذلك بعقل ناضج تجاوز الطفولة

والصبا... فتساءل في حيرة:

- والرغبات الجائعة من خلقها؟

فقال الرجل بضيق خفي:

- هذا هو امتحان الإنسان...

وعلم فيما علم بما ضاع من ماضيه. أي فرد يجهل مستقبله أما أنا فأجهل ماضي ومستقبلي معاً. ماضٍ ليس بالقصير وحفل ولا شكَّ بأشياء وأشياء. ولم يفتن إلى جوِّ الحقد الذي يلفحه إلا قليلاً، فعدا عبدون فرجلة لم يشعر بعداوة مجسدة، ولم يفتن كذلك إلى أن نعمة الله ترصد اللحظة المناسبة لانزاعه نهائياً من يدي الشيخ عبد المعين. ولكن قلباً واحداً ظلَّ يخفق بالعطف عليه هو قلب المرَّض مخلوف زينهم. تسأل مساءً إلى الزاوية فصلَّى المغرب ثم انتهى بالشاب ناحية عقب انتهاء الدرس. لمس التجهم المشوب بالقلق يغشى وجه الشيخ جابر فغضب وقال له:

- اخش ربك وحده!

فتساءل الشيخ بحدة:

- وأنت ألا تخشى المرأة أيضاً؟

- يمكن أن تستمدَّ من العمامة قوَّة وليس لي ذلك.

فقال الشيخ:

- لولا المرأة ما كانت الزاوية!

فقال له بأسئ:

- إنك تعلم أنها ترعاها من أجل الشيطان...

وأقبل على الفتى معرضاً عن الشيخ وقال:

- سوف تستردَّ ماضيك يوماً ما، مظهرك يدلُّ على أنك منحدر من أصل طيب، ولعلك كنت ماضياً في مهمة نافعة، لست من حيناً فماذا جاء بك إليه؟، والعمل المتاح لك اليوم لا يناسبك فماذا كان عملك؟...

فتمتم عبدالله:

- لا حيلة لي الآن...

- هذا واضح، المهمُّ ألا تتورط في مازق يتعذر

الخروج منه إذا انقضت الظلمات...

- نعمة الله هيأت لي عملاً وماؤى...

- هي في الحقيقة نعمة لا نعمة!

- لولاها...

فقاطعه:

- إنها صاحبة خطة قديمة متجددة، سوف تهبك

## رأيت فيما يرى النائم ٤٨٣

العصبية، ويتساءل متى يبدأ العشق قصته، وماذا يمكن أن يقال عن المصير المحتوم، وألا يكون خسارته أكبر إن تجنّب التجربة المغرية ليتفادى من المصير المحزون؟! . خاض فترة قلق، وتطلّع الى معلّمته بنفاذ صبر، وجزع لانهاكها في العمل وما يبدو من تجاهلها لحاله. غير أنّها كانت قريبة منه أكثر مما يتصوّر، ومتغلغلة في تلافيف ذاته بقوة امرأة أسيرة في أسيرة في آن. إنّها رغم قوتها المعترف بها، وقدرتها الإدارية، وسطوتها الأسطورية، فريسة لخياها المنطلق وعواطفها الجائعة. إنّها تعشق حتى الموت، وعشقها داء لا دواء له، وعندما يرشّح لها قلبها فتى من الفتيان فتهميم به وتجنّب، ولكنّ الخبرة ترسم لها وسيلة ظاهرها القوة واللامبالاة. تُوكّد لديها أنّها تعاني حال عشق جنوني لا نزوة طارئة فتأهبت للتجربة. لاذت بخلوها الصغيرة بمسكتها الوثير المفروشة أركانها بالثلث الدسمة المكسوة بالأغطية الخضراء، يتوسطها وعاء نحاسي مجوف ملئ نصفه بالبخور ونصفه الآخر بقصاصات منقوشة بالتعاونيد والأدعية والنداءات الخفية. ذرت قبضة من البخور في مجرة ثمّ لهجت بابتهالات تستحضر بها ساحرها القديم الذي غادر الدنيا على عهد شبابه الأول. وشملت الظلمة المكان إلاّ لآلئ تتألّق في الجمرات وانتشرت رائحة البخور العميقة مفعمة بالابتهاال والنداء. وحلّ بالظلمة وجود جديد، ثمرة للرجية الحارة المستميتة، كحضور ذي وزن ملأ فراغ الخلوة بثقله غير المرئي، ومرعان ما انقشعت الوحدة وتلاشى الألم. تشجّعت وهمست دون أن تحجّف عرقها:

- أهلاً بك يا برجوان . . .

فنفذ إلى أعياقها صوته المخلف بالموت:

- القبو يطيعك، الرجال يخافونك، شبابك

حي . . .

فهمست بإشفاق.

- حلّ بي الجنون من جديد.

- صاحبك أيضاً مجنون.

- قد يرجع إلى ذاته قبل أن أبرأ من عشقه!

- إذا رجع نسي الماضي ولا حيلة في ذلك.

نفسها فتظنّ نفسك سيّد العالمين . . .

فتورّد وجه الفتى وخانه السرور فأضاء به وجهه فقال الرجل بحزن:

- لست الأوّل ولن تكون الأخير، وسوف تلفظك حتّى وبلا رحمة فتتلاشى ساعات السعادة الزائفة في حاة المجر الدائم وتنضمّ إلى ركب التعماء الكثيرين . . .  
قلقت في عينيه العسليتين نظرة حائرة ولكنّ موجة الفرحة القريبة الراقصة اكتسحت نذر المصير المخيف المجهول، فقال الرجل وهو يصارع الهزيمة:

- إنّها قويّة بلا حدود، حتى ذئاب القبو الذين اعتدوا عليك يخضعون لها، وعند الضرورة تزهب روح من يعاندها، هي السحر وكفى . . .

فتساءل الشاب احتراماً لعطف الرجل:

- ماذا تريد منّي؟

- أن تهجر الحارة في الحال . . .

- إلى أين؟

- ستجد لك رزقاً في مكان ما حتى تستعيد ذاتك . . .

صمت دون حماس فتساءل الرجل بقلق:

- أوقعت في قبضة قدرك؟

فأجاب به صمت ناطق واستخفته الفتنة، وشعر مخلوف زينهم أنّه يجري بعيداً عنه، وأنّه ينطلق نحو تجرّيته المهلكة بحماس دافق. تنهّد الرجل. قام وهو يتبادل مع الشيخ نظرة حتى ثمّ مضى وهو يقول للشاب:

- الله معك!

وهلّ الصيف بشخصيته الواضحة المتحدّية، وتحت شمس المحرقة سرى العنف في الحناجر واحتدم الخصام لأنفه الأسباب. وأنهم عبدون فرجة الفتى بسرقة قروش انتقدها فانقضّ عليه يصارعه لولا ظهور نعمة الله في اللحظة المناسبة وإنذارها عبدون بالطرود إذا عاود العدوان. وقرّرت المرأة كفّ الفتى عن دروسه الدينية اكتفاء بما حصل من قشور فكثّر الفراغ في حياته كما كثرت المموم. بات يخاف الله، ويخاف عبدون، ويخاف تحذيرات عمّ مخلوف زينهم، ويتساءل عن ماضيه الطيب والمهمّة التي جاءت به إلى هذه الحارة

## ٤٨٤ رأيت فيما يرى النائم

فقال بتوسّل:

- سحرك قادر على كلّ شيء.

فقال بضجر:

- أولى بك أن تحذري غاوف زينهم.

فهمست بقلق:

- أعلم نواياه ولكنّي أخاف أو أؤدبه بنفسني فأرعب

الفتى...

- فتنهّد الظلام في استجابة، وتلاشى الحضور في

الحال فعدت إلى وحدتها ولكن بقلب مترع بالثقة.

وأقعد المرض الممرّض مخلوف زينهم عن عمله في عيادة

الطبيب محسن زيان. وعُرف في الحارة أنّه أصيب

بروماتزم مفصليّ شديد غير أنّ الشيخ جابر عبد المعين

قال لزوجته:

- إنّه من عمل نعمة الله!

فقال المرأة مذعورة:

- ليترك لم تشّ به.

غضب الشيخ ولطمها على وجهها لطمه شديدة.

وأراد عبدالله أن يعود الرجل الذي كان أوّل من

كسله بعد عري ولكنّ نعمة الله قالت له:

- لا أحبّ هذا...

ثمّ خفّفت من وقع أمرها فقالت له:

- مسكني في حاجة إلى الخدمة، وقد اخترتك

لذلك.

ونسي صاحبه وتساءل في سرور طاغٍ وتُرى هل

انتهى العذاب؟! وثمة باب في الوكالة يفتح على

سَلَم للمسكن تسلّل منه ليلاً. استقبلته رائحة البخور

وضوء مصباح كهربائيّ مثبت في أعلى الجدار. صعد

في الدرج ووجدانه يسبقه يطمس بُحمياه معالم المكان.

في نهاية دهليز رأى باباً مُوارباً يشعّ منه نور، مضى إليه

وتنحّج. جاءه صوتها الليليّ الرخيم داعياً فدخل. لم

يَر من الحجره سواها وهي مستوية على كتبه مسندا

مطعم بالصدف في جلباب حريريّ أبيض يخفي

قسيمات الجسد ولكنّه ينبئ عن عملته بطريقة انسيابية

تثير الخيال. وليس في الوجه المتسلطن أثر من زواق

ولكنّه ينضح بانوثة فوّارة بعد أن خلعت قناع الذكورة

الصارم الذي تتعامل به في الوكالة والحارة. والشعر

الأسود ذو لون طبيعيّ لا يشي بأيّ تكلف كياويّ،

دافئ يشباب راسخ. تركته واقفاً في جلبابه الفضفاض،

لم تحفّف من ارتبائه بكلمة، كأنما لتمتحن أثرها فيه،

ولترى لأيّ تكون الغلبة: الخوف أم الرغبة؟. ومن

شدة حرجه انتزع عينيه منها ليلقي نظرة عمّا حوله

ولكنّه لم ير سوى النظافة وكأنتها تقوم بذاتها. وتنفس

رائحة طيبة. قال:

- لعلّه وقت مناسب لتنظيف المسكن ولكنّه ليس في

حاجة إلى تنظيف...

فصبت من إبريق مفضّض في قدحين فوق خوان

مطعم بالأصداغ سائلاً فاحت منه رائحة القرقة

المزوجة بالزنجيل، وعادت تنظر نحوه. ويسريان

الخمير غير المنظورة في دمه التصق بصره بها في جراءة

السكران. وتمادى في انفعاله حتّى اكتسح العواقب

واستسلم لتيار قويّ دفع به نحوها كالقذيفة.

وكالقذيفة راح يتنقل بين أبعادها وهي تتلقّفه بحنان

حارّ، ورؤى أسر، واستجابة مستكينة وحاسية معاً.

وما لبث أن توجّ فوق عرش النشوة والسيادة، وامتلاً

واقعه بعذوبة الأحلام. وتمتّى لو استمرّ ذلك دون

توقّف، لو كان الحبّ ذا سياسة أخرى، لو أنّ السعادة

لا يجرفها تيار الذكريات. لكنّه وجد نفسه راقداً في

حضن الفتور الجليل يرى الأشياء لأوّل مرّة. إنّها

حجرة أنيقة حقاً. متوسّطة الحجم، مزينة الجدران

بسجاد صغير وبسملة مذهّبة، تتوسّط أضلعها كنبات

وثيرة ذوات أعظية مختلفة الألوان ومساند مطّعمة

بالأصداغ مموّهة بالأمثال، مغطّاة أرضها بسجادة حمراء

في وسطها مجمره كبيرة تحت مصباح كهربائيّ في

قنديل. وسرعان ما انتقل من الفتور إلى القلق حتّى

قالت له:

- نظرة عينيك لا تعترف بجميل.

فلثم خذها وهو يقول ببراءة:

- أخاف النار!

فابتسمت قائلة بحنان:

- عندما تهب المرأة نفسها فالعلاقة شرعية مباركة!

فمال إلى تصديقها بكلّ قواه ورآها جديرة بالانقياد،

أما هي فواصلت:

## رأيت فيما يرى النائم ٤٨٥

فقال بحماس:  
 - أن يدوم الحال...  
 فقالت بنبرة صدق:  
 - هو ما أوتّه أيضًا...  
 - إذن فلن يهدّد دوامه شيء...  
 وصممت قليلاً وهي تتفحصه ثمّ سألته:  
 - ألم يعد يهّمك أن تعرف المجهول من حياتك؟  
 فهتف ضاحكًا:  
 - أبدًا، الحقّ أنّي أخشاه على حاضري...  
 - وأنا أيضًا مثلك.  
 وبمفوية تبادلًا قبله ثمّ قال:  
 - ألا توجد وسيلة لحماية حبنا إذا انكشف المجهول؟  
 - هذا ما لا أدريه...  
 فتساءل بحرارة:  
 - ألا ترينه أقوى من أن يؤثّر فيه شيء؟  
 فقالت بحماس:  
 - هو كذلك...  
 فاستوى حصنًا منيعًا من اليقين والطمأنينة خليقًا بأن يصمد لأجنّ العواصف والترهات. وشمّل بسعادته فلم ينتبه لجريان الزمن. في تلك الغفلة العذبة تلاحت أيام الصيف لاهثة وتسأل الخريف بخطاه الخفيفة، ينفث في الجوّ أنفاسه الرقيقة ويخضب السماء بعشراته البيضاء ويغزو القلوب بأنغامه الشجيّة. ومضت نيران العواطف المتأججة تخجّو قليلاً قليلاً، ويحلّ محلّها حبّ هادئ، موسوم بالاعتدال، متحرّز من جنون الإفراط، مالك لوقت ينفقه في التعامل مع سائر أركان الحياة. وزحف ذلك التطوّر على الطرفين معًا، الفتي والمرأة، فخلطوا أحاديث الهيام بهوم الوكالة والحارة، واستأثّر الجذّ بالحوار حينًا فخلًا من آية مداعبة، فانبثق التلاقي الحميم ثمرة للريّة مرّة، وثمرّة للعادة أو دفنًا للشكوك مرّات، حتى تسأل عبدالله ما هذا الذي يحدث؟! بدا كلّ شيء بالقياس إليه. بخلاف المرأة. كأنما يحدث هكذا لأول مرّة في تاريخ البشر. واسترق النظرات إلى المرأة المادئة فساورته الشكوك وازدحم أفقه بالفكر. ولمح يوماً عمّ

- منذ الساعة فأنت شريك في البيت ووكيلي في الوكالة!  
 وتبدى في صورة جديدة، صورة المعلم الشابّ بجلبابه الأبيض ولائته المزركشة، وزهوه المتورد. وعمل عبدون فرجلة في ظلّه، مكرهاً على طاعة مرّة كالسمّ، منطويًا عن مقت وحسد كالنار. وشاركه في عواطفه الدفينة رياض الدبش الكوّاء وحلّومة الجحش الفوّال وآخرون. ولكنّ عبدالله تجاهل في نشواته العواطف الدفينة. وأقبلت السعادة كالشمس تنتشر أشعتها في جميع الأرجاء فجذبت مسمعيه ضحكات السكارى والمساطيل وأطربتها أنغام المزامير الراقصة وأغاني الراديو وتصام عمّا عدا ذلك حتى آمن بأنّ مهجره الجديد ما هو إلّا موطن للسرور والرحمة فشكر الحظّ الذي ساقه من المجهول إلى القبو واستخلصه من ماضٍ لا يجوز أن يأسف عليه. وانغمس في الحبّ في الليالي المذابة في أقداح القرقة والزنجبيل الحارّة لنفثات السحر، الداعية لعوالم الخيال والذهول. وتكشّفت نعمة الله عن معجزة لا نهاية لإبداعها وفنونها وأنغامها، ولا نهاية لقدرتها الخارقة في إشعال الحيويّة وتفجير الطاقة، وخلق المسرّات، وإشباع الكرامة، وإرضاء الغرور. انغمس في الحبّ حتى قمت رأسه، وتعلّق بها حتى الجنون، وأهملته سعادته الإحساس بالدوام والخلوّ، فافتتح بكلّ قواه بصدقها وإخلاصها ووفائها، وتطايرت أصداء ما قيل له عنها فأنسيه وكأنّه لم يكن. ونسي تمامًا القلق والتساؤل والحيرة والإساءات العابرة فبدت جميعها كالأشباح الوهميّة التي تفتى في ضوء الشمس الساطع. وقالت له ليلة في دعابة:  
 - أراك لا تتكلّم إلّا نادرًا...  
 فتحتّر قليلاً ثمّ قال:  
 - السعيد لا يجد ما يقوله إلّا نادرًا...  
 فابتسمت قائلة:  
 - كُتّب علينا ألا نسمع إلّا ما يسوء!  
 فقال ضاحكًا:  
 - إنّي أثرت ولكن بغير لسان!  
 - ألا توجد في قلبك رغبة؟



وساوسه فيشرق الأمل بنفسه من جديد. وتشجع في ليل ذلك اليوم الخريفى وقال لها وهما يرشغان من قدحي القرقة بالزنجبيل وبيسان في ملكوت الأوهام الحانية:

- أتدرين ما يُقال عنك في الحارة يا نعمة الله؟
- فداعبت وجتته بأناملها وقالت:
- لست غافلة عن شيء يهمني أبداً.
- فقال بامتعاض:
- ما أظلمهم يا نعمة الله...!
- فتساءلت في دعابة:
- أتراني ملاكاً؟
- إنك عظيمة وطيبة... .
- فقالت بهدوء:
- ولكي أكون عظيمة وطيبة يجب أن أكون أحياناً حازمة وقاسية... .
- فتساءل وهو يكتفم وساوسه:
- لك تاريخ عجيب ولا شك؟
- طبعاً، إني سلية فتوات، كما كان أول زوج لي فتوة فنشأت قوية ولكني كنت يوماً وما زلت ذكية فسلمت بانتهاء عصر الفتوة، غير أنه لا غنى عن القوة والذكاء.
- أحقاً تسيطرين على الذئاب؟
- نعم، إن لم أسيطر عليهم سيطر عليهم الآخرون وحلّت القوضى... .
- فسأل بعد تردد:
- وهل تحيدين السحر أيضاً؟
- ففكرت قليلاً ثم قالت:
- هذا هو الاسم الذي يطلقه العجزة على الذكاء... .

فقال بقلق:

- التعامل مع العقاريت أمر مخيف... .
- فتساءلت ساخرة:
- هل عثرت على عقريت في هذا البيت الجميل؟
- فتنفس بارتياح وتساءل:
- لم لا تعيشين مثل الناس العاديين؟
- فقال بكبرياء:

مخلوف زينهم وهو ماضٍ نحو العيادة فاستعاد تاريخه معه في لحظة. أدرك بكل سرور أنّ الرجل برئ من مرضه فاندفع نحوه بتلقائية. ولكنّ الكهل صدمه بنظرة باردة رافضة وابتعد عنه في تجاهل تام. توقّف متعزّراً في ارتياكه، متذكّراً ذنبه في إهماله حين مرضه، وتراجع إلى موقفه وهو يتلقّى من أعين كثيرة نظرات لاذعة. شعر بأنّه خسر صديقه الوحيد في الحارة. وانتبهت حواسه لما حوله من جديد فقرأ الحسد والشهامة في أعين عبدون ورياض وحلومة. الجور مشحون بالكرهية والحسد. وتذكّر تحذيرات زينهم فأوشك أن يفقد الثقة، ويدافع من تحدّ راح يقطع الحارة ذهاباً وإياباً ويختلف إلى المقهى بعض الوقت. وتلقّى أذناه كلمة من هنا وكلمة من هنا. لم يتصوّر أن تكون امراته الشغل الشاغل للناس بهذه القوة. هل عشقتهم ونبذتهم جميعاً؟! إنهم يخافونها بقدر ما يمتنونها وكأنّها لا حيلة لهم قبالتها. وهي في نظرهم قوية، بل أقوى من جملة رجال أشداء، ولكن لا أهمية لقوتها إذا قيست بتمرسها بالسحر وتعاملها مع العفاريت، أو بتسلطها على ذئاب القبر الذين لا يتورعون عن القتل خدمة لها. ولا يكاد ينخدع أحد برعايتها للزاوية وشيخها أو برها ببعض الفقراء، ويرون في ذلك ستاراً كاذباً تسدله على آثامها ورغبتها الشرهة في التحكم في الناس والأرزاق. واذن فجميع مظاهر السرور في الحارة ما هي إلا قشور أما الحقيقة فهي أنّها تعيش في جوٍّ موجج بالخوف والحقد، تهده في كلّ حين الذئاب والعفاريت، وتنحصر في الوقت ذاته عن ساعات لذّة عابرة جادت بها المرأة المحترفة في غفلة من الزمن. أهذه هي نعمة الله حقاً أم أنّه خيال يشعله الحسد والحقد؟! ألم يجد حبّها صادقاً وعطفها شاملاً وإخلاصها راسخاً؟! وحتى الهدوء الذي آل إليه ألم يقع له نفس الشيء؟! هل يمكن أن يتهم هو بسبب من الاعتدال بعد الجنون بفتور الحبّ أو انقلاب العاطفة؟! ولكن من ناحية أخرى لم يتقرّر له مصير غير مصير الآخرين؟! لم يتجّ من الكأس التي تجرّعها الجميع حتّى الثمالة؟! وتلقّي عيناه بعينيها وهي منهمكة في العمل فتبتسم إليه ابتسامة حلوة تمحى

رأيت نيا يري النائم ٤٨٧

المجهولة؟!». وكان يتذكر حياته الأخرى لأول مرة منذ  
أمد غير قصير. أكان أسعد حالاً أم أتعس؟! أكان  
أرفع منزلة أم أدنى؟ أكان يحترق بغضب الآخرين أم  
نعم بسلام دائم؟! من أي جهة جاء وأي جهة  
قصد؟! لكنه عبر ذلك بسرعة وكاد ينسى كل شيء  
لولا أن سألته في مجلس الليل:

- فيم تفكر يا عبدالله؟!

فأجاب بسرعة:

- لا شيء...

- كنت في النهار كالمسافر.

وذابت إرادته تحت نظرة عينيها فاعترف لها  
بتساؤلاته. فنظرت إلى السقف المنقوش بزخارف  
متداخلة لا يعرف لها أول ولا آخر، وقالت:

- إنها أول إهانة أنلقاها منك...

فهتف بجزع:

- خواطر فارغة ولكن لي عذر.

- لا عذر لك...

- تقبلي أسفي...

فتساءلت في عتاب:

- ماذا تريد أكثر مما أعطيتك؟

- لا شيء.

- ولكنك تحوم حول تساؤلات عقيمة، وهذا هو

الحق...

- نطقت بالحق.

- لا تكن منافقاً كالآخرين.

- بل نطقت بالحق وما أطمح إلا إلى دوام ما أنا

فيه...

فقال بحدة:

- ستعرف مجهول حياتك ذات يوم وسوف

تندم...

شعر بأنها امرأة محبة وغيور، ونعم ليلتها بسعادة  
صافية، وعندما ساد الظلام خطر بياله سؤال «تري  
هل الندم هو الجزء الأوحيد لمعرفة المجهول من  
حياته؟!». ولكنه رغم الظلام، وهبوط النوم، خاف  
أن تفضحه نظرتها النافذة. وانغمس في حياته بإصرار،  
وركز على سماع الأغاني والنكات، وتجنب ما استطاع

- لأنني لست عادية!

وساد الصمت حتى تجلّت للسمع أصوات رقيقة  
للخريف في الخارج، وجعلت تلحظه باهتمام فلما لاذ  
بالصمت قالت مستلهمة نظراتها النافذة في الأعماق:

- قل ما عندك، ما زال عندك ما يُقال...

فضحك ضحكة قصيرة وتساءل:

- أحقاً تزوجت من كثيرين؟

فقالت باستهانة:

- نعم.

- وهجرتهم أو أجرتهم على المجران؟!!

- نعم.

فتساءل وقلبه ينفق:

- ولكن لماذا؟!

فقالت بيروء:

- لم أجد بينهم صالحاً...

وراقبت وجومه قليلاً ثم همست في أذنه:

- أنت أول من أجد!

فرنا إليها غير مصدق فقرا الصدق في عينيها

الجميلتين المتسلطتين وهمس في أذنها:

- لا حياة لي بدونك يا نعمة الله...

- ولا حياة لي بدونك...

فقال بحماس وحرارة:

- أخاف عليك حقدهم المنتشر...

فقالت ساخرة:

- لا خوف من حقد مصدره العجز...

- كراهيتهم لي أيضاً تلفحني في كل خطوة.

فقال بوضوح:

- احذر أن تظهر خوفاً أو قلقاً.

مضى يسترد الثقة والسكينة بين يديها، ولكن تبدد

أمنه في الوكالة والحارة. استعاد حديثها كثيراً فلم

يعرف الاستقرار قلبه. امرأة تشير عواطف شتى

ومتناقضة. تُلهم الحب والطمأنينة والخوف والشك.

يراهما في الوكالة شخصاً آخر. يرى رجلاً قوياً ومثالاً

للمحزم والعنف أيضاً. لا تقارب بينه وبين الأنثى التي

تبهج الليالي في المسكن الناعم. وخطر له أن يسأل

نفسه «تري هل وجد مثل هذه الحيرة في حياته

فرح شرير. ما أكثر الذين ينتظرون على لَهف نهايته. ولَكِنَّه سيخَيِّب الظنون ويبدع في مجرى الحوادث ما لم يبدعه أحد تَمَن سبقه. سيظلُّ الفتى المرموق في هذه الحارة التي يحترف أهلها الشكوى والعيويل وتردّد أغانيها أنات المجر والحمران. وشعر بحاجته إلى صديق يشاوره. ولكن لا صديق له فمن يشاور؟! وخطر له الطبيب محسن زيان فذهب إلى العيادة فكان أوّل زائر في الصباح. قابله مخلوف زينهم كغريب فقال له عبدالله:

- السباح من شيم الكرام يا عمّ مخلوف. فقال له الكهل باستياء:
- إني أعلم متى ينسى أمثالك ومتى يندمون. وغادره إلى حجرة الطبيب ثم عاد ليدعوه للدخول في جفء. نظر إليه الطبيب متفحصًا ملبسه البلدية الصوفيّة الفاخرة وابتسم، ثمّ سأله:
- جئت من أجل ذاكرتك؟ فأجاب بصوت مهموس عمّا جاء من أجله. وطرح الرجل عليه أسئلة بخصوص عمره وعمله والأسلوب الذي أتبعه في حياته «الزوجيّة». ثمّ قال له:
- إنّه الإفراط البعيد عن العقل... والقلق النفسي... تلزمك راحة جسديّة ونفسية... فهمس عبدالله:
- والدواء؟ هرّ رأسه نفيًا وقال:
- سيضرك أكثر مما يفيدك... رجع إلى الوكالة مغتنيًا وهو يلعن الطبيب. وازدادت حاله سوءًا فحصر في ركن مظلم وغمغم لنفسه «كأنّه مصير لا مفرّ منه». وإذا بعبدون فرجلة يسأله:
- سلامتك. لماذا ذهبت إلى العيادة؟ فقال له بحنق:
- انتبه لعملك، متى كانت صحّتي تهمك؟! فقال الشابّ متظاهرًا بالجدّيّة:
- سمعت الشيخ كافور يقول يومًا ولا يملك إنسان ما يستحقّ أن يُحسد عليه حقًا... فصاح به:
- أنت كاذب ولم يَحُلْ قلبك من الحسد ساعة

نثار سُواطِ الغضب الهادر وتمتّى أن تمضي حياته هكذا أبدًا. على أنّ الحياة مضت في طريقها على أيّ حال، وانتهى الخريف كما انتهى الصيف من قبل وإن لم ينته في غفلة كاملة. ولا بنفس السرعة. ولكنّ الليل طال وتلّقت بواكير الصباح بالظلمة وزفرت الأبدان قشعريرة. وتأخّر شروق الشمس حتى انقشاع الغمام وجادت السماء بمطرة واحدة. وغير ملبسه الداخليّة والخارجيّة وتواصل التغيير فشمل أشياء كثيرة. تسلّل التغيير في خطوات غير مسموعة ولولا حساسيّته ومخاوفه الدفينة لأفلت منه تمامًا. وزاد من قلقه أنّ التغيير يبتثق منه، من أعماقه، ففتر حماسه لمجلس الليل الذي لا يعد بجديد وغدا الاستسلام للنوم ألدّ من السهر، وتمتّى لو كان له أصحاب يسامرهم في المقهى حتى منتصف الليل. وانطقات بروق كثيرة تحت عباءة العادة الثقيلة، فاستيقظ الفكر وخبثت شعلة العواطف والغرائز، وخاف أن يقف كالمتهم بين يديها، أن يتلقّى من عينيها السوداوين نظرة ساخرة ولَكِنَّه وجدها تسايهه بارتياح وغفويّة. وتشغل عن اللهو والزينة بالتفكير في العمل أو باستقبال بعض العملاء ثمّ يأويان إلى النوم آخر الليل مثقلين بالتعب. توقّع منها مطاردة محرّجة فوجدتها تغوص في العقل والهدوء واللامبالاة. وفجر ذلك قلقه ولم يطمئنّه، ورأى فيه نذير شرّ. وصمّم على افتعال العاطفة وبعث الرغبة المرهقة مهما كلفه ذلك من جهد جنونيّ. ولم يحظّ ذلك من الطرف الآخر بعطف فأعرضت عنه مرّات في استياء لم تحاول إخفائه، حتّى قالت له مرّة:

- دع الأمور تجري على سجيّتها... عند ذلك أضناه الحياء والألم. وتدم على ما فرط منه من اندفاع جنونيّ أحمق. كأنما كانت كلّ ليلة هي ليلة الوداع. ويات ذلك الفتور شغله الشاغل فنتسي كلّ مأساة إلا مأساة الحب. هل يفقد هذه القوّة العجيبة كما فقد الذاكرة؟ وهل يجري عليه ما جرى على أزواج نعمة الله السابقين؟! وجعل يقوم بعمله في الوكالة بعقل غائب ووجه نضب فيه معين السرور والمرح. ولحظ أنّ عبّدون فرجلة يتابعه بشهاتة، وأنّ نظرات رياض الدبش وحلّومة الجحش تشرق بأضواء

## رأيت فيما يرى النائم ٤٨٩

- لو كنت تعيش في بيتك القديمة بين أهلك  
لساعدك ذلك على الشفاء، ولوجدت في معلم ما أو  
شخص ما يوقظك من نومتك الطويلة، ولكنك  
مارست حياة تشجع على النسيان وتحاف اليقظة...

فسأله يائسًا:

- والعمل؟

- لعل إصابتك عضوية، ولعلها أكثر مما قدّرت،  
وفي هذه الحال يستحسن أن تستشير إحصائيًا، وربما  
أحالك إلى طبيب نفسي...

فقال بضيق:

- إنه مشوار طويل.

- ويحتاج إلى إرادتك في جميع الأحوال، وواضح أنّ  
صحتك ليست على ما يرام، وسأكتب لك بعض  
المقويات كخطوة أولى...

وليت في العيادة حتى غادرها الطبيب للغداء فوقف  
قبالة مخلوف زينهم قائلًا:

- إنّي مصمّم على نيل عفوك...

فقال الرجل متمعنًا:

- لا ثقة لي فيك ولا في غيرك...

- لا أحد يستحقّ الثقة كما قلت ولكنّ كثيرين  
يستحقّون العطف...

- أنكرتني والشمس تشرق ورجعت إليّ وهي تؤذّن  
بالغروب...

- اغفر لي ذنبي ومدّ إليّ يدك...

فهيبت حدّته درجات وهو يسأله:

- ماذا تريد؟

ذهبًا معًا إلى المقهى، فأرسلنا الصبي لإحضار غداء  
من شوربة العدس ولحمة الرأس، وجعل يحكي له ما  
استجدّ في حياته من شقاء، وختم حكايته بنصيحة  
الطبيب محسن زيان. وكان يمدّجه طيلة الوقت بنظرة  
كأنما تقول له «وأرأيت عاقبة إهمالك لتصبحني». ثمّ  
قال:

- نهاية ابني الشهيد معقولة أكثر من نهاية أمثالك  
ولكن لا فائدة من الرأي أو المشورة، الجميع  
مصمّمون على تكرار الأخطاء حتى ولو لم يداخلهم  
أذن شكّ. في النهاية يستوي في ذلك من فقد ذاكرته

واحدة...

وخيل إليه أنّ حكاية الاستشارة الطبيّة تلوكها أنسة  
لا حصر لها فازداد انحصارًا في الغمّ واليأس وعمغم  
لنفسه مرّة أخرى «كأنّه مصير لا مفرّ منه» وفي هذه  
الدوامة المظلمة المنذرة بسوء المصير انساق بقوة إلى  
التفكير في المجهول من حياته. فقد يجد فيه المأوى إذا  
افتقد مأواه، وقد يجد فيه العزاء إذا عزّ العزاء. هذه  
الحياة المتاحة تنسرب من يديه كالماء، لم تعد حقيقة  
ثابتة ولكنّها حلم تحديق به يقظة الصباح القريب،  
وسوف يجد نفسه وحيدًا منبوذًا ضائعًا إن لم يتبد إلى  
حقيقته الغائبة. إنّه صاحب حياة ماضية، تمثّلت في  
أهل وعلاقات وأناس، تجسّدت في حيّ من الأحياء  
القريبة أو البعيدة، وثمّة عمل ارتزق منه، وربما زوجة  
وأبناء، وثمّة هدف دعاه إلى المجيء إلى هذا الحيّ،  
وحدث ما دفع به إلى القبو حيث وقع له ما وقع ففقد  
كلّ شيء. تُرى ما السبيل إلى الكشف عن تلك  
الحقائق الغارقة في الظلام؟! وقد سمع ما يقال عن  
نشر صور المفقودين في الصحف فلم لم يجد أحد في  
البحث عنه؟ وهل ينشر هو صورته باعتباره فاقد  
الذاكرة؟! تردّد طويلًا أمام هذه الفكرة لخطورة  
عواقبها. أجل قد دار الحديث يومًا في المقهى عن  
هارب تبحث عنه الدولة لتشفه، كما سمع آخر يقرأ  
إعلانًا لأسرة موجّهًا لابن هارب تقول له: «يا  
فلان... عد إلى أهلك، جميع طلباتك مجابة!»، فإلى  
أيّ الفرعين ينتمي؟ وهل إذا نشر صورته انقضّت  
عليه الشرطة أو تحققت أمنياته جميعًا؟، ماذا يكمن  
وراء الباب المغلق؟! تراجع عن الفكرة وهو يزداد  
مرارة، وشعر - كما لم يشعر من قبل - بحاجته إلى  
الصديق أو في الأقلّ المشير. لم يفكر في نعمة الله التي  
مضت توغل في الغربة والبعد حتى كاد ينكر المسكن  
تواجهما معًا تحت سقفه. ومضى إلى العيادة، ولما رآه  
الطبيب محسن زيان تساءل بأسفًا:

- من أجل الحبّ أيضًا؟

فأجاب بضيق وهو يشير إلى رأسه:

- من أجل الذاكرة...

ففكر الرجل طويلًا ثمّ قال:

٤٩٠ رأيت فيما يرى النائم

ومن لم يفقدها، والآن خترني علامَ عوّلت؟!

فقال عبدالله بضيّق:

- طريق الطبّ طويل وباهظ التكاليف...

- وغير مُجِدِّ في هذه الحال بالذات...

- والعمل يا عمّ مخلوف؟... هل أزور الشيخ

جابر عبد المعين إمام الزاوية؟!

فقال بغضب:

- لا هو إمام ولا الزاوية زاوية، إنّه رجل جاهل

عَيْتته نعمة الله للخداع السّدج، وهي التي شِيدت

الزاوية من مال حرام للخداع أيضًا، إنّه لعبة مكشوفة

ولن تجد عنده رأيًا ولا شفاء عدا بعض السور الصغيرة

التي كان يرتلها في المقابر كلّما جاء موسم دون أن يفقه

لها معنى...

فقال عبدالله بقلق:

- ولكيّ أخشى عاقبة الإعلان عن نفسي في

الصحف...

- معك حقّ، فقد تكون أخطر ممّا تصوّرنا، ولكن

عندنا الشيخ كافور فهو من رجال الله...

- أهو يستعين بالسحر والعفاريت؟

فقال مخلوف زينهم بازدراء:

- إني أتحدّث عن كافور لا عن نعمة الله

الفتجري.

وكان كافور يقيم في بدروم البيت الذي يقيم فيه

رياض الدبش الكوّاء البلديّ، فبدا جرّ حجّته في

لون الغروب أو الفجر، وعبق بشذا بخور طيّب.

وجلس الرجل في الصدر على أريكة قصيرة الأرجل

على حين غطّى سطح الحجر بحصيرة مطموسة

اللون. ترَبّع مخلوف وعبدالله على الحصيرة أمام

الأريكة بلا استئذان ولا تحيّة، وتقرّس عبدالله في وجه

الرجل فلم يميّز ملمحًا من ملامحه ولا حتى لون وجهه.

وقال مخلوف:

- هذا ابن ضالّ من أبنائنا يدعى عبدالله...

فسأل صوت عميق هادئ رغم خفوته:

- ما اسم أمّه؟

- لا يعرف أمّا ولا أبًا...

فمدّ الشيخ يده فهمس مخلوف في أذن عبدالله:

- ضع يدك في يده.

فصدح بالأمر وهو يتلقّى تشعيرة هيبية أو خوف.

وسرعان ما سرت من راحة الشيخ إليه برودة لطيفة

أنعشته فتركز في أذنيه، ومضت دقائق نسي فيها كلّ

شيء حتّى ما جاء من أجله كأنما امتصّ الرجل وعيه

كلّه ثمّ تردّد الصوت العميق الخافت قائلاً:

- ستعرف ما تسأل عنه في حينه بالتمام والكمال.

وسحب يده قائلاً:

- اذهبوا بسلام.

وغادرا المكان وعبدالله يراوح بين الأمل والخيبة.

قال لصاحبه في الخارج:

- ظننت أنّي سأسمع أكثر ممّا سمعت...

فقال مخلوف زينهم:

- كلامه بالقطارة، ثمّ إنك غير مؤهل لفهمه...

ولما رجع إلى الوكالة وجد نعمة الله تجالس شابًا لم

يره من قبل. شابّ في عزّ أئمة الشباب جميل الوجه

رشيق القامة. فهم من مجرى الحديث أنّ الشابّ

يقترح فتح فرع للخردة في الطرف الآخر من الحارة

وأتمّها تقترح عليه أن يكونا شريكين. ولفت انتباهه

الحيويّة التي تألقت في نظرات المرأة وهي ترنو إلى

الشابّ ممّا ذكره بالماضي السعيد الذي ذهب. وحانت

منه التفاتة إلى عبدون فرجلة فقرأ في عينيه الحادثتين

فرحة شتاة صارخة فاشتعل قلبه بنار الغيرة. ومن

موقفه الدليل مدّ بصره إلى رياض الدبش وحلّومة

الجحش فطالع السخرية مجسّدة فلم يشكّ في

وساوسه. واقترحت عليه شياطينه حلًّا داميًّا ولكنّ

ضعفه المتصاعد أخجله. ولم يتبادلا في نهار العمل

كلمة، ولما أويا إلى مسكنها دعاها إلى المجلس وأعدّ

بنفسه القرفة والزنجبيل والمخدر. توقّع أن تتعلّل بعذر

ما ولكتّها استجابت له في برود وفيها يشبه التحديّ.

اضطرب لذلك أكثر ممّا سرّ. وزحف عليه خوف

مجهول. غاب عن الحاضر المتاح تمامًا. واكتشف أنّ

ضعفه بات عجزًا كاملًا. سحب نفسه إلى طرف كنية

واسترق إليها نظرة منكسرة وتمتم:

- إنّه الخزن وأنت السبب...

فقال ببرود:

## رأيت فيما يرى النائم ٤٩١

- إذا مات فلا حقّ له . . .  
 ونهضت متبرّمة فمضت إلى الخلوّة وأغلقت الباب  
 بقسوة. لبث وحيداً مع برودة آخر الليل واليأس.  
 احتدمت الخواطر برأسه كقفاعات الماء المغليّ فازداد  
 يأساً وتسليماً بالواقع. وبدت له أحلام سعادته كذبة  
 فاجرة قاسية. ومن شدة العناء والإرهاق هرب في النوم  
 ساعة واحدة. وفي الصباح الباكر هجر البيت متلقّماً في  
 عباءته السوداء، حاملاً يسراه حقيبة متوسطة الحجم.  
 كانت الشمس ترسل أوّل طلقة من أشعتها الدافئة،  
 والحركة تدبّ في الجنيات. فتحت نوافذ وأبواب  
 وتناجعت أفواج الخلق. سار بخطوات وثيدة ثقيلة  
 تغشاه تخاليل الرحيل. رآه أوّل من رآه عبدون فرجلة  
 فرماه بنظرة دهشة خلت من الحقد لأوّل مرّة وسأله:  
 - أنت راحل؟  
 فأجاب باقتضاب:  
 - أستودعك الله . . .  
 وترامت عبارته إلى أقرب الجيران فقال رياض  
 الدبش دون مبالاة:  
 - مع السلامة!  
 وتمتم حلّومة الجحش:  
 - يا خسارة!  
 وأثار رحيله اهتماماً مؤقتاً شاملاً. ورغم إرهاقه  
 كان يرى ما تقع عليه عيناه بوضوح شديد فكأنه يراه  
 لأوّل مرّة فهاجرت نفوره حنين غامض. واعترضه عمّ  
 مخلوف زينهم أمام الزاوية فتوقّف دون أن يتسم. سأله  
 الكهل برقة:  
 - أنت ذاهب حقّاً؟  
 فحنى رأسه بالإيجاب فسأله:  
 - إلى أين؟  
 فأجاب دون مبالاة:  
 - لا علم لي بشيء . . .  
 - بوسعك أن تبقى حتى تستردّ ذاكرتك.  
 فقال بمرارة:  
 - لا أستطيع، وقلبي يحدّثني بأنني لن أعرف شيئاً  
 ما دمت هنا.  
 فربّت الرجل منكبه بحنان وقال مسلماً:

- إني بريئة والحزن بريء!  
 فقال بصوت متهدّج:  
 - حديثك مع الشابّ قتلتني . . .  
 - ما مرّ يوم إلّا استقبلت فيه أشكلاً والنوائن من  
 الشباب!  
 أدهشه صدق قولها وقال معتذراً:  
 - لعليّ مريض.  
 فقالت بثقة:  
 - الحقّ أنّك انتهيت!  
 سرت الحقيقة في ذاته كالسّم فلم يشكّ في أنّه  
 انتهى، وأنّ حياته في جوارها توشك أن تنتهي أيضاً.  
 ولكن كيف يمكن أن تتنكر له بعد ذلك العهد الطويل  
 من المعاشرة الحميمة والعواطف المتأججة والحبّ  
 العميق المتبادل؟! ماذا تقول وماذا تفعل، وألا يجوتها  
 القول أو الفعل! أيّ كلمات لم تسمع من قبل  
 سيشيّع بها هذا الفم المليء بالرغبات والحزم! وتسلّل  
 إليها بنظرة خجل مشفقة فبوغت بالتغيّر كأنّه زلزال  
 منقضى بلا نذير. ها هو وجه جديد يطالعه. بلا تردّد  
 ولا حرج ولا مبالاة. يتجسّد فيه الرفض والإنكار  
 والقسوة. كأنما لا ماضي له ولا ذكريات. ولا وجدان  
 ولا ضمير. ولا ذوق ولا حياة. ذهل وفزع فتمتم:  
 - شدّ ما تغيّرت يا نعمة الله!  
 فقالت ببرود:  
 - لقد تغيّرت أكثر يا عبدالله . . .  
 فتساءل بأنّي:  
 - أيتهي كلّ شيء كان لم يكن؟  
 فقالت بضجر:  
 - أنت الذي نبيته!  
 - لعليّ مريض . . .  
 - ولا أمل في الشفاء.  
 فهتف حانقاً:  
 - إنك أفسى مما يظنّ أعدى أعدائك.  
 فقالت ساخرة:  
 - بل إنكم لا تفكّرون إلّا في أنفسكم . . .  
 - أليس للحبّ حقّ؟  
 فقالت بنبرة ختامية:

- في رعاية الله . . .

وواصل المسير تتابعه الأعين من النوافذ والدكاكين والطريق. شيعته نظرات متضاربة من الحياء والشهامة، العطف والكراهية، السرور والحزن. واصل المسير حتى غيبه المنعطف الأخير عن الحارة إلى الأبد.

## مِنْ فَضْلِكَ وَإِحْسَانِكَ

اكتشف الحب، أو اكتشفه الحب، أول عهده بالمرحلة الثانوية. في الخامسة عشرة كان، وفي الرابعة عشرة كانت. اتفقا على خطوبة غير رسمية يحتفظان بها سرا بينهما حتى يبلغ المرحلة الجامعية، ثم تعلن وتمضي الأمور في طريقها المهود. وهو وسيم رشيق ذو سمرة صافية، وهي في نفس المستوى في أعين الناس ولكن جمالها في قلبه يتلألأ بأضواء مسحورة. ومع أن الأسترين تقيمان في عمارة واحدة بشارع مريوط بمنشية البكري إلا أنهما لم يتعارفا قط ولا تبادلنا تحية عابرة، فاستمد معلوماته القليلة عن أسرة حبيته «جميلة» من حديثها. عرف أن أباهما يدعى عبد الرحيم يسري، من ذوي المعاشات، مترجم سابق بالخارجية، تركّز اهتمامه أخيرا في العبادة ولعب الطاولة. أما أمها شامة لطف الله فهي مفتشة بالتربية والتعليم، معروفة بالحزم بقدر ما هي مغرمة بالتلفزيون. ولها أيضا أخوة ثلاثة، أكبرهم ضابط جيش استشهد في حرب ١٩٤٨، ومهندس واقتصادي موقّعان في شركتين. ولم تكن جميلة متفوقة في دراستها ولكنها كان هو أيضا يماثلها في ذلك وكان مغرما بكرة القدم ويلعبها بمهارة لا بأس بها، ولا ييدي أي اهتمام بالحياة العامة، مثله في ذلك مثل أبيه وأمه، بل مثل شقيقتيه المهاجرتين مع زوجيهما بليبيا والبحرين. لم يرتفع في ذلك المسكن صوت لتأييد رأي أو معارضة رأي أو إعلان موقف ولا حتى كمتفرجين، فلا مشاركة وجدانية وكأنا يتمتعون الى كوكب آخر. تدور الأحاديث عادة عن المدرسة، المسلسلات التلفزيونية، الكرة، الطعام، أو شركة الأجهزة المنزلية حيث يعمل الأب إبراهيم الدارجي مراجعا للحسابات، والأم بيسة فضل الله في قسم

الإعلانات. رأى عبد الفتاح جميلة أول ما رآها في شارع مريوط الذي يعترض طرفه الشرقي الشارع العمومي المتجه إلى مصر الجديدة. رآها بعد ذلك في مدخل العمارة. شملها من بادئ الأمر مناخ طيب يجود بالأنس والاستلطاف. وتبادلا الابتسام والتحية.

وأعقب ذلك اللقاء في الشارع العمومي بعيدا عن الأنظار. انفجرت في قلبه حياة جديدة بقوة ملهمة. فاعترف، وتمّ الاتفاق على المستقبل القريب والبعيد، وحملها أمانة كبيرة وهو يقول لها:  
- لا حياة لي بدونك.

ولأول مرة يجاوز اهتماماته الصغيرة إلى حياة جديدة واعدة ببراء جديد، ومحطم حاجز الانحصار الذاتي وأثبا للغير. عاش عامين سعيدا، عاش في سعادة حقيقية، ولكنها انسابت بخفة بلا تركيز أو وعي منه فلم يعرفها - مثل كثيرين - إلا كذكرى. ذلك أن الحب تعرض للاغتيال. وهو نفسه قال «ليس لي قصة حب، ولكن قصتي تبدأ بعد وفاة الحب». تلقى منها رسالة بيد زميلة عالة بسرهما تنبته فيها بأنها خطبت، وأنها عجزت عن إنقاذ حبها، وأنها حزينة أسيفة ولكن لا مناص من قطع العلاقة. قرأ وأعاد القراءة. هل يمكن؟. بلا تمهيد؟. وهذا الأسلوب؟ قال للرسولة وتدعى بثينة أو قال على مسمع منها:

- أي جفاء . . . إنها برقية لا رسالة . . .

فقال الفتاة معتذرة عن صديقتها:

- عواطفها أكبر من ذلك لكنها لا تحسن الكتابة! وأخبرته أنها تألمت، وأنها توسلت إلى أمها أن تتركها وشأنها، أن تتركها لتتظهر، وأنها راضية بحفظها، ولكنها لاقت موقفا مصمما، مسلحا بالحجج الواقعية الصارمة، من تكاليف الزواج الباهظة، وأزمة المساكن، وعجز المرتبات، وأنه لا أمل لشاب في الحياة الزوجية إن لم يكن غنيا أو مهاجرا، وأن الخطيب الجديد حامد بك مظهر هو مناسب جدا في الظروف الراهنة. أجل إنه في الأربعين من عمره ولكنه خبير ذو مرتب ضخم إلى جانب نشاط خاص يدر عليه دخلا محترما، فهو قادر وأهل للحياة الزوجية، وفي كنفه ستحظى بالحياة الكريمة والسعادة الحقيقية، لا السعادة

## رأيت فيها يرى النائم ٤٩٣

وتساءل:  
 - ماذا قلت؟  
 فقالت وهي تنتهد:  
 - لن نستطيع الزواج كما نتمنى...  
 فقال مستسلماً لغيظه:  
 - أعرف ما قيل وما يقال ولكنَّ الحبَّ أقوى من ذلك...  
 فقالت وعيناها تدمعان:  
 - الواقع أقوى من أمانينا.  
 - المسألة أنَّ حبَّك ليس بالقوة التي ظننتها.  
 - لا تظلمني.  
 شعر بأنها لا تريد أن تعدل عن قرارها. أنها لم تعد تحبه. أنها لم تحبه قط. هتف غاضباً:  
 - أكذوبة!  
 تمتت بانزعاج:  
 - ماذا؟  
 - خاب ظني فيك.  
 قالت بتوسل:  
 - لا تزد في عذابي.  
 لَوَّح بيده غاضباً فأصابته أنامله جبينها فتراجعت مذعورة. أفاق من غضبه. وثب نحوها قائلاً:  
 - معذرة... لم أقصد...  
 - كفى...  
 - أكزّر الأسف...  
 فقالت بصوت هادئ:  
 - يجب أن أذهب...  
 فتحوّل عنها دون تحية. توغّل في الطريق صوب الشمال والظلام يهبط ودفقات من الهواء الرطب تهب. عجب من فراغ الوجود من كلِّ شيء إلا نبض الألم في أعماقه. ألم وفراغ. فراغ وألم. إن لم يكن الحبُّ مرضاً فلا بدّ له أن يوجد له دواء. ولكن أين وكيف ومتى؟  
 وفكّر في أنّه أخطأ في تركها تفلت من يده فاستدار وراح يعدو ليلحق بها ولكنّه لم يعثر لها على أثر. ورجع الفراغ ورجع الألم. وحلم أنّه يستطيع أن يقتل أمها فقرّر أن يقطع رأسها تحت المقصلة. استحضر بخياله صورة المقصلة كما رآها في فصل الثورة الفرنسيّة. يا

الوهميّة التي سرعان ما تتلاشى في خلاء التفتّش والضنك، وحذرتها من أن تظنّ بها الطمع، أو تخلط بينها وبين النموذج التلفزيوني للمرأة المادّية التي ترفع المادّة فوق العاطفة، المسألة بكل بساطة أنّ الزواج ضروريّ لها - لجميلة - وهو غير ميسرٍ إلا مع رجل مثل حامد مظهر، ومن حسن الحظّ أنّه لا تشوبه شبهة من شبهات الانفتاح، فهو قادر وشريف، فلا مفرّ من التسامح في عمره وهو على أيّ حال لم يجاوز السنّ المناسبة للزواج. ومضت بيثية تقول أنّ جميلة لم تستطع أن تقارع الحجّة بالحجّة، ولعلّها لم تتصوّر أنّ الأمور معقّدة إلى ذلك الحدّ فانطلقت تخاطب قلب أمها، وقلب أبيها أيضاً ولكنّ الأب قال لها «مسايرتك تعني التضحية بك، أقسم لك بصلاحي أنّي صادق، ليس ما تشعرين به هو الحبّ، في مثل سنّك لا تعرف القلوب الحبّ الحقيقيّ، ستعرفين ذلك بنفسك». وعند ذلك قالت له بيثية:  
 - لعلّه ممّا ساعدها على الإذعان أنّها ستقطع عن الدراسة فهو يريد لها ستّ بيت، وأنت تعلم أنّها لا تحبّ المدرسة!  
 تابعها عبد الفتاح بدهول ثمّ ماج قلبه بالغضب والعذاب، وأصرّ على مقابلتها فكلف بيثية بإتمام ذلك وجاءته في أصيل اليوم التالي والخريف يقطر مناخاً معتدلاً. جاءت منكسرة الطرف تتعثر في الخجل قابضة بأصابع متشنّجة على منديلها الأبيض الصغير. حيثه بغير ابتسام هامسة:  
 - إني أسفة...  
 حثّه منظرها على التمسك بها باستماتة غير أنّ نبرة صوته تمّت عن الغيظ وهو يقول محتجاً:  
 - تقتليني ثمّ تأسفين!، ماذا أصنع بأسفك؟  
 فقالت له بحرارة:  
 - حزني أشدّ ممّا تتصوّر...  
 فقال ساخراً:  
 - صدقت فيما يتعلّق بتصوّري...  
 - لا تظلمني...  
 - أعلني الرفض وأصرّي عليه.  
 صممت في حيرة جليّة فطفر الغيظ إلى قسبات وجهه



للدهاية! ... ما هذا الفراغ وما هذا الألم. ولأول مرة يعاني الوحدة وهو وسط أصحابه وهم يقضون الفترة الأخيرة من العطلة الصيفية. رغم أنهم جميعاً على شاكلته ممن لا يكثرثون للحياة العامة وتستغرفهم الشئون الخاصة. وبدافع من كبرياء لم يبيح لأحد منهم بسرّه. أمّا أكثر اليوم فخلاً فيه إلى نفسه في حجرته الخاصة - للنوم والدراسة معاً - غارقاً في التأمل. ولم يخرج من عزلته في سهرة التلفزيون حيث تجتمع الأسرة وكأنتها غير مجتمعة. غرق في التأمل حتى وجد نفسه ولأول مرة يسأل عن معنى حياته أو عن معنى الحياة. ومضت المعاني تتلاشى وتتبخّر في الهواء. وقلب عينيه بين جدران الحجرة وسقفها وكأنها يجول في الكون ثمّ سأل:

- هل يوجد في قلب هذا الكون هدف أو معنى؟! لو عرف هذا الهدف الكوني عرف بالتالي معنى حياتنا. ولكن ما السبيل إلى معرفة هدف الكون؟ كيف نحمله على البوح بسرّه؟ كيف نتقد حياتنا من العدم؟! لم يجد نفسه في هذا المقام الحائر نتيجة لثورة أو فكر، ولكنه وجد نفسه في خضمّه بتلقائية من لا يملك ذخيرة أو تراثاً. ذلك أنه نشأ في جوّ خاصّ غير عاديّ. جوّ خلقه والدان من نوع خاصّ أيضاً. إبراهيم الدارجي الأب مشغول بالحياة لدرجة لم تترك له فراغاً لسؤال أو تأمل. إنّه أبعد ما يكون عن الطراز المتدينّ ولكنه في الوقت نفسه أبعد ما يكون عن النموذج الملحد أو الشاكّ. لم يتفوّه طيلة حياته بكلمة مع الدين ولا كلمة ضده. الدين بالنسبة إليه غير موجود أو مختفٍ في ظلّ كثيف، ولا يخطر له ببال، ولا يتذكّره إلّا في المناسبات النادرة، وقد ترد في كلامه مصطلحات دينية يرددها دون أدنى انتباه إلى مغزاها فيقول أحياناً «الله أعلم» ولا تعني عنده أكثر من «لا أدري». وعيد الفطر عنده كعك وعيد الأضحى عنده «لحمة». والآن بيسة لا تختلف كثيراً عن زوجها في لا مبالاته الفطرية وإن لم تغلّ من إيمان بالشعوذة والسحر. فلم يعبق البيت بنفخة دينية ولو عابرة. هذا هو الجوّ الذي نشأ فيه عبد الفتّاح. ولم تضيف إليه المدرسة سوى حكايات تحفظ وتنسى، وألفاظ تشرح

وتعرب، وامتحانات يودعها محفوظاته قبل أن تتلاشى. وفي المدرسة عبرت أمامه ومن حوله تيارات متضاربة دينية ومادية، فلم يهتمّ بها، وسخر منها. ولذلك لم تتوثّق الصلة بينه وبين أحد من المتتمين إليها وأختار أصدقاءه ممن هم على شاكلته من اللامبالين. ومع ذلك هزّته الهزيمة فوجم وتألّم ولكنّها لم تعدل به عن طريقه بل لعلّه أوغل فيه أكثر وأكثر. من أجل ذلك كلّه وثب في أزمته إلى الكون يسأله عن معناه وهدفه بتلقائية ويسر دون أن تعيقه عن ذلك عقيدة سابقة. تعلقّ بالكون باعتباره الأمل الأخير الذي يمكن أن يتشله من الفناء الزاحف على قلبه وروحه. تُرى هل يوجد سرّ ذلك عند أحد من البشر؟ هل تتضمّن حكمة أو علم أو فلسفة؟، وأليس مما يفزع أن ترتفع فجأة من كرة القدم إلى قلب الكون دفعة واحدة؟! وتوهّم أنّ عله الداخلي يتوارى عن الأعين القريبة بما يفور فيه من تساؤلات حارّة مستميتة ولكنه لاحظ في أعين والديه محاولات أبوية قلقة تروم النفاذ إلى أعماقه. وضح ذلك يوم الأحد - يوم العطلة الأسبوعية - عندما دعواه للدجلوس معها في حجرة المعيشة عند الضحى. توقّع في الحال استجاباً حميماً فضاق به قبل أن يعلن. وصدق حدسه عندما تساءل أبوه وهو يغوص بروبه الخفيف في القوي الأرجواني:

- ما لك يا عبد الفتّاح؟!

فتظاهر بالدهشة لغرابة السؤال فقالت أمه:

- لست كعادتك، لا خفاء في ذلك...

وقال أبوه:

- بعد أيام معدودة سيبدأ عام الثانوية العامة، وهو عام يتقرّر فيه المصير!

وقالت بيسة:

- ونحن أصدقاء ولا يجوز أن يحجز بيننا سرّ...

قال محاولاً الاحتفاظ بسرّه الغريب لنفسه:

- أنتها وإمان...

فقال الأب وأنامله تناجى حياّت سبخته القهرمانية التي تلقّاها هدية واستغلّها لامتصاص القلق:

- بل إنّ صحتك ليست على ما يرام.

- أشعر بتهام الصحة والعافية...

## رأيت فيها يرى النائم ٤٩٥

فتساءل بامتعاض:  
 - وماذا بعد المعاش المستقر السعيد؟!  
 فقال الرجل وهو يكظم غيظه:  
 - يجري علينا ما جرى على الناس منذ آدم!  
 فقال عبد الفتاح بعصبيّة:  
 - معنى ذلك أنه لا يوجد معنى يستحق أن نعيش  
 من أجله!  
 فتساءل الأب ضاحكًا:  
 - لا بدّ من معرفة هدف الكون؟!  
 - وإلا فلا معنى لشيء على الإطلاق...  
 وتمت نيرة الرجل عن غيظ مكتوم وهو يقول:  
 - وكيف تعرف هذا الهدف؟! كيف تتابع  
 الأجيال دون أن تعرفه؟، وهل تؤجّل امتحان الثانوية  
 العامّة حتّى تعرفه؟!  
 فقال الشابّ في حزن:  
 - أعرف أنه سؤال مثير للسخرية ولكنّي وقعت في  
 قبضته...  
 فقالت يسة بجزع:  
 - لا تقل ذلك، عليك أن تنقذ نفسك...  
 وقال أبوه بحرارة مدافعًا اليأس:  
 - حتّى لو وُجد جواب فهو لن يجيء بين يوم  
 وليلة.  
 قصمت عبد الفتاح فواصل الرجل برجاء:  
 - لا خلاف في ذلك، فلنبدأ بالممكن...  
 قالت الأمّ وهي في غاية من القلق:  
 - لنبدأ بالممكن...  
 فواصل الأب:  
 - بوسعنا أن نخلق هدفًا لحياتنا وأن نحققه، ولك  
 ألا تكفّ عن التفكير في الآخر، ومن يدري فربّما  
 عرفته بعد عمر طويل!  
 وتنهّدت الأمّ في ارتياح قائلة:  
 - حلّ موفّق، أليس كذلك يا عبد الفتاح؟!  
 وقال الأب برجاء حازم:  
 - أعلن موافقتك أرجوك...  
 - ابتسم ابتسامة شاحبة في استسلام. اقتنعت الأمّ  
 بأنّه اقتنع. قالت بفرحة طفوليّة:

- إنك عمّر بفترة من العمر شديدة الحرج...  
 ضحك ضحكة جافّة. تغيّر موقفه بغتة. جراته  
 موجهة استهانة كردّ فعل للسهاد والألم. قال:  
 - الحقّ أنّه يشغلني سؤال محيّر!  
 - أيّ سؤال يا بنيّ؟  
 قال عمهدًا بضحكة كالاغتنار:  
 - سؤال عن الهدف الكونيّ!  
 تفشّى صمت ثقيل حتّى صار له دويّ في الأذان.  
 نظر والداه إليه طويلًا، ثمّ تبادلوا النظر طويلًا. وتمتم  
 الأب متسائلًا:  
 - الهدف الكونيّ؟!  
 فتساءل عبد الفتاح:  
 - هل أندم على مصارحتكما بالحقيقة؟  
 فقالت يسة بسرعة:  
 - أبدًا... ولكننا لم نفهم...  
 فقال بتحدّ:  
 - إنّي أسأل هل في الكون هدف!  
 فتساءل أبوه:  
 - الكون دفعة واحدة؟  
 - الكون دفعة واحدة.  
 - الكون شيء فوق التصوّر... ماذا يهّمك من  
 ذلك؟  
 - لن أعرف هدف حياتي، إن لم أعرف  
 الجواب...  
 قال الأب برقّة وبجهد:  
 - إنك كمن يريد أن ينتقل إلى مصر الجديدة عن  
 طريق مدينة الكاب بجنوب أفريقيا. لمّ لا تستعمل  
 هذا الطريق المهدّد الذي نراه من نافذتنا؟  
 فقال يباس:  
 - لا معنى لحياتي إن لم أعرف ذلك الهدف البعيد!  
 فرمقه إبراهيم الدارجي بحنان وقال:  
 - عليك أن تنجح في الثانوية العامّة، وأن تحرز  
 المجموع الذي يفتح لك أبواب الكليّة التي تريدها،  
 وأن تعمل، ثمّ تتزوّج وتنجب ذريّة، وتستمرّ في  
 التقدّم حتّى تنعم بمعاش مستقرّ سعيد، هل يوجد  
 هدف وراء ذلك؟!

## ٤٩٦ رأيت فيما يرى النائم

- سنسهر الليلة في الميري لاند، لم نسهر معاً منذ  
مدة، أمامنا عشاء ساهر وشراب منعش...  
وعند العشاء شرب قدحين من النبيذ فتلقى نشوة  
فزجت كربه وأشعلت ضوء الابتسام في ثغره وعينيه  
حتى قال الأب لنفسه مستوهباً العزاء:  
- سحابة وانقشعت...

ووجد الشاب نفسه ترخّب بالحلّ الموقّ. ربّما هرباً  
من المازق الخائق الذي يهدّد بالشلل. وحمل والديه  
مسئولية تراجعهم السريع تفادياً من الاعتراف بالهزيمة.  
رأى أن يطوي اليأس في ركن من نفسه وأن يرسم  
لحياته خطة كالآخرين، ومن يدري فقد يدهم الجواب  
من أعماق الحياة نفسها. وما الهدف الذي يختاره؟  
كلية الطب. حياة ثرية من الناحيتين العلمية والمادية،  
زواج وإنجاب، وإن يكن الناس يتساوون في الموت  
فإنهم لا يتساوون في الحياة ولا في الذكاء. المهم الآن  
أن يحق من قلبه جملة وخيانتها، وأن يقتلع الحب من  
جذوره ليستعيد توازنه. وتمنى أن تُزفّ إلى حامد مظهر  
سريعاً لعلّه يداوي الألم باليأس. وحدث ذلك في  
الأسبوع الأول من العام الدراسي. وقف عند ملتقى  
شارع مريوط بالشارع العمومي ليلقي نظرة على  
موكبها الصغير وهو يميل نحو مصر الجديدة. وبالرغم  
من توقّعه لذلك وتعجّله له فقد أصابته هزة عنيفة  
فاقت تقديره وتخيلته. سهر ليلتها في حجراته حتى  
الصباح على ضوء بطارية صغيرة. قضى أكثر الوقت  
واقفاً أو ذارعاً بالحجرة أو مرسلأ طرفه من النافذة إلى  
الليل الشامل. ومن خلال تجربة طارئة التحم بأثاث  
حجراته التحاماً غريباً جنونياً. ومضى في التجربة على  
رغمه كأنما يؤدي طقوساً لأوثان وقع تحت سيطرتها بقوة  
سحرية. جذب الفراش عينيه بدعوة نابغة من  
الصميم. وكأنه يكتشف لأول مرة الفراش الحشبيّ ذا  
اللون البنيّ الغامق، والملاء البيضاء والغطاء  
البنفسجيّ المطويّ للنصف. وبيادامة النظر إلى الفراش  
ومحتوياته دبّت فيه - الفراش - حياة من نوع ما،  
فتبدّت الوسادات لعينيه ترنوان إليه، وشملت الملاء  
والغطاء ألفة قديمة لا تكون إلّا بين الأصحاب. ونفذ  
بصره إلى الأعماق فرأى القطن المقدّس في الحشبيّة

وراح يعدّ خيوطه الملتفة المضغوطة وهو يشعر بأنّه  
سيختّم الإحصاء بوثة في المجهول قد لا يرجع منها.  
وتفرّس في مكتبه في الجانب المقابل من الحجرة وهو  
يحمل صفّين من الكتب يفصل بينهما السومان فرآه  
يبادل النظر داعياً إيّاه إلى سماع حوار حارّ دائر بين  
الكتب لم يكده يلاحقه من سرعته وحيويته وما ينذر من  
خطورة متعدّدة العواقب. ومدّ بصره إلى مرآة الدولاب  
القائم بين المكتب والفراش فعكست له صورته على  
ضوء البطارية الخافت جسماً بلا رأس، ومن عجب أنّه  
لم يدهش لذلك ولم ينزعج ولكنّه فتح الدولاب كأنما  
ليبحث عن رأسه في داخله فرأى بدلة مشبكة في  
معركة بالأيدي والأرجل فتراجع إلى فوقي يتوسّط  
الجدار المواجه للدولاب وانحطّ عليه وأغمض عينيه  
فانفجرت في رأسه خواطر مضطربة متلاطمة لم يستطع  
أن يسك بواحدة منها متكاملة إذ سرعان ما تتلاشى في  
أخرى مؤجّجة رغبة متصاعدة في الإمساك بأيّ شيء  
ذي شكل سليم واضح، وظلّ فريسة الأطياف حتى  
نضحت النوافذ بضوء الصباح المترع بالخريف.  
انطوت الليلة ولم تتكرّر وعزم على أن ينفذ خطته  
المرسومة. غير أنّ الكون لم يرغب عنه تماماً فكان يزوره  
من حين لآخر مذكراً إيّاه بحزنه المخزون المؤجّل.  
وبالمثل كانت تهبّ عليه نفحات من صحراء الحبّ  
المهجور. ولكنّه مارس حياة ناجحة فيما عدا ذلك  
ويشّرت حاله ببلوغ المرام. ولما أعلنت نتيجة الثانوية  
العامة جاءت مخيبة للأمل، آمال آل الدارجي، ومن  
خلال التنسيق ضاعت الطبّ والهندسة والعلوم فلم  
يجد إلّا الحقوق لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وكانت تقبل  
عدداً محدوداً من الثانوية علمية. جاءت النتيجة صدمة  
لإبراهيم الدارجي وقال وكأنه يدافع عن كرامته  
الشخصية:

- هذه النتيجة تقطع بأنك لم تكن في أحسن  
أحوالك.

وقالت الأم:

- رأيي أن تعيد السنة...

ولما كان أدري بذاته فقد قال بتسليم نهائيّ:

- لتكن الحقوق!

## رأيت فيها يرى النائم ٤٩٧

فقد يطول الانتظار، وخبرته لا يحتاج إليها «الخارج» مثل الخبرات الأخرى. الطريق شبه مسدود ولكنّ اليأس يعني الموت. وحام خياله المحموم حول حياة النجوم من الممثلين الذين يبقون إلى الهدف بسرعة الضوء، وربما من خلال فيلم واحد. لا وقت للطريق الطويل ولا قلب للمغامرة المحفوفة بالخطر. وغطى عمله الجديد على أحلامه المؤرقة فكشف له عن عالم من التجارب الطاحنة. إنّه جلس إلى يسار المحقق باسطة أوراقه على المكتب، متطلّعا إلى المتهمين الواقفين أمام المكتب. يرى ويسمع ويسجل. وتهمر فوقه عوالم الأسرار. تراخي التحامه بأحلامه أمام المهزبين والمختلسين والمرشئين واللصوص. إنهم أناس لا يختلفون عن الآخرين في أشكاهم وأصواتهم، لا سيات تقليديّة لهم مثل أشرار السينا، ووراء كلّ واحد منهم حلم يذكره بأحلامه، كلهم يتجذبون إلى أضواء الحياة كما تهيم الفراشات حول المصباح. وهم يذكرونه بنفسه، ويذكرونه بأبيه وأمه أيضا. وعجب لذلك بقدر ما انزعج له. لم يذكرونه بوالديه؟!، ربما لشابه في الوظيفة، أو الاهتمامات، أو المحركات العارضة. ووجد نفسه يتساءل لأوّل مرّة هل يتناسب دخل والديه مع مصروفاتها؟!، إنهما في الواقع لا يكثران للغلاء، ولا يخلو أسبوع من وليمة تقام للأصدقاء، وفي العامين الأخيرين جدّا أثاث الشقة واقفنا عدداً من التحف والسجاجيد والنجف لا يستهان به. حقاً أنهما لم يشتريا شيئاً ذا قيمة ثابتة كعقار أو سندات ولكتتهما ينفقان عن سعة باتت تشير في نفسه الخوف والكآبة. شكّ في والديه وغزاه همّ جديد انضاف إلى همومه الشخصية. وتعمقلت همومه عندما أدلى إليه زميله عبد اللطيف محمود - كاتب يسبقه بأقدميّة خمس سنوات - برأيه في طبقات المجرمين. وكان عبد الفتاح قد تلقى تدريبه في العمل على يديه، ولما أنس إليه همس له برأيه وهو أنّ القانون لا يطبق إلا على العاديين من الناس أما الأقبوياء فيسبحون فوق القانون، إلا فيما ندر ولا يقاس عليه. لم يصدق ولم يكذب ولكنّه مال إلى سوء الظنّ. كما مال إلى اتهام والديه. وتساءل كيف يجنبها المصير الأسود؟! وطرح السؤال يعني فيها يعني أنّ شكّه فيها

ولم يشأ أحد أن يضغط عليه فقال الأب:  
- على أيّ حال أمامك فرصة للعمل في النيابة.  
أما هو فقال لنفسه بمرارة «فشلت الخطّة». واعتمد في عمله على إرادته وحدها، وبلا دافع حقيقيّ. أجل شفي من الحبّ وتحرّر من قبضة الكون، ولكنّه لم يقهر الفئور المستقرّ في همته. ومضى في طريق النجاح الذي لا يبشّر بأيّ تفوّق أو امتياز حتى حصل على ليسانس بلا تهاني وعن طريق توزيع القوى العاملة ألحق كاتباً بالنيابة العموميّة. حزن الأب إبراهيم والأمّ بيسة لذلك حزناً شديداً. إنّه الابن الوحيد، والحلم الكبير، وها هي النهاية تتجسّد أمام عينيهما كتمشال للخيبة. وفاق حزنه حزن والديه ولكنّه لم يذّر بأيّ لسان يحنّج على مصير صنعه بيديه. بل ذكر بكآبة أنّه لم يمارس التفوّق في حياته أبداً. وأنّ الأرجح أنّه لا يستطيع أن يخلق لحياته هدفاً خيراً من هذا. وقال لأبيه:  
- أكثرنا الحديث يوماً عن الحياة والهدف ولكننا سينا أمراً هاماً، خبرني الآن هل تعرف أحداً من الكبراء القادرين على تجديد الأهداف؟!  
- فقال إبراهيم الدارجي بامتعاض:  
- نشاطي يجري في مجال آخر، ولكن صبراً، ستهاجر ذات يوم لعمل مشر في الخارج...  
تمثّل له «الخارج» في صورة منارة تشع نوراً من بعيد. وراح يوازن بين مرتبه الجديد وبين مصروفاته التي تعود عليها في كنف والديه ثمّ تساءل كيف يواجه الحياة لو غاب والدها!. ولأوّل مرّة يشعر شعوراً ذاتياً كم أنّه فقير وكم أنّ الغلاء وحش مقترس. وتذكّر في الوقت نفسه الفارق الهائل بينه وبين رئيسه المباشر رغم أنّها متخرجان في كلّية واحدة. ما هو إلا ذرة رمل في صحراء التفاهة. وسيمضي من سنّ إلى أسوأ. وما الراحة التي ينعم بها إلا هديّة مهداة من والديه العاملين. عليه ألا يركن إلى الطمأنينة العابرة الخادعة، وأن يفكر في المستقبل بجديّة. تلزمه وثبة قويّة غير معقولة. طفرة غير متوقّعة وغير منطقيّة. بأيّ ثمن يجب ألا تضيع الحياة هباء. ونحن في زمن الخوارق. ولكنّه لا يجب أيضاً المغامرة ولا يجب السجن. ولا يجوز انتظار المعجزة من «الخارج» وحده

## ٤٩٨ رأيت فيها يرى النائم

وزودته أحلام اليقظة بوقود جديد بظهور متهمين معاصرين على المسرح، من ذوي العقائد الدينية، وذوي العقائد المادية. أذهلته جرأتهم، واستهانتهم بالمواقب، وتحذيم التحقيق والمحقق. لأول مرة يتلقى تلك المبادئ كتجارب حية ممثلة في أحياء، كحجج تفوح برائحة اللحم والدم، كتضحيات تستهين بكلّ غالٍ. فيمّ يختلف عن هؤلاء الشبان؟! كيف افترقت الهويات والمصائر؟! وركب الخيال فجرّد سيفه حيناً، وقبض على المطرقة حيناً آخر، وهام في وديان المجد المغمور. هام طويلاً حتى أدركه الإرهاق والملل. وعاد يتساءل:

- كيف أستخلص نفسي من مستنقع التفاهة؟!  
الهجرة؟، النجومية؟، الانحراف؟، الماضي؟،  
الله؟، الثورة؟. المهم أن ينجو من الواقع الكئيب.  
واتفق في ذلك الوقت أن أهداه الأب إبراهيم حجرة  
جديدة عصرية بطاقتها المكون من الفراش والدولاب  
والشيفونيرة والتواليت وسجادة فرنسية. قال له:

- تغيير الجو يجب أن يساير تغيير الشخصية.

فغمغم:

- أيّ شخصية؟!!

وفكر في ثمن الحجرة فاستعاد شكوكه بمرارة  
جديدة. وقرأ الأب صفحة وجهه فاستشفّ معاني  
أخرى فقال:

- الهجرة آتية فاصبر قليلاً...

الصبر جميل لكنّه مرّ. ولم يتقطع عن التفكير في  
البدائل المتاحة. وسمع زميله عبد اللطيف عمود  
ينصح ضيقاً بالانضمام إلى حزب الأغلبية. ولم يكن  
يفرق بين جدّه ومزاحه ولكنّه أنصت إليه وهو يقول  
للرجل:

- الانضمام يضمن لك التمتع بحقوق الإنسان!  
فكر أنّه بوسعه أن ينضمّ ولو إلى لجنة الحيّ ولكنّه  
حزب ضخم يحوي الملايين وهيئات أن يتشله من  
ضياعه، أو يخرج من شرنقة التفاهة. فرق كبير بين  
أن تتركب سيارة ولو صغيرة وبين أن تنحشر في  
أتوبيس. في الوقت ذاته فإنّه من الجنون أن يسعى إلى  
أهل الدين أو أهل المادّة فيعرض نفسه للهلاك!.

انقلب حقيقة من حقائق حياته المرّة، ولذلك دارى  
رعبه بضحكة لا معنى لها. واهتدى إلى خير وسيلة  
لتحذيرها وهي أن يقصّ عليها لدى كلّ مناسبة طرفاً  
من أخبار المنحرفين الذين يسجلّ اعترافهم يوماً بعد  
يوم، ويشهد عن كتب دموع البعض وهي تنعي  
آمالهم الخائبة. تصوّر بيدن مقشعرّ والديه وهما يزحان  
مع الآخرين طرقات المجمع القضائيّ مثل حبات البرّ  
المتدافعة في وعاء الطاحونة. وجعل يرقب الاثنين  
بإمعان ويتفحص ضيوفهما من الرجال والنساء.  
جميعهم أناس أذكاء وبلا مبادئ، المال معبودهم،  
والنجاح دينهم، والمغامرون هداتهم. يشوّهون الأسماء  
الرتانة دفاعاً عن أنفسهم وتبريراً لسلوكهم الخفيّ.  
ويقول لنفسه:

- برح الخفاء!.

وازداد صدره انقباضاً. تُرى كيف يتحمّل المصيبة  
إذا وقعت؟! إنها خليقة بتدمير أيّ شخص حتى ولو  
لم يكن من التافهين. وتتهدّ وهمس لنفسه «إلا شخصاً  
واحد»، ورجع يحوم حول النجم ونجاحه وكيف  
يتأتى ويواصل التألّق ولو تسربل بالفضائح!، شدّ ما  
تداعبه هذه الفكرة. وتحفر سراديبها في وجدانه برشاقة  
وإغراء. غير أنّه نحّاهما إلى حين ليُجري مع ذاته تحقيقاً  
فريداً. هل يُقدم على الانحراف إن وعده بتحقيق  
الآمال؟! وراح يتفحص أعماقه بصدق وصراحة.  
وتبيّن له أنّه لا يملك مناعة ضدّ الانحراف في ذاته،  
ولكنّه جبان يؤثر السلامة! على ذلك ترك الموضوع  
دون حسم. وإذا بمكتب التحقيقات يسوق إليه تجارب  
جديدة ومثيرة، فيكشف له التاريخ عن وجهه ويريه  
من آياته ما جهل. حقاً عرف الكثير من خلال قضية  
اتهم فيها بعض رجال العهد الماضي بالتآمر على قلب  
نظام الحكم. رأى وسمع وسجّل ورجع إلى شارع  
مربوط بمعلومات جديدة عن ماضي بلده القريب.  
واستسلم لأحلام اليقظة فتخيّل نفسه بطلاً من أبطال  
العهد البائد، فخاض المعارك المنفضية، وأحرز  
انتصارات لم يعد أحد يذكرها بالخير. وتساءل وهو  
منفرد بنفسه في حجرته:

- لماذا أتعاطف دائماً مع المتهمين؟!!

## رأيت قيا يرى التام ٤٩٩

وبدوا كئيبين واجمين، وانتهت ليالي الولايم، وخيم على البيت جو غريب من الإثم والعقوبة، واختفى أصحاب المنفعة والانتهازية فخلا المسكن إلا من المنيوذين. وأسى للنقود قيمة جديدة فلم تعد تنفق إلا بحساب، وتردد ذكر الغلاء مصحوبًا بلعن الانفتاح وذم المتاجرين بأرزاق الشعب! ولم يخدع عبد الفتاح بهذا الصوت الوطني الطارئ وعرف سره. إنه يكتب كل يوم خبرة في مكتب التحقيقات أنثرت رؤيته وأفعمته بسوء الظن. لن يخدعه نقد المنحرفين إذا حيل بينه وبين الانحراف. وامتنعت المعونات التي كان يحظى بها من والديه، وتضاعف قلقه عندما سمع أباه وهو يقول:

- لا مفر من بيع بعض التحف لمواجهة الغلاء!  
فمضت الدائرة تضيق حول عنقه ويديه وتخلقت في حياته أزمة جديدة هي الأزمة الجنسية التي لم يشعر بوطناتها من قبل. وقال لوالده:

- إني أعجب للذين لم ينحرفوا في هذه الظروف الطاحنة...

فقال أبوه بيقين ساخر:

- هم الذين لا حاجة بهم إلى الانحراف...  
فوافق الشاب قائلًا:

- صدقت، فلكي يعيش فرد بلا نقود كافية يجب أن يكون صاحب معجزة...

فقال إبراهيم الدارجي ساخرًا:

- وقد انتهى عصر المعجزات:

فتنهّد الشاب قائلًا:

- الهجرة إلى الخارج هي الأمل الأخير...

فقال الرجل بلا حماس:

- انتظر واصبر ولا تيأس!

ولكن إلى متى؟ وإن وسعه أن يصبر مع الضائقة فكيف يروض وحش الجنس؟. حقًا كانت أم حبيته الغادرة بعيدة النظر، ولو أنّ الفتاة انتظرت له حبيب أملاها وفضح نفسه. وسأل زميله عبد اللطيف محمود:

- ألم تفكر في الزواج؟

فأجاب ساخرًا:

- أفكر فيه عدد شعر رأسي...

كلًا. إنه لم يخلق لذلك. ولم يبق أمامه إلا الهجرة أو الفن!. وانبعثت في نفسه وثبة متحفية ذات مساء وهو يحسني قليلًا من البيد في تافرناس. رقصت النشوة في رأسه فانساب طموحه الخائر فقرر أن ينفلت من قبضة الأحلام وأن يفعل شيئًا. سعى إلى مقابلة بعض المخرجين وعرض عليهم نفسه كقانوني يهوى التمثيل، مستمداً من شكله وحجمه ثقة وأملًا. قال له المخرج:

- لا يمكن تشغيلك إلا إذا كنت متخرجًا في المعهد...

فقال بثبات:

- يمكن كوجه جديد مرشح للبطولة!

ودُعي إلى الاختبار. ولولا اليأس ما تغلب على ارتياكه. وكان يترك عنوانه ويذهب. وينتظر ثملاً بأحلام اليقظة بعد أن حلّ البلاطه محلّ الجهاد والفردوس الأرضي. ولكنّه لم يردّه خطاب. وطال انتظاره حتى شطب فرق الفن في سجلّ آماله المتهاوية أسوة بالنشاط السياسي كلّه فلم يبقَ إلا «الخارج» كامل أخير. وسأل أباه ذات مساء:

- لا أخبار عن الهجرة؟

فأجابه بوجوم:

- انتظر الوقت المناسب!

التقط إحساسه المشحوذ بسوء الظن نبرة جديدة في صوت أبيه. نبرة توحى بالمزمنة. انظر جيّدًا. ليس الرجل كعادته، ولا أمه. إنها يعانسان قهرًا مجهولًا تبدى في نظرة العين، وشهية الطعام، والحديث. وقال لنفسه «هل يتلاشى الأمل الأخير؟. سيقع شيء غير سار». وصدق حدسه فأعلن أبوه أنه طلب إحالة على المعاش لسوء حالته الصحيّة، ولحقت به أمه في نفس الأسبوع معتلة بنفس العلة! ذهل عبد الفتاح وهمس له سوء ظنه بالحقيقة الخفية، لا شكّ أنّها اضطرا إلى ذلك اضطرا وتفاديًا من عاقبة أسوأ. الصحة بريئة تمامًا، كانا من أحسن الناس عافية ومرحًا. وجارهما فتظاهر بالقلق على صحتهما واستمع إلى حديث طويل عن الضنط والطيب، وقال بحرارة مصطنعة:

- الصحة أهمّ من العمل والمال...

وتوقفت حياة الترف المعهودة. انطلقت الشعلة

## ٥٠٠ رأيت فيما يرى النائم

- هل استعددت له؟

فأجاب بعظمة:

- سأكون مستعداً عام ٢٠٠٠!

فابتسم فسأله عبد اللطيف:

- وأنت؟

فأجاب باقتضاب:

- حالي حالك؟

فقال ضاحكاً:

- احلم بأن امرأة غنيّة وقعت في هواك...

ولكنّ الأحلام أرقته حتى الملل. وإنه على أنّه الاستعداد للتخلّي عن طموحه كلّ على شرط أن يتزوّد وينجب قانماً كلّ القناعة بتفاهته. وقال لنفسه «رضينا بالحدّ الأدنى ولكنّه لا يرضى بنا». وهبط عليه الإلهام غريب في تافرنّا وهو يجتسي النبيذ. أن يعلن حرباً على الدولة! أن يكتب منشورات سرّيّة، دينيّة تارة ومادّيّة تارة أخرى، ويرسلها إلى شتى الجهات ذات الخطورة فينشر بذلك القلق والرعب ويستمتع بالنصر والعبث. ما عليه إلّا أن ينقل الآلة الكاتبة الخاصّة بوالدته إلى حجراته بحجّة أنّه سيكتب عليها المتأخّر من أعماله الحكوميّة. استجاب للإلهام وعزم على تنفيذه، وبذلك ينقذ نفسه من عذاب الانتظار والملل والتفاهة! وراح ينقذ مشروعه بحماس وسرور وشيطنة. ويودع المنشورات في مظاريّف ويرسلها لشخصيّات رسميّة وغير رسميّة. ورغم أنّه استلهم مضامينها من منشورات أطلع عليها خلال التحقيقات إلّا أنّه زاد نقداً حدّة وتهديداتها عنفاً. ولم يركّز على صندوق بريد أكثر ممّا يجب فنوّع الشوارع والأحياء، وانهمك في العمل بقوة كأنّما هو هدف حياته. وانتظر أن يتلقّى أصداء عمله الخفيّ طويلاً حتى أوّشك أن يياس. وإذا بعبد اللطيف محمود يمس في أذنه ذات صباح:

- يتحدّثون عن نشاط دبّ في القوى الهدامة!

فحقق قلب عبد الفتاح واندفع متسائلاً:

- المنشورات؟!!

وأدرك للتوّ تسرّعه ففزع، وسأله الآخر:

- متى عرفت؟

فأنقذ نفسه قائلاً:

- في المقهى يتحدّثون!

ووصى نفسه بالحرص والحذر. فقال عبد اللطيف:

- أجهزة الأمن في غاية من النشاط...

فتراوح بين السرور والخوف وتساءل:

- كيف؟

- المراقبة والتفتيش!

غضّ بصره إخفاء لانفعالاته. لم يكن هذا مقصده. تصوّر ما يتعرّض له الأبرياء بسبب عبثه فغاص قلبه في صدره. وأمضى اليوم قلقاً منزعجاً كثيراً. لم يجلس إلى الآلة الكاتبة مرّة أخرى. وتساءل هل يجيئون بهم ليسجّل أقوالهم؟. وفي اليوم التالي دسّ إليه زميله عبد اللطيف ورقة قائلاً:

- إليك منشوراً!

تلقى المنشور بقلب خافق، ولكنّ قلبه توقّف عن الخفقان عندما تبين له أنّه منشور آخر حقيقيّ لا علاقة له بعبثه! الجذّ والعبث يسيران جنباً إلى جنب، ولكنّ ذلك لن يبرّكه من الذنب فلا شك أنّ منشوراته تعتبر أيضاً مسؤولة عمّا يجري من تفتيش وتحقيق. ودار رأسه فشعر بأنّ إصبعاً ستشير إليه بالاتهام. وفي صباح اليوم التالي لم يجد عبد اللطيف محمود على مكتبه. وسرعان ما علم بأنّه ألقى القبض عليه فيمن ألقى القبض عليهم. قال له رئيس المكتب:

- كان منهم ونحن لا ندرى!

أغمض عبد الفتاح مغالباً انفعالاته التي تموج بإعصار ممجّي. ولم يترك طويلاً للتأمّل إذ دُعي لمكالمة تليفونيّة لأوّل مرّة منذ التحق بالعمل. وجد أنّ المتكلّم هو والده قال له:

- فرّجت، استعدّ للسفر، والتفاصيل وقت الغداء!

فرّجت حقّاً. الثروة في الطريق ولن تستعصي

مشكلة عن حلّ طيّب. وقال لنفسه ساخراً إنّها نهاية

سعيدة جديدة بمنحرف من صلب منحرفين!.

واستحضر صورة الكون ممثّلة في السماء والأرض قال:

- خبّرتني عن الهدف من فضلك وإحسانك!

## رأيت فيما يرى النائم ٥٠١

- مخلوق عجيب يا عمّ محسن ...
- كيف؟
- أسفله موحد وأعلاه يتفرّع إلى اثنين!
- لا!
- تعال انظر بنفسك.
- وكيف حال الست؟
- بخير ولكتّها غائبة عمّا حولها!
- وذهب في أثرها مضطرباً خائب الرجاء. وحلق في المخلوق العجيب. رأى أسفله موحدًا ذا رجلين وبطن واحد، ثم يتفرّع بعد ذلك إلى اثنين لكلّ منهما صدره وعنقه ورأسه ووجهه. وكانا يصرخان معًا وكأنّ كلّ منهما يحتاج على وضعه أو يطالب باستقلاله الكامل وحرّيته الشرعيّة. هيمن على الرجل شعور بالارتباك والحيرة والحجل وحسد المتاعب تتجمّع فوقه كالسحب المليئة بالغبار. وتردّدت في داخله العبارة التجارئة التقليدية التي يحسم بها الموقف عند فشل صفقة من صفقات العطارة وهي «يفتح الله». أجل ودّ لو في الإمكان التخلّص من هذه العامة التي لن يذوق معها راحة البال. وقالت الحكيمة وهي مستغرقة في عملها الروتيني:
- صحّة جيّدة، كأنّ كلّ شيء طبيعيّ تمامًا ...
- فتساءل عمّ محسن خليل:
- الاثنان؟
- فقال الحكيمة بحيرة:
- ليسا توأمين ... هذا وليد واحد!
- فجفّف الرجل عرق وجهه وجبينه المتصبّب من داخله ومن جورّ الصيف وتساءل:
- ولم لا نعتبرهما اثنين؟
- كيف يكونان اثنين على حين أنّ انفصال جزء عن الجزء الآخر مستحيل!
- إنّها مشكلة، ليتها لم تكن أصلًا!
- فقال الحكيمة بلهجة وعظيمة:
- إنّ منحة من الله على أيّ حال ولا يجوز الاعتراض على حكمته ...
- فاستغفر الرجل ربّه فواصلت الحكيمة:
- سأسجّله باعتباره واحدًا.

## قسمتي ونصيبِي

عمّ محسن خليل العطار أجزل الله له العطاء فيها يحبّ ويتمنّى عدا الذرّة. دهر طويل مضى دون أن ينجب مع مجاهدة للنفس لترضى بما وهب الله وبما منع. كان متوسط القامة ثمن يؤمنون بأنّ الخير في الوسط. وكان بديناً وعنده أنّ البدانة للرجل كما للمرأة زينة وأبهة. وكان يزهو بأنفه الضخم وشدفيه القويين وبالحبّ المتبادل بينه وبين الناس. وحباه الحظّ بستّ عناية ذات الحسن والنضارة والطيبات المتراكمة من اللحم الورديّ الناعم، إلى كونها ستّ بيت ممتازة، يُغنى سطح بيتها المكوّن من دور واحد بالدجاج والإوزّ والأرانب، ويلهج عشاق مائدتها بطواجنها المعمرة وفطائرهما السابحة في السمن البلديّ. دنيا مقبلة في كلّ شيء ولكتّها صنّت بنعمة الإنجاب في عناد تطايرت دونه الحيل. نشدت شوري الأحيّة، ولجأت إلى أهل الله من العارفين والواصلين، وطافت بالأضرحة المباركة، حتّى الأطباء زارتهم ولكتهم أصدرت فتوى غير مبشرة شملت الزوجين معاً عمّ محسن وستّ عناية وقالوا إنّ الأمل الباقي أضعف من أن يُذكر. ووقفت في ساء النعيم الصافية غمامة حزن مترعة بالحسرة لا تريد أن تترجّح. وكما شارف عمّ محسن الخامسة والأربعين وستّ عناية الأربعين تلقياً من الله رحمة. هتفت ستّ عناية بعد تدقيق وعناية «يا أطفاف الله! ... إني حامل وحقّ سيدي الكردي!». كان عمّ محسن أوّل من طرب وشكر. وتردّد الخبر في الوايلية على حدود العباسيّة حيث يوجد بيت الأسرة وعملّ العطارة. وانقضت الأشهر التسعة في انتظار بهيج، وجاء المخاض يهزج بالأنين السعيد. وكما تلقت الحكيمة الوليد حملت فيه مذهولة مبهوتة. وراحت تبسمل وتحوقل. وهرعت إلى الصالة الشرقيّة الوثيرة فوفقت أمام عمّ محسن مضطربة حتّى تتمم الرجل خافق القلب:

- ربّنا يلطف بنا، ماذا وراءك؟

همست بعد تردّد:



## ٥٠٢ رأيت فيما يرى النائم

فتنهّد عمّ محسن قائلاً:

- سنصبح أهدوءة ونادرة!

- الصبر جميل!

- ولكن ألا يُستحسن اعتباره اثنين ذوي بطن

واحد؟

- لا يمكن أن يتعامل مع الحياة إلا كشخص

واحد.

وتبادلا النظر صامتين حتى سألته:

- ماذا تسميه؟

ولما لازم الصمت تساءلت:

- محمدين!.. ما رأيك في هذا الاسم المناسب؟

فهزّ رأسه مستسلماً دون أن ينبس. ولما انتهت ستّ

عناية لما حولها صعقت. وبكت طويلاً حتى احترت

عينها الجميلتان. وشاركت زوجها عواطفه. غير أن

ذلك لم يستمرّ طويلاً فاستجابت ستّ عناية في النهاية

إلى عاطفة الأمومة وعمّ محسن للأبوة. وراحت ترضع

الأيمن فما سكت البكاء حتى أرضعت الأيسر. وبغفوية

جعلت تنادي الأيمن بقسمتي والأيسر بنصبي فمئذ

الأسبوع الأول عرف الوليد باسمين. وتميّز كلّ بفردية

فرتباً نام قسمتي وظلّ نصبي صاحباً يتناغى أو يبكي

أو يرضع. ومع الزمن خفّت الدهشة وإن لم تخفّ

أصدائها في الخارج، وألفت الغرابية، وزالت

الوحشة. ونال قسمتي ونصبي حظهما الكامل من

الرعاية والحبّ والحنان. ومضت الأم تقول للزائرات

من أهلها:

- ليكن من أمره ما يكون فهو ابني، أو هما ابناي.

واعتاد الحاجّ محسن - فقد أدّى الفريضة بعد

التجربة - أن يقول:

- لله حكمته!

وعلم بفطرته أنّ الطفولة ستمرّ كدعابة ولكنّه فكّر

في المستقبل بقلق واختناق. أما ستّ عناية فاستفرقتها

متاعبها المضاعفة. كان عليها أن ترضع اثنين، وأن

تنظّف اثنين. وأن تربيّ اثنين. وأن تملك أعصابها إذا

نام أحدهما واحتاج للهدوء وصحا الآخر ورغب في

الملاعبة. واختلقت بقدرة قادر صورتاهما، فبدأ قسمتي

عميق السمرة رقيق الملامح عسليّ العينين، أما نصبي

فكان ذا بشرة قمحية وعينين سوداوين وأنف ينذر

بالضخامة. وأخذ الوليد يجبو على قدمين وأربع أيدي،

وينطق كلمة بعد أخرى، ويحاول المشي. ولوحظ أنّ

قسمتي كان أسرع في تعلّم النطق ولكنّه كان يذعن

لمشيئة نصبي في الحبو والمشي، وفي العبث بالأشياء

وتحطيمها. لبثت القيادة طيلة تلك الفترة المبكرة بيدي

نصبي وأتسمت بالعفرتة والتدمير ومطاردة الدجاج

وإيذاء القطط، غير أنّ خضوع قسمتي لنصبي أعفاهما

من الشجار عدا الأوقات النادرة التي كان يميل فيها

قسمتي للراحة فلا يتورّع نصبي عن لكزه بكوعه حتى

يسترسل في البكاء. ولما بلغا الرابعة من العمر

وجاوزاها، أخذنا ينظران إلى الطريق من النافذة

ويشاهدان الأطفال، ويرفعان أعينها نحو السماء من

فوق السطح فانهمرت الأسئلة مع اللعاب:

- كلّ ولد ذو رأس واحد، لماذا؟

فتجيب ستّ عناية مرتبكة:

- ربّنا يخلق الناس كما يشاء...

- دائماً ربّنا... ربّنا... أين هو؟

فيجيب عمّ محسن:

- هو يرانا ونحن لا نراه وهو قادر على كلّ شيء،

والويل لمن يعصاه!

ويحدّثها الرجل عمّا يجب ليحوزا رضاه فيخاف

قسمتي ويقول نصبي لقسمتي:

- اسمع كلامي أنا وإلا ضربتك...

ويريان القمر في ليالي الصيف فيمدّان نحوه

أيديهما. يتنهّد قسمتي مغلوباً على أمره ويشور نصبي

غاضباً. ويتساءل الحاجّ:

- هل نجسهما في البيت إلى ما شاء الله؟

فتقول ستّ عناية:

- أخاف عليهما عبث الأطفال...

وقرّر الحاجّ أن يقوم بتجربة فجلس أمام البيت على

كرسيّ خيزران وأجلسهما إلى جانبه على كرسيّ آخر.

سرعان ما تجمّع الصغار من مختلف الأعمار ليتفرّجوا

على المخلوق العجيب ولم ينفع معهم زجر أو نهر حتى

اضطرّ الرجل أن ينسحب من مجلسه وهو يحملها على

ذراعه، وتمتم في أمسي:

### رأيت لصا يرى النائم ٥٠٣

من عناده، ونهره أبوه كثيراً ولكنّه أشفق من ضربه. وعند بلوغ الثامنة أراد قسمي أن يصلي ويصوم. ومع أنّ نصيبي لم يمل إلى ذلك إلا أنّه وجد نفسه يشارك بقدر لا يستهان به في الوضوء، وأنّه يرغم تقريباً على الركوع والسجود. ولشغوره بضعف مركزه أذعن للواقع وهو يمتلئ حنفاً وغيظاً. وأمره أبوه بالصيام، وحاول أن يشيع جوعه في الخفاء ولكنّ قسمي احتج قائلاً:

- لا تشنّ أنّ بطننا واحد، وإذا تناولت لقمة واحدة أخبرت أبي...

وصبر يومه حتى نفذ صبره فبكى فرقت له أمه وقالت للحاج:

- الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، دعه حتى يكبر عاماً أو عامين...

فقال الأب في حيرة:

- ولكنّه إذا أفطر أفطر الآخر!

وهي مشكلة لم يحلّها إلا إمام سيدي الكردي فقال إنّ العبرة بالنية وإنّ صيام قسمي صحيح حتى لو أفطر نصيبي. وصام قسمي رغم إفطار نصيبي مستنداً إلى نيته أولاً وأخيراً. وتؤكد لكل شخصيته، وحال بينها نفور دائم أخذ في الاستفحال، وتدرت بينها أوقات الصفاء. وقالت الأم بعين دامعة:

- يا ويلي، لا يطيق أحدهما الآخر، ولا غنى لأحدهما عن الآخر، فكيف تمضي بها الحياة؟!!

مضت على الشوك، وشمل الخلاف أشياء وأشياء. قسمي يحبّ النظافة ونصيبي يكره فكرة الاستحمام إلا أن يضطرّ إليه اضطراراً، وتوسط الوالدان على أن ينزل قسمي عن شيء من النظافة نظير أن ينزل نصيبي عن كثير من القذارة. ونصيبي هم لا يشيع فكثيراً ما كان يُصاب قسمي بالتحمة. ولقسمي ولع بالأغاني العاطفية على حين يعشق نصيبي الأناشيد الصاخبة. أمّا ذروة الخصام فقد احتدمت لحبّ قسمي النامي للقراءة والاطلاع، يجب أن يقرأ كثيراً والآخر يفضل اللعب فوق السطح ومعاكسة السابلة والجيران. ونصيبي يمكن أن يصبر ساعة على انهماك الآخر في القراءة ولكنّه عند الضرورة يعرف كيف يفسد عليه

- بدأت المتاعب.

ولكنّ الله فتح على ستّ عناية بفكرة فافترحت أن تنقع جارتها بإرسال ابنها طارق وبتتها سميحة للعب مع محمّدين. ووافقت الجارة مشكورة فجاء طارق وسميحة، وكان طارق أكبر من محمّدين بعام أمّا سميحة فكانت تماثله في عمره.

وقد فزعا أوّل الأمر ونفرا من الصحبة غير أنّ ستّ عناية استرضتهما بالهدايا حتى زابلتها الوحشة وجرفها حبّ الاستطلاع والمغامرة، وسعد قسمي ونصيبي بالرفيقين الجديدين، وأحبّبا حضورهما حبّبا فاق كلّ تقدير، رغم أنّه لم يفز بحبّ في مثل قوته. وتنوّع الحديث واللعب وابتكرت الحكايات. وجدت الكرة الصغيرة من يتبادل رميها، ووجد الحبل من يتصارع على شدّه، وباتت سميحة هدفاً وردياً كلّ يرغب في الاستحواذ عليه، وكلّ يدعوها إلى الجلوس إلى جانبه إذا جمعهم التلفزيون. وبسبب سميحة نشبت بينها أوّل معركة حقيقية على ملا من الأسرة، فدميت شفة نصيبي وورمت عين قسمي. وبها تحرّر قسمي من الذوبان في نصيبي وأخذ يشعر بأنه فرد بإزاء آخر فتبادلا من الآن فصاعداً التوافق كما تبادلوا التنافر. وقال الحاج ذات يوم:

- جاءت السنّ المناسبة للمدرسة...

فتجهّم وجه عناية وارتسم في أساريره الشعور بالذنب فقال الحاج:

- إنّه باب مغلق!

وتفكّر ملياً ثمّ قال:

- سأجيء لهما بالمعلمين، يجب أن يعدّا على الأقلّ ليحلّلاً محليّ في الدكان...

وجاء المعلمون، ولقنوهما مبادئ الدين واللغة والحساب. واستجاب قسمي للتعلّم بدرجة مشجعة أمّا نصيبي فبدا راغباً عن العلم متعتراً في الفهم والاستيعاب، ومن أجل ذلك حثق على الآخر، وكدر ساعات مذاكرته بالعبث والغناء والمعاكسات الصيانية. وبدا الخلاف مزعجاً في تقبّل التربية الدينية التي أقبل عليها قسمي بقلب مفتوح على حين وقف فيها نصيبي موقف اللامبالاة. وضاعف زجر المدرّس

## ٥٠٤ رأيت فيما يرى النائم

تركيزه واستغراقه حتى يشتبك في معركة تسفر عادة عن انتصار نصيبي . وقال له قسمي مجربًا المناقشة بدلًا من العنف غير المجدي :

- لي هواياتي ولك هواياتك ولكنَّ هواياتي أنسب لظروفنا غير الطبيعيَّة . . .

فقال نصيبي بحدَّة :

- معنى ذلك أن تتحوَّل الحياة إلى سجن دائم .

- لكن لا نصيب لنا في الدنيا الخارجيَّة .

- السعادة في الدنيا والكآبة في الحجرة .

فقال قسمي :

- إنك تعاكس الناس فينالون علينا بالسخرية .

- أموت لو فعلت غير ذلك . . . بل إني أفكر في

اقتحام الطريق . . .

- ستجعل منا أضحوكة وفرجة . . .

فصاح نصيبي :

- إني أكره السجن وأحسد النجوم . . .

فقال قسمي برجاء :

- يلومك الكثير من العقل . . .

فقال نصيبي بازدراء :

- لا سبيل إلى الاتفاق .

- لكننا واحد كما ترى رغم أننا اثنان!

- هذه هي المصيبة ولكن عليك أن تدعن لي دون مقاومة . . .

- إنك عنيد ومحَب الخصام . . .

ودعاهما الوالدان إلى الاجتماع في حجرة المعيشة . حقًا إنهما فقدتا الشعور براحة البال وتنغص عليهما صفوهما . وآمنا بأن كارثة ستحل بالبيت إن لم يسارعا إلى حسم الداء . قبلتهما عنباية وقالت :

- فليحب أحدكما الآخر، إن وجد الحب تلاشت المشاكل!

فقال نصيبي :

- هو الذي يكرهني!

ولكنَّ قسمي بادره قائلاً :

- بل أنت الذي تكرهني!

فقال ستَّ عنباية متأهمة :

- إنكما اثنان في واحد لا يتجزأ ولا بدَّ من

الحب . . .

وقال الحاجَّ محسن خليل :

- الحكمة تطالبكما بالوفاق وإلا انقلبت الحياة جحيمًا لا يطاق، ذوبان أحدكما في الآخر مرفوض، والوفاق ممكن، فليصبر نصيبي عندما يرغب قسمي في القراءة، وفي مقابل ذلك على قسمي أن يرحب بالحركة واللعب مع نصيبي، وليكن كلَّ غناء مقبولًا ليستمتع كلُّ بأغانيه المفضلة، أما الدين فلا مناقشة فيه . . .

- فقال قسمي :

- إني على استعداد طيب للوفاق رغم ما يكلفني من ضيق . . .

ولاذ نصيبي بالصمت فرجع قسمي يقول :

- إنه لا يحبَّ الوفاق، ولا يعدُّ نفسه ليوم تدعونا فيه إلى العمل في الدكان!

فقال الأب بحزم :

- لا بدَّ مما ليس منه بد!

وعادت ستَّ عنباية تقول بحرارة وضراعة :

- عليكما بالحبِّ ففي رحمته النجاة . . .

ولكنَّ الوالدين لم يصفُ لها بال . وتابع ما يحدث بقلق وأسى . وبذل نصيبي في سبيل الوفاق جهدًا مترددًا لغلبة الأهواء الجاحمة عليه على حين مضى قسمي في الطريق الجديد بإرادة أقوى ورغبة أنقى مستأنسًا بعواطفه الصادقة وميله المخلص لوضع حدَّ لعذاباته، ومستعينًا عند الضرورة بوالديه . ولما ناهزا الحلم وشارفا المراهقة تصاعدت أزمتهما إلى الذروة . احتدمت الأحلام المكبوتة منذرة بالانفجار . وتبلورت لكلَّ منهما ذاتية مستقلة فبدأ الآخر غريبًا مهددًا للأمن، وعدوًّا يجب أن يقهر . ضاق كلُّ منهما بالرابطة القدرية التي فرضت عليهما وحدة كريمة لا فكاك منها . وتلاطما في دوامة من الانفعالات المحرقة الجنونية . وفارت من الأعماق موجة عمياء جرفت ستر الحياء، فارتطم الاندفاع بالندم، واشتعل الغضب فانخرط الاثنان في معركة وتبادلا الضربات القاسية . وهمدت الحركة غائصة في الصمت والشجن . استمرت فترة غير قصيرة إلى أن قال قسمي :

## رأيت فيما يرى النائم ٥٠٥

فلم يجبه نصيبي مغلوباً على أمره. وعلمت الأم بما حدث فجزعت، وكما عرفت الحقيقة من قسمتي قالت للآخر:

- ستهلك نفسك ذات يوم...

فهتف قسمتي:

- وسوف يهلكني معه دون ذنب...

فقال نصيبي بجرأة:

- نحن في حاجة إلى زوجة!

فبهتت الأم ولم تُدرِ ماذا تقول فواصل نصيبي:

- كما ولدتنا، فأناك مسؤولة عن تزويجنا من بنت الحلال...

فقال قسمتي:

- لن توافق بنت على الزواج من اثنين!

فقال نصيبي بتحد:

- ابحثي لنا عن زوجتين.

فقال قسمتي بحزن:

- قضي علينا أن نعيش وحيدين!

فقال نصيبي:

- فلنعتبر شخصاً واحداً كما نحن مسجلون في دفتر المواليد.

فقال قسمتي بأسى:

- شخص للفرجة لا للزواج...

واضطرت الأم أن تغادر الحجره وهي تقول:

- قد يكون عند الحاج حل!

وثار غضب نصيبي، وقال للآخر:

- لا حل إذا لم نعرث عليه بأنفسنا، فلنتنظر حتى ينتصف الليل ويندر المازة ثم نطلق في الظلام وراء أي صيد يقع.

فهتف قسمتي:

- خيال جنوني...

- لا تكن جباناً.

- لا تكن مجنوناً.

وقال الحاج محسن لزوجته:

- لم يغب عني هذا الموضوع، ولكن لا توجد أسرة

ترضى بمصاهرتنا...

- والحل!

- إنها لعنة لا يمكن أن تمضي معها الحياة في سلام...

فقال نصيبي بهدوء عنيد:

- لكتها ستمضي في طريقها على أي حال!

فأظلمت عينا قسمتي العسلتان وقال:

- قضي علينا بالحرمان من الانسجام الذي تحظى به جميع المخلوقات...

- إنك مريض ذو أفكار مريضة...

فقال قسمتي بسخرية:

- أهدنا مريض ولا شك!

فقال نصيبي بتحد:

- لن أنزل عن حق من حقوقي... فلا مهادنة بعد الآن...

- لي أيضاً حقوقي...

وتبادلا نظرة متحدية وبائسة، فانقطعا عن الحوار على أسوأ حال. وفي ذلك الوقت رأيا سميحة - زميلة الطفولة - بعين جديدة. كانا يريانها من النافذة وهي تذهب وتجيء منفردة أو بصحبة أمها فتتوقظ ذكرى عابرة ثم تختفي. أما ذلك اليوم فرأياها بعين جديدة. رأياها وقد أنضجتها شعلة الصبا فأضفت عليها بهاء وأثرتها بشهد الرغبة. أترع قلب قسمتي برحيق الفتنة فتمل على حين جن نصيبي بالأخيلة الجاحمة. تلقى قلب قسمتي شعاع الحسن كما يتلقى البرعم شعاع الشمس فيتفتح. تمنى لو تحمل محل نصيبي من وجوده التعيس، ولأول مرة يشعر بأن نصيبي ليس قيذاً فحسب ولكنه سد منيع في طريق السعادة الحقيقية. أما نصيبي فظل رأسه يتحرك في اضطراب، وكما وجد الفتاة واقفة قريبة من مدخل بيتها تنتظر اندفع إلى الطريق جازاً معه قسمتي. مرق من الباب إلى الطريق فرأته سميحة فتراجعت مبتعدة باسمه. ولكنه اندفع نحوها مسدداً يديه إلى صدرها ففزعت ووثبت داخله إلى بيتها. ولفتت الهجمة الحيوانية أنظار بعض المازة في شارع الوايلية ولكن قسمتي رجع إلى بيتهم بسرعة وهو يسب ويلعن والآخر مستسلم له بعد إفاقة مباغتة. وغضب قسمتي وصاح به:

- إنها فضيحة وما أنت إلا مجنون...

## ٥٠٦ رأيت فيما يرى النائم

- لم لم تتخلص منا عقب ولادتنا؟. لم لم ترحمنا وترحم نفسك؟

فقال الحاج في تأثر شديد:

- لن تعرفا الضيم أبداً. وسترثان ما يحقق لكما السر والكرامة.

فهتف نصيبي:

- لا قيمة للمال وحده، الواقع أننا ميتان، كم تمثيت أن أمارس التجارة وأبتاع سيارة وأتزوج من أربع!

وقال قسمي في حيرة:

- وعندي الاستعداد لأكون أستاذاً... وأمارس السياسة أيضاً...

ونظر نصيبي إلى قسمي وقال بحق:

- إنك العقبة التي تسدّ طريقي...

فقال قسمي بإصرار:

- أنت أنت العقبة...

فتساءل الحاج:

- ألا تسلّمان بالواقع وتسعيان إلى السعادة معاً؟

فقال قسمي:

- لو خلقنا برأس واحد وأسفلين منفصلين لهنا الأمل!

فقال الحاج برجاء:

- لن تمرّ السعادة على من ينشدها بصدق...

فقال قسمي بحق:

- هذه السعادة هي سبب تعاستنا!

ثم التفت نحو نصيبي قائلاً:

- نخّل عن عنجهيتك واتبعني تبلغ أقصى درجات

الرفعة والسعادة، أما لو تبعتك أنا فيكون مصيرنا

السجن...

فقال نصيبي ساخراً:

- محاولة خائبة لن تنجح، نحن مختلفان تماماً، أنا

لا أحب المعرفة، أما السياسة فلأنك إن اخترت

الحكومة اخترت من فوري المعارضة والعكس

بالعكس، لن أتبعك ولن تتبعني. ولن تهدأ

المعركة...

فقال الأب بنفاد صبر:

فقال الرجل وصوته يخفّض:

- ستجيء امرأة مسكينة في الحلقة الخامسة لتقوم على خدمتهما!

وجاءت امرأة تعيسة الحال والمنظر، نشطوا إلى تغذيتها وتنظيفها لترضى بما يُراد بها. وأعقب ذلك

سكون ظاهريّ على الأقلّ، أما في الواقع فإنّ نصيبي كان يسيء معاملة المرأة نهائياً كتعويض عن اندفاعه

الليلي، وأما قسمي فبداً كئيهاً مشتمراً، ويسأل الآخر:

- ما ذنبي أنا؟

فنهز نصيبي متسائلاً:

- وهل الذنب ذنبي؟!!

لم يجز جواباً لكنه تذكر سميحة بقلبه المسلوب، وعواطفه المتأججة المحرومة فتضاعف أساءه. والحق أنّ

كليهما شعر بالضيق والهوان، ولكن لم يشعر أحدهما بتعاسة الآخر، وعلى العكس اتهمه بأنه المسئول عن

مأساته، وودّ لو يتخلص منه بأيّ ثمن. ودعاها الأب للعمل في الدكان ولو كتجربة لا مقرّ من ممارستها.

كان يوم حضورهما في الدكان يوماً معتدل المناخ من أيام الربيع. تجلياً للأعين في بنطلون رماديّ،

وقمصين أبيضين نصف كمّ أما شعر رأسيهما فاستوى مشدّباً متوسط الطول. وقفا وراء الطاولة مرتبكين.

وسرعان ما تجمّع كثيرون ما بين زبون ومتفرّج حتّى ازدحم الطريق إلى نصفه. وقال الحاج موجّهاً خطابه لابنيه:

- استغرفا في العمل ولا تباليا بالناس...

ولكنّ الغضب عمّك نصيبي على حين دمعت عينا قسمي. وإذا بمصوّر صحفيّ يشقّ طريقه بين الجموع

ويلتقط العديد من الصور لمحّمدين أو قسمي ونصيبي. وفي النصف الثاني من النهار جاء مندوب من

التلفزيون يستأذن في إجراء حوار مع الشائين، ولكنّ الحاج رفض بحزم وبشيرة شديدة الغضب. وبنشر

الصور في الصحيفة الصباحية اشتدّ إقبال الناس وهبط البيع للدرجة الدنيا، فاضطرّ الحاج محسن خليل لمنعها

من الذهاب إلى الدكان، وقال لامرأته بقلب محزون:

- سوف تصفّى التجارة عقب انتهاء الأجل...

وعند ذاك تساءل نصيبي غاضباً:

## رأيت فيما يرى النائم ٥٠٧

ونصف ميت. وأنّ الحزينة التي حظي بها، والتي طالما تمناها، ليست إلّا وهماً، وأنها نصف موت أو موت كامل. أجل قرّر أن يهب نفسه للعمل طيبة الوقت بعد أن زال العائق ولكّنه اكتشف أنّه شخص جديد آخر. ولد الشخص الجديد فجأةً وبلا تدرّج. شخص فتر حماسه، وجفّت يناييعه، وتلاشت همّته، وخذ ذوقه. شخص جفا الحياة والعبادة والمسرات اليومية البريئة. شخص يعيش تحت سماء ماجت بالغيار فلا زرقة ولا سحب ولا نجوم ولا أفق. وقال بأشئ عميق:

- الموت في الكون...

ورؤي طوال الوقت صامتاً واجماً شبه نائم فسألته أمّه:

- ألا تسلي نفسك بفعل شيء؟

فأجابها:

- إني أفعل ما في وسعي، إني أنتظر الموت...

وبدا لعينيه أنّ الظلام يهول نحوه واعدًا بالسلام.

## العَيْنُ وَالسَّلَامَةُ

حدث ذلك في آخر ليلة لي في البيت القديم. أو الليلة التي تمّ الاتفاق على أنّها ستكون الأخيرة. والبيت ذو شخصيّة منفردة رغم قدمه، وغربته الواضحة في محيط العصر. بات وكأنّه أثر من الأثار، وأكد ذلك موقعه المطلّ على ميدان ولد مع القاهرة في عام واحد. نشأنا فيه بحكم الميراث، ثمّ حال الجفاء بيننا وبينه بحكم تنافر الأجيال، فتطلّعنا إلى الأجواء الحديثة الباهرة بعيداً عن الجدران الحجرية المغروسة في الأزقة الضيقة. كنت جالساً في الصالة المعصرانية الواسعة على أريكة طاعنة في السنّ تقرّر الاستغناء عنها تحت منسور محكم الإغلاق اتّقاء لنزوات الخريف. وكنت أحتسي قدحاً من القرفة رائياً إلى إبريق نحاسي صغير قائم على خوان بين يديّ، يبرز ما فيه عود بخور جاوي يحترق على مهل نافثاً خيطاً من الدخان الطيب وهو يتهاوج ويتأودّ تحت ضوء المصباح في صمت الوداع، واعتري ارتياحي فتور لغير ما سبب ثمّ غمروني

- ارجعنا إلى الوفاق، لا مفرّ منه، إنّه قدر، كما أنّ اتحادكما قدر...

وعادا كارهين إلى المحاولة. تجنّباً للخلاف ما استطاعا، وجارى كلّ الآخر رغم تفرّز قسمتي الخفيّ وسخرية نصيبي بعيداً عن عيني صاحبه. بدوا صديقين بلا صداقة، متحالّفين بلا إخلاص، فعاش كلّ منهما نصف حياة، وتعلّق بنصف أمل. غير أنّ آثار العمر طبعت في وجه نصيبي قبل الأوان، وتوكّد أنّه يسرع نحو شيخوخة مبكرة. لعلّه نتيجة لإفراطه في كلّ شيء. وراح يشكو من فتور في الجنس وحساسيّة من الشراب، وسوء الهضم. ولم تنفعه العطاراة ولا الطبّ. وفي معاناته أعلن ما يجتئ من حنق على صاحبه فاتّهبه قائلاً:

- حسدتي عليك اللعنة...

فتسامح معه قسمتي متمتاً:

- ساعلك الله!

فصاح به:

- لن تشمت بي، إذا متّ فستحمل جثتي إلى نهاية العمر وتحوّل من بشر إلى قبرا! واشتدّ به الضعف حتّى ركب الخوف من الموت. ورقّ له قسمتي في تدهوره فشجّعه قائلاً:

- سترجع إلى خير مما كنت!

فلم يحفل بقوله ولم يصدّقه. وذات صباح صحا مبكراً وهتف:

- إني ذاهب إلى موطن الحقيقة الباكية!

وهرولت إليه ستّ عنباية فأدركت أنّه يُحتضر فأخذته في حضنها وراحت تتلو الصمدية وانتفض صدره، وبكى قسمتي أيضاً ولكن سرعان ما غشاه الفزع من الموت المزروع في جذعه، وتبادل الوالدان نظرة حائرة. ماذا يفعلان بهذه الجثة التي لا يمكن دفنها؟. واستدعي طبيب على عجل فتفحص الحال وقال:

- إنّها مشكلة تتضمّن مشكلات، ولكن لا حلّ إلّا تخنيطه إذ لا يمكن فصله...

فكذا عاش قسمتي حاملاً جثة صاحبه المحتطّة. أدرك من اللحظة الأولى أنّه سيعيش نصف حيّ

شجن خفيّ. شحنت عزيمتي للمقاومة ولكنّ الحياة  
كلّها تجمّعت أمام عينيّ في التباينة خاطفة مثل كرة من  
نور منطلقة بسرعة كونية، سرعان ما انطلقت واهبة  
ذاتها للمجهول غائصة في جوفه الأبدية.

قلت لنفسي إنّي على دراية بهذه الالاعيب، وإنّ  
الرحيل العارض المقرّر غداً يذكّرني بالرحيل الأخير.  
عندما يرفع الحادي عقيرته مردّداً النشيد الأخير.  
وجعلت أتسلّى عن أحزان الوداع بتخيّل المقام الجديد  
في الشوارع العريضة تحت أغصان البلح الملتحمة  
والحياة الجديدة الواعدة بمسرات أنيقة لا حصر لها، وما  
كادت القرفة تستقرّ في جوفي حتّى وثبت وثبة عملاقة  
مباغتة انتقلت بها من حال إلى حال، فمن أعماقي  
تصاعد نداء يدعو بثقة لا حدّ لها إلى فتح الأبواب  
وكشف الحجاب وغزو الفضاء واقتناص الرضى  
والسماح من جنّات الجوّ المعبّ بالبخور. انجابت  
الهموم والأشجان وحواطر الفناء. وانهمرت سيول  
مترعة بالنشاط والهيام والطرب. وانتفض القلب في  
رقصة رائعة موحية بالإيهام والجدل. وشعّ نور في  
الباطن فتجسّد في مثال. وقدم كاساً طاقحة وقال  
بصوت عذب «تلوّ هدية معجزة» توقّعت أنّ سيحدث  
حدث. وقد حدث. ذابت الصالة في العدم وحلّ  
علّها فناء واسع يترامى حتّى يفصل بينه وبين الميدان  
جدار غليظ أبيض، غطّته دوائر وأهلة معشوشبة،  
وتوسّطته بثر، وعل مبعدة يسيرة منها نخلة فارعة،  
وتحوّرت بين إحساسين، إحساس يقول لي إنّي أرى  
مشهداً لم تسبق لي رؤيته، وآخر يقول لي إنّه ليس  
بالغريب وإنّي أراه وأتذكره معاً. حرّكت رأسي بعنف  
لأحضر إن كنت غائباً، ولكنّ المشهد ازداد وضوحاً  
وسيطرة وتمثّل لي بين البئر والنخلة بشراً! إنّه شخصي  
أنا رغم استخفائي في جبّة سوداء وعمامة عالية  
خضراء، وهذا وجهي رغم لحية المسترسلة. حرّكت  
رأسي مرّة أخرى ولكنّ المشهد ازداد وضوحاً ويقيناً،  
حتّى لون الوقت الأسمر أشار إلى المغيّب المغترب،  
وتمثّل أمامي - بين البئر والنخلة - كهل يمثّلني في  
الزّي، رأيتة يناولني صندوقاً صغيراً ويقول:  
- إنّها أيام غير مأمونة، يجب إخفاؤه تحت الأرض

حتّى تعود إليه في حينه.

فسألته:

- ألا يحسن أن أطلع عليه قبل إخفاؤه؟

فقال بحزم:

- لا... لا... لا... قد يملك ذلك على التسرّع في

التنفيذ قبل مضيّ عام فتهلك!

- أعليّ أن أنتظر عاماً؟

- دون نقصان، ثمّ أطلع ما يمليه عليك...

وصمت لحظة ثمّ واصل محدّثاً:

- إنّها أيام غير مأمونة، وقد يتعرّض بيتك

لالتفتيش، فيجب إخفاؤه في الأعماق...

وقام الاثنان بالحفر على كثب من النخلة، ودفنا

الصندوق، ثمّ أهالا عليه التراب، وسويّا السطح

بعناية، ثمّ قال الكهل:

- أتركك للعناية الإلهية... كن حذرًا، إنّها أيام

غير مأمونة...

وعند ذلك تلاشى المشهد فكأنّه لم يكن، رجعت

صالة البيت القديم وما زال في عود البخور بقيّة،

ورحت أفيق من نشوتي بسرعة وأرتدّ إلى الواقع بكلّ

كثافته، وغلبي الانفعال والتأثر طويلاً. تُرى أكان وهما

ما رأيت؟ هذا هو التفسير الجاهز ولكن كيف آخذ به

وأنسى المشهد المجسّد الذي نفت اليقين بكلّ أبعاده؟

لقد عشت واقعاً ماضيّاً لا يقلّ في صلابته عن الواقع

الراهن، رأيت نفسي أو أحد جدودي وجانباً من عصر

انقضى، لا يجوز أن أشكّ في ذلك وإلّا شككت في

عقلي وحواسي، لا أدري بطبيعة الحال كيف حدث

ذلك ولكنّي أدري أنّه حدث. وثمة سؤال غزائي

بعنف: لماذا حدث ما حدث؟. ولماذا حدث في هذه

الليلة الأخيرة لي في البيت القديم؟. وفي الحال شعرت

بأنّي مُطالب بعمل شيء ما. شيء لا مفرّ منه. وتُرى

هل استخراج «الأخر» الصندوق بعد مضيّ العام وصنع

ما يشير عليه به، هل نفذ صبره فتسرّع فهلك؟ هل

انقلبت عليه خطّته بسبب تلك الأيام غير المأمونة؟! يا

لها من رغبة أسرة في المعرفة لا يمكن مقاومتها! وخطر

لي خاطر غريب وهو أنّ الماضي لم يتمثّل لي إلا لأنّ

«الأخر» حيل بينه وبين الصندوق وآتي مدعوّ

## رأيت فيما يرى النائم ٥٠٩

وضربت الفأس مرّة فرجّح صوتًا جديدًا واشيًا بجسم  
جديد فحفق فؤادي حتّى زلزلت جذوره. رأيت  
الصندوق على ضوء شمعة بطالعي بوجه أغبر لكنّه  
حيّ. وكأنّما يعاتبني على طول تأخري، ويؤنّبني على  
ضياح العديد من السنين، ويعلم استياءه على حبه  
كلمة من حقّها أن تعرف، من ناحية أخرى تجسّد لي  
حقيقة صلبة لا يدانيها شك. معجزة مجسّدة، صوتًا  
يملاّ الأسعاع، وانتصارًا محقّقًا على الرمن، سعدت به  
إلى سطح الأرض ثم هرولت إلى الصالة، حملت بين  
يديّ الدليل الذي عبرني من الحلم إلى الحقيقة هازنًا  
بكافّة المسلمات. نفضت عنه الغبار، وفتحت، فوجدت  
رسالة مطوية في لغافة من كتّان منهزئ، بسطتها برفق  
وانشأت أقرأ:

- يا بُنيّ ليحفظك الله تعالى ...

مضى العام وعرّف كلّ سيّله.

لا تهجر دارك فهي أجمل دار في القاهرة فضلًا عن  
أنّ المؤمنين لا يعرفون دارًا سواها، وماؤى آمنًا غيرها.  
وقد أنّ الأوان لكي تلقى حامي الحمى مولانا  
عارف الباقلاني، فاذهب إلى داره، وهي الثالثة إلى  
يمين الداخل في عطفة إرم جور واذكر له كلمة السرّ  
وهي: إذا تعيّبت بدا وإن بدا غيبي.

بذلك تؤدّي واجبك وتقبل عليك الدنيا وتناك ما  
يجب لك المؤمنون وفوق ما تحبّ لنفسك.

قرأت الرسالة مرّات حتّى حالت القراءة اليّة لا  
معنى لها. أمّا قريبي القديم فلا علم لي بما آل اليه  
مصيره. لكنّ المؤكّد أنّ الدار لم تعد أجمل دار في  
القاهرة ولا المأوى الآمن للمؤمنين، ولم يعد لحامي  
الحمى عارف الباقلاني وجود، فعلاّم كانت الرؤيا  
وعلاّم كان التعب؟! ولكن هل يمكن أن تقع معجزة  
بهذه القوّة لغير ما سبب؟! أليس من الجائز أنّها  
تطالبني بالذهاب إلى الدار الثالثة بعطفة إرم جور  
لتجود عليّ بما لم يقع لي في تقديري؟! وهل أملك أن  
أصرف نفسي عن الذهاب إلى هناك مجدّوبًا بحبّ  
استطلاع نهم ورغبة تأب أن تؤول معجزتي الفريدة إلى  
عبث عقيم، ذهبت مستظلاً بجناح الليل متأخرًا عن  
ميعادي عدّة مئات من السنين. وجدت الحارة خاشعة

لاستخراجه وتنفيذ ما يشير به بعد إهمال طال واستطال  
أمدًا غير معروف. إنّه يأمرني بالأهجر البيت القديم  
لكي أعمل بكلمة قديمة مجهولة أنّها أنّ تتحقّق.  
ومع أنّ الموقف كلّه تسربل بغشاء منسوج من  
الأحلام، متنافر تمامًا مع العقل، غير أنّه هيمن عليّ  
بقوّة طاغية فامتلاّ القلب بأشواق التطلّع والانتظار  
والأمهما الجامعة بين الترقّب والعدوية. ولم أنّ من  
الليل ساعة واحدة، وظلّ خيالي يجوب أرجاء الزمان  
الشامل للماضي والحاضر والمستقبل معًا ثملاً بخمر  
الحزّة المطلقة، أمست فكرة الرحيل في خبّر كان.  
واستحوذت عليّ نيّة التنقيب في الماضي المجهول لعلّي  
أعثر على الكلمة التي طال رقادها، ثمّ أتأمّل ما ينبغي  
صنعه بعد ذلك، وبالقارنة بين المشهد البائد والمشهد  
المائل لعينيّ، قدّرت أنّ موقع النخلة القديم يقوم في  
موضع السلم الصغير الصاعد إلى المنظرة. وعليه  
فالحفر يجب أن يبدأ على مبعده يسيرة منه فيما يلي شبّاك  
المنظرة، اعترضتني بعد ذلك مشكلة إخبار أخي وأختي  
بعدولي عن الرحيل بعد أن تمّ الاتفاق بيننا عليه.  
وكنا لا نزال في مرحلة التعليم الجامعيّ فأنا في السنة  
النهائيّة بكلّيّة الحقوق، وأخي الذي يصغرنى بعام  
يدرس الهندسة، وأختي التي تصغرنى بعامين تدرس  
الطبّ. احتجّ كلاهما على عدولي المفاجئ ولم يجدا له  
تفسيرًا مقنعًا وأصرّا في الوقت نفسه على الانتقال  
وحدهما غير يائسين من التحاقي بهما في وقت قريب.  
وقبل أن يغادراني ذكراني بما اتّفقنا عليه من عرض  
البيت للبيع للاستفادة من ارتفاع سعر الأراضي فلم  
أعارض بكلمة. هكذا افرقنا لأوّل مرّة في حياتنا وكنا  
نؤمن بأنّه لن يفرّق بيننا إلاّ الزواج أو الموت. ولم يتوقّف  
إلاّ أن أشرع في العمل. والحقّ أنّي تهيّيت أن يتمخّض  
عن لا شيء ولكنّي كنت مدفوعًا بقوّة لا تقبل التراجع.  
وعزمت على الحفر بنفسي ليلا في حذر وكتّان،  
استعنت بفأس ومجرقة ومقطف واستغرقني العمل بهمة  
لا تعرف الكلل. صبغني التراب وملاّ صدري واستقرّ  
في أنفي رائحة مترعة بالأسى والزمان الأوّل. وتواصل  
العمل حتّى غصت في الأعماق مقدار طولي كلّه ولا  
معين لي إلاّ شعوري الباطنيّ بأنّي أقترّب من الحقيقة.



## ٥١٠ رأيت فيما يرى النائم

- هل تردّد الكلام نفسه أو توفّر على نفسك وعلينا العناء، وتتعترف؟  
فهتفت بحرارة:

- أحلف بالله العظيم على أنّه لا علاقة لي بشيء مما تظنّون.

فمدّ يده نحوي قائلاً:

- بطاقتك.

أعطيته البطاقة فقرأها ثمّ سألتني:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فأومأت إلى الرجلين وقلت متشكّكياً:

- جاء بي قسراً.

- اقتنصاك من عرض الطريق؟

- جئت الحارة للسؤال عن الباقلائي.

- ماذا يدفعك للسؤال عنهم؟

فارتبكت وتحمّرت وشعرت بالحذر الواجب أن يشعر

به من يُجرى تحقيق معه، قلت:

- قرأت عنهم في التاريخ وأتّم كانوا يقيمون في

ثالث بيت إلى يمين الداخل إلى هذه الحارة.

- دلّني على المرجع الذي قرأت فيه ذلك.

فغصت في الحيرة أكثر ولم أجز جواباً، فقال:

- الكذب لا يفيد، بل إنّه يضر!

فتساءلت في شبه يأس:

- ماذا تريدون منّي؟

فقال بهدوء:

- إنك ملقّي القبض عليك للتحقيق.

فصحت:

- لن تصدّقوني إذا صارحتكم بالحقيقة.

- تُرى ما هي هذه الحقيقة؟

تتهدّت وفي ريقى تراب، ثمّ أنشأت أقول:

- كنت جالساً وحدي في صالة بيتي...

وأفشيت سرّي تحت نظراتهم الصارمة الساخرة،

ولما انتهيت قال الرجل ببرود:

- ادّعاء الجنون لا يفيد أيضاً.

فهتفت بشماتة وأنا أخرج الرسالة من جيبي:

- إليكم الدليل...

فتحصّها ملياً وهو يهمس لنفسه:

تحت ظلمة يلوح في عمقها بصيص نور يشعّ من مصباح، ولم أر من البشر إلاّ أحاداً عبروا بسرعة نحو الطريق. جاوزت البيت الأوّل إلى الثاني وعند الثالث توقّفت عن المشي. وملت نحوه كمن يسير في حلم حتى تبيّن لي أنّه ذو فناء صغير يقع وراء سور قصير وأنّه لا يخلو من أشباح البشر، وقبل أن أتراجع فتح الباب وخرج رجلان طويلان في ملابس عصريّة، حصراي بينهما في حركة التفاف رشيقة ثمّ جاءت صوت أحدهما قائلاً:

- ادخل لمقابلة من جئت لمقابله...

فقلت مأخوذاً:

- ما جئت لمقابلة أحد ولكنّي أودّ أن أعرف اسم

من يقيم في البيت...

- حقاً. لماذا؟

فقلت وأنا أزيح عن صدري انقباضه:

- أودّ أن أعرف إن كان المقيم هنا من آل

الباقلاني.

فقال الرجل متهمكياً:

- دعك من الباقلائي وواصل رحلتك إلى نهايتها.

أفضى إلى قلبي بأنّهم من رجال الأمن فخامرني قلق

وحيرة وقلت:

- لا توجد رحلة ولا مقابلة...

- سوف تغتبر رأيك...

وقبض كلّ منهما على ذراع، وساقاني رغم مقاومتي

إلى الداخل. انتزعت من الحلم ودفعت إلى كابوس،

وأدخلت إلى حجرة استقبال مضاعة يقف في وسطها

شخص في جلباب أبيض والقيد الحديديّ في يديه،

ورأيت في أنحاء الحجرة رجالاً من نوع الرجلين

اللذين ساقاني على رغمي، وقال أحد الرجلين:

- كان قادماً للاجتماع بصاحبه.

التفت رجل - حدست أنّه رئيس القوّة - إلى

المقبوض عليه وسأله:

- أحد زملائك؟

فأجاب الشابّ بوجه متجهّم:

- لم أره من قبل.

فنظر الرجل نحوي وسألني:

## رأيت فيها يرى النائم ٥١١

وبخلاف الحانات تميم في سكية رائعة، وكان رؤاها يتناجون في الباطن ويتحاورون بالنظرات، وفي الليلة المباركة خرج الحمار عن صمته التقليدي وقال:

- حلمت أمس بأن هديّة ستهدي إلى صاحب الحظّ السعيد. . .

فشدا قلب «صفوان» بنخمة مصحوبة بعزف عود خفيّ فتدققت موجات الخمر في أرجائه كالكهرباء فهتأ نفسه قائلاً «مباركة الليلة المباركة». وغادر الحماره ثملاً يترنح، غائصاً في الليل الجليل تحت سماء خريف لم يتخلّ من وميض نجوم. مضى نحو شارع النزهة مخترقاً الميدان متألقاً نشوة لم يفتورها أذن خول. بدا الشارع خاشعاً تحت ستار الظلام عدا أضواء المصابيح الرسمية المتباعدة، بعد أن أغلقت الحوانيت أبوابها وركنت المساكن للنوم. ووقف أمام بيته، وهو الرابع إلى اليمين ذو الرقم ٤٢، من دور واحد يتقدمه فناء قديم لم تبق من حديثه إلا نخلة فارعة. وعجب للظلام الكثيف الذي يحتويه. ونساء لم لم تضيء زوجته مصباح الباب الخارجي كالعادة؟! وخيل إليه أن شبح البيت يتبدى في صورة جديدة، جهمة غليظة موحشة وأن رائحة تفوح منه كالشيخوخة، ورفع صوته هاتفاً:

- يا هوه! . . .

فاستوى أمام عينيه وراء السور شبح رجل يسلم ثم يتساءل:

- من أنت؟ . . . وماذا تريد؟ . . .

فذهل صفوان لوجود الغريب وسأله بحدة:

- من أنت؟ . . . وماذا أدخلك بيتي؟!؟

فقال الرجل بخشونة وغضب:

- بيتك؟

- من أنت؟

- أنا خفير الأوقاف.

- لكن هذا بيتي. . .

فصاح الرجل ساخراً:

- هذا بيت مهجور من قديم تجيبه الناس لما يشاع

عنه من أنه مسكون بالمفاريت. . .

سلم بأنه ضلّ طريقه، وهول نحو الميدان،

- ورقة غريبة سنجلو سرها بعد قليل. . .

وراح يقرأ السطور بعناية وشفته تنفرج عن بسمه هازئة ثم تهم:

- شفرة مكشوفة!

ثم نظر صاحب الدار المقبوض عليه وسأله:

- سيادتك عارف بالاقلاني؟، أهذا هو اسمك الحركي؟

فقال الشاب باستهانة:

- ليس لي اسم حركي، وما هذا الغريب إلا أحد مرشديكم جئتم به لتلقفوا لي تهمة ولكني خير بهذه الالاعيب!

وتساءل أحد المعاونين:

- ألا يستحسن أن نبقى لعل آخرين يأتون فيقومون في الشرك؟

فقال الرجل:

- سنتظر حتى الفجر.

وأشار إلى الرجلين المسكينين بي إشارة خاصة فشرعا يضعان القيد الحديدي في يدي غير مبالين باحتجاجي، ولم أصدّق المصير الذي انزلت إليه. كيف يبدأ بمعجزة باهرة وينتهي بمثل هذه الوكسة؟! لم أصدّق ولم أستسلم لليأس. أجل إني أنغمس في محنة حتى قمة رأسي ولكنّ الرؤيا لم تتجلّ لمحض العبث. عليّ أن أعترف بخطي الصيانيّ وعليّ أن أعيد النظر، وعليّ أن أناجي الوقت. . .

وشملنا صمت ثقيل. تذكّرت أخي وأختي في الدار الجديدة، والحفرة الفاغرة في الدار القديمة، وتراءى لي الموقف من خارجه فقررت مني ضحكة، ولكن لم يلتفت لي أحد، ولا خرج من الصمت.

## الليلة المباركة

ما هي إلا حجرة وحيدة يتوسطها البار والرفق الزين بالقوارير في عطفة نوري المتواضعة والمتفرعة عن كلوت بك، اسمها الزهرة، ولكن يعيشها لحدّ الوله الشيوخ المدمنون، وخارها طاعن في السن، متماذ في الهدوء، مؤثر للصمت، غير أنه يشع مودة وأنسا،

## ٥١٢ رأيت فيما يرى النائم

- اذهب به إلى البيت رقم ٤٢ بشارع النزهة...  
 وذهب به الشرطي، وأخيراً وجد نفسه أمام بيته كما  
 يعرفه، ورغم سكره دهمه الحياء. وفتح الباب  
 الخارجي، وعبر الفناء، وفتح الباب الداخلي، وأضاء  
 مصباح المدخل، وعند ذلك بهت. وجد نفسه في  
 مدخل لم تقع عليه عيناه من قبل. لا صلة البتة بينه  
 وبين مدخل بيته الذي عاش فيه حوالي نصف قرن  
 حتى أبلى أثنائه وجدرانته. وقرّر التراجع قبل انكشاف  
 أمره فمرق إلى الطريق، وقف يتفحص البيت من  
 الخارج، إنّه بيته، من ناحية الشخصية والموقع، وقد  
 فتح أبوابه بفتاحه فلا منفذ إلى الشك في ذلك، فإذا  
 غيّر من الداخل؟! نعمة نجفة صغيرة بهيئة  
 الشمعدان، والجدران موزّقة، وسجادة جديدة! من  
 ناحية هو بيته، ومن ناحية أخرى هو بيت غريب.  
 وماذا عن زوجته صدرية؟!.

وقال بصوت مسموع:

- إني أشرب منذ نصف قرن فماذا حدث في هذه  
 الليلة المباركة؟!

وخيل إليه أنّ بناته السبع المتزوجات ينظرن إليه  
 بأعين دامعة، ولكنّه عزم على أن يحلّ مشكلته بنفسه  
 دون لجوء إلى السلطات وإلاّ عرض نفسه لسيف  
 القانون، واقترب من سور الفناء وراح يصفق بيديه،  
 وفتح الباب الداخلي عن شخص لم تتضح معالمه وجاءه  
 صوت امرأة متسائلاً:

- ماذا يوقفك في الخارج؟!

خيل إليه أنّه صوت غريب، أو شكّ في ذلك،  
 وتساءل:

- بيت من من فضلك؟!

فهتفت المرأة:

- لهذا الحدّ؟! ... لا ... لا ...

فقال بحذر:

- أنا صفوان ...

- ادخل وإلاّ أيقظت النائمين ...

- أنت صدرية؟!

- لا حول ولا قوة إلاّ بالله، يوجد من ينتظرك في

الداخل ...

وشمله بنظرة شاملة، ثمّ رفع رأسه إلى لافتة الشارع،  
 وقرأ بصوت مرتفع «النزهة»، ودخل هذه المرّة وهو يعدّ  
 البيوت عدداً حتى بلغ الرابع. وقف مذهولاً يكاد يُجنّ.  
 لم يجد بيته، ولا البيت المسكون، ولكنّه رأى أرضاً  
 فضاء، خرابية، مبسوطة بين البيوت، وتساءل:

- أفقدت بيتي أم فقدت عقلي؟!

ورأى الشرطي قادمًا وهو يتفقد أفعال الحوانيت  
 فاعترض سبيله وسأله وهو يشير نحو الخرابية:

- ماذا ترى هنا؟

فحدج الشرطي بنظرة مستريية وتمتم:

- هذه خرابية كما ترى، وتقام فيها سرادقات الموت  
 أحياناً ...

فقال صفوان:

- كان يجب أن أجد مكانها بيتي، تركته وفيه  
 زوجتي وهي في تمام الصحة والعافية عصر اليوم فقط،  
 فمتى مُدم وأزيلت أنقاضه؟!

فدفن الشرطي ابتسامة طارئة في عبوسة رسمية  
 وقال له بخشونة:

- اسأل السّم الزعاف في بطنك!

فقال صفوان بكبرياء:

- إنك تخاطب مديراً عامًا سابقًا!

فقبض الشرطي على ذراعه ومضى به قائلاً:

- سكر وعريدة في الطريق العام!

وسار به إلى قسم الظاهر على مبعدة سيرة وأوقفه  
 أمام الضابط في حال تلبس، ورشى الضابط لوقاره  
 وسه، فقال:

- البطاقة؟

وأخرج له بطاقته وهو يقول:

- إني في تمام وعيي ولكن بيتي لم يعد له أثر ...

فقال الضابط ضاحكًا:

- سرقة من نوع جديد لا أدري كيف أصدّقها ...

فقال صفوان بقلق:

- ولكنّي أقول الحقيقة ...

- الحقيقة مظلومة ولكنّي سأعاملك برفق إكرامًا

لستك ...

ثمّ قال للشرطي:

## رأيت فيما يرى النائم ٥١٣

فتساءل في عنف:  
 - كأنك تشك في ذلك... أرى ضرورة استدعاء الشرطة!  
 فاندفع الرجل في غضب:  
 - كي تقبض عليك بتهمة السكر والعريضة والاحتيال!  
 - اخزس إنك محتمل وقليل الأدب...  
 فضرب الرجل كفاً بكف وقال:  
 - تتجاهلني لشهرب من تعهداتك ولكن هيهات...  
 - أنا لا أعرفك ولا أفهمك...  
 - حقاً! أتدعي النسيان والبراءة؟... ألم توافق على بيع البيت والزوجة وتحديد هذه الليلة لإنهاء الإجراءات النهائية؟!  
 فذهل صفوان وصاح:  
 - يا لك من شيطان كذاب...  
 فقال بهدوء وهو يرفع منكبيه:  
 - كالعادة كالعادة أف لكم!  
 - أنت مجنون بلا شك...  
 - لديّ الدليل والشهود!  
 - لم أسمع عن إنسان فعل ذلك من قبل...  
 - بل يحدث كل ساعة ولكنتك ممثل بارع وسكران...  
 فقال صفوان وهو ممزق بين انفعالاته المتضاربة:  
 - أطلبك بالخروج في الحال...  
 فقال بصوت مليء بالثقة:  
 - بل تُنهي الإجراءات الناقصة.  
 ونهض نحو الباب المغلق المفضي إلى الداخل ونقره ثم رجع إلى مجلسه وفي الحال دخل رجل قصير مرتب الأنف بارز الجبهة يتأبط دوسيتها متخياً بالأوراق فانحنى تحيةً وجلس. ثقبه صفوان بنظرة قاسية وصاح:  
 - متى أصبح بيتي مأوى للأغراب؟!  
 فقال الرجل الأول مقدماً الداخل:  
 - الأستاذ المحامي.  
 فسأله صفوان بشدة:  
 - من أذن لك بالدخول في بيتي؟  
 فقال الأستاذ مبتسماً:

- في هذه الساعة؟!  
 - إنه ينتظر منذ العاشرة...  
 - ينتظرن أنا؟!  
 فتأققت بصوت مسموع. فتساءل:  
 - أنت صدرية؟!  
 فهتفت بفناد صبر:  
 - لا حول ولا قوة إلا بالله!  
 وتقدم، في حذر أولاً ثم باستهانة. وجد نفسه في المدخل الجديد. ورأى باب حجرة الاستقبال مفتوحاً والأضواء تثير الداخل بقوة أما المرأة فقد اختفت. ودخل حجرة الاستقبال فطالعته بمنظر جديد مثل المدخل. أين ذهبت الحجرة القديمة بأثاثها العتيق؟! جدران حديثة الطلاء، ونجفة كبيرة تتدلى منها فوانيس من طراز إسباني، وسجادة زرقاء، وكنبة وثيرة وفوطيات مريجة، فهي حجرة فاخرة، وفي الصدر جلس رجل غريب لم يره من قبل، نحيل غامق السمرة ذو أنف يذكر بمقتار البيّغاء وفي بصره حدة، ويرتدي بدلة سوداء رغم أنّ الخريف كان يسحب خطاه الأولى.  
 بادره الرجل بضيق:  
 - شدّ ما تأخّرت عن ميعادنا!  
 فذهل صفوان وغضب في آن وتساءل:  
 - أيّ ميعاد؟... من أنت؟!  
 فهتف الرجل:  
 - هذا ما أتوقّعه، النسيان!، صادق أو كاذب، الشكوى نفسها، تتكرّر كل يوم، لا فائدة، ولكن هيهات...  
 فصاح صفوان بحدة:  
 - ما هذا الهديان؟  
 فقال الرجل وهو يضبط أعصابه:  
 - أعرف أنّك صاحب «مزاج» وأنك تُفرط أحياناً. فقاطعه:  
 - إنّك تخاطبني وكأنك وليّ أمري على حين أنّي لا أعرفك ويدهشني أنّك تفرض نفسك على بيت في غياب صاحبه...  
 وهو يضحك ضحكة باردة:  
 - صاحبه؟!

## ٥١٤ رأيت فيما يرى النائم

- أنت مرهق ولكن الله يسامحك، ماذا يغضبك؟  
- يا لك من صفيق!  
فقال الأستاذ دون مبالاة بقوله:  
- الصفقة في صالحك دون ريب.  
فسأله بذهول:  
- أيّ صفقة؟!
- أنت تعرف تمامًا ما أعنيه... وأودّ أن أقول لك إن التفكير الآن في التراجع غير مُجدي. القانون معنا والعقل أيضًا. دعني أسألك أتري أنّ هذا البيت وهو بيتك حقًا؟
- لأوّل مرة يشعر بالحرج ويقول:  
- نعم ولا...  
- أكان على هذه الحال عندما غادرته؟!  
- كلاً.  
- إذن فهو بيت آخر.  
- لكنّه نفس الموقع والرقم والشارع.  
- جميع ذلك أعراض لا تمسّ الجوهر، وإليك أمرًا آخر...  
- وقام ففقر الباب ثمّ رجع إلى مجلسه. وسرعان ما دخلت امرأة متوسطة العمر والجمال مهذّبة المظهر مع ميل إلى الحزن فجلست إلى جانب الرجل الأوّل وعاد المحامي يسأله:  
- هل ترى في هذه السيّدة زوجتك؟  
خيل إليه أنّها تمّت بشبه إليها ولكنّه لم يملك أن قال:  
- كلاً.  
- عظيم لا البيت بيتك ولا السيّدة زوجتك فما عليك إلا أن توقّع على الاتفاق الأخير ثمّ ترحل...  
- أرحل!... إلى أين؟!  
- يا سيّدي لا تكن عنيدًا. الصفقة في صالحك تمامًا وأنت تعلم ذلك.  
ودقّ جرس التليفون في هذه الساعة المتأخّرة من الليل وكان المتحدث الحتّار.  
وعجب صفوان لأنّه كان يتلفن له لأوّل مرّة في حياته قال له:  
- صفوان بك... وقع دون تأخير... .
- لكن هل تعلم...  
- وقع... إنّها فرصة لا تعوّض في العمر إلا مرّة واحدة...  
- وأغلق السكّة. تذكّر صفوان الحوار القصير وإذا بأعصابه تهدأ وتستقرّ وتستسلم من أقصى طرف إلى أقصى طرف. في ثانية تغيّر حاله تمامًا فانبسطت أساريره وزايله التوتّر فوقّ، وعند ذلك سلّمه المحامي حقيبة صغيرة وثقيلة نوعًا ما وهو يقول:  
- فليبارك الله خطاك، في هذه الحقيبة كلّ ما يلزم الإنسان السعيد في هذه الدنيا.  
- وصنّق الرجل الأوّل فدخل رجل بدين جدًّا باسم الثغر جذّاب الروح فقال المحامي يقدّمه إلى صفوان:  
- هذا رجل أمين وخبير في عمله وسيوصلك إلى ماواك الجديد. حقًا إنّها صفقة رابحة!  
ومضى الرجل البدين إلى الخارج فتبعه صفوان ساكنًا مطمئنًا ويده تشدّ على مقبض الحقيبة. تقدّمه الرجل في الليل فتبعه، وكما لفحه الهواء ترتج فأدرك أنّه لم يفق بعد من سكرة الليلة المباركة. وأوسع الرّجل خطاه فطالت المسافة بينها فأسرع بدوره رغم سكره مسدّدًا بصره نحو شبح الآخر وهو يعجب لجمعه بين الخفّة والبدانة وهتف به:  
- تمهّل في سيرك يا حضرة.  
فكأنّه حثّه على مزيد من السرعة فتدقّق في خطّى متلاحقة، فاضطرّ صفوان إلى الهرولة خشية أن يفقده فيفقد أمله الأخير ولكنّه خاف أن يعجز عن الصمود فهتف به مرّة أخرى:  
- تمهّل وإلا ضللت طريقي.  
فإذا بالآخر يعدو غير عابٍ به ففزع صفوان واندفع يجري غير مبالٍ بالعواقب وناله من ذلك عناء شديد وغير مُجدي أيضًا لأنّ الرجل غاص في الظلام وتوارى عن عينيه. وخاف أن يسبقه إلى ميدان النيايح حيث تتفرّق طرق شتّى فلا يدري في أيّ طريق ذهب فراح يجري بأقصى سرعة مصمّمًا على اللحاق به. وأثمر جهاده فلاح له شبهة مرّة أخرى عند مفترق الطرق.  
رآه ينطلق صوب الأمام نحو الحقول متجاهلاً الفروع المائلة نحو المدينة شرقيها وغربيها فانطلق وراءه

## رأيت فيما يرى النائم ٥١٥

- للزمن نصل حادّ وحاشية رقيقة .  
وركعت في استسلام وانهمكت في عمل . ثبّت  
عليها عيناى ولكنّي لم أنيس بكلمة . وحدست وراء  
انهاكها غاية دانية . وقال الصوت:  
- الأنفاس العطرة تصدر عن قلب طيّب .  
وانتظرت حتّى جمعت أدواتها ونهضت في رشاقة .  
ومضت نحو الخارج . شدّتي بخيوط خفيّة لا تنصف  
فانزلت من الفراش وتبعتها . وهيمن عليّ شعور بأنّي  
مدعوّ لأمر ما ، وأنّي لن أجد عن التطلّع إلى الامام .  
تمضي متأوّدّة كأنّها ترقص باعثة وراءها بنسائم من  
الذكريات . تعرف طريقها في الليل وأهتدي أنا  
بشبحها . ومررت بأشياء وأشياء ولكنّي أنسيتها فتواترت  
مثل شرر متطاير . وعند موضع عبق بشذا الحنّاء فصل  
بيننا قطار سريع طويل رجّ الأرض ومن عليها .  
وبذهاب ضجيجها استوى الليل أمامي وحده فضاعت  
من سرعتي . وأطبق الليل وحده واختلجت فيه الوعود  
المضمّخة بشذا الحنّاء . لم يعد في وسعي التراجع وليس  
معي من الحوافز إلا الظمأ والشوق .

## الحلم رقم ٢

رأيت فيما يرى النائم . . .

حيّة رمل ملقاة بين جذور أشجار في مكان لعلّه  
غاية . جذبت انتباهي واستحوذت عليه ببريقها ، وبما  
أوحته إليّ من أنّها تراني كما أراها . وقلقت في موضعها  
فلم أشكّ في أنّها مقبلة على مغامرة وأثارت حبّ  
استطلاعي إلى أقصى حدّ . ومضت تنفخ رويدا حتّى  
آلت إلى كرة مغطّاة بزوائد مثل أوراق الورد ، مرفوم  
على صفحاتها كلمات لم أتبيّنها . ووثبت كأنّها قدفتها قوّة  
في الفضاء مقدار أشبار وتهاوت مرتطمة بالأرض محدثة  
صوتاً قوياً استرسل صدها فيما يشبه النغم . وتمادت في  
الانتفاخ حتّى صارت في حجم قبة ضخمة ثمّ انطلق  
منها عمود عملاق بسرعة غيغمة زلزلت لها الأشجار  
الفارعة حتّى تلاطمت ذراها مع حشائش الأرض ،  
وانبثقت من العمود فروع لا حصر لها غاصت في  
الفضاء ، واتبسّطت أوراقها كالزواحف مثقلة بالآلاف

وتواصل العدو بغير انقطاع ودون أدنى شعور بالعجز  
من ناحيته وفغمت خياشيمه روائح طيبة مستثيرة  
ذكريات شتى لم يجد وقتاً لتملّئها ومعايشتها وعندما  
انفرد بها فضاء السماء والأرض أخذ الرجل يهدئ من  
سرعته على مهل حتّى رجع إلى الهرولة فالمشي ثم توقّف  
ولحق به وتوقّف وهو يلهث . نظر إلى الظلمة الشاملة  
المشعّعة بأضواء النجوم الخافتة ثمّ تساءل:

- أين المأوى الجديد؟

فلزم الرجل الصمت على حين راح هو يشعر بغزو  
ثقل جديد يتقضّض على منكيه وسائر جسمه ونما الثقل  
وتصاعد حتّى خيّل إليه أنّ قدميه ستغوصان في الأرض  
واشتدّت وطأته حتّى لم تعد تحتمل الصبر وباندفاعه  
عفوية خلع حذاءه ومضت الوطأة في صعود فنزع  
جاكته وبنظونه وطرحها أرضاً ولم يحدث ذلك أثرًا  
يذكر فتخلّص من ملابسه الداخليّة غير مُبالٍ برطوبة  
الخريف غير أنّ الألم ألهمه فلم يجد بدّاً من ترك الحقيبة  
تهوي إلى الأرض وهو يتأوّه . عند ذلك خيّل إليه أنّه  
استعاد توازنه وأنه يستطيع أن يتابع الخطوات المتبقية  
وانتظر أن يفعل صاحبه شيئاً ولكنّه غرق في الصمت  
وأراد أن يجاوره فامتنع عليه الحوار وتسلّل الصمت  
الشامل من مسامه إلى صميم قلبه . وخيّل إليه أنّه  
سيسمع بعد قليل الحوار الدائر بين النجوم .

## رأيت فيما يرى النائم

## الحلم رقم ١

رأيت فيما يرى النائم . . .

أنتي راقد . أنتي نائم أيضاً ولكنّ وعيي يرامق  
الظلام المحيط . وثمة أنتي أقبلت ينذّ عنها حفيف  
ثوب . والحجرة ما الحجرة؟ ، أهي حجرتي الراهنة أم  
أخرى آوتني فيما سلف من الزمان؟ . ويتهدى الوجه  
إلى حسيّ رغم الظلام . باستدارته الناعمة وسمرته  
الصفافية ورونوته الناعسة . نسق تسريحها عصريّ أما  
نوبها فقديم يميّز ذيلاً مثل سحابة رشيقة . وهمس  
صوت لم أر قائله :

بخيال الظلّ. ودخلت مسرحه الصغير ولُكّيتي وجدت نفسي في سرادق امتحان. وأتخذت مجلّسي كتلميذ وشرعت في الإجابة. ولما لم يبق من الزمن إلا دقائق وضح لي أنني أجبت على سؤال غير السؤال المطلوب الإجابة عليه. وضاق صدري فتساءلت:

- سهوة عابرة تُضيّع حياة؟!

فسألني المراقب متهكِّمًا:

- أنسيت قول المتنبي؟!

فحرت أيّ بيت يقصد وتماشيت السؤال. ووجدتني بعيدًا أتأبط ذراع رفيق صباي الراحل متطلّعين معًا إلى العين. تبدّت العين هذه المرّة أوغل في العمر وأحوز للحكمة وأعمق في الحياء. قلت لصديقي:

- أخشى أن يغلبني الحزن.

فأضاء وجهه بضحكة صافية وسألني هامسًا:

- من القائل «آه لو تعلمون ما أعلم...»؟

فصرت ذاكرتي لا تُنسى ولكنّ الديك صاح مؤذناً بطلوع الفجر.

## الحلم رقم ٤

رأيت فيما يرى النائم...

أنتي في العوامة كالأيام الماضية. وغنّي صوت في أعماقي «عادت ليالي الهنا». وشعرت بالدفء وسط الأصدقاء والأحباب. ولما تفرّست في الوجوه انتقلت من حال إلى حال. المكان هو المكان، والمنظر هو المنظر، ولكن أين الوجوه أين؟! أمسك الزمن بقلمه ونقش على صفحاتها تجاعيده. وبتّ في مجاريها ذبوله. وامتنع بنهم النضارة والرونق. وفي مواضع المصابيح الكهربائية حلّت شموع تحترق فلم يبق من قاسماتها الرشيقة إلا أنصاف وأرباع. ورقصت ظلال الأشباح فوق الجدران، ومن الأفواه المثرمة تساقطت ضحكات فاترة كأنها أنات وتهدّيات. وفي مركز الجلسة بسطت سجادة مرّبة صفت عليها جنبًا إلى جنب جثث محطّمة للأعزّاء الراحلين. قال صوت:

- هكذا كان يفعل قدماء المصريين في حفلاتهم.

فتساءلت:

الكلمات المبهمة. وركبني الارتياح فعدوت بأنصى ما لديّ من سرعة مبتعدًا عن مركزها المتفجّر. عدوت منها ولُكّيتي عدوت في مجالها وحضنها وقبضتها، فلا منغذ للهرب ولا صبر على التوقّف أو الاستسلام. والغفوة محدودة وسطح الأرض معاند والرياح على غير ما أشتهي واستوى في شعوري البعد والقرب إزاء تلك الكينونة المتأدية في التعلّق بلا نهاية. إن صوت غمّوها الهائل يدويّ وظلّها يغشى الأشياء كالليل. وردة فعلها تعبت بالكائنات وأطراف قبضتها تنحدر فيما وراء الأفق. وتبيّن لي أنني لست الوحيد في المأزق، وأن ملايين يلهثون من العدو، وأن السحب تركض أيضًا والرياح وأصواء النجوم. وارتفع صوت قائلًا:

- رفهوا عن أنفسكم بالغناء...

فتساءل صوت آخر:

- هل يطيب الغناء والمطرب يتخبط في القبضة؟

فقال الصوت الأوّل:

- رفهوا عن أنفسكم بالغناء!

وتحرّكت الحناجر نغني كلّ على ليله. وتضاربت الأصوات فانقلبت عريضة تنضح بالوحشية والجمل.

## الحلم رقم ٣

رأيت فيما يرى النائم...

أنّ ثمة عينًا ترنو إليّ... عين كبيرة كأنها فسقية، جميلة الرسم، عميقة السواد، ناصعة البياض، مستوية في مكان غير معروف ولكنّ سحائب بيضاء تظللها. وفي نظرتها ما يوحي بأنّها تراني، وربما تعرفني، ولكنّ يكتنفها حياء يقصيني إلى ما وراء الغيب، وقلت لنفسي إنّها عين امرأة فأين بقيتها؟. وقلت أيضًا بصوت مسموع:

- آفة الحبّ الحياء!

عند ذلك رأيت خيالي رفيق صباي الراحل فتعانقنا بحرارة، وفي غمرة الفرحة باللقاء نسيت حزني الكبير عليه. وسرعان ما اختفى من مجال البصر لتحلّ محلّه ساحة المولد النبويّ في أيامها البعيدة الزاهرة. ووجدتني في صفّ طويل أمام شبّك التذاكر الخاصّ

## رأيت فيما يرى النائم ٥١٧

يستيقظ النائم ثم يجلس مرسلًا بصره نحو القادمين  
فيقول العربيّ مشيرًا إلى الأعجميّ:  
- رسول قادم من بلاد فارس.  
ينهض أمير المؤمنين، يتبادل التحية مع القادم، ثم  
يسأله:

- ماذا وراءك؟

القادم يتأملُه بدهش ثم يسأله:

- أنت حقًا أمير المؤمنين؟

فيجيب بتواضع:

- إني عبادة وإمام المؤمنين من عباده.

فيقول الرجل في انبهار:

- عدلت فأمنت فمنت... .

وعند ذاك ينتهي تصوير اللقطة. ينظر المنتج إلى  
قائلًا:

- أخيرًا سمحت الرقابة بإنتاج فلم عن سيّدنا.

عمر... .

فقلت مهتئًا:

- خطوة عظيمة... .

فقال الرجل في مباهاة:

- لقد اقتضى السعي أن نطلب وساطة الرئيس  
الأمريكّي ريجان!

وقمت بجولة سريعة في بعض ملاهي الحرم ثم  
رجعت إلى البلاطه رقم «١» لمشاهدة تصوير لقطة  
جديدة. كان المشهد الذي يجري تصويره هو نفس  
المشهد السابق، الصحراء المترامية والنخلة القارعة.  
غير أنه كان ثمة رجلًا عربيًّا في عباءة رثة لابسًا في  
رأسه طرطورًا وهو مكبّ على حفر موضع غير بعيد من  
النخلة. إنه نفس الممثل ونفس المنظر ولكنّه لا يمكن  
أن يكون الفاروق عمرا. يمرّ به عربيّ آخر في عباءة  
من الخزّ ثم يدور بينهما الحوار الآتي:

العربيّ القادم: ما لك يا جحا؟

جحا: إني قد دفنت في هذه الصحراء دراهم  
ولست أهتدي إلى مكانها.

العربيّ: كان يجب أن تجعل عليها علامة!

جحا: قد فعلت.

العربيّ: ماذا؟

- ولكن أين ذهبت الحضارة؟

فقال صوت:

- المنيع والمصبّ يقعان خارج أسوار الحضارة.

وافتقدت بشدة الحوار والثروة فتساءلت:

- ماذا أسكتنا؟!!

فأجاب صديق ضاحكًا وعيناه تدمعان:

- اللعنة في التكرار.

فتساءلت:

- أليس ثمة شكوى جديدة تقتضي ضحكة

جديدة؟

فأجاب مستزيدًا من الضحك والدموع:

- ثبت أنّ جميع الشكاوى مسجلة على حجر

رشيد... .

واقترح عمّ عبده علينا مجلسنا وهو يقول:

- أن أوان قراءة الطالع... .

ونظر في بطون نعالتنا مليًّا ثم قال:

- ستسيرون فوق الماء إلى جزيرة الذهب... .

وهيمن علينا الحلم والابتسام... .

## الحلم رقم ٥

رأيت فيما يرى النائم... .

أنني في استديو. مضيت كمن يعرف طريقه إلى  
البلاطه رقم «١» في صمت كامل يوحي بأن ثمة  
تصويرًا للقطة ما. اقترب مني رجل بدين ذو مظهر  
سياديّ وهمس في أذني:

- أهلاً بك يا أستاذ.

ووجدتني أعرف أنه المنتج وأنني مندوب فنيّ لمجلة  
الفنّ. وتابعت المشهد الذي تدور الكاميرا لتصويره  
وسط جمع من الفنانين والفنّيين يتابعونه أيضًا في  
صمت تقليديّ وباهتمام غزير. وكان المشهد يمثل  
صحراء مترامية ليس بها قائم سوى نخلة فارعة وقد  
تحتها عربيّ متلفعًا بعباءته. ويدخل المشهد رجلان،  
عربيّ وأعجميّ، يقتربان من النائم، ثم ينحني العربيّ  
فوقه قائلاً بإجلال:

- يا أمير المؤمنين!



## ١٨ • رأيت فيما يرى النائم

- كان ينبغي أن تكون راقداً في سلام...  
فقال بعتاب:  
- لكنتك لم تتركني للسلام، ما زلت تلاحقني  
بخواطرك حتى أخرجتني من الزمن!  
فقلت بأسف:  
- كأنك مطاردا!  
- كيف أفلت من القبضة دون مطاردة؟!...  
أسرع لنهرب معاً...  
فقلت محتجاً:  
- مجيئك إليّ ورطني في جريمة لا شأن لي بها...  
فجال بيصره في الحجرة وقال:  
- لا يبدو أنّ حظك أسعد من حظي، أسرع...  
فقلت بقلق:  
- ليس الأمر كما تتصوّر...  
فقال بضيق:  
- ولا هو كما تتصوّر أنت، أسرع فإثمهم لن يفرقوا  
بيننا...  
- لولا مجيئك ما لحقتني الشبهة...  
- إنها مسئوليتك، لا تبدّد الوقت...  
فسألته بغیظ:  
- ولكن إلى أين؟  
فقال بعجلة:  
- سنفكر في ذلك ونحن نعدو...  
وتماسكنا باليد وأطلقنا ساقينا في الليل كمجنونين.  
وتساءلت:  
- كيف نحسن التفكير ونحن نركض بهذه  
السرعة؟  
فهتف بحدة:  
- اجر... اجر... ألم تشعر بفساد جوّ الغرفة؟!  
فقلت كالمعتاد:  
- إني لا أوي إليها إلا في الليل...  
فهتف:  
- لا يوجد ليل ولا نهار ولكن يوجد الهواء  
والركض...  
وتساءلت:  
- لماذا لا أسمع أصوات من يطاردوننا؟!

جحا: سحابة في السماء كانت تظللها، ولست أرى  
العلامة!  
وانتهى تصوير اللقطة فأعقبه مهمة من  
الاستحسان. وسألت المنتج عن معنى وجود جحا في  
فلم عن عمر وكيف يقوم بالدورين ممثلاً واحداً،  
فضحك طويلاً وقال:  
- إني أنتج فلمين في وقت واحد، أحدهما عن عمر  
والآخر عن «جحا في بلاد العرب»، ورأيت أن أستفيد  
من كلّ منظر مشترك توفيراً للجهد والمال، وهذا منظر  
مشترك فصوّرنا عمر للفلم الأوّل، وجحا للفلم  
الثاني.  
- والمثّل واحد في الحالين؟!  
فقال بثقة:  
- إنه نجم شبّاك، ومن القلّة النادرة التي تحسن  
تمثيل الدراما والكوميديا...  
رأيتني عقب ذلك وأنا أركض بسرعة فائقة، ولكني  
لم أدر أركض وراء هدف أريد أن أدركه أم أركض  
من مطارد يروم القبض عليّ...

## الحلم رقم ٦

رأيت فيما يرى النائم...  
أنتي في حجرة بلا نوافذ مغلقة الباب، بها مقعد  
واحد وشمعة تحترق مثبتة فوق الأرض. ودقّ الباب  
دقاً متتابعاً ففتحته فخيّل إليّ أنني أنظر في مرآة. إنه  
صورة طبق الأصل مني إلا أنّه عارٍ تماماً إلا بما يستر  
العورة. سألته:  
- من أنت؟  
فأجاب وهو يلهث بما دلّ على أنّه شقّ طريقه  
ركضاً:  
- إنك تعرف تماماً من أكون.  
- ولكني لا أصدق عيني.  
فقال وهو يتنفس بعمق ليستردّ توازنه:  
- أما أنا فأصدق كلّ شيء، ورائي عمر وأجيال لا  
تحصى...  
فقلت برناء:  
- لماذا لا أسمع أصوات من يطاردوننا؟!

رأيت فيما يرى النائم ٥١٩

- نفوا الزعيم الجليل فغاهم الله من الوجود...  
ثم أنشد يقول:

لن ينال المسجد من ضا

ق بما ينشاه صدرًا  
وتغير المكان والزمان كما أوحى إليّ وجداني. ورأيتني  
أمتطي سلحفاة معمرة في حجم عنزة. وشهدت  
اجتماعًا في قاعة عظيمة الأتساع تحرسها رماح الجنود.  
وظهر فوق المسرح خطيب اندفع يقول بحماس:  
- لوذوا بالملك، صاحب العرش، هو العامل  
الأول والعالم الأول والوطني الأول وقد دالت دولة  
المهرجين...

سرعان ما عرفته رغم زيه الجديد المكون من البدة  
الإفريقية. وتبعته إلى الطريق وهو ينادي تاكسي  
فاقتربت منه قائلاً:

- أهلاً بأستاذنا أبي الفتح الاسكندري...

فعرفني بدوره وصافحني ثم سألني:

- ماذا فعلت بك الأيام؟

- كمادتها خيراً وشراً، ولكن ماذا غيرك أنت فتلك  
من النقيض إلى نقيض!؟

فقال بجفاء:

- العزة في التنقل.

ثم أنشد يقول:

الذنب للأيام لا بي

فاعتب عل صرف الليالي

بالحمق أدركت المنى

ورفقت في حلل الجمال

\*\*\*

ومضى الزمن بي وأنا عمتط هذه المرة حماراً. ووجدتني  
في ميدان لو ذررت الملح فيه لم ينفذ إلى الأرض من  
حول الزحام. وفوق حافة نافذة في الدور الأسفل من  
بناء ضخم وقف خطيب يرتدي بنطلوناً وقميصاً نصف  
كتم يعلوه وقار الكهولة ويقول:

- ثورة مباركة تنسخ حياة فاسدة، وزعيم مبارك  
يشهر سيفه في وجه ملك فاسد، وحلم يتحقق تنبأت  
به كلماتي الحارة المسطورة في الصحف!

ثم وجدتني مع الخطيب عقب انفضاض الجمع

ولكنه لم يجب. وشعرت بأنّ يدي لم تعد تقبض  
عل شيء، وأنه لم يعد له أثر، ولم تساورني أيّ رغبة في  
التوقف...

## الحلم رقم ٧

رأيت فيما يرى النائم...

أنتي في حديقة من أشجار الليمون. وأنّ الناس  
يزدحون حول أشجارها ويتبارون في ملء مقاطفهم من  
ثمارها. وأنّ ثمة بيعة وشراء ومساومات، وتنافساً حاميًا  
يشتعل. وأنّ رجال الشرطة يتدخلون أحيانًا لفضّ  
نزاع يهرواتهم فتسيل دماء. وكنت أتحوّل بين الجماعات  
بلا مقطف حتى قال السمسار ساخراً:

- رجل مجنون جاء السوق بلا مقطف!

والحق أنّ الشذا هو الذي دعاني لا السوق، فهمت  
على وجهي أتغزل برشاقة الأشجار وخضرتها الباسمة  
وأغصانها الثرية. وتخلّق حبّ خالص في رعاية القبة  
الزرقاء. وفي لحظة مشرقة استحلّت غصناً فأقلت من  
مطاردة السمسار. ومضى الزمن وأنا أتأوّد على دقائق  
النسيم، وأتهل من حرّية عبقة بشذا الليمون.

## الحلم رقم ٨

رأيت فيما يرى النائم...

أنتي عيسى بن هشام بطل مقامات الهمذاني ومُريد  
أبي الفتح الاسكندري. وأنتي كنت أعبر ميداناً في  
مكان وزمان غامضين. وترامى إليّ هتاف مدوّ بحياة  
الاستقلال وسقوط الحماية. ثمّ وجدتني على حافة  
مظاهرة ضخمة تمدق بخطيب مفوّ جهير الصوت.  
عرفته رغم بعده عني بزيه الأزهرّي وهو يهدر داعياً إلى  
الثورة والقداء. وهجم الفرسان الإنجليز فنشبت  
معركة ثمّ وجدتني وجهاً لوجه مع الخطيب قريباً من  
مدخل جامع. قلت:

- أنت أبو الفتح الاسكندري، خطيب الثورة  
الحرّ...

فقال بحزن ملتهب:

٥٢٠ رأيت فيها يرى النائم

الحاشد، قلت:

- يا أبا الفتح يبلى الزمان وتبقى لك جدتك لا تبلى.

فقال باسماً:

- حمدًا لله الذي أبقاني حتى أشهد هذا الزعيم.

فقلت بعد تردّد:

- ولكنّي لا أذكر أنّك تنبأت بما حدث أو ضقت بما كان!

فأنشد قائلاً وهو يضحك:

أنا ينبوع المعجائب

في احتيالي ذو مراتب

أغتدي في الدير قسيّاً

وفي المسجد راهب

\*\*\*

وجرى الزمان وقد أركبني بغلاً. وإذا بأموج من البشر تتلاطم وتقذف بالهتافات إلى أركان العمورة، وثمة سيارة تمضي على مهل يقف في مقدمتها رجل يجتذب من خلال مكبر صوت:

- بحق الله الزيف والضلال، اختفى مدّعي الزعامة، واستوى على العرش الزعيم، الشابّ الكافح، والمناضل، والمعلم، والرائد، ومتبّي ثورات العالم...

وخلوت إليه في مكان ذكرني بزواية العميان بالباب الأخضر، وقلت:

- ما أنت إلا شيخنا أبو الفتح الاسكندري...

فقال وهو يشدّ على يدي:

- لا يحتاج الأمر إلى فراسة!

فقلت:

- يا لك من وثاب لا يثبت على حال!

فقهقه طويلاً ثمّ أنشد:

بؤساً لهذا الزمان من زمن

كلّ تصاريف أمره عجب

أصبح حرباً لكلّ ذي أدب

كأنما ساء أمه الأدب

\*\*\*

ووجدتني أزحف مع الزمان فوق السلحفاة كرهة

أخرى. ورأيت جموعاً لم أر لكثافتها مثيلاً من قبل، تسفح الدمع وتمزّق ثيابها من لوعة الحزن. هذا والمدفع يمضي بالنعش دائساً على إرادات البشر. ثمّ وجدتني في بهو مكتظّ المستمعين، ورجل وقور أبيض الشعر يقول بحكمة وأسى:

- دعوا البكاء للنساء، مصر باقية لا تموت، وآن لنا أن ننطق بالحقّ، ما كان عهده إلا عهد التعذيب والإفلاس والهزائم. أفيقوا من الحزن والسحر معاً، وابدعوا الحياة من جديد...

فخرقت الصفوف حتى واجهته وهتفت به:

- إنك لمعجزة يا أبا الفتح.

فهزّ رأسه ساخرًا وأنشد:

هذا الزمان مشوم

عشوم

ما تراه

الحمق فيه مليح

والعقل عيب ولوم

والمال طيف ولكن

حول اللثام يحوم

فسألته:

- ألك نظير في العباد؟!

فقهقه عاليًا وأنشد:

اسكندرية داري

لو قرّ فيها قراري

لكن بالشام ليلى

وبالعراق بهاري

## الحلم رقم ٩

رأيت فيها يرى النائم...

أتني في مدينة أنيقة أرضها أعشاب عميقة الخضرة، تنتثر في جنباتها عيون ماء، وتظلّلها أشجار بلح وليمون وبرتقال. تجوّلت فيها طويلاً فلم أصادف إنساناً ولا جاناً ولا حيواناً ثمّ لمحت تحت صفصافة أسداً يقرأ في كتاب فقصدته متشجعاً بطمأنينة باطنية. رفعت يدي تحيةً وسألته:

- ماذا تقرأ يا ملك الملوك؟

## رأيت فيما يرى النائم ٥٢١

- فرمقني بهدوء وتمتم :  
 - كليلة ودمنة . . .  
 فسألته باهتمام :  
 - لماذا يا ملك الملوك؟  
 - منه تعلمنا كيف نعيش في سعادة  
 - ولكن المدينة خالية!  
 فقال بسخرية :  
 - يلزمك أن تتعلم كيف تنظر، ما صناعتك؟  
 فقلت بإعجاب داخلي :  
 - أنا مغنٌ!  
 فتهازل وجهه وقال :  
 - نحن لا نستقبل إلا المغنين، أسمعني بعض ما  
 عندك . . .  
 فغنيت :  
 ما في النهار ولا في الليل لي فرج  
 فما أبالي أطال الليل أم قصرا  
 فهز رأسه طربًا حتى تشعثت لبدته وقال :  
 أرحب بك في مدينتنا لتذكر أهلها بتعاساتهم القديمة  
 فيزدادوا امتنانًا لما حلت بهم من نعمة .  
 ونادى نسرًا فهبط وئيذًا في جلال وطاعة فأمره  
 قائلًا :  
 - اذهب بهذا الضيف الجديد إلى فندق الرضى . . .
- رأيت فيما يرى النائم . . .  
 أنني في صحراء لا يحدها إلا الأفق . أقيم خيمة  
 لأمضي بها عطلة نهاية الأسبوع . لا صحبة إلا الرمال  
 في الأرض والزرقة العميقة في السماء وحدأة تدور عاليًا  
 فوق رأسي كأنما تنتظر . وظهر أمامي فجأة رجل في  
 عباءة حمراء ينطق وجهه بالشباب والأسى . تبادلنا النظر  
 ثم تبادلنا التحية . قلت له :  
 - لعلك في عطلة مثلي؟  
 سألني وكأنه لم يسمعني :  
 - من أنت؟  
 فأجبت بإيجاز :  
 - أنا أسير الوحدة، فأنا الخلاء وأي أغراب لا  
 يعرفونني . . .  
 واندفعت بإلهام قوي أقول :  
 - هلاً سمحت لي بمرافقتك بعض الوقت؟
- اسمي نديم .  
 - نديم من؟  
 - إنه اسم لا صفة، كأنك تبحث عن شيء؟!  
 فقال بحيرة :  
 - ملاسك غريبة، أنت من أهل المكان؟  
 - إني أزوره أحيانًا التماسًا للنزهة .  
 - متى زرته آخر مرة؟  
 - منذ شهر .  
 فأشار إلى موضع من الرمال المترامية وقال :  
 - كان هنا يقوم قصر الملكة .  
 فتساءلت بذهول :  
 - أي ملكة؟  
 فأشار إلى موضع آخر وقال :  
 - وذلك موضع دار القضاء . . .  
 فداخلي شك في عقله وسأنته :  
 - متى زرت المكان آخر مرة؟  
 فقال دون مبالاة :  
 - منذ خمسة آلاف سنة!  
 فلم أملك من الضحك فقال ببرود :  
 - ماذا يضحكك يا هذا؟!  
 وجعلت أنظر إليه في حذر متحاشيًا إثارته فقال وهو  
 يشير إلى موضع جديد :  
 - وهناك كانت تصدح أرجاء البهو بالغناء .  
 فقلت أجاربه متظاهرًا بتصديقه :  
 - مائة عام كافية لتغيير أي مكان فما بالك بخمسة  
 آلاف سنة، من حضرتك؟  
 فقال بهدوء :  
 - أنا الحُضُر . . .  
 - سيدنا الحُضُر؟!  
 - سيدنا؟!  
 - لقد حظيت بالخلود فأنت سيد البشر!  
 فقال بأسى :  
 - أنا أسير الوحدة، فأنا الخلاء وأي أغراب لا  
 يعرفونني . . .  
 واندفعت بإلهام قوي أقول :  
 - هلاً سمحت لي بمرافقتك بعض الوقت؟

## الحلم رقم ١٠

٥٢٢ رأيت فيما يرى النائم

وأظلمتني النجوم. ومزقت السكون صرخة. صرخة  
أنتى فيما بدا لي. وثمة طيف هرع نحوي حتى جثا بين  
يدي، وثمة صوت هتف:  
- أنقذني...

سألها:

- ماذا يتهددك؟

- سيف الجلاد.

- من أنت؟

- أنا بريئة.

فسألها بشدة:

- ما تهمتك؟

- التهمة التي لا يبرأ منها أحد، حتى أنت!  
فقبضت على يدها وانقضت، ثم انطلقنا معاً  
كشهابين في ظلمة الليل...

## الحلم رقم ١٣

رأيت فيما يرى النائم...

امرأة في الخمسين تذهب وتجيء بوجه جففته  
الوحدة. قلت إني أعرف هذا الوجه ولكن من،  
ومتى، وأين؟. وحيرتني سحب النسيان. غير أن المرأة  
لم تهجع ولكنها ذهبت محمومة وهي ترمقني بعين مفكرة  
ثم رجعت بشاب رث الهيئة وهي تربت خده بحنان.  
وانقضت عليها الشاب فاعتصرها بين ذراعيه ملياً حتى  
تأفقت. وربما بنظرة نكراء ثم دفعها فتهافت على  
الأرض فانها على ضرباً ثم ذهب. جعلت تتأوه  
وتبكي، ثم قامت في إعياء شديد وقد فقدت ذراعها  
اليسرى. قلت لها:

- ذراعك!

فأعرضت عني ومضت، ثم رجعت وهي تربت خد  
شاب شبه عار. وجذبها إليه مثل ذئب جائع  
واعتصرها بين ذراعيه. وانفصل عنها متقرراً وصب  
عليها قبضته وقدميه حتى سقطت على وجهها.  
وغادرها فاستسلمت للنحيب ثم نهضت طاعنة في  
السن وقد فقدت ذراعها اليمنى. وقلت لها:

فهز منكبته وقال:

- لن تستطيع معي صبراً.

ومضى مبتعداً وهو يسير بسرعة البرق...

## الحلم رقم ١١

رأيت فيما يرى النائم...

أنتى حزين وقلبي ثقیل ولكني لا أعرف سبباً معيناً  
لحالي. وسرت في طريق مجهول حتى أرهقني السير.  
وشعرت طوال الوقت بأنني أسمى وراء غاية لكتنها  
غابت عن وعيي أو غاب عنها وعيي. وتبرق لحظة  
خاطفة في غياهب نفسي مغررة بي فأتوهم أنني  
مستكشفها ولكنها سرعان ما تغوص في الظلام مخلفة  
يأساً. ودوماً لا أكف عن التطلع والانخداع واليأس  
ولا أكف عن السير. وصحبي الحزن مع خطاي،  
وانثالت علي صور متلاحقة سريعة هامسة بذكريات  
الهناء الراحل والأحبة الذاهبين. وأذهلتني كثرتها كما  
أذهلتني عدمها. وقع الرعد حتى ارتعشت أطرافي،  
ولكنه قال بصوت واضح:

- سوف تنقش الأحزان وينهمر المطر.

## الحلم رقم ١٢

رأيت فيما يرى النائم...

أن الأرض تتشقر، وتتشقق. وتتقلص وتموج، ومن  
الأعماق تبرز على مهل عمد وأسطح وقباب، ثم مضى  
يتجلى وجه مدينة غامرة. شوارعها محجوبة بالأتربة،  
مساكنها مهتمة، وما بها من قائم سوى المعابد وبعض  
التسائيل. وتحلقها قسوم لا حصر لهم ينظرون  
ويتحاورون:

- مدينة أثرية جديدة...

- وثائق لتاريخ جديد.

- ألا يوجد أثر لإنسان؟

- المقابر لم تكتشف بعد.

وليث ما ليث حتى انتهت فوجدت نفسي وحيداً.  
ورحت أخترق شارعها الرئيسي حتى أدركني الليل

## رأيت فيما يرى النائم ٥٢٣

الشرق فانقشعت فبشّرنى هاتف الغيب بالعزاء .

### الحلم رقم ١٥

رأيت فيما يرى النائم . . .

أتني أسير في شارع ضيق طويل . شغلت هدي في فلم  
انتبه للمارة . وفي نهاية الشارع طالعي ميني يجمع في  
هيته بين المعبد والجامع والمسكن . دخلته مطمئناً إلى  
دعوة لا أدري متى ولا كيف تلقيتها . وقطعت دهليزاً  
بلغ بي باباً مقبب الهامة فدفعته ودخلت . لم أَر من  
المكان إلا الرجل الجالس في صدره . رجل بالغ الكبر  
ولكنه على كبره واضح الصحة والعافية . بارز الملامح ،  
ذو وجه عريق مجلّل بالوقار واللحية البيضاء ، ينث  
عطرًا يذكر بالعصور الخالية . لثمت يده وقلت  
معتذراً :

- جئت تلبية للدعوة .

فقال بصوت عميق التأثير في النفس :

- تأخرت قليلاً ولكن لا بأس . . .

وأشار إليّ فتربعت على شلته بين يديه وأنا أسائل  
نفسى عما وراء دعوته . ولكنّه لم ينبس بكلمة . وسرعان  
ما وجدت عينيّ تنجذبان إلى عينيه حتىّ خُيّل إليّ أنّي  
أنظر إلى بلورتين متوهجتين . اختفى العالم والوجود .  
ثمّ عدت إلى وعمي على لمسة من يده وسمعتة يقول :

- يا له من حديث ويا لها من مناجاة!

فهممت أن أقول إنني لا أذكر شيئاً ولكنّه بادرني  
بنبرة توديع حاسمة :

- اذهب مصحوباً بالسلامة .

رجعت من الشارع الضيق الطويل وأنا أشعر بأنني  
مشدود إليه بأسلاك غير مرئية ، وأنني أسيره الأبدى .  
وأردت أن أمارس حياتي المألوفة فقصدت لونا ببارك  
نزهي المفضلة ولكنّ الأسلاك الخفية صدّتني عنها  
فتحوّلت عنها وأنا أقول لنفسي :

- إني مسيرٌ بإرادته!

اقتنعت تماماً بأنني أفعل ما يريد لا ما أريد أنا ،  
وأنه يسوقني إلى أشياء وأشياء وأنني لم أعد أنتفع بعقلي  
أو ذوقي . وسمعت الناس يتحدثون عما يقع

- ذراعك!

فأعرضت عنيّ وولّت . وتكرّر الفعل وردّة الفعل  
حتىّ لم يتبق منها إلا اللسان . وغزاني الحزن والعجب  
فتساءلت :

- ماذا فعلت بنفسك!؟

فأجابني لسانها :

- الوحدة والحنان . . .

وتساءلت في حيرة ومتى سمعت هذه العبارة من  
قبل . . . ؟!

### الحلم رقم ١٤

رأيت فيما يرى النائم . . .

شاباً وسيّماً ، يسير بسرعة ، يشعّ من عينيه الصافيتين  
نور يضيء له الطريق . يوحى مظهره بالفتوة والحماس  
ومعرفة الهدف ، فانجذبت إلى أتباعه لأحظى برؤية ما  
هو فاعل . مثيت نفسي بمشاهدة حدث أو نجاح  
مأثور ، فكلّما تحفّز تحفّزت ، وكلّما ضاعف من سرعته  
ضاعفت ، وكلّما أشرق وجهه أشرقت . وقطعنا أماكن  
كثيرة ، ورأينا مناظر عجيبة ، وتعاملنا مع أناس لا ينسى  
لهم خير ولا شرّ ، وسلّيت نفسي المتوتّرة بأنّ المشهد  
المروق سيهّل عليّ بطلعته الشافية المترقبة . ولم أكثرث  
للزمن المنطوي ولا للجهد الضائع . ولكنّ الشاب  
الوسيم راح يتغيّر منظره ، وتتقلّص عضلات ساقه  
وتتخفّض درجات سرعته ويويّداً . وجعلت أسمع تردّد  
أنفاسه وهي تغلظ وتثقل ، وأنات شكواه المتصاعدة ،  
وبرمه بكلّ شيء . وأخذ يسبّ ويلعن ويشتمل غضباً .  
وأخيراً توقّف عاجزاً عن الاستمرار ، ثمّ تهاوى على  
الأرض وهو يلهث . وجزعت جزعاً شديداً ، وهتفت :

- تشدّد واستمرّ . . .

وخُيّل إليّ أنّ النوم يغالبه فصحت :

- عليك تقع مسئولية شرودي وانخداعي . . .

فرفع إليّ عينين مظلمتين وهمس :

- هبني رحمة الوداع . . .

حوّلت عنه عينيّ الحانقتين ورفعتهما إلى السماء  
فرايت السحب تراكم كأنّها الليل ثمّ استجاب لرياح

## ٥٢٤ رأيت فيما يرى النائم

ويتساءلون عن الفاعل المجهول. وما هم يجذون في  
أثري والحلقة تضيق ولكتهم لا يتفقون على رأي،  
فمنهم من يطالب بعنقي ومنهم من يدعوني  
بالسلامة!، والحق أن الرجل لم يُبّر في نفسي الكراهية،  
ولكنني تمنت للتحرر من سطوته الشاملة المخيفة. ولا  
أدري كيف ساقني الحظ إلى مكتب التحقيق فرأيتني  
أمام المحقق وهو يقول لي:  
- اعترف فهو خير لك.

فقلت:

- إني بريء وما كان بوسعي أن أفعل إلا ما يجلي  
عليّ...

فقال متهكماً:

- الرجل ينكر قصتك المختلفة معه فأنت أمام  
القانون عاقل حر...

فهتفت وكأنا أخاطب الرجل:

- إنك تعرف الحقيقة فأنقذني!

ومكثت في السجن أنتظر يوم الإعدام. وبلغ بي  
الضيق منتهاه. وإذا بشعور يمس لي بأن ما أعاني ما  
هو إلا كابوس. عند ذلك قررت أن أستيقظ مهما كلفني  
الأمر. ورحت أضرب مقدم رأسي بقوة ودون توقّف  
ناشداً بإصرار اليقظة المأمولة...

## الحلم رقم ١٦

رأيت فيما يرى النائم...

أن طيقاً زارني ليليل فقدم لي كأساً وقال بصوت  
عذب:

- اشرب.

فشربتها حتى الثمالة. ذاب الطيف في الظلمة.  
وانتشر السائل في جسدي وروحي كالشذا الطيب.  
ونهمت وأنا أشعر شعوراً راسخاً بأنني أملك قوة لا  
حد لها. وأردت أن أجرب صدق شعوري فأمرت  
النوافذ أن تفتح. وفي الحال انفتحت النوافذ على  
مصراعيها وتدفق النور. وخرجت التجول في شوارع  
المدينة معتزاً بالقوة الخارقة. وفطنت غرائز القوم  
الملهمة لسر القوة الكامنة في أعماقي فخطبتي نظراتهم

الكسيرة بأمانهم المكبوتة. تلقيت عشرات الرسائل  
الخفية الضارعة بمحو هذا الشر أو ذاك، وتحقيق هذه  
الرغبة أو تلك، وتأديب هذا الرجل أو قتل ذلك.  
ووجدتني مثقلاً بالأمال والأمان والتبعات فاستحالت  
القوة إلى عبء تنوء به الجبال. وتسأل إليّ خاطر لا  
أدري من أين جاء بأن هذه القوة الخارقة لن تدوم إلا  
ما دام السائل في جوفي. وعلى ذلك تركّز تفكيري في  
استغلالها لدعم سعادي الشخصية. وألقيت العبء  
عن كاهلي وانحصرت في هدف محدّد واضح. ولكن ما  
كاد يزابلي القلق حتى ترامى إليّ وقع أقدام ثقيلة  
تطاردي. وهزئت بالمطاردة والمطاردين وقلت لنفسي  
سيروني في اللحظة الحرجة وأنا أخلق كالنسر أو  
أختفي كالوهم. واقتربت مني الأقدام والأصوات  
الفاضية فأمرت جسدي بالاختفاء عن الأعين.  
وحدثت معجزة ولكن مضادة. لم يصدع جسدي  
بأمري وتطابرت قوتي في الجو فوقعت بين يدي  
المطاردين بلا حول. ولم يعد لي من أمل إلا في صحوة  
رحيمة تعقب كابوساً مخيفاً...

## الحلم رقم ١٧

رأيت فيما يرى النائم...

أنني جالس تحت مظلة سوداء، أتسلى بمشاهدة  
صندوق الدنيا. وتتابع المشاهد أمام عيني المبهورتين  
بدءاً بالإنسان البدائي، مروراً بالحضارات القديمة  
والتوسطة والحديثة حتى صعود الإنسان إلى القمر، ثم  
وجدتني في مسكني فريسة لرغبة جامحة هي أن أصعد  
إلى القمر، وكنت أجلس وسط متاع غزير، تراكم  
بعضه فوق بعض حتى غطى الجدران وسدّ النوافذ،  
وكان جسدي نفسه مثقلاً بالأوسمة والهدايا الثمينة حتى  
تعذرت عليّ الحركة وأخذت أغوص في الأرض.  
وعلمت بطريقة ما أنني أنتظر زائراً هاماً فحرت كيف  
أستقبله، وأين أجلسه، وخفت سوء العاقبة. وضاق  
صدري بفساد الجور والزمن فتمردت على حرصني  
وأقبلت أنزع الأوسمة والهدايا من أركان جسدي،  
وأركل المتاع بمئة ويسرة حتى شققت لنفسي طريقاً إلى

### رأيت فيما يرى النائم ٥٢٥

أدركت أنّي أحلّق في الفضاء وأنّي كلّما ارتفعت متراً  
ازدادت سرعة. وغمرني الشعور بالانعقاد ووعدي  
بمسرّات تعجز عن وصفها الكلمات.

الخارج. وتنفّست بعمق فأذهلتني خفّة وزني. ولاح  
الزائر قادمًا عند الأفق ولكنني لم أستطع انتظاره إذ  
مضيت أترجّح وأرتفع عن الأرض على مهل وثبات.



# البَيَّاتِي مِنْ الرِّزْقِ سَعَلِيَّةٌ

بدرجات خمس، وحديقته تمتد من جانبه الجنوبي، مساحتها نصف فدان، تغتت عهدًا بالازدهار، وكابدت عهدًا من الاضمحلال والوحشة. وضخامة البيت والحديقة أثر من آثار حلوان القديمة، الرخيصة النائية، المغموسة في السكينة والتأمل، التباهة بمباهمها المعدنية وحماماتها الكبرى وحديقته اليابانية، مصحة الأعصاب المتوترة والمفاصل المتوتعة والصدور المتهترئة والعزلة الغافية. وجميع الدور بشوارع ابن حوقل متشابهة - ما عدا البيت المواجه لبيت الأسرة الذي بيع في أثناء الحرب العظمى الثانية لتشييد مكانه عمارة جديدة - ولكن بيت المهدي يتميز بطلائه الأخضر، وهو طلاء أغلب حجراته ذوات الأسقف العالية، وهو لون أغطية المقاعد بحجرة المعيشة، والإصرار عليه يعكس ولع المرأة به، ويشير أيضًا إلى ولعها بالبيت نفسه الذي وثقت بينها محبة خلقت للأبناء والأحفاد مشكلة تعذر حلها في حينها. ومشيّد البيت أبوها عبد الله المهدي، وكان في آخر أطوار حياته فلاحًا من الملأ المتوسطين، وليًا اجتاحه الرومانزم نُصح بالإقامة في حلوان مدينة الصحة والجفاف فابتاع أرضًا وأقام البيت تاركًا أرضه لابنه البكري، مهاجرًا بزوجه ووليدته سنية. ووزع الرجل أملاكه بالتراضي بين ابنه وابنته جاعلاً البيت في حصتها فلعب دورًا ذا شأن في حياتها، إذ نوهت به الخاطبة وهي تزكي سنية عند أم حامد برهان فكان ضمن مغريات اختيارها. لكن سنية كانت على درجة من الوسامة المقبولة، ونالت أيضًا الابتدائية، واعترف لها بالذكاء وبأنها كانت خليقة بإتمام تعليمها لولا إصرار الأب على حجبتها. وكم حزن لقراره، وكم سفحت من دموع احتجاجًا

للصورة التذكارية تعود كلما نبض قلبها بالحنين. حجرة المعيشة تزدان جدرانها الخضراء بثلاث لوحات في أطر مموهة بالذهب. البسمة في الصدر، الشهادة الابتدائية القديمة بالجنح الأيمن، صورة الرحلة التذكارية بالجنح الأيسر. نسيت أشياء وأشياء ولكنها لم تنس عام ١٩٣٦ تاريخ الصورة، ففي ذلك التاريخ كتب الخلود للحظة زمانية من تاريخ أسرتها وهي تمرح فوق كليم مفروش فوق الأعشاب بحديقة القناطر الخيرية. في الوسط جلس حامد برهان رب الأسرة ممدود الساقين ممثلًا بالعافية بدينًا وسيم الوجه ذا سمرة عميقة، وإلى يمينه جلست هي - سنية المهدي - مترتبة مغطية حجرها وساقها بشال عريض متألقة الوجه بملاحمها الدقيقة، الصغيرة، أما إلى يساره فجلست كوثر البكرية بجهاها المتواضع ونظرتها الودية، يليها محمد في الجلسة كما يليها في العمر مثل أبيه في التكوين والشكل، تليه منيرة بجهاها الفائق ونظرتها المتوهجة. كان الأب في الخمسين والأم في الأربعين والإخوة يناهزون البلوغ، وكان الجميع يتسمون، نحو فوق وجوههم فرحة الرحلة والسلام، وبين أيديهم تقوم قوارير المياه الغازية وأطباق ورقية ملئت بالسندوتشات والموز والبرتقال، على حين نهضت في الخلفية هضبة متدرجة معشوشبة وأشجار مثورة، تنطلق فيها وراءها منارات القناطر وجماعات من المتزهين. تجللتها - الصورة - عذوبة شاملة ولم يظهر فيها أثر للزمن. غير أن الزمن لم يتوقف لحظة واحدة خارج الصورة. ومن ضمن ما قضى به ألا يبقى في بيت الأسرة اليوم إلا مالكنة سنية المهدي وكبرى ذريتها كوثر. وهو بيت فسيح، مكوّن من دور واحد يعلو فوق الأرض

إخوانه في حجرة الاستقبال شتاء أو الفراندا بقيّة العام، وهم من أهل حلوان مثله، جعفر إبراهيم ناظر على المعاش، خليل الدرس وكيل أعمال الوجيه نعمان الرشيدى، حسن علما مهندس مبانٍ، راضي أبو العزم مدرّس علوم، تنطوي لياليهم في السمر ولعب الطاولة وحديث السياسة مردّدين نغمة واحدة صادرة عن لحن وفديّ أصيل فلا نزاع ولا خصام - وعُرف حامد برهان بالنظافة والأناقة والتدين السمع اليسير الذي يعقب به جوّ الأسرة. وجبر الله خاطر الوالدين بمحمّد ومنيرة فشقا طريقها في التعليم بنجاح واعد، خاصّة منيرة التي اختصّت بالذكاء والجمال معاً، إلا أنّ كوثر تمخّضت عن مشكلة مثيرة للقلق، فهي لم تُظهر ميلاً للتعليم ولا توفيقاً فيه. وانجذبت بطبعها نحو التدين وشئون البيت، فاضطّرت إلى ملازمة البيت بعد سقوط عامين متتاليين في المرحلة الثانوية. يومها قالت سنيّة لحامد:

- ستّ البيت غير مطلوبة في الزمان.

وتذكّر الرجل حفّظها المتواضع من الجمال فغلبه الأسى ولكّته قال:

- يوجد أيضاً الحظّ وهو لا قانون له!

وكان للأسرة حياتها الاجتماعية المشتركة، تجدد في الرحلة سرورها، فيوم للحديقة اليابانية، ويوم للقناطر الخيرية، ويوم لدار الأثار، رغم أنّها كانت أيام أزمة عالميّة طاحنة، غير أنّ الموظّفين ذوي المرتبات الثابتة وجدوا يسراً في ظلّ الكساد وهبوط الأسعار، فاقتلعت العاصفة الهوجاء كلّ قائم ولاذت الأعشاب بالأمان فمرحت وهزجت بالأغاني. وكان حامد برهان يمضي بأسرته دون حجاب، غير ميالٍ بالقليل والقال، فلم يملّ إلى التزمّت أبداً، وكانت وراءه امرأة تحسن التريية، وتعطي مثلاً في أداء الفرائض والسلوك الطيّب. وتمضي الأيام فلا يتقدّم أحد لطلب يد كوثر وهي الوحيدة التي لا غاية لها إلا الزواج. وتبسط سنيّة راحتها بالدعاء عقب كلّ صلاة، أو يتهلّل وجهها بالبشر أحياناً وهي تقول لحامد:

- رأيت حلماً سيكون له شأن!

أو تكلف أم سيّد بقراءة الفنجان وتصغي إلى

عليه، ولذلك فرغم مهمّتها كربة بيت وأمّ واطبّت على قراءة الصحف والمجلاّت ووسّعت مداركها حتّى بلغت درجة من النضج غير معهودة سنّدت بها حدسها الروحيّ وأحلامها العجيبة. ولعّها كانت المرأة الوحيدة في شارع ابن حوقل التي تمسك دفتر حسابات لميزانية الأسرة كما كانت تراسل أخاها بالخطابات المطوّلة، ربّما رغبة في التعبير وإثباتاً لقدرتها عليه. وعلى حبّها القديم العميق لزوجها حامد برهان شعرت في أعماقها بتفوّقها عليه، ذكاءً وعقلاً، فضلاً عن أنّه لم يحصل إلا على الابتدائية وإن التحق بعد ذلك بمدرسة التلغراف وتخرّج فيها. يضاف إلى ذلك أنّه لا يعرف عن سلسلته العائلية إلا جدّاً واحداً ولا يكاد يعرف عنه أكثر من اسمه، أمّا هي فتعرف كثرة من الجدود وإن لم تُثيّر إليهم إلا إشارات عابرة وفي مناسبات نادرة، وكبر حفّظ جدّها لأبيها من الذكر بسبب نقطة التحوّل التي أحدثها في حياته عندما دخل الإسلام بعدما كان قبطياً من صلب أقباط. وفي ذلك قالت سنيّة ذات يوم لحامد برهان ضاحكة:

- تاريخي غير راكد.

وكان حامد برهان - مثل زوجه - محباً للفخر فجرى وراء المتاح من أسبابه في حياته البسيطة المتواضعة، ملحاً على إثبات رجولته، ودون إغفال للحقيقة الساطعة وهي أنّها مالكة البيت الكبير، وأنّها مدبّرتة الحكيمة، وأنّها مربيّة الأبناء الرشيدة الواعية، فضلاً عن أنّها خالقة الجوّ السعيد الذي نعم به طويلاً. ومن أيّ حبّه للفخر أيضاً حومانه المصّرّ حول الإنجاز السياسيّ الوحيد في حياته، وهو تحريضه على إضراب الموظّفين في مطلع ثورة ١٩١٩، فهو يرويه بتفاصيله كلّما سنحت فرصة، علماً بأنّه الفعل الوحيد في حياته السياسيّة التي لم يبقَ له منها سوى حبّ قلبيّ عميق للوفد لا يتجلّى بصورة عمليّة إلا في الظروف النادرة التي يسمح فيها بإجراء انتخابات حرة بين الأحزاب. وكان زوجاً مثاليّاً في أكثر من ناحية، فهو مولع بزوجه وأبنائه، وهو فحل في الرجال، وهو بريء من الأدواء التي تتطفّل على ميزانية موظّف صغير مثله فلا يسكر ولا يدخن ولا يفسق بعينه، حتّى شهوته يمضيها مع

الباقى من الزمن ساعة ٥٣٦

يفضب الشعب غضبة من غضباته الماضية ولكنه أثر  
أن ينتقل من مكانه العريق فوق خشبة المسرح إلى  
مقاعد المتفرجين حتى تساءل حامد برهان:

- من أين جاءنا هذا الحظ الأسود؟!

واسترقت سنية نظرة إلى كوثر وقالت لنفسها:

- مثل حظك تمامًا يا ابني!

واكفهرَ جَوَّ العالم كلَّه وتطايير منه الشرر ثم انحسر  
قناعه الأصفر عن حرب عالمية جديدة. وأكثر من  
صوت قال:

- إيطاليا في ليبيا على بعد شبر منا!

وكان محمد قد التحق بكلية الحقوق، ومنيرة على  
وشك الالتحاق بالآداب، أما كوثر فما زالت تنتظر.  
ومحمد - مثل أبيه - انصهر بهزيمة الوفد وأبناء المعارك،  
وجذبت نظره ذات يوم لافتة مثبتة على قضبان شرفة  
شقة بشارع سعفان مسجل عليها بالخط الفارسي  
«الإخوان المسلمون» فدعاه حب الاستطلاع والتوتر إلى  
اقتحام الشقة. ومضى يختلف إليها من حين إلى حين  
ويتزّه بما يُلقى عليه فيها بين أسرته، حتى قال له حامد  
برهان:

- حسبك، إني غير مرتاح لذلك...

فدافع الشاب عن وجهة نظره دفاعًا بريئًا ولكن أباه  
قال:

- أنت وفدي، وأي تجمع آخر ما هو إلا منافس  
لِلوَفد.

فقال محمد بإصرار:

- إنها مفتوحة للجميع!

ولم يطرأ عليه في تلك الفترة من تغير إلا أن أضاف  
إلى مجال اطلاعه بعض الكتب الدينية، على أن كوثر  
استفرقتها العبادة أكثر منه وإن عكست عينها  
الوديعتان نظرة أسى دائم. وضاعف من حرج الأسرة  
أن منيرة - وهي تشرّب للجامعة - تقدّم لطلب يدها  
مدير عامّ بالسكة الحديد في الخامسة والأربعين من  
عمره. لا شك أن «درجته» فتنت حامد برهان، ولكنه -  
مثل سنية - توجّع لحال كوثر. غير أنه لم يكن بدّ من  
عرض الموضوع على منيرة التي أدهشهم بقولها  
الحاسم:

تأويلاتها الوردية فيتمش حامد بالأمل يهدد به همه  
المطارد. وما يلبث أن ينسى همه إلى حين وهو يتابع  
أنباء المظاهرات، والصراع حول دستور ١٩٢٣،  
والسعي نحو إيجاد وحدة قومية لمواجهة الموقف.  
ويتمخض الجهد والدم عن حدث غير عادي فتعقد  
معاهدة ١٩٣٦. ليلتها ثمل حامد برهان بالنصر وقال  
للسّار:

- كُئِلَّ جهاد الوفد أخيرًا بالفوز المبين.

\* \* \*

أجل كان ثمة آراء معارضة ردها الأستاذ راضي  
أبو العزم مدرّس العلوم معتذرًا بقوله «ناقل الكفر  
ليس بكافر»، وكانت وُردت قبل ذلك على لسان محمد  
ومنيرة نقلًا عما يسمعان في المدرسة. غير أنه لم يكن لها  
أثر يُذكر في الأسرة فسنية وفدية مثل زوجها ومحمد  
وفدي أيضًا، حتى منيرة تُعدّ وفدية بلا حماس، أما  
كوثر فلا تهتمّ إلا بما يدور في باطنها. أما في جلسة  
السمر فكان الوفد متسلطًا دون شريك فتساءل جعفر  
إبراهيم:

- كيف يتوقعون نتيجة أفضل من هذه؟

فقال حسن علمًا:

- المعاهدة ثمرة صراع مرير بين إمبراطورية طاغية  
من ناحية وبلد أعزل من ناحية أخرى، فهي مشرفة لا  
ريب في ذلك...

فقال حامد برهان:

- على من لا يقتنع أن يزحف على العدو بجيشه!

فقال خليل المدرس وكيل أعمال الوجيه نعيان

الرشيدي:

- انتهت أيام اللعنات وسوف يحكم الوفد إلى

الأبد...

ولكن بدا أن أيام اللعنات لا تريد أن تنتهي فقد  
انفجر صراع جديد بين الوفد والملك الجديد، حول  
المعركة من معركة موجّهة نحو الفقر والجهل والمرض  
إلى المعركة التقليدية حول الدستور والحكم  
الديموقراطي، وإذا بالوفد يطرد والأقليات تلعب دورًا  
ديموقراطيًا زائفًا كغطاء متهتك للاستبداد الملكي. تبادل  
الأصدقاء نظرات أسى مشتعل بالغضب. أملوا أن

كان ثمة تشابه بين أسرتيهما فأبوه ناظر مدرسة ابتدائي، له أخت متزوجة وأخ ضابط بالجيش، اسمه سليمان بهجت. ولما عالنها بسنه وصفه المدرسي تلقت لطمة مباغته لم تتوقعها. كانت تشارف مرحلتها الجامعية بقسم اللغة الإنجليزية، وربما توظفت وهو يلتحق بالجامعة فأبي مهزلة وأبي خدعة. اضطرب ميزان عقلها ولكن قلبها صمد صمود العاشقين، طرحا العواقب جانبًا. ولاحظ سليمان وجومها ولم تغب عنه أسبابه فقال:

- في الحب لا أهمية للمشكلات السطحية.  
فتساءلت بحيرة:  
- أهي سطحية حقًا؟  
- بلا شك، علينا أن نصر على حبنا حتى نتزوج.  
فقلت بسرور خفي:  
- إنك جاد ولي فيك كل الثقة، ولكنني أسألك مهلة للتفكير لصالح كليتنا...

فقال بيقين:  
- إني أعرف صالحني تمامًا (ثم ضاحكًا) ولن أسمح لك بالتراجع...  
ولم تجد في أسرتها من تفضي إليه بسرهما سوى أمها. اقتحمت غرفتها الخضراء عقب صلاة العصر رادة الباب وراءها وجلست قائلة:  
- إليك حكايتي يا ماما...

لما أدركت أنها حكاية خطوبة نور قلبها بالسرور، ولكنته سرعان ما انطفأ لدى طرح المشكلة. وتفرست في وجهها فاستشقت ميلها الدفين وراء قناع الحيرة فأدركها الجزع. قالت لنفسها إن حظ كوتر سئ أما جوهرة الأسرة فلا يجوز أن يسوء لها حظ. قالت بثبات:  
- مشروع فاشل ولا خير فيه.

فرمقتها منيرة بنظرة كثيفة فواصلت:  
- الرجل الأكبر في السن مقبول ألف مرة أكثر من المرأة الأكبر، حذار يا منيرة، ما هو إلا عبث صبي لا يوثق به وأنت رشيدة مثقفة...

فلاذت بالصمت الذي أدركت الأم معناه فقالت بقلق:

- الناس يحبون ليسعدوا لا ليجعلوا من حياتهم

- لا أوافق...

فقال لها محمد:

- يستحسن أن يسبق أي قرار بالتفكير المناسب.

فقلت بصراحة:

- لا داعي لذلك على الإطلاق.

وارتاح الوالدان في أعماقهما وإن تظاهرا بغير ذلك. ولم يكن القهر يلعب دورًا في الأسرة، وكان الأبناء يحفظون بنعمة غير معهودة من الحرية والصرامة. على أن منيرة لم ترفض الرجل لفارق السن فقط، فالحقيقة أنها كانت واقعة في حب. لم يظن أحد إلى حبها، ولا أمها التي ترى بروحها أحيانًا بالإضافة إلى عينيها. وكان حبها مشكلة. أحببت شيئًا من حلوان تبين لها أنها تكبره بسبعة أعوام! كان طالبًا بالمرحلة الثانوية، كثير السقوط ولكنته ذو مظهر خادع. رآته أول ما رآته في الحديقة اليابانية فأتسعت عيناه مرسله دهشة ذاهلة باسمه تحية للحسن الرائق، وجلس قبالتها في القطار أو لعله تعمد الجلوس قبالتها وراح يسترق النظر طيلة الطريق إلى القاهرة. كان ذا مظهر يكبر سنه بكثير، مترامي الأبعاد مبادرًا للرجولة قبل أوانها فظنته موظفًا أو طالبًا في القصة، وكان إلى ذلك فحل الملامح والصوت. وراح يتابعها بإصرار وشغف حتى غزاها بلطف وثبات. وجد قلبًا يخفق بنظرة متوقبة، متعطشة لأول قطرة ماء كي تفتتح أكمامها وتنبثق ألوانها الضاحكة. هكذا تسلط على فؤادها فاستسلمت للنداء المطرب حلالة بسعادة مشرقة. وعند لحظة فريدة يتصارع فيها الحياء والمغامرة ردت آخر تحياته أمام تماثل بوذا الغافي في سلام بالحديقة اليابانية، فقال متبهّدًا:

- أخيرًا!... ساحك الله...

وفي ارتباكها سألته متلعثمة:

- ماذا تريد؟

فقال بهدوء مغتصب:

- ليس عندي أكثر مما يدل عليه حالي.

فعضت على شفيتها لتند ابتسامة خائنة فقال برقة:

- ليس وراء الحب شيء...

قالت لنفسها ما أصدقه. وتلاقيا مرّات في الجنفواز على مبعدة يسيرة من الجامعة ليزدادا ببعضهما تعارفًا.

الباقى من الزمن ساعة ٥٣٣

الأولى من الصحف ولكن على نطاق العالم وأنتهم الخراب العواصم الزاهرة ودنا الخطر من مصر حتى ترددت أنفاسه في القاهرة والإسكندرية فقال حامد برهان:

- من راقب بلوى العالم هانت عليه بلواه . . .

واختل ميزان المعيشة فتوارت الأسعار القديمة إلى الأبد وانهمرت الثروات على أناس فلم يبق في القعر إلا الموظفون فتساءلت سنية:

- ما جدوى إمساك دفتر لميزانية وهمية؟!!

ولولا عودة الوفد للحكم عقب أزمة خطيرة وتقريره علاوة الغلاء لهلك الموظفون. ولم يزعزع الحدث إيمان حامد برهان بوقديته، بل رقص السمار فرحاً وشماتة بالملك. وقالت منيرة:

- إنه شيء بشع لا يصدق.

وقال محمد لايه:

- ما أفتح ما يقال!

فقال حامد برهان بثقة:

- كل قول جدير أن يتحطم على صخرة صلدة هي وطنية مصطفى النحاس.

فهزت سنية رأسها باسمه وتمتت:

- نطقت بالحق.

وتعصي الأحداث، ويميل مؤثر النصر إلى الناحية الأخرى، ويقال الوفد كالعادة من الحكم، ويعد عامين مجال حامد برهان إلى المعاش لبلوغه السن القانونية. شد ما انقبض صدره حتى ساوره شعور بأنه يموت قبل الموت. لدى رجوعه إلى حلوان نازحاً معطف الوظيفة لأول مرة اجتاحتها كآبة ثقيلة، ودخله إحساس بالخجل كأنما ارتكب إثماً. قال لنفسه:

- ما زلت في تمام الصحة والعافية.

ورسم لنفسه - وهو قابع في قطار حلوان - خطة يتحدثى بها قرار الحكومة. أن يستيقظ في ميعاده المبكر، أن يتمشى ما بين الصحراء والحديقة اليابانية كل صباح مغترفاً من هواء حلوان الجاف، أن يواظب على الارتواء من المياه المعدنية، أن يعنى بحديقة البيت ما وسعت طاقته المالية المحدودة. وتلقته سنية باسمه، دعت له بطول العمر، مطاردة أفكاراً كثيرة تطنن في

نادرة يُتندر بها، لن يمنحك أحد مما تريدن، أنت حرة تماماً في اتخاذ قرارك ولكني أحذرك، فالمرأة تمضي إلى الشيخوخة أسرع من الرجل. . .

فتمتت بغموض:

- أشكرك يا ماما. . .

فقال برجاء:

- لا داعي للعجلة، فكّري على مهل، دعي الأمر معلّقاً حتى يبين أوان الزواج ثم انظري ماذا يبقى منه.

فقال منيرة وهي مستغرقة بالحيرة:

- حلّ موفّق يا ماما. . .

- عظيم، وليكن الأمر سرّاً حرصاً على الكرامة. . . ولكنها لم تعتد أن تخفي عن حامد برهان أمراً ذا بال فأشركته في همتها قبل انتقاله إلى مجلس السمار. وفاق تأثره بالسرّ تأثرها إذ كان عاطفياً أكثر منها أو كان دونها في ضبط النفس، قال بنبرة المشكّي:

- أيّ حظ يا ابنتي! . . . إنك ذرة التاج فلم تبتلين

بهذه التجربة؟

وتفكر ملياً ثم قال:

- إنه مشروع فاشل ولكنّه خليق بأن يقوم عثرة في سبيل من يطلب يدها. . .

ولم ترّ سنية حلماً ذا معنى، وضربت تأويلات أم سيّد للفتجان في آفاق بعيدة عن الموضوع. أما سليمان بهجت فقد عدل عن رغبته الملمحة في إعلان الخطوبة، فأنما بعلاقة أقرب إلى الصداقة مورست في مودة وتحفظ وصينت بالصبر الطويل. على أنّ سرّاً بهذه الخطورة لا يمكن أن يبقى سرّاً طويلاً فما دام توجد رائحة نفاذة وجوّ ذو قابلية لسريان الرائحة فلا يد للرائحة من أن تنتشر. انكشف في بيت سليمان بهجت وقال له أخوه الضابط:

- أحسنت الاختيار.

وكثرة من زميلات كوثر بالكليّة عرفنه، وزحف أخيراً على شارع ابن حوقل فنوقش في مجلس السمار، وبذلك عرف القاضي والداني أنّ كريمة حامد برهان الجميلة ومعجزة فلم يتقدّم أحد ليخطبها، مثلها مثل أختها كوثر التي طال بها الانتظار وتقدّم بها العمر. وكانت أيام حرب وبلاء، واحتلت الوقيات الصفحات

باطنها كالذباب. عطف عليه، رأت وجومه وراء ضحكته المفتعلة، قاسمته الانفعال بالزمن والخوف من المجهول، بالإضافة إلى همومها كرتبة بيت تفعل المستحيل للاحتفاظ بالحد الأدنى في مواجهة حياة يشتد عسرها في بطء وثبات. وحدث الله على الفرج المنتظر بتخرج محمد ثم منيرة. قالت في لحظة تأمل:

- أشعلوا الحرب وذهبوا وعلينا أن ندفع الثمن... .

واستوعب الغذاء والكساء كل شيء ولكن ألا يحتاج هذا البيت الكبير إلى ترميم وطلاء؟... وهذه الحديقة التي عقلت أشجارها الباقية، وذبلت شجيرات أزهارها، وشغلت الأرض الرملية أكثر سطحها ألا تحتاج إلى بعث؟... أين هي من ذلك كله؟! وهي حتى متى تحمل أعباء البيت ولا معين لها إلا فتاة منكسرة القلب وخادم تماثلها في السن ضئيلة المهارة لا تحسن إلا قراءة الفنجان ونادراً ما تصدق لها قراءة؟. ولكن الهموم تتداوى بالهموم أحياناً، فقد اقتحم البيت هم في صورة فرح باسم. أجل أخيراً جاء رجل يطلب يد كوثر!. كان خليل المدرس - أحد السمار - هو الخاطب!، وكان العريس الوجيه نعمان الرشيد الذي يعمل الرجل وكيلاً لدائرتة. قال خليل المدرس لحامد برهان:

- رجل ولا كل الرجال.

ثم مبادراً قبل أن تلعب الآمال بقلب حامد:

- حقاً لم يتعلم ولكن ما حاجته إلى التعليم؟، وهو في الستين ولكنه يحظى بصحة ابن الثلاثين، له أبناء ثلاثة ولكنهم موظفون ومتزوجون، يملك أرضاً وعمارات وأموالاً سائلة، يقيم في فيلا أنيقة بشارع الزقازيق بمصر الجديدة، وكما ماتت زوجته منذ عام غشيتة وحدة لم يألها فضايق بها وغمرته كآبة ثقيلة حتى اقترحت عليه فكرة الزواج فرحب بها بحماس فاق تقديره بكثير فطلبت إلى زوجتي أن تدعو ست سنيرة وكوثر لزيارة، ودعوته من ناحيتي، ويسرت له رؤيتها في الحضور والانصراف فسر جداً وأمرني أن أتم السعي، وها أنا أني بما تعهدت به... .

هكذا ذابت هموم الحياة اليومية واستأثر المشروع الجديد بالأفئدة. أسكتوا الراديو في حجرة المعيشة،

وأفضى حامد برهان بما لديه، ثم قال:

- هذا هو العريس فما الرأي؟

همت كوثر بالانسحاب ولكن حامد برهان أمسك بساعدها وجذبها إلى جانبه بحنان قائلاً:

- هنا مكانك.

فقال محمد ضاحكاً:

- من حسن الحظ أن الحكومة لا تتدخل في هذه الشؤون.

وسألت سنيرة نفسها لم يتعثر حظ ابنتها فلا يعرف الطريق المؤلف؟. وقالت:

- لترك الأمر لصاحبة الشأن... .

فقال حامد برهان:

- طبعاً... طبعاً... ولكن لا بأس من إبداء الرأي مساعدة لها، الرجل ثري، والمال زينة الحياة الدنيا!

وهم محمد بتكملة الآية ولكنه عدل عن ذلك. كان ينظر إلى بقاء أخته في البيت الكبير بلا زواج ولا علم ولا عمل بقلق شديد. قال:

- فرصة لا يصح الاستهانة بها.

فقال منيرة:

- أوافق على رأي كوثر دون قيد أو شرط... .

فقال لها أبوها:

- لم تقولي شيئاً... .

فقالت بإصرار:

- قلت كل شيء.

ونظر حامد برهان نحو سنيرة وهي متربعة فوق الكنبه فتمتمت:

- رجل مقبول من بعض النواحي ولكني تمنيت لها حظاً أفضل... .

وهربت بوجهها من نظرتهم فاستقرت عينها على الصورة التذكارية. وقالت كوثر لنفسها إنهم يميلون للموافقة. وهي أيضاً مالت إليها منذ اللحظة الأولى. فهذا الرجل هو أول رجل يتقدم. وهي تفرح في السادسة والعشرين تكتنفها أحوال تدعو إلى اليأس. وهي تثير العطف حتى كرهته. وباتت تنجمل من لقاء الزائرات. وكما سها أبوها برقة متسائلاً:

وأفضى حامد برهان بما لديه، ثم قال:

- هذا هو العريس فما الرأي؟

همت كوثر بالانسحاب ولكن حامد برهان أمسك بساعدها وجذبها إلى جانبه بحنان قائلاً:

- هنا مكانك.

فقال محمد ضاحكاً:

- من حسن الحظ أن الحكومة لا تتدخل في هذه الشؤون.

وسألت سنيرة نفسها لم يتعثر حظ ابنتها فلا يعرف الطريق المؤلف؟. وقالت:

- لترك الأمر لصاحبة الشأن... .

فقال حامد برهان:

- طبعاً... طبعاً... ولكن لا بأس من إبداء الرأي مساعدة لها، الرجل ثري، والمال زينة الحياة الدنيا!

وهم محمد بتكملة الآية ولكنه عدل عن ذلك. كان ينظر إلى بقاء أخته في البيت الكبير بلا زواج ولا علم ولا عمل بقلق شديد. قال:

- فرصة لا يصح الاستهانة بها.

فقال منيرة:

- أوافق على رأي كوثر دون قيد أو شرط... .

فقال لها أبوها:

- لم تقولي شيئاً... .

فقالت بإصرار:

- قلت كل شيء.

ونظر حامد برهان نحو سنيرة وهي متربعة فوق الكنبه فتمتمت:

- رجل مقبول من بعض النواحي ولكني تمنيت لها حظاً أفضل... .

وهربت بوجهها من نظرتهم فاستقرت عينها على الصورة التذكارية. وقالت كوثر لنفسها إنهم يميلون للموافقة. وهي أيضاً مالت إليها منذ اللحظة الأولى. فهذا الرجل هو أول رجل يتقدم. وهي تفرح في السادسة والعشرين تكتنفها أحوال تدعو إلى اليأس. وهي تثير العطف حتى كرهته. وباتت تنجمل من لقاء الزائرات. وكما سها أبوها برقة متسائلاً:

الباقى من الزمن ساعة ٥٣٥

في الوجوه في صورة كبرياء جريح. لذلك غالت الأم في تزويد كريمتها بالثياب أشكالا والوانا وأعدت عليها هدايا ثمينة أساور ذهبية وقرطأ ماسيا وساعة أثرية. وبدا الوجيه حريضا على الوقت فتحدد يوم لكتب الكتاب في البيت الكبير شهده الأصدقاء ولم يحضره أحد من أبناء الوجيه معلنين بذلك مقاطعتهم التي تواصلت إلى الأبد. ومضى الوجيه بعروسه في سيارته المرسيدس البيضاء مودعا بيسات متلألئة بالدموع كرمز للفرح والأسى معا. وعقب الزيارة الأولى التي قامت بها الأسرة لقيلا شارع الزقازيق قال حامد برهان:

- كوثر سعيدة والحمد لله.

كانت سعيدة حقًا، وسرعان ما بادلت زوجها حبًا بحب. كان حبًا حيا هادئا ولكن بالقياس إليها كان الحب كله. وما لبثت أن بشرتهم بمقدم مخلوق مجهول من الغيب فانغرست البشاشة في قلب سنية المهدي طارحة ورودا وأزهارا. وأضفت التسريحة الجديدة على وجه كوثر أنوثة. وأكسبها الزواج ملاحه، وأسبغت عليها الثياب الفاخرة جلا وسوددا وإن لم تحمل يوما سجادة الصلاة. وأخفت عن أمها هموما صغيرة تسللت إلى وجدانها من جراء محاولات مستميتة بذلك نعمان الرشيدى ليقنعها باحتساء القليل من الويسكي، لاجئا إلى إصدار فتاوى شخصية لا أساس لها بأن الشرب الشرعي حلال، حتى يش فقنع بالمتاح. وما إن رفع حامد برهان رأسه عن هم كوثر حتى ركز عينيه على العمارة الجديدة التي استوت قائمة في مواجهة بيته. بدأ الهدم ورمي الأساس من سنوات، وتوقف العمل وقتا غير قصير لأسباب مجهولة، ثم استؤنف حتى اكتملت بقاعدتها الواسعة وقامتها الجديدة. أسف حامد لذلك غاية الأسف، وتحسر على زوال حديقة البيت الأصلي وأن يقوم مقامها بناء فيحجب ما يحجب من منظر مانوس ويمنع ما يمنع من هواء طلق. وانقض على العمارة سكان جدد فاق عددهم سكان «ابن حوقل» جميعا، لا يعرف بعضهم بعضا ولا يتحمسون لمعرفة أحد. قال جعفر إبراهيم:

- هذا مصير بيوتنا الكبيرة القديمة...

- وأنت يا كوثر؟

أحنت رأسها وغمغمت بصوت لم يسمع:

- موافقة.

وانتهت الجلسة بسلام ولكن ثمة شعور بالذنب طاردهم قاموه بالشعارات الطيبة. وعندما خلا حامد برهان بسنية عقب انصراف السيار قال:

- بارك الجميع قرانا...

نظرت إليه فهاها أن ترى عينيه دامتتين. لم تدهش لما تعلمه من سخاء عينيه إذا مس وتر حميم في قلبه، أما هي فتبكي في الداخل. وسألته بأسى:

- لم تبكي يا رجل؟

فتنهت قائلا:

- من العجز وسوء الحظ.

عنى عجزه المالى وسوء حظ ابنته. وهو كان يرى أكثر مما يتصور من حوله. لاحظ بقلب متغصن انزواء كوثر، أسى نظرتها، معاناتها للمرافقة، إغراقها اليأس في العبادة، تطوعها لخدمة إخوتها في استسلام كامل، فدفعه ذلك كله إلى مواجهة عجزه. ماذا فعل من أجلها؟ ماذا يملك من المغريات؟. وكم قسا عليها أيام الدراسة مصرًا على تحميلها ما يفوق طاقتها رغم أنه كان مثلها في معاناة التعليم، وإلا لثقت لنفسه طريقًا آخر أبعث للأمال له ولذوتته. وسأل زوجته ومرشدته:

- ما العمل الآن؟

استخرجت من الجملة القصيرة مضمونها الخفي فقالت:

- عندي مجوهرات لا بأس بها...

فقال بذل:

- أحاول أن أقترض أيضًا؟

فقالت بضيق:

- لن نجد ضامنا، ولا ضرورة لذلك.

على أن السيد الوجيه نعمان الرشيدى جعل من العسر يسرا. نشط نشاطا كبيرا فأهدى اثاث فيلته إلى ابنائه، وأعاد تأثيثها على أحدث طراز، وفي مقابل ذلك أتفق على صداق ومؤخر صداق رمزيين. وارتاحت الأسرة في الأعماق لذلك ولكن تجل طفحه



فتساءل حامد برهان:

رشيقة بَرّاقة مثيرة داعية - دون مبالاة - لشتى الظنون،  
باسمة متحدية، بخلاف ألفت المواظبة على عملها  
والمتسمة بالجدية والحياد أيضًا. وبالقياس إلى حامد  
برهان لم تكن مرفت مجرد امرأة مثيرة تسعى ولكنتها  
كانت غزوة اقتحمت حصنه المتين، ونازًا أشعلت  
هشيم خياله، وسيلاً جرف سدّه العالي. وعجب  
الرجل لحاله مغمغماً:

- أعود بالله.

وذكره ذلك بما جرى في الحرم الجامعي وفوق  
كوبري عباس من مظاهرات وسفك دماء فقال:

- هذا يثبت أن الأرض تدور على قرن ثورا!

وعمّ البلاء عندما وهبت المرأة انتباهها ولم يعد ثمة  
شك في أنها تشجعه!. وذات يوم تلاقى أعينهما في  
نظرة آسرة فابتسمت إليه. تناثرت إرادته وانفجرت  
غرائزه، وتمخض جسده البدين عن جنون أحمر.  
تناسى واقعه وسنّية وكوثر ومحمد ومنيرة فمضى وراءها  
إلى الحديقة اليابانية. لم يكن يدري شيئاً عن الغزل  
ولا حتى عمّا يجب أن يقال فسلم نفسه في براءة طفل،  
وتواعدا على اللقاء في القاهرة مختارًا اليوم الذي يتسلم  
فيه معاشه على سبيل الخذر. وبهذه العلاقة استوى في  
مقام الخيرة. أدرك من أول وهلة أن «مصروفه» لا  
يسمح له بعلاقة غير مشروعة، فضلاً عن أنّها لا  
يجدان عشًا مناسبًا. وقالت له:

- إني سيّدة محترمة!

فقال - وكانا يجلسان في محلّ باليرمو بالهرم - بصراحة  
مؤثّرة:

- وأنا كما ترين فقير. . .

فقالت بجرأة غريبة:

لديّ إيراد خاص لا بأس به.

فقال بسداجة:

- ممكن أحتفظ بنصف معاشي إذا توفّقت ابني وابنتي  
في القريب العاجل.

هكذا انحرف الحديث إلى «الشرع» وقُدّف بحامد  
برهان إلى حياة جديدة لم تجر له في خاطر ورجع إلى  
حلوان وهو يقول لنفسه:

- أدرك الآن معنى أن يُغلب إنسان على أمره! أيّ

- ولكن ما حلوان إذا اغتضب هدوءها الأبدى؟!  
وخيل إليه أن بوذا سينتبه من تأملاته العميقة محتجًا  
ثم يرحل وراء الهدوء إلى أعماق الصحراء.

ولم تكن العمارة بالمهمّ الوحيد الذي طرأ فقد تدفّق  
طوفان في ميدان السياسة دافعًا بين يديه مظاهرات من  
الطلبة والعاملين مطالبين باستقلال حقيقيّ يكافئ ما  
بذلته مصر من تضحيات وخدمات في أثناء الحرب.  
وكالعادة غلبت السياسة على السمر وانهمك حامد  
برهان الوفديّ الحريق في همومها، وقال:

- لو بقي مصطفى النحاس في الحكم لطلب  
الإنجليز بجزء تأييده لهم في وقت الهزيمة.

غير أن همومه لم تحل بينه وبين رؤية ساكنة جديدة  
في الدور الرابع من العمارة الجديدة. كان يتمنى في  
حديثته الموحشة مصارعًا الفراغ الجديد المهيمن على  
حياته فحانت منه التفاتة فرأها تتمنى في مطلع  
خريف. لعلها تماثل سنّية في العمر - في الخمسين -  
ولكنّها رشيقة مزخرقة ذات شعر ذهبيّ وعرق أجنبيّ.  
استقبل من ناحيتها تيارًا مثيرًا هو الذي لم يهتم بالنظر  
إلى امرأة منذ تزوّج من سنّية المهدي. عاش حياته  
زويجًا مثاليًا لا يزهّد ولا يتغيّر ولا يحلم حتى لفت  
الانظار بطبعه العجيب. ولا يذكر أحد من معارفه أنه  
سمعه يحدث عن عالم المرأة حتى قال صاحبه راضي أبو  
العزم مدرّس العلوم:

- حامد متخصص في زوجته.

وبدا أن المرأة هيّجت اهتمامات الجيران بفرتنجتها  
وعصريتها وملابسها فانتشر من نافورتها الشادية رذاذ  
المعلومات. قيل إن أمها إفرنجيّة - وإن لم يحدّد  
الجنس - وإتيا أرملة للمدعو حسن كمال الذي كان  
مدرّسًا بمدرسة الفنون وعضو بعثة في الخارج. وقيل إن  
لها ابنة وحيدة مترجمة بوزارة الخارجية، ثمّ صُحّح الخبر  
فيها بعد فصيل إنّها ابنة زوجها من زوجة سابقة متوفية  
وإن المرأة تبتّها لعقمها فعُدّ ذلك حسنة تُحسب لها.  
ثم عرف أن اسم المرأة - بعد إسلامها - مرّفت وأنّ  
البيت اسمها ألفت. وكانت المرأة تسليّ وحدتها بالمشي  
في سوارع حلوان وزيارة الحديقة اليابانية، تمضي

الباقى من الزمن ساحة ٥٣٧

والرحمة! وبذهاب «العجوز المنصاي» أتيج لها فراغ لم تمهده من قبل فتعلق اهتمامها بالبيت، وشعرت أكثر من أي وقت مضى بأنه ليس على ما يرام. إنه يطمئن في التقدم دون رعاية ولا عناية. ها هي تتجول بين الحجرات والحديقة، تنظر وتتفحص، بهت الألوان، تقشّرت الأركان، تشقق خشب الأرضية وفقد مرونته، ذبلت الحديقة وملأها الوحشة وتراكمت في أجزاء منها الأوراق الجافة. قالت:

- العين بصيرة واليد قصيرة.

وتابعها محمد مرة بعينه ثم همس في أذن منيرة:

- إني قلق.

فهمست له بدورها:

- ليتها تروّح عن نفسها ولو بالدموع!

أما حامد برهان فلم يبق له إلا أن يغمض عينيه ويصمّ أذنيه حيال الماضي وأن يرمي نفسه في بحر العسل. انقلب إلى مراهق ذي رأس أبيض وجسم مليء بعنفوان لا يدري من أين جاء. ووجد في مرفق امرأة فائقة القدرة متقنة لفنون من العشق لم يعرفها من قبل. وبادلته هيأماً بهيام، ولولا دعمها المالى لحياتها المشتركة ما أمكن لها دوام. وبعضى الأيام انتقل مجلس السّار إلى الشقة الجديدة، وأضافوا إلى أحاديثهم المألوفة موضوعات جديدة عن وصفات ناجمة لتجديد الشباب. وفي أثناء ذلك ولد رشاد ابن كوثر، وتخرّج محمد، ثم لحقت به منيرة، وهي أحداث خليقة بيعث السرور الشامل ولكنها لم تحظ إلا بفرحات سريعة الزوال كأنفراج السحب عن شروق الشمس دقائق في يوم مطير عاصف. وزاد من تجهم الجو اشتعال حرب فلسطين فعلا صوت المعركة المبهم المشحون بالقلق على معارك حامد برهان الجنسية الطاقرة وشدّ سنيّة المهدي من حال سيّئة إلى حال سيّئة أخرى كمن يفلت من قبضة صدام ليقع فريسة لروماتيزم، على حين تابعت منيرة الأبناء من موقع وظيفتها الجديدة كمدوّسة للغة الإنجليزية بمدّسة البنات بالعباسية، أما محمد فوجد عملاً في مكتب الأستاذ عبد القادر قدرى المحامي الوفدي المعروف، وكان موصولاً بصداقته من عهد وفديته الخالصة فلم ينقطع عنه بعد أن مزجت

قنبلة انفجرت في صدر سنيّة المهدي والزوج المستأنس المحبّ البكاء يقف بين يديها حاني الظهر مغرور العينين في البساط القديم المنجرد وهو يقول:

- إنه أمر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله...

استيقظت من كهفها على صدمة كهربائية مزلّلة. ماذا يقول الرجل المسوس؟

- تزوّجت، إنّا محنة، ولكنك ستظّلين الزوجة والام!

إذن فأني شيء يمكن أن يحدث.

- إنك مجنون ولا شك!

وكمادته عند غلبة الانفعال دمعت عيناه.

استمسكت هي بمظهرها الرزين المجلّل بدهول غامض. كرهت دموعه واحتقرتها وتردّت بيقين في هاوية. وثبت بها دفعة مباغته لصفعه ولكنها لم تفعل.

كظمت دواتها بسلك صلب. أمرت قلبها بأن ينكسر وحده وفي صمت جليل وبأن يتشرب أشنع الآلام كما لو كانت ماء عذباً. قال بصوت رجل آخر:

- لن يفصل بيننا شيء.

عند ذلك هفت به:

- لا تُرني وجهك أبداً.

وتلقّى محمد ومنيرة الخبر فصاح محمد:

- يا خير أسود!

أما منيرة فلم تنبس ثم أفحمت في البكاء. وقف قليهما وراء أمهما وأدانا أباهما دون قيد أو شرط.

وقالت منيرة لمحمد وهما في الفراندا وحيدين:

- أنا لا أفهم شيئاً...

فقال بامتعاض شديد:

- إنّا مأساة أقيت على بابا لتلقى بعد ذلك على ماما ثم تطوّقنا جميعاً.

ودفع الزواج الجديد الزوجين إلى ضربين من الجنون. جنون صمت وكبرياء غزا الأم. صممت على ممارسة حياتها اليومية وكأنها لا تبالي بيّد أنّها كانت مشتعلة القلب والعقل طيلة الوقت فراحت ترى وراء الأحداث اليومية - المسموعة والمقروءة - شبح مأساة كونيّة غامضة، وأنّ حماقة الإنسان داء متأصل لن يشفى منه إلا بمتناقضات شتى كالعنف والحكمة

- وفديته «إخوانية» متصاعدة. وبذل محمد جهداً صادقاً في عمله حاز به ثقة أستاذه غير أن الحرب انتهت بهزيمة العرب، ومقتل النقراشي، وإعلان حرب داخلية لا هوادة فيها ضد الإخوان، فقُبض على محمد فيمن قبض عليهم ضمن شعبة حلوان. وهزّ النبا الأسرة هزة فاقت أحزانها الخاصة والعامّة. واستقبل البيت القديم بحلوان الوجيه نعمان الرشيدى وكوثر، بل جاء حامد برهان نفسه. وتجاهلت سنية زوجها تماماً فتجنّب إزعاجها ومضى يوجه حديثه إلى نعمان أو منيرة. ولم يكن دون سنية قلقاً حتى قال الوجيه نعمان:
- مؤكّد أنّه لم يتورّط في جريمة فلا خوف عليه. . .  
فقلت منيرة:
- أخشى ألا يفرقوا بين البريء وغيره في حومة الانتقام.  
فقال حامد برهان:
- لم يرتح قلبي قطّ لانضمامه إلى الإخوان، وكلنا مسلمون والحمد لله. . .
- وشعر نعمان الرشيدى بأنه مطالب بأكثر من الكلام لعلاقته الوثيقة بالمسئولين من جميع الأحزاب فقال:
- سأبذل ما في وسعي رغم أنّ الدفاع عن إخواني في هذه الظروف تصرف مرعب!
- كان حريصاً على علاقاته الودية بجميع الأحزاب، لذلك ساءه أن يكون أخو زوجته إخوانياً، فكيف يسعى بنفسه إلى الكشف عن هذه الحقيقة القاضحة؟! وجعلوا يواسون سنية باعتبارها المحور الأوّل للحزن فقلت بأسى:
- ثقني بالله لا تتزعزع.
- غير أنّ الحزن قطع قلبها فساء نومها، وكانت تنام إذا نامت وقلبي مسهد، وتحلم بالعذاب. وجاءها خطاب من أخيها يعني إليها بكرته الذي استشهد في الحرب بعد أن ظنّ أنه مفقود، فسرعان ما سافرت إلى بني سويف للعزاء. على أنه أفرج عن محمد بعد فترة غير قصيرة فرجع ذات يوم وألقى بنفسه في حضن أمه. وتظاهر - رغم شحوبه وذبوله - بالسرور مخفياً عن أمه الأخبار المحزنة. ورجع إلى عمله بمكتب الأستاذ عبد القادر قدرى مصمماً على الاجتهاد، ولما سأله الأستاذ:
- هل شبت من الإخوانية.  
أجابه ضاحكاً:  
- العكس هو ما حصل!  
فقال الأستاذ عبد القادر:  
- افهم معنى الوفد قبل فوات الأوان، إنّه ليس حزباً ولكنّه قاعدة الأساس المتناسك، هو بكلّ إيجاز مصر.  
فتساءل محمد:  
- هل ندور على مدى العمر حول الاستقلال والدستور؟!  
- جدّد ما تشاء ولكن فوق القاعدة المتناسكة وإلا وجدت نفسك في عهد ما قبل الأثر!  
ولما انفرد محمد بأخته منيرة قالت له برثاء:  
- شدّ ما هزلت!  
فقال متجهماً:  
- لن تنزع من روحي آلام الضرب الذي أنهر على جسدي كالطر!
- وأدركت سنية ذلك بحدسها، وتأويل أحلامها، ولكنها صمّمت على الصبر مع الحياة الجديدة. لفظت حامد برهان من ضميرها كما يبصق الإنسان حلوى فضح الريق فسادها ولكنها بقي جرحاً مفتوحاً يعني الحبّ والوفاء. وقالت إنها ستسنى تماماً وتسلو، بل وتسعد، لو أمكنتها ذات يوم أن تعيد إلى البيت شبابه الغضّ. لديها نصف معاش «الخائن» ومرتب منيرة ومحمد ولكنّ الغلاء يمضي في سبيله في بطء وثبات، ثم إنّ لمحمد ومنيرة آمالها الخاصة! لم يبق لها إلا الحلم. هو الذي يرّم ويطلّي ويبيع الأثاث القديم ويشترى أثاثاً جديداً، هو الذي يشدّب الأعشاب، ويغذّي الجذور، ويسمّد الأرض، ويفرس أشجار الورد. إنها تحلم وتناجي أرواح الأولياء والجدود. وتقاوم في مجرى ذلك ذاكرتها التي تخون الإرادة فتقذف بشهاب خاطف للذكرى جميلة ما كان ينبغي أن تبرق في الأفق وتقول لنفسها:
- لا تطمئني لشيء طيب.  
وتغدق على منيرة تساؤلاتها القلقة فتعلم أن بهجت سليمان توظف بشهادة زراعية متوسّطة في وزارة

الباقى من الزمن ساعة ٥٣٩

المعاهدة على ضوء حماسه الجديد لإلغائها فقال:  
- من تكون عروسنا في ١٩٣٦ فكيف تصير في  
١٩٥١؟!  
فقال خليل المدرس:

- إنه زمن سريع وقُلب!  
فقال حامد برهان:  
- لا يقدر على إلغائها إلا من قدر على عقدها، هو  
الوفد دائماً وأبداً...

وتتابع الغداء والعنف حتى اشتملت النيران في  
جنبات القاهرة. قال حامد برهان لمرفت:  
- الويل للخونة!  
فقالت وهي بعيدة عن مشاركته:  
- حلوان بئامن من ذلك.

ووقفت سنيّة فوق السطح تنظر صوب القاهرة من  
خلال منظر مكثّر ربحه محمّد في صباه في نصيب سينما  
أوليمبيا وهي تردّد بقلق بالغ:  
- ارفع يا ربّ غضبك ومقتك عَنّا...

ولما اربّد وجه القاهرة بالغضب وأنذر بأورخم  
العواقب مضى محمّد إلى وزارة الخارجية فاصطحب  
ألفت إلى محطة باب اللوق قائلاً:  
- أخاف أن تنقطع المواصلات...

رجعاً قبل أن يقدر مدى الخطر الحقيقيّ الزاحف  
لالتهام صفحة كاملة من تاريخ دام. وهوى ردّ فعل  
عنيف كالصاعقة. وقال حامد برهان لسّاره:  
- المجرمون يقهقهون!

غير أنّ القهقهة انقطعت حال ارتفاع صوت جديد  
في الصباح الباكر من ٢٣ يوليو ١٩٥٢. تبادلت الأسرة  
النظرات حول مائدة الإفطار وتكلّم محمّد قائلاً:  
- فلنستبشر خيراً فأنيّ شيء خير مما كان.

وتساءلت منيرة:  
- والإنجليز؟!  
فقالت سنيّة:  
- أمل مجهول خير من يأس راهن!

وتابع حامد برهان سيل الأخبار المتدفّق بذهول.  
كان - كوفديّ - يشارك في الأحداث إيجابياً أو سلباً  
عندما كانت الحلبة خالية للوفد وأعدائه، أمّا هذه المرّة

الزراعة وأتّنها ما زالوا مقيمين على العهد فتغنم  
لذاتها:  
- الأمر لله!

أمّا محمّد فهو أخذ في استرداد صحّته وشقّ طريقه.  
لم تعد توجد شعب إخوانيّة ولكنّ الدين أصبح على  
رأس مطالعته، واكتسب عنه رؤية جديدة مختلفة عن  
دين أسرته المتّسم بالسّاحة والبساطة. وقد استأذن أمّه  
في زيارة أبيه عقب الإفراج عنه فأمضى ساعة طويلة  
معه شهدتها مرفت هانم وأنسة ألفت. رأى ألفت  
لأوّل مرّة يتمعّن وعن قرب فتحرك قلبه السريء،  
واصطحبها معه في عباءة خياله عند انصرافه. ورآها  
في القطار، بل وجالسها فيه أحياناً وتبادلا الحديث.  
وتسلّطت بعد ذلك على ذاكرته وخياله. فلزمته في  
البيت والمكتب والمحكمة على حين وهبته - في واقع  
الحياة - استجابة طيّبة. وخفق قلبه بسعادة الحبّ حتى  
تساءل بقلق:  
- ولكنّ ماما؟!

وإذا بالحياة العائمة تباعته بفرحة غير متوقّعة فتستقبل  
الوزارة ويبيّر الأفق بانتخابات حرة. صرخ محمّد:  
- اللّهمّ لا شبهة!

أمّا حامد برهان فرقص طرباً. والتقى مع محمّد في  
دائرة انتخابيّة واحدة فهمس في أذن ابنه:  
- الشكر لله على أنّك ما زلت في الأعماق وفدياً.  
فقال له محمّد باسماً:  
- الإخوان معكم في هذه الانتخابات.

ورجع الوفد إلى الحكم فصعد حامد برهان إلى  
العرش من جديد وهو يقول:  
- الخلود ممكّن في هذه الحياة.

وأقبلت أيام وردية فآمن الناس بأنّ أيام المحن قد  
ولّت. وراحت منيرة تفكّر في مستقبلها من موقع حبّها  
العنيد، كما ربط الحبّ بين محمّد وألفت فتعاهدا على  
الزواج والانتظار مع تأجيل إعلان الخطوبة لفرصة  
طيّبة. ثمّ تعرّرت مفاوضات تعديل المعاهدة وتفتّش  
القلق حتىّ جلجل صوت مصطفى النحاس بإلغاء  
المعاهدة. وبلغ الحماس مداه في مجلس السّار بشقّة  
مرفت هانم. وتذكّر حامد برهان حماسه يوم عُقدت

مشاركة في الحكم، واعتبرت منيرة أن لها عضوين، أخاها وحبیبها، وانشرح صدر سنّية ونخّل إليها أن حلم تجديد البيت سيحقق في وقت قريب وأن متاعب المعيشة ستخفّ يوماً بعد يوم، حتّى أحزانها الخاصّة ستدوب في النشوة الشاملة. وتطوّر محمّد في أحاديثه من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلّم، فبات يقول سنفعل كذا وكذا، وتمنّت ألفت أن يلمع كالأخريين وأن يذلّ ذلك العقبات المعترضة لزوجها. ودون أن تدري مضت تهمّ بالسياسة وبالدين متّخذة من محمّد مرجعاً ومرشداً حتّى قال محمّد لنفسه:

- إنّها مختلفة تماماً عن أمّها النافهة.

وذات يوم سأل منيرة:

- كيف تتصوّرين موقف ماما منّي اذا كاشفتها بعلاقتي بألفت؟

ففاجأته منيرة قائلة:

- أخبرتها رحمة بها!

فهتف:

- لكنني لم أشعر بأيّ تغيير من ناحيتها!

- ألا تعرف ماما؟!

وكانت سنّية قد رأت ألفت مراراً من نافذة حجرة نومها الخضراء. وكالعادة تنبّأت بما سيحدث فوطّنت النّفس على التسليم به. وقالت إنّ حظّها على أيّ حال أحسن من حظّ ملكة مصر الضائعة، وإنّه من الحماقة أن تتحدّى أحدائنا تحمل فوق جبينها طابع القدر. ولكن كيف يستعيد البيت شبابه؟ سيمسي ذلك حلماً لا يتحقّق إلّا بحلم ولا يبقى لها إلّا أن تعبد الله. وذات مساء راح حامد برهان يشرح خبايا الموقف السياسيّ لسنّاه قائلاً:

- ما الحركة إلّا مؤامرة أمريكية للقضاء على الوفد!

وأراد أن يخلّل رؤيته ولكنّ حماسه فتر فجأة.

وصمت. وشحب لونه وتفصّد جبينه عرقاً رغم برودة الجوّ. وطرح جسمه البدين على ظهر الفوتيل الكعويّ

فسأله حسن علماً المهندس بقلق:

- ما لك؟

حاول أن يبتسم فعجز، خائنه قواه، لاح له وجهه بوذاً، ثمّ أسبل جفنيه. وحملوه إلى فراشه، استدعت

فالقوة الفعّالة غريبة وطارئة ومبهمة. ورأى العدو التقليديّ - الملك - يرحل إلى الأبد فلم يدر أيعتبر ذلك نصراً أم هزيمة، وهيمن عليه فتور فتوجّس خيفة غامضة. ولما رأى مرفت دامعة العين لذهاب الملك تتم بميكانيكية:

- هذا جزء العيب!

فتساءلت مرفت:

- ألا ترى أنّ السلطة آلت إلى رجل وضع نفسه

فوق القانون؟!

فقال وهو لا يصدّق حرفاً ممّا يقول:

- إنهم يعدون بتقديس الدستور.

ومثل مرفت بكت كوثر وهي تستمع إلى نيا طرد الملك، واستشهد الوجهه نعمان الرشيد بالقرآن لأول مرة في حياته فقال:

- إذا زلزلت الأرض زلزالها... وقال الإنسان ما لها.

وتحمّست منيرة للحركة بلا تحفّظ وبتلقائية، وأيضاً متأثرة بحماس حبیبها سليمان بهجت الذي وضع أنّ أخاه ضمن الضباط الأحرار. ولحق بها محمّد عندما آمن بأنّ الحركة «إخوانية» بل قد دعي إلى بعث النشاط من جديد في شعبة حلوان. ودعا حامد برهان ابنه محمّد إلى مقابلة عاجلة وكان على علم بما بينه وبين ألفت وقال له:

- ابعذ عن الإخوان، حسبك ما أصابك نتيجة

لانضمامك البريء إليهم...

فقال محمّد بدهشة:

- كيف أهجرهم بعد أن توجّ كفاحهم بالفوز

الميين؟

فقال الأب كاظم غيظه:

- ما هي إلّا حركة بلا جذور شعبية فلا تعرّض

نفسك لغضب الشعب كما تعرّضت سابقاً لغضب الحكومة...

فابتسم محمّد ثقة وقال:

- الماضي مات قبل أن تمتدّ يد لقتله...

واعتبرت الأسرة أنّ لها في الحركة الجديدة عضواً، وأنها تتحوّل به من أسرة مغمورة إلى أسرة حاكمة أو

## الباقى من الزمن ساعة ٤١ •

مرفت طيب الضاحية فشخص الحال بأنه هبوط في القلب وأمره بالراحة التامة. انزعج الأهل والسَّار، وذهبوا في تفسير الحال مذاهب شتى، قالوا إنها الانفعال السياسي المستمر، وقالوا إنه الزواج دون غيره، حتى قال جعفر إبراهيم:

- إنها مشيئة الله.

ولما عُرف الخبر خارج شقة مرفت عاده محمد ومنيرة وكوثر ونعمان الرشيدى، وعادته أيضا سنية المهدي خاصة وأنه لم ينتزع من نفسها تمامًا رغم كل شيء. أجل ضاق صدرها لدى اقتحامها لحصن ضربتها ولكنها صافحت لأول مرة مرفت وألفت، وانحنت فوقه متممة:

- شدَّ حيلك!

ابتسم معلنا امتنانه، وتأزم الجوّ بتوتر خفي، وتضاربت شعارات المجاملة مع الانفعالات العدوانية الباطنة. وعلمت مرفت بأنه لن يخلو يوم من أيامها من التنغيص لرؤية الوجه التي لا تطيقها. وطال الرقاد، وعُرف أنه سيطول أكثر، بل عُرف أن حامد برهان لن يرجع إلى سابق عهده أبدًا. وأصبح تمرضه عبثًا على امرأة صاحبة مزاج كمرقت. ولم يُفقد المرض حامد برهان حساسيته فسرعان ما شعر بأنه غريب في مرقده، وضاق بموقعه. ووجد في قهر المرض ما شجعه يومًا على أن يمس لمحمد ابنه:

- أريد أن أرقد عندكم...

وفي الحال قال محمد على مسمع من مرفت مخاطبًا أباه:

- لو رقدت عندنا لأعفيتنا من زيارات لا نهاية لها! وأدركت مرفت مغزى قوله فقالت مدارية ارتياحها:

- إني في خدمته مها طال الزمن!

فقال محمد بشجاعة رجل شارع في الزواج من ابنتها:

- هذا لا شك فيه... ولكن يوجد عندنا كثيرون وأنت وحيدة...

فقالت بلباقة وهي في الواقع تحتّم علاقتها بالرجل:

- إني راضية بما يريه!

ولم يوجه كلمة إلى سنية قانعًا بأن رجوعه يعني عن أي قول. والحق أنه عندما جفت ينابيع شهوته لم يجد في قلبه سوى حبها القديم كالكنز المدفون عندما تزاح عنه طبقة الأرض. وأن روحه - إذا حان الأجل - يجب أن تصعد من هذا المكان العتيق المبارك المعبق بأطيب الذكريات. وجعلت كوثر تنظر إليه طويلًا ثم خانها صبرها فدمعت عينها وقالت:

- تغيرت كثيرًا يا بابا!

فوجم الحاضرون ولكن حامد برهان ابتسم وقال بلسان مضى يثقل:

- وأنت يا بنت ألم تصيري أمًا؟!

ولكنه سرّ الجميع يطمأنئته وأنه بالمكان وأصحابه. وجاء يوم في مطلع الربيع شديد الحرارة فقال:

- لم أستحم منذ عهد طويل!

فقالت منيرة بإسفاق:

- نرجع إلى الطبيب.

فقال بمرح:

- الإنسان طيب نفسه!

وذهب إلى الحمام معتمدًا على سنية ومحمد، وجرى الماء على جسده فاجتاحته فرحة شخص اعتاد طيلة حياته النظافة والأناقة، وعاد إلى فراشه سعيدًا وهو يقول:

- الإنسان بلا صحّة أقلّ من حشرة.

ولما جاء الليل لم ينم. تدهور بسرعة مذهلة حتى صار شحوبًا مركّبًا على هزال. وأرق الليل كله يتأوه وجسده يكاد يتقصف. وجيء بالطبيب فاحتجّ عل الحمام بلا تحفظ ولكنّه حرّر رويته على أي حال،

حتى قاربت الثلاثين وهي ملهوفة على الزواج، ومحمد يشعر بأن عهد خطوبته طال أكثر مما ينبغي، حتى سنية تتوق بكل قواها لتجديد البيت والمدفن. تربصوا جميعاً بأيام الحداد، ولما خفت الغيوم وواصل الراديو أغانيه تشجعت سنية فقالت في حياء مخاطبة كوثر:

- حبيبتي ألا ترين معي أنّ البيت في حاجة إلى تجديد؟!

سرعان ما شعر محمد بالخطر يهدد مشاريعه فتبادل مع منيرة نظرة سريعة جمعتها في وجدان مشترك فقال:

- البيت لا يعيبه شيء وهو يستطيع أن ينتظر.

فقال سنية محتجة:

- إنه مأوانا على مدى العمر...

فقال بلهجة اكتسبها في المحكمة:

- نحن في حاجة إلى المعونة لا البيت...

وأشار إلى منيرة وإلى ذاته ثم واصل ليخفف وقع كلامه:

- ولو على سبيل القرض!

فسرعان ما انهزمت سنية أمام رغبة محمد ومنيرة مؤجلة أحلامها إلى مستقبل مجهول، على حين تمت منيرة ضاحكة:

- ولو على سبيل الاقتراض.

ولكن كوثر على طبيعتها كانت متمرسه بواجبات ست البيت مذ عملت مساعدة لأمها، وتعلمت منها مسك الدفاتر والحرص الحكيم وكراهة الإسراف، فكانت طيبة وحكيمة. وقد شاركت في ميزانية البيت منذ أول يوم لها فيه مما يسر العسر وأضفى على البيت سلاماً. ولم تغب عنها أزمة محمد ومنيرة، فالت إلى إسداء المعونة ووعدت بها. وحدث أن جاءتها خاطبة عقب وفاة زوجها بثلاثة شهور بعريس محترم بمائلها في السنّ فانقبض صدر محمد ومنيرة، وقال محمد بمنيرة الناصح:

- علينا أن نتأكد من إخلاصه.

ولكن من حسن حظها أنّ كوثر أعلنت زهداها في الزواج مرة أخرى، واهبة نفسها لرشاد الذي يملأ دنياها، ومتشجعة بطبع هادئ يوشك أن يكون بروداً. وعلى أي حال فبفضلها أمكن أن تتزوج منيرة

وعند منتصف الليل، وأهله محدقون به، أسلم الروح دون جهد كأنما غلبه نعاس مفاجئ... ودلّ الحزن الشديد عليه على تعلق الجميع به. سنية فاق حزنها كل تقدير. ولما لم يكن يملك مدفنًا فقد دُفن في مدفن آل المهدي بالإمام. وأنكرت سنية حال المدفن التي آل إليها، ورأت أنه أصبح في حاجة إلى تجديد كالبيت القديم، فانضاف ذلك إلى الهموم التي استأثرت بها في الزمن الأخير. ولعلّ كوثر كانت أحزن الإخوة عليه لطبعها الذي يستجيب للحزن بقوة غير عادية، ولأنها أحببت الرجل لدرجة العبادة حتى إنّها غفرت له زواجه من مرفت قبل محمد ومنيرة بزمن غير قصير. وعند مطلع الصيف رجع الموت لزيارة الأسرة فأخذ نعمان الرشيد زوج كوثر متسماً بالباولينيا عقب تدهور الكلى. ولعلّ الموت أراحه من رعبه الذي لم يكف عن مطاردته مذ جاءت الثورة. أجل لم تكد تمسه قوانين الإصلاح الزراعيّ إذ إنّ مصادر ثروته ترجع إلى العمارات والأموال السائلة ولكنّه اعتقد بأنّ دوره حتم مؤجل وأنه آت لا ريب فيه. ويكته كوثر بحرارة وصدق ولكن سرعان ما أفاقت على تحرش أبنائه، فحفت محمد إلى جانبها بأخوته وخبرته كمحام ولكنّها قالت له من أول يوم:

- أبعدي عن التحدّيات فلا شيء في الدنيا يساوي الشقاء.

فقال بتصميم:

- حقك تأخذينه لآخر مليم.

فقالت بضراعة:

- حقّي مكفول بالقانون ولكنهم ينظرون بطمع إلى الفيلا، وهي كبيرة ولا أطمئن فيها وحدي وأريد أن أعود إلى ماما في حلوان...

ورجعت كوثر إلى حلوان حاضنة رشاد، وانهمك محمد في فرز إرثها هي وابنها من الأرض والعمارات والأموال السائلة ثم انقطعت الصلة بالرشيد في الأبد. ورخبت الأسرة في باطنها الخفي بثروة كوثر. واتبعثت في صدورهم آمال لما هو معروف عنها من طيبة واستكانة فاعتبروها هدية مرسله من السماء حاملة الفرج لأزماتهم المستعصية. منيرة توغلت في العمر

### الباقى من الزمن ساعة ٥٤٣

من بهجت سليمان، وأن يتزوج محمد من ألفت. تزوجت منيرة بعد أن صار حبها حكاية واختارت عشها شقة جديدة بالعباسية على مقربة من مدرستها، أما محمد فزف في شقة بمسار نصف جديدة باب اللوق ليكون على مقربة من المكتب من ناحية وليارس نشاطه السياسي في مجاله المركزي. وخلا البيت القديم لسنية وكوثر ورشاد وأم سيد. وورث كوثر لظنرة أمها المتطلعة وأشواقها الدفينة فأمرت بطلاء الحجرات بالزيت وتنظيف الحديدية وشراء بعض أصص القرنفل، ورغم أن ذلك لم يحقق من الحلم عشرة إلا أن سنية سعدت به ولم تياس من هطول الرحمة ذات يوم، خاصة عندما يكبر رشاد الوسيم ويدعو الأصدقاء للزيارة كما كان يفعل جده حامد برهان. وفي سكرة الفوز الطارئة أشارت بحياء شديد إلى المدفن ولكن كوثر قالت:

- عند الله الحساب يا ابني . . .

وتقع محمد بوجه جديد خبز الموت والعذاب، ولكنّه تجلّد أمام الأعين، وقال:  
- إني أحسن حظًا ممن أهلكتهم المشائق أو غيبتهم السجنون إلى الأبد.

وحاول أن يتسّم ثم قال بإصرار حقيقي:

- بقي لي إيمان لا يتزعزع.

وكان إصراره أقوى من صوته. الآن عرف الحياة والناس كما عرف الوحشية والعذاب. واستمدّ من أهله قوة أشعل بها شمعة في عالم يموج بالظلام. وحانت منه التفاتة إلى ألفت فقبض على يدها ورفعها كأنما يقدمها إلى الجمهور في حفل عام وقال:

- إليكم أفضل زوجة على وجه الأرض!

أجل، لقد صمدت في المحنة. قامت بواجبها كمتربة وربة بيت وحضنت شفيق وسهام بالرعاية متحدية النيد والتحقيق والرزق المحدود. أثبتت أنها أقوى مما توقّع محمد أو تصوّرت مرفت، وأقامت على حبّ الزوج الغائب بتفانٍ، وتحمّست أكثر لمبدئه، وكما رجع شبحًا محطًا غمرته بالحبّ والحنان راشقة في سياته السوداء نجمة ماسية. وكانت كوثر تزورها كثيرًا طيلة العامين، وعرضت عليها معونة ولكن ألفت اعتذرت شاكرة وإن قبلت الهدايا لشفيق وسهام. في تلك الأيام

- ماما . . . إني أتشاءم من هذه السيرة!

فلم تلخّ، وأسفت، وقالت لنفسها «ما هو إلا البيت الباقي». غير أن قلبها فاض بالشكر. فلو أنها لقيت الحياة وحيدة بعد زواج منيرة ومحمد لاضطرت إلى استجداء أبنائها، ولتجهمتها الحياة كما تنجهمها الأحلام فالحمد لله على أيّ حال. وسعدت سنية أيضًا لتوفيق منيرة ومحمد في زواجهما كما استشعر ذلك قلبها في زيارتها لباب اللوق والعباسية. قالت يومًا لكوثر:

- بهجت أثبت إخلاصه بصره الطويل ولكنّي غير

مطمئنة لربيبة مرفت . . .

فقال كوثر بهدوء:

- محمد يعرف كيف يتصرف . . .

وبرزت منيرة في عملها التربوي أكثر بعد أن شملتها سكينه الحبّ، ودعا الأستاذ عبد القادر قذري محمد إلى مشاركته في مكتبه بعدما اعتقل أكثر من مرة لوفديته. قال يومًا لمحمد:

- الوفدية أصبحت تهمة فانظر وتأمل!

وكاد محمد أن يجزع وهو ينتظر أن تسفر الثورة عن وجهها فتعلن حكم الإسلام ليحتلّ هو مكاسنته المشروعة. ولم يكن طموحه شخصيًا فقط فقد ملكته التجربة الدنيّة التي انساق إليها قديمًا هاويًا وبمحض



الحزينة قالت كوثر لأمها:

- ألفت هدية نادرة المثل.

فأحببتها سنية - ربما لأول مرة - وقالت:

- الشكر لله على أنها لم تُعجن بطينة أمها.

ولم يكن تعريضها لمرفت من أجل مأساة الماضي وحدها ولكن لرعونتها - عقب وفاة حامد برهان - التي صارت حديث حلوان. برزت كامرأة متصايبية في الخامسة والخمسين، متبرجة، تنطلق بمفردها إلى الحديقة اليابانية أو السينما كأنما تعرض نفسها على الرائح والجاثي. وجرى الهمس عن علاقة جديدة تتخلق بينها وبين حسن علما مهندس المباني - أحد سيار مجلس المرحوم حامد برهان - ولما شاع ما يقال وملا الأسماع تحوّلت العلاقة إلى خطوبة، وطلّق المهندس امرأته، ولكنّ الزواج تأجل إكراماً لزوج ألفت السجين، وإن مورس بالفعل بصفة غير رسمية، وكانت كوثر تعلم بما يعلمه الناس جميعاً ولكنها قالت:

- ألفت معدن آخر والحمد لله!

وأخفي الخبر عن محمد فأمضى فترة نقاهة قصيرة ثمّ رجع إلى مكتبه بعين واحدة وأخرى زجاجية وقلب متوتّب للعمل. وغشي المحاكم وهو يعرج متأبطاً حقيته بذراع متوكّئاً بالأخرى على عصا غليظة. وانهمك في عمله انهماك مؤمن معذب يحلم بطوفان نوح من جديد. ومضت سنية في معاشره آلامها التي لا شفاء منها، وأحلامها المعاندة المستعصية، مستوصية بالهدوء والصبر والرئو من حين إلى حين إلى الصورة التذكارية. ولكي تعفيها كوثر من بعض متاعبها استخدمت امرأة جديدة «أم جابر» كطاهية بعد أن اقتربت أم سيّد - مثل أمها - من الستين، ولكي تستثمر جلّ وقتها في رعاية رشاد الذي ألحقته بروضة الأطفال سابقاً ابنيّ خاله شفيق وسهام وابتنيّ خالته أمين وعليّ. هكذا بدأ جيل الأحفاد، أبناء العشق والألام، والوطن تتجاذبه عوامل الصراع الخفية من ناحية وأحداث البطولات من ناحية أخرى. وعرفت منيرة زوجها أكثر وأكثر، زوجاً عاشقاً وفحلاً عملاقاً، وساذجاً فيما يتعلّق بالثقافة أو الحياة العامة، ولم ينجدها اهتمامه المبالغ بالسياسة عقب اكتشافه أخاه ضمن الضباط الأحرار،

وابتسمت في باطنها لأحاديثه عن الثورة ورجالها، ولحملته على الماضي ومخازيه. ومرة قال لمنيرة مفاخرًا:

- نحن نُعتبر من الأسرة المالكة الجديدة.

فضحكت قائلة:

- على مهلك يا أمير!

رغم حماسها للثورة منذ ساعتها الأولى، والتي لم تتغيّر تعبيرًا يُذكر بمأساة أخيها التي هزّتها من الأعماق. على أنّ قلّقا ساورها مذ طعنت فيها بعد الثلاثين. إنّها تمضي وحدها مخلفة وراءها زوجها يزداد تألقًا وفحولة، وجعلت تطارد كلمات أمها القديمة كلما نبضت في خواطرها. واحتلّ سليمان بهجت مركزًا ممتازًا بقسم الخبرة بالزراعة بدفعة قوية من أخيه، وبدلاً من أن يزيد من إسهامه في ميزانية البيت ابتاع سيارة بالتقسيط رغم التحاق أمين وعليّ بالروضة وارتفاع الأسعار ببطء مآكر. وذات مساء انفجرت قنبلة تأميم قناة السويس مبشرة بميلاد زعيم جديد. ليلتها قال بهجت لمنيرة:

- سمعت من مخضرم أنّ استقبال جمال في عودته إلى

القاهرة فاق استقبال سعد زغلول حين رجوعه من المنفى...

فوافقته منيرة رغم أنّها لا تكاد تعرف عن سعد شيئاً يذكر. ولم يستطع محمد أن يتذوق المغامرة بضمه المليء بالمرارة. وأتفقت ألفت معه قائلة:

- معاملة إنسانية شريفة خير من بناء هرم.

فقال محمد:

- النبيّ عليه الصلاة والسلام أنشأ دولة إنسانية ولم يشيّد هرمًا.

واستمع البيت القديم في حلوان إلى النبا العظيم. لم تفهم أم سيّد ولا أم جابر شيئاً، وتوقّفت كوثر عن تعليم رشاد دقيقة ثمّ واصلت عملها بحماس، أما سنية التي لم تشغلها آلامها وأحلامها عن قراءة الجريدة والاستماع إلى الراديو فقد خفق قلبها، واقتنعت - رغم مأساة محمد - بأنّ زعيمًا جديدًا يتخذ موضعه في لوحة الزعماء الذين أحبّتهم كما أحبّهم زوجها الراحل. وسكر البلد بالنصر والعظمة، وانطلقت من صوت العرب زعامة عريّة جديدة، وتضاربت الأنباء، واستفحلت الشائعات، حتّى تجسّدت الحقيقة في صورة

الباقى من الزمن ساعة ٥٤٥

البرامج - ولكن التلاميذ الجدد لم يشعروا بها، فعانها أولياء الأمور وحدهم. أما كوثر فحلّت المشكلة بما لها فكلفت الأستاذ جعفر إبراهيم - ناظر مدرسة على المعاش ومن سيار المرحوم حامد برهان - بإعطاء رشاد دروسًا خصوصية في العربية والجغرافيا والتاريخ، كما كلفت الأستاذ راضي أبو العزم - من السيارات أيضًا - بإعطائه دروسًا في العلوم والرياضة. وانتزع عمّد وألفت من وقتها المشحون بالعمل ساعات لمساعدة شفيق وسهام، على حين نهضت منيرة بعبء التدريس لأمين وعليّ وحدها. وامتعضت مدام مرفت من الحال من ناحية أخرى فقالت لألفت:

- كيف ترضين لشفيق وسهام بالجلوس جنبًا إلى جنب مع أبناء البوابين والخدم؟!  
فقالت ألفت:

- مدارس اللغات والمدارس الخاصة باهظة التكاليف.

واستاء عمّد لأسباب أخرى وهو يراجع كتب التاريخ والتربية الوطنية فضرب كفاً بكفّ وقال لألفت:

- إنهم يحشون عقول الأولاد بالأكاذيب...  
وتضاعف استيائه وهو يشاهد حماس شفيق وسهام وتغنّيها بالزعيم على مسمع منه، وهو لا يملك إزاءها أية مراجعة، حرصًا على سلامتها، وسلامته أيضًا أن يردّدا أقواله في المدرسة فيحدث ما لا تُحمد عقباه. من أجل ذلك أخفى عنهما سرّ عوره وعرجه، وراح يغمغم:

- نحن في زمن القهر والصمت!  
ونشأ رشاد وسيّما، ذا طول ورشاقة، أنيقًا، مغرّمًا بأمه وجدته، مغرّمًا بالسباحة، مع اعتدال في تحصيل العلم حتى ساواه أبناء خاله وخالته. وأحبته جدته أكثر من شفيق وسهام وأمين وعليّ، لقربه من القلب والعين، ولأفضال أمه المحبوبة، ولأنها عقدت به تحقيق آمالها في تجديد البيت والمدفن. أجل بدا لعينيّ جدته - مثل شفيق وسهام وأمين وعليّ - كأنه مخلوق بلا جذور، وكأنه لا يتنفس في جوّ بيتها القديم. من ذلك أنه سمع مرّة اسم سعد زغلول يتردّد في حديث فسأل

عدوان ثلاثي، ومرحت طائرات العدو في سماء القاهرة ليلاً ونهارًا، تمطر قنابلها على المطارات والمواقع العسكرية. ومع أنّ الدبابات لاذت بأفنية العائر إلا أنّ انتصارات وطنية ملأت الجوّ كالعاصفة وتغرّق الناس بين الحسّاس والترقب. وتابع عمّد وألفت الإذاعات الأجنبية حتى قال الرجل:

- انتهت حركة المجرمين، ولكن ما أفدح الثمن!  
وقالت سنية لكوثر:

- أذني سعيدة وقلبي كئيب!  
فقالت كوثر مدفوعة بالخوف الذي ركبها:

- البلد خرب يا ماما.  
فأشارت سنية إلى فوق متممة:

- لكنّه موجود.  
وآنست منيرة من سليمان بهجت ذعرًا كأنه فار مطازد. ودعا ربّه قائلاً بحرارة:

- اللهم لا تشمت بنا الأعداء...

وكانا يستمعان إلى صوت أمريكا بوجوم ويغوصان في هوة خطوة فخطوة. ولكن هبت رياح شرقية وغربية فتناغمتا معًا لأول مرّة. احتجّت أمريكا بجديّة وصرامة، وتتابعت الإنذارات الروسية كالصواريخ حتى أجبّر الغزاة على تصفية نصرهم بأنفسهم في إذلال لا نظير له في التاريخ. وتجلّى نصر عجيب كما تتجلّى فتاة الساحر من الصندوق - بعد غرّز سيوفه فيه من جميع النواحي أمام المشاهدين - وهي تبسم في مرح وأمان وثقة! وسرعان ما آمن الحيّ والجهاد بأنّ الزعيم حقّق ظفرًا كالمعجزة وبأنّه عملاق بين أقزام. وصادر أموال الإنجليز والفرنسيين، ضاربًا للمضطهدين مثلًا أعلى، واهبًا للعرب زعامة جبّارة، وانتفخ بالتالي كلّ مواطن نافضًا عن كاهله ذلّ العصور، وأوى الخصوم إلى الجحور ولا مطمع لهم أكثر من النسيان. ودخل الأحفاد المرحلة الابتدائية وهم يتغنّون بالزعامة والنصر. سبحوا في بحيرة ناصرية صافية متطلّعين إلى صورته الشاخحة بانهار وحبّ. ذلك البطل الذي بدأ به تاريخ مصر في أعقاب جاهلية ترامي ظلامها آلاف السنين. أجل حفلت المدارس الجديدة بمنغصات - كالكثرّة العددية وندرة المدرّسين المؤهلين وقصور

أمه ببراءة:

- سعد زغلول حيّ يا ماما؟

وانزعت سنيّة رغم أنّها برّرت جهله بشقّي الأعدار. ومن ذلك أيضًا بروده إزاء أغاني أم كلثوم وعبد الوهّاب ولعه بعبد الحليم حافظ والأغاني الإفريقيّة، وتساءلت كيف دهمه هذا التمرد على تقاليد أسرته وذوقها؟! . وأخيرًا قالت بتسليم:

- إنهم مزعجون ولكن لكلّ جيل شأنه!

ومن شدّة حبّها لرشاد قالت أيضًا:

- التّوّع له جماله أيضًا. . .

أما شفيق فكان أشبه الأحفاد بحامد برهان، فاق والده محمّد في ذلك، وكان ذا صوت مقبول يحاكي به الأغاني الخفيفة، وبشّر اجتهاده بحياة مدرسيّة ناجحة، وكان يغالي في عواطفه حتّى يضيّق به أبوه أحيانًا، ويحول بينه وبين محاولة التسلّط على أخته سهام. وكانت سهام صورة من عمّتها منيرة في جمالها البراق وذكايتها اللامع فسّر محمّد بذلك سرورًا لا مزيد عليه. وأما ابنا منيرة فقد عُرف أمين بالاجتهاد كما عُرف عليّ بالعناد، واتّفقا معًا في طول غير عاديّ حتّى قال سليمان بهجت:

- هكذا كان والدي. . .

واعتاد محمّد ومنيرة - وأفراد أسرتهما - أن يتناولوا الغداء كلّ جمعة في البيت القديم مع سنيّة وكوثر ورشاد. توثقت الصّلات بين الصغار، ووضح الخلاف بجلاء بينهم وبين آباؤهم. وسعدت سنيّة بالزيارة الدوريّة سعادة خففت من وطأة آلامها الدفينيّة وأحلامها الملّحة. وبإزاء تعنّت أحلامها تحوّل اهتمامها مؤقتًا إلى ذاتها. ندّد ذلك عنها دون شعور أو تخطيط ولكنّها انساقت إليه خطوة بعد خطوة، كأنّما قرّرت أن تصون نفسها من شوائب الزمن. مرّة لا تعجّبها أسنانها فتمضي إلى طبيب الأسنان للتنظيف أو الحشو أو الوقاية. ومرّة تتوعك عينها وهي تقرأ فتذهب إلى طبيب العيون فيعدّ لها نظارة طبيّة. وعلى حين أنّ كوثر تتوارى في زهد وتكبر قبل الأوان وتتعبّد في حماس فإنّ سنيّة - على تديّنها وتقواها - ضاقت بأول شعرة بيضاء تجبّو وسط شعرها الفاحم. كرهت منظر الشيب

ووجدته متنافرًا مع ما تحظى به من صحّة جيّدة. وفي الحال أحييت تقليدًا كانت أمّها تتبعه في حياتها وهو صبغ شعر رأسها بالحناء فتحلّ الحمرّة الداكنة المتفرّدة محلّ السواد التليد والبياض الوليد. وترى كوثر وهي ترمقها باسمه فتقول بوقار متغلّبة على حياتها:

- إنّا وصيّة جدّتك يا بنت!

وهي فخور بنفسها، بذكايتها وأطلاعها الدائب، وتضع نفسها في موضع أعلى من محمّد ومنيرة المتعلّمين في إدراك أبعاد الحياة المعاصرة، بالإضافة إلى موهبة الحلم والحدس التي لم ينعم الله عليها بشيء منها، ولكنّها كانت تكره الشيخوخة ومظاهرها وترنو إلى شباب دائم مازجة ذلك بحبّ صافٍ للحياة والله خالق كلّ شيء. وفي لقاءات الجمعة لمست تطلّع محمّد ومنيرة لإعداد أبحاثها للطبّ أو الهندسة فخامرها قلق من ناحية حبيبها رشاد وما يستطيع أن يحقّقه لمستقبله. وتملّت جمال سهام بنت محمّد فرأت أنّه سيكون هدفًا يدور حوله رشاد وأمين وعليّ، وأنّه سيثير متاعب عاطفيّة في أسرته الممتحنة بعواطفها دائنًا وأبدًا فسألت الله السلامة، وعزّت نفسها متنبّئة بأنّ صاحب القسمة والنصيب سيفوز بها قبل أن يقع أحد أقربائها في حبّها. وفي حماية العلاقة الأسريّة نشبت مناقشات صريحة بين محمّد وسليمان بهجت، تبدأ عادة عندما يذهب الأحفاد للعب في الحديقة أو للمشي في شوارع حلوان الهادئة المترعة بالنقاء والجفاف. يقول محمّد متأسّفًا:

- حتّى أمام الابن لا يأمن الأب أن يفضي بذات نفسه!

فيقول سليمان ومنيرة تضحك منه في سرّها:

- ملايين الفقراء لا يعرفون الخوف، إنّه عهد الفقراء!

فيقول محمّد:

- خير من ذلك أن يكون عهد الفقراء والأغنياء على السواء فالله خالق الجميع ومدبّر لكلّ عملاً صالحًا يرضاه!

ومضت الزعامة الجديدة تتوطّد وتعلو من سماء إلى سماء حتّى وُحّد سحرها المتطاير ما بين مصر وسوريا في

الباقى من الزمن ساعة ٥٤٧

وكانت تسائل نفسها هل يدركهم المد؟. قالت لنفسها إن قراراته - الزعيم - تحيىء في صالح الفقراء الذين لا يملكون فلا خوف على محمد ولا منيرة. أما كوثر فالأمر مختلف، وكذلك رشاد، فهما يملكان أرضاً وأنصبة في عمارات، وأموالاً سائلة. وقالت كوثر بقلق:

- العهد الذي فعل بأخي محمد ما فعل لا يعف عن كبيرة!

وراحت سنّية تفكّر وتفكّر أما أحلامها عن البيت والمدفن فقد تراجعت خطوات. وفي أحد لقاءات الجمعة قال محمد لكوثر:

- اسحبي نقودك من البنك واحفظيها تحت يدك قبل أن يشمها الوحش.

فقالت كوثر بتلقائية:

- قد يسرقها لصّ عادي!

فقال لها:

- ابتاعي بها ذهباً وسجاجيد!

عند ذاك نظرت كوثر نحو زوج أختها سليمان بهجت كأنما تستطلع رأي الجهات الرسمية فقال:

- خير الأمور الوسط.

ومالت لرأيه داعية الله أن يحفظ مال رشاد. وفي طريق عودتهم بسيارة سليمان بهجت الفيات قال محمد:

- لا أمان لأحد!

قالت منيرة لنفسها تحبباً لإغضابه (٩٠٪ من الشعب ثملون بالأمل). وعاد محمد يقول:

- ما هي إلا قرصنة وإلا فلماذا يعيشون عيشة الملوك؟!

فقال سليمان بهجت:

- حتّى في روسيا يعيشون كذلك!

فقال محمد:

- رحم الله ابن الخطّاب!

وتجلّت رؤيا سنّية فرأت البيت القديم يضيء بجلّة زاهية. رمت أركانه، وتجددت أبوابه وسلاليمه، ووافاه أثاث جديد، أما غرف النوم فحافظت على شرقيتها، ولكنّ العصرية شملت حجرات الاستقبال والسفرة، وتبعث الحديقة من جديد فاخضرت أرضها

وحدة باهرة. تجسّدت القومية العربية كحقيقة زاحفة مثلما تجسّدت في الخيال كحقيقة تاريخية. وعبيده الأحباب، وسلّم به الأعداء مقرّين بأنّه ليس ابناً للمصادفات أو المؤامرات الأجنبية ولكنّه ابن القدر المنذور لتغيير مجرى التاريخ. وانقلبت الرعية إلى نسور ودناصير، وتعملقت الدولة الجديدة، وألقت السهء بلسماً ليداوي جرح أمة تمرّغت في التراب قروناً تحت أقدام القهر والعدوان. وما مضى وقت يذكر في تاريخ الأمم حتّى انتبه السعداء على جعجعة نيزك داهم على الوحدة فيفتتها في لحظة مهداة للأحزان. أيّ ردّ فعل عنيف هزّ الناس المتراحمين حول الراديو في شتّى المواقع! قال كلّ إنسان ما يشتهي. وانتفضت من جديد أصوات الشهاتة والسخرية. وتلقّى الزعيم الضربة بغضب، ثمّ ردّها بعنف نحو مرمى جديد فانفجرت القرارات الاشتراكية، وحقق الفقراء نصراً تاريخياً من خلال معركة لم يقرّبوا خطوة من ميدانها. وقال الأستاذ عبد القادر قدرى لمحمد:

- لم يعد للمحامة وزن!

كان الرجل في الأربعينيات عضواً بمجلس النواب، وعيّن في الخمسينيات عضواً بمجلس الشيوخ، وكان خطيباً ذا شأن وبرلمانياً ممتازاً، وهو اليوم يبدو شاحباً هرمّاً دائم الامتعاض، معدّاً حقييته لأيّ اعتقال محتمل. وأدرك محمد أبعاد الموقف فأفضى به لألفت، ثمّ قال:

- سترداد الحياة عمراً.

واهتمت كوثر لأول مرة بما يجري حولها. لم تمسها الإقرارات في شيء ولكنها شعرت بأنّ فوهة المدفع مسدّدة نحو القلعة التي تنتمي إليها، وسألت أمها:

- ماذا يجيئ لنا الغد؟

فقالت سنّية:

- المخبأ في الغد مكتوب قبل أن تخلق السموات والأرض!

فقالت كوثر بإشفاق:

- إنّي أفكّر في رشاد، وفيك أيضاً يا ماما!

فقالت بهدوء:

- إنّه رخصن رحيم!

زوجها، ولكن فارق السنّ بينها وبين زوجها يتسع بسرعة غير معقولة ولا مقبولة. محمد نفسه ألف عوره وعرجه وتراجع رزقه، وها هو يمضي في حماية إيمان لا يتزعزع، وزوجته سعيدة. والتقت عينا منيرة بعيني أمها فقرأت صفحة طويلة وخیل إليها أنّ سرّها انكشف. هل تفضح عيناها مخاؤها الباطنة؟! الحق أنّها استشعرت تغييرًا غير حميد في قلب سليمان وسلوكه معها. قالت مرّة لنفسها وهي وحيدة:

- لم أتزوج رجلًا واحدًا ولكن جملة رجال في رجل.

واستعادت بثقتها فقالت أيضًا:

- لعلّ هذا ما يثول إليه الحب!

وتذكرت كلمات ومواقف تهادت إليها على مدى العمر من علم النفس والسرديات والمسرحيات والأفلام، على أنّها كرهت أن تفتح أمها ذلك الباب. وإذا بسليمان يقول مغيرًا مجرى الحديث:

- أخيرًا قررنا إدخال التلفزيون في بيتنا!

كانت منيرة من رأيها التريث حتى يعرف أثره على الأولاد، وتبعته في ذلك كوثر ومحمد، غير أنّ سليمان قال لها:

- لا يمكن أن نعيش خارج زماننا. . .

وكانت أيضًا في قرارة نفسها مقتنعة بقوله فسرعان ما سلّمت. وما إن ذهب الزوّار حتى قال رشاد لأمه:

- تلفزيون يا ماما. . .

ولحق بها كذلك محمد. وفاقت فرحة الأحفاد بالتلفزيون كلّ تصوّر. فقد جاءهم إلى مجلسهم بنجومهم المحبوبين، والعالم كلّ، فضلًا عن زعيمهم المقدّس الذي عاشهم ليلة بعد أخرى. وكما رأت سنيّة التلفزيون تذكرت يوم دخل الراديو لأول مرّة في بيتها. كانت أمها ما تزال على قيد الحياة فقالت:

- اقتربت القيامة يا أولاد!

وكان هدوء حلوان في تلك الأيام البعيدة شاملًا وعميقًا حتى ليستمع فيه الإنسان إلى خواطره، لا كهذه الأيام التي مضى يتكدر فيها صفوه بإقامة العائثر بل والمصانع. وكانت هي في غاية من السعادة وصفاء البال رغم أنّ الوطن لم يعرف الراحة أبدًا. ويحيى الزمن كلّ يوم بجديد، وتكثر مسراته وأحزانه،

وانتشرت فوقها أشجار البرتقال والليمون والمانجو ودوائر الأزهار والورود، أما سورها الطويل فغطّي تمامًا بالياسمين، ولمحت حامد برهان يقوم بعمل البستانيّ مسترّدًا صحته وبدانته. سعدت جدًّا، ولكنها سألت البستانيّ بعتاب:

- لمّ لم تزرع شجرة حنّاء؟!!

ولم تبح بحلها لكوثر أن تتوهم أنّها تذكرها بأحلامها في وقت غير مناسب. وسرعان ما نسيت الحلم تمامًا عندما أذاع الراديو نبأ ثورة اليمن وموقف مصر منها. وفي أوّل لقاء عقب الحدث دار النقاش حوله بعد الغداء. قال محمد ساخرًا:

- أصبحنا أوصياء على ثورات العالم!

فقال سليمان بهجت:

- ما هي إلا نزهة تحلّ بعدها اليمن مكان سوريا. فقال محمد بعناد:

- ما زالت أغلبية الشعب حفاة!

- لا تنكر أنّكم كنتم أوّل من شارك في الثورة على الإمام!

- اشتراك الفدائيين بطولة أمّا الدولة فمسألة مختلفة تمامًا.

فسأل سليمان سنيّة مداعبًا:

- ورأي أمنا الحكيم؟

ولكنّ سنيّة قالت باقتضاب:

- صدري لا ينشرح للحرب. . .

فقال محمد متهكميًا ومعلّقًا على اشتراك الجيش المصريّ في الحرب:

- كأنه قرار إسرائيلي!

وسرعان ما شغلت سنيّة بأمر آخر. جعلت تقارن بين منيرة وسليمان بقلق. لم يتجلّى الكبر في وجه منيرة بسرعة؟. . . لم يزداد زوجها فتوة وشبابًا؟. ما زال بينها وبين الأربعين بضع سنوات ولكنّ سحر جمالها ينطفئ بمعدّل غير طبيعيّ. ولعلّها ليست على ما يرام. إنّ قلبها لا يخطئ. حياتها تدعو للسرور بعكس ما يبدو. أمين وعليّ يطويان المرحلة الابتدائية بنجاح، زوجها نال في عمله أضعاف أضعاف ما يستحقّ، هي نفسها ستعيّن ناظرة دون نقل إلى الأقاليم بفضل أخي

## الباقى من الزمن ساعة ٥٤٩

فكان جواب سنّية أن نادى رشاد. أجلسته لصقها في حنان وقالت مقتحمة الموضوع مباشرة كما دعتا:  
- قالت لي العصفورة إنك معجب بينت خالك سهام؟

فتورّد وجهه ولكنّه قال بجرأة ناظرًا صوب أمّه:

- إني أعرف هذه العصفورة!

- ماذا تريد منها؟

فقال بجرأة أكثر:

- أن أتزوّج منها يومًا ما.

فابتسمت سنّية ولكنّ كوتر قالت:

- الاختيار الصحيح ما يقع في الوقت المناسب.

ولكنّه تجاهل أمّه وقال لجذّته:

- افعلي شيئًا يا سني!

وفي الجمعة التالية غابت عن المناقشة المحتدمة متحيّنة فرصة لإعلان طلبها. كانت المناقشة تدور حول «نزّهة» اليمن التي انقلبت إلى متاهة دموية متعطّشة لدماء الأبطال وأموال الفقراء. قال محمّد:

- أسمعت ما يقال عن أغنية أمّ كلثوم «أسبيك للزمن»؟

للزمن؟... يقال إنّ الأصل هو «أسبيك لليمن»!

فقال سلهان بازدرء:

- اشمئوا كيف شتمت بدماء الأبطال...

فتساءل محمّد جادًا:

- أيرضى عاقل بذلك وعلى حدوده عدوّ كإسرائيل؟

فقال سلهان وقد بات يحلم بوكالة وزارة الزراعة:

- إننا أقوى قوّة ضاربة في الشرق الأوسط.

- بفضل الملحدّين!

- نحن نأخذ منهم السلاح والعدالة ولا شأن لنا

بإلحادهم.

ونفذ صبر سنّية فقالت بصوت جهير مخاطبة محمّد:

- هدئي روعك وأعطني سهام لرشاد!

لم يفهم محمّد مضمون الطلب لأوّل وهلة وكما أدركه

تناسى انفعاله وقال بسرور خفيّ:

- الله... الله... ما زالوا أطفالًا...

فقال سنّية:

- ولكنّي جادّة تمامًا، ورساد هديّة...

- وسهام هديّة أيضًا ولكنّ إعلان خطوبة الآن أمر

ويتمزّق القلب في معاناة الحنين بين الماضي والحاضر. وأخشى ما تخشاه أن يجيء الأجل قبل أن يتحقّق الأمل. وكما انتهى إرسال التلفزيون لأوّل مرّة قالت لكوتر:

- سيزورنا العالم كلّ ليلة بكلّ ما فيه...

فابتسمت كوتر ثمّ نظرت إلى رشاد قائلة:

- لا يلهيتك شيء عن المذاكرة يا حبيبي.

ولكنّ عصر التلفزيون كان قد بدأ. وثار في صدور

الأحفاد صراع حدّ بين الواجب والتلفزيون.

كان لمحمّد مكتبة، وكذلك منيرة، وأقبل شفيق وسهام، وأمّين وعليّ، على كُتب الأطفال وغيرها إقبالًا يبشّر بالخير، وسوف يزداد ولا شكّ بدخولهم المرحلة الثانوية في العام القادم، غير أنّ التلفزيون أثبت أنّه منافس خطير فالتهم نصف وقت القراءة في أوّل

جولة، ومضى يهدّد النصف الآخر. وفي ذلك الوقت ناهزوا البلوغ فلقتهم حيرة مشرقة متحدّية، وانطلقوا في العطلة الصيفية مع الصحاب إلى الميادين والحدائق

ودور السينما، واحتدمت المناقشات، وطالب كلّ فرد منهم باستقلاله الذاتيّ، فلم يتفقوا على شيء قدر اتّفاقهم على القبول ليلاً أمام صندوق الدنيا الجديد

بمتنوعاته التي لا نهاية لها، وضيافته الكريمة التي تمتدّ من الأصيل إلى ما بعد منتصف الليل. في ذلك المعترك الجديد اعتقد رشاد أنّه رجل البيت القديم، وأخذ يعرف أشياء عن ثروته المحفوظة ويستفحل أمره إزاء

ضعف أمّه وحبّ جذّته له. وراثة كوتر اتّفاقًا ذات جمعة وهو يغتصب قبلة من سهام في ناحية من الحديقة. ورجعت سهام منسحبة من ملعب الأحفاد

إلى مجلس الجدّة والآباء شاردة اللبّ. وخافت كوتر أن تشكو سهام إلى والديها ما نذ عن رشاد ولكنّ الأزمة

مرّت بسلام. وكما خلت كوتر إلى أمّها بعد ذهاب

الزوّار أفضت إليها بالسّر فابتسمت سنّية متمتعة:

- لعب بريء!

فقال كوتر:

- سهام أنضح من سنّها وعلى منيرة أن تفتح عينها!

وتفكّرت قليلاً ثمّ سألت أمّها:

- أينبغي أن أحذّره؟

٥٥٠ الباقى من الزمن ساعة

يدعو للضحك . . .

- هل ترفض؟

- أبدأ . . . اقرأ الفاتحة . . . ليكن حجز حتى يجيء الوقت المناسب . . . وعلى أن أشاور البنت أيضًا!

وتمت الموافقة وتمّ الحجز. واستمدّ رشاد من حبه الناشئ همة أكبر في العمل ولكنّ السباحة ظلّت حائزة لاهتمامه الأوّل. وكان جلّ أصحابه من الرياضيين فكان في السياسة والدين معتدلاً، ورغم شعوره بالثراء والاصل إلا أنه كان لطيفاً سمحاً محباً للناس تيّاهاً في الوقت نفسه بقوّته الجسديّة وحسن منظره. وأمل أن يسر له «الحجز» إشباع حبه في حدود البراءة ولكنّ سهام - مع ميلها إليه - لم تشجعه، وكفّت - مرحبةً بنصيحة أمها - عن مشاركة الأحفاد في ملعب الحديقة، منضمةً إلى مجلس جدتها، تتابع أحداث السياسة بفتور، وتساء لأقلّ إشارة تسيء إلى الزعيم. ولم تكن صفحة بيضاء فقد انسربت إلى أذنيها معلومات محرمة من زميلات في المدرسة أو في البيت سرعان ما ربطت بينها وبين ما تسمع من تلميحات في التلفزيون. وكما كانت علاقتها بأمها علاقة صداقة فقد تجرأت على أن تروي لها بعض النوادر، التي لا تخلو من مغزى جنسي حتى نصحتها ألفت في التدقيق أكثر في اختيار صاحباتها. وبسبب من ذلك قالت ألفت لمنيرة ذات يوم:

- هذا التلفزيون يهينُ للبنات الصغيرة معلومات لا تُتاح عادة إلاّ للشابة ناضجة!

فأدرت منيرة ما تعنيه ولكنّها تساءلت:

- أليس هذا أفضل؟

- في الخير نعم، ولكن ليس في الشر!

فتفكرت منيرة قليلاً ثمّ قالت:

- لعله أفضل أيضًا!

فقالت ألفت باسمّة:

- إنك ناظرة ومريية ولكن محمّد له رأي آخر!

- لا خير في بناء يقوم على الجهل!

ثمّ وهي تتنهد:

- مشكلة أمين وعلى أنّها يفقدان متعة القراءة يوماً

بعد يوم . . .

فتساءلت ألفت:

- أكان الأفضل ألاّ ندخل التلفزيون في حياتنا؟

- لا جدوى من قرار يتخذ ضدّ تيار الحياة، المسألة هي كيف يمضي التطور بأكثر فائدة وأقلّ خسارة . . . ، الواقع أنّنا نسيء إليهم بالمدرسة أكثر من التلفزيون ألف مرّة . . .

- هذا حقّ، وحتى في السياسة لا وزن لوعيهم السياسي، إتهم يؤمنون بالزعيم وبأيّ كلمة ينطق بها ولا شيء قبل ذلك أو بعده . . .

فقالت منيرة بارتياح خفيّ:

- بداية لا بأس بها في مثل سنهم . . .

كانت مثل ابنها ناصريّة الحماً ودماً وكانت سعيدة بذلك. ليتها تسعد في حياتها الحميمة كما تسعد في حياتها العامّة. وإن يكن الفتور آفة حتميّة تفرص جذور الحبّ، وإن يكن أثره قد تجلّى في حبّ سليمان لها فلم لا يحدث المثل في حبه له؟! لم تصرّ على مكابدة حبّ ذلك الرجل الذي لا تتعدّ مثالبه؟. ولم يقف عذابها عند هذا الحدّ وإنما بات يطاردها إحساس وحيثي بأنّها موشكة على فقدته. وكانت سنّة المهدي مستسلمة لخواطرها الحزينة عن منيرة عندما فاجأها عمّد بزيارة عند أصيل يوم أحد فتوجّس قلبها خيفة. سبقها إلى حجرة نومها الخضراء وجلس أمامها يرنو إليها كمن يتهيأ لإلقاء ما عنده ثمّ قال:

- ماما، بلغني من مصدر فوق الشكّ أنّ سليمان بهجت متزوج من الراقصة زاهية!

اختلجت عينها وراء نظارتها وساد صمت ثقيل.

كانت مرتدية روباً بيّناً ثقيلاً، متلفعة بشال قطيفة أزرق، اتقاء لبرد قارص. وكما طال الصمت قال:

- تأكّدت من الخبر تماماً . . .

ساءلت نفسها هل تتوارث المآسي؟. وكيف يقع

هذا لدرة الأسرة؟! وتغلّصت من صمتها قائلة:

- الأخبار السيئة لا تكذب.

وساءلت نفسها ألاّ يخلو أحد في أسرتي من

عاهة؟!!

قالت:

- الأمر لله، استمرّ . . .

الباقى من الزمن ساعة ٥٥١

- علينا أن نتسامح مع أمور يتكرر وقوعها كل طلعة شمس...

فقلت له بحدّة:

- افعل ما تشاء ولكن خلّصني...

فقال متظاهراً بالانزعاج:

- معاذ الله... إنك الأصل والأمّ والأبناء...

فهتفت بحق:

- هل عملت حساباً للأولاد قبل أن تفعل فعلتك؟

فقال بمسكنة:

- لآني أمر بمحنة وأنت عقل كبير ولكني لن أفرط في

بيتي

وجدت نفسها وحيدة مع فكرتها، وفضلاً عن ذلك فلم يكن الطلاق بيدها، وأخيراً قال لها محمد:

- رجائي أن تؤجّل البتّ في الموضوع شهراً!

فمنحها حلاً تداري به هزيمتها. وسافر سليمان

بهجت إلى المغرب لحضور مؤتمر زراعيّ على مستوى

البلاد العربيّة. ولما رجع إلى العباسية وجد منيرة قد

جعلت من حجرة مكتبها مكتبة وحجرة نوم فأضافت

إلى ركن منها كنية تتحوّل إلى فراش عند اللزوم

فاطمأن إلى أنّها عدلت عن التشبّث بالطلاق وإن

قررت أن تنفّذه في الواقع. وشعر في أعماقه بارتياح

خفيّ فانطلق من أريحية مبالغته يقول:

- أنت أنت، وكما كنت مذ ربط بيننا الحبّ.

كرهت محادثته كما كرهت النظر إليه. كانت تعاني

أتعس لحظات حياتها. اندفن حبّها تحت ركام من

الحقن والغيرة والإحساس الأليم بالغدر. وغرقت في

حوار طويل مع نفسها المحمومة. إنّها تستحقّ أضعاف

ما حاق بها جزاء حبّها لرجل تافه. قد تُعذّر على حبّها

في سرّ باكرة ولكنّها نضجت فلم تتلاشّ الغشاوة عن

عينها، بل نضج الحبّ أيضاً وتفاقم خطره. واغتر

الحبّ عيوبه، فقبله رغم أنّه ما هو إلاّ حيوان جميل،

بلا عقل ولا روح، يحرّكه الطمع والمنفعة الرخيصة.

وما حبّها إلاّ شهادة ضدّها. ملأ القلب دون أن تزحه

قطرة واحدة من الاحترام. هل يصحّ أن تبيمن على

حياتنا قوّة عمياء لا معقولة تزري بما حصلناه من ثقافة

وحضارة؟! إنه مخجل بقدر ما هو حقيقة واقعة. على

- يجب أن تعرف!

- آني خير من يُبلّغ الأخبار السيئة... وبعد؟!

- ستطالب بالطلاق، ولكنني ضدّ ذلك إلى

الأبد...

- أوافقك، ما هي إلاّ نزوة طارئة، ولكن يلزمنا

طاقة خيالية لإقناعها...

- فليكن!

وسرعان ما استدعت منيرة، وعلى طريقتها في

مواجهة المصائب قالت:

- عندي خبر سيّئ يا منيرة...

كان كالموت يفجّر الإحساس بالمفاجأة رغم التسليم

بمجيئه الحتمي. لم يجذّ جديد إلاّ الجهر بالسواوس

المعدّبة الحفيّة. لكنّها اصفرّت غضباً وارتسمت في

قسماها صورة صارمة. قالت:

- أمر يثير التقرّز...

ثمّ بحسم:

- الطلاق...

غطت سنيّة وجهها براحتيها متفكّرة ثمّ تمت

برجاء:

- على مهلك!

- لا مجال للتمهّل أو التفكير...

- التسرّع في قرار مصيريّ غير مقبول.

- لكنّه الحلّ الوحيد يا ماما...

فقلت متنبّدة:

- لا أراه كذلك...

- لا مفرّ منه.

- حدث لي ما يحدث لك ولكنني لم أفكر فيه...

- ذاك زمان مضى، والملابسات جدّ مختلفة فأنا

ناظرة مدرسة فكيف ألقى الرجال والنساء وهم

يعلمون أنّي زوجة لها ضرّة راقصة!

- ما هي إلاّ نزوة، فكري بالبيت والأولاد

والمستقبل.

واثتمروا جيّماً على معارضتها وإقناعها بالصبر.

والعجيب أنّ سليمان بهجت صمد للعاصفة ببلادة

وثقة، معتزاً بحقه المطلق في الزواج، متناسياً عهد حبه

القديم. وقال:



ذاك فعقابي دون ما أستحقّ. وغمغمت بعذاب:

- غجرية، لا ناظرة ولا مرّية!

فلتقتلع من الآن فصاعدًا جذور الحبّ من قلبها الضالّ. ولتكن مثل أمّها في الكبرياء فلا ترضى بمنافسة امرأة دونها. وقد قرأت لها أم سيّد الفنجان وقالت وهي تقربّ عينها الضعيفتين من جوفه:

- بعد الشدة يجيء الفرج.

واقترحت جيلاً من السحر والرقي وزيارة بعض الأضرحة المشهود لها بالفاعلية فابتسمت بمرارة ولم تنبس. وقالت لنفسها:

- لا دواء للغدر إلاّ الرفض.

على أيّ حال برئت من مطاردة القلق الوحشية، وتحرّرت من إلزام نفسها ما لا يلزم - تشبُّثاً بذيول جمالها - من رجيم قاسٍ وزينة مبالغ فيها. الآن تستطيع أن تهب نفسها خالصة لعملها الجادّ وابنيها الواعدين، متأسية بأخيها محمّد في صبره وعزمته وإيمانه. أمّا أمين وعليّ فعلى فعلٍ دهشتها لم يدركا أبعاد المسألة. كانت علاقتها بأبيهما وديّة وسطحية بخلاف أمهما المرّية والمرشدة والصدّيقة. قال أمين لعليّ:

- بابا أخطأ.

فقال عليّ:

- وأساء لماما...

وكلّما ظهرت زاهية في التلفزيون تفرّسا فيها باهتمام وفضول وحتى. وقال أمين لنفسه:

- بابا يتزوّج للمرّة الثانية أمّا أنا فقدت سهام إلى

الأبد!

لماذا؟. إنّه ليس دون رشاد رواء، وأطول منه، وأذكى، ولكنّ الآخر غنيّ. ولعلّه لم يحبّ سهام كما أحبّها رشاد ولكنّه لعن رشاد وسهام والجميع. وقال لأمه:

- الثورة معتدلة أكثر ممّا ينبغي يا ماما!

فدهشت منيرة وسألته:

- أتريدها شيوعية؟!

فتساءل:

- وما الشيوعية؟

فتردّدت قليلاً ثمّ قالت:

- هي الإلحاد!

فوجم. واعترف فيما بينه وبين نفسه بأنّ سهام أهون من أن يخسر بسببها دينه. وكانت منيرة تعرف عنه أكثر ممّا يظنّ فأحزنها أن تكابد - هي وابنها - مرضاً واحداً، فأوشكت أن تنهزم أمام دمة محتدمة. وقالت له بغموض:

- ما تصوّره ونحن صغار يتغيّر ونحن كبار!

أمّا عليّ فكان يبيم ببلوغه في وإد غريب. عشق بطريقة عشوائية مرفت هانم حماة خاله محمّد. رآها عن قرب في بيت خاله وهي تزور ألفت مصحوبة بزوجها الأخير الأستاذ حسن علما. لم يكثر لسنّها الزاحف نحو السنتين ولكن بهرته أناقته وصوتها العذب وشعرها الذهبي وبشرتها المنيرة. سرعان ما عشقها عشقاً انفرادياً، وكانت أوّل امرأة من لحم ودم تحلّ في قلبه المشغوف بكواكب التلفزيون. وقد نفخته بالغرور عندما قالت له وهي تصافحه:

- إنك في طول رجلين معاً.

واستوعبت المرحلة الثانوية جميع الأحفاد، التحق شفيق ابن محمّد وأمين وعليّ بالقسم العلميّ على حين التحقت سهام ورشاد بالقسم الأدبيّ. وبدأ رشاد يتكلّم عن المستقبل متأثراً بما يقال في مجلسه مع أصدقائه الرياضيين. حلم بحياة الأعيان ولكن صدّه عن حلمه قول الزعيم «مَنْ لا يعمل لا يأكل»، وهو زعيم قادر، وفي وسعه أن يحرم الأعيان الكسالى من لقمة العيش فقال لأمه يوماً:

- أزرع أرضي وأربي العجول!

فقال كوثر:

- إذن اتّجه إلى كليّة الزراعة.

وفكّر وفكّر ثمّ قال:

- الكليّة الحربية أفضل...

فتذكّرت كوثر ويلات الحروب وقالت:

- لا، لا تُلقِ بنفسك إلى التهلكة!

فقال وهو يرنو إلى جدّته:

- الأعمار بيد الله وحده.

لو تيسّرت له حياة الأعيان لتزوّج من سهام عند الإنهاء من الثانوية العامّة لئسكت هذا الجوع

الباقى من الزمن ساعة ٥٥٣

فيقول عزيز متهكِّمًا ببنطلونه القديم وقميصه الرمادي الرخيص:

- تلزمتنا سيّارة أو شقّة خصوصيّة!  
ويطير خيال شفيق مستحضرًا وجوه النساء بعمارة باب اللوق ويظّل فريسة للسيّاط والجمرات. وقد لمح مرّة أمين ابن عمّته في ميدان التحرير وهو ماضٍ مع بنت تقاربه في السنّ نحو محلّ دندورمة فأتبّعه ناظره في حسد. وكان أمين سعيدًا جدًّا بصاحبته التي بدت إلى جانب طوله قصيرة. وكانت سمراء مسمّسة رشيقة. انتبه إليها كجارة، وحامّ حولها في محطّة الترام يومًا بعد يوم حتّى شجّعته بابتسامة فتعارفا، وتقابلا، وتبادلا القبل كلّما تيسّر ذلك، فصارا حبيبين. وعرف أنّها هند رشوان، ابنة ميكانيكيّ في ورشة لإصلاح السيّارات، في المرحلة الثانويّة مثله، وكبرى بنات أربع ثلاثهنّ في المرحلة الابتدائيّة. ولم يغتبط بالمعلومات ولكنّه تجاوزها فلم تفرّهنّ، وكان يتنفّس في جوّ يستبق فيه «الخاصّة» في اكتشاف جذور شعبيّة لهم وقاية من العواصف. أمّا عليّ فنعمّ وحده - وفي سرّيّة تامّة - بحبّ مرفت هانم. وعلم بأنّها كانت زوجة أيضًا لجده حامد برهان فلم يشته ذلك عن حبّه، فاخترته ضمن هواياته كالتلفزيون والولع بالخلاوات. وشجّعتها علاقتها الحميمة بمنيرة على مواجهة الحياة فهي تشاركها في روح العصر بخلاف خالتهما كوثر وخالتها محمد اللذين أطلّا عليها من نافذة زمن ماضٍ مجهول. إنهم أبناء اليوم والغد ولا ماضي لهم، وهم رعايا دولة عظمى مهيمنة على العرب وأفريقيا، حليفة لدولة عظمى، ومتحدّية لدولة عظمى أخرى!. انحصرت مشكلتهم الملّحة في الجنس وهي ستحلّ بطريقة ما في حينها. وارتفع صوت في الراديو يعني أثرًا من آثار الماضي، جهله الجيل الجديد، وعرفته قلّة كرمز للخيانة، نعى الراديو مصطفى النحاس. لم يترك الخبر أيّ أثر في الأحفاد. اتّسعت عيننا كوثر ومنيرة لحظات ثمّ شغلت كلّ بما بين يديها. وكانت سنّيّة تتمشّى ما بين حجرة المعيشة والفراندا في جوّ أغسّطس الحارّ فسرعان ما أسلمت نفسها إلى أقرب مقعد وشخصت بعينها إلى الحديقة المهمّلة في تأثر شديد، ثمّ غمغمت:

الضاري الذي يغرز في جوانحه خناجر مبلّلة بالشهد. وفي تلك الأيام خسر الاجتماع الأسبوعيّ للأسرة حرارة الشباب. ولم يعد يشهده إلاّ محمّد ومنيرة وألفت، ومع أنّ اختفاء سليمان بهجت لم يدهش أحدًا إلاّ أنّه لم ينقطع تمامًا، كذلك سهام كانت تحيي في أغلب المرّات، ولكن أين شفيق، أين أمين، أين عليّ؟! . وتساءل سنّيّة المهدي فيكون الجواب إنهم في رحلة، سينها، مع أصحاب... .

- ألا يبادلونني الأشواق؟

فتقول منيرة:

- إنهم يحبّونك يا ماما ولكن سرقتهم الدنيا!

غزت صداقة جديدة صدر شفيق ممثّلة في عزيز صفوت، زميل المدرسة، لأب بسيط موظّف في محلّ تجاريّ، متشكّف الحياة والمظهر، لكنّه متنوّع الحديث، ويعكس حديثه دأبه على غشيان دار الكتب فأثار حماس شفيق، بل وسهام أيضًا. وكانت ألفت تتابع حديثه أحيانًا فقالت لشفيق:

- صديقك لا يعجبه شيء!

وقال له أبوه محمّد:

- إنّي لا أحبّ هذا النوع من البشر، ولا أحبّ الاختلاط، ولكنّي أنصح ولا أفرض وصايي، والعامل من لا يسلم برأي حتّى يمتحنه.

وكان موقف محمّد من العهد قد عُرف مع الزمن لشفيق وسهام، كما عُرف لأمين وعليّ، فاستطاع الرجل أن يقول لشفيق أخيرًا:

- الإسلام هو الدعامة والهدف.

فقال شفيق:

- وإنّي لمسلم يا بابا ولكنّي ناصريّ أيضًا!

ولم يكن عزيز صفوت ضدّ الناصريّة ولكنّه لم يكن ناصريًّا بالدرجة التي يرضى عنها شفيق أو سهام. أمّا إذا انفرد أحدهما بالآخر في مقهى فكان حديث المرأة يستقطب جلّ الاهتمام. كانا يطاردان النساء بأعين جاحظة، ويقول عزيز:

- حينًا بولاق حيّ شعبيّ وبه فرص لا بأس بها! فيقول شفيق:

- إنّها أزمة لا حلّ لها.

- زوجك بيني فيلًا في المعادي!  
فتجلت في عيني منيرة نظرة إنكار على حين تساءلت  
سنية:

- من أين له المال؟

فقال محمد وهو يغمز بعينه الباقية:

- إنه يؤجر شققًا مفروشة استأجرها وهي خالية -  
بفضل أخيه - من عمارات الحراسة . . .

ونقل وجهه بين الوجوه ثم واصل:

- إنه يستأجر الشقة خالية وتتهدد الراقصة بفرشها  
فهما شريكان!

فالت منيرة بازدياء:

- ما ننال منه مليًا فوق نصف مرتبه . . .

فقال محمد:

- ويقال إن زوجته على علاقة مع المخابرات!

وانتهوا ذات يوم والجيش يجلبجل في شوارع  
القاهرة. تابعت منيرة وأمين وعلي منظره المهيب من  
شرفة شقتهم بالعباسية. وراه شفيق وعزيز صفوت  
بميدان التحرير. وسرعان ما ذاع وملا الأسعاع أن  
الجيش ذاهب إلى سيناء ليمنع تهديد إسرائيل لسوريا.  
وفي الحال تجسدت الحرب كحقيقة وشبكة الوقوع في  
أخيلة الناس. وفي البيت القديم بحلول نظر كوتر  
نحو رشاد كأنما تطالبه بالعدول عن نيته في الالتحاق  
بالكلية الحربية وتساءلت:

- ما هذه الحروب؟ . . . كأنها أعياد موسمية!

ووجت سنية. تذكرت حلما رآته ولم تحدث به  
أحدًا. رأت القبر مفتوحًا والأحداث داخله متراصة،  
وأنها كانت تنادي شخصًا ما ليسده ولكن صوتها لم  
يُسمع. همت بالإشارة إلى الحلم ولو إشارة غامضة  
ولكنها عدلت وآوت إلى الصمت. أما كوتر فرجعت  
تقول:

- حلوان اليوم بها مصانع حربية!

ففكرت سنية بيتها القديم وتساءلت:

- هل يتحمل بيتنا الانفجارات القريبة؟

ثم واصلت بشيء من الثقة:

- ولكن الرئيس يعرف ما يصنع.

وفي شقة باب اللوق دار حديث الحرب بحضور

- آه . . . لكل أجل كتاب . . . إلى رحمة الله ورضوانه.  
وتلقت من ذكرياتها الحميمية حزنًا هادئًا عميقًا. أما  
محمد فقد نبض عرق قديم في هيكله المتجدد فرأى  
الماضي والحاضر والمستقبل في لوحة رمادية تقطر أسى  
ورحمة. وكان ساعتها يجالس الأستاذ عبد القادر قديري  
في حجرته فراه يطرح جسمه على مسند كرسيه ويطوق  
رأسه براحتيه ويصمت طويلًا، ثم يردد بخشوع:  
ألا يا نفس أجلي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا  
ثم نظر إلى محمد بعينين مربذتين وقال:  
- مات آخر الزعماء.

فلاذ بالصمت مشاركا مني تأثره فقال عبد القادر:

- سيصبح غدا في جنازة لا تليق بمقام راقصة درجة

رابعة . . .

ولكن الجنازة كانت انفجारा بركانيًا غير مسبوق  
يإنذار. شاهدا محمد من شرفة المكتب بشارع صبري  
أبو علم فذهل ولم يصدق عينيه. تساءل:

- كيف حصلت هذه الأسطورة؟!

أي طوفان من جموع بلا نهاية، أي هتافات تتطاير  
بشواظ القلوب، أي دموع تترقق في الأعين، أي  
حزن يغشى الشيوخ والشباب، أجل والشباب أيضًا.  
وتساءل محمد:

- من أين جاء هؤلاء الشبان؟

كيف فرضت هذه الزعامة نفسها على القلوب ساعة  
الوداع بعد أن توارت عن السمع والبصر وغطتها  
أيدي الرقباء برداء النسيان. أما زال للوفد مريدون  
بهذا العدد؟ هل انضم إليهم كل محب للحرية  
ومحروم منها؟. اضطربت الجموع في أسى حميم عميق  
شامل وكأنما تنعى الدنيا والأمل الوحيد. ولح محمد  
الأستاذ عبد القادر قديري تلاطمه الأمواج وراء النعش  
وهو يلوح بيديه بحماس يفوق سنه، ولم يكن يتصور  
أنه يراه لأخر مرة، فقد اعتقل مساء اليوم نفسه فيمن  
اعتقل من المشيعين المتحمسين، وقضى في الاعتقال  
عامين ثم توفي عقب الإفراج عنه بيومين. واختصت  
الجنازة بحديث طويل في الجمعة التالية في اجتماع  
الأسرة غير أن محمدًا كان يدخر خبرًا لا يقل عنها إثارة  
مخاطبًا منيرة:

الباقى من الزمن ساعة ٥٥٥

أما منيرة فكانت تعامله معاملة رسمية. استمع لخواطرم عن الحرب ثم قال بنبرة العالم ببواطن الأمور:

- لا داعي للقلق البتة، وفي اعتقادي أنه لن تقوم حرب...

ثم بعد هنيهة صمت:

- ولكن مبالغة في الحيلة أود أن تقيموا معنا هذه الأيام في الزمالك فهي آمن من العباسية...

فقلت منيرة بهدوء وبرود:

- لك الشكر، لكننا لا نوري هجر مسكننا ولا نجد ضرورة لذلك.

فلم يضايقها بإلحاحه، ولعلّه لم يتوقع قبولاً من الأصل، وقال:

- روح البلد عالية جداً...

فسأله أمين:

- ألسنا أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط؟

فأجاب بيقين:

- هذا مفروغ منه ولكني لا أتوقع حرباً على الإطلاق!

وقضى الأمر. في الساعة التاسعة من صباح الإثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ دوت صفارة الإنذار وقضى الأمر. بدا كل شيء هادئاً في القاهرة عدا جموع تجمهرت حول الراديو تتلقى أنباء عن انتصارات وطنية خارقة. وتابعت منيرة الأنباء فازدادت قلقاً وساءلت نفسها:

- ما لنا لا نسمع عن هجوم؟

ومرّق محمد وألفت إلى محطة لندن وصوت أمريكا فدهمتها أخبار أخرى وتساءلت ألفت:

- ماذا يجري؟... أتصدّق هذا؟!

فقال محمد وعواطف متضاربة تتنازع قلبه:

- أصدقه تماماً، ما هو إلا بناء من الورق يقوم على الكفر والفساد...

وأخيراً أعلن عن بيان سيذيعه الرئيس على الشعب. استقرّ الكبار في البيوت وانتشر الشباب في الشوارع والمقاهي. انتظر الجميع - ملهوفين - البيان متوترين بانفعالات محتدمة. متنبّه أعينهم في الظلمات عن بارقة أمل. أليس ثمة رابطة وثيقة بين لسان

محمد وألفت وشفيق وسهام وعزيز صفوت. تساءلت ألفت:

- ماذا يعني إغلاق المضايق وانسحاب الجيش الدولي؟

فقال محمد بسخرية:

- يعني أنّ سفن إسرائيل كانت تمرّ في أمان منذ عشر سنوات أو منذ النصر المزعوم...

ولكنّ عزيز صفوت أجابها متجاهلاً سخرية محمد:

- إتّما الحرب يا سيدي!

فتساءل محمد:

- وجيشنا موحول في اليمن؟!

فقال عزيز صفوت:

- نحن أقوى قوة في الشرق الأوسط، والرئيس لا

شكّ يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها...

فكظم الرجل غيظه على حين قالت سهام:

- كلماته مليئة بالثقة والقوة!

ظنّ محمد لحظة أنّها تصف حديث عزيز صفوت ولكنّه سرعان ما أدرك أنّها تعني زعيمها، ثمّ لعن الثلاثة في سرّه. وفي العباسية لاحظ أمين قلق أمّه فقال لها:

- نحن أقوياء يا ماما.

فقلت منيرة:

- إني مؤمنة بذلك وهو ما يملقني، ليست إسرائيل بمشكلة، ولكننا إذا اخترقنا حدودها فسنبعد أنفسنا وجهاً لوجه مع الولايات المتحدة...

فقال عليّ:

- معنا الأتحاد السوفيتي!

فتساءلت:

- أظنّه يقدم على دمار العالم من أجلنا؟!

فقال عليّ بإصرار:

- ولا الولايات المتحدة تقدم على دماره من أجل إسرائيل!

فاعترفت منيرة قائلة:

- الحقّ أنّي في غاية القلق...

وجاء سليمان بهجت في زيارة طوارئ. كان يزورهم من حين لآخر وظلّت علاقته بابنيه ودّية وسليبة معاً،

- المسألة أننا نسينا الله فنسينا الله .  
 فقال سليمان بهجت وهو قاعد جسداً بلا روح :  
 - ما هي إلا مكيدة أمريكية!  
 فهتف محمد :  
 - لا عذر عن الغفلة والحماقة . . .  
 ثم تنهد في غيظ :  
 - وتخرج الجموع للتمسك به بدلاً من المطالبة  
 بمحاكمته؟  
 ونظر صوب ابنه شفيق متسائلاً:  
 - ماذا دفعت للاشتراك مع الجموع؟  
 فأجاب شفيق بوجوم :  
 - لا أدري بالضبط، ربّما خيّل إليّ أنّ الحياة لا  
 يمكن أن تمضي بدونه!  
 وقال أمين :  
 - قلنا إنّ هدف العدو إقصاؤه فتمسكنا به تحدياً  
 لقرار العدو .  
 فضحك محمد بجفاء ساخراً:  
 - وهل يطمع العدو فيمن هو خير منه؟!  
 وصمت لحظات ثمّ واصل :  
 - اعترف لكم بأنني سررت أيضاً ببقائه، أجل،  
 يجب أن يبقى على رأس الخراب الذي تسبّب فيه،  
 ليعاني معنا، وليتحمل مسؤولية إصلاحه، هذا خير من  
 الهرب إلى الخارج والتمتع بحياة أصحاب الملايين!  
 صمت شفيق وسهام وأمين وعليّ ورشاد كأنّ الأمر  
 لم يعد يعنيه، أو أنّ «ناصرتهم» غرقت في مستنقع  
 من الحيرة. تحبّطوا في الظلام صامتين. أمّا سليمان  
 بهجت فتردد طويلاً قبل أن يقول:  
 - نمة كلام عن تكوين جديد للجيش على أسس  
 جديدة!  
 فأطلق محمد ضحكاته الجافة ثانية وقال:  
 - ما نحن اليوم إلا إقليم تابع للاتحاد السوفيتي، لم  
 تنتصر إسرائيل والولايات المتحدة فقط ولكنّ الاتحاد  
 السوفيتي انتصر أيضاً، أذنا به يقولون اليوم بكلّ قحة  
 إنّ الاشتراكية أهمّ من سيناء . . .  
 وغمغمت سنية في أسي :  
 - لنا الله .

الرئيس والأمل؟. أجل إنّه لا ينطق إلا مرسلاً باقات  
 من الآمال المنعشة. لكنّه - ذلك المساء - طالعهم بوجه  
 جديد، وصوت جديد، وروح جديدة. اندثر رجل  
 وحلّ محلّه رجل آخر. رجل آخر يجذّب عن نكسة،  
 يشهر إفلاسا، يندب حظاً، يجني قامته العملاقة لواقع  
 صارم عارٍ عن الأحلام والأعجاب، ويلتمس مخرجاً بائساً  
 في التنحي، مخلياً مكانه الشامخ المتهّم لخليفة أراد له  
 أن يرث تركته المثقلة باللامعقول والعار. خرقت  
 الحقيقة الوحشية القلوب الملتاعة وتردّت بأصحابها إلى  
 قاع الهاوية، فاندفعت دموع من الأعماق الجريحة إلى  
 الأبصار الزائغة. بكت سنية وكوثر أيضاً بكت. بكت  
 ألقت وسهام على حين تحجرت عين محمد، أمّا منيرة  
 فغشيها بكاء طويل. واندفع شفيق وأمين وعليّ وعزيز  
 في طوفان الجموع الصاخبة الغاضبة المحتجة يخوضون  
 ظلاماً دامساً، يتحدّى صراخهم أزيز الطيارات  
 وطلقات المدافع المضادة، وتطالب بالتنحي عن  
 التنحي. وتسابعت أيام عمومة جنونية مليئة  
 بالانفعالات والتحرّشات والاعتقالات والانتحار.  
 وبقي الرئيس وانتحر القائد، وفرغ الناس من متابعة  
 الأحداث السياسيّة ليفتحوا قلوبهم لهلوسة تاريخيّة  
 فريدة وليشاركوا بلذة جنونيّة معذبة في حفلة زار  
 عصريّة شاملة. ماذا حصل؟، كيف حصل؟، لماذا  
 حصل؟ وأمطرت السماء شائعات، وسخريات،  
 ونكات، ونوادر، ودموعاً. وتفشّت أعراض مرض  
 مجهول فبدا وكأنّه لا شفاء منه. وشهد اجتماع الأسرة  
 جميع الأجيال كالماضي البعيد. بدا الكبار محزونين  
 والصغار حيارى مبهوتين. وحزنت سنية لنفسها كما  
 حزنت لأولادها وأحفادها. تذكّرت حلمها الكئيب،  
 تذكّرت حامد برهان وجهاده الصغير الذي عاش تياماً  
 به، استرقت إلى محمد نظرة إشفاق، رنت إلى الأحفاد  
 بشوق وعطف، وأصغت إلى صوت خفيّ تردّد في  
 أعماقها يطالبها بأن تياس تياماً من تجديد بيتها  
 وحديقتها. من يفكر في هذا الترف وهو في جوف  
 النيران المؤجّجة؟ وتمتت:

- يا لها من أحزان!

فقال محمد تمتعاً:

الباقى من الزمن ساعة ٥٥٧

وزوجته «زاهية» مثبتة استغلالها لنفوذها المستمد من المخابرات لإثراء غير مشروع فقضي عليها بالسجن خمس سنوات. وأصابت ضربات التطهير أخوا سليمان الضابط فقضي عليه بالسجن أيضاً، ووجد سليمان نفسه وحيداً ضعيفاً بلا سند مطازداً بسوء السمعة مما اضطره إلى تقديم استقالته. وفي ذلك الوقت فرغ من بناء فيلاً المعادي فأقام بها وحده منتظراً عودة زاهية. وأنعش أمل قلب سنّة الجريح فتصوّرت أنّ الأحداث تمهد لعودة العلاقة بين سليمان ومنيرة إلى سابق عهدها ولكن منيرة قالت لأمها بصدق:

- لقد انتهيت منه تماماً!

ولم يختلف هو عنها في ذلك فوهبت منيرة حياتها كلها للعمل ولابنيها. وقد ترقّت مفتشة وازدادت جدية في حياتها، وإذا بها تحجّ بصحبة محمد ذات عام، وتواظب بعد ذلك على الفرائض مثل كوتر متمية إلى أسلوب أمها في التدين لا أسلوب محمد، محافظّة في الوقت نفسه على «ناصريتها» مليئة نداء العاطفة في ذلك أكثر من العقل، ورافضة التخلى عنه في سوء حظه، قالت:

- ما هو إلا صحبة للاستعمار العالمي!

وسارعت إليها الكهولة مثل كوتر وأكثر ولكنّها - من حسن الحظ - لم تلاحظ تغير وجهها الجميل كما لاحظته الآخرون، كما أنّها لم تعد تستعمل أيّ أداة من أدوات الزينة. ووقعت مظاهرات الطلبة مفاجأة لها كما كانت مفاجأة لكثيرين. إنّها أوّل تحدّ داخلي يواجه الزعيم من أخلص أبناء قبيلته. تردّد الهتاف بسقوطه، وتطابرت في الجوّ السخريات المسجوعة. وتناقت الأنفس لحكم الشعب ولعرفة الماضي على حقيقته. وجدت منيرة نفسها ممزّقة، ففي جانب يتظاهر أبناؤها، وفي الجانب الآخر يقف زعيمها. وعجبت لموقف أمين وعليّ كما عجبت لموقف شفيق وسهام. وسألت وهي تقلّب عينيها في وجهي ابنيها:

- أليس هو الرجل الذي ثرتم لإبقائه؟

فقال أمين مردّداً ما أفعم رأسه:

- يجب أن يكون الدور الأوّل للشعب!

- أتريد رجلاً آخر؟

وتساءلت سهام:

- أيتهي الوضع على هذه الحال؟

فخيل إلى سليمان بهجت أنّه مطالب بإجابة فقال:  
- كلّاً طبعاً، سنجد أيضاً فرصة لإعادة النظر في شئوننا، ثمّة عوامل فساد كانت تنخر في عظامنا، يقال إنّ الرئيس نفسه كان صحبة من ضحاياها!  
فقال محمد حانقاً:

- قال إنّه مسئول عن كلّ شيء، لعلّه أوّل صدق ينطق به في حياته!

ففقده سليمان بهجت بعض أعصابه وقال:

- أعداء النظام شامتون كأنّ المصيبة حلّت بوطن

آخر...

فلوّح محمد بيده محتجاً وقال:

- إنهم محزونون لا شامتون، لقد بذل الجيل الماضي ما استطاع حتّى وقّت للاحتلال البريطانيّ وقتاً ثمّ جاء الأبطال يحلمون بإنشاء إمبراطورية فانهى سعيهم باستيراد احتلال جديد مارسه أصغر وأحدث دولة في العالم، هي النتيجة الحتمية للجهل والغرور والفساد والاستبداد، واليوم تفصح الوجوه فلن ترى توازناً واستقراراً إلا عند الشيوعيين!

- لسنا شيوعيين على أيّ حال.

- ولكنكم ذبول لهم، لو صدقتم في قتال إسرائيل عشر صدقكم في قتال المسلمين لكتب لكم النصر...  
فقال سليمان بضيق:

- الشعب الكادح يعرف بغريزته كيف يهتدي إلى رجّله...

فجاوز محمد حلمه قائلاً:

- لا تحدّثني عن الشعب الكادح، وحدّثني عن الشقق المفروشة!

اصفرّ وجه سليمان وأفصحت عيناه عمّا ينذر بإفساد اللقاء كلّ غير أنّ سنّة قالت بصوت مسموع:

- لا... لا أسمع بهذا، نحن هنا أسرة ولا مكان بيننا لمركة...

وعلت الكتابة المجلس والمأذبة، ولم يُرَ سليمان بهجت بعدها في البيت القديم، لا بسبب نزاعه مع محمد فقط ولكن لأنّ التحقيقات أدانت فيمن أدانت

فهزّ منكبيه قائلاً:

- لا يوجد رجل آخر!

وتساءل عليّ في حيرة:

- ما جدوى التحقيق؟

فسألت بلحاح:

- أترومون تصفية الناصرية؟

فأجاب أمين:

- لسنا رافضين ولكننا غير راضين!

- إنكم محيرون!

فقال عليّ ضاحكاً:

- نحن حيارى!

وكانت الجامعة تستقبلهم واحداً بعد آخر. اثنان منها نالا ما أرادا فالتحق رشاد بكلية الحربية رغم معارضة كوثر، والتحق سهام بكلية الآداب مستهدفة قسم اللغة الإنجليزية. أما شفيق وأمين فقد أرادا الطب ولكنّ التنسيق حولهما إلى الهندسة، وأراد عليّ الهندسة فمضى إلى كلية العلوم. وفي الجامعة دهمهم جوّ فائر بالبلبله صاحب بالأصوات الجهيرة المتضاربة. الدين... الدين... الدين، ما انتصرت إسرائيل إلا بالتوراة والحرب يجب أن تكون بالقرآن. الماركسية... الماركسية... الماركسية، هي التي تقتلع مجتمعا متهزّئا من جذوره الخرافية لتشيّد فوق أنقاضه مجتمعا علميا عصريا، العُلم... العُلم... العُلم... ما انتصرت إسرائيل إلا بالتكنولوجيا، وأملنا الحقيقي في العُلم والتكنولوجيا. الديمقراطية... الديمقراطية... الديمقراطية، الديمقراطية، فما خسف بنا الأرض إلا الاستبداد. الناصرية... الناصرية... الناصرية، وما عليها إلا أن تخلص لمبادئها حتى نخلص لها. دوامة لا تسكن ولا تهدأ، والقلوب ثقيلة، والأنفس مريرة، والأفق متجهّم، والشهوات مكبوتة، وأحلام اليقظة مرهقة.

وقال شفيق لأبيه ذات مساء:

- نحن جيل من الضحايا، إني أصدّق من يقول

ذلك...

فسأله محمّد:

- ضحايا لمن؟

- لجميع من سبقنا!

فتغيّظ محمّد وسأله:

- ماذا تعرف عن مصر ما قبل الثورة؟

- دعنا من هذا وخبرني كيف أريد أن أكون طبيبا

فتأمّرت الحكومة أن أكون مهندسا؟

فقال محمّد بامتعاض:

- اعرف وطنك، إليك مكتبتي فهي تحت أمرك... .

وعرف شفيق صديقه عزيز صفوت أكثر فأدرك أنه

ماركسيّ. لم يقطن لذلك من قبل لقلة معلوماته من

ناحية ولتركيز عزيز على نقد أوضاع شتى دون كشف

النقاب عن هويته من ناحية أخرى. يلاحظ الآن أنّ

الهزيمة لم تنل منه عشر معشار ما نالت من الآخرين

فتذكّر قول أبيه عن «توازن الشيوعيين»، ونظر إلى

عزيز صفوت نظرة غريبة وسأله وهما يسيران بلا هدف

وسط المدينة:

- لعلك تَمَنّ يفضلون الاشتراكية على سيناء؟!

فارتسمت ابتسامة في وجه عزيز الشاحب وقال:

- التوجّه نحو الاشتراكية هو المكسب الحقيقي لثورة

يوليو... .

فقال شفيق وهو يرمقه باستغراب:

- أنت ماركسيّ!

وراح الشاب يتحدّث عن الهدم والبناء من جديد

فتنتت الفوضى خيال شفيق واستجابت لها نفسه

الحائرة، غير أنّ عزيز انقضّ على المقدّسات بسخرية

فاجرة لم يتوقّعها شفيق فأحدثت عنده ردّ فعل مفاجئ

رغم خفة تديّنه. وبدافع من العناد والغضب والرغبة

في الجدل والاحتجاج على التطرّف عارض آراء صاحبه

وكأنه صاحب موقف بالرغم من أنه لم يعرف من

المواقف إلا الناصرية التي زعزعت الهزيمة أركانها. وكما

شبع من الجدل قال:

- إني في حاجة شديدة إلى امرأة!

فقال عزيز ضاحكاً:

- توجد فرصة حسنة.

اعترف له بأنّه يجوز صديقة، وأنّ لها اختاً قد يجد

فيها مطلبه. وزاده بهما علماً فقال إنّها من بنات

المدارس، وإنّ أمها أرملة فقيرة تتعيش من شراء

الفاكهة نصف الفاسدة بأبخس الأثمان وتبيحها

الباقى من الزمن ساعة ٥٥٩

فتفكرت قليلاً ثم قلت:  
- غير معقول.  
فقال وكأنما يصف نفسه:  
- إنك لا تدرين لنفسك رأساً من رجلين...  
وثمة مفاجأة أخرى كانت ترصد فرصتها، فما كان  
رشاد يخطر في بزهة الرسمية كطالب في الكلية الحربية  
حتى صارح أمه وجدته قائلاً:  
- آن لي أن أعلن خطبتي لسهام.  
وتحمست كوتر لذلك بدافع لم تتبينه بل تمت أن  
يتم الزواج في أقرب وقت، ورحبت بذلك سنية أيضاً  
فحدثت به محمد وألفت. غير أن ألفت عندما فاتحت  
سهام في الموضوع قالت الفتاة:  
- آسفة!  
فاستقطبت أنظار ألفت ومحمد وشفيق، وسألتها  
ألفت:  
- أتريدين مزيداً من التأجيل؟  
فقالت بصراحة:  
- لا أريدها على الإطلاق!  
ذهل الجميع وتبادلوا نظرات مستكبرة، وقال  
محمد:  
- ولكتك كنت موافقة طوال الوقت!  
فقالت بهدوء وتصميم:  
- الأمر كله كان عبثاً، ثم تبين لي أنني لا يمكن أن  
أوافق...  
هتفت ألفت:  
- رشاد شابٌ ممتاز وغنيٌ ووسيم وابن عمّتك،  
فكري بما سيحدثه الرفض!  
فقالت بتصميم أشد:  
- أي شيء أهون من الكذب في مصير حياة.  
فقال محمد متأوفاً:  
- إني رجل مؤمن، والمؤمن يؤمن بالزواج أيضاً، ولو  
كان لي مال لزوّجت شفيق وهو رجل فكيف بالأنثى؟  
فقالت بصوت متهدج:  
- لا أريد يا بابا...  
غلبه الإشفاق. تنهد قائلاً:  
- الأمر لله، ساسلم بما أكره، ولكني حزين، على

للفقراء. وإثما لم تضنّ على ابتيها بالتعليم ولكنّ  
الفتاتين اعتمدتا على نفسيهما في الاستمرار فيه بلا  
موافقة أو رفض من ناحية الأم. قال عزيز صفوت:  
- لي حجرة مفروشة فوق السطح، والتكاليف  
معقولة.

وذهب به ذات يوم إلى سطح البيت بعطفة بهان  
بيولاقي. اخترق حوارى كثيفة لم يالفها من قبل، ولم  
يتنفس بارتياح إلا فوق السطح، ومدّ بصره جنوباً  
متجاوزاً بضعة أسطح فرأى النيل يجري في شموخه  
ورأى شاطئه الآخر المجلل بالأشجار والقصور والعمائر  
في الزمالك. ومضى به عزيز إلى الحجرة المفروشة  
فدهمه منظرها بالوحشة! طولها أربعة أمتار وعرضها  
متران، على يسار الداخل كنية وفي الجدار المواجه  
للداخل كوة وثمة مسمار مغروز في الجدار الأيمن  
وأرضها مغطاة ببلاط معصرافيّ أغبر اللون. وجم  
شفيق ولكنّ الآخر لم يُلقي إليه بالاً، وما لبثت أن  
جاءت زكية محمدين في بنطلون رماديّ وقميص أزرق  
كاشف عن أعلى الصدر مفروقة الشعر مقبولة القصات  
والهيئة مفصلة الحمولات. تمّ التعارف والرضى،  
ولدى ذهاب عزيز أحبها حبّ الجائع المحروم. تحدثت  
بطلاقة وعفوية كأنها في بيتها فخامره شيء من الأسف  
ولكنّه ضمّها إلى قلبه بقوة واستماتة. وتواصلت العلاقة  
بترحيب وسعادة من ناحيته كأنما بلغ بها أقصى ما  
يتمنى. وحفظ لعزيز صفوت جميله، ولكنّ ذلك لم  
يمنعه من معاندته كلياً تهجم على الإسلام، أجل وجد  
نفسه يدافع عن الإسلام كأنه من تياره. ولاحظ أمراً  
أزعجه. قرأ أحياناً في عيني أخته سهام إعجاباً بأراء  
عزيز صفوت. انفرد بها ذات مساء وسألها:

- لعلك لا تدرين أنه ماركسي؟  
فحدجته بنظرة محايدة ولم تجد ما تقوله فسألها:  
- أتعبدين آراءه الشيوعية؟  
فقالت بعد تردد:  
- المسألة أنّها جديدة ومثيرة!  
- هل فرغت من الناصرية؟  
- لا أظن...  
- هل هان عليك الإسلام؟



لأنه لم يعترف بعد، وقد تكون واهمة. فمما لا شك فيه أن ميلاً خفياً دفعها باستمرار نحو عزيز صفوت! إنه يرأسها بنظرات خاصة أبلغ من أيّ لسان. مضى زحفه وثيداً متواصلًا حتى تفتّح قلبها للحب، وعند ذلك فقط عرفت أنه شيء آخر غير الميل الذي وجدته ذات يوم نحو رشاد. وكان رشاد أقوى جسمًا وأجمل صورة إلى وزنه المالىّ المعترف به. عزيز نحيل شاحب الوجه ذو ملامح شعبية ومظهر فقير ولكن سحرها نور يشع من عينيه، وجدة أفكاره وحيوية روحه وذكاؤه البين. والحق أن عزيز ومضى في رأس ألفت دقيقة ولكتها سرعان ما استبعدته كفرض يتعدّر قبوله... كان يزور شفيق كثيرًا ويرى سهام كثيرًا، وفكرة حجب ابنتها لم تخطر لها ببال، وكانت هي تجالسهم أحيانًا وكذلك محمد. ثم ألم يسلم محمد نفسه بضرورة إلحاقها بالجامعة؟ قنع بضرب المثل الإسلامى لهم في حياته اليومية وحثهم على تأدية الفرائض وما يتسع له وقتهم من ثقافة دينية، مسلّمًا بعد ذلك أمره الله. لعل أمين - ابن منيرة - كان الأوحى في الأسرة الذي شمت برشاد في محنته لسابق شغفه بسهام. وظن أن فرصة طيبة تسنح له من جديد فعبر فوق علاقته بهند رشوان وأكثر من التردد على مسكن خاله محمد، وراح يتودّد إلى سهام، ولكنّه شعر منذ أوّل خطوة بأنتها لا تشجعه البتة فلم يتماد في تجربته وقال لنفسه ساخطًا:

- ستكون صورة طبق الأصل من مرفت هانم!

وندم على شروعه في خيانة هند رشوان فكفّر عن زلته بالتأكيد على إظهار حبه لها وتعلقه بها. وبالفعل دخل طورًا جديدًا من علاقته أتمسم بالحرارة والجدية. ومضى يفكر في المستقبل، وفي العقبات التي تعترض طريق الزواج مثل اختلاف مستوى الأسرتين، والانتظار الطويل الذي لا مفرّ منه، وتكاليف الزواج التي لا مفرّ منها أيضًا. وعند ذلك تذكر ما يقال عن ثراء أبيه، ولكنّه لم ينس «زاهية» التي ينتظر خروجها من السجن، والتي يقال إنّها شريكته به إنّها القوة الحقيقية وراء استشاراته. بالإضافة إلى ذلك فإنّ نفوذ عمّه انتهى إلى الأبد بدخوله السجن. أما عن دخل أسرته الخاصة فإنه بالكاد ييسر لها معيشة عادية أبعد ما

نفسى وعليك، على الأيام، كل ما حاق بنا، لقد ماتت جاذبية الأرض وتطايرت الأشياء في الفضاء! وبطبيعته التي تؤثر المواجهة سافر إلى حلوان. جلس في حجرة المعيشة بين أمه وكوثر ورشاد وقال:

- إني حزين بحمل رسالة حزينة!

وصبّ عليهم الحقيقة واضعًا نفسه تحت شلالها كأنه ضحية - مثلهم - من ضحاياها. وقال:

- لم يعد لنا من سلطان على أولادنا!

جفت حيوية أرواحهم. تلقى كل منهم لطمة دامية. ولم يعلّق أحد بكلمة فتفتّى الفتور حتى ذهب محمد. وسرعان ما بكت كوثر وهي تقول:

- ابني خير شباب الأسرة!

فقال لها سنية:

- سيغنيك بمن هي خير منها.

أما رشاد فمضى من توه إلى شقة باب اللوق، فأخل ما بينه وبين سهام، وسألها:

- ماذا غيرك بعد أن سمحت لي بأن أحبك وأعقد بك آمالي؟

فقالت سهام بصوت خافت:

- أعترف بخطي وأسفي، إنك شاب رائع، ولكن لا حيلة لي...

فازداد تعاسة وسألها:

- أيجاد شخص آخر؟

فأجابت بوضوح:

- كلاً.

فصمت قليلاً ثم قال:

- إذا كان الأمر كذلك فلم لا نجرب حظنا؟

فقال بحزن:

- آسفة، أتمس الموضوع كله وسامحني إن أمكن...

وانفرد محمد بألفت وسألها:

- هل يوجد شخص آخر؟

فقال:

- أبداً، إننا لا نخفي عني سراً.

فهتف الرجل:

- هذا أدهى وأمر.

ولكن كان ثمة «آخر». غير أن سهام لم تُشير إليه

الباقى من الزمن ساعة ٥٦١

وفي تلك الأيام توفّي الأستاذ حسن علما آخر أزواج مرفت هانم. اشترك عليّ في تشييع جنازته وخياله يحوم حول أرملته. خفق قلبه المحروم ونشط خياله الذي لم تبرحه المرأة مذ غزته في بيت خاله. وتبلورت وراء إرادته اندفاعا متربّصة مغامرة. ولأنه يعيش تحت مظلة من الاستهتار فقد اكتسب سلوكه جرأة غير معهودة. راح يعدّ الأيام حتّى وافى يوم الأربعاء، ثمّ سافر يوم الجمعة التالي إلى حلوان مساء اتقاء للأعين. ودقّ جرس الشقة التي اتخذ جده أحمد برهان منها عشّا لعشقه وزواجه. وعرفته مرفت هانم من أوّل نظرة في بنطلونه الأزرق وقميصه الأبيض المفتوح الطاقة لاستقبال نسائم الربيع. دهشت ولكتها رحت به قائلة:

- أهلاً... .

فتبعها إلى حجرة الاستقبال وهو من الانفعال لا يرى. وجلس قائلاً:

- جئت لأعزيك ولو متأخراً... .

فشكرته وهي تنفّس في وجهه بارتياح. كانت ترتدي فستاناً أسود يكشف عن ذراعيها وأكثر ساقها، ولم يمنحها الحداد من العناية بشعرها ووجهها فشعّ منها ذاك النور الباهر. ربّما بدت أصغر من سنّها ولكنّ العين لا تخطئ كهولتها خاصّة كراميش الفم وما تحت العينين، ولكنّه كان ينشد هذه الصورة دون غيرها. وتذكّرت هي نظراته التي استوعبتها في أكثر من زيارة لبيت ألفت فلم تشكّ في أنّ وراء الزيارة ما وراءها. أيمن ذلك حقاً؟! وما عسى أن تصنع به؟. ودلّ ترحيبها به وتقديمها القهوة على أنّها ترك الباب موارباً حتّى ترى ما يجيء به الغيب. وكان من ناحيته عازماً على ألاّ يتجاوز التمهيد، فنظر إلى الصالون المموّه بالطلاء الذهبي وقال:

- ما أجل ذوقك!

فقالت باسمّة:

- إنّه يشبه طاقم مامتك.

وكان لمح على الجدار صورة المرحوم مكّلة بغلالة سوداء فلم يدر ماذا يقول. ولم تشأ المرأة أن تزيد من حرجه فسألته:

تكون عن الترف. وكم ودّ أن يخلو بهند رشوان لعلّه يروح عن أعصابه بطريقة فعّالة وآمنة ولكن أقصى ما أتيتح له أن يختلس القبلات واللمسات في شوارع العباسية الجانبية. ولم يخلُ في حياته العامّة من عاطفيّة أيضاً فكان أقلّ الأحفاد تمرّداً على الناصريّة، وأعجب بأمّه لتمسّكها بها، وربّما من أجل ذلك شعر بمأساة أمّه الخاصّة أكثر من أخيه عليّ، وأنست منيرة منه ذلك فاخترته بخيالها، وأيضاً عقب رجوعها من الحجّ شاركها في الاهتمام بدينه متّبعا أسلوبها متحاشياً أسلوب خاله عمّاد. ولاحظ خاله عمّاد رجوعه إلى ناصريته فقال له:

- إني لا أفهمك يا أمين!

فقال أمين:

- معذرة، لا أستطيع أن أنسى الخلاص من النظام

الملكيّ، الإصلاح الزراعيّ، تمصير الاقتصاد، التأميم، التعليم المجانيّ، مكاسب العمّال والفلاحين، فلا الهزيمة ولا الفساد ولا الاستبداد سينسي ذلك!

رغم ذلك لم يعدّ حماسه بالحماس الذي كان لكنّه كان شيئاً ما بخلاف أخيه عليّ. عليّ خسر كلّ شيء وخسر نفسه أيضاً. طحنته الحبيسة، جفّت ينابيع أحلامه، حدس طنين العداوة حتّى في الخلوات وفي الليالي القمرية. وكما صمّم قديماً ألاّ يقتني قطة عقب فجيعة بموت قطة محبوبه فقد عاهد الله على تجنّب المذاهب والزعامات عقب الهزيمة مصمّماً على الرفض وحده. وحزنت منيرة على حاله فسألته مرّة:

- ماذا تحمل عن المستقبل؟

فقال بعصبيّة:

- ليثني أجد عملاً في بلد أفضل!

فسألته بعتاب:

- وتهجر وطنك؟

فقال بوضوح وتأکید:

- في ألف داهية!

فقالت محتجّة:

- ليس في أسرتنا تفكير من هذا النوع!

فقال ساخراً:

- لنا في السجن عمّ وزوجة أب!

الذي يجد فيه ذاته وشفاهه وخلوده. وكانت سهام في نفس الوقت يتفتّح لها طريق آخر. امتعضت نفسها المتطلّعة عندما علمت باضطراب عزيز صفوت إلى الانقطاع عن الدراسة بعد الثانوية العامة ليرتزق من مراسلة بعض الجرائد العربيّة. وكان عزيز قد يشغّر تمامًا من جذب شفيق إلى فكره، يبيد أنه - وهو بسبيل إقناعه - دفعه وهو لا يدري إلى حضن الدين فلدح بأبيه. ولكنه حقّق نجاحًا عفوياً مع سهام وهو ما لم يركّز عليه من أوّل الأمر. عند ذلك انساق إليها بعقله وقلبه معًا فبات غاية حياته. وزارها في الكليّة ودعاها إلى لقاءات قاصرة عليهما دون شفيق، فلمّا وافقت تلقى من الحياة بركة ضافية. وناقشها برفق كمبتدئة ولكنّه لم يصبر مع عواطفه المتأجّجة فقال لها:

- إني أحبّك، من قديم، ربّما من أوّل يوم... وجد في صمتها المحفوف بالرضى استجابة أخطر من استجابتها العقلية، ولعلّها كانت الاستجابة الصادقة الأصيلة القائمة على أساس مكين حقًا. قالت له:

- إني آسفة لانقطاعك عن الدراسة.

فتساءل باستهانة:

- هل تعطيك الجامعة شيئاً يُعتبر الحرمان منه خسارة؟

ثمّ ضغط على راحتها بحنان وقال:

- لن أنقطع عن الثقافة أبداً.

وتساءل عمّا يدور برأسها من هموم المستقبل فرآه في ضوء ساطع، وصارحها بما رأى كالشهادة الجامعية وطبقة الأسرة والفقر، فقالت:

- لا يهمني هذا كلّها!

فقال لها:

- إنّها مشكلات حقيقية ولكن في العالم الذي يؤمن

بها، فإذا كفرنا بهذا العالم فلا وجود ثمّة لها...

وتحمّست بدافع حبّها لتقويض ذلك العالم المغضوب عليه، ولكنّها ترنّحت على الحافة وهي تشعر بحاجتها إلى المزيد من القوّة لتحقيق واقع جديد. ومع أنّ جوّ أسرتها عودها على الصدق والصراحة إلا أنّها أسدلت على أسرارها الجديدة ستارًا لما تعرفه جيّدًا عن أبيها، بل وأخيها الذي انضّم إلى الأب من خلال عناده الجدليّ قبل أيّ شيءٍ آخر، وقالت لنفسها:

- هل زرت جدّتك؟

فأجاب مرتبكًا:

- كلّاً.

- لعلّ أحدًا لمحك؟

- كلّاً... نور الطريق لا يسمح بذلك.

- إني أشكرك على أيّ حال.

عند ذلك قام وهو يتساءل:

- هل تسمحين لي بالزيارة عند سنوح الفرصة؟

فقالت باسمه:

- إنّه بيتك بغير استئذان...

رجع من حلوان وهو يقول لنفسه إنّها ذكيّة ولا مانع لديها. وشغل بعد ذلك بامتحان آخر العام في الكليّة، ثمّ استقبل عطلة الصيفيّة. وبلا تردّد كرّر الزيارة بجرأته المقتحمة، وجلس وهو يقول:

- منعي الامتحان من زيارتك!

كأنّ الزيارة واجب غير قابل للمناقشة. وسألها وهو يلاحقها بنظرات محمومة:

- وحدك دائماً؟

فأجابت بأسى:

- تقريباً...

وأفصحت نظراته عن رغبته بقوّة لا يفي بها كلام. وقال لنفسه إنّها تفهمني وتتظنر. وقال أيضًا لو كذب ظني فلن أخسر من الدنيا أكثر ممّا خسرت. ولما جاءته بقدر ليمون مدّ يده فقبض على ساعدها. حدجته بنظرة متسائلة وهي مقبّبة فشدّها إليه بقوّة ثمّ أحاطها بذراعيه. سأله كالمحتجّة:

- أنت في وعيك؟

فأجاب وهو ينهض بطوله الفارع:

- لم أفقده كلّ بعد.

هكذا شرعت مرفت هانم في غرامها الأخير. وسجّلت تلك الليلة أوّل كلمة في صفحته المورّدة، وحقّق به عليّ حلماً قديماً يائسًا، أمّا مرفت فقدّمت على مذبحة ولعها العارم بالحياة والشباب. والعجب أنّه سعد مثلما سعدت وأكثر. والأعجب أنّ سيطرتها عليه فاقت سيطرته عليها، فوفّقت دائماً إلى نفخه بالخلاء والأريحية والجنون حتّى باتت المستقرّ الوحيد في الدنيا

الباقى من الزمن ساعة ٥٦٣

- فلنؤجل المارك إلى حينها!  
ولكنها لم تستطع أن تعرف خواطرها عن «المستقبل»  
فسألت عزيز يومًا وهما جالسان في الجنفواز:  
- ألدك صورة واضحة عن المستقبل؟  
فقال بهدوء لم يخلُ من امتعاض:  
- عندما تكفين عن الاكتراث بهذه الشواغل أعرف أنك وصلت!
- فصمتت على أن تحوز ثقته مها جشمها ذلك من متاعب. وكان يجد في زينات محمدين - أخت زكية صديقة شفيق - مفرجًا عن توثرات شبابه لينعم بصفاء الحب مع سهام غير أن زينات فاجأته ذات يوم قائلة:  
- سأتزوج من تاجر ليبي وأسافر معه إلى ليبيا.  
فقال لها قبل أن يفيق من المفاجأة:  
- سيتاجر بك هناك!  
فقالت دون مبالاة:  
- أربح لي أن أكون سلعة هناك.  
واختفت من حياته مخلقة أعصابه في مهبّ الريح. واستأثر شفيق وزكية بحجرة السطح. والتحقّت زكية بكليّة التجارة، وتوثقت العلاقة بينها ملتحمة بالألفة وشيء من الاحترام حتّى قال له عزيز صفوت:  
- لم تعد علاقة عابرة، على الأقلّ من ناحيتك...  
فابتسم شفيق وتساءل:  
- ألا يُخشى أن تلحق بأختها ذات يوم؟  
- فَرَضَ محتمل...  
فقال شفيق متنبهًا:  
- نحن نتدهور مثل مرافقنا العامّة...  
- إنهم يستعدّون للحرب...  
فسأله باهتمام:  
- هل تُقدّم حقًا على هذه المغامرة؟  
ضحك عزيز ضحكة غامضة ثمّ قال بيقين كأنه أحد أعضاء هيئة أركان الحرب:  
- في اللحظة الأولى سوف ينقضّ الطيران الإسرائيليّ على مرافق الماء والكهرباء والمواصلات تاركًا مهمّة تصفية النظام للملايين من سكّان القاهرة!  
فتساءل شفيق بقتنوط:  
- إذن لماذا تنفق الآلاف من الملايين؟
- لا حيلة لنا في ذلك!  
- والحلّ؟  
فقال عزيز بأسًا:  
- الحلّ في الداخل!  
فقال شفيق بمرارة:  
- الحقّ أنّ مصر محتلة بالروس قبل الإسرائيليين! فقطب عزيز قائلاً:  
- الإسرائيليون يأخذون أمّا الروس فيعطون ولولاهم لانتهى كلّ شيء!  
صمت شفيق بفم مليء بالمرارة، ثمّ قال وكأنما يخاطب نفسه:  
- تكون كارثة لو لحقت زكية بأختها! وسبقهم رشاد نعمان الرشيدى - ابن كوثر - إلى خوض الحياة العمليّة وألحق بسلاح المدفعية. ولما بلغ سنّ الرشد تسلّم تركته حائزًا درجة من الثراء لا بأس بها. وقالت له كوثر:  
- دعني أخطب لك!  
فقال ضاحكًا:  
- لا أتزوج على الطريقة القديمة.  
فقالت بلهفة:  
- تزوج بالطريقة التي ترضيك.  
لم يكن جرحه قد اندمل تمامًا فقال:  
- صبرك، ليس في الجبهة عرائس.  
وأفزعته كلمة «الجبهة» التي علمت بها لأول مرة ونظرت صوب سنيّة فقال لها:  
- الجميع هناك، والأعمار بيد الله.  
فتساءلت كوثر في كآبة:  
- والاستنزاف والردع؟!  
فقالت سنيّة:  
- قلبي يحدّثني بخير والله حارسه.  
تظاهرت بالشجاعة لتبنيها في روح كوثر ولكنّ حناياها درّت إشفاقًا على الحفيد الذي تحبّه أكثر من الجميع. وصدقت نيتها على تلاوة آية الكرسيّ عقب صلاة العشاء، ليلة بعد أخرى، لتحلّ به ورفاقه بركتها. وكم انتظرت بلوغه سنّ الرشد لتفضي إليه بأمالها عن البيت والحديقة والمدفن، وها هو يبلغه وهو

فقلت بعتاب:

- لك جدّة مدهشة لا تُحْمَل!

فلاذ بالصمت مستوصياً بمزيد من الحذر. ولما رجع رشاد لقضاء عطلة الدورية أثارته القاهرة انفعاله. هذه المدينة الخالدة التي تعيش بمعزل عن الزمان. وصمم من بادئ الأمر على ألا يشير بحرف إلى حياة الجبهة الحقيقية. وبعد العناق قال:

- ليست الجبهة كما تتصوّرون، ما هي إلا مبالغات وأوهام!

احتفظ بمعاناته في سرّية مقدّسة، كما دفن زلازل الانفجارات في أعماق ذاته. ومرارة الهزيمة الموروثة عن غيرهم، والمسئولية التي تنوء بمناكبهم عمّا حدث وعمّا يحدث وعمّا سيحدث. لذلك كذفت به الجبهة في أعماق هموم عامّة عاش أكثر عمره في هامشها. ولكن شدّ ما تبدو القاهرة لامبالية معرّبة متمرّدة!. وقال لأمّه دون تمهيد:

- ماما، إنّي أفكّر جدّاً في الزواج!

فهتفت كوثر:

- ما أسعدني بسماع ذلك.

وقالت سنيّة بمرح:

- رأيت ولا شكّ ما غير فكرك!

فقال بغموض:

- في المرّة القادمة تتضح الأمور!

الحقّ أنّه في ليالي المعاناة وردت عليه فكرة الزواج كإلهام مشرق. ووثبت إلى إرادته عندما رأى أخت زميل له في القاهرة. ولم يكن حبّاً من أوّل نظرة، وجدها مقبولة وكفى، ولم يكن برئئ تماماً من سهام. وأنفق العطلة في التسكّع مع الزملاء. وزار خاله وخالته أيضاً. وهناك صارحهم بما أخفاه عن أمّه وجدّته. وجد منيرة ملهوفة على المصير أكثر من الجميع ولكنّه لم يروها ظمناً. وقال رشاد بعتاب:

- القاهرة مشغولة بذاتها!

فسأله عليّ:

- ماذا تتوقّع غير ذلك؟

وقالت منيرة في حيرة:

- الناس إمّا يحاربون أو يسالمون أمّا نحن فقد اخترعنا

في الجبهة فكيف يطاوعها لسانها على الكلام!؟. دائئاً وأبدأ يعترضها الشوك وهي تقطف الورد. بل هي أسرة لا يهادنها سوء الحظّ أبداً. كوثر، منيرة، محمّد، رشاد وسهام، وقبل هؤلاء تطلّ من أفق الذكريات مأساة حامد برهان، فمتى تدركنا العناية الإلهية!؟. والعجيب بعد ذلك أن تولى شخصها كلّ عناية ورعاية كأنّما تتحدّى الشبخوخة الزاحفة. إنّها تتردّد على عيادات الأطباء في مواعيد منتظمة، تروي عطشها من مياه حلوان المعدنية، تملأ رثتها بالهواء الجافّ المنعش، وتطارّد الشيب بالحناء متوجّة رأسها دائئاً بهذا اللون الأرجواني المهيّب. وإذا لمحت على شفاه الأبناء ابتسامة قالت:

- علينا أن نعدّ أنفسنا للصلاة ونحن على خير حال! وكم من مرّة تنتقد فيها إهمال كوثر ومحمّد ومنيرة الذي جعل من رءوسهم مرتعاً للشيب يجول فيه ويصوّل دون معارض. وقالت لها أمّ سيّد ذات مساء وهي راجعة من السوق:

- رأيت في العتمة سيّ عليّ ابن ستّ منيرة داخلأ عمارة ستّ مرفت!

فقطبت ثمّ قالت:

- لعلّه يزور زميلاً له.

ثمّ غاطبة نفسها:

- لم يفكّر في زيارة جدّته!

وشكته إلى منيرة في لقاء الجمعة، وسألته منيرة بعد العشاء في شقّتها بالعباسية:

- أذهبت أوّل أمس حقّاً إلى عمارة مرفت هانم بحلوان؟

انحسر قلبه في حلقة وظنّ أنّه انفضح، غير أنّ منيرة أنقذته وهي لا تدري فواصلت:

- لا تمخني الزيارة في ذاتها فلعلّك زرت صديقاً ولكنّ أما كان الواجب أن تمرّ بجدّتك؟، عليك أن تزورها

لتخفّف من حزنها!

فازدرد ريقه قائلاً:

- لم يتسع الوقت!

ثمّ بصراحة خشنة:

- والبيت القديم مملّ!

الباقى من الزمن ساعة ٥٦٥

- هذا يعني أنك لم تتخطى المرحلة بعد.

فتساءلت:

- لم العجلة؟، لا توجد في طريقنا عقبة حقيقية.

فتساءل بأسياً:

- ولم الصبر؟!

ها هو يحاصرهما في ركن مستنداً إلى امتلاكه قلبها حتى جذوره. ولدى اللقاء التالي تصرف تصرفاً غاية في الشذوذ ولكن بطمأنينة وثقة كاملتين. مضى بها نحو طريق جديد وكما سألته عن وجهته أجاب:

- نحن ذاهبان إلى بولاق!

انسأقت معه كالمزومة شاعرة بأنها تعبر حدود وطنها مهاجرة إلى الأبد. ونبض قلبه بالصدق وأعذب النوايا فتخيّل أنّها جسد واحد ووعي واحد. وكما دخلت الحجرية شبه العارية استرق إليها نظرة متفحّصة وقال:

- دون مقامك بما لا يقال. . .

فنظرت من الكوة صوب النبل وهي ترفع منكبيها استهانة فقال لنفسه إنّ هذه الحجرية ذات التاريخ الطويل في سوء السمعة تستقبل - لأول مرة - صدقاً وأصالة. وרגم تظاهرها بالثبات انتفض داخلها بتيارات متضاربة. وكانت رغبتها لا تقل عن رغبتة ولكنها لم تطاوعه بدافع رغبتها، أو لم تطاوعه بدافع رغبتها وحدها. وأقنعت نفسها بأنها لا تستسلم ولكنها تشب إلى قمة فريدة، غير أنّها شعرت من ناحية أخرى بأنها تتردى إلى قعر هاوية من الأسى الدائم. وحدثت بغريزة ما أنه - على عنف الظاهر - في حاجة إلى حنانها، وبأنّها ستفتقد الحنان إلى الأبد. ووهبت الكثير دون أن تنال ذرة من عطاء لاضطرام عقلها، أما هو فمسح على وجهه في ارتياح وتمتم:

- بكلّ بساطة، هذا هو الزواج!

فامتعضت لهذا القرار المحفوف باليأس ولكنها

ابتسمت فسألها:

- كيف تشعرين؟

فأجابت وهي تلثم خده:

- بالسعادة.

- أعترف بأنك حظي من الحياة. . .

فقالت برجاء:

حالاً جديدة غير مسبوقه بنظيرها

وفي بيت خاله محمد ارتفعت درجة الغليان درجات أكثر. هو أيضاً ثمل بالأسى عندما رأى سهام وهاجت شجونه. وكما عاملته برقة وأدب وتحفظ كان لم يكن بينها شيء حزن أكثر. وقالت له:

- تمنى لك السلامة.

فلم يحدث له أي سرور. أما خاله محمد فقد لحص الموقف من وجهة نظره قائلاً:

- إنه يضحي كل يوم بأرواح بريئة ليداري بها عاره! فسأله:

- هل عندك حلّ يا خالي؟

فقال محمد:

- ولا حلّ غيره، اسمه الحلّ الإسلامي!

وشعر لأول مرة بأنّ شقيق منحاز إلى رؤية والده فأدرك مدى التغير الزاحف على آله في غيبته عنهم ما بين الكليّة والجبهة. لكنّه لم يجزر مدى الانقلاب الذي حلّ بسهام. إنّها الآن مؤمنة بالثورة المطلقة. أجل لعب قلبها الدور الأول في ذلك، كما لعب العناد الجدلّي دوره في انقلاب شقيق، ولكنّ النتيجة واحدة. وكانت مخوض عاصفة عنيفة وتشعر في الوقت ذاته بأنها ليست إلاّ بداية. وما تدري إلاّ وعزيز صفوت يقول لها:

- إني أدعوك إلى حجرتي بدلاً من التسكّع!

وجمت، وتورد وجهها الجميل، وتمتمت:

- حجرتك!

فقال بعجلة:

- سحبت اقتراحي!

تساءلت عمّا يعنيه انسحابه؟ ارتاحت له كقرار ولكنها انسحقت تحت وطأة القلق. دائئاً تلهث وراءه فحتى متى؟!.

أما هو فقال بهدوء وحنان:

- ما زلت أنتِ أنتِ، سهام كريمة المريّة الفاضلة منيرة وحامد برهان.

فقالت بعصبية:

- كلاً، لا تسبّ بي الظنّ، ولكن هذا لا يعني. . .

وتوقّفت عن الكلام فقال:

- لعلك لا تستسلم للحنق بعد الآن!

فتفكر قليلاً ثم قال:

- إنه الوجه الآخر للحب العميق...

هكذا ولدت من جديد في عالم جديد. ثمادت في التوغل فيه بكل قوة. لا اختيار لها فيما الثورية وأما الضياع. إنها تنفصل نهائياً عن أبيها وأمتها وأخيها، وتعيشهم اليوم كفرد من طابور خامس. واستعرضت رحلتها الطويلة ما بين رشاد وعزيز فبدت خيالية، وأن كل خطوة تخطوها ينهدم ما وراءها فينقلب هاوية لا تسمح بالتراجع قيد أنملة. وغمغمت لنفسها:

- يوجد أيضاً حزن عميق.

متى يتأق لها أن تنشر أسرارها دون مبالاة؟! وضاعفت من اجتهادها الدراسي لهفة على الاستقلال. ولم يجذ جديد بالنسبة لمشروع رشاد عن الزواج. ولم يحضر في ميعاد إجازته الدورية. بدلاً من ذلك بلغتهم أبناء رسمية بأنه يعالج في مستشفى الجيش من إصابة غير خطيرة. هرعت إليه كوثر وسنية وهما على حال من الفزع لا توصف. وعرفا أن نمة شظية أصابت ترقوته اليمنى تحتاج إلى اعتكاف قصير. وكانت إصابة كوثر أفتح من إصابته رغم أن حاله دعت إلى الاطمئنان التام. وقالت له كوثر:

- لن ترجع إلى الجبهة فيما أعتقد...

فضحك قائلاً:

- سأرجع حال شفائي...

ثم وهو يرتب على ظهر كفها:

- نحن نقرب من هدنة!

ولكن كوثر آمنت بأنها أيام حروب وفواجع.

وقالت:

- كنا نستعد للزواج!

فقال ضاحكاً:

- تبين لي أن فتاتي مخطوبة!

فقال بضيق:

- ما أكثرهن لمن يشاء...

فقال مداعباً:

- تتكلمين باعتداد الخاطبة مع أنك لا تبرحين

البيت إلا عند الملأ!

وكان أمين ابن منيرة أول من افتتح عصر الشرعية في جيله على غير توقع من أحد. وجد هند رشوان تواصل نجاحها في كلية التجارة بهمة عالية فصارحته بأنها تود أن يخطبها وأنها باتت تضيق بسرية علاقتها. وكان يجيبها فوافقها على رأيها. واقتحم حجرة مكتبة أمه التي تقرأ فيها بعض الوقت كل مساء وجلس قبالتها. نظرت إليه متسائلة فقال:

- أريد أن أخطب!

دهشت منيرة وطالبته بمزيد من الإيضاح فقال ببساطة:

- هند رشوان جارتنا...

أدرك دون جهد أنها لم تُسر، وكان يتوقع ذلك، ولكنه كان واثقاً من حكمته أيضاً، أما أبوه فقد كتبت عليه الموافقة دون تردد بحكم المثل الذي ضربه! وسألته منيرة:

- أوافق أنت من نفسك؟

- بكل يقين يا ماما، إنها فتاة ممتازة.

فأخفت معركتها الباطنية وقالت:

- على خيرة الله.

فقال ضاحكاً:

- أيضاً في كل أسرة يجب أن يوجد ٥٠٪ من العيال

والفلاحين!

فقال مفضحة بعض الشيء عن موقفها الباطني:

- ولكن الرئيس نفسه زوج بناته من الطبقة العالية!

ورغم شتى التعليقات كانت الخطبة أول حدث سار

في جو الأسرة. وقيل إنها خطبة تحمل طابع زمانها

الغريب في كل شيء. وشهدت الأسرة جميعاً حفل

الخطبة البسيط في شقة الأسطى المتواضعة وفي مقدمتها

سليمان بهجت. وتأثر رشاد بالطقوس ففاض قلبه

بالحنين، أما سهام فشعرت بوطأة سرها أكثر من أي

وقت مضى. وتساءل علي في نفسه لم لم تُدع مرفت

حبيبتي؟! أما شفيق فتذكر زكية محمدية مقرأ بأنها لا

تقل في شيء عن هند رشوان ولكنها تنتمي إلى طائفة

المنبوذين! وأدرت منيرة من سياق الحديث مع أم

هند أنها تحلم بزواج قريب عقب التخرج فساورها قلق

وتساءلت متى يصبح أمين قادراً على الزواج حقاً؟!.

الباقى من الزمن ساعة ٥٦٧

التلفزيون، ولا تخلو عين من أثر دموع، قال وهو يجلس:

- البقية في حياتكم.

جلس واضعاً حقيبته على حجره مسنداً عصاه إلى خوان وأغمض عينيه. وانقضت دقائق قبل أن يفيق من ذهوله. وكما أفاق من ذهوله شعر بأنه يولد في عالم جديد. شعر بالقيود تنحل من حول عنقه ويديه وقدميه. شعر بأن وزنه يخف وأن نساتم الأمان همفو إلى وجدانه. وسرعان ما اجتاحه ارتياح عميق، وملاءه حبور قوي لا حيلة له فيه فأخفاه خلف جفنيه المسدلين. وتمادى به الحبور فاستغفر الله في سره وخاف أن يفلت منه الزمام فيغشى عليه. وقد بكت ألفت لاقتحام حقيقة الموت لقلبها بقوة لم تعهدها من قبل. وبكى شفيق وسهام من أجل المعاشرة الوجدانية القديمة التي لم تتبخّر كلها. وتساءلت سهام:

- من كان يتصور ذلك؟

فأجاب محمد:

- لقد أنسانا كل شيء حتى القدر.

فتساءل شفيق:

- من يخلفه يا ترى؟

فقال محمد بازدراء:

- ليس في الإمكان أسوأ مما كان!

أما في العباسية فقد ملك الحزن منيرة وأمين بقوة لا تبشر بعزاء قريب على حين لبث علي فريسة للذهول حتى تتمم بمرارة ساخرة:

- هذه هي التنحية التي لا رجوع عنها!

وعاش عزيز صفوت تلك الأيام أكثر وقته في الشوارع والمقاهي. صاحبه سهام وقتاً منها غير قصير. وقال لها بثقة:

- عهد السادات قصير أما المستقبل فلرجالنا!

وخاض خضّم الحزن الشامل، وشهد الجنازة، وسمع التلقين المذاع فتخيّل القبر كنهاية لا مفرّ منها، كزنازة غارقة في الظلام، وتصوّر الضجعة المنفردة المعزولة عن المجد والخاشعة فوق حفنة من تراب. وسرعان ما دممه وارد لم يجز له في بال متمثلاً في سئل من النكات!. تأمل ذلك وتعجب فقالت سهام:

وهذه الموم تتضحّم في ضيائر أصحابها حتى تحاكي الأفلاك في دورانها ولكتها تذوب وتختفي إذا اصطخبت موجة عاتية. وانصبت هذه الموجة دون نذير وبلا مقدمات مثل زلزال. فذات مساء تغير وجه الإرسال التلفزيوني فاقصر على إذاعة القرآن الكريم. ولقت الحيرة الناس من كلّ جانب. قال البعض:

- هذا لا يكون إلا لموت عظيم في الدولة.

- أو موت أحد ضيوفنا العرب!

- غير مستبعد أن يكون الملك حسين قد قُتل...

وإذا بأنور السادات ينعي إلى الأمة العربية أعظم الرجال جمال عبد الناصر. قذف نائب الرئيس المستحيل في وجوه الناس باعتباره ممكناً. وتطاليرت الأفتدة في الصدور وحلّ عالم خرافيّ محلّ العالم القديم. متى وكيف ولماذا؟. وهل هذا ممكن؟. ولم لا يكون ممكناً؟. ما تصوّر أحد أنه سيشهد موته. ما تصوّر أنه يجوز أن يموت. ثمانية عشر عاماً مضت وهو يصول ويحول في كلّ صدر، تمتط لكلّ منكب، منتشر في كلّ وعي، خفاق وراء كلّ قلب، هو الحظّ والرزق، والأمان والخوف، الأمل واليأس، الصديق والعدوّ، القوّة والضعف، الأمس واليوم والغد، السلام والحرب، النصر والهزيمة، فماذا يبقى للناس إذا تلاشت فجأة هذه العواطف؟! غشيت الكآبة البيت القديم. أجهشت كثر في البكاء بلا منطق واضح إلا أن تقدّم احترامها المشوب بالرهبة والخوف أمام حضور الموت المتجسّد لعينيها. وسرعان ما بكت أم سيّد وأمّ جابر. وصممت سنيّة طويلاً ثمّ اغرورقت عيناها قائلة:

- لا دائم إلا وجهه!

وسمع محمد بالخبر لأوّل مرّة وهو ماضٍ في طريقه إلى باب اللوق. قابله زميله فهمس به في أذنه. لم يصدّقه، وخشي أن يكون وراءه شرك لجرّ الأعداء إلى المعتقل فقال لزميله بحدّة:

- لا تردّد ما ليس لك به علم!

فقال الرجل بيقين:

- أمام تلفزيون المقهى شاهدت وسمعت!

هروول إلى شقته فوجد ألفت وشفيق وسهام حول



وأذعن كوثر لمشيئة أمها دون تردد. وجاءتها أم جابر الطاهية بقریب لها، أزال الطبقة المتهرئة وثبت مكانها طبقة من الإسمنت. وتساءلت الأم: - ألا نعيد طلاء الصالة وحجرة المعيشة؟ ولكن كوثر - وكانت مدخراتها تنفذ باستمرار - أجابت:

- فلنؤجل ذلك!

فقال سنيّة وهي تداري هزيمتها بابتسامة:

- سيجيء الفرج على يد الرئيس الجديد.

فقال كوثر بوجوم:

- ولكن رشاد غارق في الجبهة يا ماما!

- الرئيس مشغول بالداخل، جادّ في البحث عن حلّ سلمي، وعلاقته بالعرب تتحسن يوماً بعد يوم...

وفي شقة باب اللوق استعاد محمد شخصيته المفقودة. مضى يتكلم بعد عكوف طويل على المناجاة الباطنية. وتمت لقاءات كثيرة بينه وبين أصدقائه القدامى. وقال له أحدهم مرة في مكتبه:

- الرئيس الجديد صديق.

فقال محمد بحذر:

- ليكن اعتمادنا على أنفسنا...

- العدالة تزحف حتى شملت الإقطاعيين أنفسهم...

فراح يذكرهم بتجربة الماضي الخائبة، ووافقه على ذلك شفيق. أما سهام فأساءت الظنّ بالعهد الجديد منذ تمّ النصر لرئيسه، لا ترديداً لأقوال صفوت فقط، ولكن لأنها بلغت الغاية في تطورها الجديد، حتى الدين اقتلع من قلبها. واشتد شعورها بالغرابة في أسرتها، وشعرت بتهديد خفيّ يحدق بأمنها وهي بينهم حتى قالت لنفسها مرة:

- هذه الشقة لا ينقصها إلا مؤذن كي تصير مسجداً.

وقد آنتت من أحد مدرّسيها ميلاً نحوها حتى كاشفها يوماً برغبته في الزواج منها. وذعرت بشدة، وأخبرته بأنها «محجوزة»، مشفقة في الوقت نفسه من ترامي الخبر إلى أهلها. لذلك فكلمها ذكر للزواج سيرة كانت تقول على سبيل الاحتياط للمستقبل:

- أعداؤه كثيرون أيضاً.

ولكن بدا الأمر أوسع من ذلك. وقال لها:

- إنه رمز للحبّ والخوف فهو حقيق بأن يشير عواطف متناقضة...

أجل، ليس الحزن وحده ما يجرّك الناس. إنه حزن ظاهر وفرح خفيّ ورعب كامن تتناغم جميعاً في لحن جنونيّ. الموت يعلن على الملأ أنه يأخذ عبد الناصر نفسه فأشعر كلّ إنسان بقربه الشديد فقامه موته وهو لا يدري. قال لسهام:

- الناس تبكي أنفسهم أولاً!

فقالت سهام:

- اعتاد الناس أن يروه وحده فوق خشبة المسرح، اليوم المسرح خال، وليس أمام الفراغ إلا الضياع والذعر...

- أوافقك تمامًا، فيما مضى أراد أن يتنحى فاستبقوه فيما يشبه الثورة، ها هو الموت يفلكه من قبضتهم اليائسة، ويطلبهم بحمل أمانة لم يعتادوا حملها، فراحوا في ياسهم ويكون وينكثون...

ومضي الوقت ويأخذ الطوفان في الانحسار وما تلبث الدراما أن تحفل بالأحداث يجرّ بعضها بعضاً. وتتأزم الأمور وتتعمّد ولكنها تنتهي بنهاية غير متوقّعة فيتصير الرئيس الجديد على أعدائه انتصاراً مبيئاً.

وبالانتصار تلوح بشائر زعامة جديدة، ومولد شعبية جديدة متعطّشة للانتصار ومتطلّعة للأمان، وتبدأ دورة جديدة للبحث عن مخرج من الأزمات المتراكمة. وكان رشاد قد رجع إلى الجبهة في كامل عافيته، وبدا أنه انهمك في العمل لدرجة أنسته إلى حين مشروع زواجه

ولكن كوثر لم تنس. وأدركتها هموم جديدة باعتلال كبدها فتبدت للناظر أضعف من أمها - الماضية فيما بعد الستين - مع محافظتها على صحتها ورونقها، ومصارعتها للكبر مصارعة لا هوادة فيها. وفي أواخر

الخریف أمطرت السماء مطراً غزيراً فرشخ سقف الصالة وانداحت بقع بالجدران على حين تسلّلت قطرات من ركن حجرة المعيشة. عند ذلك تشجّعت سنيّة قائلة:

- لا مفرّ من إصلاح السطح...

الباقى من الزمن ساعة ٥٦٩

- لا عجب فنحن نسير في طريق جديد!  
ولكن ما المخرج من المشكلة الأساسية المتجسدة في  
الجيبة؟! أجل ثمة شعور بالأمان وسيادة القانون. وثمة  
غزل للديمقراطية، ولكنّ الجوّ راكد والغد محجوب  
بغمامة قائمة. ونفذ صبر الأعصاب فانفجرت مظاهرات  
في الجامعة. وبلغت درجة من الخطورة قبل أن تتلاشى  
في السكينة من جديد. واختلفت المواقف بين  
الأحفاد، فاشترك في المظاهرات أمين وسهام بدافعين  
مختلفين متقاربين، واشترك عليّ بلا دافع على  
الإطلاق، أما شفيق فانسحب إلى قاعدة المتفرجين.  
ورجع ذات مساء - في أثناء الاضطرابات - إلى أسرته  
بباب اللوق مضطرباً شاحب اللون، جلس مع أسرته  
في حجرة المعيشة ثمّ قال بتأثر بالغ:

- عزيز صفوت قتل!  
وإذا بصرخة تفرّ من فم سهام ممزّقة بالألم وهي  
تصيح:  
- لا!

سرعان ما تحوّلت مشاعر الأسرة من النيا المحزون  
لتركز في فتاتها الجميلة. وغلبها الحزن فانهارت تماماً  
غير مبالية بالنظرات المستطلعة وما وراءها. هكذا  
تكشّفت لهم الحقيقة، وفي ظرف يدعو للأناة والصبر.  
ونفضت ألفت فاحتوت سهام ومضت بها إلى حجرتها،  
ولبت عمّد وشفيق يتبادلان النظر في ذهول ووجوم.  
واكفهرّ وجه عمّد وبلغ به القهر منتهاه فقال لابنه  
بجفاء:

- إنك المسئول الأوّل!  
انكمش شفيق أمام انفعال أبيه وقال بصوت  
ضعيف:

- ليس ذنبي...  
ثمّ وهو يستميت في دفع التهمة عنه:  
- جرى كلّ شيء تحت أعينكم...  
فصاح عمّد:  
- لم يكن لرأيي وزن أمامكم، وحيال زمانكم...  
فقال شفيق برجاء:

- حلمك يا بابا، كان يمكن أن يحدث أيّ شيء في  
الخارج، وكيف نعيش خارج زماننا؟

- لن أفكّر في ذلك حتّى أكمل دراستي!  
وتبلورت في عقلها خطة للمستقبل وهي أن تتزوّج  
من عزيز ولو اضطرت إلى إبلاغ والديها من بعيد،  
بالمراسلة! وزادتها الأيام ثقة في حبيبها ومعرفة  
بجوانب حسنة فيه. فهو يحبّها بصدق لا تخطئه  
غريزتها، وهو جاد كلّ الجّد في تمسكه بمبدئه، وحتّى  
غضبه على أعدائه مبطن برومانسيّة موهوبة لإنسانيّة لم  
توجد بعد. ثمّ إنّه إنسان، يتذوق الشّعور والموسيقى  
ويحبّ الكلاب. ولكن شدّ ما حقد على الرئيس  
الجديد. وقال لها مرّة:

- إنّه مقلب لم يجر لنا في خاطر، وهو دائب على  
مغازلة الرجعية العربية والغربية!

وضاعف من قلق سهام أنّ رؤيتها السياسيّة  
الجديدة لم تعد سرّاً مصوناً، فمن انسياق الأحاديث  
المتبادلة بينها وبين زميلاتها في قسم اللغة الإنجليزيّة  
أفلتت تعليقات شتى تنم عن حقيقتها، فضلاً عن أنّ  
واحدة منهنّ على الأقلّ لمحتها في الجزيرة بصحبة عزيز  
صفوت. أما أسرة منيرة بالعباسيّة فقد مضت حياتها  
فيما يشبه الهدوء. أجل أثار مشاعرها نبأ خروج زاهية  
من السجن، حتّى تساءل عليّ ساخراً:

- ألا يقضي الواجب بزيارة فيلاً المعادي للتهنئة؟!  
ولكنّ منيرة كانت شفيت تماماً من سليمان بهجت،  
وسلمت أيضاً بفقد عبد الناصر فاستغرقتها تماماً عملها  
الرسمي ونشاطها الخاصّ في مكتبتها. وتبدّت في وقار  
كهولة بشعرها الأبيض وجمالها الذابل كأنما نائل أمها  
في العمر أو تزيد عليها. ولم تلقّ بالألّ لعتاب أمها وهي  
تسألها:

- ما الذي يجعلك تبقين على هذا الشيب المبكر؟!  
وسعد أمين وهند بخطبتها وهما بعيدان عن موعد  
المشكلات، وغرق عليّ في بحر العسل الذي يستحلبه  
بين أحضان مرفت. غير أنّ «ناصرية» منيرة وأمين  
انتبهت منزعجة وهي في سبات الحداد على همسات  
تردد أحياناً بالنقد لعصر الزعيم الراحل، قالت على  
مسمع من أمين:

- يا لها من وقاحة!  
فقال أمين بامتعاض:

٥٧٠ الباقي من الزمن ساعة

فقال محمد بحنق:

- أعرف ما يقال، سمعته مرارًا وتكرارًا، ما هي إلا لعنة وباء!  
ثم حدج ابنه بنظرة متفحصة كأنما يحقق معه  
وسأله:

- معروف أنه انقطع عن الدراسة فإذا دسّه بين  
المظاهرين من الطلبة؟

- لعلّه ذهب كصحفي!

- بل ذهب للتحريض كشيوعي... .

- ربّما، لست مسئولًا عنه... .

فقال الرجل بحنق:

- لست آسفًا عليه ولكنّي آسف على نفسي!

أما ألفت فقد غسلت وجه سهام بالكولونيا وهبتها  
من الخنزير فوق ما تملك. وقالت:

- ليتك تسلّطت على أعصابك!

فقال وهي لا تكفّ عن البكاء:

- لا يهمني... .

- تمالك عواطفك، أرجوك!

ولكنّ قلبها كان يتقطّع إربًا، والحزن يزحف مهيبًا  
قاسيًا منذرًا بالخلود، وخرابة قاحلة تقترب لتكون لها  
منفى أبدئًا، لم يبق إلا قلب يجفّق وحده كقرار نعمة  
يفتقد جوابه على الدوام. وفي صباح اليوم التالي لم يشر  
أحد بكلمة إلى «حادث» الأمس. انتشر السرّ مثل  
شعاع الشمس في الصيف ولكن تجاهلته الأعين فلم  
تره. ومضت أيام قبل أن يخلو إليها أبوها فيسألها:  
- كيف حالك؟

فحرّكت شفّتها دون أن تنبس. عند ذلك قال  
بحنان لم توقّعه:

- لا بأس من المعاناة فهي حال الدنيا، وعلينا أن  
نرضى بقضاء الله دون قيد أو شرط... .

وربّت على يدها وواصل:

- كنت يومًا مثلك سعيدًا بأمال لا تحصى، وفي  
بضع ساعات تقوّض عالمي ففقدت عينًا وساقًا ونصف  
رزقي على الأقلّ، ولكنّي لم أنهزم ولا ماتت ثقتي بالله،  
ومن يعتزّ بالإيمان لا يذلّ بالهوان، وربّنا معك يا  
ابنتي... .

انحسر ستار الغربة أمام دفقة سلام أبويّة ولكن  
سرعان ما جثم الظلام كزّرة أخرى. الحقيقة الثابتة أنّها  
غريبة تمامًا في أسرتها. غربة لا يداويها الحنان أو  
الحبّ. إنهم يتعاملون مع «أخرى» لم يعد لها وجود،  
وما هم في الحقّ إلا أعداؤها. أكان أبوها يخاطبها بهذا  
الأسلوب لو علم بما خسرت من جسدها وروحها؟! .  
المسألة في نظره تنحصر في حبّها لشابّ يرفضه هو  
لعقيدته وعدم كفاءته لها، ولعلّه سرّ بالقدر الذي  
أزاحه من طريقه مؤتملاً في الوقت نفسه أن يهبها الحظّ  
من هو خير منه. إنّا في وادٍ وأبائها في وادٍ آخر، ولا  
إنقاذ لها إلا أن تهاجر بطريقة ما من هذا البيت الذي  
تقطّعت بينها وبينه الأسباب. وهل بقي لها من عزاء  
إلا في ثورتها وهي الإرث الحقيقيّ لحبيبتها؟! .  
وستظلّ بين حاضر مشتعل ومستقبل غامض تحت  
تهديد دائم بالهرج والفضيحة. ولم يشر محمد بكلمة  
واحدة إلى مأساة ابنته في البيت القديم. وأصبحت  
منيرة محتكرة الصوت المعارض الوحيد في جلسة  
الجمعة. قال لها محمد:

- إنّه عهد أمان بعد خوف، وقانون بعد  
فوضى... .

فقال منيرة ساخرة:

- تجلّت وحشيتي في قمع المظاهرات!

فتقبّض قلب محمد وقال بفتور لم يلحظه أحد:

- حال استثنائية، والموقف يتطلّب الحزم... .

- دائمًا يدور الكلام عن الموقف، والحقيقة أنّه لن  
يجرؤ على خوض حرب... .

وكان محمد في أعماقه يؤمن بذلك. وتساءلت كوثر:  
- لماذا تريدون الحرب؟... . سيجنّد ابنك بعد

عامين على الأكثر... .

- لا أريد الحرب ولكنّي أريد أن أقول إنهم يتخذون  
منها عذرًا لوحشيتهم... .

فقال منيرة:

- لنذع له بالتوفيق... .

فقال منيرة بامتعاض:

- صدّقوني أنّه لن يقنع بتصفية السليبيات الماضية  
ولكنّه سيلحق بها الإيجابيات أيضًا.

الباقى من الزمن ساعة ٥٧١

وخلقت روح جديدة تحتال بالحبور والإلهام، تبخر  
يأس الهزيمة وذللّ القهر وانكسار القلب وهزجت  
الأنفس بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون.  
- انتشل الرجل مصر من الفناء، وانتشل  
العرب...

سهام منيت بالهزيمة وحدها. قتل عزيز صفوت من  
جديد وانتصر العدو ووئد الأمل وابتسم المستقبل  
للمرجعية المصرية التي تحرر سيناء، ولم تعد هي إلا فتاة  
ضائعة، منبوذة، مهددة بالفضيحة. ولم تخل منيرة من  
سرور، كذلك أمين، ولكنه سرور أفسدته الغيرة،  
وكذره الحق، وتساءلت بحيرة:

- كيف انهمز الأصل وانتصر الظل؟!

ثم عزت نفسها قائلة:

- لكنه جمال الذي خلق هذا الجيش وجهزه!

وتشبث أمين بهذا القول كأنه طوق النجاة. حتى  
عليه هزت نشوة نفسه الراضية ولكنه سرعان ما  
استردته هموم طارئة بسبب مرض مرفت هانم. قهرها  
روما تزم مفصلي ومتاعب في الجهاز الهضمي وفساد في  
الأسنان اقتضى خلعها. انطفأ ولعها بالحياة وعجزت  
عن الحب واجتاحها طفرة من الشيخوخة فراح يمضي  
وقت زيارته إلى جانب فراشها مقعم القلب بالرتاء  
والأسف والقرف. وفي قمة النصر حدثت الثغرة،  
وكانت مفاجأة غير سارة ولكنها لم تحدش المعالم  
الأساسية للصورة. غير أنها لم تخل من رد فعل شامت  
عند منيرة وأمين أما سهام فقالت بجرأة على مسمع من  
والديها وأخيها:

- إنها هزيمة أشنع من ٥ يونيه!

فقطب محمد وقال بجفاء:

- هذا ما يردده زملاء لي من الشيوعيين، حذار يا  
سهام، إنك تحيريني...

فقال بإصرار:

- إني حرة في رأيي...

فهتفت بها:

- حرة نعم ولكنك مسلمة أيضًا!

فقال لنفسها «لست مسلمة». وقالت أيضًا دون

أن يدري بها أحد:

فقال محمد بأسًا:

- قولي ما شئت فالحق أنه لا وجه للمقارنة بين ما  
كان وما هو كائن...

وإذا بكوثر تقول:

- أتمنى أن أسمع خبرًا واحدًا هو أن الحرب

انتهت، وأن رشاد راجع ليتزوج!

وعاودت محمد ذكرى مأساته فعجب كيف فضلت  
سهام عزيز صفوت على رشاد؟! وقال لنفسه:

- لا تفسير لذلك إلا سوء حظي!

ولكن حظًا أسوأ من حظها بما لا يقاس انقشع في  
لحظة أبدية كأنه سحابة صيف. ارتفع صوت راسخ  
النبرات في الراديو يرفق إلى الشعب نبأ عبور قواته  
المسلحة للقنال. أهى الحرب من جديد؟! هل  
تمخض الجو الراكد المؤذن بنوم طويل عن صاعقة  
تقتلع الأعصاب من جذورها؟! هل يتطير المستحيل  
ويتلاشى كأنه وهم ماكر؟! هتفت كوثر بجزع:

- ابني!

وتساءلت سنية المهدي في ذهول:

- حرب؟! ... ما بالها تتكرر كالصلاة؟!!

وقالت لها كوثر بصوت متهلج:

- لم يكن خوفي لغير ما سبب...

فغمغمت سنية:

- إنه رحمن رحيم!

ولم يصدق أحد من أسرة محمد الخبير، أو لم يصدق  
ما يقال عن النصر. تذكروا ما ذاع وملا الأسراع أيام  
٥ يونيه. وتساءل محمد بحيرة:

- لماذا تنطوع بالانتحار؟!!

وقالت سهام لنفسها إن يكن انتحارًا حقًا فسيجيء  
بالشفاء لبعض أوجاعها. أجل فلن يخلف البلد من  
الرجعية إلا هزيمة ساحقة. وربما انفجرت في أعقاب  
ذلك القوى الشعبية المطحونة وكالعادة لجأ محمد وألفت  
إلى محطة لندن وصوت أمريكا. تضاربت الأخبار بادئ  
الأمر ثم تأكد النبا المذهل. تجلى النصر في هالة سحرية  
كمعجزة باهرة تحلق فوق الخيال والتاريخ. اندثرت  
شخصية صفراء مهزولة وحلت محلها شخصية تضطرم  
بالعافية والثقة، تلاشت روح فاسدة مكفنة في الهزيمة

كوثر... منيرة... محمد... شفيق... سهام...  
 أمين... علي... سليمان بهجت وقال ضاحكًا:  
 - ها قد اجتمعتم مرة أخرى!  
 وأشار إلى أمه قائلاً:  
 - هذه السيدة لا تريد أن محمد الله!  
 ونظر إلى سهام وقال وهو يضحك من جديد:  
 - نجوت من مصير لا يسرًا  
 فاحمرّ وجهها الجميل حرجًا وقالت:  
 - إني فخورة بك.  
 فقال بحرارة:  
 - لتكن آخر الحروب...

سُرّ برجوعه إلى البيت سرورًا عميقًا فتمتّع بالدفء  
 والحبّ. واستهان ساعات بمصابه. غير أنّه كان يشرد  
 أحيانًا وهو ينظر إلى المتبقي من جسده الفارع فيذكر  
 نشاطه وتقلبه بين الأماكن المحبوبة مختلًا بشبابه وجماله  
 فيهزج قلبه بالأشجان الحفّية. ولم يكن يستسلم  
 للحزن، كان يدفعه ويطارده ويقول لنفسه:  
 - عش في الواقع وإنه لغنيّ بإمكانات لا حصر  
 لها...

ولما قالت له جدّته مرّة:  
 - إني راضية إذعائًا للمشيئة الإلهية...  
 تفكّر مليًا ثم قال لنفسه ناشدًا الراحة المطلقة:  
 - لا بأس لمن أبي الاستسلام للعدوّ أن يستسلم  
 للقدر!

وقرّرت سنيّة أن تصوم رجب وشعبان ورمضان  
 بالإضافة إلى يومي الإثنين والخميس من كلّ أسبوع.  
 أمّا كوثر فأوقفت نفسها على رعايته. وملا هو وقته  
 باللوان التسلية، يدفع كرسيه إلى الفراندا في الأجواء  
 المناسبة، يتابع الراديو، التلفزيون، يستقبل أصدقاء  
 النادي الرياضي في مساء معيّن فأحيا ذكرى اجتماعات  
 السمر التي ولع بها جدّه حامد برهان. ولم يجد في أمه  
 محدّثة شائقة بخلاف جدّته التي لا ينفذ مدخرها من  
 ذكريات الماضي وغرائب الأحلام وعجائب عالمي  
 الغيب والشهادة إلى مناقشات الواعية عن الدنيا  
 وأحوالها. وتساءل كوثر أمها وهما منفردتان:  
 - كيف يصنع إذا وجد نفسه وحيدًا ذات يوم؟

- إني أختنق في هذا البيت...  
 وتوقّف القتال، وتنفّست الكائنات المتوتّرة، وتمّ  
 البعث فلا رجوع عنه. غير أنّ البيت القديم لم يسلم،  
 أو لم يسلم تمامًا. وكان محمد أول من علم بالخبر إذ  
 زاره في مكتبه صديق من ضباط المدفعية، وقال له:  
 - ابن أختك رشاد أصيب في الثغرة، ونجا  
 بأعجوبة!  
 قرأ محمد في وجه صاحبه أنّه لم يُذلّ بكلّ ما عنده  
 فحدّجه بنظرة واجبة متسائلة:  
 - اقتضى الأمر جراحة لبتّر الرجلين!  
 تجلّى الحزن في عين محمد الباقية فقال الآخر:  
 - نحن على أيّ حال في عصر الأطراف الصناعية.  
 وغادره وهو يقول:

- إنه بطل!  
 شعر محمد بثقل المهمة. وأبلغ منيرة أولًا ثم اتفقا  
 على الذهاب معًا إلى حلوان. وجدا كوثر على حال  
 شديدة من القلق بخلاف سنيّة التي بدت رصينة  
 جامدة حتّى قال محمد لنفسه «لعلّها رأّت حلماً منذراً». و  
 وسبقته منيرة فقالت لكوثر:

- الحرب انتهت، ورشاد نجا والحمد لله...  
 فهتفت وهي تنظر نحوها بارتياح:  
 - حقًا؟  
 فألقى محمد بنفسه في الاعتراف قائلاً:  
 - تعرّض لإصابة، إنه بطل، ولكنّه نجا...  
 فهتفت:

- قلبي لا يكذب.  
 فقال:

- أجريت له جراحة ناجحة!  
 حلّت بالبيت الحقيقة والحزن. واستقبلت القلوب  
 أسى دائميًا ولكنّه مبطن بالحمد. وامتزج الدمع بالفرح  
 عندما رجع رشاد إلى البيت محمولًا. أجلس من أول  
 يوم على كرسيّ طبيّ ذي عجلتين ولكنّه أبدى روحًا  
 عالية. لم يكن الأمر محض تمثيل ولكنّه - أيضًا - الشعور  
 بالنجاة من هلاك محقّق كان مصير رهط من أقرانه  
 طالت به عشرتهم في الكليّة والختنق والحرب. وقلّب  
 عينيه الجميلتين في الوجوه المحدقة به. سنيّة...

الباقى من الزمن ساعة ٥٧٣

ضاربة على الزعيم الراحل فاضت بها الكتب والصحف والمجلات، وبرز في ميدانها المفتوح أعداء وأصدقاء ومحايدين فصارت انتقامًا وتشفيًا ويقظة واعترافًا وتقربًا. ووقف جيل الأحفاد منها موقف الدهش والبلبل، يستوي في ذلك من أرقام على ناصرته مثل أمين أو من وافقه مثل سهام، أو من رفض كل شيء مثل علي، أو من آوى إلى عقيدة جديدة مثل شفيق.

- ألم يعبدوه بالأمس؟

- ألم يكن القائد والزعيم والمعلم والمهيم؟

- أي نفاق وأي خسة وأي جبن!

- جيل يستحق التصفية...

- من نصّدق؟!؟

- أنصّدق ما يقال الآن؟!؟

- ليس بلدًا ولكنّه مرحاض عمومي...!

ولم تمرّ الحملة في لقاء الجمعة دون إثارة. لم يعد رشاد يبعث على الرثاء، فقد بات عادة، وعبر هو الأزمة بشجاعة وتطوّر بها إلى ما هو أفضل. لذلك أفصح محمّد عن سعادته بالانقراض على العصر الناصريّ. قال:

- ليعلم من لم يكن يعلم، وليتبه من فقد وعيه!

فتساءلت منيرة:

- هل ننسى القضاء على النظام الملكيّ، والجلاء، والإصلاح الزراعيّ، والتأميم، وتمصير الاقتصاد، والقوميّة العربيّة؟!؟

فقال محمّد متهمًا:

- سيعترف له المستقبل بفضل واحد باعتباره منشئ الإمبراطوريّة الإسرائيليّة!

فسألته منيرة بمرارة:

- أتدري ما يقول الشباب؟

- إنك تقصدين الناصريّين وحلفاءهم من الملاحدة، أمّا غالبيّة الشباب فبخير وعافية وهي تعرف سبيلها كما تعرف ربّها.

واشترك رشاد في الحديث قائلاً:

- لكلّ عهد إيجابياته وسلبيّاته ومهمة الأحرار أن يؤيدوا الإيجابيات ويحاربوا السلبيّات...

فتقول سنيّة بإيمانها الراسخ:

- لن يجد نفسه وحيدًا أبدًا...

ولأول مرّة في حياته يغازل القراءة وتغزله. ومن عجب أنّه انساق إليها ببسر وشغف. وتخلّق في أعماقه ميل جديد نحو الدين فاقتنى من مراجعه ما شاء وهيمن عليه الاطلاع الدينيّ بقوة مضت تزداد يومًا بعد يوم، وحام حول الأسئلة المحيرة فتطلّع إلى عالم الثقافة والأشواق بحماس لم يخطر له ببال من قبل. حتّى الكتابة حلم بتجربتها حتّى قال لنفسه من فوق كرسيّ الطيّ:

- ما أضيّق الوقت وأقصر العمر!

وفي أحد أيام الجمع سأل خاله محمّد:

- أينبغي أن يفقد الإنسان نصف جسمه ليهتدي إلى نفسه؟

فسأله محمّد عمّا يعنيه فأجاب:

- فتح لي العجز الأبواب المغلقة.

وراح يحدّثه عن شغفه الجديد بالثقافة وفي مقدّماتها الدين فسّر محمّد ورفع عكازته بيمنه قائلاً:

- طوى لما يهبنا خصوبة الروح...

فقال رشاد:

- ويخطر لي أحيانًا أن أكتب.

فهتف محمّد:

- الله أكبر!

إنّها رغبة مبهمة لم تبلور في هدف محدّد، ولكنّه دخل في دين الإسلام بالنية والعمل معًا. صلّى وعزم على الصيام والزكاة ومضى يقرأ القرآن والبخاري ويزداد تقبلاً لقدّره ورضًا عنه. وهو سعيد باشتراكه في النصر والتضحية والبطولة، وهيهات أن تنغص عليه صفوه بعض الكوابيس التي تتاب نومه أحيانًا أو صور الشهداء التي تلمّ بخياله أحيانًا أخرى. ويتساءل:

- لم تعدّر على الإنسان أن يعيش حياة سعيدة في هذه الدنيا؟!؟

ثمّ تساءل في حيرة:

- هل أجد عروسًا ترضى بي زوجًا؟!؟

وصاحب ذلك ميل المؤشّر من الشرق إلى الغرب وانبشاق دعوة مصرّة إلى الانفتاح، مع تفجّر حملة

## ٥٧٤ الباقي من الزمن ساعة

فقلت سنّية:

- ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، صدق الله العظيم.

فقلت منيرة بازدرء:

- لا يعلو صوت على النفاق، هذه هي مأساتنا...

فقال محمّد بحدّة:

- عرفنا المشانق ولم نعرف النفاق قطّ...

فقلت منيرة متهكّمة:

- اعرّفوا أيضاً الانفتاح.

فتساءلت سنّية:

- ما له الانفتاح؟... حتّى روسيا أخذت به...

- ولكنّه سيعني عندنا الغلاء والخراب.

وعند تلك النقطة غير محمّد شرّاه قائلاً:

- نحن نوافق عليه ضمن خطة الإنتاج...

فتساءلت سنيرة:

- وهل توافق على ذلك الصقور المتحفّزة؟!

وجرت خواطر سنّية في أمّى، إنهم يتحدّثون عن

كلّ شيء، ألا يذكر أحدهم البيت القديم بكلمة

طيّبة؟!، وإن يكن هذا هو حظّ البيت فمن عسى أن

يذكر المدفن؟! وثمة نظرة عطف تحبو فوق الشابّ

العاجز متضمّنة توسّلاتها الصامتة. البيت يوغل في

القدم، أثنائه يبهت ويتهرّأ، حديقته تحتضر، أيليق هذا

بمقام البطل؟! وقال رشاد:

- الحقّ أنّ الغلاء يزحف بقوة، إليكم تجربة

مارستها بنفسي، منذ عام وأشهر عُرضت عليّ فيلاً

بالمعادي بستّة آلاف جنيه، علمت أمس أنّ صاحبها

رفض بيعها بخمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات!

فقلت منيرة:

- ما يقال عن الأراضي لا يصدّقه العقل...

فقال محمّد:

- وخلوّ الرّجل أصبح خرافة...

فقال رشاد:

- أفكر أحياناً في تجديد هذا البيت!

فهتفت سنّية وقد أشرق صدرها بنور ربّها:

- خير ما تفعل يا رشاد، مساحة الحجره من

حجراته أوسع من مساحة فيلاً حديثة، ولا تنس

الحديقة المهجورة التي يمكن أن تتحوّل إلى جنة...  
وسأئل محمّد نفسه هل يجدد رشاد البيت لوجه الله  
أو يسجل التكاليف كيلا ييضم حقّ أمه عندما يثول  
البيت - بعد عمر طويل - إلى السورثة؟. لم يتحمّس  
للفكرة ولم يعلّق، وتبادل مع منيرة نظرة ذات معنى  
دلّت على تناغم وساوسهما. أمّا رشاد ففاجأ الضيوف  
بقوله:

- سأفكر يوماً في الزواج!

اتّجهت صوبه الأعين. وسعدوا في الحقيقة بالخبر  
الذي كانوا منه في شكّ، ولم تتمالك كوثر أن هتفت:

- دعنا نبحث لك عن عروس لائقة!

فقال بجديّة:

- صبرك، كلّ شيء رهن بوقته.

ورسخ الغلاء منذراً بالتعلّق، وانتشر العرب في

الأحياء كالماء والهواء. جاء الغلاء بالوحشيّة، أمّا

العرب فجاءوا بالكرم تياهين بموقفهم القومي في

البترول ولكنّهم نفخوا في الغلاء من حيث لا

يقصدون. حتّى أمّ جابر الطاهية طالبت بمضاعفة

راتبها لمواجهة الغلاء فتحقّقت مشيئتها في الحال، غير

أنّها ذهبت ذات يوم ولم تعد، وعلم أنّها سافرت

بصحبة ابنها النجار إلى السعودية لتعمل طاهية بأجر

خياليّ. عند ذلك أنذرتهم الحياة بعناء جديد. أجل

طالما أثبتت سنّية مهارتها الفائقة في الطهي ولكنّها

بلغت من الكبر ما لا يجوز معه الاضطلاع بمهنة

الطهي الشاقّة رغم تمتّعها بصحة جيّدة يغبطها عليها

من يمثّلونها في السنّ. ورغم أنّ رعايتها لصحّتها لم

تهن وإن كفت عن صبغ رأسها بالحناء منذ رجوع رشاد

إلى بيته محمولاً على أيدي الرجال. تركت الشيب

يرعى رأسها بلا حسيب قانعة بإخفائه تحت منديل

محكم وتلفيعة بيضاء. ولم ترّ كوثر مفرّأ من القيام

بالمهنة رغم اعتلال كبدها وهزالها وتوسّطها الحلقة

المفضية للستين، مستعينة في التجهيز بأمّها وأمّ سيّد.

وجدوا في البحث عن طاهية حتّى وافقت - أمّ عبده -

على منحهم نصف يوم بثلاثين جنيهاً شهرياً. والتهمت

ميزانيّة الطعام قدرًا لا يستهان به، يزداد مع الأيام

دون توقّف، حتّى توارت سنّية بمعاشها خجلاً وأدركت

الباقى من الزمن ساعة ٥٧٥

- مثلك تمامًا، لنا أولاد، من الخطر أن يهبطوا عن حدّ معين من الحرمان، لنحمد الله على أنهم وصلوا إلى المرحلة النهائية...

فقالته متهمّة:

- ثمّ تبدأ مرحلة من المشكلات الجديدة، يا لهم من جيل محاصر سعى الطالع، ألم يكن الأجدر بالعرب أن يتشولونا من هدتنا بدلًا من أن يجعلوا منا حقلًا للتسؤل والدعارة!؟

وكأنّ عليّ كان يحاورهما عن بعد وهو يقذف بنواياه المتقدّة نحو الوجود. يلعن وطنه ومواطنيه ويتربص باللحظة المناسبة التي يهجره فيها إلى الأبد. وذات صباح نعت إليه أمّه مرفت هانم حماة خاله محمّد! لم تظنّ أمّه بطبيعة الحال إلى هزّته الباطنية. وقال لنفسه يعزّيها:

- ماتت في الواقع منذ أشهر.

المرأة التي وهبت حبًا هيميًا غريبًا خارقًا للمألوف داوى بها جهازه العصبيّ المختلّ. خبر معها راحة متجدّدة، وأنانية متسلّطة، وخيلاء معرّبة، وحبًا غير مألوف يتحدّى الإكليسيات الشعرية الجارية، انتشله من مخالب أزمتته وفي الوقت نفسه رشح رؤيته المتمرّدة. وقال متهمّكًا:

- خير ما فعلت!

وهزّ منكبيه قائلاً:

- أخى أمين أسعدنا حقًا...

وكان أمين سعيدًا حقًا، يجب بنتًا ممتازة وتحمّبه، ولكنّه باقترابه من نهاية المرحلة التعليمية الأخيرة رأى عن قرب مستقبله المعقّد بالمشكلات. على أنّه سرّه أن يسمع هند وهي تردّد:

- لا مشكلة بلا حلّ!

فقال لها مغالبًا همومه:

- ومعنا الحبّ، وفيه ما يكفي...

وكانت هند بخلافه لا تكثرث للسياسة ولا الأحاديث العامّة. أجل كانت متفوّقة كطالبة، ومتفائلة، ينحصر اهتمامها في دراستها وشؤونها الخاصّة ومستقبلها وتعنى في الوقت نفسه بإتقان شؤون البيت كأنّها امتداد لدراستها، كما كان حبّها لأمين أقوى

أتمّها تعيش عائلة على كثر وإبنها. لذلك لم تردّد كثر أن تقول لرشاد وهي منفردة به:

- ها أنت تفكّر في تجديد البيت والحديقة، كن حكيماً، الأسعار ترتفع كما ترى، والبيت - بعد عمر طويل - لن يثول لنا إلا ربعة، الحذر واجب، فإيرادك ثابت وقيمته تقلّ يوماً بعد يوم... فقال متهملاً:

- لا تنسى أنّنا نقيم فيه، وأنّني حبيسه، ويلزمي مناخ طيب...

فقالته متهمّة:

- كما تشاء ولكن عليك بالحكمة والحذر...

وفاجأهم سليمان بهجت بطلاق منيرة مدعياً في الوقت نفسه أنّه يجرّها من قيد يعيق حرّية إرادتها ويهدر سعادتها دون مقابل حقيقيّ. ولم يحدّ محمّد بالطلاع، وكان بحكم مهنته ونشاطه السياسيّ ذا قدرة على النفاذ إلى الأسرار، فقال لمنيرة:

- المسألة أنّه وزوجه يعملان في الاستيراد، وهي كما نعلم مركز القوّة والعقل المدبّر فحملته على الطلاق لتستأثر بشمرة عملها!

فقالته منيرة بعتاب:

- هذا ما أردته من أوّل يوم.

فهزّ رأسه أسفاً وقال:

- فيلاً المعادي تُعتبر اليوم قصر استقبال لأغنياء العرب، يختلط فيه اللهو بالعمل، إني أرثي لأمين وعليّ لانتسابها إليه!

فقالته بامتعاض:

- حدّثني عن موقف الدولة من هذا الفساد!

- لا جدوى من الشكوى، سليمان وزاهية ما هما إلا قردان في حديقة ملاهى بالقروء، جنّ الناس، فقدوا وعيهم، يجومون حول العرب، الذين فوق يتعهبون والذين تحت يشحدون!

وتبادلا نظرة متجهمة ثمّ سألها:

- كيف تواجهين الحياة؟

فأجابت بوجوم:

- كلّمنا مرّ شهر تساءلت ترى هل نحافظ على

مستوى معيشتنا الشهر القادم؟



- حسبتك ستبارك قراري...  
هام في وادي الخيبة طويلاً. وراجع نفسه  
وانفعالاته. ثم تنهّد قائلاً:  
- سمعت رأيي ولكن إذا أصررت على رغبتك فلن  
أعارض.

ونقل شفيق صورة مما دار بينه وبين أبيه إلى زكّية في  
الطف أسلوب ممكن. تابعته بانتباه وعمق. لم تكن في  
مثل براءته بعد أن طحتتها الحياة من رأسها إلى  
قدميها. كفرت بكلّ شيء إلا ذاتها، والمال... ذلك  
الساحر الذي قدّمت له نفسها قريباً. ولم تكن تبني  
أيّ خيال على تخرّجها القريب وقد أنضجتها الحياة أكثر  
من أساتذتها أنفسهم الذين يتاجرون أيضاً بطريقتهم  
الأكاديمية الخاصة. أيغريها هذا الشابّ بالزواج؟ وما  
قيمة الزواج منه؟ وما الداعي إلى تحمّل احتقار  
أهله؟! ثمّ إنّها لا تحبّه كما يتصوّر. إنهم يصدّقون أيّ  
كلام يندّ عن جسد المرأة. وإن لم تنكر أنّه أوثق  
الزبائن علاقة بها وأقربهم مودّة إلى نفسها. ولم ترتح  
لإدلاله وهو يعرض عليها الزواج، ولا عن قوله  
«الإقلاع عن الحياة الفاسدة». أين هم المحترمون؟  
ولما سألتها عن رأيها أجابت بوضوح:

- غير موافقة!

تساءل بدهول:

- حقاً؟!

- لا تغضب، ففكر قليلاً وستتفتح بأنك غير أهل  
للزواج!

فتساءل بإنكار:

- أنا؟!

فقالت باسمّة:

- وأنا أيضاً!

واختفت من حياته كوههم. وكاد يجنّ. وبالتحرّي  
المحموم عرف أنّها اهتدت أخيراً إلى الطريق العربيّ،  
وأثّبت وثبة موقّعة إلى شقّة مفروشة آخذة معها  
أمّها الكادحة. طارت من قفص الحياة اليومية كما  
طارت أختها من قبل، وارتفعت فوق تطلّعات طبقته.  
وكان محمّد يلاحظه بقلق، ويعجب لصمته. وذات  
يوم سأله:

عاطفة في حياتها. ولم يكن لها من الدين - كالسياسة -  
إلا قشور ولكنّ الدين تسلّل إليها - على غير شعور  
منها - عن طريق الأخلاق. لذلك اعتنّدها أمين - وهو  
يتنفس منأخاً ينضح بالفضائح - لقيه لا توزن بمال. أمّا  
شفيق بن محمّد فقد عمّادى في توثيق علاقته بزكّية  
عمّدين حتّى أحبّها. وبهبوط الحبّ عليه انسربت إلى  
أعماقه الهموم والفكر. ومن قبل ذلك لم يخجل ضميره  
من قلق. كان يداوم على الاتّصال بها ويجتري وساوس  
القلق والمحاسبة. ولما أحبّها قال لنفسه:

- لا يدري أحد أين يجد قلبه مستقرّه!

وكان التفاهم بينه وبين أبيه حميماً راسخاً، كابن  
وأب، وكمؤمّنين في عقيدة واحدة. وجد في نفسه  
الشجاعة الكافية كي يعترف لأبيه بعلاقته بزكّية  
عمّدين غير مخفّ عليه سرّاً من أسرار حياتها. أصغى  
عمّد إليه كاظماً انفعالاته تشجيعاً له ورحمة به. وختم  
شفيق اعترافه بقوله:

- أخطأت الفتاة ولها عذر كما أخطأت ولي عذري  
أيضاً!

فهزّ محمّد رأسه نفيّاً وقال:

- كلّاً، كان بوسعها أن تحافظ على شرفها وكان  
بوسعك أن تصبر...

حدس الجواب من قبل فتساءل:

- وإذا تاب كلانا؟

فقال محمّد وهو يتفحصه بعناية:

- التوبة أمل الخاطئين...

فتردّد لحظات ثمّ تساءل:

- أعني أتوافق عند ذلك على زواجنا؟!

وجد نفسه محاصراً ومجرّع خيبة أمل مريرة.

واستسلم لانفعاله فقال:

- اختيار سيئ لن يعفي من عواقب وخيمة!

- ظننته ينقذ نفسيّين ضالّتين...

- لا ضهان لذلك...

ثمّ بامتعاض كالأنين:

- أيّ حظّ سيئ!، لم نفق بعد من تجربة سهام

المريرة، وما أنت في نفس الطريق الوعرة...

فقال شفيق بأسى:

الباقى من الزمن ساعة ٥٧٧

فقالت سنّية بعتاب:

- ابنك جدير بالإعجاب لا الرثاء.

رغم أنّه لم يحقّق إلاّ بعضاً من آماله. أجل سُدّت الثقوب، وسنفت الأرضية، وطلبت الجدران فشعت رونقاً، وتجدت المراتب والأغطية والمقاعد والكنب، وأتفق مع بستانيّ على تنظيف أرض الحديقة وغرس ياسمين ولبلاب أسفل الأسوار لتكسو الخضرة الأسياخ الصدئة، وتشذيب البقية الباقية من النخيل والبلح. سُرّت كثيراً وسعدت ولكن أين هذه الحديقة الفقيرة من الجنة الموعودة؟! وخفّف من فتورها وضاعف من امتنانها ما تطلّع عليه يوماً بعد يوم ممّا ينفق على البيت. رشاد ينفق بسخاء كأنه ربّ البيت تاركاً المعاش لثريّاتها. كيف كانت تمضي الحياة لولا يده الميسوطة؟! وكأنما كانت تشاركه أفراحه في سياحته اليومية بين الكتاب والراديو والتلفزيون، وسهرته الأسبوعية مع زوّاره وسياح ضحكته المترعة بالسرور. وها هو يحلم بالزواج والكتابة ويتنظر مزيداً من الضياء. وآمن رشاد بأنّه حقّق حلم جدّه المحبوبة. وكم سرّه أن يجد منها استجابة قلبية لأحلامه. فهي - بخلاف أمه - تشجعه على الكتابة وتقول له:

- عرفت الحرب والسلام، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ وهي الوحيدة في الأسرة التي تتفق معه على حبّ زعيميّ الثورة، السلف والخلف معاً، وتقول:  
- لكلّ منها مزاياه وأيديه أما الأخطاء فسبحان من له الكمال وحده!

وقال يوماً لزوّار الجمعة من أهله:  
- تبدوون أحياناً كأنكم فقدتم الأمل، أنا وجدتي لا نفقد الأمل أبداً...

فقالت منيرة بمرارة:

- عريضة الغلاء أنستنا النصر!

ثمّ تساءلت متنبّهة:

- وأين عليّ؟!

وحمل محمّد على الزعيم الراحل كعادته وقال:

- كلّ ما نعاني من شرّ فمن صنع يديه...

فتساءلت منيرة:

- وأخطاء الانفتاح أهي من صنع يديه أيضاً؟!

- ماذا فعلت يا بنيّ؟

فأجابه بإيجاز:

- اقتنعت برأيك!

لم يصدّقه الرجل الخبير ولكنّه تنهّد بارتياح قائلاً:  
- فليحفظنا الله بعنايته.

- ولكنّ الزواج ضرورة لأمثاليّ في العمل؟

ارتبك محمّد وشعر بالقهر، ثمّ قال محتدّاً:

- ما أجدر أن نوجّه هذا السؤال إلى وزير التخطيط

أو إلى المجموعة الاقتصادية!

وبعد فترة صمت تتم:

- لنضع ثقنتنا في الله سبحانه...

وتخرّج شفيق وابن عمّته أمين على حين انتقل عليّ وسهام وهند رشوان إلى السنة النهائية. وجنّد شفيق وأمين. ووجد عليّ فرصة للسفر إلى الخارج ضمن رحلات الطلبة الموسميّة. سافر ولكنّ أحدًا لم يره بعد ذلك. وأرسل - من ألمانيا - خطاباً إلى أمّه يخبرها فيه بأنّه وجد عملاً - كعامل - في مصنع، وأنّه لدراسته العلميّة اعتُبر عاملاً فنيّاً، وأنّه ينوي إتمام دراسته عندما يتقن اللغة الألمانيّة، وعلى أيّ حال فلن يرجع إلى مصر أبداً. أعادت منيرة قراءة الخطاب بعينين دامعتين وقالت لنفسها:

- عثرة جديدة تضاف إلى سوء حظّي!

ويتكليف منها أبلغ محمّد الخبر إلى سليمان بهجت.

وسرّ الرجل به قائلاً:

- أحسن صنعاً!

ثمّ واصل ضاحكاً:

- سأعثر عليه في إحدى رحلاتي لأبارك خطوته...

فتساءل محمّد:

- أما كان الأوفق به أن يصبر عاماً حتّى يجوز

شهادته؟

- هرب من التجنيد، وله حقّ!

وتلقّى البيت القديم الخبر بهدوء نسبيّ إذ لم تعد

تهزّه الأنباء السيّئة. غير أنّ سنّية قالت:

- لك الله يا منيرة...

فقال كوثر:

- حظّها أفضل من حظّي!

فقال بإيجاز:

- إني راض عن الرئيس الحاليّ باعتباره التمهيد لدولة الإسلام!

وساءل رشاد نفسه «متى تنفجر الأزمة؟». وعقب ذهاب الزوّار زارت سنيّة - كالعادة - صورة القناطر التذكاريّة. ساق كرسيه مقترّبًا منها ورنًا إلى الشباب المخصب للصورة وسألها مداعبًا:

- تحمّين للشباب يا جدّتي؟!

فالتت بشرود:

- إني أنظر وأتساءل من كان يتصوّر؟!

ونحطرت له فكرة مشرقة فقال:

- ليست الحرب هي التجربة الوحيدة في حياتي ولكن أيضًا هذه الصورة ذات المصائر العجيبة!

فتمتمت:

- فكرة!

ورجعا إلى مجلسها وآخر شعاع للشمس يتقلّص مودّعًا حجرة المعيشة. وتذكر إشارات خاطفة كانت تصدر عنها في أحوال نادرة عن جدودها، لم يهتمّ بها أحد قانعين جميعًا بمعرفة جدّهم صاحب البيت والأرض. غير أنّ رغبة جديدة في معرفة كلّ ما يمكن معرفته غزته بسحر جديد فقال لها:

- أودّ أن تحدّثيني عمّن عرفت من جدود يا جدّتي.

فانبسط وجهها وسألته:

- أتريد أن تكتب عنهم أيضًا؟

- إن استحقّوا ذلك!

- إنهم يستحقّون وزيادة!

ودارى وراء ابتسامته عدم تصديقه وهو العليم بحساسيتها ونظرتها الخاصّة للأمور. قال:

- إني شديد الرغبة في الاستماع.

تبذّرت مستجيبة متحمّسة واندفعت تروي قصّة جدودها كأنّها كانت تنتظر هذا الإذن منذ دهر طويل.

قالت:

- أقدم جدّ سمعت عنه كان يدعى فرج، من الصعيد الجوّانيّ، وكان قويًّا، رزقه يأتيه من قوّته، ولكنّه يقبل الهدايا ولا يمتصّب، فأحبّه الجيران بقدر ما هابوه، وكان زوجته يؤاخيان الأرواح ويعرفان

الغيب... .

دهش رشاد. ودهش أكثر لما طالعه في وجهها من الجدّيّة. وما تمالك أن ضحك قائلاً:

- هذا يعني أنّه كان قاطع طريق!

فهتفت محتجّة:

- لو كان كذلك ما حدّثني عنه أحد بكلمة!

- لكن هذه الأوصاف... ١٤.

- بهذه العقليّة يا حبيبي يعتبر حكّامنا الأجلّاء قطاع طرق!

- تعتبره إذن من الحكّام؟

- في بيته، لم لا؟!

وتظاهر بالتسليم ليشجّعها على الاستمرار فقال:

- لا يخلو رأيك من وجهة يا جدّتي... .

فمضت بثقة:

- وبلغ المائة ولكنّ قدمه زلّت وهو في قمّة العمر.

فاشدّ انتباهه ولكنّها بدت كأنّها تريد أن تعبر فوق تلك النقطة فقال بتوسّل:

- الحقيقة يا جدّتي وألّا فما جدوى الحديث؟!

فابتسمت في حياء وقالت بصوت خافت:

- يقال إنّه أغرى بنتًا في الخامسة عشرة!

فكتم ضحكة كادت تفلت منه وممس:

- شيء يفوق الخيال... .

- إنّها زلّة ولا شكّ ولكنّه كان فحلًّا!

- وماذا فعل أهل البنت؟

- لا علم لي بذلك، ولكنّه مات بعدها بقليل بغدرة حمل عضه.

الحقّ أنّ جدّته التي استوت أمام عينيه كمشال للرصانة والقوّة والثقافة، الحقّ أنّها تملك جانبًا خفيًّا أشبه بالأسطورة يجتار الإنسان في تقيمه. وإذا بها تسأله:

- ما رأيك؟

- رجل عظيم حقًّا ولكنني أخشى أن يسيء إلى

سمعتنا في نظر الناس العاديين... .

- ألم تصادفك أحداث مسيئة للسمعة أكثر من زلّة

رجل في المائة؟!

فقهقه عاليًا ثمّ قال:

الباقى من الزمن ساعة ٥٧٩

التجوال عملاً بنصيحة أمه، فاختر عملاً بين بين،  
يقوم على الحركة ولكن في القرية والسوق، يسرح  
بالأغنام ويبيع اللبن، فنعم بحياة مستقرة عادية وعشق  
الله والنساء، وقرّر ذات يوم أن يفجر قنبلة في بيته  
العائليّة الساكنة...  
- قنبلة؟!!

- أشهر إسلامه وتسمّى باسم محمد المهدي!  
فتساءل رشاد:

- كيف دخل جدنا الإسلام؟

- أعلن أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام زاره في المنام  
وعرض عليه الإسلام فقبله دون تردد، أما أهله  
فأكدوا أنّه عشق فلأحّة مسلمة!

- ورأيك أنت يا جدتي؟

- سيرته بعد ذلك شهدت له بالصدق، وقد نذر  
بكرته للأزهر، وهو الشيخ عبد الله المهديّ أبي وجدك!  
- هذا جدنا المعروف...

- لعلّ الوحيدة التي تذكره هي كوثر أمك، وقد  
عمل أول حياته مدرّساً، وكان أيضاً يرتل القرآن  
بصوت عذب، ثمّ اشترى أرضاً وتفرّغ لزراعتها  
فُرف بمهارته كما عرف بورعه، ولما اجتاحه الروماتيزم  
انتقل إلى حلوان وشيّد هذا البيت وكان قطعة من  
الجنة...!

تأثّر رشاد بأريحية جدته ونشوتها أكثر مما تأثّر ببيير  
الجدود أنفسهم. ولم تكن تبلورت لديه فكرة عن نوعية  
الكتابة التي سيختارها ولا عن ضرورة- أو عدم  
ضرورة- اشتراك الأجداد فيها. غير أنّ نشوة جدته  
أضفت على الرجال الغابرين سحرًا خاصًا نفخ فيهم  
ضياء في مواقعهم الموهلة في الزمان فأجل قراره إلى  
حينه. وفكّر من جديد في بعث الحديقة وتحقيق حلم  
جدته الملحّ.

وقال لأمه:

- ليتني فكّرت في شراء هذا البيت قبل  
الانفتاح...

فقرأت كوثر أفكاره وقالت:

- ما فات فات، تذكر ما سبق أن قلته لك... ولا  
تنسّ الغلاء الذي لا يريد أن يقف عند حدّ...

- استمرّي يا جدتي.

فواصلت والنشوة تورّد وجنتيها الذابلتين:

- الجدّ التالي يدعى غزال، الشهير بحرك، إذ فرض  
عليه رزقه التنقل المتواصل بين قرية وأخرى سعيًا وراء  
الصيد والبيع، لم يعاشر أسرته إلاّ لمأماً، فلم ينعم  
بالعلاقات الحميمة، كأنه مطارد، ولذلك وهنت  
علاقته بالغيب والأرواح، ولم يعرف الاستقرار، ولا  
الرفاهية، وشغل مسيرته بالغناء متشكّياً من الزمان، ولم  
حتّى عُثر على جسده ذات يوم ملقاة في مصرف، ولم  
يُستدلّ على قاتله فقبل أنّه إنسان وقيل أنّه حيوان وقيل  
إنّه عفريت...

وهبت دقيقة صمت للرناء الذي تجلّى في عينيها ثمّ  
قالت:

- من شدّة حزني عرفت سرّ مصرعه...

فتساءل رشاد:

- كيف يا جدتي؟

- بالحلم المضيء، رأيت بدويًا قاطع طريق وهو  
يخنقه ليسلبه ماله، ثمّ جاء ذئب فنهش بطنه، وشهد  
الواقعة من أولها عفريت ساحر هو الذي رمى به في  
المصرف!

وتبادلا نظرة طويلة حتّى سأله:

- ما رأيك؟

فتساءل بارتباك:

- أيستحقّ غزال أن يؤرّخ له أيضًا؟

فقالت بجديّة أدهشته:

- كيف لا؟، وهل قدّر لمصريّ أن يلي مكانة أسمى  
من مكانته في زمنه؟، عاش مكافحًا ومات شهيدًا!  
فقال مجاملًا:

- كلامك كلّه حكمة يا جدتي...

فقالت بعتاب:

- حذار من السخرية، إنّي أنضح عقل في هذه  
الأسرة المبعثرة بين النزوات وسوء الحظّ!

- نعي من جدتي واستمرّي...

فقالت باسمّة:

- ثمّ جاء فرج، فرج الثاني المتسمّى باسم جدّه،  
نهض لحمل الأعباء بعد مصرع أبيه، فعدل عن حياة

٥٨٠ الباقي من الزمن ساعة

- خطّة كالقطران!  
واشتدّ غضبه فقال لها:  
- لم يؤذني أحد في حياتي - باستثناء عبد الناصر -  
مثلما أذيتني!

وحلمت سهام بالبعثة كملاذ أخير، تلوذ به بمبدئها  
وجرمها الخفيّ، وهما إرثها عن حبيبها الذي تلاشى في  
غمضة عين. وجوّ أسرته كان يندرها دائئًا بالتهديد  
والخوف حتى تمّت هجره وشارفت مقته. وخیّل إليها  
أنّ أباه - وشفیق أيضًا - يرمقها بعين الرية. وإن  
يكن في ذلك شكّ فما لا شكّ فيه أنّها لا يباركان  
موقفها من الحياة. وكلّ يوم فهما يزدادان إسلامًا  
فيزدادان خطرًا وتزداد هي غربة. وأمّا لا أمل فيها،  
فهي محبة لأبيها لدرجة العبادة ومؤمنة ببطولته، وهي  
في الوقت نفسه - على رقتها - غير موافقة أيضًا على  
موقفها. فكيف إذا انكشف سرّها وأعلنت خسائرها!  
وجمعت المشكلات بين شفيق وابن عمته أمين. سأله  
شفيق:

- ما قيمة المرتب؟  
فأجاب أمين ببساطة:  
- لا شيء.  
- ويهمني جدًّا أن أتزوِّج.  
- أنا عندي خطيبي ولا أدري كيف أتزوِّج!  
- بنات الهوى ارتفعت أسهمهنّ في بورصة العرب  
لدرجة خياليّة...  
- نحن محاصرون من جميع الجهات...  
- وقد تياس خطيبتك فترحب بأيّ قادر.  
فقال أمين بثقة:  
- ليست من هذا النوع...  
- لو أنّي مكانك لكتبت كتابي لأروِّج عن نفسي  
تاركًا المستقبل للمستقبل!

وحليت الفكرة لأمين ولكنّه راح يقلّبها على شتى  
جوانبها قبل أن يندفع إليها كالمجنون. ووجد بابًا لم  
يطرقه فقرّر أن يطرقه. وقرّر أن يطرقه سرًّا فأخفى  
عزمه حتى عن أمّه المحبوبة. ذهب إلى فيلا المعادي  
لمقابلة أبيه سليمان بهجت. إنّه يزوره من حين لآخر  
زيارات بريئة، وفي كلّ مرّة يخيّل إليه أنّ الفيلا تزداد

ويحسن بك أن تفكر في شيء واحد هو الزواج...  
- تمّنت لو أتزوِّج هنا ولو نظير أجر أدفعه  
للمستحقين...  
فقال كوتر باهتمام:

- عندي فكرة أحسن، أن تبيع الأرض، وتكتفي  
بالعمارة، ويضمن الأرض تشتري شقة في إحدى عمارات  
التملك التي تقام في حلوان وتواجه أيضًا تكاليف  
الزواج...  
- وترك جدتي وحدها؟

فبادرته:  
- إني باقية معها لآخر العمر، المهم متى تشرع في  
الزواج؟

فضحك قائلاً:  
- أريني همتك!  
فهتفت متهلّلة:  
- وكلف بذلك أيضًا جميع أصدقائك...  
ونخرجت سهام وهند رشوان في عام واحد، أمّا

هند فانتظرت خطاب التعيين الذي لن يصل قبل  
عام، وأمّا سهام فقرّرت تقديم رسالة ماجستير طامحة  
إلى وظيفة معيدة اعتمادًا على تفوقها البين. وأنها  
شفيق وأمين مدة التجنيد فألحق الأول مهندسًا بشركة  
الملاحة والثاني مهندسًا بشركة الصناعات الكيماوية.  
وهست ألفت في أذن سهام بأنّ محاميا في قضايا  
الحكومة يسمى لخطبتها فارتعدت وقالت:

- لن أفكر في ذلك حتى أحصل على الماجستير.  
فاعترضت ألفت قائلة:  
- ولكن...  
غير أنّها قاطعتها قائلة:  
- لي أمل كبير في بعثة إلى إنجلترا.  
- والعمر؟!

- لا أهميّة لذلك!  
وعلم عمّد برأيها فقال لها بحمّة:  
- إنك غير محتملة.  
فقالت ملاينة:  
- لي خطّة يا بابا.  
فصاح:

الباقى من الزمن ساعة ٥٨١

أحسن من صحّة كوثر ومنيرة أمّه، وثمّة حلّ متاح يعد الجميع بالسعادة. وهو خير على أيّ حال من رصد موتها باعتباره مفتاح الفرج للجميع. ويشرّ بفكرته لدى أمّه وخاله محمّد وابن خاله شفيق وبنّت خاله سهام. قال:

- وتنزل لكلّ مستحقّ عن حقّه فتعفى التركة من الضرائب ويبقى لها ما يجعلها من الأغنياء إلى آخر العمر.

وطابت الفكرة لمن يغالبون وحش الغلاء. وقد خطرت لمنيرة كما خطرت لمحمّد من قبل ولكتّنها أشفقا من إعلانها رحمة بأمّها، عاشقة البيت، والحلّمة أبداً بإعادة الشباب إليه. وما الضرورة في تكدير صفو امرأة محبوبة في الثمانين من عمرها؟! ولكتّنها غلباً على أمرها إزاء حماس الأبناء المرهقين بالآزمة، وقال محمّد:

- ليكن في علمكم بأننا - أنا ومنيرة - لن نكون البادئين بفتح الموضوع.

ولم تحمل سهام للمشكلة كلّها هماً وقالت لنفسها:  
- فليأكل بعضهم بعضاً!  
وانضمّ أمين وشفيق إلى لقاء الجمعة التالي فأحدث حضورهما دهشة وقالت ستيّة:

- حسن أن تتذكّرا بين الحين والحين أنّ لكما جدّة!  
فانقبض قلبا محمّد ومنيرة على حين تربّص شفيق وأمين بالفرصة المناسبة. وجرى الحديث بعيداً عن النيات المضمرة، أخذاً في مجراه زواج رشاد في المقدمة، ثمّ كالعادة احتلّت السياسة مكانها الدائم المرموق. قال رشاد:

- النصر لم يبشّر حتى الآن بسلام دائم.  
فقالت منيرة بلا تركيز حقيقيّ:  
- بل ثمّة إشارات في الصحف إلى احتمال حرب خامسة!

فقالت كوثر بمرارة:  
- كأنّها مباريات الكرة الدوريّة. . .

مضى الحديث في درجة حرارة منخفضة على غير عادة والضائير مضطربة بالمهمّة الثقيلة التي جاءوا من أجلها. وساد صمت غير طبيعيّ. وتبادل أمين وشفيق نظرة متضمّنة دعوة بالتقدّم. واخترق أمين جدار

تألقاً وترقفاً. وكالعادة لقيه أبوه برقّة معهودة، وسأله عن مامته وجدّته وسائر أفراد الأسرة. وحضرت زاهية المقابلة فهي لا تترك الابن يخلو إلى أبيه أبداً. ولم يجد أمين بدأ من عرض قضيتّه على مسمع منها. قال:

- إني خاطب كما تعلم يا بابا وأريد أن أتزوّج. . .  
لم ينظر نحو زاهية ولكتّنه شعر بأنّها مساجت بالانفعالات. وتساءل الأب ببلاهة:

- وماذا يمنعك؟

فضحك محرّجاً وقال:

- أنت أدري يا بابا.

هزّ الرجل رأسه وقال:

- طالما أفهمت الجميع أنّي لا أملك إلاّ جدران هذه الفيلا!

فتساءل برجاء:

- ولو على سبيل القرض؟

فقال سليمان بهجت بأسى:

- ليس لديّ إلاّ الحزن والأسف.

وتدخّلت زاهية في الحديث قائلة:

- يا باشمهندس، أنتم أغنياء ولست في حاجة إلى قرض.

فتحوّل إليها كارهاً ومتسائلاً:

- أفندم؟

- هل لديك فكرة عن ثمن بيتكم القديم بحلوان؟  
لم ينبس فقالت:

- ألف شركة أجنبيّة مستعّدة أن تشتريه بليون، سامعني؟!!

ثمّ وهي تضحك:

- رأيت أنكم من أصحاب الملايين؟! . . . أنا مستعّدة أن أبيعكم لكم في يوم!

وغادر أمين فيلاً المعادي خائب المسعى ولكنّ الملايين تتطاير من خياله معيدة خلق الدنيا من جديد.

أجل إنّ البيت ملك جدّته، وهي نفسها تعيش بمعاش لا جدوى منه في هذا الزمن. البيع يغنيها ويغني

أولادها وأحفادها. وحتىّ متى ينتظر أبناؤها؟! كوثر ومحمّد ومنيرة يدنون من الستين ويعانون حياة متقشّفة.

جدّته في الثمانين، وهو يحبّها، أو لا يكرهها، وصحّتها

- الخرج فقال لجذته: - معاذ الله، امنحننا بعض الصبر، لا بأس من شرح الفكرة، وأنت في النهاية صاحبة الحق المطلق في القبول أو الرفض، علم الله أنني كاره للحديث، ولكن هل يجوز أن نتجاهل أنك أبنائنا؟!  
فقلت سنيّة بامتعاض شديد:  
- سأصغي إليك وأنا كارهة!  
فقال مستعينا بمهارته المهنيّة:  
- عمّ تمخّض تفكير الأولاد؟، يقولون إن الشركات الأجنبية تشتري الأراضي بأسعار خياليّة، ويؤمنون بأنه يمكن أن نبيع بيتنا بمليون، لا عليك بعد ذلك إلا أن تشتري شقّة أو فيلاً صغيرة مناسبة وأن تستثمري بقيّة المال في مشروعات تدرّ أرباحاً محترمة، في الوقت نفسه تمّدين الأحفاد بما يمكّنهم من تأسيس حياتهم وتحقيق آمالهم، خاصّة وأنّ معاشك لا خير فيه وانتفاعك بالبيت قاصر على الإقامة المجانيّة، هذه هي الفكرة، وهي تستحقّ المناقشة، ولن يملك أحد على قرار تأيينه...  
اشتدّ التأثر بسنيّة لحدّ أنّها لم تستوعب حديث محمّد، غاية ما أدركته أنّهم ائتمروا معاً للانقراض على البيت الذي لا تتصوّر للحياة معنيّ خارج جدرانها. قالت:  
- ضقتم بحياتي والله لا يحبّ ذلك!  
فهتفت منيرة:  
- ماما، كيف هان عليك أن تقولي ذلك؟...  
نحن نحبّك أكثر ممّا نحبّ أنفسنا...  
- عندما رأيتمكم داخلين ملكني شعور غريب...  
فضحك محمّد مدارياً مرارته وقال:  
- لا... اطردني هذا الشعور من فضلك...  
- ولهذا تأويل حلم رأيت الليلة الماضية!  
- تأويله خير ولا يمكن أن يكون إلا خيراً!  
فقلت بحزم:  
- إذن فلنغيّر الحديث...  
ولكنّ أمين تساءل:  
- ألا يجزئك ألنا يا جدّتي؟  
فقلت بانفعال:  
- كيف لا، إنكم تعيشون في خواطري وأحلامي
- الحرج فقال لجذته:  
- معنا كلام يستحقّ أن يُسمع!  
فرمته بنظرة بريئة باسمه فقال:  
- تعلمين طبعاً بتعاب الناس في هذه الأيام، خاصّة الشباب الذين يبحثون لأنفسهم عن مستقرّ...  
فقلت سنيّة بحنان:  
- قلبي معكم والله لن ينسى عبده!  
فقال شفيق:  
- ولكن يوجد حلّ يا جدّتي.  
- يسرني أن أسمع ذلك.  
- الحلّ بيدك أنت!  
فدهشت سنيّة وتساءلت في حيرة:  
- أنا؟  
فقال أمين:  
- إنك تملكين مليوناً من الجنيهات!  
قلّبت المرأة عينها في الوجوه ضاحكة وقالت:  
- مليوناً، ما أملك إلا معاش جدّكم الذي تتناقص قيمته كلّ طلعة شمس...  
فقال شفيق:  
- هذا البيت القديم يساوي اليوم مليوناً بالكامل والتمام...  
تراجع جذعها حتّى التصق بمسند الكنبه ذات الغطاء الأخضر كأنّها تلقت ضربة، وتمتمت بصوت مبجوح:  
- البيت القديم!  
وراحت كالمستغيثة تنقلّ بصرها من رشاد إلى محمّد إلى منيرة ثمّ تساءلت بحدّة:  
- فيم تفكّرون؟  
شعر محمّد بأنه ينبغي أن يشترك في الحديث ليصدّ عنه أيّ مضاعفات فقال برقّة:  
- ماما، معذرة، إنهم متأزّمون، ويروِّحون عن أنفسهم بالشكوى...  
فقلت بوجه متجهّم:  
- إني متألّة.  
فقال بنبرة ملاطفة:  
- فقال بنبرة ملاطفة:

الباقى من الزمن ساعة ٥٨٣

خيال.

وقالت كوثر لرشاد:

- اشرع في بيع الأرض وحسبك ما رأيت

وسمعت...

فهز رأسه موافقاً وقال:

- لكيتي لن أضنّ على الحديقة ببيع المال...

- لا أدري معنى لذلك...

فقال برقة:

- جدتي تحبني أكثر من الجميع وعلى أن أبادلها حباً

بحب...

أما الراجعون إلى القاهرة فقد جمعهم الديزل وهم

في غاية من الانفعالات المتضاربة. قال أمين:

- ما كنت أتصور أنها تملك هذه الطاقة الكبيرة من

العناد!

فقال شفيق:

- لا تريد أن تفهم ولا أن تفاهم...

- لا أريد أن أعمر حتى أبلغ تلك الحال...

فقال منيرة بحدة:

- تذكرنا أنكما تتحدثان عن أمنا!

واختلطت المموم الشخصية بالمموم العامة، وآمن

كثيرون بآنها همّ واحد ذو أساء متعددة، ألا يكون

الحلّ في السلام، في الديمقراطية، في الشريعة

الإسلامية؟! المهمّ ألا يكون حلاً سبق أن جُرب

وأسهّم في تجميع الثمار المرّة الراهنة. ليكن السلام

ولكن ما باله يتدلّل ويتعدّر؟ ولكنّ الديمقراطية، ها

هي الأفكار تتحاور وتتصارع، وتتطوّر من منابر إلى

أحزاب صريحة، بل ها هو الوفد يتعلم كمارد حطّم

قمقمه، وتهتزّ الأرض وتنشقّ عن قرارات انضباط تعيد

المالرد إلى قمقمه ولكنّ الأحزاب الأخرى تتكوّن وحتىّ

اليسار يكرّس له حزب شرعيّ لأول مرّة. وينادي كلّ

حزب بتطبيق الشريعة الإسلامية ويشترك اليسار في

النداء، ويشعر محمّد بأنه لم يكن في يوم من الأيام

أقرب إلى هدفه ممّا هو اليوم. ومع ذلك قال بأسى:

- حتىّ الشيوعيون لهم حزب أما نحن فلا حزب

لنا!

وارتفعت الأصوات المعارضة ولكنّ الأسعار

وإن تجاهلتم وجودي لا فرق بين من يقيم منكم في القاهرة أو في ألمانيا.

- إنك جدتنا المحبوبة في جميع الأحوال.

فلم تستجب لقلوبه وقالت:

- توجد فرص كثيرة فيما نقرأ ونسمع...

فقال لها شفيق:

- أعطنا مثلاً.

- البلاد العربية، أيضاً يمكن أن يبدأ أمين حياة

الزوجية في شقة العباسية...

فقال أمين:

- أيّ زوجين يودّان الاستقلال بمسكن...

وقال شفيق:

- والبلاد العربية ليست تحت طلب الطالب...

فقال بحرارة:

- فكروا ولكن بعيداً عن هذا البيت...

فقال أمين:

- يبدو أنك لم تفهمي الموضوع يا جدتي.

فقال بعناد:

- لا حاجة بي إلى ذلك، ولن يُمسّ البيت وأنا حية!

ونظرت فيها أمامها وقالت بتعاسة لا تحلّ بها إلا في

المليّات:

- لم يبقَ من العمر إلا قليل، اتركوني في سلام حتىّ

يستردّي الله الرحيم...

فقال منيرة بعصبية:

- ولا كلمة أخرى في الموضوع ومعدرة يا ماما...

ولما غادروا البيت أسبلت المرأة جفنيها في إعياء

وغمغمت لنفسها:

- الله يرحمه ويغفر له!

ودون دافع واضح قرّرت أن تمضي صباح الغد في

الحديقة اليابانية قبل أن ينطوي الخريف ويهلّ الشتاء.

لم تعد في نشاطها الأول، وكثير من الذكريات تتلاشى،

وكثير من الأحلام تتراعى ولا تخلو من كوابيس. ثمّ

إنها تغيب كامراً وتتجسّد في صورة ورقة مائيّة يجم

حولها الجشع. ومضت على مهل حتىّ وقفت أمام

الصورة التذكارية وهمست:

- أنت الدليل الحيّ على أنّ السعادة حقيقة لا



- ارتفعت أكثر وامتلات الأسواق بالسلع المستوردة، استهلاكية وكِمالية، وتحذت المهقون عن طبقة جديدة من أصحاب الملايين، كالوباء، يعرف بآثاره وعواقبه ولا ترى مكروباته بالعين المجردة. وإذا بالسماء تمطر دهشة أنت كل ذي هم هم. دهشة أسطورية لم يتصورها خيال من قبل. دهشة تتميز بخواص الخوارق وسجاي المعجزات ونشوة الأساطير. عندما عُرف وأعلن أنّ أنور السادات سيهبط بشخصه في أرض إسرائيل!. وتجمع كثيرون من سكان الأرض أمام التلفزيون ليشاهدوا بأعينهم كيف تتحدّى الإرادة البشرية مجرى التاريخ لتحوّله عن مساره الحتمي عنوة وبلا سلاح. وتجلّى اللقاء بين أعداء الأمم، تصافحت الأيدي، تبودلت الضحكات، والخطب، والصلوات، وتدقّ ماء عذب من شقوق صخر صلد لتصبّ في مجرى مليء بالحصى. واستأثرت الزيارة العجيبة بحديث الجمعة في البيت القديم.
- قال عنها رشاد:
- كأنها غزو القمر.
- وتجلّى الفطور في وجهي محمد ومنيرة، أخيراً وجدا ما يتفقان فيه. قال محمد:
- هذه هي الثغرة التي لا انسداد لها... .
- وقالت منيرة:
- إنه استسلام لا سلام... .
- فتساءلت كوثر ببرود:
- أتريدون حرباً بلا نهاية؟
- وبدت منيرة مطمئنة وسعيدة وإن خفق قلبها طيلة الوقت حباً وعطفاً على رشاد. ونظرت صوب محمد وسألته:
- ما رأي شفيق؟
- إنه مسلم مثلي تماماً.
- إني مسلمة قبلك بربع قرن، وماذا عن سهام؟
- فقال بسخرية:
- متفقة معنا لأول مرة!
- وألفت؟
- أظنها مثلك يا ماما!
- فالتفتت نحو منيرة قائلة:
- وأمين على رأيك؟، طبعاً، أخيراً اتفقوا!
- ورجعت بعينها إلى محمد وقالت:
- إنك رجل تغوص بين الناس، أصدقني بربك ما رأيهم؟
- فمطّ بوزه ممتعضاً وقال:
- الشعب مع السلام بلا عقل!
- فقالت منيرة:
- رأيت استقبالهم للرئيس عند عودته فلم أدهش يا ابني، كان الاستقبال مباحة لشخصه من جديد ومباركة لخطوته، هم الذين يموتون عند الحرب ويجوعون عند اللاسلم واللاحرب، ورأيهم رأي الفطرة السليمة بعيداً عن شرك المذاهب... .
- فقال محمد بصلاية:
- الجهاد لا يعتلّ بالعلل، والحق كالشمس... .
- كلّ شيء مشروع في سبيل الدفاع عن النفس!
- فقالت منيرة:
- يبدو يا ماما أننا خسرنا العرب... .
- فقال محمد:
- دمعونا بالخيانة ولهم حق.
- فسألته باهتمام:
- ماذا يقول الناس عن ذلك؟
- إنهم حانقون على العرب، نسوا التاريخ قديمه وحديثه، ومهما قيل عن أخطائهم فأيديهم لا يمكن أن تنسى... .
- فقالت منيرة:
- أوافقك على ذلك، ولكنّ الصواب يتوارى عند احتدام الخصام!
- بدأ أناس يقولون ما لنا وللعرب، لسنا عرباً، هكذا تبدأ فترة مأساوية في تاريخنا الحافل بالمآسي... .
- فقالت بهدوء:
- الصواب يتوارى عند احتدام الخصام ولكنّه لا يفنى أبداً... .
- فقالت منيرة بازدراء:
- ليس أمامه اختيار فإمّا يدور في فلك الولايات المتحدة وإمّا الموت جوعاً!
- ولكنّ العجوز كانت متفائلة. بل عادت تحلم

الباقى من الزمن ساعة ٥٨٥

ولو أنّ الجمال لا يعنى من عثرات الحظّ - وهل ينسى مثل عمّتها منيرة - وكان يتتابها حينين إلى الحبّ والجنس أيضاً، وتسرها مداعبات المعجبين وما أكثرهم، فتقول لنفسها أحياناً:

- في مكان ما يوجد رجل مناسب واسع الإدراك . . .

والتحمت رويداً رويداً شبّان وشابات يتتمون إلى رؤيتها السياسيّة فأتّعت حياتها بالأنس والخطر معاً، وقالت لنفسها:

- لكلّ كأمّ عليه أن يشرها حتى الثبالة!  
ولما يش أمين من جدّته كما يش من أبيه من قبل قرّر أن يكتب كتابه. وحظيت الفكرة بازدياح أهل خطيبته فضلاً عن هند رشوان نفسها. بذلك وجد الفرص للترويج عن أعصابه وخفّ ضغط الحياة عليه. وكان - وابن خاله شفيق - يتابعان الإعلانات عن الوظائف المطلوبة في البلاد العربيّة. وسأل ابن خاله:

- ألا يعرقل موقف العرب الأخير مساعينا؟  
فقال الآخر:

- علينا أن نجرب.

وفعلت هند رشوان مثلها في متابعة الإعلانات فقالت منيرة لأمين:

- ممكن أخلي لك غرفة في شقّتنا تجهز للنوم.  
فتساءل:

- والمهر؟

فلم تجر جواباً فقال:

- المهندس على أيّ حال مطلوب وسنعتز على حلّ بطريقة ما في الخارج أو في إحدى شركات الانفتاح . . .

وظنّ محمّد أنّه وجد حلّاً لمشكلة شفيق حينما علم بأنّ لأحد تجار الحديد - وهو زميل له في الإخوتيّة - ابنة في سنّ الزواج. وقال لشفيق:

- سيتكفل أبوها بكلّ شيء، حتى المسكن، قانعاً منّا بشيء رمزيّ.

فرحّب شفيق ترحيب المستغيث ولكنّ أفرأحه انطفاة لدى رؤيتها، فهي لم تكن عاطلة من الجمال

بتجديد شباب البيت والحديقة، والمدفن أيضاً.

وفي ذلك الوقت عهد رشاد إلى خاله محمّد بمهمّة بيع الأرض وشراء شقّة له في حلوان فقام بالمهمّة على خير وجه، واشترى له شقّة جديدة في عمارة للملك في شارع الأمين غير بعيد من شارع ابن حوقل. أمّا مهمّة البحث عن زوجة فقد تعثّرت رغم كثرة الباحثين. ولدى كلّ فشل كانت كوثر تشور غاضبة وتقول:

- لولاه ما كان نصر ولا سلام!

وأخيراً أحرزت منيرة أوّل توفيق مع مدرّسة في دائرتها التعليميّة. كانت أرملة لمدرّس في الثلاثين من عمرها - تكبر رشاد بعامين - وأمّ لسلام في العاشرة، تدعى سميحة، وقد شرطت أن يقيم ابنها معها. واستمعت كوثر للمواصفات والشروط بفتور ولكتّها سرعان ما غيّرت رأيها عندما زارت سميحة في عين شمس بيت والدها، فأقرّت لها بالوسامة وقوّة الخلق. ودعت للغداء مع منيرة في البيت القديم - نظراً لظروف رشاد - فتمّ التعارف، والارتياح من جانب رشاد، فقال عقب انصرافها:

- نعمة من الله . . .

وتنبّأت له جدّته بالتوفيق والذريّة. ونشطت كوثر وسميحة مع معونة محمّد لتجهيز الشقّة الجديدة وكان من المتفق عليه أن يقوم رشاد بالأعباء الماليّة. وفي نفس الوقت اتّفق رشاد - بوساطة محمّد أيضاً - مع مقال حدائق، لزراعة الحديقة بشجيرات الورد والأزهار كالفلّ والقرنفل والنجس والحناء والنسرين وأشجار النخيل والكافور والسرو والحوار والأكاسيا. واستعادت روح العجوز مرحها فشعشع رأسها بالأمال وقالت:

- ما دام أمكن هذا فكلّ شيء ممكن . . .

وتّمّ زواج رشاد في وقار وهدوء يناسب حاله. وتذكّرت سهام طريقها الأوّل فغشيتها كآبة عابرة وضاعفت من ساعات عملها بعزيمة ثابتة. العمل وحده يضمّد جرحها ويفتح لها الأبواب. ولم تياس من الرسوّ في مرفأ آمن ما دامت تهيمن على صياغة مستقبلها. كانت وما زالت مطمئنّة إلى جمالها الفريد

٥٨٦ الباقي من الزمن ساعة

غرض؟. وفي الحال تذكّر سليمان بهجت - زوج عمته السابق - وزاهية، وما يتردد على الألسنة. وغادر الشقة بقلب ثقيل وهو يرجو ألا يضطرّ إلى العودة إليها مرة أخرى.

وكمثل حظوظهم تعذّرت مفاوضات السلام حتى أو شك أن يقنط أنصارها ويشمت أعداؤها، ثم ولدت ولادة عسيرة في كامب ديفيد، فانبسطت بحيرات الرضا كما انفجرت براكين الغضب. وكالعادة اجتمعت الأسرة في حلوان عدا الأحفاد منضماً إليهم رشاد الذي انتقل إلى شقته الجديدة بشارع الأمين. وكان المطر يجيء قليلاً ويذهب قليلاً ولا ينقطع، والسما ملبّدة بالغيوم تضيء على الضاحية جواً كالمغيب الدائم. وكان العمل قد بدأ في الحديقة ولكنّه لم يتواصل كالمتوقّع بسبب غياب العمّال المتكرّر، أمّا في ذلك اليوم فقد توقّف بسبب المطر. نظر محمّد إلى أرض الحديقة التي تبدّت كهدف متخلف عن غارة جيّية وقال:

- ستكون أجمل حديقة في حلوان.

فقالت سنيّة بجزع:

- إني أعدّ الساعات والدقائق ولكّني أدعو لرشاد من

صميم قلبي...

فقالت كوثر:

- ها هو السلام فمعي الرخاء!؟

فقال محمّد متهمكماً:

- ما هو إلا كارثة، ولا نجاة إلا بالإسلام!

فابتسمت سنيّة قائلة:

- دائماً تنذروننا بالكوارث ولكنّ الله يجيب

الظنون... وجمع الرعد فارتجفت كوثر، وقالت منيرة:

- أخشى أن يتعلّد علينا الرجوع.

وجعلت سنيّة تسترق إليهم النظرات فتمتلئ بالشجن. هزلوا وشاخوا قبل الأوان، حتى محمّد رغم الإصرار المحفور في صفحة وجهه الذي يذكرها بحامد برهان. ماذا جرى لهم؟. لم ينعم أحد منهم بفرحة صافية أبداً. ولا أحد من أبنائهم. شفيق، كوثر، أمين، عليّ، الجميع سواء. الوحيد الذي عرف نفسه

فقط ولكنّها كانت أيضاً صورة طبق الأصل من أبيها فترجع وهو يقول لنفسه:

- كأنما أنزّوج من الرجل نفسه!

وتضايق أبوه وقال له:

- مال وأخلاق ودين، كن من أهل الباطن!

فأشار شفيق إلى أمه ألقت وقال ضاحكاً:

- بل أكون مثلك من أهل الظاهر والباطن معاً!

فتنهد محمّد قائلاً في غيظ:

- احتار دليبي...

وكان يتسكّع في ميدان طلعت حرب عندما دهمه منظر مشير. رأى صديقته القديمة زكيّة عمّدين خارجة من أحد الحوانيت، ماضية نحو سيّارة شيفروليه زرقاء منتظرة. تراعبا فتوقّفا عن الحركة وتهلّل وجههما بابتسامة، ثمّ تصافحا. دعت إلى الركوب إلى جانبها وانطلقت بالسيّارة. لم تعد الطالبة المنحرفة ولكن أصبحت امرأة تحظر في هالة ذات مغزى دسم. غانية تبرق بالجاه المستورد. لعلّ عريكتها قد لانت عقب انقطاع السيل العريّ. وغلى ماء الشباب المحبوس في عروقه فتبخّرت التقوى ولو إلى حين. قالت وهي تتجه نحو النيل:

- لم تزرني في شقّتي الجديدة!

وكشخص يقيم في جلبة محطّة باب اللوق سحره الهدوء الوافد مع نسائم النيل، كما فتته الديكورات والمرايا والتحف. وبلغت دهشته غايتها عندما رأى أمّ زكيّة. وقد رآها قديماً وهي تسرح بالفاكهة الفاسدة - مقبلة لتحيته في روب مزركش وخمار أرجواني وشبشب مستورد، بيدها مسبحة من القهرمان. وطيلة الوقت عانى من القلق كما عانى من الشهوة المضمرة. سلّم بالهزينة في اللقاء الأوّل إذ كانت المقاومة فوق طاقته. لم يلمس كأس الكونياك، لهذا ما استطاعه. ولما انقصت مخالب الوحش الناشبة في صدره حلّ في ثقوبها الانقباض كالصديد. وسألته ضاحكة:

- أتذكر مشروعك القديم؟

فأجاب بذهول بدافع الحرج:

- طيباً.

ولم تعلق بحرف. ترى أتريد زوجاً حقاً؟. ولأيّ

الباقى من الزمن ساعة ٥٨٧

أم سيد وأعطتها الفنجان قائلة:  
 - اقربي هذا وأسمعي ما يقول.  
 فتساءل محمد ضاحكًا:  
 - أما زلت تصدقني يا ماما؟  
 - إنها مثل أجهزة الإعلام، ولكن لا غنى عنها!  
 وقررت المرأة الفنجان من عينيها السذابلتين،  
 وتفحصته مليًا، ثم قالت بنفس الثقة التي تتحدث بها  
 منذ نيف ونصف قرن:  
 - أمامك سكة ليست بالقصيرة، فيها عقبات،  
 ولكن انظري (مقربة الفنجان من سنية)... هناك  
 تنتظرك السلامة...  
 وهزم الرعد فكاد الفنجان يسقط من يد العجوز  
 ولكن محمد ضحك سائلًا:  
 - ومتى يا أم سيد تزول العقبات؟  
 وكانت سنية المهدي تصعد بصرها وتصوبه ما بين  
 السماء والحديفة فتطوعت بالإجابة قائلة:  
 - عندما يتوقف الرعد!

مستقرًا هو رشاد ولكن بأيّ تضحية فادحة؟. والبيت  
 هل يتجدد حقًا؟. وهذه الأرض المطيئة متى تستوي  
 حديقة غناء؟. إنها في خيالها فردوس وأما في الواقع  
 فأرض تخددها الحفر، وتحقق بها أكوام الطين، متى  
 تنبسط؟... متى تجمي المشاتل؟، متى ينقطع المطر؟،  
 متى يواظب العمال؟. وعقب تناول الغداء انهل المطر  
 أكثر وأرعدت السماء وهبطت السحب المعتمة في  
 تموجات عنيفة. قال محمد:  
 - علينا أن نذهب حال توقف المطر.  
 فقالت سنية:  
 - ما أجل أن تبيتوا ليلتكم عندنا.  
 فسألها محمد مداعبًا:  
 - ما آخر أخبار أحلامك؟  
 فقالت بفتور:  
 - إني أحلم الآن وأنا يقظانة!  
 فقالت منيرة ضاحكة:  
 - كرامة جديدة يا ماما!  
 وحست سنية آخر رشفة في فنجان القهوة ثم نادت

الْحَمْدُ لِلَّهِ

- ١ -

وانتصر عليهم، هاجم مصر السفلى وضمتها إلى مملكته الجنوبية وأعلن نفسه ملكًا على مصر كلها وتوج رأسه بتاج مزدوج، حول مجرى النيل وأنشأ مدينة منف في الفراغ المتخلف عن ذلك.

وقال أوزوريس مخاطبًا مينا:

- هات ما عندك.

فقال الملك مينا:

- لحص تحوت كاتب الآلهة حياتي في كلمات فما أسهل الكلام وأشقّ العمل!

فقال أوزوريس:

- لنا رؤيتنا في تقييم الرجال والأفعال فلا تبدّد الوقت في الشناء على نفسك.

فقال الملك مينا:

- ورثت ملكة الجنوب عن أسرتي، وورثت معها حلماً كبيراً طالما راود رجالها ونساءها وهو تطهير البلاد من الغرباء وخلق وحدة أبدية تضم بين جناحيها مملكتي الجنوب والشمال، وكان صوت عمّي أوز أقوى محرّك لإشعال ذلك الحلم الكبير. كانت ترمقني بإشفاق وتقول:

- أتقضي عمرك في الأكل والشرب والصيد؟

أو تقول بكبرياء:

- لم يعلّمنا أوزوريس الزراعة لتكون مناسبة للاقتتال حول توزيع ماء الفيضان...

وقلت لزوجتي المحبوبة إنني أشعر بجذوة تستمر في صدري ولن تبرد حتى أحقق الحلم، ووجدتها زوجة ملكية رائعة فقالت لي بحماس:

- لا تدع الليبيين يهدّون عاصمتك ولا تدع

انعقدت المحكمة بكامل هيئتها المقدّسة في قاعة العدل بجدرانها العالية المنقوشة بالرموز الإلهية وسقفها المذهب تسبح في سبائه أحلام البشر. أوزوريس في الصدر على عرشه الذهبي، إلى يمينه إيزيس على عرشها، وإلى يساره حورس على عرشه، وعلى مبعده يسيرة من قدميه ترّبع تحوت كاتب الآلهة مسندًا إلى ساقيه المشتبكتين الكتاب الجامع، وعلى جانبي القاعة صُفّت الكراسي المكسوة بقشرة من الذهب الخالص تنتظر من سيكتب لهم الخلاص من القادمين.

وقال أوزوريس:

- قُضي على البشر منذ قديم بأن تمضي حياتهم على الأرض معهم عند عبور عتبة الموت، كالظلّ تتبعهم حاملة الأفعال والنوايا، وتتجسّد فوق أجسامهم العارية. وعقب حوار طويل اتّفقت الكلمة على أنّ هذه الساعة هي الساعة الفاصلة، وها هي المحكمة تنعقد من أجل سياحة طويلة في الزمن.

وأوماً أوزوريس إلى حورس فصاح الشاب بصوت

جهوري:

- الملك مينا.

ودخل من الباب في أقصى القاعة رجل متلقفاً بكفنه، عاري الرأس، حافي القدمين، وأخذ يقرب من العرش بجسمه القوي وملاحه الواضحة حتى وقف على بعد ثلاثة أذرع منه في خشوع كامل.

وأوماً أوزوريس إلى تحوت كاتب الآلهة فراح يقرأ

من الكتاب:

- أعظم ملوك الأسرة الأولى، حارب الليبيين

ابن أعتز بنوتته .  
وصمت أوزوريس قليلاً ثم قال :  
- أيها الملك، اتخذ مجلسك على أول كرسي في  
الجنح الأيمن .  
فمضى الملك مينا إلى كرسيه مدرجاً أنه أصبح من  
أهل النعيم في العالم الآخر .

- ٢ -

وصاح حورس :  
- الملك زوسر ووزيره أحتب .  
وجاء من الباب في أقصى القاعة رجلان في تنابع .  
المتقدم منها ربعة متين البنيان، والمتأخر نحيل أميل إلى  
القصر، كلاهما متلفح بكفنه عاري الرأس حافي  
القدمين، مضيا نحو العرش حتى مثلاً بين يدي  
أوزوريس على الوضع الذي سارا عليه .  
وقال أوزوريس مخاطباً أحتب :  
- تقدم وقف في حذاء الملك فلا فرق في هذا  
المكان بين ملك ورعية .  
فصدح أحتب بما أمر، وراح تحوت يقرأ صفحة  
جديدة .

- الملك زوسر، أسس الأسرة الثالثة، غزا النوبة،  
اكتشف مناجم النحاس في الصحراء الشرقية، بنى  
الهرم المدرج .  
الوزير أحتب، حكيم حفظت الأجيال حكمه،  
برع في الطب والفلك والسحر والهندسة وقدس الناس  
ذكره بعد وفاته بمئات السنين .

ودعا أوزوريس الملك زوسر للكلام فقال :  
- ورثت مملكة موحدة مترامية الحدود جمة الخيرات،  
تحب السلام ولكن يطمع فيها المحذوقون بها . . .  
فابتكرت سياسة لنفسي ولن يجيء بعدي تقوم على أن  
الدفاع عن مصر يقتضي غزو القائمين وراء حدودها،  
ولما كانت النوبة هي أكثر البلاد تسلاً إلى وطني فقد  
قررت توسيع الحدود الجنوبية بغزو النوبة الشمالية  
 وإقامة معبد للإله فيها . وعرف أحتب بعلمه وسحره  
الكنوز المخبوءة في الصحراء الشرقية فأرسلت البعثات  
لاستكشاف بطن الأرض فجوينا على ذلك بالعثور

الناس يمزقون الأرض التي وحدها النيل .  
وانكسبت على تدريب الرجال الأشداء وصليت إلى  
الآلهة مستوهباً الرضا والنصر حتى تحقق على يدي  
الحلم الذي طالما راود آبائي وأجدادي .  
فقال أوزوريس :  
- أزهقت من أرواح الليبين مائة ألف!  
- كانوا المعتدين يا مولاي .

- ومن أرواح المصريين شماليين وجنوبيين مائتي  
ألف .

- راحوا فدية للوحدة . . . ثم حل الأمن والسلام  
وتوقف نزيف الدم الموسمي من جزاء النزاع حول مياه  
النيل . . .

فسأله أوزوريس :  
- لم لم تفتح قومك بالكلمة قبل اللجوء إلى  
السيف؟  
- فعلت ذلك مع جيراني وانضم بعضهم دون قتال  
ثم حقق السيف في أعوام ما لم تكن تحققه الكلمة في  
أجيال .  
- يقدم كثيرون هذا المنطق مداراة لإيمانهم  
بالعنف .

فقال مينا بحرارة :  
- استحوذ على مشاعري مجد مصر وأمنها .  
- ومجدك الشخصي أيضاً .  
فقال الملك مينا بتسليم :  
- لا أنكر ذلك ولكن الخير عم البلاد .  
- وكان لأسرتك وأعوانك أوفى نصيب منه  
وللفلاحين الحد الأدنى .

- مضى أكثر عهدي في القتال والبناء، لم أنعم  
بحياة القصور ولم أهنأ بلذيق الطعام والشراب ولم أمس  
من النساء إلا زوجتي، وكان لا بد من مكافأة الأعوان  
على قدر أعمالهم . . .

وطلبت إيزيس الكلمة . ثم قالت :  
- مولاي يحاكم بشرًا لا آلهة، وحسب هذا الرجل  
الشجاع أنه زهد في النعيم والكسل فطهر البلاد من  
الدخلاء، ووحد مصر فأطلق قوتها الكامنة وكشف عن  
خيراتها المطمورة، ووفر للفلاحين الأمن والسلام، إنه

## أمام العرش ٥٩٣

فقال الوزير أحتب:

- كان رأيي أنّ العلاقات التجارية أنجع من الغزو في تأمين الحدود، وأنّ نفقات المعبد يجب أن تؤخذ من مصر ويُعفى منها أهالي النوبة الفقراء، كما رجوت ألا نرسل البعثات إلى الصحراء الشرقية حتى نوفر لها الرعاية الطبيّة والتمرين الكافي ولكنّ مولاي كان متلهّفًا على دعم أسباب الأمان والرخاء لمصر وأهلها...

فقال له أوزوريس:

- سعيد من يوقّق في الدفاع عن نفسه أمامنا فلا تحاول الدفاع عن غيرك، والآلهة لم تقصّر في تربيتهم فلقتكم مبادئ الزراعة والقتال والأخلاق معًا.

وطلبت إيزيس الكلمة ثمّ قالت:

- زوسر ملك عظيم رغم هفواته وأحتب ابن عزيز تتشرّف به أمة...

وهنا قال أوزوريس:

- أيها الملك، سأكتفي بلموك، فاجلس أنت ووزيرك بين الخالدين.

فجلس زوسر إلى يمين مينا كما جلس أحتب إلى يمين زوسر.

- ٣ -

ونادى حورس:

- الملك خوفو.

فجاء الملك بقامته المتينة المائلة للطول، عاري الرأس حافي القدمين متلفّعًا بكفته حتى مثل أمام العرش بخشوع.

وقرأ نحوت كاتب الآلهة:

- الملك خوفو، رأس الأسرة الرابعة، صاحب الهرم الأكبر، نظّم الإدارة تنظيمًا لم تعرفه من قبل ولا من بعد، وفي عصره فاضت الأرض بالخيرات وعمرت الأسواق وبلغت الزراعة والصناعة والفنون أقصى درجات الرفعة، وانفجرت هيبة فرعون في الآفاق كالشمس فهابتها القبائل فشمّل السلام الربوع والأنفس...

ودعا أوزوريس الملك للكلام فقال:

عل مناجم النحاس الذي وجدنا فيه منافع قيّمة في السلم والحرب، وتكاثر الخير فشيدت الهرم المدرّج، كما شجعت العلوم ومكافأة النابغين فيها، ومضت الأيام في عهدي حاملة لمصر التقدّم والقوّة.

ودعا أوزوريس أحتب للكلام فقال:

- نشأت محبًّا للعلم والمعرفة، ودرست على كهنة منف العظام فحصلت على أقصى الدرجات في الطبّ والهندسة والفلك والسحر والحكمة، ولمّا علم الملك بتفوّقي دعاني إلى العمل في حاشيته رغم انتهائي إلى الشعب الفقير فأثبتت جدارتي في كلّ ما كلّفني به، عاجلت بنجاح الملكة من مرض من أمراض الخماسين وأنقذت بالسحر كبرى الأميرات من روح شريرة وعين حاسدة فولّاني الملك الوزارة وعهد إليّ ببناء الهرم فكان تحفة البناء في عصره، وما بلغت ما بلغت من شأو في العلم والعمل إلا بتأييد رع وإلهامه...

وقال أوزوريس للملك زوسر:

- لقد غزت النوبة دون أن تبدر منها أيّ بادرة اعتداء على حدود مملكتك؟

فقال الملك زوسر:

- قلت يا مولاي إنّي اهتديت إلى فكرة الدفاع عن الحدود بغزو القائمين وراءها.

- نظريّة لا تصدر إلا عن قوويّ يضمّر العدوان...

- كان واجبي الأوّل أن أدفع عن بلادي أيّ أذى محتمل...

- وشيّدت معبدًا للإله وأوقفت عليه أراضٍ كان يتنفع بها الفقراء.

- ولكنّ للمعابد حقوقًا فوق كلّ الحقوق.

- كلام لا يُقبل دون مراعاة للظروف والملايسات. ولاذ الملك بالصمت فقال أوزوريس:

- ولم توفّر لعمال المناجم الرعاية الكافية فهلك منهم كثيرون!

فقال الملك:

- لا ينجز عمل كبير بلا تضحية وضحايا.

ووجّه أوزوريس الخطاب إلى الوزير أحتب قائلاً:

- حدّثني عن موقفك من سياسة الملك...



## ٥٩٤ أمام العرش

- ولكنك أزهقت روحًا بريئة عندما تنبأ لك رجل بأن طفلاً سيرث عرشك.

- على الملك أن يدافع عن عرشه دفاعه عن وحدة أمته، وفي سبيل ذلك يصيب ويخطئ.

- ألم يكن في ذلك تحدُّ لإرادة الإله؟

- نحن نفعل ما نراه واجبًا ويفعل الإله ما يشاء.

فقال أوزوريس:

- وذاعت أقاويل عن احترام كبرى بناتك الدعارة.

فقال خوفو بأسى:

- قد يُصاب أنبل الناس في عرضه بغير علمه.

- بل قيل إنك باركت سقوطها لتواجه عسرًا أم بك؟

- محض افتراء، ولا يجوز الخداع في هذه القاعة المقدسة!

وطلبت إيزيس الكلمة ثم قالت:

- هذا ملك منير مثل الشمس في سماء العروش، وكم من إمبراطوريات تلاشت وبقي هرمه شامخًا، وطالما كانت عظمته مثار حسد لدى العاجزين من بني وطنه والغرباء.

وعند ذاك قال أوزوريس:

- اجلس أيها الملك على كرسيك بين الخالدين.

- ٤ -

وهتف حورس:

- الحكيم بتاح حتب.

فدخل رجل صغير الجسم نحيله، لم يقلل عري رأسه وقدميه من وقاره، وتقدّم على مهل حتى مثل في أدب أمام العرش.

ومضى تحوت كاتب الآلهة يقرأ:

- الحكيم بتاح حتب، عاش مائة وعشرة، عمل وزيرًا للملك أسيسى أحد ملوك الأسرة الخامسة، له وصايا قيّمة ذاتة الصيت.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- تلقّيت العلم في معبد بتاح، وتجلّى تفوّقي منذ صباي، وعملت كاهنًا ردحًا من الزمن حتى اختارني

- فُتنت منذ صغري بالدقّة والنظام، وآمنت بأنه يجب أن يكون لكلّ نشاط قوانينه وتقاليده لا فرق في

ذلك بين الشرطة والنحت أو العمارة أو الحياة الزوجية، فنقذت شخصيتي إلى كلّ قرية متمثلة في

الموظفين ورجال الأمن والمعابد وأصبحت مصر مجموعة من التقاليد السامية والنظم الدقيقة، وهو ما أعاني

على تشييد أعظم بناء عرفه الإنسان، اشتركت فيه الألوف المؤلفة على مدى عشرين عامًا فلم يتسلّل إليه

اضطراب أو إهمال، ولم يجرّم أحد من العاملين فيه من العناية والرعاية ولم يغب في الوقت نفسه عن عين

الرقابة الساهرة، هكذا خاض قومي تجربة فذّة بنجاح مثاليّ وأثبتوا قدرتهم الفائقة على خدمة الإله والفوز

برضاه وبركاته.

فسأله أوزوريس:

- هل سخرت أمتك لبناء قبر لك؟

فقال الملك خوفو:

- لو أردت قبرًا لحفرته في الجبل بعيدًا عن الأعين الطامعة ولكنّي شيدت رمزًا للخلود الإلهيّ يحوي من

الأسرار ما لا يحيط به عقل بشر، وتنافس الناس في العمل به حتى أقمت لهم مدينة كاملة وسعيدة ومقدّسة

حيث يُبذل الجهد فيها من أجل الإله وحده... كان عملاً يليق بالأحرار لا العبيد!

والتفت أوزوريس إلى الجالسين إلى يمينه ثمّ كتّب

لهم الخلود السعيد في العالم الآخر وقال:

- يُسمح الكلام لمن يشاء.

فقال الملك مينا:

- عمل مجيد يدكّرني ببناء منف العظيمة التي لم يهلهني العمر لأتمّها.

وقال الملك زوسر:

- كان الأوفق توجيه القوّة المتاحّة للغزو وتأمين الحدود.

فقال الملك خوفو:

- كانت خيرات البلاد المتاخمة تأتيني بلا قتال، وكان حرصي على أرواح رعيتي لا يقلّ عن حرصي على

المجد والخلود.

فقال له أوزوريس:

## أمام العرش ٥٩٥

جراً ذلك». . . وقد أعلنت ذلك بناءً على ما ذاع عما يجري في حريم القصر.

فسأله أوزوريس:

- ألم يكن الملك يسيء معاملة حريمه؟

- من أجل ذلك قلت أيضًا «إذا كنت عاقلاً فدبر منزلك وأحب زوجتك، شريكك في حياتك، وقدم لها الطعام والملابس، وأحضر لها العطور وأدخل عليها السرور، ولا تكن شديدًا معها، فباللين تملك قلبها، وأد مطالبها الحقّة ليدوم معها صفاؤك ويستمرّ هناؤك».

فقال أوزوريس:

- أسمعنا وصيةً موجّهة للجميع.

- لا تترك التحلّي بحلية العلم ودمائة الأخلاق.

فقال الملك مينا:

- لم يكن في عصري حكماء ولكن الرجال حرّروا أرضهم من الدخلاء ووحّدوا مملكتهم، وما هو عصر انحلال وفساد لم يتمخض عن فعل قيم ولكنّه ترك بعض الكلمات الجميلة، فما جدوى الحكمة؟!

فاعترض خوفو قائلاً:

- الحكمة تعيش كالحرم وأكثر.

وقالت إيزيس:

- لا تقللوا من قيمة ابني الحكيم، نحن نحتاج إلى الحكيم في عصور التدهور كما نحتاج إلى الطبيب في أيام الأوبئة، وسيظلّ للكلمة الطيبة أريجها على الدوام.

وأخيراً قال أوزوريس:

- اذهب أيها الحكيم إلى كرسيك بين الخالدين.

- ٥ -

وصاح حورس بصوته الجمهوري:

- ثوار فترة الظلام الممتدة ما بين سقوط الدولة

القديمة وقيام الدولة الوسطى.

تدخل جماعة متباينة الأشكال والأحجام، مضت في أكفانها عارية الرءوس حافية الأقدام حتى مثلت في صف واحد أمام العرش.

وتلا تحوت كاتب الألهة صفحة جديدة:

- هؤلاء هم رءوس الثورة، قادوا الجماهير الغاضبة

الملك وزيراً له، وكانت أيام العظمة والمجد قد ولت وكأنتها لم تكن، وولي العرش ملوك لا قوّة لهم ولا حكمة، شغلوا بأهوائهم عن البناء والتدبير وتحقيق الأهداف، فقوي نفوذ الكهنة وطمع حكام الأقاليم في السلطة ونيل المآرب، وانتشر الفساد بين الموظفين، فناء الفلاحون بالظلم والهوان، وارتفعت آتات الشكاوى حتى انعقدت دخاناً في السماوات، ودأبت على تأمل الأحوال بمرارة وأذهلتني العلاقة المبهمة بين الآلهة والناس، ولم أقصر في إبداء المشورة ولكنّها تلاشت في تضاعيف التسيّب والأنانيّة، ولما بلغت العاشرة بعد المائة استدعاني الملك وأمرني أن أضع كتاباً أجمع فيه مختارات من وصاياي ففعلت. . .

فقال له أوزوريس:

- أسمعتنا بعضاً من وصاياك.

فقال بتاح حتب:

- إذا دعاك كبير إلى طعام فاقبل ما يقدمه لك ولا تتكلّم إلا عندما يسألك.

- ما سرّ اهتمامك بأداب المائدة؟

- قصدت في الظاهر آداب المائدة ولكنّي عرضت في الحقيقة بجشع الكهنة الذين كانوا يطالبون بالمزيد من الأوقاف ويتخمون بالماكل والمشارب!

فقال أوزوريس:

- أسمعنا مزيداً من وصاياك.

فقال بتاح حتب:

- لا تخن من ائتمنتك لتزداد شرقاً ويعمر بيتك، وعنت بها حكام الأقاليم الذين دأبوا على بسط نفوذهم متحدّين وحدة المملكة.

وهنا تساءل الملك مينا:

- هل نسوا الدماء التي سُفكت في سبيل الوحدة؟

فقال الملك خوفو:

- وكيف استهانوا بالتقاليد والأخلاق التي تقدّست في عهدي؟

وأشار أوزوريس إلى الحكيم بتاح حتب ليواصل حديثه فقال:

- قلت أيضًا «إذا دخلت منزل غيرك فاحذر أن توجّه ذهنك إلى خدر نسائه، فكم هلك أناس من

## ٥٩٦ أمام العرش

وانطلقت قذائف الغضب الأحمر على الحكام والموظفين ورجال الدين والمقابر، ثم استولينا على مقاليد الحكم.

فقال أوزوريس:

- أما قرأت أشعار إيبور الحكيم وهو يرثي المقدسات وما حلّ بالصفوة وضياح القيم؟

فقال أبنوم:

- كان إيبور شاعرًا حقًا ولُكِّتِه كان ينتمي إلى السادة الظالمين ففاضت دموعه حزناً على أبناء وبنات الطغاة وهاله أن يحلّ محلّهم أبناء الشعب . . .

فقال الحكيم بتاح حتب:

- إنك تتحدث يا أبنوم من منطلق حقد أسود وهو إثم كبير.

فقال أبنوم:

- إنّه الحقد الذي زرعه في صدورنا السادة الظالمون.

فقال الملك زوسر:

- عجيب ما أسمع وحقّ الآلهة! . . . ما مصر إلا مركب من تقاليد مقدّسة إذا اختلّ منه عنصر تطاير البناء وتفتّت، ففرعون هو الإله المجسّد، والصفوة نوابه الذين يعكسون نوره، والموظفون خدمه وأتباعه المبلغون رسالته، فكيف يحلّ مكان هؤلاء قوم من الفلاحين والصنّاع والصيدان؟

فقال أبنوم:

- لقد حلّوا محلّهم بالفعل وأثبتوا أنّهم خير منهم وأنّ الآلهة تتجسّد فيمن يرفع راية العدل والرحمة أيّما يكون . . .

فهتف الملك زوسر:

- يا لك من وقح!

فالتفت أوزوريس إليه قائلاً:

- لا أسمح بتجاوز الأدب في الخطاب، اعتذّر.

فقال زوسر في خشوع:

- أقدم المَعذرة والأسف.

فقال أوزوريس مخاطبًا الجالس على كراسيّ الخلود:

- تسمح تقاليد المحاكمة لكم بال مناقشة ولكن في حدود الأدب، وتذكروا جيّدًا أنّكم قد تناقشون أناسًا

في ثورة دمويّة مخزّبة، ثم حكموا البلاد عهدًا طويلًا امتدّ ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى. ولم يتركوا وراءهم أثرًا يدلّ عليهم إلا المعابد المهذّمة والقبور المنهوبة والذكريات المرعبة.

فقال أوزوريس:

- رشّحوا من يمثلكم عند اقتضاء الكلام.

فأشاروا إلى رجل نحيل طويل كأنما قدّ وجهه من صخر، وقالوا:

- أبنوم، فهو أوّل من دعا إلى العصيان والقتال.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال أبنوم:

- تجاهل التاريخ أساءنا وأفعالنا، فهو تاريخ يدوّنه الخاصّة ونحن من عمّامة الفلاحين والصنّاع والصيدان، ومن عدالة هذه القاعة المقدّسة أنّها لا تغفل من الخلق أحدًا، وقد تحمّلنا من الآلام فوق ما يتحمّل البشر، ولما انصبّ غضبنا الكاسر على عفن الظلم والظلمة نعتوا ثورتنا بالفوضى وعتونا باللصوص، وما كانت إلا ثورة على الطغيان باركتها الآلهة . . .

فسأل خوفو:

- كيف تبارك الآلهة العدوان على المقدسات؟

فقال أبنوم:

- بدأت المأساة بضعف الملك بيبي الثاني لعجزه وطعونه في السنّ وذهوله عمّا يجري حوله وتسليمه بأكاذيب المنافقين من حوله، فاستقلّ حكام الأقاليم بأقاليمهم واستبدّوا بالأهالي، فرضوا المكوس الجائرة، ونهبوا الأقوات، وأهملوا أيّ إصلاح للرّي والأرض، وانضمّ إليهم الكهنة حرصًا على أوقافهم، يبيحون لهم بفتاواهم الكاذبة كلّ منكر، غير مبالين بأنات الفقراء وما يعانون من قهر وذلّ وجوع، وكلّما قصدهم مظلوم طالبوه بالطاعة والصبر ووعده بحسن الجزاء في العالم الآخر، وبلغ منّا اليأس غايته، فلا حاكم يعدل، ولا قانون يسود، ولا رحمة تهبط، فانطلقت بين قومي أذعواهم إلى العصيان ومحاربة الظلم بالقوّة، وسرعان ما استجابوا إلى النداء، فحطّموا حاجز الخوف والتقاليد البالية، ووجّهوا ضرباتهم القاتلة إلى الطغاة والظالمين، وسرت النار المقدّسة إلى جميع البلاد

## أمام العرش ٥٩٧

فقال ابنوم:

- أشهد أمام عدالتكم بأنني لم آمر بها ولم يبلغني خبر عنها. . .

وهنا قالت إيزيس:

- أقرّ لهذا الابن بأنه من أحكم أبنائي وأنبليهم، سعدت بلادي في عهده سعادة لم تذقها من قبله ولا بعده، وأنّ إيمانه يشهد له بالصدق والتقوى، أمّا ما ارتكبت من جرائم في ثورته فلا تخلو الجماهير النائرة من مجرمين يندسّون في جموعها إشباعًا لنزواتهم. وتفكّر أوزوريس وقتًا ثمّ قال:

- اذهبوا يا سادة إلى مجالسكم بين الخالدين.

- ٦ -

وصاح حورس:

- أمنتحمت الأوّل.

وجاء رجل متوسط الطول قويّ البنيان بالحال التي يجيء عليها القادمون، فمثل بين يدي العرش. وراح تحوت كاتب الآلهة يقرأ:

- رأس المملكة الوسطى، طهر البلاد من بعض الدخلاء، قضى على المنازعات الداخليّة، وساس حكّام الأقاليم بالحكمة، وغزا بلاد النوبة. ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- كنت أحد حكّام الأقاليم، وكانت السلطة المركزيّة في غاية من الضعف والفساد، وكانت الحروب لا تهدأ بين حكّام الأقاليم حتّى غزا البدو بعض أطراف المملكة، وأحزنتني جدًّا ما آل إليه حال بلدي فصمّمت على إنقاذها، فرضت على نفسي وأسرتي التقشّف ودربت الرجال ثمّ غزوت ما حولي من أقاليم وأعلنت نفسي ملكًا وطالبت الحكّام بالولاء، ورضيت في سبيل ذلك بالنزول لهم عن بعض الامتيازات واتّخذت من أبنائهم حاشية لي، ثمّ زحفت بجيش قويّ على المتسلّلين فظهرت البلاد منهم، ونظّمت الإدارة وأصلحت المعابد ونشرت الأمن والعدل في الريف، ثمّ غزوت النوبة لأقيم معبدًا للإله الذي أئدني بنصره.

فقال أوزوريس:

من ديانات أخرى جدّت بعد دينكم!

ثمّ التفت إلى ابنوم وقال:

- كان عهدكم عهد ظلام فلم يخلف وراءه أثرًا ولا وثيقة؟

فقال ابنوم:

- ذاك من فِعْل المؤرّخين، لقد أقام الفلاحون حكومة من أبنائهم، حكمت البلاد فاستتبّ الأمن وانتشر العدل وامتدّ ظلّ الرحمة، شيع الفقراء وتلقّوا العلم والمعرفة وتولّوا أكبر المناصب، قامت دولة لا تقلّ في عظمتها عن دولة الملك خوفو. ولكنّها لم تبدّد المال في بناء الأهرامات ولا في الحروب، وأنفقته في النهوض بالزراعة والصناعة والفنون وتجديد القرى والمدن، ولمّا رجعت مصر بعدنا إلى عصر الملوك أحرقوا وثائق البرديّ المسجّلة لأعمالنا. . .

فقال الملك خوفو:

- غابت عنك حكمة بناء الهرم.

وقال الملك زوسر:

- وغابت عنك حكمة إعلان حرب لغزو بلد على الحدود.

فقال ابنوم:

- كان شعارنا أنّ تربية فلاح خير من بناء معبد.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- نطقت بالكفر.

فقال ابنوم:

- ليس الإله بحاجة إلى معبد ولكنّ الفلاح بحاجة إلى التربة، من أجل ذلك باركتنا الآلهة فحكمتنا مئات السنين في سلام ورخاء.

فسأله الملك زوسر:

- إذن فلماذا تقوّضت مملكتكم؟

- تقوّضت عندما نسي الحكّام أصلهم الذي نبتوا فيه وتوهّموا من جديد أنّهم منحدرين من صلب رع فأصابهم الكبر وتسلّل إليهم الظلم فحاق بهم ما حاق بكلّ ظالم.

فقال أوزوريس:

- تخلّل ثورتكم ارتكاب جرائم فاضحة لا يقرّها

دين أو خلق أو قانون.

## ٥٩٨ أمام العرش

- كدت تُقتل في مؤامرة دبّرتها حاشيتك فما تعليقك لذلك؟

- أرادت امرأة أن تغتصب العرش لابنها وضمت إليها بعض رجال النوبة . . .

- النوبة بلاد فقيرة لا تحتل اغتصاب بعض أراضيها لوقفها على المعابد.

- تُصادفنا ضرورات لا مفرّ منها.

وهنا تكلمّ الثائر ابنوم قائلاً:

- كان عليك أن تعيد الحكم للفلاحين، ولكنك نسيت أصلك وأرجعت البناء الظالم القديم إلى أصله.

- كان حكام الأقاليم قد نسوا أصلهم، وإرجاع الحكم للفلاحين كان يعني حرباً أهلية . . .

فقال له الملك خوفو:

- لقد أعدت إلى مصر تراثها المقدس.

وقالت إيزيس:

- لقد أنقذ مصر من الفوضى وأجلسها على عرش المجد من جديد، ولم يكن في وسعه أن يفعل خيراً مما فعل.

ونطق أوزوريس بالحكم قائلاً:

- خذ مجلسك بين الخالدين.

- ٧ -

وهتف حورس:

- الملك أمنمحتت الثاني.

ومضى نحوت كاتب الآلهة يقرأ . . .

- اتّبع سياسة والده.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- أحطت خبراً بكلّ سياسة أبي ولم أجد من سبيل خيراً من أن أتبعها بكلّ دقة وأمانة.

فقال الثائر ابنوم:

- ولكن من لا يتقدّم خطوة يتأخر خطوتين.

فقال أمنمحتت الثاني:

- لقد وطّدت علاقة مصر بالنوبة، وأنشأت علاقات جديدة مع بلاد بنت جلبت لنا العطور والبخور . . .

فوجه ابنوم سؤالاً إلى أوزوريس قائلاً:

- مولاي، هل يتساوى جميع الخالدين في العالم الآخر؟

فقال أوزوريس بجفاء:

- يجب أن تعلم أنك لم تعد نائراً يا ابنوم، ولكن لا بأس من أن أشرح لكم المصير، فاعلموا أنّ محكمتي تفضي إلى ثلاثة مقامات، مقام الجنة، ومقام الجحيم، ومقام بينها للتافهين غير المذنبين ممن لا يستحقون الجنة ولا النار، فضلاً عن ذلك فإنّ الجنة مراتب، ففيها ملوك وفيها خدم كلّ بحسب عمله في الدنيا . . .

وقالت إيزيس:

- حسبه أنّ البلاد نعمت في عهده بما نعمت به في عهد أبيه من أمان ورخاء غير منكور.

فقال أوزوريس:

- خذ مجلسك بين الخالدين.

- ٨ -

وصاح حورس:

- أمنمحتت الثالث.

فدخل رجل عملاق، سار بكفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ نحوت كاتب الآلهة:

- تمتعت الدولة في عهده بالاستقرار والأمان والقوة، ووجه همته لاستخراج المعادن من الصحراء، جدّد وسائل الريّ، زادت المحاصيل وعمّ الرخاء . . .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- ورثت ملكاً مستقرّاً فزادته استقراراً ببناء جيش قويّ، ودام حكمي خمسين عاماً فأتيحت لي فرصة طيبة لإرسال الحملات إلى الصحراء واستخراج المعادن. وجدّدت وسائل الريّ، ففاض الخير، وارتقى الأدب والفنّ كما لم يرتقيا من قبل، وقد تغنى الناس بعهدي مترنمين:

يكسو القطرين حلّة خضراء

هو الغذاء وفي فمه الخير

فقال أوزوريس:

- ترك لك جدك وصيّة تقول «واجبك يحتم عليك استعمال الشدّة مع مرعوسيك، فالناس تحترم كلّ من يخيفهم ويفزعهم، لا تتخذ منهم أحاً ولا رفيقاً ولا صاحباً، كلّ من أكل خبزني قام ضدّي، وكلّ من

## أمام العرش ٥٩٩

فدعاهم أوزوريس إلى الكلام فقال سبكمساف:  
- عشت مهتدًا من أسرتي والحاشية، فعجزت عن  
مواجهة التحدييات.

وقال الآخرون مثل قوله ثم غشيه الصمت.  
فقال أبونوم:

- واضح أنه لم يوجد في مصر كلها رجل يبيض  
قلبه بالإخلاص، وما أشبه تلك الحال بالحال التي  
كانت عليها البلاد يوم دعوت الفلاحين للثورة.  
فقال أمنمحتت الأول:

- إنك لا تفكر إلا في الثورة، وقد كنت حاكمًا  
لإقليم ووجدت البلاد تغرق في الفوضى فلم أدع إلى  
فوضى أشد ولكني دزيت الرجال واستوليت على  
العرش فأنقذت الأرض والناس دون عدوان على  
الأوضاع المقدسة ودون إهدار للأرواح والأعراض...  
وقالت إيزيس:

- كانوا ضعافًا ولا حيلة لضعيف.

فقال أوزوريس:

- لقد ارتكبتم في حق وطنكم جريمة لا تغتفر. ولم  
يكن الضعف ذنبكم الوحيد، ولكن خلت قلوبكم من  
النبيل والنوايا الطيبة، فذهبوا إلى الباب الغربي المضي  
إلى الجحيم.

- ١٠ -

وهتف حورس:

- الملك سيكترع.

دخل رجل نحيل القامة مع ميل إلى الطول، فتقدم  
في كفته حتى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- كان أمير طيبة وحاكم الجنوب الأقصى وهو  
الإقليم الذي لم يخضع لحكم الهكسوس وإن اضطر إلى  
دفع الجزية لهم، وتحرش به الهكسوس تمهيدًا لضم  
إقليمه إلى سيادتهم المباشرة مدعين أن خوار أفراس  
البحر في بحيرة قصره تنفي النوم عن أجفان ملكهم،  
ولكنه أبى التسليم، وتقدم على رأس جيشه لمواجهة  
التحدي، وقد أبلى بلاءً حسنًا وسقط في المعركة قتيلًا  
بإصابات عديدة في رأسه ووجهه.

اثتمنته خانني» فكيف انتفعت بها؟

فأجاب أمنمحتت الثالث:

- لا أنكر أنني تأثرت بها أول عهدي بالحكم،  
وجميع أفراد أسرتي زلزلتهم المؤامرة التي كادت تودي  
بحياة جدتي العظيم الطيب حتى الذين لم يعاصروها،  
ونصحتني بعض المستشارين بالأغلق الخير على شعبي  
أن يتمرد ويطنخي، ولكن القلب لا يستجيب في  
المعاملة إلا إلى إلهامه الذاتي، وقد وجدته يحنني على  
حب الناس وفعل الخير فلم أتردد في إطاعته ولم أندم  
على ذلك أبدًا.

فقال أمنمحتت الأول:

- لقد أخطأت يا بني ولولا حسن حظك  
لهلكت...

فقال الحكيم أحمب وزير الملك زوسر:

- بل أصبت السداد والرشاد فإن القلب إن نطق  
عن الخير فإتما عن إلهام إله ينطق.

فقال الثائر أبونوم بمرارة:

- وأسفاه، كان الشعب يحكم فأصبح الإحسان  
إليه موضع جدل...

وهنا قالت إيزيس:

- هذا الابن الطيب العظيم تتفتح له أبواب السماء  
بلا دفاع.

فقال أوزوريس:

- اذهب إلى مجلسك بين الخالدين...

- ٩ -

ونادى حورس قائلاً:

- الملوك سبكمساف، نفر حوتب، حانحور، نفر  
خارع، أنتف، تبايوس.

فدخل الستة في أكفانهم وساروا عراة الرؤوس حفاة  
الأقدام حتى مثلوا بين يدي العرش.

قرأ تحوت كاتب الآلهة:

- حكموا مددًا قصيرة، اشتهرت بالضعف والفساد  
والتناحر على العرش، فقوي حكام الأقاليم والكهنة،  
وطغى الموظفون، وجاع الشعب، وطمع في مصر  
لصوص الأمم حتى احتلها الهكسوس فأذاقوها الهوان.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- إني أنتمي إلى الأسرة التي قاومت الغزو وتحصّنت في الجنوب حتى ملّ العدو محاربتها فأعلنت الهدنة وترك الجنوب الأقصى تحت حكم أسرتي نظير جزية سنوية، واستمرّ الحال على ذلك أكثر من مائة عام حتى وليت الحكم، ولم أكن أني عن التفكير في العدو الغاصب ولا في الاستعداد لمناجزته إذا سوّلت له نفسه الزحف جنوباً. وكانت إمكاناتي في العدة والعدد محدودة فضممت النوبة إلى إقليمي وعاملتها معاملة النّد للندّ وقويت جيّشي بتجنيد بعض رجالها. ولما تحدّاني العدو تضاربت الآراء من حولي، فدعت قلّة إلى الدفاع وحدّرت الكثرة من سوء العاقبة، ولكنّي شجعت الخائفين وأيقظت الهمم بالدين والحكم والأمثال حتى صحت العزيمة على القتال، وقد قاتل جيّشي قتالاً مريزاً استردّ به بعض ثقتة بنفسه، وفي إحدى المعارك أحاط بي الأعداء فقتلت منهم ثلاثة ثمّ انهالت عليّ الحراب والبلط.

فسأله الحكيم بتاح حتب:

- هل استفدت جميع الوسائل السياسيّة قبل الدخول في معركة غير متكافئة؟  
فقال سيكنرع:

- قد فعلت، إذ كانت تلزمني ثلاث سنوات استعداداً للتاريخ الذي وقّته بدءاً للمعركة ولكنّي علمت بأنهم حشدوا جيّتهم قبل إرسال إنذارهم.

فقال أبنوم:

- عشتَ بطلاً ومثّ بطلاً.

فقال إيزيس:

- أكرّر ما قال ابني أبنوم من أنك عشتَ بطلاً ومثّ بطلاً.

وعند ذلك قال أوزوريس:

- إلى كرسيك بين الخالدين.

- ١١ -

ونادى حورس:

- الملك كاموس.

فجاء رجل متوسط القامة متين البنيان فمضى إلى

موقفه أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- تولّى الإمارة في نفس اليوم الذي قُتل فيه أبوه حتى لا تبين العزائم، وألقى نفسه في المعركة دون تردّد، وظلّت الحرب سجّالاً وهو صامد على رأس جيشه حتى مات.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- وجدت نفسي مطالباً من بادئ الأمر بالمحافظة على روح القتال بين جنودي الذين هزّم مصرع قائدهم، فانقضضت على مقدّمة العدو ولم أترك لجنديّ من جنودي فرصة للتردّد. ولم تغب عن تقديري قوّة العدو وتفوقه، فتحصّنت في موقع ضيق بين النيل والجبل واتخذت موقف الدفاع حتى استردّ الأنفاس وأجمع الشمل، وفي الوقت نفسه واصلت التجنيد والتدريب، وفارقت الحياة بعد أن أعياني الجهد والسهر...

فقال الملك مينا:

- عاش كلانا مدّة حكمه في ميدان القتال.

وقال أبنوم:

- جميع الملوك مدينون بجاههم لمصر إلا هذه الأسرة فإنّ مصر مدينة لها...

وقالت إيزيس:

- ليس الرجل في حاجة إلى دفاعي.

فقال أوزوريس:

- خذ مجلسك بين الخالدين.

- ١٢ -

وصاح حورس:

- الملك أحس.

فدخل رجل طويل مشوق القامة، فمضى بكفنه حتى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- حلّ محلّ أبيه عقب وفاته، ولم يكفّ عن المناجزة العدو، واستكمل في أثناء ذلك استعداده فتحول من الدفاع إلى الهجوم وأثبت مهارة في القيادة تضاهي شجاعته الشخصيّة فانتقل من نصر إلى نصر، حتى

## أمام العرش ٦٠١

فطردهم بعد أن كَبَدَهم خسائر فادحة، كما مَدَّ حدود مصر الجنوبيَّة، ثمَّ غزا جانبًا كبيرًا من سوريا. ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- وليتُ العرش فوجدتُ أنَّ ذكريات الماضي البعيد والقريب لا تبرح الأذهان. فالشيوخ لا ينسون أشباح الهكسوس وإذلالهم لهم، والشبان ينتشون بانتصارات أحس ويطالبون بالمزيد منها، فعكفتُ أولًا على تنظيم الإدارة ونشر مظلة القانون والأمن ومراقبة الموظفين، وحدث أن تعرَّضت الحدود الغربيَّة لزحف لبيي فتصدَّيت له بسرعة فاقت تقدير العدو وأنزلت به هزيمة منكرة، ولفحتني نار الحماس المؤجَّجة في قلوب القوَّاد والضباط فقامت بغزوة موفَّقة في مجاهل النوبة، ثمَّ أبلغتني العيون أنَّ فلول الهكسوس تتجمَّع طمعًا في استرداد ما فقدته في بلادنا فسرت على رأس حملة فأعلنتُ فلسطين الولاء دون قتال، ثمَّ هجمت على تجمَّعات الهكسوس في غرب سوريا فمزقت شملهم وقضيت على البقيَّة الباقية منهم، وأمرت بتشيد معبد لأمون ثمَّ رجعت بالأسرى والغنائم، وتعهَّدت جميع البلاد المنزوة بدفع الجزية فازدادت موارد البلاد وعمرت الأسواق.

فقال أحس:

- أحسنت بما فعلت كلَّ الإحسان، فحدود مصر الجنوبيَّة لا تأمن إلَّا بامتلاك النوبة، ومركز الدفاع عن حدودنا الشرقيَّة يقع في سوريا.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- هذا يعني أنَّ أمان مصر لا يوجد حقًا إلَّا بخلق أعداء مورتورين خارج حدودنا!

فقال أحس:

- علَّمتني الحياة أنَّها صراع مستمرٌّ لا راحة فيه لإنسان، ومن يتهاون في إعداد قوَّته يقدم ذاته فريسة سهلة لوحوش لا تعرف الرحمة.

فقال أمنحتب الأوَّل:

- ولم أضنَّ بغالٍ من القرايين على المعابد، استجلابًا لبركة الألهة ففي ساحتها المقدَّسة الضمان الأوَّل والأخير لنجاة مصر...

فقال إيزيس:

حاصر هوارييس عاصمة الهكسوس واقتحمها، ثمَّ طارد العدوَّ في آسيا حتَّى مزقه وشتت فصائله... فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- الحقُّ أنَّني جنيت ثمرة استعداد أسرتي الطويل، وأعاني في الكفاح ابن من أبناء الشعب هو القائد أحس بن أبانا، وكلِّنا ظفرنا في موقعه ارتفعت روح القتال في جنودي وتخاذلت بين جنود العدو، فلم نعد نتصوَّر أنه يمكن أن نهزم ولم يعد يتصوَّر أنه يمكن أن ينتصر، ويسقوط عاصمته، انتهى حكم الهكسوس وتحرَّرت مصر. ولم يهدأ لي بال حتَّى طاردتهم خارج الحدود الشرقيَّة كيلا تقوم لهم قائمة مرَّة أخرى أو يفكروا في الانتقام، وأمضيت بقيَّة عمري في تطهير البلاد من آثارهم وأعاونهم وفي تنظيم الإدارة وإصلاح الريِّ والأرض، وانتهى عهدي ومصر تستقبل جيلاً جديدًا من أبنائها يزهو بالبطولة ويحلم بالغزو ويضطرم بروح الاقتحام.

فقال خوفو:

- تلك طبيعة جديدة.

فقال زوسر:

- وهي رائعة أيضًا.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- لعلها لا تخلو من شرِّ.

فقال سيكنرع:

- لا سبيل إلى حياة كريمة وسط متوحشين إلَّا بها.

وهنا قالت إيزيس:

- فلنبارك هذا الابن الذي حرَّر أرضنا.

فقال أوزوريس:

- إلى كرسيك بين الخالدين.

- ١٣ -

ونادى حورس:

- الملك أمنحتب الأوَّل.

ودخل رجل ربعة عريض المنكبين فمضى متلفعًا بكفنه إلى العرش، ومثل في خشوع.

وقرأ تحوت كاتب الألهة:

- في أوَّل عهده زحف الليبيون على الغرب



## ٦٠٢ أمام العرش

- أعمال هذا الابن خير شهادة له . . .

فقال أوزوريس:

- امضِ إلى مجلسك بين الخالدين .

- ١٤ -

وهتف حورس:

- الملك تحتمس الأول .

فدخل رجل متوسط القامة رشيق القدّ وتقدّم في كفه حتى مثل بين يدي العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- استقرت الأحوال في الداخل في عهده، قام بغزوة في النوبة، وأخذ ثورة في سوريا واقترب من حدود ما بين النهرين، وعمل على جلب الأخشاب من لبنان فأدخلها في بناء المعابد .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- كانت أُمِّي امرأة من الشعب فلم يكن دمي

الملكي خالصاً، فتزوجت من الأميرة أعموس،

وأصبحت بذلك ولائي للعرش ولاية شرعية . وجذبي

التطلع إلى المجهول إلى التوغل في بلاد النوبة لعلّي

أصل إلى النبع المقدس الذي يتسلل منه النيل،

وسدّدت سهمي إلى قائد العدو فأرديته قتيلاً فتمزّق

شمل جيشه، وكنت أول من بلغ الشلال الثالث،

ونصبت هناك خمسة أحجار أثرية سجّلت انتصاراتي كما

شيّدت قلعة أقيمت فيها حامية، ونظّمت الإدارة

فتحسّنت أحوال القبائل . وما كدت أرجع إلى طيبة

حتى جاءني أخبار عن ثورة قامت في سوريا فقدت

حمة إليها وأخذتها . وبرجوعي إلى مصر قرّرت أن

أخصّص الجزية للإصلاح والبناء، معتمداً على عبقرية

المهندس أنيني الذي شيّد صرحين كبيرين عند مدخل

معبد آمون وبناء ساحة كبيرة مسقّفة ذات عمد من

خشب الأرز اللبناني، وأسعدني الحظّ بإصلاح معبد

أوزوريس - معبدكم يا مولاي - بالعرابة المدفونة

وزوّدته بالأثاث الجميل والأواني الذهبية والفضية،

وأوقفت عليه الأوقاف .

فسأله أحس:

- ما سبب قيام الثورة في سوريا؟

- التخلّص من دفع الجزية .

فسأله أمنتحتب الأول:

- ألم تترك حامية بها كما فعلت في بلاد النوبة؟

- كلاً، فقد أشفقت من تمزيق قوّاتي وأبقيت عليها

درعاً للطوارئ .

فقال الحكيم بتاح حتب:

- هكذا نحصد ما زرعنا!

أما الثائر أبنوم فقال:

- بلغ بك الهوان أن تضطرّ إلى الأزواج من أميرة

لإضفاء الشرعية على ولايتك، لا لذنب سوى أنّ أمك

كانت من نساء الشعب، ولولا أنّكم تبرّأتم من ثورة

الشعب المجيدة وحكمه العظيم وأسدلتم عليها ستار

الظلمات، لما عرضتم كرامتكم لذلك الهوان .

فقال خوفو مخاطباً أوزوريس:

- نشكو إليك أيها الإله هذا المشاغب الغريب

بيننا .

فقال أوزوريس:

- لقد احتلّ موضعه حكم إلهي عادل!

وقالت إيزيس مشيرة إلى تحتمس الأول:

- لا يحتاج هذا الابن إلى دفاع .

فقال أوزوريس:

- إلى كرسيك بين الخالدين .

- ١٥ -

ونادى حورس بصوته الجمهوري:

- الملك تحتمس الثاني .

فدخل رجل نحيل بادي الضعف، وذهب إلى

موقفه أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- قضى على ثمرد قام في الجنوب وآخر في آسيا،

وكان ضعيفاً عليلاً فحكم فترة قصيرة وانتقل إلى العالم

الأخر .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- عقب وفاة أبي طمع الأبناء في العرش واستند كلُّ

إلى حزب يؤيّده . وقد رشّحتني أبي للعرش ولكنّ أختي

حتشبسوت اغتصبته وتزوجت من أخي لتغطّي به

### أمام العرش ٦٠٣

ذلك كهنة آمون. وقد انتزع الملك منا وتولى أخي  
تحتمس الثاني بفضل تنظيم حزبه، ولما مات عاد  
الحكم إليّ ومعني تحتمس الثالث. وقد فرضنا من  
الرقابة حصاراً حوله فأبطلنا مكائده وانزوى في الظلّ  
كشيء لا قيمة له، واستعنت برجال يُعتبرون من أعظم  
الرجال مثل سنموت، وسن من، وحابوسنب،  
وهبت للناس عصراً ذهبياً من السلام والرخاء، حتّى  
أمنوا بالمرأة وقدرتها على الحكم...

فقال أبنوم:

- في عهدنا الذي دفتموه في الظلام حكمت  
ملكنتان عظيمتان...

وسألها الحكيم أمحتب:

- ولمّ لمّ تدعني عرشك بإشراك أخيك في الحكم؟  
فقلت حثشبسوت:

- لم يكن مثلي من سلالة الشمس، وكانت سابقته  
في حَبْكِ المكائد توجب الحذر منه، وقد أشاروا عليّ  
باغتياه ولُكِنِّي كرهت الغدر وسفك الدماء.

فسألها الحكيم بتاح حتب:

- هل يُفهم من كلامك أنّ العلاقة الزوجية بينكما  
كانت مجرد علاقة رسمية؟

فأجابت قائلة:

- نعم.

فعاد يسألها:

- وهل أفنيت عمرك عذراء؟

فقال أوزوريس:

- لا حتّى لك في طرح هذا السؤال والملكة في حلّ  
من تجاهله.

وقالت إيزيس.

- ابنة تفخر بها أيّ أمّ وليست في حاجة إلى دفاع.

وقال أوزوريس:

- إلى كرسيك بين الخالدين.

- ١٧ -

ونادى حورس:

- الملك تحتمس الثالث.

ودخل رجل قصير القامة متين البنيان تنطق معالم

أنوثتها، غير أنّ حزبي تمكّن من ردّ حقّي إليّ فوليت  
العرش دون عنف أو سفك دماء. حتّى الانتقام لم ألبأ  
إليه، ورغم سوء صحّتي فيأني لم أتردّد عن ضرب  
التمرّد الذي قام في الجنوب والآخر الذي قام في  
آسيا، وتعدّرت عليّ الاستمتاع بالحياة وعجزت عن  
الاستمرار فيها إلّا بضعة أعوام.

فقال الملك مينا:

- كان يجب أن تنزل عن حقّك لضعفك، فما

ينبغي أن يتصدّى للحكم ضعيف...

فقال تحتمس الثاني:

- رغم ذلك فقد انتصرت.

فقال مينا:

- بفضل الحظّ ورغم ضعفك...

- لقد بذل ما في وسعه واقرن عمله بالفلاح.

فقال أوزوريس:

- خذ مجلسك بين الخالدين.

- ١٦ -

ونادى حورس:

- الملكة حثشبسوت.

فدخلت امرأة متوسطة القامة مليئة البناء فمضت في

كفنها حتّى مثلت أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- مضى عصرها في سلام ورخاء، وقد شيّدت معبد

الدير البحريّ، وأحيت الصّلات ببلاد بنت وأحضرت

منها شجر المرّ وغرسته في ساحة المعبد، وانهالت عليها

الجزية فتفشّى الثراء ورضي الناس.

ودعاها أوزوريس إلى الكلام فقالت:

- كنت الوحيدة المستحقّة للعرش، فأنا آخر من

بقي من ذريّة الملكة أحمموس ودمائي ملكيّة إلهية،

بخلاف أخي تحتمس الثاني الذي كان ابناً لزوجة غير

شرعيّة تدعى موت نفرت، وأخي تحتمس الثالث

الذي كان ابناً لمحظيّة تدعى إيزيس. وقد اضطرت

للزواج من تحتمس الثالث احتراماً لتقاليد بالية

تستهجن حكم النساء، وقد عمل كاهناً في معبد آمون

ولم يكفّ عن المكائد للوصول إلى العرش وعاونه على

## ٦٠٤ أمام العرش

وجهه بالجلال، فتقدم متلفعًا بكفنه حتى مثل في خشوع أمام العرش.  
وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- تولّى العرش عقب وفاة حتشيسوت فطهر الإدارة من خصومه وقبض على النظام بيد من حديد، أكرم كهنة آمون وبوأهم منزلة السيادة على كهنة القطرين، وأعد جيشًا وأسطولًا لم تعرف البلاد لها نظيرًا من قبل، وخاض غمار حروب عديدة ثمخضت عن إنشاء أكبر إمبراطورية شهدها العالم القديم حتى وقته، دانت بسلطانها آسيا الصغرى وأعالي الفرات وجزر البحر ومستنقعات بابل وليبيا وواحات الصحراء وهضاب الصومال وشلالات النيل العليا، فأصبحت مصر ملتقى الأجناس من جميع الأمم ومستودع الخيرات والسلع، وأقام المعابد والحصون والمسلات في مصر وجميع البلاد التابعة لها، وترك وراءه وطنًا يترعب فوق قمة العظمة والحضارة.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- ذقت في مطلع حياتي الظلم كما لم يذقه ملك، كنت أحمق إخوتي بالعرش نظرًا لما أودعت الآلهة في من قوة، ولما حصّلت من علوم الدنيا والدين، ولكنني حُرمت من حقّي بسبب تافه هو أصل أمي، ولم أصل إلى حقّي بمكيدة كما قيل ولكنّ الإله آمون وهو يستعرض الكهنة في عيده توقّف أمامي وأنا مائل بين الكهنة معلنًا عن ترشيحه لي للعرش، فسجدت بين يديه متقبلًا نعمته، ولكنّ حزب الملكة ضرب حولي حصارًا معتمدًا على القوة، فتعطلت كافة صلاحياتي، وعشت في الظلّ كرجل لا وزن له، ولمّا قبضت على مقاليد السلطة بعد موت الملكة، أنزلت العقاب بالرجال الذين اغتصبوا سلطتي الشرعية ودنّسوا فراش زوجيتي. وأمر حكم المرأة ما كان خليقًا أن يشره من ضعف، فتفكك الجيش وتفككت العصيان في الولايات الخارجية وتلاشت هيبة مصر وإلهها آمون العظيم، وكانت الإمبراطورية حلمي الأكبر لا حبًا في القتال أو طمعًا في الثراء، ولكن دفعًا لشعاع الحضارة المصرية كي يعمّ نوره ما حولنا من أقوام، وكي يحتلّ آمون مكانته الرفيعة بين جميع الآلهة.

فقال أحس:

- أشهد بأنك حققت أحلامنا جميعًا، وحسبك أنك عرفت النصر عشرات المرات ولم تعرف الهزيمة مرة واحدة.

وسأله ابنوم:

- ماذا قدّمت للفلاحين؟

فأجاب تحتّمس الثالث:

- كان منهم جنودي وضباطي وقوادبي، وقد أصلحت وسائل الريّ وأشبعحت احتياجاتهم فقتلت الفقر في ربوعهم، وتحوّل منهم جمع غفير للعمل في المدن في شتى الصناعات والحرف والتجارة.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- لقد قامت إمبراطوريتك على الآلاف المؤلفة من جماجم المصريين والأمم!  
فقال تحتّمس الثالث:

- الموت لا مفرّ منه، ولئن يموت الإنسان وهو يبني المجد خير من أن يهلك في وباء أو بسبب لدغة ثعبان، والحق أنّي لم أكن جبارًا ولا محبًا لسفك الدماء، ورسمت خططي على أساس من المفاجأة والإتقان لأحصل على أسرع نصر بأقلّ تكلفة من الأرواح، وعقب حصار مجدو وقع في يدي جميع أعدائي من الجنود والملوك والأمراء، فاستوهبوني حياتهم فرق قلبي لهم ووهبتهم الحياة، وأرسلت أبناءهم إلى طيبة ليتلقوا العلم والحضارة، وليتأهلوا لحكم بلادهم مكان الحكام المصريين، وهي سياسة إنسانية حكيمة لم تُعرف قبلي.  
فقالت الملكة حتشيسوت:

- لولا الثراء الذي تركته لك ما استطعت أن تحشد حملة واحدة من حملاتك العديدة على آسيا.

فقال تحتّمس الثالث:

- حقًا لقد أورثتني ثراء في المال، ولكنك تركت الجيش على حال تستحقّ الثراء، وسرى الفساد بين رجالك المقربين...

فقالت حتشيسوت:

- ما زلت حاقدًا سئيّ الظنّ فاسد الطوية، وما زلت مصرًا على اتّهامي في شرقي دون دليل...

فقال أوزوريس:

## أمام العرش ٦٠٥

- ١٩ -

ونادى حورس:  
- الملك تحتمس الرابع.  
فدخل رجل طويل نحيل تقدّم حتى مثل بين يدي  
العرش.

وراح تحوت كاتب الآلهة يقرأ:  
- تولى العرش بسبب وفاة وليّ العهد، وقام تمرّد في  
الأمالك الآسيوية فأدّب المتمردين، وتزوّج من موت  
أوريا ابنة ملك ميتاني.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:  
- لم أكن مرشّحاً للعرش، وذات يوم قمت برحلة  
إلى أبي الهول وجلست في ظلّه أستريح، وداعبني شبه  
نعاس فسمعت صوته يطالبني بإزالة الرمال من حوله  
واعداً إياي - إذا فعلت - بالعرش. وفي الحال دعوت  
العَمال وأمرتهم بإزالة الرمال متحملاً عبء ذلك كلّه.  
وحدث ما لم يتوقّعه أحد فهاج وليّ العهد ووجدتني  
على العرش دون منافس. ومن أوّل يوم أدركت أنّ  
واجبي ينحصر في المحافظة على العظمة الموروثة،  
فتعقبت المتمردين، ولتوثيق العلاقات مع الأمم  
تزوّجت من ابنة ملك ميتاني.

فقال الملكة حتشبسوت:  
- إنّها خطوة تشي بشيء من الضعف...  
فقال تحتمس الرابع:  
- اعتبرتها سياسة حكيمة...  
فقال خوفو:  
- اختيار ملكة من الخارج أمر لا يخلو من خطورة!  
فقال الحكيم بتاح حتب:  
- أوافق الملك على أنّها سياسة حكيمة.  
فقال تحتمس الرابع:  
- وفضلاً عن ذلك فالحریم الملكي لا يخلو أبداً من  
نساء الأمم...  
فقال إيزيس:  
- قام هذا الابن بواجبه في الداخل والخارج.  
فقال أوزوريس:  
- إلى كرسيك بين الخالدين.

- حسبكما تبادل للكلمات الجارحة... .

وهنا سألته إيزيس:  
- أكنت تحبّها يا بنيّ؟  
فقال تحتمس الثالث:  
- كانت تسخر من قيصر قامتي التي سجّدت أمامها  
ملوك جميع الأمم.  
فقال إيزيس:  
- هذا الابن العظيم جدير بأن تفخر به مصر على  
مدى الزمان.  
فقال أوزوريس:  
- اذهب إلى مجلسك بين الخالدين.

- ١٨ -

وصاح حورس:  
- الملك أمنحتب الثاني.  
فدخل رجل عملاق تطفح الهيبة من طولهِ وعرضه  
فمضى في كفته حتى مثل أمام العرش.  
وقرأ تحوت كاتب الآلهة:  
- لم يعرف العرش رجلاً في قوّته البدنيّة، وكان  
عهده عهد سلام فعكف على البناء والتعمير.  
ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:  
- كنت قوياً فخافني جميع القريبين مني، والترم كلّ  
بواجبه وكانّ عيني تراقبه، وكان لي قوس لا يستطيع  
جذب وتره سواي، ودعاني الاستقرار المستتبّ إلى  
تركيز همّتي على البناء والتعمير ففعلت.

وسأله الحكيم أمنحتب:  
- ماذا كان موقفك حيال عظمة سلفك؟  
فأجاب أمنحتب الثاني:  
- كان مثلي الأعلى، ولكنّي كنت أشعر أحياناً  
بضآلتي بالقياس إليه فتعزيتني كآبة شديدة...  
فقال إيزيس:  
- على أيّ حال لقد حكمت فعمّرت ولم يطالبك  
زمانك بأكثر ممّا قدّمت...  
فقال أوزوريس:  
- إلى مجلسك بين الخالدين.

- ٢٠ -

ونادى حورس:

- الملك أمنحتب الثالث والملكة تبي.

ودخل الزوجان الملكيان وتقدّما في كفنيهما حتى مثالا أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- دُعيت الملكة تبي مع الملك لمشاركتها في الحكم، وكان عهد هذا الملك عهد رخاء وعزّ لم يسبق له مثيل إذ استقبلت مصر خيرات الأمم وأموالها، وسهر على إمبراطوريته بيقظة وكفاءة، فأدّب أيّ متمرّد أيّا كان موقعه، واستمتع بالحياة كما لم يستمتع ملك من قبل، فشيد القصور والمعابد، وعشق الطعام والشراب والنساء، وفي آخر أيامه تزوّج من ابنة ملك ميتاني في سنّ حفدته فعجلت بوفاته.

ودعا الملك للكلام فقال:

- ورثت عن جدّي العظيم تحتمس الثالث إمبراطوريته فعقدت العزم على أن أرث عظمته أيضًا، ولم يكن ثمة مجال لتوسيع الإمبراطورية فقوّيت دعائمها وأدّبت متمرّديها، ثمّ مارست العظمة في البناء والتعمير وتوفير الرخاء لشعبي، وتحديث التقاليد فتزوّجت فتاة من الشعب كانت خير شريك لي في ملكي بما أوتيت من فطنة وحكمة، وخلفت وراثي عهدًا سيظلّ رمزًا للسعادة والرخاء.

فقالَت الملكة حتشبسوت:

- سرتني شهادتك للملكة بالجدارة فهي شهادة للمرأة وفيها ردّ يبلغ على أعدائها.

فقال أمنحتب الثالث:

- تبي ملكة عظيمة بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء.

فقال ابنوم:

- ولكنّك جازيتها أسوأ الجزاء بولعك النهم بالنساء.

فقال أمنحتب الثالث:

- لكلّ ملك حريمه، وتلك الأهواء العابرة لا تنال من مكانة الملكة العظيمة...

- وتزوّج في شيخوختك بنتًا في سنّ حفيدتك؟

فقال الملك:

- أردت أن أوثق علاقة مصر بميتاني.

فقال أوزوريس:

- لا يجوز الكذب في هذه القاعة المقدّسة.

فقال أمنحتب الثالث بنبرة المعتذر:

- الحقّ أيّ سمعت عن جمالها الفائق وكنت مجنونًا

بالجمال، ورغم الشيخوخة والمرض أفرطت في الحبّ حتى قضى عليّ.

فسأله الحكيم بتاح حتب:

- أكانت تلك ذروة حكمة العمر؟

فقال أمنحتب الثالث:

- مية الحبّ أفضل من مية المرض.

\* \* \*

ودعا أوزوريس الملكة تبي للكلام فقالت:

- اختارني الملك زوجة عن حبّ، وانجذبت إليه

مبهورة بالحبّ وأبهة الملك، وربط الحبّ بيننا حتى آخر العمر. وقد استشارني ذات مرّة فيما يعرض له من شئون الملك فأرضاه رأيي غاية الرضى وقال لي «إنك يا تبي امرأة حكيمة بقدر ما أنت أنثى محبوبة». ومن

يومها لم يعقد أمرًا حتى يستمع إلى رأيي، وجعلنا نستقبل الوزراء والمسؤولين معًا، وأشارك برؤيتي في المسائل المطروحة على بساط البحث، وكلّ مسؤل في المملكة اعترف بقدرتي وحكمتي. وهرع إليّ الكهنة في

إبان الأزمّة الدينيّة التي استفحل أمرها بسبب دعوة ابني أخناتون، وقد بذلت أقصى جهدي لتجنّب الكارثة، ومنع الحرب الأهليّة. أمّا عن ولع زوجي بالنساء فقد كان لكلّ فرعون حريمه، ولم تطمح زوجة

إلى الاستئثار بالملك، بل لم أجد بأسًا في انتقاء الجميلات له حتى تصفو نفسه وينهض بأمانته على خير وجه قاهرة بقوة إرادتي غير المرأة الطبيعيّة مُقنعة نفسي بأنّ الملكة ليست امرأة عاديّة وأنها مسؤولة عن مزاج

زوجها كما أنّها مسؤولة عن سياسته!

فسألته حتشبسوت:

- ألم تنهزم الملكة ولو مرّة أمام المرأة؟

فقالَت تبي:

- لم أعرف الهزيمة إلا أمام ابني...

## أمام العرش ٦٠٧

والحكّام الظالمين إلى الجاه واستعباد الفلاحين ورعايا أمم الإمبراطورية، ولم يتسلّل الضعف قطّ إلى جهادي الروحي، ولم أرضَ باستعمال العنف أو القهر، وذقت النصر أعوامًا فنشر الخير جناحيه، ولكن انعقدت سحب المكائد والدسائس، وزحفت جيوش الظلام حتّى حاصرتني من جميع الجهات فتهاوت بلا حول وحلّت بي الهزيمة ولكنّ ثقتي في النصر النهائي لم تزعزع قطّ، فلم يعرف ملك حياة أسمى من حياتي ولا مُنيّ بنهاية أتعس من نهايتي... . . .

وقالت الملكة نفرتيتي:

- صدق يا مولاي فيما قال، لقد جاهدنا جهاد الأبطال، حتّى اجتاحتنا قوى الشرّ فتقوّض البنيان السامق وتداعت أركانه... . .

وكان الحكيم أمحبت أولّ المعلّقين فقال:

- لقد كنّا نحدس قوّة إلهيّة واحدة تربض وراء آمون ورع وبتاح وسائر الآلهة ولكنّا لمسنا تعلق الناس بالرموز المجسّدة يلتقون حولها في كلّ إقليم يستمدّون منها القوّة والعزاء فتركنا الأمور تجري مع ما جرت عليه رحمة بالقلوب المؤمنة وحفظًا لها من الضياع... . .

فقال أختاتون:

- وجدت الناس في ضلال وأنه أنّ لهم أن يواجهوا الحقيقة بكلّ أبعادها... . .

فقال الحكيم بتاح حتب:

- معاملة الناس فنّ عسير أيّها الملك ومن لا يحسنه فقد تخذله نواياه الطيبة فيقتل من يحبّ وهو ساعٍ إلى إنقاذه.

فقال أختاتون:

- لولا المغرضون لتّم الخلاص لمن نحبّ.

فسأله أبنوم:

- وماذا فعلت بالمغرضين؟

- عاهدت نفسي منذ البدء على التعامل بالحسنى ونبذ الإيذاء والقهر.

فهتف أبنوم:

- ليس للأشرار إلاّ العصا والسيف!

فقال أختاتون:

- أمنت بالحبّ للعدوّ والصديق.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- ولكنّ المرأة هي المرأة... . .

فقالت تبي:

- ولكنّ تبي مثال وحدها لا يتكرّر!

فقالت إيزيس:

- أثبتت هذه السيّدّة جدارة المرأة بالحكم أكثر من حتشبسوت نفسها، وكان زوجها ملكًا عظيمًا، وهيئات أن ينقص من قدره ولعه بالنساء ولذّة العيش، وقد تقلّب في النعيم بعد أن يسهّر لعامة شعبه فتقلّب معه في النعيم، فليهنأ قلبي بهذا الابن وهذه الابنة.

فقال أوزوريس:

- إلى مجلسكما بين الخالدين.

- ٢١ -

وهتف حورس:

- الملك أختاتون والملكة نفرتيتي.

فدخل رجل تختلط الذكورة والأنوثة في قسامت وجهه، وامرأة جميلة، فتقدّما في كفنيهما حتّى مثلا أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- ورثا العرش والحكم شريكين في القيام بالأمانة، فبجّر ثورة دينيّة فدعا إلى عبادة إله جديد واحد، وألغى الدين القديم وآلهته، وبشّر بالحبّ والسلام والمساواة بين البشر، تعرّضت البلاد في الداخل للانحلال والفساد، كما تعرّضت الإمبراطورية للتمزّق والضياع، ومضت الأرض إلى حافة الحرب الأهليّة. فسقط الملك، وقضت ثورة مضادّة على ثورته، ومحق المؤرّخون والملوك عهده من التاريخ واعتبروه شرّ عهد انقضّ على حضارة مصر فأوشك أن يبيدها... . .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال أختاتون:

- منذ الصغر وأنا مواظب على ملء روعي بالمعرفة والحكمة الإلهيّة، حتّى هبط على قلبي وحي السماء بنور الإله الواحد والدعوة إلى عبادته، وكزّست حياتي لذلك، ثمّ كزّست عرشي لئلاّ وليت العرش لخدمة نفس الهدف. وسرعان ما قام صراع وحشيّ بين دعوتي النورانيّة وبين ظلمات الجهل والتقاليد وأطماع الكهنة

٦٠٨ أمام العرش

فقال أبنوم:

- لقد ضيَّعت رسالتك بسذاجتك وليس رجل الخير  
إلاً مقاتلاً!

فقال تحتمس الثالث:

- لقد تركت لك أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ  
فكيف ضاعت في عهدك وتحت إمرتك جيش لا مثيل  
لقوته؟

فقال أختاتون:

- كان مبديي الحب والسلام...

- زدي شرحاً من فضلك.

- كنت أدعو لإله واحد هو الأب والأم لجميع  
البشر فكلهم يتساوون تحت مظلته، وكنت أدعو إلى  
أن يحلَّ الحب محلَّ السيف بين الناس...

فقال تحتمس الثالث بغضب:

- طبيعي أن تضيع الإمبراطورية نتيجة لهذا  
الأسلوب من التفكير، ما أنت إلا محنون!

فقال أوزوريس:

- لا أسمح بتجاوز حدود الأدب في الخطاب،  
اعتذّر.

فقال تحتمس الثالث:

- معذرة، ولكني أسجّل أسفي على ضياع عمري  
هدراً!

وقال الملك مينا:

- لقد قامت وحدة مصر على السيف وتلَّ من  
الجهاجم، وعلى نفس الأساس كان يجب أن تقوم وحدة  
الإمبراطورية، ولكنَّ سوء الحظَّ سلط علينا عدواً اسمه  
الأفكار فغزانا من الداخل وعبث بمجدنا أيما عبث...

فقال أختاتون:

- لا جدوى من مناقشتكم، فالمسألة بكلِّ بساطة  
أثني سمعت صوت الإله، وأنَّ تلك النعمة الإلهية لم  
تحلَّ بكم.

وقالت الملكة نفرتيبي:

- طالما طاردتنا هذه الآراء من أعداء وأصدقاء،  
وقد حطمتنا الدنيا بجهروتها ولكننا اليوم نقف بين يدي  
إله عادل.

وعند ذاك سألتها الملكة حتشبسوت:

- إذن لماذا هجرت زوجك في قمة الأزمة؟

فأجابت نفرتيبي:

- لم يداخلي شك فيه ولكنني توهمت أنني بهجره  
قد أنقذه من القتل.

وهنا قالت إيزيس:

- هذا الابن آمن برسالة أراد أن ينقذ بها البشر  
ولكن لم يكن أحد مستعداً لفهمه أو التفاهم معه  
فكانت المأساة، وسوف أظل فخورة به إلى الأبد...

وقال أوزوريس:

- اجلس أنت وزوجك بين الخالدين.

- ٢٢ -

ونادى حورس:

- الملك ساكرع، الملك توت عنخ آمون، الملك  
أي.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- حكم ساكرع أربعة أعوام، وتوت عنخ آمون  
سنة أعوام، وأي أربعة أعوام، وكانت عصورهم  
عصور اضطراب وفساد، وعجزوا جميعاً عن مواجهة  
الأزمة.

ودعاهم أوزوريس للكلام فقال ساكرع:

- بدأت حكمي شريكاً لأختاتون ولم أستطع أن  
أعيد للعرش هيئته.

وقال توت عنخ آمون:

- كانت السلطة الحقيقية بيد كهنة آمون.

وقال أي:

- وازداد نفوذ الكهنة في عهدي وكنت طاعناً في  
السَّن فعجزت عن الإصلاح...

وسأل أختاتون أي:

- كيف تخلَّيت عني وقد كنت أقرب المقرَّبين إلي كما  
كنت والد زوجتي؟

فقال أي:

- تخلَّيت عنك لأجنب البلاد شرَّ الحرب الأهلية.

فقال أختاتون:

- وكفرت بالإله الواحد بعد أن أعلنت إيمانك به

بين يدي.

## أمام العرش ٦٠٩

الأمانة، وقد تزوّجت من موت نجمت أخت نفرتيقي لأنّها كانت من أوائل من كفر بأخناتون ورات الانضمام إلى الكهنة لإنقاذ البلاد. ووجدت أمامي مهمة ثقيلة ومتشعبة ولكن لم تكن تعوزني القوة أو العزيمة، فأخذت الثورة، ونظمت الجيش والشرطة والإدارة، وراقبت الموظفين ولم أرحم منحرفاً، ثمّ جدّدت المعابد ونظمت الأوقاف، وحميت الضعفاء من الأقوياء، ولو امتدّ بي العمر أكثر ممّا امتدّ لاسترددت ما ضاع من إمبراطورية العظيم تحتمس الثالث.

وتكلّم الملك خوفاً فقال:

- قمت بعمل مجيد أيها الملك.

فقال ابنوم:

- عمل مجيد حقاً ولا لوم عليك لعدم إرجاع السلطة إلى الشعب بما أنك من سلالة أسرة عريقة وترجتها الأمانة عندي أسرة عريقة في النهب والسلب!

فقال أوزوريس:

- لا أوافق على هذا الأسلوب في الخطاب، اعتدّ.

فقال ابنوم متجهماً:

- معذرة.

وقال تحتمس الثالث بأسف:

- كنت خليقاً بإرجاع الإمبراطورية إلى مجدها الأوّل.

فقال حور محب:

- كانت البلاد ممزّقة وعلى حال من الفساد والفوضى تفوق الخيال.

وتكلّم أخناتون فقال:

- لم أحبّ أحدًا من أتباعي كما أحببتك يا حور محب ولم أكرم أحدًا منهم كما أكرمتك، وكان جزائي أن خنتني وانضمت إلى أعداء الشعب وأعدائي، ثمّ هدمت مدينتي ومعبدتي ومحوت اسمي وصبيت عليّ اللعنات...

فقال حور محب:

- لا أنكر ممّا قلت شيئاً، وقد أحببتك أكثر من أيّ رجل عرفته ولكنّي أحببت مصر أكثر.

- وشاركت في محو عبادة الواحد الأحد وإرجاع

فلاذ آي بالصمت.

وقالت إيزيس:

- كان أبنائي الثلاثة غير أكفاء للعرش، ولولا قانون الوراثة الأعمى ما جلس أحدهم عليه، ولكنهم يستحقّون الرحمة.

فقال أوزوريس:

- إلى الباب الشماليّ المفضي إلى مقام التافهين.

- ٢٣ -

وصاح حورس:

- الملك حور محب.

فدخل رجل متوسّط القامة متين البنيان صلب الملامح، فسار متلفّعاً في كفنه حتّى مثل أمام العرش. وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- ولي العرش رغم عدم انتهائه إلى الأسرة المالكة، وتزوّج من موت نجمت لكي يضيفي الشرعية على ولايته بالرغم من تقدّمها في السنّ، وانبرى بقوة للقضاء على الفوضى والفساد والتسيّب وإصلاح ما تحرّب من معابد على عهد أخناتون، وبفضله استتبّ الأمن والنظام في داخل البلاد، أمّا الإمبراطورية فقد أصبحت - باستثناء القليل - في خبر كان.

ودعا أوزوريس للكلام فقال:

- حقاً لم أكن من الأسرة المالكة ولكنّي أنتمي إلى أسرة عريقة من أسر الشمال، وقد نشأت نشأة عسكرية وأديت خدمات ناجحة على عهد الملك أمنحتب الثالث، ولما ولي أخناتون العرش قرّبتني إليه ومنحني ثقته ولكنّه للأسف لم يأخذ برأيي في وجوب معاقبة المفسدين في الداخل وإرسال حملات لتأديب المتمرّدين في أنحاء الإمبراطورية، ولما بلغت الأزمة أشدها وتخايلت في الأفق نذر الحرب الأهلية تفاهمت مع كهنة آمون على التصفية النهائية لحكم أخناتون مؤثراً المصلحة العامة على عواطف الشخصية. وكان الرأي متفقاً على أهليّتي لمواجهة الفوضى الضاربة في أنحاء البلاد ولكن رُئي أن يُحترّم القانون أولاً فتولّى الملوك الثلاثة ساكرع وتوت عنخ آمون وآي، وعقب وفاة أي قامت ثورة ونهبت المقابر فلم نجد مفراً من تحمّل



## ٦١٠ أمام العرش

الآلهة الزائفة إلى عروشها. . .

فقال حور محب:

- لم يكن في وسعي تجاهل ما تنبض به قلوب

الملايين.

وهنا قالت له نفرتيتي:

- لقد أحببتي يا حور محب ولما تزوجت من

أخناتون أضمرت له الحقد.

فقال حور محب:

- أقول لك آيتها الملكة في هذه القاعة التي لا يجوز

فيها الكذب إن المرأة لم تشغل من قلبي إلا أتفه جزء

فيه، وإن معركتي معكم كانت معركة وطنية لا معركة  
غرامية!

وهنا قالت إيزيس:

- ابني هذا أقوى من أن يحتاج إلى دفاع.

فقال أوزوريس:

- إلى مجلسك بين الخالدين.

- ٢٤ -

وصاح حورس:

- الملك رمسيس الأول.

فدخل رجل طاعن في السن طويل القامة، فمضى

في كفته حتى مثل بين يدي العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- ولي العرش على كبر، شرع في بناء بهو الأعمدة

بمعبد الكرنك ثم أدركه الموت قبل أن يتمه.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- بوفاة حور محب لم يجد العرش وريثاً شرعياً،

وكنت كاهن التراتيل بمعبد آمون معروفاً بالحكمة

وسداد الرأي والورع فرشحتي الإله للعرش، ولم تكن

الإمبراطورية تغيب عن ذهني ولكن حالة البلد لم

تسمح بشن حرب طويلة فأمرت بالعناية بالأرض

ووسائل الري لزيادة الثروة، وشرعت في بناء بهو

الأعمدة ولم يكن في العمر زيادة لمواصلة البناء. . .

فقالت إيزيس:

- لعل الاختيار لم يكن موفقاً ولكن مصر لم تجد

وقتها الرجل المناسب، أما هذا الابن فقد بذل أقصى

جهده ولا ملامة عليه.

فقال أوزوريس:

- خذ مجلسك بين الخالدين.

- ٢٥ -

وهتف حورس:

- الملك سيدي الأول.

فدخل رجل طويل القامة قوي البنيان، فمضى في

كفته حتى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- تولى العرش عقب وفاة أبيه، غزا النوبة، استرد

فلسطين، ثم ركز على البناء والتعمير.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- عملت من أول يوم تبعاً لخطة مرسومة،

فحفظت النظام في الداخل، ثم غزت الجنوب حتى

أقصى حدوده، واسترددت فلسطين منتصراً على

الحيثيين ثم عقدت معهم معاهدة صلح، وأتممت بعد

ذلك قاعة الأعمدة بمعبد الكرنك، وأصلحت المعابد

التي لم تمتد إليها يد الإصلاح، وفي عهدي استتب

الأمن والنظام والعدل وانتشر الرخاء، وازدهر الفن

والأدب، وقضيت حياة طيبة لولا ما شاب آخرها من

قيام نزاع بين ولي العهد وأخيه.

فسأله تحتمس الثالث:

- لم لم تستمر في محاربة الحيثيين؟

فقال سيدي الأول:

- شعرت بأن جيشي قد أنهكت قواه، بالإضافة إلى

أن الحيثيين كانوا قوماً أشداء في القتال. . .

فقال تحتمس الثالث:

- المعاملة الوحيدة المجدية مع عدو قوي هي

القضاء عليه لا عقد معاهدة صلح معه!

فقال سيدي الأول:

- معاهدة الصلح بديل معقول عن حرب غير

مجدية.

فتساءل أخناتون:

- ولم لا تجربون القانون الإلهي، قانون الحب

والسلام؟!

## أمام العرش ٦١١

قادش لأنزل الضربة القاضية بعدويّ القويّ وهو ملك الحثّيين، وقد أوقعني سوء الحظّ فيها يشبه الحصار فأحاط بي العدوّ وبقية جيّشي بعيدة عنيّ في الجنوب، وثار بي الغضب، وخفت على كرامة مصر التي باتت أمانة بين يديّ، وصلّيت إلى إلهي طويلاً، مذكّراً إياه بأنّي ما غادرت بلادي إلا لرفعة اسمه وتوطيد جلاله، ثمّ هجمت على العدوّ وحولي شرذمة من الحرس وانقضضت عليهم كالصاعقة فشئت نور جلالتي قلوبهم وتوالت مصارعهم تحت ضرباتي فشقت بينهم ثغرة نفذت منها إلى جيّشي ثمّ كررنا عليهم فسحقناهم سحقاً حتى رموا بأنفسهم في مياه النهر وتمّ لنا النصر، وحاصرت قادش فاقتراح الملك معاهدة صلح وسلام لم أجد بها بأساً، خاصّة بعد أن استرددت الإمبراطورية عدا أجزاء لا يُعتدّ بها، ثمّ رأيت أن أكرّس حياتي للبناء فتزوجت من ابنة ملك الحثّيين دعماً للسلام، ورفعت من الأبنية ما لم يرفعه فرعون قبلي، وهيأت من السعادة لأهل مصر ما لم يعهده من قبل ولا أحسب أنّهم عرفوه من بعد.

وكان سيّتي الأوّل أوّل المتكلّمين فقال:

- ولكنّك بدأت حياتك باغتصاب حقّ أخيك وليّ العهد الشرعيّ.

فقال رمسيس الثاني:

- إني لا أحترم قانوناً يورث عرشاً لعاجز لا يستحقّه.

فقال أخناتون:

- من أين لك معرفة الغيب؟ لقد قيل عنيّ يوماً مثلما تقول عن أخيك، ولكنّي كنت أوّل ملك يقيم للإله الواحد مملكة مقدّسة فوق الأرض.

فقال رمسيس الثاني:

- بل كانت كارثة حلّت بالوطن والإمبراطورية... وسأله تحتمس الثالث:

- خبّرني كيف رضي قائد مظفّر بأن يعقد معاهدة سلام مع عدوّه ثمّ يتزوّج من ابنته؟

- هو الذي طلبها، ووجدتها مفيدة للطرفين.

- كيف وقعت في الحصار أيّها الملك؟

- وقع في يدنا جاسوسان للعدوّ اعترفا كذباً بأنّ

فقال حور محبّ بحدّة:

- هو الذي أضاع الإمبراطورية بلا دفاع!

فسأله خوفو:

- وهل أوصلت أسبابك بالسلامة الإلهية لتصير حقاً من صلب الإله؟

فقال سيّتي الأوّل:

- تمّ ذلك لزوجتي في معبد آمون تبعاً للطقوس المتبعة.

فالت إيزيس:

- إني سعيدة بهذا الابن عالي المهمة!

فقال أوزوريس:

- خذ مجلسك بين الخالدين.

- ٢٦ -

وهتف حورس:

- الملك رمسيس الثاني.

فدخل رجل طويل القامة رشيق القدّ، تقدّم في كفته حتى مثل أمام العرش.

وقرأ نحت كاتب الآلهة:

- توتّى الملك عقب وفاة أبيه، وطّد نفوذ مصر في

النوبة وآسيا، حارب الحثّيين ثمّ عقد معهم معاهدة

سلام، ثمّ كرّس حياته المدينة للبناء بصورة لم تعرفها

البلاد من قبل، وكان عصره عصر تعمير وازدهار للفنّ

والأدب والرخاء، وقد طال عمره حتى قارب المائة

واستمع بالحياة طويلاً وعرضاً وأنجب من الأبناء ما

يقارب الثلاثمائة.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- الحقّ أنّي اغتصبت العرش من أخي وليّ

العهد، ليقيني بأنّ الساعة تطلّبت ما أوتيت به من قوّة

وأنّ ضعف أخي سيكون طامة على البلاد لو ولي

العرش، وكنت طموحاً مقدّماً، فصمّمت على أن أوفّر

لوطني في داخله أقصى درجات الأمان والنظام والعدل

والرفاهية، وأن أرجع الإمبراطورية لسابق عهدا

المجيد، فوطّدت نفوذي في الجنوب، ثمّ قدتها إلى

فلسطين وسوريا ولبنان، وهرع إليّ الحكّام والأمراء

يقدمون فروض الطاعة، ثمّ توجهت بجيوشي إلى

## ٦١٢ أمام العرش

من إقليم في مصر خلا من معبد أو مسلة أو تمثال لي .  
فقال أخناتون :

- لقد استوليت على عُمُد معبدي المهتم وشيدت  
بها معبدك الجنائزي، وتكرّر سطوك على آثار  
السابقين، كما حفرت اسمك على آثار غيرك بغير حق،  
وقلّلت من شأن كلّ عظيم سبقك كأنّ الآلهة لم تخلق  
سواك.

فقال رمسيس الثاني :

- في هذه القاعة المقدّسة لا أنكر خطأ ولا أدافع  
عن نزوة ولكن دع غيرك يوجّه إليّ الاتهام يكون مبرراً  
من الكفر والاستهتار.

فقال أوزوريس :

- لا تنس أيها الملك أنّك تخاطب رجلاً تمّت  
محاكمته واستحقّ الخلود. اعتدّر.

فتمتم رمسيس الثاني بهدوء :

- معذرة!

وعند ذاك سأله الملكة حتشبسوت :

- وما قصّتك مع النساء؟... وهل وجدت وقتاً  
للملاطفة أبنائك الثلثائة؟!

فقال رمسيس الثاني :

- لم يتمتّع أحد بالسعادة كما تمتعت، وهبتي الآلهة  
عمراً مديداً وصحة كاملة وقدرة بلا حدود على الحب،  
ولم تهن قوّتي حتّى آخر العمر، رغم ما خصّصت به  
زوجتي الملكيّة نفرتاري من احترام ومودة، أمّا أبنائي  
فما عرفت إلاّ أقلهم!

فسأله أمنتب الثالث :

- هل استعنت بالسحر في الاحتفاظ بحيويّتك  
الهائلة؟

- كنت أصنع سحري بيديّ، فكنت أقف في  
القاعة الكبرى وأنا في التسعين من عمري وتدخل  
صفوف العجلات الحربيّة، تقود كلّ عربة امرأة عارية  
وترقد داخلها جارية أخرى عارية، فتظنّ تدور من  
حولي حتّى تتدقّق في العروق الفانية دماء الشباب!

فسأله الحكيم بتاح حتب :

- أكانت نفس العجلات التي أحرزت بها  
انتصاراتك؟

العدوّ مرابط شمال قادش فأسرعت بالفرقة الأولى  
لأحتلّ جنوب قادش ولكنّ العدوّ كان كامناً في الشرق  
فاخترق مؤخّرة الجيش وضرب حصاره.

- لقد تسرّعت وكان يجب أن تنتظر جيشك القادم  
من الجنوب، إنّك شجاع ما في ذلك شكّ ولكنك قائد  
غير محنك.

- لقد حطمت الحصار ثمّ كررت على العدوّ ببقية  
جيشي فوقع في المصيدة التي نصبها لي فمزّقته شرّ ممزّق  
وأحرزت نصراً حاسماً.

فقال تحتمس الثالث مواصلاً مناقشته :

- لم يكن هدفك كسب معركة ولكن واضح أنّك  
أردت الاستيلاء على قادش كما فعلت أنا باعتبارها  
مفتاحاً لجميع الطرق، فلا حقّ لك في ادّعاء النصر إلاّ  
بتحقيق الهدف من الحملة.

فسأله رمسيس الثاني :

- وماذا تقول في قضائي على جيش العدوّ؟

فأجاب تحتمس الثالث :

- أقول إنّك كسبت معركة ولكنك خسرت  
الحرب، وعدوّك خسر معركة وكسب الحرب، وقد  
استدرجك إلى السلام لينظّم صفوفه، ورحّب  
بمصاهرتك ليأمن مواجهتك قبل أن يعوّض خسائره،  
قانعاً بالفوز بقادش ليهتدّ منها أيّ موقع في  
إمبراطوريّتك في المستقبل.

فقال رمسيس الثاني :

- طوال حكمي الطويل لم يختلّ الأمن ساعة واحدة  
في الداخل أو تقم معركة تمرد واحدة في الإمبراطوريّة  
الترامية أو يفكر عدوّ في استراق النظر إلى الحدود.

فقال تحتمس الثالث :

- لا أنكر فضلك، لقد أعدت إلى مصر الجزء  
الأكبر من إمبراطوريّتها، كما تميّزت بشجاعة شخصيّة  
فائقة كانت خليقة بأن تلقي الرعب في القلوب.

- ولا تنس أنّ عصري كان عصر التعمير الأعظم.

فسأله خوفو :

- هل بنيت هرمًا؟

فأجاب :

- كلاً، ولكن ليس بالهرم وحده يعمر الإنسان، ما

### أمام العرش ٦١٣

الأمر في الداخل بالحزم والعزم فاستتب الأمن وانتشر الأمان.

فقال أختاتون:

- لقد اعتديت على الآثار لتشييد بأحجارها بعض القصور والمعابد مترسماً سيرة أبيك!

فقال منفتاح:

- قضيت عمري في ميادين القتال فلم يتسع الوقت للبناء.

فقال تميمس الثالث:

- أشهد بأنك قائد ماهر.

وقالت إيزيس:

- شكراً لك يا بني على بطولتك وإخلاصك.

وقال أوزوريس:

- إلى مجلسك بين الخالدين.

- ٢٨ -

وهتف حورس:

- الملك أمنمسس والملك سبتاح والملك سبتي.

فدخل الثلاثة وتقدموا في أكفانهم حتى مثلوا أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- شُغِلوا بمنازعاتهم على العرش، فساد الفساد والانتهازية وتمزقت وحدة البلاد وانتشر القتل والسلب والنهب.

ودعاهم أوزوريس إلى الكلام فقال أمنمسس:

- كنت الأحق بالعرش ولكن أحاطت بي الدسائس

فسقطت بعد عام واحد.

وقال سبتاح:

- بل كنت أنا الأحق بالعرش ولكنّه اغتصب مني لخلاف قام بيني وبين منفتاح في أواخر حكمه، وشُغِلت عن واجبات الحكم بمطاردة الدسائس حتى اضطرت للتحلي عن العرش.

وقال سبتي:

- كنت أملك من القوة ما أستطيع بها أن أحكم حكماً طيباً ولكن الفساد كان قد استشرى فاجتاحنا الانحلال.

فأجاب رمسيس الثاني:

- كلاً، كانت عجالات الحب مطعّمة بالذهب الخالص معبقة بروائح النساء..

فقال أبنوم:

- حياتك أيها الملك جامعة بين الجدّية بكلّ معانيها وبين العيب بكلّ نزواته فلعلّ الحكم عليك يجمع بين الإنصاف والردع!

فنظر أوزوريس نحوه وقال:

- المحكمة في غنى عن إرشادك وما أراك إلا تحنّ إلى إشعال ثورة جديدة في عالم الخلود، فلا تتجاوز منزلتك واعتدّ.

فقال أبنوم:

- معذرة يا سيدي العظيم.

وقالت إيزيس:

- أعاد هذا الابن مصر إلى سابق مجدها وعمّ الرخاء في عهده القصور والبيوت والأكواخ وإذا قسنا هفواته بطول عمره تبدّت تافهة.

وقال أوزوريس:

- اذهب إلى كرسيك بين الخالدين.

- ٢٧ -

وصاح حورس:

- الملك منفتاح.

ودخل رجل طويل القامة، كهل، فمضى على هيئته المعلومة إلى موقفه أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- قضى مدّة حكمه وهي عشرة أعوام في الدفاع عن الإمبراطورية فلم يمّسها سوء.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- طال عمر أبي فلم يدع لأحد من أبنائه أملاً في اعتلاء العرش، وقد توفي لي عشرات الأخوة بين الشباب والكهولة حتى حقّت لي ولاية العهد، ولمّا وليت العرش كنت قد نيفت على الستين، وبإختفاء الكبار تحرّكت رعوس الفتنة فنهضت شاهراً سيفي رغم كهولتي، انتصرت على متمردّي آسيا، ومزقت شمل غزوة غادرة جاءت من الغرب، وقبضت على زمام

## ٦١٤ أمام العرش

فقال الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر:

- ما أسرع أن يجل الفساد محلّ الجسد، وأن  
ينعكس ضعف حاكم واحد على حضارة متكاملة...  
فقال تحتمس الثالث:

- لعلّ المشكلة تتلخّص في كيف نعثر على الرجل  
القويّ المناسب في الوقت المناسب.

فقال حور محب:

- لم يكن في الأسرة رجل قويّ كفاء ولكن هل  
خلت البلاد من ذلك الرجل؟

فقالت إيزيس:

- قضى القانون بأن يُرَشَّح الموجود لا أن يتجشّم  
العناء في البحث عن المطلوب، ولم يكن في وسع  
هؤلاء أن يفعلوا خيراً مما فعلوا...  
فقال أوزوريس:

- اذهبوا إلى مقام التافهين.

- ٢٩ -

ونادى حورس:

- الملك ستخت.

فدخل رجل قصير القامة قويّ البنية فمضى في كفته  
حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- أعاد للقانون سيادته.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- عشت في زمن الفوضى، تعرّضت للقتل مرّة وأنا

مسافر في النيل ونجوت بأعجوبة، وكنت ذا قرابة

بعيدة بالملك منفتح، فسعيت إلى العرش بمعاونة

الكهنة، ولم يعترف بي أحد من حكام الأقاليم

الفسادين ولم أكن أملك القوّة لإخضاعهم ولكن لم

تعوزني الشجاعة فانقضضت على إقليم أخنوم وهو من

أشدّ الأقاليم مناعة ومحقت المتمرّدين ومثلت بهم، ومنه

زحفت على طيبة، وسرعان ما تسابق الجبناء إلى تقديم

فروض الطاعة، فنظّمت الجيش والشرطة، وبذلت

جهداً مضيئاً حتّى أرجعت إلى القانون سيادته فأمن

الفلاح في أرضه واستأنف نشاطه، وللأسف فارقت

الحياة قبل أن أشعر رعايانا في الإمبراطوريّة بقوة مصر.

فقال الملك خوفو:

- كان عملك الذي يمكن تلخيصه في كلمتين أشقّ  
من تشييد الهرم الأكبر.

وقال له الملك مينا:

- لقد أعدت إلى قلبي نبضه.

وقالت إيزيس:

- ابن عظيم سجّل عزيمته في الأرواح لا في  
الأحجار.

وقال أوزوريس:

- اجلس بين الخالدين.

- ٣٠ -

ونادى حورس:

- الملك رمسيس الثالث.

فدخل رجل طويل القامة ذو عملقة بادية فمضى في

كفته حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- انتصر على الأعداء في آسيا والغرب والوافدين

من البحر، ونشر في البلاد الأمن والأمان.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- نتيجة للمعاناة في الداخل تمرد الأمراء في آسيا،

وطمع الليبيّون في الغزو، ثمّ دهمنا من بحر الشمال

أقوام بنسائهم وأطفالهم يرومون الاستيطان، وفي الحال

نهضت للقتال دون هوادة فطردت الليبيّين، وقضيت

على الشماليّين وأسرت نساءهم وأطفالهم، ثمّ قادت

حملة إلى آسيا ففتكت بالعصاة دون رحمة، وحظيت

البلاد في عهدي بالأمان والاستقرار فشيّدت العديد من

القصور والمعابد، ومن سوء الحظّ أنّي تعرّضت في

شيخوختي إلى مؤامرة في الحريم لاغتصاب العرش،

ونجوت من الموت بأعجوبة، ثمّ شكّلت محكمة عليا

لمحاكمة المذنبين وأمرت بالعدل بحيث لا ينجو مجرم

ولا يؤخذ بريء، ومن المؤسف أنّ قاضيين سقطا

بإغراء بعض نساء الحريم ولمّا انكشف أمرهما انتحرا.

فقال تحتمس الثالث:

- مواقعك تشهد لك بأنك من القوّاد الأفاضل.

فقال رمسيس الثالث:

## أمام العرش ٦١٥

فأجاب رمسيس الرابع :  
 - اتخذناه على سبيل التبرك والفخر!  
 فقال رمسيس الثاني :  
 - ولكنكم لم تعرفوا قدره ولم توفوه حقّه .  
 فقالت إيزيس :  
 - لا يسعني أن أطالب لهم بالعفو ولكني أسأل لهم  
 الرحمة . . .

فقال أوزوريس :  
 - اذهبوا إلى مقام النافهين .

- ٣٢ -

ونادى حورس :  
 - الحاكم بسو با نبدد .  
 فدخل رجل بدين متوسط الطول فمضى حتى مثل  
 أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :  
 - استقلّ بحكم الوجه البحريّ في عهد رمسيس  
 الثاني عشر، فازدادت الأحوال اضطراباً في الداخل،  
 وتقلّص نفوذ مصر في الخارج .  
 ودعا أوزوريس للكلام فقال :

- كنت من أعيان تانيس، وساءني ما تتردى فيه  
 مصر من فوضى وانحلال، ولم يكن في وسعي أن  
 أستولي على العرش فاستقلت بالوجه البحريّ بأمل أن  
 أحقق له الأمن والأمان، وقد بذلت من أجل ذلك  
 غاية جهدي .

فقال أبنوم :  
 - إني خير من يفهم لغة الأعيان، حقاً أنهم يتوقون  
 لتحقيق الأمن والأمان ولكن لأنفسهم على حساب  
 الفلاحين التبعاء .

وقال الملك مينا :  
 - قضيت بفعلتك على وحدة الوطن التي أنفقت  
 حياتي لتحقيقها .

وقال الحكيم بتاح حتب :  
 - وأسفي على عامة الناس الذين عاصروك !  
 وقالت إيزيس :  
 - لا أدري كيف أدافع عن هذا الابن .

- لقد ترسّمت خطاك في غزوقي الآسيوية .  
 فقال أختاتون :

- إن معاملتك للمتآمرين عليك، وتقديمهم  
 لمحاكمة بدلاً من أن تبطش بهم، وحتك المحكمة  
 على تحزّي العدل وحده، كل أولئك يقطع بتقديسك  
 للقانون وشغفك بمكارم الأخلاق، كأنما كنت من عباد  
 الإله الواحد . . .

فقال رمسيس الثالث :  
 - كنت من عباد مكارم الأخلاق وهي تربية ينشأ في  
 أحضانها المؤمن بالآلهة !

فقال بتاح حتب :  
 - إنّه كيد النساء كاد يفتك بملك عظيم وأهلك  
 قاضيين . . .

فقالت الملكة نفرتيي :  
 - لقد خلق الإله الواحد النساء ليكشفن معادن  
 الرجال، الثمين منها والخسيس !

فقالت إيزيس :  
 - تحية لهذا الابن الجامع بين العظمة والنبيل .  
 فقال أوزوريس :  
 - اذهب إلى مجلسك بين الخالدين .

- ٣١ -

ونادى حورس :  
 - الملوك رمسيس الرابع والخامس والسادس  
 والسابع والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني  
 عشر .

ودخل تسعة رجال مختلفي الأحجام فمضوا في  
 أكفانهم حتى مثلوا صفّاً أمام العرش .  
 وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

- حكموا بالتتابع مدداً قصيرة ولم يكن لأحدهم من  
 همّ إلا المحافظة على مركزه وممارسة شهوته فاضطربت  
 الأحوال وتفتّى الفساد حتى استقلّ الوجه البحريّ في  
 عهد آخرهم .

ودعاهم أوزوريس للكلام فلاذوا بالصمت .  
 وتكلّم رمسيس الثاني فسأل رمسيس الرابع :  
 - لم اتخذت اسمي اسماً لك، ألك بي قرابة؟

## ٦١٦ أمام العرش

فقال أوزوريس:

- إلى الباب المفضي إلى الجحيم.

- ٣٣ -

وأشار أوزوريس إلى تحوت كاتب الآلهة فراح يقرأ:  
- قضت إرادة الآلهة أن تغزو ليبيا مصر وتكون  
أسرة حاكمة، وفي نهاية حكمها تطايرت وحدة مصر  
فاستقلت الأقاليم ورجعت إلى العهد الذي كانت عليه  
قبل الملك مينا. ثم غزاها الآشوريون وتتابعت  
الأحزان.

- ٣٤ -

ونادى حورس:

- الملك بساماتيك.

فدخل رجل نحيل مائل للطول فمضى في كفنه حتى  
مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- أعلن نفسه ملكًا على مصر، وأعاد إليها  
وحدتها، وثبت دعائم النظام. وكان جيشًا قويًا من  
المرتزقة الأجانب استرد به نفوذ مصر في فلسطين.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- إني أنحدر في الأصل من ستنخت، وكنت أحد

اثنى عشر أميرًا يحكمون الوجه البحري تحت نفوذ  
الآشوريين. وتقلص نفوذ الآشوريين لأسباب خارجية  
فعددت العزم على توحيد مصر وإعلان استقلالها.

وقضيت على سلطة الأمراء في سلسلة من الغزوات،  
وأعلنت نفسي ملكًا على مصر، وعينت أختي نيتقريس  
سيّدة لكهنة طيبة لأهيمن على الكهنة فعادت الوحدة  
وعاد النظام. وركزت على تحسين الحال الاقتصادية،  
وألّفت جيشًا من يونانيين وكاريين وسوريين وليبيين.

ونعم الشعب بالأمان وحسن المال، واندفعوا اندفاعًا  
ذاتيًا نحو عهدهم القديم في الذوق والتقاليد وطقوس  
العبادة فلم أجد في ذلك من بأس، واسترددت الحكم  
المصري في فلسطين فرجعت مصر إلى قريب مما كانت  
عليه منذ خمسين سنة عام على أيام رمسيس الثالث.

فقال الحكيم أحتب وزير الملك زوسر:

- عمل جليل مشكور.

وقال الملك خوفو:

- وما أجمل أن توجه الشعب نحو تراثه القديم!

فتساءل أختاتون:

- إني أعتبرها حركة رجعية فما تفسرك لها أيها  
الملك؟

فقال بساماتيك:

- كابد الشعب ما كابد من مذلة تحت حكم  
الأجانب فثار ثورة سلمية على تقاليدهم المستوردة ومن  
ثم لاذ بعراقتة الأصيلة وسلفه الصالح.

فقال تحتمس الثالث:

- وسرت أنت في اتجاه مضاد فألّفت جيشك من

مرتزقة الأجانب!

فقال بساماتيك:

- كانت مصر مهتدة من الشرق والغرب  
والجنوب، وكان المصريون قد فقدوا طموحهم  
العسكري، واستكانوا للهزيمة فانقضت الموقف بالمتاح  
من الوسائل.

وعند ذاك قالت إيزيس:

- انظروا إلى ما قَدّم إلى وطنه من خدمات في

ظروف بالغة السوء.

فقال أوزوريس:

- إلى مجلسك بين الخالدين.

- ٣٥ -

وهتف حورس:

- الملك نيخاو.

فدخل رجل ذو طول وضخامة فتقدّم متلفعًا في

كفنه حتى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- امتدّ سلطانه إلى سوريا، وانتصر على آشور  
ويهوذا، ولكن صادف ذلك ظهور بابل فاستولت على  
سوريا وفلسطين، فقوى حصون الحدود للدفاع،  
وعمل على تحسين التجارة، كما أرسل بعثة من  
الفينيقيين لاكتشاف سواحل أفريقيا.

فدعاه أوزوريس للكلام فقال:

## أمام العرش ٦١٧

- ونسيت أن بابل رابضة على الحدود؟ فسأله الملك أحسن:
- ماذا صنعت لبعث روح القتال في الشعب؟ ولتألم لم ينس بكلمة قالت إيزيس:
- مضى عهده في أمان وسلام! فقال أوزوريس:
- مقامك بين التافهين.

- ٣٧ -

- ونادى حورس:
- الملك أبريس.
- فدخل رجل ربعة فمضى في كفنه حتى مثل أمام العرش.
- وقرأ تحوت كاتب الآلهة:
- حرّض إسرائيل على بابل، واشترك في القتال فغزا بأسطوله فينيقيا ولكن حلت به الهزيمة، وشق عصا طاعته الأمير أمازيس فقام بينهما نزاع قُتل في أثناءه.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- كانت بابل شغلي الشاغل، ورسمت خطة تتلخص في تحريض إسرائيل عليها، على أن أغزو فينيقيا في أثناء القتال وألثف وراء البابليين، ولكنّ الخطة فشلت وحلت بنا الهزيمة.

فقال تحتمس الثالث:

- خطة لا بأس بها ولكن أعوزتها الأيدي المنقّدة.
- فقال إيزيس:
- أطلب الرأفة.
- فقال أوزوريس:
- إلى مقام التافهين.

- ٣٨ -

- ونادى حورس:
- الملك أمازيس. فدخل رجل طويل نحيل، مضى في طريقه حتى مثل أمام العرش.
- وقرأ تحوت كاتب الآلهة.
- وطّد النظام في الداخل، وغالى في اعتياده على

- لم أتفاسع عن واجبي أبداً، فصادفني الحظ في طلع حياتي وحلت بي الهزائم في نهايتها، ولكنّ لداخل حظي بالأمن والأمان والازدهار.
- وتكلّم تحتمس الثالث فقال:
- كان يجب أن تعرف أن الأمم الفتية لا تقف أطباعها عند حدّ، وأن تعمل على إعداد شعبك للقتال.

فقال نيخاو:

- للأسف كان الشعب قد فقد روحه.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- لقد فقدت أنت روحك فوضعت ثقتك في الجنود الأجانب!

فقال إيزيس:

- لم يتوان عن الكفاح سواء في ميدان القتال أو فوق الأرض الخضراء.
- فقال أوزوريس:
- اتخذ مجلسك بين الخالدين.

- ٣٦ -

ونادى حورس:

- بساماتيک الثاني.

- فدخل رجل ذو ميل للبدانة والقصّر فمضى حتى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- وطّد النظام في الداخل، ومن أجل ذلك عين ابنته أنحنس رع رئيسة لكهنة آمون مكان عمته المستنة نيتقريس، ووثق علاقته باليونان.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- ليس عندي ما أضيفه سوى أن عهدي مضى في أمان وسلام.

فقال له تحتمس الثالث:

- كأنك نسيت أن مصر كانت إمبراطورية ذات يوم!

فقال بساماتيک الثاني:

- ما جدوى تدكّر الشباب الذي ولّي؟

فقال رمسيس الثاني:



## ٦١٨ أمام العرش

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- حكم ثلاثة أشهر، ثم تصدّى بجيشه للدفاع عن مصر أمام جيش قمبيز ملك الفرس، وانهمز جيشه ووقع في الأسر، وقتله قمبيز واستولى على البلد.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- تولّيت العرش والجيوش الفارسيّة تتوغّل في آسيا وتنتج نحو مصر فاستعددت بقوّاتي اليونانيّة وجنّدت على عجل جيشًا صغيرًا من المصريين، ولاقيت العدو في معركة حامية فدارت الدائرة علينا ووقعت في الأسر، وقد أراد قمبيز أن أتولّى العرش بوصفي تابعًا له، ولكنّي عملت في الخفاء على مقاومة الغزاة فانكشف أمري ودفعت حياتي ثمناً لذلك.

وتكلّم تحتمس الثالث فقال:

- حدّثني عن مقاومة اليونانيين والمصريين في المعركة.

فقال بساتيك الثالث:

- لا شك أنّ مقاومة المصريين كانت أشدّ بما لا يقاس.

فقال تحتمس الثالث:

- توقّعت أن أسمع ذلك، وربّما لو كان جيشك كلّه مصريًا لتغيّر مصير المعركة ولكنكم أهملتم شعبكم واعتمدتم كلّ الاعتماد على الأجانب، وبذلك انتهى تاريخ مصر المستقلّة على يدكم.

فقال سيكتنرع:

- لا يجوز أن ننسى أنّه رفض العرش في ظلّ الحكم الأجنبيّ. وبنفسه ضحّى في سبيل ذلك، وشاركني نفس المصير. . .

فقال إيزيس:

- أمامكم ابن سيئ الحظّ، حارب بشجاعة، ولو كان هدفه أن يحكم بأيّ ثمن لدان له الحكم ولكنّه قُتل عزيزًا شريفًا.

وقال أوزوريس:

- خذ مجلسك بين الخالدين.

- ٤٠ -

وقال أوزوريس:

اليونانيين، وشغف بالولائم والعريضة، وفي عهده ظهرت دولة الفرس فسعى إلى إقامة حلف من مصر وبابل واليونان لصدّها ولكنّها اجتاحت بابل.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- اعتبرت الملك أريس مسئولاً عن هزيمته أمام بابل، وقدرت أنّه أضعف من أن يواجه الموقف المعقد فخرجت عن طاعته، واستوليت على العرش، وقد أقمت حلفاً لصدّ الفرس ولكنّ الفرس اجتاحت أقوى جناح فيه ففتزعت للإصلاح في الداخل.

فسألته الملكة حتشبسوت:

- ماذا فعلت للداخل؟

فأجاب أمازيس:

- عمّ بلادي رخاء ملحوظ، وأصلحت القانون المدنيّ وحسبي أن أذكر المادّة التي ألزمت كلّ غنيّ بأن يبيّن لرئيس مدينته مصادر ثروته.

فسأله تحتمس الثالث:

- ماذا فعلت لإعداد قومك لمواجهة الطامعين

الجدد؟

- لم يعد قومي يبالون إلا بالفلاحة وحياتهم الخاصّة.

فقال له رمسيس الثاني:

- وكنت قدوتهم في ذلك بشغفك بالولائم والعريضة، وأنا لست ضدّ الولائم والعريضة إذا جاءت في إطار العظمة!

فقال إيزيس:

- إصلاحاته لا يستهان بها وكانت له خطّة حكيمة لولا الفشل.

وتفكّر أوزوريس قليلاً ثمّ قال:

- تمكث في مقام التافهين ألف سنة ثمّ تنقل إلى الجنّة في درجة متواضعة تناسبك.

- ٣٩ -

وهتف حورس:

- بساتيك الثالث.

فدخل رجل متوسط القامة قويّ البنية، سار في

كفنه حتى مثل أمام العرش.

## أمام العرش ٦١٩

دقلديانوس بعصر الشهداء، وفي عصر تيودوريس حتم الإمبراطور اعتناق المسيحية على رعاياه فكان للديانة القديمة شهادتها كذلك ولكن الأغلبية اعتنقت المسيحية، واستقلوا فيها بمذهب خاص بهم، وامتزجت الروح الدينية بالروح الوطنية وعملا معاً على الثورة والاستقلال فتعرضوا لمذابح وعذابات لا حصر لها. واتخذ الصراع صورة معركة دينية بين الكنيسة المصرية وكنيسة الدولة الرومانية، واستمر النزاع مصحوباً بأشد أنواع الاضطهاد.

\*\*\*

وفي الصمت الثقيل الذي صاحب كلام نحوت وأعقبه أشار أوزوريس إلى حورس فصاح حورس:

- المقوقس حاكم مصر.

فدخل رجل بدين مائل إلى القصر فمضى متلثماً في كفته حتى وقف أمام العرش.  
وقرأ نحوت كاتب الآلهة:

- حاكم مصر من قبل الإمبراطور الروماني، اعتبره الأقباط مصرياً، وفي عهده غزا العرب مصر، وقد اتفق مع العرب تخلصاً من الرومان، وبذلك دخلت مصر في عهد جديد تحت حكم العرب.  
فدعاه أوزوريس للكلام فقال:

- وليت حكم مصر من قبل الإمبراطور، ورغم أصلي اليوناني فقد اعتنقت المذهب اليقوي المصري فرضي عني الأقباط واعتبروني واحداً منهم، وقد رأيت الاتفاق مع العرب تخلصاً من الرومان وحصلت بذلك على شروط حسنة.

فسأله ابنوم:

- كيف آمنت للاتفاق مع الغزاة؟

فأجاب المقوقس:

- أشهد أنهم كانوا غزاة شرفاء، وقد قسم قائدهم عمرو بن العاص القطر إلى أعمال وضع على رأس كل منها حاكماً قبطياً فشر الأهل براحة لم يعرفوها منذ مئات السنين، وحرر العباد من كل قيد فجدد الأقباط ربهم بالطريقة التي آمنوا بها...

فسأله رمسيس الثاني:

- ولم جئتموا أنفسكم مشقة الغزو إذن؟

- أيها السادة، لقد انتهت مصر الفرعونية، وليس من اختصاص هذه المحكمة أن تحاسب الحكام الأجانب، وهي تعتبرهم جميعاً أجناب ملعونين وإن اختلفوا في الدرجة بين حاكم مصلح وحاكم مفيد، وسوف نواصل محاسبة المصريين، من اكتسب مصريته بالوراثة أو من اكتسبها بالإقامة والقلب، وسيكون حكمنا غير نهائي في حالة اعتناق المصري لدين جديد مثل المسيحية أو الإسلام فيكون حكمنا نوعاً من التقدير التاريخي نرجو أن يوضع في الاعتبار عندما يحاكم المواطن أمام محكمته الدينية في عالم الأبدية، والآن أترك الكلمة لنحوت كاتب الآلهة.

فقرأ نحوت كاتب الآلهة:

- انتهت مصر الآلهة والأهرامات والمعابد والضرائع المنيرة. أصبح الفرس ملوكاً على العرش الذهبي، عبدوا آلهتنا وتمسحوا بتقاليدنا ولكن المصريين مقتومهم مقتاً، ثاروا وتحزروا، وهزموا واستعبدوا، وجاءنا الإسكندر غازياً ومحزراً، ثم ورث مصر أحد قواده فأنشأ لأسرته دولة وحضارة، واستأثر الأجانب بالنشاط الجوهري على حين عاش المصريون في الظل يفلحون الأرض ويقنعون بالدرجة الدنيا، باستثناء الكهنة الذين بقيت لهم الشئون الدينية. وقد انفجرت حركات مقاومة في صورة هجرات جماعية أو إضرابات، وكانت تُقابل بالعنف والشدة، وقامت ثورات وأخذت بقسوة وأريقت دماء غزيرة، وانتهى حكم الأسرة اليونانية في عهد الملكة كليوباترة، ودخلت مصر تحت حكم أجنبي جديد هو الحكم الروماني، فاعتبرت ضيعة لإمداد روما بالغلال، وازداد وضع المصريين سوءاً، وكلما ثاروا على الظلم أخذت ثورتهم وسفكت دماؤهم، وفي عهد الحاكم الروماني نيرون دخلت المسيحية مصر فأقبل فريق من المصريين يغيرون دينهم، ولم يكن ديناً نابغاً في مصر كما حدث على عهد اخناتون ولكنه كان وارداً من الخارج، وغلب الزهد على معتنقي الدين الجديد فاعتصم كثيرون منهم بكهوف الصحراء فراراً من ظلم الحكام وفساد الدنيا، وقد قاومت الحكومة الرومانية الدين الجديد وانهارت بحرابها على معتنقيه حتى عُرف عصر الإمبراطور

٦٢٠ أمام العرش

فقال المقوقس:

- كانت الجزية تحمل إلى بلادهم الأصلية أما الهدف الأساسي للغزو فيها بدا لنا فكان الدعوة إلى دين جديد بشرروا به يدعى الإسلام.

فقال أبنوم:

- واستقبلت مصر عصر شهداء من جديد؟

فقال المقوقس:

- كانوا يدعون إلى دينهم دون إكراه، ومن يشأ الثبات على دينه يدفع الجزية.

فسأله خوفو:

- ما وجه الخلاف بين هذا الدين وديننا القديم؟

- كانوا يؤكّدون على وحدانية الإله!

فصاح أختاتون:

- هذا ديني وهذا إلهي، طالما آمنت بأنني سأنتصر في النهاية، خبرني كيف استقبل الناس هذا الدين؟

- لم يعتقه في حياتي إلا قلة لا وزن لها..

فقال أبنوم:

- دعونا من الشجار حول الآلهة وحدثني عما أفاده الفلاحون الكادحون!

- لقد ألغى عمرو بن العاص كثيرًا من المكوس التعسفية فحسنت أحوال الفقراء.

فقال إيزيس:

- عادت سياسة هذا الرجل على أبنائي بخير غير منكور.

فقال أوزوريس:

- يُمنح شهادة تزكية لعلها تنفعه أمام محكمته الدينيّة.

حرية العبادة وطرده للرومان.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- العقيدة هي شرف الإنسان وكرامته وعزّته وطريقه إلى الله، وقد تحمّلت ما تحمّلت من اضطهاد روماني فلم أتزعزع عن عقيدتي، ثم آويت إلى الدير محتجًا على السقوط البشري في هاوية الظلم والفساد، وقضى الله أن تقع مصر في أيدي بني إسماعيل، وأن يهينوا للناس حرية العبادة فرجعت إلى كرسيّ البابوية بالإسكندرية ومارست الزعامة الروحية للأقباط.

فقال تحتمس الثالث:

- أصبح غاية ما يرميهِ المصري أن يفوز بغازٍ أجنبي عادل!

فقال البطريك بنيامين:

- مضى على شعبنا العاكف في قراه زهاء ألف عام وهو خاضع لأسرات أجنبية تحكمه بقوة السلاح.

فسأله أبنوم:

- ألم تستغلّ سلطتك الروحية لإيقاظ الشعب؟

فقال البطريك:

- عاصرت غازيًا جديدًا أتاح لنا حرية العقيدة وخفّف الأعباء عن الفقراء ولم يحاول إكراهنا على اعتناق دينه، فلم يكن الوقت مناسبًا لبثّ روح التمرد.

فقال إيزيس:

- لا لوم على الرجل فقد عاش في زمن كان هواه مع غيرنا.

فقال أوزوريس:

- ليس لدى محكمتنا ما تؤاخذك عليه.

- ٤٢ -

ونادى حورس:

- المصريّ أثناسيوس.

فدخل رجل نحيل متوسط القامة فمضى في كفه حتى مثل أمام العرش.

وقال أوزوريس:

- قامت هذه المحكمة لحاسبة الحكام المصريين، وليس هذا الرجل حاكمًا ولكنّه يمثل عودة المصريين إلى

- ٤١ -

وهتف حورس:

- البطريك بنيامين.

يدخل رجل نحيل متوسط القامة، يتقدّم حتى يمثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- بطريك الأقباط، حمله الاضطهاد على الانزلال في الصحراء، أفرج عنه عمرو بن العاص بإعلانه

## أمام العرش ٦٢١

اهتدى العرب إلى إلهي بينما نبذه قومي جيلاً بعد جيل.

وقالت إيزيس:

- لا أجد ما يوجب الدفاع عن هذا الابن طالما أنّ أحدًا لم يوجه إليه تهمة ما.

فقال أوزوريس:

- نحن نرجو لك يا أثناسيوس حسن الختام أمام محكمتك المسيحية . . .

- ٤٣ -

وهتف حورس:

- المعلم أنتناش.

فدخل رجل ربعة، ومضى حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- تولّيت أمر الكتابة بالقبطية لتبخر فيهما، وفي حكم عبدالله أخي الخليفة الوليد بن عبد الملك صدر قرار بإحلال اللغة العربية مكان اللغة القبطية، فغزلت من وظيفتي وتولّيتها رجل من حمص، وعُرف عن حاكمنا بأنّه يقبل الرشوة رغم تحريم دينه لها، وتولّى بعده قرّة بن شريك وكان جائراً ظالماً، فاحتقر عقائدنا حتّى كان يقتحم الكنائس أحياناً ويوقف الصلاة.

فتساءل أبنوم:

- وأين ذهب اتفاق عمرو بن العاص؟

فقال أنتناش:

- ما أسرع أن ينسى الحكّام دينهم!

فسأله أبنوم:

- وماذا فعل الشعب؟

- لم يكن لنا قدرة على مقاومة السلطة الحاكمة.

فقال رمسيس الثاني:

- أسفي على حكم الفراعين!

فقال له أبنوم:

- الأسف حقاً على حكم الشعب في الفترة التي

كشطتموها من التاريخ أما الفراعين فكثرتهم كانت

أقصى على الشعب من الأجانب!

فقال رمسيس الثاني:

- أنا لا أسمع . . .

الحكومة، فلا تخلو شهادته من قيمة تاريخية.

ودعا أثناسيوس إلى الكلام فقال:

- عملت مترجماً من القبطية إلى العربية حين كانت

القبطية هي لغة الدواوين. وقد عاشت مصر في سلام

وأمان حتّى كان عهد الخليفة عثمان الذي انقسم

المسلمون حول سياسته، وخاضوا نزاعاً انتهى بقتله،

وانقسم العرب في مصر تبعاً لذلك إلى فريقين،

مؤيدين لعثمان ومعارضين له، ونشبت بين الفريقين

حروب عانى منها المصريون الذين جرت في بلادهم.

واشتد الأمر عندما قامت حروب بين العرب حول

الخلافة حتّى آلت إلى خليفة يدعى معاوية، وتولّى أمر

مصر حكام من أتباعه. وبصفة عامّة لم نحظّ بحاكم

أرفق بنا من عمرو بن العاص. وفي عهد الحاكم عبد

العزیز بن مروان أحدث بعض الإصلاحات ولكنّه

فرض ضريبة دينار على الكهنة بعد أن كانوا معفيين من

الضرائب كما ضرب على البطارقة ثلاثة آلاف دينار

سنوياً.

فسأله الحكيم أحتب:

- وكيف كانت ردة الفعل عند الكهنة والبطارقة؟

- كانت ردة فعل مسيحية قوامها الحب والسلام

والتعالي عن مطالب الدنيا.

فقال أختاتون:

- لم يدبروا ثورة كما فعل أجدادهم معي!

فقال أثناسيوس:

- رغم ذلك كانت الأحوال تُعتبر حسنة إذا قورنت

بما كانت عليه أيام الرومان، ولكننا نحن الأقباط

تكذّرنا عندما علمنا بدخول أفراد منّا في الدين

الجدید، وتراءى لنا أنّهم كفروا تفادياً من أداء الجزية

أمّا هم فزعموا أنّ الإسلام ما هو إلا مذهب من

المسيحية وأنّ معتنقه ليس بكافر.

فقال الملك خوفو:

- لقد مهّدتم لهم الطريق بتغيير دينكم الأوّل

فكّرستم سنّة اللعب بالعقيدة . . .

فقال أختاتون:

- لا يلام الإنسان على تغيير دينه إذا كان دافعه

القرى من ذي الجلال والنور، ولكنّي أعجب كيف

## ٦٢٢ أمام العرش

- ٤٥ -

ونادى حورس:  
- الحاج أحمد المنيوي.  
فدخل رجل طويل القامة قويّ البنيان، وتقدّم حتّى  
مثل أمام العرش.  
ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- في الأصل من أسرة ميخائيل المنيوي، هدايا  
الله إلى الإسلام فأسلمت، وتعلّمت اللغة العربيّة  
وحفظت القرآن الكريم، واشتغلت بالتدريس، ثمّ  
مكّنتني الله من أداء فريضة الحجّ . . . وفي أيامي تولّى  
الخلافة عمر بن عبد العزيز وكان من الخلفاء الراشدين  
مثل خلفاء المسلمين الأوائل فشكا الأقباط أسامة بن  
يزيد إليه فأمر بعزله ثمّ قبض عليه وحمل إلى الخليفة  
مكبلاً فهات في الطريق، وتولّى مكانه أيّوب بن  
شرحبيل وكان ورعاً فعوّض الأقباط عمّا حاق بهم من  
ظلم.

وسأله أختاتون:  
- لمّ اعتنقت الإسلام؟  
- الإيمان ينفجر في القلب دون مقدمات.  
فقال أختاتون:  
- صدقت، ولن يصدّقك مثل خبير، ولكن ألم  
تكن لأناشيدي دخل في ذلك؟  
فقال أوزوريس:

- لم يُعرف اسمك إلّا بعد أيّامه بألف عام.  
فقال الملك خوفو مخاطباً أحمد:  
- لعلك رغبت في التخلّص من الجزية!  
فقال أحمد:

- أبداً، لقد كان قائد الجيش حيّان بن شريح  
يطالب الداخلين في الإسلام بالجزية ولما بلغ ذلك  
الخليفة أمره برفعها كما أمر بضربه عشرين سوّطاً وقال  
له إنّ الله بعث محمّداً هادياً ولم يبعثه جانياً. . .  
فقال أوزوريس:

- ليصحبك التوفيق أمام محكمتك الإسلاميّة.

- ٤٦ -

ونادى حورس:

ولكنّ أوزوريس قاطعه قائلاً:

- أنا الذي أسمع أو لا أسمع.  
وساد صمت مدّة غير قصيرة، ثمّ قال أوزوريس  
مخاطباً أنتناش:  
- فليصحبك التوفيق أمام المحكمة المسيحيّة.

- ٤٤ -

وهتف حورس:  
- دميانة السوفيّة.  
فدخلت امرأة متوسّطة القامة، وتقدّمت حتّى مثلت  
أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقالت:  
- فلاحه من بني سويف، ترمّلت وأنا أمّ لولد  
صغير، وكان متولّي الخراج أسامة بن يزيد وقد اشتهر  
بالظلم والعسف، وقد أمر أن يلبس كلّ كاهن خاتماً  
من حديد في إصبعه محفوراً عليه اسمه يأخذه من جابي  
الخراج إشارة إلى خلّو طرفه، وهدد من يخالف ذلك  
بقطع اليد، وفرض أيضاً ضريبة عشرة دنانير على كلّ  
من يركب النيل، وقد اضطرّرتني ظروف المعيشة للسفر  
في مركب شراعيّ، وحدث أن تدلّى ابني ليشرب  
فخطفه تمساح ومعه تذكرة السفر، وعند محطّ الوصول  
طالبوني بالتذكرة، ولم يفرّج عنيّ رغم شهادة الشهود  
حتّى بعث ما بين يديّ. . .

فقال الحكيم بتاح حتب:  
- الدين إسلاميّ والحكم رومانّيّ.  
فقال أنبوم:  
- فيما عدا فترة الظلام لم يعرف الفلاح إلّا الظلم  
بصرف النظر عن اسم الظالم وجنسيّته. . .  
فقالت دميانة:

- ونفد صبر الناس فتجمهروا ثائرين، واستمرّت  
الثورة حتّى مات الخليفة في دمشق فهذات الأحوال  
على أمل تغيير السياسة.

فقال أنبوم:  
- لتباركك الألهة على أوّل خبر سارّ نسمعه.

وقال أوزوريس:  
- أرجو أن تحظّي بالإنصاف في ساحة محكمتك.

## أمام العرش ٦٢٣

فسأله الحكيم أحتب وزير الملك زوسر:  
 - وكيف كان حال المسلمين؟  
 - عانوا مثلنا وبلغ بهم السخط غايته واتهموا الولاة بالخروج على الشريعة، وأتحدت مشاعرنا رغم اختلاف الدين ولكنَّ القوَّة الحاكمة كانت أقوى من الجميع...  
 فقال أختناون:  
 - لو اعتنقتم جميعاً ديانة الإله الواحد لبادر إلى إنقاذكم.  
 فقال له أبنوم:  
 - كانت مشكلة خبز لا مشكلة لاهوتية.  
 فقال أوزوريس:  
 - لعلك تجد الحكم العادل في محمكتك.

- ٤٨ -

ونادى حورس:  
 - سليمان تادرس.  
 فدخل رجل متوسط القامة بدين، مضى حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:  
 - نقاش ماهر، عاصرت أربعة خلفاء هم المهدي والهادي والرشيد والمأمون، وعشرات من الولاة المتتابعين غلب على أكثرهم الفسق والرشوة والظلم، وفي أيامهم قامت انتفاضات كثيرة، وفي بعضها قام الأقباط المسيحيون والأقباط المسلمون والعرب، أمحدوا ضدَّ الظلم وتعاونوا على دفعه، حتى جاء المأمون بنفسه لتفقد الأحوال، فأجرى العدل، وتحسنت أحوال الناس على اختلاف أديانهم.

فسأله أبنوم:  
 - هل اشتركت في ثورة من الثورات؟  
 - كلا، ولكنني فقدت ابناً في إحداها...  
 فقال الحكيم بتاح حتب:  
 - يجئ إلى أن الأمور مضت في مجرى جديد.  
 وقال أوزوريس:  
 - إنك تستحق عطفنا فاذهب إلى محمكتك بسلام.

- سمعان الجرجاوي.  
 فدخل رجل ربعة وتقدم حتى مثل أمام العرش.  
 ودعاه أوزوريس للكلام فقال:  
 - حداد من أسرة حدادين، وفي أول خلافة هشام بن عبد الملك قام الأقباط بثورة، واشتركت فيها، وفقدت حياتي في إحدى معاركها، وكان يتولى أمرنا حنظلة بن صفوان، وكان ظالماً غشوماً، لم يكتفِ بالضرائب المفروضة على الإنسان ففرض ضرائب على الحيوان وقد عزل بسبب ذلك بعد إخماد الثورة.  
 فقال أبنوم:  
 - أحييك كثائر من أبناء شعبنا، ولكنني أتساءل عما يجبط الثورات؟!  
 فاجاب سمعان الجرجاوي:

- قوَّة الخلافة لا تُقهر، وكنا شعباً أعزل قد فقد روحه القتالية، كما فقدنا مشاركة إخواننا الذين اعتنقوا الإسلام وأخلصوا قلوبهم للخلافة...  
 فقال أبنوم:  
 - هذا غزو من الداخل لم يحدث من قبل.  
 وقال أوزوريس:  
 - اذهب إلى محمكتك المسيحية مصحوباً بتركتينا وبركاتنا.

- ٤٧ -

ونادى حورس:  
 - حلیم الأسواني.  
 فدخل رجل طويل نحيل، مضى في كفته حتى مثل أمام العرش.  
 ودعاه أوزوريس للكلام فقال:  
 - تاجر غلال من أسرة كبيرة اعتنق نصفها الإسلام، وحدث أن انتقلت الخلافة إلى أسرة جديدة، عاصرت منها خليفة يدعى أبا جعفر المنصور، وتتابع الولاة على مصر لا يمكث أحدهم إلا عاماً أو بعض عام، ولا يجد فرصة للتفكير في الإصلاح، فساءت الأحوال، وثار الأقباط في سخا، واشتدَّت الحال سوءاً فعمَّ البلاء والجوع حتى أكل الناس الكلاب والأدميين.

- ٤٩ -

فأجاب موسى:

- لم يكن الذنب ذنبه ولكنّه كان دسيّسة من أسقف  
حقود يدعى سكا زعم لابن طولون أنّ البطريك يدّخر  
ثروة طائلة لا حاجة له بها فطالبه ابن طولون بالتبرّع  
بشيء من ثروته في ظرف كان السوالي يتوتّب لدفع  
جيوش أجنبيّة فاعتذر البطريك بعجزه فسجنه بتهمة  
الخيانة، ولما ولي ابنه خارويه بعده تبين له وجه  
الحقيقة فأطلق سراحه وأرجعه مكرّماً، ولم يكن خلفان  
ابن طولون مثله قوّة وحزمًا فدالت دولتهم ورجعت  
مصر تتطلّع إلى الغد بعين حذرة.

فقال أوزوريس:

- عرضت صفحة مشرقة فلتصحبك السلامة.

- ٥٠ -

وهتف حورس:

- عليّ سندس.

فدخل رجل قوئى البنية متوسط القامة ومضى حتّى  
مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- سقاء، عشت جملّ حياتي في ظلّ الدولة  
الأخشيديّة، وكانت مصر قد عادت إلى الخلافة  
العباسيّة وتتابع عليها الولاة بالعشرات يصبّون المظالم  
على المصريين غير مفرّقين بين مسيحيّ ومسلم حتّى  
توتّى أمورنا محمّد أطفيح، مملوك، من سلالة ملوك  
فرغانا، فاستقلّ بمصر ولقب نفسه بالأخشيديّ كما  
جرى عليه العرف بين ملوك فرغانا، وصدّ عن مصر  
الطامعين فيها، وكان - لدى كلّ حملة - يطالب  
المسيحيّين بالمعاونة، ثمّ آل الحكم إلى وزيره الخصيّ  
كافور الذي لقب نفسه بالأخشيديّ، وفي عهده  
حكمت مصر الحجاز والشام، وطارد الموظّفين  
الفاستدين فتحسّنت الأحوال في عهده.

وسأله رمسيس الثاني:

- كيف رضيتم بأن يحكمكم مملوك وخصي؟

فأجاب عليّ سندس:

- ما كان يهمنّا كمسلمين إلا أن يحكمنا حاكم  
مسلم عادل، والعبد العادل خير من الأمير الظالم . . .

وهتف حورس:

- موسى كاتب سرّ أحمد بن طولون.

فدخل رجل مديد القامة، ومضى حتّى مثل أمام  
العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- قبطنيّ مسيحيّ، وهبني الربّ علمًا ودراية  
فاختارني الوليّ أحمد بن طولون كاتب سرّه، ولم يكن  
عربيًّا، وقد آلت إليه الأمور في خلافة المعتمد بن  
المتوكّل، فعمل على تثبيت ولايته، وكان مصر قد عاد  
إليها استقلالها، بل إنّه ضمّ لحكمه سوريا وأجزاء من  
آسيا الصغرى، وعكف على الإصلاح والبناء والبرّ  
 وإقامة العدل حتّى انتشرت مظلّته فوق المسلمين  
والمسيحيّين واليهود فلهجت الألسنة بالثناء عليه. وكان  
يجلس يومين للمظالم مثلما فعل الخلفاء الراشدون،  
لذلك فعندما اشتدّ عليه المرض خرج الجميع يدعون  
له فوق جبل المقطم، المسلمون بقرآنهم والمسيحيّون  
بإنجيلهم واليهود بتوراتهم.

فسأله الحكيم بتاح حتب:

- هل انتفع الأقباط المسيحيّون بمنزلتك عند الوالي؟

فأجاب موسى:

- لقد كان اختياره لي دليلًا على إيمانه بالمساواة بين  
الطوائف فاعتنقت إيمانه بالمساواة وحقّ عندما رشّحت  
له المهندسين المسيحيّين لبناء الحصون والمساجد كنت  
متحرّياً الدقّة بلا تميّز، والحاكم العادل يستخرج من  
طوايا معاونه خير ما فيها بما هو قدوة لهم . . .

وسأله الحكيم أحبّ وزير زوسر:

- وكيف جرت العلاقات بين الطوائف؟

- على خير ما يكون وكما ينبغي لها أن تجري في ظلّ  
حاكم عادل. في عهده أصبحت مصر شعبًا واحدًا ذا  
أديان ثلاثة، وكان الإسلام قد أخذ ينتشر ويكثر عدد  
معتقيه.

واستاذن تحوت كاتب الآلهة في توجيه سؤال ولما

أذن له قال:

- لماذا سجّن البطريك ميخائيل بطريق كنيسة

الإسكندرية؟

## أمم العرش ٦٢٥

أيامهم الإدارة وجرت الأرزاق، ولمّا جاء المعزّ لدين الله استقبل صفوة القوم وكان فيهم عبدالله بن طباطبا الأديب العلامة فسأل الخليفة: «إلى من ينتسب مولانا؟» فسأل الخليفة نصف سيفه وقال «هَذَا نسي» ونثر عليهم الذهب وقال «وهَذَا حسي» فقالوا جميعًا سمعنا وأطعنا.

فسأله أبنوم:

- لماذا لم تستقلّوا ببلدكم عقب انهيار دولة الأخشيد؟

فأجاب ابن قلاقس:

- ولمّ نستقلّ على حين يوجد أكثر من خليفة مسلم؟... المسلم لا يهّمه الاستقلال وما يريد إلا حاكمًا مسلمًا قويًا عادلًا وقد وجدناه عند الفاطميين.

- وبايستم على الطاعة أمام السيف والذهب؟

- وهل تقوم دولة إلا عليها؟! وقد حفل عهد الفاطميين بالعلم والفنّ والبناء وحظي المسيحيون بالثقة والأمان، ولكنّ عهد الحاكم بأمر الله لا يُنسى فقد تلاطمت فيه المتناقضات، مرّة ينصف المسلمين ويضطهد الأقباط وأخرى ينصف الأقباط ويضطهد المسلمين، وثالثة يضطهد الجميع، ثمّ ختم عهدهم بمجاعة ضارية عقّت المهابة والمجد وأصابت الناس بالمحن...

فقال أوزوريس:

- اذهب بسلام إلى محكمتك.

- ٥٢ -

ونادى حورس:

- الوزير قراقوش.

فدخل رجل ربة ومضى حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- دالت دولة الفاطميين فجاء صلاح الدين الأيوبي إلى مصر لينشئ دولة جديدة هي الدولة الأيوبيّة، وعملت تحت جناحه وزيرًا، وشهدت إصلاحاته الداخليّة من تنظيم للإدارة وتخفيف للمكوس وإقامة العدل، كما شهدت إنجازاته الخارجيّة مثل توحيد العرب ومحاربة المسيحيين الأجانب والانتصار عليهم،

فتساءل رمسيس الثاني:

- ومن أين لعبد أن يتفوق على أمير؟

فأجابه أختاتون:

- بفضل عبادة الإله الواحد، لقد دعوت في حياتي

للمساواة بين البشر فرُميت بالجنون!

فقال أوزوريس:

- لتصحبك السلامة إلى محكمتك الإسلاميّة.

- ٥١ -

وهتف حورس:

- ابن قلاقس.

فدخل رجل قصير القامة مع مئيل للبدانة وسار حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- أنا أبو الفتح نصرالله بن عبدالله الشهير بابن قلاقس اللخميّ الإسكندريّ الملقّب بالقاضي الأعزّ.

فقال أوزوريس:

- إنّه اسم يفوق في طوله اسم أيّ فرعون، ماذا

كنت تعمل؟

- مرسي السفن المقلعة من مصر ولكنني كنت شاعرًا، زرت المغرب وصقلية ومدحت أمراءهما كما مدحت الفاطميين وملوك اليمن، وكانت مصر بلدي

والإسلام وطني والملح رزقي، من ذلك قصيدتي في مدح ياسر بن بلال التي مطلعها:

سافر إذا ما شئت قدرا

سار الهلال فصار بدرا

والماء يكسب ما جرى

طيبًا ويخبث ما استقرًا

وأنا القائل أيضًا:

انظر إلى الشمس فوق النيل غارية

واعجب لما بعدها من حمرة الشفق

فقال أوزوريس:

- حدّثنا عن زمانك أمّا الشعر فله محكمة أخرى.

فقال ابن قلاقس:

- دالت دولة الأخشيد فاستولى الفاطميون على

مصر دون حرب، وبنوا القاهرة والأزهر وحسنت في



## ٦٢٦ أمام العرش

وقد عاصرت زمن المماليك الذين اقتنهم الأيوبيون  
لجملهم، ثم ربّوهم تربية حسنة ليقوموا بخدمتهم،  
فورثوا الملك عنهم. وقد كان منهم سلاطين عظام،  
حسن إسلامهم، فأحبّوا العدل والنظام وشيّدوا  
العماير، وهم الذين صدّوا التتار وطهّروا بلاد الإسلام  
من الصليبيين، ولكرن أكثرهم كانوا فاسقين فاسدين  
جشعين، فعانى الأهالي على أيديهم العذاب والفقير  
والذلّ.

فقال تحتمس الثالث:

- ما كنت أتصوّر أن يكون للمماليك عصر.

وقال الحكيم بتاح حتب:

- لقد قلت في الحبّ شعراً، ألم يجرّك عذاب الناس  
وجدانك الشعري؟

فقال الشهاب الخفاجي:

- في رسالة لي قلت عن الأهالي «ذهب أرياب  
المهمم العالية ولم يبقَ إلّا من يفتخر بالرّمم البالية،  
روح الشوم، ونتيجة اللوم، وخليقة اليوم، وإن طال  
التحمّل والسكوت، فكم بكت السماء أرضاً فقدت  
حبيباً، وساعدتها سحب انتحبت نحيباً، هكذا مرّ على  
شعب مصر مئات أعوام من العذاب والذلّ، ولولا  
الإسلام لهلكوا وبادوا...».

فسأله أبنوم:

- وماذا قلت عن المماليك؟

- ما كان في وسعي أن أعرض رقبي لسيوفهم!

فسأله الحكيم أحتب:

- ماذا كان دور الإسلام الذي أشرت إليه؟

- كان الشجعان من رجال الدين يتصدّون أحياناً  
للطغاة دفاعاً عن المظلومين فيكلّل مسعاهم بالنجاح،  
وكان البؤساء يجدون في دينهم العزاء والأمل...  
ونظر أوزوريس نحو الخالدين فوق مقاعدهم  
وقال:

- أيّها السادة، إنّي أشعر بحزنكم وغضبكم، وأودّ  
أن أخبركم بأنّ المحكمة ستوجّه لدى الفراغ من عملها  
نداء إلى المحكّمتين، المسيحية والإسلامية، بإنزال أشدّ  
العقوبات بجميع الحكّام الظالمين الذين اعتلوا عرش  
الفراعة.

واستوائه بين الفرسان مثلاً للشجاعة والشهامة والمروءة  
والعظمة. وقد تحرّيت في كلّ أعمالي الصلاح والعدل  
ولكنّي اشتهرت بالظلم بلا وجه حقّ وذلك نتيجة  
لاضطرابي إلى إزالة مساكن كثيرين وأنا أبني سور  
القاهرة، فما عُرف عادِل بالظلم كما عُرفت.

وسأله - بعد استئذان - تحوت كاتب الآلهة:

- ألم تتعدّى على أحجار بعض الأهرامات لتبني بها  
سورك دون احترام للغابرين؟

- انتزعتها من آثار وثنية لأقيم بها مباني في سبيل

الله ورسوله... .

فقال خوفو:

- نسي الأحفاد دين أجدادهم وشغلوا بحاضرهم.

فقال أختاتون:

- حسبهم أنّهم آمنوا بإلهي!

فقال قراقوش:

- لم يكن خلفاء صلاح الدين على مستواه، وجاء  
مسيحيّو الشمال ليقضوا على مجدهم فهلكت دمياط  
وتعدّبت رشيد وقُتل الرجال وانتهكت النساء، ولكنّهم  
في النهاية انهزموا وغادروا البلاد.

فقال إيزيس:

- وذهبت دولة بخيرها وشرّها.

فقال أوزوريس:

- اذهب إلى محكمتك مشكوراً.

- ٥٣ -

ونادى حورس:

- الشهاب الخفاجي.

فدخل رجل قصير القامة مفرط البدانة وتقدّم في  
سيره حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- ولدت في سرياقوص، وصرت من رجال اللغة

والأدب، فأنا القائل:

حَتّام يَغزوني صدوده

والصبر قد كثرت جنوده

نشوان يعبث بي كما

عبثت بأمالي وعوده

## أمام العرش ٦٢٧

دين الإله الواحد؟

فقال عليّ بك الكبير:

- كان العثمانيون يمارسون الظلم والفساد تحت شعار إسلام زائف، وهالني ما يلقي أهل مصر من عذاب، فلم أجد من سبيل إلى إسعادهم في ظلّ إسلام حقيقيّ إلا بالتحرّر من ربة العثمانيّة.

فقال تحتّمس الثالث:

- وبدأت مشكوراً في استرداد بعض من إمبراطوريّتي.

وقال أمنمحتت الأول:

- لم تنتفع بوصيّي التي دوّنتها عقب مؤامرة دُبرّت في قصري بيد أقرب المقرّبين لي وكادت أهلك ضحيّة لها!

فقال عليّ بك الكبير:

- الحقّ أنّي لم أسمع عنها، وقد كان لي في كتاب الله وسنة رسوله ما يكفيني لولا أنّ الحذر لا ينجي من القدر.

فقال أوزوريس:

- إنك تستحقّ عندنا كرسيّ الخلود وسيستجّل ذلك في تزكيتنا لك.

- ٥٥ -

وهتف حورس:

- السيد عمر مكرم.

فدخل رجل دون الطويل وفوق المتوسط ذو بياض مستقيم، فمضى في كفته حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- وُلدتُ في أسيوط، وتلقّيت العلم والأخلاق والدين على يد الصفاة، ثمّ تبوّأت نقابة الأشراف، ودأبت على ردع القوى دافعاً عن الشعب المعذب، ولمّا جاء الفرنسيّون لغزو بلادنا دعوت الشعب للقتال وسرت في طبيعته، ولكنّ جيوشنا انهزمت واحتلّ الفرنسيّون القاهرة، وقد اختاروني لعضويّة الديوان فرفضتها بإباء وهاجرت إلى سوريا تاركاً أموالِي وأملاكي عرضة للنهب، ولمّا غزا الفرنسيّون سوريا أعادني نابليون إلى مصر مكرماً ولكنّي اعترلت في بيتي،

ثمّ نظر إلى الشهاب الحفاجي وقال:

- اذهب بسلام إلى محمّتك بلا تزكية ولا إدانة متاً.

- ٥٤ -

وقال تموت كاتب الألهة:

- ولمّا دالت دولة المماليك سقطت مصر غنيمة في يد الدولة العثمانيّة، وتتابع عليها مئات الباشوات كولاة، وشاركهم في حكم البلاد الجيش العثمانيّ وبقية المماليك، ولم تعرف البلاد إلا النادر واليسير من الراحة والتقدّم في فترات عابرة، ثمّ قام النزاع بين القوى الحاكمة، وتفشّى الاغتيال والغدر، وغرق الشعب في الهمّ والذلّ والجهل، واستمرّ ذلك بضع مئات أخرى من السنين.

\*\*\*

ونادى حورس:

- عليّ بك الكبير.

فدخل رجل ذو طول وقوة ومضى في كفته حتّى مثل أمام العرش.

وقال أوزوريس:

- إنك أول حاكم أجنبيّ نستدعيه إلى محمّتنا لما تضمّنته سياسته من نزعة مصريّة واضحة لم تلمس من قبل، ها أنا أدعوك إلى الكلام.

فقال عليّ بك الكبير:

- كنت في الأصل من ممالك إبراهيم كخيا، فمّيزني لشجاعتي فصرت أحد البكوات المعدودين، ثمّ رُقّيت شهباً للبلد، وعند ذاك فكّرت بالاستقلال بمصر عن الدولة العثمانيّة، وتمّ لي ما أردت، وسرعان ما خفّفت المكوس وأقمت العدل ونفّدت بأمانة حكم الإسلام فنعم بالسلام والأمان أهل مصر، مسلمين ومسيحيّين ويهوداً، ومددت سلطاني حتّى شمل الجزيرة العربيّة والشام والنوبة، ولولا خيانة أبي الذهب أحد ممالكي المقرّبين لكان لمصر مصير غير المصير، ومثّ كرمياً كما عشت كرمياً...

وتكلّم أختاتون فسأله:

- ألا يُعتبر استقلالك بمصر تمزيقاً لوحدة الإسلام

## ٦٢٨ أمام العرش

ضمن حملة لقتال الفرنسيين. ولما جلا الفرنسيون عن مصر جعلت أدرس الأحوال وأفكر في المستقبل. تكشف لي ضعف العثمانيين، ووحشية المهاليك، وانتهت إلى قوة ثلاثة لا يحسب حسابها أحد هي قوة أهالي البلاد وزعمائهم، فقررت أن أوثق علاقتي بهم لعلهم يصلحون أساساً أقيم عليه دولة جديدة تستعيد من الماضي أمجاد الغابرة. ونجحت في ذلك أيما نجاح، حتى خلع الأهالي الوالي التركي وبايعوني حاكماً محلاً. واعترف الباب العالي بالأمر الواقع فاستتب لي الأمر. وشرعت في العمل فلم أكف عنه حتى نهاية عمري. تخلصت من المهاليك وهم الشر المقيم. وتلقيت من الباب العالي أمراً بمحاربة الوهابيين في الجزيرة العربية فانتصرت عليهم. وكونت جيشاً من المصريين، وفتحت السودان، وقتل ابني إسماعيل في الحرب فانتقم له بقتل عشرين ألفاً من العدو، وأنشأت للجيش مدارس ومصانع كما أنشأت أسطولاً مستعياً في ذلك كله بالخبراء الفرنسيين. ولم أغفل الإصلاح فأدخلت زراعات جديدة كالقطن والنيلة والأفيون وغرست الأشجار والحدائق، كما أنشأت مدارس للطب وبنيت المستشفيات، وأرسلت البعثات من أبناء البلاد لفرنسا بلد الحضارة الحديثة، ونظمت الإدارة والأمن، ومن آثاري الكبرى القناطر الخيرية، كما أنشأت أول مطبعة في الشرق وهي مطبعة بولاق. وطلب مني الباب العالي أن أحارب عنه في المورة والشام فحققت انتصارات عظيمة حتى حلّ الرعب في قلب الباب العالي نفسه فأراد أن يوقفني عند حدي ولكتي حاربه وغزوت بلاده وكادت أستولي على عاصمته لولا تدخّل الدول الأجنبية التي خافت أن تتجدد دولة الإسلام على يدي، وتآلبت عليّ الدول، واضطرتني للخضوع للباب العالي نظير أن يجعل مصر وراثية في بيتي، واضطرت لتصفية الجيش وكثير من المدارس والمصانع، وساءت حال البلاد، ولم أحتمل النهاية ففقدت عقلي ثم حياتي...

قال خوفو:

- كأنها أسرة فرعونية جديدة رغم أصلها الأجنبي.  
وقال تحتمس الثالث:

ولما ثارت القاهرة كنت على رأس ثورتها، فلما أخذت بقسوة هاجرت من مصر ثانية ولم أعد إلا بعد جلاء الفرنسيين. وتزعمت الثورة على المهاليك، وعلى الوالي التركي، وبايعت حاكماً جديداً لما آنتست فيه من ميل إلى المصريين وجنوح إلى العدل والاستقامة، وحتى ذلك الحاكم قاومته لئلا تناسى تعهده لنا فنفاني، وانتهت حياتي في المنفى...

وتكلم أبنوم فقال:

- إنك فرد من الشعب كرس حياته للدفاع عن الشعب، دعاه للقتال لأول مرة منذ ثورتى المباركة، وثار على الحاكم الأجنبي وولى بقوة الشعب حاكماً جديداً، خبرني أكان الحاكم الجديد من أبناء الشعب أيضاً؟

فأجاب السيد عمر مكرم:

- كلا، ولكنه كان مسلماً ويدا لي عادلاً.

- يا للخسارة، ولم تستول على الحكم؟

- ما كانت الدولة العثمانية توافق على ذلك...

- أقول مرة أخرى يا للخسارة...

فقال أختاتون:

- لعلك آثرت وحدة الإسلام دين الإله الواحد؟

فأجاب السيد عمر مكرم:

- أجل، ذاك ما آثرته كمؤمن بالله ورسوله.

وقالت إيزيس:

- على أي حال فإنني سعيدة بهذا الابن.

وقال أوزوريس:

- إنك تستحق مكانك بين الخالدين وسيسجل

ذلك في تزكيتنا لك.

- ٥٦ -

ونادى حورس:

- محمد عليّ باشا.

فدخل رجل مليء مستقيم البنيان قويه وتقدم حتى

مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- ولدت في مدينة قولة، نشأت يتيمًا، ولما

ترعرعت انتظمت في سلك الجنديّة، وذهبت إلى مصر

## أمام العرش ٦٢٩

من أمر فلن أنسى لك فضل دفعك الفلاحين إلى مسرح الإدارة والسياسة والعسكرية والعلم . . .

وهنا قالت إيزيس:

- ومن أجل ذلك أعتبر هذا الحاكم الأجنبي من أبنائي .

وقال أوزوريس:

- لو كانت هذه المحكمة هي صاحبة الفصل في تقرير مصيرك لوجهت إليك نقدًا قاسيًا وتوبيخًا جارحًا ثم حفظت لك حقك في مقعدك بين الخالدين، وسنرفع بشأتك تقريرًا إلى محمكتك الإسلامية ينوّه بأعمالك الجليلة وسيُعتبر في جملته تزكية لشخصك من مصر وأهلها.

- ٥٧ -

ونادى حورس:

- أحمد عرابي .

فدخل رجل مائل للطول والامتلاء ذورزاة ووقار، فتقدّم حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- حفظت القرآن صغيرًا بقريتي بالشرقية، وانتظمت في سلك الجنديّة في الرابعة عشرة، وصلت إلى رتبة قائمقام فكانت أوّل مصريّ يصل إلى هذه الرتبة، وكانت الرتب الكبيرة وفقًا على الشراكية، وكان المصريّ محترّمًا في وطنه، فأقنعت بعض الزملاء بالمطالبة بعزل وزير الحريّة الشركسيّ المتحيز فقبض علينا، فثار الجند الوطنيّون حتى أفرج عتًا، ولمست ما يعانيه الشعب من ظلم فتحرّكت بالجيش إلى قصر عابدين وطالبت الخديو بإسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب فقال لي «أنا ورثت ملك هذه البلاد وما أنتم إلاّ عبيد إحساناتنا». فقلت «لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا ترأثًا وعقارًا، فوالله الذي لا إله إلاّ هو إننا سوف لا نورث ولا نُستعبد بعد اليوم» وقد انتصرنا على أعداء الشعب وتكوّن مجلس نيابيّ ووزارة وطنية، ثمّ تدخلت الدول الأجنبية لمنع المصريّين من تولّي شؤونهم خوفًا على مصالحها، وخان الخديو وبعض الانتهازيّين الوطن فاتفقوا مع أعدائنا الإنجليز،

- لقد أعدت إمبراطوريّتي، وإني أشهد لقائدك بالبراعة، ولكنك فقدتها في أثناء حياتك فهي أقصر الإمبراطوريّات عمرًا في التاريخ، وإني أعجب كيف قتلت عشرين ألفًا انتقامًا لابنك كأنك لم تسمع عن سياستي الحكيمة في الأمم المغزوة؟

فقال محمّد عليّ:

- لم أسمع عنها، ولم يهتمّ أحد بآثاركم قبل أن يهتمّ بها علماء الحملة الفرنسيّة ويحلّون الغاز لختها، غير أنني كنت أستلهم حكمي الخاصّة من المعاملة المباشرة للبشر . . .

فقال تحتمس الثالث:

- إني أشهد لك بالعظمة، وعلى ضوء ذلك أفهم غرورك، وكان بودّي أن أتسامح معك لولا النهاية السريعة الأسيّفة التي آلت إليها إمبراطوريّتك، وهذا يعني أنّ إدراكك رغم ذكائك كان ناقصًا، لم تدرك أبعاد الموقف الدوليّ جيّدًا فتحدّيته وأنت لا تدري، وعرضت نفسك لقوّة لا قبل لك بها.

- اعتقدت أنّ فرنسا ستقف إلى جانبي حتى النهاية . . .

فقال له الحكيم بتاح حتب:

- هذا أيضًا لا يدفع عنك مظنة قصر النظر.

فقال محمّد عليّ:

- كانت نمة فرصة موالية لتجديد دولة الإسلام من منطلق مصر الفتية.

فقال أخناتون:

- إني أدرك ذلك تمامًا وأحبيّ طموحك لإحياء دولة الواحد الأحد . . .

فقال الملك خوفو:

- ليتك وضعت عبقريتك وأحلامك في تقوية مصر وقنعت بذلك.

وقال ابنوم:

- لم يكن إيمانك بالشعب كاملًا ولا حبك له بالقدر الذي يجعلك تولّف جهدك الحقيقي لإحيائه ودعمه، استخدمت الفلاح في سبيل الأرض والدولة وكان الواجب أن توجه كلّ مؤسّسة لخدمة الشعب، ولكن لا يفكر بهذه الطريقة إلاّ من كان مثلي أنا . . . ومهما يكن

## ٦٣٠ أمام العرش

- ودافعنا عن وطننا بكل ما نملك ولَكُنَّا انهزمتنا وحوكمتنا  
وَحُكْم علينا بالنفي المؤبد ومصادرة أملاكنا.  
وتكلم الملك خوفو فقال:  
- ولكنتك تحدت الجالس على العرش وخاطبته بما  
لا يخاطب به الملوك!  
فقال أوزوريس:  
- تغير الزمان أيها الملك فلم يعد الملوك يحكمون  
نيابة عن الآلهة ولكن بالمشاركة مع الشعوب.  
فقال خوفو:  
- مشاركة الفلاحين في الحكم تعني الفوضى.  
فقال أبنوم:  
- بل هي وثبة كبرى في مدارج الخير.  
وقال أحمد عرابي:  
- كان الخديو ورجاله من عنصر أجنبي.  
فقال الملك مينا:  
- لقد قامت وحدة مصر على عناصر بشرية متنوعة  
اندجت جميعها في الوطن وأخلصت للعرش.  
فقال أحمد عرابي:  
- لم أكافح إلا العناصر التي أبت الاندماج،  
والدليل على ذلك أن حزبي لم يخل من وطنيين من  
أصل شركسي.  
فسأله أبنوم:  
- ولم لم تقتل الخديو وتكون أسرة جديدة من أصل  
شعبي؟  
كان هديفي تحريير الشعب وإشراكه في حمل  
المسئولية...  
فقال أبنوم:  
- كان قتله أفضل ولكنتك على أي حال صاحب  
الفضل في الدفاع عن حق الشعب...  
وتكلم تميمس الثالث فقال:  
- كان الموقف يتطلب قيادة عسكرية خارقة في  
عبقريتها وللأسف لم يتهيا لك شيء من ذلك.  
فقال أحمد عرابي:  
- بذلت أقصى ما لدي.  
وقال رمسيس الثاني:  
- وكان يجب أن تقا تل حتى الموت بين جنديك.
- وقال أبنوم:  
- وكان يجب أن تقضي على جميع أعدائك لتقضي  
على الخيانة في مهدها.  
فقال أخناتون:  
- إنك رجل طيب القلب فجرت عليك النهاية  
المقدرة للقلوب الطيبة.  
فقال الحكيم بتاح حتب:  
- هكذا نرت من أجل حرية الشعب فجرت عليه  
احتلالاً أجنبيًا...  
وهنا قالت إيزيس:  
- هذا ابن مترع القلب بالنوايا الطيبة، وهب شعبه  
ما يملك من حب غير محدود وقدرات محدودة، وقد  
تأمر الأعداء على تصفية ثورته ولكنهم لم يستطيعوا  
استئصال البذرة التي غرسها في الأرض الطيبة.  
وقال أوزوريس:  
- إني أعتبرك نوراً تألق في الظلمات التي رانت على  
وطنك، وقد عوقبت في حياتك بما يُعتبر تكفيراً عن  
أخطائك فعي أن تحظى بالبركات في ساحة محكمتك،  
ولن نقصر عن التنويه بفضلك بما أنت أهله.
- ٥٨ -  
وهتف حورس:  
- مصطفى كامل.  
فدخل شاب ممشوق القامة عذب الملامح، ومضى  
عاري الرأس حافي القدمين حتى مثل أمام العرش.  
ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:  
- بلغت الوعي وأنا تلميذ في عصر الاحتلال  
البريطاني فكرهته وصممت على محاربه، وشرعت في  
ذلك وأنا تلميذ، وزارنا في المدرسة جناب الخديو  
عباس الثاني فاستقبلته بخطبة وطنية حماسية استجابت  
لها وطنيته وشبابه، وتوثقت بيني وبينه منذ ذلك اليوم  
علاقة وثيقة، فمضى يمدني بالتشجيع والمال للتخلص  
من الاحتلال، واستوت علاقتي على نفس النهج مع  
الخليفة والجمعية الإسلامية، أما قبلي في جميع الأحوال  
فكانت استقلال مصر وحريةها، من أجل ذلك تغير  
موقفي من الخديو عندما أتفق مع الاحتلال، وكانت

## أمام العرش ٦٣١

فقال له أبينوم :

- كيف تتهم الرجل بالخيانة وهو ما ثار ونفي إلا  
دفاعاً عن شعبك! وما كان الخائن إلا والد صديقك  
ومؤيدك ومعينك، وقد خان وطنه بشهادتك كما خان  
أبوه من قبل.

فقال مصطفى كامل بإصرار:

- إني أعتبره المسئول الأول عن الاحتلال...

فقال أبينوم :

- إنك شابٌ وطني متحمس صادق النية سعيد  
الحظ، عشت حياتك في جوٍّ مبعق بأبهة العرش  
والخلافة والحضارة الفرنسية، لم تشم رائحة العرق  
الكادح ولم تكابد آلام الجهاد الحقيقية ولم تتورع عن  
النيل من الناصر الحقيقي...

وهنا قالت إيزيس:

- إنّه الابن الذي أيقظت حماسه الوجدان الوطني  
بعد أن كاد الاحتلال يُخمد أنفاسه.

وقال أوزوريس:

- لم يكن بوسعك أن تفعل خيراً مما فعلت ولن  
يُنسى فضل كلماتك، فاذهب إلى محكمتك مصحوباً  
بדعواتنا القلبية.

- ٥٩ -

وهتف حورس:

- محمد فريد.

فدخل رجل ربعة ريان الوجه وتقدم عاري الرأس  
حافي القدمين حتى وقف أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- انحدرت من أسرة عريقة في الأرستقراطية،  
وشاركت مصطفى كامل في موقفه الوطني منذ بدايته،  
وبسبب ذلك استقلت من الحكومة متفرغاً للقضية  
الوطنية قبل كل شيء، وتوثقت العلاقة بيني وبين  
مصطفى فرسحتي لخلافته في رئاسة الحزب، وقد  
سيرت على نهجه في الوطنية والخطابة والكتابة حتى  
قبض عليّ ورُجّ بي في السجن، وفي السجن ساوموني  
كي أخفف من عنف موقفي لقاء العفو فرفضت أيّ  
مساومة وخرجت من السجن أصلب عوداً وأشدّ

حال الشعب لا تبعث على الأمل ولكّني لم أقصر في  
إيقاظ وعيه الوطني بالكلمة في الصحف والخطابة، كما  
قمت بالدعاية لقضية وطني في الخارج حتى عرفها  
الأحرار في أوروبا وخاصة فرنسا، ولما ارتكبت  
الإنجليز جرمهم الكبرى في دنشواي استنكرت  
أعمالهم الوحشية ونذت بالأحكام التي أصدرتها  
المحكمة الزائفة على أهل القرية الأبرياء فزعزعت  
عرش طاغية الإنجليز في مصر حتى اضطرت بلاده إلى  
استدعائه، ثم أسست الحزب الوطني وهو أول حزب  
سياسي منظم أنشئ في مصر، تضمن برنامج الجلاء  
والدستور في ظلّ الدولة العثمانية، وواظبت على الجهاد  
في الداخل والخارج حتى أسلمت الروح في عزّ  
الشباب...

وتكلّم بساماتيك الثالث فسأله:

- ألم يقتلك الإنجليز؟

- كلا.

- هذا عجيب، لقد عاصرت الاحتلال الفارسي  
مثلما عاصرت الاحتلال الإنجليزي، ومثلك حاولت  
إيقاظ الوعي الوطني ولما علم قمييز بأمرى قتلني دون  
تردد، فكيف تركك الإنجليز دون عقاب؟!

فقال مصطفى كامل:

- كان الاحتلال قد تمكّن من دعم سيطرته الكاملة  
على البلاد فلم يرَ بأساً من منح معارضيه شيئاً من  
الحرية، استهانة بهم في الواقع، وتظاهراً أمام العالم  
باحترام القيم...

- ألم تتعرض لأذى ملموس؟

- أضمر لي الكراهية وحرض أصدقاءه على  
مهاجمتي.

- زمانك وفر لك من الأمان ما لم يوقر لي بعضه،  
والحقّ أنّي لم أعرف مجاهداً سعيد الحظ مثلك، حظيت  
بتأييد الخديو وال خليفة والجمعية الإسلامية، وهاجمت  
عدوك في الداخل والخارج دون عقاب، واكتسبت  
مجداً وشهرة دون أن تدفع ثمناً، لم تقتل كما قتلت أنا،  
ولم تُنف كما نُفي أحمد عرابي...

فقال مصطفى كامل:

- أحمد عرابي خائن جرّ على بلاده الاحتلال...

## ٦٣٢ أمام العرش

عليهم في ثورتى بلا رافة، إنكم تحبون الزعامة ما ضمنث لكم الجاه والاحترام، ولكن لا قبل لكم بالكفاح الصادق وما يسوق إليه من سجن أو تعذيب أو موت، لذلك تخليت عن الأمانة في اللحظة الحرجة مؤثرًا الجهاد الآمن في الخارج، وأصبحت بذلك المسئول عمًا حاق بالحركة الوطنية من ضعف وتفكك، لذلك أيضًا لا أعجب لدهشتك لاشتعال ثورة عامة في الشعب، وأدهش في الوقت نفسه لشعورك المتعالي بالظلم لاختيارها زعيمًا غيرك، كأن الزعامة ميراث يُتداول في طبقتك كالأرض والمال حتى بعد الهرب من ميدانها.

فقال محمد فريد:

- إنك تردد ما قاله أعداؤنا!

- لا أنكر وطنيتك، ولكنك أحببت مصر على حين انطويت في صميمك على احتقار للمصريين ولم يفارقك الشعور بالانتماء إلى أصل أسمى، ولم يكن مفرًا من أن تنقلب حياتك إلى مأساة لأنه لا يمكن أن يتبوأ زعامة شعب إلا رجل من الشعب، يتميز بالعظمة الإنسانية لا العظمة الأرستقراطية...

وهنا قالت إيزيس:

- أما أنا فأعتبره من خيرة أبنائي خلقًا وإخلاصًا ووطنية، ولم يكن في وسعه أن يفعل خيرًا مما فعل مع مراعاة ظروف مولده ونشأته.

وقال أوزوريس:

- لك منّا تزكية يسندها الحب والاحترام فإذهب بسلام إلى محكمتك مع أصدق تمثيات التوفيق.

- ٦٠ -

ونادى حورس:

- سعد زغلول.

فدخل رجل طويل القامة، مهيب الطلعة، قوي القسبات، جذاب الملامح، وتقدم في سيره حتى مثل أمام العرش.

ودعا أوزوريس للكلام فقال:

- ولدت في أبيانه، درست في الأزهر، تتلمذت على جمال الدين الأفغاني، عملت محررًا بالوقائع

مراسًا، وقمت برحلات في البلاد داعيًا للوطنية، فدبرت مؤامرات لإدخالي السجن مع قادة الحزب الكيبار فقرّر قرارنا على الهجرة ومواصلة الجهاد في الخارج، وأحكمتنا التدبير للهروب في الوقت المناسب ونجحنا في ذلك، ويقدر ما أنجزنا من أعمال في الخارج بقدر ما تعرّض الحزب في الداخل إلى الضعف والتفكك، وكابدنا المرّ من الحنين إلى مصر والأهل وتخلّي الكثيرين عنّا، وقامت في مصر ثورة ١٩١٩، ثورة غير متوقّعة، لم تجر لي في بال، قامت وأنا في منفى منسيّ وآخرون يترّبعون على كراسي الزعامة. وقد أظهرنا رضانا على رجالها مع اعتقادنا بعدم إخلاص أكثرهم، وهتأنا الأمة على ثورتها، وحيينا ذكرى شهدائها ودعوانها إلى الصمود حتى النهاية، وانتهت حياتنا في المنفى.

وتكلّم بساماتيک الثالث فقال:

- زعامة مقنعة بما تعرّضت له من اضطهاد.

وقال الحكيم بتاح حتب:

- كان بوسعك أن تنعم بحياة مترفة وجاه كبير كسائر رجال طبقتك الثرية ولكنك طرحت ذلك كله واخترت النضال والعذاب في سبيل مصر، إنك رجل عظيم...

أما أبنوم فقال:

- ختبرني كيف يترك زعيم أمته في محنة ليجاهد في الخارج؟

فقال محمد فريد:

- دبروا للزج بنا في السجن.

فقال أبنوم:

- ولكنّ الزعيم الحقّ يعلم أنّه خلّق للسجن أو القتل لا للجهاد في الخارج...

- كان الجهاد في الخارج ضمن خططنا الوطنية منذ أيام مصطفى كامل...

فقال أبنوم:

- قد يُقبل كعمل إضافي لاستكمال العمل الأصلي في الداخل، أما أن تهاجر أنت والقادة تاركين حزبكم

بلا قيادة حقيقية فهو تصرف بعيد عن الشجاعة والحكمة معًا، المسألة أنكم من الأعيان الذين قضيت

### أمام العرش ٦٣٣

- حرصت من أوّل الأمر على الأتحاد كقوة لا غنى عنها أمام العدو، ولكن ثبت لي أنّ الأغنياء يكرهون الثورة أكثر ممّا يكرهون الاحتلال.

فقال أبنوم:

- كان يجب أن تتخلّص منهم.

فقال سعد زغلول:

- لقد انشَقُوا عليّ راسمين لأنفسهم طريقاً إلى الاستقلال يناسب رؤيتهم.

وقال الملك مينا:

- لقد وحّدت المصريين كما وحّدت أنا مملكتهم

فأنت في ذلك صديقي وخليفتي...

وسأله أحتب وزير الملك زوسر:

- رغم ما ثبت لك من زعامة بعد الثورة فإنّك

قبلت العمل في ظلّ الاحتلال قبل الثورة ولم تنضمّ

للحزب الوطني، ما تفسير ذلك؟

فقال سعد زغلول:

- كان الحزب الوطني يدعو إلى مبادئ خيالية، من

ذلك أنّه لا مفاوضة إلّا بعد الجلاء ممّا يعني بقاء

الاحتلال إلى الأبد، ومنه مقاطعة الوظائف العامّة

لهيمنة الإنجليز عليها، ولا يكفي في نظري أن تطالب

الناس بسلوك معين ولكن يجب أن يكون هذا السلوك

ممكناً دون تهاون أو إجحاف، وأن يصلح للتطبيق

العامّ، وقد استطاع مصطفى كامل مقاطعة الوظائف

بما كان يحدّه الحديد وغيره به من مال، واستطاع محمّد

فريد ذلك لثرائه الواسع، ولكن ماذا يصنع أتباع

الحزب؟... إن أتبعوا مثل زعامتهم هلكوا وإن

خالفوها مضطّرين خانوا العهد، فكيف يدعو أناس

إلى ذلك المبدأ المتعالي الذي يعزّ على التطبيق ويورث

الشعور بالإثم؟... ثمّ كيف ترك الوظائف العامّة

للأجانب؟ وقد قبلت الحياة الرسميّة لأمارس من

خلالها ما استطعته من مقاومة ومن أداء خدمات لوطني

كان في أشدّ الحاجة إليها، وقد اعترف بذلك خصومي

قبل أصدقائي...

فقال أوزوريس مخاطباً الجميع:

- أعمال هذا الزعيم مدوّنة في الكتاب لمن يريد أن

يطلع عليها ولكننا في هذه المحكمة لا نناقش إلّا

المصريّة تحت رياسة وأستاذيّة محمّد عبده، انضمت

إلى العربيين في ثورتهم، وفي أوّل عهد الاحتلال

البريطانيّ اعتقلت كعضو في جمعيّة الانتقام وفُصلت من

وظيفتي، وعملت في المحاماة، فالقضاء، اخترت وزيراً

للمعارف ثمّ وزيراً للعدل، وعقب انتهاء الحرب

العظمى الأولى وإعلان الهدنة تولّيت زعامة الحركة

الوطنية، وأقمتها على أساس متين من الوحدة الوطنية

بين المسلمين والمسيحيين، وناديت بحقّ مصر في

الحرية والاستقلال، فقبضت عليّ السلطات البريطانيّة

ونفنتني إلى جزيرة مالطة، وما إن ذاع الخبر حتّى قامت

الثورة الشعبيّة احتجاجاً على نفيي ومطالبة

بالاستقلال، ممّا اضطرّ إنجلترا إلى الإفراج عنيّ،

وسافرت مع أعضاء الوفد إلى باريس لعرض قضيتنا

على مؤتمر الصلح فأغلق أبوابه في وجوهنا، ودخلنا في

مفاوضات مع الإنجليز دون نتيجة، وحدث انقسام في

الوفد، ورجعت إلى مصر، ثمّ نُفيت مرّة أخرى إلى

جزر سيشل في المحيط الهنديّ ولم يفرّج عنيّ إلّا سنة

١٩٢٣، وتولّيت الوزارة سنة ١٩٢٤ بعد انتخابات

شعبية، ودخلت في المفاوضات التي سرعان ما فشلت،

واضطرتت إلى الاستقالة عقب اغتيال أحد كبار

الإنجليز، ثمّ انتقلت الأحزاب أمام دكتاتورية الملك،

وتولّيت رياسة مجلس النواب، تاركاً رياسة الوزارة

للدستوريين، ودارت المفاوضات من جديد ولكنّي

غادرت الدنيا قبل أن أعرف نتائجها...

وتكلّم أبنوم فقال:

- لقد قمت أنا بأوّل ثورة شعبية في نهاية الدولة

القديمة وقمت أنت بالثورة الشعبيّة الثانية بعد آلاف

السنين فأنت أخي وخليفتي وحببي.

فقال الملك خوفو:

- ثمة فرق بين الثورتين يجب أن يُذكر وهو أنّ ثورة

أبنوم كانت ثورة العامّة على الصفوة أمّا ثورة سعد

زغلول فكانت ثورة شعب مصر كلّه فقراء وأغنياء على

الاحتلال الأجنبيّ...

فقال أبنوم:

- أعتقد أنّ الأغنياء لا يحبّون الثورة.

فقال سعد زغلول:



٦٣٤ أمام العرش

الأعمال الفاصلة .

ثم خاطب سعد قائلاً:

- زعم خصومك أن الثورة قامت وأنت في المنفى وأنت لم تفعل شيئاً لإشعالها بل أنك دُهِشت لقيامها كحدث غير متوقَّع فما قولك في ذلك؟

فقال سعد زغلول:

- كانت حال البلاد تدعو للياس، وأعترف بأنني دُهِشت لقيام الثورة كما دُهِش الزعيم السابق لي وهو محمد فريد ولكني لم أقصر في تهيئة الجو لها بالخطابة لدى كل مناسبة والاجتماع بالناس في بيتي وفي دعوة الناس في الريف والمدن لتأييدي في موقفني مما عبا الشعور القومي، والثورة قامت احتجاجاً على نفي فكان شخصي في الواقع هو مُشعلها المباشر.

فقال أبنوم:

- الموقف الخطير يتطلب عادة سلوكاً معيناً والزعيم القادر هو من يستطيع أن يكون القدوة لهذا السلوك، وقد كان الموقف يحتاج إلى التضحية، فهي أقصى ما يستطيع شعب أعزل أن يقدمه حيال قوة القاهرة، ولما تحدى سعد العدو واضطره إلى نفيه أعطى هذه القدوة المطلوبة ففعل الشعب مثله وقامت الثورة، ومما يشهد لسعد بالعظمة أنه أقبل على التضحية وهو يائس من ثورة تحميه أو تدافع عنه فكانت تضحيته كاملة شجاعة نبيلة لا أمل لها في أي نوع من النجاة، ولو كان يأمل في ثورة لقلل ذلك درجة من ضخامة تضحيته . . .

فقال أوزوريس:

- وقيل أيضاً إن تعصّبك لزعامتك هو ما اضطرّ العقلاء من معاونيك على الانشقاق عليك، فما قولك في ذلك؟

فقال سعد زغلول:

- المسألة أنني اندججت في الثورة وأمنت بها ووجدت فيها ضالتي التي كنت أبحث عنها طوال حياتي، أما العقلاء فقد كرهوا الثورة وخافوها وقنعوا بالحلول الزائفة، كانوا ذوي مال وخبرة وحكمة ولكنّ وطنيتهم لم تكن خالصة كما كان إيمانهم بالشعب معدوماً . . .

فقال أوزوريس:

- وقال بعض أعوانك إنه كان يجب أن تبقى على

رأس الثورة ولا تقبل رئاسة الوزارة؟

فقال سعد زغلول:

- كانت وزارتي امتداداً للثورة على المستوى الرسمي . . .

فقال أبنوم:

- كنت أفضل أن تأخذ برأي أولئك الأعوان!

وهنا قالت إيزيس:

- لتبارك الألهة هذا الابن العظيم البار الذي برهن

على أن شعب مصر قوة لا تقهر ولا تموت .

وقال أوزوريس:

- إنك أول مصري يتولى الحكم منذ العهد

الفرعوني، وتوليته بإرادة الشعب، من أجل ذلك

أهبك حق الجلوس بين الخالدين من أجدادك حتى

تنتهي المحاكمة، ثم تمضي بسلام إلى محمكتك

مصحوباً بتركيبتنا وصادق أمانينا.

وأتخذ سعد زغلول مجلسه بين الخالدين في قاعة

العدل المقدسة .

- ٦١ -

وهتف حورس:

- مصطفى النحاس .

فدخل رجل قوي الجسم والوجه مائل للطول،

تقدّم في سيره حتى مثل أمام العرش .

ودعا أوزوريس للكلام فقال:

- وُلدت في سمنود في أسرة من أبناء الشعب

الفقراء، وبفضل اجتهادي أتممت تعليمي، ولتفوقي

عُيّن في القضاء فعرّفت بالعدل والنزاهة، وكنت من

أنصار الحزب الوطني الذي زاملت رئيسه طالباً

بالمدرسة الخديوية، وعند تأليف الوفد برياسة سعد

زغلول اختارني عضواً فيه، ونُفيت معه إلى سيشل عام

١٩٢١، واشتركت في وزارته الشعبية الثورية، وعقب

وفاته انتُخب رئيساً للوفد، وحملت عبء الجهاد في

سبيل الاستقلال والحياة الديمقراطية ربع قرن من

الزمان، وقد تولّيت الوزارة سبع مرّات وأقلت منها

ست مرّات لخلافات مع الإنجليز أو الملك، وفي

١٩٣٦ ونُحِت ضغط التهديد بحرب عالمية قبلت

## أمام العرش ٦٣٥

بالكفاح الطويل والنزاهة، وقد عاش فقيرًا ومات فقيرًا . . .

وقال الملك أختاتون:

- تقبّل حبي أيها الزعيم، إنك مثلي تفانيًا في الإيمان بالإله الواحد، والإخلاص للمبادئ الطاهرة، ومثلي أيضًا في حبّ البسطاء من الشعب والاختلاط بهم دون حاجز من التعالي أو الكبرياء، ومثلي تعرّضت لعداوة الأوغاد وعبّاد السلطة وأسرى الأنانية حيًا وميتًا، ومثلي أخيرًا فيها حظيت به من نشوة النصر وما ابتليت به من الجحود والهزيمة، ولكن أثيرُ فالنصر في النهاية لنا . . .

وهنا قالت إيزيس:

- وهذا ابن أصيل من أبنائي البررة.

فقال أوزوريس:

- إني أهبك حقّ الجلوس مع الخالدين حتّى نهاية المحاكمة، ثمّ تمضي إلى محكمتك مشفوعًا بأكرم تزكية.

- ٦٢ -

وهتف حورس:

- جمال عبد الناصر.

فدخل رجل طويل القامة، واضح الملامح، عظيم الشخصية، ومضى في سيره حتّى وقف أمام العرش. ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- أنتمي إلى قرية بني مّر من أعمال أسيوط، ونشأت في أسرة فقيرة من أبناء الشعب فكابدت مرارة العيش وشظفاه، وتخرّجت في الكلية الحربية عام ١٩٣٨، واشتركت في حرب فلسطين، وحوصرت مع مَن حوصِرَ في الفالوجا، وقد هالتني الهزيمة، وهالتني أكثر جذورها الممتدة في أعماق الوطن، فخطر لي أن أنقل المعركة إلى الداخل حيث يكمن أعداء البلاد الحقيقيون، وأنشأت في حذر وسريّة تنظيم الضبّاط الأحرار، ورصدت الأحداث انتظارًا للحظة المناسبة للانقضاض على النظام القائم، وقد حقّقت هدي في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ثمّ تابعت إنجازات الثورة مثل إلغاء النظام الملكيّ، واستكمال استقلال البلاد بالجلء التام، والقضاء على الإقطاع بإصدار قانون الإصلاح

الائتلاف مع الأحزاب وعقدنا معاهدة مع الإنجليز اعترفت باستقلال مصر ووعدت بالجلء بعد عشرين عامًا، وقامت الحرب العالميّة في فترة حكم استبداديّ ملكيّ، وأثمهم الملك بالاتّصال بأعداء الإنجليز فنشبت أزمة سياسيّة خطيرة وفكّر الإنجليز في خلع الملك، وتقدّمت لإنقاذ البلاد والعرش وألّفت وزارة في ظروف عسيرة، ولما انتهت الحرب بانتصار الإنجليز شرعت في المطالبة بالجلء الفوريّ ولكنّ الملك أقالني، ورجع الملك إلى استبداده وسارت الأمور من سيّئ إلى أسوأ حتّى اضطرّ إلى الموافقة على استفتاء الشعب عام ١٩٥٠ فرجعت إلى الوزارة، وفاوضت الإنجليز من أجل الجلء، ولما لم أجد منهم استجابة ألغيت المعاهدة وأعلنت الجلء فتأمّر عليّ أعدائي في الداخل والخارج واستطاع الملك أن يتخلّص منّي. وقامت ثورة يوليو واضطرتت إلى اعتزال السياسة حتّى وافاني الأجل.

فقال أوزوريس:

- بهمّ الحاضرين أن يعرفوا بعض الإنجازات التي قدّمتها في أثناء تولّيكم الوزارة؟

فقال مصطفى النحاس:

- بالرغم من أنّ الشعب لم يحكم إلّا ثمانية أعوام نظير تسعة عشر عامًا استبدّ فيها الملك وأحزاب الأقلّيّة بالسلطة، وبالرغم ممّا تعرّضت له من اضطهاد وعسف ومحاولات متكرّرة لاغتيال حياتي فقد وفقني الله إلى تحقيق خدمات غير قليلة، منها على سبيل المثال، إلغاء الامتيازات الأجنبية، إلغاء صندوق الدين، تأسيس جامعة الدول العربيّة، استقلال القضاء، استقلال الجامعة، قانون التوظيف، منع الأجانب من تملك الأراضي الزراعيّة، التعويض عن إصابات العمل والتأمين الإجباريّ ضدّها، الاعتراف بنقابات العمّال، فرض استعمال اللغة العربيّة في الشركات الأجنبية، الضمان الاجتماعيّ، ديوان المحاسبة، مجانيّة التعليم الابتدائيّ والثانويّ والمتوسّط، ديوان المحاسبة.

وقال أبنوم:

- مرحبًا بالناظر الشعبيّ الثالث في حياة شعبنا، وقد استمدّ قوّته من إيمانه بشعبه وإلهه، وأتّسمت حياته

## ٦٣٦ أمام العرش

السابقون عن تحقيقها، فالحق أن تاريخ مصر الحقيقي بدأ مع ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وسرت هممة بين الجالسين مضت تشتد حتى هتف أوزوريس:

- النظام والهدوء أيها السادة، أفسحوا صدوركم لأي قول يقال . . .  
فقال أبنوم:

- اسمح لي أن أحييك بوصفي أول نائر من فقراء مصر، وإني لأشهد لك بأن الفقراء لم ينعموا بالأمان والأمل في عهد - بعد عهدي - كما نعموا في عهدكم. ولا مأخذ لي عليك إلا إصرارك على أن تكون ثورتك بيضاء على حين كان يجب أن تجري الدماء فيها أنهاراً!

فتساءل الملك خوفو محتجاً:

- ماذا يقول هذا السفاح؟

فقال أوزوريس بحدة:

- تذكر أنك لست على عرشك، اعتذر.

فقال خوفو بخشوع:

- معذرة.

وقال الملك تحتمس الثالث:

- على الرغم من نشأتك العسكرية فقد أثبتت قدرة فائقة في كثير من المجالات إلا العسكرية، بل إنك لم تكن قائداً ذا شأن بأي حال من الأحوال!

فقال جمال عبد الناصر:

- تعذر عليّ النصر على جيش متفوق في التسليح ومؤيد بأقوى دولة على سطح الأرض!

فقال محنتب وزير الملك زوسر:

- كان واجبك أن تتجنب الحرب وأن تكف عن

استفزاز الدول الكبرى . . .

فقال جمال عبد الناصر:

- كان ذلك يتناقض مع أهدافي وقد خُذعت أكثر من مرة.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- إنه عذر أقبح من الذنب.

وقال سعد زغلول:

- لقد حاولت أن تمحو اسمي من الوجود كما محوت اسم مصر، وقلت عني أنني اعتليت الموجة

الزراعي، وتمصير الاقتصاد، والتخطيط لإصلاح شامل في الزراعة والصناعة يستهدف خير الشعب وتدويب الفروق الطبقيّة، وبنينا السدّ العالي وأنشأنا القطاع العامّ متجهين نحو طريق الاشتراكيّة، وكوّنا جيشاً حديثاً قوياً، ونشرنا الدعوة للوحدة العربيّة، وساندنا كلّ ثورة عربيّة أو أفريقيّة، وأتمنا قناة السويس فكثنا منارة وقدوة للعالم الثالث كلّ في نضاله ضدّ الاستعمار الخارجي والاستغلال الداخلي، وحظي الشعب الكادح في عهدي بعزّة وقوّة لم يعرفهما من قبل، ولأوّل مرّة يشقّ طريقه إلى المجالس التشريعيّة والجامعات ويشعر بأنّ الأرض أرضه والوطن وطنه، وقد تربّصت بي قوى الاستعمار حتى أنزلت بي هزيمة منكرة في ٥ يونيو ١٩٦٧ فزلزلت العمل العظيم من جذوره وقضت عليّ بما يشبه الموت قبل موافاة الأجل بثلاثة أعوام، وقد عشت مصرياً عربيّاً مخلصاً ومثّ مصرياً عربيّاً شهيداً.

وتكلّم الملك رمسيس الثاني فقال:

- دعني أعرب لك عن عظيم حبي وإعجابي، وما حبي لك إلا امتداد لحبي لذاتي فما أكثر أوجه الشبه التي تجمع بيننا، كلانا يشعّ عظمة تملأ الوطن وتتجاوز حدوده، وكلانا جعل من هزيمته نصراً فاق كلّ نصر، وكلانا لم يقنع بأعماله المجيدة الخالدة فأغار على أعمال الآخرين بمن سبقوه، وقد ساندني الحظّ بأن تولّيت عرش مصر وهي سيّدة الأمم أما أنت فحكمتها وهي أمة صغيرة وسط عمالقة، وقد وهبني الآلهة طولاً في العمر وقوّة في الروح والجسد وضنّت عليك إلا بالقليل فعاجلك الأجل قبل الأوان . . .

وتكلّم الملك مينا فقال:

- ولكنّ اهتمامك بالوحدة العربيّة فاق اهتمامك بالوحدة المصريّة فحتى اسم مصر الخالد شطبته بجرّة قلم، واضطرتّ العديد من أبناء مصر إلى الهجرة التي لم يارسوها إلا في فترات قهر عابرة!

فقال جمال عبد الناصر:

- ليس الذنب ذنبي إذا توهم بعض المصريين أن الوحدة العربيّة تعني الضياع لهم، وليس الذنب ذنبي إذا تحققت أعمال مجيدة على يدي بعد أن عجز

## أمام العرش ٦٣٧

والمثقفين وهم طليعة أبناء الأمة، انهلت عليهم اعتقالاتاً وسجناتاً وشنقاً وقتلاً حتى أذلت كرامتهم وأهنت إنسانيتهم ومحمت إيجابيتهم وخرّبت بناء شخصياتهم والله وحده يعلم متى يُعاد بناؤها، أولئك الذين جعلت منهم ثورة ١٩١٩ أهل المبادرة والإبداع في شتى المناشط السياسية والاقتصادية والثقافية، بل أفسد الاستبداد عليك أجمل قراراتك، انظر كيف فسد التعليم، وتفسخ القطاع العام، وكيف قادك التحدي للقوى العالمية إلى الهزائم المخجلة والخسائر الفادحة، لم تُفد من الرأي الآخر ولم تتعظ بتجربة محمد علي، وماذا كانت النتيجة؟... دوي وجلجلة وأساطير فارغة تقوم على تلّ من الخرائب...

فقال جمال عبد الناصر:

- لقد نقلت وطني من حال إلى حال كما نقلت العرب وسائر الأمم المغلوبة على أمرها، وسوف تعالج السلبيات حتى تزول وينساها الزمن ويبقى ما ينفع الناس، وعند ذلك يقرّ الناس بعظمي الحقيقية...  
فقال مصطفى النحاس:

- ليتك تواضعت في طموحك، ليتك عكفت على إصلاح وطنك وفتح نوافذ التقدم له في شتى مجالات الحضارة، إن تنمية القرية المصرية أهم من تبني ثورات العالم، إن تشجيع البحث العلمي أهم من حملة اليمن، ومكافحة الأمية أهم من مكافحة الإمبريالية العالمية، وأسفاه لقد ضيعت على الوطن فرصة لم تتح له من قبل، فلأول مرة يحكم ابن وطني من أبناء البلاد دون مناوئ من ملك أو مستعمر، ولكنه بدلاً من مداواة ابن وطنه المريض دفع به إلى مباراة البطولة العالمية وهو ينوء بأمرضه فكانت النتيجة أن خسر البطولة وخسر نفسه...

وهنا قالت إيزيس:

- إن فرحتي برجوع العرش إلى أحد أبنائي لا تقدر، وإن أعماله الجليلة لتحتاج إلى جميع جدران المعابد لتسجيلها، أما الأخطاء فلا أدري كيف أدافع عنها...

فقال أوزوريس:

- لو كانت محكمتنا هي صاحبة الكلمة الأخيرة في

الثورية عام ١٩١٩، فدعني أحدثك عن معنى الزعامة، الزعامة هبة ربانية وغريزة شعبية، لا تلحق بإنسان مصادفة ولا كضربة حظ أعمى، والزعيم المصري هو الذي يبايعه المصريون على اختلاف أديانهم وإلا لم يكن زعيماً مصرياً أبداً، وإن جاز أن يكون زعيماً عربياً أو إسلامياً، بيد أنني رغم ذلك لم أضمر لك الرفض، واعتبرت تحنيك عليّ نزوة شباب يمكن التسامح معها نظير ما قدمت من خدمات جليلة، لقد قامت الثورة العربية فناضلت نضالاً كريماً وأحبطت إحباطاً أليماً، وقامت ثورة ١٩١٩ فحققت من المآثر ما شهد به التاريخ ولكن تكاثر أعداؤها حتى اجتاحتها حريق القاهرة، ثم جاءت ثورتك فتخلصت من الأعداء وأتمت رسالة الثورتين السابقتين، وبالرغم من أنها بدأت كانقلاب عسكري إلا أن الشعب باركها ومنحها تأييده، وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها وأن تقيم حكماً ديمقراطياً رشيداً، ولكن اندفاعك المضلل في الطريق الاستبدادي هو المسئول عن جميع ما حلّ بحكمك من سلبيات ونكبات...

فقال جمال عبد الناصر:

- كان يلزمننا فترة انتقال لتحقيق الأسس الثورية...

فقال مصطفى النحاس:

- حجة دكتاتورية واهية طالما سمعناها من أعداء الأمة، كان بين يديك قاعدة وفدية شعبية انهلت عليها بدباباتك، وعجزت عن إقامة بديل عنها فظلت البلاد تعاني الفراغ، ومددت يدك إلى المنبوذين من الأمة فوقعت في تناقض مؤسف بين عمل إصلاحية يُعتبر في روحه امتداداً لروح الوفد وأسلوب حكم يُعتبر امتداداً لحكم الملك والأقلّيات، حتى قضى أسلوب الحكم على جميع النوايا الطيبة!

فقال جمال عبد الناصر:

- الديمقراطية الحقيقية كانت تعني عندي تحرير المصري من الاستعمار والاستغلال والفق...

فقال مصطفى النحاس:

- وأغفلت الحرية وحقوق الإنسان، ولا أنكر أنك كنت أماناً للفقراء ولكنك كنت وبالاً على أهل الرأي

## ٦٣٨ أمام العرش

١٩٧٣ فاجأت العدو المحتل، بل فاجأت العالم بهجوم لم يتوقعه أحد، وحققت انتصاراً أنقذ الروح العربية من القنوط كما انتشل الشرف من الهوان، ثم تسنمت بمغامرة أخرى باقتحامي بلد الأعداء داعياً إلى تصفية الموقف بالكلمة لا بالسلاح، وانتهى سعيي الطويل إلى معاهدة كامب دافيد، وناديت بالانفتاح لإنقاذ الاقتصاد الوطني، وتقدمت في الديمقراطية خطوات جديدة، ولكن اعترضتني عقبات غيرت من حساباتي، فقد انحرفت المعارضة، وهب التيار الديني يهدد البلاد بالعنف، فوقفت من الجميع موقفاً حازماً لا مفر منه، ولكن الأمور انتهت باغتيال في ذكرى اليوم الذي حققت فيه لوطني عزّة النصر.

وتكلم الملك أختاتون فقال:

- أحبيك كداعية من دعاة السلام، ولا أدهش لآتيهم خصومك لك بالخيانة فقد تلقيت منهم نفس التهمة لذات السبب.

فقال تهمس الثالث:

- يذكرني انتصارك بانتصار رمسيس الثاني الذي كُتِل بمعاودة سلام والزواج من ابنة ملك الحثيين ا فقال رمسيس الثاني:

- الحاكم مسئول أولاً عن حياة شعبه، ومن هذا المنطلق يقوم على الحرب أو ينجح إلى السلام.

فقال أنور السادات:

- وقد آمنت بصدق بعقم الاستمرار في الحرب.

وقال الملك أمنتب الثالث:

- ما أشبهك بي أيها الرئيس في حب الرفاهية لشعبك ولنفسك، كلانا عشق الأبهة والنعيم والعظمة والقصور، غير أن زمني سمح لي بأن أنهل من النعيم بلا كدر أما زمانك فأذاقك الحلو والمر، دعني أعرب لك عن حبي وعطفي.

وقال الملك حور محب:

- توليت الحكم في ظروف تشبه في بعض مناحيها الظروف التي تحدتني أول حكمي عقب وفاة الملك العجوز آي، وأعترف بأنك قمت بأعمال جليلة، ووجهت ضربات صادقة، ولكنك تهاونت في معاقبة الفساد والمفسدين حتى أوشكوا أن يميلوا انتصاراتك

الحكم عليك لاقتضانا العدل تأملاً وعناء طويلين، فقليلون من قدموا لبلادهم مثلما قدمت من خدمات، وقليلون من أنزلوا بها مثلما أنزلت من إساءات، ولكن بالنسبة لأنك أول من يجلس على عرشها من أبنائها، وأول من يخص الكادحين برعايته فإننا نسمح لك بالجلوس بين الخالدين لحين انتهاء المحاكمة، وستذهب بعد ذلك إلى محكمتك مؤيذاً بتزكية مناسبة.

- ٦٣ -

ونادي حورس:

- محمد أنور السادات.

فدخل رجل متوسط القامة رشيق القد عميق السمرة، مضى في سيره حتى مثل أمام العرش. ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- ولدت في قرية ميت أبو الكوم، ونشأت في أسرة فقيرة، ووجدت عناء لا يُستهان به كي أستمّر في الدراسة، وقد تشبعت بروح الوطنية منذ صغري، وشاركت في المظاهرات الوفدية، ثم أمكنتي الالتحاق بالكلية الحربية التي فتحت أبوابها لأمثالي من أبناء الشعب بعد معاهدة ١٩٣٦، ومنذ تخرّجي هالني وضع الجيش تحت سلطة البعثة العسكرية الإنجليزية، وخامرتني أفكار للدعوة لثورة مسلحة ضدّ الإنجليز فأنشأت أول تنظيم سرّي في الجيش عام ١٩٣٩، وقد اتّصلت بالإخوان المسلمين وأعجبت بنشاطهم، كما حاولت أثناء الحرب الاتصال بالألمان، وعقدت العزم على اغتيال المتعاونين مع الإنجليز من المصريين، وقد قبض عليّ نتيجة لذلك، وحوكمت، ولكنني نلت البراءة، بل ورجعت إلى خدمة الجيش، وفي ذلك الوقت اتّصل بي جمال عبد الناصر وضمّني إلى تنظيمه، وقامت الثورة في يوليو ١٩٥٢، وتتابع الأحداث حتى وافى الأجل جمال عبد الناصر فخلفته في منصبه في ظرف بالغ الدقّة، وكنت على علم بالسليبيات التي نخرت في عظام عهد عبد الناصر فتوتبت لإحداث ثورة جديدة تنقذ البلاد من الموت الذي تتردى فيه، قضيت على مراكز القوى، وأنجّمت على مهل نحو الأمان وسيادة القانون والديمقراطية، وفي ٦ أكتوبر

## أمام العرش ٦٣٩

فقال أنور السادات:   
 - لقد عملت لخير مصر فوثب الانتهازيون من وراء ظهري!   
 وتكلّم مصطفى النحاس فقال:   
 - حاولت اغتيالكي وكدت تنجح لولا العناية الإلهية، ثم فقدت حياتك نتيجة للاغتيال، ترى ألا زلت تؤمن به؟   
 فقال أنور السادات:   
 - نحتاج لأضعاف عمرنا كي نتعلم الحكمة.   
 فقال مصطفى النحاس:   
 - وسمعت عن دعوتك إلى الديمقراطية فدهشت ثم تبين لي أنك تريد حكمًا ديمقراطيًا تمارس على رأسه سلطاتك الدكتاتورية!   
 - أردت ديمقراطية ترعى للقريبة آدابها وللأبوة حقوقها.   
 - هذه ديمقراطية قَبَلِيَّة.   
 فقال سعد زغلول:   
 - هذا حقّ، ولكنّ الديمقراطية الحقيقية تُؤخذ ولا تُمنح فلا تُغالٍ في لومه...   
 وقال مصطفى النحاس:   
 - واشتدّت الضائقة بالناس، وحدث ما يحدث عادة في مثل تلك الظروف من أعراض الفتن والتطرف، فتركت الأمور تستفحل كأنك لا تبالي، ثم انفجرت بغتة فألقيت بالجميع في السجون فأغضبت المسلمين والمسيحيين والمتطرفين والمعتدلين، وانتهى الأمر بمأساة المنصّة...   
 فقال أنور السادات:   
 - وجدت أنّه لا مفرّ من ضربة حاسمة أتقاء لفوضى توشك أن تجرّ البلاد إلى حرب أهلية...   
 فقال سعد زغلول:   
 - عندما يغتصب الحاكم حقوق شعبه يخلق منه خصمًا، وعند ذلك تُهدر قوّة البلاد الأساسية في صراع داخليّ بدلًا من أن توجّه للعمل الصالح.   
 وهنا قالت إيزيس:   
 - بفضل هذا الابن رُدّت الروح إلى الوطن، واستردّت مصر استقلالها الكامل كما كان قبل الغزو

إلى هزائم.   
 فقال أنور السادات:   
 - سُغلت بتشجيع العاملين عن الضرب على أيدي المفسدين.   
 فقال حور محب:   
 - لا قيام لدولة إلّا على الانضباط والأخلاق.   
 وسأله جمال عبد الناصر:   
 - كيف هان عليك أن تقف من ذكراي ذاك الموقف الغادر؟   
 فقال أنور السادات:   
 - اتخذت ذلك الموقف مضطرًا إذ قامت سياسي في جوهرها على تصحيح الأخطاء التي ورثتها عن عهدك.   
 - ولكنّي عهدتك راضيًا ومشجعًا وصديقًا؟   
 - من الظلم أن يحاسب إنسان على موقف اتخذته في زمن رعب أسود خاف فيه الأب ابنه والأخ أخاه!   
 - وما النصر الذي أحرزته إلّا ثمرة استعدادي الطويل له!   
 فقال أنور السادات:   
 - ما كان لمنهزم مثلك أن يحقق انتصارًا، ولكنّي أرجعت للشعب حرّيته وكرامته ثمّ قدته إلى نصر أكيد.   
 - ثمّ نزلت عن كلّ شيء في سبيل سلام مهين فطمنت وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيت على مصر بالانعزال والغربة...   
 فقال أنور السادات:   
 - لقد ورثت عنك وطنًا يترنح على هاوية الفناء، ولم يمدّ لي العرب يد عَوْن صادقة، ووضح لي أنّهم لا يرغبون في موتنا كما لا يرغبون في قوتنا كي نظلّ راعين تحت رحمتهم، فلم أتردّد في اتخاذ قرار...   
 - واستبدلت بعملاق طلما ساندنا عملاقًا طلما ناصبنا العداة.   
 - اتّجهت إلى العملاق الذي بيده الحلّ، وصدقت الحوادث ظنوني!   
 - واندلقت في الانفتاح حتّى أغرقت البلاد في موجة غلاء وفساد، ويقدر ما كان عهدي أمانًا للفقراء كان عهدك أمانًا للأغنياء واللصوص.

## ٦٤٠ أمام العرش

الفارسيّ، وقد أخطأ كما أخطأ سواه وأصاب أفضل ممّا أصاب كثيرون.

فقال أوزوريس:

- أرحّب بك بين الخالدين من أبناء مصر، وسوف تمضي بعد ذلك إلى محكمتك الأخرى مؤيّدًا بتزكية مشرّفة منّا.

## - ٦٤ -

قلّب أوزوريس عينيه في الخالدين وقال:

- ها هي حياة مصر، قد عُرِضت عليكم بكلّ أفراحها وأحزانها، مذ وحّدها مينا وحثّى استرذت استقلالها على يد السادات، فلعلّ لبعضكم رؤية يريد أن يتوّه بها؟

وطلب الملك أختاتون الكلمة ثمّ قال:

- أدعو للاستمسك بعبادة الإله الواحد باعتباره المعنى والخلود والتحرّر من أيّ عبوديّة أرضيّة.

وقال الملك مينا:

- والحرص على وحدة الأرض والشعب فالنكسة لا تحيء إلا نتيجة لخلل يصيب هذه الوحدة.

وقال الملك خوفو:

- على مصر أن تؤمن بالعمل، به شيّدت الهرم، وبه تواصل البناء.

وقال أمحتب وزير الملك زوسر:

- وأن تؤمن بالعلم فهو القوّة وراء خلودها.

وقال الحكيم بتاح حتب:

- وأن تؤمن بالحكمة والأدب لتتعم بنضارة الحياة

وتنهل من رحيقها.

وقال ابنوم:

- وأن تؤمن بالشعب والثورة لتطرد مسيرتها نحو

الكمال.

وقال الملك تحتمس الثالث:

- وأن تؤمن بالقوّة التي لا تتحقّق حتّى تلتحم

بجيرانها.

وقال سعد زغلول:

- وأن يكون الحكم فيها من الشعب بالشعب من

أجل الشعب.

وقال جمال عبد الناصر:

- وأن تقوم العلاقات بين الناس على أساس

العدالة الاجتماعيّة المطلقة.

وقال أنور السادات:

- وأن يكون هدفها الحضارة والسلام.

وهنا قالت إيزيس:

- ليضرع كلّ منكم إلى إلهه أن يهب أهل مصر

الحكمة والقوّة لتبقى على الزمان منارة للهدى والجمال.

فبسط الجميع أكفّهم واستغرقوا في الدعاء.

# رحلة ابن بطوطة



## الوطن

فطومة الأزهرية وهي بنت سبعة عشر، آخر عنقود جزار يدعى الأزهرية قطائف فغزت قلبه وتزوج منها وأقام معها في دار رحيبة اشتراها باسمها، محدثاً في أسرته غضباً وشغباً. اعتبر إخوتي الزواج لعبة قدرة غير مشروعة، واستعانوا على أيهم بشفاعه القاضي وكبير التجار ولكنه مرق من قبضتهم مروق عاشق مسلوب الإرادة، فاعتد الزواج حقاً لا يقبل المناقشة، وفارق السنّ وهما يتعلّل به المغرضون، وراح ينهل من معين سعادته بقلب مليء بالثقة.

- وجاء مولدك مؤكّداً للهزيمة مجدداً للغضب!  
وأقول لها كثيراً:

- لا حدّ لطمع الإنسان!

فمنذ حدائتي وأنا أتلقى أجمل الكلمات رغم ارتطامي بأقبح الفعال. وسمّاني أبي «قديبل» ولكنّ إخوتي أطلقوا عليّ «ابن فطومة» تبرؤاً من قرابتي وتشكيكاً فيها. ومات أبي قبل أن يطبع صورته في وعي تاركاً لنا ثروة تضمن حياة رغدة حتى آخر العمر. وقطعت الخصومة ما بيننا وبين إخوتي. وخافتهم أمي على نفسها وعليّ فاطاحت بها الوسوس والظنون حتى قرّرت ألا ترسلني إلى الكتاب، فمهدت بي إلى الشيخ مغاغة الجبيلي - وكان جازاً لأسرتها - ليلقني العلم في داري. وعنه تلقيت دروساً في القرآن والحديث واللغة والحساب والأدب والفقه والتصوّف والرحلات. كان في الأربعين، قوياً مهيباً، ذا لحية رشيقة وعمامة عالية، وجبة أنيقة، وعينين لامعتين ناقبتي النظرة، بمدّ صوته المليء عند إلقاء الدرس،

الحياة والموت، الحلم واليقظة، محطّات للروح لخالتر، يقطعها مرحلة بعد مرحلة، متلقياً من الأشياء اشارات وغمزات، متخبّطاً في بحر الظلمات، متشبّثاً في عناد بأمل يتجدّد باسماً في غموض. عمّ تبحث أيها الرخالة؟، أيّ العواطف يجيش بها صدرك؟، كيف نسوس غرائزك وشطحاتك؟، لمّ تفهقه ضاحكاً كالفرسان؟، ولمّ تذرف الدمع كالأطفال؟ وتشهد مسرّات الأعياد الراقصة، وترى سيف الجلاد وهو يضرب الأعناق، وكلّ فعل جميل أو قبيح يستهلّ باسم الله الرحمن الرحيم. وتستأثر بوجدانك ظلال بارعة براعة الساحر مثل الأمّ والمعلّم والحبيبة والحاجب، ظلال لا تصمد لرياح الزمن ولكنّ أسماها تبقى مكلّلة بالخلود. ومهما نبا بي المكان فسوف يظلّ يقطر ألفة، ويسدي ذكريات لا تنسى، ويحفر أثره في شغاف القلب باسم الوطن. سأعشق ما حييت نفثات العطارين، والمآذن والقباب، والوجه الصبيح يضيء الزقاق، وبغال الحكم وأقدام الحفاة، وأناشيد المسوسين وأنغام الرباب، والجياد الراقصة وأشجار اللبلاب ونوح اليهام وهديل الحمام. وتحدّثني أمي فتقول:

- يوم مولدك.

وهزّ رأسها جميل التكوين فأقول بحبور:

- بل يومك هو الأصل!

كان أبي محمّد العنابي تاجر غلال مترعاً بالثراء. أنجب سبعة تجار مرموقين، وعمّر حتى جاوز الثمانين متمتعاً بالصحة والعافية. وفي الثمانين رأى أمي الجميلة

- جميعها متقاربة في الأحوال والمشارب والطقوس، بعيدة كلَّها عن روح الإسلام الحقيقي، ولكنَّك تكتشف ديارًا جديدة وغريبة في الصحراء الجنوبيَّة . . .  
أثار أشواقي لدرجة الاشتعال ثمَّ قال:  
- قمت بتلك الرحلة وحدي عقب وفاة أبي، فزرت ديار المشرق والحيرة والحلبة، ولولا الظروف المعاندة لزرت الأمان والغروب والجبل، ولكنَّ القافلة وقفت عند الحلبة بسبب قيام حرب أهليَّة في دار الأمان . . .

ويحدجني بنظرة غريبة ثمَّ يقول:

- وهي ديار وثنيَّة!

فهتفت:

- أعوذ بالله!

- ولكنَّ الغريب لا يلقي فيها أو في الطريق إليها

إلا الأمان لحاجتها الملحة إلى التجارة والسياحة . . .

فهتفت مرَّة أخرى:

- ولكنَّها ملعونة . . .

فقال بهدوء:

- لا حرج على المشاهد.

- ولمَّ لمَّ تعاود الكرة؟

- ظروف الحياة والأسرة أنستني أهمَّ هدف من

الرحلة وهو زيارة دار الجبل.

فسألته بشغف:

- وما خطورة دار الجبل؟

فقال متنبِّهًا:

- تسمع عنها الكثير، كأنَّها معجزة البلاد، كأنَّها

الكهال الذي ليس بعده كمال . . .

- لا شكَّ أنَّ كثيرين من الرحَّالة قد كتب

عنها . . .

فقال بنبرة لم تخلُ من أسي:

- لم أصادف في حياتي آدميًّا مَن زاروها، ولا

وجدت كتابًا عنها أو مخطوطًا . . .

فقلت بضيق:

- إنَّه أمر عجيب لا يصدِّق . . .

فقال بكآبة:

- إنَّها سرٌّ مغلق . . .

ويرسله على مهل وهدوء، وبذلك الصعب بجودة الشرح ورقة الابتسامة. وكانت أمي تتابع الدروس باهتمام مستفيدة من فراغها الطويل، تنصت من وراء ستار ونحن في القاعة شتاءً، ومن وراء خصاص ونحن في السلامك في بقية الفصول. وكانت تقول لي:

- أراك سعيدًا بمعلِّمك، وهذا حظُّ حسن . . .

فأقول لها بحماس:

- إنَّه شيخ عظيم . . .

وكان يخصُّص وقتًا للمناقشة، فيطرح ما يرى من أسئلة ولكنَّه يدعوني لإعلان خواطري ويعاملني معاملة الراشدين. ويومًا - لا أذكر في أيِّ فترة من العمر - سأله:

- إذا كان الإسلام كما تقول فلماذا تزدهم الطرقات

بالفقراء والجهلاء؟!

فأجابني بأسي:

- الإسلام اليوم قابع في الجوامع لا يتعدَّها إلى

الخارج!

ويفيض في الحديث فيلهب الأوضاع بنيرانه . . .

حتَّى الوالي لا يسلم من شره. وقلت له:

- إذن إبليس هو الذي يهيم علينا لا الوحي.

فقال برضا:

- أهنتك على قولك، إنَّه أكبر من سنِّك . . .

- والعمل يا سيِّدنا الشيخ؟

فقال بهدوء:

- أنت ذكيٌّ، وكلَّ آتٍ قريب . . .

أما حديثه عن الرحلات فمثار للعشق والسرور.

وتكتشف في مجرى حديثه عن رحالة قديم. قال:

- عرفت الرحلات في صحبة المرحوم أبي فطوفنا

بالمشرق والمغرب . . .

فأقول بلهفة:

- حدَّثني عن مشاهداتك يا سيِّدنا.

فحدَّثني بسخاء حتَّى عايشت بخيالي ديار المسلمين

الترامية، وتبدي لي وطني نجسًا في سماء مكتنَّة

بالنجوم. وقال:

- ولكنَّ الجديد حقًّا لن تعثر عليه في ديار الإسلام!

وتساءل عيناوي عن السبب فيقول:

## رحلة ابن فكلومة ٦٤٥

التي تقوم فيها دارنا متألفة كالكوكب. وكان اهتمامي يتجاوزها إلى أبيها بقامته النحيلة وعينيه المطموستين وأنفه الغليظ المجذور. أثار عطفِي ودهشتِي، وأعجبني صوته وهو يؤذّن للصلاة متطوّعًا أمام باب داره. وحولتني الأيام اللاهثة إلى البنت فاكتشفتها من جديد. كانت أرض الحارة زلقة غبّ مطر خفيف، وكان الشيخ يسير بحذر مسلّمًا يسراه لابنته ويمناه على عصاه الغليظة تتحسّس له مواضع قدميه بضربات متتابعة كمنقار دجاجة تنقّب عن حبّ. وسائرته حلّيمة غائصة في جلباب فضفاض غامق اللون لا يظهر من خمارها المسدل إلا عينان ولُكْنٌ هيبتها تمثلت لعينيّ المُشْرِبتين بقاء الفتوة أنثى كاملة، تتجسّد جواهرها المستورة كلّما خفق النسيم بجلبابها كأنّها جرات تحت رماد. وزلّت قدمها أو كادت فشدّت عضلاتها بسرعة لتحفظ توازنها فتحرّك رأسها حركة نافرة أطاحت بطرف الخنّار عن وجهها فانطبع بتسامه على بصري غارسًا حسنه في أركان وجداني. تلقّيت في لحظة عابرة رسالة طويلة مشحونة بكافة الرموز التي تقرّر مصير قلب. وسألتي أمي بناء على ما سمعته من حديث الشيخ مغاغة عن العمل الذي تكتمل به الحياة:

- ألا توافقني أنّه لا يصلح لك إلا التجارة؟

فأدهشتها إذ قلت:

- إني أفكر في الزواج أولًا!

ورحبت بحرارة مؤجّلة الحديث عن «العمل»، وراحت تصف لي بعض بنات التجار ولكّنيّ أدهشتها مرّة أخرى وأنا أقول:

- وقع اختياري على حلّيمة بنت الشيخ عدلي الطنطاوي...

تلقت أمي صدمة لم تدارها وقالت:

- إتّها دون المطلوب في كلّ شيء!

فقلت بإصرار:

- ولكّنيّ أريدها...

فقلت باستياء مُتجهّمة الوجه:

- ستشمت بنا إخوتك!

ولكنّ إخوتي كانوا كشيء لم يكن. وشعوري بأنّي رجل الدار كان يتعاظم مع الوقت. وهي لم تعاندني

وكأيّ سرّ مغلق شدّني إلى حافته، وغاص بي في ظلماته، وضرّم النار في خيالي، وكلّما ساءني قول أو فعل رفّت روحي حول دار الجبل. وراح الشيخ مغاغة الجبيلي ينوّر عقلي وروحي ويبدّد الظلام من حولي، ويوجّه أشواقي إلى أنبل ما في الحياة. وسعدت أمي بما أكتسبه يومًا بعد يوم، وشاركت في تكويبي بحبّها وجمالها. متوسّطة الطول كانت، رشيقة العود، تنضح بشرتها بالبياض والصفاء والملاحة. ولم تتردّد مرّة عن إعلان إعجابها بجمالي ونجاحي ولكّنها قالت لي بنفس الصراحة:

- كلامك كثيرًا ما يكدر صفوي...

وتساءلت عن السبب فقالت:

- كأنّك لا ترى إلا الجانب القبيح من الحياة!

ولم تكن تنكر أقوالي أو ترى فيها أيّ مبالغة، ولكّنها أفصحت عن إيمانها قائلة:

- الله صانع كلّ شيء، وله في كلّ شيء

حكمة...

فقلت مندفعًا:

- ساءني الظلم والفقر والجهل!

فقلت بإصرار:

- الله يطالبنا بالرضا في جميع الأحوال.

وطرحت الموضوع للمناقشة مع الشيخ ولكّنيّ موقفه كان واضحًا تمامًا فهو يؤمن بالعقل وحرّيّة الاختيار ولكّنه همس في أذني برقة:

- تجنّب إزعاج والدتك...

وهي نصيحة انسقت إلى أتباعها مدفوعًا ومدعّمًا بحبّي الكبير لها، ولم أجد في ذلك مشقة فقد كانت سداجنتها تعادل جمالها نفسه. غير أنّ الأيام التي وهبتي الدرس والتربية دفعت بي أيضًا إلى مشارف الشباب فهطلت الساء بأمطار جديدة، وتجلّت مشاهدتها على ضوء مشاعل جديدة. ويسألني الشيخ مغاغة الجبيلي:

- ماذا نويت أن تعمل في هذه الحياة التي لا تكتمل إلا بالعمل؟

ولكّنيّ كنت أرى حلّيمة عدلي الطنطاوي بعين جديدة. طالما رأيتها على عهد الصبا وهي تقود أباهم الضريع قارئ القرآن. لهم بيت صغير قديم في حارتنا

- وإن ضنّت عليّ بالموافقة، وفي الوقت نفسه لم تفقد الأمل. وإذا بالأمر تجري مع رغباتي وإن يكن بشمن باهظ. مضت معارضة أمي تخفّ حتى قالت لي مسلمة:
- سعادتك أغلّ عندي من أيّ شيء أو اعتبار... .
- وفي الحال قامت بما يُنتظر منها فذهبت من السراي إلى البيت المتهرئ وخطبت لي حلّمة. ومرة تالية صحبتني معها فجالسنا الشيخ عدلي الطنطاوي وحرمه، ودخلت العروس فأبدت ما يسمح به الشرع بإبدائه من الوجه واليد، ومكثت دقائق معدودة ثم ذهبت. ومضى الاستعداد للزواج بسرعة عمودة. ولاحظت يوماً أنّ أستاذي الشيخ مغاغة الجبيلي يعاني ارتباكاً غير معهود، وأنّه يحدثني بنبرة جديدة تماماً. قال بهدوء وهو ينظر إلى مركوبه:
- ثمة أمر هامّ يا قنديل.
- فأثار اهتمامي لأقصى درجة فقلت:
- رهن إشارتك يا مولاي... .
- فقال بأسى:
- لم أعد أطيق وحدتي... .
- كان الشيخ أرمل، وقد أنجب ثلاث بنات تزوّجن وقَررن في بيوتهنّ. سألته ببراءة:
- ولمّ تبقى وحيداً؟... ألم يتزوّج النبيّ عليه الصلاة والسلام عقب وفاة السيّدة خديجة؟!
- صدقت، وهذا ما أفكّر فيه... .
- فقلت بحماس:
- وإنك لرجل ترحب به كرام الأسر.
- فقال بحياء:
- ولكنّ مطلبي في أسرتك بالذات!
- فدهشت وأحذق بي انزعاج شامل. تساءلت:
- أسرتي؟!
- فأجاب بخشوع:
- أجل، السّت والدتك!
- فقلت بعجلة:
- ولكنّ والدتي لا تزوّج!
- لمّ يا قنديل؟
- فحرت قليلاً ثمّ قلت:
- إنها أمي!
- فقال بهدوء:
- الزواج شريعة الله سبحانه، ولن يهون عليك أن تزوّج وتترك أمك وحيدة!
- وصمت قليلاً ثمّ قال:
- الله يهدينا إلى سواء السبيل... .
- في وحدتي تلاطمت أفكارى، وترتبت الأحداث في خيالي في صورة جديدة كثية. قلت لنفسي إنّ إذعان أمي المفاجئ لرغبتني في الزواج من حلّمة ليس إلّا نتيجة لرغبتها في الزواج من الشيخ مغاغة الجبيلي. حصلت أمور بريئة من وراء ظهري ولكنّها اعترضت حلقي، وجدت نفسي في موقف دقيق حرج ما بين أعزّ شخصين في حياتي وبين غضبي وسخطي وحياتي. وهتفت من أعماقي:
- اللهمّ جنبني الظلم والحق... .
- الحقّ أنّي سلكت سلوكاً هو أحقّ بشخص أكبر مني سنّاً وتجربة. تركت الأمور تجري كما يشاء الله، وأقنعت نفسي المتمرّدة بأنّ الزواج حقّ للرجل والمرأة، وأنّ أمي ليست أمّاً خالصة ولكنّها امرأة أيضاً، وأننا خلقتنا لنكابد الحقيقة ونصمد لها، وتلقّى نصيبنا من السرور والألم بشجاعة المؤمنين. وحملت التجربة بكافّة أبعادها على عاتقي وفاتحت أمي بالموضوع بصراحتي المألوفة. وأبدت دهشة أحققتني وتمتت:
- ما خطر لي ذلك ببال... .
- فقلت ببرود:
- ولكنّه حقّ وعدل.
- ومضيت أهضم نخيبي على حين قالت هي في تلعثم:
- أريد فرصة للتفكير... .
- اعتبرت ذلك أوّل إشارة للموافقة لتناقضه الشديد مع أسلوب الرفض الواضح، وانتظرت بقلب كثيب، حتى همست لي في حياء وارتباك:
- لتكن مشيئة الله!
- وتأمّلت كيف نزخرف أهواءنا بكلمات التقوى المضيفة، وكيف نداري حياءنا بقبسات الوحي الإلهميّ. وجرى الاستعداد المألوف للزواج الابن والأمّ، وتمّ

رحلة ابن فطومة ٦٤٧

- سأزور المشرق والحيرة والحلبة ولكني لن أتوقف  
كما توقفت بسبب الحرب الأهلية التي قامت في الأمان،  
سأزور الأمان والغروب ودار الجبل، أي وقت يلزمني  
لذلك؟

فقال الشيخ مغاغة الجبيلي وهو يلحظ أمي بإشفاق:  
- يلزمك عام على الأقل إن لم يزد.

فقلت بتصميم:

- ليس هذا بالكثير على طالب الحكمة، أريد أن  
أعرف، وأن أرجع إلى وطني المريض بالسوءاء  
الشافى...

وهمت أمي بالكلام ولكني سبقتها قائلاً بحزم:  
- إنه قرار لا رجعة فيه...

واستحوذ عليّ الحلم، وتلاشى الواقع، وتراءت دار  
الجبل لعين خيالي كنجم معشوق يعتلي عرشه وراء  
النجوم، ففضجت الرغبة الأبدية في الرحلة على لهيب  
الأم الدائم. وأذعن الشيخ مغاغة الجبيلي للواقع فدعا  
صاحب القافلة للعشاء معنا. كان في الأربعين، يدعى  
القاني بن حديس، قويّ البنيان والرأي. قال الشيخ  
مغاغة:

- أودّ أن يذهب معك ويرجع معك.  
فقال الرجل:

- هذا يتوقف على رغبته، نحن نقيم في كل دار  
عشرة أيام، فيمضي معنا من يقنع بها ويتخلف من  
يروم المزيد، وعلى أي حال توجد قافلة كل عشرة  
أيام...

فقال لي الشيخ مغاغة:

- عشرة أيام فيها الكفاية...

فقلت:

- أعتقد ذلك...

أما أمي فركزت على مسألة الأمن فقال لها الرجل  
بوضوح:

- لم تتعرض قافلة لهجوم أبداً، إنّ أهل البلاد لا  
يحظون بعشر معشار ما يحظى به الغريب من  
حماية...

وأخذت في الاستعداد للرحلة مُسترشداً بأستاذي  
الشيخ مغاغة فملأت حقيبة بالدنانير وثانية بالملابس

الاتفاق على انتقال أمي إلى دار الشيخ مغاغة وهي دار  
حسنة، وانتقال حليلة إلى السراي. وصممت على أن  
ألوذ بالسعادة المتاحة نافضاً عن ذيلي رواسب الأكدار.  
ولكن هبط علينا قدر فنسف خطتنا. زحم حياتنا  
المهذبة الحاجب الثالث للوالي فاقتحمنا كعاصفة. رأى  
ذات يوم حليلة فقرّر أن يجعل منها زوجته الرابعة.  
وذعر الشيخ عدلي الطنطاوي وقال لأستاذي الشيخ  
مغاغة:

- لا قبّل لي بالرفض!

وفسخ الخطوبة وهو يرتعد، فزوّت حليلة إلى  
الحاجب الثالث ما بين يوم وليلة. انطويت على نفسي  
ذاهلاً وأنا أتساءل عن قلب حليلة، عن مشاعرها  
الدفينة، هل شاركتني ألمي أو أنّ للاء الملك أسكرها  
وبهر عينها. ووجدتني في وحدتي أقول لنفسي:  
- خانني الدين، خاننتي أمي، خاننتي حليلة، ألا  
لعنة الله على هذه الدار الزائفة...

بدا كلّ شيء كالحا، بدءاً من أبسط الأفراد مثل  
الشيخ عدلي الطنطاوي حتى الوالي نفسه، مروراً  
بأناس ومعاملات تستحقّ الطوفان ليحلّ محلّها عالم  
جديد نظيف. لم أتأثر بعطف أمي وحزنها، ولا جگم  
الشيخ مغاغة التي ذرّها عليّ. بدت لي الدنيا صفراء  
كريمة لا تُحتمل ولا تعاشر. وقالت لي أمي:  
- يجب أن تتزوّج في أقرب وقت ولعلّ الله يدخّر  
لك أفضل مما اخترت!

فهزرت رأسي رافضاً، فقال الشيخ مغاغة:

- اشرع في العمل بلا تأخير.

فهزرت رأسي أيضاً... فقال الرجل:

- لديك ولا شك خطّة...؟

فقلت مُعرباً عن عواطف الجائحة:

- أن أقوم برحلة!

فتساءلت أمي في انزعاج:

- أيّ رحلة؟... إنك لم تكذب بلوغ العشرين من  
عمرك!

فقلت:

- هي أنسب سنّ للرحلة...

ونظرت إلى أستاذي ملياً وقلت:

موجات من نور متدفق، وهواء سابح، وحرارة تتصاعد منذرة بالعنف، ومنظر ثابت بين رمال صفراء وسماء زرقاء صافية. لذت من المنظر الواحد بنفسني فغصت في ذكرياتها الملحة وانفعالاتها المرة، وأحلامها الوردية. وعند كل عين ماء كنا نتوقف للطعام والوضوء والصلاة والسمر. عرفت نخبة من الرفاق التجار ورمقوا «الرحالة الوحيد» بنظرات غريبة. وقلت مفسرًا ومتباهيًا:

- سأذهب حتى دار الجبل!

فتساءل أحدهم باستهانة:

- وما دار الجبل؟

وقال ثان بفخار:

- نحن دار الإسلام...

وقال ثالث:

- التجارة من العمران والله يأمرنا بالعمران...

وقال رابع:

- كان النبي عليه الصلاة والسلام تاجرًا.

فقلت كالمعتد:

- وكان أيضًا رحالة ومهاجرًا!

فقال الأول:

- ستبّد ثروتك في الترحال وترجع إلى بيتك

فقيرًا...

فقلت كاظمًا غيظي:

- لا يعرف الفقر من يؤمن بالعمل...

وكنت أحترم التجارة ولكنني آمنت بأن الحياة رحلة كما هي تجارة. وتسابعت الأيام طويلة وثقيلة، حارة بالنهار باردة بالليل، ورأيت النجوم كما لم أرها من قبل جليلة ساحرة لانهائية، وعرفت أنّ حزني من أمي أكبر مما تصوّرت، وأنّ حبي لحليمة أقوى من أن يؤثر فيه الليل والنهار والنجوم والتطلع نحو المجهول. وسرنا ما يقارب الشهر حتى لاحظت لنا من بعد أسوار دار المشرق. عند ذلك قال القاني بن حمديس:

- سنعسكر عند العين الزرقاء، وندخل الدار عند منتصف الليل.

وأعددتنا أنفسنا. ولما صلينا العشاء سمعت من يهمس:

وثالثة باللوازم ومنها الدفاتر والأقلام والكتب. ورأيت أن يتمّ زواج أمي بالشيخ قبل رحيلي، غير أنّ الشيخ انتقل إلى السراي حتى لا تهجر بلا ساكن. ولبستي حال جديدة، فقلّ تفكيري في أحزاني، وهيمت الرحلة على حواسي، وانفسح أمامي مجال غير محدود للأمل...

## دار المشرق

ودعنتي أمي وداعًا حارًا داعمًا وهي تقول:

- أغنانا الله عن ذلك كلّه ولكّتها إرادتك!

فقلت لنفسني: «على أيّ حال لم أترك وحدك».

وصحبني الشيخ مغاغة الجبيلي إلى ميدان المكوس

فبلغناه قبيل الفجر، ورأينا القافلة على ضوء المشاعل.

امتدّ الظلام حولنا يتنفس نسائم الربيع وفوقنا ترامقت

النجوم الساهرة. همس الشيخ مغاغة في أذني:

- لا تتخلف عن قافلة ابن حمديس.

على حين ارتفع صوت صاحب القافلة وهو يهتف:

- السير عقب صلاة الفجر.

ورأنا فصافحنا وقال لي:

- جميع الرفاق من التجار وأنت الرحالة الوحيد

بيننا!

فلم يسرني ذلك ولكنّي لم أتكدّر له. وارتفع صوت

الأذان محلّقًا فوق الرؤوس فمضينا نحو جامع السوق،

وانتظمتنا في آخر صلاة جامعة تتاح لنا. وانطلقنا من

الجامع إلى القافلة فاتخذنا مجالسنا مع الحقائق. وبدأ

الطابور يتحرك على إيقاع حادّ فغاص قلبي بحنين

الرداع وتحركت في أعماقه ذكريات أمي وحليمة في

غلاف من ذكريات الأسى الشامل الذي يحتوي وطني

كلّه. وغمغمت في أحضان الظلام:

- اللهمّ بارك خطاي.

وأخذت الظلمة ترقّ، وتلوح بشائر النور الموعود في

الأفق، حتى تخضبّ بحمرة باسمه ويزغّ حاجب

الشمس، ناشرًا الضياء فوق صحراء بلا حدود.

تجلّت القافلة خطأ راقصًا في صفحة كونية متحدّية

بالجلال، وانغمر جسمي في حركة رتيبة متتابعة تحت

## رحلة ابن فطومة ٦٤٩

يعدّ لي الفطور. سألته:  
 - هل أستطيع أن أصلي في غرفتي؟  
 فقال محذراً:  
 - قد يراك أحد فتتعرّض لما يسوؤك...  
 وجاءني بإناء به تمر ولبن وفطيرة شعير فأكلت بسرور  
 حتّى شبعت. وقال لي:  
 - كنت ذات يوم بمنّ يعشقون الرحلات.  
 فسألته:  
 - أأنت من المشرق؟  
 - أصلي من الصحراء ثمّ استقرّ بي المقام في  
 المشرق...  
 سرّني أن أجد فيه رحالة قديماً فقلت:  
 - دار الجبل هي الهدف الأخير من رحلتي...  
 - وهي هدف الكثيرين ولكنّ أسباب الرزق  
 حجزتني عنها...  
 فسألته بلهفة:  
 - ماذا تعرف عنها يا سيّد فام؟  
 فأجاب بأسماً:  
 - لا شيء إلا ما توصف به أحياناً كأنّما هي معجزة  
 الدهر، ومع ذلك فلم أصادف رجلاً واحداً بمنّ  
 زاروها...  
 وقال لي صوت باطني بأنّي سأكون أوّل ابن لادم  
 يتاح له أن يطوف بدار الجبل ثمّ يعلن سرّها للعالمين.  
 وسألني:  
 - هل تمكث طويلاً في المشرق؟  
 - عشرة أيام ثمّ أذهب مع قافلة القاني بن  
 حمديس...  
 - عظيم، يبرّ وانظر وتمتّع بوقتك، وحسبك غطاء  
 للعودة ولا تزد عن ذلك...  
 فقلت مستنكراً:  
 - لا أستطيع أن أخرج بلا عباءة.  
 فقال ضاحكاً:  
 - سترى بنفسك، نسيت أن أسالك عن اسمك  
 الكريم؟  
 - فنديل محمّد العنّابي...  
 فرفع يده إلى رأسه تحيّةً وذهب. غادرت الفندق في

- آخر صلاة حتّى نرجع من بلاد الوثنيّة!  
 فامتعضت كثيراً ولكنّي كنت أعدّ نفسي لحياة جديدة  
 طويلة فقلت لنفسي: «الله غفور رحيم».  
 وقبيل منتصف الليل تقدّمت القافلة من الدار  
 الجديدة. وقابلنا عند المدخل رجل عاري الجسد إلا  
 من وزرة تستر العورة، بدا طويلاً نحياً على ضوء  
 الكشاف، وقال الرفاق إنّه مدير الجمر. قال الرجل  
 بصوت جهوري:  
 - أهلاً بكم في المشرق عاصمة دار المشرق، إنّا  
 ترحّب بالتجار والرحالة، ومن يلزم حدوده فلن يلقى  
 إلا الطيب والجميل.  
 ودخلت القافلة بين صقّين من الحرّاس، فمضى  
 التجار إلى السوق، ومضى بي دليل إلى فندق الغرباء.  
 أناخ الجمل أمام سرادق كبير كأنّه ثكنة، وحمل الدليل  
 حقائبي إلى الداخل فأدركت أنّه فندق الغرباء. كان  
 سرادقاً كبيراً منقسماً إلى جناحين يفصل بينهما بهو ممتدّ،  
 وكلّ جناح يحوي غرفاً متلاصقة أضلاعها مبنية من  
 الأقمشة البورية. وكانت الحجرة التي اختيرت لي  
 بسيطة بل بدائيّة، أرضها رملية، وبها فراش عبارة عن  
 خشبة مطروحة على الأرض، وسحارة للملابس،  
 وشلّية في الوسط. وما إن فرغت من تفقّد حقائبي  
 حتّى هرعت إلى الفراش بحنين شخص حُرّم من الرقاد  
 الطبيعيّ شهراً كاملاً، فتمت نوماً عميقاً حتّى أيقظني  
 حرّ النهار. ونهضت كالمتوجّع، ومرقت إلى البهو  
 فوجدته مكتظّاً بالنزلاء وقد جلسوا أمام حجراتهم  
 يفطرون. وجاءني رجل قصير لا يخلو من بدانة مؤتزرًا  
 بما يغطّي العورة وقال لي بأسماً:  
 - أنا فام صاحب الفندق، هل قضيت ليلة مريحة؟  
 فقلت والعرق يسيل فوق جبينني:  
 - شكراً.  
 - هل آتيك بالفطور؟  
 فقلت بلهفة:  
 - بل أريد الحّمّام.  
 وقادني إلى نهاية البهو فأزاح ستارة فوجدت ما  
 يلزمي لأغتسل وأمشط شعر رأسي ولحيّتي الصغيرة.  
 وعدت نحو غرفتي فوجدت فام قد جاء بطبليّة وراح

لمحتها وأنا مشغول بالمشاهد فأحدثت أثرها وأنا شبه نائم أو ذاهل. إنها وراء ما اجتاحني من انفعال وجداني عميق. حقاً إنها مشرقية نحاسية عارية ولكن تكوين وجهها صورة قريبة جداً من صورة حليمة حبيبي المفقودة، بل قررت أن أقتنع بأنّها حليمة المشرق، وأتني سأراها مرة أخرى. وانتقلت من مكان إلى مكان، لا أرى جديداً، أكابد فتوراً يتزايد، وقلبي ينسحق تحت الأسي والشجن، وخيالي يبحث عن حليمة المشرق. في الغربة أخلق من جديد في صورة جديدة. تتكوّن في أعماقي اندفاعات جريئة لإشباع الرغبات وممارسة المغامرات. إنّي أخلق عن حضارة وأسلم نفسي لحضارة جديدة. أتوق إلى الحياة بعيداً عن الرقباء. الرقباء الذين يتجسّدون في الخارج والذين ينبضون في الداخل. ووجدتني عند العصر على حافة خلاء جديد لا أدري كيف ساقطني إليه قدمائي المتعبتان. خلاء نظيف خالٍ من الماشية ومن الرعاية تحفّت به من الجانبين أشجار عالية ضخمة لم أر مثلها من قبل، ويقوم في أعماقه قصر كبير ذو سور محيط. يحرس مداخله طابور من الفرسان المدججين بالسلاح. ولم يكن بالساحة إلا نفر من الغرباء أمثالي يقبلون أعينهم في دهشة وإعجاب. كيف قام هذا القصر بين الخيام؟... إنّه ولا شك قصر ملك المشرق، وطبعاً غير مسموح بزيارته، وكنت ظننت أنّ رئيس المشرق ما هو إلا شيخ قبيلة يقيم في خيمة تناسبه حجماً وأناقته. سألت أحد الغرباء:

- أهو قصر الملك؟

فأجاب باهتمام:

- هذا ما يبدو.

الحقّ أنّه لا يقلّ فخامة عن قصر الوالي في وطني ولكنّه يبدو غريباً مقطوع الصلة بما حوله. وأخذ الجوّ يلفظ، ويسفر عن وجهه الربيعي، ولكنّ شعوري التعب والجوع انفجر كالغول فرجعت ألتمس سبيلي إلى الفندق. ووجدت فام صاحب الفندق جالساً على أريكة من سعف النخل عند المدخل فلاقاني بابتسامة وقال:

- هل تناولت غداءك في السوق؟

الضحى مُتلفعاً بعباءة خفيفة واسعة المسام، لا يساً عمامتي لتقيني الشمس. وأنا أعجب من حرارة الربيع وأتساءل عن حرارة الصيف كيف تكون. ولدى مغادرتي الفندق هالتي أمران، العربي والفراغ.

الناس، النساء منهم والرجال على السواء، عرايا تماماً كما ولدتهم أمهاتهم. والعربي عادة مألوفة لا تلفت نظراً ولا تثير اهتماماً، كلٌّ ذاهبٌ لوجهته، ولا يثير الغرابة إلا الغرباء أمثالي لما يرتدون من ملابس. والأجساد نحاسية اللون، نحيلة لا من رشاقة ولكن من قلة الغذاء فيما يبدو وإن غلب عليهم الرضى بل والمرح. وجدت مشقة لأزيل عن وجداني الشعور بالشذوذ للملابسي التي أرفل فيها، ووجدت مشقة أكبر في صرف بصري عن مشاهد العربي المثيرة وما بعثته في دماغي من نيران متأججة. وقلت لنفسي:

- يا لها من دار تقذف بمن كان في شبابي إلى فتنة محرقة!

أما الأمر الغريب الثاني فهو هذا الفراغ الممتد المترامي، كأنما انتقلت من صحراء إلى صحراء. أهذه هي حقاً عاصمة المشرق؟ أين القصور، أين البيوت، أين الشوارع، أين الخواري؟ لا شيء إلا أرضاً تعلق جوانب منها أعشاب ترعاها الماشية، وثمة تجمعات هنا وهناك من خيام تقوم على غير نظام، يتجمّع أمامها نساء وفتيات يغزلن أو يجلبن البقر والمعيز. وهنّ عرايا أيضاً، وجاهلن لا بأس به ولكن تخفيه القذارة والإهمال والفقر. الحقّ أنّي لم أتماد في نقد مظاهر البؤس في هذا البلد الوثني الذي قد يكون له من وثنيته عذر، ولكن أيّ عذر أعذر به عن أمثال هذه المظاهر في بلدي الإسلامي؟. وقلت لنفسي:

- انظر وسجّل واعترف بالحقيقة المرّة.

وفيا عيناى تدوران في حيرة ودهشة استحوذ عليّ شعور بالهيان استخرج من أعماقي العاشق الكامن. تذكّرت حليمة بقوة مهيمنة وغشيت صورتها الأجزاء مع الحرارة وأشعة الشمس. وحرت من أمري وقتاً ولكنّي لمحت فتاة تعدو، قادمة من ناحية الفندق متّجهة كالسهم نحو بقعة مُزدحمة وغاصت في عباها فتواترت عن عينيّ. لعليّ لمحتها وهي ذاهبة أيضاً. لعليّ



## رحلة ابن فطومة ٦٥١

يا له من نظام غريب! إنه يذكّرني بالقبائل الجاهلية ولكنّه مختلف، كما يذكّرني بملاك الأرض في وطني ولكنّه مختلف أيضًا. جميعها تمثل درجات متفاوتة من الظلم، وعلى أيّ فائثنا - نحن دار الوحي - أفضح من سائر الخلق. وأخذت حذري فاكتفيت بالإصغاء حابسًا ملاحظاتي النقدية كما يجدر بالغريب. وسألته: كيف سيّد هذا القصر الباهر وجميع رعيته من الرعاة البسطاء؟

فأجاب فام في مباهاة:

- جاء بالمهندسين والعمّال من دار الحيرة، وزوّده بأجمل الأثاث والتحف التي تفخر بصنعها دار الحلبة...

وصمّت قليلاً ثمّ قلت:

- حدّثني يا سيّد فام عن دينكم...  
- أهل المشرق جميعًا يعبدون للقمر، في ليلة البدر يتجلى الإله في تمامه فيهرعون إلى الخلاء ويحيطون بالكاهن للصلاة، ثمّ يمارسون طقوسه رقصًا وغناء وسكرًا وغرامًا...

فذهلت كثيرًا ثمّ تساءلت:

- وبذلك يضمّنون الخلود في الجنة؟  
- لا نعرف خلودًا ولا جنة، وليس لنا إلا ليلة البدر!

فتردّدت قليلاً ثمّ سألت:

- ألا يوجد طبّ وتعليم؟

فقال باستهانة:

- أبناء السيّد يتعلّمون الفروسيّة ومعلومات عن الإله القمر، وفي كلّ قصر طبيب وارد من الحيرة أو الحلبة، أمّا الناس فيتركون للطبيعة، ومن يصبه مرض يُعزل حتّى يبرأ أو يموت فتأكله الجوارح...

فنظرت إليه كالمسائل فاستدرك:

- إنّها سنّة القمر وتعاليمه وهي تتوافق مع الحياة تمامًا، لذلك فنحن شعب يغلب عليه المرح والرضى، نحن أسعد الشعوب يا سيّد قنديل!

قلت لنفسي إنّه فقدان الوعي بلا زيادة ولا نقصان ولكنّي قلت له:

- هنيئًا لكم يا سيّد فام!

فقلت بعجلة:

- لم أعرف موقع السوق بعد والجوع ينهشني أيّما الرجل الكريم...

وجلست أمام الطبلية أمام حجرتي فجاءني فام بخبز الشعير وشريحة من لحم البقر مقلية في الدهن مخففة بالخلّ وطبق مليء تمرًا وسفرجلًا وعنبًا، وسألني:

- هل آتيك بخمر البلح...؟

فقلت وأنا أقبل على الطعام بهم:

- أعوذ بالله.

فتمتم الرجل:

- الخمر موسيقى الرحلات!

أكلت حتّى شبعت، واستأذنته في الجلوس معه على الأريكة فرحّب بي جدًّا، فجلسنا والمساء يثيه بقمر يوشك أن يصير بدرًا. تلقّيت نسائم عذبة غريبة كلّ الغرابة عن قيظ النهار، وسرعان ما زحف عليّ الهدوء والاسترخاء. قال فام:

- توجد خيام للضرب والرقص وما يتمناه الغريب...

فقلت:

- فلنؤجّل ذلك إلى وقته...

- هل أعجبك ما رأيت؟

فقلت بفتور:

- لا شيء يستحقّ المشاهدة سوى القصر ولكنّي في حاجة إلى معلومات لا يُعثر عليها عادة في الطريق...

- صدقت فيما قلت...

- قصر الملك آية من الآيات!

فقال باسماً:

- لا يوجد ملك في دار المشرق!

لعلّه قرأ الدهشة في وجهي فواصل:

- دار المشرق عبارة عن عاصمة وأربع مدن؛ لكلّ مدينة «سيّد» هو مالكها، يملك المراعي والماشية والرعاة، الناس عبيده، يخضعون لمشيئته نظير الكفاف من الرزق والأمن، فالقصر الذي شاهدت هو قصر سيّد العاصمة، هو أكبر السادة وأغناهم ولكن لا هيمنة له على أحد منهم، ولكلّ سيّد قوّة مسلّحة من المرتزقة يجلبهم عادة من الصحراء...

الدائرة موسعاً لقدام وقور، طويل القامة، مرسل اللحية منفوش الشعر، عاري الجسد، تقدم متوكئاً على عصا طويلة حتى وقف في مركز الدائرة. تركزت الأعين على كاهن القمر، وازداد الصمت صمتاً. ولبت الرجل فترة جامداً، ثم ترك عصاه تسقط عند قدميه، ورفع رأسه وذراعيه نحو القمر فتبعته الآلاف المؤلفة من الأذرع. وصقق يديه فانطلق من الحناجر نشيد واحد في لحظة واحدة. انطلق بقوة وشمول فكانت الأرض والسماء وما بينهما قد شاركت فيه منتشية بسكر الغناء ووجد العاشقين. وانسربت إلى أعماقي نغمة مُفعمة بالحرارة، مميّزة الوحشية والخشونة، مجلّلة بدوي وأصداء، فجاش صدري بانفعالات ترتعش باللذّة والرهبّة. وتصاعدت لذرة الانفجار، ثم أخذت في الهبوط الوئيد، خطوة في أثر خطوة، حتى استنامت للهدوء وغاصت في الصمت. وأنزل الكاهن ذراعيه ونظر فيها أمامه فتبعته الأذرع وتحولت إليه الأعين. والتقط بوقار عصاه فقبض عليها يسراه وأنشأ يقول:

- ها هو الإله يتجلّى بجعله وجلاله، يحضر في ميعاده، لا يتخلّى عن عباده، فينعم الإله وهنيئاً للعباد. نذت عن البحر المحيط همهمة شكر، فواصل الكاهن حديثه:

- إنّه يقول لنا في دورته إنّ الحياة لا تعرف الدوام، وإنّها نحو المحاق تسير، ولكتّها طيبة للطيب، وبسمة للباسم، فلا تبدّوا ثروتها في الحماقة...

انطلقت من الحناجر زغاريد كالشهب وصفقت الأيدي على إيقاع راقص. واستمرّ الكاهن يقول:

- حذارٍ من الخصام، حذارٍ من الشرّ، الحقد يفري الكبد، النهم يتخم البطن ويجلب الداء، الطمع همّ ويبل، امرحوا، والعبوا، وانتصروا على الوسواس بالرضى...

وفي الحال ترامت دقات طبول، فاهتزّت الخواصر راقصة، ولبت نداءها الأثناء والأرداف، وتمادت الحركة مُنتشرة مُترامية تحت ضوء القمر. رقصت الأرض وباركها البدر، واختلط العناق بالرقص، واندماج الجميع في غرام شامل تحت ضوء القمر. جعلت أنظر بعينين ذاهلتين، كأنني في حلم شباب،

وقضيت شطراً من الليل وأنا أدوّن في دفترتي تاريخ الرحلة ومشاهدنا، وقطعت شطراً آخر مسهّداً أفكر فيما صادفني من أحوال وأفكار، وأتأمل عذابات الإنسان في هذه الحياة، وأنساء هل حقاً يوجد في دار الجبل الدواء الشافي لكلّ داء؟!.

ومرت أيام بلا جديد سوى أنني وجدت الشجاعة على التخفّف من ملابسي مُكتفياً بسرّوال قصير وطاقيّة. وذات صباح دهمتني حركة غير عادية منبئة في الأرجاء وتهاشم حميم بين النزلاء حتى هرعت إلى فام أسأله عمّا هنالك فهتف:

- هذه ليلة البدر... ليلة حضور الإله والعبادة! فهزّني الخبر ووعدي بمشهد سعيد حقاً من يراه. وذهبت من فوري إلى السوق فالتقيت برفاقي التجار المُعسكرين عند مدخله. كانوا ينفقون نهارهم في العمل وليلهم في الملاهي. وسرعان ما انهمكوا في المياضية بهمة وخبرة. ولاحظت أنّهم لا يتعاملون مع الأهالي، ولكن مع مندوبي السيّد صاحب العاصمة، فهو البائع والشاري وحده. أما بقية السوق فعبارة عن ممرّ ضيق أقيمت على جانبيه خيام لبيع الأغذية والأدوات البسيطة كالأمشاط والمرايا الصغيرة والحليّ الرخيصة من الخرز. وتناولت غذائي في الفندق ثم ذهبت إلى ساحة العبادة والشمس تميل نحو الغروب. وكان الناس من الرجال والنساء يزدهمون في كثافة هائلة في شكل دائرة ترك وسطها خاليًا. كانوا ينتظرون عرايا وأجسادهم النحاسية تنضح بالعرق وتنث في الجوّ رائحة آدمية مثيرة. وقبل المغيب ركضت سحب فحجبت القبة الزرقاء وتساقط رذاذ مقدار خمس دقائق فتلاقى المطر بهتافات الفرح الصاعدة من الأفواه المترعة بالإيمان والتحفّز للمغامرة. وما إن غابت الشمس في ناحية حتى تهادى البدر صاعداً من الناحية المقابلة عظيمًا جليلاً عذباً واعدًا فهلّل الناس حتى ذعرت الطيور في الجوّ. مضى يصعد مرسلًا ضوءه الذهبي على الأجساد العارية الباسطة أذرعها كأنما لتقبض على الضوء السابح. ومرّ وقت غير قصير في صمت خاشع حتى استقرّ القمر في كبد السماء. عند ذلك نذ صوت منذر طويل عن بوق في مكان ما فانشقّ طريق في شمال

## رحلة ابن فطومة ٦٥٣

السوداوين وعنقها الطويل. أرى تاريخ قلبي كلّه متجمّعا في لحظة ومثال، وقد التقى في بؤرته يقظة الماضي وسحر الحاضر وحلم المستقبل. أيّ هيام ينسكب في روحي من هذا التكوين الفريدا. أيّ نداء وأيّ أسرا رنوت إليها غارقا فيها، مُتجاهلاً أباه العجوز، وحيائي العتيق، وما ألزم به نفسي من قيود الأدب. ونسيت تماما الملل والحزّ والخطط وأحلام الرحلة وحلم الجبل، وحتى الآمال المُدخّرة من أجل الوطن. نسيت كلّ شيء لأني ملكت كلّ شيء وطواني في صدره الرضي والقناعة والغنى. وتراجعت الفتاة حتى توارت عن ناظريّ فوجدت نفسي مُنفردا بنظرات العجوز الثابتة. باخ جنوني السعيد فسقطت في قبضة الحياة اليوميّة ذات الوسائس والعرق، ومضيت أبتعد. وأدركي صوت هريم ينادي:

- يا غريب!

فقلت لنفسي في المحذور وقعت. وتلقّت متوقّفا.

قال برقة:

- تعال...

فدنوت منه في حياء فسألني:

- ألم تعجبك ابنتي عروسة؟!

فانعقد لساني دهشة ولم أجب فعاد يسأل:

- ألم تعجبك عروسة؟... لا مثل لها في المشرق!

تمتت بارتباك:

- معذرة...

فقال بفخار:

- ما رأها شاب إلا أحبها...

فقلت مُعتذرا وأنا أظنه يسخر منّي:

- ما قصدت سوءا قط...

فقال العجوز بحدّة:

- لا أفهم لغة الغرباء، أجبني هل أعجبتك؟

فتردّدت مليا ثم قلت:

- إنّها تستحقّ الإعجاب كلّه.

- أجبني بصراحة هل أعجبتك؟

فحنيت رأسي معترقا فقال:

- ادخل...

تردّدت فتناول يدي وجذبني إلى الداخل. ونادى

دمي يشتعل في عروقي، ورغباتي تتلاطم في جنون، وقلبي يتوق إلى الجنون. ورجعت وأنا أترنّح من شدّة الانفعال، وقبضة الشهوة تشدّ بعنف على أعصابي الملتهبة. ولبثت في غرفتي بالفندق ساهرا على ضوء شمعة، أدون كلمات في دفترتي، وأفكر في المحن التي ترتبص بإيماني وتقواي، وأتذكر عهد تربيتي الدينيّة والعقليّة على يد الشيخ مغاغة الجبيلي. واستسلمت لأفكاري في استرخاء بائس حتى احترقت أذنيّ بغثة صرخة استغاثة. وثبت قائما متحفزا فوجدتني في ظلام دامس، وسرعان ما انتبهت إلى أنني كنت نائما، بل إنّ النوم كان يغشى الكون كلّه. واستيقظت مبكرا، وقلت لقام وأنا أهمّ بمخادرة الفندق:

- هل أستطيع كغريب أن أقابل حكيم العاصمة؟

فقال فام:

- هو كاهن القمر، يرحّب دائما بلقاء الغرباء،

سأعدّ لك لقاء معه...

وذهبت إلى السوق فلم أجد أحدا من التجار.

وأخبرني القاني بن حمديس أنّهم ذهبوا إلى القصر لإتهام

بعض الإجراءات مع حاجب السيّد. وسألني:

- هل قرّرت أن ترحل مع قافلتي؟

فأجبت بتلقائية:

- أجل، لا شيء يستحقّ المشاهدة بعد...

- صدقت فهو بلد فقير ولكنّ الرحلات القادمة

تعد بمشاهد ثريّة...

فقلت بصدق:

- ما يهمني حقّا هو دار الجبل!

فابتسم قائلا:

- متّعك الله بأجل ما خلق...

واشتدّت وطأة الملل والحزّ، فرحت أسلي نفسي

بالمشي في السوق. ورغبتا عني توقفت مذهولا أمام

خيمة رجل عجوز يعرض التمر في أوعية من الخوص.

لمحت وراءه في عمق الخيمة الفتاة الفاتنة، حليلة

المشرق النحاسية العارية، وهي تزقّ حمامة، منطلقة

بقامتها الرشيقية ونضجها الذي لم ينل منه السوء بعد.

وقفت مُحمّلا ناسيا ذاتي، أرى المائلة أمام عينيّ،

وأتذكر من خلالها حليلة بوجهها البدريّ وعينيها

عروسة فجاءت بجسمها العاري وجعلت ترنو إليّ،  
حتى سألتها:

- ما رأيك في هذا الغريب المُغرّم بك؟

فأجابت بلا حياة أو تلثم:

- إنّه مطلوب يا أبي... .

فضحك العجوز قائلًا:

- أخيرًا نُورك القمر!

ومضى بنا إلى ركن الخيمة وأسدل علينا ستارًا.  
وجدتني مُنفردًا بها في أمان كما بدا ولكن في حيرة  
أفسدت عليّ السعادة المتاحة الشاملة. أيعني هذا  
الزواج في هذه الدار؟ أيعني إباحية كالتّي شهدتها  
تمارس تحت ضوء القمر؟ وراحت تنظر إليّ وتنتظر،  
وحبي يهفو إليها من تحت غشاء القلق. وسألتها:

- ما معنى هذا يا عروسة؟

سألتني:

- ما اسمك ومن أيّ البلاد أنت؟

- اسمي قنديل، ومن دار الإسلام... .

- عمّ تسأل؟

فسألتها وأنا أشير إلى الخارج:

- أهو أبوك؟

- نعم.

- أيّ علاقة بيننا الآن؟

- عرف أبي أنّك تعجبني فدفعت إليّ.

- هذا هو المتبع هنا؟

- طبعًا.

- وماذا بعد ذلك؟

- لا أدري، لكن لماذا تغطّي وسطك بهذه الوزرة؟

وراحت تنزعها بازدياء، ووقفنا نترامق، وفجأة

ركعت طارقًا عن عاتقي كلّ همّ، وضممت ساقها

إلى صدري. وعند الظهيرة قال لي الأب:

- ادعنا إلى الغداء... .

فذهبت وجئت بلحم وفاكهة وتناولنا طعامنا كأسرة

واحدة. وعقب استراحة قصيرة قال العجوز:

- اذهب مصحوبًا بالسلامة... .

فسألته بقلبي:

- هل آتي غدًا؟

فقال دون مبالاة:

- هذا شأنها وشأنك... .

رجعت إلى الفندق فاقد القلب والعقل. تلخّصت  
الحياة كلّها في عروسة. والتمست عند فام مزيدًا من  
الضوء فقال:

- هذه العلاقة تمارس هنا بلا قيود، ما إن تُعجب

فتاة بفتى حتى تدعوه على مرأى ومسمع من أهلها،  
وتنبذه إذا انصرفت عنه نفسها محتفظة بالذريّة التي

تنسب إليها... .

وكرهتُ ذلك من صميم قلبي غير أنّ فام قطع عليّ  
أفكاره قائلًا:

- سندهب عصرًا إلى كاهن القمر وهو يرحّب

بك... .

كان حماسي للقاء قد فتر شيئًا ما ولكّني استعنت  
عليه بالعزيمة حتى أنجز كتاب رحلتي على أكمل وجه.

واصطحبني فام عصرًا إلى خيمة الكاهن التي قامت في  
بقعة خالية، وكان يجلس متربّعًا على فروة أمام مدخلها

فرمقي متمنّنًا وقال:

- اجلس... أهلاً بك... .

وفارقنا فام فقال الكاهن:

- أخبرني فام أنّك تدعى قنديل محمّد العنّابي وأنك

من دار الإسلام؟

فقلت متودّدًا:

- هذا حتى... .

فقال وهو ينفذ بعينه في صدري:

- واضح أنّك تجرّي وراء المعلومات شأن الرخالة

الغريب!

فقلت برقة:

- عند الحكيم توجد المعاني التي تخفى على المشاهد

العابر... .

فقال بهدوء:

- كن صريحًا ولا خوف عليك فلن تخرج المعاني إلّا

لن يطرق الباب بصدق... .

تفكرت مليًا ثمّ قلت بادتًا بالموضوع الذي

يستغرقني:

- أعجب ما صادفني في المشرق علاقة الرجل بالمرأة... .

رحلة ابن فطومة ٦٥٥

فقلت مُتحدِّيًا:

- يوجد نظام أفضل يوفّر للناس كافة حقوقهم  
ويعدّهم للدفاع عن دارهم عند الحاجة!  
فمطّ الرجل شفّته مضمومتين وقال بحسم:  
- الكائنات في دارنا أنواع: نبات، وحيوان،  
وعبيد، وسادة، ولكلّ نوع أصل يرجع إليه غير أصول  
الأنواع الأخرى...

فقلت وأنا في غاية الاستياء:

- الناس عندنا إخوة من أب واحد وأمّ واحدة لا  
فرق في ذلك بين الحاكم وأقلّ الخلق شأنًا...  
فلوّح بيده استهانة وقال:

- لست أزل مسلم أحادثه، إنّي أعرف عنكم أشياء  
وأشياء، ما قلت هو حقًا شعاركم ولكن هل يوجد  
لتلك الأخوة ألكزومة أثر في المعاملة بين الناس؟

فقلت بحرارة وقد تلقّيت طعنة نجلاء:

- إنّه ليس شعارًا ولكنّه دين...

فقال ساخراً:

- ديننا لا يدعي ما لا يستطيع تطبيقه...

فقلت وقد شدّنتني الصراحة إلى أعماقها:

- إنك رجل حكيم، إنّي أعجب كيف تعبد القمر  
وتتصوّر أنّه إله!؟

فقال بجديّة وحدة لأوّل مرّة:

- إننا نراه ونفهم لغته، هل ترون إلهكم؟

- إنّه فوق العقل والحواس...

فقال بأسًا:

- إذن فهو لا شيء!

كدت أطمه ولكنّي كظمت حنقي واستغفرت ربّي،

وقلت:

- إنّي أسأل الله لك الهداية.

فقال بأسًا:

- وإنّي أسأل إلهي لك الهداية.

وصافحته مُودّعًا، ورجعت إلى الفندق ثائر

الأعصاب موجع القلب. وعاهدت نفسي أن أسمع -

في رحلتي - كثيرًا وأن أناقش قليلاً أو لا أناقش على

الإطلاق. وقلت لنفسي مُتحرّسًا:

- ديننا عظيم وحياتنا وثنية!

فابتسم قائلاً:

- نصف المصائب في البلدان إن لم يكن كلّها تحييء  
من القيود المكبّلة للشهوة، فإن شبتت أمكن أن تصير  
الحياة ههنا ورضي!

فقلت بحذر:

- في دارنا يأمرنا الله بغير ذلك!

- عرفت أشياء عن داركم، عندكم الزواج وكثيرًا  
ما يتمخض عن مأس مؤسفة، والناجح منه يستمرّ  
بفضل الصبر، كلّ يا صاحبي، حياتنا أبسط وأسهل.

فتساءلت بقلق:

- قد تزهد المرأة عندكم في رجلها وهو ما زال مقبلاً  
على حبّها؟

- النساء كثيرات، والسلو يسير، كلّ متاعبكم  
تحيي من الحرمان...

- حتّى الحيوان يغار على شريكته!

فابتسم قائلاً:

- يجب أن نكون أفضل من الحيوان...

فتمتت وأنا أخفي تقزّزي:

- لا سبيل إلى التلاقي...

- إنّي مسلم بهذا، ولكن عليك أن تفهمنا جيّدًا،  
إننا ننشد البساطة واللعب، إننا لا يتدخّل في شئوننا،

إنّه يقول لنا كلمة واحدة وهي أنّه لا شيء يدوم في  
الحياة وأتّها إلى عمّاق تسير، بذلك أشار إلى الطريق في

صمت، أن نجعل من حياتنا لعبًا ورضي...

فقلت مُتشجّعًا بحرارة الحديث:

- لقد سمعت موعظتك، ووجدتها لا تنطبق على

السيد المالك لكلّ شيء...

فهزّ رأسه في أسى وقال:

- كثيرًا ما يحوم الغرباء حول ذلك، ولكنّ السيد

هو الذي يدفع عن الدار هجمات البدو، وهو - وبقية

السادة - أملنا في التصدي لأطباع دار مثل دار الحيرة،

أجل الحرب تتهدّدنا، والسادة هم الذين يعدّون

أنفسهم للدفاع، وهم أيضًا الذين يتصدّون لأيّ

عدوان في الداخل فيهيئون للعبيد حياة آمنة، هل

تستكثر عليهم بعد ذلك أن يملكوا كلّ شيء لينفقوا

على السلاح والجنود المرتزقة!؟

العبيد وتتمتع بالأمن والرضى والجارية معاً .  
فشكرت له كرمه وغادرنا القصر بقلب ينوء بالخيبة  
والشجن . وقال لي فام ونحن ماضون نحو الفندق :  
- استمتع بفتاتك حتى تشبع ، وسرعان ما تشبع !  
فضاعف من أحزاني وهو لا يدري . وواصل حديثه  
قائلاً :

- لم يكن الوقت مناسباً لإنجاح مسعاك فثمة أنباء  
عن تحفّر الحيرة لإعلان الحرب علينا . . .  
فسألته بقلق :

- وما الأسباب وراء ذلك؟  
فضحك بمرارة قائلاً :

- الطمع في كنوز السادة والمراعي الغنيّة ، ولن  
تعوزهم علّة يعتلون بها . . .  
وساورني القلق فزاد من متاعب قلبي . وافترقنا عند  
أقرب نقطة إلى السوق فذهبت إلى خيمة عروسة من  
فوري . واستقبلني العجوز مُتفحّصاً وجهي فقال :

- خاب مسعاك والقمر . . .

وضحكت عروسة ضحكة لا معنى لها فردّدت  
بأسف :

- خاب مسعاي .

فقال العجوز ضاحكاً وهو يوميئ إلى عروسة :

- إنّها تنتظرك !

فقلت بأسى :

- يعزّ عليّ أن تكون علاقتي بها عابرة .

فقال العجوز ساخراً :

- كلّ علاقة عابرة يا غريب .

فقلت بحرارة :

- تمثّيت أن تكون دائمة .

فقال مقهقهاً :

- يا لك من رحالة أناني . . .

ثمّ وهو يواصل القهقهة :

- حذارٍ من التعقيدات فنحن قوم بسطاء ونحبّ  
البساطة !

- كأنكم لا تعرفون الحبّ !

- نعرف أنّه متعة ليلة أو أسبوع أو شهر أو عام في

الأحوال الجنونيّة . فماذا تريد أكثر من ذلك؟

ومع اليوم التالي ذهبت مبكراً إلى السوق، إلى خيمة  
عروسة، رَحَبَ بي العجوز باسمًا وقالت عروسة  
بدلال :

- تأخّرت حتى قلت إنّهُ هرب . . .

ولثمت ثغرها فهتّمت بالذهاب إلى ركننا المستور  
ولكنّي أوقفتها وقلت لأبيها :

- يا والذي أريد أن أتزوَّج من عروسة .

فقهقه العجوز فاضحًا فاه المثرم وقال :

- كما تفعلون في بلادكم؟

- أجل، وفي تلك الحال سأصطحبها معي في

رحلتي حتى نرجع معاً إلى وطني . . .

فنظر الرجل إلى ابنته وسأل :

- ماذا ترين يا عروسة؟

فقال عروسة بسرور :

- تحت شرط أن يتعهّد بإرجاعي إلى المشرق إذا

راق لي ذلك . . .

فقلت بلا تردّد :

- لك هذا يا عروسة !

- ولكنّي لا أملك حقّ الموافقة النهائيّة، فنحن

جيمعاً عبيد السيّد وهو مالكننا الشرعيّ، فاذهب إلى

القصر واعرض على الحاجب شراء عروسة . . .

اعترضتني هذه العقبة التي لم ترد لي بحسبان ولكنّي

لم أجد بدّاً من تذليلها . وأمضيت نصف النهار مع

عروسة في سعادة وراحة عميقتين . ولما رجعت إلى

الفندق أفضيت إلى فام بما يشغلني فوعد باصطحابي

إلى الحاجب . هكذا قدّر لي أن أعبر باب القصر، وأن

أشهد جانباً من حديثه الضاحكة بأزهارها ونخيلها

وأنا في طريقي إلى ركن الحاجب . كان يجلس في صدر

حجرة واسعة على أريكة كبيرة من خشب الورد،

مفروشة بالوسائد والمساند الناعمة . كان فوق السّتين،

بديناً، ثقيلاً النظرة، مُغلّفاً بالعزلة والكبرياء . لثم فام

يده وعرض مطلبي ولكنّ الحاجب لوح بيده رافضاً،

وقال :

- منعنا البيع لحاجتنا إلى زيادة العبيد .

ونظر إليّ وقال :

- انضمّ إلينا إذا شئت كما فعل فام فتندرج في جملة

رحلة ابن فكلومة ٦٥٧

- يبدو أنني حُلقت للحب لا للرحلات!  
 ودار الزمان فجاءت ليلة البدر وهرع العباد إلى  
 ساحة العبادة. ذهبنا إلى الساحة زوجين حتى انحسرتنا  
 في الزحام. هناك قالت لي بجديّة:  
 - هذه ليلة الإله ينفصل فيها القرين عن قرينه. . .  
 وفرت من بين يديّ فذابت في الجموع. لبثت  
 وحيداً مضطرباً غاضباً مسلوب الإرادة والسرور  
 وتابعت الطقوس وأنا أتساءل عما تفعله حبيبي مع  
 آخر غريب. ولما جاءت ساعة العناق تعرّضت لي  
 امرأة في الأربعين على شيء من الجمال وفتحت لي  
 ذراعها. رأيت فيما يقع لي ما يقع مع عروسة في مكان  
 ما. ودار السقاة بخمر البلح فشربت قدحاً، فغبت  
 عن وعبي واندمجت في صلاة المشرق. وعند الفجر  
 تكوّمت مقرّضاً عند مدخل الفندق حتى وافتني عروسة  
 وهي تترنّح. نهضت إليها واجماً فتأبّطت ذراعي إلى  
 حجرتنا وهي تسألني:  
 - أعجبتك المرأة؟

فقلت بمبرارة:

- لقد نجّسنا علاقة مقدّسة يا عروسة. . .

فقلت بانزعاج:

- إنك غير مؤمن يا قنديل ولا حيلة لي في ذلك.

ثمّ أقبلت عليّ باسمه وهي تقول:

- ما زلت أحبّك، ما زلت رجلي الوحيد. . .

اعترف بأنّ حبي لم يضعف، وبأنّ الخوف من  
 الفراق كان يلهبه. باتت سعادتني وشقائتي. وحرقتني  
 الصيف فهو جحيم، وفيه تنمحق الخضرة وتقتات  
 الماشية على المخزون المجفّف من الأعشاب، ويحيء  
 الخريف فتهدأ النيران قليلاً ويسقط الرذاذ من حين  
 لحين، ثمّ يقبل الشتاء بجوّه اللطيف المعتدل وأمطاره  
 الغزيرة فتحيا الأرض وتطرب الماشية ويظلل العراة  
 عراة. وتنجب عروسة وليدها الأول فيسمّى «رام بن  
 عروسة» كأنما أنجبته وحدها ولا شأن لي به. ويقول لي  
 أبوها:

- ها أنت تدخل في عامك الثاني وهي ما زالت  
 تحبّك، أنت ساحر يا غريب!

وبزغت بشائر أمومة جديدة فجاء عام بن عروسة،

سألته جاداً:

- ماذا تقترح لمجنون مثلي؟

- استأجرها لمدة تتجدّد حتى تنتهي!

- هل أرجع في ذلك إلى الحاجب أيضاً؟

- كلاً، هذا حقّي بصفتي والدها، أيّ مدة تريد؟

- أطول مدة ممكنة.

- استأجرها شهراً بشهر.

- ليكن.

- ولكنّ الاتفاق ينتهي حال ترغّب هي في ذلك.

فحنيت رأسي موافقاً فقال:

- الشهر بثلاثة دنانير. . .

تمّ الاتفاق ومضيت بعروسة إلى حجرتي بالفندق.

صمّمت على ألا أفسد سعادتني، وأن أعتبر الساعة  
 الراهنة هي العمر كلّهُ. ولكنّي قلت لها برجاء:

- دعيني أستر جمال جسدك.

فقلت بانزعاج:

- لا تجعل منّي أضحوكة.

فتراجعت مسلماً بكلّ شيء. وتراءت لي وهماً سعيداً

ينذر بالزوال فلذت بها بقلب يطارده شبح الفراق

والحزن. ولكنّ الحياة طابت مع الفاتنة الرائعة،

ووعدت بالاستقرار والأمان للقلب والأعصاب.

وكانت تحبّ الانطلاق في المراعي والتجوّل في السوق

فسرنا معاً في حبور. ورآني القاني بن حمديس فأقبل

نحوي قائلاً:

- نحن راحلون مع الفجر.

فقلت في حياء:

- ولكنني باقٍ.

فقال ضاحكاً:

- ستجد قافلة كلّ عشرة أيام. . .

إني مستغرق بالحبّ ولا شأن لي بالزمن. لا أهميّة

الآن للرحلة ولا للمهنة، ولو بقيت لآخر العمر. وها

هي بشائر الأمومة تهلّ بأفراحها القليبيّة وأسقامها

الجسديّة فاستعيد بها من تقلّبات القلوب وجوامح

الأهواء، وأطمح إلى حياة مُستقرّة ولوربطتني في النهاية

بالمشرق، وغيّرت بشرتي وأحلامي. وقلت ساخراً من

نفسي:

## ٦٥٨ رحلة ابن فكلومة

وتبعه بعد عام لام بن عروسة وحملت للمرة الرابعة حتى اشتهرت علاقتنا بين القوم بالشذوذ، وقيل إنني أشدّها إليّ بقوة السحر الذي لقيته في دار الإسلام. وانسقت وأنا لا أدري إلى تربية رام على مبادئ الإسلام. وكان ينمو أقوى وأسرع من أقرانه لما أوفّره له من عناية وغذاء وقد أعطى مثالا لما كان ينبغي أن يكون عليه أطفال المشرق لولا الظلم والعبودية. كفّرت بتلقيه مبادئ الإسلام عن إهمالي الاضطرابي لعقديتي احتراماً للبلد الذي يؤويني، غير أنّ عروسة لم تخف استياءها وقالت لي بجديّة:

- إنك تنشئه على الكفر وتعدّه حياة تعيسة في بلده... فقلت برقة:

- إنني أنقذ روحي كما تمّيت أن أنقذ روحك ذات يوم... فقلت بصرامة:

- لن أسمح لك بهذا أبداً... تبدّت صارمة عنيدة حتى جزعتُ خوفاً على حبي. وأفضت إلى أبيها بهمومها ونحن في زيارة له فهاله الأمر وصاح بي:

- ابعد عن ابننا يا غريب... وخيل إليّ أنّ النبا تسرب إلى الخارج، رغم تكتمنا له، وأنّ نظرات الغضب تحرقني في الطريق. وطاردني القلق حتى قلت لنفسي:

- البناء مُهدّد بالانهيار... وصدق حدسي فجاءني فام صاحب الفندق فأخذني من حجرتي إلى حجرته حيث وجدت ضابط شرطة في انتظارني. سألتني:

- أنت قنديل محمد العنابي؟ فأجبت بريق جاف:

- نعم. فقال بجفاء:

- ثبت أنك تحاول تنشئة ابنك الأكبر على الكفر... فسألته بجزع:

- كيف ثبت هذا؟ نحن أدري بواجبنا، اسمع فلم أحضر للمناقشة، صدر أمر السيّد بالترفة بينك وبين رفيقتك

وأبنائها، وأن ترحل عن المشرق مع أوّل قافلة... همت بالكلام ولكنّه قال بغلظة:

- لم أحضر للكلام، أنت محجوز معي حتى يذهبوا بالمرأة والأولاد إلى أبيها، وستظلّ تحت الحراسة حتى تلحق بالقافلة... فقلت بضراعة:

- دعني أودّعهم... فقال بخشونة:

- لقد وقع عليك أخفّ جزء فكن شكوراً... ورجعت إلى حجرتي بعد ساعة - التي تحوّلت إلى سجن - فوجدتها خالية من الأمّ والأولاد والحبّ والأمل. لحظة كثيفة تنداح في أعماق النفس فتتكشف الحياة عن حلم أو وهم. ولحق بي فام فرمقتي بعطف وقال:

- تحمّل كما يجدر برجل رحالة! فقلت بصوت متهلّج:

- حزني شديد جدّاً يا فام... نفرّس في وجهي قليلاً ثمّ قال:

- أطلق دموعك، الرجال يبكون أحياناً... فقلت وأنا أشدّ على محابس دموعي:

- تبخّرت مسرّات الحياة... - إنها تتجدّد وتحيء أيضاً بالعزاء... وربّيت منكبي ثمّ قال:

- تعلم أنّ الرحالة لا يجوز أن يسعى وراء علاقة دائمة...

## دَارُ الْحَيْرَةِ

تحركت القافلة في ظلمة الفجر المبشرة. شدّ قلبي إلى الوراغ وغصّ حلقي بالحزن والدموع، وتجمّعت النجوم فوقنا تنظر إلينا وننظر إليها وانعدم العزاء. كما فارقت وطني منذ حوالي خمسة أعوام محبّطاً بخيانة الأمّ والحبيبة والولادة. انقلبتُ رحالة مرّة أخرى أفكّر بالبلدان والدفاتر ولكن أين القلب وأين العقل أين؟ وقلت إنّ هذه النجوم أقرب إليّ من عروسة والأبناء. وستظلّ القوافل تسير حاملة الأموال والأمال فمن



## رحلة ابن فطومة ٦٥٩

- هام... صاحب الفندق...  
فصافحته قائلاً:  
- قنديل محمد العنابي، رحالة...  
- أتريد عشاء؟  
- تناولته في الطريق.  
فابتسم وقال:  
- الليلة بيأتاً وطعاماً بدينار والدفع مقدماً...  
قدّرت أن إقامتي ستمتدّ عشرة أيام فأدّيت إليه  
عشرة دنانير فسألني:  
- من أيّ البلاد؟  
- دار الإسلام.  
فقال محذراً:  
- لا يُمارَس في الحيرة إلا دين الحيرة.  
فذكرني بمأساتي ولكنّي سألته:  
- وما دين الحيرة يا سيّد هام؟  
- إلّنا هو الملك.  
وحَيّاني وانصرف. نفخت الشمعة فأطفأتها وأويت  
إلى الفراش وأنا أقول لنفسي، الملك بعد القمر، يا له  
من ضلال. ولكن رويدك، ألا يتصرّف السوالي في  
وطنك كأنه إله؟ استمتع بالرقاد بعد متاعب السفر،  
ولذّ بالنوم من متاعب الحياة كلّها. استيقظت مبكراً  
بخلاف ظنّي وفي الحال أدركت أنّ جلبة شديدة تهبّ  
من الطريق هي التي انتزعتني من نومي. وفتحت نافذة  
فرايت في ضوء البكور جيئنا لجباً، فرساناً ورجالة،  
يتقدّم على دقات طبل نحو باب المدينة. جعلت أشاهد  
وأتساءل. ولما خلا الطريق طلبت الفطور فجاءتني  
صينيّة من نحاس عليها طعام مكوّن من حليب وزبد  
وجبن وعيش وعنقود من العنب. هممت أن أسأل  
الخادم عن مسيرة الجيش ولكنّ الحذر أمسكني.  
وارتديت ملابسني للخروج فوجدت مدخل الفندق  
مكتظاً بالناس وهم يتحاورون:  
- إنّها الحرب كما توقّع كثيرون.  
- ضدّ المشرق ولا شك...  
- لتحرير شعب من خمسة من الطغاة...  
- سيكون تاريخاً جديداً للمشرق تحت حكم إله  
عادل...

يحمل الأحزان؟ ويتلاشى الظلام ويشرق النور  
وتبدي الصحراء بلا حدود كأنها الفناء. ترى ماذا  
يقولون عني في الوطن ولم لم أصادف مرة أخرى القاني  
ابن حمديس. وقلت لنفسي إنّ خير ما تفعل يا رحالة  
أن ترى وتسمع وتسجّل وأن تتحاشى التجارب. وأن  
تعاود أحلامك عن دار الجبل. وأن تحمل الدواء  
الشافي لجراح الوطن. وقطعنا المسافة ما بين المشرق  
والحيرة في شهر ثمّ عسكرنا على كثب من واحة الزمام  
لندخل دار الحيرة عند منتصف الليل. وواصلنا السير  
مع الليل حتّى تبدّى لنا سور الدار تحت ضوء النجوم  
ومضينا نقرب من بابها الكبير.

أمام المدخل، على ضوء المشاعل، وقف مدير  
الجمرك، وكان على ما بدا من العسكريين بخوذته  
ودرعه وسيفه ووزرته القصيرة. قال بصوت قويّ  
أسمع القافلة كلّها:

- أهلاً بكم في الحيرة عاصمة دار الحيرة، ستجدون  
رجال الشرطة في كلّ مكان فتسالوهم عما تريدون،  
وتتبعون إرشاداتهم بدقة تجعل من رحلتكم ذكرى طيبة  
لا يشوبها ما يتنصّص.

فقلت لنفسي «إنّه ترحيب وإنذار». واخترقنا الباب  
ثمّ انقسمنا فذهب التجار إلى فندق السوق، ومضى بي  
دليل إلى فندق الغرباء. اخترقنا ظلاماً شديداً، تسبح  
فيه مشاعل رجال الشرطة هنا وهناك كالنجوم. واقتربنا  
من الفندق فראينا مدخله الكبير على ضوء المشاعل،  
وشعّ نور من بعض النوافذ. إنّهُ بناء كبير مشيد  
بالأحجار ولكنّه مكوّن من دور واحد. وسرعان ما  
ذهبت وراء حفائبي المحمولة إلى حجرتي. حجرة  
متوسطة، بها فراش يعلو عن الأرض ذراعاً، ذو غطاء  
أرجوانيّ يناسب جوّ الخريف المعتدل، وبه صوان  
ملابس، وأريكة صغيرة، وثمة شمعدان في كوة في  
الوسط تشتعل به شمعة غليظة متوسطة الطول، أما  
الأرض فمغطاة بحصيرة مزركشة. توجد حضارة ولا  
شكّ، وشتان ما بينها وبين المشرق. وما كدت أخلع  
ملابس السفر وألبس قميص النوم حتّى جاءني رجل  
متوسط القامة أسمر في الخمسين يرفل في عباءة  
خفيفة. قال:

وحَوَارٍ ، وعمائر وبيوت ومدارس ومستشفيات، عامرة بالخلق، وفي كلِّ موقعٍ شرطيٍّ، وملاهي الرقص والغناء موفورة. وسوقها كبيرة مترامية متعدّدة الحوانيت، وبها سلع من الحيرة ومن جميع البلدان. ويبحث في جَوِّ الحريف المعتدل نشاطًا غير محدود فتواصلت أيام الاكتشاف والمشاهدة والتسجيل. ومن آنٍ لأنّ أزور فندق السوق فألقى الرفاق أو أجالس صاحب القافلة، وقد قال لي مرّة:

- جَوِّ الحيرة معتدل بصفة عامّة، صيفه محتمل وشتاؤه مقبول. . .

ولمّا حدّثته عن كثرة رجال الشرطة قال لي:

- الأمن مستتبٌ ولكنهم يحمون الدولة. . .

الحقّ أنّي طفت بأحياء الأغنياء وهي جميلة هادئة، قصورها متاحف، وسكّانها يتحرّكون في هودج، كما زرت أحياء الفقراء بأكوأخها وخرائبها ومناخها الكثيب وأناستها التمساء وقلت في ذلك لصاحب القافلة:

- يزعمون أنّ الحرب قامت من أجل تحرير العبيد

في المشرق، هلّا حرّروا عبيد الحيرة؟

فتساءل الرجل هامسًا:

- وماذا تقول في بلادنا، بلاد الوحي؟!

فقلت بحزن:

- ما من سيّئةٍ عثرت بها في رحلتي إلّا وذكّرتني

ببلادي الحزينة. . .

فقال لي الرجل وهو يمضي عني:

- عليك أن تشاهد قصر الملك الإله. . .

ولم يغب عني ذلك، وقد وجدته قائمًا منيفًا شامخًا في عزلة وسط فراغٍ مسوّرٍ بالنخيل والحراس. إنّه مثل قصر الوالي في وطني أو أفخم. وثكنات الحرس تقوم في جانب، ومعبد الملك الإله يقوم في جانبٍ آخر.

وشدّ بصري حقل من الأعمدة مسوّرٍ بسياج من حديد فاقتربت منه حتّى رأيت أنّ رؤسًا آدميةً منفصلة عن أجسادها تتدلّى من هامات الأعمدة. ارتعدت لهول المنظر. ولا أنكر أنّي رأيت صورة مصبّرة منه في صباي في وطني. إنهم يعرضون الرؤوس للزجر والتأديب والعظة. واقتربت من حارس وسألته:

- هل يستطيع غريب أن يعرف جريمة هؤلاء القتل؟

انقبض صدري وطارأت أفكارني لتحوم حول عروسة وأبنائها. كيف يكون مصيرهم؟ ليست الرغبة في تحرير أهل المشرق هي ما دفعت إلى الحرب ولكنّه الطمع في المراعي وكنوز السادة الخمسة. وسوف يقع قهر شديد لتحويل الناس من عبادة القمر لعبادة الملك. سوف تزهق أرواح وتهتك أعراض وتشرّد الألوفا. ألا يحدث ذلك في حروب تنشب بين أناس على دين واحد يدعو للتوحيد والأخوة؟! وجاءني هام صاحب الفندق قبل أن أغادره وقال لي:

- تقرّر رفع الأجرة نصف دينار لمواجهة أعباء الحرب.

فأذيتها صاغرًا فقال باسمًا:

- ليس كثيرًا في سبيل تحرير العبيد!

فلعنته في سرّي كما لعنت الشعارات الكاذبة جميعًا. ومن شدّة قلقي ذهبت إلى فندق السوق فوجدت رفاقي التجار مجتمعين في البهو. جالستهم متابعًا أحاديثهم:

- أيام الحرب غير مأمونة. . .

- قد تضيق أموالنا لأخر درهم.

- ولكنّ الأسعار سترتفع أيضًا.

- والمكوس الإضافية؟

وقال صاحب القافلة:

- الحروب لا تزول أبدًا، ونفعها للتجارة أكثر من ضررها، ولا أظنّ أنّ هذه الحرب ستطول فالحيرة أقوى من المشرق بما لا يقاس، في أقلّ من أسبوع سينتهي كلّ شيء. . .

تركزت أفكارني على أسرتي المفقودة. قرّرت البقاء في الحيرة قريبًا من المشرق. وراودني أمل جديد أنّه بعد ضمّ المشرق إلى الحيرة أستطيع أن أسافر إلى المشرق لعلّ الله يجمعني بأسرتي رحمة منه وكرمًا. ولعلّي أستطيع أن أتزوج منها وأمضي بها معي في رحلتي إلى وطن جديد ودين جديد. طابت حياتي بهذا الأمل الجديد فانشرح صدري للتجوّل والرحلة، واكتشاف الحيرة عاصمة دار الحيرة. سرت بلا توقّف وبلا كلل. أنظر وأسمع وأسجّل في الذاكرة. إنّها مدينة كإحدى مدن بلادي. فيها ميادين وحدائق، وشوارع

رحلة ابن فطومة ٦٦١

ووطني . قال :

- بلادكم عظيمة أيضًا، خبّرني عما أعجبك في دارنا؟

فقلت مداريًا ذاتي :

- أشياء لا تعدّ ولا تحصى... حضارة وجمال... قوّة ونظام... .

فسأل في مباحة :

- وما رأيك في حرب نعلناها مضحين بأبنائنا من أجل تحرير دار غريبة؟

- هذا ما لم نسمع بمثله من قبل... .

فقال بيقين :

- نحن نقدم للناس مثالاً للوطن السعيد الشريف... .

فأحسيت رأسي موافقًا فقال :

- لعلك تسأل عن سرّ ذلك كله؟ لقد دلّوك عليّ باعتباري حكيم لهذا البلد، والحقّ أنّي ما أنا إلاّ تلميذ، مولانا هو الحكيم وهو الإله وهو مصدر كلّ حكمة وخير، إنّه يجلس على العرش، ثمّ ينزل في جناح صائماً حتى يشعّ منه النور فيعرف أنّ الإله قد حلّ فيه، وأتّه صار الإله المعبود، عند ذلك يمارس عمله، يرى كلّ شيء بعين الإله، فتلقّى منه الحكمة الأبدية في كلّ شيء، ولا نطالب بعد ذلك إلاّ بالإيمان والطاعة... .

تابعته باهتمام وأنا أستغفر ربّي في سرّي، أمّا هو فواصل حديثه قائلاً :

- فهو ينشئ الجيش ويختار له قوّاده فيكون جيش النصر، ويعيّن من أسرته المقدّسة الحكّام، ويتخب من الصفوة قادة للعمل في الأرض والمصانع، أمّا بقية الناس فلا قداسة بهم، ولا مواهب، يعملون في الأشغال اليدوية، ونوقر لهم اللقمة، يلي هؤلاء الحيوانات، يلي الحيوانات النبات والجناد، نظام محكم كامل يضع كلّ فرد في موضعه محقّقاً بذلك العدل الأكمل... .

وسكّت ملياً وهو ينظر إليّ ثمّ قال :

- لذلك فنحن لنا أكثر من فلسفة، نخاطب الصفوة بما يقوّي في نفوسهم القوّة والهيمنة والنموّ،

فأجابني بجفاء :

- التمرّد على الملك الإله!

فذهبت مسدياً إليه شكري، وأنا على يقين من أنّهم شهداء للعدل والحرّيّة قياساً على ما يقع عادة في بلاد الوحي. إنّه عالم غريب حافل بالجنون، وستكون معجزة حقاً إذا وجدت الدواء الشافي في دار الجبل. وسألت هام صاحب الفندق مساء :

- ماذا في دار الحيرة من مواقع تستحقّ المشاهدة خارج العاصمة؟

فقال الرجل بثقة :

- عدا العاصمة لا يوجد إلاّ الريف وليس به ما يسرّ الرخالة... .

وعكفت على تدوين المشاهد فأراحتي ذلك من التفكير في عروسة وأبنائها. وسهرت ليلة في ملهى فهالتني عريضة السكارى وفسق الفاسقين ممّا يعفّ قلبي عن الخوض فيه. وعند مروري بفندق السوق قال لي صاحب القافلة :

- نحن سائرون فجر الغد فهل تجيء معنا؟ فأجبتُه واجماً :

- كلاً، إنّي باقٍ بعض الوقت... .

جذبتني عروسة للبقاء ولكنّ آلمني ما ينتظرنني من وحدة مخيفة. واستيقظت عند الفجر فتخيّلت القافلة وهي تتحرّك على صوت الحادي. نداء كالفجر يدعوني للبقاء وأمل في السعادة لا يريد أن يخجو. ولم أشأ أن أبذد وقتي سدّي فنشطت لتحصيل المعلومات التي لا تجود بها المشاهدة. ولم أجد عند صاحب الفندق فراغاً للحديث كالذي وجدته في المشرق، فسألته أن يدلّني على حكيم هذه الدار إن سمح لي بلقاء. قال هام :

- في وسعي أن أعدّ لك لقاء كما حدث مع غيرك... .

وذهبت في الميعاد عصراً إلى بيت الحكيم ديزنج. بيت جميل تكتنفه حديقة ملأى بالأزهار وأشجار الفاكهة. استقبلني بابتسامة لطيفة وأجلسني على أريكة إلى جانبه. كان في الخمسين قويّ الجسم واضح القسبات تتواءم قلنسوته البيضاء مع عباة البيضاء. طلب منّي أن أقدم نفسي ففعلت ذاكرًا اسمي ومهمّتي

وفي نهاية المقابلة قدّم لي تفّاحة وقدحًا من حليب فرجعت إلى وحدتي في الفندق متفكرًا مغتمًا. وتذكّرت أستاذي الشيخ مغاغة الجبيلي فسألته على البعد:

- أيّهما أسوأ يا مولاي، من يدّعي الألوهية عن جهل أم من يطوّع القرآن لخدمة أغراضه الشخصية؟!

وكابدت الملالة أيّامًا ثمّ بلغتني أنباء انتشرت مع نسائم الخريف تؤكّد أنّ جيش الحيرة قد انتصر وحقق أهدافه، وأنّ دار المشرق أصبحت الإقليم الجنوبيّ لدار الحيرة. وتدقّق الفقراء إلى الطرقات يعلنون فرحتهم بالنصر كأنّهم هم الذين سيجنون ثمرته. وتساءلت في قلق بالغ:

- ترى كيف أنت يا عروسة؟... وكيف أنتم يا أبنائي؟!

وبكرت يوم عودة الجيش المنتصر فأخذت موقفي غير بعيد من الفندق، في الطريق الملكيّ الممتدّ من مدخل الحيرة حتّى سراي الملك. كان الزحام شديدًا على الجانبين حتّى خيّل إليّ أنّه لم يبقَ من الأهالي أحد في بيته أو مكان عمله. وعند الضحى ترامت إلينا دقّات الطبول، وتقدّم الموكب فرسان يحملون في سنان رماحهم خمسة رءوس هي رءوس السادة الذين كانوا يملكون مدن المشرق. هكذا رأيت لأول مرّة السيّد الذي ذهبت يومًا إلى حاجبه لمساومته على شراء عروسة. وتبع ذلك طابور طويل من أسرى الحرب يسرون عرايا مكبلي الأيدي بين صقّين من الحراس. وتتابع فرق الجيش من فرسان ورجالة في جوار عاصف بالهتاف الحارّ. يوم نصر وأفراح، أمّا المآسي الدامية التي خلّفها وراءه فلا يعلمها إلاّ الله. حياة بشريّة غريبة يمكن تلخيصها في كلمتين، دماء وزغاريد. وفي ذيل الجيش سارت السبايا من النساء بين ذراعين من الحراس. خفق قلبي خفقة شديدة وتمثّلت عروسة لعينيّ كما رأيتها أوّل مرّة، بل كما رأيتها وهي تقود أباهما في الحارة التي شهدت مولدي!. وزاغ بصري بين الوجوه المنكسرة والأجساد العارية. وصدقت لهفتي فاستقرّت عينا على وجه عروسة!. هي عروسة بجسدها المشقوق ووجهها المليح التعيس تتقدّم ذاهلة يائسة ضائعة. اشتعل بي نشاط مقتحم.

ونستعين على ذلك بتوفير التعليم لهم والطب، أمّا الآخرون فنقويّ بهم مواهب الطاعة والانقياد والقناعة، ونهديهم إلى الكنز الروحيّ المدفون في أعماق كلّ منهم، والذي يهتّى لهم بالصبر والاجتهاد السلام، بهذه الفلسفة المزدوجة تتحقّق السعادة للجميع، كلّ بحسب استعداده وما أعدّ له، فنحن أسعد أهل الأرض طرًا... .

تفكّرت فيما يقال وفيما لا يقال ثمّ سألته:

- من يملك الأرض والمصانع؟

- الإله، هو الخالق وهو المالك... .

- وعلاقة الصفوة بها؟

- هم ملاكها بالنيابة، والريع يقسم مناصفة بينهم وبين الإله.

فوثبت خطوة جديدة متسائلًا:

- كيف تُنفق أموال الإله؟

فضحك لأول مرّة وقال:

- وهل يُسأل إله عمّا يفعل؟!!

- إذن من ينفق على المدارس والمستشفيات؟

- الصفوة باعتبارها وقفًا عليهم وعلى أبنائهم.

ثمّ متسائلًا في زهو:

- أليس هذا هو الكمال نفسه؟!!

فقلت مداريًا ما في نفسي:

- هو ما يقال عادة عن دار الجبل.

فهتف بقوة:

- دار الحيرة هي دار الجبل.

فقلت بوضوح:

- صدقت أيّها الحكيم ديزنج!

فقال بثقة ويقين:

- أن تعيش بإرشاد الإله وتوجيهه هو أقصى ما

يطمح إليه الإنسان من عدل وسعادة.

فقلت متسلّلاً:

- لذلك يشتدّ عجبني من أولئك المتمرّدين الذين

رأيت رءوسهم المعلقة!

فهتف بغضب:

- لا تخلو طبيعة البشر من انحراف وسوء ولكنهم

قلّة على أيّ حال.

## رحلة ابن فقومه ٦٦٣

بحرارة، وتركتها على الأريكة حتى تثوب لنفسها، ثم قلت:

- إني حزين لما قاسيت من عناء.

فقلت بصوت غريب:

- لكنتك لم تر شيئاً...

- حدّثيني يا عروسة فأني أوشك أن أجنّ...

فقلت ودموعها تسيل:

- عن أيّ شيء؟، إنّه الهول، اقتحموا الخيمة،

قتلوا أبي بلا سبب، قبضوا عليّ، أين الأولاد؟... لا

أدري، قُتلوا؟... تاهوا؟... دع الجنون لي

أنا...

فقلت مكابراً مخاوفي:

- لماذا يقتلون الصغار؟... كلاً... إثمهم في

مكان ما... سنعثر عليهم...

- إثمهم وحوش، لماذا يمتلون بنا بعد الانتصار على

جيشنا؟... لكتمهم وحوش. كانت ليلة بدر والإله

حاضراً يرى ويسمع ولا يفعل شيئاً!

فقلت مواسياً:

- على أيّ حال اجتمع شملنا، وقلبي يحدّثني بأنّ

الرحمة آتية...

فهتفت:

- لا توجد رحمة، ولن أرى أبنائي...

فقلت برجاء:

- عروسة، الحياة شرّها كثير، ولكنّ خيرها وفي

أيضاً...

- لا أصلق...

- سترين... سنرحل مع أوّل قافلة إلى المشرق

للبحث عن الأبناء...

- متى تقوم؟

- مداها عشرة أيام...

رنت إلى لا شيء في حزن عميق ففاض قلبي

بالحنين كعين متفجرة. وتسليّنا في فراغنا الطويل

بالتجوّل في المدينة والمشاهدة واجترار الأمان

والاستعداد للسفر. غير أنّ هام صاحب الفندق كان

يذخر لي مفاجأة فدعاني إلى حجرته ونظر إليّ بشيء من

الحرج وقال:

الترق بصري بها. اندفعت تابعاً لطابور السبايا غير

مبالٍ بمن أرطم بهم من الواقفين ولا باحتجاجاتهم ولا

بإتهاماتهم الباطلة بأنني أجري وراء أجساد النساء

العارية. ناديتها مراراً فتلاشى صوتي في هدير

الأصوات المتصاعدة. لم أفلح في لفت نظرها أو

تنبيهها. حتىّ حجزني عنها الحراس الذين منعوا

الجواهر من دخول ميدان القصر المخصّص للصفوة من

أهل الحيرة. هكذا تجلّت واختفت كالشهاب تاركة

إثاي للجنون والقنوط. وأين الأبناء؟ هل يعيشون

الآن في كنف جدّهم؟ وفضفضت ضيقي بالإفشاء

بسريّ إلى هام صاحب الفندق فقال لي:

- قد تعرض للبيع في سوق الجوّاري!

فقلت في ارتياب:

- ولكتها حرب تحرير!

فقال:

- إلّا السبايا فلهنّ معاملة خاصّة!

باركت هذا النفاق باعتباره ثقباً للأمل في سماء

سوداء. وتشبّثت أكثر بالبقاء، وجعلت أطوف بسوق

الجوّاري كلّ يوم، وحلمي بجمع الشمل يتحدّى

اليأس، وذات مساء تلقّاني صاحب الفندق بابتسامة

مُشجّعة وقال:

- غداً ستعرض السبايا للبيع...

نمت ليلتها نوماً مقطّعاً. وذهبت إلى السوق فكنت

أوّل الداهيين. ولما عُرضت عروسة اقتحمت المزاد

بإصرار. تبدّت في ثوب أخضر لأوّل مرّة في حياتها،

وتجملّ جمالها، رغم الحزن الشديد. وكانت تنظر في

داخل ذاتها المهیضة فلم ترني ولم تتابع ما يجري. ولم

يبق معي في المزايدة إلّا شخص سمعت من يهمس

بأنّه مندوب الحكيم ديزنج. ورسا المزاد عليّ بثلاثين

ديناراً، فلما دُفعت إليّ عرفتي فارغمت بين يديّ وهي

تنشج حتىّ أثارته دهشة جميع من بالسوق. ولم تكن

ثمّة فرصة لتبادل حديث فمضيت بها خارجه، وفي

الطريق ما ملكت أن سألتها:

- كيف الأبناء يا عروسة؟

ولكنّي كفت عن ملاحظتها لشدة انفعالها حتىّ

خلوت إليها في حجرتي بالفندق. هنالك عانقتها

- لديّ أخبار غير سارة...  
فتساءلت ساخراً:  
- أكثر مما لديّ؟  
فقال بهدوء:  
- الحكيم ديزنج يرغب في حوز فتاتك.  
فدهشت وقلت بحدة:  
- أرجو أن تعتبرها زوجتي...  
- سيؤدّي إليك ثمنها...  
- إنّها ليست سلعة...  
فقال لي بنبرة ناصحة:  
- ديزنج رجل قويّ وهو من المقرّبين إلى الإله...  
فقلت وأنا أداري انزعاجي:  
- الغرباء في بلادكم آمنون.  
فقال بحرارة:  
- عاود التفكير من أجل صالحك.  
فقلت بإصرار:  
- رأيي في هذه المسألة واحد، لا يتغيّر...  
وحررت في أمري، هل أنقل الحديث إلى عروسة؟  
هل أضيف إلى أحزانها حزنًا جديدًا؟ الحقّ أنّي  
أشفقت من تكدير صفو الحلم الباقي لها. وتساءلت  
هل يستطيع ديزنج أن ينتزع عروسة مني بقوة نفوذه؟  
وتذكّرت حاجب الوالي الذي سرق مني حلّية في  
وطني، ولكّني لم أطمئنّ إلى رأي مستقرّ. وطوال  
الوقت شعرت بخطر يطاردني، وبأنّ سعادتني لا تقف  
على قدمين، ولا أجنحة لها. وفي صباح اليوم السابق  
ليوم الرحيل بأربعة أيّام استدعاني خادم لمقابلة هام في  
حجرته. وهناك وجدت ضابط شرطة فقدمني هام  
إليه، وإذا به يقول:  
- ستذهب معي لمقابلة رئيس شرطة العاصمة.  
سألته عن السبب فأدعى الجهل به. طلبت أن أخبر  
فتاتي فقال الضابط:  
- سينوب عنك هام في ذلك...  
وذهبنا إلى إدارة الشرطة العامّة بالشارع الملكيّ  
فمثلت أمام المدير الذي جلس على أريكة بين بعض  
معاونيه. نظر إليّ نظرة لم أرتح لها وسألني:  
- أنت قنديل محمّد العنّابي الرخالة؟
- فأجبت بالإيجاب، فقال:  
- إنك متهم بالسخرية من دين هذه الدار التي  
تستضيفك!  
فقلت بقوة ووضوح:  
- تهمة لا أساس لها من الصّحة...  
فقال ببرود:  
- يوجد شهود.  
فهمتت:  
- لا يمكن أن يشهد بذلك ذو ضمير.  
فقال باستياء:  
- لا تطعن الأبرياء وتندع ذلك لتقدير القاضي.  
والقي القبض عليّ. وفي صباح اليوم التالي قُدمت  
إلى المحكمة. أعلنت التهمة فرفضتها. وجاء شهود  
خمسة على رأسهم هام صاحب الفندق فأدلوا بشهادة  
واحدة - كأنّها قطعة محفوظات - بعد أن أدوا اليمين.  
وأصدرت المحكمة حكمها بسجني مدى الحياة، مع  
مصادرة أموالي وما أملك، وبذلك دخلت عروسة في  
المصادرة. حدث ذلك كلّ ما بين يوم وليلة. ذقت  
طعم اليأس المرير وعرفت أنّه حقيقة تقع لا حكاية  
تروى. ضاعت عروسة، تلاشت الرحلة، تبدّد حلم  
دار الجبل، اختفى وجودي نفسه من هذه الدنيا.  
وكان السجن عند مشارف المدينة في منطقة صحراويّة.  
وهو عبارة عن مكان متّسع تحت الأرض، ذي منافذ  
ضيّقة في السقف، جدرانها من الأحجار الكبيرة،  
وأرضه رملية. ولكلّ سجين سروال لا غير وفروة،  
يكتنفه جوّ خائق ذو رائحة كدرة، نصف مظلم كأنّه  
فجر لا تشرق فيه شمس. نظرت حولي وقلت في  
ذهول: «سأبقى هنا حتّى آخر يوم في حياتي!». وتطلّع  
إلى الرفاق وسألوني عن جرمي. سألوني وسألته.  
أدركت أنّ ما يجمعنا هي جرائم العقائد والسياسة،  
وأني واجد في ذلك شيئًا من العزاء إن أمكن لمثلي أن  
يتعرّى. لأنهم مجموعة نادرة من الأحرار الذين تضيق  
بهم الأجواء الفاسدة، سمعوا حكايتي فعلق أحدهم  
عليها قائلًا:  
- حتّى الغرباء...  
ولم يكن أحد منهم قد كفر بالإله فهذه جريمة

الأمل الوحيد الباقي لسجين مثلي هو قتل الأمل، والتكيف مع القبر الذي ازددني، والزواج من اليأس المهيمون المترامي الراسخ. أطرده أشباح الوطن والألم وعروسة والأبناء ودار الجبل. وآلف الرائحة الكدرة فلا رائحة في الوجود غيرها، والضوء الخابي نصف أظلم فلا ضوء في الكون غيره، والهوام المنتشرة فهي مالكة المكان وصاحبة الحق الأول فيه، والألم والممل فيها الرفيقان الدائمان. ورحت أغرق في أعماق لانهاية. ويسود الصمت ويتحول العذاب إلى عادة وأهل من اليأس قوة عجيبة على الاحتمال والصبر. ويخترق جدار الصمت صوت يقول:

- يحكى عن سجين قديم أنه أنشأ في ذاته قوة خارقة حتى استطاع أن يخترق جدار السجن كأنه صوت وطار في الهواء إلى ما وراء الحدود!  
فيتلقى صبري هذا الهذيان بطيبة. وبعد يوم أو عام قال صوت آخر:

- قد تقوم الحرب بين الحيرة والحلبة فنصعد مرة أخرى إلى سطح الأرض...

فأعفو عن ذكركي بسطح الأرض وأتساءل متى أفقد الحواس مثل العجوز السعيدا. وهبطت في الأعماق درجات في أثر درجات فضاغ الزمن فيما فضاغ من أسباب الحياة، واختفى التاريخ. وجهلت الساعة واليوم والشهر والعام، توارت المعالم، وبات عمري لغزاً، وجعلت أكبر بلا تحديد ولا حساب، ولا مرآة أرى فيها نفسي إلا الرفاق فأتحيل ما صرت إليه من بشاعة وقذارة، فلم ينعم بالسعادة في دنيانا المظلمة إلا الهوام والحشرات. لا شك أن الأجيال والعصور والدهور تتعاقب وأنا نتذوق طعم الفناء بجلاله الأبدى. هكذا... هكذا... هكذا... حتى زج إلينا بقادم جديد التفننا حوله كالهوام، ننظر باستغراب إلى القادم من العالم الآخر. رغم كبره وتعاسته خيل لي أنني لا أراه لأول مرة. وكان العجوز قد مات منذ زمن لا ندره فحل محله. وراح ينظر في وجوهنا ويكي. وقال قائل:

- لا تبيك يا رجل فالدموع تؤذي الهوام...

وسأله سائل:

عقوبتها ضرب العنق، ولكن نُقلت عنهم تساؤلات ناقدة لبعض التصرفات الشاذة التي تمس العدالة أو حرّية الإنسان. ورأيت بينهم عجوزاً نيف على الثمانين، قضى منها في السجن خمسين عاماً بدأها على عهد الملك السابق سلف الملك الحالي. رأيت قد فقد حواسه وذكريته فهو لا يدري أين هو، ولا ماذا جاء به، وينطح على فروته جسداً ضئيلاً بلا روح. قال صوت:

- إنه أجدرنا بالتهنئة.

فصدقت على قوله بلا تردد. وحامت أفكارنا حول

وضع الإنسان في هذا العالم.

- لا يوجد بلد سعيد.

- الشكوى هي لغة الإنسان المشتركة.

- نحن الحائرون بين الواقع القبيح والحلم الذي لا

يتحقق.

- لكن ثمة بلدان أفضل...

- هي نفسها لم تعرف الرضى بعد.

- ودار الجبل؟

وثب قلبي في صدري حال استقبال الاسم

الساحر. تذكّرت بحسرة هدي الضائع. وسألت:

- ماذا تعرف عنها؟

- ليس أكثر مما يقال عادة من أنها وطن الكمال...

فسألت باهتمام:

- ألم تقرأ عنها كتاباً أو قابلت من زوارها أحداً؟

- كلاً... ليس إلا ما يقال...

- ومنذا يُحقّق الحلم؟

- الإنسان، لا شيء سوى الإنسان...

ومللت الكلام. مللت مكابدة الحشرات. مللت

أكاذيب الأمل. وقلت لنفسي:

- لا دنيا لي إلا هذا السجن الأبدى.

لم أجد في عقلانية أستاذي الشيخ مغاغة أي جدوى

في سجنى الدائم ولكنتي وجدت في قدرية أمتي الساذجة

راحة اليأس، كأنها فلسفة خلقت خاصة للسجن

الأبدى. قلت مستسلماً: «لتكن مشيئة الله... فكلّ

ما جاءني من عنده». سلّمت نفسي لقدري. دفنت

آمالي. شيعت للفناء ماضي وحاضري ومستقبلي.





## رحلة ابن فطومة ٦٦٧

والمال يتكاثر والجاه يصيد المغامرين أما الخالمون فالخيرة لهم. وتتابع علي إحباطاتي الماضية، ساعة غادرت الوطن ناعياً حليلة، ساعة طردت من المشرق باكياً عروسة، وساعة أودع الخيرة نادياً السعادة والشباب. وانتبهت إلى الشرق فرأيتة يموج بماء الورد الأحمر وانداح وجه الشمس كدأبه طيلة عشرين عاماً. وتجلت الصحراء لانهائية وتفشى الصيف. وتواصل السير ما يقارب الشهر، وفي إحدى محطات الراحة سألت صاحب القافلة عن القاني بن حمديس فقال لي:

- البقية في حياتك.

وسألت عن الشيخ مغاغة الجبيلي ولكنه لم يسمع به، لا هو ولا أحد من تجار القافلة. وعسكرنا في الشامة استعداداً لدخول الحلبة. كانت لحيتي قد نبتت وكذلك شعر رأسي وأخذ دم الصحة يجري من جديد. وواصلنا السير حتى رأينا السور العظيم تحت ضوء تربع القمر. وتقدم إلينا مدير الجمرك بسترته الخفيفة المناسبة لجو الصيف المعتدل وقال بصوت مرح:

- أهلاً بكم في الحلبة عاصمة دار الحلبة، دار الحرية...

دهشت لسماع الكلمة الملعونة في كل مكان، ودهشت أيضاً لخلو كلامه من التحليل المعلن أو الخفي.

وقلت لصاحب القافلة:

- أول دار ترحب بالقادم بلا نذير.

فضحك قائلاً:

- إنها دار الحرية ولكن الحرص أمان الغريب...

ومضوا بي وحدي إلى فندق الضيوف. وفي الطريق - تحت ضوء القمر - تناثرت معالم من المدينة في عظمة موحية بمشطر جديد، إلى كثرة من الهواجذ الذاهبة والآتية على ضوء المشاعل رغم اقترابنا من الهزيع الأخير من الليل. أما مدخل الفندق فقد استوى في اتساع وعمق تحت سهيفة تتدلى منها القناديل على هيئة نهر الأبصار. وبدا بناء الفندق ضحكاً مرتفعاً ينطق بجمال الهندسة ونعمة الثراء. أما حجرتي فأدخرت لي مفاجأة أخرى بالسوان جدرانها الزرقاء وسجادتها الوثيرة و فراشها النحاسي المرتفع بأغظيته

- نحن آسفون لما حل بك من ظلم يتنافى مع مبادئ وقوانين دار الخيرة، وقد تقرر أن يُرد إليك مالك ومتاعك عدا الجارية التي غادرت البلاد.

وذهبت من فوري إلى حمام عمومي فحلقوا لي شعر رأسي وجسدي، واغتسلت بالماء الدافئ، ودهنت رأسي وجسمي بزيت الباشام لاستئصال الموهام والحشرات. وقصدت فندق الغرياء وأنا أتوقع لقاء مثيراً بيني وبين هام غير أنه تبين لي أن الرجل مات وحل محله آخر يدعى تاد هو ابن أخيه وزوج ابنته. وكان اللقاء المثير حقاً لا بيني وبين هام ولكن بيني وبين نفسي في المرأة. رأيت قنديل الكهل المبعوث من قبره بعد دفن استمر عشرين عاماً. كهل حليق الرأس والذقن ناكل ذابل غائر العينين ذو لون كئيب ونظرة ميتة ووجعتان بارزتان. وفي الحال قررت أن أبقى في الخيرة حتى استرد شيئاً من الصحة والعافية والتوازن الداخلي. ورحت أمشي لا لأرى جديداً ولكن لأدرب قدمي على المشي. وجعلت أتساءل عما يجدر بي عمله، هل أرجع إلى وطني قانعاً من الغنيمة بالإياب، أو أواصل الرحلة والاستطلاع ودق أبواب المصير؟ وكرهت العودة إلى الوطن على هذه الحال من الجذب والخيبة. وحديثي قلبي بأنني في وطني معدود من الأموات لا أحد ينتظري أو يهتم مرجعي، لهذا إذا لم يكن الموت قد أدركهم فاستاصل الجذور وبدر في أصولها الغربية والوحشة. كلاً لن أرجع. لن ألتفت إلى الوراء. بدأت رحالة، ساظل رحالة، وفي طريق الرحلة أسير. إنه قرار وقدر، خيال وفعل، بداية ونهاية. فإلى دار الحلبة وما بعدها حتى دار الجبل. ترى كيف تتبدلين اليوم يا عروسة وأنت بنت أربعين؟!

## دار الحلبة

كالأيام الحالية تحركت القافلة في تودة وجلال. انغمسنا في ظلمة الفجر الرقيقة لا لأنهل من الشعر هذه المرة ولكن لالتقى لطحات من ذكريات السجن، وحسرات من العمر الضائع. ورأيت أشباح الرفاق فرأيت جيلاً جديداً من التجار، فما زال النشاط يتهدى

توجد عروسة؟... وكيف أسير بلا مرشد؟. تركت قديمي تقوداني بحرية في مدينة الحرية، فانبهرت بكل ما وقعت عليه عيناى بين خطوة وأخرى. شبكة من الشوارع لا تعرف لها أول من آخر، صفوف من العماير والبيوت والقصور، حوانيت بعدد رمل الصحراء تعرض من ألوان السلع ما لا يحيط به حصر، مصانع ومتاجر ودور لهو، حدائق كثيرة متعددة الأشكال والألوان، تيارات لا تنقطع من النساء والرجال والهواج، أغنياء وكبراء، وفقراء أيضًا وإن كانوا أحسن درجات من فقراء الحيرة والمشرق، ولا يخلو طريق من فارس من فرسان الشرطة. ملابس الرجال والنساء متنوعة، وللرجال حظ موفور وكذلك الأناقة، ويصادفك الاحتشام كما يصادفك التحرر القريب من العربي، والجد والرزانة يؤاخيان المرح والبساطة، وكأني ألقى لأول مرة بشرًا لهم وجودهم ووزنهم وإدلالهم بأنفسهم، ولكن كيف يأمل آدمي في العثور على عروسة في هذا البحر الهادر بلا شطآن؟. سرت وتعبت واسترحت في الحدائق وأنا أشعر طيلة الوقت بأنني لم أبدأ بعد. وندمت على أنني لم آخذ هودجًا من هودج الرحالة كما أشار قلشم، غير أنه صادفني حادثان مثيران. أولهما حادث فردي ألمت به في حديقة عامّة إذ رأيت رجالاً من الشرطة يستجوبون بعض الأفراد، ثم علمت أنّ البستاني عثر على جثة امرأة قتيلة في ركن من الحديقة. وأمثال هذا الحادث تقع كثيرًا في كل مكان، أما الذي أثار دهشتي وانزعاجي فكان مرور مظاهرة من نساء ورجال وهم يهتفون بمطالبهم ورجال الشرطة يتبعونهم دون أن يتعرضوا لهم بخير أو شر. تذكّرت مظاهرة شبيهة شهدتها في وطني قصدت الوالي لتشكو إليه رفع المكوس وضيق الحال. أما هذه المظاهرة فكانت تطالب بالاعتراف بشرعية العلاقات الجنسية الشاذة. لم أصدق عيني ولا أذني، وأيقنت بأنني أطوف بعالم غريب، وأن هوة سحيقة تفصل ما بيني وبينه، وخالطني خوف من المجهول. واقترب الظهر وارتفعت الحرارة إلى أقصى حدّ غير أنّ صيف الحلبه صيف محتمل، ومضيت أتساءل عن كيفية الرجوع إلى الفندق

المزركشة، وغير ذلك مما لا يوجد عادة إلا في البيوت الكريمة بوطني. تطالعني هنا حضارة بلسان بليغ متفوّقة ولا شكّ على حضارة الحيرة بدرجات ودرجات. ووجدتني أتساءل ترى أين وكيف تعيش عروسة؟. وقبل أن أنغمس في الذكريات زارني رجل متوسط العمر يرتدي سترة زرقاء وسروالاً أبيض قصيرًا، قال باسمًا:

- قلشم... مدير الفندق... .

فقدت له نفسي فسألني برقة:

- أيّ خدمة؟

فقلت بصراحة:

- لا شيء مقدّمًا على النوم الآن إلا أن تخبرني بأجرة الإقامة.

فقال باسمًا:

- ثلاثة دنائير لليلة!

هالني الرقم وقلت لنفسي إنه يبدو أنّ كل شيء يتّسع بالحرية في الحلبه حتّى الأسعار، وكالعادة دفعت أجرة عشرة أيّام بلياليها.

وأسلمت نفسي إلى فراش لم أحظ بمثل حنانه منذ غادرت وطني. واستيقظت مبكرًا فجاءني الفطور إلى حجرتي من الخبز واللبن والجبن والزبد والعسل والبيض. أدهشني الطعام بكميّته وكيفيته فاقتنعت أكثر بأنني أزور عالمًا جديدًا مثيرًا. وغادرت الحجرة تحركني لهفة وأشواق، وأمل بأنني سأعثر على عروسة أيضًا لكي تتمّ لعبة القدر. وقابلني قلشم عند مدخل الفندق فقال لي:

- توجد هودج تحت تصرف الرحالة لمشاهدة المعالم الهامة...

فنتكّرت قليلاً وقلت:

- أودّ أن أبدأ بمفردتي وكيفما اتفق...

ومنذ اللحظة الأولى شمّلني شعور بأنني في مدينة كبيرة يذوب فيها الفرد فلا يدري به أحد. ترامى أمام الفندق ميدان واسع مستدير تقوم على محيطه العماير والحوانيت، تتوسط نهايته قنطرة تعلو نهرًا وتفضي إلى ميدان صغير تتفرّع منه شوارع كبيرة لا ترى لها نهاية، تحفّ بجوانبها العماير والأشجار، أين أتجه؟... وأين

## رحلة ابن فطومة ٦٦٩

فقال بوضوح:  
 - تعامل الجميع على قدم المساواة الكاملة.  
 فسألته كالمحتج:  
 - وهل يرضون بذلك؟  
 - كل طائفة تحتفظ في داخلها بتقاليدها الذاتية، والاحترام يسود العلاقات العامة لا امتياز لطائفة ولو جاء رئيس الدولة منها، وبالمناسبة أخبرك بأن رئيسنا الحالي وثني!  
 دار مذهلة ومزلزلة للدماغ. وقلت متفكرًا:  
 - حرّية لم أسمع عنها من قبل، هل أنك يا مولاي حديث المظاهرة التي تطالب بالاعتراف بشرعية العلاقات الشاذة؟  
 فقال الإمام بأسًا:  
 - فيها مسلمون أيضًا!  
 - لا شك أنهم يتعرّضون للجزء داخل طائفتهم...  
 نزع الشيخ عمامته فمسح على رأسه ثم أعادها وهو يقول:  
 - الحرّية هي القيمة المقدّسة المسلم بها عند الجميع!  
 فقلت محتجًا:  
 - هذه حرّية تجاوزت الحدود الإسلامية...  
 - لكنّها مقدّسة أيضًا في إسلام الحلبة...  
 فقلت وأنا أكابد خيبة أمل:  
 - لو بُعث نبينا اليوم لأنكر هذا الجانب في إسلامكم...  
 فتساءل بدوره:  
 - ولو بُعث عليه الصلاة والسلام أما كان ينكر إسلامكم كلّ؟  
 آه... صدق الرجل وأذّني بتساؤله. وقال الإمام:  
 - طوّفت بديار الإسلام كثيرًا!  
 فقلت بأسى:  
 - من أجل ذلك فمت برحلتني يا شيخ حمادة، أردت أن أرى وطني من بعيد، وأن أراه على ضوء بقية الديار، لعلّي أستطيع أن أقول له كلمة نافعة...  
 فقال الشيخ باستحسان:

عندما تهادى صوت في الجوّ يصيح:

- الله أكبر...  
 وثب قلبي في صدري وثبة عنيفة أشعلت النار في حواسي. ربّاه إنّه أذان. هذا مؤذّن يدعو إلى الصلاة فهل الحلبة دار إسلامية؟! واندفعت على هدى الصوت حتّى وجدت جامعًا عند مدخل شارع. لم أسمع هذا الصوت ولا رأيت هذا المنظر منذ ربع قرن. إنّي أولد من جديد وكأنّما اكتشف الله لأول مرّة. ودخلت المسجد، توضّأت، وقفت في صفّ ورحت أصلي الظهر في فرحة متوهّجة، بعين دامعة، وصدر منشرح. وتمّت الصلاة ومضى الناس ينصرفون ولكّني تسمرت في مكاني حتّى لم يبق في الجامع إلا الإمام وأنا. هرولت نحوه، حويته بين ذراعيّ، وانهلث عليه تقيلاً. استسلم لانفعالي هادئًا مدرّكًا بأسًا، ثمّ تمتم:  
 - أهلاً بالغريب...  
 وجلسنا غير بعيد من المحراب. قدّمت له نفسي فقدّم لي نفسه، الشيخ حمادة السبكي، من أهل الحلبة الصميمين. قلت بأنفاس مضطربة وصوت متهدّج:  
 - ما تصوّرت أنّ الحلبة دار إسلامية...  
 فقال بهدوء:  
 - الحلبة ليست من ديار الإسلام...  
 ولتّقرأ دهشتي قال:  
 - الحلبة دار الحرّية، تمثل فيها جميع الديانات، فيها مسلمون ويهود ومسيحيون وبوذّيون، بل فيها ملحدون ووثنيون...  
 فازددت دهشة وسألته:  
 - كيف تأتّى لها ذلك يا مولاي؟  
 فقال ببساطة:  
 - كانت في الأصل وثنية، وأتاحت حرّيتها الفرصة لكلّ من شاء أن يدعو إلى دينه، وتوزّعت الديانات أهلها فلم تبق اليوم إلا قلة من الوثنيين في بعض الواحات!  
 فسألته واهتمامي يتصاعد:  
 - وبأيّ دين تلتزم الدولة؟  
 - الدولة لا شأن لها بالأديان...  
 - وكيف توقّف بين أهل الملل والنحل؟

## ٦٧٠ رحلة ابن فظومة

- ولكننا قطعنا شوطًا لا يستهان به في هذا السبيل!

- لو أنكم تطبقون الشريعة!؟

- لكنكم تطبقونها!

فقلت بإصرار:

- الحقُّ أنّها لا تطبّق.

- الالتزام هنا بالمرجع، وهو يطبّق نصًّا وروحًا... .

- ولكنّ الدولة ملتزمة بالأمن والدفاع فقط فيما

يُجِبُّ إلى... .

- وبالمشروعات العامّة التي يعجز عنها الأفراد

كالحدائق والجسور والمتاحف، ولها مدارس بالمجان

للسابغين من الفقراء، ومستشفيات بالمجان كذلك

ولكنّ جلّ الأنشطة فردية... .

فتفكّرت مليًّا ثمّ سألته:

- لعلّكم تعتبرون أنفسكم أسعد البشر؟

فهزّ رأسه جأداً وقال:

- إنّه حكم نسيي يا شيخ قنديل، ولا يمكن أن

يطلق بثقة كاملة ما دام يوجد أغنياء وفقراء ومجرمون،

فضلاً عن ذلك فحياتنا لا تخلو من قلق بسبب من

الأطباع المتبادلة بيننا وبين الحيرة في الجنوب، وبيننا

وبين دار الأمان في الشمال، فهذه الحضارة الفريدة

مهتدة وقد تندثر في موقعة، وقد تندهور حتّى مع

النصر إذا اجتاحتنا الحسائر، ثمّ إنّ الاختلافات الدينيّة

لا تمرّ دائماً بسلام... .

وسألني عن برنامج رحلتي فلخصت له ما صادفني

مذ تركت الوطن، فحزن الرجل لي وتمنّى لي التوفيق.

قال:

- أنصحك باكتراء هودج سياحة فمعالم العاصمة

أكثر من أن تحيط بها بنفسك وعندنا مدن أخرى كثيرة

تستحقّ المشاهدة، أمّا العثور على عروسة في دارنا فأيسر

منه الوصول إلى دار الجليل... .

فقلت بأسى:

- إنّي أدرك ذلك تماماً ولكنّ لي مطلباً آخر هو أن

أزور حكيم الحلبة... .

فقال بدهشة:

- ماذا تعني؟... للمشرق حكيمها، وللحيرة

حكيمها، أمّا هنا فمراكز العلم تموج بالحكماء، وستجد

- أحسنت، وفكك الله، وستأخذ من دارنا أكثر من

عبرة!

قلت وقد عاودني حبّ استطلاع الرحالة:

- أمامنا - إذا سمحت - فرص لتبادل الآراء، ولكن

هل تستطيع الآن أن تمدّني بمعلومات عن نظام الحكم

في هذه الدار العجيبة؟

فقال الشيخ حمادة:

- إنّه نظام فريد، لم يصادفك فيما رأيت ولن

يصادفك فيما سترى... .

- ولا دار الجبل؟

- لا أعرف شيئاً عن دار الجبل حتّى أدخلها في

المقارنة، ما يصحّ أن تعرفه هو أنّ رئيس دولتنا يُنتخب

تبعاً لمواصفات علميّة وأخلاقيّة وسياسيّة، فيحكم

مقدار عشر سنوات، ثمّ يعتزل ليحلّ محله قاضي

القضاة، وتجري انتخابات جديدة بين الرئيس المعتزل

والمرشّحين الجدد... .

فهمت بحماس:

- نظام حسن... .

- كان الأجدد بالمسلمين أن يبشّروا به قبل غيرهم،

هذا وللرئيس مجلس من أهل الخبرة في جميع الأنشطة،

يعاونه بالرأي... .

- وهل رأيه ملزم؟

- عند الاختلاف يعتزلون جميعاً ويجري الانتخاب

من جديد... .

فهمت:

- نعم النظام... .

فواصل الشيخ حمادة السبكي حديثه:

- أمّا الزراعة والصناعة والتجارة فيقوم بها

القادرون من الأهالي... .

فقلت وأنا أتذكّر بعض ما رأيت من مشاهد:

- لذلك يوجد أغنياء وفقراء... .

فقال الشيخ:

- كما يوجد عاطلون ولصوص وقتلة!

فابتسمت قائلاً بنبرة ذات مغزى:

- الكمال لله وحده.

فقال بجديّة:

## رحلة ابن فطومة ٦٧١

طول حرمانني وتقديمي في السن. وحكى لهم الإمام جانباً من حياتي ورحلتي وهدفي منها. قال:

- على أي حال فليس هو من المستسلمين...  
فقال سامية لي:

- إنك تستحق الإعجاب...

فبلغ بي التأثير مداه. وجاء العصر فأدبنا صلته جميعاً وراء الإمام مما دعاني إلى التفكير والتأمل أكثر. وغادرتهم بجسدي وهم يحتلون بعمق صميم روحي. وفي الطريق ثار بي الحنين إلى الاستقرار والدفء والحب. أين عروسة؟ أين دار الجبل؟ ضاع الشباب تحت الأرض، فعنى استقر وأكون أسرة وأنجب ذرية؟ حتى متى أظل ممرقاً بين نداءين؟!.

وفي اليوم التالي أكثرت هودجاً، طاف بي بمعالم العاصمة الهامة، مراكز التعليم، القلاع، المصانع الكبرى، المتاحف، الأحياء القديمة. وأخبرني المرشد أن أهل الديانات المختلفة يمثلون سير أنبيائهم في الجوامع والكنائس والمعابد فأعلنت عن رغبي في مشاهدة سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام، فمضى بي إلى أكبر جامع في العاصمة، وجلست بين المشاهدين، وراح قوم يمثلون السيرة في باحة الجامع من بدايتها إلى نهايتها. رأيت فيما خيل إلي النبي والصحابة والكفار، وهو ما اعتبرته جرأة تقارب الكفر، ولكن كان علي أن أرى كل ما يستحق التسجيل. وأثر في الشخص الذي يقوم بدور الرسول للحد الذي صدقته، فانفعلت به انفعالاً فاق كل تصور حتى رأيته في المنام. وقلت لنفسني:

- إن ما يدهشني حقاً هو أن إيمان هؤلاء الناس صادق وأمين...

ودعوت الإمام وأسرته للغداء في الفندق فتوقفت علاقتي بهم أكثر. وقال لي الشيخ:

- سأعد لك لقاء مع حكيم ذي مكانة يدعى مرهم الحلبي...

فشكرت له اهتمامه بي، وقضينا وقتاً طيباً، وخفق قلبي بالسرور والانشرح طوال الوقت. وفي صباح اليوم التالي غادرت حجرتي بالفندق لزيارة الحكيم. غير أنني وجدت كثيرين من النزلاء مجتمعين في مدخل

عند أي منهم ما ترغب في معرفته وأكثر...

شكرت له حديثه ومودته وقمت وأنا أقول:

- أن لي أن أذهب.

فأمسك بي قائلاً:

- بل ستتغدى معاً في بيتي...

رحبت بالدعوة لأنغمس في حياة الحلبة. سرنا معاً حوالي ربع ساعة إلى شارع هادئ تحف به أشجار الأكاسيا على الجانبين، وأنجھنا إلى عمارة أنيقة يقم الإمام في دورها الثاني. لم أشك أن الإمام من الطبقة الوسطى ولكن جمال حجرة الاستقبال دلني على ارتفاع مستوى المعيشة في الحلبة. وصادفتني تقاليد غريبة تُعتبر في وطني بعيدة عن الإسلام، فقد رحبت بي زوجة الإمام وكرمتها بالإضافة إلى ابنه. وتناولنا الغداء على مائدة واحدة، بل قُدمت إلينا أقذاح نبيذ. إنه عالم جديد وإسلام جديد. وارتبكت لوجود المرأة وكرمتها، فمئذ بلغت مشارف الشباب لم تجمعني مائدة طعام مع امرأة لا أستثني من ذلك أمي نفسها. ارتبكت وغلبي الحياء ولم أمس قدح النبيذ. قال الإمام باسمًا:

- دعوه لما يريجه...

فقلت:

- أراك تأخذ برأي أبي حنيفة؟

فقال:

- لا حاجة بنا إلى ذلك فالاجتهاد عندنا لم يتوقف، ونحن نشرب مجارة للجو والتقاليد ولكننا لا نسكر...

كانت زوجته ست بيت، أما سامية كريمته فكانت طيبة أطفال بمستشفى كبير، وأما الابن فكانا يعدان نفسيهما ليكونا مدرسين. وأذهلتني انطلاقة الأم وكرمتها في الحديث أكثر مما أذهلني العربي في المشرق. تحدتنا بتلقائية وشجاعة وصراحة كالرجال سواء بسواء. وسألني سامية عن الحياة في دار الإسلام وعن دور المرأة فيها. وكما وقفت على واقعها انتقدته بشدة، وراحت تعقد المقارنات بينه وبين المرأة في عهد الرسول والدور الذي لعبته، حتى قالت:

- الإسلام يدوي على أيديكم وأنتم تنظرون... وتأثرت أيضاً بجهاها وشبابها، وضاعف من تأثري

## ٦٧٢ رحلة ابن فطومة

- والفندق وهم يخوضون في حديث أثار اهتمامهم فيها بدا إلى أقصى حدّ.
- الخبر يقول إنّ قائدًا من قواد الحيرة ثار على الملك ولكنّه فشل فهرب إلى دار الحلبة . . .
- أتعي أنّه يقيم الآن في الحلبة؟
- يقال إنّهُ يقيم في واحة من واحات الحلبة . . .
- المهمّ أنّ ملك الحيرة يطالب بالقبض عليه وتسليمه له.
- لكنّ ذلك مخالف لمبادئ «المرجع».
- وقد رفض طلبه . . .
- هل تنتهي المسألة عند هذا الحدّ؟
- إنهم يتهامون عن حرب . . .
- وإذا انتهزت دار الأمان الفرصة وهاجمت دار الحلبة!؟
- هذه هي المشكلة الحقيقيّة . . .
- تسلّل القلق إلى أعماقي أنا الذي تطاردني الحروب من دار إلى دار. وأردت الذهاب إلى الحكيم ولكن هالني أن أرى الميدان وهو يتلقّى مظاهرات عديدة كأنما كانت على ميعاد. اضطرت للبقاء في مدخل الفندق، أنظر وأسمع وأنا من الدهشة في غاية. مظاهرة تطالب بتسليم القائد المارب. مظاهرة تنذر من يسلمه بالويل. مظاهرة تطالب بإعلان الحرب على الحيرة. مظاهرة تطالب بالمحافظة على السلام بأيّ ثمن. ملكتي الحيرة وتساءلت عمّا يمكن أن يفعله حاكم بإزاء هذه الآراء المتضاربة. وانتظرت حتّى خلا الميدان فذهبت مسرعًا إلى دار الحكيم مرهم فبلغتها متأخرًا ساعة عن الميعاد. استقبلني في حجرة أنيقة حوت الكتب والمقاعد والشلت معًا. وجدته طويلًا نحيلًا في الستين من عمره، أبيض الشعر واللحية، يرفل في عباءة زرقاء خفيفة. قَبِلَ اعتذارِي عن التأخير، ورَحّب بي، ثمّ سألني:
- أيّهما تفضّل، الجلوس على المقاعد أم الشلت!؟
- فقلت باسماً:
- الشلّة أحبّ إليّ . . .
- فقال ضاحكًا:
- هكذا العرب، إنّي أعرفكم، زرت بلادكم ودرست معارفكم.
- فقلت بحياء:
- لست من علماء وطني ولا فلاسفته ولكنّي مُجِبّ للمعرفة، ومن أجل ذلك قمت بهذه الرحلة . . .
- فقال بهدوء مشجّع:
- في هذا ما يكفي، وما هدفك من الرحلة؟
- فتفكّرت مليًا ثمّ قلت:
- زيارة دار الجبل.
- لم أعرف أحدًا زارها أو كتب عنها.
- ألم تفكّر يومًا في زيارتها؟
- فقال باسماً:
- من آمنَ بعقله أغناه عن كلّ شيء.
- فقلت مستدرّكًا:
- دار الجبل ليست بغايي الأخريرة ولكنّي أرجو أن أرجع منها إلى وطني بشيء يفيد . . .
- أرجو لك التوفيق . . .
- فقلت كالمعتد:
- الحقّ أنّي جئت لأسمع لا لأتكلّم . . .
- هل لديك سؤال يشغلك؟
- فقلت باهتمام:
- حياة كلّ قوم تتكشف عادة عن فكرة أساسيّة؟
- فاعتدل في جلسته وقال:
- لذلك يسألنا محبّو المعرفة من أمثالك كيف صنعتم حياتكم.
- وحياتكم جديرة بإثارة هذا السؤال . . .
- الجواب بكلّ بساطة، لقد صنعناها بأنفسنا.
- فتابعته في تركيز وصمت، فقال:
- لا فضل في ذلك لإله، آمن مفكّرنا الأوّل بأنّ هدف الحياة هو الحرّيّة، ومنه صدر أوّل دعوة للحرّيّة، وراحت تتسلسل جيلاً بعد جيل . . .
- وابتسم، وصمت حتّى تستقرّ كلماته في مستقرّها من نفسي وقال:
- بذلك اعتبر كلّ محرّر خيرًا وكلّ قيد شرًّا، أنشأنا نظامًا للحكم حرّرنّا من الاستبداد، وقدسنا العمل ليحرّرنّا من الفقر، وأبدعنا العِلْمَ ليحرّرنّا من الجهل، وهكذا . . . وهكذا . . . فإنّه طريق طويلة بلا نهاية . . .

## رحلة ابن فطومة ٦٧٣

شعبيهما!

وبهذه المناسبة إنني على مبدأ الجهاد في الإسلام.

وراح يفسره تفسيراً عدوانياً فتصدت لتصحيح نظريته ولكنّه لَوَّح بيده باستهانة وقال:

- لديكم مبدأ عظيم ولكنكم لا تملكون الشجاعة الكافية للاعتراف به!

فسألته:

- إلى أيّ دين تنتمي أيها الحكيم مرهم؟ فأجاب بأسياً:

- دين إله العقل ورسوله الحرّية!

- وجميع الحكماء مثلك؟ فقال ضاحكاً:

- ليتني أستطيع أن أزعم ذلك... .

وجاءني بكتابين، الأول هو «المرجع» أو القانون الأول في الحلبة، والثاني من تأليفه وعنوانه «اقتحام المستحيل». وقال:

- اقرأ هذين الكتابين تعرف الحلبة على حقيقتها... .

فشكرت له كرمه كما شكرت له حسن ضيافته ثم ودعته وانصرفت. وتناولت الغداء في الفندق وكانت الألسنة جميعاً تلهج بالحرب. وذهبت عصرًا إلى الجامع فصليت وراء الشيخ حامد السبكي، ودعاني إلى مجالسته فلبيت مسرورًا. وإذا به يسألني بأسياً:

- هل عثرت على عروسة؟ فقلت بجديّة:

- التعلّق بعروسة وهم لا معنى له! فصدّق على قولي قائلًا:

- هذه هي الحقيقة.

ثم سألني بعد صمت قصير:

- هل تمضي في رحلتك مع أوّل قافلة؟ فقلت وأنا أشعر بشيء من الحرج:

- كلاً، أريد البقاء فترة أخرى... .

- فرار حسن، ويتوافق مع الأحداث المتلاحقة، فقد منع ملك الخيرة سير القوافل بين الخيرة والحلبة كردّة على رفضنا تسليم القائد الهارب.

فدهشت وقلقت فقال الشيخ:

حفظت كلّ كلمة بدرت منه باهتمام بالغ أمّا هو فقد واصل حديثه قائلاً:

- لم يكن طريق الحرّية سهلاً، ودفعنا ثمنه عرقاً ودمًا، كنّا أسرى الخرافة والاستبداد، وتقدّم الرواد، وشرّبت الأعناق، واشتعلت الثورات، ونشبت حروب أهليّة، حتّى انتصرت الحرّية وانتصر العلم... .

حنيت رأسي مُظهرًا إعجابي فراح ينقد أنظمة دار المشرق، ودار الخيرة ويسخر منها، بل سخر أيضًا من نظام دار الأمان التي لم أزرها بعد، وحتّى دار الإسلام لم تسلم من حدّة لسانه. والظاهر أنّه قرأ تغيرًا في صفحة وجهي فسكت، ثمّ قال بنبرة المعتذر:

- إنكم لا تألفون الرأي الحرّ؟ فقلت بهدوء:

- في حدود مُعيّنة... .

فقال متراجعًا:

- معذرة، ولكن عليك أن تعيد النظر في كلّ شيء.

فقلت مدافعًا:

- داركم لا تخلو من فقراء ومنحرفين... .

فقال بحماس:

- الحرّية مسئولية لا يستطيع الاضطلاع بها إلاّ القادرون، وليس كلّ من ينتمي إلى الحلبة أهلاً لهذا الانتباه، لا مكان للعجزة بيننا... .

فتساءلت بحرارة:

- أليست الرحمة قيمة مثل الحرّية؟! - هذا ما يردده أهل الديانات المختلفة، وهم الذين يشجّعون العجزة على البقاء، أمّا أنا فلا أجد معنى لكلمات مثل الرحمة أو العدالة، يجب أوّلاً أن تتفق على من يستحقّ الرحمة ومن يستحقّ العدالة!

- إنّي أخالفك في ذلك حتّى النهاية.

- أعرف ذلك!

- لعلّك ترخّب بالحرب؟ فقال بوضوح:

- إذا وعدت بمزيد من الحرّية، ولست أشكّ مطلقاً في أنّ انتصارنا على الخيرة والأمان خير ضمان لسعادة

وإعجابها بالرحالة، وعطفها على أحزانه الطويلة قلت  
لنفسى «إنها فتاة كاملة، ولا حياة لي بدونها». وقلت  
للشيخ الإمام:

- توكلت على الله وقررت أن أتزوج...

فتساءل الشيخ:

- هل عثرت على عروسة؟

فقلت في حياء:

- انتهت عروسة على أي حال...

- هل وقع اختيارك على أحد؟

فقلت بهدوء:

- مطلبي عنديكم!

فابتسم ابتسامة مشجعة وتساءل:

- أتتزوج كرحالة أم مقيم؟

فقلت بصدق:

- لا أظن أن الحلم سيتلاشى...

- كل شيء يتوقف على إرادتها، لم لا تكلمها  
بنفسك؟

فارتبكت وقلت:

- يستحسن أن تنوب عني.

فقال بعطف:

- ليكن، إني أدرك موقفك...

وتلقيت الموافقة في اليوم التالي. وكنت متلهفاً

فاستجابوا لي. استأجرت شقة في نفس الشارع. تعاوناً

على تأييدها. وتم العقد في هدوء يناسب ظروف

الحرب. وجمعنا بيت الزوجية فسعد قلبي واستعدت

توازي. وجاءت أنباء القتال مشجعة ولكن الحزن شق

طريقه إلى قلوب كثيرة وارتفعت أسعار سلع لا حصر

لها. واقترح علي الشيخ حامد السبكي المشاركة في محل

لبيع التحف والحلي فوافقت بهماس. وكان شريكاي

شقيقين مسيحيين، وكان محلها يوجد بميدان الفندق.

واقضى العمل أن أبقى في المحل معها سحابة النهار

فأقبلت على العمل - لأول مرة في حياتي - بنشاط

عمود. وكانت سامية تمضي نفس الوقت في

المستشفى. وقد قالت لي:

- يجب أن تجعل من الحلبة مقامك الدائم، أتمم

رحلتك إذا شئت ولكن لتكن العودة إلى هنا...

- وقد غضب كبار ملاك الأراضي ورجال الصناعة  
والتجارة وعقدوا مع الحاكم اجتماعاً خطيراً يطالبون  
فيه بإعلان الحرب!

فتساءلت بقلق:

- وكيف يكون موقف دار الأمان؟!

فقال الشيخ باسماً:

- كأنك صرت من أهل الحلبة!، الخلاف بين

الحلبة والأمان يدور حول ملكية بعض عيون الماء في

الصحراء الممتدة بيننا وبينهم، سيسوى النزاع لصالح

الأمان فوراً كيلا تفكر في الغدر...

فقلت بقلق:

- إني غريب. ونذر الحرب تتطير من حولي...

- أفضل ما تفعل أن تبقى في الحلبة، وإن طال

المقام فلديك من المال ما يبسر لك عملاً مثمراً...

تخلّيت عن القافلة رغم إشفاعي من أن تكون آخر

قافلة تقوم نحو دار الأمان. شدتني الحلبة إليها بقوة بما

وجدت في جوها من نقاء، وما آنتست في بعض أهلها

من أمل. وقسمت وقتي بين السياحة وأسرة الشيخ

حامد السبكي، أما عروسة فكانت تملق مع نجوم

الليل. وتشبعت الحياة اليومية بخواطر الحرب، واستاء

كثيرون للتنازلات التي نالتها دار الأمان دون أن تسفك

لها نقطة دم. وقال لي مدير الفندق متجهماً:

- رغم توضيحنا بعيون المياه فقد تغدر بنا دار

الأمان...

وتوترت الأعصاب لأقصى حد وانتقلت إلى عداوها

فأصابني ما أصاب الناس من حولي، وأفزعني

الساعات المحدودة التي أمضيها في وحدة بالفندق ما

بين السياحة وأسرة آل السبكي. وثارت أعصابي،

وطالبتني بالإشباع والاستقرار. ولما أعلنت الحلبة

الحرب، وأرسلت جيشها إلى الحيرة، ثارت أعصابي

أكثر، ورحت أنقب في العاصفة الحمراء عن كهف

أمين ألوذ به. وتحذت الناس عن الحرب، ووازنوا بين

القوات والإمكانات، وانحصرت أنا بعنف في التماس

أسباب الإشباع والاستقرار. نسيت كل شيء إلا هذا

الهدف القريب. كآتني في سباق أو مطاردة. وشجعتني

على ذلك جو الأسرة وصدقة سامية الصادقة لي،



## رحلة ابن فقومه ٦٧٥

واقنتعت بتفوقها عليّ في أمور كثيرة فسأني ذلك، أنا الذي لم أر في المرأة إلا متعة للرجل. وخالط ولعي بها حذر وخوف، ولكنّ الواقع طالبني بالتكيف مع الجديد، وملاقاته في منتصف الطريق، حرصاً عليه، وعلى سعادي المتاحة. وقلت لنفسي:

- إنّه لسرّ أن تهني نفسك بهذا السخاء، وإثني لسعيد الحظّ حقاً!

ومداراة لمخاوفي الدفينة قلت لها مرّة:  
- إنك يا سامية كنت لا يقدر بئمن... .

فقلت لي بصراحة:

- وفكرة الرخالة الذي يضحي بالأمان في سبيل الحقيقة والخير تفتني كثيراً يا قنديل... .

وذكرتني بمشروعي النائم. أيقظتني من سبات الراحة والعسل. من الحبّ والأبوة والحضارة. وقلت كأنما لأستحثّ المستنئمة للواقع:

- سأكون أول من يكتب عن دار الجبل.

فقلت ضاحكة:

- لعلك تجدها أبعد ما يكون عن الحلم... .

فقلت بإصرار:

- إذن أكون أول من يبّد الحلم... .

وانطوى الخريف وهلّ الشتاء. ليس برده أقسى من برد وطني ولكنّه غزير الأمطار ولا ترى شمسهُ إلا في أوقات نادرة. وتشتدّ به الرياح وتزجر ويقصف الرعد هائلاً فيحفر أثره في أعماق النفس. وتحذتّ الناس عن الحرب التي لا تريد أن تنتهي وشاركتهم في عواطفهم بصدق فتمنيت أن تنتصر الحرّية على الملك الإله وأن يولد وليدي المنتظر في أحضان الحرّية والأمان. ولحقت سامية بي في بيتنا ذات مساء عائدة من عملها، متألّقة بفرحة أحييت نضارتها التي أضناها الحمل وهتفت:

- أبشر، إنّه النصر!

وراحت تخلع معطفها وتقول:

- سلّم جيش الحيرة، انتحر الملك الإله، أسست الحيرة والمشرق امتداداً للحلبة، وكُتبت الحرّية والحضارة لشعوبها... .

انتقلت الفرحة إلى قلبي، غير أنّ بعض المخاوف المتولّدة من تجارب الماضي جعلتني أتساءل:

فقلت بصراحة أيضاً:

- قد أرى أن أرجع إلى وطني كما رسمت لأنسخ كتابي ولا بأس من الإقامة هنا... .

فقلت بسرور:

- في هذه الحال سأصحبك إلى وطنك في الذهاب والإياب، أما الإقامة الدائمة فلن نجد مثل الحلبة في حضارتها... .

فترددت قليلاً ثمّ قلت:

- يجيّل إليّ أنّ عملي الجديد سيدرّ علينا رزقاً وفيراً، ألا يدعوك ذلك إلى التفكير في الاستقالة من عملك في المستشفى؟

فضحكت ضحكة عذبة وقالت:

- العمل في دارنا مقدّس للمرأة والرجل على السواء، عليك أن تفكّر من الآن فصاعداً كرجل من رجال الحلبة!

فروت إلى بطنها بحنان وقلت:

- إنك في حكم الأمّ يا سامية... .

فقلت بمرح:

- هذا شاتي أنا... .

وتجلّت الأمومة للعين والضيف يطوي آخر صفحاته. ووردت نسائم الخريف مترعة بالرطوبة وظلال السحب. وكلّ يوم أكتشف من عالم زوجتي المحبوبة جديداً. إنها معترّة بنفسها في غير غرور، مغرمة بالمناقشة، مؤمنة صادقة وبقوّة انشرح لها صدري. لعلّ أعجب ما صادفته في رحلتي هو إسلام الحلبة الذي يستعر التناقض بين ظاهره وباطنه. قالت لي:

- الفرق بين إسلامنا وإسلامكم أنّ إسلامنا لم يقفل باب الاجتهاد، وإسلام بلا اجتهاد يعني إسلاماً بلا عقل... .

ذكرني قولها بدروس أستاذي القديم. غير أنّي كنت مغرماً بالأثنى الكائنة فيها وملاحظتها المشبعة لغريزتي المحرومة. طاردت تلك الملاححة بنهم غير مبالٍ بما عداها غير أنّ شخصيتها كانت أصدق وأقوى من أن تذوب في ملاححة الأثنى الناضجة. وجدت نفسي وجهاً لوجه مع ذكاء لماع، ورأي مستنير، وطبيبة ممتازة.

## ٦٧٦ رحلة ابن فطومة

- فقلت بصراحة :  
- إنَّها تذكّرني بالفوضى !  
فقال ضاحكًا :  
- هي كذلك لمن لم يتعامل مع الحرّية .  
فقلت بمرارة :  
- ظننتكم شعبًا سعيدًا ولكنكم شعوب تمزّقها الخلافات الخفيّة . . .  
- لا دواء إلاّ المزيد من الحرّية . . .  
- وكيف تحكّم أخلاقياً على إلغاء اتّفاقيّة عيون المياه؟  
فقال بجديّة :  
- كنت أسّ في زيارة للحكيم مرهم الحلبي فقال لي إنّ تحرير البشر أهمّ من هذه القشور . . .  
فهتفت :  
- القشورا . . . لا بدّ من الاعتراف بأساس أخلاقيّ . . . وإلاّ انقلب العالم إلى غابة !  
فقلت سامية ضاحكة :  
- لكنّه كان وما زال غابة !  
وقال الإمام :  
- انظر يا قنديل إلى وطنك دار الإسلام فإذا تجد به؟ . . . حاكم مُستبدّ يحكم بهواه فأين الأساس الأخلاقيّ؟ ورجال دين يطوّعون الدين لخدمته فأين الأساس الأخلاقيّ؟ وشعب لا يفكر إلاّ في لقمته فأين الأساس الأخلاقيّ؟  
اعترضت حلقي غصّة فسكّث. وعاودتني ذكرى الرحلة فسألت :  
- هل تقوم الحرب قريباً؟  
فقلت سامية :  
- لن تقوم إلاّ إذا شعر أحد الطرفين بأنّه أقوى أو إذا غلبه اليأس .  
وتساءلت حماتي :  
- لعلّك تفكر في الرحلة؟  
فقلت بأساً :  
- يجب أن أطمئنّ أولاً على سامية . . .  
وأنجبت سامية وليدها الأوّل في أواخر الشتاء .  
وبدلاً من أن أتأهب للرحيل استسلمت للحياة الناعمة
- ألاّ يؤدّون ثمن الهزيمة بطريقة ما؟  
فقلت بحماس :  
- مبادئ المرجع واضحة . . . ، ولم يبقَ من عقبة قائمة في طريق الحرّية إلاّ دار الأمان . . .  
فقلت ببراءة :  
- إنَّها على أيّ حال لم تغدر بكم وأنتم تكابدون حرباً طويلة . . .  
فقلت بحلّة :  
- هذا حقّ، ولكنّها عقبة في طريق الحرّية . . .  
وكان يوم عودة الجيش الظافر يوماً مشهودًا .  
خرجت الحلبة رجالاً ونساء لاستقباله ورشقه بالزهور رغم برودة الجوّ وانهالال المطر . وتواصلت الاحتفالات على جميع المستويات أسبوعًا كاملًا . وسرعان ما لاحظت - ما بين الطريق ومحلّ عملي في ميدان الفندق - أنّ حالًا غريبة، مناقضة للأفراح، تسري بقوة، وبلا تردّد، ولا حذر. تطايرت إشاعات عن عدد القتلى والجرحى مصحوبة بالضيق والأسى .  
ووزعت منشورات تتهم الدولة بأنّها ضحّت بأبناء الشعب لا لتحرير شعوب المشرق والحيرة ولكن من أجل مصالح ملاك الأراضي والمصانع والتاجر، وأنّها كانت حرب «قوافل» لا مبادئ. وتلقّيت منشورًا آخر يتهم أصحاب المنشورات السابقة بأنهم أعداء الحرّية وعملاء دار الأمان . ونتيجة لذلك قامت مظاهرات صاحبة تهاجم دار الأمان، وتطعن في اتّفاقيّة التنازل لها عن عيون المياه . واجتمع الحاكم بمجلس أهل الخبرة وصدر قرار بالإجماع بإلغاء اتّفاقيّة عيون المياه، واعتبار العيون ملكيّة مشتركة بين الحلبة والأمان كما كان الحال قديمًا . ومضى الناس من جديد يتحدّثون عن حرب جديدة محتملة بين دارزي الحلبة والأمان!  
وجاء الشيخ السبكي وأسرته للغداء على مائدتي، وجلسنا نتحدث وتبادل الآراء، وقلت للشيخ كالمحتجّ :  
- إذا كان هذا الاضطراب نتيجة لنصر حاسم فكيف كان يكون الحال لو جاء نتيجة لهزيمة؟  
فأجابني بأساً :  
- هذه هي طبيعة الحرّية . . .

## رحلة ابن فطومة ٦٧٧

- يشت من العثور عليك... .
- إنها مدينة كبيرة.
- وكيف كانت حياتك قبل الزواج؟
- فلوّحت بيدها بامتعاض وقالت:
- كان عام معاناة وعذاب!
- فتمتمت:
- يا لسوء الحظ... .
- فقلت باسمه:
- الختام حسن... سنقوم برحلة إلى دار الأمان،
- ومنها إلى دار الجبل، ثم نساfer إلى الهند... .
- فقلت بحرارة:
- لتحلّ بك بركة الله في كلّ مكان!
- ومدّت لي يدها فتصافحنا، وتناولت مشتراها، ثم
- ذهبت بسلام. وجدت نفسي مُطالبًا بإلقاء ضوء على
- الموقف أمام شريكّي. وواصلت عمليّ كاتمًا انفعالاتي،
- مع اعتقاد راسخ بأنّ كلّ شيء قد انتهى. واعترفت
- لسامية بما كان، وببساطة ولا مبالاة. ولم أخلُ من
- شعور بالإثم إزاء ما اضطرمت به صدري من اهتمام
- زائد. اهتزّ اهتزازة عنيفة وتفجّرت من جدرانها ينابيع
- أسى وحنين. غمرته دفقات حارّة من الماضي حتّى
- أغرقتة. ولا أستبعد أنّ الحبّ القديم رفع رأسه ليعث
- من جديد ولكنّ الواقع الجديد كان أثقل وأقوى من أن
- تعبت به الرياح. غير أنّ الرغبة الكامنة في الرحلة
- استيقظت في روعة ووثبت إلى المقدّمة متطلّعة إلى الغد
- بإرادة صلبة لا تلين. وخشيت أن أندفع إلى تنفيذها
- فأجلب على نفسي الظنون، فالتخّذت قرارًا بتأجيلها
- عامًا، على أن أمهد لها في أثناء العام بما يبيحُ الأنفس
- لتقبّلها.
- وقد كان.
- وأذنت لي زوجتي المحبوبة بلا حماس وبلا فتور.
- ووكّلت عنيّ الشيخ الإمام ليحلّ محلّي في التجارة لحين
- عودتي، وخصّصت للرحلة من الدنانير ما يوفر لي حياة
- كريمة. ووعدت بالعودة إلى الحلبة عقب الرحلة، على
- أن أصطحب زوجتي وأبنائي إلى دار الإسلام فأنسخ
- كتاب الرحلة وألقى الباقيين على قيد الحياة من أهلي،
- ثمّ نرجع إلى الحلبة.

ما بين البيت والمحلّ. انغمست في الحلبة، في الحبّ  
ووفرة الرزق والأبوة والصدّاقة وكنوز السماء والحدائق  
التي لا نهاية لحسنها. ما حلمت بشيء أجمل من أن  
يدوم الحال. وتوالت الأيام حتّى صرت أبا لمصطفى  
وحامد وهشام. على أنّي رفضت الاعتراف بالهزيمة،  
وكنت أقول لنفسي في حياء:

- آه يا وطني... آه يا دار الجبل!

وكنت أسجّل بعض الأرقام في دفتر الحسابات بمحلّ  
التحف عندما وجدت أمامي عروسة! ليس حلّيًا ما  
أرى ولا وهماً! هي عروسة ترفل في وزرة قصيرة  
ومطرف مطرّز باللّالئ ممّا ترتديه نساء الطبقة المحترمة  
في فصل الصيف. لم تعد شابة، ولا منطلقة عارية،  
ولكنّها ما زالت مُتوجّهة بجبال وقور محتشم. كأنّها  
معجزة انبثقت من المستحيل. كانت تقلّب بين يديها  
عقدًا من المرجان وأنا أتطلّع إليها في ذهول. وحانت  
منها التفاتة إليّ فالتصقت عينها بوجهي وهما يتّسعان  
ونسيت نفسها كما نسيت نفسي. ناديت مبتهلاً:

- عروسة!

فردّدت بذهول:

- قنديل!

وترامقنا حتّى قرّرنا في وقت واحد أن نفيق من  
ذهولنا وأن نرجع إلى الواقع. قمت إليها فتصافحنا  
متناسين ما حلّ بشريكّي من دهشة. وسألتها:

- كيف حالك؟

- لا بأس، كلّ شيء طيب... .

- مقيمة هنا في الحلبة؟

- منذ تركت الحيرة!

وبعد تردّد سألت:

- وحدك؟

- متزوّجة من رجل بوذيّ، وأنت؟

- متزوّج وأب.

- لم أنجب أطفالاً... .

- أرجو أن تكوني سعيدة... .

- زوجي رجل فاضل وتقيّ وقد اعتنقت دينه... .

- متى تزوّجت؟

- منذ عامين... .

وعمري، وما أحمل من دنائير، وعن تاريخ رحلتي  
والهدف منها. ولدت بالصدق المطلق فقال الرجل:  
- سأعتريك من أهل الحلبة بعد أن تقبلتها دارًا  
للعمل والإقامة الزوجية.  
فلم أعترض، فقال:  
- سنسمح لك بإقامة عشرة أيام وهي كافية لها  
يريده السائح.

فسألت:

- وإذا طابت لي الإقامة ورجبت في مدها؟  
- في تلك الحال تقدم طلبًا برغبتك لننظر فيه،  
ونقرر قبوله أو رفضه.  
فأحنيت رأسي راضيًا مخفيًا في الوقت نفسه دهشتي،  
فرجع يقول:

- وسنعيّن لك مرافقًا ملازمًا...

فسألته:

- هل يعرض عليّ ذلك لأقبله أو أرفضه؟  
- بل هو نظام متبع لا مفرّ منه لخير الغرباء!  
وصقّق بيديه فدخل الحجرة رجل قصير في الستين  
يرتدي نفس الملابس المكوّنة من سترة كأنها جبة قصيرة  
ووزرة تصل إلى الركبتين وصندل وطاقية كأنها خوذة  
من قطن أو كتّان. قال الموظف وهو يردّد رأسه بيننا:  
- قنديل محمّد العنّابي سائح... فلوكة مرشدك  
ومندوب مركز السياحة.

وغادرنا المركز وفلوكة يتبعني صامتًا كأنه ظلّي وقد  
سلبني روح المغامرة والحريّة. وخطا خطوة واسعة  
فصار إلى جانبي فخضنا الظلام معًا مستأنسين بأصواء  
النجوم ومشاعل حراس الأمن. قال باقتضاب:  
- نحن في الطريق إلى الفندق...

ومن خلال ميدان مرّبع اقتربنا من الفندق الذي  
لاح على ضوء المشاعل فختمًا عظيمًا لا يقلّ روعة عن  
فندق الحلبة. أمّا الحجرة فكانت أقلّ من المساحة وأكثر  
بساطة ولكن لا ينقصها شيء من أسباب الراحة، كما  
كانت بالغة النظافة. ولاحظت وجود سريرين بها جنبًا  
إلى جنب فتساءلت بقلق:

- ما معنى وجود السرير الآخر؟

فأجاب فلوكة بهدوء:

وأشبع أشواقني من سامية ومصطفى وحامد  
وهشام، وتركت زوجتي وهي تستقبل في جوفها حياة  
جديدة...

## دار الأمان

تحركت القافلة تشقّ ظلمات الفجر، مستقبلة طلّاح  
الصيف. الشيخ السبكي قال لي عن جوّ دار الأمان:  
- شتاؤها قاتل، خريفها قاسٍ، ربيعها لا يُحتمل،  
فعليك بالصيف...

وكالعادة ذكّرني القافلة بالأيّام الماضية ولكنّي  
أسميت كهلاً يتأثر بقدر. وشعشع ضوء النهار فكشف  
صحراء جديدة، كثيرة التلال، تحدّ جوانبها وديان  
منخفضة وتنتشر بأرجائها نباتات شوكة كالقناذل تميّز  
بخضرتها اليانعة ووحشيتها المثيرة. وبعد أسابيع من  
السير بلغنا منطقة مياه العيون، وهي كثيرة، ولكنها لا  
تبرّر نذر الحرب التي تهدّد بها سلام دارين كبيرتين  
كالحلبة والأمان. وتواصل السير في أرض آخذة في  
الارتفاع التدريجيّ حتّى عسكرنا في هضبة النسر، وقال  
قائد القافلة:

- سوف نتحرّك عند منتصف الليل لنصل فجراً إلى  
سور دار الأمان...

وواصلنا السير في جوّ لطيف حتّى تراءى لنا السور  
العظيم على ضوء المشاعل. وقفنا أمام البوابة. تقدّم  
منا رجل بين حاملي المشاعل وصاح بصوت غليظ:  
- أهلاً بكم في الأمان عاصمة دار الأمان، أهلاً  
بكم في دار العدالة الشاملة!

وصمت الرجل دقيقة ثمّ قال:

- سيذهب التجار مع مرشد إلى المركز التجاريّ أمّا  
الرحالة فيذهبون إلى مركز السياحة.

لم أذهب إلى فندق مباشرة كما فعلت في المشرق  
والخيرة والحلبة ولكنّي تبعت المرشد إلى دار رسميّة  
صغيرة متينة البنيان، نظيفة، تقوم في رعاية حراس  
مسّاحين، واقترنت إلى حجرة مضاءة بالمشاعل  
يتصدّرها موظف وراء مكتب، وعلى جانبيها حارسان  
كأنهما تمثالان. مثلت أمامه فسألني عن اسمي،

رحلة ابن فطومة ٦٧٩

- أتصدّق حقًا أنّ إلهك يهّمه أن تشرب خمرًا أو لا تشربها؟

ولسّما رأى تغيّر وجهي قال بركة:

- معذرة!

وغادرنا الفندق معًا للقيام بجولتنا السياحية الأولى. ألقىت نظرة شاملة ثم ارتدّ إلى طرفي فيها يشبه الخوف. هالني الخلاء. الميدان وما يتفرّع عنه من شوارع، كلّها خالية، لا أثر فيها لإنسان. مدينة خالية، مهجورة، ميتة. إنّها بالغة في نظافتها وأناقتها وحسن هندامها، في عمائرها الضخمة، وأشجارها الباسقة، ولكن لا أثر للحياة بها. نظرت إليه منزعجًا وسألته:

- أين الناس؟

فأجاب بهدوئه المثير:

- إنّهم في أعمالهم، نساء ورجالًا...

فسألته بدهشة:

- ألا توجد امرأة غير عاملة؟... ألا يوجد

عاطل؟

- الجميع يعملون، لا يوجد عاطل، لا توجد امرأة غير عاملة، أمّا العجائز والأطفال فسوف تراهم في حدائقهم...

فقلت غير مصدّق:

- الحلبة تموج بالنشاط ولكنّ شوارعها تكتظّ دائمًا بالناس...

فتفكّر مليًا وقال:

- نظامنا لا يشبه له بين النظم، كلّ فرد يعدّ لعمل ثمّ يعمل، وكلّ فرد ينال أجره المناسب، الدار الوحيدة التي لا تعرف الأغنياء والفقراء، هنا العدل الذي لم تستطع دار أخرى أن تحقّق جزءًا منه... وأشار إلى العمائر ونحن نتنقل من شارع خالٍ إلى آخر:

- انظر، كلّها عمائر عظيمة ومتشابهة، لا توجد سرايات ولا دور منفردة، ولا عمائر عظيمة وأخرى متوسطة، الفروق في الأجر يسيرة، الجميع متساوون إلاّ من يميّزه عمله، وأقلّ أجر يكفي لإشباع ما يحتاجه الإنسان المحترم من مأوى وغذاء وكساء وتعليم وثقافة وتسليّة أيضًا...

- إنّته لي...

فسألته باحتجاج لم أعن بإخفائه:

- أأنتم معي في حجرة واحدة؟

- طبعًا، ما معنى أن نشغل حجرتين إذا كان يكفي

أن نشغل حجرة واحدة؟

فقلت باستياء:

- قد يطيب لي أن أنفرد بحجرة!

فقال دون أن يخرج عن هدوئه:

- ولكن هذا هو النظام المتبع في دارنا!

فتساءلت متدّمّرًا:

- إذن لن أحظى بالحرّيّة هنا إلّا في دورة المياه.

فقال ببرود:

- ولا هذه أيضًا!

- أتعني ما تقول حقًا؟

- لا وقت لدينا للهدر.

فقطّبت هاتفًا:

- الأفضل أن ألغي الرحلة.

- لن نجد قافلة قبل مرور عشرة أيّام.

وراح يغيّر ملابسه ويرتدي جلباب النوم ومضى نحو سريره وهو يقول:

- كلّ شيء هنا جديد فهو غير مألوف فتحرّز من أسر العادات السيّئة...

وانهزمت أمام الواقع فغيّرت ملابسني وركنت إلى فراشي، وهرب منّي النوم طويلاً من شدّة الانفعال حتّى غلبني التعب.

ومع الصباح بدأ الحرج، غير أنّي أمرّ على أشياء مرّ الكرام ثمّ قاذني فلوكة إلى بهو الطعام فجلسنا إلى مائدة صغيرة وتناولنا فطورًا من اللبن والفسطائر والبيض والفاكهة المسكّرة. وهو يمتاز بالجودة والكفاية فالتهمته تاركًا قدحًا صغيرًا من الخمر لم أمسه. قال لي فلوكة:

- ستقدّم الخمر مع كلّ وجبة وهي ضروريّة.

فقلت بإصرار:

- لا حاجة بي إليها.

فقال بهدوئه الملازم:

- عرفت كثيرين من المسلمين يدمنونها.

فابتسمت ولم أعلّق فقال متسائلًا:

## ٦٨٠ رحلة ابن فلكوة

ويتوجه كل بحسب استعداده، وكما يُرسم له، وينوب المرثون والمرثيات عن الآباء والأمهات المنهمكين في أعمالهم...

فقلت ببراءة:

- ولكن لا شيء يعوّض عن حنان الوالدين...

فقال فلكوة بهدوء:

- جكم وأمثال لم يعد لها معنى في دار الأمان... لم يتسع النهار لزيارات جديدة فتناولنا الغداء في الفندق وكان مكوّنًا من شواء وقرنبيط وخبز وتّفاح، ومضى بي إلى الميدان الكبير قبيل الغروب، وقفنا تحت شجرة حور وهو يقول:

- آن لك أن ترى أهل الأمان...

كان ثمة أربعة شوارع كبيرة تصبّ في الميدان، ومع الغروب تجلّت بشائر البشر كأنها ساعة البعث، وسرعان ما راح كلّ شارع يقذف بجموع لا يحيط بها الحصر من النساء والرجال، لكلّ طائفة زيّ بسيط واحد كأنها فرقة جيش، ورغم أمواجهم المتتابعة الهادرة تقدّموا في نظام، لا يندّ عنهم أكثر من همس، بوجوه جادة ومرهقة، وتخطى مسرعة، كلّ إلى هدفه يسير، للقادمين جانب وللذاهبين جانب، لا اضطراب ولا مرح أيضًا، صورة مجسّدة للمساواة والنظام والجدّيّة أثار إعجابي بقدر ما بعثت فيّ القلق والحيرة. وبلغ الزحام ذروته ثمّ مضى يخفّ وثيدًا ولكن دون توقّف حتى استعاد الخلاء مملكته الشاملة مع هبوط الظلام.

سألت فلكوة:

- إلى أين؟

- المساكن!

- ثمّ يرجعون كرتة أخرى للسهر؟

- بل يبقون حتى الصباح. أما الملاهي فتُبعث فيها

الحياة ليلة العطلة الأسبوعيّة...

فسألت بقلق:

- أيّني هذا أنّ ليالينا ستقضى في الفندق؟

فقال دون مبالاة:

- في فندق الغرباء ملهى تجد فيه ما تشاء من

شراب ورقص وغناء...

عزّ عليّ التصديق، وقلت ما هو إلا كلام يحفظه عن ظهر قلب، غير أنّ منظر الشوارع والعمائر راعني، إنّها لا تقلّ في هندستها عن الحلبة نفسها. ومضى بي فلكوة إلى حديقة مترامية، يبلغها القاصد فوق جسر كبير مقام على نهر عريض. لم أشهد حديقة في اتّساعها وتنوّع أشجارها وأزهارها. قال فلكوة:

- إنّها حديقة من طعن بهم السنّ فيما وراء مرحلة النشاط والعمل.

رأيت الطاعنين في السنّ من الجنسين، يجدون في الحديقة مرتادًا للنزهة، وملاعب رياضيّة خفيفة، ومجالس للسمر والغناء.

- في كلّ مدينة حديقة مماثلة...

قال ذلك في ارتياح ومباهاة فقلت لنفسي إنّهُ نظام حسن ورعاية إنسانيّة لم أجد لها مثيلًا في الدور السابقة. ولفت نظري كثرة المعمّرين تمّن جاوزوا الثمانين على أقلّ تقدير، ولم أخفِ هذه الملاحظة عن فلكوة فقال من فوره:

- يمتاز الغذاء عندنا بوفرة عناصره الغذائيّة الأصليّة مع تجنّب الترف، وممارسة الألعاب الرياضيّة في أوقات معيّنة خلال ساعات العمل...

ومن طرائف ما شاهدت في الحديقة عروسان يقضيان شهر العسل، أرمل وأرملة في الحلقة الثامنة، وكانا يجلسان على شاطئ بحيرة صناعيّة مدليّين ساقيهما في مائتها المكتسي بلون أخضر بما ينعكس على سطحه من أوراق الشجر التي تحنو فوقه... واستأنست بالبشر فمكثت في الحديقة مدّة طويلة حتى قال لي فلكوة:

- آن لنا أن نزر حديقة الأطفال...

وكان يفصل بينها وبين حديقة العجائز ميدان متسع يكفي لأن تُنشأ فيه مدينة صغيرة وترامت إلينا أصوات الصغار ونحن نقرب منها، وكانت مترامية الأطراف كأنها دار مستقلّة، مكتظة بسكّانها ما بين الطفولة والصبا، وبها ملاعب لا حصر لها، وأركان للدراسة والتربية، ومرثون ومرثيات، فسألت صاحبي:

- أهي للهو أم للتربية؟

فأجاب:

- للثنين معًا، وهنا تكتشف المواهب المختلفة،

## رحلة ابن فطومة ٦٨١

- إنِّي رحَّالة كما ترى، وقد جرت العادة في بلادِي أن يسجِّل الرِّحالة أنباء رحلته، وعلى ذلك تلزمي معلومات كثيرة لا تكفي المشاهد للإلمام بها.

فأصغى إليَّ بهدوء دون أن ينبس فقلت:

- يهمني أن أجتمع بحكيم من حكماء داركم فهل تستطيع أن تحقِّق لي رغبتِي؟

فأجاب:

- حكماء دار الأمان مستغرقون بواجباتهم ولكنِّي أستطيع أن أمدِّك بما تشاء من معلومات!

فهضمت خيبي بسرعة مصمِّمًا على خوض التجربة. قلت:

- أريد أن أعرف نظامكم السياسي، كيف تحكمون؟

فأجاب دون تردُّد:

- لنا رئيس منتخب، تنتخبه الصفوة التي قامت بالثورة، وهي تمثِّل صفوة البلدان جميعًا من علماء وحكماء ورجال الصناعة والزراعة والحرب والأمن، ويتولَّى منصبه بعد ذلك مدى الحياة، ولكنهم يعزلونه إذا انحرف!

ذكرني ذلك بنظام الخلافة في دار الإسلام ولكنه ذكرني أيضًا بمآسي تاريخنا الدامي فسألته:

- ما هي صلاحيَّاته؟

- إنَّه المهيمن على الجيش والأمن والزراعة والصناعة والعلم والفنِّ، إذ إنَّ الدولة عندنا هي صاحبة كلِّ شيء، والرعايا موظفون كلٌّ يعمل في حقله لا فرق في ذلك بين الكنَّاس والرئيس...

- ألا يعاونه أحد؟

- مستشاروه، والصفوة التي انتخبته، ولكنه صاحب الرأي الأخير، ولذلك فنحن في مأمن من الفوضى والتردُّد...

فتردَّدت قليلاً ثم قلت:

- ولكنه أقوى من أن يُجاسَب إذا انحرف...؟

فخرج من بروده لأوَّل مرَّة وقال بحدَّة:

- القانون هنا مقدَّس!

ثم مواصلاً قبل أن أنبس:

- انظر إلى الطبيعة، أساسها القانون والنظام لا الحرِّيَّة!

وقد سهرنا به ليلتنا، فشهدت رقصًا غريبًا وسمعت غناءً جديدًا، وبعض الألعاب السحرية، ولكنَّها لم تكن مختلفة اختلافًا جذريًا عمَّا شهدت وسمعت في الحلبة...

وفي اليوم التالي زرنا مصانع ومتاجر ومراكز للتعليم والطب. الحقُّ أنَّها لم تكن تقلُّ عن أمثالها في الحلبة عظيمة ونظامًا وانضباطًا، واستحققت دائمًا إعجابي وتقديري وهزَّت عقيدتي الراسخة في تفوق دار الإسلام في الحضارة والإنتاج، غير أنَّي لم أرتح لتجهُّم الوجوه وصلابتها وبرودها المخيم، هذه السجايا التي جعلت من مرافقي فلوكة شخصًا لا غنى عنه ولا مسرَّة فيه.

وزرنا قلعة تاريخية جليَّة الشأن حلَّيت جدرانها بالنقوش والصور. قال فلوكة:

- في هذه القلعة دارت آخر معركة انتهت بهزيمة الملك المستبدِّ وانتصار الشعب...

ومضى بي إلى بناء ضخم كالمعبد وهو يقول:

- إليك محكمة التاريخ، هنا حوكم أعداء الشعب وقضي عليهم بالموت...

فسألته عمَّن يعني بأعداء الشعب. فقال:

- ملأك الأرض وأصحاب المصانع والحكَّام المستبدِّون! لقد انتصرت الدولة بعد حرب أهلية طويلة ومريرة.

وتذكَّرت ما أخبرني به أستاذي الشيخ مغاغة الجبيلي من أنه لم يستطع أن يواصل رحلته بسبب نشوب حرب أهلية في دار الأمان. وتذكَّرت أيضًا تاريخ الحلبة الدامي في سبيل الحرِّيَّة. وهل كان تاريخ الإسلام في دارنا دون ذلك دموية وآلامًا؟ فإذا يريد الإنسان؟ وهل هو حلم واحد أو أحلام بعدد الدور والأوطان؟ وهل حقًّا وُجد الكمال بدار الجبل؟!

وسألني فلوكة:

- هل تمضي الليلة في الملهى كأمس؟

فأعلنت عن فتوري بالصمت فقال مشجعًا:

- غدًا تحتفل الدار بعيد النصر، وهو يوم مشهود! وتناولنا العشاء ثم جلسنا في بهو المدخل بالفندق

نلتقى نسائم الصيف اللطيفة. وقلت لفلوكة:

من أيام. جمال الوجوه في الحلبة أرفع درجة بلا شك  
ولكن المساواة هنا تدعو للعجب، ولذلك تقرأ في  
العين طمانينة راسخة وشيئا غامضا ينذر بالحمول.  
ونفخ في بوق إيداناً ببدء الاحتفال.

ومن أقصى نقطة في محيط الدائرة المواجهة للقصر  
تقدم موكب حاملات الورود، من فتيات متألقات  
بالشباب، يسرن في أربعة صفوف نحو القصر، ثم  
وقفن في طابورين متقابلين أمام مدخله الكبير.  
واندفعت الجموع تردد نشيداً واحداً، في قوة مؤثرة  
وجمال أيضاً. تصاعد الصوت في انسجام جامعاً  
الحشود في لحظة وجدانية واحدة، مستوحاة من  
ذكريات حميمة مشتركة. وانتهى بتصفيق حاد استمر  
دقيقتين. ومسني فلوكة بكوعه وهمس في أذني:  
- الرئيس قادم...

نظرت نحو القصر فرأيت جماعة تتقدم من أعماق  
باحته، وكلما تقدمت وضحت معالمها. الرئيس يتقدم  
تبعه جماعة من الصفوة الحاكمة. وراح يمشي بحذاء  
محيط الدائرة ليتبادل التحيات مع الجموع عن كثب.  
ولما مرّ أمامي لم يكن يفصله عن موقفي أكثر من  
أشبار. رأيت متوسط الطول مفرطاً في البدانة غليظ  
القسامات واضحها. ولم تكن حاشيته دونه في البدانة  
فلفت ذلك انتباهي بشدة، وأيقنت أنّ الرئيس ورجاله  
يحظون بنظام غذائي خاص يشدّ عتاً تخضع له جموع  
الشعب. وتحمّلت ما يمكن أن يدور بيني وبين فلوكة  
من حوار عن ذلك. سيقول لي إنّ نظام الأمان لا يخلو  
من امتيازات يخصّون بها الأفراد تبعاً لتفوّقهم في العلم  
والعمل، وإنه من الطبيعي أن يكون على رأس هؤلاء  
الرئيس المنتخب ومعاونوه. وإنّ هذه الامتيازات تُمنح  
في حدود ضيقة لا تسمح بوجود فوارق طبقية حقيقية  
ولأسباب معقولة لا صلة لها بامتيازات الأسر والقبائل  
والطبقات في المجتمعات الأخرى التي يسودها الظلم  
والفساد. والحقّ أنّي لم أجد في ذلك ما يخرق القانون  
العادل السائد في دار الأمان، ولم أجد به وجه شبه بما  
يجري في الدور الأخرى وعلى رأسها دار الإسلام  
نفسها من تفاوت فاحش ظالم في معاملة الناس. وخطر  
لي أنّي أرى الأمور بوضوح أكثر من ذي قبل. أجل،

- ولكنّ الإنسان من دون الكائنات يتطلّع دائماً إلى  
الحرية...

- إنه صوت الشهوة والرهيم، لقد وجدنا أنّ  
الإنسان لا يطمئن قلبه إلا بالعدل فجعلنا من العدل  
أساس النظام، ووضعنا الحرية تحت المراقبة...

- أهذا ما يأمر به دينكم؟

- نحن نعبد الأرض باعتبارها خالق الإنسان  
ومدّخر احتياجاته.

- الأرض؟!!

- وهي لم تقل لنا شيئاً ولكنها خلقت لنا العقل  
وفيه الغنى عن أيّ شيء آخر.

ثمّ واصل بكبرياء:

- دارنا هي الدار الوحيدة التي لن تصادفك فيها  
أوهام أو خرافات!

استغفرت الله في سرّي طويلاً. قد يجد الإنسان  
لوثية دار المشرق عذراً، ومثلها دار الحيرة، ولكنّ دار  
الأمان بحضارتها الباهرة كيف تعبد الأرض؟...  
وكيف تبوّئ عرشها رجلاً منها فتنزله منزلة الملك  
الإله؟. إنّها دار عجيبة. أثارت إعجابي لأقصى حدّ،  
كما أثارت اشمئزازي لأقصى حدّ. ولكن ساعني أكثر ما  
آل إليه حال الإسلام في بلادي، فالخليفة لا يقلّ  
استبداداً عن حاكم الأمان، وهو يمارس انحرافات  
علانية، والدين نفسه تهزأ بالخرافات والأباطيل، أمّا  
الأمّة فقد افترسها الجهل والفقر والمرض، فسبحان  
الذي لا يُحمد على مكروه سواه. ونمت ليلتها مرهقاً  
ورأيت أحلاماً مزعجة. وأشرق يوم العيد. ولما كان  
يوم عطلة عامة فقد تبدّت العاصمة حيّة دافئة طيلة  
النهار. وقادني فلوكة إلى ميدان القصر. رأيت القصر  
قلعة منيفة، ونخفة معمارية لا نظير لها، يمتدّ أمامه  
ميدان هائل يتسع لألوف الألوف من البشر. اتّخذنا  
موقماً وسطاً وأخذ الناس يتوافدون ويقفون في نظام  
صفوفاً صفوفاً فوق محيط الدائرة. تفرّست في الوجوه  
بحبّ استطلاع شديد. يا لهم من صور مكررة في  
الملابس واللون والوزن. بشرة لم تلفحها شمس  
محرقة، وقامات قوية ونحيلة معاً، ووجوه أشرفت  
بالابتسام تحية للعيد رغم تجمّعها الدائم فيما عدا ذلك



## رحلة ابن فلكومة ٦٨٣

ودعاني للشرب، ولما لم أستجب اضطرر إلى الاعتدال وهو كظيم. وغادرنا السيرك عند منتصف الليل، وسرنا على مهل تحت ضوء القمر في شوارع معمورة بالترنحين، وطاب لي الحديث فقلت:

- ما أجل هوكم!

فقال باسماً لأول مرة إما مناسبة العيد أو الخمر:

- وما أجل جدنا!

ورآني أبتمس فلم يرتجح لابتسامتي وقال:

- أترى الحياة في وطنك الأول أو وطنك الثاني خيراً

من حياة الأمان؟

فقلت بمرارة:

- دع وطني الأول فأهله خانوا دينهم...

فقال بخشونة:

- إذا لم يتضمّن النظام الوسيلة لضمان تطبيقه فلا

بقاء له.

- إننا لم نفقد الأمل بعد.

- إذن لم كانت الرحلة إلى دار الجبل؟

فقلت بفتور:

- العِلم نور...

فقال ساخراً:

- ما هي إلا رحلة إلى لا شيء...

وتتابعت الأيام مضجرة. وأخذ الناس في الفندق

يتحدّثون عن العلاقة بين الحلبة والأمان بنبرة إشفاق

وتشاؤم. وسألت فلوكة عمّا يكمن وراء ذلك فقال:

- في حريمهم مع الحيرة تظاهروا بالاعتراف بحقنا في

عيون المياه، ولما انتصروا سحّبوا اعترافهم بكلّ خصّة

ودناءة، واليوم يقال إنهم يجندون جيشاً من البلدين

اللذين استولوا عليها، المشرق والحيرة، ولهذا يعني

الحرب...

واستحوذ عليّ القلق فسألته:

- وهل تقوم الحرب حقاً؟

فأجاب ببرود:

- نحن على أتمّ استعداد...

فحامّ فكري حول سامية والأبناء، وتذكّرت مأساة

عروسة وأبنائها. وانتظرت على لهف انتهاء الأيام

العشرة. ومرّ يوم ويوم دون حدث فاطمأنّ قلبي

إنّ لدار الحلبة هدفاً وقد حقّفته بدقّة، وإنّ كذلك إدار الأمان هدفاً وقد حقّفته بدقّة، أمّا دار الإسلام فهي تعلن هدفاً وتحقّق آخر باستهتار وبلا حياء وبلا محاسب، فهل يوجد الكمال حقاً في دار الجبل؟!

رجع الرئيس إلى منصّة أمام القصر فصعد إليها.

ومضى يخاطب شعبه، عارضاً عليه تاريخ ثورته،

وموقعة نصره، وما أنجز له في مجالات حياته المختلفة.

ركّزت على متابعة العواطف المتبادلة بين الرجل

والناس، فلم أشكّ في حماسهم، وتلاقيهم في آمال

واحدة، ورؤية متائلة. ليسوا بالأمة المغمورة المغلوبة

على أمرها، ولا الفاقدة الوعي والتربية، لعلّ ما

ينقصها شيء هامّ، لعلّ سعادتها تشوبها شائبة، رأيتها

أمة متهاسكة وذات رسالة لا تخلو من إيمان من نوع

ما.

عندما انتهى الرئيس من خطابه اخترقت الميدان ثلّة

من الفرسان شاهرة رماحها، وقد غرست في أسنّة

الرماح رعوس آدميّة منفصلة عن أجسادها. غاص

قلبي من فظاعة المنظر ونظرت نحو فلوكة، فقال

باقتضاب:

- خونة متمرّدون!

لم يتّسع الوقت للحوار. وعاد الشعب يردّد النشيد،

وانتهى الاحتفال بهتاف شامل.

وعدنا إلى الفندق لتناول الغداء. وفي أثناء ذلك

قال فلوكة:

- أزعجك منظر الرعوس المقطوعة؟... ضرورة

لا مفرّ منها، نظامنا يطالبنا بالألا يتدخّل إنسان فيها لا

يعنيه وأن يركّز كلّ فرد على شئونه، فالمهندس لا يجوز

أن يثرثر في الطبّ، والعامل لا يجوز أن يخوض في

شئون الفلّاح، والجميع لا شأن لهم بالسياسة الداخليّة

أو الخارجيّة، ومن تمرّد على ذلك فجزاؤه ما رأيت!

أدركت أنّ الحرّيّة الفرديّة عقوبتها الإعدام في هذه

الدار، واعتزّيتي لذلك كتابة شديدة، وحنقت على

فلوكة لإيمانه المتعصّب بما يقول.

وسهرنا ليلاً في سيرك كبير اكتظّ بالناس، وشهدنا

من أفانين الألعاب والغناء والرقص ما يسلي ويسرّ،

وتناولنا عشاءً من الشواء والفواكه، وشرب فلوكة،

وهناك حتى أطلقت عليها صحراء الغزلان. وامتدّ السفر شهرًا فعانينا عناء غير ذي عنف يبشّر بالحسنى. وفي هزيع من الليل بشّرنا صوت بأتنا بلغنا حدود دار الغروب. وكان القمر نصفًا، والجوّ مفضضًا ولكنّي لم آر سورًا، ولا مندوب الجمرك. وقال صاحب القافلة ضاحكًا:

- هذه دار بلا حرّاس فادخلوها بسلام آمين... .

فسألته:

- وكيف أعرف السبيل إلى فندق الغرباء؟

فقال وهو يواصل الضحك:

- سينبتك نور النهار بما تسأل عنه... .

وانتظرت مشوقًا حتى أشرقت الشمس. لعلها أجل شمس عرفتها في حياتي، فهي نور بلا حرارة أو أذى، يزيقها نسيم عليل ورائحة طيبة. وترامت أمامي غابة غير محدودة. ولكن لم يقع بصري على بناء، كوخ أو بيت أو قصر، كما لم أشاهد أحدًا من الناس. لغز جديد عليّ أن أكتشفه ولكن ماذا أصنع بمتاعي؟. ورجعت إلى صاحب القافلة فقال:

- ضعه في مكانه ولا تخف، اذهب آمنًا وعُد آمنًا... .

واخترت موضعًا قريبًا من عين الماء فجعلتها علامة، ووضعت الحقائق، وأودعت الدنانير حزامًا تمنطقت به تحت الجلباب. ورحلت أتجوّل مستكشفًا. أسير فوق أرض معشوشبة، نثرت على أديمها أشجار النخيل والفاكهة، تتخللها عيون مياه وبحيرات. وخیل ليّ في أول الأمر أنها خالية من البشر، حتى رأيت أول آدمي متربّعًا تحت نخلة، كهلاً أبيض الشعر مرسل اللحية، صامتًا وناعسًا أو غائبًا، متوحّدًا بلا قرين أو قرينة، فدنوت منه كآتي عثرت على كنز وقلت له:

- السلام عليك يا أخي... .

ولكن لم يبيد عليه أنه سمعني فكتررت السلام وقلت:

- إني رحّالة وفي حاجة إلى كلمة تضيء لي الطريق... .

فلم تندّ عنه نامة وظلّ غائبًا في ملكوته فسألته:

وأخذت أستعدّ للرحيل. وفي تلك الآونة خطر لي أن أسأل فلوكة عن الرخالة البوذّي وزوجته عروسة اللذين زارا الأمان منذ عام فأكد لي أنه يمكن أن يمدي بمعلومات عنها عندما نذهب إلى المركز السياحيّ في آخر أيام الإقامة. وأنجز الرجل وعده، وراجع الدفاتر بنفسه، وقال لي:

- مكث الزوجان في دار الأمان عشرة أيام ثم سافرا في القافلة الذاهبة إلى دار الغروب، غير أنّ الزوج مات في الطريق ودُفن بالصحراء أما الزوجة فواصلت رحلتها إلى دار الغروب... .

هزّي الخبر، وتساءلت عن مكان عروسة وحالها، وهل أجدها في دار الغروب أو تكون رحلت إلى دار الجبل أو رجعت إلى المشرق؟! وعند الفجر كنت ومتاعي في محطّ القافلة. صافحت فلوكة وقلت له:

- أشكر لك مرافقتك لي الطيبة وما أسديته ليّ من فوائد.

فشدّ على يدي صامتًا. ثم همس في أذني:

- قامت الحرب بين الحلبة والأمان... .

اضطربت لدرجة منعتني من الاستمرار في الكلام. حتى البادئ بالحرب لم أسأل عنه. وهيمنت عليّ ذكريات سامية والأبناء، وحتى الوليد المنتظر... .

## دَارُ الْغُرُوبِ

انغمست القافلة في ظلمات الفجر وأنا أنظر إلى لا شيء بقلب مشحون بالقلق. لم يُكتب لي أن أرحل مرّة بقلب مطمئنّ ونفس صافية ولكن تغشاني دائميّ المخاوف. خيالي المحموم يحوم حول الحلبة داعيًا بالسلامة لسامية ومصطفى وحامد وهشام، متسائلًا في حيرة عن نتيجة ذلك الصراع الدامي بين أقوى دارين. ورفعت بصري إلى حديقة السماء المزهّرة وغمغمت «كن معنا يا إله السماوات والأرض». وأشرقت الأرض بنور ربّها فرأيت صحراء مترامية مستوية وجوًا صيفيًا حنونًا، كما رأيت الغزلان تثب هنا

## رحلة ابن فطومة ٦٨٥

الغناء وهم يرددون الصوت في حنان بالغ. جعلت أقترب حتى قبعت وراءهم، ونظرت إلى الرجل فأريت شيئاً عارياً إلا مما يستر العورة كأنَّ هالة من نور تحديق بوجهه الوضيء وعينيه الجذابتين. وُحُتَم الغناء، أو الدرس، فقام الرجال والنساء وتفرَّقوا في هدوء. لم تكن عروسة بين النساء، ولم أعرُ عليها أمس ولكن راحتها كانت تخالط في الجوّ روائح الفاكهة والأعشاب الخضراء. لم يبقَ في المكان إلا الشيخ وأنا. وقفت في خشوع بين يديه فنظر إليّ بعينه الصافيتين فشعرت بأنني موجود. تلاشت الغربة التي خنقتني في الغابة أمس فانتميت إلى دار الغروب ولم تضع الرحلة سدى. رفعت راحتي إلى جيبني تحيةً وقلت:

- إنك ضالتي يا مولاي.

فسألني وهو يتفرّس في وجهي:

- قادم جديد؟

- نعم.

- ماذا تريد؟

- رحالة يمضي من دار إلى دار وراء المعرفة.

فأغمض عينيه دقيقة ثم فتحها وقال:

- غادرت دارك للمعرفة، ولكنك حدثت عن الهدف مرّات، وبددت وقتاً ثميناً في الظلام، وقلبك موزّع بين امرأة خلّفتها وراءك وامرأة تجرّد في البحث عنها!

ذهلت حقاً ورمقته بخوف ثم قلت:

- كيف تأق لك أن تقرّ الغيب؟

فقال ببساطة:

- هنا يفعلون ذلك وأكثر.

- أنت حاكم هذه الدار؟

- لا حاكم لهذه الدار، وأنا مدرّب الحائرين...

فقلت بحرارة:

- زدني فهماً!

- كلّ شيء مرهون بوقته...

فأومأت إلى ما حولي وقلت:

- لماذا لا يرددون تحيةً أو يسمعون كلمة؟

فقال بهدوء:

- حياتهم هنا موافقة للحقّ ومفارقة للخلق.

- ألا تريد أن تتحدّث معي؟

فلم يظهر عليه أيّ ردّ فعل وكأنّما لا وجود لي فأيسني منه، فتحوّلت عنه مرغماً وواصلت السير. وكلّما أوغلت صادفني آخر على مثل حاله، رجل أو امرأة، فأبذل المحاولة من جديد ولا ألقى إلاّ الرفض أو التجاهل، حتى خيّل إليّ أنّها غابة من الصمّ البكم العمى. ألقى نظرة شاملة مفتونة على الجمال من حولي وغمغمت «إنّها جنة بلا ناس». تناولت من الفواكه الساقطة على الأرض حبّات حتى شبع، ثم رجعت إلى متاعي فأريت التجار وهم يملثون أجولتهم بالفاكهة بلا حساب ولا رقيب. ولما رأني صاحب القافلة ضحك وقال:

- هل استطعت أن تستنطق أحداً منهم؟

فحرّكت رأسي بالنفي فقال:

- إنّها جنة الغائبين، لكنّ خيراتها مبذولة بلا

حساب...

فسألته باهتمام:

- ماذا تعرف عنهم؟

فقال دون مبالاة:

- يوجد في الغابة شيخ يقصده القاصدون فلعله يمدّك بما تسأل عنه...

فأحيا أمل الرحالة من جديد فقلت له وأنا ثمل بنشوة فوز:

- ما أجمل جوّ الصيف هنا!

فقال الرجل:

- هكذا في جميع الفصول!

ونفضت مع الشمس نشيطاً متفائلاً فسمعت أحد التجار يقول:

- سنظّل نذهب ونجيء ما بين الأمان والغروب حتى تنتهي الحرب وتفتح الطرق للقوافل من جديد...

وانطلقت إلى عمق الغابة أتقدّم ساعات بلا توقّف حتى ترامى إليّ صوت غناء جماعيّ. انجّبت نحو الصوت حتى تراءى لعينيّ منظر جماعة من نساء ورجال تجلس فوق الأرض على هيئة هلال، بين يدي شيخ هرم يتخذ مجلسه تحت شجرة وارفة، وكأنّه يعلمهم

## ٦٨٦ رحلة ابن فلكومة

- فقلت برجاء:
- هلاً وهبتي فكرة عن هذه الكنوز؟
- لا تتعجل.
- ومتى أعرف أنني وُفقت؟
- فقال بهدوء:
- عندما يتأق لك أن تطير بلا أجنحة!
- فأمعنت النظر فيه بذهول، ثم قلت متأثراً بجده وصدقه:
- لعلك تحدّثني على سبيل المجاز.
- بل هي الحقيقة دون زيادة... الدار هناك تقوم على هذه القوى، وبها شارفت الكمال... فقلت بتصميم:
- ستجدني من المخلصين... .
- سيكون جزاؤك المكوث في دار الجبل.
- فقلت بعجلة:
- ما هي إلا زيارة أرجع بعدها إلى داري.
- فقال بيقين:
- سوف تنسى بها الدنيا وما فيها.
- لكنّ وطني في حاجة إليّ... .
- فسألني متعجباً:
- وكيف تركته؟
- قمت بالرحلة بأمل أن أرجع إليه بخبرة يكون فيها خلاصه.
- فقال الشيخ بامتعاض:
- إنك من الهاربين، تعلّمت بالرحلة فرازاً من الواجب، لم يهاجر أحد إلى هنا إلا بعد أن أدّى واجبه، ومنهم من خسر زهرة عمره في السجن في سبيل الجهاد لا بسبب امرأة... .
- فهتفت جزعاً:
- كنت فرداً حيال طغيان شامل... .
- هذا عذر الخائرا
- فتوسّلت إليه قائلاً:
- ليكن من أمر الماضي ما يكون فلا تشبث همّتي ولا تبّد حياتي هباء... .
- فلاذ بالصمت حتّى اعتبرت الصمت رضى، وتشجّعت قائلاً:
- يبدون كالثائين؟
- باب الصبر على مرارة البلوى لإدراك حلاوة النجوى.
- فتفكرت فيما سمعت ثمّ سألته:
- وما غايتهم من وراء ذلك؟
- جميعهم مهاجرون، من شئت الأنحاء يجيئون إعراضاً عن الهواء الفاسد، وليعدّوا أنفسهم للرحلة إلى دار الجبل... .
- فطربت للاسم وقلت بحبور:
- إذن سأجد رفاقاً في رحلتي الأخيرة... .
- فلاحت ابتسامة في عينيه وقال:
- عليك أن تعدّ نفسك مثلهم.
- كم يتطلّب ذلك من وقت؟
- كلّ بحسب قدرته، وقد تخور الهمة فينصح بالبقاء في الغروب... .
- فانقبض صدري وسألته:
- وإذا أصرّ على الذهاب؟
- يُخشى أن يعامل هناك كالحويان الأعجم!
- فدهمتني حيرة شديدة وسألته:
- وكيف تعدّهم للرحلة؟
- فقال بوضوح:
- كلّ شيء يتوقّف عليهم، إني أدربهم بالغناء لتمهيد الطريق، ولكن عليهم أن يستخرجوا من ذواتهم القوى الكامنة فيها.
- فقلت بحيرة:
- لم أسمع مثل هذا الكلام من قبل.
- هذا شأن كلّ جديد.
- فسألته بضراعة:
- ما معنى أن أستخرج من ذاتي القوى الكامنة فيها؟
- معناه أنّ في كلّ إنسان كنوزاً مطمورة عليه أن يكتشفها خاصّة إذا أراد أن يزور دار الجبل.
- وما العلاقة بين هذا ودار الجبل؟
- فصمت ملياً ثمّ قال:
- إنهم هناك يعتمدون في حياتهم على هذه الكنوز فلا يستعملون الحواسّ ولا الأطراف!

رحلة ابن فطومة ٦٨٧

- ستجديني من أهل العزم والإخلاص... .  
وقمت حائياً رأسي في خشوع. وخطر لي خاطر  
فترددت جافلاً من إعلانه، وإذ به يقول:  
- تريد أن تعرف ماذا فعل الدهر بعروسة!  
فذهلت كما ذهلت حين انتزع ماضي من الظلمات.  
وساءلت نفسي ترى أهكذا يتفاهمون في دار الجبل؟  
أما هو فقال:  
- لقد سبقت إلى دار الجبل!  
فسألته بدهشة:  
- وُقِّت في حوض التجربة؟  
فقال باسماً:  
- بفضل ما عانت في حياتها من آلام... .  
ولمّا هممت بالذهاب تساءل:  
- ما فائدة الدنانير تكنزها حول وسطك؟  
رجعت إلى محطّ القافلة فأودعت الدنانير إحدى  
الحقائب. وقال لي صاحب القافلة:  
- نحن ذاهبون فجر الغد.  
فقلت دون مبالاة:  
- لئي باقي.  
وفي أعقاب الفجر كنت أوّل من قصد مجلس  
مولاي. ولحق بي نفر من القادمين الجدد فجلسنا على  
هيئة هلال، عرايا إلاّ ممّا يستر العورة. وقال الشيخ:  
- أحبّوا العمل ولا تكثرثوا للثمرة والجزاء.  
وصمت قليلاً ثمّ واصل حديثه:  
- أوّل درجة في السلم هي القدرة على التركيز  
الكامل... .  
وصنّق بيديه ثمّ قال:  
- بالتركيز الكامل يغوص الإنسان في ذاته.  
وراح يغنيّ ونحن نردّد غناؤه. وقد رفعني الغناء إلى  
عالم آخر. وعند كلّ مقطع تدفّق من وجداني ينبوع  
قوة.  
وعدت إلى مجلسي تحت نخلة وشرعت في التجربة.  
صارعت التركيز وصارعني. والتحمت في معركة حامية  
مع صور حياتي الماضية. تغزوني بالحبّ والوفاء  
وأطاردها بمرّ العناء وتمرّ الأيام مليئة بالعذاب والعزم  
والأمل. وعند بداية كلّ درس، قبل الغناء والترديد،
- يوصينا بحبّ العمل وإهمال الثمرة والجزاء ويقول:  
- بذلك تُوثق المودة بينكم وبين روح الوجود.  
كما يوصينا بالتركيز قائلاً:  
- إنّه مفتّح أبواب الكنوز الخفية.  
ويقول بيقين:  
- هناك (دار الجبل) بالعقل والقوى الخفية  
يكتشفون الحقائق ويزرعون الأرض وينشئون المصانع  
ويحقّقون العدل والحريّة والنقاء الشامل.  
وأرجع إلى عزلتي وأنا أتمخّل اليوم الذي أسلّط فيه  
قواي الكامنة على كلّ معوج في وطني لأنشئه من جديد  
مقاماً صالحاً لقوم صالحين. وتمرّ الأيام وأنسى الزمن  
فلا أدري كم مضى عليّ من أيام وشهور، ويمتلئ وعائي  
بالثقة، وتبرق في ظلماته بوارق الإلهام. واستيقظت  
ذات يوم قبل الفجر مبكراً عن ميعادي المعتاد.  
وذهبت من فوري إلى الشيخ فوجدته جالساً تحت ضوء  
النجوم فالتحّذت مجلسي وأنا أقول:  
- ها أنذا يا مولاي.  
فسألني:  
- ماذا جاء بك؟  
فقلت بثبات:  
- نداء صدر منك إليّ.  
فقال راضياً:  
- هذه خطوة أولى للنجاح وأوّل الغيث قطر.  
وصمتنا في انتظار قدوم الرفاق حتّى اكتمل هلالنا.  
وبدا وجه الشيخ في ضوء الشروق واجماً. وشرع في  
الغناء كالعادة فردّدنا الغناء ولكنّا لم نعمل بالسرور.  
وقبل أن ننصرف عنه قال:  
- الشّرّ قادم فتلقّوه بالشجاعة الجديدة بكم... .  
ولم يضيف إلى ذلك كلمة متجاهلاً أعيننا  
المتسائلة... .  
واستيقظنا غداة اليوم التالي على جلبة وصهيل خيل.  
ونظرنا فرأينا المشاعل منتشرة فوق الأرض كالنجوم،  
رأينا جيشاً من فرسان ورجالة يطوّق دار الغروب دون  
سابق إنذار. وهرع الجميع إلى موقع الشيخ وجلسوا  
حوله صامتين هادئين. وراحوا يغنون حتّى أشرقت  
الشمس وعند ذلك قدم قائد يتبعه حرّاس حتّى وقف

صعودًا وهبوطًا، وترامى أمامنا فجّ واسع يتدرّج في صعوده تدرّجًا هيئًا رقيقًا فألمّجته إليه القافلة. وتساقت الرذاذ في أوقات متقطّعة فأنس من وحشتنا. وجعلنا نسير بالتهار ونعسكر في الليل حتّى بلغنا السطح بعد انقضاء ثلاثة أسابيع. كان سطحًا عريضًا غزير الأعشاب، وعند حافته قال الشيخ وهو يشير بيده:

- هاكم دار الجبل.

كان يشير إلى جبل آخر يفصل بينه وبين الجبل الأخضر صحراء، وعلى سطحه قامت الدار عالية مترامية هائلة القباب والمباني تنطق بالعظمة والسموّ. نظرت صوبها بدهول وافتتان. لم تعد حلماً ولكنها حقيقة، وحقيقة قريبة، فليس بيننا وبينها إلا أن نهبط السفح ونقطع الصحراء القصيرة ثم نصعد الجبل الآخر فنجد أنفسنا أمام مدخلها، ومدير الجمرح يقول لنا:

- أهلاً بكم في دار الجبل، دار الكمال...

وقلّ صبرنا وتعجّلنا الرحيل فهبطت القافلة سفح الجبل في أسبوعين حتّى بلغنا الصحراء. ودهمتنا دهشة إذ ترامت الصحراء أمامنا كأنّها بلا نهاية ولم نكد نرى الجبل الآخر من شدّة إيغاله في البعد. عجبت لخداع البصر، وأيقنت من أنّه ستمضي أيام وأسابيع قبل أن نصل إلى الجبل الآخر الذي تقوم على سطحه دار الجبل. وسرنا أسابيع وأسابيع، وضاعف من طول المسافة اعتراض التلال والهضاب ممّا اضطرّنا إلى الانعطاف إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى، حتّى خيل إليّ أنّه انقضى عمر قبل بلوغنا سفح الجبل الآخر. ووقفنا أسفله ننظر إلى أعلاه فوجدناه يعلو على السحب ويتحدّى الأشواق. وإذا بصاحب القافلة يقول:

- هنا ينتهي سير القافلة يا سادة!

فلم أصدّق أذنيّ وقلت:

- بل تصعد بنا حتّى دار الجبل.

فقال الرجل:

- الممرّ الجبليّ ضيق كما سترون لا يتسع لناقة أو

جمل...

وهرعنا إلى شيخنا فقال يهدوء:

أمامنا. من النظرة الأولى اكتشفت أنّهم من جيش دار الأمان، وتساءلت في قلق ترى هل انتصروا على الحلبة؟ وقال القائد:

- بالنظر إلى الحرب الدائرة بيننا وبين الحلبة، وبناء على ما بلغنا من أنّ الحلبة تفكر في احتلال دار الغروب لتطوّق دار الأمان، فقد اقتضت دواعي الأمان أن نحتلّ أرضكم.

ساد الصمت ولم يعلّق أحد من جانبنا بكلمة فقال القائد:

- إذا أردتم البقاء فعليكم أن تزرعوا الأرض وأن تنضمّوا إلى البشر العاملين وإلا فسوف نعدّ لكم قافلة تحملكم إلى دار الجبل.

ساد الصمت مرّة أخرى حتّى خرّقه الشيخ موجّها خطاباً لنا:

- اختاروا لأنفسكم ما تحبون...

فاستبقت الأصوات هاتفة:

- دار الجبل... دار الجبل...

فقال الشيخ محدّثاً:

- ستلقون عناءً لنقص تدريبكم...

فأصرّوا هاتفين:

- دار الجبل... دار الجبل...

فقال القائد بحزم:

- من يُعثر عليه منكم ها هنا بعد قيام القافلة سيُعتبر أسير حرب!

## البداية

عند الفجر غادرت القافلة دار الغروب. لأوّل مرّة يستأثر بها الرخالة والمهاجرون ولا يُرى بها تاجر واحد. ولقنا قلق وحزن وإشفاق، لها حلّ بدار الغروب، ولانقطاعنا الإجماعيّ عن التدريب، وتميّت أن تسنح في الطريق فرص لمعاودة التركيز والاجتهاد تحفيّفاً من العناء المنتظر. وكشف الشروق عن صحراء مستوية، تكثّر في أرجائها عيون المياه. وسرنا شهراً حتّى اعتراض سبيلنا الجبل الأخضر ممثداً من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. وكان علينا أن نعبّر الجبل

### رحلة ابن فطومة ٦٨٩

بالمهمة، فنفتحته بمائة دينار، وقرأنا الفاتحة. تخففت بعد ذلك من وساوسي، وتأهبت للمغامرة الأخيرة بعزيمة لا تقهر.

\*\*\*

بهذه الكلمات خُتم مخطوط رحلة فنديل محمد العنابي الشهير بابن فطومة. ولم يرد في أيّ كتاب من كتب التاريخ ذكر لصاحب الرحلة بعد ذلك.

هل واصل رحلته أو هلك في الطريق؟  
هل دخل دار الجبل وأيّ حظّ صادفه فيها؟  
وهل أقام بها لأخر عمره أو رجع إلى وطنه كما نوى؟  
وهل يُعثر ذات يوم على مخطوط جديد لرحلته الأخيرة؟  
علم ذلك كلّ عند عالم الغيب والشهادة.

- صدق الرجل.  
- وكيف نواصل رحلتنا؟  
فقال بلا مبالاة:  
- على الأقدام كما واصلها السابقون.  
وقال صاحب القافلة:  
- من يشقّ عليه السير فليرجع مع القافلة.  
ولكن لم تهن عزيمة أحد وصمّمنا على المغامرة.  
وفكرت في ذاتي وفيمن خلّفت ورائي وفيما قد يصادفني من أسباب تحول دون عودتي، فكرت في ذلك فخطر لي خاطر وهو أن أعهد بدفتر رحلتي إلى صاحب القافلة ليسلمه إلى أمي أو إلى أمين دار الحكمة، ففيه من المشاهد ما يستحقّ أن يُعرف، بل به لمحات عن دار الجبل نفسها تبدّد بعض ما يخيّم عليها من ظلمات وتحرك الخيال لتصوّر ما لم يُعرف منها بعد. ولا بأس بعد ذلك أن أفرد دفترًا خاصًا لدار الجبل إذا قيّض لي زيارتها والرجوع منها إلى الوطن. وقبّل الرجل القيام

التَّزْكِيمُ السَّرِي



## التنظيم السري

- في ركن النادي الذي يجمعنا للسمر تنطلق الآراء  
كالمفرقات. لا تترك كبيرة ولا صغيرة حتى تمزقها  
جدلاً. وتتصارع المشروعات ووسائل تنفيذها حتى تبخ  
منا الأصوات إلا ذلك الصديق القديم. لا يشترك في  
همومنا الجدوية برأي أو بلا أو بنعم. قد يثرثر في الأمور  
العابرة ولكنه عند الجذ يلوذ بالصمت. يغيب عنا  
بنظرة شاردة. يتخذ من هامش الحياة وطناً. على ذلك  
لم يخرج من قلوبنا لمودته الدافئة وجذوره المتأصلة في  
منابتنا. ويوما اتصل بي تليفونياً في الديوان وقال لي:  
- أودّ مقابلتك غداً صباحاً في محلّ توت عنخ  
آمون.
- فوافقت من فوري، وفي الموعد جلست أنتظره.  
وهلّ عليّ دون تأخير، فرحنا نشرب القهوة وتبادل  
نظرات التمهيد، وهو يرنو إليّ جاداً حتى خُيل إليّ أنه  
استعار شخصية جديدة تماماً. وقرب رأسه مني وقال:  
- فكّر قبل أن تتكلم، فالكلمة هنا ارتباط أبدي.  
فأثار اهتمامي لدرجة لم أتوقّعها، وحدجته بنظرة  
داعية للمزيد من الإفصاح. قال:  
- لم يكن مفزّ من هذا التحذير، ثمّ أدخل في  
الموضوع رأساً!
- فقلت واهتمامي يتصاعد:  
- ادخل.  
فكّور قبضته الضخمة وتساءل:  
- آنتست منك رغبة في العمل؟  
فلمحت أول بصيص نور، وسألته في دهشة:  
- كيف عرفت ذلك؟  
- من متابعتي للمناقشات!
- فقلت بدهشة أكثر:  
- حسبتك لا تتبّه إلى أقوالنا!  
فابتسم ولم ينبس فقلت:  
- هات ما عندك.  
فاعتمد على المائدة بمرفقيه وسألني:  
- أتعني ما تقول حقاً؟  
فقلت بصدق:  
- كلّ كلمة، كلّ كلمة!  
- إذن فأنت ترغب في العمل؟  
أدركت مغزى تحذيره ولكنّ وعائي كان طامحاً بما  
فيه فقلت مندفعاً إلى مصيري:  
- أجل.  
- العمل - بخلاف الكلام - باهظ التكاليف.  
فقلت بتحدّ:  
- أدرك ذلك تماماً.  
فقال ببطء:  
- الندم فيها بعد غير مُجدٍ.  
- أعتقد ذلك.  
- والتراجع يعني الموت.  
- طبعاً... طبعاً.  
فقال بارتياح:  
- صدقتي حدسي.  
فقلت وأنا أغلب انفعالاتي الداخلية:  
- يا لك من داهية!  
فقال كالمعتاد:  
- هي الحياة.  
فقلت بشيء من الحدة:  
- من متابعتي للمناقشات!

## ٦٩٤ التنظيم السري

الاقتراحات. وطيلة الوقت استحوذ رئيسنا المباشر «أ» على إعجابي بعقله الراجح وحده الصادق وخلقه المتين مع قوته الجسدية الخارقة كأنما هو بطل من أبطال المصارعة الحرة، وإن ساءتني جذبيته الصارمة التي تضحن بالابتسامة فضلاً عن الدعابة. وعزيت نفسي قائلاً إنه لولا ضرورة هذه السجايا لعمله ما اختاره الرئيس الأعلى للجماعة الذي يضع ولا شك الرجل المناسب في المكان المناسب، والذي تتسلل إلينا أوامره من مثواه المجهول عبر مندوبين مجهولين كذلك، حتى إن «أ» نفسه لا يعرف من ذلك الجهاز المعقد إلا فرداً واحداً. وقد رأيت يلوذ بالصمت في أعقاب مناقشة ثقيلة جرت في أحد الاجتماعات فقلت بعفوية:

- ألا يحسن أن يجتمع رؤساء الأسر بالرئيس الأعلى في اجتماعات دورية لنطمئن على سير الأمور؟ فاستيقظ من صمته رامياً إليّ بنظرة صلبة ثم قال:

- ارتكبت عدّة أخطاء دفعة واحدة! وراح يعدّد على أصابعه قائلاً:

- قطعت عليّ تفكيري، تدخلت فيما لا يعينك، خالفت وصية من الوصايا!

فهاهي الأمر وقلت معتذراً:

- إني أسف يا سيدي.

- لا بدّ من العقاب، وإني أحكم عليك بالامتناع عن التدخين شهراً كاملاً ابتداءً من هذه الساعة!

وصدمني الحكم ولكنّي لم أنكص عن تنفيذه - رغم ثقله - بوازع من ضميري. على أننا كنّا نشعر في الوقت نفسه بأننا موضوعون تحت مراقبة خفية يمارسها جهازنا الغامض، بالإضافة إلى مطاردة الشرطة المستمرة. هذا ما تطوّرنا للخدمة فيه بدافع تلك الرغبة الجنونية المقدسة في تغيير الكون. حسبنا أن نؤمن بأننا ضمن الصفوة المختارة بدقة رسم خطوطها ذلك الرئيس الأعلى الذي صار - هو وجهازه - أسطورة يتحدّث عنها الناس في كلّ مكان، وتنشط دوائر الأمن العام إلى اكتشافها بكلّ سبيل انطلاقاً من حوادثها المتكررة ومنشوراتها السرية المثيرة. وما أدري يوماً ونحن مجتمعون حول المائدة إلا و«أ» ينظر نحوي ويسأل:

- أو هو الموت، ليفعل الله ما يشاء.

- بداية طيبة.

فقلت بشوق:

- هات ما عندك.

فقال بسرعة:

- ما لديّ قليل، أقلّ مما تتصوّر، أسرة مكوّنة منّي وأربعة آخرين ستعرفها مساء، عدا ذلك لا أعرف إلا شخصاً أتلقّى منه الأوامر...

- ولكنّ الأسرة وحدة في كلّ، وعلى رأس الكلّ رئيس، ماذا تعرف عن ذلك؟

فقال ببساطة:

- لا شيء...

فتساءلت في حيرة:

- ونظّل نعمل في الأسرة يحيط بنا الظلام؟

- ربّما، وربّما انتقلت إلى أسرة من مرتبة أعلى.

- ومتى أصل إلى مركز الرئيس الأعلى؟

- علمي علمك، المهمّ العمل والهدف؟ وتفحصني بنظرة ثاقبة وقال:

- إنهم أدري بما يحقّق الأمان والنجاح.

ومرّ بي نهار لم يمرّ بي مثله في حياتي. كمن يبذل لحمه ودمه وخلاياه وروحه. كمن يولد في دنيا جديدة ذات قوانين جديدة. كمن يودّع الطمأنينة واللامبالاة ليستقبل المغامرة والموت. لم يبق لي من الماضي إلا الاسم وحتىّ هذا سرعان ما يتغيّر. وفي المساء انعقد أول اجتماع للأسرة في بيت صغير بمصر القديمة. كنّا خمسة، على رأسنا الصديق القديم الرموز إليه ب«أ». لم لا؟ لقد أصبحنا رموزاً لتحقيق أهداف. وجلس على رأس المائدة ينقل عينيه بيننا، مكتسباً مهابة جديدة وتأثيراً نافذاً. قال:

- أرخب بكم في أسرنا التي جمعنا على الخير، هي التي أخرجتنا من العبودية وطهرتنا من عبادة الأصنام، فلنجعل من الكمال زيتنا ومن الحبّ رابطننا ومن الطاعة شعارنا ولنعمل في نطاق ما نعرف - ولا نسأل عمّا لا نعرف - واحذروا الخطأ فلا خطأ يمرّ بلا عقاب.

وتتابعت الاجتماعات لمذاكرة الأهداف والوسائل، وللمعرفة الأجنبية عن بعض أسئلة عاجلة، ومناقشة

## التنظيم السري ٦٩٥

- تقوم؟  
 فاستسلمتُ بلا حماس وبلا فتور فتأبطتُ ذراعي  
 ومضت بي نحو مدخل المبنى في عطفة خلقية. لست  
 من مدمني ذلك ولا من الهواة ولكنها تعرض لعازب.  
 وكانت رقيقة وثرثارة وغير محنكة فدار حديتها حول  
 ضجيج العاصمة. وسألني:  
 - ما لديك اليسرى؟  
 فقلت بامتعاض:  
 - روماتيزم خفيف.  
 فقالت مجاملة:  
 - ولكنك في عز الشباب.  
 فقلت بضيق:  
 - أمراض عصرنا لا تفرق بين شيخ وشاب.  
 وغادرتها وهي تقول:  
 - لتكن أولى الزيارات لا آخرها...  
 وصادفتني متاعب متلاحقة في البيت والديوان لعدم  
 استعمال يدي اليسرى بالإضافة إلى سوء المزاج الناتج  
 عن الامتناع عن التدخين. وتمخض اجتماع الأسرة  
 التالي عن مكذرات جديدة لم تكن في الحسبان، إذ  
 التفت «أ» نحوي قائلاً:  
 - ما زلت ماضياً في طريق الضلال!  
 فنظرتُ إليه مبهوتاً فقال:  
 - الزنا بعد السرقة.  
 فالتهمت وجنتاي وغضضت بصري، فقال:  
 - كأنك لا تدرك خطورة زلتك؟  
 فقلت باستهانة:  
 - هفوة شخصية لا تمس سلوكي العام.  
 - هراء المرأة أشد خطورة من الشرطة.  
 فقلت مدافعاً:  
 - الزواج عسير جداً في هذه الأيام.  
 فقال ببرود:  
 - في الهدف ما يغني ويسلي عن سواه...  
 وواصل عقب صمت قصير:  
 - إنك كثير الجدل فمتى تتعلم الطاعة؟  
 وفكر قليلاً ثم قال:  
 - مراعاة لظروفك سأكتفي بتفريمك مائة جنيه

- أين القلم الرصاص الذي وجدته أمامك في  
 الجلسة السابقة؟  
 فقلت ببراءة:  
 - لعلّي أخذته معي.  
 فسأل ببرود:  
 - من أين علمت أنه وُزِعَ لامتلاكك؟  
 فقلت في استياء:  
 - سأرده في المرة القادمة أو أبتاع بديلاً عنه.  
 فقال ببرود أشد:  
 - نحن نعتبر ذلك نوعاً من السرقة!  
 فقلت بغضب:  
 - لقد بعنا الحياة نفسها دون مقابل فكيف نتهم  
 بسرقة قلم رصاص؟  
 فقال بهدوء هو أشد من الحدة:  
 - لا تمنّ علينا بالتضحية، فإنك لا تضحّي من  
 أجلنا ولكننا نضحّي جميعاً من أجل الهدف وقد  
 حكمت عليك بالألا تستعمل يدك اليسرى لمدة شهر!  
 ركبني همّ ثقيل فذهبت إلى مطعم «فلسطين»  
 بالسكة الجديدة لتناول العشاء. وجلست إلى أقرب  
 مائدة إلى فتاة وحيدة. لاحظتُ رغم همّي أنّها لم تطلب  
 شيئاً ولم يقترب منها الجرسون. ولاحظت أيضاً أنّها  
 تنظر نحوي بجرأة وثبات لا يصدران إلا عن امرأة  
 هوى. على جمال كانت ولكن منظرها أوحى بالفقر،  
 بل والجوع أيضاً. قالت لي عيناها «ادعوني للعشاء من  
 فضلك». ورقّ قلبي لها فابتسمت وسرعان ما ردت  
 الابتسامة بأخرى مبتذلة. قلت إنّها ما زالت تشقّ  
 طريقها الوعرة، وأشارت إلى المقعد الخالي أمامي  
 فانتقلت إليه دون تردد. تناولنا عشاء من المكرونة  
 والخبز الجافّ فالتهمت طعامها بنهم وبلا حياء. حلّ  
 الارتياح مكان التوتر في وجهها، وتبادلنا الابتسام دون  
 تعارف، ثمّ سألتها لأبدد الصمت:  
 - من هنا؟  
 فقالت بنبرة ذات معنى:  
 - مسكني فوق المطعم.  
 لم تكن في رأسي خطة نهائية فنظرتُ في الساعة  
 فسألني:

وثبات متلاحقة حققت لي مركزًا لا بأس به .  
واستدعاني «ا» ذات يوم فوجدته وحده بحجرة  
الاجتماع . أجلسني في أقرب مقعد إليه وقال لي :  
- تقرّر أن تفارقنا إلى أسرة جديدة .  
نظرت إليه مليًا وأنا أعالب انفعالاتي ثم سألته في  
حذر:

- أسمح لي بسؤال أو أكثر؟  
فحنى رأسه بالإيجاب فسألته :  
- ماذا يعني أسرة جديدة؟  
- أسرة الزميل الوحيد الذي أعرفه خارج أسرتنا  
ويدعى «ب»، وهي وحدة ضمن وحدات متصاعدة لا  
فكرة لي عن عددها تنتهي بالجهاز الأعلى .

فداخلي ارتياح وسألت :  
- وما نوع العمل في الأسرة الجديدة؟  
- لا أدري !  
- من الذي رشّحنى للأسرة الجديدة؟  
فأجاب ببساطة :  
- عمك .  
وقام آخذًا بيدي إلى حجرة صغيرة داخلية وهو  
يقول :

- دعني أقدمك إلى رئيسك الجديد .  
وجدناه جالسًا ينتظر . ومن عجب أن طالعني  
بصورة مناقضة تمامًا لتخيّلي له . تصوّرتَه يفوق «ا» في  
القوة والعملاقة فإذا بي حيال شابّ يكبرني بأعوام جميل  
المحيًا رقيق الحاشية يأسر الناظر إليه بلطفه وعدوبته .  
كيف يرأس هذا الشابّ أسرة هي أقرب في موقعها من  
الرئيس الأعلى وعليها مهامّ - ولا شكّ - تجاوزها في  
الشدة والعنف؟ وكيف يضع رئيسنا الأعلى ثقته في  
شخصين تقطع الدلائل بتناقضهما الكامل؟ ترى متى  
يتاح لي مقابلة ذلك الرئيس العجيب الذي أفضّ  
مضاجع الشرطة وأثار الرأي العامّ لدرجة الهوس؟  
وتبادلت مع «ب» كلمات رقيقة فاستحوذ على حبي من  
اللحظات الأولى . ومضى بي في سيارته الصغيرة ١٢٨  
إلى حديقة «الوردة البيضاء» بطريق سقارة . سألته قبل  
أن ندخل :

- أعندك فكرة عن هذه الحديقة؟

تؤذيها على أقساط!

وجدتني في مأزق . كدت أندم على فكرة التطوع  
نفسها ولكن لم يغب عني أنّ التراجع الآن يعني الموت .  
وتعزّيت بما أحرز من نجاح حين عرض الآراء وتنفيذ  
ما أكلف به من أعمال . وتخيّلت رئيسنا الأعلى - قياسًا  
على «ا» - في صورة عملاقة جبارة جديدة حقًا بالإجلال  
والخوف . ومازج شوقي إلى معرفته رغبة في البقاء  
بعيدًا عن بابهِ . ولم أخطئ بعد ذلك ، وتقدّمت في  
الدرس والتدريب تقدّمًا محمودًا سمعت من أجله الثناء  
تلو الثناء ، فتلاشى الحرج وذكرى العقوبات . وفي  
ختام اجتماع هامّ للأسرة ، استبقاني «ا» ، ووضع أمامي  
مظروفًا مغلقًا وقال :

- تسافر إلى ( . . . ) وتقابل ( . . . ) الكاتب  
بالمحكمة وتسلمه الرسالة خفيّة وتعمل بما يشير به  
عليك .

كنت تدرّبت تمامًا على وسائل معرفة المكان ومواعيد  
القطارات والاتصالات الخفية . وشرعت في العمل  
خطوة فخطوة حتى سلّمت الرسالة للرجل . وأشار عليّ  
بالنزول في فندق بالبلدة والانتظار . وفي الصباح  
جاءتني سيارة فورد قديمة ، ودعاني السائق إلى الجلوس  
إلى جانبه وانطلق بها بلا تعارف أو كلام . وفي وسط  
الطريق قال :

- في الصندوق الخلفي حقيبة جلديّة .  
ووقف على مبعدة من البيت الذي تجتمع فيه  
الأسرة بمصر القديمة . حملت الحقيبة رغم ثقلها وسرت  
بها نحو البيت . غالبت توتري لدقّة الموقف وخطورته ،  
ثم وضعتها على المائدة أمام «ا» ، وجلست مزهّوًا وأنا  
أشعر بأنني هجرت دنيا الناس إلى الأبد . وفتح «ا»  
الحقيبة فحال غطاؤها بيني وبين رؤية ما بداخلها .  
ودام فحصه ربع ساعة ثم أغلق الحقيبة وقال :  
- أمضيت وقتًا في المقهى ناسيًا أنّ الغريب يلفت  
الأنظار في البلدان الصغيرة .

فحقق قلبي متوقّعًا عقوبة جديدة ولكنّه قال :  
- ولكنك عبرت البحر بسلام!  
فشاع في نفسي الرضا وامتألت ثقة وإحساسًا  
بالنصر ، وقمت بأعمال قيّمة على مدى غير قصير ، في

## التنظيم السري ٦٩٧

- فأجاب ببساطة:
- بل إنه واقع وحقيقة... .
  - هل حقًا مُحَفِّظنا الحانًا لنشدها؟
  - بكل تأكيد.
  - لكننا لسنا مغنّين.
  - كل فرد يستطيع أن يغني في حديقة عامة فيسمعه من يشاء أن يسمع.
  - من ناحيتي لا أملك أي موهبة غنائية.
  - لا يهّم. العبرة باللحن أما الأغنية فأغنية حب من لون جديد!
  - قد يعتبر الجمهور غناءنا تكديرًا لصفوه.
  - ريمًا.
  - وقد يسخر منا.
  - ريمًا.
  - وقد يعتدي علينا.
  - ريمًا، ولذلك لا بدّ من توطين النفس على التضحية... .
- فقال زميل منفعلاً:
- عملنا السابق أخفّ رغم عنفه.
- فأجاب بأسياً:
- محتَمَل جدًّا.
  - وتردّدت قليلاً ثم قلت:
  - لديّ سؤال وأخاف العقاب.
  - فقال «ب» بسرعة:
  - لا موضع للعقاب في قاموسنا.
  - فسألته:
  - وما جدوى الأغاني والألحان والغناء؟
  - فقال بهدوء:
  - أكبر ممّا تتخيل... .
  - فسألت مندفعًا بشجاعة جديدة:
  - وهل وافق رئيسنا الأعلى على عمل أسرتنا؟
  - فقال بأسياً:
  - لسنا إلا أدوات تنفيذ... .
  - ثم بنبرة حماسية:
  - اسمحوا لي أن أدعوكم إلى عشاء من الشواء والنيبذ لتتعاهد على الحب والعمل ونحن في أطيب حال... .

فدخل مبتسماً وهو يتأبط ذراعي. وسرعان ما احتوتنا مقصورة تكتنفها الخضرة والأزهار وتجبو فوقها أشعة الشمس في مطلع شتاء لطيف. وجدت الأسرة الجديدة بكامل عددها وهي مكوّنة مثل أسرتي الأولى من خمس ولكنّي عجبت لاختياره مكان الاجتماع في حديقة سيّئة السمعة لا يردّها عادة إلا طلاب الحب المحرّم. وقلت لعلّه داهية ذات قشرة ذهبيّة أو ماء تحت تبن. وشربنا الشاي بسرور وارتياح وهو يقول:

- أهلاً بكم في أسرتنا الجديدة.

وتفكّر قليلاً ثمّ واصل:

- لكل منكم سابقة المحمودة المتسمة بالشدة والخطورة، ونحن الآن بصدد عمل جديد ذي أسلوب آخر، لا تنكّر للماضي ولكننا نستكمّله بأسلوب جديد كلّ الجدّة، وإلا ما دعت الضرورة إلى إنشاء أسرة جديدة، مستهدفين في النهاية غاية واحدة، وإياكم والاستهانة بعملكم الجديد ذي المظهر الخادع، فمثلكم مثل زارع يرمي في الأرض ببذرة لا تكاد تُرى، ولكنّها ستنمو ذات يوم شجرة باسقة يلود بظلّها المعدّبون في الأرض... .

وصمت قليلاً ثمّ قال:

- كانت مهمّتك السابقة التصدي للوجه القبيح والانهيال على قبحة باللكيات الصادقة، أما مهمّتك الجديدة فهي التغيّ بالوجه الجميل المنشود، حلم اليوم وحقيقة الغد، ولكن أيّ أغاني وأيّ ألحان؟... . أغاني جديدة وألحان جديدة.

التمع في الأعين حبّ استطلاع وهماج فقال:

- سأكون المؤلّف والملحن وستكونون المغنّين وسأضع في كلّ حنجرة اللحن الذي يناسبها!

وضح في الوجوه ما يشبه الدهول فقال:

- المهمّة ظاهرها الترفيه ولكنّها تنطوي على جدّيّة فائقة ويحفّ بها الخطر من كلّ جانب... .، فليوطن كلّ نفسه على التضحية.

وقلب عينيه في وجوهنا متسائلاً:

- هل من أسئلة؟

وفي الحال سألته:

- أعتبر حديثك من المجاز والرمز؟

- ألقى القبض عليه .  
 فذهلت أنفسنا وتغيرت ألواننا فقال:  
 - لعلّه تهاون في الكتبان .  
 فقال زميل:  
 - قد يدفعه التعذيب إلى الاعتراف بما يهدد أمن الأسرة.  
 فقال:  
 - من أجل ذلك سنؤجل اجتماعاتنا إلى أجل غير مسمى، وسنختار مكانًا آخر. على أيّ متيقن أنّه سيتحدّى الموت قبل أن يعترف!  
 رجعتُ إلى وحدتي الأولى. وانسربت إلى نفسي سموم الهواجس والمخاوف فتوقعت أن تصل إلى عنقي القبضة الحديدية في أيّ وقت من ليل أو نهار. أجل كانت حياة كلّ زميل مجهولة تمامًا من بقية الزملاء خارج نطاق العمل المشترك، ولكن أيّ ضمان ثمة لذلك؟! كانت أيام خوف وضياع. وصادفني يومًا أحد الزملاء في ميدان العتبة. صافحني خارقًا تقاليدنا الثابتة وقال:  
 - معذرة، ثمة أخبار غاية في الخطورة.  
 تولّاني رعب من قبل أن يفصح واستوضحته بعيني دون لساني فقال:  
 - قبضوا على رئيسنا «ب» نفسه!  
 فهتفت بفزع:  
 - من أين لك هذا؟  
 قال بغموض:  
 - شائعات تطايرت من مكان عملي، والشائعة في مكان عملي تُعتبر خبرًا!  
 تجهم وجهه حتى الظلمة وقال:  
 - ويقال إنه قُتل وهو يُستجوب!  
 هتفت:  
 - يا للفظاعة!  
 فقال:  
 - وثمة همس عن أنّ زميلنا المقبوض عليه أولًا قد باع نفسه ودلّ على الرجل...  
 فقلت باضطراب:  
 - يجب أن نهرب.

وشرعنا في الحال في الحفظ والتدريب، ثم في العمل. وتعرّضتُ لخرج ومتاعب لا نهاية لها. آمنت بأنّ عملي الجديد أشقّ من القديم رغم إحساسي بأنني أعمل في جوقة موسيقية تحت إشراف شاعر وملحن في آن. وعجبت لشأنه، وعجبت أكثر لشأن رئيسنا الأعلى الذي يستعمل كلّ هذه المتناقضة والأساليب المتضاربة لتحقيق أهدافه. واستقرت في وجداني عبارة «ب»: «لا موضع للعقاب في قاموسنا»، فشجعتني ذلك على التخفيف من توتر أعصابي بزيارة جديدة لفتاة مطعم فلسطين بعد انقطاع، رغم ما سمعت من إدانة لذلك، وتحذير من المرأة التي هي أشدّ خطرًا من الشرطة، ورغم علمي المسبق بأنّ سلوكي لن يخفى عن رئيسي كما لا يخفى سلوك أحد من أفراد الجهاز بعامة. وسرت الفتاة بزيارتي سرورًا أنساني قلقي ووساومي، وهداني إلى اكتشاف جانب رقيق في قلبها لا يوجد عادة في حومة الاحتراف. وقال لي «ب» في أول اجتماع تلا مغامرتي:  
 - لا اعتراض لي على الحبّ.  
 فاشتعل وجهي بالحياء فقال:  
 - ولكنّه دون ما رباط عبء على نقاء القلب...  
 ففطنت إلى ما يشير إليه وقلت باستنكار:  
 - ولكن...  
 فقاطعتني:  
 - لا تستشهد بمأثورات حياة قد أعلنت الحرب عليها!  
 ثمّ تحوّل إلى موضوع الاجتماع كأنما قال قولته الأخيرة في المسألة. وجاء زواجي من الفتاة مغامرة لا تقلّ في خطورتها عن كبرى مغامراتي التي قمت بها وأنا عضو في أسرة «أ». وفي ليلة الزفاف أتى «ب» دون دعوة وأهداني قارورة من أفخر أنواع النبيذ الأحمر. وهمس في أذني وأنا معه آخر الليل:  
 - صنّ سرك في أحماق قلبك وحده.  
 وواصلت حياتي ما بين الديوان والحدائق العامة وعش الزوجية فوق مطعم فلسطين. وكان الاجتماع لم يسبق بمثله إذ تخلّف عنه لأوّل مرّة أحد الزملاء. وأشار «ب» إلى المقعد الخالي وقال بأسى:

## التنظيم السري ٦٩٩

وجلسنا في حجرة الاستقبال متواجهين. كان متوسط الطول متين البنيان أنيق المظهر، بشوش الوجه كما يجدر بتاجر، قوي النظرات، بيده حقيبة وجاءت زوجتي مدفوعة بحب الاستطلاع فانظر حتى جلست وقال:

- جئت يوم الجمعة لأضمن لقاءك، ومهمتي هي صميم عملي فنحن نتابع المواليذ ونزور الأسر لإقناع الآباء بالتأمين على الأبناء، ويا بخت من يرى غده في يومه . . .

فسألته زوجتي:

- أيكلفنا ذلك ما لا نطبق؟

فأجاب بنبرة مشجعة:

- التأمين أصلاً للذين لا يملكون، وهو درجات ولكل درجة، وإن بغد العسر يسراً . . .

وفتح حقيبته فتناول كراسة أعطانيها وهو يقول:

- إنها حاوية لكافة الأنواع وستجد فيها ما يناسبك إن شاء الله.

ونفض قائماً فاصطحبته إلى الباب مودعاً. ودس في يدي ورقة، وصافحني وهو يهمس:

- لا علاقة لي بشركة التأمين، اقرأ ما في الورقة بعيداً عن عيني زوجتك، ستجد فيها المكان والوقت فلا تتأخر.

قال ذلك وذهب. وددت لو بقي دقيقة أخرى. ليبل ريق الجاف. هكذا بُعثت فجأة واشتعلت روحي بالنار المقدسة من جديد. رجعت إلى الحياة ومعاناة الإحساس المضي بحمل الأمانة.

وفي الموعد كنت في بيت عتيق بالقلعة، يقع في بقعة فاصلة بين العمران من ناحية وبين مدينة الأموات من ناحية أخرى. وكالعادة كانت الأسرة الجديدة مكونة من خمس يرأسها «ج» (مندوب شركة الشرق)، أما الأربعة الآخرون فكان اثنان منها - أنا أحدهما - من أسرة المرحوم «ب»، وواحد زاملته في أسرة «أ»، والرابع جديد لم تقع عليه عيناى من قبل. قال «ج»:

- مضى ما يقارب العام دون اتصال.

فقلت من فوري:

فقال بحق:

- لا خوف من ناحيته بعد فقد وُجد في السجن ميتاً بالسّم والتحقيق جارٍ مع الجميع . . .

وتابعت الصحف ولكتها لم تشر من قريب أو بعيد إلى جماعتنا. تُركنا في الظلام، وانقطعت الصلة بيننا وبين الجهاز، وانطويت على سري دون شريك أحاوره أو ألتمس عنده العزاء. واحتوتني غربة وسط عالم مُعادٍ لا أدري متى ينتشليني اليأس من العذاب. واستدعاني رئيسي المباشر في الديوان وسألني:

- ما لك؟ لست كعادتك، أهو الزواج؟

فأدعيت المرض فقال:

- قُم في إجازة تجنّباً لمزيد من الأخطاء.

هربت من الديوان لأسقط بكليتي في قبضة نفسي. أما زوجتي فأرادت أن تخفف عني بعض ما لمست من اضطرابي فقالت:

- ستكون أباً يا حبيبي.

فتظاهرت بسرور لم أعد أتذكر طعمه أو رائحته. واتجه فكري إلى رئيس الجهاز الأعلى، فتساءلت عما يدبر لرتق الفتق الذي مزق جهازه، كيف يصل ما انقطع، وهل يعلم بما نعاني في ضياعنا، أو يفكر في التخلص منا حفظاً لأمن جماعته كما تخلّص من زميلنا الخائن؟! وانطوت الإجازة، ورجعت إلى عملي، وكلما مرّ يوم دون مفاجأة أدخلت إلى شيء من الطمأنينة، حتى بتّ أعتقد أنّي راجع حتّى إلى تفاهة الحياة ومرارتها اليومية كفرد من ملايين الذين يتعلّبون ويتشكّون ويتصتّبون وينتظرون دون جدوى. وقلت لنفسي على سبيل التعزّي لعلّ التفاهة في النهاية أرحم من الخوف والضياع. وتعاقبت الأشهر حتى خرج وليدي الأول إلى الوجود، ومضيت أنهمك في مجريات الحياة اليومية. وذات صباح وعقب أبوتي بشهر، دق جرس الباب فذهبت زوجتي لترى الطارق ثمّ عادت لتقول بدهشة:

- يقول إنه مندوب شركة الشرق للتأمين!

فذهبت بنفسي إلى الباب وسألته عما يريد فقال بصوت عريض مليء:

- اسمح لي بخمس دقائق، إنّي قادم من أجل

ابنك ربّنا يحفظه بعين رعايته . . .

## ٧٠٠ التنظيم السري

- عام محنة وعذاب .
- أما زميلي من أسرة «ب» فتساءل:
- هل عادت أسرتنا القديمة، أسرة «ب»، برياسة جديدة؟
- فقال «ج»:
- أسرة «ب» موجودة برياسة جديدة أما هذه الأسرة فهي أسرة جديدة بالنسبة لكم .
- وتنحج ثم واصل حديثه:
- لم يمض العام هدرًا، كلاً، ولكنه مضى في التحري والمتابعة والمراقبة، كان على رئيسنا الأعلى - وهذا محض ظنٌ مني - أن يطمئن إليكم وأن يسبر غور الشرطة وعيونها الشرهة، وأعتقد أنني تلقيت أوامره في الوقت المناسب . . .
- وقلت لنفسي إن هذا الرجل يعني ما يقول وأنه قادر على ملء الفراغ بالثقة، وسرعان ما أحبيته أما هو فقال:
- أهلاً بكم في أسرتم الجديدة، هي الأخيرة أيضاً، يليها مباشرة الجهاز الأعلى، ولا أخفي عنكم أنني أتلقى التوجيهات من السكرتير العام نقلاً عن الرئيس الأعلى حفظه الله ورعاه .
- وأشعل سيجارة، آذناً بإشارة لنا بالتدخين لمن شاء، ثم قال:
- ونعلكم تتساءلون عن أسلوب العمل، أول ما أقول إنه يقوم بصفة مبدئية على القواعد المرعية في الأسرتين السابقتين، فلا يجوز أن تهمل تجربة ناجحة أثبتت جدواها، فلا تنسوا ما تمستم به في أسرتم الأولى وما تمستم به في أسرتم الثانية، بالإضافة إلى ما سيجد، ولا تنسوا أن جميع الأسر وحدات في أسرة كبيرة واحدة ذات هدف واحد ورئيس واحد .
- وقلب عينيه في وجوهنا ثم واصل حديثه:
- وفي كل أسرة طالبوكم بحب زملائكم فيها، وهو أول مطلب أطالبكم به في نطاق أسرتم، ولكنكم مطالبون إلى ذلك بحب الجميع بلا تفرقة وفاء بحق المنع الذي منه نهلتهم، ولو لم يبادلوا حبكم بحب مثله لجهلهم بوجود أسرتم!
- وتهمل قليلاً ثم قال:
- وعملنا عجيب، ومخير إلا لمن يعقل، يحتاج إلى الصبر كما يحتاج إلى التهور، إلى التضحية بالمال والروح والحرص على المال والروح، إلى الاعتماد على النفس والتوكل على الله، إلى الزهد في كل شيء، والشكر على كل طيب، إلى حب الحياة وحب الموت!
- وانتظر حتى نفذت كلماته إلى أعماقنا وراح يقول:
- وقد ألفتكم الطاعة فيما مضى، وما زلت مطالبين بها هنا فيما أنقل إليكم من أوامر، ولكنكم مطالبون بالإبداع فيما عدا ذلك، لا راحة ولا كسل ولا رجوع إلى إلا فيما أبلغت من أوامر صريحة، وقد تمستم بكافة الأساليب، ولكم أن تضيفوا إليها ما تقتنعون بصوابه، ومصيركم رهن بفظنتكم . . .
- ولأول مرة أشعر بأن المهمة أشق مما تصوّرت . فإذا به يقول:
- وما العاقبة؟ . . . قد تكون الشرطة والعياذ بالله، أو ميتة بطولية، أو الترقى إلى مكتب الرياسة!
- ولم أتمالك أن رفعت إصبعي فأذن لي بالكلام فقلت:
- تصوّرت أنني كلما اقتريت من الرياسة أن تجب الطاعة أكثر ويقبل الاعتماد على النفس . . .
- فقال بثقة:
- تصوّر خاطئ، فرئيسنا حرّ، وما كانت ثورته إلا من أجل الحرية . . .
- فتباديت في السؤال قائلاً:
- لم لا يسمح لنا القائد لنستمد منه الشجاعة والقوة؟
- فأجاب:
- لا سبيل إلى ذلك إلا بالعمل. إلى ذلك فهو يتابع العمل بكل يقظة .
- فتباديت أكثر قائلاً:
- رغم ذلك فقد ترك «ب» لجلاديه يقتلونه!
- فرنا إلى طويلاً حتى عصرني الندم ثم قال بصوت مهموس:
- لا أحد يملك أن يقطع برأي في مصير زميلنا العزيز . . .
- وتبادلنا نظرات هاتفية جياشة ولكنه قال بعجلة وحزم:



## التنظيم السري ٧٠١

لم يقنع بكافة الإنجازات التي تمت وتلّهب على النصر النهائي. من أي أسرة انبثق ذلك الرأي؟ أم هل انبثق في الأسر الثلاث في وقت واحد؟ بدأ بدعوة إلى عقد مؤتمر عامّ تحت الإشراف المباشر للرئيس الأعلى لإعادة النظر في الخطة من أولها إلى آخرها. ولمّا لم تلقّ الدعوة القبول وقع ما يمكن اعتباره التمرد الأول في الجماعة. فقد اجتمع ممثلون عن الأسر، وتسابقوا في عرض تصوراتهم الجديدة. واحتدم النقاش حتّى انتهى بكلّ فريق إلى التحيّز إلى أسرته وإيثار أسلوبها على جميع الأساليب والمناذاة العامة بالانضواء تحت لوائها. وزلّت القدم زلّة أخرى فراح كلّ فريق يسخر من أساليب الفرق الأخرى. وارتفعت موجة الغضب إلى تبادل السباب والشتم، ثمّ انزلقوا إلى الاشتباك بالأيدي والأرجل، وتمزّقت الوحدة، وانعزل الناس الطيّبون وهم يذرفون الدمع، متوقّعين أن تنقضّ الشرطة في الوقت المناسب فتقوّض البناء من أساسه. ولم أصدّق ما أرى وما أسمع وقطع الأسى قلبي، وهرعت إلى ربّ أسرتي وقلت له:

- ما حدث لا يصدّق.

فقال بحزن:

- هذه الأمور تحدث.

فتساءلت بحسرة:

- أبعد مشاركة النصر نفع في اليأس؟

فهتف بحدّة:

- لا تلمس اليأس بلسانك!

- أما يزال لديك أمل؟

فقال بنبرة قويّة واضحة:

- انتظر، كلاً، لا تنتظر. اندفع بلا تردّد لصنع ما هو صادق وطيب، ما هو إلا امتحان وككلّ امتحان فالأجوبة الصحيحة معروفة من قبل.

وتلقّيت كلماته كما يتلقّى الظمآن قطرة من الماء العذب.

## ممر البستان

بعد تردّد طويل أجمعت على الذهاب.

- أنّ لنا أن نرفع الجلسة التي ما قصدت بها إلا التعارف، وإلى اللقاء...

وتعاقبت الاجتماعات، وتتابعت الأوامر، وكثرت الاجتهادات، وأنجزنا أعمالاً كباراً، حتّى لاح النصر في الأفق مثل إشراقة الفجر. وسقط كثيرون متلقّعين بالبطولة فزادنا ذلك استبسالاً وإصراراً، وجعل رئيسنا «ج» يقول لنا كلّما اجتمعنا:

- حقّاً إنكم لرجال!

أو يقول:

- سيرحل الشرّ عمّا قليل فقد يئس من الأرض.

وكان ذا حلم يشجّع على المناقشة فقلت له ذات مرّة:

- أما أنّ لي أن ألقى الرئيس؟

فقطّب في غير غضب وسألني في عتاب:

- أيداخلك شكّ في عدالة تقديري؟

فقلت بسرعة وصدق:

- معاذ الله يا سيدي.

- ألا يكفيك ما أنت في شغل به؟

فقلت بتوسّل:

- أصبحت يا سيدي وكأني من مجانين العشق.

فضحك ضحكة خفيفة وقال:

- من يدري؟ لعلك رأيتَه وأنت لا تدري.

فرمقته بذهول غير مصدّق فقال:

- إنّه - على مدى علمي - لا يعيش في برج

عاجي، ولكنّه يمارس حياته بين الناس، وربّما غشي

الأماكن التي تجوبها للعمل أو الراحة...

فقلت منكرّاً:

- لو لمحتَه للفت نظري بقوة شخصيّته.

فقال بأسّاً:

- ما أكثر الأشياء الجديرة بجذب الأنظار لولا

انغماسنا في الأمور العابرة...

ردّدت قوله على مسمع قلبي طويلاً، وكدت أشغل

به عن كلّ شيء، لولا نداء العمل الذي لا يكفّ عن

الصراخ.

\*\*\*

وتواصل النجاح واقترب الشروق حتّى انفجر رأي

- نشدت السر في الليل، وغصت في عطفة السنبلة  
المستكنة تحت أمواج الظلام. عرفت طريقي بضوء  
الذاكرة الخفي، هايتك الظلمة ومرشيد القدم.  
وتسللت من الباب الحديدي الموارب ففغممتي رائحة  
بخور أليفة. ومن حسن الحظ أنني لم أجد في الدار  
أحدًا من الزوار فطالعتني وحدها متربعة على أريكتها  
الفارسية، في ثوب مزخرف بألوان شتى هادئة على هيئة  
أهلة وزهور، مرسوم بحنايا جسم مدمج فصيح،  
وجفنين شبه مسدلتين، على أنامل تعبت بأوراق  
اللعب، لا تمل في وحدتها من استطلاع الغيب. لم  
ترفع عينيها نحوي كأنما عرفت القادم من وقع خطاه،  
وكأنما تعمّدت تجاهله. ولفرط شعوري بالإثم لم أجرؤ  
على مبادءتها بالتحية فجلست على أقرب كرسي إليها  
لائدًا بالصمت. واصلت قراءة الورق، ومضيت أفكر  
في طريقة لفتح الحديث بعد أن تبخر من رأسي ما  
كنت أعدته تأثرًا بجو الحجرة المغمم بالذكريات،  
وبفتنة الإغراء المائلة في تراخ. وتظاهرت بالاهتمام  
كأنما كاشفها الورق بحقيقة غير عادية، فهمست:  
- فُعل آخر يناطح عناده!  
ونددت عنها آهة مليحة وتمتمت تكمل الرؤيا:  
- سيلهب ظهره سوط عملة أطرافه بالرصاص!  
فقلت في تسليم مجيبًا على تعريضها بي:  
- ما مضى قد مضى وعلي أن أنظر إلى الغد.  
وكأنها بوغمت بوجودي فنظرت نحوي بدهشة  
وهتفت ساخرة:  
- دستور يا أسيادي!  
فوضعت مظرورًا متوسطًا بين يديها وقلت:  
- جئت لأسدّد ديوني وأنظر إلى الغد...  
فقلت تخاطب الورق:  
- جاء لیسدّد ديونه وينظر إلى الغد.  
فقلت برجاء:  
- يجمعنا العيش والملح، وأنت سيّدة العارفين!  
فقلت بجديّة لأوّل مرّة:  
- هذه أمور تقع كلّ يوم.  
فقلت بحرارة:  
- لم يعد الزمن يأذن إلا بمطلب واحد.
- فأجابت بهدوء:  
- الأمان.  
فقلت متشجعًا:  
- الأمان، وكلّما شاورت في الأمر صاحبًا أشار إلى  
رَجُل واحد!  
فقلت باسمه:  
- إنّه من يشار إليه في هذه الأيام.  
فقلت بأسى:  
- ولم أجد من أستشفع به إليه لما عرف عنه من  
كراهية للوساطة ولكتّمهم قالوا لي إنّ كلمتك أنت لا  
يمكن أن تحييب عند أيّ عظيم.  
فقلت في مباهاة:  
- هذا حقّ لو أنّه كان من أصحابي.  
فتتهدت ولم أدر ما أقول فقلت هي ملاطفة:  
- اعرف طريقك بنفسك.  
فندت عني ضحكة ساخرة وقلت:  
- ها أنت تهزّلين...  
- لو يجيء مرّة واحدة لملكته كالآخرين، ولكنّ  
أغلب رواد حانة القمر من أصحابي إلا هو.  
فقلت في حسرة:  
- آه لو تقع هذه المعجزة!  
وتبادلنا النظر مليًا. وفاضت عيناها بحيويّة طارئة،  
وضحكّت، ثمّ سألتني:  
- ما رأيك؟  
فرمقتها بنظرة متسائلة فقلت:  
- أن تقوم أنت بالمهمّة...  
- أيّ مهمّة؟  
- المجيء به إلى هنا.  
- ولكن كيف؟  
فقلت بجديّة:  
- إنّه يغادر حانة القمر عند منتصف الليل، ثمّ  
يجترق ممرّ البستان إلى الميدان حيث تنتظره سيّارته،  
فالممرّ هو أنسب مكان للقاءه...  
- ولكنّه أبعد ما يكون عن معرفتي!  
فأغرقت في الضحك وقالت:  
- تقترب منه بأدب أولاد الناس الطيّبين وتقول

### التنظيم السري ٧٠٣

المناسبات. وكأنه كان يتحرك بانضباط فلكي، فعند منتصف الليل تمامًا أهل من ناحية حانة القمر بقاتمه المدينة يمزق السكون بوقع خطاه الثقيلة. خفق قلبي وتهاويت من عليائي. وليًا حاذاني في مسيره تقدمت منه خطوة، وسرعان ما تشتت عقلي في مخاوف شتى فكذت أرى الأصابع تشير إلي. عند ذلك انحمت ذاكرتي وشل لساني. وانتبه هو إلي ف ضرب بشبا عصاه الأرض محتجًا على اقتراي المفاجئ، فتراجعت ومضى في سبيله.

ولم يدم ذلك طويلًا ففي أثناء النهار لم أعف نفسي من اتهام. لماذا ذهبت إلى ممر البستان؟ لم اقتربت من الرجل خطوة؟ وهل منعي حقًا من الكلام إلا تشتت عقلي ووقوعه فريسة للمخاوف؟ الحقيقة أنني أخاف الناس. هم الأشباح التي تطاردني. ترى هل ينفعونني غدًا لو قاسيت شظف العيش والهوان؟! وانسقت بقوة إلى مطاردة الأشياء الغريبة عن ذاتي، ولم أبال أن أتخذ موقفني في ممر البستان قبيل منتصف الليل. وانتظرت في تصميم وحيرة معًا حتى أقبل الرجل نحوي في طريقه إلى الميدان. واقتربت منه وأنا أهمس:

- لدي كأس ونديم جميل وبيت آمن!  
والثفت نحوي التفاتة سريعة. كان الظلام يفصل بيننا ولكنّه أحاط ولا شك بهيئتي.  
وسرعان ما أشاح عني بوجهه وقال وهو يمضي بنبرة غاضبة:

- عليك اللعنة.  
احترقت حياة وخزيًا فلم يغمض لي جفن. لقد بعث أعز ما أملك بلا ثمن. رضيت بالهوان ولكنّه أعرض عني بكل ازدراء. ومع الليل ذهبت إلى عطفة السنبلة، وما أن رأيتني مقبلًا على مجلسها حتى هتفت:

- الحنية مسطورة على وجهك!  
فقلت وأنا أنحط فوق الكرسي يائسًا:  
- لنبحث عن وسيلة أخرى.  
وحكيت لها ما حصل، فقهرت ساخرة وقالت:  
- يا لك من بغل، تتعرض لجناحه بهذا المظهر الوقور الأنيق؟!  
فسألته حانقًا:

هامسًا: «أتريد كأسًا جميلًا؟ بيت نظيف مكنون!».  
فقطبت غاضبًا من سخريتها وأشحت عنها

بوجهي، فسألني:  
- ألا يعجبك اقتراحي؟  
فقلت بحدة:

- اسخري ما شئت من ورطتي!  
فقلت بجديّة:  
- إنّي جادة إن كان الأمان يهّمك حقًا.  
فصحت متسخطًا:

- كيف تصوّرين أن أفعل بنفسني ذلك!  
- ما هي إلا مغامرة عابرة يعقبها تحقيق المراد.  
فتساءلت بازدراء:  
- أليس لديك الكثيرون ممن يحترفون ذلك؟  
فقلت بإباء:

- لست في حاجة إلى أحد منهم.  
- وهل أكون أنا أول من تختارين...!  
- ما هي إلا مغامرة عابرة، ألا تفهم...?  
- كلاً لا أفهم.  
- بل عليك أن تفهم، ولا بأس أن تختار موضعًا في الممر بعيدًا عن نور المصباح لتتسجّع بالظلام.

- وكرامتي؟  
- إنّي لا أدعوك إلى الاحتراف، ما هي إلا حيلة لمرة واحدة، ولك أن ترفضها إن يكن لديك سبيل آخر...  
لدى عودتي لم أر ما أمامي من شدة انفعالي. لم

يدخلني شك في قوة سيطرة المرأة على الرجال ولكنّي رفضت السقوط بتصميم غاضب شرس حتى تحيل إليّ أي لم أعد أكثرث للأمان، مرفأ الإنسان الأخير وهو على الحافة. وكأنا هانّ عليّ أن ألقى غول الغلاء وشظف العيش والمهانة والفترة الحرجة من العمر. واشتعلت في رأسي حرب بلا هوادة ولا توقّف. ورحت أجوب المقاهي والحانات في ليل لا يريد أن يتزحزح. وقبيل منتصف الليل بقليل وجدتني واقفًا في ممر البستان عند أقصى موقع عن نور المصباح. ماذا جاء بي؟ لعليّ أردت أن ألقى نظرة من قُرب على ذلك الرجل الذي لم أر إلا صورته في الصحف في بعض

## ٧٠٤ التنظيم السري

- وماذا كان بوسعي أن أفعل؟  
فاسترسلت في الضحك ثم قالت:  
- لعلّه ظنك شخصاً من خصومه يروم الإيقاع  
به ...  
- على أيّ حال فإنّ ذلك يؤكّد وجوب البحث عن  
سبيل آخر.  
فقالت بجديّة:  
- لا سبيل لك غير ذلك فلتصحيح التجربة.  
فتفرّست في وجهها الجميل غير مصدّق فقالت:  
- اليس الرداء المناسب لغايتك.  
رجعت غاضباً عليها، غاضباً على نفسي، غاضباً  
على رغبتني الملحة في الأمان. ومضت أيام وأنا مستغرق  
في حوار مجنون مع ذاتي، حتّى وجدتني مرتدياً جلباباً  
وطاقيّة وحذاءً بالياً، أنتظر في ذات الموقع بممرّ البستان  
قبيل منتصف الليل. ومن شدّة إحساسي بالهوان هانّ  
عليّ فلم أعد أبالي به. ولما أزفت الساعة أقبل بقامته  
المديدة فتوثبت للعمل حتّى حاذاني فدنوت منه وأنا  
أقول:  
- عندي ما يسرّ العين وتشتهيه النفس.  
فلوّح بعصاه حتّى تقهقرت مذعوراً وقال بامتعاض  
وسخرية:  
- ماذا قلت يا صاحب السمور!  
ورجعت إلى داري وأنا ألمم نفسي المبعثرة وأغوص  
في أعماق خيبة جامعة. وتضاعف سخطي ولكن  
تضاعف تصميمي أيضاً. وذهبت إلى السيّدة  
وقصصت عليها قصتي متحدّياً. غير أنّها هزت رأسها  
في أسف وقالت:  
- حقاً إنك لبغل، وفي حاجة إلى من يسندك لدى  
كلّ خطوة تخطوها.  
فقلت نائراً:  
- اقتربت منه لا فرق بيني وبين أحقر صعلوك.  
فتساءلت ساخرة:  
- وصوتك؟  
- صوتي؟  
- خاطبته يا حضرة بالصوت الذي اعتدت أن  
تخاطب به مرعوسيك!
- فقلت بارتياح:  
- لا أظنّ ...  
فقاطعتني:  
- لا تبدّد الوقت، إنّي خبيرة بهذه الشئون!  
وغبت أيّاماً قضيتها في التفكير والحزن والتدريب  
دون أدنى تفكير في التراجع. وكيف أترجع بعد أن  
بعث كلّ شيء بلا ثمن؟ ولما رجعت إلى موقعي بممرّ  
البستان كان الصبر قد أنهكتي وكذلك القلق والأسى.  
ولما حانت اللحظة المرتقبة تقدّمت بخفّة وحنيت رأسي  
بذلّ وقلت بانكسار ولكن بمرارة لم أستطع التخلص  
منها:  
- عندي شيء طيب، في مكان محترم وآمين ...  
فمضى دون اكتراث بي، ولما هممت بإسماعه صوتي  
من جديد نهرني قائلاً:  
- الأجدد أن تدعو الناس إلى المآثم!  
وسرعان ما فطنت إلى زلّتي، بل الحقّ أنّي حنقت  
على نفسي لغلبة المرارة على صوتي. واعترفت بكلّ  
شيء للسيّدة لأتقي سخريتها. وقلت بتسليم:  
- لن أعود إلى المحاولة.  
فتساءلت في استنكار:  
- أتياأس بعد أن لم يبقَ إلّا قيراط من الصبر؟  
فنفختُ قائلاً:  
- لا نهاية للأخطاء، وقد مللت ...  
فقال لي بنبرة مشجّعة متجنّبة أيّ إشارة من  
السخرية:  
- ففكر قليلاً يا صاحبي القديم، كيف يمكن أن  
تستسلم لليأس وأنت على قيد خطوة من النجاح؟ إنك  
متوهم أنّك صبرت بما فيه الكفاية ولكن ما قيمة الصبر  
بغير الرضا؟ وقد أبديت إصراراً لا بأس به إذ من كان  
يتصور أنّك تقدم على ما أقدمت عليه؟ ولا تنس في  
النهاية أنّك تسمى إلى اصطلياد رجل ولا كلّ  
الرجال ...  
فقلت بريية:  
- يخيل إليّ أنّه ليس من أهل ذلك؟  
فقال ضاحكاً:  
- بل هو ذلك نفسه!

## التنظيم السري ٧٠٥

شارفت مدخل الدار برزت من تلافيف الظلام عجوز  
واعترضت سبيلي قائلة بصوتها الهرم:  
- السيدة معتكفة.  
فعرفت صاحبة الصوت وتساءلت:  
- ماذا وراءك يا أم بركة؟  
فعرفت بدورها صوتي وقالت:  
- السيدة تطالبك بتجنب الزيارة حتى ترسل في طلبك.

فخفق قلبي وتساءلت:  
- هل تنتظر السيدة زائراً مهماً؟  
فقال أم بركة:  
- لا أعلم لي شيء، اذهب مصحوباً بالسلامة.  
ولم أجد مفراً من الرجوع. وتكشفت لي سحب الغموض عن أمل. ما كانت تتخذ هذا القرار لو لم تكن تنتظر زيارة هامة. وما معنى قولها وحتى ترسل في طلبك لو لم يكن للأمر علاقة بمشكلي؟. أسفر الظلام عن أمل. وخفق قلبي بالرؤى. ولاح لي الأمان بوجهه المشرق وراء غيش الظلام. لم يبق إلا التحلي بالصبر. وما هو التلهف يجيل الصبر عذاباً حقيقياً. ومرّت الأيام. وعذاب الصبر يتفجر ويزداد افتراساً. همّي الوحيد هو الانتظار. وتساؤلي المتردد هو:

- متى يجيء الرسول!؟

## البستان

كان وما زال حلمي الوردى أن أستقر بعد المعاش في بيت ذي حديقة صغيرة، وأن أكرس بقية العمر لفلاحة الأزهار والبساتين. ومن أجل تحقيق هذا الحلم رسمت لنفسي خطة طويلة الأمد، أن أبذل في عملي أقصى ما أملك من جهد كي أرقى في سلمه إلى درجة نضمن لي معاشاً محترماً، وأن أسيطر على سلوكي ونظام معيشتي كي أدخر من مرتبي ما ييسر لي بناء البيت المنشود بعد انضمامي إلى إحدى الجمعيات التعاونية، وأن أدرس دراسة متأنية فلاحة الأزهار

ثم مواصلة بجديّة:  
- ولولا ثقتي من ذلك ما عرضت لك للتجربة، وأنا لست تَمَنُّ بخونون العيش والملح...  
وتركتها بروح متعشة، وتفتّح الورد في صدري من جديد، فصبرت أياماً ولا هم لي في الحياة إلا ممر البستان، حتى وجدتي في الموقع أنتظر. ورأيت مقبلاً بقامته المديدة فالتزمت موقفي حتى مر... ثم تبعته بخشوع وأنا أهمس:

- لا تدع فرصة العمر تفوتك!  
فلم يلتفت نحوي ومضى. فتبعته بعناد وأنا أهمس:  
- بيت آين ويليق بجنايبك...  
وإذا به يسألني فجأة:  
- آين؟

فقلت بسرور لم أجزبه من قبل في حياتي كلها:  
- عطفة السنبلة، البيت الثالث إلى يمين الداخل.  
وكنا اقتربنا من الميدان فنادى سائق سيارته، ولما جاء مهرولاً، صاح به أمراً:  
- اقبض على هذا الرجل وناذ الشرطي!  
فوضعت راحتي على فم السائق باستماتة وقلت وأنا أنتفض كالمصعوق:  
- كلاً... انتظر... لست منهم... أنا رجل محترم...  
فأمره بإشارة أن يدعني وشأني وتساءل متهكماً:  
- محترم؟

فقلت وما زلت أنتفض كالمصعوق:  
- إليك بطاقتي...  
وتناولها وراح ينظر فيها ثم تساءل:  
- كأنك محتال.

فاندفعت أقص عليه قصتي بصراحة كاملة مذ اجتاحتني نشدان الأمان فأزاح بقية مطالب الحياة عن كاهلي. وصمت ملياً وهو يتفحصني على ضوء الشعاع الهابط من مصباح في الميدان، ثم قال ببرود:  
- إياك أن تربي وجهك مرة أخرى!

\*\*\*

وعقب أيام لم أحصها جررت قدمي إلى عطفة السنبلة وكأني قد طعنت في العمر أعواماً مديدة. ولما

## ٧٠٦ التنظيم السري

والبساتين. ولو أنّ الحظّة نُفّذت في كتمان وحكمة ما تعرضتُ لقليلٍ أو قالٍ، ولكنني كنت وما زلت من الأدميين الذين لا يخفون أسرار أحلامهم، فعرف جميع الصحاب حلمي الوردية وما أعد له، وعلم به آخرون، حتى عُرفتُ على مرّ الأيام، وعلى سبيل المزاح، بالبستاني. وجرت المقادير في مجاريها غير عابثة بحلمي الأثير، فتعرض العالم لويلات من الحروب والأزمات، فمضت الأسعار في ارتفاع وقيم النقود في الهبوط، ولم تتحقق وفرة بلا حساب إلا فيما أنتجت من بنين وبنات. والأدهى من ذلك كله أنني لم أحظ برئيس ينتفع بمواهي فيرشحي لدى حلول الفرصة للترقية. وكنت أقول بصوت باتت الشكوى سمة غالبية على نبرته:

- يا سادة - ألا يلقي عملي المتواصل عندكم شيئاً من الجزاء؟

ولمّا لا أجد أذنًا صاغية أقول:

- وإذا عزّ العدل أفلا يوجد شيء من الرحمة؟

فيقول لي رئيسي:

- انتبه لواقعك يا بستاني، أين الإنتاج الذي تحدّث عنه؟ ما أنت إلا مستخدم عاديّ دون المستوى المطلوب...

فأقول مستميتاً في الدفاع:

- ولكنني مجتهد، ولكلّ مجتهد نصيب.

فيضحك قائلاً:

- لم يعد العصر يحفل بالأمثال القديمة، اليوم نحن نربط الحوافز بالإنتاج...

وجعلت أغوص في الحيرة والظلام. أقلعت عن ذكر حلمي الوردية ولكنه ظلّ فرجتي وحلم يقظتي. وكلّما لمحت لوناً أخضر تراءت لخيالي الحديقة، فتنتقلت بين ورودها وأزهارها. ملقياً خبرتي في خدمتها، متلقياً منها مسرات الأريج والألوان. غير أنّ زوجتي لم يكن يشغلها إلا مستحقّات البقال والجزّار والدروس الخصوصية، ولا تكفّ عن تذكيري. وعانيت أمر تحمّل الأعباء ومرارة الإخفاق حتى رقت لي رفقاء الطريق من زملائي الخائنين فهمس في أذني أحدهم:

- كيف تحتمل الحياة بلا ابتسام؟

فسألته:

- خبرني كيف يروق لك الابتسام؟

فهمس بإغراء:

- عليك بخاترة «خذ واشكر».

كان في غاية الوقار والتعاسة فعجبت لشأنه وقلت بفتور:

- كيف تدعوني إلى مزيد من الإنفاق؟!

فضحك قائلاً:

- معاذ الله، هل يعزّ عليك ادّخار قرش واحد ولو بالرجوع مشياً على الأقدام مرّة؟

تكلم بثقة ويقين فقلت أجرب، وهكذا اهتديت إلى خاترة «خذ واشكر» في عطفها الأثرية «زاوية العابدين» بالباب الأخضر. وهي أشبه بمغارة في جوف جبل، تعيش في ليل دائم يغوص في عمق المبنى الضيق المهلهل التي تقع في أسفله، يفضي إليها باب مقوس الهامة ولا نافذة فيها، ذات شكل بيضاوي، وفي نهاية عمقها يقوم برميل ضخّم ذو صنوبر سفليّ يجلس إلى جانبه على أريكة عجوز يدعى عبد البرّ، وتصطف على جناحيها أختونة خشبية ومقاعد من القشّ المجدول. ويقدم الشراب في كوب صغير مصلّع لا يملأ عين الظامئ، وهو شراب مجهول الهوية لا يعرف كنهه حتى الراسخون في السكر والعريضة. وسرعان ما تبيّن لي أنّ قلّة من رواد الخاترة من يستطيعون تجرّع الكوب حتى ثباته، وكثرة تقنع بنصفه لشدة مفعوله وبقاء أثره حتى الفجر. وما كدت أرشف منه رشفات حتى أكرمني غاية الكرم فاغتال بنفشاته الزاحفة وحوش الموم التي تطاردني ليل نهار، وأحلّ محلّها الأنس والرضاء والبشاشة. ووجدتني وسط الحديقة أغرس جذوراً جديدة وأقطف أزهاراً يانعة. ومال صاحبي نحوي قائلاً:

- هلمّ نناقش همومنا الملحة...

فقلت محتجاً:

- أريد الحديث عن الورد وأنواعها...

فقال ضاحكاً:

- ها قد وصلت إلى الحديقة.

فسألته:

## التنظيم السري ٧٠٧

- سيكون لك الشفيع الذي تريد.  
فالتفتُ إليه متسائلاً ولُكَّته كان قد اختفى تماماً.  
وحلَّ محلَّه آخر لم أره من قبل. كان يرتدي عباءة من  
كتان أبيض ذات ذيل من جلد النمر وعلى رأسه عمامة  
خضراء. عجبت بهيئة وجهه التي تذكّر بوجه الأسد  
رغم ميل جسده إلى القصر. وسألته بدهشة:

- من أنت؟... وأين جليسي؟

فأجاب بهدوء مفعم بالثقة:

- إنِّي شفيعك.

ولم يداخني شكٌ في صدقه أو قدرته، وتلقّيت ذلك  
فيما يشبه الإلهام الذي لا يناقش. من أجل ذلك قمت  
وأنا أقول:

- خير البرّ عاجله.

واصطحبته إلى بيت رئيسي في الزيتون، في تلك  
الساعة المتأخرة من الليل. وطرقت الباب بشجاعة لا  
أدري من أين مأتاها ففتح الباب بنفسه، ونظر إليّ  
بذهول واستياء لم يحاول إخفاءه. وجلس قبالتنا في  
حجرة الاستقبال متجهّم الوجه، فقلت:

- معذرة عن زيارة في وقت غير مناسب.

فقال دون مجاملة:

- هذه الساعة من الليل!

فأومأت إلى رفيقي وقلت:

- أقدم لسيادتك شفيعي...

فلم يحولّ بصره عني، وقرأت في ناظريه توجّساً  
وقلقاً، فالتفتُ إلى صاحبي وقلت برجاء:

- تكلم يا سيدي...

فقال الشفيع بهدوءه المكين:

- إنّه يستحقّ الترقية لدرجة جديدة في طريقه  
الطويل!

فنظرت إلى رئيسي وهو غائص في ربه البنيّ القاتم  
فإذا به يتهادى في القلق والخوف. وأشفتت من إحراجها  
فتهضت قائماً وأنا أقول:

- موعدنا الغد يا سيادة الرئيس...

\*\*\*

وجاءت ثمرة الشفاعة بعكس ما قدّرت فقد تقرّر  
إحاطتي على المعاش قبل بلوغي السنّ القانونيّة بخمسة

- ألا تسمع تغريد البلابل؟

واندفعنا نغني معاً:

- الزهر في الروض ابتسم

وكانت تقاليد الحفارة ترحب بالغناء. ومن كلّ ركن  
تراامت أغنية مشرقة، وجلس عبد البرّ، بلا حراك وهو  
يبتمس.

\*\*\*

وحرصت على كتمان السرّ ما وسعني ذلك غير أنّ  
الخمر ذات رائحة ناطقة من المتعذّر إخفاؤها إلى الأبد،  
من أجل ذلك افتضح أمري، وتلقّيت فيضاً من اللوم  
والتعنيف وكانت زوجتي أولّ البادئين فقالت لي:

- أكان ينقصنا هذا الداء؟...

فقلت لها بصدق:

- إنّي أؤدّي ثمنه مشياً على الأقدام ولم يمسّ الميزانيّة  
بسوء.

فتساءلت:

- والأولاد الذين يكبرون يوماً بعد يوم؟

فقلت بضيق:

- ربّنا يستر.

ولكنّ السرّ انتشر في أماكن كثيرة، تعدّى من لسان  
إلى لسان، فدعاني بالكاساتيّ من سبق أن أطلقوا عليّ  
البستانيّ. وتجمّل أثر ذلك في موسم الترقّيات، فقال لي  
رئيسي متهكّماً:

- كنت ذا همّ واحد فأصبحت ذا همّين...

فقلت محتدماً:

- يا أهل العدل والإنصاف، احكموا على عملي،

ولا شأن لكم بسلوكي خارج الديوان.

فقال الرجل بامتعاض:

- ولكنّ الثقة لا تفرّق بين هذا وذاك.

فقلت محتدماً أكثر:

- المسألة أنّي بلا شفيع!

\*\*\*

واستجاب القدر لشكاتي الحفيّة فجاد عليّ بالشفيع  
المنشود. كنت في حفارة «خذ واشكر» على أحسن  
حال. وحكيت لصاحبي حالي بيني وبين رئيسي وأنا  
مغمض العينين فقال لي:

## النسيان

اشتعل خيالي فانفجرت موجاته في جميع الأرجاء  
ولكنه لم يلم بالمدينة اللانهائية. إنها تربض في أي مجال  
من مجالات البصر، كائنًا عملاقًا بلا حدود ولا  
تناسق، ملوَّحة بالآلاف الأذرع والسواعد والأصابع،  
تستوي فوقها آلاف مؤلفة من الأبنية الشاهقة المجلَّلة  
بطابع العصر المتعجرف التّيّاه، وأخرى مُتهرئة حال  
لونها في قبضة الزمن الجارف وثالثة آيلة للسقوط  
يلتصق بها سكّانها في استسلام وإصرار، وفي فجاجها  
يتلاطم الناس في صخب ويتلاقون في غفلة وضوضاء،  
وتتابع الباصات والسيارات والكارو والجمال وعربات  
اليد عازفة أصواتها المتضاربة، والحوادث كثيرة  
والأفراح صارخة والجنائز زاعقة والمشاجرات دامية  
والعناق حارّ وحناجر تنادي على سبلع من الشرق  
والغرب والجنوب والشمال، ويختلط الأنين الشاكي  
بشهقة الحمد والرضا.

ماوى المهاجرين من الكفر مثل طوق نجاة في البحر  
العاصف. يستقبلني شيخ القبيلة المهاجرة قائلاً:  
- ابن جديد، أهلاً بك في أسرتك.

فألثم يده وأقول:

- شكراً لك يا عمي .

وجدت مقعدي في المعهد ينتظر أيضاً. وكنت عند  
حسن الظنّ فتوجّعت الرحلة بالنجاح. وألحقت بالعمل  
في مصلحة المساحة وأنا أقول «من جدّ وجدّ». ومن  
العمل تسلّلت إلى المقاهي والأصحاب ولكن بحذر  
المتشّفين. وراودتني أحلام القلوب الصائمه. وفي  
ماوانا ورود متفتحة. ودارت العجلة بالأصباح  
والأصائل والأماسي. وحدث شيء مألوف. حلم عابر  
يُذكر أو يُغفل. ولكن يبدو أنّه ومض في عيني ومضة لم  
تغب عن بصر شيخنا الثاقب. فقال لي وهو مترّبّع على  
أريكته يناجي حبات مسبحة:

- في نفسك شيء يدور.

فقلت بأسياً:

- جاءني في المنام شخص وحذّرني من النسيان. . .

أعوام. ولم تجد الشكاوى المتلاحقة التي رفعتها إلى  
الجهات المختصة. وساء مركزي في أسرتي وفي الأماكن  
الأخرى. وكاد بناء أسرتي أن ينهار لولا سعي أهل  
الخير لإلحاقني بأعمال إضافية، فعملت مصحّحاً بمطبعة  
السعادة، وكاتباً على الآلة الكاتبة بالقطعة في مكتب  
توكّل. ويات حلم امتلاك البيت والحديقة خرافة  
ولكنّي لم أكف عن ممارسة أحلام اليقظة في خنّارة «خذ  
واشكر». وجعلت أقول لصاحبي:

- كأنما جاء الشفيح ليخرب بيتي. . .

فقال الرجل:

- ولكنّ حالتك اليوم أحسن ممّا كانت وأنت في

الخدمة. . .

فقلت متشكّياً:

- ولكنّي أعمل كالثور في الساقية.

فقال بأسياً:

- الصبر مفتاح الفرج.

فقلت بحق:

- وددت لو يبيء مرة أخرى لأسأله.

فقال ساخراً:

- خلّها على الله بلا مناقشة ولا وجع دماغ.

\*\*\*

وبلغت دراستي لفلاحة الأزهار والبساتين غاية يُعتدّ  
بها، فسنحت لي فكرة مثيرة، وهي أن أستثمر معلوماً  
متطوّحاً بلا أجر. ألا يجعل ذلك من الحلم حقيقة؟  
ومن المستحيل ممكناً؟ إنّ الحداثق الخاصة في حيننا  
متوقّرة بكثرة تفوق الحصر، وإذا عرضت على أصحابها  
خدماتي فلن يرفضوها ولو على سنبل مجاملة الجار.  
بذلك لا يُهدر عنائي الطويل المتواصل ولا يتلاشي  
سروري في الحياة. وما أنا أمضي البقية الباقية من  
حياتي في الخضرة بين الأزهار دون حاجة إلى تدبير أو  
شراء أو بناء، وكأنني أملك بدل الحديقة الواحدة  
عشراً.

هكذا حققت حلمي متجاوزاً كافة عقبات

الطريق. . .



## التنظيم السري ٧٠٩

إضافي... .

وسر لي بنفوزه التدريب في مركز سبابة. وبرعت في ذلك براعة عمودة. ورحت أستثمر خبرتي الجديدة مساء بعد فراغي من عملي الرسمي. وتوفرت أرباحي فتراكمت مدخراتي. وتابع الشيخ نجاحي بارتياح وهو يقول:

- هذا خير من الانحراف، وزماننا يطالبنا بأن نكون كالقطط بسبعة أرواح.

ودب في أوصالي نشاط باهر، وانتشيت بحب الحياة وتغافلت عن فوضاها الضاربة في كل موضع. وأغراني ذلك باكتراء شقة عُزمت فيها خلواً لا يُستهان به. وودعني عمي في شيء من الفتور وهو يقول:

- هكذا تجري الأمور.

وأمنت بأنه لا طمأنينة لحيي بغير العمل والمال، وبأن أسعد ما نناله في دنيانا مستقبل مأمون. وحافظت على اعتدالي بقدر الإمكان فلم يجد جديد في حياتي سوى التدخين واللحوم الدسمة والحلوى الشرقية. وتخرج أبنائي وبناتي في مدارس اللغات. وأقبل مع الأيام كل شيء حسن. وفي غمرة حياتي العذبة انتهت ذات ليلة على الحلم يعود للمرة الثالثة، ويحدّثني الرجل من النسيان كعادته. رأيته كما رأيته في المرّتين السابقتين أو هكذا خيّل إليّ. الرجل هو الرجل والكلام هو الكلام. وعجبت ولم أفلح في الاستخفاف به. ولم يكن الشيخ قريباً لأحاوره، وكنت قد انقطعت عنه فترة غير قصيرة لانهاكي في العمل فكرهت أن أزره زيارة غير بريئة لمنفعة. وساورني قلق تسأل لسلوكي فعانت منه زوجتي، وقالت لي:

- خير من ربنا وشر من أنفسنا!

فقلت باستهانة:

- ما هو إلا حلم على أي حال... .

فقلت مصدقة:

- ولا أراك تنسى شيئاً... .

ولكنني لم أستطع التملص من قبضة الحلم العجيب. ظلّ يطاردني ويشغل بالي. وتحت تأثيره اندفعت من الطوار إلى الطريق لأعبره دون انتباه لحركة المرور. فجأة وبلا انتباه. وانقضت عليّ سيارة من

فتفكر ملياً ثم قال باسمًا أيضًا:

- إنه يدركك بالشباب!

وفطنت إلى ما يلحح إليه. وفي مهجرنا لا تحول الصعاب بين المرء وبين ما يشتهي قلبه. قبيلة متآخية متراحة. والحجرة تتسع لزوجين يمثل ما تتسع لفرد. والعروس جاهزة منتظرة وثمة تسهيلات جمة ومساعدات ميسرة. ويقول الشيخ:

- نلتزم بالسنة الشريفة، وعلى بركة الله.

وتطلّ الحجر، وتوثت بالجديد المناسب، وتستقبل عروسين في تلك المدينة الهائلة التي لا تبالي بأحد. والحياة في مهجرنا تقوم على التضامن، وتتفتق عن حيل كثيرة للتغلب على عسرة الأيام. وأقول لنفسي وأنا في غاية السعادة:

- طريقنا عبده أقدام أسلاف كرام.

وانهمكت في الحب والزواج والأبوة والعمل.

وجعلت أقول للشيخ:

- الفضل لله ولك.

فيقول بامتنان:

- بيتنا مثل سفينة نوح في هذا الطوفان الذي يحدق بنا. فقلت له:

- عمي، الناس تحسدنا وتغبطنا... .

- ويزداد ذلك كلما أمعنا في الزمن.

وانتهت ذات ليلة على الحلم يعود من جديد. ويحدّثني ذلك الرجل من النسيان. رأيته كما رأيته في المرّة الأولى أو هكذا خيّل إليّ. الرجل هو الرجل والكلام هو الكلام. واستمع الشيخ إليّ باهتمام ثم قال:

- عودتنا أن نحلم بهواجسك.

فقلت:

- قلبي مطمئن وخالٍ من الهواجس.

- حقاً؟ ألا تفكر في مستقبل أسرتك؟

فقلت كالمحتج:

- سعيد في هذا الزمان من يستعدّ ليومه.

- وماذا تفعل غداً إذا ألحت عليك المطالب؟

فلذت بالصمت في كآبة، فقال:

- افعل كما يفعل كثيرون، استعزّ بعمل

المكان لترجع من حيث أتت وثب رجل نحو الحوذني  
وسأله:

- من أين جئت بحمولتك؟

فاجاب العجوز وهو يهز اللجام مستحثاً حصانه على

السير:

- من زين العابدين.

ولم يُشبع الجواب نهم أحد وأخذ الرذاذ يرش  
الأرض، وقال صوت:

- الخير على قدوم الواردين.

فتعجب آخر:

- أيّ خير في هذا الجور العاصف!

ورغم انهماك الخلق في غيابات الحياة اليومية  
وانغاسهم في الحساب نفثوا مع أبخرة أفواههم الظنون  
وجاشت صدورهم بالأخيلة المحرمة، واستفحل  
الخطب بتسلل أنباء عن ترمّلها المبكر ووحدها المثيرة  
وترفّعها المتحدّي وما خلفته وراءها من احتدام الأهواء  
الجاهحة. تقول مالكة البيت بفخار:

- أرمل الشيخ النقيب صاحب الوقف المعروف  
باسمه وشرطه الأوّل أن يبقى استحقاتها ساريًا ما  
بقيت أرمل فإذا تزوّجت سقط حقها في الربيع...

ويطالبها صاحب الوكالة بوصفها فتقول:

- لمحة عابرة ولكتّها ثمرة ناضجة قبيل منتصف  
العمر، ليس كمثل جمالها شيء...

ويتجهّم وجه المرأة الغامق مثل قشرة الدوم وتقول  
محتجّة:

- لا ترخّب بلقاء أحد، ولا أنا صاحبة البيت،  
أصبح على وجه خادمته الكركوبية أمّ طاهر، أمّا كوثر  
هانم...

ويقاطعها أكثر من رجل:

- اسمها كوثر؟

- كوثر البدرى كما هو مرقوم في عقد الإيجار...  
وأمّ طاهر تجول في الحارة مع تعاقب الأيام. تطوف  
بالجزّار والبقال والفاكهية والقطار والبنان وتعرض عن  
المتطفّلين. وسيدتها قابعة في أعماق ذاتها، لا تغادر  
البيت، لا تلوح في نافذة، ولكتّها غزت الأخيلة  
بسحرها الخبيء، وأشعلت الوجوه والأطراف بوقع

قريب فلم تستطع أن تتحاماني أو تفرمل قبل أن  
تصلمني وتطيح بي كالكرة. فقدت الوعي تمامًا حتّى  
استيقظت في المستشفى على حال لا يرجى معها أمل.

\*\*\*

ومن منطلق العبرة والأسى يحدّثنا الشيخ فيقول:  
- نُقل إلى المستشفى تظلّه سحابة الموت السوداء،  
فأجريت له جراحة خطيرة، وثبت من التحقيق وشهادة  
الشهود بأنه اندفع إلى الطريق فجأة وكأنما يقصد  
الانتحار، وبأنّ لا مؤاخذه ألبتة على السائق، وجلست  
جنب فراشه وقد علمت بأنه لا أمل في نجاته، وزارنا  
صاحب السيارة موسيًا ومتطوعًا لمُد يد المساعدة،  
فمكث قليلًا ثم ذهب. وتمرّك جفنا ابن أخي وتجلّت  
ومضة ضعيفة في عينيه فأدّيت أذني من فيه. وسمعته  
يهمس:

- إنه الرجل، هو هو صاحب الحلم...

وكانت آخر كلمات نذت عن شفتيه...

## صاحبة العِصّة

يوم جاءت كان يوم بياض نهاره تواری في عتمة  
غاشية تحت السحب المتراكمة، ونسائمه جالت مثقلة  
بالبرودة تسفع الوجوه وترعد الأطراف، ونذر المطر  
تسيم في الفضاء. وتوجّس الناس فحملوا السلع إلى  
أعماق الحوانيت ولاذت عربات اليد بالأفنية. لم يبق في  
الحارة إلا الصغار يتحدّون عبوس الجور بمرحهم  
المستهتر. جاءت في حنطور يتأود فوق أديم مبلط،  
يشده حصان مهزول، ويسوقه حوذني عجوز نعمسان،  
مسبوقة في اليوم السابق بأثاث فخيم بهر الأعين  
المتفحصة. وقف الحنطور أمام آخر بيت من ناحية  
القبو، فمرقت منه إلى الداخل امرأة رشيقة محتجة لم  
يكشف نقابها المحكم عن ملمح من ملامحها، وتبعثها  
عجوز سافرة مقوسة الظهر من الحرم. أذاعت صاحبة  
البيت بأنّ الدور الثاني والأخير اكترته أسرة ذات شأن  
ووزن ولكن لم يتصوّر أحد أن تتكوّن من امرأة وحيدة  
وغادم عجوز. ولما دارت العربية بصعوبة لضيق

## التنظيم السري ٧١١

فيسأله الفتى الذي سعد بإقباله:

- كيف قُتلوا يا شيخنا؟

فيقول ماضئاً مرارة الذكرى:

- لأتفه الأسباب يا ينسون . . .

ومضت أيام ذاك الشتاء العاتي دون أن تصيب شهوة مرماها فانفجر غضب الكبرياء في القلوب المحتدمة بالضجر، وتمخضت ليالي الغرز عن مكيدة، فاختفت أم طاهر هاجرة خدمة السيدة الوحيدة، وتعهدت مالكة البيت بالامتناع عن تقديم أي مساعدة للجميلة المتوارية. دبّروا ذلك ليحبسوا المرأة على الظهور والمشى في السوق ثم يكون بعد ذلك ما يكون. ولم تكن المكيدة مما يتفق مع تقاليد الحارة وشهامتها الموروثة، ولكنها لم تنب عن ذوقها الذي اكتسبته أخيراً في دوامة الأعاصير الجارية، ووعدت الجميع بإشباع نهمهم ودغدغة غرائزهم وتحقيق أخيلتهم المحمومة. ولم تشغلهم أعمالهم عن التربص بالمسكن المغلق. عمّا قليل سهل عليهم بقامتها المشوقة، كاشفة عن ذاتها، وبتهادى إلى الأذان صوتها الناعم. وباقتراب اللحظة المترقبة اضطربت المنافسة في الأعماق، وتوترت العلاقات واندلع الاستفزاز في المحاجر فأنذر بأوخم العواقب. متى كل نفسه بها ورأى ذاته في مرآة الوجود الأجدر والأحقّ بملكيتها شرعاً أو سفاهاً. وتوَّبت شيخ الحارة للعمل ولكن الأحداث لم تمهله، فنشبت معارك وحشية، كلّمها سدّ ثغرة انفتحت ثغرة، وتعرّت الأنفس بلا حياء. وجمع الشيخ عزيمته ومضى إلى البيت، وطرق باب الست. ومن وراء شراعة الباب الموارية قال:

- أنا شيخ الحارة.

فجاءه صوت غاية في العذوبة وهو يقول:

- انتظرتك من أول يوم!

- عظيم، ماذا ترين حلاً لهذه الوحلة؟

فقالت بعتاب:

- ظننتك قادمًا بالحل!

- الوحش انطلق بلا رادع، ولن يرجعه إلى قفصه

إلا أن تذهبي بسلام . . .

فقالت بأسى:

نظرتها المتسللة الخفية من وراء النوافذ المغلقة، ترى ولا تُرى، تقيم وتزن وتحكم من جانب واحد، وهم تحت رحمة مجهولها لا علم لهم بما يروق أو يسخط، بما يفتح الأبواب أو يغلقها، بما يقرب أو يُبعد. وهي وفدت إلى الحارة في وقت استقرّ فيه زحل في برج الحظّ المائل، فأرسل نحسه ليغمر القاصي والداني. ثقلت الأرواح ففقدت خفة مرحها، وصمت الأذان عن سماع الغناء، وجفت القلوب فتلاشت خفقة الحبّ والحنان، ومضت الشمس تشرق وتغرب والقمر يسطع ويأفل فلا يظفر بمن يدهش أو يفرح أو يتذكر، ولكن احتدم البيع والشراء، وتناطح الريح والحسران، وتوالى الملء والتفريغ، وكثر الغشّ والحلف بالطلاق، والحجّ لعقد الصفقات، والزواج لتأمين الدعارة، واندلاع الخصومات لأتفه الأسباب، حتى حاز من أمره ينسون، الشابّ مجهول الأب نحيل الجسم ذو قلب الطفل ووجه العذراء، ما بال أحد لا يداعبه أو يعطف عليه كالأيام الماضية؟ ما زال سقاء الحارة يطوف على البيوت بالقرب ولا يجد عند المساء من يلهو معه أو يطرب لصوته إذا غنى. وفدت إلى الحارة وهي على تلك الحال فما فعل مجيئها إلا أن أرث الطمع وهيج الجشع وقدح زناد الهدم والتخريب. وقال مُدعو الحكمة إن امرأة هذا حالها لا تفرط في الوقف من أجل الشرع ولكنها في النهاية تمهد فراشها للزنا لصاحب القسمة والنصيب فيفوز بالحبّ والمال معاً. وفي الليالي الساهرة التي يجتفلون فيها بالصفقات الرباحة تنهزم جحافل الليل أمام أضواء الكلوبات، وتفصّ الأرض بالجماهير، وتزدحم الأبواب والنوافذ بالنساء. وترسم هامتها وراء خصائص النافذة فتنبض العروق بالحماس، ويشمل بالنشوة السكرى والمفيقون، فيتبارون في الرقص والمصارعة والمزاح يقدمونها قرابين تحت النافذة، استشارة للرجبات الكامنة وتمهيداً للاقتحام. ويراقب شيخ الحارة ما يجري بعين تطفح بالكآبة فيحسد قلبه المتاعب المقبلة في طبّات السحب، ولم يجد من يجاوره إلا ينسون المستقرّ في رحاب الطيبة والأسى فيقول له:

- لا يتذكرون قتلى أسلافهم يا ينسون.

وحتى اليوم أتذكر هذه الحكاية كأسطورة من أساطير الصبا، ولكني أتذكر أيضا أن أبي أقسم لي مرة أنها حكاية حقيقية، وأنه عاصرها على عهد شبابه المولي.

## في أثر السيدة الجميلة

ذات صباح مبكر دافئ، صادفتها عند منعطف البرج وليس في الطريق غيرنا سوى الكناس. كنت قادمًا نحو المنعطف من ناحية وهي قادمة من الناحية المقابلة وبيننا أشعة الشمس المشرقة تجبو فوق الأرض الخضراء.

القيمت نظرة عابرة فشددت بقوة باهرة لتستقر فوق صفحة وجه ذات مواصفات خاصة لا جدوى من وصفها. الجميلات كثيرات ولكن إحداهن تُخصّص بميزة سرية يتسلل منها إلى قلب ما نداء مهم لا يقاوم. قوته الحقيقية في الأمر الصادر منه، وقوته الحقيقية أيضًا في الاستجابة الحازمة إليه التي لا تفسير لها. من أجل ذلك وقعت أسيرًا بلا معركة أو من خلال معركة لم أشعر بها قط. انشرح صدري بقوة عجيبة، واستسلم قلبي بلا قيد أو شرط، كأنها غاية الدنيا وثمرتها النهائية، هي ما أريد، وما تعلق على جميع ما تعبد به الدنيا من جاه ومال وسعادة. ونسيت شواغلي جملة، وهموم اليوم والغد، وما كنت ماضيًا لأؤديه مما يمت بصلة لأسرتي أو عملي. تلاشى كل شيء، ولم يبق إلا هذه الصورة العذبة المتوجة لجسم رشيق يمضي بها في مشية معتدلة هادفة على مبعدة أمتار وأنا في أثرها مركز الوعي في حركتها اللدنة المتتابعة. وهالتي وأثقل مهمتي هالة الجدية التي تكسوها، ورسانة الخطو التي تحملها بعيدًا عن ألفة المرح وأمل القرب. ترى ماذا أبغي؟ ولكنني أبغي شيئًا محددًا ولا أملك خطة واضحة. المسألة بكل بساطة أنني عاجز عن الانفصال عنها مهما تكن العواقب.

إنه أمر خطير في الواقع. ليس لهوا أو عبثا ولكنه فقدان كامل للذات، واندفاع أهوج في سبيل جديد لم

- جئت هربًا من هذا الوحش!

فتفكر قليلاً ثم قال:

- اختاري أحدهم.

فقلت بازدياء:

- لا خيار بين هؤلاء الخقراء.

- منهم من يعدّ من أغنى الأغنياء.

- ليس المال ما ينقصني.

- ستخرجين اليوم أو غدًا إلى حارثهم.

- لم أعتد الجولان في الطرقات.

- لن يسعى إليك الطعام على قدمين؟

فصمتت مليًا ثم قالت:

- يا شيخ الحارة، أرسل إليّ الفتى ينسون!

فهتف الرجل ذاهلاً:

- ينسون؟!

فقلت بهدوء:

- نعم، إنه يصلح للخدمة.

- سيفرونه بهجرك كما فعلوا مع أم طاهر وصاحبة البيت؟

- قلبي يحدّثني بخلاف ذلك.

- أخاف عليه سوء العاقبة.

- أرسله، ودع الأمر لي...

وانتبه الرجال فإذا ينسون يعمل في خدمة السيدة الجميلة. يذهب ويحيى في طمأنينة الغافل عن النذر المحدقة به. وتغيّر منظره. خطر في جلباب صوفي وطاقيّة بيضاء ومركوب أحمر. وفي حَمّ السلطان تجلّى لونه الحقيقي لأول مرة. وثبت لكلّ ذي عين أن له شبابًا ورونقًا. وتفاقت الشائعات المغرضة عن العلاقة بينه وبين كوثر هانم. ولم تهزم المرأة ولكنها تحدّت الجميع بإرادة لم تجر لأحد في بال. استدعت المآذون في رابعة النهار، وأنت - من بين معارف أسرتها - بشاهدين خطيرين، حمل حضورهما معها فصل الخطاب، هما شيخ الأزهر ومدير الأمن العام، وقالت المرأة لشيخ الحارة:

- ضحيت بنصبي في وقف النقيب قانعة بالحب

والأمان ومدّخر من المال يكفي لبدء حياة جديدة.

\*\*\*

## التنظيم السري ٧١٣

قريباً وراء حجرة تفتيش كهربائية. وراقبت انهاكهما في حديث غير مسموع. وأشار الرجل إلى محل «باباز» فمضت برفقته إليه ثم اختفيا داخله.

أنتظر أم أدخل؟

لبثت فترة تمزق وحيرة، ثم اقتحمتُ المحلّ كأنما أبحث عن شخص ما. وجعلت أجول في الأركان بصري، فرأيتها جالسين حول مائدة، أمامها زجاجة بيبي وأمامه فنجان قهوة وهو باسط أمامه صفحة يتلوها بعناية وتبادلاً حديثاً حول التلاوة، في الغالب، فدوّن الرجل بعض الملاحظات، ثم صَفَقَ داعياً الجرسون فأسرعتُ إلى الانتظار في الخارج وخرجا في أعقاب، فتصافحا أمام المحلّ، أما الرجل فرجع إلى الداخل وأما المرأة فسارت نحو شارع نخيري، وفي الحال تحركتُ في خطّي المرسوم.

وبعد مسيرة دقائق انحرفتُ نحو دكان ساعاتي فوقفتُ تحت شجرة مستقبلاً حرارة متصاعدة وأصواتاً متضاربة وزحمة تنفضُ ما بين مركبات وآدميين وكأنما الدنيا تقذف بأناسها وآلامها من كافة الأنواع والأشكال.

وغادرتُ المحلّ بعد ربع ساعة فتواصلت المطاردة المحمومة الخفية.

كيف يتأتى لي أن أهمس في أذنها بما أريد وسط هذا الانفجار الأدمي الآلي الذي يتعاطم بين دقيقة وأخرى تلهبه أشعة الشمس والأنفاس الحارة؟ رأيتها تتجه نحو «البنك الأهلي» وتفرد داخله فتوقفت في ضيق شديد ثم دخلت وراءها متعللاً بفك ورقة مائة. لمحتها تقف أمام شبّاك لعله لصرف الشيكات ثم تقف جنب أريكة مكتظة تنتظر. ولبثت واقفاً، ولكنني خفت أن أثير رغبة فذهبت خارجاً وانتظرت أمام بيّاع جرائد ومطبوعات رحلت أنفحصها وأراقب باب البنك في الوقت ذاته.

حتى متى أستطيع اتقاء الشعور بالتعب؟

ها هو الوقت يمضي في توتر أعصاب وتصلب عضلات. ثم تلوح في باب البنك بشموخها الفطري فيخفق فؤادي بارتياح عابر عميق. أتبعها متجدد النشاط متحين الفرصة للانتحام بها ومهما كلّفني ذلك من مخاطرة. ولكنّها مالت إلى السنترال. هذا مكان لا

يلج من قبل في جدول أعالي، ضعت بالسطول والعرض وأصبح الماضي كلّ في خبر كان. وبعد مسيرة دقائق مالت الفتاة - أو المرأة - إلى المستشفى ودخلت فواصلت سيرتي أمتاراً ثم توقفت تحت شجرة. أتعلم في المستشفى أم تعود مريضاً؟

لم أفكر في الذهاب على أيّ حال ولا في التخلي عن أن أكون ظلّاً لها.

وتذكرت في فترة الانتظار حرّيتي وبأنه لا يمكن إرجاع الزمن خطوة والإفاقة من هذه السكر الغامرة؟! الغامرة؟!

ومن شدّة شعوري بالأشْر دعوت إرادتي أن تمدني بالرعاية الواجبة، ووردت على ذاكرتي تجربة سابقة متشابهة ولكنّها بعيدة عن التطابق.

ثمّة سحر كان، نفثته نظرة ساجية تحت ظلال حاجبين مقرونين وفترة جنون طال وفعل بي ما لا يقال، ولكنّ التجربة الجديدة، رغم ذلك، جديدة تماماً وغير مسبوقه بنوعها، ولا تبدو القديمة بالقياس إليها إلا «بروفة» باهتة. ومرّ وقت ثقيل قبل أن تغادر المستشفى مقبلة نحو موقفي ماضية في طريقها. ولدى مرورها بي تلقّيت نظرة عابرة فلم أدر إن كانت تذكرني أم لا، وذهبت مجلّلة بجديتها ومناعتها وفتنتها الغامضة، ساحبة إنيّاء وراءها.

وانقضت حوالى نصف ساعة قبل أن يتراءى لنا ميدان التحرير. وصاحبي تساؤل دائم عن جدوى إصراري أو معناه أو الهدف منه، ولكنّه لم يقلل من حدة نشاطي المندفع. وساورتني احتمالات ممكنة كان تستقلّ سيارة فتغيب عن أفقي ولكنني لم أثن عن السير. وأظنّها على وعي ما بمتابعتها ولكنّها لم تبد عن أيّ ردّة فعل، فضلاً عن أنّها لا يعسرتها تعب أو ضجر. وقلت لنفسني إنّ محاولة التعارف خطوة لا بأس بها، وربما تمخّضت عن جديد، وهي على أيّ حال خير من السير الأخرس. وأسرعت لألحق بها، وهممت بالكلام عندما أقبل نحوها رجل قويّ البنيان فخم المنظر وهو يهتف متهللاً:

- أشرفت الأنوار.

تصافحا بحرارة فواصلت السير حتى وجدت ماوى

الفجر الجديد. دخلت وراءها مطمئناً كما دخلت السنترال. ورحت أقلب عيني في الكتب وأسترق النظر.

امتدت يدها البضة القمحية إلى كتاب «القوى الخفية». ابتسمت رغم القهر، وتناولت نسخة تحية لها. ثم تبعتها إلى الخارج كالنوم. ودخلنا أيضاً صيدلية واضطرتت إلى ابتياع حق أسبرين. وبدأت قدمي تشكوان. توسطت الشمس السماء. عجبت لطول ما انقضى من النهار. ولم أجد أمامي إلا الحظ فلعتته وتساءلت على وجه من أصبحت اليوم؟ وعبرني عتمة الهواجس فلم أدر كيف وصلنا إلى شارع التحرير. ورأيتها ماضية نحو مطعم «الشامي» فرعان ما نهشي الجوع. وبجراة اخترت مائدة مقابلة لها. ودون مبالاة غادرت مائدتها إلى أخرى في أصاق المحل. صفة متوقفة على أي حال. وأمرت بطبق شاورمة مع السلطة الخضراء. وختمت بفنجان قهوة وأنا أقرب مدخل المحل بعناية وغزني رغبة في الاستلقاء وعلى عكس ما قدرت استفضل إحساسي بالتعب. ولما رأيتها تتهدى خارجة قمت من فوري فتبعتها. وترثت أمام محل أثاث لترى في مرآة معروضة الطريق وراءها. ورأني بلا شك، وواصلت سيرها في هالة تنطق بالغضب والاحتجاج. وصدت إليها إشارات من سيارات عابرة تدعوها للركوب فتجاهلتها ومضت في شموخ منيع. المصيبة أنها لا تكلم ولا تمل ولا توحى بقصد هدف محدد. على الأقل هي تعلم أما أنا فلا أعلم وحتى اليأس القاطع تمنيت. وعثرت بشيء فوق الطوار فكادت أفقد توازني وارتطمت برجل قذفي بجملته كالطعنة «فتح عينك». وانضاف إلى الإهراق العام إحساس بالظلم ورغبة في إفراغ المثانة وبالم نصفي في الرأس. وثمة تساؤل مقلق هبها استجابات فهاذا عندي لأقدمه؟ لماذا يتهدى في الجنون بلا طائل؟ ورأيتها تتجه نحو حديقة «لبتون» فتجدد أمل مبهم. ووجدتها تمضي إلى مائدة عامرة بالرجال والنساء وتستقبل بمنورة بالغة. آثرت في الحال أن أنتظر في الخارج لشدة الزحام، ولكن حتى متى أنتظر؟ ما بي قوة والصبر يتلاشى بسرعة. وتذكرت العمل الذي كان

يشير الوجود فيه تساؤلاً أو ريبة. دخلت بجراة وانتظرت قريباً من المدخل أتابع سعيها لطلب رقم ما. وسمعت العاملة وهي تقول لها «رقم ١١»، رأيتها وهي تدخل المقصورة وتسحب الباب خلفها. ترى ألم يُفتن بها سواي؟ أي قضاء قضي به علي هذا الصباح؟ ثمة تعب خفيف بدأ دبيبه في ساقي وهناك شبح الإحباط أيضاً. وظل الشك المؤرق. ويوجد أيضاً شعور قائم بتفاهة كل شيء خارج نطاق المغامرة المجنونة. ها هي خارجة من المقصورة بوجه مورّد بالرضى. تحرّك... تحرّك... لا يجوز التراجع بعد ما كان.

لعلها نسيته تماماً ولكن لا محيد عن السير. بلغ ركابنا شارع طلعت حرب فبلغ الزحام والحز أشده. لا فرصة ألبتة للمناورة. أسبقها مرة وأتأخر عنها أكثر الوقت لعلها تتذكر رجل البرج. لم أتمكن من قراءة أصابعها أهي متزوجة؟ مخطوبة؟ حرة؟ وصادفتها امرأة من معارفها فانتحيا جانباً، وتوقفت مائلاً نحو باب عمارة. ما أجل ابتسامتها وأرشت إشارتها. وانتهى اللقاء فواصلت سيرها مارة أمامي لمحتني ما في ذلك شك. وكردت على ذلك زادت من سرعتها ومن جديتها. وأعود للتساؤل عن معنى ذلك. لكن لا حيلة للعقل في الموضوع كله. أو لعله يقري على سلوكي طالما أجد فيه أملاً أو سعادة. يقول لي استمر إذا شئت ولكن لا تتورط في خطأ. وأصبح الشعور بالتعب واضحاً. وعرجت إلى شارع البورصة المكتظ بالسيارات الواقعة على جانبيه. ويقال الزحام هنا لدرجة تغري بالجرأة. ودون تردد أحت الخطى حتى أحاذيها فوق الطوار. أنظر نحوها فتلقى نظرتي بعين متحفزة. أقول:

- هل ...

ولكنها تقاطعني بصرامة:

- احترم نفسك.

- أود أن أتشرف ...

ولكنها لم تسمعي غالباً لاندفاعها إلى الأمام. إنه رفض صادق. تكاثف الإحباط والشعور بالتعب.

يجب أن أعدل عن مطاردة عقيمة. لكنني لم أستطع. إنه حكم مؤيد فيما بدا. ورأيتها تدخل مكتبة

## التنظيم السري ٧١٥

على اللهفة فلا أعثر لها على أثر. أفلتت إرادتي وأشواقني، وهيئات أن الحق بها. الأمر يقتضي معجزة إن يكن ثمة مجال للمعجزات. وانتظرت أن يقترب مني عابر سبيل لاستنجد به. وبلغ مني الإعياء غايته فأسندت رأسي إلى حافة الحفرة مستسلمًا إلى قدرتي.

## السيد «س»

عبثًا أحاول تذكر حياتي في مجراها المفعم بالوجود قبل ساعة الميلاد. تلك النبضة المنبثقة من تلاقي جرثومة متوترة بيوضة متلهفة في أول ماوى أمين يتاح لي. في أي غيب كنت أهميم قبل ذلك منطلقًا مع تيار متصل غير محدود من الذكور والإناث، تشارك في مهرجانه قوى عديدة من النبات والحیوان وعناصر الطبيعة من ماء وتراب وحرارة وبرودة، في تناغم مع دورة الأرض والقمر والشمس في حضن درب التبانة العظيم الماضي في حوار دائم مع دروب لا نهاية لها. لعل إشارات من ذلك الغيب تتجلى في أحلامي في صور أفراح غامضة وكوابيس ثقيلة سرعان ما تتلاشى في كون النسيان العنيد مخلقة في النفس قلقة يتلاطم مع الواقع الصلد ناشرًا تساؤلات عديدة ودعوات مغرية للرقص والتنقيب. أما كهنة آمون فقد أخفوا أسرارهم، وأما كهنة الهند فقد أعلنوا سيطرتهم على مسيرة الماء البشري منذ أقدم العصور ولكن لا سبيل إلى اليقين في هذه المسألة، ولو سلمت برأيهم لتعدر علي معرفة الخطيئة التي ارتكبتها في زمن سحيق، والتي يكفر عنها شخصي الراهن بمعاناته المستمرة التي لا يح لها تفسيرًا. فلنؤجل القول في ذلك إلى حينه ولنلنا نظرة على يوم الميلاد. إنه يوم تحقق له أفئدة البشر وتحوطه بالبركات من خلال طقوس أبدية. يجيء المخاض على أنغام أهازيج شجية، تنطح المرأة على الفراش في جو مضمخ بأنفاس الخلق، ترعاها يد الخبرة، وتحقق بها القلوب المترعة بالأشواق، هامسة بالإشفاق داعية بالسلامة، مترقبة إذن يد العناية

علي أداؤه والمواعيد التي أخلفتها، والرسائل التي كان علي تحريرها. ولكن ما جدوى الندم. واشتد ضغط المثانة. جلّت بنظرة زائغة. اقتربت من سيارة واقفة. انهارت قوى المقاومة. استسلمت وأنا أتلفت. وعندما أخذت أزرر البنطلون غمرني ظل رجل طويل، مكفهّر الوجه، صاح:

- على السيارة يا وقع!

رمقته بعين خجول معتذرة ولكنّه دفعني بغضب فترنحت فاقدًا صوابي، وبغير تقدير للأمر لطمته، فما كان منه إلا أن انهال عليّ ضربًا حتى تركني على أسوأ حال. جعلت أمسح وجهي بمنديل وأجفّف به دما سال من أنفي ثم أسوي رباط الرقبة والسترة. أصبح منظري زريًا، وتضاعف تعبي وضعفي. عليّ الآن أن أذهب بلا تردد. غير أنني لم أتحرك. حملت تعاستي ووقفت على ساقين تثنان من التوجع. ما زلت أنتظر وأناجي جنوبي البيّن. وتهادت إلى سمعي أغنية الزهر في الروض ابتسم، فتابعها بأسى لا يناسب معانيها بحال. وخطر ببالي بيت أبي العلاء:

فسلّم إلى الله ربك فكلّ ما جاءك من عنده غير أنّي فكّرت في اغتيال الرجل الذي انهال عليّ ضربًا، ولعلّها أنسب نهاية لرحلة سخيفة عقيمة لا معنى لها. وانتبهت منزعجًا إلى ما حولي وأنا أرى نذر المغيب تحدث بالوجود وتطوّق جسدي الذي أنهكه السير وهاضته اللكمات. ولأول مرّة أفكر جادًا في الإقلاع عن جنوبي والرجوع من خيبي القويّة.

وممت بالتحرك عندما رأيتها تغادر مدخل الحديقة وحدها وتّجه بخطوات ثابتة نحو شارع الشيخ ربحان. توهج الأمل من جديد في قلبي الذابل وتناسيت هواجسي وتبعثها وأنا أجر نفسي جرًا، وأجد من بصري المنجذب إلى ظهرها لتكائف العتمة. وقبيل نهاية الشارع بقليل فقدت ذاتي بغتة. لم أدرك قبل مرور ثوانٍ أنني سقطت في حفرة. زلزلت مفاصلي وفغمت خياشيمي رائحة ترابية عميقة لم أعدها من قبل. ولم يبق مني على السطح إلا عنقي ورأسي. حاولت الخروج ولكن خذلتي قواي الخائرة.

وأرسل عيني صوب المرأة بأخر ما أملك من طاقة

أصبح موضة قديمة، وأنه يُدفع دفعًا إلى دخول عالم جديد هو عالم التربية الواعية الهادفة. ويتناسى الجاحدون عهده، ويفكرون في طريقة مهذبة للتخلص منه، فيعرفونه بالله، بجحيمه قبل جنته، وشياطينه قبل ملائكته، فلم أدرك مزايا الجنة ولكني ارتعدت أمام رعب الجحيم، ولم أتذوق حلاوة الملائكة ولكني تجرعت غصص الشياطين، وأحرق بي عالم منير بالويلات. وألفت النهر والصفح واللعن والعصا، وبذلت قصارى جهدي لأنعم بأبسط المطالب وأتفادي من العدوان. وأحمل ذات يوم إلى المدرسة فاضيف إلى عذاب الأهل عذاب الأعراب، واتساءل أيّ حياة هذه، وهل لو كنت خيّرت كنت اخترتها؟ وإنه لما يبعث على الضحك أن أتذكر تلك الفترة في زمن قادم باعتبارها الفردوس المفقود. ولكن مهلاً فلعلّ هذا الحكم لا يخلو من صدق، فما خلا يوم من ضحكة صافية أو لعبة جديدة أو هيام عذب بأصحاب ومواسم وحلوى وسينما وغناء بالإضافة إلى ساعات صفو وهناء في رحاب الأسرة. وحتى في أشدّ حالات الضيق هناك الخيال ألذ به فيرحل بي إلى عوالم غريبة، ويخلق الحياة في الجهاد، ويبدع الحكايات، ويتلقى من الوجود صوراً للأشياء والنساء والرجال والعلاقات سينضجها الزمن ويجوّلها إلى معانٍ ما كانت تخاطر بالبال. وبفضل ذلك كلّه أتدرب على تمثيل أدوار لم يأن زمانها بعد، فأقوم برحلات إلى بلاد الواق الواق، وأخوض معارك ضارية، وأتزوج، وأتاجر وأربح أموالاً طائلة، وأصلي وأصوم فأضمن الجنة، ولكن أيضاً أتساجر فيسج رأسي، وأعشق قريبة تكبرني بعشرة أعوام، وأتحايل لأغويها فأكل علفة مناسبة. من علمك هذا الكلام يا ولد؟ خير أسود، وأنت في البيضة، وأتوسل إليها دمع العين بالأل تشكوني إلى أمي، ولكن من علمك ذلك؟ في السينا رأيت أشياء ومن شبّك بدروم جارتنا الفقيرة رأيت أيضاً، ألا تعرف جزاء من يتلصص على الناس؟ توبة... توبة. ولا تتاح النجاة حتى أوافق على حمل رسالة سرّية منها إلى أخي 11 ويحدّ جديد، فتحصل أمور، وتلوح أعراض، ويتكلم مدعو الحكمة من الأصحاب، إنه البلوغ. الشّعرا لا يثبت لغير ما سبب،

بالفرج، مسبحة للخالق، منتظرة بين آونة وأخرى أن تنجاب الدماء الحارّة والأنفاس المتلاحقة عن صرخة حياة جديدة، مكّلة بالظفر، في لحظة صراع محتدم مع الموت المقدس. ومن حسن الطالع أنّ الأشهر التسعة المنقضية في الظلمات لم تتلاش في العدم، حفظتها من الضياع ذاكرة خاصّة غير الذاكرة المرصودة للحياة اليومية. سجّلت حياة النطفة المزهوة بتوحّدها كما سجّلت تحوّلها إلى علفة. وعليه فلم يندثر تقلّبها بين السرور والألم، وما تلقّت من انبساط وانقباض، من راحة وتوتر، من رضى وسخط، وما واكب نشأة العظام من اضطراب، واستقبال اللحم بنشوة سانحة، أما المخّ والسوعي فقد أضفيا جدّية تجاوزت حدود المقام. أصبح الغذاء من هموم الحياة اليومية، والفضاء غير المحدود مدعاة للتأمل، والزمن عبثاً لا يُستهان به، حتى متى يستمرّ ذلك؟ وما معنى هذه الحياة؟ ولكن تغير الأمر عند اقتراب الفترة من نهايتها، وما زامل ذلك من إحساس بالشيخوخة، فلن يهون أبداً الرحيل إلى المجهول، أهو العدم؟ أنمة حياة أخرى؟ وبأبي العقل أن يصدّق ذلك أو يتعلّق بأمل غشادع، وما هي إلا خدعة سخيفة لا معنى لها. وما أن تلقفتني يد الدنيا حتى نمحي الماضي محوّاً تاماً فكأنه لم يكن. هنا ينقضّ الضوء والطقس والأنفاس والأصوات ويعلو البكاء لأول مرّة. وتمرّ فترة لا أمان فيها وكأني أهوي في فراغ، ويمرّ دهر حتى ألت في الأقمطة وكأنما رجعت إلى موطني المنسي. وينسكب الدفء في فيّ، ويحتويني حضن سبق ذكره معي طويلاً. وتمرّ فترة يتذكرها الحالمون جنة وارقة متناسين متاعبها وأشجانها، من افتقاد الأمان والشعب أحياناً، واقتحام صوت مزعج أو مداعبة قاسية، ورضع الحزن مع لبن أم لا تصفو لها الحياة دائماً، وغزو أمراض عدّة تفسد مذاق الحياة. ثم تتطفّل الحضارة بتقلها لتصبّ الوافد الجديد في قالب مهذب، يسيطر فيه على أجهزته المختلفة، ويتعلّم المشي والكلام، ويُسْتعان على ذلك بالحواجز والردع، ولا بأس بالزجر بل والضرب، وتلوح السعادة كخيال لا يتحقّق أبداً. وما إن يقوم على رجلين، ورّما قبل ذلك، حتى يلحق به آخر فيشعر شعوراً خفياً بأنّه



## التنظيم السري ٧١٧

نحن؟ لا شيء يعادل ما نبذل من جهد. ورغم كل شيء تبدأ الحياة العملية متعثرة محدودة الأمل، محفوفة بحياة سياسية غاية في القلق والاضطراب، وحياة جنسية لا تقل عنها قلقًا واضطرابًا. وتتعدّد الطرق هنا أيضًا. كان يمكن بشيء من الانتهازية أن يقبل وجه أكثر إشراقًا وأقلّ جدارة. وكان يمكن التهادي في التجارب المُرّة حيث يفضي الطريق إلى السجن أو الصعلكة. ولكن قادتنا الرغبة الحميمة في البقاء إلى الرشد المتواضع فاستقرنا فوق كرسيّ الروتين تحت مظلة من نسيج العنكبوت، ورضينا بلون تقليديّ من الحبّ أفضى بنا إلى نوع تقليديّ من الزواج، ورحنا نعبّر الجسر الذي عبره قبلنا الملايين، نعمل بلا حماس، ونشهد بعين الأسيّ تبلّد عواطفنا ونقار الأسر النامية وصراع الجنسيتين المعروف، وتطوف بنا مسرّات لا يستهان بها، مثل الأبوة الدافئة، وانتصارات صغيرة تتحقّق برضا المدير أو نجاح نكتة مكشوفة أو كسب عشرة طاولة وإحراز فوز سياسيّ مؤقت، وهكذا... وهكذا... ونصححو ذات عيد ميلاد فإذا بالشباب قد ولّى وصممت أهازيجيه، وجاء عصر العقل مصحوبًا بالعناء الاقتصاديّ، والدروس الخصوصية، وجزية الطبّ والدواء، والشجار لأنفه الأسباب، والبكاء على الأطلال، وارتفاع ضغط الدم لأول مرة، وأكثر من جراحة إجهاض تحت شعار تنظيم الأسرة، وإقبال شركة التأمينات مشكورة للمشاركة في الرزق المحدود. ويحفل سيرك الأبناء بألعابه المتنوّعة، فهذا ابن يهيم في ملعب الكرة، ويرتكب الثاني حماقة كادت تُغرق السفينة كلّها، أمّا الثالث فقد استبدل بإله الأباء والأجداد خواجا غير مفهوم اللغة، وأخيرًا فقد أطلق الرابع لحيته وقذف الجميع بنهمة الكفر. وانهالت عليّ التُّهم من كلّ جانب، رجعيّ... جاهل... تقليديّ... كافر. ونفّست شريكتي عن بلواها بتحصيلي مسئولية كلّ شيء، نتيجة التذليل والدلع، ربّنا يعاقبك على أنانيتك وزيفان عينك وسوء معاملتك لي. ولم أصدّق أذنيّ، ورحت أذكر بأغاني عبد الوهاب في ضوء القمر على شاطئ النيل، والسعي المرهق لاختيار هدية إحياء لذكرى الزواج، وسهر الليالي إلى جنب فراش المرض.

والصوت لا يخشوشن لمجرّد التغيير، وتمتلي النظرات البريئة بدماء الغرض والهوى، وتملّ بالبدن قوّة مجهولة ماكرة غادرة، تضغطه بدغدغة حادّة، وتسكب في الشرايين نارًا، يستهين بزواجر الجحيم ونواهيه، يحول بيني وبين الله والطاعة والعهود، ولم تعد الأشياء هي الأشياء ولكنها تنقلب موضوعات للرغبة والحلم والسطو ومرتمًا للخيال النهم. وربّما تحصل أمور من نوع آخر وفي نفس الوقت، كردّة فعل، وتكفير حادّ يُروى ظمأه من ندى السحاب الأبيض المشغوف بالتعالي، فيخفق القلب خفقة لم يخفق مثلها مذ كان فكرة هائمة في عالم الغيب، ويستوي الحبّ أمامه كنجمه متألقّة في سماء مكفهرة تحوطه العناية الملائكية وتسيح في السواوات السبع، تمطر وابلاً من الأفراح والالام، فتنبت في الأرض أزهارًا وأنغامًا، وتستجيب للغة خفيّة، فتشب هنا وهناك وراء المستحيل، في عالم مسحور فيه كلّ شيء إلا الأمل، مُجْدّة وراء موسيقى الكلمات وحمرة أوراق الورد وفضيّة شعاع القمر وحكمة صمت الموت. وبعد عناء طويل يجيء الشكّ على غير ميعاد، ملوّحًا بسيّاط محمّلة أطرافها بالرصاص، كلّها ألهبته تحدىّ العرف والأب والأمّ وأركان المعبّد، وبشيء من التردّد يرمي بنفسه في بئر الجنون الأحمر، وينهل من شراب مزاجه الشهد والسّم، ليمحق المكر والخداع، بإشباعه حتى الموت، وتركه جثّة من الخمود والأسى. هكذا... هكذا... هكذا. ويوحى من حظّ حسن تراءى مرآة عاكسة للزمن بلا حلم أو خيال. كان من الممكن أن يحدث غير ذلك فما هي إلا احتمالات تطاول احتمالات، ولكلّ قصّته. من أجل ذلك تمتلئ المدارس والمعاهد وتمتلئ السجون. وأمضي في سبيلي طاوياً ذكرياتي في زاوية أرجو لها النسيان. أصبحت كائنًا جادًا، أحبيّ الأهل صباحًا والأصحاب مساءً، وأتلقّى في اهتمام بالغ حظّي من تراث البشر وخبرتهم. وتهلّ علينا متاعب من نوع جديد. ما رأيك هذا الدرس يتطلّب عمرًا لإتقانه؟ أجل... وهناك أيضًا الأزمة الجديدة، صدقت ونحن مدعوون غدًا لاجتماع هامّ، صدّقني لا مناص من أن يذهب هذا الجيل كلّهُ إلى الجحيم، وماذا عن مستقبلنا

حضرني ملاك الرحمة، ألا يلزمني تقديم هدية، أو اكتراء أي مكان ولوليم واحد، وإعداد عشاء وشراب كالأيام الخالية؟ وكبحت أهوائي بقوة لا تُتساح إلا للمفلسين، وهربت معتلاً بمختلف الأعداء، وخرجت من التجربة موسوماً بنظرة احتقار لا تزول مثل الوشم، وأشاعت الغندورة في كل مكان بأنني مصاب بداء خفي كرهه الراححة، وكلما صادفتني في طريق هتفت بي كيف حالك يا أقرع؟ فأحمد الله على أنني رأيت برهان ربي في الوقت المناسب. وهكذا... وهكذا... وأصحو ذات يوم لأجد أن الكهولة أيضاً قد ولت، وأتني أنخذ الإجراءات المعهودة تمهيداً للإحالة على المعاش وأتني أودع بصفة نهائية التعاليم المالية ولائحة المخازن والمشتريات. وبقدرة الرحمن الرحيم انحلت عقدة الأزمة فتخرج الأبناء ومضى كل في سبيله. ووجدت وشريكتي نفسنا بين يدي الشيخوخة بلا دفاع، فبالإضافة إلى الضغط أصبحت ذا كل علية وعانيت مر أرق مستمر، أما الشريكة فقد خلعت ثوب الأثونة وباتت بين بين، وخانها عضوان هأمان هما القلب والجهاز الهضمي، واصطبغت بصفرة ضاربة إلى الزرقة، ونبت لها شعيرات عند طرف أنفها واستغرقتها الصلاة والصوم. ومهما يكن من أمر فحالفنا خير من حال كثيرين، ألم أتم رسالتي على خير وجه ورغم الظروف الشرسة المتحدية؟ ولكن للأسف جذت أمور لم تكن في الحسبان فائنان من الأبناء وجدا عملاً مجزياً في الخارج فودعناهما بقلب حزين، وأصبح أحد الاثنين الباقين زبوناً مزمناً للشرطة والنيابة، أما الأخير فقد توڑط فيما لم يجر لي في بال وحكم عليه بعشرين سنة. وربما استطعت أن تتصور حالي ولكنك ستعجز تماماً عن تصور حال شريكتي. إنها لا تكف عن الدعاء على الدولة برمتها، ونابت عن ابنها السجين في تكفير المجتمع كله، وأرادت أن تحج لتدعو على الدولة في بيت الله الحرام ولكن من أين لي المال الذي أحقق به رغبتها؟ وجعلت أهرب من البيت إلى الصحاب في المقهى، ونازعتني نفسي إلى زيارة الأماكن التي شهدت طفولتي وصباي وأحلامي السعيدة، وتتابع أمام عيني

رغم ذلك كله سارت القافلة بسلام على قدر الإمكان. ارتفعت درجة بعد درجة وكبر المرتب وتغير المكتب والحجرة، ولولا الغلاء المتصاعد وهزائم الحروب المتعاقبة لمضيت برأس مرفوع مكمل بهالة روثينية وشمخة بيروقراطية، ولكن ذلك الحاجة والتوڑط في الأعمال الإضافية حرق للائحة ومعاناة الأبناء ومرارة شكواهم من قلة المصروف، كل أولئك أطفا مشاعل المجد وأحل روح التسول مكان زهر العظمة. حتى الخادم اضطررنا للاستغناء عنها أو أنها بالحري استغنت هي عتاً، ولم أجد إلا المواعظ ألقها بمنة ويسرة، لا خيار فإما النجاح وإما الموت، الترف من سوء الخلق، أعرضوا عن الدنيا تقبل عليكم، سيدنا محمد عاش على التمر واللبن، وسيدنا عمر تغير لونه من أكل الزيت، والدولة الرومانية سقطت لانغماسها في مطالب الجسد، كذلك الدولة الإسلامية. ويردون علي ومعهم أتهم، التي مواعظك على الحكام، على أصحاب الملايين، على اللصوص والخطافين والطفيليين، نحن نريد لقمة وبدلة وأقل مصروف معقول، أي مدير أنت؟ ما جدوى خدمتك الطويلة في حكومة لا ترعى حقها لموظفيها، تنفق على الحفلات بغير حساب وتضن عليك بالمليم. وأتساءل ما العمل؟ يجب ألا تتوقف حياتنا وإلا ضعنا، الأسهل أن ندبر حياتنا في حدودنا المتاحة من أن نحاسب الحكام والمسؤولين، ونعرض أنفسنا لمخالبهم الحادة المفترسة، ألا ترونهم يرمون أعداءهم بالإلحاد دفاعاً عن غنائمهم، فإذا قامت ثورة إسلامية تنمروا لها وللإسلام دفاعاً عن غنائمهم؟ فلا الإسلام يهتهم ولا الإلحاد ولا يعبدون إلا المال والجاه، وأنا رجل ضعيف، بدأ الشيب زحفه إلى شعري قبيل الأوان، ولا غاية لي في دنياي إلا أن أبلغ بكم بر الأمان، فساعدوني يرحمكم الله كي ننجو من الغرق. وفي زحمة الغياهب تعترض سبيلي تلك المرأة اللعوب وتغمز لي بعينها، يا للهول! هل بقي في شيء ما زال يلفت نظر الحسان؟ في وقدة الاشتعال داعيتني نسمة متألفة بالزهو، وفرحة واردة من الغيب، حتى اختلت في مشيتي وأصررت على حلق ذقني كل صباح، وعند حساب التكاليف المطلوبة بحذها الأدن

## التنظيم السري ٧١٩

وشريط حياتي بجميع ما حفل به من متناقضات وعبر، وكلما شيعت صديقاً أو زميلاً إلى مثواه الأخير لاح لي يومي وهو يقترب، وقلت لامراتي إن خير ما نفوز به في هذه الحياة هي الحكمة، فإذا عرفناها عرفنا الرضا وسلمنا بأننا لا شيء في الحياة يستحق الحزن أو الأسف، فلنسلم أمرنا لله فكل ما جاءنا من عنده. ولم يمهلي المرض لمعاشر الحكمة طويلاً، فانطرح على الفراش بلا حول وقال لي كل شيء إنها النهاية. وتساءلت ترى ما مذاقك أيها الموت، وكيف تحل إذا حللت، وعلى أي حال نترك هذه الدنيا المليئة بالإغراء والخذاع. وذات صباح دهمتني هذه اللحظة الفريدة المقدسة، فقدت الوزن والتوازن وانغمست في شعور كامل الجدة لم ينض به الوجدان من قبل، قلت إنني سأسبح أو أطير وإنني أستقبل عالماً لم يطرق من قبل، وإن الضوء هادئ لدرجة السحر وإنه بلا نهاية، وإنني مستسلم بلا اكتراث أو ألم أو ضيق وإن أهازيج البشر تعزف من حولي. وانفلتت من الجسد إلى الحقيقة المطلقة، وتجلت لي ما قبل الميلاد وعبورتي بالدنيا والمستقر الأخير منظرًا واحدًا جامعًا متكاملًا كالوردة الكاملة لا يخفى لها أريج ولا سرّ فتملت بالاستنارة والسعادة الحقيقية، ولم يبق معي من ذكريات الدنيا إلا المثل الشعبي الذي يقول:

«اللي تحمل همّه ما يجيش أحسن منه».

## شارع ألف صنف

شارع ألف صنف، للأحلام والحقائق، مطهى الرغبة في سخائها وتنوعاتها، وتلخيص مرّكز معجز لشهوة الحياة. تقوم على جانبيه ذوي الطوارين العريضين المسقوفين أشياء ناطقة بألف لسان. حوانيت متلاصقة ومتراصة مبهرة بأناقته، ثمينة بمعادنها؛ تخطف الأبصار بشقّ الألوان، فيجد كل عضو في الجسم البشري وكل نزعة في الجهاز العصبي ما يشتهي. من أغذية متعدّدة الجنسيّة ومرطبات وخمور وملابس وأدوات منزليّة، وروائح عطريّة، وأدوية

## ٧٢٠ التنظيم السري

فرع نادى السّاعة ثمّ نادى:

- السيّد منصور زيّان .

فقام الرجل إلى التليفون تحدّق به الأذان .

- آلو .

...

- هات ما عندك .

...

وطالت مكالمة المتحدث، وأخيراً قال السيّد

منصور:

- طظ .

وأرجع السّاعة إلى موضعها وعاد إلى مجلسه دون

أن يشفي غليل أحد، فازداد غموضاً وازدادوا ضجراً .

ولم يجدوا بداً في النهاية من إهماله . وشغلوا عنه بحادث

يُعتبر غاية في الاستثناء في هذا الشارع، وهو كبس

الشرطة لبنيون وسوّق من وجد فيه من نساء ورجال

إلى القسم . تبودلت نظرات حائرة، ونوقش الموضوع

على أوسع نطاق، كيف حدث ما حدث ممّا يُعدّ خرقاً

للتقاليد المرعية؟! ونظر قوّاد ناحية منصور وهمس:

- جاء النحس مع النحس .

ولم يكثر أحد لقوله . ولكن لم يكد يمرّ شهر على

الحادث حتّى استدعي كبير من رجال الأعمال بتهمة

التهرّب من ضرائبه المُستجّفة، فاهتزّت الأفئدة وانتشر

الذعر مثل صرخة بلبل . ماذا يحدث في الدنيا؟ ليس

اليوم كالأمس . نعمة نذير شرّ يزحف . ولغير ما سبب

منطقيّ تضاعف الضيق بالسيّد منصور باعتباره شؤماً

كما قال القوّاد ذات يوم . وعندما ضُبطت سلع مهربة

من الجمرک وقُبض على أصحابها انفجر الذعر وعقد

الرجال اجتماعاً للتشاور . شعروا بأنهم مطاردون وبأنّ

دورهم أتى لا ريب فيه . وقال أحدهم:

- عنت لي فكرة، إنّه ليس نحساً فحسب!

- تعني سي منصور؟

- أجل .

- إنّه مرشد ذو دور مرسوم .

- ولكنّه لا يبارح مجلسه؟

- لا عِلْم لنا بما يفعل قبل ذلك أو بعد ذلك .

وتراكم الشكّ حتّى صار يقيناً بلا دليل . لم يجرّ

لتزجية الفراغ . ماذا يجمله على المجيء يوماً بعد يوم؟

ما عمله؟ كيف يعيش؟ وأجمعوا على أنّه مرشد لحساب

جهة معادية وأنّ عمله لن يتمّ إلاّ بالقضاء عليهم

أجمعين . واقترح بعضهم التخلّص منه . ولكن ألاّ يُعدّ

ذلك حمقاً غير مُجْد، واستفزّازاً لقوّة مجهولة لا يُستهان

بها؟ واقترح البعض احتواءه وشراءه بأيّ ثمن، ولديهم

المال والنساء . ولعلّ مناسبة الاحتفال برأس السنة

الجديدة أن يتيح فرصة فريدة لاصطياده . وتزيّن

المقهى في الليلة السعيدة بالورد وتشكيلات المصابيح

الكهربائية الملوّنة، وتوسّطته طاولة طويلة صُفّت فوقها

قوارير الويسكي بغير حساب، وجلس إليها في الوقت

المناسب الرجال من أكبر رجل أعمال إلى أصغر قوّاد،

وبقي الرجل وحده بمجلسه المختار . وانضمّت إلى

الموجودين مجموعة مختارة من الحسان في أحسن صورة

وعلى أنّهم استعداد . وانطلقت الأنخاب كالشهب حتّى

تغلغل المرح في أعماق الكآبة . والتفت أحدهم نحو

الرجل وقال:

- هلاً شرفتنا يا سيّد منصور؟

فبسط راحته على صدره شاكراً صامتاً مصراً على

توحّده . ولكنّ الآخر لم يياس فملاً له كأساً ورجا

أقرب الجلوس إليه - امرأة - أن تقدّمها له ففعلت

برشاقة وقال رجل الأعمال:

- من أجل خاطرنا .

ولكنّه أعاد الكأس إلى الطاولة معلّناً عن شكره

بإحناءة من رأسه لائتداً بصمته . وتساءل رجل الأعمال

مدارياً وقد غضبه:

- كيف تمرّ بك هذه الليلة كغيرها من الليالي؟

فخرج منصور من صمته قائلاً في غير ما اكتراث:

- الواقع أنّها كغيرها من الليالي .

فقالت المرأة محتجّة:

- لا . . . لا . . . واستطيع أن أثبت ذلك .

وقال رجل أعمال آخر:

- أذكر رجلاً يشبهك تماماً إلاّ أنّه يرتدي جبّة

وقفطاناً .

فقال منصور:

- لعلّه أنا دون سواي!

## التنظيم السري ٧٢١

ولكن ظلمة المجهول ابتلعت كما ابتلعت صاحبه. وتمطى كابوس الخوف، فاختمى القوادون، وتعمطلت الدعارة، وانكمش الانحراف، ولبث الرجل الغامض بمجلسه، أفندياً في الشتاء وبلدياً بقية العام. وتتابع السقوط وهرب من هرب. وقال له أحدهم وهو يتأهب للذهاب:

- عرفتك، ما أنت إلا عميل لدولة أجنبية، اختارتك لتحطيم القوى الوطنية...  
فهز الرجل رأسه في دهشة وتساءل:  
- عمّ تتكلم أيها السيد الفاضل!؟

وتحير صاحب المقهى العجوز الذي رأى كثيراً وسمع كثيراً. رأى الحوادث وهي تقع ولكنه لم يعرف لها تفسيراً. دالت دولة الرجال الأقوياء فتساقطوا مثل أوراق الشجر الجافة. انقلب الشارع من حال إلى حال، ذهب أناس وجاء أناس، تراجع زبائن وقديم زبائن، ألغيت وظائف ونشطت وظائف جديدة، واستقبل المقهى رؤاداً عاديين لا علم لهم بسابقهم، ولم يبرح الرجل الغامض مكانه، ولا بدا عليه أنه يدرك من حقائق الأمور أكثر مما يدرك هو. ويحيى قوم من هوة المعرفة فيحدثون بصاحب المقهى ويقولون:  
- كل شيء حدث تحت سمعك وبصرك فخيرنا عمّا حصل يرحمك الله...  
فيقول الرجل ببراءة:

- علمي علمكم يا سادة، وها هو الرجل الذي جعلوا منه أسطورة، مثلي ومثلكم، ما سمعت منه كلمة غريبة ولا شهدت منه فعلاً غير مألوف، فلست أملك علماً أضمن به عليكم، وما أعرف أكثر مما تعرفون من أن دنيا برمتها اختفت كما تختفي مدينة في أعقاب زلزال مدمر، ونشأت مكانها دنيا جديدة، فسبحان علام الغيوب...  
علم الغيوب...

## المسخ والوحش

أعجبتني حكاية الشاطر حسن في بلاد الواق الواق. غادر ذات يوم أسرته كما يغادر الفرخ بيضته وراء حلم

- ولكنه بجبة وقفطان؟

- هذا هو ردائي في غير فصل الشتاء!

- بدلة في الشتاء وجبة وقفطان في الصيف؟

- بالتهايم والكمال!

وتبادلوا نظرات ساخرة، غير أنهم تقدّموا خطوة جديدة مع تماديهم في الشراب فراحوا يقدمون أشخاصهم واحداً في أثر واحد ليحملوه على تقديم نفسه، ولكنه تابعهم في غير اكتراث وتحدى عربدتهم بالإصرار على الصمت. أي إهانة! وقالت المرأة إن هذا يعادل أن تتعري امرأة أمام رجل فيتخذ من جسدها مسنداً لرسالة يروم كتابتها. وسأله الرجل واجماً:

- ألا ترغب في تقديم نفسك؟

فأجاب في برود:

- كلاً.

أيقنوا من أنه يتكلم من موقع قوة وثقة وأن وقاحته لن تقف عند حد. وانقلب الرجل غاضباً فهتف:

- اغرب عنا قبل أن تفسد علينا ليلتنا!

فقال بتحد:

- الواقع أنكم تفسدون عليّ ليلتي.

- لا خير فيمن لا يحب الناس.

فكرّر ساخراً:

- لا خير فيمن لا يحب الناس.

وخافوا إن استسلموا للطعام والشراب أن تنحل عقدة الستهم فتبوح له بأسرار ينفذ بها إلى مصارعهم، ففسدت السهرة بالفعل ومضت في توتر وتعاسة. وأقسموا ليهتك سره. وعهدوا إلى قواد معروف بالنشاط أن يتجسس عليه ليوافيهم بخبره. وانطلق الرجل في أثره وانتظروا.

ومرت أيام وكل شيء يجري على حاله ولكن الرجل لم يرجع من رحلته ولم يظهر له أثر. وانتظروا أكثر وسحابة سوداء تمطرهم بالقلق ولم يسفر الانتظار عن شيء. فقيّد المرشد لا ريب في ذلك، وفي أثناء ذلك سقط متهرب آخر ومهرب مخدرات ذو وزن في الهيئة الاجتماعية. وأظلم الدعر الشارع العتيد فانطفأت أنواره. وتطوّع قواد جديد بالعمل مدعماً بحذر أشد

## ٧٢٢ التنظيم السري

- غامض فأسعده حفله الميمون بقاء سيدنا الخضر. وقرأ سيدنا في وجهه براءة الفطرة ونقاء الحلم فحدّثه عن مأساة مسوخ تعساء مسخهم وحش آدمي أحجارًا غير كريمة فأشعل في قلبه رحمة وهمّة. ووهبه فرصة فريدة لتحرير المسوخ وإرجاعها إلى إنسانيتها المهذرة وذلك بقتل الوحش. ودلّه على المكان الملقاة فيه الأحجار المسوخة، والوسيلة التي يقتل بها الوحش، فمضى إلى بلاد الواق الواق ورأى بعينه الحزيتين الأحجار الآدمية، وترىص بالوحش حتى جاء في وقته المعلوم فأكل وشرب ونام، فوثب عليه وقتله، وفي الحال تلاشت الصفة الحجرية واستوت الأحجار بشرًا يهللون فرحًا ببركة الحياة المسترّة. ورحت أذكّر الحكاية وأنا بمجلسي المعهود في حماره نجمة الصبح ورأسي مشعشع بالنشوة. وكالعادة غبت في أعطاف حلم وردني، ثم انتبهت على زجل يجلس إلى جانبي يمزج النبيذ بعصير الليمون، ملتفت بعباءة أرجوانية، مُعتمّ بعمامة خضراء، يبهر الناظر بلحية بيضاء مسترسلة حتى ثغرة صدره. ولم يكن التطفّل من شيم أهل خارتنا ولكنّ الأنس حلّ بي فحدس قلبي أنّه صديق يشعّ الخير من ومضات عينيه. قلت مرحبًا:
- أهلاً.
- فقال بنبرة باسمة:
- صحتك.
- واستسلمت للنشوة إلى مراقبها حتى هتفت:
- هذه ليلة ولا كلّ الليالي.
- فسألني بعذوبة:
- كيف اهتديت إلى هذه الحماره التي بالكاد لا يعرفها إلا روادها؟
- فقلت جدلاً:
- بحسن الحظّ وحده، ومن يومها لم يعد يؤزّقني شيء...
- فتساءل بصوت يمزج فيه الحنان بالسخرية كما يمزج في قدحه النبيذ بالليمون:
- ولا المسوخ؟
- دقّت كلمة المسوخ ناقوس اليقظة في قلبي فتساءلت:
- أيّ مسوخ تعني؟
- هم مسوخ ذوو مسوخ من ضحاياهم، ولا نجاة لهؤلاء أو أولئك إلا بقتل الوحش!
- فتهدج صوتي وأنا أقول:
- لعمري إنك لسيدنا الخضر دون غيره!
- لا أهميّة لذلك، المهمّ من يكون الشاطر حسن؟ وهمّ بالقيام فأمسكت براحتي وسألته بشغف:
- متى أراك ثانية؟
- فقال واقفًا معلنًا عن قامته الطويلة النحيله:
- لا أهميّة لذلك.
- وذهب مشيعًا بمودتي الخالصة. وبقوة آسرة، ودون مقدّمات، أمنت بأنني صاحب رسالة وأنه آن لي أن أودع أحلام اليقظة. ولكن من يكون المسوخ؟ ومن يكون مسوخ المسوخ؟ وكيف فاتني أن أستجوبه؟ ولم يغيب عني السرّ، فالحقيقة أنّ محضره يشتمّ الإرادة. وجددني في محضره طوع خواطره، مسلوب المنطق، لا أزيد عمّا يريد حرفًا. هذه هي الحقيقة. ولذلك لم يداخطني شكّ في أنّه وليّ من الأولياء. وأدركت بعد فوات الوقت أنّي لم أنتبه لقيمة الوقت، وأنّني عبرت معه لحظة من اللحظات التي تُسترجع فيها بعد بشقّ الأنفس فيعتدّها الخيال إحدى الفرص التي لا تتكرّر ولا يجدي معها الندم. واستدعيْتُ بإشارة النادل عمّ زياد البرلسي ثمّ سألته:
- هل تعرف الشيخ الذي كان يجلس إلى جانبي؟
- فقطّب متذكّرًا وقال:
- شغلني العمل عن ذلك.
- ولكنك قمت بخدمته وقدمت إليه طلبه؟
- لعلّه كان يجلس في مكان ما ثمّ انتقل إليك بقدره.
- وكان من الممكن أن اعتبر المسألة حالاً من أحوال السكر تذهب بذهابه، ولكن لا جدوى من مخادعة النفس فالأمر أخطر مما يُتصوّر. نفذ السهم إلى مركز اليقين. وما كان في وسعي أن أتخلّل من مهمّة ألقها الأقدار على عاتقي فأرضى هانئًا بالعودة إلى آفة اللاشيء. وألقيت نظرة على من حولي من السكارى فإذا بهم يسبحون فوق تيار من الموموم المتضاربة

## التنظيم السري ٧٢٣

ولم يأخذ من التفكير إلا أقصر وقت ثم قال بثقة:  
- عندنا نوعان منهم، مسوخ من العملاء  
الملاحدة، ومسوخ المسوخ هم المخدوعون من  
أتباعهم، والوحش في هذه الحال هو الشيوعية أو إن  
شئت الأتحاد السوفييتي. ومسوخ من التيار الديني  
المنحرف، ومسوخ المسوخ هم أتباعهم من  
المخدوعين. والوحش في هذه الحال بعض الدول مثل  
إيران وليبيا. . .

وتركته شاكراً وبى غصة من خيبة الأمل إذ مهما  
تكن ثقتي في نفسي ورسالتي فمن أين لي بالقوة التي  
أقتل بها الأتحاد السوفييتي وإيران وليبيا؟ ولكن همتي لم  
تفت فأنجبه تفكيري في الحال نحو الأستاذ «ا» المعترف  
بحكمته في حزب التجمع، واستقبلي سيادته بلا أدنى  
صعوبة، فعرضت عليه حيرتي ثم سألته:  
- من هم في رأيك المسوخ ومسوخ المسوخ ومن هو  
الوحش؟

فاعتدل في جلسته وابتسم ابتسامة العالم بكل شيء  
وقال:

- يستوي عندي أن تكون سائلاً بريئاً أو أن تكون  
قادمًا من طرف السيد وزير الداخلية، ولكن ذلك لن  
يمعني من اجابتك طالما أننا نعمل في وضوح النهار،  
فاعلم أن المسوخ هم عملاء الغرب، ولا يوجد مسوخ  
المسوخ لأنه لا أتباع لهم، وما الملتصقون حولهم إلا  
مجموعة من الانتهازيين تجدهم بأشخاصهم في رحاب  
كل حكومة، أما الوحش فهو الإمبريالية العالمية أو إن  
شئت الولايات المتحدة الأمريكية. . .

فأكدت لسيادته أن حيرتي نابعة من ذاتي ولا علاقة  
لها بالسيد وزير الداخلية، وشكرت له بيانه، ثم  
غادرته مؤقناً بأن الصعود إلى القمر بلا تكنولوجيا أيسر  
علي من قتل ذلك الوحش الجديد. ومع ذلك صممت  
على السير في طريقي حتى نهايته. تذكرت صديقاً قديماً  
انخرط منذ أعوام في تيار ديني متطرف فقصدته دون  
تردد. استقبلي مدارياً فتوره إكراماً للعهد القديم  
ولكنه امتنع في الوقت نفسه عن مصافحتي متمتاً:

- معذرة، لا أصفح كافراً!  
وكنت موطناً نفسي على تحمل أي سلوك يبيثني منه

ويناقشونها بنذاً بنذاً بغير ملل. الأسعار، التهريب،  
الاستيلاء على أراضي الدولة، الثروات غير المشروعة،  
سوء المعاملة، الطوابير، الديون، النفوذ الأجنبي،  
القدارة، المجاري، المذابح، وغيره مما لا يحيط به  
حصراً، ولكن لا أحد يتحدث عن مسوخ أو مسوخ  
المسوخ أو الوحش. ومتشجعاً بحنان الليالي المتتابعة  
سألت:

- هل رأى أحد منكم الشيخ ذا العباءة الأرجوانية؟  
فانطرحت لحظة صمت ثم اندفعت أصوات  
ضاحكة تنغي:

يا بو العباية

لم يبسل أحد ريقى وغرقوا في الضحك والهناء،  
فعدت أسأل:

- من المسوخ؟ هل جرى لكم علم بذلك؟  
فهاجوا بحركات الضحك الراقصة غير أنني سألت  
بإصرار:

- ومن يكون الوحش؟

فصاح أحدهم:

- أخوكم وصل، فلتحفظنا بركة دعاء الوالدين!

أقلعت عن السؤال. وغادرت الختارة وأنا أعدت  
نفسى من مواليد تلك الليلة العجبية. وكلما أقبلت على  
الختارة أقبلت على أمل في أن أرى الشيخ من جديد  
ولكن دون جدوى. وطيلة نهاري أتساءل عمن يكون  
المسوخ وعمن يكون الوحش. وكلما مررت بحيوان أو  
شجرة أو حجر استحوذ على خيالي ولمحت في صميم  
جوهره مسخاً من بني آدم يثنّ ويتعذب. وساءتني  
التفرقة في المعاملة بينى وبين الشاطر حسن، فبقدر ما  
أعانه الخضر على أداء مهمته بقدر ما أعرض عني،  
تاركاً إيّاي للكدح والعذاب. وانتهت بي الخبرة إلى  
اتخاذ قرار جريء، وهو أن أسأل أهل الرأي والخبرة،  
مستشهداً بقول القائل «لا خاب من استرشد». وأنجبه  
ذهني أول ما أنجبه نحو السيد «م» وهو من البارزين في  
الحزب الوطني الديمقراطي. توصلت إلى مقابلاته  
بصديق، ثم عرضت عليه حيرتي، وسألته:

- من هم المسوخ، ومن هم مسوخ المسوخ، ومن  
هو الوحش؟

## ٧٢٤ التنظيم السري

يزول الجهل بقتله؟ ووجدتني أغوص أكثر وأكثر في دوامة لا فكاك منها، حتى ورد على خيالي مولاي العارف بالله الشيخ «ص» فقصدته من فوري، واستقبلني - كالعادة - بأسًا مرحبًا، ولكنّه بادرني قائلاً:

- أعرف ما ساقك إليّ اليوم!

فلم أدهش لسابق علمي بقدرته على النفاذ إلى أعماق القلوب. وقال متعني الله بعمره ونورانيته: - ما المسوخ إلا عشاق هذه الدنيا الفانية، ومسوخ المسوخ هم المبهورون بما يملك سادتهم من زخارف زائلة، أما الوحش فهو النفس الضالة...

وعدت إلى بيتي وأنا أقول لنفسي حقًا إن هذا الوحش لا يُستهان بأمره، ولكنّ قتله ممكن، ولن يعرضني لقبضة القانون. وأعلنت الحرب، وأقسمت على الصمود والتصديّ مهما طال بي الزمن. ولم أهجر بطبيعة الحال خنّارة نجمة الصبح التي عرفتُ أستاذي العارف بالله في ركن من أركانها. وفي ذات ليلة وأنا ثمل بنشوتي في مجلسي المختار انتهت على وجود صاحب العبادة الأرجوانية إلى جانبي وهو يمزج النبيذ بالليمون. وهتفت:

- يا للسعادة، لقد جئت أخيرًا...

ولكنّه لم يعرني أدنى اهتمام فقلت:

- لقد عملت بمشورتك، وها أنا أقاتل الوحش حتى أقتله...

وأصرّ على تجاهلي تمامًا ولم يلتجئ عليّ نظرة واحدة ولم تهتّ عليّ من ناحيته نسمة أنس أو مودة.

وأفرغ قدحه في فيه ثم نهض متجهًا وذهب.

تركني لحيرة لم تخطر لي في بال.

## البقاء للأصالح

المتة لله، لا أحل في الدنيا هُما. مترجم محترم، ومالك بيت مكوّن من ثلاثة أدوار وبدروم، متزوّج وموفّق وأب لشاب وشابة متزوّجين، وإلى هذا كلّه فإنني حسن الهضم لموم الدنيا الصغيرة. في العصارى

فقبلت عذره، وعرضت عليه حيرتي ثمّ سألته:

- من هم المسوخ؟ ومن مسوخ المسوخ؟ ومن يكون الوحش؟

فقال من فوره:

- المسوخ هم حكام البلاد الإسلامية ورجال الدين بها، ومسوخ المسوخ هم جمهرة المسلمين، وأما الوحش فهو نظام الحكم في كلّ مكان...

وغادرت موضعه مغموسًا في المرارة. خُيّل إليّ أنّ القضاء على الأتحاد السوفييتي والولايات المتحدة معًا أسير من القضاء على الوحش الجديد، ولكنّي لم أنثني عن مسيرتي. وتذكّرت الأستاذ «ن» الذي يمثّل فكر الوفد كخير ما يكون التمثيل. واستقبلني سيادته بحرارة لا توهب عادة إلا للأصدقاء. وعرضت عليه حيرتي ثمّ سألته:

- من هم المسوخ، ومن هم مسوخ المسوخ، ومن هو الوحش؟

فقال بأسًا في ثقة تامّة:

- المسوخ هم جميع السياسيين غير الوفديين، ولا أتباع لهم في الحقيقة فالبلد وفديّ مئة في المئة، أما الوحش فهو النظام الدكتاتوريّ الذي لم يوفّق بعد إلى قناع يخفي به وجهه...

وتركته شاكراً وأنا أقول لنفسي حقًا إن هذا الوحش يبدو أقرب إلى اليد من الوحوش الأخر ولكن بالقياس إلى قوّي الذاتية يمكن القول بأنّ «سي أحمد أخو الحاج أحمد». ولم يبق في جدولي إلا المثقفون فاخترت الأستاذ «ا» لمنزلته المعترف بها من الجميع. واستقبلني بحياد فعرضت عليه حيرتي ثمّ سألته:

- من هم يا أستاذ المسوخ، ومن هم مسوخ المسوخ، ومن هو الوحش؟

فأجابني بجفاء:

- المسوخ هم الجهلة ومجدهم في كلّ موقع لا بقاء لهم إلا بالقوة، ومسوخ المسوخ أتباعهم وهم أجهل منهم ولكنهم أكبر دهاء وانتهازية، أما الوحش فهو الجهل...

وتركته وأنا أنساءل وكيف يمكنني قتل الجهل؟ أجل إليّ اعتبر الأستاذ «و» خير من يجسد الجهل ولكن هل



## التنظيم السري ٧٢٥

- وست محسنة رضوان؟  
فضحك ضحكة مقتضبة وقال:  
- اصح يا نائم، إنها تنتظر حتى يجم النوم ثم  
تستقبل أهل الدعارة!  
ففزعت هاتفاً:  
- لا!  
- هي الحقيقة، وسوف تلمسها بنفسك...  
- إنك مُقَدِّم على مغامرة خطيرة!  
- إني واثق من نفسي تماماً.  
وشملنا صمت غير قصير، وكما استرددت أنفاسي  
سألته:  
- وماذا تفعل بالشقتين؟  
- سأجعل من البدروم مطبوعة ومن الدور الأول  
داراً للنشر، وسيكون لك عَقْد مناسب...  
وقلت وأنا أنفخ:  
- تلزمي مهلة للتفكير والتشاور مع المهام.  
فقام وهو يقول:  
- طبعاً، ولكن ليكن الموضوع سرّاً بيننا.  
وأفضيت بهمي كله إلى زوجي فقلبت الأمر على  
وجوهه ثم انتهت إلى أنه إذا صح ما يدعيه الأستاذ  
ونجح تدبيره فسوف يتطهر البيت ويضاعف الدخل،  
وما علينا من بأس طالما أنه لن يورطنا فيما لا نحب.  
ولكن قبل أن يتم اللقاء مع الأستاذ طلب الشيخ  
مذكور البقلي مقابلي. توقعت من فوري مزيداً من  
الارتباك والهواجس، وتخيّل إليّ أنه شعر بطريقة ما بما  
يدور حوله فبادر للعمل. وتقابلنا فاعتذر عن إزعاجي  
وقال:  
- يقتضي ديني أن أصارحك بالحق الذي علمته،  
فقد ثبت عندي أنّ الدور الأعلى ما هو إلا خلية  
هدامة، وأنّ البدروم بؤرة فسق، وسأقوم بما يفرضه  
عليّ ديني وضميري...  
انهالت عليّ كلماته كطلقات الرصاص فغرقت في  
دوامة صاخبة وتمتعت:  
- أيّ فظاعة لم تجر لي في بال!  
- إنك رجل طيب وحسن الظنّ بالناس، وسيكون  
خلاص بيتك على يديّ إن شاء الله، وفي مقابل ذلك

- عدا أيام الشتاء - أجلس في شرفة الدور الأوسط  
برفقة زوجي والقهوة والقول السوداني واللّب الأبيض،  
يترامى أمام أعيننا شارع البطريق بحوانيته وجراجه  
العموميّ، نتفرّج على كلّ من هبّ ودبّ. من مجلسنا  
نرى سكّان بيتنا في الذهاب والإياب، عليّ كمال ساكن  
الدور الأعلى وهو محامٍ ونطلق عليه «الأستاذ»،  
وصاحب الدور الأوّل المذكور البقلي ونطلق عليه  
«الشيخ» رغم أنّه أفنديّ وذلك لإرساله لحيته، أمّا  
البدروم فتقيم فيه ستّ محسنة رضوان وندعوها  
«المحمل» لسائتها. وعلى صغر البيت فكلّ أسرة  
مستقلّة بذاتها لا تعرف من أصول الجيرة إلاّ التحية  
العابرة عند اللقاء النادر. من أجل ذلك انطوت كلّ  
أسرة على أسرارها فلا أعرف عن أيّ منها شيئاً يستحقّ  
الذكر. غير أنّي لاحظت دون جهد كثرة زوّار الأستاذ  
والشيخ أمّا ستّ محسنة فكانت تعيش في عزلة شبه  
مطلقة. وذات يوم طلب الأستاذ مقابلي فاستقبلته  
مرحّباً ومدارياً قلقي حيال قساته الحادة ونظراته  
الثابتة. اعتذر عن تطّقه بأسلوب لبق ثمّ قال:  
- حرصاً على وقتك سأدخل في الموضوع مباشرة.  
فشجعته بابتسامة فقال:  
- أنا في حاجة إلى البدروم والدور الأوّل وسيعود  
عليك ذلك بخير وفيرا  
فقلت وأنا في غاية الدهشة:  
- ولكن لكلّ ساكنه وأنت أدري بقوانين المساكن!  
فقال بثقة:  
- سيضبطون إلى إخلاء مسكنيهما ولكن يجب أن  
تتفق قبل ذلك.  
فتساءلت في حيرة:  
- كيف؟  
فكّور قبضته السمراء تحت ذقنه وقال:  
- ثبت لديّ أنّ مذكور البقلي من الخطيرين وأنه  
جعل من شقته ملتقى لنفر من التيّار المتطرّف.  
فتولّاني خوف وقلق وقلت:  
- لا أعلم لي بذلك ولا شأن لي به.  
- طبعاً، سأتكفّل بالواجب، ولكنّا علينا أن نتفق  
أولاً...

## ٧٢٦ التنظيم السري

أرجو أن توافق على تأجير الشقتين لي!

فتساءلت بذهول:

- ما حاجتك إليهما؟

- سأجعل من البدروم مطبعة ومن الشقة دار نشر وعلى أن يتم الاتفاق بيننا على ذلك.

فقلت وأنا أغوص أكثر وأكثر في الدهشة والارتباك:

- أعطني مهلة للتفكير.

فقام وهو يقول:

- لك هذا يا أخي في الإسلام، وليكن الأمر سرًا

بيننا، ولكن تذكر أن خير البر عاجله . . .

ولما علمت زوجي بما دار بيننا برد حماسها الأول،

وبدا لها الأمر أشد تعقداً وخطورة فخافت التورط فيما

لا تحمد عقباه، وتفكرت ملياً ثم انتهت إلى رأي

فقلت:

- علينا أن نمتنع عن أي اتفاق ثم ننتظر.

فارتحت إلى رأيها، وعزمت على مصارحة الرجلين

بأنه لا شأن لنا بالموضوع، ولا اتفاق نرتبط به قبل أن

ينجلي الموقف. ولم تكد تمضي ساعات على ذهاب

الشيخ حتى رن جرس الشقة، وإذا بست محسنة

رضوان تظالعي بجسمها المترامي، في فستان بيّ

محتشم، معتمرة بخيار أبيض. تمتت:

- دستوركم.

ثم مضت نحو حجرة الاستقبال تنبخر كالتختروان

وجلست وهي تقول:

- أود الاجتماع بك والست حرمك.

وقد كان. وفي أثناء الجلسة استرقت النظر مستطلعاً

فبدت لي غير ما تبدو من بعيد، لا لحسنها ونضجها

الأنثوي فحسب، ولكن لتلك النظرة التي لا يخفيها

التصنع، نظرة مليئة بالخبرة والمجون فقلت لنفسي إنها

ولا شك كما يقال عنها. وقالت المرأة بنبرة جريئة

وناعمة:

- كان يجب أن نتعارف من قبل كما يليق بامرأة

وحيدة مثلي، ولكني شعرت بأنكما تؤثران العزلة . . .

ثم مغيرة درجة صوتها إلى مقام أدنى مشحون

باهتمام أكثر:

- ما علينا، ها هي الضرورة تسوقني إليكم،

وتدعوننا جميعاً للدفاع عن النفس!

فأقبلت زوجي نحوها بتركيز أكثر قائلة:

- خيراً؟

- يصدق على بيتنا المثل القائل يا ما تحت السواهي

دواهي، وبفضل من سهري المعتاد وراء الشيش المغلق

عرفت أشياء وأشياء . . .

وتساءلت أعيننا دون أن تنبس شفاهنا فواصلت

المرأة:

- تبيّن لي أنّ الدور الأعلى وكر هدامين وأنّ الدور

الأول وكر منحرفين، رأيت بعيني وسمعت بأذني،

وأخوف ما أخاف أن يكون المسكنان قد تحوّلوا إلى

مخزّنين للدخيرة، وأن نكون عرضة للهلاك ونحن لا

ندري!

فاستعادت زوجي بالله بصوت مهتج فقالت ست

محسنة:

- اطمئني فإنّي أعرف كيف أدافع عن نفسي، وعن

الناس الطيّبين، غير أنّه لي رجاء هو أن أستاجر

شقتيهما بعد خلّوهم!

فتسرّعت زوجي قائلة:

- لك هذا. يا ست محسنة.

أما أنا فسألتها:

- وما حاجتك إليهما؟

فقلت باسمه كاشفة عن ستين ذهبيتين لأول مرة:

- بصراحة سأجعل الدور الأول كافيتيريا والآخر

مطعمًا على أحدث طراز، وسيدرّ العقد الجديد عليكم

أكثر ممّا تدرّ عمارة، ولذلك يجب أن يتمّ بيننا اتفاق

مبدئي!

ومن منطلق تجربتي السابقة بالموقف نفسه قلت:

- تلزمنا مهلة للتفكير.

- صدّقني لا ضرورة لذلك، سيتمّ كلّ شيء

بأسرع ممّا تتصوّرا

فتمتت:

- مهلة قصيرة . . .

- أمهلك، ولا تنس صاحبة الفضل في تخليصك

من شرّ مؤكّد.

ثمّ وهي تمضي في سبيلها:

## التنظيم السري ٧٢٧

يسرد ما تردده الصحف عن زحف الفئران وأعدادها الهائلة وتخريبها البشع. وترتفع أصوات من أركان الحجر:

- ما يقال يفوق الخيال.  
- هل رأيتم الريبورتاج التلفزيوني؟  
- ليست فئراناً عادية ولكنّها تهاجم القطط والأدميين.  
- ألا يُحتمل أن يوجد شيء من المبالغة في الموضوع؟

- لا... لا، الواقع أكبر من أيّ مبالغة.  
ثمّ يقول السيّد (م.ا) بهدوء واعتزاز برياسته:  
- على أيّ حال ثبت أننا لسنا وحدنا، هذا ما أكّده لي السيّد المحافظ.

- جميل أن نسمع ذلك.  
- فما علينا إلا أن ننفذ التعليمات بدقة، ما يجيء منها عني مباشرة أو ما يجيء عن طريق السلطة...  
وخطر لأحدنا أن يسأل:

- هل يكبّدنا ذلك تكاليف باهظة؟  
فلجأ إلى الدين قائلًا:

- الله لا يكلف نفسًا إلاّ وسعها.  
- المهمّ ألا تكون مرهقة.

فلجأ إلى الحكمة قائلًا:

- لا يُدفع الشرّ بما هو شرّ منه!  
وعند ذاك قال أكثر من صوت:

- ستجدنا إن شاء الله من المتعاونين.

فقال السيّد (م.ا):

- نحن معكم ولكن لا تعتمدوا علينا كلّ الاعتماد، اعتمدوا أيضًا على أنفسكم ابدءوا على الأقلّ بالبدهيّات.

- عين العقل والصواب ولكن ما البدهيّات؟

- اقتناء المصايد والسموم التقليديّة.

- عظيم.

- الإكثار ما أمكن من القلط في بئر السّلم وفوق السطح وفي الشقق أيضًا إذا سمحت الظروف.

- لكن يقال إنّ الفأر النرويحيّ يهاجم القلط؟

- لن يخلو القلط من فائدة.

- يكفيني كلمة شرف!

فقلت زوجي بحرارة:

- كلمة شرف لا رجوع عنها!

وحقًا تتابعت الأحداث بأسرع ممّا تصوّرنا. في تلك

الليلة اقتحم رجال الأمن الشقّتين، وسمعنا أتهم عثروا على أدلّة بيّنة، وختمت الشقّتان بالشمع الأحمر. وكأ زایلنا الذهول والانفعال قلت لزوجي:

- ستطالبا بإتمام الاتفاق.

فقلت بثقة:

- إنّها صفقة رابحة ولعلّه من الأوفق أن نتقل

نحن إلى الدور الأعلى بعيدًا عن الضجّة.

فقلت بقلق:

- ولكنّي أرجح أنّ ما قيل عنها حقّ وصدق.

- لو صحّ ذلك لُقّبض عليها أيضًا!

- لها عينان فاجرتان...

- إنّها بالنسبة إليّ صاحبة فضل ولسنا المستولين عن الأخلاق في البلد.

وكان للمرأة ما أرادت. وتحوّل بيتنا إلى كافيتريا

ومطعم على أحدث طراز. في بادئ الأمر ساورني شكّ

في نجاح المشروع لُبعد مكانه عن وسط المدينة، ولكن

سرعان ما أذهلني نجاحه، وإقبال السيّارات الفارحة

عليه حاملة أناسًا ما كان يخطر ببال أتهم سيشرّفون

ببني المتواضع بحال من الأحوال.

المثّة لله، لا أحمل في الدنيا همًا.

## الفأر النرويحيّ

من حسن الحظّ ألا نكون وحدنا في هذه المحنة.

وقد دعانا السيّد (م.ا) بوصفه أقدم ملاك الشقق في

العمارة إلى اجتماع في شقّته لتبادل الرأي. لم يزد عدد

الحاضرين عن عشرة بما فيهم الداعي السيّد (م.ا)

وهو فضلًا عن أقدميّة أوسعنا ثراء وأرفعنا مركزًا. ولم

يتخلف أحد، كيف يتخلف والمسألة تتعلّق بالفئران

وغزوها المحتمل لبيوتنا وتهديدها لأمننا وسلامتنا.

ويبدأ الداعي بصوت ملؤه الجدّيّة «تعلمون...» ثمّ

ورجعنا إلى مساكننا بروح عالية وعزيمة صادقة. وسرعان ما غلب التفكير في الفئران على سائر همومنا. فكثر ورودها علينا في أحلامنا وشغلت أوسع مساحة في حوارنا، وتصدّت لنا باعتبارها المشكلة الأولى في وجودنا. ومضينا ننفذ ما تعهدنا به، ولبنا ننتظر مجيء العدو. يقول بعضنا إنّه لم يبق من الزمن إلا أقله، ويقول آخرون سنلمح ذات يوم فأراً يمرق فيكون النذير بأن الخطر قد دهم. وتضاربت التفسيرات حول تكاثر الفئران. هو في رأي نتيجة لخلوّ مدن القتال حين الهجرة، وفي رأي يرجع إلى سلبيات السدّ العالي، ورأي يجيله إلى نظام الحكم، وكثرة ترى فيه غضباً من الله على عباده لتنگرهم لهده. وبذلنا جهداً مشكوراً للاستعداد الرشيد لم يتهاون فيه أحد. وفي اجتماع تالٍ بمسكن السيّد الفاضل (م.ا) قال حفظه الله:

- سرتي ما اتخذتم من أسباب الوقاية، وأسعدني أن أرى مدخل عمارتنا وهو يموج بالقطط، أجل إنّ البعض شكّا إليّ تكاليف تغذيتها ولكن كل شيء يهون في سبيل الأمن والأمان . . .

وقلب عينيه في وجوهنا بارتياح ثمّ تساءل:

- ترى ما أخبار المصايد؟

فأجاب أحدنا وهو مرّب فاضل:

- سقط عندي فأر هزيل من فئراننا الوطنيّة.

- أيّا تكن هويّة الفأر فهو مؤذ، أمّا اليوم فيهمّني أن أبلغكم بوجوب المزيد من الحيطّة بعد أن أصبح العدو على الأبواب، وسوف توزّع علينا كمّيات من السمّ الجديد المطحون في الذرّة، يوضع في الأماكن الحساسة مثل المطبخ مع الحذر الشديد لحماية الأطفال والدواجن والحيوانات المستأنسة . . .

وحصل فعلاً ما وعد به الرجل، وقلنا حقاً لسنا وحدنا في المعركة، وتدقّ منّا النناء على جدران المهام، ومحافظنا الجليل. أجل حملنا ذلك الكثير من الانتباه يضاف إلى همومنا اليوميّة. كذلك وقعت أخطاء لا مفرّ منها، فقتلت قطّة في إحدى الشقق، وعدد من الدجاج في شقّة أخرى. ولكن لم تحدث خسائر في أرواح البشر. وكلّما مضى وقت اشتدّت توتر أعصابنا ويقظتنا وثقل على قلوبنا همّ الانتظار فقلنا وقوع البلاء ولا

انتظاره. ويقابلني جار ذات يوم في محطة الباص فيقول لي:

- سمعت من ثقة أنّ الفئران أهلكت قرية وزمامها كلّه.

- لا أثر لهذا الخبر في الجرائد!

فحدجني بنظرة ساحرة ولم ينبس. وتخيّلت الأرض سائلة بحشود من الفئران لا أول لها ولا آخر، وجموعاً من المهاجرين تميم على وجهها في الصحراء، أيمن أن يقع هذا يا ربّي؟ ولكن ما وجه الاستحالة في ذلك؟ ألم يرسل الله من قبل الطوفان والطير الأبايل؟ هل يكفّ الناس غداً عن كفاحهم اليوميّ ليرموا بما يملكون في أتون المعركة؟ وهل ينتصرون أو تكون النهاية؟ وفي الاجتماع الثالث بدا السيّد (م.ا) منشرحاً وراح يقول:

- تهانّي يا سادة، النشاط متقد على أكمل وجه والخسائر ضئيلة لا تُذكر ولن تتكرّر بإذن الله، وسوف نصبح من أهل الخبرة في مقاومة الفئران، وربّما استعانوا بنا في المستقبل في أماكن أخرى، والسيّد المحافظ في غاية من السعادة . . .

وأراد أحدنا أن يشكو قائلاً:

- الحقّ أنّ أعصابنا . . .

ولكنّ السيّد (م.ا) قاطعه:

- أعصابنا؟! . . . لا تفسد نجاحنا بكلمة طائشة!

- متى يبدأ الهجوم الفأري؟

- لا أحد يستطيع أن يقطع برأي، ولا أهميّة لذلك طالما أننا مستعدون للمعركة . . .

ثمّ واصل بعد فينة صمت:

- التعليمات الجديدة ذات خطورة خاصّة وهي تتعلّق بالنوافذ والأبواب وأيّ ثقب في جدار أو غيره. أغلقوا النوافذ والأبواب، افحصوا حافة الباب السفليّة بصفة خاصّة، فإن وُجد زيّق تنفذ منه قشّة أقيموا وراءه عوارض خشبيّة لتسدّه بالكامل، وعند التنظيف صباحاً يُبدأ بحجرة فتُفتح نوافذها، يكس فرد ويقف آخر مسلّحاً بعضاً للمراقبة ثمّ تُغلق النوافذ وتُنقل إلى حجرة تالية بنفس الأسلوب، وبانتهاء التنظيف تكون الشقّة علبة محكمة الإغلاق أيّا كان المناخ . . .

## التنظيم السري ٧٢٩

ومضى يتفقد المصائد والسموم والنوافذ والأبواب ويمرّ رأسه بارتياح. غير أنه رأى في المطبخ نافذة صغيرة مصفحة بغشاء سلكي ذي ثقب بالغة الصغر فقال بحزم:

- أغلقوا النافذة.

وهمت زوجي بالاحتجاج ولكنّه بادرها قائلاً:

- الفأر النرويحي يقرض السلك!

ولمّا اطمان إلى نفاذ أمره راح يتشمم رائحة الطعام معلناً استحسانه فقلت له:

- تفضّل.

فقال ببساطة:

- لا يأبى الكرامة إلا لثيم!

وفي الحال أعددت له مائدة وحده زاعمين له أننا سبقناه. وجلس إلى المائدة وكأنما يجلس في بيته، وجعل يلتهم الطعام بلا حرج ولا حياء وبينهم عجب. ومن باب الذوق غادرناه وحده. غير أنني رأيت بعد حين أن أطوف به لعله في حاجة إلى شيء. وفعلًا جدت له طبقًا، وفي أثناء ذلك لاحظت تغيرًا مثيرًا في منظره شدّ إليه عيني بقوة وذهول. خيل إليّ أنّ هيئة وجهه لم تعد تذكر بالقطر ولكنها تذكر بالفأر، بل الفأر النرويحي نفسه. ورجعت إلى زوجي ورأسي يدور، لم أصرح لها بما رأيت ولكنني طالبتها بأن تشجعه وترحب به، فغابت دقيقة أو دقيقتين ثم رجعت شاحبة اللون وحملت في وجهي ذاهلة، ثم تمتت:

- رأيت شكله وهو يأكل؟

فأحسيت رأسي بالإيجاب فهمست:

- إنه لأمر مذهل يعزّ على التصديق.

فوافقتها على رأيها بهزة من رأسي الدائر. وبدوا أن يغرقنا في الدهول أنسانا مرور الوقت فانتبهنا مع صوته آتياً من الصالة وهو يقول بمرح:

- عامراً!

فاندفعنا نحوه ولكنّه كان قد سبقنا إلى الباب الخارجيّ وذهب. ولم نلمح منه إلا ظهره المترجرج، ثم التفاتة سريعة ودعنتنا بابتسامة نرويحية خاطفة. ووقفنا وراء الباب المغلق نتبادل نظرات حائرة.

وتبادلنا النظرات في وجوم وقال صوت:

- من المتعذر الاستمرار في ذلك.

فقال الرجل بوضوح:

- بل عليكم أن تلتزموا بالدقة البالغة في

التنفيذ...

- حتّى في الزنانة توجد...

وسرعان ما قاطعه بحدة:

- نحن في حرب، أي في حال طوارئ، وليس

الخراب فقط ما يهددنا ولكن الأوبئة أيضًا والعياذ بالله

يجب أن نحسب حسابها!

ومضينا ننفذ ما أمرنا به صاغرين. وغصنا أكثر في

مستنقع الترقب والحذر وما يصحبه من ضيق وملل.

واشتدّ توتر الأعصاب فترجم إلى منازعات حادة يومية

بين ربّ البيت وربّتها والأبناء. ورحنا نتابع الأنباء

فصار الفأر النرويحي بجسمه الضخم وشاربه الطويل

ونظرتة المنذرة الزجاجية نجماً من نجوم الشرّ يجول في

أخيلتنا وأحلامنا، ويستقطب جلّ أحاديثنا. وفي آخر

اجتماع قال السيّد (م.١):

- بشرى، تُخصّصت فرقة من أهل الخبرة لتفقد

العناصر والشقق والمحالّ المعرضة للخطر، وذلك دون

المطالبة بأيّة رسوم إضافية...

وكان خبراً ساراً استقبلناه بارتياح عامّ، وأملنا أن

نزيع عن صدورنا بعض العناء الذي تعاناه. وذات

يوم أخبرنا البوّاب أنّ المندوب تفقد مدخل العمارة وبئر

السلم والسطح والجراج فبارك جماعات القطع المنتشرة

هنا وهناك، وثبّ عليه بالمزيد من اليقظة والإبلاغ عن

أيّ فأر يظهر، نرويحياً كان أو مصرياً. وعقب انقضاء

أسبوع واحد على الاجتماع دقّ جرس الشقّة وإذا

بالبوّاب يبشّرنا بقدوم المندوب مستأذناً في التفتيش. لم

يكن الوقت مناسباً إذ كانت زوجي قد فرغت لتوها

من إعداد الغداء غير أنني هرعت إلى الخارج لأرحب

بالقادم. وجددتني أمام رجل متوسط العمر مكنتز

الجسم ذي شارب غليظ يذكر وجهه المربع بوجه قطّ

بأنفه القصير المطموس ونظرتة الزجاجية. رحبت به

مدارياً ابتسامة كادت تنقلب إلى ضحكة، وقلت

لنفسى حقاً إنهم يحسنون الاختيار. وسرت بين يديه

## قاتل قديم

صدرت «يوميات علاء الدين القاهري» فاقتمت عزلة شيخوختي، عاصفة هدهدها وانقطاعها عن الحياة العامة. عاد اسمي يطاردني وينكأ جرحاً في كبريائي. ويزدكرني بفترة الاحترام والتقدير، وعهد النفور والرفض، وأخيراً الفشل. وأقتني الكتاب، وأهنمك في قراءته، بدءاً من مقدمة ابن أخيه، فأقف على سرّ تأخير النشر ربع قرن عقب مصرع الرجل احتراماً لوصيته، وأغوص بين السطور لعلّي أعرّ على حلّ اللغز الذي حيرني، وينبثق من إحدى اليوميات بصيص نور فامتلى بالاستنارة وأنفض من الدهول، وأهتف في حجرتي المغلقة:

- كان القاتل بين يدي طوال الوقت!

واخترقت الضباب إلى حجرتي في نقطة الشرطة فرأيت رجلاً يندفع داخلًا مضطرباً شاحب الوجه بجسمه الطويل المفتول ويقول لاهتاً:

- الأستاذ قتيل في فراشه.

وتفحصته بعين محترفة متسائلاً عمّن يعني فقال:

- الأستاذ علاء الدين القاهري.

فأشعل اهتمامي، وأدركت في الحال أنّ الروتين سينحرف عن مجراه المؤلف.

- أنا خادمه، ذهبت إلى بيته صباحاً كالعادة، رأيت باب حجرة نومه مفتوحاً فالقيت نظرة فرايته في فراشه غارقاً في دمه.

واستجابة لاستفسار قال:

- أغادر بيته ليلاً وأعود إليه في الصباح فأفتح الباب بمفتاح، أما المفتاح الآخر ففي حوزة الأستاذ...

لم أضيع وقتاً أكثر من ذلك فأبلغت المأمور وذهبت إلى بيت الأستاذ بصحبة قوة من الجنود والمخبرين. وفي الطريق غمرتني ذكريات. ذكرت حماسي لفكره أيام الدراسة الذي زحف عليه الفتور فيما بعد وختم بالرفض. كان أستاذاً جامعياً مرموقاً، ومؤلف كتب تُعتبر المرجع الأول في الدعوة للحضارة الغربية والنقد المرّ للتراث، فحظيت بقلّة من المعجبين وكثرة من

الناقمين. وجرى الزمن وتغيّر، فبلغ سنّ المعاش، واعتزل في بيته، واقتصر اتّصاله بالناس على استقبال بعض الزملاء ممّن على شاكلته في الرأي، وبعض الشباب من المعجبين. وعانى الجوّ العامّ من اختناق في الفكر على المستويين الرسمي والشعبي فلم يُعذّ طبع كتبه، ولم يتيسّر الاطلاع عليها إلا في دار الكتب وخاصة لأصحاب الرسائل الجامعية. رغم ذلك كله بقي اسمه حقيقة ثقافية ذات وزن ثقيل في الجيل المخضرم وقلّة من الشباب، فلم تغب عني خطورة الجريمة وأثرها المنتظر. ودرست موقع البيت من الخارج وسط صفّ من بيوت مماثلة شيّدها جمعية تعاونية. بيت صغير أنيق أبيض من دور واحد وحديقة صغيرة تعبق برائحة الياسمين. ورأيت الجثة منكفئة على وجهها، والغطاء منحسر عن نصفها الأعلى، والدم يغطّي مؤخر الرأس والقفا وينداح فوق الحشوية والوسادة. غلّفه وجه الموت الأخرس المغترب، بهتت صلته، وتمدّد أنفه الكبير الأثني في صفحة ضاربة للزرقة غائصة في اللامبالاة. لا أثر للمقاومة ثمة، وكلّ قطعة أثاث مستقرّة في موضعها في طمأنينة تامّة، وفي الحال لحق بي المأمور ومدير الأمن والنائب العموميّ، وجرى فحص شامل للمسكن ومحتوياته. وهرنا نظامه الدقيق وترتيبه الحسن فلا يشدّ شيء عن موضعه. عدا صينية على خوان في حجرة الاستقبال تحوي عددًا من أقداح الشاي في قراراتها شيء من السائل؛ ووعاء معدنيّ مفضّض به بقايا من البسكوت المطعم بالشيكولاتة، ونافضة مليئة بأعقاب السجائر. وصوان الملابس لم يُمسّ، والساعة، والولاعة، كما عثرنا على مظروف به مائة جنيه. وتبادل حديث أولي بين المسئولين:

- الجريمة لم تُرتكب من أجل السرقة.

- احتمال راجح ولكن يقتضي مزيداً من التحري.

- هناك باب الخصومة والانتقام.

- هل تدخل في هذا الباب الخصومة الفكرية؟

- لكنّ الأجيال الجديدة لا تكاد تعرفه - وإن وجب

أن يمتدّ البحث لكلّ شيء...

- والعلاقات الخاصة المجهولة أيضاً.

## التنظيم السري ٧٣١

ووضح أنه لا فكرة لها دقيقة عن الوقت. وكان بعطفه السدّ القائم بها مسكنه مقهى عند المنعطف شهد صاحبه بأن عمّ عبده غشى المقهى ليلتها كعادته فلم يتناقض ذلك مع أقوال الرجل الذي قال إنّه قصد المقهى ليعالج صداعه بالقهوة والأيسون وخلافه، أما عن الوقت فلم يستطع الرجل أن يحدّده لانشغاله المتواصل بعمله. وضحت لنا براءة الطلبة فلم يبقَ في يدي إلا عمّ عبده مواهب. هو الذي يمكنه دخول البيت في أيّ وقت ودون عائق ثمّ يغادره بسلام، ولكن لماذا يقتل الأستاذ؟ والحقّ - وأقرّر ذلك من واقع خبرة ودراسة - أنه رجل ورع طيّب مستقيم، وبعيد أن يكون حزنه على الأستاذ تمثيلاً أو زائماً، وبعيد أيضاً أن يوحى وجهه بالجريمة أو الشرّ، وغضبت حيال الغموض الجاثم. وتعلّق الأمل بالعلاقات الخاصة الخفية. وقلت لعمّ عبده مواهب:

- حدّثني عن سلوك المرحوم كرجل لم يتزوَّج قطّ؟
- فأجاب متجهماً:
- لا أعرف شيئاً.
- تكلم، ألا تريد أن تبرئ نفسك؟
- لي الله، لن يأخذني بجريمة غيري.
- لكلّ منّا هفواته وعيوبه فحذار أن تدافع عن

القاتل بحسن نية!

ولكنّه أصرّ على موقفه. وجاءني مرشد باللبن الذي شهد بأنّه رأى في بيت الأستاذ في أثناء تردّده عليه امرأة متوسطة العمر على جمال ملحوظ. وبعد مواجهة بين اللبن وعمّ عبده قلت للأخير بحزم:

- هات ما عندك عن هذه المرأة.

فقال بقلق:

- ربّنا أمر بالسّتر.

فقلت بحزم أشدّ:

- وأمر بعقاب القاتل فتكلّم لتخلّص نفسك من الشبهة المحيطة بك.

فاعترف قائلًا:

- هي أرملة على علاقة قديمة بالأستاذ، تعيش في أسرة فقيرة ولكنّها لا تتسامح فيها بمسّ العرض، ولو انكشف سرّها لتعرّضت للهلاك...

وعرفت القنوات التي ستتدفّق منها التحريّات، ثمّ بدأ التحقيق باستجواب الخادم عمّ عبده مواهب. رجل في الخمسين، يعمل طاهياً وشغلاً عند الأستاذ منذ عشرين عامًا، وهو محور البيت كما يخلق ببيت أعزب يعيش وحده. ينتهي عمله عقب تقديم العشاء في الثامنة ثمّ يغادر البيت حوالى التاسعة ليتمضي إلى مسكنه بمصر القديمة ثمّ يرجع في الصباح قبل استيقاظ الأستاذ عادة. ويخالف هذا النظام في الليالي التي يستقبل فيها الأستاذ جماعة من أقرانه أو مريديه من الشبان، فربّما تأخّر ميعاد ذهابه إلى منتصف الليل. وبالنسبة لليوم الذي قُتل الأستاذ في ليلته عقد - الأستاذ - جلسة مع أربعة من الشبان بمن يتردّدون كثيرًا عليه، وهم طلبة دراسات عليا، معروفون جيّدًا بالاسم والصورة لدى عمّ عبده مواهب. غير أنّ عمّ عبده شعر بصداع فاستأذن في الانصراف حوالى العاشرة، ولما رجع صباحًا كالعادة اكتشف الجريمة.

- هل تشكّ في أحد الزوّار الأربعة؟

- أبدًا... (ثمّ بتوكيد) أبدًا... أبدًا...

- لماذا؟

- كانوا يجيرونه وكان يعاملهم بعطف الوالد ورعاية الأستاذ، والعلم عند الله، والكلمة الأخيرة لك...

وقلت لنفسي، أماننا جريمة قتل، القاتل كان في داخل البيت، وجدنا مفتاح البيت الخاصّ بالأستاذ في درج المكتب، وجدنا باب البيت ونوافذه سليمة وكانت النوافذ مغلقة من الداخل. وكخطوة أولى حجّزت عمّ عبده والطلبة الأربعة وانطلقنا في قنوات التحريّات.

بحسبنا مصادر الثروة فوضح لنا أنّه لا يملك إلاّ معاشه وحسابه في المصرف المتحصّل من فوائد شهادات الاستثمار، وليس في ميزان الصرّف ما يدلّ على أنّه سحب مبلغًا أكثر من المعتاد صرفه كلّ شهر لتغطية نفقاته. ولم تدلّنا التحريّات عن الطلبة وعمّ عبده مواهب على أيّ علاقة مريبة أو شبهة من الشبهات، وقُتشت البيوت تفتيشًا دقيقًا، وكان عمّ عبده يعيش في مسكن صغير هو وزوجه أمّا أبناؤه الثلاثة فيعملون في السعودية، ولما سُئلت زوجته عن ميعاد عودته ليلة الحادث أجابت بأنّها تنام مبكرة

- إذن لا تركني، والعمل على أيّ حال أفضل من الفراغ.

فغمغم:

- لا حيلة لي يا سيدي.

- بل يوجد سبب، لا تخف عني شيئاً...

فصمت ملياً ثم قال:

- قلبي يقشعراً مما أسمع أحياناً في مجالس الزوّار

فقلت بدهشة:

- لن يأخذك الله بذنوب غيرك، لك عليّ أن

أسكت الحوار إذا دخلت الحجره لخدمة...

وما زلت به حتّى عدل عن رأيه. ولكن يبدو أنّه لم

يكفّ عن التصنّت وقد ضببطه مرّة لصق الباب وأنا

ذاهب لبعض شأني فعاتبته عتاباً مرّاً، وذات يوم وهو

يقوم على خدمة إفطاري حانت منّي التفاتة إلى مرآة

فلمحت صورته المعكوسة تنطق بالحنق والغضب،

فاعترضني كتابة وتساءلت كيف أحفظ برجل يضمير لي

هذا الشعور الأسود!؟. وفي مكان آخر من اليوميات

وكظرف مشابه قرأت هذه العبارة عن عمّ عبده مواهب

«يجب التخلّص منه في أقرب فرصة، وقد ناقشت

مشكلته في إحدى الجلسات الثقافية فأننى الزوّار عليه

وقالوا أنّه مثل للاستقامة والطيبة ولكنّي على خبرة بما

يمكن أن يصدر عن هذه الأنماط إذا جُرحت ضمائرهما،

يجب التخلّص منه في أقرب فرصة مهما صادفني من

صعوبات في إحلال آخر محلّه».

امتلات بالاستنارة متأخراً جداً وهتفت:

- كان القاتل بين يديّ طوال الوقت!

الآن قد سقطت العقوبة، واندرت التحقيق، وتوفّي

الكبار الذين باسروا التحقيق أو أشرفوا عليه، ولعلّ

القاتل قد لحق بهم أو سبقهم إلى جوار ربّه. وأمكنتني

أخيراً أن أقف على الباعث على الجريمة الذي ضلّته

وقتها. ترى هل مات الرجل أو ما زال حيّاً؟ ولم

أستطع مقاومة الرغبة في السعي وراءه رغم إفلاته

القانونيّ من العقوبة. تمثّيت أن أعرّ عليه ولو لأعلن

انتصاري العقيم. ولن يتّضح عقمه - لجهله غالباً

بالقانون - حتّى أكاشفه بذلك.

وانقلت من مصر الجديدة إلى مصر القديمة مدفوعاً

ووعدهته بأن نستدرجها إلى التحقيق في تكتم.

وعرفت ما يلزمني عن المرأة، مسكنها، أولادها، أخيها

الميكانيكيّ المعروف بفظاظته، وعرفت أيضاً أنّ عمّ

عبده كان يسفر أحياناً بين الأستاذ والمرأة على كره

شديد منه.

داخلي شعور بأنّ الحقيقة ستُذف إليّ بعد تمتّعها

العسير. ولسّما رأيت المرأة فتر حماسي. وجدت امرأة

تكاد من سذاجتها أن تشارف البلاءة. وصارحتني

بأنّها استسلمت للرجل لشدة حاجتها ولعطفه وكرم

أخلاقه، وأنّ موته سدّ في وجهها باب الرجاء. وقالت

إنّها كانت تزوره نهاراً تحبّباً لإثارة الشبهة عند أحد

وخاصّة أخيها، وأنّها لم تدخل بيته طوال الأسبوعين

السابقين للحادث مستشهدة في ذلك بعمّ عبده

مواهب. ورجع الغموض إلى ما كان وربّما أشدّ.

ونشط خيالي في طرح الفروض، فحامّ حول أخيها

الميكانيكيّ ولكنّ قطع الشكّ باليقين عندما أثبتت

التحرّيات بأنّ الشابّ كان محبوباً في قسم الخليفة يوم

الجريمة لتورّطه في مشاجرة. انتهى. لم يسفر التحقيق

ولا التحريات عن شيء، وقُيّدت الجريمة ضدّ مجهول.

وقلت لنفسي وأنا من القهر في نهاية:

- هذه الأمور تحدث أيضاً!

ها أنا أعود إلى الجريمة بعد انقضاء خمسة وعشرين

عاماً على ارتكابها، وبعد أن تركتُ الخدمة منذ خمسة

أعوام أو يزيد. أعادني إليها نشر «يوميات علاء الدين

القاهريّ». ورحت أقرأ بشغف مدرّكاً الأسباب التي

جعلت الأستاذ يوصي بتأخير النشر ربع قرن لتعرّضها

لأشخاص رأى من المستحسن ألاّ يهتك الستر عن

أفكارهم إلاّ بعد وفاتهم أو في الأقلّ بعد انتهاء

خدمتهم الرسميّة. وفي إحدى اليوميات قرأت:

«عمّ عبده مواهب صارحتني برغبته في ترك خدمتي

فانزعجت جدّاً لشدة حاجتي إليه خاصّة في هذه

المرحلة الحرجة من العمر والوحدة، ولأمانته واستقامته

وطيبة قلبه وتقواه. وقلت له:

- إنّي أعاملك كصديق يا عمّ عبده.

فتمتم:

- لا ينكر النعمة إلاّ لثيم.



## الخنْدَق

رغم عنايتي الملحوظة بنظافة جسدي وصحتي العامة فإنَّ الإحساس بالقذارة والمرض يلجَّ عليَّ كفكرة ثابتة أو جَوْ ثَقِيلٍ جائم. لست أقيم في جسد وأطراف فحسب ولكن أيضًا في شقَّة عتيقة بالية وعطفة هرمة تغوص في النفايات. تعرَّى السقف من السطّاء وتكشَّف في مواضع عن عروق لا لون لها، وتشققت الجدران في خطوط متوازية ومتقاطعة، وانفجرت الأرضية عن نتوءات وثغرات تلاطم باطن القدم تحت الأكلمة المتهرئة. والسقف والجدران تنضح صيفًا بالحرارة المحرقة وترشح شتاء بالرطوبة أو برشاش المطر. والسلم آخذ في التآكل، ودرجة منه تصدعت فتهوى نصفها وأصبحت عثرة في طريق الصاعد والهابط وخطرًا لا يُستهان به في ظلمة الليل. هذا بالإضافة إلى الشقَّ الطويل الذي يسوخ في جناح البيت الخارجي الملاصق لدورات المياه، وهو جناح تقشَّر ملطه وكلسه وبرزت أحجاره. وعطفة الحسني اختفى طوارها تمامًا، ولا أحد يذكر أنه كان لها طواران سواي بوصفي من مواليد هذا البيت، بخلاف أسرتي إبراهيم أفندي ساكن الدور الأوسط والشيخ حرّم ساكن الدور الأرضي اللتين وفدتا إلى البيت منذ عشرين عامًا على أكثر تقدير. على أيام صباي كان البيت كهلاً لا بأس به، والعطفة ذات أديم مبلط بالأحجار وطوارين، لا تقلُّ في رونقها عن شارع الشرفا الذي تنحدر إليه. اختفى الطواران تحت الأتربة والنفايات، وهذه تتراكم يومًا بعد يوم زاحفة من الجانبين نحو وسط الطريق الضيق، وعمًا قليل لن يبقى للسكان إلاَّ ممرَّ كالخندق يذهبون منه ويجيئون، وربّما ضاقت حافته عن أن تسع جسم ستّ فوزية حرم إبراهيم أفندي. يطبق على وجداني شبح القِدَم وتوقُّع الانهيار وتفشّي القذارة فيطاردني الإحساس بالمرض. والخوف أيضًا. وحيد في شقَّة تفرّق ساكنوها بين البيوت الجديدة والمقابر، وموظَّف بالإضافة. موظَّف وحيد في بيت آيل للسقوط، يثنُّ في قبضة الغلاء، يتساءل عن مصيره لو

بحبّ استطلاع ورغبة متوارية في الانتقام. وجدت عطفة السدِّ كما كانت بيوتها العتيقة والمقهى القائم عند المنعطف لم يكده يتغيَّر إلاَّ وجه صاحبه. وكان عمّ عبده انقطع عن زيارة المقهى منذ سنوات فطرقت بابه واقتحمت مسكنه. استقبلني بسدهشة، ببصر ضعيف، ولم يتذكّرني، وطالعتني بوجه كثير الغضون وسوالف ناصعة البياض كالزغب تبرز من حافة طاقة بيضاء. قلت له:

- إنك لا تتذكّرني.

فبسط راحته متسائلًا فقلت:

- ولكنك لم تنس ولا شكّ مصرع الأستاذ علاء

الدين القاهري!

فومضت في سحابة عينه نقطة لامعة وقطب في حذر:

- أنا ضابط التحقيق، كلانا تقدّم به العمر.

فتحرّكت شفاته من همس لم أتبيّنه ولكنّي قرأت في صفحته أمارات الانسحاق.

وقلت بثقة:

- أخيرًا انكشفت الحقيقة وثبت أنّك قاتله!

وأتسعت عيناه في ذهول ولكنّه خرّس فلم ينبس. وقام بجهد وصعوبة ولكنّه ما لبث أن انحطّ فوق الكنية. أسند رأسه إلى الجدار ومدّ ساقيه وتقلّصت عضلات وجهه نافثة زرقة ترابية، وفتح فاه، ربّما ليقول شيئًا لم يقله أبدًا، ثمّ استسلم أمام قوّة مجهولة فمال رأسه على كتفه.

وجزعت فهتفت به:

- لا تخف، انقضى زمان الجريمة، اعتبر حديثي

مزاحًا...

ولكنّه كان قد أسلم الروح.

\*\*\*

أقدمت على مغامرة لأحقق نصرًا عميقًا فبوت بهزيمة جديدة أفقدتني ما كنت أحظى به من راحة البال. ومن حين لآخر أتساءل في ضيق:

- ألا أعتبر أنا أيضًا قاتلاً؟!

## ٧٣٤ التنظيم السري

الإحساس بالنظافة والصحة. على ذلك فحالي خير من الآخرين فأني على الأقل وحيد. عن عجز لا عن رغبة ولكني وحيد. حبس كُتبت ووحدة وبيت آيل للسقوط وعطفة تُدفن تحت النفايات. أقوم بالمعجزات لأفوز بلقمة هنية ولو على فترات من الزمن، وكسوة تستر ماء وجه مدير إدارة فرعية. أحلم بمسكن مما أرى في إعلانات الجمعيات التعاونية، وعروس مما أشاهد في صفحة العرائس الأسبوعية، أو حتى مثل ست فوزية. أتعزى بقراءة «حلية الأولياء»، بحياة الأولياء الصالحين الزاهدين المتوكلين الطارحين لهموم الدنيا تحت أقدامهم واللائذين بطمأنينة خالدة. غير أن خبراً عارضاً عن سقوط منزل أو عن إخلاء عمارة بقوة الشرطة عقب تصدع جانب منها، يهزني من الأعماق، يستردني من فردوس الأولياء، يملؤني بالرعب، أين يذهبون، ماذا يبقى لهم من المتاع، كيف يتصرفون؟! ويتضاعف إحساسي بالوحدة رغم انتهائي إلى أسرة كالقبيلة متناثرة في أنحاء المدينة الكبيرة. إخوة وأخوات وأقارب ووحدة خانقة! العواطف طيبة ولكن لا بيت يرحب بجديد. كل بيت بالكاد يسع سكانه. وكل فرع ينوء بهومه. قد أجد ملاذاً ليوم أو أسبوع أما الإقامة الدائمة فهي ورم سرطاني لا يُجتمل. وأهرع إلى المقهى فهو جنة المأوى. أجتمع بالزملاء فأستروح العزاء في تبادل الشكوى. ومن عجب أنني معدود بينهم من المحظوظين لتوحيدي وخفة حمولتي. وحدتي المرعبة قيمة محسودة. يا بختك لا زوجة ولا بنت ولا ولد. لا مشكلة أجيال ولا زواج بنات ولا دروس خصوصية. بوسعك أن تأكل لحمه مرة في الأسبوع وربما مرتين. مسكنك الوحيد الذي لا يشهد شجاراً ولا نقاشاً. وأهز رأسي في رضا ولكني أتساءل في باطني هل نسوا آلام الكبت والوحدة! غير أنني أجد في أنيهم المتواصل سلوى مثل دفقة ضوء تلقى على قبر. ويقول لي أحدهم مرة:

- عندي حلّ لكافة مشكلاتك.

فأنظر إليه باهتمام وأنتظر فيقول:

- زيجة، توقّر المسكن واليسر ولا تكلفك مليماً

واحداً.

وقع زلزال أو غارة جوية في هذه الأيام المنذرة بالحروب، أو ماذا يحدث لو استوفى البيت عمره المتهالك فمات حتف أنفه وبلا سبب خارجي. وأعقد العزم على مطاردة الهواجس بنفس القوة التي تطاردني بها، أن أسلم أمري لله، ألا أتعجل الهّم قبل وقوعه، أناسي همومي في المقهى بين الصحاب من الموظفين الكادحين أو بين يدي التلفزيون، تلفزيون المقهى. غير أن الهّم يرجع كأكف ما يكون في اليوم الأول من كل شهر. يوم يحسب حسابه الشيخ محرم وست فوزية التي تنوب عن زوجها في المعاملات لقوة شخصيتها، كما أحسب حسابه ألف مرة. في هذا اليوم يهّل علينا عبد الفتاح أفندي ساعي البريد ومالك البيت القديم. رجل في الخمسين، ما زال متمسكاً بطربوشه، ثقيل الظل، ربما لا لعب فيه. أنتبه إلى حضوره عندما يترامى إليّ صوت ست فوزية وهي تنهره بخشونة وتلقمه الحجر تلو الحجر. أما أنا فأعاجله بالكياسة ما استطعت. أستقبله وأجالسه على كنية وحيدة وأقدم له الشاي. ويطلب له أن يردّ التحية فيسألني:

- بوذي أن أجيء مرة فأجدك مكتملاً نصف دينك! فأسأله وأنا أداري غصّة:

- عندك عروس وزيجة بالمجان؟

فينفخ بخار الشاي ويمسح حسوة ذات فحيح ويهز رأسه دون أن ينبس. وأقدم له الإيجار، ثلاثة جنيهات، فيتناولها باسماً في سخرية، يفنّدها بين أصابعه، يقول:

- أقلّ من ثمن كيلو لحمة، والاسم مالك بيت...

ثم يواصل متشجعاً بصمّي:

- أموال أيتام يعلم الله.

فأقول:

- مظلومان يتناطحان، ولكن ما الحيلة!؟

- لولا احتلالكم للبيت لبعته بالشيء الفلاني..

ثم بنبرة وعظيمة:

- وهو آيل للسقوط، ألم تذرکم اللجنة؟

فأتساءل:

- وهل نلقي بأنفسنا إلى الشارع!؟

أفتقد دائماً الشعور بالاستقرار والأمان كما أفتقد

## التنظيم السري ٧٣٥

وقعت الواقعة. هناك توجد حجرة الرحمة كما توجد  
دورة للمياه فهي مأوى من لا مأوى له.

رأيت القبرين القديمين تحت السماء وشجيرات  
الصبار في الأركان، أما حجرة الرحمة إلى يمين القادم  
فقد انقلبت خلية نحل تموج بالنساء والأطفال والأثاث  
البالي المكوم وموائد الغاز والحلل وتعبق بروائح الثقيلة  
والفول والبادنجان والزيت المقلبي. رمقتني أعين  
المستوطنين بتوجس وقرأت في أعماقها نذر التحدي.  
ابتسمت في استسلام ووقفت قبالتهم متحرراً من القوة  
والمجد. وقلت لامرأة ذكرني حجمها بست فوزية:  
- لا بأس، ولكن ما العمل لو احتجت إلى الحجرة  
كماوى؟

فقلت ضاحكة:

- أنت صاحب حق ونحن ضيوفك، ننزل لك عن  
ركن، والناس للناس...

فقلت عمتاً في الظاهر:

- جوزيت خيراً...

ومرقت إلى القبرين لأتلو الفاتحة. تحملت الأجيال  
التي لم يبق منها إلا هيكل عظيمة. رعل من أهل  
الحرف والتجار والموظفين وستات البيوت وخال لم أدرك  
عصره ولكني سمعت الرواة يحكون أسطورة استشهاد  
في ثورة ١٩١٩.

وقفت ملياً وأنا أناجيهم بصوت غير مسموع:

- أمدوني يرحمكم الله بإيمانكم، وهبني يا خالي شيئاً  
من شجاعتك!

## عندما يأتي الرخاء

مات الأب ففقد الابن عرشه. ذلك أنه كان وحيد  
أبويه، ولي العهد المدلل، المغموس في نعيم الخنان.  
ما إن بلغ الحلم حتى زوجه أبوه ليفرح به فأنجب  
بدوره ابناً وحيداً، وزوجه في حياة أبيه ليفرح به  
أيضاً. أما الأب المدلل فأفسده اللدع فقعد عن التعليم  
دون أن يحصل على الابتدائية وأما الحفيد فقد نال  
التجارة الثانوية بطلوع الروح. وعقب وفاة الأب -

ثم فيما يشبه الممس:

- امرأة تناسب المقام.

وأتخيل في الحال امرأة لا تملك من الأنوثة إلا شهادة  
السجل المدني. وسيلة شاذة من وسائل الإنقاذ مثل  
الانحراف والجرائم الخفية، طوق نجاة مثل جثة  
طافية. الحق أنني فقدت الأمل ولكني ما زلت محتفظاً  
بالكبرياء. من أجل ذلك يصفونني بالطيبة كمرادف  
للبلهية. أتصبر وأقاوم. أعود إلى كتاب حلية الأولياء  
وأقرأ جرائد المعارضة. ربما ألبأ أحياناً إلى حيل  
الطفيليين ولكنها زلة تغتفر. أزور بيوت الأهل في غير  
أوقات الغداء إمعاناً في إظهار البراءة على أمل أن أدمي  
إلى وليمة، ولكن روح العصر لم تعد تؤمن بهذه  
التقاليد العريقة. ويختلف الأمر بالنسبة للمواسم  
والأعياد فيسعدني الحظ بوليمة أو وليمة في العام.  
وما أن يتهدى إلي صوت ربة البيت وهي تقول:

- ما أنت بالغريب ولا بالضيف، اعتبر نفسك في

بيتك...

ما إن تلوح هذه الإشارة الخضراء حتى أنقض على  
المائدة مثل نسر جائع وكأنا أشهد العشاء الأخير.  
الأدهى من ذلك كله أنني مواطن عادي، لا طموح  
عنده ولا خيال. نلت من التعليم ما يكفي والحقتني  
القوى العاملة بإدارة ما. ما تمنيت بعد ذلك إلا بنتاً  
طيبة وشقة صغيرة. انقلبت الدنيا لا أدري كيف  
وماجت بالعجائب. وتحددت إقامتي في البيت  
المتهالك. وكلما ارتفع مرتبي انخفض كأنه فزورة من  
فوازير رمضان. ذاب شبابي في التضخم وكل يوم  
أغالب أمواجاً هادرة تهدني بالغرق. ويقال لي:  
- هاجر ففي الأسفار مليون فائدة...

ولكني بطيء الحركة ومشدود للأرض ولم أستسلم  
لقبضة اليأس. من حين لآخر تومض في سائي  
المظلمة بارقة. تنعشني تصريحات الوزراء وطلقات  
المعارضة ونوادير الأولياء. ألم يكن ابن حنبل يتصدق  
بالجوائز السنوية وهو يتصور جوعاً؟ وأتسل أحياناً في  
نافذتي وأنا أرقب ست فوزية وهي تتبختر في الخندق  
بين حافتيه المطبقتين. وذات يوم قررت أن أزور مدفن  
الأسرة بعد انقطاع طويل باعتباره الملجأ الأخير إذا

## ٧٣٦ التنظيم السري

فيحسب ثمنها بما لا يقل عن ثمانين ألفاً من الجنيهات بالإضافة إلى مال البدل، وراح يهدي بالثروة والحرمان والفقير والحظ.

وقال له عمه:

- بئح بيتك واستثمر ثمنه في عمل نافع.

ولكنه يقول معترفاً بالحقيقة الصخرية:

- لا أصلح لشيء يا عمي.

ويستطرد بأسياً في حياة:

- الله يغفر لك يا أبي.

والزمن يسترق الخطى، لا يبالي ولا يمهل، فيتوغل الرجل في الشباب حتى يرقى ذروته ويطل على الرجولة دون أدنى رغبة فيها. تتبلور شخصيته بين الأصحاب والأقارب نمطاً للإنسان الشاكي الباكي، مجنون الوقف ومال البدل وأجر المثل، يضحك منه في الخفاء من يشفق من الجهر، ويعالنه بالسخرية من يضيق به، ومن وراء وراء يقولون عنه:

- سيُجنّ ذات يوم.

- بل جنّ فعلاً وما كان كان...

وتغزو مظاهر الحضارة حتى الأحياء الوطنية. وجاوزت السيارات حدود الندرة. وكذلك المطاعم والملاهي. وانطلق الرعيل الأول من الحسان سافرات الوجوه بأعين مكحولة وشفاه مصبوغة. هذا وامراته منهمكة بين الطهي والغسيل والمكنسة فبرزت الست العاملة وتوارت الأنثى المغربية. وهو خلقه الله جميلاً يحبّ الجمال فتتمر وتوتب للنزاع والنكد. تقول امرأته:

- ما حيلتي ابتليت به أفضح مما ابتلي هو بالحياة... ويقول هو:

- أنا غني محكوم عليه بالفقر، والدنيا حلوة...

ويقول له عمه:

- الدنيا حظوظ، والله في خلقه ششون، والسعيد

من يمثّل لإرادة الله.

فيقول:

- أنا مظلوم... مظلوم... مظلوم...

- وما الحيلة يا بن أخي؟

- أحرام أيضاً أن أشكو الظلم!

فيقول الرجل مدارياً ضيقه بابتسامه لا لون لها:

الجند - وجد الخليفة الأول نفسه وحيداً عاطلاً، والخليفة الثاني كاتباً على الآلة الكاتبة.

- كان أبي سمساراً رزقه موفور ولكن ينفق عن سعة، عشنا في حياته كالمملوك غير أنه لم يخلف شيئاً.

أورثه بيتاً من ثلاثة أدوار ودكان بالسيدة، يقيم هو في دور وابنه في دور ويقبض إيجار الدور الثالث والدكان ستة جنيهات كل شهر، مثل مرتب ابنه.

أجل كان المبلغ كافياً لمعيشة أسرة في مطلع القرن ولكن لا يهيم لها أي لون من ألوان الترفيه المشروع.

- كيف أطيق هذه الحياة أنا ربيب النعيم، طعامي

طعام ولائم، وملبسي أعمودج للأناقة، مجلسي في قهوة

الشيشة، ونزهتي عند كشكش بك ومنيرة المهديّة،

كيف أطيق هذه الحياة؟

ويقول له ابنه معاتباً:

- لم عجّلت بتزويجي؟... ها أنا أب وأنا دون

العشرين...

فيجيبه متتهذاً:

- إنما الأعمال بالنيات يا بني! أنا أيضاً وجدتي

زوجاً لبنت تكبرني بأعوام قبل أن أفزق بين الألف

والباء!

وكان المستحق الوحيد لوقف جدّه للمرحومة أمه

فزار لأول مرة إدارة الأوقاف الأهلية مسوقاً بنبضة أمل

رغم ما سبق له علمه عن طريق أبيه. وقال له الموظف

المختص:

- ثروتك على الورق ضخمة، أربع قطع أراضي

فضاء بالمشيئة، ومال بدل ناتج عن دخول قطعة

خامسة في التنظيم مقداره أربعون ألفاً من

الجنيهات...

فتساءل بصوت متهدج كيف يمكنه الانتفاع بثروته

فقال الموظف:

- لا شيء للأسف، الأرض وقف لا تُمس، والمال

وقف لا يُمس، وهو مودع في البنك بلا فوائد لأنّ

الفوائد ربا والربا حرام وكلّ حرام في النار.

وهذه النار التي تندلع في قلبه وآماله! لم يعد له

من حديث إلا الوقف والحرمان. ويطوف بالأراضي

الفضاء المطروحة كخرائب، ويسأل عن أجر المثل

## التنظيم السري ٧٣٧

- وانتبه إلى نضارة وجهها وهندسة جسمها لأول مرة.  
سألها في دعابة:
- ألا تمنح الوزارة بدلاً من المرتب أشياء عينية؟  
فتساءلت في براءة:
- مثل ماذا؟  
فقال ضاحكاً:
- مثلك يا ابنتي!  
فودعته ضاحكة. وصرخت زوجته:
- تحت سمعي وبصري ولا تتورع عن المغازلة...  
فقال بجذبة مصطنعة:
- غازلتها بالأصالة عن نفسي ونياية عنك  
أيضاً...  
فصاحت:
- ما يؤذبك إلا الفقر.  
وتقرر له مرتب من الخيرات مقداره ثلاثة جنيهات شهرياً.
- وسأل الموظف ممتمصاً:
- ثلاثة جنيهات؟  
فقال الرجل:
- مناسب جداً بالقياس إلى أمثاله.  
- لا يساوي ما بذلت من كرامتي...  
- الأسر التي أناخ عليها الدهر أكثر مما تتصور.  
على أي حال زار المفتش في إدارة التحريات، في الظاهر ليشكرها، وفي الحقيقة ليلمع شباها ونضارتها. ورجع إلى بيته وفي قلبه حلم. وأنجب الحلم أحلاماً أخرى عن فيلاً وسيارة ومائدة. أما الواقع فلم يتمخض إلا عن غلاء يرتفع، ومغريات تنتشر، وشيب يتفشى، وضغط دم - ذلك الداء المتوارث في أسرته - يستقر. وتمزقت روابط الزوجية حتى حل الكره محل الرحمة. تقول له:
- لا أرى في وجهك إلا العبوس.  
فيقول:
- حب الحياة ليس جريمة.  
- اشكر ربك على الابن والصحة.  
- ابني يتأوه وصحتي تلفت.  
- إنني رقيقة عمرك.

- ليس لكل إنسان همومه!  
وتتوثق العلاقة بينه وبين إدارة الأوقاف. يصبح نجماً في سبائها المنسوجة من خيوط العنكبوت. ويمدون له في حبل الأمل.
- ألا تتابع حملات الجرائد على جمود الوقف؟  
- انتظر خيراً قريباً.
- وتنشب الحرب العالمية الثانية، يتسّم ذروة الرجولة فينحدر نحو الكهولة، ويتلقى من الغيب نذراً في صورة شعيرات بيضاء لمعت في سوائفه وشاربه الذي يعتز به أيما اعتزاز. وتشرتب الأسعار برءوسها في بطء واستمرار فيهنر الباقي من أمنه. على حين تنتشر مظاهر الحضارة واللهو، وتتلاأل الشوارع بالسيقان والأذرع والنحور، ويتدفق المنهل العذب يدعو الشاربين للورود، وتسرع زوجته إلى الكهولة والخراب.
- كان في البيت رجل واحد فأسمى فيه اثنان!  
وتقول امرأته بلحارة لها:
- لو تحققت أمنيته في الصباح لتزوج عليّ قبل مجيء المساء، لا حقق الله أمنيته!  
ويقول له ابنه:
- لم تعد الحياة كما كانت، القروش مثل العصافير سرعان ما تطير...  
ويقول له موظف الوقف الأهلي:
- لا يمكن مواجهة أعباء الحياة بريع بيتك، انزل عن كبريائك وحرر عريضة بطلب شيء من الخيرات...  
وبعد تردد راقته الفكرة. ولما لم يكن يحسن الكتابة فقد تولأها عنه الرجل. وقال له برجاء:
- ربنا أمر بالستر.  
فقال له الموظف:
- سرك في بئر...  
وتزوره مندوبة الوزارة لإجراء التحريات التقليدية. تتفقد البيت وأثاثه القديم وهو يتابعها بكآبة، ثم يقول لها بدافع من كبريائه:
- سلي يا ابنتي عن أصلي في إدارة الأوقاف.  
فتقول له بعدوبة:
- أعرف كل شيء...  
فقال له الموظف:

الديكورات، وبها أثاث يمكن الاحتفاظ به وبيع ما يماثله من أثاثنا مثل حجرة السفرة والمطبخ، ويلزمنا شيء من التنجيد أيضًا، النقود متوفرة والحمد لله، ومما يزيد من مزاياها أنها تقع في شارع داخلي مسفلت ومشجر وهادئ بالقياس إلى الشارع العمومي... .  
واعترت الزوج كآبة فراح يفكر بصوت مرتفع أيضًا:

- بين الجنانين موقع عتيق حقًا ولكن العمارة جديدة نسبيًا، شُيدت منذ خمسين عامًا ومؤكّد أنها تستطيع أن تحافظ على صلاحيتها خمسين عامًا جديدة، الشقة لا ينقصها شيء، شمسها متوفرة وهواؤها طيب، وأهم من ذلك كله يوجد حولنا جيران العمر، أنا رجل عجوز، فراغي طويل، ولولا بقية من أصدقاء ما تحمّلت الحياة، بنتي الوحيدة وزوجها في السعودية، والأقارب لا يتلاقون في هذا الزمان إلا في الجنازات الهامة!

وحدجته بنظرة أطلّ منها العناد والتجهّم وتساءلت:  
- أنضحّي بما أتاح الله لنا من عيشة راضية من أجل مزاجك الشخصي؟  
اشتعلت أعصابه سريعة الاشتعال وقال بمرارة:  
- عنادك يفترس إنسانيتك، قدري حال رجل لم يعد له حظّ من الدنيا إلا نفر من الأصدقاء... .  
- حسبت أنّ لك زوجة أيضًا!  
- طبعًا... طبعًا... ولكن الرجل لا يستغني عن أصدقاء العمرا

- التلفزيون فيه الكفاية ولكنك مدمن سهر.  
- كفي عن العناد وفكري بإنسانية.  
- ففكر أنت بشيء من العقل.  
في البدء كان الحبّ. في الشباب الباكر كان الزواج. هو مهندس ريّ وهي ستّ بيت وحاملة للابتدائية أيضًا. أنجبا ابنة وحيدة، طيبة متزوجة من طبيب ويعملان في السعودية. عبرا سنوات التعارف والتوافق وعثرات الاختلاف في الذوق والعادات بنجاح حتى استقرّا في سكينه الشيوخوخة. رغم ذلك قال لنفسه بقلق «إنّها عنيدة وإذا تسلّطت عليها فكرة انقلبت حجرًا صلدًا لا سبيل إلى التفاهم معه» وقالت

- هذه هي المصيبة.

- تأخذني برتقالة وتعرض عني قشرة.  
- بل قشرة من أول يوم.  
ورقّ الابن لأمّه فاقترح عليها أن تقيم معه بعض الوقت ولكنها قالت له معذرة:

- سيبحث عن خادمة ولا أستبعد أن يتزوجها.  
وتتقدّم الأيام فيكثر كلّ شيء سئّ ويقلّ كلّ شيء حسن. ويتلقّى الرجل أبناء قيام ثورة يوليو وهو يعاني من أوجاعه فلا يثير اهتمامه أيّ حدث عامّ.  
ويتلقّى بعد ذلك أبناء حلّ الوقف وتوزيعه على أصحابه وهو طريح الفراش بصفة نهائية. ويُسرّح بصره في الغيب طويلاً، طويلاً، طويلاً، ثمّ يتمتم:  
- حكمتك يا ربّ... .

## عندما يأتي المساء

تنفجر عواصف الخماسين الغبراء الساخنة في عزّ أيام الربيع. توفيت الستّ الكبيرة عن ثمانين عامًا مخلفة لابنتها فيلاً بالهرم وبضعة آلاف من الأموال السائلة. وكانت الابنة السّنيّة تقضي مع زوجها السبعينيّ الفترة المتبقية من العمر يظللها الوفاق والمهدوء واليسر. وحرّكت الثروة الطارئة الطموح إلى حياة جديدة، فقالت الزوجة:

- نستطيع الآن أن نعيش في فيلاً جميلة بالهرم، وأن نغادر هذا الشارع الكئيب.

فتجلّت في عينيّ الزوج نظرة فاترة وغمغم:  
- الهرم!

ثمّ واصل:

- شقّتنا مريحة، عشرة عمر طويل، بدأ بشهر العسل، وجميع المعارف والأحباب حولنا... .  
فقالت بازدياء:

- لو تكن جنة لحقّ لنا أن نملّها... .

ولم تأخذ معارضته مأخذ الجدّ وراحت تفكر بصوت مرتفع:

- الفيلاً تحتاج لتجديدات بسيطة، وشيء من

## التنظيم السري ٧٣٩

- لنفسها «إنه طفل مدلل عصبي ويبع بالدنيا مزاجه». وشرعت في تجديد الفيلا فانقبض صدره وغشيته سحب المخاوف. وقال لها:
- أجريها مفروشة تدرّ عليك الشيء الفلاقي.
- ولكنها قالت بإصرار:
- ما حاجتنا إلى النقود في هذه السن؟ ولا ابنتنا في حاجة إليها، ولكن من حقنا أن ننعّم بشيء من الراحة والجمال وحسن الختام.
- وأصحابي؟ تذكّري أزمة المواصلات، الانتقال معناه العزلة، وفي العزلة قضاء عليّ!
- ربّنا يكملك بالعقل وسداد الرأي.
- لم يعيش هواية مما تثيري الفراغ. ترك لتيار الزمن بلا طوق نجاة. يستيقظ من نومه حوالى الظهر ويتنظر المساء. تديّنه صادق وبسيط ولا يشغل له بالأ. يهرع مع الليل إلى منظر صديق على المعاش كان معلّم لغة عربيّة، يملك بيتاً صغيراً ذا حديقة صغيرة، ويوافيها ضابط جيش عجوز على المعاش أيضاً وصيديّ قبطنيّ اعترل العمل. يتسامرون، يلعبون النرد، يجتسون الشاي أو المرطبات تبعاً للفصول، يدخّنون، ثم يفترقون عند اقتراب الفجر إلى مساكنهم المتقاربة في بين الجنين. في الزمان الأوّل كانت البيوت تطلّ على الحقول والحدائق وتعقب بشذا الحناء وتغوص في الهدوء. اليوم اكتظت بالبيوت والسكّان، والخرائب الموقوفة التي انقلبت أسواقاً لتجارة الخردة وقطع الغيار القديمة، وازدحم الطريق بالصبيّة وصار نادياً أهلياً للعب الكرة، ولكنّ القلب ما زال يجد سلواه في المناجاة والسمر. ماذا يتبقّى له في الحياة إذا حُرم من هذه السلوى الباقية؟! وقال لها أخيراً بنبرة حاسمة:
- لن أغادر هذه الشقة إلا إلى القبر.
- فقال بحق:
- إذا تمّ إعداد الفيلا فلن أبقى هنا لحظة واحدة. فارتفع صوته وهو يقول:
- أنت امرأة عنيدة بلا قلب.
- فهتفت:
- أنت أنانيّ لا يحمك إلا مزاجك.
- لي عليك حقّ الطاعة.
- الطاعة من حقّ العاقل.
- قلّة أدب.
- أنا بنت ناس علّموا الناس الأدب.
- لي الجنّة على احتمال عشرتك.
- الحقّ أنّي أنا الشهيدة، لولا صبري لعشت طيلة عمرك وحيداً... .
- أنا؟!
- نعم... آه لو أفرغ قلبي ما فيه!
- جنس جاحد حقيقة.
- أجري على يد الله وحده، هل نسيت افتتاح سلوكك عام ١٩٢٦!
- ١٩٢٦! يا لطف الله! إنّي لا أتذكّر ما يقع بالأمس... .
- ولكنني لا أنسى، ولا أنسى فجورك وأنت مفتش ريّ بكفر الشيخ في ١٩٣٠!
- حقاً إنك ذاكرة مذهلة لحفظ أبناء السوء وتنسين ما عدا ذلك، نسيت على سبيل المثال أنّي ضحيت بأجل عروس من أجلك... .
- بل سال لعابك دائماً طمعاً في مساعدات بابا الله يرحمه... أنانيّ ونفسيّ!
- قذارة وقلّة أدب.
- اخرس!
- وانتفض واقفاً ووجهه يموج بالغضب فانتصب عنقها في تحدّ رغم توقعها عدواناً قياساً على مرّات متباعدة لا تستطيع أن تنساها أبداً. غير أنه كظم غيظه وقال وهو يغادر الحجرة:
- ليكن في علمك أنّ مغادرة الشقة تعني الطلاق. فصرخت:
- إنّي أرهب به وإن جاء متأخراً.
- وعلى أثر رسالتين تلقتهما من الأمّ والأب حضرت الابنة من السعودية دون إبطاء. انفردت بالأمّ محاولة إقناعها ففشلت. ولم تكن أكثر توفيقاً مع أبيها. وجمعت بينها وقالت:
- من المبكي والمضحك معاً أن يجري للطلاق ذكر بينكما في هذه المرحلة من العمر، فليغفر الله لكما هذه السقطلة اللسانية الشنيعة... .

ونقلت بينها عينًا حزينة وواصلت:  
 - انتقلي يا ماما إلى الفيلا وابقِ يا بابا في الشقة،  
 وأجلا قراركما الأخير للزمن والوحدة...  
 وشملهم صمت ثقيل خففته بدعايات متكلفة  
 صدرت عن نفس مليئة بالشجن ثم ودعتها راجعة إلى  
 مقر عملها وقد اقتنع كل طرف بأنها منحازة إليه في  
 أعماقها وإن أبت أن تعلن رأيها مجاملة للطرف الآخر.  
 ووقع الانفصال مرمقًا لأول مرة وحدة حياة مشتركة  
 طويلة العمر. انتقلت الزوجة لتستقبل حياة أنيقة ثرية  
 مترعة بالوحشة. ولبت الزوج في شقة مقفرة عارية  
 الحجرات إلا حجرة نومه المكوّنة من فراش مفرد  
 وصوان قديم وكليم صغير، واقتصر المطبخ على  
 الأوعية والأواني الضرورية وموقد بوتاجاز صغير ومائدة  
 ذات مقعد وحيد وفرجيدير لحفظ الطعام. وتم الاتفاق  
 على أن تجهز له طعامه الأسبوعي طاهية الأسرة في يوم  
 معين على أن يقوم هو بإعداد الوجبات وغسل الأواني.  
 وكان ينام نهاره كله هربًا من وحدته ويتنظر على لهف  
 ميعاد السهرة التي يمارس فيها حياته الحقيقية. وحاول  
 الأصدقاء أن يجدوا للمشكلة حلًا آخر ولكنّه قال:  
 - لا تشغلوا بالكم يا جماعة، المهم أن تسعفني  
 الصحة حتى النهاية...  
 واعتبرت الزوجة أن كل يوم يفوت من غير أن يقرّر  
 بخطئه إهانة متجددة لكرامتها وجرحًا يغوص في  
 كبريائها. ويشتدّ حقدًا وغضبها. وتعالج الوقت  
 الطويل الملقى عليها بزيارة الأقارب لتشرجه بلا رحمة  
 وفضح ما خفي من مساوئه. ويبلغه ذلك فيردّ اللطمة  
 بعشر أمثالها حتى تجسدت حياتها المشتركة في صورة  
 سوداء تثير الفزع. وجرى الزمن والخصام يزداد سوءًا  
 وفضاعة. وانعقدت السهرة ذات ليلة وهو غائب على  
 غير عادة، ولكنّه جاء متأخرًا عن مواعده وهم  
 يتجادبون القلق والظنون. وقال كالمعتد:  
 - شعرت بوعكة مما يطراً في تغير الفصول.  
 وكانت الوحدة التي يعيش مهملاً في طياتها تحزنهم  
 فأقبلوا يناقشونها بجديّة:  
 - لا تأمن للحاضر وعليك أن تفكر في المستقبل.  
 فقال بهدوء وهو يداري ضيقه:

- فعلت ذلك كثيرًا  
 - وكيف انتهيت؟  
 - قرّرت أن أكفّ عن التفكير...  
 وضحك ثم واصل:  
 - أعرف ما يقلقكم، ماذا أفعل لو أقعدني المرض  
 أو حضرتي الموت! سأكون سعيدًا إذا قدّر لي موت  
 خاطف، وإن تكن الأخرى فيما جدوى التفكير إلا  
 مكابدة الهمّ قبل وقوعه...  
 - ولكن لكلّ مشكلة حلّ.  
 فهتف:  
 - فات أوان الوفاق، ثمّ إنتها عنيدة، والاستسلام  
 يعني بالنسبة لي انتحارًا بطيئًا...  
 وضحك عاليًا وقال:  
 - إذا حمّ القضاء وجدني الموت وحيدًا لا مفرّ، وما  
 عليكم إذا تخلفت ليلة ولم يُفتح بابي إلا أن تتخذوا  
 الإجراءات المألوفة، وأسف مقدّمًا على إزعاجكم...

## تحت السمع والبصر

حقًا أنّ الشارع خالٍ أو شبه خالٍ فيما يبدو ولكن  
 لا يخلو شارع من آدميين. إنّه شارع جانبيّ يوصل بين  
 طريقين عموميين. وهو سكتيّ لا توجد به إلا دكّان  
 كوّاء. مع هبوط المساء من فوق رموس الأشجار على  
 الجانبين أغلقه صاحبه وذهب. سبحت أضواء  
 مصباحين في أول الطريق وآخره في العتمة المتزايدة  
 فأضفت على الجوّ لونًا غامضًا بين النور والظلام.  
 واستقرت سيارتان متباعدتان في موقفيهما بحذاء الطوار  
 مسربتين بغطاءين من المشمع الرماديّ، وانتظرت بقية  
 الفراغات السيارات القادمة. وخيم على الشارع هدوء  
 خامل جدير بمعبر نادر الرّواد وأضاءت نوافذ المساكن  
 بالأنوار وهي مفتوحة لتلقّي نسائم الربيع... من  
 أجل ذلك انتشرت أصوات تلك المشاجرة الزوجية من  
 إحدى النوافذ فبلغت النوافذ القريبة وتمادت في ذبوعها  
 حتى كدّرت هدوء الشارع. أنت وحش. أنت مجنونة.  
 لن أبقى في هذا البيت ساعة أخرى. مجنونة، في يدي



## التنظيم السري ٧٤١

الدليل، مصيرك المحتوم مستشفى الأمراض العقلية. مصير أمك وأخواتك. تحطمين تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيهًا! سأشعل النار في هذا البيت العفن. ويعلو الصراخ مختلطًا بصوت هادر ومزيد من طقطقة التحطيم مصحوبة بعويل أطفال. ومرّ عابر بالشارع فتوقف قليلاً تحت النافذة ثم ضحك طويلاً وواصل سيره. وتجلّت أشباح آدميين في النوافذ القريبة. ولما استمرت المعركة نوقشت على نطاق واسع. خناقة حامية. ليست الأولى. لكنّها الأضعف. ألا يمكن عمل شيء؟ مثل ماذا؟ أنتدخّل مثلًا؟ لكننا لا نعرفهم، نتقابل أحيانًا في مدخل العمارة فلا تبادل تحية. الواجب. قد يسوءهم ذلك. لن تنتهي الليلة على خير. ربنا موجود. الرجل مجنون وبريق عينيه المخيف لا يُنسى. لا تبالغي هي أيضًا لها حركات عصبية مريبة. هو السبب هذا واضح. أو العكس تمامًا وهو ما أعتقد. لكلّ رجل شيطانه. ولكلّ امرأة. الرجال ظالمون بالفطرة. ما هم إلا ضحايا. ضحايا! الله شهيد. معركة غير متكافئة وسيقع أذى لا شك فيه. حطمت في غضبها تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيهًا. من عذابها. أو جنونها. من أدراك أنت؟ أهذه حنجرة امرأة عاقلة؟! أفقدتها وعيها. المعركة تشتدّ ولا أحد يبالي بالأطفال. أمه وأخواته وراء ذلك كلّ. لا، المسألة أخطر من ذلك، فتشي عن الميزانية. يرى كثيرًا وهو يشتري الخمر. هي أيضًا متبرجة أكثر من اللازم. ألا ترى أنّ المعركة لا تقف عند حدّ؟ أجل اشتدّ النزاع وارتفعت الأصوات أكثر وتوكّد أنّ الليلة لن تمرّ بسلام. اترك ذراعي يا مجرم. مجنونة لا تحسب حسابًا للفضيحة. دعني أطلب النجدة. إذن أطلب مستشفى الأمراض العقلية. تضربني! استدفع ثمن اللطمة غالبًا. وينفجر صوت غيغ ثم ينكمم الصوت تحت ضغط راحة يد فيها بدا. ولأول مرة تجيء فترة سكون عدا عويل الأطفال وتمتدّ دقائق وإذا بالصوت يهبط إلى الشارع. شبح المرأة يغادر باب العمارة مهرولاً نحو الطوار الآخر. تتبعها الأعين على ضوء المصباح البعيد. هربت من البيت. لعلة الحلّ الوحيد. بملابس البيت وغالبًا لا تملك مليًا. ترى أين يقيم أهلها؟ هل

تركها في الطريق؟ لو أويناها لوجدنا أنفسنا طرفًا في المعركة. كيف تصرف المسكينة؟ تستقلّ تاكسي وهناك ستجد من يؤدي عنها الأجرة. لم يتحرك أحد لنجدها. مرة رجل تدخّل بحسن نية فاتهمه الزوج ووقع في مصيبة. يا لها من دنيا مخيفة! ما باليد حيلة. وقبل أن تبلغ المرأة منتصف الشارع اندفع شبح الزوج من باب العمارة فاشتعل الاهتمام لأقصى حدّ. جرى نحو المرأة حتّى أمسك بها. تراءت وهي تقاومه وتراءى وهو يجذبها بشدة. صرخت مستغيثة بالناس فاشتدّ في جذبها، وبلغ الصراع أعنف أحواله. ويمرّ عابر جديد للشارع فيقف على مبعده ويهتف:

- كفى هذا لا يليق.

فصاح به الزوج:

- ابعد وإلا حطمت رأسك.

يتعد الرجل خطوات، يتردّد قليلاً ثم يمضي في طريقه.

وتنطلق من حنجرة الزوج صرخة كالعواء:

- تعصّيني يا كلبة... سأقتلك.

ويركلها ركلة حانقة غاضبة متأججة بالرغبة في الانتقام فتقع المرأة متلوية صارخة. ولم يقنع الرجل بذلك فما زال أله الحادّ يستفزّه إلى المزيد فعدا نحو العمارة صائحًا:

- سأذبحك عليك اللعنة، وعلى الدنيا ألف لعنة. وسرى الرعب في المطلقين من النوافذ. ركلها ركلة قاتلة. ولكنّه جنّ وسيرجع بسكين مجهز بها عليها. لا، مجرد كلام. نطلب النجدة. سنصبح أسرى إجراءات معقّدة حتّى يصدر الحكم. لا بدّ من طلب النجدة. سيصدق علينا المثل القائل خيرًا تفعل شرًا تلقى. هل نتركها ملقاة حتّى تُذبح؟ لن يحدث شيء، هي عضته وهو ركلها وانتهى الأمر. نذهب إليها فقد تكون في حاجة إلى إسعاف. ليس الآن فقد يرجع المجنون! وأصرّ رجل في العمارة المقابلة على الطوار الآخر على طلب النجدة. وطلبها بالفعل وحثها على الإسراع وسُئل عن اسمه ورقم تليفونه، وهمس لزوجها بذلك فحذّرت العواقب فأغلق السكّة. أمّا الزوجة فمضت تزحف على أربع وتثنّ وتستغيث وقد بُحّ صوتها.

## آخِرُ اللَّيْلِ

غادر الجحيم عند منتصف الليل. جميع أنوار الشارع المستقيم والشوارع المتقاطعة تنصهر في باطنه، تنفجر في نافورة من الأضواء المتضاربة، وأعلى العماير يتراقص. لا ملمح هداية يستدلّ به في خط سيره، ولا علامة يسترشد بها، فرّ الجميع وتلاشوا. السيّارات تقلّ بعض الشيء، الأدميون لا ينتهون. يترك نفسه لقدميه، كما اعتاد أن يعتمد عليهما في الملمات، ومن تقدمه قدماه فلا يضلّ. ثمّة قصّة عن حمار مرموق ولكن ما هي؟ ها هو زجلّ قادم من الناحية الأخرى، سيرتطم به إذا سار في خطّ مستقيم. لكنّ القادم يتنبه إليه، ينحرف، لا شبرًا أو شبرين، ولكن إلى وسط الشارع كأنّما يهرب. الجبان. تضاعف شعوره بقوّته الكامنة ودار رأسه تيهاً. ولم يعد يقلق لنسيان قصّة الحمار المرموق. واصل سيره يخوض الليل والأنوار، يعرض عن أبواب المحالّ المغلقة، ويتجاهل المازّة. ووجد نفسه أمام مطعم «الرائد» فانطلق داخله حتى وقف أمام طاولة صاحبه الذي رمقه بنظرة حذرة:

- الدنيا صغيرة رغم ما يقال عنها، أنا قادم إليك من آخر الدنيا.

فهزّ الرجل رأسه متمجّباً:

- لن أوصيك فلس في حاجة إلى توصية، وأنت العليم بالزبائن، وعارف طلبي، تشكيلة محترمة من الكباب والكفتة والطرب مع كافّة السلطات والمخلّلات، سخن العيش، ولا تنسّ الحلوى، هل يطول الانتظار؟

فقال المعلم:

- بل نرسلها إلى البيت كالعادة.

- تشكر.

ودسّ يده في جيبه ولكنّ الآخر عاجله قائلاً:

- سنرسل الفاتورة مع الطعام.

فرجع يده تحيّة ثمّ ذهب. رجع إلى خوض الليل والأنوار وتجاهل المازّة. وعاد يحاول تذكّر قصّة الحمار المرموق. حتى وجد نفسه أمام محلّ «الكبير» الحلوانيّ

وهرع نحوها عابر جديد فانحنى فوقها وحاول مساعدتها على القيام وهو يتساءل عمّا حلّ بها. وعند ذلك ظهر الزوج مرّة أخرى وانقضّ نحو المرأة رافعاً يده بالسكّين. رآه الرجل الذي خفّ لمساعدة الزوجة ففزع من منظره وفزع أكثر لما رأى السكّين في يده. تراجع مهزولاً وهو يهتف:

- اعقل... ستلقي بنفسك إلى الهلاك.

ولكنّ الجنون كان قد تسلّط تماماً على وعي الزوج وأصدر قراره بالخراب الشامل. هوت يده بالسكّين في الرقبة فغاصت فيها حتى مقبضها منتزعة صرخة غليظة يائسة ذات نبرة عدميّة، مصحوبة بحركة عنيفة نهائية لا أمل بعدها. ورغم أنّه كان يلهث إلا أنّه وقف في غاية من الهدوء والاستسلام والبلادة والزهد ملقياً بكلّ شيء وراء ظهره. صوّت امرأة في النافذة. سقطت أخرى مغمى عليها. اشتدّت توثر الأعصاب. لا بدّ من الاتصال بالنجدة. ما الفائدة؟ ستجيء عاجلاً أو آجلاً. لعله ما زال يوجد أمل في إنقاذها. هيهات! إتهم بحقّون مع الشهود كما لو كانوا متهمين. وربّما وجدت نفسك متورطاً في خطأ لا يفطن إليه إلا رجال القانون. مهما يكن من أمر فعلينا أن نترف بأنّ موقفنا شاذّ وأنّه لا يصلّق. عندي أمثلة بالعشرات تشهد بحماقة من يحشرون أنفسهم في مثل هذا الأمر. الحقّ أنّنا أخطأنا ولا عذر لنا. ما جدوى الكلام، ضاعت الست. وضاع الرجل. وضاع الأطفال. وربّما لم تُعفّ بعد ذلك كلّ من الاستجواب. وقد حصل فتحققت مخاوفهم. وأدلى كلّ بشهادته منتحلاً لنفسه شئّ المعاذير، فمن كان يظنّ أنّ خلافاً زوجياً يفضي إلى تلك النهاية؟ ومن يجرؤ على التعرّض لقاتل تلبّسته حال جنونيّة؟ وكلّهم أنكروا واقعة الاتصال بالنجدة، وأكثر من واحد قال إنّه القدر وإنّ الحذر لا ينتج من القدر.

ويحكى الضابط الحادثة في مجالسه ويقول بمرارة:

- كان من الممكن إنقاذ المرأة والرجل ولكنّ ذلك

ما حدث دون زيادة!

## التنظيم السري ٧٤٣

- نقدّم لك كأسًا؟  
فقال باستعلاء:  
- لا أسمح لقدارة بالدخول في معدتي، ولكنّي  
سأهنتك قريبًا بوكالة الوزارة!  
- ربّنا يسمع منك!  
وسأله آخر:  
- أصحح ما يقال؟  
- وما هو؟  
- أنّه عُرضت عليك وزارة الصناعة فرفضتها؟  
فقال بإباء:  
- لست تمّن يبيعون أنفسهم عند أوّل طلب!  
- حتّى ستقبلها في ظروف أفضل؟  
- وعند ذلك تمنا البلد قبل أن أهنأ أنا.  
- رَجُل ولا كَلّ الرجال...  
- أنتم مدعوون عندي لقضاء سهرة رأس السنة.  
- وستكون ليلة ولا كَلّ الليالي.  
وغادر الحانة إلى عالم التيه. ومرة أخرى ذكر الرجل  
الذي صاحبه يومًا مثل ظلّه. من الجحود ألا يزوره  
ليعزّيه بكلمتين. إنّ موقفك يوم عزمت على أن تلتطخ  
غورورهم بالعار موقف لا يُسى. خلعت البدلة يا بطل  
واستبدلت بها جلبابًا أزرق. واقتنيت عربية يد  
وسرحت ببطّيح في مجاهم الحيويّ وعلى مرأى من  
الذاهب والجائي. وارتعدت منهم المفاصل وساقوا  
عليك الأهل والأصدقاء ولكنك صمدت صمود  
الأبطال. واضطّروا في النهاية أن يتجاهلوك متظاهرين  
باللامبالاة فتأديت في التحديّ، وقضيت لياليك في  
غرز عرب المحمّدي. يا فارس الفرسان وضارب  
الدنيا بنعلك. وحتّى يتاح لي لقاءك تقبّل على البعد  
إعجابي وتقديري. أمّا أنت يا نوسة، يا سلية  
الشرف، وكنز الجلال والفتنة فحسبنا تعذيبًا لأنفسنا.  
الدلال له حدّ أو هذا ما ينبغي له. اخترت من بين  
آلاف من كرميات الأسر العريقة. ولم أختك للأسباب  
التي يجري وراءها الجشعون، لا لأصلك الطيب، أو  
أخلاقك الكريمة، أو تعليمك الراقى، ولكنّي اخترتك  
من أجل الحقيقة السافرة، عينيك اللوزيتين السوداوين  
بكحلّهما الرّبانيّ، وصدرك الملهم، وخلفيتك التي تجلّ

المعروف، فاندفع حتّى وقف أمام صاحبه:  
- الدنيا صغيرة رغم ما يُقال عنها.  
فقال الرجل باسمًا:  
- وأنت قادم من آخر الدنيا.  
- عمرك أطول من عمري.  
- أعرف المطلوب، تشكيلة من البسبوسة والكنافة  
والبقلاوة بأنواعها المختلفة.  
- كبير ابن كبير.  
- وستسبّك إلى البيت مع الفاتورة.  
فرفع يديه شاكرًا ومضى إلى العالم الآخر في  
النعاس. واقتحمته ذكرى عزيزة جدًّا. ذكرى ذلك  
الرجل الذي صاحبه يومًا مثل ظلّه. شدّ ما يستحقّ  
الثناء بحكايته الغريبة. وخلّيق به أن يقول له شدّ  
حيلك واضرب الدنيا بالمركوب فهي دنيا لا تستأهل  
إلا ضرب النعال. هو ثالث ثلاثة أشقاء وأصغرهم.  
نعم أصغرهم يا عزيزي فاشترك الآخران في تدليلك  
فترة من الزمن ولو على سبيل المجارة ومدارة الغيرة  
المتأصلة. وشاء الحظّ وهو كلّ شيء في الدنيا أن يوقفا  
في المدارس فيصير الأكبر وكيل وزارة الماليّة والأوسط  
كبير مفتّشي الرّيّ، على حين أب الحظّ أن تحظى بأيّ  
قدر من التوفيق، فحتّى الحظّ لم تفكّه. ولكن ما قيمة  
ذلك لشخص قدّر له أن يملك بالوراثة مائة فدّان؟!  
وملكتها يا عزيزي، ورحت تستمتع بها، وتغدق في  
الوقت نفسه على مساكين الأصدقاء وما أكثرهم،  
فأنهالت عليك الاتهامات لا أوّل لها ولا آخر، ورُميت  
فيما رُميت به بالسفه، واستصدروا عليك حكمًا  
بالحجر. سرقوك الشياطين، وقترّوا عليك الرزق حتّى  
انسدّت في وجهك الطرق، ولم يكن عجيبيًا بعد ذلك  
أن تقسم لتجلبنّ عليهم الفضيحة والعار.  
ووجد نفسه أمام حانة إيديال.  
هشّ وبشّ واقتحم ستارها المسدل ذا الخيوط  
الخرزيّة البيضاء. رأى الفرسان في الركن الأيمن حول  
الكتوس. وجوا لحظة وهم ينظرون، فقال ليذهب  
عنهم الروعة:  
- لا ترتاعوا.. أخوكم من طين مثلكم!  
فغلبهم الضحك وقال أحدهم:

## القتل والضحك

ما أكثر الراحلين! أدهش وأتخبر كلما طافت أشباحهم بذاكري. أسباب متنوعة، متضاربة، وأحياناً متناقضة، ولكنّها تفضي إلى نهاية واحدة. ويطاردني حلم ثابت. يلح عليّ في أوقات الفراغ وما أطولها. حلم خليق بصاحب ثأر تحلّى عن إنجاز مهمته. وهو لا يفارقني حتّى في ذلك البيت الخلوّي الذي صادفته ذات يوم ناشداً النسيان ساعة أو بعض ساعة. أجلس إلى جانب المعلّمة المتربّعة فوق كنيّة تركيّة مثل قاعدة تمثال - ضمن زوار - وأنفصّح بعناية المكان ومعرضاته. أتصفّح الوجوه البيضاء والسمراء والسوداء، البدينة والملفوفة والنحيلة، وهنّ جميعاً على أتمّ الاستعداد. على مألوف التقاليد بتقديم الشراب فتنهش المعلّمة وتثني على الأصل الطيب قائلة إنّ جلّ زبائنها يجيئون عادة من بين الصفوة. والشهادة لله أنّ المكان أنيق والأثاث كريم والنظافة متألّقة ورائحة البخور مخدّرة مقدّسة، أمّا السيّدة اللحيمة فتباهي قبل كلّ شيء بالأمن والأمان. وأظنّني الحلم القديم بجناح يقطر دماً، وبهمسات داعية للخير والفلاح. ووقع الاختيار على بيضاء نحيلة لا حول لها فقلت للمعلّمة «الحمراء»، أي ذات الفستان الأحمر. سرعان ما صرنا وحدنا في الحجرة الصغيرة الكاملة فراحت تتجرّد من فستانها وقميصها وتستلقي في تسليم وسلامة. اقتربت من الفراش بكامل ملابسني يقودني الحلم القديم. أعابث الخدّ والعنق وأغوص في اللحظة الحاسمة. وبسرعة أطوّق العنق الرقيق الطويل بقبضتي وأشدّ عليه بكلّ ما أوتيت من قوّة. غير متأثر بمقاومة يديها وعنف ركلات قدميها في الهواء واستغاثت عينيها الجاحظتين اليائسة الملهوفة على النجاة. ولم أفكّ قبضتي حتّى سكن كلّ شيء سكون الموت. وأقف وأنظر وقلبي يلهث في دقات متتابعة. وأرى الموت وهو يضع قناعه فوق الوجود المتهالك ويرسم على صفحته النائية آي البعد واللامبالاة. وأفكر في النجاة مؤجّلاً ما عداه. دون عجلة كيلا أثير التساؤل. ونظرت إلى

عن الوصف. ما يجوز أن نفترق بعد اليوم دقيقة واحدة يا زينة نساء الأرض. ضاع ممّا وقت طويل بلا طائل، وضياعه كفر بالنعمة، إني قادم يا نوسة، فارجمي إلى قسمتك ونصيبك فإنّ جميع طلباتك مستجابة. سرّ المأساة كلّها في كلمة أتني ولدت في عصر يتشرّد فيه الملوك في بلاد الغربية، كالمسؤولين بعد أن خلّفوا عروشهم وراءهم بيد السوق، ثمّ إنهم بعد ذلك لا يأمنون الغدر ولا ينجون من المؤامرات. بذلك تنبأ قارئ الكفّ ولكنّي لم أخذه مأخذ الجدّ في وقته، وتركت الزمن يجري كيف شاء حتّى استحکم الحصار. وقادته قدماء في تجواله إلى البنك الأهليّ الغارق في نومهم مسدل الأجناف. لعله من الحكمة أن يسحب من حسابيه بعض المال ليواجه نفقاته الكثيرة ولكنّه لا يستطيع أن ينتظر حتّى الصباح. وخيّل إليه أنّه أصبح على حال تمكّنه من الاهتداء إلى منزله العامر، وأنّ هيئة الأشياء آخذة في التغيّر رويداً رويداً، وأنّ رأسه يتغيّر أيضاً. حتّى المشي لم يعد مستساغاً إلى غير ما نهاية وأنّ جسمه يطالب بحظّه من الراحة. ألعن الساعات ساعة تعرف فيها من تكون وكم يتبقّى من الزمن، وتعرف أيضاً أنّ الوقت صيف وأنّ الجوّ عدوّ الإنسان، وأنّه يرغب على التسليم دون شرط. ها هو النيل يجري في حال من الكآبة والاستسلام بعد أن كُبل بالأغلال وأذعن لمشيئة البشر. وتحت الكوبري توجد أريكة من الصوان خالية لم يشغلها صعلوك من صعاليك الليل بعد. تمسّسها براحتيه، ومضى إلى شاطئ النيل فعبّر الحاجز الحجريّ ثمّ انحدر نحو الماء. خلع جلبابه مبهم اللون وعلّقه بفرع شجرة فبدأ عارياً كما ولدته أمّه. وراح يغوص في الماء حتّى غمر صدره ليزيل عن جسده الحرارة والعرق في تلك الساعة من الليل. وغنّى بصوت كالحوار «البحر بيضحك لي»، وغسل وجهه ورأسه الأصلع ثمّ صعد راجعاً إلى الطوار آخذاً جلبابه بيده. وانتظر حتّى جفّ جلده وارتدى الجلباب، واستلقى فوق الأريكة. وما لبث أن تلاشى في الغيب فتصاعد شخيره مثل نقيق الضفدع. . .

## التنظيم السري ٧٤٥

غداي في البلديير مع مزيد من البيرة والنشوة. وعند هبوط العتمة مضيت في تاكسي إلى الشارع، ونفحصت البيت وأنا أمر به. وجدته مسربلاً في هدوئه ورأيت النور يشع في نافذتين، وكأنا يواصل تقديم خدماته اليومية. ولم يكدر صفوي في الليلة التالية إلا أنني رأيت في نومي استغاثة الفتاة البائسة وهي تفرح في الانكسار بين قبضتي. ولكن ذلك كان أهون ما توقعت. وتساءلت عن مستقرها الأخير، أكون قمر النيل أم مفازة في الصحراء، أم مدفناً في باطن حديقة البيت الخلفية؟ سيشارك الجميع في جريمة الإخفاء بدافع الرغبة في النجاة والدفاع عن لقمة العيش، وأفسطع من ذلك ينسى في وقت أقصر من ذلك. وأنصفح الجرائد بعناية دون العثور على ما يكدر الطمأنينة. رغم ذلك لم يغب عن وجداني ما حصل دقيقة واحدة. إنه حي بكل تفاصيله هناك. وهو يزعجني أيما إزعاج. ولذلك تخبط لي أفكار جنونية لا تهدف التنفيذ ولكن حباً في استعراضها ليس إلا، كان أبعث برسالة من مجهول إلى قسم الشرطة. ولكنني وجدت وسيلة للترويج عن النفس مأمونة العواقب في مقهى «العائلات» حيث تجمعني الأماسي ببعض الصحاب. رويت لهم تفاصيل الجريمة باعتبارها من بنات الخيال واستطلعت تصوراتهم عما يمكن أن يحدث. أجمعوا على أن مصلحة الجميع تقتضي إخفاء آثارها، غير أن أحدهم قال:

- ويُعثر على الجثة ولو بعد حين، وربما بمصادفة لا تجري على بال، ثم يُنتزع القاتل من مكمته الأمن... ضايقتي ذلك بطبيعة الحال. وخفت أن يتلاشى الأمل - بارتكاب الجريمة - في حياة أشد معاناة. وما الحيلة وكلما نظر نحوي رجل توهمت أنه كان هناك تلك الليلة؟ أو كلما سمعت وقع قدم ورائي تصورت أن أحدهم يتبعني؟! وضاعف صاحبي من كرب عند قال لي:

- أتذكر جريمتك الخيالية؟... حكيته لصديق خرج تلفزيوني فأنارت خياله وقرر أن يجعل منها نواة فيلمه القادم. ضايقتي ذلك، وأيسني بصفة قاطعة من النسيان.

نفسى في مرآة صغيرة في موضع عاكس للفرش والجلثة. وأجهضت قشعريرة اقتحمتني بقوة غير حميدة. وقلت لنفسي معزياً ومشجعاً «أديت ما كان علي أن أؤديه». ها أنا أمضي نحو الباب. أفتحه، أتركه موارباً زيادة في إبعاد الشبهات، وأسير متمهلاً نحو الباب الخارجي متجاهلاً المكان والحاضرين. وعندما أنتهي إلى الطريق النائم في ليل الصيف أحت الخطى مدفوعاً برغبة طارئة في الهرب نحو الشارع الرئيسي. وأبلغ بنسيون ليذا وسط المدينة في المزيج الأخير من الليل. أتناول حبة منوم لا أتعامل معه عادة إلا عند الشدائد. صحوت من نومي قبيل الظهر مشتعل الرأس بالكسل والذكريات. طلبت الإفطار ولكنني حسوت الشاي وحده وأنا أقول لنفسي أنت من الآن فصاعداً قاتل جاري البحث عنه. ترى هل أحل مشكلتي بقوة الإرادة أو أنني أسير من سبي إلى أسوأ؟ وماذا عن حياتي الجديرة بالتأمل في هذه الساعة الفاصلة الدامية؟ قرود أجد للخيال ولكنه يتعيش من السمسة، معارفه بلا حصر ولا صديق له، يمقت فكرة الزواج والإنجاب. وذهبت إلى البلديير بالهرم لأنفرد بنفسي وأفكر. جو لطيف في أواخر الربيع والجلوس يجلو في حديقة النخيل وأصص القرنفل. غالباً لم يعرفني أحد من الزبائن المعدودين. هناك لا يسأل أحد عن هويته ولكن حتماً ستحصر التهمة في جريمة يود الجميع أن تندثر وتختفي. أرفع قدح البيرة وأتخيل ما حدث. المعلمة تتساءل عما أحر البنث عن الرجوع إلى الصالة. ترسل في طلبها. إما تفضح صرخة فزع الجريمة وإما يُحبس الفزع في الصدور ويُدفن السر في بئر. في الحال الأولى ينفض السامر في عجلة وهوجة ويفر كل إلى حال سبيله. في الحال الثانية يتواصل العمل في أمان. وفي الحالين تفكر المعلمة كيف تخفي الجثة وتحمي نفسها وعملها من قبضة القانون. الجميع الآن يعملون على طمس أي أثر يمكن أن يؤدي إلي، يتمنون لي السلامة ضماناً لسلامتهم وسمعتهم. أستطيع أن أهددهم وهم لا يستطيعون. لكن هل تنجح المعلمة في إخفاء معالم الجريمة؟ ألا ينسرب إليها الخطر من منفذ لم يجز لحذرها في خاطر؟ تناولت

وواجهات المحال والمباني، أنصفحها بعناية عالم مكلف بوصفها وتحليلها.

وجدتني وجهاً لوجه مع المعلمة في بقالة السعادة بشارع البستان. رغم السيادة والخبرة والدهاء شحب لونها وانهمزت أمام خوف جاثم. تجاهلتي فخايتها الاضطراب غير أنه لم يلمس هزيمتها سواي. ولما انتهينا من التسوق وقفنا أمام الدكان متقاربين فقالت همساً:

- ها أنت حقيقة لا خيال.

نظرت نحوها كالمنكر فتساءلت:

- لم فعلت فعلتك المنكرة؟

تساءلت كالدهاش:

- حضرتك تكلميني؟

فمضت عني وهي تقول:

- منك لله!

كدت أضحك، وغمرني إحساس بالأمان، بل فكرت في تكرار التجربة في بيت جديد. غير أنه كان إحساساً عابراً. وارتددت إلى الملاحظة والغوص في صميم الأشياء. وفي أوقات الفراغ أتذكر قول المخرج «الفروض لا حصر لها». هذه هي الحقيقة الغائبة عن ملاحظتي، ولكنها تتضارب في عقل أو أكثر ليل نهار. يوجد فاعل أصلي هو أنا، وشركاء هم المعلمة ومن ساعدها على إخفاء الجريمة وتوجد الضحية أيضاً. لا يمكن أن تبقى هذه الأشلاء مبعثرة إلى الأبد. وغير محتمل أن أظل منفرداً بنفسى بلا نهاية. وقمت بزيارة غير متوقعة للمخرج في مكتبه. استقبلني بابتسامة عريضة قائلاً:

- حلّت المشكلات كلها تقريباً...

فأعلنت رضاي متمتاً:

- مبارك!

- وجدنا الخطة المحكمة، اكتشفت الجثة وقُبض على المعلمة، وقرأ القاتل قصته خبراً في الجرائد فقرّر الانتحار، ترى ما رأيك في أفضل وسيلة للانتحار؟

فاشعر بدني وتساءلت:

- ماذا تقصد؟

- نحن أمام عدّة اختيارات، ضع نفسك في مكانه فهاذا كنت تختار؟

وضايقتي أكثر أن جاء المخرج مع صاحبي ذات مساء للمناقشة. قال:

- أنت صاحب الفكرة وتستحقّ مكافأة رمزية، هل تستطيع أن تصيغها في قصة؟

فحرّكت رأسي نفيّاً فقال:

- طبعاً هي بصورتها الراهنة مستحيلة.

- مستحيلة؟!!

- لا بدّ من باعث على الجريمة، الحبّ والخيانة مثلاً، أو يكون القاتل مهزوز العقل فيتصوّر أنه يقتل امرأة من هذا النوع فهو يجارب الرذيلة مثلاً...

فندّت عن منكمبي حركة استهانة فقال:

- لا جريمة بلا باعث، ولا بدّ أن ينال القاتل جزاءه أيضاً.

فقلت وأنا أداري غيظي:

- هذا قانون الجرائم الخيالية، أعني الروائية.

- العمل يجب أن يكون معقولاً وأخلاقياً.

فندّت عن منكمبي حركة الاستهانة فقال ضاحكاً:

- يبدو أنك لا تصلح أن تكون مؤلفاً.

فقلت ساخراً:

- ولكنّي أصلح أن أكون قاتلاً...

ففهقه ضاحكاً، وتفرّس في وجهي بمودة وقال:

- على كلّ حال فالفكرة تعدّ بقصة جيّدة إذا اهتمدنا إلى باعث مثير ومقنع واقترحنا خطة محكمة للكشف عن الجثة والقبض على القاتل.

فتساءلت بكآبة باطنة:

- مثل ماذا؟

- الخطة المحكمة لا تُرتجل ولكنها تُسبق بتأمل

وتفكير ومراجعة الأفلام المشابهة، غير أنه على سبيل المثال يمكن أن تتصوّر للضحية عاشقاً مخلصاً يفضّره اختفاؤها للعمل، أو أن تُكتشف الجثة بالمصادفة عن طريق بستاني الحديقة أو صياد في النيل، الفروض هنا لا حصر لها.

انتهت المناقشة وانتهى اللقاء فسقطت في دوامة

الظنون. وغلبني ميل جامع للملاحظة الناس والأشياء.

أسير متمهلاً رغم الزحام أو أجلس قريباً من الطريق لأنصفح الوجوه والحركات ووسائل المواصلات والسلع

### التنظيم السري ٧٤٧

أولاً أشدّهما تأثيراً في الجمهور، وثانياً أصلحهما من  
الناحية الجمالية للكاميرا!  
وقلت لنفسي: يا له من رجل سعيد!

فازدرت ربيقي وقلت:

- أخفها ألبا!

فقال ضاحكاً:

- أنت تفكر في نفسك ولكنني أفكر في أمرين،

العائش في الحقيقة



## أصل الحكاية

استعدت ذكريات صباي في قصر أبي بسايس، وحوار الكبار المحموم حول الإعصار الذي أطاح بأرض مصر، والإمبراطورية، وما سمّوه بحرب الآلهة، وفرعون الشاب الذي مزق التراث والتقاليد وتحدى الكهنة والقدر. أجل تذكّرت تلك الأيام المنسية، وما قيل عن دين جديد، وتمزّق الناس بين الإيمان والولاء، والجدل حول الحقائق الغامضة، والهزائم المريرة، والنصر المقترن بالحزن. ها هي مدينة العجائب مستسلمة للموت، ها هي سيّدتها سجينّة تتجرّع الألم في وحدة، ها هو قلبي الشاب يدقّ بعنف طامعاً لمعرفة كلّ شيء. وقلت لأبي:

- لن ترميني بحبّ الدعة بعد اليوم يا أبي، إنّ رغبة مقدّسة تغزوني مثل ريح الشمال كي أعرف الحقيقة وأسجلها كما كنت تفعل في صدر شبابك يا أبي...

فرمقني أبي بعينيه الكليلتين وتساءل:

- ماذا تريد يا مري مون؟

- أريد أن أعرف كلّ شيء عن هذه المدينة وصاحبها، عن المأساة التي مزّقت الوطن وضيّعت الإمبراطورية...

فقال بجديّة:

- ولكنك سمعت كلّ شيء في المعبد.

فقلت بحماس:

- قال الحكيم قاقمنا «لا تحكم في قضية حتى تسمع

الطرفين»!

- الحقيقة هنا واضحة فضلاً عن أنّ الطرف

الأخر، المارق، قد مات ...

وُلدت الرغبة في أعقاب نظرة مفعمة بالإثارة، والسفينة تشقّ طريقها ضدّ التيار الهادئ القويّ في أواخر فصل الفيضان. بدأت الرحلة من مدينتنا سايس ماضية جنوباً إلى بانو بوليس لزيارة أختي التي استقرّ بها الزواج هناك. وذات أصيل مررنا بمدينة غربية، مدينة تطلّ من أركانها عظمة غابرة، ويزحف الغناء بنهم على جنباتها وأشياؤها. مترامية بين النيل غرباً ومحراب الجبل شرقاً، متعزية الأشجار، خالية الطرقات، مغلقة الأبواب والنوافذ كالخفون المسدلة، لا تنبض بها حياة ولا تندّ عنها حركة، يجثم فوقها الصمت وتخيّم عليها الكتابة وتلوح في قسائمها أمارات الموت. أجلّت فيها البصر فانقبض صدري، وهرعت إلى أبي حيث يسترخي على أريكة فوق المنصة مجلّلاً بشيخوخته وسألته:

- ما شأن هذه المدينة يا أبي؟

فأجاب دون تأثّر:

- مدينة المارق، المدينة الكافرة الملعونة، يا مري مون...

فرجع البصر إليها بانفعال مضاعف وذكريات مثالة ثمّ سألت:

- ألا يوجد بها حيّ؟

فأجاب أبي باقتضاب:

- ما زالت المرأة المارقة تنفّس في قصرها أو سجنها

وهو الأصحّ، كما يوجد بعض الحراس بلا ريب ...

فغمغمت متذكّراً:

- نفرتي!

ترى كيف تعاني وحدتها وذكرياتها؟! وسرعان ما

فقلت بحماس متصاعد:

- أكثر الذين عاصروه ما زالوا أحياء يا أبي،  
وجميعهم أقران لك وأصدقاء. فأني توصية منك لهم  
خلقة بأن تفتح لي مغاليق الأبواب ومكنون الأسرار،  
بذلك أحيط بجوانب الحقيقة قبل أن يأتي عليها الزمن  
كما أتى على المدينة . . .

وواصلت إلخاخي عليه حتى استجاب لرغبتني، بل  
لعله تحمّس لها في باطنه لسابق ولعه بتسجيل الحقائق،  
ولرسوخه في العلم الذي جعل من قُضْرنا متدّى  
لرجال الدين والدنيا حتى عُرف بين صحبه «بصاحب  
الأرض الطيبة والحكمة النادرة»، كما عُرف قصره  
بالندوات تُروى بها الحكايات وتُرَدّد الأشعار وتمتدّ بها  
موائد البطّ والنيذ.

وحرّر لي رسائل توصية للكبار الذين عاصروا  
الأحداث، من شارك فيها من قريب أو بعيد، من ذاق  
حلوها ثم مرّها، ومن ذاق مرّها ثم حلوها. وقال لي:  
- اخترت سيالك بنفسك يا مري مون فاذهب في  
رعاية الآلهة، أجدادك ذهبوا للحرب أو السياسة أو  
التجارة أما أنت فتريد الحقيقة، وكلّ على قدر همته،  
ولكن احذر أن تستفزّ صاحب سلطان أو تشمت  
بساقط في النسيان، كُنْ كالتاريخ يفتح أذنيه لكلّ قائل  
ولا ينحاز لأحد ثم يسلم الحقيقة ناصعة هبة  
للمتأملين . . .

وسعدت جداً بالخلاص من الخمول والتوجّه إلى  
تِيَار التاريخ الذي لا تعرف له بداية ولن يتوقّف عند  
نهاية، ويضيف كلّ ذي شأن إلى مجراه موجة مستمّدة  
من حبّ الحقيقة الأبدية . . .

## كَاهِن آمُون

رجعت طيبة إلى عهدنا الزاهر بعد أن ذاقنا مرارة  
الهجران والانطواء على عهد «المارق». أصبحت  
العاصمة من جديد، يزيّن عرشها فرعون الشاب توت  
عنخ آمون، وعاد إليها رجال السلم والحرب، واستقرّ  
الكلّ في معابدهم. وعمّرت القصور وغنّت الحدائق

وشمخ معبد آمون بأعمدته العملاقة وحديقته  
الزهراء، وماجت الأسواق بالباعة والناس والسلع.  
كلّ شيء يتألّق بالعزّة والاستقرار، وتيار السابلة لا  
ينقطع. وكنت أزورها لأول مرّة في حياتي فبهرتني  
جلالها وأبنتها وناسها الذين لا يحيط بهم حصر،  
واقتمتني أصواتها ونداءاتها وعجلاتها وعفّاتها فتبدّت  
لي بلدي سايس بالمقارنة قرية خاملة خرساء. وقصدت  
في الموعد المضروب معبد آمون، فاخرقت بهو الأعمدة  
في إثر خادم ثمّ ملت إلى دهليز جانبيّ أوصلني إلى  
الحجرة التي انتظرتني بها الكاهن الأكبر. رأيته يجلس في  
الصدر على كرسيّ من الأبنوس ذي مقبضين من  
الذهب، شيخاً هرمًا حليق الرأس، داخل نقبة طويلة  
واسعة، يلفّ أعلاه بوشاح أبيض. وضع لي أنّه رغم  
شيخوخته يتمتّع بحيويّة فائقة وقلب مطمئنّ. حيّا أبي  
ونوّه بإخلاصه قائلاً:

- عرّفنا المحنة بالمخلصين من الرجال.

وأثنى على مشروعي متمنّيًا:

- لقد حطّمنا الجدران بما سجّلت من أكاذيب  
ولكنّ الحقيقة يجب أن تسجّل.

وحنى رأسه كالمتنّ وهو يقول:

- اليوم يترعّ آمون على عرشه، ويقف في سفينته  
المقدّسة بقدس الأقداس سيّدًا للآلهة، حاميًا لمصر،  
رادعًا لأعدائها، ويستردّ كهنته سيادتهم الشاملة، هو  
الإله الذي حرّر واديننا بيد أحسن، ومدّد حدودنا شمالًا  
وجنوبًا وشرقًا وغربًا بيد تحمس الثالث، هو الإله  
الذي ينصر ويدلّ من يخونه.

فركعت إجلالاً حتىّ أذن لي فجلست على مقعد  
منخفض بين يديه، واستجمعت حواسي للإصغاء على  
حين راح الكاهن الأكبر يقول:

- إنّها قصّة حزينة يا مري مون بدأت فيها يشبه  
الهمس البريء، وجاءت البداية على يد الملكة العظيمة  
أم المارق وزوجة فرعون العظيم أمنحتب الثالث.  
امرأة من الشعب لا يجري في عروقها دم ملكي، من  
أسرة نوبية، وكانت قويّة وداهية كأنّ في رأسها أربع  
أعين ترى الجهات جميعًا في وقت واحد. وكانت في  
الظاهر تمحّص على إرضائنا ومودّتنا، ولن أنسى قولها لي

## العائش في الحقيقة ٧٥٣

السلام والرخاء. جنى هو ثمار ما تعب أسلافه في زرعه فانهمرت عليه المحاصيل والثياب والمعادن والنساء، وبنى القصور والمعابد والتماثيل، وغرق حتى أذنيه في الطعام والشراب والنساء. وعرفت المرأة الداهية نقاط القوة والضعف في زوجها فاستثمرتها على خير ما يكون الاستثمار، شجعت على الحرب حين الحرب، وتساعت معه في شهوته مضحية بقلبها كامرأة لتشاركه سلطانه بكل جدارة، ولتتارس طموحها غير المحدود، ولا أنكر أنها كانت مُبْلِمة بكل صغيرة وكبيرة من شئون مصر أو الإمبراطورية، ولا أنكر إخلاصها ويُعد نظرها وحرصها على المجد والعظمة، ولكني أخذ عليها نعمها للسلطة، ذلك النهم الذي سؤل لها أن تستغل الذين بنعمه ودهاء لتستأثر بالقوة للعرش دون الكهنة أجمعين. ثم تبين لي أن ثمة أفكارًا أخرى تدور برأسها، فقد زارت المعبد يومًا لتقديم القرابين، وتقدمتني بعد ذلك إلى مثنى الراحة بقامتها القوية المتوسطة، فلما استقر بنا المجلس سألتني:

- ماذا يجزئك؟

وجعلت أفكر في اختيار رد مناسب ولكنها عاجلتني قائلة:

- إنني أفرا أسرار القلوب مثل الكهنة، إنك تظن أي أرفع من شأن الكهنة الآخرين على حساب كهنة آمون؟  
فقلت مسليًا:

- كهنة آمون هم أمناء أسرتكم المجيدة...  
فقلت وعيناها تبتقان:

- إليك ما أفكر فيه أيها الكاهن الأكبر، آمون سيد آلهة مصر، وهو يقوم أمام رعايانا في الإمبراطورية رمزًا للسلطة وربما للهزيمة، أما آتون إله الشمس فإنه يشرق في كل مكان وبوسع أي مخلوق أن ينتمي إليه دون غضاضة!

تري أهذا حقًا ما تفكر فيه أم إنه حجة جديدة تداري بها رغبتها الحقيقية في تقليد أظافرنا؟ على أن الفكرة نفسها لم تفرز بإقناعي وقلت:

- مولاتي، أولئك المتوحشون يحكمون بالقوة لا بالموذة!

يوم احتفال بعيد النيل:

- أنتم الخير والبركة يا كهنة آمون!

وكان من عاداتها أن تحدد في الرجال الأقوياء بعينيها النجلاوين حتى يحنوا الرعوس متعثرين في ارتباكهم. ولم نتوجس منها خيفة ولا ننسى حب فراعين الأسرة المجيدة لكهنة آمون، حتى وجدنا الملكة تهتم بتوسيع مجال الدراسات الدينية لتشمل ديانات الآلهة الأخرى وخاصة الإله آتون. ولم يعد الأمر في ظاهره أن يكون زيادة في المعرفة بديانات نحترمها جميعًا ونقدسها، فلم نجد ثمة وجه للاعتراض ولكن ساءنا أن تحظى الآلهة بذلك الامتياز في طيبة موطن آمون. ولم يلفظ من مشاعرنا ما رددته تمي من أن آمون سيظل سيد الآلهة إلى الأبد كما أن كهنته سيظلون على رأس كهنة مصر بلا استثناء. وقال لي توتو الكاهن المرتل:

- إنني أستشفت وراء القرار سياسة جديدة لا شأن لها بالدين في ذاته!

فطالبته بمزيد من الإيضاح فقال:

- الملكة العظمى تخطب ود كهنة الأقاليم لتقيم توازنًا بيننا وبينهم فتحد من سلطان الكهنة وتقوى سلطة العرش.

فقلت له ولم أكن أخلو من الهواجس:

- نحن خدام الإله والشعب، نحن المعلمون والأطباء، والمرشدون في الدنيا والعالم الآخر، والملكة العظمى سيده حكيمة وهي لا شك تقرر لنا بالفضل.  
فقال توتو بامتعاض:

- النزاع على السلطة، والملكة قوية طموح، وهي في رأي أقوى من الملك نفسه!

فقلت وكأنا أناقش مخاوفي:

- نحن أبناء الإله الأعظم ووراءنا تراث أقوى من الدهر.

ولعل من المفيد الآن أن أحدثك عن الملك المنحرب الثالث. لقد شيد له جدّه تحتمس الثالث إمبراطورية لم تسبق بمثل في اتساعها وتمعد أجناسها. وكان ملكًا قويًا، يثب للدفاع عن أملاكه عند أول نذير يخطر، وحققت انتصارات حاسمة حتى دانت له الإمبراطورية بالطاعة الكاملة. غير أن عهده الطويل غلب عليه

فقالت باسمه:

- وبالمودة أيضًا، ما يصلح لمعاملة الوحوش لا يصلح لمعاملة الحيوان المستأنس . . .

وأمنت بأنها رؤية أنثوية عقيمة وقد تثمر عواقب وخيمة، وهذا ما أثبتته الأحداث الأليمة فيها بعد. وسكت الكاهن الأكبر كأنما ليتأمل أو ليتذكر ثم واصل حديثه:

- ومما يذكر أنه صادفتها في مطلع حياتها الزوجية متاعب فلبثت مدة غير قصيرة لا تنجب، تعاني المخاوف من شيخ العقم ويضاعف من مخاوفها أصلها الشعبي، ويفضل آمون وكهنته، ويفضل الدعوات الصالحات والسحر القوي حملت الملكة ولكنها أنجبت بنتًا. وكلما التقينا في القصر أو المعبد رمقتني بنظرة حذرة مترعة بسوء الظن كأنني المسئول عن سوء حظها. وما كنا نغكر في تعكير صفو العرش أبدًا ولكنها كانت قليلة الثقة في الناس لفساد طويتها.

وسكت مرة أخرى كالتردد ثم قال:

- وبطريقة غامضة أنجبت ذكرين!

وترث الرجل حتى اشتعلت تساؤلاتي الخفية ثم قال:

- مات أكبرهما وأصلحها وبقي الآخر ليمارس شذوذه في تخريب مصر.

وقرأ الكاهن تساؤلاتي المحرقة فقال:

- نحن نعرف كيف نصيد الحقيقة وإن امتنعت عن الكثيرين، لنا من السحر قوة، ولنا من العيون قوة . . . فالمارق مجهول الأب، فاقد الرجولة، مؤثت الصورة، متنافر القسامات. وعلى مثال أبيه تزوج من فتاة من الشعب، جمعت في شخصها مثل أمه بين الأصل الشعبي والطموح الجنوني والفسق. جميلة عنيده متحذية فاندفعت معه في سياسته المدمرة. وأنجبت له ست بنات من رجال آخرين. ورغم حبه الظاهر لها فلعله لم يحب في الواقع إلا أمه، أعطته الحياة والأفكار، ولشدة التصاقه بها شعر بوحدها وآلامها فحرق على أبيه حرقًا دعاه إلى الانتقام منه بعد موته فمحا اسمه من الآثار بحجة اقترانه باسم آمون، أما الحقيقة فهي أنه أعدمه بعد موته بعد أن عجز عن قتله

في حياته. وقد لقتته أمه دين آتون التي آمنت به لأهداف سياسية ولكنه آمن به إيمانًا حقيقيًا نابذًا السياسة التي لم توافق طبيعته الأنثوية، ومنه مرق إلى الكفر وهو ما لم تتوقعه أمه نفسها. ما زلت للأسف أتذكر صورته الكريمة. ما كان رجلًا وما كان امرأة، وكان ضعيفًا لحدّ الحقد على الأقوياء جميعًا من رجال وكهنة وآلهة. وقد اخترع لها على مثاله في الضعف والأنوثة، تصوّره أبًا وأما في وقت واحد، وتصوّر له وظيفة وحيدة هي الحب! فكانت عبادته رقصًا وغناء وشرابًا، وغرق في مستنقع الحماقة معرّضًا عن واجباته الملكية على حين كان رجالنا المخلصون في الإمبراطورية وأحلافنا الأوفياء يتساقطون تحت ضربات العدو، يستغيثون ولا يغاثون، حتى ضاعت الإمبراطورية وخربت مصر وخوت المعابد وجاع الناس. هذا هو المارق الذي سُمي نفسه إخناتون!

وصمت الكاهن الأكبر تحت وطأة الانفعال وحدة الذكريات ثم شبك أصابع يديه في قبضة واحدة وراح يقول:

- ومنذ نشأته الأولى جاءتني الأخبار عنه بلسان رجال لي في القصر ممن نذروا أنفسهم لآمون والوطن. وعنهم عرفت أنّ وليّ العهد ينجذب نحو آتون ويحمل آمون، وأنه رغم حداثة سنّه يلوذ بخلوة على شاطئ النيل يستقبل فيها الشروق بالأغاني. أدركت لتوي أنه صبي غريب ينذر بالمتاعب. وسعيت إلى مقابلة العرش وأفضيت هناك للملك والملكة بمخاوفي. وابتسم أمنحتب الثالث وقال:

- ما زال ابني طفلًا.

فقلت:

- ولكنّ الطفل يكبر ويمتدّ في أعماقه بأفكار طفولته.

فقالت تبي:

- إنّه ينشد الحكمة في كافة مظانها بقلب بريء.

قال فرعون:

- عمّا قريب يبدأ تدريباته العسكرية ويعرف أهدافه الحقيقية.

فقال تبي:

## العائش في الحقيقة ٧٥٥

- إنما أنقل إليكم ما يتهامس به الجميع .  
 - وكيف تجسّد له ذلك الإله المزعوم؟  
 - سمع صوته فقط...  
 - لا شمس ولا نجم ولا تمثال؟  
 - لا شيء البتّة .  
 - وكيف يعبد ما لا يرى؟  
 - إنّه يؤمن بأنّه القوّة الوحيدة الخالقة .  
 - لقد أذاب المجنون ذاته في اللاشيء !  
 وقال الكاهن المرثّل توتو:  
 - لقد جنّ وفقد الأهليّة لتوتّي العرش .  
 فقلت برجاء:  
 - اهدأ يا توتو، فمهما كفر فستظلّ الآلهة باقية  
 معبودة للملايين...  
 فتساءل بحدّة:  
 - ولكن كيف يتوتّى العرش كافر مارق؟  
 فقلت بكآبة:  
 - فلنتنظر حتّى تُعلن الحقيقة ثمّ نقدم على طرح  
 الموضوع للمناقشة مع الملك، وسوف تكون المناقشة  
 الأولى من نوعها في تاريخنا الطويل...  
 وحدث أن تزوّج وليّ العهد من نفرتيتي الابنة  
 الكبرى للحكيم الصديق أي . كانت أيضًا مثل الملكة  
 العظمى تبي من أصل شعبيّ ولكنّي تعلّقت بأمل  
 واحد وإه وهو أن يرده الزواج إلى شيء من التوازن .  
 ودعوت أي إلى مقابلتي فوجدته حذرًا في حديثه  
 فقذّرت حرج مركزه ولم أثير من جانبي إلى أبناء  
 الكفر، ولكنّي اتّفقت معه على أن يرتّب لتدبير زيارة  
 سرّيّة تتّم بيني وبين ابنته . وتأمّلتها بعين فراسني  
 المستمّلة من روح آمون فتكشّف لي جمالها عن قوّة  
 ذكّرتني بالملكة العظمى تبي فرجوت أن تكون هذه  
 القوّة لنا لا علينا . وقلت لها:  
 - تقبّلي بركاتي يا ابنتي وابنة صديقي أي .  
 فشكرتني بعدوبة فقلت:  
 - أرى من واجبي أن أذكرك، ولست في حاجة إلى  
 تذكير، بأنّ العرش يقوم على ثلاثة، آمون سيّد الآلهة،  
 وفرعون، والملكة .  
 فقالت:

- لا حاجة بنا إلى مزيد من البلدان ولكنّا في  
 حاجة إلى الحكمة للمحافظة عليها...  
 فقلت بوضوح:  
 - لا سبيل إلى المحافظة عليها إلّا بالاعتدال على  
 آمون وممارسة القوّة .  
 فقالت المرأة الداهية:  
 - ما رأيت حكيمًا يستهين بالحكمة مثلك يا كاهن  
 آمون!  
 فقلت بإصرار:  
 - إني لا أستهين بالحكمة ولكنّي أراها لشيءًا بغير  
 سند من القوّة .  
 فقال أمنتحب:  
 - لا خلاف في هذا القصر على أنّ آمون هو سيّد  
 الآلهة .  
 فقلت بقلق:  
 - إنّه انقطع عن زيارة المعبد .  
 فقال الملك:  
 - صبرًا، عمّا قليل سيؤدّي كافّة واجباته كونيّ  
 للمهد...  
 لم أرجع من اللقاء بما يسكّن الخواطر، بل لعسّ  
 مخاوفنا - نحن الكهنة - وجدت ما يسوّغها ويقوّيها .  
 وجاءتنا أنباء جديدة عن حوار دار بينه وبين والديه  
 أدركنا منه أنّ ذلك الجسد المهزول ينطوي على  
 سراديب قوّة وعناد شريرة تنذر بأوخم العواقب . وذات  
 يوم قابلني أحد أتباعي وقال لي:  
 - الشمس نفسها لم تعد إلها!  
 فسألته عمّا يعني فقال:  
 - إنهم يتهامسون هناك عن إله جديد لم يُعرف من  
 قبل تجلّي لروح وليّ العهد وطالبه بأن يعبده باعتباره  
 الإله الوحيد الحقيقيّ في الوجود، هو وحده لا شريك  
 له، وكلّ معبود سواه باطل .  
 صعقتني الخبر صعقًا، وأيقنت أنّ الموت السذي  
 خطف الأخ الأكبر أمون وأرحم من الجنون الذي حلّ  
 بالأصغر، وتجسّدت أمام عينيّ الكارثة في أبشع  
 صورة .  
 - أنت واثق بما تقول؟

- سعيد من يصغي إلى حكمتك .  
فقلت :  
- والملكة الحكيمة تشارك الملك في المحافظة على الوطن والإمبراطورية .  
فقلت بثبات :  
- أيها الكاهن المقدس، قلبي مليء بالحُب والإخلاص .  
فقلت بوضوح :  
- مصر مثنوى التقاليد الخالدة، والمرأة هي الوعاء المقدس للتقاليد .  
فقلت بالثبات نفسه :  
- وقلبي مليء بالواجب أيضًا .  
يا لها من حذرة متحفظة كتمثال بلا نقوش تفسره .  
لقد تكلمت ولم تقل شيئًا ولم يكن بوسعي أن أكاشفها بأكثر من ذلك . غير أنها في الحقيقة قد قالت أكثر من المتوقع . إنَّ تحفظها يعني أنها تعرف كلَّ شيء . وأنها لن تكون معنا . إنها مرشحة للعرش بضربة حظ خليقة أن تدير أكبر رأس، وسيكون ههنا الأول في الحياة المحافظة على العرش، لا آمون ولا الآلهة . وأقمت مع الكهنة صلاة للرحمن في قدس الأقداس ثم وافيتهم بفحوى الحوار بيني وبين نفرتيتي، فقال توتو معلقًا :  
- سينكشف الغد عن ليل طويل .  
ثم خلا إليّ متسائلًا :  
- ألا تستطيع أن تناقش المستقبل مع القائد ماي؟ فلمحت ما يرمي إليه وقلت بصراحة :  
- لا نستطيع أن نتحدى أمنحتب الثالث والملكة العظمى تبي .  
بدا أنَّ الأمور لا تسير يسيرةً في القصر بين المجنون ووالديه، من أجل ذلك صدر أمر ملكي لوليّ العهد ليقوم برحلة تعارف في أرجاء الإمبراطورية . ولم أشك في أنَّ الملك أراد أن يعرّف ابنه رعاياه وأن يعيش الواقع لعله يفيق من ضلاله . وحدث له ذلك في نفسي غير أنَّ كآبتي ظلّت راسخة . وفي أثناء الرحلة حدثت أمور على جانب كبير من الأهمية، فقد أنجبت تبي توأمين هما سمنخ رع وتوت عنخ آمون، بعد فترة تدهورت صحّة الملك المعجوز ومات . ورحل مبعوثون
- إلى وليّ العهد بالأخبار ليرجع فيتولّى سلطته . وتشاورنا نحن الكهنة حول مستقبل البلاد فاتفقنا على رأي . وسعيت إلى مقابلة الملكة تبي رغم الحداد وانشغالها بتحنيط زوجها . وجدتها في حزنها قويّة ثابتة واعية بأهدافها . وكان عليّ أن أصارحها بما جئت من أجله مهما كلفني ذلك . قلت :  
- جئت يا مولاتي لأفصي برأيي إلى الأمّ الشرعية للإمبراطورية .  
وأصغت إليّ ومنظرها يوحي بأنّها تحدس بفطنة ما سيقال .  
- مولاتي، أصبح معروفًا أنَّ وليّ العهد قد كفر بجميع الآلهة .  
فتجهّم وجهها وقالت :  
- لا تصدّق كلّ ما تسمع .  
فقلت بلهفة :  
- إني على استعداد لتصديق ما تقولين يا مولاتي .  
فقلت باقتضاب :  
- إنّه شاعر أيها الكاهن الأكبر .  
ولذت بالصمت بغير اقتناع فقلت بثقة :  
- سوف يعرف واجبه تمامًا .  
فقلت مستجمعًا شجاعتي :  
- مولاتي تعرف عواقب الكفر بالآلهة على العرش !  
فقلت بضيق :  
- لا خوف على عبادة الآلهة !  
فقلت مستزيدًا من شجاعتي :  
- أمامنا حلّ إذا مسّت الضرورة إليه وهو أن نوليّ أحد ابنك الصغيرين وتكونين الوصيّة على العرش !  
فقلت بحزم :  
- سيحكم أمنحتب الرابع لأنه وليّ العهد .  
هكذا غلبت الأمّ العاشقة الملكة الحكيمة وضيّعت فرصة النجاة وأتاحت للقدر أن يضرب ضربته القاتلة . ورجع وليّ العهد المؤثّم المجنون . ودُفن الملك الأب في مواعده، وسرعان ما طلبت لمقابلته بصفته الرسمية . لأول مرة أراه عن قرب وأمعن فيه النظر . كان ذا سمر غامقة، وجسم طويل نحيل، وعينين حالمتين، وتكوين أنثوي لا يخفى على أحد، أمّا ملامحه

## العائش في الحقيقة ٧٥٧

على العطاء، قادر على العون قدرته على الخذلان، قادر على التأمين قدرته على التدمير، خُف على رزقك وذريتك وعرشك وإمبراطوريتك.

فقال متهاديًا في الهدوء:

- إنِّي طفل يحبو في رحاب الواحد، وبرعمة تتفتح في حديقته، إنِّي راضٍ بقَدْره خادمٍ لأمره، وقد تعطف فتجَلَّ لروحي حتى أترعت بالأنوار وسالت بالأنعام.

ولن أبالي بعد ذلك بشيء!

فقلت بغضب:

- إنَّ وليَّ العهد لا يصير فرعون حتى يتَّوَجَّع بين

يادي آمون!

فقال باستهانة:

- بل يتَّوَجَّع تحت نور الشمس في رعاية الخالق

الوحيد...

وافترقنا على أسوأ حال. معي آمون والمؤمنون ومعه تراث أسرته المجيدة ومنزلته المقدَّسة عند رعاياه وجنونه الذي لا يبالي بشيء. وتوثبت للحرب المقدَّسة موطنًا نفسي على التضحية فداءً للإلهي ووطني. ولم أتوان عن العمل لحظة، وقلت لأبنائي الكهنة:

- فرعون الجديد كافر، عليكم أن تعلموا بذلك

وأن تُعلموا الناس به...

ورغم حماسي وجدتي مسوقًا إلى كبح جماح توتو الكاهن المرتل فاقترحت عليه الانضمام في الظاهر إلى المارق ليكون عينًا لنا عليه. ومن ناحية أخرى فلم يتوانَ الملك أيضًا عن العمل فتمَّ التتويج في رحاب الإله المزعوم وأصرَّ بتشييد معبد له في طيبة مدينة آمون المقدَّسة، وراح يعرض دينه على الرجال ليختار معاونيه فأعلن صفة مصر إيمانهم بدوافع شتى ولهدف واحد وهو تحقيق طموحهم على حساب عقيدتهم. ولو جاهر الرجال بالعصيان لتغيرَ المصير ولكنهم سقطوا كالنساء الداعرات. هذا الحكيم أي اعتبر نفسه ضمن الأسرة فأسكره الجاه وأعماه، وهورعب الجنديَّ الشجاع لم يكن صاحب عقيدة صادقة فكان الأمر بالنسبة إليه مجرد تغيير اسم لا معنى له، أما الآخرون فلم يكونوا سوى منافقين لا هم لهم إلا الجاه والمال. ولولا ارتدادهم عن غيهم في اللحظة الحرجة لاستحقوا

فمتنافرة مثيرة للقلق. إنه كائن هزيل حقير لا يليق بعرش ولا يتصوَّر أن يتحدَّى بعوضة لا آمون سيِّد الألهة. وداريت تقززي وعزيت مقتبسًا من حكم الحكماء وشعر الشعراء، وهو يرمقي بنظرات محيرة. لا كراهية فيها ولا تحدُّ ولا ود. وشئت منظره فكري لدرجة أن غلبي الصمت فبادرني هو قائلًا:

- طالما تسببت لي في مناقشات مرهقة مع الديق!

فاسترددت قدرتي على الكلام فقلت:

- لا هم لي في الحياة إلا آمون والعرش ومصر

والإمبراطورية...

فقال بهدوء:

- لديك ما تقوله ولا شك.

فقلت وأنا أتأهب لخوض المعركة:

- سمعت أبناء مقلقة ولكفي لم أصدِّقها.

فقال بلا مبالاة:

- إنَّها حقيقة!

فذهلت وانعقد لساني فواصل حديثه:

- إنِّي المؤمن الوحيد في بلد من الضالين.

- لا أصدِّق أذني.

- بل صدِّقها، لا إله إلا الإله الواحد.

واقترحتي الغضب لعقيدتي فلم أعد أبالي بالعواقب

دفاعًا عن آمون وسائر الألهة.

وقلت بصراحة مخيفة:

- هذا تجديف لن يغفره آمون لبشر...

فقال بهدوء باسِم:

- لا يملك منح المغفرة إلا الإله الواحد.

فقلت وأنا أنتفض من شدَّة الانفعال:

- إنه لا شيء.

فبسط ذراعيه بحنان وقال:

- هو كلُّ شيء، الخلق... القوة... الحب...

السلام... السرور.

ثمَّ ثقبني بنظرة نافذة تتناقض تمامًا مع هيكله الواهن:

- إنِّي أدعوك للإيمان به.

فقلت محذرًا محتدًا:

- احذر غضب آمون، إنه قادر على المنع قدرته

ووجهه المنقَر وزوجته الجميلة الفاسقة .  
 تلك كانت أيام الأحزان والعذاب والنفاق والندم  
 والدموع المنهمرة والرعب من غضب الآلهة . وأحدثت  
 رسالة الحب المؤثت آثارها فاستهتر الموظفون بواجباتهم  
 واستغلوا الناس أبشع استغلال، وسرى التمرد في  
 أنحاء الإمبراطورية، واستهان بحدودها الأعداء،  
 واستغاث بنا الأمراء المخلصون فأرسلت إليهم الأشعار  
 بدلاً من الجيوش فقتلوا دفاعاً عن إمبراطوريتنا وهم  
 يلعنون الخائن المارق المجنون . وتوقف الخير المتدفق  
 على أرض مصر من جميع البلدان حتى خلت الأسواق  
 وأفلس التجار وجاع العباد . وصيحت بأعلى صوتي :  
 - ها هي لعنة آمون الغاضب تحل بنا فيما القضاء  
 على المارق وإما الحرب الأهلية .

ولم أدع فرصة للخير لم أجربها لتجنب البلاد  
 ويلات الحرب فقابلت الملكة الأم تبي، وقالت لي  
 بحرارة :

- إني حزينة أيها الكاهن الأكبر .

فقلت بمرارة :

- لم أعد كاهناً أكبر، لست إلا شريداً مطاردًا . . .

فقالت ملعثة :

- إني أسأل الآلهة أن تمدنا برحمتها .

فقلت لها :

- لا بد من العمل، إنه ابنك، وهو يحبك، وإنك  
 تتحملين تبعه لا يستهان بها فيما انتهت إليه الأمور  
 فبادريه بنصحك قبل أن تنشب حرب أهلية لن تبقى  
 على شيء . . .

فقالت بامتعاض لتذكيري لها بمسئولياتها فيما  
 حدث :

- لقد قررت السفر إلى العاصمة الجديدة أخت  
 آتون . . .

ولا أنكر أنها بذلت جهداً ولكنها لم تستطع أن  
 تصلح ما أفسدت، ولم أستسلم لليأس فسافرت بنفسي  
 مجازفاً إلى أخت آتون واجتمعت بالرجال وقلت لهم :

- إني الآن أتكلّم من موقع القوة، وورائي رجال  
 ينتظرون إشارة للانقضاض عليكم، ولكني آثرت أن  
 أحاول محاولة أخيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه دون سفك

القتل، وقد فازوا بالحياة ولكنني لا أكنّ احتراماً لأي  
 منهم . واشتدّ التوتر في طيبة وانقسم الناس بين الولاء  
 لآمون والولاء للمجنون سليل أعظم أسرة في تاريخنا  
 المجيد . وجزعت الملكة الوالدة تبي وهي ترى غرس  
 يديها وهو يتحوّل إلى نبات سام، وهو ينحدر نحو  
 الهاوية جازاً معه أسرته إلى الفناء . وواظبت على زيارة  
 معبد آمون وتقديم القرابين محاولة لتلطيف موجة التمرد  
 العارمة التي تهدد باقتلاع العرش . وجعلت تقول لي :  
 - بالولاء تكسيون وبالتمرد تخسرون . . .

وكنت أقول لها :

- كيف تطالبينا بالولاء لكافراً ليتكم أمتم

بنصائحي !

فتقول لي :

- علينا أن نطرد اليأس من أفقنا!

لقد ثبت عجزها أمام ابنها المؤثت المدلل، وانهارت  
 قوتها التقليديّة حيال قوة جنونه الخفيّة، ولم يكن مفرّ  
 من أن نواصل القتال حتى النهاية . من أجل ذلك  
 ضاق المجنون بطيبة، وترامت إلى مسمعه هتافات  
 عدائيّة في عيد آمون، فادّعى أنّ إله أمره بالهجرة إلى  
 مدينة جديدة تُشيد من أجله . هكذا أجبرناه على  
 الهجرة مصحوباً بثمانين ألفاً من المارقين ليقيموا  
 لأنفسهم سجنًا تحلّ به اللعنة . وخلا لنا الجوّ لإدارة  
 معركتنا المقدّسة، وخلا له الجوّ للإمعان في الكفر  
 والضلال حتى انقلبت العاصمة الجديدة مدينة  
 للملاهي والسكر والعريضة والفسق التي يبشّر بها إله  
 مجهول الهوية شعاره الحبّ والسرور . وكلّمنا ألحّ على  
 المجنون ضعفه الطبيعيّ غالى في إظهار قوته فأمر  
 بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة وأوقافها وتشريد  
 الكهنة . وقلت لأبنائي الكهنة :

- لا قيمة للحياة بعد إغلاق المعابد فأحبوا الموت .

وقد وجدنا في بيوت المؤمنين ماوى وفي قلوبهم  
 جيوشاً فواصلنا الجهاد بهمة متصاعدة وأسل يقترب من  
 الشروق يوماً بعد يوم . وتماهى المارق فقام بزيارات إلى  
 الأقاليم داعياً شعبه إلى الكفر، وشدّ ما عانى الشعب  
 في تلك الأيام السود من تمزق بين ولائه لآلهته وولائه  
 للملكة الذي أذهلهم بجسمه المتهافت وطابعه الأنثويّ



## « آي »

هو الحكيم، أبو نفرتيتي وموت نجمت، ومستشار المارق. حفر الكبر أخايد في وجهه وسكن فيها، استقبلني في قصره المُلطل على النيل في جنوب طيبة. جرى حديثه في هدوء وبصوت منخفض ودون أن ينبض وجهه بأيّ انفعال. وقد أثار في وقاره وعمره المديد وما يطوي في صدره من تاريخ حافل. بدأ حديثه بقوله:

- ما أعجب الحياة، إنها ساء تمطر تجارب متناقضة. وتفكر مستغرقًا بقيض من الذكريات ثم قال:  
- التحمت بالأحداث في يوم من أيام الصيف، دُعيت إلى مقابلة الملك أمنحتب الثالث والملكة العظمى تيبى، وكما مثلت بين يديها قالت لي الملكة:  
- يا أي، أنت رجل حكيم، تعرف أجمل ما في الدنيا والدين، قررنا أن نعهد إليك بتربية ابنينا تحتتمس وأمنحتب ...

فحنيت رأسي الحليق وقلت:  
- سعيد من يحظى بخدمة مولاه ومولاته.  
وكان تحتتمس في السابعة وأمنحتب في السادسة. وكانا جدّ مختلفين لحدّ التضادّ، فتحتمس قويّ وسيم قصير القامة، وأمنحتب ضعيف البنية غامق السمرة طويل القامة أنثويّ القسما وذو نظرة رقيقة وغازية معًا تلتصق بالنفس بعمق. وما لبث أن مات الصبيّ الجميل وبقي الضعيف الغريب. وهزّ الموت الصبيّ الحيّ هزة عنيفة جدًّا. بكى طويلًا، وكلّما خطرت ذكرى بكى من جديد. وقال لي:  
- كان يزور معبد آمون، ويتلقّى الرقا والتعاويد ولكنّه مات ...

وقال لي أيضًا:  
- وأنت الحكيم المعلم فلم لا تردّ إليه الحياة؟  
وقلت له:  
- إنّ الروح تقول للميت «ألقي عنك هذا الحزن أيها الأخ، أنني باقية».  
وجرّنا ذلك إلى حديث عن الحياة والموت، وشدّ ما

دماء أو خراب، وسأترك لكم مهلة لتؤدّوا واجبكم وترجعوا إلى ضمائركم ...

وقرات في وجوههم الاقتناع بما قلت، وبصرف النظر عن دوافعهم الحقيقيّة فقد أدوا ما طالبتهم به وجنّبوا البلاد شرّ ويلات كثيرة. قابلوا المارق المجنون وطالبوه بأمرين عاجلين، إعلان الحرّيّة الدينيّة وإرسال جيش للدفاع عن الإمبراطوريّة. ولكنّه رفض معلنا بذلك جنونه على الملأ. وعند ذلك طالبوه بالتنازل عن العرش وله أن يحتفظ بعقيدته بل وأن يدعو إليها كيفما شاء ولكنّه رفض أيضًا. غير أنّه عين أخاه سمنخ رع شريكًا له في العرش، فتجاهلنا أمره واخترنا توت عنخ آمون ليجلس على العرش مختارًا منّا. وبإزاء عناد المجنون قرّر الرجال هجره وهجر مدينته وإعلان ولائهم لفرعون الجديد، بذلك تغيّرت الدولة بلا حرب ولا خراب، وفي نظير ذلك عدلنا عن الانتقام من المجنون وزوجته ومن أبقي على الوفاء له من رجاله.

وفتحت المعابد أبوابها وهرع إليها المؤمنون بعد حرمان طويل، وانفثع الكابوس ومضى كلّ شيء يعود إلى أصله على قدر الإمكان. أما المارق فبعد أن شبع جنونًا أدركه المرض وما لبث أن مات خائب المسعى في الدنيا وفاقد الأمل في العالم الآخر، مخلّفًا وراءه زوجته الشريرة تعاني الوحدة والهجر والندم.

وصمت الرجل طويلًا وهو يرنو إليّ ثمّ قال:  
- نحن نضمد جراحنا، يلزمنا عمل كبير وشاقّ، خسارتنا في الداخل والخارج أكبر من أن يحيط بها حصر، كيف حدث هذا؟ ... كيف أتيج لمجنون مشوّه أن يفعل بنا ذلك كلّ تحت سمع العقلاء وبصرهم؟

وترثت قليلًا ثمّ خاطبني قائلاً:  
- لقد كشفت لك عن الحقيقة خالصة بلا تزويق ولا تشويه فسجلها في دفترك بأمانة، وأبلغ تحيّي والدك.

- كان فذاً منذ صباه كأنما ولد بعقل كاهن ناضج، كان معجزة حتى وجدتي في كثير من الأحيان أناقشه مناقشة النذّ للنذّ وهو في العاشرة. وكان الحماس يتدفق من منطقه كأنه ينايغ ساخنة، وبرزت في الهيكل الضعيف إرادة قويّة لا تتوافق بحال مع ضعفه، فأقنعتني ذلك بأنّ روح الإنسان أقوى من عضلاته المشدودة المدرّبة آلاف المرّات. وهام بالدروس الدينيّة هيأماً فاق كلّ توقّع وأضرّ بالإعداد اللازم له للجلوس على العرش. ولم يكن يسلم بفكرة دون مناقشة قويّة، ولم يخف ارتياحه في كثير من الحقائق والتعاليم الموروثة. وإذا به يقول لي ذات يوم:

- طيبة!، تقولون إنّها المدينة المقدّسة!، إنّها وكر التجار الجشعين والفسق والمهر، ومن هم هؤلاء الكهنة الكبار يا معلّمي؟ ألا إنّهم من يضلّون البسطاء بالخرافات، ويشاركون الفقراء في أرزاقهم المحدودة، ويغنون الفتيات باسم البركة، فجعلوا من معبدهم مرتاداً للدعارة والعردة، عليك اللعنة يا طيبة! وأقلقني قوله، وتخايلت لعينيّ أصابع الاتهام وهي تشير إليّ بوصفي معلّمه، فقلت له:

- إنّهم الأساس المتين الذي يقوم عليه العرش. فهتف غاضباً:

- لا كرامة لعرش يقوم على الكذب والفجور. فقلت كالمحدّر:

- إنّهم قوّة لا يستهان بها مثل الجيش... فهتف ساخراً:

- وقطّاع الطرق أيضاً قوّة لا يستهان بها. من بادئ الأمر لم ينشرح صدره لأمون الثاوي في قدس الأقداس، فتطلّع إلى آتون الذي يضيء نوره العالمين، وقال في ذلك:

- آمون إله الكهنة، آتون إله السماء والأرض. فقلت بحرارة:

- إنّك مطالب بالإخلاص لجميع الآلهة. فتساءل مقطّباً:

- أليس لنا قلوب نميّز بها بين الحقّ والباطل؟ فقلت بإغراء:

- سوف تتوجّ ذات يوم بين أحضان آمون.

أدهشني بإدراكه ووجدانه. كان يفوق سنّه بأجيال. وساءلت نفسي أيّ صبيّ هذا؟! أجاء معه من المجهول بأقباس من حكمة الغيب؟. وقد أتقن مبادئ القراءة والكتابة والحساب بسرعة مذهلة حتى قلت مرّة للملكة تبي: - إنّ تفوّقه ليخيف معلّمه.

وكنت أهرع إلى درسه بشغف وشوق وسرور وأتمخّل ما يصدر عن عقله من عجائب إذا ما اعتلى يوماً عرش أجداده. سوف يتفوّق على والديه رغم عظمتها.

أجل كان أمنحتب الثالث ملكاً عظيماً، بداراً لتأديب العصاة، مقبلاً وقت السلم على الطعام والشراب والنساء في عصر عُرف بالرخاء، وقد أنهكه ذلك قبل الأوان فوقع في أسر العلل وفسدت أسنانه فكذّرت صفو أيّامه الأخيرة. أمّا تبي فكانت من أسرة نويّة كريمة، وشهدت لها الأيام بالقوّة والحكمة حتى بزّت حتشبسوت نفسها. وبسبب من غرام زوجها بالنساء ولموت بكرتها تحتمس ولعت بالصبيّ الضعيف المعجزة ولما خرق المألوف فكانت له الأمّ والحبيبة والأستاذ. وكانت تحبّ الحكم أكثر من الحبّ فضضحت بقلبها في سبيل السلطة، وقد اتهمها الكهنة ظلماً بأنّها المسئولة الأولى عن انحراف ابنها الدينيّ، ولكنّ الحقّ أنّها أرادت أن يلمّ ابنها بديانات آلهة بلاده جميعاً، وكانت تحلم بأن يحلّ آتون محلّ آلهة الإمبراطوريّة باعتبارها الشمس التي تنفث الحياة في كلّ مكان، فتؤلّف بين رعاياها برابطة الدين القويّة لا بدافع القوّة وحدها. كانت ترمي إلى وضع الدين في خدمة السياسة من أجل مصر، ولكنّ ابنها آمن بالدين دون السياسة بخلاف ما قصدت، وأبت طبيعته أن يجعل الدين في خدمة أيّ شيء وأن يجعل كلّ شيء في خدمة الدين. الأمّ طرحت سياستها عن وعي وتديب ولكنّ الابن صدّق وآمن وكرّس حياته لرسائله حتى ضحى بوطنه وإمبراطوريّته وعرشه.

وسكت آي قليلاً فحبك وشاحه الأزرق حول صدره وقد بدا وجهه صغيراً مضغوطاً تحت شعره المستعار ثمّ واصل حديثه:

## العائش في الحقيقة ٧٦١

بأمون، وآي ذلك أنه أعدم اسمه القديم وأخذ اسمًا جديدًا هو «إخناتون». ثم بلغ ذروة غربته مقتلاً نفسه من كافة جذوره في ليلة غريبة لم يطلع عليها سواه. تم ذلك في الخلوة التي كان ينتظر فيها الشروق بحديقة القصر المطلّة على النيل. وعلمت بما كان عندما لقيته في الحديقة في الصباح. أغلب الظن أننا كنا في الربيع في يوم بريء من الرطوبة والحماسين.

رنا إلى بوجه شاحب وعينين مسحورتين وقال لي دون أن يردّ تحيّي:

- يا معلّمي، قد تجلّ الحق!

عجبت لمنظره وسألته عمّا يعني فقال:

- كنت في الخلوة قبيل الشروق، رفيق الليل يودّعني والصمت يباركني، ونخت وزني فحُبل إلى أنني سامضي مع ذيول الليل، وتمسّدت الظلمة كائنًا حيًا يوميّ بالتحية، وأشرق في داخلي نور طيب الرائحة، فرأيت الكائنات كلها مجتمعمة في مجال تحيط به العين، تتهامس متبادلة التهانّي تهزّها سعادة الترحيب، وتستقبل الحقيقة المقبلة، وقلت لنفسي أخيرًا انتصرت على الموت والألم، وانهلّت فوق فيوضات السرور، وتسلك الوجود إلى صدري فملأه برحيقه العذب، وسمعت بكلّ وضوح صوته وهو يقول لي «أنا الإله الواحد، لا إله غيري، أنا الحق، أقذف بروحك في رحابي، اعبدني وحدي، وهبني ذاتك فقد وهبتك حبي».

تبادلنا النظر طويلًا. غلبني الصمت، والباس. قال:

- ألا تصدّقي يا معلّمي؟

فقلت صادقًا:

- إنك لا تكذب أبدًا.

فقال بنشوة عجيبة:

- إذن فعليك أن تصدّقي.

فسألته بلهفة:

- وماذا رأيت؟

- سمعت الصوت في مهرجان الفجر . . .

فقلت بعد تردّد:

- هذا يعني أنه لا شيء.

فبسط ذراعيه التحيلتين متسائلًا:

- ولم لا أتّوجّ تحت نور الشمس في الهواء الطلق؟

- أمون هو الذي ساند جدك حتى قبض له النصر.

فتفكّر مليًا ثم تساءل:

- لا أدري كيف يعين إله على ذبح مخلوقاته؟

فقلت بقلق:

- له حكمته المضمون بها على البشر.

- الشمس لا يفرّق نورها بين مخلوق وآخر.

فقلت بإصرار:

- الحياة ميدان صراع، لا تنس ذلك.

فقال بأسّي:

- يا معلّمي لا تحدّثني عن الصراع، ألم تشهد الشمس عند شروقها فوق الحقول والنيل؟ ألم تر الشفق عند المغيب؟ ألم تسمع تغريد البلابل؟، وهديل الحمام؟. . . ألم تقتنص أبدًا الفرحة المقدّسة الغائبة في أعماق حياتنا؟!

شعرت بأنّ الزمام يفلت من يديّ، وأنّ الشجرة تنمو على هواها، وأنيّ أجزّ إلى مازق، فأفضيت بمخاوفي إلى الملكة تبي، ولكنها لم تشاركني قلقي وقالت لي:

- يا آي، ما زال طفلاً بريئًا، سوف يجبر الدنيا، وعمّا قليل سيتلقّى تدريبه العسكريّ.

ودّعي الكاهن الصغير إلى الجنديّة الخاصّة ضمن أبناء السادة النبلاء مثل حور محب، ولكنّه لم يتناغم معها، أو لم يجد القوّة اللازمة لها، فكرهها، وسجّل على نفسه فشلًا لا يليق بأبناء الملوك. وقال بمرارة:

- لا أودّ أن أتعلّم مبادئ القتل.

وحزن لذلك أبوه حزنًا شديدًا وقال لي:

- إنّ الملك الذي لا يحسن القتال يقع تحت رحمة قواده.

وحدّثني الفتى عن مشاحنات نشبت بينه وبين أبيه، ولعلّه منذ ذلك الوقت ترسّبت في أعماقه مشاعر غير طيبة عن أبيه العظيم، وهي التي غالى الكهنة فيها بعد في تفسيرها متهمين إياه بقتل أبيه بعد موته بمحو اسمه من الآثار، والحقّ أنّه لم يحج اسم أبيه إلّا لاقترانه

- إني أمرك بأن تتخلى عن أفكارك وأن ترجع إلى تراث أجدادك.

وانقطعت عن المناقشة احتراماً لأمره، وقالت الملكة بنبرة لطيفة:

- إنك مطالبٌ باحترام واجب مقدس ولينبض قلبك بما يشاء حتى تثوب إلى الهداية . . .

وغادرت مجلسها حزينةً يا معلّمي ولكن أشد إصراراً . . .

فقلت له بإخلاص:

- فرعون نسيح محكم من التقاليد المقدسة، لا تنس هذا أبداً.

وحدثني قلبي بأن مصر ستشهد متاعب لم تخطر ببال، وأن هذه الأسرة المجيدة التي حرّرت الوطن وأنشأت له إمبراطورية إنما تقف على حافة هاوية. وفي ذلك الوقت، وربما قبل ذلك فلست متأكدًا من ترتيب التواريخ استدعاني كاهن آمون إلى مقابلة خاصة. قال لي:

- بيننا عهد قديم يا أي، ما هذا الذي يقال؟

قلت لك إنني لا أذكر اليوم إن كانت تلك المقابلة قد تمت عقب ما ذاع عن ميل الأمير لأتون أم عقب إيمانه بالإله الواحد. على أي حال قلت له:

- الأمير يمرّ بالفترة الحرجة من العمر، إنه إنسان ممتاز، ومثله قد يدفعه الخيال شرقًا وغربًا، ولكن سرعان ما يُرجعه النضج إلى الحق . . .

فتساءل بمرارة:

- وكيف تمرد على حكمتك وأنت خير المعلمين؟

فقلت مدافعًا عن نفسي:

- ما أصعب ترويض النهر في إبان الفيضان!

فقال بصوت قوي:

- على أي رجل من صفوة هذه الأرض ألا يغفل لحظة عن مصير العقيدة والوطن والإمبراطورية!

وجعلت أناجي حيرتي ليل نهار منفردًا ومع أسرتي المكوّنة من تي زوجتي ونفرتي وموت نجمت ابنتي.

وعلى حين اتهمت تي وموت نجمت الأمير بالضلّال إذا بنفرتي تنجذب إلى آرائه بتلقائية مثيرة، وتهمس في أذني:

فقال بيقين:

- هكذا يتراءى الكلّ إذا تحيّل!

- لعله أتون.

- كلاً، لا أتون ولا الشمس، إنه ما وراء ذلك وما فوق ذلك، إنه الإله الواحد.

فتساءلت في حيرة:

- وأين تعبد؟

- في أيّ مكان، في أيّ زمان، وسوف يمّدي بالقوة والحب . . .

ولاذ أي بالصمت. وددت أن أسأله إن كان آمن بإله إخناتون. ولكنّي تذكّرت وصيّة أبي فأمسكت. لقد ارتدّ في اللحظة الحرجة مع المرتدين وربما ظلّ إيمانه سرًا إلى الأبد. واستأنف أي حديثه قائلاً:

- لم أجد بداً من إبلاغ الملك والملكة بما كان. وبعد أيام وجدت الأمير ينتظري في الحديقة التي يفضّل البقاء فيها ما أمكنه ذلك، فقال لي معاتبًا وبأسًا:

- وشيت بي كعادتك يا معلّمي.

فقلت بهدوء:

- إنه واجبي أيها الأمير.

وضحك قائلاً:

- استدعاني أبي لمقابلة مثيرة، فرويت له تجربتي فعبس قائلاً:

- لا مفرّ من عرضك على الطبيب بنتو.

فقلت له بأدب:

- إني في تمام الصحة والعافية.

فقال بخشونة:

- لا أعرف مجنونًا اعترف بجنونه أبدًا.

ثم بنبرة وعيد:

- مصر بلد الآلهة، وعلى صاحب العرش أن يعبد جميع آلهة شعبه، وهذا الإله الذي تحدّثني عنه لا شيء فهو لا يستحقّ أن ينضمّ إلى مجمع الآلهة.

فقلت بهدوء:

- إنه الإله الوحيد ولا إله غيره.

فصاح بي:

- هذا كفر وجنون.

فكرّرت قولي حتى قال بنبرة غاضبة مندرة بالشر:

## العائش في الحقيقة ٧٦٣

وترأى في الأفق سحب الكآبة، واشتدّ النزاع  
بين الملك ووليّ العهد، وأخيراً استدعاني الملك وقال:  
- أرى أن يقوم الأمير برحلة في أرجاء الإمبراطورية  
ليخبر بنفسه الحياة والناس . . .

فقلت باقتناع:

- فكرة طيبة يا مولاي!

كان الملك يقضي في ذلك الوقت أسعد أيامه الأخيرة  
مع عروس في سنّ أحفاده هي تادوخيا بنت توشراتا  
ملك ميتاني، وإن كانت وبالأعلى على صحته. أما  
إخنتون فقد غادر طيبة مصحوباً ببعثة من صفوة  
الرجال. كانت رحلة عجيبة حافلة بالإثارة. سعى إلى  
عبيده في الميادين والحقول ملقياً عليهم مودة وبشاشة  
أذهلتهم، وكانوا ولا شك يتوقعون أن يملأوا بين يدي  
إله جبار ينظر إليهم من علّ أو لا ينظر إليهم على  
الإطلاق. ودعا إلى لقائه رجال الدين في الولايات  
المختلفة ولم يَنْ عن تسفيه عقائدهم وإدانة الطقوس  
التي تبيح تقديم قرابين من البشر. وبشّر بإله الواحد،  
القوة الكائنة في قلب الوجود، الخالقة للجميع على  
سواء والتي لا تفرّق بين رعائهم ونبلاء مصر. كما دعا  
إلى الحب والسلام والسرور مؤكداً أنّ الحب هو قانون  
الحياة، وأنّ السلام هو الهدف، وأنّ السرور هو شكر  
المخلوق لخالقه.

في كلّ مكان أثار الدهول والانفعالات الجنونية.  
وبلغ منّي الذعر مداه فقلت له:  
- أيها الأمير، إنك تقتلع الإمبراطورية من  
جذورها، وتنثرها في الهواء.

فتساءل ضاحكاً:

- متى يدخل الإيمان قلبك يا معلّمِي؟

فقلت بمرارة:

- لقد هاجمت الديانات التي جرى أجدادي على  
احترامها، وأعلنت المساواة والحب والسلام، ولن يعني  
هذا بالنسبة للرعايا إلا فتح باب التمرد وشتّى عصا  
الطاعة . . .

وتفكّر ملياً ثمّ تساءل:

- لماذا يؤمن العقلاء بالشرّ بكلّ هذه القوة؟

فقلت بتسليم:

- إنّه الحقّ يا أبي!

ولا بدّ من كلمة هنا عن نفرتي. كانت تقارب  
إخنتون في سنّه، ومثله حازت عقلاً يفوق سنّها. وقد  
تلقت البنتان تربية عامّة ومنزليّة ممتازة، ولكنّ موت  
نجمت قنعت بتجويد القراءة والكتابة والحساب وشيء  
من اللاهوت إلى الحياة والتطريز والطهي والرسم  
والرياضة والرقص الدينيّ، أما نفرتي فمع إتقانها  
ذلك كلّها تبهرت بدافع شخصيّ في الدين والأفكار.  
ثمّ كان ميلها إلى آتون، والأعجب من ذلك كلّها أنّها  
آمنت بإله إخنتون وقالت بصراحة:

- هذا هو الإله الذي انتشلني من حيرتي المعبّدة.  
وأثارت بذلك سخط تي مربّيتها وأختها غير الشقيقة  
موت نجمت التي أهتمتها بالضلال.

وحدث في ذلك الوقت أن احتفل الملك بمرور  
ثلاثين عاماً على جلوسه على العرش فذهبنا إلى القصر  
واصطحبنا البنّتين معنا لأول مرّة. وشاء القدر أن  
تستحوذ نفرتي على قلب الأمير، وهكذا تزوّجت من  
إخنتون ونحن نتابع الأحداث بذهول ولا نصدّق ما  
يقع. واستدعاني كاهن آمون مرّة أخرى وقال لي بنبرة  
ذات مغزى:

- أصبحت عضواً في الأسرة المالكة يا أبي.

وشعرت بأنّه يوشك أن يعدّني من الخصوم فدافعت  
عن الأمير ما وسعني ذلك وقلت له:

- إنّي رجل لم يجد طيلة عمره عن الواجب.

فقال بهدوء:

- لندع الأيام تكشف لنا عن معدن الرجال!

وطلب منّي أن أعدّ مقابلة بينه وبين نفرتي ففعلت  
بعد أن زوّدت ابنتي بالوصايا. ولكنّها والحقّ يقال لم  
تكن في حاجة إلى وصاياي فأسمعتة كلاماً جميلاً دون  
أن تكشف عن سرّ أو تلتزم بعهد. واعتقد أنّ عداء  
الكهنة لابنتي بدأ مع تلك المقابلة.

وقالت لي نفرتي:

- لم تكن مقابلة يا أبي ولكنّها كانت مباراة غير  
معلنة، الداهية يدافع عن الإمبراطورية على حين أنّه  
يدافع في الواقع عن نصيب معبده من الأغذية والكساء  
والخمر.

متألقة الشباب والجمال وراحت تغني بصوت رخيم:  
يا حيي يا مُبدئي الحياة  
ملأت الأرض كلها بجمالك  
وقد قيّدتنا بحبك!

واستقبلنا أيّامًا أعذب من الأحلام، حافلة بالهناء  
والسرور والحبّ والرخاء. وتفتّحت القلوب حقًا  
للإيمان الجديد. ولكنّ الملك لم ينسَ رسالته. وباسم  
الحبّ والسلام والسرور خاض أشرس حرب ابتليت  
بها مصر. فما لبث أن أمر بإغلاق المعابد ومصادرة  
الآلهة ومحو أسماؤها من الآثار، حتى اسمه غيره، وقام  
برحلاته المشهورة في أنحاء البلاد داعيًا إلى دينه، دين  
الواحد والحبّ والسلام والسرور. وعجبت لاستقبال  
الناس له في كلّ مكان بالحماس والحبّ. وانطبعت  
صورته وصوره نفرتيقي في القلوب كما لم تنطبع صورة  
فرعون آخر من الفراعين الذين سمع الناس عنهم ولم  
يروهم.

ثمّ أخذت الأحزان تزحف، مترددة أوّل الأمر ثمّ  
انهلت كالشلّال. مدّت قبضتها أوّل ما مدّت إلى أحبّ  
بناته إلى قلبه، ابنته الثانية، ميكيتاتون الجميلة، فجزع  
لموتها جزعًا شديدًا، وبكاها بدموع غزيرة أشدّ مما بكى  
أخاه تحتمس في صباه، وجعل يصرخ من قلب  
مكلوم:

- لماذا يا إلهي... لماذا يا إلهي!

حتى توهمت أنه على وشك الكفر به. ثمّ ذاعت  
أبناء الفساد في دواوين الحكومة والأسواق، وترامى إلى  
الأسماع أنين الفقراء. ثمّ جاءتنا أخبار الإمبراطورية  
بتمرد الولايات وتمرّش الأعداء بالحدود حتى قتل  
صديقنا توشراتا ملك ميتاني... والد بادوخيا. وقدمت  
نصيحتي قائلًا بالحاج:

- لا بدّ من التطهير في الداخل وإرسال جيش  
الحدود للدفاع عن الإمبراطورية...  
ولكنّي وجدته صامدًا ثابتًا لا يتغيّر ولا ييأس. قال  
لي:

- سلاحي الحبّ يا أي، اصبر وانتظر...

كيف أسرّ هذه الظاهرة الغريبة؟  
الكهنة يتهمونه بالجنون، وبعض رجاله شاركهم

- نحن نؤمن بالواقع.

فقال بأسًا:

- يا معلّمي، سأعيش في الحقّ إلى الأبد...  
وإذا برسول يلحق بنا وينعى إلينا الملك العظيم  
أمنحتب الثالث.

\*\*\*

وهنا سرد عليّ أنباء العودة، والجنّازة، وجلوس  
الأمير على عرش أجداده باسم أمنحتب الرابع،  
ونفرتيقي شريكته بوصفها الملكة العظمى، وكيف  
دعاهم الملك الجديد فعرض عليهم دينه وكيف أعلنوا  
إيمانهم به، وكيف عيّنت نتيجة لذلك ماي قائدًا لجيش  
الحدود، وجور محب قائدًا للحرس، وهو - أي -  
مستشارًا للعرش. وقد ورث الملك حريم أبيه كالمّتيع  
فأحاطه بالرعاية والزهدا. كما أمر بتخفيف الضرائب  
وبإحلال الحبّ محلّ العقاب. وكيف توترّ الجوّ بينه  
وبين كهنة آمون حتى أمره إلهه ببناء عاصمة جديدة  
له. وقد وقف أي عند إعلان الرجال إيمانهم بالإله  
الجديد وقفة تأمل فقال لي:

- ستسمع عن ذلك أفوالًا متضاربة ولكن لا علم  
لأحد بأسرار القلوب!  
وبدا أنه شعر بأنّه مطالب بالكشف عن سرّ قلبه هو  
فقال:

- عن نفسي آمنت بالإله الجديد باعتباره إلهًا يمكن  
ضمّه إلى بقية الآلهة، وكنت أرى أنه لا يجوز التعرّض  
إلى حرّية العقيدة!

وقال معلقًا على سياسة الحبّ إنه قال لمولاه:

- عندما يأمن الموقّظ من العقاب سيقع في الفساد  
ويسوم الفقراء سوء العذاب.  
ولكنّ الملك قال له بيقين:

- ما زلت ضعيف الإيمان وسوف ترى بنفسك ما  
يفعله الحبّ، ولن يخذلني إلهي أبدًا.

\*\*\*

وقال أي مواصلاً حديثه:

- انتقلنا إلى أخت أتون العاصمة الجديدة، لم ولن  
ترى العين أجمل منها، وأقيمت أوّل صلاة بالمعبد  
القائم في وسط المدينة، وأمسكت نفرتيقي بالطنبور

## العائش في الحقيقة ٧٦٥

- ربّما لأنّه صاحب القوّة ولكنّه لا يقلّ إخلاصاً للملك عن مري رع.

وحصل اللقاء بين نبي وبين الملك ولكنّها فشلت مثلنا، ورجعت إلى طيبة خائبة الرجاء، ثمّ ساءت حالتها الصحيّة وماتت تاركة وراءها تاريخاً ملكياً بالغ الروعة.

ومضت الأحوال من سيئ إلى أسوأ حتّى رفضت جميع الأقاليم عنها الولاء للملك، وبتنا محاصرين في سجن اسمه أخت آتون نحن وإهنا الواحد. وشعر كلّ واحد بدنو الكارثة إلاّ إختاتون الذي جعل يقول بكلّ ثقة:

- لن يخذلني إلهي!

وإذا بكاهن آمون الأكبر يقتحم المدينة معتمداً على قوّة لا قبل لنا بها. وكنت أنا أوّل من تسلّل إلى قصر الكاهن. ودهشت وأنا أنفّرس في وجهه وهو متنكر في زيّ تاجر. وقلت له:

- لماذا تتخفّى وأنت تعلم أنّ الملك لا يؤدي أحداً؟ فتجاهل قولي وقال لي بلهجة حازمة:

- دبر لي لقاء مع رهوس الرجال . . .

واجتمع بنا في حديقة قصر الملكة الراحلة نبي، ولم يخفّ عنا أنّه يتكلّم من موقع القوّة، وأنّه يطالبنا بأن نتعاون معه على حقن الدماء، وتركنا بعد أن ألقى إنذاره الأخير كأنّه حيّة تسعى تحت أرجلنا. وقد حرّرت في تفسير سلوك الرجل لأنني لم أكن أحسن به الظنّ. واستشففت وراءه حقيقة لم يبيح بها وهي أنّه لم يكن واثقاً من ولاء كلّ جيوش الأقاليم ومشفقاً من مغبة فوضى عسكريّة ضارية تنتهي بهزيمة له أو بنصر فادح الثمن. غير أنّي اقتنعت بأنّ الخطر الذي يتهدّده لا يقلّ عن الخطر الذي يتهدّدنا، وأنّ مصر هي الخاسر في الحالين. ولم يتقوّض الاجتماع بذهابه. شعرنا جميعاً بأننا مطالبون باتخاذ قرار.

ورغمًا عنيّ وجددتني أسأله مقاطعاً لأوّل مرّة:

- من شهد ذلك الاجتماع من رجال الملك؟

فضيّق عينيه الباهتين ثمّ قال:

- لم أعد أتذكّر، مضت أعوام وأعوام، ولكن كان

بينهم حور محب وناخت وربّما توتو وزير الرسائل

في هذا الاتهام في الأيام الأخيرة من الأزمة. ولقد حرّرت في أمره ولكنني رفضت وما زلت أرفض ذلك الاتهام. لم يكن مجنوناً، ولكنّه لم يكن أيضاً مثل سائر العقلاء، كان شيئاً بين هذا وذاك لم أعرف كنهه. وزارتنا الملكة الوالدة نبي وسرّ الملك بالزيارة سروراً فاق كلّ تصوّر، واستقبلها استقبالاً لم تشهد أخت آتون له مثيلاً. ونزلت الملكة في قصر سيّد لها خصيصاً في جنوب أخت آتون وظلّ خالياً في انتظارها. واستدعنتي فاجتمعت بها وقد ساءني أن ألاحظ تدهور صحتها وغلبة الكبر عليها أضعاف ما تقتضيه سنّها الحقيقيّة. قالت:

- جئت لحديث طويل معه ولكنّي رأيت أن أمهد لذلك بحديث مع رجاله.

فقلت:

- لم أقصّر في واجبي كمستشار أمين.

فقلت:

- أصدّقك يا أيّ، ولكنّ تراثنا لا يمكن أن يضيع هدراً، ولكنّي أريد أن تصارحني بأمانة، هل نطلّ وفيّاً لابني مهما حدث؟

فقلت بصدق:

- لا يداخلك شكّ في ذلك.

- هل يمكن أن تفرّق عنه عند نقطة معيّنة ترى أنّها تعفيك من الولاء؟

فقلت بإخلاص:

- إني عضو في أسرته فلا أنخلّي عنه أبداً.

فقلت متنبّهة:

- شكراً لك يا أيّ، الحال خطيرة جدّاً، هل تثق

في إخلاص الآخرين بنفس القوّة؟

فتفكّرت قليلاً ثمّ قلت:

- بعضهم على الأقلّ لا يرتقي إليهم شكّ.

فقلت بتوجّس:

- يخيّنني أن أسمع رأيك في حور محب خاصّة؟

فقلت دون تردّد:

- قائد مخلص وزميل صبا الملك . . .

فقلت بكآبة:

- هو من يقلقني يا أيّ . . .

أيضًا، على أيِّ حال كان حور محب أول المتكلمين فقال:

- إنِّي صديقه وقائد حرسه!

وقَلب عينيه البتّيين في وجوهنا وقال بهدوء وتصميم:

- لا مفرّ من حسم الموقف لإنقاذ البلاد.

ولم ينبس أحد باعتراض. وطلبنا مقابلة رسمية. وأدينا فروض التحية التقليدية أمام العرش. وكان إختناون يبتسم أما نفرتي فتبدّت جامدة عاطلة من تألقها المألوف. وابتدّرنا إختناون:

- ليس وراءكم خير!

فقال حور محب:

- جئنا من أجل خير مصر يا مولاي.

فقال بهدوء ويقين:

- إنِّي أعمل لخير مصر ولخير العالم كلّ.

فقال حور محب:

- البلاد على شفا حرب مهلكة، ولا بدّ من قرار حازم لتجنّبها ويلات الخراب.

فسأله الملك:

- هل لديكم اقتراح؟

فقال:

- لا مفرّ من إعلان الحرّية للأديان، وإصدار أمر لجيش الحدود بالدفاع عن الإمبراطورية...

فهزّ الملك رأسه المتوجّج بتاج القطرين وقال:

- لهذا يعني الارتداد إلى الكفر وما يحقّ لي أن أصدر قرارًا إلاّ تنفيذًا لإرادة إلهي الخالق الواحد.

فقال حور محب بجرأة:

- من حقّك يا مولاي أن تحتفظ بعقيدتك ولكن عليك في تلك الحال أن تتنازل عن العرش...

فقال بإصرار وعينه تتوهجان كضوء الشمس:

- هيهات أن ارتكب خيانة في حقّ إلهي المعبود بالتخلّي عن عرشه!

وحول إختناون عينيه إليّ فشعرت بأنني أغوص في أعماق الجحيم ولكنني قلت:

- إنّه السبيل الوحيد للدفاع عنك وعن عقيدتك.

فقال الملك بأسى:

- اذهبوا بسلام.

ولكنّ حور محب قال:

- بل نترك لك مهلة للتأمّل.

وغادرت قاعة العرش مع مَنْ غادرها وأنا أعاني من وخز قلق لعلّه لم يفارقني حتّى اليوم. وفي أيّام متقاربة تلاحقت أحداث خطيرة. هجرت نفرتي القصر الفرعوني واعتزلت في قصرها سهليّ أخت آتون. وقابلتها مستطلعًا ولكنّها قالت لي بإيجاز غامض:

- لن أغادر قصري حتّى الموت.

وأبت أن تضيف كلمة إلى ذلك. أما إختناون فقد أعلن جلوس أخيه سمنخ رع شريكًا له على عرشه، غير أنّ كهنة طيبة بايعوا توت عنخ آمون الأخ الثاني ملكًا معلنين بذلك عزلهم لسمنخ رع وإختناون نفسه، وبدأ أنّه لا خيار فإمّا التسليم بالأمر الواقع وإمّا الحرب. وقابل حور محب الملك فوجده مصرًا على موقفه، وقال له:

- لن أتحون إلهي، وهو لن يخذلني، سأصمد في مكاني ولو وحدي...

فقال له حور محب:

- نستأذنك يا مولاي في هجر أخت آتون والرجوع إلى طيبة، بذلك تعود الوحدة للبلاد ويختفي شبح الخراب، وأتمهّد لك بأنّه لن يمسك الأذى حيًا أو ميتًا، وما دفعنا إلى ذلك إلاّ الرغبة في إنقاذ البلاد وإنقاذك.

فقال إختناون وهو يشتعل بالإصرار والجاس:

- افعلوا ما بدا لكم، لن ألومكم على ضعف إيمانكم، ولست في حاجة إلى حماية أحد فإلهي معي، وهو لن يخذلني...

ونقلنا قرارنا في وجوم وحزن، وسرعان ما اقتدى بنا أهل المدينة حتّى خلت من الأحياء، إلاّ إختناون في قصره، ونفرتي في قصرها، ونفر من الحراس والعبيد. وما لبث أن غزا المرض الجسد الذي لم يعرف الراحة مذ شبّ على قدميه، فسأت وحيدًا، وكان يغمغم وهو يحترق:

ياخالق الجرثومة في المرأة

وصانع النطفة في الرجل



## العائش في الحقيقة ٧٦٧

مليكي، ومذ عرفته وحتى الساعة التي ودّعته فيها إلى الأبد لم يكن له ما يشغله في هذه الدنيا سوى الدين. وراح يستجمع أفكاره ملياً ثم استمرّ قائلاً:  
- أوليته الاحترام الذي يستحقّه مذ عرفته، ذلك أنّي ربّيت على تقديس الواجب، وعلى وضع الشيء في موضعه بصرف النظر عن عواطف الشخصية، وكان هو وليّ العهد وكنت أنا أحد رعاياه، فلزمني احترامه، أمّا باطني فقد احتقره، احتقرته لضعفه والأنوثة الضاربة في وجهه وجسده، ولم أتصوّر أن أكون صديقاً حقيقياً، غير أنّ الواقع أنّني صرت صديقه بكلّ معنى الكلمة. وإنّي لأتساءل كيف كان ما كان؟. ربّما لأنني عجزت عن مقاومة عواطفه الرقيقة المهذّبة ذات السحر النافذ. كان ذا مقدرة عجيبة على اصطياد القلوب وأسر النفوس، ألم يهتف له الشعب وهو يدعو إلى الكفر بالهة الآباء والأجداد؟. وكنا - هو وأنا - على طرفي نقيض، فلم يمنع ذلك عواطفنا من أن تتجسّد في صورة صداقة متينة، صمدت للأعاصير حتى ارتطمت آخر الأمر بصخرة لا تقهر. إنّي أسمعته وهو يقول لي بأسياً:

- حور محب، أيها الوحش المتعطّش للدماء، إنّي أحبّك.

وعبثاً حاولت أن أعثر على شيء مشترك بيننا. دعوته كثيراً إلى الصيد وهو رياضتي المفضّلة فكان يقول لي:  
- لا تدنّس الحبّ الذي ينبض به قلب الوجود.  
لم يكن يعجب بالزيّ العسكريّ فكان يرمق سراويلي القصير وقلنسوتي وسيفي ويتساءل متهمكاً:  
- أليس عجيباً أن يدرب أناس مهذّبون على القتل ليحترفوه بعد ذلك؟  
حتى قلت له مرّة:  
- ترى ما رأي جدّك العظيم تحتّمس الثالث فيما تقول؟  
فهتف:

- جدّي العظيم! أقام عظّمته على هرم من جثث المساكين، انظر إلى صورته المنقوشة على جدار المعبد وهو يقدم القرابين من الأسرى إلى آمون، فأني جدّ عظيم وأيّ إله دمويّ..

ومعطي الحياة للوليد في بطن أمه  
لا يعرف الوحده من يذكرك  
وإذا غاب عنك الوعي  
صارت الأرض في ظلمة  
كأنها موات

وسكت أي ليستردّ ذاته من تيار الذكريات، ثم نظر نحوي بعطف وقال:

- هذه هي قصّة إخناتون الذي يدعى اليوم إذا ذكر بالمارق وتُصّب عليه اللعنات. ولا أستطيع أن أهوّن من الخسائر التي حاقت بالبلاد بسببه فقد خسرت إمبراطوريّتها ومزقتهما الخلافات، ولكنّي أعتزّ لك بأنني لا أستطيع أيضاً أن أنزع من قلبي حبي له وإعجابي به، فلندع الحكم النهائيّ عليه للميزان أمام عرش أوزوريس حاكم العالم الأبدّي.

\*\*\*

وغادرت قصر الحكيم أي وأنا اعتقد أنّ الحكم النهائيّ عليه هو أيضاً لن يعرف إلا حين يوضع قلبه فوق كفة الميزان أمام عرش أوزوريس.

## «حور محب»

متوسّط القامة، متين البنيان، ذو مظهر يوحي بالقوّة وصدق العزيمة، سليل أسرة كهنوتية متوسّطة بمنف غنيّة بمن عُرف من رجالها من أطباء وكهنة وضباط، وكان أبوه أوّل من ارتفع من الأسرة إلى مستوى السادة لشغله وظيفة «رئيس الجياد» في بلاط أمنحتب الثالث. وهو الرجل الوحيد من رجال إخناتون الذي احتفظ بوظيفته كقائد للحرس في العهد الجديد، ووكّل إليه بمهمّة القضاء على الفساد في داخل البلاد وإعادة الأمن إلى ربوعها فأحرز في ذلك نجاحاً مرموقاً. وقد شهد له كاهن آمون الأكبر، وصدّق على ذلك الحكيم أي، بأنّه كان بطل اللحظة الحرجة في مأساة العهد البائد. استقبلني في قاعة استقباله المتصلة بحديقة القصر، وأنشأ محدّثي عن «المارق» قائلاً:  
- كان رفيق صباي، وصديقي، قبل أن يصير

- هل تؤمن حقًا بآمون وما يقال عنه؟  
فتفكرت قليلاً ثم قلت:  
- لا كما يؤمن الناس به!  
فقال بجديّة:  
- إيمان أو لا إيمان، ولا ثالث بينهما.  
فقلت بصراحة:  
- لا أهتم بالدين إلّا باعتباراه من تقاليد مصر  
الراسخة.

فقال بثقة مثيرة:  
- إنك تعبد ذاتك يا حور محب.  
فقلت بتحدّ:  
- قل إنّي أعبد مصر.  
- ألم يساورك إغراء لمعرفة سرّ الوجود؟  
فقلت بمرارة:  
- إنّي أعرف كيف أمحق هذا الإغراء.  
- يا للخسارة، وماذا فعلت من أجل روحك؟  
فقلت متبرّماً بالمطاردة:  
- إنّي أقدّس الواجب، وقد شيّدت لي مقبرة!  
فقال متنبّهاً:  
- أتمنّى يوماً أن تذوق سرور القرب.  
فتساءلت في دهشة:  
- القرب؟  
- القرب من خالق الوجود الواحد.  
فتساءلت في شيء من الاستهانة:  
- ولم يكون واحداً؟  
فقال بهدوء:

- إنّه أقوى وأجلّ من أن يوجد شريك له.  
ذلك الشابّ المهزول، الذي يتجنّب القصر ويبيم  
بالخديقة. المولع بالأزهار والغباء والطيور مثل فتاة  
مهذّبة. لمّ لم يخلق أنثى؟ لقد همّت الطبيعة بأن تفعل  
ذلك ولكنّها عدلت عنه في اللحظة الأخيرة لسوء حظّ  
مصر.

وسكت حور محب وقتاً ثمّ واصل الحديث:  
- وتوكّد مصيره بزواجه من نفرتي. ظهرت لأوّل  
مرّة في القصر الفرعونيّ في الاحتفال بمرور ثلاثين عامًا  
على جلوس الملك على العرش فبهرت الأعين بجهاها

وقلت لنفسي إنّه يُقبَل كصديق رغم شدوذ آرائه  
ولكن كيف يجلس بها على العرش؟ لم أستطع أبداً  
أن أهضمه كفرعون من فراعين مصر، ولم أتحوّل عن  
رأبي هذا في أيّ وقت من الأوقات، ولا أستثني من  
ذلك أهنا الأوقات وأحفلها بالسرور، بل لعله تبدّى  
لعينيّ في تلك الأيام السعيدة أوغل في البعد عن هيبة  
الفراعة ومجدهم الخالد. وحدث أن انتدبت لتأديب  
بعض العصاة في طرف من أطراف الإمبراطوريّة قائداً  
لأوّل مرّة لحملة عسكريّة. وهناك أحرزت نصراً حاسماً  
فرجعت بالغنائم والأسرى. ونلت الجزاء تكريماً نبيلاً  
من مولاي أمنتحتب الثالث. وهنّأتني الأمير بسلامة  
العودة فدعوته لمشاهدة الأسرى. استعرضهم وهم  
وقوف شبه عرايا يرسفون في الأغلال. رنا إليهم طويلاً  
فنظروا نحوه مستعطفين كأنما لمسوا الضعف في أعماق  
نظرتهم. وأظلت وجهه غمامة كآبة وقال لهم بركة:

- اطمئنوا فلن يمسكم أذى!

وهاج خاطري لأنني كنت على يقين من أنّهم  
سيلقون ألواناً من التأديب حتّى يتعودوا على النظام  
والعمل. ولما رجعنا معاً سألني بأسياً:

- أنت فخور بما صنعت يا حور محب؟

فقلت بصراحة:

- إنّي أستحقّ ذلك أيّها الأمير.

فتمتم في غموض:

- يا لها من مشكلة!

ثمّ ضحك قائلاً في دعابة:

- ما أنت إلّا قاطع طريق يا حور محب!

ذلك كان وليّ العهد المرشّح للجلوس على العرش.  
على ذلك فقد شدّني إلى صداقته وحبّه، وأغراني دائماً  
بمتابعة أفكاره التي لم أتأثر بها قطّ، كمن يتابع صوتاً  
غريباً لا ينتمي للبشر. وما زلت حتّى الساعة أتساءل  
في حيرة كيف صداقته وكيف أحببته؟ وبهذه المناسبة  
أذكر مناقشة دينيّة جرت بيننا أمام خلوته بحديقة  
القصر الملكيّ. سألني:

- لماذا تصليّ يا حور محب في معبد آمون؟

فأخذت للسؤال، خاصّة وأنّني لم أملك إجابة  
ترضيه أو ترضيني. ولما وجدني صامتاً سألني:

## العائش في الحقيقة ٧٦٩

ومات أمنحتب الثالث واستدعي الأمير للجلوس على عرش نحتمس الثالث. وتولّى العرش ودعا الرجال واحداً في إثر واحد ليعرض عليهم دينه. ولما جاء دوري قال لي:

- لا بدّ من إعلان الإيمان بالإله الواحد لمن شاء أن يتعاون معي يا حور محب.  
وبصراحتي المعهودة قلت له:

- مولاي، موقفي من الالهة معروف لديكم، ولكنّي رجل الواجب وخادم العرش، وإني أعلن إيماني بالإله الواحد إخلاصاً لعرشك وخدمة لوطني...  
فقال باسماً:

- حسبي ذلك الآن، لا أحبّ أن يخلو قصري منك يا حور محب، وسوف تتلقّى رحمة الإيمان ذات يوم.

وبدأت حياة جديدة في خدمة ملك جديد وإله جديد، وبإخلاص كامل غريب لأنه استند إلى الإيمان بالواجب وحده دون غيره. ولكن لا مفرّ من الاعتراف بأنّ الملك تكشّف عن قوى خفيّة لم أعرفها فيه من قبل. رغم الضعف الجسديّ والأثوثة الخلقية انطلقت منه عزيمة متحدّية مثل ألسنة اللهب لا تدري من أيّ مجهول استعارها، ناضل بها أقوى الرجال وهم الكهنة، وحطّم بها التقاليد العريقة الراسخة والسحر والتعاويد. وتكشّفت نفرتيتي عن ملكة كأنما لم تخلق إلا كي تكون ملكة عظمى مثل تيمي وحشيشسوت، فكانت هي المدبّرة لشئون الملك على حين تفرّغ هو لرسالته. بيد أنّها بدت لي - وللجميع - مؤمنة بالدين الجديد إيماناً فاق للأسف كلّ تصوّر. والحقّ لقد قيل عن هذه المرأة كلّ ما يمكن أن يقال، وأنا أكره شخصياً ترديد ما يقال عن الأمور الشخصية، ومع ذلك فإنّ إيمانها يبقى لغزاً يطلب حلاً. أحياناً لم أشكّ في صدقها، وأحياناً أخرى ساورتني شكوك. هل تتظاهر بالإيمان محافظة على مركزها الرفيع؟ هل تشجعه عليه لتستأثر وحدها بشئون الأرض والرعايا؟، أكان لأبيها في ذلك دور خفيّ لعبه بيد ابنته؟. وقد حاول الكهنة أن يبصروها بالعواقب ولكنّها خيّبت رجاءهم فصبّوا عليها مقتهم حتى هذه الساعة. إنهم آمنوا بضعف

وشخصيتها، واشتركت في الرقص مع بنات السادة، وغنّت بصوت رخيم:

أخي ما أحلى الذهاب إلى البحيرة  
والاغتسال على مرأى منك  
لترى جمالي في ثوبي الكتان الرقيق  
حينما يبتلّ ويلتصق بجسدي  
تعال وانظر إليّ

ولا أشكّ أنّ أي وتي زوجته أحسنا تقديم كرميتها، ومهدا لها الطريق إلى العرش. ولا تنس أنّ أي كان معلّم الأمير ومرشده فلاحته له ولا شكّ الفرص للتأثير في شخصيّة ضعيفة متهاككة وإيقاعها في الشرك. على أيّ حال فازت نفرتيتي في الحفل بإعجاب الأمير وأمه الملكة تيمي معاً. وسرعان ما زُفت نفرتيتي إلى الأمير. وأذكر أنّ كاهن آمون قال لي في حفل الزفاف:

- لعلّ الزواج يُصلح ما أفسده تهوّر الشباب.  
فقلت له ببرود:

- إنّها كما ترى من أصل شعبيّ، وما كانت تحلم بالعرش، ولن تجازف أبداً بإغضاب زوجها الملك!  
وقد ساءلت نفسي ترى أكانت نفرتيتي ترضى بالأمير زوجاً لو لم يكن ولياً للعهد؟! الحقّ أنّه لا يمكن أن يكون فارس أحلام أيّ فتاة ولو كانت فلاحه ساذجة. وقد ازداد الأمير بعد الزواج تحدياً للتقاليد. وعلمت متأخراً بعض الوقت بادّعاءاته الغريبة عن تجلّي إله له وسماح صوته، ورأيت المستقبل يتسرّب بليل بهيم. ويزداد التوتّر غضب الملك أمنحتب الثالث وأمر بإرساله لزيارة الإمبراطورية.

\*\*\*

هنا حدّثني بإسهاب عن مناقشاته الدينيّة، واتّصاله بالرعايا وتبشيره بالمساواة والحبّ والدين الجديد دون إضافة جديدة إلى ما حدّثني به الحكيم أي.

\*\*\*

وقال معلّقاً على الأحداث:

- ولأوّل مرّة، ورغم الصداقة والولاء، تمثّيت أن أقتله بسيفي قبل أن يجلب علينا الخراب. والحقّ أنّي تمثّيت قتله دون أن أضمر له أيّ شعور بالكراهية.

ثم قال:  
 - وعند ذلك نصحته قائلاً: «علينا أن نغير من سياستنا»، ولكنه كان يتصلّى لأيّ خطوة توحى بالتراجع، ويتشّى بالحماس، فقال لي:  
 - يجب المضيّ في المعركة الإلهيّة حتّى نهايتها، ولن يكون لها إلاّ نهاية واحدة هي النصر!  
 وربّت على منكبي بعطف ثمّ واصل:  
 - لا تشارك التعساء إصرارهم على حبّ التعاسة! ولما ازدادت الحال سوءاً تمّنت مرّة أخرى أن أقتله بسيفي وأنقذ البلاد من جنونه. تمّنت أن أقتله باسم الحبّ والولاء. وتبيّن لي أنّ ما حسبته قوّة جيّارة تنطلق من أعناق هيكله الضعيف ما هي إلاّ جنون أهوج يجب حصره وشكمه. وعند ذروة الأزمة زارتنا الملكة الوالدة تبي، واستدعتني إلى لقاء بقصرها جنوب أخت آتون. وقالت لي:

- سيكون لي حديث طويل مع الملك.  
 فقلت لها بكلّ إخلاص:  
 - لعلّك توفّقين فيها فشلنا فيه.  
 فرمقتني بنظرة كنت خبيراً بعمقها وسألتي:  
 - هل دفعتك الأحداث إلى مصارحته برأي جديد في الموقف؟  
 فأجبتها من فوري لسابق علمي بتأويلاتها للتردّد الذي قد يسبق الإجابة:

- اقترحت يا مولاتي تغيير السياسة في الداخل والخارج.

فقلت بارتياح:  
 - هذا ما يُتّظر من المخلصين أمثالك.  
 - إنه مليكي وصديقي كما تعلمين يا مولاتي...  
 فواجهتني بنظرة صريحة وسألتي:  
 - هل تعدني يا حور محب بالمحافظة على الولاء له في جميع الظروف والأحوال؟  
 فقلت وعقلي يعمل بسرعة فائقة:  
 - أعدك بالولاء له مهما تكن الظروف والأحوال.

فقلت بارتياح غير خاف:  
 - إنهم يطلبون برأسه، وأنتك رجل القوّة التي تحافظ عليه، وربّما سمعوا إلى استقطابك عاجلاً أو آجلاً.

إختاتون ولم يتصوّروا به قدرة على التحديّ أو النضال أو الابتكار. من أجل ذلك اتّهموا أمّه تبي بأنّها خالقة أفكاره كما اتّهموا نفرتيّي بأنّها سرّ عناده وصلابته. وهي صورة خاطئة. لك أن تددين الجميع ولكن لا شك أنّ جميع الخزعبلات قد خرجت من رأس إختاتون نفسه. وبالانتقال إلى العاصمة الجديدة أخت آتون أعلن الملك حربه على جميع الآلهة. وانغمس في التبشير لدينه في جميع الأقاليم. وهادنتنا أيّام نصر وسعادة ورخاء حتّى خيل إليّ أنّ هذا الشابّ المتهافت قد قيّض له أن يقوِّض ببيان الدنيا وأنّه يعيد بناءه من جديد على مثال من صنّعه وتخطّطه. تابعت غزواته للأقاليم واستقبال الجموع له بانبهار. آنست في الجوّ قوّة من نوع جديد تمارس بجدارة مذهلة. ولكنني لم أخل أبداً من شكّ في العالم الجديد الذي يتخلّق فيها يشبه الاكتساح. أيصمد هذا العالم للزمن؟ هل يمكن أن تتوازن الأمور على سنة الحبّ والسلام والسرور؟! وأين تذهب حقائق الحياة وتجاربها؟ وقالت لي نفرتيّي مرّة وهي قارئة للأفكار:

- إنه ملهّم، ولن يخذله إله الذي أغدق عليه حبه، وسيكون النصر لنا...  
 وانفردت يوماً بالوزير ناخت في مجلس صفو وشراب، وكنت وما زلت مؤمناً بمقدرته السياسيّة، فسألته:

- أتؤمن حقاً بالإله الواحد، إله الحبّ والسلام؟

فقال بهدوء:

- نعم، ولكنّي لست مع مصادرة الآلهة الأخرى.

فقلت بارتياح:

- حلّ وسط، ألم تُثِرْ عليه به؟

- بلى، ولكنه يعتبره كفرًا.

- ونفرتيّي؟

فقال بأسف:

- إنّها تتكلّم بلغته!.

\*\*\*

ومضى يحكي لي في إسهاب كيف انقلبت الأمور في الداخل والخارج دون إضافة جديدة لما قاله الكاهن الأكبر لامون أو الحكيم أي.

## العائش في الحقيقة ٧٧١

وشملنا صمت الختام فأخذت أنسق أوراقي تأهبًا  
للذهاب . غير أنني سألته :  
- كيف تفسّر هجر نفرتيقي له ؟  
فأجاب دون تردّد :  
- لقد أدركت ولا شك أنّ جنونه جاوز خطّ الأمان  
فهجرت قصره محافظة على حياتها !  
- ولمّ لم تهجر المدينة معكم ؟  
فقال بازدراء :  
- كانت على يقين من أنّ الكهنة يعتبرونها الفاعل  
الأصليّ في الجريمة الكبرى !  
فسألته وأنا أحييه مودّعًا :  
- وكيف مات ؟  
- عجز ضعفه عن احتمال الهزيمة ، واهتزّ إيمانه ولا  
شكّ بتخليّ إلهه عنه ، فمرض أيامًا قليلة ثمّ مات .  
فسألته بعد شيء من التردّد :  
- كيف تلقّيت خبر موته يا سيّدي القائد ؟  
فأجابني متجهّيًا :  
- لقد قلت كلّ شيء !

## « بك »

يعيش المثال بك في جزيرة نيلية على مبعده ميلين  
جنوب طيبة . في بيت أنيق يقع في وسط مزرعته  
الصغيرة ، وفي شبه عزلة . ورغم ما يُشهد له به من  
تفوّق في فنّه إلاّ أنّه لم يُدعّ للمشاركة في بناء الدولة  
الجديدة لما عُرف عنه من ولاء لسيّده السابق ، بل ولما  
يُتهم به أحيانًا من الكفر بالآلهة القديمة . وهو اليوم  
بشارف الأربعين من عمره ، طويل القامة نحيلها مع  
قوّة ونشاط ، ذو سمرة داكنة ونظرة ساخنة تغشاه  
كأبة . تبسّم وهو يقرأ رسالة أبي ثمّ نظر إليّ قائلاً :  
- انطفات روح الجمال بذهابه وغاض السرور من  
الألوان والنغم !  
وقد عرفته وأنا صبيّ أتلقّى أصول الصنعة في  
مدرسة أبي « من » المثال الأكبر للملك أمنحتب الثالث .  
فذات يوم زارنا صبيّ محمولاً على محفّة ، فهمس أبي في  
أذني :

فكزّرت وعدي بالصدق والإخلاص . وقد حافظت  
على عهدي عندما اقتنعت بأنّ خير وسيلة للدفاع عنه  
هي التخليّ عنه . وفشلت نبي في مسعاها رغم ما  
عُرف عنها من سيطرة كاملة عليه . وغادرت أخت  
أتون لتموت في حسرة أبدية . وضُيّق الخناق علينا في  
مدينة الإله الجديد ، وتوكّد لديّ أنّ الإله الجديد عاجز  
عن الدفاع عن نفسه فضلًا عن محبوبه المختار . وذقنا  
الحمرمان وتهدّنا الموت من الشمال والجنوب . ولم  
يضعف ذلك من مقاومته بل لعلّه زاده إصرارًا وعنادًا ،  
ولم تنطفئ نشوته الدينية فكان يقول لمحدّثه :  
- لن يخذلني إلهي يا ضعيف الإيمان .

وكلّما رأيت وجهه المتألّق بالنشوة والثقة أيقنت  
أكثر وأكثر من جنونه . لم تكن معركة دينية كما تجري في  
الظاهر ولكنّها كانت فوضى جنونية تحتدم في رأس  
رجل وُلد في هالة من الشذوذ . ثمّ كانت زيارة كاهن  
أمون لنا وتوجيه إنذاره الأخير إلينا ، وقد قبض على  
يدي بقوة وقال لي :  
- إنك رجل الواجب والقوّة يا حور محب فانقذ  
ضميرك بفعل ما يرجى منك .

والحقّ أنّي أكبرت في الرجل ارتفاعه عن التشفيّ  
والانتقام وسعيه إلى تجنّب البلاد ويلات المزيد من  
الخراب . وطلبنا المقابلة . كانت عسيرة واليمة وحزينة .  
كلّنا نفض عنا الولاء نحو الرجل الذي لم يكن لشيء  
سوى الحبّ . الذي صوّر له جنونه حلّمًا عجيبًا أراد لنا  
أن نشاركه في سعادته الوهمية . واقترحت عليه إعلان  
حرّيّة الأديان والدفاع الفوريّ عن الإمبراطورية . ولما  
رفض اقترحت عليه أن يتخلىّ عن العرش ويتفرّغ لنشر  
دينه . وغادرناه ليحيد النظر في الموقف كلّه . وقد أشرك  
سمنخ رع في عرشه على حين هجرته نفرتيقي ولكنّه لم  
يتراجع خطوة عن إصراره . وقزّرتنا التخليّ عنه  
والانضمام إلى الجانب الآخر لتعود الوحدة للوطن ،  
بعد الاتفاق على ألاّ يتعرّض له أحد - ولا لزوجه -  
بأذى . وأقسمت بيمين الولاء للملك الجديد توت عنخ  
أمون فأسدل الظلام على أكبر مأساة تقطّع لها قلب  
مصر ، فانظر إلى ما صنع الجنون بمجد أرض مجيدة  
عريقة !

فتنجلي عنها الظلمات  
يا خالق الأرض والسماء  
والإنسان والأنعام  
وغمري السلام فقلت له ونحن وحيدان بين  
المحجر والمدرسة:

- أشهد يا أميري، أنني مؤمن بإلهك . . .  
فقال بحبور:

- إنك ثاني المؤمنين بعد مري رع ولكن ما أكثر  
الأعداء يا بك.

وعلمت فيها بعد أن نفرتي آمنت معنا في وقت  
واحد وهي في قصر أبيها أي. وكان يحدثني في أوقات  
متباعدة عما يلقي من عناء بسبب رسالته فكنت ألم  
بشذرات من الأحداث رغم عزلي في المحجر خارج  
طيبة. وهداني إلى الفن الحقيقي أيضًا. فإن كان أبي  
هو الذي علمني الأصول فمولاي هو الذي وهبني  
الروح. لقد وهب ذاته للحقيقة في الوجود والفن. من  
أجل ذلك أنكره الرجال الذين يعيشون للعالم ولا  
يحسنون إلا لغتها المتبدلة، ويُقبلون معها ويدبرون  
معها، ويهرعون إلى أي مائدة مثل الصقور والغربان.  
مولاي نوع آخر، اسمع إليه وهو يناجي إلهه قائلاً:  
- يا خالق الحي والجسد، خُص بصري بنورك،  
وصدري بسرورك، وقلبي بنبضك الكوني العذب.  
وأصغ إليه وهو يقول لي:

- احذر تعاليم الفن التي يريد أن يكبلنا بها  
الأموات، اجعل حجرك مثنوى للحقيقة!  
ويقول لي أيضًا:

- لقد خلق الإله الأشياء فلا تعبت بها، انقلها  
بأمانة، أبرزها بتقوى، لا تسلط عليها الخوف أو  
الشهوة أو الأمان الكاذبة، اعكس كل ما بي من نقص  
في الوجه والجسد ليتجلى جمالك في الحقيقة!

ذلك هو مولاي وأستاذه الذي لا يعيد نعمة  
قديمة، الذي يبهر بالجديد الحي، محطّم الأوثان،  
مقتلع التقاليد البالية من جذورها، السابح في بحر  
المجهول، المنغمس في نشوة الحقيقة. ويوم اعتلى  
العرش أعلنت إيماني مرة أخرى بين يديه وتقلدت  
وظيفة «المثال الأكبر للملك». ويوم أمره الإله بالهجرة

- ولي العهد!

رأيت صبيًا يماثلني في العمر، نحيلًا ضعيفًا، ذا  
نظرة شديدة التأثير، بسيطًا بشوشًا، مغرمًا بلغة  
الأحجار المعجزة. جاء لي شاهد ويتعلم، ويجاور في ألفة  
محبة سرعان ما تُسبك أنك تحدث ابنًا من سلالة  
الآلهة. واطب على زيارتنا في أيام معينة فنشأت بينه  
وبيني صداقة، باركها أبي فخورًا وسعدت بها أنا غاية  
السعادة. وجعل أبي يقول لي عنه:

- إنه رجل ناضج ذو سن صغيرة يا بك!

أجل كان كذلك. حتى كاهن آمون الأكبر اعترف  
له بنضجه المبكر وإن فسره على هواه بأنه قوة شريرة  
حلّت فيه. كلاً يا سيدي. القوة الشريرة معشّشة في  
قلوب الكهنة. أنا سيدي ومولاي فلم يعرف الشر  
قلبه وربما كان ذلك سرّ مأساته. ولما تقدّم به العمر  
سنوات أخذ يناقش أبي وهو مكبّ على صنع تمثال  
لامنحتب الثالث. قال له وهو يتابع العمل بين أبي  
ومعاونه:

- لكم تقاليد يا معلّم تحنق الأنفاس . . .

فقال أبي بفخار:

- بالتقاليد تقهر الزمن أيها الأمير.

فهتف مولاي بنشوة:

- مع مولد كلّ شمس يولد جمال جديد . . .

واقترب مني وهمس:

- يا بك، لن يكون هذا تمثالاً أميناً لأبي، أين

الحقيقة؟!

الحقيقة التي عاش من أجلها ومات في سبيلها. منذ  
وقت مبكر انثالت على روحه إلهامات الغيب، كأنما  
خرجت معه إلى الوجود ساعة وجد دفقة من أنوارها.  
ويومًا ما قال لي:

- إنني أحبك يا بك، أتقن درسك لتكون رجلي في  
حقل الإبداع.

الحق يا سيدي أنني مدين لمولاي وسيدي بكلّ  
شيء، بالدين والفن معًا. إنه الذي وجه مداركي  
لدين آتون، وفتح قلبي بعد ذلك للإله الخالق الواحد  
الذي تجلّى له صوته بالإيمان والحب:

تضيء الأرض بسورك

### العائش في الحقيقة ٧٧٣

واقفاً في خلوته يرقب ما يحدث بعينين طافحتين بالهدوء  
والصمت. ولما رأي قال:

- سوف تذهب معهم يا بك.

فقلت بغضب:

- لم يجرؤ أحد على مخاطبتي في ذلك يا مولاي.

فقال باسماً:

- ولكنتك ستذهب يا بك.

فقلت بحماس:

- سأبقى إلى جانب مولاي إلى الأبد.

فقال برقة:

- ستذهب مختاراً أو مكرهاً . . .

ولدت بالصمت فخامري الشك من جديد فسألته:

- مولاي، أيمكن أن ينتصر الشر؟

فرايته يغيب ثم يرجع ليقول لي:

- الخير لا يهزم، والشر لا ينتصر، ولكننا لا نشهد

من الزمان إلا اللحظة العابرة، والعجز والموت يحاولان  
بيننا وبين رؤية الحقيقة.

وراح يترنم بصوت عذب:

إنك في قلبي

وليس هناك من يعرفك غير ابنك

فأنت الذي علّمته

والأرض في قبضة يدك

وكما أنه لم يتخل عن إيمانه لحظة فلم يفرط أبداً في

ناموسه الأسمى وهو الحب. فحتى في تلك الساعة

التي رأى فيها الهرم الذي شيّده يتهاوى حجراً في إثر

حجر، ورجاله ينضمّون إلى أعدائه، وزوجته المحبوبة

تهجره دون كلمة وداع، حتى في تلك الساعة المنحوسة

لم يعرف قلبه الكراهية أو الحقد، ذلك الرجل الذي

ترفع حتى عن العقاب المشروع، الذي هام بالإنسان

والحيوان والجهاد. انظر يا سيدي، لقد تولى الملك في

عصر الرخاء، دانت له إمبراطورية مترامية وشعب

محب مطيع، ولو شاء أن ينعم بالسعادة والجلال

والنساء والراحة لما عزّت عليه، ولكنّه أعرض عن

ذلك كله، واهباً ذاته للحقيقة، متحدّياً قوى الشرّ

والأنانية والطمع، فضحى بكلّ شيء وهو يتسم. وقد

سألته يوماً بعد أن دُزّت قرون الشرّ والهمجية:

إلى المدينة الجديدة، ذهبت على رأس ثمانين ألفاً من  
العَمال وأهل الصنعة لنشيد أجمل مدينة عرفتها  
الأرض، مدينة النور والإيمان، أخت آتون. ذات  
الشوارع العريضة والقصور السامقة والحدائق الغناء  
والبحيرات المترعة، آية آيات الفنّ والجمال التي انقضّت  
الحقد عليها فوقعت فريسة الكهنة والزمن.

وسكت مرغماً ليجترّ حزنه المقيم على رائعة حياته  
التي تتهاوى ساعة بعد أخرى، وتفتّت لتضيع في زحمة  
تراب الأرض. واحترمت سكوته حتى خرج منه قائلاً:

- وكان لمولاي إنجازه في الفنّ أيضاً فأبدع شعراً

ورسماً، وجرب أصابعه الطويلة الرشيقة في مناجاة

الحجر، وإليك سرّاً لا يعرفه إلا الأقلون، فقد نحت

لنفرتيقي تمثالاً نصفياً آية في الحقيقة والجمال، لعلّه

يوجد الآن في القصر المهجور أو في قصر نفرتيقي، إن

لم تكن انتقمت منه يد التخريب، وعندما هجرته

الملكة بغتة مخلّفة في قلبه طعنة لا تندمل طمس عين

التمثال اليسرى، معرباً بذلك عن خيبة أمه مع

الإبقاء على بقية التمثال رمزاً لحبّ خالد، وإيمان

راسخ لم يتزعزع إلا في لحظة يأس أخيرة. لقد كانا معاً

الرمز الحيّ للإله الذي هو أب وأمّ معاً، وكان أمّادها

عن حبّ جليل ثبت أمام عواصف الزمن والأحداث،

فكيف دهمتنا بهجر الرجل في اللحظة الأخيرة؟ لم تمّ

نبت إلى جانبه حتى النهاية؟ لقد اتهمها أعداؤها بأنها

هربت من السفينة الغارقة لتجد مكاناً مناسباً في الدولة

الجديدة، ولكنّها لم تخطب مودة أحد، ولزمت قصرها

بمحض مشيئتها قبل أن يتحوّل إلى سجن. كلاً، لا

تنتمي لمولاي إلى الانتهازيين، ولكنّي أعتقد أنّ إيمانها

اهتزّ لموقف الإله اللامبالي من الأحداث، فهجرت

العرش والعقيدة في ساعة يأس سوداء. أمّا مولاي فلم

يتزحزح عن إصراره قيد حبة رمل. كيف لا وهو الذي

تجلّى الإله لروحه وأسمعه صوته ودعاه بابنه الحبيب؟!

لم يعد وجدانه يتسع لسماع صوت آخر، ولم يعد

يكثر لرأي أو نصيحة كما ينبغي لمنغمس في الحقيقة.

وهو لم يهزم ولكننا نحن الذين انهزمنا، فحتى أنا

خامرتني شكوك، خاصة بعد مطالبته بالتنازل عن

العرش، وأكثر عندما قرّر الجميع التخلّي عنه. وجدته

## «تادوخييا»

هي في الأصل ابنة توشراتا ملك ميتاني أصدق صديق للعرش المصري. تزوج منها أمنحتب الثالث في أيامه الأخيرة، وهو في الستين وهي في الخامسة عشرة، ثم ورثها إخناتون ضمن حريم أبيه عند اعتلائه العرش. وهي تعيش اليوم في قصر بشمال طيبة مع ثلاثمائة من العبيد. وقد استقبلتني بناء على توصية من حور محب. في الحلقة الرابعة ذات جمال مثير وكبرياء وعظمة. ولقيتها في حجرة فاخرة وهي تجلس على كرسي من الأبنوس المطعم بالذهب. شجعتني بإبتسامة وراحت تروي قصتها قائلة:

- عاشرت الملك أمنحتب الثالث فترة قصيرة، في جو مشحون بالغيرة والحقد. وعجبت للملكة العظيمة نبي، كيف تبوّأت مركزها الرفيع، على حين يوجد عشرات مثلها ممن يقمن بالخدمة في حريم أبي الملك العظيم توشراتا. وعجبت أكثر لمنظر ولي العهد الذي كنت أراه في الحديقة، أي مخلوق هزيل قبيح يثير الاحتقار أكثر مما يثير العطف. وساءت صحة الملك الأب فاتهمني الحاقدون بأنني المسئولة عن ذلك، والحق أنني قرأت النهاية القريبة في صفحة وجهه المتخضن منذ الليلة الأولى. ورحت أفكر هل يرثني قريباً ذاك الصبي الحقير؟! وقلت لنفسي إن الحياة مع أبيه العجوز أفضل، فهو عظيم ومرح وذو حيوية تناقض سنه وصحته. وكثيراً ما كان الحديث يدور حول ولي العهد في الحريم، فتتندر بولعه بالفنون النسائية كالرسم والغناء، وعدم لياقته الواضحة للعرش، وزهده المريب في النساء. ووافتنا أخباره عن هوسه الديني وما يحدثه ذلك من متاعب لوالديه وما أثاره بين الكهنة من قلق ومخاوف. وكانت الأخبار تطوف بنا دون أن تنغرز في وجداننا، فمهموم النساء اليومية تغطّي على شئون الدولة، إلا موت الملك الذي هزّ الأعماق وفرض علينا طقوساً لا طاقة لنا بها. واعتلى المخلوق الحقير العرش هو ونفرتي التي تزوّجها في حياة أبيه، وآل إليه حريم أبيه. وأسبغ علينا رعايته كأننا حيوانات مستأنسة

- مولاي، لم لا تلجأ إلى القوة دفاعاً عن الحب والسلام؟

فقال لي باسمًا:

- لا يتردد المجرمون عن انتحال الأعذار لإشباع الرغبة الأثمة في البطش وسفك الدماء، ولست منهم يا بك.

ولن أنسى عطفه على شخصي حينما أنس مني ميلاً إلى «موت نجمت» أخت زوجته فسعى إلى تزويجي منها، وكيف واساني عندما أبت الزواج مني قائلاً:

- إنها مثل الحدأة تنتظر فرصتها!

واستفرت عني عن قوله ولكنه لم يزد. وقد صممت على البقاء بجانبه رغم فزع المدينة كلها للهجرة، ووجدت رفيقاً مصمماً في كاهن الإله الواحد مري رع، ولكن الحكيم أي قابلي وقال لي:

- إننا نهاجر لصد هجوم لا يقبل لنا به دفاعاً عن حياته، ولو جاز لإنسان أن يبقى إلى جانبه لكنت ذلك الإنسان، فإني حموه ومعلمه!

فقلت:

- أيها الحكيم، إن بقائي لن يغير من الأمر شيئاً.

فقال:

- ينص الاتفاق بيننا وبين الكهنة على ألا يمسه الملك بأذى تحت شرط ألا يبقى أحد من أتباعه في المدينة سوى نفر من الخدم.

هكذا اضطرت إلى الانضمام إلى القافلة وقلبي يتمزق، وما زال يتمزق حتى الساعة. وما زال الشك ينخر في إيماني رغم قول مولاي الحكيم، فأحياناً أصلي للإله وأحياناً أضرب عن الصلاة. ولما بلغني نبأ وفاته تجددت أحزاني وبكيت حتى صفت ماء عيني. وقد حدثني قلبي بأنه لم يميت ولكنهم قتلوه بالسحر أو بوسيلة غادرة. وما أنا أعيش بلا هدف أو سرور في انتظار الموت مثل مدينتي الرائعة الواقعة تحت رحمة الكهنة والزمن.



- لا عليك!

ولثم جيبني ثم غادر الغرفة كما جاء. ولم أبح بسرّ الليلة لأحد فظنّ النساء أنّ نفرتي قد خسرت نصف قلب الملك على الأقل. وكسرت الأيام فلفحتنا نيران الأفئدة المضطربة في الخارج حتى صدر القرار ببناء مدينة جديدة. وبعد سنوات انتقلنا إلى أخت آتون، وسعد جميع من حولنا، وتُبدنا في جناح ممارسة حياة غير محتملة مهينة، دافعة للشذوذ، ولما عُرف أنّ الملك الأبله يعالج الخطايا بالحَبّ لا العقاب، انتشر الفسق بين الجنود والنساء، وأهدرت جميع القيم. وراح الملك ينشر دينه الجديد في الأقاليم، واستبقت النساء إلى الصلاة للإله الواحد بغير إيمان حقيقي، حتى خُيّل لي أنّه دين بلا مؤمنين، وأنه كَوْنُ أمة من المنافقين والطموحين إلى المناصب والجاه والمال. ولم أتصوّر أن يكون لهذا الكون الكبير إله واحداً. إنّ كلّ مدينة في حاجة إلى إله يعني بشئونها، وكلّ نشاط إنساني في حاجة إلى إله متمرس فيه. وكيف تقوم المعاملة بين الناس على الحب؟ إنه هذيان طفل لم تحسن تربيته وأفسده ولع أمّه به. وكان يلقي على الجموع شيعه ثمّ ترنّم زوجته بإنشادها، فحلّ محلّ العرش المعبود فرقة جوالّة من الشعراء والمطربين، وتلاشت هيئة الفراعنة. وكان لا بدّ أن يقع ما وقع، فجاءت الأحزان مثل ليل طويل لا يؤذّن بفجر، وتتابع المصائب في داخل البلاد كما في الإمبراطورية، وصمد أبي الشجاع المخلص وحده وهو يبعث الرسل في طلب النجدة حتى سقط مضرّجاً بدمه في الميدان دفاعاً عن ملك أبله. وأحسن أناس الظنّ به فحسبوه شاعراً نبيلاً أخطأ القدر بإجلالته فوق العرش. أما الحقيقة فهي أنّه كان مخلوقاً غريباً، لا هو ذكر ولا هو أنثى، يؤرّقه الشعور بالنقص والهوان، فجزّ الناس إلى الهوان، وأعلن شعار الحبّ ولكنّه أشعل في القلوب البغضاء والحقد والفساد، فمزّق وطنه وضيّع إمبراطوريته. وجارته في جنونه المرأة الداهية نفرتي لتستأثر بالسلطة، ولتشيع غريزتها الفاجرة بين أحضان الرجال. وقد أقنعت الجميع بأنّها وزوجها يشكّلان أجمل صورة للحبّ والوفاء، كانا يتبادلان القُبَل أمام الجموع في شوارع

ولكنّه لم يقترب منا حتى شاع بين النساء الآتيات من شقّى الأمم الانحلال والشذوذ. وتساءلت امرأة:

- لماذا لا يهتمّ بنا ويكفّ عن معاركه الدينيّة الوييلة؟ فأجابها أخرى:

- لو كان يستطيع ما شغل نفسه بذلك الهراء . . . ومع ذلك فقد دبت الغيرة في قلب نفرتي، فقررت أن تزور الحريم للتحيّة والتعارف. وخمّنت كلّ امرأة الباعث الحقيقي وراء الزيارة وهو أن تراني أنا عن قرب، وذلك لما ذاع في القصر عن جمالي وشبابي. كنت الوحيدة التي ثائلها في العمر، وتنافسها في الجمال، وتتفوق عليها في الأصل إذ إنني كريمة ملك على حين أنّها ابنة رجل من الشعب يدعى آي، كان أول من أعلن إيمانه بالدين الجديد أمام الملك، وأول من بادر إلى الانضمام إلى أعدائه عندما أذنت شمسها بالغروب. جاءتنا الملكة الجديدة بين صقّين من الجوّاري، وحيّتنا امرأة امرأة تبعاً لأقدميتنا في الحريم، وعندما جاء دوري - وكان الأخير - ثقتني بنظرة مستطلعة فمثلت أمامها في أدب ومحدّ معاً، حتى تجلّى الركود في ماء وجهها. من أجل ذلك حنقت على الملكة الوالدة تبي عندما نهت ابنها الملك الهزيل إلى «واجبه» نحو حريمه، وخاصّة تادوخيا ابنة الملك الصديق توشراتا. لم تغفر لها تدخّلها، واشتعلت غضباً حينما أذعن الملك لإرادة أمّه المحبوبة فقرّر زيارتي. وكما تقضي التقاليد انتظرت في حجرتي فوق سريري المطعم بالذهب، عارية تماماً، غير مُخفية حسناً من محاسني. وأقبل شبه عارٍ إلّا من وزرة قصيرة تطوّق وسطه، فجلس على طرف السرير باسمًا في رقة مجللاً بهدوء غير طبيعي. وهمس متسائلاً:

- أيسعدك أن تنجبي لي وليداً؟

فقلت وأنا أغالب تقززي:

- إنّه الواجب يا مولاي!

فحارت في عينيه نظرة بائسة وهمس:

- إنّي أبحث عن الحبّ فهو واجبي الأوّل والأخير.

فسألته بجرأة:

- وهل ترغب فيّ عن حبّ يا مولاي؟

فربّت ظهر يدي بعطف وقال:

- هذه هي قصة المعنوه وديانته الخرقاء!

## «توتو»

- لم أكفر بإلهي آمون قط، ولم أنضم إلى قافلة المنافقين والانتهازيين، ولكنني خدمت المارق بالاتفاق مع كاهن آمون الأكبر لأكون عينه اليقظة في القصر، ويده الضاربة عند الضرورة.

هكذا بادرني توتو وزير الرسائل في عهد إخناتون دافعاً عن نفسه تهمة النفاق التي تحلقت فوق رجال إخناتون. وقد قابلته في مقصورته بالمعبد حيث يشغل وظيفة الكاهن المرتل في عهد توت عنخ آمون كما شغلها في عهد أمنحتب الثالث. وهو رجل دين ريان الوجه جاحظ العينين عنيف الأعصاب. ودون تردد راح يعطيني تصوّره عن المأساة. قال:

- امتازت هذه الأسرة العريقة بملوكها العظام، فلم يتسلل إليها الخور إلا حين اختار أمنحتب الثالث شريكته في العرش من أسرة شعبية فاستعارت له ذلك الوريث الأرعن المخبول. وقد أتبع الملوك العظام معنا - نحن كهنة آمون - سياسة جديدة. عرفوا لامون قدره وفضله وأمنوا به كبيراً لجميع الآلهة، وفي الوقت نفسه أولوا كهنة الآلهة الأخرى رعاياتهم، ليضمّنوا إخلاص الجميع، وليقيموا بيننا وبين بقية الكهنة توازناً يضاعف من قوة العرش واستقلاله. ولم تصادف تلك السياسة هوى في نفوسنا ولكنها لم تبلغ بنا حد الاستياء أو الاعتراض ولم تنل من سمو مركزنا. وكما ولي العرش المارق وجد الطريق أمامه واضحاً، وكان من الممكن أن يسير فيه بسلام ملتزماً بمنهج آباءه وأجداده، ولكن الخنفساء توهمت أنها أسد فكانت الكارثة. لم يكن كأحد من سابقه في القوة أو الحكمة. وكان واعياً بضعفه وقبحه وأنوته، ولكنه أوتي من المكر والخبث ما لا يتاح إلا لمن أذله الضعف وأحرقه الحقد، فقرّر أن يتخلص من جميع الكهنة ليخلو له وجه الملك وحده ثم ينصب نفسه إلهاً يستأثر بالعبادة دون شريك إلا إلهاً وهمياً يتخذة قناعاً لطموحه. ومضت تبلغنا أبناء عن معجزات الصبي الذي تفوق قواه سنه الصغير، حتى

أخت آتون وفي لقاءات الأقاليم. والحق الذي يؤمن به نساء القصر كافة أنه لم تقم بينها علاقة زوجية على الإطلاق، وما كان يوسعه أن يقيمها، ومارست حبها متعدّد النزوات مع المثال بك والقائد حور محب والقائد ماي وغيرهم، ومنهم أنجبت بناتها الست. بل قد تهامس بعض الجوارى بأنه لم يمارس علاقة جنسية إلا مع أمه الملكة تبي. . . .

ولاذت بالصمت وهي تلاحظ ما ارتسم في وجهي من أي الدهول، ثم واصلت:

- وعرف بيننا ذلك كحقيقة لا شك فيها، وعرف أيضاً أنه أنجب منها بنتاً، إنه لم يستطع الجنس مع غيرها، وشهدت أكثر من جارية بأنها رأته بالفعل رؤية العين، ولم يرغب ذلك عن نفرتيتي، وبسببه تبادلت المرأتان كراهية مريرة على مدى العمر. المشكلة أنّ كثيرين لا يتصوّرون أنّ الرجل الذي زلزل الدنيا يمكن أن يتمخض عن كائن هزيل تافه لا وزن له. لكنها الحقيقة التي يجب أن تُعرف وأن تسجّل. ولولا أنه كان الوريث لأعظم أسرة في التاريخ لمضى فرداً حقيراً في أزقة طيبة يتدفق ريق العته من فيه وتعبث به الصبيان، ولا غرابة أن يستطيع معنوه - إذا جلس على العرش - أن يخرب إمبراطورية! ولولا أنّ نفرتيتي رافت في عينيه لما كانت إلا عاهرة من عاهرات طيبة المحترفات.

وقبل النهاية بقليل زارت الملكة الأم أخت آتون لإنقاذ السفينة المشوكة على الغرق، ولكنّ النقاش احتدّ بينها وبين نفرتيتي، ولم تتورّع الملكة الشابّة عن اتهام المعجوز بأنها متواطئة مع أعداء العرش، ولكنّ إخناتون حزن لذلك الاتهام ودافع عن أمه وعشيقته دفاعاً حازماً، فغضبت نفرتيتي وأصرّت لها في أعماقها، وانتقمت في اللحظة الحرجة فهجرته فجأة قبل أن يقرّر رجاله التخلّي عنه، وحاولت استرضاء الكهنة لتجد لها موضعاً في الدولة الجديدة، وربما طمحت أن تكون زوجة توت عنخ آمون، ولكنهم وطشوا مسعاها بالنعال، ولولا نفوذ عشيقها القديم حور محب لمزقوها إرباً.

صممت تادوخيبا وهي تبتسم بازدراء ثم ختمت حديثها قائلة:

## العائش في الحقيقة ٧٧٧

جميعًا عمّا حلّ بنا من خراب. قلت للكاهن الأكبر:  
- لا جريمة بلا عقاب، يجب اجتياح أخت أتون  
وقتل المارق والمارقة وآي وحور محب وناخت وبك...  
فقال:

- الوطن لا يحتل مزيدًا من الخراب.  
فقلت بإصرار:

- لا بدّ من دم لنحظى برضا آمون.  
فقال:

- إنّي أدري بما يُرضي إلهي.

فصمّت وباطني يغلي بالحق، فلآتي أو من بأنّ الجريمة  
التي تفلت من العقاب تكرّس الإثم بين الناس  
وتزعزع الثقة في العدالة الإلهية وتمهد لارتكاب المزيد  
من الجرائم. وشدّ ما يسوءني أن أرى أحدهم وهو  
ينعم بعزلة آمنة أو يعمل بين الشرفاء كأنه أحدهم،  
كيف نوّفّر الأمان كمن شارك في إلحاق الخراب بنا؟!

\*\*\*

وواصل سرده للأحداث، بناء أخت أتون،  
الانتقال إلى المدينة الجديدة، الانغماس في نشر  
الدعوة.

\*\*\*

قال:

- بتّ قريبًا منه، أعمل في رحابه، وأتلقّى  
كالآخرين هدايته، فعرفته على حقيقته أكثر من ذي  
قبل. كان يمكن أن يكون شاعرًا أو مطربًا، ولكنّه  
جلس على عرش الفراعنة، فكانت الكارثة. قرّر منذ  
البدء أن يتجاوز ضعفه المهين بمكر ودهاء وأن يستأثر  
بالسيادة. أراد أن يقول لتحتمس الثالث «رغم قوتك  
ومهارتك العسكرية فإنني الأقوى». لم يكن ملهًا كما  
اعتقد البعض ولا مجنونًا كما ظنّ البعض الآخر، ولكنّه  
حظي بأكبر قدر من مكر الضعفاء الخبيثاء فأجاد تمثيل  
دوره. تحمّل أنّه يستطيع أن يخلق الدنيا على هواه،  
فعاش في دنيا من خلقه وصنعه لا رابطة تربطها  
بالواقع، دنيا خلق لها قوانينها وتقاليدها وأناسها  
ونصّب نفسه إلهًا عليها معتمدًا على سحر العرش  
وسيطرته على النفوس. من أجل ذلك تلاشي سحره  
لدى أوّل صدام حقيقيّ مع الواقع واجتاحه الفساد

عرفنا حكاية الإله الجديد الذي تجلّى له ودعاه إلى  
الكفر بجميع الآلهة. وقلت يومها للكاهن الأكبر:  
- إنّها مؤامرة ويجب أن تُقتل في مهدها.  
ويدا أنّه لا يسلم بأنّها مؤامرة فقلت:  
- إنّي أتهم الملكة نبي والحكيم آي، أمّا الغلام فلا  
مسئولية عليه.

فقال الكاهن الأكبر:

- لا أعفي الملكة من جانب المسؤولية ولكنّها  
مسئولية الخطأ في التقدير، أمّا آي فقد توكّد لي أنّه لا  
يقال عمّا انزعاجًا... .

ولم يسعني إلّا تصديقه فهو معصوم من الخطأ  
فقلت:

- إذن فنحن حيال كائن قد حلّت فيه روح ست  
إله الشرّ فيجب اغتياله فورًا.  
فقال الكاهن:

- الأمر لم يفلت بعد من يدي الملك والملكة... .

وآمنت بأننا سندفع ثمن تردّدنا غاليًا. وجعلت  
أدعو إلهي مردّدًا:

يا آمون أنت سيّد الصامتين  
الذي يأتي على صوت الفقير  
عندما ناديتك في محسني  
جئت لتخلصني

يا آمون يا سيّد طيبة إنك أنت  
الذي تخلص من في العالم السفليّ  
إذا ناداك إنسان

فإنك أنت الذي تحضر من بعيد.

\*\*\*

ومضى يسرد لي الحوادث التاريخية كما سمعتها من  
قبل، رحلة الأمير في الإمبراطورية، عودته، اعتلاؤه  
العرش.

\*\*\*

وهنا قال معلّقًا:

- أعلن الرجال إيمانهم بدينه بين يديه ليتبؤوا  
مراكزهم في الدولة الجديدة. لقد سقط الجميع بلا  
كرامة، فأتاحوا للمكر الخبيث أن ينفث سمّه ويهلك  
الأرض، ولا عذر لهم عن خيانتهم، فهم مسئولون

رع معه في عرشه، ولكنني نجحت في اغتيال الشاب  
يوسائلي الخاصة، وإذا بالبناء يتصدع باختفاء نفرتيتي  
نفسها فبات الشرّ ولكن بعد أن نفت سَمّه في جميع  
الأوصال. وقد كان من سوء حظنا جميعاً أن ساقه قدره  
إلى اختيار نفرتيتي زوجة له. حقاً إنها امرأة قوية  
الشخصية راجحة العقل فائقة الجمال، ولكنها مثله  
مريضة بالطموح، فأمنت في الظاهر بدينه، وشاركته  
في الواقع مكره وخبثه. وعلى اليقين لم تكن تحبه وما  
كان في وسعها ذلك ولكنها هامت بالقوة والسيادة  
المطلقة. ولعلها دليل آخر على الدور الخفي الذي قام  
به الداهية أي الذي كان يتلقى في المناسبات هدايا  
الذهب تنثر عليه وعلى زوجته تي من الشرفه الملكية  
فيحملها العبيد في القصور إلى قصره. ولكن كيف  
تعامت المرأة الذكيّة عن عواقب سياسة زوجها على  
البلاد والإمبراطورية؟ وهل آمنت حقاً برسالة الحب  
والسلام؟ الحق أنّي لا أتصوّر ذلك ولا أسيغنه،  
ولكن لعلها غالت في تقدير سحر العرش الفرعونيّ  
وتوهّمت أنّه السحر الذي يغني عن العقاب والسيوف  
وجيش الدفاع. ولعلها أدركت الخطأ في وقت مبكر  
ولكنها خافت أن تعلن وسواسها فتفقد ثقة زوجها  
فاستسلمت للمقادير. وكما تخلّت الحاشية عن الملك  
نخلت عنه متعلّقة بأمل أخير ألا يغدر بها عشاقها.  
وأعتقد أنّ حور محب حاول إقناع الكاهن الأكبر بقبولها  
في طيبة ولكنه رفض ذلك وأصرّ على الرفض. وقد  
مات المارق وما زالت هي تتنفس في سجنها متجرّعة  
الأحزان والحسرات.

لو أنّ الذي خلف أمنحتب الثالث على عرشه عدوّ  
من الحيثيين لما استطاع أن يفعل بنا أكثر ممّا فعل المارق  
اللعين . . .

« لِمِ بِرِ »

هي زوجة الحكيم أي، في السبعين من عمرها،  
صغيرة الجسم، ممتازة في صحتها بالقياس إلى عمرها،  
حلوة المحضر. وقد تزوّج منها أي عقب موت زوجته  
الأولى أم نفرتيتي فتلقّتها تي وهي بنت عام أو عامين،

والتمرد والعدوّ وفرّ عنه الجبناء. وكثر الحديث عن  
ساعات وحيه وما تثر من خوارق الأفعال والأقوال.  
وقد شهدت بعضها وأنا أعرض عليه الرسائل في  
خلوته. كانت تتلبّسه حال من الانفعال المفتعل.  
فيخرج من حافة الوعي غائصاً في المجهول، ويتبادل  
كلمات غامضة مع أطراف غير مرئية، ثم يعود رويداً  
إلى وعيه فيحدّثنا عن إلهه الذي لن يخذله أبداً. وكنت  
أحتلس نظرات من وجوه الدهاة من أمثال آي  
وحور محب وناخت وأتساءل هل حقاً يصدّقون  
المهزلة؟.. هل حقاً جاز عليهم خبثه الأنثوي؟..  
كلّاً، لقد تظاهروا بتصديقه لينال كلُّ مآربه، وما  
كشفوا عن أنفسهم إلا حين تهدّهم الموت من الشمال  
والجنوب.

\*\*\*

وحدّثني عن انقلاب الأحداث، فساد الموظّفين،  
عذاب الناس، تمرد الإمبراطورية، تحرّش الحيثيين  
بالحدود، مصرع توشراتا.

\*\*\*

قال:

- أغرقني فيضان من الخوف على البلاد ففكرت  
جأداً في اغتياله لأنقذ الدنيا والدين من شرّه. وعثرت  
بلا كبير عناء على من تطوّع لقتله في خلوته قبل  
الشروق، ويسرت له مخبأ في الخديقة، وكاد الرجل  
ينجح في مهمته لولا أن أدركه في اللحظة الأخيرة محو  
رئيس الشرطة فعاجله بضربة قاتلة واستحقّ بذلك  
لعنة الآلهة إلى الأبد. واستعنت كثيراً بالسحر ولكنه لم  
يصب الهدف من سوء حظّ البلاد، ولعلّ الخبيث كان  
يلجأ إلى السحر المضادّ.

\*\*\*

وروي ما تلا ذلك من انتشار التمرد في الأقاليم،  
زيارة الملكة تبي لأخت آتون، اللقاء التاريخي بين  
كاهن آمون ورجال إخناتون.

\*\*\*

قال:

- وكما يشّ الخبيث الماكر من رجاله وعلم بتفكير  
الكهنة في اختيار توت عنخ آمون للعرش أشرك سمنخ

## العاش في الحقيقة ٧٧٩

كانت ذات صوت عذب، وشدّ ما كان يسرنا أن نسمعها وهي تغني:

ماذا عساي أقول لأمي  
فكلّ يوم أرجع إليها بالطيور  
أما اليوم فلم أنصب شبكي  
لأنّ حبّك قد ملكني  
وبعد إيمانها راحت تغني للإله الجديد وحدها في  
الحديقة ولا أحد منّا يريد أن يطرب لها، ولكنّي أذكر  
صوتها الذي اقتحم عليّ حجرتي ذات صباح وأنا  
أمشط شعري:

يا حي  
يا جميل يا عظيم  
بك عمّ الفرح  
وأترع الكون بالنور

هكذا كان قصرنا أوّل بيت يتردّد فيه نشيد الإله الجديد. ودّعينا لحضور الاحتفال بمرور ثلاثين عامًا على جلوس أمنتب الثالث على العرش. وسُمح لنا باصطحاب بنتينا لأوّل مرّة لشهود احتفال بالقصر الفرعونيّ. وزيّنت البنتين لعلهما يروقان في أعين صفوة الشباب، فارتدت كلّ منهما ثوبًا طويلًا فضفاضًا، وطوّقت منكبها بمعطف مزركش قصير، منتعلة صندلًا ذا سيور ذهبيّة. دخلنا قاعة لا تقلّ مساحتها عن مساحة قصرنا كلّ، مطوّقة بالمشاعل ومقاعد المدعوّين على حين تصدّرها العرش بين جناحين من الأمراء والأميرات. وبين هُذا وذاك ترامى فراغ للعازفين والراقصات العاريات، وتنقلّ العبيد بين المدعوّين والمدعوّات يحملون المباخر والأشربة والأطعمة الفاخرة. وقلّبت عينيّ بين صفوة الشباب فتمنّيت لابنتي حور محب الضابط الواعد وبك المثال الموهوب. ورأيت الأعين تسترق النظرات إلى نفرتيّ آتية من نخبة الحاشية، حور محب وبك وناخت وماي، خاصّة عندما أتاحت الفرصة لبنات الأشراف ليرقصن ويغنين في رحاب الملكين. وقد رقصت حبيبي برشاقة أسرة، وغنّت بصوت عذب فاقت به المطربات المحترفات. لعلّي في تلك الليلة شاركت ابنتي موت نجمت غيرتها الصامتة، غير أنّي عزّيت نفسي قائلّة «إذا تزوّجت

ثمّ أنجبت له موت نجمت. ولما رفع الحظّ نفرتيّ إلى العرش اختارت تي ضمن حاشيتها ووهبتها لقب «مريّة الملكة». ولولا أنّها كانت تجبّها ما فعلت ذلك، وهو ما يدلّ على أنّ تي أحاطت نفرتيّ برعايتها وحبّها وأنّها لم تكن «امرأة أب» بالمعنى المألوف.

وقد سردت لها المعلومات التي حصلتها عن الأحداث التاريخيّة، ثمّ قلت:

- لا داعي للتكرار إن لم يكن لديك إضافة أو تعديل حفظًا على وقتك وراحتك.  
فقلت تي:

- لم أخالط الملك رغم قربي من زوجته، ولعلّه لم يخاطبني إلّا مرّات معدودة، ولكنّ عدوبته لا تبرح القلب أبدًا. وقد عرفنا عنه الكثير من بعيد عن لسان زوجي أي الذي اختير لتعليمه. وأذهلنا ما سمعنا عن موقفه من آمون وميله مع آتون، ثمّ أذهلنا أضعافًا ما قيل عن اكتشافه للإله الجديد. الحقّ أنّه أذهلني أنا وابنتي موت نجمت أمّا حبيبي نفرتيّ فكان لها موقف آخر. ولكن عليّ قبل ذلك أن أعرفك بها، إنّها بنت ذكيّة، وذات روح متوثّبة تعشق الجمال وتهيم بالأسرار الدينيّة، ونضجها يفوق سنّها بكثير، حتّى قلت يومًا لزوجي أي:

- يجيّل إليّ أنّ ابنتك ستكون كاهنة!

وكان ينشب بينها وبين موت نجمت ما ينشب بين الأخوات الصغيرات من نزاع وخصومات عابرة ولكنّ الحقّ كان دائمًا معها، ولا أذكر أنّها تورّطت في خطأ مرّة، وكانت تصالح أختها كما يصالح الكبير الصغير. وكانت تتفوّق في تعليمها لدرجة خشيت معها على ابنتي من ردة فعل يتعدّر إصلاحها. وجعلت تتلقّى كلمات وليّ العهد بإعجاب فتميل معه إلى آتون، ثمّ تباغتتنا بإعلان إيمانها بالإله الواحد. وقالت لها موت نجمت:

- إنّه كافر.

فقلت بيقين:

- لقد سمع صوت الإله.

فصاحت بها:

- وأنت أيضًا كافرة!

حفظها بجناحيه العريضين وحلّق بنا فوق الجميع . من أجل ذلك هتأتها من أعماق قلبي ، وكذلك فعلت موت نجمت . وراحت تحدّثنا عمّا دار بينها وبين الملكة العظمى ، ومن شدّة تأثري لم أتابعها بالدقة المتوقّعة ، وليس في ذاكرتي اليوم إثارة منه ، وما أهميّة الحديث إذا قيس بالنتيجة التي انتهى إليها؟ . وتمّ الزواج في حفل رائع أعاد إلى ذاكرة المخضرمين ذكرى زفاف الملكة المنحوت الثالث . وصرنا جميعاً ضمن الأسرة المالكة ، واختارتني حبيبي لوظيفة المربية الخاصّة لها ، وهو مركز في القصر يلي مركز الأميرات مباشرة . وبالزواج صارت نفرتي والأمير وحده لا تتجزّأ ، ولا يفرّق بين نصفها إلا الموت . وقد شاركته الأفراح والأحزان إلى ما قبل النهاية بساعات ، ودبّرت له شئون ملكه بمهارة امرأة خلقت للعرش ، وشاركته حمل رسالته الدينيّة كاتبة كاهنة شخّارة حقّاً بعناية الإله الواحد . صدّقني لقد كانت ملكة عظيمة بكلّ معنى الكلمة . لذلك صعقت عندما علمت بهجرها المفاجئ لزوجها في ذروة محنته . ولعلّه أوّل قرار اتخذته دون علمي فهرعت إليها في قصرها ، وجلست عند قدميها مستسلمة لنوبة من البكاء . ولم يبذ عليها أنّها تأثرت لحالي ، وقالت لي بهدوء :

- اذهبي بسلام . . .

فقلت برجاء :

- إنهم يذهبون وقاية للملك من أيّ شرّ .

فكررت برود :

- اذهبي بسلام .

فتساءلت في حيرة :

- وأنت يا مولاتي؟

فقال ببساطة :

- لن أغادر هذا القصر .

فهممت بالكلام ولكنّها قاطعتني بنبرة أمرة :

- اذهبي بسلام .

وغادرتها كأنّ عرس امرأة على وجه الأرض . وفكرت طويلاً فيما دفعها إلى الاختفاء ، فلم أمتد إلا إلى فرض واحد ، هو أنّها كرهت أن تشهد هزيمة الملك وإنه فلاذت بالهرب خلال لحظة يأس طارئة ، على أن ترجع

نفرتي خلا الجوّ لموت نجمت ونجلى نورها دون منافس . وبدافع من حبّ الاستطلاع اختلست نظرات من نفرتي لاكتشف أين تتّجه نظراتها فأدهشني أن أراها منجذبة من أعماقها إلى معلّمها الروحي . . . . . وليّ العهد . ونظرت نحوه فهالتني غرابة صورته ورقته الأنثويّة المشيرة للدهشة . ولما التقت عيني بعينيها همست لي :

- حسبته عملاقاً

ولكنّ انبهارها غطى على دهشتها ، ولم تكن تحلم بما يدخره لها القدر . ورجعنا إلى قصرنا ، فقلت لزوجي أي :

- سيطرق بابنا الخطّاب يا أي فدبر أمرك . . .

فقال بهدوء المؤلف :

- الألهة ترسم لكلّ مصيره .

وبعد مرور يوم أو يومين فاجاني أي بقوله :

- الملكة تبي ترغب في مقابلة نفرتي . . .

فأذهلنا الخبر ، وسألته :

- ماذا يعني ذلك؟

فتفكّر ملياً ثمّ قال :

- لعلّها سترشّحها لوظيفة في القصر

- ولكنك تعرف أشياء ولا شكّ

فقال :

- كيف بمعرفة ما يدور في رأس الملكة العظمى؟

وأخذ يلقّنها أصول الآداب المتبعة في لقاء الملوك ، وقلت لها :

- فليباركك آمون برعايته . . .

فقال بثبات :

- إنّي أسأل الإله الواحد رعايته . . .

فهتف بها أي بحزم :

- حدّار أن تتفوّهي بحماقة في حضرة الملكة .

وذهبت نفرتي . ورجعت شديدة الانفعال فطوّقتني بذراعها وأجهشت في البكاء ، أمّا أي فقال :

- اختارتها الملكة زوجة لوليّ العهد

عصف الخبر بأفئدتنا عصفاً . سمت به حبيبي

نفرتي فوق الغيرة والمنافسة . ها هي تفتح لنا باب

الحفظ السعيد لتنفيذ منه إلى الأسرة المالكة . لقد أظننا

## العائش في الحقيقة ٧٨١

دعاها أخيراً للكفر بجميع الآلهة والإيمان بإله لم نسمع عنه من قبل . وقد سمعتها مرّة وهي تقول لأبي :  
- أبلغ يا أبي وليّ العهد أنني مؤمنة بإلهه .  
فقال لها أبي متجهّماً :

- إنك حمقاء يا نفرتيتي ولا تقدرين العواقب !  
وكنت بسبب تجديفها أخاف أن تحلّ اللعنة بنا جميعاً . لقد بقي إيماني بألهي حياً في قلبي لا يتزعزع . أجل أعلنت إيماني بالإله الجديد لانتهايي للأسرة الملكية ، ويقصد أن أبذل ما أستطيعه في موقعي الجديد دفاعاً عن آلهي المقدّسة ، ولكنّ إيماني بألهي لم يَبِن قط . وأتيح لي أن أرى المارق لأول مرّة في حفل العيد الثلاثينيّ للجلوس على العرش ، فعجبت للشبه الخارق الهزال والقبح . لذلك فلا تأخذ مأخذ الجدّ ما قد تسمع عن الحبّ النبيل الذي جمع بين قلبي المارق وملكته العظمى نفرتيتي ، فإني أعرفها حقّ المعرفة ، وأعرف المثال الذي حلمت به كفتى لأشواقها ، إنه لا يمتّ بصلة للفتى الهزيل القبيح العاجز الذي تُخلق نصف أنثى ونصف ذكر . وكانا يزعمان أنّها يعيشان في الحقيقة ، أمّا هو فكان يعيش في الجنون ، وأمّا هي فعاشت في الكذب والخديعة ، ولم تحبّ سوى العرش والسلطان . وفي الحفل غلبتها طبيعتها اللدنية فأعلنت عن جمالها بلا حياء كأنّها امرأة محترفة ، ورمت شباكها حول حور محبّ ولكنّه لم يكن يكثرث لذلك النوع من النساء المتبدلات . وكما دُعينا نحن بنات الأشراف للرقص والغناء ، فمت أنا فرقصت في احتشام ، واخترت أغنية موجهة لفرعون :

أنت تمجيء كالشبع فينتهي الجوع  
أنت تمجيء كالثياب فينتهي العري  
أنت كالسواء المادئة بعد عاصفة هوجاء  
تعطي الدفاء لمن أصابه البرد  
أما نفرتيتي فقد أذهلت الجميع برقصتها الداعرة  
ولكنّها سرقت استحسان الفاسقين وما أكثرهم ، ثمّ اختارت أغنية خليعة فغنت :

في صحتك

اشربي حتى تشملي

إليه بعد ذهاب الجميع . ولا أشكّ في أنّها سمعت إلى ذلك ولكنّها مُنعت بالقوّة . ولا تصدّق أيّ تفسير آخر لهجرها القصر . سوف تسمع أقوالاً متضاربة ، وسيدلي كلّ رجل بما يؤكّد أنّه الحقّ ، بينما ينطق عن هواه . لقد علّمتني حياتي بالأثاق في أحد ولا أصدّق أحداً . وما هو الزمن يمضي وأنا أتساءل دائماً أكان مولاي إخناتون يستحقّ تلك النهاية الممّزنة؟ . كان النبيل والصدق والحبّ والرحمة فلمّ لم يبادلّه الناس نبلاً بنبل ، وصدقاً بصدق ، وحبّاً بحبّ ، ورحمة برحمة؟ . لماذا انقضّوا عليه كالوحوش يمزقونه ، ويمزقون ملكه كأنه عدوّ أثيم؟ . ولقد رأيت في المنام منذ أعوام مطروحاً على الأرض والدم ينزف من جرح غائر في عنقه ، فاستحوذ عليّ شعور قويّ بأنهم قتلوه قتلاً مدّعين كذباً أنّه مات ميتة طبيعية .

وسكنت وهي تنظر فيا امامها بأسى ، ثمّ تمتمت :  
- لقد عاشرنا رجلاً لا يتكرّر .

## « موت نجمت »

في بدء الحلقة الرابعة ، جميلة رشيقّة ، يشعّ من عينيها العسلّيتين ذكاء ، شعرت في محضرها بوجود مسافة بيني وبينها لا يمكن أن تُعبر . وهي ابنة آي وتي وأخت نفرتيتي ، وتقيم في جناح خاصّ بها في قصر آي . وثمّة لغز رابض في حياتها وهو أنّها لم تتزوّج رغم كثرة خطّابها . وما كدت أجلس بين يديها أبسط أوراقتي حتى أنشأت تقول :

- قدّر لنا أن نشارك في مأساة إخناتون المارق فقد اختير أبي الحكيم آي معلّمًا له ، فحمل أبي إلينا أخباره وأفكاره ، ومن أوّل الأمر أسأت به الظنّ ، واتهمت عقله ، ثمّ أثبتت الأيّام صدق شعوري وتفكيري . وكان لنفرتيتي موقف آخر دهشت له الأسرة أمّا أنا فلم أدهش له . كانت تحبّ دائماً أن تلفت الأنظار بتحدّيات مفتعلة ، وتودّ أن تثير من حولها عواصف المناقشات . أجل كانت ذكيّة ولكنّها لم تكن صادقة ولا مخلصّة ، هذا ما أغراها بعبادة آتون وتفضيله على آمون ، وما

- لا يمكن الفصل بين الكاهن والزوج  
وقرأت أفكارها كما أقرأها عادة. سوف تقاسمه  
العرش ملكة وكاهنة. ولن يعجزها أن تظفر بمن يُشبع  
عواطفها المتعطشة للحب والحياة. وقد مارست ذلك  
بكلّ طمأنينة، معتذرة أمام ضميرها بعجزه، لائذة  
بسياسته الملعنة في الاعتماد على الحب ورفض العقاب  
والعنف، فلم تخش من جانبه انتقاماً كسائر الفاسدين  
من معاوئيه. وقد توّكّد لي عجزه وشذوذه من خلال  
اتّصالاتي اليومية بحريمه. هناك يعرفون الحقائق التي  
تخفى عن أقرب المقرّبين من رجال الدولة. هناك  
تندروا بعجزه. وهنا فضحوا سرّ العلاقة الأثمة بينه  
وبين أمّه، المرأة الوحيدة التي عبّر عجزه في حضنها،  
والمرأة الوحيدة التي أنجبت له ابنة. وذلك شذوذ لم  
تعرفه بلادنا على مدى تاريخها. من أجل ذلك ثبت  
لديّ أنّ بلادي تمضي نحو مصير أسود. وعاهدت  
ضميري أن أقف مع الحقّ حيث يكون. ومات  
أمنحتب الثالث، وتبوأت نفرتيتي العرش ملكة عظمت  
مكان تبي. وعشنا أياماً كثيرة في طيبة، ثمّ انتقلنا إلى  
أخت أتون أجل مدينة عرفها الإنسان. واستقبلنا من  
الزمان أيام سرور ونصر ورخاء، وأمهلّت الألهة  
للهارق، فتركته يلغي وجودها ويصادر أوقافها،  
ومهدت له أسباب النجاح والسرور، حتّى ظنّ الجاهل  
أنّ الفوز المبين قد تقرّر للإله الجديد ولرسالته الخيالية  
في الحب والسلام. وقلت لأمي وليس معنا ثالث:

- أين الألهة؟ ما لها لا تفضب لما حاق بها؟

وإذا بأمي تقول:

- ذلك شاهد على صدق الإله الجديد يا موت

نجمت!

فرمقتها بدهول، وخيّل إليّ أنّ دنيا تغرب وأنّ دنيا  
أخرى تشرق لا سبيل إلى الشكّ فيها. ولكنّ ليل  
الحلم أخذ ينقش ويتلاشى، وزججرت عواصف  
الأحزان مكتسحة الداخل والخارج معاً. وكلّما عبّنا  
الدهر قلت لأبي:

- ها هو آمون يكثّر عن أنيابه.

فيقول لي:

- لا ترددي أقوال الكهنة الخاقدين!

ولا تضيفي ذرعاً بالسرور  
لقد حضرت ونصبت الفخّ  
لنفتح الفخّ سوياً  
أنا وأنت معاً بمفردنا  
ما أجل أن تكون معي هناك

ونكس أبي ذقنه وتلعثمت أمي. وتهاست المغنّيات  
المحترفات «ما أجدر هذه البنت بأن تغني معناه». ورجعنا  
إلى قصرنا آخر الليل وهي تحلم بأن يطرق  
بابنا في الصباح حورحوب ولكنّ الأقدار كانت تعدّ لنا  
مفاجأة أخرى إذ كانت تعدّها لمصر والإمبراطورية.  
دُعيت الماكرة إلى مقابلة تبي الملكة العظمتى ورجعت  
زوجة لوليّ العهد. وقلت لأمي ألا يدعم فرعون  
شرعيته عادة بالزواج من أميرة ذات دم ملكي؟  
فقلت لي أمي:

- لا أهمية لذلك إذا كان فرعون صاحب قوّة  
مسيطرة، وقد وافق على اختيار عروس من بنات  
الشعب لابنه كما سبق أن اختار لنفسه.  
وقبّلتني هامسة في أذني:

- كوني عاقلة يا موت نجمت، لا شكّ أنّك أفضل  
منها ولكن لا حيلة لنا مع الحظّ، فاقنعي بأنك  
ستصيرين من الأميرات، وبأنّ الدنيا ستقبل عليك  
بقدر ما تبدين من إخلاص لأختك!  
فقلت لها بصراحة ووضوح:

- سأتابع الحكمة مع المحافظة على الكرامة  
والإخلاص.

وهو ما حرصت عليه دائماً ولم أنحرف عن خطّه  
المستقيم. وكما خلوت إلى نفرتيتي سألتها:

- هل راق لعينيك حقاً؟

ومع أنّها أدركت من أعني إلا أنّها تساءلت متغايبة:

- من تعنين يا موت نجمت؟

- زوجك المقبل!

فقلت بحماس:

- إنّه معجزة بين الرجال!

فسألتها بعناد:

- أهو كذلك كزوج؟

فأجابت بغموض:



## العائش في الحقيقة ٧٨٣

فرمقني بنظرة متسائلة فقلت بصراحة:  
 - لا يمكن أن تترك مصر تحترق وتصير رمادًا.  
 فسألني بدهاء:  
 - ألم تفانحي أختك الملكة في ذلك؟  
 فقلت بصراحة أذهلته:  
 - إنها لا تقلّ جنونًا عن الملك!  
 فسألني باهتمام:  
 - ماذا تقترحين؟  
 فقلت بحدّة:  
 - كلّ شيء مباح لإنقاذ البلاد...  
 ثمّ كانت النهاية التي عرفتها. نهاية مأساة فاقت  
 مأساة غزو الهكسوس لبلادنا في الماضي. مأساة خلقها  
 جلوس مجنون على العرش مستغلًا قدسيّة العرش  
 التقليديّة في ممارسة نزواته. لا شكّ في أنّ ذنب نفرتي  
 أثقل من ذنبه لما خُصّت به من ذكاء ودهاء، ولكنّها لم  
 تهتمّ إلاّ بذاتها وطموحها، فلمّا تولّى عنه المجد هجرته  
 في الحال، منضمة في الظاهر إلى أعدائه، مرشحة  
 نفسها ملكة تدعم العرش الجديد، ولكنّ حيلتها لم  
 تنظّر على أحد، فانقربت في وحدة مظلمة لتجتزّ  
 العذاب والندم.

## « ميري رع »

في الحلقة الرابعة، أسمر خمرجيّ، نحيل، ذو نظرة  
 حزينة تصلح عنوانًا لمأساة، يعيش في بيت صغير، بلا  
 رفيق أو خادم، ذلك الذي كان يومًا الكاهن الأكبر  
 للإله الواحد، في مدينة النور أخت آتون. وقد زرته  
 في بلدته دشاشة على مبعدة من طيبة بمسيرة يومين إلى  
 الشمال. وكما قرأ رسالة أبي سألني بأسيا:  
 - ولمّ تتجشّم هذا التعب؟  
 فقلت ببساطة:  
 - لأعرف الحقيقة.  
 فقال وهو يهزّ رأسه في أسى:  
 - حسن أن يوجد ولو فرد واحد من طلاب  
 الحقيقة.

ثمّ مضى يقول:

فأقول له:  
 - حدّثني يا أبي عن واجبك في هذه الظروف؟  
 فيقول باستياء:  
 - لست في حاجة إلى من يذكّرني بواجبي يا موت  
 نجمت!  
 ومرة سألت نفرتيقي:  
 - ألاّ تفعلين شيئًا للدفاع عن عرشك؟  
 فقالت لي بحماس لم يجزّ عليّ:  
 - نحن نفنى في خدمة عرش الإله الواحد.  
 لم تكن مخلصّة. ولم تعرف الإخلاص الحقيقيّ في  
 حياتها. كانت تخشى إذا حذرت زوجها من مغبة عناده  
 أن ينزع الثقة منها فيختار امرأة أخرى ملكة وكاهنة.  
 ومن خلال محاولاتي الحذرة مع الرجال اكتشفت  
 إخلاص توتو وزير الرسائل فاستمرّ الحوار بيننا حتّى  
 تكاشفنا تمامًا، ثمّ كان الوسيط بيني وبين كاهن آمون  
 الأكبر. وكانت تجربة أليمة خضتها بعداب شديد.  
 كان عليّ أن أختار بين إخلاصي لأسرتي الجديدة وبين  
 الولاء للبلاد والآلهة. واخترت بعد أن دفعت ثمن  
 اختياري أُلما وعذابًا، هكذا انضمت إلى المعسكر  
 الآخر، معرضة عن مصلحتي الشخصية وسعادتي  
 الأسرية. وقال لي توتو يومًا:

- الكاهن الأكبر يطالبك بالسمي لضمّ الملكة إلينا!  
 فقلت له:

- لقد سمعت إلى ذلك من قبل أن أكلف به،  
 ولكنّي وجدتها لا تقلّ جنونًا عن المارق.

وبناء على ذلك أرسل الكاهن الملكة تبي إلى أخت  
 آتون، ثمّ جاء بنفسه ليلقي على الرجال إنذاره  
 الأخير. وشدّ ما عارض توتو ذلك. كان يقترح  
 الانقضاض عليهم دون إنذار، ووضعهم جميعًا في  
 الأغلال، وإشعال النار في المدينة المارقة. وكنت أودّ أن  
 أضمّ حور محب قائد الحرس إلينا، فهو صاحب القوّة  
 الحقيقيّة في المدينة، وعُرف دائمًا بالصلابة والاستقامة.  
 ومن خلال الأحاديث التي دارت بيني وبينه أنست منه  
 اتّفاقًا في الرأي يخفيه الحذر وافتقاد الثقة المتبادلة. وكما  
 لاحت في الأفق نذر الحرب الأهليّة قلت له:

- علينا أن نعيد النظر في مواقفنا.

- ياأبي أبي إلا أن يجعل مني مقاتلاً يا مري رع !  
لم يمرّ تدريبه العسكريّ الفاشل دون أن يترك  
نفسه ألباً مجزّ. أو ينظر في المرآة المؤطرة بالذهب  
الخالص ويقول بأسياً:

- لا قوّة ولا جمال!

أما موت أخيه الأكبر تحتّمس فقد حفر في وجدنا  
جرحاً غائراً لعلّه لم يبرأ منه إلا حينما أصيب بجر  
أشدّ بموت ابنته المحبوبة ميكيتاتون. شدّ ما بكى أنه  
الذي نصبه موته وجهها لوجه مع حقيقة الموت الصا  
الغامضة. وسألني:

- ما الموت يا مري رع؟

فلذتُ بالصمت متحاشياً الإجابات التقليدية ال  
يضيق بها. فعاد يقول:

- ولا أي نفسه يعرف، قرص الشمس وح  
يشرق بعد الغروب، أما تحتّمس فلن يرجع إلى ه  
الوجود مرّة أخرى!

وهكذا أعلن حرباً أبدية على الضعف والقب  
والحزن. ومضى في طريقه المجهول مثل شعبا  
الشمس، تنذر بواديه كلّ يوم بجديد، حتّى لقيته ذا  
صباح مشرق شاحب اللون في خلوته، مستقرّ النظرة  
ثابت الجنان، فقال لي دون أن يرّد تحيّي:

- ليست الشمس شيئاً يا مري رع.

فلم أدرك مقصده فجدبني إلى مجلسه فوق الحصية  
وقال:

- استمع إلى الحقيقة يا مري رع. ليلة أمس  
أسكرني الشوق بلا حمر، وتجمّس لي الظلام جليساً  
أنيساً كالعروس المتجلية، وحلّقت بي نشوة أسرة ا  
الفضاء، وهناك عبر ألف خيال وخيال بزغت الحقية  
للفضاد أقوى من أيّ منظر تراه العين، وتسامى ا  
صوت أجمل من عبير الأزهار فقال لي «املا وعاء قلبك  
بانفاسي، واطرد عنه ما ليس مني، أنا القوّة التي تتسدّ  
منها قوى الوجود، أنا النبع الذي تتدفّق منه الحياة،  
الحبّ والسلام والسرور، املا وعاء قلبك مني ويتسدّ  
مشرّباً للمعدّبين في الكون».

ومن شدّة تألّفه تراجع رأسي في انبهار، فقال لي:

- لا تخف يا مري رع، ولا تبعد عن السعادة!

- لعلّي الشخص الوحيد الذي تحمل بالقوّة من  
أخت آتون بعد أن رفض التخلّي عن مولاه، وقد  
سكت الصوت الإلهميّ وتهذّم المعبد ولكنّ الدهر لم  
ينطق بالكلمة الأخيرة بعد.

ورنا إلى طويلاً بعينيه البتّين ومضى يقول:

- أسعدني حظّي في صباي بأن أكون ضمن حاشية  
الأمير، فملت مثله إلى الأمور الروحية، ودرسنا معاً  
ديانة آمون وديانة آتون. ومثل كثيرين فُتنت به  
وأخذت بحديثه الساحر، ورُوّعت بنضجه السريع  
الخارق للمألوف. وقد باركني بقوله الذي غزا به  
قلوب أتباعه، فقال لي:

- إني أحبّك يا مري رع فلا تضنّ عليّ بحبّك.

فتغلغل حبّه في قلبي حيث لم تبلغ عاطفة من قبل،  
حتّى أباح لي خلوته على شاطئ النيل في أيّ وقت  
أشاء. وهي خلوة في الطرف الغربيّ من القصر، تطلّ  
على النيل، في هيئة مظلمة تقوم على أربعة أعمدة تحديق  
بها أشجار النبق والتخيل، أرضها من العشب النضير،  
توسّطها حصيرة خضراء ووسادة. كان يستيقظ عند  
الفجر فيمضي إلى الخلوة ينتظر شروق الشمس،  
ويتغنّى لقرصها البازغ من وراء الحقول. وما زال  
صوته العذب يجيش في صدري، وينتشر في حواسي  
مثل رائحة البخور المقدّس وهو يترنّم:

إنك تسطع جيلاً في جبل النور في السماء  
يا آتون الحيّ يا من عاش أوّلاً  
إنك إذا أشرقت في جبل النور الشرقيّ  
ملأت كلّ بلد بجمالك  
إنك جميل، إنك عظيم  
إنك تتلألاً عاليّاً فوق كلّ بلد  
وأشعتك تضمّ البلاد  
وكلّ شيء خلقته

إنك بعيد ولكنّ أشعتك على الأرض  
وكان يدوب من الوجد، وتنبثق من وجهه الصبيح  
الأنوار، ثمّ تتجول في الحديقة وهو يقول:

- لا يوجد سرور خالص إلا في العبادة.

ذلك أنّ حياته لم تخلّ من منغصات. وذات مرّة

تشكّى لي قائلاً:

## العائش في الحقيقة ٧٨٥

أدهش لموقفه الأخير عندما تخلى عنه أقرب المقرّبين إليه. كان يعيش في رحاب الإله ويصدع بأمره، ولا يبالي بعد ذلك بما يحيق به، إذ كيف يمكن من ينغمس في الحقيقة أن يكثر لمر الساسة ودهاء العسكريين؟ وقد رموه بالخيال والحلم والجنون، فكان هو العائش في الحقيقة، وكانوا هم الخياليين الحالمين المجانين الغارقين في أوهام الدنيا الفاسدة. ولم يكن العرش يهّمه كما يهّم الملوك العاديين. بل إنني أذكر أنه عندما دُعي من رحلته لتوليّ العرش بعد وفاة أبيه، نجّه وجهه وتساءل:

- ترى هل تشغلني الشواغل عن إلهي؟

فقلت له بحاس صادق:

- بل إنك مدعو يا مولاي لوضع قوة العرش في خدمة الإله، كما التزم أجدادك بخدمة آلهتهم الزائفة. فسرى عنه وتمتم:

- نطقتم بالحق يا مري رع، فكما قدّموا لآلهتهم قرايين من البشر المساكين، سأقدّم قوى الشرّ قرايين لإلهي، محطّماً الأغلال التي يرسف فيها من لا حول لهم.

واعتلى العرش ليخوض أشرس معركة خاضها ملك ولكن في سبيل الحقيقة والحبّ والسلام وسعادة البشر، وأثبت في غمارها أنه أقوى عشرات المرات من تحتمس الثالث نفسه، وكان رجاله يمثلون أمام عرشه فتصرف نفرتيتي أمورهم اليومية أما هو فلا يني عن إعادة خلقهم من جديد ليكونوا جديدين حقاً بالنعمة الإلهية والنبل البشري. وتجلّى سحره كأقوى ما يكون في نشر دعوته بالأقاليم، وقد فتنّ الناس به وسكروا بخمر رسالته وألقوا عليه محبتهم مع الأزهار والرياحين. وسكت مري رع ليتنهّد طويلاً ثمّ واصل حديثه:

- ثمّ جاءت سحب الأحزان يتبع بعضها بعضاً مسوقة بأنفاس الحقد في داخل البلاد وخارجها. وتلقّاهما كلّ رجل بحسب قوة إيمانه، ولم يعبا بها مولاي وراح يردّد:

- لن يخذلني إلهي.

وقال لي يوماً في المعبد:

- الرجال ينصحونني بالاعتدال وإلهي يأمرني

فغمضت وأنا ألهت:

- يا له من نورا

فقال بعدوبة صافية:

- تعال لتعيش معي في الحقيقة.

فاعتدلت في جلستي وقلت:

- إنني معك إلى الأبد.

ومنذ تلك الساعة السعيدة صار أول كاهن للإله الواحد الذي لا إله غيره، وغدا معلّم وأستاذي، ورائد من لبوا النداء. وقلت له:

- آمنت بإلهك.

فقال بحبور:

- أحسنت، ولتكن أول كاهن في معبده.

وأعلن إيمانه لخاصته ولكنّه لم يتعرّض للآلهة إلاّ فيها بعد، وبالتدرّج أيضاً، فأعلن كفره بالآلهة الزائفة أولاً، ثمّ ألغاهما ووزّع أوقافها على الفقراء في خطوة تالية. أما على عهد إمارته فلم يكن بوسع في حكم والده أن يكون صاحب قرار. وقد تزوّج من نفرتيتي وهو وليّ للعهد، فوهبه الزواج سعادة كبرى، غير أنّ أسعد ما أسعده حظي به في إيمانها الصادق بإلهه. وفي أخت آتون تبوّأت مركز الكاهن الأكبر للإله الواحد، ولما عزم مولاي على مصادرة المعابد قلت له:

- إنك تتحدّى قوة ذات نفوذ قديم على الناس من

النوبة حتّى البحر.

فقال لي بثقة:

- ما الكهنة إلاّ دجالون، يستعبدون الضعفاء، وينشرون الخرافات، وينهبون الأرزاق، معابدهم مواخير، وقلوبهم ثملة بحبّ الدنيا . . .

فاكتشفت فيه قوة حقيقية أخفاها عن الأعين تهافت بنيانه، وشجاعة لا يحظى بجزء منها حورعبد قائد الحرس أو ماي قائد الحدود. وقد حسبه أناس لغزاً لا يحلّ لكنّه وضح بالنسبة لي مثل نور الشمس. لقد فني في حبّ إلهه وأحبّه الإله فكّرّس حياته لخدمته ملقياً بالعواقب جانباً، فلم يلتبس على قرار من قراراته ولا موقف من مواقفه. لم أدهش لسلكه في رحلته المشهورة حول عالم إمبراطوريته، ولم أدهش لتمسكه برسالة الحبّ والسلام حتّى في أحرّج الظروف، ولم

بالإيمان فأتيها أتبع يا مري رع؟

ولم يكن سؤاله الساخر في حاجة إلى إجابة. وكما مضت الأزمة في الاشتداد جاء حور محب لمقابلي في المعبد وقال لي:

- أيها الكاهن الأكبر، إنك أقرب الرجال إلى الملك.

فأجبت وأنا أحسد ما سيقول:

- تلك نعمة الإله علي.

فقال بصراحة:

- الأمور تقتضي تغيير السياسة.

فقلت له بثبات:

- أستمع لصوت الحقيقة وحدها.

فقطب فيما يشبه الضجر وقال:

- أتوقع أن أسمع كلامًا معقولًا.

فقلت بحدة:

- لا تفاهم إلا بين المؤمنين.

وكما علمت بقرارهم في التخلي عن الملك بحجة الدفاع عن حياته قلت لآي:

- من ناحيتي لا أقر العودة إلى الكفر.

ورفض مولاي التراجع خطوة واحدة ولكن كانت له خطته أيضًا في تحبب الحرب الأهلية فكان عازمًا على مواجهة الشعب وحده والجنود المتمردين، وكان كامل الثقة في قدرته على إعادتهم إلى حظيرة الإيمان، ولكن الحاشية آمنت بأنه سيقتل حتمًا وأتهم سيلحقون به جزاء بقائهم على الولاء له. وتخلّى عنه الجميع، وقد ضموني إلى قافلته المرتلة بقوة الجند، وأمروا الحرس بمنعه بالقوة إذا صمّم على مواجهة الشعب. وحيل بينه وبين ما يريد بالفعل، ووجد نفسه وحيدًا حبيسًا في قصره، حتى نفرتي ذهبت مع الداهيين، وعند ذلك غزا الحزن قلبه أمام ضعف الإيمان الذي بذل حياته الغالية في بته وتثيبته. وقيل لنا عقب ذلك إن المرض تمكن منه وقضى عليه. والحقّ أنّي أشكّ في ذلك، وأرجح أنّ الأيدي الأثمة امتدت إليه في عزلته وانتزعت منه روحه الطاهرة الخالدة. وقد مات دون أن يعلم بأنني ما تخليت عنه إلا بالقوة، وفي اعتقادي أنّ نفرتي أبعدت عنه بالقوة أيضًا، ولا أتصوّر غير ذلك

أبدأ.

وصمت مرّة أخرى ليتهد ثم رنا إلى طويلاً وقال:  
- ولكنّه لم يميت، ولا يمكن أن يموت، إنّه الحقيقة  
الباقية والأمل المتجدّد، وليتصرّن عاجلاً أو آجلاً، ألم  
يعدّ الإله بأنّه لن يخذله؟!

ومال إلى خزانه فاستخرج منها لفافة من البردي  
فأعطاه لي وهو يقول:

- إنّها تحوي رسالته وأناشيده، اقرأها يا فتى،  
وليستجيبّ لها قلبك المحبّ للحقيقة، فإنك لم تقم  
برحلتك لغير ما سبب...

## «مَآي»

سعت إلى لقائه في رنو كولبورا على الحدود حيث  
يقيم في خيمة بين جنوده من جيش الحدود. كان على  
عهد إختاتون قائداً لجيش الحدود، وما زال يشغل  
مركزه بكلّ جدارة في العهد الجديد. وقد وجدته كهلاً  
عملاقاً جاذ الملامح معتزاً بنفسه لحذّ كبير. وبعد  
إطلاعه على خطاب والذي قال بانفعال مرخّباً بالفرصة  
التي دعت له للتفيس عن صدره:

- ذلك المارق، مجهول الأب، الذي أذلّ بشذوذه  
أعناق الرجال! لقد سكنت طبول القتال، ونكست  
رايات المجد، ليرتفع صوت الغناء والطرب من فوق  
عرش الفراعين من حنجرة امرأة قبيحة الوجه متشكّرة  
في إهاب الرجال. وقد أرغمت - أنا قائد الدفاع عن  
الإمبراطورية - على التجمّد وأوصال الولايات تتمزّق  
وتقع في قبضة المتمرّدين والأعداء، واستغاثات  
المخلصين من أصدقائنا تتلاشى في الهواء. أفقدنا ذلك  
المخبول شرفنا العسكري، وجعلنا هزاة للمعتدين  
وفريسة سهلة لقطع الطرق. ومن حسن حظّي أنّي لم  
أكن ضمن حاشيته وإن اقتضى واجبي التردّد على  
أخت آتون بين الحين والحين. وفي كلّ مرّة كانت  
تتملّكني الحيرة لخدع رجال مثل آي وحور محب  
وناخت لغير مشوّه، ولانهم المذهل له ما بين القصر  
والمعبد. وكنت وما زلت مخلصاً لآلهة بلادتي وتقاليدها  
التوارثة، يوم بلغني كفره غضبت غضباً شديداً،

## العائش في الحقيقة ٧٨٧

بانحطاطه لدى المقارنة بأقرانه المميزين مثل حور محب وناخت وبك، فأخفى شعوره بالهوان وراء ستار رقيق من التواضع الأنثوي والعذوبة المخنثة، على حين بيّنت الغدر لكلّ قويّ، إلهاً كان أو كاهناً، ليخطر وحده في الساحة، محتكراً لصوت الإله الذي اخترعه، ولقوّته غير المحدودة. من ناحية أخرى تصدّى ضعفه لكلّ طامع كإغراء لا يقاوم. أجل لقد هرع إليه الرجال لا خوفاً من قوّته ولكن طمعاً في ضعفه. من أجل ذلك أعلن رجال الإمبراطورية إيمانهم برسالته، فبعث إليهم برسائل الحبّ حين تمّردهم بديلاً عن جيش الدفاع. ومن أجل ذلك أعلن الإيمان به رجال لا يرتقي الشكّ إلى عقولهم مثل آي وحور محب وناخت، وامرأة داهية مثل نفرتيتي. كان ضعفه الطعم الذي جُذِبَ إليه المنافقون والطّاعون واللصوص والفاسقون. ولبثوا يتابعون أناشيده في المعبد ثمّ ينهبون الأموال ويستغلّون العباد، حتّى تهّددهم الموت فتخلّوا عنه وانضمّوا إلى أعدائه محمّلين بغنائمهم. لذلك أعلنت رأيي للكاهن الأكبر عند اشتداد الأزمة. قلت له:

- لا تقم بزيارتك لأخت آتون، لا تنذرهم، دعني أزحف عليهم وأبيدهم ليستقرّ قلب العدالة . . .  
وأيدني توتو بحماس أشدّ ولكنّ الكاهن الأكبر مال مع الحلم وحقن الدماء، فقال لي:  
- حسبنا ما أصابنا.

وأدركت ما يبجول بخاطره. إنّه رجل داهية وينظر إلى بعيد. فقدّر ولا شكّ أنّه إن أذن لي في القتال ففضيحت على المارق ورجاله، أحرزت بحقّ الصدارة والبطولة، وحزت بذلك أقوى الأسباب لاعتلاء العرش. وعند ذاك سيجد على العرش ملكاً قوياً لا يمكن أن يتجاوز حجمه الطبيعي في رحابه. لذلك جنح إلى السلم واختار للعرش غلاماً لا حول له ليكبر ويتضحّم على حسابه. وما هم اليوم يحومون حول العرش، الكاهن وأي وحور محب، وبتريصون بصاحبه. هكذا تجري الأمور في مصر التي نضب فيها معين الإخلاص.

على أيّ حال فنحن اليوم خير ممّا كنّا أمس. لقد هُجر المارق مع ضعفه فهاث غمّاً، وما هي الداعرة

وعقدت العزم على الانضمام إلى المؤمنين إذا شقّوا عصا طاعته. ويوم صدر الأمر بإغلاق المعابد وتشريد الكهنة أيقنت من أنّ اللعنة الكبرى ستحيق بنا، وستوجّه ضربتها إلى الجميع غير مفرّقة بين الحبيث والطيب. ولدى زيارة لي لسطية، جاءني بليل الكاهن الأكبر لامون، وسألني:

- هل تجحد حرجاً في هذا اللقاء؟

فأجبته بصراحة أدهشته:

- لي الشرف، وقصري رهن إشارتك.

فشكرني وقال:

- إنك من جيل الأبرار يا ماي. انظر إلى الناس كيف فقدوا السلوى والعزاء، كان أهل الإقليم يلوذون بأهله ويقدمون القرابين، ويفزعون إلى كاهنهم في الملّات فيرشددهم في الحياة وحين الموت، ضاع المساكين كالأغنام الضالّة . . .

فقلت بامتعاض شديد:

- وما جدوى التشكّي؟ ألا ترى أنّ السوابج يطالبنا بالتخلّص منه؟

فتنكر قليلاً ثمّ قال:

- ولكنّ ذلك سيجرّ علينا حرباً طاحنة!

- ألا يوجد حلّ؟

فقال بيقين:

- إقناع رجاله المقربين!

- يا له من أمل بعيد.

فقال الرجل بحذر:

- لن نعمد إلى وسيلة يائسة قبل أن نستنفد جميع الحيل . . .

فعاهدته قائلاً:

- ستجدون جيش الدفاع وراءكم في اللحظة المناسبة.

ولكنّ نجاح حملة التحريض عليه اقتضت وقتاً طويلاً، حلّت فيه الكارثة بالبلاد، فلم يبقَ إلّا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من تحت الأنقاض. ولقد تسامل كثيرون عن سرّ المأساة. أقول لك إنّ سرّها يكمن في ضعف المارق، ضعف جسده وعقله ممّا. لقد أفرطت أمّه في تدليله فنشأ شديد الحساسيّة لحّد المرض، داعياً

- تنتظر النهاية وحيدة بين أطلال المدينة الكافرة.  
وسكت ماي مضمفياً على نبرته نغمة الختام، بيد آني  
سألته:  
- ونفرتيني يا سيدي القائد؟!  
فقال بلا مبالاة:  
- امرأة جميلة خلقت لاحتراف الدعارة فشاء حظها  
أن تمارس هوايتها في عشق الرجال من فوق العرش،  
ولا تصدق ما يحتمل أن تسمعه عن كفاءتها كملكة،  
فلو كان بعضه حقاً لا كلفه ما سقطت البلاد في عهدهما  
في هوة الفساد والخراب، وقد تخلت عنه في اللحظة  
التي فقد فيها نفوذه، ولكنّها خابت في ركوب السفينة  
الجديدة!

## «حـو»

- زرته في قريته جنوب طيبة يعيش من الزراعة بعد  
أن كان رئيساً لشرطة إخناتون في أخت آتون. وهو في  
الأربعين من عمره، غليظ القسامات واضحها، قويّ  
البنيان، تطلّ من عينيه الصغيرتين نظرة حزينة. وكما  
قرأ رسالتي شبك أصابعه فوق رأسه داعياً بحسرة  
ذكريات تولّت، وأنشأ يقول:  
- جفّت ينابيع السرور من بعده، ساعمتك الآلهة يا  
مصر!  
بدأت علاقتي به بطريقة لا تتكرّر ولا يحلم بمثلها  
أمشالي. كنت جندياً من حرس القصر الفرعوني،  
وكنت ألمح في الحديقة من بعيد. وذات صباح رأيته  
مقبلاً نحوي كأنما اكتشفني لأول مرّة فتحوّلت إلى تمثال  
بين يديه. نظر إليّ طويلاً حتّى شعرت بنظرته تجري  
مع دمي وتتردّد مع أنفاسي. وإذا به يسألني:  
- ما اسمك؟  
- محو.  
- من أيّ مكان أنت؟  
- من قرية فينا.  
- صناعة أهلك؟  
- فلأحون.  
- لماذا اختارك حور محب في الحرس؟
- تراامت إلينا أبناء عن عبادته لآتون، وتجلّى إله جديد  
له، كما عزفت على كذب منّا أناشيده. وتفتّح قلبي  
لكلّ ما يجيء منه. جذبني إليه سحره النفاث وحبّي  
العميق له. لعلّي لم أفهم ممّا سمعت إلّا القليل، ولعلّي لم  
تحمّرت طويلاً أمام إله الغامض الذي لا يتجسّد في  
تمثال، ويعامل الناس بالحبّ دون العقاب، ولعلّي لم  
أكفر بآمون، ولكيّني آمنت حبّاً في مولاي، خير البشر  
وأعذبهم وأرحمهم. عاش في الحبّ للحبّ، لم يصدر  
عنه أدّى لإنسان أو حيوان، لم يلوث يده بدم، ولم  
يعاقب مذنباً. وكما اعتلى العرش استدعاني وقال لي:  
- لا ألزمك بشيء تكرهه يا محو، وسيجري رزقك  
هنا أو هناك، فهل ترغب في إعلان إيمانك بالإله  
الواحد الذي لا إله غيره؟  
فأجبت دون تردّد:  
- أعلن إيماني بالإله الواحد يا مولاي، وأعلن  
استعدادي للموت في سبيله.  
فقال بهدوء:  
- ستكون رئيساً للشرطة ولكن لن يطالبك أحد  
بالتضحية بحياتك الغالية . . .  
كنت على استعداد كامل لمقاتلة الكهنة أنفسهم  
الذين ترعرعت في أحضان كلماتهم ورضعت حبهّم  
وتقدّيسهم. ومع ذلك فلم تصدر عن يدي ضربة  
واحدة نحو أحد مذ عملت رئيساً لشرطته عدا ضربة  
واحدة انطلقت من يدي بلا إذن منه. ويوم تسلّمت  
الرياسة قال لي:

## العائش في الحقيقة ٧٨٩

- قمت بواجبك يا محو.  
فهتفت منفعلًا:  
- إني فداء لمولاي.  
فسألني بنفس النبرة الفاترة:  
- أما كان في مقدورك أن تقبض عليه حيًّا؟  
فقلت صادقًا:  
- كلاً يا مولاي...  
فقال بأسي:  
- دبّر الأشرار مؤامرة لارتكاب جريمة يبغضها  
واهب الحياة فحيل بينهم وبينها ووقعنا نحن في  
الشرك.  
فقلت بحرارة:  
- بعض الشر لا يُصلحه إلا السيف!  
فقال ساخراً:  
- هكذا يؤكّدون، ويكرّرون من قبل أن يوحد مينا  
القطرين، فهل محقوا الشر؟  
فأخذته نشوة مباغتة فهتف:  
- متى يرى البشر المشرق والمغرب في دفقة نور  
واحدة؟  
انحدرنا من سبّئ إلى أسوأ، وتكشّف الرجال عن  
أشباح خاوية، وجرفتهم رياح الخريف أوراقاً صفراء  
جافة لا إيمان لها ولا وفاء، واعتصموا بالكذب لآخر  
لحظة فقرّروا التخلّي عنه باسم الدفاع عن حياته. وما  
أدري إلّا وحوور محب يصدر لي أمراً بمغادرة المدينة على  
رأس جنودي. ولم يكن في مقدوري مناقشته، وحتى  
توديع مولاي لم يُسمح لي به. وذهبت إلى طيبة وبي  
غصّة ندم لم تفارقني حتى اليوم. وسرّحتُ فيمن سرّح  
من جنوده المخلصين فرجعت إلى قريتي كاسف البال  
إلى الأبد. وترامت إلينا نتف من أبناء مولاي السجين  
في قصره، ثم أعلن خبر وفاته مريضاً فلم يداخطني  
شكّ في اغتياله. كيف تلاشى الحلم الجميل بهذه  
السرعة؟ كيف تخلّي عنه الإله بعد أن سكب في أذنيه  
صوته المقدّس الواعد؟، كيف وكيف آيتها الدنيا التي  
لا معنى لك؟  
وسكت وهو من الحزن في غاية فاحترمت سكوته  
هنيهة، ثم سألته:

- ليكون سلاحك منذ اليوم زينة، أدب الناس  
بالحبّ كما علّمتك، ومن لم يؤدّب الحبّ يؤدّبهِ المزيد  
من الحبّ...  
وكنّا نقبض على اللصوص فنستردّ ما سلبوا، ونهنيئ  
لهم عملاً في المزارع، ونلقنهم رسالة الحبّ والسلام.  
أما القتلة فيُرسلون إلى المناجم، وتوفّر لهم أسباب  
الراحة والرزق، ويتلقّون في أوقات الفراغ دروساً في  
الدين الجديد. وكثيراً ما لقينا من ذلك ضرورياً من  
الجحود والغدر، ولكنّ حرارته لم تفتّر أبداً، وكان  
يقول:

- سترون قريباً شجرة الأمل مثقلة بالثمار.

كان إيمانه قوياً راسخاً متحدّياً لا يتزعزع ولا يهين،  
ذلك الملك العجيب الذي شَبَّع الهواء بالسرور في  
مدينة النور، وأثملت أناشيدته قلوب الرجال والنساء  
والطير. كان يومه يمضي على غير ما عهد الملوك من  
آبائه وأجداده، فهو يتعبّد في الخلوة، يخطب من شرفة  
قصره، ويلقي أناشيدته في المعبد، ويتجوّل في عربته  
الملكيّة في سوارع أحت آتون، بصحبة الملكة، بلا  
حرس، مخالطاً جموع شعبه، محطّماً الحواجز التقليديّة  
بين العرش والناس، داعياً في كلّ مكان إلى العبادة  
والحبّ، والجميع من الوزراء حتى عمّال النظافة  
يترنّمون بنشيد الولاء للإله الواحد.

وذات صباح جاءني أحد معاوني وقال لي:

- ثمة همس بين الصفوة عن أبناء سوء!

باحث الأسرار بما أضمرت من فساد الموظفين  
ومعاناة الفلاحين وتفشّي العصبان في الإمبراطوريّة.  
خرجت الحشرات من جحورها زاحفة وجري الغدر  
مع مياه النيل. وأشفق قلبي بما عسى أن يتسلّل إلى  
مولاي من الكدر، غير أنّ الأحداث لم تزده إلّا صلابة  
وإيماناً وثقة في النصر. ولم يهِنْ تمسّكه بالحبّ، بل لعلّه  
قويّ واشتدّ، وكان الظلام لم يدهمّ إلّا ليّعه بالنور  
القريب. وفي تلك الأيام الكالحة تسلّل مجرم من  
صنائع الكهنة إلى خلوته ليغتاله في غبش الظلام، وكاد  
ينجح لولا أن عاجلته بسهم في صدره. وانتبه مولاي  
إلى ما أريد به فجعل يتفرّس في وجه المجرم وهو يلفظ  
أنفاسه، ووجم طويلاً ثمّ نظر نحوي قائلاً في فتور:

الكدر ساءلت نفسي أيّ رجل كان مولاي إخناتون الذي وُصف اليوم بالمارق؟ .

كنت من رفقاء صباه مثل حور محب وبك، ورغم كلّ ما يمكن أن يقال عن ضعفه وأنوثته وغرابة منظره فقد نجح في حملنا على حبّه، والإعجاب بقوة إدراكه ونضجه المبكّر. ولكن ثمة نقطة ضعف اكتشفتها فيه قبل الآخرين وهي أنّ شئون الدنيا الواقعيّة لم تكن تهّمه، وكانت تبعث في نفسه الملالة والسقم. كان يرمق بعين ساخرة حياة أبيه اليوميّة التي تكون النواة الصلبة التي تتركز عليها تقاليد العرش المقدّسة مثل الاستيقاظ في ساعة محدّدة، والاستحمام والإفطار والصلاة واستقبال المسؤولين وزيارة المعبد، وكان يغمغم:

- أيّ عبوديّة!

كان يعبث بالتقاليد عبث طفل مدلل لذّته في التحديّ وتحطيم الأنية الثمينة، ومن ناحية أخرى كان يطمح إلى معرفة سرّ الكون، والسيطرة على الحياة والموت. وتضاعف إصراره على ذلك بعد وفاة أخيه الأكبر تحتمس. لقد انكسر قلبه أمام الموت ولكنّه صمّم على أن يرّد الضربة بلا هوادة. وكان ذا خيال وثّاب، وكان خياله من القوّة بحيث وقع في النهاية أسيراً له وهو لا يدري. ونحن أيضًا كان لنا خيال، ولكنّا كنّا على وعي بأنّه خيال. أمّا هو فكان خياله يتجسّد له حقيقة واقعة. من أجل ذلك ظنّ به الجنون أو العته. كلاً، لم يكن مجنوناً ولا معتوهاً ولكنّه لم يكن طبيعيّاً أيضًا. كان على حدائته مبعث قلق لوالديه وللكهنة، ومصدر حيرة لنا نحن أصدقاءه المقربين. يشكّ في آمون سيّد الآلهة، ويعبد آتون ثمّ يسرّ إلينا باهتدائه إلى الإله الواحد الذي لا إله غيره. لم أشكّ في صدقه، كم لم أشكّ في خطئه. كان صادقاً لأنّه لم يكذب قطّ، ولكنّه لم يسمع صوت إله، وكان المتكلّم قلبه هو. وما ين بأس في أن يزعم ذلك كاهن من الكهنة، أمّا أن يكون الزاعم وليّاً لعهد أمنحتب الثالث فالأمر يختلف. ولم يصمت ذلك الصوت الخفيّ، ولكنّه راح يبدع للناس رسالة في الحبّ والسلام والسرور، ويضمّر للالهة والمعابد

- ترى ما تصوّرك العامّ عنه؟

فأجاب في حيرة:

- إنّه روح العدوية والصفاء ولكنّي لا أستطيع أن أقول عنه أكثر ممّا تقول الوقائع التي سردت . . .

- ونفرتيقي؟

- إنّها الجمال والجلال.

فقلت بعد تردّد:

- ما أكثر ما يقال عنها!

فقال بوضوح:

- أقول لك كرئيس للشرطة إنّي لم أسجّل عنها حركة سوء واحدة، رغم أنّي قرأت في أعين حور محب وناخت وماي نظرات جشعة مضمّخة بأخبث الشهوات، وعلى مدى علمي أنّها لم تشجّع أحدًا على تجاوز حدوده . . .

- لم انفصلت عنه في رأيك؟

فأجاب في حيرة:

- إنّه لغز لم أستطع حلّه إلى الآن!

- يجزّل إليّ أنّك كفرت بإله مولاك؟

فأجاب بعبوس:

- لم أعد أو من بإله!

## « ناخت »

سليل أسرة عريقة، ربعة، ذو وجه أبيض مشربّ بحمرة، رزين أكثر من أيّ إنسان، في الأربعين أو نحوها، كان وزير إخناتون، وهو يعيش اليوم في مقاطعته بإقليم دكها في وسط الدلتا. لم يشغل وظيفة في الدولة الجديدة ولكنّه يدعى من حين لآخر لاستطلاع رأيه في المشكلات الكبرى. رَحّب بي منوّهاً بالعلاقات القديمة التي تربط بين أسرَتَيْنا ثمّ مضى يدلي برأيه - متجاوزاً الأحداث التي باتت معروفة لديّ - وهو يقول:

- دعني أخبرك بأنني رجل غير سعيد، لم أستطع أن اضطلع بمسؤولتيّ كما يجب، فأفلت متّي الملك، وتمزّقت تحت بصريّ الإمبراطوريّة. لقد اعتزلت الحياة العامّة ولكنّ الهموم لم تعزل قلبي. وكلّما ألحّ عليّ



## العائش في الحقيقة ٧٩١

المستشار فقد شجّعه طيلة الوقت متظاهراً بالحماس والورع والتفاني في حبّ الإله الجديد. ودعني أصارحك بأنني أتهم ذلك الرجل بالكر وسوء الطوية، إنّه رسم خطّة ليثب إلى عرش مصر، وإليك تصوّري كاملاً. لقد اختير معلماً لوليّ العهد فوقف على نقاط ضعفه جميعاً. هو الذي وجّهه إلى ديانة آتون، وهو الذي بثّ في روحه فكرة الإله الواحد وأنّه صاحب رسالته. وهو الذي دبّر زواجه من ابنته رغم علمه بعجزه، وأقنعها بالنظائر بالإيمان الجديد. بذلك صار حما الملك ومستشاره المعروف في مصر بالحكيم. وزين له مصادرة الآلهة ليوقع بينه وبين الكهنة والشعب فينتهي الصراع بعزله أو قتله إن لم يمت قبل ذلك لضعفه الطبيعي. ولم تكن تخفى عنه الأسباب التي ترشّحه للعرش، فهو نحو الملك وهو الحكيم، وهو أيضاً طاعن في السنّ لا يئس الطامعون في العرش من انتظار أجله ليحلّوا محلّه. ولعلّه رسم أيضاً أن يتزوَّج من ابنته نفرتيتي فيدعم شرعيّته وتستمرّ هي ملكة لمصر. ورأبي لهذا لا يستند إلى تصوّري وحده ولكن لما وافاني به بعض العيون، ولكن أفضل خطّته ولاء الشعب للملك أوّلاً، ثمّ تولية الكهنة لتوت عنخ آمون عند ذروة الأزمة، ولكّني أعتقد أنّه ما زال يجتري حلمه القديم.

ولم أستطع أن أبوح برأبي لأحد، ولكّنتي تابرت على تقديم نصحي للملك، قلت له:

- لا شكّ أنّ إلهك هو الإله الحقّ، ولكن دع الناس إلى آلهتهم، سيّد له في كلّ إقليم معبداً وسيكون له النصر الأخير، ولكن جنّب البلاد شرّ الفتن!

ولكن كان أسهل عليّ أن أزحزح الهرم عن موقعه عن أن أزحزح إخناتون عن قراره، وما زاد عن أن قال لي:

- يا ضعيف الإيمان!

وقمت بالمحاولة نفسها لإنقاذ البلاد من الفساد، والإمبراطوريّة من الضياع، قلت له:

- الدفاع عن النفس حقّ ولا يتناقض مع الحبّ والسلام.

وإمبراطوريّتنا الفناء. وإذا بالشاعر يصير ملكاً، وإذا بالحلم يتجاهل الحقيقة ويحلّ محلّها فتختلّ الموازين وتقع المأساة. ودعانا عقب جلوسه على العرش وعرض علينا دينه الجديداً. كان من رأبي الرفض، وقلت لحوّرجوب:

- قد يعدل عن غيّه إذا وجد نفسه وحيداً.  
فقال لي:

- سيجد غيرنا ممن لا أخلاق لهم ولا خبرة فيجرون البلاد إلى الخراب.

فسألته:

- أليس من المحتمل أن يقع ذلك بأيدينا؟  
فابتسم ساخراً وقال:

- إنّه أضعف من أن يستهين برأينا!  
وهزّ منكبيه وتمتم:

- إنّه يملك الكلمات ونحن نملك القوّة . . .

من أجل ذلك أعلنت إمساكي بدينه بين يديه. واختارني وزيراً فتلاشت مخاوفي أو كادت. وكنت ألقاه كلّ يوم سواء في طيبة أو في أخت آتون، فأعرض أمور الإدارة والمال والمياه والأمن فيلوذ بالصمت تاركاً الرأي والتوجيه للملكة التي أثبتت جدارة فافت كلّ تصوّر، أمّا هو فلم يتحدّث إلّا عن إلهه ورسالته، وما يتعلّق بذلك من توجيهات وقرارات. وواجهت أوّل تحدّ عندما أراد أن يعلن موقفه من الآلهة، وحذّرت من العواقب وإذا به يقول لي كالمعتاب:

- يا ضعيف الإيمان!

ومضى بي إلى الشرفة فأطلّ على الجموع المحتشدة، وكانت له قوّة السحر في نفوسهم، فأعلن قراره بقوّة مخيفة وارتفع هتاف الجماهير إلى السماء، وشعرت بأنني أصبحت لا شيء، وأنّ ذاك البناء المتهاافت يتفجّر عن قوّة مجهولة لا قبل لنا بها. ورغم حكمة نفرتيتي كانت تسلّم له في رسالته وتحمّس لها كأنّها هي صاحبة الرسالة. والحقّ أنّ ذلك أدهشني حتّى قلت لنفسي:

- هذه المرأة إمّا أن تكون شريكته الروحيّة أو تكون أكبر مأكرة عرفتها البشريّة! وفي تقديري أنّه ممّا أكّد له النجاح أنّه لم يتصدّد لمعارضته سواي. فحوّرجوب لم يتكلّم إلّا عندما بلغت الأزمة ذروتها، وأمّا أي

الواقع الحادة القاسية، فانجلت عن مأساة وخراب ودموع، ثم لاذ الانتهازيون الجشعون بقارب النجاة في آخر لحظة، تاركين ضحيتهم الأعجوبة يغرق وحده وهو لا يصدق أن إلهه المزعوم قد تخلى عنه حقاً. ومزق الجميع أقنعتهم، وعلى رأسهم أي ونفرتيتي، واختلفت مصائرهم ولكن لم ينل أحدهم جزاءه الحق، باستثناء المارق المسكين، ولدرجة ما نفرتيتي التي لم يقبل الكهنة توبتها الزائفة، أما مصر فقد تحملت أخطاء الجميع وتعددت في جسدها الجراح . . .

وصمت الوزير طويلاً ثم تتمم في أسى عميق:  
- هذه هي قصة الخداع والبراءة والحزن الأبدية . . .

## « بنتو »

كان طيبب إخناتون الخاص، وما زال يشغل نفس الوظيفة في قصر توت عنخ آمون، في الستين من عمره، نبيل المظهر، وينبض به عرق نوبي، وقد زرته في قصره الأنيق في وسط طيبة. وجدته هادئ الطبع، خافت الصوت، جَم النشاط متأثراً في ملبسه. مضى يتكلم في استسلام لتيار الذكريات، قائلاً:

- مهما قيل عن إخناتون الذي يُعرف اليوم بالمارق فإن ذكره تدقُّ القلب بالحب، وتتحدى الذاكرة بعجائبها، هل حقاً عاش ذلك الرجل بيننا؟ . . . هل حقاً كرس حياته للحب؟. وهل حقاً خلف وراءه هذه العواصف من الحقد والكراهية؟. وكلما تذكّرت تذكّرت معه القلق الذي أثاره في قلوب القريين منه والبعيد من صباه المبكر. كانت الملكة العظمى تبي تسألني:

- ما سرّ ضعفه يا بنتو؟

شدّ ما حيرني ذلك السؤال. لم يكن به مرض، ولكنّه كان نحيلًا هزيلًا شاحب اللون، لا يمكن أن يصمد لمرض أو حادث، بخلاف شقيقه تحتمس القويّ الجميل، ولم يحب الألعاب الرياضية ولا الطعام الجيد. وكنت أصلي إلى تحوت إله العلم وأقول له «تعال إليّ وأرشدني فأني خادم في دارك». ولم ينفع معه عصير الأعشاب المباركة برقية إيزيس ولا تماثيل تحوت كاتب

فقال لي بحماسة العجيب:

- حتّى الحيشيون أنفسهم سيخشعون لسحر الحب، الحب أقوى من السيف والكبرياء!  
ولما تراكمت سحب الظلام اجتمعت سرًا بكاهن آمون وقائد الدفاع ماي، وقلت لهما:  
- لا بدّ من الإقدام على عمل وإلا فقدنا الجدارة والشرف.

فنظرا إليّ مستطعين فقلت:

- فليكف الكهنة عن إثارة القلاقل في الداخل، وليزحف ماي بجيش الدفاع لإنقاذ الإمبراطورية.

فتسائل ماي:

- أزحف بلا أمر من فرعون؟

فقلت بهدوء:

- بل . . .

فتسائل الكاهن وكان أقوى ثلاثتنا:

- وبعد؟

فقلت:

- حينما يتمّ النصر لمي يطالب الملك بإطلاق حرّية الأديان.

وإذا بالكاهن يقول لي:

- خطة غير حكيمة فقد يتمرّد قوّاد الجيش على ماي إذا أمرهم بالزحف دون أمر فرعوني . . .

ثمّ قطب حتّى احتقن الدم بوجهه وقال لي:

- إنك تعمل لحساب مولاك يا نخت لا لحسابنا، فلا شكّ أنّه بلغك نجاحنا في بتّ دعوتنا في الأقاليم فقرّرت أن تحرمنا من جنودنا الموالين لنا . . .

تلقيت الطعنة في غضب وغادرتها موقناً بأنّ أحداً لا يشغل باله إلا بمصلحته الذاتية، وأنّ مصر ضائعة بين أوغاد، وأنّ تبعه خرابها تقع على الجميع ما بين موالين للملك والمعارضين له لا على إخناتون وحده، بل لعلّه أنقى المدينين ضميراً وأصفاهم نية. لقد لعب به الدهاء، ورسموا له خطة ماهرة ليحققوا في رحابه جشعهم، ثمّ ليرثوا ملكه عقب السقوط الختمي، ولكنّه صدق كذبهم وآمن بها، وتفجرت من إيمانه قوّة لم يعمل أحد حسابها، فاجتاحتهم فترة من الزمن، وغزت القلوب بسحر عجيب، حتّى ارتطمت بصخرة

## العائش في الحقيقة ٧٩٣

فقلت له متهرباً من مطاردته:

- سَلْ معلّمك أي.

فقال باستهانة:

- إنّه لا يعرف أكثر ممّا تعرف.

وكان نضج حديثه مع هزاله وحداثته ممّا يهزّ النفس من أعماقها. وقد تابعت مغامراته الروحية بنظر ثاقب مسرّب بالإعجاب الذي لا حدّ له، وقلت لنفسي إنّ هذا الغلام ذو موهبة غامضة خارقة تستعصي على الإدراك، مثير للقلقل، متحدية للقوى المتربّصة به، فماذا يخبئ له الغيب إذا جلس يوماً على عرش أجداده؟. وكان نشاطه - مع ضعفه - ممّا يبعث على الدهول. كان ينام قليلاً، يتعبّد كثيراً كأنّه كاهن، ويقرأ كثيراً كأنّه حكيم، ولا يملّ من طرح الأسئلة والنقاش. وضاق به الملك أبوه فقال بمرارة:

- أثبت أنّه جدير بأيّ كرسيّ إلا كرسيّ العرش!

ويومًا لاحظت أنّه يسرق من أبيه نظرة لم ارتح لها،

فقلت له:

- إنك تدرك كثيراً من الأشياء ولكنك لم تدرك

عظمة أبيك بعد.

فقال بعصبية:

- ساءني منظره وهو يلتهم الطعام.

كان ينفر من أصحاب الشهوات المسيطرة. وكنت أتصوّر أنّ سلامة الجسم هي أساس لسلامة الروح، فأثبت لي أنّ العكس صحيح أيضاً، وأنّ قوّة الروح قد تمدّ الجسم الضعيف بقوّة تفوق إمكاناته. ولا أنسى قوله لي مداعباً:

- إنك تهتمّ بالجسم كأنه كلّ شيء بينا القوّة الحقيقية تكمن في الروح، هي الخالدة أمّا الجسم فهو بناء مهلهل قذر سيئ الأخلاق سرعان ما يتفوّض عقب قرصة حشرة!

وهنت وكأنّه نسي وجودي تماماً:

- لا أدري ماذا أريد ولكنّي مليء بالرغبة، ألا ما

أحزن الليل الطويل!

وكان يقبع في الظلمة منتظرًا الشروق ثمّ يتلقّى النور فيتألّق بالفرح، حتّى تلقى يوماً مع دفقة النور صوت الإله الواحد، وعصف الرعب بقلب طيبة

رسائل الآلهة. وبلغ الخوف غايته عندما مسّه المرض في الخمسين، وجرّ معه أخاه تحتّمس فرقدًا في حجرة واحدة. وقالت لي الملكة تبي:

- بهما إمساك، وانظر إلى صفرة وجهيهما...

ففحصتهما وقلت:

- بالقلب حرارة وفي البطن انتفاخ، لا بدّ من شراب يفرغ الأمعاء، ثمّ انقعوا جعة حلوة مع دقيق جاف لمُدّة ليلة واحدة ليأكلا منه أربعة أيّام.

قبل أن تنتهي الأيّام مات تحتّمس القويّ، ونجا الضعيف من كلّ سوء. ودار الصبيّ في جميع أنحاء القصر يبحث عن شقيقه وقلبه يتقطّع من الحزن.

وكلّمها رأني رماني بنظرة احتجاج ويقول:

- تركت أخي للموت!

ونظر إلى أبيه وقال معاتباً:

- عندما أصبح فرعون سأقتل الموت!

وسألني يوماً بحرارة:

- ألا يمكن أن يرجع تحتّمس يوماً واحداً؟!

فقلت له:

- صلّ للآلهة التي أنقذت روحك، أمّا الموت فلا

رجعة منه. وكلنا سنموت... فسألني بحدّة:

- لماذا؟!

فقلت له ملاطفًا:

- ردّد الأغنية التي كنت تترنّم بها مع أخيك

الراحل:

أولئك الذين يتحدّث الناس بك مهمم

أين ديارهم الآن؟

كأنّها لم تكن

افرح حتّى تنسى قلبك

فإنّ أوزوريس لا يسمع العويل

ولا ينقذ الصراخ إنسانًا من عالم الأموات.

وصاحبته الحزن زمنًا طويلًا حتّى خيّل لي أنّه فاق

أمّه في حزنه على أخيه. ومرة وأنا أتعهده بالرعاية

الطيّبة سألني:

- لمّ هذا الجهد كلّ طالما أننا كلنا سنموت؟

فابتسمت وواصلت عملي فرجع يسأل:

- لمّ تبتم كأنك لن تموت؟

## ٧٩٤ العائش في الحقيقة

- المطمئن. وقلت لنفسي:
- إنه ليس نسمة من نسائم الربيع ولكنّه عاصفة من عواصف الشتاء!
- واستدعاني الملك والملكة، وسألني تبي:
- ما معنى هذا الصوت يا بنتو؟
- فقلت بحيرة:
- لعلّ آي الحكيم أندر على الإجابة منّي يا مولاتي.
- فقال الملك بضجر:
- إنّها تسألك كطبيب.
- فقلت بإخلاص:
- لا أعرف عقلاً أنضح من عقله يا مولاي.
- فسألني بحدة:
- أهو يعيب بنا؟
- فقلت بإخلاص:
- إنه صادق وأمين.
- يبدو أنّك لا تملك تفسيراً لذلك.
- هذا حتّى يا مولاي.
- فسألني مقطباً:
- أنت مؤمن بسلامة عقله؟
- أجل يا مولاي.
- ألاّ يحتمل أن يصدر صوت عن قوّة شريرة؟
- فقلت بصدق:
- العبرة بما يدعو إليه.
- فهتف غاضباً:
- العبرة بما سيرسل علينا من زواج.
- وجاء زواجه من نفرتي مبشراً بأمال كثيرة فأمل والداه كما أملنا نحن أنّ الزواج سيعقل من اندفاعه ويردّه إلى الاتزان والرؤية العمليّة. ولكنّ الزوجة كانت كاهنة فانطلقا في طريقهما حتّى نهايته لا توقفهما قوّة فوق الأرض. ومات أمنحتب الثالث وخلفه صاحب الرسالة، وشعر الجميع بدنوّ المعركة وتوترت الأعصاب لأقصى حدّ. ودعاني الملك فيمن دعا من رجاله وخيّرني بين الإيمان بدينه وبين ممارستي لحياتي كيفما أشاء بعيداً عن بلاطه، ولم أتردد في الاختيار فأعلنت بين يديه إيماني بالإله الواحد. لم يكن في
- وسعي الانفصال عنه أو الاستهانة بجاذبيته الفائقة، كما أنّي أحببت إلهه واعتبرته فيما بيني وبين نفسي كبير الآلهة مع حفاظي على إيماني القديم بسائر الآلهة، خاصّة تحموت إله العلم الذي أدوي المرض بتسائمه وتعاويذه. وتعاقت الأحداث كما عرفت، ومضى الرجال يشيدون للإله الجديد مدينته، وانتقلنا إليها في جمع زاخر ونحن نردّد الأناشيد، واستخفّ الفرح الملك فهتف ووجهه يطفح بالبشر:
- ها نحن ضيوفك يا إلهي في مدينتك الطاهرة التي لم تلوّث بعبادة إله زائف . . .
- واستقبلنا عهداً سعيداً تمثّلنا معه الخلود على الأرض، وجعلت أقارن كلّ صباح بين ما يلقي علينا في المعبد وبين طقوس الآلهة القديمة وأشعار كتاب الموت فلم يخامرني شكّ في أنّ دفقات من نور صافٍ تملأ أرواحنا بخمر إلهيّة صافية.
- وعرض لنا أول عارض من كدر بوفاة الأميرة المحبوبة ميكيتاتون. وقد توّسل إليّ قائلاً:
- بنتو، أنفذ محبوبة قلبي.
- ولما لفظت الجميلة أنفاسها أجهدتني في البكاء كما نفرتي وأكثر، وعاتب إلهه عتاباً تجاوز حدّ الصبر، حتّى قال له مري رع الكاهن الأكبر:
- لا تُغضب الإله بدموعك يا مولاي.
- فانفجر مولولاً، من الحزن أو الندم أو كليهما معاً. وهتفت نفرتي:
- ما هو إلاّ سحر كهنة آمون!
- وكانت تردد ذلك القول كلّما أنجبت بنتاً وضاعت فرصة جديدة لإنجاب وليّ العهد. وكان هو يشاركها الألم، ويحزن لحزنها، فسألني مرّة:
- اليس لديك من نصيحة تجدي لإنجاب ذكر؟
- فقلت له:
- أبذل جهدي يا مولاي.
- فسألني:
- أتؤمن بسحر الكهنة؟
- فقلت كارهاً:
- لا يجوز الاستهانة به.
- فتفكّر ملياً ثمّ قال لي واجهاً:

## العائش في الحقيقة ٧٩٥

- وكيف تفسر انفصالها عنه؟  
- لديّ تفسير واحد، هي أنّها لم تصمد للضربات  
المنهالة فأصببت بانهيبار، فهربت بمرضها مغلوبة على  
أمرها.

ثمّ واصل حديثه قائلاً:

- وبلغت المأساة ختامها الأسود بصدور قرار التخلي  
عنه، وقد استأذنت حور محب في السماح لي بالبقاء إلى  
جانبه بوصفي طبيبه الخاصّ فأخبرني بأنّ الكهنة قرروا  
إرسال طبيب من لديهم! . ولكنّه سمح لي بفحصه إذا  
شئت قبل الرحيل. وذهبت من فوري إلى القصر  
الذي لم يبقّ به إلّا نفر من العبيد، ومجموعة للحراسة  
اختارها أعداؤه. وجدته في خلوته وحيداً وكان يصلي،  
مغرّداً بصوته الحنون:

إنّك جميل... إنّك عظيم  
بك يفرح قلب الإنسان  
وتخضّر الأشجار والأعشاب  
وترفرف الطيور  
وتقفز الحمان  
خلقت ملايين الأشبال.  
إنّك في قلبي  
وليس هناك من يعرفك  
غير ابنك إخناتون.

ولما فرغ من صلاته نظر نحويّ باسماً فغضضت  
بصريّ دافع العينين. سألتني:

- كيف تيسر لك أن تحييء يا بنتو؟

فقلت بصوت متهدج:

- سُمح لي بأن أفحص مولاي قبل الرحيل.

فقال في هدوء:

- إنّي في خير حال يا بنتو.

فقلت بأسى:

- جميع الأوفياء أكرهوا على الذهاب.

فقال باسماً:

- أعرف من ذهب باختياريه ومن ذهب على رغبته.

فانحنيت حتّى لثمت يده وأنا أقول:

- يعزّ عليّ أن تبقى وحدك.

فقال بهدوء:

- ليتصرّن الإله الواحد، ويملأّن الكون بأفراحه،  
ولكّتنا نحن البشر لن نخلو من أحزاننا الصغيرة.

لذلك كان سرعان ما يعبر جسر الحزن لينغمس في  
نور الحقيقة. ولما تابعت كربات الأزمات في الداخل  
والخارج، أرسل إليّ كاهن آمون الأكبر رسوياً سرياً،  
ذكريّ بعهد طلبي العِلم في معبد آمون، ثمّ طرح عليّ  
هذا السؤال:

- أيمن الركون إليك لإنقاذ الوطن من الخراب  
الذي يتهدده؟

فأدركت من توريّ أنّه يطالبي كطبيب باغتتيال  
الملك، ولذلك قلت له بنبرة حاسمة:  
- مهنتي تأبى الخيانة.

اجتمعت بمحور رئيس الشرطة وطلبت منه مزيداً من  
مراقبة الطهارة، لهذا والأمور تمضي من سيئ إلى أسوأ.  
وسكت الطبيب بنتو وقتاً ينشد شيئاً من الراحة في  
خضمّ الذكريات المرهقة فتذكرت ما سمعت من أقوال  
متضاربة عن حياة إخناتون الجنسيّة، ورجحت ألا  
يعرض الرجل لها، فسألته عنها مدفوعاً بحبّ استطلاع  
لا يقاوم. وعند ذاك قال:

- كان جسمه يجمع بين خواصّ الذكر والأنثى،  
كذلك قسماً وجهه، ولكنّه كان رجلاً قادراً على  
الحبّ والإنجاب.

ارتعشت شفّتاي بسؤال مضطرم، وتردّدت طويلاً،  
ثمّ استجمعت شجاعتي وسألته:

- هل ترامى إليك ما قيل عن علاقته بأمّه؟

فتجهّم وجهه وأجاب:

- وسمعت مثلها سمعت أنت، ولكنّي أعتقد أنّه  
محض افتراء!

وتريت ووجهه يزداد تجهّماً ثمّ قال:

- المسألة أنّه كان إنساناً فاق سموّه أيّ إنسان،  
بيشّر بمملكة إلهيّة لا تتوافق مع طبيعة البشر، فأشعر  
كلّ فرد بتفاهته، وتحذاه باستفزاز لا قبل له به،  
فأنهالوا عليه بالغضب البائس والحقد الحيواني..

فسألته متشجّعاً بسأحته:

- وما رأيك في نفرتيّ؟

- ملكة عظمى بكلّ جدارة.

ختام رحلتي، وكأنني لم أتم بمغامرتي المثيرة إلا من أجل لقاء هذه السيِّدة الوحيدة.

ووجدتني في حجرة صغيرة أنيقة، زخرفت جدرانها بالكلمات المقدَّسة، في صدرها كرسيّ من الأبنوس يقوم على أربعة أسود من الذهب، وبين يديه يقع كرسيّ من الأبنوس ذو مقبضين من الذهب الخالص. وجاد الزمان بالرؤية فرأيت السيِّدة العجيبة مقبلة في ثوب أبيض فضفاض، رشيقة جميلة عظيمة، لا ينحني ظهرها تحت وطأة أربعين عامًا مثقلة بالملح وسوء المال. جلست وأشارت إليّ بالجلوس وطلعتني بعينين ساجيتين تنداح في جمالها الملالة. بدأت بالثناء على أبي ثم سألتني بمرارة:

- كيف وجدت مدينة النور؟

فغضضت بصري المفتون بجهاها ولدت بالصمت، فأنشأت تقول:

- لقد سمعت الكثير عنه وعني فاستمع الآن إلى صوت الحقيقة... شببت وترعرعت مليئة بحبِّ الحقيقة والدنيا منتفحة بحكمة أبي أي. لم أشعر بفقد أمي في عامي الأوّل لما وجدته عند تي من حنان قلب كبير فكانت لي أمًا لا زوجة أب، وهبتي طفولة سعيدة. ولم تتبدّل عواطفها بمولد أختي موت نجمت بفضل حكمتها، ونشأنا أختين متحابتين، وإن جنى عليّ تفوّقي بعد ذلك ما يجني من إثارة للغيرة والحسد، وإن لم يستفحل ذلك بيننا إلا فيما بعد. وظلّت تي على حنانها لا تفرّق بيننا، على الأقلّ في الظاهر، فشكرت لها ذلك، وكافأتها عليه في حينه فاخترتنا مربّية للملكة وأنزلتها بمنزلة الأميرات، وذات يوم جاءنا أبي برجل مبارك تمنّ يقرءون الغيب، فنظر في طالع الأختين، وقال:

- هاتان البنتان ستجلسان على عرش مصر.

فدهش أبي وسأله:

- الاثنتان؟

فأجابه بيقين على مسمع منّا:

- الاثنتان.

وتخيّرنا طويلاً بين الإيمان بالرجل وغرابة نبوءته، حتّى قلت ضاحكة:

- لست وحدي يا ضعيف الإيمان.

ثمّ بقوة منعشة:

- يتصوّرون أنّ الهزيمة حلّت بي وبإلهي، ولكنّ إلهي لا يخون ولا يقبل الهزيمة.

وغادرته متورّم العينين من البكاء وأنا على يقين من أنّ الطبيب المتدّب ليحلّ محليّ سيزهق باغتياه أنبل روح حلّت بجسد بشريّ. وغصت في وحدة لم أخرج من وحشتها حتّى الساعة...

## «نفرتي»

سُمح لي بدخول أخت أتون بإذن خاصّ من القائد حورمحب. مراكز الحراسة المتقاربة تمتدّ بطول شاطئها على النيل. اخترقت نصف المدينة الشماليّ ما بين المرسى وحتّى قصر الملكة السجينة، يتقدّمني جنديّ من جنود الحراسة. وطيلة مسيرتي تلقّيت من الذكريات تيارًا مفعماً بالزبد واللّالي، متلاطمًا بين العبر والدهشة، تمخّط فوقه غريان الفناء. اخترقت أرض الشوارع العملاقة تحت ركّام الأتربة ونشار أوراق الأشجار الجافّة وخليط من الأخشاب التي نزعها العواصف من النوافذ والأبواب. البوابات الكبيرة مغلقة كالخفون المسدلة على أعين باكية، وجفّت الحدائق فتلاشت خضرتها وألوانها، ولم يبقَ منها إلاّ جدوع خشنة ضامرة كالجلث المحنّطة وجواسق متداعية وأسوار منهاره، يخيّم فوقها صمت ثقيل مكتوم الزفرات، وفي الوسط مجموعة هائلة من الانقاض هي ما تخلف عن معبد الإله الواحد المتهتم الذي تجاوبت في أركانه أعذب الألحان المقدّسة. اخترقت الكآبة والوحشة والخوف تطلّ من أعينها نظرات الحقد والانتقام، ويطبعها بطابع الموت بملاحمه الرهيبة الأبدية. كان الوقت عصرًا ونحن نقبل على قصر الملكة في أقصى الشمال، وقد تبدّى شاعًا بأبعاده، مضيئًا بحديقته الغناء، حزينًا بنوافذه المغلقة عدا نافذة واحدة خفق لمراها قلبي. وكان الخريف يتوسّط عمره، والفيضان محتفظًا بفيض من فتوّته، والماء ضاربًا إلى الاحمرار الداكن، فامتلات منه بحيرة القصر الصناعيّة. خفق قلبي وأنا أقترّب من

## العائش في الحقيقة ٧٩٧

خفت أن يغمى عليّ. تمثل لي وليّ العهد أسطورة ذات  
جاذبية لا تقاوم. لكنني ترددت عن اتخاذ قرار ووقعت  
في العذاب. وذات مساء سمعت خفيةً أبي وهو يتلو  
وحده نشيدًا من أناشيد الأمير:

إنك جميل إنك عظيم  
بك يفرح قلب الإنسان  
وتخضّر الأشجار والأعشاب  
وترفرف الطيور  
وتقفز الحملان

فحفظته وأنا في نشوة مسكرة، ورحت أردده وقلبي  
يتفتح له ويمتلئ برحيقه. انجذبت إليه انجذاب  
الفراشة إلى النور. وتقرّر مصيري بأن أكون الفراشة  
التي تنجذب إلى النور حتى يهلكها. وغزائي الإيمان  
بقوة ولطف في موكب معرّد بالأهازيج، واهبًا الظمأنينة  
والسلام. وهمست:

- يا إلهي الواحد، إنّي مؤمنة بك، إلى الأبد.  
وأظهرت نفسي لأبي وأخذت أردّد النشيد فرمقي  
مقطّبًا وهو يتساءل:

- تسترقين السمع؟  
فتجاوزت عتابه وسألته:  
- ما رأيك يا أبي في الصوت الذي سمعته؟  
فأجاب بهرود:  
- لا أدري.  
فسألته بجرأة:

- أيجتمل أن يكون كاذبًا؟  
فصمت مليًا ثم قال:  
- إنّه لا يكذب أبدًا.

- إذن فهو صوت حقيقيّ؟  
فبدا متردّدًا ومشفقًا ولكنّه قال:  
- ربّما كان حلماً ما سمع!  
فقلت بنبرة تسليم واعتراف:  
- أبي، إنّي مؤمنة بالإله الواحد!  
فتغيّر لونه وهتف:

- حدّار يا نفرتيتي، احتفظي بسرّك في قلبك حتى  
أقتلعه منه!

ودّعينا كما تعلم للمشاركة في حفل عيد الجلوس.

- قد تجلس إحدانا ثمّ تخلفها الأخرى.  
ولم ترتع تي إلى ما يشير إليه قولي من معنى فقالت  
بحزم:

- لننس هذه النبوءة ونذع المصير للآلهة!  
وصمّمنا على نسيانها ولكنّها كانت تلوح في أفق  
الخيال بين الحين والحين، حتى جاءت الحوادث  
ففجّرتنا تفجيرًا. وسمعت عن إختناون أول ما سمعت  
عن طريق أبي بعد أن اختير معلّمًا له. كان ينوّه في  
مجالسنا العائليّة بعقله ونضجه المبكّر. ومرة قال عنه:

- يا له من شخص مثير، إنّه ينتقد الآلهة والكهنة،  
ولم يعد يؤمن إلاّ بآتون! وبخلاف أمي وأختي وجدت  
صدى لما يقول في نفسي، إذ كنت أعشق آتون أيضًا،  
وأعجب بمجاله الشامل للسماء والأرض، على حين  
تقبح الآلهة في ظلام المعابد. لذلك قلت ببراءة:  
- معه الحقّ كلّ الحقّ يا أبي.

فأسخط قولي أمي وأختي أمّا أبي فقال بأسها:  
- نحن نعدّك لتكوني زوجة لا كاهنة.

لكنني خلّقت لأكون كاهنة مع حبيّي للأومة والمجد  
الدينوبيّ! وكما نقل إلينا أبي أول نبا عن الإله الجديد،  
الواحد الذي لا إله غيره، زلزلنا بعنف، وشارت  
العواطف لأقصى حدّ، وتعرّض وليّ العهد لقارص  
الكلبات. وسألته أمي:

- ما رأي الملك والملكة؟  
فقال آي واجمًا:

- ثمة أزمة في القصر لم يشهد لها مثيلًا من قبل.  
وقالت أمي بإشفاق:  
- أخشى أن يوجّه إليك لوم بوصفك معلّمه.  
فقال بأسّي:

- لكنّها أدري بابنهما، وبأنّه لا ينساق وراء أحد  
مهما جلّ شأنه.  
فقلت موت نجمت:

- إنّه مجنون، وسيفقد عرشه، اليس للعرش وريث  
آخر؟

فقال أبي:

- ليس له سوى أخت كبرى عليّة . . .

وفي أثناء الحوار كنت أموج بعواطف عنيفة حتىّ

وقالت لنا تي:

- يجب أن يراكما أنبل شباب مصر وأنتما في أجمل زينة.

غير أنني كنت متلهفة على رؤية شخص واحد، ذلك الذي هداني إلى نور الحقيقة. وفي البهر العظيم رأيت أفراذاً قَدَّر لي أن أخوض معهم بحر الحياة بحلوه ومرّه مثل حور محب وناخت وبك وماي وغيرهم، ولكنّ قلبي لم يرَ في الواقع إلا مولاي. وأعترف لك بأنّ منظره صدمني صدمة غير متوقّعة. تصوّره تمثالاً من نور، ولكنّي وجدته نحيلًا متهافتًا مخيبًا للأحلام. وأفقت من هزيمتي العابرة بسرعة، تجاوزت المنظر المثير للرتاء إلى الروح الكامنة فيه، التي اختصّها الإله بحبّه ورسالته، وأعلنت لها فيما بيني وبين نفسي الولاء إلى الأبد. كان يجلس إلى يمين أبيه يتابع الرقص والغناء بعين فاترة. ولم تتحوّل عنه عيناى، ولعلّ كثيرين لاحظوا ذلك وفسّروه بحسب أهوائهم، ثمّ أعادوا تفسيره على ضوء الحوادث التالية. ولن أنسى ما قالته لي موت نجمت فيما بعد وهي تعاني لدغة الغيرة:

- لقد حدّدت لك هدفًا ونلتها!

وقمّيت أن ينظر نحوي. وقد فعل. ألقى إلينا نظرة عابرة فالتقت عينانا لأوّل مرّة. وهمّ بأن يمضي بنظرته الملولة ولكنّه توقّف فيما يشبه الدهشة. وكأنّه بهر، أو تساءل عمّن تكون تلك الفتاة التي تحدّق فيه بنهم. وحانت منّي التفاتة إلى الملكة العظمى تبي فوجدتها تنظر نحوي كذلك فاضطرب فؤادي أيّما اضطراب. وحلّقت أحلامي في آفاق بعيدة ولكنّها لم تقترب في هيئتها من الواقع الذي جاءت به الأحداث. ورجعنا إلى قصرنا وصدورنا تجمّش بأمال غامضة، وموت نجمت غارقة في كتابتها. وكما خلّلت إليّ في غرفتي قالت بانفعال:

- توكّد ظني!

فسألتهما عمّا تعني فقالت:

- إنّه مريض ومجنون!

فعرفت بالبداهة من تعني فقلت:

- لقد رأيت مظهره ولكنك لم تخبري قلبه.

وقال لنا أبي في اليوم التالي:

- الملكة تبي دعت نفرتيتي لمقابلتها.

وهزّ الخبر الأسرة هزّة عنيفة، وتبادلنا نظرات متسائلة. أمّا أبي فقال:

- لا شك أنّ وراء ذلك شيئًا من الرضا أو الإعجاب...

وقالت تي بمباهاة:

- أتنبأ بأنّها ستضمّك إلى حاشيتها الخاصّة.

وذهبت برفقة أبي. وقادوني إلى استراحة الملكة المطّلة على الحديقة الداخليّة. سجدت بين يديها، ثمّ أذنت لي بالجلوس على أريكة إلى يمين مجلسها. وجعلت تتفحصني غير عابثة بحساسيتي، ثمّ سألتني:

- اسمك نفرتيتي؟

فأجبت بإحناة من رأسي فقالت بلطف:

- اسم على مسمى!

فشعرت بالفرح يشتعل في وجنتي.

- ما عمرك؟

- ستّة عشر عامًا.

- تبدين أنضج من ذلك!

ثمّ فيما يشبه الدعابة:

- لماذا دعوتك في ظنّك؟

فألهمت أن أجيب:

- لخير هو فوق ما أستحقّ.

فابتسمت قائلة:

- إجابة حسنة، ماذا حصّلت من العلم؟

- القراءة والكتابة والحساب والشعر والتاريخ والدين بالإضافة إلى الثقافة المنزليّة.

- وما رأيك في مصر؟

- سيّدة الدنيا وملكها ملك الملوك.

وباهتمام سألت:

- من إلّك المفضّل؟

فقلت مضطّرة إلى إخفاء الحقيقة:

- آتون يا مولاتي.

- وآمون؟

- هو مشيد الإمبراطوريّة أمّا آتون فهو الذي يطوف

بها كلّ يوم!

- لا سلطان على ما ينبض به القلب ولكن يجب



## العائش في الحقيقة ٧٩٩

- رأيت وليّ العهد؟  
 - في حفل عيد الجلوس يا مولاي.  
 فسألت بصوت غريب:  
 - وكيف ترينه؟  
 - إنه يتفرد بقوة خفية تميّزه عن سائر الشباب...  
 ففاجأني متسائلة:  
 - أعني كزوج؟  
 وخرست من هول المفاجأة حتى كرّرت السؤال  
 فقلت بصوت متهدج:  
 - لا تسعفي الكلمات يا مولاي.  
 - ألم يساورك حلم يوماً بأن تصيري ملكة؟  
 - أحلامي جزء من قلبي المتواضع.  
 - ألا يفتنك العرش؟  
 - إنه في سماء لا ترتفع إليها أحلامي.  
 فصمتت قليلاً ثم قالت:  
 - اخترتك زوجة لابني وليّ العهد.  
 فأغمضت عيني من شدة التأثر، ثم قلت عندما  
 استرددت قدرتي:  
 - ولكنّه لا يعرفني ولا يهتم بي.  
 فقالت باعتراز:  
 - ولكنّه يرضخ لمشيتي عن حبّ راسخ...  
 ثم مواصلة الحديث بجلال:  
 - يهمني في المقام الأول أن أجد له شريكة مناسبة،  
 وكأ رأيك ألهمني حدسي بأنك الشريكة المطلوبة، وإني  
 أومن بالحدس إيماني بالعقل.  
 فأخرسني التأثر الشديد عن التفوه بأيّ كلمة  
 واستمرت هي تقول:  
 - ولكنّ الملكة خلقت للواجب قبل كلّ شيء، ما  
 رأيك في ذلك؟  
 - أرجو أن أكون كما تودّين يا مولاي.  
 فقالت بصوت نافذ:  
 - عديني بالتعاون معي دون قيد أو شرط.  
 فقلت وأنا لا أقدر مسؤوليّة قولي:  
 - إني أعدك بذلك.  
 - وأنا مطمئنة إلى شرف كلمتك.  
 كان الامتنان يشلّني عن التفكير، ولكن ما إن

الإقرار بأنّ آمون هو كبير الآلهة.  
 فقلت بتسليم:  
 - هو كذلك يا مولاي.  
 - بصراحة هل ذاق قلبك الحبّ؟  
 فقلت دون تردّد:  
 - كلّاً يا مولاي.  
 - ألم يتقدّم أحد لخطبتك؟  
 - كثيرون ولكنّ أبي لم يجد في أيّهم الكفاءة.  
 وتفرّست في وجهي ملياً ثمّ سألتني:  
 - ما شعورك بصراحة عمّا يقال عن انحراف وليّ  
 العهد عن آمون؟  
 ولأول مرّة تجمّد لساني فلم أنبس فقالت بنبرة  
 ملكة:  
 - أجيبني بصراحة!  
 فأسعفتي دهائي فقلت:  
 - مهما يكن من أمر قلبه فيجب المحافظة على  
 التقاليد المرعية بين العرش والكهنة.  
 فابتسمت في ارتياح وقالت:  
 - إجابة حسنة.  
 ثمّ اعتدلت فيما يشبه الدلال وسألت:  
 - حدّثيني عن فتي أحلامك، كيف تودّين أن  
 يكون؟  
 فترّيت في ارتباك ثمّ تمتت:  
 - أن تكون له قوة المحارب وروح الكاهن.  
 فقالت ضاحكة:  
 - إنك طموحة جداً، من تفضّلين إذا خُيرت؟  
 - أفضل صاحب الروح.  
 - حقاً؟  
 - أجل يا مولاي.  
 - لست كغيرك من البنات.  
 - لا دنيا عندي بلا دين.  
 - وهل دين بلا دنيا؟  
 فتراجعت قائلة:  
 - ولا دين بلا دنيا.  
 وصمتت طويلاً وأنا أكتم انفعالاتي المتصاعدة، ثمّ  
 سألتني:

ولعه بمتع الحياة. ومضت بي تي إلى الحجرة المذهبة  
وممست في أذني بكلماتها المفيدة، وأجلستني على السرير  
الذهبي في ثوب شفاف يتجلى تحته جسمي العاري.  
ولاح في الباب وليّ العهد والمشاعل في الأركان تزهري.  
نزع شملته عن وزرة شفافة وأقبل نحوي في خفة يطلّ  
من عينيه الشغف العذب. أوقفني فوق السرير وضمت  
ساقِي إلى صدره وهمس في أذني:

- أنت شمس حياتي.

وكان ينعم روحي بنوره أما جسدي فقد تقلص  
وانكمش أمام منظره الغريب. وراح يقول بصراحة  
عجيبة:

- أحبيتك في عيد الجلوس، هرولت إلى أمي  
وصارحتها برغبتني في الزواج منك.

وضحك بسرور ثم واصل حديثه:

- أنكرت عليّ رغبتني في الزواج من فتاة لا يجري في  
عروقها الدم الملكيّ فقلت لها «أنت كذلك يا أمي»،  
فتظاهرت بالغضب، ولكنّها استدعتك إلى مقابلتها،  
ثمّ زفّت إليّ موافقتها...

وتذكّرت ما أدعت من أنّها صاحبة الفكرة وداريت  
ابتساماً. وكان عليّ أن أتكلّم، وأن أقول قولاً صادقاً،  
فقلت:

- لقد آمنت بإهلك وبك من قبل أن أراك.

فهتف بحبور:

- على لسان أيّ أليس كذلك؟، إنك أوّل من آمن  
يا نفرتيني.

فقلت وأنا أدفع عن نفسي اللحظة الحرجة ما  
استطعت:

- سأكون أوّل من يترنّم بنشيد الإله في معبده.

- أعدك بذلك.

ثمّ لثم شفقتي وهمس:

- ولكن عليك أن تنجيني وريثاً لعرش الإله!

وتلاشت مشاعري القدسيّة فلم يبق محلّها سوى  
الحياء والضيق ومضت الحياة بنا كزوجين ومؤمنين. أما  
عن حياتي الروحيّة فقد تلقّيت منه مدداً لا يفنى أترع  
قلبي بالنور، حتى توقّعت أن يكلمني الإله كما يكلمه،  
وأن يكرم نصف رمزه بما يكرم به نصفه الآخر. أما

غادرت محضرها حتى شعرت بأنني أرسف في أغلالها،  
وبأنّها قوّة لا يمكن الاستهانة بها، وبأنّها رقيب يرصدني  
من الداخل والخارج معاً. وتذكّرت وليّ العهد فأيقنت  
من أنّ جلالة مهما جلّ فإنه لن يسوّغه لي كزوج،  
وأنتي سادف ثمن المجد غالباً. وذهلت الأسرة للخبر  
وثملت به. أجل يمكن تصوّر أثره في أعماق قلب موت  
نجمت، ويمكن تصوّر مشاركة تي لابتها في عواطفها  
الخفيّة، ولكنّ الحظّ تدفّق تلك المرّة كالسيل ليغمر  
الجميع بفيضه وإن تفاوتت الدرجات. وإن يكن  
وعدي بالعرش فقد رفعهم إلى مقام الأسرة المالكة.  
من أجل ذلك أقبلوا عليّ يُسدون إليّ القبلات وأطيب  
الدعوات. وتذكّرت النبوءة وكيف تحقّقت بمعجزة فهل  
تتحقّق أيضاً لموت نجمت؟. وساورني قلق. ولعلّ  
موت نجمت تذكّرت ذلك أيضاً فشحذت صبرها  
ونواياها، ولكنني صمّمت على طرد المخاوف. ودعاني  
أبي إلى حجرته وقال لي بحنان:

- اليوم تسعد أمك في قبرها.

فقلت بأني:

- لعلّها.

فسألني بأسياً:

- كيف تشعرين؟

فأجبت بصدق:

- الحقيقة تفوق أيّ خيال.

- لا يستطيع الحظّ أن يهب فرصة للسعادة أقوى  
من ذلك.

فتساءلت:

- هل أضمن السعادة حقاً يا أبي؟

فقال بحنان:

- العرش يهب المجد أما السعادة فرهن بحكمة  
القلب.

فقلت بتأثر شديد:

- ما أصدقك يا أبي!

فقال بعطف:

- سأصلي من أجل نجاحك وسعادتك.

وتّمت مراسم الزواج بسرعة غير عاديّة. واحتفل به  
في القصر احتفالاً يليق بعظمة الملك أمنحتب الثالث

## المائس في الحقيقة ٨٠١

ومضت أبناء الإله الجديد تتسرب إلى الكهنة ومضى الجوّ يكفهر. وفي تلك الفترة من حياتنا عرفت مدى قسوة زوجي المسترة وراء ضعفه الجسدي، لمست صلابة روحه، وقوة تصميمه، وعنف شجاعته، وصموده أمام التحديات. قال لي مرة:

- إن أحجار الأهرام مجتمعة لا تستطيع أن تثني عن هدي.

فقلت له متأثرة بحماسة:

- إني معك في جميع الأحوال.

فهتف:

- لن يخذلنا إلها.

حتى أبوه وأمه لم يستطيعا أن يزحزحاه عن موقفه. ودعيتني تبي إلى لقاء في يوم اعتبره من أخطر أيام حياتي. سألتني:

- هل شغلك الحمل عن أحزان طيبة؟

فقلت لها وأنا أتوئب لمعركة:

- أحزان طيبة هي أحزانتنا.

فتساءلت بدهاء:

- ألم تؤثر فيه كلماتك الطيبة؟

فقلت بجرأة:

- كلمات إلهي هي الأقوى.

فقال بتوجس:

- ولكنك لا تبدين حزينة أو قلقة.

فهويت على أغلالي قائلة:

- إني مؤمنة بما يقول يا مولاتي.

بذلك التصريح أعلنت أنّ حبي للإله أقوى من حبي للعرش وحررت نفسي. واتسعت عيناها النجلوان وتساءلت:

- آمنت حقاً بالإله الجديد؟

- نعم يا مولاتي.

- لكن ذلك يعني إنكار آلهة مصر؟

فقلت بحرارة:

- إنه واحد لا شريك له.

فتساءلت بنبرة غاضبة:

- أليس من حق الآخرين أن يعبدوا آلهتهم؟

- إنه لا يتعرض للآخرين.

جسمي فكان يتجلد في كآبة وصمت. وحلت به الثمرة فتوغتكت صحتي وتغير لوني، وعبث القادم بي، عبث برشاقة جسمي الجميل. وكان مولاي يعيش في الحقيقة ويكرس ذاته للحقيقة، ويتحدى كافة القوى من أجل الحقيقة، ولا يمقت رذيلة كما يمقت الكذب والكاذبين، فساءلت نفسي في قلق كيف أجيء لوخطر له يوماً أن يسألني «أتحبيني يا نفرتيتي». لن أجد الشجاعة للكذب عليه. وفضلاً عن ذلك فقد تعلمت منه أن أحب الحقيقة وأن أكره الكذب. وأعددت إجابة على سؤاله المحتمل، وهي أن أقول له:

- سيجيء الحب في وقته فمعذرة لأنني أكره الكذب مثلك.

وهي إجابة ربما تلاشت معها أحلامي، وأقصتني عن المجد والنور. ولكنك لم يطرح ذلك السؤال قط، فظل من هذه الناحية على غموضه وظللت على قلقي. ويوماً استدعتني الملكة تبي إلى استراحتها، وراحت تتفحص جسدي باسمه ثم قالت:

- اعطني بنفسك ففي بطنك تدب حياة ستضم عاجلاً إلى تاريخ هذا الوطن.

فلمست في قولها إشارة إلى انتظار ولي العهد فقلت:

- صلي من أجلي يا مولاتي.

فقال بثقة:

- أمامك عمر طويل.

فقلت بإشفاق:

- لا حيلة لي في ذلك.

فقال محذرة:

- لا تسلطي الخوف على فكرك.

فقلت كالتشكيكية:

- لن أسأل عما ليس في طوق البشر.

فهمست:

- الملكة ليست كسائر البشر!

إنها تحطم وسائل دفاعي. امرأة قوية وداهية وجديرة بما يصفها أبي به من عظمة. وزوجي يجيئها لدرجة مشيرة، وهي تعتبره ملكها وحدها حتى بعد زواجه. وشعرت أنني ما زلت أرسف في أغلالها.

وفي تلك الأثناء جاءت تادوخيا ابنة ملك ميتاني لتلعب دورها في طيبة . وكان الملك أمنحيب الثالث قد سمع بجهاها فطلب الزواج منها دعماً لأواصر الصداقة بينه وبين ميتاني . وكانت تمي تدرك بواعث زوجها الحقيقية ولكنها كانت دائماً تسلط عقل الملكة العظمى على عواطف زوجها وتبهم بقوة خارقة على الغيرة مكترسة جل وقتها للحكم . وجاءت تادوخيا تشق طريق طيبة في موكب فخم تتبعها ثلاثمائة جارية . تسليت بسامع الأنباء وأنا غارقة في وحدتي وأحزاني ، وحدثتني تي عن موكب الأميرة الصغيرة وجهاها ، وختمت حديثها بقولها :

- ولكن لا تعلق على شمسنا شمس في الوجود! وذاع في جنبات القصر أن الملك المعجوز الذي أخذ المرض يكذره قد هام بالعروس الجديدة التي في عمر أحفاده ، وأنه غرق في بحر العسل . ولكن باله لم يصف طويلاً إذ جاءت التقارير عن رحلة ولي العهد لتعصف بأمنه وسعادته . ودعيت للاجتماع بالملك والملكة فهالني أول ما هالني ما حل بالملك من ضعف نتيجة لإفراطه في الحب واللهو . رغم ذلك بدا غاضباً شرساً ، وجعل يهتف :

- يا له من فتى طائش .

فقال تمي :

- يمكن أن نسترد هيبنا بعرض لجيش الدفاع في أنحاء الإمبراطورية! فقال لها ساخراً :

- لقد بدد الأحمق مدخره الموروث من الإجلال ولن يستردّه مهما فعلنا .

فتساءلت بعد تردد :

- ألا يجوز أن يأسرهم بلطف أخلاقه؟

فهتف بي :

- ما أنت إلا حمقاء مثله .

وقالت لي المرأة الداهية :

- كان بوسعك أن تعقله!

فقلت لها وأنا أداري انفعالي :

- هيهات أن أقدر على ما تعجزين عنه يا مولاتي!

فقال متباعدة في تحدّيها لي :

- لكنّه سيكون يوماً الملك الخادم لجميع الآلهة؟

- نحن لا نخدم إلا إلهنا واحداً .

فهتفت :

- ألا تقدّرين عواقب هذا التمرد؟

فقلت بثقة صادقة :

- إلهنا لن يخذلنا أبداً .

فسألني بغیظ ومرارة :

- ألم تمددني بالتعاون دون قيد أو شرط؟

فقلت برقة :

- إنك مولاتي ولكنّه الإله فوق كلّ شيء .

ورجعت إلى جناحي دامعة العينين ، مجهولة المصير ، ولكن مطمئنة القلب . وسرعان ما صدر الأمر للأمير للقيام على رأس البعثة المشهورة لزيارة الإمبراطورية . وقيل وقتها إنه أريد بها ترويض ولي العهد وتعريفه بواقع إمبراطوريته لعله يرجع عن غيّه . ولكنني شعرت أيضاً بأن تمي شرعت تعاقبني بحرمانني من زوجي في وقت أوشكت فيه على الوضوع . ولما ذهب ألقى بي في خضم تجربة جديدة ما تصوّرتها قط . ماذا حدث في تلك الأيام؟ انطفأ نور الدنيا ولم تعد الشمس تسكب إلا ظلاماً . وغزرتني وحدة مخيفة خانقة ، لم يخفف منها ملازمة مرّيتي تي ولا غناء الجوّاري ورقصهن . واحتوتني الكتابة ودثرتني بكفنها .

افتقدت مولاي في كلّ ركن من أركان جناحي وفي كلّ ساعة من يومي . لم أتحيل أنه يشغل ذلك الحيز كلّ من حياتي ، واكتشفت أنه سرّ حياتي وكنز سعادتني ، لا كمعلم فحسب ، ولكن كزوج وحبيب أيضاً . وبكيت ندماً على عيامي وجهلي ، وتلهفت على رجعتي لألقي بقلبي تحت قدميه . وحدث في القصر ما سرى عنه بعض همومه ، فقد جاءني المخاض ، كما جاء الملكة تمي ، في وقت واحد تقريباً ، فأنجبت أنا ميريتاتون وأنجبت الملكة توأمين هما سمنخ رع وتوت عنخ آمون . ولما عرفت بأنني رزقت أنثى ركبتني الهّم والحزن ، وتوكد لديّ بأن مركزي يزداد ضعفاً أمام امرأة القصر القويّة . وترامت إليّ همسات الحریم بأن لعنة الكهنة قد حلّت بي وأنتي لن أنجب ذكراً ما حييت .

### العائش في الحقيقة ٨٠٣

رغم الحداد وانهلت بالقبل على وجه ميريتاتون الصغير. وما لبث حبيبي أن رجع من رحلته بقامته الطويلة النحيلة وأنسه المبدد للظلمات فهرعت إليه وعانقته بكل قوة حبي. ونفّس في وجهي وقتاً ثم قال بطمأنينة:

- أخيراً جاء الحب يا نفرتيتي!

فأذهلني قوله وعزاني وقلت متلعثمة:

- إني أحبك من قبل أن تراك عيناى.

فقال باسماً:

- ولكنتك لم تحبيني كزوج إلا هذه المرة!

فأذهلتنى قدرته على قراءة القلوب فلم أنبس. ومثل أمام جثة أبيه قبل الدفن، ورجع إليّ بأثر البكاء في عينيه ثم قال كالمعتد:

- الموت يهزني حقاً، ثم إنني لم أحبه كما يجب!

وجلسنا على العرش في جو مليء بالترنيم والتحدّي، وسرعان ما تجلّت قوة حبيبي الكامنة كأعظم ما تكون القوة. وبدأ بعرض دينه على رجاله فأعلنوا إيمانهم به. ولم أشك أنا في صدقهم قياساً على نفسي، ولكن الأحداث أثبتت أن أكثرهم لم يكونوا صادقين، أو أن إيمانهم لم يبلغ درجة التضحية بالنفس، باستثناء مري رع الكاهن الأكبر. ولا أشك اليوم في أن بصيرته الصافية لم تخدع بهم، وأنها نقلت إلى أغوار قلوبهم، ولكنه كان يؤمن دائماً بأن الحب كفيلاً بهداية الجميع في النهاية، وأنهم سيعبرون مرحلة الإيمان السطحي إلى الإيمان الحقيقي عندما يأزف الوقت وكما فعلت أنا في علاقتي الزوجية به. بل أقول أكثر من ذلك بأن نفراً منهم اقتنعوا بعدم أهليته للعرش فحلّموا بأن يخلّفوه في ذروة الأزمة، منهم حورمحب، بل منهم أبي أي نفسه، وليس الخلدس مرجعي الوحيد في تصوّري لهذا ولكّني استخرجته بفطنة من بعض المواقف أو فيما عرض من حوار مثير في أيام الهزيمة. لذلك أراحني جداً اختيار الكهنة لتوت عنخ آمون دونهم، وإن كنت أشك في أنهم يسوا حقاً من تحقيق أحلامهم بطريقة أو بأخرى. على أي حال بدأ حكمنا في ذلك الجو المتوتر، ولكننا كنا سعداء رغم كل شيء، وأخذت ميريتاتون تحبو على حين تكوّنت

- ولكنتك تشجّعينه وأنت راضية!

فلوَح أمنتب الثالث بيده مهتدداً وقال:

- سأخبره حال عودته بين الطاعة وبين الحرمان من ولاية العهد!

ورجعت إلى أحزاني مشفية على اليأس. ولكن تي أيقظتني في صباح اليوم التالي، ثم همست في أذني:

- مات الملك يا مولاتي.

وثقل قلبي بالحزن. وجعلت أتساءل ترى هل نغذ الملك وعيده قبل وفاته؟ وهل يمكن أن تضحي تبي بابنها المعبودة؟ وفي الفترة التي حمل فيها الجثمان إلى دار التحنيط استدعتني الملكة وقالت لي وهي ترمقني من خلال عينيها الحمراوين من أثر البكاء:

- اعلمي أن الكهنة اقترحوا عليّ المناداة بسمنخ رع أو توت عنخ آمون ملكاً على أن أتولى الوصاية على العرش.

لم أشك في تلك اللحظة في أنها أنزلت بي عقابها بكل ثقله وعنفه فقلت مستسلمة لقدري:

- قرارك دائماً يصدر عن حكمة وإني به راضية!

فتساءلت بقسوة:

- أنتطقين عن صدق؟

فأجبت بهدوء اليأس:

- وماذا أملك سوى ذلك؟

فقلت بحدّة:

- غلب الحب الحكمة فرفضت الاقتراح!

فتنفّست بعد غرق وأعياني الكلام فسألتنى ساخرة:

- سعيدة؟

فقلت بأمانة:

- نعم يا مولاتي فإنني أمقت الكذب!

- هل تعدينني بالدفاع عن العقل والتقاليد؟

فقلت وأنا أتمزق:

- لا أستطيع يا مولاتي!

فنفخت مغیظة عنققة وهتفت:

- إنك تستحقّين العقاب، ولكنتك جديرة

بالإعجاب أيضاً، فلتواجهها مصيركما بحكمتكما ولتكن

مشيئة الآلهة!

وصرفتنى مكفهرة الوجه فعدت إلى جناحي سعيدة

- ثمرة جديدة في بطني نتيجة للحب الكامل هذه المرة. ولم يعرف امرأة غيري رغم أنه ورث حريم أبيه كما تقضي التقاليد، وفيه الميثانية الجميلة تادوخيا. وزارتنا الملكة الوالدة تبي فتوقعت متاعب من نوع ما. وصحّ ظني فقالت لابنها على مسمع مني: - أيها الملك، إنك تهمل الحريم... فقال زوجي ضاحكًا: - إنّي مؤخّذ في الحب كما في الدين! فقالت بجدية: - ولكنك مطالب بالعدل. ولا تنس تادوخيا ابنة صديقنا توشراتا فهي تستحق الرعاية إكرامًا لأبيها. ونظرت نحوي فزاع عنها بصري وأنا في غاية الضيق فقالت بدهاء: - نفرتي تثبت كل يوم أنّها جديرة بالعرش فلعلها توافقني على رأيي... فواظبت على صمتي كاظمة غيظي على حين راحت تحدّث عن واجبات الملكة. ولم أستطع أن أقهر رغبتني في زيارة الحريم، في الظاهر للتعارف وفي الحقيقة لرؤية الأميرة الجميلة. ووجدتها جميلة حقًا ولكنّ ثقتي بنفسي لم تتزعزع، وتبادلنا كلمتين للمجاملة وافترقنا عدوتين سافرتين. وفي اليوم التالي جالست زوجي في جوسق بالحديقة وإذا بي أسأله: - ماذا تنوي بالنسبة للحريم؟ فأجابني ببساطة: - لا رغبة لي فيه! فقلت باحتجاج: - ولكنّ الملكة الوالدة لا تكثر للطلبات! فقال بغموض: - إنّها مولعة بالتقاليد! فقلت بوضوح: - أما أنت فإنّك عدوّ التقاليد الأوّل. فضحك بسرور وقال: - صدقت يا حبيبي! وأظنّ أنّه في ذلك الوقت تمتّ المقابلة المشيرة بيني وبين كاهن آمون الأكبر. تمّت بناء على طلبه وبوساطة أبي. وقال لي:
- مولاتي، لعلك تعلمين بما جثت من أجله؟ فقلت له دون مواربة: - إنّي مصغية إليك أيها الكاهن الأكبر. فقال برجاء: - ليعبد الملك من يشاء من الآلهة ولكن لجميع الآلهة وعلى رأسها آمون حقّ في الرعاية. فقلت: - إننا لا نتعرض بسوء لأيّ إله. فقال برقة: - إنني أطمح إلى دفاع الملكة عنّا عند الضرورة فقلت بصدق: - لا أستطيع أن أعد إلا بما يسعني الوفاء به. فقال بأسى: - كان أبوك واحدًا منّا وبينه صداقة لا تنفصم عراها. فقلت: - يسرني أن أسمع ذلك. وذهب الرجل ولا شكّ عندي في أنّه أضمر لي عداوة ثابتة. وكرس الملك حياته كلّها لرسالته، داعيًا للحبّ بالحبّ، نافيًا العنف والقهر والعقاب، مخفّفًا الضرائب عن الفقراء، حتّى آمن الجميع بأنّ عهدًا جديدًا من الخير يحلّ بأرض مصر. وجاءني المخاض فولدت ابنتي الثانية سيكيتاتون فخاب رجائي للمرّة الثانية في إنجاب وليّ للمهد. وكثر الحديث عن سحر الكهنة ولكنّ زوجي أحبّ المولودة من أوّل نظرة وقال لي مواسيًا: - سيجيء وليّ المهد في حينه لا قبل ذلك. وكملّ تشييد معبد جديد إلّنا الواحد في طيبة، وذهبنا في موكب لافتتاحه، وإذا بالكهنة يجمعون أذانًا لهم فتظاهروا في طريق الملك وهتفوا لآمون. واستاء القصر لذلك التحديّ السافر، وسهر الملك في الشرفة مغثًا على غير العادة، وراح يخاطب طيبة قائلاً: - طيبة، يا مدينة الشرّ والأشرار، يا مثوى الإله الكاذب والكهنة الفاسقين، لا أريدك بعد اليوم يا طيبة!
- وأمره الإله ببناء مدينة جديدة له، ونفد الأمر فرحل

## العائش في الحقيقة ٨٠٥

- وإذا تصدّوا لأمرك بالمقاومة؟  
- سأوزّع الأوقاف على الفقراء ولن أتعرض لثمرد بسوء قانعا بدعوة شعبي إلى عبادة الإله الواحد وهجر معابد الشرك.

فانكشف عني الغم، وقبّلته وأنا أقول:

- لن يتخلى عنك إلهك.

وصدر الأمر. وحدث ما لم أتوقّعه فنقذ بهدوء شامل. بفضل الإله، وبقوّة العرش المهيمنة على النفوس. وازددنا ثقة بغير حدود. وفي العصارى كنّا ننتقل في عربتنا الملكيّة بلا حرس نجوب شوارع أخت آتون الواسعة تحفّ بنا الجواهر المحمّسة والنخيل والصفصاف وأشجار البلح، محطّمين حواجز الوهم بين العرش والناس، نكاد نعرف الناس جميعا بملامحهم وحرفهم والبعض بأسمائهم، وحلّ الحبّ حقا محلّ الخوف القديم، وتغنّى الجميع بأعذب الألحان القدسيّة. وهمس أبي في أذني مرّة:

- أخشى أن تبدّدوا هبة الملك.

فقلت له وأنا أضحك:

- نحن نعيش في الحقيقة يا أبي..

وغزونا البلاد برحلاتنا المقدّسة داعين لعبادة الإله الواحد الأحد، وأذهلنا الخصوم والأصدقاء بانتقالنا الدائم من نصر إلى نصر، ولم نكثرث لما أفضى به إلينا محو رئيس الشرطة من أنباء عن نشاط الكهنة السريّ ومحاولتهم الدائبة لتأليب الناس علينا. ولم يعد سلوك مولاي يدهش أحدًا لانغفاسه الكليّ في عالمه المقدّس، أمّا أنا فأدهشت الكثيرين حتّى سلّموا بأنني لغز لا يُحلّ. إذ كيف أهيم مثله في عالمه القدسيّ رغم وعيي الكامل بواقع الشؤون الإداريّة والماليّة للبلاد. فلعلّهم لم يصدّقوا أنني كنت صنوه في الإيمان والحساس للرسالة. وكنت أشاركه الحياة في الحقيقة وأصدّق كلّ كلمة تصدر عن لسانه الصادق الذي لم يكذب قطّ.

وقال لي ونحن نتشبي بذروة الفوز:

- عندما تتطهّر الأنفس من أدرانها ستحظى الأذان

جميعا بسماع الصوت الإلهيّ ويعيشون في الحقيقة!

ذلك كان حلمه، أن يعيش الناس أجمعون في

الحقيقة.

بك على رأس ثمانين ألفًا من المهندسين والعمّال لتشييد مدينة الإله الواحد. وعشنا في أثناء ذلك هاتين بسعادتنا الشخصيّة يتربّص بنا جوّ عدائيّ شديد التوتّر. وأنجبت أنحس ياتون ونفر آتون مسلمة أمري لإلهي خالق الإناث والذكور. وفي الوقت المناسب انتقلنا إلى المدينة الجديدة مصطحين معنا سمنخ رع وتوت عنخ آمون أمّا الملكة تبي فأصرت على البقاء في طيبة على كذب من كهنة آمون كيلا يقطع آخر خيط بين العرش والمعابد.

ولما وجدّني في مدينة النور أخت آتون المتجليّة في وحدة هندسيّة متناسقة استخفّني السرور فهتفت في نشوة وبراعة:

- ما أجمل الجمال، ما أعذب روحك يا إلهي! وافتتحت المدينة بالصلاة في المعبد، وشدوت بنشيد الإله بصوت لم تسمع المعابد أعذب منه، ثمّ ألقى الملك موعظته الأولى الشاملة، ورسم مري رع كاهنا أكبر. وجرى نهر الحياة حاملا إلينا بركات السعادة والنصر، حتّى رجعت إليّ يوما من خلوته يلوح في وجهه الجذّ والتصميم وقال لي:

- أمرني إلهي بأن يعبد وحده في البلاد!

وفي الحال أدركت خطورة ما ينطوي عليه ذلك الأمر، فتساءلت:

- والألهة الأخرى؟

فقال بثبات وعينه تومضان:

- سأصدر أمري بإغلاق معابدها ومصادرة أوقافها.

وران عليّ صمت حتّى تساءل:

- لا تبدين سعيدة يا نفرتيتي؟

فقلت بمجلة:

- إنك تتحدّى كهنة البلاد أجمعين.

فقال ببساطة وثقة:

- إني على ذلك لقادر.

فقلت بعد تردّد:

- ألا يسوقك ذلك لاستعمال العنف وأنت رجل

الحبّ والسلام؟

- لن أجا إلى العنف ما حييت!

ساعات الحال أكثر جاءتنا الملكة السالدة تبي .  
واجتمعت بنا بعد أن استقبلت رجالنا في قصرها  
بجنوب أخت آتون . وبدأت حديثها قائلة:  
- السماء مليئة بالغيوم .

ونقلت بيننا عينها اللتين أحاط بهما الكبر وقالت:  
- أخذت العهد من رجالك بالوفاء لك في جميع  
الظروف والأحوال .

فسألتهما:

- ترى هل داخلك الشك فيهم؟  
فقلت لي بعتاب:

- المحن تطالبنا بالتماس اليقين . .  
فقال إخناتون:

- إلهي لا يبالي بالمحن!  
فقلت بحدّة:

- بل عمّا قليل ستفجر الفتنة .  
فقال بثقة:

- لن يتخلّى عني إلهي أبداً .

- لا أملك الحقّ في التحدّث باسم الآلهة، إنهم  
أكبر من ذلك وإني أصغر من ذلك، ولكنّي أعرف ما  
يجري في دنيا الناس .

فقال بأسى:

- أمي، إنك غير مؤمنة . .

- لا تتحدّث عمّا بيني وبين الغيب، حدّثني كملك  
وأصغ إليّ كملكة، أقول لك تحرّك قبل فوات الأوان،  
لديك جيش الحدود بقيادة ماي فمرّه بالزحف على  
الإمبراطورية، ولديك قوّة الحرس والشرطة فمرّها  
بضرب الفساد والفسدين، أسرع قبل أن يتهاوى  
عرشك أنقاضاً . .

فقال بحدّة:

- لن أمر بسفك نقطة دماء واحدة .

فقلت في أسى عميق:

- لا تجعلني أندم على تمسّكي لك بالعرش .

فهتف:

- لا يهمني العرش إلاّ باعتباره الوسيلة لخدمة

الإله!

فنظرت إليّ تبي وقالت:

ورجعنا من رحلاتنا الموفّقة فوجدنا ميكيتاتون طريجة  
الفراش تطالعنا بوجه آخر لم نره ولم نعرفه . وجثا  
إخناتون إلى جانب فراشها وراح يصليّ، وانتحيت  
بالطيب بنتو في أقصى الحجره وقلت له:

- البنت تموت يا بنتو .

فأجابني بأسى:

- قد بذلت ما في وسعي!

فقلت في حنق وقهر:

- إنهم يريدون بسحرهم أن يجرموه من أحبّ  
الكائنات إلى قلبه . .

وسمعتهم يهيمس بحرارة مخاطباً إلهه:

- لا تفجعني فيها يا إلهي، إني أحبّها ولا أطيق  
الحياة بدونها . .، إنّها أنضج من عمرها وستكرّس  
حياتها لخدمتك . .

لكنّ روحها مضت تتسرّب رويداً من قبضة حبنا  
حتّى تركتنا متسامية للنجوم . وانكبينا عليها نبكي  
ونولول مستسلمين لطغيان الحزن . وجعل يخاطب  
إلهه:

- لماذا يا إلهي؟، لماذا تمتحن إيماني بشدّة لا داعي  
لها؟، لماذا تصارحني بقسوة بأثني ما زلت بعيداً عن  
معرفتك، لماذا تعاملني بعنف وأنت الرحمة، وبجفاء  
وأنت الحبيب، وبغضب وأنا المطيع، وبغموض وأنت  
النور، لماذا إذن كسوتها بهذا الجمال ومنحتها هذا  
الذكاء؟ ولماذا جعلتنا نحبّها كلّ الحبّ ونعدّها لخدمتك  
في معبدك؟

وانتشلتنا من حزننا أحزان جديدة شملت داخل  
البلاد وخارجها ممّا علمتها بالتفصيل كما ذكرت لي .  
ولعلّ أتعمس الناس هم الذين يتداوون من حزنهم  
بحزن أشدّ . وقابلنا الوزير ناخت وعرض علينا  
الصورة بحذافيرها . ولا أنكر أنّ عزمي اجتاحتها  
الكآبة وخامرني القلق، أمّا مولاي فقد صمد أمام  
العاصفة كأنّه الهرم الأكبر . وقال بثقة لا حدّ لها:  
- لن يخذلني إلهي، ولن أحيد عن الحبّ قيد ذرّة  
رمل .

وعدتني قوّته الخارقة فانتعشت روحي قاهرة جميع  
المهاجس والوساوس، وندمت على ضعفني العابر . ولما



## العائش في الحقيقة ٨٠٧

فقال الملك:

- سألقى الجيش المهاجم وحدي بلا سلاح.

فقال حور محب بحزم:

- سيقتلونك ثم يقتلوننا، وطالما أنك مستمسك

بديانتك فتتح عن العرش وتفرغ لها.

فقال بوضوح:

- لن أنتحى عن عرش الإله فهي الخيانة!

ثم نظر في وجوههم وقال:

- إني أعفيكم من الولاء لي.

فقال حور محب:

- سنترك لجلالتكم مهلة للتدبر.

وذهبوا مخلفين وراءهم إنذارًا نهائيًا. وما كنت

أنتصّر أن يلقي فرعون مثل ذلك الهوان. وتساءلت في

حيرة بالغة حتى متى يضرّ علينا إلها بالانصراف؟

وعجبت لإيمان حبيبي الراسخ، واقتنعت بأنني ما زلت

دونه بمراحل بخلاف ما كنت أعتقد.

وجاء حور محب لمقابلتي على انفراد وقال لي:

- افعلي شيئًا، افعلي ما بوسعك، سيقتل حتى إذا

أصرّ على موقفه، بل قد يُقتل بيد أحد رجاله! عليك

أن تفعلي شيئًا قبل فوات الفرصة.

وتخايل لعينيّ شبح الموت والهزيمة، تسلّل وهن إلى

إرادتي، وشيء من الشكّ إلى عقيدتي، وتساءلت في

حيرة معدّبة كيف أنقذ حبيبي من الموت؟! وخطر لي

أنني إذا هجرته فلعلّ ثقته بنفسه تترزع فيذعن لمشيئة

رجاله، ويتنحى عن العرش. أجل سيؤمن بأنني خنته

كالآخرين ولكنني لم أكن أملك وسيلة أخرى. هكذا

أقدمت على هجر حبيبي وقصري، فلذت بقصري

الخاصّ في شمال أخت آتون باكية العينين، دامية

القلب. وزارتي أختي موت نجمت، وأخبرتني بأنّ

الملك مصرّ على عناده، وأنهم وجدوا الحلّ في إخلاء

المدينة وإعلان ولائهم لفرعون الجديد، وبذلك تنعدم

دواعي الحرب الأهلية، ثمّ سألتني بخبث:

- متى ترحلين إلى طيلة؟

وكنت أقرأ أفكارها بوضوح فقلت بخشونة:

- لقد تحققت نبوءة، وأن النبوءة الأخرى أن

تتحقق، فاذهبي بسلام، أما أنا فسأبقى إلى جانب

- تكلمي آيتها الملكة فلعلّي لم اخترت إلا من أجل

هذه الساعة.

فقلت بحماس لا يقلّ عن حماس مولاي:

- لن يخذلنا إلها يا أمّاه.

فاكفهر وجهها المتغضّن وقالت بغضب:

- استحكم الجنون وانتصر القدر.

وغادرت تبي أخت آتون حزينة مريضة، ولم يمتدّ

بها العمر في طيبة إلا أيامًا ثمّ فاضت روحها الكسيرة.

ولم تضرّ أيام حتى طلب أي وناخت وحور محب

مقابلة الملك فاستقبلناهم في الحال. وكما نظر إخناتون

في وجوههم قال باستاء:

- لم تجيئوا لخير.

فقال أي:

- جئنا يا مولاي مدفوعين بولائنا للعرش والوطن

والإمبراطورية!

فتساءل إخناتون:

- وماذا عن إيمانكم بخالق كلّ شيء؟

فقال أي:

- ما زلنا نؤمن به ولكننا مسئولون عن دنيانا يا

مولاي.

فقال إخناتون:

- لا قيمة لهذه المسئولية إذا لم تنبع من ذلك

الإيمان.

وعند ذلك قال ناخت:

- العدو يتوغّل في الإمبراطورية، والولايات أعلنت

تمردًا في البلاد، ونحن في الواقع محصورون في أخت

آتون.

فقال الملك بإصرار:

- لن يتخلّى عنيّ إلهي، وبالتالي لن أتخلّى عن

رسالته!

وهنا قال حور محب:

- سوف تفرض الحرب الأهلية نفسها علينا!

فقال إخناتون:

- لن تقوم حرب أهلية.

فتساءل حور محب:

- هل نترك حتى نُدبح كالأغنام؟

متواصلة حتى استرددت إيماني خالصاً بإلهي رغم كل شيء، بل وأمنت بأن النصر النهائي سيكون له وإن طال الانتظار. وكبر عليّ أن أتصور أنّ حبيبي الذي عرفته أكثر من أيّ إنسان يمكن أن يئأس أو يهنزم أو يفقد ثقته في إلهه الذي خصّه بمناجاته دون الناس جميعاً. لقد فقد العرش والأتباع والمجد الدنيويّ ولكنّه ظلّ ولا شكّ هائماً في الحقيقة مطلقاً على الأبدية، سعيداً بين يديّ إلهه لا يجد وحدة ولا وحشة، منغمساً في الأنا والرضا والحبّ.

ولذلك فعندما جاءني رئيس الحرس وقال بصوته الجافّ:

- أذن لي أن أبلغك بأنّ الملك المارق قد فارق الحياة بعد مرض طويل. وأنّ بعثة ملكيّة قامت بتحنيطه ودفنه تبعاً للمراسيم الفرعونية.

لم أصدّق كلمة ممّا قيل. حبيبي لم يمرض مرضاً أفضى به إلى الموت. لعلمهم اغتالوه ليؤمنوا نصرهم الزائف، ففارق الدنيا المارقة ليستقرّ في قلب الخلود. وسوف ألتحق به ذات يوم ليطلع على براءتي ويمنحني عفوه ويجلسني إلى جانبه على عرش الحقيقة.

\*\*\*

وتلاشي الصوت العذب بعد الجهد، ولبثت مولاتي صامتة حزينة جليلة تتحدّى المحن. ودعتها بكلّ إكبار، وانصرفت على رغمي مفعم القلب بأريج الجمال الفاتن والذكريات الأسرة.

\*\*\*

ولما رجعت إلى سايس استقبلني أبي بشوق، وراح يسألني عن رحلتي وأجيبه، وامتدّ الحوار بيننا أياماً وتشعب. وقلت له كلّ شيء تقريباً، ولكنّي أخفيت عنه أمرين:

ولّعي المتزايد بالأناشيد.

وحبي العميق لتلك السيّدة الجميلة.

زوجي وإلهي...

وغمرتني أيام مثقلة بالتعاسة اقتلعت من قلبي جميع ذكريات السعادة الماضية فكأنّني لم أذق للسعادة طعماً على مدى عمري. قبعت في قوقعة الشعور بالإثم، أقرب من نافذتي مدينة النور وأهلها يسادرون إلى هجرها قبل أن تحيق بهم اللعنة. ترامى إليّ هديرهم ويكأؤهم، وصراخ أطفالهم، ونباح كلابهم، ورأيت تياراتهم لا تنقطع، ماضية في طوابير، حاملة ما خفّ من متاعهم، مندفعين نحو النيل أو الشمال أو الجنوب، وأغلقت النوافذ والأبواب، تابعتهم نظراتي الحائرة حتى آخر حيّ، ثمّ رأيت الوحشة تحلّ محلّهم في المساكن والحدائق والشوارع وتطوّق الأشجار، ورأيت الفناء يملّئ في الجوّ مرسلأ نذره الساخرة، فهتفت من قلبي الجريح:

أخت آتون.. يا مدينة النور.. يا مدينة الوحدة القتالة.. قاسمينا الحظّ والمصير.. أين التراتيل والألحان.. أين قبّلات النصر والحبّ.. أين أنت يا إلهي الواحد.. لم تخليت عن المخلصين؟! خلت المدينة. وأخذت تلفظ أنفاسها ساعة بعد أخرى. لم يبق من أهلها إلاّ سجينان، حبيبي وأنا، ونفر من حرس الأعداء. ترى فيم يفكّر، وكيف يراني، وإلامّ آل إيمانه؟ وقررت أن أذهب إليه لتتكشف ونصفي الحساب ولكنّي مُنعت من مغادرة القصر، وحيل بيني وبين مراسلته، فأدركت أنّه لم يبق لي إلاّ انتظار الموت في السجن. وكذلك حبيبي ومولاي. وسعيت إلى إرسال رسائل بمطالبي البسيطة والمشروعة إلى الملك الجديد أو أبي أيّ أو القائد حورمحب، ولكنّ رئيس الحراس قال لي بحزم وخشونة:

- إنك ممنوعة من أيّ اتصال بالخارج.

فتصوّرت على أيام الوحدة والحزن بلا أمل. وغفلت عن معالم الزمن غارقة في تأملات حزينة وصلوات

يَوْمَ قُتِلَ الرَّعِيمُ

## محتشمي زايد

جاهزة يا عمي». أهم ما بقي لي في مسرات الدنيا الطعام. ما أكثر نعم الله في دنياه. اللهم جتني المرض والعجز. لا أحد ثمة للعناية بالآخرين. ولا فائض مال للتمريض. الويل لمن يسقط. يجمعنا في الصباح المدمس وحده أو الطعمية. هما معاً أهم من قنال السويس. سقياً لعهد البيض والجبن والبسطرمة والمرق، ذلك عهد بائد، أو ق. ا. أي قبل الانفتاح. الأسعار جئت، كل شيء قد جن. ما زال فواز مائلاً للبدانة، وهو يستعين بالخبز، ومثله هناء ولكنّها تسرع نحو الكبر قبل الأوان. ابن خمسين يبدو اليوم كأنه ابن ستين. وقال فواز بصوته الجهير:

- سنعمل أياماً صباحاً ومساءً بالوزارة فأضطرّ إلى الانقطاع عن الشركة...

ساوري قلق. إنه وزوجه يعملان في شركة قطاع خاص. ودخلها ومعاشي ومرتب علوان تفي بالكاد بضرورات الحياة فما الحال إذا استغنت عنه الشركة؟ فقلت برجاء:

- لعلها أيام قليلة.

وقالت هناء:

- سأقوم ببعض عمك وأتيك بما لم يُنجز منه وأشرح لمدير القسم ظروفك...

فقال فواز متسخطاً:

- هذا يعني أن أعمل من الصباح حتى منتصف الليل.

أتمنى دائماً ألا نثير غبار الموم على مائدة الطعام ولكن كيف؟ وقال علوان:

- والد أستاذي علياء سميح يسوق تاكسي في

نوم قليل وفترة انتظار ثملة بالدفء تحت الغطاء الثقيل. النافذة تنضح بضياء خفيف ولكنه يتجلى بقوة في ظلام الحجره الدامس. اللهم إني أنام بأمرك وأصحو بأمرك وإنك مالك كل شيء. ها هو أذان الفجر يفتح يومي الجديد، ويسبح في بحر الصمت الشامل هاتفاً باسمك. اللهم عونك لهجر حنان الفراش والخروج إلى قسوة برد هذا الشتاء الطويل. حبيبي يغط في نومه في الفراش الآخر فلأتلّمس طريقتي في الظلام أن أوقظه. ما أبرد ماء الوضوء ولكنّي استمدت الحرارة من رحمتك. الصلاة لقاء وفناء. من أحب لقاء الله أحب لقاءه. كل يوم لا ازداد فيه علماً يقربني إلى الله فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم. أنتزع نفسي من تأملاتي أخيراً لأوقظ النيام. أنا منبه هذه الأسرة المرهقة. حسن ألا تخلو من نفع وأني في هذا العمر. طاعن في السنّ متين الصحة بفضل الله. لا بأس أن أضيء الصباح الآن. وأنقر باب الحجره بأصبعي هاتفاً «فواز» حتى أسمع صوته وهو يقول «صباح الخير يا أبي». أرجع إلى حجرتي وأضيء مصباحها أيضاً فأرى حفيدي مستغرقاً في نومه لا يبدو منه إلا وسط وجهه بين حافتي الغطاء والطاقيّة. ما باليد حيلة. عليّ أن أخرجه من دنيا الراحة إلى الجحيم. وأمس بقلب مغمم بالمعطف عليه وعلى جيله «علوان... أضح». ويفتح عينيه العسلتين، ويتشاءب، ويقول باسمًا «صباح الخير يا جدّي». ويعقب ذلك حركة أقدام، ونشاط السنّة، وحياة تدب ما بين الحتام وحجرة السفارة. وأستمع إلى قرآن الصباح في الراديو حتى تناديني هناء زوجة ابني «السفرة

وسعني أن أعرض عن الدنيا. هي دنيا الله وهبته الخاطفة لنا فكيف أعرض عنها؟ أحبها ولكن حُبَّ الحُرِّ التقيِّ العابد فلم تَضُنَّ عليَّ بالولاية؟. يهمني القرآن والحديث كما يهمني الانفتاح وكما تهمني لقمة المدمس بالزيت الحارَّ والكمون والليمون. ومن ذا يحيط برحمة الله الواسعة فقد أشيرُ ذات يوم من بعيد إلى المصباح فيضيء دون أن أمس مفتاحه. لم يبق لي من أصدقاء العمر إلا واحد فرقت بيننا الشيخوخة. وحدة النفس والمكان والزمان. وكفَّت العينان عن القراءة منذ عام. نومي قليل جدًا ولا أخاف الموت. أرحب به حالما يجيء ولكن ليس قبل ذلك. عندما افتتح الملك فؤاد المدرسة انشُدت لإلقاء كلمة المدرسين. يوم مجد. أثلج صدري بهتاف الأولاد «يعيش الملك ويمجيا سعد». تغيرت الهتاف وتغيرت الأغاني. انفجر أخيرًا الغلاء. من وراء الزجاج المغلق أرى النيل والأشجار. بيتنا أقدم وأصفر بيت في شارع النيل. قزم وسط العمائر الحديثة. النيل نفسه تغير وكأنه مثلي يكابد وحدة وشيخوخة. لبسته حال واحدة، فقد مجده وأطواره، لم يعد في مقدوره الغضب. ما أكثر السيارات، ما أكثر الثروات، ما أشدَّ الفقر، ما أكثر الأحباب الراحلين! يوم غائم منذر بالمطر. في مثله كانت تحلو الرحلة إلى حدائق القناطر. أصدقاء العمر يجتمعون حول الدجاج المقلّي والبطاطس والشراب والفونوغراف. أسمر ملك روجي، إن كنت أسامح وأنسى الأسية. كلهم هياكل عظمية وضحكاتهم المترعة بالسرور والأمان ذابت في تضاعيف الفضاء. وقفوا ورائي صفاً ليلة الزفاف. ليلة كشف النقاب لأول مرة عن وجه فاطمة. خمس سنوات مضت على آخر زيارة لقبرك. أي سرعة جنونية في هذا الزحام الذي لم تعرف له الأشجار مثيلاً مذ غرست في عصر إسماعيل! المجنون يجري بلا وعي نحو حادثة يرصده عندها الأجل. قال رسول الله ﷺ (يا عبدالله، كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، واعدد نفسك في الموتى). صدق رسول الله.

أوقات فراغه ويربح أكثر طبعًا.

فسأله والده:

- هل يملك التاكسي؟

- أظن ذلك.

- ومن أين لي بشراء واحد؟، وهل كان أبو استاذتلك غنيًا أو مرتشيًا؟

- كل ما أعرفه أنه رجل محترم.

فقلت:

- اختار طريقًا شريفًا في النهاية.

فقال علوان ضاحكًا:

- لعلّي أختار طريقًا مثله يومًا ما.

فسألته هناء بجديّة:

- ماذا ستفعل؟

- سأكون عصابة للسطو على البنوك!

فقال فؤاد بامتعاض:

- خير ما تفعل.

ومسحت الأطباق مسحًا، ومضت بها هناء إلى المطبخ، وما لبثوا أن ودعوني وذهبوا. وجدتني في الشقة الصغيرة وحيدًا كالعادة. اللهم ارزقهم واكفهم شر الأيام. اللهم امنحني شيئًا من نعمة القرب والولاية. لو تركت البيت على حاله ل بقي ملهوجًا في فوضى شاملة حتى المساء. أفعل ما أستطيع في حجرة نومي، وحجرة المعيشة حيث أمضي وحدتي مستمعًا للقرآن والأغاني والأخبار في رحاب الراديو أو التليفزيون. لو توجد حجرة رابعة لأمكن أن يقيم علوان فيها عشه. الحمد لله لا اعتراض على قضائه. مرّ العارف أبو العباس المرسي بالقاهرة بأناس يزدحمون على دكان خبز في سنة الغلاء فرق قلبه لهم، ثم وقع في نفسه أنه لو كان معي دراهم لآثرت بها هؤلاء فأحس بثقل في جيبه فأدخل فيه يده فوجد فيه جملة من الدراهم فأعطاهم للخبز وأخذ بها خبزًا فرقه، فلما انصرف وجد الخبز الدراهم زائفة فاستغاث عليه وأمسكه. فعلم أن ما وقع في نفسه من الرقة اعتراض على قضاء الله فاستغفر وتاب وسرعان ما تبين للخبز أن الدراهم صحيحة! ذلك هو الولي الكامل ولا تتأق الولاية إلا لمن يعرض عن الدنيا. شارفت الثمانين وما



فقلت كالمحتج:  
 - ولكن...  
 وإذا به يقاطعني:  
 - لا تردّد أقوال العاجزين.  
 فملأني الغيظ وسألته:  
 - ما الحلّ في تصوّرك؟  
 فضحك ضحكة مستفزّة وقال:  
 - لا تطلب الحلّ عند الآخرين!  
 رجعت إلى مكنتي وفكرة تساوري أنّه تعمّد أن يُظهرني في صورة العاجز أمام رنده. وعشت في غيبش هذه الفكرة طيلة الوقت حتّى أذن موعد الانصراف. ولدى عودتنا معًا إلى شارع النيل ملفوفين في معطفينا قلت لها:  
 - الرجل أثار أعصابي.  
 فقالت وهي تمحك طوق المعطف حول عنقها  
 السمح:  
 - وأنا كذلك.  
 - إنه سمح يدعي الظرف.  
 - هو كذلك.  
 - هل تصدّقين أنّه يوجد حلّ لمشكلتنا لم نهتد إليه بعد؟  
 فتفكرت قليلاً ثمّ قالت:  
 - أملي في الله كبير، نحن نفكر وكان كلّ شيء سيبقى على حاله إلى الأبد!  
 فقلت بقلق:  
 - ولكنّ العمر يجري يا رنده.  
 فقالت باسمّة:  
 - ربّما ولكنّ الحبّ ثابت!

## رنده سليمان مبارك

أصعد السلم إلى الشقّة ويقف هو أمام شقّته كأنما ليطمئنّ عليّ حتّى أبلغ بابي. ودعني بقبلة فاترة شأن المهوم بأفكاره. لعنة الله على المدير. استفزّه بلا سبب. ظلّ طول الوقت كئيبيًا مغتئيًا. أفهم ذلك جيّدًا

الاقتصادية. الشقّة... الأثاث. أعباء الحياة المشتركة. لا حلّ لديها ولا حلّ لديّ ولا نملك إلّا الحبّ والإصرار. أعلنت الخطبة في عهد الناصرية وواجهنا الحقيقة في عصر الانفتاح. غرقنا في دوامة عالم مجنون. حتّى في الهجرة لا مجال لنا. بين الفلسفة والتاريخ ضعف الطالب والمطلوب. لا لزوم لنا. ما أكثر من لا لزوم لهم! كيف حاق بنا هذا الضياع؟ إنّي مشغول مطازد تحاصره التساؤلات. وهي جميلة ومطلوبة وأنا قائم مثل السدّ في طريق حطّها. نظرات والدنيا المتعضّبة لا تفارقني... أكاد أسمع ما يقال من ورائي. فوق ذلك تهبم أحلام الإصلاح. نجيم من فوق أو من تحت. بقرارات أو بانتفاضات. معجزة العلم والإنتاج. لكن ما الحلّ مع ما يقال عن الفساد والصوص؟ ما أفضح ما تقول الدكتور علياء سمح وما يقول محمود المحروقي. أين الصواب؟ لم أشكّ في كلّ شيء؟. منذ تهاوى مثلي الأعلى في ٥ يونيو. كيف يجد أناس سبيلًا سحرًا إلى الثراء الفاحش وفي زمن لا يُصدّق؟. ألا يمكن أن يحدث ذلك بلا انحراف؟. ما سرّ حرصي على الاستقامة؟ ما أطمح في هذه الساعة إلى أكثر ممّا يؤهلني للزواج من رنده. دُعينا إلى مقابلة مدير الإدارة أنور علّام، أنا ورنده. كثيرًا ما ندعى معًا لتعاوننا المشترك على ترجمة اللائحة. إنّه مدير لطيف المعاملة جميل الاستقبال محبّ للدعاية، نحيل طويل غامق السمرة مستدير العينين ذو نظرة نافذة، وأيضًا كهل يشارف الخمسين من عمره وأعزب. وكعادته قال:

- أهلاً بالعروسين!

وراح ينظر في أوراقنا بسرعة وذكاء مبدئيًا بعض الملاحظات. وردّ التسويده متسائلًا:

- متى نفرح بكما؟

إنّي اعتبر أسلوبه في التدخّل في الشؤون الخاصّة للموظّفين سياسة وإن لم تصادف متي ارتياحًا مثل نظرة عينيه. على أنّي أجبتّه:

- مشكلتنا حتّى الآن لا حلّ لها.

فقال باستهانة جريئة:

- لا مشكلة بلا حلّ.

## يوم قتل الزعيم ٨١٥

البيت وشاب من ذوي الأملأك ثم لم توفّق ومات الحبّ. الاتّهامات انصبّت كالعادة على الطرف الآخر ولكنّها عصبية. تشور كالبركان لأنفه الأسباب فمن يحتمل ذلك؟ من أجل ذلك تعودت على أن أحذر الغضب كما أحذر الإفراط في الطعام. متى تتيسّر تلك السعادة الملعونة؟ حتى متى يصمد الجمال أمام الزمن الجارف؟ لا ولم أعرف أنني نمت إلا بحلم رأيت. قمت عصرًا... لاطفت قطني دقيقة... صلّيت العصر والظهر معًا. شكرًا لماما فهي مربّيتي الدنيئة. أمّا بابا! ماما زوجة موقّعة رغم فارق السنّ بينها وبين بابا ورغم لا دنيئة بابا! أنذكرين محاسبتك له في الزمان الأوّل؟

- بابا لم لا تصوم مثلنا؟  
يقول ضاحكًا:  
- الصغيرة نحاسب أباهما.  
- ألا تخاف الله؟  
- الصحّة يا حبيبي. لا يغرّك مظهري.  
- والصلاة يا بابا؟  
- أوه... سأحدّثك عن ذلك عندما تكبرين...  
ليس كذلك الحال في شقّة حبيبي. الجدّ والأب والأمّ يصلّون ويصومون. لا دنيئة أبي اليوم ساطعة مثل شيخوخته ومرضه. لم يتفوّه أبدًا بكلمة مريية ولكنّ في السلوك ما يكفي. في ثورات غضبه يسبّ الدين. ربّما استغفر الله إرضاء لي أو لماما كشعار ليس إلا كسائر الشعارات الجوفاء التي تنهال علينا من أفواه المستولين. زمن شعارات مقرّز. حتى الراحل البطل لم يعفّ عن ترديد الشعارات. وبين الشعار والحقيقة هوة سقطنا فيها ضائعين. ولكن ما حبيبي؟... متدين؟... لا دنيئ؟... ملتزم؟... لا ملتزم؟ علياء سميح؟... محمود المحروقي؟... آه... إنه حبيبي وكفى ورزقي على الله. دائم البحث عن شيء مفقود. لو حلّت مشكلتنا لعرف لنفسه مرفأ. ينطح الصخر ويقبض على الهواء. حجرة المعيشة تجمعنا... أبي بمرضه وشيخوخته وإلحاده، ماما وبدانتها المفرطة وهموم الآخرين، سناء وضيقها بوضعها وشعورها الأليم بالغرابة، أنا ومشكلتي المزمنة. في الظاهر والداي

ولكن ألا يثق بي؟ لا مساحة عندنا لمزيد من القلق. رائحة الملوخيّة تجول في الشقّة ما أشدّ استجابتي لها! أبي نائم فوق مقعده؟. ألثم جيئه فيختلج جفناه. يتسم بحنان. هزلت وضعفت لعنة الله على الروماتزم. محتشمي بك جدّ حبيبي أقوى منه عشر مرّات رغم أنّه يكبره بعشر سنوات. صوت ماما يعلن أنّ السفر جاهزة. أحبّ الملوخيّة ولكنّ ماما لا تعجبها شهّي. كثيرًا ما تقول لي:

- النحيف لا يقاوم الأمراض.

فأقول لها:

- البدانة أيضًا ضارّة.

- عنيده، إن قلت يمينًا قالت شمالًا.

ماما بدينة وكانت كذلك من قديم. تصلّي وهي قاعدة على الكنبة. من أجل ذلك يكتنفي الحذر عند تناول الطعام. ظنّت نفسها غنيّة بدخلها البالغ خمسة وعشرين جنيهاً في الشهر. لعلّها كانت على حقّ في الأيام الأسطوريّة التي تحكي لنا، أيّ قيمة اليوم لدخلها ومعاش بابا ومرّتي جميعًا؟

رغبّ أبي طاقم أسنانه الذي لا يستعمله إلا حين تناول الطعام وراح يأكل على مهل ويشكو شدّة البرد. انضمتّ أختي المطلّقة سناء التي تشاركني حجرة نومي. إنّها تدرس السكرتارية في معهد خاصّ لتجد لها عملًا فلا تكون عالة على أحد. بعد الغداء استلقيت على فراشي فعادتني ذكرى القبلة الفاترة. لا أحبّ هذا. إهانة أو ما يشبه ذلك. إذا تكرّر ذلك فسوف أصارحه لا تقبلني إلا وأنت تحبّني لا يشغلك شيء عن حبي. ماذا بقي لنا سوى الحبّ؟ أراعيه كأنّما أنا أمّ وكأنّما هو ابن مدلل متمرّد. آه لو أمكنه أن يكون مهندسًا! كان «زمنًا» من أبطال الانفتاح لا من ضحاياها. وضحيّة أيضًا لـ ٥ يونيه واختفاء البطل المهزوم. حائر لا موقف له. حتى متى؟ يحتقر السابقين ويؤمن بأنّه خير منهم لماذا؟ متى ينظر إلى نفسه نظرة ناقدة موضوعيّة؟ لعلّه دوري وواجبي ولكنّي أحشئ على الشيء الباقي الوحيد حبّنا. أحبّه والحبّ لا عقل له. أريده بكلّ قوّة نفسي. كيف؟ ومتى؟ أختي سناء تزوّجت عن حبّ وقنعت بالثانويّة العامّة ونصيب ستّ



- يا بخت أبطال المسلسلات... فما أسرع أن يجدوا لمشكلاتهم الحل السعيد!

## محتشي زايد

في وحدتي أنتظر. أحبك الروب حول جسدي  
النحيل وأسوي الطاقية فوق رأسي الأصلع، أربت  
على شاربتي وفي وحدتي أنتظر. «لا يكلف الله نفساً إلا  
وسعها». جرس الباب يرن. أفتح الباب فتدخل أم  
عليّ. في معطف سنجابي والخمار الأبيض يمدق بوجهها  
القمحي الريان.

- كيف حالك يا بك؟

- نحمده يا أم عليّ.

- الشتاء لا يريد أن يرحم.

وكامرأة يوزن وقتها بالنقود خلعت المعطف وعلقته  
بمشجب قائم غير بعيد من الباب ثم مضت إلى حجرة  
نوم فواز وهناء. تبعتها كما تبع عليّ. جلست على مقعد  
أتابعها وهي تكس وتنفض وتنظف وتلمع وترتب.  
نشيطه خفيفة رغم امتلائها. يخافون أن تمتد يدها إلى  
شيء. سوء ظن لا مبرر له وهو من رواسب الماضي.  
أم عليّ ساعتها بجنيه وتنتقل من بيت إلى بيت كالنحلة  
فإيرادها يزيد عن مرتباتنا جميعاً مجتمعة، ولكنني أرتاح  
إلى الانفراد بها. نزهة أسبوعية تنفخ في وجداني نغمة  
الحلم الغابر. الانفراد بها يتجسد في حال يضطرب لها  
روتين الزمن. ويواجه الأنا القديم الأنا الطارئ  
فيتساجيان وبينهما فاصل الزمن بلغتين غريبتين لا  
تفضيان إلى تفاهم ثم يستعير القلب من غزونه البائد  
خفقة خاطفة تعيش حياة مقدارها ثلاثون ثانية.  
وعندما تنحني لتعيد بسط الكليم أتصور أن أقرصها  
بحنان، مجرد تصور، فأني مسيطر على زمامي تماماً  
وهي مطمئنة من ناحيتي تماماً. كآتها رجل في النشاط  
والقوة وتماسك الشخصية. «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا  
أو أخطأنا». وأسلها متمرعاً في انفرادي بها:

- كيف حال المعلم؟

- ربنا يلطف به.

قد أتم رسالتها فأيّ سخرية. ها هو التحقيق الصامت  
يحصرنني. ماذا بعد خطبة طالت أحد عشر عاماً؟ ألا  
يوجد بصيص أمل؟

تقول سناء بصوتها الرفيع الحاد:

- لتتظر حتى تترمل وهي مخطوبة!

فأقول لها بصرامة:

- لا شأن لك بي.

فتقول ماما:

- ذكره يا رندة كي لا ينسى.

- نحن نعيش همونا كل دقيقة فلا داعي للتذكير.

ثم بمزيد من الحدة:

- إني رشيدة، اخترت سبيلي بملء حرّيتي، ولن

أندم على شيء.

ويقول أبي بضجر:

- رندة رشيدة ومسئولة عن نفسها.

فتقول ماما بحسرة:

- كم من عرسان لقطعة فقدناهم!

فأقول بكبرياء:

- لست جارية معروضة في السوق للبيع!

- أنا أمك، فوق أيّ شبهة، تزوجت بالطريقة

القديمة ووقفت والحمد لله.

- يا ماما لكلّ جيل طريقته، وجيلنا فاق الجميع في

سوء حظّه.

فيقول أبي بأساً:

- جاء عصر أكل الناس فيه الكلاب والقطط

والحمير والأطفال ثم أكل بعضهم البعض!

فقلت بمرارة:

- لعلنا أسعد من عصر آكلي البشر...

وهنف أبي مغتيراً الجوّ:

- حسبكم... المسلسل التلفزيوني بدأ...

انترعتني المقدمة الموسيقية التي أحبها من الصراع.

بقوتها الانسيابية دعت حبيبي فهبط من الغيب وجلس

إلى جانبي. انقلبت فجأة إلى أنثى حاملة شديدة الفهم

للحياة الزوجية. وطاردت دمعة خائنة أوشتك أن

تفضحني. هل تقبل الدنيا بدونه؟

وقالت ماما:

يوم قتل الزعيم ٨١٧

محرمون وسط سيرك من اللصوص. أخذته عن زماني  
لعله. رمى ببهلوان يطلق في العطسة عشرة شعارات  
عقيمة. أم عليّ تنتهي من عملها. تغسل اليدين  
والوجه وترتدي معطفها السنجاوي وتنظر في ساعة يدها  
لتعرف مستحقّاتها. أسلمها النقود فتذهب قائلة:

- فتك بعافية يا بك.

- مع السلامة يا أمّ عليّ، لا تنسي الميعاد القادم.  
وتعود الوحدة. أمشيت في الشقة بعد تعذّر المشي في  
الشارع. القرآن والأغاني. طوي لكم يا من اخترعتم  
الراديو والتلفزيون. بامية ومكرونة الغداء. حبّ الله  
إليّ العبادة وجعل قرّة عيني في الطعام. أيّ وحدة  
والكون من حولي مكتنظ بملايين من الأرواح؟ أحبّ  
الحياة وأرحب بالموت في حينه. كم من تلميذ قديم لي  
قد صار اليوم وزيراً. لا رهبانية في الإسلام. ما مثلي  
ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظلّ  
تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها. كثيراً ما  
أحادث حفيدي المحبوب عن الماضي لعله من حيرته  
يخرج. أغريه بالقراءة وقليلًا ما يقرأ، ويستمع إليّ  
بدهشة من يعزّ التصديق عليه. دعنا من علياء سميع  
ومحمود المحروقي، ألم تحملك الأحداث على الإيمان  
بالوطن والديموقراطية؟ وما معنى الإصرار على  
التمسك ببطل منهزم راحل؟ كيلا تصبح الدنيا  
فراعًا يا جدّي. إنّي ألفت نظرك إلى أشياء غاية في  
الجمال. يضحك ويقول لي:

- ما أريد الآن إلا شقة ومهراً مناسباً!

كيف أستطيع تجنّب هموم الدنيا ومعني حفيدي  
المحبوب؟ ما أجمل كرامات الأولياء!

## علوان فواز محتشمي

علمني زماني أن أفكر. علمني أيضًا أن أستهين بكلّ  
شيء وأن أشك في كلّ شيء. ربّما قرأت عن مشروع  
منعش للأمال وسرعان ما يكشف المفسرون عن  
حقيقته فلا يتمخض عن أكثر من لعبة قدرة. هل ترك  
السفينة للغرق؟ هي عصابة مسلّطة علينا لا أكثر

- والأولاد؟

- هاجروا، لم يبق إلا العبيط.

وتضحك ثم بدورها تسألني:

- ما آخر أخبار صاحب عمارتكم؟

- يشس وسكت.

- من كان يصدّق أنّ الأرض تجنّ مثل بني آدم؟!

- الجنون أصل كلّ شيء يا أمّ عليّ...

ما أشدّ شعوري بالانفراد بك! حوالينا ولا علينا يا

ربّ، كأيام شارع خيرت المسقوف بالشجر، وتمت

مظلة من الأفكار الحرّة المستوردة، فكرية ورتبية

الممرّستان وشقاوة الغجر. الحياة فصول ولكلّ فصل

مذاقه وطوي لمن أحبّ الدنيا بما هي دنيا الله. في زيارة

لسليمان مبارك أبي رندة قال لي:

- أغبطك على صحّتك يا محتشمي.

فقلت بثقة:

- الوراثة والإيمان يا عمّ سليمان.

فتساءل وهو ينظر نحوي بخبث:

- كيف أصدّق أنّ مثلك يؤمن بالخزعبلات؟

- الله يهدي من يشاء.

- كأنك في ماضٍ ما، ما كنت ملحدًا.

فقلت بأسًا:

- إيمان موروث، شكّ، إلحاد، عقلانية، لا

أدرية، ثمّ إيمان!

فتساءل ساخرًا:

- بوفيه مفتوح؟!

- هي الحياة الكاملة...

- إنّي فخور بشاتي، راضٍ بالعدم، عابد للحقيقة،

وقد أوصيت زينب إذا جاء الأجل ألا ينشر نعيّ ولا

تكون جنازة ولا ماتم ولا حدادا!

- ما هو إلا نور يهبط فجأة فيبدد الظلمات.

- المسألة أنّ العمر تقدّم بك حتى لاح لك

الموت...

حوار عقيم، «وقل جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ

الباطل كان زهوقاً». صديقي يعيش في كوّن خالٍ

وأعيش في كوّن أهل بالأحباب. استغفر الله. يا لها

من زيارة زيارة أمّ عليّ. ماذا يفعل المسكين علوان؟!

أنور علام المدير يستدعيني إلى حجرته ويطلب إلي أن أزوره في مسكنه في الخامسة مساء لإجراء مراجعة شاملة قبل إعداد الحساب الختامي. أخبرت رنده فلم تعلق. مسكنه في عمارة نصف جديدة بالدقي تقع أمام أحد مداخل جسر ٦ أكتوبر. استقبلني ببشاشة وهو مرتدٍ بدلته وقال:

- لا تفرقك فخامة الشقة فأختي تعيش معي وهي أرملة غنية . . .

كأنما ينفي عن نفسه الشبهات. كل فرد مهتد اليوم بالشبهات. وعملنا بهمة حتى الساعة الثامنة. في أثناء ذلك دخلت الأرملة بالشاي تعارف بيننا وقدمها قائلاً «جولستان أختي». من النظرة الأولى شعرت بأنني أمام امرأة يقع عمرها ما بين الأربعين والخمسين، مقبولة المنظر، ممتلئة في تكوين حسن، مثيرة رغم رزانتها واحتشامها أو ربما لرزانتها واحتشامها. لم تجلس وقالت وهي تغادرنا:

- استبق الأستاذ للعشاء معنا.

فقال أنور علام:

- هذا أمرا

أعدت لنا مائدة من الشواء والسلطات المتنوعة والخبز والزيتون ثم مهلبية وتفاح. وسمعت أنور علام يقول ونحن نتناول عشاءنا:

- أنا وكيل أعمالها فقد ورثت عن زوجها عمارتين وشهادات استثمار.

لفت نظري تعريفه لي بأملها فسرحت في أكثر من ظن. وراح يحكي لها عن مشكلة خطبتي بإشفاق. - هذه حال جيل بأسره.

فقال الرجل:

- وما يزيد المشكلة تعقيداً أن علوان من أصحاب

المبادئ!

فقالت بإعجاب:

- جميل أن أسمع ذلك، الاخلاق أهم شيء في الدنيا.

نبرتها لا تدع مجالاً للشك في صدقها. وإني أجدتها مثيرة للغاية. وإني غزون بارود عند أي إثارة. معاناتي في هذه الناحية تستحق الرثاء. وقال أنور:

ولا أقل!؟. أين الأيام الحلوة؟. كانت توجد أيام حلوة لا شك في ذلك. ولي أنا أيضاً أيام. حين كانت الشقة عامرة بالأخوات والدفء وكانت الأعباء يسيرة. كان لأبي وأمي وجود في البيت. وكان يوجد حوار وضحك وحاس الدراسة وسطورة البطولة. إخنا الشعب. اخترناك من قلب الشعب. والحب كان باقة من الورد في قرطاس من الأمل. فقدنا زعيمنا الأول ومطربنا الأول. ويخرجنا من الهزيمة زعيم مضاد فيفسد علينا لذة النصر. نصر مقابل هزيمتين. اخترناك من قلب الشعب. وتجذب حبيبي الشص من الماء فتخرج فارغة وتنفرز في إبهامي وتترك أثراً ما زال باقياً حتى اليوم. على شاطئ النيل أمام بيتنا قلت لها إنك لا تحسنين صيد السمك ولكنك اصطدت قلبي وأسدت دمي. من الأخوة إلى الحب حدث تغير بطيء مثل قرون أوراق الشجر التي تسبق بالظهور في أوائل الربيع ولا تثرى إلا عند التأمل. أنوثة وتورد الخدين ووشاية أعلى الفستان. باللغة حين تقول الكلمة شيئاً وتشير إلى شيء آخر وتلاشت البراءة وحلت محلها مفاوضات وتوسلات من أجل لثمة فوق الخد أو الشفة. أطيب ثمرة في الشجرة أخلاق وعقل وجمال. يضايقني أحياناً أن تبدو أعقل مني. لا أنسى حزن نظرتها عندما اعترفت لها بعجزتي عن اختيار القسم العلمي. حوار طويل لم يجير على لساننا ولكنه يتربص بنا في زاوية ما. أسرطانا سقطنا معاً في حفرة الانفتاح. شد ما يجزني ألا تظهر في الملابس اللائقة بجمالك. أي مسؤولية تثقل كاهلي. قلت لها مرة في استراحة الحرم:

- فلتنسل بحصر أعدائنا.

فدخلت اللعبة قاتلة:

- غول الانفتاح واللصوص الأمائل . . .

- هل ينفعنا قتل مليون؟

فقالت ضاحكة:

- قد ينفعنا قتل واحد فقط!

فقلت ضاحكاً أيضاً:

- إنك اليوم رنده المحرومي . . .

\*\*\*

## يوم قتل الزعيم ٨١٩

قال:

- هي طيبة شابة، كانت مخطوبة لطبيب زميل لأعوام، يشا من الزواج، فسحا خطبتهما، تزوجت من تاجر في وكالة البلح ووافقت على رغبته على البقاء في البيت كست بيت...

دهشت واستأت ولكتي سألته بهدوء:

- لماذا تتصور أن هذه الحكاية تمهني؟

فسألني متجاهلاً سؤالي:

- ما رأيك في تلك الطيبة؟

فقلت بشيء من الجفاء:

- لا أستطيع أن أحكم على واحدة لا أعرف ظروفها.

فقال بهدوء:

- أنا اعتبرها عاقلة، فست البيت خير من طيبة

عانس!

غادرته بوجه لا أشك في أنه عالنه باستياي. له نظرات طامعة لا يمكن تجاهلها. والحق أنه يشكّل عبئاً علينا. أنا وعلوان. في صباح الجمعة التالي لزيارته لبيت المدير ذهبنا إلى استراحة الهرم. الجو بارد حقاً ولكن الشمس ساطعة، ونحن ننظر من عل إلى المدينة التي تبدو عظيمة هادئة مترامية كأنما خالية من الموموم والقاذورات. وسألته ونحن نحسب الشاي:

- كيف كانت زيارتك للبك المدير؟

فأعادها عليّ بتفاصيلها، حتى أفستت عليّ جلستي

الحلوة. قلت:

- يبدو أنّها لم تكن زيارة عمل!

- بل عملنا ثلاث ساعات متتابعة.

فقلت بتحدّ:

- أنت فاهم قصدي...

فقال بسخط:

- إنه شخص مثير للأعصاب...

- وأخته!

- عاقلة مّترنة احترمتها كام...

فضحكت ضحكة باردة وتساءلت:

- وهل عاملتك كابن؟

فتساءل محتجاً:

- أختي كاملة في كلّ شيء إلا شيئاً واحداً لا أوافقها عليه هو إعراضها عن أكثر من فرصة زواج طبيب...

فقلت بهدوء:

- لست سلعة وليسوا رجالاً...

فقال أنور علام:

- ثراء المرأة قيمة مشروعة ولا عيب على الرجل إذا أولاهما ما تستحقّه بالإضافة إلى المزايا الأخرى.

فقلت السيّدة جولستان:

- لا رجل جدير بالثقة في هذا الزمان.

وملت إلى تغيير مجرى الحديث فسالت مديري:

- معذرة يا سيّدي لم تم تزوّج حتى اليوم؟

فقال بغموض:

- أسباب كثيرة.

ولم يذكر سبباً واحداً فقلت جولستان:

- إنه مخطئ، وهو قادر على الزواج.

وراح يسألني عن أسرتي وأسرّة رنّدة وأنا أجيبه بصدق وإيجاز حتى قال:

- رنّدة فتاة ممتازة ولكنّ الزمن يسرقها.

طعنة وأيّ طعنة! مقصودة أم جاءت عفو الخاطر؟

على أيّ حال أفستت عليّ السهرة. ولم يخفّف من حدّتها قول جولستان:

- الحبّ هو العمر الحقيقي...

وغادرت المسكن مشحوناً بالسخط على الرجل والإثارة من ناحية شقيقته...

## رنّده سليمان مبارك

اعتمدت رسائل المترجمة من المدير ولم يبق إلا أن أذهب ولكنّه مالّ بكروسيّه المتحرّك إلى الوراء وقال لي:

- آنسة رنّدة، عندي حكاية تمهّمك.

ماذا عنده يا ترى؟...

٨٢٠ يوم قتل الزعيم

ثم واصل بعد صمت قليل :  
 - المحروقي تزوج بكل بساطة، ولكنه يعيش في  
 نخيم مع طائفته .  
 تخيلت المخيم وحياته . كأنه خيال لا حقيقة . رغم  
 ذلك هنا فؤادي إليه . خيمة بسيطة ولكن يخفق بين  
 جوانحها الحب . وفاض من قلبي نبع حنان متدفق .  
 وقال بصوت دلني على أنه يشاركني أشواقي :  
 - شد ما أريدك أكثر من أي شيء في الوجود .  
 انضباطي خلقة مركبة في أعماقي منذ الصغر .  
 حوارني مع رغباتي الجائعة دائماً ينتصر . لم تؤثر في  
 تجارب شاهدها عن كثب . حافظت على تصويري  
 الوقور لمعنى الحرية . لم أتزعزع للتهم الساخرة المألوفة  
 بالانغلاق والرجعية . ولم أبرأ من الحزن .

## محتشي زايد

ليلة أمس رأيت فيما يرى النائم سيدي أبا ذر .  
 العبادة تغدق علي شقافية وهابة للرؤى . لحبي الدنيا  
 أقف عند ذاك الخط لا أتجاوزه . وترد على خاطري هذه  
 الحكاية «قال محمد بن العطار، قال لي الشيخ محمد  
 راهين يوماً: كيف قلبك؟ فقلت له: لا أعرف كيفيته،  
 وذكرت ذلك لسيدنا شاه نقشبند وكان واقفاً فوضع  
 قدمه على قدمي فغبت عن نفسي فرأيت جميع  
 الموجودات مطوية في قلبي، فلما أفقت قال: إذا كان  
 القلب هكذا فكيف يتسنى لأحد إدراكه؟، ولهذا قال  
 في الحديث القدسي: ما وسعني أرضي ولا سمائي  
 ووسعني قلب عبدي المؤمن». ترد على خاطري تلك  
 الحكاية فأغبط الأولياء وأتوق إلى الكرامات ولكني  
 أقف عند حافة بحر التصوف مستمسكاً بالعبادة قائماً  
 بها في أحضان دنيا الله . وقد يرتد بصري المتأمل  
 الهادئ بنور من الوهاب . لا، ولا أندم على مراحل  
 الحياة التي مررت بها فقد منحت كل مرحلة نورها .  
 اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك  
 تموت غداً . ويدق جرس الباب عند الضحى . من  
 القادم وليس اليوم بيوم أم علي؟ . وافتح الباب فتدخل

- تحقيق وإتهام يا رنده؟  
 فقلت بسرعة :  
 - لا سمح الله .  
 ورويت له ما دار بيني وبينه في مكتبه فقطب غاضباً  
 وهتف :  
 - سأطالبه بالألا يتدخل فيما لا يعنيه .  
 فقلت بتوسل :  
 - الأفضل أن نهمله كي لا تسوء العلاقة بينك  
 وبين مديرك .  
 فقال بامتعاض :  
 - المسألة أن موقفك منك ضعيف لا أدري كيف  
 أدافع عنه . . .  
 فقلت بلطف :  
 - لست متهماً ولا أطلبك بدفاع .  
 - إني مستول وحزين .  
 - لا حيلة لنا .  
 - لكنه وغد ويعد خطة . . .  
 - أهمله مع حقارته .  
 وصمتنا قليلاً هارين إلى رحمة الطبيعة حولنا حتى  
 جاءني صوته متشكياً :  
 - كأننا نسينا حديث الحب . . .  
 فقلت مدارية حزني :  
 - لسنا في حاجة إلى مزيد منه .  
 فقال وهو يرمقني بامتنان :  
 - أحبك .  
 فقلت وأنا في غاية من التأثر :  
 - أحبك .  
 فتساءل في حيرة :  
 - ترى ما المغامرة الشريفة التي تدر علينا ما نحن  
 في حاجة إليه من مال؟  
 فقلت باسمه :  
 - ألا تملك موهبة الفتى الأول في السينيا؟  
 - وأنت ألم تجرّ صوتك ولو في الحيام؟  
 وضحكنا رغم همنا المشترك، وقال :  
 - ليست المشكلة تحسين مرتب ولكنها مشكلة الخلو  
 والأثاث أيضاً .

## يوم قتل الزعيم ٨٢١

- اعتمادي بعد الله عليك .  
يا له من صباح! قضي عليّ أن أكون وسيط السوء  
إلى أعزّ الناس على قلبي . انكشيت في مقعدي متلقفاً  
بالكآبة . وفي أثناء الغداء لم أشر إلى الزيارة حتّى  
انفردت بالشابّ عصرًا في حجرة المعيشة . لم يتبته  
بطبيعة الحال إلى معنى نظراتي حتّى سألته :  
- هل تغفر لي حديثًا غير ساو؟  
فرماني بنظرة متوجّسة وقال ساخرًا :  
- هذا هو الأصل في الأحاديث يا جدّي .  
- عن رندة يا علوان .  
فتغيّر وجهه الحسن وغشيه الحبّ فعرضت الموضوع  
بتفاصيله . كوّر قبضته وألصقها بفيه معتمدًا بكوعه  
على خوان قديم وقال :  
- كأني مجرم مطازد يا جدّي .  
- يجب أن نفكر بهدوء وشجاعة .  
- أريد أن أعرف انطباعك يا جدّي .  
فازددت ضيقًا وأنا أقول :  
- لهم عذرهم ، هذا ما يجب أن نسلم به .  
فقال بحدّة :  
- رندة ليست قاصرًا .  
- بلى ، ولكنّ الانتظار يبدو بلا نهاية .  
- أنا لم أقصر .  
- لا أحد يتهمك .  
- الرأي الأخير لهم أم لها؟  
- الآن هو بين يديك أنت .  
- أنا؟  
- العمر يجري ، وأنت فتى عاقل ، بيدك إنقاذها ،  
وربما إنقاذ نفسك أيضًا . . . إنه ليس مجرد سوء حظّ .  
إنه خطّ طويل من المآسي . ٥ يونيه والانفتاح وروسيا  
والولايات المتّحدة ومملكة المنحرفين .  
وتساءل :  
- ولو أصررت على الرفض؟  
فقلت بتسليم :  
- افعل ما تراه صوابًا . . .  
فهزّ رأسه قائلاً في غموض :  
- أعدك بذلك يا جدّي .

زينب هانم أمّ رندة . أستقبلها بترحاب وأنا أعجب  
لبدايتها رغم الضائقة . وتجلس في حجرة المعيشة  
وأسكت الراديو فتقول :  
- لا أحد لي غيرك يا محتشمي بك .  
فقلت وأنا أسائل نفسي عمّا جاء بها :  
- لنا الله جميعًا . . .  
- فوّاز بك وهناء هانم أولى بالحديث ولكنّ العمل  
المواصل لم يترك لها فراغًا ، ولا فائدة تُرجى من مخاطبة  
علوان ، ففيك الكفاية والبركة .  
آه ، فهمت كلّ شيء مقدّمًا ، إنها قادمة من أجل  
مشكلة علوان ورندة .  
- إني مصغّر إليك يا زينب هانم .  
- عندك حسنّ التقدير ، البنت يا محتشمي بك على  
وشك الضياع .  
- لا سمح الله .  
- إنكم لدينا المفضلون على غيركم ولكن حتّى متى  
نتنظر؟  
شعرت بالخطر الزاحف نحو حفيدي المحبوب  
فتساءلت :  
- زينب هانم ، أليست رندة رشيدة ومثقفة وتميّز  
بين ما ينفعها وما يضرّها؟  
- الحبّ يضلّ يا محتشمي بك ، أصبح الحبّ في  
هذه الأيام إمّا . هل تزوّجت أنت عن حبّ يا محتشمي  
بك؟ ، هل تزوّج فوّاز بك عن حبّ؟  
- ولكنّها يؤمنان به .  
- وتركها حتّى يدمرها معًا؟  
وتنهّدت بصوت مسموع شأن العاجز فقالت ولغّدها  
يتحرّك :  
- فلنبذل جهدًا للإنقاذ وليفعل الله ما يشاء ، ربّما  
وجد كلاهما ما يناسبه .  
- أهذا رأي سليمان بك أيضًا؟  
- إنه أبوها كما إنني أمها ، وما يميزنا إلا أنّ علوان  
فتى طيّب وجدير بكلّ خير . . .  
وتمتعت وأنا أختتم الحديث :  
- وسنمّن الحظّ أيضًا .  
فذهبت وهي تقول :

- اختنقت الأنفاس .
- اعتدنا أن نصمد حيال المعارضة .
- حتى متى؟
- لا أهمية للوقت .
- الوقت مهم أردنا أم لم نرد، ومسئولتي ثقيلة .
- فقلت بحزم:
- لست معفاة من المسؤولية، إني مثلك تمامًا .
- لا مفر من التسليم بأي أهدر مستقبلك .
- ومستقبلك أنت؟
- الأمر يختلف وقد يتزوج الرجل في الخمسين .
- شحب وجهها وهي تتمتم:
- لأول مرة أجذك منهزمًا يا علوان .
- فقلت بعد تردد:
- ربّما لأنني انتصر على أناثتي لأول مرة!
- فهتفت بفزع:
- ربّاه... أتفكر حقًا في... .
- وأشفقت من إتمام جملتها فقلت وأنا أمرق من جرحي:
- إني أحرّرك من قيدي .
- قالت بانفعال شديد:
- علوان... لا أطيق سماع ذلك .
- أعيدي التفكير في موقفك بعيدًا عن ظلي الثقيل... .
- إني حرّة ولا سلطان لأحد علي... .
- الأمر يتطلب إعادة نظر .
- فتفكرت في وجوم ثمّ قالت:
- إنّه منطلق سليم ولكنّي أشكّ في سلامته في ظلّ حبّ حقيقيّ... .
- فقلت بسرعة وحرارة:
- حذار من الشكّ فيّ، لا تزيدني الموقف سوءًا، فالحبّ أيضًا هو التضحية... .
- لا حاجة لك إلى التضحية... .
- إني أقرّر ما أراه صوابًا .
- فقلت بمرارة:
- قل إنك أصبحت تجدني عقبة في سبيلك .
- ساعحك الله يا رنده، لن أدافع عن نفسي... .

وعلم فوز وهناء بالموضوع مساء . وانفعلت هناء غاضبة وقالت إنّ قلبها لم يوافق على الخطبة إلّا مضطرًا . أمّا فوز فقال إنّه طالما حذّر ابنه من هذه النهاية المحتومة . وقال:

- الخطبة تعرقل الاثنين .

وقالت هناء تخاطبني:

- أفعه يا عمّي، إنّه يعاندنا ولكنّه يقتنع بك، لو سمع كلامي من أوّل الأمر ما انتهى بنا الأمر إلى هذه الخاتمة المهينة!

وجالت بنفسها الآية الكريمة «سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» .

## علوان فوز محتمشي

لم يبق من الشتاء شيء والجو ينعم بصفاء نادر .  
السوء كلّه كامن فيّ وحدي . كان يجب أن أختار مكانًا آخر غير استراحة الهرم . هذا الموقع عند حافة الهضبة سجّل لنا أجل الذكريات . هدوء نظرة عينها ضاعف من إحساسي بالذنب . لا يوجد شخص يستحقّ الاحترام ولا يفعل يستحقّ الثقة ولا وعد يستحقّ التصديق . ذلك التاريخ المنحدر ما بين العندليب الأسمر والغراب الأسمر فلتكفّ الدكتورورة عن إلقاء الشعارات فهي زوجة وأمّ وشربت العشق حتى الثمالة فلنحتسّر الشاي في هناء، أو لتنهأ به وحدها، أما أدوق له طعمًا .

- أعوذ بالله من صمتك!

فرنوت إلى هامات النخيل المنثور فوق المنحدر وسألتها:

- رنده، هل علمت بزيارة مامتك لجديّ؟

فقلت باستهانة:

- لم تمرّ بسلام ولكن لا جديد تحت الشمس... .

فقلت بأني:

- لو صحّ ذلك لتزوجنا منذ سنوات .

- أراك متأثرًا أكثر مما توقّعت .

يوم قتل الزعيم ٨٢٣

استقبلتني بها. ها هي تداري عينيها في إشفاق وما يشبه الخوف. قلت لها على مسمع من أبي:  
- هنيئًا لك، نجح مسعاك.  
ففرقت أكثر في الصمت حتى اغرورقت عيناها، وإذا بأبي يقول:  
- إنني مطمئنٌ إلى رجاحة عقلك.  
فقلت محتجّة:  
- بابا... من فضلك لا تعاملني كطفلة...  
فقال بهدوء:  
- لن تندمي، وسوف أذكرك بذلك في يوم قريب.  
ونظقت أمي لأول مرة قالت:  
- أنت مؤمنة ولا خوف على مؤمن.  
وقال أبي:

- أمك لم تخطئ يا رندة!  
ولكنها دنيا جديدة تمامًا التي عليّ أن أعيشها منذ الساعة. دنيا لا يوجد بها أثر لعلوان. دنيا على القلب أن يصبر عليها حتى يجيئه الفرج بموته. ودهمني شعور قاسٍ بتقدّم سنّي وأتني أطرق أبواب العنوس برجاء خائب. وتبدّلت لي حجرة نومي قديمة بالية بسريرها العتيقين وصوانها المقشّر وسجّادتها الجرداء التي لم يبقَ من رسومها إلا خيال. حتى سناء أختي باتت مضجرة مؤذية وهي تقول لي ببرود:  
- إنك تستحقّين التهنتة.

وشار غضبي على علوان. أثبت أنه أضعف ممّا تصوّرت. وأنه خليق أن يبقى حائرًا بلا مرفأ إلى الأبد. بل لعلّه سرعان ما ينحرف. أو يبيع نفسه لامرأة مثل جولستان. الحقيقة أنه ضاق بحمل المسؤولية. إنه يهرب من عجزه. وفي ظنه أنه لن يُرمى بعد اليوم بالعجز عن الزواج. وقلت لنفسي إنني يجب أن أسعد بالتحرّر منه. إنني أخفّ ممّا كنت في أيّ يوم مضى. هجرني وخانني. من غيره يُسأل عن تعاسي ذات الأنياب الحادّة. يجب أن أهتئ نفسي على التحرّر منه. من الآن فصاعدًا أستطيع أن أزيّن الأمور بعقل غير مشلول بقيود القلب. أنا حرّة... أنا حرّة... حسبي ذلك. ماذا كان يعني أنور علّام بقوله؟ يا للتعاسة التي تتمطى بلا حدود. هل يشفي الزمن حقًا

- إنني أرفض تضحيتك.

فقلت بوضوح:

- وأنا مصرّ عليها.

وفصل بيننا صمت أثقل من الليل الزاحف. انسحب كلانا إلى داخل ذاته. وباعد اليأس ما بيننا إلى ما لا نهاية حتى فقدَ مجلسنا أيّ معنى. وقامت متشاقلة وهي تقول:

- لا وجه لبقائي هنا.

فقلت ضامر الحيويّة. كأننا غريبان سيذهب كلٌ إلى وطنه. ولا شيء أقوى من الحبّ إلا الألم. تخالفتُ لعينيّ الوحدة المتربّصة بي في نهاية الطريق. وطوال الطريق لم نتبادل كلمة. ولا تحيّة عند الفراق داخل العمارة القديمة. وجدت والديّ في حجرتهما وجديّ وحيدًا أمام التلفيزيون. جلست على مقربة منه فنظر نحوي بتوجّس واستطلاع ثم قال وكأنا يهرب من أفكاره:

- فيلم عن امرأة مجنونة، لم أحبه...

فجاريتته متسائلًا:

- ولم ترى ما لا تحبّ؟

- في القناة الأخرى خطبة.

- ولم لا تغلقه؟

- هو خير من لا شيء.

فقلت:

- الخطبة فُسخت!

وجم وتجلّى في عينيّ الخابيتين المهمّ ثم غمغم:

- أعانك الله على بلواك!

فقلت بجفاء:

- فُسخت وانتهى الأمر.

فقال بأسى:

- لديّ شعور بالذنب.

فقلت بصوت بارد:

- لا ذنب لك يا جديّ.

## رندة سليمان مبارك

رايت صورة وجهي معكوسة في نظرة أمي التي



بابا ساخر يسيء الظنّ بالبشر ودأبه التنقيب وراء  
كلّ فعل حسن حتّى يعثر له على تفسير قبيح . ورغم  
أنيّ ملت لتصديقه إلاّ أنني قلت :  
- لأنّه لم يعد يحتمل المزيد من اللوم فقد أقدم على  
تضحية أليمة . إنيّ أعرفه خيرًا منك يا بابا .  
فقال باسماً :  
- أتنبأ لك بخاتمة سعيدة .  
ولمّا لم أعلّق بكلمة قال :  
- ما دما قد تحرّرتنا من الحبّ فلنكبّل مصيرنا  
للعقل ، وفي هذه الحال لا غضاضة من الاستماع لرأي  
الآخرين .  
فقلت باستياء :  
- إنّه أمر يعنيني وحدي .  
- بلّ يعنيننا جميعًا .  
وأسفاه! علوان يمعن في البعد وها نحن نتحدّث  
عن حياة جديدة .

## محتشي زايد

الحمد لله . كلّ شيء طيب لولا حزن علوان . ربيع  
هذا العام لطيف نادر الحساسين فمتى يسلو علوان  
وينسى . الحمد لله . فاليوم يمضي بين العبادة والتلاوة  
والطعام والأغاني والأفلام . عند الثمانين تتوقّع قدوم  
ضيف لا ريب فيه فاللهمّ حسن الختام . اللهمّ جنبنا  
العجز والأوجاع وانشر ندى رحمتك في أركان هذا  
البيت القويم . ودنيا الله جميلة خليقة بكلّ حبّ فأيّ  
روح شريرة قد حلّت بها . السماء والنيل والأشجار  
وأسراب الحمام وهذا الصوت المليح وإنّ في خلق  
السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي  
تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء  
من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ  
دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء  
والأرض لآيات لقوم يعقلون؛ لو تُركت وشيخونحتي  
لكنت سعيدًا ولكنّي لا أترك في سلام . سقيًا لعهد  
الإيمان الساذج كما تذكره الذاكرة، وعهد الشكّ

من الحبّ؟ متى وكيف عليه اللعنة . سأضعف له  
الازدراء كلّما ضاعف لي الذلّ . والداي يُمعنان في  
المرب حتّى ينظّم صفوفهما . أول النصر هزيمة ثمّ  
ينتصر . هرب وتحرّرت . احملني الملك بشجاعة حتّى  
يتبحّر . انتظرت حضوره في الإدارة صباحًا مصمّمة  
على لقائه كزميل وكأدّ شيئًا لم يكن تماديًا في إعلان  
اللامبالاة . لكنّني لم أستطع . لم أنظر نحوه ففضحت  
تعاسي . ترى كيف بات ليلته؟ شاركني العذاب أم  
غطّ في نوم الراحة والحريّة؟ وكان لا بدّ للسرّ أن  
ينكشف فُعرف في الإدارة وأحدث في الظاهر على  
الأقلّ وجومًا . لم يعلّق أحد بكلمة . لعلّ المفلسين قد  
سعدوا فالتعساء يتعزّون بالتعساء . ولمّا جاء دوري  
للمثول بين يدي مدير الإدارة أنور بدا علّام أول الأمر  
جأذا أكثر من المألوف . ولكنّه قبل أن يأذن لي في  
الانصراف قال :

- علمت وأسفت!

فلذتُ بالصمت فقال :

- لكنّها نهاية محتومة ، وفي تقديري أنّها جاءت  
متأخّرة .

ثمّ بنبرة أقوى :

- مثلك لا يصلح لها أن تعلّق مستقبلها بوعد  
مجهول كأنك لا تدركين قيمتك الحقيقيّة .

ولم أنبس بكلمة فقال :

- عندما قلت يومًا إنّ لكلّ مشكلة حلًّا كنت أفكر  
في هذه النهاية وإنّ يكن كلّ وجود إلى زوال فالحزن لن  
يشدّ عن هذه القاعدة!

ثمّ قال وهو يعيد إليّ الإضبارة .

- نصيحتي يا آنسة رندة أن تتذكّري دائميًا أنّنا في  
عصر العقل وأنّ تعتمدني عليه كلّ الاعتماد فكلّ ما  
عداه باطل... باطل... باطل...

وطوال حديثه تصفّحتني بنظرات جريئة لم يعد  
يخفّف منها الحاجز الذي كان قائمًا . لم يخفّف نفوري منه  
ولم يزدد ولكنّني لم أعد أجده ظاهرة شاذّة . وفي المساء  
قال لي أبي :

- أوّد أن أصارحك يا رندة بأنّه لو كان كامل  
الإخلاص لما تحلّى عنك أبدًا .

## يوم قتل الزعيم ٨٢٥

فقلت له بأسًا:  
 - حلّ الحَبِّ محلّ الخوف فيما بيني وبين ذي الجلال.  
 - تُنافس إبليس بالطول والعرض ثمّ تطمح إلى الغفران.  
 - حتّى عهد المجون اعتبره من أطيب ذكريات الحياة. فصاح الرجل ساخرًا:  
 - اشهدوا يا هو. . . . واعجبوا لهذا الدرّيش المودرن. . . .  
 - يا مخزّف، لقد بلغت في الطريق درجة من الوعي أجد فيها عند أغنية «حبايبي كثير يحبّوني لكنّ إنْتَ اللي شاغلني». روحًا من الصوفيّة.  
 فقهاه متسائلًا:  
 - وماذا تجد في أغنية «يوم ما عضّنتي العضّة»؟  
 - اسخر ما شئت، إنّ نزوات المرّيّ الفاضل التي مارسها وراء ستر وقاره لم تكن إلّا صلاة شكر ساذجة.  
 فهتف:  
 - محتشمي، أشهد أنّك وليّ مغاني الحرم وملتقى مهرّبي الانفتاح.  
 المشكلة الحقيقيّة هي علوان. ترى هل يعتبرني المصدر الذي انطلقت منه شرارة تعاسته؟  
 - أوّد يا علوان أن أحمل عنك بعض حزنك!  
 فقال بضيق:  
 - الحقّ أنّي لا أدري ماذا أفعل بحياتي.  
 - سيبلغ البلد يومًا شاطئ الأمان.  
 - سأبلغ الشيخوخة قبل ذلك  
 فقلت متهدّأ:  
 - «ويخلق ما لا تعلمون».  
 - ما أسرع أن تجدوا النجاة في جملة جميلة يا جدّي!  
 - علوان، في الثلاثينات فُصلت من عمليّ بتهمة تحريض الطلبة على الإضراب، كنت صاحب أسرة وأبناء ومن كبار الفقراء، اشتغلت بمدرسة الإعداديّة الأهليّة بمربّ حقيّر، وأمست حسابات بقال من أصدقائي، ومكثنا عامًا كاملًا لا نطبخ إلّا العدس، وعندك أبوك فاسأله. . . .

ومنازعاته ما أثارها بفتنة اليقظة، وعهد الإلحاد وتحدياته وغناها بالشجاعة والافتحام، وعهد العقل وحواره الدائم، وأخيرًا عهد الإيمان والأمل. أصبح الموت آخر المغامرات الواعدة. مناجاته تهوّن حمل الأعباء على الحامل. سيجيء في ساعة ما سافرًا عن وجهه وسوف أقول له بكلّ مودة اقطف الثمرة وهي في تمام نضجها. يومًا كنت أحدث علوان عن المسلسل التلفزيونيّ الجديد فقال لي:  
 - جدّي، أمثلك على راحة بالك.  
 أزعجني قوله فقلت له:  
 - في صوتك احتجاج يا علوان.  
 فضحك في حياء ولم ينبس فقلت:  
 - توجد مرحلة أخيرة اسمها الشيخوخة، إنّّي أمدّ يدي لأقبض على حلقة الثمانين في مرّقي الجبل فمن حقّي أن أركّز على خلاصي تاركًا هموم وطني لبنييه. وقد قمت بالتراماتي في حينها على قدر استطاعتي. وحاولت جهدي على حملك على الالتزام وما زلت أحذرك عواقب الشيخوخة المبكرة، إنّ قاموسك لا يموي إلّا بطلًا شهيدًا واحدًا. قضيت فترة متلقّيًا مسحورًا، وتقضي الأخرى متحسّرًا حائرًا، أقلّ ما أقوله عن نفسي إنّّي شهدت من تلاميذي ثلاثة من الوزراء!  
 فتساءل ضاحكًا:  
 - أتعّد ذلك من حسناتك يا جدّي؟  
 فما تمالكك من الضحك عاليًا وقلت:  
 - إن تكن الأخرى فلندع الحكم للتاريخ، أمامكم تحديات خليقة بأن تخلق أبطالًا لا حائرينًا.  
 وربّت ذراعه بحنان ثمّ واصلت:  
 - قم بواجبك في حينه حتّى تفرغ ذات يوم لطريق الله وأنت مطمئنّ الضمير.  
 لو وهبني الله نعمة الكرامات لأوجدت له شقّة ومهرًا ولكنّ العين بصيرة واليد قصيرة. إنّهُ الآن يصارع أله وجراحه وما أملاك له إلّا الدعاء. وأذكر سخريات سليمان مبارك والد رندة في زمن مضى:  
 - ترى هل نسي الدرّيش الماكر عهد فسقه ومجونه؟

إلا الشجر والعائثر. وتدوي خطبة من راديو في مكان ما فنتشر الأكاذيب في الجو مع الغبار. تعب... تعب... فلنعد إلى الكلام. خرابة صغيرة بمائة ألف. الجرائم الأكاديمية في الجامعة. كم عدد أصحاب الملايين؟ الأقارب والأصهار والطفيليون. المهزبون والقوادون والشيعه والسنة. حكايات ولا ألف ليلة. الجرسون عنده أيضًا حكاية وعند ماسح الأحذية. متى تبدأ المجاعة؟ الرشوة عيني عينك وباعلى صوت. الاستيلاء على الأراضي. شيخ العصابة له أوراد. والفتنة الطائفية من يوقظها؟ مجلس الشعب كان مكانًا للرقص فأصبح مكانًا للغناء. الاستيراد بدون تحويل عملة. أنواع الجبن. البنوك الجديدة. بكم البيضة اليوم؟ والنقود في ملاهي الهرم. وفسخ الخطبة! ماذا قال إمام الجامع على مسمع من جنود الأمن المركزي؟ لا مرحاض عام في الحي كله. لم لا نؤجرها مفروشة؟ ما هو إلا ممثل فاشل. وضرب أفضاعيل العراقي؟ صديقي يبجبن... صديقي كيسنجر. الزبي زي هتلر والفعل شارلي شابلن. ويسود صمت شامل ريثما تذهب امرأة قادمة من الطريق إلى بيت دعارة وراء المقهى وتعدق مقارنة بين تضخم عجيزتها والتضخم المالي العام. متفائل يؤكد أنها تشتغل لتجمع رسوم رسالة الدكتوراه وأن قلبها أنقى من الذهب. وشاب شاذ يقترح الشذوذ كحل لأزمة الحب في الطبقة ذات الدخل الثابت وأيضا لتحقيق الهدف من تنظيم الأسرة. لا خلاص إلا بالخلاص من كامب ديفيد. العودة إلى العرب والحرب. حرب أبدية والويل لعملاء التطبيع. كفى... كفى... في الوقت متسع لقليل من التسكع. الفرار منك جهد ضائع يا رندة. مرض الحب بطيء الشفاء وأخاف أن يكون من الأمراض المزمنة. لا يعزيني عن إساءتي إليها إلا أنني أسأت ضعفين إلى نفسي. وعندما رأيت والدي على مائدة العشاء حسدتها. أراحا نفسها من هموم كثيرة بالعمل. التهمها العمل وهذا شيء حسن. ليس كما كنت أتصور. بكل حزم يقولان:

- أغفنا من الحديث عن نفسك أو عن البلد.

تابعني بنصف وعي ثم قال بامتعاض:

- بت أكره نفسي.

فقلت برجاء:

- لعلّه إيدان بميلاد جديد.

فقال ساخراً:

- أو موت جديد.

فقلت بحرارة:

- ليكن حديثنا عن الحياة لا الموت.

فقال بحدة:

- الموت أيضًا حياة!

وتردّدت في نفسي الآية الكريمة «من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها».

## علوان فواز محتشمي

جريح القلب والكرامة. أهيم على وجهي ككلب بلا مأوى. حرارة الجوّ تبخر لذة المشي. مقهى ريش منقذ من ضجر الوحدة. أجلس وأطلب القهوة وأرهف السمع. هنا معبد تُقدّم به القرابين إلى البطل الراحل الذي أصبح رمزاً للأمال الضائعة آمال الفقراء والمعزولين. هنا أيضًا تنفضّ شلالات السخط على بطل النصر والسلام. النصر يتكشّف عن لعبة والسلام عن تسليم. على مسمع من السيّاح الإسرائيليين. أسمع وأهنا بشيء من العزاء. أنتم إذا شئت حزب وهمي لا شعار له إلا الرفض. إن أضجرك الكلام فمدّ البصر إلى الطريق. راقب حركة الداهيين والجائين. حركة سريعة لا تتوقّف ولا تنقطع. وجوه مكفهرة ماذا وراءها؟ الرجال والنساء والأطفال، حتى الحبالى لا يقرن في بيوتهنّ. كلّ يحمل مسأته أو مهزنته. حوانيت الأثاث والبوتيكات مكتظة. كم أمة تعيش جنباً إلى جنب في هذه الأمة؟ أضواء الميدان قوّة مثيرة للأعصاب، ومثيرة للأعصاب أيضاً، قوارير المياه المعدنية على موائد السيّاح. ماذا نشرب نحن؟ وأغرب الأغاني تنطلق من التاكسيات في راديو المجاذيب. لا يبقى على حاله التي كان عليها

يوم قتل الزعيم ٨٢٧

- يبدو أنك تحبّه يا بك .  
فقال ببساطة :

- على الأقل لا أنفر منه .

وتلاقيت مع جولستان في نظرات مسترقة باحت  
بمودة لا خفاء فيها . دافئة وعميقة ومراوغة . إنثا غير  
مقصرة في إبداء مفاتها ورزانتها معًا . كأنما تقول لي  
إني امرأة فاضلة ولكن لا حيلة لي مع مفاتي . هل  
يعجبك هذا الطراز من النضج الأنثوي المتخطي  
للشباب؟ . المسألة بالنسبة إليّ مسألة جوع أوّلًا  
وأخيرًا . لعلها تنظر إليّ باعتباري حنّلاً على حين أنظر  
إليها بعيني ذئب . أيّ ضغط يزاح عن أعصابي لو  
أذعنت لي كخليلة . لكن كيف ومتى وأين؟ . وقال  
أنور علّام :

- بعد شهر على الأكثر ينتهي العمل في فيلّا  
جولستان الجديدة ، وسوف تنتقل إليها وتركني  
وحدتي .

فسألته مجازياً لمسرى الحديث « ولم لا تنتقل معها يا  
بك؟ »  
فأجاب :

- إني أفكّر في إعداد شقّي للزواج ، أن لي أن  
أتزوّج !

## رَنده سُلَيْمان مِبَارَك

الامل في الزمن . هو أيضًا يُميت ويُحيي . سيهلك  
المكروب ذات يوم ويتجلّى وجه الشفاء . ولن يخذل الله  
مؤمنًا صادقًا . اليوم نتبادل الحديث ونتعاون كزميلين في  
مكتب واحد . كزميلين غريبين لم يدوبا في قبلة قط .  
وأحيانًا أراه - مثلي - يستحقّ الرثاء . لم أعد أدينه ولم  
أعد أحترمه . التجربة الجديدة التي تقتحمني هي أنور  
علّام . يستقبلي ببشاشة غير عادية . ويجاورني مداعبًا  
معلنًا عن إعجابه ومودته . إني أتوقّع وأفكر تحت مظلة  
من الكبرياء تأتي التسليم بالهزيمة . من ناحية أخرى  
قدّرت ماما أنّ الهدنة انقضت وأنه آن لها أن تتكلّم  
فقال لي ونحن جلوس معًا في حجرة المعيشة :

حسبنا أنّنا نشقى من أجلكم . حلّ مشاكلك بنفسك  
والبلد له ربّ . اذكر أبي المخضرم في حماسه .

هتفّ للثورة وليسّ الحداد في هزيمتها وقضى عليه في  
الانفتاح . سمعته يقول :

- تمرّ الأيام فلا أجد وقتًا لخلق شعري أو تقليد  
أطافري .

وسمعه يقول لجدي :

- أنحشر في الباص وأخذ هناء في حضني لأبعد  
عنها أحضان الجياع .

ومرّة قال لي :

- يوم الجمعة ، يوم العطلة ، تتراكم الواجبات ،  
وقت للحتمّ ، وقت للعزاء ، وقت للاعتذار ، ساعة  
واحدة للاسترخاء وفيها تهجم عليّ همومك وهموم  
البلد .

في تحبّطي ألقى أستاذتي في نادي الخريجين . يا  
أستاذتي لقد فسخت الخطبة . غير موافقة طبعا وتطالبني  
بإعداد لقاء بينها وبيننا مجتمعين . الوداع يا أستاذتي  
مضى وقت الكلام . أعدك بأن أكون عدوًا للكلام بقية  
العمر . وخيل إليّ أنّ المحروقي حلّ مشاكله بالمرق  
من العصر . إنّه يعتقد أنّه هزم العصر وطوّعه  
لأغراضه . ماذا صنع بنفسه؟ . تعلم حرفة السباكة .  
دفن شهادته في أوّل وعاء قيامة . سألته والدكّان؟ .  
أجاب دون أن يبتسم فنادرًا ما يبتسم أسير حاملاً  
حقيقية حاوية للأدوات وأنادي سبّاك . . . سبّاك .  
فتنهال عليّ الطلبات ، ساصير قريبًا أغنى من سيّدنا  
الزبير . وعندما هممت بالانصراف قال لي ساخرًا  
« ادعوك للدخول في دين جديد اسمه الإسلام » ولما  
خلا أنور علّام إليّ قال :

- آسف ، ولكنك فعلت الصواب ، وسوف  
تضحك لك الدنيا .

وعقب انقضاء أسابيع دعاني إلى عمل عاجل في  
شقته بالدقي . ولما انتهينا من العمل دعاني للعشاء .  
توقّعت ذلك من بادئ الأمر . وشاركتنا العشاء  
جولستان فلم أدهش . أعلنت آسفها على فسح خطبتي  
بكلمة عابرة ثمّ تركّز الحديث على الغناء الحديث .  
واسمعنا أنور علّام شرائط متنوّعة كعينيّات منه .

- علمت أن إبراهيم بك مستعد أن يتقدم من جديد.
- إنه كهل صاحب مصنع معادن تقدم منذ عامين ورُفض. والظاهر أنها لاحظت استيائي فقالت:
- نحن متفقان على أنه طالما لا يوجد ارتباط فالأمر يفصل فيه العقل وحده.
- فقلت معترضة:
- لكته أرمل وأب!
- فقلت برجاء:
- ولكته غنيّ ومستعد أن يأخذك بملابسك.
- ليست مجرد بيع وشراء.
- ولكتنا لن نجد مثله بسهولة.
- فقلت بحدّة:
- لست متعجّلة.
- فقلت بإشفاق:
- الزمن يجري بسرعة. . .
- فقلت بتحدّ:
- لن أكون أول عانس في التاريخ.
- لزم أبي الصمت طوال الوقت. ولم أكن صادقة تمامًا في التعبير عن حالي، فالحق أنني راغبة في إثبات وجودي ولكن ليس على حساب كرامتي، الكفاءة يجب أن تشمل المال والاحترام، أنور علام يملك الاثنين، ولو كانت به شبهة لطبقت الأفاق. وهو على الأقلّ مقبول وغير منفر شكلاً، والفجوة بين عمرينا معقولة لدرجة. أما الحبّ فمن الحماقة أن أفكر فيه الآن. ولم يطل بي الانتظار، فعلى أثر اعتماد تقريري ذات صباح قال لي:
- يصحّ الآن أن أسألك عن رأيك!
- تساءلت وقلبي يخفق بالتوقّع:
- فيم يا بك؟
- إنّي أطلب يدك، ما رأيك؟
- فلذت بالصمت كالمبغوتة فقال:
- لعليّ لا أجد حديث الحبّ، لكته موجود، لست خياليًا وحسي أن أقول إنّي أجذك حائزة لكافة الشروط بكلّ جدارة. . .
- فهمست:
- الأمر مفاجأة.
- طبعًا تطلبين مهلة للتفكير، معقول، ولكن دعيني أرتقي نفسي بالقدر اللازم، فمثلي لا يشرع في الزواج إلا إذا كان على يقين من قدرته لحمل مسؤوليته. . .
- إنّي شاكرة وسأفكر في الموضوع. . .
- وعرضت الموضوع على والديّ مساءً. وقالت أمي بلا تردد:
- على خيرة الله.
- وقال أبي:
- نوافق على ما توافقين عليه.
- ولمّا انفردت بأمي سألتها عمّا يمكن أن نقدمه فقالت بمرارة:
- من ناحية أبيك لا شيء، من ناحيتي فلديّ بقية من حليّ يمكن أن أجهز شخصك بئمنها، ويستحسن أن يعرف الرجل كلّ شيء. . .
- مرارة التجربة التي طحنتني مرّقت أقنعة الحياء الفارغة. أنضجتي أكثر مما قدّرت. صمّمت على الجهر بالحقيقة على أنه لم يكن في حاجة إلى صراحتي لسابق علمه بأزمي. وقال لي أيضًا بصراحة:
- سأقوم بتأنيث الشقّة وحسي ذلك.
- فوافقت طبعًا فقال:
- يجب أن نعرف للوقت قيمته وأن يتمّ كلّ شيء في أقصر وقت. . .
- وتّم إعلان الخطبة في شقّتنا. اقتصر الحفل على والديّ وأخواتي، ومن ناحيته على جولستان هانم وأخ طاعن في السنّ. لم يشهده أحد من جيران العمر. وقد أهدتني جولستان قلادة ذهبية ذات فصّ ماسيّ ثمين. وكنت في أعياقي متوتّرة الأعصاب ولكن ضبّطت انفعالاتي بقوة ومثّلت دوري بلباقة حسدت نفسي عليها. ولمّا انفردت بسناء في حجرتنا انهار سدّ المقاومة فأجهشت في البكاء. ورمقتني بوجوم مليًا ثمّ قالت:
- ليكن هذا وداعك الأخير للماضي العقيم.
- فقلت مولولة:
- خسرت أئمن ما في حياتي. . .

يوم قتل الزعيم ٨٢٩

جدّي الأزهرّي مدرّس النحو الذي كان يخاطب جدّي الأمّية بالفصحى وخلف ذرّيّة من العقلاء والمجانين ما زالت حتّى اليوم منجبة للعقل والجنون، ما ذنب حفيدي يا حشالة الأرض؟، ورثتم أبناءكم المال والأمان وأورثتمونا الضياع والفقر والديون وكان الثورة ما قامت إلّا من أجل سعادتكم وتعاستنا. آه يا ربّي متى تهبني الشجاعة لأنبذ الدنيا وما فيها؟. حتّى متى أحرّن إلى كرامات لا تتيسّر؟، متى أطير في الهواء أو أمشي فوق الماء؟، متى أشير إلى الظالم فأصعقه وأريح الدنيا من شرّه؟، الحقّ أنّها تجربة فاشلة وأنّ الإنسان عجز عن أن يتعامل معها كنعمة كبرى فنجّسها بالغرر والأنانيّة والخيانة، ها أنا أتمنّى في الشقّة لأفرخ غضبي، وها أنا أتصفّح قطع الأثاث البالية كأنما أودّعها، وأقرأ وسط مسند الكنبه حكمة مرقومة بالخطّ الفارسيّ الأسود وسط هلال من الأصداف «من تأتّى نال ما تمنّى»، أيّ آناة يا ربّي؟، صبرنا آلاف السنين حتّى انقلب الصبر رذيلة والتمنّى عاهة، وأشرب قدحًا من الأنيسون وأعود إلى مجلسي، وترفّ على شفّيّ ابتهامة، ابتهامة!؟، من أيّ مكان في الغيب وردت؟ هذه الابتهامة الضالّة في غابة الأحزان، تقول إنّها قادمة من زمن الجنون المليح مقتحمة جدار التقوى، نديّة بأنفاس الخمر وعرق الغانيات في البقاع المحرّمة، من محراب أقران الشباب والرزق والجهاد، ضحكاتهم تطير في الفضاء البعيد لم تظفر بعد بجهاز استقبال يعيدها إلى الأرض، وزمرّدة ترقص شبه عارية وتغنّي «اليّة حصلت نصّي»، ليالي العريضة والمجون والمنبوذين بلا ذنب، حيث تتجلّى الحكمة والصدق فوق جباه العاهرات والقوادات، يقلن لنا بكلّ تواضع ألسنا أرحم بكم من حكامكم العظام؟، نحن نبذل أنفسنا في سبيل الترفيه عنكم وهم يضحون بكم بغية الترفيه عن ذواتهم، فإلى جنّة الخلد يا زمردة ويا هللوبة ويا أمّ طاقةيّة، ويا جميع المنحرفين والمنحرفات ممن لم نُقرّر بفضلهنّ حتّى ورد الزمان علينا بأبطال النحس والفاقة والهزائم، سقيًا لليالبيكم المنزوية في أعطاف الدخان والنشوة، المنطوية في فنون التلميع والتسمين، المبدولة للدهن والتمشيط، كلّ جهد ونحطيط من أجل

فعطفت عليّ أكثر من أيّ وقت مضى وقالت:  
- لا أوافقك ولكن لندع كلّ شيء للزمن.

## محتشمي زايد

فوقنا على بعد أشبار ثمة حفل لإعلان خطبة رنّدة. علوان انتهى من ارتداء قميصه نصف الكتم وينطلونه الرماديّ. بدا ساعده مفتولين وزغب صدره من فتحة القميص فاحمًا، ونجّلى الانسجام في قسيات وجهه المحتقنة بالحزن، شباب وجمال وأسى. ماذا يعتلج في أعماقه في هذه الساعة اللعينة؟. لم أذق مرارتها إلّا في الشّعر. هل لديّ ما أقوله له؟ لم أجد سوى نظرة وابتسامة. ورفع يده تحيّة ومضى وهو يقول كعادته:  
- فتك بعافية يا جدّي.

وساء طبعي فجأة كأنما ازدردت كيلو شطّة وفلفل. رميت بعيدًا عنّي بخور العبادة. عالم مجنون وبائس. أيّما الأحباء الراقدون تحت الأرض ما أكثركم! رأسي ثمل بذكرياتكم دون سبب واضح. وسبقكم مئات الأنبياء والأولياء فلينعم التراب بأطيب ما في الحياة. لماذا يتدفّق الماضي في روحي كشلال وبقوة بركان نائر. هتافات الثورة تدوي من جديد، الاستقلال التام أو الموت الزؤام، الشعب فوق الملك. أزيز النار المشتعلة في القاهرة، عظمة الراحل وهزيمته، عظمة خليفته ونكسته، الجنون يشقّ طريقه في الصخر حاملاً الجوع والديون، أيّما الأحباب الداهبون ما أكثركم! ما فكّرتم في الموت ولا جرى لكم المرض في حساب، ومنكم من مزج الكونيك بالزنجيل وطارد النسوان في الموالد، ومن كان يخلع نفسه من مائدة القهار ليصليّ الفجر حاضرًا، ومن رمى نفسه في مياه النيل المشعشة بضوء القمر والزورق انشراعّي يدور حوله حاملاً الحشاشة المجدع، وفيتية القدر الذين تسلّحوا بالإيمان والأحجار وخرجوا يتحدّون الشرطة والجيش في عيد الدستور الملغى، إني أشهد المعركة وأسمع أزيز الرصاص ووقع الأقدام الثقيلة المطاردة، ما أكثركم أيّما الراحلون الأعزّاء وما أجهل القبور اللامبالية بأقداركم! وذكرى

الآخرين، والرضا بعد ذلك باللقمة والازدراء وشيئة الشامتين، هذا ما قالته ابتسامة رقت في غير أوانها وفي ظلّ زمن مجنون وقلب كسير، والندم كبير والطمع في المغفرة بلا حدود، والضيق بالغ غايته من كثرة الأسئلة عمّا يجوز ولا يجوز وعمّا يجب أو لا يجب على حين ينشغل اللصوص بتوزيع الغنائم، أستعيد بالله وبكلّ صاحب كرامة وبكلّ مالك علم أن يقدم لتبديد ظلمات هذا الليل الطويل. وجاءني فوّاز وهناء قبيل النوم وسألني الرجل:

- ماذا تتوقّع لعلوان؟

فقلت بهدوء يوحي بالثقة:

- كلّ خير، إنّه قويّ، وسوف يعبر الأزمة بسلام.

وقالت هناء:

- إنّه الآن حرّ ويستطيع أن يشقّ طريقه كيفما يشاء.

- لا تنس أنّه هو صاحب القرار...

تمنّيت أن يرجع قبل أن أخلد للنوم، وعرضت لي فكرة قديمة جديدة وهي أنّ الإنسان يجب أن يعشق الدنيا وأن يتحرّر من عبوديتها في آن. وعدت أقول لنفسي ما أكثر الأحباب الذين ذهبوا، وهل حقًا عاشرتهم طويلاً في هذه الدنيا الدائبة على أكل بنيتها؟!

## علوان فوّاز محتشمي

قمت بدوري بكلّ صفاقة. أقبلت على رندة في مجلسها بالمكتب باسطة يدي وقلت:

- أصدق التهاني.

رمقتني بلمحة عابرة وتمتت:

- شكراً. عقبى لك.

وانتهزت فرصة خلوّ المكان لفترة قصيرة فقلت لها من موقعي القريب منها:

- لا أخفي عنك أنّي تمنّيت لك زيجة أفضل.

فتساءلت بهدوء:

- ما لها هذه؟

- الحقّ... أريد أن أقول إنك تستحقّين أحسن

زيجة.

فقلت باسمّة في غموض:

- إنّه حسن ظنّك!

وقلت لنفسي إنّه عليّ أن أطوي هذه الصفحة إلى الأبد. ولتحمّل الألم حتّى نمحّقه محمّلاً. إن استسلمت للحزن جننت. ولمّا علمت بوصول المدير قصدته في الحال وقلت له:

- معذرة، إنّي قادم للتهنئة.

فقال بمودّة:

- لولا انصرافك عن الموضوع ما اقتربت منه.

- إنك دائماً تفعل الصواب.

- شكراً وعقبى لك، عليك من الآن فصاعداً أن تفكّر في مصلحتك... .

لم أدر ماذا أقول فواصل:

- الطريق واضح وما عليك إلّا أن تفكّر بصفاء.

فقلت وأنا أهمّ بالذهاب:

- نصيحة ثمينة يا بك.

فقال بسرعة:

- أنا مكلف بدعوتك، شقيقتي دعنتنا لحفل شاي صغير ابتهاجاً بانتقالها إلى الفيلا الجديدة... .

حقاً إنّ الطريق واضح. وقلت:

- يسعدني أن أقبل الدعوة.

قبلت الدعوة رغم أنّ فكرة بيع نفسي لم تخطر لي ببال. وقصدت العنوان حوالى السادسة مساءً في جوّ حارّ رطب. وجدت الفيلا غير بعيدة عن عمارة أنور علّام. صغيرة وأنيقة وذات حديقة ثريّة بأشجار الورد البلديّ والبنفسج، جلست في ثوبى جديد وردّي اللون محلّاة جذرانه بلوحات مصوغة بالكائفاه. وجلست بيننا جولستان في فستان أبيض دقيق الرسم لتكويناتها المثيرة. وقال أنور علّام:

- الحفل مقصور علينا فانت مدعوّ باعتبارك من الأسرة!

فقلت جولستان بنعومة:

- لم تعجبني أخلاق أحد من زملائك سواها فشكرتها على حين قال أنور علّام ضاحكاً:

- حقاً إنّ شهادتك في محلّها.

النوم وسألني الرجل:

- ماذا تتوقّع لعلوان؟

فقلت بهدوء يوحي بالثقة:

- كلّ خير، إنّه قويّ، وسوف يعبر الأزمة بسلام.

وقالت هناء:

- إنّه الآن حرّ ويستطيع أن يشقّ طريقه كيفما يشاء.

- لا تنس أنّه هو صاحب القرار...

تمنّيت أن يرجع قبل أن أخلد للنوم، وعرضت لي فكرة قديمة جديدة وهي أنّ الإنسان يجب أن يعشق الدنيا وأن يتحرّر من عبوديتها في آن. وعدت أقول لنفسي ما أكثر الأحباب الذين ذهبوا، وهل حقًا عاشرتهم طويلاً في هذه الدنيا الدائبة على أكل بنيتها؟!

## علوان فوّاز محتشمي

قمت بدوري بكلّ صفاقة. أقبلت على رندة في مجلسها بالمكتب باسطة يدي وقلت:

- أصدق التهاني.

رمقتني بلمحة عابرة وتمتت:

- شكراً. عقبى لك.

وانتهزت فرصة خلوّ المكان لفترة قصيرة فقلت لها من موقعي القريب منها:

- لا أخفي عنك أنّي تمنّيت لك زيجة أفضل.

فتساءلت بهدوء:

- ما لها هذه؟

- الحقّ... أريد أن أقول إنك تستحقّين أحسن

يوم قتل الزعيم ٨٣١

## رَنَدَه سُلَيْمَان مَبَارَك

إنه يطالب بالزفاف في أقرب فرصة ولا أجد عذراً للتأجيل. وتقرر إقامة الاحتفال بعيداً جولستان هانم وتعذر على أبي الحضور. كان حفلاً صامتاً ولكنه ثري بالبوفيه الممتاز وبمن شاهده من كبار موظفي الشركة ونخبة من رجال الأعمال. وضعت على وجهي قناع سعادة لا ريب فيه والحق أنني دعوت لنفسي طويلاً بالتوفيق وصممت عليه، وكانت ورائي رغبة صادقة في التفاهم والتكيف مع حياتي الجديدة. أخوف ما خفت أن أرى علوان بين المدعويين ولكنه لم يوجد. وقلبي وإن خلا من الميل فإنه لم يتكدر بالنفور. ترى لو كان علوان هو عريس الليلة فإذا كان سيفعل؟. عشت عمري لا أتصور أنه يمكن أن أهب نفسي لسواه. ها هو الواقع يفرض قراراً آخر. حسبي أنني أشعر بأن أنور يمكن أن يحب ذات يوم، في هذا الكفاية. ولم تنقطع وفود المهنيين في الأيام التالية وخاصة من أهلي. ولكن ما شأن هؤلاء الرجال؟. يجيئون حاملين الهدايا، نرحب بهم معاً، تقدم لهم الخمور. ليلة بعد أخرى لا ينقطع تيارهم الغث ومنهم مواظبون. ولما أرهقتني الوجوه الثابتة، والمجاملة المبذولة من ناحيتي عن تأفف عميق قلت له:

- ما أكثر أصدقاءك من رجال الأعمال!

فقال لي بصراحة لافتة للنظر:

- إنهم في الحقيقة مستقبلنا.

فتساءلت في حيرة:

- ماذا تعني؟

- وظيفة مثل وظيفتي لا قيمة لها إلا في نظر موظف

ناشئ، مستقبلنا الحقيقي في القسط الحاضر، في المغامرة الذكية التي ترفع الشخص من طبقة إلى طبقة،

فلا تقصري في الاحتفاء بهم!

إذن فهي زيارات عمل! لم أرتح لذلك، وقلت:

- إنك أفهمتي أنك واثق من نفسك من الناحية المالية.

فقال بصراحة مكشوفة:

- عن هذا السبيل وحده، عدا ذلك فلا أمان

وشرنا الشاي والتهمت قطعة كبيرة من التورتة وراح أنور يقول:

- يتحدثون عن مضاعفات فتنة طائفية.

فتساءلت جولستان:

- ما معنى ذلك؟

وتساءلت بدوري:

- أين الحكومة؟

فقال أنور:

- أيام قلق.

ف نظرت جولستان نحوي وقالت برثاء:

- يا لكم من جيل يستحق الرثاء!

فقلت بامتعاض مكتملاً:

- والتعنيف أيضاً.

وقام أنور قائلاً:

- لدي مكالمات عاجلة، عن إذنتكم دقائق.

في خلوتنا رنت إليّ بعطف وتمتمت:

- ما يستحق مثلك إلا كل خير. . .

تساءلت عما تعنيه؟. . . السياسة أم مأساتي الشخصية؟، ولكن استحوذ عليّ انفعال جنسي من وحي جسمها الناضج. وركزت فيه نظرة مشحونة بصراحة فاضحة. تمنت شيئاً واحداً هو أن ألتزم منها خلية. وقلت همساً بريق جاف:

- أود أن أنفرد بك.

فقال برزانة:

- أرحب بالانفراد برجل ذي خلق مثلك.

تعطل التيار الكهربائي المتدفق في صدري. قالت الكثير وبأقل الكلمات. وئدت أحلامي الطائشة ورحبت في الوقت نفسه بي. وتماديًا في الإيضاح قالت:

- إنني أحترم نفسي وأرحب بمن يحترم نفسه.

فداريت خبيتي قائلاً:

- ما أسعدني بسع ذلك.

- بيتي يرحب بك في أي وقت، لقد عرفت عنك

الكثير ولكنك لم تعرف عني شيئاً يستحق الذكر. . .



ووخزني سخريته فشعرت بأن تجرّيتي تتهاوى في  
جرف الفشل. ووجدت نفسي وحيدة وسط رجال  
يشربون ويقهقهون، ويتوثّبون لاختراق الحدود.  
وصكّت أذنيّ نكتة وقحة فاقتممتني موجة هادرة من  
الاستياء والغضب، وقلت ببرود:

- حسبكم!

فنظروا إليّ واجمين فقلت بخشونة:

- كفاكم شرباً!

فتساءل أحدهم:

- هل تجاوزنا حدود الأدب؟

فقلت دون مبالاة:

- أظنّ ذلك!

- لعلّها إشارة للانصراف؟

فقلت متهادية في الغضب:

- دون مناقشة!

وانتظرت وأنا على أسوأ حال أدور مع الهواجس  
وتدور معي. ولما رجعت حوالى منتصف الليل غاض  
البشر من وجهه حال وقوع عينيه عليّ. تساءل:

- خير؟!

- لا خير البتّة، إنه بيت وليس بخاترة. . .

- ماذا حصل؟

- باختصار طردتهم وافهم ما تشاء. . .

انحطّ على المقعد أمامي صامتاً، ثمّ تمتم بعد  
صمت:

- انهار بناء شامخ.

فصمتُ بحدّة:

- فوق رؤوس مجموعة من السفلة. . .

- خيبة أمل. . .

فسألته بغضب شديد:

- ألا تريد أن تفهم؟

فقال بهدوء شديد مثير:

- حسبك أوسع إدراكاً. . .

فصمتُ:

- الحقّ أنّي لا أفهمك، أنت شخص غريب. . .

فقال بهدوئه المثير:

- المسألة سوء تفاهم.

لأحد في هذا الموج المتصاعد بلا توقّف من الغلاء!  
نسجت الكتابة حولي غشاءً محكمًا فقال بحماس:  
- إذا لم يكوّن الإنسان ثروة خياليّة في هذه الظروف  
فلا بارك الله فيه. . .

- ألا يكفي ما يوفّر لنا معيشة مريحة؟

- مريحة؟! نحن في سباق يا محبوبية لا رحمة

فيه. . .

ها هو شخص جديد يبرز لي من وراء الشخص  
الأخر، ويعجلة مذهلة، لا يطيق الصبر ولا يصبر على  
التدرّج ولا يعمل حساباً لآثر ردّ الفعل في نفسي. إنّه  
يقول لي بكلّ بساطة إليك ذاتي بلا قناع ولا لفّ ولا  
دوران، فما رأيك؟ إنّه لا يرى في هذه الدنيا إلّا  
طموحه ولا يحفل إلّا به، يسدي إليه صلاته مائة مرّة  
في اليوم، وكأنّما لا وجود لي إلّا من خلال الدور الذي  
يمكن أن أعبه في مخطّطه المسترّامي. حتّى التمثيل  
الكاذب لا يتقنه أو لا يبالي به. إنّه مفاجأة ومفاجأة  
صاعقة قذفها السيل من علّ، ولا وجود للحبّ إلّا في  
لحظته، وسرعان ما شعرت بخيبة أمل لا عزاء فيها،  
وأنتي بعثت نفسي بلا مقابل، أو أنّ الحال أسوأ من  
ذلك. وإنّي أخجل من إعلان خيبيتي كنت أتوهم أنّي  
على الأقلّ غاية فإذا بي وسيلة لا قيمة لها إلّا بما تؤدّيه.  
وظيفتي هنا أن أجمال وأسامر وأقدّم الشراب. ولم يقنع  
بذلك كلّه فأخبرني أنّه لا يستطيع أن يؤجّل أعماله  
المسائيّة أكثر من ذلك وأنّه سيعهد إليّ وحدي بمهمّة  
الضيافة والاستقبال، قال ضاحكًا:

- إنّه امتداد لعملك في العلاقات العامّة.

فقلت معترضة:

- ولكن لا شيء مشتركاً بيني وبينهم. . .

- لا أهميّة لذلك، حسبك أنّك لبقّة وذكيّة ومثقفة،

ونحن شريكان، والشريك ينوب عن شريكه خاصّة  
فيما يعود عليهما في النهاية بالخير. . .

فقلت بحدّة، أوّل حدّة تنتاب شهر العسل في

إبانه:

- لغة سوق ما تصوّرت أنّي سأتعامل معها!

فقال باسمًا:

- خير البرّ عاجله.

يوم قتل الزعيم ٨٣٣

صمّمت على تشييع الجنازة. رحلة شاقّة كرحلة الحاج وتوتكات على علوان. في دار المناسبات استعرضت فيلم العمر الثري: المدرسة، الشارع... المقهى... الخانة... لجان الطلبة... ليالي الزفاف... أعياد الميلاد. الوجه ها هو... الابتسامة ها هي... هل سمعت آخر نكتة؟... والشكوى من الدهر... أنتفق في كلّ شيء ونختلف في الأهليّ والزمالك؟ عليك بقلح ماء على الرقيق... ولا تنس دواء الذاكرة. فاتني أن أسمع تعليقك على ٥ سبتمبر ولكنني أعرفه. وبدأت التلاوة. «كلّ نفس ذائقة الموت» سرعان ما جاء الموت بابتسامته المراوغة وجلس إلى جانبي. لا تتعجل فلم تبق إلا خطوة. موت صديقي القديم بروفا لموتي. أرى كلّ شيء، الغسل والدفن والمشيعين. وأقرأ النعي، محتشمي زايد من رجال التربية القدامى وشباب الحركة الوطنيّة. هل تذكره؟، ظننته مات من زمان. ويحيى النسيان متائبًا ولكنّي أسلم بمتهى الرضا. حقًا إنّه عمر طويل ولكنّه يبدو الساعة كلحظة عابرة. الحبّ والعنف والغضب والأمل ألا ما أكثر الراحلين! لا فرق الآن بين أن تكون أنت في النعش وأنا ماشٍ وراءك أو العكس. وحياتي ابنه بحرارة وقال لي في احتضاره همليّ التحيّة إليك...

وفي المساء عاتبني ابني فوّاز قائلاً:

- في سنّك يُعفى الإنسان من أمشال هذه الواجبات.

أما هنا فقالت:

- اشترت اليوم كتابًا لا يقدر بثمن هو «كيف تصلح أجهزتك المنزليّة»، فلعلّه يحرّرنّا من السّبك والكهربائيّ.

وعند ذاك تساءل علوان:

- ألا يوجد كتاب يحرّرنّا من الحُكّام؟

فقال فوّاز:

- لا حديث للناس إلا اعتقال الدين اعتقلوا...

فعاد علوان يقول بعصبيّة:

- أستاذني علياء في السجن وصديقي محمود

المحروقي أيضًا!

- سوء تفاهم!؟

- أعني سوء تقدير من ناحيتي...

فصرخت:

- يبدو لي أنّك إنسان وضيع!

فدعاني إلى تمالك نفسي بإشارة من يده وقال:

- لا... لا... لا داعي لفتح هذا القاموس، أنا

عشت دهرًا لم أعرف الغضب...

- إنّها شهادة ضدّك...

- هدّني خاطرك، حصل خطأ، وبيدنا

تصحيحه...

فقلت بتصميم:

- إني ذاهبة.

- ولم العجلة؟، انتظري الصباح...

- لن أبقى في هذا البيت لحظة أخرى.

فقال بتسليم:

- لك ما تشائين، ولا داعي للغضب...

## محتشمي زايد

«إنّه لا يحبّ الظالمين». ما هذا القرار أيّها

الرجل!؟. تعلن ثورة في ١٥ مايو ثمّ تصفّيها في ٥

سبتمبر؟. تزجّ في السجن بالمصريّين جميعًا من مسلمين

وأقباط ورجال أحزاب ورجال فكر؟. لم يعد في ميدان

الحرّيّة إلا الانتهازيون فللك الرحمة يا مصر. «ومن كان

في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلًا».

وأذكر يوم حُدّدت إقامة سعد زغلول في بيت الأمتة

فزحف الانتهازيون بالولاء الزائف نحو القصر، لماذا

تعيد تمثيل تلك المسرحيّة القديمة من ريبوتوار المآسي

المصريّة؟. وأذكر عهود الاستبداد بسوادها الكالح

أفكّانت ثورة ١٩١٩ حلًا أم أسطورة!؟. (ليس

الشديد بالسرعة... إنّما الشديد الذي يملك نفسه

عند الغضب). ترى ماذا تحبّي أيّها الغد؟. أما عن

أمسي فقدت أقدم وآخر صديق. صداقة دامت

خمسة وسبعين عامًا. يوم تعارفنا على عتبة المدرسة

الأوليّة. لولا الشيخوخة وسوء المواصلات... آه.

٨٣٤ يوم قتل الزعيم

فابتسم ابتسامة غامضة وقال بحدة:  
- إني أرفض أن أبيع نفسي!  
فجرى ماء الراحة في أعماقي الملتهبة ولكني سألته:  
- هل اتخذت قرارك مع التفكير اللازم.  
- وأكثر من اللازم.  
فقلت بحرارة:  
- أسأل الله أن يعوّضك عنها خيرًا.  
وقلت لنفسي «كراماتك يا سيدي الحنفي!»

## علوان فوّاز محتشمي

وأنا أهمّ بالدهاب قال لي جدّي:  
- أما عرفت يا علوان؟  
فرمقته متسائلًا فقال:  
- رنّدة طلّقت!  
غمرتني موجة عالية من الدهول والخوف والارتياح  
وهتفت:  
- ما زالت في شهر العسل!  
- والدتك أنباتني به هذا الصباح.  
- كيف يمكن أن يحدث هذا؟  
- عندما تتعدّد المعاشرة...  
ثمّ وهو يودّعني:  
- أردت أن أنتهك حتى لا تفاجأ به هناك.  
غصت في انفعالاتي طيلة الطريق. لم أر إلا حزني  
وفرحتي التي ضقت بها. ورأيت رنّدة مستكنّة في  
غشاوة كآبتها كما رأيت ظلّ الكتابة منتشرًا في المكتب  
كلّه. صافحتها وأنا أقول:  
- إني...  
فقاطعتني:  
- شكرًا!  
فقلت بصدق:  
- إنك لا تستحقّين ذلك.  
فقالته بهدوء:  
- أكزّر الشكر ولا داعي للمزيد.  
وتطايرت الأقاويل بعيدًا عن مسمعها فسمعت

فقلت ملاطفًا:  
- ثمّة وعد بمحاكمة سريعة حتى لا يضارّ بريء.  
- أما زلت تصدّق الأكاذيب يا جدّي؟  
ما أنقذه من القضبان إلا حيرته والويل للمتيمين.  
ولمّا خلا لنا المكان قلت له:  
- أمل أن تتغلّب على أزمته بما أعهدك فيك من  
شجاعة!  
فقال ساخرًا:  
- المصائب تقلّ حدّتها بالتكاثر فتكسرّ النصال على  
النصال...  
وأغلق التلفزيون ورجع إلى مجلسه إلى جانبي وهو  
يقول:

- جدّي، لا أحبّ أن أخفي عنك سرًا...  
أصغيت إليه مستطلّمًا باهتمام فقال:  
- توجد قرائن قويّة على دعوة موجهة لي للزواج من  
شقيقة أنور علّام زوج رنّدة...  
- حقًا، إني بمزيد من المعلومات...  
- هي أرملة تكبرني بعشرين عامًا، غنيّة جدًا...  
- والشكل!  
- ليس كما نظنّ، مقبولة ومحترمة أيضًا.  
فلذت بصمت ثقيل فسألني:  
- ما رأيك يا جدّي؟  
فقلت من مأزقي:  
- إنّه قرار خاصّ جدًا يحسن ألا يشاركك فيه  
أحد.  
- ولكنني مصمّم على معرفة رأيك.  
- هل تحبّها؟  
- كلاً ولكنني لا أكرهها...  
- لا أدري ماذا أقول...  
- يوجد ما يقال...  
- لا حقّ لي في تشكيل مصيرها، إني أنتمي إلى  
عالم آخر وليس من الحكمة أن يستبدّ عالم بعالم آخر.  
- ولكنك لم تعودني المهرب...  
فصمت قليلاً ثمّ قلت:  
- للمشروع مزاي لا يستهان بها وعيوب لا يستهان  
بها أيضًا، وفي مثل حالك ترجح مزايه بعيوبه!

يوم قتل الزعيم ٨٣٥

وإذا بها تتطوَّع لإطلاعي على جانب هام من ماضيها، قالت:

- طالما رُميت بالجشع بسبب زواجي، والحقيقة أنّ أبي هو الذي زوّجني من رجل يكبرني بثلاثين عامًا، على ذاك مضت حياتي معه مكلّلة بالاستقامة والأمانة، وكانت وما زالت سمعتي أنقى من الماس.

فقلت بيأس لم تظنن إليه:

- إنك مثال للاحترام.

ثمّ في مراوغة:

- أنور بك رجل محترم أيضًا ولكن تأملي سوء حظّه...

فرمتني بنظرة متوجّسة وسألتني:

- أتري له أم لزوجته؟

فقلت متحدّيًا:

- ما مضى قد مضى وانقضى!

- حقًا؟!

- هي الحقيقة بكلّ بساطة.

- إذن دعنا من هموم الآخرين ولننتبه لهمومنا!

فانحصرت في ركن لا أدري ماذا أقول فقالت

بصراحة ذكّرتني بأخيها:

- أنت فاهم وأنا فاهمة...

ثمّ بشيء من التأثر:

- من حقّي أن أسمى إلى سعادتني طالما أنّ كرامتي

مصونة.

فقلت حتّى لا ألزم الصمت أكثر ممّا يجتمل:

- إنّي أحترم هذا المنطق السديد...

فقالت بعدوية:

- لن تندم. وإنّي منتظرة.

الأعاجيب. واضح أنّه فشل كما يحدث للكثيرين ممن يتزوّجون في سنّ متأخرة، لا... لا... إنه شاذّ... تأملوا حركات يديه، بل العلة في برودها فالجمال الظاهر ليس كلّ شيء، يقال أيضًا إنّه توجد علاقة آئمة بينه وبين أخته، سمعت وتألّمت. إنّي أحبّك يا رندة كما كنت وأكثر، يحزنني أن أجدك في موقف منهزم، قلبي مع كبرياتك الجريح. ونخيل إليّ أنّي قد اقترب من السرّ عند أنور نفسه. أعلنت له أسفي فحدجني بنظرة ساخرة.

وتتمم:

- شكرًا!

أدركت من تويّ أنّه يشكّ في صدقي فقلت:

- آسف لكما معًا.

فقال ببرود:

- لا شيء يوجب الأسف.

وعبر إلى الأوراق المعروضة دون زيادة. ودعتني

جولستان هانم لزيارتها فلبيت دون تردّد وأنا على شبه

يقين من أنّي سأعرف عندها الحقيقة. وجدتها متحلّية

كعروس وقالت لي معاتبة:

- ألا تزورني إلا إذا دعوتك؟

- أخاف أن أخرجك.

- عذر لا معنى له وأنت أول من يدرك ذلك.

وقدّمت لي دندرمة محشوة بالسكرات ثمّ قالت:

- عنّت لي فكرة.

فنظرت نحوها باهتمام فقالت:

- أخي بدأ ينشغل بنفسه عنيّ فهل تعمل أنت

وكيلاً لأعمالي؟

تبذّي لي الاقتراح مثل هاوية تنداح تحت قدمي

فقلت:

- قد يغضبه ذلك!

- هو صاحب الفكرة!

فقلت متحرّجًا:

- أمهليني كي أفكر فقد عرض عليّ بعضهم أن

التحق بقسم المايجستير.

- العمل بسيط ولكنّه يحتاج إلى شخص أمين.

- ستكون المهلة قصيرة جدًّا...

## رندة سليمان مبارك

ستّ أعين تدور في فلك الحيرة. عينا في عيني أمي، عينا في عيني أبي، عينا أمي في عيني أبي، أعينا جميعًا تتنافر هاربة. في تلك الساعة من الليل ذهلت أمي لمراي. شحب لون وجهها عاكسًا لون

٨٣٦ يوم قتل الزعيم

- لا أريد سماع هذه الكلمة من فضلك!  
ويمرور الوقت ضقت بكل شيء وحتى بغضبي  
ضقت. ورجعت أنظر إليه كما أنظر إلى نفسي برثاء.  
بل وجدت شيئاً من خلوة البال فتساءلت ترى كيف  
تسير الأمور بينه وبين جولستان، هل يتزوج منها يوماً  
ما؟. وأي غرابة في ذلك وربما كانت المرأة خيراً من  
أخيها. لم أجد بها ما يسوء. وهي تريده ما في ذلك  
من شك. اللعنة. . . إنها تحبه. من كان يتصور أننا  
نفترق؟. من كان يتصور أن الآمال الكبار يمكن أن  
تتلاشى كقبضة من غبار؟. وهمس لي عند ميعاد  
الانصراف يوماً:

- أشعر بدافع قوي لتبادل الرأي!  
صمتُ صمتَ القبور لرغبتني الشديدة في الحديث.  
وذهبتنا إلى استراحة المرم فتناولنا بعض  
السندوتشات مع الشاي ورحنا نتبادل النظر في بلاهة.  
سألني:

- هل لديك خطة؟  
فقلت ببساطة:  
- أعيش بلا خطة ولا أحلام وهو غاية الراحة.  
- وأنا أيضاً ولكن جدي يقول إنه ما بين غمضة  
عين و. . .  
قاطعته:

- دعنا من جدك وأمثاله فهي لا تصلح لنا، متى  
تتزوج من جولستان؟  
فقطب متسائلاً:  
- من قال ذلك؟  
- مجرد سؤال.  
- أنا لا أبيع نفسي.  
- إذن ترى أنني بعت نفسي؟  
فقال بسرعة:

- كلاً، الأمر مختلف، لا غرابة في أن تتزوج فتاة  
من رجل يكبرها أما العكس. . .  
وتصفح وجهي بقوة ثم سألني:  
- ما أسباب الفشل في زواجك؟  
بي رغبة حقيقية للاعتراف له بالحقيقة. وهو دون  
الأخرين.

وجهي. همست وأبي يغط في نومه تحت الملاء  
الأرجوانية:

- رنة. . . ماذا وراءك؟

وقفنا في وسط الصالة وأفرغت ما في صدري دفعة  
واحدة:

- إنه الطلاق!

وصببت عليها الحكاية بتفاصيلها. وعلم أبي بها  
بعد الفطور صباحاً على درجات. قلت له:

- لا يمكن أن نتفق. . .

وراحت أمي لتتحدث عن الزوار والخمر. احتقن  
وجهه بالغضب فقلت له:

- لا تحمل صحتك فوق طاقتها.

فقال بحق:

- فهمت كل شيء. لوبي قدرة لأدبته.

- لا ضرورة لذلك، كان صريحاً، وسرعان ما  
اعترف بفشله.

- كيف غابت عنك حقيقته؟

- لكل أسرار ولا أنكر أنني خُذعت.

- يستحسن أن نستشير محامياً.

فقلت بإشفاق:

- هو أقصر سبيل لنشر الفضيحة، ومن ناحية  
أخرى فقد سلم لي بكافة حقوقي دون أدنى اعتراض.  
- قد يغري هذا الطلاق السريع السنة السوء بك؟  
- إني واثقة من نفسي وسرعان ما يُنسى كل شيء.  
ورغم أن أحداً من الزملاء لم يكدر صفوي فقد  
شعرت طيلة الوقت بجو محموم بالتساؤلات المكتومة.  
خاصة من ناحية علوان الذي بلغ غضبي منه  
مداه. ومرة همس لي ونحن منفردان:

- إني حزين جداً.

فسألته ببرود:

- لماذا؟

- لعلهُ الشعور بالذنب.

- لا شأن لك بما كان.

فتحوّل عني بعينه وهو يقول:

- مازلت أحبك.

فقلت بحدة:

## يوم قتل الزعيم ٨٣٧

- فكرة غير صالحة للعصر أو قل إنها جنونية .
- قالت هناء ضاحكة:
- نأكل وننام، هذا ما تبقى لنا من العيد .
- وأنت يا علوان؟
- إلى المقهى على الأقدام!
- فقال فؤاز بأسياً:
- ثرثرة كالعادة!
- فقلت:
- وعيد آخر أتفتت دورته مع العيد، عيد النصر .
- فقال علوان ساخراً:
- النصر والسجن .
- فقلت بنشوة غازية:
- لا دوام لحال، الجديد أيضاً آتٍ لا ريب فيه .
- حقاً؟! . . . يجي الصبر والانتظار!
- فقال فؤاز حالماً:
- مفاجأة بترولية أو اكتشاف نهر مغمور في الصحراء!
- فقال علوان:
- أو اندلاع ثورة .
- فتساءل فؤاز:
- هل تعني الثورة إلا مزيداً من الخراب؟
- فقال علوان متهكماً:
- ضربوا الأعرور على عينه!
- يتحدثون عن الثورة بلا معرفة. لم يسمعوا عنها .
- حكى لهم الراوي المأجور حكاية زائفة كاذبة . يبدأ المدرّس المغلوب على أمره درسه بالسؤال الخائن «لماذا فشلت ثورة ١٩١٩م . يا أبناء الأبالسة ألا توجد قطرة حياء؟ . يا زبانية المعتقلات وعباد نيرون . ها هو علوان يلوح بيده ويذهب . يذهب حاملاً خيبة فُرد وجيل معاً . وفتحت هناء التليفزيون قائلة:
- نشاهد الحفل .
- المنظر العام ثريّ يوحي بالفرح الشامل . قدم الرئيس في حالة للألاء كليلة القدر . عليه بزة القيادة . ويبدو صولجان الملك . وتتابع الصفوف والأعلام .
- قالت هناء براءة:
- شدّ ما هو معجب بنفسه . . .

- تعديني بالألا تبوح بالسرّ لإنسان؟
- أعد بشرفي .
- وأفرجت عن المأساة الحبيسة في ضلوعي، حتّى هتف:
- الوغدا!
- انتهى وقت الغضب فلا تنسّ وعدك .
- فاق أيّ خيال .
- ليس أعجب مما سمعنا في حياتنا . . .

## محتشي زايد

- أرى في أحلامي أبي وأمي وأختي محاسن . . .
- ورأيتهم مرّة في منطاد يملّقت فوق رأسي، ترى هل أرفق الرحيل؟ . هل آن للعجوز أن يعفي الدولة من صرف معاشه؟ . الصّحة جيّدة رغم عين الحسود سليمان مبارك، ولكنّ الصّحة مهلكة مثل المرض . كفى بالصّحة داء، صدق رسول الله . عبدك منتظر يا ربّ، يتوقّع بين آونة وأخرى أن يدقّ الجرس وسوف يستقبل الطارق بما يليق به من طاعة وترحاب . حسن الختام يا ربّ، جنبني الأوجاع والعجز وشكراً على حياة طويلة عريضة . حسبي آتني لم أقدم أذى لإنسان في هذا العالم الحافل بالأذى . والشيوخوخة قضيتها جوالاً بين كلماتك وأنبيائك وأوليائك، وقبل ذلك كابدتها في دنياك ونعمائك . رياضتي العبادة وتسليتي الطرب وسروري الطعام الحلال . ها هو العيد يطلّ علينا متوجّحاً بأنداء الخريف . نهر من السحب البيضاء يتدفّق فوق النيل الأسمر والأشجار الباسقة دائمة الخضرة . أيام قلائل نادرة في حياة هذه الأسرة الممزّقة . فؤاز يملأ جلابه في استرخاء، وهناء تمشط شعرها الأبيض، وعلوان يملق ذقنه تأهباً للانطلاق . قلت بسرور وأنا أتصفّحهم حولي:

- أخيراً نجتمع كأسرة يا أولادا

فقال فؤاز بصوته الجهير:

- نقطة راحة في بحر من التعب .

- لو كانت الدنيا غير الدنيا لخرجنا إلى القناطر .

## علوان فوّاز محتشمي

فقلت:

- اليوم يومه .

فقال فوّاز:

- إنّه لسعيد، وهو حقيق بذلك . . .

ثمّ مستدرّكاً في أسى:

- خسر الكثير منذ ٥ سبتمبر.

عَرَضَ فوق الأرض وعرض في السماء، منظر نادر

لا يتكرّر. قلت بصوت من الماضي:

- لم نكن نرى الجيش إلّا يوم المحمل.

- انظر يا أبي. هذا عالم آخر . . .

وقالت هنا ضاحكة:

- وجه مورّد كأنّه مطليّ بروج .

وتمرّ الفيالق ويمرّ الوقت، ويزحف عليّ الكسل

وشيء من النعاس. وأصبحو في لحظة غريبة من

الزمان. قرص التاريخ أذني، والدهر. قالوا لي هكذا

وقعت الأحداث التي قرأتها في صحف التاريخ بانتباه

عابر. ها هي تقع في حجرة المعيشة. تضطرب الشاشة

الصغيرة وتتميع، وتتفضّ حركة غير عادية، وتنتطق

أصوات، ثمّ يدهمنا الاختفاء.

- هل حصل شيء في التلفزيون يا فوّاز؟

- ليس في الجهاز. . . لا أدري ماذا حصل . . .

وقالت هنا بقلبي:

- شيء غير عاديّ . . . قلبي غير مطمئن . . .

فقال فوّاز:

- ولا أنا . . .

تساءلت:

- هل . . . ؟!

قال فوّاز:

- الله أعلم يا بابا، عمّا قليل سنعرف كلّ

شيء . . .

وقلت من قلبي:

- اللّهمّ حوالينا، لا علينا . . .

ليكن عيد ولننس همونا ولو ساعة واحدة. ولكن كيف والباب له مائة مفتاح؟ ماذا يقول لي النيل وماذا يقول الشجر؟. اسمع جيّداً، إنّها تقول، يا علوان يا فقير يا عائشاً بين الأسوار، رنّدة تعود إليك تحت مظلة الصداقة والحوار، في ظلّ حبّ غير معلّن يقوم على أرضية مستندة إلى عمودين من الصلب واليأس تظّلها أحلام غامضة. لا مطاردة من الأهل ولا أمل ولا يأس. امش مشية عسكرية سريعة فهذا يوم الجنود. وها هو المقهى مكتنظ بعلماء الكلام. هنا ينعدم الرضا والفعل. بيننا مائدة عليها ترانزستور تطوّع أحدهم بإحضاره. كما فعل يوم أذاع علينا الرئيس الراحل هزيمة عقب ٥ يونيه. أوّل ما سمعت قائلاً يقول:

- الرئيس الراحل في هزيمة أعظم من هذا في نصره.

هذا يذكرني برأي أدلى به جدّي مرّة، قال لي:

- نحن قوم نرتاح للهزيمة أكثر من النصر، فمن

طول الهزائم وكثرتها ترسّبت نعمة الأسى في أعناقنا،

فأحببنا الغناء الشجيّ والمسرحيّة المفجعة والبطل

الشهيد، جميع زعمائنا شهداء: مصطفى كامل شهيد

الجهاد والمرض، محمّد فريد شهيد النفي، سعد

زغلول شهيد النفي أيضاً، مصطفى النحاس شهيد

الاضطهاد، جمال شهيد ٥ يونيه، أمّا هذا المنتصر

المعجباني فقد شدّ عن القاعدة، تحدّانا بنصره، ألقى

في قلوبنا أحاسيس وعواطف جديدة لم نتهيّأ لها،

وطالبتنا بتغيير النعمة التي ألفناها جيلاً بعد جيل،

فاستحقّ منا اللعنة والحقّد، ثمّ غالى بالنصر لنفسه

تاركاً لنا بانفتاحه الفقر والفساد، هذه هي العقدة.

وغرقنا في دوامة الحوار الأرعن والترانزستور يذيع

تفاصيل عيد النصر لمن يسمع حولنا من رواد المقهى.

وسرقنا الوقت كالعادة حتّى انتبهنا على أصوات غريبة

وصوت المذيع وهو يصرخ:

- الخونة . . . الخونة . . .

شلتّ الألسنة وزاغت الأبصار. تلاصقت الرؤوس

فوق الترانزستور ولكّنه انقطع عن متابعة الحفل وراح

يوم قتل الزعيم ٨٣٩

التلاوة. بهتنا أول الأمر. إنه اليقين. يا للذهول!  
حقاً؟ انتهى الرجل؟... من كان يتصوّر؟ لماذا  
نؤمن أحياناً بأنه يوجد مستحيل. لماذا نتصوّر أنه توجد  
حقيقة في هذه الدنيا سوى الموت؟ الموت هو. الموت  
هو الدكتاتور الحقيقي. ويجيء البيان الرسمي كالجملة  
الختامية. ترى ماذا يقول الناس؟ أريد أن أسمع ما  
يقال حولنا في المقهى. وتحركت مرهف السمع. لا  
حول ولا قوة إلا بالله. هو وحده الدائم. البلد يواجه  
خطراً لا يستهان به. لا يستحق هذه النهاية مهما قيل  
عن أخطائه... في يوم نصره؟ مؤامرة... توجد  
مؤامرة محكمة ولا شك. في داهية... الموت أنقذه من  
الجنون. على أي حال كان يجب أن يذهب. هذا جزء  
من يتصوّر أن البلد جثة هامدة. بل هي مؤامرة  
خارجية. لا يستحق هذه النهاية. إنها نهاية محتومة.  
كان لعنة. من قتل يُقتل ولو بعد حين. في لحظة  
انهارت إمبراطورية. إمبراطورية اللصوص. فيم تفكر  
العصابة الآن. عدت إلى مجلسي تمزقي انفعالات  
متضاربة من الأسى والخوف والسرور. وأنعمني  
ترحيب غامض باحتلالات مجهولة واعدة بتحطيم  
الجمود والروتين والانطلاق نحو آفاق غير محدودة.  
ليكن الغد ما يكون أسوأ من اليوم. حتى الفوضى خير  
من اليأس ومقاتلة الأشباح خير من الخوف. هذه  
الضربة زلزلت عرشنا واخترقت حصوننا. ومع المساء  
همت على وجهي. أرهقني الكلام. ما أرغبني في  
المشي! على كل عابر أرى أثراً من الموت. وأجدني  
فجأة أمام فيلاً جولستان وأرى سيارة أنور علّام واقفة  
تنتظر صاحبها. تتفجر في داخلي كل شهوة للجنس  
وكل نزوع للقتال...

## رندة سليمان مبارك

يا للفضاعة. ألا توجد وسيلة إلا القتل؟. وما ذنب  
زوجته وبناته؟. لست من أنصاره ولكنّه لا يستحق  
هذه النهاية. إنه يعيدني إلى المشكلات العامة بعد طول

يذبح بعض الأغاني.

- ماذا حدث؟
- شيء غير عادي.
- قال... الخونة... الخونة... الخونة...
- اعتداء!
- على من؟
- سؤال سخيف حقاً...
- الأغاني المذاعة تدلّ...
- متى كان للمنطق أهمية؟
- شيئاً من الصبرا

ماتت أيّ رغبة في العودة إلى البيت. تلاحظنا  
بشعور دعانا إلى البقاء معاً أمام المجهول.

تناولنا غداء موجزاً من المكرونة وانتظرنا. وبعد  
وقت عفيف أعلن المذيع أنه حصلت محاولة للاعتداء  
فاشلة وأنّ الرئيس غادر الحفل وأنّ قوات الأمن  
مسيطرة على الموقف تماماً، وانطلقت الأغاني من  
جديد.

- ها هي الحقيقة.
- الحقيقة؟
- فكّر قليلاً.
- بعض الحقائق لا يمكن إخفاؤها.
- ولكن يمكن تأجيلها.
- من المعتدون؟
- من غير التيار الديني؟
- لكنّه يجلس بين الجنود والحرس.
- انتبهوا... بدأت إذاعة الأناشيد الوطنية...
- وإذا بإذاعة جديدة تعلن عن إصابة طفيفة للرئيس  
وأنه يلقي العناية الكاملة في المستشفى. قلوبنا ترقص  
في مدّ الاحتمالات المتصاعد. الزمن توقّف وغير لونه  
ثمّ أطلّ علينا بوجه جديد.

- أصيب الرجل، ماذا بعد؟

- استعدّوا للسجن.

- عودة مؤكدة للإرهاب.

- سينجو ويتنقم.

- هل نسمع القرآن بعد الأناشيد؟

وتحمّلنا الوقت على ثقله حتى صحت النكتة وبدأت



حملت في وجهها دون أن أنبس. اغرورقت عيناها  
وقتمت:

- ماذا فعلت يا مجنون؟! . . . لماذا قتلته؟  
وانحطت إعياء على مقعد مسيدة رأسها إلى راحتها  
على حين مضيت أستردّ وعيي وأدرك أبعاد فعلي.  
وأخيراً قلت:

- استدعي الشرطة، إنه قدري . . .  
لم تندّ عنها حركة ورغبت بكلّ قوّتي في التخلّص  
من الموقف فقلت:

- سأذهب بنفسي إلى الشرطة . . .  
فأشارت بيدها إشارة غامضة وهمست:  
- اقعدي حيث أنت.  
ومرّ الوقت على أعصابي ثقيلاً مثل وابور الزلزل  
فقلت:

- لا معنى للانتظار.  
فهمست:  
- انتظري.  
وأحنت رأسها تخفي عينيها عني وهمست:  
- كان يشكو تعباً مزمناً في قلبه!  
فيم تفكر؟. ساورني شكّ عاكس لنور خاطف من  
أمل مذذب.

- لكّني أنا الذي . . .  
فقلت بهدوء دلّ على أنّ رأسها المضطرب شرع  
يفكر:

- لا أثار للضرب.  
بهذه العبارة تورّطت كشريكة في الجريمة. تفرّست  
في وجهها بذهول وأنا أعجب لطبيعة الشخص التي قد  
تظّل خافية في الظروف العادية إلى الأبد. أيّ امرأة!  
ولكنّ فرحتي بطوق النجاة كانت فرحة غريق يائس.  
قلت:

- لن يخفي شيء على الطبيب.  
فقلت بثقة:  
- لا شأن لك بهذا.

وتبادلنا نظرة فاضحة لكلينا وقالت:  
- طبعاً أنت فاهم لماذا أعمل على إنقاذك؟  
فأحنيت رأسي ممتناً وأنا لا أصدّق فسألني:

انغماس في مشكلاتي الخاصّة. القتل كرهه والله لا  
يجبّه. أمي بكت كإنسان لم تغيّره السياسة. وجمت  
حجرة المعيشة أكثر من وجومها المألوف في تلك الأيام.  
وسألت أبي عن رأيه فقال:

- هيهات أن يردّ رأي الحياة لميت.  
ورنا إلى مليّاً بعينيه الذابلتين ثمّ واصل:  
- البلد مريض بالتعصّب يا رندة، أين أيّام «لماذا  
أنا ملحد؟» يريدون أن يُرجعونا أربعة عشر قرناً إلى  
الوراء.

وصمت قليلاً ثمّ قال:  
- أنا عارف أنك لا توافقين على رأيي كلّه فافعلوا  
بزمانكم وليفعل بكم ما يشاء ولكننا متفقان على رفض  
القتل . . .

إنّه الخطّ الأدنى الذي نقف عليه معاً. ترى أين  
أنت يا علوان؟. إنك لا تحبّه فهل سررت بنهايته؟.  
وعلى غير توقّع اقتحم علوان شقّتنا بعد طول انقطاع  
وبجراحة دلّت على قوّة دوافعه. وسرعان ما انفردنا  
بأنفسنا في الصالة على كرسيّين متجاورين حول  
السفرة. وسألته:

- أين كنت وقتها؟  
فقال باضطراب أزعجني:  
- دعينا من ذلك فما من جديد يقال، رندة أصغني  
إليّ جيّداً . . .  
- ماذا عندك؟

- وجدتني مساء اليوم أمام فيلاً جولستان وسيّارة  
أنور علّام المنتظرة، ودون دعوة ولا تدبير سابق  
اندفعت إلى الداخل، وكان هو أوّل من رأيت فهتف  
مرحّباً «أهلاً» ربّ صدفة خير من ميعاد، وإذا بي  
أصبح مفقود الرشد «يا قدر!» ولكمته في صدره بقوّة  
فترنّح وهوى إلى الأرض، وهنا نّهتني صرخة  
جولستان إلى وجودها، قالت لي بحزم «كفّ عن  
همجيتك» وساعدته على القيام وهو يلهث فمضت به  
إلى حجرة نومها. تسمّرت في موقعي غائب الوعي  
تقريباً. وغابت هي ربيع ساعة ثمّ رجعت شاحبة  
اللون ذاهلة النظرة وغمغمت:

- ماذا فعلت يا مجنون؟. لقد قتلته!

يوم قتل الزعيم ٨٤١

- لا وقت للندم .
- لن أندم أبدًا .
- إني بريئة عما تفكر فيه .
- فقام وهو يقول :
- سأرجع إليها لأصارعها بكل شيء .
- لا أوافق .
- فقال وهو يمضي :
- وأنا مصمم . . .

## محتشمي زايد

بعد اختفاء علوان أغرق في وحدة مطلقة . حزني عميق وحزن أبويه لا قرار له، أما العالم حولنا فيشرتب إلى أمل جديد، ورندة أيّ شجاعة ساقتها إلى المحكمة لتدافع عن الشاب بحياتها وكرامتها . وكان من حسن الحظ أن تشخص الجريمة كضرب أفضى إلى موت . أعوام تمرّ ثم يغادر السجن صاحب حرفة يكون بها أقدر على تحديات الحياة وتحقيق آماله . لا أحسبني أراه مرّة أخرى، سيجد حجرتي خالية فيمكنه أن يتزوج حبيبته فيها . ترى هل بقيت أكثر مما يجوز وهل لعبت دورًا وأنا لا أدري في تعقيد مشكلته؟ .

آن لي أن أنضمّ إلى فريق المسبّحين المتطلّعين إلى الأبدية في رحاب ذي الجلال .

- هل أتق في شرفك؟
- . . . وتعهدت بشرفي . . .
- ولمّا انتهى سألته وأنا من اليأس في نهاية :
- لماذا تبوح لي بسرّك؟
- لا سرّ بيننا يا رنّدة .
- فقلت بمرارة :
- لقد ارتكبت جريمتك غضبًا لي، وأنت تستحقّ النجاة .

- أهذا رأيك؟
- طبعًا . لا يمكن أن أشير عليك بالموت .
- فقال بانفعال :

- في الحقيقة إنني لم أقل كلّ ما عندي، فما غادرت الفيلا حتّى احتقرت نفسي وكرهت القرار الذي اتخذته، وفي حيرتي قصدتك لأعترف بكلّ شيء . . .

فقلت له بإشفاق :

- إني مدركة تمامًا لمشاعرك ولكنّي لا أومك على قرارك!

فقال بعناد خفق له قلبي :

- ولكنّي أرفض .
- هذا هو الجنون .
- ليكن .
- فقلت متوسّلة بحرارة :
- المعجزة لن تتكرّر .
- ليكن .

حَدِيثُ الصَّبِيحِ وَالْمَسَاءِ

## حرف الألف

### أحمد محمد إبراهيم

يسترذاه حال بلوغه السن المناسبة لدخول الكتاب. وجهل قاسم تلك النية الميَّبة فنعم بالصحة في صفاء لا يشوبه كدر. وكان أحمد كأنه آية في الجمال، مورّد البشرة ملوّن العينين ناعم الشعر خفيف الروح، يتبع حاله كظّله في أرجاء الميدان، يشاهدان ألعاب الحاوي، وعربة الرثن، وطابور جنود الشرطة. ويستقبلان معاً عمّ كريم بيّاع الدندورمة، ويتابعان بشيء من الخوف مواكب الجنازات. وكانت الرائحة والغادية من الجارات تنظر إلى أحمد وتتساءل:

- من هذا الولد الجميل؟

فيجيب قاسم باعتزاز:

- أحمد ابن أبله مطرية.

فتمضي المرأة وهي تقول:

- الجميل ابن الجميلة.

وكان محمد أفندي إبراهيم يقول لراضية أم قاسم:

- لا تملئي رأس أحمد بحكايات العفاريت يا نينة.

فترمقه باحتقار وتقول:

- يا لك من مدرّس جاهل!

فيضحك الرجل كاشفاً عن ثنيتيه المترابيتين ثم يواصل تدخين غليونه. ذلك أنّ ختام اليوم يتم عادة بين يدي راضية فتنداح النشوة في قلبي الطفلين على سماع الحكايات قبيل النوم، وتنهمر على خيالهما كرامات الأولياء وعبث العفاريت، وينغمس الواقع في دنيا الأحلام والخوارق والآيات الربّانية. وتمضي بهما في أوقات الفراغ من بيت إلى بيت، ومن ضريح وليّ إلى جامع حبيب من آل البيت. وظلّت الدنيا لهواً ولعباً حتّى مُل قاسم ذات يوم إلى الكتاب ليبدأ حياة جديدة

في السماء زرقة صافية، وعلى الأرض تغفو ظلال أشجار البلخ، وأديم الميدان العتيق يشرق بنور الشمس، ويتلقّى من الحارات هديرًا لا ينقطع. ميدان بيت القاضي يضمّ قسم الشرطة الحديث وبيت العدل والمال القديم، وتطوّه أقدام حافية وشبابشب مزخرقة ومراكيب ملوّنة وحوافر الخيل والحمير والبغال. ويطلع أحمد على ذلك الملعب الواسع فسرعان ما ينسى بيته الأصلي، بيت والديه بحارة الوطاويط. كان ابن أربعة أعوام عندما مُل إلى بيت جدّه لأمه بميدان بيت القاضي ليؤنس وحدة خاله قاسم الذي كان يكبره بعام ونصف عام. خلا البيت بعد زواج البنات والصبيان فلم يبق فيه إلا عمرو أفندي الأب وراضية الأم، وآخر العنقود قاسم. لم يعرف قاسم أخواته صدرية ومطرية وسميرة وحبيبة، وأخويه عامر وحامد إلا كضيف عابر مع أمه أو أبيه، يزورهم، كما يزور فروع أسرته في ميدان خيرت أو سوق الزلط أو العباسية الشرقية. وفي بيت شقيقته مطرية بحارة الوطاويط أحبّ ابنها أحمد حباً فاق حبّه للجميع. وكان لأحمد أخ أكبر يدعى شاذلي وأخت في اللّفة تدعى أمانة ولكنته خصّ أحمد بكلّ قلبه. وكانت مطرية تحبّ قاسم كإبنائها فأهدته إليه ليعيش في كنف جدّيه ويؤنس وحدته في بيت كبير خالٍ من الأنيس. ولم يرتح محمد أفندي إبراهيم - أبو أحمد - لذلك كما لم ترتح له أمه - حماة مطرية - ولكنتها لم يعترضها مصممين على أن

- أنا لا أصدق الأطباء ولا أعترف إلا بطبيب واحد هو خالق السماوات والأرض . . .  
وتمرّ الأيام ويتساءل قاسم أين أحمد، أين غابت نضارته وجماله؟!  
عاد عصر يوم من الكتاب.

دهمه البيت بمنظر جديد. رأى أهله جالسين في صمت غريب. في حجرة أحمد لمح أمه وجدّة صديقه لأبيه، وفي حجرة المعيشة رأى إخوته وأخواته. . . عامر وحامد وصدرية وسميرة وحبيبة. أمّا مطرية فكانت تجهش في البكاء وإلى جانبها يجلس عمّد إبراهيم واجماً يدخن غليونه. وتسرب الخوف إلى قلبه مع الهواء المفعم بالحزن، وأدرك بطريقة ما أنّ ذلك العدو الذي سمع عنه في مناسبات ماضية، الذي رآه يخيم فوق الجنازات المتجهة نحو الحسين، قد اقتحم بيته وخطف أحبّ خلق الله إلى قلبه. وصرخ باكياً حتّى حملته أمّ كامل إلى السطح. ومن وراء خصاص نافذة الحجرة الصيفية رأى جدّة أحمد تحمل بين ذراعيها لفافة مزركشة وتستقلّ حنطوراً مع ابنها وعمرو أفندي. وذهب الحنطور يتبعه حنطور آخر يحمل عامر وحامد وعمّه سرور أفندي. جنازة من نوع جديد فهل انتهى أحمد؟! أبي أن يصدّق ذلك أو يسلم به. آمن من كلّ قلبه بأنّه سيراه مقبلاً ذات يوم مكلاً بعدوبته الوردية ولكنّه لم يكفّ عن البكاء. وفي الليل انفضّ الجمع، نهره أبوه قائلاً:

- كفاية!

فسأل أباه برجاء:

- أين ذهبتم به؟

فقال عمرو:

- لم تعد طفلاً، أنت في الكتاب وتحفظ سُوراً من كتاب الله، أحمد مات، وكلّ إنسان سيموت كما يشاء الله، وهذه هي إرادة الله . . .

فتساءل محتجاً:

- ولكن لماذا؟

- إرادة الله، ألا تفهم؟

- لا أفهم يا بابا . . .

- لا . . . هذه قلة أدب أمام الله . . . سيذهب أحمد

وليحرم من رفقة أحمد ثلثي النهار. والكتاب يقع في منحني من منحنيات عمارة الكبابجي على بعد خطوات من البيت، ولكنّه محاط بسياج من التقاليد الصارمة تجعل منه سجناً تتلقّى فيه المبادئ الإلهية تحت تهديد المقرعة. . . ولم تُجدّ التوسّلات ولا الدموع. ويغادره عصراً فيلقى أحمد وأمّ كامل في انتظاره عند الباب. لم تعد الدنيا كما كانت. تسألّت إليها هموم لا مفرّ منها. وبغريزة يقظة شعر بخطر آخر يتهدّده من ناحية عمّد إبراهيم والد أحمد، فهو لا يرتاح لإقامة أحمد بعيداً عنه. وتتجلى في عينيه الجاحظتين نظرة باردة نحوه، ويقول لأمه:

- أنا لا أحبّ هذا الرجل.

فيكفهرّ وجهها الأسمر الطويل وتقول له:

- يا لك من جاحدا ألم يهد إليك ابنه؟

- ولكنّه يريد.

فتضحك قائلة:

- أترغب في أن ينزل لك عن ملكيته؟! \*

\*\*\*

ولكنّه ذات يوم لم يجد أحمد في انتظاره لدى خروجه من الكتاب، ووجد أمه جادة أكثر من عادتها، وقالت له:

- حبيبك مريض.

ورآه مستغرقاً في نوم ثقيل في فراشه، وراحت أمه تعمل له مكّمّات خلّ وهي تتمتم:

- يا ولدي . . . يخرج منك صهّد كالنار . . .

ولا تكفّ عن تلاوة الآيات. ولتأرجع عمرو أفندي إلى البيت مساء رأى أن يرسل أمّ كامل لإخطار مطرية وزوجها. ولما لم تنخفض الحرارة بالبخور والتعاويد، جاء عمرو أفندي بطبيب من الجيران، ولكنّه أعلن أنّه طبيب عيون ونصح باستدعاء الدكتور عبد اللطيف المقيم في باب الشعرية. واعترض عمرو أفندي قائلاً:

- ولكنّه متزوّج من العاملة بمه كشرًا

فقال الطبيب ضاحكاً:

- بمه كشر لم تُنسه الطبّ يا عمرو أفندي . . .

وجاء الطبيب زوج العاملة المشهورة، وشعر قاسم بأنّه شحن الجوّ بمزيد من التوتر. وسمع أمه وهي تقول:

## حديث الصباح والمساء ٨٤٧

البقاء حتى يقضي السهرة مع عمرو، وشقيقه سرور في الكلوب المصري. وكان الفرع الفقير من الأسرة يسعد بزيارات الفروع الغنية مثل آل المراكبي وآل داود ويزهو بما تحدثه من أثر باقي في الحي رغم أن راضية كانت تقول لعمرو:

- لا أصل لأحد منهم، كلهم نشأوا في التراب!  
ثم تلتفت إلى قاسم قائلة بتحد:  
- يوجد رجل واحد ظفره بكل هؤلاء هو جدك  
الشيخ معاوية!

فيتشم عمرو ويصمت إثنًا للسلامة. على أن قاسم لا يفيق أبدًا من سحر سراي آل المراكبي بميدان خيرت. في حجم ميدان بيت القاضي وفي ارتفاع القلعة، ولها حديقة مثل حديقة الحيوان، لا حصر لحجراتها، ولا مثل لأثاثها، وأي تحف مختلفة الأشكال والألوان وتلك التماثيل من الجص والبرنز في الأركان، وفوزية هانم حرم أحمد بك ونازلي هانم حرم محمود بك، ذاتا البشرة العاجية والأعين الملونة. عالم حقيقي يفوق بسحره عالم الحكايات والأحلام. وجدته لأبيه نعمة عطا المراكبي هي أخت أحمد بك ومحمود بك. ولكنها امرأة فقيرة رغم ذلك لا تملك من دنيا الله سوى ابنها عمرو وسرور وابنتها رشوانة، غير أن الأخوين الثريين كانا يحببان أختها ويحببان ذريتها وخاصة عمرو أفندي الذي تميز بحكمة فطرية. وكان أحمد بك يوثق عروته بال داود، أقارب أولاد أخته نعمة وأصهاره، على ما بين الفرعين الثريين من غيرة متبادلة ويدعوهم لسراي ميدان خيرت، وكان أحمد أحب إلى عبد العظيم باشا داود من أخيه لدمائة خلقه وبساطته وتواضعه. ولكن جرت العادة عند ذكر آل المراكبي في بيت عمرو أن يقول عبد العظيم باشا بسخرية:

- مال كثير وجهل أكثر وما المنيع؟... بياع مراكيب حقير بالصلحية!

أو يقول محمود عطا عن آل داود:

- القاب رثانة... والأصل أجير على باب الله!

فيقول عمرو بتقواه المعروفة: كلنا أولاد آدم وحواء.

وقد بدأ عمرو وسرور ومحمود وأحمد حياتهم

إلى الجثة بغير حساب وهذا حظ عظيم... فاحذر قلة الأدب...

فصاح:

- أنا حزين جدًا يا بابا...

- اقرأ الفاتحة يبرد قلبك...

لكن قلبه لم يبرد. وكان كلما تذكره بكى. وقيل إن حزنه عليه فاق حزن أمه نفسها... ولم يسأل عن حزنه حتى تحطم واقعه وخلق خلقًا جديدًا لم يجز لأحد على بال.

## أحمد عطا المراكبي

عملاق في الرجال، بالطول والعرض، وقسمات الوجه الخليقة بتمثال، يجري دمه الدافق في أديم أسمر، صورة خيالية لبطل حكاية شعبية بشاربه الكت وراحته المنبسطة، وظاهر يده الأشعر، يملأ مقعد الحنطور وهو يتهدى به في ميدان بيت القاضي قبل أن يقف أمام البيت القديم إذا جاء لزيارته في هالة إقطاعي كبير. ويتلقى ابن أخته عمرو أفندي - وهو يماثله في السن - بين أحضان عامرة بالود، ويصافح راضية بحرارة، ويضع الهدايا فوق الكنصول وهو يتساءل:

- أين قاسم؟

ويند عنه صوت هادئ خفيض يُعد غريبًا بالنسبة للهيكل العملاق الصادر عنه، وتشع من عينيه البينتين نظرة وانية متوددة تتحلّى بالطيبة والسلام، كأنه مسجد ضخم يجمع بين الجلال والأمان.

- حدثنا كيف حال أولادنا؟

يقصد البنات والأبناء. وكان يزور الجميع على فترات وخاصة البنات ليزكي مكانتهن أمام أزواجهن. وكان يغمر قاسم بالحلوى، وقد حزن لوفاة أحمد الذي أحبّه كثيرًا لجماله.

ويبقى عادة للغداء مشروطًا بتقديم وجبة بلدية من طواجن راضية التي اشتهرت بإتقانها مع إضافات جاهزة من طعمية الحلوجي وكباب العجاني، ويواصل

التعليمية في سنوات متقاربة وفتحوا بالشهادة الابتدائية، فالتحق عمرو وسرور بالحكومة لفرهما، واقتحم محمود تجربة الحياة تحت جناح أبيه، وجنح أحمد للدعة وحياة الأعيان، فأسقطه أبوه من حسابه. كان يمضي وقتاً في العزبة ببني سويف على هامش العمل الزراعي، ثم يرجع وحده، أو هو وفوزية هانم إلى السراي بالقاهرة بمقامه في الدور الثالث، وينفق وقته بين زيارات الأهل واستقبال الأصحاب. كان بهو الفخم معداً لاستقبال الأصدقاء والأقارب، يجتسون الشاي والقهوة والقرفة ويلعبون النرد والشطرنج ويدعون للغداء أو العشاء، ويسهرون في ليالي رمضان والمواسم حتى مطلع الفجر. كان الفونوغراف رفيق خلوته، والخطوط متعته، وحدائق شبرا والقبة مرتاده، والسيدة مصلاًه أيام الجمع، وقد يحضر بعض ليالي الذكر الصوفية مع عمرو ابن أخته المنتسب للطريقة الدمرداشية. ولما مات الأب عطا المراكبي تلقى مجرى حياته الهادئ الدائم الخصرة دفقة هواء عنيفة كادت تعصف به. وجد نفسه بغتة أمام مسئولية ضخمة لم يدرب على التعامل معها. كان عليه أن يدير أرضه الموروثة - ثلاثمائة فدان - بالإضافة إلى أرض زوجته البالغة المائة. وقال له محمود بك:

- ستعلم كل شيء، ولديك من يعاونك، ولكن... وكوّر الرجل يده الغليظة ثم واصل:

- عليك أن تتخلّى عن طبيعتك، فالتعامل مع الفلاحين والمستأجرين غير التعامل مع الأصحاب والأقارب!

وفكّر طويلاً وهو يتخبط في الشرك، ثم قال:

- أنت أخي الأكبر، وما لقيت منك إلا البرّ والوفاء، وأنا لم أخلق لذلك...

بذلك حلّ محمود محلّ أبيه. ولم ترتح فوزية هانم للقرار وقالت له بأدبها الجَم:

- شدّ ما تعجّلت قرارك دون مشاورة.

فسألها بحيرة:

- هل يداخلك شكّ من ناحية أخي؟

فقلت بأمانة:

- نعم الأخ هو ولكن لم تضع نفسك تحت وصايتي؟

فقال:

- إنّه شقيقي وحبيبي، وأنت شقيقة زوجته، وأسرنا مثال في الوثام والحب، وقد فعلت ما أراه مناسباً...

وواصل حياته الناعمة، وكان يتسلّم نصيبه دون مراجعة، وكان الخير عميماً والبال رائقاً. وانقضت عليه ثورة ١٩١٩ فهزّته من الأعماق وأشعله سحر زعيمها، وتبرّع لها بعشرة آلاف جنيه مستجيباً لاقتراح أخيه. تناسيا وصية قديمة لأبيها بالبعد عن السياسة وتجنّب ما يشير غضب السلطات الشرعية وغير الشرعية. كان المدّ أقوى من أن يفلت منه إنسان. ولكن عندما أطلّ الشقاق بقرنه وحصل الخلاف بين سعد وعدلي، تشاور الرجلان فيما ينبغي فعله. أورا ح محمود يفكّر وأحمد يتابعه. قال محمود:

- انقضت فترة العواطف وجاءت فترة العقل.

فقال أحمد:

- الأرض كلّها مع سعد.

- نكون حيث تكون مصلحتنا.

فاشتدّ انتباه أحمد حتى استطرد أخوه:

- لا يعترّك الهتاف، الإنجليز هم القوّة الحقيقية، عدلي قريب منهم ولكنّه لا يوفّر الأمان الدائم، هناك سلطة شرعية هي الوسيلة الباقية بين الإنجليز وهي العرش، فليكن ولاؤنا للملك!

فقال أحمد مستسلماً:

- الصواب معك دائماً يا أخي!

وعرف ذلك الموقف في بيت القاضي حيث يتجاور بيتا عمرو وسرور. وهمس عمرو بأسلوبه الهادئ:

- سلوك غير لائق.

فقال سرور بسخرية:

- أقاربنا الأغنياء. وهبهم الله مالا لا يعدّ وخيسة لا تُداني...

وكان عمرو يتحرّج من العنف لأكثر من سبب، لهدوء طبعه من ناحية، ولزواج حامد ابنه من شكيرة بنت محمود بك، وعامر من عفت بنت عبد العظيم باشا، ولكنّه لم يُخفِ رأيه عن خاله أحمد بك وهو يتعشّى معه في السراي فقال له أحمد بأساً:

## حديث الصباح والمساء ٨٤٩

فاستاء أحمد ولم يشأ أن يفترط في احترام أبنائه له  
فقال:

- لا ضرورة للكلمات القارصة يا أخي...  
فسأله بوحشية:

- هل تشكّون في ذمّي؟  
فبادر يقول:

- معاذ الله، ما هو إلا حقي في توالي شئوني  
بنفسي...

- حقك في تدمير نفسك بنفسك بوحى من حماقة  
أولادك؟

فقال عابسًا:

- الله المستعان...

وتلا ذلك مناقشة مع عدنان الابن الأكبر لأحمد  
اعتبرها محمود بك قحة تستحق الزجر. وكان أن  
خاطب الشاب عمّه بشيء من العنف اعتدّه الرجل  
جريمة. وسرت النار من فرد إلى فرد. تخاصم  
الشقيقان، وانحازت كل زوجة إلى زوجها ممزقة الولاء  
لشقيقتها، وتبادل أبناء العم أسوأ ألوان السباب.  
وتهرأت عروة الأسرة، وانطوى كل فرع على نفسه في  
دوره بالسراي كأنه لا يعرف الآخر، وخابت مساعي  
رشوانة وعمرو وسرور في إصلاح البين، بل إن حامد  
بن عمرو - وكان يقيم مع زوجته شكيرة في دور محمود  
وأسرته - وجد مشقة وحرًا ليحافظ على صلته الطيبة  
بأل أحمد خال أبيه. وانتقل أحمد بك إلى العزبة في بني  
سويف ليتسلّم أرضه على كبر، فيزرع ما يزرعه منها  
ويؤجر ما يؤجره، ولقي في ذلك من المتاعب ما لم  
يتصوّره وتعرّض لخسائر لم تجر له في حسان. وقبيل  
الحرب العظمى الثانية بقليل أصيب الرجل بالفالج  
وحل إلى فراشه بالقاهرة في انتظار النهاية. كان أول  
من هوى من الجيل الثاني العديد، وكانت الأمراض  
ترشّح بقية الجيل للحاق به بطريقة أو بأخرى، وكان  
عمرو ما زال يقاوم الأجل، وفي الحال زار محمود بك  
وقال له:

- آن لك أن تنسى الخصام وأسبابه وأن تعود  
شقيقك...

وصمت الرجل متأملًا ثم قال:

- علم الله أنّ قلبي معكم ولكنّه رأي محمودا  
فقال عمرو آسفًا:

- الميدان تحت بيتنا يموج بالمظاهرات كل يوم،  
والهتاف بسقوط الخونة يتصاعد إلى السماء...  
فقال أحمد:

- أصحاب المصالح لا يحبّون الثورات يا بن  
أخي...

والواقع أنّ أحمد هو الذي تعرّض للنقد لاختلاطه  
بالناس ليل نهار، أما محمود فكان أكثر وقته منغمسًا في  
عمله في العزبة. ونتيجة للولاء المعلن في تلك الفترة  
المرجة فاز الأخوان برتبة البكوية في عيد الجلوس،  
وسرّ بها الرجلان سرورًا فاق كل تصوّر. وأول أحمد  
وليمة دعا إليها جميع الأقارب نساء ورجالًا، من آل  
عمرو وسرور وداود، وبدت السراي في حلة لا تبدو  
بها إلا في الأفراح. وغاص أحمد في حياته الخاصة حتى  
قمة رأسه، ولم يأذن بهوم الوطن بالتسلّل إلى خلوته  
وتكدير صفوها. ولكن بتقدّم الزمن وتمرّ الأبناء جاءت  
المتاعب من حيث لم يحتسب. لم يوافق ابنه الأكبر على  
الوضع الذي اختاره لنفسه تحت وصاية أخيه. وخاض  
نزاعًا طويلًا عنيدًا مع أمّه أولًا ثم مع أبيه ثانية. ولم  
يعف أباه من ملاحقته حتى وعد باسترداد حقه الذي  
نزل عنه بمحض اختياره. ومن تلك الشرارة اندلعت  
النيران في أركان الأسرة المتحدة. انتهز أحمد فرصة  
زيارة محمود للقاهرة لبعض شأنه وفاتحه في الموضوع  
على استحياء، وختم حديثه كالمعتد قائلًا:

- الأولاد كبروا ولهم رأيهم!

أدار محمود ما سمع في رأسه طويلًا وهو يتلقّى من  
الغضب أمواجًا هادرة. كان قد تطبّع بسلطة غير  
محدودة، ومارس في السراي هيبة تجاوزت أسرته إلى  
أسرة أخيه الوديع الطيب. كانت فوزية هانم تهابه  
وتصدع بأوامره على حين تناقش زوجها مناقشة الندّ  
للندّ. وكان ابنا أحمد يلتزمان أمامه حدود الأدب  
والطاعة على حين يتعاملان مع أبيهما بالحبّ والمرح  
والحرية. وأفلت الزمام من يدي محمود فقال لأخيه:

- يا لك من رجل ضعيف! كيف سمحت لابنك  
بهذا العبث!



ولكنها غضبت رغم رفته، اشتعلت كالعادة صائحة:  
- في أسرتكم عزق قدر أخشى أن يسوقه إلى طريق  
أخيه . . .

فأشعل سيجارة وقال لها:  
- افعلي ما بدا لك . . .

ولكن أدهم كان مبادراً بأكثر مما تخيلت، فأخبرها  
وهم جلوس في حديقة ميناهاوس صباح يوم العطلة  
بأنه اختار شريكة حياته . . . وفزعت أمه وحملت في  
وجهه متسائلة، وحدث الشاب مخاوفها فقال بأسياً:  
- كريمة، في السنة النهائية بكلية الحقوق، أبوها  
محمد فوزي مستشار بقضايا الحكومة . . .

هدأت أعصابها فيها بدا وتناولت ملعقة من الكاساتا  
وراحت تلوكها في فمها المنقوشة حوافه بتجديدات  
السنين، ثم تمتعت:

- لا بدّ من التحري . . .

فقطب أدهم، وقال الأب ملاطفاً:

- مجرد إجراءات ولكني متفائل . . .

وتبدلت زيارات، وحظي الاختيار بالرضا، وكان  
لا بدّ أن تعلق بنقد ما فقالت لحازم زوجها:

- أمها جاهلة فيما يبدو.

فعجب الرجل لقولها إذ إنّها - سميحة - لم تحصل  
على البكالوريا ولكنه قال:

- لا أهمية لذلك . . .

وتمّ الاتفاق على كل شيء، واشترى حازم لابنه  
شقة في المعادي بتسعين ألفاً من الجنيهات، استقرّ ابنه  
وعروسه فيها في نهاية العام.

ولم يكن أدهم يعرف من شجرة أهله إلا فرع أمه،  
جدّه محمد سلامة منشي المكتب الهندسي وأخواله  
وخالاته. أمّا أهل أبيه فكان يعرف - ربّما معرفة  
عابرة - أنّ جدّه سرور أفندي عزيز كان موظفاً  
بالسكك الحديدية، وأنّ عمرو أفندي عمّ والده كان  
موظفاً بالمعارف، وكان له عمّات ولكلّ أبناء وبنات  
ولكنّه لم يرّ أحداً منهم. يعرف أيضاً أنّ أسرته من حيّ  
الحسين وهو حيّ يقترن في ذهنه بالفقر والتأخر فلا  
حاجة به إلى تذكّره، ولم يمرّ به إلا عابراً وهو في سيارة.  
وكثيراً ما يلتقي بنفر منهم في الميادين أو بعض الأماكن

- ثمة أمور لا تُنسى، ولكنّي سأفعل ما يليق بي . . .  
وما تدري أسرة أحمد بك إلا ومحمود بك يستأذن في  
الدخول. وجها ووقفوا له متأذين وقد دمعت أعينهم.  
وكان بصحبته زوجته وأبناؤه فتمّ التصافح وقال الرجل:  
- يذهب الشقاق ويُسى ويظلّ القلب ينبض  
بدقات القربى . . .

ومضى إلى أخيه المطروح فوق فراشه بلا حركة ولا  
نطق. انحنى فوزية هانم فوق أذنه وهمست:  
- أخوك محمود بك جاء ليطمئنّ عليك.

فانحنى بدوره فوقه ولثم جبينه ثم استقام وهو يقول:  
- العفو عند الرحمن، شدّ حيلك.

ورفع الرجل جفنيه الثقيلين، وتبدّى عجزه عن  
النطق، ولكن لم يشكّ أحد في الأثر الطيب الذي  
اختلجت به وجنتاه المحتقتان. وأسلم الروح عند  
منتصف تلك الليلة الحزينة.

## أدهم حازم سرور

مهندس معماري من خريجي عام ١٩٧٨. استقبل  
حياته العملية وهو ابن خمسة وعشرين في القاهرة  
الحافلة بالمشكلات، ولكنه لم يعثر في حياته بمشكلة  
واحدة. وتلاطمت حوله أمواج البشر والمركبات  
وانفجر هديرها مثل عذيف البراكين، ولكنه نعم في  
فيلاً والديه بالدقي بالهدوء والسكينة وشذا الورد  
والأزهار، وتحير جيله في مسالك الحياة بحثاً عن الهوية  
والبيت والزوجة وتحقيق الذات ولكنه وجد مكتب  
والده الهندسي في انتظاره ليشغل فيه مركز السيادة  
المرموق. وسيمّ مثل أبيه، ومثله أيضاً ضعيف العين  
اليسرى لدرجة العمى، ولا يعرف من شؤون الدنيا إلا  
فته ولا ينتمي إلا لأحلام التفوق والثراء، ويكاد لرقّة  
دينه أن يكون بلا دين عن غير إلحاد. وقالت سميحة  
هانم أمه مخاطبة أباه:

- خسرنا أخاه الأكبر، فدعني أهيمّ له حياة محترمة!  
فقال برقة مشفقاً كالعادة من إغضابها:

- هذا جيل يختار لنفسه فلا تتحدّثي كبرياءه . . .

## حديث الصباح والمساء ٨٥١

وحيدة. في ذلك الوقت تقدّم عبد الرحمن أفندي أمين الموظف بدار الكتب لطلب يد أمانة. رجل يكبرها بخمسة عشر عامًا ذو سمعة طيبة وكان رأي أمانة أنّ الرجل مقبول ولكنّها تودّ أن تكمل تعليمها. وقالت لها مطرية بعطف:

- ظروفنا تقتضي تفضيل الزواج.
- وشاورت مطرية أمها فقالت راضية:
- الرجل المناسب أهمّ من الجامعة ألف مرّة... ونظرت إلى أمانة بإعجاب وقالت:
- كيف تهتمّ بالتعليم بنت في جمالك؟
- وقال لها خالها الشيخ قاسم:
- رأيتك في المنام وأنت ترقصين في قسم الجمالية!
- وسألت مطرية أمها عن تأويل الحلم فقالت دون تردد:

- القسم هو الأمن والأمان، هو بيت الزوجية... وجهزت مطرية أمانة بمهرها وثمن حلّيها وحلّي جدتها لأبيها وما تبقى من مدّخر قليل للمرحوم محمّد إبراهيم وزّقت إلى زوجها بشارع الأزهر. ووضح أنّ الحبّ أظّل بجناحه الأسرة الجديدة، ولكنّ التوافق بين الزوجين بدا من أوّل الأمر أنّه يقتضي عناء مريزًا. المسألة أنّ عبد الرحمن أمين آمن بسيادة الرجل، وأنها كانت شديدة الحساسيّة تتحوّل في وجدانها قرصة غمّة فتخالها قرصة ثعبان. سرعان ما تبكي وتنفرد بنفسها أو تذهب من الأزهر إلى حارة الوطواط. وتغضي بها مطرية لتفضّ الاشتباك فتتورّط في الخصام. وقالت لها شقيقتها الكبرى صدرية:

- ليس زوج بنتك بأسول من زوجي... ومع ذلك لم يدر أحد بما ينشب بيننا، لا تتدخّل بينهما ولا تميل مع أمانة مع كلّ خلاف...

وعلمت راضية بذلك النقار المتجدّد فاستعانت بالتعاونيد والرقى وزيارة الأضرحة، وبدا أنّ الحال تنذر دائمًا بمزيد من الشقاق حتّى لاح شبح الطلاق بوجهه القبيح كالوطواط الأعمى. وضاعف من عمق المأساة أنّ أمانة بمجرد أن أنجبت بكرها محمّد استحوذت عليها الأمومة واختفت الزوجة الجميلة أو كادت. وأنجبت بعده عمرو وسرور وهديّة، وابتعد شبح

العامة فلا يعرفهم ولا يعرفونه. وتابع أبوه نشاطه بارتياح، واطمأنّ إلى أنّه إذا تقاعد يومًا - وهو قريب - فسيترك المكتب لرجل قادر. وقد قال له يومًا بمناسبة ما ذاع وشاع عن الفساد:

- كلّ الفرص متاحة لك، العلم والذكاء والهمة فتجنّب الانحراف، لا تسخر من النصيحة. إن كنت ممن يسخرون من القيم، فعلى الأقلّ احرص على السمعة واخش السجّن!

## أمانة محمّد إبراهيم

مشرقة اللون، دقيقة القسّات، ناعمة الشعر، صورة جديدة لأمها مطرية لولا بروز ما في ثنيتها. وهي آخر من أنجبت مطرية، وجاء ميلادها قبيل وفاة أحمد بأشهر. وأحبّها خالها قاسم ولكنّه لم يجرؤ على المطالبة بها كما فعل مع شقيقها الراحل. فجعل يحبّها من بعيد حتّى انتزعت مأساته الشخصيّة من هموم الدنيا جميعًا. وماتت جدتها لأبيها وهي في السابعة فحزنت عليها حزناً أكبر ممّا يجوز في سنّها. ودخلت المدرسة الابتدائية دون اعتراض بحكم زمنها، وبحكم زمنها أيضًا انتقلت منها إلى المرحلة الثانوية. ومع أنّ مطرية لم يكن يشغل بالها إلا الزواج إلا أنّها قالت لزوجها:

- كنبات أختي سميرة، الدنيا كلّها تودّ أن تتعلّم اليوم...

وكان محمّد إبراهيم يسلم بذلك دون مناقشة. وكان قد رُقّي لدرجة مدرّس أوّل مع بقائه في مدرسة أمّ الغلام بشفاعة عبد العظيم باشا داود. والحق أنّ أمانة أبدت استعدادًا طيبًا للتعليم وتجلّى تفوّقها في الرياضيات، وتراءت لها الجامعة كحلّم سهل التحقيق. وحصلت على البكالوريا ولكن في العطلة الصيفيّة التالية مرض أبوها مرضًا لم يمهله فسرعان ما توفّي وهو في الخمسين. ورثت الأسرة البيت والمعاش وإيجار دكان في أسفل البيت، وكانت الحرب العظمى الثانية قد انتهت ورحل من الجيل الثاني عمرو وسرور ومحمود عطا، فشعرت مطرية بأنّها تواجه الحياة

قال له أبوه:

- أنت متعصب أكثر من اللازم فدع الأمر لي...  
وبدخوله المرحلة الثانوية بدأ يشارك في المعارك  
الحزبية التي نشبت بعد رحيل سعد زغلول. اشترك في  
المظاهرات التي قامت احتجاجاً على دكتاتورية محمد  
محمود، وأصابته هراوة لبت بسببها في المستشفى  
أسبوعين. وكان له ثلاثة أقارب من ضباط الشرطة في  
مراكز حساسة بالداخلية، حامد عمرو ابن عمه،  
وحسن محمود عطا ابن خال أبيه، وحليم عبد العظيم  
داود ابن عم أبيه. وتشاؤروا في الأمر وكلفوا أقربهم  
إليه بتحذيره وترشيده. وكان حديث قدمه حامد على  
مسمع وشهود من سرور عمه، وعمرو أبيه. قال  
مخاطباً ابن عمه:

- اسمك على رأس قائمة سوداء في الداخلية...

فقال أمير ضاحكاً، وكان الضحك عادته:

- لي الشرف...

فأشار ابن عمه إلى أثر الجرح في صدغه وقال:

- ما كل مرة تسلم الجرح.

وقال له أبوه:

- لا يتورعون عن فصلك من الكلية...

وقال حامد:

- إني وفدي مثلك، ولكن لا بد من النصيحة...

وكان الشاب لا يخفي احتقاره لال عطا وأل داود،  
وكان يشعر بفتور عواطف أبيه نحوهما، وتهكمه عند  
كل مناسبة بأصليهما. ومضى أمير يتألق في سماء السياسة  
في أوساط الشباب الوفدي، ويقدم لزعماء الوفد،  
ويطير بطموحه الوطني إلى أفاق بعيدة. وحاول شقيقه  
ليبي - وكان وكيل نيابة في ذلك الوقت - أن يفرمل  
من اندفاعه ولكنّه قال له:

- قد عرفت سبيلي ولن أراجع عنه...

فسأله بهدوئه الطبيعي:

- وإذا رُفِّت ونحن فقراء كما تعلم؟

فقال بثقة:

- في تلك الحال أعمل في الصحافة...

ولكنّه لم يُرَفِّت ولم يعمل في الصحافة ولم يواصل  
جهاده السياسي. ففي أوائل عهد إسماعيل صدقي،

الطلاق، واستمرّ النقار، وانطبع الوجه الجميل بطابع  
أسمى دائم. وشرع الأبناء في التعليم مع أول جيل  
لثورة يوليو، وعبروا جوب بيتهم الكئيب فحلّقوا في  
سماوات من الآمال والمجد حتى غرقوا في بحر الحيرة  
الذي ابتلع ضحايا ٥ يونيه ١٩٦٧، ومضوا يستقبلون  
حياة عملية بعد رحيل الزعيم الأول. وفي موجة النصر  
والانفتاح فازوا بعقود عمل في البلاد العربية حتى هدية  
لم تتخلّف عن ذلك. وكانت مطرية قد رحلت بدورها  
بعد معاناة طويلة لخيبة الأمل، بعد موت البكري  
ورحيل الزوج قبل الأوان، وانحراف شاذلي، وسوء  
حظّ أمانة. وسلم عبد الرحمن أمين بالواقع بعد طعونه  
في السن، ونعمت أمانة بنجاح أبنائها وإن حلّ بها  
الكبر والسقام قبل الأوان. وبحكم الزمن شهدت  
رحيل الأعرّة من الأخوال والحالات وبقية الأقارب،  
وقرأت كتاب الأحران وهو يقلب صفحاته صفحة في  
إثر صفحة... واستمعت إلى نبوءات الشيخ قاسم  
المرسلة من وراء السحب لتجري أحكامها فوق  
المصائر...

## أمين سرور عزيز

ولد ونشأ في بيت القاضي، وكان بيت سرور أفندي  
يلاصق بيت شقيقة عمرو أفندي، كما كان أمير يقارب  
ابن عمه قاسم في سنّه، وقد شارك ابن عمه في لعبه  
وجولاته، وانفصل عنه عقب مأساته على رغبه. وكان  
بخلاف إخوته قوياً مع ميل إلى البدانة وحبّ للدعابة،  
وكان أشبه الجميع بعمه عمرو في رجولته وتقواه. وقد  
عرف ثورة ١٩١٩ كأسطورة من المظاهرات والمعارك  
والقصص فترعرع سعدياً وطنياً مؤمناً. وحاول أن يقلّد  
أخاه ليبي في تفوّقه واجتهاده فشقّ طريقه بنجاح ولكن  
دون أخيه بمراحل. وبسبب من تقواه وروحه المحافظة  
على الآداب والتقاليد ساءت علاقته بأخته جميلة التي  
كانت تكبره بأربع سنوات، لاعتراضه على ما اعتبره  
تحرّراً في سلوكها لا يليق بسمعة الأسرة ولا بكرامة  
الدين. ولم ير أحد من أسرته رأيّه فزادوا غضبه حتى

## حديث الصباح والمساء ٨٥٣

وفعلًا حين المراهقة رآها تاجر في زيارة لكدان والدها فأراد أن يخطبها، ثم عدل لما عرف أن عليه أن ينتظر حتى تنتهي من تعليمها. ولكن جاء زائر آخر عجزوا عن التعامل معه: كانت قد تجاوزت الخامسة عشرة، وكانت تجالس أمها وإخوة لها في الشرفة، عندما سقطت على وجهها متصلبة الجسد مرتجفة الأطراف وفوها ينثر الزبد... آه... إنه الصرع. وكانت مأساة قاسم قد حضرت في الوجدان.. ولكن هذا صرع شديد العنف. واستدعي الطبيب ونصح بالراحة وتغيير الهواء ومزيد من لين المعاملة، وانقطعت عن المدرسة، وحلت في عينها النجلان، مكان النظرة المتألقة، أخرى خابية ذاهلة، وتلاشى الحوار وحل محلّه هذيان. واستغاثت سميرة بأمها، وقال حسين قابيل:

- لو كانت تملك نفعا لنعمت به ابنا.

ولكن سميرة لم تأخذ بذلك المنطق، وجاءت راضية ببخورها ورقاها وتعاويذها. وطافت بالبنات أضرحة الأولياء وآل البيت، ومضت الحال من سيئ إلى أسوأ، فلم يبقَ منها إلا خيال.

وفي صباح يوم من الأيام قالت بدرية لأمها:

- رأيت في النوم أميرًا يدعوني إلى نزهة في القناطر...

فرانّ التشاؤم على قلب سميرة، وعند الضحى احتضرت الفتاة ثم أسلمت الروح. هكذا فقدت سميرة بكريتها كما فقدت مطرية بكرتها، ولكنها فقدتها وهي في أوج صباها، وأحاط بها المعزّون من آل عمرو وسرور، ومحمود بك عطا وأحمد بك عطا، وعبد العظيم باشا داود. وشد ما حزنت راضية، وكانت تتذكر حال ابنتها وتناجي ربها قائلة:

- رحمتك يا رحمن يا رحيم.

وكان سرور أفندي يحنق عليها في باطنه ويتهمها بأنها كانت السبب في عدم اختيار إحدى كريمته لأحد أبنائها، فراح يشتم بها كعادته في ذلك ويقول لزينب زوجته:

- كل ذلك موروث عن أسرتها فما من رجل بها أو امرأة إلا وبه مس من الجنون، وهي في مقدمة الجميع...

وفي طوفان المظاهرات التي قامت احتجاجًا على إلغاء دستور ١٩٢٣، أردته رصاصة قتيلاً في شارع محمد علي. وقد تولى رجال الأمن دفنه مع كثيرين حتى لا تهين جنازاتهم فرصة لقيام مظاهرات جديدة، ولم يسمح لشهود دفنه إلا لأبيه وعمه وإخوته. وقد هزّ موته المبكر آل سرور من الأعماق، وكذلك آل عمرو، وتذكروا ما قاله له الشيخ قاسم في آخر زيارة لبيت عمه:

- سترفع العلم الأحمر.

فأولوا قوله بأنه إشارة إلى دمه المسفوح يوم استشهادها!

## حرف الباء بدرية حسين قابيل

ولدت في شقة بعمارة حديثة بشارع ابن خلدون، فكانت بكرية حسين قابيل تاجر التحف بخان الخليلي وسميرة كريمة عمرو أفندي والرابعة في ترتيب ذريته. وكان الحي يعقب برائحة اليهود المتفرنجين. وكانت الشقة تشرق بالأنافة وحسن الذوق ويسر الحياة. وبنمو بدرية جرت العذوبة في ملاحمها والرشاقة في أطوار سلوكها. وكانت إذا زارت البيت القديم في بيت القاضي بصحبة والديها لفتت الأنظار بنضجها المبكر. ويضحك جدّها عمرو أفندي ويقول:

- الظاهر أنها ستستعمل الحجاب والنقاب قبل الأوان. فيقول حسين قابيل:

- ولكنها يا عمي ستواصل تعليمها إلى النهاية... فتقول راضية ضاحكة:

- يا له من عالم مجنون. ولكنّه لذيذ. فتقول سميرة:

- لن نفرّق بين البنات والصبيان في شيء. وتساها راضية:

- وإذا جاء عريس في السكّة؟

فتقول سميرة دون تردد:

- عليه أن ينتظر أو يذهب مع السلامة...

فيقول الأب مدارياً اعتراضه بابتسامة:

- سميرة... أنت خواجاية غريبة في أسرنا!

## بَلِيغُ مَعَاوِيَةَ الْقَلِيُوبِيِّ

واستعانت بعمر وأفندي ولكن بليغ كان يتظاهر بالندم ويتهادى في ضلاله. وأثار فيها حوله استهجاناً عاماً وسخطاً متصاعداً، فترامت الأنباء إلى إدارة الأزهر، وانتهى الأمر بفصله وطرده بدون أن يحصل على العالمية. وجد نفسه ضائعاً وبلا مورد. وكانت أمه تملك قطعة أرض فضاء فنزلت له عنها فباعها، وقرّر أن يستثمرها في بقالة الجملة. وسافر إلى أهل أبيه في قليوب وراح يشتري الجبن والسمن، ويحملها إلى القاهرة ليوزّعها على البقالين. وقامت الحرب العظمى الأولى فأثرى ثراءً مذكوراً وتحسنت أحواله. ومن يومها أخذ نجمه في التآلق والصعود. وفي تلك الفترة تزوج من أمينة الفنجرى. أسرة ذات مال واحترام. ولما قامت الحرب العظمى الثانية بلغ غايته من الثراء، فشيّد العمائر، وبنى لنفسه سرايا في القبيسي عرفت في الحي «بعابدين القبيسي» لعظمتها وفخامتها. ولم ينجب إلا ولداً واحداً رآه من كبار القضاة. وأثبت أنه تاجر ماهر، ولكنّه لم يتخلّ عن الداء الذي طرد من أجله من الأزهر حتى آخر عمره. وكان يزور بيت القاضي في الحنطور تارة أو السيارة فيما بعد، محملاً بالهدايا، مشيعاً في الخلق الأثر الذي يتابعه خفية بسرور لا مزيد عليه. وكان يحافظ على صلاته وصومه وزكاته محافظته على كأسه، ويثابر على الاستغفار ماثبته على الغرور والفخار. وقد امتدّ به العمر حتى مشافى الخمسينات، بعد أن رحل أحمد عطا وعمر وسرور ومحمود عطا وجيلية أمه وأخواته نهيرة وشهيرة وصديقة فلم يبقَ بعد إلا أخته الكبرى راضية مؤاخية العفاريث. وقد أصيب بتلف الكبد، ولازم الفراش الوثير نصف عام ثم فارق الحياة وهو نائم، أو هكذا خيّل لزوجته أمينة الفنجرى.

### بَهِيَجَةُ سُرُورِ كَرِيْزٍ

شهد ميدان بيت القاضي ملاعب طفولتها مع أخيها ليلى وأختها جميلة، ومنذ نشأتها خالطت بنات وأبناء عمّها عمرو. وجمع الطبع الهادئ بينها وبين أخيها

هو آخر عنقود الشيخ معاوية القليوبي، وشقيق راضية زوجة عمرو أفندي، وقد ولد في بيت الشيخ بسوق الزلط بباب الشعريّة، ولعلّه المولود الوحيد الذي أنجبه الشيخ بعد خروجه من السجن. ونشأ من صغره نشأة دينيّة، وألحقه أبوه بالأزهر في سنّ مبكرة. ويزور شقيقته في بيت القاضي فيلفت الأنظار بشبابه وجبته وقطفانه وعمامته، ويحدث في أسرة راضية إثارة تجمع بين الاحترام والفكاهة معاً، وهو بطبعه يشبع الناحيتين، فيرتل القرآن بصوت جيّد استجابة لأخته، ويداعب البنات والصبيان بالملح. وكان ذا وجه قمحيّ مستدير جذّاب الملامح، ولا يخفي حبّه للطعام اللذيذ، وخبرته بصنوفه لا تقلّ عن خبرته بالدين الذي يدرسه. وتقول له راضية بلسانها اللاذع:

- الأصلح أن تكون طبائخاً من أن تكون عالماً من علماء الدين كأيك...  
فيقهه قائلاً:

- أنا رجل حائر بين أب عالم وأخت مؤاخية للعفاريث...

في ذلك الوقت كان الشيخ معاوية قد انتقل إلى جوار ربّه، وقد تمّت خطبة راضية على يديه. ولكنّه لم يشهد دخلتها. وعقب وفاته لم تجد غرائز بليغ من يكبحها. وفي جلسة جمعت راضية مع جلييلة أمها المعجوز فوق الكنبة، في مدخل البيت الذي يتصدّره الفرن وتقع البئر في جناحه الأيسر، في جلسة حزينة لاحظت راضية أنّ أمها غارقة في بحر من الغمّ على غير عادة، ولما سألتها عمّا بها قالت:

- أتصدّقين يا راضية؟... أخوك الشيخ الأزهرى بات يرجع كلّ ليلة سكران فاقد الوعي؟  
وفزعت راضية وهتفت:

- أعوذ بالله...  
- أنا... أمامه بلا حول...  
ووجدت راضية نفسها أعجز من أمها حياله...

## حديث الصباح والمساء ٨٥٥

خشونته وابتداله . في الوقت نفسه راقبت بازدياد شديد العبث الفاضح الذي تمارسه أختها جميلة مع ابن عمها قاسم . كانت أختها ابنة ست عشرة وابن عمها في الثانية عشرة أو يزيد قليلاً، فما هذا الذي تضبطه أحياناً فوق السطح أو تحت بشر السلم ١٩ . الأخلاق تأباه والدين يتوعده وهي تكتمه خوف العواقب . ولما خطبت جميلة وعقلت وجدت نفسها تفكر في قاسم بدورها . لم تكن كأختها النزقة المجنونة . خلق قلبها بعاطفة رقيقة ولكن داخل قفص ذي قضبان صلبة من الحياء والتقاليد . وقد انتبه الفتى لها وقرأ في عينيها الصافيتين النداء الصامت، وسرعان ما لبى مفعماً بالشهوة والأمل في أن يواصل معها العبث الذي انقطع بضياح جميلة . ولكنّه وجد قلباً محبباً وإرادة من فولاذ . وحامٍ حولها كالمجنون حتى قالت لها أمها:

- إنه من سنك فلا يصلح لك .

لم تعترض ولكنّها لم توافق فقالت الأم:

- أمامه مرحلة طويلة ولا تنسي أمه . . .

وشعرت بالنعاسة . ولما ألم بالفتى ما ألم فاعتبر مفقوداً غرقت في النعاسة حتى قمة رأسها . ولم ترّ بدأً من العودة إلى . . . محطة الانتظار . ولكنّ انتظارها طال دون سبب حتى وضعتها السنة الأسرة في سلّة واحدة مع دنائير بنت عمّتها رشوانة . البنت جميلة ومثال كريم للأخلاق الفاضلة ، فلم صدّ عنها الخطّاب ١٩ . وطال الانتظار وانكسار القلب حتى توفي عمها عمرو وأبوها سرور وأمها زينب .

وجاء عام ١٩٤١ وهي وحيدة في بيتهم القديم المجاور لبيت عمّتها في بيت القاضي، تعاونها أم سيّد، وينزل بها أخوها لبيب كالضيف الذي أقصاه عمله عن القاهرة . وجعلت تقترب من الثلاثين وهي تمضغ اليأس ليل نهار، وليس لها من الدنيا إلا نصيبها من معاش أبيها . وفجأة - وكأنّما بوحى - انتبه لها الشيخ قاسم من جديد وقال لأمّه:

- أريد أن أتزوج من بهيجة!

واعترت راضية الطلب كرامة من كراماته، وأمراً تنزل يحيط به الغمام، فحدّثت لبيب في أول زيارة . ففكر الرجل طويلاً . ابن عمّه لا ينقصه المال

الأكبر لبيب وابنة عمّتها سميرة، وإن ماثلت في العمر ابن عمّتها قاسم . تبدّى وجهها في هالة بيضاء كأنّها ستّ زينب مشرّبة بحمرة . صافية العينين الخضراوين، في صوتها دسامة تذكّر بصوت والدها سرور أفندي . وفي سجيّتها رزانة فطرية جرت عليها همّة ظالمة بثقل الدم، ومحافظه على التقاليد وتدّين حصّنها ضدّ عبث الصبا . واكتفى في تعليمها بالكتاب كبنات عمّتها وأختها جميلة . وتفردت مثلهنّ لفنّ البيت من طهي وحياسة وما يجري مجراهما، وأخذت موضعها منذ وقت مبكر في محطة الانتظار التقليديّة، انتظار ابن الحلال . ولعلّ أنسب أحد لها من الأسرة كان حامد ابن عمّتها، ولكنّ آل عطا المراكبي استولوا عليه بوضع اليد بما أثار أشجان سرور أفندي وزوجته زينب هانم . وكانا قد مرّا بالتجربة نفسها عندما راودتها الأحلام في زواج عامر من جميلة . وعلى ذلك قال سرور لشقيقه عمرو:

- ألم تفكر في بهيجة قبل أن تهدي حامد لمحمود

المراكبي؟

فقال له عمرو:

- نحن يا سرور فقراء على باب الله ونبحث لطبورنا عن ريش، وابتتك جميلة والحمد لله ولن يطول انتظارها . . .

من أجل ذلك تناقضت عواطف سرور حيال شقيقه الأكبر بين الحبّ والمرارة، كعواطفه حيال أهله جميعاً بما أطلق لسانه فيهم كالخنجر بلا رحمة، وبما أنزله في النهاية من قلوبهم منزلة لا تقارن بحال بالمنزلة التي حظي بها أخوه عمرو . وغضبت زينب زوجته لذلك الجواب الناعم المحبط الذي يلطمهم به للمرّة الثانية، وقالت بسخط شديد رغم أنّها لم تخرج عن برودها السطحي:

- أنا أعرف السرّ وراء ذلك كلّه!

فقال سرور:

- المسألة أنّ أخي شديد الشعور بضعته بين أقاربه

الأغنياء . ويتحرّق دائماً على التعلّق بفروعهم العالية . . .

- ولا تنسى راضية ربيبة الجان والسحر أنّها تغار

مّي وتضنّ عليّ بالخير .

لم تكثر بهيجة لضياح حامد . . . كانت تنفر من

الزلط، فخطب ابنته جلييلة لابنه الشيخ معاوية الذي بدأ حياته في ذلك الوقت كمدرس مبتدئ بالأزهر الشريف. هكذا صارت ربّة البيت القديم بسوق الزلط وعرفت في الحيّ بجلييلة الطرابيشية. وكانت ذات قامة طويلة، جعلتها تنظر إلى الشيخ من علّ - الأمر الذي لم يغفره لها أبداً - سمراء رشيقة ذات جبهة عالية وعينين بَنِيَتَيْنِ نجلاوين. وقد أنجبت له مع الأعوام راضية وشهيرة وصديقة وبلغ. وعرفت بأنّها موسوعة في الغيبيات والكرامات والطبّ الشعبيّ، وكأنّما أخذت من كلّ ملّة بطرف بدءاً من العصر الفرعونيّ، ومروراً بالعصور الوسطى. وحاول الشيخ معاوية ما استطاع أن يلقنها أصول دينها ولكنّه من خلال المعاشرة الطويلة أخذ منها أكثر ممّا أعطاهها. فكان يطاوعها «حين المرض» وكلّمها دمه خطب من خطوب الحياة، يسلمها رأسه لترقيه، أو يستسلم لبخورها، أو يردّد وراءها بعض التعاويذ. وكانت صلبة، عنيفة إذا لزم الأمر، فكانت الجارات يعملن لها ألف حساب، وقد لقّنت بناتها جميع ما لها من علم وخبرة، فاستجنبن لها بدرجات متفاوتة، وبرعت راضية في استيعاب ميراثها أكثر من الجميع وحظيت بحبّها أكثر من أيّ من ذريّتها بما فيهم الابن بليغ. وكلّمها أراد الشيخ معاوية التسلّط عليها صمدت له بصلاية، حتّى التهديد بالطلاق لا يخيفها. ولم تغب عنه قوّة أخلاقها ومهارتها المنزليّة الفائقة، فترجع راضياً بالمهادنة والمشاركة. وكانت تقدّس معتقداتها لدرجة التفاني والتصلّب، وتجلّى ذلك يوم وفاة زوجها الشيخ معاوية في عصر الاحتلال. كانت خطبة راضية لعمره قد أعلنت عقب اتّفاق جرى بين الشيخ معاوية وعزيز زياد والد عمرو وصديق الشيخ. وعقب الوفاة بساعة واحدة، وصوات ستّ جلييلة يذيع الخبر المشنوم، وصل نيشان العروس، أولى هدايا العريس، على غير علم منه بما حدث. وتقبّلت جلييلة الهدية - سمكة في حجم ابنها بليغ - ونفحت حاملها بما قسم. وانقبض قلبها لمجيء النيشان وسط هدير الصوات، وأشفتت من عواقب ذلك على مستقبل أحبّ ذريّتها إليها. ووقفت فوق رأس الشيخ المسجّي بلحافه الأخضر

ولكن...!؟. وعرض الأمر على أخته فتلقّى الموافقة. أهو اليأس؟ أهو الحبّ القديم؟... أهو الخوف من الوحدة؟...

وتّم الزواج الذي تندرت به الأسرة طويلاً في ليلة تعرّضت فيها القاهرة لغارة جويّة طويلة وزلزلت أركانها بدويّ المدافع المضادة... .

وانتقلت بهيجة إلى بيت عمّها، لأنّ قاسم أمر بالألّا يغادر بيته. ومضت أعوام دون أن تنجب ولكنّ قاسم طمأنها قائلاً:

- سوف تنجين ذكرًا عندما يرضى القمر... .

وقد أنجبتة في عام ١٩٤٥ وأسماه أبوه النقشبندي. بدأ حياته التعليميّة عقب قيام ثورة يوليو، وشمّل طوال عهد دراسته بالعظمة والمجد، وحظي بوجه مشرق وقوام رشيق وذكاء لمّاح، وتخرّج مهندساً عام ١٩٦٧. وتقرّر إرساله في بعثة، ودعت له راضية وهي في قمة شيخوختها، وقال له أبوه:

- الله معك، إيّ أودّعك بلا دموع... .

وسافر النقشبندي إلى ألمانيا بعد مضيّ أشهر على ٥ يونيه، مهبط الجناح حزين الفؤاد، وعلم هناك بموت الزعيم فلم يحزن، ولّمّا حصل على الدكتوراه عدل نهائياً عن العودة إلى مصر، وعمل في ألمانيا وتزوّج من ألمانيّة ثمّ تجسّس بالجنسيّة الألمانيّة. ولّمّا علم أبوه بذلك قال مرّة أخرى:

- الله معك، إيّ أودّعك بلا دموع... .

وبعد رحيل راضية بقي قاسم وبهيجة في البيت القديم وراء شجرة البلخ التي شهدت حبّها القديم، وما زال قلبهما ينبضان بالحبّ والعزلة... .

## عزف الجيّم جلييلة مرسي الطرابيشي

ولدت في أواخر الربع الأوّل من القرن التاسع عشر في باب الشعريّة لأب كان يعمل في مصنع الطرابيش الذي أنشاه محمّد عليّ فيما أنشأ من مصانع. وكان الأب قريباً للشيخ القليوبي وغير بعيد من بيته بسوق

## حديث الصباح والمساء ٨٥٧

رجعت شهيرة إلى بيتها طريفة فملأته قططاً، أما صديقة فوا أسفي عليك يا صديقة . . .

وكان قاسم أحبّ الأحفاد إلى قلبها. يغمرها بقبلاته، وينصت لحكاياتها، ويصدقها بقلبه وحواسه، ولما حصل ما حصل، لم تجزع وقالت لراضية: - أبشري، ربنا وهبك ولياً . . .

وفي السنوات الخمس الأخيرة من عمرها - نهاية الربع الأوّل من القرن وعند مشارف الثلاثينات - أعددها الكبر، وسدّت المنافذ بينها وبين الوجود ففقدت السمع والبصر، وبقي لها الوعي فكانت تعرف الأحباب بأناملها، وقامت شهيرة بخدمتها ما استطاعت حتّى ضاقت بها، وكانت أحنّ على القطط منها على أمها. وكانت تشكوها إلى راضية كلّما قامت بزيارة لها، فتعاقب راضية شقيقتها وتذكرها بوصيّة الرسول بالأمّ فتقول شهيرة:

- ما أسهل الوعظ، ولكنك تعيشين مكرّمة في بيتك وتلقين عليّ وحدي تنفيذ الوصيّة! وفي إحدى الزيارات وجدت راضية المدخل يموج بالقطط، تموء وتتداخل بأسلوب وحشيّ ينذر بالدهشة، ورأت جليلة ملقاة على الكنبه مسلمة الروح، وكانت شهيرة نائمة في الدور الأعلى . . .

## جميلة سرور عزيز

لم يرَ ميدان بيت القاضي وأشجاره المثقلة بأزهار «ذقن الباشا» أجمل منها إلا تكن مطرّبة ابنة عمّها عمرو. وهبتها أمّها بشرتها العاجية وعينيها الخضراوين النجلاوين، وفاقت أمّها بفيها الأنيق كالقرنفلة وجسمها المدمج. وبخلاف أمّها كانت تموج بالحويّة والحفّة واستمدّت من غرائز أبيها لفحات حارة خضبت وجنتيها بماء الورد الأحمر. وسبقت زمنها لا بالتعليم، فلم يجاوز نصيبها منه نحو الأميّة كأختها وبنات عمّها، ولكنّه بالتحزّر التلقائي المنطلق بقوة نضج مبكر ونداء الأشواق المبهمة، فتلوح في النافذة لتسقي أصيص الورد، أو تخطّر بنصف نقاب فيما بين بيتها وبيت عمّها

وناجته من قلبها المكلموم:

- اغفر لي يا معاوية . . .

وهولت إلى حجرة في الجانب الشرقي للبيت تطلّ من بعيد على جامع سيدي الشعراي وهي تقول لنفسها:

- لا يفكّ عقدة النحاس إلا استقبال الهدية بما يليق. وجفّفت دموعها ووقفت وراء النافذة وأطلقت زغرودة مجلجلة ترقص على أنغام فرح متدفّق. ورجعت بسرعة إلى حجرة الجثمان وراحت تصوّت من أعماق صدرها. ولم ينب ذلك عن بعض الأذان الماكرة، وتهامسن به، ثمّ تندرن به على مدى العمر وتنقل كشهادة حيّة على غرابة أطوار المرأة المثيرة، التي جمعت بين التقوى والحبّ والجنون. ولكن لم ينل خطب من بنائها المتين ما ناله رحيل زوجها، حزنت عليه بالطول والعرض ولبثت تلهج بمآثره الحقيقية والخياليّة طيلة عمرها الطويل. فقد عمّرت حتّى جاوزت المئة . . . بعشرة أعوام، عاصرت فيها فترة من حكم محمّد عليّ وعهود إبراهيم وعبّاس وسعيد وإسماعيل وتوفيق والثورة العربيّة وثورة ١٩١٩. ولم يرسب في أعماقها زمن كالثورة العربيّة التي اعتبرت زوجها من أهمّ رجالها، وما أكثر ما روت من بطولاته وسجنه لأحفادها، وذهب بها الخيال في ذلك كلّ مذهب حتّى ليخيّل للسامع من أبناء وبنات راضية أنّ الشيخ معاوية هو الذي عزّب محمّد عليّ، وهو الذي اعتمد عليه عزّابي بعد الله، واختلطت صورة عزّابي في رأسها بعنزة والهلاليّ وآل البيت إكراماً قبل كلّ شيء للذكرى الشيخ معاوية. ولم تسعد بذريّتها بسوى راضية وأبنائها. وحظي عمرو برضاها، وإن لم تزر بيت القاضي إلاّ مرّات معدودات بسبب طعونها في السنّ، أما شهيرة وصديقة وبلينغ فقد تركن في قلبها جراحاً لا تلتئم. أتت تقول لبلينغ وهو ملقى غموراً على كنبه المدخل:

- أنت سكير عاصٍ وعازّ على زيك الشريف . . .

ولما أوردت شجرته وصار تاجرًا مرموقًا قالت له:

- وهبك الله الثروة ليمتحنك فاحذر امتحانه . . .

وكان بليغ يحبّها ويشكّ في سلامة عقلها، وقد



يوم وليلة كنتفّاحة اجتاحتها العطب. اختفت وحلّ بها وقار، لا يحلّ إلا مع الزمن الطويل، وزّقت إلى العريس في مسكنه بدرج الجهايميز في حفل أحيته الصرافية والمطرب أنور. وما لبثت الأسرة الجديدة أن غادرت القاهرة بحكم عمل الزوج، فمضت أعوام وأعوام وهي تشرق وتغرب دون إنجاب، وبعد أن مات سرور أفندي قبل أن يرى أحفاده من جميلة. وفي أثناء ذلك حصلت لإبراهيم الأسواني أمور. فقد كان وفدياً، وافتضحت عواطفه في تراخيه بالقيام بواجبه في عهود الديكتاتوريات، حتى انتهى الأمر بفصله. وكان قد ورث عشرين فدّاناً فرحل بأسرته إلى أسوان، وانضمّ إلى الوفد جهراً، وانتخب عضواً بمجلس النواب، وثبت عضواً دائماً بالهيئة الوفدية. وأنجبت جميلة بعد العلاج من عقمها خمسة ذكور عاش منهم سرور ومحمد، وكان الزواج قد حوّلها من الرعونة إلى رزانه عجيبة وجدّية فائقة وأمومة سخية، وكأنها قد تمادت في بدانتها إلى درجة يضرب بها المثل. ولم يكن إبراهيم الأسواني يخلو من انفعالات وأحوال ولكنتها كانت كالمحيط الذي يستقبل الأمواج العالية والعواصف الهادرة ثم يهضمها في صبر وأناة كي يعود إلى هدوئه الشامل وسيادته الكاملة. فهذا يصدّق أنّها هي التي نصحت أمانة بنت مطرية مرة فقالت لها:

- على الزوجة أن تكون مروّضة للوحوش!

ولمّا قامت ثورة يوليو أيقن إبراهيم الأسواني أنّ حياته السياسيّة قد انتهت، فاعتزل في أرضه ونفّرخ للزراعة، وكان ابنه سرور ومحمد قد صاروا ضابطين طيارين، وانقرضت هذه الأسرة بقضاء لا رادّ له. أمّا إبراهيم الأسواني فقد قُبل في تصادم بين قطارين عام ١٩٥٥. كان في الخامسة والخمسين وجميلة في الخمسين. وأصيبت طائفة سرور في حرب ١٩٥٦ ولقي مصرعه، ولحق به أخوه محمد في حرب ١٩٦٧، وأنقذت جميلة من الوحدة والأحزان عام ١٩٧٠ فماتت بسرطان المعدة وهي في الثالثة والستين من عمرها. وكانت حين وفاتها كأنها مقطوعة من شجرة لا أهل لها.

المجاور، أو تلاقي النظرات الجائعة بدلال متمرد. في طفولتها كانت تجول في الميدان بصحبة أخيها الأكبر لبيب، وانضمّ إليها بعد سنوات قاسم. كانت تكبر قاسماً بسنوات ولمّا ناهزت الحلم لم تجد سواه لعبة لقلبها المتحفّز. وكلّمّا خلت به لاعتبه لتوقظه من براءته فتبعها في حيرة ثملة ممتعة كرؤية جمال الفجر لأول مرة، ولس بأنامله المتشجّجة جواهر حالّ الجهل بينه وبين معرفة قيمتها. ولمّا قارب الثالثة عشرة سقط في الشهد قبل الأوان. وتفتّح على راحتها الناعمة المخضبة بالحناء كالوردة وأخلد بكلّ عذوبة إلى نفثات صدرها المضطرم، وبسبب من تلك الرعونة تصدّى لها أخوها أمير، وعنفها حتى ضاقت به وبكت. وقالت له أمّه:

- تذكّر أنّك أخوها الصغير. . .

فقال لها:

- سمعتنا!

فقالت زينب بهدونها الذي لا تخرج عنه:

- إني أعرف بنتي تماماً وهي مثال للأدب. . .

ولمّا جاوز أمير حدوده قال له سرور أفندي:

- دع الأمر لي. . .

وكان سرور أفندي يميل إلى التسامح المعتدل، وكان في ذلك الوقت يتساءل عمّا جعل عامر ابن أخيه عمرو يميل إلى عفت بنت عبد العظيم داود دون جميلة بنت عمّه. ويقول لزوجته:

- الله يخيبه. أليست بنتنا أجمل؟

فتقول زينب ساخرة:

- أليس هو ابن راضية المجنونة؟

ويقول سرور بمرارة:

- أخي يزعم أنّه من أهل الطريق، ولكنّ رغبته في القرب من أهله الأغنياء تفوق رغبته في القرب من الله!

والحق أنّ جميلة أخافت الأسر المحافظة من الجيران فأحجمت عنها رغم جمالها، حتى قيض لها حظها ضابط شرطة جديداً بقسم الجمالية يدعى إبراهيم الأسواني. كان ممشوق القوام طويله غامق السمرة، رآها فأعجبته، ووجد سمعة البنت طيبة، فخطبها بلا تردد. وما يدري قاسم إلا وفاتنته ومعلّمته تتغير بين

إلى أن تمّ الزواج وأقام في شقة بعارة يملكها الدكتور المهندس وحسب أنه ملك العالمين. هناك وضحت له الحقيقة وجابته بوجه منذر بالخطر، بأن العروس ذات جهاز عصبي لا يخلو من خلل، وسرعان ما أسفرت عن طبيعة لا يمكن مداراتها. كانت عاصفة تهب عن وتنتشر لأوهى الأسباب. وربما بلا سبب البتة. وكان قد خلق بجهاز مانع للصواعق فطري اقتبسه من ست زينب أمه، وكان يعيش برأسه لا بقلبه، فقال لنفسه وهو ملتفت بالروب الحريري الكحلي وغائص في الفتيل بحجرة المعيشة:

- ليكن، فهي زيجة على أي حال عادلة ...  
ضمنت له مستقبلاً يعزّ عن الأحلام، وهو يملك من الذكاء والهمة ما يجعله قادراً على استشاره على خير ما يمكن أن يكون، ولو كانت سميحة عروساً كاملة أو حتى عادية لاستحقت زوجاً من طبقتها في درجة عالية أو في السلك السياسي، ولقد أهداها أبوها إليه بعد تفكير وتدبر وعليه أن يقبل الهدية بتفكير وتدبر كذلك، وقال لنفسه أيضاً:

- إن تكن مريضة فأنا الطبيب!  
وقد كان.

وتتابعت وفيات آل سرور وعمرو الهامة قبيل الحرب العظمى الثانية، وفي أثنائها بدأت برحيل عمرو، فسرعان، ثم زينب. وكانت سميحة قد ضاقت بزيارات أمه وأبيه وإخوته فقررت في لحظة جنون ألا تشارك في العزاء! ونظر إليها بتوسل وقال:

- ولكن ...

وضمن لهجته كل المعاني المطلوبة ولكنها قالت بحدة:

- لن أذهب إلى ذلك الميدان المليء بالحشرات، ولا أحب أن يجيئني أحد منه ...

ولم يغضب ولم يئن وجهه عن شيء، وسرعان ما انقطعت العلاقة بينه وبين أهله. اندمج في أهلها كظل لها ونسي أصله. غير أن طاعته العمياء لم تكفل له السلامة. فعلى أثر سهرة في شقته شهدتها حماته وأختها وبعض الأقارب، قالت له لِمَا انفردا بنفسيهما:

- لم تعجبني، غلب عليك الصمت، وبدرت

## حرف الحاء

### حازم سرور عزيز

من أيامه الأولى نشأ عزوفاً متوحداً يقف أمام بيته مبتعداً عن إخوته وأبناء عمه يتفرج على الرائح والغادي بين حارات الميدان. لم يدخل بيت عمه عمرو مرة واحدة، وكان عمرو يقول لسرور ضاحكاً:  
- ابنك حازم عدو للبشر ...

وكان وسيماً كأمه، قصيراً كبهجة، وفي عينه اليسرى ضعف طبيعي بلغ بها العمى، ولم يُر ضاحكاً أو منفعلاً قط. وتجلت نجابته منذ كان في الكتاب فأوشك أن يعيد سيرة أخيه الأكبر لبيب، وانحصر في ذاته فلم يعرف هدفاً في الحياة سوى النجاح والتفوق، وجهل وجوده جميع أهله من آل عطا وآل داود. ولتفوقه لم يكلف أباه ملبياً في تعليمه، حتى الهندسة دخلها بالمجان بكل جدارة. وتبين لأخيه أمير أنه لا يعرف اسم رئيس الوزراء ولا ينظر في الصحف ولا تصل إلى وجدانه أي موجة من بحر الأحداث التي يضطرب بها الوطن. وسأله:

- أظنّ الدنيا مذاكرة فحسب!؟

ولكن لم يكن بوسع أحد أن يجره إلى مناقشة على الإطلاق. ولما رحل أمير ضحية لجهاذه ذهل وصمت ووجم ولم ينس بكلمة ولم يذرف دمعة، وسرعان ما واصل حياته وتخرّج مهندساً في عام ١٩٣٨، ولم يتجه نحو الحكومة بسبب عجزه، ولكنه وجد وظيفة أفضل في شركة مقاولات الدكتور محمد سلامة الذي كان استاذاً له في المدرسة. كان الدكتور المهندس يعجب به ويحبّه ويرى فيه مثلاً للذكاء والعمل والبعد عما يشير المتاعب. وكان يزور أستاذه في فيلته بالدقي لإنجاز بعض الأعمال، وهناك عرف كرمته سميحة. كانت على درجة من الجمال مقبولة ولكنها كانت كريمة مديره وأستاذه وهو الأهم. ولم ينب عن فطنته أن البك يشجع تعارفهما، وأدهشه ذلك لما يعرفه الرجل من بساطة أصله وفقره. وركبه الغرور حيناً من الدهر،

كلماتك القليلة بلا معنى...!

فقال معتذراً وبأسلوب غاية في الأدب والرفقة:  
- الكلام الكثير يوجع رأسي، ولم يجزِ ذكر لأيِّ  
موضوع هامّ... .

فصرخت:

- إن لم يكن الكلام في الهندسة يصبح لغواً...؟  
فلاطفها بابتسامة وإذا بها تثور وتهدر بأقسى الألفاظ  
ثم تقبض على فائزة ثمينة وتقذف بها الجدار فتتحطم  
وينهال حطامها على غطاء الكنبه المطرز بالكاناواسه.  
ونظر إليها باسماً مشفقاً ثم قال بحنان:

- لا شيء في الوجود يستحق أن تجشمي نفسك من  
أجله هذا الغضب كله... ولكن الشقة شهدت أيضاً  
العناق والأبوة والأمومة، وقد أنجبت له حسني وأدهم،  
وعلا مركزه بثبات وجدارة في الشركة، وزاد اعتماد  
محمد بك سلامة عليه مع الأيام حتى حل محله - بعد  
وفاته - نيابة عن سميحة، وشارك في رأس المال  
بمذخراته، وازدهرت الشركة في عهده أكثر من  
ازدهارها الأول، وشيد حازم فيلاً في الدقي انتقلت  
الأسرة إليها، وقد هضم نزواتها جميعاً بطولة خارقة،  
ولكن بعض النزوات بدت عسيرة في هضمها. مثال  
ذلك أن محمد بك سلامة كان عضواً في الهيئة الوفدية،  
على حين أن حصيلة حازم من السياسة كانت صفراً،  
ولكنه بإزاء حماسها أعلن في البيت على الأقل وفديته.  
وهي لم تقنع بالإعلان البارد، فرجع يوماً إلى شقته  
فأرى صورة النحاس معلقة مكان صورة سرور أفندي  
أبيه. نظر واجماً دون أن يجرو على إبداء أيِّ ملاحظة  
فقال:

- إني أتشاءم من صور الأموات، وهذه صورة  
زعيم الأمة... ولم يبد أيِّ ملاحظة حتى بعد أن رحل  
محمد بك سلامة والنحاس وظلت صورتاهما بمكانهما!  
ويوم انتقلت الأسرة إلى الفيلاً الجديدة ضحكك  
ضحكتها العالية وقالت:

- احمد ربنا يا غبي، رفعتك من الحضيض إلى  
القمة...

فقال باستسلام:

- الحمد لله على كل شيء...

فقالت مقطبة:

- ولا تنس نصيبي من الشكر... .  
فقال ببروده المعهود:  
- أنت الخير والبركة...

ولما قامت ثورة يوليو خاف أن تكون وفديته المزعومة  
قد تجاوزت جدران مسكنه ولكنه لم يتعرض لسوء،  
ودأب على مدح الثورة في شركته، والحملة عليها في  
بيته مجارة لسميحة، وهو يقب عينيه فيما حوله  
مستعيذاً بالله. ولدى كل مناسبة تقول بحق:

- هل سمعتم عن بلد تحكمه مجموعة من  
الكونستبلات؟!

فيهمس في أذنها بتدخل:

- احذري الخدم... والجدران... والهواء...  
وشد ما فرحت بالعدوان الثلاثي وشد ما خابت  
آمالها. وفي ٥ يونيو أغلقت على نفسها حجرتها  
وراحت ترقص، وساعة بلغها نبأ وفاة الزعيم زغردت  
حتى هب حازم واقفاً وهو يصرخ لأول مرة:

- أنا في عرضك!

وكانت الشركة قد أتمت، ولكن سائر مقتنيات  
الأسرة لم تمس، وفي عهد السادات بلغ حازم ذروته  
الحقيقية، وفتح مكتباً هندسياً وبات في عداد أصحاب  
الملايين. وقالت سميحة عن الزعيم الجديد:

- حقيقة أن وجهه أسود ولكن قلبه أبيض...

ولكن لعل هزيمة سميحة على يد ابنها حسني فاقت  
هزيمتها السياسية ضراوة. من بادئ الأمر أرادت أن  
تسيطر على الدورية كما سيطرت على الأب ولكنها  
سجلت خيبة كاملة. أما حسني فقد حطم السدود  
والقيود، أما أدهم فلم يجيب أحلامها بعد أن صنع  
حياته بقراره المستقل عن الجميع. ولم تجد سميحة من  
تصب عليه غضبها سوى حازم فقالت له باحتقار:

- لولا ضعفك وغباؤك لما كان ما كان...

وسقطت في كبرها فريسة للاكتئاب حتى اضطرت  
إلى قضاء شهر في مصحة أعصاب بحلولان. وبقي  
حازم صامداً رغم إصابته بالسكر، بل لعله تكيف  
تماماً مع معاشره المرأة المريضة. أجل شد ما تمتي موتها  
فترة طويلة من عمره خاصة بعد وفاة حميه. كانت

## حديث الصباح والمساء ٨٦١

حسن ابن خال أبيه في عام واحد. وجاهر محمود برغبته في تزويج حامد من كبرى بناته شكيرة فسّر عمرو بتلك الرغبة التي توثق علاقته بآل المراكبي، كما وثق ابنه عامر علاقته بآل داود. هيأ الزواج لفرعه الذابل من أسباب المجد ما لم يكن يحلم به وعزز موقعه في الشجرة الشاخمة فشعر بالرفعة والرضا. وسّر حامد أيضًا رغم منظر خطيبته الذي لا يسر لطموحه إلى طيبات الحياة. راضية وحدها امتعضت وقالت:

- يا له من اختيار يستحق الرثاء...

فقال لها عمرو:

- احدي الله يا وليّة...

فقالت بحلّة:

- الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه!

فقال الرجل برجاء:

- البيوت السعيدة تقوم سعادتها على الأصل

والأخلاق...

فقالت بسخرية:

- والمال!... آه يا ناري!

وأفضى سرور أفندي باستيائه إلى شقيقه، وراح يفسّر الأمر فيما بينه وبين نفسه برغبة أخيه الجامعة في التعلّق بأذيال أقاربه الأغنياء، وبأنّ محمود عطا اختار بنفسه عريسًا لابنته كحامد لشعوره العميق بتفاهة ابنته، وبأنّه إذا لم يظفر لها بشخص بسيط مكبّل بأفضاله فلن يتقدّم لها إلا بلطجي ثمن يطمعون في مالها واستغلالها ونهبها. ولما اتهمت ستّ زينب راضية بأنّها لا تحبّ لهم الخير قال لها سرور:

- المسألة أكبر من راضية، إنّها صفقة يبدو حامد في ظاهرها هو الرابح، والحقيقة أنّ الرابح الحقيقي هو المراكبي وابنته التي ما كانت لتجد عريسًا يجبر الخاطر، وأخي رجل طيب ومغفّل...

ولم تُسرّ واحدة من بنات عمرو، وقالت صدرية معلّقة على الخبر:

- سيتزوج أخي من رجل كامل الرجولة!

ولما قامت ثورة ١٩١٩ كان حامد في السنة النهائية، وقد مال قلبه إليها بمجامعه، وأنهم بالتحريض على الإضراب، وحوكم، وأنزل إلى السنة الأولى من

تراوده أحلام غريبة، فبراها مرّة ضحيّة حادث للسيارة، أو مرض عضال، أو غريقة في البحر الأبيض، أو... أو...

ولكنّه كفت عن أحلامه، واستوحش البيت حين إقامتها بالمصحّة، واعتبر نفسه قد حقّق حلمه الأبديّ في النجاح والثراء...

## حامد عمرو وعزّيز

منذ نشأته الأولى بدأ نبتًا شادًا في أرض أسرته. ولعلّ عمرو أفندي لم يتعب في تربية أحد من ذرّيته كما تعب في تربيته، أحبّ اللعب والعراك واكتسب ثروة من قاموس أوباش الحواري والأزقة، وطلما مارس عنفه مع أخواته برغم أنّ ترتييه كان السادس بينهم. ونتيجة لذلك تعرّث خطواته في الكتاب والمدرسة، وكثيرًا ما يرجع إلى البيت القديم ممزق الجلباب أو دامي الأنف فيتعرّض لمجاهة أخيه الأكبر عامر، ولم يكن يتورّع عن ضربه أحيانًا، بخلاف عمرو أفندي الذي كان يقنع بالزجر والنصيحة والتهديد، وتظلّ راضية من أجله في تعامل متواصل مع الرقى والتعاويد وتذرّ النذور لأضرحة الأولياء.

وكان يضمّر أخبث النوايا لبنات الأقارب مثل جميلة وبهيجة ابنتي عمّه، ودنانير بنت عمته رشوانة، لولا سوء سمعته الذي حمل الأثمات على الحذر منه. وامتاز أيضًا بين أله بضخامة في الجسم وكبر ووضوح في القسّات أضفت عليه حال رجولة مبكرة. وكان حلمه الأثير أن يقود عصابة مثل مشاهير الفتوات الذين يهدمون اللذات في حيّه العريق. ولما حصل على شهادة الكفاءة بعد أكثر من محاولة نصّح محمود عطا المراكبي والده بأن يختصر الطريق ويدخله مدرسة الشرطة، قال:

- هو الحلّ الذي وجدته لابني حسن.

ورحّب عمرو أفندي بالنصيحة فتعهد محمود عطا بتذليل العقبات بشفاعته التي لا تُردّد، باعتباره من الأعيان المرموقين. هكذا دخل حامد المدرسة مع

يدور في الجناح الجديد. سرعان ما اعترضت الهانم مشكلة جديدة نشأت عن الكراهية المتبادلة بين راضية وشكيرة. لم تكن راضية تدري كيف تداري عواطفها، وكانت شكيرة لا تمارس النفاق. وكانت المودة بين نازلي هانم وراضية كاملة، ولكنها كانت في أعماقها تؤمن بخطورتها، وقالت لابنتها:

- حذار، حماك عليمه بفنون السحر وأسرار الأولياء، وأنا أصدق ما يقال من أنها مؤاخية للعفاريت، أعطيتها حقها الكامل من الاحترام والمجاملة...

وكانت تتوسل إلى راضية قائلة:

- من أجل عشرتنا وحبنا اصفحي عن ابنتي وامسحي أي خطأ منها في وجهي...

في خضم ذلك الاضطراب أنجبت له وحيدة وصالح وحظيت من حياتها المتوترة بشيء من العزاء، رغم أنها حياة لم تعرف الحب ولا السلام، كما أن منقصاتا انحصرت في أضيق الحدود. ولما وقع الشقاق بين الشقيقتين محمود وأحمد، وتمزقت وحدة الأسرة، خشي عمرو أن يجرف ابنه تيار عداوة لا شأن له بها. وكان عمرو يسعى لإصلاح ذات البين، ويحافظ على علاقته الطيبة بخالته فنصح حامد بأن يلتزم بموقفه هو - عمرو - وألا يقطع صلته بأحمد بك، وسعى لدى محمود حتى انتزع منه موافقته على ذلك، وارتاح حامد لذلك إذ كان يميل في أعماقه إلى خاله أحمد ويؤمن بعدالة مطلبه. وفي الفترة السابقة للحرب العظمى الثانية وما تلاها من أعوام، رحل عن الدنيا أحمد وعمرو ومحمود فشعر حامد بتحرره من الرقباء، وبلغت علاقته بزوجه الغاية من السوء. وقد أشقى ذلك فيمن أشقى وحيدة وصالح فتمزقا بين والديها. أجل كانت شكيرة صاحبة الأثر الأكبر في تربيتها فنشأ نشأة مهذبة وعرفا بالاجتهاد والتدين، ولم يعفيا والدهما قط من الاتهام وأدانا معاملته الفظة لأمها وإن حافظا ما استطاعا أمامه على الحياء والأدب. ولكنه تلقى نجواهما من نظرات عينيها، وشعر بالغرابة والغضب. وظل حامد على إيلاء حماته بما تستحقه من احترام ومجاملة، ولكنها اضطرت أن تقول له:

جديد، وكان الجميع يستيقنون في بذل التضحيات فلم يحزن عمرو أفندي كثيرا، وحمد الله على أنه لم يفضل ويُلَقَّ به في الطريق. ولما تخرج ضابطا، كانت مكانة محمود بك قد ارتفعت بإعلان ولائه للملك، فأمكنه أن يلحق حامد بالمراكز الرئيسية في الداخلية مع ابنه حسن، وسرعان ما زقت إليه شكيرة دون مطالبته بأي تكاليف فعلية، فانتقل من البيت القديم ببيت القاضي إلى سراي ميدان خيرت ليحتل هو وعروسه جناحا صغيرا في الطابق الأوسط الخاص بآل محمود.

نقلة ثورية بلا شك، ربيب الحواري في زواياها الكاسدة يجد نفسه بين يوم وليلة في سراي سامقة، تحيط بها حديقة غناء، وتزيئها التحف والتماثيل والأثاث الفاخر، وتطربها لغة الهوانم الرفيعة بأعذب ألحانها، وتحفل مواعدها بأطيب الأطعمة، وتعبق إلى جانب ذلك بمناخ ديني مهذب لا أثر فيه لغيبات راضية الخارقة. وجد حامد نفسه في قفص يحرسه رجل جبار هو محمود عطا المراكبي وهانم غاية في العذوبة والجمال هي نازلي هانم، أما شريكة حياته وقربته فكادت تكون صورة من أبيها في تكوينه الصلب ونسخة من أمها في التهذيب والورع. ولم يكن بوسعه أن يغير من طبعه، فقد تعامل في صباه مع البلطجية وما هو يواصل تعامله معهم كضابط شرطة كلما تمادوا في انحرافهم! ولم يكن من الممكن أن يولد حب في خلية الصغيرة، وما جرب في حياته سوى اللذة العابرة، ومنذ الأسابيع الأولى في حياته الزوجية أسفرت طبيعته عن حقيقتها في الكلمة والفعل. أجل لم ينس القفص والحارسين، كان يهاب محمود بك أكثر من أبيه، ويقف أمامه كما يقف أمام رؤسائه العظام بالداخلية، فكبح جماحه، على قدر استطاعته، وروض نفسه على الرضا بواقعه، ولكن العادة قاهرة واللسان خائن. وقد ارتعبت العروس وهمست لأمها: إنه غاية في الابتذال، أكله وشربه وحديثه...

وكانت الهانم ست بيت بالمعنى الكامل. طالبتها بالحكمة والصبر، وقالت لها:

- كل ذلك لا يمنع من أن يكون رجلا صالحا... كانت خير وساطة بين الطرفين ولم يدر أحد شيئا عما

## حديث الصباح والمساء ٨٦٣

عن الطالع والمستقبل، ثم يجول في ربوع الصبا ويزور الحسين قارئاً الفاتحة، وكان ذلك يمثل الغاية والنهاية في حياته الدينيّة. وكان أيضاً يزور بيوت أخواته وبيت أخيه عامر وآل داود. وفي تلك الفترة من حياته توثقت علاقته بحليم بن عبد العظيم باشا، وقد جمع بينهما نفس المصير على يد الثورة، كما توثقت صلته أكثر بآب عمّه لبيب، وكان يشارك الأول في تدخين الحشيش وكان يشارك الأخير في السكر، ثم يؤاخي بين أرواحهم نقد الثورة والسخرية برجالاتها وتدثر أيام العزّ الماضية. لم ينغص عليه صفوه إلا شعوره المطارد بأنّ وحيدة وصالح لا يكتان له من الحب ربع ما يكتنه لها منه، وأنها يؤثران أمهما عليه بلا حدود. وشهد بكلّ وجدانه مآسي وطنه، ومآسي أسرته، وشهد أيضاً وثبة أكتوبر ١٩٧٣. وفي العام التالي شعر بضعف، شخّص أولاً بأنّه فقر دم، ثمّ عرفت زوجته من نتيجة التحاليل أنّه سرطان دم، وأنّ النهاية واقفة أمام الباب. ولم يدر ما أصابه، ونُقل إلى المستشفى وهو يجهل، وشهد ساعاته الأخيرة الممزّقة بنزع الألم زوجته ووحيدة وصالح، وفي اللحظات الأخيرة طلب رؤية راضية ولكنّ تعذّر ذلك بطبيعة الحال لأنّها من ناحية كانت قد تجاوزت المائة، ومن ناحية أخرى لم تعلم بمرض ابنها، وظلّت على جهلها به حتى وفاتها. وأسلم الرجل الروح بعد عذاب، وودّعت دموع زوجته ووحيدة وصالح. أما شكيرة فلم يخفف الموت من كراهيتها العميقة له.

## حبّية عمرو وعزّيز

إن يكن لميدان بيت القاضي والحواري التي تصبّ فيه وأشجار البلخ السامقة أثر في قلوب آل عمرو وآل سرور، إن يكن للمآذن والدراويش والفتوات والأفراح والمآثم أثر، إن يكن للحكايات والأساطير والعارف الأثر، فهي حياة تجري مع الدم وتكمن في جذور البسات والدموع والأحلام في قلب حبّية - الخامسة في ذرّيّة عمرو أفندي - لم تطق مغادرة الحيّ على سnoch

- لقد آدميت قلبي بسوء معاملتك لشكيرة... وكان يحقد على شكيرة ويتصوّر أنّها التهمت خير سني حياته بغير حقّ. وتلاحيا مرّة وتبادلا كالعادة كلمات قاسية، وإذا بها تصرخ في وجهه وهي تبكي: - إنّي أكرهك أكثر من الموت...

واقدم على الحلم الذي راوده طويلاً فطلقها، وقال معتذراً لقربيه وصديقه وزميله حسن شقيقها:

- معذرة، لم أعد أحتمل، وكلّ شيء بمشيئة الله... ولم يعد إلى البيت القديم في بيت القاضي إلا شهراً واحداً. ولخصت راضية موقفها قائلة:

- ما كان يجب أن يتمّ ذلك الزواج، ولكن ما كان يحقّ لك الطلاق إكراماً لوحيدة وصالح...

رغم أنّها اتهمت في السراي بأنّ سحرها كان وراء الطلاق كما كان وراء فشل الزواج من أول يوم.

وانتقل حامد إلى شقّة في عمارة جديدة بشارع المنيل دلّه عليها قرابه حليم بن عبد العظيم باشا داود حيث كان يسكن شقّة أخرى بها. وفي الخميسات وهو يقترب من الخمسين أعجبت أرملة في الأربعين تدعى عصمت الأورفلي فتزوّج منها وجاء بها إلى شقّته بادئاً حياة جديدة. ووهنت علاقته بوحيدة وصالح وإن لم تنقطع. ولما قامت ثورة يوليو أحالته إلى المعاش ضمن ضباط الشرطة الذين اعتبرتهم أعداء للشعب، علماً بأنّه حافظ على وفديّته في قلبه دائماً، ولكنّ الثورة عدت الوفديين أعداء للشعب أيضاً. وانطوى على نفسه حيناً في مسكنه مع عصمت حتى تبين له أنّ حليم ابن شقيقته سميرة من المقرّبين ومن أصحاب النفوذ، فطلب إليه أن يفعل شيئاً من أجله، وفعلت تعيين مدير علاقات عامة بعمر أفندي بخمسين جنيهاً شهرياً إلى معاشه. وطابت له الحياة نوعاً ما، ووجد في

الزوجة الجديدة امرأة عنكّة تعاملت بمكر حسن مع نزواته وابتذالاته وهيات له حياة مستقرّة... لا انفصام لها فيما بدا. ولم ينقطع أبداً عن زيارة البيت القديم والتودّد الصادق لأمّه وأخيه قاسم، وكان يجد في غرابه أطوارهما ما يسره ولا يكفّ عن مباحثتها. يترك جبينه لأمّه تلثمه بحنان، ويسلم رأسه لها لترقيه وتتلو عليه الصمديّة وبعض محفوظاتها من الأوراد، ويسأل أخاه

ولكنه كان راسياً هدفاً ولم تكن قوة هناك لتحميد به عنه. أما حبيبة فقد توجت الكهولة حياتها الجافة فبليت وتبدت كالليل. وراقبت صعود ابنها بسعادة، ولم يكن يرضن عليها بما، ولكتها أبت أن تهجر الدرب الأحمر إلى مغانيه الجديدة. ولما تركها إلى بيت الزوجية غاصت في غربة مخيفة لم تفلت من قبضتها حتى الموت. وقالت لها راضية:

- نحن نربيهم لهذا وعليك أن تفرحي وتحمدي

الله . . .

فقال بانكسار:

- شد ما ضحيت من أجله!

فقال راضية:

- هكذا كل أم. وعليك أن تزوري سيدي يحيى

بن عقب . . .

وكانت حبيبة آخر من مات من آل عمرو، فبكت

الجميع بحرارتها المعروفة حتى صفت عينيها، ولما

ماتت لم تجد من يبكي عليها . . .

## حسن محمود المراكبي

نشأ في احضان النعيم ما بين السراي الكبرى

بميدان خيرت وسراي العزبة ببني سويف. وكانما جيء

بنازلي هانم إلى آل المراكبي لتحسين النسل، فتجلى

أثرها الطيب في الذكور، ومنهم حسن الذي عرف

بطول قامته ووسامته ومثانة عوده. وبفضل تقاليد تلك

الأيام وساحة القاهرة على عهدها لم يكن يمر أسبوع

دون تزاور بين ميدان خيرت وميدان بيت القاضي.

وأراد محمود بك أن يوجه بكرته لدراسة الزراعة لينتفع

به في حينه، ولكن إقباله على الدراسة كان فاتراً كقربيه

حامد، فأدخلها الرجل مدرسة الشرطة معاً. وغمرت

ثورة ١٩١٩ بعواطفها القوية وإن لم يتعرض بسببها

للأذى كما حصل لحامد. وسرعان ما شارك أسرته

موقفها من زعيم الثورة وولائها للملك. وكان ذلك

أوفق لعمله في الداخلية فلم ينقسم كحامد بين باطن

ولفدي وظاهر حكومي. وبفضل نفوذ أبيه لم يعرف

عناء العمل في الأقاليم، ولم يستجب لرغبة أبيه في

الفرص الباهرة، ولم يحب الأب أو الأم أحد كحبهما

لها، ولا الإخوة ولا الأخوات ولا أبناء العم ولا بناته،

حتى الجيران والقطط. بكت كل راحل وراحلة حتى

عُرفت بالنائحة، وحفظت الذكريات والعهود، وثملت

دائماً بالماضي وأيامه الحلوة. كادت في الجمال أن تماثل

سميرة لولا سحابة تعلو عيناها اليسرى. ووقف حظهها

من التعليم عند محو الأمية، وسرعان ما استردت أميتها

لإهمالها. ولم تعرف من الدين إلا دين أمها الشعبي

ولكتها اقتنعت بأن عشق الحسين هو خير وسيلة إلى

الآخرة. وفي سن السادسة عشرة خطبها مدرّس لغة

عربية يدعى الشيخ عارف المنيوي من زملاء أخيها

عامر ووقّت إليه في الدرب الأحمر، وبعد عام من حياة

سعيدة أنجبت له «نادر»، وبعد عامٍ ثانٍ سقط الرجل

في قبضة السرطان ومضى قبل الأوان. وهتفت راضية

من قلب مكلم:

- ما أسوأ حظك يا ابنتي.

وعاشت حبيبة مع حماها على دخل دكانين

بالمغربلين، مكرّسة حياتها لوليدها، أرملة دون

العشرين من عمرها. وأحيت نادر حبّ الأمومة المعتاد

بالإضافة إلى حبّ قلب كأنما تخصّص في الحب. ولما

أنهى نادر مرحلة الكتاب في أوائل الثلاثينات أراد

محمود بك عطا أن يزوجه من عمدة ببني سويف. وقد

رحت الأسرة بذلك، وكان عليها أن تسلّم نادر إلى

عمه، ولكتها رفضت بقوة، أبت أن تسلّم ابنها كما

كرهت أن تغادر الحي. وقال لها حامد أخوها:

- أنت مجنونة ولا تدرين ماذا تفعلين!

فقال:

- بل أدري ما أفعل تماماً . . .

وحاول عمرو وحاولت راضية ولكتها لم تعدل عن

قرارها. وتخرّج نادر في مدرسة التجارة العليا في أثناء

الحرب العظمى الثانية. وتعيّن في مصلحة الضرائب،

ولكنه عُرف من أول يوم بطموحه الذي لا حد له،

وراح يدرس اللغة الإنجليزية في أحد المعاهد الخاصة،

وأشغقت أمه عليه من انهاكه في العمل ما بين

المصلحة والمعهد. وتسأل:

- لماذا تكلف نفسك هذا التعب كله . . . ؟

## حديث الصباح والمساء ٨٦٥

دفعات وأنشأ بماله متجرًا في شارع شريف راح يديره بنفسه فازدادت ثروته. أمّا أبناؤه محمود وشريف وعمر فقد تربوا في مدارس الثورة وتشبعوا بفلسفتها واثمّلوا ببطولة زعيمها، ولم يأسف حسن على ذلك، بل وجد فيهم وفي أخويه عبده ونادر حماية له من أعاصير تلك الأيام، ولعلّ أخويه كانا وراء الأسباب الخفية التي جنّبت متجره التأميم عام ١٩٦١. ولما وقعت كارثة ه يونيه كان محمود وشريف وعمر قد تخرّجوا أطباء وعملوا في مستشفيات الحكومة، وأدرّكتهم النكسة التي زلزلت الجيل الناصري فأذرتهم مع رياح الضياع واليأس. ولذلك ما كاد الزعيم يرحل ويحلّ محلّه السادات حتّى هاجر محمود وشريف إلى الولايات المتّحدة ليبدأ حياة علميّة جديدة ناجحة، أمّا عمر فقد فاز بعقد عمل في السعودية. ووجد حسن في السادات وسياسة الانفتاح بغيته وعزاه عن كافّة هزائمه الماضية فشمّر للعمل والثراء الخياليّ، وشيّد له ولزوجته قصرًا في مدينة المهندسين وعاش عيشة الملوك وهو يحلم بعودة أولاده ذات يوم ليرثوا ما جمع لهم من ملايين. وانتهت حياته في الثمانينات في حادث عارض، إذ كان يسوق سيّارته المرسيديس في شارع الهرم فانقلبت به واحترقت، واستخرجوا جثته منها متفحمة متخلّية عن الدنيا وملايينها. . .

## حُسنِي حَازِم سرور

هو بكريّ حازم وسميحه. وكان ذا جسم رياضيّ ووجه مليح وذكاء وقاد. وقد نشأ في النعيم في فيلأ الدقيّ، وتخرّج مهندسًا عام ١٩٧٦، ولم يجد - كأخيه - في حياته مشكلة ما، ولا عرف هموم الانتفاء، ومثل أبيه جرى في طريق النجاح والثراء في مكتب أبيه. وأرادت سميحة أن تسيطر عليه كما سيطرت على أبيه ولكتّنها وجدته مستعصيًا على السيطرة، ويشور مثلها لأنفه الأسباب، ولست فيه المرأة جوحًا خطرًا فنزعت تحطّط لزوجها ولكنّه قال لها بوضوح:

- لا شأن لك بهذا. . .

فقالته بحدّة:

الزواج المبكر، ولكنّه مارس حياة إباحيّة مستغلًا سحر زيّه الرسميّ الملّون وما توفّر له من نقود مرتّبه والنفحات التي كانت تكرمه بها أمّه. ولكنّه أذعن أخيرًا فتزوّج من عروس تدعى زبيدة من أسرة أمّه. فزوّت إليه في شقّة بجاردن سيتي، وعاش في مستوى يحسده عليه وكيل الداخليّة نفسه. واشتهر في عهود الانقلابات السياسيّة بالعنف في تفريق المظاهرات. وتلقّى حملات متتابعات في الصحف الوفديّة، بقدر ما أساءت إلى سمعته لدى الجماهير فإنّها زكّته خير تزكية عند السراي والإنجليز، وأتاحت له ترقّيات استثنائيّة. وقال عمرو أفندي لحامد ابنه:

- دخلتني المدرسة في عام واحد وها هو يرقيّ إلى رتبة اليوزباشي على حين أنّك ما زلت ملازمًا ثانيًا. . .  
وكان سرور أفندي حاضرًا على نفس مائدة الغداء فقال بلسانه الخاد:

- خائن وابن مراكيبي!

ولكنّ حامد وحسن كانا صديقين بالإضافة إلى قرابتهما، وتوثّقت العلاقة أكثر بعد زواج حامد من شكيرة. وقد تعرّض حسن للموت في عهد صدقي فأصابت طوبه رأسه وأخرى عنقه، وقضى في المستشفى شهرًا كاملًا. وكان اعنف إخوته على آل عمّه أحمد عندما فرّق الخلاف بين الأخوين. بل قد تصادم مع ابن عمّه عدنان واعتدى عليه بالضرب في السراي فكان يومًا مأساويًا في تاريخ الأسرة. وأنجب حسن ثلاثة من الذكور محمود وشريف وعمر، وضرب بهم المثل في الجمال والذكاء. ولما قامت ثورة يوليو كان لواء. وكان ثريًا جدًّا بما ورثه وما ورثته زوجته، ولكنّ الثورة أحالته على المعاش في حركة تطهير الشرطة فخرج مع حامد في قائمة واحدة، وكانت علاقته به قد انقطعت بعد طلاق شكيرة. وقال لزبيدة:

- علينا أن نبيع الأرض فقد انقلب الدهر على ملاك الأراضي.

والضرر الذي لحقه بيد الثورة لا يقاس بما دهم غيره من طبقته، منهم ابن عمّه عدنان، ولكنّه وجد نفسه، في المعسكر المضاد، ومارس عواطفه كلّها نحو الثورة الصاعدة. ومضى يبيع أرضه وأرض زبيدة على



يذكر. وترامت إليه أبناء عن علاقة مربية بينها وبين  
تمثل أدوار ثانوية يدعى رشاد الجميل، فرصد لها  
العيون حتى ضببطها في شقة مفروشة بالعجوزة.  
واعتدى عليها بالضرب حتى قتلها، وحوكم، وقضي  
عليه بخمسة عشر عامًا. وعرف أقرباؤه خبره مما نشرته  
الصحف وما كانوا قد سمعوا به من قبل. وأكثر من  
شخص منهم هتف:

- يا أَلطاف الله، إنّه حازم بن سرور أفندي رحمه الله.

## حكيم حسين قابيل

الناظر في عينيه الواسعتين العسلتين يبهره حسن  
تكوينها وقوة إشعاعها، ورأسه الكبير غزير الشعر  
يضفي عليه مهابة. وهو الثالث في ترتيب ذرية سميرة  
بنت عمرو أفندي وزوجها حسين قابيل تاجر التحف  
بخان الخليلي. وكان شارع ابن خلدون مدرج طفولته  
وصباه حيث تقيم الأسرة بعمارة به، كما كانت حديقة  
الظاهر ببيرس ملعبه. وعلى ذكائه وتفوقه ولع منذ  
الصغر بالمقامرة، مارسها أولاً في الدومينو والطاولة  
وأخيراً في البوكر والكنكان.

كما عرف بصداقته الحميمة لجار من جيرانه تلازما  
في المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثم اتجه حكيم إلى  
مدرسة التجارة على حين التحق الآخر بالكليّة  
الحريّة. وقد عرف حكيم أهل أمّه جميعاً، عمرو  
وسرور والمراكبي وداود كما عرف أهل أبيه، وأدهش  
خالتيه عامر وحامد بأرائه السياسيّة الرافضة أو شبه  
الرافضة للوضع كلّه. قال له حامد:

- إني أعتبر المعاهدة إنجازاً مشرفاً للوفد!

فقال حكيم:

- لا حصر لسلبياتها، ثم إني لا أومن بالأحزاب...  
- الإخوان تجار دين ومصر الفتاة عملاء فاشيست!  
- ولا هؤلاء جميعاً!  
- إذن بماذا تؤمن؟  
- لا شيء...  
- وضحك عامر ضحكة خفيفة فقال حامد:

- هذه نعمة نشاز في أسرنا...  
- ولكنك طفل...  
- فضحك عاليًا وهو ينظر نحو أبيه الذي زاغ من  
عينيه وقال:

- أنا المالك الوحيد لحياتي...  
- ولكنك لا تدري شيئًا عن الزوجة الصالحة...  
فسألها بسخرية:

- وما الزوجة الصالحة؟  
فقال بصوت مرتفع:

- الأصل والمال وهما مترادفان!  
فقال مواصلاً بسخريته:

- شكرًا لا حاجة بي إلى مخاطبة!  
وكان قد عشق راقصة بأحد ملاهي الهرم تدعى  
عجبية، تجاوز عشقه لها النزوة العابرة، حتى اقترح  
عليها فكرة الزواج... وقالت له:

- لولا الحب ما قبلت قيد الزواج...  
وسعد بذلك كلّ السعادة، غير أنّها اشترطت عليه  
الأ يطالبها بهجر حياتها الفتيّة، فتفكر مغتمًا ثم قال:

- إذن لننق كما نحن...  
فقالت غاضبة:

- بل يذهب كلّ منّا إلى حال سبيله.  
فقيل مرغماً وعقد زواجه عليها. وكان أخوه أدهم  
أول من علم. وكان أبوه الثاني. ولما حمل الخبر إلى  
سميحة ثارت ثورة وجم لها الخدم وتساءل الجيران.  
أما حسني فانتقل إلى شقة تملكها زوجته بشارع الهرم.  
وهناك قالت له:

- لم أهجّر حياتي الفتيّة لأنّ السينا بدأت تعترف  
بأهمّيّة...  
ولكنّ الظاهر أنّ طريق ذلك الاعتراف لم يكن  
مهمّداً، وأنّ الأمر احتاج إلى أن ينشئ حسني شركة  
إنتاج سينمائيّة من أجل عبقرية زوجته. وشعر بأنّ أباه  
لا يوليه الثقة التي كان يحظى بها فطالب بنصيبه من  
رأس المال على أن يتفرغ لعمله الجديد. وحقّق له أبوه  
رغبته وهو يقول له:

- ليكون ذلك سرّاً بيننا...  
بذلك انفصل حسني تماماً عن أمّه بل عن أسرته...  
وأنتج لعجبية فيلمين لم يستطيعا أن يخلقا منها شيئاً

## حديث الصباح والمساء ٨١٧

فقال واجماً:

- ومسألة أخيك سليم أيضاً  
وعدل عن التفكير في الوزارة ولكنَّ نجمه استمرَّ في  
الصعود فانتخب عضواً في مجلس الأمة، وما زال نوره  
يتألق حتى ٥ يونيه فابتلعت الظلمات صديقه فيمن  
ابتلعت، وتلاشى نفوذه بضربة واحدة وإن بقيت له  
وظيفته. جاء السقوط هزيمة شخصية فوق الهزيمة  
العامة ومضغ مرارة الهوان بعد حلالة العزة. وشقَّ  
عليه تنكُّر الكثيرين له حتى الذين انتشلهم من التهاة  
بوفاته. ولم يبقَ له من عزاء في الدنيا إلا في ابنه حسين  
وعمره اللذين صاروا ضابطين في سلاح الفرسان. وفي  
تلك الأونة تجلَّت به أعراض ضغط الدم الخبيث  
وقاسى منها ما قاسى، ثم دهمته داهية كثيراً ما ناوشته  
في أحلام يقظته السوداء، عندما بُلغ باستشهاد عمره  
في حرب الاستنزاف وكان - بخلاف سنيَّة - يحبُّ ضبط  
النفس والتظاهر بالشجاعة والرضا بالقدر، تاركاً  
أحزانه تنعقد في أعماقه كالعكارة في جوف الوعاء.  
وواصل وجوده حتى رحل زعيم وخلفه آخر، وعاصر  
٦ أكتوبر فهزَّته نشوة لم يشعر بمثلها منذ الأيام السعيدة  
قبل ٥ يونيه، ولكن سرعان ما تخذت شعلتها عندما  
تلقى نبأ استشهاد ابنه الباقي حسين في الميدان.  
وانفجر الضغط صاعداً بلا ضابط فوق ضبط النفس  
والتظاهر بالشجاعة والرضا بالقدر فقتله، وتحدث تلك  
الأمور وراضية تهيم في ذروة شيخونتها. وتضاحك  
الملائكة في البيت القديم.

## حليم عبد العظيم داود

ولد ونشأ في فيلاً أنيقة بالعباسية الشرقية، وهو  
الابن الثالث لعبد العظيم باشا داود. مقبول الوجه  
رياضي الجسم مدمن منذ صغره للهو واللعب والمزاح  
والعريضة، لا تصدر عنه كلمة جدِّ واحدة. أخواه  
اللذان سبقاه كانا غاية في الجدِّ والاجتهاد، لذلك قال:  
- خلقت لأخيت التوازن الضروري في الأسرة.  
ويتابع عبد العظيم باشا عشراته المدرسية بمرارة

وتخرج حكيم في إبان الحرب العظمى الثانية، بعد  
وفاة والده بقليل، وتعيَّن في مصلحة الضرائب، وما  
لبث أن أحبَّ زميلة له تدعى سنيَّة كرم فتزوَّج منها  
وأقاما في شقَّة بالعباسية الغربية، وأنجب منها حسين  
وعمره، ووعدت الحياة بخطِّ روتيني معروف الأول  
والآخر. ولكن قامت ثورة يوليو وإذا بصديق عمره  
نجم من نجومها، وبذلك تفتق المستقبل عن أبعاد  
جديدة لم تخبر لأحد في خاطر. وفي الوقت المناسب  
اختير حكيم في وظيفة إشرافية في إدارة التوزيع بإحدى  
الصحف الكبرى، ووثب مرتبُّه بجرَّة قلم من  
العشرات إلى المئات. ودوى مقامه في شجرة الأسرة  
من أسفلها إلى أعلاها. تاهت به أسرة سميرة، وسعد  
به آل عمرو رغم وفديتهم المهيضة، أما المعارضون من  
آل المراكبي وداود فقد قالوا ساخرين:

- ذهب فساد متواضع وجاء فساد شره...

ولصلته بصديقه الحميم هابه حتى الوزراء وداهنه  
الأعداء والأصدقاء. وسرعان ما انتقل إلى شقَّة جديدة  
بالعباسية الشرقية واقتنى سيارة وأصبح حقيقة من  
رجال العهد. وكان وفيًّا لاسرته ولأصدقائه، فمدَّ يد  
المعاونة لخاله حامد ولابن خالته نادر، وبفضله عومل  
أخوه الأصغر سليم معاملة لم تخلُ من إنسانية عند  
التحقيق معه قبل سجنه، كما كان الوساطة الناجمة  
وراء تعيين كثيرين من أصدقائه حراساً عقب فرض  
الحراسة على من فرضت عليهم من الأسر. وظلَّت  
علاقته بصديقه الحميم كما كانت رغم استوائه قائداً  
بين القادة الجدد، فلا يمرَّ أسبوع دون لقاء عائلي في  
قصر القائد يتبادلان فيه نجوى الحبِّ والذكريات. وفي  
إحدى هذه المرَّات سأله بلا كلفة:

- أما آن الأوان لترشحتي وزيراً؟

فقال الرجل:

- وما قيمة الوزير؟ سينقص ذلك إلى النصف...

- ولو...

فقال الآخر ضاحكاً:

- أصارحك بأنِّي فعلت...

ورمقه بنظرة باسمه ذات معنى، فقال حكيم:

- أعدك بأن أقلع عن القهار...

ويقول له:

- ستكون عازًا على نفسك وأسرتك.

ولكنه لم يكن يكتثرت للامامة، ولم يحتفظ من سجايا أسرته إلا بالكبرياء والغرور والنظرة إلى الآخرين من غل، حتى أهله كمال وعمرو وسرور أضمر لهم الازدراء وحنق على المتفوقين منهم، ولم يسلم من لسانه إلا عامر الذي تزوج من شقيقته عفت، أما آل المراكبي فكان يضعهم - رغم ثرائهم - في الدرجة التي كرسها لهم أسرة داود باعتبارهم أشباه أميين ومن صلب رجل كان يبيع المراكيب. ولم يكن يتورع عن إغواء قريباته الجميلات اللاتي يقاربن سنه مثل جميلة وبهيجة ابنتي سرور أفندي أو دنانير بنت رشوانة... لولا نقل التقاليد ويقظة الأمهات. ولعل حامد كان الوحيد الذي يعمل له ألف حساب لقوته واستعداده الفطري للعنف، فحقد عليه، ولم يصف ما بينها إلا حين جمع بينها سوء المصير في أواخر العمر. وفي صباه ومراهقته - ويتدليل أمه له - أتقن السباحة والكرة والقمار والخمر والعشق والمزاح، وامتاز أيضًا بصوت عذب فكان يقول بغروره المعهود:

- لولا تقاليد الأسرة لكنت مطرب العصر.

وبعد صراع طويل مع المدرسة قرّر الالتحاق بمدرسة الشرطة. واستاءت الأسرة رجالاً ونساء وقال له أبوه:

- نحن أسرة قانون وطب...

فاعترف له قائلاً:

- لا صبر لي على المذاكرة.

ولما التحق بالمدرسة وجد حسن محمود عطا المراكبي بالسنة النهائية وحامد بالمرحلة الوسطى، فكان عليه أن يؤدي لهما في نطاق التقاليد المدرسية فروض الذل والطاعة، وكان أهون على نفسه أن يؤدي ذلك لأي جندي... ومرة تناول الثلاثة الغداء عند راضية، وهناك تحرر من واجباته والتزاماته، وشاحوا ثلاثتهم حديث الأصل، في مفاخرة ساخرة، فذكرها بأصلها وعبره بأصله. قال له حامد:

- أنتم باشوات حقًا ولكنكم من طين الأرض خرجتم.

وتابعت راضية حديثهم باسمه ثم قالت:

- الكل في النهاية من صلب آدم وحواء، وليس في

الأسرة كلها من بطل إلا أبي الشيخ معاوية...

وكان حلیم يعتبر راضية من عجائب هذه الدنيا بدوّشيتها وسحرها وأورادها وعفائيتها، ويقول لأمه:

- لولا الحظ لانتحذت مكانها الطبيعي بين مجذوبات الباب الأخضر.

وتتف به أمه:

- إياك أن تمس بسوء أحب الناس إلي...

كانت تؤمن بها، وعند كل لقاء تدعوها لقراءة فنجانها، وعندما حدثت قرب نهايتها في كبرها أوصت بأن تشهد راضية غسلها دون غيرها من أهلها أو أهل زوجها. وتخرج حلیم ضابطًا بعد حامد بعام، وبفضل أبيه عُين في المراكز الخاصة بالداخلية ف قضى أكثر خدمته في حراسة الأميرات والوزراء. وقد مرت به ثورة ١٩١٩ وكأنتها فيلم مثير يشاهده في إحدى دور العرض. لم يعرف طيلة حياته انتهاء إلا إلى اللهو والعريضة والمزاح والطرب... كان أبوه وأخوه من دراويش الأحرار الدستوريين، أما هو فكان درويش الحانات والملاهي الليلية ونوادي القمار. ولم يفكر أبدًا في تكوين أسرة أو الالتزام بأي قيد. وقد اختار لنفسه شقة في عمارة بشارع النيل - هي التي دلّ عليها حامد بعد طلاقه - وزيتها هدايا الأميرات والوزراء، وشهدت من بنات الليل والفنانات أشكالا والوانا. ولم يكن يتورع حتى عندما ارتفعت رتبته أن يقضي سهرة في عسامة مونولوجست، يسكر ويعربد ويغني، ثم يرجع عند الفجر إلى مأواه وهو يترنح. وقد ساءت العلاقة بينه وبين والده، وبينه وبين أخويه، وبذلت محاولات عقيمة لتزويجه. ومع الأيام غلبهم بروحه المرحّة فغزا قلوبهم وبيوتهم حتى سلّموا به كشرًا لا بد منه، بل لعله كان أمتع شرّ في أسرهم. ولما قامت ثورة يوليو نُقل إلى التفتيش. أجل كان أحسن حظًا من حامد وحسن ولكنه عانى العمل الجاد لأول مرة على كبر. إلى هذا فقد أظهر للثورة حنقًا من أول يوم، وتساءل كيف يسرق الحكم أناس لا ميزة لهم إلا استحواذهم على السلاح؟ وهل يحقّ قياسًا على ذلك أن يتحول قطاع الطرق إلى ملوك؟ وما هذا الذي يحدث للأمر

وفعلًا أسلم الروح تلك الليلة بين حامد وزوجه .

## حرف الخاء خَلِيل صَبْرِي المَقْدِد

بكرى زينة صغرى بنات سرور أفندي، وُلد ونشأ في مسكن الأسرة في بين الجنان، في مستوى متوسط حسن. بفضل ارتفاع مرتب أبيه النسبي يعتبر أفضل من مستوى جدّه الذي توفي قبل زواج أمّه من أبيه، وكان أشبه الأحفاد بخاله لبيب، فائق الجمال الموروث عن جدته ست زينب وأمّه أيضًا زينة التي خصّصت بجمال لا بأس به وإن يكن دون شقيقتها جميلة وبهيجة. وكانت زينة تفارق بين وجهه ووجه شقيقته الصغرى أميرة بحسرة، فقد اقتبست البنت من أمّها أنفًا أفسد صفحة وجهها الحسن ولبّد سماء مستقبلها الأنثوي بالمخاوف، غير أنّها سرعان ما خطفها الموت عقب نزلة معوية حادة. وأبدي خليل نجابة في حياته المدرسية، وتشرب بعحاس جيل الثورة الناصرية، غير أنّه تلقى تجربة عاطفية استثنائية في ختام مرحلته الثانوية، إذ نشأت علاقة بينه وبين جارة أرملة جاوزت الثلاثين من عمّرها تدعى خيرية المهدي كانت تكبره خمسة عشر عامًا .

و ذات مساء قالت زينة لزوجها صبري المقدد:

- خيرية المهدي أغوت ابنك المحترم!

وبهت صبري أول الأمر. لم يكن متزمتًا، وكان أبًا ودودًا متفاهمًا لأقصى درجة، وقد كان في شبابه عربيًا حتى انضبط بالزواج بمعجزة. وبقدر ما أزعجه الخبر بقدر ما أثار تيهه، وراقب الولد حتى تأكّد له تردّد على بيت الأرملة، وقالت له زينة:

- إنك لا تتحرّك . . .

فسألها:

- هل تؤمنين بجذوى النصيحة؟

فقالت بقلق:

- إنّها في سنّ أمّه . . .

- سرعان ما يشبع ويذهب . . .

فقالت معترفة:

الكريمة؟. وكيف تُلغى الباشوية بجزّة قلم؟. وكيف يخاطب بعد اليوم أباه وشقيقه الأكبر؟. وكيف يؤذي هو سلام التعظيم لضابط يمثله في الرتبة أو يقلّ عنه؟. والأدهى من ذلك كلّهُ أنّه يوجد من آل المراكبي ضابطان يُعتبران من الصفّ الثاني من الحكّام!. وأنّ حكيم ابن سميرة يلحق أيضًا بهيئة الحكّام!. حقًا لقد انقلب العالم فصار عاليه أسفله وصار أسفله عاليه، اضطرمت في قلبه نيران الغيرة والحق وتجهّم بكلّ غضب للعالم الجديد الذي تجهّمه.

وشدّ ما فرح بالعدوان الثلاثي فظنّ أنّ الستار سيسدل على المهزلة ويستقيم حال الدنيا، ولكنّ الحوادث خيّبت أمله واستقبل الزعيم حياة جديدة كلّها فتوّ وبطولة. وفي السّينات توفي أبوه، وتبعه شقيقه الأكبر بعد عامين فتضاعفت غربته وأساه وأفرط بلا حرص في لهوه وعربدته. وكان يقضي ليله في شقّة فاخرة تدار للقمار السريّ عندما كبسها البوليس. وأظهر شخصيته لرئيس القوّه ولكتّه تعامى عن ذلك وساقه مع الآخرين إلى قسم شرطة قصر النيل، ولم تنته المسألة إلى خير فأرسل إليه وزير الداخلية يطالبه بتقديم استقالته تفاديًا لما هو أسوأ، فقدمها على رغمه، ووجد نفسه على المعاش. وقرّر في ظلّمة اليأس أن يقصر خطوطه. وعرض عليه حامد أن يوسّط حكيم ليجد له عملاً كما نفعه ولكنّه رفض شاكراً. فضّل أن يعيش في نطاق معاشه على أن يدلّ نفسه أمام حكيم ووجد في المعاش ما يكفي لمعيشته، واستبدل بالويسكي الخشيش لرخصه النسبي وأثره المناسب، وتفرّغ بكلّيته للحقد على المهذ ورجاله والسخرية منهم في غرزه الخاصّة الحافلة بالحاقدين. ولتّما وقعت كارثة ٥ يونيه قرّر أن يبيح لبيت الله الحرام. ولم يكن له من الدين إلا الاسم كغالبية أسرته، ولكنّه حجّ، ورجع إلى حياته لم يغيّر منها شيئًا، وسكنت انفعالاته بعض الشيء، ولكنّه أصيب بالسكر، ولم يكن يملك من الإرادة ما يواجه به متطلّباته من الرجيم فاستفحل معه، وحصلت له مضاعفات متلاحقة. وذات مساء أتصل تليفونيًا بجاره وقريبه حامد وقال له:

- تعال أنت وزبيدة هانم . . . إنّي احتضر . . .

- من ناحيتي لن أسكت، فهل تتصوّر أنّها يفكران في الزواج؟

وضحك الرجل غير متمالك نفسه وهتف:

- العييط!

وراح يتحرّى حتّى عرف أشياء. وقال لزينة:

- المرأة غنيّة... .

ولست منه ترحيبًا فاستنجدت بأخيها لبيب، وكانت حياته العامة والخاصة لا تسمح له بتقبّل المزيد من المشكلات، وفي الوقت نفسه لم يستطع أن يتجاهل حيرة شقيقته الصغرى، فزار بين الجنائين متفضلاً، وجمع بين الابن والديه، وعرض الموضوع صراحة، ولم تسفر المناقشة عن نتيجة ترضي زينة، وقال خليل: - لن يحصل شيء بيني وبين الاستمرار في الدراسة... .

فقال لبيب حاسماً الموضوع ومخاطباً زينة:

- احمدي ربّنا، العروس عمرها كبير ولكن ما لها وفيه... .

وأرادت زينة أن تؤخّل الزواج حتّى ينتهي خليل من دراسة الحقوق ولكنّ العروس كانت أحرص على حفظها من ذلك، ولم يتأخّر الزواج إلّا ريثما تجدد المرأة بيتها وتؤثّته، وتزوّجت من خليل، ولتّما حصل على الليسانس في عام ١٩٦٥ كان قد أنجب بكره عثمان وتعيّن في قضايا الحكومة، وقدّر كثيرون أنّ الزواج مقضيّ عليه بالفشل في سنّ معيّنة، ولكنّ خيرية فارقت الحياة في الخمسين وهي تجري جراحة في الكلوة، ولم تنجب سوى عثمان، ولم يفكر خليل في الزواج مرّة أخرى.

عزيم

داود يزيد المصري

هو الابن الأصغر ليزيد المصري وفرجة الصياد. ولد بعد أخيه عزيز بعام في بيت بالغورية على مبعدة يسيرة من بوابة المتوليّ، وكانت فرجة الصياد ترقب الوقت المناسب لإرسالها إلى أمها بالسوق ليتدربا على

بيع السمك ولكنّ يزيد قال لها:

- أحبّ أن يتعلّم أولًا في الكتاب... .

فتساءلت محتجة:

- ولم نضيع الوقت بلا ثمرة؟

فقال الرجل بثقة:

- لولا أنّي أفكّ الخطّ وأعرف مبادئ الحساب ما

ظفرت بعلمي في وكالة الوراق... .

وكانت المرأة تجبّ في بيع السمك فوائده لا يحظى بمثلها زوجها في الوكالة، ولكنّها لم تستطع ثنيه عمّا عزم. ووجد الرجل تشجيعًا من صديقه الشيخ القليوبي المدرّس بالأزهر، بل قال له:

- الكتاب وبعده الأزهر إن شاء الله تعالى... .

ولكنّ تدنّب يزيد - كصديقه الثاني عطا المراكبي الذي كان يقيم في نفس البيت - كان قانعًا بأداء الفرائض المتاحة كالصلاة والصوم لا يتجاوزهما إلى أحلام دينيّة أعمق، فرسم لولديه الكتاب كمدخل للحياة العمليّة. وذات يوم والشقيقان يجولان ما بين الغوريّة والسكّة الجديدة رأيا نفرًا من رجال الشرطة، أمّا عزيز فيلهام خفيّ هرب، وأمّا داود فقد اعتقله رجال الشرطة وساقوه إلى المجهول. وتحدّث الناس بما رأوا، وعرفوا أنّ الوالي عمّد عليّ يحمل أبناء الناس إلى ما وراء الأسوار ليلقّنوا علومًا جديدة، إنّه يجسّم تحت الحراسة حتّى لا يفروا من التعليم. وقال عزيز لأبيه:

- لولا العناية لسقطت في أيديهم... .

وشكا يزيد «مصيبته» إلى الشيخ القليوبي فقال له:

- لا تخزن، ابنك في الحفظ والصون، وربّنا يدفع

عنه السوء... .

وبلغ الحزن بالأسرة متناه، ودعت فرجة على الوالي بالهلاك، وشدّدوا في المحافظة على عزيز الذي واصل تعليمه في الكتاب، ومضت أعوام فاشتغل عزيز ناظرًا لسبيل بين القصرين وتزوّج من نعمة المراكبي ابنة عطا المراكبي، وإذا بداود يرجع إلى الغوريّة وقد أنتمّ تعليمه... . وفرحت الأسرة بعودته فرحة كبرى، ولكنّها لم تدم، إذ قال داود:

- سيرسلوننا في بعثة إلى فرنسا.

فصاح يزيد:

## حديث الصباح والمساء ٨٧١

عزيز:

- عندنا أسرة السوراق التي كان أبونا يشتغل في  
وكانتهم...

أسرة من أصل مصريّ شاميّ، ووجدوا ضالّتهم في  
حفيدة الوراق الكبير سنّية الوراق، فرحبوا بالعريس،  
وتّم الزفاف، ومضى داود بعروسه إلى بيت جديد  
بالسيّدة، وقد أنجب منها ولدًا - عبد العظيم - وثلاث  
بنات اختطفهنّ الموت صغارًا. وترقى داود في عمله  
حتىّ حصل على رتبة الباشوية ورسخت مكانته  
الرسمية والعلمية. وقبض له أن يوفق بين شخصيّته  
المتناقضتين توفيقًا ناجحًا فكان في عمله الطيّب خير  
رسول لحضارة جديدة، له رؤيته المستقبلية الوطنية التي  
يحفزها شعور أليم بما ينقص وطنه في مجاله، وله  
صداقاته الوطنية بأقرانه من المصريين والأجانب، وإلى  
جانب ذلك توافّق مع زوجة - رغم جمالها ودرجتها  
الاجتماعية وتعليمها الأوّل الساذج - لم تكن تختلف  
اختلافًا جوهريًا عن أمه فرجة السمك، ولا عن زوجة  
أخيه الأكبر نعمة المراكبي... بل إنّه لم يتحرّر من  
تقاليد الأسرة والبيئة، فكان يزور بيت الغورية بدافع  
الحبّ والواجب معًا، وهناك ينسى شخصيته المكتسبة  
تمامًا فيجلس إلى الطبلية ويأكل بشرامة السمك  
والطعمية وثريد العدس والفسيح والبصل الأخضر،  
ويتابع بعين العطف والمودة النامية بين عبد العظيم من  
ناحية وبين رشوانة وعمرو وسرور من ناحية أخرى،  
ويزور الحسين ويجول في الباب الأخضر، ويتعرّف إلى  
أصهار أخيه عطا المراكبي ثمّ ابنه محمود وأحمد،  
وصديقه الشيخ معاوية القليوبي الذي يصير حمًا لابن  
أخيه عمرو. في تلك الأوقات كان يرتدّ إلى داود الأوّل  
ابن يزيد المصري وفرجة الصياد، ابن الغورية  
وروائحه الذكيّة النافذة ومآذنها السامقة ومشريباتها  
المسرّبة بالتاريخ، وقد تمثّى أن يجعل من ابنه عبد  
العظيم طيبًا مثله ليعيد سيرته، ولكنّ الشابّ أنجبه إلى  
دراسة الحقوق، مدرسة الصفوة والوزراء، ثمّ مارس  
حياة قانونية فخيمة وناجحة. ولمّا بلغ الدكتور الباشا  
الخمسين عشق جارية سوداء، وتزوّج منها، محدثًا في  
الأسرة دهشة ومثيرًا أقوالًا وقد اختار لها مسكنًا خاصًا

- بلاد الكفّارا

- لتتعلّم الطبّ.

وصاح عزيز:

- لولا عنايتك يا ربّ لكنت من الذاهين!

وسافر داود ليخوض تجربة ما كانت تجري له في  
حلم. وفي غيابه توفيّ يزيد المصري وفرجة الصياد،  
وأنجب عزيز رشوانة وعمرو وسرور، ووثب عطا  
المراكبي من حضيض الفقر إلى ذروة الثراء، ثمّ انتقل  
من الغورية إلى سراي ميدان خيرت، ورجع داود  
طبييًا، وقصد مسكنه القديم بالغورية الذي انفرد به  
عزيز وأسرته. جمع الحبّ مرّة أخرى بين الشقيقتين،  
وجعل عزيز يراقب أخاه باهتمام وتوجّس، سرّه أن  
يمده محافظًا على صلواته، شغوفًا كالعادة القديمة بزيارة  
الحسين، وإنّ تغبّر زيه، وإلى درجة ما لهجته. وبدا له  
أنّه يطوي في أعماقه النصف الآخر الذي اكتسبه في  
بلاد الكفّار. سأله:

- ألم يحاولوا أن يردّوك عن دينك؟

فأجاب ضاحكًا:

- كلّ البتّة...

وودّ أن يحدّثه أكثر «عنهم» ولكنّه آثر السلامة.

وسأله أيضًا:

- هل حقًا تشرّحون الجثث؟

فأجاب:

- عند الضرورة ومن أجل خير البشر!

فيحمد عزيز الله في سرّه على إكرامه له بالهرب في  
ذلك اليوم البعيد. وقال لأخيه:

- لولا ظروفيك لكنت أبا من زمن...

فقال داود:

- هذا هو شغلي الشاغل...

وكانت توجد أسرة تركية بدرب قرمز... «آل

رافت» فأشار إليهم قائلاً:

- لعلهم يرضون لبنتهم بطبيب عائد من فرنسا!

ووجدا في عطا المراكبي في حاله الجديدة الشخص

المناسب للكلام في الموضوع. ولكنّ داود رفض

باعتباره فلاحًا حقيرًا ولم يشفع له علمه ولا زيه ولا

وظيفته... وتألّم الشابّ ونظر إلى أخيه مسترشدًا فقال

وأجلت مأساة شقيقتها ورده الزواج عامًا، ثم زفت إليه في القاهرة، وبعد أسبوع واحد حملها إلى وطنه، واستقرت دلال بالكرنك بصفة نهائية، وأنجبت أربع بنات وثلاثة صبيان، ولم تكن تزور القاهرة إلا في المناسبات.

## دنانير صادق بركات

هي الابنة الوحيدة لرشوانة - الشقيقة الكبرى لعمرو وسرور - وصادق بركات تاجر السديق بالخرنفس. ولدت في بين القصرين ببيت يملكه أبوها، ونشأت في أحضان نعمة لا بأس بها وتبشّر بالمزيد ولم تنجب رشوانة غير وحيدتها يعقوب فيها. ولكن لحسن حظ الأسرة أنّ صادق بركات كان يسبق له الزواج مرتين دون إنجاب، فعُدّ العيب مشتركًا. وترعرعت دنانير بين أم متديئة لحدّ المشيخة وأب ينتمي لأسرة تعتبر رائدة في تعليم البنات. وكانت على قدر من الجمال لا بأس به واستعداد للبدانة وكانت تُعَدّ من المزايا، وإلى ذلك فقد أبدت نشاطًا يبشّر في المدرسة بكلّ خير. ونالت الشهادة الابتدائية فألحقت بالثانوية الأمر الذي لفت انتباه خال رشوانة محمود بك عطا المراكبي فسأل عمرو:

- أنت راضٍ عن ذلك؟

فقال عمرو:

- أبوها راضٍ.

وزار الرجل بين القصرين واجتمع بالأسرة، وقال:

- إنّي لم أسمح لشكيرة بتجاوز الابتدائية.

فقال صادق بركات:

- الزمن تقدّم يا محمود بك والبكالوريا مناسبة لهذا

الزمن...

وقالت رشوانة:

- إنّي واثقة من أخلاق ابنتي...

وكان محمود بك لا يخلو من دعابة ولو بأسلوبه الفظ

فقال:

- ربّما قالت أمّ ربّي وسكينة عنها يومًا ما تقولين.

وغادرهما ساخطًا. وفرحت دنانير بقرار أبيها.

في السيّدة، وخصّص لها قبرًا في حوش الأسرة الذي شيّده يزيد المصري على كُتب من ضريح سيدي نجم الدين عقب حلم رآه. وقد امتدّ به العمر حتى عصر الاحتلال وعاصر مع أخيه الثورة العرابيّة، وأيدّها بالقلب، وتجرّعا مرارة سقوطها، ورحل الشقيقان في عامين متعاقبين في أوائل عهد الاحتلال، ودفنا جنبًا إلى جنب في القبر الذي افتتحه يزيد المصري، وسرعان ما حلّت بجناحه الحريمي فرجة الصياد، ونعمة عطا المراكبي وسنيّة الورّاق، والجارية آدم في قبرها الخاصّ.

## دلال حمادة القناوي

ولدت ونشأت في بيت والديها بخان جعفر، وهي صغرى ذرّيّة صدرية وحمادة القناوي، ومسكنها على مبعده سيرة جدًا من بيت جدّها عمرو، وكانت تألف عمرو وراضية كما تألف والديها. ومثل جميع الأحفاد تحبّ راضية وتسحر بغرائبها، خاصّة وأنّ الجدّة لا تكفّ أبدًا عن نشر ثقافتها الفطرية المسرّبة بالخوارق في جميع الأجيال. وتقول لابنتها صدرية:

- دلال جميلة ولكن كيف تسلّلت لذرّيتك القاهرية هذه النبرة الصعديّة؟

فتقول صدرية ساخرة:

- من البغل!

مشيرة إلى زوجها الذي أنفقت حياتها في ترويضه،

وتضحك راضية قاتلة:

- إنّه غبيّ كالحجر ولكنّه رجل كريم...

وكعادته لم يسمح لدلال - كنهاد ووردة - بأكثر من

عامين في الكتاب ثمّ تولّت صدرية تربيتها وتدريبها.

وراحت صدرية تستعرض فتيان الأسرة من أبناء

أخواتها وأخويها وعمّها وآل المراكبي وداود. ولكنّ

بنات القناوي كنّ يجيئهنّ العرسان من قنا وما حولها

باسم آل قناوي، تقدّم لها عمدة شاب يدعى زهران

المراسيني يملك أرضًا مجاورة لأرض أبيها وأعمامه.

وقالت صدرية:

- قُضي عليّ بأن يفرّق القطار بيني وبين بناتي.

## حديث الصباح والمساء ٨٧٣

ليؤنس وحدثها. إنها دائبة على تعويض لهفاتها وحسراتها بالأخيلة المحمومة الفاجرة والسقوط الوهمي، والصدقات الحميمة العقيمة مع الزميلات المحرومات في مجال عملها الرهباني. مكاتب حياة سرية في عالم الحلم تتناقض تمامًا مع حياتها الظاهرة القائمة على عمل جاد استوجب الثناء، والتزام بالفرائض الدينية استحق الاحترام، وسلوك رصين أياس منها الطامعين وحاز تقديرهم، وفي تلك الفترة الصاعدة من شبابها ونشاطها عرض لها ابن خالها لبيب بشبابه وجماله ووظيفته القضائية اللامعة، وكان سبيل الغزو له مَهْدًا لولا أنانيته القبيحة. دعاها إلى حديقة الأسماك الهادئة ليعرض عليها علاقة سرية تناسب في تصوّره حالها.

قال:

- أنت ممنوعة من الزواج وأنا مُضرب عنه . . .

وقالت لنفسها حانقة إنه يريد لها خلية ولا يراها

أهلاً للزوجية. وقالت بامتعاض وازدراء:

- عرض جدير بامرأة ساقطة!

وتلقى اللطمة ببرودة الطبيعي الموروث عن ست زينب أمه، ورجعت هي إلى بين القصرين مغممة حنقًا على آلهما جميعًا . . . إنهم حقراء، أغنياؤهم وفقراؤهم على السواء. يبيعون أنفسهم بلا كرامة. من أجل ذلك تزوج عامر من عفت بنت عبد العظيم، وتزوج حامد من شكيره رغم قبجها. وعندما ترنو عين شاب من آل المراكبي أو آل داود إلى بنت من بنات عمرو أو سرور تقوم القيامة وتثور الكرامة. حقراء حقراء . . . آل المراكبي باعوا أنفسهم للملك ضمناً للمصالح، وآل داود انضموا للأحرار الدستوريين متوهمين أنهم يتبعون طريق الأسر الكريمة وأصلهم الحقيقي نابع من التراب، وما كان داود باشا إلا الشقيق الأصغر لعزير ناظر السبيل! ما من شاب منهم من سنها أو أكبر إلا وطمع في عرضها، ولم يفكر أحدهم في الزواج منها، وأطيبهم جميعًا مجذوب من مجاذيب الحسين. على أن فترة الشباب الخضراء لم تخل من فرصة عريقة، أتاحتها لها ناظر المدرسة الذي اقترح عليها الاستقالة والزواج منه، ولكنها بقدر ما سعدت باقتراحه لم تردد في رفضه حفاظًا على أمها أن تعيش

ستصير بالبكالوريا قريبة من مستوى فهمية وعفت ابنتي عبد العظيم داود. وسترتفع درجات على جميع بنات خاليتها عمرو وسرور، ولها أن تحلم بعد ذلك بعريس لائق. وكانت رشوانة تستصحبها لزيارة الأصول والفروع فترى الشجرة مثقلة بالثمار، عامر وحامد وليب وحسن وغسان وحليم، وهي في نظر نفسها على الأقل لا تقل جمالًا عن أجمل بنات الأسرة. ولما قاربت الختام حدث شيء كالمصادفة أفنعتها بأن المصادفة مأساة المآسي في حياة البشر. سقط أبوها في الدكان مشلولًا ومُحَل إلى البيت ليرقد على فراشه بلا حول حتى النهاية. صُفيت التجارة بإشراف عمرو وسرور ومحمود بك وقبض الرجل خمسمائة جنيه هي كل ما بقي له للعلاج وحياة الأسرة. ورات دنانير أنه لم يعد أمامها إلا مواصلة التعليم والتطلع إلى العمل. لم يكن متاحًا لها إلا مدرسة المعلمات وكان على المعلمات وقتذاك أن يمضين حياتهن بلا زواج ما أردن الاحتفاظ بالوظيفة. وتوكدت هذه الخطة عقب وفاة صادق بركات. أجل رأى محمود بك رأيًا آخر، قال:

- لتتزوج دنانير. . . وأنا أتكفل بك يا رشوانة . . . ومالت رشوانة للموافقة، ولكن دنانير - وبدافع من كبريائها - أبت ذلك وأصرّت على اختيار مصيرها. لم تكن سعيدة باختيارها، زهدت فجأة في حلم الزواج الذي صاحبها منذ الصبا. كانت أتعس أهل الأرض ولكنها اختارت تعاستها بنفسها. وقالت لها رشوانة:

- إنك تضحكين بنفسك من أجلي . . .

فقلت بثبات:

- بل اخترت ما يسعدني . . .

وأصبحت معلمة وعانست إلى الأبد، تعزّت عن خبيثتها بإتقان العمل والإفراط في الطعام. وتمضي في الحياة متسائلة أين كان يجتبي لي هذا الحظ الأسود؟! ما أكثر الأعين التي ترمقها بنهم، من شباب الأسرة والأغراب، كأثم يتساءلون: هذه الفتاة الممنوعة من الزواج ألا تحلم بالحب؟. جميع قريباتها مستقرّات في بيوت الزوجية حتى الدميمة المذكورة، وهي لا تعبرها النظرات دون أثر يبقى ويستفحل. وما تأوي إلى فراشها بعد يوم مليء بالسخرة إلا وتتأبط معها خيالاً



زعيم، وانفجرت أحداث جديدة، ثم جاء الانفتاح، وبدأت تعاني مع الوحدة والكبر الغلاء المتصاعد. وأخذت تعيد حسابها وتتساءل:

- أكتب عليّ أن أقاسي متاعب المعيشة من جديد؟! ... وهل حقًا يخفي الغد ما هو أسوأ؟! ١٩

## حرف الزائر

### راضية معاوية القليوبي

بكرية الشيخ معاوية القليوبي وجلييلة الطرابيشية. ولدت ونشأت في البيت القديم بسوق الزلط، وتبعته شهيرة وصديقة وبلغ. وكانت صديقة أجمل الأخوات الثلاث أما راضية فأقراهن شخصية وأحدهن ذكاء، وإلى ذلك فجها لها لا بأس به. كانت طويلة القامة ممشوقة القوام عالية الجبين ذات أنف مستقيم وعينين لوزيتين سوداوين وبشرة قمحية، وكأنتها صورة من أمها. وقد عُني الشيخ بتربيته ذريته تربية دينية فكانت الأكثر استجابة رغم أن حصيلتها من الناحية النظرية لم تتجاوز معرفة الصلاة والصوم وحفظ بعض السور الصغيرة ولكن قلبها تشرب حب الله وآل البيت. على ذلك لها تلقته عن أبيها لا يقاس بعشر معشار ما تلقته عن أمها من الغيبات والخسارق وسير الأولياء وكراماتهم وأسرار السحر والعمفارية، والأرواح الساكنة في القطط والطيور والزواحف، والأحلام وتأويلها، وقراءة الطالع، والطب الشعبي وبركات الأديرة والقديسين والقديسات. ورسخ من إيمانها بأمها ما شهدته من ركون أبيها نفسه - العالم الأزهرى - إلى وصفاتها الطيبة ورقاها وتعاويذها، واحتفاظه بالحجاب الذي أهدته إليه فوق صدره. وكانت راضية عصبية المزاج، تمارس الحب والكراهية في اليوم الواحد عشرات المرات. وقد شهد مدخل البيت - حيث الفرن والبئر وركن المعيشة اليومية - تسلطها على أختيها، وتحيز الأم لها، مما أثار ضغيتها عليها. وما كادت تبلغ الرابعة عشرة حتى خطبها عزيز يزيد المصري صديق الشيخ معاوية لابنه عمرو أفندي

تحت رحمة أحد من هذه الأسرة الحظيرة التي تعبد المال والجاه وتستبيح في سبيلها كل جليل. وواصلت حياتها الشاقة الفاحلة، تربى بنات الناس وتعدهن للأزواج، منقسمة بين سلوك خيالي فاجر، وواقع مُتسم بالجدية والتقوى والاحترام. وهامت شجرة الشباب في ربيع تعلوه كآبة الوحدة وآلام الحرمان وعبث الأخيلة المحرومة، ثم مضت أوراقها تتساقط ورقة بعد ورقة، تاركة آثارها في بدانة تنهذى وقسات تغلظ، وعضلات تترهل، ومرارة تستفحل. وفي أثناء ذلك رحل عمرو وسرور وأحمد ومحمود، وتكثرت أشياء كثيرة، ثم مرضت أمها بداء القلب ولزمت الفراش. وكانت تقول لها:

- لن أغفر لنفسي ما حلّ بك...

فتجيبها باسمه متظاهرة بالمرح:

- لقد اخترت ما يناسبني...

فتوسل إليها قائلة:

- تزوجني عند أول فرصة...

فتكذب قائلة:

- سيحدث ذلك قريبًا جدًا...

رغم أنها لم تعد تلفت نظر أحد. واحتضرت رشوانة وهي تقدم لها تفاحة للعشاء. وأدركت دنائير الموقف على عدم خبرتها به فهتفت:

- لا تركبني وحدي...

ولفظت المرأة أنفاسها الأخيرة وهي تسندها إلى حضنها. وأجهشت في البكاء، وأرسلت الخادم العجوز لإحضار راضية من بيت القاضي. وبرحيل الأم... عانت وحدة مطلقة في بين القصرين. وياتت مثلاً للبدانة والكآبة. ولما قامت ثورة يوليو وجدت فيها انتقامًا أيضًا من الجبارين والمنحلين والانتهازيين، عاشرتها بارتياح فاتر، وكان الفتور قد أدرك كل شيء حتى حياتها السرية وعبثها العقيم، وبفضل الراديو ثم التليفزيون اقتحمت أعاصير الثورة وأحداثها وحدتها، ونفخت قبسات من الروح في فتورها، ولكن ذلك عبّرها بسرعة، حتى أحييت على المعاش وأوت إلى ظلمة ظلمات الوحدة. ولم يعد لها من عزاء في هذه الدنيا سوى العبادة وتلاوة القرآن. ومات زعيم وتولى

## حديث الصباح والمساء ٨٧٥

طبقة عالية. ربّما هَوَّونَ من وطأة الفوارق دماثة أخلاقهنّ وما طُبِعن عليه من أدب فائق، ولتقارب العقلية رغم تفاوت المظهر والمنظر. واشتدَّ الإحساس بالفوارق أكثر عندما رَدَّت الزيارات بصحبة عمرو، فرأت بيت الدكتور بالسيدة، ثم تاهت في سراي ميدان خيرت بأهبتها الأسطورية. هناك فقط تنبّهت إلى أنّ جهازها لا شيء، لا شيء البتّة، وكم توهّمت أنّ فراشها ذا العمدة الأربعة والسلم الخشبيّ، ومرآة حجرة الاستقبال ذات الحوافي المرشوفة بالورد الاصطناعيّ والكنبة الإسطمبولية الطويلة، كم توهّمت أنّ ذلك الأثاث من التحف المبهرات، وانكسرت نفسها، وقالت لأمتها بنبرة المعترف:

- سأحدّثك عمّا رأيت . . .

وأصغت جليلة إليها صامتة، ثمّ تساءلت باستهانة هل يوجد بينهم بطل من أبطال عزّابي باشا كالشيخ معاوية؟

وسرعان ما استردّت راضية ثقتها بنفسها، وراحت تحدّث الهوانم عن تراثها من الغيبيّات والكرامات. ولكنّ العلاقة الجديدة تعطّرت بماء الورد بفضل أخلاق الهوانم، ونشأت مودة حقيقية بين الجميع، وكان لأطوار راضية الغريبة فضل في ذلك بما تميّزت به من إشارة لا تقاوم. واحتدم صراع بين الزوجين على السيادة، فقد أراد عمرو أن تنطوي زوجة في البيت، فلا تعبر عتبه إلا بصحبته، ورأت هي أنّ علمها الغيبيّ يطالبها بزيارات دورية لال البيت وأضرحة الأولياء. وحذّرت من أن يقف عثرة في ذلك السبيل. وكان عمرو من أتباع الطريقة الدمرداشية ويؤمن بأفكار راضية وتراثها ويخشى عواقب التهادي والمغلاة، فأذن لها بالحركة مستوهبًا من وراثها خيرًا وبركة، مطمئنًا إلى خلقها، راضيًا بمهارتها الفائقة في إدارة بيته وتفانيها في توفير أسباب الفرحة له. وسارت الأمور سيرًا حسنًا، وما من نزاع بينها دام أكثر من ساعات، فكانت إذا غضبت حلمت، وإذا انفجرت عصبيّتها تغاضى وتسامح. وتوطدت مكانتها بين فروع الأسرة الباسقة حتّى قبل أن تتوقّف بالمصاهرة، فشاركت سنية الوراق في الخطبة لعبد العظيم، كما شاركت نعمة

الموظف بنظارة المعارف. وكان الشيخ في ذلك الوقت معتزلاً في بيته عقب خروجه من السجن الذي قضى عليه به بسبب اشتراكه في الثورة العراقيّة، فتلقّى أوّل فرحة في حياة لم تعد تبشّر بخير في ظلّ الاحتلال. ولكنّ الحظّ لم يمهلّه فتوقّى قبل أن يجهّز ابنته، وحمل نيشان العروس إلى بيته في نفس يوم الوفاة، الأمر الذي أغرى جليلة بأن تزغرد وتصوت في لحظتين متعاقبتين وتصير بذلك نادرة في الحيّ كلّه. وخلا زفاف راضية من الأفراح المعهودة، وانتقلت إلى البيت الذي أعده عمرو لحياته الزوجية بميدان بيت القاضي، وكان عمرو في العشرين من عمره، طويل القامة متوسط القدّ، ذا شارب غزير وقسمات واضحة، واستعداد كامل للحياة الزوجية. وسرعان ما ربط الزوجين حبّ زوجيّ متين صمد لتقلّبات الحياة وتضارب العادات والأمزجة. ومع الحبّ عرفت راضية أوّل صداقة مع رشوانة أخت زوجها بخلاف نعمة المراكبيّ حماها، وكأثما حدست ما دار من ورائها عندما ذهب المراتان لخطبتها، إذ قالت نعمة لابنتها رشوانة وهما في طريق العودة:

- أجمل البنات الصغرى!

فقال رشوانة:

- العروس مناسبة جدًّا، وعلى خيرة الله . . .

فقال نعمة بارتياح:

- أخاف أن تكون أطول من عمرو.

فقال رشوانة يقيّن:

- كلّاً، عمرو أطول يا نينة . . .

على أيّ حال حدست راضية بشفاقيتها تحفظ نعمة حيالها وتوتّبت من أوّل يوم للدفاع أو الهجوم إن اقتضى الأمر، ولكنّ الله سلّم دائماً فلم يقع بينهما ما يصلح للقليل والقال. وأقبل رجال الأسرة ونساؤها للتعارف والتوادد، سرور شقيق زوجها، وعزيز حموها، والدكتور داود، وحرمة سنية هانم الوراق وابنها عبد العظيم، ومحمود عطا المراكبيّ، ونازلي هانم وأحمد عطا المراكبيّ، وفوزية هانم. اعتقدت أنّها ستعرف نساء على شاكلتها أو لعلّها تتفوق عليهنّ كما تفوّقت على شقيقتها، ولكنّها وجدت نفسها حيال هوانم من

وأمام ضريح الحسين هتفت من قلب معذب:  
- اللَّهُمَّ نَجِّنَا مِنْ شَرِّ هَذِهِ الْأَيَّامِ... اللَّهُمَّ انصُرِ  
المظلومين...

كانت تربي ذريتها بتراتها وإذا بالجميع يتكلمون عن  
الوطن وسعد، اتسع مجال الوجدان وأصبحت  
الحوادث هي المربي الأول. وصمدت راضية وعمرت  
مثل أمها حتى تجاوزت المائة سنة. في أثناء ذلك تحوّل  
الأبناء إلى أسر وشبّ أحفاد جدد. وسمعت بولي آخر  
اسمه مصطفى النحاس، وأخيراً آخر الأولياء الذين  
عاصرتهم جمال عبد الناصر الذي رفع أحفاداً لها حتى  
السماء وخفض أعزّة منهم إلى الحضيض أو السجن،  
فراوحت بين الدعاء له والدعاء عليه. وقد انقرضت  
من أسرتها في حياتها الأم والأخوات، وأحد عطا  
وعمر وسرور ومحمود عطا، وآخرون لم تدبر بهم.  
ولكن قلبها لم يعرف الرعب أكثر مما عرفه في زمانين...  
وفاة عمرو الذي حزن عليه عمراً كاملاً، ومأساة  
قاسم وخاصة في أول العهد بها. غير أنها صمدت بقوة  
خارقة، وهزمت همومها بحيوية نادرة المثال، ولم تقاعد  
في بيت إلا وهي تشارف المائة، وواظبت على الحركة  
في مداخله، ولم تعجز عن الحركة إلا في عامها الأخير،  
ولمّا حتم القضاء طرقها الموت بلطف ودماثة. كانت  
صدرية متربعة على الفراش عند قدميها، وإذا بها  
تسمعها تغني بصوت ضعيف:

عودي يا ليالي العزّ عودي

فضحكت صدرية وتساءلت:

- أتغنين يا نينة؟

فقلت:

- كنت أغني هذه الأغنية وأنا أرقص بين البشر  
والفرن.

ومال رأسها الناحية اليسرى لائسداً بالصمت

الأبدى...

## رشوانة عزيز يزيد المصري

هي بكريّة عزيز أفندي ونعمة عطا المراكبي.  
ولدت ونشأت في مسكن الأسرة بالغورية حيث أقام

المراكبي في الخطبة لسرور أفندي، وأنجبت مع الأيام  
صدرية وعامر ومطرية وسميرة وحبيبة وحامد وختمت  
بقاسم. ولم تكف يوماً عن بثّ رسالتها التراثية في  
ذريتها أسوة بفروع الأسرة والجيران، حتى تبلورت  
شخصيتها في الحيّ كلّه كسيّدة الأسرار الغيبية،  
وأضافت إليها الفخر ببطولة أبيها الذي بفضلها جعلت  
من عزّاي وثورته أسطورة ذات كرامات وخوارق  
تداخلت في كرامات البدوي وأبي العباس وأبي السعود  
والشعراني وامتزجت بعنترّة ودياب وإنساث الجنّ  
وذكورهم والسحر والتائم والأحجبة والبخور والرقا.  
ولم تتردد عن مصارحة داود باشا قائلة:

- طبك هذا لا جدوى منه ولا خير فيه.

أو تقول له:

- يوجد طيب واحد لا شريك له هو الله عزّ  
وجلّ.

وكان الباشا يحبّ حديثها ويجارها على قدّ عقلها،  
ويداعبها أحياناً فيقول:

- ولكنك يا ستّ أمّ عامر تجعلين مع الله آلهة  
أخرى من الأولياء والعفاريت...

فتقول بإيمان:

- أبداً... إرادته وراء كلّ شيء... لولاه ما أمكن

سيدي النقشبندي أن يوجد في مكّة وبغداد والقاهرة في  
وقت واحد!

وكان يجمعها وعمرو تصوّرات متقاربة فوجدا دائماً

الحديث المشترك والتفاهم الدائم. وقد شاهدت ثورة

١٩١٩ من مشرّبة بيتها العتيق، وسجلت في قاموسها

الخالد وليّاً جديداً، اسمه سعد زغلول.

ولمّا اشترك عمرو في إضراب الموظفين تساءلت

بقلق:

- هل يسجنونه كما سجنوا الشيخ معاوية؟

واخترقت الشوارع المليئة بالفتن وزارت ضريح

سيدي يحيى بن عقب ودعت على الإنجليز وملكتهم

- كانت تعتقد أنّ الملكة ما زالت على قيد الحياة -

بالملاك الأبدى. وساورها القلق لاشترك عامر في

المظاهرات، والعقاب الذي حلّ بحامد لآتهامه

بالتحريض على الإضراب في مدرسة البوليس.

## حديث الصباح والمساء ٨٧٧

فقيرة، إذ إن ثراء عطا المراكبي جاءه من زوجته الجديدة التي تزوج منها بعد وفاة زوجها الأولى أمّ نعمة وكانت تدعى سكينه وهي ابنة صاحب دكان المراكبي الذي ورثه عطا عنه أو أداره نيابة عن سكينه صاحبه الأصلية، وقد صفى الدكان بعد وفاة سكينه. كرهت رشوانه فكرة التضحية بدنانير من أجلها هي، وحاولت إقناعها عبثاً بعرض خالها محمود الكريم، والذي أبدى أخوه أحمد المشاركة فيه حباً وكرامة، ولكنّ دنانير أبت ذلك، وقالت لأمتها:

- سنعيش بكرامتنا مهما كلفنا ذلك...

ولم تخف عنها انتقادها الثابت لخالها ولسائر أسرهما، قالت:

- إثمهم يعبدون المال والجاه ولا كرامة لهم...

فقلت لها رشوانه بارتياح:

- ما أقسك في حكمك، إثمهم أناس طيبون ويتقون ربهم...

فقلت لها برقة:

- أنت طيبة وتحكمين عليهم بطيبتك، ومن هنا

الخطأ...

وراحت تبك قلقها للجميع... لأخيها عمرو، وراضية، ولنازلي هانم وفوزية هانم، وفريده هانم حسام حرم عبد العظيم داود، فلم يوافق أحد على كبرياء البنات، وتنبأوا لها بالندم حيث لا ينفخ الندم، أما راضية فتساءلت:

- ومن الكافر الذي حرّم الزواج على المعلّمات؟!

وكانت رشوانه تلاحظ ابنتها بقلق، محاولة النفاذ إلى أعياقها، متسائلة عن أفكارها وعواطفها وعن المخبأ لها في زوايا حياتها الغريبة التي تشبه حياة الرجال.

وكلمها توتّرت لها أعصاب أو شكت شأنًا من شئون العمل فسّرت رشوانه الحال بدواعٍ أخرى مستقرّة في أعماق تلك الحياة الشاذة السقيمة، وترأها وهي تزداد بدانة وتفقد طلاوة شبابها وجمالها يومًا بعد يوم، وتتطّيع بطابع الجدّية والخشونة كأنما يحولها العمل وهي لا تدري إلى رجل. وتخلو إلى أخيها سرور أفندي في بيته بميدان بيت القاضي وتقول له:

- فيك الخير يا أخي، لماذا لا تخطب دنانير لابنك

يزيد المصري بالدور الأوّل وسكن الثاني عطا المراكبي جدّ رشوانه لأمتها. ولما ولد عمرو وسرور تبيّن أنّ الولدين أجمل من البنات ولكنها كانت مقبولة ذات جسم ممتاز. وألقاها أبوها على أخيها ولكنها درّبت خير تدريب على فنون البيت ومالت بطبعها وتأثرت بأمتها إلى التدين فعرفت على مدى عمرها بالتقوى والورع. ولما بلغت الخامسة عشرة رغبت في الزواج منها المعلم صادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفس... كان من المتعاملين مع عطا المراكبي، ومنه عرف عزيز ناظر السبيل وزوج ابنته... فطلب منه يد بكريته، وزفت إليه في بيت يملكه في بين القصرين على كذب من سبيل أبيها... وكان صادق بركات قد سبق له الزواج مرتين ولم ينجب، ومرت أعوام على رشوانه دون حمل، ثم أنجبت ابنتها الوحيدة دنانير، فسّر الجميع لذلك وخاصّة صادق بركات نفسه. وكان مستوى الرجل المالي حسنًا، وأفضل بكثير من عطا المراكبي وعزيز يزيد المصري، فتمتعت رشوانه بحياة طيبة، مطبخها عامر وعروس برقعها من الذهب الخالص. وتزور والديها في الغورية أو أخويها عمرو وسرور في بيت القاضي محمّلة بالهدايا. واستوت دنانير على مثال أمها مقبولة أو أحسن درجة، وأثبتت نجابة في المدرسة فشجعها أبوها على الاستمرار رغم اعتراض محمود بك عطا المراكبي. وأيدت رشوانه خطة زوجها لتساوى ابنتها مع فهيمة وعفت كريمتي عبد العظيم داود ابن عمها، ولكنها كانت راسمة الزواج كنهاية سعيدة يقف عندها التعليم. ولذلك درّبت ابنتها على فنون البيت في العطلة المدرسية الطويلة وانتظرت على لطف ابن الحلال. ولما لزم صادق بركات الفراش نتيجة لمأساة مرضه سلّمت باستمرار دنانير في التعليم كضرورة لا مفرّ منها، على الأقلّ حتى يتيسر لها الزواج، واشتدّت الحاجة إلى ذلك عقب وفاة صادق بركات، وبعد أن أصبحت بلا مورد، ولم تجد بأسًا في أن تتزوج دنانير على أن تعتمد هي في معاشها على خالها محمود بك لولا إباء دنانير وإصرارها على العمل حتى مع الحرمان من حقّها المشروع في الزواج. وقد مات أبوها عزيز دون أن يترك لها شيئًا تركنُ إليه، وماتت أمها نعمة

لييب؟

فيقول سرور متهرباً:

- لكنّها لا تريد أن تتركك تحت رحمة الغير. . .

- أستطيع أن أقنعها إذا سعدت بعريس لقطه

كابنك.

فقال لها بصراحة:

- الحقّ أنّي لا أرغب بزواج لييب حتّى تتزوَّج جميلة

وبهيجة وزينة، أنا رجل لا أملك سوى مرتبي الصغير

ولا غنى عن مساعدته لتجهيز البنات. . .

وترجع بغصّة لتجتزّ همومها التي لا تتخلّى عنها إلّا

أويقات صلاتها. وتنظر فترى الشباب يخفتي تماماً وتحلّ

محلّه صورة كثيفة موسومة بالخشونة والجفاف فلا يشكّ

أحد أنّه خيال عانس تعكّر لها الدهر وتتراكم الهموم

برحيل الأحبة واحد في إثر آخر، ذهب أحمد وعمرو

ومحمود وسرور، وإذا بقلبها يخونها بالمرض بعد أن

خانها بالحزن الدائم. وتستوطن الفراش على كره،

وتسهر ليالي من الألم، وتشعر بأنّ الموت يأخذ أهبتها. . .

ويعودها آل المراكبي وآل داود ويتردّد عليها آل عمرو

وسرور، وتوصي كلّ فرد بدنانير، وقالت لابنتها وكأنّما

تلقي إليها بوصيتها الأخيرة:

- تزوّجي في أقرب فرصة!

وساعة الاحتضار وثبت دنانير إلى الفراش،

وأسندتها إلى صدرها، وراحت تتلو ما تيسّر لها من

الآيات، حتّى لفظت المرأة أنفاسها، وأصبحت هي

وحيدة بكلّ معنى الكلمة. . .

حرف الزري

زينب عبد الحليم النجار

ولدت ونشأت في عطفة الكردي بالحسينيّة لأب

مصريّ يدعى عبد الحليم النجار - صاحب دكان

نجارة صغيرة بالحسينيّة - وأمّ سوريّة.

وقد تزوّجت من سرور أفندي بعد زواج شقيقه

الأكبر عمرو بثلاثة أعوام. وكان عزيز يؤمن بالزواج

المبكر فلم يُلقي بالألا لاعتراض سرور وقال له:

- الزواج لأمثالك دواء ناجح. . .

وقال له أخوه عمرو:

- أنت صاحب مزاج وعلى قدّ حالك، والزواج

أرخص وسيلة!

واستعانوا بخاطبة فدلتهم على بيت عبد الحليم.

وكان الرجل ذا سمعة طيّبة وميسور الحال لدرجة لا

بأس بها. أجل اعتراض عليه بصفة صاحب حرفة

ولكنّ الخاطبة قالت:

- البنت أدب وجمال. . .

وذهبت نعمة وراضية للزيارة التقليديّة. انبهرتا حقّاً

بجمال العروس. وكانت بيضاء فاحمة الشعر ذات

عينين خضراوين وجسم لدن ونظرة عميقة الهدوء.

وقالت نعمة وهما في طريق العودة:

- آية في الجمال. . .

فأشعلت غيرة راضية وقالت وكأنّما تؤدّد وتدافع:

- أمّا الأصل فكلّنا أولاد حوّاء وأدم!

وزوّت زينب إلى سرور في بيت مجاور لبيت عمرو

بميدان بيت القاضي، وحال زفّع النقباب عن وجهها

وقّع في غرامها، أمّا هي فقد أحبّته حتّى آخر عهدها

بالحياة. وقد أنجبت له من الذريّة: لييب وجميلة

وبهيجة وزينة وأمير وحازم وكان جمالها جواز المرور إلى

احتفاء الأسرة وفروعها بها، ورسخ الأثر بأدبها ودمايتها

وهدهد طبعها. أجل شعرت بغريزة ما بغيرة راضية

منها ولكن لم ينجم عن ذلك أيّ مضاعفات بفضل

هدوء طبعها المتبادي لحذّ البرود. طالما احترمتها

وجاملتها وقدمتها على نفسها بوصفها حرم الشقيق

الأكبر. وطالما أملت أن يكون أبناؤها أزواجاً لبناتها،

وكلّما أنّجهم أحدهم إلى قبلة أخرى اتهمت راضية بأنّها

وراء انحرافه عن قبلته المشروعة وصاحبة الحقّ الأوّل

فيه. ولكنّ ذلك لم يفسد الودّ بين الأسرتين ولا ظهر

فيه أثر فوق السطح. متاعبها الحقيقيّة بدأت مع

اقتراب سرور من الكهولة فلم يغيب عن إحساسها

اليقظ تملّله ولا تطلّعه التلقائيّ لكلّ من هبت ودبت

من جسان الحيّ. وبسبب ذلك قام النزاع بينها على

كبر. من ناحيته دفع عن نفسه التهم بحدّة وعصبية،

ومن ناحيتها عاتبت واشتكت بصوتها المهموس ودمايتها

## حديث الصباح والمساء ٨٧٩

وحجزت في البيت في سن مبكرة بعد فك الخط في الكتاب، ومضت نحو المراهقة في محطة انتظار ابن الحلال. وذهبت جميلة إلى بيت الزوجية، وبقيت هي مع بهيجة في محطة الانتظار. تفتح شبابها على أسرتها حين دهمها الغروب والتوتر في جو الإظلام والغارات، ولحظت من وقت مبكر مناورات القلوب التي تدور بين بهيجة وقاسم، وفطنت بفرينة متوقدة إلى أن سنّها المتماثل لا يرشحهما للزواج، وأنه أولى بالفتى أن ينتبه إليها هي. وذابت ستّ زينب على اصطحابها - هي وبهيجة - في زيارتها لبيوت الأسرة. شدّ ما تلتهمها الأعين ولكن يبدو أن أحداً لا يراها أهلاً للزواج. إنّا أسرة تستأهل ما يرده أبوها عنها وأكثر. . . وحلّ المرض بقاسم فلاذ بعالمه الجديد، وتلقّت أختها الطعنة في صمت وصبر وتسليم. ورحل أبوها ثم تبعته أمها، فوجدت نفسها مع أختها وحيدتين، يلتمّ بهما أخوها لبيب كلّما سمح له عمله خارج القاهرة. وقالت لها راضية:

- الله لا ينسى عباده ومن توكّل على الله فلا يحزن.
- وذات يوم وكان لبيب يجالسها في جليابه، قال:
- جاعني أحدهم يطلب يدك يا زينة.
- خفق قلبها، ونظرت نحو بهيجة نظرة مفعمة بالذنب. فقال لبيب:
- لكلّ إنسان حظّه، وفي وقت لا يتقدّم ولا يتأخّر.
- فقال بهيجة رغم غرقها في اليأس:
- صدقت تمامًا يا أخي . . . مبارك عليها. . .
- فقال الرجل:
- من ناحيتي لا أستطيع أن أهمل فرصة. . .
- وساد صمت ثقيل، ثمّ قال وكان ذا قدرة على مواجهة أخرج المواقف:
- اسمه صبري المقلّد، موظّف بشركة الكيماويات.
- فتمتت زينة بريية:
- شركة!
- أفضل من الحكومة . . . الدنيا تتغيّر. . .

ثمّ وهو يهزّ رأسه الكبير:

- سمعت أنه سكير، وهو نفسه اعترف بذلك، ولكنّه أكّد لي أنه تاب وأنه يؤهل نفسه للزواج

الصامدة، ولتأ فرغ صبرها شكته إلى أخيه الأكبر عمرو أفندي، وقال عمرو لأخيه:

- الناس تكبر تعقل. . .
- فأكّد له أنّ الأوهام لا تريح زوجته، فقال عمرو:
- أولادك كبروا أيضًا. . .
- وعلمت راضية بالمشكلة فراحت تقول لسلفتها:
- وأين يجد جمالاً كجمالك؟!
- ولكنّها سرّت في باطنها وقالت لنفسها إنّ المرأة لا تحيا بجهاها وحده!

ولم تنج من عواقب الحزن فأصابها مرض السكر والضغط وتناوبتها الوعكات وزحف الشحوب على رونقها المتألّق ليطفئه رويدًا رويدًا قبل الأوان. وقرأت دوامًا أحلام الجشع في نظرات سرور، وعاشت في جوّ ملبد بسحب المخاوف. وتناوبتها هواجس محضة بأنّه لولا الفقر لتزوّج مرّة أخرى، وهل يبعد أن يظفر بامرأة غنيّة تحبه كما جرى حظّ عطا المراكبي قديمًا؟! وطالما غبطت راضية على قناعة زوجها وعلوّ مكانتها في الأسرة نتيجة لمصاهرتها لآل المراكبي وآل داود. وتقول لزوجها:

- انظر كيف يحبّون أخاك ويغدقون عليه الهدايا، أما أنت فقد أثرت نفورهم بحلّة لسانك!
- وجاءت الحرب العظمى الثانية بإظلامها وغاراتها.
- ولكنّ أفضح غارة انقضّت من القدر على سرور نفسه فأتلفت صحته وسلمته ليد الموت قبل الأوان وهو في عامه الأخير من الخدمة. ضربة قاضية نزلت بها بغياب الرجل الذي لم يفتر حبّها له ساعة واحدة من عمرها رغم فتور رغبته وركود حبه. وعقب عام واحد من وفاته أصابها نزيف في المخّ فراحت في غيبوبة امتدّت ثلاثة أيام، ثمّ أسلمت الروح في صباح اليوم الرابع بين يدي راضية. . .

## زينة سرور عكزير

هي صغرى بنات سرور أفندي والرابعة في ذريته. اشتهرت بعينين خضراوين واسعتين وجسم سريع النضج يوحي بأنّه جسم امرأة لا بنت عذراء.

بجدية... ما رأيك؟

قالت باستسلام:

- الرأي رأيك.

- هذا الكلام لا ينفع اليوم.. سوف ترينه

بنفسك...

وجاء صبري المقلد فاستقبله لبيب في حجرة الاستقبال القديمة. وتزينت زينة وارتدت أحسن ما عندها من ملابس ودخلت للقاء حظها. لم تستطع أن تفرس في وجهه، ولكن لحظة كفت لإعطاء صورة عنه. كان نحيلًا بدرجة ملحوظة هائل الأنف كبير الشدقين طويل الوجه. ولما ذهب قال لبيب:

- لا يعيب الرجل قبحة... مرتبه محترم... أسرته

طيبة... والرأي الأخير لك...

تبين لها أنها تريد زوجًا بأي ثمن: لا صبر لها على تلك الحياة الكئيبة وليكن الله مع بهيجة. وزقت إليه في بيت تملكه أمه بين الجنان... وبدت سعيدة بزواجها تمامًا وأنجبت له خليل وأميرة. وماتت أميرة طفلة مخلفة جرحًا غائرًا في قلب الأم الشابة. وكان صبري يكبرها بعشرين عامًا ولكنها نعمت في كنفه بحياة طيبة، ففلت في أجمل الثياب وتناولت أشهى الأطعمة حتى تمدت في السهانة وشابهت عوالم الزمان الأول. وقد صدمها زواج ابنها خليل من أرملة في مثل سنّها، ولكنها عبرت عن حزنها بسرعة ودون أزمة حقيقية. ولم يكدر صفوها إلا الزمن الذي قطع ما بينها وبين أهلها جميعًا حتى تحايلت لعينها القبيلة القديمة المتداخلة باللقاءات المتواصلة مثل حلم لا يظّل له عن الواقع. وقد جاء الزمن بالراديو والتلفزيون وراحت القاهرة تتضح وتنهمر عليها الأحداث والحروب والعلل. وكان بين الجنان أصبحت مثل غيرها من الأحياء مملكة مستقلة لا تعبر حدودها إلا في الملّات.

عرف السنين

سرور عزيز يزيد المصري

ولد ونشأ في بيت الغورية على مرأى من بؤابة

المتوي، مع شقيقه الأكبر عمرو وأختها الكبرى رشوانة. وترامى مراح طفولتهم ما بين البؤابة وسبيل بين القصرين حيث يجلس الأب عزيز على عرشه المائتي. وكان سرور يشبه أخاه في طولته ووضوح ملامحه، ولكن وجهه أنبأ عن تناسق اللطف كما مال جسمه إلى البدانة. وكانت جدته نعمة المراكبي تحضه بحب لا يحظى بمثله عمرو أو رشوانة، وتدله رغم احتجاج عزيز وتحذيراته. ونشأ طبعًا مؤمنًا ولكن بلا قيود بخلاف أسرته جميعًا، فلم يؤد الصلاة، ولا الصيام حتى بلغ الخمسين من عمره، وستطيع أسرته الخاصة بطابعه فيها بعد، وبدا كسولًا كارهاً للتعلم فتعزرت خطواته... أما في معاينة البنات ومطوعة الغريزة فقد أنذر سلوكه بالمتاعب. وحاول جرّ أخيه عمرو معه ولكنه لم يجد منه استجابة تذكر، ووجد على العكس صديقًا وملازمًا. وقد تبادلًا حبًا أخويًا متينًا وصمد في النهاية أمام ما شاب علاقتهما مع الزمن من خلافات. ومضى في مدرسته الابتدائية بصعوبة، ولم يكن حظ عمرو أوفر منه، ولذلك ما كان يحصل على الابتدائية حتى ألقى سلاحه، وسعد بوظيفة في السكك الحديدية. كانت الابتدائية شهادة ذات شأن فارتاح بال عزيز وحمد الله. أجل نمى المزيد لابنائه متأثرًا بمثال أخيه داود باشا وابنه عبد العظيم، ولكنه قال لنفسه «القناعة كنز». بل راح يفكر في الخطوة التالية المهمة وهي الزواج... ولما حادته أبوه في الأمر وجد منه فتورًا، فصارحه بأنه لا يبارك سلوكه وأنه يرى في الزواج خير علاج له... وانضم عمرو إلى رأي والده بحماس، وسرعان ما أذعن سرور احترامًا لهما وتطلعًا لسحر الزواج أيضًا... ودلتهم الخاطبة على بيت زينب، وذهبت قافلة من نعمة ورسوانة وراضية لخطبة زينب. وزقت إليه في البيت المجاور لبيت أخيه بميدان بيت القاضي، وبهر سرور بجمال زوجته وطبعها الهادئ وخلقها الدمث، ووجد بين يديها الحب والشفاء، وأنجبت له في حياة موقفة لبيب وجميلة وبهيجة وزينة وأمير وحازم. كان لسرور من وظيفته الرسمية وزوجته الممتازة وذريته الجميلة ما يؤهله لطمانينة النفس، ولكنه كان دائمًا يحوم حول ما يفتقده

المهموس:

- ماذا نصنع لو شككتك جارتنا إلى زوجها؟  
فيقول بحدة:  
- لا يوجد أصلاً موضوع للشكوى.  
ولمّا شكته هي إلى عمرو صبّ غضبه عليها وهدهدا  
بأنه سيتزوج ثانية وقتها يشاء. وكان الزواج مرة أخرى  
أمنية يعجز عن تحقيقها. والحقّ أنه لم يخن زوجته إلا  
مرتين، واحدة في بيت من بيوت البغاء، والأخرى  
علاقة عابرة لم تدم أكثر من أسبوع. وحقن أكثر على  
فقره، وأكثر وأكثر على جدّه الفظ، ودأب على شراء  
أوراق اليانصيب لعلّ وعسى، ولكنّه لم يخن من ذلك  
كله إلا العتاب الصامت يلوح في أعين بكرهه لبيب  
وبناته، خاصّة عندما تدهورت صحّة زينب. ولمّا  
رحل عمرو دهمه شعور بالوحدة والكآبة، وجاءت  
الحرب والإظلام والغارات فأعلن أنّ الحياة صفقة  
خاسرة، ولم يجد من سلوى في الحياة إلا في عظمة ابنه  
لبيب الذي تآه بها مع الجميع، الأمر الذي زاده ثقلاً  
على قلوب الأهل. وفي الفترة الأخيرة من حياته انقطع  
عن زيارة آل المراكبي وآل داود، ولكنّه كان يزور  
كثيراً أبناء عمرو وبناته ويشارك في أفراحهم وأحزانهم،  
كذلك بيت أخيه، وكانوا يحبّونه منذ صغرهم  
وتضاعف حبّهم له عقب وفاة أبيهم. وفي العام الأخير  
من خدمته الحكوميّة أصابته أزمة قلبية وهو جالس في  
المشربيّة في ليلة خريف يرنو إلى الظلام الجاثم فوق  
البيوت والمآذن، متوقّفاً بين ساعة وأخرى نذير الغارة  
المعتاد. وقد فارق الحياة في أقلّ من دقيقة واحدة.

## سليم حسين قابيل

آخر ذرّيّة سميرة عمرو وحسين قابيل. ولد ونشأ في  
شارع ابن خلدون. وتوفّي أبوه وسنه عام واحد  
فترعرع في حياة منضبطة غير الحياة الرخيّة التي تقلّبت  
فيها أسرته وهو خاطرة في عالم الغيب. وكان وسيماً  
كامّه، فارح العود كأبيه، كبير الرأس والعقل كأخيه  
حكيم. ومنذ صغره تجلّت صلابته وعناقه كما تجلّى  
تفوّقه الدراسي. وعدّته أخته هتومة بتدنيها وصرامتها

فخسر كثيراً من الأحلام وأخذ الحسد قلبه ولسانه.  
جمع بينه وبين زينب حال واحدة، توارت عند زوجة  
وراء طبعها الهادئ وخلقها الدمث، وتجلّت مع فحولته  
غير المبالية. عرف - كان لا بدّ أن يعرف - ماذا كان  
جدّه عطا المراكبي وماذا صار وكيف ابتسم له الحظّ،  
كما عرف الأصل الذي صدرت عنه باشويّة عمّه داود،  
واحتجّ على ثراء جدّه وفقر أمّه واتهم جدّه بالدناءة  
والقسوة. ولسعته الغيرة من أخيه المحبوب عمرو  
لإغداق الجميع عليه بالحبّ والهدايا وتجاهله هو كأنه  
ليس بشقيق عمرو، متغافلاً عن حدة لسانه التي نفّرت  
القلوب منه. وضاعف من تأزمه أنّ عمرو نخطّى ابنته  
وزوج ابنيه من آل داود وآل المراكبي. أجل لم تطف  
عواطف السخط إلى السطح فيما بين الشقيقتين أو  
الأسرتين وغلب الحبّ دائماً، ولكنّ الباطن ماج كثيراً  
بالانفعالات المتضاربة. حتّى ما بين راضية وزينب فقد  
غطّاه السلام دائماً، وحسن المعاشرة، وشدّ ما بكى  
سرور يوم وفاة عمرو كما احتضرت زينب تحت مظلة  
حانية من تلاوة راضية ودموعها. وكما كان سرور دون  
أخيه في تقواه كان كذلك في وطنيته، ولكنّ ثورة  
١٩١٩ أودعت قلبه المتمرد قدراً من الدفء لم يتلاش  
حتّى النّفس الأخير. وظلّ يفاخر باشتراكه في إضراب  
الموظّفين كما لو كان المضرّب الوحيد، وظلّت ذكريات  
مظاهراتها عالقة بخياله كأفتن الطيّبات التي عشقها في  
حياته. تلك الموجة العاتية الهادرة بأناشيد المجد التي  
جرفت الآباء والأبناء واقتحمت قلوب النساء وراء  
المشربيّات، ولذلك وجد في ارتداد آل المراكبي وآل  
داود عن زعامتها المقدّسة مجالاً يضرب فيه لسانه بغير  
تحفّظ. يقول لأخيه:

- لنا خال لا يعبد في الدنيا إلا مصالحه..

أو يقول:

- وبيت عمّنا الجليل المنضمّ لعدلي توهمًا أنّه حقّاً  
من العائلات!  
ومع الكهولة تفجّرت ثورة أخرى في أعماق سرور  
تمرد بها على حبّ زوجته وانطلقت عيناه وغرائزه وراء  
أحلام المراهقة من جديد. ونشب الشقاق بينه وبين  
زينب الوديعّة المحبّة الحزينة. وتعاتبه بصوتها



ولكنها مضت في تكتم شديد وحذر، ووجد متنفساً في الكتابة فوهب لها سنوات من عمره تمخضت عن ثمرة جيدة في كتاب «العصر الذهبي للإسلام» ثم أتبعه بكتاب «أهل العزم والتقوى». وفي الوقت نفسه أحرز نجاحاً لا بأس به كمحام، وتحسنت أحواله المالية من رواج كتابيه خاصة بعد أن ابتاعت السعودية منها كمية موفورة. ولما رحل زعيم الثورة داخله شيء من الطمأنينة، فقالت له سميرة:

- أن لك أن تفكر في الزواج.

فاستجاب لصوتها استجابة ملهوفة فقالت:

- عليك أن ترى هدية بنت أمانة بنت خالتك مطرية.

هي صغرى ذرية أمانة وكانت قد رجعت توأ من الخليج بعد اشتغالها بالتدريس هناك عامين واشترت شقة في منشية البكري. وزار بصحبة سميرة بيت عبد الرحمن أمين وأمانة في الأزهر ورأى هدية، مدرسة جميلة في ريعان الشباب تمت بجمالها إلى جمال جدتها مطرية قمة جمال الأسرة. وخطبتها سميرة وزقت إليه واستقر بها في شقتها بمنشية البكري. وحظي سليم بزوجة طيبة وحياة عملية آخذة في الازدهار. وأنس في حكم السادات مودة ورحمة، ولم يقلقه إلا التيارات الدينية الجديدة التي انبثقت من الإخوان، ثم شقت لنفسها مجاري جديدة محفوفة بالتطرف والغموض.

وكان يقول لأخيه حكيم:

- ثمة صحوة إسلامية شاملة لا شك فيها، ولكنها بعثت فيها بعثت خلافاً قديمة تستنفد قواها فيها لا يجدي . . .

ولكن حكيم كان يهيم في وإد آخر، وكان - رغم عواطفه الشخصية - يعتبر ما حلّ بالنظام في ٥ يونيو كارثة محققة، وأن الوطن يمضي إلى مجهول. ومضت الأيام فتلقى سليم من ربّه عهد الأبوة والوفرة في الرزق، والرضوان يوم النصر، ولا شيء من ذلك كله يزحم في نفسه إيمانه الراسخ وحلمه الأبدي بالمدينة الإلهية الفاضلة، وجرف معه في تياره العارم هدية حتى قالت:

- كنت ضالّة فهديت والحمد لله . . .

الأخلاقية. وظنّ عهداً طويلاً أنه يتلقى حقائق الغيب عن لسان جدته راضية. وكان يحب كرة القدم ويحبها، ويحب مغالطة البنات في حديقة الظاهر بيبرس، ويكره الإنجليز، ودائماً تداعب خياله أحلام الإصلاح والمدينة الفاضلة. ولم يميل إلى حزب من الأحزاب، صدّه عن ذلك أخوه حكيم الذي رفض الجميع بدون استثناء. وسمع حكيم يقول مرّة:

- نريد شيئاً جديداً.

فقال بتلقائية:

- مثل سيدنا عمر بن الخطاب . . .

وأجبه بدافع من مزاجه وتأثير من هنومة إلى الكتب الدينية في مكتبة أخيه. كان حلم المدينة الفاضلة يغلب عليه الكرة والبنات. ولما قامت ثورة يوليو كان في المرحلة الثانوية فرحب بها بكلّ حماس كمنقذ من الضياع، وشدّ من ارتباطه بها الدور الذي لعبه شقيقه حكيم فيها. لأول مرّة خيّل إليه أن المدينة الفاضلة تُبنى حجراً بعد حجر. وظنّ أنه بانضمامه إلى الإخوان إنما يندمج أكثر في الثورة، فلما وقع أول تناقض بين الثورة والإخوان أبقاه قلبه مع الإخوان، ومضى يختلف مع شقيقه. وقال له حكيم:

- الحذر.

فقال:

- الحذر لا ينجّي من القدر.

والتحق بالحقوق ونشاطه السياسي - أولديني - في تصاعد. ولكن أحداً من أهله لم يتصوّر أنه سيكون بين المتهمين في قضية الإخوان الكبرى. وتخيّر حكيم وقال لأمّه الجزعة:

- لا حيلة لمخلوق!

وحكم عليه بعشر سنوات فترنحت سميرة تحت وطأة الضربة، ووجدت أن تألق نجم حكيم لا يعزّيها شيئاً عن سجن سليم، فأضمرت الكراهية للثورة وراحت راضية تدعو على الثورة ورجالها، وخرج سليم من السجن قبل ٥ يونيو بعام فأتّم المتبقي له من الدراسة وحصل على الليسانس، وعمل في مكتب محام إخواني كبير. ولما وقعت الهزيمة الكبرى اعتبرها عقاباً إلهياً على حكم كافر. ولم تنقطع صلته بالزملاء

## حديث الصباح والمساء ٨٨٣

خان الخليلي. زامل أخاها حتى البكالوريا ثم خلف أباه في الدكان عقب وفاته. وكان رغم شبابه ذا سمات فحلة وثبت به إلى الرجولة قبل الأوان، ضخم الجسم، كبير الرأس، حادّ البصر، وعلى خلق كريم وثناء لا بأس به. وبخلاف صدرية ومطرية زنت سميرة إلى زوجها في حي الظاهر، بشقة في عمارة جديدة بشارع ابن خلدون. وجاء ذلك مناسباً لها تماماً، فصادفت كثرة من الأسر اليهودية، وتعلّمت العزف على البيانو، وربّت كلبة لولي كانت تصحبها في نزهاتها بحديقة الظاهر ببيرس. ولما علم عمرو بذلك قال محتجاً ومسلماً بالأمر الواقع في آن... ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله...

وكان حسين قابيل ميسور الحال وكريمًا، فتفجرت ينبوع الحياة الرغيدة في مسكنه، وأشبعت سميرة هواها الكامن إلى الموضة والمعيشة الأنيقة، وضاعف من سرورها ما طبع عليه زوجها من جميل المعاشرة وأدب المعاملة، وأمام الآخرين كان يخاطبها بقوله «يا سميرة هانم» وتناديه بقولها «يا حسين بك» وكان الرجل يجمع في قلبه بين الوطنية الصادقة والتدين العميق، وينشرهما فيمن حوله، لذلك نفذت ثورة ١٩١٩ إلى عمق قلب سميرة لم تصل إلى مثله في قلب أي من أخواتها، كذلك كان تديتها أسلم من الشوائب إذ كانت أقل أخواتها تأثراً بغيبات راضية. وقد أنجبت له بدرية وصفاء وحكيم وسناء وفاروق وهنومة وسليم، وجميعهم حظوا بنصيب موفور من الجمال والذكاء، وتعاون الوالدان على تربيتهم تربية سليمة في كنف الدين والمبادئ. ومن أول يوم قالت له:

- سنعلّم البنات كالصبيان.

فوافق بحماس، واستطاعت سميرة بتألقها أن تحرك شيئاً من الغيرة عند آل المراكبي وآل داود أنفسهم، غير أنّ حياتها لم تخلّ من أحزان كثيرة ففقدت بدرية وسناء وحكيم وأسرته، وانشق قلبها قلقاً على سليم في شتى أطوار حياته. ومن العجيب أنّها كانت تلقى المصائب بإرادة مؤمنة صابرة قوية، قادرة على تلقي المصائب وهضمها، ومعايشة الحزن الباقي بحكمة جعلتها غرضاً سهلاً للاثام بالبرود. وتقول لها راضية:

وأصبح سليم من كتّاب الدعوة في مجلّة الإخوان، ودهمه ما دهم زمهرته من غضب لمغامرة السادات الكبرى في سبيل السلام، وارتدّ مرة أخرى إلى عنفوان السخط والتمرد، حتى صدرت قرارات سبتمبر ١٩٨١، ورُمي به في السجن من جديد. ولما وقع حادث المنصة قال:

- عقاب الهي لحكم كافر...

وتنفس الحرّة في جو جديد، ولكنه كان قد فقد الثقة في كلّ شيء إلا حلمه، فمن أجله يعمل ومن أجله يعيش...

## سميرة عمرو وعزير

هي الرابعة في ذرية عمرو والثانية في الجمال بعد مطرية. ومن خلال لعبها فوق السطح وتحت شجرة البلخ في الميدان، أو دراستها في الكتاب تبلورت لها شخصيّة رزينة وطبع هادئ وذكاء وقاد. نادراً ما التحمت في «نقار» مع إخوتها، وعند احتدام العنف كانت تنزوي في ركن قاعة بمشاهدة ما يجري مما ستدعى للشهادة عليه فيما بعد. ورغم أنّها فاقت أمها بجأها، إلا أنّها كانت تمت إليها في الهيئة العامة - عدا الطول - الأمر الذي جعل راضية تخصّصها بإعجاب شديد. وبخلاف أخواتها حفظت المبادئ التي لُقنتها في الكتاب وعتتها بالاجتهاد فكانت الوحيدة بينهنّ التي تواظب على قراءة الصحف والمجلّات في الكبر. وفي زيارتها لآل المراكبي بسرّاي ميدان خيرت أو آل داود بالعباسية الشرقية كانت تسجّل في وعيها ما تراه من أناقة الترتيب وآداب المائدة وإيقاع الحديث وجمال الموضة وتحاول اكتسابه والتنطّيع به ما وسعتها الحيلة وسمحت الظروف. وكان عمود بك عطا يقول بمزاحه الخشن:

- أنتم أسرة بلدي، ولكن فيكم بنت من بنات

الفرنجة!

وأدركتها المراهقة ولكنها لم تعاشر طويلاً أحلام العواطف الدفينة، إذ سرعان ما تقدّم لخطبتها صديق لأخيها عامر يدعى حسين قابيل صاحب دكان تحف في

- إنك لا تؤمنين كما يجب بالحجاب والرقا والبخور والأضرحة، ولا علم إلا علم الأولين..

وتتساءل سميرة في نفسها دون أن تبين هل أجدت هذه الوسائل في دفع المصائب عن صدرية ومطرية؟  
وحمّ القضاء فتوتّي حسين قابيل بعد مولد سليم بعام واحد وأربعة أعوام خلعت على وفاة أبيها. ولم ترث عنه إلا مخزناً من التحف، دبّرت أمورها على عوائد بيعها عند الحاجة، وقد رحل الأب، وذريته ماضية في مراحل التعليم ما بين الثانوية والجامعة...

وسألتها راضية:

- ماذا تبقى لك يا سميرة؟

فأجابت:

- مخزن من التحف.

فقالَت المرأة:

- بل يبقى لك خالق السهوات والأرض...

حرف السنين

شاذلي محمد إبراهيم

الابن الثاني لمطرية ومحمد إبراهيم وقد ولد ونشأ في بيت والديه بحارة الوظائف. كان جميلاً ولكن دون أخيه أحمد المتوفى درجة، وحل محل أخيه الراحل في زمالة خاله قاسم، ولكنه لم يفز بالمنزلة الأسطورية التي فاز بها أحمد. ومن صغره خالط بيت جدّه عمرو، وآل سرور، والمراكبي وداد، وثابر على ذلك في سائر أطوار حياته ناهجاً سبيل أمّه في حبّ الناس والإكثار من معاشرتهم. ومن صغره أيضاً تجلّت له مواهب سوف تصحبه في حياته كخفة روحه وميله للهو وتطلّعه للمعرفة وحبّ البنات وتوفيقه في ذلك كلّ، رغم أنّه لم يبرز في حياته التعليمية إلا درجة وسطى. ولعلّه ورث عن أبيه حبّ الاطلاع ووجد زاده في الكتب والمجلّات التي يقتنيها. وأضاف إلى معارفه من الأهل أصدقاء جدداً من قادة الفكر المعاصر، أيقظوه من سباته وأهبطوه بالتساؤلات التي لم ينقطع عنها طيلة عمره. ورغم ثقافته الإنسانية المتنامية وجد استعداده في دراسة

العلوم الرياضيّة فالتحق بكلّيّة العلوم، ثمّ اشتغل مدرّساً كإبيه، واستقرّ في القاهرة بوساطة آل المراكبي وآل داود. وواصل حياته مشغولاً بثقافته وهوسه عن المستقبل حتّى قال له أبوه:

- إنك مدرّس، ومهنة التدريس ذات تقاليد، وأرى أن تفكر في الزواج...

وقالت مطرية:

- البنات في أسرنا كثيرات، بنات خالاتك، وبنات عمّنا زينة!

وكان قد غازل الكثيرات دون جدّية، ولم يشعر نحو إحداهنّ بحبّ حقيقيّ، فقال:

- سأتزوّج بالأسلوب الذي أقتنع به...

فقال أبوه محذراً:

- المدرّس يجب أن يكون حسن السمعة...

حسن السمعة؟! كان يعبر فترة من الحياة يتساءل فيها عن معنى كلّ شيء حتّى حسن السمعة! وكان كلّها خلا إلى نفسه طرح هذا السؤال: من أنا؟! كان ظمؤه إلى تحديد علاقته بالكون جنونياً مضمناً. وكان لا يكفّ عن مناقشة الجميع، خاصّة من يأنس فيهم ميلاً للمناقشة، كابن خالته حكيم، وغيره من شباب آل المراكبي وآل داود وآل سرور. وتجرباً بعد ذلك على مقابلة طه حسين والعقاد والمازني وهيكمل وسلامة موسى والشيخ مصطفى عبد الرازق. ولم يكن الدين موضع رفضه ولكنه أراد أن يعتمد على عقله حتّى آخر المدى، وكلّ يوم كان له شأن. حتّى خاله قاسم كان يجاوره ويناجيه. وحتّى الثاؤون في مقابرهم من أهله كان يسألهم في مواسم القرافة. ولما حمل جدّه عمرو إلى فراشه وهو يودّع الحياة، جيء بممرضة تدعى سهير لتحقنه، فأعجب بها شاذلي رغم تسلّط الحزن. وراح يساعدها في تسخين الماء تحت مراقبة خفية من عينيّ عفتّ زوجة خاله عامر اللتين ندّت عنها نظرة خبيثة مأكرة. وتوطّدت علاقة حبّ بين الاثنين قبل حلول الأربعين. وتبيّن له أنّه جادّ هذه المرّة أكثر ممّا تصوّر فأعلن رغبته في الزواج منها. وصارحته مطرية قائلة:

- لك وجه جميل وذوق رديء!

وكان يردّ على العتاب بالضحك. وقالت مطرية:

## حديث الصباح والمساء ٨٨٥

المزروعة بالخضروات وأشجار الحنّاء. وهو بكريّ عامر وعفت وحفيد عمرو أفندي من ناحية وعبد العظيم باشا داود من ناحية أخرى. وكان دَخُلَ أبيه من مرتبه ودروسه الخصوصية، بالإضافة إلى ملكية أمه للبيت الصغير الأنيق ذي الحديقة الخلفية بتكعيبية العنب وشجرة الجوافة وشجيرات القرنفل، كل أولئك هيّا معيشة حسنة المستوى للأسرة، كما وفر لشاكر البكريّ مظهرًا جميلًا وتديلاً لا يفتقر للإرشاد القويم. وبالرغم من تفوّقه الرياضيّ شقّ طريقه في المدارس بنجاح. ولما لحق به في الوجود أخواه قدري وفأيد لعبت الغيرة دورها بين الإخوة، ولم تخلُ من معارك، ونزاع مع الوالدين، ولكنّها اعتبرت رغم ذلك أسرة متأسكة يغلب عليها الوفاق. وكان للحبّ المتبادل بين الزوجين نفحاته الزكية في إضفاء جوّ السلام ونشر المحبة، ويقدر ما تحمّل الأب صديقًا أبدت الأمّ محاولاتها في التسلّط. وأحبّ شاكر جدّه عمرو وجدته راضية وتظاهر دائمًا باحترام غيباتها، كما أحبّ جدّه عبد العظيم باشا وجدته فريدة هانم حسام. وتلقّى عن آل داود احتقارهم التقليديّ لآل المراكبي الذي اشتدّ بعد أن صارت شكيرة سلفة لعفت أمّ شاكر. ونشأ شاكر، وانتأؤه لأسرته وذاته يغلب فيه أيّ انتساء لوطن أو لحزب من الأحزاب. ورث ذلك عن أمه التي كانت غير متمية بحكم تربيتها وإن أعلنت في المناسبات ولاءها للعدليين متابعة لأبيها، أمّا الأب فلم يعد له من وفديته القديمة - في بيت الزوجية - إلا عاطفة باهتة أخفاها في أعماقه فلم يمتدّ تأثيرها إلى أولاده. والتحق شاكر بكلية الطبّ، وخاض أول تجربة عاطفية جادة في حياته بحبه صفاء بنت عمته سميرة. وكانت لها قصّة ترامت أنبأؤها إلى عفت أمه فجرت جنونها. لم يكن في صفاء ما يعيب، فهي جميلة وطالبة في الآداب، وقريته. ولكنّ عفت، رغم علاقتها الطيبة بآل عمرو ابن عمّ أبيها، إلا أنّها كانت تراهم دون مستواهم، وأنّ عروس ابنها يجب أن تكون من درجة أعلى بمراحل. وثار غضبها ولم تحفّه، وعلمت به سميرة وآل عمرو، وأحدث ما أحدث من استياء، وفي الوقت نفسه لم يُبَدِّ شاكر مقاومة جدية لأمه. فنصحت

- أصلها واطي وجهاها مبتذل.

فقال لها:

- استعدّي للفرح.

وسلم محمد إبراهيم بالأمر الواقع دون اكتراث، ولم تفكّر مطرية في إغضاب ابنها أكثر ممّا قالت، واختار شاذلي شقة في عمارة جديدة بشارع أبو خوده واستقبل حياة الحبّ والزوجية. واستقالت سهر من عملها وتفرّغت لحياتها الزوجية، وأثبتت أنّها فتاة لبقة وطيبة وسرعان ما حازت رضا حماها. وكان شاذلي سيئ الحظّ في ذريته، توفي له خمسة في سنّ الرضاعة، وعاش عمّد وحده، وصار ضابطًا في الجيش، ولكنه استشهد في الاعتداء الثلاثي. وعاش شاذلي حياته منقّبًا عن ذاته، يقرأ ويناقد ويتساءل ثمّ يصطدم بالسياسة إلا باعتبارها حوادث تدعو للتأمل والمعرفة، فلم يقع تحت سحر الوفد، وتابع تقلبات ثورة يوليو كما يتابع فيلمًا سينمائيًا مثيرًا، ولكنه حزن على ضياع محمد حزنًا لم يبرأ منه طيلة عمره. وقال مرّة لشقيقته أمانة:

- كلانا لم يخلق للسعادة الصافية...

ووجد شيئًا من العزاء في حبّ ذريتها، أمّا سليم ابن خالته وزوج هدية بنت أخته فكان يخيفه بصرامته وحدته. لم يجد في حوار متاعًا ولا لذة. وقال له سليم:

- حيرتك مستوردة ولا يجوز تسليم أن يقع فيها.

وظلّ على وده لقاسم رغم ما طرأ عليه، وكان يصطحبه أحيانًا إلى الكلوب المصريّ حيث تنهمر عليها ذكريات الآباء والأجداد، وكمعلم راح يراقب الأجيال المتعاقبة بذهول، وقال مرّة بحادث نفسه:

- لا أحد يشغل باله إلا بلقمة العيش والهجرة فما

جدوى العذاب؟

## شاكر عامر عمرو

ولد ونشأ في «بين الجنان» وهو شارع تقوم على جانبيه بيوت حديثة وتمتدّ شرقيه وغربيه الحقول

سيرة ابنتها صفاء بقطع علاقتها بابن خالها. وغضبت الفتاة لكرامة أسرتها وقطعت العلاقة بعد اقتناع بعدم جدية شاكِر. لم يخرج شاكِر من تلك التجربة مهيبض الجناح ولكنّه لم يخلُ من حنق على أمّه. وقد تخرّج طبيياً، وبفضل خاله الدكتور لطفي باشا عبد العظيم عُيّن في وظيفة بالمعامل بوزارة الصحة، ثمّ أمكنه فتح عيادة خاصة لأمراض الدم بعد بضع سنين. وراحت أمّه ترسم خطة لتحقيق حلم الزواج الجدير به في نظرها. وكان هو يتردّد على ملاهي الهرم القديمة فأحبّ راقصة هنغارية، واكثرى لها شقّة في الهرم، وتحولت العلاقة إلى حبّ حقيقيّ فتزوّج منها سرّاً، ولم يجرؤ على مكاشفة أمّه بالحقيقة ولكنّه كاشف بها أباه. وصعقت عفت، وثارث ثورة علم بها القاضي والداني وكثر الشامتون. وانتقل الدكتور إلى ماواه الجديد وأنذر الحال بالانفصال الكليّ عن أسرته. وقالت راضية لعفت:

سميرة ابنتها صفاء بقطع علاقتها بابن خالها. وغضبت الفتاة لكرامة أسرتها وقطعت العلاقة بعد اقتناع بعدم جدية شاكِر. لم يخرج شاكِر من تلك التجربة مهيبض الجناح ولكنّه لم يخلُ من حنق على أمّه. وقد تخرّج طبيياً، وبفضل خاله الدكتور لطفي باشا عبد العظيم عُيّن في وظيفة بالمعامل بوزارة الصحة، ثمّ أمكنه فتح عيادة خاصة لأمراض الدم بعد بضع سنين. وراحت أمّه ترسم خطة لتحقيق حلم الزواج الجدير به في نظرها. وكان هو يتردّد على ملاهي الهرم القديمة فأحبّ راقصة هنغارية، واكثرى لها شقّة في الهرم، وتحولت العلاقة إلى حبّ حقيقيّ فتزوّج منها سرّاً، ولم يجرؤ على مكاشفة أمّه بالحقيقة ولكنّه كاشف بها أباه. وصعقت عفت، وثارث ثورة علم بها القاضي والداني وكثر الشامتون. وانتقل الدكتور إلى ماواه الجديد وأنذر الحال بالانفصال الكليّ عن أسرته. وقالت راضية لعفت:

لا يجوز أن تخسري ابنك والزواج في النهاية قسمة ونصيب... .

ومع الزمن رجعت العلاقات في أضيق الحدود. وقامت ثورة يوليو وانقلب المجتمع رأساً على عقب، وطارت الباشوية من آل داود، وهبطت قيمة الأطباء والقضاة، فحقد شاكِر على العهد الجديد حقاً أفسد عليه أعصابه. ودبّر أمره للهرب، فانتهاز فرصة حضور مؤتمر طبيّ في شيكاغو، وهاجر إلى الولايات المتحدة وأقام بها قاطعاً علاقتة بوطنه وأهله. وقد رجع في منتصف الثمانينات مصطحباً زوجته وأولاده فزار والديه وأخويه وجدته راضية كضيف أجنبيّ، ثمّ سرعان ما رجع إلى وطنه الجديد... .

## شكيرة محمود عطا المراكبي

فتحت عينها على سراي ميدان خيرت برياشها وتحفها وحديثها الغناء. من سوء حظها أنّها اقتبست أهمّ معالمها من أبيها محمود بك متجاهلة أصل أمّها نازلي هانم المترع بالجمال والعدوية، ربعة قوية الجسم كبيرة الرأس خشنة القسما، عنيدة متطرّفة في

كُلّ شيء قابل للتغيير!  
ولكنّها لاحظت أيضاً أنّ عاطفته كانت نهماً عابراً وأنّ طلائع الفتور لاحت في شهر العسل نفسه. ودمها ذلك كصاعقة فألمها أشدّ الألم وطعن برأسه السامّ المسنون حبّها وكبرياءها، ولم تكن تخفي عن أمّها شيئاً فقالت نازلي هانم:

هذه أحوال تمرّ، كوني لبقة كيّسة.  
وحديثها حديث الهوانم المجربات طاوية قلقها في قلبها. وقالت لها أيضاً:  
إنّه من بيثة شعبية، وبحكم عمله كضابط شرطة لا يتعامل إلا مع الساقطين!  
وكان حامد يعمل حاسباً لجزيرة حميه وإقامته بين أفراد قبيلته فلم يرتفع له صوت، ولكنّه كان يدسّ بدواته دسّاً رقيقاً ومؤذياً في أن. وغضبت مرّة فقالت له:

كثيرون لا يعرفون النعمة إلا بعد زوالها!  
فقهقه ساخرًا وقال:  
إنّ زواجك منّي هو النعمة حقاً لك أنت!  
إذن لماذا رضيت؟  
- الزواج قسمة ونصيب.  
- وطمع وجشع أيضاً.  
هكذا بدأ عراك لم ينقطع على مدى السنين حتى حسمه الطلاق فيما بعد. وارتفع درجة في حرارته فصاحت به مرّة:  
- إنك تنضح بالقدارة... .

## حديث الصباح والمساء ٨٨٧

من خيالها الكثير، وكانت تشبه راضية جسماً ووجهاً مع ميل أكثر إلى البياض وثقوب في العنف وسلاطة اللسان وتمادٍ في غرابة الأطوار التي تماس حافة الجنون. وعقب وفاة أبيها بعامين خطبها أحد تلاميذه من قراء القرآن الكريم، ذو صوت عذب ومنظر وجيه ورزق موفور، فزفت إليه في مسكنه بباب البحر غير بعيد من بيت الأسرة. وأنجبت منه ولداً جميل الصورة أسماه أبوه عبده تيمناً باسم سي عبده الحامولي الذي كان مولعاً بصوته. ومضت حياتها الزوجية في توفيق رغم حدة طبعها وسلاطة لسانها، ولكن الشيخ علي بلال - الزوج - كان يعلق على ذلك بدعابة قائلاً:

- هذه توأبل الحياة الزوجية.

وقد توطدت مودته لعمرو أفندي وآله، وكلما زار بيت ميدان بيت القاضي رجاء عمرو أن يبارك البيت بتلاوة منه فيترجع في حجرة الاستقبال عقب الغداء واحتساء القهوة ويقراً ما تيسر من القرآن الكريم بصوته العذب. وأغراه صوته وأصدقائه بإنشاد المدائح النبوية في المواسم، فأتسع مجال رزقه وكثر المعجبون به حتى دُعي لإحياء بعض الأفراح بإنشاد المدائح. وفي ذلك الجوّ المعبق بالأفراح، والليلالي الملاح جرت رجله لتدخين الحشيش. وأخيراً اقترح عليه أحد الملحنين أن يتحوّل إلى مطرب متنّباً له بمستقبل ودي. واستجاب للدعوة بقلب طروب، ولم يجد بأساً في هجر السور الشريف ليغني «إفزع تكلمني بابا جي ورايا» و«ارخي الستارة اللي في ريجنا» و«الهف يا لا بف يا سمك مقلي» ونجح في ذلك نجاحاً مرموقاً، وسجل أسطوانات راجت في السوق وأذاعت اسمه على الألسنة. وضرب عمرو أفندي كفاً بكف وقال:

- يا للخسارة...

وبدأت شهيرة تخاف على مكانتها الزوجية من إغراءات الوسط الجديد فقالت له:

- تزوجتك شيخاً مباركاً فانقلبت إلى عالة!

وتمل الرجل بنجاحه وصار واسطة العقد في كثير من جلسات الحشيش، ولم يتورع بعد ذلك عن معاورة الخمر وتبخير بيته آخر الليل برائحته الكريهة النفاذة مذكراً شهيرة بمأساة أخيها بليغ، فغطى صوتها على

فسألها متهكماً:

- ألم يحدّثوك عن جدك بياع المراكيب؟!

ولكن شكيرة رغم غضبها وصلابتها لم تحل من حكمة، فطلت أسرار حياتها الزوجية التعسة خافية في أضييق الحدود، حتى نازلي هانم لم تعلم بكل تفاصيلها... بل يمكن القول بأنها لم تنضب من حب له رغم كل شيء حتى وفاة أبيها، وأنجبت له وحيدة وصالح، وأملت كثيراً أن يستقيم حاله مع الزمن ولكن دون جدوى. ولم تكن علاقتها مع أسرته بأحسن من علاقتها معه. كانت تعتبر راضية - قبل زواجها - امرأة غريبة الأطوار، ثم حكمت بعد ذلك بجنونها، وتبادلنا كراهية ماحقة رغم الصداقة الجميلة بين راضية ونازلي. وقالت نازلي:

- حذار أن تغضبني حماك، إنها مؤاخية للجان!

فقالت شكيرة:

- اعتمادي على الله وحده.

كذلك تبادل كراهية مع عفت زوجة عامر ضاعفت ما بين آل عطا وآل داود من غيرة ومنافرة. ولما رحل جيل الكبار تنفس حامد وتطير سخطه في الهواء بلا ضابط، وانتهى الأمر بالطلاق. وقد كرهت شكيرة حامد وأهله كراهية عميقة لم تخف حدتها أبداً. وواظبت على لعنه وتشرجه حتى بعد موته. وفي وحدتها استغرقها التدين وحبّت أكثر من مرة، وكانت تحرص على الفرائض من صلاة وصوم وزكاة، كما تحرص على لعن أعدائها والدعاء عليهم في الدنيا والآخرة.

## شهيرة معاوية القليوبي

هي الابنة الثانية للشيخ معاوية وجلييلة الطرابيشية. ولدت ونشأت ببيت الأسرة القديم بسوق الزلط بباب الشعريّة، ولمعهن كان مدخل البيت ما بين الفرن والبئر وكنبة المعيشة، هو الذي جمع بين راضية وشهيرة وصديقة وبلينغ. وفيه سمعت وصايا الشيخ الأب، وجرت كلمات جلييلة محملة بغيبات العصور الخوالي. ومن بادئ الأمر لم تستجب شهيرة للدين وفرائضه ولكنها استقبلت التراث الغيبي بحماس وأضافت إليه

للعناية بالقطط. وماتت في المستشفى غلظة حوالي أربعين قطة وقطًا. وبكى أبناء وبنات راضية الخالة التي كانت تثير ضحكهم في حياتها. . .

## عرف الصالح صالح حامد عمرو

نشأ في سراي ميدان خيرت في الجناح المخصص لحامد وشكيرة. وهو وأخته وحيدة يمثلان أول جيل للأحفاد في آل المراكبي ولذلك حظيا بتكريم خاص من الجدود والأخوال. وكانت الحديقة الكبيرة ملعبه وحلمه. أحبها في الربيع وهي تجود بأخلاق روائحها الزكية، كما أحبها في الشتاء إذا غسلتها مياه الأمطار النادرة. وارتبط بأمه أكثر من أبيه لانشغال أبيه بعمله، وارتبط بها أكثر كلما لمس آثار عمتها مع أبيه. وكان قوي الجسم كأبيه حسن الملامح كجدته، ولكن أمه ربته تربية دينية أرستقراطية رقيقة فنشأ ذا ضمير ومبادئ تقوى، وكان عنيدًا كأمه مما أضفى عليه شبهة غباء هو في الحقيقة أبعد ما يكون عنه. وأكد ذلك تشدده في الحكم على الناس، بالقران والسنة، دون تسامح أو لين. وربما كان أبوه أولى ضحاياه رغم حب الرجل الشديد له. هو أيضًا كان يحب أباه ولكنه رآه مبتذلًا ووضع في خانة واحدة مع الخطاة والساقطين مع إبلائه حقًا الكامل من البرّ والولاء. ولم يغب موقفه عن غريزة حامد، وشكا أمره إلى أخيه عامر قائلاً:

- شكيرة أنشأتهم على النفور مني. . .

ومن أجل ذلك قال عامر لصالح مرة:

- أنت رجل صالح يا صالح فلا تنس البرّ بأبيك.

فقال صالح:

- ما أهملت له حقًا أبدًا.

- لعله لا يقنع بالرسميات. . .

فقال بصراحته الحادة:

- إنه يظلم ماما يا عمي.

وقرب ذلك الخلق بينه وبين سليم ابن عمته، مع فاروق وهو أن سليم كان يقرن العاطفة بالعمل أما

مؤذن الفجر في زجره وسلقه بلسانها الحاد. ثم ترامي إليها أنه يبدأ يغازل العوالم فانقضت عليه بوحشية فتحت له أبواب الجحيم على مصاريعها فقرّ عزمه على تطلقها. ولكنه قبل أن ينفذ عزمه أفرط ليلة في البلبة فكيست على قلبه وأسلم الروح في مجلس أنس وهو يداعب أوتار عوده. وأدت شهيرة طقوس الحزن بلا مشاركة وجدانية، وأجرت البيت ودكانين أسفله، وحملت عبده راجعة إلى بيتها القديم لتشارك أمها وحدتها.

وقالت لها راضية:

- ليكن عبده لك قرّة عين. . .

ولكن عبده انخطف في حمى كحلّم بعد أن عرفت أمه في الحيّ بأم عبده، والتصق بها اللقب حتى آخر عهدهما بالحياة. وولعت بتربية القطط، وكزست حياتها للعناية بها حتى ملأت عليها فراغ حياتها، وزحمت البيت القديم. . . وراحت تؤكد أنّها باتت خبيرة بلغتها وبالأرواح التي تسكن أجسادها، وأنّها عن طريقهنّ تتصل بعالم الغيب. ووجدت في راضية خير صديقة لها. وكان اجتماعهما سواء في بيت القاضي أم في سوق الزلط تمهيدًا طبيعيًا لعقد جلسة غريبة تتبادل فيها الخبرات عن عوالم الجان والغيب وأبناء الأسرار الخفية، كانتا في ذلك قلبًا واحدًا وعقلًا واحدًا رغم سوء ظنّ راضية بها وإتّامها لها بحسدها على ذريّتها وزواجها الموفق. واشتهرت في حيّ سوق الزلط بشخصيّتها الغامضة المرهوبة ولسانها السليط. ولم يعرف عنها أنّها أدت فريضة، وكانت تجهر بإفطارها في رمضان وتقول:

- الواصل ليس في حاجة إلى فريضة تقرّبه من

الله. . .

ولما رحلت أمها غرقت في وحدتها وانغمست في دنيا القطط حتى قمت رأسها الأشيب. وكان أخوها بليغ يتمهدها برعايته ويدعوها لزيارة قصره المنيف ولكنها كرهت زوجته بلا سبب. ولم تكن تغادر القطط إلا لزيارة سيدي الشعراي أو زيارة راضية. . . وفي عام ١٩٤٧ أصابها وباء الكوليرا فنقلت إلى مستشفى الحميات بعد أن أوصت جارة بالذهاب إلى راضية

## حديث الصباح والمساء ٨٨٩

من قدر من الدين الصحيح . أما براعتها في فنون البيت من طهي وتنظيف وشغل الإبرة فكان مضرب الأمثال، وتعلّمت في الكتاب أشياء وفكّكت الخطّ ولو أنّها رُذت إلى الأُمّية لعدم الاستعمال . ولم تكن تكفّ عن العمل ولا عن الغناء رغم أنّها لم ترزق أيّ ميزة في حنجرتها، تُرى في المطبخ مساعدة لأمّها أو حالة محلّها، أو جالسة إلى ماكينة الخياطة، أو فوق السطح تتفقد أحوال الدجاج والأرانب . وعندما اكتظّ البيت بعامر ومطرية وسميرة وحبيبة وحامد وقاسم لعبت دور نائبة الأمّ وأسهمت في اللعب والسرور والصراخ والعراك وتفوّقت في كلّ . وقد اكتسبت منزلة لم يشاركها فيها أحد، وحافظت عليها حتى آخر العمر، وقاسمت الجميع همومهم رغم ثقل همومها، وأمنت بأمّها واعتبرتها من صاحبات الكرامات . وما كادت تبلغ الخامسة عشرة حتّى تقدّم لطلب يدها صعيديّ من الأعيان يدعى حمادة القناوي فتحقق الحلم الذي راودها منذ جاوزت العاشرة! وكان ذهابها يمثّل أوّل فراق في الأسرة وأوّل فرح لها . وكان حمادة من معارف عمرو، وكان من عشّاق القاهرة فأقام بها مع أمّه - عقب وفاة أبيه - مؤجّراً أرضه البالغة ثلاثين فدّاناً لعمّه في قنا . وقد زارت رشوانة وراضية وزينب حرم سرور بيت الرجل بدرب القزّازين، وقالت رشوانة لأخيها عمرو:

- أمّ حمادة امرأة تقيّة لا تفوقها فريضة . . .

وفي مجلس بيت عمرو جمع بينه وبين سرور ومحمود بك عطا قال سرور أفندي:

- العريس عاطل لا عمل له وهذا شيء رديء .

فقال عمرو:

- إنّه يملك ثلاثين فدّاناً .

فقال سرور بغروره الخاوي:

- ولو . . . إنّه لا يكاد يفكّ الخطّ . . .

فقال محمود عطا:

- قيمة الرجل في ماله .

وقال عمرو:

- وأسرته محافظة طيّبة .

وارتاحت صدرية إلى منظره ذي الطول والقوّة،

صالح فكان يقول لنفسه:

- حسبي القلب وهو أضعف الإيمان . . .

لذلك أحبّ الإخوان دون أن ينخرط في سلوكهم، وأدان ولاء آل - آل المراكبي - للملك كما أدان الأحزاب جميعاً، وبتابعة الصراع الدائم بين والديه نفر نفوراً عاماً من آل أبيه، آل عمرو وسرور، كما احتقر آل داود، وآمن مع أمّه بأنّ جدّته راضية ما هي إلا امرأة مخبولة! وبنجاحه المتواصل في المدارس قال له حامد:

- عليك بالطبّ وأنت أهل لذلك!

ولكنّ شكيرة قالت:

- بل الزراعة ولك أرضي بعد ذلك تعمل بها .

وطابت له فكرة أمّه فلعننها حامد في سرّه . وبعد تخرّجه في الزراعة سافر إلى بني سويف مصمّماً على خلق مزرعة حديثة من أرض أمّه التي ورثتها بعد وفاة جدّه الجبار . وخطب إحدى قريبات جدّته نازلي هانم وتدعى جلفدان، وتوفّر للعمل في الأرض بهمة عالية، كما ربّ العجول وأقام منحلاً للعسل . وارتدى ملابس أعيان الريف . ولم يكن يرتدي البدلة إلا حين زيارة القاهرة . ولما قامت ثورة يوليو عادها بقلبه رغم أنّها لم تمسّه بسوء، ورغم أنّه وجد خالتيه عبده وماهر من رجالها . وفي عهد الانفتاح اتّسع رزقه وكثرت ذرّيته وظلّ على ولائه لمبادئه . وازداد استياءً من أبيه بعد تطليقه أمّه وزواجه الثاني، ولكنّه لم يخلُ من حزن صادق لدى وفاته . وتأقلم بالريف وأحبّه وعشق عمله ونجاحه وأصبح يطلق على القاهرة «مدينة العذاب» . . .

## صدرية عمرو وعزّيز

قيل عنها بحقّ نحلة آل عمرو . كالأخريين ولدت ونشأت في البيت القديم بميدان بيت القاضي . بلون ضارب لسمرة أعمق، وقامة أميل للقصر، وجسم نحيل حسن التكوين، وقسمات مقبولة، استقبلت بفرحة يشوبها فتور إذ انعقد الأمل بمولد ولد ولكتّنها بحكم سنّها مارست الأمومة لإخوتها وأخواتها منذ الصبا . وكانت نجية أمّها ووريثة تراثها، ولم تخلُ أيضاً



والواقع أن أذى ثرثرته لم يقتصر على زوجته ولكنه جاوزها - بزياراته - إلى آل عمرو وسرور والمراكبي وداود حتى صار نادرة في الأسرة كلها. وتبين لها بعد ذلك أن عينه لا تعرف الحياء، فهي تمتد إلى أي امرأة جميلة ذاهبة أو آتية فتتغصص عليها صفوها أكثر وأكثر. وتسأله مستنكرة:

- أليس عندك حياء؟

فيقول ساخراً:

- لا ضرر من النظر...

ولكنها ضببت إشارات متبادلة بينه وبين أرملة حسناء تقيم في البيت المواجه لها. واشتعلت بها نار طيرت النوم من عينها فطلت متيقظة حتى ميعاد عودته من سهرة البارزيانا. وغادرت بيتها إلى الطريق متلعة بالظلام ويدها وعاء مملوء بالماء. وجاء الرجل يشق الظلماء فأحست بباب بيت الأرملة وهو يفتح وشبهها يتخيل في مدخله. وتوقف الرجل، ثم مال نحوها. وتقدمت هي بسرعة إلى منتصف الطريق وقذفت بالماء على شبح المرأة فصرخت وتهاوت في الداخل. وذهل الرجل ونظر نحوها متسائلاً:

- من؟

فقالت بصوت محتدم:

- إلى بيتك يا قليل الحياء...

وكان تلك الليلة يترنح. ودخل صامتاً، وهتف غاضباً:

- سأثبت لك أي رجل متوحش عند اللزوم...

ولكن الضحك غلبه في سكره فارتمى على الكنية وهو يقول:

- أنت امرأة مجنونة مثل أمك!

وخاصمته زمناً، ثم رجعا إلى المعاشرة والمناقرة، ولم يجسم الأمر بينهما إلا المرض. أصابه ضغط دم أثر في سلامة قلبه فاضطر إلى الامتناع عن الشرب وحلّ به خمول عام يشبه - في بعض مظاهره - الحكمة. ووفدت الأحزان، ففقدت صدرية ابتها ورده في عز شبابها، ثم أباهما، وأختها مطرية. وأخيراً مات حمادة وهو في زيارة لأهله في قنا، وبقيت صدرية وحيدة في خان جعفر رافضة الانتقال إلى بيت ابنها عقل رغم برّه

وأناقة جبته وقفطانه، ورجولة ملامحه، كما تراءى لها من وراء خصاص المشربية. وزفت إليه في بيت اكتره في خان جعفر من أملاك الدهل الحلواني. وقد أهداها محمود عطا حجرة الاستقبال كما أهداها أحمد بك عطا حلياً وثياباً، وأهداها عبد العظيم داود ثوب العرس. وبدأت صدرية حياتها الزوجية مع حمادة القناري معتمدة على وصايا أمها وبركاتا ومهارتها الفائقة كست بيت. وكان حمادة مشكلة متعدّدة الأطراف. أجل تبادل استجابة مفعمة بالموّدة، وشعر كلاهما بأنه في حاجة متينة إلى الآخر. ولكن صدرية كانت ذات حساسية وحدة في الطبع والعناد لا يستهان به، وكان الرجل ثنائياً ضيق الذهن محباً للفخر والسيطرة، وهياً له فراغه غير المحدود التدخل فيها يعنيه وما لا يعنيه. لم تعد أن رجلاً يغط في نومه حتى الضحى، ويستيقظ فيوقف نشاطها المنزلي ليحدثها حديثاً لا أول له ولا آخر عن أسرته وأمجاده وأجداده هو الخيالية، ويلاحقها بملاحظاته الغيبية عن عملها الذي لا يفقه فيه شيئاً. ولم يكن يعرف من دينه إلا اسمه، فلا يصلي ولا يصوم، ولا تكاد تمضي ليلة دون أن يسهر في البارزيانا فيشرب النبيذ ويتعشى بالمزّة. لم يكف عن الزوجية والإنجاب فأنجبت له «نهاد وعقل ووردة ودلال» ولم ينقطع عن الجدال العقيم، فيفاخر بأسرته من الملاك. وتُساق إلى المفاخرة بال عطا وداود والشيخ معاوية بطل الثورة العراقيّة، وأحياناً تمتد المناقشة فيتبادلان أقسى الكلمات.

وكانت صدرية حريصة على كتم بخار حلتها تحت غطائها المحكم، وعلى حلّ مشاكلها بنفسها دون إشراك أهلها فيها. ولكن راضية كانت تظن إلى أشياء بوحى غريزتها، وأيضاً بما لمست في الرجل من ثروة موجعة للرأس. وقالت لابنتها:

- الزوجة يجب أن تكون طيبة!

فقالت صدرية:

- عليك بزيارة الأضرحة المفيدة لهذه الحال...

فقالت راضية:

- وما جدوى زيارة الأضرحة في هذه الحال؟...

العلاج الناجع في قطع لسانه!

## حديث الصباح والمساء ٨٩١

البشر. وصوّرت جلييلة فهرع إليها أهل النجدة من الجيران، وانتشلوا صديقة وهي في الرمق الأخير. وقضت ساعات عذاب من ليل طويل محموم، يحيط بها أمها وأختها راضية وشهيرة، وقد اكتظ المدخل بالرجال من الأسرة والجيران، وفاضت روحها بعد نضال معذب قبيل الفجر وهي في عزّ الشباب والياس والألم. وحزنت جلييلة عليها طويلاً، وأمرت بتغطية البئر بغطاء متين من الخشب والاستغناء عنها كليّة. وكانت تحلم بها من حين لآخر وقالت مرّة لراضية:

- في ليلة سيدي الشعراي رأيت صديقة على مقربة من البئر واقفة في سحابة بيضاء مشرقة الوجه بابتسامة...

فصدقتها راضية بإيمان عميق وسألته:

- هل حدثتلك يا أمي؟

فقال جلييلة:

- سألتها عن حالها فقالت لي إنّ الله غفر لها انتحارها، وإنّها تخبرني بذلك ليطمئن قلبي...

فهتفت راضية:

- الحمد لله الرحمن الرحيم...

فقال جلييلة:

- رأيتها في غاية من الجمال كالأيام الماضية...

## صَفَاءُ حَسِينِ قَابِيلَ

هي الثانية في ذريّة سميرة وحسين قابيل، ولدت ونشأت في بيت ابن خلدون، ورضعت في مهدها اليسر والهناء مستظلةً بأيام العزّ والهناء وخمائل حديفة الظاهر بيبرس. ومع أنّ جميع أبناء سميرة عُرفوا بالجمال والصحة والنجابة، فإنّ صفاء كانت أوفرهنّ جمالاً ومرحاً. كما لاعبت جدّتها راضية ورقصت بين يديها ونفثت حرارتها الزكيّة في كلّ مكان تحلّ فيه. ونمت بسيطة ومتساعحة، تحبّ الحياة أكثر من المبادئ التي تُوَزَعُ لإخوتها وأخواتها. وهام بها حسين قابيل هيأماً واعتدّها تحفة أجمل من جمع التحف التي يتاجر بها. ومضت في الدراسة بنجاح حسن، والتحقّت بكليّة الآداب قسم اللغة الإنجليزيّة، ومات حسين قابيل

الشديد بها. ولما شعرت راضية بتدهور صحتها قالت لصدريّة:

- أريد أن تكوني إلى جانبي حتى تغمضي عيني... فأغلقت بيتها راجعة إلى البيت الذي شهد مولدها لتكون إلى جانب الأمّ التي فضّلتها على الجميع. كانت الأمّ قد تجاوزت المائة بسنوات والابنة قد اقتربت من التسعين رغم تماسكها ونشاطها. وتقضت تلك الأيام الأخيرة في حومة الذكريات، ورُدّدت الأمّ أغنية كانت ترُدّها في أواخر الربع الأوّل من القرن التاسع عشر ثمّ أسلمت الروح، فأغمضت صدريّة عينيها وهي تؤدّ أن تبكي فلا تستطيع...

## صَدِيقَةٌ مَعَاوِيَةَ الْقَلِيُوبِي

ثلاثة بنات الشيخ معاوية وجلييلة الطرايشيّة، وجاء مولدها بالبيت القديم بسوق الزلط بعد سجن الشيخ بنصف عام. وفاقت شقيقتها راضية وشهيرة بجهاها، بل كانت بوجهها المائل لليباض وخديها المورّدتين وقسماتها المتناسقة وشعرها الأسود الغزير وقدها الطريّ الرشيق مثلاً للحسن بغير منازع في الحيّ كلّه، ولم يفقها في الأسرة سوى مطريّة بنت عمرو وراضية التي شابهتها في الأصول ونجاوزتها في الحفّة والتهذيب. وكانت الوحيدة التي لم تنل حظّها من تربية الشيخ الدينيّة، فنشأت ثمرة خالصة لثراث جلييلة، مع عذوبة في المعاملة وحبّ للغناء تركّيه حنجره لا تخلو من جودة في الأداء. ولجهاها وعذوبتها حظيت بأكبر قسط من حبّ أبناء راضية وبناتها، وتقدّم لها بعد وفاة أبيها بأعوام وبعد زواج شهيرة بعام واحد طبيب أسنان شاميّ من سكّان الحيّ فرزّت إليه، وأقاما في عبارة جديدة بالفجالة. وسرعان ما دهمتها الخطوب فمات زوجها قبل أن تحبل، ومرضت بالسلّ، ورجعت إلى حضن جلييلة تشدّ الأنس والشفاء. واهتزّت قلوب الأسرة لفجيعتها، وذوى جمالها وتغيّر حالها وتكالمت عليها الآلام دون أيّ أمل في الشفاء. وشعرت بأنّها تنحدر نحو الهاوية، وضاعت بالياس والألم والأرق والسعال، وفي لحظة ياس مدهمّة رمت بنفسها في

سجايًا أمها الفريدة وهي القدرة على التصدي للكوارث. وانقطعت العلاقة مشفوعة بالازدراء. وتخرّجت، وتعيّنت مترجمة بإدارة الجامعة بوساطة الأكابر من أهل أمها. وراها السكرتير المساعد للإدارة فرغب في الزواج منها. كان يكبرها بحوالي عشرين عامًا ولكنّه ذو درجة عالية ودخل لا بأس به. ووزنت العرض فوجدته مناسبًا لحالها تمامًا، وتبيّن لها أنّها «عملية» أكثر ممّا ظنّت. وزوّجت إلى صبري بك القاضي بفيئته بحدائق القبة. وهبتها حياتها الجديدة ما تحبّ من عيشة رغدة وزوج محبّ كريم وأمومة قنعت بولدين عليّ وعمرو. ولما قامت ثورة يوليو لعبت بأسرتها كما شاءت فرفعت شقيقها حكيم وضيّعت سليم، ومن حسن حظّها هي أنّ صبري القاضي كان قريبًا لضابط مهمّ فترقى في مدّة قصيرة حتّى شغل وظيفة وكيل وزارة التربية، وأحيل إلى المعاش لبلوغه السنّ ولكنّه دفعها مرّات حتّى وصلت إلى درجة مدير عامّ. وأشرفت بنفسها على تربية عليّ وعمرو حتّى التحقوا بالسلك السياسيّ. هكذا تألّق هذا الفرع في عقد البيروقراطية الماسيّ ونجا من شرّ العواصف.

## حرف العين

### عَامِرُ عَمْرٍو عَمْرِيّز

أولّ هديّة من عالم الغيب تغمر قلبي عمرو وراضية بالفرحة والرضا والفخر، وتؤكد الحقيقة التي يؤمن بها ميدان بيت القاضي وهي أن ليس الذكر كالأنثى. وجاء مشرقًا بوجه مليح، يقتبس ملاحظته من خير ما حظيت به راضية من استقامة الأنف وعلوّ الجبهة، وما ستعرف به سميرة فيما بعد من دقّة القسيات وتناسقها. ومن أبيه أخذ هدوء الطبع والتقوى ونزعة القيادة والرعاية. طالما جمع أخواته فوق السطح ليقوم بينهنّ بدور شيخ الكتاب، ويده عصا منعه من استعمالها الحياء والعدوية. ونشأ نظيفًا أنيقًا يطوف بالأحياء باسمًا متأملاً ويتربّع أمام ضريح الحسين لاهجًا بالدعاء. ونجح دائمًا في كسب الأصدقاء من الجيران، من طبقته

تاركًا في قلبها جرحًا عميقًا، وشعرت بعناء أمها وهي تعدّ الأسرة لمستوى جديد من المعيشة فخيم على مرحها ظلام أشدّ من ظلام ليالي الحرب والغارات. وتلاقت في تجوالها بشباب الأسرة ما بين آل سرور والمراكبي وداود ولكنّ شاعر ابن خالها عامر كان الذي ألقى عليها شبك اهتمامه وإعجابه. كان طالبًا بالطبّ فأمكنها أن يلتقيا كثيرًا بعيدًا عن تقاليد الأسرة، وبلغ قلبها فطامه على يديه، فاعتقدت بأنّه فتى المستقبل المأمول لإسعادها. ولم يغب عنها حرصه على إحاطة علاقتهما بالسرّيّة، ولم تدرك لذلك مغزى، فسألته مرّة:

- ممّ تخاف؟

فأجاب بصراحة وسخط:

- ماما!

فعبجت لشأنه وشأنها وحدثت أنّه ليس الرجل كما ينبغي له. ورجعت ذات يوم من كليتها فوجدت أمها واجهة متجهمة فأدركت لسابق معرفتها بقوة انضباطها أنّ حدثًا قد حدث.

وقالت سميرة باستياء:

- عفت زوجة خالك!

وخنق قلبها وشعرت بتلاشي أملها. وقالت سميرة:

- صارحتني بلا حياء بأنّ عليّ أن أمنعك عن

ابنها...

فهتفت صفاء بغضب:

- ولكنّي لا أطارده.

فقالت سميرة بأنّى:

- أغلقي هذا الباب بالضربة والمفتاح...

أجل. لا مفرّ من ذلك. ولا نجاة من الألم، ولكن

لماذا؟. وواصلت سميرة:

- ينظرون إلينا من فوق، وقد يما حصل ذلك مع

خالتك مطريّة!

تساءلت بحق:

- كيف يتصوّرون أنفسهم؟!

- ما علينا، أريد أن أطمئنّ عليك...

فقالت باستهانة:

- اطمئنّي تمامًا...

وقد تجرّعت ألمًا ومهانة ولكنّها لم تخلّ من بعض

## حديث الصباح والمساء ٨٩٣

تفرّقه العلمي، ليكون أهلاً بكلّ معنى الكلمة بعفت، ولكنّ أباه اختار له مدرسة المعلمين لامتيازها بالمجانّة، قائلاً لابنه المحبوب:

- المجانّة في الطبّ متعذّرة، والعين بصيرة واليد قصيرة...

وكان عامه مثلاً في الطاعة والتجاوب مع الحقائق مهما تكن مرارتها، فقال لأبيه متظاهراً بالرضا:

- المعلمين مدرسة عليا على أيّ حال...

وتساحت عفت وأهلا، وقالت عفت لنفسها إنّ معلّمًا تحبّه خير من طبيب لا تحبّه. وهضم عامر خيبة أمه العسيرة ومضى في طريقه مكلّلاً بالنجاح والرضا. ولمّا قامت ثورة ١٩١٩ دخل معبدها مع أسرته، واشترك في المظاهرات، من قلبه الصافي يحيا سعد. وكان في السنة النهائية فسرعان ما ابتعد عن النشاط المباشر بممارسة حياته العملية. وقد اتّفق على الزواج بعد عام واحد من ذلك التاريخ. أصبح ضيقاً في أسرته التي لم يخلف في صدور أبنائها إلّا كلّ طيّب، باستثناء المشاحنات التي كانت تقوم بينه وبين أخيه

حامد بسبب طبيعة حامد المتمرّدة وسلوكه الجامح... وكم بذلت راضية من تعاويذها وتمايمها لطرد روح الشرّ من بين الشقيقتين، ولكن ما إن بدأ حياتها العملية حتى حلّ الصفاء مكان الكدر. وكان عبد العظيم داود قد شيّد لابنته بيتاً في بين الجنانين، دخلته الكهرباء والماء والمجاري، وتحلّى في خلفيته بحديقة صغيرة، فانتقل عامر مع عروسه المتفرّجة إلى البيت الجديد ليستهلّ حياة زوجية سعيدة طويلة. وقد هزّ الزواج أسرة آل عمرو من أوّل يوم. وضح تماماً أنّ العروس الجديدة من طراز مخالف لأخوات عامر، فهي متخرّجة في الميردي ديبه، ترطن بأكثر من لغة، وتتقن اللعب بالبيانو، وتعرف معلومات عن فرنسا وتاريخها وديانتها ولا تكاد تعرف شيئاً عن بلدها تاريخياً أو عقيدة، وتفانخر بذلك دون خفاء، برغم تفشّي الروح التي أطلقتها الثورة الوطنية. وكانت ذات شخصيّة قويّة متسلّطة فالتهمت شخصيّة زوجها الوديعه الدمنة، فلم يجزّ الشاب على تذكيرها بأنّ الصوم واجب في رمضان، وصام وحده معتمداً على نفسه في إعداد

ومن الطبقة الأعلى. ولم يستطع الأدنون أن يتحرّشوا به أبداً. وفاز بالخطوة أيضاً في سراي ميدان خيرت وعند آل داود. وشقّ طريقه التعليمي بالنجاح وتفوّق في العلوم والرياضة، وبفضل كبراء الأسرة نال امتياز المجانّة فتحفّف أبوه من عبء لم يكن ليتحمّله وهو في حومة تزويج صدرية ومطرية وسميرة... ومنذ صباه حدث الميل المتبادل بينه وبين عفت بنت عبد العظيم باشا داود. حدث فوق السطح في ظلّ الغسيل المنشور، ونما مع الأيام والزيارات المتبادلة حتى صار حباً وحلمًا للمستقبل. وكانت تلك الأمور تقمع سرّاً ولكنّ رائحتها تفوح كالوردة، وانتصر الحبّ أوّل ما انتصر على البنت المترفّعة التي كانت تنظر إلى أسرتها من علّ كأنّ الله لم يخلق للنبل إلّا أسرتها. وقالت فريدة هانم حسام لعبد العظيم باشا:

- نحن نربيّ بناتنا في المدارس الإفرنجية ليكونّ صالحات لطبيب أو وكيل نيابة من أسرة...

فقال الباشا:

- عمرو ابن عمّي ولا أعدل به أحدًا...

وكانت الهانم تشاركه عواطفه، وتحبّ راضية، وتحبّ عامراً بصفة خاصّة فسرعان ما استجابت. وسرّ عمرو وراضية بذلك، وكان عمرو تيّهاً فخوراً بأقاربه العظام فاعتبر ارتباطه بهم بالمصاهرة فوزاً كبيراً. وكان محمود عطا بك يفكر في عامر كزوج لشكيرة، فلما سقط الفتى في أيدي منافسيه قال لعمرو:

- سيكون حامد لشكيرة...

وتمتّ بذلك سعادة عمرو، الأمر الذي عرّضه للملامة شقيقه سرور، فأخذ عليه تجاهله لبناته، ودافع عمرو عن موقفه متعلّلاً بجمال بنات أخيه اللاتي لا يخشى عليهنّ من البوار، وبفقر أولاده الذين في حاجة إلى دعامة. فقال سرور بمرارة:

- إنهم يضنّون عليك بالذكور...

فتألّم عمرو ولكنّه قال مستوحياً طبيعته المتواضعة:

- رحم الله امرأ عرف قدر نفسه...

فقال سرور وهو يداري غضبه:

- أصبحت يا أخي درويشاً لا تغضب!

وودّ عامر أن يلتحق بمدرسة الطبّ معتمداً على

بامرأة... .

ووفق عامر في حياته المهنية توفيقه في حياته الزوجية، فكان من أحب المعلمين إلى تلاميذه وأعظمهم تأثيراً فيهم، ومن القلة التي تعيش ذكراها مع الأجيال التي تربيتها حتى آخر العمر. وقد انتفع بذلك في زيادة إirاده بفضل الدروس الخصوصية، وفي تدليل كثير من الصعوبات بفضل ذوي النفوذ من تلاميذه السابقين، أما أعلى درجة سجلها حفظه فقد حدثت بعد قيام ثورة يوليو ووجدان اثنين من تلاميذه في مجلس قيادة ثورتها. أما عفت فقد مقتت الثورة لإلغائها باشوية شقيقتها ولم تغفر لها استهانتها بالمهن الرفيعة كالطب والقضاء، ولكن عامراً شعر بأنه - بفضل تلميذه - من رجالها رغم وفديته المكبوتة بين جدران آل داود. ولم تكن سعادة عامر بأبنائه دون سعادته بزواجه لتفوقهم ونجاحهم، ولكنهم أحدثوا له ولأمهم متاعب، لم تجر لهم على بال، سواء كان ذلك بسبب السلوك الشخصي أم بسبب السياسة. ثم عرف كل أمر مستقره، واستقبل عامر حياة معاش امتد ربع قرن في بيت صار مثلاً لرفقة الشيخوخة كما كان مثلاً لسعادة الحب. وحافظ الرجل على صحته وحيويته، يقرأ الصحف والمجلات، ويسمع الأغاني، ويشاهد التلفزيون. ولتفوقه في الصحة وتدهور زوجته راح يقدم لها الخدمات ويشرف بنفسه على الخادم والطاهية، ويلعب الأحفاد، أو يوخزه الحنين فيمضي مع أحد أبنائه في سيارته إلى الحى العتيق، فيزور البيت القديم حيث يقيم قاسم، ويصلي في الحسين، ويجلس ساعة في الفيشاوي، ويتناول غدائه عند الدهان، ثم يرجع إلى بين الجنائين منتشياً مغرّد الروح. وعاش حتى قارب التسعين، فطرب لأجماد يوليو، وانكوى بخمسة يونه، وأفاق في ١٥ مايو، وطرب مرة أخرى في ٦ أكتوبر المجلجلة، وانقبض في ٦ أكتوبر الدامية، وفارق الدنيا هدهد يغبط عليه كختم حسن. استيقظ صباحاً في ميعاده، مضى إلى المطبخ ليعدّ الشاي لنفسه ولعفت، وعاد به ليحسواه في الفراش ولما فرغ من قدحه قال:

- قلبي ليس على ما يرام.

سحوره، وإلى ذلك فقد بُهر برطانتها ومهارتها في العزف. ولما خرج العدليّون على سعد زغلول وجد عامر نفسه غريباً في آل داود، وتجنّب تكدير الصفو بالدفاع عن وفديته الكامنة فطواها في صدره. ولم تكن عفت تهتمّ بالسياسة أيّ اهتمام جدّي، ولكنها جارت أباها تعصباً له ليس إلا، وكانت تقول لزوجها:

- لا وجه للمقارنة بين عدلي باشا النبيل وبين زعيمك الأزهرى!

فيبتسم عامر متحاشياً الجدل، ومرة سأله عبد العظيم داود:

- هل تعتقد حقاً أننا نستطيع تحمّل أعباء الاستقلال؟

فتساءل عامر:

- لم لا؟

فأجاب الرجل:

- حسبنا استقلال ذاتي ولكننا بدون حماية الإنجليز نضيع بلا رحمة... .

أيضاً فإن راضية غضبت من تعالي عفت واستسلام عامر رغم صداقتها الوطيدة مع فريدة هانم، ورغم إعجابها بجمال عفت، وقالت لابنها:

- الرجل يجب أن يكون سيّداً في بيته... .

وقالت لعمرو:

- عفت تنوّهم أنها أميرة... .

فقال لها الرجل:

- لا تجرّضي عامر على ما يفسد سعاده... .

واقنعت بذلك آخر الأمر، خاصة بعد أن أنجبت عفت شاكراً وقدرى وفايد الذين أحبّتهم راضية بجماع قلبها. واستوعب الحبّ المكين كافة التناقضات، واستوت زيجة عامر وعفت مثلاً نادراً في الزيجات الموقّعة. زواج لم يعرف الملل أو الانتكاس أو الفكر وأثار الغيرة والحسد، قال حامد عنه:

- سرّ سعادة أخي أنه ذاب في إرادة زوجته، يا له من ثمن... .

وعلى عادة سرور أنسي في النقد المرّ قال يوماً لزينب زوجته:

- لقد تزوّج حامد برجل كما تزوّجت عفت

## حديث الصباح والمساء ٨٩٥

فيقول عمرو:

- إنه زعيم الأمة وأملها...

كان عمرو يشعر بدفء الرابطة بينه وبين عبد العظيم عندما يزوره هذا في بيت القاضي، أما إذا ذهب عمرو إلى فيلاً السرايات فتواتيه غربة في الجوّ «الإفرنجبي» الذي يسود السلوك والعادات، من ذلك أنّ عبد العظيم باشا كان يفتح شهيته عادة بكأسين من الويسكي، أو يخاطب كريمة فهيمة وعفت أحياناً بالفرنسية! وكان محمود عطا المراكبي يتودّد إلى الباشا ويحبّ أن يوثق علاقته به رغم المنافسة الخفية بين الأسرتين. والحقّ أنّ عبد العظيم باشا لم يكن يميل إليه ولكنّه تبادل معه الزيارة إكراماً لابن عمّه عمرو. وقد أراد محمود بك أن يستعين بنفوذه في إحدى قضاياها الكثيرة فقطّب عبد العظيم وقال بوضوح:

- الظاهر أنّه لا فكرة لك عن نزاهة القضاء...

وكان محمود بك يؤمن - بوحى حياته العملية - بأنّ الشعار شيء والواقع شيء آخر، فصدمه جفاء صاحبه ولعنه في سرّه. ولكنّه وجد نفسه معه في جبهة واحدة بعد الانقسام السياسي. وأراد أن يهون من شأن الخلاف فقال:

- الولاء للملك أو للإنجليز سيان...

فقال عبد العظيم باشا:

- لا ولاء للإنجليز ولكنّها صداقة...

- أليس الملك أفضل؟

- الملك ذو ولاء للإنجليز ونحن دعاء الدستور.

- ولكنّ الدستور سيسلم الحكم لسعد.

- لعلّه وهم...

- إنه يسحر الناس بدعوة الاستقلال التام، وبهذه

المناسبة ما رأيك في هذه الدعوة؟!؟

فقال الرجل وهو يهزّ رأسه الكبير:

- المجانين لا يعرفون معنى الاستقلال، الاستقلال

مسئولية ضخمة، من أين لنا الإنفاق على الدفاع؟!؟...

أليس الأفضل أن نترك ذلك للإنجليز ونتفرّغ لإصلاح

أحوالنا؟

فقال محمود بك بحرارة:

- صدقت، واستقلال زغلول خليق بأن يقود إلى

واستلقى على ظهره ليستريح، وسرعان ما مال رأسه على الوسادة وكأنّما قد غفا...

## عبد العظيم داود عزيز

الابن الوحيد الذي بقي من ذريّة داود باشا وسنيّة الوراق. نشأ في بيت السيّد وتلقّى تربية رفيعة من أمّ هانم وأب يعتبر من الرجال المعدودين في عصره. ومنذ صغره خالط أهله في الحيّ العتيق، وأحبّ بصفة خاصّة ابن عمّه عمرو، ولكنّه خالط أيضاً نوعاً آخر من البشر هم الأجانب من أقران أبيه الذين كثيراً ما تناولوا عشاءهم على مائدته وتبادلوا الأنخاب. تقلّب بين التراث والمعاصرة ولكنّ الدين لم يلعب في حياته عشر معشار دوره في حياة صديق روحه عمرو. وكان نحيلاً أسمر وسيم الطلعة كبير الرأس راجح العقل كبير الطموح. وشقّ طريقه الدراسيّ بتفوق ثمّ التحق بكلّيّة الحقوق. كان أمل أبيه أن يجعل منه طبيباً ولكنّه عشق البلاغة والآداب وتخصّص في القانون المناسب لأمثاله من أبناء الكبراء. وتعيّن في النيابة دون حاجة إلى وساطة أبيه العظيم واستحقّق من أوّل يوم احترام رؤسائه وخاصّة الإنجليز. ولعلّه أوّل من اختار زوجة برؤية عينيه في أسرته. لمح فريدة في حنطور الأسرة، فسره لونها الأبيض وقسماتها الأنيقة، ثمّ عرف اسم الأسرة. وذهبت سنيّة الوراق وراضية ورشوانة لزيارة الأسرة الكريمة ورفع التقرير عنها. وكان حسام تاجر حرير سورياً وذا مال، وزفّت إليه فريدة في فيلاً شارع السرايات مصطحبة معها جمالاً جديداً ومالاً واستعداداً طيباً للمعاشرة الزوجيّة. وأنجبت له مع الأيام لطفلي وغسان وحليم وهيمة وعفت. وكان عبد العظيم ممتازاً في عمله وذا اهتمام بالسياسة. وكان من أنصار حزب الأمة وصديقاً لبعض رجاله المبرزين وتمنّ يؤمنون بتفويض الحزب الوطنيّ. وتوهج فؤاده بالحماس لثورة ١٩١٩ ولكن ما إن انقسمت الجبهة حتّى مال بعقله وقلبه إلى عدلي يكن وصحبه. وكان يرمق انزعاج ابن عمّه عمرو ومقهقهاً ويقول:

- سخرّك المهزج الكبير...

ثورة عزابية جديدة... .

وقد حقق لطفني البكري لأبيه أمله بخلاف غسان وحليم، ولكن عبد العظيم يعتبر بصفة عامة أبا سعيداً. وكاد لطفني ينحرف عندما مال إلى مطرية بنت عمرو ولكن الله سلم، وإن أسف عبد العظيم على موقفه من ابنة حبيبه عمرو. وولي مع الأيام مناصب قضائية عظيمة ثم أحيل إلى المعاش وهو رئيس لمحكمة الاستئناف العليا. ولقوة حيويته عمل محامياً حتى الخمسينات، ثم تقاعد بعد أن طعن في السن. ولم يقعد عن الحركة فكان يذهب كل مساء إلى مقهى لوناوبارك ليلعب الطاولة مع المعمرين من جيله. ولما قامت ثورة يوليو كان قد توغل في الشيخوخة للدرجة التي يهون معها الاهتمام بالأشياء. وأصابه التهاب حاد في البروستاتا فنقل إلى المستشفى ولكنه أسلم الروح بعد يومين.

## عبد محمد عطا المراكبي

ولد ونشأ في سراي ميدان خيرت. وهو الثالث في ذرية محمود بك ونازلي هانم. وأتم منذ صغره بالسوامة والنجابة، وترقى في أحضان العز، وتلقن مبادئ الأخلاق والتهديب والتدين على يد أمه الجميلة المهذبة، وغما نفوراً من الاختلاط بصفة عامة فعرف أهله من آل عمرو وسرور ورشوانة ولكنه لم يتخذ صديقاً منهم. وأغرم بالرياضة وتفوق خاصة في السباحة، وعشق المطالعة، وشق طريقه في المدارس بتفوق أهله للالتحاق بكلية الهندسة. ولما تخرج التحق بسلاح المهندسين بالجيش بعد المعاهدة. وبدأ يخرج عن خط الأسرة السياسي فلم يتشيع للملك كآبيه وعمه، ولكنه انضم إلى الجيل القلق الغاضب على الجميع والمتطلع إلى الجديد مثل قريبه حكيم حسين قابيل. واقترحت عليه أمه الزواج من آل الماوردي وهم أسرة إقطاعية، فتزوج. واستأجر لعروسه شقة أنيقة في الزمالك، غير أن ذلك الزواج لم ينجب ولم يوفق ولعل فائدته الوحيدة انحصرت في تعريفه بنفسه وأبعاده. تبين له أنه رغم يسره لا يطيق

الإفناق ويتألم لبذل قرش واحد في غير موضعه ودون حساب وتخطيط. وكانت جولستان من محبات البذخ والحياة الاجتماعية والتباهي بكافة جماليات المظاهر المبهرة، فعجز كل طرف عن النزوع عن شيء من تقاليد وعاداته، فارتطم في عنف جعل من حياتها جحيمًا لا يطاق. وقالت له الفتاة بصراحة:

- لم نخلق لحياة مشتركة.

فقال لها متلمساً طريقه للنجاة:

- أوافق على ذلك دون قيد أو شرط!

وهجرت بيت الزوجية انتظاراً للطلاق، ودُرست المسألة على أعلى المستويات، فوجد عبده من والديه تأييداً لموقفه أو على الأقل معارضة صريحة لأسلوب جولستان في الحياة. وقال محمود بك:

- أنا لا أحب الطلاق ولكنه ضرورة لا مهرب منها في بعض الظروف.

وقع الطلاق جازاً وراءه خسائر مادية لا يُستهان بها ما بين مؤخر الصداق والنفقة مما حمل الشاب على اتخاذ قرار من الزواج التزم به بقية عمره. وعاد إلى حجرته الجميلة بالطابق الثاني من سراي ميدان خيرت، مكرساً نشاطه لعمله ومطالعاته المتنوعة. وألف المزاج بينه وبين أخته نادرة وأخيه ماهر، وانضم الأخوان في الوقت المناسب إلى الضباط الأحرار. ولما قامت ثورة يوليو وجدنا نفسيهما بين رجال الصف الثاني، وكان محمود بك قد توفي قبل ذلك فنجا الوراثة من قبضة الإصلاح الزراعي. وتقلد عبده مركزاً قيادياً في سلاح المهندسين، وعقب النكسة تولى رئاسة شركة المعادن جزاء ولائه المستمر لعبد الناصر. ورغم تأثره الشديد لهزيمة ٥ يونيو إلا أنه كان ضمن الذين اعتبروا أن خسارة الأرض كارثة تهون بالقياس إلى النصر المعنوي الذي حققه البلد بالاحتفاظ بزعامة عبد الناصر والنظام الاشتراكي. وطبعاً لم يكن سعيداً بطرد أخيه ماهر لولائه لعبد الحكيم عامر، كما لم يسعد من قبل بإحالة أخيه الأكبر حسن إلى المعاش، وتعزى دائماً بقوله:

- الوطن فوق كل شيء... .

واستغنى عنه في عهد الرئيس السادات فأوى إلى

## حديث الصباح والمساء ٨٩٧

أرملة في الخامسة والثلاثين على حين لم يكن جاوز الثلاثين، وأعلن رغبته في الزواج منها غير ملتئ بالاً إلى جزع أمه، وحقق رغبته وجاء بست تهاني إلى السراي ثم حملها إلى سراي العزبة. وقد أنجبت له فؤاد وفاروق ثم انقطعت عن الحمل. وكانت كلها ضاقت بالريف سافرت إلى القاهرة لتتكد عيشة فوزية هانم. ولما قامت ثورة يوليو كان عدنان - لأكثر من سبب - الوحيد الذي طبّق عليه قانون الإصلاح الزراعي، ولم يكن يختلف عن أبيه وعمه ولاءً للعرش وكرامية للشورة، ولكن لم يند عنه قول أو فعل يعرضه للمؤاخذه. وقد نجح فؤاد في أن يصير زراعياً كأبيه ويعاونه، أما فاروق فلم يوفق في الدراسة واحترف الإجمام على الأسلوب السريفي حتى قُتل رمياً بالرصاص وهو يغادر المسجد عقب صلاة الجمعة. وقد سعد عدنان بالاعتداء الثلاثي ولكن سعادته انتكست، وسعد أكثر في ٥ يونيو، وتمت سعادته في سبتمبر ١٩٧٠، ويتولى السادات رجوع الرجل إلى الشعور بالولاء نحو الحاكم، وشاركه بقلبه انتصاراته في ٦ أكتوبر والسلام، أما الافتتاح فقد اعتبره باباً من أبواب الجنة، وعمل في تربية العجول والدجاج والبيض وريح أرباحاً خيالية، ولم يكتف بذلك فانضم إلى الحزب الوطني وانتخب عضواً في مجلس الشعب...

## عزيز يزيد المصري

ولد ونشأ في الدور الأول من بيت الغورية في ظل بوابة المتولي، وهو بكريّ يزيد المصري وفرجة الصياد. وقد أنجب الزوجان ولدين وأربع بنات فهات البنات وهنّ في المهدي وبقي عزيز وداود. وتمتّع الولدان بصحة جيّدة وعمو يبشّر بالقوة مع وسامة في الخلق ووضوح في الملامح، وأخذوا من الطريق العامر بالناس والخوانيت وعربات اليد المحفوف بالجوامع والمأذن ملعباً ما بين البوابة ووكالة الوراق في الجمالية حيث كان يشتغل أبوهما خازناً بوكالة الوراق. وجاءت الحملة الفرنسية وذهبت قبل أن يبلغ الشقيقان الوعي فمّر بهما نابليون بونابرت كما يمرّ ببياع الفجل أو ببياع الدوم. ولما استوى

بيته وأرضه، ولما هلّ عصر الانفتاح أنشأ مكتباً هندسياً مع بعض زملاء وأثرى ثراء فاحشاً. ولم يبارح السراي التي ولد فيها ولا الطبع الذي قضى عليه بالوحدة، والتزم بالحياة البسيطة رغم إيغاله في الثراء ويقينه من أنه يكتز المال للآخرين...

## عدنان أحمد عطا المراكبي

ولد ونشأ بسراي آل المراكبي بميدان خيرت، وتلقّى في أحضان النعيم مبادئ التربية الرفيعة والدين. وبالرغم من أنه نما بين والد وديع دمث وأم هانم جليلة المقام والخلق (فوزية هانم شقيقة نازلي هانم)، إلا أنه كان أشبه بعمّه الجبار عمود بك في صلابته وميله إلى السيطرة. وكان أكثر ذلك الجيل حباً لآله الآخرين عمرو وسرور ورشوانة، وتعلّقاً بالحَيّ العتيق. ومن بادئ الأمر تمرد باطنه على عمّه الجبار الذي يفرض سطوته على السراي بما فيهم أسرة شقيقه أحمد. وما كاد يناهز الحلم حتى أعلن سخطه على وصاية عمّه واستنثاره بإدارة الأرض كأنه مالكها الوحيد. وسأل أمه عن سرّ ذلك فقالت:

- أبوك راضٍ بذلك...

فانقلب إلى أبيه يحاوره، حتى نغص عليه صفوه.

وقال له بصراحة:

- إنه لوضع مهين!

وما زال وراءه حتى أخرجه من جنته فكان ما كان فبدأ الخصام الذي قسم الأسرة العريفة إلى جبهتين متعاديتين، فأنكر الأخ أخاه والأخت أختها وأبناء العمّ والخالة أبناء عمّهم وخالتهم. وتمحّدّى عدنان وعمّه فبصق هذا على وجهه، وتبادل عدنان وحسن الضرب في حديقة السراي، فأظلت الأسرة غمامة سوداء ما زالت تمحجب النور والدفء عنها حتى تلاشت عند احتضار أحمد بك. وتسلم أحمد بك أرضه وهو على جهل تامّ بكلّ شيء، وحدثت خسائر لا مفرّ منها، حتى ختم عدنان دراسته الزراعية وهرع إلى بني سويف فتسلم العمل من أبيه وأنقذه من التلف. وكان عدنان بخلاف أخيه وأبناء عمّه يعشق بنات البلد، فأحبّ



الفكاهة، ثم التصقت به على مدى العمر. وتقرر له  
مليم على كل قربة فقال له يزيد:

- من الله عليك بوظيفة مهمة . . .

لم يكن يحزنه في تلك الأيام السعيدة سوى عثرة حظ  
أخيه، وتضاعف حزنه حين تقرر إرساله إلى فرنسا.  
وسأل صديقه الشيخ معاوية الذي حل محل أبيه في  
الأزهر بعد تقاعد الرجل لكبره:

- ما ذنب داود يا شيخ معاوية؟

فأجاب الشاب:

- ليس كل علوم الكفار بكفر ولا الإقامة في بلاد  
الكفار، وليحفظه الله . . .

ودخل عزيز في فرن المراهقة، وتسأل إليه رغم  
تقواه الخطأ فقال يزيد لفرجة:

- علينا أن نزوجه . . .

فقال فرجة:

- نعمة بنت صديقك عطا مليحة ومناسبة . . .

وزقت إليه البنت في بيت أبيه بالغورية. وعقب  
عامين تزوج صديقه الشيخ معاوية من جلييلة  
الطرابيشية في بيت سوق الزلط. وعاش يزيد المصري  
وفرجة حتى شهدا مولد رشوانة وعمرو وسرور، ثم  
مات يزيد في أثناء عمله بالوكالة ودفن بحوشه الذي  
بناه على كئيب من ضريح سيدي نجم الدين بعد حلم  
رأى فيه الشيخ وهو يدعو إلى جواره، ولحقت به فرجة  
الصياد بعد عام واحد من وفاته. وحدثت أمور ذوات  
شأن، فقد ماتت سكينه أم نعمة، وتزوج عطا  
المراكبي من أرملة غنية كانت تقيم في الدور الأعلى  
للبيت المواجه لدكانه، وانتقل الرجل فجأة إلى طبقة  
عالية، فشيّد سراياه بميدان نخيرت، وابتاع عزة ببني  
سويف، وأنجب على كبر محمود وأحمد، واستهل حياة  
جديدة كأنما هي حلم من الأحلام. ووجد عزيز  
أفندي نفسه صهراً لرجل عظيم من الأعيان كما  
وجدت نعمة زوجته نفسها ابنة لذلك الرجل العظيم.  
ولهجت الألسنة بقصة عطا المراكبي وحظه وذوبان  
الزوجة الغنية تحت جناحه، ولكن نعمة لم يصيبها من  
ذلك كله خير، لا هي ولا أسرتها، فيما عدا بعض  
الهبات في المواسم. وقال الشيخ معاوية لصديقه عزيز:

عزيز طفلاً ناضجاً قال عمر يزيد المصري بلكنته  
الإسكندرية:

- آن أوان الكتاب . . .

فاعترضت فرجة الصياد قائلة:

- بل أرسله إلى أمي في السوق . . .  
فقال:

- فك الخط هو الذي يشر لي عملي في وكالة  
الوراق . . .

وكانت فرجة تؤمن بالسوق التي جاءت منها ولكنها  
لم تستطع أن تشبه عن رأيه. وبارك رأيه فضيلة  
الشيخ القليوبي في قهوة الشربيني، فقال:

- نعم الرأي . . . وبعد الكتاب إلى الأزهر.

ولاذ الصديق الثالث عطا المراكبي بالصمت.  
وعطا المراكبي كان ساكن الدور الثاني ببيت الغورية  
هو وزوجه سكينه الفراجي وابنته الوليدة نعمة. وقد  
تم التعارف بين الرجال الثلاثة في دكان عطا المراكبي  
في الصالحية، ثم صارت تجمعهم قهوة الشربيني  
بالدرب الأحمر فيشربون الزنجبيل ويدخنون الحشيش.  
وكان الشيخ القليوبي مدرّساً في الأزهر وقد دعاها على  
الغداء أكثر من مرة في بيته بسوق الزلط. وأوا وليده  
معاوية وهو يلعب بين البئر والفرن. وتساءل عطا  
المراكبي:

- هل ندخله الأزهر بعد الكتاب؟

فقال يزيد:

- يفعل الله ما يشاء.

لكنه كان يقنع من الدين بالفرائض المتاحة كصديقه  
عطا ولا طموح له بعد ذلك. والتحق عزيز بالكتاب  
ثم لحق به داود فحفظ أجزاء من القرآن وتعلّم مبادئ  
القراءة والكتابة والحساب. وفي تلك الأثناء وقع داود  
في مصيدة التعليم ونجا عزيز بمعجزة ظلّ يحمده الله  
عليها حتى آخر عمره. وكان من حياة داود ما كان أمّا  
عزيز فلمّا بلغ سنّ العمل سعى له الشيخ القليوبي في  
ديوان الأوقاف فتعيّن ناظرًا لسبيل بين القصرين.  
ارتدى الجلباب والمركوب وشملة من الكتان صيفاً  
وأخرى من الصوف شتاءً، ولكنّه استبدل بالعمامة  
الطربوش فُعرف في الحيّ بعزيز أفندي على سبيل

## حديث الصباح والمساء ٨٩٩

مولد أحفاده، وأكرمه أخيراً بمبنة طاهرة فأسلم الروح وهو ساجد فوق سجادة الصلاة في صباح يوم من أيام الحريف في بيت الغورية.. ودُفن إلى جوار أبيه في حوش الأسرة الذي أصبح يُعرف بحوش نجم الدين..

## عَفَّتْ عَبْدَ الْعَظِيمِ دَاوُدَ

ولدت ونشأت بفيلاً الأسرة بشارع السرايات بالعباسية الشرقية. وبها ختم عبد العظيم باشا داود وفريدة حسام ذريتهما المكوّنة من لطفني وغسان وحليم وفهيمة وعفّت. ولدت عفّت على وسامة لا يستهان بها، امتزج في وجنتها بياض أمها الشامية وسمرة أبيها فأسفرا عن لون قمحيّ مورّد وعينين لوزيتين سوداوين لا تخلو نظرتها من تسلط ومكر، وتقلّبت في نعيم في فيلاً أنيقة تحديق بها الرتب والنياشين فهضت - كسائر أعضاء أسرهما - على قوائم راسخة من الكبرياء والتعالي والغرور.. ومن بادئ الأمر لم يرض الأب لكرميته الأتمية أو شبه الأتمية كبنات الفروع الأخرى، كما لم يفكر في تعليمها تمهيداً للعمل الأمر الذي رآه أولى بنات الفقراء من عاقمة الشعب، فاختر لها التعليم التهذيبي في نظره الذي يعدّها للزواج من الكبراء. ووجد بغيته في المدارس الأجنبية والميردي ديبه بصفة خاصة. وتعلّمت عفّت الفرنسية والإنجليزية والأدب وفنّ البيت والموسيقى، وتشرّبت روحها بتراث غريب حتى ليخيّل للرائي أنّها إنفرنجية ذوقاً وعقلاً وتراثاً. ومع أنّها لم تنطق بكلمة تخدش إيمانها إلا أنّها عاشت حياتها وهي تجهل دينها وتراثها جهلاً تاماً، ولا تجد في ذاتها أيّ انتهاء إلى وطنها رغم معاشتها لثورة ١٩١٩، لولا تعصّب سطحيّ لموقف أبيها السياسيّ انطلقت إليه من منطلق الكبرياء والأسرة. ولكنّ الغريزة تمزّدت على ذلك كلّه فأمالت قلبها منذ الصغر نحو عامر قريب أبيها. في ذلك الزمان كانت رابطة الأسرة أقوى من الطبقة والرتبة والجاه والثروة، وكانت زيارة بيت القاضي تعدّ في وجدان آل داود من الرحلات الممتعة، بمنّاظرها

- إذا سبقت الزوجة زوجها في الوفاة ورثها مع ابنه، فترثه زوجته، أما إذا سبق هو فلا حظّ لحرمك...

وكان آل عطا وآل عزيز يتبادلون الزيارات، ويختلط عمرو وسرور ورشوانة بمحمود وأحمد، ويقلب عزيز عينيه في الحديقة والتحف ويغمغم في نفسه:

- سبحان المنعم الوقاب...

ويقول لصديقه الشيخ معاوية:

- إنّه جلف لا يستحقّ النعمة.

فيقول الشيخ:

- لله في خلقه شئون...

وفي أثناء ذلك رجع داود من فرنسا طبيياً، ثم تزوّج من حفيدة الوراق وأقام في بيت السيدة وأنجب عبد العظيم. وعلم عزيز أفندي ابنه عمرو وسرور فتعيّن عمرو في نظارة المعارف كما تعيّن سرور في السكك الحديدية، وتزوّجت رشوانة من صادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفس وزقت إليه في بيته ببيت القصرين، وتزوّج عمرو من راضية كبرى بنات الشيخ معاوية كما تزوّج سرور من زينب النجار، وانتقل الأخوان إلى بيتين متجاورين في ميدان بيت القاضي. ولما قامت الثورة العرابية اشترك فيها عزيز بقلبه ولكنّ الشيخ معاوية أسهم بقلبه ولسانه، وحكم عليه بالسجن بعد تصفية الثورة.

وقد تمّ زواج عمرو من راضية في الفترة التي أعقبت الإفراج عن الشيخ، ولكن لم يتسنّ للشيخ شهود الزفاف فقد وافاه الأجل بعد أسبوع من إعلان الخطبة وقراءة الفاتحة. وحظي عزيز أفندي بالصحة وطول العمر والراحة الزوجية ولم يعانِ الفقر أو الحرمان، وتمتّع بدفء الوشائج العائلية ما بين ميدان خيرت والسيدة وسوق الزلط، وتقدّست منزلته عند ذريته كما فرح بتعليمهم وانتسابهم إلى الحكومة وخطراتهم في البدلة والطربوش. ولم يخلُ مع الأيام من اعتزاز بمنزلة شقيقه الأصغر ورتبته، خاصة بعد أن اطمأنّ إلى إيمانه ومحافظته على الفرائض وولائه الودود له وجلوس الأسرتين حول الطبلية كلّما آنسه بالزيارة وطوافه معه بالحسين والقرافة. ومنّ الله عليه فشهد

الأحداث برفقة حبيب العمر والأبناء والأحفاد، حتى غاب عامر عن دنياها في غمضة عين وهو يحادثها، ومن ثم استقبلت حياة صامته تعلوها كآبة دائمة . . .

## عطا المراكبي

في الأصل كان صبيًا في دكان الصالحية لصاحبها المغربي جلعاد المغاوري، التقطه الرجل يتيمًا ورباه وأذن له بالبيات في دكانه. وأثبت الصبي جدارة وأمانة، ولزم صاحبه حتى صار شابًا يافعًا قويًا الجسم ربعة غليظ القسامت ضخم الرأس، فزوجه من ابنته الوحيدة سكيئة وجعله نائبه في الدكان. وأقام معه في مسكن الغورية جازًا للمعلم يزيد وابنه عزيز. ولما رحل جلعاد وزوجه ورثت سكيئة الدكان شرعًا وورثها عطا فعلاً. وكان متحليًا بأخلاق التجار الدمة يغطي بها خشونة سجاياه فأمكنه أن يكون صديقًا ليزيد والشيخ القليوبي. أما سكيئة فكانت على قدر من الوسامة وبنيان هلهله الضعيف، فتلكًا إنجابها فترة، ثم أنجبت نعمة عقب ولادة عسيرة كادت تبذل فيها حياتها. وورثت نعمة عن أمها عينيها السوداوين النجلاوين ونعومة بشرتها السمراء وغزارة شعرها الكستنائي مع صحة جيدة. وكانت سكيئة جارة حسنة الجوار ففازت بقلب فرجة السكك ومهدت بذلك الطريق لزواج نعمة من عزيز في الوقت المناسب. وجمع مقهى الشريبي بالدرب الأحمر بين الشيخ القليوبي ويزيد وعطا ليلة بعد أخرى، وشهد الرجال نابليون بونابرت على جواده وهو يسير على رأس جنوده أمام المشهد الحسيني، وعاصروا تقلبات حملته، وخاصة ثورقي القاهرة، وكاد يزيد يهلك في الثورة الثانية، وعاصروا بعد ذلك ولاية محمد علي ومذبحة المهاليك، والثورة التي أحدثها الوالي في البلد وأهلها. ورغم أن الشيخ القليوبي كان يمتاز بثقافته الدينية إلا أن الوشائج الشعبية والتراثية كانت تقربه من وجدان صاحبيه، ولم يغيب عنه ما طبع عليه من حرص وجهل ولكنته كان يأخذ الناس على علاتها ويقنع منها بالجانب الأليف

الطريفة وأغذيتها البلدي وغيبات راضية، رغم أن شعورهم بالتعالي لا يمكن أن يفارقهم. ولم يجد الميل المتبادل بين عامر وعفت معارضة في بيت عبد العظيم، بل لعلّه وجد ترحيبًا. وعلى أي حال فالنظرة إلى البنت تختلف عن النظرة إلى الولد، فإهداء بنتهم إلى ولد من آل عمرو لا بأس من قبوله، أما أن يرغب ولد من آل داود في بنت من بنات عمرو أو سرور فانحراف خطير يجب أن يكبح بكل حزم. ودعامة أخلاق عمرو هونت عليه التسامح مع ذلك الموقف وتلمس الأعداء له، أما سرور فلم يعفه من لسانه الحاد الذي أبعده درجات عن قلوب آل المراكبي وآل داود جميعًا. كان عند الضرورة يقول متهمًا:

- لماذا ينسى آل عطا العظام المراكيب ودكان الصالحية؟ . . . ولماذا ينسى آل داود عمّ يزيد وفرجة السكك؟

ولما أن لعفت أن تتزوج شيد لها الباشا بيتًا جميلًا في بين الجناحين استقبلت فيه حياتها الزوجية السعيدة التي حطمت منطلق أعداء الزواج. أجل فمنذ اليوم الأول سلكت عفت سلوك أميرة وضعتها الظروف بين الرعية، فلم تخل الحياة الجديدة من توترات بين عفت وأخوات عامر، أو بنات سرور، أو شكيرة عندما صارت سلفة لها، بل حتى راضية نفسها على ما بينها وبين فريدة حسام من مودة، ولكن لم ينعقد الخصام لحذ القطيعة أو العداوة، وغلب دائمًا هوى المودة القديمة الراسخة، أما ما بين الزوجين فقد مضى في عذوبة وسلام، وتسليم كلي من جانب عامر لإرادة محبوبته القوية فلم يرتفع له صوت غضب أكثر من مرّات معدودات، ولم يبيتا أبدًا على خصام. وقد أنجبت له شاعر وقدرى وفايد، ولم تستطع أن تمّد فوقهم مظلة سطوتها، فجرح شاعر كبرياءها، وحرك قدرى مخاوفها وإشفاقها، ولكن ثلاثتهم كانوا أمثلة طيبة للنجابة والنجاح. وقامت ثورة يوليو وتعاقبت الهزائم ثم هل النصر والسلام وتجمعت سحب الفتن والجريمة، وهي لائحة بحصن المتفرج لا يعنيه شيء إلا بقدر أثره المباشر على أسرته أو أبنائها. وتقدم بها العمر وهدأت نوازع كبرياتها ونعمت رغم جريان

## حديث الصباح والمساء ٩٠١

أنفاسها انقطعت بعد الابتدائية كابني أختها عمرو وسرور، ولم يأبه لذلك وراح يعدّها للزراعة إلى جانبه، أما محمود فقد شرح صدره بقوة استجابته وصلابة شخصيته، وأما أحمد فقد خاب أمله فيه حتى تركه يائساً لحياته الوداعة. وكان بكري العرشي رب أسرة مملوكية تجاور عزبته وكانت له بتان، نازلي وفوزية، مثالان في الجمال والتهذيب، فخطبها لابنيه محمود وأحمد، واحتفل بزواجهما في فرح واحد أحياه عبده الحامولي وألّز. وعمر عطا في الوجود حتى أدرك الثورة العرابية، ولم تغرّ وجدانه من مدخل وطني ولكن من زاوية أملاكه وأمواله، فلما صعّدت موجتها حتى ظنّ لها النصر المبين أعلن تأييده لها، وتبرّع بشيء من المال طاوياً آلامه في صدره، ولما تكالبت عليها القوى المعادية ولاخ فشلها في الأفق أعلن ولاءه للخديو. وجاء عصر الاحتلال البريطاني فساوره القلق مرّة أخرى من تلك الأحداث التي لا يدري ما عقباها على أرضه. وقال له نسيبه بكري العرشي:

- لن يغادر الإنجليز هذا القطر ولن نخرج ما حيننا من الإمبراطورية البريطانية...

ولما شعر بأنه يمضي نحو النهاية قال لابنه محمود:  
- سأترك لك نصيحة هي أعلى من المال، اعتبر العزبة وطنك وهبها كلّ نقطة إخلاص في قلبك وحذار من الخطب والشعر...

ومات الرجل بالشيخوخة وحدها، ولحقت به زوجته بعد أشهر، فورث الثروة كلّها محمود وأحمد، وانطلقا أمل عزيز ونعمة إلى الأبد...

## عقل حمادة القنّاوي

في خان جعفر وُلد، وفيما بين بيت القاضي وبين القصرين وحرارة الرطاويط وابن خلدون والعباسية الشرقية وبين الجنائين وميدان خيرت، لعب وطاف وساح وصادق وأحب. وهو الثاني في ذرية صدرية وحمادة القنّاوي، اقتبس من أمّه عينيها الجميلتين ومن أبيه أنفه الأفتس وقوة جسده مع ميل شديد إلى

والمودة المتاحة. وقد دعاها مرّات إلى بيت سوق الزلط في مقابل مرّة يتيمة دعي فيها إلى بيت الغورية، وكان يزيد أحب إليه من عطا، ولمس فيه أركاناً من الرجولة والشهامة والتقوى افتقدتها في الآخر، ومع ذلك لم يضق أبداً بعطا ولا فُكر في نبذه. وظلّ عطا على حاله من القناعة والرقّة حتى توفيت امرأته سكينه بعد عام من زواج ابنتها نعمة من عزيز أفندي ابن المعلم يزيد. وإذا بالحيّ كلّ يفاجأ بزواجه من الأرملة الثرية هدى الألوزي. كانت تقيم في بيتها العتيق على الجانب المواجه لدكان المراكبي فهل كان للقصة تمهيد قديم لم يظن إليه أحد؟. وقال القليوبي ليزيد:

- ستحدث أمور، لا يمكن أن توافق هدى هانم على بقاء زوجها في دكانه...

وراح عطا يفكر بعقل مدبر لم يجد من قبل الفرصة المناسبة لاستغلال مواهبه. وشاور في أمره أهل الحلّ والعقد في تلك الشئون من جيرانه الأغنياء واليهود المدرّبين. وفي الحال اقتنى أراض فضاء، وشرع في تشييد السراي الكبرى بميدان خيرت، وعقب مرور زمن اشترى عزبته في بني سويف وأقام فيها السراي الريفية. وأنجبت له هدى هانم الألوزي محمود وأحمد، ومضى يدرس الزراعة ويوثق علاقاته بجيرانه الجدد، والحق أنّ الثروة كشفت عن مواهبه الكامنة وقوة شخصيته، كما هتكت حرصه وشحّه وجشعه اللانهايي إلى الثراء. وبخلاف الظنون فرض سيطرته الكاملة على امرأته والمتعاملين معه حتى شبهه الشيخ القليوبي بالوالي الذي جاء مصر جندياً بسيطاً ثمّ تعمق فوق هامة إمبراطورية مترامية. بل كانت نهاية إمبراطور بني سويف خيراً من نهاية الوالي ألف مرّة. ووهنت علاقته بأصدقائه القدامى ولكنّه لم ينقطع من زيارة نعمة وعزيز في الغورية، يغزو الحيّ في حنطوره طاوياً نظرات الحسد تحت حدائه، مقدّماً الهدايا العابرة في المناسبات، ويدعو الأسرة إلى سرايا ميدان خيرت، الأمر الذي ربط بالمحبّة قلوب رشوانة وعمرو وسرور ومحمود وأحمد. ولكنّ نوبات كرمه تلك لم تجاوز حدودها أبداً، بل بدا أنّ ابنه أحسن على أختها الفقيرة نعمة منه هو. وطبعاً دفع بابنيه إلى المدارس ولكنّ

- لا أحب أن تبقي معي يوماً واحداً دون رغبة حقيقية . . .

فتجهمت دقيقة ثم قالت:

- إني راضية تماماً والحمد لله . . .

فالشك أخذ يساوره في مستقبل علاقته بزوجته، كما مضى يملك عليه تفكيره بالنسبة لمستقبل وطنه الذي يتزحزح من مأزق إلى مأزق. ولم يعاوده تنقسه الطبيعي إلا في عهد السادات. ووجد في الانفتاح فرصة لأعمال كبيرة تنسيه الوسواس والهواجس. واختار الشقق ميداناً لتجارته مستفيداً من مدخراته وبيع نصيبه من ميراث أبيه. وربح أموالاً طائلة، وعمل بنشاط فائق حتى عبر الستين، وعند ذاك تساءل:

- وبعد؟!!

وفكر طويلاً ثم قال لحكمت:

- مللت العمل وأن لنا أن نستمتع بأموالنا . . .

فتساءلت ببراءة:

- ماذا ينقصك؟

فضحك ساخراً وقال:

- السياحة، علينا بالسياحة، سنرى الدنيا ونذوق أجمل ما فيها . . .

فارتبكت. إنها لم تعرف من دنياها إلا قرية أبيها وبين الجنان ولا رغبة لها في المزيد.

ولما لمس حيرتها قال:

- لن نتحاجي معي إلى ترجمان . . .

وقال لنفسه إذا كرهت الفكرة مضيت لها وحدي. ولكنّها كالعادة طاوعته ومضت تجهز الحقائب. وانطلقت من جوفه شرارة شك فتأمل ما حوله قليلاً ثم قال لنفسه:

- لا يبعد أن تحترق بنا الطائرة، إني خبير بمنطق الحوادث!

ولكنّ الطائرة لم تحترق والوسواس لم تخمد . . .

## عمرو وعزيز يزيد المصري

ولد ونشأ في بيت الغورية، بين رشوانة وسرور، وتشرّب قلبه رحيق الحيّ بحبّ وشغف، فاختلفت في

القصر. وعشقه أبوه وكّرسه بكلّ فخار وليّاً للعهد. وتابع نجاحه في التعليم بسعادة وزهو، فعوّضه عن جهله وأميته خيراً وأيّ خير. وعشق منذ صباه الدين والهندسة، والتحق بكلية الهندسة، ولم ينقطع عن القراءات الدينية، ومال إلى الفلسفة الدينية أيضاً ثم جرفه تيار من الأفكار المتضاربة فاستقرّ عمراً في مقام الحيرة. وفي تجواله في فروع أسرته أعجبته هتومة بنت خالته سميرة فأراد أن يحجزها لنفسه ولكنّ البنت قالت لأمتها:

- أنا أطول منه بصورة واضحة فهو غير مناسب! وصدمه ذلك وأشعل في جوارحه الغضب. وظلّ مواظباً على الصلاة والصوم رغم شكوكه. لم يستطع أن يؤمن ورفض أن يكفر ولاذ بالفرائض. وتفشّى الشك في خلاياه فلم يستطع أن ينتمي. انتبه إلى الوفد في عصر هبوطه، وكره انغلاق الماركسيين، واحتقر مبريحي مصر الفتاة، ولما قامت ثورة يوليو نفر منها رغم عدم مساسها له لشعوره بعداوتها لطبقة الملاك التي ينتسب في النهاية إليها. وحزن كثيراً على أخته وردة كما حزن على أبيه. ولما تخرّج توقّف في مكتب هندسيّ وفكر جاداً في الزواج لعلّه ينتشله من الخواء الذي يخنقه. وأعجبته أخت لزوج أخته نهاد فخطبها وتزوج منها، وأقام معها في شقة في عمارة صغيرة مجاورة لبيت خاله عامر بين الجنان. وكانت لهفته على الإنجاب حارة كآل أبيه، ولكن تبين له أنّه عقيم لا ينجب. وشدّ ما أحزنه ذلك وأوجعه. وقالت له جدّته راضية:

- لا تصدّق الأطباء ولا تياس من رحمة الله . . .

وتبدّت له الحياة في صورة رغائب مستحيلة، دائماً حبيبة ومستحيلة. ولما خلا بيت أمه من الأنيب وانفردت صدرية بوحدها قال لها:

- تعلمين كم أحبّك، أقيمي معنا في بين

الجنان . . .

فقالت باسمه:

- لا أترك الحسين ولا جدّتك.

وحرص أكثر على أداء الفرائض وعلى جني أرباح موهبته المعمارية. وذات يوم قال لحكمت زوجته:

## حديث الصباح والمساء ٩٠٣

وموودة، وأنجبت له صدرية وعامر ومطرية وسميرة وحببية وحامد وقاسم. وكان عمرو - بخلاف سرور - فخوراً بأهله، بسراي ميدان خيرت وفيلاً شارع السرايات والأراضي والأملاك والرتب، ولذلك حظي بيته بعطف الجميع، وطاف به الخنطور تلو الخنطور، يحمل إليه أعيان بني سويف وهوائهم وآل داود وهوائهم، يجلسون حول طبلته، ويغمرونه بالهدايا، ويستمعون إلى نواحر راضية وتراثها منوّهين بطولة أبيها بطل الثورة العرابية. وتلك الموودة العميقة هي التي فتحت باب المصاهرة إلى آل عطا وآل داود فزادت منزلته رفعة وقوة، وأثارت من سوء التفاهم بينه وبين سرور ما كان خليقاً بأن يفسد العلاقة بينهما لولا متانة الأساس وعمق الذكريات. وطالما قال سرور بحسرة:

- لو ماتت هدى الألوزي قبل عطا المراكبي لكنا من الوارثين!

فيقول:

- لا اعتراض على المشيئة الإلهية.

تغلّب على تلك الوخزة بساحة إيمانه، وكان دأبه إذا ناوشته نعمة أن يذكر نفسه بالنعم الكثيرة المتاحة كالصحة والأولاد. أجل تفجّر غضبه يوم وأد آل داود ميل لظفي لمطرية وترك راضية تهدر قاذفة لعناتها وقال لنفسه:

- صدق من قال إن الأقارب عقارب!

ولكنها كانت غمامة ما لبثت أن تلاشت تحت أشعة شمس دائمة وأتسع قلبه أيضاً للعواطف الوطنية. فاته أن يشارك أباه خيبته لنكسة الثورة العرابية، ولكنه كثيراً ما رأى جنود الاحتلال وهم يطوفون بالحجّ العتيق كالسائحين. وأفعم وجدانه فيما بعد بكلمات مصطفى كامل ومحمد فريد، ثم بلغ قمة انفعاله في ثورة ١٩١٩، وعشق زعيمها، واشترك في إضراب الموظفين، وحافظ على ولائه للزعيم رغم انشقاق أهله العظام محمود وأحمد وعبد العظيم عليه. وتابع خليفة الزعيم - مصطفى النحاس - بكل وجدانه، ووزع الشربات يوم عقد المعاهدة. وأيد الزعيم بقلبه ضدّ الملك الجديد، وغضب مع الغاضبين لإقالته من الحكم رغم أنه كان يعاني ضعف القلب الذي أودى به بعد

نفسه تقاليد أهل البلد وانتشر من أردانه عبر الروح والدين. ولعله كان أحبّ الثلاثة إلى عزيز ونعمة لشبهه بأبيه بجسمه المليء في اعتدال وبشرته القمحية وعينيه الواسعتين الصافيتين. وكان العقل المدبّر الكاخب لرشوانة وسرور في لعبهم وتجوّاهم بين بوابة المتويّ وسبيل بين القصرين، وعرف فيما بعد بالحكيم الذي يُرجع إلى رأيه في شتى الأمور. وحظي بنفس المنزلة بين خاليه محمود وأحمد وابن عمّه عبد العظيم. وقد أخلص لفرائض الدين منذ صغره، ولعب دور الشرطيّ في حياة سرور المحفوفة بالنزوات. ودخل الكتاب فحفظ ما تيسر له من القرآن الكريم، وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة، ثم دخل المدرسة الابتدائية في الثانية عشرة من عمره فحصل على الابتدائية بعد بذل أقصى ما يملك للتعلم. وبسعي من داود باشا عين في حسابات نظارة المعارف. وحاز دائماً تقدير الرؤساء والزملاء، وأثرى حياته بصداقة الأصدقاء، ونورها بقراءة القرآن وكتب الأولياء، ونوع مجال حركته بأريحية معطرة بحبّ الدين والدنيا، فكان يشهد الأذكار في الصناديق، ويسمع الحامولي في الأفراح، ويمجالس الأحباب في الكلوب المصريّ. وكان هادئ الطبع، ينال بالحلم ما لا يناله بالقوة والغضب، وما كاد أبوه يزكّي له فكرة الزواج حتّى رحّب بها ترحيب شابّ قويّ تقويّ. وتمّ اختيار راضية له، كبرى بنات الشيخ معاوية صديق أبيه، فزوّت إليه في بيت حديث البناء بميدان بيت القاضي، حيث استهلّ حياة زوجية موفقة مثمرة. وجد في راضية شخصية مناقضة لذاته، بعصبيّتها وعنادها، وغيبّيّاتها التي لا ضابط لها، ولولا هدوء طبعه وحلمه ما جرت الأمور في مجراها الآمن مع عدم إهدار شيء من مهابته في بيته. ولكنه لم ينج من تأثيرها فأمن بتراثها وطبها الشعبيّ، واضطرّ إلى أن يسمح لها بزيارة أضرحة الأولياء، رغم أنه كان يفضل أن تستكنّ في بيتها أسوة بزینب امرأة أخيه وهوانم زوجات محمود وأحمد وعبد العظيم. قالت له في اختيال:

- كلهنّ هوانم طبيبات ولكنهنّ جاهلات لا شأن لهنّ بأمور الغيب... .

وفي مقابل ذلك جعلت له في بيته مستقرّ رحمة

ذلك بقليل. وقد تحمّل عبء الأولاد وهم في رعايته، وشارك في همومهم بعد أن استقلّ كلّ بيته. وكان يقول: نحن نحلم بالراحة دائماً ولكن لا راحة مع الحياة...

ثم يلوذ بإيمانه تاركًا الخلق للخالق. وكم ناط بقاسم من آمال، وماذا كان المصير؟! ولست أحيّل إلى المعاش غشيته وحشة لم يكن يفوق منها أبداً، ثم دمه مرض القلب من حيث لم يحتسب فحدّد حركته ومسراته الحميمة وغاص به إلى قعر الكآبة. وذات مساء وهو جالس في الكلوب المصريّ أغمي عليه، فحمل إلى فراشه في حال احتضار، وأسلم الروح قبيل الفجر على صدر راضية...

## حرف الغين

### نحسان عبد العظيم داود

ولد ونشأ في فيلاً شارع السرايات وهو الثاني في ذرّيّة عبد العظيم باشا داود. ولعلّه الوحيد من أبناء عبد العظيم باشا الذي لم يقتبس من رواء أمّه فريدة هانم حسام شيئاً. كان مائلاً للقصر، نحيفاً، غامق السمرة، متجهّم الوجه غالباً، وغالباً يحمل طابع المتفرّز كأنّ ليمونة تُعصر في فيه. وكأنّما أُخلق ليشتتر من الدنيا ومن عليها، فهو في الفيلاً منفرد بنفسه في حجرته، أو يتمشّى في الشوارع الشرقيّة الصامتة تحت ظلّ أشجارها الفارعة، أو يتوغّل في الصحراء الخالية. لم يُعرف له صديق واحد من الجيران، ولا نمت بينه وبين أخويه لطفي وحليم أو حتّى فهيمة وعفّت وشيخة أخويّة، وفي المرّات النادرة التي لاعب فيها أخاه حليم سواء في حديقة الفيلاً أم في الشارع انتهت بسوء تفاهم وخصام، وختمت مرّة بمشاجرة هُزم فيها رغم أنّه الأكبر. واصطحبه أبوه معه لزيارة أهله خاصّة آل عمرو، ودُعي مرّة مع الأسرة إلى سراي آل عطا بميدان خيرت، فكان يشاهد بعينه ولا يكاد ينس بكلمة ولم يفز بصديق واحد. وأطلقوا عليه «عدوّ البشر»، وتهمّموا بوجهه الصامت المشتمّر، وعوده النحيل،

ونفوره الدائم، وكبريائه المتوحد. أجل كانت عيناه تعكسان شعاع النهم وهما تنظران إلى البنات الجميلات من قريباته ولكنّه لم يصل النظرة بابتسامة ولا بأيّ إشارة. ويقول له أبوه:

- يجب أن تخرج من عزلتك.

فيقول بنبرة قاطعة:

- إني أعرف أين توجد راحتي ولا أهميّة لشيء وراء ذلك...

- وماذا تفعل في حجرتك المغلقة؟

- أسمع أسطوانات... أو أقرأ...

ولكنّه لم يكشف عن أيّ موهبة ذوقية أو فكرية. وقد تابع رؤية أبيه السياسيّة ربّما لأنّها وافقت تعالیه واحتقاره الطبيعيّ للعامّة، واعتبر المطالب الوطنيّة والزعامة الشعبيّة ألواناً من التهريج المتبدل. ولم تغب عن حاسته تدنّي صورته الكئيبة بين صور أسرته الراقية، وتحدّى عزّة نفسه قدر من الغباء أعجزه عن بلوغ التفوّق الجدير في نظره بمركزه الاجتماعيّ وكبريائه الطبقّيّ. وقد قسا على نفسه وكلفها من الاجتهاد ما لا تطيق، وسهر الليالي في المذاكرة فلم يظفر إلا بالنجاح العاديّ الذي بالكاد ينقله من مرحلة إلى مرحلة في ذيل الناجحين. سام نفسه العذاب ليتفوّق دون جدوى، ورمق المتفوّقين بالحقد والاحترام، وأترع قلبه بالأسى لعجزه. كيف يعاشر هذا العجز على حين أنّ جدّه باشا وأبوه باشا وشقيقه الأكبر باشا؟! وتراءى له المستقبل كخصومة عارية مفعمة بالتحدي والاستفزاز. ولم يجد في الدين أيّ عزاء لأنّه كسائر إخوته لم يعرفوا الدين إلاّ عنوان هوية بلا مضمون، فعبد العمل عبادة ووهبه نفسه كلّها ليقنع في النهاية مرغماً بأقلّ ثمرة تنبتها أرضه القاحلة. ولست أتحقّ بالحقوق وجد هناك قريبه لبيب بن سرور أفندي عاظاً بهالة من الإعجاب لتفوّقه وحدائه سنّه فضايف ذلك من كآبته وتعاسته، واحتجّ على الأقدار التي ميّزت قريبه الفقير ابن الفقير بالموهبة وحرمتها منها هو سليل الباشوات والمهن القضائيّة والطبيّة الرفيعة. ولعلّ من أسباب احتقاره للوطنيّة كان حماس أهله الفقراء - وآل عمرو وآل سرور - لها، فلم يتحمّس لشورة ١٩١٩ في إلسانها

## حديث الصباح والمساء ٩٠٥

فواصل حياته في وحدته كالشيخ، وكأما لم يحظ من دنياه إلا بصحة متينة صامدة قانعا من مسرات الدنيا بالطعام والكتب ثم بالتلفزيون والخدمة الجديدة . . .

### عرف الفاء

## فاروق حسين قابيل

الخامس في ذرية سميرة وحسين قابيل. ولد ونشأ في شارع ابن خلدون، واستقبل الدنيا بجسم رشيق قوي ووجه وسيم مثل إخوته وأخواته، وذكاء وقاد يبشر بكل خير، ولكنه نما في مناخ الانضباط الذي ساد الأسرة بعد وفاة حسين قابيل. ومنذ صغره حلم بأن يكون طبيباً وبعزيمة قوية حقق حلمه عابراً عقبات التنسيق. وقد توزع قلبه الحساس لثورة يوليو بحكم مولده وميلاً مع أخيه حكيم، والفور منها أحياناً عطفاً على الإخوان وحباً في أخيه سليم الذي قُذف به في السجن. ووجد الخلاص من التناقضات في الاهتمام بمهنته، فحصل على الدكتوراه، وفتح عيادة خاصة إلى جانب عمله في المستشفى. وجمع الحب بينه وبين زميلة هي الدكتورة عقيلة ثابت، فتزوجا وأقاما في شقة حديثة بمصر الجديدة. وشد ما حزن فاروق على مصير شقيقه حكيم، وغربة شقيقه سليم، فقد عُرف أبناء سميرة بقوة تماسكهم، كما عرفوا أيضاً - كأهمهم - بالصمود حيال المصائب. ولكنه نجب الجهر بأرائه السياسية خارج محيط أسرته أتعاطياً بما أصاب أخوته حكيم وسليم، متفرغاً لمهنته. وفي هذا المجال أحرز منزلة فريدة كجراح، كما وليت زوجته مناصب رفيعة كمولدة، وقد أنجبت له بتين توجهتا بكفاءة نحو الطب أيضاً. وكان فاروق من القلة التي آمنت بسياسة السادات فيما عدا الانفتاح غير المنضبط الذي فتح أبوابه بانديفاع جرأ على البلد ويلات اقتصادية لا يستهان بها. ولم يكن ضمن القطاع الذي سرُ مصرعه، وقال مرة لخاله عامر:

- لقد ولي السادات نيابة عن عبد الناصر ثم قُتل كذلك نيابة عنه!

وسرعان ما لاذً بجناح الخارجين عليها مع أبيه وأسرته. وعند التخرج رأى قريبه يتعين في النيابة، ووجد نفسه رغم العرق والسهر في الذيل. وبسعي من أبيه المستشار الكبير عُيّن في قضايا الحكومة بوزارة المعارف فالتحق بالعمل ساخطاً متبرماً رغم أنه لا يستحقه. واشتهر في حياته العملية بالانطواء والاجتهاد والغباء، ولدى كل حركة ترقية كان أبوه يسعفه، ومضى في عزلة ما بين الديوان والفيلا، بلا صديق ولا حبيبة، لا يكاد يبرح مكتبته التي كوّنها عاماً بعد عام إلا حين الضرورة القصوى. وربما رؤي وحيداً في حديقة عامة أو في النادي، وربما تسلل في حذر تام إلى بيت راقٍ من بيوت الدعارة السرية. وقالت له فريدة هانم حسام:

- أن لك أن تفكر في الزواج . . .

فرمقها بدهشة وامتعاض وتمتم:

- لم يبق إلا هذا . . .

أكثر من سبب كرهه إليه فكرة الزواج. في مقدمتها انغماسه في وحدته المقدسة وعجزه عن الخروج منها وخوفه أن ترفضه الفتاة اللاتقة بمركزه وأسرته للمأخذ الكثيرة التي لا تغيب عن وجدانه. ولم تكف فريدة هانم عن القلق عليه، خاصة بعد وفاة عبد العظيم باشا وشعورها بدنو الأجل، وبأنها ستتركه في فيلا كبيرة خالية. يضاف إلى ذلك ما صبته عليه ثورة يوليو من أحزان جديدة لم تحظر له على بال من قبل. تساءل في جنح:

- أبلغ بنا التدهور أن تحكمتنا مجموعة من العساكر الأيمنين؟

وراقب ما حاق برتب أسرته وقيمتها القانونية والطبية بفرع، وتساءل:

- هل أبكي اليوم رعاك الوفد؟!

وقالت له فريدة:

- غداً الحق بأبيك، يلزمك زوجة وأبناء . . .

فقال لها بخشونة:

- العقم هو العزاء المتبقي لنا!

وأصرّ على عناده الحقود، ولم يتزعزع تصميمه بعد وفاة أمه، وأحيل على المعاش في أوائل السبعينات



يوافق على الاغتياال إلا أنه لم يجزن عليه واعتقد أنه نال ما يستحقه تمامًا. ولم ينجب فايد سوى بنت وحيدة، وقد تخصصت في الكيمياء، ودعتها عفت باسم أمها فريدة.

ومما يذكر له كطبيب معدود ومقصود أنه لم يتهاون في جانب المبادئ فلم تجاوز تسعيرة أنعابه حدود المعقول أبدًا. . .

## فرجة الصياد

عرفتها الغورية في الرابعة عشرة، قوّة الجسم، مليحة الوجه، تجول في جلباب أزرق، وعلى رأسها مقطف فيه سمك وميزان. اضطرت إلى الخروج من مسكنها في السكرية بعد وفاة أبيها وعجز أمها عن الحركة، ورعتها تقاليد الجيرة والتقوى. وذات يوم ناداها رجل قوي ذو لهجة غير قاهرية لبيتاع سمكًا فأنزلت المقطف إلى الأرض وقرفت وراءه وراحت تزن له رطلًا. ونظر إليها مليًا ثم قال:

- أنت حلوة يا شابة. . .

فقال له بخشونة:

- تريد السمك أم الميزان يحطّم وجهك؟

فشخر الرجل بعفوية فانتصبت واقفة مستعدية أهل المروءة. وانقضّ على الرجل الخريب رجال وتحجّج الموقف، ولكن برز من الجمع رجل يعرفونه هو عطا المراكبي وهتف:

- صلّوا على النبي. . .

وضحك قائلًا:

- إنه اسكندري، جاري في بيتي، لا يعرف

عادات البلد، والشخر عندهم كالتنفس عندنا. . .

وأنقذ جاره ومضى به إلى دكانه. . .

وعطا نفسه تشاءم من مقدم الرجل، لأنه جرّ وراءه

جيش الكفار، جيش نابليون، وقد سأله:

- ماذا جاء بك؟

فأجاب:

- قتل البواب أهلي فعزمت على هجر الإسكندرية.

وتغيّر الحال عندما تزوّج عطا من سكينه ابنة معلّمه

فتفاهل بمقدمه وأحبه وقال له:

- قدم خير يا عمّ يزيد!

ولم ينسّ يزيد المصري فرجة الصياد فقال لصاحبه:

- أريد أن أكمل نصف ديني ببياعة السمك. . .

## فايد عامر عمرو

الابن الثالث لعامر وعفت. ولد ونشأ كأخويه في بيت بين الجنانين، وكان كثير الشبه بجده فريدة حسام في بياض البشرة وجمال العينين، ورشاقة القد. وقد رضع غير قليل من تراث راضية وعمرو والحبي العتيق، ولكنّه تشبّع بتقاليد جدّه فريدة وجدّه عبد العظيم باشا داود. ومنذ صباه عشق القانون والمجد القضائي، كما عشق الثقافة الحديثة، ثقافة السينما والراديو ثمّ التليفزيون، ورغم حبّه لجديّه عمرو وعبد العظيم فلم يكتثّر لا للوفد ولا للأحزاب الأخرى، ولمّا تحجّج في الكلية كان من المتفوقين، وبفضل تفوّقه ومنزلة عبد العظيم باشا تعيّن من فوره في النيابة. ولعلّه الوحيد من أبناء عفت وعمر الذي لم يكتدر صفوها بسلوكة أو فكره مثل أخويه شاكِر وقدرى، ولمّا أعلن ذات يوم أنّه يحبّ بنتًا تدعى ماجدة العرشي طالبة بكلية الحقوق اضطربت عفت لمرارة التجارب الماضية، ولكنها سعدت عندما توكدت من أنّ البنت كريمة لطيب وحفيدة لطيب أيضًا وأنّ الأسرة على مستوى طيب جدًا ومناسب جدًا. وقالت عفت لعامر:

- أوّل زيجة تبّل الريق!

وتزوّج فايد ودخل في شقة بمصر الجديدة. ولمّا قامت الثورة لم ينفر منها رغم إهدارها لرتب جدّه وخاله، بل ربّما مال إليها ولم يخف ذلك عن أمّه وأبيه. . . قال:

- جاءت في وقتها تمامًا. . .

وترقى فايد في درجاته المعهودة حتّى درجة المستشار. ولم يتغيّر موقفه من الثورة وزعيمها، حتّى محنة ٥ يونيو لم تغيّره وإن مزّقت قلبه تمزيقًا. أمّا السادات فقد أيده في حربه وفتحته صفحة الديمقراطية من جديد، وشكّ كثيرًا في خطوة السلام، ثمّ لعنه بسبب الانفتاح والنكسة الديمقراطية، ومع أنّه لم

## حديث الصباح والمساء ٩٠٧

الزهد في الحياة، فطلب عليّ طلعت الإحالة إلى المعاش وهو مستشار في استئناف القاهرة وتفرغ للعبادة والقراءات الدينية في عزلة دائمة ما بين بيته والقرافة، أما فهيمة - وهي من أسرة يقبع الدين فيها منزويًا على هامش حياتها - فقد بدأت تتساءل عن المصير، وعن اليوم الذي تجتمع فيه بذريّتها المهالكة مرّة أخرى، وراحت تفتني من السوق جميع ما فيها من كتب الأرواح وتحضيرها والقوى الخفية، وآمنت أخيرًا براضية وتراثها الذي كانت تتابعه فيما مضى بابتسام وسخرية. وقال لها أبوها عبد العظيم باشا:

- الصبر يا بني، وددت لو كنت الغداء لأبنائك.  
فقلت له:

- أنت الخير والبركة يا بابا، ربنا يطول لنا في عمرك...

وكان كلّمًا شيع جنازة شاب من أبنائها فتقدّم المشيعين بشيخوخته الطاعنة شعر بحرج وما يشبه الذنب، وتضايق من النظرات المحدقة به في إجلال صامت. وما لبث عليّ طلعت أن انتقل إلى رحمة الله مصابًا بأنفلونزا حادة فوجدت فهيمة نفسها وحيدة في ملكوت أرواحها، وقد عمّرت طويلًا بعد وفاة والديها وأقاربها من ذلك الجيل الحريق المقدّس للتقاليد ووشائج القرى، فباتت نسيًا منسيًا فيما عدا كلمة تتبادلها في التليفون مع شقيقتها عمّت...

## حرف القاف

## قاسم عمرو وعزير

آخر عنقود ذريّة عمرو وراضية. ولد ونشأ في بيت ميدان بيت القاضي، وهو الوحيد من الأبناء الذي لم يبارحه. وبدا من مطلعته نحيلًا متحرّكًا، ولم يكن به شبه واضح لوالديه، ولكنّه إذا ضحك استحضر صورة أبيه الضاحكة، وإذا انفعل ذكر الملاحظ براضية. وكان السطح ملعبه والميدان بأشجاره الفارعة وعاش بكلّ وجدانه في أمطار الشتاء ورياح الخماسين. ولم يتح له أن يتخذ من أحد من إخوته أو أخواته رفيقًا

وخطبها عطا المراكبي من أمّها ثم زفّت إليه في شقته بيت الغورية. ويقول عطا المراكبي إنّه بمجرد أن أغلق الباب على العروسين سمع المدعوون في الصالة الخارجية شخرة تنفذ من ثقب الباب مثل قرقرة الماء في النارجيلة!

وقد وفق يزيد المصري في زواجه وأنجبت له فرجة ذريّة كثيرة لم يبقَ منها إلاّ عزيز وداود. وامتدّ العمر بالزوجين حتّى شهدا مولد الأحفاد. وفي ليلة رأى يزيد رجلا في المنام قال له إنّه نجم الدين الذي يصلي أحيانًا في ضريحه ونصحه قائلاً:

- شيّد قبرك جنب ضريحي لتلاقي كما يتلاقى المحبّون...

ولم يتردّد الرجل فبنى حوشه الذي دفن فيه، وما زال حتّى اليوم يستقبل الراحلين من ذريّته المنتشرة في أنحاء القاهرة.

## فهيمة عبد العظيم داود

كانت تدعى بعاشقة الورد من طول مكثها في حديقة الفيلا بشوارع بين السرايات. وكانت أجمل ذريّة عبد العظيم باشا داود، وفي الجمال فاقت فريدة هانم حسام. وربما كانت في الذكاء دون عمّت ولكنها كانت أطيّب قلبًا وأصفى روحًا. وقد تربّت معها في الميردي ديبه ولنفس المهدف أي إعدادها للحياة الزوجية الرفيعة. وجاء زواجها تقليديًا رغم ذلك فخطبت - عن طريق جارة - لوكيل نيابة يدعى عليّ طلعت. وشيّد عبد العظيم باشا داود لها بيتًا في بين الجنانين كما فعل لعمت وزفّت فيه إلى العريس. وكانت الزيجة في غاية من التوفيق، وأنجبت له داود وعبد العظيم وفريدة، ولكنّ سوء البخت الذي تربص بالأسرة بعد ذلك صار مضرًا للأمثال. فقدت فهيمة ذريّتها بعد أن اكتمل لها الشباب وأضاء الأمل. مات داود بالتيفود وهو طالب في السنة الثالثة بكلية الحقوق، ومات عبد العظيم بالكوليرا بعد تحرّجه من العلوم بأشهر، وماتت فريدة بروماتيزم القلب وهي في الثانوية العامة. وأذهل الأسى العميق الوالدين لدرجة

جرح الحب بجرح الموت، وراح يراقب رءوس الأرانب المطلّة من فوهة البلاص المقلوب. وسرعان ما وجد نفسه حيال أوهامه وجهاً لوجه، ودروس المدرسة الثقيلة، وابتسامة لا ترى بالعين المجردة آتية من عيني بهيجة الجميلتين. وظنّ الأخت مثل أختها ولكنّه وجد قلباً عذباً وإرادة صلبة. أيّ فائدة ترجى من ذلك الحوار الصامت؟! حتى ستّ زينب أمها قالت لها:

- إنكنا متثالان في السنّ فهو غير مناسب... .  
وقالت له راضية:

- المهمّ أن تشدّ حيلك في المدرسة... .  
وبسط عمرو راحته داعياً:

- اللهمّ اجبر بخاطري في هذا الولد... .  
ومن شدّة الحصار بكى قاسم. كان يجلس والديه الليليّ فسأله أبوه عمّا يبكيه فقال:

- تذكّرت أحمد!

فقطّب عمرو وهتف:

- ذاك تاريخ قديم، حتىّ أمه نسيت!

ومضى ينظر إلى الأشياء بحزن ويبكي. وقالت راضية لعمرو وهما منفردان:

- عين أصابت الولد.

فقال عمرو بغیظ:

- يحسدونه على خيبيته!

وبخّرتّه، وجعل يتشمّم الشذا الغامض ثمّ سقط مغشياً عليه. ومضى به أبوه إلى الطبيب فقرّر أنّها حالة صرع خفيف لا خوف منه ولكن يلزمه راحة وتغيير هواء. وتذكّروا مأساة بدرية بنت سميرة. ونظر مرّة إلى الفراغ بحضور والديه وقال:

- سأفعل جميع ما تريدون... .

وتساءل عمرو:

- أهو هذيان مرض؟

فقالت راضية بيقين:

- بل هو اتّصال بأهل الغيب... .

وعلم الأهل بحاله فتقاطروا على بيت القاضي يعودونه، وحدجوه بنظرات مليئة بحبّ الاستطلاع والتوجّس، وجرى التهامس في سراي آل عطا فقالت شكيرة لأمها:

فما كاد يشبّ حتىّ كانوا قد تفرّقوا في بيوت الزوجيّة، ولكنّه وجد العوض في أبناء عمّه سرور وأبناء الجيران، كما وجد مراحه في بيوت المتزوجين وعند آل عطا وآل داود. وكان أخلص المستمعين لأمه وأصدق التابعين لها في أحلامها وجولاتها الروحيّة بين الجوامع والأضرحة. وكلّما جمع به الخيال وجد عندها الأذن الصاغية والقلب المصدّق، ففي إحدى ليالي رمضان أخبرها أنّه رأى ليلة القدر كطاقة من نور مشعّ انداحت لحظات في السماء، وأنّه اطّلع في ليلة أخرى من وراء خصائص المشربيّة على زفّة من العفاريث. ومنذ صباه وهو يتطلّع إلى بنات الأسرة بحبّ استطلاع موسوم بشهوة مستوفزة قبل أوانها، وحام بصفة خاصّة حول دنائير وجيلة وبهيجة إلى بنات الجيران وفتياتهم ولم يعتق سيّداتهم من رغباته الغامضة الأثمة، مع تدبّر مبكّر وصلاة وصيام. ودخل الكتاب على رغمه وتلقّى فيه المبادئ بقلب نفور وعقل متمرد ولم يستطع أبداً أن يفرّق بين المدرسة وسجن قسم الجماليّة الذي رأى الوجوه التعيسة تلوح وراء قضبان نافذته. ويسأله عمرو في مجلس الليل بعد العشاء:

- ألا تريد أن تكون كأخويك؟

فيقول بصراحة:

- كلّاً... .

فيقطّب الرجل ويقول منذراً:

- لا تضطرني إلى تغيير معاملي لك... .

اهتزّت صورة أبيه في عينيه من عجز عن دفع الموت عن ابن أخته أحمد، حين ترك لدموعه غير المجدية. يريد الآن أن ينعم بحضن جميلة رغم ما يعقبه من ألم يقبض على قلبه عندما يقبل على صلاته. دائماً تعذب بين الحبّ والعبادة، وأعين الرقباء أيضاً مثل بهيجة وأمّه. بين الدجاج والأرانب والقسطط فوق السطح ضببطتها راضية مرّة. لدى ظهورها انفكّ الاشتباك فطارت جميلة كالحمامة والدم ينبثق من وجنتيها من شدّة الحياء. وقطّبت راضية، ثمّ أشارت بيدها المعروقة إلى السماء الحانية فوق السطح وقالت:

- من هناك يرى الله كلّ شيء... .

وتوارت جميلة عندما جاء ابن الحلال، وألحق قاسم

## حديث الصباح والمساء ٩٠٩

قديمة مبلّلة بماء الورد، ونداءه صوت ناعم للخروج من بيته فاشتمل بعباءته وخرج، ومن تَوَّه توجّه نحو بيت عمّه المجاور. واستقبلته بهيجة بذهول وهي تسائل نفسها عمّا جعله يقتحم وحدتها اليائسة. راحا يتبادلان النظرات كالأيام الخالية، ثم قال:

- رأيتك في المنام تلّوِّحين لي...

فابتسمت ابتسامة باهتة لا معنى لها فقال:

- وقال لي هاتف من الغيب أنّ لكما أن تزوّجا...

وقام من فوره فغادر البيت راجعاً إلى بيته وقال لأمه:

- أريد أن أتزوِّج فاخطبي لي بهيجة...

وقالت راضية لنفسها إنّ جميع الأولياء تزوّجوا وأنجبوا. وعندما جاء لبيب لزيارتها أبلغته بالخبر.

وشاور لبيب ابني عمّه عامر وحامد فاتّفق الرأي على أنّ قاسم قادر على القيام بأعباء أسرة ولكن الأمر رهن

بموافقة بهيجة. والعجيب أنّ بهيجة وافقت. قيل إنّ

اليأس وقيل إنّ الحب القديم، ومهما يكن من أمر فقد

زفّت إليه بعد أن تجدد البيت القديم بالأثاث الجديد.

وتّم الزفاف فيها يشبه الصمت بسبب الإظلام المخيم

في فترة الحرب. واحتفلت به المدافع المضادة

للطائرات. ومضت سنوات عقم ثمّ أنجبت بهيجة

ابنها الوحيد النقشبندي الذي شابه في جماله خاله

لبيب. وكان كامل الصحة والذكاء فتخرّج مهندساً في

عام النكسة. وأرسل قبيل السبعينات في بعثة إلى ألمانيا

الغربية، وكانت حال البلد قد أزهقت صحته النفسية

فقرّر الهجرة، والتحق بعمل هامّ في مصنع صلب بعد

حصوله على الدكتوراه، وتزوِّج من ألمانية واستقرّ هناك

بصفة نهائية. وحزنت بهيجة لذلك حزناً شديداً أمّا

قاسم فلم يكن يحزن لشيء... ووَدَّعه قلبه بغير

دموع...

## قَدْرِي عَامِرُ عَمْرُو

ولد ونشأ في بيت بين الجنان وهو الابن الأوسط

لعامر وعقّت. من صغره كان شغلة في اللعب والجدّ

والخيال. ومن صغره أيضاً ألع بالاطلاع والاهتمام

بالحياة العائمة بخلاف أخويه، ثمّ وجد نفسه في

- ما هو إلاّ عرق الجنون النابض من قديم في أسرة راضية...

وقالت مثل ذلك ستّ زينب لسرور في بيتها. أمّا راضية فوكّدت لعمرو علمها بتلك الحال وقالت له بثقة ويقين:

- لا تخف ولا تحزن وكن مع الله...

ودارت بابنها على الأضرحة، وحرقت البخور في

أركان البيت من بابه إلى سطحه. أمّا قاسم فهجر

المدرسة باستهانة، وراح يتجوّل في الحوار، أو

يطوف ببيوت إخوته وأخواته وأقربائه في ميدان خيرت

وشارع السرايات وبين الجنان، وفي كلّ موقع يتناول

المشروبات وينثر كلماته الغامضة تنبّأ عن المستقبل كما

يتراءى له، وتجيء الحوادث مصدّقة لنبوءاته حتّى عُرف

بينهم بالشيخ ولم يعد أحد منهم يجرؤ على السخرية

منه. وقال محمود بك عطا لعمرو المحزون:

- إنّها مشيئة الله، وأنت رجل مؤمن، والولد فيه

سرّ لا يعلمه إلاّ الله، إنّهُ يقرأ خواطري حتّى بتّ

أعمل له ألف حساب...

فتساءل عمرو:

- ولكنّ مستقبله ورزقه؟

فقالته خالته شهيرة وكانت حاضرة:

- الله لا ينسى مخلوقاً من مخلوقاته فما بالكم بواحد

من أوليائه؟

والواقع أنّ سمعته انتشرت في صورة أساطير فأخذ

يقصده أصحاب الآمال المعدّبة محمّلين بالهدايا ثمّ

النقود، حتّى اضطرت الأسرة لإعداد حجرة المعيشة

بالدور الأوّل لاستقبال زوّاره، وحتّى ذهل عمرو عندما

وجد رزقه ينمو ويفوق رزق أخوته مجتمعين. وتلاشت

مشكلته بحكم العادة، وكأنّما خلق لهذه الولاية، وبدل

قاسم بملابسه الإفرنجية الجلّاب والعباءة والعمامة،

وأرسل لحيته، وقسّم وقته بين استقبال زوّاره وبين

العبادة فوق السطح، وحتّى أمّه - الأستاذة العريفة -

أصبحت من تلامذته ومريديه. وفتح صدره لأحزان

أسرته وانغمس في مآسئهم، وشيخ أمواتهم، وصلّى

عليهم في جوف مقابرهم. وذات يوم وكان قد بلغ

الثلاثين من عمره خفق قلبه خفقة أعادت إليه ذكريات

اللمرة الثالثة، واستنجد أبوه ببعض كبار الضباط من تلاميذه السابقين فأكرموه بالإفراج عنه. ومنذ ارتبطت الثورة بالكتلة الشرقية مال إليها ومضى يرى في خطاها ما لم يكن يراه من قبل. ولعل ذلك مما هون عليه بعض الشيء مصاب الوطن في ٥ يونيو باعتباره كان مدخلاً حاسماً لترسيخ النفوذ السوفييتي في مصر ومقرباً إلى الثورة الشاملة حين تنضج أسبابها. ولعل ذلك ما جعله يستقبل نصر ٦ أكتوبر بسخط لم يستطع أن يخفيه، وبذله أقصى ما عنده من منطوق ومعلومات ليفرغه من مضمونه أو تصويره في صورة التمثيلية المفتعلة، وقال لنفسه:

- انتصار البورجوازية يعني انتصار الرجعية!

ومن أجل ذلك ناصب السادات العداء منذ تجلّى للعين خطه السياسي وأضمر له الكره حياً وقتيلاً، رغم إقبال الثراء عليه بغير حساب في عصر انفتاحه. وقد اعتقل في طوفان سبتمبر ١٩٨١، وأفرج عنه مع الجميع ليواصل عمله الناجح وآماله الحبيسة، وكان ذلك قبل وفاة أبيه بأيام...

حرف الله

لبيب سرور عزير

هو بكري ذرية سرور وزينب، طالع الدنيا بوجه مليح مشرق شبيه بوجه أمه وقامة دون المتوسط في الطول رقيقة البنيان كأنما أعدت لتلقي أنوثة عذراء. ومن عجب أنه طبع منذ طفولته على الهدوء والرزانة وكأنما وُلد بالغ الرشد. ولم يجاوز لعبه الوقوف أمام باب البيت ليشاهد الأشياء أو يتابع تحركات ابن عمه قاسم - الذي يصغره بسنوات - وهو يتعفرت كأمثاله، أو يتمشى في الميدان وهو يقزقز اللب. وكانت راضية تناديه فتقول بحجة:

- يا صاحب العقل الكامل.

وكانت تقول عنه أيضاً:

- أبوه موفور الحظ من الحياقة وأمه عبيطة فمن أين

له هذا العقل!!

اليسارية. وعشق الفن والأدب رغم موهبته العلمية ووضع حجر الأساس في مكتبته الخاصة وهو في أولى سنّي الدراسة الثانوية. وكاد يكون صورة من أبيه غير أنه كان أفرع طويلاً وأقوى بنياناً، إلى طبيعة إيجابية ضاربة جرّت عليه المتاعب. وكم كانت دهشة عامر كبيرة عندما قبض على ابنه ضمن نفر من اليساريين. وهرع الرجل إلى حمّيه عبد العظيم باشا فسعى الرجل إلى الإفراج عنه بحجة حدائته ولكنّ الباشا ذهل وقال لعامر وعفت:

- كيف تكون هذا الولد في بيتكما؟

فقال عامر في حياء:

- نحن لا نقصر في تربيتهم ولكنّ الآخرين يتسلّلون إلى حياتهم فيفسدونها...

ودخل قدري كتيبة الهندسة وهو مسجّل في الصفحة السوداء في جهاز الأمن. وتبّه حليم أخته إلى خطورة الوضع على مستقبله، وهذا ما فعله حامد مع شقيقه عامر. وتكرّر اعتقاله والإفراج عنه وهو طالب في الهندسة. وانجذب ذات يوم إلى شاذلي ابن عمته مطرية لجامع الثقافة بينهما ولكنه وجدته بلا أدريته وصوفيته العقلية نقيضاً له فضاقت به وهجره. ولما تخرّج مهندساً تجنّب التوظف في الحكومة، فاشتغل في مكتب هندسي لأحد أساتذته المحالين على المعاش. وكان مهندساً كفئاً ولكنه سيء السمعة من الناحية السياسية. وأرادت أمه أن تزوجه ليستقيم أمره من ناحية وليعوضها عن خسارتها في شاكرك، ورحب من ناحيته بالفكرة. وأرادت أن تزوجه من إحدى بنات خاله لطفي باشا ولكنها لم تلق الحماس الذي حلمت به وحدثت ما وراء ذلك من سمعته السياسية. وتضاعف همتها عندما رفضه جيران لها لشكهم في إسلامه وبالتالي في بطلان الزواج! وغضب قدري على فكرة الزواج كغضبه على البورجوازية بعامة، وأمن بحكمة خاليه غسان وحليم في إضرابها عن الزواج. ولما قامت ثورة يوليو كان قد كفت عن نشاطه العملي في السياسة ولكن ظلّ مبقياً على اعتقاده وأصدقائه فلم تتبدد من حوله عتمة السمعة. وتقدّم في عمله تقدماً ملموساً ومبشراً بالمزيد، ولكنه اعتقل

## حديث الصباح والمساء ٩١١

الظل والأمان. ولم يغيب عنه شيء من الفوارق الطبقيّة بينه وبين أقرانه، وخلفت رواسب في النفس ولكنّه تجاوزها بهدوء طبعه وحكمته الفطريّة. لم يغتم لبدلته الوحيدة، وعدم مشاركته في أيّ حياة اجتماعيّة أو ترفيهيّة أو لركوبه الدرجة الثانية في الترام، وتجنّب إزعاج أبيه بأيّ مطلب يتحدّى قدراته، كان دائماً صاحب العقل الكامل كما قالت راضية. وجنى من صبره واجتهاده الثمرة فحصل على الليسانس وهو ابن ثماني عشرة معدوداً بين العشرة الأوائل. ولم تعترض النيابة على قبوله بسبب الأصل إكراماً لعبد العظيم داود، ولكنّها أبت تعيين معاون نيابة قاصراً! فاتفق على إلحاقه بوظيفة كتابيّة في محكمة حتّى يبلغ سنّ الرشد. والتحق بعد ذلك بالنيابة رافعاً رأس آل عزيز، وظافراً لهم بمركز في البيروقراطيّة العالية، في مواجهة آل داود وآل عطا، ومعدّناً في الوقت نفسه انفعالات من الغيرة والحسد والإعجاب في فروع الأسرة جميعاً حتّى أقرب الناس إليه وهم أبناء عمّه. وشمخ سرور أفندي برأسه عاليّاً كأنّما أصبح النائب العموميّ، فزاد لسانه حدّة، وأثره سوءاً في أنفس الآخرين، وبات ثقيلاً لا يطاق، وبخلاف المظنون والمنطقيّ هبّت على لبيب رياح الموم. أجل أثبت دائماً كفاءة ونزاهة كوكيل نيابة وقاضٍ فحاز الثقة والاحترام، ولكنّ ظروف أسرته حثمت عليه تأجيل الزواج حتّى يعاون في تربية إخوته وتوزيع أخواته. من ناحية أخرى انطلقت غرائزه المكبوحه لتستعيب عتاً فاتها في الطفولة والصبا والمراهقة، وإذا به يولع بالخمّر والنساء، فيمارس العريضة والفسق مع المحافظة على تقاليد مهنته ما وسعه ذلك. وألف تلك الحياة حتّى عشقها لذاتها، ولم يفكر في تغييرها لئلاّ فرغ من واجباته العائليّة، على تهديدها لسمعته وإنهاكها لصحّته. ولما قامت ثورة يوليو، واهتزّ مركز القانون ورجاله، غزته الكآبة كوفديّ قديم من ناحية وكرجل من رجال القانون من ناحية أخرى. ولم ينقطع أبداً عن زيارة أسرته في جميع فروعها، وراح يتابع أثر الثورة فيها مع الحرص التامّ في الإفصاح عن ذاته. وربّما كان حامد ابن عمّه أقربهم لنفسه فهمس له مرّة:

وفي الرابعة من عمره أرسله سرور أفندي إلى الكتاب متشجّعاً برزاقته وإعراضه عن شقاوة الأطفال، ورأى أنّه لن يخسر زمناً إذا انقضى عام أو عامان قبل أن يستطيع الاستيعاب والإدراك، ولكنّه حصل في العامين معرفة حازت رضی سيّدنا الشيخ فقال لعمّه عمرو أفندي:

- ابن أخيك لبيب ولد عجيب وعليكم أن تدخلوه المدرسة الابتدائيّة . . .

لم يكن أحد يقترح من المدرسة الابتدائيّة في ذلك الوقت دون الثامنة أو التاسعة فقدّم له أبوه في امتحان القبول بلا اكتراث جدّيّ، وجاء نجاحه مفاجأة، وانتظم في الدراسة وهو ابن ستّ سنوات. ومضى ينجح عامّاً بعد عام محدّناً في محيط الأسرة دهشة، والأعجب من ذلك أنّه واطب على المذاكرة بلا حصّ أو إغراء، وبلا مساعدة من أحد، حتّى حصل على الابتدائيّة وهو ابن عشر. وأهله سئّه وتفوّقه لدخول إحدى مدارس الخاصّة الملكيّة بالمجان. وشقّ طريقه في المدرسة الثانويّة كالعهد به، ولما ناهز الحلم صدّ عن أيّ إغراء جاءه من أركان الأسرة أو الطريق، مطاوئاً تحذيرات أمّه، منصرفاً بإرادته عمّاً يعيق اجتهاده واستقامته، حتّى حصل على البكالوريا وهو ابن ستّ عشرة. وكانت المعلمين العليا هي المدرسة المفضّلة والمناسبة لظروف الأسرة، ولكنّ الفتى الطموح أعلن عن رغبته في الالتحاق بمدرسة الحقوق. وتمتم سرور وهو بين الخوف والرجاء:

- إنّها مدرسة الحكّام!

وقال عمرو:

- نشاور عبد العظيم . . .

وكان الباشا معجباً بسيرة الفتى فسعى لإلحاقه بالمدرسة وبالمجان أيضاً. وفصل له أبوه بدلة ذات بنطلون طويل لأوّل مرّة، وذهب إلى المدرسة لتحديق به الأعين بدهشة، وتحوم من حوله التعليقات الساخرة عن «مدرسة الحقوق الأوّلية» و«روضة الأطفال الملكيّة» ولم تتغيّر النظرة نحوه حتّى أثبت تفوّقه وقدراته. بل لم يتأخّر عن الاشتراك في المظاهرات لئلاّ اندلعت ثورة ١٩١٩ وتوزيع المنشورات وإن جرى تحرّكه غالباً في

- ما الخيلة؟... أمامنا رجل يدعي الزعامة ويده مسدس! ولما رُقي إلى رئاسة محكمة استئناف الإسكندرية وقارب سنه المعاش تفجّر تغيير في داخله في صورة طفرة عارمة فاندفع بكلّ قواه في طريق العبادة والزواج. مارس العبادة لحدّ الدروشة، وفكّر أوّل ما فكّر في الزواج من دنائير بنت عمته. لم ينسَ أنّه حاول يوماً في غيّه أن يرافقها لولا رفضها الحاسم له، ولكنّ منظرها الذي آلت إليه آثار نفوره. فالجّه نحو امرأة من بنات الهوى عرفها مطربة من الدرجة الرابعة بملهى ليليّ على عهد الشباب. ولم يقطع صلته بها على كثرة من تقلّب في حبّه من النساء. وكانت في ذلك الوقت قد كفت عن الحرفة لكبر سنّها ولكنّها لم تعطل تماماً من الأثونة. وسرعان ما تزوّجا، وأقاما بشقّة أنيقة بمصر الجديدة. وأديا معاً فريضة الحجّ، وعاشا معاً في سلام زهاء عام. وكانت الخمر قد استهلكت كبده فأصابه نزيف داخليّ وهو يرأس المحكمة. ومُحْمَل من الإسكندرية إلى بيته في القاهرة حيث أسلم الروح. وغادر الحياة ومصر في عزّ مجدها الناصريّ قبيل هزيمة يونيو بأشهر.

## لطفی عبد العظیم داؤد

هو بكريّ عبد العظیم داود وفريده حسام. كان في الجمال صورة من أمّه وشقيقته فهيمة كما حظي بذلكه أبيه وجدّه داود. وفي صباه ومراهقته توثقت أسباب المودة بينه وبين آل عمرو وخاصة عامر، كما هام بالحريّ العتيق وأطوار راضية الغريبة الخارقة للمألوف. وفتنه جمال مطربة كما فتنها جماله، فنشأت قصّة حبّ حيّية في تقاليد ذلك الزمان. وتفتّحت القلوب وربت لاستقبال أمطار الأنباء السعيدة. ولكن ما كاد لطفی يشير من بعيد إلى رغائبه حتّى كأنه فنجّر قنبلة في فيلّا آل داود بشارع السرايات. تناسوا القرب، وحبّ عامر وعفّت، وأخوة عمرو وعبد العظیم، واعتبروا الإشارة زلّة ذوق ضلّ الهدى وتردى في هاوية الانحطاط. وحوصر

لطفی حتّى خطبت مطربة وتلاشى الخطر. وغضبت راضية وصبت لعنائها على من لا أصل لهم، وتوجّع قلب عمرو واحتقن وجهه بالدم. وحرّض سرور أخاه قائلاً:

- ما ينبغي لغضبك أن ينطفئ... .

غير أنّ صداقة فريده حسام تكفّلت براضية، وأحسن عمرو - كالعادة - الحوار مع انفعالاته. وغلبت رابطة الأسرة طوارئ نزواتها. ما أكثر ما يقول بنات داود في بنات عمرو وسرور وما أكثر ما يقول بنات عمرو وسرور في بنات داود، وما أفضح ما يتهمّم به آل داود على آل عطا وما أقسى ما يتندّر به آل عطا على آل داود، ولكنّ متانة الأساس كانت تصمد للزوابع والأعاصير التي تهبّ على البيت الكبير. وفي تلك الأيام الغربية كان الحبّ ينسى في مواعيده المعقولة. وسرعان ما انشغل لطفی بدراسة الطبّ حتّى حصل على إجازته. وسافر في بعثة إلى ألمانيا ثمّ رجع ليستهلّ حياته العلميّة الفريده في وزارة الصحّة. وأثبت نبوغه في الإدارة والعلم، وظفر بمكانة مرموقة بين الأحزاب المتخاصمة رغم انتهاء أسرته المعروف، ولكنّه كان أدنى إلى الاستقلال منه إلى الحزبية، ولم يتردّد في إعلان ولائه للعرش كموظّف كبير أمين، وبذلك ظفر بالبكوية ثمّ الباشوية وهو ما بين الشباب والكهولة. وقد لعب عمرو دوراً تاريخياً في تزويج لطفی. ذلك أنّه كان صديق صبا لرجل أصبح رئيساً للقومسيون الطيّ هو بهجت بك عمر. ورأى كريمته آمال خريجة الميردي ديبه وذات الجمال الفريد، فخطر له انسياقاً مع طبيعته الدمثة وحرصه على كسب القلوب أن يخطفها للطفی فسعى سعيه الجميل بين آل عبد العظیم وآل بهجت. وتمّت على يديه زيجة من أسعد الزيجات، وأصبح بها صاحب الفضل المعترف به في الأسرتين. ونشأت الأسرة الجديدة في فيلّا بالدقيّ، ولم تتردّد تلك الأسرة المصرو - أوروبية عن زيارة مُنشئها عمرو أفندي في بيته العتيق بميدان بيت القاضي. وفتنت آمال بالحريّ العريق وراضية، وأضافت إلى زوّار البيت الكبراء أمثال آل عطا وداود وآل بليغ معاوية وردة جديدة فواحة بعبير إفرنجيّ وسحر من نوع جديد فتن

## حديث الصباح والمساء ٩١٣

الموج فغرق. حقاً لقد أحدث موته هزة عنيفة في الأسرة ولكنّه ترك في أعماق نادرة جرحاً لم يقدر له أن يندمل أبداً. وورثه عدنان، وصار بذلك أثرى آل عطا، ولكنّه كان أيضاً الوحيد الذي طبّق عليه قانون الإصلاح الزراعيّ بعد قيام ثورة يوليو...

## ماهر محمود عطا المراكبي

ولد ونشأ في سراي ميدان خيرت، وكإخوته تلقى التربية الجادة والرفيعة معاً. وكان طويلاً رشيقاً وسيماً وذا كبرياء طبقيّ ملموس. ولم يكن يزور أهله إلا في المناسبات، وتجنّب آل داود بصفة خاصّة. ولم تكن حياته الدراسية تبشّر بخير فاختار الكليّة الحريّة هدفاً لحياته التعليمية. وشغف بالحياة الأرستقراطية في جميع مظاهرها من إثمار العرش على الأحزاب، ومصادقة أبناء طبقتهم، واستثمار جماله في عشق الغواني. وأزعج أباه بمطالبه الماليّة، وكان محمود بك يجب أن ينشئ أبناءه على الانضباط من غير حرمان، فأزعجه ذلك الابن الخارج عن الخطّ المرسوم. وفي الوقت نفسه كان يحبّه ويعجب به فتغافل عن تمييز زوجته له وإسعافه بما يحتاج إليه، وكان الكبر قد ألان عريكته، وكذلك المرض. والتحق ماهر بالكليّة الحريّة وتخرّج في مطلع الحرب العالميّة الثانية، وبحكم الصلات الشخصية وتأثير شقيقه عبده انتظم في سلك الضباط الأحرار مرتكزاً إلى عواطف سطحية وغير مؤمن إيماناً جدياً بما يقال عن آلام الشعب وصراع الطبقات. ولما قامت الثورة وجد نفسه من المقرّبين، ووثب دون عناء إلى منزلة لم يستطع أن يبلغها بخطواته الدراسية المتعثّرة. ولم يكن مقتنعاً بقانون الإصلاح الزراعيّ رغم أنّه لم يطبّق في أسرته إلا على ابن عمّه عدنان ولكن مجال الطموح انفسح أمامه إلى آفاق غير محدودة. واستأجر شقّة في الزمالك لغرامياته، وعلا نجمه فعين في الحرس الخاصّ للزعيم. وظلّ في مكانه بعد النكسة وحتى وفاة عبد الناصر. وأحيل إلى المعاش بعد ذلك بقليل فتفرّغ لشقّة الزمالك، وطيلة ذلك العمر لم يكن

الأهل والجيران يمثل الجذبة الصوفيّة، وقد أنجبت له فريدة وميرفت وداود، وعاشوا - عقب المراهقة - في الخارج، فريدة وميرفت زوجتين لرجلين في السلك السياسيّ، وداود طبيباً في سويسرا وتزوّج من سويسريّة. ولما قامت ثورة يوليو كان لطفي من القلّة التي لم يمّسها سوء من طبقتهم حتىّ أحيل إلى المعاش وهو وكيل وزارة. ولكنّه خسر جُلّ مدّخراته الموظّفة في أسهم وسندات عند التأميم، وقد توفّي عقب وفاة أبيه في السبعين بسرطان المعدة، وهي سنّ تُعتبر من الشباب في أسرة عبد العظيم المعمرّة...

## عرفه الجميع

## مازن أحمد عطا المراكبي

أعذب من الورود التي تتلألأ في الحديقة الكبيرة بسراي آل المراكبي. ازدهرت في شخصه دماثة أبيه أحمد بك وجمال أمّه فوزيّة هانم. وكان من أحبّ الشخصيات إلى قلوب آل عمرو بل وسرور وداود. ومنذ صباه أحبّ ابنة عمّه نادرة وأحبّته. ولذلك كان أشقى الناس جميعاً بالخلاف الذي مزّق الأسرة، وتعرّض لذلك إلى غضب شقيقه عدنان مفجّر الثورة. وكان متعزّز الخطوات في دراسته، ولكنّه اختار الزراعة ليستثمر دراسته في حياته العمليّة كي لا تتكرّر المأساة مرّة أخرى في المستقبل. ورغم حداثة سنّه النسبيّة سعى سرّاً لدى قريبه عمرو أفندي ليبارك محاولاته للتوفيق بين الشقيقين الغاضبين، وحثّ خفية حبيبته وابنة عمّه على حفظ حبّهما بمنجاة من العاصفة حتىّ تهدأ. ولما مرض أبوه الطيّب مرض الوفاة وانقضت غيوم الأحزان لم يمنعه الحزن على أبيه من الترحيب القلبيّ بعودة السلام إلى أركان الأسرة. وقرّر أن يعلن خطبته عقب انقضاء عام الحداد، وكان يطوي العام الأخير من دراسته. وفي مطلع الربيع سافر مع بعثة من الطلبة إلى الإسكندريّة في رحلة دراسيّة، وخطر له أن يستحمّ في الشاطبي مع بعض الصحاب، فخانه



الزواج يخطر على باله قط. ولما هلت طلّاع الانفتاح أقنعه بعض الأصحاب بالعمل في الاستيراد فباع أرضه وانهمك في عمله الجديد وأثرى من ورائه إثراء عظيمًا. وجمعت السراي عبده وماهر ونادرة على عقم من ناحية الذرّيّة، ومال يتدفق وكأنما يعدونه للآخرين . . .

## محمود عطا المراكبي

أول ثمرة لزواج عطا المراكبي من الأرملة الشريّة هدى الألوزي. ولد ونشأ وترعرع في أحضان العزّ والفضامة ما بين سراي ميدان خيرت وسراي العزبة في بني سويف، ودون أن يعلم شيئًا عن حياة أبيه الأولى. ولكنه خالط أقاربه - أخته نعمة وذرّيّتها رشوانة وعمرو وسرور - منذ سنّيه الأولى، وتشرب قلبه بحبّ الحيّ العتيق. ومنذ نشأته وضحت معالم شخصيّته الإيجابية القويّة وزادت معالمها بروزًا بالمقارنة بشخصيّة أخيه الأصغر أحمد الوديعة الديمة. غير أنّها في التعليم كانا على مستوى واحد لا يشرّ بالاستمرار، فاكتفيا كابني أختها عمرو وسرور بالابتدائيّة، ثم ركن أحمد إلى حياة أبناء الذوات على حين لازم محمود أباه، تلميذًا فطنًا ومريدًا صادقًا ومساعدًا قويًا. وتحمّل بنيانه مثلاً للقوّة والفظاظة بقوامه الربعة ووجهه الغليظ حسن القسماّت ورأسه الكبير القائم على عنق قصير مليء، وشقّت هيئته ونظراته المقتحمة ومتانة هيكله عن التحدي والصراع والبطش. ولم يجد أبوه ما يؤاخذه عليه في شبابه الأوّل سوى نزوات مما يجري في الحقول، فخطب له ولأخيه شقيقتين مهذبّتين من آل بكري جيرانه، فبدأ محمود حياته الزوجيّة الموقّعة مع نازلي هانم، ولم تنحرف عينه إلى امرأة أخرى طوال حياته، ونجحت الحياة الزوجيّة بفضل تعلّقه بالهانم، وبفضل تربية المرأة الرفيعة وتقديسها التقليديّ للزوج والحياة الزوجيّة، وأنجبت له مع الزمن حسن وشكيرة وعبده ونادرة وماهر. ومن بادئ الأمر وبدهاء فريد قرّر محمود الاستحواذ على قلب أبيه. عرف فيه البخل فمثل بين يديه دور البخيل وإن كان في ذلك معتدلاً لا

هو بالبخيل ولا بالكريم. أمّا في العمل فقد حاز إعجابه بمثابرتة ودقّته وحسن تقديره مع مغالاة في العنف في معاملة الآخرين ورفض التساهل كأنما هو جريمة أو خيانة. وأبوه نفسه كان يساوره الجبن أحيانًا فيقول له:

- من الحكمة أيضًا ألا نخلق لنا عدوًا كلّ يوم . .

فيقول الابن:

- الجميع يجنون أخي أحمد، لا أهميّة للحبّ، وبالقوّة وحدها تُصان الحقوق.

حتّى قال عطا مرّة:

- لقد أنجبت رجلًا واحدًا وامرأتين!

لم يبال محمود بكثرة الأعداء وتصاعد أعدادهم، وآثر دائئًا أن يكون مرهوبًا على أن يكون محبوبًا سواء لدى الموظّفين أم المتعاملين، ولا ضجر يومًا من رفع القضايا والتردد على المحاكم بصحبة المحامين. ولما مات الأب عطا خلا محمود إلى أخيه أحمد بحضور أمّهما وقال له:

- أصبح من حقك أن تدير نصف الأملاك.

فارتبك أحمد وبانت الحيرة في عينيه فقال محمود:

- إنه صراع في غابة من الوحوش، وحظّ الطيب فيها الضياع . . .

فازداد أحمد حيرة وارتباكًا فقال الآخر:

- أتوافق على أن أقوم بالعمل وحدي؟

- بكلّ ارتياح، أنت أخي الأكبر وحببي وما عرفنا في حياتنا إلا الحبّ . . .

- وأيضًا فإنّي لم أهمل فريضة في حياتي، وأعمل

وكانّ الله يراني . . .

فقال أحمد وهو يتنهد في ارتياح:

- ما في ذلك شكّ عندي . . .

هكذا حلّ محمود محلّ عطا، وكان يومًا أسود في حياة الموظّفين والخفراء والمتعاملين. كان يمضي في الحقل أو الدائرة أو السوق مثل وابور الزلط، والأعين ترمقه بالحقد والدعوات تنهال عليه من الرجال والنساء. وذات ليلة وهو راجع إلى السراي انقضّ عليه مجهولان بهراواتهم حتّى تهاوى فاقد الوعي ثمّ قذفوه في مصرف وتلاشوا في الظلام. ومرّت دوريّة

## حديث الصباح والمساء ٩١٥

في نصحه بالاعتدال ولكن شيئاً لم يكن يثنيه عن خطئه أبداً. وسألته أيضاً:

- ألا يمكن أن ينفعك عبد العظيم داود في قضاياك؟

فقال ممتعضاً:

- إنه يتظاهر بالنزاهة ليداري نذالته وانعدام مروءته، وما هو إلا كافر ومقلد للإنجليز في شرب الويسكي مع الغداء والعشاء!

ولما قامت ثورة ١٩١٩ تحرك قلبه بعاطفة جديدة لأول مرة، ومسّه سحر الزعيم، وتبرّع ببضعة آلاف من الجنيهات، ولأول مرة أيضاً يلمس في الفلاحين البسطاء قوة مخيفة لم يعدها من قبل. ولما حصل الخلاف، وتبين أن للعرش موقفه، وللعديلين موقفهم، وللزعيم موقفه، أخذ يعيد حساباته. واجتمع بأخيه في سراي ميدان خيرت، وسأله:

- ما رأيك فيما يجري اليوم؟

فقال أحد براءة:

- لا شك أن سعد على حق ...

فقال ببرود:

- إني أسأل عن مصلحتنا ...

فقال أحمد بحيرة:

- لم أفكر في ذلك، هل تفكر في تأييد عدلي باشا؟

- المركز الثابت هو العرش ...

فقال أحمد ببساطة:

- دائماً الحق معك يا أخي ...

- ماذا يقول أصحابك من السيار؟

- كلهم سعديون.

- أعلن انتهاءك كي يُعرف على أوسع نطاق ...

- وأولاد أختنا عمرو وسرور مع سعد أيضاً ...

- هؤلاء لا مصالح لهم، لقد انتهت اللعبة، فلا

تتصور أن الإنجليز سيغادرون مصر ولا تتصور أن

مصر تستطيع أن تعيش بغير الإنجليز ...

وجزاء ولائه للعرش فاز هو وأخوه برتبة البيكوتية،

وقال لأخيه:

- كي يسلم آل داود أن الرتب ليست قاصرة

عليهم ...

على أثر ذلك فتهادى إلى مسامعها أنين من المصرف فهرعت إليه وأنقذته وهو على شفا الموت. ونقل إلى المستشفى، وكلما سمع سامع بالخبر ضرب جبينه غيظاً ولعن سوء الحظ الذي بادر إلى إنقاذه في اللحظة الحرجة. وغادر المستشفى صحيحاً معافى، بإضافات جديدة من الكدمات وآثار الجراحة في الجبين والخذ والعنق ضاعفت من جهامة منظره ووحشية طلعه، ولكنها لم تغير من طبعه شيئاً وإن زادته تسلخاً وحذراً. وقال له ابن أخته عمرو أفندي وكان أحب الناس إلى قلبه:

- لا بد من سياسة جديدة يا حبيبي ...

فقال محمود:

- الناس لم يخلقوا إلا لسياسة واحدة والويل للمتراجع!

وكان يزور بيت القاضي في حنطوره الفخيم محملاً بالهدايا، ويطيب له الحديث مع عمرو وراضية، ثم يستغرقه الحديث عن قضاياها التي لا حصر لها. ومرة قال له عمرو ضاحكاً:

- ستصبح من فقهاء القانون مثل عبد العظيم!

فيضحك - وكان يكثر من الضحك في بيت القاضي - ويقول:

- الموت أهون من التفريط في الحقوق ...

فتقول راضية بحماسها المندفع:

- ولكن الدنيا لا تساوي هذا التعب ...

فيقول مقهقهاً:

- ما خلقنا إلا للتعب يا درويشة!

وكان يزور عبد العظيم داود في العباسية الشرقية، ويسعد بأخباره عن نجاحه وأمواله، ويناقشه في القضايا، وكان عبد العظيم يقول لفريدة عقب انصرافه:

- المرض أحب إلي من لقاء هذا الجلف ...

فتقول فريدة هانم:

- امرأته جوهرة ثمينة ...

فيقول ساخراً:

- ربنا يصبرها على ما بلاها!

ولم تقصّر نازلي التي تحبه أكثر من أي شيء في دنياها

الطريّ وأدمت كبرياءها. وهونّ من آلامها وقدة الغضب التي اندلعت من حولها دفاعاً عنها وعن الأسرة. وهونّ منه أيضاً أنّ الحبّ لم يكن حظي بالاعتراف بعد، فدارت المعركة حول الكبرياء وحدها، وهمدت في هاوية التقاليد العريقة. وما لبثت أن خطبتها صديقة لأمها، تمّ تعارفهما في ضريح سيدي يحيى بن عقب، وتفاءلت بالتعارف ومكانه، وحكمت بالطيبة على المرأة التي كانت تقيم غير بعيد في حارة الوطاويط. وكان العريس - محمّد إبراهيم - مدرّساً بمدرسة أمّ الغلام، فهو من ناحيتي الشهادة والمهنة مثل عامر، ورأته مطرّية من وراء خصاص المشريّة فأعجبها وجهه القمحيّ وجسمه المليء والغليون الذي يدخنه كالإنجليز. وزفّت إليه في البيت الذي تملكه أمّه بحارة الوطاويط، وكان من حسن الطالع أن كسبت مطرّية قلب حماها، ونعمت بحبّ صادق جمع بينها وبين زوجها حتى آخر يوم من حياته. وأشرقت أعوام متلاحقة بالهناء والوفاق، وأنجبت فيها مطرّية أحمد وشاذلي وأمانة، وكان ثلاثهم كالأقمار في الوضاعة والوسامة، وحتى لكلّ إنسان أن يعدّ بيت حارة الوطاويط من البيوت السعيدة بكلّ معنى الكلمة. وكان محمّد إبراهيم ثاني رجل ينضمّ إلى آل عمرو بعد حمادة القناوي، ولكنّه كان مهذباً دمث الأخلاق ومرتباً مثقفاً ذا مكتبة متنوّعة المصادر، وشتان بين حديثه المنضبط وثرثرة حمادة وخيالاته القائمة على غير أساس. ولم يستطع محمّد إبراهيم أن يتخذ من حمادة صديقاً حقيقياً، وجماله كثيراً إكراماً لصدرية التي حظيت بإعجابها ولم تخفّ عن فطنته مزاياها كسّت بيت. تلك الأعوام السعيدة خلدت في وجدان مطرّية بتفاصيل حياتها اليوميّة، بدفء عواطف الزوج وحنان أمّه وتسامحها وبريق الأبناء المبشّر بالنور والانبهار. وتلقّت بعد ذلك أوّل ضربة من ضربات القدر بوفاة أحمد وهو في الخامسة، جرّبت عذاب الأمّ الثكلى وحزنها العميق، وانسبط القبر أمام عينيها الدامعتين في حالة من العواطف الجديدة بعد أن سكنه جزء من قلبها النابض ونفحة من خيالها المحروم. وتضاعف حبّها لقاوم بعد أن

غير أنّ ثورة من نوع آخر اندلعت في الأسرة وكان قائدها عدنان ابن أخيه. وانشقت الأسرة نصفين متخاصمين، رجالاً ونساء، وشمّت بها المتنافسون، كما حزن لها المحبّون مثل عمرو ورشوانة. حتى سرور قال:

- حلّت اللعنة بالأسرة الملعونة...

ولم يجتمع لها شمل إلا عند وفاة أحمد. وعقب وفاته بأشهر استفحل مرض السكّر بمحمود، وكان عمرو وسرور قد رحلا عن الدنيا، فحلّت بقلبه كآبة ضاعفت من تأثير المرض، ووهنت عزيمته، وزهد في العمل، وأقام أكثر وقته في سراي ميدان خيرت حتى وافته أزمة قلبية ذات صباح فأسلم الروح. ولحقت به نازلي هانم بعد عامين، وفي نفس عام وفاتها توفيت فوزية هانم. ولم يبق من ذلك الجيل إلا المعمّرون مثل راضية وعبد العظيم باشا وبلغ معاوية وهم الذين امتدّ بهم العمر حتى قيام ثورة يوليو...

## مطرّية عمرو عزيز

ولدت ونشأت في بيت القاضي وهي الثالثة في ذريّة عمرو وراضية. وكانت أشبه الجميع بخالتها المنتحرة صديقة في جمال وجهها ورشاقة قدّها وعدوبتها. وكانت أجمل الأخوات بل لعلّها كانت أجمل بنات الأسرة جميعاً، ومع أنّها ترعرعت في عبير الدين والدروشة إلا أنّ السرّ لم ينفذ إلى أعماقها، واعتقدت أنّ حبّ الله ورسوله يعفيها من أداء الفرائض. وكان تفوقها في الجمال يحرّك الغيرة في قلوب أخواتها ثمّ حلّ الرثاء محلّ الغيرة مع تقلّبات الزمن. وعرفت في صباها ومطلع شبابها بالظرف والمرح وحبّ الناس والقدرة على كسب محبّتهم فلم ينبج من سحرها امرأة أو فتاة من آل سرور وعطا وعبد العظيم. أجل لم يشفع لها ذلك كلّ عندما أغرى سحرها شاباً مثل لطفّي عبد العظيم بالتفكير في الزواج منها، ذلك أنّ السحر نفسه له حدود في الوجدان الطبقيّ. بذلك تحوّلت أوّل تجربة سعيدة في حياتها إلى محنة عاطفيّة ذبحت قلبها

## حديث الصباح والمساء ٩١٧

حتى أسلمت الروح وهي في الستين. كانت أول من يموت من الجيل الثاني في آل عمرو بل في الأسرة كلها. واقتضت الظروف ألا يحزن عليها كما ينبغي أحب الناس لها، شاذلي لم يترك له حزنه على ذريته فائضاً، وراضية كانت في الثمانين وحزن الثمانين سريع الزوال، وقاسم كان قد استوى لديه الحزن والسرور. . . فلم تجد أمانة من يشاركها البكاء واللطم.

## مُعَاوِيَةَ الْقَلِيُوبِي

ولد ونشأ في بيت سوق الزلط. وترى تربية دينية خالصة واقتبس من أبيه معلومات وسلوكاً حتى قبل أن يجاور في الأزهر. وأبدى نجابة وتفوقاً، وغراماً خاصاً بالنحو الذي يدرسه في الأزهر بعد حصوله على العالمية. وقبيل وفاة والده بأشهر زوجه الرجل من جلييلة الطرايشية، وهي كريمة سلمان الطرايشي الذي كان يعمل في مصنع طرايشي الباشا. وكان معاوية يزاول نشاطاً إضافياً في جوامع حبه، مما أضفى على شخصه مهابة ومحبة. وكانت جلييلة تفوقه طولاً، وكانت ذات أطوار غريبة، وعصبية حادة، وتراث حافل بالغرائب، فصم الرجل على أن يلتقيها مبادئ دينها الصحيحة، ونشب بينهما صراع ودي طويل، فأعطاها وأخذ منها، وكلما أصابته وعكة سلم نفسه إلى طبعها الشعبي دون منازع، وذاعت شهرتها في الحي حتى كادت تغطي على شهرته. وقد ربط الحب بينهما، وبفضله استمرت الحياة الزوجية، رغم حدة طبعها وتعصبها لأفكارها، وأنجبت له مع الأيام راضية وشهيرة وصديقة وبلغ. ولما قامت الثورة العراقية تحمس لها الشيخ، ومال إلى تيارها، وأيدها بالقلب واللسان. ولما فشلت الثورة واحتل الإنجليز مصر قبض عليه فيمن قبض عليهم، وقدم للمحاكمة فقضت عليه بالسجن خمسة أعوام. وراحت جلييلة تطوف بأزرحة الأولياء داعية على الخديو والإنجليز، ودبرت شئون أسرته بشيء من المال ورثته عن أبيها. وغادر الشيخ معاوية السجن ليجد نفسه في دنيا

تجلى حزناً لا يتعزى عن فقد الراحل الصغير. وتحولت أمومتها الجريحة إلى شاذلي وأمانة. ولكن قلبها لم يسعد السعادة المأمولة بزواجهما. ورحلت حماتها في الثلاثينات فورثت أعباء لم تعتد حملها، ثم نكبت بوفاة أبيها قبيل الحرب العالمية، ووفاة عمها سرور بعده بأعوام، فكابد قلبها آلاماً حقيقية لشدة وفاته للعواطف الأسرية. واعتبرت زواج شاذلي خيبة ظلمة وضعتها في كفة حظها العائر حتى قال لها محمد إبراهيم:

- ليس الأمر بالسوء الذي ترين . . .

فقلت متشكئة:

- كان يستحق عروساً أفضل . . .

فقال الرجل:

- إنه أدري بما يسعده . . .

وتابعت نجاح أمانة في دراستها بارتياح وأمل. وإذا بزوجهما المحبوب يصاب بتليف في الكبد، فيلزم الفراش وتتدهور حاله، ثم يسلم الروح في العطلة الصيفية بعد نجاح أمانة في البكالوريا. تلقت مطرية أقسى ضربات حظها، ووجدت نفسها أرملة دون الخمسين. واضطرت إلى تزويج أمانة من عبد الرحمن أمين، ومكثت في بيت حارة الوطاويط مع خادمتها، وحيدة حزينة، وضاعف من همومها ما صادفته أمانة في حياتها الزوجية من متاعب. وكانت تتسلى بزيارة الأهل، أمها وأخواتها وإخوتها وبنات عمها وآل عطا وآل عبد العظيم داود، وفي مقدمة الجميع شاذلي وأمانة. ومضت تذبذب وتجهف، وتتغير معالمها، ولكنها أبقت على ميزتها الفريدة وهي تبادل الحب مع الأهل والناس. ولعلها الوحيدة من أسرتها التي لم تنقطع صلتها بشكيرة زوجة أخيها حامد بعد أن فصل الطلاق بين الزوجين. وشد ما أحزنها الموت المبكر لأبناء شاذلي، ولما نجا ابنه محمد من قدرهم دعت الله أن يبقيه لأبيه ولها، وتوسلت إلى أمها راضية أن تحميه بكل ما لديها من وسائل. وكانت ضربة قاضية لها عندما وافتها أبناء استشهاده في الاعتداء الثلاثي. واشتد بها الذبول والجفاف. وتبين أنها مصابة بسرطان. وما زالت تتدهور وتسير من سنن إلى أسوأ

ذكرى فترعرع في بحيرة ثرية بحنان أمه وجدته لأبيه، ورحلت الجدة وهو ابن ستة فوجد في قلوب عمرو وراضية وبقية الأسرة ما أنساه يتمه ووجدته. وربما كان من حسن حظّه أن يعشق التفوق ويهيم في الطموح من صغره ولكنّه لم يقدر التضحية الجنونية التي ضحّتها أمه من أجله برفضها فرصة حسنة للزواج، وبقائها أرملة طيلة العمر عقب حياة زوجية لم تستمر سوى عامين. وشبّ نادر ذا رونق وفحولة، ولم تخلُ فترة من حياته من مغامرة عاطفية في نطاق ميزانيته المحدودة. وحصل على بكالوريوس التجارة في أثناء الحرب العظمى وألحق بوظيفة في وزارة المالية. ودأب على كره فقره والتطلّع الدائم إلى أفق سامق، ومن أجل ذلك التحق بمعهد لتعليم اللغة الإنجليزية، وأتقن الكتابة على الآلة الكاتبة، ثمّ قدّم لامتحان أعلنت عنه شركة إنجليزية للمعادن فنجح، واستقال من الحكومة ليشتغل بوظيفة في قسم الحسابات بالشركة. وأرعبت مغامرته أخواله وأقاربه وأمّه ولكنّه قال بثقة لا عهد للأسرة بها:

- لا مستقبل للحكومة . . .

ومحسنت أحواله ولكنّ طموحه لم يشبع. ولست قامت ثورة يوليو لم يأنس إلى أسلوبها كساب طموح يلهم بالثراء. وتحققت مخاوفه عقب الاعتداء الثلاثي ومصادرة الشركات البريطانية، عندما وجد نفسه مرة أخرى موظفًا في الحكومة على غير إرادته. وعند ذلك درس حال أسرته وفروعها على ضوء الوضع الثوري الجديد، فرأى في آل عطا المراكبي وال سميرة خالته بعض الممثلين للثورة مثل عبده عطا وماهر عطا وابن خالته حكيم. وقرّر فيما بينه وبين نفسه أن يتزوج من نادرة شقيقة عبده وماهر أو من هنومة شقيقة حكيم. وشاور أمه في الأمر فقالت:

- هنومة أقرب لنا وهي الأجل . . .

وبإيعاز منه خطبتها له. وهي مذيعة في الراديو وذات مبادئ وخلق كأخيها سليم، وكانت قد رفضت يد ابن خالته عقل ولكنّها وافقت على الزواج من نادر، وتمّ الزفاف في شقة بشارع حسن صبري بالزمالك، وألحّ نادر على أمه أن تعيش معه ولكنّها

غريبة، فلا أحد يذكر الثورة أو أحدًا من رجالها، أو تذكر بعض الأسماء مصحوبة باللعنات، ولم يجد عينًا تنظر إليه بعطف سوى عين يزيد المصري صديقه القديم وناظر سبيل بين القصرين. شعر الرجل بغربة وأسى وانطوى على نفسه حتى وجد وظيفة معلّم بمدرسة أهلية. وقال له صديقه عزيز ذات يوم:

- ابني عمرو موظف في نظارة المعارف في العشرين من عمره وأودّ له أن يكمل نصف دينه. فأدرك الشيخ ما يرمي إليه وقال:

- على بركة الله . . .

فقال عزيز:

- ستتمّ على يديك بإذن الله ومن بيتك . . .

فقال الشيخ:

- راضية بنتي وعمرو ابني!

وذهبت نعمة عطا وابنتها رشوانة لخطبة راضية. ورجعتا مبهورتين بجمال صديقة وراضيتين عن جمال راضية ووجهها الشامخ، غير أنّ نعمة تساءلت:

- أهي أطول من عمرو؟

فقالت رشوانة باطمئنان:

- كلاً يا أمي، هو الأطول . . .

ولكنّ الأجل عاجل الشيخ قبل أن يشهد زفاف كريمة، وصادف وصول نيشان العروس يوم الوفاة، الأمر الذي أدى بجليلة من خلال اجتهادها الشخصي مع ترائها إلى أن تطلق زغرودة من نافذة ثمّ تواصل صواتها على الراحل العزيز، وتصير بذلك نادرة الحي على مجرى العمر. ودُفن الشيخ في حوشه القريب من حوش عزيز في رحاب سيدي نجم الدين . . .

حرف والنور

نادر عارف المنياوي

ولد ونشأ في الدرب الأحمر، الابن الوحيد لحبيبة عمرو والشيخ عارف المنياوي. لم يترك أبوه في وعيه آية

## حديث الصباح والمساء ٩١٩

تغيّر الحال وهلّت طلائع الانفتاح تنفّس من جديد، واستمدّت من الجوّ الطارئ حياة لم يحلم بها من قبل. واشتغل بكلّ همّة في الاستيراد، وحقق لنفسه أخيراً الحلم الذي راوده من الصغر. وانفسح المجال أمامه ما بين الخارج والداخل. وفي إحدى رحلاته تعرّف بأرملة أستراليّة فتزوَّج منها، وأقام معها في فيلا في المعادي. وكثيراً ما يقول ضاحكاً:

- إنّها قسمة عادلة، فالثراء للأقوياء والأخلاق للضعفاء...

## نادرة محمود عطّال المراكبي

هي الرابعة في ذريّة محمود بك عطا، ولدت ونشأت في سراي ميدان خيرت، في الجوّ المعبق بالعزّ والرفاهية. وكانت على قدر من الوسامة وإن تكن دون إخوتها الذكور، وعلى مثال أختها الكبرى شكيرة في الخلق والمبادئ والتدين مع شيء كثير من المرونة والدمائة. وكانت حاذة الذكاء محبّة للتعليم فلم يعارض أبوها في استمرارها فيه بعد أن غزاه الزمن بمفاهيمه الجديدة. وقد تزوّجت سعادة صباها بالحبّ الذي ربط بينها وبين مازن ابن عمّها. استوى فارساً لأحلامها منذ مراهقتها وحتى آخر يوم في حياته بل لعلّه ظلّ كذلك طيلة عمرها. أحبّته كما لم تحبّ شيئاً في الوجود، وناطت به أحلامها وسعادتها وأمانها. وشدّ ما جزعت للخصام الذي مزّق أسرتها، وشدّ ما خافتها على سعادتها وآمالها، وقالت لأمتها:

- بابا جاوز غضبه الحدّ...

ولم تنقطع الصلة بينها وبينه طوال أعوام الخصومة... وفي أثناء ذلك حصلت على البكالوريا والتحقّت بكليّة الطبّ. ثمّ كانت الكارثة التي هلك فيها مازن وتلاشي من وجودها. كادت تحنّ من الحزن بل والغضب، وقضت عامّاً في السراي أسيرة للكآبة، ثمّ واصلت دراستها وقد تحجّر قلبها وصمّم على الزهد في الدنيا. خرجت من حياتها في تلك الأيام بتجربتين مُرتين، وفاة حبيبها، وخيبة أمل شقيقتها في حياتها

أبت أن تغادر الدرب الأحمر أو تبتعد عن بركات الحيّ العتيق حيث تقيم أيضاً أمّها المحبوبة وكثرة من أخواتها وبنات عمّها. ونعمت الأسرة الجديدة بالسعادة وأنجبت له هتومة ثلاث بنات، سميرة وراضية وصفاء. وتوثقت العلاقة بين نادر وحكيم، ويفضل حكيم رقي نادر رئيساً للحسابات، وكبر مرتبه فوق ما يحلم أيّ من أقاربه الموظفين ولكنّه كان ذا طموح لا يعرف الحدود. ولما حصلت التأميمات تعيّن رئيساً لمجلس إدارة الشركة دون شيع من ناحيته حتىّ سألته هتومة:

- ماذا تريد؟

فقال بغموض:

- إنّي أحتقر المرتبات الثابتة...

فقال هتومة بوضوح:

- وأنا لا أكره الثراء شريطة أن يقترن بالنقاء!

فتوجّس خيفة من نظرة عينها وقال بعجلة:

- طبعاً...

وشعر بأنّ شريكه حياته ليست شريكة في طموحه. وكان يؤمن في أعماقه بأنّ الفارق الوحيد بين أهل السجون وأهل الخارج هو الحظّ لا الخلق أو المبادئ، وأنّ العالم مجموعة من الأوغاد لا ينجو منها إلاّ القويّ الشاطر. واعتبر زوجته امتداداً للرأي العامّ الأحقّ الذي عليه أن يداريه طالما أصرّ على تحقيق طموحه. ومضى يوثق علاقاته ببعض الضباط وآخرين من رجال القطاع الخاصّ. حتىّ كانت هزيمة ٥ يونيو، وانكشف أمره فيها انكشف المستور من أمورهم. واكتفي بإحالاته إلى المعاش بفضل حكيم أيضاً ولكنّ هتومة ثارت عليه ثورة لم يفلح في مهادتها إلاّ بالطلاق. وقالت سميرة لهتومة بهدوئها المعهود:

- أنت مسئولة عن نفسك فقط...

فقال الفتاة بشدّة:

- لا أستطيع أن أغمض عيني وأهدم بنيان حياتي

كلّه...

واحتفظت هتومة بالشقة والبنات وراح هو يتنقل بين الفنادق والدرب الأحمر، وفسّر لأمه الساذجة الطلاق على أنّه خلاف ممّا يفسد الحياة الزوجية. ولما

الأخرة فيرثها وبالتالي تراث هي حظًا من الثروة يدعم رشوانة وعمرو وسرور في حياتهم، ولكن الرجل رحل قبل زوجته بقليل، مخيبًا رجاءها بموته كما خيبه بحياته. والحق أن مخالطة أخويها - محمود وأحمد - لها ولأولادها وبرهما بهم أنساها أحزانها فبادلتهما حبًا بحب حتى آخر عهدها بالحياة. وامتد بها العمر حتى قرّت عينًا بأحفادها، ورحلت عن الدنيا بعد عزيز بعامين . . .

## نهاد حمادة القناوي

بكرية صدرية وحمادة القناوي. ولدت ونشأت في خان جعفر، ومرحت في طفولتها في بيت القاضي، وحظيت بمنزلة طيبة لدى عمرو وراضية بوصفها طليعة الأحفاد. وكانت على جمال مقبول، وتعليم قليل سرعان ما تلاشى. ولمّا قاربت الخامسة عشرة خطبها عمدة متوسط العمر من أقارب أبيها فرحب به حمادة أيما ترحيب، وأدركت صدرية بأسى عميق أنّ ابنتها تنفصل عنها إلى الأبد وأنها لن تراها إلا في المناسبات، وأنها ستنتمي من الآن فصاعدًا إلى الصعيد. وتأقلمت نهاد مع البيئة الجديدة فتطّعت بسجايا جديدة واكتسبت لهجة جديدة، وأنجبت للعمدة عشرًا، نصفهم ذكور ونصفهم إناث، وكلّما زارت القاهرة كوافدة غريبة تطلّعت إليها الأبصار بغرابة، وهي تشهد حرم العمدة بجسمها المترامي، وحليها الذهبية التي تغطّي الساعدين والعنق، ولكنها الغريبة المثيرة للضحك . . .

حرف الهاء

## هنومة حسين قابيل

صغرى بنات سميرة وحسين قابيل، ولدت ونشأت في بيت ابن خلدون، على طراز أمها في الجمال، طويلة القامة، رشيقة القد، حادة الذكاء، شديدة في التمسك بالأخلاق والمبادئ، وشديدة الشبه في ذلك

الزوجية. ونزعت بكلّ قواها لتكريس حياتها للعمل والوحدة والقراءة الدينية. وعرضت لها فرص زواج طيبة ولكنّها كانت قد تطبّعت بسوء الظنّ بالنوايا، وكسرت فكرة الحياة الزوجية. وتخصّصت في طبّ الولادة، وحصلت على الدكتوراه، وأحرزت نجاحًا مرموقًا تزايد يومًا بعد يوم. ولم تحفل بنصائح إخوتها لها بإعادة النظر في الزواج وثابتت على عملها ووحدها وتدينها حتى فاتها القطار دون أسف مسجّلة في عالم الأحزان ظاهرة فريدة لا تتكرّر. وجمعت السراي بين شكيره وعبد ونادرة وماهر في الكبر كما جمعت بينهم في مطلع الحياة، أمثلة حيّة للنجاح والفشل معًا . . .

## نعمة عطا المراكبي

ابنة عطا المراكبي وسكينة جلعاد المغاوري. ولدت ونشأت ببيت الغورية، وورثت عن أمها عينيها النجلاوين وشعرها الأسود الغزير بالإضافة إلى صحّة جيّدة لم تحظ بها الأم. ولمّا عزم يزيد المصري على تزويج ابنه عزيز وجد فيها الشروط المزيّنة، فهي ابنة جاره وصديقه عطا المراكبي، وهي مصونة وجميلة، وزوّقت نعمة إلى عزيز منتقلة من دور إلى دور في نفس البيت بالغورية. وكانت مثلاً طيبًا للزوجة العاقلة المدبّرة الطيعة، وأنجبت لعزيز رشوانة وعمرو وسرور. وتلقّت من زواج أبيها بالأرملة الغنيّة صدمة، ثم تابعت ارتفاع أبيها إلى طبقة جديدة بذهول، وزارات السراي الجديدة بميدان خيرت، وسراي العزبة ببني سويف فانبهرت بما رأت أيّ انبهار ولم تصدّق عينيها. وتوقّعت أن تنهال عليها دفقات من الخير ولكن خاب رجاؤها، وفيها عدا هدايا المناسبات فقد قبض الرجل يده عنها كأنها ليست بكريته، وليست الأخت الكبرى لمحمود وأحمد. وقال لها عزيز:

- إنه شحيح وممن يجسون النعمة . . .

ولكنّها رغم حنقها دافعت عن أبيها قائلة:

- بل يخاف أن تتهمه المرأة بتبديد ثروتها!

ورغم تقواها حلمت بأن تسبق الأرملة أباهما إلى

## حرف و اللولو وحيدة حامد عمرو

بكرية حامد وشكيرة، ولدت ونشأت في سراي ميدان خيرت، ولعبت طفولتها في حديقته المترامية الغناء. ووضح من الصغر ذكاؤها، إلى جمال مقبول، وروح مرحة غالتها رياح النكد. من قديم تشرب قلبها بالكآبة في مناخ الحياة الزوجية المسموم، وتمثلت أحزان أمها الدائمة حتى ترسب النفور من أبيها في أعماقها. ولم تجد في أخيها صالح أيّ عزاء لعنف خلقه وملاحقته الناس بأخطائهم كأنه الحسيب عليهم، ثم جاء الانشقاق بين جدّها محمود وأخيه أحمد ليقتضي على البقية الباقية لها من أمل في حياة يمكن أن تعبد بشيء من التفاؤل أو السعادة. وترامت إليها عداوة أهل أبيها لأمها، وكلماتهم المديبة، بالإضافة إلى المآسي الكثيرة التي هصرت الفروع حتى سلّمت بلا وعي منها بأن الحياة ما هي إلا سلسلة من الأحزان والانحرافات والانفعالات القاسية. ووجدت سلواها الوحيدة في الدراسة فتفوّقت، والتحقت مثل خالتها نادرة بكلية الطب، وما إن وجدت فرصة للعمل في السعودية حتى ولّت هاربة. وبعد أعوام من الغربة كانت مفاجأة لأمها أن تتلقى منها رسالة تنبئها فيها بأنها ستزوّج من زميل باكستاني يعمل معها في نفس المستشفى . . .

## وردة حمادة القناوي

هي الثالثة في ذرية صدرية وحمادة. ولدت ونشأت في خان جعفر، ولكتها عشقت البيت القديم بميدان بيت القاضي وتعلقت بجدتها راضية فبادلتها الجدة حباً بحب، وكانت تقول لصدرية عنها:

- وردة أجمل البنات ولكن ميزتها الأولى في العقل . . .

وقد حُطبت لابن عمّ أبيها الشاب وهي دون سنّ

بأخيها الأصغر سليم، وتفوّقت في الدراسة والتحقت بالآداب قسم اللغة الفرنسية. وقد تحمّست لثورة يوليو باعتبارها ثورة إصلاح وأخلاق، ولكتها انقلبت عليها مذ حكم على سليم بالسجن، ولم تتردد في اتهام حكيم بالخطأ في مولاته لها. وقد تخرّجت في الكلية، والتحقت بالإذاعة لتفوّقها من ناحية وبفضل توصيات حكيم من ناحية أخرى، وأراد عقل ابن خالتها صدرية أن يتزوّج منها ولكتها رفضته لطولها وقصره وقالت لأمها:

- سيكون منظرنا مضحكاً إذا سرنا معاً في الطريق . . .

ووافقت على الزواج من نادر، لمركزه، ووسامته، وحسن ظنّها بأخلاقه، وعاشت معه عمراً في شقة أنيقة بشارع حسن صبري بالزمالك وأنجبت له سميرة وراضية وصفاء. ولما تكشّفت لها انحرافه ثارت ثورة عنيفة لم يتوقعها الرجل من شريكة حياة. وقالت له بصراحتها الحادة:

- إني أرفض الاستمرار في معاشرة رجل تبين لي انحرافه . . .

وكانت سميرة تكره فكرة الطلاق وحاولت أن تقنعها بأنها ليست مسئولة عنه، وأنها يجب أن تزن عواقب تصميمها على بناتها ولكن قالت لأمها:

- لقد سقط في نظري ولا حيلة لي في ذلك . . .

وانتهى الخلاف بالطلاق، واحتفظت بيناتها معها في شقة الزمالك، وراحت تربيهنّ على مثالها، ولم تأسف قط على القرار الصارم الذي اتخذته. ومضت الأيام وأنّ للبنات أن تتزوّج، وكان الزواج قد أصبح مشكلة غير قابلة للحلّ لارتفاع تكاليفه وصعوبة الفوز بشقة، ولكنّ نادر ذلّل كافة الصعوبات، فابتاع شقة لكل بنت وجّههنّ على المستوى اللائق به. وقالت هتومة تعزّي نفسها:

- إنّه أبوهنّ والمسئول عنهنّ . . .

ولكتها لم تستطع أن تغفل عن الحقيقة المرة وهي أنّه لولا ماله الحرام ما تيسر لبنت منهنّ أن تستقرّ في بيت الزوجية. وتساءلت في أسى عميق:

- هل أصبحت الحياة الشريفة مستحيلة حقاً؟



أنه كان يعرف القراءة والكتابة، لُقِّبها في المعهد الدينيّ قبل أن ينقطع عنه ليعاون أباه في دكّان العطاراة. وتخيّر في القاهرة فترة حتّى وجد مأواه في بيت بالغوريّة، كما وجد عملاً كخازن في وكالة الورّاق. كان شاباً قويّ الجسم غامق السمرة واضح الملامح، يرتدي الجلباب والشملة والعمامة، ولتقواه ووحده تآقت نفسه للزواج. ورأى فرجة السّمك وهي تبيع السمك في الطريق فأعجبته، وبمعاونة جاره عطا المراكبي تزوّج منها. وقد أنجبت له ذرّيّة وفيرة بقي منها على قيد الحياة عزيز وداود، وامتدّ به العمر حتّى شهد مولد أحفاده رشوانة وعمرو وسرور. وزاره سيدي نجم الدين في المنام وأمره أن يبني قبره في جوار ضريحه فصعد بما أمر، وشيّد الحوش الذي دُفن فيه، وما زال يستقبل الراحلين من ذرّيته المنتشرة في أنحاء القاهرة.

الزواج، ولكنّها أصيبت بالملاريا، ولم تستطع المقاومة ففاضت روحها تاركة في قلب أمّها جرحاً لا يندمل.

حرف و البيان

يزيد المصريّ

وصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة الفرنسيّة بأيّام. وكان في الإسكندرية من أسرة عطارين، ولما انتشر الوباء أهلك أفرادها فلم يُبقي على رجل أو امرأة سواه. وكره البلد فقرّر هجرها ويّتم شطر القاهرة. وكان معه شيء من المال، وميزة نادرة في ذلك الزمان وهي

نهاية الكتاب الخامس